

عبد خالص

المودد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاخط - الجمهورية العراقية

المجلد الثامن - العدد الرابع 1400 - 1979

4

WWW.ATTAWHEEL.COM

أسرة المطبعة

عدد خاص

فكرتك



المجلد الثامن

شتاء ١٩٧٩

العدد الرابع

دار الحرية للطباعة - بغداد

١٤٠٠ هـ - ١٩٧٩ م

WWW.ATTAWHEEL.COM

كونوا معاصرين شرط أن تكونوا
أصيلين، فالمعاصرة لا تعني ابتداء
انقطاع الجذور.. كما أن استيعابها
لا يعني التفرط بترائنا الثقافى العظم

احمد حسن البكر



محكمة تراثية فصلية



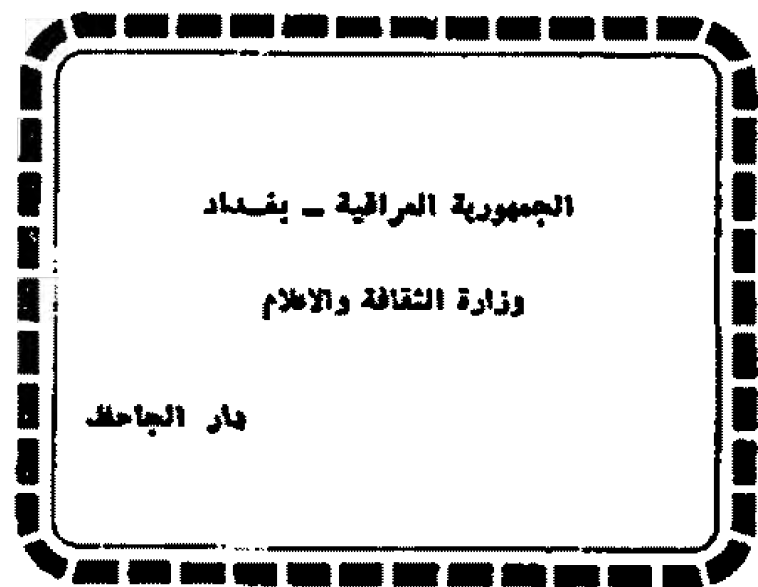
تصدرها وزارة الثقافة والاعلام
دار الجاحظ - بغداد
الجمهورية العراقية

رئيس التحرير: عبد الحميد العلوي
مدير التحرير: حارث طه الراوي



WWW.ATTAWHEEL.COM

عنوان المجلة



• الاشراف الفني - عباسي مبداه

هدية المنصور الى صدام

بقلم

عبد الحميد العلوجي

رئيس التحرير

حين تنفّستِ الحياةُ بين الرُّمالِ جادَتْ بالمنصورِ أبي جعفرٍ
ليُقدِّمَ بغدادَ طاقةَ نرِّ جِسِّ الى كلِّ عربيٍّ ..

ومع أسعدِ فجرٍ ، على درِّبِ تاريخنا .. تباركَ زَيْنُ
الخلفاءِ اذْ حاكَ معجزاتَه ، بين ذراعَي دجلةَ ، من قُرى
شَتَّى ، فوق عُشبٍ رَأَى يتماوجُ بضحكةٍ خضراءَ ..

انّه صنَّعَ بغدادَ لتكونَ ، أولاً ، لسانَ تاريخٍ .. ولتكونَ ،
ثانياً ، قوَّةَ ارضيَّةٍ .. ولتكونَ ، ثالثاً ، نَبْعاَ ذهبيّاً لحضارةٍ
تنفعُ الانسانَ .

وهو ، بهذا العزمِ ، أراد أن يقولَ للأجيالِ العربيَّةِ انْ
العظيمَ ، كمثليه ، خَلِقَ بمدينةٍ عظيمةٍ كِبفدادَ ... مدينةً
قادرةً على أن تمنحَ الانسانيَّةَ اكملَ حضارةٍ ، وترسِّخَ على وُدِّ
خالصٍ مع الأصدقاءِ ، واستطاعةٍ خارقةٍ على دَحْرِ العُداوانِ .

وتزاحمتِ اليهودُ ، بعد المنصورِ ، على بغدادَ .. محكومةً
بارادةٍ عربيَّةٍ شاءتْ لها امتدادَ معاشٍ بأُسلوبٍ فاضلٍ يَتَفَجَّرُ
عَدْلاً بين شرائعِ السماءِ وقوانينِ الأرضِ .. ثم تلاحقتْ اقدارُها ،
على حسابِ عَجيبٍ .. اختلَّ ميزانُه ، في صَمْتٍ ضائعٍ ، مع دواعي
التَّلَفِ والخرابِ . فكانَ للعروبةِ في قَلْبِ بغدادَ - منذُ اجتياحِ
المنولِ - هواجسُ موصولةٍ ظَلَّتْ تلعنُ جنونَ الغزاةِ وجَشَعِ
الصوصِ ، وتحنُّ - بلا هواةٍ - الى نَسَقِها الحضاريِّ الذي
عاشتْ نهارَه مكاسبَ تحت الشمسِ ، وليلتهُ مؤانسةً في القمرِ ..

انها اخذتْ تتلمسُ طريقَها الى الخلاصِ ، فشامتْ انْ
تُحطِّمَ اغلالها بتاريخٍ جديدٍ .. وعندئذٍ توفَّرتْ على أن تبطشَ

— مَشْهَدًا وَغَيْبًا — بالشقاءِ المجلوبِ ، وتهزُّ الضميرَ المخلصُ ،
وتنقضُّ على أوْهامِ المثلَكَيْنِ ٠٠ لكَيَّ تُعاجِلَ الهيمنةَ الامبرياليةَ
بالضربةِ الحاسمةِ ٠٠٠

انَّها أرادتْ ما كان لها ٠٠ فكان لها ما أرادتْ بقيادةِ حزبِ
البعثِ العربيِّ الاشتراكي ٠

ومن حقِّ بغدادَ ، ومن حقِّ الحزبِ ، بعد أن تعارفا بالعزنِ
والفرَّحِ ، أن يجتمعا على ثورةٍ ، وأن يتعاونوا على مشاركةٍ
وجدانيةٍ ٠٠ فهما أدركا ، جيِّداً ، أنَّهما كانا على مَوْعدٍ مع قَدَرٍ
بارعٍ استوعبَ كلمةَ البعثِ في حروفِ بغدادَ ، وكلمةَ بغدادَ في
حروفِ البعثِ ٠

واستقرَّ المطافُ ببغدادَ ، عبرَ قائدٍ قائِدٍ ، على « صدام » :
القائدِ الفذِّ الذي استطاعَ بما أوتيَ من تواضعٍ وقوَّةٍ ، ومن رافةٍ
وصرامةٍ ، ومن عفويٍّ وغضبٍ ٠٠ أن يَسْطِيعَ بين قادةِ العصرِ ٠٠
كما استطاعَ بما أوتيَ من حكمةٍ وبصيرةٍ وفطنةٍ وذكاءٍ أن يتألَّقَ
بين العدالةِ والرحمةِ ٠٠

فَهُوَ هُوَ مَنْ تَضَرَّعَ في قلبِهِ حبُّ بغدادَ ٠٠ وهو هو مَنْ
إذا تكلَّمَ مع بغدادَ ، فأنما يتكلَّمُ بلسانِهِ وفؤادِهِ ٠٠ وهو هو
مَنْ إذا أرادَ من بغدادَ شيئاً مَنَحَها أشياءَ ٠٠

هذا ، وأكثرُ من هذا ٠٠ أتاحَ للجماهيرِ أن تنفذَ الى قلبِهِ
الكبيرِ ٠٠ تماماً كما نفَّذَ الى قلوبِها ٠

فهنيئاً لبغدادَ بقائِدِها المقدامِ ٠٠٠

هنيئاً لها ، في عهدِهِ الأزْهرِ ، أن تكونَ العاصمةَ التي تتضوَّعُ
بِشَدَا الاقحوانِ حِيالَ الصداقةِ والوفاءِ ، وأن تكونَ العاصمةَ
التي تتاجَّعُ غضباً حِيالَ الأثَمِ والعدوانِ ٠

ومجلَّةُ الموردِ ، بهذا العددِ البغداديِّ ، تهتبلُ هذه المناسبةَ
النَّشْوى لتقدِّمَ الى السيِّدِ الرئيسِ صدامِ حسين ، ما لدارِ
الجاحظِ ، ولأُسرةِ تحريرِ الموردِ من مشاعرٍ نبيلةٍ طافحةٍ بالمحبةِ
والولاءِ ٠٠ مؤكِّدةً المَزمُومَ على بَذْلِ الأَنْفَسِ في خدمةِ الحزبِ
والثورةِ ، وعلى تحقيقِ الأنفعِ والآبَقِيَّ على امتدادِ يومٍ وغَدِهِ ٠٠

تخطيط مدينة بغداد

عبر العصور التاريخية « دراسة في التخطيط الحضري »

بقلم الدكتور

صبري فارس الهيتي

كلية التربية - جامعة بغداد

الموسم التجاري (لاحظ الخارطة شكل ١) ، فلما توجه المسلمون الى العراق وفتحوا السواد ، ذكر للمثنى بن حارثة الشيباني امر سوق بغداد فقصدتها . (٢) وهذا يستدل منه على وجود بغداد قبل الفتح الاسلامي .

ولكن كيف وقع اختيار المنصور على هذا الموضع لبناء مدينته ؟ تذكر الكتب التاريخية ، على ان المنصور عندما تفحص موضع بغداد القديم فوجده موضع ملائم من الناحية العسكرية قال عنه : « هذا موضع معسكر صالح » (٣) كما انه بعث روادا يطلبون له موطعا ، فاستشاروا عددا من الحكماء ومنهم صاحب بغداد الذي اخبر المنصور بميزات موضع بغداد التي اعجب بها المنصور حيث قال له : « وانت يا امير المؤمنين » عندما تنزل في بغداد فانك تصير بين اربعة طاسيج (جهات) ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر يوق وكلواذي ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان الاخر عامرا . وانت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من الغرب ، وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند

ان البحث في تخطيط مدينة بغداد ، هذه المدينة الخالدة التي يمتد عمرها الى اكثر من اثني عشر قرنا ، يحتاج الى الكثير من الجهد والاناة . وذلك لطول الفترة التي مرت على هذه المدينة ، ولتعدد الحكومات التي سيطرت على العراق بشكل عام وبغداد بشكل خاص ابتداء من ايام العباسيين حتى خروج الانكليز من العراق . وما اصاب بغداد من جراء ذلك من بناء وعمارة تارة وعنوت وتخریب تارة اخرى . ولسبب ذلك فان ما كتب عن هذه المدينة يحتاج الى تمحيص وتدقيق لكي يمكن الخروج منه بمادة دقيقة ومنظمة تعكس تخطيط مدينة بغداد عبر العصور التاريخية . وهذا ما حاولت هذه الدراسة الخروج به .

× × ×

اختيار موقع بغداد

بدا الخليفة العباسي الثاني ابو جعفر المنصور في سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م في بناء مدينته المدورة المشهورة (بغداد) على الضفة اليمنى من نهر دجلة في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة ومجرى دجلة شمالا وسماها « مدينة السلام » (١)

وكان اسم بغداد معروفا قبل المنصور ، اذ كانت بغداد في ايام مملكة العجم قريبة يقيم بها الفرس في كل سنة سوق عظيمة يجتمع بها في ذلك

(٢) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٢١ ، ص ٢٥ - ٢٧ .

(٣) طاهر مظفر العميد ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

(١) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد الفصل في خطط بغداد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٥٨ ، ص ٢٢

والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية واذربيجان وما اتصل بها حتى الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة وديار بكر وربيعة والموصل في دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك . وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وانت قريب من نهر والبحر والجبل (٤) .

وكانت مدينة المنصور تقع بين الكاظمية من الشمال وقربة الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ جنيد والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وهي تقابل محلة هبة خاتون في الجانب الشرقي ، وعليه كان موضعها الصحيح قريباً من مقابر قريش (اي الكاظمية) الحالية (انظر الخارطة شكل - ٢) ، وان اكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة مما ادى الى زوال انهارها منذ قرون عديدة واندثرت معالمها منذ عصور طويلة ، ولم يبق من مبانيها واسوارها وحوائط فصلانها وخنادقها ومسكناتها وابوابها اي اثر . (٥)

تخطيط المدينة :

عندما عزم المنصور على بناء المدينة احضر المهندسين واهل المعرفة بالبناء واعلم بالذرع والمساحة وقسمة الارضين فمثل لهم صفتها التي في نفسه ، ثم احضر الفعلة والصناع من النجارين والحفارين والحدادين وغيرهم . فاجرى عليهم الارزاق وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من امر البناء ولم يتدىء في البناء

حتى تكامل بحضرته من اهل المهن والصناعات الوف كثيرة . ثم اختط خطتها التي رسمها له المهندس العربي (الحجاج بن ارطاة) وجعلها مدورة . (٦)

وقد خطت المدينة اولا بالرماد ثم وضعت على تلك الخطوط كرات من القطن وصب عليها النفط واشعلت فيها النار بغية ابرازها بشكل واضح ، وحفرت اسس السورين والخندق العميق المحط بها من الخارج بحسب الخطوط الموسومة . (٧) واشتهرت مدينة المنصور في كونها مدورة . اذ تميز بنائها بكونه مثالا لا فوى المدن المحصنة في القرون الوسطى تتجلى فيها عظمة الدولة العباسية في ادوارها الاولى .

ومع ان اليعقوبي يذكر بانه لم يعرف اذ ذلك في جميع اقطار الدنيا مدينة مدورة غير مدينة المنصور ، لكن المعتقد ان شكل المدينة كان تقليداً لتصميم البنائي لمدينة الحضر المدورة وذلك من حيث الشكل والمساحة . ولم تكن مدينة الحضر المدورة المدورة الوحيدة في الشرق العربي ففي جزيرة العرب مدينة مأرب باليمن كانت مستديرة ايضاً . ومع ذلك فمدينة المنصور كانت فريدة في نوعها في العهد الذي انشئت فيه بالنظر لعظمتها وضخامتها والجهود التي بذلت في انشائها . (٨)

وكانت خطة مدينة بغداد ، هي ادارة خندقاً واسعاً وعدة اسوار حول المدينة . وقد جعل المنصور لتلك الاسوار اربعة ابواب متقابلة ، فسمى الباب الشمالي الغربي « باب الشام » والباب الجنوبي الغربي « باب الكوفة » والباب الجنوبي الشرقي « باب البصرة » والباب الشمالي الشرقي « باب خراسان » وكان يسمى ايضاً « باب الدولة » .

وتعد هيئة مدينة المنصور المدورة ذات الابواب الاربعة المتساوية الابعاد ابتكاراً في الرياسة المربية ، وتبلغ المسافة بين كل باب واخر ما يقارب ٢٥٠٠ ياردة ، ويتبين لنا من ذلك ان مقدار طول قطر الدائرة الخارجية حول الخندق من باب الى باب نحو ٣٢٠٠ ياردة . (٩) وحفر حول المدينة خندق عميق وعميق ، وله مسناة محكمة

(٦) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

(٧) كي لسترنج ، بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشر يوسف فرنسيس ، الطبعة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ ، ص ٢٥ .

(٨) د . مصطفى جواد ، دليل خارطة بغداد ، ص ٤٤ .

(٩) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٨٧٧ ، ص ١١٩ .

- بالفوت الحموي ، معجم البلدان ، ليزك ١٨٦٦ ، ج ١ ، ص ٦٨ .

- الطبري تاريخ الامم والملوك ، ليدن ١٨٩٠ ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٦ .

- ابن الجوزي ، مناقب بغداد ، نسخ وتعليق محمد بهجة الاثري ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٢٢ ، ص ٨ .

(٥) د . احمد سوسة ، د . مصطفى جواد (وجماعتهما) ، بغداد ، مطبعة رمزي ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣ .

د . احمد سوسة ، الفيضان والحرق بغداد في العصر العباسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد العاشر ، ١٩٦٢ ، ص ٣٠ .

دائر وهي منازل اولاد المنصور الاصغر ومنازل
التقريبين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح
وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم
وديوان الجند وديوان ائحوال (التجهيزات)
وديوان الاحكام (الاتباع) وديوان النفقات
وديوان الصدقات (الزكاة) (١٢) . (انظر الشكل
رقم ٢) .

اسوار المدينة :

ولاهمية اسوار مدينة بغداد باعتبارها
احدى المعالم المهمة في المدينة ، ولانها على جانب
كبير من الاهمية في اظهار الابداع في الربية
العربية ، نورد انوصف التالي لها وحسبما ورد في
كتب المؤرخين والخططين العرب :-

بنيت اسوار بغداد من اللبن الكبير الحجم
جداً . وقد كانت مكعبة الشكل ، يبلغ طول الضلع
الواحد لبعضها (١٨ عقدة) وتزن الواحدة منها
٢٠٠ رطل ، والبعض الاخر بقدر نصف الاول وزناً
وسمكاً . وان المسافات التي بين اللبن في اسوار
المدينة لم تكن متصلة ببعضها البعض بالاعمدة
الخشبية (على العادة المألوفة عند العرب) بل
بحزم القصب . وكان في كل ساف من سافات
البناء ١٦٢٠٠٠ لبنة . وكان السور الداخلي
اعلى من السورين الخارجيين (١٣) وكان ارتفاع
السور الكبير يبلغ ٩٠ قدماً ، وعرض قاعدته ١٠٥
قدماً ويقل سمكه تدريجياً الى ان يبلغ في الاعلى
(٢٧/٥) قدماً وتتفق جميع الروايات على ان
سمك سور الخارجي الاول اقل من هذا بكثير
وربما كان هذا السور الذي ذكر الطبري ابعاده ،
فقد ورد عنه ان عرض قاعدته ٧٥ قدماً ويقل
سمكه في الاعلى حتى يبلغ ٣٠ قدماً وارتفاعه نحو
٦٠ قدماً . كما ان الخطيب البغدادي يعطي
ابعاداً اخرى للسور الكبير فيقول « وسمك ارتفاع
هذا السور الداخلي في السماء ٣٥ ذراعاً (٥٢٥
قدماً) وعرض السور من اسفله نحو ٢٠ ذراعاً او
٣٠ قدماً (١٤) .

وجلب المنصور لابواب مدينته رتاجات من
الحديد لا يفلق ارتاج الواحد منها ولا يفتحه الا
جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل
منه بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير ان يعمل

عالية من جهة المدينة مبنية بالاجر والصاروج وهو
مادة بنائية كالسمنت في القوة واللون ، واجري
فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر (كرخيا) (١٥)

وكانت في وسط المدينة رحبة مدورة واسعة
لم يشيد في بعض جنباتها باديء الامر غير القصور
والجوامع ، الا انها على توالي الايام اخذت تزدهم
بالابنية نظير بقية اقسام بغداد . وكانت مساحتها
نحو (٢٠٠٠ ياردة) طولاً في مثلها عرضاً يحيط
بها السور المدور الداخلي بابوابه الاربعة . (١٦) وفي
وسطها قصر الخليفة الذي بناه بالاجر وسماه
(قصر الذهب) وسمى بابه باب الذهب وانشأ
مسجداً واسماً ملاصقاً له . وكانت مساحة القصر
اربعمائة ذراع في اربعمائة ومساحة المسجد مائتين
في مائتين ، وكان في صدر القصر ايوان طوله ثلاثون
ذراعاً وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق
المجلس القبة الخضراء التي كان على رأسها تمثال
فارس بيده رمح ، فاذا ادار التمثال استقبل بعض
الجهات ومد رمحه نحوها . وارتفاع الايوان الى
اول عقد القبة عشرون ذراعاً وارتفاع المجلس
والقبة الخضراء سنون ذراعاً . وقد سقطت تلك
القبة سنة ٣٢٩هـ في يوم مطير فيه ريح ، وكانت
تلك القبة علم بغداد وتاج البلد ومأثرة بني
العباس . (١٧)

اما المسجد فقد انشاه المنصور من اللبن
والطين ، وجعل لاروقته اساطين من الخشب ،
كانت كل اسطوانة منها قطعتين معقبتين بالمقب
والغراء وخبات الحديد إلا خمس اسطوانات
اوست كانت عند منارة الجامع .

ولم يكن بالرحبة الوسطى التي فيها قصر
المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن لاحتاداراً
من جهة باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على
اعمدة مبنية بالاجر والجص ، فكان صاحب
الشرطة يجلس في الدار وصاحب الحرس يقيم في
السقيفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط

(١٥) د . احمد سوسة ، بغداد المصدر نفسه ، ص ١٩ .
(*) نقول بعض المصادر بان لبغداد سوران وليس ثلاثة ،
وذلك لان السور الداخلي حول الرحبة المركزية لم يكن
سوراً متيناً كالتراس ولهذا فلا يعتبر سوراً للمدينة .
اما السوران الاخران فهما الخارجيان وكان كالتراسين
ولذا كان احدهما هو سور داخلي والاخر سور خارجي ،
اما السور الداخلي فليس الا حاجزاً حول رحبة القصر
والجامع انظر الخطيب البغدادي ، ج ١ ، ص ٧٢ وفي
لسترنج ، ص ٢٦ .

(١٦) ذكرى بن محمد بن محمود القزويني اثار البلاد واخبار
العباد ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢١٤ .

(١٢) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ - ٢٧ .

(١٣) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٢ .

(١٤) انظر : كي لسترنج ، ص ٢٧ ، البغدادي ص ٧٤ ،
ابن الجوزي ، ص ٩ ، الطبري نفس المكان .

الأول العلم ولا أن يشي الثاني رمحه . وجعل
للأبواب الأربعة دعاميز أربعة عظيمة كلها أراج
(أي عقود) وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه
عشرون ذراعاً . وعقودها من الإجر والجص .
وكان إذا دخل أحد الأبواب وجد الدهليز على
يساره . وكان فوق كل عقد من عقود الدهليز
مجلس قبة شاهقة عظيمة ، ارتفاعها خمسون
ذراعاً (٢٥ متراً) فيها زخارف ونقوش . وكان
يصعد إلى القبة وامثالها سيراً أو ركوباً على
الدواب لخماتراً . وكان يربط عند كل باب ألف
جندي مع قائد لهم (١٥) . ومما يردى عن هذه
العقود بأن عاوها غير متساو وأن بعضها مبني
بالجص والإجر وبعضها الآخر بآثار المعظام .
وعلى ظهور هذه العقود حتى أعلى السور المصعد .
وبهذا يتم الصعود إلى القبة التي فوق الباب .
وكانت على المصعد أبواب تنلق ، فوق كل باب من
أبواب السور الكبير غرفة عليا « مجلس » تشرف
على المدينة ، فيجلس الخليفة هناك إذا أحب
النظر إلى من يقبل من تلك الناحية .

وإذا دخل الداخل مدينة المنصور يمر أولاً
الخندق الواقع دون السور الخارجي . ثم يجتاز
أحد هذه الأبواب الأربعة ، ومن كل باب مصعد
طريق تؤدي إلى الرحبة المركزية . وكان لخندق
بمسد المسناة قد أجري فيه المياه ، وفي جانب
الخندق القريب من السور سدة أو مسناد حول
المدينة بشكل أقواس كل منها ربع دائرة تصل بين
باب وآخر ، وجوانب هذه المسناة مبنية بالإجر
والساروج . وكان في السور الخارجي أبراج ،
فبين باب الكوفة وباب البصرة ٢٩ برجاً ، وبين
كل باب من الأبواب الأخرى ٢٨ برجاً فقط ،
ومعنى هذا أن كل برج يبعد عن الآخر ٦٠ ياردة
بناء على طول السور (١١) .

استعمالات الأرض داخل المدينة المدورة :

إضافة إلى قصر الخليفة ومسجده في
الرحبة الوسطى ، وقصور ابنائه والمقربين
والدواوين لم يكن هناك أي بناء آخر في بادئ
الأمر (كما سبق الإشارة إلى ذلك) . أما بقبة
الابنية والدور فكانت في الفصيل الذي بين
السورين الكبير والداخلي الذي حول الرحبة
المركزية وكان في الفصيل أربعة أقسام كل منها

ربع دائرة . ويفصل هذه الأقسام الأربعة عن
بعضها بعضاً السكك الآتية من الأبواب . وكان
عرض الفصيل من السور الكبير إلى السور
الداخلي أقل من ١٥ ياردة ، وطول كل ربع من
أرباع الفصيل من باب إلى باب ميل واحد .
ويختلف هذا الفصيل عن الفصيل الخارجي الذي
كان خالياً من الدور لوجود الشوارع والدروب
فيه . ولم تكن مساحة الأرباع الأربعة للفصيل
تعدو على ثلث ميل بوجه عام (١٧) وقد بلغت
مساحة المدينة ٢٦٢ و٣١١ ره متراً مربعاً أو ٢١٢٦
مشاراً وعلى هذا يكون طول قطر محيطها ٢٦١٥
متراً . وعند بدء السكك التي بين أبواب السور
الكبير والسور الداخلي وعند منبهاها ، رحبة
خارجية وأخرى داخلية ، وعلى جانبي الطريق
سفان من الطافات . وعلى يمين الداخل إلى
الرحبة طريق وعلى يساره طريق للوصول إلى
الشوارع والدروب .

وكانت أسواق مدينة المنصور في الطرق
الأربعة وبعد شح سنين حرماً من داخل المدينة
أنى رضى الكرخ التي أمر ببنائه (كما سنأتي على
ذكره فيما بعد) وجعلها لأصحاب السوق والتجار ،
وهكذا خلت الطاقات من التكاكين واتخذت مراكز
لشرطة المدينة وحرسها .

ولم يسمح المنصور أرجائه أن يبنوا دورهم
ملاصقة للسور الكبير أو دور الرحبة المركزية ،
وإذا فقد كان يلي السور الكبير حلقة عرضها ٢١
ياردة خالية من الابنية تماماً لتكون طريقاً ، كما
كان قبل سور الرحبة المركزية أرضاً خالية
حوله لتكون طريقاً آخر وتغلق الطرق والشوارع
التي في كل ربع من الفصيل بأبواب متينة قوية
عند الحاجة . (١٨)

وظلت الشوارع تسمى غالباً بأسماء
أصحاب الدور والبساتين الذين كانوا وقت بناء
بغداد ، وبني الخليفة سجنه الكبير المسمى
(المطبق) في الربع الجنوبي للفصيل ، حيث كانت
الدور بين طريق باب البصرة وطريق باب الكوفة
وباسمه سمي الشارع الذي يقع ههنا السجن
فيه . وسميت بعض أسماء الشوارع في الأرباع
الأخرى للفصيل بأسماء سكانها وحرفهم مثل

(١٥) د . أحمد سوسة ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .

علي ظريف الأعظمي ، مختصر تاريخ بغداد ، ص ٩ .

(١٦) كي لسترنج ، ص ٢٠ - ٢١ .

(١٧) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ - ٧١ .

(١٨) كي لسترنج ، ص ٢٢ .

شارع السدائين رشارع المؤذن وشارع
الشرطة (١٩١) .

ويمكن فيما يلي انطواء وصفنا دقيقا
للاستحكامات الحصينة لمدينة المنصور والتي من
خلالها نستطيع اتأكد من ان تلك المدينة كانت من
امنع الحصون العظيمة في الشرق بالقرون الوسطى
فقد كان الشخص اذا جاوز احد الابواب
عطف على يساره فيسير في دهليز ارج معقود
بالاجر والحصى عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون
ذراعاً ، وهذا الدهليز يفضي الى رحبة مفروشة
بالحصى طولها ستون ذراعاً وعرضها اربعون
ذراعاً ، ولها في جانبها الجنوبي والسماوي -
حائطان متوازيان ينتهيان عند باب في اخر الرحبة
وهو الباب الذي يراه الداخل . وفي كل من
الحائطين باب يفضي الى فصيل عرضه مائة ذراع
(٥٠ متراً) ، فمن يمين الداخل ويساره فصيلان .
وهذا الباب الشاهق هو باب السور الاعظم ولذلك
سمي (باب المدينة) ، مع ان الباب الاول هو باب
الفصيل (٢٠) . فبدخل الداخل من الباب المذكور
في دهليز ارج اخر معقود بالاجر والحصى ايضا
طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً
ويؤدي الى رحبة مربعة عرضها كطولها عشرون
ذراعاً في مثلها ، فعلى يمين الماشي (الداخل من باب
خراسان مثلاً) يوجد طريق يؤدي الى باب الشام
وعلى يساره طريق يؤدي الى باب البصرة في
فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصيل
الاول ، عرضه خمسة وعشرون ذراعاً ، وفي هذا
الفصيل تكون ابواب سكك مدينة المنصور التي
يسكنها سكان المدينة الذين اجاز لهم الخليفة
الاقامة فيها ثم بدخل السائر من باب ساج كبير
فردبن الى اطواق عدتها ثلاثمائة وخمسون طاقاً
وعرض الواحد منها خمسة عشر ذراعاً وطولها
مائتا ذراعاً (٢١) . ثم يخرج من الاطواق الى رحبة
مربعة مساحتها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً
فمن يمينه طريق يفضي الى فصيل ثالث ويؤدي
الى رحبة معادلة لها بسلك اليها من باب الشام ،
ورحبة باب الشام فيها طريق يؤدي الى رحبة
ثالثة يسار اليها من باب الكوفة ومنها الى انظيرها
الرابعة في طريق باب البصرة ، وفي الفصيل الثالث
تشرع ابواب لعدة سكك . واذا خرج السائر من

(١٩) اليمقوبي، البلدان، الطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٧ ،
ص ٩ - ١٠ .

(٢٠) د . مصطفى جواد ، بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢١) الخطيب البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ - ٧٦ .

الرحبة نحو الجنوب دخل في طائفت صغيرة نسب
دهليز منصور ثالث يخرج منه الى رحبة دائرية
حول منبر المنصور المعروف بباب الذهب ومسجد
المنصور . (٢٢) (لاحظ شكل رقم ١) .

محلات بغداد المدورة :

على اثر انشاء العاصمة الجديدة ، اقبل
الناس على السكن في جوارها واتسعت قرية
الكرخ التي في جنوب المدينة وصارت تعرف باسم
محلة (الكرخ) وهي من المحلات الكبيرة بفسري
بغداد . والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع
كرخ اتعباسيين وكان يمر بالقرب منها الصراف
ونهر الرخيل . واتصلت عمارة الكرخ واسواقه
بقرية (سوزايا) الارمنية التي سميت بالعتيقة
لانتدائها عصراً على مدينة المنصور ، وعرفت ايضا
بمشهدا المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين
الكاظمية وبغداد . (٢٣) وقد نقل المنصور في سنة
١٥٧ هـ الاسواق من مدينته المدورة ومدينة
الشرقية الى باب الكرخ وباب الشعر والحول وهي
السوق التي تعرف بالكرخ ، وفيها وسع طرق
المدينة واربانها ووضعها على مقدار اربعين
ذراعاً ، (٢٤) وذلك بعدما قدم عليه وفد ملك الروم
فامر ان يطاف بهم في المدينة ثم دعاهم فقال
اتبطريق ، كيف رايت هذه المدينة ؟ قال رايت
امرها كاملاً الا من خلة واحدة قال ما هي ؟ قال
عدوك يخترقك متى شاء وانت لا تعلم ، واخبارك
مبثوثة في الاذواق لا يمكنك سترها . قال كيف ؟
قال الاسواق . فامر المنصور حينئذ باخراج
الاسواق من المدينة الى الكرخ وان يبنى ما بين
الصرافة الى نهر عيسى . ودعا المنصور بشوب
واسع فحد فيه الاسواق ، كل صنف منها في
موضع . (٢٥) فكان لكل تجارة وتجار شوارع
معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت ،
وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع
صنف مع غيره . وكل اهل منفردون بتجارته .

ومهما يكن من امر فان الكرخ الاثلاثية .
هذا الربض الواسع كان موجوداً في تخطيط مدينة
المنصور . وقبل مرور قرن على ذلك اخذت الكرخ

(٢٢) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد في التاريخ ، مطبعة
الاديب البغدادية ، ١٩٦٢ ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٢٣) د . احمد سوسة ، الفيضان والحرق ببغداد ، المصدر
نفسه ، ص ٢١ .

د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ .

(٢٤) الخطيب البغدادي ، ص ٧٩ .

(٢٥) ابن الجوزي ، المصدر نفسه ، ص ١٢ .

بالتوسيع والامتداد خارج حدود نهر عيسى ، فامتد هذا الربض الى جنوب النهر واشغل الاراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد (انظر الخارطة شكل ٢٠) ويقدر طول الكرخ بفرسخين (الفرسخ ستة اميال) حدها الاعلى قصر وضاح خارج باب البصرة ، وحدها الاسفل سوق الثلاثاء ، اما عرضها فنحو فرسخ اعتباراً من ضفة دجلة شرقاً الى قطيعة الربيع غرباً . وتقع هذه القطيعة على يمين الاتي من طريق الكوفة بعد مروره بباب الكرخ (٢١).

كما انشأت محلات اخرى عديدة من اهمها محلنا باب البصرة وباب الكوفة اللتان كانتا تقعان شمال الكرخ ، اما المنطقة التي في شمال المدينة ففيها عدة ارباض اهمها محلة الحربية في الناحية الشمالية الغربية ومحلة الشارع في الناحية الشرقية ، ومحلة باب التين والقطيعة والزبيدية في اقصى الشمال بالقرب من الكاظمية الحالية . ومن المحلات الاخرى ، محلة باب الشمر وهي فوق مدينة المنصور ، ومحلة المحول التي كانت متصلة بالكرخ وفيها سوق دخان . ومحلة بادوريا وهي محلة مشهورة ، ومحلة براءا في طرف من بغداد في قبة الكرخ (٢٧) ، ومحلة الترجمانية وهي محلة قديمة ، ثم محلة التسترين ومحلة دار القطن بين الكرخ ونهر عيسى . ومحلة الشرقية ومحلة ابو النجم . ثم محلة الشارع وهي محلة تعد من المحلات الاربع الكبرى ، والعتابية وهي محلة مهمة يصنع فيها الثياب العتابية وهي حرير وقطن مختلفات الالوان (٢٨) . (انظر الخارطة شكل ٥ -) .

كيف تدهورت المدينة المدورة :

يظهر من الوقائع والكتب التاريخية ان المدينة المدورة بقيت كما تركها المنصور الى وفاة حفيده الرشيد سنة ١٩٣هـ / ٨٠٩م . وبعد عامين من وفاة الرشيد اشتجر الخلاف بين الامين والامون ، وحوصرت بغداد لأول مرة في تاريخها ودام الحصار اربعة عشر شهراً . وفي حوالي عام

(٢٦) كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢٧) ياسين خيرالله العمري ، نهاية الغرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام ، دار البصري بغداد ١٩٦٨ ، تحقيق للمخطوطة في سنة ١٩١٧ لنفس المؤلف ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢٨) محمود شكري البغدادي ، اخبار بغداد وما جاورها من البلاد ، مخطوطة سنة ١٢٢٠هـ / ورقة ٨٥ .

الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د . جابر عبد المال ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

١٩٦هـ ٨١٢م اطبق جند الامون على الامين في بغداد (٢٩) ، وروّح الجانب الغربي تحت ضربات المجانيق ، وتخرّب الجزء الاكبر من نصفها الشمالي المعروف بالحرية . ثم رفع الحصار عنها بعد عامين واصبحت بغداد المزدهرة خرائب ودمار لأول مرة في تاريخها ، فقد دمرت النيران احياء باكملها وانت على سجلات الدولة . (٣٠)

ولكن يظهر ان المدينة المدورة بقيت قائمة في خلال القرن الذي تلا هذا الحصار الا ان قصر الذهب تهدم سنة ٢٢٩هـ / ٩٤١م ، وبقي الجامع صالحاً للصلاة حتى القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي بعد الحصار المغولي .

كما ان الفرق المتكرر من فيضان دجلة والفرات كان لها اثر في تخريب قسم من مدينة بغداد ، فقد كان يصعب سد تيار الماء في اثناء الفيضان . وقد حصل غرقاً عظيماً في سنة ٣٣٠هـ اتهدمت على اثره الطافات في المدينة المدورة القريبة من باب الكوفة (٣١) . وفي سنة ٣٠٧هـ رفعت بقايا قصر الخلد الذي كان في خارج الاسوار .

وفي نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، اختفت معظم مدينة المنصور عن الانظار ، اما الاقسام الباقية منها فقد تداخلت تدريجياً مع الابنية ، فالتفت محلات بغداد التي قامت وراء الابواب الاربعة القديمة لمدينة المنصور وحولها .

بغداد الشرقية (الرصافة) :

تأسيسها :

كان المنصور قد عزم ان ينشئ محلة كبيرة في الجانب الشرقي من بغداد شرقي مدينته المدورة ، وقدر ذلك وعزم عليه . وقد بدأت انعمارة فيها سنة ١٥٢هـ ٧٦٨م وانتهت سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م . وكان يرى ان هناك ضرورة لجعل مقر ولي عهده (المهدي) وجيشه الخراساني مفصولاً عن مقر الخلافة ، ليكون مستمداً اذا اقتضت الحال لقمع كل نزاع قد ينشب بين هذا الجيش وبين جنده العربي هناك . وكانت تعرف هذه المحلة الجديدة اولاً باسم « عسكر المهدي » ،

(٢٩) دائرة المعارف الاسلامية ، انتشارات جيهان ، تهران ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٣٠) الطبري ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٨٦٤ .

(٣١) البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٧٦ .

- كي لسترنج ، المصدر نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .

سوق في الجانب الشرقي فأنشئت على جانبيه المحلات والدروب وفي منتصف القرن الخامس الهجري أنشئت المدرسة النظامية إلى الشمال من دار الخلافة ثم أنشئت شمال هذه المدرسة المدرسة المستنصرية في الثالث الأول من القرن السابع (٢٢٤).

وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد ، أصبح أهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة ، فكانت أصلاً لمدينة بغداد الرئيسية التي ظهرت في العهد الأخير . ففي مستهل حكم الخليفة المستظهر ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م شرع في إنشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة . وبضمان داخلها دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي أنشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبدآن من دجلة شمالاً وينتهيان إلى دجلة عند الباب الشرقي الحالي جنوباً .

وكان الشروع في إنشاء هذا السور في خلافة المستظهر ، لكنه لم ينجز سوى قسم يسير منه . واكمل انشاؤه في عهد الخليفة المسترشد . فتم بناؤه بناء محكماً سنة ٥١٧هـ ، وجعل عرضه (٢٢ ذراعاً) ، وقد ظل هذا السور قائماً حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة أي ما يقارب ثمانمائة عام . وفي عهد المقتفي عملت مسناة حول السور لئلا تؤثر مياه الخندق فيه ، ثم اكمل في عهد خلفائه وكان الخندق يتصل بنهر دجلة في بدايته ونهايته . وكان يسد عادة كلما دعت الحاجة إلى ذلك للحيلولة دون عبور الغزاة . إلا أن المياه كانت تنسرب إليه من جهة البر عندما يفيض نهر دجلة وديالى وتحدث بثوق في السداد التي في الجهة اليسرى لنهر دجلة شمالاً وفي السداد التي في الجهة اليمنى لنهر ديالى شرقاً ، فتتجمع مياه الفيضانات خلف سور المدينة فيمتلئ الخندق بالمياه وتصبح مدينة بغداد الشرفية جزيرة محاطة بالمياه من كل جهاتها .

وقد جعل لهذا السور العظيم أربعة أبواب هي : الباب الأعلى في الشمال الذي سماه الناس (باب السلطان) أي السلطان طغرل بك لأنه دخل بغداد هناك ، وعرف في العصور الأخيرة بـ « باب

ثم سميت « الرصافة » ، والرصافة كانت تطلق على المواضع التي توجد فيها طرق مرتفعة . وأول بناء شيد في هذا الجانب هو جامع الرصافة الكبير ، ثم عقب ذلك بناء قصر المهدي في جوار الجامع وأقيمت الدور والقطائع حوله (٢٢٢) وقد أنشئ حول المعسكر سور يدور حوله خندق عملاً بما تقتضيه الأحوال الدفاعية . وعقد المنصور جسراً فوق دجلة من جهة باب خراسان ليصل به القسم الغربي من مدينته بمحلة الرصافة الشرقية وكان يعرف هذا الجسر باسم الجسر الكبير أو جسر الرصافة (٢٢٢)

وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، لأن من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين واسواقاً ومستغلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من الملاكين والتجار . وكان في الجانب الشرقي أربعة آلاف درب وسكة (٢٢٣) .

توسع الرصافة وبناء أسوارها :

كانت بغداد في أواخر القرن الثالث الهجري تشبه حلقة يحيط بها سور المستمين من كل أطرافها ، ثم أخذ العمران ينتشر في الجانب الشرقي منها فأمتد جنوب السور على ضفة دجلة إلى مسافة زهاء كيلومتر ، حيث أقيمت قصور الخلفاء والبساتين المحيطة بها وكان أهم هذه المنشآت قصر التاج الذي أسسه المعتضد وأتم بناءه المكتفي ، ودار الشجرة والدار الثمينة التي جلس فيها الطاغية هولاكو عند فتحه بغداد ، والدار المربعة ، ودار الوزارة ، والدواوين وغيرها . وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم (دار الخلافة) . وقد اتخذها الخلفاء العباسيون مقراً لحكمهم بعد عودتهم من سامراء سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م . وقد سورت هذه الدار بسور على هيئة نصف دائرة . وقد وصفها ابن الجوزي بقوله « وهي بنفسها بلد » . وكان للسور الذي يطلوها تسعة أبواب رئيسة أشهرها باب الغربية ، وباب الخاصة ، وباب النوبى ، وباب العامة وباب المراتب . أما تاريخ إنشاء سور دار الخلافة ، فهو على الأرجح أن المعتضد شرع ببنائه وأتمه الخلفاء المتأخرون . واتصلت العمارات حول دار الخلافة وأصبح سوق الثلاثاء أعظم

(٢٢٢) أحمد سوسة ، فيضانات بغداد ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢٢٣) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٢٤ .

(٢٢٤) انظر : كليمان هوار ، خطط بغداد ، تريب ناجي معروف ، مطبعة العاني بغداد ١٩٦١ ، ص ١١ - ١٦ .
- د . أحمد سوسة ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ص ٥٨ .

د . مصطفى جواد ، المصدر نفسه ، ص ٥١ .

المعظم « وقد ظل هذا الباب حتى سنة ١٩٢٢ حيث هدم لكي يتسع الدخول الى بغداد ومحلّه اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك على يمين الداخل الى بغداد . والباب الثاني هو « باب الظفيرة » في الجنوب وهو الباب المقابل لمحلة الظفيرة وما زال قائماً بقرب جامع الشيخ عمر السهروردي . والباب الثالث هو الذي كان يعرف بـ « الباب الوسطاني » و « باب الحلبية » وهو الذي عرف في العصور الأخيرة بـ « باب النظم » لأن في أعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمينته ويسرته تمثال افعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسمه لبغداد تحفظها من الاعداء . وقد اتخذته الاتراك في ايامهم الأخيرة بالعملاق مخزناً للبارود ثم اوقدوا النار في البارود ونسفوه ليلة خروجهم من بغداد واخلأهم لها ثلاثين في ١١ آذار ١٩١٧ . اما الباب الرابع من ابواب السور فهو « باب البصلية » وسمى في العصور التي قبل الأخيرة « باب كلواذي » وقد عرف هذا الباب في العصور الأخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة سنة ١٩٣٧ ، بعد ان كان كنيسة لانكليز ، واصبح محله في ساحة التحرير قبالة مدخل جسر الجمهورية . وكان عدا الابواب الاربعة الرئيسية هذه عدد من الابواب الاخرى السرية (٢٤) (انظر الخارطة شكل ٦) .

وفي آخر عهد الخلافة العباسية وبامر المستنصر سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م تكامل بناء سور حول الرصافة ، ومن المرجح ان هذا السور كان يقنفي اثر سور المستعين القديم في اكثر اقسامه . والظاهر انه انشئ للدفاع عن منطقة الرصافة بعد ان وصل خبر تهيب عساكر المغول للزحف نحو بغداد . وقد استفيد من هذا السور في الوقاية من خطر الفيضان .

وبعد اكثر من قرنين قام المطراني الذي كلفه السلطان سليمان القانوني سنة ٩٤٤هـ برسم السور . وفي القرن السابع عشر الميلادي وصفه تافرينيه الفرنسي ، وذكر ابراجه والمدافع التي فوقه وذكر ان طوله حوالي ثلاثة اميال . (٢٥)

وفي سنة ١٧٣٢ ذكر الجغرافي التركي (حاجي فتحه) في كتابه (جهانخا) : ان محيط بغداد الشرقية يبلغ بين ١١٢ر٤٠٠ و ١٢ر٤٠٠ ذراع ، وقد ذكر ان السور كان يضم حوالي ١٦٣ برجاً واستحكاماً ، ولكن هذه الابراج لم يكن الدفاع

(٢٥) حوار ، المصدر نفسه .

بها ممكناً الا بواسطة الاسلحة الخفيفة ، بينما الابراج العشرة الكبيرة التي في السور كان في كل واحد منها ستة مدافع او سبعة . اضافة الى وجود عدد من الثقوب بين كل ثقب وآخر خطوة واحدة . (٢٦)

محلات الرصافة :

اخذت الرصافة بالنمو والتوسع ، بحيث اصبحت تزاخم بغداد الغربية في سعة قصورها وشوارعها واسواقها وعظمتها . وكما جرى للمدينة المدورة حين احاطت بها الارياض التي فيها قطائع رجال بلاط المنصور . كذلك حصل للرصافة في خلال الاثنى عشرة سنة من حكم المهدي ، فاصبحت مركزاً لمدينة نشأت من الدور التي شيدها ابناء الجيل الثاني من رجال القصر . ووضحت محلات بغداد الشرقية ثلاث : الرصافة والشماسية والمخرم في سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م (لاحظ الخارطة شكل ٧) .

ومن المحلات الاخرى محلة مشهد الامام ابي حنيفة وكانت مسورة ، وجامع السلطان وهي محلة غير مسورة . وفي جوار محلة ابي حنيفة نشأت محلة باسم (محلة سوق يحيى) . كما نشأت محلة الخضيرية شمالاً جوار محلة الشماسية . ومن المحلات الاخرى محلة الشيخ والظفيرة والى جانب الأخيرة ، محلة اخرى كبيرة يقال لها قراح ظفر منسوبة الى ظفر الخادم والترجمانية وهي من محلات بغداد المتصلة بالمرأزة (٢٧) .

حالة العمران في الرصافة :

بعد انتصار المأمون قام بنقل مقر الحكم الى الجانب الشرقي من بغداد واستولى على مقر البرامكة السابق . وفي عهد المتصم الذي حكم للفترة بين (٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٢٣-٨٤٢م) تنزل بغداد عن مركزها الممتاز باعتبارها حاضرة الدولة ، بسبب قيامه بنقل العاصمة الى سامراء وذلك لمدة خمس وخمسين سنة (٢٨) . وفي عهد المتصم نقل مقر الخلافة الى بغداد ، عندما هجر مقر

(٢٦) سعاد هادي المصري ، بغداد كما وصلها السواح الاجانب في القرون الخمسة الأخيرة ، مطبعة دار المعرفة ، بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ١٤ - ١٥ .

(٢٧) محمود شكري البغدادي ، المصدر نفسه ، ص ٨٢-٨٩ . - د . احمد سوسة ، الفيضانات بغداد ، ص ٢٨ .

(٢٨) دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١١ .

الخلافة وجعل بغداد حاضرة الدولة الاولى سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م .

وعند تولي المستعين الخلافة ، حاول ان يتم السور حول الجانب الشرقي (كما سبق ذكره) ، الا انه قبل ان يتمه فاجاه المعتز على رأس جيش وبدأ الحصار على بغداد ، مما ادى الى ان يصاب الجانب الشرقي باضرار جسيمة وتخرت اهم احيائه كالرصافة والشماسية والمخرم واعيد بناء اجزاء منها فقط بعد ذلك . (٢٩)

وشهدت الفترة التي اعقبت عودة الخلفاء الى بغداد ، وقبل قدوم بني بويه ، بناء القصور العظيمة - على طول ضفة النهر - والجوامع ومنها جامع الخليفة (جامع سوق الفول) والمسجد الجامع المعروف بجامع السلطان . وكانت القصور الى جنوب باب سوق الثلاثاء في سور المدينة الذي اقامه المستعين . وهكذا فقد تضاعفت مساحة بغداد قبل مرور زمن طويل على ذلك ، وانشأت محلات جديدة حول قصر الفردوس والحسني والتاج ، واتصل بعضها بالمخرم . (٣٠) وبني المستنصر بالله عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢-١٢٣٣م المدرسة المستنصرية التي لازالت قائمة وتطل على نهر دجلة .

انهار بغداد ومياه الشرب فيها

كان يروي الجانب الغربي من بغداد نهر واسع يسمى نهر عيسى العظيم ، يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات شمال الفلوجة ويصب في دجلة جنوب بغداد الحالية . وكان قد انشئ عليه سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسيين ، شمالي وهو نهر الصراة العظيم وجنوبي يعرف بالرغيل والذي صار يسمى في العهد العربي باسم نهر عيسى . ويتفرع نهر كرخايا من جهته اليسرى . ويتفرع الجدولان من الجانب الايسر للنهر امام السد ، ويجريان متوازيين نحو الشرق وينتهيان الى دجلة فيصيان في وسط بغداد الحالية . (٣١) اما الجزء الشمالي من الجانب الغربي فكان يسقى من جدول قديم يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة في جوار بلد الحالية وسمي في العهد العربي باسم نهر دجيل وكان يتفرع من نهر بباطيا .

(٢٩) الطبري ، ج ٣ ، ص ١٥٥٢ .

(٣٠) كي لسترنج ، ص ٢٧٠ .

(٣١) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ٨٦ - ٨٩ .

ومن الانهار الاخرى ، نهر العلا وهو يستمد مياهه من الخالص . ونهر موسى ونهر القلابين اللذان يجريان في بغداد . ونهر الطابق في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلابين شرقا واصل اسمه نهر بابك وماخذه من نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى عند دار البطيخ ، ونهر الدجاج عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ (٣٢) . انظر الخارطة شكل - ٨ .

اما شبكة جداول الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) ، فكان يسقي من نهر واسع يفوق كلا من انهار الجانب الغربي حجما وطولا ، وهذا النهر هو الذي عرف (بالنهروان) . وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلو متر حيث كان اطول نهر عرفه العالم وقتذاك . ثم يلتقي اخيراً بدجلة بالقرب من الكوت الحالية .

وكان فرعان من الفروع لهذا النهر يمدان شبكة الانهار التي كانت تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، احدهما وهو الشمالي الذي كان يعرف (طسوج نهر بوق) وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن هذا الطسوج ، وكانت تروى من الانهار التي كانت تتفرع من النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة . وكان نهر الخالص الفرع الرئيسي الذي يمون هذه الجداول بالمياه والذي يتفرع من نهر الفضل . اما الآخر الجنوبي فكان يسمى (طسوج كلواذا ونهر بين) وهو يأخذ من الجانب الايمن لنهر النهروان متجهاً نحو كلواذي حيث يصب في دجلة وعليه كان يعتمد جزء من الجانب الشرقي لبغداد (٣٣) (انظر الخارطة شكل ٨) .

اما ارواء مدينة بغداد ، فبالنسبة الى المدينة المدورة ، عندما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول لقربها من دجلة فكانت تروى بماء الروايا وهي جلود تملأ ماء فكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا وراى ما تحدثه البغال من اوساخ . امر رجلين من العالمين بمد القنوات

(٣٢) ياسين العمري ، المصدر نفسه ، ص ٤٤ .

(٣٣) سوسة ، فيساتات بغداد ، ص ٢٢٢ .

بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة . (٤٤) ،
وامر ايضا بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر
كرخايا وجرحها الى المدينة في عقود وثيقة من
اسفلها محكمة بالأجر والصاروج من اعلاها وكانت
كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع
فضلا عن الارياض خارج المدينة . وتجري صيفا
وشاء لا ينقطع ماؤها في وقت من الاوقات . (٤٥)

تخطيط بغداد منذ الفتح المغولي ١٢٥٨م وحتى الوقت الحاضر :

للاطلاع على حالة التخطيط في بغداد منذ
نهاية العصر العباسي ، ودخول المغول وحسب
الوقت الحاضر ، لابد من استعراض موجز لحالة
الإدارة التي كانت في هذه المدينة . ففي سنة
٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وصل هولاكو وجنوده التترك
والمغول الى بغداد ووجد المستعصم نفسه مضطراً
الى التسليم دون قيد ففتحها المغول ونهبت
المدينة واحرقوا ولكنها لم تخرب بأسرها كغيرها
من المدن التي فتحوها لانهم كانوا يريدون ان
يتخذوها منها عاصمة لهم .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو تتقاذفها
امواج الحروب فتتلاو بها ايدي الحكم من احتلال
الى آخر زهاء اربعة قرون متتالية الى ان احتلها
السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٢٨م .
فقد حكم فيها الابلخانيون اخلاف هولاكو ٨٢
عاماً . ثم عقبهم الجلائريون الذين حكموا البلاد
٥٧ عاماً ، وبنيت في ايامهم المدرسة الرجائية .
وفي ايامهم استولى تيمورلنك على بغداد مرتين
الاولى عام ١٣٩٣م ولم يلحق بالمدينة ضرر ،
والثانية عام ١٤٠٢م حيث ذبح اهلها وخربت
الساكن والمنشآت العامة . ورجع احمد الجلائري
عام ١٤٠٥م الذي احكم الاسوار (بقدر استطاعته)
التي دمرها تيمور ، ولم ينقض سوى ست
سنوات حتى قتله قره يوسف امير دولة الخوفا
الاسود التركمانية ، واستولى رجاله على المدينة
وظلت بحوزتهم حتى عام ١٤٦٨م . الى ان انتزعها
منهم تركمان الخوفا الابيض ، وفي سنة ١٥٠٨م
غزا الشاه اسماعيل الصفوي بغداد وظلت بحوزة
الصفويين حتى عام ١٥٣٤م . حيث احتلها الاتراك
بقيادة سليمان الاول ، وظل يحكمها حتى عام

١٦٢٣م ، حيث استولى عليها الشاه عباس الاول
الصفوي . الا ان الاتراك استعادوها مرة ثانية عام
١٦٢٨ بقيادة السلطان مراد الرابع .

وسد مراد باب الطلسم ورسم عدة اضرحة
دينية ، وفي هذا العهد هبطت بغداد الى الدرك
الاسفل . واستمرت بغداد من جديد مركز ولاية
تركية يحكمها هي والبصرة وال واحد في بعض
الاحيان . وتميزت ولاية مدحت باشا ١٨٦٩-
١٨٧٢ في تاريخ بغداد بانها كانت عهد نهضة اذ تم
خلالها فتح عدة مدارس واقامة منشآت ومد خط
للترام تجره الخيول بين بغداد والكاظمية .

وفي الفترة الممتدة بين ١٨٧٦ وحتى ١٩٠٩
وهي فترة حكم عبدالحميد لم تشهد بغداد من
اعمال الاعمار الذي يهم التخطيط فيها سوى بعض
المنجزات البسيطة ومنها انشاء العديد من المباني
العامة مثل تأسيس دارين للمطالعة وحصر محلات
بيع النفط ، واصلاح بعض الشوارع والازقة التي
لم تكن منتظمة بل انها كانت املرصوفة بالحجارة
او طرقات طينية . (٤٦)

وللاحاطة بحالة بغداد العمرانية يمكن
استعراض بعض الاقوال التي ذكرها الباحثون في
كتبهم ، وكذلك ذكر اهم المعالم الانبارية والحضرية
التي لا زالت تحتويها مدينة بغداد .

ففي سنة ١٢٥٨م ، لم يبق من الجانب
الغربي الا محال متفرقة اعمرها الكرخ ، وخرب
الجانب الشرقي من الشاسية الى المخرم ،
وخرب السور (٤٧) .

وفي سنة ١٣٣٩م كانت بغداد الشرقية
والغربية محاطة بالاسوار ، وللسور المدينة الشرقية
اربعة ابواب ويمتد من ضفة النهر الى ضفته في
اسفل السور على هيئة نصف دائرة . وللسور
الربض الغربي (الكرخ) بابان .

وكانت حالة بغداد بين ١٥٦٣-١٥٧٤ كما
شاهدها caesar Federigo وكذلك راوولف ،
قليلة البهجة وابنيها ليست مشيدة بصورة جيدة ،

(٤٦) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ص ٨ - ١٥ .

- عباس المزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٤ ،
١٩٤٩ والجزء الثامن ١٩٥٦ .

- جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ،
١٨٧٦ - ١٩٠٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية
الاداب / جامعة بغداد ، ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

(٤٧) صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق ، مرصد الاطلاع ،
ليدن ، ١٨٥٢ ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٤٤) الاصطغري ، المسالك والممالك ، ص ٥٩ .

- سوسة ، ص ٩٢ - ٩٤ .

- البغدادي ، ص ١١٢ .

(٤٥) محمود شكري البغدادي ، ورقة ٢٢ .

وتظهر فيها الازقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحالت لونها الى اسود قائم نقشت على احجارها الكتابات العربية. ومن الاماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق الكبير ودكاكين التجار ، اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات طرابلس والاسكندرية (٤٨) .

اما في الفترة بين ١٦٣٢-١٦٣٨ ، فان من الذين وصفوا بغداد هو الفرنسي تافرييه الذي مر بالعراق اثناء ذهابه الى الهند ، وتبين من وصفه ، انها كانت في جانبها الشرقي محاطة بسور من الاجر يبلغ طوله نحو ثلاثة اميال ، وتقدر مساحة الارض التي كانت عليها الدور بالف وخمسائة خطوة طولاً وسبعمائة او ثمانمائة خطوة عرضاً (٤٩) .

اما في الفترة بين ١٧٣٢-١٧٥٠ فقد كتب كارستين عن بغداد إذ ذكر ان مقر الحكومة التركية في الولاية كان في بغداد الشرقية وبحيط السور بالمدينة .

وفي سنة ١٧٦٤ وصف نيبور بغداد الحديثة حيث ذكر ان الازقة لا زالت ضيقة وقذرة ومرتفعة ، وان الدور متألفة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرس في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة . فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والبنية تحت الارض (السرايب) . وتكون سقوف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق اربعة او خمسة اقدام تحت الارض وتتصل بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد في هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وكانت استحکامات مدينة بغداد قوية جداً. وكان عدد الجوامع ذات المنائر فيها يبلغ عشرين ، اضافة الى وجود كثير من المساجد الصغيرة . وكان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢ خاناً) ولكن ستة او سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار ، كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة (٥٠) .

(٤٨) سعاد العمري ، ص ١٦ - ١٧ .

(٤٩) سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٠ ، ص ٢٩٢ .

- العمري ، ص ١٠ .

(٥٠) د . احمد سوسة ، فيضانات بغداد ، ص ٢٥٢ .

اما حالة بغداد في عام ١٨٢٠-١٨٣١ ، فقد كانت على الرغم من تعرضها للتهديم ، ذات اسوار احسن حالا من المدن الاخرى في دول مجاورة . اما ازقتها فكانت ضيقة وعرضها على الاكثر تسعة او عشرة اقدام . وكانت ابنتها متصلة وليس فيها شبايك ، وتلبوت ابواب جميلة ، واكثرها لطيفة جداً من الداخل كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المعلقة على الشارع حيث يجلس هناك الناس . وتنعج الميادين العامة بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة .

اما بغداد في سنة ١٨٦٤ فكانت تتميز كما وصفها Peterman في كتابه (رحلات في الشرق) بكون القسم الاكبر منها واقع في الجانب الايسر ، ومحاط بسور عال متهدم في كثير من المواقع وفيه خندق عميق وجاف . وتحوي المدينة على الكثير من الجوامع الجميلة ذات القباب والمنائر المزينة بالطابوق الملون اللامع . وتتميز ازقتها بان اكثرها ضيقة وممتلئة بالزوايا المفروشة بالحجر ، بحيث يصب السيل فيها اثناء هطول الامطار ، واسواقها بعضها مسقف .

وكانت الدور تبنى وفق طراز خاص من البناء ، إذ كانت الدار تحتوي على حوش واسع في القسم الايمن مطبق بالكاشي ، وهول مفتوح يسمى (بالايوان) وبجانبه غرفتان تحتتهما سرداب كبير . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط مقابل باب الدار تقريباً يوجد ايوان ثان كبير (٥١) .

اما حالة المدينة حتى عام ١٩١٧ م ، فقد تعرضت المدينة الى فيضانات خطيرة في سنوات ١٨٨٤ و ١٨٩٤ و ١٨٩٦ و ١٩٠٧ و ١٩١٥ م . يضاف الى ذلك ضعف الادارة واضطراب الامن . وفقد سور المدينة اهميته وازيلت المسنة لاستعمال حجارتها في الابنية لم دفن الخندق وبقي السور الترابي ، وصار يعرف بعد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧ ب (سدة المدينة) .

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني ، فلم تكثر بريطانيا الامر وللخراب الذي اصاب بغداد ، فاستمر الامر على حاله ، ومع بغداد مستمرة على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقتية باعتمادها على السداد الترابية . وقامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي

(٥١) العمري ، ص ٨٤ - ٨٨ .

صار يعرف باسم (السدة الشرقية) . يضاف الى ذلك انشاء سداد جديدة لحماية المحلات العديدة في بغداد مثل البتاوين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية ومعسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية . وخلال الفترة الممتدة بين ١٩١٩ و ١٩٥٤ تعرضت بغداد الى تسعة فيضانات غرق قسم من بغداد في بعض منها . (٥٢) اما عن اهتمام التكثير بالجوانب العمرانية والتخطيطية لبغداد فلم يكن يذكر لشدة اهمالهم لهذا الجانب وتاكيدهم على امور السيطرة على البلاد وابتزازها .

وفي نهاية هذا البحث ينبغي ان تؤكد على ضرورة الاهتمام الكبير بالموروثات الحضارية التي لازال بعضها شاخصاً حتى الوقت الحاضر في مدينة بغداد ، ومنها البيوت الكبيرة ذات الطراز العربي الاصيل ، والمدارس والجوامع ، والاسواق بحيث يمكن تحويلها الى اماكن سياحية تعكس اصالة الحضارة العربية ، او تلك التي تحتاج الى احياء كما لو انها لازالت قائمة حتى الوقت الحاضر ومنها سور بغداد وابوابه خاصة وان هذا السور توجد عنه العديد من المصورات والمرتسمات التي

(٥٢) د . مصطفى جواد ، بغداد ، ص ١١٨ - ١١٩ .

يمكن الاستفادة منها . وفي الخارطة شكل (٩) يمكن ملاحظة بعضاً من هذه المواضع التي توجد فيها بعض تلك الموروثات الحضارية . وذلك لان الاهتمام بها خدمة لامتنا العربية الجيدة ، ومتعة لاجيالنا والسواح الاجانب الذين يرتادون بلادنا . ومما يلاحظ على مدينة بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ ، انها شهدت توسعاً كبيراً في العمران . ونمواً مضطرباً في عدد السكان اذ ازداد عددهم من مليون نسمة عام ١٩٥٧ الى حوالي ثلاثة ملايين عام ١٩٧٧ بسبب الهجرة السكانية من جميع المحافظات الى بغداد ، وقد صاحب ذلك ظهور احياء جديدة وعلى الاخص بعد فتح قناة الجيش في عام ١٩٦١ ، اذ ادى الاجراء الاخير الى توزيع العديد من القطع السكنية على المواطنين على جانبي القناة التي يبلغ طولها ٢٣٧ كم (٥٣) . يضاف الى ذلك التوسع الافقي الكبير لمدينة بغداد في جانبيها الشرقي والغربي ، مما جعلها مدينة تفتقر الى الكثير من الجوانب التخطيطية التي تتوفر في المدن العالمية الكبرى .

(٥٣) صالح فليح الهيبي ، تطور الوظيفة السكنية لمدينة بغداد الكبرى ، مطبعة دار السلام بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٢٧ - ١٢١ .



عِمَارَاتُ بَغْدَادَ فِي الْعَصْرِ الْعَبَّاسِيِّ

خالد الخليل الأعظمي

بغداد - الجمهورية العراقية

خصائص مميزة من حيث التصميم والخراج الفني. ومن حيث الموضوعات والأساليب الزخرفية. وبصورة عامة نجد أن العمارة وزخرفتها في العصر الإسلامي قد اتسمت بطابع واضح ينطق بوحدة التعبير الفني مظهرا وجوها رغم اختلاف الاقطار الإسلامية وتتابع العصور .

وفي الحقيقة ان العمارة الإسلامية خضعت في نشأتها وتطورها الى عوامل كثيرة من أشهرها وأبرزها هي :

١ - العوامل الدينية التي تمثلت في تخطيط وعمارة المساجد والمدارس والأربطة والإبنية الإسلامية الأخرى ، والتي انبثقت منها نظم تخطيطية لم تكن معروفة من قبل .

٢ - العوامل الجغرافية والطبيعية للأقطار الإسلامية ، حيث كانت لبعض العنصر أهداف وفوائد مقصودة ، كبناء الخانات في الطرق التجارية ، وإقامة الأربطة عند حدود الدولة الإسلامية .

أما بالنسبة لمواد البناء فنجد استعمال الحجر في الأقطار والأقاليم التي تتوفر فيها مادة الطين والطينة الجيدة كما في العراق ومصر وإيران . بينما استعملت الصخور والحجار في بلاد الشام والحجاز حيث يمكن الحصول بسهولة على هذه المادة هناك .

٣ - العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . فقد بنيت عمائر متنوعة تبعا لأوضاع الدولة في حالات السلم والحرب ، كبناء المدن والقصور المحصنة والأسوار والقلاع . وكذلك إقامة

ولدت الفنون الإسلامية ونشأت على أثر ظهور الإسلام وانتشاره ، وقد نهضت وتطورت في خدمة هذا الدين الجديد ، والمجتمع الجديد ، والدولة الجديدة .

كانت هناك فنون عديدة سابقة للإسلام مثل الفنون الساسانية والبيزنطية والهلمستية والقبطية ، اقتبس المسلمون منها ما هم بحاجة اليه وما يتناسب مع دينهم وبلألم ذوقهم الفني ، وأضافوا الى ذلك ما ابتكروه من عناصر وأشكال جديدة ، ومن هنا كانت من مميزات الفنون الإسلامية تنوع مصادرها تنوعا كبيرا ، واتساع اتق الاقتباس والاستقراق فيها اتساعا كبيرا . على أن الفنون الإسلامية عموما تمتاز في الوقت نفسه بوحدة التعبيرات الفنية التي مصدرها هو أن المسلمين - عربا أم عجماء - أصبحت لهم قدرة فائقة على تحويل العناصر المستنقة وتشكيلها بأشكال جديدة لم تكن معروفة أو متبعة من قبل ، وادخلوا عليها من الخصائص الفنية ، وابتكروا من الأساليب ما يطبع بطابع خاص يعبر عن وحدة الخيال الفني ، ووحدة التفكير والمزاج والإلهام ، وكانت العمارة أول حقل ظهرت فيه تلك المواهب الفنية عندما نشأت من ذلك البناء البسيط الذي أقامه الرسول (ص) في المدينة حيث بنى مسجده الذي أصبح نظام بنائه نموذجا للمساجد الإسلامية . ولا يكاد بناء من الإبنية الإسلامية إلا ونجد فيه عنصرا من العناصر المبتكرة الجديدة . وكانت الفكرة الإسلامية الإنشائية الرئيسية فسي تخطيط وتصميم العنصر بصفة عامة هي فكرة الاتساع الأفقي وقابلية الامتداد حيث القضاء الشاسع الذي تحدده المرتفعات . أما الزخارف المعمارية الإسلامية فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا واتخذت لها

عمائر لطبقة الاثرياء والحكام تختلف عن ابنية عامة الناس (١) .

يمكننا القول بان العمارة الاسلامية قد اكتسبت شخصيتها وبلغت اوج تقدمها خلال العصر العباسي، وهذا ما نلاحظه في الابنية الباقية ببغداد من ذلك العصر . اذ هي رغم قلة عددها لكنها تعكس السمات البارزة للعمارة والزخرفة آنذاك وتدل على خبرة واسعة في التخطيط والبناء ، وعلى مقدرة ودراية في اختيار المواد المناسبة وحسن استعمالها ، وعلى براعة في تكييف تلك الابنية وفق متطلبات الظروف الناحية للقطر . وهي مع ذلك تحتفظ بزخارف تدل على ذوق رفيع وعلى مهارة في ابداع الاساليب الفنية وتنسيق الاشكال الزخرفية .

ان هذا العدد القليل من العمائر الذي وصلنا من الفترة العباسية ليدعو الى الاعتزاز لما تميز به من مظاهر وخصائص جديرة باستلهاام الافكار منها .

ويجدر بنا قبل الكلام عن العمائر العباسية القائمة ببغداد ان نشير ولو بايجاز الى مدينة السلام التي اسسها الخليفة المنصور وجعلها دائرية الشكل، وان نتطرق الى بعض الاشارات التاريخية وما ورد في المراجع العربية عن الابنية البغدادية ، لنستخلص منها بعضا من ميزات العمارة العباسية ببغداد التي لم يصلنا مثال قائم عنها .

اشارت كتب المؤرخين والرحالة بصورة مفصلة الى تاريخ بغداد وتاسيسها وخططها واسوارها ومدخلها ووصفها ، حتى يستطيع المرء ان يرسم صورة واضحة عنها في عهد مؤسسها المنصور الذي جعلها مدورة لئلا يكون بعض الناس فيها اقرب اليه من البعض الاخر . وقد اصبح اختيار الشكل الدائري لهذه المدينة موضع نقاش طويل بين العلماء والباحثين ، فسار البعض على النهج الذي وضعه معظم المستشرقين في محاولاتهم نسبة كل جديد وكل ابتكار في الحضارة العربية الاسلامية الى اليهود القديمة السابقة للاسلام ، فتوصلوا الى امثلة قليلة عن مدن مدورة الشكل تقريبا ، كما توصلوا الى ان هذا التخطيط الدائري له مزايا حربية وفيه اقتصاد في نفقات البناء بالنسبة لاي تخطيط آخر . ولكن الباحث يلاحظ في تلك الاراء امورا لا تؤيدها من ابرزها : ان امثلة المدن المدورة السابقة لبغداد كانت في عهد المنصور جميعها اطلالا متدثرة لا حياة فيها

(١) شافعي (الدكتور فريد) : العمارة العربية في مصر الاسلامية (عصر الولاة) المجلد الاول ، مصر (١٩٧٠) ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

اضافة الى كونها بعيدة المنال نائية عن موقع الانظار ، ثم ان تلك المدن لم تكن مدورة تماما بل كانت شبيهة بذلك ، هذا بالاضافة الى كونها مدنا محصنة ذات اسوار وابراج فكانت استدارتها من متطلبات فكرة التحصين (٢) .

ان اهمية تخطيط بغداد تكمن في جوهرها اكثر من مظهرها ، وان هذا التخطيط نموذج واضح رائع من اهم نماذج تخطيط المدن التي عرفت في لتاريخ كما انه ليس لهذا التخطيط نظير في اي مدينة سابقة للفتوحات العربية الاسلامية اذ هو تخطيط مبتكر من قبل الخليفة المنصور وحققه ونفذه اتباعه من المهندسين واهل المعرفة (٣) .

ان الفكرة السائدة في انشاء المدن الاسلامية الاولى هي ان يقام في مركزها المسجد الجامع ودار الامارة وبيت المال ثم تبني المنازل حولها ، وهذا ما سار عليه المنصور ، ولكن الفكرة الجديدة في تخطيط بغداد هو ان يشاوي البعد بين المركز الذي فيه قصر الخلافة وبين جميع اطراف المدينة ، وهذا ما لم يحدث قبل بغداد . والناحية الثانية هي اننا لم نلاحظ في غير مدينة بغداد ان انبثقت من مركزها طرق مستقيمة ممتدة الى الاطراف . والناحية الثالثة هي تقسيمها الى اربعة اقسام متساوية بين كل واحد منها وآخر صفا من الطاقات تمتد من وسط المدينة الى المداخل الاربعة في سورها ، وكل قسم منها قائم بذاته تتناسق فيه الشوارع والدروب والمنازل وهذا مما لم يراعى في اية مدينة اخرى . والناحية الرابعة في مبتكرات تخطيط بغداد هي اكتفاء كل قسم من اقسامها الاربعة اكتفاء ذاتيا ، حيث المساجد والحمامات في كل ناحية ومحطة ، كما و يوجد سوق تجمع التجارات فيها (٤) .

بنى الخليفة المنصور المسجد الجامع في وسط المدينة المدورة وكان بسيط البنيان ، حيث استعمل في بنائه اللبن والطين واساطين الخشب . والى جوار

(٢) انظر من ذلك : اليعقوبي : البلدان (العراق - ١٩٥٧) ص ٦ .

الطبري : تاريخ الرسل والملوك (لبنان - ١٩٦٤) ج ١ ص ٢٧١ - ٢٧٩ .

الطبيب البغدادي : تاريخ بغداد (القاهرة - ١٩٢١) ج ١ ص ٦٦ - ٦٧ .

البلاذري : فتوح البلدان (لبنان - ٨٦٦) ص ٢٨٧ . دائرة المعارف الاسلامية : مادة بغداد (طبعة سنة ١٩٢٣)

(٣) شافعي : المرجع السابق ص ١٨٢ . فكري (الدكتور احمد) : اهمية تخطيط بغداد في تاريخ البلديات ، مجلة الاعلام (بغداد) ج ١ (ايلول - ١٩٦٤) ص ١٠٤ .

(٤) فكري : المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٧ .

هذا المسجد بنى المنصور قصره المعروف بقصر باب الذهب أو قصر القبة الخضراء حيث اقيم فيه ايوان كبير مرتفع تعلوه قبة على رأسها تمثال فارس بيده رمح (٥) ، ومن المحتمل أن تكون هذه القبة قد كسيت بالواح القاشاني الاخضر أو الاجر المزجج باللون الاخضر فاسبحت توصف بذلك .

توسعت بغداد حتى عبرت الى الجانب الاخر من نهر دجلة فسمي الجانب الغربي منها « الكرخ » واطلق على الجانب الشرقي اسم « الرصافة » وازدهرت المدينة بجانبها ، وبنيت فيها قصور وابنية كثيرة ذكرت اسماءها المراجع العربية ولكنها اغفلت وصف عمارتها وزخارفها . على انه وصلنا وصف موجز عن بعضها . وفي قصص الف ليلة وليلة اشارات عديدة عن بعض القصور الفخمة التي زينت جدرانها وسقفها بزخارف ذهبية وملونة والتصاوير المتنوعة (٦) . واشارات بعض الكتب الادبية السلي مجلس انشاء الخليفة الامين ابن هرون الرشيد كان فيه ايوان صورت فيه التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وابوابه ، وجعل كالبيضة بياضا (٧) . وذكر ايضا ان قصر المعتصم ببغداد كان له ايوان منقوش بالفسيفساء وفي صدره صورة عنقاء (٨) . كما وذكر ان احد الاغنياء بنى دارا زينت بالنقوش والصور الذهبية والكتابات التذكارية (٩) ، وأشار الرحالة الى قصر الخليفة المستنجد بالله الذي كان واسع الارحاء فيه الرخام والاساطين المزوقة بالذهب والمزينة بالحجارة النادرة والمنقوشة بالرياسة البديعة تكسو الحيطان (١٠) .

ان هذه الامثلة القليلة التي اوردتها المراجع القديمة تدل على ان الخلفاء والاثرياء من الناس قد تفننوا في بناء العمارات والقصور الفخمة من حيث البناء والزخرفة . وتدل ايضا على استعمال زخارف

جدارية متنوعة منها جصية ومنها بالالوان المائية ومنها بالواح القاشاني ومنها باحجار الرمر والرخام .

شاركت عوامل كثيرة في خراب واندثار الابنية الكثيرة المشهورة التي اقيمت في بغداد خلال العصر العباسي . ولم يبق غير قليل منها يرجع تاريخها الى الفترة المتأخرة من العصر العباسي أي إلى حوالي القرن السادس والسابع بعد الهجرة (القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد الميلاد) ، وهذا العدد القليل هو الآخر لم يسلم من يد الاعتداء والتجاوز وعوامل التخريب والتشويه ، على ان العناية والرعاية قد تداركت ذلك فبذلت جهود كبيرة من اجل المحافظة عليها وترميمها وصيانتها بما يكفل محافظتها على صورتها الاصلية .

ان اقدم الابنية العباسية القائمة ببغداد هو احد مداخل سور الجانب الشرقي ويعرف باسم « باب الظفرية » ومن المعلوم ان هذا السور بني في عهد الخليفة المسترشد بالله الذي حكم في الفترة بين سنة ٥١٢-٥٢٩ هجرية (١١١٨-١١٣٥) ميلادية (١١) . وهو عبارة عن برج اسطواناني الشكل ضخم ومرتفع تتصل به قنطرتان احدهما تربطه بالمدينة والثانية تربطه بخارج المدينة ، وقد فتحت في جوانب الجدران واعاليها مزاغل للرماية ، هذا وزينت واجهة المداخل المطلة على المدينة بزخارف هندسية ونباتية ينمسا احاط بالبرج من الخارج شريط من كتابة تذكارية ، ان هذا المدخل يعتبر خير نموذج للمداخل المنحنية التي استخدمت في مدينة المنصور المدورة والتي فقدت آثارها ومعالمها الآن .

ومن الآثار التي تعود الى العصر العباسي ثلاث مآذن كانت تابعة لمساجد مشيدة بجوارها ، واقدمها مئذنة مسجد الحظائر (يعرف حاليا جامع الخفافين) الذي شيد من قبل زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هجرية (١٢٠٢ ميلادية) (١٢) ، وقوامها قاعدة مشننة يطوها بدن اسطواناني الشكل ينتهي بمقرنصات تحمل شرفة لوقوف المؤذن ، ويقوم فوقها عنق المئذنة وهو اسطواناني الشكل كذلك لكنه يقل عن البدن في قطره وطوله ، ثم تنتهي المئذنة في اعلاها برأس مذهب أو

(٥) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ، مقابلة وتصحيح الشيخ محمد قطة العلوي (مصر - بولاق ١٢٧٩ هجرية) ج ٤ ص ٢٠٢ ، ٣١٤ .

(٧) ابن المعتز : طبقات الشعراء (القاهرة - ١٩٥٦) ص ٢٠٩ .

(٨) المرزباني : الموشح لي ماخذ العلماء على الشعراء (مصر ١٢٤٢ هجرية) ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

المسكري : الصناعتين : الكتابة والشعر (مصر - الطبعة الثانية) ص ٤١٨ - ٤١٩ .

(٩) ابن الجوزي : المنتظم (حيدر آباد - ١٢٥٧ هجرية) ج ١ ص ٨٠ - ٨٢ .

(١٠) بنيامين : الرحلة (بغداد - ١٩٤٥) ص ١٢١ - ١٢٢ .

(١١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٩ ص ٨٥ . ابن الجوزي : مناقب بغداد (بغداد - ١٢٤٢ هجرية) ص ١٧ .

ابن الاثير : الكامل في التاريخ (لبنان - ١٨٧٠) حوادث سنة ٤٨٨ ، ٥١٧ .

(١٢) جواد (الدكتور مصطفى) : عمارات القرن السادس المصنعة ، مجلة سومر م ٢ (١٩٤٦) ج ١ ص ٦٥-٧٢ .

قمة تشبه القبة الصغيرة . وهذه المئذنة تمتاز بتناسق أقسامها وأجزائها تناسقا بديعا يدل على ذوق رفيع وبراعة في بناء المآذن مما جعلها تترك انرا بالغا في طراز المآذن البغدادية عموما . والمئذنة الثانية تقع في مسجد الجنائز المعروف حاليا جامع الشيخ معروف وقد كتب عليها تاريخ بنائها في سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ ميلادية) وهي تشبه سابقتها مع اختلاف قليل في شكل المقرنصات وزخارفها اما المئذنة الثالثة فهي مئذنة مسجد قمريه الذي بناه الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) (١٣) وهي تختلف عن سابقتها من حيث ارتكازها على قاعدة مربعة ووجود بدن اسطواني ضخم فوقها وبساطة مقرنصات شرفتها ونحافة عنقها بشكل يوحي الى انها قد تعرضت لاصلاحات وترميمات عديدة .

ومن العمارات العباسية التي بنيت خلال فترة نفوذ السلاجقة الابنية التي تقام بجوار اضرحة العلماء والاولياء واصحاب النفوذ والسلطان . ويوجد مثال عن ذلك في بغداد ينسب الى زمرد خاتون ام الخليفة الناصر لدين الله وعرفت تسميته حاليا بالست زبيدة زوجة هارون الرشيد وهذا ما لا تؤيده الشواهد التاريخية والادلة الاثرية وعناصر البنيان وشكله (١٤) . والبنية المذكورة عبارة عن حجرة صغيرة مثمثة الاضلاع يقع مدخلها في احد اضلاعها ، ويقوم فوقها قبة مخروطية مقرنصة الشكل ويصل الارتفاع الكلي لها حوالي « ١٣ » مترا ، وسطوح الجدران من الداخل مغطاة بالجص بينما من الخارج تظهر مزينة باشكال عقود مدببة تعلوها مساحات مزخرفة بالاجر .

وتوجد في بغداد بنية تعرف حاليا بالقصر العباسي تعتبر من روائع التراث العربي الاسلامي في العمارة والزخرفة ، ورغم ان تاريخها وحقيقتها غير معروفين تماما الا انه يوجد رايان بارزان عنها احدهما يقول بانها « دار المساة » التي بناها الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٦ - ٥٨٠ هجرية = ١١٨٠ - ١١٨٤ ميلادية) والرأي الاخر يرى بانها « المدرسة الشرايية » التي بنيت في حدود سنة ٦٢٨ هجرية (١٢٣٠ ميلادية) (١٥) ورغم عدم التوصل

الى نص صريح او ادلة قطعية الا ان الرأي الاخير الذي يعتمد على وجود تشابه كبير بين هذه البنية وبين المدارس الاسلامية عامة والعباسية القائمة ببغداد مثل المستنصرية من حيث التخطيط والعمارة والشكل العام والمعرز كذلك بالشواهد التاريخية كن ذلك يجعله مرجحا على غيره . والبنية المذكورة عبارة عن مجموعة من الحجرات ذات طابقين تطل على ساحة مكشوفة في جانب منها بين الحجرات ايوان كبير يقابله مسجد ويقع خلف الحجرات رواق يتقدم قاعات كبيرة مرتفعة ويقع مدخل البنية في الضلع الجنوبي الغربي حيث يؤدي الى ممر افقي طرف منه يؤدي الى القاعات الكبيرة والطرف الاخر الى الساحة الوسطية ، ويتقدم الحجرات الصغيرة المطللة على الصحن رواق مزخرف بمقرنصات بديعة التكوين والنقوش . كما زينت بواطن الايوان والممرات وبعض السقوف بزخارف هندسية ونباتية .

وخير مثال للعمارة العباسية نجده في المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٥ هجرية (١٢٢٧ ميلادية) واستغرق بناؤها ستة اعوام (١٦) . وهي تتكون من ساحة وسطية مستطيلة الشكل في جهنها الشرقية مدخل له واجهة شاهقة مزخرفة وبرز في بنائه عن جدران البنية بينما يطل على الساحة بما يشبه الايوان الكبير ، ويحيط بالساحة الوسطية حجرات وغرف مسن طابقين ، وعلى طرفي الساحة ايوانان كبيران متقابلان ويقابل المدخل مسجد صغير ، وفي الجانب الجنوبي توجد قاعات كبيرة للدرس يتقدمها رواق مرتفع . وكانت في الجانب الشمالي من البنية من الخارج دار القرآن بقي منها ايوانها فقط . هذا وزخرفت جميع الواجهات وبواطن الايوان بزخارف هندسية بديعة تتخللها العناصر الزخرفية النباتية بينما يمتد في اعالي الجدران من الخارج شريط زخرفي من كتابات بعمارتها وزخارفها موضع اعجاب من زارها مسن تذكارية وتاريخية . وقد كانت هذه البنية الرحالة والمؤرخين خلال تاريخها الطويل .

جواد (الدكتور مصطفى) : القصر العباسي ببغداد ، مجلة سومر (١٩٥٥) ج ٢ ص ٦٥ - ٨٦ .
ناجي معروف : المدارس الشرايية (بغداد - ١٩٦٥) ص ١٥٢ - ١٨٦ .

(١٦) سبط ابن الجوزي : مراة الزمان (حيدر آباد - ١٩٥٢) ج ٨ ص ٧٢٩ . ابن السامي : مختصر اخبار الخلفاء (مصر ١٢٠٩ هـ) ص ١٢٣ . ابن الفوطي : العوادم الجامعة ص ٥٣ . السيوطي : تاريخ الخلفاء (مصر ١٩٥٢) ص ٤٦٢ .

(١٣) ابن الفوطي : العوادم الجامعة (بغداد - ١٣٥١ هجرية) ص ٤ ، ١٨٨ ، ٢٩٦ .

(١٤) جواد (الدكتور مصطفى) : العمارات الاسلامية ، مجلة سومر ٣ (١٩٤٧) ج ١ ص ٢٨ وما بعدها .

(١٥) مديرية الآثار القديمة (المرآة) : بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد (بغداد - ١٩٣٥) ص ١ - ١١ ، ٢٠٤ - ٢٢٠ .

التخطيط العام للابنية

جانب ذلك وخاصة في الزخارف الجدارية . وقد استخدمت في العمارة عموما العقود والاقبية ذات الاشكال المدببة في الغالب وخاصة في المداخل والواجهات ، والى جانب ذلك نجد عقودا مفصصة او مقوسة (جزء من قوس دائرة) . وقد تفنن المعمار في بناء الاقبية فجعل بعض السقوف ذات اقبية متقاطعة فتحت في راسها فتحة للضوء والهواء وهذا ما وجدناه في قاعات الدرس الكبيرة في المستنصرية وبناية القصر العباسي . وقد استعمل بالقرنصات في تسقيف المرات والاروقة .

وسائل الاضاءة والتهوية

ان المصدر الرئيس للضوء والهواء في مختلف المآثر البغدادية هو الساحة الوسطية المكشوفة فكانت معظم مرافق السكن مفتوحة الابواب عليها ، وكان اغلبها عديم النوافذ والشبابيك . وكانت الجدران الضخمة عاملا مهما في قوة البناء وفي عزله عن الخارج ، كما كانت ذات فائدة كبيرة في تكييف البناية صيفا وشتاء باعتبارها تساعد على احتفاظ المرافق السكنية بجو ودرجة حرارة ثابتة تقريبا وتكون عازلا لها عن الظروف المناخية القاسية . والى جانب ذلك استخدمت طريقة لاجاد جو مناسب في القاعات الكبيرة حيث اقيم رواق مرتفع البناء في اعلاه نوافذ تفتح صيفا فيصبح الهواء المار خلالها لطيفا قبل وصوله الى تلك القاعات والحجرات الموجودة عنده .

الزخارف والنقوش

اوضحت لنا الامثلة القائمة ان المآثر البغدادية لم تخلو من الزخرفة كما ان المراجع التاريخية والادبية فيها الكثير من الاشارات عن الزخارف المتنوعة التي كانت تزين الابنية العباسية ببغداد ، واذا كان الاجر قد لعب دورا كبيرا في زخرفة المآثر التي وصلتنا ، فان الجص والواح الرخام والمرمر والقراميد (القاشاني) كان لها دور في ذلك ايضا .

ان الاجر مادة يسهل تقطيعها وتهذيبها ونحتها ونقش العناصر الزخرفية عليها ومن خصائصه كذلك مقاومته ودوامه مدة طويلة . ومن خلال الزخارف التي وصلتنا تميز ثلاث طرق اتبعت في تكوينها :

١ - تصفيف قطع الاجر باوضاع مختلفة يبرز بعضها عن سطح الجدار مما يكون زخرفة تشبه في شكلها العام حياكة الحصر لذلك سميت بالزخرفة الحصرية .

ان الامثلة القليلة الباقية من المآثر العباسية وما ذكرته المراجع التاريخية والادبية توضح لنا الخصائص المهمة للتخطيط العام للابنية العباسية ببغداد فمدخل سور المدينة المعروف باب النظفية يذكرنا بمدخل مدينة المنصور المدورة التي جعلها من النوع المعروف بالمدخل المنحنية او الزورة ، والذي يتميز بكونه اكثر تحصينا ومناعة من سواه من خلال شكله وطريقة اجتيازه والمعائق الوجودية في طريق المتحamin ووسائل الدفاع المقامة في جدرانه والخندق المحيط به .

اما المآذن فان من مزاياها تقسيمها الى اجزاء متناسقة في الحجم والطول ، نستخدم لقواعدها الشكل المربع والمضلع ، بينما تميزت ابدانها بالشكل الاسطوانى واقامت شرفة المؤذن فوق طبقات من المقرنصات ذات الوظيفتين العمارة والزخرفية . وقد روعي تناسب اقسامها تناسبا يدل على خبرة ومهارة . كما غلب على عمارة المآذن البغدادية طابع البساطة والهدوء في التخطيط والمظهر العام مما جعلها نموذجا يحتذى به حتى الوقت الحاضر .

وابنية المشاهد والقباب التي اقيمت فوق الاضرحة التي وصلنا مثال عنها تتميز باقامة حجرة مضلعة فوقها قبة مقرنصة ذات شكل مخروطي يساعد على ارتفاعها في الفضاء ارتفاعا شاهقا رغم المساحة الصغيرة التي بنيت فوقها مما يجعلها مميزة بارزة .

اما بالنسبة للمدارس فان الساحة الوسطية المكشوفة هي التي تزود الحجرات والغرف المحيطة بها بالضوء والهواء النقي كما انها تستخدم احيانا للصلاة في ايام الجمعة والعيد عندما لا يتسع مسجد المدرسة الصغير الى جمهور المصلين . واقامت في هذه المدارس قاعات كبيرة للدرس تقع في جانب منها واستخدمت الاواوين فيها للاستراحة او للتدريس احيانا . وبنيت لهذه المآثر مداخل ذات واجهات شاهقة مزخرفة وبارزة عن البناية ربما لتكسب المدرسة اهمية وتميزها من المآثر .

البناء والتسقيف

استعمل الاجر كمادة رئيسة في البناء والزخرفة في جميع المآثر العباسية القائمة لامكان الحصول عليه بسهولة وتوفر المادة الاولية الجيدة التي يصنع منها في منطقة بغداد وما يجاورها . على ان المراجع العربية تشير الى استخدام الاحجار والجص الى

٢ - تقطيع الأجر إلى أجزاء صغيرة ذات أحجام وأشكال تولف في مجموعها شكلا هندسيا ، وتكون تارة بارزة عن سطح الجدار ، أو بمستوى سطح الجدار .

٣ - حفر الزخارف على سطوح قطع الأجر بحيث تظهر العناصر الزخرفية بارزة مجسمة وهذا يتمثل في العناصر النباتية بصورة خاصة .

أما بالنسبة للعناصر الزخرفية فاشهرها : الأشكال الهندسية ، الأشكال النباتية ، المقرنصات ، الكتابات .

احتلت الأشكال الهندسية مكانة مرموقة حيث زينت بها معظم العناصر التي وصلتنا ، وقوامها الإطباق النجمية المتنوعة والمضلعات الهندسية . وهذه الأشكال الهندسية تعتمد في أساس تكوينها على الدائرة واقطارها التي تولف من تقاطعها والنقائش الأشكال المطلوبة ، وهذا يدل على ازدهار علم الهندسة ومهارة الفنان ، ومما أضفى حيوية على تلك الزخارف هو تزيينها بالعناصر النباتية .

لعبت الزخارف النباتية دورا بارزا كذلك فقد زينت بها الأشرطة والأطارات وأرضيات الكتابات وبواطن الأشكال الهندسية والمقرنصات وكان العنصر الرئيس المستخدم فيها هو « المروحة النخيلية » المعروفة باسم (البالت Palmette) ولكنه ظهر بأنواع وأشكال عديدة منها المفصصة والبسيطة . وبصورة عامة تميزت العناصر النباتية بالتناظر والتقابل والتكرار بصورة توحى إلى اتباع نظام خاص في مظهرها وتكوينها كما تميزت بظاهرة النمو والامتداد . وهذا النوع من الزخرفة أثار اهتمام الباحثين نظرا لما كان يشاهد في جميع المجالات الفنية وعلى مختلف النحف والآثار فاطلق عليه الباحثون اسم الزخرفة العربية أو زخرفة التوريق

العربي وسماه الأجانب باسم الأرابيسك (Arabeque) (١٧) .

ومن الزخارف المهمة عنصر المقرنصات الذي كانت وظيفته عمارية فاصبح يؤدي دورا زخرفيا كذلك ، وظهر بأزهى أشكاله في بناية القصر العباسي والمقرنصات تتكون من مجموعة من قطع الأجر تختلف في شكلها وحجمها وتندرج في طبقات أو صفوف من حنايا وكذل بارزة تنتهي بأشكال نجمية أو قباب مضلعة صغيرة ، ومما زاد في رونقها وبهاؤها تزيين بواطنها بالعناصر النباتية .

واستخدمت الكتابات الذاكرة كعنصر من العناصر الزخرفية حيث زينت بها الواجهات بشكل اشرطة وحقول تمتد في أعلى الجدران أو في مداخل المآثر وقد انجزت هذه الكتابات بطريقتين : تارة ذات حروف بارزة كبيرة كل حرف من كلماتها يتكون من عدة قطع من الأجر ، وتارة أخرى تظهر الحروف بارزة فوق مهاد من زخارف نباتية قوامها اغصان وفروع مورقة تملأ الفراغات الموجودة بين الحروف .

إن تلك المزايا والخصائص التي تلاحظها في لمسة العباسية ببغداد تدل على الجهود الكبيرة المبذولة من قبل المعمار والفنان خلال تلك الفترة التاريخية ، وتوضح لنا مدى الخبرة والمهارة في هذا المعمار ، وكذلك تبين لنا المعالجة العلمية والوضعية لتقنيات النجوى والمناخ في القطر ، وفي ذلك أيضا توضيح لجانب من حضارتنا وتراثنا المتميز بالحيوية والتجديد والإبداع والالتقان ، مما يجعلها أمثلة تسلم منها الأفكار .

(١٧) فكري : مساجد القاهرة ومدارسها (مصر ١٩٦٥) ج ١ ص ١٧٦ - ١٩٠ . مرزوق (دكتور محمد عبدالعزيز) : الفن الإسلامي - تاريخه وخصائصه (١٩٦٥) ص ١٨٠ - ١٨٢ .

خانات بغداد

من القرن التاسع وحتى مطلع القرن العشرين

بقلم

برهان نوري محمد علي المناج

كلية التربية - جامعة بغداد

بصورة عامة ، وذلك عندما غزاها الأعاجم من
الفرس والترك ، وما رافق هذا الغزو من عوامل
الدمار والتخريب نتيجة الحروب والتي راح
ضحيها الكثير من الأبرياء ، إضافة إلى ما سببه
الفيضانات من أوبئة وأمراض وفزع وغلاء في المواد
الاقتصادية ، وكانت هذه العوامل أيضاً قد عجلت
في زوال واندثار الكثير من المعالم العمرانية
والثقافية لمدينة بغداد .

ورغم ذلك فقد ظلت مكانة وأهمية مدينة
بغداد تحتل مركز الصدارة بين المدن الإسلامية
الأخرى ، لكونها حلقة وصل تربط بين المدن
والحواضر في داخل العراق وخارجه ، مما تركز
فيها عدد من الخانات الكبيرة منها والصغيرة
لتؤدي خدمات أكبر للتجار والمسافرين
والزائرين .

إن خانات بغداد - مع الأسف - لم تحتل من
قبل الباحثين بدراسة مستفيضة ، كما لم يذكر
المؤرخون أشياء يعتمد بها عن هذه الخانات ، واقتصر
الامر على بعض المعلومات البسيطة التي وردت في
كتب الرحالة الأجانب ممن مروا بها ، وربما يعود
ذلك إلى أنهم كانوا يمتنون في مؤلفاتهم بالجوانب
السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، أو يرون أن
الأمور المتعلقة بالجانب العماري والهندسي غير ذات
أهمية ولأنهم ليسوا باختصاصيين فيها . ومن هذه
الكتب « العراق في القرن السابع عشر » لـ

المقدمة

مدينة بغداد ، هذه الحاضرة العربية العريقة
في حضارتها وثقافتها ، والفنية بآثارها وفنونها
ومواردها ، يمكن أن نعدّها بحق من أعظم مدن
العالم في القرون الوسطى ، لما خلّدتها لنا من آثار
مادية وفكرية وفنية ، جعلتها تفوق شهرتها
- وخاصة في العصر العباسي - شهرة مدن
دمشق والقاهرة وقرطبة والقسطنطينية .

ونظراً للتوسع العمراني الذي شهدته هذه
المدينة في العصر المذكور آنفاً ، ونتيجة لما حصل
لها من التقدم والازدهار والذي شمل جميع مرافق
الحياة العلمية والاجتماعية والاقتصادية والمثلية
في بناء المدارس والجامعات والمكتبات والمساجد
والمراسد الفلكية وبناء المدن والقصور
والمستشفيات وشق الطرق والأنهار وإقامة القناطر
المائية والجسور والبرك وتشيد الخانات
والحمامات وحلبات الخيل ... الخ ، مما جعلها
أن تتبوأ مركزاً مرموقاً من التوسع والتنظيم لم
تبلغه المدن التي شيدت قبلها أو بعدها .

وقد ظلت مدينة بغداد محتفظة بهذا المركز
المرموق حتى الربع الأول من القرن الرابع
الهجري/العاشر الميلادي ، حيث أصابها ما أدى
إلى تدهور أحوالها صورة خاصة وأحوال العراق

« تافرييه » و « رحلة أبي طالب خان إلى العراق » و « رحلة نيبور » و « رحلة العراق في القرن الثامن عشر » و « رحلتي إلى العراق سنة ١٨١٦ م » و « بكنفهام » و « رحلة ربيع إلى العراق سنة ١٨٢٠ م » و « رحلة المنشء البغدادي » الذي كتبها عام ١٨٢٢ م و « رحلات إلى العراق » لـ « بدج » (١٠) .

واقترنت هذه المعلومات على إشارات عابرة ومختصرة ذات صبغة تاريخية خالية من التخطيطات والتحليلات الضرورية التي تتطلبها الدراسات الأنثروبولوجية العلمية (١١) .

ونظراً لندرة المصادر وما كتب عن الخانات أنني شملتها البحث فقد تطلب الأمر منا القيام بدراسة الخان من الناحية اللغوية والتاريخية ونشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً كخطوة أولى على الطريق للكشف عن جانب من تراثنا العماري والحضاري العظيم .

الأصل اللغوي لكلمة الخان :

اجمعت معظم مصادر اللغويين والمؤرخين القديمة منها والحديثة على أن لفظة « خان » فارسية معربة (١٢) ، ومن المرجح أنها اشتقت من

(١) الياح ، (برهان نذر محمد علي) ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، صفحات ٥ - ٦ ، رسالة ماجستير مطبوعة على آلة الطباعة ومقدمة إلى مجلس كلية الآداب - جامعة بغداد ، ١٩٧٦ م .

(٢) الياح ، نفس المصدر ، ص ٦ .

(٣) العسكري ، (أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن مهران اللخمي) ، كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأشياء ، غني بتحقيقه د. غزاة حسن ، ج ١ ، ص ٢٦٩ ، مطبعة التولي ، مطبوعات الجمع العلمي بدمشق ، (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) .

- ابن سيده ، (علي بن اسماعيل) ، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق د. مراد كامل ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ ، الطبعة الأولى ، مصر ، (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) .

- ياقوت الحموي ، (شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٤١ ، بيروت ، (١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م) .

- ابن منظور ، (أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور الأتريقي المصري) ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص ١٤٦ ، بيروت ، (١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م) .

- الزبيدي ، (محب الدين أبي الفتح محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي) ، تاج المروس من جواهر القاموس ، مجلد ٩ ، ص

الكلمات الفارسية « خان » (٤) أو « حانه » (٥) أو « خاناه » (٦) ، والتي تعطي جميعها معنى البيت (٧) ، أو الموضع (٨) ، إضافة إلى معانٍ أخرى (٩) .

وذهب عدد من الباحثين إلى أن كلمة خان هي تحريف لكلمة حانوت الآرامية المشتقة من

١٩٢ ، الطبعة الأولى ، الطبعة الأخيرة ، مصر ، (١٣٠٦ هـ) .

- بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ ، بيروت ، (١٨٧٠ م) .

- أحمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٢ ، صفحات ٤٥٤ - ٤٥٥ ، بيروت ، (١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م) .

(٤) أدي شير ، كتاب الألفاظ الفارسية العربية ، ص ٥٨ ، الطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، (١٩٠٨ م) .

(٥) اللباني ، (طوبيا العنسي الحلبي) ، كتاب تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ، غني بشره وتصحيحه والتعليق على حواشيه الشيخ يوسف توما البستاني ، ص ٢٤ ، الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٢٢ م) .

(٦) والجدير ذكره هنا أن هذه الكلمة استعملت مقرونة بأسماء البيوت والألقاب السلطانية في زمن المماليك بمصر فمثلاً يقال (السلاح خاناه) و (الشراب خاناه) و (الطشت خاناه) ، أي بمعنى البيت والمكان ، كبيت السلاح أو مكان السلاح ... الخ . انظر : أحمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ ، بيروت ، (١٣٧٧ هـ / ١٩٥٨ م) .

(٧) أدي شير ، المصدر السابق ، ص ٥٨ .
- النبري ، (محمد حسين بن خلف) ، برهان فاطح ، تصحيح وإتمام محمد عباس ، ص ١١٦ ، مرمهه يكرار وسيدوسي وشش ، جاب بيروت مؤسسة مطبوعات أمير كبير .

- اللباني ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .
- إيوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي وأخسرون ، مجلد ٨ ، ص ٢١١ ، (بدون مكان وسنة الطبع) .

- أحمد رضا ، المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ .
(٨) وكلمة (خان) كما ذكرناها سابقاً تعني البيت أو الموضع سواء أكان هذا البيت أو غيره للسكن أو لراحة المسافرين أو التجار ، وعلى هذا الاعتبار اشتقت منها الكلمة (خان) ، حيث أن الهاء في الأولى للنسبة أو للتصغير .

(٩) د. حسين محفوظ ، حديث شخصي ، (١٩٧٥ م) .
(١٠) وفي بلاد فارس تعني كلمة « خان » أبداً المربع في رقعة الشطرنج .

(١١) إيوار ، « مادة خان » ، دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢١١ ، ويذكر أن من معانيها كذلك الرتبة في الأمور الحسابية ، واللقطة التي يرفع بها الصوت والمستعملة عند الموسيقيين ، وتدل أبداً على الشطر من الواقيات . (بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩) .

كلمة (حنه) العبرانية والتي من معانيها خيم^١ واقام^٢ ونزل^٣ وحل^٤ .

وورد ايضا ان لفظة خان مرادفة لكلمة (فيردان سراي) التركية الأصل او (كرفان سراي) (Caravansary or Caravanserai) والتي تعني النزل والخان والفندق ، وذلك برغم اختلافها في اللفظ^(١١) . وتعني كلمة (خان) ايضاً منزل المسافرين على ما هو معروف في اللغة العربية^(١٢) . ومن جملة ما ورد عن أصل الكلمة هو ان كلمة خان ما هي إلا اختصار لكلمة (قاغان) والتي تلفظ بالعربية (خافان) فيما إذا وردت مرادفة للقب من الألقاب^(١٣) .

(١٠) ادي شير ، اللغات الفارسية العربية ، ص ٥٨ .

— اللباني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٨ .

— رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ ، دار الطباعة والنشر العربية ، سان باولو ،

برازيل ، (١٩٤٤ م) .

ومما تجدر الإشارة اليه ان كلمة الخانوت تعني « بيت الخمار » انظر : العسكري ، التلخيص ج ١ ، ص ٢٦٩ ، وهو المكان الذي يباع أو يشرب فيه الخمر ، كما دلت على بائع الخمر نفسه ، هذا ما ذكره بطرس البستاني في مؤلفه « قطر المحيط » ج ١ ، ص ٥٩ ، وعندما شاع استعمال كلمة الخان أصبحت تعني أي مكان تباع فيه السلع أي أنها دلت على ما نسميه بـ « الدكان » انظر : العسكري ، المصدر السابق ، واللباني ، المصدر السابق .

(١١) Porter, R.K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylon, during the years, 1817-1820, vol. 1. p. 209, London, (1822).

ويعرف (الخان) بلفظة أهل خراسان بـ « تيمك » ومعناها خان التجار . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٦٧ . وعلى هذا الأساس سمي خان مرجان باسم (التيم) وقد جاء هذا الاسم مدونا على واجهة المدخل الرئيس للخان ، وقد ذكر أن كلمة (تيم) تعني نصف سرداب ، أو تعني مكاناً أو طاً قليلاً من مستوى الطريق ، وبهذا تكون هذه الكلمة (تيم) عمارية فارسية . انظر : (ناصر النعشيتدي) ، « خان مرجان » ، مجلة النفط ، ص ١٠ العدد ٦٧ ، السنة ١٩٥٧ م .

(١٢) رشيد عطية ، معجم عطية في العامي والدخيل ، ص ٥٥ .

(١٣) بارتلد ، « مادة خان » دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ٨ ، ص ٢٠٤ واستعملت كلمة (خان) لتشير الى لقب من الألقاب للمرة الأولى في العصر الإسلامي حوالي نهاية القرن الرابع الهجري/المعاصر الميلادي ، على السكة التي ضربها الأتراكيون غير أنه لم يتبين الفرق بين كلمة (قاغان) أو (قان) والتي معناها الحاكم الأعلى ، وكلمة (خان) التي تعني حاكم المدينة إلا في العهد المغولي . (بارتلد ،

وأختلف الباحثون في أصل الكلمة إذ أن بعضهم يراه فارسيًا - تركيا أو أنه تقريباً^(١٤) أو تركيا بالأصل فقط^(١٥) ، كما أن بعضهم يراه عربياً فارسيًا^(١٦) ويمكن القول ان أصل كلمة (خان) ، فارسي حوره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب^(١٨) .

معاني كلمة (خان) :-

ومثلما تعددت الآراء في أصل الكلمة (خان) تعددت المعاني التي تشير اليها ، فهي تعني الخانوت^(١٩) ، وربما جاءت من تشابه الاثنين في السعة والوظيفة^(٢٠) ، وتدل كلمة خان ايضاً على مالك الخانوت^(٢١) ، كما تدل على المتجر^(٢٢) ، والمكان الخاص بالتجار أي محل اقامتهم ،

المصدر السابق) وذكر ايضاً ان أول من لقب بكلمة خان هو (جنكيز خان) لم لقب بها أول ملوك العثمانيين السلطان (عثمان خان) سنة ٦٦٩هـ/١٢٩٩م ، واستمر هذا اللقب يطلق على رؤساء الدولة الصفوية في زمن الشاه اسماعيل الصفوي وكذلك على رؤساء العشائر الإيرانية . انظر : احمد رضا ، معجم متن اللغة ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٢ .

(١٤) اللباني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(١٥) بطرس البستاني ، « مادة خان » دائرة المعارف ، مجلد ٧ ، ص ٢٢٤ .

(١٦) يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معنى خان » مجلة القطف ص ٩٤٧ ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ ، السنة ١٩٥١ م .

(١٧) رشيد عطية ، المصدر السابق .

(١٨) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المعجم الوسيط ، اشرف على طبعه عبدالسلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٦٢ ، مصر ، مطبعة القاهرة (١٢٨٠هـ/١٩٦٠م) .

(١٩) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد ١٣ ، ص ١١٦ .

— الزبيدي ، تاج المروس ، مجلد ٩ ، ص ١٩٤ .

— الفيروز آبادي ، (مجد الدين محمد بن يعقوب) ، (قاموس المحيط ، ج ١) ، ص ٢٢٠ ، مطبعة السعادة ، مصر ، (١٣٢٢هـ/١٩١٢م) .

— الشرنونجي ، (سعيد بن عبدالله الخوري) ، اقرب الوارد في فصيح العربية والشوارد ج ١ ، ص ٢١٠ ، مطبعة مرسلي اليسوعية ، بيروت ، (١٨٨٩ م) .

(٢٠) فقد وصف الرحالة ابن جبير دكاكين وخوانيت إحدى مدن الشام بأنها تشبه الخانات والخازن اتساعاً . انظر : ابن جبير ، (ابو الحسن محمد بن احمد) ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ ، بيروت (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .

(٢١) ابن منظور ، المصدر السابق .

— الزبيدي ، المصدر السابق .

— الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٢) ابراهيم مصطفى وآخرون ، المصدر السابق .

بالذكر انه لم يفرق مؤرخو العصور الوسطى من العرب بين هذه المنشآت المعمارية ، إذ تم إيجادها بينها فروقا واضحة ، بل وجدوها متشابهة من حيث التصميم والوظيفة التي تؤديها للمسافرين والتجار (٢٠) . وقد كتب المقرئ في هذا الموضوع واستنتج بأنه لا فرق يذكر بين تلك المنشآت المشار إليها (٢١) . ويذكر ان كلمة (الربع) تعني أيضا الخان او الفندق (٢٢) .

النشأة التاريخية للخان : -

وفي هذا المجال اهدف الى تبين فكرة نشأة الخان من حيث البداية الاولى للنشأة وبعض التطورات الحاصلة عليه ، أي التدرج في تنوع المرافق المضافة . ولما كانت المعلومات التي وردت عن نشأة الخان قليلة ، فاعتمدنا على ما هو متيسر في هذا المجال .

لقد اقيم في بلاد وادي الرافدين الكثير من الخانات ، وما بقي من هذه الخانات قليل بالنسبة الى ما ذكره الرحالة والمؤرخون ، بسبب تدهورها واندثارها بفعل زوال بعض الاسباب التي انشأت من اجلها ، والعوامل الطبيعية ، كما يرجع أيضا الى تغير طرق المواصلات وابتعادها عنها ، إضافة الى ظهور وسائل النقل الحديثة ، واماكن أكثر راحة للمسافرين كالفنادق الحديثة مثلا ، وإن

وتجارتهم (٢٣) ، وتضمني أيضا منزل المسافرين والتوافل (٢٤) ، وكلمة الفندق من المرادفات الأخرى لكلمة خان (٢٥) ، ومما يستحسن ذكره ما أورده الجواليقي المتوفى سنة (١١٤٥هـ/١٧٣٢) ، من ان كلمة الفندق بلغة الشاميين تشير الى معنى خان ينزل به المسافرون ، وموقعه عند الطرق او نسي المدائن ، وقد نقل الجواليقي عن الفراء قوله : « سمعت أعرابيا من فضاة يقول (فنتق) للفندق وهو الخان (٢٦) » . وإن من مرادفاتها أيضا كلمة الوكالة (٢٧) والسوق (٢٨) (القيسارية) (٢٩) ، والجدير

(٢٣) الجوهري ، (أبو نصر اسماعيل بن حماد) ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار ، ج ٥ ، ص ٢١١ ، مطابع دار الكتاب العربي بدمر ، القاهرة (١٣٧٦هـ/١٩٥٦م) .

- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٢١ .
- ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١ ، ص ٩٢٥ .
- الزبيدي ، المصدر السابق . - الفيروز آبادي ، المصدر السابق .

(٢٤) بطرس البستاني ، محيط المحيط ، مجلد ١ ، ص ٦٠٩ .
- التوي ، (عبدالرشيد) ، فرهنگ رشیدی ، ج ١ ، ص ٢٦٨ ، مطبعة كلكتة ، (١٨٧٢ م) .

- التبريزي ، برهان قاطع ، ص ٤١٦ . - اللبناني ، تفسير الالفاظ الدخيلة ، ص ٢٢ .

(٢٥) ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١ ، ص ٢١٢ .
- الزبيدي ، المصدر السابق ، مجلد ٧ ، ص ٥١ .
- الفيروز آبادي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ .

(٢٦) الجواليقي ، (أبي منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر) ، العرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم ، تحقيق وشرح أبي الأنبال أحمد محمد شاكر ص ٢٢٩ ، أعيد طبعه بالأوفست ، طهران ، ١٩٦٦ م .
والجدير ذكره ان اصل كلمة فندق فارسي . انظر :

ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد ١ ، ص ٢١٢ .

(٢٧) الوكالة : هي عبارة عن فندق يتكون من عدة شقق صغيرة على عدة طوابق ، فالطابق الأرضي فيها يتكون من مخازن منفصلة تطل على صحن مكشوف ، أما الطوابق العليا فهي مخصصة للإقامة وتطل على الصحن أيضا ، وتضم جميع الخدمات والمرافق اللازمة . انظر :

توفيق أحمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ ، المطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، ١٩٧٢ م .

(٢٨) توفيق أحمد عبدالجواد ، نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٢٩) القيسارية : هي تحريف لكلمة (قيسرية) المشتقة من أسم (القيصر) امبراطور الرومان . انظر :

حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ج ٤ ، ص ١٢ ، المطبعة الاولى ، المطبعة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

(٣٠) نعيم زكي فهمي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى) ، ص ٢٨٦ ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م) .

- توفيق أحمد عبدالجواد ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٥ .

(٣١) المقرئ ، (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي) ، المواظف والاعتبار بذكر الخطوط والآثار المعروفة بالخط القرظية ، ج ٢ ، صفحات ٩٢ - ٩٤ ، طبعة جديدة بالأوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد ، (بدون تاريخ) .

(٣٢) وعرفت (الربع) في بلاد مصر لتؤدي نفس الغرض الذي تؤديه الوكالة والخان والفندق ، ولأجل تحقيق رغبات الصناع وصغار التجار فقد صممت على شكل طوابق متعددة ، كان الطابق الأرضي يتكون من محلات وحوانيت ومرافق أخرى ، أما الطوابق العليا فكانت تتكون من شقق منفصلة مكونة كل شقة من حجرة او حجرتين ومطبخ ودورة مياه لماعات الصناع واصحاب هذه المحلات . ويبدو ان هنالك اختلافا بين الوكالة والربع والخان ، حيث ان الوكالة والربع استخدمت للإقامة الثابتة ، أما الخان فللإقامة المؤقتة انظر : توفيق أحمد عبدالجواد ، تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ج ٣ ، ص ٢٠٢ .

اندثار الخانات مسألة طبيعية جاءت نتيجة للتطور الحضاري المادي في الحياة (٢٢).

ولما كانت الخانات ضرورية ملحة لمواصلة المسير والتنقل من مكان لآخر وتولاها نتعذر على المسافرين قطع المسافات النائية ، فهي قديمة كقدم التجارة نفسها إذ كان يراد منها نهية أماكن تضمن الراحة للإنسان والحيوان على حد سواء بعد قطعهم مسافة طويلة تستوجب عليهم هذه الراحة (٢٣).

ولعل بداية نشوء الخانات في الأصل منغلقة من إقامة بشر وسياج يحيط بقطعة من الأرض ، واخذت تتطور بعد ذلك إلى البنايات المرووفة حيث الأواوين الكثيرة والمرافق المتعددة ، وقد نال الكثير منها التخطيط الدقيق (٢٤) . وهذا يوضح لنا الأصول الأولى لنشأة الخانات وصور تطورها شأنها في ذلك شأن الكثير من المرافق التي تتطور بتطور الحياة .

إدارة الخان :

ومن الناحية الإدارية فقد ذكر بأنه لا يدفع من يحل في الخان أي أجر سوى أن المرفق الجاري يقضي بأن يكرم النازلون في الخان الشخص المسؤول عن إدارة الخان الذي يُعرف (بالكيم) من المال شيئاً ، نظراً لما يقوم به عادة باستئجار جماعة تلقى عليهم مهمات تنظيف الخان وتنظيمه ، كما يقوم المسؤول عن الخان بتجهيز النزلاء بالحبوب والأطعمة والوقود وكثير من اللوازم التي يحتاجونها على أن تدفع له قيمة هذه المواد وعلى هذا فإن هناك جماعة بضمنهم (الكيم) مهمتها إدارة شؤون الخان (٢٥) .

(٢٢) المباح ، عبارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٦ .
(٢٣) Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications and Caravanserais," A Survey of Persian Art from Perhistoric Times to the Present, (Editor) Pope, A. U. and (Assistant Editor) Ackerman, Phyllis, Text Architecture, Vol. III, P. 1245. London and New York, (1930).

Texier, C., Description de l'Arménie, la perse et la Mésopotamie, Paris, 1842-52, 11, pp. 110-111,

تقلا عن Pope, A. U., Op. Cit., Vol., 111, p. 1246.

(٢٤) انظر : بدج ، (سر أرست الفردولي) ، رحلات إلى

تطور الخان :

وقد كانت الخانات في الشرق ضرورية لتسهيل التنقل بين المدن الإسلامية لأغراض التجارة والحج وزيارة الأماكن المقدسة ، وقد أخذت هذه الخانات تتطور تدريجياً حتى أصبحت ذات إدارة ومرافق متعددة ومطابخ (٢٦)، هذا إضافة إلى ما تضمنته بعض الخانات مسن المرافق الأخرى كالمسجد (٢٧) ، والمخازن التي تخزن فيها أنواع السلع وحوض للماء ، كما يوجد في بعضها أماكن لحفظ أموال اليتامى (٢٨) وحضائر تماشبية (٢٩) ، إضافة إلى مجموعة من الحمامات والأسواق (٣٠) ، كما يوجد أحياناً خارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت لبيع اللوازم التي يحتاجها المسافر لنفسه ولدايته (٣١) . ونتيجة لأهمية تلك الخانات فقد كانت بعض المدن تضم عدداً كبيراً منها (٣٢) . ونظراً للتوسع الكبير لخانات في مساحتها فقد زادت مرافقها حتى كان البعض منها يحتوي على غرف عديدة مزودة بمدافئ ومساطب لثوم والجلوس ، إضافة إلى غرف خاصة ، واحدة منها عند المدخل لحارس الخان وأخرى كمقهى وثالثة كمخزن لمصلحة

العراق ، ج ١ ، ص ١٢٢ نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه فؤاد جميل ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .

Reitlinger, G. "Atower of Skulls," A Journey through Persian and Turkish Armenia, p. 52, London, (1932)

(٢٨) ابن دلقاق ، (إبراهيم بن محمد بن أيمن العلاني الشهير بابن دلقاق) ، الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، ج ١ ، ص ٩٠ ، طبع بالطبعة الكبرى ببغداد (١٣١٠هـ/١٨٩٢م) .

(٢٩) القرطبي ، الخط ، ج ١ ، صفحات ٩٢-٩٣ .
(٣٠) Teixeira, P. The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, p. 27.

(٣١) وقد قيل أن خان المسافرين (Saffron) في بلاد فارس ، هو من أكبر الخانات إذ يحتوي على ١٧٠٠ (أيوان) إضافة إلى مجموعة من الحمامات والأسواق داخل أسواره . انظر

Fraser, J., Narrative of A Journey in to Khorasan, pp. 383-385, London, (1825).

(٣٢) ابن بطوطة ، (أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٥٥ ، بيروت ، (١٣٨٠هـ/١٩٦٦م) .

(٣٣) باقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ص ١١٤ .

العربات ورابعة كدكان للحدادة : اضافة الى اسطبل للحيوانات (٤٤) .

ورغم سعة بعض الخانات وكثرة غرفها لاهميتها من حيث وقوعها على طرق التجارة القديمة فانها تكتظ بالسكان في مواسم معينة مما يضطر البعض منهم للاقامة في الاماكن القريبة منها (٤٥) ، علماً ان بعضها كان يستوعب عدداً يتراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ شخصاً (٤٦) ، وبعضها الاخر يتسع لعدد يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ شخص (٤٧) .

التأثير العماري للخان في المنشآت العمرية الأخرى
وبناءً على كون الخانات مؤسسات قائمة ومتطورة وذات سمات خاصة اكتسبتها من خلال تطويرها فانها ولاشك تؤثر في رغبات الناس ، فيعكس هؤلاء الناس تلك الرغبات في طرز ابنية أخرى يقيمونها كالمنازل أو المدارس أو المساجد ومعنى هذا ان هناك تأثيراً متبادلاً بين هذه المنشآت العمرية والخانات في مجال الشبه العماري (٤٨) . فقد اشار الرحالة ناصر خسرو في رحلته الى انه شاهد بعض البيوت التي تشبه الخانات في مدينة طرابلس بلبان (٤٩) ، كما ان بعض المنشآت العمرية أيضاً كالاسواق والقلاع (٥٠) ، والقصور (٥١) ،

(١١) Unsal, B. Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoman Times 1071-1923. pp. 48ff. London (1970).

(٥٥) نافرنيه ، (جان بابتيست) ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي نافرنيه ، نقله الى العربية وعلق عليه حواشيه بشرح فرنسيس وكوركيس عواد ، صفحات ١٥٠-١٥١ ، مطبعة المعارف بغداد (١٩٦٦م) .

(١٦) Teixeira, P., The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, pp. 27 f.

(١٧) Cowper, H. S., Through Turkish Arabia, p. 318, London, (1894).

(١٨) المباح ، عمارة وتخطيط الخانات العراقية ، ص ٢٠ .
(١٩) ناصر خسرو ، (ابو معين) ، « سفر نامه » رحلة ناصر خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري ، نقله الى العربية د . يحيى الخشاب ، ص ٨٠ ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

(٥٠) المنشئ البغدادي ، (محمد بن احمد الحسيني المعروف بالمنشئ البغدادي) ، رحلة المنشئ البغدادي نقلها عن الفارسية عباس المزوي ، صفحات ١١-١٢ ، طبع شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد ، (١٩٤٨م) .

(٥١) كوتل ، (ارنست) ، الفن الاسلامي ، ترجمة د . احمد موسى ، ص ١٥٦ ، بيروت ، (١٩٦٦م) .

والدكاكين والحيوانات (٥٢) ، والاربطة (٥٣) ، والاديرة (٥٤) ، أو الكنائس (٥٥) ، تشبه الخانات من حيث ضخامتها وبنائها .

تسلسل نشأة خانات بغداد قديماً وحديثاً :-

لم تسعنا المصادر التاريخية القديمة منها والحديثة عن الخانات التي بنيت في مدينة بغداد قبل الاسلام ، لكنه ورد اول ذكر لاقامة الخانات العراقية جاء في ترتيبه خاصة للملك (شولكي) ثاني ملوك سلالة اور الذي حكم (٢٠٦١ - ٢٠٦٧ ق . م) ، حيث جاء فيها عن ولع هذا الملك بتعميد الطرق واقامة البيوت الكبيرة فيها لايواء المسافرين (٥٦) .

اما عن خانات بغداد المشيدة في العصور الاسلامية - فلاسف - لم نخبرنا المصادر القديمة الا النزر القليل منها . فقد اشار ياقوت الحموي الى وجود خان يعرف (بخان وردان) (٥٧) ، وكان موقعه شرقي مدينة بغداد ، وهو يعود الى العصر العباسي الاول (٥٨) . ومن هذا العصر ايضاً ذكر عن وجود خان في مدينة بغداد ينزله الغرباء من التجار وغيرهم (٥٩) . وذكر اليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) خاناً في بغداد ايضاً يعرف (بخان النجائب) (٦٠) .

اما في اواخر العصر العباسي (٥٥٢ - ٦٥٦هـ / ١١٥٧ - ١٢٥٨م) ، فعلى الرغم من الانحطاط والندهور اللذين حلا بمدينة بغداد في ذلك العصر فقد كانت فيها الكثير من المنشآت العمرية ، وإن الإحصاءات التي دونها ياسين العمري في كتابه ،

(٥٢) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .

(٥٣) ناصر خسرو ، المصدر السابق ، صفحات ١١-١٢ و ١٧ .

(٥٤) Teixeira, P., The Travels of P.T. from India to Italy by Land pp. 27 f.

(٥٥) Filmer, H., The Pageant of Persia, P. 217, London, (1937).

(٥٦) Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Text Relating to old Testament, p. 585, U.S.A., (1969).

(٥٧) سمي بهذا الاسم نسبة الى وردان ابن سنان احد قادة الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور .

(٥٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢١١ .

(٥٩) الدور ، (جميل نخلة) ، حضارة الاسلام ، ص ٢٢ القاهرة (١٩٣٥م) .

(٦٠) اليعقوبي ، (احمد بن ابي يعقوب بن واضح) الكاتب الشهير باليعقوبي ، البلدان ص ١ ، الطبعة الثالثة ، الطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ م .

(الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون) للجوامع والمساجد والمدارس والخانات والحمامات ... وغيرها من المنشآت العمرية في مدينة بغداد - قبل ان يحتنق المغول - خير دليل على ذلك ، بل انه لم يكتف بذكر هذه المنشآت بل اورد ايضا عددها ومما يتوجب الاشارة اليه ان عدد خانات بغداد آنذاك تعدادها (٩٨٠) (١١) خانا .

ومن القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي يخبرنا ابن الفوطي عن خان في مدينة بغداد يعرف بخان الخليفة ، والذي امر ببنائه الواني علاء الدين الجويني ، وكان موقعه بالقرب من نهر دجلة ، ويذكر ان باني هذا الخان هو البناء ابو العباس احمد بن عبيدالله الاصفهاني (١٢) . والجدير بالذكر ان هذه الخانات التي اشار اليها المؤرخون آنفا لا توجد لها آثار شاخصة في الوقت الحاضر .

ومن اشهر خانات بغداد الشاخصة الان هو خان مرجان ، الذي يعود تاريخ انشائه الى سنة (٧٦٠هـ/ ١٢٥٨م) . وقد امر ببنائه حاكم بغداد امين الدين مرجان في عهد السلطان اويس بن الشيخ حسن الايلخاني ، وكان يعرف هذا الخان ايضا (بخان الاورثمة) ، اي الخان المسقوف باللغة التركية ، وينفرد هذا الخان بهذه الميزة العمرية ، عن باقي الخانات الاخرى المكشوفة الوسط ، ويعتبر خان مرجان من اجمل الخانات العراقية حيث تنجلي فيه روعة عمارته وتخطيطه ودقة زخارفه الاجرية الجميلة ، ورغم سعة وارتفاع هذا الخان ، الا انه قد سقف بطريقة عمارية فائقة تنم عن المقدرة الفنية لبناة هذا الخان . ومما يذكر عن هذا الخان انه قد اوقفت وارداته اضافة الى خانات اخرى ودكاكين ومزارع وبساتين في ضواحي بغداد وخارجها ، الى المدرسة المرجانية والمستشفى ، جاء ذلك في الكتابة التي تعلق باب الخان الرئيس الكائنة في سوق البزازين في محلة (باب الاغا) حاليا . والجدير بالذكر ان هذا الخان يتكون من طابقين ، الاول يحتوي على ٢٢ غرفة ، والثاني على ٢٣ غرفة ، وكان التجار والمسافرون يحتلون غرف الخان ، وكان يجري فيها وفي ساحته عملية البيع والشراء مدة ما يقارب السبع قرون (١٣) .

- (١١) نقل بتصريف من د. مصطفى جواد ود. احمد سوسة ، دليل خارطة بغداد الفصل في خطط بغداد قديما وحديثا ، ص ١٩٤ مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ م .
(١٢) مصطفى جواد واحمد سوسة ، نفس المصدر ، ص ٢٠٦ .
(١٣) لمعرفة المزيد عن عمارة وتخطيط هذا الخان . يراجع :-

ومن القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، كان في مدينة بغداد خان يعرف بخان جفان ، وكانت سنة بنائه (٩٩٩هـ / ١٥٩٠م) في زمن حكم السلطان مراد ، وعلى نفقة جفالة زادة سنان باشا والي بغداد (٩٩٩هـ - ١٠٠١هـ / ١٥٩٠ - ١٥٩٢م) ، وكان يعرف هذا الخان عند العامة بهذا الاسم نسبة لمؤسسه (١٤) . وقد بقي هذا الخان على حاله حتى سنة ١٩٢٩م حيث هدم وعُمر مكانه اسواقا ومما تجدر الاشارة اليه ان هذا الخان كانت له بابان شمالي وجنوبي وكانت تعلو مدخله الشمالي كتابة مطولة بالتركية وتحتها بضعة اسطر بالعربية ، وقد شاهد الرحالة نيبور هذه الكتابة عندما زار بغداد عام ١٧٦٦م (١٥) .

اما القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وحتى القرن الرابع عشر الهجري/ العشرون الميلادي فقد كانت هناك مجموعة كثيرة من خانات بغداد لم يبق منها في الوقت الحاضر الا النزر القليل ، حيث لعبت ابادي الزمن والتخريب بها فضاقت معالمها واندرست آثارها وبقينا نفتش منها في صفحات الكتب علنا نسمف بوصفها واخبارها ، ولم نجد في بطون الكتب ما يشير الى وصفها عماريا او زخرفيا ، ولكن اكتفت بذكر عددها وبعض النصف القليلة عنها ، فقد ذكر الرحالة تافرنبيه الى وجود عشرة خانات في مدينة بغداد كانت في حالة غير جيدة من البناء ما عدا اثنين منها يوفران الراحة للمسافرين (١٦) . اما الرحالة نيبور فقد اشار هو الآخر الى عدد خانات بغداد في القرن الثامن عشر الميلادي والبالغة اثنان وعشرون خانا ، اربعة منها تقع في ضواحي بغداد والبقية في داخل المدينة ، وقسم منها كبير الحجم يسكنها التجار والقسم الاخر صغيرة (١٧) . ولم يترك لنا الرحالة بكتفهام في رحلته الى العراق سنة ١٨١٦م اية معلومات تتعلق بخانات بغداد والتي مجموعها آنذاك ثلاثون خانا ، ما عدا الاثني عشر اشارة عابرة من ان هذه

- مديرية الآثار العامة ، دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، القسم الاول ، بغداد ، ١٩٢٨ م .
(١٤) نظمي زاده مرتضى الهندي ، كشن خلفا نقله الى العربية موسى كاظم نورس ، صفحات ٢٠٩-٢١٠ ، النجف ١٩٧١م :
(١٥) نيبور ، رحلة الى العراق في القرن الثامن عشر ، ترجمه عن الالمانية د. محمود حسين الامين ، راجعه وعلق عليه ووضع فهرسه سالم الالوسي ، ص ٢٢ ، بغداد ، ١٩٦٥ م .
(١٦) تافرنبيه ، العراق في القرن السابع عشر ، ص ٨١ .
(١٧) نيبور ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

الخانات مشابهة في بنائها للخانات الموجودة في ديار بكر ، واحد هذه الخانات هو خان مرجان (٦٨) .

اشرنا قبل قليل من انه كان في مدينة بغداد عدد كثير من الخانات الكبيرة منها والصغيرة والتي اتخذت اماكن للتجارة والسكن وراحة المسافرين وكان بعض المسافرين من المسلمين وغيرهم يقومون بأعمال ومشاريع خيرية ومنها بناء الخانات ، وكان البعض من الخانات كبيرة والبعض الآخر صغيرة وفيها عدد كثير من الغرف والاواوين والمخازن غالباً ما تكون خالية من الاثاث (٦٩) . وقد بلغ عددها آنذاك حوالي ١١٨ خاناً ، ولكن الاكثر منها خاص (بالمكارية) وايواء الدواب وحفظ الامول والمهمل منها ما كان في الاسواق والتي كانت مشغولة من قبل التجار (٧٠) ومن هذه الخانات هي :-

١ - خان مرجان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٢ - خان اللوند : وكان موقعه في سوق الفضل ، وقد امر ببنائه الوزير داود باشا والي بغداد سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٦م) واسكن فيه عسكره (اللوند) والتي كانت مهمته الحفاظ على الوالي . وكانت مساحة هذا الخان واسعة ، ولكن التغيرات التي طرأت عليه نتيجة الاهمال والتخريب دعت والي بغداد ناهق باشا سنة (١٢١٥هـ/١٨٩٧م) ان يجعل مساحته متنزهاً وبني في وسطه حوضاً للماء ، وغرس فيه النخيل والاشجار وسوره بسور من الحديد ، وبقي على هذا الحال حتى عزل الوالي وخلفه من خلفه فاهمل امره وقطعت مساحته قطعاً قطعاً فأصبح شبه محلة عامرة (٧١) .

٣ - خان (قابچيلر كهيه سي) اي بمعنى خان رئيس البوابين وموقعه في سوق البزازين على طريق شارع الصغافير ، وقد امر ببنائه

(٦٨) بكنفهم ، (جمن سلك) دخلتي الى العراق سنة ١٨١٦م ج ١ ، ص ١٩٧ ، ترجمة سليم طه التكريتي ، مطبعة اسعد ، بغداد ، (١٩٦٨م) .

(٦٩) الدروبي ، ابراهيم ، البغداديون اخبارهم ومجالسهم ، ص ٢٩ ، مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٢٧٧هـ/١٩٥٨م) .

(٧٠) الشيكلي ، (محمد رؤوف طه) ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ج ١ ، ص ٦٣ ، مطبعة البصرة ، البصرة (١٢٩٢هـ/١٩٧٢م) .

(٧١) الدروبي ، المصدر السابق ، صفحات ٢٩١ - ٢٩٥ .

اسماعيل آغا رئيس البوابين ، ووقفه على ذريته ويذكر ان مساحة هذا الخان كبيرة (٧٢) .

٤ - خان دلة الكبير : وكان موقعه في سوق البزازين ، وقد شيده الحاج عبدالقادر دلة ابن اسماعيل سنة (١٢٢٢هـ/١٩٠٤م) ، وهو خان كبير يتكون من طابقين متين البناء ، وهو الآن محل تجاري (٧٣) .

٥ - خان دلة الصغير : وموقعه في المرادية (السكة خانه) (٧٤) .

٦ - خان جفان : وقد مر ذكره في ص ٣٣ .

٧ - خان النخلة او خان مخزوم : وكان موقعه في راس سوق البزازين ، وقد شيده الشيخ محمد المخزوم ابن احمد حافظ باشا سنة (١١١٠هـ) ووقفه على ذريته (٧٥) .

٨ - خان الباجهجي : ويقع باتصال جامع الخفافين من الجهة الشرقية وقد شيده ، الحاج ابو بكر الباجهجي ووقفه على مصالح الخفافين ، وهو الآن محلاً تجارياً ، ويشتمل على طابقين (٧٦) .

٩ - خان كبه الكبير : ويسمى ايضاً بخان الباشا ، وكانت ملكيته تعود لال كبه وقد اشترى الوزير داود باشا وجعل وقفاً على جامع ومدرسته . وموقعه في شارع البنوك (٧٧) .

١٠ - خان كبه الصغير : وموقعه في شارع البنوك وهو يسمى ايضاً بخان الباشا الصغير ويشتمل على طابقين وقد اشترى الوزير داود باشا والي بغداد وادقعه على مصالح جامع الحيدر خانه ومدرسته (٧٨) .

١١ - خان محمد سميد جلي الشاندر : ويقع في شارع المستنصر غربي المحكمة الشرعية ويشتمل على طابقين وبنائه جيد وقد شيده سنة ١٢٣٧هـ (٧٩) .

١٢ - خان الدفتر دار : وكان موقعه في شارع

(٧٢) الدروبي ، البغداديون ، ص ٢٩٥ .

(٧٣) الدروبي ، نفس المصدر .

(٧٤) الشيكلي ، المصدر السابق .

(٧٥) الدروبي ، المصدر السابق .

(٧٦) الدروبي ، نفس المصدر السابق .

(٧٧) الدروبي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٦ .

(٧٨) الدروبي ، نفس المصدر .

(٧٩) الدروبي ، نفس المصدر .

المستنصر غربي المحكمة الشرعية وكانت ،
مساحته كبيرة وقد هدم وشيدت على أرضه
بنايات حديثة (٨٠) .

١٣ - خان الحاج ياسين جلبى الخضري : وموقعه
في شارع المستنصر وكان قبلاً دار الحرم
والديوانخانه تعود للسيد انور بك بن
درويش بك الحيدري ، وقد عمره الحاج
ياسين الخضري سنة ١٣٤١ هـ ، وهو يشمل
على طابقين وبناؤه جيد (٨١) .

١٤ - خان باب المعظم : وموقعه كان على شارع
المستشفى (الجمهوري) وهو ذو مساحة كبيرة
وبناؤه قديم استأجره احد تجار بغداد ليكون
مكاناً لتجارته (٨٢) .

١٥ - خان البرزلي : وكان موقعه في آخر شارع
البنوك ، وقد شيده الحاج صالح جلبى
البرزلي وقد شيدت على أرضه قبل أكثر
من عشرين سنة بناية متعددة الطوابق (٨٣) .

١٦ - خان جني مراد : وموقعه في سوق المطارين
حالياً وسوق مرجان قديماً ، ويشتمل الخان
على طابقين الطابق الارضي وفيه عشرين
غرفة ، اما الطابق العلوي فيحتوي على ثلاث
وعشرين غرفة ، وقد شيد هذا الخان الحاج
مراد الحاج علي سنة ١٠٩٧ هـ ، وواقفه
على ذريته (٨٤) .

١٦ - خان الدجاج : وكان موقعه في سوق المطارين
وهو من الخانات القديمة العهد في بغداد ،
وقد شيدت على أرضه في الوقت الحاضر
ابنية ودكاكين جديدة (٨٥) .

١٧ - خان المواصل : وقد استخدم قسماً من
المدرسة المستنصرية كخان لتجار الموصل
وذلك سنة (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م) (٨٦) .

١٨ - خان الزرور : وهو من خانات بغداد الشاخصة
الآن ، ويقع بالقرب من خان مرجان في سوق
الخطاطين القديم في الفرع المقابل للمدخل
الرئيسي لخان مرجان . وقد ثبتت فوق

(٨٠) العروبي ، نفس المصدر .

(٨١) العروبي ، البغداديون ، ص ٢٩٦ .

(٨٢) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٣) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٤) العروبي ، نفس المصدر ، ص ٢٩٧ .

(٨٥) العروبي ، نفس المصدر .

(٨٦) الشبخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها ،
ج ١ ، ص ٥٦ .

مدخله كتابة هذا نصها : « السلطان ملك
رقاب الا (مم) السلطان سليم بن السلطان
سليمان خان فخر آل عثمان عز نصر عبده
امير امراء ... » ومن الجدير ذكره
هنا ان هذا الخان قد اعلن عن اثريته
في الجريدة الرسمية المرقمة ١٧٢٧ والمؤرخة
في ١٢/٥/١٩٦٩ (٨٧) .

١٩ - خان القوندرجية : وكان موقعه في سوق
القوندرجية (الجوقجية) مقابل جامع
الوزير (٨٨) .

٢٠ - خان الذهب الكبير وخان الذهب الصغير :
وموقعهما في سوق القزازين (٨٩) .

٢١ - خان فتح الله عبود : وموقعه في بداية سوق
باب الآغا في شارع الرشيد وفي شمال جامع
مرجان . وكان هذا الخان يُعرف (بخان
اللكي) (٩٠) .

٢٢ - خان الكمرك : وكان موقعه عند تلاقي الكمرك
مع سوق انصباغ ، وهو صغير الحجم وكان
متصلاً بالمدرسة المستنصرية (٩١) .

٢٣ - خان القبلانية : في سوق القبلانية (٩٢) .

٢٤ - خان الوقف : مقابل جامع مرجان (٩٣) .

٢٥ - خان درويش علي وخان الريجي وخان الميمز
كلها في الشارع المتفرع من سوق الصفاير
وانفذ الى الدنكجية (٩٤) .

٢٦ - خان الرماح : في سوق الخردة فروشية (٩٥) .

٢٧ - خان العادلية : يقابل المحكمة الشرعية
وبجانب جامع العادلية الكبير (٩٦) .

(٨٧) تقرير ممثل مديرية الآثار العامة في خان الزرور ، رقم
الاصحابة ٤٠/٥٤٥ .

(٨٨) الشبخلي ، مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها
ج ١ ، ص ٦٢ .

(٨٩) الشبخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٠) سركيس ، (يعقوب) ، مباحث عراقية في الجغرافية
والتاريخ والآثار وخطط بغداد ... الخ ، القسم الثاني ،
صلحات ١٢٥ و ٢٨٤ - ٢٨٥ ، تقديم رفائيل بطي ومير
بصري ، شركة التجارة والطباعة المحدودة ، بغداد ،
(١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م) .

(٩١) سركيس ، نفس المصدر ، ل ٢ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

(٩٢) الشبخلي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤ .

(٩٣) الشبخلي ، نفس المصدر .

(٩٤) الشبخلي ، نفس المصدر .

(٩٥) الشبخلي ، نفس المصدر .

(٩٦) الشبخلي ، نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٦٥ .

مصادر البحث

أ - المصادر العربية

- ١ - إبراهيم مصطفى وآخرون : حمد حسن الزيات ، حامد عبدالقادر ، محمد بن النجار .
المعجم الوسيط : عرف على طبع عبدالسلام هارون ، الجزء الأول ، مطبعة مصر ، القاهرة ، (١٢٨٠هـ/١٩٦٠م) .
- ٢ - أحمد رضا : (الشيخ)
معجم من اللغة ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ، (١٢٧١هـ/١٩٥٨م) (١٢٧١هـ/١٩٦٠م) .
- ٣ - أدب شير :
كتاب الألفاظ الفارسية العربية ، المطبعة الكاثوليكية ، (١٩٠٨م) .
- ٤ - ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي المعروف بابن بطوطة) ت ٧٧٩هـ/١٢٧٢م :
رحلة ابن بطوطة ، بيروت ، (١٢٨٤هـ/١٩٦٤م) .
- ٥ - ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي) ت ٦١٤هـ/١٢١٧م :
رحلة ابن جبير ، بيروت ، (١٢٨٤هـ/١٩٦٤م) .
- ٦ - ابن دقاق : (إبراهيم بن محمد بن أدمر العلاني النعماني) ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م :
الانتصار بواسطة عقد الأمصار ، الجزء الرابع ، طبع بالطبعة الكبرى ، بولاق ، (١٢١٠هـ/١٨٩٢م) .
- ٧ - ابن سبويه : (علي بن اسماعيل) ت ٥٨٠هـ/١٠٩٥م :
الحكم والمحيط الأعظم في اللغة ، تحقيق الدكتور مراد كامل ، الجزء السادس ، الطبعة الأولى ، مصر ، (١٢٩٢هـ/١٩٧٢م) .
- ٨ - ابن منظور : (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور) ت ٧١١هـ/١٢١١م :
لسان العرب ، المجلدان العاشر والثالث عشر ، بيروت ، (١٢٧١هـ/١٩٥٦م) .
- ٩ - ابوار :
(عادة خان) ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبدالعبيد يونس ، حافظ جلال ، المجلد الثاني ، بدون مكان وسنة الطبع .
- ١٠ - بارثند :
(عادة خان) ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة أحمد الشنتاوي وآخرون ، المجلد الثامن .
- ١١ - بدج : (سر ارنتس الفردولس)
رحلات إلى العراق ، تنقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه نؤاد جميل ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مطابع دار الزمان ، بغداد ، (١٩٦٦م) .
- ١٢ - بطرس البستاني : (المعلم)
قطر المحيط ، الجزء الأول ، بيروت ، (١٨٦٩م) .

٢٨ - خان الصفافير : وهو عند مدخل سوق الصفافير من جهة سوق الجوخة (٩٧) .

٢٩ - خان المصبغة : وموقعه من يمين المتوجه إلى شريعة المصبغة يلاصق خان الخفافين من جهاته الداخلية (٩٨) .

٣٠ - خان اللوقطة : في سوق المواله خانه مقابل سوق القرطاسية (٩٩) .

٣١ - خان الجسر : في آخر سوق القرطاسية .

٣٢ - خان الزئبق في الدنكية (١٠٠) .

٣٣ - خان التمر في الشارع الذهاب إلى شريعة خان التمر (١٠١) .

٣٤ - خان الكبابجية (المعضاوي) في سوق الكبابجية (١٠٢) .

وأخيراً لابد من القول وبناء على ما تحمله الخانات من آثار عمارية وسمات حضارية تروي لنا حقبة من تاريخ المسراقين والمعاذاة التي عاشوها في تلك الفترة ومما يؤسف له أن الإنسان عاون الطبيعة في إحاطة معظم هذه الخانات بالخراب والانهدام !!

إن الأمم تحافظ على تراثها وتبدل كل ما في وسعها لتحقيق هذا الغرض ، وفي اعتقادي أن هذه الخانات جديرة بالرعاية وبأن يتخذ لها ما يلزم من الحفاظ على التراث لأنها بنايات أثرية يحافظ عليها ويؤمها الناس من كل حدب وصوب ليستجلوا روائعها . ونحن نأمل لما بقي من هذه الخانات خيراً في المستقبل اتقريب بعد أن ساد الشعور في الوقت الحاضر والمتعلق بمسألة الاهتمام بكل ما هو أثري وسدور قرارات قومية ووطنية تحفز المعنيين للأخذ بمبدأ الحفاظ على التراث ومنه المباني العمارية التاريخية المتواجدة في أماكن كثيرة من بلادنا وخير دليل على ذلك اهتمام مؤسسة الآثار والتراث الموقرة الحالي الذي نرجوه أن يعم الخانات أيضاً ، وأرجو أن يكون قد وفقت ومن الله التوفيق .

- (٩٧) الشبخلي ، نفس المصدر .
- (٩٨) الشبخلي ، نفس المصدر .
- (٩٩) الشبخلي ، نفس المصدر .
- (١٠٠) الشبخلي ، نفس المصدر .
- (١٠١) الشبخلي ، نفس المصدر .
- (١٠٢) الشبخلي ، نفس المصدر .

- ١٢- بطرس البستاني : (المعلم)
محيط المحيط ، المجلد الاول ، بيروت ، ١٨٧٠م .
- ١٣- بطرس البستاني : (المعلم)
(مادة خان) ، دائرة المعارف للبستاني : المجلد
السابع ، مطبعة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٢م .
- ١٤- بكتنهام : (جيس سلك)
رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه
التكريتي ، الجزء الاول : مطبعة أسعد ، بغداد ،
(١٩٦٨م) .
- ١٥- تافرييه : (جان بابتيست)
العراق في القرن السابع عشر ، نقله الى العربية
وعلق حواشيه بشير فرنسيس وكوركيس عواد ،
مطبعة المعارف ، بغداد ، (١٩٤٤م) .
- ١٦- توفيق احمد عبدالجواد :
تاريخ العمارة والفنون الاسلامية ، الجزء الثالث ،
الطبعة الفنية الحديثة ، مصر ، (١٩٧٢م) .
- ١٧- الجواليقي : (ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد بن
الخضر) (ت ٥٤٠هـ / ١١٤٥م) .
المغرب من الكلام الامجمي على حروف المعجم ، تحقيق
وشرح ابي الاثير احمد محمد شاكر ، ايد طبعه
بالاشتراك في طهران (١٩٦٦م) .
- ١٨- الجوهري : (الشيخ ابو نصر اسماعيل بن حماد
الجوهري) (ت ٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) .
المصاحح ناج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق احمد
عبدالمنصور عطار ، الجزء الخامس ، مطابع دار
الكتاب العربي بمصر ، القاهرة ، (١٣٧٦هـ /
١٩٥٦م) .
- ١٩- حسن ابراهيم حسن : (الدكتور)
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي
والاجتماعي ، الجزء الرابع ، الطبعة الاولى ،
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ،
(١٩٤٨م) .
- ٢٠- حين محفوظ : (الدكتور)
حديث شخصي ١٩٧٥م .
- ٢١- الدروبي ، ابراهيم ، البغداديون اخبارهم ومجالسهم ،
مطبعة الرابطة ، بغداد ، (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) .
- ٢٢- رشيد عطية :
معجم عطية في العاصي والدخيل ، دار الطباعة والنشر
العربية ، سان باولو ، برازيل ، (١٩٤٤م) .
- ٢٣- الزبيدي : (محب الدين ابي القيس محمد مرتضى
الحسيني) (ت ٨١٧هـ / ١٢٠٥م) .
ناج المروسي من جواهر القاموس ، المجلدان السابع
والثامن ، الطبعة الاولى ، الطبعة الخيرية ،
مصر ، (١٣٠٦هـ) .
- ٢٤- الشرتوني : (سعيد بن عبدالله الخوري) (ت ١٢٣١هـ /
١٩١٢م) .
اقرب الموارد في فصيح العربية والشوارد ، الجزء
الاول ، مطبعة مرسلي البوسنية ، بيروت ،
(١٨٨٩م) .
- ٢٥- السبخني ، (محمد رؤوف طه) ، مراحل الحياة في الفترة
الظلمة وما بعدها ، الجزء الاول ، مطبعة البصرة ،
البصرة ، (١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م) .
- ٢٦- المسكري : (ابو غلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن
سعيد بن يحيى بن مهران النخعي المسكري)
(ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) .
كتاب التلخيص في معرفة أسماء الأنبياء ، عن
بتحقيقه الدكتور عزة حسن ، الجزء الاول ، مطبعة
النرفي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ،
(١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م) .
- ٢٧- الفيروزآبادي : (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي
(ت ٨١٧هـ / ١٤١٤م) .
القاموس المحيط ، مطبعة السعادة ، الجزء الرابع ،
مطبعة السعادة ، (١٣٢٢هـ / ١٩١٢م) .
- ٢٨- كول : (ارنيست)
الفن الاسلامي ، ترجمة الدكتور أحمد موسى ،
بيروت ، (١٩٦٦م) .
- ٢٩- اللباني : (طوبيا العنيسي الحلبي)
كتاب تفسير الالفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع
ذكر اصلها بحروفه عن بشره وتصحيحه والتطبيق
على حواشيه الشيخ يوسف ثوما البستاني ،
الطبعة الثانية ، مصر ، (١٩٣٢م) .
- ٣٠- المدور ، (جميل نخلة) ، حضارة الاسلام ، القاهرة ،
(١٩٢٥م) .
مصطفى جواد واحمد سوسة ، دليل خارطة بغداد
الفصل في خطط بغداد قديما وحديثا ، مطبعة المجمع
العلمي العراقي ، بغداد ، (١٩٥٨م) .
- ٣١- المياح ، (يرمسان نور محمد علي) ، عمارة وتخطيط
الخانات العراقية القائمة على طرق المزارات ،
رسالة ماجستير ، مقدمة الى مجلس كلية الاداب -
جامعة بغداد ، مطبوعة على آلة الطباعة ، بغداد ،
(١٩٧٦م) .
- ٣٢- مديرية الآثار العامة :
دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ، التسم
الاول ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، (١٩٢٨م) .
- ٣٣- القريري : (نقي الدين ابي العباس احمد بن علي
(ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) .
الواظك والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعسوفة
بالخط المبرزة ، الجزء الثاني ، طبعة جديدة
بالاشتراك ، مكتبة المتنبي ، بغداد ، (بدون تاريخ) .
- ٣٤- المنشء البغدادي : (السيد محمد بن السيد احمد
الحسيني المعروف بالمنشء البغدادي) .
رحلة المنشء البغدادي ، نقلها من النارسية عباس
المرادي الحامي ، طبع شركة التجارة والطباعة
الحدودة ، بغداد ، (١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م) .
- ٣٥- ناصر خسرو ، (ابو معين) « سفرنامه » ، رحلة ناصر
خسرو الى لبنان ومصر والجزيرة العربية في القرن
الخامس الهجري ، نقله الى العربية د. يحيى
الخطاب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، (١٩٧٠م) .

4. Peters, Cohn, Punnett, Nippure or Explorations, and adventures on the Euphrates, 2. Vols., New York, and London, (1898).
5. Pope, Arthur, Upham, "Bridges, Fortifications, Caravanserais", Asurvey of Persia Art from perhistoric Times to the present, (Editor) Pope, A. U., and (Assistanteditor) Ackerman, Phylis, Text Architecture, Vol. III, London and New York,
6. Porter, R. K., Travels in Georgia, Persia, Armenia, and Ancient Babylonia during the years 1817-1820 in 2 vols., London, (1822).
7. Pritchard, James. B., Ancient Near Eastern Texts Relating to the old Testament, U.S.A. (1969).
8. Reitlinger, G., "Atower of Skalls," Ajourney through Persian and Turkish, Armenia, London, (1932).
9. Texier, C., Description de l'Armenia, la Perse et la Mesopotamia, Vol. 11, pp. 110-11, Paris, (1842-52).
10. Teixeira, Peter., 'The Travels of Peter Teixeira from India to Italy by Land, London,
11. Unsal, B., Turkish Islamic Architecture in Seljuk and Ottoment Times 1071-1923), London, (1970).

12. التبريزي : (محمد حسين بن خلف)
برهان قاطع ، بتصحيح والمسام محمد عباس ،
مهرماه بكهزار وسبصد رسي وشش ، جاب بيروت ،
مؤسسة مطبوعات امير كبير (باللغة الفارسية) .
13. التنوي : (ملا عبدالرشيد)
فروهنك وشيدي ، الجزء الاول ، طبعة كلكته ،
(باللغة الفارسية) (١٨٧٢م) .

- ٢٧- ناصر النقيبدي :
(خان مرجان) ، مجلة اميل النفط ، العدد السابع والستون ، (١٩٥٧م) .
- ٢٨- نظمي زاده مرتضى افندي : (ت ١١٢٦هـ / ١٧٢٢م)
كاشن خلفا ، نقله الى العربية موسى كاظم نورس ،
مطبعة الآداب ، النجف الاشرف ، (١٩٧١م) .
- ٢٩- نعيم زكي فهمي :
طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب
(اواخر العصور الوسطى) ، مطابع الهيئة المصرية
العامة للكتاب ، القاهرة ، (١٣٩٣هـ / ١٩٧٢م) .
- ٣٠- نيبور ، (كارستن) :
رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر ،
ترجمه من الالمانية الدكتور محمود حسين الامين ،
راجعه وعلق عليه وروضع فهارسه سالم الالوسي ،
بغداد ، (١٩٦٥م) .
- ٣١- ياقوت الحموي : (شهاب الدين ابي عبدالله ياقوت بن
عبدالله الحموي الرومي البغدادي) ، (ت ٦٢٦هـ /
١٢٢٨م) .
معجم البلدان ، المجلدان الثاني والرابع ، بيروت ،
(١٢٧٥هـ / ١٩٥٦م) ، (١٢٧٦هـ / ١٩٥٧م) .
- ٣٢- اليعقوبي : (احمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف
باليقوبي) (ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م) .
البلدان ، الطبعة الثالثة ، الطبعة الحيدريسة ،
النجف الاشرف ، (١٩٥٧م) .
- ٣٣- يعقوب صروف وفارس نمر ، باب المسائل ، « معني خان »
مجلة القنطاط ، ج ١٠ ، مجلد ٢٦ السنة ١٩٠١م .

ب - المصادر الاجنبية

1. Cowper, H.S., Through Turkish Arabia, London, (1894).
2. Filmer, H., The Pageant of Persia, London, (1937).
3. Fraser, J., Narrative of Ajourney in to Khorasan, London (1825).

أسواق بغداد الكبرى

بقلم

عبدالله محمد خير الشوكري

بغداد - حي القاهرة

كثير من المواقع التي يمكن الاستمتاع بها على فهم خطط بغداد ، وجرفت معالم مهمة ، يذكر منها المرحوم مصطفى جواد واحمد سوسة في « دليل خارطة بغداد » جرف دجلة قبر عبدالله بن احمد بن حنبل ، ودير القباب ، وشريعة خضر الياس ومعالم اخرى عديدة (٢) .

ولولا بقاء القليل من المعالم القديمة الباقية التي صمدت في وجه الزمن لضاع الكثير وتعر الفهم وازداد التخليط والتخبط ، من هذه المعالم ، بقايا سور بغداد الشرقية وقرب العهد بنقشه ومراقده النكاطمين وابي حنيفة والمستنصرية والباب انوسطاني ومعالم اخرى .

واسهم العمران الحديث بنصيب كبير في تغطية آثار اخرى ، قد تعيننا على اعطاء صورة اوضح واكمل لبغداد المدورة او الشرقية ، فمنذ القديم والمراقبون ينقضون معالم لبنوا بأجرها معالم اخرى وهكذا ، كما ان المحلات الجديدة انما قامت في اماكن المحلات القديمة ، ولو قامت دوائر الآثار مثلا بتتقيب في مناطق العطيفية والمنطقة ومحلات اخرى من الكرخ الحالية او الرصافة فما اظنهما ستخيب في ايجاد بقايا اثرية تكشف عن غوامض بغداد .

كما دفع الجهل الكثير من العوام والجاهلين الى نسبة البعض من المواقع الى غير اصحابها ، كما ان لتبدل الحكومات وتعاقب الازمان اثر في تبدل اسماء الاماكن ونسب اسمائها الاولى بفعل الزمن ،

يلاقي الباحثون في خطط بغداد وتحديد مواقعها متاعب جمة ، اذ تضافرت عوامل عديدة على طمس معالمها القديمة وازالة اثارها .

حتى اذا جاء الباحثون المحدثون وحاولوا نفخ الفبار عن تلك المعالم وقموا في تشويش كبير ولبس شديد ، فقد زالت آثار بغداد ونم يبق من مصين لنا على تحديدها غير اوصاف متناثرة في المصادر العربية التاريخية وكتب البلدان ، ولا يخفى ان الناس لم يكونوا على درجة سواء في ابضاح افكارهم ولا في فهم افكار الآخرين ، وستلمس في ثنايا البحث الكثير من تشويش المحدثين في فهم نصوص القدامى الامر الذي اثر على تحديدهم مواقع بغداد .

وكان لاستعمال اللبن والطين في بناء بغداد المدورة اثره في زوال اثارها ، بالرغم من ان المعمار البغدادي استطاع ان يخرج بغداد بصورة توحى بالسمو والعظمة (١) .

فبغداد تقع بين دجلة والفرات وهما في ثورة وفيضان دائمين ، فكثيرا ما تغطي وتهدد ببغداد القريبة ، اما بغداد الشرقية فلم تسلم من عسف نهري دجلة وديالى ، ونظرة سريعة على كتاب الاستاذ احمد سوسة « فيضانات بغداد » تكفيها تصور حال بغداد وتهديد المياه لها منذ تاسيسها وحتى وقتنا الحاضر .

لقد اسهمت الفيضانات المتلاحقة في تدمير الكثير من معالمها الاثرية .

وغير دجلة مجراه خلال تاريخها ، فاقى على

وكان ذلك في سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة
على قول أكثر الروايات (٨) .

وان كانت ثمة روايات أخرى تشير إلى سنين
مختلفة لبنائها ، فذكرت بعضها أن بناءها كان في
سنة تسع وثلاثين ومائة للهجرة وروايات أخرى
حددت سنة أربعين ومائة للهجرة سنة بدء بنائها ،
ورواية أخرى تذكر سنة أربع وأربعين ومائة بداية
لبناء بغداد (٩) .

وتكاد تكون الرواية الأولى القائلة بأن بناءها
كان في سنة خمس وأربعين أقرب الروايات للصحة ،
اعتمادا على حادث مشهور وقع أول بناء بغداد ،
اذ يذكر المؤرخون أنه ما أن شرع المنصور ببناء
بغداد حتى قام محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن
ابن علي بن أبي طالب الملقب بـ « النفس الزكية »
بثورته بالحجاز سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ،
وذلك أيام اشتغال المنصور ببناء المدينة المدورة ،
وثار أخوه إبراهيم بالبصرة وتوجه يريد الكوفة ،
وكان أن اضطرت هاتان الثورتان المنصور إلى أن
يوقف العمل ببناء بغداد حتى فرغ من أمر
الثائرين (١٠) .

وكان المنصور قد هيا لبنا بغداد ما يحتاج
إليه من خشب وساج وغير ذلك ، وأتاه الخبسر
بخروج محمد النفس الزكية ، فاستخلف على إصلاح
ما أعد لذلك مولى له يقال له أسلم ، وبلغ أسلم أن
الغلبة لعسكر النفس الزكية على عسكر أبي جعفر ،
فأحرق ما كان خلفه عليه أبو جعفر من خشب وساج
خوفا من أن يؤخذ منه إذا غلب مولاة ، ولما لم
المنصور أسلم ، اعتذر إليه بخوفه من أن يظفر
بهم إبراهيم فيأخذه فلم يقل له المنصور شيئا (١١) .

وبحلول سنة ست وأربعين ومائة تقدم البناء
تقدما سمح للمنصور بنقل دواوينه وبيت المال إلى
بغداد (١٢) .

واستمر البناء سريعا ، يعمل فيه نحو من مائة
الف عامل حتى تم بناء المدينة المدورة في سنة تسع
وأربعين ومائة للهجرة (١٣) .

× × ×

لقد كان بناء بغداد حدثا تاريخيا وهندسيا
ضخما ، دل على تبدل طراز الحكم وتغير مفهوم
الخلافة السياسي الجديد تغيرا جوهريا عن مفهوم
الخلافة أيام الراشدين فتغير مفهوم المدينة تبعاً
لذلك لتصبح حصنا منيعا يذود عن الخليفة ثورات
الثائرين فأصبحت حصنا محاطا بسور ضخيم يمتد
لاكثر من أربعة أميال (١٤) .

من ذلك ما سجله الرحالة الأوروبيون في القرنين
السابع عشر والثامن عشر من أسماء تركية أطلقت
على أبواب سور بغداد الشرقية مثلا ، طغت على
اسمائها الأولى (١٥) .

كما أن الاسماء الحالية لواقع بغداد تجر
الكثير إلى التصور الخاطيء لاماكن الكرخ والرصافة ،
الذين لم يكونا غير محلتين من محال بغداد القديمة
العديدة بينما يطلق اسم الكرخ حاليا على الجانب
الغربي برمته كما يطلق اسم الرصافة على الجانب
الشرقي (١٦) .

ان احباء التراث المخطوط يزيل الكثير من
الابهام الذي يقع فيه الباحثون بسبب شحة المعلومات
التاريخية الخططية ، اذ ان الغالب على تواريخ المدن
ابتدائها بمقدمات خططية شاملة لتلك المدن تبينها
تراجم المشاهير من ابنائها .

ويتعذر الجزم بوجود مقدمة خططية في كتاب
تاريخ بغداد لاحمد بن أبي طاهر طيفور (المتوفى
سنة ٢٨٠ هـ) ، لانه لم يعثر على غير الجزء السادس
منه والذي يضم مادة تاريخية بحتة (١٧) .

وقد رجح الاستاذ صالح العلي وجود مقدمة
خططية له اعتمادا على قول الحميدي الذي يذكر ان
احمد بن محمد بن موسى الرازي « ألف في صفة
قرطبة وخططها ومنازل المعظماء بها كتابا على نحو
ما بدا به احمد بن أبي طاهر في اخبار بغداد وذكره
لمنازل الصحابة بها » (١٨) .

ونو تيسر لنا هذا الكتاب كاملا تكفانا الظن
ولقد انكسر مما يعين على فهم خطط بغداد
واخبارها .

ان احباء التراث المخطوط كليل بان يلتقي
الضوء على ما خفي وابهم على الباحثين ، فحين ترى
وصفا مفصلا لاسوار بغداد المدورة بجابهك وصف
موجز لاسوار أخرى لا يكاد يشفي القليل ويزيل
الابهام وذلك لشحة ما وصلنا عنها .

بغداد المدورة

وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة في اساس
مدينته الجديدة بغداد في احتفال كبير حضره القادة
والعلماء وذوو الرأي ، وقال :

« بسم الله والحمد لله ، وان الارض لله
يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال
للبناء « ابنوا على بركة الله . » وابتدأ البناء (١٩) .

« وجعل أبوابها أربعة على تدبير العساكر في الحروب » على قول الطبري (١٥) .

أو « شبه معسكرا رومانيا » على ما يقول كوك (١٦) .

ويذكر الطبري عن عيسى بن المنصور أنه وجد في خزائن أبيه في الكتب أنه [أي المنصور] أنفق على مدينة السلام وجامعها وقصر الذهب بهما والأسواق والتفصلا والخنادق وقبابها وأسوارها أربعة آلاف ألف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهما ، ومبلغها من الفلوس مائة ألف ألف فلس وثلاثة وعشرون ألف فلس ، وذلك أن الأستاذ من البنائين كان يعمل يومه بفيراظ فضة وانروزكاري بحبتين إلى ثلاث حبات (١٧) .

[وأغبراط ١٢/١ من الدرهم والحبة الواحدة ١/٢٤ من الدرهم] (١٨) .

كما يذكر ياقوت أن المنصور أنفق على بناء بغداد ثمانية عشر ألف ألف دينار ذهباً (١٩) .

ويرى المرحوم مصطفى جواد أن الرقم الذي ذكره ياقوت مبالغ فيه مبالغة ظاهرة (٢٠) .

ومثله لاستر في كتابه عن خطط بغداد [والذي اكملت ترجمته مع السيد شعلان جاسم] : فهو يرى أن هذا الرقم مبالغ فيه ، فهو يرى أن قيمة الدرهم ١/١٠ من الدينار ، ومهما تبينت هذه النسبة فهي لا تقل عن ١/١٤ من الدينار (٢١) .

والمبالغ كبيرة - على تفاوتها في الروايات المختلفة - وقد نبه الخطيب البغدادي على تفاوتها (٢٢) .

ولا يخفى أن الاتفاق على الأسوار يستلزم بحصة كبيرة من المبالغ المذكورة على بناء المدينة المدورة لضخامة الأسوار وتعددتها وارتفاعها وتحصينها .

x x x

لقد اختلف الخططيون في تحديد المكان الذي شيد عليه المنصور بغداد المدورة بالنسبة لبغداد الحالية ، لاندثار معالم الأولى وزوالها حتى أنه لم يبق من بقاياها حجارة واحدة ولا علامة يستدل بها لتحديد موقعها .

وقد فلد أكثر الخططيين المعاصرين المستشرق الكبير لسترنج في كتابه القيم « بغداد في عهد الخلافة العباسية » وتابعوا خطاه ، ووقعوا في أوهامه التي نبه عليها الأستاذان المرحوم مصطفى جواد والأستاذ أحمد سوسة أكثر من مرة (٢٣) .

ويستدل الأستاذان الفاضلان على وهم لسترنج بنص ينقلانه عن ابن العلقم في كتابه « الفخري » يقول فيه « ... ثم أرسل جماعة من الحكماء ذوي اللب والعقل وأمرهم بإرتياد موضع ، فاختروا له مدينته التي تسمى مدينة المنصور وهي بالجانب الغربي قريبة من مشهد موسى وأنجواد - عليهما السلام - فحضر إلى هناك ، واعتبر المكان ليلاً ونهاراً فاستطابه وبني به المدينة » (٢٤) .

فمن خلال هذا النص يريان أن مدينة المنصور كانت قريبة من مقابر قريش التي دفن فيها موسى الكاظم ومحمد الجواد ، لا كما يجمل لسترنج حدها قريباً من محطة الرملة في العصر العباسي [الجعفر الحالية]

وقد جره هذا الوهم إلى الوقوع في أوهام أخرى ترتبت على اختلاله بتعيين المسافات والأبعاد (٢٥)

ثم أن مدينة المنصور التي على الجانب الغربي تقابل الرصافة الواقعة شرقي دجلة ، أن الرصافة مجاورة لمحلة أبي حنيفة النعمان بن ثابت التي بنيت حول مقبرته : كما يقول ياقوت (٢٦) ، ومقبرة أبي حنيفة لما نزل باقية ، فبتحديد مكان مقبرة أبي حنيفة نستطيع تحديد موقع المدينة المدورة التي تبدو قريبة من مقابر قريش [الكاظمية الحالية] (٢٧)

كما أن يد العمران امتدت على موقعها لتزيل الكثير من معالمها ، فأصبحت أكثر مواقعها مزارع وبساتين منذ أزمان بعيدة .

وأخيراً فإن الناظر إلى خارطة مجرى دجلة التاريخية وتغيره بين العصر العباسي أيام بناء بغداد وبين أيامنا هذه يدرك أن مجراه ضفى على قسم من المدينة المدورة فأصبحت في واديه .

ويرى الأستاذان مصطفى جواد وأحمد سوسة أن الأستاذ هرزفلد قد قارب الصواب في تحديده موقع مدينة السلام (٢٨) .

ويريان أنها تقع بين الكاظمية من الشمال وبرايا والكرخ من الجنوب الغربي ودجلة من الشرق وقرية سونابا [موضع مسجد المنطقة الحالي] ونهر الصراة من الجنوب (٢٩) .

ويرى الأستاذ سوسة أنها كانت تقع بين الكاظمية وقرية الكرخ من الجنوب الغربي والشيخ الجنيد [مقبرة الشونيزي] والشيخ معروف الكرخي من الجنوب الشرقي وقرية سونابا [المنطقة الحالية] من الشرق (٣٠) .

x x x

صبروا في الساف مائة الف لبنة واربعين الف لبنة الى اعلاه (٣٩) .

ويؤيد لاسنر راي هرزفلد وكرسويل في صحة الأرقام التي ذكرها الخطيب بشأن عدد اللبن المستعمل في البناء ، ولما كان الميل الواحد أربعة آلاف ذراع اسود وان محيط السور أربعة أميال اي ستة عشر الف ذراع ، فبرى هرزفلد ان سمك الأسوار عند القاعدة يساوي عشرة أذرع ، وبهذا يكون عدد اللبن المستخدم في بنائها مائة وستين الف قطعة يضاف اليها الفين للابراج .

اما المائه والخمسون الف قطعة المستعملة في بناء الثلث الثاني [انقسم الاوسط] من السور فتكون سورا سمكة تسعة أذرع وربع الذراع يضاف اليها الفا للابراج .

وكان سمك الثلث الاعلى من السور ثمانية أذرع ونصف الذراع ، يضاف اليها أربعة آلاف قطعة في الاعلى للابراج والشرفات .

ويضيف لاسنر ان هذه الأرقام تبدو مقبولة ظاهريا على الرغم من كونها لا تتفق وما تذكره المصادر العربية (٤٠) .

وذكر ان اللبن المستعمل في بناء المدينة المدورة كان بحجمين كبير وصغير . فالكبيرة مكعبة الحجم ، طول ضلعها ذراع في ذراع ، [اي حوالي نصف متر في نصف متر] (٤١) .

وتزن اواحده منها مائتي رطل (٤٢)

وقدر آخرون وزن اللبنة الواحدة منها بزهة مائة وسبعة عشر كيلو غراما (٤٣) .

وقد ذكر الخطيب انه هدمت قطعة من السور مما يلي باب المحول ، فوجدنا فيها لبنة مكتوب عليها بمغرة [صبغة حمراء] وزنها مائة وسبعة عشر رطلا . قال فوزناها فوجدنا كذلك (٤٤) .

اما حجم اللبنة الصغيرة فيقدر نصف الكبيرة ، اي ذراع في نصف ذراع ووزنها مائة رطل على ما ذكر اليعقوبي (٤٥) .

وقد ذكر المؤرخون ان ابا حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب المشهور كان يتولى القيام بضرب اللبن وعده ، حتى فرغ من استتمام بناء حائط بغداد مما يلي الخندق ، وكان يعد اللبن بانقصب ، وهو اول من فعل ذلك فاستفاده الناس منه .

وكان ابو حنيفة قد رفض قبل ذلك طلب

أحاط ابو جعفر المنصور مدينة بغداد المدورة بسور يحميها وجعل لها أربعة مداخل وحفر حولها خندقا يحيط بالسور ، فقد ذكر اليعقوبي ان المسافة بين الباب والاخرى من خارج الخندق خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء (٣١) ، فيكون طول السور المحيط بها عشرين الف ذراع ، وقد اختلف في تحديد طول الذراع السوداء ، فهي (١٩٣ / ٣) مليمتر ، اي قرابة الخمسين سنتمرا (٣٢) ، فيكون طول السور قرابة عشرة كيلومترات وبالفضبسط « ١٨٦٦ مترا » .

وبرى آخر ان طول الذراع يساوي نحو من خمسة وستين سنتمرا (٣٣) ، وحسب هذا التقدير يكون طول السور

$$75 \times 20000 = 1200000 \text{ سم}$$

اي ثلاثة عشر كيلومترا .

ويقدر هنز طول الذراع السوداء ب « ٥٤ ر. ٤ » سنتمرا (٣٤) .

فيكون محيط بغداد :

$$54.4 \times 20000 = 1088000 \text{ مترا .}$$

والتقدير الاول اقرب للصحة وادق .

ويروى الخطيب عن رباح البناء - وكان ممن تولى بناء سور مدينة المنصور - انه كان بين كل باب من ابواب المدينة واباب والاخر ميل ، وبهذا يكون طول السور أربعة أميال (٣٥) ، والميل أربعة آلاف ذراع على ما يقول ياقوت في معجم البلدان .

وفي رواية اخرى للخطيب يقول : « ان المنصور جعل الطول من باب خراسان الى باب الكوفة ثمانمائة ذراع ومن باب الشام الى باب البصرة ستمائة ذراع » (٣٦) .

فالابواب بحسب هذه الرواية متناظرة لا متعامدة في قطريها (٣٧) .

ويشك لاسنر في كتابه عن خطط بغداد بصحة هذه الرواية ، لان ذلك يعني ان المدينة غير مدورة على ما يقول (٣٨) .

[ينظر شكل ١]

x x x

وبنيت الأسوار باللبن ، اذ يحوي الساف الواحد من أسواف السور مائة ألف واثنين وستين الف لبنة من اللبن الجعفري ، حتى اذا جاوز البناؤون ثلث السور لقطوه فصيروه في الساف مائة الف لبنة وخمسين الف لبنة ، ولما جاوزوا الثلثين

المنصور بتعيينه قاضيا على المدينة ، لكن المنصور جعله يقبل بعمله في بناء بغداد (٤٦) .

واستعملت جوائز القصب مكان الخشب في بناء السور (٤٧) [والجوائز جمع جائز ، والجائز من البيت الخشبة التي يوضع عليها اطراف الخشب في سقف البيت . لسان العرب] وذكر ياقوت ان المنصور امر ان يجعل في البناء جرز القصب مكان الخشب [والجرزه الحزمة . لسان العرب] .

وقد اعتاد العرب استعمال روابط من خشب او حديد تشد اسواف البناء الى بعضها (٤٨) .

x x x

وحفر ابو جعفر المنصور خندقا عميقا حول اسوار المدينة المدورة من خارجها ، واجرى فيه الماء من قناة تستمد مياهها من نهر كرخايا اندي يتفرع من الفرات .

ولحماية السور من تأثير مياه الخندق المحيط به شيد مسناة محكمة عالية من جهة الاسوار مبنية بالاجر والصاروج (٤٩)

[والصاروج : النورة واخلاطها مما تصرج به الاحواض والحمامات . المعرب للجواليقي] .

وذكر ابن رسته ان حافتي الخندق بنيتا بالجص والاجر (٥٠) .

واختلفت الروايات بشأن عرض الخندق ، فعرضه عشرون ذراعا في رواية واثنان عشر ذراعا في اخرى (٥١) .

بينما يذكر ابن الفقيه ان عرضه كان اربعين ذراعا (٥٢) .

ويشك لاسنر في صحة هذا الرقم ، اذ يرى انه لو كان عرضه اربعين ذراعا لوجب ان يربط بشاطئ دجلة المقابل له وان تجعل عنده فرسة لوصول السفن اليه (٥٣) .

ولا بد ان يدخل المدينة من عبور الخندق على قنطرة تصل باب السور الخارجية بخارج المدينة .

[ينظر شكل ٢]

x x x

وبعد الخندق مباشرة يأتي السور الاول الخارجي ، ويعرف بسور الفصيل ، نسبة الى الفصيل الذي يحيط به من الداخل (٥٤) .

وهو اقل ارتفاعا وسمكا من السور الثاني الذي يعرف بالسور الاعظم .

قال انطربري : « وامر [المنصور] ان يجعل عرضه من اسفله خمسين ذراعا ، وقدر اعلاه عشرين ذراعا . » (٥٥)

ويقدر كرزويل ارتفاعه باربعة وعشرين ذراعا على الاقل (٥٦) .

كما يذكر هرزفند ان نسبة ارتفاع السورين الاول [الخارجي] الى الثاني [السور الاعظم] هي اربعة الى خمسة ، ويفترض ان ارتفاع السور الخارجي ثمانية وعشرون ذراعا وسمكه ثمانية اذرع (٥٧) .

بينما يرى الاستاذان جواد وسوسة ان احد السورين كان اعلى من الآخر بما يقرب من النصف ، وان ارتفاع السور الاعظم مع الشرفات المدورة ستون ذراعا بالذراع السوداء ، أي ثلاثون مترا على وجه التقريب (٥٨) .

ولم تشر المصادر التي بين ايدينا صراحة الى انه كان لهذا السور دعائم مدورة تدعّمه مما يلي الخندق ، وان كان هرزفند يرجح وجود دعائم له تزيد من قوته وتدعّمه كذلك التي في اسوار سامراء ، ولا يشترط فيها ان تستخدم لغاية حربية (٥٩) .

[ينظر شكل ٣]

x x x

وفي السور اربعة ابواب بحسب المناطق والبلدان التي ينفذ منها اليها ، وكانت متقابلة ، فسمي الباب الشمالي الغربي باب الشام ، والباب الجنوبي باب الكوفة ، والباب الجنوبي الشرقي باب البصرة والباب الشمالي الشرقي باب خراسان (٦٠) .

والباب الاخير هذا كان يسمى ايضا « باب الدولة » او « باب الاقبال » لاقبال الدولة العباسية من خراسان (٦١) .

وكان كل باب قد خصصت لاهل مصر من الامصار ، قال الخطيب : « اذا جاء احد من الحجاز دخل من باب الكوفة ، واذا جاء احد من المغرب دخل من باب الشام ، واذا جاء احد من فارس والاهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة ، واذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان » (٦٢) .

كما ذكر الخطيب ان « للمدينة اربعة ابواب ، شرقي وغربي وقبلي وشمالي ، ولكل منها بايين ، بابا دون باب بينهما دهليز ورجبة . » (٦٣) ويفهم

من قوله ان ابواب السور الخارج [وهو السور الاول] كانت ثمانية ابواب .

ويغني كل باب من ابواب السور الخارجي الى دهليز طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا .

قال الخطيب : « فاذا دخل الداخل من باب خراسان الاول عطف على يساره في دهليز ارج معقود بالاجر والجص ، عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون ذراعا ، المدخل اليه في عرضه والمخرج منه مسن طوله » (٦٤)

وتختلف مساحة الدهليز في رواية اليعقوبي التي تقول ان المنصور : « جعل لأبواب المدينة أربعة دهليز عظاما أزاجا ، طول كل دهليز ثمانون ذراعا ، كلها معقود بالاجر والجص ، فاذا دخل من الدهليز اندي على الفصيل وافى رجة مفروشة بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم . » (٦٥)

وينضح من وصف الخطيب ابواب السور الخارجي ان الباب الخارجي المطلة على الخندق والسفاد ليست على استقامة قطر المدينة المدورة المار بمركزها والمخترق ابواب السور الاعظم والابواب المقضية الى الرحبتين والدهليزين ، بل لابد للمار من الباب الخارجي من ان يستدير نحو اليسار فيعرض جانبه الايمن لسهام ورماح المدافعين عن المدينة ، لان المقاتل انما يحمل ترسه بيده اليسرى ويحمل سيفه او رمحه بيده اليمنى (٦٦) .

[ينظر شكل ٤]

وتجلى في هذا التصميم ميزة معمارية خاصة تحقق غاية حربية ، اذ يقول الطبري « وجعل [اي المنصور] ابوابها أربعة على تدبير العساكر في الحروب » ، وتلك الميزة البغدادية تعرف بـ « المحور المنكسر » لداخل الابواب ، وهو تقليد بغدادى اصيل نقله الصليبيون فيما نقلوه عن الشرق ونقلوه في تصميم قلاعهم على ما يذكر رايس (٦٧) .

ومن الابواب التي طبقت عليها هذه القاعدة الباب الوسطاني ، من ابواب سور بغداد الشرقية ، الا ان الداخل ينحج يمينا لا يسارا كما في سور المدينة المدورة .

[ينظر شكل ٥]

ومن هذه الخاصية اشتق اسم الزوراء ، قال ابن الفقيه وياقوت بعده ان بغداد « انما سميت بالزوراء لان المنصور حين عمرها جعل الابواب الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة ، اي ليست على سمتها . » (٦٨)

والمسافة بين الباب والاخرى خمسة آلاف ذراع على ما ذكر اليعقوبي (٦٩) ، ولعل القياس مأخوذ من الجهة الخارجية كما يرى لسترنج ، وهي ميل على رواية الخطيب (٧٠) وياقوت (٧١) [والميل أربعة آلاف ذراع] (٧٢)

x x x

لما ابواب السور الخارجي ، فقد صير المنصور على باب خراسان الخارج [التي على السور الخارجي] بابا جيء به من الشام من عمل انقراغنة ، وصير على باب الكوفة بابا جيء به من الكوفة كان عمله خالد بن عبدالله انقري وامر باتخاذ باب لباب الشام فعمل ببغداد وهو اضعف الابواب كلها (٧٣) .

ولم يذكر الطبري الباب الرابعة التي جعلها المنصور على باب البصرة ولا الجهة التي جيء بها منها (٧٤) .

وعلى كل باب من ابواب السور الخارجي قبة ، وبين الابواب والاخرى من ابوابه ثمانية وعشرون برجا عدا الابراج التي بين باب البصرة وباب الكوفة فانها تسعة وعشرون برجا (٧٥)

ويذكر جواد وسوسة ان هذه الابراج كانت اسوار انداخلي [الاعظم] (٧٦) .

وليست ثمة اشارة الى ان السور الخارجي كان محصنا بالابراج ، وان كان هرزفلك يحتمل وجود ركائز صغيرة مستديرة فيه كذلك التي في اسوار سامراء ، تؤدي غاية معمارية لا غاية عسكرية (٧٧) .

وتقدر المسافة بين البرج والاخر بستين ياردة استنادا لمعرفتنا بالمسافة بين الباب والاخرى ولعدد الابراج بينهما (٧٨) .

كما كان ارتفاع كل برج خمسة اذرع فوق السور (٧٩) .

وبعد السور الاول ارض خالية تدور بين السورين الاول والثاني اعدت لحركات الدفاع تسمى « الفصيل » وكأنها تفصل بين السور والعمران (٨٠) .

وينقسم هذا الفصيل الى اقسام اربعة متناظرة متساوية وصفها الخطيب بانها « على نعت واحد وحكاية واحدة » (٨١) .

وقد ذكر اليعقوبي ان عرضه مائة ذراع بالذراع السوداء (٨٢) ، بينما ذكر الخطيب ان عرضه ستون ذراعا (٨٣) .

وامر المنصور ان لا يسكن تحت السور الطويل
احد ولا يبني منزلا (٨٤) .

بدخل الى الفصلاں الاربعة من رحاب اربعة
بين السورين الخارجى والاعظم ، وهذه الرحاب
مستطيلة طولها ستون ذراعا [اي بقدر المسافة بين
السورين ، اي بعرض الفصيل ، كما يرى الخطيب]
وعرضها اربعون ذراعا . ويتقضي ان يكون طولها مائة
ذراع [لانها بقدر عرض الفصيل] كما ذكر
اليعقوبى .

ونكل منها في جانبها حائطان بفصلاں الرحبة
عن الفصيل . وعلى كل حائط باب يؤدي الى ربع
الفصيل : فان باب اليمين يؤدي الى الفصيل اليمين
بينما يؤدي الباب الايسر الى الفصيل الايسر (٨٥) .
والرحاب متشابهة متناظرة شأنها شأن الابواب
والفصلاں (٨٦) .

اما السور الثاني فهو السور الاعظم الذي
يسميه الخطيب بـ « السور الداخل » : وهو اعلى
من السور الاول واضخم (٨٧) .

وقد ذكر اليعقوبى ان عرض اساسه كان
تسعين ذراعا بالذراع السوداء ، ثم ينحط حتى
يحير في اعلاه خمسة وعشرين ذراعا (٨٨) وتقال
الخطيب « وعرض السور من اسفله نحو عشرين
ذراعا » (٨٩) .

اما ارتفاعه فقد كان ستين ذراعا مع الشرفات
على رواية اليعقوبى (٩٠) ، وانه خمسة وثلاثون
ذراعا وعليه ابرجة كما يقول الخطيب (٩١)
وبالمقاييس المعاصرة حدده لسترنج فذكر ان ارتفاعه
كان تسعين قدما وان عرضه في اعلاه اثنتا عشرة
باردة ونصف الياردة ، وعليه ابراج كبيرة وصغيرة ،
وانه كان سورا متينا كالتراس مبنيا بالاجر (٩٢) .

لقد كان هذا السور اضخم من السور الاول
[الخارجى] واشد احكاما ، اذ ذكر المؤرخون ان
« للفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة » (٩٣)

و « ... كل برج منها فوق السور خمسة
اذرع ، وعلى السور شرف » (٩٤) وكان لسترنج قد
ذكر ان على السور ابراجا كبيرة وصغيرة وان ارتفاع
الصغيرة سبعة اقدام ونصف القدم اعلى من مستوى
السور (٩٥) .

قال الخطيب « وقد جعل المنصور بين كل
باين ثمانية وعشرين برجا الا بين باب البصرة وباب
الكوفة فانه كان يزيد واحدا » (٩٦)

وبعملية حسابية بسيطة نستطيع معرفة

لمسافة بين برج وآخر ، فالمسافة بين كل باب من
ابواب السور والباب التي تليها اربعة الاف ذراع ،
[ميل كما ذكر الخطيب] وعرض البوابة اربعون
ذراعا ، فالمسافة بين الباب والاخرى من السور هي
(٣٩٦٠ ذراعا) ، وبقسمتها على عدد الابراج
وهو (٢٩) يكون الناتج (١٣٦٥ ذراعا) اي حوالي
(٦٨١ مترا) وهي المسافة بين البرج والاخر (٩٧) .

وبقدر لسترنج المسافة بين كل برج والذي
يليه بسنين ياردة بناء على طول السور وعدد الابراج
التي فيه (٩٨) .

ولم تذكر المصادر العربية هيئة تلك الابراج
ولا وصفها ، الا ان كرزويل يرى انها من غير شك
كانت على هيئة نصف مستديرة وانها تشبه تلك
التي كانت في عرقة واذراج قصور وجوامع واسوار
سامراء (٩٩) .

وبقدر هرزوند ارتفاع كل برج عن الارض
بعماله وروند واربعين ذراعا وان هذه الابراج لم
تكن مجرد مساند ودعامات بل هي ابراج ذات
تجاويف بارزة وحجرات يكمن فيها الرماة ، وان هذه
الابراج يفترض انها كانت مستديرة كما كان شأنها
يومذاك (١٠٠) .

لقد منع المنصور الناس من السكن تحته ومن
بناء منزل يلاصقه ، اما من الخارج فقد كان يحيط
به الفصيل الاول (١٠١) .

ومن الداخل كان يحيط بالسور الاعظم شارع
يفضي الى الابواب الاربعة ، وكان هذا الشارع -
وعرضه خمسة وعشرون ذراعا - يخرج من الرحبة
الاشائية ويدور تحت السور ومنه تبدأ مداخل
السكك (١٠٢) .

وبدخل الى السور الاعظم من دهبز ارج
معقود بالاجر والجص طوله عشرون ذراعا وعرضه
اثنا عشر ذراعا (١٠٣) . عليه بابا حديد جليلان (١٠٤)

قال اليعقوبى : وكان فوق البوابة الرئيسية
في السور الاعظم « قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
مجانس ومرتفعات يجلس فيها فيشرف على كل ما
يعمل به » (١٠٥) .

و « يصعد الى هذه القباب على عقود مبنية
بعضها بالجص والاجر وبعضها بالبن المطام قد
عملت ازاجا ، بعضها اعلى من بعض ، فداخل الازاج
للمرابطة والحرس ، وظهرها عليها المصعد الذى
القباب التي على الابواب على دراب ، وعلى المصعد
ابواب تفتح » (١٠٦)

وذكر الخطيب ان على كل ارج من ازاج ابواب

السور مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها ، وعلى هذا المجلس قبة عظيمة في السماء سسمكها خمسون ذراعاً مزخرفة (١٠٧) .

تقوم هذه القبة على اعمدة من الساج ، ويرجع انها كانت مغطاة بالقرميد ، وارتفاعها من الداخل خمسة وسبعون قدماً ، أما داخلها فقد كان مزخرفاً بنقوش ذهبية (١٠٨) وكانت القبة خضراء (١٠٩) .

وكانت هذه القبة مجلس المنصور اذا احب النظر الى الماء ، والى من يقبل من ناحية خراسان ، وقبة على باب الشام كانت مجلس المنصور اذا احب النظر الى الارياض وما والاها ، وقبة على باب البصرة كانت مجلسه اذا احب النظر الى الكرخ ومن اقبل من تلك الناحية ، وقبة على باب الكوفة كانت مجلسه اذا احب النظر الى الباتين والضياح (١١٠)

وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لا يشبه نظائره (١١١)

[ينظر شكل - ٦ -]

ابواب مدينة المنصور

وعلى كل باب من ابواب المدينة باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منه فردان (١١٢) .

وهذه الابواب ضخمة يقول انيعتوبي « لا يفلق الباب الواحد منها ولا يفتحها الا جماعة رجال » (١١٣)

لقد جاء بابوا سور بغداد من اماكن شتى نصبها على السور وجعل احدها على باب القصر . قال الطبري : « وذكر ان ابا جعفر احتاج الى ابواب للمدينة ، فزعم ابو عبد الرحمن الهماني ان سليمان ابن داود كان بنى مدينة بالقرب من موضع بناء الحجاج واسطاً يقال لها الزندورد ، واتخذت له الشياطين خمسة ابواب من حديد لا يمكن الناس اليوم عمل مثلها فنصبها عليها ، فلم تزل عليها الى ان بنى الحجاج واسطاً ، وخربت تلك المدينة ، فنقل الحجاج ابوابها فصبها على مدينته واسطاً ، فلما بنى ابو جعفر المدينة المدورة اخذ تلك الابواب فنصبها على المدينة ، فهي عليها الى اليوم » (١١٤) .

بينما يذكر الاستاذان جواد وسوسة ان المنصور جلب لآبواب مدينته رتاجات لا ابواباً ، لا يفلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحها الا جماعة رجال لضخامته ... فرتاج باب خراسان الخارجى جاء به المنصور من انشام من عمل انراغنة ، وجاء برتاج باب الكوفة من الكوفة وكان قد عمله خالد بن عبدالله القسري والى الكوفة ايسام

هشام بن عبد الملك ، وكان المنصور قد عمل رتاجاً لباب الشام وكان اضعف الابواب ، ويظهر انه وضع في باب البصرة رتاجاً من اربعة خمسة امر بجلبها من واسط كانت على ابواب الحجاج ، وكان الحجاج وجدها على مدينة زندورد التي كانت بازاء واسط (١١٥) .

قال الطبري : « وللمدينة ثمانية ابواب ، اربعة داخله واربعة خارجه ، فصار على الداخلة اربعة من هذه الخمسة [التي نقلها من واسط كما ذكرنا] ، وعلى باب القصر الخارج الخامس منها » (١١٦)

وكانت هذه الابواب مرتفعة يدخل الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يميل انعم ولا يشي الرمح (١١٧) .

ولم تتوفر لدينا ارقام تعين حجم هذه الابواب ، الا ان هرزفالد يذكر ان طول الرمح الذي يستعمله العربي في العصر الحديث هو عشرة اذرع ولذا فهو يفترض ان ارتفاع قوس الباب كان عشرة اذرع ، وكأنه لم يحسب حساب الحصان ، لقد كانت نسبة طول ابواب سامراء الى عرضها هي نسبة ثلاثة الى اثنين ، وعليه يرى لاسنر ان عرض ابواب بغداد ستة اذرع وثلاثا الذراع (١١٨) .

لقد كان نقل الابواب من مدينة لاخرى من الاشياء المتعارف عليها في تلك الازمان (١١٩)

ويظن لاسنر ان ذلك كان عملاً رمزياً يعبر عن سلطة الحكام والخلفاء (١٢٠) .

وقد ظلت هذه الابواب طويلاً حتى ذكر الخطيب انه « في سنة تسع وثلاثمائة وقد كسرت العامة الجوس بمدينة المنصور ، فانلت من كان فيها ، وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية ، ففلقت وتتبع اصحاب الشرط من افلت من الجوس فاخذوا جميعهم حتى لم يفلت منهم احد » (١٢١)

وبدخل من الباب الكبير [الذي في السور الكبير] الى دهليز ارج معقود بالجص والاجر ، طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنا عشر ذراعاً (١٢٢) .

ويفضي الدهليز الى رحبة مفروشة بالصخر (١٢٣) « مربعة ، عشرون ذراعاً في مثلها ، على يمين الداخل اليها طريق وعلى يساره طريق يؤدي اليمين الى باب الشام واليسر الى باب البصرة ، والرحبة كالرحبة التي وصفنا [في الحديث عن السور الخارجى] ثم يدور هذا الفصيل على سائر الابواب بهذه الصورة ، وتشرع في هذا الفصيل ابواب

السكك ، وعرض كل فصيل من هذه الفصائل من السور الى افواه السكك خمسة وعشرون ذراعاً (١٢٤) .
وامر المنصور ان يبنى في الفصيل الثاني مع السور النازل لانه احصن للسور (١٢٥) .

قال الخطيب : ثم يدخل من الرحبة الثانية التي وصفنا الى الطاقات ، وهي ثلاثة وخمسون طاقاً سوى طاق ، المدخل اليها من هذه الرحبة ، وعليه باب ساج كبير فردين ، وعرض الطاقات خمسة عشر ذراعاً ، وطولها من اولها الى الرحبة التي بين هذه الطاقات والطاقات الصغرى مائتا ذراعاً ، وفي جنبتي الطاقات بين كل طاقين منها غرف كانت للمرابطة . . . ثم يخرج من الطاقات الى رحبة مربعة عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً ، فمن يمينك طريق يؤدي الى نظيرتها من باب الشام ، ثم تدور الى نظيرتها من باب الكوفة ثم الى نظيرتها من باب البصرة (١٢٦) .

x x x

وبنى الخليفة سجنه الكبير المعروف بـ « المطبق » في الربع الجنوبي للفصيل الاول الذي بين باب البصرة وطريق باب الكوفة بين السورين (١٢٧) .
وقد سميت السكة التي يقع فيها هذا السجن بـ « سكة المطبق » .

لقد ذكر لسترنج ان المنصور شيد سجنه الكبير قبالة باب الشام ، وكان يعرف بسجن باب الشام ، وان العامة كسرتة في فتنة سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة أيام العامل سليمان الطاهري ، فنتبعهم اصحاب الشرط حتى امسكهم جميعاً (١٢٨) ، وهذا السجن غير سجن المطبق كما نرى من ذكر مكانه .

وكان المطبق متين البناء قوي الاسس بناء المنصور تحت الارض فكان شديد الظلام ، وقد زج فيه الكثير من مناوئيه ، وكذلك فعل من جاء بعده من الخلفاء ، وقد ظل هذا السجن قائماً الى ما بعد عهد الخليفة المقتدر بالله (١٢٩) .

x x x

ولم يعط التخطيط الدائري المدينة المدورة اسباب النمو ، فلم تستوعب السكان ، مما اضطر الى اهمال التخطيط الدائري تدريجياً ، فامتد البناء سريعاً خارج الاسوار وفي فترة قصيرة عبر الى الجانب الشرقي (١٣٠) .

ورأينا ان المنصور اخرج الاسواق خارج المدينة

المدورة - وعلى ايامه - بناء على نصيحة احد مقربيه ، اذ رأى في بقائها داخل المدينة المدورة مصدر خطر ، اذ يدخلها الجواسيس وانغرياء وينقلون اسراره بحجة البيع والتجارة (١٣١) ، كما انه بنى في سنة سبع وخمسين مائة للهجرة قصراً جديداً خارج اسوار بغداد المدورة ، على نهر دجلة من جهة باب البصرة سماه قصر الخلد (١٣٢) .

ولم يتوقف العمران ببغداد ، حتى لقد روى ابن الفقيه عن ابن يزيد الحرفي ومحمد بن نصر الدلائين وهما شيخان مستوران قد أسنا « انما لتركض على حميرنا في حواشي بغداد واوسطها منذ سبعين سنة لدلالة ما يباع من المنازل والمقارن وسائر انعقد والمستغلات في الليل والنهار والغدو والاصال ، وانا لنمر في ايامنا بل في الزمان جميعاً يبقاع لا عهد لنا بها ، ودور لا معرفة لنا بشيء منها ، وبمسالك لا تحيط بها اوهامنا ولا سلكناهما قط » (١٣٣) .

وهذا النص يشير صراحة الى استمرار العمارة واتصالها ، وقد اشار اليمقوبي الى ان القطائع والشوارع والسكك قد تغيرت على ما رسمت ايام المنصور ووقت ابتدائها . . . ولم تخرب بغداد (١٣٤) .

وعلى الرغم من سعة بغداد وبناء الناس خارج اسوار المدينة المدورة الا ان المصادر لم تذكر لنا شيئاً عن سور يحيط بالعمران الجديد ، وان كنا نلمس في اثناء النصوص ما يدل على وجود سور وذكر من خلال ذكر بعض الابواب والتي يفترض ان تبنى على سور .

لقد بنى اكثر سور مدينة المنصور بالبين وتعاقبت عليه احداث شتى من فيضانات وهدم اسهمت في خرابه ، من تلك الاحداث الفيضان الذي وقع في سنة ثلاثين وثلاثمائة والذي تسبب بهدم طاقات باب الكوفة وغرق بغداد الغربية ودخول الماء مدينة المنصور [المدورة] ، فقد ذكر الخطيب بان البشق انبثق من قبين ودخل الماء الاسود المدينة وهدم طاقات باب الكوفة وبيوتاً كثيرة حتى اضطر البعض الى ترك بيوتهم الى اماكن آمن ، ثم اصلاح السور (١٣٥) .

ومر بنا في حوادث الحرب بين الاخوين الامين والمأمون أن جيش طاهر بن الحسين حاصر بغداد الغربية ، ورأى طاهر اخيراً وجوب ضرب المدينة المدورة التي دافع عنها رجال الامين بقوة وجلد بعد ان التجأ اليها الامين (١٣٦) .

فاصبحت اسوار المدينة المدورة باضرار جسيمة

نتيجة رمي المنجنيق عليها حيث ان طاهرا احاط بها ... ونصب المجانيق حول السور .

ووصفها المقدسي البشاري في الربع الاخير من القرن الرابع للهجرة فقال : « ... اما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب ، اعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي » (١٢٧) .

عنى ان ابواب السور الكبير الاربعة ظلت باقية حتى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، وكذلك الدهاليز (١٢٨) .

وانه في سنة سبع وثلاثمائة كسرت العامة الجبوس بمدينة المنصور فافلت من كان فيها ، وكانت الابواب الحديد للمدينة باقية فغلقت وتبع اصحاب الشرط من افلت من الجبوس فاخذوا جميعا حتى لم يفت منهم احد (١٢٩) .

الرصافة

قدم المهدي مع عسكره من المحمدية بالسري الى بغداد في سنة احدى وخمسين ومائة ، فامر به ابوه المنصور ان يعسكر بالجانب الشرقي من بغداد ويبني له ولاصحابه دورا ، فبنى له سورا وحفر خندقا وغرس بستانا وسماها « عسكر المهدي » اولاً ، الا ان اسم الرصافة غلب عليها (١٣٠) .

وكان جامع الرصافة قد اسس قبل ذلك اثنا عشر اي في سنة ثلاث واربعين ومائة ، ولم يقم العمران حوله حتى عودة المهدي (١٣١) .

لقد كان الجامع اول بناء شيد في ذلك الجانب ، وكان الفراغ من بناء الرصافة وبناء جامعها في سنة تسع وخمسين ومائة للهجرة وهي السنة الثانية من خلافة المهدي (١٣٢) .

تقع الرصافة مقابل المدينة المدورة على الجانب الشرقي لدجلة ويربطها بالمدينة المدورة جسر .

وسرعان ما ساوت الرصافة بغداد الشرقية في المساحة (١٣٣) .

ولم تسعفنا المصادر التي بين ايدينا بما يعين على وصف سور الرصافة .

x x x

وينتقل المعتصم الى سامراء في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، فنصبح عاصمة الخلافة العباسية طيلة مقامه بها مدة حياته وايام الواصل والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا تقضت اسواقها ، لانهم لم

يجدوا منها عوضا ، حتى لقد اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسامراء (١٣٤) .

وتعود الحياة اليها من جديد فنصبح مسرحا صاخبا لصراع مرير على الخلافة بين المعتز والمستعين .

اسوار المستعين

ففي سنة مائتين واحدى وخمسين للهجرة بايع انجند الاتراك بسامراء المعتز بانه خليفه ، ففر المستعين مع جماعة من رجاله الى بغداد ، وكانت موافاته بغداد يوم الاربعاء ثلاث ساعات مضين من النهار لاربعة ايام - وقيل لخمسة ايام - خلون من المحرم من هذه السنة (١٣٥) .

ونزل في دار محمد بن عبدالله بن طاهر والي بغداد يومذاك ، وكان عوناً للمستعين في حربه ضد الاتراك الذين تتبعوه واصحابه فحاصروا بغداد واستمر حصارهم سنة تقريبا ، وبالضبط حتى الرابع من محرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين (١٣٦) .

ولاحماية المدينة ينشيء المستعين سورين حول المدينة للدفاع عنها ، يحيط الاول بالجانب الشرقي ويضم محلات الشماسية والرصافة والمخرم من الشمال الى الجنوب ، ويبدأ من دجلة قبالة قصر حميد بن عبدالحميد ويمر بسوق الثلاثاء حتى يصل الى باب ابرز ثم ينحرف الى الشمال الغربي ويسير بمحاذاة دجلة من اشرق فيجتاز في طريقه باب سوق الدواب وباب خراسان ثم بمحاذاة نهر السور فيصل الى باب البردان ومن ثم يميل الى الغرب فيجتاز باب الشماسية وينتهي الى ضفة دجلة قبالة فرضة [مرقا] الخندق الطاهري حيث يبدأ سور الجانب الغربي من المدينة (١٣٧) .

ويحيط السور الثاني بالمحلات المهمة حول مدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، ويبتدي من ضفة دجلة عند فرضة الخندق الطاهري متتبعا الجانب الايمن حتى باب الانبار ، ومن ثم ينحرف الى الجنوب الشرقي متتبعا ضفة نهر عيسى ثم يلتقي ثانية بدجلة (١٣٨) .

ويفهم من حدود السورين الشرقي والغربي اللذين ذكرهما الاستاذان جواد وسوسة ان الجانبين المحصنين بالاسوار كانا متقابلين .

ان المصادر العربية القديمة لم تذكر حدود السورين بوضوح الا ان الاستاذ لسترنج استطاع

معرفة حدود السورين من تقصيه اخبار الحصار وهجمات الاتراك وتحصينات المستمين (١٤٩) .

[ينظر شكل - ٧ -]

ويأمر المستمين بحفر الخنادق حول السورين وانشاء مظلات يأوي اليها الفرسان من الحر والمطر (١٥٠) .

بلغت نفقة بناء السورين وحفر الخنادق واقامة المظلات ثلاثمائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار (١٥١) .

وتم بناء السور بسرعة عجيبة فقد ذكر الطبري ان المستمين وافى بغداد لاربعة ايام وقيل لخمسة ايام مضين من المحرم ١٥٢ ، ثم نجده يقول : « وكان الفراغ من عمل السور يوم الخميس لسبع بقين من المحرم » (١٥٣) .

فلا ندري مبلغ هذا السور من التحصين والمنعة وقد انشيء في ثمانية عشر يوما كما رأينا ، على ان يد الادامة والاصلاح لم تغفله ، ولعل المدافعين عنه كانوا مستمرين على اصلاحه وتقويته والاضافة اليه .

واغفل المؤرخون الحديث عن هذا السور وتحصيناته وكل ما وصلنا لا يتعدى وصف الطبري لابوابه ، فقد ذكر ان المستمين جعل على باب الشماسية خمس شداخت بعرض الطريق فيها العوارض والمسامير اطوال الظاهرة (١٥٤) .

وجعل للسور ابوابا داخلية واخرى خارجة ، بينها دهاليز مسقفة بسبع كل دهليز مائة فارس ومائة راجل ، ولم يذكر مساحتها ، وجعل على الابواب الخارجية المجانيق والمرادات [المرادة اصغر من المنجنيق] لحمايتها ، اما الابواب الداخلة فقد جعل من خارجها بابا معلقا بحبل بمقدار الباب ، ثخين ملبس بصفائح الحديد ، يشد بالحبال ، حتى اذا هوجمت الابواب ارسلت حباله تسقط وتقل من يحاول اقتحام ابواب السور من المهاجمين (١٥٥) .

وامر المستمين وقواده بهدم ما وراء سور الجانب الشرقي من دور وحوانيت ويقطع انخيل والاشجار المحيطة بالسور لكي لا يتخذها المهاجمون سورا يستترون وراءه ولتنسج الناحية على من يحارب فيها (١٥٦) .

x x x

روى الحميري عن احمد بن ابي طاهر انه اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد للامير الناصر لدين الله [ابو احمد طلحة الموفق] عند دخوله

مدينة السلام فوجد مائتي جبل وخمسين جبلا وعرضه مائتي وخمسة احميل ، ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلا وعرضه خمسين جبلا (١٥٧) [والجبل ضلع ارض مساحتها جريب ، والجريب ثلاثة الاف وستمائة ذراع مربع ، فيكون طول الجبل ستين ذراعا] .

كما ذكر الاستاذ الدوري انه في سنة تسع وسبعين ومائتين الهجرة كان طول بغداد سبعة كيلومترات وربيع الكيلومتر وعرضها ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر (١٥٨) .

ولعل في ما ذكرت ما يمين على تقدير اطوال اسوارها وتصور مقدارها .

ويفهم من اخبار معارك المستمين وحصار الاتراك له ان لسور بغداد الشرقية عدة ابواب هي باب الشماسية الى الشمال وباب خراسان الى الشرق ، اما ابواب السور الغربي فمنها باب قطربل وباب الحديد وباب الانبار (١٥٩) .

x x x

وعلى مدار سنة ثامة يشند قتال المهاجمين ورميهم السور بالمجانيق ، فتعرض سور الجانب الغربي لتصدع بعض اجزائه وتهدمها ، وسرعان ما بنى المدافعون ما تهدم منه (١٦٠) .

وبنهار سور المستمين تدريجيا ، اذ كيف يصمد سور شيد في عجلة من الوقت بوجه قتال شار وهجوم شديد ، كما ذكر المؤرخون ان فيضان سنة ثلاثين وثمانمائة اغرق بغداد الغربية فتهدمت مباني عديدة منها سور المستمين على جانبي بغداد (١٦١) .

ويعود الخلفاء العباسيون الى بغداد ثانية فتصبح مركز خلافتهم بعد تركهم سامراء وكان اول خلفائهم ابو العباس المعتضد بالله (١٦٢) .

وقبل ذلك كان الناصر لدين الله ابو احمد طلحة الموفق [اخو الخليفة المعتمد] قد ترك سامراء واقام ببغداد اذ اتخذ منها مركزا لقيادة حملاته ضد الزنج الثائرين ، وكان ذلك تمهيدا لانتقال مركز الخلافة الى بغداد (١٦٣) .

وتوسع بغداد في نهاية القرن الثالث الهجري توسعا كبيرا بانقياس انى ما كانت عليه في اوله ، ويتجه العمران نحو الجنوب وغبة من الخلفاء في الابتعاد عن صحب بغداد وزحامها فقد ذكر ابن الجوزي ان المعتضد كان يقول « كيف بفلح بلد بخالط هواء هذا ؟ » وأشار الى الدخان (١٦٤) .

لقد امتد البناء لمسافات كبيرة خارج أسوار المستعين فبنيت دار الخلافة خارج الحرم وامتدت بساتينها وأبنيتها إلى نهر بين على بعد فرسخين ، وامتد من دار الخلافة جنوباً إلى أعلى الشمامسة شمالاً بمحاذاة دجلة على امتداد خمسة أميال (١٦٥) .

ويذكر الاستاذ سوسة أن امتداد العمران في الجانب الشرقي في أواخر القرن الثالث الهجري قد وصل إلى زهاء كيلومتر جنوب سور المستعين حيث قصور الخلفاء وبساتينها (١٦٦) .

دار الخلافة

عاد الخليفة المعتضد بالله إلى بغداد فاحتاج إلى دار تليق به كخليفة ، فلم يجد أفضل من القصر الحسني [الذي بناه الحسن بن سهل] ، وكانت تقيم به ابنته بوران زوج الخليفة المأمون فاستنزلها عنها ، فاستنظرت أيتها في تفريفها وتسليمها ، ثم رمتها وعمرتها وجصصتها وببغتها وفرشتها بأجل الفرش وأحسنه وعلقت على أبوابها أصناف الستور وربت فيها الخدم والجواري . . . فانتقل المعتضد بالله إلى الدار ، ثم استضاف إليها ما جاورها . . . ووسعها وعمل عليها سور (١٦٧) .

ويشك الخطيب في صحة هذا الخبر ، إذ يذكر أن بوران توفيت في سنة إحدى وسبعين ومائتين . وقد بلغت ثمانين عاماً ولم تعيش حتى أيام المعتضد ، فلم يلائم المحسن أصابي رواية الخبر وهم وأبدل اسم المعتضد فجعله المعتضد (١٦٨) .

والذي لا شك فيه أن القصر الحسني كان نواة دار الخلافة العباسية وقصورها العديدة التي أضيفت إليها ، فقد شيد المعتضد قصر الفردوس بجوار القصر الحسني في موضع يقع فوقه حيث يصب نهر معلى بدجلة (١٦٩) . كما بنى قصر الشرا ، وأخيراً وضع أسس القصر الذي أصبح مركز الخلافة الرسمي وأكملته المكتفي بالله وزاد عليه ، وبني الخلفاء بعده فيها قصور « دار الشجرة » و « الدار المثمنة » و « الدار المربعة » ودار الوزارة والدواوين .

وقد اسهب المؤرخون في وصف عظمة تلك القصور وما تحتويه ، فمن ذلك ما رواه عن طريق معقود بأزاج تحت الأرض يربط قصر الشرا خاص بالجواري والسراري طوله ميلين (١٧٠) .

x x x

وذكر الخطيب أن خازن عمدة الدولة البويه طاف دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما

يجاورها فذكر أن ذلك مثل مدينة شيراز (١٧١) وقد قدر ياقوت مساحتها بثلاث بغداد (١٧٢) .

وجميع ما يشتمل عليه أسوار الدائري يسمى حريم دار الخلافة ويضم دار الخلافة وقصور الخلفاء كما يضم محال وأسواقاً ودوراً كثيرة الشرعية (١٧٣) ، وأصل الحريم من حريم البئر وهو ما حولها من حقوقها ومرافقها ثم اتسع فقبل لكل ما يتحرم به ويمنع منه حريم ، وبذلك سمي حريم دار الخلافة ببغداد (١٧٤) .

يجنار الخارج من دار الخلافة سوراً له أبواب يقع شرقي دار الخلافة ويغزلها عن منازل الرعية ، فدار الخلافة وقصورها تقع بين هذا السور من الشرق ونهر دجلة من الغرب .

وبعد اجتياز تلك الأبواب يمر بحريم دار الخلافة (١٧٥) .

ودار الخلافة والحريم يحيط بهما سور دائري ذي تسعة أبواب ، وقد عفيت آثار السورين إلى حد يصعب تعيين موضعهما ، يضاف إلى ذلك أن الخطيبين اتقدما لم يذكرهما علماً ثابتاً صمد على حوادث الزمان يمكن أن يستدل به على تحديد أي منهما ، الأمر الذي أوقع المارفين بخطئ بغداد ومعالهما التاريخية في شك وريب . فينقل المرحوم الدكتور مصطفى جواد عن ياقوت أنه عد جامع القصر [الذي من بقاياها جامع سوق الفل الحالي] من حريم دار الخلافة ، بينما ينقل عن الخطيب أن باب العامة [من أبواب حريم دار الخلافة] ملاصق لجامع القصر ، فاختلط الأمر حتى على المرحوم مصطفى جواد فلم يدر أن كان الجامع داخل كنه في الحرم أم أكثره أم بعضه (١٧٦) .

حريم دار الخلافة

يحيط بحريم دار الخلافة ودار الخلافة سور كهية الهلال أو نصف دائرة (١٧٧) يبتدي من ضفة دجلة جنوب محلة سوق الثلاثاء ، عند شريعة السموال (١٧٨) شرق المدرسة المرجانية وينتهي عند دجلة جنوباً عند شريعة المربعة الحالية أو نحوها تحت قصر التاج (١٧٩) ، ويصعب ضبط موقع الحد الجنوبي لعدم وجود أثر يمكن اعتماده في تحقيق الموضع ، ويقدر المرحوم مصطفى جواد الحد الجنوبي عند قبر السيد سلطان علي (١٨٠) .

[ينظر شكل - ٨ -]

وكان للسور تسعة ابواب هي من الشمال الى الجنوب :

- ١ - باب الغربية
- ٢ - باب سوق التمر [الباب القائي]
- ٣ - باب بدر [باب الخاصة]
- ٤ - باب النوبي [باب العتبة]
- ٥ - باب العامة [باب عمورية]
- ٦ - باب النصر
- ٧ - باب الخاصة
- ٨ - باب البستان
- ٩ - باب المراتب

× × ×

اما باب الغربية فهي اولى ابواب حريم دار الخلافة من جهة الشمال ، وقد سمي بذلك لوجود شجرة غرب نابتة بالقرب منه (١٨١) وباب الغربية في المشرع التي تسمى الآن « شريعة المصبة » وعندها يبدأ حريم دار الخلافة (١٨٢) وقربه داخل دار الحريم قصران هما دار خاتون ودار السيدة وكانتا لابنة الخليفة المغندي وشيد المستنجد بالله في محلها قصرًا سماه « دار الريحانيين » نسبة الى سوق الريحانيين [سوق الفواكه والرياحين خارج سور الحريم] الواقع بالقرب منه ، وكانت هذه الدار ذات وجوه اربعة متقابلة سعة صحنها ستمائة ذراع (١٨٣) .

× × ×

وثاني ابواب السور « باب سوق التمر » وهو قريب من باب الغربية ويسمى بـ « الباب القائي » ايضا ، وهو باب شاهق البناء والى جانبه من داخل الحريم الدار القطنية ، وهي قصر يشرف على مشرعه الابريين [الذين يبيعون الأبر] (١٨٤)

وقد ذكر ياقوت ان هذا الباب والدار الملاصقة به اغلقا في اول ايام الناصر لدين الله ، اي بعبد سنة خمس وسبعين وخمسمائة لتهجرة (١٨٥) ، وقد ذكر القزويني ان المسترشد خرج منه فاصابه ما اصابه فتطروا به واغلقوه (١٨٦) .

× × ×

وعلى مسافة قليلة من باب الغربية وباب سوق التمر باب يعرف بـ « باب بدر » او « باب البدرية » نسبة الى بدر من ممالك الخليفة المعتضد (١٨٧) ، وكان يسمى « باب الخاصة » في اول امره وذلك لدخول الخاصة من الناس منه الى دار الخلافة ومنهم الامير بدر (١٨٨) ، ولم يدم

اسم باب الخاصة اذ حل محله اسم باب بدر حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، وقد جدده الخليفة الطائع .

والى جانبه من الخارج دار بدر وسوقه بدر ، وعليه انشا المستظهر بالله منظره تشرف على ساحة قصور الخلفاء وعلى سوق الريحانيين الواقع خارج السور قريبا منه (١٨٩) .

× × ×

ويعرف الباب الرابع من ابواب السور بـ « باب النوبي » نسبة الى حاجب يجلس عنده اسمه سعيد النوبي ، ويعرف بـ « باب العتبة » ايضا نسبة الى العتبة التي يقبلها الرسل والامراء والملوك ورؤساء الحجاج اذا قدموا بغداد (١٩٠) وهذه العتبة اسطوانة من الرخام الابيض موضوعة امام الباب الداخلي ، ولعل الخليفة الناصر دفن تحتها صليبا من الذهب وكان صلاح الدين الابوي غنمه فاهداه له ، وقد روى لسترنج نقلا عن ابي شامة ان الناصر لدين الله امر بدفنه تحت باب النوبي (١٩١) .

وفي ايام حرب المسترشد بالله مع السلطان محمد بن محمود بن ملكشاه ، امر الخليفة ببناء ابواب السور واغلاقها جميعا وابقى باب النوبي وحده دون ان يعلق (١٩٢) .

× × ×

وخامس الابواب « باب العامة » ويعرف بـ « باب عمورية » ايضا وقد ذكر ان المعتصم جلب ابوابه الحديدية الضخمة من مدينة عمورية (١٩٣) . قال القزويني عنه « ولم ير مصراعان اكبر منه » (١٩٤)

× × ×

وبعد باب العامة يأتي « باب النصر » وكان المسترشد بالله قد فتح وصار يتفائل به بالظفر حين يخرج للحرب منه (١٩٥) .

× × ×

ويأتي « باب الخاصة » بعد باب النصر ، وكان اسم باب الخاصة يطلق على باب بدر اولا ثم اُهمِل (١٩٦) .

قال ياقوت « كان باب الخاصة احد ابواب دار الخلافة المعظمة ببغداد احدثه الطائع نجاشه

دار الفيل وباب كلواذي « ١٩٧ » [وباب كلواذي تقع جنوبي دار الخلافة] .

وقد نبه المرحوم مصطفى جواد الى وهم لسترنج [في كتابه بغداد ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ من الترجمة العربية] - على جلالته قدره وعلمه - وخلطه بين باب الخاصة القديم الذي سمي باب بدر وبين باب الخاصة الجديد (١٩٨) .

× × ×

والباب الثامن « باب البستان » وكانت عليه منظره تشرف على موضع الشحابا حيث كانت تنحرف في عيد الاضحى (١٩٩) .

× × ×

وأخر الابواب في السور « باب المراتب » ويقع بالقرب من ضفة النهر في الجنوب .

قال فيه ياقوت « كان من اجل ابواب دار الخلافة واشرفها ، له حاجب عظيم القدر نافذ الامر ، داخل محلة كبيرة كان يسكنها الاكابر والتجار والاشراف ذوي البيوتات القديمة ، وكانت الدور بها غالية لها قيمة ، ثم باد اهلها وانتفوا عنها . اما الآن فلم يبق لها قيمة ، واراد اهلها بيعها فلم تستر منهم فنقضوها وباعوا انقاضها » (٢٠٠)

وقال ايضا : « وبين باب المراتب وبين دجلة نحو رميتي سهم . » (٢٠١)

ولا يعلم تاريخ بناء السور عن التحقيق ، ومن المرجح انه بديء بينائه في عهد المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) واتمه من جاء بعده من الخلفاء (٢٠٢)

اسوار بغداد الشرقية

واتسع عمران بغداد الشرقية سريعا وامتد حول دار الخلافة وحريمها واسوارها وشيد الناس حول اسوارها المحلات والاسواق والدور التي أصبحت اصل مدينة بغداد التي بقيت حتى العصور الاخيرة (٢٠٣) .

وذلك لان حماية الخليفة كانت تمتد الى الحريم كما كانت باب المراتب [الباب الجنوبي الشرقي لدار الخلافة] ملجأ المستعيزين وملأ الخائفين والمستجيرين ، فازداد العمران ونما سريعا حولها (٢٠٤)

وفي بداية حكم الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) بديء بانشاء سور عظيم وخندق يحيطان بالمدينة والعمران الجديد ويضم دار الخلافة وحريمها واسوارها وما شيد حولها ، وكان الشروع في البناء

في اثنامن عشر من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة للهجرة (٢٠٥) ، فخط الوزير عميد الدولة ابو منصور محمد بن محمد بن جهمر السور وقدره ومعه المساح وشرع بجباية الاموال التي يحتاج اليها من عفارات الناس ودورهم ، واذن للناس في التفرج والعمل ، فزينوا البلد وعملوا القباب وجدوا في عمارته (٢٠٦) .

وحمل اهل المحال السلاح والاعلام والطبول ومعهم المعاول والسهل وانواع الملاهي والزمور والحكايات والخيالات ، فعمل اهل باب المراتب من البواري المقبرة على صورة الفيل وتحتة قوم يسيرون به ، وعملوا زرافة كذلك ، واتى اهل قصر عيسى بسميرية كبيرة [السميرية نوع من انواع السفن] فيها الملاحون يجدفون وهي تجري على هاذور [عجلات] ، واتى اهل سوق بحبي بناعورة ندور معهم في الاسواق ، وعمل اهل سوق المدرسة قلعة خشب تسير على عجل وفيها غلمان يفرجون بقسي البندق والنشاب ، واخرج قوم بئرا على عجل وفيها حالك بنسج ، وكذلك السقلاطونيون وكذلك الخبازون جاؤوا بتنور وتحتة ما يسير به والخباز يرمي الخبز الى الناس (٢٠٧) .

فبنوا من السور مائة فامة فقط وحدثت عرائق عن اتمامه ، اهمها النزاع على السلطنة بين الملك انسلاجة بركيارق ومحمد وسنجر اولاد ملكشاه (٢٠٨) .

وتوفي الخليفة المستظهر في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة للهجرة ويومع ابنه المسترشد بالله خليفة من بعده .

× × ×

وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة عزم المسترشد بالله على بناء سور لبغداد الشرقية وجبى ما يخرج عليه من الناس ، كما فعل ابن جهمر وزير ابيه ، فحصل من ذلك مالا كثيرا ، فاضر ذلك بالناس وشق عليهم ، فلما علم الخليفة كراهة الناس لذلك واعسارهم وضيق ذات يدهم امر باعادة ما اخذ منهم فسروا بذلك (٢٠٩) .

وقبل ان الوزير احمد بن نظام الملك بذل من ماله خمسة عشر الف دينار ، وقال تقسط الباقي على ارباب الدولة (٢١٠) .

وكان اهل بغداد يعملون بانفسهم وكانوا يتناوبون العمل ، يعمل اهل كل محلة متفردين بالطبول والزمور ، وزينوا البلد وعملوا فيه

القباب (٢١١) قال ابن الجوزي : « وكان كل اسبوع يعمل أهل محلة ويخرجون بالطبول والجنكات » (٢١٢)

وكان الابتداء بعمارة السور في صفر من سنة سبع عشرة وخمسمائة للهجرة (٢١٣) ، وقيل في يوم السبت النصف من شعبان من السنة نفسها (٢١٤)

وكان السور قويا محكم البناء ليستطيع اتقاذا الخلافة من سلطان السلاجقة ، وجعل عرضه اثنين وعشرين ذراعا (٢١٥) .

[ينظر شكل ١٠ ، ١١]

x x x

وانشا الخليفة المقتفي مسناة حول السور وتوفي ولما يكملها ، ثم ولي المستنجد وعمل منها قطعة وتوفي ، وولي المستفي فعمل بمقدار ما عمل في زمن المقتفي والمستنجد .

ووصف المؤرخون السور في العهد الذي يلي الحصار المغولي فقالوا انه كان من خارج السور مبنيا بالأجر وخندقه مرصوقا بالحجارة على هيئة نصف دائرة طولها ثمانية عشر ألف خطوة يتصل بدجلة من بدايته ونهايته (٢١٦)

وقد ذكر نيبور في رحلته انه كان جافا على ايامه (٢١٧) ، ويمكن ان يفمر بالمياه اذا ضرب الحصار على بغداد (٢١٨) .

وكان عمقه نحو خمس او ست قامات كما ذكر تافرنبيه الذي زار بغداد سنة ١٦٣٢ م وسنة ١٦٥٢ م كما ذكر او ليفييه ان الخندق كان عميقا جدا ، ففي حصار حافظ باشا لبغداد [١٠٣٥ هـ = ١٦٢٥ م] قطعت الاف النخيل ورمت في الخندق ودفنت في التراب للوصول الى الخندق وعمل ثغرة فيه (٢١٩) .

وزار ابن جبير بغداد ايام الناصر لدين الله فذكر ان للشرقية اربعة ابواب ، فاولها وهو في اعلى الشط باب السلطان ثم باب الظفرية ويليها باب الحلبة فباب انبصلية ، وهذه الابواب التي هي في السور المحيط بها من اعلى الشط الى اسفله (٢٢٠)

x x x

اما الباب الشمالي فيسمى « باب السلطان » نسبة الى السلطان طغرل بك الذي دخل بغداد من هناك (٢٢١) .

وكان يقع هذا الباب عند باب المعظم الحالي ، في جنوب جامع السلطان على مسافة قليلة منه ، وجامع السلطان في المخرم [العيواضية الحالية] ،

وفي جنوبي هذا الباب كانت السوق المعروفة بسوق السلطان والتي تقع في الميدان الحالية (٢٢٢) .

وعرف في المصور الاخيرة باسم « باب المعظم » نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة ، وقد سمي بذلك لابتداء الشارع المؤدي لمحلة الامام الاعظم منه (٢٢٣) .

وقد ظل هذا الباب حتى هدم في سنة ١٩٣٢ م ، ومحله اليوم بين قاعة الشعب وجامع الازبك .

x x x

والباب الثاني من ابواب سور بغداد الشرقية هو « باب الظفرية » وقد سمي باسمه هذا لانه يقابل محلة الظفرية نسبة الى ظفر وهو من ممالك الخلفاء العباسيين ، كما كان يعرف بـ « باب خراسان » لبداية الطريق المؤدي الى خراسان منه (٢٢٤)

وعرف في المصور المتأخرة باسم « الباب الابيض » « آق قابو » ويسمى ايضا بـ « الباب الوسطاني » (٢٢٥)

وما زالت بقايا هذا الاتر قائمة حتى اليوم بالقرب من مرقد الشيخ عمر السهروردي .

ويتكون من برج اسطواني الشكل ضخم يحيط به خندق يمتليء بالماء من الخندق المحيط بالاسوار ، وتلبرج بابان مائلان [اي ليسا على سمت واحد] مبنيان بالأجر ، الباب الاول يربط البرج بخارج المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالأجر ، والباب الثاني يربط البرج بسور المدينة ويوصل اليه بقنطرة معقودة مبنية بالأجر ، وقد افيم على جانبي هذه القنطرة جداران عاليان ليهما مواضع للرماة تستخدم في صد هجمات الاعداء اذا حاولوا اقتحام الباب الاول وتجعلهم عرضة للرماة فتصيبهم السهام (٢٢٦) .

وقد روعي في تصميم البرج ومداخله المدخل المنكسر انذي ذكرناه في اثناء الحديث عن ابواب المدينة المدورة .

[ينظر شكل ١٢ ، ٥]

x x x

وسمى الباب الثالث من ابواب بغداد الشرقية بـ « باب الحلبة » لقربه من ميدان سباق الخيل وكان موقعه هناك قبل انشاء السور .

وقد عرف في المصور المتأخرة باسم « باب الطلمس » لان في اعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى

كل من يمنته ويسرته ثمثال أسمى عظيمة ، وقد عد
العمامة ذلك طلسمه تحمي بغداد من شرور
اعدائها (٢٢٧) .

وذكر لسترنج ان هذا الباب كان يعرف قديما
باسم « الباب الأبيض » (٢٢٨) .

وقد جدد الخليفة الناصر لدين الله باب الحلبية
وذلك في سنة ثمانى عشرة وستمئة كما تدل على
ذلك الكتابة التي كانت على الباب والتي نقلها نيبور
والتي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم واذا يرفع
ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ؛ ربنا تقبل
منا انك انت السميع العليم . هذا ما امر بعمله
سيدنا ومولانا المفترض الطاعة على كافة الانام
ابو المباس احمد الناصر لدين الله امير المؤمنين
وخليفة رب العالمين وحجة الله عز وجل على الخلق
اجممين ؛ صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه
الطاهرين ، ولا زالت دعوته الهادية على يقاع الحق
منارا ، والخلائق لها اتباعا وانصارا ، وطاعته
المفترضة للمؤمنين اسماعا وابصارا ، وافق الفراغ
في سنة ثمان عشر وستمئة [كذا] ، وصلواته
على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين » (٢٢٩)

ومنه دخل السلطان مراد الرابع حين احتل
بغداد في سنة ثمان واربعين والف للهجرة بعد ان
كانت تحت الاحتلال الفارسي (٢٣٠)

وسماه « برج الفتح » لانه يرى انه دخل منه
بغداد فاتحا (٢٣١) .

وسده مراد بعد دخوله بحائط لكي يبقى
مقدسا فلا يضع احد قدمه على عتبة احتراماً له .
وظل مسدودا حتى نسفه الاتراك العثمانيون عند
دخول الاتكليز بغداد وانسحابهم منها ليلة الحادي
عشر من آذار سنة ١٩١٧ م ، وكان مخزنا
للبارود (٢٣٢) .

وانر الفيضان الكبير الذي حصل في سنة
١٠٦٧ هـ ، واصابه التآكل والتصدع ، فرممه
الوالي محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٨ هـ (٢٣٣)

وكان هذا الباب مبنيا بالاجر ، يوصله بالسور
المجاور له جسر محصن على جانبيه برجان
منبعان (٢٣٤) .

[ينظر شكل - ١٣ -]

x x x

ورابع ابواب سور بغداد الشرقية « باب
البصلية » ويقع في الجنوب ، وقد سمي باسم محلة
البصلية [وكان يزرع فيها البصل] التي تقع الى

جواره والتي انشاها الخليفة المقتدي ، وكان يسمى
ايضا « باب كلواذي » لان منه الطريق الى قرية
كلواذي (٢٣٥) .

وسمي في العصور التي تلت سقوط بغداد
باسم « الباب المظلم » « كارانق قابو » ووهم بعض
الرحالة في لفظه اذ سماه نيبور في رحلته باسم
« كارولوك » كما سماه تيغسو باسم
« كارانلوقاي » (٢٣٦) .

وعرف في العصور المتأخرة باسم « الباب
الشرقي » وقد هدمته امانة العاصمة في سنة ١٩٣٧ .
على عهد امينها ارشد الممري ، وكان الاتكليز قد
اتخذوه كنيسة لهم (٢٣٧) .

وعنده اتخذ احد فواد هولاء مقر معسكره
حيث جرى بالخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين
فكانت نهايته بعد ذلك (٢٣٨) .

وعند هوار « باب الجسر » الباب الخامس في
سور بغداد الشرقية ، وهو يقضي الى جسر على
ثلاثة وثلاثين قاربا (٢٣٩) .

وذكر الرحالة تافرنيه ان هذا الباب كان
يسمى « سوقاي » اي « باب الماء » او « باب
الشط » (٢٤٠) .

x x x

لقد كان سور بغداد الشرقية يحصن بغداد من
جميع جهاتها بما في ذلك جهة النهر ويؤيد هذا
ما تراه في « خارطة تافرنيه التي تصور بغداد في
القرن السابع عشر ، شكل » اذ يبدو السور واضحا
فهو يحيط ببغداد من كل جهاتها .

x x x

ويضاف الى الابواب الخمسة التي ذكرنا
عدد من الابواب السرية وكانت آراجا تفضي الى
دجلة ، وتسمى « اوغرين قابي » (٢٤١) .

x x x

اقتد ترك الرحالة الغربيون وصفا مفصلا
وخرائط واقية الى حد بعيد صورت جوانب مختلفة
من سور بغداد ، من ذلك خارطة ورصف نيبور
مدينة بغداد : فقد ذكر ان في السور عشرة أبراج
كبيرة وكان في كل منها ستة مدافع او سبعة ، وبين
هذه الابراج الكبيرة أبراج صغيرة يدافع عنها
بالاسلحة الخفيفة .

وذكر الحاج خليفة عدد هذه الابراج الصغيرة
وتوزيعها على نقاط السور المختلفة ، فذكر ان بين

وكذلك ما ذكر عن اسوار دار الملكة البويهية ،
ودار السلطنة السلجوقية ، والدار المعزية في
الشمسية ، والسور الذي حول مشهد الامامين
الكاظمين (٢٤١)

× × ×

اما الجانب الغربي فقد ذكر ابن جبير ان
الخراب قد عمه واستولى عليه على ايامه وأنه
يحتوي على سبع عشرة محلة ، كل منها مديسة
مستقلة (٢٤٠) .

ونشاهد هذا الجانب في خارطة جونرس
وكولينكود [القرن التاسع عشر الميلادي] وقد
لفه سور نسج محلاته ويقابل القسم المعمور من
الجانب الشرقي ، وهذا السور اربعة ابواب هي
باب الكريمت في الجنوب وباب الحلة وباب الشيخ
معروف في الشرق وباب الكاظمية في الشمال .

واعملت خارطة سار وهرزفلد [اوائل القرن
الحالي] باب الكاظمية في بغداد الغربية (٢٤١) .

وقل هذا السور يقاوم الزمن ويصد الغزاة
ويحمي المدينة حتى تقضى على عهد مدحت باشا
سنة ١٨٧٠ م باستثناء ابوابه الاربعة والابواب
المتصلة بالقلعة ، وشيد بحجارته مباني جديدة
استحدثها .

وامر سري باشا الوالي العثماني في سنة
١٨٨٧ م بهدم ما بقي من هذا السور عدا الابواب (٢٤٢)

ونم يبق للسور وابوابه اثر يذكر غير الباب
الوسطاني فقد اتى العمران الحديث عليه ، واحتلت
السدة المحيطة ببغداد القديمة ما بقي من مواضعه
بين باب الحلة والباب الوسطاني (٢٤٣) .

× × ×

الخوارج

- (١) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٤
- (٢) جواد وسوسة . دليل خارطة بغداد ص ١٠٤
- (٣) مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور ، في مجلة « سومر »
١٩٦٤ ، مج ٢ ص ٥٠
- (٤) دليل خارطة بغداد ص ٢٤٢
- (٥) كراشكوفسكي . تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ق ١
ص ١٦٧
- (٦) صالح احمد العلي . مصادر دراسة خطط بغداد ، في
« مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٩٦٧ ، مج ١٤ ص ٨
- (٧) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٠ ، الفخري ص ١٦٢
- (٨) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٦ ، الفخري ص ١٦٢

باب النهر وباب الامام الاعظم اتنى عشر برجا موزعة
على مسافة سبعمائة ذراع ، وبين باب الامام الاعظم
والباب الابيض اربعة وثلاثون برجا موزعة على
مسافة الفين وثمانمائة وخمسين ذراعا ، وبين الباب
الابيض والبرج المعجمي ستة وعشرون برجا على
مسافة قدرها الفان وخمسون ذراعا ، ومن البرج
المعجمي الى الباب المظلم ستة وثلاثون برجا على
مسافة طولها الفان وثمانمائة وخمسون ذراعا ،
ومن الباب المظلم حتى النهر اربعة ابراج على مسافة
قدرها خمسون ذراعا ، ومن ذلك المكان الى الجسر
ثلاثة وثلاثون برجا على مسافة طولها الفان وستمائة
 وخمسون ذراعا ، ومن الجسر باتجاه معاكس لجرى
النهر ثمانية عشر برجا على مسافة طولها الفان
 وخمسون ذراعا .

وبذلك يكون المجموع مائة وثلاثة وستين برجا
تتوزع على مسافة طولها « ١٢١٠٠ ذراعا » ، هي
محيط سور بغداد (٢٤٢) .

× × ×

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية لسور مدينة
بغداد الشرقية برج كبير يسمى « برج المعجمي »
نسبة الى صوفي كان يأوى اليه بسميه اهل بغداد
بالمعجمي ، لم اشتهر وعرف بعد ذلك ، وهو الشيخ
عبدالقادر الجيلاني المعروف بالكيلاني .

وعرف هذا البرج ايضا باسم « نايبة
الزاوية » (٢٤٣) ، ويقع هذا البرج بالقرب من باب
الحلة بينها وبين باب البصلية .

وقد وجه هولاء هجومه على بغداد من هذا
البرج لانه اقصر ابراج السور واوهنها ، فتمكن
من هدمه ودخول بغداد منه في التاسع من محرم سنة
ست وخمسين وستمائة (٢٤٤) .

× × ×

على ان هناك اسوارا فردية كانت تحصن
المحلات والقصور الضخمة اقتضتها الحاجة ، ففي
اواخر العصر العباسي وجدنا العديد من محلات
بغداد واماكنها تحيطها الاسوار الفردية (٢٤٥) من
تلك الاسوار السور الذي كان يحيط بالحريم
الطاهري (٢٤٦) ، وما ذكره ابن جبير في رحلته من ان
محلة الكرخ في الجانب الغربي وانها محاطة بسور (٢٤٧) .

كما ذكر الرحالة المتأخرون ان قلعة بغداد ،
الواقعة في القسم الشمالي الغربي والمحاذية لدجلة
والواقعة ضمن اسوار بغداد ، كانت محاطة ايضا
بسور فردي (٢٤٨) .

- (٥٥) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٢
- (٥٦) طاهر العميد . بغداد ص ٢١٨
- (٥٧) المصدر نفسه ص ٢١٨
- (٥٨) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
- (٥٩) طاهر العميد ص ٢١٨ [نقلا عن هرزفند]
- (٦٠) اليعقوبي ص ٢٢٨ ، ابن رسته . ص ١٠٨ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ٢١
- (٦١) دليل خارطة بغداد ص ٤٨ ، لسترنج ٢١
- (٦٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
- (٦٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
- (٦٥) اليعقوبي . ص ٢٢٩
- (٦٦) ناجي معروف . تخطيط بغداد ص ١٤
- (٦٧) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٢
- (٦٨) ابن الفقيه ص ٢٦ ، ياقوت . المشترك ص ٢٢٥
- (٦٩) اليعقوبي ٢٢٨
- (٧٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
- (٧١) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
- (٧٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨
- (٧٣) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، لسترنج ص ٢٨
- (٧٤) لسترنج ٢٩
- (٧٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ١٩ ، لسترنج ٢٩
- (٧٦) دليل خارطة بغداد ص ٤٩
- (٧٧) Lassner. p. 241.
- (٧٨) لسترنج ص ٢٩
- (٧٩) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
- (٨٠) المصدر نفسه ص ١٩ ، تخطيط بغداد ص ١٢
- (٨١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٨٢) اليعقوبي ص ٢٢٩
- (٨٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
- (٨٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
- (٨٥) طاهر العميد ص ٢٢٢
- (٨٦) تخطيط بغداد ص ١٢
- (٨٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٨٨) اليعقوبي ص ٢٢٩
- (٨٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٩٠) اليعقوبي ص ٢٢٩
- (٩١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٩٢) لسترنج ص ٢٠
- (٩٣) اليعقوبي ص ٢٢٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
- (٩٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
- (٩٥) لسترنج ص ٢٠
- (٩٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩
- (٩٧) طاهر العميد ص ٢٢٥ [نقلا عن كزويل]
- (٩٨) لسترنج ص ٢٩
- (٩٩) طاهر العميد ص ٢٣٦ [نقلا عن كزويل]
- (١٠٠) Lassner. p. 240
- (١٠١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
- (١٠٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٢

- (٩) حمدان الكبيسي . اسواق بغداد ص ٤٠
- (١٠) الطبري ج ٧ ص ٦٢١ ، ابن الفقيه ص ٢٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨١
- (١١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٠
- (١٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧ ، لسترنج ص ٢٤
- (١٣) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٧
- (١٤) محمد مكية ص ٢٠٢
- (١٥) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
- (١٦) كوك . بغداد ، ج ١ ص ٢٧
- (١٧) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ ، ابن الفقيه ص ٤٠ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
- (١٨) Lassner. The topography of Baghdad. p. 235.
- (١٩) معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢ ، لسترنج ص ٤٤
- (٢٠) جواد وسوسة . بغداد (ط مهندسين) ص ١٨
- (٢١) Lassner. p. 236
- (٢٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠
- (٢٣) دليل خارطة بغداد ص ٤٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٢
- (٢٤) الفخري ص ١٦١
- (٢٥) دليل خارطة بغداد ص ٤٥
- (٢٦) معجم البلدان ج ١ ص ٧٨٢
- (٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٢٢
- (٢٨) المصدر نفسه ص ٢٢
- (٢٩) دليل خارطة بغداد ص ٤٨
- (٣٠) وسوسة . الفيضان ص ٣٠
- (٣١) اليعقوبي . البلدان ص ٢٢٨
- (٣٢) وسوسة . الفيضان ص ٤١
- (٣٣) المصدر نفسه ص ٤١
- (٣٤) Lassner. p. 235.
- (٣٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
- (٣٦) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
- (٣٧) دليل خارطة بغداد ص ٦٢
- (٣٨) Lassner. p. 235.
- (٣٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢
- (٤٠) Lassner. p. 238.
- (٤١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، اليعقوبي ص ٢٢٨
- (٤٢) لسترنج ص ٢٧
- (٤٣) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
- (٤٤) الطبري ج ٧ ص ٦٥٢ ، ابن الفقيه ص ٢٦ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٢
- (٤٥) اليعقوبي . ص ٢٢٨
- (٤٦) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧١
- (٤٧) الطبري ج ٧ ص ٦١٩
- (٤٨) لسترنج ص ٢٧
- (٤٩) الطبري ج ٧ ص ٦١٩ ، دليل خارطة بغداد ص ٤٩ ، لسترنج ٢٩
- (٥٠) ابن رسته . الاطلاق النفسية ص ١٠٨
- (٥١) Lassner. p. 239
- (٥٢) رمزية الاطراف . بناء بغداد ص ١١٠
- (٥٣) ابن الفقيه ص ٢٥
- (٥٤) Lassner. p. 238
- (٥٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٢

- (١٤٣) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٤
(١٤٤) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٤٥) اليعقوبي ص ٢٢٩ ، ظاهر العميد ٢٤٠
(١٤٦) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٤٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٤٨) لسترنج ص ٢١
(١٤٩) ابن رسته ص ١٠٨
(١٥٠) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ ، لسترنج ص ٢٢
(١٥١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٥٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٥٣) اليعقوبي ٢٢٩
(١٥٤) الطبري ج ٧ ص ٦٥١ ، تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥ ، معجم البلدان ج ١ ص ٦٨٤
(١٥٥) بغداد (ط مهندسين) ص ١٩
(١٥٦) الطبري ج ٧ ص ٦٥١
(١٥٧) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٥٨) Lassner. p. 242
(١٥٩) ظاهر العميد ص ٢٤٢
(١٦٠) Lassner. p. 243
(١٦١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٦٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤
(١٦٣) اليعقوبي ص ٢٢٩
(١٦٤) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦
(١٦٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٢
(١٦٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٧٦
(١٦٧) دليل خارطة بغداد ص ٥٢
(١٦٨) لسترنج ص ١١٧
(١٦٩) دليل خارطة بغداد ص ٥٢ [نقلا عن تاريخ سني ملوك الارمن لحمزہ الاصطهاني ص ١٢٢]
(١٧٠) محمد مكية . بغداد ص ٢٠٣
(١٧١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨
(١٧٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١٥
(١٧٣) ابن الفقيه ص ٧٥
(١٧٤) اليعقوبي ص ٢٥٤
(١٧٥) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، لسترنج ص ٤٨
(١٧٦) لسترنج ص ٤٧
(١٧٧) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ [نقلا عن احسن التقاسيم للعقدي البشاري ص ١٢٠]
(١٧٨) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨
(١٧٩) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥
(١٨٠) ابن الفقيه ص ٢٩ ، ياقوت . المشترك ص ٢٠٥ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٢٤ ، لسترنج ص ١٦٢
(١٨١) لسترنج ص ١٦٢
(١٨٢) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٢
(١٨٣) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٨٢ ، لسترنج ص ١٦٥
(١٨٤) اليعقوبي ص ٢٥٤ ، الحميري . الروض المطار ص ١١٢
(١٨٥) الطبري ج ٩ ص ٢٨٢
(١٨٦) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٨٧) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، سوسة . فيضان ص ٢٨
(١٨٨) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧ ، دليل خارطة بغداد ص ١١٩ ، لسترنج ص ١٥٠
(١٨٩) الطبري ج ٩ ص ٢٨٧
(١٩٠) المصدر نفسه
(١٩١) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٩٢) الطبري ج ٩ ص ٢٨٨
(١٩٣) ابن الفقيه ص ٦٠ ، الروض المطار ص ١١٢
(١٩٤) مكية سلمان . بغداد ص ٢٢
(١٩٥) لسترنج ص ٢٦٥ - ٢٦٦
(١٩٦) الطبري ج ٩ ص ٢٢١
(١٩٧) دليل خارطة بغداد ص ١٤٨ ، سوسة . فيضان ص ٢٩
(١٩٨) مصطفى جواد . في التراث العربي ص ٧٩
(١٩٩) لسترنج ص ٢١١
(٢٠٠) ابن الجوزي . المنتظم ج ٥ ص ١٤٤ .
(٢٠١) مكية سلمان ص ٢٢
(٢٠٢) سوسة . فيضان ص ٢٩
(٢٠٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٩
(٢٠٤) المصدر نفسه
(٢٠٥) لسترنج ص ٢١٢
(٢٠٦) لسترنج ٢١٤
(٢٠٧) تاريخ بغداد ج ١ ص ١٠٠ ، معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(٢٠٨) معجم البلدان ج ٢ ص ٥٥ ، المشترك ص ١٢٩
(٢٠٩) المشترك ص ١٣٠
(٢١٠) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٥٥
(٢١١) المشترك ص ١٣٠ ، في التراث العربي ص ٩٦ ، لسترنج ٢٢٥
(٢١٢) في التراث العربي ص ٩٨
(٢١٣) المشترك ص ١٢٩ ، الغزويني . آثار البلاد ص ٢١٥
(٢١٤) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس . مباحث عراقية ج ١ ص ١٢٢
(٢١٥) دليل خارطة بغداد ص ١٥٧ ، يعقوب سرقيس ج ١ ص ١٢٢ ، لسترنج ص ٢٢٥
(٢١٦) في التراث العربي ص ٨٨
(٢١٧) دليل خارطة بغداد ص ١٥١
(٢١٨) يعقوب سرقيس ج ١ ص ١٢٢
(٢١٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(٢٢٠) المصدر نفسه
(٢٢١) المشترك ص ١٢٩ ، لسترنج ص ٢٢٦
(٢٢٢) آثار البلاد ص ٢١٦
(٢٢٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٢٩
(٢٢٤) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، في التراث العربي ص ٩٠
(٢٢٥) في التراث العربي ص ٩٠ ، لسترنج ص ٢٢٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨
(٢٢٦) آثار البلاد ص ٢١٦ ، دليل خارطة بغداد ص ١٥٨ ، لسترنج ص ٢٢٢
(٢٢٧) لسترنج ص ٢٢٢
(٢٢٨) دليل خارطة بغداد ص ١٥٨

- (١٩٣) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩ ، لسترنج ص ٢٢٤
 (١٩٤) آثار البلاد ص ٢١٦
 (١٩٥) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (١٩٦) المصدر نفسه
 (١٩٧) معجم البلدان ج ١ ص ٤٤
 (١٩٨) في التراث العربي ص ٩٥
 (١٩٩) دليل خارطة بغداد ص ١٥٩
 (٢٠٠) معجم البلدان ج ١ ص ٤٥
 (٢٠١) المشترك ص ١٣
 (٢٠٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة ، الفيضان ص ٤٠
 (٢٠٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، سوسة ، الفيضان ص ٥٨
 (٢٠٤) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٩
 (٢٠٥) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٦) المنتظم ج ٩ ص ٨٥ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١ ص ٢٥١
 (٢٠٧) المنتظم ج ٩ ص ٨٥
 (٢٠٨) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٠٩) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٦
 (٢١٠) المصدر نفسه
 (٢١١) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٧
 (٢١٢) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٣) ابن الاثير ج ١ ص ٦١٦
 (٢١٤) المنتظم ج ٩ ص ٢٤٥
 (٢١٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢١٦) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢ ، لسترنج ص ٢٢٩
 (٢١٧) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠
 (٢١٨) هوار ، خطط بغداد ص ١١
 (٢١٩) هوار ، ص ١١
 (٢٢٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٥
 (٢٢١) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٢) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠
 (٢٢٣) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١١
 (٢٢٤) دليل خارطة بغداد ص ١٦٠ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠ ، ٢١١
 (٢٢٥) هوار ص ١٣
 (٢٢٦) تخطيط بغداد ص ١٦
 (٢٢٧) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٢٨) لسترنج ص ٢٤٧
 (٢٢٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٠) هوار ص ١٣
 (٢٣١) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٢) بغداد (ط مهندسين) ص ٦٩ ، ٥٠ ، دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦١
 (٢٣٤) هوار ص ١٣
 (٢٣٥) دليل خارطة بغداد ص ١٦١ ، بغداد (ط مهندسين) ص ٥٠
 (٢٣٦) لسترنج ص ٢٥٠ ، هوار ص ١٦
 (٢٣٧) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢٣٨) لسترنج ص ٢٤٩
 (٢٣٩) بغداد في رحلة نيبور ص ٥٠ ، هوار ص ١٦
 (٢٤٠) هوار ص ١٦



المراجع

- (٢٤١) هوار ص ١٦
 (٢٤٢) هوار ص ١٩
 (٢٤٣) دليل خارطة بغداد ص ١٦٢
 (٢٤٤) الفخري ، ص ٢٢٦
 (٢٤٥) لسترنج ص ٢٥١
 (٢٤٦) بغداد (ط مهندسين) ص ٥٢
 (٢٤٧) رحلة ابن جبير ص ٢٠١
 (٢٤٨) هوار ص ٢٠
 (٢٤٩) لسترنج ١٤٢ ، سوسة ، الفيضان ص ٦٠
 (٢٥٠) رحلة ابن جبير ص ٢٠٠
 (٢٥١) بغداد (ط مهندسين) ص ٧١
 (٢٥٢) هوار ، ص ٩
 (٢٥٣) هوار ص ١١
- ١ - ابن الاثير ، عز الدين علي بن محمد ، الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .
 ٢ - ابن جبير ، محمد بن احمد ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .
 ٣ - ابن الجوزي ، عبدالرحمن بن علي ، المنتظم ، حيدر آباد ، ١٢٥٩ هـ .
 ٤ - ابن رسته ، احمد بن عمر ، الاغلاق النفسية ، مطبعة بريل ، لندن ١٨٩١ .
 ٥ - ابن الطقطقي ، محمد بن علي بن طباطبا ، الفخري في الادب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٦ .
 ٦ - احمد سوسة ، الفيضان وغرق بغداد في العصر العباسي ، في ٥ مجلة المجمع العلمي العراقي ١٠ (١٩٦٢) .
 ٧ - الاطرنجي ، رموية ، بناء بغداد في عهد ابن جعفر المنصور ، مطبعة النعمان ، النجف ١٩٧٥ .
 ٨ - الحميري ، محمد بن عبدالنعم ، الروعى المطار في خبر الانطار ، تحقيق احسان عباس ، دار القلم ، بيروت ١٩٧٥ .
 ٩ - الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة .
 ١٠ - المبيدي ، مكة سلمان ، بغداد في القرن الثالث الهجري [رسالة ماجستير مقدمة لجامعة بغداد] ، طباعة رونيو ، بغداد ١٩٦٧ .
 ١١ - المني ، صالح احمد ، مصادر دراسة خطط بغداد في المنصور المباسية ، في ٥ مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤ (١٩٦٧) .
 ١٢ - المبيد ، طاهر مظفر ، بغداد مدينة المنصور المدورة ، مطبعة النعمان ، النجف ١٩٦٧ .

- ١٣- القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود . اثار البلاد واخبار
البلاد . دار صادر . بيروت ١٩٦٠
- ١٤- الكبيسي ، حمدان . اسواق بغداد حتى بداية العصر
البويعي . دار الحرية ، بغداد ١٩٧٩
- ١٥- كراتسكونسكي تاريخ الادب الجغرافي العربي . ترجمة
صلاح الدين عثمان هاشم .
- ١٦- كوك ، ريجارد . بغداد مدينة السلام . ترجمة وتقديم
وتعليق مصطفى جواد وفؤاد جميل . مطبعة شفيق ،
بغداد ١٩٦٢
- ١٧- لسترنج ، في . بغداد في عهد الخلافة العباسية . ترجمة
بشير يوسف فرنسيس ، الطبعة العربية ، بغداد ١٩٣٦ .
- ١٨- مصطفى جواد واحمد سوسة وناجي معروف ومحمد مكية .
بغداد . مطبعة رمزي ، بغداد ١٩٦٩ [نشرته نقابة
المهندسين] .
- ١٩- مصطفى جواد . بغداد في رحلة نيبور . في مجلة « سومر »
٢ (١٩٦٤) .
- ٢٠- مصطفى جواد واحمد سوسة . دليل خارطة بغداد . مطبعة
المجمع العلمي العراقي . بغداد ١٩٥٨ .
- ٢١- مصطفى جواد . في التراث العربي . [مجموعة ابحاث
جمعها عبدالحميد الملوحي ومحمد جميل شلش]
- ٢٢- ناجي معروف . تخطيط بغداد . في مجلة « الاعلام »
[العراقية] ج ١ السنة الثالثة .
- ٢٣- هوار ، كليمان . خطط بغداد . ترجمة وتعليق ناجي
معروف . دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٦ .
- ٢٤- يافوت الحموي . المشترك وضما والمفترق متعسا .
كوتنج ، ١٨٤٦ .
- ٢٥- يافوت الحموي - معجم البلدان . لايبزيج ، ١٨٦٦ .
- ٢٦- يعقوب سرقيس . مباحث عراقية [مجموعة ابحاث نشرها
في الجلات] . القسم الاول . مطبعة شركة التجارة ، بغداد
١٩٤٨ .
- ٢٧- يعقوبى . احمد بن جعفر بن وهب . البلدان . برلين
١٨٩٢
- ٢٨- Lassner, Jacob. The topography of
Baghdad in the early middle ages.
Wayne State University, 1970.
[وقد اكملت ترجمته مع الزميل شملان جاسم قياض]



حَمَلَةُ هَوَلَاكِي عَلَى بَغْدَادَ

٦٥٦ هـ

بقلم الدكتور

رَشِيدُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَمَلِي

كلية الآداب - جامعة بغداد

الاستمرار بفضل مهارته وحسن قيادته حتى بعد وفاته (٢).

بدأ جنكيزخان اجتياحه لأقاليم العالم الإسلامي منذ عام ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ، ففي هذه السنة تدفقت جيوشه على دولة خوارزم فسيطر ونده جوجي على القسم الغربي من بلاد ما وراء النهر في نفس الوقت الذي نجح فيه بعض قواده في الاستيلاء على بناكت وخجندة على الرغم من المقاومة التي أبدتها أهل هذا الإقليم (٤) أما جنكيزخان نفسه فقد زحف بالجيش الرئيسي نحو بخارى فوصلها في غرة ذي الحجة من سنة ٦١٦ هـ فأحدث فيها مجزرة رهيبة تحولت المدينة على أثرها إلى حطام ورماد (٥) ، ولم تلبث سمرقند أن استسلمت في يوم عاشوراء من سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م بعد حصار قصير ولقي معظم سكانها مصرعهم على أيدي المغول الذين تمت لهم السيطرة على معظم إقليم ما وراء النهر وأصبحت الطريق أمامهم ممهدة إلى خراسان وبقية الولايات الغربية (٦).

عرف المغول قبل عصر جنكيزخان باسم (التتار) ، وقد وردت هذه التسمية في نقوش أرخون في القرن الثامن الميلادي ، وكانوا ينقسمون إلى قسمين : الأول يتألف من تسع قبائل والآخر يتألف من ثلاثين قبيلة (١).

عاش المغول في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي الممتدة في أواسط جنوبي سيبيريا وشمال التبت وغربي منشوريا وشرقي التركستان ، بين جبال التاي غرباً وجبال جنجان شرقاً ، وقد مارس المغول الرعي والصيد فكانوا ينتقلون في أرجاء هضبة منغوليا سعياً وراء مواطن المياه والكلاء فيهبطون في الشتاء إلى سهولها ومناطقها الدافئة حيث تتوفر الظروف المناسبة للرعي ، وفي الصيف يستقرون في المرتفعات وأعالى الجبال مدة شهرين أو أكثر حيث البرودة والمياه (٢).

والواقع أن تاريخ المغول السياسي بدأ مع ظهور جنكيزخان الذي نجح في استقطاب جموع المغول وربطهم بتنظيمات سياسية قدر لها

- (٣) محمد صالح الفزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٨ - ٩ .
(٤) تاريخ بخارى ص ١٦٦ - ١٦٨ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، الجوزجاني ، تاريخ آل جنكيز ص ١٤ .
(٦) المصدر السابق ، ج ٩ ص ٢٢٢ ، تاريخ بخارى ص ١٧٣ - ١٧٥ . محمد صالح الفزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٢٤ .

- (١) برتولد ، مادة جنكيزخان - دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية ، ٧ م ص ١٢٧ الباز العربي ، المغول ص ٢٢ ، بيروت ١٩٦٧ ، أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٢) هوتسمان ، مادة التتار - دائرة المعارف الإسلامية ، ٤ م ص ٥٧٦ ، حسن أحمد محمود وأحمد الشريف ، العالم الإسلامي في العصر العباسي ، ص ٦٢٨ .

جلال الدين قد اناح للمغول التوسع اسريع نحو الغرب فوصلوا ديار بكر و آمد وميافارقين وبلغوا الجزيرة وحران ، وتعرضت بلاد الموصل واربيل ودقوقا لهجماتهم ، واصبح الطريق ممهدا امامهم نحو عاصمة الخلافة بغداد ، فقاموا بعدة حملات استهدفت اشاعة الرعب في النفوس والوقوف على وضع الخلافة من الناحية العسكرية ومدى استعدادها للدفاع عن بغداد ، وقد بلغت هجمات المغول على العراق خلال هذه الفترة وحتى احتلال بغداد ثلاث عشرة حملة . (١٢)

وكانت المرة الاولى التي هاجم فيها المغول اطراف العراق سنة ٦١٨ هـ حين وصلت الاخبار الى بغداد بتقدم المغول من مراغه في اذربيجان نحو اربيل ، فبادر الخليفة الناصر لدين الله الى تحسين بغداد وكتب الى امير الموصل وامير اربيل بامرهما بالانضمام الى عساكره في داقوقا ، وخرجت قوات اربيل والموصل فعلا لمواجهة الموقف ، وفوجئت هذه القوات بقلة عساكر الخليفة انني لم تكن تتجاوز ثمانمائة رجل خلافا لما كان قد وعد به من انه سيرسل عشرة الاف رجل لمواجهة المغول ، ولم يجسر امير اربيل مظفر الدين كوكسوري على مهاجمة المغول الذين شرعوا في الانسحاب ظنا منهم ان قوات الخلافة في اثرهم (١٣) .

وتلا ذلك فترة من الهدوء دامت نحواً من عشر سنوات وذلك بسبب عودة المغول الى بلادهم وما تبع ذلك من وفاة جنكيزخان ونولي ولده اوغوتاي العرش من بعده الذي تمكن من القضاء على آخر مقاومة للخوارزميين بهزيمة جلال الدين منكبرتي في سنة ٦٢٨ هـ ، ثم هادد المغول هجماتهم ضد العراق فوصلت غاراتهم الى اربيل والموصل وداقوقا . وتكررت هذه الاغارات عدة مرات حيث تعرضت مناطق اربيل والموصل وسنجار وحران وماردين للفوز بين عامي ٦٣٣ هـ و ٦٣٤ هـ واضطر على اثرها امير الموصل بدر الدين لؤلؤ الى مصالحتهم (١٤) .

ولم تكن الخلافة في هذه المرحلة التاريخية الخطيرة على مستوى المسؤولية ولم تدرك حقيقة الكارثة التي باتت تهدد البلاد ، فكانت تكتفي باستنفار المتطوعين من الاطراف وترسل الكتب

وكان خوارزم شاه (علاء الدين محمد) قد غلب عليه الهلع والخوف ففر امام المغول قبل ان يشتبك في معركة فاصلة تاركاً مهمة الدفاع لحكام الولايات فتنقل في هربه من جيحون الى نيسابور الى بسطام ثم الى الري ومنها الى مازندران دون ان يفكر في الوقوف والتصدي للفرق التي ارسلها جنكيزخان لمطاردته ، ثم آل به الامر الى إحدى جزر بحر الخزر حيث قضى هناك بقية ايامه ومات في اواخر سنة ٦١٧ هـ . (١٥) اما جنكيزخان فقد عاد الى منغوليا في سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م حيث مات بعد اربعة اعوام ، ولم يتم انتخاب ولده وخليفته اوغوتاي إلا في سنة ٦٢٦ هـ (١٦) ، وكان جلال الدين منكبرتي ابن علاء الدين محمد قد رحل من الهند في سنة ٦٢٢ هـ بعد فراره امام جنكيزخان وشرع باعادة تعبئة جيوش ابيه ، ثم استعد لاعادة سيطرته على جنوب ايران وغربها غير انه انصرف الى محاربة اتقوى الاسلامية المجاورة وتعرض لبلاد الخليفة العباسي حتى وصلت طلائع قواته الى بمقوبا وتكرت واستولت على داقوقا (١٧) ، غير ان تعرضه لمدينة خلاط في سنة ٦٢٦ هـ قد ادى الى تحالف الملك الانصرف بن العادل الايوبي مع كيقباد بن كيكسرو فتمكن من هزيمته والقضاء على معظم قواته (١٨) ، وقد اطمعت هذه الهزيمة اعداء جلال الدين فاغروا به المغول ، وحين احس بالخطر المحدق به سعى للتقرب الى الخليفة العباسي والملك الاشرف الايوبي ، كما راسل عدداً من امراء المسلمين في اقليم الجزيرة وبلاد الشام ، غير ان المغول كانوا له بالمرصاد فلم يتركوا الفرصة له لاعادة بناء قوته العسكرية واسرعوا بمهاجمته في سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ففر الى إحدى قرى ميافارقين ولم يلبث ان سقط سريعا بيد أحد الاكراد في المنطقة . (١٩)

زحف المغول نحو بغداد :

كان سقوط الدولة الخوارزمية واختفاء

- (٧) الجويني ، تاريخ جهانگشاي ، ج ٢ ص ١١٤ - ١١٧ ، تاريخ بخارى ص ١٧٦/١٧٨ حافظ حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ص ١٢٧ - ١٢٠ .
- (٨) جعفر خصبك ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الآداب العدد ٣ سنة ١٩٥٨ ص ١١٠ - ١١١ .
- (٩) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٢٤ .
- (١٠) ابو الفدا ، المختصر في اخبار البشر ج ٣ ص ١٥٢ .
- (١١) سبط ابن الجوزي ، مراة الزمان ج ٨ ق ٢ ص ٦٦٦ ، ابن العبري ، ص ٢٤٧ . القزاز ، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ص ٥١ .

- (١٢) نفس المصدر ، ج ٨ ق ٢ ص ٦٧٢ ، القزاز ، نفس المرجع السابق ص ٥٢ .
- (١٣) ابن الاثير ، الكامل ج ٩ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
- (١٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٨٤ ، ٩٩ ، ابن العبري ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

الى الامراء تستحثهم على النهوض (١٥) ، وسرعان ما تختفي هذه الاجراءات مع ابتعاد الخطر عن اطراف الدولة ، ويمسود الناس الى اعمالهم ، في حين كان يتعين على الخلافة تعبئة طاقات الامة وحشد قواها المادية والبشرية لمواجهة التحدي المفولي وان يتولى الخليفة نفسه قيادة القوى المقاتلة لما يترتب على ذلك من رفع للمصنوعات وشحذ للهمم ، غير ان شيئاً من ذلك لم يحدث فقد كانت سياسة المستنصر بالله (١١) تقوم على محاولة استرضاء المغول ومصانعتهم ، ثم بلغت الخلافة ذروة ضعفها في عهد المستنصر بالله (١٢) (٦٤٠ هـ - ٦٥٦ هـ) ، الذي وصفه المؤرخون بالغفلة وضعف الراي وقلة المزم ، وكان اخطر ما اقدم عليه الخليفة الجديد هو اهماله الجيش وامساكه عن الانفاق على الجند (١٨) .

والواقع ان اهمال الناحية العسكرية وما ترتب عليها من نتائج سيئة لا يتحمل مسؤوليتها الخليفة وحده بل يشاركه رجال دولته من الوزراء والحجاب وامراء الجيش والحاشية ، فهؤلاء جميعاً يتحملون مسؤولية الكارثة التي حلت بالبلاد (١٩) . فكان بعضهم يهون على الخليفة امر المغول والبعض الآخر ينصح باسترضائهم بالهدايا والاموال ، بالإضافة الى ما تفجر بين هؤلاء الامراء والوزراء من خلافات وصراعات حول السلطة عجز الخليفة عن السيطرة عليها وازالة اسبابها ، فكان ذلك عاملاً من عوامل اشاعة الفوضى والاضطراب في دار الخلافة .

هجوم المغول على بغداد :

استعد هولاكو للزحف نحو بغداد في المحرم سنة ٦٥٥ هـ بعد ان تم له القضاء على قلاع الاسماعيلية في ايران ، وبعث من همدان انذاراً شديداً الى الخليفة المستنصر بالله دعاه الى تدمير جميع اسوار بغداد والمثول بشخصه امامه او ارسال ثلاثة من كبار رجال دولته نيابة عنه ،

- (١٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ - ٩٨ ، ١١٠ ، ١١٢ .
 (١٦) المستنصر بالله : ابو جعفر منصور بن الظاهر بامر الله ولد في صفر سنة ٥٨٨ هـ .
 (١٧) المستنصر بالله : ابو احمد عبدالله بن المستنصر بالله ولد في سنة ٦٠٩ هـ .
 (١٨) ابن الفوطي ، ص ١٦٨ ، ٢٦١ ، ٢٢٠ ، ابو العباس ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٨ .
 (١٩) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير .

فرفض الخليفة ذلك (٢٠) ، وكتب اليه واصفاً اياه بالفرور ومهدداً بان ملوك الارض سيقفون الى جانبه اذا استمر في الزحف نحو بلاده ، ودعاه الى الجنوح للسلم والعودة الى خراسان او الى الحرب ، فلم يابه هولاكو برسالة الخليفة بل استخف بها واكد اصراره على مواصلة زحفه الى بغداد (٢١) ، ثم ارسل نداءً آخر دعا الخليفة فيه الى تحديد موقفه وهدده بانه متوجه الى بغداد « بجيش كالنمل والجراد » (٢٢) . وقد رفض الخليفة هذا الانذار ظناً منه بان الايوبيين في الشام والمالكي في مصر سيسارعون الى الانضواء تحت لوائه متناسياً الظروف السيئة التي كانت تحيط ببغلاء في هذه الفترة (٢٣) .

وفي المحرم من عام ٦٥٥ هـ تحرك هولاكو من همدان فوصل اسد آباد حيث اوفد رسولا الى بغداد يطلب الى الخليفة الحضور امامه بهدف التوصل الى اتفاق لتجنب الحرب ، وترك للخليفة الخيار في الحضور او ان ينسب عنه وزيره ابن العلقمي وقائده الدويدار وسليمان شاه ، غير ان الخليفة لم يكن يملك القدرة على حمل هؤلاء الثلاثة بالخروج للقاء هولاكو ، فاكتمى بارسال شريف الدين ابن الجوزي وخوئه بدل الاموال لاقتناع الزعيم المفولي بالموودة عن بغداد ، غير ان ذلك لم يجد نفعا (٢٤) .

ولم يجد الخليفة بداً من المواجهة فأمر قائده مجاهد الدين ايبك الدويدار بالخروج على راس قوات بغداد للتصدي لهولاكو على طريق حلوان (٢٥) .

وكان هولاكو قد وضع خطة للاطباق على بغداد من جميع جهاتها وتقرر ان يزحف قسم من جيشه عبر دجلة ليحيط بالجانب الغربي في حين يتولى بنفسه الالتفاف على القسم الشرقي من المدينة ، ويشير المؤرخ رشيد الدين الى ان جيش هولاكو كان يتألف من اربعة اقسام اطبقت على

- (٢٠) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢٢ ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧١ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .
 (٢١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ١٢ ج ٢ ص ٢٧١ .
 (٢٢) المصدر السابق ، جامع التواريخ ص ٢٧١ .
 (٢٣) القزاق ، الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الاخير ص ٣١٢ .
 (٢٤) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة ص ٢٢٠ ، ابن العبري ص ٢٧٠ .
 (٢٥) جعفر خضبان ، الاحتلال المغولي للعراق مجلة كلية الادب عدد ٢ سنة ١٩٥٨ ص ١٤٠ .

بغداد من جانبها ، في حين يذكر ابن الفوطي القسمين الرئيسيين لهذا الجيش . (٢٦)

نزل عسكر الخليفة بقيادة الدويدار في بادىء الامر في بعقوبة ، فلما علم يتقدم قوة من المغول نحو الضفة الغربية لدجلة ، سارع بعبور النهر ليتصدى لهم شمال بغداد ، فادى انسحابه هذا الى خلو الجهة الشرقية من الجند ، وحاول الخليفة حمل من تبقى من امراء العسكر على الخروج تحت قيادة مرشد الخصي ، فرفضوا السير تحت لوائه ولم ينفذوا اوامر الخليفة ، مما سهل مهمة هولاكو في الوصول الى اسوار بغداد (٢٧) والنقى جيش الخليفة بطلانغ المغول بالقرب من قنطرة باب البصرة ، وقد اختلف المؤرخون في تقدير حجم القوة المغولية ، فابن كثير يذكر انها كانت نحواً من عشرة الاف ، في حين يجعلها ابن الطقطقي ثلاثين الفا (٢٨) . ولجأ المغول الى تطبيق اساليبهم المعروفة في الحرب فتظاهروا بالهرب امام قوات الخليفة التي كان يقودها الدويدار ، فاندفع وراءهم ولم يستمع الى نصيحة فتح الدين بن قمر الذي اشار عليه بالثبات في مواقعه ، والاستعداد لمواجهة مرة اخرى ، وكان المغول يرمون الى ابعاد قوات بغداد عن مواقعها في نفس الوقت الذي تقوم فيه فرقة منهم بتدمير السدود القائمة على تفرع نهر بشير من المدجيل لاغراق الاراضي وراء تلك القوات وحصرها فيها ، وقد نجح المغول في تحقيق هذا الهدف حين توقفوا عن التراجع وعادوا للهجوم ثانية حيث انحصرت قوات بغداد في المنطقة المقصورة بالمياه فهلك معظمها الا من اتقى نفسه في الماء ومن دخل البرية ومضى على وجهه الى الشام ، وتمكن الدويدار من النجاة ودخل بغداد في عدد قليل من اصحابه (٢٩) .

وفي الحادي عشر من محرم سنة ٦٥٦هـ / ٢٢ كانون ثاني ١٢٥٨م استكمل المغول حشودهم على الضفة الغربية لنهر دجلة ، وتولى قيادة هذه الحشود ثلاثة من كبار امرائهم وهم : بابجو ، وبقاتيمور ، وسوجونجق (سونجاك) ، في حين

- (٢٦) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢م ج ١ ص ٢٨١ ، ابن الفوطي ، ص ٢٢٠ ، القزاز ، ص ٢٢٤ .
(٢٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٩ .
(٢٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٢٠١ ، ابن الطقطقي ، الفخرى ص ٢٩٢ .
(٢٩) ابن العبري ، ص ٢٧٠ ، العريني ، تاريخ المغول ص ٢١٨ .

كان هولاكو وكتبغا يضيّقون الخناق على بغداد من من الجانب الآخر ، وبادر المغول الى اقامة الاستحكامات ، فاقاموا على دجلة باعلى المدينة وباسفلها جسرين قائمين على السفن امعانا في تضيق انحصار على بغداد وكي لا يدعوا لاهليها الفرصة في الرحيل عن طريق النهر ، واستخدم المغول جدوع النخيل للرمي بالمنجنيق بدلا من الاحجار التي لم تكن متوفرة حول بغداد حيث كانوا يأتون بها من جبل حميرن وجولاء . (٣٠)

وبدأ المغول الحرب في الثاني والعشرين من المحرم وشدد هولاكو على القطاع الشرقي فتمكن من الاستيلاء على الاسوار المتمثلة في البرج المعروف ببرج المعجمي المجاور لباب الحطبة ، وكان نجاح المغول في الاستيلاء على هذا الجزء الهام من المدينة اثره في معنويات المدافعين وسكان المدينة ، فقرر الخليفة ايفاد وزيره ابن العلقمي وجائليق المسيحيين النساطرة الى هولاكو لاقناعه بالكف عن القتال وعقد الصلح ، غير ان هولاكو لم يلتفت الى ذلك ، بل طلب من الوزير ان يصطحب معه الدويدار وسليمان شاد ، الا ان الوزير حضر في اليوم التالي مع صاحب الديوان وجماعة من اعيان بغداد ، فردهم هولاكو خائبين واستمرت الحرب بين الطرفين . (٣١)

وساءت الاحوال ببغداد وحاول عدد كبير من رجال حاميتها الهرب غير انهم لم ينجحوا ووقعوا في قبضة المغول فاجهزوا عليهم ، ولم يلبث الخليفة المستعصم ان اعلن الاستسلام وارسل فخر الدين الدامقاني وابن درنوس مع بعض الهدايا لتقديمها الى هولاكو ، غير ان الاخير لم يأمر بوقف القتال ، كما رفض شفاعته ولدي الخليفة الفضل عبدالرحمن وابي العباس احمد اللذين خرجا بعد ذلك مع جماعة من اهل بغداد محملين بالهدايا والتحف . (٣٢) واصر الزعيم المغولي على ضرورة حضور الدويدار وسليمان شاه اللذين كانا يتوليان قيادة المقاومة ضد المغول ، فقرر الخروج لمقابلة هولاكو في الاول من صفر سنة ٦٥٦هـ ، فطلب اليهما اصدار الاوامر الى المدافعين عن بغداد بالانضمام الى انجيش المغولي الذي سيتوجه الى الشام ومصر ، فاستجابا لذلك ، وخرج عدد كبير من الجند للالتحاق

- (٣٠) ابن العبري ، ص ٢٧٢ ، القزاز ، ص ٢٢٥ .
(٣١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ٢م ج ١ ص ٢٨٧-٢٨٦ .
(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠ ، ابن العبري ، ص ٢٧١ .

بالمغول ، غير أن الموت كان بانتظارهم خارج الاسوار وخرج الدويدار وسليمان شاه في اليوم التالي ولقيا نفس المصير . (٢٢٢)

ولم يجد الخليفة بدا من الخروج فاستاذن هولاكو في ذلك وخرج معه اولاده واهله ، فأمر هولاكو بانزالهم بباب كلواذا ، وطلب الى الخليفة أن يصدر أوامره الى بقية المدافعين عن بغداد بإلقاء أسلحتهم والخروج لإحصائهم فاستجاب لذلك وخرجت جماعات كبيرة منهم ، فاحاط بهم المغول وقتلوه عن آخرهم ، ثم دخل هولاكو بغداد ليشاهد دار الخليفة وأمر بإحضاره ، فحضر المستعصم ومعه جمع من العلماء والاعيان ، وقدم الى هولاكو الجواهر والدرر وأواني الفضة والياب النفيسة ، ففرقها على الأمراء ، وعنف الخليفة تمنيفاً شديداً وحمله مسؤولية ما وقع من أحداث بسبب تهاونه في الدفاع عن البلاد وأمسكه عن اتفاق أمواله لتقوية الجيش . (٢٢٣)

وأطلق هولاكو أصحابه لنهب بغداد فاستباحوها مدة سبعة أيام (٢٢٤) ، وأمر عساكره الترابط على الاسوار بالنزول الى داخل المدينة والاشتراك في الإجهاد على السكان ، فلم يفرقوا بين الرجال والنساء والأطفال ، واستجار قسم منهم ببعض المقربين من المغول ، والتجأ بعضهم الى بيوت النصاري الذين كانوا قد حصلوا على الأمان والرعاية من المغول ، واشتعلت النيران في أرجاء بغداد ، فاحترق جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومرافق الخلفاء ، وكان القتلى في الأسواق والدروب كالتلول وقعت عليهم الأمطار وداستهم الخيول فتغيرت صورهم ، ولم يلبث هولاكو أن أمر بقتل الخليفة المستعصم مع ولده أبو العباس أحمد ثم ابنته الأوسط أبو الفضل عبدالرحمن ، كما قتل أعمام الخليفة وأقاربه وجماعة من الأعيان ، ثم أمر برفع السيف وأعلن أن من بقي على قيد الحياة أصبح من رعاياه (٢٢٥)

(٢٢٢) ابن العبري ، ص ٢٧١ .

(٢٢٣) نصر الدين الطوسي ، استيلاء المغول على بغداد ص ٢٨ (رسالة بالفارسية ترجمها محمد صادق الحسيني ونشرت في مجلة المرشد البغدادي ج ١) .

(٢٢٤) ابن العبري ، ص ٢٧٢ ، ذكر ابن الفوطي أن المغول استباحوا بغداد مدة أربعين يوماً ، الحوادث الجامعة ص ٢٢٩ .

(٢٢٥) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ابن الفوطي ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، خصبالك ، ص ١١٢ ، القزاز ص ٢٢٩ .

وقد اختلفت روايات المؤرخين حول تقرير عدد الذين لقوا مصرعهم على أيدي المغول في بغداد ، فذكر ابن الفوطي أنهم كانوا يزيدون على ثمانمائة ألف سوى من هلك من الأطفال ومن مات في انسداد و الأبار (٢٢٦) ، أما الذهبي فيقدر عدد القتلى بما يزيد على ألف ألف وثمانمائة (٢٢٧) ، ولا شك أن هذه التقديرات مبالغ فيها إذا ما أخذنا في نظر الاعتبار مساحة بغداد المحصورة بين الاسوار آنذاك ومدى استيعابها للسكان ، بالإضافة الى أن الكثير من أهلها كانوا قد التمسوا النجاة بأنفسهم بعد سماعهم باقترب المغول الذين أشاعوا الخوف واللعن في نفوس الناس ، كما يجب أن لا ننسى الذين لجأوا الى بيوت النصاري أو المقربين من المغول ، ومن ظل مختفياً عن الأنظار في المناطق المهجورة ، والدليل على أن المغول لم يجهزوا على جميع السكان إعلان هولاكو بأن بغداد أصبحت ملكاً لنا فليستقر الأهالي ولينصرف كل شخص الى عمله (٢٢٨) ، وقد قدر المؤرخ الفرنسي جروسية عدد القتلى بتسعين ألفاً مستنداً الى دراسة المصادر الأولية ، ولعل هذا الرقم هو الأقرب الى الواقع . (٢٢٩)

وبعد أن أعلن هولاكو إيقاف القتال أمر بدفن الموتى ورفع جثث الحيوانات من الطرقات والأسواق ، بعد أن فسد الهواء ببغداد وانتشر الوباء في أرجائها ، وقبل أن يغادر معسكره الى همدان أمر بتنظيم الأمور في العراق ، وفوض حكومة بغداد الى الأمير علي بهادر وجعله شحنة بها ، وأقر الوزير ابن النظمي في الوزارة وفخر الدين الدامقاني في الديوان ، ونظام الدين عبدالمنعم في القضاء ، كما وزع المناصب الإدارية والمالية على نجم الدين عبدالقسي بن درنوس ، وقاج الدين علي بن الدوامي ، وفخر الدين مبارك ابن المخرمي ، ثم رحل هولاكو في جمادى الأولى من السنة نفسها ٦٥٦ هـ ، وترك على بغداد قائدين من المغول في ثلاثة آلاف جندي ، وواصل رحيله الى همدان . (٢٣٠)

(٢٢٦) ابن الفوطي ، ص ٢٢١ .

(٢٢٧) الذهبي ، نول الاسلام ج ٢ ص ١٢١ .

(٢٢٨) رشيد الدين ، جامع التواريخ ص ٢٩٢ ، خصبالك ص ١١٤ - ١٤٥ ، القزاز ، ص ٢٢٨ .

(٢٢٩) Grousset, L'Empire des steppes. P. 299 (١٠) .

(٢٣٠) خصبالك ، ص ١١٢ ، القزاز ، ص ٢٢٩ .

حملات تيمور على بغداد

٧٩٥ - ٨٠٧ هـ / ١٣٩٣ - ١٤٠٥ م

بقلم

نوري عبدالحميد خليل

جامعة بغداد/كلية التربية

احمد ، فقد شهد العالم الاسلامي في عهده موجة مغولية جديدة ، اندلعت من اواسط اسيا بقيادة تيمور (تيمورلنك) (١) .

ينتسب تيمور الى احدى القبائل المغولية - التركية ، وقد نشأ نشأة اسلامية في مدينة كاش في ما وراء النهر (جيحون) ، وصاحب نظراء من اولاد الامراء والوزراء ، وتدريب على فنون القتال . وقد مكنته شجاعته العسكرية من ضم القبائل المغولية تحت لوائه ، والتخلص من الامراء المنافسين على السلطة واحدا بعد الآخر ، واصبح حاكما على ما وراء النهر سنة ٧٧١ هـ / ١٣٦٩ م ، وانخذ سمرقند عاصمة له . وكانت الاوضاع الاقتصادية المتردية في بلاد ما وراء النهر ، ورغبة تيمور في السيطرة ، وعدم اعترافه بوجود حاكم آخر ، من العوامل المهمة في اندفاعه نحو الغرب ، لا سيما وقد اعتبر نفسه وريثا لاملاك المغول ، والامبراطورية الايلخانية الواسعة التي كانت تضم خراسان وبلاد الجبل والعراق العربي واذربيجان والاحواز وفارس وديار بكر واسيا الصغرى (٢) .

(١) نوري عبدالحميد خليل ، العراق في العهد الجلايري ١٣٢٧ - ١٤١١ م ، رسالة ماجستير - غير منشورة (كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦) ، ص ٢٧ - ٢٠ ؛ وانظر ايضا : شيرين بياني ، تاريخ ال جلاير (طهران ١٣٤٥) ص ١٢ - ١٠٨ ؛ عباس المزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ (بغداد ١٩٣٦) ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) جاسم مهاوي حسين ، تاريخ الغزو التيموري للعراق والشام واثاره السياسية ١٢٨٥ - ١٤٠٥ م ، رسالة

تجزات المملكة الايلخانية سنة ٧٢٦/١٣٢٥م، واندلعت الحروب بين الطامعين بالسلطة ، وقد تمكن الشيخ حسن الجلايري ان يستقل بالعراق سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م ، ويؤسس الدولة الجلائرية ، واتخذ من بغداد عاصمة له . وفي سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م تولى الحكم ابنه الشيخ اويس الذي بسط نفوذه على منطقة اذربيجان الفنية ، ونقل عاصمته الى تبريز ، اما العراق فقد اصبح ولاية جلائرية . ولا خلفه ابنه حسين سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ، وكان صفيير السمن ضعيفا ، تسلف امراء الجيش على شؤون الحكم ، وانضم فريق منهم الى اخيه الشيخ علي حاكم بغداد ، ومال فريق آخر الى اخيه الثاني احمد ، وكان حاكما على ولاية البصرة . ونشب صراع على السلطة بين الاخوة الثلاثة ، انتهى سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م بمقتل السلطان حسين واستيلاء احمد على الحكم في تبريز .

لكن السلطان احمد اساء معاملة اخوته وامراء الجيش ، فهرب اخوه بايزيد الى مدينة السلطانية ، عاصمة الايلخانيين ، لاجئا عند حاكمها الجلايري الامير عادل اغا ، وكان ساخطا على السلطان احمد ايضا ، فاکرم بايزيد واقامه سلطانا هناك . ولجأ قسم من الامراء الى بغداد ، ونصبوا الشيخ علي سلطانا ، وساروا به نحو تبريز على رأس جيش عراقي كبير . وقد تمكن السلطان احمد من قتل اخيه الشيخ علي ، ونشبت جيش بغداد في السنة التالية ، بمساعدة حليفه قره محمد حاكم التركمان القره قوينلو . غير ان الامور لم تستتب للسلطان

انارت الانتصارات التي احرزها تيمور في اواسط آسيا وشمال ايران والولايات الايلخانية قلق انسلطان احمد في تبريز ، فامر سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م بوضع حامية عسكرية كبيرة في مدينة السلطانية . وانسحب الى بغداد ، لكن قوات تيمور داهمت السلطانية ، بعد فترة قصيرة ، واستولت عليها (٢) . ويبدو ان السلطان اراد تقوية مركزه في تبريز وابقاء سيطرته عليها ، فثار اليها في السنة التالية على رأس جيش عراقي كبير من بغداد ، غير ان قوات تيمور هاجمت المدينة فاضطر السلطان الى التراجع عنها ، ودخلها تيمور دون مقاومة (٣) .

وبعد ان اخضع تيمور اذربيجان وجورجيا وارمينيا ، كان متوقفا ان يضع العراق ضمن مخططاته التوسعية ، كونه مفتاحا الى بلاد الشام والحجاز ومصر ، ولأجل تأمين طرق التجارة القادمة من الخليج العربي الى بغداد وتبريز وسمرقند . وكانت الاوضاع انسائدة في العراق لا تساعد على المقاومة ، فقد اتسمت سياسة السلطان احمد بضيق الافق ، وعدم تقييمه لقوة تيمور . فلم يتخذ اجراءات عسكرية لدفع خطره ، او اقامة جبهة داخلية قوية تدعمه ، بل اجهد نفسه في القضاء على خصومه السياسيين ، ففقد خيرة ضباط جيشه . ويقول عزيز الاسترابادي ، وكان نديمه في بغداد : ان السلطان احمد « قتل عددا كبيرا من قادة الجيش واعيان رجال الدولة ، من ذوي الكفاءة والدراية والرأي في تدبير الامور ، وجمع حوله عددا من الاسافل ممن عرفوا بالجهل والحمالة والخمول ، ونصبهم في المناصب العليا . وقد ادى تقصيرهم وسوء تصرفهم الى ايجاد فتور كبير في اعمال الدولة ، فقامت المعارضة والفتن في كل مكان ، وانصرف السلطان الى اقامة مجالس الشراب ، ولم يصرف لحظة واحدة في اعمال الملك والدولة » (٤) . وتتفق مصادر تيمور الرسمية مع المصادر المصرية على ان سكان بغداد كرهوا

السلطان احمد وسياسته التصفية ، فكاتب بعض اعيانها تيمور يحرضونه على سلطانهم ، ويستحثونه القدوم واحتلال بغداد ، حتى ان بعض موظفي البريد وكشافة الطرق الذين ارسلهم السلطان احمد لرصد تحركات تيمور ، لجأوا الى تيمور ودخلوا في طاعته قبل وصوله الى بغداد (٥) .

اما على الصعيد الخارجي فان السلطان احمد لم يتعاون مع الدول المجاورة للوقوف بوجه تيمور ، واهمل العرض اندي تقدم به الامير ولي حاكم مازندران لاقامة حلف معه ضد تيمور بالتعاون مع اندولة المظفريه في فارس ، واتسمت علاقته بالدولة الاخيرة بطابع عدائي (٦) . كما اهل العرض الذي تقدم به تقتمش ، خان القبيلة الذهبية الحاكمة في جهات الغولغا ، والذي اقلقه اقتراب جيش تيمور من حدود بلاده ، ولما شعر تقتمش بضعف السلطان احمد ، ارسل في سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م (٥٠ الف فارس للمرابطة عند مدينة دربند (باب الابواب) على بحر الخزر ، تحسبا للطوارئ . وفي الوقت نفسه ارسل الى بغداد وفدا برئاسة قاضي مدينة سراي عاصمة القبيلة الذهبية ، عارضا على السلطان احمد اقامة تعاون ضد عدوهما المشترك ، الا ان السلطان لم يفتنم هذه الفرصة ، بل اساء معاملته احد اعضاء الوفد ، مما ادى الى تردي العلاقة مع تقتمش (٧) .

لم يدرك السلطان احمد خطر تيمور الا بعد قوات الاوان ، وبعد ان فقد العاصمة تبريز ، فاخذ يفتش عن حليف يساعده على الوقوف بوجه هذا الخطر ، وقد باءت المحاولات التي بذلها للتحالف مع العثمانيين بالفشل ، كما انه لم يحصل على مساعدة المماليك الجراكسة في مصر والشام ، بسبب اضطراب مملكتهم وسوء اوضاعها الداخلية (٨) .

- (٦) تيمور ، تزوكات تيموري ، تحرير ابو طالب حسيني (اكسفورد ١٧٨٢) ص ١٢٤ - ١٢٥ ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، تحقيق فلسطين زريق ونجلاء عز الدين (بيروت ١٩٢٨) ج ٩ ص ٢٤٤ ؛ تقي الدين احمد بن علي القزويني ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه سعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة ١٩٠٧) ج ٢ ص ٧٨٨ .
- (٧) نظري ، منتخب التواريخ ، ص ٢٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٥ - ٩٦ .
- (٨) حافظ ابرو : ذيل ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ محمد بن برهان الدين خواند شاه الشهور بمرخواند ، روضة الصفا (طهران ١٣٢٩) ج ٥ ، ص ٥٩٥ .
- (٩) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

عاجستير (غير منشورة) كلية الاداب - جامعة بغداد ١٩٧٦ ، ص ٤٤ - ٦١ .

(٢) شهاب الدين عبدالله بن لطف الله بن عبدالرشيد الخوافي المدعو بحافظ ابرو ، ذيل جامع التواريخ رشدي ، (طهران ١٣١٧) ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٤) معين الدين نظري (منسوب له) منتخب التواريخ معين ، (طهران ١٣٢٦) ص ٢٢٠ .

(٥) عزيز ابن اردشير الاسترابادي ، بزم ويزم (استانبول ١٩٢٨) ص ١٦ - ١٧ ، خليل ، المصراع لي المهدي الجلالي ، ص ١٦٢ .

الحملة الاولى ٧٩٥هـ / ١٢٩٢م :-

في ١٥ رجب ٧٩٤هـ / ١٢٩٢م زحف تيمور على رأس جيش يبلغ تعدادة حوالي مئة الف مقاتل من جهات ما وراء النهر نحو الغرب ، وبعد ان اخضعت هذه القوات فارس وخوزستان وبلاد الجبل واحكمت سيطرتها في السنة التالية على ايران ، تجمعت في الثامن من شعبان ٧٩٥هـ / ١٢٩٢م في همدان تمهيدا للزحف على بغداد (١٠) .

بعث تيمور رسالة الى السلطان احمد ، ومعها الخلة والسكة ، وامره باعلان خضوعه ، وان يذكر اسمه على النقود وفي الخطبة ، والاسراع بالمثل بين يديه لتقديم فروض الطاعة (١١) . لكن السلطان رفض ذلك ، واجاب برسالة تهكمية ، اعلن فيها استخفافه بتيمور ، واستغرابه من اعجابه الشديد بنفسه ، فكيف « يصبح الشعب الضال الذي لا يد له ، ولا رجل ليثا ، وكيف يتقابل الاصل مع الاصيل » معتبرا اياه مجرد (نملة في صحراء) (١٢) .

شرعت قوات تيمور في ١٢ شعبان ٧٩٥هـ / ١٢٩٢م بسلسلة من الحملات في شمال العراق بقصد اخضاع القبائل الكردية والتركمانية المتحالفة مع اسلطان احمد ، والاستحواذ على المواد الغذائية المتوفرة في المنطقة ، وضبط الطرق الموصلة الى بغداد . وبعد ان احكمت هذه القوات سيطرتها على الطريق الممتد بين همدان وجمجمال ، واخضعت القبائل الكردية والتركمانية المنتشرة على طوله (١٣) وجد السلطان احمد نفسه عاجزا عن مقاومة الجيش الزاحف ، فاراد تدارك الامر باعلان خضوعه وارسل اليه وفدا برئاسة الشيخ نور الدين عبدالرحمن الاسفرايني ، وكان من اكابر مشايخ بغداد ، وحمله رسالة الى تيمور ، معلنا فيها خضوعه اليه ، ومعتذرا عن الحضور بنفسه والمثل امامه ، وابدى ترحيبه به اذا اراد القدوم الى بغداد وارسل معه جملة من الهدايا الثمينة والتحف النادرة من بينها الخيول العربية ذات السروج المذهبة .

قابل الوفد تيمور في قرية اق بولاق ، قرب

شهرزور بين همدان واربييل ، فاستقبله تيمور بحفاوة واجلال عظيمين ، لكنه رفض استلام الهدايا لان السلطان لم يحضر بنفسه لتقديم فروض الطاعة وبعد ان انعم على الشيخ خلة وحصانا ثمينين مع كمية من النقود ، اعاده الى بغداد ، واعدا اياه بعدم التمرض لها (١٤) .

لقد اراد تيمور التمويه على السلطان احمد ، فبعد ان عاد الشيخ عبدالرحمن مطمئنا ، امر قواته في ١٢ شوال ٧٩٥هـ / ١٢٩٢م بالزحف على بغداد . فتقدمت هذه القوات عبر ممرات جبلية ضيقة ، ووصلت بعد خمسة ايام الى مزار الشيخ ابراهيم يحيى المشهور بقبته ابراهيم الك ، قرب الخالص . ولا شاهد اتباع السلطان احمد غبار الجيش طمروا حمالة مع رسالة يخبرون فيها السلطان بوصول جيش تيمور . وحين وصل تيمور وعلم بالامر امرهم في الحال ان يرسلوا رسالة اخرى ، يذكر فيها ان الغبار الذي شاهدوه لم يكن من اثر جيوش تيمور بل غبار التركمان الذين هربوا منه ، ثم امر قوته بالسير باقصى سرعة (١٥) .

تقدمت قوات تيمور لاحتلال بغداد ، وقد تولى قيادة المقدمة الامير عثمان عباس ، وتولى تيمور نفسه قيادة القلب ، وقاد الميمنة حفيده محمد سلطان ، والمبصرة ابنه ميرانشاه ، اما عثمان بهادر فقد قاد المؤخرة (١٦) . فوصلت هذه القوات بغداد في ٢١ شوال / اب ، ونزلت في الجانب الشرقي (الرصافة) . اما السلطان احمد فحين علم بقدوم تيمور نقل امواله وحريمه واسلحته وارسلهم امامه الى الحلة ، ثم قطع الجسر ونقل السفن الى الجانب الغربي (الكرخ) واغرق بعضها واحرق البعض الآخر ، لكي لا يستفيد منها العدو ، وانسحب من بغداد مع عدد من اتباعه (١٧) . وبعد خروج السلطان احمد قام بعض اعيان المدينة بفتح الابواب واستقبلوا تيمور ، وكان على رأس

(١٠) شرف الدين علي اليزدي ، ظفرنامه ، بنصحيح واهتمام محمد عباسي (طهران ١٣٢٦) ج ١ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ عبدالله بن فتح الله الملقب بالفياني ، التاريخ الفياني ، دراسة وتحقيق طارق نافع الحمداني (بغداد ١٩٧٥) ص ١٠٨ - ١٠٩ ، ١٨٥ .

(١٥) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ص ٢٥٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ص ١٥٥ .

(١٦) حسين ، الفزو التيموري ، ص ١٢٨ .

(١٧) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ص ٥١ ؛ الفياني ، ص ١١١ ، ١٨٦ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١١٢ - ١١٧ .

(١١) احمد بن علي بن حجر المسقلاني ، انباء الفهر بابناء العمر ، تحقيق حسن حبشي (القاهرة ١٩٦٩) ج ١ ، ص ٥٢ ؛ ابي العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ١٩٦٣) ، ج ٢ ص ٣١١ .

(١٢) بياني ، تاريخ آل جلايسر ، ص ٨٢ - ٨٣ ، حسين ، الفزو التيموري ، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(١٣) حسين ، الفزو التيموري ، ص ١١٧ - ١٢٠ .

المستقبلين الشيخ نظام الدين الشامي الذي دون فتوحات تيمور فيما بعد (١٨) .

عبر بعض اتباع تيمور نهر دجلة سباحة لجلب السفن الراسية في الجانب الغربي من بغداد ، والتي لم يتمكن السلطان احمد من انقاذها . فاستولوا على سفينة السلطان الخاصة المسماة الشمس ، وهي ذات ثلاثين مجدافا ، مع اربع سفن اخرى ، فاستخدم تيمور هذه السفن في العبور الى الجانب الغربي ، والسيطرة على بغداد (١٩) .

من الصعوبة بمكان تحديد حجم الخسارة التي تعرضت لها المدينة من جراء دخول جنود تيمور ، فقد قدر القريري عدد اسكان الذين قتلوا بثلاثة الاف نفس (٢٠) . غير ان مصادر تيمور الرسمية لا تشير الى وقوع خسائر في الارواح لان المدينة استسلمت صلحا . وتذكر هذه المصادر ان تيمور اكتفى بأخذ (مال الامان) ، وهي الضريبة التي اعتاد اخذها من سكان المدن التي تفتح صلحا ، مقابل الحفاظ على ارواحهم (٢١) . وقد اناط مهمة جمعها بأحد امراء السلطان احمد الذين تعاونوا معه والمذعو شرف الدين البليقي مع عدد من اعوانه (٢٢) .

كان امر تيمور ان يجبي من السكان كل حسب قدرته المالية ، لكن الذين تولوا جمع الضريبة طالبوا الناس باموال كثيرة ، وحملوهم فوق طاقتهم (٢٣) . ويذكر القريري ان تيمور صادر اهل بغداد ثلاث مرات ، وجمع في كل مرة ١٥٠٠ تومان ، اي ما مجموعه ٤٥ مليون دينار عراقي (الدينار ست دراهم) (٢٤) . وقد رافق عملية الجمع اشجع انواع التعذيب واقساها ، وكان من بين الوسائل التي اتبعها الجند في تعذيب الناس : عصر الاعضاء والمشي على النار وتعليق البعض من

(١٨) نظام الدين الشامي ، ظفرنامه ، بسمي واهتمام وتصحيح ملكي تاور (بيروت ١٩٣٧) ص ١٢٩ ، ابن الفرات ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ص ٢٤٤ .

(١٩) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٤٥١ ؛ الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ ، ١٨٦ .

(٢٠) القريري ، السلوك ، ج ٩ ق ٢ ، ص ٧٩ .
(٢١) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١٤١ ؛ البيهقي ، ظفرنامه ، ج ١ ص ٤٥٧ .

(٢٢) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١١٢ .

(٢٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ص ٣٦٢ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ص ٢٨٦ .
(٢٤) القريري ، السلوك ، ج ٢ ق ٢ ، ص ٧٩ .

الارجل . كما كانوا يدسون خرقة فيها تراب ناعم بانف المذهب حتى تكاد تخرج نفسه فيخلى عنه كي يستريح ، ثم تعاد العقوبة عليه (٢٥) . وقد مات من اثر التعذيب والعقوبة عديد كبير من الموسرين والتجار واعيان بغداد وامرائها ، قدرتهم المصادر المصرية بين ٧٠٠ - ٨٠٠ نفس (٢٦) . كما استولى اتباع تيمور على خزائن السلطان احمد ، وصادروا اموال الرؤساء والاعيان والامراء الذين هربوا معه ، منهم قاضي بغداد الشافعي غياث الدين ابن العاقولي ، ومحتسب بغداد وجيه الدين ابن الانباري ، ومحمد بن عبدالقادر انواسطي (٢٧) . وقاموا باذلال الناس باخراج الغنيات والاعتداء على اعراضهن ، ونهبوا كل ثمين يقع تحت ابصارهم من تحف ومجوهرات ، فكانوا يقتلمون الذهب والفضة التي تزين بيوت الاغنياء (٢٨) .

اما الخسارة في الجوانب الحضارية فقد كانت كبيرة جدا ، فرغم الكارثة التي حلت بانحطارة العربية بعد سقوط بغداد على ايدي المغول ، ظلت بغداد مركزا للعلم والصناعة وانفن (٢٩) . الا ان تيمور امر بجمع الموهوبين من اصحاب الحرف والصناعات والفنون المختلفة ، ونقلهم الى عاصمته سمرقند . وقد حفظت المصادر أسماء عدد ممن شملهم النقل من امثال الموسيقي المشهور عبدالقادر الراغي (٣٠) ، الذي لازم السلطان اديس واولاده حسين واحمد ، وكان عارفا بجميع الآلات ذوات الاوتار وخاصة العود ، والموسيقي المشهور قطب الموصل ، وكان اعجوبة الزمان واستاذ علم الموسيقى والادوار ، والمصور المشهور عبدالحق البغدادي ، الذي استخدمه تيمور في تزيين بلاطه في سمرقند (٣١) .

(٢٥) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ .

(٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ٢١٤ . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ق ٢ ، ص ٢٦٢ ؛ عبدالرحمن محمد بن خلدون ، المعبر وديوان البتدا والخبر (بيروت) ص ١٠٨٤ .

(٢٧) حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢٨) الاسترابادي ، بسزم ووزم ص ١٩ ، حسين الفزوي التيموري ، ص ١٢٩ .

(٢٩) خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٠١ - ٢٢٨ .
(٣٠) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٥٦ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١٨٨ .

(٣١) احمد بن محمد بن عبدالله بن عرب شاه الدمشقي ، عجائب القدر في اخبار تيمور ، (لاهور ١٨٦٨) ص ١٥٥ ، ٢٦٩ ، نظري ، منتخب التواريخ ، ص ١٦٦ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٨ .

الحملة الثانية ٨٠٢هـ / ١٤٠١م :-

حين هرب السلطان احمد من بغداد لاحقه عدد من اتباع تيمور ، وبعد مطاردات عنيفة قرب كربلاء ، تمكن السلطان ان يهرب مع عدد من اتباعه عبر الصحراء الى مدينة الرحبة على الفرات ، حيث منازل نعيم بن حيار بن مهنا امير آل فضل ، الذي رحب به وانزله عنده ، ثم سار نحو حلب طالبا اللجوء عند السلطان المصري الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٨٠١هـ / ١٢٨٢ - ١٢٩٨م) ، فطلبه الاخير الى القاهرة ورحب به واكرمه (٢٧) .

اما في العراق فان مسعود السبزواري لم يتمكن من ضبط بغداد ، بسبب ضعف الحامية التي وضعها تيمور فيها . وقد شعر اتباع السلطان احمد بذلك فتجمعوا على الفرات ، واجتمع معهم ايضا عدد كبير من سكان بغداد الفارين ، وافراد القبائل العربية الفاطنية على الفرات بين هيت وعنه ، وطلبوا من السلطان احمد الحضور اليهم ، للزحف على بغداد وطرد نائب تيمور منها (٢٨) . وكان السلطان احمد في هذا الوقت في بلاد الشام ، يشارك السلطان المصري برقوق استعداداته لجبهة تيمور عند زحفه عليها . فانتهاز هذه الفرصة وبدعم من السلطان المصري ، الذي امدّه بالمال والسلاح والخيول والجمال ، وكتب له تقليدا بسلطنة بغداد ، سار في الاول من شعبان ٧٩٦هـ / ١٢٩٤م من دمشق الى بغداد (٢٩) . كما امر السلطان المصري كافة اتباع السلطان احمد المقيمين بالشام بالالتحاق بسلطانهم ، اما قوات برقوق فقد بقيت على الحدود ، رصدا للعدو ، وانتظارا لما يستجد في بغداد (٣٠) .

ج ١ ص ٥٧ ، ٢٦٩ ؛ حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ .

(٢٧) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ص ٢٠٩ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٩ ، ٢٦٦ - ٢٦٧ ؛ القرطبي ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، ص ٧٨٩ - ٨٠١ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٧ .

(٢٨) محمد بن محمد بن مصري ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية ، حققه ونشره وليم بريتر (بركلي) ، جامعة كاليفورنيا ١٩٢٦ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٢١١ .

(٢٩) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ص ٢٠٩ - ٢٨٢ ، ٢٨٦ ؛ القرطبي ، السلوك ، ج ٢ ص ٢٠٩ ، ص ٨١٤ - ٨١٥ .

(٣٠) ابن مصري ، الدرة المضيئة ، ص ١٥٩ - ١٦٠ ؛ ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج ١ ، ص ٢٧٥ ؛ ابن خلدون ، المعبر ، ص ١١٧٥ - ١١٧٦ .

ويذكر ابن عرب شاه الدمشقي ، وكان من جملة من نعتهم تيمور من بلاد الشام ، وعاش في سمرقند عدة سنوات ، ان بلاط تيمور ضم من النقاشين والخطاطين والرسامين وغيرهم من الصنائع ما لا يحصى عددهم ، كان كل منهم علامة دهره واعجوبة عصره ، وقد اخذ عددا كبيرا منهم من العراق (٣١) . كما امر ايضا بنقل عدد كبير من العلماء والفقهاء والشيوخ ، من امثال نظام الدين الشامي ، الذي اصبح مؤرخ بلاطه ، وصنف بأمرة كتابا عن غزواته اسماء (ظفرنامه) اي النصر . وكذلك عبدالقادر الواسطي مدرس النحو والفرائض بالمدرسة النظامية ، والفتية عبدالسلام ابن احمد الحسني ، والنسابة جمال الدين احمد ابن علي بن عتبة الحسني ، والفتية عبدالله بن محمد الحسني ، وابن النسابة محمد بن تقي الدين عبدالله الحسني (٣٢) .

واتخذ تيمور اجراءات اخرى يقصد منها اظهار نفسه بمظهر الحامي للشرعية الاسلامية ، فاخذ يتقرب الى رجال الدين في بغداد ، وقام بزيارة مشاهد الامام ابي حنيفة والشيخ عبدالقادر الكيلاني والامام احمد بن حنبل والامام موسى الكاظم وحفيده الامام الجواد ، وارقف لهذه المشاهد اراض زراعية في بغداد وغيرها ، وخصص الاقطاعات والرواتب للسادات والعلماء والمنايخ والمدرسين (٣٣) . كما امر اتباعه بجمع المشروبات الموسلية والديار بكريّة الموجودة في قصر السلطان احمد ، مع كافة الخمور الموجودة في المدينة ، وارقنها في نهر دجلة ، وامر ايضا بفتح بيوت اللطف (بيوت الدعارة) (٣٤) .

امضى تيمور في بغداد شهرين يتنزه في قصورها الفخمة ، وبيوت اللهو المظلة على ضفتي نهر دجلة ، تمكنت قواته خلالها من احكام سيطرتها على مدن انقراق الجنوبية . ثم عين احد اعماله المدعو مسعود السبزواري حاكما على بغداد ، وترك معه حامية عسكرية مقدارها ثلاثة الاف فارس ، وسار نحو الموصل لاتمام فتح بقية مدن العراق (٣٥) .

(٣١) ابن عرب شاه ، عجائب القندور ص ٤٦٩ ؛ وانظر ايضا اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٥٧١ - ٥٧٢ .

(٣٢) حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٣٣) تيمور ، تروكات تيموري ، ص ٢٥٦ - ٢٦٠ ، خليل ، العراق في العهد الجلابري ، ص ٢٥١ .

(٣٤) اليزدي ، ظفرنامه ، ج ١ ، ص ٤٥٧ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ بابسنفري ، بسمي واهتمام لكس تاور (براغ ١٩٥٦) ، ص ١٠٨ ؛ حسين ، الغزو التيموري ، ص ١٧٢ .

(٣٥) الشامي ، ظفرنامه ، ص ١١٥ ، اليزدي ، ظفرنامه ،

وجد مسعود السبزواري انه لا يستطيع المقاومة ، فقرر مغادرة المدينة ، لكنه اراد ان يشاغل الجيش الزاحف نحوه ، وان يتيح لاتباعه فرصة الخروج من بغداد . فأمر بكر السدود المقامة على نهر دجلة ، فأغرقت المياه مناطق واسعة بصورة اعاقت تقدم القوات العراقية مدة يومين ، تمكن خلالها مسعود السبزواري من الخروج مع اتباعه من بغداد ، وتوجهوا الى شوشتر في خوزستان . ثم دخل السلطان احمد بغداد ، وبدأ باعادة تنظيم جيشه معتمدا في ذلك على العرب والتركمان ، واخذ يعمل على اعادة تعمير المدينة وزراعتها(٤١) .

ان عودة السلطان احمد الى بغداد ادهشت تيمور ، فقرر انهاء حكمه ، واخضاع المدينة بصورة نهائية . ففي صيف ٨٠١هـ / ١٢٩٨م ارسل ابنه ميرانشاه من تبريز على رأس جيش كبير لمحاصرة بغداد ، لكن ميرانشاه اضطر الى الانسحاب بعد يومين من الحصار ، اذ واثته الانباء بقيام حركة تمرد ضده في تبريز(٤٢) . كما فشلت محاولة ثانية قام بها حفيد تيمور المدعو رستم في السنة التالية ، عندما وصلت قواته الى مندلي في جمادى الآخرة سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م ، وبعد ان احتلت المدينة ونهبتها استعادت للزحف على بغداد(٤٣) . وفي الوقت نفسه كانت رغبة تيمور هي ان يلقي القبض على السلطان احمد حيا للانتقام منه . فاتفق مع نائبه في خوزستان الامير شروان بن شيخ براق منصوري ، على ان يأخذ مبلغا كبيرا من المال ويتظاهر بالهرب منه ويعلم لجوئه مع عدد من اتباعه لدى السلطان احمد . وقد انطلقت الخطة في اول الامر على السلطان ، اذ رحب بشروان ، وجعله احد امرائه المقربين ، واقطعه فريتي القبة وزنكبادباد في منطقة ديبالي وقرب مرتفعات حميرين .

شرع شروان يدس الاموال سرا الى كبار امراء السلطان احمد واقربائه بقصد استمالتهم ، وتسهيل مهمة القبض عليه . فأعطى لكل امير مبلغا يتراوح بين عشرة الاف الى ثلاثمائة الف

دينسار عراقي ، كل حسب رتبته ودوره في المؤامرة . لكن السلطان اكتشف المؤامرة في اواخر ادوارها ، فقد عثر خادمه ، كوره بهادر ، على القائمة التي وردت فيها اسماء المتآمرين والمبالغ التي استلموها من شروان ، في الوقت الذي وصلت فيه قوات رستم مندلي . فأمر السلطان احمد بفتح ابواب المدينة ، وقتل كل من ورد اسمه في القائمة ، بما فيهم شروان ، حتى بلغ عدد القتلى في اسبوع واحد الفا شخص من امرائه وافاربه .

بعد اضعفت هذه المؤامرة قدرة السلطان العسكرية ، واقدنته خيرة ضباط جيشه ، واكفاهم ، ولم تعد له ثقة بهذا الجيش . فترك في احدى الليالي بغداد ، وتوجه سرا الى ديار بكر طالبا المساعدة من حليفه قره يوسف امير التركمان القره قوينلو . فخفف قره يوسف مسرعا مع عدد كبير من اتباعه ، وعسكروا في الجانب الغربي من بغداد ، لتقديم الحماية للسلطان . وفي هذه الاثناء اضطر رستم قائد الجيش الزاحف نحو بغداد الى الانسحاب ، بسبب حدوث تمرد في فارس ، فاضطرب السلطان احمد ، لكنه اضطر الى تقديم مبالغ كبيرة من المال والاقمشة والخيول والسروج المذهبة الى قره يوسف واتباعه مكافئة لهم ، ولتمنعهم من التعرض لمدينة بغداد او نهبها ، فعادوا الى موطنهم(٤٤) .

ادرك السلطان احمد ان تيمور لن يتركه يتمتع بحكم بغداد ، لا سيما بعد ان شرعت قواته بالزحف على مدينة سيواس في الاناضول سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠م . فاذا استطاعت هذه القوات احتلال المدينة ، فان تيمور سيبد عليه طريق الهرب الى بلاد العثمانيين ، كما ان الاوضاع السياسية في مصر وبلاد الشام اضطربت بعد وفاة السلطان برقوق . لذا قرر ان يسرع في الفرار ، فترك على حكم بغداد احد امرائه المدعو فرج انجلاري ، واخذ اهله وامواله ونقائسه ، وتوجه مع حليفه قره يوسف الى الدولة العثمانية ، فاستقبله السلطان بايزيد بن مراد الاول (٧٩١ - ٨٠٥هـ / ١٣٨٩ - ١٤٠٢م) واقطعه منطقة كوتاهية ليمش على مواردها(٤٥) .

(٤١) الفياثي ، التاريخ الفياثي ، ص ١١٩ - ١٢٢ ، ١٩٦ ، اليزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ ، حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٤٢) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ ، ميرخواند ، روضة الصفا ، ج٦ ، ص ٣٤٥ .

(٤١) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١١٨ ، ١٤٩ ؛ المقرئزي ، السلوك ج٢ ق ٢ ، ص ٨١٧ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج٢ ق ٢ ، ص ٢٨٦ ، ابن حجر المصلائي ، انباء ، ج٢ ص ٤٦٦ .

(٤٢) اليزدي ، ظفرنامه ، ج٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ الفياثي ، التاريخ الفياثي ، ص ١١٨ .

(٤٣) حافظ ابرو ، زبدة التواريخ ، ص ١٦٧ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٤٦ .

وبعد ان اتم تيمور احتلال بلاد الشام سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وعاد الى ديار بكر ، أعد جيشا كبيرا وامره بالزحف على بغداد ، فوصلوا بعد عدة ايام الى الجانب الغربي ، وعسكروا في القسم الجنوبي من المدينة .

استبسل الامير فرج في الدفاع عن بغداد ، وفور عدم تسليمها مهما كلف الامر ، وحشد داخلها عددا كبيرا من مقاتلي العرب والتركمان ، وارسل الى امراء وحكام المدن العراقية القريبة ، طالبا منهم الحضور مع قواتهم لمشاركته في الدفاع عن العاصمة . فقدم الامير على قلندر حاكم مندلي ، والامير حيان احمد حاكم بعقوبة ، وعبروا دجلة مع قواتهما من قرب المدائن . وقدم ايضا الامير فرخ شاه حاكم الحلة ، والامير ميكائيل حاكم السيب القريبة من الحلة ، مع قواتهما ، والتقوا جميعا عند قرية صرصر القريبة من الجانب الغربي من بغداد واجتمع معهم حوالي ثلاثة الاف فارس ثم تقدموا جميعا ، واشتبكوا مع قوات تيمور قرب عمارة السلطان احمد في الجانب الغربي ، حيث هزمت القوات العراقية ، وقتل الامير جان احمد مع عدد كبير من الجنود العراقيين ، وغرق قسم منهم في نهر دجلة عندما حاولوا الهرب ، بينما انسحب الباقي الى داخل المدينة (٤٩) .

اصر فرج على المقاومة رغم الخسارة التي تعرض لها اتباعه ، واعلن ان السلطان احمد امره ان لا يسلم المدينة الا عند حضور تيمور بنفسه . وحين ابلغ تيمور بالامر ، وكان في الموصل ، خف مع عدد كبير من اتباعه مسرعا عبر آنتون كوبري ، فوصل بغداد في ١٦ شوال ٨٠٣هـ/٣٠ ايار ١٤٠١ وعسكر مع اتباعه في الجانب الشرقي من المدينة ، فأحاطت قواته بالمدينة من جميع جوانبها .

امر تيمور باقامة جسر من القوارب الجنوبي بغداد ، بالقرب من قرية العقاب ، ووضع باسفل النهر عددا من الرماة للحيلولة دون هرب اي شخص من المدينة . ثم شرعت قواته بنقب الاسوار ، وفي الوقت نفسه اقامت فرقة من هذه القوات ربوة ونصبت عليها المجنيق لرمي المدينة بالاحجار . وتؤكد تواريخ تيمور الرسمية ان الامير فرج اراد التأكد من وجود تيمور ، فأرسل وفدا

الى معسكره . فاستقبل تيمور الوفد بحفاوة واعاده الى المدينة ، لكن فرج لم يصدق الخبر ، وامر بسجن رئيس الوفد (٥٧) . فأحضر تيمور احد اعيان محلة الامام ابي حنيفة المدعو الشيخ بشر واقترب منه من السور ، فأقسم الشيخ بشر لفرج ولجنود المرابطين على السور ان رفيقه هو تيمور بعينه ، فلم يصدقوه بل رموه بالنشاب (٥٨) .

شدد تيمور الحصار على المدينة ، وتمكنت قواته من احداث عدة حفر في السور واشعلوا فيها النيران ، فسقط قسم من السور . لكن المدافعين سارعوا الى اسلحه ، وتمكنوا من تأخير فتح المدينة اربعين يوما عانى خلالها السكان من الجوع وارتفاع الاسعار ، بسبب شحة المواد الغذائية . ورغم تفوق جيش تيمور من حيث العدد والعدة ، فان الظروف كانت في صالح الجيش المراقى ، بسبب شدة الحرارة وصعوبة تموين الجيش المهاجم . لكن اهمال بعض جنود بغداد وتهاونهم ادى الى فتح المدينة . ففي ظهيرة يوم ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣هـ/٢٠ حزيران ١٤٠١م نزل الجند المدافعون عن برج المعجمي في اجهة الجنوبية من بغداد ، وذهبوا الى منازلهم للاستراحة من شدة الحر . ووضعوا خوذهم على العصي في الاماكن المخصصة لهم على السور ، الا ان اتباع تيمور اكتشفوا الامر . فطلقوا السور بواسطة السلاط ، واحتلوا البرج . وفي الوقت نفسه تمكنت القوات المهاجمة من احداث ثغرات في السور فتم فتح المدينة ، ولم يجد السكان ملاذا من سيوف المحتلين سوى نهر دجلة ، لكن الجنود المرابطين على الجسر قتلوا كل من اقترب منهم . اما الامير فرج فقد ركب مع ابنته قاربا وفر عبر دجلة ايضا ، لكن اتباع تيمور تمكنوا من اغراق القارب ومن فيه ، ثم انتشلوا جثة فرج واوصلوها الى ضفة النهر (٥٩) .

تعرضت بغداد لخسارة كبيرة من جراء هذه الحملة ، فقد امر تيمور باستباحة المدينة ، واجراء مذبحه عامة للسكان ، شملت حتى النسيخ

(٥٧) الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٢٩ - ٢٤٠ ؛ الزدي ، ظفرنامه ج ٢ ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

(٥٨) الفياني ، التاريخ ص ١٢٥ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٥٩) الشامي ، ظفرنامه ص ٢٤١ ؛ الزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٤ ؛ الفياني ، ص ١٢٦ .

(٥٦) الزدي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ؛ مبرخواند ، دوفة العفا ، ج ٦ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢٥٧ .

والاطفال(٥٠) . والزم اتباعه ان يأتيه كل واحد منهم براسين من رؤوس السكان ، فلما عجز الجند عن تحصيل سكان بغداد ، قطعوا رؤوس بعض اسرى الشام ، بل ان بعضهم كان يقطع رأس المرأة ويزيل شعرها ويحفره . وقد قدرت بعض المصادر عدد من قتل بين ٦٠ الف ومئة الف ، واعتقد بعضها الاخر ان القتل شمل سكان المدينة جميعا حتى فني اهليها ، واقامت من جماجم القتلى عدة مآذن لتكون عبرة لمن تسول له نفسه برفع راية العصيان(٥١) . ورغم ما في ذلك من مبالغات فانه يدل على كثرة من قتل ، وعلى مبلغ القسوة والعنف الذي مارسه اتباع تيمور . ولم يكتف تيمور بهذه المجزرة الرهيبة ، بل امر اتباعه بتخريب المدينة ، وتهديم العمارات والاسواق والخانات والبيوت ، وتحويلها قاعا صفصفا(٥٢) .

لقد تعفن هواء بغداد من نتن جثث القتلى كما يذكر البيهقي ، فتركها تيمور في بداية ذي الحجة سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١م ، وتوجه شمالا نحو شهرزور ومنها الى تبريز(٥٣) . ولم تذكر المصادر شيئا عن الاجراءات الادارية التي اتخذها لضبط المدينة ، ويبدو ان الفوضى عمتها بعد خروجه منها . وعندما بدأ زحفه في السنة التالية نحو الاناضول ، انتهز السلطان احمد هذه الفرصة وغادر الاناضول متوجها الى العراق . وقد واصل سيره على امتداد نهر الفرات ، فدخل بغداد دون مقاومة ، واخذ يعمل على اعادة السكان الفارين

وتعمير المدينة وزراعة اراضيها(٥٤) . لكن قوات تيمور داهمت المدينة في الثامن من رجب سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م من الجانب الشرقي ، فاندحش السلطان احمد ، وآثر الفرار الى الحلة ، ومنها الى منطقة الاهوار والمستنقعات في القسم الاسفل من الفرات . الا ان قوات تيمور انسحبت من العراق بعد فترة قصيرة(٥٥) .

ثم نشب صراع حول بغداد بين السلطان احمد وحليفه قره يوسف ، انتهى باستيلاء الاخير عليها ، بعد ان زحف عليها من الحلة ، فتركها السلطان احمد في الخامس من محرم سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م هاربا الى بلاد الشام . اما قره يوسف فلم يتمتع بحكم بغداد سوى ثلاثة اشهر ، اذ قرر تيمور وضع حد لسيطرته ، وضم بغداد الى نفوذه . فاستند حكم العراق لحفيده ابي بكر ، وامره بان يقوم باستمالة السكان وتشجيعهم على بناء دورهم وزراعة اراضيهم ، وان يعمل على اعادة تعمير المدينة واعادتها الى ازدهارها السابق . فتقدمت قوات ابي بكر نحو بغداد ، وانتقت مع قوات قره يوسف عند نهر الفهم قرب الحلة ، حيث اندحر قره يوسف وهرب الى بلاد الشام ايضا(٥٦) . ثم دخل ابو بكر بغداد ، غير ان حكمه لم يدم طويلا . فقد مات تيمور في ١٧ شعبان سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م ، واضطربت الاوضاع السياسية في العراق ، فاستغل السلطان احمد ذلك وتوجه من الشام نحو بغداد ، ودخلها في الخامس من محرم سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م وطرد حاكمها التيموري دولة خواجه ايتاق(٥٧) .

- (٥١) الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٢-٢٠٤ .
 (٥٢) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٧٦-٢٧٧ ، حسين الغزو التيموري ص ٢٧٢-٢٧٤ .
 (٥٣) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٩-٢٧١ ، ٢٩٢ ، ٢٩١ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ٢٠٦-٢١٠ .
 (٥٤) ميرخواند ، روضة الصفا ، ج ٢ ، ص ٥٠-٥٥ ، خليل ، العراق في العهد الجلايري ، ص ٢١٢ .

- (٥٠) تيمور ، تروكان تيموري ، ص ١٥١ ، الشامي ، ص ٢٤١ .
 (٥١) ابن عرب شاه ، عجائب المقدور ، ص ٢٤٨-٢٤٩ ، ابن حجر العسقلاني ، انباء ، ج ٢ ، ص ١١٨ ، ٢٠٨ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١٢٦ ، ٢٠٢-٢٠٣ ، حين الفزوي التيموري ، ص ٢٦٠-٢٦١ .
 (٥٢) تيمور ، تروكان تيموري ، ص ١٥١ ، الشامي ، ظفرنامه ، ص ٢٤١ ، البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، الفياني ، التاريخ الفياني ، ص ١٢٧ .
 (٥٣) البيهقي ، ظفرنامه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، حسين ، الغزو التيموري ، ص ٢٦٨ .

حملة السلطان سليمان القانوني على بغداد عام ١٥٣٤ (١)

بقلم الدكتور

حسين محمد القهواني

كلية الآداب - جامعة البصرة

وعندما تبوأ الشاه طهماسب عرش بلاد فارس بعد وفاة والده الشاه اسماعيل الصفوي عام (١٥٢٤) ، كان قد ورث عداوة مستحكمة مع قبائل الازبك في أقصى الشرق من بلاده من جهة ومع العثمانيين المتآخمين له في الغرب من جهة أخرى ، فبادر أولا الى محاربة الازبك ، الا ان السلطان العثماني سليمان القانوني (١٥٦٦ - ١٥٨٠) الذي خلف والده السلطان سليم الاول استغل حرب الشاه مع الازبك واراد السيطرة على طريق تبريز التجاري ، لذا ارسل « اولامه نكلو » (٢) وهو احد الالاجئين اليه من الفرس المعارضين لحكم الشاه الجديد ، على رأس قوة صغيرة الى اطراف اقليم آذربايجان لاستطلاع الاوضاع العسكرية ولاستمالة سكان الاقليم الى جانب الدولة العثمانية قدر المستطاع ، وما ان وصلت منه انباء مشجعة حتى اصدر السلطان اوامره الى صدره الاعظم ابراهيم باشا في ٢ ربيع الآخر (٤) ٩٤٠ هـ / تشرين الاول ١٥٢٣ ليتوجه هو الآخر على رأس جيش كبير قدر بـ ٨٠.٠٠٠ ر.

(٣) احد امراء قبيلة نكلو ، بدأ حياته مواليا للسلطان العثماني بايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢) ولكنه انحاز الى الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠١ - ١٥٢٤) عند ظهوره على مسرح الاحداث الفارسية ، وظل يتدرج في مناصب الدولة الصفوية حتى صار بكريكا لآذربايجان وفي عهد الشاه طهماسب عاد ليعلن ولاءه ثانية للدولة العثمانية .

ابراهيم بجوي ، تاريخ بجوي ، جلد اول ، استنبول ، ١٢٨٢ ، ص ١٧٥ .

(٤) ابراهيم بجوي ، تاريخ بجوي ، جلد اول ، ص ١٧٤ .

لقد تردت الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في العراق منذ اواخر العهد العباسي (٢) لذلك تهيأت الظروف المناسبة لسلسلة من الفزوات الخارجية التي بدأت بالاحتلال المغولي لبغداد من قبل هولاكو عام ١٢٥٨ ثم الجلائري (١٣٢٦ - ١٤١١) ثم التركماني المتمثل في دولتي « قره قوينلو » (الخروف الاسود) (١٤١٠ - ١٤٦٧) و « آق قوينلو » (١٤٦٧ - ١٥٠٨) ثم الصفوي (١٥٠٨ - ١٥٢٤) حيث اسهم هذا الاحتلال الأخير في تاجيع روح العداء بين الدولة العثمانية وبلاد فارس ، لا سيما بعد محاولة الشاه اسماعيل الصفوي ضم بعض اراضي الاناضول الى مملكته في اعقاب سيطرته على العراق ، الا ان السلطان العثماني سليم الاول (١٥١٢ - ١٥٢٠) استطاع اخذ من نو مع الدولة الصفوية وافلح في دحرها في معركة جالديران عام ١٥١٤ ، ونجح في ضم الموصل وشمال العراق الى اراضيه . وتيسر له فتح سورية ومصر في عامي ١٥١٦ و ١٥١٧ على التوالي .

(١) لمزيد من التفاصيل عن دوافع هذه الحملة يمكن مراجعة: حسين محمد القهواني ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ١٥٢٤ - ١٦٣٨ ، اطروحة دكتور غير منشورة ، كلية الآداب ، بغداد ، ١٩٧٥ .

(٢) للاستزادة في دراسة احوال العراق في الفترة التي سبقت الغزو المغولي وخلال مراحل الاحتلال يراجع : د. جعفر حنين خصاله ، العراق في عهد المغول الابلقاني ، الطبعة الاولى ، بغداد ، ١٩٦٨ .

مقاتل للانتحاق بأولامه (٥) وقد قصد الصدر الأعظم بعد اعداد الجيش الى مدينة (آمد) (٦) حيث مكث فيها سنة اسابيع للتموين انجه بعدها إلى قلعة (اونيك) (٧) ثم إلى قلعة (وان) ثم إلى (عادل جواز) ومن هذه الأخيرة توجه إلى اطراف آذربايجان حيث أمر فيها (أولامه) وجيشه بالتقدم إلى اردبيل ، في الوقت الذي زحف حو على مدينة تبريز (٨) ولما سمع الشاه ظهاسب بتوغل أولامه في اراضيه وعلم بنجاح ابراهيم باشا في اقتحام تبريز ، بادر إلى عقد صلح مع الازبك وبسرعة فائقة توجه إلى اقليم اترى ومنه أرسل فرقة من « القزلباش » (٩) لمواجهة الحملة العثمانية (١٠) ولما علم ابراهيم باشا بالامر بمثاني السلطان سليمان يستقدمه على جناح السرعة وذلك لمجزه عن مواجهة الشاه ظهاسب لوحده (١١) وقد استجاب السلطان لطلب صوره الأعظم وأعد جيشا في شهر ذي القعدة من عام ٩٤٠ هـ / مايس ١٥٣٤ قاصدا به تبريز (١٢) . وفي ٢٩ ربيع الاول ٩٤١ هـ / تشرين الاول ١٥٣٤ وصل مصيف (اوجان) (١٣) في آذربايجان حيث هب ابراهيم باشا فيه لاستقباله (١٤) ، ولما كان في

نية السلطان سليمان مواجهة ظهاسب وجها لوجه فانه غادر مصيف اوجان في طريقه إلى (سلطانية) (١٥) ، ليحرف منها إلى قزوین (١٦) عاصمة الدولة الصفوية آنذا لدحر الشاه في عقر داره ، الا ان الامطار الغزيرة التي هطلت والثلوج الكثيرة التي تراكت في الطرقات أدت إلى هلاك عدد كبير من رجال الحملة العثمانية وولدت تدمرا بين افراد الجيش (١٧) ولكن رغم ذلك استطاع السلطان قيادة جيشه باتجاه قزوین وقد نشرت انباء زحفه الهلع في صفوف الجيش الصفوي وبخاصة اولئك المترددين منهم حيث مال فريق منهم إلى تأييد السلطان سليمان ، كما أعلن بعضهم الآخر العصيان في وجه الشاه (١٨) الا ان سوء الاحوال الجوية خدعت الشاه ، فاشيى الذي لم يستطع فعله في مواجهة جيش السلطان سليمان فعله انطلق ، حيث ان الامطار والثلوج الكثيرة التي تراكت خلفت الاحوال في الطرقات وادت إلى غوس العربات والمدافع فيها فآثر هذا الوضع على نفسية الجيش العثماني وزاد في تدمره وقلقه واضطرابه لدرجة أن فريقا منه تجرأ

(١٥) تقع في منتصف المسافة بين ابهر وزنجان وبعد عن كل منهما خمسة فراسخ وبعد عن تبريز ٦٦ فرسخا إلى الجنوب وتقع إلى شمال همدان بحوالي ثلاثين فرسخا وعن بغداد ١١٨ فرسخا ، انشأها ارغون خان واثم بنائها السلطان الجاسو في سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٥ م وجعلها قاعدة الدولة الالمانية ، وبخطه لوتكرلا عندما جعل سير الحملة من تبريز إلى (السلطانية) بدلا من السلطانية التي تشير إليها معظم النصوص الأولية ، وبذلك اوجهم بعض الباحثين بان الحملة العثمانية كانت تستهدف بغداد مباشرة .

Hamd Allah Mustawfi of Qazwin, The Geographical Part of The Nuzhat-Al-Qulob, Translated by G. Le Strange, Leyder, 1919, pp. 161-176. Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq. Beirut, 1968, p. 22.

(١٧) لقد غير الشاه ظهاسب عاصمته وجعلها قزوین بدلا من تبريز ، كما ان العاصمة انتقلت بعد ذلك إلى اصفهان، ثم إلى طهران .

(١٨) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

ستيفن هيمسلي لوتكرلا ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، نقله إلى العربية جعفر الخياط ، الطبعة الرابعة ، بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ٢٧ .

(١٩) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ . القرماني ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ . قطب الدين محمد بن احمد النهرولي ، كتاب الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، ج ٢ بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣١٦ .

(٥) اسكندر بك منشي تركمان ، تاريخ عالم آراي عباسي، ج ١، تهران، ١٣٢٤ ش ١٩٥٥ م ، ص ٦٧ . رضا قليخان ابن هادي طبرستاني (هدايت) ملحقات تاريخ روضة الصفا ناصري ، ج ٨ ، ص ٥٩ .

(٦) مدينة في اقليم ديار بكر .

(٧) تقع على بعد ثمانية فراسخ إلى شرق اردبيل .

(٨) موردتمان ، دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ج ١ ، ١٩٢٣ ، ص ٦٦ .

(٩) أي اصحاب العمائم الحمراء ، وكان هؤلاء يحلقون لحاهم في الوقت الذي كانوا يطلقون العنان لشواربهم لتطول ، كما كانوا يحلقون شعر رؤوسهم ويتركون في وسطها خصلة من الشعر فقط . وتطورت الطريقة السلمية للدراوش الصفويين (القزلباش) تدريجيا إلى شكل عقائد وتعاليم عسكرية .

(١٠) شرف خان البديسي ، شرفنامه ، ج ٢ ، الفه بالانارسية ، ترجمه إلى العربية محمد علي عوني ، راجعه وقدم له يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ١٦١ .

(١١) أبو المياس احمد بن يوسف الدمشقي القرماني ، اخبار الدول وآثار الاول ، طبع حجر ، بغداد ، ١٢٨٢ هـ ، ص ٢١٩ .

(١٢) مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة ، المشهور ب (كاتب جلي) ، تقويم التواريخ ، قسطنطينية ، ١١٤٦ هـ ، ص ١١٨ . بجوى ، المصدر السابق ، ص ١٧٨ .

(١٣) تقع على الجانب الايسر الجنوبي لرافد نهر سراو وبعد عشرة فراسخ عن تبريز .

(١٤) البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦١ .

وطالب بالعودة الى الوطن (١٩) ونتيجة لذلك اضطر السلطان الى مغادرة مدينة السلطانية ، ولما كان الرجوع الى اذربايجان في ذلك الفصل يعني مواجهة القحط والمجاعة . لذا قرر التوجه الى الموصل عن طريق شهرزور لنفسه فترة الشتاء والعودة بعدها لمواجهة طهماسب في بلاده ثانية عند حلول فصل الربيع . (٢٠)

وفي الوقت الذي عزم فيه السلطان سليمان على التوجه الى الموصل اثناء تورطه في الجبال ، وصله وفد من الحامية الفارسية في بغداد يحمل اليه مفاتيح المدينة (٢١) حيث ان الصدر الاعظم ابراهيم باشا كان قد ارسل في وقت سابق جماعة يحملون رسالة من « اولامه تكلو » الى قريبه محمد خان شرف الدين اعلي تكلو حاكم بغداد ، يستلطفونه ويستميلونه ويدعونه للولاء للسلطان العثماني كقبيلة ابناء قبيلته . ولكن يبدو ان محمد خان رفض ذلك . وكان رفضه جزء من مناورة لانه لم يظهر العزم الجدي للدفاع عن المدينة الامر الذي دعا الدكتور (سترلينك) الى الاعتقاد بان محمد خان ربما كان قد قبل الرشوة من وفد السلطان سليمان القانوني لانه هرب من البلاد قبل تقدم العثمانيين باتجاه العراق . (٢٢) كما ان هناك نصوصا تشير الى ان الشاه طهماسب لم يكن مطمئنا الى ولاء محمد خان تكلو ، لذا قرر استدعائه وحاميته الى بلاد فارس (٢٣) في حين يرى كانتمير (Cantemir) ان محمد خان تكلو كان اضعف من ان يقاوم . (٢٤)

والمعروف ان الاوضاع في بغداد كانت قد اضطربت نتيجة فزع الحامية الفارسية حيث

(١٩) هدايت ، المصدر السابق ، ص ٥٩ . البديسي ،

المصدر السابق ، ص ١٦١ .

لونكريك ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٢٠) تركمان ، المصدر السابق ، ص ٦٧ .

(٢١) حسن دوتلو ، كتاب احسن النواديخ ، بسمي وتصحيح جاكس نارمن ، سيدن ، كلكتا ، ١٩٢١ ، ص ٢٥٢ .

(٢٢) George William Stripling, The Ottoman Turks and Arabs (1511-1574) Illinois 1942, p. 79.

(٢٣) البديسي ، المصدر السابق ، ص ١٦٢ .

(٢٤) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of Ottoman Empire, Translated into English the Author's Own Manuscript by N. Tindal Vols. III, London, 1734, p. 197.

كانت اخبار انتصارات الجيش العثماني تتوارد الى العراق عن طريق رسائل كان يبعثها باستمرار « اولامه تكلو » والصدر الاعظم العثماني الى بغداد بقصد اضعاف معنويات حاكمها ، وقد ادت تلك الرسائل فعلا الى انقسام ابناء قبيلة التكلو في بغداد الى مجموعتين احدهما تؤيد الشاه والثانية تروم التعاون مع الدولة العثمانية ، وحاول محمد خان اقناع الفريق الثاني بالعدول عن موقفه والتعاون معه لصد الهجوم المتوقع والدفاع عن بغداد وقلمتها بعد ان وصلته رسائل سليمان القانوني وهي تتضمن الاغراء والتهديد ، الا ان هذا الفريق ابي ذلك . وفي هذه الاثناء وصله رسول من قبل الشاه يدعوه وافراد حاميته للتوجه الى قزوين ، ولما عرض الامر على قبيلته رفضت الدعوة بل تحصنت في المدرسة المستنصرية واعلنت التمرد ضده وجاهرت بالولاء للدولة العثمانية ، ولما لم يكن في استطاعه والحانة هذه الدفاع عن بغداد كما لم يكن في مقدوره مغادرتها وحده اتصل بقيادة المعارضين وتظاهر امامهم بأنه قد غير رايه واخبرهم بموافقته على تسليم بغداد الى السلطان وطلب منهم تنظيم وفد من زعمائهم للذهاب اليه واستقدمه فرحب القادة المعارضون بقراره وهرعوا الى السلطان فرحين لاستدعائه ، عندئذ انتهز خلو المدينة منهم فجمع ماله وحاشيته وعبر نهر دجلة ليسلك الطريق البري فارا الى البصرة . (٢٥)

وعندما سلم سليمان القانوني مفاتيح بغداد من وفد قبيلة تكلو استبشر وكان آتلا على مشارف سهل (ماهي دشت) في طريقه الى العراق لذا تحرك على انفور باتجاه مدينة (ماهي دشت) في اول جمادى الاولى ٩٤١ هـ / تشرين الثاني ١٥٣٤ م ثم واصل سيره باتجاه العراق حيث وصل الى « قلعة شاهين » في السادس من الشهر المذكور ، (٢٦) وبعد مغادرته لهذه القلعة هطلت امطار غزيرة اعاقت الجيش عن السير وسببت متاعب كثيرة له (٢٧) . وفي يوم السبت المصادف ٨ جمادى الاولى وصل السلطان وطلانغ

(٢٥) دوتلو ، المصدر السابق ، ص ٢٥٢ .

Cantemir, op. cit., p. 196.

(٢٦) عباس المزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ١ ، بغداد ١٩٤٩ ، ص ٢٥ .

(٢٧) Sir Percy Sykes, A History of Persia, Vol. II Third Edition, London, 1958, p. 164.

من السلب والنهب والهدم ، وهذا ما لم يعنده سكانها في تلك الايام من المحتلين . (٢٠)

ومن الجدير بالذكر ان مدينة بغداد كانت عند دخول السلطان سليمان القانوني محاطة بسور على شكل قوس يتخلله حوالي ١٥٠ برج وفيه اربعة ابواب يدعى الشمالي منها باب الامام الاعظم ، والجنوبي يسمى الباب المظلم ، والشرقي الباب الابيض ، اما الغربي فاطلق عليه باب الجسر ، الذي كان يؤدي الى قلعة انطليور في الجانب الغربي (الكرخ) وكان يحيط السور خندق عميق ، اما المدينة فانها كانت خربة لا اثر لدور العلم والمدارس والمساجد التي اشتهرت بها في العصور السابقة ، فالمدرسة المستنصرية مثلا كانت قد تحولت الى مخزن للبضائع في الوقت الذي اصبحت المدرسة النظامية اثرا بعد عين . (٢١)

وخلال مكوث السلطان سليمان في بغداد قام ببعض الاعمال العمرانية ، منها توسيع مرقد الامام ابي حنيفة وبناء قبة عليه ومدرسة وجامع وزاوية الى جواره وسور حوله (٢٢) ووضع حامية بغربه لحماية زواره (٢٣) ومن جهة اخرى قصد السلطان مرقد الشيخ عبدالقادر الجيلاني وامر المعمار العثماني سنان باشا بتشييد قبة للمسجد ، فانجز هذا القبة البيضاء ودار السبيل (٢٤) وفي اطراف بغداد زار السلطان مرقد الائمة والمشايع والاولياء وظهر امام العراقيين بمظهر التقى السامع وكان يقظا في سياسته الدينية والمذهبية ، لذا قصد المعابد المقدسة في الكاظمية وكربلاء والنجف واوقف مقاطعات مقله عليها ، فتجنب بذلك اثاره المشاكل المذهبية

(٢٠) للاطلاع على ما عاناه سكان بغداد ابان الاحتلال الصفوي الاول ١٥٠٨ والاحتلال الصفوي الثاني (١٦٢٢) والعثماني الثاني ١٦٢٨ .

راجع : القهواني ، المصدر السابق ، ص ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٦٥ .

(٢١) Par J. De Hammer, Histoire De L'Empire Ottoman Vol. 5 (1520-1547) Paris, 1836 p. 217.

(٢٢) النهروالي ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ . البديسي ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

احمد بن لطف الله منجم باشي ، منجم باشي تاريخي، جلد ثاني ، استانبول ، ١٢٨٥ هـ ، ص ١٩١ .

(٢٣) Caniemir, op. cit., p. 196.

(٢٤) ابراهيم الدروبي ، الباز الاشهب ، في حياة السيد الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، بغداد ، ١٩٥٢ ، ص ٢٠.

الجيش العثماني الى « يكسي امام » والامطار مستمرة في الهطول، وفي يوم ٩ منه وصل الجيش الى قصر شيرين وتوجه منها الى نهر شمران فوصلها يوم ١٢ منه من الشهر نفسه (٢٨) ومن الجدير بالذكر ان المرحلة التي تلي قصر شيرين الى القرب هي خائفتين حيث تبعد عنها خمسة فراسخ ومنها الى جلولا خمسة فراسخ ثم الى هارونية خمسة فراسخ اخرى ، واستمر الجيش حتى قارب اولوصو ، اي النهر الكبير (٢٩) وكان النهر في موسم فيضانه الاول مما يصعب عبوره في هذا الوقت وكانت خسارة الجيش في هذه المسيرة كبيرة للغاية (٣٠) وان الفترة الواقعة بين ١٢ جمادى الاولى لغاية ١٩ منه كرسست لعبور مجموعة من الجداول والانهار حتى قارب جبل حميرين ودخل قرية شرورين (سورين) اي طاش كوبري وفي ٢٠ من الشهر عبر نهر الخالص وفي ٢٢ منه اجتاز قرية الوندية وفي ٢٣ وصل الى مرقد الشيخ سكران الذي يقع قريبا الى قرية مرقد آخر يسمى مرقد (لقمان الحكيم) وفي يوم ٢٤ وصل الى مرقد الامام ابي حنيفة (٣١) وحينئذ ترجل السلطان عن جواده وزار المرقد ثم دخل بصحبة حاشيته فقط الى مدينة بغداد (٣٢) لقد فتح السلطان سليمان بغداد دون قتال في يوم ٢٤ جمادى الاولى من عام ٩٤١ هـ / ٣٠ كانون الاول ١٥٣٤ م (٣٣) .

ومن الامور الهامة التي يجب الاشارة اليها، ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم استطاعته كبح جماحه وتلافيا لاعمال النهب والتهتك ، ولو اخذنا بنظر الاعتبار ما صاحب جيش سليمان من متاعب ومجاعة عبر الطريق الشاق الطويل وما عاناه من كثرة هطول الامطار وتراكم الثلوج لاستطعننا تصور حالة بغداد لو سمح للجيش بدخولها ، لذا سلمت المدينة

Huseyin G. Yurdaydin, An Ottoman Historian of the XVI th Century, Nasuh Al-Matrakii and his Beyan-i Menazil-i-Sefer i- Irakyan and its importance for Some Iraqi Cities, p. 10.

بحث قدم الى المؤتمر التاريخي في آذار ١٩٧٢ .

(٢٩) المزوي ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٣٠) بجوي ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨٥ .

(٣٢) المزوي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ - ٢٤ .

(٣٣) Yurdaydin, op. cit., p. 10.

والاجتماعية التي كان يمكن ان تواجهه آنذاك . ومن اعماله المهمة التي بالغ المؤرخون العثمانيون في اظهارها ، محاولة تعميقه نهر الحسينية الذي يروى مدينة كربلاء وبساتينها . ولكن بعض المؤرخين عرضوا هذا الاصلاح بشكل يوحي ان السلطان سليمان هو الذي حفر هذا النهر لأول مرة (٢٨) . وليس الامر كذلك : لان النهر كان يصل إلى المدينة وان الاشجار والبساتين البانعة كانت تظلها قبل هذا التاريخ . وما فعله السلطان سليمان هو تعريض فم النهر وتنظيف فروعه (٢٩) وهو عمل كبير ايضا بالاضافة الى امره ببناء سدة ترابية لاتقاذ المدينة من الفرق الذي كان يصيبها في سنوات فيضان نهر الفرات ، ولا تزال هذه السدة تسمى باسمه (روف اسليمانيه) (٣٠) .

ويبدو لي ان السلطان في توسيعه للنهر اراد ان يباري الشاه اسماعيل الصفوي الذي حفر ووسع نهر عطا الملك ابان زيارته لمدينة النجف في فترة الاحتلال الصفوي للعراق ، وهي المدينة التوام لمدينة كربلاء ، التي رغب السلطان ان يترك فيها اثرا ايضا . ومن كربلاء سلك الطريق الصحراوي الى النجف لزيارة مرقد الامام علي بن ابي طالب ومنها قصد الكوفة ثم توجه الى الحلة (٣١) ومنها عاد الى بغداد وخلال

(٢٨) منهم : سيزرلنك ، لوترك ، العزاوي ، نظمي زادة ، وبجوى .

(٢٩) هذه الفروع كانت تسمى في العهد الساربيجي المخلقة واتخذت اسماء متعددة ونسب في الوقت الحاضر بنفس الاسماء التي اشتهرت بها في المهديين الصفوي والعثماني وهي تطلق اليوم على المقاطعات الزراعية في منطقة الحسينية وهي : (١) ابو جردان (٢) ابو سليمان (٣) جميتنة (٤) ابو زرنط (٥) الوند (٦) الكمكائية (٧) الحمودية (٨) الهادي (٩) البكرة (١٠) عويرة الكبيرة (١١) عويرة الصغرى (١٢) ابو عصيد (١٣) بدعة اسود (١٤) بدعة شريف (١٥) ابو طحين (١٦) جوب (١٧) عيشة (١٨) القرطة (١٩) الكمالية (٢٠) بدعة عيشة (٢١) القاصي (٢٢) حرودي (٢٣) حيدرسة (٢٤) الرزارة (٢٥) طويريج (٢٦) ابو صحانة (٢٧) شيطنة (٢٨) الصالحية (٢٩) كريد محمد صالح (٣٠) مسافية (٣١) البتيرات (٣٢) الابراهيمية (٣٣) خير الدين (٣٤) لايح (٣٥) فربحة (٣٦) كربله (٣٧) جنكنة .

(٣٠) لوترك ، المصدر السابق ، ص ٢٩ .

Yurdaydin, op. cit., p. 10.

(٣١)

مكوته فيها امر باصلاح اسوار وابراج المدينة وقلعتها ، ولكن مع الاسف قام باستبدال بساب السلطان الاثرية بباب خشبية من الصاج المضرب بالسامير الحديدية وببيض واجهتها بالجص وبذلك ازال ما كان عليها من كتابة اثرية (٣٢) . ومن جهة اخرى قسم البلاد الى وحدات ادارية (٣٣) وادخل نظام الاقطاع الذي كان معروفا في المقاطعات الاخرى من دولته ، ومنع التيمارات والزعامات (٣٤) الى الجنود والقادة الذين اظهروا انبطونة في الحملة الاخيرة على بلاد فارس والعراق (٣٥) كما نظم سجلات للاملاك الخاصة والاقواف (٣٦) واوكل ولاية بغداد الى سليمان باشا وعقد عدة اجتماعات للديوان (٣٧) وزود الحاكم الجديد بحامية من حوالي الف جندي مزودين بالاسلحة النارية والف فارس وتكوين كاف للدفاع عن المدينة ان اقتضت الضرورة امام هجمات الشاه طهماسب المتوقعة في المستقبل (٣٨) وفي بغداد استقبل السلطان المهثين « بانفتح »

(٣٢) محمد صالح السهرودي ، جريدة العراق ، العدد ٢١٧٢ في ١١ ايلول ١٩٢٠ .

(٣٣) لم تتكامل الوحدات الادارية في العراق الا في اوائل القرن السابع عشر ، عندما قسمت الى خمس ايلات هي : بغداد ، الموصل ، شهرزور ، والاحساء .

(٣٤) مصطلحات نخص المقاطعات الزراعية في الدولة العثمانية ، يعتقد بانها منقوبة من اليونان ، ويطلق على صاحب التيمار اسم (تيمار صاحبي) او تيمار آري ، او تيمار سباهي (والتيمار هي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠٠٠ - ٢٠.٠٠٠ افجه . اما الزعامة فهي الارض التي تدر دخلا سنويا يتراوح بين ٢٠.٠٠٠ - ١٠٠.٠٠٠ افجة

الافجه : عملة عثمانية فضية شاعت في القرن السادس عشر وسماها الاوربيون اسبر Asper وكان وزنها (فمحات من الفضة او ما يساوي ١ غرام .

٤

انظر : (Deny) دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٦ ، الطبعة العربية ، ص ١٢١ ، و ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

Hammer, op. cit., p. 220. (٣٥)

(٣٦) انظر السجلات العثمانية للطابو ، مصور المخطوطات ، كلية الدراسات العليا في كلية الآداب ، جامعة بغداد .

(٣٧) يتألف الديوان من الوزراء وفادة الجيش الكبار ومن رجال العاشية المقربين من السلطان والوجهاء الاخرين.

Stripling, op. cit., p. 80. (٣٨)

من رجال الدين والوجهاء من انحاء العراق
والاقطار العربية المجاورة . (١٩)

ان احتلال بغداد من قبل السلطان سليمان
القانوني وولاء امراء ورؤساء المناطق المجاورة ،
مهد السبيل للدولة العثمانية بفرض هيمنتها ومد
سيادتها الى الخليج العربي لاسيما بعد ان اقر

(١٩) فره جلبي زادة ، روضة الابرار المبين بعفتاق الاخبار ،
مصر ، مطبعة بولاق ، ١٢٤٨ هـ ، ص ٢٥ . مرتضى
الغدي نظمي زادة ، كلشن خلفا ، نقله الى العربية
موسى كاظم نورس ، النجف الاشرف ، ١٩٧١ ، ص
٢٤ .

Huseyin C. Yurdydin, Matrakei Nasuh
Ankara, 1963, p. 60.

ديوانه في بغداد احياء المشروع القاضي بارسال
الاسطول العثماني لمواجهة البرتغاليين في الخليج
العربي حيث تزايد نفوذهم في منطقة البحار
العربية . لذا كلف امراء مصر المرافقين له في
الحملة بالعودة فورا الى بلادهم لاعداد الاسطول
ووضعه على اهبة الاستعداد لمواجهة الموقف
الجديد ، رغبة منه في السيطرة على طريق الخليج
العربي التجاري المؤدى الى الهند .

وخلال القرن اللاحق ، غدت البصرة قاعدة
للعمليات العسكرية والنشاط العثماني البحري
في ملاحقة البرتغاليين في مياه الخليج العربي
والبحار العربية الاخرى .



خملة السلطان مراد الرابع لاستعادة بغداد ١٦٣٨م

بقلم الدكتور

صالح محمد العابد

كلية الاداب - جامعة بغداد

العثمانية انها « ظلت لمدة ثلاثة ايام وثلاث نـيـال تهتف محببة الشاه » (١) . لقد ابدى حافظ باشا شجاعة متناهية في مقارعة الفرس وتقدم قواته في الهجوم على طلائع الجيش الفارسي ونجح في الاستيلاء على اللواء المقدس لهم (٢) . اعقب ذلك مفاوضات فاشلة بين حافظ والشاه . ولكن طول مدة الحصار من جهة ، وما كانت تعانيه القوات العثمانية من نقص في المؤن والذخيرة والخيـل من جهة اخرى ، دفع بالانكشارية الى التدمير ومن ثم الى تمردهم على الصدر الاعظم . فاصطدم تصميم القائد العثماني على استعادة بغداد بتطور الموقف الجديد ، مما اجبره على الانسحاب (٣) .

لم توفق المحاولة الثانية ايضا ، والتي بدأت في ١٦٢٩ ، في طرد الفرس من بغداد . كان على رأس القوات العثمانية ، في هذه المرة خسرو باشا « البسنوي الصارم الذي كان عنفه العنيد هو سياسته الوحيدة » (٤) . لقد ارتكب خسرو خطأ عسكريا كبيرا في عدم توجيهه مباشرة الى الهدف المحدد وتركيز مجهوده عليه ، حيث اشغل نفسه

على اثر العصيان المسلح الذي قام به بكر صوباشي ١٠٣١هـ/١٦٢١م - ١٠٣٢/١٦٢٣ وما رافقه من مضاعفات ، تمكن العاهل الصفوي الشاه عباس ، من احتلال بغداد ، التي قدر لسكانها ان يعانون مجددا اثوانا من المآسي والفواجع . كما ان استيلاء انفرس على بغداد ، والذي دام خمسة عشر عاما « لم يجلب لهم لا الثروة ولا الجلال » (٥) . ولكن الدولة العثمانية ، وعلى الرغم من فترة الضعف التي كانت تمر بها في هذه الفترة ، لم تنثن عن محاولة استعادة بغداد « انبل مدن آسيا » (٦) . فمئذ لحظة فقدتها ، « كانت مسألة استعادتها طموحا ملحا للبلاط العثماني » (٧) .

جرت المحاولة الاولى لطرد الفرس في سنة ١٦٢٥ ، وكان على رأس القوات العثمانية المكلفة بهذه المهمة حافظ احمد باشا ، الذي عين بمنصب الصدر الاعظم في السنة الماضية . دام حصار حافظ لبغداد ستة اشهر ، ويعود جانب من تاخره في اقتحام المدينة المحصنة ، الى النقص الذي كانت تعانيه قواته في سلاح المدفعية ، وقد اعطت هذه المدة ، الشاه عباس فرصة للتقدم بجيشه من اصفهان للاحتفاظ بالمدينة ، ولعل مما يدل على ما كانت تعانيه الحامية الفارسية من ضغط القوات

(١) A. De Lamartine, History of Turkey, translated from the French (New York, 1857), vol. III, pp. 225-6.

(٢) Ibid., p. 226.

(٣) Ibid., pp. 226-8;

(٤) انظر ايضا : حسين محمد القهواني ، العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة بغداد) ص ٢١٣ - ٢٢٥ .

(٥) Lamartine, op. cit., p. 231.

(١) Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968), P. 58.

(٢) Demetrius Cantemir, The History of the Growth and Decay of the Ottoman Empire, translated from the Latin by N. Tindal (London, 1734), vol. I, p. 246.

(٣) Longrigg, op. cit., p. 59.

الحربية بالمقارنة بالطغيان غير الهادف للمعبددين» (١٢) .

كانت مسألة استعادة بغداد بالنسبة لسلطان امرا يحتل أهمية كبرى ، خاصة وان احتلال الفرس لتلك المدينة ، قد شجعهم على مد تحرشاتهم الى بعض المناطق الشرقية في الاناضول . وقبل ان يباشر مراد بمشروع الحملة على بغداد ، قاد جيشه في ربيع سنة ١٦٢٥ متوجها نحو الاقسام الشرقية من آسيا الصغرى لابعاد الفرس من المدن التي كانت ضمن حدود الامبراطورية العثمانية والتي دخلوها مستغلين فترات الفوضى التي عانت منها الدولة . استولى السلطان على اربكان « مظهر الروح الصادقة للسلطين العثمانيين القديما في المنايا بجنده ، اضافة الى روح الانضباط العالي التي فرضها على القطعات بالنشاط الشخصي والقيادة العسكرية البارعة التي اظهرها » (١٣) . وقد كتب عنه كاتب انكليزي هو ريكاتوت Rycout يقول (١٤) « لعدة اشهر لم يستعمل وسادة غير سرجه ولا غطاء سوى ذلك المستعمل لفرسه » . ان استرجاع مدينة ومقاطعة اربكان كانت مأثرة عسكرية هامة ، بالإضافة الى ان زحف مراد في خلال آسيا الصغرى ثم عودته منها ، كان بحد ذاته « تفقدا ملكيا صارما لجميع حكام المقاطعات ، الذين اتهموا ، اوشك في سوء ادارتهم واهمالهم » (١٥) .

ما ان حلت سنة ١٦٢٨ ، حتى شرع مراد بالقيام بآخر واعظم اعماله العسكرية المتمثلة بالحملة لاستعادة بغداد من ايدي الفرس ، وهذا هو موضوع بحثنا هذا .

تحرك الحملة ومراحل الزحف

اشرفت الاستعدادات المتعلقة بحملة استرداد بغداد من ايدي الصفويين على نهايتها في اوائل شهر شوال ١٠٤٧هـ / شباط ١٦٢٨ ، حيث رفع

(١٢) Stanley Lane-Pool: Turkey (London, 1908), p. 219.

(١٣) Creasy, op. cit., p. 254; وانظر ايضا :

W. Eton, A Survey of the Turkish Empire (London, 1799), p. 176.

(١٤) Quoted in : Creasy, op. cit., p. 254.

(١٥) Loc. cit.

بأمور عسكرية ثانوية (١٦) ، بالإضافة الى قيامه بنشر قواته في مناطق واسعة ، فتوغل في شهرزور و اردلان وهاجم همدان (حزيران ١٦٢٠) ، ثم توجه الى درگزير عن طريق قزوین ووصل اليها وخرّبها ، بعد كل ذلك ، وبعد اصرار المجلس العسكري الذي عقد في تلك المدينة على تنفيذ امر السلطان بان الهدف من الحملة هو بغداد ، آنذاك فقط توجه الجيش نحو العراق ، بعد ان اضاع وقتا ثميناً من جهة ، وانهك قواته واستهلك الجانب الاكبر من ذخيره من جهة اخرى (١٧) .

حاصر خسرو باشا بغداد واستمرت المعارك سجالات بين الطرفين اربعين يوما ، وفي اليوم الاربعين شن القائد العثماني هجوما جريئاً على المدينة المحاصرة ، الا ان الهجوم احبط بالرغم من شجاعة خسرو الجنوبية (١٨) . وبعد خمسة ايام من ذلك الهجوم ، قرر المجلس العسكري الانسحاب من امام بغداد ، وقد تم الانسحاب بنظام وحمل الجيش كافة المدافع والمؤن ووصل الموصل في الايام الاولى من سنة ١٦٢١ (١٩) .

بعد هذا التاريخ بوقت قصير اخذت الدولة العثمانية تحس بالانعكاش مجدداً متمثلاً بالشخصية الصارمة لمراد الرابع ، الذي نجح في انتضاء على روح التسليم والفتنة في الدولة . وما ان حل شهر مايس ١٦٢٢ « حتى اتم مراد مهمة التخلص من الطغاة العسكريين نيبدأ عهداً من الرعب » (٢٠) . حقا ان السلطان « اقام سلطنته على الرعب ، ولم تكن هناك قوة تستطيع ان تؤثر على ارادته الفولاذية ، لقد كان يرقب كل اقسام ادارته بعين يقظة متفحصة ، فساد القانون والعدانة ، النظام والانضباط بشكل لم يعرف منذ ايام سليمان القانوني . طاغية كان ، ولكنه لم يسمح لاي رجل آخر بان يظفي . فادرك الناس بان طغيان فرد هو

(١٦) امضى مدة سبعة ايام في ترميم الحصن الذي اشاده سليمان القانوني ، والواقع على الحدود بالقرب من كل منر Gulanbar والذي لم تكن له تلك الاهمية لاهدار ذلك الوقت الثمين .

Longrigg, op. cit., p. 65.

(١٧) انظر : Ibid., pp. 64-7

(١٨) Ibid., pp. 66-7.

(١٩) Ibid., p. 67.

(٢٠) Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks (Beirut, 1961), p. 249.

« الطوغ الهمايوني » (١٧) امام « الجيخان » (١٨) في ٨ شوال/٢٢ شباط ، كعلامة على بدء التنفيذ العملي للحملة (١٩) . وفي ١٥ شوال/٢ آذار ، اي بعد اسبوع واحد ، تقل « الطوغ » الى اسكدار (٢٠) ، انتظارا لوصول السلطان ، الذي وصل في يوم ٢٣ ذي القعدة يرافقه كافة مأموري السراي (٢١) .

دخل السلطان مراد الرابع اسكدار منتظبا حصانا اسودا وعلى صدره درع من انغولاذ اللامع تحت شال احمر يغطي كتفيه ، وعلى رأسه مغفر عليه عمامة من الشال الاحمر حسب الطريقة العربية ، فكان في زيه هذا يحاكي طراز الصحابة الكرام حينما يتأهبون للجهاد (٢٢) . امضى الجيش

(١٧) الطوغ Tuğ أو ذيل الحصان ، راية خاصة تتألف من ذيل حصان معلق في سارية تتوجها كرة ذهبية . وكان هذا شعارا تركيا قديما من المحتمل انه من اصل طوغمي . والطوغ في الاصل كان يؤخذ من ذبول اليك لا من الخيل . السنجق بك له الحق في رفع طوغ واحد والبكربك في طوغمين . اما الوزراء في البلاط او في الاقاليم فلهم الحق في ثلاثة اطواق ، والصدر الاعظم بخمسة . اما السلطان نفسه فيتقدم موكبه في الحملات الحربية عدد قد يبلغ تسعة اطواق . انظر :

H.A.R. Gibb and Harold Bowen, Islamic Society and the West (Oxford, 1969), vol. I, pp. 139-140.

(١٨) دار صناعة الاسلحة ، وهي مأخوذة من جبهه Cebe التي تعني الدوع أو السلاح .
Ibid., p. 66. انظر :

(١٩) هاممر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد عطا ، (اوقاف اسلامية مطبعة سي ١٢٢٥ هـ) مجلد ٩ ، ص ٢٢٧ ؛ اما كوك فيحدد خطأ بدء تحرك الحملة بـ ٢٠ آب ١٦٢٧ .
انظر :

Richard Coke, Baghdad the City of Peace (London, 1927), p. 204.

حيث يظهر من قوله ان الحملة استغرقت ستة عشر شهرا الا يؤكد ان القوات العثمانية وصلت الى بغداد في شهر تشرين الثاني من السنة التالية . ويقع في نفس الخطأ شاكر صابر الضابط انظر كتابه : العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٢١ .

(٢٠) Halil Sahilloğlu, Dördüncü Muradın Bagdat Seferi Menzîlnamesi (Belgeler-C. 11-1965 - Sayı - 3-4), p. 13.

(٢١) هاممر ، المصدر السابق ، ص ٢٢٧ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ ، عباسي الصزاوي ، تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٢٩) ج ١ ، ص ٢٠٩ ؛
Lamartine, op. cit., pp. 263-4

في اسكدار مدة تسعة وعشرين يوما ، ثم في اثنائها انجاز مختلف الامور المتعلقة بتحركات الحملة واختيار الطريق الذي ستملكه القوات ومناطق راحتها ، وقد قسم الطريق ما بين اسكدار وهدف الحملة النهائي ، بغداد ، الى مائة واحد وعشرين مرحلة (٢٣) . فكان على القوات ان تسير بمعدل ساعتين الى تسع ساعات يوميا ، في خلال فترة تتراوح ما بين اربعة الى خمسة عشر يوما ، ثم تتوقف للراحة في محطات اعدت مسبقا (٢٤) . ان هذا التخطيط الدقيق ، والذي نفذ بشكل يدعو الى الإعجاب ، ليدل على روح الارادة والتصميم التي كانت من أبرز مزايا السلطان مراد الرابع ، الذي قدر له ان يكون آخر السلاطين المحاربين العظام في قيادة حملة عسكرية بنفسه (٢٥) . كما يبدو ان السلطان قصد من ورائه اضافة الى المحافظة على النظام وروح انضبط في الجيش وعدم ارهاقه لحين الاطباق على الهدف المحدد ، تمهيط ودراسة الاوضاع العامة في مناطق الدولة التي تمر منها قوات الحملة واطرار الامن والاستقرار فيها . وعلى امتداد سير الحملة ، وجهت عناية خاصة لحالة الطرق وتحسينها . وعن هذه الناحية يشير تافرنبيه بقوله (٢٦) « ... والحق يقال ان زحف السلطان عاد بفائدة جريئة على المسافرين في هذا الطريق [الطريق الذي يوصل الموصل ببغداد] » . وكان السلطان في خلال سيره يدقق في تصرفات المسؤولين « بتلك الروح المدققة الصارمة كما فعل من قبل في حملته

(٢٣) انظر تفصيل تلك المراحل في :

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27;

وهو ادل مصدر في هذه الناحية ، لان كتابه كان مرافقا للحملة وسجل تفاصيلها بدقة . ولكن كلا من هاممر ولامرت وكريسي ولونكريك يحددون تلك المراحل بمائة وعشر مراحل . انظر : هاممر ص ٢٢٨ ؛

Lamartine, op. cit., p. 264; Creasy, op. cit., p. 255

Longrigg, op. cit., p. 69.

اما المزوي فيذكر انها مائة وخمسة عشرة مرحلة (المزوي ، ٢٠٩) .

(٢٤) انظر : Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-27.

(٢٥) Creasy, op. cit., p. 254; Lane-Pool, op. cit., p. 255;

Longrigg, op. cit., p. 70.

(٢٦) العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة الفرنسي تافرنبيه ، ترجمة بشر فرنسيس وكوركيس عواد ، (بغداد - مطبعة المعارف ، ١٩٤٤) ص ٢٢ . ويستشير الى هذا المصدر منذ الآن باسم (تافرنبيه) .

على اربفان (٢٧) . ففي كل مرحلة من تلك المراحل ، كان السلطان يحقق مع المسؤولين ، مصدرا اوامره الصارمة بحق المقصرين من باشوات وقضاة وحكام وجامعي ضرائب ، والتي كانت في معظم الاحوال احكاما بالموت ، في نفس الوقت الذي كان فيه يكرم باتهادايا والهبات اولئك الذين كان راضيا عن تصرفاتهم (٢٨) . وسنلاحظ انه في خلال التقدم في الطريق المرسوم كانت تلحق بالجيش قطعات عسكرية جديدة ، قام بتحشيدها حكام الولايات العثمانية وبخاصة في الشام ومصر .

تحركت الحملة من اسكدار في يوم الجمعة المصادف ٢٣ ذي الحجة/وبعد خمسة ايام وصلت ازميد ، وهي المرحلة السادسة من مخطط السيرة حيث امضى الجيش فيها ثمانية ايام (٢٩) . وهنا استأذن القضاة والمدرسون الذين كانوا في توديع السلطان بالعودة الى العاصمة (٣٠) . ثم تقدمت قوات الحملة فوصلت منطقة الفين ، وهي المرحلة الخامسة والعشرين (٣١) ، وفيها قدم قاضي اسكي شهر الى مقر القيادة وعرض امر المدعين بالمهدية ، فأمر السلطان « كتخدا السلحدارية » مع اربعة من البكربكات بالتوجه لضرب حركة الشيخ الدعي ، وكان هذا الاخير قد جمع حوله حوالي اربعة آلاف رجل من سكاريا ومودورني وقديجيني ، وخاض معركة مع بكربك اولجه في الاناضول (٣٢) .

وفي اثناء التوقف في جاقيد خاني ، وهي المرحلة الثانية والاربعين (٣٣) ، التحق بالجيش

(٢٧) Creasy, op. cit., pp. 254-5; فاد مراد جيشه بنفسه لاستعادة المواقع التي احتلها الفرنسي في فترة الفوضى السابقة وطردهم من مناطق اسيا الصغرى . ففي ربيع ١٦٢٥ زحف مراد باتجاه اربفان ، عاكسا اقبال الطيب لجنوده في المندرة على التحمل والصبر وروح العزم الذي لا يلين . فتح اربفان ودمر طوروس وعاد الى العاصمة في نفس تلك السنة . انظر :

E'lon, op. cit., p. 176; Creasy, op. cit., p. 254.

(٢٨) انظر : هامبر ، ص ٢٢٩ - ٢٥٠ ؛

Lamartine, op. cit., p. 260

Creasy, op. cit., pp. 254-5.

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-14. (٢٩)

(٣٠) هامبر ، ص ٢٢٩ .

Sahilloğlu, op. cit., pp. 15-6. (٣١)

(٣٢) هامبر ، ص ٢٢١ - ٢٢٠ .

Sahilloğlu, op. cit., pp. 13-18. (٣٣)

بلغار احمد باشا بيك طرابلس السابق (٣٤) . وواصلت القوات تقدمها فدخلت حلب ، وهي المرحلة السادسة والخمسين ، في ١١ ربيع الاول/١١ تموز ، حيث استراحت فيها القوات العثمانية مدة ستة عشر يوما (٣٥) . وفي هذا الموقع انضم الى قوات الحملة جيش من مصر يقوده رضوان بك (٣٦) . وقد بلغ عدد هذا الجيش ١٥٠٠ رجل ارسلهم والي مصر قبوجي باشي جوان محمد باشا المعروف بسلطان زاده ، مساهمة مع السلطان لاسترداد بغداد (٣٧) .

وصلت القوات الى بيرة جك ، المرحلة الخامسة والستين ، في ١٩ ربيع الاول/١٩ تموز ، وفيها اتخذت الترتيبات لمسير الجيش نهرا الفرات ، لبنى جسر من اربعين طوافة عبرت عليه القوات العثمانية ، في حين عبر السلطان الى الجانب الثاني في زورق خاص يرافقه المفتي يحيى افندي (٣٨) . وفي خلال فترة التوقف هذه ، تم صب خمسة مدافع كبيرة ، اثنان منها بحشوة عشرين اوقية من البارود وثلاثة بحشوة ثمانية عشر اوقية (٣٩) . كما التحق بالجيش في هذا الموقع بكربك سيواس واسير يوزاق شمس بك زادة (٤٠) . وفي موقع قريب ، تم بناء ثمانمائة زورق لنقل الذخيرة والتموين (٤١) .

بعد اسبوع واحد ، اي في ٢٦ ربيع الاول ، وصل الجيش الى منطقة جلاب (٤٢) ، المرحلة السبعين ، وفيها توفي الصدر الاعظم بيرم باشا ، وقد تآثر السلطان كثيرا لموته ، وعين لمنصب الوزارة المعظمي واني الموصل ، طيار محمد باشا ، الذي جرى اعلامه بذلك بواسطة كتخدا البوابين

(٢٤) هامبر ، ص ٢٤٢ .

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ ، ولو ان هامر يعتبر حلب المرحلة الخامسة والخمسين ، ولكن انظر :

Sahilloğlu, op. cit., p. 20.

(٢٦) الزاوي ، ص ٢١٠ .

(٢٧) الميرالي اسماعيل سرهنك ، حقائق الاخبار عن دول البحار ، (القاهرة - بولاق ١٢١١) ، ج ٢ ، ص ٢٠٠ ، الفهواني ، ص ٢٦٠ .

(٢٨) هامبر ، ص ٢٤١ ؛ الزاوي ، ص ٢١٠ ؛ Sahilloğlu, op. cit., pp. 20-1

(٢٩) الزاوي ، ص ٢١٠ .

(٤٠) المصدر نفسه .

(٤١) هامبر ، ص ٢٤٤ ؛ الزاوي ، ص ٢١٠ ؛ Lamartine, op. cit., p. 265

(٤٢) يسميها لوتريك دولاپ

Longrigg, op. cit., p. 69

الذي ارسله السلطان بأمر التعمين ، وعين بصفة مؤقتة قره مصطفى باشا^(٤٢) .

وصل الجيش الى ديار بكر ، وهي المرحلة السابعة والسبعين ، في ٢٣ ربيع الآخر ، وعسكر فيها لمدة تسعة ايام^(٤٣) . وفي خلال وجود الجيش في ديار بكر التحق بالسلطان الصدر الاعظم الجديد ، على رأس جيش كبير^(٤٤) . وقد جرى له استقبال كبير وانعم عليه السلطان^(٤٥) . وقبل التحرك نحو الموصل ، جرى تنظيم السير بحيث يكون كل من « امير الصحراء » ابن ابي ريشة وباشوات حلب وطرابلس الشام على مقدمة الجيش . تحت امرة والي ديار بكر درويش باشا^(٤٦) . وفي منطقة حكيمية المرحلة الثامنة والثمانين ، وانتهى وصلها الجيش في ١٧ جمادى الاولى ، قدم عرب البادية الى مقر القيادة وهم يصحبون خمسمائة اسير من القزلباش اسروا قرب بغداد وقد امر السلطان باعدامهم جميعا^(٤٧) . وبعد مرحلتين اي في كفر زمان ، جرى عبور نهر دجلة بدون جسر ، وقد توفي هناك بكرك بك مرعش بيقلي مصطفى باشا^(٤٨) .

في ٢٩ جمادى الاولى ، دخل الجيش العثماني مدينة الموصل ، وهي المرحلة السابعة والتسعون ، وعسكرت فيها القوات للراحة واتخاذ الاجراءات النهائية لمدة عشرة ايام^(٤٩) . وفي الموصل استقبل السلطان سفيرا من ملك الهند ، وهو يحمل رسالة الى السلطان مع هدايا ثمينة كان من بينها جواهر ثمينة تعادل قيمتها ٥٠٠٠٠٠٠٠ دوكا ذهبيا مع سيف مرصع^(٥٠) وحزام ثمين

(٤٢) هامبر ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ، منجم باشي ، صحائف الاخبار (بالتركية) (مطبعة عامرة ، استانبول ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م) ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٤٣) Sahilloğlu, op. cit., p. 22

اما هامر فيقول ان الجيش مكث في ديار بكر عشرة ايام . هامبر ، ص ٢٤٧ .

(٤٤) المصدر نفسه ؛ Longrigg, op. cit., p. 69

(٤٥) المزوي ، ص ٢١٠ .

(٤٦) هامبر ، ص ٢٤٧ .

(٤٧) Sahilloğlu, op. cit., p. 23

(٤٨) هامبر ، ص ٢٤٨ .

(٤٩) هامبر ، ص ٢٤٨ ؛ Sahilloğlu, op. cit., p. 24

(٥٠) Lamartine, op. cit., p. 265

وقد اشار تافرنيه الى تلك الواقعة بقوله انه في خلال وجوده في البصرة وصل اليها سفير عظيم القبول الذي جاء من بغداد بعد لقائه بالسلطان . انظر : تافرنيه ، ص ٢٢

تعادل قيمته ١٥٠٠٠٠٠ قرشا . والى جانب ذلك حمل السفير للسلطان ترسا ثمينا مصنوعا من اذن الفيل ومغطى بجلد الكركدن ، وكان الشائع آنذاك ان هذا الترس لا تؤثر فيه السيوف والاطلاقات النارية^(٥١) ، ولكن مراد الرابع تمكن بضربة واحدة من بلطته ان يخرقه^(٥٢) ، وحينئذ وضع في الترس خمسمائة فلوري - عملة ذهبية - واعاده الى السفير^(٥٣) . ان السبب في تلك السفارة ، يعود الى سماع ملك الهند بنبا حملة السلطان ضد الصفويين ولاسترجاع بغداد ، ولذا فقد اشار في كتابه المرسل الى السلطان انه بدوره قد حشد قواته لمهاجمة قندهار واستعادتها من الصفويين ، وقد كان لهذا النبأ وقع طيب في القيادة العثمانية ، ذلك ان « عمل الهند مما يشوش الوضع على ايران من مجاوريتها ويسهل فتح بغداد »^(٥٤) .

قبل ان تغادر قوات الحملة الموصل ، عقد السلطان مجلسا حريا لبحث موضوع نقل المدافع الى بغداد^(٥٥) . فكان رأى غالبية القادة المجتمعين ان من الافضل نقلها عن طريق النهر ، وذلك بسبب هلاك كثير من الجاموس الذي يسحبها وما متبق من فانه منهك ، ورأى آخرون افضلية نقلها برا بصحبة الجيش حيث تصل المدافع مع بقية الجيش في وقت واحد الى بغداد . وبعد الدراسة قرر رأى السلطان ان يتم نقل عشرين مدفعا برا مع الجيش ، وان ترسل المدافع الباقية ، وعددها عشرة ، عن طريق النهر^(٥٦) . وقد برزت حكمة هذا القرار الذي اتخذه السلطان ، حيث ان المدافع التي نقلت بواسطة النهر لم تصل الا بعد عشرين يوما من بدء حصار الجيش العثماني لمدينة بغداد . وكان من شأن ذلك ، فيما لو وقع ، ان يقلل من فاعلية الحصار^(٥٧) . وقبيل الحركة ، امر السلطان بمنع كل فرد من الانكشارية والسباهية مائة اقعة كعبة ، كما وزعت على اصحاب الزعامات والتميمات القنابل لنقلها فيما بينهم ، من اجل ان تكون ذخيرة المدافع مهياة حين الوصول الى الهدف^(٥٨) .

(٥١) المزوي ، ص ٢١١ .

(٥٢) Lamartine, op. cit., p. 265 - 6.

(٥٣) المزوي ، ص ٢١٢ .

(٥٤) المصدر نفسه .

(٥٥) هامبر ، ص ٢٤٩ .

(٥٦) المصدر نفسه ، المزوي ، ص ٢١٢ .

(٥٧) المزوي ، ص ٢١٢ .

(٥٨) المصدر نفسه ، هامبر ، ص ٢٤٩ .

ايضا انباء نجاح الفارسة العثمانية على منطقة شهرزور^(١٧) . ومن جبق كوبري ، عبر الجيش بعقوبة ثم بهرز ، وكانت المرحلة قبل الاخيرة هي مقابل الامام موسى الكاظم ، التي وصلها الجيش في يوم ٧ رجب ، وفي صباح الاثنين ٨ منه / ١٥ تشرين الثاني ، وبعد حركة ساعة واحدة ، ضرب الجيش موافقه امام مقام الامام الاعظم^(١٨) . وبذلك يكون الجيش العثماني قد سلخ مائة وسبع وتسعين يوما منذ مفادته لاسكدار حتى وصوله الى موافقه في مواجهة اسوار بغداد ، امضى فيها ستا وسبعين يوما للاستراحة^(١٩) .

دفاعات بغداد

تقوم بغداد على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، ويبلغ طولها بحسب تقدير تافرنبيه ١٥٠٠ خطوة وعرضها ما بين ٧٠٠ الى ٨٠٠ خطوة ، اما طول محيطها فيبلغ ثلاثة اميال^(٢٠) . يحيط بالمدينة سور مبني من الحجر ، قام اوليا جلبي بقياس طوله ، فوجد انه يبلغ ٢٨٠٠ خطوة او سبعة اميال (الميل الواحد يساوي ٤٠٠٠ خطوة) في حين ان حاجي خليفة يجعل طوليه ١٢٢٠٠ ذراعا او ميلين^(٢١) . يكتنف السور خندق عرضه ستين ذراعا ، يستقي مياهه من دجلة^(٢٢) ، ويبلغ

(١٧) المزوي ، ص ٢١٤ .

(١٨) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٩) انظر : Ibid., pp. 13-27 ؛ ان دقة المزوي في تحديده لاوقات الراحة بـ ٧٦ يوما تدعو الى الاعجاب (المزوي ، ص ٢١٥) . اما هامر ، فيذكر ان عدد ايام التوقف بلغت ٨٦ يوما (هامر ، ص ٢٥٠) ، ومن الجدير بالذكر ان باربر يخطئ بقوله ان الرحلة من اسكدار الى بغداد استغرقت مائة وعشرة ايام ، انظر :

Noel Barber, The Lords of Golden Horn from Suleiman the Magnificent to Kamal Atatürk (London, 1974), p. 86.

(٢٠) تافرنبيه ، ص ٧٨ .

(٢١) Quoted in: A.A. Duri, 'Baghdad', The Encyclopaedia of Islam, (new edition, Leiden, 1960), vol. I, p. 904;

نجد ان لامرتين يقدر طول السور بـ ١٠٠٠ خطوة انظر Lamartine, op. cit., p. 266

ولكن اذا اخذنا بنظر الاعتبار راي مؤرخ حصار بغداد فياء الدين اوغلي فيكون طول السور ٨٠٠ خطوة . انظر هامش رقم (١) ص ٧٩ من هذا البحث .

(٢٢) Duri, op. cit., p. 904.

نظم سير الجيش حين مغادرة الموصل « للدخول في المنطقة المعادية »^(٢٣) ، فمهد بقيادة قوات الطليعة الى والي ديار بكر ، وثانفت ميسرة الجيش من قوات الشام وسواس ، اما المؤخرة فوضع على قيادتها بكربك مرعش ، محمد علي باشا الكرجي ، وتولى قيادة المدفعية بوغاي باشا زادة والي حلب^(٢٤) . في يوم ٩ جمادى الآخرة ، غادر الجيش الموصل زاحفا الى بغداد فمر على حمام العليل ثم زاب صوي ، وفي يوم ١٢ جمادى الآخرة ، وعند المرحلة الواحدة بعد المائة وعند مقابلة زاب صوي ، عبر معظم الجيش النهر راجلين في حين اجتاز السلطان النهر على ظهر حصانه^(٢٥) . وبعد اربعة ايام ، ١٧ جمادى الآخرة ، وصل الجيش الى آنتون كوبري ، وهي المرحلة الخامسة بعد المائة ، فعبرت القوات العثمانية على الجسر^(٢٦) . ومن هنا مر الجيش على كوك تبة وخاصة صوي ثم كركوك ، التي امضت فيها القوات يوما واحدا للراحة ، ثم تحرك الجيش من كركوك في ٢٢ جمادى الآخرة ، فمر على تازة خرماتي وطاورق وطوز خرماتو وكفري ونازين صوي وطاش كوبري^(٢٧) . وفي يوم ١ رجب وصل الجيش جبق كوبري ، حيث امر الجيش بالتحشد والراحة ليوم واحد^(٢٨) . وهنا وصل الى السلطان خبر انتصار حاكم آخسنة ، سفر باشا ، في حملة روان^(٢٩) . فلقد تمكنت القوات العثمانية التي هاجمت روان ، من دحر حاكمها الفارسي كلب خان ، واستولت على ذلك الموقع . كما وصلت

(٢٣) Longrigg, op. cit., p. 70

(٢٤) هامر ، ص ٢٢٩ ، المزوي ، ص ٢١٢ .

(٢٥) Sahilloğlu, op. cit., p. 25.

(٢٦) Loc. cit. ؛ اما المزوي فانه يحدد خطا تاريخ

الوصول الى آنتون كوبري بيوم ٢ رجب ، كما يذكر الرواية القائلة بان السلطان في هذا الموضع رفض عبور القنطرة قائلا « دع النهر يجرفك ولا تمر من قنطرة الجبان ، وانرك الاسد يفتنك ولا تركز الى قلل ابي الحصين » (المزوي ، ص ٢١٢ - ٢١٤) في حين ان من المؤكد مما اورده مرافق السلطان ان العبور تم من على الجسر . ويبدو ان القهواتي يقع في نفس الخطا بتاييده لرواية المزوي الائمة الذكر (القهواتي ، هامش ٥ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣) . ولعل الخطا هنا ناشيء من الالتباس الذي وقع فيه المزوي من كون الجيش العثماني قد عبر في منطقة زاب صوي على الادل لا في منطقة آنتون كوبري .

(٢٧) Sahilloğlu, op. cit., pp. 25-6.

(٢٨) Ibid., p. 26.

(٢٩) هامر ، ص ٢٥٠ .

نعمق المياه فيه نحواً من خمس قامات (٧٢) . الجزء من السور الذي يحيط بالجهة الشرقية من المدينة كان دائرياً تقريباً ، ويبلغ ارتفاعه ستين ذراعاً وعرضه ما بين ١٠ الى ١٥ ذراعاً (٧٤) . تنتصب أبراج كبيرة في الزوايا الرئيسية من سور بغداد ، اقيمت فيها المدافع النحاسية ، في حين تقوم أبراج اصغر على مسافات قصيرة من بعضها البعض ، ويبلغ عدد هذه الابراج مائة وثمانية عشر برجاً في جوانب السور المطلة على البر و ٤٥ برجاً تشرف على النهر (٧٥) وبحسب ما يذكره مؤرخ حصار بغداد ، ضياء الدين اوغلي (٧٦) . فقد كانت بين كل برج وآخر خمسون فتحة لاطلاق نيران المدافع والبنادق ، وبين كل فتحة واخرى خطوة واحدة . في الزاوية الشمالية الغربية من السور تقوم القلعة الداخلية التي يطوقها حائط مفرد يبدأ من باب المعظم الى نهر دجلة ، ترتفع عليه أبراج صغيرة نصبت فيها المدافع (٧٧) . ويحديق بسورها خندق فسق (٧٨) . وهذه القلعة تضم الشكنات ومخازن الذخيرة والمؤن بالإضافة الى الخزينة ، والى جوارها ، من جهة الجنوب يقوم السراي حيث مقر الوالي (٧٩) . في الاسوار ابواب اربعة ، ثلاثة منها من جهة البر وهي : باب المعظم في الشمال ويبعد ٧٠٠ ذراعاً من دجلة ، الباب المعظم او «باب كلواذة» في الجنوب على بعد ٥٠ ذراعاً من النهر ، والباب الابيض او « الباب الوسطاني » في الشرق ، اما الباب الرابع فهو يواجه النهر ويسمى بباب الجسر (٨٠) . والاخير يربط ما بين بغداد والجهة القابلة من دجلة حيث تنتصب قلعة الطيور "Kushlur Kalasi" (٨١) .

لا تتفق المصادر في تحديد عدد افراد الحامية الفارسية المكلفة بالدفاع عن بغداد ، وتراوح التقديرات ما بين ١٢.٠٠٠ الى ٨٠.٠٠٠ رجل .

(٧٢) نافرنيه ، ص ٧٨ .

(٧٤) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٥) Loc. cit.

اما هامر فانه يجعل عددها مائتين واحد عشر برجاً .

انظر : هامر ، ص ٢٥١ .

(٧٦) مقتبس في : هامر ، ص ٢٥١ .

(٧٧) Duri, op. cit., p. 904.

(٧٨) نافرنيه ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٧٩) Duri, op. cit., p. 904.

(٨٠) Loc. cit. ؛ هامر ، ص ٢٥١ .

(٨١) Loc. cit.

يحدد المزوي مواقع قلعة الطيور بالقرب من نكية خضر

الياس للبكتاشية . المزوي ، ص ٢١٩ .

فهامر يذكر ان عدد افراد القوات التي تحت امره بكتاش خان هو ١٢.٠٠٠ فارس وبندهجي يقودهم خلف خان (٨٢) . ولكن هذا الرقم هو اقل بكثير مما تجمع عليه المصادر وتدل عليه ظواهر الاحوال . فالمزوي يقول ان العدد الذي اورده هامر يشمل رماة البنادق فقط الذين التحقوا ببغداد لتعزيزها لحاميتها بقيادة اغا صادق بن مير فتاح (٨٣) . اما بجوي فيقدر عدد تلك القوات بـ ٢٦.٠٠٠ قزلباشي (٨٤) . في حين ان منجم باشي يجعلهم ٣٠.٠٠٠ (٨٥) . ويستشف مما اورده كانتمير ان العدد يزيد على ما ذكرناه ، ولو انه لم يذكر رقماً محدداً ، لكنه يقول ان عدد القوات الفارسية التي استسلمت للسلطان بلغ عدد افرادها ٣٠.٠٠٠ رجل (٨٦) . فاذا اخذنا بنظر الاعتبار القتال الضاري الذي دار بين الحامية والقوات العثمانية المهاجمة فان عدد افراد الحامية يزيد كثيراً على ذلك الرقم . اما لامرتين فانه يقدّر عدد الجند الفرس في داخل بغداد بـ ٨٠.٠٠٠ رجل (٨٧) . ومهما كانت هذه الاختلافات فان من المؤكد ان الحامية كانت ذات مستوى عددي مناسب نظراً للدفاع العنيف الذي واجهت به القوات العثمانية المستبلة بالهجوم طيلة اربعين يوماً من القتال المتواصل . ويبدو من المؤكد ان الحامية الفارسية قد تلقت تعزيزات كبيرة في الرجال والسلاح والذخيرة قبل ان تطبق عليها القوات العثمانية . ويذكر القهواتي نقلاً عن محمد يوسف (٨٨) ، ان بكتاش خان كان قد علم برحف السلطان مراد الرابع الى بغداد وذلك عن طريق القوافل القادمة من حلب ، فبعث الى الشاه طالباً امداده بقوات اضافية لتعزيز الحامية ، وكانت استجابة الشاه فورية لهذا الطلب ، اذ سارع باعداد جيش كبير قرر ان يقوده بنفسه ، في نفس الوقت الذي ارسل فيه الى عدد من حكام الولايات طالباً منهم الالتحاق لنجدة الحامية الفارسية ، كما هيأ كميات كبيرة من معدات الحصار والمدافع لارسالها الى بغداد ، وقد

(٨٢) هامر ، ص ٢٥٢ .

(٨٣) المزوي ، ص ٢١٧ .

(٨٤) انظر سيد فائق ، تاريخ بجوي (استانبول ، مطبعة العامة ، بدون تاريخ) ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٨٥) منجم باشي ، تاريخي (استانبول ، مطبعة الاميرة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨) ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٨٦) Cantemir, op. cit., p. 248.

(٨٧) Lamartine, op. cit., p. 267

(٨٨) مؤلف كتاب ذيل تاريخ عالم آراي عباسي .

معارك حصار بغداد ٨ رجب - ١٧ شعبان

أقيمت خيمة السلطان مقابل مقام الامام الاعظم ، وبرزت ثقة السلطان بالنصر ، من امتناعه عن زيارة الامام « لأنه وجد انه لا يليق بسبه زيارة المقام قبل اتمام فتح بغداد » (٩٦) . وقبل حلول الماء من نفس يوم الوصول ، بوشر بالاستعدادات الفورية للهجوم ، فعقد السلطان مجلسا حربيا ضم بالإضافة الى الوزراء والقادة ، شيخ الاسلام وقاضي المعسكر ، وتقرر فيه توزيع القوات على المواقع وارتداء الرجال لدروعهم وقيام افراد « الجبخانه » بتوزيع لوازم الحصار « كالغزوس ، الكراكات » على الرجال (٩٧) . وعلى الفور اخذ الجميع مواقعهم ؛ فالقوة التي كانت تحت قيادة السلطان عسكرت امام باب المعظم (٩٨) . وفي مواجهة الباب الابيض وضع على القيادة الصدر الاعظم طيار باشا يسنده اغيا الانكشارية جنال زادة وبكربك الروملي ارسلان اوغلو باشا (٩٩) . وفي مواجهة الاسوار الممتدة الى الجنوب ، ما بين الموقع السابق والباب المظلم ، اخذت قوات عثمانية اخرى مواقعها يقودها القبودان مصطفى باشا وبكربك سيواس والصمصونجي باشي ، في حين عهد لقيادة القوات المكلفة بمواجهة الباب المظلم الى بكربك الاناضول حسين باشا يدعمه بكات كوستنديل والونية وقوات مصر واربعون ضابطا آخر مع زغارجي باشا (١٠٠) . وقد جرت اول الالتحامات امام الموقع الاخير (١٠١) .

في اليوم الثاني من الحصار ، الثلاثاء ٩ رجب ، وصلت المدافع التي رافقت الجيش عن طريق البر ، فوزعت على الفور على جميع الجبهات (١٠٢) . تسلم الصدر الاعظم عشرة مدافع والقبودان مصطفى باشا ستة ، وحسين باشا قائد موقع الباب المظلم اربعة مدافع (١٠٣) . ومع

بلغ تعداد تلك الحملة ٢٠.٠٠٠ قزلباشي (٨٩) . ولكن تطورات الحالة في المناطق الشرقية من الامبراطورية الصفوية ، نتيجة تحرشات الازبك ، دفعت بالشاه الى البقاء في قزوین وكلف مير فتح لينوب عنه في قيادة الحملة الى بغداد (٩٠) .

اما عن عدد افراد القوات العثمانية انني اطبقت على بغداد فغالبية المصادر تفعل ذكر الرقم بشكل محدد ، ويذكر القهواني تضارب الارقام ، ذاكرة ان التقديرات تتراوح ما بين ١٠٠ ألف الى ٣٠٠ ألف جندي (٩١) . اما لامرتين فيقدر عدد افراد الجيش العثماني الذي قاده السلطان ب ٣٠٠ ألف رجل (٩٢) . ويورد باربر رقما يدل على المبالغة حيث انه يقدر عدد القوات العثمانية التي طوقت بغداد بنصف مليون رجل ، ويصف زحف ذلك الجيش اللجب مشبها اياه « بنهر عظيم كانت الروافد تصب فيه باستمرار اثناء جريانه معززة جبروته بحيث لم يعد بإمكان اية قوة مواجهة المد العارم لنصف مليون رجل » (٩٣) .

تمكنت القيادة العثمانية من الحصول على معلومات مهمة حول خطط الفرس الدفاعية ، فتبين لها منها ان الفرس قد ركزوا اقوى دفاعاتهم في منطقتي باب المعظم والباب المظلم ، ويرجع ذلك الى ان الحملات العثمانية السابقة لاستعادة بغداد ، والتي قادها حافظ باشا وخسرو باشا ، فرضت الحصار على المدينة من تلك الجبهتين ، وكل ما احدثته القوات العثمانية من لغرات في الاسوار ، قامت الحامية الفارسية بترميمه وتحسينه بالإضافة الى اصلاحها بقية الاسوار ، ولكنها اهملت طرف السور المواجه للصحرَاء عند الباب الابيض (٩٤) . ويبدو انها لم تتوقع شن الهجوم من تلك الناحية ، وهذا تقصير واضح . لقد احاط السلطان واركان حربه بتلك التفصيلات وهم في الموصل على اثر لقاء القبض من قبل القوات العثمانية على احد المسؤولين الفرس المدعو مير محمد ، وكان هذا قد وصل الى تكریت لجمع الضرائب ، وحينما جلب الى السلطان كشف له عن تلك الاسرار في محاولة لانقاذ حياته (٩٥) .

(٨٩) القهواني ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٩٠) المصدر نفسه ، ص ٢٦٤ .

(٩١) المصدر نفسه ، ص ٢٦٥ .

(٩٢) Lamartine, op. cit., p. 266.

(٩٣) Barber, op. cit., p. 86.

(٩٤) هامبر ، ص ٢٥١ .

(٩٥) الخزاي ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٩٦) هامبر ، ص ٢٥٢ . وانظر ايضا : الصواوي ، ص ٢١٦ ؛ Coke, op. cit., p. 206 .

(٩٧) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(٩٨) Coke, op. cit., p. 206.

(٩٩) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٠) Loc. cit. ؛ هامبر ، ص ٢٥٢ .

(١٠١) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٢) Loc. cit.

(١٠٣) هامبر ، ص ٢٥٢ ، اما بجوي فيورد بان المصدر

الاعظم تسلم ١٢ مدفعا والقبودان مصطفى ٩ مدافع

وحسين باشا ٨ وليرويش باشا اربعة مدافع . وعليه

فيكون مجموع المدافع التي فتحت نيرانها في الایام الاولى

من القتال ثلاثة وثلاثين مدفعا (بجوي ، ص ٢١٧) ، اما

بواكير صباح اليوم التالي ، الأربعاء ، انطلقت المدافع من الجبهات الثلاث تصف الاسوار ، كما فتح الرجال نيران بنادقهم على العدو . وسقط اول القتلى والجرحى من الطرفين ، وحينما وصلت اول دفعة من الجنود الجرحى امام السلطان استقبلهم مشجعا وانعم على كل منهم مبلغا يتراوح ما بين عشرين الى ثلاثين قرشا (١٠٤) . ويصف شاهد عيان موقف السلطان من جرحاه فيقول (١٠٥) « وقد امر بنصب خيمة الجراحين في الجيش بقرب موقعه وكان يأمر باجراء الاسعافات القورية للجرحى مشجعا اياهم بكلمات طيبة ومقدما لهم بعض الهبات المالية » .

تواصل القتال في يومي الخميس والجمعة وفي ليلة السبت ، ١٢ رجب اشتد قصف المدفعية من الجانبين ، وفي صباح اليوم التالي جلب اول الاسرى من انقزلباشي وعددهم اربعة وثلاثون فردا فصدر الامر باعدامهم واكرم السلطان اسريهم (١٠٦) . وفي اليوم الرابع من القتال عبر السلحدار باشا برفاقه بكربك طرابش شاهين باشا ، على رأس قوة مؤلفة من ١٢٠٠٠ رجل نهر دجلة مهاجما قلعة الطيور ، وقد نجح الهجوم وتم الاستيلاء على القلعة (١٠٧) . ان اقتحام القوات العثمانية لهذا الموقع ساعد على الاطباق الكلي على الحامية الفارسية ، كما انه من الناحية الاخرى جعل قصف المدفعية العثمانية اكثر تأثيرا لانكشاف جانب القلعة الداخلية المطل على النهر . يقول الغزاوي نقلا عن المحبي « خلاصة الاثر » ان الشاه ارسل رسولا لطلب الصلح في اليوم الخامس من الحصار ، يدعى جانبك سلطان ، وان السفير اجتمع بالصدر الاعظم في ١٣ رجب ، ولكن السلطان وجميع الوزراء والاركان رفضوا عرض الصلح هذا (١٠٨) . وهذا يدل ، في حالة وقوعه ، على شعور الشاه بالعمجز عن مواجهة قوات الحملة العثمانية التي صمم قائدها ، السلطان بدائه ، على عدم القبول باقل من الاستسلام التام لحامية بغداد .

في اليوم الثامن من الحصار ، ١٦ رجب ، نجحت القوات المهاجمة في ابصال المتاريس الى قرب الخندق ، في الوقت الذي تهدمت فيه كثير من الابراج بفعل قصف المدفعية العثمانية (١٠٩) . وقد دفع القصف العثماني الكثيف بافسراد الحامية الفارسية الى « ارتداء جلود الاغنام على رؤوسهم لحمايتهم من نيران المدفعية » (١١٠) وقد تمكن كنعان باشا ، بكربك ارضروم ، من اسر بعض القزلباش الذين تم اعدامهم جميعا ، وانعم السلطان على اسريهم (١١١) .

في خلال ايام المعارك هذه والايام التي تلتها ، كان السلطان مراد الرابع في غاية النشاط والحيوية واستطاع ان يجعل من نفسه القوة المحركة وان يخلق ذلك الزخم المطلوب لانتزاع النصر ، كان يعمل في المتاريس ويشارك في اختيار مواقع المدافع وتصويبها ، ممضيا معظم الليالي والسرجه له بمثابة الوسادة (١١٢) . لقد كان حماس الجند يصل اقاصه من مشاركة السلطان لهم في اعمالهم المرهقة ، فيذوب الشعور بذلك الارهاق ليتحول الى طاقة لا تعرف الكلل في الوصول الى النصر ، وتزيد حماسهم تلك الكمات الحماسية التي كان يخاطبهم بها « عليكم جميعا ان تفكروا بانني لم اجدى الى هنا لاعداء قبل ان استرجع هذا الموقع ، تلا ، لقد جئت على رأس عدد كبير من الجند الصادق الايمان لا فنيح او اموت هنا ، فعلى الجميع ، وعلى كل فرد منكم ان يتخذ نفس ذلك القرار . . » (١١٣) وفي مناسبة اخرى قال محدثا جنوده « ابدلوا جهودكم في سبيل الدين والفيرة الاسلامية ولا تقصروا . هذا يوم السمي وبذل ما في الوسع » (١١٤) . ولم يقتصر السلطان على كل ذلك ، بل كان ينعم على الجرحى ويحسن اليهم « ويطيّب القلوب بالانعامات ويعني بشؤون انجيم » (١١٥) . لقد كان فتح بغداد بالنسبة للسلطان امرا في غاية الاهمية ، فكان كما يقول

(١٠٩) هامبر ، ص ٢٥٢ .

(١١٠) المصدر نفسه .

(١١١) Sahilloğlu, op. cit., p. 28.

(١١٢) Barber, op. cit., p. 86;

وانظر ايضا :

Lane-Poole, op. cit., p. 220; Longrigg, op. cit., p. 71.

(١١٣) Coke, op. cit., p. 205.

(١١٤) الغزاوي ، ص ٢٢٠ ، هامبر ، ص ٢٥٢ .

(١١٥) الغزاوي ، ص ٢٢٠ .

كوك فيذكر ان عدد المدافع التي بدأت التصف في اليوم الاول من الحصار كانت ستين مدفعا وهذا غير دقيق . انظر : Coke, op. cit., p. 205.

(١٠٤) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٥) Quoted in : Coke, op. cit., p. 206.

(١٠٦) Sahilloğlu, op. cit., p. 27.

(١٠٧) هامبر ، ص ٢٥٢ ، ولو ان هامبر يقول سهوا ان قلعة الطيور تقع شرقي دجلة ، في حين انها ، وكما سبقت الإشارة بذلك ، تقع غربي النهر .

(١٠٨) الغزاوي ، ص ٢١٨ .

شاهد عياناً « طيلة أيام الحصار التي دامت تسعة وثلاثين يوماً حتى تم الاستيلاء عليها [بغداد] في اليوم الأربعين ، كان جلالته يقوم بصلاته في كل يوم وليلة على ركبته ، منكباً وساجداً على الأرض واندموع تتلألا في عينيه » .

وفي إحدى المناسبات قدم مراد الدليل الحاسم على روح الجراءة والشجاعة التي اتصف بهما ، فعندما أرسل الفرس فارساً عملاقاً لتحديد المحاصرين في مبارزة فردية ، لم يتردد لحظة واحدة واندفع بنفسه لمواجهة المتحدي ، وبعد صراع عنيف شق جمجمة ذلك العملاق من الهامة إلى الفك في ضربة واحدة من سيفه (١١٧) .

في يوم الجمعة ٢٦ من رجب ، قامت مجموعة من القزلباش بهجوم مباغت ، إذ خرجت من الأسوار أمام الجهة التي يقودها حسين باشا ، في محاولة لتدمير المناريس العثمانية ، إلا أن القوات العثمانية ردت على هجومهم بهجوم مضاد فاضطرتهم إلى الانسحاب بعد أن خلفوا وراءهم عدداً من القتلى (١١٨) . وفي صباح اليوم التالي ٢٧ منه ، وصلت المدافع العشرة التي سبق أن أرسلت من الموصل عن طريق النهر فسلمت ثلاثة منها إلى السلحدار باشا وخمسة للصدر الأعظم واثنتان لمصطفى باشا ، واخذت المدافع الجديدة مراقبتها وباشرت بالقصف في فجر اليوم التالي الأحد ٢٨ رجب ، واشتد القصف في هذا اليوم من جانب الطرفين بضراوة (١١٩) . لقد تمكنت القوات العثمانية في هذه الفترة من القتال ، من أحداث تدمير كبرى في تحصينات بغداد ، فقد نجح الصدر الأعظم في هدم برج الباب الأبيض ، كذلك تمكن القبودان باشا من هدم البرج المبني زمن جفالة زادة ، في الوقت الذي نجحت مدافع حسين باشا في هدم البرجين الكبيرين الآخرين ، وتهدم تماماً جانب من السور يبلغ ثمانمائة ذراع ، مما دفع بالقيسادة العثمانية إلى التفكير بشن هجوم عام من تلك الثغرة ، ولكنها عدلت عن ذلك بعد تقدير للموقف ؛ إذ تبين لها خطورة ذلك لما وردعها من وجود الاستحكامات والمناريس والخنادق داخل المدينة (١٢٠) . وتواصل القتال بدون انقطاع معتمداً

بالأساس على القصف بالمدافع وتبادل نيران البنادق .

في يوم ٢ شعبان/٩ كانون الأول وصل إلى مقر قيادة القوات العثمانية أمير العرب (أبو ريشة) وهو يقود قافلة مؤلفة من ١٠٠٠ رجل حملت معه بالآرزاك للجيش (١٢١) ، وجالبا معه عدداً من الأسرى الفرس ، وقد استقبل السلطان أبا ريشة بترحاب واحترام كبيرين وقدم الخلع لسبعة من رجاله (١٢٢) . في أثناء ذلك ، ومع ورود الأنباء باقتراب إنشاء من ديباني على رأس جيش فارسي مؤلف من ١٢٠٠٠ رجل ، حاول الفادة الفرس المحاصرون رفع معنويات جنودهم ، ولكن سرعان ما خاب أملهم في النجدة . فحالاً سمع السلطان بذلك النبأ أصدر أمره إلى كل من والي حلب محمد باشا ووالي طرابلس شاعين باشا وأمير العرب أبو ريشة وخيالاته ، بالتحرك على الفور إلى منطقة ديباني للتصدي للقوات الفارسية ، ولكن الفرس سرعان ما انسحبوا حينما علموا باقتراب قوة انتحدي العثمانية هذه (١٢٣) .

تواصل القتال بين الطرفين وتكنسه اشتد « بضراوة لا توصف في الفترة ما بين ٥ و ١٨ شعبان (١٢٤) ففي صباح الخامس من شعبان وزع على الجند ٢٦٠٠٠ كيس ، جرى العمل على ملئها بالتراب والرمل وأصبحت مهياة في اليوم التالي . وكانت النجدة منها ردم الخنادق (١٢٥) . وفي الالتحامات التالية استبسل الطرفان وسقط عدد من القتلى كان من بينهم أغا القدايين (سردن كجدي) والآي بك جرمن ، وكان لاستشهادهم صدى مؤلم لدى السلطان (١٢٦) . وقد تم إفشال محاولة اغارة قام بها الفرس (١٢٧) .

نجحت القوات المهاجمة في ردم أجزاء كبيرة من الخنادق بحلول يوم ١٦ شعبان ، وكان السلطان متحرراً لشن الهجوم العام ، ولهذا فقد وجه لومه

(١٢١) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٢) المصدر نفسه ؛ Loc. cit.

(١٢٣) المصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٢٢ ؛

Longrigg, op. cit., p. 71; Coke, op.

cit., p. 207

Sahilloğlu, op. cit., p. 28. (١٢٤)

Loc. cit. ؛ هذا مع المسلم أن كلا من هاسر (١٢٥)

والغزوي يذكران أن عدد هذه الأكياس هي ٢٦٠ كيساً

هاسر ، ص ٢٥٤ ، الغزوي ، ص ٢٢١ .

(١٢٦) هاسر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٧) الغزوي ، ص ٢٢٢ .

Quoted in : Coke, op. cit., p. 207. (١١٧)

Lane-Poole, op. cit., p. 220; Barber, op. cit., p. 86. (١١٨)

Sahilloğlu, op. cit., p. 28. (١١٩)

Loc. cit. (١٢٠)

Coke, op. cit., p. 207. ؛ هاسر ، ص ٢٥٤ (١٢١)

الى الصدر الاعظم طيار باشا لتباطئه في شن الهجوم (١٢٨) قائلا « اهذه شجاعتك واقدامك ، ما هذا الانتظار وما معنى هذا التأخير ؟ » فاجاب طيار « انا حاضر نداء روعي لسلطاني ، فلو مات عبدك طيار فلا قيمة له ، اسأل الله ان يسهل الفتح (١٢٩) . وقد تقرر القيام بالهجوم المام واختراق مواقع الدفاع الفارسية في صباح اليوم التالي ، وفي تلك الليلة الحاسمة لم يتم العثمانيون وكان تكبرهم يسمع من مسافة بعيدة (١٣٠) .

ما ان برغت شمس يوم ١٧ شعبان ، حتى اندفعت جحافل العثمانيين من خنادقها يتقدمهم الوزراء والقادة ، والكل يهتف بصوت عاصف « الله كريم الله عظيم » ، فكان اندفاعهم « كموجة مد عارمة على انقاض الاسوار » (١٣١) . كان في مقدمة القوات المندفعة الصدر الاعظم طيار الذي « اعمل في عدوه السيف وابدى بسالة لا مثيل لها » (١٣٢) . ولكنه اصيب بقذيفة في جبهته ادت الى وفاته (١٣٣) . جيء بجثمان القائد الى خيمة السلطان ، فكان تأثيره عميقا وحزنه صميما ومرا (١٣٤) . وقرض نعيما طيار بقوله (١٣٥) « لقد عاش سعبدا ومات شهيدا » . وقد قام السلطان نفسه بامامة الصلاة على روح القائد الراحل (١٣٦) ، ودفن في مقبرة الامام الاعظم بالقرب من قبر والده مصطفى باشا ، الذي كان واليا على بغداد في فترة

(١٢٨) هامبر ، ص ٢٥٤ .

(١٢٩) المصدر نفسه ، الزاوي ، ص ٢٢٢ .

(١٣٠) هامبر ، ص ٢٥٤ .

(١٣١) المصدر نفسه ؛ Lamartine, op. cit., p. 266

(١٣٢) الزاوي ، ص ٢٢٢ .

(١٣٣) هامبر ، ص ٢٥٤ ؛ نظمي زادة مرتضى الفندي ؛ كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورسي ، (بغداد ، مطبعة الاداب ، بدون تاريخ) ، ص ٢٢٢ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266; Creasy, op. cit., p. 255; Longrigg, op. cit., p. 72.

(١٣٤) هامبر ، ص ٢٥٥ ؛

Lamartine, op. cit., p. 266

ولو ان الزاوي يجعلها « مائة مدينة مثل بغداد » الزاوي ، ص ٢٤٤ . هذا ويخطئ كاتمه بقوله ان السلطان قتل بيده وزيره الاكبر لانه ظهر له مهلا ؛

Cantemir, op. cit., p. 248.

(١٣٥) متنبس في : هامبر ، ص ٢٥٥ ، اما لامرتين فيقول في وثائه « ان روحه غادرت قفصها الى الجنة »

Lamartine, op. cit., p. 266

Coke, op. cit., p. 207

(١٣٦)

سابقة (١٣٧) . وعلى الاثر عين السلطان القبودان مصطفى باشا بمنصب الصدارة العظمى ، قائلا له « حقق ثقتي بك ، فبعون الله انت الذي ستفتح بغداد » (١٣٨) . قبل مصطفى باشا الارض بحضرة السلطان قائلا بتأثر « لا اريد الارضك ودعواتك » ، وخرج وعينه مفروقتان بالدموع (١٣٩) .

اندفع مصطفى باشا مجددا الهجوم ، والجنود الذين انهب حماسهم تقدم الصدر الاعظم ، اندفعوا وراءه بفدائية عالية . وواصل القائد هجومه بمنف ، وتساقط العديد من اتباعه واصدقائه ولكنه لم يتوقف الى ان استولى على كافة الابراج ، وهكذا سقطت مدينة بغداد في ١٨ شعبان/٢٥ كانون الاول ، بعد اربعين يوما من الحصار والقتال الضاري (١٤٠) . وطيلة هذه الفترة « كان القتال يبدو وكأنه مذبحة متواصلة ... لم يتوقف فيها اطلاق القذائف وصليل السيوف للحظة واحدة مدمرة الجنود من كلا الجانبين » (١٤١) .

كان بكتاش خان ، الحاكم الفارسي لبغداد ، اول من ادرك عقم المقاومة بعد بدء الهجوم العثماني الشامل واكتساح اهم مواقع الدفاع الايرانية ، فعرض تسليم نفسه الى السلطان وارسل رسولا يحمل ذلك الى مراد الرابع (١٤٢) . وعن هذه الناحية يقول صاحب كلشن خلفا ، ان بكتاش خان قبل ان يقدم على خطوته تلك ، تداول مع القادة خلف خان وعلي بار ومير فتاح ، وانهم جميعا قرروا الاستسلام للقوات العثمانية ، ولكنه يخالف ما ورد في المصادر الاخرى بقوله « وبعدئذ تقدم بكتاش خان نحو السلطان يعرض الخضوع والتسليم وكذلك فعل بقية الامراء الآخرين الا امير انقزلباش ابن فتاح فقد امتنع ... » (١٤٣) ولكن الوقائع تشير الى ان بكتاش خان سار وحده الى المسكر العثماني ، يرافقه الجاويش باشي طوراق اغا ومنصرف نيكدة حسن اغا ، اللذان ارسلوا لجلبه الى مقر القيادة العثمانية (١٤٤) . ومن خيمة الصدر الاعظم سار الوالي الفارسي بين صفين من

(١٣٧) هامبر ، ص ٢٥٥ .

(١٣٨) المصدر نفسه Lamartine, op. cit., pp. 266-7

(١٣٩) هامبر ، ص ٢٥٥ .

(١٤٠) المصدر نفسه ؛ الزاوي ، ص ٢٢٤ ؛

Longrigg, op. cit., p. 72

Cantemir, op. cit., p. 248 (١٤١)

(١٤٢) هامبر ، ص ٢٥٦ .

(١٤٣) كلشن خلفا ، ص ٢٢٢ .

(١٤٤) هامبر ، ص ٢٥٦ .

وفي نفس تلك الليلة التجأ كل من مير فتاح وبار علي وخلفاني « قلعة نارين » ، في نفس الوقت الذي كانت فيه الجحافل العثمانية تندفق على المدينة من كل الجهات . وقد سحب دخول القوات العثمانية واستمرار بعض الفرس في المقاومة ، وقوع حوادث فوضى ونهب وقتال (١٥١) . ويقول الكاتب المرافق للحملة عن تلك الليلة « دخل الجيش العثماني الى المدينة ونهبها وأخرج أرزاقا عظيمة » (١٥٢) . ولم توفق جهود الصدر الأعظم ، الذي جاء بنفسه ، في إيقاف الفوضى وإعادة الأمن (١٥٣) .

استمرت الاشتباكات بسبب استمرار بعض الفرس على القتال ، وسقط رئيس الكتاب اسماعيل أفندي قتيلا ، كما تعرض السلحدار باتا للاغتيال حينما هجم عليه أحد الفرس شاهرا سيفه ، إلا أن أحد أفراد الدلي - قوة من القوات الفدائية - أنقذه مضجعا بحياته في سبيل ذلك (١٥٤) . في هذا الوقت قدم الى السلطان أحد جنود عسكر الرومالي مطالبا إياه بعدم منح « الامان » وقد استفرب السلطان هذا الموقف من أحد جنوده وتساءل عن السبب في هذا الطلب ، فبين الجندي أن والده وأخوته وأعمامه قد سقطوا قتلى في الحملات المتعاقبة لاستعادة بغداد ، وما أن الفرصة قد حانت للانتقام (١٥٥) . وفي خلال هذا الحديث ، قدم أحد مشايخ بغداد وهو يقتاد رجلين من الفرس مربوطين بالسلاسل ، قد غضب مراد ووجه كلامه الى الشيخ متسائلا « لقد أصدرت الامان فلماذا تأسروهم ؟ » فأجاب الشيخ بأن هؤلاء قد رفضوا الامان الممنوح لهم وحملوا السلاح (١٥٦) . وندى سماع السلطان لهذا القول ، أرسل أحد خدمه التتار على فرسه لاستطلاع الحالة في بغداد وإعلامه بالموقف ، ولم يلبث الوصيف أن عاد بخبره بأن الفرس عند أبواب المظلم يقاتلون باستماتة ، وأن عددا من الباشوات قتلوا أو جرحوا (١٥٧) . وهنا استدعى السلطان حسين باشا بكربك الروملي ، وأمره بأجراء قتل عام إذا واصل الفرس المقاومة (١٥٨) .

- (١٥١) المصدر نفسه .
 (١٥٢) Sahilloğlu, op. cit., p. 29.
 (١٥٣) هامبر ، ص ٢٥٧ .
 (١٥٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .
 (١٥٥) المصدر نفسه .
 (١٥٦) المصدر نفسه .
 (١٥٧) Lamartine, op. cit., p. 267.
 (١٥٨) هامبر ، ص ٢٥٨ .

السلحدارية والسباهية منوجهما الى خيمة السلطان ، الذي كان جالسا على كرسي من الذهب ، معتمرا شالا كنميريا على رأسه معقود بآبرة ذهبية مرصعة ، يحيط به الخدم متمنطقين الاحزمة المرصعة ، واني جانبه شيخ الاسلام والوزراء وسائر اركان الدولة . ان منظر الديوان هذا ، كان مجسما للآية الكريمة « انا فتحنا لك فتحا مبينا » (١٥٩) . اقتيد بكتاش خان الى الموضع الذي جلس فيه مراد ، فقبل أرجل السلطان ملتصقا « الامان » فاجابه السلطان لذلك على أن يقوم باخلاء القلعة في نفس ذلك اليوم ، كما وجه اليه اللوم لعدم استسلامه قبل هذا الوقت ، الا انه اردف « لكنك قمت بواجب الخدمة لمتبوعك جهد طاقتك ، فانت معذور » (١٦٠) ثم انعم عليه بخلة وخنجر مرصع بالجواهر (١٦١) . ثم انتهى كلامه بالقول « على كل الخانات والقادة في القلعة الاستسلام ، وهم مخبرين في البقاء عندنا او بالذهاب الى الشاه » (١٦٢) .

وبناء على هذا توجه بكتاش خان الى خيمة الصدر الأعظم ، وهناك كتب رسائل الى كل من مير فتاح وبار علي وخلف وبقيّة الخانات والضباط الفرس طالبا منهم وجوب تسليم القلعة (١٦٣) . في الوقت نفسه أصدر الصدر الأعظم امره بتفتيش كافة الابراج التي استولى عليها الجيش العثماني خشية من وجود كمائن والغام . الا ان المدافعين رفضوا الانصياع فنشب القتال من جديد (١٦٤) .

- (١٦٥) المصدر نفسه .
 (١٦٦) المصدر نفسه ؛ المزوي ، ص ٢٢٥ .
 (١٦٧) Sahilloğlu, op. cit., 28.
 (١٦٨) هامبر ، ص ٢٥٧ .
 (١٦٩) المصدر نفسه ؛ في نفس تلك الليلة وجد بكتاش خان ميتا ، وتختلف المصادر في توفيق ظروف ودوافع موته . ويكتفي الكاتب الذي وافق السلطان مراد في حملته على بغداد بقوله « في يوم الجمعة مات بكتاش خان فجأة » (Sahilloğlu, op. cit., p. 29) ومن هذا الرأي لونكريك « مات بكتاش خان ممما بصورة مفاجأة » Longrigg, op. cit., p. 73 ويتهم هامر زوجة بكتاش خان بأنها هي التي سمته « لانها رفضت مرافقته الى الاسنانة » وقد سلمت القاتلة مع خزينتها الى والدها لور حسين خان حاكم مندلي « (هامبر ، ص ٢٥٩) ويتفق صاحب كلشن خلفا وكوله على ان بكتاش خان « انتحر متائرا بالغم الذي اصابه من انهزال قواته » (كلشن خلفا ، ص ٢٢٢ ؛ Coke, op. cit., p. 208)
 (١٧٠) هامبر ، ص ٢٥٧ .

قام حسين باشا يرافقه السلحدار بانسذار
القادة الفرس المستحكمين في قلعة نارين بوجوب
الاستسلام . فاستجاب كل من مير فتاح وخلف
وبار علي للانذار واعلنوا استسلامهم ، فاقبضوا
الى السلطان الذي عهد بهم الى السلحدار
لحجزهم ، في حين واصل ولدي مير فتاح
القتال (١٥٩) . وعند هذا وجهت المدفعية العثمانية
نيرانها الى القلعة فتساقط عدد من القزلباش قتل
وقم اسر كثيرين منهم ، جرى قتلهم امام خيمة
السلطان (١٦٠) . ولم يبق هناك خيار للباقيين من
الفرس فاعلنوا استسلامهم وعلى الاثر دخل
بكلربك الاناضول الى القلعة واخرج الموجودين
فيها (١٦١) . ادت تلك المضاعفات والملايسات التي
راقت دخول بغداد الى ان تعم الفوضى ، ولهذا
فتم يحفل الجنود العثمانيون بأمر العفو « وبعد
تعقب الفرس من زاوية الى اخرى » صدر امر ثان
بالامان (١٦٢) .

في هذه الاثناء تمكن عدة مئات من الفرس (١٦٢)
من الهرب من الباب المظلم ووصلوا قرب نهر
ديالى ، الا ان القوات المصرية التي عهد اليها بمهمة
مطاردتهم ادركتهم وقتلت الكثيرين منهم في حين
لجأ قسم من هؤلاء الفارين الى داخل قبة كبيرة في
شهربان (١٦٣) ، ولكن انهيار تلك القبة ادى الى
هلاك اكثرهم (١٦٤) . اما الكاتب الذي رافق الحملة
فيورد رواية مغايرة لتلك حيث يذكر ان اثنين من
الخانات سلموا انفسهم ومعهم ثمانمائة قزلباشي ،
وقد اقتيد هذان الخانان الى حضرة السلطان في
حين سلم القزلباش الى بكلربك الروملي « وقد
جاء بهم هذا الى ديالى حيث اطلق سراحهم
هناك » (١٦٥) .

تختلف الروايات في تحديد خسائر القوات
الفارسية ، فبحوى الذي حدد عدد افراد الحامية

- (١٥٩) المصدر نفسه .
(١٦٠) المصدر نفسه .
(١٦١) المصدر نفسه .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٦٢)

(١٦٣) يقدر لامرتين خطأ عدد هؤلاء الفارين بـ ٢٠٠٠ رجل 1
Lamartine, op. cit., p. 267.

(١٦٤) يقول الزاوي نقلاً عن الفراهي ان عدد الذين لجأوا الى
القبة كان خمسة وعشرين شخصاً فقط نجا واحد منهم
فقط . الزاوي ، ص ٢٢٠ .

(١٦٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٩ ، هامش ، ص
Lamartine, op. cit., p. 267. ٢٥٨ - ٢٥٩

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٦٦)

بـ ٢٤٠٠٠ مقاتل يقول (١٦٧) « من غير المؤكد نجاة
عشر معشارهم » . اما منجم باشي فينتقرب مع
بحوى في تقديراته ، حيث يذكر انه من مجموع
الـ ٢٠٠٠٠ محارب من الفرس نجا ٣٠٠ جريح
فقط « وصلوا اشبه بالاموات الى جيش الشاه ،
وفيما عدا هؤلاء فان البقية ابعدوا » (١٦٨) . ويحدد
بشكل اكثر دقة تلك الارقام فيقول « قتل منهم في
ايام الحصار ١٠٠٠٠ رجل ، وبعد الفتح ذبح
١٩٧٠٠ » (١٦٩) . اما هامر فيقول « من مجموع
٣٠٠٠٠ مقاتل فارسي دافعوا عن بغداد لم يصل
منهم الى جيش الشاه سوى ثلاثة آلاف رجل ، فقد
قتل منهم ١٢٠٠٠ في خلال معارك الحصار ، في
حين جرت عملية قتل عام للبقية يوم
التسليم » (١٧٠) . اما كوك فيورد رواية شاهد
عيان يظهر فيها المبالغة اذ يقول (١٧١) « كان في بغداد
واحد وثلاثين الفا من الجنود وعشرين الف متطوع
تم قتلهم جميعا بالسيف ، ولم ينج منهم اي فرد
ليحمل نبأ ذلك الى مدن فارس » . اما كل من
كانتمير وباربر فانهما يوردان روايتين فيها مبالغة
في محاولة لاصاق صفة الجزار بالسلطان فيقول
الاول (١٧٢) « مجموع ان ٣٠٠٠٠ فارسي الذين
سلموا انفسهم الى السلطان ، جرى ذبحهم جميعا
في حضرته حتى آخر رجل » . اما الثاني
فيقول (١٧٣) « امر مراد بمذبحة عامة للحامية ونفذ
الامر في يوم واحد من المجازر ومن بين ان ٢٠٠٠٠
فارسي لم ينج سوى ٣٠٠ رجل فقط » . ولكن
اقرب الروايات الى المعقول ما اورده انكاتب الذي
رافق الحملة حيث يقول (١٧٤) : « لقد قتل من
الفرس اكثر من ٢٠٠٠٠ رجل » . وهو في هذا
يدمج عدد القتلى الذين قتلوا في الالتحامات باولئك
الذين تم اعدامهم بعد الاستيلاء على بغداد .

عنى اثر سيطرة القوات العثمانية على بغداد
والقضاء على المقاومة الفارسية ، صدرت الاوامر
بالمحافظة على حياة السكان المدنيين (١٧٥) ، « وعدم
نهب ممتلكاتهم ، وان كل من عشر على ماله بإمكانه

- (١٦٧) بحوى ، ص ٤٥١ .
(١٦٨) منجم باشي ، ص ٦٧٤ .
(١٦٩) المصدر نفسه .
(١٧٠) هامر ، ص ٢٥٩ .

Coke, op. cit., p. 210. (١٧١)

Cantemir, op. cit., p. 248. (١٧٢)

Barber, op. cit., p. 86. (١٧٣)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٤)

(١٧٥) هامر ، ص ٢٥٩ .

استمداده «١٧١» وعقد السلطان مراد بعد الفتح ديوانا عاما انعم فيه على شيخ الاسلام والوزراء واثقاده ، الذين ابدوا بسالة في القتال ، ثم توجه بعد ذلك الى مقام الامام الاعظم لاداء ائتمارة المنتظرة (١٧٧) . وارسلت بشارة الفتح الى استانبول بيد خليل اغا (١٧٨) .

قام مراد الرابع بعد انجاز الفتح باتخاذ الترتيبات المتقضية لتنظيم ادارة بغداد ، فعين كجك حسن ، اغا الانكشارية وانبا على بغداد (١٧٩) ، كما قرر ترك حامية مؤلفة من ٨٠٠٠ جندي للمحافظة على بغداد ، وعين على قيادتها بكتاش اغا ، كتحدا الانكشارية ، كما عين سلحدار باشا بمنصب القبودان (١٨٠) ، اما منصب قاضي بغداد فقد عهد به الى تذكره جي موسى افندي (١٨١) .

قبل انجاز الاستمدادات الاخيرة لمفادرة بغداد ، قام السلطان وكافة اركان الدولة المرافقين له ، بزيارة مرقد الامام موسى الكاظم ، في يوم الجمعة المصادف التاسع من رمضان (١٨٢) . وفي ذلك اليوم حدث انفجار في « بارود خانة » (١٨٣) بغداد ، ادى الى مقتل عدد من الافراد (١٨٤) مما اغضب السلطان ، فاصدر امره بقتل « البقية الباقية من القزلباش » (١٨٥) . وهناك خلاف في المصادر حول تحديد عدد الذين تم قتلهم نتيجة

(١٧٦) الغزوي ، ص ٢٢٠ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٧)

(١٧٨) هامر ، ص ٢٥٩ .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٧٩)

Longrigg, op. cit., p. 73 ٢٦. ص (١٨٠) هامر ،

اما لامرتين فيقدر عدد المراد الحامية التي تركها السلطان في بغداد ب ١٠٠٠ رجل

(Lamartine, op. cit., p. 268)

في حين ان الغزوي يذكر ان عدد القوات التي كلفت بحماية بغداد بعد ان غادرها السلطان هي ١٢٠٠٠ من الجيش البغدادي و ٨٠٠٠ انكشاري و ١٠٠٠٠ سباهي (الغزوي ، ص ٢٢٦) .

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٨١)

Loc. cit. (١٨٢)

(١٨٣) Barudhāna وهي كلمة تركية تعني مخازن البارود . انظر : Gibb and Bowen, op. cit., p. 68.

(١٨٤) بلغ عدد القتلى والجرحى من الانكشارية ٨٠٠ رجل (Greasy, op. cit., p. 256)

(١٨٥) Sahilloğlu, op. cit., p. 29. ويخطئ كوك

بذكره ان الانفجار حدث في اليوم الاول من دخول القوات العثمانية الى بغداد . انظر :

Coke, op. cit., p. 208

هذا الحادث . يقول لامرتين « اصدر السلطان امره بان يقوم سكان بغداد بقتل اي فارسي قد يكون لاجنا في دورهم ، وتم اعدام ١٠٠٠ فارسي امامه على ضفة دجلة » (١٨٦) . اما لوتريك وباربر فيذكران ان عدد الذين قتلوا في المذبحة التي اعقبت الانفجار بلغ ٣٠٠٠ شخص (١٨٧) ولكن يبدو بصورة عامة ، ان امر القتل قد شمل الرجال من الفرس ، سواء اكانوا من الجنود او من الذين اشتبه باشتراكهم بالقتال في خلال معارك الحصار ثم اعفى عنهم ، فالكاتب الذي رافق الحملة خص بالذكر . كما مر بنا قبل قليل ، القزلباش ، كما ان صاحب كلشن خلفا يقول بصدد حادثة الانفجار وما تلاها بانها « تدل على انقضاء عهد القزلباش وادبارهم وفعلًا صدرت الاوامر بافنائهم ، سواء الذين يسكنون داخل المدينة ام خارجها ، عدا الذين لم يشتركوا في القتال فقد رحلوا من البلاد وانتشر المنادون بمنون العفو العام في البلدة » (١٨٨) .

اشرفت مهمة السلطان على نهايتها ، واستعد لمفادرة بغداد بعد ان امر الصدر الاعظم بانجاز المهمات التي بداها هو ، وبخاصة اعادة بناء الاسوار والاستحكامات وتعمير مرقد الامام الاعظم والكيلاني (١٨٩) . وفي ١٢ رمضان غادر المدينة ، ولدى مفادرتة تم اغلاق باب الطلسم (١٩٠) . ومن امام مقام الامام موسى الكاظم بدأت مسيرة العودة نحو العاصمة (١٩١) . وفي خلال ذلك وجه مراد تحديا مهينا للشاه قال فيه « لو كنت رجلا لظهرت نفسك . ذلك انه من ينتحل انعرش نفسه لا يجدر به ان يظل متواريا وراء الجدران ، فانذي يخاف من الحصان لا يجب ان يمتطيه ، والذي يهمره وهج الفولاذ ان لا يقرب السيف ، فما كتب منذ الازل لابد وان يتحقق » (١٩٢) .

عودة السلطان الى استانبول

استغرقت رحلة العودة للسلطان حوالي

Lamartine, op. cit., pp. 267-8. (١٨٦)

Longrigg, op. cit., p. 74; Barber, op. cit., p. 86. (١٨٧)

(١٨٨) كلشن خلفا ، ص ٢٢١ .

(١٨٩) الصدر نفسه ؛ الغزوي ، ص ٢٢٤ ؛

Cantemir, op. cit., p. 249

Creasy, op. cit., p. 256.

Duri, op. cit., p. 904. (١٩٠)

Sahilloğlu, op. cit., p. 29. (١٩١)

Quoted in : Lamartine, op. cit., p. 268. (١٩٢)

ثمانين يوما وقسمت الرحلة الى خمس وستين مرحلة ابتدأت من امام مقام الكاظم في ١٢ رمضان وانتهت بدخول السلطان اسكدار في الخامس من صفر (١٩٢). وقد سلك السلطان في مسيرة العودة طريقا غير الطريق الذي قدم منه ، ويبدو ان الغاية من ذلك اكمال تفقد مقاطعات الدولة وتنظيم امور المناطق التي يمر منها . كانت اهم المناطق التي مر بها والقوات المرافقة له : سميكة - تكريت - حمام العليل - الموصل - نصيبين - ماردين - ديار بكر - ملطبة - سيواس - انقره - اسكدار (١٩٤) .

قبل ان يدخل العاصمة ، كان مصمما على ان يحتفل بانتصاره « بدرجة سيظل السكان يذكرونها ابدا » ولهذا ، وحينما كان على بعد ايام قليلة من استانبول ارسل تعليماته باعداد الاستقبال حملها الحمام الزاجل (١٩٥) .

دخل مراد الرابع استانبول في يوم ١٠ حزيران ١٦٢٩ (١٩٦) ، بموكب حافل ظلت ذكره عالقة بالاذهان . لا بسبب روعته واهمية الانتصار العسكري الذي احرزه الجيش العثماني فحسب ، بل تونه كان آخر مشهد قدّر فيه لعاصمة الامبراطورية ان ترى عاهلها وهو مكمل بالنصر (١٩٧) . ويصف مؤرخ عثماني شهد المنظر فيقول (١٩٨) « انه منظر يقف اللسان عاجزا عن الاخبار عنه ويعجز اي قلم عن وصفه . كانت الشرفات واسطح المنازل تقصر بالناس وهم يهتفون بحماس كبير : ليكن الله الرحيم معك يا ايها الفاتح ، مرحبا مراد ، نتكن انتصاراتك مباركة » . وكان مراد يرتدي درعا من الفولاذ الصقيل المذهب وينطفي كنفه جلد الفهد ويحتطي حصانا حربيا رائعا متبوعا بسبعة خيول عربية ذات سروج مرصعة بانجواهر (١٩٩) . ويسير الى جانبه اثنان وعشرون من كبار النبلاء الفرس على اقدامهم وهم مقيدون بسلاسل مذهبة (٢٠٠) في حين كانت الابواق والحنوج تعزف في مقدمة الموكب ، وهو ، في مروره ، ينظر بفخر الى كلا الجانبين « كالاسد الذي نال بفيتنه ، محييا

Sahilloğlu, op. cit., pp. 29-35. (١٩٢)

Ibid. : للتفاصيل (١٩٤)

Barber, op. cit., p. 86. (١٩٥)

Eton, op. cit., p. 178. (١٩٦)

Creasy, op. cit., p. 256; Barber, op. cit., p. 87. (١٩٧)

Creasy, op. cit., p. 256. (١٩٨)

Loc. cit.; Barber, op. cit., p. 86. (١٩٩)

Ibid., pp. 86-7. (٢٠٠)

الجماهير التي كان يعلو صياحها : تبارك الله ، رامين بانفسهم على الارض » (٢٠١) في نفس الوقت ، كانت كل السفن الحربية في البسفور تطلق مدافعها محيية « فبدا وكان البحر يتفجر انفعا لا واهيا » وقد كرست سبعة ايام وليال للاحتفال بهذا النصر العظيم (٢٠٢) .

معاهدة زهاب ١٧ مايس ١٦٢٩

ذكرنا ان الصدر الاعظم ، وبناء على تعليمات السلطان مراد الرابع ، تخلف في بغداد لانجاز المهمات التي بداها العاهل العثماني . وقد امضى مصطفى باشا قرابة الشهرين في بغداد وجه خلالها اهتماما خاصا لاعادة بناء التحصينات وتحديد عدد القوات المناسبة للمحافظة على المدينة خشية من محاولة قد يفكر بها الفرس للهجوم على بغداد « وبدأت الجهود لبناء المنازل والاسواق واعادة زرع البساتين وتشجيع كل اولئك الذين غادروها . ابان الحكم الفارسي ، على العودة اليها » (٢٠٣) . ولم يكتف مصطفى باشا بذلك ، بل قرر استثمار النصر وتأمين المناطق المحيطة ببغداد ، نزولا عند وصية السلطان له « بان يكون متيقظا وان يتخذ الاحتياطات الضرورية » (٢٠٤) . تحرك الصدر الاعظم على رأس قواته ، في اوائل شهر ذي القعدة ، متجها نحو الشرق بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، ولكن التطورات التي اعقبت تحسرك الجيش العثماني ، وقبل ان يتوغل مسافة واسعة في المناطق التابعة للصفيين ، قادت بالنهاية الى عقد معاهدة صلح بين الطرفين في (زهاب) الواقعة شمال ايران - في ١٤ محرم ١٠٤٩ هـ / ١٧ مايس ١٦٢٩ . وفيما يلي اهم ما جاء في تلك المعاهدة الشهيرة (٢٠٥) : « معاهدة السلم والحدود بين الامبراطورية العثمانية وايران ١٧ مايس ١٦٢٩ » (اعيد اقرارها في ٤ ايلول ١٧٤٦ ، ٢٨ تموز ١٨٢٢ ، و ٢١ مايس ١٨٤٧) .

تبدا بآيات قرآنية عن مزايا السلام وكراهية الحرب ، ثم يسجل الصدر الاعظم بانه مخول

Creasy, op. cit., p. 256. (٢٠١)

Loc. cit. (٢٠٢)

Coke, op. cit., p. 210. (٢٠٣)

(٢٠٤) كلشن خلا ، ص ٢٢٥ .

(٢٠٥) للنص الكامل للمعاهدة راجع :

J C. Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East (New York, rep., 1958), vol. I, pp. 21-3.

بصلاحية كاملة من قبل السلطان « حامي العقيدة ... وظل الله في الارض ... حامي الاسلام والمسلمين وخادم الحرمين الشريفين » في اقرار ما يراه من حرب او سلام . لقد امرت القوات العثمانية المظفرة بالزحف من وراء بغداد ، وبدأت بالتوجه اماما بهدف الدخول في المناطق الفارسية ، وحين وصولنا الى الموقع المدعو هاروني Haronia وصل اليها المحترم شمس الدين محمد قولي بك Chems Uddin Mehemed Culy Bey وهو مخول بصلاحيات سفير ويحمل رسالة من الشاه المبجل « الذي عظمته مساوية لتلك التي لداريوس ... اللؤلؤة الثمينية في بحر الملكية وشمس سماء السيادة ، النسر النبيل في ميدان النبيل ... عسى الله ان يعطي رايات قوته من الارض الى السماء » الى ملكنا العظيم ورسالة اخرى لي . وقد طلب السفير ان نعمل على اطفاء نيران الحرب ، وانا بدوري ولرغبتي في تطبيق ما جاء في كتاب الله العزيز « فان جنحوا للسلم فاجنح لها » وافقت من اجل سلامة انجنس البشري على احلال السلام ، وارسلت رسالة الى الشاه طالبا منه ان يرسل شخصا مخولا بصلاحية مطلقة لتحقيق شروط السلام بطريقة مشرفة لكلا الحكومتين . ونتيجة لذلك ، فقد عين الشاه المحترم صاروخان Saroukhan عاهدا له بصلاحية التفاوض لعقد المعاهدة .

وحين وصول صاروخان الى المعسكر الامبراطوري في (زهاب) استقبل بالترحاب . وفي اليوم الرابع عشر من محرم من سنة ١٠٤٩ للهجرة ، عقد اجتماع في المعسكر الامبراطوري حضره الوزراء والميري ميران Miri Miran (٢٠٦) والقادة والافوات ، اغا الانكشارية وستة افوات لسته سرايا وضباط آخرون من الجيش . وقدم صاروخان والسفير محمد قولي بك الى الديوان ، وجرت مناقشة المقترحات التهديدية معهم لوضع الاساس للعلاقات بين الطرفين . وقد جرت كتابة نتيجة المناقشات التي تمت بين الجانبين كما يأتي :

« جصان Tzanan بدره ، مندلي ، درتنك Dertenk درنة Derna التابعة لباشوية بغداد ستظل تحت سلطة عاهلنا المهيب ، والذي

(٢٠٦) مير ميران كلمة عربية متروكة تقابل الكلوك ، والكلمة « اميري اميران Emiri Emirân » هي تكييف فارسي للكلمة العربية « امير الامراء » . انظر : Gibb and Bowen, op. cit., p. 139 and fn. 1.

ستكون من ممتلكاته ايضا السهول الواقعة بين مندلي ودرتنك ، في حين تبقى الجبال تحت سلطة انشاه . وتشكل سرميل Serminil الحدود بين درتنك وديراني . وذلك الجزء من منطقة هاروني Haronia الذي تقطن فيه قبائل الجاف وخياء الدين Zilja Uddin ستكون للسلطان ، في حين تبقى Pezai و Zerdony تابعة للشاه . اما قلعة زنجير Zindjir والتي تقوم على قمة الجبل فيجب ان يتم هدمها ، وتكون في حوزة السلطان كل القرى الواقعة غربها . اما القرى الواقعة الى الشرق منها فانها ستكون من ممتلكات الشاه كالقرى الواقعة على الجبل فوق سالم قلعة Salm Calé . بالتقرب من شهرزور في حين ان القرى الواقعة الى الشرق تكون من ممتلكات الشاه ، الذي سيحفظ بالاضافة اليها بقلعة اورمان Orman مع القرى التي تعتمد على تلك القلعة . ويعتبر الممر الضيق (الشعب) المؤدي الى شهرزور ، خط حدود . ونظل في حوزة السلطان قلعة قزلجة Kizilidji مع توابعها في حين تكون من ممتلكات الشاه منطقة مهربان Mihreban وتوابعها . وعلى الطرفين القيام بهدم قلاع قونور Cotour و Kotur وماكو Makoo على حدود وان وقلعة مغازبرد Magazberd باتجاه قارص ووان . ويتعهد الشاه بعدم التحرش والتعرض بقلاع آخسكة Akiskha وقارص وشهرزور وبغداد والبصرة والاماكن الاخرى الواقعة ضمن الحدود ، مثل الحصون والقلاع والمقاطعات والاراضي والتلال والجبال وبعدم تشجيع حركات التمرد في هذه الاماكن . ومن جانبه ، فان جلالة عاهلنا المبجل سيحترم السلام وسوف لن يتحرض او يتعرض بما يناقض المعاهدة في الاماكن التي تقع ضمن حدود الطرف الآخر . وبناء على ذلك ، ومن اجل حرية وسلامة التجار والمسافرين التابعين لكلا الجانبين ، فائتي ، وبقوة ما امتلكه من صلاحية كاملة وسلطة ، كتبت هذه المعاهدة الاولى ذات المحتوى الصادق ، وارسلتها الى جلالة الشاه والى عاهلنا العظيم المبجل . وطالما حافظ انشاه على التزامه بهذه

المعاهدة فان صاحب انجلالة عاقلنا البجبل من
جانبه سيتصرف وفق الامر الالهي « افنوا بالمعهد
ان العهد كان مسؤولا » .

هذا السلام السعيد سيستمر ويحافظ عليه
بمشيئة الله ، الى يوم الدين .

الحمد لله الواحد الاحد والسلام على من
لا نبي بعده اولا وآخر .

ختم

مصطفى ، الصدر الاعظم (٢٠٧)

تحتل هذه المعاهدة اهمية خاصة في تاريخ
العلاقات بين الدولتين ، العثمانية والفارسية ،

Hurewitz, op. cit., pp. 21-3. (٢٠٧)

وهي اكمل المعاهدات التي عقدت بينهما حتى ذلك
الوقت ، كما انها رسمت حدودا معلومة بين
الدولتين ولا سيما المناطق التي كانت مسرحا للنزاع
بينهما (٢٠٨) . وقد ظلت تلك الحدود ، على الرغم
من عدم دقة رسمها ، غير متغيرة « فيما عدا
استثناءات قليلة » لاكثر من قرنين من الزمن (٢٠٩) .
وحتى منتصف القرن التاسع عشر ، وحينما عملت
لجان مشتركة على تعيين الحدود بدقة كاملة ،
شكلت معاهدة (زهاب) هذه ، نقطة
الارتكاز (٢١٠) .

(٢٠٨) الضابط ، ص ٢١ .

Hurewitz, op. cit., p. 21. (٢٠٩)

Loc. cit (٢١٠)

مصادر ومراجع البحث

١ - المصادر التركية

Sahilloğlu, Halil, Dördüncü Muradın
Bagdat Seferi Menzilnamesi (Bel-
geler-C. 11-1965-Sayı-3-4).

(٢١) عاتق ، سيد ، تاريخ بجوى استانبول ، مطبعة
عامرة ، بدون تاريخ (ج ٢) .

(٢٢) منجم باشي ، تاريخي : مطبعة عامرة ، استانبول
١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م (ج ٢) .

(٢٣) هامر ، دولت عثمانية تاريخي ، مترجمي محمد
عطا (اوقات اسلامية مطبعة س) ، ١٢٢٥ هـ (ج ١)
مجلد ٩ .

٢ - المصادر العربية

(١) نافرنييه ، العراق في القرن السابع عشر كما رآه
الرحالة الفرنسي نافرنييه ، ترجمة بشير فرنسيس
وكوركيس عواد ، (بغداد ، ١٩٤٤) .

(٢) سرهنك ، المير الای اسماعيل ، حقائق الاخبار عن
دول البحار ، القاهرة ١٢١٤ هـ ، ج ٢ .

(٣) الضابط ، شاکر صابر ، العلاقات الدولية
ومعاهدات الحدود بين العراق وایران ، بغداد ،
١٩٦٦ .

(٤) القهواني ، حسين محمد ، العراق بين الاحتلالين
العثمانيين الاول والثاني ١٥٢٤ - ١٦٢٨ ، رسالة
ماجستير غير منشورة ، جامعة بغداد ١٩٧٥ .

(٥) المزوي ، عباس ، العراق بين احتلالين : بغداد ،
١٩٦٩ ، ج ٢ .

٢ - المصادر الاجنبية

(1) Barber, Noel; The Lords of the Golden
Horn (London, 1974).

(2) Cantemir, Demetrius; The History of
the Growth and Decay of the Ottoman
Empire, trans. from the Latin by N.
Tindal (London, 1734), vol. I.

(3) Coke, Richard; Baghdad the City of
Peace (London, 1927).

(4) Creasy, Edward S.; History of the Ot-
toman Turks (Beirut, rep., 1961).

(5) Dury, A. A., 'Baghdad', in : 'The Ency-
clopeadia of Islam, new edition (Lei-
den, 1960), vol. I.

(6) Eton, W; A Survey of the Turkish
Empire (London, 1799).

(7) Gibb, H. A. R. and Bowen, H.; Islamic
Society and the West (Oxford, 1969),
vol. I.

(8) Hurewitz, J. C., Diplomacy in the Near
and Middle East (New York, rep.,
1958), vol. I.

(9) Lamartine, A. De; History of Turkey,
trans. from the French (New York,
1857), vol. III.

(10) Lane-Pool, Stanley; Turkey (London,
5th imp., 1908).

(11) Longrigg, S. H.; Four Centuries of
Modern Iraq (Beirut, new imp., 1968).

حِمْلَةُ نَازِشَةَ عَلِيٍّ خَازِنِ

بقلم الدكتور

علاء موسى كاظم نور

كلية الآداب / جامعة بغداد

والاقتصادية خلال مختلف العصور ، فقد دار صراع متطاوّل بين الفرس والعثمانيين للاستيلاء عليه . ولم يمه الفتح العثماني للعراق سنة ١٥٣٤م هذا الصراع ، فالعراق عاد الى السقوط مرة أخرى بعد ذلك في يد الصفويين (٥) . ولكن اذا كان العثمانيون قد حاولوا اكثر من مرة استرداد بغداد وفشلوا ، الا ان ذلك ما كان ليحول دون معاودة الكرة ، وبقوة اكبر ، اذا تولى العرش سلطان قوي مثل مراد الرابع آخر انسلطين العثمانيين الفاتحين . فقد قام بحملة شاملة على بلاد فارس واسترد العراق في سنة ١٦٣٨م (٦) ، بعد احتلال فارسي دام خمسة عشر عاما (١٦٢٣ - ١٦٣٨) . ودارت من بعد مفاوضات ادت الى عقد معاهدة زهاب سنة ١٦٣٩م (٧) ، والتي اصبحت نصوصها اساسا لجميع المعاهدات التالية ، بل كان لها شأن خطير في تحديد العلاقات بين الدولتين العثمانية والفارسية حتى القرن العشرين .

غير ان اطماع الدولة الفارسية التوسعية لم تحل دونها اية معاهدة ، واذا قدر لهذا الصلح ان يدوم فترة طويلة ثمانون عاما ، دون ان يعكسه

كانت العلاقات العثمانية الفارسية ذات طابع خاص محلي ودولي منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي . فقد ادى ظهور الدولة الصفوية في بلاد فارس ، الى احداث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية فتوقف زحفها في اوربا او كاد واتجهت اتجاها شرقيا في قلب الشرق العربي (١) . وذلك للوقوف بوجه الصفويين الذين كانوا معهم على طرفي تقيض ، والذين اخذت قوتهم تتعاظم بسرعة واصبحوا يهددون الدولة العثمانية بعد ان امتدت سيطرتهم الى هراة شرقا وديار بكر وبغداد غربا (٢) .

ولكن ، كما واجه الساسانيون والفرثيون من قبلهم البيزنطيين والرومان فقد وجد انصفويون ان عليهم ان يتحملوا تبعمة تحدي سلطة الاتراك العثمانيين (٣) ، خاصة وانه لم يبق للدولة الاق قوتيلو الحاجة بينهما اي وجود بعد سقوطها سنة ١٥٠٨م (٤) .

ولما كان العراق مركز الجاذبية السياسية

(١) محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ١٠٠ ص .

(٢) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ٧٢ ؛ خليل ادهم ، دول اسلامية ، استانبول ١٢٤٥ ، ص ٤١٢ .

(٣) فليب حتي ، موجز تاريخ الشرق الادنى ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٧٢ .

(٤) ستيلن لونكرليك ، اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ط ٤ ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٢ .

وكان الشاه اسماعيل الصفوي قد استطاع في سنة ١٥٠٨م ان يشترع بغداد من سيطرة القبيلة التركمانية الاق قوتيلو التي حكمت العراق منذ سنة ١٢٦٨م .

(٥) سقطت بغداد ثانية بايدي الفرس سنة ١٦٢٢م في عهد الشاه عباس الكبير .

(٦) مرتضى نقلي زادة ، كلشن خلفا ، ترجمة موسى كاظم نورس ، النجف ١٩٧١ ، ص ٢٢ ؛ احمد بن لطف الله منجم باشي ، صحائف الاخبار ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٧) انظر نصوص المعاهدة في : تاريخ نعيم ، ج ٢ ، ص ٤٢ . معاهدات عمومية مجموعة في ، ج ٢ ، ص ٢١٠ - ٢١٢ ؛ شاكر الصايغ ، العلاقات الدولية ومعاهدات الحدود بين العراق وايران ، ص ٣٢ - ٢٦ .

قتال جدي بين الدولتين ، فان ذلك يمكن ان يعزى الى انشغال الدولة العثمانية بحروبها الاوربية^(٨) ، وانشغال الدولة الفارسية بمشاكلها الداخلية .

وينبغي ان نشير هنا الى ان بلاد فارس شهدت في اوائل القرن الثامن عشر ، تزايد انحلال الاسرة الصفوية ، وسيرها نحو الانهيار بخطى سريعة . وما رافق ذلك من موجات عاصفة من الاضطراب وعدم الاستقرار ، استغرقت العقود الثلاثة من ذلك القرن ، ووصلت الى مداها بتمزق انبلاد الفارسية على اثر سقوط الحكم الصفوي سنة ١٢٧٧م بعد الغزو الاجنبي الافغاني اولا ، ومن ثم الروسي والعثماني^(٩) .

غير ان الفرس بعد ان افاقوا من نكباتهم واستطاعوا اخراج كافة القوى الفارسية من بلادهم ، اثر ظهور شخصية نادر شاه^(١٠) على مسرح الاحداث في بلاد فارس ، وتزعيمه المقاومة ضد الغزاة^(١١) ، عادوا مرة اخرى الى التدخل في شؤون

(٨) كانت أبرز حروب الدولة العثمانية في هذه الفترة مع النمسا ، وقد انهزمت خلالها هزائم ساحقة . وفي سنة ١٦٩٩م انتهت الحرب بمعاهدة كارلوفتر ، والتي لم تعد الدولة العثمانية بعدها ذلك الخصم العنيد الذي كان يهدد أوروبا الغربية ، ولقدت أوروبا هي التي تهدد وحدة الامبراطورية العثمانية وتماسك اجزائها .

(٩) Sykes, P.: A History of Persia, Vol. II, London 1969, 183, 237;

صالح المابد ، دور القواسم في الخليج العربي ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ٥٢ .

(١٠) ولد نادر وزعزع في خراسان ، وكانت ولادته في الثاني والعشرين من تشرين الاول ١٦٨٨م (٦ محرم ١١٠٠هـ) ، وبدا حياته داعيا كابيه ، غير انه اختطف بسلام النجاشي منذ دخوله في خدمة (بابا علي بيك احمدلو) الذي كان حاكما كدبنة ابيورد ، وزعيما للقبائل الافشار فيها . وعند موت احمدلو - وبعض الروايات تنهم نادر بتدبير قتله - اصبح نادر حاكما على ابيورد ، وبدا نجمه بالظهور على مسرح الاحداث . وفي السابع من تموز ١٧٢٢م (١٧ ربيع الاول ١١٤٥هـ) وضع نادر نفسه وصيا على العرش الفارسي واتخذ لقب (وكيل الشاه) وبعد حوالي اربعة سنوات توج شاهها لبلاد فارس (٨ آذار ١٧٢٦م / ٢٢ شوال ١١٤٨هـ) . للاطلاع على سيرة نادر شاه ، راجع :

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, pp. 247-8; Encyclopaedia Britanica, (U.S.A. 1965), Vol. 15, P. 1146;

محمد حسين ميمندي ، حياة نادر شاه افشار

(١١) دونالد ولير ، ايران ماضيها وحاضرها ، ترجمة

المراق ، واستخدموا في سبيل ذلك كل ما في جيباتهم من اسلحة . ثم غزت قواتهم العراق تحت قيادة نادر شاه في سنة ١٧٣٢م ، وهي تعتبر آخر محاولاتهم الخطيرة للاستيلاء عليه ، وكادت بغداد ان تسقط لولا صمودها وتصدي جماهيرها للقوات الفارسية .

وكان نادر شاه قد بعث برسالة الى احمد باشا والي بغداد يتوعده فيها وينذره بانه زاحف نحو بغداد لفتحها حيث خاطبه قائلا : « ليكن معلوما لديكم ، يا باشا بغداد ، اننا سائرون حالا على راس جيشنا لننسم هواء سهول بغداد العليل ، ولنستريح في ظل اسوارها »^(١٢) .

وقد اسرع احمد باشا بتحصين مواقع الحدود في درنه ومندي وبندرة^(١٣) ، وعزز حامياته في زهاب وقصر شيرين . ثم اصلى مراكز الدفاع الموجودة في سور بغداد ، واخبر الباب العالي بسرعة دنو الخطر^(١٤) . وذكر في رسالة بعثها الى القسطنطينية ، بيد مبعوثه عثمان آغا الجوقدار « ... ليس لدينا جيش يعتمد عليه ، اتفقت كلمتنا ان نتخذ الحصار في بغداد ... نطلب الاهتمام للأمر واتخاذ العدة اللازمة من جميع جهاتها »^(١٥) . وقد اسرعت الدولة العثمانية بأرسال نجدات كبيرة الى بغداد^(١٦) .

اما نادر فقد اقترب بقواته التي تقدر بمئة الف مقاتل من الحدود العراقية ، وبدأ بمهاجمة المواقع التي قام احمد باشا بتميزها ، فاستطاع ان يحتل موقع زهاب بعد ان فاجأ القوات العثمانية

عبدالمتم محمد وابراهيم الشواربي ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٩٥ ؛

Lockhart, L.: The Fall of the Safavi Dynasty, Cambridge 1958, P. 307.

(١٢) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ - ١٧٠ .

(١٣) محمد حسين قدوسي ، نادرنامه ، خراسان ١٣٢٩ ، ص ٢٢٩ .

(١٤) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ ؛ جعفر الخياط ، صور من تاريخ العراق ، ج ١ ، بيروت ١٩٧١ ، ص ١٢١ .

(١٥) عباس المزوي ، العراق بين احتلالين ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(١٦) السويدي ، حديقة الزوراء ، ق ٢ ، مخطوط ، ورقة ١١٧ ؛ الكركوكلي ، دوحة الزوراء ، ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٢٩ .

هناك ، بمهاجمتها ليلاً من جهة غير متوقعة (١٧) . ثم بدا توغله في الأراضي العراقية ، وبدلاً من أن يتجه مباشرة إلى بغداد تظاهر بأنه زاحف بجيشه نحو كركوك ، على أمل أن يخدع أحمد باشا ويجعله يتحرك من بغداد للملاقاة (١٨) .

وبالقرب من طوز خورماتو (١٩) ، توقف نادر شاه وأرسل قسماً من قواته لغزو كركوك (٢٠) ، ولكن القوات الفارسية واجهت مقاومة شديدة فعمّزت عن احتلالها ، وعندئذ قامت بتدمير القرى المجاورة لها (٢١) . وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات فارسية تقدر بشمالية آلاف مقاتل يقودها (نركز خان) تشن هجوماً على الموصل ، إلا أن واليها حسين باشا الجليلي تمكن من صدها والحق الهزيمة بها ، فاضطرت إلى التقهقر بعد أن قتل قائدها نركز خان ، والتحقت بالجيش الرئيس الذي كان قد اقترب في زحفه من بغداد (٢٢) .

وكان نادر قد واصل تقدمه من طوز خورماتو وتمكن من دحر القوات العثمانية المتواجدة بالقرب من شهربان (٢٣) ، كما حاصر بعد عبوره نهر ديبالي من بهرز ، وصار على بعد عدة مراحل من بغداد ، فرقة استطلاع عثمانية كانت قد أرسلت للتصرف على حقيقة العدو ، فقتل وأسر عدداً كبيراً من أفرادها ، كما قتل قائدها محمد باشا حاكم كوي (٢٤) .

وفي أواخر كانون الأول ١٧٣٢م (رجب ١١٤٥ هـ) بدا نادر بفرض حصاره على الجانب

(١٧) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، تهران ١٣٢١ ، ص ١٩١ - ١٩٢ ؛ دره نادر ، تهران ١٣٤١ ، ص ٧٢٥ ، لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(١٨) قدوسي ، المصدر السابق ، ٢٢٩ .

(١٩) قرية تقع إلى الشرق من الطريق المباشر المار من بغداد إلى الموصل ، وإلى الشمال الغربي من كركوك .

(٢٠) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٣ .

(٢١) صفحة منسية من تاريخ نادر شاه ، نبذة تاريخية كتبها أحد نصاري كركوك المعاصرين لنادر ، ونشرها ترويس صانيفان في مجلة لغة العرب ، الجزء الخامس ، السنة السابعة ، مارس ١٩٢٩ ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢٢) ياسين العمري ، غاية المرام ، ص ١٨٠ ؛ زبدة الآثار الجليلة تحقيق عماد عبدالسلام ، الثجل ١٩٧٤ ، ص ٨٨ ، سليمان صالح ، تاريخ الموصل ، ج ١ ، القاهرة ١٩٢٣ ، ص ٢٧٤ .

ومما يجدر ذكره هنا أنه لم ترد أية إشارة في المصادر الفارسية إلى قيام القوات الفارسية بمهاجمته .

(٢٣) ناحية تابعة لقضاء مركز بمقوبة في محافظة ديبالي ، وهي تبعد عن بغداد حوالي ١٠٨ كيلومتر .

(٢٤) ميرزا مهدي خان ، جهانكشاي نادري ، ص ١٩٤ ؛ قدوسي ، ص ١٧١ .

الشرقي من بغداد ، وقد عسكر بالقرب من قصبة الامام الاعظم ابي حنيفة ، وعزم على العبور إلى الجانب الايمن لنهر دجلة ، لتطويق بغداد من جميع جهاتها ، وكان أحمد باشا والي بغداد قد قام بتحسين هذا الجانب ، لمنع أية محاولة فارسية للعبور (٢٥) . وفي العشرين من كانون الثاني ١٧٣٣م (شعبان ١١٤٥ هـ) ، احبطت أول محاولة لهم (٢٦) .

غير أن نادر استعان بمهندس أوربي كان يرافقه في الحملة ، في إنشاء جسر عائم من جذوع النخيل على بعد عدة أميال من شمالي بغداد ، وبعد الانتهاء منه ، تمكنت ثلة من القوات الفارسية تعدادها الفين وخمسمائة مقاتل ، يقودها نادر نفسه ، من العبور إلى الجانب الايمن من نهر دجلة ، وذلك في الخامس عشر من شباط (الاول من رمضان ١١٤٥ هـ) ، ثم عبرت بالزوارق قوات أخرى تتألف من ألف وخمسمائة مقاتل ، فتكون من ذلك رتل قوي زحف إلى الكرخ (٢٧) ، فتصدت لهم القوات العثمانية بقيادة قره مصطفى باشا ، وأسرع أحمد باشا في إرسال تعزيزات كبيرة إلى هناك (٢٨) . وقد جرت معركة عنيفة رجحت فيها كفة العثمانيين في أول الأمر ، حتى خاف نادر على حياته ، إلا أن نجدات فارسية عبرت بسرعة ، فتغير الموقف ، وانسحبت القوات العثمانية إلى المدينة بعد أن تكبدت خسائر كبيرة (٢٩) .

وإذ ذاك أمر أحمد باشا سكان جانب الكرخ بالانسحاب العام إلى الجانب الايسر (٣٠) (الرصافة) ، ليكونوا في حماية سور المنيع ، وقد سحب هذا الانتقال عبر دجلة أهوال ومصاعب كبيرة حيث يذكر الكركوكلي « وكانت السفن لا تكاد تكفي لنقلهم من جانب إلى جانب ، ومن جراء الازدحام هلك خلق كثير من الناس ، بمن فيهم الشيوخ والمعجزة والأطفال » (٣١) .

وقد خف نادر لاحتلال رأس الجسر في جانب

(٢٥) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١١٧ و ١١٨ ؛ المصدر السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ ؛ لوتريك ، المصدر السابق الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٢٦) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(٢٧) ميرزا مهدي خان ، المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(٢٨) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٢٩) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ورقة ١٢٠ ؛ الكركوكلي

(٣٠) لوتريك ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٣١) نفس المصدر .

(٣٢) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٣٠ .

الكرخ^(٢٢) ، وبعث قسماً من قواته لاحتلال سامراء والحلة وكربلاء والنجف والحسكة والرماحية^(٢٣) .

وبعد أن أحكم الفرس الحصار حول بغداد ، أصبح الموقف فيها حرجاً تاماً ، غير أن الفرس سرعان ما أدركوا ضعف مدفعيتهم ، حيث لم تتمكن من أحداث ثغرات خطيرة في سور بغداد ، الذي كان محكماً . ولذا لم يكن أمامهم غير الاستمرار في الحصار أملاً في أن تستسلم لهم . ولجأ نادر إلى الأساليب النفسية في محاولة للتأثير على معنويات جماهير بغداد ، فكان يرسل ارتالاً من جيشه بصورة خفية ليلاً إلى أطراف بغداد ، ثم يعودون بوضع النهار وكنهم نجدة قادمة إلى الفرس^(٢٤) .

والواقع أن الحالة داخل المدينة المحاصرة أصبحت مضطربة ، فقد كان الضيق آخذاً بالاشتداد ، حيث قلت الأقوات ، ويأس الناس من أمل وصول الامدادات العسكرية من الباب العالي ، رغم أن أحمد باشا والي بغداد كان يشرف بنفسه على شؤون الدفاع ومناوشة العدو ، وعلى ادامة المقاومة وبث الروح المعنوية لأطالة أمد الثبات والصمود ، حيث كانت تداع من وقت لآخر وبإيعاز منه ، أخبار تنبئ بفرب وصول الامدادات^(٢٥) . لكن ويلات المجاعة أخذت شكلاً مروعاً في المدينة ، بحيث أكل الناس لحم الحمير والكلاب والقطط ، فانتشرت الأوبئة بصورة هائلة ، وبلغت الحالة - كما يصفها الشيخ عبد الرحمن انسويدي - أنه أثناء خروجه من مسجد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، بعد انقضاء صلاة الجمعة متجهاً نحو منزله ، شاهد في طريقه امرأة منكبة على جيفة حمار ويدها سكين تقطع لحمه وتضعه في حجرها^(٢٦) .

وفي هذه الاثناء ورد كتاب من معني الجيوش الفارسية إلى علماء بغداد - بناء على أمر من نادر - يقول لهم فيه :

(٢٢) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٢٣) Hammer, J. : Histoire de L'Empire Ottoman, Vol. XIV (14), Paris 1839, P. 287.

وانظر : كامل باشا ، تاريخ سياسي دولته عليه عثمانى ج ٢ ، ص ١٢٥ ؛ قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢١ .

(٢٤) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٢٥) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٦) السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١٢١ و ١٢٢ .

« أننا علمنا ما وصلت اليه الحالة بكم ، وعلمنا أنكم تنقصكم الأقوات والعساكر والعتاد ، وأن الناس قد أهلكتهم المجاعة ، فأنتم وحدكم المسؤولون عنهم عند الله . قولوا لأحمد باشا أن لا يلقي الناس إلى التهلكة عبثاً ، وأن يستسلم فإن ذلك أولى له من الدمار التام »^(٢٧) .

فلما بلغ الباشا ذلك قال للعلماء اكتبوا له « انني لا أسلم حجراً من أحجار بغداد حتى أقبر في مكاني هذا ، وأن ذخيرتنا كافية ومددنا كثيرة الممدد متواصلة الممدد ، ولم يكن توقفنا عن مناوشتكم في بعض الايام دون علة أو حكمة ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »^(٢٨) .

وفي أوائل حزيران ١٧٣٣م (محرم ١١٤٦هـ) وصل مدينة الموصل طوبال عثمان باشا الصدر الأعظم السابق ، على رأس جيش تعداده ثمانون ألفاً ، بعث به السلطان العثماني لفك الحصار عن بغداد^(٢٩) . وبعث طوبال برسالة إلى والي بغداد يخبره فيها بأنه قادم لتجديده^(٣٠) ، فاستدعت انغرائم ، واستمات المحاصرون في الدفاع^(٣١) .

وعندما تأكد نادر من صحة اقتراب القوات العثمانية ، أصدر أوامره بتشديد الحصار على بغداد^(٣٢) ، وبعث كتاباً إلى طوبال عثمان باشا ، الذي كان قد وصل في زحفه إلى كركوك ، تمنى له رحلة سريعة نحو حنفة ، وعند اقترابه من سامراء تسلم كتاباً آخر من نادر يعلمه فيه بأنه جاهز للملاقاة في أي وقت ومكان يختاره هو . ثم زحف نادر على رأس قوة كبيرة مؤلفة من خمسين ألف مقاتل^(٣٣) ، لمجابهة القوات القادمة قبل وصولها إلى بغداد ، تاركاً اثني عشر ألفاً من قواته لمواصلة حصار بغداد^(٣٤) .

(٢٧) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢١ وانظر السويدي ، المصدر السابق ، ق ٢ ، ورقة ١٢٢ .

(٢٨) السويدي ، المصدر السابق ق ٢ ، ورقة ١٢٢ .

(٢٩) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧١ ؛

Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.

(٣٠) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣ .

(٣١) الكركوكلي ، المصدر السابق ، ص ٢٢ .

(٣٢) نفس المصدر .

(٣٣) لوتكره ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ ؛ قدوسي ، المصدر

السابق ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٣٤) ابراهيم الفتني ، مصباح الساري ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛

وعندما علم القائد العثماني طوبال بذلك عن طريق دوريات الجند الاستطلاعية ، التي كان يرسلها لمعرفة تحركات نادر العسكرية ، توقف عن المسير ، وعسكر على ضفاف دجلة بالقرب من سامراء ، وأمر ضباطه بالاستعداد للمواجهة (٥٠) .

وفي صباح اليوم التاسع عشر من تموز ١٧٢٢م (٦ صفر ١١٤٦هـ) ، التحمت طلائع القوتين (٥١) ، في معركة كانت في ضراوتها واحدة من أشد المعارك التي خاضها العثمانيون والفرس (٥٢) ، وتمكنت قوات نادر في بدايتها من دحر خيالة العثمانيين ، إلا أن تقدم قوة المشاة العثمانية ، أعاد التوازن إلى المعركة (٥٣) . فشن الفرس هجوماً عنيفاً أرغم خط الدفاع العثماني على التقهقر ، وتم الاستيلاء على قسم كبير من مدفعيته ، فأصبح موقف العثمانيين حرجاً ، ولكن طوبال عثمان باشا واجه الموقف الصعب برباطة جأش ، ورفض فكرة مستشاريه الذين أشاروا عليه بالتقهقر ، وزج بقواته الاحتياطية المولفة من عشرين ألف مقاتل إلى ساحة المعركة ، فاستطاعت الحد من الهجوم الفارسي ، واستعادت المدفعية التي فقدتها (٥٤) ، مما دفع نادر أن ينزل بنفسه إلى قلب المعركة ، فسقط مرتين على الأرض ، وهرب حامل لوائه من الميدان معتقداً أن نادر قد قتل ، وبلغ جنده درجة الإعياء من الحر والعطش ، فبالإضافة إلى أشعة تموز المحرقة ، لم يكن بوسع الفرس الحصول على الماء لسيطرة العثمانيين على ضفاف دجلة ، فأضطر نادر إلى الانسحاب من أرض المعركة ، بعد أن أضاع سيطرته على الفلول المتفرقة من جيشه (٥٥) .

كامل باشا ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ؛ قنوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ؛ العزاوي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٢١ ؛

Sykes, P. : op. cit., Vol. II, P. 251.

أما لوتنرك فيقول أن القوة التي تركها نادر لتدعيم الحصار كانت مودلة من ثمانية آلاف مقاتل . (لوتنرك) ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٥) لوتنرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٤ - ١٧٥ .

(٥٦) إبراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ قنوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ ؛

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٧) Malcolm, J.: The History of Persia, Vol. II, London 1815, P. 57;

Sykes, P.: op. cit., Vol. II, P. 252. (٥٨)

(٥٩) لوتنرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

(٥٠) قنوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛

Malcolm, J.: op. cit., Vol. II, P. 57.

وهكذا بعد قتال مرير دام تسع ساعات متواصلة ، انتهت المعركة بهزيمة تامة وساحقة للقوات الفارسية (٥١) ، وأرسلت رسائل الظفر من ميدان الموقعة (٥٢) ، إلى السلطان العثماني ، وإلى باشا بغداد (٥٣) .

ويمكن أن يعزى صعود العثمانيين إلى شخصية قائدهم البطولية وثباته في المعركة ، فقد كان خلالها « يوجه رجاله بحكمة كبيرة وعزم » على حد قول طبيبيه الفرنسي الخاص جان نيكوديم في رسالة له إلى السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلييوف مؤرخه في ١٠ آب ١٧٢٣م . ويستطرد الكاتب الفرنسي في وصفه لطوبال يوم المعركة قائلاً : « وبعد أن صلى ، امتطى صهوة جواده ، وهو عمل لم يقم به خلال الحملة ، إذ كان محمولا على محفة بسبب اعتلال صحته ، ولا يمكن أن اعزو القوة التي أظهرها الآن إلى شيء سوى روحه العسكرية ، والحماس المتأجج في داخله فقد رايته متطياً جواده كأنه في عنفوان الشباب ، قابضاً بيده على سيفه ، فكانت سيماه تبعث في الناظرين إليه الحماسة والنشاط ، وعيناه تتألقان حين يصدر أوامره بخفة مدهشة وفكر متيقظ » (٥٤) .

لقد انعكس النصر الذي أحرزه طوبال عثمان باشا ، بغداد من السقوط بأيدي الفرس ، فقد هرب نادر جريحاً ومعه فلول قواته المنهزمة عن طريق بهرز باتجاه الأراضي الفارسية (٥٥) . وقام

(٥١) تاريخ صبحي ، ج ١ ، ص ٩٧ ؛ إبراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ؛ أحمد راسم ، عثمانلي تاريخي ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ؛ لوتنرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٢) كان ميدان الموقعة عند قرية الدجيل على ضفاف دجلة ، على بعد (٦٢) كيلومتر إلى الشمال من بغداد . انظر :

Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, P. 290.

(٥٣) لوتنرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٦ .

(٥٤) انظر نص رسالة نيكوديم إلى السفير الفرنسي في : Hammer, J.: op. cit., Vol. XIV, PP. 514-528.

ولي الرسالة وصف مسهب لمعركة التاسع عشر من

تموز ١٧٢٢م (٦ صفر ١١٤٦هـ) وانظر : لوتنرك ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ؛

Creasy, E.: History of the Ottoman Turks, PP. 353-4.

(٥٥) إبراهيم الفندي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ،

أحمد راسم ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٦ ؛

Shay, M.: The Ottoman Empire from 1720 to 1734, Urbana 1944, P. 144.

أحمد باشا عند وصول أنباء الانتصار ، بمهاجمة القوة الفارسية المرابطة عند أسوار بغداد ، فقتل معظم أفرادها (٥٦) ، واستطاع الباقون الهرب إلى بلاد فارس (٥٧) ، فتخلصت بغداد من الحصار الذي عانت منه الولايات طيلة سبعة شهور (٥٨) .

وقد استقبلت القسطنطينية أخبار انتصار

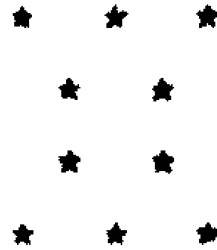
(٥٦) يبلغ لوتكره حين يقول أن القوة الفارسية أبيدت من آخرها ولم يسلم منها إنسان . (أربعة قرون من تاريخ المراتل ، ص ١٧٦) .

(٥٧) قدوسي ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

(٥٨) السويدي ، المصدر السابق ، ل٢ ، ورقة ١٢٦ .

طوبال عثمان باشا ، وانتهاء حصار بغداد ، بفرح عظيم ، وامتدت الاحتفالات ثلاثة أيام بلياليها ، وانتهالت على طوبال الألقاب والتفويضات ، حيث أنعم عليه السلطان محمود الأول بلقب (الغازي) (٥٩) . وتفاخر الصدر الأعظم علي باشا حكيم أوغلو أمام السفير الفرنسي في القسطنطينية الماركيز دي فيلنيوف Villeneuve بأن طوبال عثمان جمع غنائم من الحرب تكفي لتحصين وتسلح مدينة جديدة (٦٠) .

(٥٩) أحمد راسم ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ٢٨٦ .
(٦٠) Shay, M.: op. cit. P. 144.



بغداد في سنة ١٩١٧

ترجمة وتعليق الدكتور

محمد طاهر الأدهبي

الجامعة المستنصرية - بغداد

« ان على هؤلاء الذين يتكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب ليشاهدوا الامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط اشعة الشمس المائلة » .

“Edmond Candler

البريطانيين اليها ، تمشي انحسارا حضاريا تمتد جذوره الى سقوط الدولة العربية الاسلامية حينما احتل الغزاة المقل بغداد سنة ١٢٥٨ م . لذلك فان الوصف الجميل الذي يعرضه كاندلر تحف به ، ولاشك ، بعض الجوانب السلبية التي كانت المدينة تعيشها ، الا ان هذه المظاهر السلبية تكتنف في الوقت نفسه الفرق الحضاري بين ذلك الواقع وبين ما كانت عليه بغداد ايام ازدهارها زمن العباسيين وما هي عليه الان في تطورها الحضاري المعاصر . ومع ذلك فان التراث الحضاري تبقى اثاره قائمة في اي زمان ، ولا يمكن لاي شاهد ان يتغاضى عنه . وقد كان كاندلر امينا في وصفه لنا بغداد .

في فصله المتعلق ببغداد المسمى : “First Days in Baghdad” : الايام الاولى في بغداد ، والمنشور في الجزء الثاني من المذكرات ، يبدأ كاندلر بوصف احوال المدينة عند دخول القوات البريطانية المحتلة اليها بعد ان انسحب منها الاتراك دون قتال فيها . لقد انسحب الاتراك من بغداد في الساعة الثانية صباحا من يوم ١١ آذار وبقيت المدينة سائبة لمدة سبع ساعات الى ان دخلها المحتلون الجدد في الساعة التاسعة صباحا من اليوم نفسه من جهة الباب الشرقي في جانب الرصافة : -

ادموند كاندلر هو احد الذين رافقوا قوات الاحتلال البريطاني التي دخلت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ، وكتب مذكراته عن هذه الحملة في جزئين نشر عام ١٩١٩ في لندن . اطلق كاندلر على كتابه اسم “The Long Road to Baghdad” : الطريق الطويل الى بغداد - شاهد عيان في بلاد وادي الرافدين - قدم فيه عرضا كاملا للحملة على العراق منذ نزولها الى الفاو ، كما انه قدم وصفا للمدن التي مر بها جيش الاحتلال ، فكان كتابه استعراضا جغرافيا اجتماعيا اكثر منه عرضا للمعاملات العسكرية .

توقف كاندلر طويلا عند وصفه لبغداد ، ولم اجد احدا فيما اطلعت عليه من المؤلفات ، قد كتب عن بغداد عند دخول قوات الاحتلال البريطاني اليها مثلما كتبه كاندلر . لقد تعرض الى وصف ثلاثة جوانب رئيسة هي : -

- ١ - حالة العامة من الناس عند دخول القوات المحتلة بغداد .
- ٢ - بغداد كما تركها الاتراك المنسحبون .
- ٣ - جمال البيوت والطبيعة .

ولكي اضع القارئ في الصورة لابد من التنويه الى ان بغداد كانت ، في فترة دخول المحتلين

« عند تقدمنا نحو بغداد سرنا في طريق لا اسم له ، باتجاه سدة مخربة تنتصب آثار البوابة الجنوبية . ثم درنا يسارا فوجدنا أنفسنا قرب النهر بمواجهة طلائع البيوت الكبيرة على ضفة نهر دجلة . ان هذه البيوت تشكل مدخلا مفاجئا للمدينة . دخلنا المدينة وكان هناك جمع كبير من الناس على جانبي الطريق ... كانت الاسواق خالية تقريبا ، فقد صادر الانراك المون والبضائع وكان آخر قطار تركي قد غادر بغداد في الصباح الباكر من يوم ١١ آذار . لقد قال احد التجار بانهم فقدوا ما قيمته مليونين فرنك من البضائع بين الساعة الثانية صباحا وبين ساعة دخولنا بغداد في التاسعة صباحا ... »

عندما تقدمنا في المدينة شاهدنا العديد من اللصوص والسرقات يحملون الشبايك والمناضد وهياكل اسرة النوم الثقيلة المصنوعة من الخشب او الحديد . كذلك المقاعد واسيجة الحدائق العامة لقد ازالوا كل شيء كان من السهل ازالته .

تقدمنا في شارع خليل باشا وهو الشارع العريض الوحيد في المدينة . لقد اطلق عليه اسم شارع هندريك بمناسبة سقوط الكوت - اندحار القوات البريطانية في حصار الكوت - انه ليس بشارع جميل او جذاب . لقد كانت عملية تطويره متقطعة واوقات اصلاحه متباعدة . التهديم موجود في كل مكان . ان الجدران والاعمدة ذات الاجر المفتت لا تزال منتصبة في الشارع .

لقد مرت ببغداد قبل تسعة عشر عاما ولم يكن هناك طريق للنقل في الجانب الايسر من النهر كانت هناك بعض الاماكن القليلة للجمال في بعض الشوارع ، كما كانت هناك الحمير البيضاء الصغيرة المتوفرة والتي لا يرفع الاغنياء عن الركوب عليها . اذكر انني ركبت في عربة بطيئة تسحبها اربعة بغال من بغداد الى بابل والحلة وبرس نمرود .

يتنقل كاندلر الى وصف محلات وبيوت بغداد والتي كان قد رآها - قبل - منذ تسعة عشر عاما فيقول : -

« على جانبي شارع خليل باشا والذي يمتد داخل المدينة موازيا للنهر ، لم تتغير محلات المسلمين والمسيحيين واليهود ، ان الشوارع الضيقة لا تساعد على مرور حسان ، اما الشبايك المتقوسة الواسعة والتي تغطي عادة واجهات البيوت فهي على وشك ان يلتقي بعضها ببعض . كانت هناك نسوة

يطلن من كل شباك من هذه الشبايك ، محجبات وغير محجبات . ان ذلك يعتمد على المحلة فيما ذا كانت مسلمة ام مسيحية او يهودية . ان نقوش الشبايك متآكلة ، اما الابواب فهي مرصعة بالمسامير يحمل كل باب منها مطرقة نحاسية جذابة . في الازقة . حيث يمكن للشخص ان يمس الحائطين المتقابلين للزقاق عند مد ذراعيه الى الجانبين ، تفتح بوابة الدار على ساحة عريضة مزروع في وسطها اشجار البرتقال والرمان . وكما في مدن الشرق القديمة فان مجازا ضيقا يفضي الى رحبة الدار هذه .

ان سطوح البيوت تقدم للمغامر والعاشق واللص طريقا تمتد اميالا طويلة ، اما الشبايك فان بإمكان روميو وجوليت ان يتحادثا منها بهمس .

يخرج بنا كاندلر من ازقة بغداد القديمة وبيوتها العريقة ليقدّم وصفا لحياة الشارع : -

« في المقاهي يجلس الناس مجتمعين منهمكين بأحاديثهم او في التفكير أو يلعبون الطاولة والدومنة ، كان هناك قليل من القهوة للشرب ، وكانت السيكاير شحيحة ، انه جمع كئيب . بعد ساعة من دخولنا لم يعد يبالي الناس بوجود الجيش المحتل . انني اذكر الاسواق التي كانت تمثل حياة المدينة ، لقد أصبح الان منظرها كئيبا : الدكاكين فارغة ومغلقة وقد خرب قسم منها . انها ستحتاج وقتا طويلا كي تمتليء بالبضائع ... »

في هذه الطرق ذات الاقواس والسراديب . والتي ازدحمت بعربات النقل والقوات والاسلحة ، يشاهد الانسان الوانا غريبة : عجلات الجزء الامامي من مدفع زنة ٦٠ باوند هدمت سقف احد السراديب ونزلت فيه لتكشف عن رأس يهودي مفزوع ، فيما قد مند بغل سرية مشاة فمه في صحن حلويات تحمله فتاة مهملة ، بينما تشاهد في مكان اخر متسول فارسي سمين يقف على عتبة احد الدور بولول معبرا عن جوعه .

لقد نسي جنودنا تعب المطاردة الطويلة عندما دخلوا المدينة كان تراب بغداد مسكنا للام ارجلنا لكنه لم يكن التراب السحري الذي صورته لهم قصة الليالي العربية الساحرة ، انها ليست مدينة هارون الرشيد التي سمعنا بها ، او نبوخذ نصر الذي اردنا مشاهدته .

كانت محطة القطار تقع في جانب الكرخ والذي كان حجمه صغيرا جدا قياسا بجانب الرصافة

— انظر الخارطة — لقد وصلت دوريات التفتيش البريطانية المحطة في الساعة ١٥:٠٠ من صباح يوم ١١ آذار ، اي قبل دخول الجيش المحتل بغداد من جانب الرصافة يقول كاندلر الذي عبر الى جانب الكرخ بعد احتلال الرصافة : —

« غادر آخر قطار بغداد في الساعة الثانية صباحا . لقد كان هناك اندفاع نحو دائرة الحجر المجورة بحثا عن بطاقات سفر الى اسطنبول وبرلين . لقد وجد احد جنود الدورية بيان وقت مغادرة القطار . ان ضبط الـ Blak Watch سيضلون نادمين لانهم لم يحملوا معهم جرس المحطة للذكرى ... كانت محطة اللاسلكي قد انجزت لتوها بتكاليف باهضة — في جانب الكرخ — وهي من التأسيسات الضخمة التي بناها الالمان ، وكانت على اتصال مباشر مع برلين . لقد فجر الاتراك جهاز الارسل في الصباح المبكر ليوم ١١ آذار وانهدم سطح المحطة ، كما كانت هناك حفرة عميقة في وسط الارض ، اما الرسالة فقد سقطت على الحيطان المجاورة ، كما فجروا احد السخانات الكبيرة ...

انها لراحة نفسية ان تغادر منظر الخراب العلمي ونهر النهر مرة ثانية بواسطة (الكفة) المدورة التي عرفت منذ زمن نبوخذ نصر ... في الساعة ٩:٣٠ من صباح يوم ١١ آذار عبرت ثلاث كتائب تابعة للواء ٣٥ من الجانب الايمن الى الجانب الايسر — من الرصافة الى الكرخ وبعد احتلال الرصافة بنصف ساعة — واقامت حامية هناك لقد كان على هذه الكتائب ان تعبر النهر بواسطة (الكفف) لان جسر القوارب الخشبي نصف ودمر من قبل الاتراك . كما احتل الكاظمية لواء الفرسان » .

اقام كاندلر في فندق Hotel Tigris ، الذي يصفه بأنه قد اقيم على طراز اوربي على النهر في جانب الرصافة ، ويذكر انه قد تناول عشاءه في الفندق مساء يوم ١١ آذار وقد سأل صاحب الفندق عن اسم قائد جيش الاحتلال فاخبره به ، وفي اليوم التالي اصبح اسم الفندق Hotel Moude ويبدو لي ان هذا الفندق هو فندق Tigris Palace المعروف اليوم باسم قصر دجلة الذي يقع في شارع الرشيد على جبهة النهر والتي قدم كاندلر وصفا لها حيث قال : —

« لم يكن هناك طريق محاذ لجبهة النهر . لقد بنيت البيوت الرئيسة والقنصليات مباشرة على النهر فوق ارضة متينة تشبه الحصون . ان معظم هذه البيوت لها حدائق صغيرة ذات ادراج حجرية

تنزل الى النهر . في المسافات الفاصلة بين هذه البيوت توجد معمرات ، وفي بعض الحالات تخترق هذه المعمرات اقواسا من تحت البيوت حيث تأخذ النساء الماء من النهر باوعية نحاسية ذات اعناق طويلة محززة . وهناك البلام (*) ينتظر من يؤجره ، وكذلك السقائين الذين يملؤن قربهم بالماء ليحملونها على ظهور حميرهم البيضاء .

ينتقل كاندلر بعد ذلك الى منطقة السراي في الرصافة فيقدم لنا وصفا دقيقا عما كان عليه السراي الحكومي عند دخول البريطانيين المحتلين اليه : —

« في النهاية الشمالية من المدينة يقع السراي المدني والعسكري ، وهو يغطي مساحة ربع ميل على جبهة النهر . وتقع فيه ثكنات الجنود المشاة ومحكمة العدل ومجلس الولاية وجميع المكاتب الحكومية للولاية العثمانية . توجد هنا مساحة واسعة لجميع القوات التي تحتاجها المدينة للحماية .

الابنية المحيطة بالساحة واسعة وقوية البناء . تتم عملية التهوية في السرداب او المكاتب التي تقع تحت الارض بواسطة فتحات ومدخل تمتد الى السطوح ان درجة الحرارة في السرداب اقل مما هي على سطح الارض بحوالي ٨ — ١٠ درجات ...

ان المرء يحتاج اياما عديدة لاستكشاف ما في بنايات السراي ، فهناك الشيء الكثير الذي يمكن معرفته من النفايات التي تركت في عاصمة تطلت عنها حكومة لم يكن لديها الوقت الكافي للفرار . كنا نفحص الدوائر الحكومية بعد ١٢ ساعة من انسحاب الاتراك . لقد وجدنا في كل غرفة تقريبا اشياء كان الاتراك حتما مترددين في تركها خلفهم لولا صعوبة النقل . لقد وجدنا في احدى الدوائر خرائط مسح وفي الاخرى قوائم بالعائدات التجارية . وفي غرفة ثالثة عثرنا على الحقائق الرسمية وبطاقات العضوية الخاصة بلجنة الدفاع الوطني . اما اوراق قسم الإرواء فقد كانت مبعثرة في ساحة تتوسطها حديقة يرتقل : في حين كانت الخرائط والخطط التي رسمها وليم ولكوكس معقدة على الحيطان او منشورة على الارض في احدى الغرف .

في قلعة السراي كانت اكاداس الاسلحة تنمو

كلمة دخيلة وهي في العامية العراقية بمعنى صاحب الزورق او الملاح (المورد)

وترتفع مع استمرار تفتيش المدينة بيتا بيتا . لقد وجدنا الى جانب البنادق والسيوف والمسدسات كميات كبيرة من المعدات عديمة الفائدة من وجهة النظر العسكرية ، الا انها مثيرة للفضول . فهي تبديء بخراطيش المدافع الفارغة القديمة والتي تعود لزمان السلطان مراد وتنتهي بالبنادق التي تركناها في الكوت في العام الماضي .

لقد نقشت على فوهات المدافع اشكال لجنود محاربين وحيوانات تتوسطها نقوش كتابية بالعربية والفارسية . « نصر من الله وفتح قريب » نقش تحمله احدى هذه المعدات الصلبة يعود تاريخه الى عام ١٥٤٦م . في مكان اخر « الشاه صفوي ملك النصر سيمحي اثر الاتراك . ان هذا المدفع ينفث النار ويقذف اللهب على الاتراك كالتنين » .

يتحول كاندلر الى مكان اخر من بغداد ليصف لنا المقابر في جانبي الرصافة والكرخ والاجواء التي شعر بها عند ارتياده هذه المناطق : -

« ان اللون الوحيد الذي يمكن مشاهدته في بغداد وضواحيها هو اللون الازرق والذهب القديم اللذان يغطيان المساجد والمنارات ان هذه الفيساء البراقة تشكل تغييرا مريحا للاعصاب في بلد اختفت الوانه بسبب التراب الذي يغطي ارض وحيطان وسقوف البيوت ، اضافة الى ذرات الغبار الحارة التي تعوم فوق كل شيء .

كما هو معروف في المدن الاسلامية القديمة فان ابرز ظاهرة في ضواحيها هي المقابر . ففي داخل السدة التي تطوق المدينة - جانب الرصافة - تزدهم المقابر حيث تنتشر رائحة تعفن جافة . اما الطريق الواقعة خلف السدة والتي تعود الى ايران عبر الصحراء فان العلامة البارزة فيها هي الهياكل العظمية والعظام المنكسدة . ان كل علامات الطريق عبارة عن مساجد او قبور .

في الجانب الايسر - الكرخ - توجد زوجة هارون الرشيد تحت منارة طويلة محززة الحافات وذات نهاية مستدقة ، انها تشبه شجرة التنوب المخروطية الشكل . ان التلة التي تمتد من الخرج الى الجامع تزدهم بالقبور لدرجة انه لا يوجد مكان لدفن جثة طفل عمره شهر واحد . عندما كنا نسير قرب المكان جلب جثمان ملفوف بالشراشف

ومحمول على تخت خشبي ، ولم يكن بالامكان دفنه في هذا المكان المزدهم ، فكان اقرب مكان ممكن هو بستان النخيل المترب المقابل للمقبرة حيث وقف النداب المختص بولول نائرا التراب الذي كان يتطاير نحونا . انه الشيء الوحيد الذي يعج بالحياة في هذا المكان الميت . واكثرهم موتا زبيدة في قبرها - الشائع ان اسم قبر زوجة هارون الرشيد هو الست زبيدة في حين ان الاسم الصحيح هو زمرد خاتون - لقد ماتت معها رومانيتها واساطيرها ، وذبلت وجفت معها كل حيوية الابناء الروماني في هذه الايام الشديدة .

يقول كاندلر : ان هناك كثيرا من المسائل الانسانية التي تجلب الانتباه في بغداد ، اما بالنسبة لهؤلاء الذين يبحثون عن الاسود في هذه المدينة المريقة المهذمة الان والمليئة بالاوساخ فان من الصعب تصور شعورهم لان ما توقعوا مشاهدته لم يجدوه ، انهم سيصحون من اوهامهم حالا .

مكث كاندلر في بغداد الى نهاية مايس وقدمكنه ذلك من مشاركة البغداديين في النوم على السطوح : - « في نهاية مايس كانت حرارة الصباح تحتل الا ان حرارة الشمس قد بدأت ترتفع . تمشيا مع عادة اهل البلاد ، فقد كنا ننام فوق السطوح . في اوائل نيسان كانت جميع سطوح المنازل مهجورة ، الا ان حلول شهر مايس قد دفع كل بغدادي ، رجل وامرأة وطفل ، الى الالتجاء الى السطوح للنوم . عندما يستيقظ المرء في الصباح ويلقي نظرة على سطوح المنازل فانه لا يرى غير بحر من الفرش واسرة النوم . ان افضل طريقة للنوم هي ان تلف سريرك بيرق شفاف للتخلص من الذباب في الصباح ان الفقراء ينامون على دكة قوية ويلتفون بالحاف . في الدار الصغيرة المجاورة لنا كانت تسكن ثلاثة عوائل لديهم ٢٨ طفلا ينامون في السطح على عشرة اسرة كبيرة مربعة تشبه المناير الخشبية محاطة باسيجة لمنع الصغار من السقوط . ان البحث عن الحشرات في الصباح يفترض ان النوم في تلك الليلة لم يكن مريحا . شاهدت على احد السطوح خروفا وفي سطح اخر ديك رومي بينما ينتصب اللقلق على

راس منارة الجامع المجاور ... كان هذا في نيسان ومايس . عندما عدت الى بغداد في اوائل ايلول لم يكن هناك الخروف والديك الرومي ، حتى اللقالق رحلت ، الا ان الرجال والنساء ومجموعات الاطفال كانت باقية ، انهم كما يبدو قد ازدادوا .

يذكر كاندلر ان صيف عام ١٩١٧ كان آخر صيف مر على ذلك الجيل حسبما يذكر الناس ، لذلك فانه قد غادر بغداد في شهري تموز وآب وعاد اليها في اوائل ايلول وكان الحر لا يزال شديدا فقد كانت الحرارة في الايام الاثنى عشر الاولى من الشهر مرتفعة ١٠ درجات عن درجة الحرارة الاعتيادية ، وكان الجو رطبا ولزجا ، لقد كانت السرايب الملجأ الوحيد لسكان بغداد للتخلص من ذلك القبيض الشديد . وقد وصف كاندلر تلك السرايب فقال :

« توجد في معظم البيوت سرايب ، وعمق السرداب ستة اقدام تحت سطح الارض . ان درجة الحرارة في هذه السرايب اقل من حرارة غرف البيوت بحوالي ١٠ درجات ، لذلك فان الهروب

الى السرداب يولد السرور رغم ان الهواء في السرداب محصور وثقيل . تنتهي فتحات التهوية ، التي تمتد من السرداب الى سطح الدار برؤوس تشبه انقلسوة موجهة باتجاه واحد لتمسك بريح الشمال التي تنقل نسائم طيبة تنعم بها السماء »

ينهي كاندلر حديثه الشيق عن بغداد بوصف دجلة عند الغروب : —

« بالرغم من كل الدمار الذي حل ببغداد ، فان انطباعاتي عن هذه المدينة هي صورة لجمال حزين . ان على هؤلاء الذين يشكرون سحر هذه المدينة ان يقفوا على النهر من جهة الشمال وقت الغروب لينشاهدوا ، لامتداد الرشيق لجهة النهر حيث تصطف المساجد والمنارات ذات الاجر الازرق لتمسك بخيوط الشمس المائلة . ان انعكاسات الضوء الانني من جهة الشرق تجعل الوان الامواج من الجهة اليسرى من النهر تتبدد تدريجيا من البرتقالي الى لون قائم متقد ، في حين ترسم النخيل في الجهة الغربية صورة ظليلة بمواجهة سماء صافية ذات لون رمادي داكن » .

فَلَا مَنَجَ مِنَ الْخِصْلَةِ الْعَرَبِيَّةِ بَعْدَ الدَّ

بقلم الدكتور

صالح أحمد العلي

كلية الآداب - جامعة بغداد

(١١)

المواصلات في الجزيرة العربية في بغداد

دراسة في توزيع مراكز الحيوية

يحمل الجند والعمامة الامثلة «(٢)». وقد قال « هذا موضع ارضاه : قاتيه الميرة من الفرات ودجلة ومن هذه الصراة «(٤)» .

وقد اورد الطبري نصا فيه تفاصيل اوفى عن هذه المواصلات ، فقد قال القس المنصور « وانت يا امير المؤمنين على الصراة بجيئك الميرة في السفن من المغرب من الفرات وتجيئك طرائق مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط من دجلة . وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل من دجلة . وانت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر واخربت القناطر لم يصل اليك عدوك .

وانت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور «(٥)» .

ويتبين من النصوص الانفة الذكر ان المنصور فضل هذا الموقع لتوفر المواصلات النهرية فيه ، فنهر دجلة يمر عموديا عليها من الشمال الى الجنوب ، وبالنظر لطوله وموقعها في منتصفه تقريبا فانه يصلها باقاليم ومدن بعيدة ، كما ان اتصاله عند

استهداف المنصور من بناء بغداد ان تكون مركزا له ولجندة والتضامين به ، وان تتوفر فيها الاحوال التي تمكنها من ان تصبح مركزا حضريا متوسعا ، وهذا يقتضي توفر المواد الغذائية والحاجات الاخرى للسكان وتيسر المواصلات معها . وقد ذكرت المصادر ان المنصور راعى في اختيار البقعة التي شيد عليها عاصمته هذين العاملين بالانفاة الى حسن موقعها الصحي ، فبروي انه عندما جاء منطقة بغداد وسأل عن احوالها ذكر له احد القسس ان من خصائصها المفضلة « ان تنزل اربعة طلسابج ، في الجانب الغربي طسوجين وهما قطريل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهريوق وكلواذي ، فانت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجذب طسوج وتاخرت عمارته كان من الناسوج الاخر العمارات «(١)» .

وكان لابد ان يتوفر في الموقع المختار سهولة المواصلات ، لانه اذا اقام « في موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شيء غلت الاسعار وقلت المسادة واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس «(٢)» .

وكان للموقع الجديد مواصلات متيسرة « فانه قاتيه المارة من الفرات ودجلة وجماعة الانهار ولا

(٢) الطبري ٢/ ٢٧٤ .

(٤) الطبري ٢/ ٢٧٦ ، ٢٧٧ وانظر بغداد لابن الفقيه ٨١ .

(٥) الطبري ٢/ ٢٧٥ ، وانظر ايضا ٢٧٢ .

(١) الطبري ٢/ ٢٧٥ .

(٢) الطبري ٢/ ٢٧٢ .

المصب بالبحر يربطه ببلاد ابعد ذات منتوجات لها اهمية خاصة للمجتمع في تلك العصور . ويتميز دجلة ايضا بسعته وعمقه وعدم وجود السدود وقلة وجود الجسور المعرقة للملاحة ، وبذلك تستطيع السفن والزوارق والكارات من المخور فيه والوصول الى بغداد .

اما الفرات فيتميز بطوله وسعته ايضا ، غير ان اقسامه الجنوبية بعد منطقة الانبار ، تكثر عليها القناطر والسدود والجسور ، كما انه ينشعب الى انهر كثيرة يكون كل منها حفيرا ، مما تعرقل الملاحة وسير السفن ، وخاصة المتوسطة والكبيرة منها .

وقد اختار المنصور لبناء مدينته منطقة زراعية كانت فيها عدة قرى ، كما كان يقام فيها سوق مؤقت للمنتوجات الزراعية للمنطقة . وقد وزع المنصور الاراضي في هذه المنطقة على السكان ، وبذلك تحولت الى اراضي سكنية دون ان يخصص منها اراض للزراعة او يزودها بالماء الكافي لارواء المزارع او حتى لاقامة الارحاء الضرورية لحياة السكان . والواقع انه لم يعرف في اقطاعات الجانب الغربي ما اصبح مزرعة سوى العباسية التي تقع جنوبي المدينة المدورة بين الصرائين ، وكانت عند تأسيس بغداد « مضربا لمبنى مدينة السلام » ثم اقطعها المنصور عمه العباس بن محمد « وكان العباس اول من زرع فيها الباقلاء ، فكان باقلاءها نهاية ، فقليل له الباقي العباسي ، وربما قيل لها جزيرة العباس لكونها بين الصرائين ، ومن اجل باقلاءها وجودته صار الباقلاء الرطب يقال له العباسي » (٦) .

اما الجانب الشرقي فقد قرر المنصور توطين الناس فيه بعد سكن الجانب الغربي بسنوات قليلة ، وقد ذكرت المصادر الخططية اسماء عدد قليل مما فيه من الاقطاعات والقصور والاسواق ، كما ذكرت الانهار التي جرت اليه ، وقد وصف اليعقوبي هذا الجانب بانه « كان اوسع الجانبين ارضا ، لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات ، فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع على من اراد سعة البناء » (٧) . وقد ذكرت في الجانب الشرقي عدة بساتين ، غير انه لم تذكر فيه مزارع ، علما بان المعلومات المتوفرة لدينا لا تكفي للجزم بعدم وجود المزارع ، غير انه يمكن القول بان عدم اشارة المصادر الى المزارع في الجانب الشرقي يدل على قلة هذه المزارع ، ان وجدت .

غير ان كلا الجانبين الشرقي والغربي كانت حوله منطقة وفيرة الماء ، خصبة التربة وانتاجها الزراعي وافر ، وهذه المنطقة ذات ميل خفيف نحو الانهار ، ويسقى الجانب الغربي بالانهار الاخذة من الفرات ، اما الجانب الشرقي فكانت انهاره تأخذ من دجلة والفاطول ، اي ان المنطقة تعتمد على عدة انهار وليس على نهر واحد ، وبذلك لا تتوقف مياهها على مصدر واحد قد يهددها الى حادث يؤثر فيه ، وهكذا « فان اجذب طسوج وتأخرت عمارته كان في الطسوج الاخر العمارات » (٨) .

وقد اورد ابن خرداذبة (٩) مقدار الجباية من طساج السواد ، ومنها الطساج المحيطة ببغداد او قرية منها وهي كما يلي : -

الطسوج	عدد رساتيقه	البيادر	الحنطة	الشعر	الورق
بادوريا	١٤	٤٢٠	٣٥٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠.٠٠٠
قطر بل	١٠	٢٢٠	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠.٠٠٠
مسكن	٦	١٥٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠.٠٠٠
الانبار	٥	٢٥٠	٢٣٠٠	١٤٠٠	١٥٠٠.٠٠٠
كلواذي ونهرين	٣	٣٤	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠.٠٠٠
نهر بوق	—	—	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠.٠٠٠
الراذان	١٦	٣٦٢	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠.٠٠٠
بزر جابور	٩	٢٦٣	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠.٠٠٠

(٦) احوال الجانب الشرقي بالمقارنة مع الجانب الغربي من الناحية العمرانية والسكنية .
(٧) الطبري ٢/٢٧٥ . (٨) المسالك والممالك ٩٨ ، ١٢ .

(٩) ياقوت : معجم البلدان ٢/٦٠١ بغداد لابن الفقيه ٥١ .
(٧) البلدان ٢٥١ . وقد وصفت في مقال نشرته في مجلة سومر بعنوان « ادارة بغداد في العهد العباسي الاول »

وهذه الأرقام لا تختلف كثيرا عما ذكره قدامة ابن جعفر (١٠) عن هذا الطاسيج ، وهي توضح أحوال القرن الثالث الهجري ، والراجح أنها تعبر عن معدل إنتاج هذه الطاسيج في العصور الإسلامية الأولى وحتى القرن الرابع الهجري حيث حدثت تبدلات في أوضاع الأنهار أثر في إنتاجية هذه الطاسيج . ولابد أن المنتجات الزراعية لهذه الطاسيج كانت تنقل إلى بغداد لسد حاجة أهلها .

غير أنه بالرغم من كبر مقدار منتوج الطاسيج القريبة من بغداد ، فإنها لم تكف لسد كل حاجات السكان وخاصة أبان ازدهار بغداد التي كانت تستورد أيضا من منطقتي واسط والموصل «وبغداد تدير نفسها أربعة أشهر ، وتميرها واسط أربعة أشهر ، وتميرها الموصل أربعة أشهر» (١١) .

الفرض :

ويبدو أن كثيرا من منتوجات هذه المناطق الواقعة قرب دجلة كانت تنقل بالنهر وتفرغ على ضفافه فتوزع على بغداد ، ومن هنا نشأت على دجلة الفرض لأفراغ هذه السلع : ولما كان الجانب الغربي هو الذي عمرت فيه بغداد في أول العهد وكان فيه مقام الخليفة وأتباعه ، كما كان مزدحم السكان منذ أوائل إنشائه لذلك كان من المنتظر أن تكون فيه نهايات المواصلات ، وأن تنشأ فيه الفرض .

ذكر ياقوت عند كلامه عن باب الشعير « قالوا كانت ترفأ إليه سفن الموصل والبصرة (١٢) » ويظهر من هذه الرواية التي تمثل الأحوال في السنين الأولى من تأسيس بغداد ، وأن لم يصرح بذلك ، أنه كانت في الجانب الغربي فرضة واحدة رئيسة تأتيها السفن الماخرة دجلة من الشمال والجنوب . ومما قد يؤيد كلام ياقوت أن هذه الرقعة تسمى باب الشعير الذي هو أحد المحاصيل الرئيسية التي تستوردها بغداد ، وكانت الفرضة في القرن الثالث الهجري قريبة من هذه المنطقة .

وعند باب الشعير عقد المنصور أحد الجسور الرئيسية التي تربط الجانبين الشرقي والغربي (١٣) .

(١٠) نبذة من كتاب الخراج ٢٢٧-٢٢٨ . ويلاحظ أن هاتين القائمتين ، هما الوحيدتين الشاملتين اللتين وصلتا وسيكون تحليلهما موضوع مقال آخر .

(١١) ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ١٢٥ .

(١٢) ياقوت ٤٥/١ .

(١٣) الطبري ٢٨٠/٣ . الخطيب ١١٦/١ مآلب بغداد ٢٠ .

ولعل اختار هذه البقعة لجسره بسبب قربها من الفرض ، ولعل من دوافع اختيار هذه المنطقة لإنشاء الجسر هو تيسير نقل المواد الغذائية من هذه الفرضة الرئيسية إلى الجانب الشرقي الذي لم تكن فيه آنذاك فرضة رغم تزايد سكانه .

وقد ظلت هذه المنطقة مكان الجسر الثاني الرئيس في بغداد ، ويلاحظ عندما أعيد إنشاء جسر ثان في بغداد في سنة ٤٤٨ م كان يمتد من مشرعة الحطابين إلى مشرعة الروايا (١٤) .

ويلاحظ أيضا أن المنطقة التي تتلو باب الشعير ، هي الكرخ ونهر الدجاج ونهر البزازين ، كانت من أشد مناطق بغداد ازدهاما بالسكان . ومن أكبر مراكز النشاط التجاري والاقتصادي فيها ، كما كان يمتد فيها شارع يصل النهر ، وهذا الشارع هو الشريان الرئيس للحياة في تلك المنطقة .

ولا ريب في أن إقامة جسر على دجلة يعرقل ، ولكنه لا يعطل كلياً ، سير الزوارق . ثم أن التوسع الكبير في المدينة اقتضى إنشاء فرض جديدة لا في الجانب الغربي فقط ، بل في الجانب الشرقي أيضا .

فاما الجانب الغربي فقد كان فيه في القرن الثالث الهجري فرضتان ، أحدهما في الشمال ، والآخرى في الجنوب .

فاما في الشمال فإن البعقوبي في كلامه عن القطائع التي في الطرف الشمالي يقول « . . ثم قطعة البغيين أصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحق بن إبراهيم ، ثم السوف على دجلة في الفرضة ، ثم قطعة لجعفر بن أمير المؤمنين صارت لام جعفر ناحية باب قطريل تعرف بقطيعة ام جعفر » (١٥) ولعل هذه هي الفرضة التي يقول الخطيب « جعفر بن أبي جعفر الذي نسب إليه فرضة جعفر » (١٦) وكانت على دجلة بقرب فرضة جعفر دار أبي عبدالله الموسوي العلوي (١٧) والراجح أن هذه الفرضة كانت ترسو فيها المنتجات والسلع القادمة من المناطق الشمالية . وبذكر

(١٤) المنتظم ١٦٩/٨ . ومشرعة الروايا عند باب الشعير ، وقد انجزت دراسة مستوعبة لخطط هذه المنطقة في العصر العباسي الأول .

(١٥) البلدان ٢٢٩ .

(١٦) الخطيب ٩٠/١ .

(١٧) الخطيب ١٤٨/٢ المنتظم ٢٩٤/٦ كلمة الطبري ٢/٢ ، والموقع التقريبي لهذه الفرضة عند جسر الائمة العالي من جهة الكاظمية .

الصولي انه في سنة ٢٣٣ « ضمنت دجلة والناصر الاعلى بخمسمائة دينار (١٨) ، ولعل هذا الماصر كان عند الفرضة الشمالية .

وقد وردت في المصادر اشارة الى مشرعة باب خراسان (١٩) الذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة ، ولكن الاخبار عنها قليلة ، ولعل ذلك راجع الى انها لم تكن ذات اهمية لوقوعها قرب الجسر .

اما الفرضة الجنوبية فان اليعقوبي يذكر « نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر ، تصير الى فرضة عليها الاسواق وحوانين التجار ، لا تنقطع في وقت من الاوقات ، فالماء لا ينقطع » (٢٠) ويفهم من هذا ان نهر عيسى كان يستعمل للملاحة السفن النهرية العظام ، وقد يفهم منه ان الفرضة كانت عليه ، غير اننا نشك في دقة كلام اليعقوبي ، لان كثرة روضع نهر عيسى في منطقة بغداد ، وكثرة القناطر التي عليه لابد انها كانت تعطل ملاحة السفن الكبار . ثم انه لم يرد في اي مصدر وقوع الفرضة على نهر عيسى .

وقد ذكر الخطيب ما يحدد موقع الفرضة اذ انه في كلامه عن انهار الجانب الغربي يذكر « نهر يقال له نهر القلائين حدثنا من أدركه جاريا يلتقي في دجلة تحت الفرضة » (٢١) علما بانه يذكر في مكان آخر ان نهر القلائين يصب في نهر الدجاج ثم يصير النهر الى نهر طابق ثم يصب في نهر عيسى (٢٢) اي ان نهر القلائين كان بين نهري طابق والدجاج . وإلى شمالي نهر عيسى . وقد ظلت هذه الفرضة حتى اواخر القرن الخامس ، اذ يذكر ابن الجوزي انه عند بناء النظامية « نقضت الدور التي كانت للناس بمشرعة الروايا والفرضة وباب الشعير ودرب الزعفراني » (٢٣) ويظهر هذا النص ان الفرضة كانت بالقرب من مشرعة الروايا وباب الشعير .

وقد اشار الطبري الى فرضة البصريين (٢٤) ولكنه لم يحدد موقعها .

(١٨) اخبار الراعي والمتقى ٢٧٦ .

(١٩) الطبري ٩٢٨/٣ مروج الذهب ١١٩/٢ .

(٢٠) البلدان ٢٥٠ .

(٢١) الخطيب ٧٩/١ .

(٢٢) الخطيب ١٢٢/١ .

(٢٣) المنتظم ٢٨٨/٨ مرة الزمان ٢٢١ طيمة سويم .

(٢٤) الطبري ٢٢٥١/٢ .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فرضة في باب الطاق ، فيذكر الخطيب فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر الذي كان محاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب الطاق ، فصار هناك جسران يمضي الناس على احدهما ويرجعون على الاخر (٢٥) وفي هذه الفرضة كانت دار علي بن الجهشيار التي هدم بابها سنة ٢٠٩ وبني موضعه مستغلا (٢٦) .

وبذكر هلال بن الحسن ان « دار المملكة التي باعلى المخرم محاذية الفرضة » (٢٧) ومع ان سياق النص يوحي بوجود فرضة واحدة مشهورة ، الا انه يصعب القول بان هذه الفرضة هي نفس فرضة باب الطاق ، لطول المسافة بين المخرم وباب الطاق ووجود الرصافة بينهما . ولعل هذه الفرضة كانت ترسو فيها السفن التي تمون الرصافة بالبضائع والسلع .

وقد ذكر الخطيب شريعة ابي عبيد الله في الجانب الشرقي عند شارع عبد الصمد (٢٨) وذكر ان هذا الشارع قرب قنطرة البردان (٢٩) .

ومن الشارع التي تردد ذكرها في الجانب الشرقي هي مشرعة الحطابين ، فاما الحطابين فكانت في الجانب الشرقي وعندها دار هلال بن محمد (٣٠) ودار محمد بن عمر القاضي (٣١) ، وكان وراءه المعترض حيث كان ينزل عبدالله بن عمر بن شاهين (٣٢) .

ويذكر مضمار الحقائق « عمرت ام الخليفة مسجدا بمشرعة السقائين على شاطئ دجلة بمشرعة الحطابين » (٣٣) وذكر ابن الجوزي ان « السقائين قريبا من سوق السلاح » (٣٤) .

مراكز العمال :

اسس ابو جعفر المنصور عاصمته ليسكنها الخليفة وحاشيته وحرسه وجنده ، اي ان سكانها الاولين اناس مختارون من ذوي الطابع العسكري بالدرجة الاولى ، ثم الاداري ، ويعتمدون في

(٢٥) الخطيب ١١٦/١ .

(٢٦) المنتظم ١٥٩/٦ .

(٢٧) الخطيب ١٠٥/١ .

(٢٨) الخطيب ٢٥٧/٤ .

(٢٩) الخطيب ٤١١/٤ .

(٣٠) الخطيب ٧٥/٤ المنتظم ١٥/٨ .

(٣١) الخطيب ٢٨١/٣ .

(٣٢) الخطيب ٢٨٦/١ المنتظم ١٢٨/٨ .

(٣٣) مضمار الحقائق ١٧٨ .

(٣٤) المنتظم ٨٧/٧ .

مراكز الصناعة في بغداد :

ان سعة بغداد وغناها وازدهارها المادي يستلزم نمو صناعة محلية لسد بعض حاجيات أهلها ، غير ان المصادر لم تذكر الا عددا قليلا من المصنوعات التي اقتصت بها بغداد ، واشارات الى قليل من الاماكن التي تركزت فيها بعض الصناعات ببغداد ، علما بان هذه الاشارات ترجع الى القرن الرابع الهجري فما بعد ، حيث كانت هذه الصناعات قد وصلت مستوى عاليا من الاستقرار والازدهار لم تصل اليه الا بعد مرور زمن طويل عليها . ويمكن ارجاع قلة المعلومات عن المصنوعات البغدادية وعن المناطق التي تركزت فيها الى اعتماد أهل بغداد الكبير على استيراد السلع التي يحتاجونها ، والى ان مراكز الصناعات كانت موزعة وان كثيرا منها كانت « بيتية » فلم تنحصر في منطقة واحدة ، يذكر الهمداني ان بغداد اجتمع فيها ما هو متفرق في جميع الاقاليم من انواع التجارات والصناعات ، وانهم انذني لا يتركهم فيه احد : الثياب البيض المروبة والزجاج المحكم من الاقداح والافخاس والاكاسات والطاسات والفخائر الحجرية ولهم اندارش واللكاء (٢٥) . ويذكر ايضا ان الماذرائين والمعارض الهيشمية والامشاط الطاهرية والسكاكين الكنابية ، وكثيرا مما يصنع من الابنوس والمجاج والعام الموجود من المطر والزجاج (٢٦) .

واشتهرت بغداد بالسقلاطونيات والعتابي ، لا يشاركها فيهما غير نيسابور (٢٧) كما اشتهرت بالحصر (٢٨) .

وفي المصادر اشارات بعضها صريحة وبعضها ضمنية عن تركز الصناعات في بغداد فاما صناعات الجانب الشرقي فان الهمداني يصرح انه الداروش واللكاء « فهما اعجوبة وذلك ان الداروش يتخذ من هذا الجانب واللكاء من ذلك الجانب ، فلو جهد صاحب الداروش ان يتخذ من جانب صاحب اللكاء لاعوزه ، وكذلك لو جهد صاحب اللكاء ان يتخذ من جانب صاحب الداروش لتعذر عليه ذلك ، على انهم قد امتحنوا ذلك وجربوه فقد تعذر عليهم » (٢٩) .

وقد ورد في المصادر ذكر للعمامة الرصافية

(٢٥) البلدان ٢٥٢ .

(٢٦) بغداد ٧٣ .

(٢٧) لطائف المعارف ١٩٥ وانظر عن سقلاطون بغداد لطائف المعارف ٥٥ ، ٢٣٥ .

(٢٨) لطائف المعارف ٢٢٦ ، نمار القلوب ٥٢٨ .

(٢٩) البلدان ٢٥٢ .

مفائهم بالدرجة الاولى على المطاء الذي تقدمه لهم الدولة ، ويسدون حاجاتهم من السلع التي يقتونها بالشراء ولا يصنعونها بأيديهم ، وهي سلع محدودة وذلك لان حرفة فالييتهم هي العسكرية . وان دخلهم محدود . الا ان اسرة الخليفة والمتصلين به وحاشيته كان مستوى معيشتهم اعلى ، ومواردهم اكبر ، فكانوا بحاجة الى سلع اكثر تنوعا واعلى ثمنا ، وكان يعوض عن قلة مددهم النسبي بزيادة استهلاكهم .

وقد رافق بناء بغداد ونموها تقاطر عدد كبير من العمال والصناع واهل السوق لتقيام بها يسد حاجات السكان ، وادرك المنشور هذه الحاجات فانشأ اسواقا محلية في مختلف ارجاء بغداد ، غير انها كانت اسواقا للبيع وليست للصناعة ، وكان النمو العمراني يتطلب عددا كبيرا من اصحاب الحرف كالبنائين والنجارين والحدادين الا انه لم تذكر في بغداد اسواق مخصصة لهؤلاء ، فالاسواق غالبها تلبية وليست للصناعة .

غير ان الجانب الغربي كان اسبق في التشييد ، وشهد توسعا كبيرا منذ فترة مبكرة وهذا ما جعله الجانب الاهم حتى القرن الرابع الهجري حيث اسبب الانحطاط ببغداد بجانبها .

اما الجانب الشرقي فقد تاخر استيطانه ونموه عن الجانب الغربي ، ولم تذكر المصادر من الاقطاعات والمساكن التي كانت فيه الا ما كان لعدد قليل من رجال الاسرة العباسية وكبار الموظفين والقواد ، كما ذكرت عددا من القصور ومن الاسواق الضخمة ، ولم تذكر اسماء ما كان في الجانب الشرقي من محلات مما قد يستدل منه على نوع وجنس السكان وازدهارهم فيه . وهذا يرجع ان الجانب الشرقي كان اقل ازدهارا بالسكان ، وان كانت مساحة الرقعة المسكونة فيه كبيرة ولا تقل كثيرا عن نظيرتها في الجانب الغربي . وان كنسرة القصور والاسواق الغنية بالامتعة المترفة في الجانب الشرقي . يدل على النشاط الاقتصادي الغالب على بيع السلع الاستهلاكية المترفة .

وكان الجانب الشرقي بحاجة الى العمال والحرفيين اللذين واجهوا التوسع الكبير والسريع في اعمار المدينة ، ولابد ان عددا كبيرا من هؤلاء الحرفيين كانوا يقيمون في الجانب الشرقي الذي يعملون فيه ، غير ان هذا لا ينفي احتمال الحاجة الى صناع وحرفيين يومية او موسميون يقدمون من الجانب الغربي ، الامر الذي يساهم في نشاط التنقل بين الجانبين .

التي كان يلبسها الخلفاء (٤٠) وقد يدل اسمها على المكان الذي كانت تصنع فيه ، وهو في الجانب الشرقي من بغداد .

يتردد في المصادر ذكر دار القطن في الجانب الغربي عند قطعة الربيع التي كانت من اكبر المراكز التجارية والنشاط الاقتصادي ، وكان اسمها يطلق على محلة سكنها عدد من الفقهاء وعلماء الحديث ونسبوا اليها . غير ان المصادر لم تذكر سبب نسبتها الى القطن وهل كانت في الاصل محلا لبيعه ام لصنعه ، وما اذا كانت قد ظلت فيما بعد مركزا للقطن الخام او المصنوع (٤١) .

ويذكر الصابي انه في سنة ٢٨٩ هـ كان ابو نصر سابور قد حاول وضع العشر على ما يعمل من الثياب الابريسمات والقطنيات بمدينة السلام ، فثار اهل المتأبين وباب الشام من ذلك وقصدوا المسجد الجامع بالمدينة . ومنعوا الخطبة والصلاة . واستقر الامر على اخذ العشر من قيم الابريسمات خاصة ، ونودي بذلك بالجانب الغربي من يوم الاحد . وبالجانب الشرقي من يوم الاثنين ، وثبت هذا الرسم ورتب في جبايته ناظرون ومنولون ، واقر له ديوان على دار بالبركة ووضعت الختم على جميع ما يقطع من المناسج ويباع ويختم (٤٢) . ووضح من هذا النص ان اهل باب الشام والمتأبين هم الذين كانوا يعملون هذه المنسوجات آنذاك في بغداد .

فاما باب الشام فهو احد الابواب الاربعة لمدينة المنصور للدورة ، وكان يقع في جهتها الشمالية الغربية ، وقد نشأت حوله محلة واسعة سميت باسمه وظلت مزدهرة حتى اواخر العصر العباسي ، ولم تنقر بالفتن الطائفية التي شاركت فيها كثير من محلات الجانب الغربي .

اما المنطقة الواقعة وراء باب الشام ، اي في الجهات الشمالية الغربية فان ما فيها من قطاعات ومحلات ومعالم خطية ، ذكرته المصادر المؤلفة في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد اورد كل من اليعقوبي في كتاب البلدان ، وابن الفقيه الهمداني في الفصل الذي كتبه عن بغداد وسهراب فيما كتبه عن الانهار التي تأخذ من دجيل وتجري في شمالي

المدينة المدورة (٤٣) ، اسماء كثير من الاقطاعات والمعالم الخطية في هذه المنطقة ، وأشار اليعقوبي الى ازدهار هذه المنطقة واصول بعض سكانها وفيهم من اهل اليمامة ، والكوفة ، وخوارزم ، ومروالروذ ، وطخارستان وبخارى ، كما يذكر ان عند سوق باب الشام « تمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبتيه جميعا الى ربض حرب بن عبدالله البلخي . وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه ، واهله اهل بلخ واهل الخنل واهل بخارى واهل اسبشباب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه ، واهل خوارزم . ولكل اهل بلد قائد ورئيس » (٤٤) ، وقول اليعقوبي « في الحال » يدل على انه يصف الوضع في زمن كتابة كتابه (اي حوالي سنة ٢٨٠ هـ) كما ان قوله ان « لكل اهل بلد قائد ورئيس » قد يدل على انهم كانوا قوة عسكرية ومع ان اليعقوبي يدعي ان « هذه القطائع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في ايام المنصور ووقت ابتدائها » الا انه يصعب موافقته على ان ما ذكره عن هذه المنطقة يرجع الى زمن المنصور (اي حوالي ١٥٠ هـ) لانه لا يوجد ما يدل على كثرة اهل هذه المدن في جيش المنصور . والواقع ان اليعقوبي يتابع كلامه فيقول ان هذه الخطط « قد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم ، وجبل بعد جبل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والجلة والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع العتصم الى سر من راي في سنة ٢٢٣ هـ » (٤٥) . ويبدو ان معظم سكان هذه المنطقة استقروا فيها بعد خلافة المنصور ، وربما في خلافة الرشيد او بعده . ولم يرد في المصادر ذكر لقيام الصناعة في هذه المنطقة حتى اوائل القرن الرابع الهجري ، سوى ما ذكره اليعقوبي من ان درب الاقفاص الذي يقع في هذه المنطقة « متصل بدرب القصارين » (٤٦) . غير ان عدم ذكر المصادر للصناعات في هذه المنطقة لا يكون دليلا قاطعا على عدم قيامها آنذاك ، لان مصادرنا لم تكن تذكر مراكز الصناعة .

(٤٢) انظر مقالنا « مصادر دراسة خطط بغداد » مجلة المجمع

العلمي العراقي م ١٤ سنة ١٩٦٧ .

(٤٤) البلدان ٢٤٨ .

(٤٥) البلدان ٢٥٤ وقد اعدت دراسة مفصلة عن تطور خطط هذه المنطقة .

(٤٦) البلدان ٢٤٧ .

(٤٠) الطبري ٢/٢٢١٨ رسوم دار الخلافة ٩٠ .

(٤١) انظر عن اشتهار بغداد بالقطن : بغداد لابن الفقيه ٧٥ ويذكر الصابي بعض موظفي الجباية في بغداد ومنهم « عامل دار القطن » (الوزراء ١٧٦) .

(٤٢) ذيل مسكويه ٢/٣٦٢ .

لقد ذكرت من قبل قول الصابي ان اهل باب الشام والعنابيين احتجوا على فرض الضرائب على المنسوجات . فاما العنابية التي نسب اليها العنابيون فلم يرد لها ذكر في الكتب التي بحثت في خطط بغداد او اشارت اليها ، مما كتب منها او اعتمد على رواية لها عاشوا عند او قبل بداية القرن الرابع الهجري ، كالبغوي ، وابن الفقيه الهمداني وابن طيفور ، وسهراب ، ووكيح اللذين اعتمد عليهما الخطيب في مقدمته الخطبية . كما اني لم اجد لها ذكرا في الحوادث التي سبقت اشارة الصابي الانفة الذكر . الامر الذي يدل على ان هذه المحلة لم تظهر ، او تشتهر ، الا بعد ذلك التاريخ .

ذكر الخطيب في تراجمه عددا ممن عاش او توفي في شارع العنابيين واقدم الذين ذكرهم هو ابو الحسين بن سمعون الذي توفي سنة ٢٨٧ (٤٧) ، اما الآخرون الذين ذكرهم فكانت وفاتهم بين سني ٤١٩ - ٤٤٥ هـ (٤٨) والواقع ان « العنابيين » يتردد ذكرها بعد هذا التاريخ ، وقد وصفها بعضهم بانها محلة ، وان فيها مسجدا . ولم يذكر أي مصدر اطلعت عليه هوية من نسبت اليه هذه المحلة (٤٩) .

ذكر الخطيب ان شارع العنابيين من مربعة الفرس (٥٠) ، وهي مربعة ذكرتها المصادر المؤلفة قبل القرن الرابع الهجري وكانت تقع بين الانبار وباب الحديد ، وبقرها قطائع الخوارزمية والبخارية والرخسية والكوفيين واليمامين (٥١) ، غير ان المصادر لم تشر الى تركيز الصناعات والمناسج في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت القرن الرابع كما اشرنا من قبل .

لقد ذكرنا من قبل ان مما اشتهرت به بغداد هو النسيج العنابي ، وهو نسيج مخطط ، يشبه

بنخطيطه الحمر (٥٢) ، وبطيخ الشمام (٥٣) ، وهو ينسج ايضا في نيسابور واصبهان (٥٤) ويبدأ ذكره في اخبار الثالث الثاني من القرن الرابع الهجري حيث يروي ابن الجوزي ان سبكنكين صاحب عز الدولة خلف عشرة الاف ثوب ديبقي وعنابي (٥٥) ، كما روى ان بختيار اهدى ناصر الدولة الحمداني ثوبا عنابيا (٥٦) ، كما اهدى طغرل بك ملك الروم ثيابا منها عنابية (٥٧) ، ويقول ابن جبير ان العنابي نسيج من حرير وقطن (٥٨) .

وبالقرب من العنابية نشأت دار القز ، وهي محلة يدل اسمها على انها كانت مركزا لمعالجة القز ، وربما نسجه ايضا ، فهي مركز صناعي للنسيج كمجاورتها العنابية ، ولكنها ايضا لم تذكر الا في اخبار القرن الخامس الهجري ، مما يدل على ازدهارها فيه ، كما ان عدم ورود ذكرها قبل ذلك التاريخ يدل على تأخر ظهورها .

ويذكر ياقوت ان دار القز صارت كالمدينة وعليها سور ، وانه كان يصنع فيها في زمنه الكاغد (٥٩) ، ولكن لم اجد في المصادر اشارة الى زمن ظهور صناعته في بغداد عموما ، وفي هذه المحلة خصوصا كما لم اجد في انواع الكاغد ما يسمى باسم هذه المحلة (٦٠) . ولعل تركيز صناعة الورق في هذه المحلة وما يجاورها راجع الى توفر المواد الاولية من بقايا القطن ونفاياته في هذه المنطقة .

ويلاحظ ان بالقرب من هذه المحلات كانت تقع دار الرقيق التي يذكر البغوي انها ربيض « كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الافاق » ، وكانوا مضمومين الى الربيع مولاه (٦١) . ومن المحتمل ان هؤلاء الرقيق ، او عددا منهم ، كان يستخدم في الصناعات ايضا منذ زمن ابي جعفر ، وان وجودهم

(٥٢) يذكر الرشيد « حمارا عنابيا جسده كخلفة العنابي » (الذخائر والتحف ١٩٢) وبذكر الفرائدي ان حمير الزنج كالعنابي المخطط (تحفة الالباب) .
(٥٣) جامع الانبوية المفردة ١٠١/١ ، ١١٠/٤ .
(٥٤) لطائف المعارف ١٩٤ ثمار القلوب ٥٤٠ ابن الفقيه ٢٥٤ وعن عنابي نيسابور انظر المقدسي ٣٢٢ ، وعن عنابي اصفهان انظر الاصحري ٩٩ .

(٥٥) المنتظم ٧٧/٧ .
(٥٦) الذخائر والتحف ٦٦ .
(٥٧) الذخائر والتحف ٨٠ .
(٥٨) الرحلة ٢١٢ (طبعة حسين نصار) .
(٥٩) ياقوت ١٦٧/٢ ، ٥٢٢ . وبذكر ابن حجلة ان دار القز احد مدن بغداد السبع .
(٦٠) سافرد للكاغذ وصناعاته بحثا مستقلا .
(٦١) البلدان ٢٤٨ .

(٤٧) الخطيب ٢٧٧/١ ، ١٥/٨ .
(٤٨) انظر الخطيب ٤٣/٢ ، ٢٦٢/٤ ، ٢٩٤ ، ١٥/٨ ، ٤٧ ، ٢٩٨/٩ ، ١٣٨/١٠ ، ٢٨٦ ، ٨٠/١١ .

(٤٩) المعروف باسم العنابي هو الشاعر المشهور كلثوم بن عمرو ، وهو تلميذ قدم بغداد في زمن الرشيد (انظر عنه الاغانى ١٢/ معجم الادباء ٢٦/١٧ الخطيب ٦٩٦١ ولكن لا توجد اشارة او دليل على نسبة المحلة اليه . ويذكر سهراب ان الصراة الصغير يصب عند القنطرة الجديدة ويعرف عند مصبه باسم نهر عتاب (١٢٢) ولكنه لم يذكر هوية من نسب اليه هذا النهر البعيد عن محلة العنابيين .

(٥٠) الخطيب ١٥/٨ .
(٥١) سهراب ١٢٤ الخطيب ١١٤/١ وانظر ايضا بغداد لابن الفقيه ٤٨ ، ياقوت ٤٨٥/٤ ، ٧٥٠/٢ .

في هذه المنطقة كان من العوامل التي أدت الى تركزه نحو الصناعة في هذا القطاع .

ولابد ان وجود هذه المراكز الصناعية كان من عوامل نمو « الشارع الاعظم الماد الى الجسر الندي على دجلة » وفيه سوق ذات اليمين وذات الشمال (١٢) .

اما الجانب الشرقي فلم تذكر فيه محلة او منطقة تركزت لصناعة النسيج كالذي حدث في الجانب الغربي ، ولكن المصادر ذكرت عدة قرى في شمالها كان في كل منها صناعة للنسيج مشهورة ومن هذه القرى الحضرية « ينسج فيها الثياب والكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد » (١٣) « وباقدرا بينها وبين بغداد اربعون ميلا ، وتعمل بها ثياب من القطن غلاظ صفاق يضرب اهل بغداد بها المثل » (١٤) ، وبلاحظ انه كانت في هذه المنطقة عدة قرى مشهورة بالخمور منها القفص (١٥) وصريفون (١٦) .

لم تذكر المصادر غير هذه المراكز الصناعية في بغداد وما يجاورها وبلاحظ انها موزعة بين الجانبين ، ولا يعقل ان استهلاك كل منهما اقتصر على اهل الجانب الذي قامت فيه . وان كثرة الاسواق في بغداد هو مظهر على ازدهار السكان وحاجتهم الى السلع وليس دليلا قاطعا على ازدهار الصناعة وتعدد مراكزها ، اذ ليس من الضروري ان تكون مراكز الصناعة متجمعة في مكان واحد او ان تكون قرب الاسواق . وكل هذا يقتضي تبادل السلع بين الجانبين وضرورة تنظيم المواصلات بينهما .

التجارة بين اقاليم الشرق والمغرب :

لقد ذكرنا ان المصادر ذكرت ان ابا جعفر المنصور عند اختياره موقع عاصمته الجديدة راعى ارتباط هذا الموقع مع الشمال والجنوب بالمواصلات النهرية . غير ان لهذا الموقع اهمية كبيرة في المواصلات بين اقاليم الشرق واقاليم المغرب . فمن العلوم ان اقاليم الشرق كانت منذ ازمة قديمة غنية ببعض المحاصيل والمنتجات المهمة للعراق ولاقاليم البحر المتوسط ، فضلا عما يمر بها من طرق تصل الصين واواسط اسيا بالمغرب . وقد ازدادت اهمية الاتصال بين اقاليم الشرق بالمغرب بعد الفتح

الاسلامي الذي وحد اقاليم الشرق الاوسط من اواسط اسيا حتى المحيط الاطلسي تحت ظل دولة واحدة نشرت الامن والاستقرار وازالت الحواجز والعقبات التي وضعتها الدول المتنافسة السابقة بوجه الانتقال ، وكانت الدولة الاسلامية تسير على مبدأ حرية التنقل والتجارة ، وكانت الاحوال فيها تقتضي زيادة هذا التنقل ، لان الاماكن المقدسة الرئيسية في الاسلام كانت في الحجاز الذي عاش فيه الرسول ومارس اعماله وطبق سنته وكان فيه اغلب الصحابة والتابعين الذين صاروا المصدر الرئيس للعلم بالدين والفقه ، ولا يخفى ان الحج الى مكة فريضة اسلامية واجبة .

ثم ان الدولة كانت تعتمد في صدر الاسلام على الجزيرة العربية لتجهيزها بالمقاتلة ولما كانت اقاليم الشرق تكون اطراف الدولة ، فان مقاتلتها الذين كانت بحاجة مستمرة لهم ، كانوا يأتون من الجزيرة الى تلك الاقاليم ، وكثير منهم كان يحتفظ بملاقاته مع عشيرته في الجزيرة ، وادى ذلك الى تزايد اهمية الطرق بين اقاليم الشرق والمغرب لتنقل الجند .

وقد ادى زوال الحواجز والعقبات امام التنقل ، وزيادة موارد اقاليم المغرب وخاصة الحجاز وبلاد الشام ، وارتفاع مستوى معيشة اهلها وتزايد قوتهم الشرائية الى زيادة طلب اهل هذه الاقاليم على سلع ومنتجات اقاليم المشرق وكثرت في الاقاليم الغربية ، ولابد انه رافقها ازدياد نشاط القوافل وتنقل التجار وربما القيام بنشاطات اقتصادية اخرى .

وترتبط اقاليم المشرق بالمغرب عن طريقين رئيسيين : جنوبي وشمال ، فاما الطريق الجنوبي فهو الذي يمر بالبصرة وتأتي عنه منتجات اقاليم جنوب الهضبة الايرانية وكابل اما الطريق الشمالي فهو الذي يمر بوسط العراق وتأتي عن طريقه بعض سلع الصين واواسط اسيا وكذلك سلع اقليم خراسان والاقاليم التي في شمال ووسط الهضبة الايرانية وكلها اقاليم غنية وثيقة الصلة بالعالم الاسلامي .

والطريق الشمالي قديم الاستعمال ، كانت تملكه القوافل ، وازدادت اهميته في العصر الروماني وخاصة بعد زمن اغسطوس ، وقد وصفه ايسيدور الكرخي في كتابه المشهور « المحطات القرنية » (١٧) . وكان يدخل العراق من خاتقين

(١٢) المصدر نفسه .

(١٣) ياقوت ٢/٢٩٢ .

(١٤) ياقوت ١/٧٥٠ .

(١٥) ياقوت ١/١٥٠ .

(١٦) ياقوت ٢/٢٨٤ .

في قنى تحت الارض (٦٩) مما يقطع بانها لم تستعمل للمواصلات .

وقد جعل في المدينة المدورة حوالي خمسين شارعا منتظما تنفرع كلها من الساحة المركزية وتنتهي عند الاسوار ، فهي كمحاور العجلة ولا تتصل بالخارج . اما الارياض التي حول المدينة المدورة فكانت فيها طرق ودروب متعددة تنفرع باشكال غير منتظمة ، ولم تذكر المصادر انه جعل فيها شارعا عريضا وطويلا كالمحور .

وفي خلال السنوات الاولى من بناء المدينة كانت صلة الخليفة بالاقاليم القريبة اقوى ، فكان العراق اغنى اقليم تعتمد عليه الخلافة وتتفاصل معه ، كما حدثت في ارمينية و اقاليم المغرب احداث اثارت الخلافة اكثر مما اثارها الاحداث في اقاليم المشرق التي اقتصر في معالجتها على حملة قادها محمد المهدي ولي العهد ، وقضى اربع سنوات في معالجتها متخذا طوالها من الري مركزا له دون ان يحتاج الى امدادات جديدة من بغداد .

لذلك كان الخليفة ومستوطني الجانب الغربي اشد اتصالا بالاراضي والاقاليم الغربية فيعتمدون عليها في سد مطالبهم دون حاجة شديدة الى الجانب الشرقي الذي بالامكان الاتصال به عن طريق القوارب والزوارق .

الصلة بين الجانبين :

غير ان الحاجة الى استيطان الجانب الشرقي ظهرت مبكرة ، فمن المعلوم ان ابا حنيفة وابن اسحق ، وهما من اعظم العلماء الذين عاشوا في بغداد ، توفيا سنة ١٥٠هـ (٧٠) ودفنا في مقبرة بالجانب الشرقي ، ولا بد ان دفنهما في تلك المقبرة يرجع الى كونهما كانا عند وفاتهما يسكنان الجانب الشرقي ، وانهما لم يكونا وحدهما في هذه السكنى بل ان عددا آخر يصعب تقديره كان قد استوطن الجانب الشرقي . وتجدر الاشارة الى ان ابا حنيفة هو من اهل الكوفة في الاصل ، وان ابن اسحق هو من اهل الحجاز ، اي انهما من المهاجرة الى بغداد وليسوا من قدماء سكانها .

يذكر الطبري بان الاعمار في الجانب الشرقي بدا سنة ١٥١ ، وهو يذكر رواية عن الشروي في ان

وبعبر دجلة من جسر المدائن ثم يتجه غربا الى الحيرة ، التي اقيمت قربها الكوفة ، او الى وادي الفرات حيث يذهب الى بلاد الشام . وكانت المدائن تتصل باقاليم شمال العراق و ارمينية وبالمناطق الجنوبية من العراق عن طريق دجلة ، كما تتصل باقليم الشام عن طريق الفرات ونهر الملك . ولما كانت المصادر الاسلامية لم تذكر اي جسر على دجلة غير جسر المدائن ، فالراجح ان هذا الطريق هو الذي كان مستعملا في صدر الاسلام (٦٩) .

غير ان تاسيس بغداد على مسافة ثلاثين كيلو مترا شمالي المدائن كان لابد ان يؤثر في نهايات هذا الطريق ، لكي يرتبط ببغداد بدل ارتباطه بالمدائن . ثم ان الطريق البري الى شمالي العراق ، بما في ذلك سامراء والموصل ، كان يسير على الجانب الشرقي من دجلة .

وكل هذا يؤدي ان يكون الجانب الشرقي من بغداد هو المحطة الرئيسة لطريق خراسان والموصل ويستلزم انشاء جسر في منطقة بغداد لا لتيسير ربط الجانب الغربي بالشمال والمشرق فقط ، بل ايضا لتأمين تنقل البشر والتجارات بين اقاليم المشرق والمغرب .

الصلات العسكرية بين الشرق والغرب :

اختار ابو جعفر المنصور موقع عاصمته في الجانب الغربي من دجلة ، ووضع بنفسه خططها واسس تنظيمها ، وكان الجزء الرئيس فيها هو المدينة المدورة التي تقع قرب دجلة والصراة ، يفصلها عنهما رقعة صغيرة من الارض . وكانت لها اربعة ابواب متناظرة ليس فيها اي باب متعامد على دجلة . فالمدينة المدورة لم يتحكم في تخطيطها النهر ، ولم يكن في التخطيط الاول لابي جعفر المنصور ان يجري في المدينة المدورة او ارياضها اي نهر او قناة حتى للشفة والطواحين . وقد ظل هذا الوضع حتى نبهه بطريق الروم الى اهمية الماء في تشغيل الطواحين وفي سقي المزروعات التي تضافى على المدينة جمالا (٦٨) . وقد استجاب المنصور للملاحظة بالطريق فجر الى المدينة المدورة ترعا فاخذ ماءها من الدجيل في الشمال ومن الصراة في الجنوب ، وكانت هذه الترع صغيرة وتجري في بعض الاماكن

(٦٩) يذكر البلاذري انه عند الفتوح « عبر المسلمون جسرا كان معقودا عند قصر سابور الذي يعرف اليوم بقصر عيسى » (فتوح البلدان ٢٤٨) ، ولكن لم يتردد ذكر هذا الجسر في الاخبار مما يدل على فلة اهميته .

(٦٨) الخطيب ٧٨/١ .

(٦٩) الخطيب ٧٩/١ .

(٧٠) من سنة وفاة ابي حنيفة انظر الخطيب ١٢٥/١ ، ٢٢٤/٢ ، ١٧٦/٤ ومن وفاة محمد بن اسحق انظر لاويخ خليفة ١٥٤ الخطيب ٢١٤/١ ، ١٧٦/٤ .

الرصافة بنيت على اثر قدوم المهدي من خراسان في تلك السنة ، ورواية اخرى عن محاولته قسمة جيشه كوسيلة للسيطرة عليه ، وافتعاله حادثة لتبرير نقل بعض الجيش الى الجانب الشرقي ، ثم يقول بعد ذلك « وكان ذلك سبب البناء في الجانب الشرقي وفي الرصافة واقطاع القواد هناك » (٧١) غير ان هذا التاريخ قد ينطبق على بدء بناء الرصافة وبدء توزيع الاقطاعات ، أي على الزمن الذي بدأت به الخلافة « رسميا » اعمار الجانب الشرقي ، وهو زمن متأخر عن بدء سكن الناس فيه .

ويروي الطبري عن موسى بن محمد بن ابراهيم العباسي انه « تولى صالح صاحب المصلى القطائع في الجانب الشرقي » (٧٢) ، ويعدد اليعقوبي والخطيب اقطاعات الجانب الشرقي (٧٣) غير ان الاقطاعات التي ذكرها قليلة العدد ، ومعظمها لرجال كان لهم دور بارز في خلافة المهدي او بعده ، مما يدل على ان المعلومات التي اورداها تعكس احوال فترة متأخرة عن سنة ١٥٠ التي لم يكن لمعظم هؤلاء القاطنين دور بارز فيها او فيما قبلها (٧٤) .

وذكر اليعقوبي التسوارع والاسواق التي تخترق الجانب الشرقي ، وهي تتفرع من باب الطاق الذي كان عليه الجسر . ويبدو من كلامه ان الجسر كان محور تنظيم الجانب الشرقي ، في حين ان المعلومات والدلائل الاخرى تشير الى ان جسر باب الطاق تأخرت اقامته ، ولا يوجد ما يدل على ان المنصور اراد ان يجعل التنظيم الخططي للجانب الشرقي قائم على الجسر . فالصورة التي تتكون من وصف اليعقوبي تنطبق على احوال فترة متأخرة عن زمن المنصور . كما لا يوجد ما يدل على ان المنصور جعل الجانب الشرقي قائما على تنظيم مقرر كالذي فعل في الجانب الغربي .

ويروي احمد بن محمد الشروي عن ابيه « ان المهدي لما قدم من خراسان امره المنصور بالمقام بالجانب الشرقي ، وبني له الرصافة ، وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا ، واجرى له الماء ، فكان يجري الماء من نهر المهدي الى الرصافة » (٧٥) .

(٧١) الطبري ٢/٣٦٧ .

(٧٢) الطبري ٢/٣٦٧ .

(٧٣) البلدان ٢٥١- ، الخطيب ١/٩٣ - ٩٦ .

(٧٤) انظر مقالنا ادارة بغداد ومراكزها في العصور العباسية الاولى سومر ٢٢ سنة ١٩٧٧ ص ١٢٢ فما بعد .

(٧٥) الطبري ٢/٣٦٤ - ٥ .

ويتبين من هذا النص ان المنصور هو الذي قرر توطين المهدي وجيشه في الجانب الشرقي وبني له الرصافة ، وقد يفهم من سياق الكلام ان المنصور هو الذي وضع بنفسه تخطيط الرصافة ، وان محمد المهدي لم يكن له رأي نافذ في ذلك التخطيط ومما يؤيد ذلك ان المهدي لما ولي الخلافة لم يقيم طويلا في الرصافة ، بل اقام في قصر الطين ثم في قصر السلامة بعباساباذ (٧٦) .

لم تذكر المصادر مساحة الرصافة او تفاصيل الخطط والمحال والدروب التي فيها كما هو الحال في المعلومات التي اوردها عن المدينة المدورة في الجانب الغربي . غير ان النص الذي اورده اعلاه يبين ان الرصافة تتميز على المدينة المدورة من حيث ان فيها ميدانا وبستانا ونهرا يدخل فيها .

تنقل العمال والصناع والمصلين :

ويبدو ان المنصور لم يهدف من استيطان الجانب الشرقي ان ينشئ مدينة ثانية ، فان الطبري يذكر انه في سنة ١٥٩ « بني المهدي مسجد الرصافة وفيها بني حائطها وحفر خندقها » (٧٧) ويذكر الخطيب رواية عن يعقوب بن سفيان ان المهدي بني المسجد الذي بالرصافة سنة ١٥٩ (٧٨) ، وقد يكون هذا هو المقصود بقول يحيى بن الحسن ان بناء الرصافة استتم سنة ١٥٩ (٧٩) .

لقد كان البناء في الجانب الشرقي اقل منه في الجانب الغربي ، ومع هذا فقد استغرق حوالي تسع سنوات (١٥١ - ١٥٩) مما يدل على بطء العمل فيه ، وعلى انه كان يتم تدريجيا . ونظرا لصغر الجانب الشرقي وبطء العمل فيه ، فسان العمال والصناع الذين عملوا في بناء الجانب الشرقي عددهم اقل من عدد من بني الجانب الغربي . غير انه ينبغي الا نبالغ في قلة عددهم وبالنظر لاتصال البناء واستمراره ، فلا بد ان عددا من هؤلاء العمال والصناع كان يقيم دائما في الجانب الشرقي ، وانهم جلبوا معهم اسرهم وعوائلهم ، كما ان عددا لا يستهان به من غير العمال اخذ يستوطن هذا الجانب الذي صار يوفر مجال الرزق للكسبة .

غير ان عددا آخر ممن عمل في بناء الجانب

(٧٦) انظر مقالنا « منازل الخلفاء والمصورهم في العهود العباسية الاولى سومر ٢٢ سنة ١٩٧٦ .

(٧٧) الطبري ٢/٤٦٠ .

(٧٨) الخطيب ١/١٠٩ .

(٧٩) الخطيب ١/٨٢ .

الشرقي واعماره ، او وجد فيه الرزق ، ظلت اقامته الدائمة في الجانب الغربي ، فكان عليه ان يعبر النهر للوصول الى محل عمله .

ثم ان مستوطني الجانب الشرقي لم تنقطع صلنتهم كليا مع اهل الجانب الغربي ، فقد كان للكثير منهم اقارب ومعارف في الجانب الثاني ، فكان لابد من عبور النهر عند الاتصال بين اهل الجانبين .

ويبدو ان المنصور عندما بدأ في بناء الجانب الشرقي لم يكن يعتزم ان يجعل منه مدينة مستقلة قائمة بذاتها او مركزا خليفيا رسميا . فكانت الرصافة متصلة بما حولها ، ولم يفصلها شيء حتى بنى لها المهدي سورا وخذقا عندما ولي الخلافة كما انها ظلت خالية من مسجد جامع الى ان ولي المهدي الخلافة فبنى الجامع . وقد تطلب وجود جامع واحد في الجانب الغربي للجمعة ان يعبر الحريصون على صلاة الجمعة من اهل الجانب الشرقي الى الجانب الغربي كل جمعة على الاقل . كما ان تركيز الدواوين والمؤسسات الادارية استلزم مستخدميه ومراجعيه من اهل الجانب الشرقي ان يعبروا النهر للوصول اليها .

مراكز الادارة :

ان بناء المهدي على اثر توليه الخلافة ، جامع الرصافة وخذقها وسورها يعبر عن عزمه على جعل الجانب الشرقي مدينة مستقلة عن الجانب الغربي ، وقد ظل جامع الرصافة هو الوحيد في الجانب الشرقي ، وثاني اثنين في بغداد حتى عودة الخلفاء من سامراء في اواخر القرن الثالث الهجري . وقد احتفظ جامع الرصافة باهميته وظل بناؤه قائما عامرا حتى بعد ان اندثرت كافة الابنية حوله في اواخر القرن الرابع الهجري . وكان هذا الجامع من مراكز الحياة الفكرية ، فكان عدد غير قليل من العلماء البارزين يلتقون دروسهم فيه ، الامر الذي يحتمل من يريد الاستماع لهم او الاتصال بهم من اهل الجانب الغربي الى عبور النهر للوصول الى الجامع .

ان بناء القصر من داخل الرصافة ، واحاطتها بالسور والخذق جعلها مفصولة عن باقي اراضي الجانب الشرقي بحاجز مادي يحددها ويمنع توسعها ، ويؤثر في جعل الحياة فيها معزولة عن الحياة في اطرافها . وقد احتفظ قصر الرصافة بطابعه « الملكي » حتى بعد ان ترك الخلفاء الإقامة فيه ، او انه ظل مسكونا يقيم فيه عدد من كبار

افراد الاسرة العباسية ، وخاصة النساء . وبوجود القصر في وسط الرصافة واحاطتها بالسور والخذق ، أصبحت الرصافة قرية الشبه بمدينة المنصور المدورة في الجانب الغربي ، من حيث انها أصبحت مدينة مسورة في وسطها جامع يلصقه قصر خليفي وحولها ربض مكشوف .

غير ان المهدي لم يتم طويلا في الرصافة ، ففي سنة ١٦٣ انتقل الى قصر الطين ، وفي السنة التالية انتقل الى قصر السلامة في عيساباذ التي كان فيها مقامه ومقام ابنه موسى الذي تلاه في الخلافة . وفي خلافة الرشيد والأمين عاد الخلفاء الى الجانب الغربي ، غير ان المأمون لما عاد الى بغداد استقر في الجانب الشرقي واقام في قصر بناء على بعد من الرصافة ، ولما عادت الخلافة من سامراء استقرت في القصر الحسن في القريب من قصر المأمون ، وقد نما هذا المركز الجديد فاصبح دار الخلافة وظل كذلك حتى سقوط الخلافة العباسية .

يتبين من هذا ان الجانب الشرقي ظل مركز الخلافة منذ زمن المهدي ، الا في فترات محدودة غير ان مقام الخلفاء في الجانب الشرقي لم يكن مستقرا في العهود الاولى ، فقد تنقل من قصر الرصافة الى قصر الطين فميساباذ فقصر المأمون فالحسن وكان التنقل نحو الجنوب ، ولكنه عموما لم يبعد عن ضفاف النهر .

ان بناء الجانب الشرقي ونمو الاعمار فيه وتزايد سكانه تطلب قيام مؤسسات ادارية لمعالجة القضايا والمشاكل التي قد تظهر بين اهله ، وخاصة فيما يتعلق بالامن والقضايا والجباية ويبدو من الاشارات القليلة التي وردت في المصادر ان الادارة ببغداد كان لها مركز واحد في السنين الاولى ، ولم تظهر المؤسسات المزدوجة في كل جانب الا بعد امد غير قصير . وكان وجود مركز واحد للمؤسسات في بغداد يتطلب تنقل ذوي المصالح والموظفين وعبورهم الى الجانب الذي كانت فيه المؤسسات ان كانوا من اهل الجانب الثاني .

حاشية الخليفة وحرسه والدواوين :

غير ان التنقل بين الجانبين كان اشد تأثرا بتنقل مقام الخلفاء ومراكزهم . فالخليفة باعتباره رأس الدولة والمسؤول الاكبر عن ادارتها وعن ما يتصل بها من الدواوين المركزية ، كان يرتبط به شخصا عدد من الجند والحرس والحاشية والاتباع ، فضلا عن الدواوين المتصلة به ، وقد

ذكرت المصادر التنقلات التي حدثت في مقام الخلفاء الاولين لا بين الجانبين فحسب ، بل وفي عدة اماكن من الجانب الواحد ايضا ، وان هذا التنقل كان يصحبه انتقال المتصلين بالخليفة والمراجعين له تبعاً لتنقله . ومن البديهي ان الذين يعيشون في قصر الخليفة من افراد أسرته وخدمه وعبيده وجواربه ، كانوا يتبعون الخليفة وينتقلون بانتقاله ثم يستقرون في سكنائهم معه .

والمفروض ان الحرس الخاص للخليفة ينتقلون معه ويقيم في او قرب قصره . غير ان افراد الحرس ، وهم احرار وليسوا رقيقاً ، كانت لهم امر متصلة بهم ، والراجح ان أسر الحرس لم تكن تقيم في قصر الخليفة او قربه لان ذلك يعرض الخليفة الى كشف حياته الخاصة واثارة الحسد واحتمال التجسس على حياته الخاصة ، فضلاً عن اثره في تشويه الحياة والجمال حول القصر ، غير ان عدم سكن أسر الحرس في قصر الخليفة او حوله لا يعني انها جميعاً ظلت في اماكن سكنائها الاولى ، والراجح ان عدداً غير قليل منهم انتقلوا الى الجانب الذي كان يقيم فيه الخليفة ، وان عدداً آخر ظل مقيماً في اماكنه القديمة في الجانب الغربي . وفي كلتا الحالتين ينشط عبور النهر ، اما عند نقل أسر او اناث افراد الحرس ، او عند تنقل هؤلاء الافراد او أسرهم اذا كان مقام الاسر في غير الجانب الذي تقتضي واجبات الحرس اقامتهم فيه .

وينطبق على الجند المتصلين بالخليفة ما ذكرناه عن الحرس في تنقلهم واسرهم بين الجانبين .

وعندما بنى المنصور المدينة المدورة واعمر الجانب الغربي ، جعل الدواوين في داخل المدينة المدورة ، واقطع من كان عليها قطائع قريبة من دواوينهم خارجها ويبدو ان معظم الكتاب استوطنوا محلة الانباريين على الصراة قرب باب البصرة خارج المدينة المدورة . والراجح ان قرب الدواوين من مقام الخليفة وقرب سكن الكتاب من الدواوين ظل طيلة حياة المنصور ، اما الكتاب الرئيسيين الذين كانوا يقومون بعمل الوزارة ، فكانت لكل منهمم اقطاعات في الارباض التي حول المدينة وخاصة في شماليها ، فساكن هؤلاء « الوزراء » غير بعيدة من قصر الخليفة ولا يحتاج الاتصال بينهما الى عبور النهر .

غير ان المهدي اقام عندما ولي الخلافة ، في الجانب الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباذ فيما بعد . اي انه نقل مقام الخلافة الى الجانب

الشرقي الذي لم يستقر فيه في مكان واحد ، وكان لوزرائه والمقرين اليه اقطاعات في الجانب الشرقي ، الامر الذي يدل على سكنائهم في ذلك الجانب قريباً من الخليفة .

اما الدواوين فليست لدينا نصوص واضحة عن مواقعها في زمن المهدي ، والراجح انها انتقلت الى الجانب الشرقي الذي لم يكن يتم بدون عبور النهر . والواقع ان الدواوين اذا كانت قد بقيت في زمن المهدي والهادي في الجانب الغربي فان ذلك كان يتطلب عبور الوزراء والكتاب باستمرار للتوفيق بين الاتصال بالخليفة والاشراف على سير الدواوين اما اذا كانت الدواوين قد انتقلت الى الجانب الشرقي ، فان انتقالها يستلزم نقل الكتاب محل سكنائهم ليكونوا بقربها ، او تنقلهم باستمرار اليها اذا ظلوا يقيمون مع أسرهم في الجانب الغربي . ومن المعلوم انه كان يستخدم في الدواوين كتاب يختلف عددهم وتنظيمهم ومقدار رواتبهم باختلاف الدواوين ومراكزهم فيها ، وهم يتميزون بالبستهم وبالتقاليد التي يسبغون عليها في حياتهم وفي اساليب عملهم . وكان عملهم يومياً ومنظماً ويخضع الى اشراف دقيق ودخلهم محدود ، فكان راتب الرؤساء منهم ثلاثمائة درهم في الشهر ، وراتب الاعتياديين ثلاثين درهماً (٨٠) في الشهر وهو مبلغ لا يمكن من حياة مادية مترفة فضلاً عما يهددهم من اخطار العزل والبطالة ، وكان هذا يقضي عليهم الاقامة بقرب دواوينهم وان تيسر لهم وسائل الوصول الى دواوينهم .

يتبين من كل ما ذكرنا ان الحاجة الى عبور دجلة لتأمين الاتصال بين الجانبين قد بدأت منذ اوائل تأسيس بغداد في الجانب الغربي ، غير انها اتسعت بعد اعمار الجانب الشرقي ، وازدادت شدة على اثر نقل الخلفاء مراكز اقامتهم من جانب لآخر . وكانت هذه الحاجة شاملة ، ولكن بدرجات متفاوتة ، لانواع متعددة من المنتجات الغذائية والسلع التجارية ، وذلك لاصناف كثيرة من الناس ، وخاصة العمال والصناع واصحاب الاعمال والكتاب والموظفين والحرس والجند . ولا ريب في ان ازدياد عدد المتصلين بالحكومة ممن يتطلب عملهم التنقل بين جانبي بغداد القى على الحكومة مسؤولية تنظيم هذا الانتقال .

عندما اسس المنصور مدينة السلام في الجانب الغربي من بغداد ، لم يضع في تخطيطه الاول لها

أنشاء جسر على دجلة ، فلم تذكر المصادر انه جعل على هذا النهر موقعا تتفرع منه طرق ، أو انه شيد عليه ما يمهّد لبناء جسر . فقد جعل قصره والجامع في وسط المدينة المدورة التي كان يفصلها عن النهر شريط من الأرض أقطعه لبعض اولاده وكان يقابل النهر بمض سور المدينة ، ولم يجعل فيه بابا مواجهها لدجلة ، كما لم يسم اي باب باسم دجلة . وكان اثنان من ابواب المدينة الأربعة ، هما باب خراسان وباب الشام لا يقع اي منهما مواجهها للنهر ، بل كانا منحرفين عنه .

ودجلة في المنطقة التي بنيت فيها بغداد مجراه بطيء نسبيا ، وخاصة في مواسم انخفاض الماء التي لا تقل عن تسعة أشهر في السنة ، وشواطئه ترابية رخوة معظمها بطيئة الانحدار ولا تكون جسروفا عالية . ومجراد محصور مستقيم تقريبا ليس فيه التواءات حادة كثيرة ، بل توجد فيه تخنّئات تدريجية قليلة ، مما يجعل الأماكن الشديدة التيار فيه قليلة . وكانت فيه بعض الجزر أبرزها جزيرتان اولاهما قريبة من الضفة الغربية عند دار عبدالله ابن طاهر ، وكانت كبيرة ذكرت المصادر انه اجتمع فيها مرة عدد كبير من الناس (٨١) وعسكر فيها بعض الجيش .

والجزيرة الثانية قرب الشاطئ الشرقي عند بستان ام موسى في المخرم ، وقد ذكرها ابو يوسف في كتاب الخراج كمثل للجزر التي تظهر في الانهار ، ونصح بعدم السماح في البناء فيها ، لان ذلك يضر بالابنية التي على شاطئ النهر (٨٢) .

وتقع على شواطئ دجلة بعض القصور التي كان للكثير منها مسنّيات ، أي حيطان عمودية تقريبا على النهر لحماية القصر من مياه الفيضان . غير ان الناس عموما لم يفضلوا بناء بيوتهم على الشاطئ ، ولذلك فان معظم قصور وبيوت الكبار والاعنياء كانت بعيدة عن النهر وليست عليه ، ولعل من اهم اسباب ذلك الامن ، اذ ان الدور الشاطئية اذا كانت فيها فتحات وشبابيك فانها تتعرض للسرقة والفرق ، واذا لم يكن فيها ذلك فان فائدة النهر لها تنعدم . وكانت الجوامع الرئيسة والمساجد والدواوين لا تقع على الشاطئ ، الا القليل منها في العهد العباسية المتأخرة . وقد وزع ابو جعفر معظم الاراضي الواقعة على دجلة اقطاعات للعباسيين . وقد اجمل وصف ذلك ابن عرفة فيما نقله عنه الخطيب

بقوله « وأما شاطئ دجلة فمن قصر عيسى الى الدار التي ينزلها في هذا اليوم على قرن الصراة ابراهيم بن احمد فانما كانت اقطاعا لعيسى بن علي - يعني ابن عبدالله بن عباس - واليه ينسب نهر عيسى وقصر عيسى ، وعيسى بن جعفر وجعفر بن ابي جعفر ، واليه ينسب فرضة جعفر . . وأما شاطئ دجلة من قرن الصراة الى الجسر ، ومن حدا الدار التي كانت لنجاح بن سلمة ثم صارت لاحمد بن ابي اسرائيل ثم هي اليوم بيد خاقان المفلحي الى باب خراسان فذلك الخلد ، ثم ما بعده الى الجسر فهو القرار نزله المنصور في آخر ايامه ثم اوطنه الامين » (٨٣) . ويقول في مكان آخر « وأما شاطئ دجلة من الجانب الشرقي ، فاوله ببناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت ، ودار دينار ودار رجاء بن ابي الضحاك ، ثم منازل الهاشميين ، ثم قصر المعتصم وقصر المأمون ، ثم منازل آل وهب الى الجسر كانت اقطاعا لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء » (٨٤) .

يظهر مما سبق ان شواطئ دجلة نظرا لتدرج انحدارها وقلة جروفها ورخاوة تربتها تصلح لتكون فيها المزارع اي الأماكن التي ترسو فيها القوارب والزوارق التي تفضل المياه الهادئة والشواطئ القليلة الانحدار . ولا ريب في ان وجود القصور يعرقل انشاء المزارع ، لان لمعظم القصور مسنّيات ، ولان اصحاب القصور يفضلون ان تكون المزارع قريبة منهم وليست في دورهم ، ولعل هذا من الاسباب التي لم تسم - بسببه - اية مشرعة في بغداد باسم صاحب قصر او متنفذ ، اللهم الا فرضة جعفر . غير انه يجدر ان نلاحظ ان القصور لم تشغل كل شواطئ دجلة ، فكانت فيها أماكن تصلح للمزارع .

القناطر والجسور :

مهما كانت الخدمات التي تؤديها والاغراض التي تحقّقها الزوارق في النقل النهري بين جانبي بغداد فانها لا تكفي للتعويض عن اقامة معابر ثابتة ، حيث ان الكلفة العامة للنقل في هذه المعابر اخص وعدد الايدي العاملة فيها اقل ، ثم انها بتحديد موقعها وثباتها تكون قاعدة لتنظيم المواصلات وحياة الناس وتنقلاتهم .

والمعابر الثابتة التي يتردد ذكرها في المصادر

(٨٣) الخطيب ٩٢/١ .

(٨٤) الخطيب ٩٨/١ .

(٨١) الطبري ٢ .

(٨٢) الخراج لابن يوسف ٩٢ .

العربية هي اما قناطر او جسور ، فالقنطرة : « ازج يبنى بالاجر او بالحجارة على الماء يعبر عليه » (٨٥) اما الجسر فيبنى عادة من الخشب على قوارب ضخمة تثبت بسلاسل ويصف عليها الواح الخشب ليتيسر السير عليها وعبرها . وقد ورد في اخبار خطط بغداد ذكر عدد من القناطر على الترع والانهار الصغيرة ، بعضها مسماة باسم المحلة التي اقيمت فيها ، او النهر الذي نصبت عليه ، ولكن كثيرا منها سميت باسماء اشخاص لم تذكر الكتب التي اهتمت بذكر رجال السياسة والادارة والحرب ، او العلماء شيئا عنهم ، ولذلك لا نستطيع الجزم بسبب هذه التسميات ، وهل انه راجع الى ان الشخص الذي سميت به القنطرة هو رجل محلي مشهور في المنطقة ، ام انه باني القنطرة .

اما الجسور الكبيرة على دجلة فكلها مبنية انشاء الخلفاء او اصحاب السلطة في بغداد ، وتكون اقامتها وصيانتها والعناية بها من عمل الدولة نظرا لكلفتها ولتأديتها الخدمات العامة للناس وتحقيقها بعض اغراض الحكومة لنقل الجند ومستخدمي الحكومة . وكانت كلفتها في سنة ٢٠٦ هـ ، وهي الوحيدة التي وصلتنا في ذلك ثلاثمائة دينار في الشهر (٨٦) .

يجري دجلة في منطقة بغداد في ارض تربتها رسوبية رخوة خالية من الصخور والحصى ، ويسير مجراه في منخفض من الارض غير عميق ، وبعض مناطق مجراه عريضة واسعة ، وبعضها ضيقة نسبيا وذات جروف عالية خاصة في فصل الصيف الحار وبذلك تكون اشد ملائمة لنصب الجسور ، وهي مناطق غير قليلة فكانت تنشا عندها الجسور . ومثل هذه الطبيعة الجغرافية تجعل بالامكان عدم التقيد بنقطة واحدة في انشاء الجسر ، بل الاختيار بين اكثر من بقعة او انشاء اكثر من جسر واحد عبر دجلة ، وان يكون العامل الاساس في انشاء الجسور هو الاحوال الادارية ، او الاجتماعية والاقتصادية .

كان هدف ابي جعفر المنصور من انشاء بغداد واضحا محددا ، وهو ان يتخذ منها مقرا ثابتا لنفسه واهله وحاشيته وحرسه ودواوينه ومع انه ادرك القابلية الجغرافية لهذا الموقع ان يتوسع فيصبح مركزا حضريا كبيرا ذا نشاط اقتصادي واجتماعي واسع ، الا انه اهتم في البداية ان يجعله

مركزا اداريا محصنا مكتفيا بذاته ، وقد وضع بنفسه تخطيط المدينة الجديدة وجعله بالشكل الذي يحقق اغراضه .

وقد اختار المنصور انشاء مدينته في الجانب الغربي ، وكان اهم ما فيه هو المدينة المدورة التي احتوت قصره ودواوينه والمسجد الجامع ومقام شرطته وحرسه ، وهي محاطة بسور محكم له اربعة ابواب تحكمت فيها التخطيطات الداخلية للمدينة ، ولم يجعل فيها شارعا او بابا متعامدا على النهر ، بل كانت المنطقة المواجهة للنهر يمتد فيها سور بين باب البصرة وباب خراسان ، وكلاهما منحرف عن النهر ، ويحصر بين السور وشاطئ النهر شريط ضيق من الارض توزعت ارضه اقطاعات بنى على كل منها قصر لاحد اولاد المنصور ، فلم تنشا فيها محلة او يقام فيها سوق ، اي انها لم تكن مركزا لنشاط سكاني او اقتصادي قد يستلزم انشاء جسر فيها .

وكان اهتمام ابي جعفر عند انشاء بغداد منصبا على الجانب الغربي ، فعمل على ان يعتمد في معاشه على ما تنتجه المنطقة الواقعة حوله ، اي في الجانب الغربي ، وهي منطقة خصبة غنية بمنتوجاتها ومرتبطة بالاقاليم الشمالية والغربية والجنوبية ، ولم يراع في تخطيطه الاعتماد الكبير على الجانب الشرقي . والواقع ان اعمار الجانب الشرقي تأخر عن تاسيس المدينة المدورة ، فلم تكمل الرصافة وجامعها الا في سنة ١٥٦ هـ ، اي بعد ان مر على تحول المنصور الى المدينة الجديدة اربع عشرة سنة حدثت خلالها تطورات كبيرة ، حيث نمى اعمار في الجانب الغربي وازداد سكانه واتسع النشاط الاقتصادي فيه ، وتوسعت علاقاته بالجانب الشرقي ، وبذلك ظهرت الحاجة الى ربط الجانبين وانشاء الجسور بينهما .

الجسور الاولى :

ورد عن الجسور الاولى نص رواه كل من الخطيب ، وابن الجوزي وابن الفقيه الهمداني ، ولكن في رواياتهم بعض الاختلافات .

فاما الخطيب فانه يذكر بسنده عن محمد بن خلف « قال احمد بن الخليل ابن مالك عن ابيه قال :

كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور : احدهما للنساء ، ثم عقد لنفسه وحشمه

(٨٥) لسان العرب ٢١/٦ .

(٨٦) الصابي : الوزراء ٢٦ .

جسر بين باب البستان وكان بالزندورد جسران عقدهما محمد .

وكان الرشيد قد عقد عند باب الشمسية جسرين .

وكان لابي جعفر جسر عند سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور الى ان قتل محمد ، وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل واحد (٨٧)

وقد نقل ابن الجوزي هذا النص ، وأشار الى نقله اياه من الخطيب ولكنه ذكر ان جسر الزندورد عقدهما المهدي ، كما انه اكتفى من الجملة الاخيرة من النص بقوله : « فلما قتل المأمون عطلت » (٨٨)

اما ابن الفقيه فقد روى هذا النص كما يلي :

« قال الخليل بن مالك (٨٩) كان المنصور قد امر بعقد ثلاثة جسور ، جسر يعبر عليه ، وجسر يرجعون منه ، وجسر في الوسط للنساء . وعقد بعد ذلك بباب البستان جسرين ، جسر له ولولده ، وجسرا لخدمه وحشمه .

وعقد الرشيد بعد ذلك عند باب الشمسية جسرين .

وكان لام جعفر جسر عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب من سويقة قطوطا .

فلم تزل هذه الجسور قائمة الى ان قتل محمد بن زبيدة ، ثم عطلت الا الثلاثة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا هذا (٩٠) .

وعند مقارنة الروايات الثلاث يتبين :

١ - لم يذكر الهمداني جسر الزندورد ، ولعل ذلك سقط من النسخ . وذكر ابن الجوزي ان باني هذين الجسرين هو المهدي ، وبذلك ازال الالتباس في نص الخطيب عندما ذكر ان

(٨٧) الخطيب ١١٦/١ .

(٨٨) المنتظم ، مخطوطة ابا صوفيا حوادث سنة ١٤٥ (١٢٨) .

(٨٩) ذكر الخطيب « احمد بن الخليل بن مالك بن ميمون بن سعيد ، ابو العباس مولى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، بعاني الاصل ، ويعرف بجور ، حدث عن ابي بكر بن عياش وابي اسامة وعبدالمك بن اريب الاصمعي وزينب بنت بن سليمان بن علي بن

عبدالله بن عباس » (١٢١/٤) ولم يذكر سنة وفاته ، كما انه لم يترجم لابنه ، ومن الواضح ان جده سعيد هو مولى علي بن عبدالله ، ويبدو من شيوخته ان اياه كان معاصرا لهم ، وانه عاش في اوائل القرن الثالث . (٩٠) بغداد مدينة السلام ٥٥ .

بانيهما هو محمد ، الذي قد يكون المهدي ، او الامين .

٢ - ان كلا من الخطيب والهمداني ذكر ان المنصور بنى خمسة جسور ، اثنان منها في باب البستان ، ولكن نص الهمداني اوسع حيث بين خصائص واغراض كل جسر .

٣ - ذكر الخطيب ان الجسر الذي عند سويقة قطوطا عقده ابو جعفر . اما الهمداني فذكر ان الذي عقده هو ام جعفر ، ولا ريب في ان تنظيم سياق النص يرجح رواية الهمداني .

٤ - ان الخطيب يذكر انه بعد مقتل الامين بقيت ثلاثة جسور ، ثم عطل واحد ، اي انه بقي بعد المأمون جسران .

اما الهمداني فيذكر ان الجسور الثلاثة ظلت الى زمن الخليل بن مالك .

وعند تنسيق روايتي الخطيب وابن الفقيه الهمداني يمكن ان نصنف الجسور الاولى الى المجموعات التالية :

١ - المجموعة الاولى عقدها المنصور ، وتتكون من ثلاثة جسور احدها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث للنساء . ولم يذكر الخطيب موقع هذه الجسور ، غير انه ذكر انها بقيت بعد ان عطل منها واحد في زمن المأمون . اما ابن الفقيه فذكر ان هذه الجسور الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة ، فانها باقية الى وقتنا هذا .

٢ - المجموعة الثانية ، وهي الجسران اللذان عند باب البستان ، احدهما له ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه .

٣ - المجموعة الثالثة وهي الجسران اللذان بالزندورد ، وعقد عقدهما المهدي .

٤ - المجموعة الرابعة وهي جسر الرشيد عند باب الشمسية .

٥ - المجموعة الخامسة وهي جسر ام جعفر عند سويقة قطوطا .

وجسور كل من هذه المجموعات متقاربة وفي موقع واحد ، وبذلك يمكن اعتبار كل منها «جسرا واحدا» تيسيرا للبحث .

لم يحدد النص بدقة تاريخ انشاء هذه الجسور ، علما بان كلا من المنصور والرشيد ظل

في الخلافة زهاء عشرين عاما ، وان كلا من المهدي والامين ظل في الخلافة زهاء خمسة اعوام .

وبلاحظ ان المجموعة الاولى تتكون من ثلاثة جسور ، وان المجموعة الخامسة تتكون من جسر واحد ، اما المجموعات الثلاث الاخرى فيتكون كل منها من جسرين . وقد حدد النص اغراض كل من الجسور التي عقدها المنصور ، فاما المجموعة الاولى فاحد جسورها للذهاب ، والثاني للاياب ، والثالث وهو الوسط للنساء .

واما المجموعة الثانية فهي جسران احدهما لنفسه ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه . اما جسرا كل من المجموعتين الاخرين فلم يحدد النص الغرض من كل منهما . وصراحة النص تنفي اي زعم بان كل مجموعة كانت جسرا واحدا قسم الى ثلاثة اقسام لغرض تنظيم السير فيه .

غير ان حرفية النص تشير بعض التساؤلات ، ومنها :

١ - ما هي الاسباب التي دفعت الى انشاء جسرين ، او ثلاثة ، في مكان واحد بدلا من انشاء جسر واحد ؟ هل ان ذلك راجع الى قصور في فن بناء الجسور ، كعدم اتقان انشاء قوارب ضخمة تكفي للجسر الكبير ؟ ام انه لاغراض امنية وتنظيمية ، وان ما ذكر عن المجموعة الاولى التي احدها جسورها للذهاب والاخر للاياب ينطبق على جسور المجموعات الاخرى ؟

٢ - ان ادعاء النص ان جسري المجموعة الثانية كان احدهما للخليفة ولولده ، والثاني لخدمه وحشمه ، يعني انها كانت جسورا خاصة للخليفة وتوابعه وليس للعامة ، وهذا لا يتسجم مع الاتجاهات السياسية العامة للخليفة المنصور ، فهل ان النص دقيق ومنطبق على الواقع ؟ وهل ان جسري المجموعتين الثالثة والرابعة كانت لنفس الاغراض ؟ علما بان المجموعة الاولى التي عند درب سليمان لم تذكر المصادر التالية انها كانت ثلاثة جسور ، بل تردد انها جسر واحد . فهل ان هذا يعني ان النص غير دقيق ، ام ان جسور المجموعة الاولى ، على الاقل ، ادخلت عليها تغييرات فيما بعد فصارت جسرا واحدا .

لقد بينا ان نص الخطيب لم يذكر موقع

جسور المجموعة الاولى كما لم يصرح بالمجموعة التي بقيت جسورها بعد المأمون ، اما ابن الفقيه فقد نص ان الجسور عطلت « الا الثلاثة المنصوبة القديمة التي عند مجلس الشرطة فانها باقية الى وقتنا » . ومعنى هذا ان هذه الجسور عند درب سليمان ، وستحدث عنها فيما بعد بتفصيل اوفى .

اما المجموعة الثانية فقد اتفق الخطيب وابن الفقيه على انها كانت في باب البستان ، ويظهر سياق النص ان هذا الموقع كان ثابتا مشهورا في تاريخ كتابة النص ، غير ان النص لم يذكر في اي من جانبي بغداد يقع باب البستان ، ولا اسم المكان الذي امتد اليه الجسر في الجانب المقابل ، ولما كانت المصادر لم تذكر بستانا مشهورا ، او باب بستان في الجانب الغربي (٩١) ، فلا بد ان يكون باب البستان هذا يقع في الجانب الشرقي من بغداد .

اما في الجانب الشرقي فان الخطيب ذكر باب البستان فيه في عدة مواضع من كتابه (٩٢) . غير انه لم يذكر اسم البستان الذي نسب اليه هذا الباب ، كما انه لم يشر الى موقعه بدقة .

وذكرت بعض كتب التاريخ باب البستان وما فيه من معالم . فقد ذكر الصابي ان فيه دار علي ابن عيسى (٩٣) ، وذكر مسكويه ان فيه دارا لابن مقلة (٩٤) . وذكر الصابي في موضع من كتابه ان دار علي بن عيسى تقع في بستان الزاهر (٩٥) ، كما ذكر ابن الجوزي ان دار ابن مقلة في ذلك البستان ايضا (٩٦) ، وهذا يقطع بان البستان الذي نصب الجسر ببابه هو بستان الزاهر . وذكر سهراب موقع بستان الزاهر حيث ذكر ان نهر موسى يمر « ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم » ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ، ثم يدخل بستان الزاهر فيقبعه ، ثم يصب في الدجلة

(٩١) ورد ذكر بستان ام القاسم ابنة المنصور بباب الشام (طبري ٢/٤٤٥) وبستان مؤنس الذي اتخذها طاهر بن الحسين مقرا عند حصاره بغداد ، وهو بباب الانبار (طبري ٢/٩١٧ ، ٩٢٤ وانظر ايضا ٨٦٧ ، ٩٢٤) غير ان كلا من الموقعين بعيد عن نهر دجلة .

(٩٢) انظر الخطيب ٥/١٢٢ ، ١٤٨ ، ٦٨/٩ ، ٥٦/١١ ولقد ذكر في التكنين الاخيرين المقبرة التي كانت في باب البستان .

(٩٣) الوزراء ٢١١ ، ٢٣٦ كلمة الطبري ٥ .

(٩٤) مسكويه ١/٢٦٥ كلمة الطبري ٧٨ .

(٩٥) الولداء ٢٩١ .

(٩٦) المنتظم ٦/٢١٠ .

التي تنحدر تحتها الدبالج (٢/٢٥٥) وكل هذه الابواب من دار الخلافة وهي بعيدة عن النهر .

اسفل البستان بشيء يسير» (٩٧) . ويتبين من وصف سهراب لانهار الجانب الشرقي ان بستان الزاهر يقع اسفل المخرم ، ولما كان موقع المخرم عند الميواضية الحالية ، فيكون البستان الزاهر عند موقع مدينة الطلب او وزارة الدفاع ويكون موقع المجموعة الثانية من الجسور ، عند جسر باب المعظم الحالي .

ذكر يعقوب بن سفيان الفسوي انه في « سنة ١٥٧ ابنتى ابو جعفر قصره الذي يعرف بالخلد ، وفيها عقد الجسر عند باب الشعر » (٩٨) .

ومن المعلوم ان باب الشعر تقع في الجانب الغربي ، وهي تقابل بستان الزاهر ، كما حددنا موقعه اعلاه ، لذلك يمكن القول ان هذا الجسر هو نفس جسور المجموعة الثانية التي ذكرها الخليل ابن مالك وبين مواقعها بالنسبة للجانب الشرقي . وبالنظر لاهمية هذا الجسر الموازية لاهمية سابقه ، فاننا نرجي الكلام عنه الى ما بعد استكمالنا الحديث عن جسور المجموعات الثلاث التي ذكرها الخليل ابن مالك .

لقد ذكرنا ان الخليل بن مالك ، فيما نقله عنه الخطيب وابن الجوزي ذكر ان الخليفة محمد المهدي كان له جسران بالزندورد ، وانهما مما تعطل على اثر مقتل الامين ، ولم يرد ذكر هذا الجسر في النص الذي رواه ابن الفقيه الهمداني الذي اشار الى زوال كافة الجسور ما عدا التي عقدها المنصور .

فاما الزندورد التي كان الجسران فيها ، فقد ورد ذكرها في نصين ، احدهما للخطيب حيث قال « ان المعتمد والمتضد والمكتفي ماتوا بالقصور من الزندورد » (٩٩) فمن المعلوم ان هؤلاء الخلفاء واقامهم اجلهم في القصر الحسني الذي كانوا يقيمون فيه (١٠٠) ، وهذا يظهر ان الزندورد هي المنطقة التي كان فيها القصر الحسني ودار الخلافة التي موقعها عند شارع البنوك حاليا . اما النص الثاني فهو الذي رواه باقوت عن الشابشتي حيث قال « الزندورد في الجانب الشرقي من بغداد ، وحدها

(٩٧) سهراب ١٢٠ ، الخطيب ١١٥/١ .

(٩٨) المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ ، الخطيب ١١٦/١ . وقد ذكر الطبري هذا النص (٢٨٠/٢) دون سند ولكنه اضاف في كلامه من الجسر « وجري ذلك على يد حميد القاسم الصيرفي بامر الربيع الحاجب » ولم يذكر مصدره . وقد اشار الخطيب في موضع آخر (٧٥/١) الى مقد هذا الجسر .

(٩٩) الخطيب ٦٩/١ .

(١٠٠) انظر ٢١٢٢/٣ و ٢٢٠٦/٣ ، وعن وفاة هؤلاء الخلفاء .

من باب الازج الى الشفيهي ، وارضها كلها فواكه واترج واعناب ، وهي من اجود الاعناب التي تعصر ببغداد » (١٠١) .

ومن المعلوم ان باب الازج يقع عند مرقد الشيخ عبدالقادر ، وذلك يقتضي ان يكون موقع هذا الجسر من الجانب الغربي بين موقع الشواكة والصالحية ، اي انه جهة جسر الاحرار او جسر الجمهورية .

يذكر النص ان المهدي انشا هذا الجسر لنفسه ، اي لخدمه اغراض محدودة بالخليفة وليس للاغراض العامة ، خاصة وان اعمار الجانب الغربي لم يتجاوز في العصور العباسية نهر عيسى الذي كان يصب قرب جسر الشهداء الحالي ، جعل فوائده العامة محدودة ، ولعل هذا من اسباب تعطله بعد فترة وجيزة من عقده ، وانه لم يعقد مكانه بعد ذلك اي جسر .

اما المجموعة الرابعة فهي جسرا باب الشماسية اللذان عقدهما الرشيد ، وموقعها يقتضي ان تكون نهايتها الغربية عند قطعة ام جعفر اي قرب المحيط في الكاظمية . ولا ريب في ان هذه المجموعة يمكن ان تخدم اغراضا عامة لانها تصل بين منطقتين كانتا مزدهرتين ، وهما الشماسية وقطعة ام جعفر ، كما انها تيسر اتصال الجانب الغربي بطريق خراسان وطريق سامراء اللذين كانا يمران بجهة الشماسية .

اما المجموعة الخامسة فهي الجسر الذي عقده ام جعفر « عند سويقة قطوطا » في نص الخطيب ، او « عند مشرعة فرج الرخجي بالقرب من سويقة قطوطا » في قول ابن الفقيه الهمداني .

فاما سويقة قطوطا فقد ذكر الطبري ما يحدد موقعها حيث قال في كلامه عن الاضطراب ببغداد سنة ٢٥٥ « ومضى ابن اوس من وجهه الى منزله . وكان ينزل في دار لآل احمد بن صالح بن شيرزاد بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى ابن برمك ، وجد اهل بغداد في آثارهم والقواد معهم حتى تلقوهم ، فكانت بينهم وقعة بالدور . . واعان ابن اوس جيرانه من اهل سويقة قطوطا واصحاب الزواريق من ملاحي الدور » (١٠٢) . وواضح من هذا النص ان سويقة قطوطا تقع قرب الدور التي فيها دار آل شيرزاد وقصر جعفر البرمكي .

(١٠١) ياقوت ٦٦٥/٢ وهذا النص مفلود من مخطوطة الديارات التي نشرها الاستاذ كوركيس حواد .

(١٠٢) الطبري ١٧٢٠/٣ .

أما مشرعة فرج الرخجي فلم تذكرها المصادر، والراجع أنها كانت قرب دار فرج الرخجي الذي تردد ذكره في المصادر، فقد ذكر ابن الفقيس الهمداني أنها « فوق سوق يحيى .. وداره اقطاع من الرشيد، ولم يكن على شاطئ دجلة بناء احكم من بنائها، ثم هدمت فيما هدم من منازل عمر بن فرج لما قبضت » (١٠٢) وفي قصر فرج التي على دجلة كانت دار طازاد التي نزلها البريدي عندما جاء بغداد سنة ٢٢٣ (١٠٤) .

وعند قصر فرج كانت بستان الحميري التي بنى معز الدولة سنة ٢٥٠ هـ داره فيها « وهدم ما جاورها من المقارات » (١٠٥) و « قلع الابواب الحديد التي على مدينة المنصور والتي بالرصافة، ونقلها اليها، ونقض قصور الخلافة بسر من رأى، ونزل في المسناة سنة وثلاثين ذراعا، ولزمه على بنائها ثلاثة عشر الف الف درهم » (١٠٦) .

ويتبين مما ذكرناه ان جسر ام جعفر كان باقصر على الجانب الشرقي، اي فوق باب الشماسية، قرب الدور، فهو اذا فوق المجموعة الرابعة التي شيدها الرشيد، ولم تذكر المصادر المعالم الخططية التي كانت في طرف الجانب الغربي من الجسر .

يذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عند حصار بغداد « أمر بمقد جسر على دجلة فوق الشماسية » (١٠٧) . ومن الواضح ان الغرض من عقد هذا الجسر هو تيسير نقل الجند بين جانبي بغداد، اي لاغراض عسكرية وان عقده يدل على ان جسر الرشيد وام جعفر كانا مخربين، والا لم تكن هناك حاجة الى عقده .

يتبين من العرض الذي قدمناه ان المجموعتين الاوليتين من الجسور وهي التي عقدها ابو جعفر المنصور، هي الجسور الاساسية التي ظلت مستعملة حقبة طويلة من الزمن، ولا بد ان هذا يرجع الى ان الجسور الاولى ظلت تؤدي خدمات اساسية للحكومة والناس مما اقتضى العناية بها وصيانتها لضمان بقائها، اما الجسور الاخرى فلم تكن تؤدي مثل هذه الاغراض، ولم تعقد في اماكن مهمة ولذلك تعطلت منذ ايام المأمون، اي بعد فترة

قصيرة من تشييدها ولم تجر محاولة لاعادة بنائها. وقد ذكرت المصادر تاريخ عقد الجسر الثاني، وهو سنة ١٥٧ اي في السنة الاخيرة من خلافة المنصور، ولم تذكر هذه المصادر تاريخ عقد الجسر الاول، وهو الشمالي، الامر الذي يجعلنا نرجح انه عقد قبل الجسر الثاني، ومع ان المصادر لم تذكر ما يساعد على تحديد زمن عقده، الا اننا نرجح انه تم حوالي سنة ١٥٠ هـ حين عاد المهدي بجيشه من الري وبدى ببناء الرصافة في الجانب الشرقي .

لقد انشا المنصور الجسور بعد عدة سنوات من اكمال بناء بغداد وانتقاله اليها، لذلك يمكن القول انها لم تكن ضمن الخطة الاساسية الواسعة الاولى للمدينة، وان تاسيسها المتأخر نسبيا يرجع الى ما بعد تاسيس المدينة من حاجات مستجدة كان لا بد من العمل على تحقيقها على ان لا يؤثر ذلك في الاسس التي حرص المنصور على السهر عليها في تاسيس مدينته، ولعل من أبرز هذه الاسس هي ان تبقى المدينة المدورة منطقة دفاعية محصنة يقيم فيها مع دواوينه وحرصه، ولذلك لم يكن في خطته انشاء جسر لربط المدينة المدورة باجزاء اخرى، فلم يجعل لهذه المدينة شوارع متعامدة على النهر أو متصلة بالغرض لتكون منافذ تتصل بالجسور . ويبدو انه عندما اسس مدينته في الجانب الغربي، وكانت صغيرة نسبيا، راعى فيها الاعتماد على المناطق والاقاليم الواقعة في غربي دجلة، فلم يمن بربطها بالجانب الشرقي، غير انه سرعان ما بدأت تظهر وتزايد اهمية الجانب الشرقي لدرجة انه قرر الاهتمام باعمارها وتوطين الناس فيه، هذا فضلا عن ظهور اهمية الصلة بالاقاليم الشرقية الواسعة والغنية .

اختار المنصور للجسر في الجانب الغربي رقعة غير بعيدة عن باب خراسان، اي في الجهة الشمالية الشرقية من المدينة المدورة، فهي متصلة بمنطقة باب التبن والحربية والجهات الشمالية التي كانت فيها اقطاعات ومساكن لعدد كبير من الناس اي لمعظم جيشه . حيث ان الجهة الجنوبية كانت في البداية ضيقة الرقعة سكنها العرب والصحابة وكتاب الدواوين، او ما يمكن اعتبارهم « عليّة القوم » ولم تتفرع عند رأس الجسر شوارع كثيرة، ولكنه ادى بالتدرج الى نمو شارع كبير هو الوحيد الرئيس الذي يتصل بالجسر . وكانت المنطقة التي قرب بدايته القريبة فيها اقطاعات وقصور اولاده، ثم انشا له قصر الخلد، كما كان فيها بعض المؤسسات العامة كالسجن والشرط . ويلاحظ انه

(١٠٢) بغداد مدينة السلام ٥٦، وانظر ياقوت ٢٢٢/٢ .

(١٠٤) مسكويه ٧٨/٢، تكملة الطبري ١٢٢ .

(١٠٥) مسكويه ١٨٢/٢ .

(١٠٦) تكملة الطبري ١٧٩ .

(١٠٧) الطبري ٨٩٧/٣ .

لم ينشأ عند هذا الجسر سوق كبير مما يدل على ان الفرض الاول من انشائه هو غرض عسكري ، اي لتيسير نقل الجند بين الجانبين .

اما نهاية الجسر من الجانب الشرقي فقد جعلت على بعد من الرصافة التي استهدف من انشائها ان تكون مقرا محصنا لابنه ، فاحاطها بسور وخندق كالذي في المدينة الغربية . ويبدو ان سعة الفسحة امام النهاية الشرقية ، وقلعة الاقطاعات فيها ادى الى إقامة عدة شوارع واسعة صار كل منها سوقا كبيرة فيذكر البعقوبي عن الجانب الشرقي « وسوق هذا الجانب العظيم التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر ، مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات » ثم ذكر ان طرق الجانب الشرقي خمسة .

١ - طريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه نصر المهدي والمسجد الجامع .

٢ - طريق من السوق الذي يقال له سوق خضير وهو معدن طرائف الصين ويخرج منه الى الميدان ودار الفضل بن الربيع .

٣ - طريق ذات اليسار الى باب البردان وهناك منازل خالد بن برمك وولده .

٤ - طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد وإلى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الى سر من راي .

٥ - وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي يأخذ على دجلة الى باب المقير والمخرم وما اتصل بذلك (١٠٨) .

ولا ريب في ان هذه الاسواق ازدهرت بعد عقد الجسر ، وان قيام الجسر كان عاملا فعلا في ازدهارها ، وقد يكون لمرور طريق الى سر من راي وإلى خراسان من هذا الجسر اثر في ازدياد اهميته وفي سرعة نمو هذا السوق ، وعلى اي حال فان الاسواق المعمرة في الجانب الشرقي كانت في الشمال ، بعكس الجانب الغربي ، وان كلا من الرصافة والمدينة المدورة ظلت مدينة جامدة تفتقد الحيوية والنشاط .

(١٠٨) البلدان ٢٥٢ - ٢ .

اما الجسر الثاني ، وهو الواقع جنوب المدينة المدورة ، فقد عقده المنصور في السنة الاخيرة من خلافته ، اي بعد ان نقل التجار واصحاب الحرف من المدينة المدورة الى الكرخ التي بدأت تزدهر كمركز للحياة التجارية والاقتصادية ، وقد انشئ هذا الجسر في نفس السنة التي بنى المنصور فيها قصر الخلد واتخذ مكنيا له ، ولا بد انه قصد من عقد الجسر الجنوبي ان ييسر للناس الانتقال بين الجانبين ، مع تحاشي المرور من المدينة المدورة او قريبا او المناطق الجنوبية من الجسر الشمالي ، اذ ان هذه الاماكن كانت فيها قصوره وقصور اولاده .

لم يكن هذا الجسر يربط بين المدينة المدورة والرصافة ، بل كان يربط الكرخ بالمنطقة المقابلة لها من الجانب الشرقي ، اي انه يربط بين منطقتين كل منهما جنوب المدينة « الرسمية » وخارجة عنها ، فغرضه تجاري صرف ولخدمة الناس ، وخاصة من التجار والصناع واصحاب الحرف . ويقع طرفه الغربي في باب الشمير وهي محلة كانت قد نمت فيها الحياة التجارية ، ولذلك فان عقده يخدم بالدرجة الاولى المناطق الجنوبية من الجانب الغربي ، اي الكرخ الذي يعتبر باب الشمير احد محاله . ويلاحظ ان هذا الجسر انشئ في الوقت الذي كان الجانب الغربي هو مركز الخليفة والدواوين .

والمنطقة التي ينتهي عندها الجسر في الجانب الشرقي لم تكن مزدهرة آنذاك ، اذ كانت فيها قصور متفرقة لعدد من افراد الاسرة العباسية الذين كانوا حريصين على الانتقال الى الاجزاء الجنوبية من الجانب الغربي ومما يدل على ضعف اعمارها آنذاك قلة الانهار فيها ، حيث ان الانهار فيها مسماة باشخاص ظهر دورهم بعد زمن المنصور ، كما ان سوق الثلاثاء الذي كان يمتد قربه ، لم يرد له ذكر في المصادر الاولى التي دونت المعلومات في اول القرن الرابع او قبله . لذلك يمكن القول بان الجسر انشئ لتيسير اعمال اهل الجانب الغربي ، وانه ادى الى نحو المنطقة التي ينتهي عندها من الجانب الشرقي .

في ثنايا اخبار القرنين اللذين تلبا تأسيس بغداد اشارات غير قليلة تتعلق بجسور بغداد ، وقد وردت في هذه الاشارات تعابير متنوعة ، منها الجسر ، والجسر الشرقي ، والجسرين ، والجسر الاعلى ، و « رجة الجسر » و « ناحية الجسر » و « راس الجسر » و « مجلس الجسر » .

فاما تعبير « الجسر » ، فقد ورد في بعض النصوص دون تخصيص او دلالة على موقعه :

فيذكر الطبري ان طاهر بن الحسين عندما كان يحاصر الامين « امر هرثمة ليقطع الجسور » وانه « وثب خزيمه بن خازم ومحمد بن علي بن عيسى بن ماهان على جسر دجلة فقطعاه » (١٠٩) .

ويذكر الطبري ايضا انه عند مقتل ايتاخ « شحن ابراهيم (والي بغداد) الجسر بالجند والساكبة » (١١٠) .

وفي سنة ٢٥٢ هـ حدثت فتنة بين جند بغداد واصحاب محمد بن عبدالله ابن طاهر ، فسار الثوار « ثم مضوا يريدون الجسر في شوارع الحدادين ... ودفعوهم عن الجسر حتى صبروهم الى باب عمرو بن مسعدة » (١١١) كما يذكر « الشارع النافذ الى الجسر » (١١٢) .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٢٩٨ هـ « غرقت فاطمة القهرمانة في طيارها تحت الجسر » (١١٣) .

وبتردد ذكر الجسر عند الصولي ، فهو يقول : « دفن هارون في داره بقرب الجسر » (١١٤) و « نهبت دار علي بن خلف بن طياب في الجانب الغربي بقرب الجسر » (١١٥) وان المتقي وابن رائق « .. سار من داره الى الجسر وركب الماء ، وفي الوقت الذي ركب الخليفة الماء من الجسر رجع الى قصره انتطح الجسر وانخلع الكرسي وهو ملوئ بالنضارة ففرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان » (١١٦) وانه « سعد ناصر الدولة وقطع الجسر وسار من الجانب الغربي » (١١٧) وان تودون « رحل الى بغداد .. فمضى في شارع المخرم الى الجسر » (١١٨) .

وذكرت المصادر عددا من الولاة « للجسر » .

فيذكر مسكويه ان عبدالله بن طاهر ولى

(١٠٩) طبري ٩٠٤/٢ ويلاحظ ان الطبري يقول « فقال حسين الطليح لي قطع الجسر » ثم يروي له قصيدة يشير في اولها الى جسر بغداد :

- (١١٠) الطبري ١٢٨٥/٢
- (١١١) الطبري ١٦٦٥/٢
- (١١٢) الطبري ١٦٦٥/٢
- (١١٣) مسكويه ٢٠/١
- (١١٤) اخبار الراعي والمتقي ٧٥
- (١١٥) كذلك ١٢٩
- (١١٦) كذلك ٢٢٢
- (١١٧) كذلك ٢٤١
- (١١٨) كذلك ٢٦٧

« اسحق بن ابراهيم امر الجسر وجعله خليفته » (١١٧) ويذكر الطبري انه في سنة ٢٣٥ هـ كانت وفاة اسحق ابن ابراهيم صاحب الجسر « (١٢٠) وانه كان « محمد ابن عبدالله بن طاهر على الجسر » (١٢١) .

وذكرت المصادر « باب الجسر » اطلاقا دون ان تحدد ، وان كانت تذكر احيانا معالم خطية قد تساعد في تحديده .

فمما ذكره الطبري ان صالح صاحب المصلى تولى القطار في الجانب الشرقي فله بباب الجسر وسوق يحيى .. مواضع بناء (١٢٢) .

وفي حصار طاهر بن الحسين بغداد « قصد طاهر الى مدينة ابي جعفر فاحاط بها وبقصر زبيدة وقصر الخلد من لدن باب الجسر الى باب خراسان » (١٢٣) .

وفي سنة ٢٤٩ هـ اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء ففتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر » (١٢٤) .

وفي سنة ٢٥٢ هـ حصلت فتنة وكان محمد بن عبدالله واليا على بغداد « فامر الحوانيت التي على باب الجسر والتي تتصل بدرب سليمان ان تحرق بمئة وسره » (١٢٥) .

كما انه يذكر ان العباس بن عبدالله خرج فأتى حسين بن علي « ثم وقف عند باب الجسر » (١٢٦) وانه في سنة ٢٥٠ هـ قتل يحيى بن عمرو واخذ رأسه « الى بغداد لينصب بها بباب الجسر » (١٢٧) ، وفي سنة ٢٥١ هـ « صلب الموكل على السور فلم يزل مصلوبا على باب الجسر الى ان انزل مع ما انزل من الرؤوس » (١٢٨) .

وذكر طيفور خبر رجلين تنازعا بباب الجسر (١٢٩) .

- (١١٩) مسكويه ٤٥٢ (طبة كابتاني) .
- (١٢٠) الطبري ١٤٠٢/٢
- (١٢١) الطبري ٢٠٢٧/٢
- (١٢٢) الطبري ٣٦٧/٢
- (١٢٣) كذلك ٩٠٦/٢
- (١٢٤) كذلك ١٥١٠/٢
- (١٢٥) كذلك ١٦٦٥/٢
- (١٢٦) كذلك ٩٥٥/٢
- (١٢٧) كذلك ١٥٢٢/٢
- (١٢٨) كذلك ١٥٧٩/٢
- (١٢٩) طيفور ٤٢

سياقها على ان المقصود هو الجسر الذي يربط منطقة باب خراسان بباب الطاق .

فقد ذكر « والرابع من باب الشام الى ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى دجلة .. ومن باب خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماذا في الشارع على دجلة الى البقيين » (١٢٩) .

وذكر ايضا « ومن باب الشام في الشارع الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ربض يعرف بدار الرقيق » (١٤٠) .

ثم يذكر « والرابع من باب خراسان الى الجسر على دجلة ، وما بعد ذلك بازائها الخلد ، وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض ، وقصر يشرع على دجلة .. فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر ، فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطعة سليمان بن ابي جعفر » (١٤١) .

ووصف اليعقوبي بعض اماكن الجانب الشرقي من الجسر فقال « طريق الجسر من دار خزيمة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد (برمك) والى الموضع المعروف بالدور من باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد من سر من راي » (١٤٢) .

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه « قصر خزيمة الذي على رأس الجسر » (١٤٣) ، ويلاحظ ان بعض المصادر ذكرت « درب سليمان بقرب الجسر » (١٤٤) او « طرف الجسر » (١٤٥) .

وفي المصادر ذكر لمجلس الجسر ، ومجلس الجسر الشرقي ، ومجلس الشرطة بالجسر . فيذكر الطبري انه في فتنة المستنمين انتهب مجلس الجسر (١٤٦) . ويذكر ايضا انه لما ولي يعقوب بن الليث الصفار الشرط في بغداد ، كان للشرط « اعلام ومطارد وترسه في مجلس الجسر » (١٤٧) .

واذا كانت المعالم الخططية التي ذكرت في النصوص الاربعة الاولى قد تدل على ان الجسر المقصود هو الذي بين درب سليمان وباب الطاق ، فان الثلاثة الاخيرة ليس فيها دليل قاطع على ذلك .

وذكرت ايضا رحبة الجسر التي اخرج اليها الحلاج عندما قتل ثم « نصبت رأسه يومين على الجسر » (١٤٠) .

وذكر ايضا رأس الجسر اذ كانت « دار عبدالله ابن عبدالله (ابن طاهر) عند رأس الجسر » (١٤١) .

وقد ورد تعبير رأس الجسر في الكلام عن دار خزيمة بن خازم ودار علي بن الجهشيار .

فيذكر اليعقوبي ان خزيمة بن خازم « اقطاعه على رأس الجسر » (١٤٢) ويذكر الخطيب ان « دار خزيمة هي التي صارت لعلي بن الجهشيار » (١٤٣) ويذكر الهمداني في كلامه عن طاق اسماء « وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهشيار - بمشرفة الصخر ، اقطعته اباها الموفق ، ثم اقطعها ازكوتكين بن ساتكين » (١٤٤) .

ويذكر الطبري ان « دار علي بن الجهشيار وكانت في الخراب على باب الجسر الشرقي » (١٤٥) ويذكر عريب ان « اللصوص كبسوا دار صاحب الشرطة محمد بن عبدالصمد ، وكان ينزل الجانب الشرقي في الدار المعروفة لعلي بن الجهشيار » (١٤٦) ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٣٠٩ « هدم دار علي ابن الجهشيار » (١٤٧) ويذكر الطبري « دار ابن ابي ليلى ابن عبدالعزيز ابي دلف وهي دار علي بن الجهشيار على رأس الجسر » (١٤٨) .

ومن المعلوم ان طاق اسماء ، ودار علي بن الجهشيار تقع على رأس الجسر الذي بدايته من الجانب الغربي عند درب سليمان فيكون هو المقصود بهذه النصوص .

وذكر اليعقوبي « الجسر » في نصوص يدل

(١٢٠) الخطيب ١٢٦/٨ تكملة الطبري ٢٥ .

(١٢١) الطبري ٢١٥٩/٣ .

(١٢٢) البلدان ٢٥١ .

(١٢٣) الخطيب ٩٣/١ .

(١٢٤) بغداد مدينة السلام ٥٥ وانظر ياقوت ٢/٨٩ .

(١٢٥) الطبري ١٦٣٢/٣ .

(١٢٦) عريب ٥٦ .

(١٢٧) المنتظم ١٥٩/٦ .

(١٢٨) الطبري ٢١٢٢/٣ .

(١٢٩) البلدان ٢٤٢ .

(١٣٠) البلدان ٢٤٨ .

(١٣١) البلدان ٢٤٩ .

(١٣٢) البلدان ٢٥٣ .

(١٣٣) التاريخ ٢/٢١٠ .

(١٣٤) اخبار الراعي والتقي ٢٠٩ .

(١٣٥) الخطيب ٥٨/١١ .

(١٣٦) الطبري ٢١٢١/٣ .

(١٣٧) الطبري ٢١١٢/٣ .

ويذكر الجهشيارى ان الرشيد « جلس في مجلس الجسر الشرقي وأحرق جثة جعفر بن يحيى البرمكي » (١٤٨) .

ويذكر الطبري ان العامة في فتنة المستعين « هاجموا ابا مالك الموكل بالجسر الشرقي ، فدخل داره وخلاهم فانتهبوا ما في مجلسه » (١٤٩) .

غير انه يذكر ان الوفاق امر ان تقطع يد الدويني ورجله من خلاف « فقطع في مجلس الجسر بالجانب الغربي » (١٥٠) .

فاما مجلس الشرطة بالجسر فقد اوردنا من قبل النص الذي جاء في اليعقوبي عند وصفه المعالم الخططية في الجانب الغربي حيث قال : « فاذا جاوز موضع الجسر ، فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة الجسر » (١٥١) .

وذكر طيفور : « وكان صاحب الجسر اذا انصرف عياش من مجلسه جلس في المسجد الذي في ظهر مجلس الشرطة ، وكان الاخر اذا انصرف السندي صار الى مسجد حسنه ام ولد المهدي ، وهو المسجد الذي بباب الطاق في الحدادين ، وهناك دار حسنه » (١٥٢) .

وذكر الصولي انه « وصل ابو بكر بن مقاتل الى مجلس الشرطة من الجانب الغربي فرأى الجسر مقطوعا » (١٥٣) .

وذكر الطبري انه « سار جماعة من الفوغاء والعامة الى المجلس الذي يعرف بمجلس الشرطة في الجسر من الجانب الشرقي .. وتهدم حيطان مجلس الشرطة » (١٥٤) .

ويبدو من سياق الحوادث ، ومن المعالم الخططية المذكورة في هذه النصوص ان « الجسر » المذكور فيها هو الجسر الذي يمتد بين باب خراسان وباب الطاق ، وان تردد ذكره يرجع الى اهمية موقعه في القرن الثالث الهجري ، حيث كان يربط الارياض الشمالية للمدينة المدورة مع المناطق الشمالية للرصافة ، ويمر به طريق خراسان

(١٤٨) الجهشيارى ٢٢٧ .

(١٤٩) الطبري ١٦٣/٣ .

(١٥٠) الطبري ٢١٠٩/٣ .

(١٥١) البلدان ٢٢٩ .

(١٥٢) طيفور ٢ .

(١٥٣) اخبار الراعي والنقي ٢٠٧ .

(١٥٤) الطبري ١٦٦٤/٣ .

وسامراء ، ولذلك فان تجارات المشرق تمر به ، كما انه وسيلة الاتصال بين الحربية وما حولها بالاطراف الشمالية من الجانب الشرقي وبالرصافة ، التي كانت قد امنت حركة اقتصادية نشطة ، وان وروده في الكتب باسم « الجسر » كاسم علم يدل على اهميته وشهرته ، ولا يستلزم حتما ان يكون دليلا على وجود جسر واحد في بغداد ، ولما كان باب الطاق قد اصبحت يطلق على المحلة التي فيها قبر ابي حنيفة فيمكن تحديد موقعه التقريبي بين ساحة عبدالمحسن الكاظمي في الغرب ، وبنابة دار المعلمين الابتدائية في الغرب والواقع انه توجد اشارات غير قليلة في المصادر الى « الجسرين » و « الجسر الاعلى » و « الجسر الاسفل » .

فاما تعبير الجسرين فقد ورد منذ ايام الرشيد حيث ان الجهشيار قال ان الرشيد عندما عزم على نكبة البرامكة كان السندي بن شاهك « يلي الجسرين ببغداد » وان السندي قال بعد نكبة البرامكة « فلما امسيت قمت ليلتي بالجسر بالجانب الشرقي .. كتاب الرشيد الي بصلب كل نصف على احد الجسرين » (١٥٤) .

وعند مقاومة الامين امر طاهر بمحاصرة الجسر ، فقال حسين الخليل :

اناخ بجري دجلة القطع والقنا

شوارع والارواح في راحة المضرب (١٥٥)

ولما ولي طاهر بن الحسين الشرط استشار الفضل بن الربيع فاختر له « السندي بن يحيى وعياش بن القاسم فولاهما الجسرين » (١٥٦) ، وقد استخلف المامون هذين الرجلين « على الجسرين » (١٥٧) .

وفي سنة ٢٠٦ هـ ولي عبدالله بن طاهر اسحق بن ابراهيم الجسرين » (١٥٨) .

(١٥٤) الجهشيارى ٢٢٦ ، ويذكر اليعقوبي انه كان « ببغداد يومئذ ثلاثة جسور (التاريخ ١٥٢/٣) .

(١٥٥) الطبري ٩٠٤/٣ .

(١٥٦) طيفور . ويذكر مسكويه ان ابا السرايا عندما اسر

« صلب نصفين على الجسرين في كل جسر نصف

(مسكويه ٢٤) طبع كائتاني) غير ان الطبري بروي انه

صلب نصفين على الجسر ، في كل جانب نصف

(٩٨٢/٣) .

(١٥٧) طيفور ٩٢ .

(١٥٨) الطبري ١٠٦٢ .

وقد صلب بابك في الجانب الشرقي بين
الجسرين بمدينة السلام « (١٥٩) » .

ولما سمع اهل بغداد بمقتل عمر بن عبدالله
الاقطع وعلي بن يحيى الارمني في الثفور « هاجوا
فتحوا سجن نصر بن مالك واخرجوا من فيه وفي
القنطرة بباب الجسر .. وقطعوا احد الجسرين
وضربوا الاخر بالنار ، وانحدرت سفنه « (١٦٠) » .

وفي سنة ٢٥٢ هـ احرق ابن طاهر الجسرين لما
راى الجند قد ظهروا على اصحابه « (١٦١) » .

ولما اشيع موت الموفق اثار ابو الصقر اضطرابا
« وقطع الجسرين ووقف قوم على الجسر في الجانب
الشرقي يحاربون اصحاب ابي الصقر « (١٦٢) » .

وفي سنة ٢٥٥ هـ ولي سليمان بن عبدالله ،
ابراهيم بن اسحق بن ابراهيم « ما كان الحسين بن
اسماعيل يتولاه لعبيدالله من امر جسري بغداد
وطاسيج قطربل ومسكن « (١٦٣) » .

وفي سنة ٢٨٥ هـ خرج المعتضد من بغداد
قاصدا آمد « واستخلف ببغداد صالحا الامين
الحاجب وقلده المظالم والجسرين « (١٦٤) » .

وكانت « نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من
سفنهما والفارس وارزاق الجسارين من جملة
ثلاثمائة دينار في الشهر : عشرة دنائير (في اليوم) «
وذلك في التقدير الذي وضعه علي بن عيسى
سنة ٣٠٦ هـ « (١٦٥) » .

وفي المصادر ذكر للجسر الاعلى ، وترجع
اول اشارة اليه الى زمن المهدي حيث يقول الطبري
ان المهدي بعد ان قبض على يوسف البرم وجماعته
« صلبهم على جسر دجلة الاعلى مما يلي عسكر
المهدي « (١٦٦) » . ثم ينقطع ذكر هذا الجسر حتى
اواسط القرن الثالث ، حيث يتردد ذكره ، فقد
ذكر الطبري ان ابا الاغر جلب اسرى وجثث قتلى
ونصبت الرؤوس على راس الجسر الاعلى والجانب

الشرقي « (١٦٧) » كما ذكر ايضا « صلب بدر القرمطي
في طرف الجسر الاعلى ببغداد « (١٦٨) » وعند ما ارتاع
اهل بغداد من الزوب في سنة ٣٠٤ اخذ السلطان
حيوانا « فصلب عند راس الجسر الاعلى بالجانب
الشرقي « (١٦٩) » .

ويبدو ان « الجسر الاعلى » هذا هو نفس
« الجسر » المشهور بين باب خراسان وباب الطاق ،
فقد ذكر الخطيب « درب سليمان بن جعفر حيال
الجسر الاعلى « (١٧٠) » ، وذكر الطبري ان الجنيد
تقدموا في بعض احداث فتنة المستعين « وصاروا
الى درب اسد بن مرزبان فشحنوا الشارع النافذ
الى درب الرقيق .. واكلوا بباب درب سليمان بن
ابي جعفر جماعة ، ثم مضوا يريدون الجسر في
شارع الحدادين .. ودفعوهم عن الجسر حتى
صروههم الى باب عمرو بن مسعدة . وكان ابن
طاهر قد اعد سفينة شوك وقصب ليضرم النار
ويرسلها الى الجسر الاعلى ، ففعل ذلك ، فاحترقت
عامة سفنه وقطعته الى الاخر ، فادركها اهل الجانب
القريب ففروها واطفاوا النار التي تعلقت بسفن
الجسر .. واحرق ابن طاهر الجسرين لما راى الجند
قد ظهروا على اصحابه ، وامر الحوائيت التي على
باب الجسر التي تتصل بدرب سليمان ان تحرق
بمنة ويسره ، ففعل ، فاحترق فيها للتجار متاع
كثير « (١٧١) » .

ان موقع الجسر الاعلى عند درب سليمان
يدل على انه هو نفس الجسر المشهور ، كما يدل
نص الطبري على انه كان بقرب جسر اخر ، لعله
الاسفل الذي سنذكره في الفقرة التالية ، كما ان
نص الطبري يدل على ان الجسرين كانا متقاربين ،
لان النار التي احترقت عامة سفن الجسر الاعلى
سرعان ما صارت الى الاخر . وقد يدل هذا على
ان احد الجسرين كان للذهب ، والاخر للاياب .

وقد ورد في طيفور ذكر للجسر الاسفل ، اذ
ذكر ان المأمون ضرب اعناق اربعة « فلما كان
بالفداء صلبهم على الجسر الاسفل « (١٧٢) » ثم قال

« (١٦٧) الطبري ٢/٢١٩٢ .

« (١٦٨) الطبري ٢/٢٢٤٦ .

« (١٦٩) مسكويه ٢٩/١ المتلهم ١٣٩/٦ .

« (١٧٠) الخطيب ١٢/٢٨٨ .

« (١٧١) الطبري ٢/١٦٦٤ .

« (١٧٢) طيفور ٩٨ .

« (١٥٩) الطبري ٢/١٢٢١ .

« (١٦٠) الطبري ٢/١٥١٠ .

« (١٦١) الطبري ٢/١٦٦٥ .

« (١٦٢) الطبري ٢/٢١٢١ .

« (١٦٣) الطبري ٢/١٧٢٧ .

« (١٦٤) الطبري ٢/٢١٨٥ .

« (١٦٥) الوزراء للصابي ٢٦ .

« (١٦٦) الطبري ٢/٢٧١ .

ان المأمون بعد ذلك « امر بانزالهم » وكانوا مصلبين على الجسر الاسفل « (١٧٣) » .

وورد في المصادر ذكر « الجسر الاول » فقد ذكر الطبري « الجسر الاول من الجانب الشرقي من الدار التي لمبيدالله بن عبدالله » (١٧٤) الا ان المصادر لم تذكر موقع هذه الدار مما كان يعيننا على تحديد موقع الجسر .

وذكر اليعقوبي في كلامه عن الطرق الخمسة في الجانب الشرقي « وطريق عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي الجانب الذي يأخذ على دجلة الى باب المقبر والمخرم وما اتصل بذلك » (١٧٥) ، ويفهم من هذا النص ان الجسر الاول يقع عند باب المقبر والمخرم ، فهو بعيد عن الجسر الاعلى المشهور بين باب خراسان وباب الطاق ، فيكون موقعه اقرب الى موقع الجسر الذي اقامه المنصور سنة ١٥٧ هـ والذي كان بين باب الشمير ومشرعة الروايا .

يتبين مما تقدم انه كان في بغداد في القرن الثالث الهجري جسر مشهور فكان يسمى في المصادر « الجسر » او « الجسر الاعلى » ، وهو يقع بين درب سليمان في الجانب الغربي ودار خزيمة في الجانب الشرقي . ولهذا الجسر اهمية كبيرة لوقوعه قرب دور آل طاهر ، ولاة بغداد ، والحريم الطاهري الذي استوطنه اولاد الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، ولانه كان بقربه مجالس الشرطة ، وكذلك لانه يقع في الجهات الشمالية فهو اقرب الى الحربية والى طريق سامرا .

وبالتقرب من الجسر الاعلى كان يقع جسر اخر هو الجسر الاسفل ، وهو اقل شهرة وذكرنا من الاعلى . ومن المحتمل ان هذين الجسرين كان احدهما للذهاب والاخر للاياب . وقد انشا هذين الجسرين ابو جعفر المنصور الذي كان قد انشأ جبرا ثالثا للنساء ثم بطل استعماله في زمن المأمون لسبب لا نعلمه .

وكان في بغداد جسر اخر سماه اليعقوبي « الجسر الاول » ويبدو انه هو الذي عقده المنصور بين باب الشمير ومشرعة الروايا . ولكن لم تكن له شهرة الجسر الاعلى .

ويتردد في المصادر ذكر « الجسرين » والراجع ان المقصود بذلك مجموعة جسرى باب الطاق ، وجسر باب الشمير ، وان قول الخليل ان الجسور ببغداد عطلت بعد مقتل الامين وبقي منها ثلاثة الى ايام المأمون ، ثم عطل منها واحد ، ينبغي ان يفهم منه انه بقيت منها مجموعتان ، وليس جسران .

ويذكر الصولي ان الرازي عمل الجسر الفوقاني بمال اوصى به ابو الوليد من ثلثه ؟ واوصى بان يعمل به الجسر « (١٧٦) » ، وابو الوليد هو ناصر الدولة ابن حمدان الذي توفي سنة ٣٢٧ هـ ولا كان الرازي توفي سنة ٣٢٩ هـ ، فيكون هذا الجسر قد عقد بين سنتي ٣٢٧ هـ ، ٣٢٩ هـ . وتدل صفته « الفوقاني » على ان موقعه فوق ، او شمالي الجسر المعروف آنذاك ، وهو الجسر الاعلى عند باب الطاق ، وهذا يقتضي ان يكون موقعه عند باب الشمسية .

ويذكر مسكويه انه في سنة ٣٦٣ هـ انتقل المطيع لله ووالده بختيار وجماعة من الحرم والاولاد الى القصر (الذي) بناء معز الدولة بباب الشمسية على طريق التحصن ، وعقد ابو اسحق جبرا في هذا الموضع على دجلة « (١٧٧) » ولا بد ان هذا الجسر كان صغيرا ومحدود الغرض .

ويقول ابن مسكويه في كلامه عن اعمار عضد الدولة ببغداد سنة ٣٦٩ هـ « وكذلك جرى امر الجسر ببغداد ، فانه كان لا يجتاز عليه الا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه وتزاحم الناس عليه ، فاختر له السفن الكبار المتقنة وعرض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدريزونات ووكل به الحفظة والحراس » (١٧٨) . ويتبين من هذا ان عضد الدولة لم ينشئ في بغداد جبرا ، بل اصلح الجسر القائم ، دون ان يحدد مسكويه موقع هذا الجسر .

يظهر نصا الصولي ومسكويه انه انشئ في سنة ٣٢٨ جسر فوقاني ، ثم انشئ في سنة ٣٦٣ جسر عند الدار المعزية ، وانه كان في سنة ٣٦٩

(١٧٦) اخبار الرازي والمتقى ١٢٨ .

(١٧٧) تجارب الامم ٢/٢١٧ .

(١٧٨) تجارب الامم ٢/٤٠٦ .

(١٧٣) طيفور ١١٣ .

(١٧٤) الطبري ٢/٢٢٥٢ .

(١٧٥) البلدان ٢٥٢ .

جسر واحد مشهور ببغداد ، وهذا يعني اما ان الجسرين الآخرين قد زالا ولم يعد لهما وجود في زمن عضد الدولة ، او انهما كانا صغيرين وغير مهمين ، وان الشهرة تركزت في جسر واحد كان هو العلم « الجسر » . والواقع ان نص مسكويه عن الجسر زمن عضد الدولة لا يقطع بعدم وجود جسور اخرى في بغداد .

ويروى الخطيب عن ابي علي بن شاذان (٢٣٩ - ٢٦٦ هـ) انه قال : « ادركت ببغداد ثلاثة جسور : احدها يحاذي سوق الثلاثاء ، واخر بباب الطاق والثالث في اعلى البلد عند الدار المعزية يحاذي الميدان » (١٧٩) وكلمة « ادركت » قد تدل على ان زمن وجود الجسور الثلاثة كان في ايام صبا ابن شاذان ، اي حوالي سنة ٣٦٠ ، وان الوضع قد تبدل في زمن قوله . وهو يذكر ثلاثة جسور رئيسة دون ان يحدد اهمية كل منها .

وقد تابع الخطيب بعد ما رواه عن ابن شاذان كلامه فقال : « فذكر لي غير ابن شاذان ان الجسر الذي كان يحاذي الميدان نقل الى الفرضة بباب الطاق فصار هناك جسرا يمشي الناس على احدهما ويرجعون على الاخر » (١٨٠) ، اي ان الجسر الذي عند الشماسية نقل الى باب الطاق التي صارت فيها مجموعة مكونة من جسرين ، احدهما للذهاب والاخر للاياب . والذي يفهم من النص الاخير ان جسر سوق الثلاثاء ظل باقيا في مكانه . غير ان هذا النص لا يذكر التاريخ الذي نقل فيه جسر الشماسية الى باب الطاق ، ومن المحتمل ان ذلك تم بعد زمن عضد الدولة ، وعلى اي حال فلا بد ان يكون قسداً تم قبل سن ادراك الخطيب (ت ٦٣ هـ) .

ويلاحظ ان موقع الشماسية منطوق نسبيا في الشمال ، وان جسورا اقيمت فيها قبل زمن معز الدولة ، ولكن ايا منها لم يبق مدة طويلة لان فائدته للناس محدودة بسبب تطرف موقعها ، ولعل هذا الجسر شيده معز الدولة للافادة منه

(١٧٩) الخطيب ١١٥/١ .
(١٨٠) الخطيب ١١٥/١ .

بعد ان بنى داره المشهورة ، ولكنه لم يبق طويلا لانه لم يكن يؤدي خدمات عامة واسعة للناس .

اما الجسر المحاذي لسوق الثلاثاء فليس في المصادر اشارة تساعدنا على تحديد موقعه بدقة ، لان سوق الثلاثاء كان يقع جنوب المخرم ويمتد موازيا للنهر ، ولا نعلم فيما اذا كان الجسر يقع في اول ، او وسط او نهاية سوق الثلاثاء .

ويلاحظ ان بغداد تعرضت منذ اوائل الربع الثاني من القرن الرابع الهجري الى فتن واضطرابات واسعة ادت الى تدهور احوال كثير من المناطق التي كانت مزدهرة من قبل .

فاما في الجانب الغربي فقد جفت كثير من الانهار التي كان يعتمد عليها السكان ، واخليت كثير من المناطق ، وخاصة مدينة المنصور المدورة ، التي صارت تدعى « باب البصرة » كما عم الخراب كثيرا من المناطق على شاطئ النهر .

واما الجانب الشرقي فقد وصف ياقوت ما آلت اليه الرصافة وما حولها بعد ان كانت من اكبر مراكز الحيوية والنشاط الاقتصادي ، فقال : « وخربت تلك النواحي كلها ولم يبق الا الجامع وبصلقه مقابر الخلفاء لبني العباس وعليهم وقوف وفراشون برسم الخدمة ، لولا ذلك لخربت وبصلقتها محلة ابي حنيفة الامام ربها قبره ، وهناك محلة وسويق وبصلقتها دار الروم ، ولم يبق شيء غير هذا » (١٨١) .

والواقع انه جرت محاولات لاعادة اعمار بغداد ، ومن ابرزها ما قام به عضد الدولة عند قدومه ببغداد سنة ٣٧٢ (١٨٢) ، غير ان هذه المحاولات لم تفلح في اعادة المناطق المخربة الى ما كانت عليه من اعمار .

فلما عاد الانعاش الى بغداد في اواخر القرن الخامس ، صار الازدهار مركزا في انجانب الغربي على المحلات الواقعة في اقصى الشمال كالحريم والمارستان والمتابية ودار القز ، وكذلك الواقعة

(١٨١) ياقوت ٧٨٢/٢ .
(١٨٢) مسكويه ١٠٦/٢ ، وسنفرد لتطور اعمار بغداد بحثنا مستقلا شاملا .

قرب نهر عيسى ، اي في اقصى الجنوب . اما الجانب الشرقي فقد تركز الاعمار على المناطق الممتدة من المخرم الى باب الازج ، اي جنوبي المنطقة التي كانت معمرة في القرون الثلاثة الاولى .

اما جسور بغداد بعد عضد الدولة فقد اجمل ذكرها الخطيب تقلا عن هلال بن الحسن حيث قال :

« عقد جسر بمشرعة القطنيين في سنة ٢٨٣ فمكث مدة ثم تعطل . ولم يبق ببغداد بعد ذلك سوى جسر واحد يباب الطاق الى ان حول في سنة ٤٤٨ هـ فعقد بين مشرعة الروايا من الجانب الغربي وبين مشرعة الحطايين من الجانب الشرقي . ثم عطل في سنة ٥٠٠ هـ ثم نصب بمشرعة القطنيين » (١٨٢) .

فاما جسر مشرعة القطنيين فان ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٢٨٣ « وفي يوم الاربعاء لاربع بقين من جمادي الاولى وقع الفراغ من الجسر الذي عمله بهاء الدولة في مشرعة القطنيين بحضرة دار مؤنس ، واجتاز عليه من الفد ماشيا وقد زين بالمطارد » (١٨٤) . ويلاحظ انه في تلك السنة تقدم القادر بالله « بعمارة مسجد الحربية وكسوته واجرائه مجرى الجوامع في الصلاة » (١٨٥) ، وانه في السنة السابقة كان ابو الحسن بن العلم الذي كان قد استولى على امور السلطان « شرع في حفر الانهار المخترقة لاسواق الكرخ وما يتصل بها وجبى من ارباب العقار مالا جزيلا » (١٨٦) ، وهذا يدل على ان تشييد الجسر المذكور هو جزء من خطة عامة لاعادة اعمار الجانب الغربي الذي كان قد انهكته الاضطرابات والفتن الطائفية .

فاما موقع الجسر فيوضحه قول ابن الجوزي انه في « مشرعة القطنيين بحضرة دار مؤنس » ، وكانت دار مؤنس تقع في سوق الثلاثاء (١٨٧) ، وقد

(١٨٢) الخطيب ١١٦/١ .

(١٨٤) المنتظم ١٧١/٧ ، والراجع ان هذا الجسر هو الذي ذكره ابن الجوزي في ترجمته فخر الملك وزير بهاء الدولة انه « عمل الجسر ببغداد وكان قد نسي وبطل وعمل له درابزينات » (المنتظم ٢٨٦/٧) .

(١٨٥) المنتظم ١٧١/٧ .

(١٨٦) المنتظم ١٦٨/٧ .

(١٨٧) مسكويه ٣٩٦/١ تكملة الطبري ١١٠ .

صارت المدرسة النظامية فيما بعد « من جملة دار مؤنس » (١٨٨) وكانت هذه الدار من اشهر دور بغداد في القرن الرابع الهجري ، فقد كان ينزلها ابن رائق ، وبجكم ، والبريدي ، وتوزون ، وممزر الدولة ، وعميد الدولة (١٨٩) ، وقد اعاد بهاء الدولة تعميرها بعد ان هدم الدار الممزية واستعمل اجرها في البناء الجديد (١٩٠) ، وتقع دار مؤنس بالقرب من دار الخلافة ، وعلى مسافة من جنوبي النقطة المقابلة لمصب نهر عيسى ، اي ان الموقع التقريبي لهذا الجسر ، هو عند جسر الشهداء الحالي .

فهذا الجسر يربط طرف دار الخلافة بالجانب الغربي .

لم تذكر المصادر سنة تعطل جسر مشرعة القطنيين ، ولكن النص يظهر انه عند تعطله وحتى سنة ٤٤٨ لم يكن في بغداد جسر في اسفل بغداد ، وان الاتصال الوحيد بين جانبي بغداد كان عن طريق جسر باب الطاق الذي يقع في جهة متطرفة في الشمال ، فيزيد من العزلة بين دار الخلافة والجانب الغربي .

ويلاحظ ان المقدسي الذي الف كتابه في اواخر القرن الرابع الهجري ذكر في كلامه عن بغداد « الجسر مند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بنساء عضد الدولة » (١٩١) .

اما الجسر الذي عقد في سنة ٤٤٨ ، فان هلال بن الحسين يذكر انه نقل من باب الطاق ، اما ابن الجوزي فيذكر ما يدل على انه جسر قائم بذاته حيث يقول في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي المحرم ابتدى بمقد الجسر من مشرعة الحطايين الى مشرعة الروايا ، زيد في زوارقه لملو الماء ، فمصفت ربح شديدة فقطعت الجسر ، فانحدرت زوارقه الى

(١٨٨) تكملة الطبري ١٤٨ .

(١٨٩) عن نزولهم انظر بالتتابع : تكملة الطبري ١١٠ ، ١٢٧/١١٠/١١٩ ، ٢١٤/١٢٨/١٢٤/٢٢٤ وانظر ايضا من نزول بجكم بها : مسكويه ١٩٦/١ ومن نزول ممز الدولة انظر ايضا رسوم دار الخلافة ١٣٦ المنتظم ١٢٦/٧ ومن نزول ابن رائق فيها مسكويه ٢٥/٢ ومن نزول البريدي مسكويه ٢٥/٢ .

(١٩٠) المنتظم ٢١/٨ .

(١٩١) احسن التقاسيم ١٥٠ . ويلاحظ ان البيمارستان المقدسي بني على موقع الخلد قرب درب سليمان .

الدرايين ؟ « (١٩٢) ويلاحظ انه في السنة السابقة قدم طغرل بغداد ، واتخذ مقامه بدار المملكة عند المخرم ، وان هذا الجسر يقع فيما يظهر جنوبي المخرم .

لم يذكر ابن الجوزي مصير الجسر بعد ان عصفت به الريح ، ولكن يبدو انه اعيد تشييده ، فكان الجسر الوحيد الذي يربط الجانبين .

يذكر هلال ان الجسر عطل في سنة ٥٠٠ هـ ، اما ابن الجوزي ، فيذكر انه في سنة ٥٠٠ هـ زادت دجلة زيادة كبيرة (١٩٢) ، ولعل هذه الزيادة هي التي أدت الى قطع الجسر ، ولكن في تلك السنة شرع الباسيري « في اصلاح الجسر فعمدة بباب الطاق وعبر عسكره » (١٩٤) ، اي ان الباسيري تقبل الجسر الى باب الطاق . ويلاحظ ان الباسيري كانت داره في الحريم الطاهري ، وان الجانب الشرقي كان قسمه العلوي قد خرب آنذاك ، فاعادة الجسر الى باب الطاق كان بدافع شخصي وعسكري من الباسيري .

وفي سنة ٥٢٥ هـ قام السلطان داود « بقطع الجسر من راس نهر عيسى ، ونصب بواب الغربية يوم الاحد ٢٢ ذي القعدة ، فكثرت الازاحيف لنقله وصار متنزها مليحا يجتمع الناس بعد العصر تحت الرقة كما كانوا يجتمعون في الرحبة » (١٩٥) وهذا معناه ان الجسر الذي كان عند نهر عيسى قد نقل فلم يبق مكانه جسر . ومصب نهر عيسى عند ثانوية الكرخ حاليا .

ويذكر سبط ابن الجوزي انه في سنة ٥٤٢ هـ قطع الجسر ببغداد ، ويقال ان شحنة مسعود قطع الجسر ، وكان الفزنوي الواعظ تولى عمله ، وعمل له درازينات من الجانبين (١٩٦) ، وهو يذكر « المشهور في الوعظ ان الفزنوي الذي يعظ ببغداد هو ابو الحسن علي بن الحسين الفزنوي ووعظ بها ونصر مذهب الاشعري » (١٩٧) ، ولم اجد في المصادر

ذكر لزمن تجديد الفزنوي ، ولا ما يدل على المقصود من القطع ، وهل هو دائم ام مؤقت .

وفي سنة ٥٥٢ هـ توترت العلاقة بين الخليفة ومحمد شاه ، واستعد انطرفان للقتال « وضرب محمد شاه بالدخلة لقطع الجسر : وجيء به الى الناج » (١٩٨) اي انه نقل الى جنوب باب الضربة ، ويلاحظ انه في خلال هذه الحوادث عاد اصحاب محمد شاه « ونصبوا الجسر وعبر اكثر المساكين » (١٩٩) ثم « قطع كوجك الجسر وقلع الخيم وضرب النار في زوارق الجسر » (٢٠٠) وعلى اي حال فهو غير الجسر الذي نقل الى الناج . ويلاحظ ان قصر الناج من قصور دُر الخلافة التي تقع عند شارع ابنوك وشارع النهر ، اي ان الجسر نقل من موقعه عند مصب نهر عيسى (قرب جسر الشهداء الحالي الى موقع قرب السفارة البريطانية الحالي .

ويذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٧٠ هـ نصب جسر جيد امرت بعمله جهة من جهات المستضيء بأمر الله تلقب بنفسه وكتبت اسمها على حديدية في سلسلة ، وجعل تحت الرقة مكان الجسر العتيق ، وحمل الجسر العتيق الى نهر عيسى الى ان حول في هذه الايام نحو من خمسين سنة ، فوجد الناس له راحة تامة بوجود جسر بن (٢٠١) ، ويقول ابن الكازروني انه في ايام المستضيء « عمل جسر ومد على دجلة مع الجسر العتيق ، وعبر الناس عليه في اواخر المحرم سنة ٥٧٠ هـ » (٢٠٢) ، ويذكر ابن الساعي ان بنفسه امرت بعمل جسر على دجلة (٢٠٣) .

ولما زار ابن جبير بغداد سنة ٥٧٩ هـ نزل المربعة « على شط دجلة بمقربة من الجسر ، فحملته دجلة بمدى السيلي ، فعاد الناس يعبرون بالزوارق . . . والمادة ان يكون لها جسران : احدهما

(١٩٨) المنتظم ١٦٩/١٠ .

(١٩٩) المنتظم ١٧٤/١٠ .

(٢٠٠) المنتظم ١٧٥/١٠ .

(٢٠١) المنتظم ٢٥٠/١٠ .

(٢٠٢) خلاصة الذهب السبوك ٢٢٩ .

(٢٠٣) الجامع المختصر ٨٥ .

(١٩٢) المنتظم ١٦٩/٨ .

(١٩٣) المنتظم ١٩٨/٨ .

(١٩٤) المنتظم ١٩٢/٨ .

(١٩٥) المنتظم ٢١/١٠ .

(١٩٦) مرآة الزمان ١٩٦/٨ .

(١٩٧) مرآة الزمان ١٤/٨ ، وانظر من ومظه ١٨٤ .

مما يقرب من دور الخليفة والآخر فوقه ، لكثرة الناس ، والعبور في الزوارق لا ينقطع « (٢٠٤) .

ومن الواضح ان الجسر الذي يذكر ان مد دجلة جرفه ، هو الذي عند الرقة التي تقابل دار الخلافة غير انه لم يذكر موقع الجسر الاخر الذي اشار اليه ، ولا فيما اذا كان هذا الجسر المجروف قد اعيد تصليحه .

ويذكر ابن الطقطقي الذي الف كتابه سنة ٧٠٠هـ « ان الظاهر (٦٢٢ - ٦٣٦) هو الذي عمل هذا الجسر الجديد الموجود الان ببغداد « (٢٠٥) غير ان ابن الطقطقي لم يذكر موقع هذا الجسر الجديد ، ولا الجسور الاخرى ، ان وجدت .

ولما حاصر هولاء ببغداد امر بانشاء جسرين واحد اعلاها والاخر اسفلها (٢٠٦) بالطبع ان هذين الجسرين انشا لاغراض عسكرية مؤقته ولا علاقة لهما بالجسور الاخرى القائمة ، ان كانت موجودة .

ولما زار ابن بطوطة العراق كان « ببغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التي ذكرناها في جسر مدينة الحلة ، والناس يعبرونهما ليسلا ونهارا رجالا ونساء ، فهم في ذلك في نزهة « (٢٠٧) غير انه لم يذكر موقع اي من هذين الجسرين .

المشارع :

من أبرز الخصائص التي تميزت بها منطقة بغداد التي اخنارها المنصور لتشبيد عاصمته فيها هو انها تتصل بمختلف المراكز الغنية في الدولة عن طريق المواصلات النهرية . ورغم كثرة الترع والانهار التي تجري فيها الزوارق ، فان دجلة هو الشريان الرئيس الذي تعتمد عليه ببغداد في المواصلات النهرية . وهو نهر يتميز بعرضه ووفرة مياهه ، وخاصة في فصول الشتاء والربيع واول الصيف ، وقاعه غير عميق ، وشواطئه مكونة من تربة رسوبية رخوة ، ومجرأه غير مستقيم او ثابت ،

(٢٠٤) الرحلة ٢١١ طبعة حسين نصار .

(٢٠٥) الفهرست ٢٨٧ طبعة علي الجارم .

(٢٠٦) العراق في عهد الملوك الايلخانيين للدكتور جعفر خصباء نقلا عن نصير الدين الطوسي ٥٢ .

(٢٠٧) تحفة النظار ١٢٠/١ طبعة الازهرية .

كما ان فيه عددا من الجزر . وقد بنيت على ضفتيه قصور لم تكن كثيرة العدد بالنسبة الى سعة بغداد وازدهار حضارتها وطول بقاء الخلافة فيها . ويلاحظ ان القليل من هذه القصور والدور الشاطئية كانت لها مسنبات قوية وكبيرة .

وبالنظر لقلّة الجسور في بغداد ، فقد اعتمد السكان في تنقلهم بين الجانبين على الزوارق ، وقد روت المصادر كثرة الزوارق في بغداد فيروى الخطيب عن هلال بن الحسن انه « احصيت السميريات المبرانيات بدجلة في ايام الناصر لدين الله وهو ابو احد طلحة الموفق : فكانت ثلاثين الف قدر من كسب ملاحبها في كل يوم تسعون الف درهم « (٢٠٨) . ومن المعلوم ان استعمال السميريات يتطلب وجود مشاريع ، اي مناطق منخفضة ومستوية تصلح لوقوف الزوارق واستخدام الناس لها .

وتتطلب المشاريع اماكن ملائمة لوقوف الزوارق بحيث يستطيع الناس الركوب فيها او النزول بسهولة وسر ، وقد ذكرنا ان انبساط مجرى دجلة وتربة شواطئه الرسوبية وقلّة المسنبات عليه توفر اماكن كثيرة لهذا الغرض .

وتتوقف اهمية المشرعة على مدى حاجة الناس الى العبور من منطقة معينة دون اخرى ولذلك تزداد اهمية المشاريع في المناطق القريبة من الاسواق حيث تزداد الحاجة الى نقل السلع او اهل الاعمال والمصالح بين الجانبين . فظهور المشاريع وانتعاشها او انحطاطها يرتبط الى حد كبير بمدى ازدهار الحركة الاقتصادية . غير ان المشاريع تحتفظ عادة باسماءها القديمة التي كانت تسمى بها عند بدء استعمالها . ومعظم معلوماتنا عن المشاريع مستمدة من اخبار القرن الرابع الهجري فما بعد . غير ان كثيرا من المشاريع التي ذكرت خلال ذلك او بعدها كانت مستعملة قبل ذلك التاريخ ولكننا لا نستطيع الجزم بتحديد الزمن الذي بدء فيه استعمالها ، رغم ما لهذا التحديد من اهمية لمعرفة بداية وتطور الازدهار الاقتصادي والحضاري في مناطق بغداد .

(٢٠٨) الخطيب ١١٧/١ .

وتكون المزارع عادة متقابلة بين الجانبين ، أي أن كل مشرعة تقابلها أخرى في الجانب الآخر ، ولكن ليس من الضروري أن يكون التقابل تاماً أو دائماً ، لأن وجود المشرعة يتوقف على طبيعة الشاطئ وعلى منافذ المسالك العامة .

فاما مزارع الجانب الغربي فقد ورد في الاخبار ذكر عدد منها :

١ - مشرعة باب البصرة وقد ورد ذكرها حيث نزلها قريش بن بدر بن عندما كان يقسم البساسيري الذي كان في مشرعة الرواية (٢٠٩) . وباب البصرة كان يطلق في الاصل على الباب الجنوبي الشرقي من مدينة المنصور المدورة ، وموقعه على مسافة من شاطئ النهر ، ثم صار الاسم يطلق منذ اواسط القرن الخامس الهجري على محلة واسعة تشمل كل المدينة المدورة . فموقع هذه المشرعة اما قريب من باب البصرة الاول ، او في الطرف الشرقي من المدينة المدورة ، اي انها عند مكان سايلو الجيوب حاليا او في شماليه .

٢ - مشرعة المارستان التي نقل اليها البساسيري مسكره (٢١٠) ولعلها كانت عند المارستان المعصدي الذي شيد في مكان قصر الخلد .

٣ - مشرعة الرباط ، وقد ورد ذكرها في حوادث القرن السادس (٢١١) ولكن لم اجد إشارة تساعدني على تعيين موقعها ، والراجع انها قرب مصب نهر عيسى حيث توجد عدة ربط .

٤ - مشرعة الساج . وقد ذكرت في اخبار اوائل القرن الرابع الهجري حيث استتر عندها سلامة سنة ٣٢٢ (٢١٢) ، وكان فيها دار ابن (٢١٣) عبدون وكذلك الدار المعروفة بالموزة (٢١٤) ، كما دفن عندها علي بن محمد بن بشار (٢١٥) الذي لا

(٢٠٩) المنتظم ١٩٢/٨ .

(٢١٠) المنتظم ١٩٦/٨ .

(٢١١) المنتظم ١٤٦/٩ ، ٢٤٩ .

(٢١٢) مسكويه ٢٨٨/١ .

(٢١٣) الصابي . الوزراء ١٥٧ .

(٢١٤) تكملة الطبري ١٩٥ .

(٢١٥) الخطيب ٧/٦ المنتظم ١٩٩/٦ .

يزال قبره معروفاً اليوم وهو جامع الشيخ بشار ، فالمشرعة تقع اذا قرب الشيخ بشار .

٥ - مشرعة الروايا وكانت تقع عند باب السمير ، وهي من اشهر المزارع واقدمها ، فكانت معروفة منذ الازمنة الاولى لتأسيس بغداد . وهي في الاصل « المشرعة التي كان يصعد منها اصحاب الروايا » (٢١٦) ، وكان يقعد في طريقها وكيع بن الجراح (٢١٧) . وقد دفن فيها ابو الحسن الاشعري « في تربة الى جانبها مسجد وبالقرب منها حمام . وهي عن يسار المار من السوق الى دجلة » (٢١٨) غير ان قبره اصبح « عافى ال اثر لا يلتفت اليه » في اواخر القرن السادس الهجري (٢١٩) . وفي مشرعة الروايا عند قبر الاشعري دفن احمد بن محمد الفوري (٢٢٠) ولما سطر البساسيري على بغداد دخل مرة الكرخ « وخرج الى مشرعة الروايا » (٢٢١) .

وفي سنة ٤٤٨ عقد جسر من مشرعة الحطابين الى مشرعة الروايا ، غير ان الريح عصف بالجرس فقطعته وحددت زوارقه (٢٢٢) .

لعل الجسر الذي عقده ابو جعفر المنصور في سنة ١٥٧ عند باب السمير (٢٢٣) كان موقعه عند مشرعة الروايا .

اما في الجانب الشرقي فقد ذكرت فيه عدة مزارع :

١ - مشرعة الصخر ، وقد ذكرت فيها عدة دور منها دار سليمان بن وهب (٢٢٤) ودار نقل منها بهاء الدولة اخته زوجة الطائع لله حيث بقيت حتى وفاتها (٢٢٥) . ولما كانت دار

(٢١٦) الخطيب ٧٠/١٣ .

(٢١٧) الخطيب ٤٧١/١٣ .

(٢١٨) الخطيب ٢٤٧/١١ .

(٢١٩) المنتظم ٢٢٢/٦ .

(٢٢٠) المنتظم ١٧/٩ .

(٢٢١) المنتظم ١٩٢/٨ .

(٢٢٢) المنتظم ١٤٩/٨ وانظر الخطيب ١١٦/١ .

(٢٢٣) يعقوب بن يوسف . المعرفة والتاريخ ١٤٤/١ .

(٢٢٤) الخطيب ١٥٧/١ .

(٢٢٥) حرب ٦٥ .

(٢٢٥) المنتظم ١٦٢/٧ وقد وردت في الروايات « مشرعة

الصخر » (ذيل تجارب الاسم ٢٠٨/٢) وهو خطأ .

سليمان بن وهب بالمخرم (٢٢١) ، وهي التي أصبحت في أول القرن الرابع الهجري دار الوزارة ، فتكون مشرعة الصخر عند المخرم ، أي قرب مدينة الطب حاليا .

٢ - مشرعة باب البستان (٢٢٧) ، والراجع أنها كانت قرب بستان الزاهر ، كما سنتحدث فيما بعد عن الجسور .

٣ - مشرعة دار الملك (٢٢٨) ولعلها قرب دار المملكة أي قرب المشرعتين السالفتين حيث تقع عندها دار المملكة أي قرب وزارة الدفاع حاليا .

٤ - مشرعة باب الطاق (٢٢٩) وهي كما يدل اسمها ، تقع في باب الطاق الذي ينتهي عنده الجسر الأعلى في بغداد .

٥ - مشرعة باب الأزج (٢٣٠) ، ولا بد أن موقعها في الجهات الجنوبية من بغداد حيث يقع باب الأزج .

٦ - مشرعة الصباغين ، وقد ورد ذكرها في أخبار حريق شب سنة ٥٥٨ وامتد إليها من باب درب فراشة (٢٣١) .

٧ - مشرعة القصب وقد ذكرت أن فيها دار أبي

(٢٢٧) ستورد لها بحثا خاصا ، وانظر عن موقعها في المخرم
تكملة الطبري ٥ ، ٨ الوزراء للصاوي ٢٨ - ٩ .

(٢٢٧) المنتظم ١٧٧/٨ .

(٢٢٨) المنتظم ١٢٧/٧ .

(٢٢٩) المنتظم ٦٩/٨ .

(٢٣٠) المنتظم ١٦٢/٨ .

(٢٣١) المنتظم ٢٠٥/١٠ .

الحسن بن الشيب الطوسي (٢٢٢) ودار شافع
للؤلؤي المجاورة لدار ابن الصريفي (٢٢٣) .

٨ - مشرعة الخطابين وكانت في الجانب الشرقي (٢٢٤) ، امام المترض (٢٢٥) ، وكان عندها على شاطئ دجلة مسجد (٢٢٦) ، ولعله المسجد الذي عمره ام الخليفة « بمشرعة السقائين على شاطئ دجلة بمشرعة (٢٢٧) الخطابين وفي مشرعة الخطابين كان طرف الجسر الذي نصب سنة ٤٤٨ وطرّفه الآخر في مشرعة الروايا من الجانب الغربي (٢٢٨) ، فهي اذا تقابل مشرعة الروايا : أي أن موقعها قرب وزارة الدفاع الحالية .

٩ - مشرعة القطانين ، وكانت « بحضرة دار مؤنس » (٢٢٩) ، وعندها الجسر الذي عقده بهاء الدولة سنة ٢٨٣ فلم يلبث الا قليلا ثم تمطل (٢٤٠) ، ولما كانت دار مؤنس عند النظامية ، فالراجع أن موقع هذه المشرعة عند شارع المأمون وفي أول جسر الشهداء الحالي .

(٢٢٢) تكملة الطبري ٢٢٥ .

(٢٢٣) الوزراء للصاوي ٢٣١ .

(٢٢٤) الخطيب ٢٨/٣ ، ١٨٦/١٠ .

(٢٢٥) الخطيب ٢٨٦/١ ، ٧٥/١٢ ، المنتظم ١٢٨/٨ .

(٢٢٦) ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ١٢٦ ب .

(٢٢٧) مفسر الحقائق ٧٨ .

(٢٢٨) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٤٩/٨ .

(٢٢٩) المنتظم ١٧١/٧ .

(٢٤٠) الخطيب ١١٦/١ والمنتظم ١٧١/٧ .

الدواوين في الخلافة

مراكزها في العهد العباسي .

الخسراج وديوان الجيش ، فاما الاول فيشرف على جباية الخراج الذي كان المصدر الرئيس لدخل الدولة ، بينما ينظم ديوان الجيش السجلات المتعلقة بمصروفات الجند ، وهي اهم باب في مصروفات الدولة آنذاك .

وكانت السجلات الرئيسية تكتب على الجلود حتى عصر الرشيد حيث صارت ، او بعضها تكتب على الورق الذي اخذ ينتشر استعماله في العالم الاسلامي ، وقد حرصت الدولة على حفظ السجلات في الدواوين نظرا لاهميتها ، واحتفظت بالسجلات القديمة المدون فيها ما يتعلق بالعصر لاموي ، فيروى الطبري ان خلافا حدث على ملكية قسرية في خلافة المهدي ، « فامر المهدي وزيره ابا عبيد الله ان يخرج ذكرها من الديوان العتيق » (٢٤١) .

ولما عزم المعتضد على اخراج المكتفي الى الجبل ومعه عبيد الله بن سليمان « قال عبيد الله لابي العباس بن الفرات اريد كاتباً يصحبني ويتصفح اعمال كل بلد يفتحه ويقرر معاملاته على ما يدل عليه الديوان القديم من رسومه ، فقال ذلك محمد بن داود واليه من ديوان الدار مجلس ما فتح من اعمال المشرق وفيه الحسابات العتيقة » (٢٤٢) .

وبالرغم من كثرة الاضطرابات التي اجتاحت بغداد ، فان سجلات الدواوين ظلت فيها بمنجاة من الدمار ، اذ لم يسجل المؤرخون الا ثلاثة احداث

الادارة هي الوسيلة التي تعتمد عليها الدولة في السيطرة على رعاياها وتنظيمهم وتقديمهم ، وهي بدورها تقوم على النظم والاساليب المستقرة ، وعلى الموظفين المتفهمين لهذه الاساليب والقوانين - بتطبيقها ، وكذلك على السجلات التي تدون فيها المعلومات التي تقتضيها الادارة . ويطلق على الاماكن التي تحفظ فيها السجلات وتقوم فيها الاعمال المتعلقة بها « الديوان » وهو تعبير فارسي تظهر فارسيته انه يرجع الى عهد ما قبل الاسلام .

وقد حرص المسلمون منذ الفتح الاسلامي على ابقاء الدواوين وتنظيمها وحفظ سجلاتها فلما ولي العباسيون الخلافة زادت عنايتهم بالدواوين وتنظيمها ، وفي السجلات وحفظها وفي الكتاب وتنظيمهم ، وكان الوزير هو المسؤول الاول عن الاشراف عليها .

ومن المعلوم ان عدد الدواوين وحجم كل منها واختصاصه وعلاقتها بالدواوين الاخرى لم يبق ثابتاً ، بل تعرض الى تطورات كثيرة ، غير ان معلوماتنا عن تطوراتها غير كاملة بالرغم من العدد الكبير من المؤلفات العربية القديمة فيها ، وكثرة الاشارات اليها في الكتب ، وبالرغم من الدراسات الحديثة العميقة عنها . غير انه من المؤكد ان الدواوين في العصر العباسي كان بعضها مقتصر على الخليفة والبلاط ، وبعضها يتصل عمله بالناس عموماً ، كما ان بعضها يقتصر عمله على بغداد وحدها ، وبعضها يمتد عمله الى كل العراق ، وبعضها يتصل عمله باقاليم بعيدة عن بغداد او يعم عمله الدولة كلها .

ولا ريب في ان اهم الدواوين هما ديوان

(٢٤١) الطبري ٥٢٤/٢ .

(٢٤٢) الوزراء للصابي ١٤٨ - ٩ .

أحترقت فيها السجلات فأما أولها ففي فتنة الامين سنة ١٩٨ حيث « أحترقت الدواوين » (٢٤٢) .

وفي سنة ٢١٦ حيث يقول حمزة الاصفهاني « ورد بغداد اهل قصر بن هبيرة ، فضجوا من الاسواق ، واستنفروا الناس ومنعواهم من فتح حوائبهم ، فانضم اليهم الخلق من العامة ، فمضوا الى المتخل الذي بازاء مجلس السلطان واحرقوه ، وهذه مراقبة كانت هناك ... وعدلوا من هناك الى ديوان بادوربا فاحرقوا ما كان فيه من الحسابات من لدن صدر الدولة الخليفة وعدلوا الى باب السلطان يضجون ويكفون » (٢٤٤) ولم اجد في المصادر الاخرى ذكرا لهذا الحادث رغم ما ذكر من اضطرابات في بغداد وما حولها في تلك السنة والسنة التي تلتها .

وفي سنة ٢٨٩ « احرق العامة دار الحمولى فمضت بأسرها ولم يبق فيها جدار قائم ، واحترق ما كان فيها من حسابات الدواوين » (٢٤٥) وقد حدثت هذه الحادثة على اثر محاولة ابي نصر سابور وضع المشر على ما يعمل من الثياب الابريسمات والمقطنيات بمدينة السلام قنار اهل المتابيين وباب الشام من ذلك ثم « صاروا الى دار ابي نصر سابور بدرب الديزج ، فمنعهم احداث العلويين منها ، وخرجوا من درب الديزج الى دجلة ، وطلبوا من جرى رسمه بالكون في دار الحمولى من الكتاب والمتصرفين فهربوا من بين ايديهم ، وطرحوا النار في الدار ، واهمل اطفالها ، فانت على جميعها » (٢٤٦) .

اما سجلات القضاء فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٤٥٠ عندما نشب الخلاف بين الخليفة

(٢٤٢) كتاب الخراج لقدامة ٢٢٧ رسوم دار الخلافة ٢٩ ، ٢٩ .

(٢٤٤) تاريخ بني ملوك الارمن والانباء ٥٥ .

(٢٤٥) تاريخ هلال النشور بديل تجارب الامم ٢٢٥/٢ .

(٢٤٦) كذلك ٢٢٦/٢ .

وقد ورد في المصادر شخصان يلقبان حمولى ، اولهما ابو علي احمد بن موسى صاحب معز الدولة (نشوار الحاضرة ٢٠٩/١ طبعة الشالجي) وقد ارسله معز الدولة سنة ٢٥٢ الى الوزير المهلبى عندما سمع بمرجه من عمان (مسكويه ١٩٧/٢) واما الثاني فهو ابو الحسن علي بن موسى حمولى الذي لقب علي ابي الحسن بن ابي الطيب وولده من الطالبين (المنتظم ٢٢/٧) ، وقد ذكر بوسه ان قصر عماد الدولة في الخسرم قرب الديوان ويعرف بقصر حمولى (الخلافة والسلطنة ١٩٧ (باللغانية) ولم يذكر بوسه مصدره ، كما لم اجد في الكتب العربية التي قرأتها اشارة الى ذلك .

والباسيري اضطربت بغداد « ونهبت دار قاضي القضاة ابي عبدالله الدامغاني وهلك اكثر السجلات والكتب الحكمية فبيعت على العطارين » (٢٤٧) ولا تعلم هل كانت السجلات والكتب الحكمية قد وضعت في دار الدامغاني مؤقنا ، ام انه كانت التقاليد ان توضع في دار قاضي القضاة ، وفي هذه الحالة فهل ان كل السجلات ام بعضها كان يوضع ، ومن الطبيعي ان هذا يقتضي نقل السجلات الى دار قاضي القضاة الجديد عند تعيينه .

ان المصدرين الاساسيين اللذين حوى كسل منهما اوسع لمعلومات عن خطط بغداد هما الخطيب البغدادي ، واحمد بن واضح اليعقوبي . فاما الخطيب فانه لم يذكر عن موقع دواوين بغداد في عهد المنصور سوى اشارة عرضية جاءت عند كلامه عن توسيع مسجد المنصور حيث قال « وكانت الحسنة في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان ، وكانت قديما ديوانا للمنصور ، فامر مفلح التركي ببنائها على يد صاحبه القطان ، فنسبت اليه وجعلت مصلى للناس ، وذلك في سنة ستين او واحد وستين ومائتين » (٢٤٨) ويفهم من هذا النص ان الديوان كان ملاصقا لمسجد المنصور وانه النى في وقت مبكر فصار دارا للقطان صاحب مفلح الذي يذكر الطبري انه ولي خراج الموصل ، ثم قتل في طريق عودته منها سنة ٢٦٢ (٢٤٩) ولا بد ان هذه الدار كانت في الاصل احد الدواوين الكبيرة في زمن المنصور ، غير انها أصبحت جزءا من الجامع فيذكر ابن الجوزي انه « قرا ابو عبدالله البهلول يوما في دار القطان في الجامع بعد الصلاة يوم الجمعة » (٢٥٠) .

اما اليعقوبي فقد قدم تفاصيل وافى عن دواوين المنصور وموقعها حيث انه بعد ان ذكر قصر المنصور والرحبة التي حوله قال « وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبيده ، وبيت المال ، وخزانة السلاح ، وديوان الرسائل ، وديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الجند ، وديوان الحوائج ، وديوان الاحشام ، ومطبخ العامة ، وديوان النفقات » (٢٥١) . وبلاحظ ان معظم هذه الدواوين تتصل بالخليفة شخصيا ، غير ان

(٢٤٧) المنتظم ١٩٢/٨ .

(٢٤٨) الخطيب ١٠٨/١ .

(٢٤٩) الطبري ١٩٠٧/٢ .

(٢٥٠) المنتظم ٢٢٨/٧ .

(٢٥١) البلدان ٢٢٠ .

بعضها كبيت المال ، وديوان الخراج ، وديوان الجند
تتصل اعمالها بالناس .

وذكر اليعقوبي بعض الدواوين خارج المدينة
المدورة ، فقد ذكر أن النصور « اقطع المهاجرين
عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه
باب الكوفة ، فهناك ديوان الصدقات ، وبازائه
قطيعة ياسين صاحب النجائب وخان النجائب » (٢٥٢) .
وقد ذكر ديوان للصدقات في العصر الاموي ، ثم
اختفى ذكره في العصر العباسي ، ولعل عمله يتعلق
بالضرائب المحلية المفروضة على اهل بغداد ، وان
دواوين اخرى حلت محله في عملها .

ان النص الانف الذكر يظهر ان احد الدواوين
كان يقع قرب قطاع صاحبه ، غير ان هذا لم يكن
قاعدة عامة ، فقد ذكر اليعقوبي قطائع لاصحاب
بعض الدواوين التي ذكر موقعها حول الرحبة ، ومن
ذلك « ربض ابي الورد كوتر بن اليمان خازن بيت
المال » وموقعه قرب القنطرة العتيقة (٢٥٣) و « قطيعة
سليم مولى امير المؤمنين باب الكوفة في الشارع
الاعظم » كما ذكر « قصر وشاح صاحب خزانة
السلاح » كما ذكر « مسجد الانباريين كتاب ديوان
الخراج » وموقعه قرب مسجد ابن رغبان (٢٥٤) .

ولما ولي المهدي الخلافة اتخذ مقامه في الجانب
الشرقي ، في الرصافة اولاً ثم في عيساباد التي اتخذها
ابنه وخلفه موسى الهادي ايضاً . وقد رافق انتقال
الخليفة الى الرصافة نقل الدواوين اليها ، فيذكر
الطبري ان عيسى بن موسى عندما فاضه المهدي
على عزله من ولاية العهد في سنة ١٦٠ « بقى
(عيسى) منذ فاضه المهدي على الخلع الى ان اجاب
محتسباً عنده في دار الديوان من الرصافة الى ان صار
الى الرضا بالخلع والتسليم » (٢٥٥) .

وقد تردد من المصادر ذكر درب الديوان
« بالجانب الشرقي بالقرب من جامع المهدي » (٢٥٦)
وانه كان في الرصافة (٢٥٧) وكان عند بابيه
مسجد (٢٥٨) . وذكرت المصادر ممن سكن في هذا
الدرب محمد بن علي بن بكر ابن العلاف وبجواره
ابو القاسم بن بشران (٢٥٩) ومحمد بن عمر بن بكر

التجار (٢٦٠) وابو القاسم عبد الملك بن محمد (٢٦١)
وعبد الخالق بن عيسى الهاشمي (٢٦٢) وابراهيم بن
الحسين الخزان الذي كان اول من لقن ابا الوفاء
بن عقيل القرآن (٢٦٣) .

ومن الواضح ان هذا الدرب سمي درب
الديوان لانه كان يوصل الى الديوان ، اي ان
الديوان كان في الجانب الشرقي بالرصافة وبالقرب
من جامع المهدي ، ويبدل نص الطبري على ان
الديوان كان في الرصافة في اول سني خلافة
المهدي ، غير اننا لا نعلم كم من الزمن بقي الديوان
في هذا المكان ، خاصة وان المهدي نفسه نقل مقره
الى عيساباد . كما ان الرشيد والامين اتخذوا
مقامهما في الجانب الغربي .

ذكر اليعقوبي قطائع عدد غير قليل ممن ولي
بعض الدواوين في خلافتي المهدي والهادي ، وكلها
في الجانب الشرقي . فمما ذكر « قطيعة ابان بن
صدقة الكاتب » و « قطيعة سلمة الوصيف صاحب
خزانة سلاح المهدي » و « قطيعة ثابت بن موسى
الكاتب على خراج الكوفة وما سقى الفرات » و
« قطيعة عبدالله بن زياد بن ابي ليلى الخشمي
الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة
وارمينيه واذربيجان » و « قطيعة عبدالله بن محمد
بن صفوان القاضي » و « قطيعة سلام مولى المهدي
بالمخرم وكان يلي المظالم » و « قطيعة نازي مولى
امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي » (٢٦٤)
ان مواقع هذه القطائع في الجانب الشرقي قد
تضيف دليلاً على ان الدواوين نقلت الى الجانب
الشرقي قريباً من قطائع ولائها ومن مقام الخليفة .

اما الرشيد فقد اتخذ مقامه في بغداد
بالجانب الغربي حيث كان يسكن الخلد (٢٦٥) . ومع
انه لا توجد اشارة الى مكان الدواوين في زمنه ، الا
ان الأرجح انها جعلت في الجانب الغربي ، ومما
يؤيد ذلك ان عدداً من ولاة الدواوين في زمن الرشيد
كانوا يسكنون الجانب الغربي ، فيذكر الخطيب
« واما مسجد الانباريين فينسب اليهم لكثرة من
سكنه منهم ، واقدم من سكنه منهم زياد القندي » .

- (٢٦٠) الخطيب ٢٩/٣ .
(٢٦١) المنتظم ١٠٢/٧ .
(٢٦٢) المنتظم ٢١٦/٨ .
(٢٦٣) المنتظم ٩٨/٩ .
(٢٦٤) البلدان ٢٥٢ - ٣ .
(٢٦٥) لقد بعثت مقام الخلفاء وتنقلهم في مقال « قصور
الخلفاء ومنزلهم في العهد العباسي الاول »
النشور في سومر (٥) .

- (٢٥٢) كذلك ٢٤٢ .
(٢٥٣) كذلك ٢٤٤ .
(٢٥٤) كذلك ٢٤٥ .
(٢٥٥) الطبري ٤٧٢/٢ .
(٢٥٦) الخطيب ٢٢/١٠ المنتظم ١٠٢/٧ .
(٢٥٧) المنتظم ٢١٦/٨ ، ٩٨/٩ .
(٢٥٨) المنتظم ٢١٦/٨ .
(٢٥٩) الخطيب ١٠٢/٣ .

« مضيت في يوم من الأيام على الرسم الى الديوان بالثريا » (٢٧٢) .

يذكر الصابي ان الديوان كان « في السدار المعروفة بفتح القلانيس » (٢٧٢) ولم اجد في المصادر اشارة الى موقع هذه الدار غير ان الديوان نقل بعدئذ الى دار الخلافة ، اذ يذكر ابو القاسم عن ابيه انه قال « كنت يوما بحضرة ابي العباس بن الفرات في الديوان في دار السلطان اذ جاءه خادم . . » (٢٧٤) ثم نقل الديوان الى دار الوزارة بالمخرم ، كما سنذكر فيما بعد .

اما في الازمنة المتأخرة فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٥٦ « كان الديوان بجنب الدار التي يسكنها الوزير ابن هبيرة قبل ان ينتقل هذا الوزير ابن صدقة » (٢٧٥) ويذكر ايضا انه على اثر فيضان سنة ٥٦٩ كثر النزير بدار الخلافة ، فكان الخليفة يخرج من باب الفردوس الى ناحية الديوان ويمضي الى الجامع (٢٧٦) .

الوزارة :

انشأ العباسيون في بداية توليهم الخلافة منصب الوزارة وجعلوها اعلى مؤسسة ادارية في الدولة بعد الخلافة . وكان اختيار الوزير وعزله بيد الخليفة . وقد اختلفت المدة التي قضاها كل منهم في الوزارة ، فبعضهم اشغلها لمدة قصيرة نقل عن السنة ، وبعضهم ظل يشغلها عدة سنوات ، كما ان بعضهم اعيد الى الوزارة اكثر من مرة . وكانوا يختارون من حيث العموم من ذوي المكانة في الادارة والبلاط وقد نكب بعضهم بعد عزله ، ولكن اغلبهم كان يمتلك ثروات كبيرة وضياع واسعة .

ولم تكن سلطات كافة الوزراء واحدة ؛ فبعضهم تمتع بسلطات ادارية واسعة وبعضهم لم يمتط الا سلطات محدودة ، حتى ان اللاوردي ، وهو من اعظم من بحث النظم الادارية العباسية ، صنف الوزارة صنفين رئيسيين ، اولهما وزارة التفويض التي يمارس فيها الوزير كافة سلطات الخليفة في الادارة ، ما عدا حق تعيين ولي العهد او عزل الخليفة ، والثاني وزارة التنفيذ الذي تقتصر سلطته فيها على تنفيذ اوامر الخليفة وقراراته .

وكان يتصرف في ايام الرشيد ، وكان الرشيد ولي ابا وكيع ، الجراح بن حكيم ، بيت المال ، فاستخلف زيادا ، وكان زياد من الفالية ، فاخشان هو وجماعة من الكتاب ، واقتطعوا من بيت المال (٢٦٦) ويقول البيهقي في وصفه قطائع تلك المنطقة « ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج » (٢٧١) ويلاحظ ايضا ان الخطيب يذكر ان منازل البرامكة كانت بالقرب من قطعة الانصار (٢٦٨) وهذه القطيعة تقع في هذه المنطقة ايضا . ومن الصعب ان ننصور ان كتاب الخراج في زمن الرشيد يقيمون في جنوبي المدينة المدورة ، في حين ان الديوان وهو محل عملهم ، يقع في الجانب الشرقي .

والراجع ان الدواوين ظلت في الجانب الغربي من خلافة الامين الذي كان مقامه في ذلك الجانب .

ولما قتل الامين ، ارسل المأمون الحسن بن سهل واليا على بغداد ، وكان فيما يظهر يقيم في القصر الحسن الذي اصبح مقر الخلفاء بعد عودتهم من سامراء ، وقد اقام المأمون في هذا القصر ، ثم في قصر المأمون بقرية ، ولا تعلم مكان الدواوين في زمن المأمون .

وفي اوائل خلافة المعتصم بنيت سامرا وانتقل اليها الخليفة ، واصبحت دار الخلافة لسبعة خلفاء متتابعين ، ويبدو ان الدواوين الرئيسية في الدولة نقلت الى سامراء ، حيث يذكر البيهقي الذي يعتبر كتابه اوسع ما وصلنا عن سامراء ، ان ديوان الخراج الاعظم كان في الشارع الكبير المسمى بالسريجة (٢٦٩) ، وان الخزائن الخاصة قرب دار العامة (٢٧٠) ، اما المتوكل فانه اسا بنى مدينته في شمالي سامرا نقل اليها « ديوان الخراج ، وديوان الضياع ، وديوان الزحام ، وديوان الجند والساكرية ، وديوان الموالي والغلمان ، وديوان البريد ، وجميع الدواوين » (٢٧١) .

ولما عاد الخلفاء العباسيون الى بغداد بنى المعتضد قصر الثريا واتخذ مقره له قبل ان يبنى التاج ، ويبدو انه جعل الدواوين في الثريا ، فيروي الصابي عن ابي القاسم ابن الزنجي الذي يروي عن عمه ابي الطيب احمد بن اسماعيل الذي قال

(٢٦٦) الخطيب ٨٩/١ .

(٢٦٧) البلدان ٢٤٥ .

(٢٦٨) الخطيب ٨٩/١ .

(٢٦٩) البلدان ٢٦٠ .

(٢٧٠) البلدان ٢٦١ .

(٢٧١) البلدان ٢٦٧ .

(٢٧٢) الوزراء للصابي ٢٠٤ وانظر ايضا ١٠٦ .

(٢٧٣) كذلك ١٢٧ .

(٢٧٤) كذلك ٢٠٦ .

(٢٧٥) المنتظم ١٩٩/١ .

(٢٧٦) المنتظم ٢٤٥/١ .

ولكنه حتى في هذه الحالة كان يتمتع بسلطات واسعة . ومن حيث العموم فان مدى سلطات الوزير تتوقف على شخصية الخليفة ومقدار ما يمنحه للوزير من الحقوق .

وكانت الوزارة منذ بداية نشأتها وثيقة الصلة بالدواوين ، لان الوزير هو المسؤول الاول عن ادارتها كما ان كثيرا ممن وليها ، وخاصة في القرن الثالث واولائل القرن الرابع ، كانوا في الاصل من كتاب الدواوين .

وكان الوزراء في خلافة ابي جعفر المنصور ذوي سلطة سياسية وادارية محدودة في الدولة ، وكان معظمهم يتحاشى ان يلقب بالوزير ، كما ان الكتب كثيرا ما كانت تطلق عليه لقب « الكاتب » ثم ازدادت اهميتهم منذ ان ولي المهدي الخلافة ، واستمرت هذه الاهمية عموما حتى سنة ٢٢٤ حين انشئ منصب امير الامراء « وبطل منذ يومئذ امر الوزارة فلم يكن الوزير ينظر في شيء من امر النواحي ولا الدواوين ولا الاعمال ، ولا كان له غير اسم الوزارة فقط ، وان يحضر في ايام المواقب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ويقف ساكنا ، وصار ابن رائق وكاتبه ينظران في الامر كله ، وكذلك كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق الى هذه الغاية ، وصارت اموال النواحي تحمل الى خزائن الامراء فيأمرون وينهون فيها وينفقون كما يرون ويطلقون لتنفقات السلطان ما يريدون ، وبطلت بيوت الاموال » (٢٧٧) .

لم تذكر المصادر مركز عمل الوزير او من يقوم بعمله ، في زمن كل من ابي جعفر المنصور . والمهدي ، والهادي . ولكنها ذكرت اماكن سكن معظم من اشغل منصب الوزارة او الاشراف على الدواوين ، ففي خلافة المنصور اشغلها كل من خالد بن برمك وعبد الملك بن حميد وابو ايوب المورياني ، والربيع بن يونس ، فاما خالد بن برمك فان الخطيب يذكر ان « منازل البرامكة بالقرب من قطيعة الانصار » (٢٧٨) . ويذكر الجهشباري « كان خالد بن برمك ينزل بالشامية في الموضع المعروف بسويقة خالد ، وهو اقطاع من المهدي (٢٧٩) ويذكر يعقوب الطرقي التي تتفرع من الجسر في الجانب الشرقي ومنها « طريق ذات اليسار الى باب

(٢٧٧) تجارب الامم ٢٥٢/١ .

(٢٧٨) الخطيب ٨٩/١ .

(٢٧٩) الوزراء والكتاب ١٨٩ .

البردان . وهناك منزل خالد بن برمك وولده (٢٨٠) ومن الواضح ان الجهشباري ويعقوب يشاران الى اقطاع واحد هو الذي في الجانب الشرقي ، وهو الذي يذكر الجهشباري انه اقطاع من المهدي . اما الاقطاع الذي ذكره الخطيب ، وموقعه جنوبي المدينة المدورة وخارجها وبالقرب من اقطاعات معظم اصحاب الدواوين في زمن المنصور ، فهو فيما يظهر اقطاع من المنصور .

اما ربض عبد الملك بن حميد (٢٨١) وربض اي ايوب الانصاري (٢٨٢) فيقعان في شمالي المدينة المدورة خارجها . ولا بد ان منازل كل منهما كانت تقع في ربض .

اما الربيع بن يونس فان قطيعته كانت في الكرخ وهي مشهورة (٢٨٢) .

وينبني من هذا ان قطائع الذين اشغلوا منصب الوزارة او قاموا بعملها في زمن ابي جعفر ، كانت كلها في الجانب الغربي وبالقرب من المدينة المدورة وخارجها .

اما في خلافة المهدي ، فقد اشغل منصب الوزارة او عملها كل من ابي عبيد الله معاوية ، ويعقوب بن داود ، وعمر بن تهمان ، والربيع بن يونس ، والفيض بن صالح فاما عمر بن تهمان والفيض بن صالح فلم اجد ذكر اقطاع لاي منهما ، واما الربيع بن يونس فقد ذكرنا قطيعته في الجانب الغربي ، اما ابي عبيد الله فكانت له سويقه في الجانب الشرقي (٢٨٤) ولعلها نشأت في اقطاعه وان مسكنه كان هناك .

واما يعقوب بن داود فكانت له في الجانب الشرقي (٢٨٥) قطيعة ورحبة (٢٨٦) .

ويلاحظ ان المهدي جعل مقره ودواوينه في الجانب الشرقي .

اما في خلافة موسى الهادي القصيرة الامد ، فقد كان الوزير هو الفيض بن صالح الذي اشرنا من قبل الى عدم ذكر المصادر محل سكناه .

وفي زمن الرشيد هبمن على الوزارة يحيى

(٢٨٠) البلدان ٢٥٤ .

(٢٨١) الخطيب ٨٥/١ .

(٢٨٢) البلدان ٢٤٨ .

(٢٨٣) الخطيب ٨٨/١ .

(٢٨٤) الخطيب ٩٢/١ .

(٢٨٥) البلدان ٢٥٢ .

(٢٨٦) الخطيب ٩٢/١ .

البرمكي واولاده . فاما يحيى فكان له قصر الطين الذي بناه بباب الشماسية (٢٨٧) ، واما جعفر بن يحيى فكانت داره في سوقه جعفر (٢٨٨) وهي بالقرب من باب الطاق واما الفضل بن يحيى فلم اجد في المصادر ذكرا لكان مسكنه . ويلاحظ ان يحيى بن خالد كان يقيم في اول خلافة الرشيد في قصر الخلد مع الخليفة .

ولما نكب الرشيد البرامكة ولى الوزارة الفضل بن الربيع الذي ظل يشغلها طوال خلافة الامين . ولم تذكر المصادر محل سكناه ، ولعله كان يسكن في قطيعة الربيع .

اما في خلافة المأمون فقد اشغل الوزارة ببغداد كل من الحسن بن سهل واحمد بن ابي خالد ، واحمد بن يوسف بن القاسم ، وابو عباد ثابت بن يحيى بن يسار وابو عبدالله محمد بن يزدا . ولم اجد ذكرا لمنازل هؤلاء الا الحسن بن سهل الذي سكن القصر الحسيني الذي اصبح فيما بعد من ابنية دار الخلافة .

ولما اعاد العباسيون مقر خلافتهم الى بغداد تعاقب على الوزارة حتى سنة ٣٢٤ ست وعشرون وزيرا ، فممنهم عدد ينتمي الى اسرة واحدة ، فقد ولى من آل وهب كل من سليمان بن وهب (٢٥٥ ، ٢٦٣ - ٥) وعبدالله بن سليمان بن وهب (٢٧٧ - ٢٨٨) والقاسم بن عبيدالله (٢٨٨ - ٢٩١) ومحمد بن القاسم بن عبيدالله (٣٢١) .

ووليها من آل مخد كل من الحسن بن مخد (٢٦١) وابنه سليمان (٣١٨ - ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ - ٣٢٩)

ووليها من آل الفرات كل من علي بن محمد بن الفسرات (٢٩٦ - ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣١١) والفضل بن جعفر بن الفرات (٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧) .

ووليها من آل الخاقاني كل من محمد بن عبيد الله الخاقاني (٢٩٩ - ٣٠١) وابنه عبيدالله (٣١٢ - ٣١٣) .

ووليها علي بن عيسى الجراح (٣٠١ - ٣٠٤ ، ٣١٤ - ٣١٦) واخوه عبد الرحمن بن عيسى (٣٢٤) .

ووليها كل من احمد بن صالح بن شيرزاد (٢٧٧) والعباس بن الحسن الجرجاني (٢٩١ - ٦)

(٢٨٧) معجم البلدان ١١٤/٤ .

(٢٨٨) الوزراء والكتاب للجيشياري ٢٤١ .

وحامد بن العباس (٣٠٦ - ٣١١) واحمد بن عبيد الله الخصيبي (٣١٣ - ٤) (٣٢١ - ٢) ومحمد بن علي بن الحسن بن مقله (٣١٦ - ٨ ، ٣٢٠ - ١ ، ٣٢٢ - ٤ ، ٣٢٦ - ٧ ، ٣٣١ - ٢) واحمد بن محمد البريدي (٢٢٧ - ٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠) وكذلك كل من اسماعيل بن بلبل (٢٦٥ - ٢٧٧) وعبيدالله بن محمد الكواذاني (٣١٩) والحسين بن القاسم (٣١٩ - ٢٠) ومحمد بن القاسم الكرخي (٣٢٩ ، ٣٢٩) واحمد بن محمد بن ميمون (٣٢٩) ومحمد بن احمد الاسكافي (٣٢٩ ، ٣٣٠) وابو عبدالله الكرخي (٣٢٩ - ٣٠) ومحمد بن علي السامري (٣٣٣ - ٤) (٢٨٩) .

لم اجد في المصادر ذكرا لمنازل الثمانية الاخيرين اما الذين قبلهم فان دار البريدي كانت بسوق يحيى (٢٩٠) ودار ابن مقله في الزاهر (٢٩١) ودار الخصيبي في قنطرة الانصار (٢٩٢) ودار حامد بن العباس في المخرم (٢٩٣) ودار العباس بن الحسن الجرجاني « الى دجلة وظهرها الى البستان المعروف بالزاهر » (٢٩٤) ودار احمد بن صالح بن شيرزاد بالدور مما يلي قصر جعفر بن يحيى بن خالد (٢٩٥) وهي قرب دار طازاد التي في قصر فرج على شاطئ دجلة (٢٩٦) ودار علي بن عيسى بسوق العطش (٢٩٧) ودار الخاقاني بباب الشماسية (٢٩٨) ودار ابن الفرات بسوق العطش (٢٩٩) ودار سليمان بن الحسن بباب المحول (٣٠٠) .

دار الوزارة :

يتردد في المصادر ان الوزارة وخاصة في عهد خلافة المقتدر كان مقرها في دار سليمان بن وهب الذي كان ينحدر من اسرة تنابع افرادها في الكتابة في العصرين الاموي والعباسي . وقد اصبح سليمان

(٢٨٩) اتصفت في هذه القائمة على كتاب « المؤسسات الادارية » لعصام الدين قوام الدين .

(٢٩٠) الصولي : اخبار الراعي والتقى ١٤٠ تجارب الامم ١٧/٢ ، ٢٠ ، ٢٤ .

(٢٩١) الصولي ٨١ كلمة الطبري ١٠٥ ، ١١٧ .

(٢٩٢) الصولي ١٥٢ مخطوطة الزهر .

(٢٩٣) كلمة الطبري ٢٠ .

(٢٩٤) الصولي ١٦ .

(٢٩٥) الطبري ١٠٦٣/٢ .

(٢٩٦) تجارب الامم ٧٨/١ .

(٢٩٧) تجارب الامم ٧١/١ المنتظم ١٣٨/٦ .

(٢٩٨) الصولي ٥٧١ مخطوطة الزهر .

(٢٩٩) تجارب الامم ٧/١ ، ٩١ .

(٣٠٠) الصولي ٨١ .

سليمان لم يسكن فيها كثيراً لأنه خدم واستوزر للخلفاء العباسيين في سامراء الذين لم يعودوا إلى بغداد إلا سنة ٢٧٨ هـ ، أي بعد وفات سليمان بعدة سنوات .

لم تذكر المصادر مصر دار سليمان بعد حبس صاحبها ، ولعلها عادت إليه بعد مصالحته ، ولعله أشغلها من بعده ابنه عبدالله بن سليمان بن وهب الذي ظل في الوزارة من سنة ٢٧٧ إلى سنة ٢٨٨ ، أي طوال السنوات العشر الأولى من عودة الخلفاء إلى بغداد واتخاذهم مقراً في قصر الحسن بن سهل . والراجع أن هذه الدار انتقلت إلى القاسم بن عبيد الله أعقب أباه في الوزارة وظل فيها إلى وفاته سنة ٢٩١ ، ولعلها كانت خلال وزارة سليمان وابنه وحفيده مركز الوزارة .

وقد صارت هذه الدار للعباس بن الحسن الذي أعقب القاسم بن عبيد الله في الوزارة وظل فيها من سنة ٢٩١ - ٢٩٦ ، فلما عزل القنطرة العزلة الأولى سنة ٢٩٦ انصرف العباس بن الحسن « إلى المخرم وجلس في دار سليمان بن وهب » (٣٠٥) . ويبدو أن هذه الدار قد أصبحت دار الوزارة . إذ أن الهمداني يذكر أن العباس عاد إلى « دار الوزارة بالمخرم » (٣٠٦) .

ولما ولي ابن الفرات الوزارة بعد العباس ، أقطعه القنطرة هذه الدار ، فيذكر الصابي « وانتقل أبو الحسن (علي) بن الفرات من بعد ذلك إلى ما أقطعه القنطرة بالله من دار سليمان بن وهب بباب المخرم على دجلة وما يجاورها من دار إبراهيم بن سليمان ، والاصطبل الذي كان للسلطان ، والدور التي كانت في يد داية المكتفي بالله ، ومساحة ذلك مائة ألف وثلاثة وسبعون ألفاً وثلاثمائة وستة وأربعون ذراعاً ، وغير ذلك وجدده ، وأنشأ المجالس الجليلة والإبنية الحسنة ، وعمل للدار مسننة مشرفة على دجلة » (٣٠٧) .

ويتبين من هذا أن رقعة دار الوزارة أصبحت ٤٠٢ × ٢٠٠ ذراعاً إذ افترضنا أنها كانت مربعة المساحة ، وأنها كانت تشمل دور كل من سليمان ، وإبراهيم ، وداية المكتفي بالإضافة إلى اصطبل السلطان ، أي أن دار سليمان بن وهب صارت بعض دار الوزارة ، غير أن المصادر لا تذكر موقع دار سليمان من دار الوزارة الجديدة .

(٣٠٥) تكملة الطبري ٥ .

(٣٠٦) تكملة الطبري ٦ .

(٣٠٧) الوزراء للصابي ٢٨ - ٢٩ .

بن وهب كاتباً للحسن بن سهل وللعامون ثم ولي الوزارة للمهتدي في سنة ٢٥٥ ثم عزل وأعيد تعيينه سنة ٢٦٢ - ٢٦٤ ، ثم عزله الموفق وأعادته بعد فترة فظل في الوزارة سنة ٢٦٤ - ٢٦٥ وقد ساهم في الأحداث في زمنه ، وقد غضب عليه المعتضد في سنة ٢٦٤ وحبسه ثم أطلق سراحه ، ولكنه في السنة التالية « أمر أبو أحمد بحبس سليمان بن وهب وابنه عبيد الله ، فحبسا وعده من أسبابهم في دار أبي أحمد ، وانتهيت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ داري سليمان وابنه عبيد الله ، وأمر بقبض أموالهما وأموال أسبابهما وضباعهم خلا أحمد ابن سليمان ، ثم صولح سليمان وابنه عبيد الله على تسعمائة ألف دينار ، وصيرا في موضع يطل إليهما » (٣٠١) وقد ظل سليمان في حبس الموفق حتى توفي سنة ٢٧٢ (٣٠٢) .

وقد ذكر الخطيب أصل هذه الدار حيث قال نقلاً عن ابن عرفة « وأما شاطئ دجلة من الجانب الشرقي فأوله بناء الحسن بن سهل وهو قصر الخليفة في هذا الوقت .

ودار دينار

دار رجاء بن أبي الضحاك

ثم منازل الهاشميين

ثم قصر المعتصم وقصر المأمون

ثم منازل آل وهب ، إلى الجسر كانت أقطاعات

لناس من الهاشميين ومن حاشية الخلفاء » (٣٠٣) .

ومن الواضح أن الجسر المذكور في هذا النص هو الذي يتصل بباب الشعير في الجانب الغربي (٣٠٤) ، وأن هذه المنازل تقع جنوبي الجسر ، وأنها كانت قرب قصري المعتصم والمأمون ، وهي تبعد مسافة عن دار الخلافة ، حيث تقع بينهما عدة دور . ومع أن نص الخطيب لا يذكر صراحة دار سليمان بن وهب ، إلا أن سياق الكلام يقتضي أن هذه الدار هي المقصودة ، أو هي الرئيسة من دور آل وهب .

ويوضح من نص الخطيب أن منازل آل وهب كانت في الأصل أقطاعات لبعض الهاشميين ، ولعل آل وهب حصلوا عليها في خلافة المأمون ، ولا بد أن

(٣٠١) الطبري ٢/ ١٩٢ .

(٣٠٢) الطبري ٢/ ٢١٠٨ .

(٣٠٣) الخطيب ١/ ٩٨ ويلاحظ أن رجاء بن أبي الضحاك هو ابن عم الحسن بن سهل (الطبري ٢/ ٩٩٢) وكان مقرباً إلى المأمون (الطبري ٢/ ٩٩٥ ، ١٠٠٠) .

(٣٠٤) ألفردا لجسور بغداد بحثاً خاصاً نرجو أن ننشره قريباً .

ويبدو ان حامداً بن العباس اشغل هذه الدار في وزارته ، ثم اقطعها المقتدر بالله ابنه ابا العباس (٢٠٨) ، غير ان ابن الفرات لما عاد الى الوزارة « سأل ان يعاد الى داره بالمخرم ، وكانت اقطعت للامير ابي العباس ، فاذن له المقتدر في ذلك ، وكان ذلك في سنة ٣١١ (٢٠٩) ، وبذل هذا النص ان هذه الدار كانت ملكيتها للخليفة ، وان اقطاعها لابنه لم يقصد منه نقل ملكيتها الى ابي العباس . غير ان المصادر لم تذكر كيف آلت ملكية هذه الدار الى الخليفة .

ويروى الصابي عن ابي القاسم بن زنجي « سمعت ابا الحسن بن الفرات يقول في وزارته الثالثة في سنة ٣١١ انه اتفق على الدار التي كان ينزلها في ذلك الوقت وفيها قبض عليه ، وهي دار سليمان بن وهب ، وموقعها في المخرم ، وفي يد الحاجب الكبير ابي منصور سبكتكين الان شيء منها ، وفي يد ابن لشكرون شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الديلم الباقي « ثلاثمائة الف دينار » (٢١٠) .

وقد ظلت هذه الدار تحتفظ بنسبتها الى صاحبها الاول فتسمى دار سليمان ابن وهب (٢١١) . ونظرا لطول اقامة ابن الفرات فيها وما ادخله من تعميرات عليها ، فقد سميت ايضا في بعض المصادر دار ابن الفرات (٢١٢) ثم انها باعتبارها مقر الوزارة ، كانت تسمى ايضا دار الوزارة (٢١٣) .

وتقع هذه الدار بباب المخرم (٢١٤) على دجلة (٢١٥) ، عند الجسر . ويذكر ابن عرفة ما يدل على ان الجسر كان شمالها (٢١٦) . غير ان الصولي يذكر انها « فوق الجسر » (٢١٧) وهذا النص الغامض قد يدل على انها في جنوبي الجسر ، او انها في شماليه ، فان كان الاخير فانه يدل على ان الجسر قد حول بعد ابن عرفة الى الجنوب وعند هذه الدار

تقع مشرعة الصخر (٢١٨) . ولما كانت هذه الدار أصبحت لسبكتكين ، ثم صارت دار المملكة ، كما سنذكر فيما بعد ، ولما كانت دار المملكة « محاذية للفرضة » (٢١٩) فتكون الفرضة قرب مشرعة الصخر او لعلها هي نفس المشرعة .

ولما كانت هذه الدار مقر الوزارة ، فقد كان يمارسون اعمالهم فيها ، وقد تردد ذكر ذلك في المصادر : فيذكر مسكويه ان علي بن عيسى في وزارته سنة ٣٠٣ « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢٠) ويذكر ايضا ان ابا القاسم الكلواذاني لما ولي الوزارة « صار ينظر في الاعمال في دار الوزارة بالمخرم » (٢٢١) ويذكر الصابي ان علي ابن عيسى في وزارته الثانية سنة ٣٠٣ صار الى « دار الوزارة بالمخرم وقد جعلها ديوانا » (٢٢٢) كما يقول انه لما وزر سنة ٣٠٣ « اقام في هذه الدار ثم نقل الدواوين اليها » (٢٢٣) ويبدو من هذا النص ان الدواوين لم تكن في دار الوزارة حتى نقلها اليها علي بن عيسى .

يذكر مسكويه (٢٢٤) والصابي (٢٢٥) ان ابن الفرات اقطع هذه الدار ، غير ان المعلومات المتوفرة في المصادر تدل على ان هذه الدار كانت مقر الوزارة ويسكنها الوزراء خلال اشغالهم ذلك المنصب فحسب ، وان ملكيتها تعود الى الدولة .

كانت دار الوزارة بالمخرم واسعة ، فيها عدة بيوت ، ذكرت المصادر منها « بيت يعرف بالدمشقي » كانت فيه سجلات بلغت حتى السقف (٢٢٦) ، كما كانت فيها دار للمستخرج ابن بعد شر (٢٢٧) ، وفيها ايضا الدار الجديدة (٢٢٨) .

وفي دار الوزارة ايضا كانت دار البستان التي يذكر الصابي ان ابن الفرات في وزارته الثالثة (سنة ٣١١) « انتهى في وزارته هذه ان يجمع

(٢١٨) الصولي ١٥٢ ب ويقول ابن الجوزي ان بهاء الدولة نقل اخيه زوجة الطائع الى دار في مشرعة الصخر (المنتظم ١٦٣/٧) ولعله نقلها الى هذه الدار .

(٢١٩) المنتظم ٧٧/٧ .

(٢٢٠) تجارب الامم ٢٧/١ .

(٢٢١) كذلك ١٤٩/١ .

(٢٢٢) الوزراء ٦٨ .

(٢٢٣) كذلك ٣٦٨ .

(٢٢٤) تجارب الامم ١١/١ ، ٥٣ .

(٢٢٥) الوزراء ٢٨ .

(٢٢٦) الوزراء ٢٣٠ .

(٢٢٧) تكملة الطبري ٤٥ .

(٢٢٨) الوزراء ٢١٤ .

(٢٠٨) تكملة الطبري ٢١ ، ٢٢ .

(٢٠٩) تكملة الطبري ٦٩ .

(٢١٠) الوزراء للصابي ١٩٩ .

(٢١١) الوزراء ٣٦ ، ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٠٦ تجارب

الامم ٥ الصولي ١٥٢ ب (مخطوطة الازهر) .

(٢١٢) الصولي ١١٥ ، ١٢٣ ب ، ١٥٢ ب (مخطوطة

الازهر) تجارب الامم ١١/١ ، ٩١ .

(٢١٣) تجارب الامم ٢٧/١ ، ٥٩ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٤٩

الوزراء للصابي ٦٩ ، ٣٢٥ ، ٣٦٨ .

(٢١٤) تجارب الامم ٥/١ ، ٥٩ ، ١٢٢ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ،

٢٧١ .

(٢١٥) الوزراء للصابي ٢٨ .

(٢١٦) الطيب ٩٨/١ .

(٢١٧) الصولي ١٢٣ ب (مخطوطة الازهر) .

حرمه وبنات اخوته واصاغر ولده في الدار المعروفة بدار البستان المعروفة بدار سليمان ابن وهب ، فتقدم باصلاحها وتنظيفها وانفاق ما يحتاج اليه من تبييضها ، فبلغت النفقة خمسين الف دينار ، وجلس وهم فيها يوما واحدا ، ولم يعد بعد ذلك الى الجلوس معهم فيها « (٢٢٩) » .

وكانت نفقات « من يرسم دار الوزارة من خلفاء الحجاب والبوابين واصحاب الرسائل وانزال الفرسان والرجالة عشرين الف دينار « (٢٣٠) » .

ظلت دار الوزارة هذه حتى سنة ٢٢١ حين « خرج امر القاهر ببيع دار المخرم التي كانت يرسم الوزارة ، وكانت قديما لسليمان بن وهب فقطعت وبيعت من جماعة من الناس لان ذرعها يشتمل على اكثر من ثلاثمائة الف ذراع ، وصرف عنها من مال الصلة لبيعة القاهر « (٢٣١) » .

ويذكر الصابي في كلامه عن هذه الدار « وفي يد الحاجب الكبير منصور سبكتكين الان شيء منها وفي يد ابن لشكره شيء آخر ، وفي ايدي قوم من قواد الديلم الباقي « (٢٣٢) » .

ولما دخل البويهيون بغداد ، صاروا يمارسون الحكم والادارة بانفسهم فلم يعد للخليفة الا الاسم ، ثم انهم وزعوا العراق اقطاعات ، فبطلت العمارات واغلقت الدواوين ومحي اثر الكتابة والعمالة « (٢٣٣) » .

دار المملكة :

وقد شيد معز الدولة له قصرا في اعلى الشماسية ، اما عز الدولة فبنى له قصرا في الحريم الطاهري ، فلما جاء عضد الدولة اعاد تعمير المكان الذي كانت فيه دار الوزارة قديما وسماها دار المملكة .

ويقول الصابي « طورد عضد الدولة والامر جار على ذلك لمر الدولة ، فسأل الطائع لله الاذن له في ضرب الطبل على باب داره بالمخرم التي هي اليوم دار المملكة وكانت من قبله لسبكتكين الحاجب ، ففعل ذلك « (٢٣٤) » .

اما دار المملكة فالمقصود بها ما بناء المعتضد ، وقد وصفها هلال بن المحسن حيث قال : كانت

(٢٢٩) الوزراء ١٩٩ .

(٢٣٠) تجارب الامم ١٥٦/١ .

(٢٣١) تجارب الامم ٢٥٨/١ كلمة الطبري ٧٥ .

(٢٣٢) الوزراء ١٩٩ .

(٢٣٣) تجارب الامم ٩٨/٢ .

(٢٣٤) رسوم دار الخلافة ١٢٧ .

دار المملكة التي باعلى المخرم محاذية الفرضة قديما لسبكتكين غلام معز الدولة فنقض عضد الدولة اكثرها . ولم يستبق الا البيت السبيني الذي هو في وسط اروقة من ورائها اروقة : في اطرافها قباب معقودة ، وتفتح ابوابه الغربية الى دجلة وابوابه الشرقية الى صحن من خلفه بستان ونخل وشجر . وكان عضد الدولة جعل الدار التي هذا البيت فيها دار العامة ، والبيت يرسم جلوس الوزراء وما يتصل به من الاروضة والقباب ، مواضع للدواوين ، والصحن مناما لديلم التوبة في ليالي الصيف .

قال هلال : وهذه الدار وما تحتوي عليه من البيت المذكور والاروقة خراب ولقد شاهدهت مجلس الوزراء من ذلك ومحفل من يقصدهم ويحضرهم ، وقد جعله جلال الدولة اصطبلا اقام فيه دوابه وسواسه . واما بناء عضد الدولة وولده بعده في هذه الدار فهو متماسك على تشمته « (٢٣٥) » .

وينقل الخطيب عن القاضي ابي القاسم التنوخي عن ابيه « حاشيت الملك عضد الدولة في دار المطكة بالمخرم التي كانت دار سبكتكين حاجب معز الدولة من قبل ، وهو يتأمل ما عمل وهدم منها ، وقد كان اراد ان يترك في الميدان السبكتكين اذرعاً ليجعله بستاناً ويرد بدل التراب رملا وي طرح التراب تحت الروشن على دجلة ، وقد اثناع دورا كثيرة كبارا وصغارا وتقضها ورمى حيطانها بالقيلة تخفيفا للمونة ، و اضاف عرصتها الى الميدان ، وكانت مثل الميدان دفعتين ، وبنى على الجميع مسناة . فلما فرغ من ذلك وصار البستان ارضا بيضاء لا شيء فيها من غرس ولا نبات : فقال : « قد اتفق على هذا حتى صار كذا اكثر من الف الف درهم صحاحا ، ثم فكر في اذ يجعل شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة ، وعلم ان الدواليب لا تكفي ، فاخرج المهندسين الى الانهار التي في ظاهر الجانب الشرقي من مدينة السلام ليستخرجوا منها نهرا يسبح ماؤه الى داره ، فلم يجدوا ما اراده الا في نهر الخالص ، فعطى الارض بين البلد وبينه تعالية امكن معها ان يجري الماء على قدر من غير ان يحدث به ضرر ، وعمل تلين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ، ويرتفعان عن ارض الصحراء اذرعاً ، وشق من وسطهما نهراً جعل له خورين من جازبيه ، وداس الجميع بالقيلة دوسا كثيرا حتى قوى واشتد وصلب وتلبد ، فلما بلغ الى منازل البلد واراد سوق النهر الى داره ، عمد

(٢٣٥) الخطيب ١٠٥/١ المتلهم ٧٨/٧ .

الى درب السلسلة فذلك ارضه دكا قويا ، ورفع ابواب الدور واوثقها ، وبنى جوانب النهر طول البلد بالاجر والكلس والنورة ، حتى وصل الماء الى الدار وسقى البستان .

قال ابي ولغت النفقة على عمل البستان وسوق الماء اليه على ما سمعته من حواشي عضد الدولة خمسة الاف الف درهم . ولعله قد انفق على ابنية الدار على ما اظن مثل ذلك ، وكان عضد الدولة عازما على ان يهدم الدور التي بين داره وبين الزاهر ، ويصل الدار بالزاهر ، فمات قبل ذلك « (٢٢٦) » .

ويقول ابن الجوزي انه في سنة ٣٧١ امر عضد الدولة بحفر نهر من عمود الخالص وسياقه الماء الى بستان داره فبدىء في ذلك ، وحشر الرجال لعماله « (٢٢٧) » .

ويقول ايضا انه في سنة ٣٧٢ « في المخرم فتح الماء الذي استخرجه عضد الدولة من الخالص الى داره وبستان الزاهر » (٢٢٨) ، ويذكر ايضا ان عضد الدولة « غرس الزاهر وهو دار ابي علي بن مله وكانت قد صارت تلا » (٢٢٩) .

ففي سنة ٣٧٩ توفي شرف الدولة ، فركب « الطائع لله الطيار وسار الى دار المملكة بالمخرم لتعزية ابي نصر (بهاء الدولة) ، وقد رد بهاء الدولة الزيارة للخليفة ثم عاد الى دار المملكة » (٢٤٠) . ولما عزل الطائع « اصعد به الى الخزانة في دار المملكة » (٢٤١) ، ويلاحظ ان بهاء الدولة نقل اخته زوجة الطائع لله الى دار بمشرفة الصخر القريبة من دار المملكة (٢٤٢) .

ولما جاء جلال الدولة بغداد سنة ٤١٨ دخل دار المملكة (٢٤٣) ، وفي السنة التالية حاصرها الجند (٢٤٤) ، ثم لما اضطرت بغداد على جلال الدولة « نقل السلطان ماله من كراغ الى دار المملكة ، وعملت هناك المالف » (٢٤٥) .

وفي سنة ٤٢٧ « نهب الجند دار المملكة وابوابها وساجها ، ورتبوا فيها حفظة فكانت الحفظة تخربها نهارا ، وتنقل ما اجتمع من ذلك ليلا » (٢٤٦) .

ولما توفي جلال الدولة ، « دفن في بيت دار المملكة في بيت كان قد دفن فيه عضد الدولة وبهاء الدولة قبل نقلهما ، ثم نقل تابوته الى تربتهم في مقابر قریش » (٢٤٧) .

ولما ورد طغرل بك بغداد نزل دار المملكة وتفرق عسكره في دور الاتراك (٢٤٨) .

دار المملكة في العهد السلجوقي :

يذكر الخطيب « ولما ورد طغرل بك الفزى بغداد واستولى عليها ، عمر هذه الدار (دار المملكة التي بناها عضد الدولة) وجدد كثيرا مما كان ، وهي منها ، في سنة ٤٤٨ » (٢٤٩) .

واورد ابن الجوزي عن عمل طغرل بك تفاصيل اوفى حيث ذكر في حوادث سنة ٤٤٨ « وفي هذه السنة ابتدا السلطان طغرل بك ببناء سور عريض دخل فيه قطعة كثيرة من المخرم ، وعزم على بناء دار فيها وجمع الصناع لتجديد دار المملكة العضدية ، وخربت الدور والدروب والمحال والاسواق بالجانب الشرقي وجميع ما يقارب الدار واخذت الانهار للاستعمال ، وتقضت دور الاتراك وسلت اخشابها بالجانب الغربي ، وقلع الفقراء اخشاب الدور وباعوه على الخبازين والقراشين » (٢٥٠) .

وقد نقل سبط ابن الجوزي رواية جده مع بعض الاختلافات حيث قال في حوادث سنة ٤٤٨ « ابتدا طغرل بك بعمارة سور عريض على داره ، دخل فيه قطعة كبيرة من المخرم ودار الفيل ، وجمع الصناع لتجديد دار المملكة العضدية ، وبنى عليها ابراج ، وخربت الدور والاسواق المجاورة لها بالجانب الشرقي ، وقلمت اخشاب دور الاتراك في الجانب الغربي وحملت اليها » (٢٥١) .

(٢٢٦) الخطيب ١/١٠٦ - ٧/٧ المنتظم .

(٢٢٧) المنتظم ٧/١٠٧ .

(٢٢٨) المنتظم ٧/١١٢ .

(٢٢٩) المنتظم ٧/١١٤ .

(٢٤٠) المنتظم ٧/١٤٨ .

(٢٤١) المنتظم ٧/١٥٦ .

(٢٤٢) المنتظم ٧/١٦٢ .

(٢٤٣) المنتظم ٨/٢٨ .

(٢٤٤) المنتظم ٨/٣٥ .

(٢٤٥) المنتظم ٨/٥١ .

(٢٤٦) المنتظم ٨/٨٩ .

(٢٤٧) المنتظم ٨/١١٨ .

(٢٤٨) المنتظم ٨/١٦٥ .

(٢٤٩) الخطيب ١/١٠٦ .

(٢٥٠) المنتظم ٨/١٦٩ .

(٢٥١) مرآة الزمان ٢ (طبعة سويم ، ولعل الجسر الذي عقد في هذه السنة بين مشرفة الحطابين ومشرفة الروابا هو عمل مكمل لعمار هذه المنطقة .

ويذكر الخطيب بعد النص الذي أوردناه أعلاه « .. فمكثت كذلك الى سنة خمسين وأربعمائة ، ثم أحرقت وسلب أكثر ألاتها ، ثم عمرت بعد وأعيد ما كان أخذ منها » (٢٥٢) .

ثم يذكر ابن الجوزي في حوادث ٤٥٠ احتراق دار الملكة ، غير أنه ذكر الحوادث الجسام التي حدثت في تلك السنة ببغداد ، فقد كان طغرىك غائبا عنها ، وقد بدأت السنة بالخلال الأمن في بغداد وانقسام السلاجقة فيها ، ونقطع الجسر وهو يقول « وركب رئيس الرؤساء وعميد العراق الى دار الملكة وأخذ ما يصلح من السلاح ، وضربا باقي الباقي النار » ، ثم أعقب ذلك دخول البساسيري بغداد ، وعقده الجسر بباب الطاق ونزوله الزاهر ، ومحاولة الخليفة مقاومته (٢٥٣) .

أما إعادة تعميرها فلأبد أنه تم قبل سنة ٤٦٠ هـ ، وهي السنة التي توفي فيها الخطيب .

يذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٤٨٥ هـ تقدم السلطان ملكشاه « ببناء سوق المدينة المقاربة داره التي بمدينة طغرىك ، وبنى فيها خانات الباعة وسوقا عنده دروب .. والجامع الذي تسم باخره على أيدي بهروز في سنة ٥٢٤ ، وتولى السلطان تقدير هذا الجامع بنفسه .. وجلبت أخشابها من جامع سامراء ، وكثرت العمارة بالسوق واستأجر نظام الملك بستان الجسر وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين سنة ، واستأجر لعمارة ذلك دارا ، وأهدى إليه أبو الحسن الهروي خانة » (٢٥٤) .

فأما السوق فإنه لم يبق طويلا إذ أن السلطان محمد في سنة ٤٩٦ هـ تقدم بنقض السوق التي استجدها جلال الدولة ملكشاه بالمدينة المروفة بطغرىك ، وكانت مرسومة بالصباغين بعد خروجه ، والسوق التي كان بها البزازون أيام دخوله ، والمدرسة التي بنتها تركان خاتون ، وكانوا قد أنفقوا على ذلك الأموال الجمة ، فنقض ذلك كله (٢٥٥) . ولم تذكر المصادر تجديد السوق ، غير أن ابن الجوزي يذكر أنه في سنة ٥٥١ وقع حريق في سوق السلطان (٢٥٦) .

أما الجامع فإن ابن الجوزي يذكر أن « ملكشاه

بنى الجامع الذي يقال له جامع السلطان ببغداد » (٢٥٧) ويذكر أنه في سنة ٤٩١ هـ « في يوم الأضحى بعث الخليفة للسلطان مذكرا فنصب في دار الملكة (٢٥٨) والفروض من أرسال المنبر وجود جامع في دار الملكة ، غير أن ابن الجوزي نفسه يذكر أنه في سنة ٥٠٢ هـ « شرع من عمارة جامع السلطان ، وأتمه بهروز الخادم » (٢٥٩) ، وكان هذا الجامع على دجلة (٢٦٠) وتقام فيه صلاة الجمعة (٢٦١) . وله خطيب (٢٦٢) ، وفيه مقصورة (٢٦٣) .

يقول ابن الجوزي أنه في سنة ٥٠٢ هـ « شرع في عمارة جامع السلطان ، وأتمه بهروز الخادم » (٢٦٤) . ولما كانت الدلائل تشير الى وجود جامع قبل هذا التاريخ ، فالراجح أن المقصود بالنص هو إعادة تعميره ، ولعل الجامع القديم هدم سنة ٤٩٦ وأشار إليه النص الذي ذكرنا باسم المدرسة التي بنتها تركان خاتون .

ويذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٥٠٢ هـ أيضا فوض السلطان بهروز عمارة دار الملكة (٢٦٥) . وفي سنة ٥٠٩ هـ « تكملت عمارة الدار التي استجدها بهروز الخادم من الدار السلطانية ، وحمل اليها اعيان الدولة الفروش الحسنة والكسي الرائقة ، واستدعى القراء والفقهاء والقضاة والصوفية ، فقرأوا فيها القرآن ثلاثة أيام متوالية » (٢٦٦) .

ويذكر سبط ابن الجوزي أن هذه الدار « بناها بهروز الخادم من اقتاض دور الناس واستمجل في عمارتها أهل بغداد ، حتى القضاة والإشراف والأعيان ، وكانوا ينقلون الانتقاض في طيالستهم ، ولما كملت أمرهم بهروز أن يحملوا اليها الفروش والبسط والانية وغيرها ، فحمل الناس اليه ذلك » (٢٦٧) .

وذكر ابن الجوزي أنه في سنة ٥١٥ هـ وقع الحريق في دار الملكة ، فاحترقت الدار التي استجدها بهروز الخادم .. وذهب من الفسرس

(٢٥٧) المنتظم ٦٩/٩ .

(٢٥٨) المنتظم ١٢٤/٩ .

(٢٥٩) المنتظم ٢٥٩/٩ .

(٢٦٠) المنتظم ٥٧/١٠ .

(٢٦١) المنتظم ١٢٢/١٠ .

(٢٦٢) المنتظم ٢٢٩/١٠ .

(٢٦٣) المنتظم ١٧٩/١٠ .

(٢٦٤) المنتظم ١٥٩/١٠ .

(٢٦٥) المنتظم ١٥٩/١٠ .

(٢٦٦) المنتظم ١٨٢/١٠ مرة الزمان ٥٦/٨ .

(٢٦٧) مرة الزمان ٩٦/٨ .

(٢٥٢) الخطيب ١٠٦/١ .

(٢٥٣) المنتظم ١٨٩/٨ - ١٩٧ .

(٢٥٤) المنتظم ٩٠/٩ .

(٢٥٥) المنتظم ١٢٩/٩ .

(٢٥٦) المنتظم ١٦٥/١٠ .

والالات والاولاني واللؤلؤ والجوهر ما يزيد قيمته على الف الف دينار وغسل غسالون التراب فظفروا بالذهب والحلي سبائك ، ولم يسلم من الدار شيء ، ولا خشبة واحدة .

وعاد السلطان الى دار الملكة وتقدم ببناء داره على المسناة المستجدة وان تعمل ازاجيا استظهارا ، واعرض عن الدار التي احترقت وقال ان ابي لم يتمتع بها ولا امتد بقاءه بعد انتقاله اليها ، وقد ذهبت اموالنا فلا اريد عمارتها « (٢٦٨) .

ونقل سبط ابن الجوزي خبر هذا الحريق بالنص تقريبا في قسمه الاول الى كلمة « ولا خشبة واحدة » ، ولكنه اورد القسم الثاني من النص كما يلي « وقال السلطان لا حاجة لنا الى بناء هذه الدار التي لم يتمتع بها ابي ولا طال بقاءه ، وذهبت اموالنا وارزاقنا فيها ، يكفيننا دار الملكة العتيقة » (٢٦٩) .

اما المسناة المستجدة التي بنيت الدار عليها فلم اجد عنها معلومات محددة ، ولعلها هي التي اشار اليها ابن الجوزي في كلامه عن حوادث سنة ٤٨٠ حيث قال ان فيها « جددت على الزاهر مسناة كان لها اساس قائم وفرس فيه نخل وشجر ، وسور عليها ، وذلك بأمر السلطان ملكشاه » (٢٧٠) .

وظل اسم « دار الملكة » يتردد بعد حريق ٥١٥ ، فيذكر ابن الجوزي انه في سنة ٥٣٠ « دخل داوود الملكة » (٢٧١) ، وفي سنة ٥٣٤ وصلت خاتون بنت محمد زوجة القنفي مع اخيها مسعود « واقامت

عنده بدار الملكة » (٢٧٢) ان عباس شحنة السدي « استدعى الى دار الملكة » في سنة ٥٤١ (٢٧٣) .

غير انه منذ ذلك التاريخ ينقطع ذكر دار الملكة ، ويذكر مكانه دار السلطان ، فيذكر ابن الجوزي ان عباس شحنة « قتل في دار السلطان .. ودفن في المشهد المقابل لدار السلطان » (٢٧٤) ، ويذكر ايضا انه في سنة ٥٤٤ عاد مسعود الى بغداد « ودخل دار السلطنة » (٢٧٥) ويذكر انه في سنة ٥٥٢ قرر الخليفة مقاومة السلطان شاه محمد واستعد لذلك ، وسارت بعض جنوده « فقصدا تحت الزاهر ليدخلوا دار السلطان » (٢٧٦) ، ثم « ضربت الرجال الى دار السلطان فنهبوا وكان فيها اموال كثيرة ، ونهبوا الابواب والاخشاب واخذوا الاطيار والغزلان » (٢٧٧) ، ولم يعد لها ذكر بعد هذه الحوادث التي يبدو انها ادت الى تدميرها ، اذ ان البنداري يقول عن مدينة طفرليك « وهي التي جامعها اليوم باق ، وكانت حينئذ ذات اسوار واسواق » (٢٧٨) .

ولا يخفى ان سلطان آل سلجوق زال من بغداد بعد هذه الحوادث ، وزال معه الحكم المزدوج ، واصبح الحكم للخليفة وحده ، ومقره في دار الخلافة حيث كان يقيم وزراءه ويمارسون الحكم فيه وكانت دار الوزارة فيه في اواخر القرن السادس الهجري مقابل باب النوبي (٢٧٩) .

(٢٧٢) المنتظم ٨٥/١ .

(٢٧٣) المنتظم ١٢٢/١ .

(٢٧٤) المنتظم ١٢٢/١ .

(٢٧٥) المنتظم ١٢٨/١ .

(٢٧٦) المنتظم ١٧٠/١ .

(٢٧٧) المنتظم ١٧٥/١ .

(٢٧٨) دولة ابي سلجوق ١ .

(٢٧٩) الجامع المختصر ٩٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ .

(٢٦٨) المنتظم ٢٢٢/٩ .

(٢٦٩) مرآة الزمان ٩٦/٨ .

(٢٧٠) المنتظم ٢٩/٩ .

(٢٧١) المنتظم ٥٥/١ .

بُعْدُ الدُّعَى فِي عَهْدِ الثَّوْرَةِ

بقلم

جَوَادُ كَاطِرُ النَّبَاتِي

ديوان وزارة الري - بغداد

مقدمة

في الزلزلة المظلمة كانت هناك كوة ضيقة تطل على صباح ربيعي ممطر ، في تلك الزلزلة كان هناك سجينان ينظران من خلال تلك الكوة الضيقة ، نظر الاول نحو الاسفل فلم ير غير الطين والاوhal وعبوس الارض فابتأس ، نظر الثاني نحو الاعلى فرأى السماء زرقاء صافية ندية تطرزها هنا وهناك جزئيات الغيوم القطنية المتقطعة وطيور سنونو وعصافير ترحل في فضاء ضاحك ، فابتسم ابتسامة الامل البعيد نحو الافق .

وهكذا فعلت بغداد عندما كانت تمر في عهود الجهل والتخلف كانت دائما تحمل الامل في احشائها ، كان لديها شيء كبير تحتفظ به لتلده يوما وكان هذا اليوم .. الامل .. هو يوم السابع عشر - الثلاثين من تموز الخالد ، كان هو تلك السماء الزرقاء الندية التي تطرزها الغيوم القطنية البيضاء المتقطعة وهو نفسه طير السنونو وعصافير الفرح ونسائم الخير والمكاسب العظيمة .

حديث الوجه المشرق

رغم ان الحديث عن التغيير في شكل ومحتوى خارطة بغداد لا يحتاج الى ابضاح شفهي او مدون ، لما للتغيير هذا من شواهد واضحة وملموسة يقرها القريب والبعيد والأعداء قبل الاصدقاء الا اننا لا نستطيع ان نتجاوز فرصة صدور العدد الخاص ببغداد لجلتنا دون ان ندون شيئا اعتري وجه المدينة من ابتسام ومشاهد حضارية ليس على صعيد الشكل والمظهر حسب وانما ايضا في

المحتوى والمضمون الحضاري للعصر الذي راح يسابق في النهوض نحو الامام ارقى عواصم ومدن العالم ، سيما وان احد عشر عاما لا تعد زمنا الى جانب العشرات من السنين التي وصلت فيها المواسم والمدن المتقدمة الى ما هي عليه الان .

وخطا نقول اننا نستطيع حصر كلما تحقق لبغداد خلال عهد الثورة لاننا مهما حاولنا فسنفشل الكثير منها ، لان ثورة ١٧ - ٢٠ تموز منذ قيامها كان لها في كل زاوية وفي كل لحظة « بصمة » جميلة فاعلة وحضارية على وجه بغداد ، اقتصاديا ، ثقافيا ، اجتماعيا ، تخطيطيا ، تجميلا ، صحيا ، وخدميا . وعلى ذلك فنستطيع قارئنا عدرا اذا ما فاتنا شيء من ذكر بعض مكتسبات بغداد .. وابن بغداد .

زيادة النفوس - واتساع الارض

بين عام ١٩٦٨ وعام ١٩٧٩ اخلاف كبير جدا وان اعطاء نسبة لهذا التغيير عما كانت عليه بغداد قبل الثورة هو ضرب من ضروب الوهم ، فقد ارتفع عدد نفوس بغداد خلال الاعوام الاحد عشر السابقة فتشير احصاءات التعداد العام الاخير للسكان عام ١٩٧٧ الى ان عدد سكان بغداد قد وصل الى (٣١٨٩٧٠٠) مليون نسمة عما كان عليه في تعداد ١٩٦٥ الذي اظهرت نتائجه بان نفوس بغداد (٢٣٧٥٠٠٠) مليون نسمة واذا ما اخذنا نسبة الزيادة الحاصلة في سكان بغداد خلال هذه الفترة يمكننا طبعا ان نتصور نسبة الزيادة الحاصلة في عدد السكان في بغداد خلال اعوام ١٩٧٨ و ١٩٧٩ آخذين بنظر الاعتبار التطور الشامل

الذي حصل في الجوانب الاجتماعية والصحية لأهالي بغداد وأثر ذلك في زيادة السكان .

ولابد لهذه الزيادة في عدد سكان بغداد - لكي تبدو الحياة طبيعية وبدون أرباك - أن ترافقها زيادة أو تطور في كافة مرافق الحياة لذا نجد أن رقعة بغداد زادت بالنسبة لحدود امانة العاصمة حيث شملت قصبة المدائن ايضا التي مساحتها بحدود (٣٢٧٥) كلم^٢ مضافة الى حدودها الاصلية لما قبل الثورة والتي مساحتها (٨٦٥) كلم^٢ ، وإذا ما أضفنا اليها مساحات الارض الممتدة بين حدود بغداد القديمة وحدود قصبة المدائن فسيرتفع عدد الكيلومترات المربعة المضافة الى مساحة العاصمة .

وخلال عمر الثورة انشأت في بغداد عددا كبيرا من المناطق السكنية الحديثة تركز أغلبها في جنوب المدينة مثل حي العامل والسيدية والحي الدبلوماسي وراحت تمتد رقعة السكن باتجاه مطار بغداد الدولي وفي شمال بغداد ايضا اخذت المناطق السكنية تزحف نحو حدود محافظة ديالى ، وحسب احصاءات امانة العاصمة فان المباني للدور الحديثة التي انشأت خلال العشر سنوات الماضية من عمر الثورة بلغت (١٠٢٦٤٨) دارا حديثة ويتجاوز هذا العدد الى (١٠٣٠٠٠) خلال هذا العام ، كما تشير هذه الاحصاءات ايضا الى ان عدد العمارات المعدة لأغراض السكن والتي انشأها الاهلون بلغت (١٤٤٦) خلال نفس الفترة المذكورة ، ويعتقد انها قد تجاوزت هذا العدد خلال هذا العام . كما ان زيادة عدد أفراد العائلة البغدادية ذات الامكانيات المادية المحدودة حدا بها الى اعادة بناء دورها بشكل يتلائم وروح العصر والزيادة الحاصلة في العائلة فوصل عدد هذه الدور الى ما يقارب (٥٠٠٠) دار . وهناك الكثير من انوائل اضافت مرافق جديدة الى بناء دورها الاصلية حتى بلغت بحدود (١٠٢٥٠٠) دارا ، وشمل الترميم زهاء (٨٣٠٠٠) دارا من قبل اصحابها (١) .

وباعتبار ان امانة العاصمة الجهة الاساسية المسؤولة عن تخطيط المدينة وتوسعائها وتغيير خارطتها وفقا للتطور الذي أحدثته الثورة في كافة المجالات ، فقد دأبت هذه المؤسسة الخدمية على

(١) هذه الاحصاءات اخذت عن النشرات الاحصائية لتقسيم الاحصاء في امانة العاصمة خلال السنوات العشر الاولى من عمر الثورة مضافا اليها نسبة تقديرية للفترة اللاحقة .

محاكاة المسيرة الحضارية للثورة لتضفي علامات مضيئة على وجه بغداد في كافة جوانبها . وسنحاول الاشارة الى أبرز نشاطات واعمال امانة العاصمة وبصماتها الحضارية على وجه بغداد .

التصميم الاساسي لبغداد

في عام ١٩٧١ صدر قانون تحت رقم (١٥٦) هذا القانون حمل صفة الالتزام والتقييد بمضامينه ومقترحاته ، انه قانون لتصميم الاساسي لمدينة بغداد ويعني مجموعة السياسات الخاصة بتنظيم شكل وتطور المدينة على اسس علمية وفنية وتخطيطية سليمة . ويعتبر هذا التصميم من اهم منجزات الامانة في عهد الثورة باعتباره الاساس الذي من خلاله يصاد النظر في التخطيط العام للمدينة ، وهو ايضا يسهم بجدية واضحة الى الحد من زحف وتوسع المدينة الذي اخذ يسير بشكل افقي رهيب يكلفه الكثير من النفقات والخدمات والوقت والجهد الذي نحن بحاجة اليها في مشاريع اخرى اكثر اهمية في مسيرة التنمية القومية ، وعلى ضوء نتائج البحث والتحليل التي توصل اليها المهندسون والاستشاريون والتي شملت كافة نواحي الحياة الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسكانية . فيمكن القول ان التصميم الاساسي اصبح دليلا ومرشدا لنمو واعمار مدينتنا الخالدة بغداد حتى عام (٢٠٠٠) ومنظما لكل نشاطاتها لآمد طويل واطارا عاما وشاملا للتطوير والتحديث بحيث يؤمن اعمارا صحيحا للمدينة مع الحفاظ على عناصرها وسماتها الاساسية وتاريخها واثارها ولامحها العمرانية المتميزة .

نظام ترقيمي جديد

كانت بغداد قبل الثورة تعتمد نظاما ترقيميا مشوها لا ينسجم وضرورات التطور السريع للمدينة ، لذا بات من الضروري اعتماد اسس سهلة وبسيطة لمعرفة اي موقع او شارع في المدينة ، فقد وضعت اسس جديدة ومتطورة للتعامل بأرقام مبسطة وثابتة وضعت على خرائط تفصيلية واضحة لكل قطاع ومحلة يضاف الى ذلك محافظته على التسميات التاريخية لأحياء المدينة وشوارعها المهمة . وقسم هذا النظام المدينة الى (٩) قطاعات اربعة منها في جانب الكرخ وخمسة في الرصافة اخذت الاولى أرقاما زوجية والثانية أرقاما فردية واعتبرت الشوارع التي تقع على يسار الشارع الرئيس الذي يخترق القطاع ذات أرقام

يبلغ عددها (١٢٧١) أبرزها دور الضيافة ومجمع المرور .

هذا وقد قامت الامانة ايضا ببناء (٢٧٠) دارا للايتام والارامل والشهداء .

كازينوهات ومطاعم عصرية

افتتحت بغداد قبل الثورة الى الكثير من اماكن الراحة العصرية لذلك جاء اقدامها على انشاء عدد من المطاعم والكازينوهات الحديثة التي جاءت ولادتها ملازمة جنبا الى جنب مع اقامة المتنزهات والحدائق الكبيرة في العاصمة والتي يبدو انها كانت من ضرورتها . وقد آثرت امانة العاصمة كما يبدو ان تكون لهذه المطاعم والكازينوهات تصاميم حديثة وجميلة وبعضها يحمل انصاميم الاسلامية العربية وهي على درجات مختلفة لتفسح المجال امام جميع المواطنين لارتياحها كل حسب رغبته ومزاجه وقد بلغ عدد هذه الكازينوهات والمطاعم (٥٥) موزعة على متنزهات وكورنيشات العاصمة ومناطقها المختلفة نذكر منها على سبيل المثال مطعم اللؤلؤ والمجمع الاندلسي والبغدادي والياباني في الزوراء والكواكب في المسبح ، والنخورنق والسدير في الاعظمية والعالم في ابي نواس وتلك المنتشرة على ضفاف قناة الجيش .

الاسواق وعلاوي المخضرات

انشأت مجموعة من الاسواق العصرية والشعبية في مناطق مختلفة من بغداد وبلغ عدد دكاكينها ومخازنها (٢٥٠٦) دكانا ومخزنا وهدفها حصر الباعة المتجولين الذين كانوا يفتشون الارصفة والساحات العامة والتي كانت سلمهم بعيدة عن الرقابة والاشراف الصحي وكما تهدف المؤسسات المسؤولة القضاء على ظاهرة الفوضى والتجاوز التي تسود شوارع العاصمة وساحاتها كما استطاعت بذلك تأمين حاجة المواطنين من السلع والحاجيات اليومية الضرورية ومن جهة اخرى لم يمد من المناسب بقاء امكنة علاوي المخضرات والخضر في قلب المدينة نظرا لما تسببه من زحام وعرقلة لحركة المرور والتنقل لذا فقد خصصت الامانة اماكن معينة ومناسبة تتوفر فيها شروط التنظيم الصحيح والصحي وانشأت (١٠٦) علوة شعبية أبرزها (علاوي جميلة) وعلوة الكاظمية والسيدية وقد روعي في اختيار مواقعها البعد عن مركز العاصمة وقربها من مناطق جمع الخضار والفواكه لتوفر على الفلاحين والبقالين الوقت والجهد ونفقات النقل .

روجيه وتلك التي نفع على يمينه تأخذ ارقاما فردية وهكذا يستمر النظام وبنفس الطريقة في ترقيم الدور والمحلات والعمارات الاخرى . وقد ألزمت كل اندوائر والمؤسسات ذات العلاقة اعتماد هذا النظام الجديد اساسا في معاملاتها وتعاملها .

عمارات سكنية وتجارية

للمرة الاولى في تاريخ القطر وبمسد ثورة ١٧ - ٢٠ تموز الخالدة تبادر امانة العاصمة في تنفيذ عدد من مشاريع السكن للمواطنين اسهاما منها في حل مشكلة السكن التي يعاني منها بعض المواطنين ، فانشأت عددا من العمارات السكنية ذات الطوابق المتعددة والتصاميم الحديثة والمناسبة لسكن النوازل البغدادية المحافظة وقد بلغ عدد هذه العمارات (٣٥) موزعة على مناطق الزعفرانية وشارع حيفا في الكرخ وحي الرياض وحي ٧ نيسان في بغداد الجديدة وعمارة لذوي الكفاءات في منطقة العطيفية واخرى ايضا في جانب الرصافة وتتراوح عدد طوابقها بين ٣ - ٦ طوابق .

كما ساهمت الامانة ايضا بانشاء عدد من العمارات والاسواق التجارية ذات التصاميم الحديثة التي تميزت معظمها بالطابع البغدادي والرياسة الاسلامية . وتفي هذه المنشآت بمتطلبات المواطنين في سد احتياجاتهم . فقد قامت بانشاء اسواق تجارية نذكر منها على سبيل المثال السوق المركزي الكبير في المنصور (السوبرماركت) الذي يضم عددا كبيرا من المرافق التكميلية كمحطة تعبئة بنزين وساحات لوقوف السيارات وحدائق ولعب الاطفال ودار تلحضانة المؤقتة للصغار ومائونات لحلاقة الرجال والنساء اضافة الى السوق المجمع الذي يتكون من طابق واحد وطابق ارضي يضم المراكز الرئيسية لمعارض القطاع الاشتراكي ، وبايعاز من الاب المناضل احمد حسن البكر فقد انشأت الامانة عددا من الشقق السكنية للمواطنين لتكون الطابق الثاني للمجمع . وهناك اسواق اخرى لا تختلف عنه في الطبيعة ولكنها تختلف في الشكل كالسوق العباسي في الاعظمية والسوق العربي في الشورجة وسوق المدائن الذي يضم مخازن وشقق سكنية ، وهناك سوقا اخرى يجري العمل على انشائها في منطقة قناة الجيش . يضاف الى ذلك العمارات التجارية التي قامت بانشائها هذه المؤسسة كعمارة الرشيد والمستنصر والغريري . اما المباني الاخرى التي انشأتها الامانة

مناطق متخصصة

تنفيذا لما اقره التصميم الاساسي للمدينة وعلى سبيل التنظيم المهني للقطاعات الخدمية لابتداء بغداد فقد كانت هذه القطاعات مبعثرة هنا وهناك بشكل تسوده الفوضى والانظام تتداخل ضمن المناطق السكنية في الشوارع العامة والازقة مؤثرة بشكل مباشر أو غير مباشر على راحة المواطنين وحركة المرور بالإضافة الى ما تحمله من اضرار صحية وتشويه لمنظر العاصمة . الامر الذي جعل المسؤولين يسارعون الى نقل محلات تصليح السيارات وادائها الى مناطق محددة لها تؤدي فيها وظائفها بعيدا عن مركز العاصمة . وكذلك شملت هذه الخطة كل المصانع والمعامل الاهلية والمطابع والورش الكبيرة بنقلها الى المناطق الصناعية كمناطق جميلة والبيع وكرة وعطش والمنطقة الصناعية في الكاظمية .

ومن جهة اخرى تم ترحيل معارض بيع وشراء السيارات الى مجمعاتها الجديدة في البيع وخلف السدة الشرقية .

طرق معلقة .. انفاق ..

من علامات التحضر والمدينة في عصرنا الراهن هي طرق المواصلات وبقدر ما للأنهار من أهمية بالنسبة للدولة ورقبها الزراعي والاقتصادي ، كذلك الطرق فهي احدى عوامل قوة الدولة . اما في المدن فهي علامة من علامات رقي المدينة ، وفي بغداد وخلال عهد الثورة كان لابد من تنفيذ الطرق والشوارع لاستيعاب الاعداد الهائلة من المركبات التي ازدادت بشكل متوازي مع ارتفاع المستوى المعاشي للمواطنين اضافة الى ما يقع ضمن مؤسسات القطاع الاشتراكي من هذه المركبات .

وعليه فكان لزاما على الدوائر المختصة وعلى راسها امانة العاصمة ان تقوم بشق عدد كبير من الطرق والانفاق والجسور وتقوم بتحويل الساحات وتطبق نظام الاشارات الضوئية (الترافكلايت) من اجل تسهيل حركة المرور وانسيابيتها في الشوارع وكذلك لمعالجة الاختناقات المرورية في بعض مراكز المدينة . فقامت بنيلط (١٥٠٠٠٠٠٠) مليون متر مربع من الشوارع اهمها شارع حيفا وشارع الزيتون وشارع مستشفى اليرموك في الكرخ وشوارع الثورة وسواها من المناطق الكثيرة الاخرى كما بدأت بتنفيذ مشروع طريق المرور السريع الذي يربط

شمال بغداد بجنوبها والذي يمر بمحاذاة السدة الشرقية في الرصافة ويتقاطع مع الطرق الرئيسية التي تعترضه بواسطة جسور معلقة ويلتقي بها بواسطة طرق مساعدة تربط الشارع الرئيس بالشوارع التي تعترضه وفق مسارات واشكال تخطيطية حديثة .

كما انتهت المسوحات الجيولوجية والطبوغرافية لمشروع الكورنيش المعلق الذي سيربط الاعظمية بابي نواس وسيقام هذا الكورنيش على اعمدة معلقة داخل نهر دجلة في ضفته اليمنى بطول (٣٢٠٠) كلم ويتكون من ممرين بسعة ٢٢ مترا تتوسطهما جزيرة وسطية ورصيفين جانبيين بعرض متر واحد لكل منها وستشيد على الكورنيش عمارتان لوقوف السيارات الاولى في المنطقة المقابلة لشارع السموال والاخرى في منطقة السنك وتستوعب هاتان العمارتان لـ (٢٤٠٠) سيارة .

اما الانفاق فابرزها (نفق التحرير) الذي يربط شارع الجمهورية بالسعدون والذي خفف من ضغط المركبات على الساحة بحدود ٦٠٪ استنادا الى تخمينات الخبراء يحاط النفق بسوق يحتوي على اكثر من (٤٠) دكانا تؤدي اليه ستة انفاق من كل الجهات الساحة مزودة بالسلام الكهربائية . اما (نفق الشرطة) فيربط بين الشارع المؤدي الى الكاظمية وذلك المؤدي الى المطار الدولي ويشيد حاليا نفق ثالث في ساحة الطيران وهو اضخم نفق يشيد لحد الآن وسيحتوي على شبكة من الانفاق والجسور للسابلة وللسيارات وسيعمل كثيرا على تخفيف الزحام في ساحة (يونس السماوي) ، وسيبدأ قريبا العمل في تنفيذ جسر دمشق الذي تنفذه وزارة الاسكان والتعمير وصممه امانة العاصمة وهو بكلفة (١٣٠٠٠٠٠٠٠) مليون دينار لمعالجة اختناقات المرور في الساحة والمشروع عبارة عن جسر يربط ساحة حلب بشارع المحطة العالمية بطول (٢٧٥) م وعرض (٢١) مترا ، ذو اربع ممرات للسيارات اضافة الى ممشى جانبية وكذلك هناك نفق رئيس يربط ساحة المتحف بساحة الفارس العربي ، اضافة الى ساحة بمستوى الارض تتحكم فيها الاشارات الضوئية .

ومن اجل انسيابية السير في الشوارع الرئيسية انشأت امانة العاصمة عددا من انفاق السابلة في شارع المأمون والشورجة والوثبة والسعدون وينفذ في المستقبل القريب نفق في بداية شارع الرشيد باعتباره من اضمات نفق التحرير

والفرض نفسه أنشأت أيضا جسورا لعبور السابلة
كجسر الجامعة المستنصرية وساحة المتحف
وشارع دمشق ومستشفى اليرموك .

جسور على دجلة

ضمن التصميم الاساسي لبغداد فانه يجب
ان يصل عدد الجسور فيها حتى عام (٢٠٠٠) ،
(١٢) جسرا لمواجهة ضغط المركبات وتوقفا
للاختناقات المرورية ، فانشيء (جسر المثني بن
حارثة الشيباني) شمالي بغداد ، افتتح في ١٥ آب
١٩٧٩ ، وكذلك (جسر الدورة) الذي يجري
العمل فيه حاليا ، كما سيباشر بتنفيذ (٢١) جسرا
لمرور السيارات والسابلة على قناة الجيش في نهاية
العام الحالي بهدف تسهيل حركة المرور عبر القناة
بما يتلائم والحركة المتوقعة بعد افتتاح جسر
المثني والدورة .

وسيتم في المستقبل القريب (جسر الاعظمية
المعلق) بطول (٤٠٠) م وعرض (٣٠) مترا وبمقتربات
طولها (٥٧٠) مترا ، كما انجزت تصاميم (جسر
السنك) بطول (٢٧٦) مترا وعرض (٣١٥) مترا
وبمقتربات (٢٥) مترا ويهدف الى تخفيف ضغط
المركبات على جسر الاحرار والجمهورية ،
وسيشهد العام المقبل المباشرة بانشاء (جسر
الجادرية) في بغداد بطول (١٥٠٠) على النهر
وبمقتربات (٢٥٠٠) مترا ويمتد على جزيرة ام
الخنازير السياحية ويحتوي على (٦) ممرات ثلاثة
منها للذهاب والاخرى للاياب بهدف ربط المنطقة
الممتدة من ساحة جامعة بغداد حتى طريق بغداد
- حلة عند نقطة السيدة وبمستوى على ممرات
نزول الى جزيرة ام الخنازير دون استعمال أي
طريقة مائية .

اشارات مرور متطورة

وفقا لمتطلبات العصر بادرت امانة العاصمة
بتنفيذ مشروع تحويل الساحات ونصب اضوية
المرور الالكترونية ، يشمل هذا المشروع تقليص
بعض الساحات وتغيير مقترباتها لاستيعاب اكبر
عدد ممكن من المركبات يراعى في ذلك الحفاظ على
جمالية المدينة ونصبها وتماثلها فشمّل هذا
المشروع (٣٤) ساحة نذكر منها ساحات الوثبة
وزبيدة وباب المعظم والجمهورية والمنصور والفارس
العربي والفتح وغيرها كما استحدث مبدا نظام
الاجزاء الواحد للمرور في الشوارع الرئيسية الذي
شمّل شوارع الكفاح والرشد وحيفا والنصر في

الكرخ وجمال عبدالناصر وجسري الشهداء
والاحرار وبعض الشوارع العمودية وقد شملت
معظم الساحات والتقاطعات بنصب اضوية المرور
المتطورة وباشكال وحجوم مختلفة رئيسية وثانوية
وصغيرة داخل تلك الساحات والتقاطعات بالاضافة
الى الاشارات الضوئية لمناطق عبور المشاة ترتبط
هذه الاشارات بمحطة سيطرة مركزية لتوجيه
هذه الشبكة الضوئية مركزيا ، كما شمل المشروع
ايضا نصب العلامات المرورية وفق مقاييس دولية
اضافة الى تخطيط التقاطعات بالاشراط البلاستيكية
التي تستعمل لأول مرة في القطر .

هدم من اجل البناء

وضعت تصاميم تفصيلية حديثة لمنطقتي
الكرخ والسنك في الرصافة بما يكفل اظهارهما
بشكل يقضي على الفوضى في التخطيط وضمن
مساحات معينة باعتبار ان هاتين المنطقتين تمثلان
قلب المركز . وان وصفهما بشكل عصري يتلائم
وتطور الحركة العمرانية التي تحيط بهما او ملح
جدا ..

نهر الخير

نهر الخير كان فيما مضى واحدا من شبكة
اروائية تحيط ببغداد في جانبها الغربي ، وقد
اختفى بمرور الزمن ولم يعد الا مستنقعا لمياه
آسنة تحمل الامراض الفاتكة للمناطق السكنية
المحاذية له ، ولكن بعد ثورة ١٧-٣٠ من تموز
العظيمة وضعت امانة العاصمة كل ثقلها لحيائه
والاستفادة منه اقتصاديا وسياحيا وفعلما فقد عاد
من جديد قناة تخترق الجانب الغربي من بغداد
تحيط به المنتزهات ، يبلغ طوله (١٩) كم ، يأخذ
مائه العذب من دجلة شمال الكاظمية بواسطة
مكائن ضخمة ويمر بمناطق كثيرة كالدولعي ويكون
بحيرة سعتها (٦٠) الف ٢م عند حي العدل ويقطع
حي العمري فالمنصور ويصب في دجلة ايضا عند
منطقة القادسية ، يتلوى قاطعا (١٩) جسرا لعبور
السيارات والسابلة وبذلك يتم احياء اكبر مشروع
اروائي تاريخي لبغداد .

خدمات ليس لها حدود

قد يكون من قبيل (الحكيم) حين تقول
« لا قيمة لشارع بدون مجار » لذلك ولكل ذكرى
المعاناة التي لم ينج منها مواطن في بغداد عند الشتاء
في العهود الماضية ، نجد ان شبكات المجاري راحت

تحتبىء داخل الأرض لامتناس ما يقع على الشوارع من مياه الأمطار وقد وضعت الخطط لأقامة شبكات مجاري للشوارع الرئيسية والفرعية والمناطق السكنية وقبل المباشرة بتبليط أي شبكة شوارع . . وقد خصت المنطقة المركزية ببغداد جميعها تقريبا سواء كان ذلك في الكرخ أو الرصافة بشبكة مجاري ، وقد أنشأت من أجل هذه الأعمال الشركة العامة لمقاولات مشاريع المجاري والماء التي قامت بمشاريع كبيرة أهمها مشروع ربط مجاري مياه المناطق السكنية في بغداد الجديدة بالمجرى الرئيسي وقيامها أيضا بإنشاء خطوط واسعة للمجاري في بعض أنحاء العاصمة لاستيعاب انراقات دور السكن والمعامل وغيرها .

وهناك مشروعان كبيران للمجاري بدأ الأول بتنفيذه في مدينة الثورة بكلفة (٣٠) مليون دينار لإنشاء شبكة مجاري وتبليط الطرق الرئيسية في مدينة الثورة (٢) ، كما وقعت امانة العاصمة مؤخرا عقدا مع إحدى الشركات العالمية لتنفيذ مجريين رئيسيين لمياه الأمطار في بغداد بكلفة (١٦) مليون دينار في الكرخ والرصافة . بالإضافة الى بدء المباشرة بمشروع مجاري جانب الكرخ بكلفة مليون دينار وتقوم بتنفيذه الشركة العامة للمقاولات .

الماء والمجاري

ومن الخدمات التي تطورت في عهد الثورة هي خدمات التنظيف فقد تخطت الطرق المتخلفة القديمة في تنظيف الشوارع والازقة بواسطة سيارات حديثة كابسة للنفايات وأخرى لفصل الشوارع بصورة أوتوماتيكية ، كما استحدثت طريقة تعميم استخدام أكياس النايلون في جمع النفايات من الدور والمحلات العامة التي تأخذها سيارات جمع النفايات الى معمل الاسمدة العضوية على بعد كيلومتر واحد من شمال غربي مدينة الثورة . وهو معمل واسع اقيم لاستقبال النفايات من مناطق العاصمة وتحويلها الى اسمدة عضوية صالحة كسماد للمزارع والحدائق والبساتين ويؤمل ان ينصب معمل آخر على غرارها في منطقة الكرخ .

(٢) يتكون المشروع من ثلاثة اجزاء الاول : شبكة مجاري بطول (١٢٥) كلم وبالمطار من (٢٥ - ٨٠) سم . الثاني : انشاء المجرى الرئيسي بطول (١٦) كلم من الكونكريت المبطن بالصفايح البلاستيكية الطارة بين (١٨٠ - ٢٠٠) سم ، الثالث : انشاء (١٥) مضخة .

كما تم انشاء (٣) مجازر عصرية أوتوماتيكية داخل بغداد في منطقة الكاظمية والكرخ والشيخ عمر ، يتم فيها نحر المواشي على الطريقة الاسلامية بعد فحصها من قبل اطباء بيطريين للتأكد من سلامتها من الامراض ، ثم توزع على الاسواق بواسطة سيارات مكيفة استقدمت لهذا الغرض ، وتم أيضا انشاء حضائر خاصة لتجمع المواشي بجوار هذه المجازر وبذلك يقضى على الاساليب غير الانسانية في نحر المواشي .

ومن الخدمات الانسانية الاخرى التي شهدتها بغداد في عهد الثورة هي اقامة أربع مقابر حديثة يسودها التنظيم في دفن الموتى بما يتناسب وقيمة الانسان وهذه المقابر تقع في اطراف بغداد على طريق ابي غريب وعلى طريق سامراء ومقبرة السيد محمد السكران على طريق بعقوبة الجديد وأخرى على طريق بعقوبة القديم تتوفر في هذه المقابر كل الشروط الصحية والمفاسل والمساجد ذات هيبة كبيرة لاداء الطقوس التي ترافق دفن الموتى وتتخلل هذه المقابر الحدائق والاشجار والطرق المعبدة والمرافق الضرورية الاخرى .

ومن مرافق الخدمات الضرورية الاخرى هي انشاء عمارات متعددة الطوابق لتوقف السيارات وكانت عمارة السنك هي التجربة وتكون من ستة طوابق تستوعب ٦٣٦٢ سيارة وطابقها الارضيخصص كمخازن ومحلات تجارية و (ورشة) لفصل والتشحيم وصيانة العطوب البسيطة في السيارات . وسيتم تنفيذ عمارتين لهذا الغرض في المستقبل القريب الاولى قرب جسر الجمهورية والثانية في ساحة الامين وأخرى في بداية شارع الجمهورية .

مساح للصيف

بالإضافة للمسبح القديم الذي تأسس عام ١٩٤٦ انشيء مسبح اولمبي في متنزه الزوراء وهو مسبح كبير يحتوى ايضا على حوضين احدهما للاولاد والاخر للاطفال وهو ذو قياسات اولمبية لأقامة السباقات فيه وإلى جانبه مسبح بلاستيكي يجري العمل على اصلاحه الآن بالإضافة الى العمل حاليا في انشاء مسبحين قياسيين احدهما في مدينة الضباط والاخر قرب الجامعة المستنصرية وهما من ضمن عدد من المسابح سيصار الى انشاؤها مستقبلا : هذا بالإضافة الى انشاء المسابح داخل

مراكز الشباب ، ومساح شعبية في حوض قناة الجيش غلفت بالأجر لخدمة أولاد المناطق السكنية الواقعة على القناة .

مشاريع سكنية وعمرانية كبيرة

بموجب قانون خاص أنشأت الثورة المؤسسة العامة للاسكان ، كما اصدر مجلس قيادة الثورة في اواخر شباط ١٧٩ خمسة قرارات مهمة تستهدف حل أزمة السكن بقصد دفع وتعزيز وتنظيم قرارات وامكانات الاجهزة المعنية بتقديم الخدمات السكنية في وزارة الاسكان واتعمير والمؤسسة العامة للاسكان والمصرف العقاري والاتحاد التعاوني الاسكاني فيما تولى وزارتي التخطيط والمالية تخصيص المبالغ ، واكدت القيادة مرارا على ضرورة متابعة مشاريع الاسكان حقلها . مشروع الثورة الاسكاني : تتم التهيئة حاليا في هذا الموقع على مساحة (١٢٨) دونم لاقامة (١٠٠٠) شقة عليه وكذلك بناء (٣) مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية وروضتين للأطفال وداري حضانة وبريد ومركز طبي وآخر للشباب اضافة للمرافق الحيوية الاخرى .

ويتواصل العمل بانجاز (٣٠٠٠) شقة سكنية في منطقتي السيدة وزبونة وبناء (١٤٥٠) شقة في الدورة ، كما سيتم انشاء المجمع السكني في كرامة مريم بكلفة (٢٤٢.٠٠٠.٠٠٠) مليون دينار وعلى مساحة (٢٥٨.٨١٢) ٢م ويحتوي على (٢٤) عمارة تضم (٢٣٠٠) وحدة سكنية ، اضافة الى (٤) مدارس ثانوية ومتوسطة وابتدائية مع مركزين طبي وشبابي ورياض للأطفال وملاعب رياضية ومبشرين ومركز اجتماعي واسواق ومحلات تجارية .

وفي منطقة الدورة ينفذ مشروع سكني لبناء (١٤٤٨) وحدة سكنية تحتوي على (٣٤٠٠) شقة سكنية بكلفة (١٠.٧٥٠.٠٠٠) مليون دينار وعلى مساحة (٩٦) هكتار . يضاف الى ذلك بناء (٢٨٢٣) دارا جاهزة و (٣٠٠) دارا للعمال في السيدة ، وتجري حاليا المسوحات لمشروع انشاء (٢٠٠٠) وحدة سكنية قرب محطة شرقي بغداد .

ومن معالم العمران في المدينة الذي تقوم به المؤسسة العامة للاسكان : مبنى القيادة

القومية . مبنى وزارة الخارجية ، مبنى مجلس الوزراء ، ومبنى دار الثورة ومشروع قاعة الالعاب المفلقة في المدينة الرياضية . وكلها مباني ضخمة وذات تصاميم ومواصفات متطورة جدا .

قصر المؤتمرات

على مساحة (٦٥) الف متر مربع وفي المنطقة الواقعة بين ساحة عمان وساحة حلب سيرتفع شامخا في احتفالات الثورة لعام ١٩٨١ بناية تعتبر من اضخم المباني في الشرق تصميما وعمرا هي بناية « قصر المؤتمرات » وسيستقبل هذا القصر الكبير ملوك ورؤساء المؤتمر السابع لدول عدم الانحياز عام ١٩٨٢ .

بدا العمل في هذا المشروع الكبير في تموز عام ١٩٧٨ وسيحتوي على قاعة رئيسية تسع (١٦٠٠) شخص في حالة الجلوس كاعضاء مشاركين في مؤتمر واكثر من (٢٠٠٠) شخص في حانة الجلوس بشكل قاعة للمحاضرات او الاحتفالات . بالاضافة الى عدد من القاعات الثانوية التي تستخدم كقاعات للمحاضرات والمناقشة وكذلك قاعة للسؤنتمرات الصحفية وقاعة صغيرة لمراقبة البرامج التلفزيونية بالملفات المتعددة .

كما يضم المبنى اجهزة (تليكس) اذاعية وتلفزيونية بقنوات متعددة داخلية وعبر الاقمار الصناعية . كما يحتسوي على مطبخية ومكاتب سكرتارية وفروع للمصارف والسياحة والخدمات . وسيربط طرفي الشارع نفق داخلي ، وفتح شارع بين ساحة عمان والساحة المجاورة لمبنى اتحاد نقابات العمال للحد من اختناقات المرور انشاء انعقاد المؤتمرات ، وقد اعتمد المشروع الذي تزيد كلفته على (٣٠) مليون دينار في تصاميمه على طرز الهندسة العربية والاسلامية والسومرية المربقة ، وسيكون احدي العلامات العمرانية المميزة لبغداد الثورة (٢) .

المطار الكبير

في الاول من آب الماضي وضع النائب الاول لرئيس الوزراء السيد طه ياسين رمضان حجر الاساس لاكبر مطار دولي في العراق بكلفة (٢٤٥)

(٣) من مجلة وعي العمال العدد ٥٢٥ ٤ آب ١٩٧٩ .

مليون دينار وسيكون بإمكان هذا المطار الذي سيواكب التوسعات المستقبلية حتى عام (٢٠٠٠) استقبال (٩) ملايين مسافر في العام . وسيضم هذا المطار اندي قامت بتصميمه المؤسسة العامة للطرق والجسور بالتعاون مع بعض الخبراء العالميين (١٨) موقفا للطائرات ترتبط بأبنية المسافرين وأربعة مواقف احتياطية للاستعمالات الضرورية وقاعة للشرف ، وجناحا خاصا للسيد الرئيس وآخر خاص للاجتماعات القصيرة للسادة الرؤساء وقاعة كبار المسؤولين .

كما تشتمل منشآت المطار الجديد على بناية للاتصالات للمراقبة وبناية للشحن الجوي والملاحة وطرق مؤدية الى أماكن الصيانة وساحة لخدمة الطائرات .

أما المنشآت الأخرى فتضم مطعما يسع (٥) آلاف مسافر يوميا وأبنية للبضائع ومركزا لإطفاء الحريق ومحطة لوقود الطائرات ، وبناية لوقوف انسيارات بثلاث طوابق تتسع لـ (٣٠٠٠) سيارة . ويؤمل انجاز هذا المشروع الكبير في نهاية عام ١٩٨١ (٤) .

أوقاف للبناء والاعمار

صارت الأوقاف في عهد الثورة مؤسسة للبناء والاعمار ، متجاوزة بذلك وظائفها التقليدية بعد ان دعمتها الثورة بكل الوسائل فساهمت بتطور الجانب العمراني في بغداد الى حد كبير وكذلك في حل أزمة السكن وتلخص نشاطاتها في هذا الجانب بما يلي :

١ - مشروع مدينة الأوقاف في السبع ايكار يتألف في مرحلته الأولى من (١٠) عمارات تحتوي على (٢٤٠) شقة ، وتتألف المرحلة الثانية من (٧) عمارات تحتوي على (٨٤) شقة ويشمل المجمع بناء المدارس ورياض الأطفال ودور الحضنة والأسواق .

٢ - عمارة العلوية الثالثة بارتفاع (١٤) طابق الى جانبها عمارة من (٨) طوابق مع المرافق

(٤) من جريدة الثورة الصادرة يوم ١٩٧٩/٧/٢٦ ، كتاب الثقافة والفنون في عهد الثورة ، صادر من وزارة الثقافة والفنون .

الخدمية الضرورية . . وتقع في منطقة العلوية .

٣ - عمارة سكنية من (١٤) طابق في منطقة العلوية ايضا .

٤ - عمارة المنصور في المنصور وتكون من (٨) طوابق .

٥ - عمارة هيبث خاتون السكنية في الاعظمية تتألف من (٤) طوابق .

٦ - عمارتي العلوية الأولى والثانية في العلوية .

٧ - عمارات الخيرات وهو أضخم مجمع عمراني تقوم به الأوقاف في شارع السعدون .

٨ - عمارة المديرية العامة للتخطيط والانشاء التابعة للأوقاف وتتألف من (٥) طوابق .

٩ - مجمع سكني للوزارة يتألف من (١٠) طوابق على شارع الامام الاعظم في دور الاعلان .

١٠ - عمارة نائلة خاتون في منطقة الحيدرخانة (٦) طوابق .

١١ - عمارة وقف الطبقة وتنتألف من (٥) طوابق في الحيدرخانة .

١٢ - عمارة وقف الشيخ قادر في شارع الرشيد تتألف من (٦) طوابق .

١٣ - عمارتي البر واحسان مقابل المركز المدني وساحة النافورة .

١٤ - العمارة البغدادية في دور التصاميم والاعداد وستقام في منطقة الجندي المجهول .

١٥ - بناية ذات طابقين في انكاظمية لاستقبال حجاج بيت الله الحرام الوافدين من الاقطار المجاورة .

ان هذه النشاطات تضاف الى واجبات الوزارة الاصلية في بناء وصيانة المساجد الدينية .

اعمار اجتماعي

على المستوى المهني والاجتماعي فقد ولدت بعد ثورة ١٧ - ٣٠ تموز الكثير من المؤسسات لتأهيل العمال وتدريبهم ومكاتب التشغيل ومعاهد اجتماعية لخدمة بعض الشرائح الاجتماعية من المواطنين ذوي المعاهات وغيرهم وفيما يلي جدول يبين نوع وعدد هذه المؤسسات :

اسم المؤسسة	عددها قبل الثورة	بعد الثورة
١ - مكاتب التشغيل	٢	٢٢
٢ - مراكز التدريب المهني	-	٤
٣ - مراكز التأهيل المهني والورش المحمية	-	٤
٤ - مؤسسات العمل الصحية	-	٦
٥ - دور حضانة واجنحة ملحقه بالمراكز الاجتماعية	١	٥٠
٦ - المراكز الاجتماعية	٨	٢١
٧ - دور رعاية المسنين والمقعدين	٤	٩
٨ - دور رعاية الاحداث والبنات	١٠	٢٣
٩ - معاهد الصم والبكم والمتخلفين عقليا	-	٨
١٠ - معاهد المكفوفين	١	٤
١١ - رياض الاطفال	-	٤

- ٤ - انشاء سكن للعمال في بغداد .
- ٥ - انشاء سكن للفلسطينيين .
- ٦ - انشاء مستشفيات ومراكز طبية للعمال .
- ٧ - تطوير السجون والاصلاحيات .
- ٨ - انشاء دور لرعاية البنات .
- ٩ - انشاء فنادق عمالية ودور سياحية ونوادي ومكتبات للعمال .

شواهد الثورة الفنية على وجه بغداد

انتشر في شوارع ومنتزهات العاصمة عدد من الانصاب والتماثيل تخلد مشاهير رجالات العلم والادب والفن والسياسة بلغ عددها (٥٠) نصبا وتمثالا (كالرصاصي) و (الكاظمي) و (ابو تواس) و (الفسارابي) و (الواسطي) و (شهريار) و (ابي جعفر المنصور) والنصب الكبير (مسيرة الحزب ..) و (جدارية التأميم) اللذين يجسدان بطولية الحزب والثورة (٥) . وانتشرت في ساحات وحدائق ومنتزهات بغداد نافورات ملونة زاد عددها على المائة موزعة على (٥٠) موقعا . كما تخللت معظم الساحات والحدائق اكثر من (٢٠) ساعة مختلفة الاشكال والتصاميم والابرار فمنها الجدارية والبرجية وساعات الزهور .

كما شهدت بغداد خلال عهد الثورة الزاهر عددا من المؤتمرات والاحتفالات والمعارض الفنية

(٥) وتم لافراحي صناعة التماثيل انشاء معبر البرونز التابع لامانة العاصمة . المسالة الي تاليف لجنة وطنية من كبار المسؤولين المتخصصين بالثقافة والفنون لاختيار النصب والتماثيل وتحديد امكانها في القطر .

كما قامت وزارة العمل والشؤون الاجتماعية خلال عهد الثورة بانشاء (٨١٧) دارا اضافة الى (٤٠) عمارة كل منها يحتوي على (١٢) شقة ، كما انشأت (١٣) عمارة يحتوي كل منها على (٤٨) شقة . وهناك قيد الانشاء (٣) عمارات سكنية ، اما عدد الدور التي شيدت والتي تحت الانشاء فيبلغ (١٣٠) دارا .

وتضع المؤسسات الاجتماعية في تصوراتها عن الافاق الحالية والمستقبلية لبرامج عمل مؤسساتها على الصعيدين الاجتماعي والعمالي على المؤثرات الاساسية للسياسة الاجتماعية التي حددها التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب اطارها المرحلي كي تتمكن من اداء دورها على نحو يتناسب مع مسيرة التحولات ، ولا شك ان الحاجة ستتعاظم مستقبلا الى بعض النشاطات الخدمية المعينة كدور الحضانة وذلك بسبب اتساع ممارسة المرأة لنشاطات خارج المنزل . ولا ينس دور مراكز التنمية الاجتماعية المهم في عملية التغيير بسبب تعدد وظائفها وتنوع ادوارها . كما تجري تنفيذ مشاريع الرعاية الاجتماعية في اطار مؤسسات متخصصة .

ان مؤشرات التطور المستقبلي للمشاريع التنموية تعكس اهتمام الثورة بالحاجات المتعاظمة لعملية تغير البناء الاجتماعي والاقتصادي وانعكاس ذلك على السلوك الانساني ومن هذه المؤشرات :

- ١ - انشاء دور الحضانة ومستلزماتها .
- ٢ - انشاء مراكز التنمية الاجتماعية .
- ٣ - انشاء ابنية للموقنين .

عكست الوجه الحقيقي لنشاطات الثورة ومكاسبها وجسدت مبدأ الفن في خدمة الثورة ويمكن تلخيصها بما يلي :

(١) ١٩٧٤ اقيم معرض السنتين العربي الاول في بغداد .

(٢) ١٩٧٤ انشأت فرقة التراث الموسيقي للمقام والبسات في بغداد .

(٣) ١٩٧٤ انعقاد المؤتمر الرابع للمجمع العربي الموسيقي في بغداد .

(٤) ١٩٧٥ انعقاد المؤتمر الدولي الثاني للموسيقى في بغداد .

(٥) ١٩٧٥ بدأت احتفالات القطر باليوم العالمي للموسيقى واصبح تقليدا فنيا جميلا .

(٦) ١٩٧٦ انعقاد الاجتماع (٣٣) للهيئة التنفيذية لرابطة الفنون الدولية التشكيلية في بغداد .

(٧) اقامة معارض الحزب السنوية بمناسبة ذكرى احتفالات القطر في السابع من نيسان من كل عام .

(٨) ١٩٦٨ تشكيل الفرقة القومية للتشيل في بغداد .

(٩) ١٩٧١ تشكيل فرقة الفنون الشعبية في بغداد .

(١٠) اقامة مسرح الاطفال والاهتمام بكتابة نصوص مسرح الطفل .

(١١) انشاء داري سينما للاطفال في الاعظمية وابي تواس .

(١٢) انشاء المسرح الجوال .

(١٣) تكوين اكثر من (٢٠) فرقة مسرحية للشباب .

مشاهد العصر السياحية ببغداد

لم تغفل القيادة دور السياحة في استقطاب السواح والوافدين وما تحققة من سمعة دولية للقطر ، فكانت رعايتها غير المحدودة ودعمها المتواصل لهذا الجانب ايا كانت الجهة المنفذة له وبخاصة المؤسسة العامة للسياحة . وفيما يلي اهم المرافق التي ولدت مع الثورة :

البانوراما : مشروع سياحي يقع على بعد (٧٥٠) مترا من طاق كسرى ويعتبر الاول من نوعه في الشرق الاوسط والرابع في العالم ، يحكي قصة

معركة القادسية التي انتصر فيها العرب على الفرس وهي عبارة عن مشاهد منظورة هي اقرب الى الواقع - ندى مشاهديها - الى الخيال وسينتهي العمل فيها قريبا وهي من مشاريع امانة العاصمة السياحية .

المنتزهات والحدائق : ظلت بغداد تعاني من شحة الحدائق والمنتزهات وظل مواطنها يحلم بحديقة او منتزه يقضي فيه وقت فراغه ويشم نسائهما مع عائلته ، وبقيت اغلب المناطق الشعبية تغلف نفسها بغلاف الحركة الآلية المتكررة بعيدة عن التخيير وبقيت عبون ساكنيها لا تصطدم الا بجدران عتيقة وازقة ضيقة ونفس ثقيل فقد كانت كل المساحات المزروعة في بغداد قبل الثورة هي (٢٥) الف متر مربع ، الا انها وصلت بعد قيام ثورة ١٧ - ٢٠ تموز المجيدة الى (١٤٠٥٢٨٧٩٠) مليون ٢م موزعة على (٥٩١) منتزها وحديقة أبرزها منتزه الزوراء وحدائق قناة الجيش وبحيرة الثورة وابي تواس والمسبح . وينتشر فيها عشرات الاكشاك لبيع الاطعمة الجاهزة والمرطبات ، وكذلك ينتشر على ضفاف النهر (٢٠) كشكا لبيع السمك المسقوف .

منتزه الزوراء : او ما يطلق عليه المدينة الخضراء والذي يضم على كل ما يصبو اليه المرء من وسائل الراحة واللهو البريء ، فهو مدينة سياحية قائمة يقع ضمن مساحة (١٢٠٠) دونم في جانب انكرخ نظمت خارطته بشكل جميل وفريد تتوزع على جوانب شوارعه وممراته الكثير من وسائل الراحة فهنا وهناك تنتشر الحدائق وملاعب الاطفال والمتاحف كمتحف السيارات والعربات الملكية ومتحف التاريخ الطبيعي وابراج الطيور والشلالات والبحيرات ذات السحر اللذيذ التي تطفو على سطحاتها زهور اللوتس ، وناعمور يرقد على ضفاف احدها لرسم مشهدا من اعالي الفرات وعلى قباته نصبت خيمة الشمر الواسعة تعبد للزائر حلم الصحراء العربية وعلى بعد غير قليل ارتفعت الجنائن المعلقة بنشكيلها الجميل تطل على المسلة والاسود البابلية وشارع الموكب والى مسافة غير بعيدة يرتقي مصباح علاء الدين وحدائق الابراج والتمائيل ومن جهة اخرى يرتفع برج الزوراء مطلا على حديقة الحيوانات التي ضمت عشرات الانواع من الحيوانات يتمتع برؤيتها الكبار والصغار ، وفي مدبشة العباب الزوراء ترفرف ضحكات الفرح . ويضم المنتزه مسرحا وسينما صيفيان وانصاب وتماثيل وساعات والمسبح

الأولمبي والمعارض وقطار الزوراء والمضارب العربية والاكشاك واجهزة التلفزيون الملون ، وعدد كبير من المطاعم والكازينوهات السياحية . هذا وتنظم الى هذا المتنزه السفرات من جميع المحافظات وتقام فيه الحفلات والمعارض الفنية والتوعبية المتخصصة .

معارض الزهور

وقد اتبعت الجهات ذات الاختصاص في امانة العاصمة تقليداً جميلاً منذ عدة سنوات على اقامة معارض ربيعية وخريفية للزهور تكون بمثابة تظاهرات جميلة تتخللها الفعاليات الخفيفة كاختيار ملكة جمال الزهور واجمل سلة زهور تصنعها الايدي الناعمة ، كما يستعرض اطفال بعض الرياض خلال هذه المهرجانات البسيطة بعض اناشيدهم الناعمة للحب وللوطن وللزهور وللناس .

الاثار السياحية

تعتبر المواقع الانثوية والتاريخية في بغداد من اهم عوامل جذب السواح بالاضافة الى انها تمثل علامات تاريخية مميزة لطابع المدينة ، ومن اهم الاكتشافات وصيانة المواقع الانثوية ما يلي :

(١) المدائن : عشر خلال التنقيبات على ابنية تعود الى العهود العربية الاسلامية ، كما شملت اعمال التحري الجناح الشمالي فابورت الواجهة المتساقطة ، وقامت مؤسسة الاثار بصيانة الايوان وتروم اعادته بنائه لتقديم .

(٢) موقع عقر قوف : (مدينة دور كاريكالزو) على بعد (٢٠) كلم الى الغرب من بغداد ، كانت عاصمة الكيشيين منذ القرن (١٥ - ١٢ ق. م) وقد اكمل الجدار الخارجي للزقورة .

(٣) تل حرمل : يقع في بغداد الجديدة ، ما زالت البعثات الانثوية تحاول حمايتها الاثار الموجودة هناك خوفاً عليها من زحف الطفيليات المعماري الحديث الذي اخذ يهددها .

(٤) منطقة تل ابو صخير : ما زالت البعثات الانثوية تزاوّل اعمال التنقيب وفقد كشفت عن منشآت اسلامية مهمة تعود الى العهود الاسلامية .

(٥) المدرسة المستنصرية : بقرار من مجلس قيادة الثورة تحت رقم (١١٥) في ١٩٧٣/٢/١ حولت ملكيتها الى الاثار مع جميع الابنية المضافة في واجهتها ، وقد تم قيام الهيئات الفنية بصيانة الواجهة ، كما انجزت صيانة الضلع الجنوبي

الشرفي مع تكملة الحلية المزخرفة التي تعلو موضع الاطار الكتابي وجرت عملية تخفيض مستوى الارض المحيطة بالمدرسة الى عمق مترين لتكون بمستوى الارض الاصليّة . ثم جرى تبليطها وتصريف المياه المتجمعة وما تزال اعمال الصيانة مستمرة في هذه المدرسة .

(٦) القصر العباسي : شملت الصيانة الانثوية معظم اقسام هذا القصر التاريخي وتم صيانة واعادة بناء مدخل القصر المطل على دجلة وفسق تصميم خاص واستنادا الى بقايا المعالم الانثوية المستظهرة وبلاسترشاد بمعالم بوابة المدرسة المستنصرية . وقد تم تشييد بوابة بارتفاع (١٢ر٨٠) م واعادة بناء الواجهات الداخلية المطلّة على صحن القصر وكذلك جميع المرافق الداخلية منه واعادة تركيب الخزارف .

(٧) خان مرجان : استطاعت الاثار انقاذ هذا البناء التاريخي من خطر السقوط بفعل تسر المياه الانجوفية الى هذا البناء الفريد والذي يمثل طرازاً معمارياً خاصاً وهو من بقايا ابنية القسرين الثامن الهجري يتألف من طابقين من الغرف حول بهو كبير مسند باقواس واقية وشملت اعمال الانقاذ والصيانة جميع القاعات والمرافق والواجهة الخارجية والبوابة الرئيسية .

(٨) منارة سوق الغزل : انجزت صيانة القاعدة في هذه المئذنة وهي فريدة في تصميم بنائها وتعود الى جامع القصر أو مسجد دار الخلافة الذي شيده الخليفة العباسي المكنى بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) اما المئذنة نفسها فيعود تاريخها الى عام ٦٧٨ هـ وشملت اعمال الصيانة في هذه المئذنة اكمال الخزارف الاجرية واعادتها الى شكلها الاصلي .

(٩) الباب الوسطاني : وهو الباب الوحيد المتبقى من ابواب بغداد القديمة ، تواصل الهيئات الانثوية من صيانتة وترميمه وصيانة برج البوابة وبناء العقود بعد ازالة الاجزاء المتصدعة ، والاعمال تجري على اعادة التمنطرة وبناء جدران السور الخارجي المحيط بالخندق لاعماد هذا الموقع وابرار معاله .

(١٠) مرقد الست زبيدة : وهو مرقد زمرد خاتون تمت صيانة الاجزاء المتهولّة من المقرنصات الداخلية والخزارف الاجرية في واجهة القبة وتم صيانة المدخل الرئيس للمرقد وتسييج واثارته بالساليب الفنية .

المتاحف الجديدة

(١) قاعة المسكوكات في المتحف العراقي :
اضيفت الى قاعات العرض في المتحف العراقي ،
ضمت مجاميع نفيسة ونادرة من المسكوكات
الاسلامية والعربية يبلغ عددها (١٥٩٢) تقدا منها
(٤٣٦) ذهبا و (١٠٩١) فضة والباقي نحاسا
افتتحت في العيد الاول للثورة .

(٢) متحف حزب البعث العربي الاشتراكي :
انشئ في بيت الاب المناضل احمد حسن البكر
الذي تبرع به سيادته ليكون متحفا للحزب يضم
تراث الحزب اثناء النضال السليبي مع نماذج من
آلات وادبيات الحزب وصور شهدائه ومكتبة الاب
المناضل وشهاداته .

(٣) متحف الازياء : انشيء في بناية الكمرك
القديم وهي ذات طراز معماري بغدادي اصيل تم
ترميمها وتطويرها ، عرضت في قاعاته نماذج من
الازياء والمأثورات الشعبية .

(٤) متحف المدائن : اقيم في المدائن يضم
نماذج مختلفة من الآثار المكتشفة في المنطقة .

(٥) متحفان للتاريخ الطبيعي : احدهما يتبع
لجامعة بغداد يضم نماذج ومشاهد لبعض الاحياء
المنقرضة والمحنطة وهياكل متنوعة . والاخر تابع
لامانة العاصمة في منتزه الزوراء يضم بعض
الحيوانات والطيور المحنطة عرضت بشكل يلائم
موقع المتحف .

(٤) المتحف الطبيعي : تابع لامانة العاصمة ،
انشأ في بداية السبعينات يضم تماثيل واشكال
تصور العادات والمهن والتقاليد البغدادية القديمة ،
وتقام في المتحف حفلة للجالي البغداديين عصر كل
يوم جمعة .

(٥) متحف الطفل : يمثل احدي قاعات
المتحف الوطني ، ويعتبر الاول من نوعه في منطقة
الشرق الادنى وهو نموذج لمتحف اكبر ومتطور
تنوي الجهات المسؤولة اقامته ضمن البوابة
الاشورية الواقعة في مقدمة المتحف .

(٦) متحف الآثار العربية والاسلامية : اعدت
الدراسات لاقامة هذا المتحف وذلك ضمن البناية
لمؤسسة الآثار ورصدت لذلك المبالغ اللازمة .

دار الازياء

تأسس عام ١٩٧٠ بموجب قرار مجلس قيادة
الثورة المرقم (٥٧) ، راعت الدار في منهاجها
التنفيذي تحقيق الاهداف الحضارية لعملها وهي

وضع اسس جديدة للزي العراقي ، ولم يقتصر
عملها على ابتكار اشكال موسمية للملابس كما هو
الحال مع المؤسسات التجارية وانما تركز عملها
الاساس في توجيهها الاعلامي ذو المضمون الثقافي
وتشكيل تيار ثقافي في الذوق الخاص وتقديم الخبرة
والشورة للمدارس والجامعات ومصانع الملابس
في تصميم الازياء .

الجندي المجهول

مشروع كبير خصصت له امانة العاصمة
مبالغ معينة قام بتصميمه وعمل نماذجه الفنان
خالد الرحال وخصصت له المنطقة الواقعة في جهة
ام العظام من منتزه الزوراء وسيكون بدلا عن
النصب القديم الذي اصبح موقعه لا يلائم
والمراسيم التي تقام عنده في المناسبات الوطنية .
لما لذلك من تأثير على حركة السير في الشوارع
المحيطة .

والسياحة ايضا

خلال عهد الثورة اتجهت المؤسسة العامة
للسياحة الى بناء الفنادق والمجمعات السياحية
وفق طرز العمارة البغدادية العريقة ووجهت
جهودها بالتعاون مع المؤسسات ذات العلاقة
للعناية بآبنية بغداد القديمة لابرازها سياحيا
كمعالم جمالية حضارية ثمينة . ومن هذه
المشاريع :

(١) المجمع السياحي في المدائن : يحتوي على
(٣٥) غرفة اضافة الى (١٧) شقة سكنية .

(٢) فندق القناة : ويحتوي على (١٤١) غرفة
ومسبح .

(٣) مطعم خان مرجان السياحي في الشورجة
الذي قامت باستصلاحه الآثار .

(٤) المطعم الصيني والايطالي في الجادرية
يقدم المأكولات الصينية والايطالية فقط .

(٥) فندق الكاظمية الجاهز : يحتوي على
(٥٠٠) غرفة مخصصة لزوار العتبات المقدسة .

(٦) مرسى الزوارق : يقع على شارع ابو
نؤاس يقدم الجولات النهرية للمواطنين ويحتوي
المرسى على مطعم ممتاز وحدائق .

(٧) مطعم الشموع ويقع في شارع السعدون
وهو من الدرجة الممتازة .

(٨) فندق عباس بن فرناس : يقع على طريق

المطار الدولي يحتوي على مسبح ومطعم ويحتوي على (١٠٠) غرفة .

(٩) فندق ميليا المنصور في الدالحيية : يحتوي على (١٢٨) غرفة ومسبح وصالة مؤتمرات وساحات ألعاب وسينما ومكاتب تبريد والخطوط الجوية ، والحقيقة ان معظم الفنادق السياحية ذات التدرج الاولى تتوفر فيها الصالات والنوادي الليلية وساحات وقوف السيارات .

(١٠) تطوير اماكن الترفيه في بغداد لاستخدامها لاجراض السياحة كدار الثقيب في السنك ودار الاستريادي في الكاظمية .

(١١) تطوير جزيرة ام الخنازير وتحويلها الى منطقة سياحية حيث انشأت فيها الشقق وملاعب ومسبح ونادي ليلي ومختلف الخدمات السياحية وتصل الجزيرة بالساحل عبارات لنقل المواطنين « فقط » من الساحل الى الجزيرة .

اما الفنادق السياحية الكبيرة التي تحت الانشاء والتي ستكون علامات واضحة لتطور العمراني والسياحي في بغداد هي :

- (١) فندق نوفوتيل قرب ساحة الاندلس .
- (٢) فندق شيراتون : مقابل الجندي المجهول الذي يحتوي على كل ما يحتويه ميليا المنصور .
- (٣) فندق ميريديان : يقع في نفس المنطقة ويحتوي على (٤٠٠) غرفة وكل المرافق المهمة .
- (٤) فندق بابل : يقع في الجادرية يحتوي على (٥٠٠) غرفة مع مرافقه الاخرى .

كما تقوم المؤسسة بانشاء مكاتب وطنية للسياحة وتقديم التسهيلات للمواطنين للمساهمة في الحركة السياحية .

الصحة في ظل الثورة

لكي يكون المواطن مؤهلا صحيا ونفسيا للمساهمة في عملية بناء الوطن ، يجب ان توفر له اسباب الصحة ، وهذا ما خططت له الثورة منذ لحظاتها الاولى فعمدت على تطور مستوى الطب بما يوازي التطور العلمي الحاصل في العالم فتحقت المكاسب الصحية وتطورت طرق الفحص والمعالجة ومن ابرز ما حصل في هذا المضمار :

(١) مؤسسة مدينة الطب : بعد شهر من قيام الثورة اعلنت مدينة الطب بوجهها الجديد واقسامها المتعددة المتكاملة توفر خدماتها الصحية لكل مواطن . وجهزت باحدث ما توصل اليه العلم

من اجهزة ومعدات ، فقامت بفتح مركزا خاصا لرعاية المعوقين من الصمم والبكم سمي (مركز السمع والتخاطب) جهز باحدث المعدات العلاجية والمختبرية المتطورة ، كما تم استخدام الحاسبات الالكترونية في المؤسسات لتوظيفها في الامور الطبية والادارية ، كما تم زيادة عدد الجراحين والاختصاصيين في مختلف الامراض من ذوي الامكانيات الكبيرة للقيام بأدق العمليات الجراحية وانظمية .

(٢) مستشفى العلوية للولادة : افتتحت في ١٧ تموز ١٩٦٩ لتقديم الخدمات الطبية للنساء انحوامل ورعاية الأسرة وزودت بالكوادر المتخصصة وجهزت باحدث الآلات والاجهزة المتطورة وتضم شعبة لمعالجة حالات العقم افتتحت عام ١٩٧٥ ، كما التحقت بالمستشفى عيادة خارجية تعمل لمدة (٢٤) ساعة لاستقبال المرضى .

(٢) الجمعيات الطبية الاستشارية المتخصصة :

اول تجربة في القطر قامت في مستشفى الفردوس عام ١٩٧٧ لكي يمارس فيها (٥) اطباء اختصاصيون مسؤولياتهم تجاه المواطنين في كافة الامراض وجهز هذا المجمع بكل الاجهزة الطبية المتطورة وطرق العلاج الذي يقدمه مجانا للمواطنين وسيتم شمول حوالي سبعة مناطق بمثل هذه الجمعيات ، هذا اضافة الى ان السلطات الصحية راحت تستدعي مشاهير الاطباء في العالم لالقاء المحاضرات الطبية والتدريب في المؤسسات الصحية ونحس المرضى وتقديم العلاج لهم .

(٣) العيادات الطبية الشعبية : في عام (١٩٧٠) صدر قانون العيادات الشعبية واست اول عيادة من هذا النوع في مدينة الثورة ، انتشرت بعد ذلك في اغلب المناطق السكنية وتعتبر هذه كغيرها من ثمرات جهود الحزب والثورة لتأمين الطب الاشتراكي . ثم اصبحت بنوعين الاول عام لكل فروع الطب والثاني مختص بعمل فيه اطباء اختصاصيين . وقد اصبح عددها حاليا (١٣٢) عيادة شعبية .

(٤) الاسعاف الفوري :

تطورت الخدمات الصحية في هذا الجانب بشكل كبير في عهد الثورة حتى اصبح لها (٣٤) مركزا تؤدي خدماتها للمواطنين المحتاجين لخدماتها بصورة سريعة جدا بواسطة سياراتها المتطورة المجهزة بالاسلوكي وباجهزة حديثة ، وكوادرها المدربة على وسائل الطوارئ وسيتم ادخال

طائرات الهليكوبتر في الاسعاف الفوري وتطوير ونوسيع شبكة اتصالاتها ..

التأمين الصحي : جاء استنادا للقانون رقم (١) لسنة ١٩٧٥ الذي اعطى المقومات الحقيقية لهذه المؤسسة لتأمين الصحة الى كل المواطنين من خلال شبكة المراكز الصحية الرئيسية والفرعية التي يبلغ عددها حوالي (١٠٦٥) مركزا وعيادات التأمين الصحي وصيديات التأمين الصحي وكذلك فان مؤسسة التأمين الصحي قامت بانشاء المستشفيات والعيادات الطبية المركزية وتنفيذ المشاريع الصحية الكبرى .

ان وزارة الصحة قامت في ظل الثورة بفتح (٣٥) مركزا صحيا (٤٥٦) عيادة نسائية لم يكن لها وجود في العهود السابقة كما زادت عدد المستشفيات من (١٤٩) الى (٢٠٠) والعيادات الطبية المركزية من (٣٤) الى (٥٨) . ومراكز رعاية الامومة والطفولة من (٥١ - ٧٨) وكذلك (١٧٩) مستوصف سيار و (٤١٠) عيادة وطبابة اسنان .

هذا ولا بد لكل مواطن منا يشاهد وهو يسير في الشارع لافتة على محل مغلق مكتوب عليها (اغلق لمخالفته تعليمات وزارة الصحة) وهذا يدل على مدى النشاط والمتابعة والرقابة على هذه المحلات لحماية صحة المواطنين من الامراض .

النقل بعد ١٧ - ٢٠ تموز في بغداد

ان نظرة بسيطة مقارنة نوافع النقل في الوقت الحاضر عما كان عليه قبل الثورة يجعلنا نشهد ببساطة الفرق الشاسع بين الحالين فقد شهدت شوارع العاصمة ضغطا كبيرا من وسائل النقل العامة والخاصة ، الامر الذي حدا بالمؤسسات الرسمية الى تنظيم نشاطاتها بشكل يكفل توفير خدمات افضل للمواطنين ، حتى ان الزيادة الحاصلة في عدد السيارات الاهلية او تلك الخاضعة للقطاع الاستراكي اصبحت لا تتناسب وكثافة السكان الامر الذي خلق ازمة في مضمار النقل ، وعليه كان لزاما على المؤسسات ذات العلاقة اتخاذ الاجراءات المناسبة للتخفيف من الازمة فبادرت الى استيراد عدد كبير من باصات انتقل وسيارات الصالون المجهزة بالعدادات ثم ادخال وضع ضوابط للنقل الاهلي بالاضافة الى طرح عددا من المشاريع التي يؤمل ان تحد من تفاقم الازمة في نقل المواطنين .

المنشأة العامة لنقل الركاب في مدينة بغداد :

بعد بوز ١٧ - ٢٠ تموز المجيدة تم منح مصلحة نقل الركاب مساعدات مالية عاجلة لتمكينها من الخروج من ازمته المالية وشكلت لجنة بموجب قرار مجلس قيادة الثورة الصادر بتاريخ ١٩٧١/١٠/٣ لتتولى دراسة وضع المصلحة فوضعت اللجنة توصياتها لمعالجة ذلك ، منها الغاء المصلحة وقيام المنشأة العامة لنقل الركاب في بغداد تتولى شؤون النقل العام والاهلي للركاب في العاصمة ، فبادرت المنشأة الى استيراد (٢٠٠) حافلة نوع ايكاروس كما تم شراء (١٠٠) حافلة نوع ليلاند ذات طابقين بالاضافة الى (٣٠٠) حافلة ريم ، كما اعيد تخطيط مسارات خطوط الحافلات تعديلا وتمديدا وتقليصا استنادا الى المسوحات الميدانية وبما يتلائم والكثافة السكانية لقطاعات بغداد ، كما تم ادخال العنصر النسائي لأول مرة للقيام بدور المحصل ، بالاضافة الى انه تم اعتماد تشغيل الحافلات بدون محصلين وذلك عن طريق الحافلات المزودة بمكائن التسيط او بمكائن طبع البطاقات او سائق الحافلة يقوم بواجب المحصل ايضا ، كما تم نصب اكشاك في مناطق انطلاق الباصات لبيع التذاكر وتوفير دفاتر ب (٢٥) بطاقة وسعر (٥٠٠) فلسا وذلك تسهيلا لامور المواطنين وعدم التذبر في الوقت والطاقت .

النقل الخاص :

استند تنظيم هذا القطاع الكبير في ابدية الى مؤسسة ادارة شؤون محلات النقل التي كانت تابعة لامانة العاصمة ونحوها تبعيتها الى المنشأة العامة لنقل الركاب في بغداد ، وكان من اولى واجباتها هو تنظيم النقل داخل بغداد ، ووضع ضوابط لعمل هذه السيارات ضمن خطوط محددة وفقا لكثافات السكانية وتحديد اجورها وخطوطها واصبحت لقرارات المنشأة صفة ملزمة على نشاطات هذه السيارات عن طريق اتخاذ الاجراءات المناسبة ضد المخالفين . كما تم تثبيت خط واجره ورقم الخط في جوانب السيارة بشكل ظاهر للحيلولة دون ارتكاب المخالفات . ومن جهة اخرى قامت المنشأة بتوزيع سيارات الصالون المجهزة بالعدادات وبشكل واسع يساهم كثيرا في الحد من مشكلة النقل داخل العاصمة . ويؤمل العمل في العدادات قريبا .

قطار الثورة :

تجربة رائدة ولدت في عهد الثورة لحل ازمة

النقل بين مركز بغداد وبين اكثر مناطق العاصمة كثافة في السكان وهي مدينة الثورة ، يبدأ الخط من ساحة المتحف عبر جسر الصرافية فمحطة غربى بغداد - الحبيبية - نهاية مدينة الثورة فمعامل الطابوق وله مواقف لصعود ونزول الركاب عبر طريقه ولكن لم يقدر لهذا المشروع ان يستمر فانني في شهر حزيران الماضي نظرت لاجراء التحويرات على ساحة بضائع الخط النهرى وتحويلها الى ساحة لنفاض بضائع الخطوط الرئيسية .

مشروع المستقبل الكبير

بعد اعداد الدراسات الجيولوجية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية استقر راي الخبراء واختصاصيد النقل على اعتماد مشروع (المترو) الارضى لحل ازمة النقل داخل مدينة بغداد وضواحيها واقترحت الدراسة استعمال فاضلات كهربائية تسير على قضبان حديدية خالية من التقاطعات مع بقية وسائل النقل الاخرى ، وقد اثبتت الدراسة ايضا ضرورة انشاء خطين للنقل السريع حتى نهاية عام (٢٠٠٠) مع خطة بعيدة المدى لانشاء خط ثالث في فترة لاحقة .

وتوصي هذه الدراسة بانشاء خطوط يبلغ طولها (٢٢) كلم وتشغيلها قبل نهاية (١٩٩٠) تمثل الشبكة الرئيسية وهي عبارة عن خطين يسير الاول منهما تحت الارض في شارع السعدون مبتداً من ساحة الفتح لساحة عقبة بن نافع - الجندي المجهول - ساحة النصر - التحرير فساحة الخلاني - شارع الرشيد ماراً تحت نهر دجلة من سفنه الشرقية وحتى ساحة المتحف - المحطة العالمية - شارع دمشق وحتى نهايته في ساحة الفارس العربي .

اما الخط الثاني من الشبكة الرئيسية فيسير بخط مرفوع عن سطح الارض مبتداً من قنطرة الجيش - محطة شرقي بغداد - ساحة بورسعيد حيث يبدأ بالنزول الى مستوى تحت الارض ماراً بساحة السباعوي - الخلاني منتظماً بالخط الاول

من الشبكة الرئيسية مستمراً بشارع الجمهورية - باب المعظم - شارع الامام الاعظم - جسر الصرافية - منتهياً بساحة عنتر .

وهناك اربع توسعات في هذا الخط للمستقبل حيث يصل الاول الى حي الشرطة في الكرخ والثاني الى نهاية مدينة الثورة والثالث الى بغداد الجديدة والرابع الى نهاية الكاظمية .

وفي عام ١٩٩٠ سيبلغ عدد القطارات العاملة على الشبكة الرئيسية في بغداد (٦٢) قطاراً وفي عام (٢٠٠٠) سيبلغ طول شبكة سير المترو (٤٠) كلم وعدد القطارات (١١٩) قطاراً تتوقف في (٥١) محطة في مختلف الاتجاهات . وقد روعي في مد هذه الشبكة الحفاظ على طابع المدينة العمراني والانري والتاريخي .

نقل الركاب النهري :

ومن وقت لآخر نسمع او نقرأ اخباراً عن نية المؤسسات ذات الاختصاص بالنقل اقامة خط للنقل النهري في نهر دجلة داخل بغداد بربط الكاظمية بأكراة الشرقية ولكننا لم نعلم على اجابة واضحة لاستفسارنا عن هذا الموضوع ، ففضلنا الصمت .

خاتمة

ان بديهة واحدة تكفي لتكون الخاتمة . وهي ان التطور في كل زاوية وفي كل وقت لا يعرف حدوداً نه ما دام هناك اناس مؤمنون باوطانهم وشعوبهم وبحق الاجيال في العيش من بعدهم ضمن مبادئ حقيقية لا تعرف الخمسول ، فاذا كانت بغداد خلال هذه الاعوام القصيرة من عمر الثورة قد وصلت الى ما هي عليه الآن من تقدم وتطور فانها وبفضل قيادتنا الرائدة سوف تتطور تطوراً كبيراً بعد عشر سنوات اخرى نسبح نحو الاحسن والارنى واذا لم ينح لجيئنا ان يرى ما ستؤول اليه بغداد في الاعوام اللاحقة من جمال وحضارة فهيئنا لابنائنا واحفادنا ببغداد المستقبل . . بغداد الاول . . بغداد الحضارة . . والتقدم والتحرر . . والامل .

مصادر

- ١ - مجلة امانة العاصمة الاعداد ٨ ، ٩ لسنة ١٩٧٧ و ١٩
- للسنة ١٩٧٩ .
- ٢ - قرارات التصميم الاساسي لمدينة بغداد .
- ٣ - المجاميع الاحصائية لقسم الاحصاء بامانة العاصمة .
- ٤ - ارشيف امانة العاصمة .
- ٥ - المجموعة الاحصائية للجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٧٨ .
- ٦ - مجلة النقل والتنمية ، ايلول ١٩٧٩ .
- ٧ - مجلة رسالة النقل ، تموز ١٩٧٧ والمعد ٧ ، ١٩٧٨ .
- ٨ - مجلة الاطلاق الحديث ، تموز ١٩٧٩ .
- ٩ - مديريات الاعلام في وزارات : النقل ، العمل والشؤون الاجتماعية ، الاوقاف ، الصحة ، المؤسسة العامة للاسكان - المؤسسة العامة للسياحة/ادارة المرافق السياحية .
- ١٠ - وزارة الاسكان والتمهيد/مديرية الاعلام/الارشيف .
- ١١ - مجلة وهي العمال ، العدد ٥٢٥ في ٤ آب ١٩٧٩ .
- ١٢ - جريدة الثورة ، العدد الصادر بتاريخ ٢٦/٧/١٩٧٩ .
- ١٣ - الثقافة والفنون في عهد الثورة/صادر عن وزارة الاعلام .



تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة في بغداد

بقلم الدكتور

عماد عبد السلام روفس

كلية التربية - جامعة بغداد

مقدمة

سواء . ويمكننا القول ، بهذا الصدد ، ان معظم هذه المجالات المفيدة في الدراسة التاريخية لم يأخذ مجاله من اهتمام الباحثين ، ربما بسبب ان « اعتيادية » هذه الخدمات ، لم تلفت أنظار المؤرخين المعاصرين لها الا نادراً ، وفي مناسبات فريدة ، رغم ان اي من تلك « الخدمات » كان يمكن ان يسبب مشاكل غير اعتيادية لو انه توقف او اهل ولو الى حين .

ولا نشك في ان امر مياه الشرب ، كان يعد من الامور بالغة الأهمية في حياة هذه المدينة العريقة ، ولعله كان مشكلة من مشاكلها الدائمة عبر العصور ، فهذه المدينة التي اتسعت على نحو سريع ، منذ تأسيسها في منتصف القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) لتغطي مساحات وسبعة من الارضين ، تربو على مساحتها الاصلية يوم تأسست بأضعاف عديدة ، وتشمل خلال مدة تقل عن قرنين ، أنحاء مترامية الأطراف على جانبي نهر دجلة ، وفي اتجاهات متباعدة ، لا شك انها كانت تستهلك كميات ضخمة من مياه الشرب كل يوم ، ولا شك - ايضاً - في انها كانت تعاني من مشكلة نقل هذه المياه الى سكانها وايصالها الى دورهم ومساجدهم واسواقهم وسككهم لاستعمالها في حياتهم اليومية .

ان البحث في تاريخ مشاريع مياه الشرب في بغداد خلال عصورها المتعاقبة ، لهو امر تكتنفه صعوبات جمة ، اذ ليست ثمة اجابات كافية لما

اذا كان البحث في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمدن يعد من المجالات الحديثة للدراسات التاريخية في بلادنا ، فان دراسة تاريخ « الخدمات » او المرافق المدنية : فهي من اكثر الدراسات التاريخية حداثة ، ولعلها في الوقت نفسه ، من اشدها طرافة واهمية ، وذلك من ناحيتين ، اولاهما الصلة الوثيقة بين هذه الخدمات ، وبين تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة ، لان وجود « الخدمات » يوجب - في احيان كثيرة - انشاء مؤسسات رسمية ، او غير رسمية ، تختص بادارتها ، والمناوبة بمراقبتها .

ومن الناحية الاخرى فان دراسة هذه الخدمات تكشف ، على نحو فريد ، عن الصلة بين التاريخ الاجتماعي ، وبين التاريخ العلمي والتقني . وبمعنى آخر ، فان الخدمات هي احدي اهم المجالات الرئيسية لتطبيق المعرفة النظرية بما يخدم مصالح الشعب ويرفعه عنه ويحمي بيئته ويسر له العيش في مدينته ، اذ ليست المدينة ، في احد وجوهها على الاقل ، الا المكان الذي تتوفر فيه الخدمات للناس .

ومن هنا اذن تبرز أهمية دراسة « الخدمات » ومشاكلها في مدينة كبرى ، ومركز حضاري رئيس كمدينة بغداد ، تقلبت بين عصور الازدهار والحيوية ، وعصور الانحطاط والتخلف على حد

المياه من الشوائب وجعلها رائقة صافية ، عن طريق استخدام مادة « انشيب » (٢) ، الا اننا لم نعثر على ما يفيد باستعمال هذه المادة بشكل واسع انتقبة مياه الشرب . ونحن نميل الى ان استعمالها لبث حبيس مختبرات العلماء والاطباء للافادة منها في تجاربهم المختلفة ، دون ان تجد لها تطبيقاً في مشاريع مياه الشرب العامة ، اذ ليست نعمة نصوص تدل عليه ، الا اذا استخدم ذلك في نطاق ضيق . وفي دور بعض ذوي الشأن ، مما لم يلفت نظر المعاصرين .

ومع ان اخباراً دلت على وجود احواض كبيرة في الجانب الشرقي كانت تصب فيها فروع بعض الانهار الآخذة من الخالص (٣) ، الا انه ليست نعمة ما نعيم منه ان تلك الاحواض كانت تستخدم لترسيب المياه من شوائبها ، ومن المحتمل جداً ان تكون عملية ترسيب المياه مما يجري في نطاق الدور والمحلات الخاصة ، عن طريق وضعها في « الأزيار » العادية قبل شربها ، وهي الطريقة التي لبثت معروفة ببغداد حتى فترة متأخرة .

ونحن نحسب ان متكنة مياه الشرب ببغداد، لم تكن تتجاوز أمرين ، احدهما رفع المياه من المواضع المنخفضة على شاطئ دجلة ، وثانيهما نقلها بمختلف الوسائل لتجد طريقها الى سكان المدينة .

الفصل الاول

مشاريع مياه الشرب في العصر العباسي

١ - المدينة المدورة :

انشأ ابو جعفر المنصور مدينته المدورة على الضفة الغربية من نهر دجلة ، في الزاوية المتكونة بين مجرى الصراة غرباً ، ومجرى دجلة شمالاً ، وسماها « مدينة السلام » . وكانت حواليها مجموعة من الانهار والجداول القديمة التي تصل نهر دجلة بالفرات في اقرب نقطة يفترقان فيها من بعضهما . وكان واضحاً ان من اهداف المنصور الرئيسية . ان لم يكن أهمها ، ان تكون مدينته هذه في موقع عسكري منيع ، يسهل على سكانها الدفاع عنها (٤) . ويجعل من الصعب اقتحامها ، فصارت

(٢) الخطيب ١١١/١ .

(٣) لا نميل الى الاخذ بالرأي القائل بان اختيار المنصور لموقع بغداد ، بين نهري دجلة والفرات للتمتع بحمايتها الطبيعية ، كان يدل على فكر استراتيجي حصيف ، اذ سرعان ما اثبتت هذه القرية نهايتها بعد نحو أربعين عاماً

يمكن ان يطرحه هذا البحث من اسئلة ، وقد يعجب الباحث ، اول الامر ، حينما يلحظ ان مشكلة كهذه لم تلق من المؤرخين القدامى اي اهتمام يذكر ، فعلى الرغم من الارقام الكبيرة ، والمبالغ بها جداً ، عن عدد الحمامات ببغداد في العصر العباسي ، وما تستهلكه من الصابون ، ومن يعمل في خدمتها (١) ، فاننا لم نعثر على ما يوضح السبل التي كانت متبعة في تزويد هذه الحمامات بالماء بما تحتاجه من مياه نظيفة تصلح للفسل . ومثل هذا يقال ايضاً عن مساجد المدينة وربطها ومدارسها ، وكلها مما يحتاج فيه الى المياه الصالحة للوضوء والشرب .

ويزداد الأمر صعوبة ، عندما نلاحظ انه لم تكن نعمة فروق واضحة بين وسائل نقل المياه المختلفة ، فلا ينقطع التمييز - على وجه التحديد - بين انواع المياه الخاصة بالشرب ، او المستعملة للفسل والاستعمال اليومي الآخر ، او المستخدمة في سقي الحدائق والبساتين والحيوان ، كما ليس من اليسير - في اغلب الاحيان - التفرقة بين وسائل نقل هذه المياه ، ووسائل تصريف المياه المستعملة . فقد وصف لنا المؤرخون شبكة من الانهار الصغيرة مما كان يخترق مدينة بغداد بجانبها الشرقي والغربي ، وينخلل الاحياء السكنية والبساتين ، ولكننا لا نعلم كم من مياه تلك الانهار كان يستخدم للشرب ، وكم منها كان يستعمل كمزول للمياه الفائضة عن الحاجة ، او المستعملة لان استقبال المدينة للمدد الضخم من الانهار التي تجري بين دروبها ودورها ، كان يستلزم بطبيعة الحال عدد آخر من مصارف المياه ، وبما ان احداً لم يشر الى تلك المصارف ، ومن المستبعد جداً ان تستخدم هذه الانهار للغرضين في وقت واحد ، فمن الضروري للباحث اذن ان يعيد النظر في طبيعة عملها ومهمتها ، بحسب تعاقب العصور .

وعلى الرغم من ان العرب عرفوا سبل تنقية

(١) بالغ المؤرخون في عدد الحمامات ببغداد مبالغة كبيرة ، حتى قيل انها بلغت مائتي الف حمام ، الى الضعف ، وأكد بعضهم العدد الاول ، بينما قال آخرون انها مائة وثلاثون الفا ، او مائة الف ، واقل تقدير لها كان ستين الفا . انظر : هلال بن الحسن الصابي : رسوم دار الخلافة ص ١٩ تحقيق ميخائيل عواد (بغداد ١٩٦٦) والخطيب البغدادي ١١٧/١ (القاهرة ١٩٢١) .

(٢) البيروني : الميمنة في الطب ، تحقيق محمد سعيد ورائنا احسان الهادي (كراشي ١٩٧٢) ص ٢٩١ وداود الانطاكي : تذكرة اولي الالباب (بيروت د. ت) ٢٠٩/١ .

« المدينة المدورة » بذلك قرية لان تكون « قلعة » او « حصن » منها الى المدينة السكنية ، فاقامت الابواب المحكمة العديدة ، وحفرت الخنادق ، وانشئت ثلاثة نطاقات من الاسوار ، ثم لم يكتف بذلك وحسب ، بل اخلت - بعد وقت قليل من تاريخ انشائها - من عامة الشعب ، وهم الباعة والتجار واسحاب الحرف ، الا انقله منهم ، ثم منع الدخول اليها ركوبا ، وحتم على الجميع ان يمشوا فيها راجلين .

وكان من الطبيعي ان تنال مشكلة نقل مياه الشرب الى المدينة الجديدة جزءاً من اهتمام الخليفة المنصور وعنايته ، ف قضية كهذه كانت عظيمة الخطورة عند مخططي المدن والحصون ابان تلك العصور ، لانها تتعلق بصفة مباشرة بمدى اماكن ثبات المدينة او الحصن في الحصار التي تفرض عليها في اثناء الحروب .

ويبدو ان تفكير المنصور بهذا الامر جاء متأخراً على قيامه بانشاء المدينة ، فقد ثبت طيلة الشهور الاولى لسكانه فيها لا يدري بالوسيلة التي تنقل بواسطتها المياه الى قصره ، بل يبدو ان الامر لم يستلفت نظره البتة ، تاركاً له ان يسر بحسب الطرق المألوفة في عصره ، فكانت مياه الشرب تنقل الى قصره وسائر انحاء مدينته بواسطة سقائين يحملونها على ظهور البغال المعروفة ببغال الروايا ، وهي معبأة - على ما كان معروفاً - في اوان خاصة ، او « قرب » من الجلد .

وأول مشروع هندسي امر به المنصور لتوفير

من انشاء المدينة ، ولم يكن السلاح والفكر العسكري قد تطور في هذه المدة القليلة ، فلي اثناء فترة الامين والامون ، نفذ الامين خطة المنصور العسكرية بدقته ، فقطع الجسور التي تربطه بالجانب الشرقي ، وتحصن بالمدينة المدورة ، ولكن الجيش القادم بقيادة طاهر بن الحسين نجس العبور من النواحي القريبة من المدينة ، والتف عليه بعد عبوره دجلة على جسر موقت القامه في الشماسية اعلى بغداد ، فادت حركة الالتفاف هذه الى انهيار مقاومة جند الامين ، ولم تثبت المدينة المدورة الا قليلا الى تهافت بسرعة امام جيش طاهر ، وبذلك اثبت هذا الحادث نهات فكرة الموقع المتحصن بالحواجز المائية التي انشا المنصور على هداها مدينته .

(٥) كان الفراغ من بناء بغداد ونزول المنصور بها ، ونقل الخزائن والدواوين وبيوت الاموال اليها . سنة ١١٦هـ / ٧٦٢م وكان استتمامه ببناء السور والخندق واحكام امر المدينة سنة ١١٦٩هـ / ٧٦٦م . ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ٢٩ تحقيق د. صالح احمد العلي (بغداد ١٩٧٨) والخطيب البغدادي ٦٧/١ .

مياه الشرب لسكان مدينته كان انشاء قناة (او قناتين) من خشب الساج ، ترفع اليها المياه من دجلة بواسطة دولا ب نصب هناك . والظاهر ان هذه القناة كانت مرتفعة عن الارض بما يكفي لانحدارها التدرجي حتى تجتاز باب خراسان (وهو اقرب الابواب الى شاطئ دجلة) وتخترق المدينة حتى تصل رحبتها ، ومنها الى قصر المنصور . ولا يعلم عن وجه التحديد ما اذا كان هذا الماء مخصصاً بقصره وحده ، ام انه كان يجرى لغيره من دور المدينة وسككها ، كما ليس من المستطاع معرفة مدى سعة هذه القنى من الماء . ولكن يبدو انها كانت من المئاة والاحكام بحيث استمرت قائمة تؤدي مهمتها حتى النصف الاول من القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) (٦) .

ويفهم من رواية تفنن الطبري عن يحيى بن الحسن بن عبد الخالق خال الفضل بن الربيع (٧) ، والخطيب عن عياش بن القاسم (٨) ان انشاء المنصور لفنى الخشب الخاصة بمياه الشرب كان بعد فترة قصيرة من انتقاله الى المدينة المدورة ، وخلاصة الخبر ان عما للمنصور ، هو عيسى بن علي (٩) في رواية الطبري ، وهو عبد الصمد بن علي (١٠) في رواية الخطيب والاول ارجح ، شكا الى المنصور كبر سنه وضعفه وصعوبة وصوله الى قصره (اي قصر المنصور المسمى بباب الذهب) ماشياً . واستأذن منه ان يسمح له بركوب بعض بغال الروايا التي تخترق الرحاب وتفذي القصر بالماء ، فقال المنصور ، فيما رواه الخطيب ، « يا ربيع ، بغال الروايا تصل الى رحابي ؟ فقال : نعم يا امير المؤمنين . فقال : تنخذ الساعة قنى بالساج من باب خراسان حتى تجيء الى قصرى ، ففعل » وبشير الطبري ، فيما نقله عن خال الفضل بن الربيع ، الى ان المنصور امر عند علمه بوصول بغال الروايا الى رحابه ، بتحويل ابواب الدور الى فصلان النطاقات ، بعد ان كانت تؤدي الى الرحاب ، لكنه لا يشير الى امره بمد قنى الساج ، مع ان طبيعة الخبر تستلزمه . لعدم العلاقة بين تحويل ابواب الدور ، ووصول بغال الروايا الى الرحاب . فهذا الخبر ، على الاختلاف الطفيف في رواته واسماء

(٦) ابن الفقيه ٢٨ .

(٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ٢٢٢/٢ (ط . لندن) .

(٨) الخطيب ٧٨/١ .

(٩) توفي سنة ١١٦٤هـ / ٧٨٠م .

(١٠) توفي سنة ١١٨٥هـ / ٨٠١م .

شخصه ، يدل على أن بقال الروايا ، المخصصة لنقل مياه الشرب ، كانت تصل - قبل الحادثة المذكورة - إلى قصر المنصور ، مجتازة الأبواب والفصائل فالرحبة ، وهي الساحة الكبيرة التي تتوسط المدينة ، وفيها قصر المنصور وجامعه ، فتروي بذلك جميع الدور في الدروب والسكك . وبينما يحدد الطبري تاريخ هذه الحادثة ، سنة ١٤٦هـ/٧٦٣م ، أي بعد بضعة شهور من انتقال المنصور إلى مدينته الجديدة ، نجد أن في رواية أخرى نقلها ابن الفقيه عن الشروي^(١١) ، والخطيب عن أبي العيناء عن جده^(١٢) ، ما يفهم منه أن ذلك جرى نحو سنة ١٥٦هـ أو ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، أي بعد عشر سنين من التاريخ المتقدم . وخلاصة ما ذكرنا أن وفداً رومياً قدم إلى بغداد في تلك الآونة ، وأخبر المنصور بأن من عيوب مدينته « أن ليس لها نهر يخترقها » وأنها بعيدة عن الماء « ولابد للناس من الماء لشفاهم » فما كان من المنصور إلا أن عمل « لها دولاباً اجري ماء إلى القصر ، فكان يخترقها حتى يوافي القصر ، قال : هذا يقوم مقام النهر ، فلم يزال ساج ذلك النهر والدولاب يصب فيه إلى أيام محمد بن عبدالله بن طاهر (توفي سنة ٢٥٣هـ/٨٦٧م) ثم قلع وعُطل « وأذُفرت الرواية هذا الحادث بحادث آخر مهم ، هو قيام المنصور بنقل الأسواق إلى الكرخ ، خارج المدينة المدورة ، إثر نصيحة أخرى مشابهة أسداها سفير الروم المذكور ، يكون إنشاء هذا الدولاب وما يستتبعه في حدود سنة ١٥٦هـ أو ١٥٧هـ/٧٧٢ - ٧٧٣م ، وهو التاريخ الذي أمر فيه المنصور بنقل الأسواق بعد اضطراب حدث هناك^(١٣) .

وتتفق روايات المؤرخين على جسامه هذا المشروع ، فقد نقل عن عباس بن الفاسم أن المنصور أمر بعد قناتين من دجلة^(١٤) بينما أشار آخرون إلى كونها « قنًى » دون تحديد لعدد^(١٥) . ووصف المنصور لها بأنها تقوم مقام نهر ، يدل على أنها كانت كبيرة ، عظيمة السعة ، وأشار إليها بعض المؤرخين بأنها كانت نهر^(١٦) .

(١١) ابن الفقيه ٢٨ .

(١٢) الخطيب ٧٨/١ .

(١٣) الطبري ٢٢١/٣ .

(١٤) الخطيب ٧٨/١ .

(١٥) الخطيب ٧٨/١ وابن الجوزي : مناقب بغداد ١٢ (نشر محمد بهجة الاثري) وبالقول : معجم البلدان ١٦٠/١ (ط. دار صادر ، بيروت ١٩٥٥) .

(١٦) ابن الفقيه ٢٧ .

فاذا ما رأينا أن هذا النهر كان محمولاً على الخشب ، ويجري على ارتفاع معين ، بميل محسوب إلى الأسفل ، لمسافة لا تقل عن كيلومترين^(١٧) ، لاحظ لنا جسامه هذا المشروع ، وأتقان مهندسيه في تصميمه وعمله .

يبد أن تصميم هذا المشروع وطريقة عمله ان كانت ثلاث ظروف السلم ، فما كانت لتلائم أية ظروف غير عادية ، وبخاصة حالات الحروب والحصار التي لم تكن بعيدة عن تفكير المنصور^(١٨) ، ذلك أنه من اليسر على أي جيش غاز أن يقطع هذه القنن الخشبية المرفوعة ، أو أن يعطلها . فيقضي على أهل المدينة عطشاً ، ولعل هذا ما قصده سفير الروم حين لاحظ « أن ليس لها نهر يخترقها »^(١٩) . فكان أن قام المنصور بتصميم مشروعه الآخر في مد مدينته بمياه الشرب ، فيذكر الخطيب أنه مد « قناة من نهر دجيل لأخذ من دجلة ، وقناة من نهر كرخايا لأخذ من الفرات ، وجرحها إلى مدينته في عقود وثيقة من أسفلها ، محكمة بالصاروج^(٢٠) والأجر من أعلاها . وكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب والأرباض ، وتجري صيفاً وشتاءً ، لا ينقطع ماؤها في وقت «^(٢١) فـهـاـنـان القناتان كانتا مشيدتين تحت مستوى سطح الأرض لا فوقها كما في المشروع الأول ، والظاهر أنهما كانا من السعة والارتفاع ما يصلح لسير انسان ، على ما يفهم من قول المنصور « في بنائي هذا ما أن أخذني فيه الحصار خرجت خارجاً منه على فرسخين «^(٢٢) وعقب ابن الجوزي على ذلك بقوله « ولعله أشار إلى انقنات «^(٢٣) فيكون طول القناة التي قصدها نحو ١٢ كيلومتراً^(٢٤) .

(١٧) كان قصر المنصور يتوسط مدينته ، وبما أن قطر المدينة كان يبلغ ، في اوسط المقادير ، ميل عربي ، أي ٢ كم ، تكون المسافة بين القصر وباب خراسان نحو كيلومتر واحد ، ولا تعرف المسافة بين هذا الباب وشاطئ دجلة ، ومن المحتمل أن تكون مثل ذلك .

(١٨) الخطيب ٧٧/١ ومناقب بغداد ١٩ .

(١٩) ادمج ابن الجوزي في مناقب بغداد ١٢ خبري هذين المشروعين المتباينين ، كما نقلهما من الخطيب ، في خبر واحد ، مما أظهر أن قيامه بإنشاء القناتين كان بسبب اكتشافه وصول بقال الروايا إلى قصره .

(٢٠) الصاروج : النورة واخلطها .

(٢١) الخطيب ٧٩/١ ومعجم البلدان ١٦٠/١ .

(٢٢) الخطيب ٧٧/١ .

(٢٣) مناقب بغداد ١٩ .

(٢٤) يبلغ طول الفرسخ الواحد ٣ أميال ، وكل ميل ١٠٠٠

وأغلب الظن أن المقصود بنهر دجيل ،
النهر المتفرع عنه المسمى بنهر بظاطيا ، أو أحد
فروعه ، فقد ذكر الخطيب أنه كان لهذا النهر ،
أي بظاطيا ، ثلاثة نروع في عهده توفي سنة
١٠٧٠ هـ (١٠٧٠ م) سماها أنهار الحربية ، وقال
« أنها قنوات تحت الأرض وأوائلها مكشوف »
وكونها تجري تحت الأرض ، يشير إلى أنها كانت
تستعمل للشرب ، ولكننا لانعلم أي من هذه الأنهار
كان الذي مده المنصور ، وذلك لأن مفهوم « بغداد »
توسع في عهد الخطيب حتى صار يشمل منطقة
تبلغ أضعاف مساحة المدينة المدورة (٢٥) وتسميتها
بأنهار الحربية يعني أنها كانت تسقي الحي الواسع
الذي عرف بهذا الاسم . وكانت الحربية «محطة كبيرة
مشهورة ببغداد عند باب حرب قرب مقبرة بشر
الحافي وأحمد بن حنبل» (٢٦) أي أنها كانت تقع
خارج أسوار مدينة المنصور ، في شمالها ، حيث
تلك المواضع . وليس ببعيد أن يكون نهر المنصور
المذكور هو أول تلك الأنهار عهداً ، ثم زيد عددها
فيما بعد نظراً لعمران تلك النواحي .

أما القناة الأخرى الآخذة من نهر كرخايا ،
فترجع أنها كانت تتفرع من النهر المعروف بنهر
رزين ، عند باب سوقة أبي الورد ، فمن هناك
« يحمل منه نهر يمر على عبادله على قنطرة
العتيقة ويمر إلى شارع باب الكوفة ، فيدخل من
هناك إلى مدينة المنصور ، ويمر النهر من باب الكوفة
إلى شارع القحاطبة ثم إلى باب الشام ، ويمر في
شارع الجسر إلى الزبيدية فيفنى هناك » (٢٧)
ودخول النهر من باب الكوفة ، وخروجه من باب
الشام يدل على أنه كان يتخذ شكل زاوية قائمة
تقريباً ، ولكننا لانعلم ماذا كان قد لبث مجراه
مفقوداً بالصاروخ والأجر على صفته في أيام المنصور
لأن الخطيب لم يفرد بملاحظة خاصة بهذا الشأن ،
في حين أفرد أنهار الحربية بملاحظته السابقة على
ما مر بنا .

وقد ذكر اليعقوبي أن المنصور مد لدينته
قناة تأخذ مياهها من كرخايا ، ولم يشر إلى القناة

باع ، وكل باع) الدع شربة (الدراع ٩٨٧٥ سم)
فيكون طول الفرسخ حوالي ٦ كم . فالتر هنتس : الكايل
والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ٩٤
(ترجمة كامل الصلي ، عمان ١٩٧٠) .

(٢٥) انظر من مساحة بغداد في القرون التالية : ابن الفقيه ٦٠
والخطيب ١١٧/١ .

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٢٧ .

(٢٧) الخطيب ١١٣/١ .

الأخرى الآخذة من دجيل بشيء ، ولكن يفهم من
كلامه أن عمل تلك القناة كان في أثناء بناء المدينة
لفرض عمل المواد اللازمة للبناء وشرب
العمالة القائمين عليه . قال « وعملت القناة التي
تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ من الفرات
فاتقنت القناة ، وأجريت إلى داخل المدينة للشرب
ولضرب الثبن وبل الطين » (٢٨) . ويلاحظ أن أحداً
من المؤرخين لم يشر إلى وجود هذه القناة في داخل
أرض المدينة قبل رفع قواعدها ، كما أن ملاحظة
السفير الرومي بأن « ليس لها نهر يخترقها »
تكشف عن عدم وجود هذا النهر حتى بعد انتقال
المنصور إليها ، على أن من المحتمل جداً أن يكون
مجرى هذا النهر قد استغل فيما بعد بأن أنشئت
فيه القناة المحكمة المذكورة .

٢ - الجانب الغربي

اتسع العمران ، بسرعة كبيرة ، حوالي أسوار
المدينة المدورة ، وازدادت كثافة السكان في الأحياء
السكنية والتجارية الجديدة مما أمر المنصور
ببنائه ، أو إنشاء غيره من الأمراء والقواد وعامة
الناس ، وتزايد السكن في الرض الكائن خارج المدينة
المعروف بالكرخ ، بين نهر الصراة ونهر عيسى ،
من أنهار الجانب الغربي ، فكان أن نشأت محال
جديدة هناك ، عرف بعضها بالشرقية لأنها شرق
الصراة ، بينما كانت المدينة المدورة في غربها . ونجد
في كتب التاريخ والتراجم ، والخطط بخاصة ،
أسماء أعداد كبيرة من الأحياء والسكك والأسواق
والدروب مما أنشئ في تلك النواحي في خلال عهد
قصير ، مما دل على أن مشكلة مياه الشرب ما لبثت
أن ظهرت ، وبالسعة نفسها ، لتواجه أهل تلك
المواطن الجديدة .

ويظهر أن حجم هذه المشكلة لم يكن بعيداً
عن تقدير المنصور ، رغم أن نهرين رئيسيين ، هما
الصراة وعيسى ، كانا يأخذان من الفرات ويقطعان
الجانب الغربي ليصبوا في دجلة ، فعندئذ اخراجه
أهل الأسواق إلى الكرخ ، إلى حفر شبكة من
الأنهار الصغيرة تأخذ من هذين النهرين الكبيرين
وتمر بين الدروب والأسواق ، وتسمى باسمائها
وبذلك أمسى لأهل الجانب الغربي نوعين من مصادر
المياه ، الأول : الأنهار الرئيسية القديمة التي كانت
تخترق المنطقة منذ فترة تسبق فترة إنشاء المدينة
المدورة ، والثاني : الأنهار الفرعية الجديدة التي
استحدثها المنصور على ماتقدم .

(٢٨) اليعقوبي : البلدان ٨ (النجف ١٩٥٧) .

ويعتبر نهر عيسى أهم أنهار الجانب الغربي لأروائه عددا هائلا من المحلات والسكك ، فكان يخرق أحياء الجانب الغربي السكنية ، فيفضي إلى محلة الزبائن (باعة الزيت) باعة الاشنان وباعة الشوك . باعة الرمان . ويظهر أن مياهه - رغم اجتيازها كل تلك المحال - كانت من الاندفاع بحيث تكفي لتشغيل عدد من الأرحاء ، بعدها ، حتى تصب في دجلة أسفل قصر عيسى (٢٩) .

أما نهر الصراة ، فكان يسقي مناطق زراعية في طسوج بادوربا ، قبل أن يجتاز محلات الجانب الغربي ، ويظهر أن هذه المحلات لم تكن مكتظة كالتي على نهر عيسى ، بسبب أن المنصور جعل هذا النهر فاصلا بين التجمعات السكنية في الكرخ وبين مدينته المدورة .

وبالإضافة إلى هذين النهرين القديمين ، فقد أمر المنصور بجر عدة أنهار صغيرة من نهر كرخايا المتفرع أصلا من نهر عيسى ، لأرواء ما تكاثر عليها من دور وأسواق ، فكان منها نهسر الدجاج ، ونهر القلائين ، ونهر طابق ، ونهر البزازين ، وغير ذلك ، فكان نهسر كرخايا أذن يسقي أهل كرخ بغداد القديم من ناحية الجنوب ، ومسقى المدينة المدورة من ناحية الشمال ، إلا أنه في الكرخ مكشوف بفروعه المذكورة ، على خلاف فرعه الذي كان يأخذ الماء إلى المدينة المدورة فإنه كان مغطى بالأجر والصاروج على ما ذكرنا . فليس ثمة ما يدل على أن أنهار الكرخ هذه كانت تستعمل لغرض الشرب ، ونحن نميل إلى القول بأن هذه الأنهار كانت لأجل توصيل مياه الاستعمال اليومي ، من غسيل وسقي ، وربما لتصريف المياه المستعملة أيضا ، إذ ليس من المتصور أن تبقى مياه هذه الأنهار نظيفة صالحة للشرب ، وهي تجري في مجار ضيقة مكشوفة لعوارض الطبيعة وتلويث السكان ، فنهر يجري بين محلات مكتظة بباعة الدجاج والزيت والاشنان والشوك والرمان

(٢٩) الأرحاء جمع رحى ، وهي طاحونة الماء ذات الدولاب الألفي ، وتمد القدم آلة استخدمت فيها طاقة الماء . وفي أسفل محور الحركة يوجد دولاب مغمور في تيار الماء وعلى محيطه مجموعة من الفراشات ، ويرتفع المحور للأعلى مارا بعجر الطحن السفلي . ويرتبط المحور بالحجر العلوي ارتباطا وثيقا وبذلك يدور الحجر العلوي مع دوران دولاب الماء بواسطة المحور الواصل بينهما ، وهذه الدواليب المائية الأفقية هي الأصل الذي تطورت منه الصناعات المائية الحديثة . د. أحمد يوسف الحسن : تقى الدين والهندسة الميكانيكية العربية (حلب ١٩٧٦) ص ٥٢ .

والقصابين وعمرهم ، من العسير التصور بأنه يبقى - بعد ذلك كله - صائحا للشرب ، ولو تخيلنا كم من فضلات هذه المهن وذاذوراتها من ربش الدجاج وبقايا الزيتون والشوك وقشور الرمان ومخلفات النحر يمكن أن يطرح في هذه الأنهار ، للاح لنا ما يؤكد ما ذهبنا إليه تأكيداً تاماً . ويظهر أن مهمة هذه الشبكة من الأنهار تحوات تدريجيا وخاصة في العصور العباسية الأخيرة لتسقي شبكة تصريف للمياه القذرة ، وسقى الزروع ، وتحريك الأرحاء ، وتركت استعمالاتها الحيوية الأخرى . وليس من شك في أن تحول مهمة هذه الأنهار على ذلك النحو كان سببا رئيسيا في ترك السكن في تلك المحلات البعيدة عن دجلة ، ومن ثم خرابها . وهكذا ، فإن حفر الأنهار الجديدة في الكرخ ، واستخدام القديم منها ، لم يحل مشكلة نقل مياه الشرب إلى أحياء الجانب الغربي ، كما فكر المنصور ، ولعله لو عقد تلك الأنهار بالأجر والصاروج ، كما فعل بالأنهار التي مدحا إلى مدينته المدورة ، لكانت قد أدت مهمتها ، وحقت الغرض من إنشائها .

٣ - الجانب الشرقي

كان الجانب الشرقي من أرض بغداد ، يسقى قبل إنشاء بغداد نفسها ، من مياه نهر الخالص ، عن طريق شبكة متقنة من الأنهار القديمة تتوزع في مختلف أحيائه . وعندما أنشأ المهدي الرصافة ، مقابل المدينة المدورة ، من الجانب الشرقي ، حدود سنة ١٥٩هـ / ٧٧٦م ، أصبحت بعض فروع الأنهار التي نصب هناك ، تجري في وسط « الرصافة » فتخرق شوارعها وفصولها حتى تصب في دجلة ، وكان أهم تلك الفروع نهر الفضل الأخذ من نهر الخالص ، فمنه يتفرع نهر آخر سمي بنهر المهدي يسير إلى شرق الرصافة ، ثم ينقسم هناك إلى فرعين صغيرين أولهما يصب في الجعفرية (شرقي الرصافة) وثانيهما ينحدر إلى قصر المهدي وجامعه فيجري في بركة داخل القصر ومنها ينتهي إلى دجلة (٣٠) .

وكان اتساع بغداد جنوباً ، وبخاصة في المبدئين البويعي ثم السلجوقي ، يزيد من أهمية الأنهار الآخذة من الخالص والمختمة برى تلك

(٣٠) الخطيب (١) / ١١٢ .

الإنهاء^(٢١) . وعندما تم عمران الجانب الشرقي في القرنين الخامس والسادس للهجرة (١١ و ١٢ م) وتحولت بساتينه وجنائه الى احياء سكنية واسواق تجارية ودروب ، تحولت مهمة تلك الانهار من سقي الزروع . الى تيسير الحياة اليومية لسكان بغداد الشرقية ، فكان نهر موسى يأخذ مياهه من نهر بين الكبير الاخذ من الخالص والماضي بمياهه حتى مصبها عند قرية كلواذى جنوب بغداد . ويصل نهر موسى الى قصر « انشريا » الذي بناه المعتضد (خارج اسوار بغداد الشرقية) المتاخرة « فبدخل القصر ويدور فيه ويخرج منه » ليصل منطقة مهمة عرفت بمقسم المياه ، حيث تنقسم مياهه الى ثلاثة شعب^(٢٢) : الاول بباب سوق الدواب ، فالعلافين فيصب في نهر كان المعتضد حفره ، ويمر شيء منه الى باب سوق الغنم ثم الى خندق العباس بباب المخرم ويز في دجلة . بينما تتفرع من نهر موسى ايضا ثلاثة فروع صغرى كانت تصب في ثلاثة احواض بنيت في القرن الثاني للهجرة . ويمضي نهر موسى حتى قصر المعتصم ، ومنه يتفرع نهر يمر الى سوق العطش حيث يغنى بعده في دار الوزير ابن الفرات ، ويسقى فرع آخر منه بستان الزاهر على دجلة ، ويصب - من ثم - فيه . فهذه الانهار كما يتضح لنا كانت تستخدم لسقي الزروع والجنائن اكثر من استخدامها للشرب ، كما ان سعتها من المياه لم تكن تكفي لان تصل ، في معظمها ، الى دجلة وانما كانت تغني في طريقها اليه ، مما دل على ضيق مجاريها وقلة مائها . وبظهر ان جميع مياهها في احواض خاصة صناعية كما مر بنا ، كان يهدف الى تيسير استعمالها للشؤون اليومية ، ولكننا لانعلم نوع تلك الشؤون ، اهمي للشرب ، ام غيره^(٢٣) . وعلى اية حال فان تسمية احد الاسواق الكبيرة في هذا الجانب بسوق العطش ، يدل على ان مشكلة

(٢١) انظر احمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد الفصل ص ١٠٦ .

(٢٢) فصل القدامى وبعض الحديثين في وصف هذه الانهار وتتبع مجاريها وما نهر به من نواح ، ولا يهمنا منها في بحثنا هذا الا ما له صلة بمشكلة مياه الشرب .

(٢٣) اشارت المصادر الى ثلاثة احواض ، هي حوض داود ، وحوض هيلانة ، وحوض الانتصار ، ولكن ليست ثمة ما يدل على حجم ما تسمه من المياه ، وتدل اسماء مسن نسبت اليهم ، الى انها انشئت في فترة لم تتجاوز اوائل القرن الثالث للهجرة (٩ م) وهي الفترة التي لم تكن هذه الانهاء قد اكتظت فيها بالسكان بعد . ومن المحتمل ان تكون هذه الاحواض نوعا من مشاريع مياه الشرب ، لكننا نجهل فائدتها وطريقة عملها على وجه التحديد .

مياه الشرب كانت من الخطورة بحيث تعجز عن سدها فروع نهر موسى الصغيرة الواصلة الى تلك الانهاء .

وثمة فرعان آخران من فروع نهر موسى ، لها اهمية خاصة تزايدت في العصور العباسية المتأخرة ، وهما نهر الملقى ، وبمر بين الدور والسكك حتى يصل قصر الخلافة المسمى بالفردوس فيدور فيه ويصب في دجلة ، ونهر آخر في اسفله مواز له تقريبا يخترق بغداد من شمالها الى جنوبها ، حيث يدور في القصر الحسنى (قصر التاج فيما بعد) على دجلة لم يصب فيها . وكان هذان النهران يأخذان مياههما من مقسم المياه اسفل قصر انشريا المذكور . وزادت خطورة هذين الفرعين بسبب تزايد كثافة السكان حوليهما وتكون الاحياء والمحلات في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي حيث كانا يجريان (وهو القسم الذي استقرت عليه بغداد في العصور التالية) . وليست ثمة نصوص تدل على ان هذه الانهار كانت تجري في قنوات معقودة بالاجر والصاروج ، ومن المحتمل جدا ان تكون قد استخدمت في العصر العباسي الاول كمورد لمياه الشرب ، عندما كانت الارض هناك قليلة السكان ، بيد اننا نستبعد بقاءها كذلك في العصور العباسية المتأخرة ، وذلك للأسباب نفسها التي قدمناها عند حديثنا عن انهار الجانب الغربي ، فكان نهر الملقى يخترق في طريقه الى دجلة محلة باب ابرز ، وفيها احدى كبريات مقابر بغداد ، ثم قراح ظفر ، وهو بستان تحول الى محلة سكنية ، فسوق الثلاثاء ، فدرج دينار والمنطقتان الاخيرتان من اكثر المحلات ببغداد ازدحاما وكثافة في السكن ، وفيهما الاسواق والخانات والماجر ليصب بعد ذلك في دجلة عند المدرسة المستنصرية . وكان النهر الآخر يخترق قلب بغداد الشرقية ، فيجتاز محلة المختارة ، فقراح ابن رزين ، وهو بستان كبير تحول الى محلة^(٢٤) ، فالمنطقة المزدحمة حوالي دار الخلافة ، فدار الخلافة العباسية نفسها ، ليصب عند القصر الحسنى ، وقصر التاج فيما بعد^(٢٥) . وانهار صغيرة مكشوفة تجري وسط هذا الحشد الهائل من الاحياء والدور والاسواق ، لا يمكن ان تكون مياهها صالحة للشرب ، واغلب الظن ان مهمتها لم تكن تتجاوز كونها مصارف للمياه

(٢٤) انظر عن زحمة هذه المحلات وكثرتها بالقوت : معجم البلدان ، مادة قراح ، ٢١٥/٤ .
(٢٥) معجم البلدان ٢/٢ .

الفدرة التي تطرحها الدور والقصور ومئات الحمامات الموجودة هناك (٢٦) .

٤ - السقايات والسقاؤون :

ان تلوث مياه الأنهار المخترقة مدينة بغداد ، بجانبها الشرقي والغربي ، كان إحدى أهم المشاكل التي واجهتها هذه المدينة في العصور العباسية الأخيرة ، ونحن نرى ان هذه المشكلة كانت وراء تغير حدود المساحات السكنية في خارطة بغداد ابان تلك العصور ، ففي الجانب الغربي أدى افتقاد ماء الشرب في الانحاء القاصية عن دجلة ، الى هجرة مستمرة من تلك الانحاء الى المحلات الشاطئية او القريبة من مجرى النهر ، فبادت محلات باب التبن واعتابيين وباب البصرة وباب الكوفة ، وانتستريين والكرخ القديم وغيرها من محلات طسوجي قطسريل وبادوريا الزاهرة ، ليركز السكن في المحلات الشاطئية الجديدة ، مثل الرملة والقرية والنجمي والركة ، وهي المحلات التي كونت فيما بعد الكرخ الحديث ، بمحلاته المعروفة منذ العصر العثماني .

وتعرض الجانب الشرقي الى الظاهرة نفسها ، فقد تركت المحلات البعيدة عن دجلة ، كسوق العطش وسوق الدواب وغيرها ، بينما توسعت المحال القريبة منه ، مثل المخرم وسوق الثلاثاء وسوق السلطان ودرب دينار وحريم دار الخلافة وباب الازج ، وعلى ذلك استمرت بغداد الشرقية منذ اواخر العصر العباسي ، وحتى الثلث الاول من هذا القرن .

وكان السقاؤون يقومون بسد حاجة اهل بغداد الى المياه النظيفة نسبياً ، للأخوذة من نهر دجلة مباشرة ، فكان اولئك ينقلون مياه الشرب من دجلة الى دواخل المحلات بواسطة بغال الروايا ، وكانت لهم على شاطئ دجلة مشاريع مخصصة ، تسمح لهم - فيما يبدو - بأخذ الماء نظيفاً الى حد ما ، غير ملوث بما يلقيه الموج على انشاطهم من شوائب واقدار (٢٧) . وقد

(٢٦) انتقد بعض مثقفي بغداد في القرن الرابع الهجري طبقة اهل الاسواق وارباب الحرف بانهم « يكثرون المياه » ابن عبد وبه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٥٦) ٢/٢٩٣ .
(٢٧) ذكر ابن بسام الحاسب انه « لما كانت الامواج تعيب الاسباخ والافذار الى الشطوط ، وجب ان يكون السقاؤون يدخلون في الماء الى ان يبعدوا عن الاسباخ ، والا يستقوا من مكان يكون قريباً من سقاية ولا مستحم ولا مجراة حمام » (نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، حققه حسام الدين السامرائي ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٢٥) .

اشتهرت في بغداد الغربية ، منطقة على شاطئ دجلة ، قرب باب خراسان ، اسمها « مشرعة الروايا » بانها الموضع الذي ينقل منه السقاؤون الماء الى المدينة ، وكان في هذه المشرعة مسجد وحمام (٢٨) ، وفيها دفن الإمام الاشعري سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م (٢٩) . فالت بذلك شهرة دامت حتى اواخر العصر العباسي (٣٠) . وعرفت في الجانب الشرقي مواضع نسبت الى اهل هذه الحرفة ، منها موضع اشتهر باسم « درب السقاين » كان قريباً من اشارة الأعظم (٣١) .

وتبارى السقاؤون في كل ما يتصل بنظافة مياههم ، وحسن عرضها ، بل عمد بعضهم الى تطيبها بالمطور الزكية ، كالمسك ، لتكون احسن مذاقاً واطيب طعماً . من ذلك ما نقله محمد بن عبيدالله التميمي عن ذي النون ، حين قال بمصر : من اراد المروءة والظرف فعليه بسقاة الماء ببغداد . فقليل له : وكيف ذلك ؟ فقال : لما حملت الى بغداد رمي بي على باب السلطان مقيداً ، فمر بي رجل متزر بمنديل ديبقي (٣٢) يسده كيزان خرف رفاق وزجاج مخروط ، فسالت : هذا ساقى السلطان ؟ فقليل لي : لا ، هذا ساقى العامة ، فأومات اليه : اسقني ، فثقت وسقاني ، فشمت من الكوز رائحة مسك فقلت لمن ممي : ادفع اليه ديناراً فأعطاه فأبى ، وقال : لا آخذ منك شيئاً . فقلت له : ثم ؟ فقال : انت اسير ، وليس من المروءة ان آخذ منك شيئاً . فقلت : كل الظرف في هذا (٣٣) !

وليست لدينا معلومات توضح ما يمكن ان تدره حرفة السقاية من مال ، الا انها كانت - كما يبدو - حرفة العوام ، او حرفة من لا حرفة له ، نظراً لعدم تطلبها خبرة معينة ، او رأسمال

(٢٨) الخطيب ٢٤٦/١ .

(٢٩) الهمداني : تكملة تاريخ الطبري (تحقيق البرت كتمان ١٣٠/١ وابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٢٢٢/٦ .

(٣٠) المنتظم ١٦٩/٨ .

(٣١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٢٨) ص ٢٨٩ .

(٣٢) الديبقي : نوع من القماش الفاخر ينسب الى « دبيق » وهي بلدة كانت بين الفرما وتيس من أعمال مصر (معجم البلدان ١٢٨/٢) والتدليل هنا بمعنى حزام او منقعة . انظر دوزي : المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب (ترجمة اكرم فاضل ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٢٥ .

(٣٣) ابن الجوزي : اخبار الطراف والتماجين (القاهرة ١٩٧٨) ص ٢١ ومناقب بغداد ٢١ .

خاص (٤٤) . وكان السقاؤون يؤلفون صنفاً من الاصناف المهمة في التنظيم الحرفي في بغداد في العصور العباسية ، ونهم ولي خاص بهم ينتسبون اليه ، هو سلمان الكوفي ، أو محمد بن عبدالله (٤٥) .

والنصوص التي توضح طبيعة اشراف الدولة ببغداد على هذا الصنف المهم غير كافية وان كان مؤلفو كتب الحسبة قد قدموا لنا معلومات ذات قيمة وبصفة عامة ، عن العلاقة بين الطرفين . ففرقوا بين صنفين رئيسيين يتصلان بمهنة السقاية ، أولهما صنف السقائين ، وثانيهما صنف الروايا ، وهم صانعو قرب السقائين والاتهم ، وبينما يوصى الفريق الاول « بنظافة ازيارهم ، وميانتها بالاغطية ، ونظافة قريهم التي يستقون منها في الاسواق بالميازير ، ويمنعهم ان يستقوا بكيزانهم المجدوم والابرص واصحاب العاهات والامراض الظاهرة ، وجلاء الكيزان النحاس كل ليلة وتطيب شبابيكها بشمع المسك والملاذن (٤٦) الطيب العنبري واقتصاد الخوابي (٤٧) بالبخور والغسل كل ثلاثة ايام » (٤٨) يوصى الفريق الاخر بان « يعرف عليهم عريفا ثقة عارفا ، ويأمره ان يمنعه ان يعملوا شيئا من هذه الاوقات والالات الحافظة للمياه التي فيها مادة الحياة الا من الجلود المدبوغة بالقرض اليماني التي قد استحکم دباغها وطال مكثها في الدباغ (٤٩) » وشرط على عريفهم ان يتفقد دكاكينهم كل وقت وهذا كله يدل على ادراك الدولة خطورة هذه الحرفة لتأثيرها الشديد على صحة الناس .

وتفيدنا كتب الفقه بأن الحصول على الماء النقي الصالح لشرب ، لم يكن ميسراً للفقراء في معظم الأحوال ، فقد تشددت نفقاتهم قليل من الفقهاء في التاكيد على ان مياه السقايات العامة

(٤٤) عرف عن بعض اهل التصوف والزهد احترامهم هذه الحرفة ، ومن مشاهيرهم الشيخ الصوفي الزاهد ابي النجيب عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي الصديقي الشافعي (ت ٥٦٢هـ / ١١٦٧م) فقد لبث « عدة سنين يستقي بالقرب على ظهره بالاجرة ويتقوت بذلك ومن عنده من الصوفية » . السبكي : طبقات الشافعية الكبرى (القاهرة ١٢٢٤هـ) ٢٥٦/٤ .

(٤٥) ابن العماد البغدادي : كتاب الفتوة (حققه مصطفى جواد وآخرون ، بغداد ١٩٦٠) ص ٩٢ .

(٤٦) اللادن : نبات تستخرج منه مادة زكية الرائحة .

(٤٧) الخوابي : القرايات .

(٤٨) ابن بسام : نهاية الرتبة ٢٥ - ٢٦ .

(٤٩) نهاية الرتبة ٢٠٢ .

هي اهم اساساً دون الأغنياء (٥٠) . مما دل على صعوبة حصول الطبقات الفقيرة على مياه الشرب عن طريق التزاء كما يفعل اهل الثغرى واليسار . لذا فقد عمد الخلفاء وبعض المؤسسين واهل الخير ، منذ اواخر العصر العباسي ، الى انشاء عدد من السقايات العامة في المواضع المهمة من بغداد (٥١) ، ووضع الفقهاء لهذه المنشآت المفيدة قواعد قانونية تنظم امور وقفها ، وضمان ايصال الماء لها بطريق الاجارة ، ووضع الاواني والكيزان عندها ، وضمانها اذا كسرت ، الى غير ذلك من امور (٥٢) .

وعلى الرغم من اهمية هذه المرافق الحيوية في حياة مدينة كبداد ، فاننا لم نعر الا على وصف القليل منها ، ويظهر ان معظمها كان يعتمد على السقائين ايضاً ، يملؤون احواضها كل يوم بأجر معلوم . بيد ان هذا لا ينفي اعتماد بعضها طرقاً هندسية متقنة ، والاخبار القليلة التي وردت عن هذه السقايات تفيد بانها كانت تأخذ مياهها من دجلة عن طريق قنوات تحت الارض . وتكن ليست ثمة معلومات عن طريقة عملها ، والاسلوب المتبع في انشائها . وقد سبق ان ذكرنا بان قنوات المنصور كانت ، فيما رونه المصادر ، مبنية على شكل عقود وثيقة من اسفلها ، محكمة بالصاروج ، وان اشارات مختلفة تدل على اتباع هذه الطريقة في بناء الانفاق تحت الارض بوجه عام (٥٣) .

(٥٠) انظر محمد بن ولي القرمشيري الأزيمري : رسالة في شؤون السقايات وولفها (مخطوط في المكتبة القادرية ببغداد) الورقة ٦ و ٨ .

(٥١) ذكر بعض الكتاب ان عدد سقايات بغداد بلغت في آخر العصر العباسي (١٠٢٥) سقاية من النوع المسمى « زملاط سبيل » اعتماداً على احصاء نقله الاب انستاس ماري الكرمل من كتاب الدر المكنون لياسين العمري الموصلية ونشره في مجلة الشرق (مج) (بيروت ١٩٠٨ ص ٢٠٤) واعيد نشره في دليل خارطة بغداد المفصل للدكتورين احمد سوسة ومصطفى جواد (ص ١٩٤) ومنه رجوعنا الى مخطوطة الدر المكنون (نسخة باريس ٤٤٤٩) تبين ان مصدر هذا الاحصاء هو ابن الجوزي في بعض كتبه ، وانه يخص مدينة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ لا بغداد ، وان العدد الصحيح لسقايات الموصل هو ١٢٥ لا ١٠٢٥ كما تسربت اخطاء مشابهة لفردات الاحصاء الاخرى .

(٥٢) الأزيمري . الورقة ٧ .

(٥٣) ومن تلك الانفاق المعروفة ، نفق كان يصل بين قصر الثريا (موقعه خارج سور بغداد الشرقية المنشأ بعده) وقصر التاج على شاطئ دجلة ، وبينهما ملحدار ميلين على ما قدر ياقوت ، بناء المتفهد (معجم البلدان ٧٧/٢) ومن ذلك ما رواه لي السيد عبدالهادي المختار ، من انه عثر ايام كونه مديراً للمدرسة المأمونية القديمة (في

ومن ناحية أخرى ، فإن الكرخي (٥٤) وصف ، فيما رآه من « حال العراق » طريقة توصيل المياه إلى المواضع البعيدة بواسطة استخدام « البرايخ » وهي أنابيب الفخار المثلفة من قطع عديدة ، توصل ببعضها بطريقة محكمة . ويبدو أن هذه الطريقة كانت أكثر اتباعاً في شؤون السقايات ، نظراً لقلة كلفتها ، وسهولة مدها (٥٥) .

وتختلف أطوال هذه القنوات بحسب بعد السقاية عن شاطئ دجلة ويظهر أن إنشاءها كان يجري وفق خطة هندسية وقياس دقيق لمستوى ارتفاع الأرض (٥٦) حتى يكفل ذلك للماء الخروج من السقاية على هيئة فوارة متدفقة - على ما وصفها المؤرخون - ، ويزداد ادراكنا لصعوبة العمل إذا لاحظنا أن مستوى الأرض ببغداد الشرقية لم يكن على ارتفاع واحد ، فهو في الجنوب يقل ارتفاعاً كلما شرفق مبتعداً عن شاطئ دجلة (٥٧) . وهذا يسهل مهمة مد القنوات تحت الأرض أو فوقها وأنسياب الماء فيها إلى أي بعد مطلوب . بيد أن الأمر في المناطق الوسطى والشمالية من المدينة أكثر صعوبة ، حيث يزداد مستوى الأرض ارتفاعاً كلما اتجه شرقاً (وهو أمر يؤكد أنسياب فرعي نهر بين الأخسد من الخالص من الشرق إلى الغرب وصبهما عند قصر إنتاج ، والمدرسة المستنصرية) . واذ لم يصلنا خبر الطريقة الهندسية المتبعة في إيصال مياه

الشرب من دجلة إلى تلك المناطق المرتفعة ، فليس لنا إلا أن نستدل من أوصاف سقايات بغداد في العصر العباسي ، إلى أن الأمر كان يجري على أساس الزيادة في علو مأخذ القناة من الدولاب الذي يمدّها بالماء ، إلى حد يعلو على ارتفاع الأرض المنشأة فيها السقاية ، فينبثق الماء من نهاية القناة عند السقاية ، بقوة عمود الماء النازل في الطرف الآخر من القناة عند مأخذها من النهر . وهذا ما يفسر سبب ابتكار المهندسين البغداديين في العصر العباسي الأخير ، دواليب متعددة العلو ، تستطيع اصعاد الماء إلى علو شاهق ، يبلغ أربعة أضعاف ما يستطيع اصعاده دولاب واحد (لاحظ ماسباتي عن سقاية دار الخلافة) . ومن الطبيعي أن يمكن نزول الماء من هذا العلو وصوله إلى أي نقطة في المدينة مهما ارتفع مستوى أرضها ، لينبثق من سقايتها باندفاع على هيئة « الفوارات » المذكورة آنفاً ، على حسب قاعدة « الإواني المستطرقة » (انظر الشكل ١ و ٢) وعلى أية حال ، فإن وصف دواليب دار الخلافة العباسية ببغداد يقدم احتمالاً قوياً بأنه كانت ثمة وسائل متنوعة لرفع المياه وتوزيعها ليست معروفة لنا الآن . وفي الحقيقة فإن معلوماتنا عن الوسائل الميكانيكية التي كانت تتبع في تزويد تلك المنشآت الحيوية بالماء ليست كافية لدراستها من هذه الناحية (٥٨) .

(٥٨) اهتم المهندسون العرب بابتكار أو تطوير طرق ميكانيكية متقنة لرفع المياه بالكميات الكافية والسرعة الكبيرة ، وصمموا أنواعاً بارعة من الآلات الخاصة بهذه الأمور ، بلغ بعضها شأواً بعيداً من الاتقان في الصنعة ، والبراعة في التصميم ، مما سجل أحياناً سبقاً علمياً لهم في هذا المقصود ، تقدموا به علماء أوربة بشوط غير يسير ، مثل اختراعهم المضخة ذات الأسطوانتين وذات الأسطوانات الستة ، والمضخة الحلزونية . وبما أن تصميمات هذه الآلات كانت مما حفظته لنا كتب التراث العلمي العربي ، ولعل من أهمها كتاب ابن الجزري المعنون « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » وكتاب تقي الدين محمد بن معروف المعنون « الطرق السنية في الآلات الروحانية » فقد ساد الأوساط العلمية اعتقاد بأن هذه الآلات المتقدمة لم تخرج من نطاق النظرية إلى واقع التطبيق ، إلا أنه تم العثور أخيراً على آلة ما تزال في حالة جيدة تقوم برفع الماء من نهر يزيد إلى المسجد والمرستان القيمني (في سفح فاسيون بدمشق) وهي مبنية على أساس بعض التصميمات المتقدمة لكتاب ابن الجزري ، فثبت ذلك أن عبقرية المهندسين العرب لم تكن حبيسة الكتب والمعرفة النظرية حسب ، وإنما وجدت لها تطبيقات عملية نافعة في الحياة العامة . وليس بعيداً أن يكون يمثل تلك الآلات التي وصفها مؤلفو الكتب المذكورة ، وجد طريقه إلى التنفيذ في بغداد ، وهي

الميدان (على نفق معقود بالأجر والنورة ، عريض عال ، ظاهر القدم ، عند حفر (بالوعة) للمدرسة ، وهو يتجه مشرفاً إلى موقع مدخل شارع الرشيد تقريباً . ولكن ظروف العمل السريعة أدت إلى ردم هذا الجزء منه ، فصاعت آثاره .

(٥٩) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : أنبأ المياه الخفية (حيدر آباد الدكن ١٢٥٩) ص ٢٢ .

(٥٥) ذكر الكرخي أن « البرايخ تنصب في الماء لأميرين ، إما أن تكون ساقية ناشئة له بمحق (كذا) الماء أو لصيانه من حلول النجاسات فيه إذا كان جربه على وجه الأرض في ساقية غير قصيرة ما بين العمارة » .

(٥٦) وهو ما تعرفه كتب التراث العلمي العربي بوطن الأرض ، ويعرفه المساحون المحدثون بـ « التسوية » ويريدون به أعمال رصد ارتفاعات الأراضي ، وذلك بالنسبة لمستوى سطح البحر أو لنقطة معينة على الأرض . وعرفه الكرخي بأنه « معرفة مقدار صعود مكان على مكان بينهما بعد قليل أو كثير ، وعلم ذلك بالموازين » (أنبأ المياه الخفية ص ٢٥ - ٥١) .

(٥٧) يبلغ ارتفاع مستوى الأرض عند مدخل شارع الكيلاني في السنك (قرب نهر دجلة) ٢٥ (٥) متر فوق مستوى سطح البحر ، وارتفاعه عند نهايته (عند السعة الشرقية) ٢٢ (٦) .

فمن السقايات العامة التي انشئت في العصر العباسي ، نذكر :

١ - سقاية الراضي .

انشأ هذه السقاية الخليفة ايراضي بالله (٢٢٢-٢٢٩ هـ / ٩٢١-٩٢٠ م) في جامع المنصور في المدينة المدورة بقربى بغداد ، ولا نعلم ما اذا كان ثمة اتصال بينها وبين تلك القنوات التي كانت تنقل الماء تحت الارض الى قصر المنصور في العهد الاول للمدينة . واول اشارة الى هذه السقاية ما جاء في حوادث غرق بغداد سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . فقد ذكر ابن الجوزي ان المشرف على البيمارستان العضدي اخطر الى ان بيعت المروورين الى « سقاية الراضي بجامع المنصور » (٥٩) وآخر اشارة اليها ما جاء في ترجمة الشيخ عبد الله الرومي الحنفي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م . قال ابن الساعي البغدادي في ترجمته « شيخ زاهد عابد منقطع في سقاية الراضي بالله بجامع المنصور » (٦٠) وهذه المنصوص توحى للمرء باتساع السقاية المذكورة بحيث يمكن ان تتخذ ماوى للمرضى ومنعبداء الزهاد ، وانها استمرت قائمة بمهمتها في ارواء احل تلك الناحية مدة لا تقل عن ثلاثة قرون .

٢ - سقايات جامع الرصافة

كانت هذه السقايات في طريق جامع الرصافة ، في اعلا بغداد الشرقية ، اشار اليها هناك ابو الوفاء علي بن عقیل البغدادي (٥١٣ هـ / ١١١٩ م) عند وصفه احياء الجانب الشرقي من بغداد ، وما فيها من القصور والدور والدروب والأسواق ، في حديث طويل ، منه قوله

حاضرة العالم الاسلامي ، ومباة الخلافة العباسية ، الا ان زوال تلك المشاريع منذ عهود بعيدة ، وعدم تفصيل المؤرخين في شأنها ، يجعل من التطر تصور طريقة عملها من الناحية الفنية ، وان كان من المحتمل انها من نوع السواقي (اي المضخات ذات الزناجير والدلاء) المعروفة والمتشرة في العالم الاسلامي وهي التي تدور بواسطة الحيوانات وليس بقوة الماء (نشر د. احمد يوسف الحسن الفصل الخاص بالآلات المائية من كتاب ابن الجزري في مجلة تاريخ العلوم العربية التي يصدرها معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ، مجلد ١ عدد ١ (ايار ١٩٧٧) ص ٢٠ - ٢٠) ونشر كتاب تقي الدين مع دراسة تحليلية بعنوان تقي الدين والهندسة الميكانيكية العربية ، حلب ، ١٩٧٦) .

(٥٩) المنتظم ٢/٥١٠ .

(٦٠) الجامع المختصر في عيون النوارخ واعين السراج ٩ (بتحقيق مصطفى جواد بغداد ١٩٢٤) ص ٢٤٥ .

« ثم سوق الرصافة وجامع الرصافة ودرب الروم ، وشارع عبدالصمد ، والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الاجراس الكثيرة » (٦١) . وبما اننا لا نعلم طريقة عمل هذه السقايات ، فليس بالامكان تصور وجه العجب فيها ، وليس في النص المقدم ما يفيد بتاريخ انشائها اول مرة .

٣ - سقايات جامع القصر

انشأ هذا الجامع الخليفة المكتفي بالله اثناء فترة حكمه (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ - ٩٠٨ م) فكان ثالث الجوامع ببغداد ، بعد جامع المنصور في المدينة المدورة وجامع المهدي في الرصافة . ثم تولاه بالاصلاح والتوسيع الخلفاء من بعده لانصائه بدار الخلافة انعباسية من جهة ، ووقوعه في قلب بغداد الشرقية من جهة اخرى (٦٢) .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (١١ م) انشأ الوزير ابو نصر محمد بن جهر ، فخر الدولة (٦٣) ، سقاية في هذا الجامع « واجرى فيها الماء من داره في قنى تحت الارض ، وجعل لها فوارات فانتفع الناس بذلك منفعة عظيمة » (٦٤) . وقد ذكر المؤرخون ان دار الوزير ابن جهر كانت تقع في محطة باب المراتب (٦٥) ، في اسفل حريم دار الخلافة ، على شاطئ دجلة (٦٦) ، فيكون مأخذ هذه القنى من الشاطئ المذكور ، في موضع يبعد بما يزيد على كيلومتر واحد ، عن

(٦١) مناقب بغداد ص ٢٦ ولا تعري ابة علاقة بين السقايات والاجراس ، ولعل ذلك من قبيل الطرق التي شرحها تقي الدين في كتابه «الطرق السنية في الآلات الروحانية» عند وصفه مجموعة من « الفوارات » المائية ، ذات مصيحات تصدر اصوات « الزمر الدائم والتفارات » (تقي الدين : مصدر سبقت الاشارة اليه ، الباب الرابع ص ٢٩ - ٤٨) .

(٦٢) عماد عبدالسلام رؤوف : جامع الخلفاء قديما وحديثا . مجلة الرسالة الاسلامية ٧٠/٢ - ٧٨ .

(٦٣) تولى الوزارة للقيام والمقتسدي في السنوات ٤٥٠ و ٤٥٤ و ٤٦٠ - ٤٦٧ هـ . زامباور : معجم الاسباب والاسرار الحاكمة (القاهرة ١٩٥١) ص ٩ .

(٦٤) المنتظم ٢/٩ .

(٦٥) وموقع هذه المحطة اليوم في ارض شربة السنك وحواليها .

(٦٦) استملكت هذه الدار السيدة بنشأ حظية السنفي ، بامر الله (٥٦٦ - ٥٧٥) المتوفاة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م ، ثم حولتها لتكون مدرسة للحنابلة ، والمتحتها سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م ، وكان اول من تولى التدريس بها ابو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م) انظر : كتابنا مدارس بغداد في العصر العباسي (بغداد ١٩٦٦) ص ١٨٤ - ١٩٠ .

مصبتها في الجامع ، والظاهر ان مدها لتصل شاطئ دجلة مباشرة ، في اقرب مسافة بين الجامع والشاطئ على خط مستقيم ، كان يعد من الأمور المتعذرة أو المصيرة ، بسبب وقوع قصور دار الخلافة في هذه المنطقة ، واشغالها طراز دجلة الشرقي ، فلم يكن بالإمكان اذن مد هذه القنى إلا من منطقة أقل ازدحاماً في السكن ، هي باب المراتب ، حيث تنتهي قصور الخلافة ومرافقها .

ولقد استمرت هذه السقاية تؤدي عملها زمناً طويلاً على الرغم من موقعها البعيد عن مصدر مياهها ، وطول القنوات التي تمتد بها بالمياه من دجلة ، فوصف الرحمان ابن جبير هذا المشروع المهم بعد نحو قرن من الزمن بقوله « جامع الخليفة » متصل بداره (١٨) ، وهو جامع كبير وفيه سقايات عظيمة ومرافق كثيرة كاملة مرافق الوضوء والظهور (١٩) .

وفي سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م أمر الخليفة المستنصر بالله بإنشاء سقاية أخرى في جامع القصر ، وكانت هذه السقاية الجديدة تأخذ مياهها من حباب تملا بالماء في مواعيد منتظمة ، والظاهر ان قنوات الوزير ابن جبير الأرضية لم تعد تكفي لإيصال مياه الشرب والوضوء والفسل للجامع المذكور ، فاستعين بهذا المشروع الجديد لسد الحاجة المتزايدة . قال صاحب كتاب الحوادث في حوادث السنة المذكورة « وفي آخر شعبان ، أنهى من عمارة باب جامع القصر مما يلي الرحبة ، وفتح ، وفتح المزملة (٧٠) التي عملت بالجامع المذكور أيضاً (٧١) .

يتضح لنا مما تقدم ان جامع القصر احتوى لأهميته على عدة سقايات كبيرة ، لا سقاية واحدة ، وان بعض تلك السقايات كان يأخذ مياهه من دجلة بطرق هندسية ، والبعض الآخر يأخذها

(٧٧) تسمية جامع القصر بجامع الخليفة متأخرة نسبياً ، ولي المصور الأخيرة شاعت تسميته بجامع الخلفاء ، ثم عرف بين العامة باسم جامع سوق الغزل حتى ازالته عند فتح شارع الجمهورية سنة ١٩٥٧ ، وقد قامت « الإوفاف » أخيراً بإنشاء مسجد جامع كبير حوالي مثلثته القديمة (وهي كل ما تبقى منه) وأطلقت عليه اسم « جامع الخلفاء » .

(١٨) يريد بدار الخلافة العباسية وفيها قصور الخلفاء .

(١٩) رحلة ابن جبير (بغداد ١٢٥٦هـ) ص ١٨٢ .

(٧٠) انظر ما تقدم عن معنى هذا اللفظ .

(٧١) كتاب الحوادث المسمى بالحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى جواد ، بغداد ١٣٥١هـ) ص ١٠٢ .

بالطرق الاعتيادية . وقد لاحظ الرحالة المغربي ابن بطوطة ذلك عند زيارته بغداد سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م فقال « وبهذه الجهة الشرقية من المساجد التي تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة ، وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيه سقايات ، ومظاهر كثيرة للوضوء والفسل » (٧٢) .

٤ - سقاية دار الخلافة

من المشاريع الهندسية البديعة التي شهدتها بغداد في اواخر القرن السادس للهجرة (١١٢ م) ، انشائها السيدة بنفسها بنت عبدالله الرومية حظية الخليفة المستضيء (توفيت سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م) . وكانت تأخذ مياهها بطريقة فريدة ، لم يرد ما يشبهها في غيرها من السقايات المختلفة ، وقد وصف ابن النعمان البغدادي هذا المشروع بأنه « أربعة دواليب ، تستقي الماء من دجلة الى دار الخلافة المعظمة ، كل واحد منها أعلى من الآخر ، فيأخذ الأول من دجلة ، والثاني من الأول ، والثالث من الثاني ، والرابع من الثالث » (٧٣) وقد بحثنا في كتب الآلات المائية ، على ما ينطبق عليه هذا الوصف ، فلم نعثر على بنيتها ، وإنشاء مثل هذا المشروع يستلزم بناء دار عالية ذات أربعة طوابق ، في كل منها دولايب يدور . ولا نعلم وجهاً لإيصال الماء الى هذا الارتفاع الشاهق ، سوى الاستفادة القصوى من ضغط الماء النازل لاحتداث فوارات عالية (شاذروانات) وإيصال المياه الى مواضع مختلفة من دار الخلافة العباسية ، على ما اشرنا اليه من قبل (انظر الشكل ١ و ٢) .

٥ - سقاية تربة احمد بن حنبل بالجانب الغربي

انشأ هذه السقاية سنة ٦٣٤هـ / ١٢٣٦م الخليفة المستنصر بالله ، اظهاراً لتأييده لمذهب الحنابلة الذي كان يميل اليه (٧٤) . ويفهم مما ذكره صاحب كتاب الحوادث ان اخذ السقاية للماء اعتمد على طريقة السقائين ، لا على حفر القنوات

(٧٢) رحلة ابن بطوطة (القاهرة ١٩٢٨) ١/ ١٤٢ .

(٧٣) ابن السامي : جهات الأئمة الخلفاء من الحرائر والأسماء (تحقيق مصطفى جواد ، القاهرة) ص ١٢٦ .

(٧٤) دفن احمد بن حنبل في مقبرة باب حرب ، وهي من أشهر مقابر بغداد في العصور العباسية ، وكان موقعها في خارج عمارة البلد ، الى الشمال من مقابر قرشي (الكاظمية) ولقد زال قبر ابن حنبل نتيجة لتحويل نهر دجلة مجراً .

أو رفعها ، قال في حوادث السنة المذكورة (٧٥) « وفيها أمر الخليفة بعمل زملة عند قبر الامام احمد بن حنبل - رضى الله عنه - لأجل الزوار والواردين فلما تكامل بناؤها فتحت ، وجعل فيها الحجاب وملئت من الجلاب . ورب فيها فيم يقوم بمصالحها ، ونظم الشعراء في ذلك قصائد ، منها ما قاله جعفر بن مهدي الكاتب من قصيدة يمدح بها الخليفة :

وقبر احمد قد طرز
بحلية زينت منه مبانيه
لم اتخذت لنا فيه زملة
تدل انك يوم الحوض ساقيه
فاسلم فدنك الرعايا يا امام الهدى
تهدى الى الحق من ضل في التيه «

٦ - سقاية المدرسة المستنصرية

احتوت المدرسة المستنصرية منذ افتتاحها سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م على سقاية تزود طلبتها ومدرسيها والقائمين عليها وغيرهم بمياه الشرب والوضوء ، وكان لهذه السقاية موظف خاص ، يسمى « زملائي » نسبة الى « المزملة » وهي حجاب الماء المخصصة للشرب . فقد ورد في شروط الخليفة المستنصر على مدرسته ، انه شرط ان يكون فيها « زملائي » ، وقرر له ما لغيره من الجرايات والمشاورة (٧٦) (٧٧) .

ويفهم مما جاء في ترجمة ابن الحشاش ، انه كان للزملائي هذا مظهراً يوحى بالهيبة ، وان راتبه كان يبلغ خمسة دنانير كل شهر . حكى شمس الدين الجزري انه « دخل بغداد ، ودخل المستنصرية ، فشرب من المزملة ، فلما فرغ ، قال للذي فيها ، وكان عليه بزة : حاشاكم ، أو ما هذا معناه . فقال شخص : لا تقل له هكذا ، هذا له خمسة دنانير على سقي الناس ، أو ما هذا معناه » (٨٧) .

(٧٥) الحوادث ص ٩١ .

(٧٦) ابن السامي : التاريخ المرتب على السنين (في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ٤ ج ١ ص ٢) ، (١٩٢٤) .

(٧٧) الجراية : ما يجسرى على ارباب الولايات من المواد المينة ، كالخبز والسمن وغيره ، والمشاورة راتبهم الشهري .

(٧٨) اتقي الطاسي : منتخب المختار من تاريخ ابن راسع السلامي المذيل به على تاريخ ابن النجار (نشره عباس المزوي ، بغداد ١٩٢٨) ص ٢١٢ .

وفي سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م انشأ صاحب ديوان العراق علاء الدين عطا ملك الجويني (٧٩) مشروعه الكبير لتزويد المدرسة المستنصرية والمنطقة المجاورة بمياه الشرب . فكان المشروع يتألف من دولاب على شاطئ دجلة المجاور ، يصب الماء في قناة محكمة ، مبنية تحت الأرض ، فتزود القناة زملة المدرسة ، ثم بركة صنعت في وسطها ، ثم تخرج من المدرسة لتمد بمائها زملة أخرى عملت تجاه ايوان الساعات (وهي مائية ايضاً) التابع لمدرسة الطب ، مقابل بابها الرئيس (٨٠) . قال صاحب كتاب الحوادث ، في احداث السنة المذكورة « تقدم علاء الدين صاحب الديوان بمعمل دولاب تحت مناة المدرسة المستنصرية بقبض الماء من دجلة ويرمى الى زملتها ، ثم يجرى تحت الأرض الى بركة عملت في صحن المدرسة ، ثم يخرج منها الى زملة عملت تجاه ايوان الساعات خارج المدرسة ، وجدد تطبيق صحنها ، وتبني حيطانها » (٨١) .

وبما ان انشاء هذا المشروع كان تألياً لانشاء المدرسة ذاتها ، فمن غير المتصور انه غير في تصميمها العام . والظاهر لنا ان مهندسي الجويني عمدوا الى مد القنوات من خلال المواضع التي يمكن تقبها والتغيير فيها ، لذا فمن الراجح ان تكون القنوات قد اجتازت احد بابي المدرسة المظللين على ضفة النهر ، الواقعين في مسجدها ، فزودت المزملة الاولى هناك ، ثم قطعت صحن المدرسة ، بخط مستقيم ، لتمد البركة في وسطها ، ومنها خرجت من تحت باب المدرسة الرئيس ، الى المزملة الثانية ، وذلك لاستحالة مد اية قناة من تحت مباني المدرسة الضخمة فيما عدا المواضع المذكورة . ويلاحظ ايضاً ان وجود البركة ، والمزملتين ، وجريان الماء فيها على الدوام ، يوجب وجود قناة أخرى لتصريف المياه الفائضة ، ولكن النصوص لا تكشف لنا شيئاً عن هذا الامر .

(٧٩) حكم العراق ، بعد وفاة ابن الملقمى الوزير السابق ، من سنة ٦٥٧ الى ٦٨١هـ / ١٢٥٧ - ١٢٨٢ . عماد عبدالسلام رؤوف : حكام العراق وموظفوه في عهد المغول الايلخانيين مجلة المؤرخ العربي (يصدرها اتحاد المؤرخين العرب) المجلد ١١ ص ٦٠ .

(٨٠) اي في سوق الهرج الحالي ، عند جامع القبلانية . وكنا قد اثبتنا بان هذا الجامع ورت ارضي مدرسة الطب والايوان التابع لها في مجلة الرسالة الاسلامية (بغداد ، تصدرها وزارة الاوقاف) الاعداد ٢٢ و ٢٨ - ٢٩ و ٤٣ (سنة ١٩٧١) و ٤٤ (سنة ١٩٧٢) .

(٨١) الحوادث ص ٣٦٥ .

الفصل الثاني

مشاريع مياه الشرب في العصر العثماني

١ - مشكلة مياه الشرب

توالى احتلال القبائل الفارسية لبغداد منذ سقوطها الأول على يد المنصور سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م ، وتقلبت بأيدي دول قبلية متخلفة مدة تزيد على ثلاثة قرون حتى دكت معالمها الحضارية، وتعرضت الحياة فيها الى خطر التخریب والتدمير ، وهجرها الكثير من أهلها ، بينما قضت النكبات على قسم غير قليل منهم . وكان من نتائج هذه الأوضاع ، ان سرعت عملية انكماش المساحة المسكونة من بغداد ، وهي العملية التي بدأت بعض ملامحها تظهر منذ اواخر العصور العباسية، فانحصر السكن داخل اسوار الجانب الشرقي على ما استقرت عليه في اخر القرن الخامس للهجرة (١١١م) . ثم استمرت عملية الانكماش السكني ، كمظهر من مظاهر الانكماش الحضاري العام ، فخلت اماكن واسعة داخل الاسوار ذاتها ، كانت قد وصفت بانها محلات مكتظة شبيهة بالمدينة المستقلة . وتحولت محلات مثل باب الأزج وباب المراتب والبصلية وقطيفة العجم والريان وغيرها، الى صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ، وكانت الانهار التي وصفناها فيما سبق ، قد أهملت تدريجياً ، حتى اندثرت تماماً في خلال القرنين الثامن والتاسع (١٤ و ١٥م) ففقدت بغداد بذلك ما كان يحيط بها من نبات وخضرة ، وبخاصة في الاقسام المحصورة بين سورها الشرقي والمناطق السكنية ، وهي الاقسام التي كان يسقيها نهر بين الاخذ من الخالص بفروعه المديدة في العصور السابقة ، مما ادى الى ازدياد تجمع السكان في المحلات القريبة من دجلة ، والى ان تتخذ مشكلة نقل مياه الشرب - من ثم - شكلاً آخر يقوم على اساس التغير الجديد .

ومن الجدير بالملاحظة اننا لم نعد نسمع في هذا العصر ما يشير الى انشاء قنوات محكمة تحت الارض توصل مياه الشرب الى السقايات العامة ، بل اننا لا نعلم الفترة التي استمرت فيها هذه المشاريع قائمة بمهمتها ، فقد انطوت اخبار المشاريع المذكورة بانقضاء صفحة العصر العباسي نفسه . واقرب الى الاحتمال ان بغداد اكتفت في الفترة السابقة على العصر العثماني ، بما يحمله اليها السقاؤون من مياه دجلة في « قريبتهم » ، ولا

شك انه كانت هناك سقايات عامة موزعة في ارجاء المدينة يملؤها السقاؤون لتبقى في خدمة السكان بقية اليوم . بيد ان معلوماتنا لا تكفي لتصور مدى نجاح هذه السقايات في سد حاجة اولئك السكان من مياه الشرب فضلاً عن توفير مياه الاستعمال . ومن المرجح ان تكون الآبار قد اخذت مورداً للنوع الاخير من المياه .

ولقد شهدت بغداد ، منذ استقرار الحكم العثماني فيها في بدايات القرن الحادي عشر للهجرة (١٧م) ، تطوراً ملموساً في تصميم مشاريع دائمة لنقل مياه الشرب ، تعتمد على انشاء قنوات محكمة ، مرفوعة على عقود عالية مبنية بالاجر والنورة واخلاطها ، ويرفع الماء اليها بواسطة الدواليب ، فتجري المياه في القنوات المطلوبة بطبقة من القار ، مجتازة بذلك الدروب والمحال ، بانحدار محسوب ، حتى تصل الى المواضع المهمة ، او الاكثر ازدحاماً في السكن ، فتتفرع منها في قنوات اخرى لتصب في السقايات المشيدة هناك ، بينما تحمل القنطرة الرئيسية الفائض من الماء الى مناطق بعيدة نسبياً ، لتغذي بعض السقايات في تلك النواحي ، وليبقى ما يتبقى في الاراضي القاحلة حوالها . وهذا النوع من مشاريع مياه الشرب بذكرنا بمشروع قنوات الساج الذي اقامه المنصور لمدينته بالمياه من نهر دجلة ، الا ان المشاريع العثمانية تميزت بشباتها ودوام عملها ، وهي في الواقع لم تكن الا تقليداً لامثالها من المشاريع التي انشاها العثمانيون في بعض المدن الكبيرة ، متأثرين بعمارة القنوات البيزنطية العالية التي كانت تزود مدن الاناضول بالماء منذ عهود قديمة (انظر الشكل ٤) .

بيد ان استخدام هذا النوع من السقايات ، لم يقض على النوع الآخر الذي يعتمد على انشاء احواض كبيرة ، او حباب ، تملا بالماء كل يوم بواسطة سقائين لهم اجر معلوم . فقد ميز الفقهاء العثمانيون بين هذين النوعين ، فاعتبروا النوع الاول من المشاريع الخيرية العامة ، الموقوفة لنفع الجميع بلا ادنى تمييز ، ويظهر انهم اعتبروا حكمها كحكم العيون الطبيعية المسماة « چشمه » . اما النوع الآخر ، فانهم سمحوا بوضع بعض اشروط عليه ، كتخصيص ماله للفقراء بالدرجة الاولى (٨٢) ، وترتيب قيم مسؤول عن ادارته ،

(٨٢) يذكر محمد بن ولي الازميري (ت ١١٦٥هـ / ١٧٥١م) ان « الماء مشترى بفلان الاوقاف المينة له ، ومتخذ بطريق الاجارة ويعطى الاجرة من تلك الفلانة ، لذا فلا يستوى

ياخذ راتبه من غلة الوقف ، وما الى ذلك من أمور (٨٢) .

ويذكر الرحالة محمد ظلي المعروف بأوليا جلبي الذي قدم ببغداد سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م وسنة ١٠٦٦هـ/١٦٥٥م انه كان فيها نحو مائة سقاية يسميها « سبيل » ومائتي « چشمه » من النوع الذي يملؤه السقاؤون بقربهم من النهر (٨٤) . هذا في حين اعتبر الأفشهرى (٨٥) السبيل (أو السبيل خاتنة) ما يملأ بالقرب بالأجرة ، و « چشمه » عيون الماء النضاجة ، ويقرب منها ما تحمله القنوات من مياه دافقة متصلة تصب في سقايات عامة .

ويستفاد مما ذكره أوليا جلبي أيضاً ، ان صعوبات جمة كانت تكتنف عمل السقائين في نقل المياه من النهر ، الى درجة ان حاجة المدينة لم تكن تسدها الا مياه الآبار التي يقدرها ب (٦٠٠٠) بشر . ونحن نعتقد بأن وجه الصعوبة التي اشار اليها أوليا جلبي هو ان شواطئ بغداد في عهده كانت مغلقة في وجه السقائين الا من مكان واحد فحسب ، قرب الميدان ، اشار اليه هو ، اما سائر الشواطئ فكانت مسورة بسور عال ليس له من باب سوى باب الجسر . وقد وردت صورة هذا السور في صورة بغداد التي رسمها نصوح السلاحي المطراقي سنة ٩٤٤هـ/ ١٥٢٧م ، وخارطة بغداد من عمل تافرنبيه سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م (٨٦) ، ومنها يظهر انه لم تكن لبغداد مزارع على دجلة ، ولعل هذا هو ما دفع حكام المدينة الأوائل الى مد القنوات على عقود الأجر لتزود سقاياتها الداخلية . ويؤكد هذا القول أن دواليب هذه القنوات لم تكن تأخذ مياهها

الغني والفقير بالانتفاع به ، والقول بأن الفلة نصرف على مصروف التولي وعمارة السقاية لا الماء غير صحيح ، كيف ولا يحمل الماء الى السقاية مجاناً بل بشمن أو اجرة يعطى من الفلة . رسالة في شؤون السقايات ووقفها (مخطوط) الورقة ٨ وانظر عبدالرحمن بن شيخ محمد : مجمع الانهر في شرح ملتقى الأبحر (الطبعة العثمانية ١٣٠٥) ص ٢٢٦ .

(٨٢) ومن تلك الشروط انه يصب فيها الماء بالجرة للشرب أو الوضوء ، ولا يجوز استعمال مائها لغيرها ، ويكون لها قنطرة وكيزان .

(٨٤) أوليا جلبي سياحنامة سي استانبول ١٢١٤هـ (١٢٠/٤) .

(٨٥) رسالة في شؤون السقايات ووقفها الورقة ٨ (مخطوط) .

(٨٦) انظر اطلس بغداد للدكتور أحمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٢ و ١٣ .

من دجلة رأساً ، وانما من آبار عميقة حفرت خصيصاً بها . ويدل بشر قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وهو آخر ما بقي من هذه الآبار ، على ان مواقع الآبار كانت بعيدة عن دجلة بمسافة كافية لاقامة الاسوار والحصون (٨٧) . واذ بقيت هذه الاسوار قائمة الى نهاية القرن الثاني عشر على اقل تقدير ، فان بإمكاننا ان نتصور بقاء مشكلة ايجاد موارد كافية لمياه الشرب ، هذا الآبار ، حتى ذلك التاريخ ، حتى ان عدداً من السياح الذين اقاموا ببغداد أو مرو بها ، نوهوا بهذه المشكلة ، ووصفوا متاعب البغداديين في الحصول على ماء الشرب . فاستار الرحالة الإيطالي الأب فنسنو (Vincenzo) الذي زار بغداد سنة ١٠٦٧هـ/١٦٥٦م الى ان الماء الذي يباع ببغداد ، يأتي ملوثاً بالقيح . وان كان لا يصرر في هذا التلوث - ووصف طريقة جلبه الى المدينة ، بأنه كان ينقل على ظهور الثيران والخيول ، في قرب كبيرة من الجبل (٨٨) . والمعروف ان جلب الماء الى المنازل بالقرب المدبوغة لا يؤدي الى ما لاحظته من تلوث الماء بالقيح ، فالظاهر ان الماء الذي شربه كان من مياه السقايات العامة التي تبطن مجاريها واحواضها بطبقة كثيفة من القمار لحفظها من انضباع ، وليس من مياه القرب المحمولة على الطريقة التي وصفها . ولم ينتبه سائح آخر هو البريطاني جاكسون في رحلته الى بغداد سنة ١١٨١هـ/١٧٦٧م الى وجود قنوات عامة لنقل الماء في المدينة ، وانما اشار الى ان كثيراً من الفقراء كانوا يستخدمون لنقل الماء من النهر في ظروف من الجهد يحملها البعض منهم على ظهورهم ، بينما يحملها البعض الآخر على الحمير والبغال (٨٩) . ومن ذلك ما وصفه الرحالة البريطاني بكنكهام (Buckingham) عند قدومه الى بغداد سنة ١٢٢٢هـ/١٨١٦م حيث ذكر ان المدينة تزود بمياه الشرب من نهر دجلة في قرب من جلود الممر تنقل على ظهور الدواب وتصل باب منزل كل عائلة ، اذ ان وسائل نقل الماء ، والصحاريح والاحواض غير معروفة فيها (٩٠) .

(٨٧) انظر ما سيأتي عن هذه السقاية . والشكل (١) .

(٨٨) رحلة فنسنو الى العراق في القرن السابع عشر ، ترجمة بطرس حداد ، مجلة المورد المجلد ٢ ، العدد ٥ (بغداد ١٩٧٦) ص ٧٧ .

(٨٩) مشاهدات بريطاني عن العراق سنة ١٦٧٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي ص ٧٥ .

(٩٠) بكنكهام : رحلتي الى العراق سنة ١٨١٦ ، ترجمة سليم طه التكريتي (بغداد ١٩٦٨) ٢٠٦/١ .

٢ - قنوات المياه المرفوعة

ساقية (قناة) الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

ليس من المحدد تاريخ انشائها ، واول اشارة الى وجودها كانت سنة ١٠١٣هـ/١٦٠٤م ، حين وصفها الرحالة البرتغالي بيدرو تكسيرا Pedro Teixeira اثناء زيارته بغداد . قال واصفاً جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وان لم يسمه ، انه واقع في طرف المدينة عند بساتين النخيل ، وان الماء ينقل اليه من فوق قناطر خاصة ، على نمط بديع (٩٢) .

واشار اليها السائح الدانمركي نيبور C. Niebuhr عند قدمه بغداد سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م ، وذلك في اثناء وصفه التكية القادرية . قال « ولتكتبه واردات مالية وقفية تقوت اكثر من ثلثمائة انسان ، ولاكثرهم فيها حجر وغرف يسكنونها بالمجان ، ولها كرد (دولاب) يساق ماؤه اليها من دجلة في ساقية » (٩٣) .

كما اشار اليها سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م الكوماندو فيليكس جونز F. Jones فذكر ان من عقود محلة رأس الساقية « عقد الساقية » وعد من معالم محلة «باب الشيخ» ، قهوة «المزلة» (٩٤) على انه لم يشر اليها في خريطته التي رسمها ، وكولنكود ، لمدينة بغداد ، وان كان رسم الدرب الذي تجري فيه .

بلغ طول هذه القناة ما يزيد على كيلومتر . وتبدأ من شاطئ دجلة في محلة السنك ، قرب قصر السيد عبدالرحمن الكيلاني تقيب الاشراف الاسبق (بستان محمد اكريوز) ثم تمتد فوق جدار عال يبلغ ارتفاعه ٢٣٠ متراً عند حديقة (بقجة) كان قد وقفها محمد بن جواد اوطة باشي سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م ، ومن هناك تنمطف فتعبر على عقد كان فوق باب حديقة عبدالجبار غلام ، وتمضي مشرقة في شارع الكيلاني ، فتعبر الطريق الذهاب الى الباب الشرقي عند جامع النعماني على عقد ، ثم تجتاز الطريق الذهاب الى مرقند انخلاني على عقد آخر ، وتمضي فتعبر الدرب المتجه الى محلة الصدرية ، عند مسجد رأس الساقية ،

ونظراً لما كان يكتنف عملية نقل مياه الشرب من صعوبات ، وما يكلفه شرائها من مال ، فقد نالت شؤون السقايات العامة ببغداد اهتمام الولاة وارباب الدولة والاعيان واهل الخير ، وشارك عدد من السيدات المحسنات بانشاء جملة من السقايات المهمة . ووقف الجميع عليها الوقوف الدارة بموجب وقفيات وحجج شرعية رسمية ، وثبت بعضهم عدد العاملين على خدمة الساقية ، وحدد رواتبهم بدقة . وصار للسقاين الذين ينقلون الماء الى الساقية راتب معلوم . واحتاط بعض الواقفين فحدد عدد «قرب» الماء التي يحملها السقاء كل يوم ، فنص والي بغداد داود باشا على ان تكون عشر قرب يومياً ، لقاء راتب قدره ٢٦٠ قرشاً ، وجعلت السيدة نازدة خاتون لسقايتها ١٨٠٠ قرشاً رائجاً (٥٠ قرشاً صاغاً) بينما حدد تقيب الاشراف سليمان القادري راتب من يقوم بخدمة سقايتها بـ ١٥ قرشاً صاغاً كل شهر .

ومثلما اهتم اولئك المومنين بالانفاق على هذه المشاريع الحيوية ، فقد تفنن المهندسون والنقاشون في تصميم عماراتها ، وتزيينها بالزجاج الرخام المنقوش والقاشاني الملون وبشبابيك النحاس الفاخر ، وسجلت على معظم السقايات ، بخطوط بديعة ، آيات قرآنية ، وابيات شعرية تؤرخ انشاءها ، وتذكر اسم صاحبها احياناً ، وزاد اخرون بان اقاموا حولها حدائق صغيرة ، وزرعوا فيها اشجاراً تظلل الشاربين .

فكان من نتائج هذا الاهتمام ان زاد عدد السقايات العامة التي يملؤها السقاؤون بسرعة منذ مطلع القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) الى الحد الذي اصبح انشاؤها ظاهرة من الظواهر الاجتماعية في المدينة ، وامتدت خدماتها لتشمل محلات عديدة من بغداد (٩٥) .

اما القنوات الاجرية المرفوعة على المقود ، فقد توصلنا الى ثلاثة مشاريع منها ، وهي تغطي مساحة كبيرة من بغداد الشرقية ، لكننا لا نقطع بعدم وجود غيرها في اجزاء اخرى من المدينة . ويرتقي انشاء هذه المشاريع الى عهود مختلفة من القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة (١٧ و ١٨م) . اما السقايات الآخذة منها فهي عديدة ومتنوعة ، وفيما يأتي من البحث عرض تفصيلي عن هذه المشاريع .

(٩١) انظر الخارطة .

(٩١) Teixeira, P. : The Travels of Pedro (٩٢) بغداد في رحلة نيبور ، ترجمة د. مصطفى جواد (مجلة

سومر المجلد ٢٠ الجزء ١ - ٢ (بغداد ١٩٦٤) ص ٢٥

(٩٤) Jones, F.: Selections from the record of Bombay Government., P. 327.

وانساب بها كعبة للالذين بها
لقد صفا زمزم الجدوى ومرواها
تطوعا واحتساباً من فواضله
تجددت وسمت اركانها عليها
فيا لها نية لله خالصة
تفتر عن شنب الحسن ثناياها
صح القبول جرى فوراً فارخه
« تجرى فينبوع بسم الله مجراها »

١٢٤٧

ونظراً لأهمية جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ومدرسته ، وسعة محله ، وكثافة السكن في تلك الناحية ، فقد حظيت هذه القناة وسقايتها بعناية فائقة . واوكل أمر التولية على اوقافها والانفاق على مصالحها من تجديد وصيانة انسادة تقبـاء الاشراف ومتولو الاوقاف القادرية ، وذلك بموجب الحجج الشرعية التي كان يصدرها ولاية بغداد ، وتحتوي كل حجة - عادة - على وصايا بشان وجوب الاهتمام بالقناة والعناية بمراقبتها ١٩٨ .

وقد وصفت السقاية في مطلع هذا القرن بانها بناية كبيرة لها حوض ، وفيه ثلاث حنفيات وامام الحوض طارمة ذات ثلاثة اطواق متصلة على شكل ثلاثة اضلاع مشمن ١٩٩ .

وفي حدود سنة ١٢١٠هـ / ١٨٩٢م قام احد الاغنياء الهنود بتثبيت انبوب حديد في داخل قناة الاجر ، ورفع العقود القديمة التي كانت القناة تجتاز عليها الدروب والطرق الجانبية ، ووضع بدلا منها انايب . فكان الانبوب ينزل الى الارض عمودياً ، حيث يتصل بانبوب افقي مدفون تحت الارض باستقامة الساقية ، ثم يتصل بانبوب آخر

(٩٨) انظر مثلاً الوثيقة الشرعية التضمنة توليه السيد محمود الفندي بن ذكريا القادري على ساقية الماء العائدة لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (سجل المحكمة الشرعية ببغداد ، عدد ١٥٨ ص ٥٩ بالتركية ، ونذكر ان والي بغداد سليمان باشا الصغير اصدر بيوراوولي (امر رسمي) سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩٠م يقضي بتسليم التولية الى السيد حبيب سنه بك ، لذلك لتدهور الصلاقات بينه وبين متوليها السابق السيد رمضان القادري ، وبقي الوضع كذلك حتى استعادها السيد محمود الكيلاني سنة ١٢٢٣هـ / ١٨١٧م باعتبار ان القناة المذكورة موضوع اصلا لخدمة جامع الشيخ عبدالقادر ، وبما انه يتولى اوقافه لمن الاولى والارجح ان يتولى ساقيته ايضاً .

(٩٩) محمد رؤوف الشيكلي : المعجم الجغرافي لمدينة بغداد (البصرة ١٩٧٧) ص ١٢٢ .

والدرب الواقع قرب حوض سقايتها : على عقود مشابهة . وتنتهي عند جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حيث تملأ حوض سقايتها بالماء المخصص للشرب . وقد عرفت هذه السقاية ب (المزملة البرانية) نوقوعها خارج اسوار الجامع لا داخله ١٩٥ ، كما سميت المنطقة التي في غرب محلة باب الشيخ ، بمحلة (رأس الساقية) نسبة اليها ، وما تزال تعرف بهذا الاسم ١٩٦ .

وكان مأخذ هذه القناة من دولا ب يرفع الماء من بئر عميقة واسعة عند شاطئ النهر ، وما تزال هذه البئر موجودة الى يومنا هذا ، وعندها آخر بقايا القناة المذكورة .

والظاهر ان هذه السقاية بقيت على وضعها القديم دونما تغير حتى سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ، وهي سنة تولى علي رضا باشا الاز ولاية بغداد ، فقد ذكر السيد محمود شكري الالوسي ان هذا الوالي امر بانشاء سقاية في جوار جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وصفها بانها « غزيرة الماء » كثيرة الارواء » وقال انه أجرى اليها جدولاً من نهر دجلة واقف عليها عقاراً لتبقى على مر الأيام وتعاقب الأعوام ١٩٧ . ونحن نرجح ان تكون هذه السقاية هي نفسها سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، وانما قام علي باشا الاز بتجديدها ، او اضافة اشياء اليها . وليس بيميد ان يكون تجديد القناة وترميمها هو ما دفع السيد الالوسي الى ذلك القول ، مستنداً الى ما كان مدوناً على رخامة السقاية من ابيات ، مع ان البيت الخامس منها يدل صراحة على انها جددت ، لا انشئت انشاءً . وفيما يأتي هذه الابيات :

له ساقية قد شاد منها
والي المراقين اقصاها وادناها
اعني علي رضا بل حيدري وغى
سميه لجميع الناس مولاها
من ماء دجلة أجرى سلسيل ندى
بروي المطاش من الرمضاء اصفاها

(٩٥) كان موقعها عند الزاوية الجنوبية من مبرة الجامع .
(٩٦) عماد عبدالسلام رؤوف : متى تم أول مشروع لاسالة الماء في بغداد . جريدة التاخي البغدادية بتاريخ ١٢/٨/١٩٦٨ .

(٩٧) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص ٦٠ (مخطوطة المتحد العراقي المرقمة ١٠٦٤) وقد نشر السيد محمد بهجة الاتري هذا الكتاب ، بتفسيرات رأها ، تحت عنوان « مساجد بغداد واثارها » (بغداد ١٢٤٦) واشارتنا ، في هذا البحث ، الى المخطوط .

عمودياً ، فيربط بالانبوب الذي في الساقية من
الجهة الأخرى

وفي سنة ١٢٢٨هـ / ١٩١٠م ألغى العمل
بالدولاب ، واستعاض عنه بمضخة حديثة وقام
السيد عبد الرحمن الكيلاني تقيب الاشراف برفع
قناة الماء تماماً (١٠٠) ، ومدت الانابيب المعدنية تحت
الأرض ، بخط مستقيم ، الى جامع الشيخ
عبدالقادر الكيلاني . وعند فتح جادة خليل
باشا (الشارع العام ، ثم شارع الرشيد كما سمي
فيما بعد) زمن ولاية خليل باشا سنة ١٢٣٤هـ /
١٩١٥م قضى على آثار القناة المرفوعة ، فدخل
جدارها وقسم قليل من حديقة أوطه باشي (المقدم
ذكرها) في الشارع المذكور . ولم يبق من آثارها
سوى ذلك الجزء الواقع عند البئر الشاطئية .
وهو - على الحقيقة - آخر ما تبقى من آثار قنوات
مياه الشرب القديمة ببغداد كلها (انظر الشكل ٧) .

تبعد البئر عن شاطئ دجلة بأكثر من عشرين
متراً ، وكان جزء من هذه المسافة مشغولاً بسور
بغداد وحصونه المطلة على دجلة ، ثم سُفل في بداية
القرن الحالي بقصر السيد عبدالرحمن
الكيلاني (١٠١) . وكانت مسناة السور لم تزل مرئية
عند هذا القصر عندما رسم جونز وكولنكوود
خارطة بغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع
عشر للميلاد) (١٠٢) .

تتخذ البئر شكلاً بيضوياً يبلغ محيطه
١٦ر٨٧ متراً ، وأطول قطريه ٩٢ متراً ،
واقصرهما ٣ أمتار . وهي مسورة بسور من الأجر
عرضه ٣٥ سنتمتراً ، تعلوه حافة عرضها ٥
سنتمتراً . ويرتفع السور عن الأرض بـ (١٢) متراً
متراً ، ويبلغ عمق البئر حالياً من حافة سورها
٣ر٥٥ متراً . ومن المعتقد ان عمقها الأصلي كان
يزيد على ذلك بأربعة أمتار أخرى على الأقل .
ويزين الجدار الداخلي للبئر (بعمق ٢ر٦٠ متراً)
زخرفة بقطع الأجر مرتبة عمودياً (يعرفها البناؤون

(١٠٠) وقد تبرع نفر من الدابة القار الذي في القناة المرفوعة
بألف أوقية من الحطب ، ثم تبعه السيدان ليث الدين
آل جميل وداود الكيلاني ، فتبرعا بمبلغ خمسمائة أوقية
أيضاً ، على ما نشرت الخبر في حينها جريدة الزوراء
ونقلته جريدة صدى بابل البغدادية الصادرة في ١١ ذي
القعدة سنة ١٢٢٨هـ .

(١٠١) من القصور الفخمة ، البديعة المنظر ، ببغداد . وقد
قامت المؤسسة العامة للسياحة أخيراً بترميمه ، واعادته
الى وضعه القديم أيام كونه عامراً .

(١٠٢) انظر اطلس بغداد ص ١٥ .

المحليون باسم سكة) تعلوها زخرفة بالأجر أيضاً
بارزة وغائرة على شكل خمسة متوازيات أضلاع
متجاورة (ويعرفها البناؤون المحليون باسم بقلارة)
انظر الشكل (٦) .

ويتصل بحافة البئر من ناحية الجنوب
الشرقي (بشكل يوازي مجرى نهر دجلة) بناء
متين من الأجر والجص ، كان قد ثبت في أعلاه
دولاب الدلاء . وهو يتخذ شكلاً هندسياً غير منتظم
(الشكل ٥) . ويبلغ ارتفاع هذا البناء ٢ر٣٠
متراً ، ويتخذ عند البئر هيئة قوس يتم الشكل
البيضوي لها . وكانت على سطحه أسكلة من
الخشب مهمتها استقبال المياه المرفوعة اليها
بالدولاب . ثم يضيق عرض البناء بعد مسافة ٢ر٣٠
متراً ليصبح عرضه متراً واحداً ، بطول قدره
٢ر٨٢ متراً . وكان على هذا الجزء مجرى يأخذ
الماء من الدولاب ويصبه في الحوض التالي الذي
يتصل به .

رأف هذا الحوض شكلاً هندسياً غير منتظم
الزوايا . كانت مهمته تجميع المياه الآتية من المجرى
المذكور ، لتصب بعده في قناة الشيخ عبدالقادر
المتدة الى جامع . وقد بطنت أرضية المجرى
والحوض والقناة بطبقة كثيفة من القار ، يبلغ
ثخنها نحو ستة أو سبعة سنتمترات ، وذلك منعاً
من تسرب الماء أثناء جريانه وضياعه بدداً (١٠٣) .
(الصورة رقم ٥) .

يعمل الدولاب (الكرد) بقوة الدواب ، حيث
تدور الدابة محركاً ذراعاً قد ثبتت نهايتها بمحور
راسي ، وبدوران هذا المحور يدور مسنن أفقي ثبت
في أعلاه ، وينقل المسنن الأفقي العلوي المذكور
الحركة الى مسنن راسي يتصل به محور أفقي ،
وينقل الأخير الحركة الى دولاب الدلاء فيرفع الماء
بذلك الى القناة (انظر الشكل ٣) .

ويختلف أسلوب عمل هذا الدولاب عن
الدواليب العادية الأخرى الموجودة على شواطئ
الأنهار بان في مقدوره رفع المياه رأساً الى ما يزيد
على المترين فوق مستوى سطح الأرض ، في حين
ترفع الدواليب الأخرى الماء الى سطح الأرض
فحسب . ومنشأ هذا الاختلاف ان المسنن الراسي
المحرك لمحور دولاب الدلاء ، يعلو على المسنن الأفقي
بخلاف الدواليب الأخرى ، التي يكون المسنن
الراسي فيها في الأسفل . وهذا الوضع يفسح المجال

(١٠٣) قامت المؤسسة العامة للسياحة بترميمه ترميماً حسناً ،
ورفع ما كان في داخل بئره من أنقاض .

للمحور الأفقي أن ينقل الحركة إلى دولاب الدلاء بالارتفاع نفسه ، دون أن يشكل عائقاً لدوران الدابة تحته (الشكل ٢) .

ويمكن القول - بناء على ما تقدم - أن هذا التصميم هو الذي كان متبعاً في جميع الدواليب التي ترفع مياه الآبار إلى قنوات عالية ، كساقية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، ومنها قناة الشيخ عمر السهروردي ، وقناة الشيخ سراج الدين الآتي ذكرهما .

ساقية (قناة) الشيخ عمر السهروردي

أنشأ هذه القناة والي بغداد الوزير حسين باشا السلاحدار (محرم ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م - ١٠٨٥هـ / ١٦٧٤م) ووقف عليها الأوقاف الكثيرة لادامتها والعناية بمراقبتها . منها سوقاً كبيرة أنشأها عند باب المدرسة المستنصرية ، وعقارات أخرى اشتراها ، منها دكاكين متفرقة في جانبي بغداد ، ومقهى كان يعرف بقهوة مراد ، وبستاناً قرب مرقد الشيخ عمر السهروردي (١٠٤) فكانت تلك الأوقاف سبباً في استمرار عمل المشروع مدة تقرب من ثلاثة قرون (١٠٥) .

وكانت هذه القناة تأخذ مياهها بواسطة دولاب يرفع الماء من بئر عميقة عند شاطئ دجلة ، في شريعة الميدان ، بين مبنى المتحف العسكري السابق ، ونادي الضباط الحالي ، ثم تمتد من هناك مرفوعة على عقود عالية بنيت بالأجر والجص على صفة قناة الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حتى تصل إلى منطقة « الميدان » قرب جامع الأحمدية ، فتجتازه مشرقة في درب طويل تقع عليه معظم محلات القسم الشمالي من بغداد الشرقية ، فتعد بمياه انشرب محطة الصابونجية ، ثم محطة ايلان دلي ، فمحطة الفضل ، والجلالي ، ثم تمتد باستقامة حتى تصل إلى غربي جامع الفضل ، فتجتاز الدرب الذي يقع عليه فوق عقود (١٠٦) وتمضي مخترقة

(١٠٤) مجموعة من وثائق بغداد (مخطوط) .

(١٠٥) حكم هذا الوالي سنتين فقط ، وقام خلالهما بمشاريع كبيرة ذكرها مرتضى نظمى زاده في كتابه كلشن خلفا (ترجمة موسى كاظم نورى ، بغداد ١٩٧١) ص ٢٧٧ - ٢٧٨ ومن غير المتصور أن تكون هذه الأوقاف كلها من ماله الخاص ، وإنما هو قد اشتراها من واردات الولاية ، وربما من الجزء المخصص لإرساله إلى الدولة (وغالباً ما يجرى هذا بطم الدولة لهذا المشروع وغيره من الأعمال الكبيرة التي يقوم بها الولاة ، هي في الحقيقة أعمال حكومية عامة ، وإن ظهرت بمظهر الأعمال الخيرية للأفراد . (١٠٦) في أرض شارع الكفاح اليوم .

محلة خان لاوند ، ثم تتجه في أرض قاحلة حتى تصل إلى جامع الشيخ عمر السهروردي ، حيث تصب هناك في سقايتين كبيرتين ، ويجرى الفائض من مائها ليسقي بستان السلاحدار الموقوفة عليها ، ترفيها للمارة في تلك النواحي النائية الموحشة (١٠٧) .

استمرت هذه القناة البديعة بأداء مهمتها حتى النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) فقد وردت في خارطة بغداد التي رسمها الكوماندر فيلكس جونز وكولنكود سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م على نحو يظهر امتدادها إلى جامع الشيخ السهروردي . وذكر جونز أن من عقود محطة « ايلان دلي » عقداً سماه « شمس الساقية » (١٠٨) .

ولقد تعطلت أجزاء من هذه القناة في عهد والي بغداد نامق باشا الكبير (من ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م إلى ١٢٦٨هـ / ١٨٥١م) (١٠٩) ، وهي الأجزاء التي تصل بين محلة خان لاوند ، وبين جامع عمر السهروردي . أما الأجزاء الباقية ، فقد بقيت سليمة تؤدي مهمتها في نقل مياه الشرب إلى المحلات السكنية . ولم تندثر تلك الأجزاء أو تعطل إلا في عهد والي بغداد مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) .

ويبدو أن تخرب هذه الأجزاء من القناة ، هو ما دفع ببعض أعيان بغداد وأهل الخير منهم إلى إنشاء عدة سقايات جديدة تأخذ مياهها من الأجزاء السليمة الباقية منها ، وقد وقفنا على ثلاثة من تلك السقايات ، تقع الأولى في « الميدان » والثانية في محلة « البارودية » أما الثالثة فتقع في محلة « خان لاوند » إلى الشرق من محلة الفضل . فكانت هذه السقايات تشكل بمجموعها مشروعاً واسعاً - نسبياً - لإبصال مياه الشرب إلى محلات بغداد في تلك الجهات . ويلاحظ أن تواريخ إنشاء السقايات المذكورة كانت ترقى إلى عهود مختلفة . كما يتضح لنا من تتبع أخبارها .

(١٠٧) عماد عبدالسلام رؤوف : سقاية الشيخ عمر السهروردي . جريدة الناهي البغدادية بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٢ .

(١٠٨) Jones, F. : Op. Cit., P. 320. وأعيد نشر الخارطة ، في « اطلس بغداد » من وضع الدكتور أحمد سوسة (بغداد ١٩٥٢) ص ١٥ .

(١٠٩) على ما أفادني الشيخ كمال الدين امام جامع عمر السهروردي عن أبيه الشيخ عبدالحسن السهروردي ، في صيف سنة ١٩٦٥ .

أ - سقاية شوكت بك

انشأها دفتر دار بغداد شوكت بك سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م في « الميدان » الى الشرق قليلاً من جامع الأحمدية (مدخل شارع الرشيد حالياً) ولكنها لم تلبث ان عطلت بعد مضي عهد قصر من انشائها ، ثم قام حفيد مؤسسها قدرت بك بن عصمت بك ، بتعمير سقاية جده سنة ١٢٣٠هـ/ ١٩١٢م ، وكان يومذاك مديراً للأموال الأجنبية ، فطلب من المهندس الفرنسي كودارد Godard ان يصمم بناءها على هيئة بديعة ، ففعل ، وأجرى لها الماء من تلك القناة ، وبلغت كلفة المشروع كله (١٠٨) ليرات عثمانية (١١٠) .

وكان للسقاية واجهتان ، على الأولى منها ابواب عربية ، وعلى الأخرى ابواب فارسية وتركية ، وكلها مكتوبة على الحجر القاشاني ، وتحيط بالكتابة صور لأغصان مورقة ، وثمار ملونة ، وتقوش . أما الأبيات فهي هذه (١١١) :

ناظر اوقاف العراق الفنى
شريف رب الحسب الطاهر
في البلدة الزوراء قضى نجبه
وفاز بانفجران من غافر
فسخر الباري له صاحباً
كان له في الزمن الغابر
محمد شوكت اقلامه
تغنى عن الدابل والبانر
انشأ له هذا السبيل الذي
ابيح للوارد والصادر
اصفى من الدمع على فقهه
ما قد جرى أرخ من الناظر
١٢٧٢

وانشئت حوالي السقاية حديقة نزهة غناء ، دامت امداً من الدهر ، ثم اندثرت عند فتح جادة خليل باشا (شارع الرشيد الحالي) قبل الاحتلال البريطاني لبغداد (١١٢) (انظر الصورة رقم ١) .

ويبدو ان لهذه السقاية اوقاف ، اوقفها

(١١٠) وهم الاستاذ يعقوب سركيس في امر هذه السقاية ، وسقاية الشيخ عمر السهروردي نفسها ، وحقائق القناة الوصلة بينهما ، والاخذة من دجلة ، فقال في مجلة البيان النجفية (عدد ١٥ شباط ١٩٤٦) « هل يمكن ان تكون سقاية في الميدان لخدمة في جامع السهروردي والسفالة بينهما لا تقل عن كيلومترين ؟ » (١١١) مجلة لغة العرب ٢ (بغداد ١٩١٢) ص ٢٩ - ٤٠ . (١١٢) رسمها السيد رشيد الخوجة في خارطة بغداد التي وضعها سنة ١٢٢٤هـ/١٩٠٨م (انظر احمد سوسة : اطلال بغداد ص ١٦) .

مؤسسها الاول شوكت بك ، فقد جاء في ترجمة الشيخ محمد الأمين بن الشيخ عبدالرحمن السهروردي (ت ١٢٢٠هـ/١٩٠٢م) انه كان « متولياً على اوقاف سبيل خانت (كذا) شوكت بك » (١١٣) .

ب - سقاية البارودية

لا يعلم تاريخ انشائها ، اذ لم تكن على جذرها وشباكها شيء من الكتابات الدالة على ذلك ، وكان موقعها في محلة البارودية ، في موضع مظل على شارع الفضل ، متصل بقناة الشيخ عمر السهروردي . ووصفها بعض من عاصرها بانها كانت تتألف من طابقتين ، على اسفلهما شبابيك من نحاس ، على هيئة منبئة بديعة ، وفي داخلها حباب كبيرة تملأ بمياه الشرب . وبعد انقطاع تزويدها بالماء من الساقية المذكورة ، أصبحت تملأ كل يوم بواسطة السقائين .

ج - سقاية سري باشا

انشأها والي بغداد سري باشا (١٢٠٧ - ١٢٠٨هـ/١٨٨٩ - ١٨٩٠م) على انقاض مبنى خان لاوند العتيق ، وجعل ما حولها بستاناً غرس فيه انواع الشجر . وصمم السقاية على هيئة حوض كبير من الرخام المتين ، ووضع في وسطه نافورة تقذف الماء في الهواء .

وقد اطرى العلامة عبدالوهاب النائب (ت ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م) هذا المشروع الخيري بقصيدة ، منها قوله (١١٤) :

هذي العدالة لا عدمتك منصفاً
تسقى العطاش اذا اتوك نعيمها
ان النفوس لمثل ذاك ترتجى
لتكون في زمن اليباس بشيرها

ولما انتقل المشروع الى البلدية لادارته ، اصابه الإهمال ، فتلفت منشأته ، وصارت حفرة من الحفر ، واخيراً اشترى العلامة عبدالوهاب النائب أرضه وقسمها الى دور وحوائيت وخانات ، منها المدرسة التي عرفت بالحميدية وهي اليوم مدرسة الفضل الابتدائية .

وبهذا انتهى تاريخ آخر سقاية من سقايات هذا المشروع الكبير ، بعد ان لبث يزود اهل بغداد بحاجتهم من مياه الشرب نحو ثلاثة قرون .

(١١٣) محمد صالح السهروردي : لب الالباب (بغداد ١٩٢٢) ٢٥٩/٢ .
(١١٤) لب الالباب ٢٤٤/٢ .

سقاية (قناة) الشيخ سراج الدين

انشأها والي بغداد الوزير حسن باشا (١١١٦ - ١١٢٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م) عند تعميره جامع الشيخ سراج الدين في محلة الصدرية (جزء من محلة سراج الدين حالياً) سنة ١١٢١ هـ / ١٧١٨ م ، وذلك لد الجامع والأسواق المزدهمة حوله بمياه الشرب (١١٥) .

ولقد اتبع في تصميم هذه القناة ، وضع قناة الشيخ عبدالقادر وطريقة عملها . فكانت تأخذ مياهها من دولا ب عند شاطئ دجلة ، في شريعة السيد سلطان علي ، وتعتمد من هناك الى شارع السيد سلطان علي ، فتدخل يمينا في الدرب المعروف بطرف حاج فتحي ، وتخرج منه لتجتاز محلات السويدان والعمونة والصدرية ، حتى تصل الى سقاية الشيخ سراج الدين (١١٦) ، فتزودها بالماء ، اي انها كانت تبلغ طولاً قدره نحو ٧٠٠ متر تقريباً .

تقع سقاية الشيخ سراج الدين في الجهة المقابلة للجامع من جهة الشمال ، وكان فوق شباكها لوح من الرخام والحجر القاشاني ، عليه ابيات لامية تؤرخ لهذا العمل النافع ، منها (١١٧) :

اجربت للناس سبيلاً لهم
فيه سبيل الخير في كل حال
قد نزل الناس باحائه
واجتذبوا الماء بدون الحبال
للشرب والطهر ورفع الازى
حباك ربي نعمة لا تزال
هذا الذي فيه ينال الرضا
في عطش المحشر يوم السؤل

(١١٥) قال الرحالة الدمشقي ، مصطفى بن كمال الدين الصديقي البكري ، عند قدومه بغداد سنة ١١٢٩ هـ / ١٧٢٦ م « ولما وصلت جامع الشيخ سراج الدين - فليس الله سره المتين - الذي بناه المرحوم حسن باشا .. وفقت لدى الشباك ، والأسواق في اشتياك » (كشط الصدا وفصل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان الودقة ٢٢ مخطوط) . (١١٦) اشار السيد محمد رؤوف الشيكلي الى جزء من هذه القناة ، وهو الواصل من دجلة الى جامع الحاج فتحي ، ولكنه خلط بينها وبين سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني ، حين ظن انها تعفي من هناك الى جامع الشيخ الكيلاني فتزود سقايته بالماء . والصواب انها تنتهي الى جامع سراج الدين اما سقاية الشيخ الكيلاني فلها قناة مستقلة لغيرها على ما قدمنا (الدليل الجغرافي لمدينة بغداد ص ٥٧ و ١٤١) . (١١٧) مساجد بغداد ص ٥٨ (مخطوط) .

الله قد يسر تاريخه

اجسرى نك انكوثر ماء زلال

١١٢١

قال السيد محمود شكري الألوسي في وصفه هذه القناة « واصل ايضاً (يريد : حسن باشا) الى هذا المسجد ساقية من ماء دجلة . وانشأ سقاية يشرب منها المار وابن السبيل (١١٨) . وذكرها الشيخ عباس بن رجب البغدادي بصفحتها « سقايات » لا واحدة (١١٩) ، مما دل على سعتها ووفرة مياهها .

وكانت تتشعب من القناة ، فروع تزود سقايات اخرى ، موزعة على طول مجراها ، وقفنا منها على :

١ - سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت عند جامع الشيخ عبدالكريم الجيلي (١٢٠) ، في الدرب المسمى بطرف الحاج فتحي (١٢١) ، المتفرع من شارع السيد سلطان علي . وزانت هذه السقاية عند تقص الجامع المذكور قبل سنين .

ب - سقاية الحاج فتحي

لا يعلم تاريخ انشائها ايضاً (١٢٢) ، ولعلها ترقى الى عهد سقاية الشيخ عبدالكريم الجيلي المتقدمة لتقارب الموضعين ، وكانت تقع في جامع الحاج فتحي ، في آخر الدرب المنسوب اليه .

ولقد استمرت هذه القناة بالعمل ، حتى استبدلت ، في مطلع القرن الحالي ، بانابيب معدنية دفنت تحت الارض ، ثم زالت سقاياتها تدريجياً ، او انقطع ماؤها ، بعد انتشار استخدام الانابيب الحديثة في تلك الناحية من بغداد .

(١١٨) مساجد بغداد ص ٥٦ .
(١١٩) نيل المراد في احوال العراق وبغداد (نشرنا بعض فصوله في مجلة الرسالة الاسلامية) العدد ١١٧-١١٨ (بغداد ١٩٧٨) ص ٤٧ .
(١٢٠) مسجد عامر قديم ، فيه قبر الشيخ عبدالكريم بن ابراهيم الجيلي (ت ٨٢٢ هـ) .
(١٢١) رقم باب ١٩٧ وبعد نقضه لبث سنين ساحة خالية ، الا من القبر ، ثم قامت الاوقاف ببناء مدرسة في ارضه ، تحولت الى مدرسة ثانوية للبنات ، وما يزال القبر قائماً .
(١٢٢) جامع قديم كان يطل على شارع الجمهورية ، ينسب الى أحد صلحاء الموصلين وقد انشأ سنة ١١٦٩ هـ / ١٧٥٥ م . وكنا قد شاهدناه وقرأنا ما عليه من كتابات اثرية قبل نحو عشر سنوات ، الا انه هدم وازيلت انقاضه ، ومنها تلك الكتابات ، وهو اليوم ساحة خالية .

٣ - السقايات العامة

سقاية حسب الله الشايندر (١٢٢)

اشار اليها اوليا جلبي في رحلته الى بغداد سنة ١٠٥٨ هـ / ١٦٧٤ م سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م ، وذكر ان مؤسسها حسب الله قصراً عدة بين قصور المدينة البارزة ، وحماماً عاماً ذكره في موضع آخر من رحلته (١٢٤) .

سقاية ابي بكر خواجه

اشار اليها اوليا جلبي ، وعد مؤسسها من اعيان بغداد في أيامه ، اي في تضاعيف القرن الحادي عشر للهجرة (١٧ م) (١٢٥) .

سقاية سمير موسى باشا

انشأها والي بغداد موسى باشا الملقب بـ « سمير » اي السمين (١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧ م - ١٠٥٨ هـ / ١٦٤٨ م) (١٢٦) و اشار اليها اوليا جلبي في رحلته (١٢٧) .

سقاية حسين باشا

اشار اليها اوليا جلبي في رحلته ، وامل منشؤها والي بغداد حسين باشا (١٠٦٠ - ١٠٦١ هـ / ١٦٥٠ م) .

سقاية مراد باشا

انشأها والي بغداد مراد باشا (٩٧٧ - ٩٧٨ هـ / ١٥٧٠ - ١٥٧١ م) عند جامع المعروف بالمرادية ، في محلة الميدان ، قبالة قلعة بغداد (وزارة الدفاع حالياً) . اشار اليها اوليا جلبي في رحلته .

سقاية حيدر جلبي الشايندر

انشأها حيدر جلبي شايندر التجار في بغداد

(١٢٢) الشايندر تخفيف لـ (شاه بندر) شاه ، ملك بندر ميناء ، او فرسة (او مدينة تجارية) وفي الاصطلاح : الشاهيندر ، هو كبير تجار المدينة ورئيس طائفتهم . وشيخ بندر قريبة من شاهيندر بالمعنى والمبنى ، وبخاصة ان الاتراك يلقون الماء هاء ، وقد اوردها على هذا الشكل مرتضى نظمى زاده : كلشن خلفا ص ٢٥١ .

(١٢٤) اوليا جلبي سياحته سي ١٠/٤ و ٢١ .

(١٢٥) المصدر نفسه ١٢٠/٤ .

(١٢٦) كلشن خلفا ٢٤٢ وتاريخ نعيما (استانبول ١٢٨٠) ٢٠/٤ والآخر الوحيد الذي ما يزال قائما من آثار هذا الوالي ، لوحة رخام مثبتة على المرقف المنسوب لابن الجوزي في محلة السنك ، قرب بئر سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني .

(١٢٧) اخباره في كلشن خلفا ص ٢٥٢ .

في القرن الحادي عشر للهجرة ، وكان من اعيان بغداد وسرايتها (١٢٨) ، وهو صاحب الحمام الشهير باسم « حمام حيدر » في شارع انهر ، اشار الى ذلك اوليا جلبي في رحلته ، وذكر ان له قصراً ايضاً .

سقاية آل مدلج

انشأها الشيخ مدلج الصغير بن الشيخ ظاهر ابن الشيخ احمد الرحيبي ، مفتي بغداد ، والمدرس في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني (توفي سنة ١٠٨١ هـ / ١٦٧٠ م) والحقها بمسجد ابتناه باتصال الشارع الذي يمر على مرقف الخلاني ، قرب زاوية انبيدروسي ، في محلة الشيخ عز الدين الجديداي (قسم من محلة السنك فيما بعد) .

وقد تمهد آل مدلج هذه السقاية والمسجد بالعناية المستمرة ، ففي سنة ١١٨٤ هـ / ١٧٧٠ م حبس الشيخ عبدالقادر مدلج عليهما الدار العائدة له والنتلة بجامع النعماني ، مقابل مسجد العلامة محمد بن عبدالرحمن الرحيبي مفتي الشافعية ببغداد ، بموجب الوقفية المؤرخة في السنة نفسها .

وفي سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م وقفت السيدة عائشة خاتون بنت الشيخ عبدالقادر مدلج بستان في قصبة الكاظمية على مصالح المسجد والسقاية بموجب الوقفية المؤرخة في ٢٧ ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢٩) .

سقاية ابي سيفين

شيدتها والي بغداد حسين باشا السلاحدار (١٠٨٣ - ١٠٨٥ هـ / ١٦٧٢ - ١٦٧٤ م) عند المرقف والمجد المنسوين الى « ابي سيفين » (١٣٠) الواقعين في محلة الطاطران ، وهي آخر المحلات الممورة من بغداد الشرقية في العصر العثماني . وقد وردت الاشارة اليها في وقفية حسين باشا المذكور ، المؤرخة في سنة ١٠٨٦ هـ / ١٦٧٥ م (١٣١) .

(١٢٨) اوليا جلبي سياحته سي ٢١/٤ .

(١٢٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٣٠) ورد اسمه في قائمة اولياء بغداد (مخطوط كتب في القرن الحادي عشر للهجرة) على النحو الآتي « الشيخ محمد ابو سيفين في محلة الطاطران » وذكر عباس بن رجب البغدادي انه أحد « المجاهدين الذين اتوا مع المرحوم السلطان مراد خان الرابع » . نيل المراد في احوال العراق وبغداد ، (مخطوطة نشرنا بعض فصولها في مجلة الرسالة الإسلامية ، العدد ١١٧ - ١١٨ ، ١١٩ - ١٢٠ ، و ١٢١ - ١٢٢) (بغداد ١٩٧٨) .

(١٣١) مجموعة وفيات بغداد (مخطوط) .

سقاية مرقد الفزالي

شيدتها والي بغداد حسين باشا انسلاحدار ، عند القبر المنسوب الى الامام ابي حامد محمد بن محمد الفزالي (المتوفى في طوس سنة ٥٠٥هـ / ١١١١م) وقد اشير اليها في الوقفية المتقدمة (١٢٢) .

سقاية مرقد ام موسى الكاظم

شيدتها والي بغداد حسين باشا انسلاحدار ، في ناحية فاحلة خارج المنطقة المأهولة من بغداد الشرقية . وقد وردت الاشارة اليها في الوقفية المنسوبة اليها آنفا (١٢٣) .

سقاية جامع علي الفندي

انشأ هذا الجامع الحاج علي افندي بن مراد من اهالي القرم سنة ١١٢٣هـ / ١٧١١م ، وموقعه في محلة راس الكنيسة (جزء من محلة الميدان حاليا) . وانشأت سقايته السيدة امينة ، احدي المحسنات ببغداد في العصر العثماني . وكتبت على جدار السقاية الابيات الآتية (١٢٤) :

ذا سلسيل ماؤه سلسيل
راق ومنه طاب نفسا وارده
زلزاله عذب فرات سائغ
شرابه يروي العطاش بارده
عين الرضا قد سلسله صافيا
موصولة لشارب عوائده
خيرات امينة من ريبة
نانمة وانخير طاف شاهده
مرصعا بجوهر انمقد اني
تاريخه حوض صفت موارد

وقد زالت هذه السقاية عند هدم الجامع وشق شارع الجمهورية ، ثم قامت الاوقاف باعادة بنائه على صورة حديثة لا صلة لها بشكله القديم .

سقاية السيدة سكيئة العباسية

شيدتها السيدة سكيئة بنت محمد العباسية ، في المسجد الذي كانت أسرتهما تتولاه منذ سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م ، وموقعه في ارض « سراي بغداد » . وكان موضع السقاية منه مما يلي باب الجامع عن شرقيه في السوق ، ورتبت للسبيل مسبلا وسقاء ماء النهر الى حوض السبيل .

(١٢٢) المجموعة نفسها .

(١٢٣) وقد وقف عليه عقارات جمة ، فصلها في وظيفته المؤرخة ٨ جمادي الاولى سنة ١١٢٣هـ / ١٧٢٠م .

(١٢٤) محمود شكري الالوسي : مساجد بغداد ص ٧٠ (مخطوط)

وشرطت للاول يوميا خمس أفجات وللثاني ست أفجات ، وثبتت ذلك في نص الوقفية . وقد بقيت هذه السقاية قائمة حتى هدمها في ايام ولاية مدحت باشا (سنة ١٢٨٦هـ / ١٨٦٨م) وقيل ان كتابات اثرية كانت عليها حطمت في انشاء هدمها (١٢٥) .

سقاية كنج عثمان

كانت تقع عند قبر كنج عثمان ، احد المحاربين العثمانيين الذين اسهموا في فتح عدد من المدن العراقية ، قبل قدوم السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م (١٢٦) . وليس من المعروف تاريخ انشاء هذه السقاية عند قبره . ومن المرجح انها انشأت سنة ١١٢٣هـ / ١٧٢٠م عند قيام والي بغداد حسن باشا بتجديد قبة قبره ، ومصلاه وتزيينه بقطع القاشاني وفيه مايسجل المناسبة ويؤرخها .

وقد لبثت هذه السقاية قائمة حتى مطلع هذا القرن ، وقامت دائرة الاوقاف بتميرها ، وما حولها من آثار ، سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م ، ولكنها هدمت وسويت بالأرض سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٤م ، ولم يبق منها سوى القبر وحده في الطريق . وفي ٢٠ ربيع الاول سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م قام المحتلون الانكليز بإزالته وتسويته في الطريق ، ونقلت بقايا رفاة كنج عثمان الى مقبرة الشهداء خارج سور بغداد (١٢٧) .

سقاية جامع النعمانية

انشأها السيدة فاطمة خاتون بنت بكتاش بن ولي سنة ١١٨٥هـ / ١٧٧١م والحقنها بالمسجد الذي ابتنته في محلة الشط (جزء من محلة الميدان حاليا) ووقفت على المسجد والسقاية اوقافا كثيرة ، وجعلت التولية من بعدها لزوجها نعمان اغا بن الحاج ابراهيم اغا (ومنه اكتسب الجامع اسمه) ومن بعده لاولاده (١٢٨) . وكان موضع السقاية من المسجد قرب بابه ، يطل شباكها على الطريق (انظر الصورة رقم ٢) وفي سنة ١٣٢٢هـ / ١٩٠٢م اعاد من اسمه عبدالحميد تعمير السقاية . فكتبت عليها ستة أبيات دالية ، على ثلاثة اسطر ، تؤرخ ذلك . هي (١٢٩) .

(١٢٥) محمد صالح السهروردي في جريدة العراق البغدادية ، بتاريخ ١٥ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ .

(١٢٦) اخباره في تاريخ نعيم ١٩/٣ ومحمد نوبا : سجل عثمانى ٤١٨/٢ .

(١٢٧) رزول عيسى في مجلة لغة العرب ٢٢٢/١ وهباس المزوي تاريخ العراق بين احتلاين ١٨/٥ .

(١٢٨) مجموعة من ولفيات بغداد (مخطوط) .

(١٢٩) نقلتها من على شباكها مباشرة في صيف سنة ١٩٦٧م . وكانت قد فقدت معالمها تحت طبقات من الاسمنت في اثناء بعض اصلاحات الجامع ، فلم تعد لقرا . فتمت بحكها وازالة ماوشوها ، فظهرت جلية الى العيان .

هذا السبيل على تقى حوض أجر
حميد السجيا قد بناه جديدا
وهذب بالطبع السليم نمره
فأصبح عذبا للشفاء مفيدا
وراق به الماء الزلال كخلقه
من الطبع أن تجني الورود ورودا
له الطالع السعد المنور بالهدى
أبي الله إلا أن أن يعيش سعيدا
إلا أيها القلامي لك الشرب سائغ
هنيئا مريئا أن قضيت ورودا
تري الكوثر الصافي عليه مؤرخا
ورودك حوض السبيل حميدا

سقاية مسجد الست نفيسة

ترقى إلى القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد) . أنشأها بعض أهل الخير في مسجد الست نفيسة في الجانب الغربي من بغداد (١١٠) . ونالت أهمية خاصة نظرا لموقعها في آخر عمران هذا الجانب . وقربها من خط الترامواي الذي أنشأه مدحت باشا والي بغداد . ولبثت هذه السقاية موجودة حتى توسيع الشارع الذي تطل عليه (شارع موسى الكاظم) سنة ١٩٥٤ ، فنقضت ، مع قسم من المسجد ، وعند إعادة بناء المسجد لم تبني السقاية المذكورة (١٤١) .

سقاية زكريا الخضيري

أنشأها الحاج زكريا بن عبد الوهاب بن ملا خضر المعروف بالخضيري ، أحد وجهاء بغداد وتجارها في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للهجرة (١٨ و ١٩) الحقبا بمسجده الذي شيده في محلة التسابيل ، القربة من محلة

(١٤٠) ينسب إلى السيدة نفيسة القبطي من فطريات بغداد في القرن الثاني عشر للهجرة ويرى بعضهم أن مؤسسه هو محمد سعيد القبطي الأول ، عمره بخالص ماله ، في حين يرى آخرون أنه محمد سعيد المشهور بالحاج أسعدي التكريتي . ووصفه محمد الفندي الناصري التكريتي فقال « فيه غرفة نخانية فيها قبور عديدة ، منها قبر الرجل الصالح المشهور بالكرامات الشيخ موسى الجبوري (توفي سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣١م) وقبر الشيخ عبدالغفور أحد خلفاء الشيخ خالد النقشبندي (توفي سنة ١٢٧٢هـ / ١٨٥٥م) . . ولم ألق على تاريخ تأسيسه ، وفيه قبر بجانب البئر عن يمين غرفة القبرة للداخل فيها يقال أنه هو محمد سعيد الفندي الحاج أسعدي والله أعلم ، أما اليوم فالأوقاف قائمة بمصارفه وفيه خطيب وإمام ومؤذن وخادم ، تقام فيه الجمع والاعياد والجماعات » ذيل مساجد بغداد (مخطوط) .

(١٤١) الألوحي : مساجد بغداد ص ٥٦ (مخطوط) .

باب الشيوخ في شرقي بغداد ، وهو المعروف بمسجد التسابيل . وكان افتتاح السقاية سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٢م ، وقد كتبت على شباكها خمسة أبيات لامية هي :

أباح لوراد من الماء صافيا
وأوردهم عذبا فرانا وانهللا
وصيره وفقا على كل وارد
أراد وضوا أو تطلب منهلا
فحاز نواب كالذي صام دهره
وصلى دوام العمر طولا وهلا
تري زمر الورد تأتي صوابا
وترجع من ري من الماء عللا
لذلك أضحوا قائلين وارخوا
سقى زكريا ليوم يبعث سلسلا
١٢٢٨

وعند وفاة الواقف سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٧م ، دفن في مسجده ، قرب السقاية المذكورة .

وعلى الرغم من جسامه الأوقاف التي حبسها الواقف (١٤٢) ، أهمل مسجده وترك . وأفرزت مديرية الأوقاف محل السقاية واقتطعت قطعة من ساحة الجامع ، فأدخلتها ضمن أرض السقاية ، ودفعنا إلى وزارة المعارف يومذاك بالإجارة الطويلة فأنشأت عليها الأخيرة مدرسة ابتدائية تسمى بمدرسة الدسابل ، فكان هذا آخر العهد بالسقاية .

سقاية خضر بك

أنشأها خضر بك بن عبدالله جليبي بن أمير الحاج محمد ياسين جليبي ، أحد أمراء الحلة في القرن الثاني عشر (١٤٣) ، في جامع الذي شيده في محلة أمام طه من شرقي بغداد سنة ١٢٠٠هـ / ١٧٨٥م ، وخصص لها شيئا من الأوقاف ، وشرط أن يشتري الماء من شاطئ دجلة ب (١٢٠) آقجة يوميا . وخصص رواتب ثابتة للعاملين فيها وفي سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م وقفت السيدة رحمة خاتون بنت عبدالكريم جليبي بن محمد ياسين جليبي ، من أسرة الواقف الأول ، عددا من البساتين على مصالح الجامع وسقايته (١٤٤) .

(١٤٢) الوقيتان المؤرخان ٢٥ ذي الحجة ١٢١١هـ / ١٧ شعبان ١٢١٧ الصادرتان من المحكمة الشرعية ببغداد .

(١٤٣) توفي سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م وهو من الأسرة التي عرفت فيما بعد بأل عبدالجيل وحكمت الحلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة .

(١٤٤) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

بيد أن الخراب لم يلبث أن استولى على هذه المنشآت الخيرية حيناً من الدهر ، وعند قيام المتولي بتعمير الجامع وتجديده ، أهملت السقاية فانقطعت أخبارها منذ ذلك الحين (١٤٥) .

سقاية اسماعيل الشطي

انشأها الحاج اسماعيل جلبي بن عبدالرحمن جلبي الشطي البغدادي من التجار البارزين ببغداد في القرن الثالث عشر للهجرة (١٤٦) ، سنة ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م وكان موقعها قرب جامع القزازة في محلة الفاهرة من شرقي بغداد (١٤٧) .

سقاية عادلة خاتون

انشأتها السيدة عادلة خاتون بنت والي بغداد أحمد باشا (توفيت سنة ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م) سنة ١١٦٠ هـ / ١٧٤٧ م ، في مجدها المعروف بجامع العادلية الصغير (١٤٨) على طريق الجسر القديم : جسر الشهداء حالياً (١٤٩) . وكان على باب المسجد نوحة من الرخام عليها ستة أبيات دالية فيها إشارة إلى السقاية ، وتاريخها ، منها :

فلما زها بنبان باب دخوله

وجلت ماء الظمان من الصدى

هناك اقتباسيانه (كذا) الذكر أرخوا

لرب السماء الهادي أدخلوا الباب سجدا

١١٦٠

سقاية جامع السراي

لا يعلم منشؤها ، وكانت تقع في جامع السراي (١٥٠) ، ويظل شباكها على الطريق المؤدية إلى ساحة مديرية الشرطة . أشار إليها عباس بن

(١٤٥) يقع الجامع اليوم قرباً من شارع الجمهورية ، مجاوراً لمركز شرطة الهدية .

(١٤٦) ولد سنة ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م ولاعلم تاريخ وفاته .

(١٤٧) تقص هذا الجامع وادخلت أرضه في شارع الجمهورية عند فتحه .

(١٤٨) ويعرف باسم جامع التنكجية نسبة إلى (العقد) الذي يقع فيه .

(١٤٩) تقص هذا الجامع وادخلت أرضه في شارع المأمون ، وشيدت الأوقاف جامعا كبيرا باسمه على يسار الداهب إلى الأعظمية .

(١٥٠) ويسمى جامع جديد حسن باشا، وكان يسمى قديماً بالجامع السليمان نسبة إلى السلطان سليمان القانوني الذي عمره سنة ٩٤١ هـ / ١٥٢٤ م ثم جدد والي بغداد الوزير إبراهيم باشا سنة ١٠٩٤ هـ / ١٦٨٢ م وأعاد بناءه ووسعه والي بغداد حسن باشا (المتوفى سنة ١١٢٥ هـ / ١٧٢٢ م) ولبت جامعا خاصا بالولاية والوزراء طيلة العصر العثماني .

رجب البغدادي سنة ١٢٣٣ هـ / ١٩١٤ م (١٥١) . وبقي حوض السقاية موجوداً في موضعه ، وهو من جسر الحلان المنقور ، المتوفر في نواحي الموصل ، وله ثلاث فتحات لصب الماء منه ، وعند تعمير الجامع مؤخراً أزيل هذا الحوض الأثري وكسر فلم يبق للسقاية أي أثر .

سقاية ناي خاتون

انشأتها السيدة ناي خاتون بنت عبدالله ، زوج والي بغداد سليمان باشا الكبير (١١٩٤) - ١٢١٧ هـ / ١٧٨٠ - ١٨٠٢ م) ووالدة والي بغداد سميد باشا (١٢٢٨ - ١٢٣٢ هـ / ١٨١٣ - ١٨١٦ م) باتصال مدرستها التي شيدتها في السوق الجديد من « الميدان » بالجانب الشرقي من بغداد سنة ١٢٣٦ هـ / ١٨٢٠ م ووقفت عليها ، وعلى مدرستها ، عقارات عديدة ، انبتتها في وقفيتها المؤرخة في ٢٨ رجب ١٢٢٧ هـ / ١٨٢١ م (١٥٢) .

سقاية السيف

انشأها والي بغداد داود باشا (١٢٣٢) - ١٢٤٧ هـ / ١٨١٦ - ١٨٢١ م) عند جامع السيف (١٥٣) ، حين قام بتعميره تعميراً شاملاً في السنوات ١٢٣٦ - ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٠ - ١٨٢٤ م « ليستقي منها الناس ويشرب من مائها أبناء السبيل » (١٥٥) وقد امتدحها الشيخ محمد صالح النيمي بابيات بائية كتبت على جدرانها ، هي :

(١٥١) مجلة الرسالة الإسلامية العدد ١٢١ - ١٢٢ (بغداد ١٩٧٨) ص ٨٦ .

(١٥٢) شاركت هذه السيدة في الحكم وأسهمت في توجيه سياسة زوجها وولدها ، وبعد مقتل الأخير ، اعتكفت عن الناس ، وتركته الحياة العامة ، ثم شرعت بحملة أعمال خيرية نافعة منها هذه السقاية . انظر : سليمان فاتح : مرآة الزوراء في أخبار الوزراء (المسمى تاريخ بغداد) ترجمة موسى نورس ص ٥١ وتاريخ الممالك الكولة منذ في بغداد ، ترجمة نجيب الأرمنازي ص ٤٩ .

(١٥٣) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٥٤) مسجد قديم كان على شاطئ دجلة القوي ، قريباً من جسر الشهداء الحالي ، كنا قد رجحنا أن أصله في العصر العباسي دار القرآن البشرية المشيدة سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م وعمر في عهد السلطان سليم الثالث سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٨ م ومن المؤسف أن ينقص هذا الأثر اللهم وبحكم ما عليه من كتابات أثرية ، ليمسي ساحة لوقوف السيارات ! عماد عبدالسلام يؤلف : دار القرآن البشرية وهل هي مسجد السيف القديم . جريدة البلد البغدادية بتاريخ ١١-١١-١٩٦٦ .

(١٥٥) ديوان محمد صالح النيمي .

أرى كل مكرمة في الوري
السي غير داود لا تنسب
حي انكرخ من بركة سيها
إذا نضب البحر لا ينضب
وما يتنى الناس من صيب
وناسل راحتته صيب
إذا ذقت من مائها فاستمن
بآخر ري به يمدب
وارخ ونساد بواردها
هنيئاً مريئاً لمن يشرب
واندثرت هذه السقاية عند تقض الجامع
نفسه سنة ١٩٦٦م ، فلا اثر لها اليوم .

سقاية جامع الأزبك

انشأ هذه السقاية او جددها والي بغداد
داود باشا سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٨م ، وكانت تطل
بشباكها من جامع الأزبك ، على الطريق العام ، فهي
قريبة من باب المعظم ، الى يمين الداخل منه الى
بغداد . وبقيت موجودة حتى الربع الاول من هذا
القرن (١٩٥١) .

سقاية جامع الحيدرخانة

انشأها والي بغداد داود باشا سنة ١٢٤٢هـ/
١٨٢٩م في جامع الحيدرخانة الذي عمره ، او اتم
تعميره في تلك السنة (١٥٧) . وكان لها شباك مطل
على سوق الحيدرخانة ينهل منه المارون (١٥٨) .
وشرط مؤسسها في وقفيتها « لمن تناول الماء
للشاربين من الماء المسبل للشرب خمسون قرشاً ..
والسقاء الذي يأتي بماء الجامع في كل يوم عشرة
قرب ، ثلثمائة وستون قرشاً » (١٥٩) .

سقاية خاتون بنت عبدالله

شيدتها السيدة خاتون بنت عبدالله وزوجها
احمد آغا بن اسماعيل آغا سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م ،
وكانت تقع في محلة الميدان ، ببغداد اشرقية ،

(١٥٦) انظر عن هذا الجامع : عباس الغزاوي : تاريخ
العراق بين احلالين ٢٥/٥ وديوان محمد صالح التميمي
ص ٧٩ .
(١٥٧) اسامة التقيستدي : جامع الحيدرخانة ، عمارته
وموضعه . مجلة سومر مجلد ٢٩ جزء ٢-١ (بغداد ١٩٧٢)
ص ٢٤٥ .

(١٥٨) زال هذا السوق ، وكان يقع في ارض شارع الرشيد ،
ويتصل بالواجهة الحالية للجامع بمقود .
(١٥٩) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

مطلة بشباكها على الشارع العام (١١٠) . ووقفت
عليها اربعة دكاكين في المحلة نفسها ، وشرطت ان
تصرف الفلة على نوازم السقاية والفضلة تكون
لدرستها ، وبعد انقراضها تصرف جميع الفلة على
السقاية وتعميرها . وسجلت هذه الوقفية في ٧
صفر من السنة نفسها (١١١) .

سقاية عاتكة خاتون

انشأها السيدة عاتكة خاتون بنت السيد
عني القادري الكيلاني تقيب الاشراف (توفيت سنة
١٢٤٥هـ/١٨٢٩م) في مدرستها التي شيدتها قرب
جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد سنة
١٢٢٦هـ/١٨١١م وعرفت بالمدرسة الخاتونية (١١٢) .
وقد وقفت على مدرستها هذه وسقايتها اوقافاً
جمعة ، وشرطت للسقاية كل يوم مبلغاً قدره (٢٤)
اقجة (١١٣) . ولكن خراباً اصاب جميع هذه
المنشآت نتيجة الطاعون الجارف والفرق الذي الم
بغداد سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م ، فاندرست ومحي
اثرها (١١٤) .

سقاية نازدة خاتون

انشأها السيدة نازدة خاتون بنت مصطفى
آغا (توفيت سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م) زوج علي
باشا والي بغداد (١٢١٧ - ١٢٢٢هـ/١٨٠٢ -
١٨٠٧م) وانتحتها سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م (١١٥) .
وكانت تقع في الجامع الذي شيدته في محلة
الحيدرخانة ، قريباً من شارع الرشيد ، يطل
شباكها على الطريق ، وخصصت لها منشأتها من
الاوقاف العديدة التي وقفتها مبلغاً قدره (١٨٠٠)
قرشاً رائجاً ، للاتفاق على صيانتها ، ومدّها بالماء
على الدوام (١١٦) .

وقد تعطلت هذه السقاية منذ ان لحق
الخراب الجامع نفسه ، في اوائل القرن
الحالي (١١٧) .

(١١٠) في نص الوقفية انها تقع بين الشارع العام وملك عبدالكريم
النفطجي .

(١١١) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١١٢) عماد عبدالسلام رؤوف : الآثار الخطية في المكتبة القادرية
(بغداد ١٩٧٤) ٢٩/١ .

(١١٣) وافية المدرسة الخاتونية مؤرخة في ٢٠ جمادى الاولى
سنة ١٢٢٥هـ . المحكمة الشرعية ، سجل ١١ ص ٢٠٧ .

(١١٤) ابراهيم السروبي : البغداديون ، اخبارهم ومجالسهم
(بغداد ١٩٥٨) ص ٢٢١ .

(١١٥) البغداديون ص ٢٢٠ .

(١١٦) مجموعة من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١١٧) اعدات الاوقاف بناءه ليكون مدرسة دينية باسم «مدرسة
نازدة خاتون» .

سقاية دكان سناوه

لا يعلم مؤسسها ، وكانت تقع في محلة « دكان سناوه » بين محلة الحيدر خانة جنوباً ، والقراغول شرقاً والصابونجية شمالاً والميدان غرباً .

ذكرها فينكس جونز سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م ، اذ اشار الى ان عقداً من عقود هذه المحلة يسمى « عقد السيلخانه » (١١٨) . ولا ندري انى اي عهد بقيت .

سقاية صفة الله الحيدري

انشاها السيد صفة الله بن ابراهيم الحيدري البغدادي ، مفتي الشافعية ببغداد (توفي سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م) (١١٩) سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م وكان موقعها قرب جامع الخلفاء ، جامع القصر قديماً (ببغداد الشرقية . وكتب على جدارها ، بالرخام ، خمسة ابيات حاثية ، تضمنت اسم النبي . وتاريخ انشائها . وكان السيد محمود شكري الالوسي ا توفي سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م ، قد سجل هذه الابيات ، قبل تقضها ، وهي (١٢٠) :

ذي بركة يرتوي منها بضحاح
كادت تؤلف ابدانا بارواح
فصفحة الله اجري ماءها غدقا
للواردين بنبريد واصلاح
يرجو اثواب من الرب الكريم بها
يوم الحساب وان يستقى باقداح
بشراه قد ربحت فيها تجارتك
وفاز في خير محصول وارباح
ان جئت نمان قلب يا مؤرخها
اشرب هنيا مربيا بارد الراح

وعند هدم الجامع سنة ١٩٥٨ لشق شارع الجمهورية . زانت هذه السقاية وفقدت الرخامة المذكورة . وبقيت كذلك ، حتى اسمدني الحظ بالمشور عليها ، واذا بها ما تزال في حالة جيدة ، يبلغ طولها ٣٦ سم وعرضها ٢٥ سم وثخنها ٥ سم . وقرات عليها ، بعد حكها وتنظيفها ، الابيات الخمسة المذكورة ، وهي مكتوبة بخط نسخ البديع ، ومنقوشة باتقان وعناية .

(١١٨) Jones, F., Op. Cit., P. 314.

(١١٩) ترجم له ابنه ابراهيم فصيح في كتابه « عنوان الجدلبيان احوال بغداد والبصرة ونجد » (بغداد ١٩٦١) ص ١٢٠-١٢١

(١٢٠) مساجد بغداد ص ٦٧ (مخطوط) .

ومما يلفت النظر ان الالوسي سجل تاريخ شطر الشمر في الرخامة (١٢٦٠) رغم ان المكتسوب على الرخامة نفسها (بالارقام اضافة الى مجموع الحروف) هو ١٢٦٧ وعليه جرى الاستاذ يعقوب سر كيس في بحثه عن « منارة جامع سوق الغزل » (١٢١) والاستاذ عباس الغزاوي في مقاله « جامع الخلفاء » ، لعدم اطلاعهما على النص الوارد فيها عياناً (انظر الصورة رقم ٢) .

سقاية خلف اغا

انشاها خلف اغا ، قائم مقام الحلة (١٢٢) في عهد والي بغداد تائق باشا الكبير سنة ١٢٧٧هـ/١٨٥٣م قرب حديقة له ظاهر سور الكرخ ، في الجانب الغربي من بغداد وكان « يبرد فيها الماء العذب لشرب ابناء السبيل » . وكتب على جدار السقاية قصيدة بائية ، فيها تاريخ انشائها ، وهي (١٢٣) :

هذا سبيل لا عيب فيه قد
راق لابناء السبيل مشربا
كوثر ماء في رياض جنة
يجنى جنى الجود منها رجبا
رق لظمان الحشا سلاله
رقى سلال زلال الصها
مدى عليه للقري قصر علا
طال الزمان في علاه الشها
اكرم به من « خلف » سلبه
اوقفه لله منه حبا
وداح كل وارد وصادر
يشكره شكر الرياض السحبا
وكم وري قلباً به لحاسد
وكم به روى لصاد قلبا
ومن تكن عقباه مثل هذه
فلا يخف يوم المعاد العقبا
يا حبذا سب سبيل ورده
فارخت شراباً عذبا
١٢٧٧

سقاية نائلة خاتون

انشاها السيدة نائلة خاتون بنت عبدالرحيم سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ظاهر اسوار الجانب

(١٢١) مباحث عراقية (بغداد ١٩٤٨) ٢٤٦/١ وفيه ما يوافق

السنة (١٢٦٠هـ) حسب التاريخ الميلادي ، وهو (١٨٤٥م)

(١٢٢) يوسف كركوش : تاريخ الحلة (النجف ١٩٦٥) ١٢٣/١ .

(١٢٣) مساجد بغداد ١٢١ (مخطوط) .

الشرقي من بغداد ، على الطريق المؤدية الى قصبة الاعظمية ، ضمن البستان المعروف ببستان الوقف ، قريبا من سقاية الحجية (١٧٤) . ووقفت عليها اوقافا دارة ، وشرطت ان يصرف عليها من غلتها ، وما يتبقى يصرف على المدرسة التي انشأتها قبالة جامع الحيدرخانة ببغداد (١٧٥) . كما جعلت هذه السقاية مدفنا لزوجها مراد افندي المتوفى سنة انشائها ، ثم مدفنا لها بعد وفاتها سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م . وقد بقيت السقاية قائمة للنفع العام حتى ازيلتها عند توسعة الشارع سنة ١٩٣٥ وتقل رفاة دفنيتها الى مقبرة الامام الاعظم . ولما بنى السيد عبدالحميد الدهتان جامعهم على قطعة ارض تعود الى هذه الواقفة ، بنى فيه سقاية ، وهي موجودة الى اليوم (١٧٦) .

سقاية سلمان القادري

انشأها السيد سلمان بن علي بن سلمان القادري الكيلاني ، تقيب الاشراف ببغداد (توفي ١٢١٥هـ / ١٨٩٧م) سنة ١٢٠٠هـ / ١٨٨٢م . وتقع باتصال المسجد الذي شيده في السنة نفسها ، والواقع في محلة السنك من شرقي بغداد (١٧٧) . وقد وقف على مصالح سقايته ومسجده اوقافا جساما ، فصلها في نص وقفيته ، وشرط « ان يكون الماء جاريا بلا انقطاع شتاء وصيفا يستقى كل من اراد من ابناء السبل والمترددین ، ومن اراد حمل الماء بالاولائي المخصوصة الى بيته من الحوض المد لذلك فلا يسوغ لاحد منعه ، ومن منعه وقطعه فعليه ما يستحق من الله تعالى ! » وشرط ان يعطى لمن يقوم بخدمة السقاية ٧٥ قرشا صافا كل شهر ، اضافة الى مخصصات مالية عديدة لتغطية مصارف السقاية الاخرى (١٧٨) . ولبيت فوق شباكها لوحة رخامية نقشت عليها خمسة ابيات بائية ، فيها تاريخ انشائها . وهي :

سيد القوم وفخر النجبا
من له فوق الثريا نسب
رضى الله على افعاله
وبه يعلو العلى والرتب

(١٧٦) سيأتي الكلام عليها في هذا البحث .

(١٧٥) الوقفيات المؤرخات ٩ ربيع الاول ١٢٩١ و ١٦ ذى الحجة ١٢٩١ و ٦ ربيع الاول ١٢٩٢ .

(١٧٦) البغداديون ٣٠٦ وهاشم الاعظمي : تاريخ جامع الامام الاعظم (بغداد ١٩٦٥) ٢ / ١٩٠ .

(١٧٧) محمد صالح السهروردي : لب الالباب ٢ / ١٢١ .

(١٧٨) وفية السيد سلمان القادري ، مؤرخة في ١٧ رمضان ١٢١٢هـ . الحكمة الشرعية السجل ٤٤ .

بالنسي بنياه اجرت موردا
جلة الوارد منه تشرب
فاذا قنت لعمري دجلة
ماؤها عذب فرات طيب
قلت بانواحد لطف ارحوا
سلبيل القادري اعذب
١٢٠٠

وما تزال هذه السقاية قائمة ، وعليها ما نقناه من ابيات ، الا ان الماء انقطع عنها منذ عهد بعيد (الصورة ٤) .

سقاية عبدالرزاق الخصري

انشأها الحاج عبدالرزاق جلي بن ياسين بن عمر الخصري سنة ١٢٠٢هـ / ١٨٨٥م عند مسجد الشيخ عبدالعزيز الانصاري في محلة الشيخ سراج الدين من شرقي بغداد ، وذلك بمناسبة تعميره للمسجد المذكور في تلك السنة . ووقف عليها بعض الأوقاف ضمانا لدوامها (١٧٩) .

سقاية عطية خاتون

انشأتها السيدة عطية خاتون بنت محمود اغا بن عبدالله سنة ١٢١٠هـ / ١٨٩٢م باتصال باب جامع العاقولي (١٨٠) في شرقي بغداد ، ووقفت عليها دارا في محلة جديد حسن باشا ، وشرطت صرف غلتها على اصلاح السقاية وترميمها . واوكلت امر توليتها الى اسماعيل افندي بن الحاج سليم بن أمين بن شعبان ، وجعلت النظارة عليها للعلامة السيد نعمان خير الدين الالوسي (توفي سنة ١٢١٧هـ / ١٨٩٩م) (١٨١) . ولم يبق للسقاية اليوم اثر ، وقد علمت ممن عاصرها انها زالت في الاربعينات من هذا القرن .

سقاية صالح بن محمد

انشأها الشيخ صالح بن محمد بن فتاح في محلة (فضوة عرب) التي هي جزء من محلة باب الشيخ ، ووقف على ادارة مصالحها دار سكناء وكانت تقع بقربها بموجب الوقفية المؤرخة في ٧ ذي القعدة سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م (١٨٢) .

(١٧٩) مجموعه من وفيات بغداد (مخطوط)

(١٨٠) جامع قديم كبير في محلة المافولية التي نسبت اليه ، كان في الاصل دارا للشيخ جمال الدين عبدالله بن محمد بن المافولي مدرس المستنصرية ، وبعد وفاته سنة ٧٢٨هـ / ١٢٢٧م تحول الى مسجد . وفيه فيه ظاهرا اليوم ، وجرى تعميره غير مرة آخرها سنة ١٢٢٠هـ / ١٩٠٢م .

(١٨١) مجموعه من وفيات بغداد (مخطوط) .

(١٨٢) المصدر نفسه .

سقاية جاسم الحجية

شيدها جاسم الحاج محمد خلف الحجية سنة ١٢١٨ هـ / ١٩٠٤ م في الحديقة (البقعة) المحاذية لبستان الربيع التي ورثها عن والده الحاج محمد الحجية متعهد أرزاق الجيش العثماني في بغداد في عهد مدحت باشا . على الطريق العام المؤدي الى جامع الامام الاعظم ، حيث كان المارة وعابرو السبيل يستريحون هناك ويتوضؤون ان كان وصولهم اليها في اوقات الصلاة ، حيث كان في الجهة المقابلة لدخلها مصلى واسع .

ولضمان تزويد السقاية بالماء ، فقد مد منشؤها اليها قناة من شاطئ دجلة ، يرفع اليها الماء بواسطة دولاب كان يسقى ايضاً بستان الربيع ، ويصب في حوض كبير ، مغطى داخله بالفسار ، موضوع داخل مبنى السقاية ، مما يلي شباكها مباشرة ، وفي هذا الحوض يتسرب الماء ، ويتعمده بالماء والتنظيف عامل خاص له مرتب شهري . وكانت ساحة السقاية ١٥٦ متراً مربعاً ، اضافة الى مصلى مقابلها ، وبئر لاستعماله عند انقطاع مياه القناة .

وكتبت فوق محل شرب المياه ثلاثة ابيات للعلامة عبدالوهاب النائب (توفي ١٢٤٥ هـ / ١٩٢٦ م) فيها تاريخ انشائها . ومنها (١٨٢) :

جاسم قد بنى واحسن صنعا

لابيه محمد خير منهل

وبعد انتهاء الحاجة الى هذا المشروع الخيري ، بوصول العمران بين الأعظمية وبغداد ، واستعمال وسائل النقل الآلية ، هدم جاسم الحجية سقايته ، الاً جداراً واحداً كان يشتمل على المدخل ومحل شرب الماء وفوقه الرخامة المذكورة ، وبقيت هذه الآثار حتى باعها الورثة سنة ١٩٥٩ م ، فهدم من اشترائها محل الشرب وادخله في بيته .

سقاية كامل الزند

انشاها كامل بك بن الحاج امين الزند سنة ١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م ، عند المسجد الذي شيده على قسم من دار ابيه مفتي بغداد ، في محلة البارودية ، من محلات شرقي بغداد . وكتب فوق باب المسجد خمسة ابيات تشتمل على تاريخ العمارة ، وفيها اشارة الى السقاية المذكورة ، هي (١٨٤) :

(١٨٢) عزيز جاسم الحجية : بغداديات (بغداد ١٩٦٧) ١٦٩ / ١ - ١٧١ .

(١٨٤) مساجد بغداد ٩٧ (مخطوط) .

ذا جامع فيه رياض التقى
زهرة فليعمل العامل
مكتبة فيه لاهل الهدى
ينال من جواهرها السائل
وماؤه العذب غداً كثرأ
فليس يحكيه الحيا الهامل
شيده محتسباً موقناً
سليلاً صدر العلماء الكامل
على التقى مذ تم أرخته
قد ناز هذا المسجد الكامل
١٢٢١

وقد هدم هذا المسجد في تموز سنة ١٩٦٤ فضاع اثر سقايته .

سقاية سالم الحيدري

انشاها السيد سالم الحيدري سنة ١٢٢٠ هـ / ١٩١٢ م في محلة النصية ، على طريق الأعظمية . اشترى أرضها لتكون مقبرة له ، وكانت قبل ذلك قسماً من بستان (يقال بكر) (١٨٥) . ثم شيد عليها مسجداً صغيراً ، دفن فيه قريبه السيد صالح الحيدري المتوفى في السنة المذكورة ، والحق به سقاية ذات طابقين ، وجعل فوق شباكها لوحة رخام كتب عليها بخط بارز جميل سطرين ، يؤلفان العبارة الآتية « قد انشأت هذه السبيل خانة الى المرحوم الشهيد حيدري زادة صالح أفندي سنة ١٢٢٠ » . تلي ذلك قصيدة عينية من عشرة ابيات ، كتبت على سنة أسطر ، وهي في رثاء السيد صالح الحيدري .

وما تزال بناية هذه السقاية قائمة ، وهي تقع بلسق دائرة البريد في الأعظمية .

سقاية هيب خاتون

انشأتها السيدة الحاجة هيب خاتون سنة ١٢٣٥ هـ / ١٩١٦ في محلة النصية من محلات قصبة الأعظمية . عند المدرسة التي شيدها هناك . ووقفت عليها أوقافاً بموجب الوقفية المؤرخة في ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٣٦ هـ / ١٩١٨ م (١٨٦) .

سقاية مسجد آل جميل

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع عند مسجد آل جميل في محلة قنبر علي شرقي بغداد ، وفي سنة ١٣١٥ هـ / ١٩٠١ م وقفت السيدة صفية

(١٨٥) تاريخ جامع الامام الاعظم ١٩٢ / ٢ .

(١٨٦) البغداديون ٢٤٤ وتاريخ جامع الامام الاعظم ٥٨ / ٢ .

خاتون بنت محمد افندي بن السيد عبدالغني آل جميل مفتي بغداد بعض الدكاكين على هذا المسجد ، وعلى السقاية ، وشرطت ان يعطى (٣٥٠) قرشاً لتصرف على لوازم السقاية (١٨٧) .

سقاية حاجبة خاتون

لا يعلم تاريخ انشائها ، وكانت تقع في مسجد حاجبة خاتون ، في محلة الامام طه بشرقي بغداد ، ذكرها الشيخ محمد بهجة الاثري سنة ١٩٢٥م (١٨٨) ونقضت ، والمسجد ، عند توسعة شارع الرشيد .

سقاية الملا حمادي

انشأها شاعر الملا حمادي سنة ١٢٢٥هـ / ١٩٠٧م في المسجد الذي جدد عمارته قرب جامع السيد سلطان علي في شرقي بغداد . وأشار اليها عباس بن رجب البغدادي سنة ١٢٣٥هـ / ١٩١٧م (١٨٩) .

سقاية سيد محمد

أشار اليها السيد رشيد الخوجة في خريطته لبغداد (١٩٠) . وموقعها - كما يظهر فيها - خارج باب المعظم ، في ارض المدرسة الغربية المتوسطة اليوم ، وفيها قبر صاحبها .

سقاية الشيخ معروف الكرخي

لا يعلم تاريخ انشائها ، وموقعها عند جامع الشيخ معروف الكرخي ومقبرته في الجانب الغربي من بغداد (١٩١) .

خاتمة

شهدت بغداد ، في اواخر العصر العثماني ، محاولات متفرقة لتحسين الوسائل القديمة المتبعة في رفع مياه الشرب ونقلها الى محلاتها . ولقد انصبت تلك المحاولات ، بالدرجة الاولى ، على استبدال الآلات القديمة التي تعمل بقوة الحيوانات بالآلات ذاتية الحركة ، اكثر حداثة ، دون ان تستهدف انشاء نظام جديد لتوزيع مياه الشرب

(١٨٧) البغداديون ص ٢٦٠ .

(١٨٨) مساجد بغداد والارها ، الفوات ، ص ١٤٠ .

(١٨٩) مجلة الرسالة الاسلامية ، العدد ١١٧ - ١١٨ (بغداد ١٩٧٨)

(١٩٠) خارطة بغداد كما مسحها السيد رشيد الطوجة

عام ١٩٠٨ ص ١٦ .

عام ١٩٠٨ م (اطلس بغداد ص ١٦) .

(١٩١) محمد رؤوف الشيشلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة

ومابعد (البصرة ١٩٧٢) ص ٨٢ .

على المحلات ، او ادخال فكرة تنقيتها من شوائبها او تعقيمها ، فلم تتجاوز تلك المشاريع ، في اغلب الاحيان ، رفع القنوات الاجرنية القديمة ، واستبدالها بانابيب معدنية لتعمل على الاسلوب القديم نفسه ، ولتزود سقايات المدينة العامة بالطريقة المتبعة سابقاً .

ولعل اول محاولة من هذا النوع ، هي التي جرت في آخر عهد الولاية المماليك (١٩٣) ، ففي سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م عرض مهندس ايراني يدعى (ميرزا عبدالطلب) كان قد قدم بغداد آنذاك على والي بغداد داود باشا (١٢٣٢ - ١٢٤٧هـ / ١٨١٦ - ١٨٢١م) ان يقوم بصنع مضخة (طلمبة) تسحب الماء الى أي مكان مرتفع على ان تتعهد الحكومة بدفع ما يلزم من النفقات . فوافق داود باشا ، بعد ان درس المشروع بعناية ، وخصص له عدداً من الحدادين والعمال للعمل معه ، وسهل له كل الوسائل التي تعينه على انجازه المشروع ، فتم صنع المضخة في خلال مدة قصيرة ، ونصبت على دجلة ، واخذت بضخ الماء بكثرة هائلة ، فكانت موضع إعجاب الناس على اختلاف طبقاتهم (١٩٣) . وسميت بـ (جرخ يوسف) اي دولا بـ يوسف ، نسبة الى ابن لؤلؤ الذي يدعى طورسون يوسف .

ورغم ان داود باشا طلب من المهندس المذكور الاقامة ببغداد « ليتعلم سائر الناس منه » واجرى له راتباً (١٩٤) ، فاننا لا نجد في اخبار السنين التالية على هذا الحادث ما يدل على انشاء مشاريع أخرى من النوع المذكور اذ بقيت الدواليب القديمة مستمرة في عملها في مد اهل بغداد بمياه الشرب حتى فترة متأخرة من القرن الثالث عشر للهجرة (التاسع عشر للميلاد) واغلب الظن ان خراباً لحق بمشروع داود باشا نفسه بعد سنوات قليلة من تأسيسه اذ خلت المصادر ، وبخاصة اخبار المشاريع التالية ، من ادنى اشارة اليه .

وفي عهد والي بغداد المصلح مدحت باشا (١٢٨٦ - ١٢٨٩هـ / ١٨٦٨ - ١٨٧٢م) بدأ التفكير جدياً بانشاء مشروع دائم لربط دور بغداد وسقاياتها العامة بانابيب ، وتضخ اليها المياه بواسطة مكائن حديثة تنصب في أماكن مختلفة من شاطئ دجلة . وتكون تحت ادارة بلدية بغداد

(١٩٢) دام حكمهم من ١١٦٢ الى ١٢٤٧هـ / ١٧٢٨ - ١٨٢١م .

(١٩٣) رسول حاوي الكركوكلي : دوحة الوزراء في تاريخ وقائع

الوزراء (ترجمة موسى كاظم نورس ، بيروت) ص ٢٩٤ .

(١٩٤) عباس المزوي : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦

(بغداد ١٩٥٤) ص ٢٦٨ .

المنشأة حديثاً ، وقد أوصى لهذا الغرض على خمسة مكائن من لندن ، قوة كل منها ١٢ حصاناً ، ووضعت واحدة منها في مشرعة (شريعة) الميدان على سبيل التجربة ، إلا أنه لا دليل على اتمام المشروع على ما وعدت به جريدة الزوراء الرسمية في حينه . وكانت هذه الجريدة قد نشرت في ٧ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) خبراً يبشر البغداديين بانتهاء مشكلة مياه الشرب في مدينتهم على النحو الآتي :

« لا يخفى أن سطح بلدة بغداد بحسب ارتفاعه مقدار ذراعين ثلاثة أعشارية عن سطح نهر الدجلة ، فلذلك لا يمكن دخول الماء إلى دار من الدور أصلاً ، والماء الذي تشربه الأهالي ينقل بواسطة سقاقي الحمر وسقاقي الظهر ، فالمشقة الحاصلة للخلق من هذه الجهة وعلى الخصوص لبعض المجزة من النساء ، فحوصلة البيان لا تسع إيضاح ذلك . بناء على هذا لأجل دفع احتياج أهالي مملكتنا من جهة الماء ، وأن الدين يرمون (يرومون) إدخال الماء إلى دورهم يعطى في بعض الأمكنة حياض فيها زميلات يأخذ بواسطتها الماء . كان قبل هذا قد أوصى على جلب خمسة ماكينات لأجل الماء من لונדרه ، وقوة كل منها في قوة اثني عشر حصان ، وأن تدخل تحت حساب دائرة البلدية . وبهذه الدفعة قد وردت تلك الماكينات ووضعت واحدة منها بحذاء مطبعتنا لأجل التركيب والتجربة . فهذه المادة ما عدا أنها تكون دافعة للضرورة العارضة للخلق من جهة تصل الماء ، فكذلك يكون الماء الجاري دائماً في كل دار ، وحيث أن هذه الفائدة هي موجبة لكسب معمورية البلدة درجة أخرى ، فالحق أنها لا يبقية بالشكر والامتنان ، وإنها أطف من الماء الزلال لدى الظمان » (١٩٥) .

وفي سنة ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م أمر والي بغداد حازم بك (١٣٢٥ - ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٧ - ١٩٠٨ م) بنصب ماكينة أخرى في مشرعة الميدان وأجرى الماء بالانابيب إلى داخل بغداد ، فكانت تمد بمياه الشرب محلات الميدان وبعض الحيدر خانة والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب ، وبلغ مجموع الدور التي يوزع عليها الماء ٣٦٠ داراً حسب (١٩١) . وفي سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ نصبت ماكينة مشابهة عند

(١٩٥) جريدة الزوراء نمرو ١٢٧ ، ٧ ربيع الأول ١٢٨٨ ،
(١٩٦) محمد رؤوف الشيكلي : مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها (البصرة ١٩٧٢) ٩٨/١ وما يذكر أن اجرة الماء الشهيرة لكل دار كانت تبلغ عشرة قروش صحيحة ، أي ما يعادل ١٠٠ فلس . عبدالكريم العلاف : بغداد القديمة (بغداد ١٩٦٠) ص ٧٥ .

دولاب الشيخ عبدالقادر الكيلاني فامست تزود سقايته بالماء (١٩٧) ، بيد أن إشراف البلدية بقي قاصراً على المشروع الحكومي الوحيد ، وهو المنشأة عند شريعة الميدان . وعند سقوط بغداد على يد المحتلين البريطانيين تولت سلطات الاحتلال إدارة المشروع ، ثم عهد به بعد تأسيس الحكومة العراقية إلى إدارة « البلدية » فبقي تحت إدارتها حتى إنشاء أول هيئة عامة لمياه الشرب في بغداد والعراق باسم « لجنة اسالة الماء لمدينة بغداد » سنة ١٩٢٤ . ورغم أن حالة الاسالة والتوزيع كانت في هذه الفترة بدائية للغاية (١٩٨) ، إلا أنها كانت بداية لأعمال عديدة نشطة ، ذات صفة علمية وتقنية حديثة (١٩٩) ، وبذلك ينتهي تاريخ مشاريع مياه الشرب القديمة ببغداد ، ليبدأ بعدها تاريخ مشاريع حديثة ، أخذت بأسباب التطور والتقدم .

(١٩٧) انظر مائة من هذه السقاية .

(١٩٨) كان طول الانابيب الموصلة لمياه الشرب في الأيام الأولى لتسليم المشروع سنة ١٩٢٤ ٢.٠٠٠ متر ، وكانت ميزانية المشروع تحوم أرقامها حول ما يقارب ١٧٠.٠٠٠ دينار أما عدد المشتركين فلم يزد على ٧.٠٠٠ مشترك . ولم تكن هناك عملية ترسيب أو تصفية ، وكانت الانابيب ترفع غالباً من أماكنها لتنظيف ما في داخلها من الاطيان والرواسب ، ولم تكن هناك مقاييس البتة ، وإنما تستولى الأجور بالتقدير .

(١٩٩) في سنة ١٩٢٥-١٩٢٦ ابتدا الاهتمام بالتصفية ، والحق بعد ذلك مركز الكراة بالمشروع ، وكان بمهمة وزارة الطيران وفي سنة ١٩٢٧ وضع منهج إنشاء مركز تصفية جديد لمنطقة الكرخ لضم اليه منطقة الكاظمية ، وقد صدر بالفعل سنة ١٩٢٩ قانون بتشكيل أعمال اللجنة على منطقة الكاظمية وكمل المشروع في أواسط ١٩٣٠ . وفي الوقت نفسه كانت أعمال التصفية قد بدأت بالتحسن ، واستعملت أحواض الترسيب وبدأ بتعقيم الماء بالكلورين ، وفي أواخر سنة ١٩٣٠ استقرضت اللجنة أول قرض من البنوك ، وفي سنة ١٩٣١ صدر قانون تأسيس لجنة اسالة الماء لمنطقة بغداد رقم ١٠٤ لسنة ١٩٣١ وأصبح للجنة شطمية حكومية ، وزيد عدد أعضائها ، وفي أواسط ١٩٣٤ تم لأول مرة تزويد جهتي الرصافة والكرخ الماء لمدة ٢٤ ساعة متصلة . وفي أيلول ١٩٣٥ افتتح مركز التصفية في الرصافة الذي اعتبر بداية لنسخ الماء النقي لجانب الرصافة وكانت مراكز المشروع في هذا التاريخ هي ثلاثة الرصافة والشالجية والكراة وفي أواخر ١٩٣٥ عمل قانون اللجنة بحيث أصبح مرجعها الأعلى وزارة الداخلية وفي أواسط ١٩٣٩ أدمج مشروع الاعظمية بأعمال اللجنة وأدخلت عليه تحسينات شاملة ومنح صاحب الامتياز تعويضاً عن ممتلكاته . وفي حزيران ، ١٩٥٢ أنشئ مركز نسخ وتصفية جديد إلى مراكز اللجنة هو مركز السبع وبمصدر القانون رقم ٥٤ لسنة ١٩٥٥ أصبح اسم المشروع (مصلحة) ثم زادت أعمال هذه المصلحة وتوسعت بتوسع مدينة بغداد نفسها في الستينات والسبعينات .

دليل

خارطة سقايات بغداد في العصر العثماني

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------|
| ٢٢- سقاية ابي سيفين | ١ - سقاية جامع الازبك |
| ٢٣- سقاية صبغة الله الحيدري | ٢ - سقاية مراد باشا |
| ٢٤- سقاية ام الكاظم | ٣ - سقاية جامع علي افندي |
| ٢٥- سقاية عبدالرزاق الخصري | ٤ - سقاية البارودية |
| ٢٦- سقاية الشيخ سراج الدين | ٥ - سقاية سري باشا |
| ٢٧- سقاية جامع الحاج فتحي | ٦ - سقاية الشيخ عمر السهروردي |
| ٢٨- سقاية جامع عبدالكريم الجيلي | ٧ - سقاية دكان شناوه |
| ٢٩- سقاية الملا حمادي | ٨ - سقاية ناي خاتون |
| ٣٠- سقاية آل مدلج | ٩ - سقاية خاتون بنت عبدالله |
| ٣١- سقاية اسماعيل الشطي | ١٠- سقاية جامع النعمانية |
| ٣٢- سقاية الشيخ عبدالقادر الكيلاني | ١١- سقاية كنج عثمان |
| ٣٣- سقاية عائكة خاتون | ١٢- سقاية جامع السراي |
| ٣٤- سقاية صالح بن محمد | ١٣- سقاية نازنده خاتون |
| ٣٥- سقاية سلمان القادري | ١٤- سقاية جامع الحيدر خانه |
| ٣٦- سقاية الغزالي | ١٥- سقاية سكة العباسية |
| ٣٧- سقاية كامل الزند | ١٦- سقاية حاجبة خاتون |
| ٣٨- سقاية زكريا الخصري | ١٧- سقاية عطية خاتون |
| ٣٩- سقاية جامع السيف | ١٨- سقاية خضربك |
| ٤٠- سقاية معروف الكرخي | ١٩- سقاية جامع الاسفية |
| ٤١- سقاية شوكت بك | ٢٠- سقاية عادلة خاتون |
| ٤٢- سقاية سيد محمد | ٢١- سقاية مسجد آل جميل |
| ٤٣- سقاية الست نفيسة | |

بيت الحكمة في بغداد

وازدهار حركة الترجمة في العصر العباسي

بقلم

سليم طه التكريتي

بغداد - الجمهورية العراقية

العرب بقوله « ما عرف التاريخ ارحم فاتحا من العرب » (١) .

وما ان استقر الامر للمسلمين في عهد بني امية ، حتى ظهرت اول حركة لترجمة العلوم الاخرى استهدفت نقل ما يتوفر نقله من العلوم عن اللغات الاجنبية ، كال يونانية ، والفارسية ، والهندية وغيرها الى اللغة العربية . ولقد اشرف بعض خلفاء بني امية وامرائهم على رعاية حركة الترجمة هذه وتشجيعها وكان من بينهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز الذي يعتبره معظم المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين في الاسلام .

وكان الامير خالد بن يزيد بن معاوية اشهر من رعى حركة النقل ، وبذل لها العون والتشجيع ، فجلب لها النقلة والعلماء ، وخصص لها كل وقته واهتمامه . ذلك ان خالدا هذا قد عشق علم الكيمياء منذ الصغر ، وكان من بين الذين صحبوا « مسلمة بن عبد الملك بن مروان » الى بلاد الروم لمحاصرة القسطنطينية ، فلما اراد المسلمون عنها ، ولم يستطيعوا افتتاحها ، حصل خالد في هذه الغزوة على كثير من كتب اليونان .

ما ان خرج الاسلام من بطن الجزيرة العربية الى الاطراف المحيطة بها ، حتى بدأت في الحال اضخم عملية تزاوج فكري وحضاري في تاريخ البشرية جمعاء ، انها عملية الامتزاج بين ثقافة العرب الذي حملوا راية الاسلام ، وبين الشعوب التي اعتنقت هذا الدين الحنيف الذي انقذها من الظلم والاستعباد ، واخرجها من الظلمات الى النور .

لقد كانت عملية التزاوج هذه ، اوسع انطلاقة فكرية عمت البيئة الجديدة التي خلقها الاسلام ، وصبح الحياة الفكرية والاجتماعية فيها بالصيغة العربية الاسلامية . والواقع ان العرب المسلمين كانوا ، وهم في غمار الزحف المقدس لنشر الاسلام ، وترسيخ قواعده بين الشعوب الاخرى ، يعملون في ذات الوقت على نشر العلم والمعرفة في كل صقع يحلون فيه ، ويضمون اسس نهضة علمية وفكرية مزدهرة في كل بلد كانوا يصلون اليه . وهذا ما دفع المؤرخ الانكليزي « هيربرت جورج ولز » الى القول بان « العلم كان يشب على قدميه وثبا في كل موضع وطائه قدم الفاتح العربي » (١) وكيف لا وقد وصف المفكر الفرنسي الشهير « غوستاف لوبون » الفاتحين

(١) غوستاف لوبون : حصار العرب ترجمة عادل ذخير ط ١٩٢٥ .

(١) هـ. ج. ولز : موجز تاريخ العالم ص ٢٠٦ ترجمة عبدالعزيز جاويد .

ولم يقف شغف خالد بالعلم والكيمياء بصفة خاصة عند هذا الحد ؛ بل استقدم عددا من العلماء العاملين في مدرسة الاسكندرية ، وامرهم بنقل علوم الكيمياء ، التي كان العرب يطلقون عليها اسم « الصنعة » ، الى اللغة العربية وقد تكفل احد اولئك العلماء بهذا العمل وهو « اصطفن القديم (٢) » ، وكانت تلك اول عملية نقل في الاسلام « (١) » .

واذ توقفت عملية نقل العلوم اثر الصراع الدامي على السلطة بين الامويين والعباسيين ، وانذي انتهى بزوال حكم بني امية ، وانتقال زعامة العالم الاسلامي الى بني العباس ، فانها ما لبثت ان عادت الى الظهور مرة اخرى ، وانتعشت في زمن المنصور ثم بلغت اوج ازدهارها في عصر الرشيد والمامون والمتوكل ، ويعود الفضل في ازدهارها الى التشجيع المقرون بالبذل المديد الذي سار عليه الخلفاء العباسيون ، والاخذ بيد المترجمين الذين نبغوا من بين العلماء .

ومع ان حركة الترجمة كانت في الاصل بمبادرة من الخلفاء ورعاية منهم ، سواء في ذلك الامويون او العباسيون ، الا ان هذه الحركة كانت في الواقع تجري على نطاق فردي محدود ، ومن دون ان تكون لها مؤسسة تتولى شؤونها ، وتنهض باعبائها . ذلك لان كل قادر على النقل من لسان ما الى لسان آخر سواء بدافع من خليفة او امير ، او راغب في العلم ، كان يعكف على ترجمة ما يراد منه ان يترجمه ، او ما يريد هو ان يترجمه حسب رغبته الخاصة .

غير ان تطورا كبيرا وخطيرا قد حدث في هذا الموضوع في عصر هرون الرشيد ، فالرعاية الفائقة التي اولاهها هذا الخليفة للعلوم وللعلماء على حد سواء ، قد دفعت به الى ان يخص موضوع الترجمة بعناية فائقة لم تحظ بها قبلا ، وان ينشئ لها مؤسسة خاصة قائمة بذاتها ، عرفت باسم « بيت الحكمة » .

يعتقد كثير من المؤرخين ، ولا سيما الغربيين بان « المأمون » هو الذي اسس بيت الحكمة . ومن هؤلاء المستشرق الالماني « بروكلمان » الذي يقول عن المأمون بانه « اسس بغداد (بيت الحكمة) والحق

(٢) اصطفن القديم واحد من العلماء الاسكندريين السبعة الذين عكفوا على دراسة مؤلفات جالينوس وكان من بينهم الراهب مريانوس الذي درس خالد على يديه في دير خارج دمشق .
(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢١١ .

به مكتبة ومرصدا ، وصار بيت الحكمة مركز نشاط علمي دائم « (٥) » .

ومنهم الدكتور « ماكس ما يرهوف » احد واضعي « كتاب تراث الاسلام » الذي اصدرته جامعة اكسفورد سنة ١٩٣٦ ، فقد قال « وقد انشأ المأمون في بغداد دارا رسمية للترجمة مجهزة بمكتبة « (٦) » .

ومنهم « الفريد غيوم » من المشاركين في كتاب تراث الاسلام ايضا والذي ذكر بان المأمون قد انشأ مدرسة للعلماء في بغداد ، نشطت فيها دراسة الكتب الاغريقية وترجمتها نشاطا عظيما (٧) .

ولكن الذي نتصوره هو ان بيت الحكمة قد انشئ في عهد هرون الرشيد لا في عهد الخليفة المأمون ، ونستدل على ذلك بما ذكره كل من « ابن النديم » « وابن القفطي » في كتابيهما ، عند الحديث عن ترجمة كتاب « المجسطي » من اليونانية الى العربية (٨) فقد ترجم هذا الكتاب الذي يتحدث عن علم الجغرافيا مرات عديدة ، ونقحت ترجماته عدة مرات . وكان اول من عنى بتفسيره واخرجه الى العربية يحيى بن خالد البرمكي . فقد « فسر له جماعة فلم يتقنوه ، ولم يرض بذلك . فندب لتفسيره « ابا حسان » و « سلما » صاحب بيت الحكمة فاتقناه ، واجتهدا في تصحيحه ، بعد ان احضرا النقلة المجودين ، فاخبرا نقلهم ، واخذوا بافصحه واصحه « (٩) » .

وهذا ما يؤكد ان بيت الحكمة كان موجودا قبل ان ينتفض الرشيد على آل برمك ، ويقضي على نفوذهم الواسع ، اذ لم يعد لهم اي اثر بعد تلك النكبة .

كان الرشيد ، قبل ان ينشئ بيت الحكمة ،

(٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٤ ص ٩١ ترجمة د. السيد بكر يعقوب و د. رمضان عبدالنواب ط. ١٩٧٥ .
(٦) تراث الاسلام : ترجمة جرجيس فتح الله ج ١ ص ١٧٤ ط. ١٩٥٤ .
(٧) تراث الاسلام : ج ١ ص ٢٥٠ ترجمة توفيق الطويل ورفاه ط. ١٩٣٦ .
(٨) اصل كلمة « المجسطي » هي « ميگستال » في اللغة اليونانية وتعني « الجمجمة » وقد حرف الاوربيون هذه الكلمة في القرون الوسطى الى ماجستي Magastii فنقلها العرب باسم « مجسطي » ويذكر اليعقوبي المؤرخ ان معنى المجسطي هو الكتاب الاعظم وانه يقع في ثلاث عشرة مقالة . اليعقوبي ج ص ١١٥ .
(٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ - ٢٦٨ وابن القفطي : تاريخ الحكماء ص ٩٨ .

غير اننا لا نعرف السند التاريخي الذي اعتمد عليه « اوليري » في تحديد مثل هذا التاريخ .

x x x

كان بيت الحكمة مقسما الى عدد من الاقسام والقاعات والغرف . . فهناك غرف كثيرة للتدريس يحضرها الطلاب من مختلف انحاء العالم لتلقي العلوم فيها على ايدي اساتذة منتدبين لتدريس تلك العلوم ، اما المكتبة فكانت تتألف هي الاخرى من عدد من الغرف ، مزودة برقوف تصف عليها الكتب .

والى جانب المكتبة وغرف التدريس توجد قاعة واسعة مخصصة للاقاء المحاضرات ، وعقد المناظرات العلمية ، وفي هذه القاعة كان النقاش والجدل يطرح علانية ، وبمتمهى الحرية ، حول شتى الموضوعات المختلفة بما في ذلك الموضوعات التي تخص العقيدة الاسلامية .

وهناك غرفة خاصة معدة للاستراحة يؤمها الدارسون والمدرسون والمطالعون والعاملون في المكتبة ، ليستريحوا فيها من عناء العمل ، ولكي يشنفوا اسماعهم بالاستماع الى الانغام الشجية التي يعزفها جوق موسيقي في القاعة ذاتها (١١) .

وافردت في بيت الحكمة غرف اخرى للمترجمين ، واخرى غيرها للذين يقومون بمراجعة تلك الترجمات وتنقيحها ، واصلاح كل خطأ فيها ، في حين تقوم غرف خاصة بالنساخين الذين يقومون بنسخ الكتب اما لانفسهم ، او لحساب الغير ، كذلك توجد غرف معدة لعمل المجلدين الذين يتولون تجليد كل كتاب يدخل الى بيت الحكمة ، بالإضافة الى الغرف المهيأة للوراقين ، وخازني الكتب والناولين ، الذين ينقلون الكتب من الرقوف الى المطالعين والنساخين والمجلدين وما سواهم .

وقد اشتهر عدد من المجلدين والعاملين في بيت الحكمة من اشتهرهم المجلد «ابن ابي الحريش» وكانت النساء يزاولن اعمالا في بيت الحكمة بصفة مناوبات . وقد اشتهرت من بينهن « توفيق السوداء » التي كانت مناولة للكتب في عهد ابي منصور بن محمد الخازن (١٢) .

ولم يكن العمل في بيت الحكمة وقفا على طائفة

قد جلب الكثير من المؤلفات اليونانية من بلاد الروم ، ففي الحملة التي استولى فيها على مدينتي « عمورية » و « انقره » امر الرشيد عماله هناك بالمحافظة على ما فيهما من مكتبات ، ثم لم يلبث ان انتدب بعد ذلك طائفة من العلماء الذين يعرفون اليونانية ، والارامية ، والسريانية ، للقيام بفحص ما تحويه تلك المكتبات من مؤلفات تتحدث عن الطب ، والفلك ، والرياضيات ، والحكمة ، والفلسفة ، وغيرها .

وقد اختار اولئك العلماء النفيس والنادر من تلك المؤلفات ، وعادوا به الى بغداد ، فاودعها الرشيد بيت الحكمة ، واوكل امر العناية بها الى الطبيب يوحنا بن ماسويه الذي اصبح رئيسا لبيت الحكمة ذاته فيما بعد .

كذلك اختلف الباحثون والمؤرخون في الموضع الذي كان يقوم فيه بيت الحكمة ، ولكن الشيء المؤكد هو وجوده في جانب الرصافة من بغداد لان الخلفاء العباسيين ما لبثوا بعد وفاة المنصور ان انتقلوا الى الرصافة وهجروا المدينة المدورة التي بناها المنصور في جانب الكرخ .

ولقد كانت نواة بيت الحكمة من الكتب ، هي الخزانة التي جمعها ابو جعفر المنصور ، وافرد لها جناحا خاصا في قصر الخلد الذي كان يسكنه في المدينة المدورة ، وقد انتقلت هذه الخزانة بحكم الارث الى هرون الرشيد ، فتماعها ووسعها بمسا اضاف اليها من الكتب التي جلبت له من البلدان الاخرى .

وفد تساءل بعض المؤرخين عما اذا كان بيت الحكمة جناحا من اجنحة احد قصور الرشيد او المأمون ، ام انه كان يقوم في بناية خاصة به ، منفصلة عن بقية القصور ، والذي يترأى لنا ان بيت الحكمة كان يقوم في بناء خاص ، كما نستدل على ذلك من الوصف الذي سنورده له فيما بعد .

وكان من نتائج اختلاف المؤرخين حول الخليفة الذي انشا بيت الحكمة ، ان اختلفوا اختلافا شديدا حول تحديد التاريخ الذي انشئت فيه هذه المؤسسة ، فالمستشرق الانكليزي « دبلاسي ادليري » وهو من القائلين بان المأمون هو الذي انشا بيت الحكمة ، يذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » ان بيت الحكمة قد انشئ في عام ٢١٧هـ ٨٣٢م (١٠) .

(١٠) De Lacy O'Leary: Arab Thought its Place in History P. 112.

(١١) من روائع حفارتناس : الدكتور مصطفى السباعي ص ١٨٠ .

(١٢) سليم طه التكريتي : مصادر الفكر العربي الاسلامي ص ٧٤ مخطوط

وأخرون بكتب الطب ، وغيرهم بمصنفات الفلك والكيمياء والرياضيات وغيرها من العلوم .

وكان الأسلوب الذي يعتمد المترجمون في ذلك الوقت يستند إلى اتباع واحدة من طريقتين ما تزالان شائعتين لدى المترجمين حتى الوقت الحاضر .

فالطريقة الأولى تعتمد الترجمة الحرفية الدقيقة ، أي ترجمة العبارات كلمة بكلمة ، والتقييد بالألفاظ الأصلية تقيدا تاما ، وعدم التصرف أو الخروج على هذه القاعدة .

أما الطريقة الثانية فإنها تعتمد على ترجمة معنى العبارة دون التقيد بالألفاظ الأصلية ، وذلك بأن يقرأ المترجم الكتاب الذي يريد ترجمته ، بأمان وبعد أن يستوعب معناه في ذهنه بشرع ينقله إلى اللغة التي يحسنها .

وقد أتى على وصف هاتين الطريقتين في الترجمة « بهاء الدين العاملي » صاحب كتاب « الكشكول » المتوفى سنة ١٠٣١ هـ ١٦٢٢ م فقال « قال الصلاح الصفدي (١٢) وللتراجمة في النقل طريقان : أحدهما طريق « يوحنا ابن البطريق » و « ابن الناعمة الحمصي » وغيرهما ، وهو أن ينظر إلى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية ، وما تدل عليه من المعنى ، فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، فيثبتها وينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة ردية .

والطريق الثاني في التعريب . طريق حنين بن اسحق والجوهري (١٤) وغيرهما ، وهو أن يأتي الجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ أم خالفها ، وهذا الطريق أجود (١٥) .

ولقد أدى اتباع المترجمين للطريقة الأولى إلى ظهور ترجمات ضعيفة ومفككة ، على ما نشهد أمثاله في وقتنا الحاضر الذي نعيش فيه الآن ، وقد أشار « ابن النديم » إلى أمثال هؤلاء المترجمين منهم « ابن شهيد الكرخي » ومنهم « لاجي » الذي قال عنه « أنه جيد المعرفة بالسريانية ، عفاي الألفاظ

(١٢) صاحب كتاب « فوات الوفيات » وهو كلمة لكتاب ابن خلكان « وفيات الأعيان » وقد طبع مؤخرا في ثمانية مجلدات

(١٤) هو ابن سعيد الجوهري من كبار المترجمين في عصر المأمون .

(١٥) نقل ذلك العلامة « كزاونيلينو » الأستاذ بالجامعة المصرية سابقا ومؤلف كتاب « علم الملك تاريخه عند العرب في القرن الوسطى ص ٢٢٦ »

معينة من العلماء فقد كان في استطاع كل حاذق بأحدى اللغات الأجنبية ، وقادر على النقل عنها ، أن ينضم إلى زمرة النقلة كما كان في مقدور كل من يعرف القراءة والكتابة بأحدى اللغات أن يؤم قسم المكتبة ، ويطلب أي كتاب متوفر فيها ليقرأه لكنه كان يحظر على المطالع حظرا باتا أن يكتب أية تعليقات أو تفسيرات ، بل وإية تصحيحات على هوامش الكتاب الذي يطالعه .

كذلك كان باستطاعة أي شخص أن يستعير من المكتبة أي كتاب يشاء ، فيخرجه منها إلى مقره ، وقد تطول مدة الاستعارة هذه شهرا كاملا .

x x x

كان العمل في بيت الحكمة منسقا تنسيقا بديعا . فقد كان المترجمون ينقسمون إلى عدة أصناف . صنف ينقل من اللغة الأجنبية التي يحذقها إلى اللغة العربية راسا . وصنف لا يحذق اللغة العربية لكنه يحذق لغتين أجنبيتين أو أكثر ، وكان يعرف اليونانية والسريانية ، أو اليونانية والسريانية ، والفارسية في وقت واحد . فمثل هذا الصنف قد ينقل عن اليونانية إلى السريانية ، أو عنها إلى الفارسية .

حتى إذا ما انتهى من عملية النقل هذه ، تولى مترجمون من الملمين بأحدى هذه اللغات ترجمة ما تم نقله إلى اللغة العربية . ولذلك فإن كثيرا من المصنفات اليونانية في الدرجة الأولى ، لم تترجم إلى اللغة العربية مباشرة ، وإنما جسرت ترجمتها إلى السريانية أو الفارسية ، ثم نقلت مجددا عن هاتين اللغتين إلى اللغة العربية . وكانت الترجمة في بيت الحكمة تتم عن ست لغات هي اليونانية ، والسريانية ، والفارسية ، والهندية ، والعبرية ، والقبطية . وقد جرت ترجمة بعض الكتب عن اللغة النبطية أيضا .

وكثيرا ما يحدث أن تكون بعض هذه النقول غير دقيقة ، وركيكة العبارة ، أو « غفطية اللفظ » حسبما يسميه « ابن النديم » عند تقييمه لبعض المترجمين . ولذلك يتولى مترجمون آخرون من المتضلعين باللغة العربية ، مراجعة أمثال هذه الترجمات ، وتصحيحها ، وتقويمها وكان على رأس هؤلاء الفيلسوف الكندي .

وكان قسم الترجمة في بيت الحكمة مصنفا حسب موضوعات الكتب التي يراد ترجمتها . فهناك مترجمون مختصون بترجمة كتب الفلسفة ،

بالمربية » ، ومنهم « قويري » أيضا الذي قال عنه ان « كنبه مطرحة مجفود لان عبارته كانت عطفية غلقة » .

x x x

اتسع نطاق العمل في بيت الحكمة اتساعا كبيرا نتيجة ما جمعه فيه الرشيد والمأمون من خزائن الكتب القديمة التي جلبت من الاقطار الاخرى . فكانت هذه الكتب تجلب من اسيا الصغرى ، ومن الهند ، وابلان ، وجزيرة قبرص ، بالإضافة الى ما كان يجمعه السريان من كنائسهم واديرتهم في الشام وبلاد الجزيرة (١١) (١٢) .

كانت اول مجموعة من الكتب العلمية باللغات اليونانية والسريانية ضمت الى بيت الحكمة ، هي الكتب التي استجلبها هرون الرشيد من عمورية وانقره ، كما اسرنا الى ذلك قبل .

وجلب المأمون مجموعة من الكتب اليونانية من جزيرة قبرص . قال « ابن نباته المصري » في كتابه « سرح الميرون في شرح قصيدة ابن زيدون » ان المأمون جعل « سهلا بن هارون » على خزانة الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك ان المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ارسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها احد فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوي الرأي عنده . واستشارهم في حمل هذه الخزانة الى المأمون ، فكلهم اشاروا اليه بعدم الموافقة ، الا مطران واحد فانه قال « الراي ان تعجل بانفاذها اليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية في دولة شرعية الا افسدتها ، واوقعت بين علمائها » . فارسلها اليه ، واغتنط بها المأمون (١٣) .

واستجلب المأمون من القسطنطينية مجموعة اخرى من هذه الكتب ايضا ، تحدث عنها « ابن النديم » في فهرسته فقال « ان المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد

الروم ، فاجابه الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم « الحجاج بن مطر » و « ابن البطريق » و « سلم » صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فاخذوا منها مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل ، وقبل ان « يوحنا بن ماسويه » كان ممن انفذ الى بلد الروم (١٤) .

كذلك ذكر ابن النديم ان ممن عنى باخراج الكتب من بلد الروم هم محمد ، واحمد ، والحسن بنو « شاعر المنجم » (١٥) .

وهناك مجموعة اخرى من الكتب القديمة جيء بها من مدينة اصفهان . وقد ذكر « ابن النديم » هذه المجموعة فقال « والذي رايت انا بالمشاهدة ان « ابا الفضل بن العميد » انفذ الى ها هنا في سنة ، نيفا واربعين كتابا اصيبت في اصفهان في سور المدينة ، فاستخرجها اهل هذا الشأن منسل « يوحنا » (٢٠) .

والى جانب نفائس الكتب ، كان بيت الحكمة يضم مجموعة من الخرائط والمصورات البلدانية ، وقد ذكر « المسعودي » المؤرخ في كتابه « التنبيه والاشراف » هذه الخرائط والمصورات فقال عنها « رايت هذه الاقاليم مصورة في غير كتاب بانواع الاصباغ ، واحسن ما رايت ... في « الصورة المأمونية » التي عملت للمأمون ، اجتمع على صنعها عدة من حكماء اهل عصره ، صور فيها العالم بافلاكه ونجومه ، وبره وبحره ، وعامره وغامره ، ومساكن الامم ، والمدن ، وغير ذلك . وهي احسن مما تقدمها من جغرافيا « البطليموس » وجغرافيا « مارتينوس » وغيرها (٢١) .

و « الصورة المأمونية » هذه عبارة عن خارطة مصورة للارض ، انتدب لها المأمون طائفة من علماء عصره ، فوضعوا له صورة الارض فنسبت اليه ودعيت بالصورة المأمونية وقد ذكر الكاتب الاندلسي « محمد بن ابي بكر الزهري » صاحب « كتاب الجغرافيا » ان « الصورة المأمونية » قد اجتمع عليها وعلى عملها سبعون رجلا من فلاسفة العراق ، فوضعوها على صفة الارض ، وان كانت على غير الحقيقة من ذلك ، لان الارض كروية والجغرافيا بسيطة (٢٢) .

(١٦) سعيد الديوهجي : بيت الحكمة من ٢٥

« المقصود ببلاد الجزيرة هي المنطقة المحصورة بين الفرات ودجلة في كل من العراق وسوريا ومنها ديار بكر وجزيرة ابن عمر وغيرها

(١٧) ابن نباتة المصري : سرح الميرون في شرح قصيدة ابن زيدون ص ٢٢٦ ، والدكتور احمد الشبلي في كتابه « تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥٠ »

(١٨) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢

(١٩) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤

(٢٠) ذات العصر من ٢٥٠

(٢١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٦٦ .

(٢٢) الدكتور احمد سوسة : الشريك الادريسي في الجغرافيا العربية مجلد اول ص ١١٢

وبالإضافة إلى الصورة المأمونية وضع علماء الهيئة والجغرافيا للمأمون كتابا في وصفها أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي كانت خاضعة للدولة العباسية (٢٢).

وكذلك كان بيت الحكمة يحتوي على كتب كتبت بخطوط قديمة من أمثال الخط الحبشي ، والخط الحميري ، إلى جانب الكتب المكتوبة بالخط الآرامي ، والسرياني ، والعبري ، واليوناني ، والنبطي وغيرها ، كما أشار إلى ذلك ابن النديم . كذلك ذكر ابن النديم نفسه عن وجود كتاب في بيت الحكمة ، مكتوب على جلد آدم بخط عبدالمطلب بن هاشم جد الرسول عليه الصلاة والسلام (٢٤) .

x x x

كان من بين الأسباب التي شجعت المترجمين على نقل الكتب القديمة ، ما كانوا يحصلون عليه من أموال وهبات ، من الخلفاء العباسيين ، ومن الأشخاص الذين كانوا يهتمون بهذه العلوم ، من أمثال بني برمك ، وبني شاعر المنجم ، وغيرهم . فقد كان المأمون مثلا يدفع إلى « حنين بن اسحق » زنة ما يترجمه ذهباً . ولذلك كان « حنين » يعمد إلى الكتابة على ورق سميك وثقيل ، وبأحرف كبيرة ، لكي ترتفع زنتها ، فتزداد مكافأته (٢٥) .

وكان أولاد « موسى بن شاعر » ممن عنوا بإخراج الكتب من بلاد الروم « وبدلوا الرغائب » وانفذوا حنين بن اسحق « وغيره إلى بلد الروم ، فجاءوهم بطرائف وغرائب المصنفات في الفلسفة ، والهندسة ، والموسيقى ، والارتماطيقي ، والطب قال « أبو سليمان المنطقي السجستاني » أن « بني المنجم » (٢٦) كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم « حنين بن اسحق » ، و « حبش بن الحسن » ، وثابت بن قرة « وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة » (٢٧) وكان من بين الذين شجعوا حركة الترجمة ، وبدلوا الأموال في سبيلها ، الوزير « محمد بن عبد

الملك بن الزيات » ، فقد كان يقارب عطاؤه للنقلة وللنساخ ألفي دينار في الشهر (٢٨) .

وكان من المشجعين لحركة الترجمة أيضا « علي بن يحيى » المعروف بالمنجم الذي نقل له كثيرا من الكتب الطبية ، و « إبراهيم بن محمد بن موسى الكاتب » وكان حريصا على نقل كتب اليونانيين إلى لغة العرب ، كثير البذل في سبيلها ، ومنهم أيضا « عيسى بن يونس الكاتب الحاسب » من أهل العراق ، وكانت له عناية في تحصيل الكتب القديمة والعلوم اليونانية (٢٩) .

وظلت حركة تشجيع الترجمة والمترجمين سارية المفعول حتى إلى عصور ملوك الطوائف . فقد كان لدى « سيف الدولة » طبيب اسمه « عيسى الرقي » ينقل له من السرياني إلى العربي (٣٠) .

ولقد راجت الكتب المترجمة رواجاً منقطع النظير في كل أرجاء العالم الإسلامي ، ونفقت سوقها ، وكانت تباع بأعلى الأثمان . ذكر العالم المنطقي والمترجم « يحيى بن عدي التكريتي » ، وهو من تلامذة « حنين بن اسحق » ، « أن شرح « الاسكندر » « للسمع » كله ، وكتاب « البرهان » (٣١) رايته في تركة « إبراهيم بن عبد الله » الناقل النصراني ، وأن الشرحين عرضا على بمائة وعشرين ديناراً . فذهبت لاحتال في الدنانير ، ثم عدت فاصبت القوم قد باعوا الشرحين في جملة كتب على رجل من خراسان بثلاثة آلاف دينار (٣٢) .

ويذكر يحيى بن عدي أيضا أنه التمس من إبراهيم بن عبد الله نص « سوفسطا » ونص « الخطابة » ونص « الشعر » (٣٣) بخمسين ديناراً ، فلم يبعها له وأحرقها وقت وفاته (٣٤) .

x x x

ما أن تم إنشاء بيت الحكمة ، ووضعت خزائن الكتب التي جمعت في عهد المنصور والرشيد فيه ، حتى عين له رئيس يعني بشؤونه ، ويشرف على

(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ٢ ص ١٧٠ ط ١٩٥٨

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ١ ص ١٤٠ .

(٣١) هذان الكتابان من كتب « أرسطو » وقد فسرهما « الاسكندر الأفروديسي » .

(٣٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٨ .

(٣٣) هذه الكتب الثلاثة من مؤلفات أرسطو أيضا .

(٣٤) ابن النديم ص ٢٦٨ .

(٢٢) نفس المصدر

(٢٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٩

(٢٥) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ج ٢ ص ١٦١ ط ١٩٥٨ .

(٢٦) يقصد بهم أولاد موسى بن شاعر المنجم بالنجم : انظر مقالاتنا عنهم في مجلة العربي « الكويتية سنة ١٩٧١ »

(٢٧) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٤ وابن الغطفي ص ٢٠-٢١

اعمال الترجمة فيه ، ويساهم نفسه في تلك الاعمال ، وكان يطلق عليه اسم « صاحب بيت الحكمة » .

كان « سلم » ، ولم يذكر المؤرخون سوى اسمه هذا مجردا ، اول من تولى رئاسة بيت الحكمة في عصر هرون الرشيد ، وكان حاذقا في اللغتين الفارسية واليونانية بدليل انه كان من بين الذين اختارهم كل من الرشيد والمأمون لجلب الكتب العلمية من بلاد الروم .

وكان « سلم » هذا يشرف في الاصل على ترجمة الكتب الفارسية التي تجمعت في بيت الحكمة ، وذكر عنه « ابن النديم » بانه كان ينقل من اللسان الفارسي الى العربي ، غير ان ابن النديم لم يذكر له اي كتاب مترجما كان ام موضوعا .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة « يوحنا ابن ماسويه » الذي ادخلناه ضمن كبار المترجمين ويرى بعض المؤرخين ان « يوحنا » هذا كان اول رئيس لبيت الحكمة ، وانه كان بالإضافة الى ذلك يشرف على ترجمة الكتب التي جلبها الرشيد من عمورية وانقرة ، وكان يعمل تحت يده عدد من المترجمين ، والكتب ، والنسخ .

ومن الذين تولوا رئاسة بيت الحكمة في عهد المأمون : « سهل بن هارون » وهو فارسي شديد التعصب لقومه الفرس ، مقدع الهجاء للعرب ، وكان « سهل » هذا يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من جزيرة قبرص .

وكان سهل بن هارون قد انتقل اول الامر من فارس الى البصرة ، ومن ثم جاء بغداد والتحق بخدمة المأمون . وكان حكيما وفصيحا وشاعرا ويقول « ابن النديم » عنه انه « فارسي الاصل » شعوبي المذهب ، شديد العصبية على العرب . وله في ذلك كتب كثيرة ، ورسائل في البخل ، وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخل ، ويرغبه فيه ، ويستميحه في خلال ذلك ، فاجابه الحسن على ظهر رسالته « وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك ، وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام ... » (٢٥) .

ومن ثم تولى « حنين بن اسحق » رئاسة بيت الحكمة طيلة عهدي المأمون والمعتصم وحتى عصر المتوكل ، وقد نهض بهذه المهمة على احسن وجه ، واحاط نفسه بعدد من المترجمين الذين دربهم على هذه الصنعة خير تدريب .

(٢٥) ابن النديم : الفهرست ص ١٨٠ .

كان من نتائج الاضطراب الذي اعقب وفاة المأمون ، وتعاظم نفوذ الجند الاتراك ، وتدخلهم في شؤون السلطة ايام المعتصم ، ثم انتقال مركز الخلافة من بغداد الى سامراء ، ان قلت العناية ببيت الحكمة ، وانقرط عقد العلماء والدارسين فيها ، وسرى الخراب اليها ، حتى تولى « المتوكل على الله » الخلافة (٢٢٣ هـ - ٨٤٧ م) ، فقد كان المتوكل - مع ما اشتهر به من الشدة والقسوة - محبا للعلم ، وراعيا للعلماء ، اعاد فتح بيت الحكمة وبذل له الهبات ، ولذلك اتت حركة الترجمة خير ثمارها في عهده ، ذلك لانه عهد برئاسة بيت الحكمة مجددا الى « حنين بن اسحق » فنهض حنين بهذه المهمة خير نهوض ، واحاط نفسه بعدد من خيرة المتدربين على اعمال الترجمة احسن تدريب ، وبقي بيت الحكمة قائما الى ان داهم المفلول ببغداد « فذهبت خزانة الكتب فيما بعد ، وذهبت معالمها ، وعفيت آثارها » (٢٦) .

x x x

لقد كان انشاء بيت الحكمة فتحا مبينا للعرب المسلمين في ميدان العلم والمعرفة ، يضاهي فتوحاتهم الكبرى في ميادين السياسة . يقول المستشرق الانكليزي « ديلاسي اوليري » « لقد انشا الخليفة المأمون مدرسة سماها بيت الحكمة ، وجعلها معبدا تعد فيه الترجمات لكتب علماء اليونان ، ليتسم تداولها بين العرب ومنذ ذلك الوقت سارت الترجمة قدما . ولم يمض وقت طويل حتى وجد الطلاب من العرب ، ان قد تيسر لهم الاطلاع في العربية على الشطر الاكبر من مؤلفات جالينوس ، وابقراط ، وبطليموس ، واقليدس ، وارسطو ، وغيرهم من فطاحل المؤلفين في اليونان » (٢٧) .

ويعتبر الدكتور فليبي حتي بيت الحكمة « اهم مجمع علمي تم تشييده منذ ان انشئت مدرسة الاسكندرية في النصف الاول من القرن الثالث قبل الميلاد . وكان هذا المعهد في الوقت ذاته من اهم خزائن الكتب في الاسلام ، على اختلاف دوله وعصوره » (٢٧) .

x x x

(٢٦) ماكس مايرهوف في « تراث الاسلام » ج ١ ص ١٧٧ ترجمة جرجيس فتح الله .

(٢٧) ديلاسي اوليري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٧ .

(٢٧) Ph. Hitti : History of the Arabs P. 316

شارك عدد كبير من العلماء والمترجمين في النهوض بأعمال الترجمة في بيت الحكمة وفي خارجها. فمن بين الذين عملوا بصفة مترجمين « سلم » صاحب بيت الحكمة الذي كان يترجم عن الفارسية وكان في الوقت ذاته يشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون من الأستانة ، وكان يشاركه في ذلك سهل بن هارون بن رافوي الفارسي ، وهو ينقل عن الفارسية ، وقد أشرف على ترجمة الكتب التي وردت للمأمون أيضا من جزيرة قبرص . وعمل سعيد بن هارون الكاتب في بيت الحكمة أيضا وكان ينقل من الفارسية إلى العربية .

واشتغل يوحنا بن ماسويه إلى جانب رئاسته لبيت الحكمة في ترجمة كتب الطب التي جلبت للرشد من بلاد الروم . وتولى أبو بكر يحيى ابن البطريق ترجمة كتب أرسطو في الفلسفة ، وابقراط في الطب .

وعمل حنين بن اسحق العبادي مترجما في بيت الحكمة ورئيسا لها ، فقام بترجمة كتب الطب والفلسفة والفلك وغيرها وسار على منواله كل من ولده اسحق بن حنين ، وابن اخته حبش بن الحسن الأعسم ، وكانا من المترجمين في بيت الحكمة .

ومن المترجمين الذين عملوا في بيت الحكمة أيضا ، وكانوا ينقلون عن اليونانية والسريانية ، كل من يحيى بن أبي منصور النجم الموصل ، وحبيب ابن بهريز مطران الموصل ، والعالم الرياضي ثابت بن قرة الصابي ، وقسطا بن لوقا البعلبيكي . كما كان من مشاهير المترجمين في بيت الحكمة ، الحجاج بن مطر ، وعمر بن الفرخان الطبري .

وبالإضافة إلى أعمال الترجمة اشترك عدد من هؤلاء المترجمين في البعثات التي أرسلت إلى بلاد الروم وغيرها للبحث عن الكتب العلمية فيها ، وجلبها إلى بغداد .

وقد شارك معظم هؤلاء المترجمين في ترجمة كتب اليونان ، أما عن اللغة الأفريقية راسا ، أو عن الترجمات السريانية التي وضعت للكتب اليونانية ، وكان هذا الفريق وفير العدد ، نذكر منهم غير الذين وردت أسمائهم في سياق البحث ، « البطريق » والد « يحيى ابن البطريق » ، وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ، وهلال الحمصي ، وسلام الأبرش ، وزوربا ابن ماجوه الناعمي الحمصي ، وباسيل المطران ، واصطف بن باسيل ، وأبو نوح بن الصلت ، ويحيى ابن عدي التكريتي ، وأخوه أبو الفضل جرير بن

عدي التكريتي ، ويوحنا بن يوسف الكاتب ، وأيوب الرهاوي ، وآخرون غيرهم ممن أورد ابن النديم أسماءهم في كتابه « الفهرست » .

أما الذين اشتهروا بالنقل من الفارسية فهم آل نوبخت ، وعبدالله بن المقفع ، وموسى وبوسف ولدا خالد ، وعلي بن زياد النخعي ، والحسن ابن سهل ، وأحمد بن يحيى البلاذري ، وجبله بن سالم ، واسحق بن يزيد ، ومحمد بن الجهم البرمكي ، وموسى بن عيسى الكردي ، وهشام بن القاسم وغيرهم .

وكان النقلة من اللغة الهندية إلى العربية يؤلفون فريقا كبيرا أيضا من أشهرهم أبو الريحان البيروني ، ومن أقدمهم منكة الهندي ، وابن دهن الهندي الذي كان يشرف على بیمارستان البرامكة ، وصالح بن بهلة ، وسواهم .

وكان كل من « ابن وحشية » و « ابن العوام » ينقلان عن اللغة النبطية ، وقد تخصصا في نقل كتب الفلاحة والنبات .

ولقد تناولت حركة الترجمة سواء في العصر الأموي أم في العصر العباسي ، سائر العلوم والمعارف ، وعلى الأخص علوم الطب والفلسفة والفلك والكيمياء والحركات والهندسة ، وذلك لأنه لم يكن للعرب في جاهليتهم سوى المأم بسيط وبدائي بهذه العلوم .

وبلغ اندفاع العرب في نقل العلوم القديمة أقصى مداه في عصري الرشيد والمأمون بصفة خاصة ذلك لأنه ما يكاد يصل كتاب إلى يد الخليفة أو سواه من المعنيين بهذه العلوم ، حتى يقبل القوم على ترجمته واستنساخ تلك الترجمة بأعداد كبيرة ، ووضع الشروح والتفاسير له والتعليقات عليه في كتب خاصة ومطولة أحيانا .

وأكثر من هذا أن كثيرا من الكتب ، وعلى الأخص مؤلفات أرسطو وأفلاطون وابقراط وجالينوس وبطليموس وأقليدس وغيرهم ، قد ظهرت عدة ترجمات لها ، وأقبل أكثر من مترجم على نقلها ، وأكثر من شارح على شرحها والتعليق عليها .

ولناخذ على ذلك مثلا كتاب « المجسطي » فقد ترجم هذا الكتاب عدة ترجمات على أيدي مترجمين مختلفين ، كما تقحت بعض هذه الترجمات ، وصححت مرات عديدة . فقد كان من بين الذين ترجموا المجسطي ، الحجاج بن مطر ، وسهل بن ربن الطبري ، وحنين بن اسحق ، وأبو الريحان

البيروني . وكان ثابت بن قرة الصابي على رأس الذين اصلحوا ترجمة الجسطي ، وتوجد الان نسخة خطية من ترجمة الحجاج بن مطر لكتاب الجسطي . في مكتبة « ليدن » بهولندا (٢٨) .

ومثل هذا القول يصدق ايضا على كتاب « السند هند » الشهير الذي وضعه العالم الرياضي الهندي « براهمفت » في سنة ٦٢٨م بعنوان « براهمفت سندهانت Brahma Shopta Sind Hanta ومعناه « كتاب الهيئة المصحح المنسوب الى براهمفت » .

وكان الخليفة ابو جعفر المنصور قد امر بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، فاقبل على ترجمته غير واحد من المترجمين ، كان اولهم ابراهيم بن حبيب الفزاري ، ثم ترجمه من بعده يعقوب بن طارق النجم ، وآخرون غيره .

x x x

كان الطب والفلك من اول العلوم التي اشتغل العرب المسلمون بنقلها الى اللغة العربية ، وذلك يعود في الدرجة الاولى الى الاهتمام الكبير الذي يوليه العرب لهذين العلمين . فقد ذكر الاستاذ « كرولونليو » في كتابه « علم الفلك تاريخه عند العرب في الة ون الوسطى » ان « اول ما اشتغلت به البلاد الاسلامية من العلوم ، هي العلوم العملية ، وخصوصا الطب والكيمياء ، واحكام النجوم » (٢٩) .

في حين يذكر دبلاسي اوليري في كتابه « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان « هناك مسن الاسباب ما يدعو الى الاعتقاد بان بعض الترجمات الاولى التي نقلت عن اليونانية مباشرة ، كانت تخص الفلك والرياضيات » (٣٠) .

وهذا الاهتمام بعلوم الطب والكيمياء والفلك قد برز حتى في عهد الامويين ، وكان من العوامل التي وجهت انظار العرب الى نقل كل ما تيسر لديهم نقله من الكتب التي تبحث هذه العلوم ، والعمل على نشرها قبل المبادرة بنقل غيرها من المصنفات .

فقد ثبت ان اول كتاب في الرياضيات ترجم الى اللغة العربية هو كتاب « السندهانتا » الذي اشتهر لدى العرب باسم « السند هند » الذي

سبقت الاشارة اليه . فقد جلب هذا الكتاب احد اعضاء الوفد الهندي الذي قدم الى بغداد سنة ١٥٤هـ ٧٧١م ، وحظي بمقابلة الخليفة ابي جعفر المنصور (١) . وكان من اوائل الكتب الطبية التي ترجمت الى العربية كتاب « شاناق » من السموم وقد ترجمه « منكه » الهندي ، كما نقل « كنتكه » الهندي ، وهو من كبار علماء الهند ، كثيرا من الكتب الطبية والفلكية الى اللغة العربية .

x x x

كانت غالبية الكتب التي جرت ترجمتها من اللغة اليونانية ، سواء في بيت الحكمة ام خارجه ، من الكتب اليونانية . وكانت هذه الكتب المترجمة تؤلف قائمة ضخمة يصعب تعدادها ، ذلك لان ما ذكره كل من ابن النديم ، والقفطي ، وابن ابي اصيبعة ، وابن جليل ، وحاجي خليفة ، وغيرهم ممن عتوا بجمع اسماء المصنفات واصحابها ، لا يؤلف في الواقع سوى نسبة ضئيلة مما تمت ترجمته من هذه الكتب . ذلك لان عدد الكتب اليونانية المترجمة قد تجاوز الخمسمائة كتاب بل اكثر من ذلك بكثير .

وكانت معظم الكتب التي ترجمت عن اللغات الهندية تبحث في الطب والفلك والرياضيات من امثال « السند هند » وكتاب « ارياهيت » وكتاب « كهند كهاديك » وكتاب « شاناق » في السموم والتدبير ، وكتاب « روسا » - وهي امرأة هندية - في امراض النساء وعلاجها ، وكتاب « شارك سينيا » في الطب الهندي ، وكتاب « شارك سينيا » في الطب ، وكتاب « بيدبا » في الحكمة ، وكتاب « اسرار المسائل » وكتاب « سير » الذي ترجمه « منكه » ، وكتاب « عشر مقالات » لمنكه ايضا وكتاب « سدستاق واستانكي » الجامع وقد ترجمهما « ابن دهن » . وترجم البيروني كتاب « بانفسل سوترا » ، وكتاب « الكسوفين » عند الهند ، وكتاب « لكهراجانكم راشاكات هند » (٤٢) .

ومن مؤلفات ومترجمات « كنتكه » كتاب « اشودار » في الاعداد ، وكتاب القرائات الكبير . وكتاب القرائات الصغير ، وكتاب في النجوم ، وكتاب في احداث العالم ، وكتاب الدرر في القرآن (٤٣) .

(١) كرولونليو : علم الفلك تاريخه عند العرب ص ١٤٩ .
(٢) مهيش برشاد : بين اللغتين العربية والمنسكربتية مجلة « ثقافة الهند » الجزء الاول ص ٩٥ مارس ١٩٥٠ .
(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢٨) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢٩) كرولونليو : علم الفلك ص ١٤٢ .
(٣٠) De Lacy O'leary : How Greek Sciences Passed to the Arabs P. 175.

وهناك كتب هندية أخرى ترجمت الى العربية ايضا منها كتاب سيرك الهندي ، وكتاب علامات الادواء ، وكتاب الحار والبارد ، وكتاب المواليذ من تأليف الطبيب الهندي جواد ، وكتاب سرور في الطب نقله منك ، وكتاب عقاير الهند من نقل منك ايضا ، وكتاب «مختصر الهند في العقاير» ، وكتاب علامات الحبالى ، وكتاب السكر ، وكتاب راي الهند في اجناس الحيات وسومها .

وترجم البيروني ، الى جانب ما ذكرناه قبلا ، كتابا عن طرق الحساب ، ومقالة في الامراض العفنة ومقالة في الجوايات الواردة من منجمي الهند ، كما اصلح ترجمة كتاب « اربابيت » .

ومن كتب الحكم والادب والاساطير التي نقلت من الهندية الى العربية كتاب كليله ودمنة ، وكتاب السندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب « بوداسف » وكتاب « بوداسف مفرد » ، وادب الهند والصين ، وكتاب « هائل » في الحكمة ، وكتاب الهند في قصة هبوط آدم ، وكتاب « دبك » الهندي وكتاب حدود الهند ، وكتاب « ساديرم » ، وكتاب ملك الهند القتال والسباح ، وكتاب « بيافر » من اصول الالخان (٤٤) .

بدأت حركة النقل عن الفارسية الى العربية في عصر ابي جعفر المنصور كما اسلفنا ذكر ذلك وكان ابن المقفع في مقدمة الذين نقلوا عن الفارسية فقد ترجم ، الى جانب كليله ودمنة ، كتاب سيرة ملوك العجم وهو الكتاب الفهلوي المعروف باسم « خدائي نامة » وكتاب « الاثين » وكتاب « الين نامة » عن أنظمة الدولة ، وكتاب التاج الذي قيل انه كان في سيرة انوشروان و اردشير ، وكتاب مزدك وهو قصة روائية ، وعن الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع بعض كتب ارسطو وفرغوريوس .

وفي زمن ابن المقفع على وجه التقريب اشتغل بعض معاصريه من العجم ايضا في ترجمة كتب من الادب الفارسي الى العربية ، منهم محمد بن جهم البرمكي ، وزارويه بن شاهويه الاصفهاني ، ومحمد ابن بهرام بن ميار الاصفهاني ، وهشام بن القاسم الاصفهاني (٤٥) .

ومن الذين ترجموا عن الفارسية ايضا بهرام ابن مردانشاه ، وموسى بن عيسى الكردي ، اللذان

ترجما كتاب « خدائنامك » . ولعل موسى بن عيسى هو الذي ترجم قصة السندباد التي بقيت منها ترجمة يونانية (٤٦) .

وترجم ابان بن عبد الحميد الملاحقي كتاب سيرة اردشير ، وكتاب سيرة انوشروان ، وكتاب « بلوهر وبوداسف » وهذا الكتاب حكاية بوذية ترجمت للمانويين في « السند » فاعجبوا بها ، وعكفوا على قراءتها ، والى هذه الترجمة ترجع صياغتها الحالية (٤٧) . كما ترجم « ابان » ايضا كتابا في الرسائل ، وكتاب حلم الهند ، وغيرها . وقيل انه ترجم هذه الكتب شعرا .

وترجم « علي بن زياد » كتاب زيج الشهر ، في حين ترجم اسحق بن يزيد كتاب « اختيار نامه » واثبت ابن النديم في كتابه طائفة كبيرة باسماء الاشخاص الذين قال انهم كانوا يقومون باعمال الترجمة من الفارسية الى العربية ، من امثال آل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وعمر بن الفرخان وجيلة بن سالم ، واحمد بن يحيى البلاذري .

وكان من بين المترجمين المشهورين عن الفارسية ابو العباس الدميري ، ومحمد بن خلف بن الرزبان الذي قيل عنه انه ترجم اكثر من خمسين كتابا (٤٨) .

وتبدو اهمية بيت الحكمة فيما هياه من اجواء وامكانيات لذوي المواهب من العلماء والمفكرين ، الذين عكفوا على وضع مختلف المؤلفات في شتى اصناف العلوم العقلية منها والعملية . فقد استفاد من بيت الحكمة ، ومواظبة البحث والتأليف فيه ، عدد كبير من مشاهير العلماء والمؤرخين ، على راسهم العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي مؤسس علم الجبر والمقابلة ، والذي اشتهر لدى الغربيين باسم « اللوغارتمي » فاصبحت هذه الكلمة تعني « الجبر » ونقلت بشكلها المحرف حتى الى كتب الرياضيات التي تدرس في كل مدارس العالم العربي في الوقت الحاضر .

فلقد استطاع الخوارزمي بما اطلع عليه من الكتب المحفوظة في مكتبة بيت الحكمة ، ان يضع كتبه الرياضية هذه ، وان يؤلف الزيج الشهير بالاضافة الى كتبه التي تبحث في الاسطرلاب وغيره .

وبامر من الخليفة هرون الرشيد ، وفي بيت الحكمة نفسه ، وضع « الاصمعي » اللغوي الشهير

(٤٤) جرجي زيدان : تاريخ التمسك الاسلامي ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وابن النديم : الفهرست ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

(٤٥) بروكلمان : تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٠٢ .

(٤٦) ذات المصدر .

(٤٧) نفس المصدر ص ١٠٢ .

(٤٨) نفس المصدر .

كتاباً عن تاريخ الملوك انغابرين ، كما وضع « الفراء »
العالم النحوي المعروف ، وبامر من المأمون ، كتابه
في اصول النحو ، حيث افردت له غرفة خاصة في
بيت الحكمة .

وفي بيت الحكمة وضع العالم محمد بن اسحق
ابن النديم كتابه الشهير « الفهرست » كما وضع
« المسعودي » المؤرخ مؤلفاته « مروج الذهب »
والاشراف والتنبيه وغيرها في ذلك المعهد العظيم
وفي بيت الحكمة ايضا وضع « حمزة الاصفهاني »
كتاب « تاريخ الملوك والانبياء » معتمداً على المصادر
التي توفرت له في تلك المؤسسة .

* * *

الان وقد انتهينا من ابراز اهمية بيت الحكمة
وما احدثه من ثورة في حركة الترجمة ، وفي نشر
العلوم في مختلف انحاء العالم الاسلامي ، لا بد لنا من
التحدث ، ولو بإيجاز ، عن كبار المترجمين في ذلك
العصر الزاهر ، سواء منهم الذين عملوا في بيت
الحكمة ذاته ، او الذين ساهموا مساهمة حميدة
فعانة في نقل التراث العلمي والفكري ، ذلك التراث
الذي كان له اثره الكبير في تطور الفكر العربي
الاسلامي ونضوجه ، وفي ازدهار الحضارة العربية
الاسلامية التي كانت بحق وحقيقة ، المصدر الرئيس
للمدنية العالمية الحاضرة .

١ - عبدالله بن المقفع

يقول العالم الفلكي الكبير « ابو معشر الفلكي »
في كتاب « المذكرات » الذي الفه لحساب « شاذان
ابن بحر » ان « حذاق الترجمة في الاسلام اربعة .
حنين بن اسحق العبادي ، ويعقوب بن اسحق
الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان
الطبري . ونفهم من كلام « ابي معشر » هذا ، ان
هؤلاء المترجمين اكثر حذاقاً في عمل الترجمة ، واوفر
دقة واصالة من سواهم من المترجمين الآخرين .
غير اننا نود ان نبداً بعبدالله بن المقفع لانه من اوائل
المترجمين الحذاق والبلغاء . فقد باشر عمله في
الترجمة في عهد ابي جعفر المنصور .

يكنى ابن المقفع ، وهو فارسي ، بابي عمرو
واسمه الاصلي « روزبه » وقد ابدله الى « عبدالله »
بعد اعلان اسلامه . ويدعى ابوه « داذويه » ولقب
بالمقفع لما احتججه من بيت المال فضربت يده
وتقفعتا وكان ابن المقفع في اول امره كاتباً لسدي
« داود بن عمر بن الحسن » آخر ولاية بني امية في
ولاية « كرمان » وقد جمع اموالا كثيرة ، ومن ثم

اصبح كاتباً لدى عيسى بن علي العباسي عم الخليفة
ابي جعفر المنصور ، وعلى يده اعلن اسلامه ، وان
ظل يخفي عقيدته المانوية والزردشتية .

وكان ابن المقفع كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً
وهو من خيرة الذين نقلوا عن الفارسية الى العربية
لكنه كان في الوقت ذاته شديد التمصب لقومه
الفرس ، مقذع الهجاء للعرب . فقد كان في مقدمة
الادباء الذين سموا الى نشر الادب الفارسية في
العصر العباسي ، والمفاخرة بما كان عليه ملوك فارس
من ابهة وفخفة ، ومن الذين عمدوا الى نشر الافكار
المانوية والزردشتية في المجتمع الاسلامي آنذاك .

كان اول ما ترجمه ابن المقفع عن الفهاوية ،
اللغة الفارسية القديمة ، هو كتاب « كليلة ودمنة »
وهو مؤلف هندي الاصل يدعى « بنجه تيرا » اي
« الكتاب الخمس » (١) ، كما عرف ايضا باسم
« اساطير بيدبا » وقد ترجمه ابن المقفع ترجمة
بليغة تعد نموذجاً بارزاً من روائع النشر العربي .
ولا عجب في ذلك فقد ذكر ان ابن المقفع قد تفقه في
العربية على يد « الخليل » (٢) . وقد ضاع الاصل
الفارسي والسكريتي لهذا الكتاب ، ولم تبق
سوى ترجمته العربية التي ذاعت ذبوعاً منقطع
النظير في العالم الاسلامي . واعتمد الاوربيون على
الترجمة العربية هذه فنقلوا كتاب كليلة ودمنة الى
مختلف لغاتهم منذ اوائل القرن التاسع عشر .

وقد بقيت للكتاب ترجمة سريانية وضعها
الداعية النسطوري « بود » في حدود سنة ٥٧٠م
وتم نشرها على يد كل من « بيكل » و « بنفى » سنة
١٨٧٦ (٣) .

وترجمت كليلة ودمنة الى الفرنسية على يد
المستشرق سلفستر دي ساسي ، ونشرت في باريس
سنة ١٨١٦ . وترجمها « فولف » الى الالمانية
ونشرها في شتوتغارت سنة ١٨٢١ . ونشرت لها
ترجمة انكليزية في اكسفورد سنة ١٨١٩ ، وترجمة
ايطالية في سنة ١٩١٠ ، وترجمة روسية سنة
١٩٣٤ (٤) .

وترجم ابن المقفع - كما اشرنا الى ذلك قبلاً - كتاب

(١) دي بوير : تاريخ الفلسفة في الاسلام : ترجمة
عبدالهادي ابو ريعة ص ١٢ .

(٥) المصدر نفسه ص ٢٩ .

(٥١) دبلاسي اوليري : الفكر العربي مكاتبه في التاريخ
ص ١٢٢ .

(٥٢) بروكلمان : تاريخ الادب العربي : ج ٢ ص ٩٢ - ٩٥ .

التاج ، وكتاب «الانين» وكتاب «اين نامه» وكتاب «مزدك» ، وكتاب «تسر» وغيرها .

وعن اللغة الفارسية ايضا ترجم ابن المقفع ثلاثة من كتب ارسطو هي «قاطيفورياس» ، «وباراميناس» و «انا لوطيقا» كما ترجم كتاب «ايساغوجي» لفرقيوس (٥٢) .

والى جانب هذه الترجمات وضع ابن المقفع عدة كتب منها كتاب «الادب الكبير» الذي سمي في بعض الاوقات باسم «الدرة البهية» ، والادب الصغير ، وكتاب رسالة الصحابة ، وكتاب الدرة الصغيرة او الثانية ، وحكم ابن المقفع التي نشرها العلامة «محمد كرد علي» في «رسائل البلغاء» . ولابن المقفع قصيدة في الشهور المسيحية محفوظة في مكتبة جامع اياصوفيا باسطنبول وقد نشرت مع ترجمة المانية لها ، كما ان له رسالة في معارضة القرآن يقول بروكلمان عنها «فلم نعرفها الا من الرد عليها الذي كتبه الامام الزيدي القاسم بن ابراهيم العلوي المتوفى سنة ٢٤٦هـ ٨٦٠م (٥٤) .

٢ - يوحنا بن ماسويه ١٩٧-٢٤٣هـ ٨٠٩-٨٥٧م

من اوائل المترجمين في العصر العباسي، ورئيس بيت الحكمة ، ومن المعنيين عناية فائقة بالعلوم الفلسفية والطبية ، كما كان من الاطباء المشهورين في طب العيون .

كان ابوه ، وهو نسطوري ، يدق الادوية في مستشفى جنديسابور . واستطاع بفضل ممارسته وخبرته هذه، ان يعرف كثيرا من الامراض وعلاجها، رغم انه لم يكن يعرف الكتابة والقراءة . ولقد جاء ماسويه الى بغداد ، وحاول الاتصال بطبيب الخليفة الرشيد ، جبرائيل بن بختيشوع ، غير انه لم يفلح في ذلك ، بسبب كلام قيل انه صدر عنه في حق جبرائيل . وعندئذ اخذ ماسويه يبيع الادوية في صندوق يحمله معه ، ويجلس به عند باب الحرم في قصر «الفضل بن الربيع» وزير الرشيد . واستطاع ماسويه ان يشفي خادم «الفضل» من رمد اصاب عينها ، فاستأنس به الفضل بن الربيع ، واجري له في كل شهر مئة درهم ، وعلوفة دابتين ، ونزل خمسة غلمان، وامره ان يحمل عياله من جنديسابور ، واعطاه نفقة واسعة فحمل عياله و «يوحنا» حينئذ صبي صغير (٥٥) .

وقد ذكر ابن القفطي ، واعاده ابن ابي اصيبعة رواية عن جبرائيل بن بختيشوع يفهم منها ان ماسويه تزوج في بغداد جارية «داود بن سرافيون» انجبت له ولديه «يوحنا» و «مبخائيل» .

كذلك ذكر «ديلاسي اوليري» في كتابه «كيف انتقلت العلوم اليونانية الى العرب» ان يوحنا بن ماسويه تولى مدرسة جنديسابور ومستشفاهما حين انتقل جبرائيل بن بختيشوع الى بغداد . على ان معظم الذين ترجموا ليوحنا يتفقون على انه قد نشأ في بغداد .

نشأ يوحنا ببغداد ، وبها نال تعليمه واشتهر بالطب وبالنقل من السريانية الى العربية حتى ذاع صيته ، فاتخذ الرشيد طبيا خاصا له ، وقلده رئاسة بيت الحكمة ، وعهد اليه بالاشراف على الكتب التي جلبها من بلاد الروم .

وقد نال يوحنا الحظوة البالغة ليس لدى الرشيد حسب ، بل ولدى الخلفاء الذين اعتقبوه ، وكان مجلسه في بغداد امر مجلس لطبيب او متكلم او متفلسف ، لانه كان يجتمع فيه كل صنف من اصناف اهل الادب (٥٦) ولم يقتصر عمله في بيت الحكمة على الرئاسة والاشراف حسب ، وانما كان يعمل في نقل الكتب وقد ترجم كثيرا منها (٥٧) .

وقد تعلم يوحنا على جبرائيل بن بختيشوع في اول الامر . ثم على يد «عيسى بن نون» الذي صار بطريركا للنساطرة سنة ٨٣٢م وكان يوحنا طبيا فاضلا ، ومؤلفا بالسريانية والعربية ، ومتمكنا من الاغريقية ، وجاء الى بغداد باشارة من جبرائيل بن بختيشوع ، وقدم الى بلاط الرشيد باعتباره طبيا حاذقا ، واحد الذين يشتغلون بالطب اليوناني (٥٨) .

قال عنه «جمال الدين ابن القفطي» صاحب كتاب «تاريخ الحكماء» ، «كان يوحنا من اجل علماء عصره ، متضلعا في الترجمة ، عالما بالعلوم التي يقوم بترجمتها . كما كان يعقد مجلسا للنظر ، ويعمر ذلك المجلس بعلم هذا الشأن اتم عمارة ، ويجري فيه من كل نوع من العلوم القديمة باحسن عبارة . واجتمع اليه اهل العلوم والادب وكان يجتمع اليه تلاميذ كثيرون» (٥٩) .

(٥٧) صاعد الاندلسي : طبقات الامم ص ٥٥ .

(٥٦) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٢٢ .

(٥٨) ديلاسي اوليري : العلوم اليونانية وسبل انتقالها الى العرب ص ٢٢٢ الترجمة العربية .

(٥٩) ابن القفطي : تاريخ الحكماء ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٥٢) نفس المصدر ص ٩٨ .

(٥٤) نفس المصدر ص ١٠١ .

(٥٥) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩ .

وكان الى جانب حذقه السريانية والعربية .
والتأليف بهما ، متمكنا من استخدام الاغريقية (٩) .
كما انه كان من الذين اوفدوا الى بلاد الروم للبحث
عن كتب العلوم اليونانية فيها (١٠) .

لا مجال للتفريق بين الكتب التي تركها يوحنا
ابن ماسويه ، وما اذا كانت موضوعة ام مترجمة .
ذلك لان الذين ترجموا له لم يفعلوا ذلك ، ومنهم
« ابن ابي اصيبعة » صاحب كتاب « طبقات الاطباء »
الذي ذكر له اربعة واربعين مؤلفا (١١) .

وقد ظفرت بعض كتب يوحنا بالشهرة الواسعة
حتى في اوربا . ومن هذه المؤلفات ، كتابه عن
« الحميات » الذي اشتهر زمنا طويلا ، وترجم الى
اللاتينية والعبرية (١٢) . ومن كتبه الشهيرة ايضا
كتاب « دغل العين » في طب العيون الذي اهداه الى
تلميذه حنين بن اسحق . وبلغ من شهرة هذا
الكتاب انه كان من بين الكتب الطبية المقررة في
الامتحان الذي اجراه الخليفة العباسي « القاهر »
(٩٢٢ - ٩٣٤ م) للحصول على اجازة الطب (١٣) .

وبعد كتاب « دغل العين » اول كتاب في طب
العيون يصل الينا . ذلك لان الكتب اليونانية
والسريانية ، وما صنف باللغات الاخرى في هذا
الفن ، قد ضاعت ، وتوجد مخطوطة كاملة من هذا
الكتاب في مكتبة « احمد تيمور باشا » في القاهرة ،
واخرى في مكتبة لينفراي (١٤) .

وذكر « جرجي زيدان » في كتابه « المختصر
في آداب اللغة العربية » ان ما بقي من كتب يوحنا
ابن ماسويه هو :

- ١ - كتاب « نواذر الطب » وفيه ترجمة
لاتينية وشروح .
- ٢ - جواهر الطب .
- ٣ - كتاب ماء الشعر .
- ٤ - كتاب الادوية المسهلة وغيرها .

بقي يوحنا بن ماسويه يخدم خلفاء بني العباس
حتى عهد الخليفة « الواثق بالله » (٨٤٢ - ٨٤٧ م)

(*) اوليري : الفكر العربي مكانته في التاريخ ص ١٢٦ الترجمة
العربية .

(٦٠) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٢ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة : طبقات الاطباء ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٦٢) اوليري : الفكر العربي ص ١٢٧ .

(٦٣) اوليري : كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب ص ٢٢٤
الترجمة العربية .

(٦٤) اوليري : المصدر السابق .

وكان الواثق شغوفا به وقد اهداه في يوم واحد
ثلثمائة الف درهم . . . وذكر يوحنا عن نفسه انه
اكتسب من صناعة الطب الف الف درهم ، وعاش
بعد قوله هذا ، ثلاث سنين اخر (٦٥) .

وكانت وفاة يوحنا بن ماسويه « بسر من راي »
يوم الاثنين لاربع خلون من جمادى الاخرة سنة ثلاث
واربعين ومائتين في خلافة المتوكل (٦٦) .

x x x

٢ - ثابت بن قرة الصابي

بعد ثابت بن قرة من اشهر المترجمين واكثرهم
دقة ، وذلك بشهادة العلماء من غير العرب . فقد
كان يحسن السريانية والعبرية ، واليونانية التي
جانب العربية ، جيد النقل عن هذه اللغات ، الامر
الذي جعل العالم الانكليزي « جورج سارطون »
يعتبره من اعظم المترجمين ، واعظم من عرف في
مدرسة « حران » في العالم العربي (٦٧) .

ولد ثابت بن قرة بمدينة حران يوم الخميس
الحادي والعشرين من شهر صفر سنة ٢١١ هـ ٨٢٦ م
ونشأ على دين آباءه وهو الوثنية التي تحولت الى
المسيحية (٦٨) . وحين اصطدم مع رئيس كنيسة حران
اصدر هذا الرئيس قرارا بحرمانه حوالي سنة ٢٥٩ هـ
٨٧٢ م وارسله الى « كفر توتا » بالقرب من
« دارة » (٦٩) .

وبعد ان جال ثابت في بلاد كثيرة التقى باحد
اولاد موسى بن شاعر وهو « محمد » (٧٠) عند
انصرافه من بلاد الروم حيث كان يفتش فيها عن
كتب الاغريق . وقد اعجب « محمد » بفصاحته
فاصطحبه معه الى بغداد . وقيل ان محمد هذا قد
قرا على ثابت ، وتعلم في داره ، وانه هو الذي
اوصله بالخليفة المعتضد ، فادخله في جملة

(٦٥) ابن ابي اصيبعة : ج ٢ ص ١٢٢ .

(٦٦) نفس المصدر السابق .

(٦٧) و (٦٨) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .

(٦٩) ذكر ابن النديم ص ٢٩٤ وابن القلطي ص ١١٥ ان ولادة

ثابت كانت في سنة ٢٢١ هـ وذلك خطأ لان ابن النديم

قال عنه انه توفي في سنة ٢٨٨ هـ وعمره سبع وسبعون

فيكون مولده الصحيح في سنة ٢١١ .

اوليري : علوم اليونان . ص ٢٢٨ وابن خلكان .

(٧٠) وقع الباحث العلامة المرحوم قدرى حافظ طوقان واخرون

غيره في خطأ فاصح حين ذكروا ان الذي اتصل بثابت بن

قرة هو محمد بن موسى الخوازمي ، في حين ان الذي

اتصل به في كفر توتا هو محمد بن موسى بن شاعر النجم

انظر ابن القلطي ص ١١٥ وابن ابي اصيبعة ج ١ ص ١٩٢

واوليري علوم اليونان ص ٢٢٨ .

المنجمين عنده ، وذكر عن ثابت انه هو الذي ادخل رئاسة الصابئة الى العراق ، فنشبت احوالهم ، وعلت مراتبهم ، وبرعوا (٧١) وقد اكرم المعتضد وفادته ، واجرى له معاشا شهريا قدره خمسمائة دينار وبعد ثابت اعظم هندسي عربي على الاطلاق « (٧٢) » .

وروى « ابن ابي اصبعة » كيفية اتصال ثابت بن قرّة بالخليفة المعتضد بالله ، فذكر ان الخليفة « الموفق » حين غضب على ولده المعتضد ، امر بحجسه في دار اسماعيل بن بلبل ، واوكل به « احمد » الحاجب . وقد طلب اسماعيل بن بلبل الى ثابت ان يدخل الى المعتضد في سجنه ليرفه عنه ، ففعل ذلك ، فانس المعتضد به ، اذ كان ثابت يدخل عليه ثلاث مرات في اليوم بحادثه ويسليه ، ويعرفه احوال الفلاسفة ، وامر الهيئة والنجوم وغير ذلك . فشغف به ولطف منه محله (٧٣) .

ولما تولى المعتضد الخلافة سنة ٢٧٩ هـ ٨٩٢ م زاد اهتمامه بثابت بن قرّة واکرامه له ، فقربه اليه ، واقطعه ضياعا جليلا . وكان يجلسه بين يديه بحضرة العام والخاص . وقد حدث ذات مرة ان كان المعتضد يتمشى مع ثابت في « الفردوس » - وهو بستان في دار الخليفة - للرياضة فانكأ على يد ثابت وهما يتمشيان ، فنثر الخليفة يده بشدة من يد ثابت وقال له « يا ابا الحسن سهوت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يملون ولا يملون » (٧٤) .

وثابت بن قرّة واحد من العلماء الموسوعيين لدى العرب والذين تعددت نواحي عبقريتهم . فقد نبغ في الطب ، وفي الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات (٧٥) . ولم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ، ولا في غيره من جميع اجزاء الفلسفة ، وحسن التخرج والتمهر في العلوم (٧٦) وقد قطع شوطا بعيدا في الرياضيات وفي الفلك ، و اضاف اليها ومهد في ايجاد اهم فرع من فروع الرياضيات هو التكامل والتفاضل (٧٧) .

ولثابت بن قرّة ارصاد حسان لتمس ، تولاها بعداد ، وجمعها في كتاب بين فيه مذهبه في حركة الشمس (٧٨) . كما اشتغل في التحليلات الهندسية واجاد فيها اعادة عظيمة . وله ابتكارات سبق بها الفيلسوف والعالم الرياضي الفرنسي « ديكارت » (٧٩) .

وحل ثابت بعض المعادلات التكعيبية بطرق هندسية ، استعان بها بعض العلماء الغربيين في بحوثهم الرياضية خلال القرن السادس عشر من امثال « كارودان » وغيره من كبار الرياضيين (٨٠) . واستخرج ثابت حركة الشمس ، وحسب طول السنة النجمية فكانت اكثر من حقيقتها بنصف دقيقة ليس الا . كما حسب دائرة البروج ، وقال بوجود حركتين ، مستقيمة ومتعقبة لقطبي الاعتدال (٨١) .

والشيء المؤكد ان ثابت بن قرّة هو الذي وضع دعوى « متلاوس » حول استعمال الجيوب بدلا من الاوتار في شكلها الحاضر . فضلا عن ذلك حل بعض المعادلات التكعيبية بالطرق الهندسية (٨٢) .

كان ثابت من الذين مهدوا السبيل لظهور علم التكامل والتفاضل ولهذا العلم شأن خطير في الاختراع والاكتشاف ، فقد ذكر العالم الرياضي الانكليزي « سميث » في كتابه « تاريخ الرياضيات » يقول « يجدر بنا ان نذكر ثابت بن قرّة الذي اوجد حجم الجسم المتولد من دوران القطع المكافئ حول محوره » (٨٣) .

ويظهر تفوق ثابت بن قرّة في الطب ، بارزا من قصة القصاب الذي مات فجأة ، وكيف شرع اهله ينوحون عليه ، وكيف اسرع ثابت اليه ، فعالجه وانقذه من موت محقق (٨٤) .

x x x

وضع ثابت بن قرّة ترجمات لعدد من كبار علماء الرياضيات والطب اليونانيين من امثال بولونيوس ، وارخميدس ، واقليدس ، وبطليموس ، وتيودوسيوس ، وجالينوس ، بالإضافة الى اصلاحه

(٧٨) قدرى حافظ طوفان : العلوم عند العرب ص ١٢٧ .

(٧٩) نفس المصدر ص ١٢٨ .

(٨٠) المصدر السابق والخالدون العرب لطوفان .

(٨١) طوفان : العلوم عند العرب والخالدون العرب ، وعمر فروخ : عبقرية العرب ص ٥٢ .

(٨٢) قدرى حافظ طوفان : تراث العرب العلمي ص ٩٨ .

(٨٣) نفس المصدر ص ١٩٩ .

(٨٤) انظر القصة ملخصة في طبقات الاخفاء لابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٥ وابن القلطي تاريخ الحكماء ١٢١ .

(٧١) ابن القلطي ص ١١٥ وابن التديم ص ٢٩٤ وابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٢ .

(٧٢) البارون كارادي فولي « تراث الاسلام » ج ١ ص ٢٤١ .

(٧٣) ابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٤ .

(٧٤) ذات المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .

(٧٥) قدرى حافظ طوفان : الخالدون العرب ص ٥٨ .

(٧٦) ابن ابي اصبعة ج ٢ ص ١٩٣ .

(٧٧) نفس المصدر ج ٢ ص ١٩٤ .

كثيرا من الترجمات التي نقلت في زمانه . فالشهور عنه انه اصلح الترجمة التي عملها حنين بن اسحق لكتاب « المجسطي » اصلاحا جيدا . ولم يكتف بذلك بل قام هو نفسه بترجمة المجسطي ترجمة جيدة ، واصلحه ، ووضعها ثم اختصر ذلك الكتاب اختصارا نافعا لم يوفق اليه احد غيره (٨٥) .

بلغت مؤلفات ثابت بن قرة في اللغة العربية بين موضوع و مترجم مائة وخمسين كتابا . وبالإضافة الى ذلك وضع باللغة السريانية ستة عشر كتابا في الهندسة والحساب ، والفلك ، والفيزيقي . وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبمة اسماء مؤلفات ثابت ، غير انهما لم يفصلا الكتب المترجمة منها عن الموضوعية .

فما نقله عن جالينوس ، كتاب الادوية المفردة وكتاب المرة السوداء ، وكتاب سوء المزاج المختلف ، وكتاب الفصد ، وجوامع كتاب الامراض الحارة ، وجوامع كتاب الكثرة ، وجوامع كتاب تشريح الرحم ، وجوامع كتاب المولودين لسبعة اشهر ، وجوامع تشريف صناعة الطب ، تفسير جالينوس لكتاب ابقراط في الالهوية ، والمياه ، والبلدان ، اختصار كتاب النبض ، جوامع كتاب النبض ، جوامع كتاب النبض الكبير ، اختصار كتاب قوى الاغذية ، حيلة البرء ، اختصار كتاب ايام البحران ، اختصار كتاب الاسطقات ، جوامع كتاب الادوية النفسية ، جوامع كتاب الاعضاء الالهية ، وكتاب الكيموس .

كذلك ترجم ثابت بن قرة « الكتب السبعة الاولى » وهي ثمانية كتب من اجزاء المخروطات لابولونيوس (٨٦) .

ومما ترجمه عن بطليموس - بالإضافة الى كتاب المجسطي - كتاب وجه مسيرات القمر الدورية ، وجوامع المقالة الاولى كما ترجم رسالة في الحجة المنسوبة الى سقراط ، وجوامع كتاب نبقوماخوس في الارتماطيقى ، اي الحساب ، وكتاب بار ارميناس وجوامع كتاب اناطوطيقا لارسطو ، ونقل كتاب اقليدس في الهندسة واصلحه اصلاحا (٨٧) .

وهناك ترجمات مختصرة ذكرها ابن القفطي فقال عنها « وله عدة مختصرات في النجوم والهندسة

(٨٥) ابن القفطي ص ١٢٠ .

(٨٦) يقول كارادي فو ان ثابت قد حفظ لنا ثلاثة كتب من مخروطات ابولونيوس سمعت اصولها اليونانية انظر ترات الاسلام ج ١ ص ٢٢١ الترجمة العربية .

(٨٧) ابن القفطي : ص ١١٩ .

رايتها بخطه مما عمله ثابت للفتيان ابقاهم الله ، واضنه بعني بهم اولاد محمد بن موسى بن شاكر . . . واما نقله من لغة الى اخرى فكثير (٨٨) .

ومما ترجمه ثابت ايضا كتاب « اثافرو ديطوس » الذي فسر به كلام « ارسطو » عن الهالة وقوس فزح . وكذلك كتاب « النسبة المحدودة » لابولونيوس ، وشروح « اوطوقيقوس » لمقالة ارخميدس في الكرة والاسطوانة ، وكتاب « اصول الهندسة » لمنلاوس ، وكتاب الجغرافيا وصفة الارض لبطليموس ، وكتاب « ببس » الرومي عن تفسير كتاب بطليموس في تطبيع الكرة .

ضاعت كل مؤلفات ومترجمات ثابت بن قرة التي ناهزت المائتين ، ولم يبق منها في وقتنا الحاضر سوى قلة احصى منها بعض المتبعين الكتب والرسائل التالية .

- ١ - كتاب الكرة والاسطوانة .
- ٢ - كتاب الماخوذات ، وكلاهما لارخميدس ويوجد الاول في مكتبة خراجي زادة ببروسه ، والثاني في مكتبة فاتح باسطنبول ، ومنه نسخة في طهران .
- ٣ - كتاب المعطيات في مكتبة نور عثمانية .
- ٤ - كتاب الاصول في مكتبة فاتح .
- ٥ - عمل الدائرة المرسومة بسبعة اقسام متساوية وهذه الكتب الثلاثة من بعض ما ترجمه ثابت من كتب اقليدس وما ترجمه عن اوطولوقس بقي .
- ٦ - كتاب الكرة المتحركة وهو محفوظ بصورته الاصلية في مكتبة اياصوفيا باسطنبول .
- ٧ - كتاب في الطلوعات والغروبات منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبقوسراي باسطنبول .
- ٨ - كتاب في حكاية ما استخرجه القدماء من خطين بين خطين حتى يتوالى الاربعة متناسبة لاوطرقيوس ، منه نسخة في باريس .
- ٩ - المطالع ترجمه في الاصل حنين بن اسحق واصلحه ثابت وهو لابسقلاوس منه نسخة في باريس .

١٠ - المخروطات لابولونيوس صححه اولاد موسى منه نسخة في مكتبة ليدن بهولندا .

١١ - سهيل المجسطي لبطليموس منه نسخة في

(٨٨) المصدر السابق .

- ١٥- كتاب في ان الخطين اذا خرجا على زاويتين قائمتين التقيا توجد منه نسخ في باريس ، واياصوفيا ، والقاهرة .
- ١٦- كتاب في الاعداد المتحابة منه نسخة في اياصوفيا .
- ١٧- رسالة في استخراج عمل المسائل الهندسية منه نسخة في باريس .
- ١٨- قسمة الزاوية بثلاثة اقسام متساوية موجود في باريس .
- ١٩- المسائل التي سأل عنها علي بن اسد منه نسخة في المتحف البريطاني .
- ٢٠- كتاب في حساب رؤية الاعلى ، في المتحف البريطاني .
- ٢١- نيل المطالب من المعاني الهندسية منه نسخ في القاهرة واياصوفيا .
- ٢٢- كتاب الروح لافلاطون منه نسخة في ميونيخ واخرى في لندن .
- ٢٣- قطوع الاسطوانة منه نسخة في اياصوفيا واخرى في القاهرة .
- ٢٤- كتاب عن المثلث قائم الزاوية في الاسكوريال .
- ٢٥- حجة سقراط في المربع وقطره ، في اياصوفيا والقاهرة .
- ٢٦- كتاب في عمل شكل مجسم ذي ١٤ قاعدة في مكتبة كوبري .
- ٢٧- كتاب في الات الساعات (الرخامات) ، مكتبة كوبري .
- ٢٨- كتاب في الكرة في الاسكوريال .
- ٢٩- كتاب في ايضاح الوجه الذي ذكره بطليموس ، مكتبة كوبري .
- ٣٠- كتاب ارتعاش النجوم الثابتة .
- ٣١- كتاب في حركة الفلك في باريس وفلورنس .
- ٣٢- في البياض الذي يظهر في البدن : اياصوفيا .
- ٣٣- مساحة الاشكال المسطحة والمجسمة : اياصوفيا .
- ٣٤- النسبة المؤلفة : طوبقوسراي .
- ٣٥- ذكر الافلاك وخلقها : اياصوفيا .
- ٣٦- السبب في منوحة مياه البحر : طوبقوسراي .
- ٣٧- كتاب في الهيئة : اياصوفيا (٨٩) .

مكتبة اياصوفيا واخرى بخط عبري في مكتبة المتحف البريطاني .

١٢- في اقتصاص جمل حالات الكواكب المتحررة لبطليموس ايضا منه نسخة في المتحف البريطاني واخرى في لندن .

١٣- تصحيح كتاب الطلوعات والغروبات لبطليموس كذلك ، منه نسخة في اياصوفيا واخرى في طوبقوسراي .

١٤- باري ارميناس لارسطو ويتهذب نيقولاوس .

١٥- مقالة لارسطو لكتابه فيما بعد الطبيعة منه نسخة في مكتبة اياصوفيا .

١٦- جوامع لكتب جالينوس منها نسخة في اياصوفيا (١٨٨) .

اما الباقي من مؤلفات ثابت فقد احصاه « بروكلمان » على النحو التالي .

١ - كتاب الروضة في الطب منه نسخة في بودليان .

٢ - جوامع من كتاب جالينوس في الذبول منه نسخة في بودليان .

٣ - رسالة في تولد الحصاة عن حصاة المثانة والكلى في مكتبة برلين .

٤ - كتاب البيطرة في مكتبة كوبري منه نسخة .

٥ ، ٦ - كتابان في الفلك منهما نسختان في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٧ - كتاب الشكل والقطاع منه عدة نسخ في لندن وباريس ومدريد واسطنبول وغيرها .

٨ - كتاب المفروضات منه نسخ في القاهرة وباريس واسطنبول ولندن وفلورنس .

٩ - رسالة في الفرستون : نظرية ميزان الذهب منها نسخ في برلين وبيروت والهند .

١٠ - كتاب في ابطاء الحركة في فلك البروج وسرعتها منه نسخة في باريس .

١١ - كتاب سنة الشمس والارصاد منه نسخة في الاسكوريال .

١٢ - كتاب في تأليف النسب .

١٣ - كتاب في مساحة المجسمات المكافئة . منه نسخ في اياصوفيا ، والقاهرة ، وباريس .

١٤ - كتاب في مساحة قطع المخروط منه نسخ في باريس والقاهرة واياصوفيا .

وقد ذكر ابن القفطي ان ثابت بن قره وضع كتابا كبيرا في الموسيقى يقع في خمسمائة ورقة (٩٠) كما عمل ارسادا فلكية في بغداد ، حول ارتفاع الشمس ، وطول السنة الشمسية .

وقد توفي ثابت بن قره في السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٢٨٨ هـ الموافق ١٨ شباط ٩٠١ م وكانت ولادته في حدود سنة ٢١١ هـ ٨٢٤ م .

حنين بن اسحق المبادي

١٩٤ - ٢٦٠ هـ - ٨٠٩ - ٨٧٢ م

ولد حنين بن اسحق المبادي بالحيرة في عائلة مسيحية نسطورية النحلة . كان أبوه يبيع العقاقير في الحيرة ، وقد عمل حنين معه وهو فتى غير ان مطامحه التي كان يحلم بها لا يمكن ان يتسع لها حانوت صغير في بلدة صغيرة . فقد كانت ببغداد مطمح انظاره ، ومحط اماله ، حتى لقد كان ، وهو في صغره ، يسأل رجال القوافل عن المسافة بين بغداد والحيرة .

وحدث ذات مرة ان نضرع الى مرشد احدى القوافل فقبل هذا بان يأخذه معه الى بغداد مقابل قسبة من مرهم الكافور ، وقد وافق حنين على ذلك ، وطار فرحا ، ولم تغمض له عين تلك الليلة من شدة الفرح (٩٠) . وراح حنين يحضر مجلس ابن ماسويه رئيس بيت الحكمة ، وجعل يخدمه ويقرا عليه (٩١) وقد اعجب ابن ماسويه بنباهة الفتى وذكائه ، وصار يعتمد عليه في تحضير بعض العقاقير امامه ، ويقرا له كتاب « فرق الطب » الموسوم باللسان الرومي والرياني « بهرأسيس » (٩٢) .

كان اهل جنديسابور ومتطببوها بصفة خاصة يكرهون ان يدخل ابناء التجار في صناعة الطب وهذا ما كان يباعد حنينا عن ابن ماسويه ، فضلا عن ذلك كان حنين كثير السؤال الامر الذي لم يحتمله ابن ماسويه . فقد حدث ان سأل حنين حين كان يقرأ عليه سؤالا في قضية « فحرد يوحنا » وقال : ما لاهل الحيرة وتعلم الطب ؟ سر الى فلان قرابتك حتى يهب لك خمسين درهما تشتري منها قفازا صغيرة بدرهم ، وزرنيخا بثلاثة دراهم ، واشتر بالباقي فلوسا كوفية وقادسية ، وضع زرنيخ القادسية في تلك القفاز ، واقعد على

الطريق ، وضع الفلوس الجيدة للصدقة والتفقة ، وبع الفلوس فاته اعود عليك من هذه الصناعة » ثم امر به فاخرج من داره ، فخرج حنين باكيسا مكروبا (٩٣) .

بعد تلك الحادثة مباشرة وطد حنين عزمه على ان يتقن صناعة الطب ، ويتعلمها بلفتها الاصلية وهي اليونانية ، ولذلك شد الرحال الى اسبانيا الصغرى لتعلم اللغة الاغريقية ، واتقان صناعة الطب ، حتى اذا ما اكمل هناك ثلاث سنوات ، عاد الى بغداد متخفيا في زي كاهن ، وقد اطلق شعر رأسه ولحيته ، وراح يتردد على بيت « اسحق بن الخفي » وهو من الملمين باليونانية الماما جيدا ، حتى اكتشف امره يوسف بن ابراهيم الطبيب ، اذ سمعه ذات مرة يترنم باشعار هوميروس كبير شعراء الاغريق ، فعرفه من نعمته ، وقد اسر حنين الى يوسف هذا بان لا يفضح امره ، لانه يريد ان يحكم اللسان اليوناني قبل ان يتعلم الطب (٩٤) .

اصل حنين بعد عودته الى بغداد باولاد موسى بن شاكر المنجم ، فعمدوا اليه بمهمة السفر الى بلاد الروم على نفقتهم الخاصة ، وجلب كل ما يعثر عليه من كتب اليونان في الفلسفة والفلك والرياضيات ، وقد سافر حنين الى بلاد كثيرة ووصل الى اقاصي بلاد الروم ، ثم عاد الى بغداد فامضى فيها فترة ، رحل بعدها الى البصرة حيث تعلم العربية على الخليل بن احمد . وكان حنين هو الذي ادخل كتاب « العين » للخليل بن احمد الفراهيدي الى بغداد (٩٥) .

بعد ان اكمل حنين تمكنه من اللغة العربية اقبل على ترجمة الكتب اليونانية ، واتصل خلال وجوده في بغداد بجبرائيل بن بختيشوع . ويذكر يوسف بن ابراهيم الطبيب انه دخل يوما على جبرائيل فوجد عنده حنينا وقد ترجم له اقساماً من كتب جالينوس في التشريح ، وكان جبرائيل يخاطب حنينا بكلمة « المعلم » فاستعظم يوسف ما سمع وما رأى ، فرد عليه جبرائيل يقول « لا تستكثر ما ترى من تبجيلي هذا الفتى فوالله لئن مد له في العمر ليفضحن سرجيس » وكان جبرائيل يقصد بذلك سرجيس الراسميني ، وهو اول من نقل علوم اليونان الى اللغة السريانية (٩٦) .

(٩٣) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤١ والقفطي ص ٨٤ .

(٩٤) ذكر ابن ابي اصيبعة نقلا عن سليمان بن جندب ان حنينا تعلم لسان اليونانيين في الاسكندرية وهذا قول مشكوك فيه .

(٩٥) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤١ .

(٩٦) المصدر ذاته ص ١٤١ .

(٩٠) ابن القفطي ص ٨٢ .

(٩١) ابن القفطي ص ٨٤ .

(٩٢) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٢٩ .

مغلظة بان لا يعطوا دواء قتالا . فلم ار ان اخالف
هذين الامرين الشريفين « (١٠٣) .

x x x

خلف حنين بن اسحق وراءه ثروة فكرية
هائلة تمثلت في مترجماته التي بلغت مائتين وستين
كتابا ، وفي مؤلفاته التي وصلت نحو مائة وخمسة
عشر كتابا (١٠٤) كما تمثلت في العدد الوفير من الرجال
الذين تعلموا على يديه وقد بلغ عددهم حوالي
تسعين تلميذا « (١٠٥) .

ونظرا للمكانة الرفيعة التي كان يحتلها حنين
في دنيا الفكر والعلوم ، فان الكثيرين من تلامذته
ترجموا بعض الكتب ووضعوا اسمه عليها ترويجا
لها . ولذلك توجد عدة كتب منحولة له .

ترجم حنين كل مؤلفات جالينوس في الطب
والفلسفة بالإضافة الى مؤلفات اخرى لابقراط ،
واوريباسوس ، ويولس الاجائطي ، ودسقوريدس
وافلاطون . وارسطو ، والاسكندر الافروديسي
وغيرهم .

نقل حنين مائة كتاب من مؤلفات جالينوس
الى اللغة السريانية ، وتسعة وثلاثين كتابا آخر الى
اللغة العربية . والى حنين وحده يرجع الفضل في
تبوء جالينوس اسمى مقام في الشرق خلال العصور
الوسطى ، وفي الغرب الوسيط بصفة غير
مباشرة « (١٠٦) .

ولم يقف حنين عند كتب جالينوس وحدها ،
بل نقل ايضا الى اللغتين السريانية والعربية ، كل
الشروح التي وضعها جالينوس على مؤلفات ابقراط
وافرد حنين كتابا في تعداد ما ترجمه من مؤلفات
جالينوس . وهذا الكتاب عبارة عن رسائل بعث بها
حنين في سنة ٨٦٥م الى « علي بن يحيى » المشهور
بابن المنجم ، احد المولعين بالترجمة ، وصاحب
مكتبة ضخمة وشهيرة في بغداد ، وقد عثر المستشرق
الالماني « بوغشتراسر » على هذه الرسائل في
مخطوطتين بمسجد « ايا صوفيا » فترجمها الى
الالمانية ونشرها في « لايزغ » سنة ١٩٢٥ (١٠٧) .

كانت نقول حنين عن « ارسطو » كثيرة .

(١.٣) نفس المصدر السابق .

(١.٤) احمد سوسة : الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية
ج ١ ص ١١٨ .

(١.٥) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١.٦) نفس المصدر السابق ص ١٧٥ .

(١.٧) ابن التديم : الفهرست ص ٤٢٤ .

فقد نقل عنه كتاب « فاطيفورياس » اي « المقولات »
كما ترجم مختصر هذا الكتاب وترجم « بارارمنياس »
اي « العبارة » الى السريانية ونقل جزءا من كتاب
« انالوطيقيا » اي « القياس » الى السريانية ايضا ،
واصلح الترجمة العربية التي وضعها له « تيا دورس »
كما ترجم كتاب « طوبيقا » اي « الجدل » الى
السريانية وشروح كل من امونيوس والاسكندر
الافروديسي لهذا الكتاب . وترجم المقالة الثانية من
كتاب « السماع الطبيعى » الى السريانية ، واصلح
ترجمة ابن البطريق لكتاب « السماء والعالم » وترجم
بعضا من شرح ثامسطيوس لهذا الكتاب ، ونقل
كتاب « الكون والفساد » الى السريانية .

وترجم الى السريانية ايضا كتاب « الحروف »
اي الالهيات وعددا من شروح ثامسطيوس لهذا
الكتاب ، وتفسير فرفورديوس لكتاب ارسطو في
الاخلاق (١٠٨) .

وعن افلاطون ترجم حنين كتاب « النواميس »
وكتاب طيماوس في ثلاث مقالات . وكتاب الجمهورية
وكتاب السياسة وكتاب القوانين . ويقول الدكتور
احمد شلبي ان حنينا ترجم كتب اقليدس الى
العربية (١٠٩) .

وكان حنين شديد التمحيز والتدقيق في
اعمال الترجمة ، لا يكتفي بالاعتماد على نص واحد .
وكان يكرر قوله « وددت دوما لو كانت لدي ثلاث
نسخ يونانية من كل كتاب النقلة ، ليتسنى لي ان
اقابل فيما بينها واستخرج الاصل الصحيح
منها » (١١٠) .

وكان حنين من المجدين في طلب العلم والبحث
عن نوادر كتب الطب والفلسفة والمنطق ، قام
باسفار ورحلات واسعة في اسيا الصغرى واليونان
وفارس والشام وفلسطين ومصر ، لتعلم اللغتين
اليونانية والفارسية ، وللتنقيب عن كتب العلوم في
تلك الاقطار .

ومما رواه عن نفسه في هذا الصدد انه احتاج
ذات مرة الى نسخة من كتاب « البرهان » لجالينوس
فراح يبحث عنه بنفسه في عدد من البلدان « وطلبته
انا ، وجلت في طلبه بلاد الجزيرة والشام كلها
وفلسطين ومصر الى ان بلغت الاسكندرية : فلم
اجد منه شيئا الا بدمشق نحو من نصفه » (١١١) .

(١.٨) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٦ .

(١.٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ٤٤ .

(١١.٠) ابن التديم : ص ٢٥٨ .

(١١.١) ابن ابي اصيبعة : ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

ويظهر فضل حنين على التراث الفكري اليوناني بارزا ، اذا ما علمنا بان سبعة من كتب جالينوس في علم التشريح قد ضاعت اصولها اليونانية ، ولكن ترجمة حنين هي التي حفظت هذه الكتب واعادتها الى الظهور (١١٢) .

والى حنين ايضا يعزى الفضل في وضع المنهج الكامل لمدرسة الاسكندرية الطبية في تناول الطلاب العرب ، وكان هذا المنهج يشمل طائفة مختارة من مقالات جالينوس وهي الكتب التي عرفت لدى المؤلفين العرب باسم كتب جالينوس الست عشرة (١١٣) . وكانت بعض هذه الكتب قد ترجمت ، قبل حنين ، الى السريانية والعربية على يد بعض المترجمين من امثال سرجيس الراسعيني ، وموسى بن خالد الترجمان وغيرهما ، الا ان الترجمة الدقيقة الصائبة هي ترجمة حنين وحدها . ويقول ابن ابي اصيبعة عن مترجمات حنين من كتب جالينوس « وغالب الامر لا يوجد شيء من كتب جالينوس الا وهي بنقل حنين او باصلاحه لما نقل غيره » (١١٤) .

* * *

كانت نهاية حنين مفاجئة ، مثل نهاية غيره من المفكرين وذوي العقيدة الثابتة في كل الزمان . فقد دفعت الغيرة منه ، حساده الى الوشاية به وايغال صدر الخليفة المتوكل عليه ، وكان على رأس اولئك الحساد بختيشوع بن جبرائيل ، واسرائيل بن زكريا الطيفوري وهما من النساطرة ايضا .

لقد لفق الطيفوري حكاية مفادها ان حنينا لم يبصق على صور الدين صلبوا السيد المسيح ، الامر الذي اثار غضب الجاثليق رئيس الكنيسة الشرقية فلعن حنينا بحضرة الملا من النصاري سبعين لعنة ، وقطع زناره ، وامر المتوكل ان لا يصل اليه دواء من قبل حنين حتى يشرف على صلبه الطيفوري . وانصرف حنين الى داره فمات من ليلته (١١٥) .

لم يمت حنين من ليلته تلك كما ذكر ذلك خطأ ابن ابي اصيبعة . لان المتوكل امر بالقائه في السجن وصادر املاكه وفيها مكتبته . وقد سرد حنين

لكبته تلك في رسالة نقلها ابن ابي اصيبعة وفي هذه الرسالة يقول حنين ان المتوكل « احضر السوط والحبال ، وامر بي فشددت مجردا بين يديه ، وضربت مائة سوط ، وامر باعتقالي والتضييق علي . ووجه فحمل جميع ما كان لي من رحل واثاث وكتب وما شاكل ذلك ، وامر بنقض منازلني الى الماء ، واقمت داخل داره معتقلا ستة اشهر في اسوا ما يكون من الحال ، حتى صرت رحمة لمن رأني . وكان ايضا في كل يسير من الايام بوجه من يضربني ويجدد لي العذاب » (١١٦) .

غير ان الخليفة اطلق سراح حنين فيما بعد ، ورد اليه امواله ، واقر له ثلاثة دور ، واطلسق الفائت له من رزقه ، وخصص له خمسة عشر الف درهم في الشهر الواحد ، كما فرض غرامة على الذين رشوا به زادت عن مائتي الف درهم (١١٧) وعاش حنين بعد تلك النكبة عشرين سنة اخرى ، حتى توفي - باتفاق معظم المؤرخين - يوم الثلاثاء لست خلون من صفر سنة ٢٦٠ هـ ٨٧٣ م .

لم نشأ ان نذكر بالتفصيل مترجمات ومصنفات حنين بن اسحق وذلك لكثرتها كما اننا لم نرد ان نذكر ما بقي من تلك المترجمات والمصنفات . فقد تكفل المستشرق الالماني المعروف «بروكلمان» بسرد كل ما عثر عليه من اثار حنين في مختلف اقطار العالم وذلك في الجزء الرابع من كتابه « تاريخ الادب العربي » فليرجع اليه من اراد الافاضة في ذلك .

٤ - قسطنطين بن لوقا البعلبي

٢٠٥ - ٣٠٠ هـ ٨٢٠ - ٩١٢ م

ولد قسطنطين لوقا بمدينة بعلبك في لبنان وهو من سلالة يونانية مسيحية (١١٨) وقد نبغ في علوم كثيرة . فهو الى جانب حذقه اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية والعربية ، وجودة النقل عنها ، كان فيلسوفا وطيبا ورياضيا وفيزيائيا ، مشهور التحقيق بالعدد والهندسة والنجوم والمنطق والعلوم الطبيعية والموسيقى (١١٩) .

وكان ابن النديم يفضل على حنين بن اسحق لانه « كان بارعا في علوم كثيرة منها الطب والفلسفة

(١١٦) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٨ .

(١١٧) نفس المصدر .

(١١٨) صاعد الاندلس ص ٢٢٢ ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤

هنري كوربان تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٩ وغيرهم .

(١١٩) ابن النديم ص ٢٢٤ .

(١١٢) تراث الاسلام ج ١ ص ١٧٧ .

(١١٣) اوليري : علوم اليونان وسجل انتقالها الى العرب ص ٢٢٨ .

(١١٤) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ١٢٦ .

(١١٥) نفس المصدر ص ١٢٨ .

وانهندسة والاعداد والموسيقى ، لا مطعون عليه ، فصيحاً باللغة اليونانية ، جيد العبارة بالعربية (١٢٠) ولذلك كان قسطا يشرف في أيام الأمان على قسم الترجمة من اليونانية والسريانية والكلدانية الى العربية ، كما كان من المبرزين الذين عملوا في بيت الحكمة (١٢١) .

ويبدو ان شهرة قسطا قد ذاعت بعد ان رحل الى بلاد الروم وحصل على شيء كثير من تصانيفهم حتى اذا عاد الى مستقره استدعاه الخليفة الأمان ، واوكل اليه امر الاشراف على ترجمة الكتب اليونانية والسريانية وغيرهما في بيت الحكمة . فكان « يترجم كتباً ويستخرجها من لسان يونان الى اللسان العربي » (١٢٢) .

وكان قسطا ذائع الصيت واسع المعرفة في العالم العربي الاسلامي ، وعالم الفرنجة لما كان يتحلى به من سعة المعرفة (١٢٣) ولذلك قال عنه « أبو الفرج الملقب » ، « لو قلت حقاً لقلت انه افضل من صنف كتاباً بما احتوى عليه من العلوم والفضائل ، وما رزق من الاختصار للالفاظ وجمع المعاني » (١٢٤) .

برع قسطا في الجغرافية والفلك وعلم الرصد . وكان من اوائل العلماء العرب الذين بحثوا في تأثير الطبيعة ، من حرارة ، وامطار ، وبحار ، وجبال وسهول ، على عادات الانسان ونشاطه الاقتصادي بل حتى على لون بشرته ، كما هو مدون في كتابه المعروف « العلة في اسوداد الاحباش » (١٢٥) .

وقد اعتبره المستشرق الفرنسي « هنري كوربان » من علماء النفس فقال عنه « وكذلك بعض ابحاثه في العلوم الخفية حيث تشبه شروحاته ، بشكل مشير ، ابحاث علماء النفس في ايامنا هذه » (١٢٦) .

ويبدو لنا ان كل ما كان يتمتع به قسطا من شهرة ، ويظفر به من مكافأة وتقدير ، لم يكن يتناسب مع سعة علمه وفضله . ولذلك فضل ان يهجر العراق الى ارمينيا ليمش فيها بقية حياته ، وليموت هناك ويدفن فيها . والظاهر ان اضطراب

الاحوال في العراق بعد اغتيال المتوكل كان هو الدافع الاول لذلك النزوح عن العراق .

وقد ذكر كل من ابن القفطي ، وابن ابي اصيبعة ، ان شخصاً يدعى « سنحاريب » - ولا نعرف من امره شيئاً سوى اسمه هذا - هو الذي حجب قسطا القدوم الى ارمينيا وكان فيها آنذاك مولى الخليفة المعروف باسم « أبو الفطريف البطريق » وهو من اهل العلم والفضل ، فحمل اليه قسطا كتباً كثيرة جليلة في اصناف من العلوم » (١٢٧) .

ولم يورد المؤرخون الذين كتبوا عن قسطا اسم المدينة التي استقر فيها ومات في ارمينيا ، وانما اكتفوا بالقول انه ارتحل الى ارمينيا ، وبها مات ودفن ، وبنيت على قبره قبة ، واكرم قبره كأكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع (١٢٨) .

كذلك لم يفرق المؤرخون بين الكتب المترجمة وتلك التي وضعها قسطا . فابن النديم مثلاً لم يذكر من كتبه المترجمة سوى كتاب « السماع الطبيعى » لارسطو ، وكتاب « اصول الهندسة » لافلاطون ، وكتاب الاراء الطبيعية لقلو طرخس ، وتفسير الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الكون والفساد « علماً بان قسطا ترجم لطائفة كبيرة من اطباء اليونان وعلمائهم من امثال ابرن وجالينوس ، واقليدس ، وثيوفراستوس ، وفيلوبونيوس ، وتيودوس وغيرهم ، كما ورد ذلك في بعض الكتب الحديثة من امثال تراث العرب العلمى لقـدري حافظ طوقان ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية لهـنري كوربان ، وسبل انتقال العلوم اليونانية الى العرب لديلاسي اوليري وغيرها .

والتفق عليه لدى المؤرخين القدامى ان قسطا وضع اكثر من مائة كتاب ورسالة ، وانه بقي يواصل الترجمة والتأليف حتى بعد ان انتقل الى ارمينيا حيث ذكر ابن ابي اصيبعة ان قسطا ألف كتباً كثيرة للفطريف البطريق (١٢٩) ومن بين هذه الكتب ثبت بالمؤلفات التي ترجمها عن اليونانية او التي صنفها بنفسه .

فمن مؤلفاته الطبية اوجاع النفوس ، الروائح وعلاؤها ، احوال الباه ، المدخل الى علم الطب ، القوة والضعف ، الاغذية ، النبض ، الحميات ،

(١٢٧) ابن القفطي ص ١٦٢ .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٥ وابن القفطي ص ١٦٢ .

(١٢٩) ابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(١٢٠) الجغرافيون العرب محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢١) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٢) ابن القفطي ص ٢٦٢ .

(١٢٣) محمد صبري حسن . الجغرافيون . ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢٤) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٦٥ .

(١٢٥) محمد صبري حسن ج ١ ص ١٢٢ .

(١٢٦) هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٥٨ - ٥٩

ترجمة نصير مروة وحسن قبيسي .

الخدر ، الأمراض الحادة ، الكبد ، تدبير الإيدان
بالسموم ، تولد الشعر ، حركة الشريان ، الدم ،
الصفراء ، السوداء ، الفصد وغيرها .

ومن كتبه في الفلسفة والرياضيات كتاب
« برقنطس » في المسائل القدرية ، استخراج
مسائل عديدة من مقالة اقليدس ، كتاب شكل الكرة
والاسطوانة ، الهيئة وتركيب الافلاك ، كتاب حساب
الثلاثي في الجبر والمقابلة ، كتاب العمل بالكرة
النجومية كتاب الاوزان والمكاييل ، الالة التي
ترسم عليها الجوامع ، كتاب المدخل الى الهندسة
ومن كتبه المترجمة والموضوعة في الحبل
والميكانيك ، كتاب المرايا المحرقة ، وكتاب الفرستون
وعدة كتب في عمل الاسطرلاب وفي الارصاد الفلكية ،
وكتاب الفلاحة اليونانية .

اما كتبه ومترجماته في الفلسفة والمنطق فمنها
كتاب المدخل الى المنطق ، شرح مذاهب اليونانيين
الفصل في بيان النفس والروح ، كتاب الجزء الذي
لا يتجزأ ، كتاب النوم والرؤيا ، المدخل الى كتاب
« ايساغوجي » مسائل في الحدود على راي الفلاسفة
وغيرها .

بقي عدد من مؤلفات ومترجمات فسطا في
عدد من المكتبات في العالم وقد ترجم العديد منها
الى عدة لغات عالمية . فرسالته الفلسفية المعنونة
« الفرق بين النفس والروح » قد ترجمت الى
اللاتينية منذ القرن الثاني عشر على يد يوحنا
الاسباني ، كما نشر نصها العربي الاب لويس شيخو
في مجلته « المشرق » سنة ١٩١١ (١٢٠) .

وقد احصى بروكلمان طائفة من كتبه الموجودة
في المكتبات العالمية منها .

- ١ - رسالة في اختلاف الناس في سيرهم واخلاقهم
منها نسخة في برلين .
- ٢ - رسالة في السهر واسباب الارق الفها لابي
الغطريف منها نسخة في مكتبة برلين .
- ٣ - في تدبير الإيدان للسفر للسلامة من المرض
والخطر . الفه لابي محمد الحسن بن مخلد .
منه نسخة في المتحف البريطاني .
- ٤ - كتاب في البلغم وعله الفه لابي الغطريف
الفصل الاول منه موجود في ميونيخ .
- ٥ - كتاب في علل الشعر الفه لابن مخلد موجود
في المتحف البريطاني .

(١٢) دي يود : تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة ابو ريدة
ص ٢٤ .

- ٦ - رسالة في العمل بالكرة ذات الكرسي منها
نسخ في برلين والمتحف البريطاني وباريس .
- ٧ - كتاب العمل بالاسطرلاب الكري منه نسخة
في ليدن واخرى في طوبقوسراي باسطنبول .
- ٨ - رسالة في الكرة الفلكية موجودة في برلين
ولندن واباصوفيا .
- ٩ - كتاب العمل بالكرة الفلكية موجودة في
بودليان .

- ١٠ - كتاب البرهان على عمل حساب الخطاين منه
نسخة في المكتب الهندي .
- ١١ - هيئة الافلاك منه نسخة في بودليان .
- ١٢ - رد قسطا على « ابن المنجم » في مكتبة عيسى
اسكندر المطوف بدمشق .
- ١٣ - كتاب الوباء في مكتبة بنكهور .
- ١٤ - كتاب في الادوية المسهلة في ابا صوفيا .
- ١٥ - كتاب في العياء في ابا صوفيا .
- ١٦ - كتاب في علة طول العمر وقصره ، ابا صوفيا .
- ١٧ - كتاب في الضرس منه نسخة في ابا صوفيا .
- ١٨ - كتاب في ذكر اصلاح الادوية المسهلة ،
ابا صوفيا .
- ١٩ - كتاب في صفة الجدري واسبابه ، ابا صوفيا .
- ٢٠ - في الوزن والكيل منه نسخة في ابا صوفيا .

ومن كتبه المترجمة الموجودة في الوقت الحاضر
ما يلي

- ١ - كتاب الاصول لاقليدس في مكتبة اربسالا وفي
مكتبة جامع فاتح باسطنبول .
- ٢ - كتاب المطالع لابستقلاوس . منه نسخة في
برلين واخرى في مشهد بايران .
- ٣ - كتاب الاكر لثيودوسيوس ، منه نسخة في
برلين ، وكمبردج ولنفراود واسطنبول
وغيرها .
- ٤ - كتاب المساكن لثيودوسيوس في طبقبوسراي .
- ٥ - كتاب الايام والليالي لثيودوسيوس في برلين
واسطنبول .
- ٦ - كتاب شيل الانتقال لايرن . ليدن والقاهرة
واباصوفيا .
- ٧ - كتاب الطلوع والغروب لاطراوقس في ليدن .
- ٨ - فهرس مصنفات جالينوس في مدريد
واسطنبول .

بأنه « كان من اكبر فلاسفة القرن الرابع الهجري » (١٢٤) .

ولا غرو في ذلك فقد تتلمذ يحيى على الفارابي ولازمه زمنا اثناء وجوده في بغداد ، واطلع على الكثير من آرائه ومؤلفاته ، بالإضافة الى ما اطلع عليه من الكتب الاخرى التي توفرت له في بيت الحكمة عن الفلسفة والمنطق .

كان يحيى منهمكا في عمله اشد انهماك ، جم النشاط في أعمال الترجمة والتأليف ، منقطعا اليهما فكان يمضي جل اوقاته اما في الترجمة او التأليف او التصحيح والنسخ ايضا وقد تحدث ابن النديم عن يحيى ، وكان معاصرا له وذا معرفة وعلاقة قوية به ، فقال « قال لي يوما في الوراقين ، وقد عاتبته على كثرة نسخه فقال : من اي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ؟ قد نسخت يخطي نسختين من تفسير الطبري (١٢٥) وحملتهما الى ملسوك الاطراف » (١٢٦) وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولمهدي بنفسه وانا اكتب في اليوم والليلة مائة ورقة واقل (١٢٧) .

ولم يقف نشاط يحيى بن عدي عند الفلسفة والمنطق حسب ، بل اشتغل بالعلوم الرياضية ايضا كما اعتبره ابن ابي اصيبعة من الاطباء وادخله في كتابه الشهير « طبقات الاطباء » (١٢٨) .

كان يحيى في وقته من اشهر المترجمين ، وقد اعد النظر في العديد من الترجمات التي تمت قبله ، واجرى عليها التصويبات اللازمة ، كما قام بمدة ترجمات جديدة لبعض الكتب الهامة (١٢٩) .

عكف يحيى على ترجمة ومراجعة كثير من الترجمات لكتب ارسطو ، وافلاطون والاسكندر الافروديسي ، وثيوفراستوس ، وامونيوس ، وفرفوريوس واثافروديطوس وغيرهم ، فقد ترجم من كتب افلاطون كتاب النواميس ، وكتاب طيماوس وكتاب سوفسطس وكتاب المناسبات (١٣٠) .

وعن ارسطو نقل يحيى كتاب طوبيقا . كما

(١٢١) آدم متر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي ابي دينة ج ١ ص ٢٤٢ .
(١٢٥) يقصد به تفسير القرآن الكريم للطبري وهو من خيرة التفاسير .

(١٢٦) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٢٧) نفس المصدر .

(١٢٨) ابن ابي اصيبعة ج ١ ص ٢٢٧ .

(١٢٩) احمد شلبي : الفكر الاسلامي ص ١٦ .

(١٣٠) ابن النديم ص ٢٨٢ .

والملاحظ ان عددا كبيرا من مؤلفات قسطا ومترجماته قد ترجمت الى لغات عديدة في القرنين التاسع عشر والثامن عشر بصفة خاصة ، ومنها اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية والالمانية (١٣١) .

٥ - يحيى بن عدي التكريتي توفي سنة ٢٦٤هـ - ٩٧٢هـ

ابو زكريا يحيى بن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي . ولد في تكريت وكان نصرانيا يعقوبي المذهب ، ومن اصحاب عقيدة « الطبيعة الواحدة » وهؤلاء يعتقدون ان للمسيح طبيعة واحدة . ولذلك اقر المؤتمر الذي عقده « فلافيان » بطريرك الاسكندرية في « خلقدونية » مقاومة عقيدة الطبيعة الواحدة . وكان نصاري تكريت في مقدمة الذين عاضدوا هذه العقيدة ، وتحمسوا لنشرها ، حيث اصبحت تكريت مقرا لهم ، واصبح الاسقف « مارون » في سنة ٦٢٩م يلقب باسم « مفران » تكريت ، وكان يرأس اثني عشر اسقفا (١٣٢) .

وبعد ان تلقى يحيى علومه الاولى في تكريت انتقل الى بغداد فاشتغل مترجما في بيت الحكمة ، وتعرف في الوقت ذاته على ابي بشرمى بن يونس - وهو من كبار مترجمي بيت الحكمة - وتتلمذ على يديه ، ثم اوصل بالفيلسوف الكبير ابي نصر الفارابي فدرس عليه المنطق والفلسفة ، ونبع في هذين العلمين نبوغا عظيما اكسبه لقب « المنطقي » في زمانه ، حتى قال عنه ابن النديم ، وابن القفطي بانه انتهت اليه رئاسة اهل المنطق في زمانه (١٣٣) .

كان يحيى يحاذق اللغتين السريانية والعربية ، وبجيد النقل عنهما ، وربما عرف اللغة اليونانية ايضا . ولكن الشيء الذي اشتهر به هو نقله عن السريانية الى العربية في بيت الحكمة . كما انه كان يقوم بتصحيح ما يقوم به غيره من مترجمات ، وذلك لسعة اطلاعه على علوم الفلسفة والمنطق . وهذا ما جعل بعض المستشرقين يعدونه في جملة الفلاسفة ومن هؤلاء المستشرق « آدم متر » صاحب كتاب « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » الذي قال عنه

(١٣١) بروكلمان تاريخ الادب العربي الجزء الرابع المجلدات ٩٨ - ١٠٢ .

(١٣٢) دبلاسي اوليري : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ص ٣٦٠ .

(١٣٣) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٦١ .

ترجم تفسيرات هذا الكتاب التي وضعها كل من الاسكندر الافروديسي ، وامونيوس . ويقع هذا التفسير في الف ورقة (١٤١) .

ومن كتب ارسطو ايضا ترجم كتاب سوفسطيقا من السرياني الى العربي ، وترجم له كتاب ايوطيقا ، ونقل بعض مقالات كتاب السماع الطبيعى ، كما ترجم تفسير ثامسطيوس لكتاب ارسطو عن السماء والعالم ، واصلاح ترجمة متى بن يونس لكتاب الكون والفساد وترجم كتاب طوييقا ووضع تفسيراً له ، وترجم شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب ارسطو عن الآثار العلوية ، ومختصر نيقولاووس لكتاب الحيوان وترجم كتاب الالهيات المعروف بالحروف كما ترجم كتاب « ما بعد الطبيعة » الذي وضعه ثاوفرسطس احد تلامذة ارسطو .

وفي مجال العلوم الرياضية وضع يحيى بن عدي عدة كتب ورسائل منها كتاب « ان القطر غير مشارك للضلع » ، وكتاب « ان العدد غير متناه » ، وكتاب « ان كل متصل ينقسم الى متصل » ، وكتاب « في استخراج العدد المنظم » وغيرها (١٤٢) .

وقد ذكر له ابن القفطي زهاء اربعين كتاباً ورسالة عدد اسماءها ، في حين ذكر له ابن ابي اصيبعة سبعة كتب ، وابن النديم ستة كتب ، وذلك بالإضافة الى ذكر الكثير من ترجماته وتفسيره لكتب جالينوس ، وارسطو ، وافلاطون وغيرهم .

وقد اشتهر عن يحيى بن عدي انه كان حسن الحظ ، وفي غاية الجودة والصحة . وقد توفي يحيى ببغداد يوم الخميس لتسع بقين من ذي القعدة سنة ٢٦٤هـ وكان عمره احدى وثمانين سنة ، ودفن في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق في بغداد (١٤٣) .

وذكر ابن ابي اصيبعة نقلاً عن الامير بشر بن فاتك ما سمعه عن ابي الحسين المعروف بابن الامدي انه سمع من ابي علي اسحق بن زرعة - وهو من المترجمين ايضا - ان « ابا زكريا يحيى بن عدي وصى اليه ان يكتب على قبره حين حضرته الوفاة ، وهو في بيعة « مار توما » بقطيعة الدقيق هذين البيتين (١٤٤) .

(١٤١) نفس المصدر .

(١٤٢) ابن القفطي ص ٢٦٣ .

(١٤٣) ابن ابي اصيبعة ٢٢٨ .

(١٤٤) ذات المصدر .

رب ميت قد صار بالعلم حياً
ومبقى قد مات جهلاً وغيباً
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً
لا تعدوا الحياة في الجهل شياً

احصى بروكلمان في كتابه تاريخ الادب العربي ما عثر عليه من فتاح يحيى بن عدي منه :

- ١ - احدى الترجمات العربية الثلاث لكتاب سوفسطيقا لارسطو في مخطوطة بياريس .
- ٢ - ترجمة المقالة الثالثة من كتاب النفس لارسطو الى العربية نقلاً عن السريانية في مكتبة مدينتش .
- ٢ - كتاب تهذيب الاخلاق طبع في بيروت سنة ١٨٢٦ وفي القاهرة سنة ١٨٩١ .
- ٤ - شرح فلويونوس على كتاب اثرياق لجالينوس منه نسخة في بيروت .
- ٥ - الاحتجاج للمسيحية ضد عيسى بن هارون الوراق ، بيروت .
- ٦ - فلسفة الحب الالهي .
- ٧ - تفسير مقالة ارسطو في علم ما بعد الطبيعة في مكتبة باتنه .
- ٨ - المسائل الفلسفية .
- ٩ - مقالة في الموجودات مكتبة باتنه .
- ١٠ - رسالة في الكل والجزء مكتبة باتنه (١٤٥) .

٦ - متى بن يونس

توفي سنة ٢٣٨هـ ٩٢٩م

نشأ ابو بشر متى بن يونس (يونان) في دير « قنى » ويقع هذا الدير على الجانب الشرقي من نهر دجلة ، وبمسافة زهاء تسعين كيلو متراً جنوبى بغداد ، وكانت في هذا الدير مدرسة تدرس فيها اللغات اليونانية والسريانية والعربية (١٤٦) .

وبمرور الزمن نشأت قرية عرفت باسم « قرية دير قنى » لان هذا الدير كان قد بنى في المائة الاولى للميلاد . وفي هذا الدير درس متى بن يونس على طائفة من العلماء والمترجمين من امثال ابي يحيى الروزي الطبيب ، وابن قويري المترجم ، وابن كرنيب ، وروفييل ، وبنيامين (١٤٧) .

(١٤٥) بروكلمان ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢٢ .

(١٤٦) البيانات للشابشتي تحقيق كودكيس مواد الطبعة الثانية ص ٢٩٤ .

(١٤٧) ابن النديم الفهرست ص ٢٨٢ .

وقد انفرد ابن النديم بين المؤرخين العرب في دعواه بان متى بن يونس كان يونانيا ، في حين اكتفى غيره بقولهم انه كان نصرانيا . وقد وفد على بغداد وشارك في حركة الترجمة والنقل في عهد الخليفة الراضي بالله ، واشتهر بعلم المنطق ، والنقل من السريانية الى العربية واليه انتهت رئاسة المنطقيين في عصره (١٤٨) .

وعرف عن متى بانه كان فصيح العبارة جيد النقل الى العربية ، ولذلك وصفه ابن القفطي بانه « عالم المنطق » شارح ، مكتر ، وطيب اللسان ، قصده التعليم والتفهم ، وعلى كنبه وشروحه اعتماد اهل هذا الشأن في عصره ومصره (١٤٩) .

والى جانب ذلك كان متى بن يونس فقيها في اللغة العربية . وقد جرت له مناظرة في هذا الشأن وفي مجلس عام مع ابي سعيد السيرافي النحوي بحضره الفضل بن الفرات (١٥٠) .

ولم يكن متى بترجمة عدد من كتب ارسطو ، والاسكندر الافروديسي ، وثامسطيوس ، وفرفوربوس ، وغيرهم ، بل وضع تعليقات اصينة على كتبهم وشروحهم وتفسيراتهم ، ومنها تعليقاته على مقولات ارسطو ، وعلى كتاب ايساغوجي لفرفوربوس (١٥١) وقال عنه ابن النديم انه فسر الكتب الاربعة في المنطق بأسرها ، وعليها يعمل الناس في القراءة (١٥٢) .

ولقد اختلف المؤرخون في تاريخ وفاة متى بن يونس . فقد ذكر ابن ابي اصيبعة انه توفي ببغداد يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، في حين قال ابن القفطي ان وفاته كانت بعد سنة عشرين وثلثمائة وقبل سنة ثلاثين (١٥٣) .

اما المستشرق الانكليزي ديلاسي اوليري فقد اورد تاريخين مختلفين لوفاة متى بن يونس . فذكر في كتابه « الفكر العربي ومكانته في التاريخ » انه

(١٤٨) ابن النديم ص ٢٨٢ وابن القفطي ص ٢٢٢ ، وابن ابي اصيبعة ج ٢ ص ٢٢٧ وبروكلمان ج ١ ص ١٢٠ .

(١٤٩) ابن القفطي ص ٢٢٢ .
(١٥٠) نفس المصدر .

(١٥١) اوليري : الفكر العربي ومكانته في التاريخ ترجمة تمام حسان ص ١٢٨ .

(١٥٢) ابن النديم ص ٢٨٢ .

(١٥٣) ابن القفطي ٢٢٢

توفي سنة ٣٢٨ هـ ٩٣٩ م ، بينما ذكر في كتابه الاخر « كيف انتقلت علوم اليونان الى العرب » ان وفاته كانت في سنة ٩٤٠ م (١٥٤) .

ترجم متى عن ارسطو كتاب ابوديطيكا وقد نقله عن اللغة السريانية الى اللغة العربية ، وكانت الترجمة السريانية من عمل اسحق بن حنين ، كما ترجم كتاب الشعر من السريانية الى العربية ، وترجم جزءا من كتاب السماء والعالم ، وبعضا من كتاب الحس والمحسوس ، وجزءا من كتاب الحروف (الالهيات) كما نقل نص كتاب البرهان .

اما الشروح التي وضعت لكتب ارسطو فقد نقل متى منها شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب الكون والفساد ، وشرح ثامسطيوس لكتاب الحكم والمواضع ، ولقسم من كتاب الحروف ، وترجم شرح امقيدوس لكتاب الكون والفساد ، وكتاب ايساغوجي لفرفوربوس ايضا .

وفضلا عن ذلك وضع متى شروحا لبعض مؤلفات ارسطو وبعض الشروح التي وضعت لها فوضع تفسيرا لكتاب اناطوطيكا الاولى ، وتفسيرا لكتاب بارارميناس ، وفسر شرح الاسكندر الافروديسي لكتاب فاطيفورباس ، وشرح ثامسطيوس لكتاب ابوديطيكا . وذكر ابن النديم والقفطي له كتاب المقاييس الشرطية ومقدمات كتاب اناطوطيكا .

احصى بروكلمان بعض مترجمات ومؤلفات متى بن يونس في كتابه تاريخ الادب العربي ومنها

١ - كتاب البرهان (اناطوطيكا الثانية) لارسطو الذي نقله الى العربية عن الترجمة السريانية التي وضعها اسحق بن حنين فذكر ان نسخة من هذا الكتاب موجودة في باريس ، واخرى في رامبور وتكيور في الهند .

٢ - كتاب الشعر لارسطو توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال بمدريد .

٣ - مناظرته مع ابي سعيد السيرافي موجودة في كتاب معجم الادباء لياقوت الحموي الجزء الثالث .

(١٥٤) اوليري الفكر العربي ص ١٢٨
وعلم اليونان ص ٢٢٢ .

بَغْدَادُ فِي دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعَالَمِيَّةِ

ترجمة وتعليق

سليمان الشكري

بغداد في دائرة المعارف البريطانية^(١)

بغداد اعظم مدينة في بلاد الرافدين القديمة ، وهي اكبر مدينة وعاصمة للعراق الحديث ، ولحافظه بغداد ذاتها . وتقع على نهر دجلة في القسم الاوسط الشمالي من العراق ، على بعد زهاء ثلثمائة وخمسين ميلا (خمسمائة وستون كيلومترا) شمالي الخليج العربي (١٥٥) .

ومنذ الاطاحة بالنظام الملكي في سنة ١٩٥٨ ، أصبحت العاصمة بغداد مسرحا لصراع سياسي ، حيث حاول القطر ان يجعل من نفسه دولة اشتراكية وحدوية . وقد بلغ عدد سكان المدينة في اوائل سني السبعينات اكثر من مليونين ومائة ألف نسمة (١٥٦) .

تاريخ بغداد

تقع في محافظة بغداد كثير من العواصم القديمة من امثال « اكد » و « برج عثرون » العاصمة المكتبة الواقعة الى الغرب ، وسلوقية وطيسفون

(*) دائرة المعارف البريطانية الحديثة

New Encyclopaedia Britannica

طُبعت سنة ١٩٧٤ في ثلاث مجلدات المجلد الثاني صفحة ٥٨٥ - ٥٨٧ ، ومجلد ٣ ص ٦٢٤ - ٦٢٧ .

(١٥٥) ما يزال معظم الكتاب الغربيين الى الان يطلقون على الخليج العربي ما اطلقه الاستعمار الاوربي القاسم عليه منذ مطلع القرن الخامس عشر .

(١٥٦) اظهر الاحصاء العام الذي اجري في سنة ١٩٧٧ ان عدد سكان بغداد بلغ ثلاثة ملايين وستمائة ألف نسمة . وربما ارتفع هذا العدد الى زهاء اربعة ملايين نسمة في الوقت الحاضر .

تمهيد

مما تفخر به الامم الغربية ، وتمده مظهرها اساسيا من مظاهر حضارتها ، وازدهار العلوم والفنون فيها ، اقدام بعض هذه الامم على تدوين الموسوعات التي تضم مختلف البحوث والموضوعات التي تهتم البشرية جمعاء ، مما عرف باسم « الانسكلوبيديا Encyclopaedia » واصطلح على تسميته لدى العرب باسم « دائرة المعارف » او « المعلمة » .

ومما يحز في نفوس المخلصين من ابناء العروبة والاسلام ، ان نجد الامة العربية ذات التاريخ المجيد ومن ورائها العالم الاسلامي برمته ، ما تزال متخلفة حتى الان عن هذا المضمار ، على الرغم من توفر الامكانيات المادية والادبية للتهوض بمثل هذا العمل المفيد .

ومما يزيد النفس ايلاما ان تعجز الحكومات العربية والمؤسسات العلمية فيها حتى عن ترجمة واحدة من هذه « المعلمات » ترجمة كاملة فلقد انبرى بعض من الشباب المصري في سنة ١٩٢٢ لترجمة « دائرة المعارف الاسلامية » وهي من اشهر هذه الموسوعات ، لكنهم لم يكملوا - مع الاسف - هذا العمل الجليل ، ووقفوا عند حد الاجزاء القليلة التي اصدروها من هذه الترجمة ، ونفضوا ايديهم من المشروع نهائيا .

ولما كانت « المورد » قد خصصت هذا العدد للتحديث عن « بغداد » فقد آثرنا ان ننقل ما ورد عن هذه المدينة العظيمة فيما تيسر لنا الاطلاع عليه من دوائر المعارف هذه ، واجراء بعض التعليقات والتصويبات الضرورية لذلك .

تلك الفترة ، كما ورد ذلك في قصص الف ليلة
ليلة .

اعقبت وفاة هرون الرشيد قيام حرب اهلية
بين ولديه ، خربت خلالها المدينة المدورة تخريباً
فظيحاً ، لم تقم لها قائمة بعدها . وفي الفترة بين
سنتي ٨٣٦ و ٨٩٢ م هجر الخلفاء مدينة بغداد لان
حرسهم الخاص من الاتراك أصبح مقبلاً ، فانتقلوا
الى عاصمة جديدة هي « سامراء » (١٥٨) . وما
لبثوا ان اقاموا ، بعد عودتهم الى بغداد في نهاية
القرن التاسع الميلادي ، في « المخرم » على الضفة
الشرقية من دجلة .

وفي سنة ١٠٩٥ م تم انشاء سور جديد حول
بغداد وقد بقي هذا السور مع كثير من المستودعات
فيه قائماً حتى القرن التاسع عشر حين اصابه
التخريب على نطاق واسع . ولقد نسف احد
البابين الباقيين من ابواب ذلك السور ، وهو « باب
الطلسم » عند انسحاب الاتراك من بغداد سنة ١٩١٧
اما الباب الثاني ، وهو « الباب الوسطاني » فما
يزال قائماً وقد اعيد ترميمه واتخذ متحفاً للأسلحة .

وعلى الرغم من انحطاط سلطة الخلفاء الاخيرين
بقيت بغداد مركزاً عظيماً للتجارة والثقافة ، ما دام
الرشاء الزراعي متواصلاً في العراق . وجاء سقوطها
الحقيقي عندما اجتاحت « هولاكو » المغولي بلاد
الرافدين ، واستولى على بغداد سنة ١٢٥٨ م ،
وقتل الخليفة « المعتصم » مع ثمانمائة الف من
سكان المدينة ذاتها ، كما ذكر ذلك .

نجم عن القضاء على الحكومة العباسية ،
انتقال السلطة التي استطاعت ان تحافظ على صيانة
نظام الري ، وحماية الاراضي المزروعة من القبائل
البدوية المغيرة . واذ ذهبت الاهمية السياسية
لمدينة بغداد ، هبط عدد سكانها الى حد العشر ،
فلم تنهض بعد ذلك ، ولم تبلغ اكثر من مرتبة مدينة
اقليلية ، الى ان ظهر العراق كدولة مستقلة بعد
الحرب العالمية الاولى . لقد ظلت بغداد تخضع
لسلطة « الخانات » الذين اعقبوا هولاكو في الحكم
حتى سنة ١٣٠٤ م ، حين حققت الاستقلال المحلي

(١٥٨) تؤكد الشواهد التاريخية والأثرية القديمة ان سامراء
كانت مستوطنة حضارية قبل فجر التاريخ وانها كانت
معروفة باسم سامارا Samara حتى في العهد الآكدي
والبابلية والآشورية . انظر كتابنا مع الدكتور عيسى
سلمان عن سومر الذي ترجمناه عن الآثاري الفرنسي
اندرية بارو والذي صدر مؤخراً .

اللتين تقعان على بعد حوالي عشرين ميلاً الى
الجنوب . وفي سنة ٧٥٠ م قامت الخلافة في العراق
وذلك بانشاء السلالة العباسية الحاكمة على يد
« ابي العباس السفاح » . وفي سنة ٧٦٢ م قرر
خلفه واخوه ابو جعفر الذي اشتهر باسم المنصور
ان يبني لنفسه عاصمة جديدة في موقع قرية
ساسانية قديمة ، هي مدينة بغداد (١٥٧) .

وقد سميت مدينة المنصور « المدورة » باسم
مدينة السلام ، وكانت تقوم على الضفة الغربية من
نهر دجلة ، غير انه لم تبق اية اثار من هذه المدينة ،
وغدا موقعها الصحيح غير معروف .

كان قطر المدينة المدورة ثلاثة الاف ياردة
(٢٧٠٠ متر) . وكان لها ثلاثة اسوار موحدة
المركز ، لكل واحد منها اربعة ابواب ، تمر خلالها
طرقات تبدأ من قصر الخلافة في وسط المدينة ،
وتتجه نحو الاطراف الاربعة للإمبراطورية العباسية
ولم يسمح باقامة الاسواق داخل المدينة المدورة ،
وقد نشأ حي التجار « الكرخ » خارج باب البصرة .

ومن الباب الشرقي الشمالي يمر طريق
خراسان عبر نهر دجلة فوق جسر عائم . وخلف
هذا الطريق ، وعلى الضفة الشرقية من النهر ،
كان يقوم قصر « المهدي » الذي خلف المنصور في
الحكم ، وقد قامت وتماظمت حوله الضواحي
الثلاث وهي « الرصافة » و « الشماسية » و
« المخرم » وهي اقدم المستوطنات السابقة لمدينة
بغداد الحديثة .

ولقد بلغت بغداد ذروة رخائها في القرن الثامن
واوائل القرن التاسع الميلادي . وذلك في عهد
الخليفة هرون الرشيد بن المهدي ، الذي جمع في
عاصمته الثروات وعلوم العالم المعروف آنذاك .
وقد وردت حكايات كثيرة تحدثت عن مجد بغداد في

(١٥٧) كشفت التنقيبات الأثرية في السنوات الأخيرة عن شواهد
تؤكد ان بغداد كانت معروفة بهذا الاسم في مواضعها العالي
من العصر البابلي وربما قبله . فقد اشارت إحدى الوثائق
من عصر حمورابي (سنة ١٨٠٠ ق . م) الى مدينة بغداد
وهذا يشير الى ان الاسم كان مستعملاً قبل عصر حمورابي
وعلى وجه التحديد قبل اي نفوذ فارسي محتمل .

كما عثر على حجر حدود من عهد الملك البابلي مردوخ -
ابال - ابدن (١٢٠٨ - ١١٩٥ ق . م) يشير الى مدينة
بغداد وعثر على حجر من احجار « اددنراري الثاني
الاشوري ٩١١ - ٨٩٢ ق . م » ذكر فيه اسم « بغدادو »
كما ذكر الملك الاشوري ايضا « نفلان بلسر الثالث ٧٥٥ -
٧٢٧ ق . م » اسم بغداد في بعض مدوناته (دائرة معارف
الاسلام طبعت ١٩٦٠ المجلد الاول ص ٨٩٢ النص الانكليزي)

في عهد « الجلاليين » الذين حاولوا استعادة
رخائها .

في سنة ١٤٠١م تعرضت بغداد لآخر موجة
اجتاحتها من الغزاة المغول تحت امرة « تيمورلنك »
وفي سنة ١٤١٠م سقطت تحت حكم « قره قوينلو »
اي « الاغنام السوداء » ، وهم من « التركمان » الذين
افسحوا الطريق في سنة ١٤٦٩م امام « آق قوينلو »
اي « الاغنام البيض » .

ولقد اخرج هؤلاء « آق قوينلو » في سنة
١٥٠٨م من بغداد على يد الشاه اسماعيل الصفوي .
وفي سنة ١٥٢٤م استولى العثمانيون على بغداد لأول
مرة في عهد السلطان سليمان الفاتح وما لبث الشاه
عباس الفارسي ان استعادها تحت حكمه في سنة
١٦٢٣م لكن اعيدت تحت حكم الاتراك على يد
السلطان مراد الرابع في سنة ١٦٢٨م .

كان هذا التبدل المستمر في ولاء بغداد يعود ،
في ناحية منه ، الى موقعها الجغرافي ، ووقوعها بين
امبراطوريتين عظيمتين ، كما يعود ، من ناحية ثانية ،
الى الخلاف بين ابنائها .

وفي اثناء القرن السابع عشر الميلادي ، لم
يعمل الحكام الاتراك الذين كانوا يتعاقبون بسرعة ،
سوى الشيء الضئيل لاستعادة الرخاء في بغداد .
على ان بداية القرن الثامن عشر ، شهدت تعيين
حاكمين « واليين » متعاقبين ، هما حسن باشا
وولده احمد باشا (١٥٩) اللذين اصلحا ادارة الحكومة
وذلك عن طريق ادخال طبقة من الموظفين من الارقاء
القوقاز المدينيين والمسكريين ، الذين عرفوا باسم
« الماليك » ، الذين رفعوا من منزلة العاصمة
بغداد ، فاستطاعت ان تسيطر على كل بلاد الرافدين
من البصرة الى ماردين ، ومن دون ان يدينوا الا
بولاء شكلي لاسطنبول .

ولقد اعتبرت هؤلاء طائفة من الحكام الماليك
الى ان تم الغاء حكم الماليك على يد السلطان محمود
الثاني في سنة ١٨٢١م . وفي عهد الحكم المملوكي
اصبح النفوذ الاجنبي ، وعلى الاخص النفوذ
البريطاني ، ملحوظا بصفة اكثر في بغداد ، فقد
انشئت في المدينة مقيمة بريطانية في سنة ١٧٩٨م .
وفي سنة ١٨٠٢م منح المقيم البريطاني في بغداد رتبة
قنصل .

(١٥٩) الصواب اواخر القرن السابع عشر حيث حكم حسن
باشا خلال الفترة (١٦٨٩ - ١٦٩٠ م) وحكم احمد باشا
في الفترة ما بين سنتي ١٦٩٢ - ١٦٩٥ م .

ولقد كانت منزلة المقيم البريطاني في بغداد
ثاني في الدرجة الثانية بعد الوالي ، وذلك في عهد
المقيم « كلوديوس جيمس ريج » (١٨٠٨ - ١٨٢١م)
وعهد المقيم « روانسون » (١٨٤٢ - ١٨٥٥م) (١٦٠) .

استولت القوات البريطانية على بغداد سنة
١٩١٧ (١٦١) ، ثم اصبحت عاصمة لمملكة العراق
الستقلة سنة ١٩٢١ .

ولقد كانت المدينة مهدا لثورة عارمة اثارها
الشعور المعادي للاتكليزي في سنة ١٩٤٢ (١٦٢) .
وبعد انقلابات متعاقبة ، قام الجيش بانقلاب في سنة
١٩٥٨ تم به القضاء على الملكية . وحدثت ثورة
اخرى في بغداد سنة ١٩٦٣ (١٦٣) جاءت بحزب
البعث الى الحكم لكنه لم يدم فيه سوى فترة
قصيرة ، ومن ثم استعاد البعثيون الحكم في سنة
١٩٦٨ .

بغداد المعاصرة

موقع المدينة ومخططها

يكون موقع مدينة بغداد على نهر دجلة ، في
اقرب نقطة تفصل بين دجلة والفرات ، وهي لا تزيد
عن خمسة وعشرين ميلا . وعلى مسافة ستة
وعشرين ميلا يلتقي نهر دجلة باكبر رافد له هو نهر
ديالى وتقع المدينة في سهل مستو يرتفع بمقدار
مائة واثني عشر قدما (اربعة وثلاثون مترا) عن
مستوى البحر .

كانت المدينة قد بنيت في الاصل على الضفة
الغربية من نهر دجلة . ولكن في خلال اكثر من الف
سنة اصبح القسم الاعظم منها يقع على الضفة
الشرقية من النهر . ومع ذلك توجد ضاحية واسعة
متناظرة في الجانب الغربي ، تضم « الكرخ » و
« كراة مربم » و « المنصور » . وترتبط الضفة

(١٦٠) اكملنا ترجمة رحلة « ريج » الشهيرة المعنونة « حديث
القائمة في كردستان سنة ١٨٢٠ » بجزئها وهفتنا عليها
تعليقات وتصويبات اضافية وهي معدة للطبع الان .
اما « روانسون » فهو الى جانب قيامه بوقيلة المقيم
البريطاني في بغداد ، كان من اشهر علماء الآثار في ذلك
الوقت ولقد قام باكتشافات عديدة في كل من نينوى ،
ونلو ، وغيرها .

(١٦١) وقع الاحتلال البريطاني لمدينة بغداد في الحادي عشر
من شهر اذار سنة ١٩١٧ .

(١٦٢) اخطا الكاتب في تحديد التاريخ فالصواب هو سنة ١٩٤١
التي قامت في الشهر الخامس منها ثورة ايار المجيدة .
(١٦٣) يقصد بها ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ .

الشرقية مع هذه الضواحي بجور ، يمتد فوق واحد منها خط حديدي .

وهناك جسر آخر يصل الى الكاظمية شمالي الكرخ ، وهي عبارة عن بلدة شهيرة اتسمت وتماثلت حول قبري « موسى الكاظم » و « محمد الجواد » الامامين السابع والتاسع المنحدرين من نسل الرسول . ومع ان التمييز بين منطقة المدينة القديمة وحاضرها يبدو غير دقيق ، فان المنطقة الاولى تبلغ زهاء اربعة عشر ميلا مربعا ، والثانية خمسة وسبعون ميلا مربعا .

المناخ

تكون اشهر الصيف (من شهر ايار الى شهر تشرين الاول) جافة . وشديد الحر . ذلك ان المعدل اليومي لدرجة الحرارة خلال شهري تموز وآب ، يصل الى حد ثمانين درجة فهرنهايت (سبع وعشرون درجة مئوية) قبل غروب الشمس ، ومن مائة وخمسة درجات فهرنهايت الى مائة وعشرون درجة فهرنهايت (من احدى واربعين الى ثلاث واربعين درجة مئوية) وذلك في منتصف النهار ، غير انها ما تلبث ان تهبط الى ما دون ست وسبعين درجة فهرنهايت (اربع وعشرون درجة مئوية) اثناء الليل .

وتكون ايام الشتاء اكثر بردا ، اذ ان معدل درجة الحرارة فيها يكون حوالي خمس وخمسين درجة فهرنهايت (ثلاث عشرة درجة مئوية) .

ويؤدي هبوب الرياح الشمالية الغربية الجافة الشاملة والمعروفة باسم « رياح الشمال » التي التخلص من شدة الحر ، لكنها تثير الزوايح الترابية ايضا ، وعلى الاخص في شهر تموز ويكون معدل سقوط الامطار في حدود خمس بوصات (مائة وثلاثون ملمترا) في السنة .

بغداد وما جاورها

تم استبدال الدور والحوائيت المزدحمة في المدينة القديمة ، والتي لم تكن لمعظمها اية اهمية اثرية ، وكذلك الازقة والممرات الضيقة ، بشوارع عريضة ، ودوائر ، ومخازن ، وفنادق حديثة ، وهكذا اخذ مظهر المدينة القديمة يتغير تدريجيا خلال سني السبعينيات ولقد بقيت اسواق النحاس والفضة ، والملابس وغيرها على حالتها ، كما بقيت كثير من المساكن والمقاهي والجوامع والمساجد القديمة المبهزة ، على ما كانت عليه قبلا .

فعلى الجانب الغربي من النهر تقوم بنساية البرلمان ، وكذلك السفارات الاجنبية في العاصمة (١١٤) . واصبح للضواحي الرئيسة في هذا الجانب من امثال الكرخ ، وكرادة مريم ، والمنصور (١١٥) اسواقها وحوائيتها الخاصة بها . كما قامت الانحاء السكنية وحدائقها على ضفتي النهر .

وقد ادى انجاز سد سامراء في سنة ١٩٥٦ الى انقاذ مدينة بغداد من خطر الفيضانات المدمرة . والتي كانت تسبب الدمار الشديد في كثير من المناسبات خلال التاريخ . كذلك ادت السيطرة على الفيضان الى اتساع المدينة فاصبح مخططها الجديد دائري الشكل ، يشمل كلا الجانبين من النهر .

وسائط النقل

تتألف وسائط النقل داخل بغداد من سيارات الاجرة و « الباصات » وقد ازدادت وسائط النقل الالية زيادة حادة منذ سنة ١٩٥٠ فالمدينة التي توسعت عند ملتقى طرق التجارة القديمة الالية من ايران وبلدان الشرق الاقصى عبر وادي نهر ديار الى بغداد ، وعبر وادي نهر الفرات نحو سوريا والبحر الابيض المتوسط ، او عبر وادي دجلة الى ارمينيا والبحر الاسود ، هذه المدينة ما تزال مركزا للمواصلات عبر هذه المناطق .

ولقد وضعت خلال القرن التاسع عشر عدة مشاريع لتحسين المواصلات مع بغداد . فقد اجري مسح كامل لحوض نهر الفرات ، والقسم الادنى من حوض نهر دجلة في سنة ١٨٣٦ . وفي سنة ١٨٦٠ تم تأسيس مصلحة بواخر اعتيادية في نهر دجلة بين بغداد والبصرة . وفي اواسط القرن الحالي تدنت اهمية النقل بالنهر ، وان بقيت في سني السبعينات بعض وسائل النقل العاملة في نهر دجلة بين بغداد والبصرة (١١٦) .

(١١٦) كانت معظم السفارات الاجنبية تحتشد في منطقة كرامة مريم بصفة خاصة منذ اواخر سني الخمسينات واول سني الستينات لكن هذه السفارات انتقلت الان الى اماكن اخرى في الجانبين الغربي والشرقي من بغداد .

(١١٥) مع ان الكرخ كانت من ضواحي بغداد عند انشائها على يد المنصور ، الا ان الكرخ كان يقصد به على الدوام الجانب الغربي كله من بغداد .

(١١٦) تقتصر هذه الوسائط في الوقت الحاضر على بعض الزوارق البخارية التي تنقل الحمولات ، في حين بقيت بعض السفن الصغيرة التي كانت تنقل الركاب دجلة بين بغداد والبصرة حتى اواخر سني العشرينات .

الاسكان والعمارة

ادى الانفجار السكاني في بغداد ، كما هو الامر في بقية المدن الاخرى التي تتعاظم بسرعة ، الى حدوث نقص في بناء بيوت السكن . ولم تعد مشاريع بناء المساكن تتماشى مع الحاجة الى توفير السكن . فضلا عن ذلك فان المشاريع السكنية واسعة النطاق ، من امثال توسيع واستقامة الشوارع ، وانشاء الدوائر الكبيرة والمتوسطة ، واقامة المنشآت التجارية ، لم تؤد الى نقص عدد المساكن في بعض المناطق حسب ، بل انها اجتذبت ايضا عددا كبيرا من العمال الذين كانوا يبحثون عن العمل .

وكان من حسن الحظ ان سمحت السيطرة على الفيضان بحدوث التوسع في المدينة .

يتراوح فن العمارة في بغداد بين البيوت والازقة الشرقية القديمة ، والبيوت والفنادق والمستشفيات الحديثة التي تبنى بالحديد والزجاج والحجر . وهناك امثلة من فن العمارة في القرن الثالث عشر الميلادي ما تزال باقية من العصر العباسي ، وهي تشتمل على « القصر العباسي » و « المستنصرية » وهي كلية كبيرة للفقه شيدها وانفق عليها الخليفة المستنصر بالله سنة ١٢٣٢م ، وقد اعيد استخدام هاتين البنائتين بمثابة متحف .

وهناك مجموعة اخرى شهيرة من الابنية باقية من القرن الرابع عشر تشتمل على جامع وكلية شيكا على يد « مرجان بن عبدالله » حاكم بغداد الجلائري في سنة ١٣٥٨م ، بالاضافة الى خان جميل معمود (كروان صاري او نزل) يستعمل الان متحفا للآثار العربية .

اما الجوامع والمساجد التي تزيد على مائة ، ومن بينها القباب المذهبة في الكاظمية ، والتي كمل بناؤها في القرن التاسع عشر ، فانها تضيف المزيد من الاهمية العمرانية للمدينة .

وتشتمل المباني الحديثة على البلاط الملكي للملك فيصل الاول مؤسس الملكية (١٩١٨) و « القصر الابيض » (مقر ضيوف الحكومة) وقاعة المدينة (١٩١٩) وبناية وزارة الدفاع ، والبلاط الملكي

تلتقي طرق السكك الحديدية الكبرى الثلاثة التي تمتلكها الدولة وتديرها في مدينة بغداد . فهناك خط يسير شمالا الى الموصل . وحتى سنة ١٩٤٠ لم تكن العاصمة قد ارتبطت نهائيا بأوروبا ، عن طريق القطار ، وذلك عندما كمل مد سكة حديد بغداد عبر الاراضي السورية الى اسطنبول (١٩١٧) .

وهناك خط ثان يربط بغداد مع البصرة ، وخط آخر يربطها مع الانحاء الشمالية الشرقية الى اربيل عبر مدينة كركوك .

وقد تأسست مصلحة نقل منتظمة بالسيارات بين بغداد ودمشق في سنة ١٩٢٢ ، اما في النصف الثاني من القرن الحادي فقد اصبحت المدينة تحتفظ بطرق خارجية تتمتع بالطرق التقليدية ، وتربطها بكل المدن الرئيسة في العراق . وغدت سيارات النقل المجهزة باللات تكييف الهواء تجلب الكثيرين من الزوار الاجانب .

وافتح خط لنقل البريد بين القاهرة وبغداد في سنة ١٩٢١ ، واعتبه خط لنقل المسافرين بينهما في سنة ١٩٢٩ . واصبح للمدينة مطاران مدنيان ، وقد كمل بناء مطارها الدولي في سنة ١٩٧٠ .

احصائيات السكان

بلغ عدد سكان مدينة بغداد في سنة ١٩٧٠ اكثر من مليونين ومائة الف نسمة ، وذلك بالمقارنة مع مليون وستمائة الف نسمة في سنة ١٩٦٥ .

ولقد ادى هذا النمو السريع في المدينة الى نقص عدد المساكن التي تفي بحاجة القادمين الجدد ، على الرغم من انخفاض كلفة المشروعات العامة ، والاعلبية الساحقة من سكان المدينة هم من العرب وهناك عناصر اقلبات تشمل الاكراد ، والسر ، والافغانين ، والارمن ، والابريانيين ، والصابئة ، وغيرهم .

واللغة الرئيسة في المدينة هي اللغة العربية ، وهي اللغة الرسمية في العراق . والدين الاساس هو الاسلام . وهناك عدد واسع من المسيحيين . اما اكثرية افراد العائلة اليهودية السابقة فقد هاجروا الى بلدان اخرى .

(١٦٧) كان خط سكة الحديد بين بغداد والموصل ينتهي عند قرية بيجي (فناء بيجي الان) وقد بوشر بإبصال الخط الى الموصل ابتداء من سنة ١٩٣٦ وحين كمل انشاء هذا الخط في اواخر سنة ١٩٣٩ تم ربطه بالخط العديدي الذي يربط سوريا مع تركيا وأوروبا .

(١٦٨) نقل البلاط الملكي القديم في سنة ١٩٧٢ .
(١٦٩) عرفت باسم قاعة الملك فيصل في العهد الملكي ، وقد استبدلت باسم قاعة الشعب منذ ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨ .

(القصر الجمهوري) ، وبنائات جامعة الحكمة في الزعفرانية ، والمتحف العراقي الحديث (١٧٠) .

الحياة الاقتصادية

ازدادت عائدات العراق من النفط بعد الحرب العالمية الثانية زيادة كبيرة جدا وقد انعكست الثروة التي اسبغها البلاد في وفرة رأس المال ، فشرع التجار يهتمون بالاستيراد والتوزيع ، كما اخذوا يهتمون - ولو على نطاق ضيق لكنه متعاظم - في انشاء صناعات السلع الرأسمالية والاستهلاكية .

وتتركز معظم الصناعات العراقية في بغداد . وهي تشمل صناعة الجلود والاقمشة الحريرية والقطنية ، والاجر ، والاسمنت ، ومنتجات التبوغ ، وتقطير المواد الكحولية من التمور والاعناب . وهناك معامل لسبك الحديد ومصنع للفولاذ (١٧١) .

كذلك تركزت الخدمات الحالية هي الاخرى في العاصمة ايضا ، وهي تضم المصرف المركزي في العراق والذي له وحده حق اصدار العملة .

الحكومة والخدمات

يدير المدينة امين العاصمة وهو عسكري (١٧٢) كما ان للمحافظة محافظ . ويقوم في بغداد مقر الحكومة القومية ومركز مؤسساتها الرئيسية وفروعها .

ولقد اتسعت تسهيلات التعليم بعد الثورة اتساعا سريعا جدا ، وتم انجاز التعليم الجامعي الاجباري في بغداد تقريبا ، واصبح التعليم العالي مجانيا ، وهو متوفر في جامعة بغداد التي تأسست في سنة ١٩٥٨ . وتوجد في بغداد جامعة الحكمة التي تأسست سنة ١٩٥٦ ، وجامعة المستنصرية التي انشئت في سنة ١٩٦٢ ، واربع كليات من بينها المعهد التقني العالي الذي انشئ في سنة ١٩٦٠ ، ومعهد الفنون الجميلة الذي اسس سنة ١٩٣٦ .

وكانت بغداد اول من استفاد من مشروع توفير السكن للفقراء ، ومن التوسع في الخدمات

(١٧٠) امنت جامعة الحكمة التي تملكها وتديرها طائفة من البشرين الامريكان في سنة ١٩٧٢ فاصبحت الان مقرا لمعهد التكنولوجيا .

(١٧١) لا توجد معامل للسبك الحديد سوى معامل التصليح وصنع الموارد الكونكريتية في الشالجية . اما معمل الصلب فيجري العمل في انشائه الان .

(١٧٢) استبدل امين العاصمة العسكري في اوائل هذه السنة بامين مدني .

والتسهيلات الصحية والاجتماعية ، بما في ذلك انشاء المستشفيات والعيادات الطبية الحديثة . اما مشاريع القوة الكهربائية ، وتوفير اسالة الماء في المدينة ، فانها ملك للدولة ، وتدار من قبلها مباشرة .

الحياة الثقافية

يستدل من تاريخ المدينة ، ومن كثرة الجوامع والمساجد فيها ، ان الكثير من نواحي الحياة الثقافية فيها كانت متركزة لدى الطوائف الدينية .

فمرقد الامامين ومسجد الكاظمية الذي يضمهما ، من اهم الاماكن التي يقصدها الزوار . وتشتمل المكتبات الموجودة في بغداد على مكتبة الاوقاف التي تأسست سنة ١٩٢٩ ، وهي تضم مجموعة من كتب التاريخ والاداب العربية . وتعتبر المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد ، والتي تأسست سنة ١٩٦٠ ، مستودعا للمطبوعات العراقية وتستخدم بمثابة مركز للتبادل الدولي (١٧٣) .

وهناك معاهد ثقافية اخرى منها متحف القصر العباسي ، ومتحف الاسلحة الذي انشئ في سنة ١٩٤٠ ، ومتحف الازياء الذي افتتح في سنة ١٩٤١ . اما المتحف العراقي الذي تأسس في سنة ١٩٢٣ فقد جدد في سنة ١٩٦٦ ، ومتحف التاريخ الطبيعي الذي انشئ في سنة ١٩٤٦ ، والمتحف الوطني للفن الحديث المؤسس سنة ١٩٦٣ ، ومتحف الآثار العربية الذي انشئ سنة ١٩٣٧ وهناك ايضا عدد من الجمعيات المعروفة في العلوم والفنون .

وسائل التبادل

كانت توجد في بغداد خلال سني السبعينات اكثر من ست صحف يومية . وكانت جريدة « الزمان » تعتبر اكثرها اهمية بصفة عامة (١٧٤) .

(١٧٣) نسي الكاتب المكتبة الوطنية التي تأسست سنة ١٩٢٥ وهي من اهم المكتبات العامة والقديمة في العراق . كما نسي الكاتب ان يشير ايضا الى مكتبة الآثار العامة التي نقلت مجاميع المتحف والمجلات منها مؤخرا الى المكتبة الوطنية ولم يذكر المجمع العلمي العراقي ومكتبته ، وغير ذلك من المكتبات الملحقة بالكليات والمعاهد وغيرها .

(١٧٤) هذا خلط فاضح ومشين من كاتب المقال . ذلك ان جريدة « الزمان » قد عطلت منذ صبيحة اليوم الثامن من شباط سنة ١٩٦٣ ولم يسمح لها بالصدور بعد ذلك ابدا . اما المتحف التي صدرت خلال سني السبعينات الحالية فهي الثورة والجمهورية ، والتاخي ، وطريق الشعب ، والعراق .

منظومة التنمية الاقتصادية للشرق الاوسط

E. E. D. M. O.

بغداد في اوج ازدهار الامبراطورية العباسية

بلغت بغداد اوج ازدهارها في عصر الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) فاذا كانت اية خلافة تستحق بان توصف بانها العصر الذهبي للمدينة العربية ، فان تلك هي خلافة المأمون .

فلقد قام المأمون الذي اتسم بالشجاعة بعدة حملات ضد البيزنطيين ، وقضى على الثورات التي حدثت في مصر ، وسوريا وارمينيا ، وخراسان ، على ان انتصار المأمون على اخيه الامين كان ينظر اليه دوماً بأنه انتصار فارسي موجه ضد المصالح العربية التي كان يمثلها اخوه الخليفة المنذر ، وهذا الاعتقاد مصيب على نطاق واسع . ذلك لان المأمون جلب معه الجيوش الفارسية ، والوزراء الفرس . وافسح المجال امام الانجاهات الفارسية ، في التطبيق الاداري التي كانت متسترة أثناء الحكم السابق فقدت الآن ظاهرة بشكل متشدد كذلك كان المأمون صاحب ذهنية وقادة استغاد من الخلافات القائمة بين اسحاب العقائد ، فقد انشأ المراصد وشجع دراسة علم الفلك والهندسة ، كما اسس « بيت الحكمة » في بغداد ، وكرسه لترجمة المؤلفات العلمية والفلسفية عن الاسل اليوناني .

ويبدو ان المأمون كان يحمل في ذهنه تصميماً عظيماً لصورة اسلامية موحدة ، تراب الصدد العميق بين المسلمين . فمثل هذه الطريقة يمكن ضمان الوحدة السياسية للخلافة ، وتحقيق السلام الداخلي والرخاء . وقد ادى عطفه على المفكرين من جماعة « المعتزلة » الذين كانوا يركزون الدفاع عن الاسلام بالجدل العقلاني ضد الهرطقة والكفر ، الى تقارب قوي من الشيعة الذين كانوا يشاركون المعتزلة في بعض مواقفهم .

وطبقاً لذلك تميز القسم الاوسط من عهد المأمون باختياره الامام « على الرضا » ورثا له وذلك في سنة ٨١٧ م . لكن حدث ان مات الامام بعد ذلك بوقت قصير ، ولا يعني هذا بالضرورة ان المأمون كان يخطط بصفة دائمة لتحويل الحكم الى العلويين ، لكنه ربما كان يعتزم ان يوسع قاعدة الترشيح امام القادرين من المرشحين العباسيين والعلويين الذين قد يتجحون في ذلك طبقاً للمواهب الشخصية . ولقد جرت مثل هذه المحاولة من قبل خلفاء عباسيين آخرين خلال القرن

وبالإضافة الى هذه توجد صحف اسبوعية سياسية ودوريات فنية ، ونشرات حكومية عن شؤون التعليم والموضوعات الاخرى .

واللغة الانكليزية من اوسع اللغات الاجنبية الشائعة . وكانت الصحف والمجلات البريطانية والامريكية مقروءة في العاصمة .

اصبحت الاذاعة والتلفزيون ملكاً للحكومة منذ سنة ١٩٦٧ (١٣٨٥) واذاعة بغداد هي اذاعة الاممة الوحيدة ، وهي تليق بعدة لغات في كل انحاء القطر . اما محطة تلفزيون بغداد - وهي اول محطة من نوعها انشئت في اي بلد عربي - فانها قد بدأت البث في سنة ١٩٥٦ .

ما تزال المصادر الحديثة عن بغداد متفرقة ، رغم وجود عدد من المؤلفات التي تشمل تاريخ المدينة من امثال كتاب « لي سترايج » المعنون « بغداد أثناء الخلافة العباسية من المصادر العربية والفارسية » الذي صدر لأول مرة سنة ١٩٠٠ ثم اعيد طبعه سنة ١٩٢٤ (١٣٠١) وكتابي « سستيفن همسلي لونفريغ » وهما « اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث » و « العراق من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ » (١٣٧٧) وكتاب « نايابوث » المعنون « ملكتان في بغداد » عن ام الرشيد وزوجته (١٣٧٨) ، وكتاب طه باقر عن بغداد (١٣٧٩) .

اما تاريخ المواصلات فيتمثل في كتاب « ميبيل ربيكا جابمان » المعنون بريطانيا العظمى وسكة حديد بغداد ١٨٨٨ - ١٩١٤ الصادر في سنة ١٩١٨ . وكتاب « روبرت . م . ادمز » المعنون « ارض فيما وراء بغداد » هو دراسة فنية تركز حول الانجاهات المتغيرة في شؤون الري - والزراعة ، والمستوطنات المدنية . وهناك معلومات قيمة عن بغداد وردت في كتاب « فرياستارك » الموسوم « صور من بغداد » والصادر في سنة ١٩٢٧ .

(١٧٥) هذا قول خاطيء لان الاذاعة منذ ان انشئت في سنة ١٩٢٦ كانت ملكاً للحكومة ، ومثل ذلك حصل لمحطة التلفزيون ايضا (١٧٦) ترجمة الاستاذ بشير فرئيس ونشره في سنة ١٩٣٦ . (١٧٧) ترجم الاستاذ جعفر خياط كتاب اربعة قرون وطبع اربع طبعات اخرها في سنة ١٩٧٤ اما الكتاب الثاني من مؤلفي لونفريغ فلم يترجم حتى الان . (١٧٨) ترجم السيد عمر ابو النصر هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٦٦ . (١٧٩) كتيب صغير اصدرته مديرية الانار العامة .

التاسع ، وعلى الاخص على يد كل من « المنتصر » و « المعتضد » .

مدرسة بغداد للتصوير

تعتبر هذه المدرسة ، على اوسع احتمال ، اول مدرسة تعنى بتصوير المنمنمات الاسلامية . وقد تأسست هذه المدرسة في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي (ولو ان اقدم النتائج الفنية الباقية لا يمكن ان يعزى تاريخها الى ما قبل القرن الثالث عشر) .

لقد انشئت المدرسة اول الامر في عهد الحكام الانابكيين ، وهم الاوصياء المحليون الذين استولوا على انحكم بعد سقوط حكم الاتراك السجوقيين في منتصف القرن الثاني عشر . وبقيت هذه المدرسة قائمة حتى بعد تدمير بغداد على ايدي المغول سنة ١٢٥٨ م ، واستمرت موجودة الى حدود سنة ١٣٠٠ م .

ولقد اظهرت مدرسة بغداد هذه مقاومة واستغلا مدهشين ، وبقيت متحررة من التأثيرات المغولية ، والسلاجقية التي تغلغلت في معظم الاساليب المحلية للتصوير . كانت المميزات الشهيرة لفن مدرسة بغداد تتمثل في تصوير الوجود الفردية المعبرة بدلا من الانماط الظاهرية ، وذلك بالتعبير عن الحركة ، والاهتمام بتفاصيل الحياة اليومية .

من الامثلة الاولى لمنمنمات مدرسة بغداد ، هي الصور التي رسمت لترجمة عربية من كتاب « دسقوريدس » المعنون « الاقرباذين » (١٨٠) المؤرخة بسنة ١٢٢٤ م . وهذه المخطوطة موزعة الان في جملة من الجامعات الخاصة والمتاحف . فهناك رسم محفوظ في معرض « فريز » بمدينة « واشنطن » يصور احد الاطباء اليونانيين وهو يفسر وصفة طبية لاحد الكتبة . فهذا الرسم يكشف عن عناصر تقليدية لمدرسة بغداد ، تلك العناصر التي تتميز بالالوان القوية ، والاحساس الحسن المتطور للتصميم ومظاهر الوجه المعبرة .

ومع ان صور الاشخاص قد رسمت بشكل

De Materia Medica (١٨٠)

مادة تستعمل في تركيب الادوية وهذا الكتاب من وضع احد علماء النبات والطب لدى الاغريق . وقد اهتم العلماء العرب به اهتماما كبيرا وترجم عدة مرات الى اللغة العربية (انظر كتابنا عن التصوير عند العرب الذي ترجمناه بالاشتراك مع الدكتور عيسى سلمان عن المؤلف الامريكي ريجار رانغهاوزن ، ونشرته وزارة الاعلام في سنة ١٩٧٤) .

بسيط ، وعلى اساس البعدين ، الا ان هنالك واقعية تنبعث من الاهتمام بالتفصيل .

وتبين فاتحة كتاب « رسائل اخوان الصفا The Epistles of the Sincere Brethren

التي يعود تاريخها الى سنة ١٢٨٧ م ، ان عناصر الاسلوب الاساسية لمدرسة بغداد قد بقيت حية حتى اثنائها . فهذه الصورة المحفوظة في مسجد « سليمان » باسطنبول تبين ايضا واقعية في التفصيل ، في ذات الوقت الذي تحتفظ فيه بصفة زخرفية طاغية .

لقد صور مؤلفو الكتاب مع كتبهم ، وركز الاهتمام على الوحدة . ولم يكن استعمال الالوان - مع التركيز على اللونين الابيض والذهبي - اقل اثارة من الالوان التي احتوتها النتائج الاولى لمدرسة بغداد ، ففي بداية القرن الرابع عشر الميلادي ماتت هذه المدرسة ، وبدأ التصوير في المنطقة باخذ الكثير من مميزات المدارس المغولية .

x x x

دائرة المعارف الدولية (١٨١)

بغداد عاصمة العراق ، وكبر مدينة فيه ، تقع في القسم الشرقي المركزي من قطر ، على ضفتي نهر دجلة . وليست بغداد هي مقر الحكومة حسب ، بل هي المركز التجاري ، والصناعي ، والثقافي للعراق . وهي تستخدم اكثر من خمس اليد العاملة في البلاد ، والذين يسكنون بكثرة عند الجانب الغربي من النهر (١٨٢) .

وتشتمل المشاريع فيها على سكك الحديد ، والمشامل ، ومحلات التصليح ، ومعامل الزيوت والاسفلت ، ومعامل تكرير النفط ، والمواد الانشائية بالإضافة الى معامل صغيرة وكبيرة لصنع الاقمشة والملابس ، وكثير من الصناعات الانشائية .

وتتلقى بغداد من المطر ايام الشتاء ما معدله ست بوصات ويكون الجو بهيجا تماما ، ولكن في معظم

(١٨١) المجلد الثاني صفحة ٢١٦ - ٢١٧ اصدرتها مؤسسة شركة غولير الكندية المحدودة .

Golier of Canada Ltd.

وقد طبعت في الولايات المتحدة الامريكية في عشرين مجلدا سنة ١٩٦٦ .

(١٨٢) انتشرت الطبعة العاملة التي هجرت الريف بعدما اجتذبتها المشاريع في بغداد ، في كل انحاء العاصمة الغربية منها والشرقية ولم يعد هناك اي تمييز لها عن بقية سكان المدينة .

أيام السنة تطفئ الحرارة المربعية ، حيث ترتفع درجات الحرارة اثناء النهار الى مائة وخمس عشرة درجة فهرنهايت ، ولو ان درجة الحرارة اثناء الليل قد تهبط الى ثلاثين درجة .

وتبدأ مياه دجلة بالهبوط ابتداء من شهر تموز حتى شهر كانون الاول ، لكن مستوى النهر يرتفع بسرعة في موسم الربيع . وفي معظم ايام السنة تتألف وسائل النقل التجاري في النهر ، من مراكب تسير في المياه الضحلة .

وتشتمل تسهيلات النقل على سكك الحديد وجملة خطوط جوية دولية ، وطرق معبدة تتفرع من المدينة . ويقع مطار بغداد الدولي في الجانب الغربي من النهر . وتبدأ الخطوط الحديدية الكبرى من ذات المنطقة ايضا .

ويسير احد خطوط سكك الحديد ، ذي العرض القياسي ، الى الموصل ، ثم يجتاز الاراضي التركية الى اوربا ، ويمتد فرع منه جنوبا نحو ميناء البصرة . ومن بغداد يمتد خط حديدي ، بمرض متر واحد ، الى كركوك واربيل . . . ويوجد طريق للسيارات يقطع الصحراء السورية الى البحر الابيض المتوسط ، ويمتد طريق اخر داخل تركيا ، وثالث نحو الشمال الشرقي من ايران .

ولا تحمل بغداد الحديثة سوى مشابهاة ضئيلة لنفس المدينة التي كانت قائمة قبل ربع قرن مضى من الزمن . فلقد استبدل الجسران العائمان فوق نهر دجلة بجملة من الجسور الفولاذية الثابتة وذلك الجسر النمس الذي كان يطفئ على الضفة الشرقية للنهر بشارعه التجاري الصغير ، وسوقه المسقف ، واحيائه السكنية المزدهجة التي لا يمكن الوصول اليها الا عبر اذقة ضيقة ، كل هذه قد اختفت الان عن الانظار نهائيا .

فلقد شقت شوارع وساحات واسعة معبدة بالحصى ، تكتظ بسيول من سيارات الاجرة ، والنقل ، والسيارات الخاصة .

وتعج الساحة الرئيسة الموازية للنهر بفنادق مجهزة بادوات تكييف الهواء ، وبالمخازن والابنية الحكومية الحديثة ، وتمتد نحو الجنوب الى الاحياء السكنية الواسعة التي تحتل قسما منها بعض السفارات الاجنبية .

وقد ادى تيسير وسائل النقل الى توسيع المدينة توسعا هائلا ، وقيام الضواحي الجديدة التي يسكنها على نطاق واسع عمال الصناعات ،

وموظفو الحكومة ومستخدموها ، وعدد من افراد الطبقة المتوسطة المتنامية .

ولقد انشئت جملة من المباني العامة . غير ان الانفجار السكاني الناجم عن الهجرة من الريف الى المدينة بحثا عن العمل فيها ، يعتبر من اعظم المشاكل القومية ، ذلك لان الالوف من الناس قد ارغموا على العيش في اكواخ حقيرة من الحصر (١٨٢) .

اسست جامعة بغداد في سنة ١٩٥٦ لكي تضم عددا من الكليات التي كانت قائمة آنذاك والتي كانت تحتوي على ستة آلاف طالب وطالبة ، بالاضافة الى جملة من المدارس والمعاهد الحكومية التدريبية من بينها كلية العلوم الدينية .

ولا توجد في بغداد سوى مناظر قليلة يهتم بها الزائر ، وهي نقطة البداية لسفريات الى المواقع القديمة من امثال سامراء ، وبابل وطيستون . ويضم المتحف العراقي الفخم مجموعة متألقة من مواد النقطة من هذه المواقع وغيرها من المواقع الاخرى ، وعلى الاخص من المواقع التي كانت مقرا لعصور السلالات الحاكمة الاولى .

لم يبق اي شيء من اثار المدينة المدورة التي انشئت في عهد المنصور . ونتيجة للفرز المنولي المدمر فلم يبق في بغداد سوى بضعة من المباني التي شيدت في العصور الاسلامية الاولى ، وتشتمل هذه على كليتي الفقه «النظامية» و «المستنصرية» (١٨٣) .

تقع الى شمالي المدينة ضاحية الكاظمية المكتظة بالسكان ، وبمراقدة الائمة ، والتي لا يسمح لغير المسلمين بالدخول اليها وهناك اجزاء قليلة من الاسواق القديمة المسقفة تزود التسوق باشياء كثيرة من المواد والحاجات النحاسية والبرونزية ، والفضية والسجاد ، والملابس الداخلية والجوهرات القديمة .

تقع بغداد في سهل بين النهرين العظيمين دجلة والفرات ، وفي منطقة يسهل تطوير وسائل الري فيها . وتقوم بغداد في الموقع الذي كانت تحتله المدن المهمة في العصور القديمة والتي تلقت التجديد في العصر الاسلامي .

(١٨٢) ازيلت المرافق والاكوخ من بغداد في اوائل الستينات لم ان تعاليم الهجرة الى بغداد من مختلف أنحاء القطر في السنوات الاخيرة قد احدث مشكلة سكن معقدة .

(١٨٣) لم يبق للمدرسة النظامية اي اثر . اما المدرسة المستنصرية فقد تم ترميمها في السنوات الثلاث الماضية وكان المقرد ان تتخذ دارا لحفظ المخطوطات المقدسة في صناديقها وبلا نظام حتى الان في مؤسسة الآثار العامة .

دائرة المعارف الأمريكية (١٨٥)

بغداد (العراق) عاصمة المملكة ، واعظم مدينة في بلاد الرافدين على نهر دجلة . وقد ذكر ان بغداد القديمة مقر الخلافة ، والتي كانت تضم حوالي مليوني نسمة ، كانت تقوم على الجانب الغربي من النهر ، وكانت من اعظم مدن العالم الاسلامي .

اما بغداد الحديثة فتقوم على ضفتي النهر غالبا في وسط جغرافي للقطر . وكانت قديما محاطة بسور دفاعي من الاجر في شكل دائري ، يبلغ طوله زهاء ستة اميال . غير ان هذا السور في الوقت الحاضر متهدم بصفة عميقة (١٨٦) . والمساكن مبنية من الاجر بصفة رئيسة وهي على النمط الارمني بشكل عام . وهناك شبكة من الشوارع المعبدة بالاسفلت تربط كل انحاء المدينة ، وتؤلف واحدا من المظاهر الحديثة .

ومن المساجد التي يبلغ عددها زهاء مائة مسجد ، بقي عدد جدير بان يستحق المشاهدة ، ويمكن ان يجذب الزائر اليه اما الكثير منها فهي مخربة ، وطراز عمارتها مغاير لطراز ما هو موجود منها في المدن الاسلامية الاخرى . غير ان لها مظهر مزوق عظيم من القاشي المزجج الذي يغطي قباياها ومنائرهما ، وهي مرتبة في شكل نتاجات من الفسيفساء بمختلف الالوان .

والاسواق واسعة تمتع بالبيع . وما تزال الاسواق التي بناها « داود باشا » (١٨٧) تعتبر من اشهر المباني الفخمة في العالم .

كانت بغداد منذ عهد طويل تهيم على جزء كبير من وسائل النقل بينها وبين اوربا من ناحية ، ومع ايران والهند من ناحية اخرى . وما تزال التجارة الايرانية والهندية على نطاق واسع ، كما هو الامر ايضا مع اوربا ، حيث يتم نقل جزء كبير

The Encyclopedia Americana (١٨٥)

صدرت طبعها الجديدة في سنة ١٩٤٨ في ثلاثين مجلدا اما طبعها الاولى فكانت في سنة ١٩٢٩ نقلنا هذه المعلومات عن بغداد من المجلد الثاني ص ٨١ - ٨٢ .

(١٨٦) لم يبق من هذا السور الذي كان يحيط بمدينة بغداد منذ عهد الخليفة الناصر لدين الله سوى باب واحد هو المعروف بالباب الوسطاني .

(١٨٧) داود باشا الكرجي آخر الحكام الماليك في العراق حكم في الفترة ١٨١٦ - ١٨٢١ م حيث استورد العثمانيون سيطرتهم على العراق بعد مقتله . ويعزى الى داود باشا بناء السوق المسقف المعروف باسم سوق السراي .

وفي سنة ٧٦٢م أمر المنصور ثاني خلفاء بني العباس ببناء مدينة مدورة ، كمل بناؤها مع حصون واحياء واسعة على الضفة الغربية من النهر .

وفي نهاية ذلك القرن ، واثناء حكم هرون الرشيد ، أصبحت المدينة المدورة ، مقرا متالفا للعلوم والاداب ، اضافة الى كونها عاصمة للعالم الاسلامي ، وفي خلال القرن التاسع أصبحت سامراء التي تقع شمالي بغداد ، عاصمة للعباسيين زهاء نصف قرن من الزمان ، قبل ان تستعيد بغداد شهرتها .

ولقد اتسمت بغداد بامتداد الضفة الشرقية للنهر ، وبقيت المركز الروحي والديني للعالم الاسلامي حتى سنة ١٢٥٨م ، حين اجتاحت قطعان المغول القادمة من الشرق المدينة وقضت على الاسرة العباسية الحاكمة ، وبعد ذلك الوقت بحوالي ثلاثة قرون ، تدهورت المدينة تحت امرة حكام متعاقبين الى ان تمت سيطرة الاتراك عليها في القرن السادس عشر ، ثم أصبحت خلال القرن التاسع عشر احدي الحواضر الاقليمية في الامبراطورية التركية . وبدأت تنتعش .

وفي اثناء الحرب العالمية الاولى استولى البريطانيون على بغداد في شهر اذار سنة ١٩١٧ . ثم أصبحت في سنة ١٩٢١ عاصمة لدولة العراق الحديثة . وفي سنة ١٩٤١ احتلت القوات البريطانية مدينة بغداد مرة اخرى ، بالتعاون مع الحكومة العراقية في هذه المرة ، وذلك لخماد ثورة مؤيدة للامان (٩) .

كان التقدم المعتدل الذي شرع به بعد الحرب العالمية الاولى ، قد وصل الى درجة الشلل في السنوات التي اعقبت الحرب العالمية الثانية . يؤلف المسلمون الاكثرية الساحقة من السكان ، وهناك حوالي عشرين الف مسيحي . اما اليهود الذين كانوا يؤلفون في وقت من الاوقات اكبر طائفة يهودية فقد هاجروا الى فلسطين المحتلة وكان عددهم ٥٥٨٨٢ نسمة . (دونالد والاس ، جمعية بحوث الشرق الاوسط) .

(٩) لم تكن ثورة العراق في ١٩٤١ كما تزعم دائرة المعارف الدولية فهي ثورة قومية تحررية ، أعلنتها العراق شعبا وجيشا على الوجود الاستعماري (المورد) .

منها بالراكب في النهر . وكانت التجارة مع أوروبا سابقا واسعة كثيرا بطريق البر أيضا ، وذلك عبر الصحراء السورية الى دمشق ، وعبر طريق أرمينيا شمالا .

ومنذ ان فتحت قناة السويس قادت الطرق البحرية أكثر أهمية ، فانحط النقل عبر الهند بعض الشيء . غير ان تطور تسهيلات النقل بالسكك الحديدية جعل منها السوق التي يمكن الاستيراد منها من منطقة البحر الأبيض المتوسط والتصدير اليها .

كانت الأصواف هي الصادرات الرئيسة الى أوروبا ، بالإضافة الى الشعير والحنطة والصمغ والجلود والنفص ومصنوعات الجلود ، أما المستوردات فكانت تشمل الحديد والنحاس والسكر والقهوة . وكانت توجد في بغداد عدة مصنوعات من أدوات نحاسية ، ومن الملابس ، والاصباغ وغيرها .

تكون درجة الحرارة في بغداد خلال الصيف شديدة جدا . ولكن الشتاء فيها بارد أيضا ، السى درجة يصبح استعمال النار أمرا ضروريا . والمناخ فيها مقبول ، وصحي بوجه عام . ويسكن المدينة العرب والاكرد والأتراك والفرس والارمن واليهود . ويؤلف العرب المسلمون أغلبية سكان المدينة . ومع ذلك فان جميع الاقليات العرقية والدينية تستترك على قدم المساواة بكل الحقوق التي تتمتع بها الاغلبية العربية . وطبقا لتخمينات سنة ١٩٤٨ بلغ عدد سكان بغداد حوالي ستمائة وستين ألف نسمة .

x x x

استت بغداد سنة ٧٦٢م على يد الخليفة المنصور . وبلغت درجة رفعة من أجل في القرن الثامن الميلادي على يد الخليفة هرون الرشيد الذي شخصته قصص ألف ليلة وليلة . وقد أصبحت آنذاك المدينة الرئيسة في العالم الاسلامي كله ، ومركزا عظيما للثقافة والعلوم .

وتعاضد هذا التقليد الثقافي للمدينة بعد ان تطورت كمركز تهديبي ومقر للعراق الحديث حيث انشئت كليات تدريب المعلمين ، والصيدلة ، والهندسة ، والمدارس العسكرية . وتشتهر المدينة أيضا بانها المركز المهم للصناعة والتجارة والمواصلات في العراق . وبرهنت المناظر الجميلة على امتداد شاطئ النهر بانها كانت المغناطيس الذي يجذب السواح .

في القرن الثالث عشر الميلادي اجتاح حفيد جنكيز خان مدينة بغداد فقتل على الخلافة وذبح آخر الخلفاء منها وطرد احفاد الفاتح هولاكو على يد تيمورلنك . وفي القرن الخامس عشر استولى الشاه اسماعيل اول حاكم من البيت الصفوي الفارسي على بغداد . ومنذ ذلك الوقت أصبحت المدينة عرضة لحروب مدمرة بين الاتراك والفرس . وبعد حصار واسع افتتحت المدينة على يد الامبراطور التركي مراد الرابع . وحاول « نادر شاه » بلا جدوى ، خلال القرن الثامن عشر استخلاصها من ايدي الاتراك .

وفي سنة ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الاولى ، افتتحتها القوات البريطانية بعد هزيمة الجيش التركي الذي كان يدافع عنها . ثم أصبحت بعد عقد معاهدة السلام عاصمة للعراق ، ووضعت تحت الانتداب البريطاني بقرار من عصبة الأمم ، واستمرت عاصمة قومية بعد توقيع معاهدة ١٩٢٠ .

وفي خلال الحرب العالمية الثانية احتل العراق مرة اخرى من قبل القوات البريطانية وذلك في شهر تموز سنة ١٩٤١ للقضاء على ثورة عسكرية فيه ، وفي سنة ١٩٤٥ منحت الحكومة حق نقل العاصمة في حالة الضرورة ، من بغداد الى أي مكان آخر من الاراضي العراقية .

x x x

سكة حديد بغداد

اسم شهير لخط حديدي يمتد الى الكويت قرب رأس الخليج العربي في الجنوب ، ومن هناك يصعد عبر العراق الى البصرة وبغداد والموصل ، ومنها عبر اراضي سوريا الى الحدود التركية ومن هناك يسير داخل سوريا الى نقطة تقرب من حلب . ثم يسير شمالا ليتفرع منه فرع يمتد الى اسطنبول ، في حين يسير الفرع الثاني جنوبا نحو حلب ليربطها مع طرابلس وحيفا ، ثم ينتهي في القاهرة .

ولقد اصاب هذا الخط أهمية دولية في اواخر سني ١٨٩٠ عندما أصبح يعرف باسم طريق القيصصر فلهم الثاني امبراطور ألمانيا ، وذلك على اثر زيارة قام بها لسلطان تركيا ، وحصل خلالها على وعد بمنحه امتيازًا لبناء سكة حديد يمتد من «قونية» الى الخليج العربي .

وكان الالمان قد حصلوا قبلا ، وعن طريق الجهود التي بذلها الدبلوماسي الالمانى البارون

ماوشل فون بيبير شتاين ، على امتياز امده تسع وتسعون سنة لبناء خط حديدي من انقره الى ازمر ، ويتصل بالخط الحديدي القائم هناك انذاك . وقد مول هذا المشروع من قبل « شركة سكة حديد الاناضول » التي كان يسندها البنك الالماني Deutsche Bank .

اثار الامتياز الذي ظفر به القيصر شكوك عدد من الدول الاوربية وعلى الاخص بريطانيا العظمى ، التي اعتبرته مشروعاً يهدف الى قطع شريان حياة بريطانيا في الهند . وسرعان ما اصبح الطريق يعرف باسم « سكة حديد برلين - بغداد Berlin - Bagdad Bahn » وقد جسد الخطة الالمانية الرامية الى اقامة خط مباشر عبر اوربا واسبا الى الخليج العربي .

وفي سنة ١٨٩٩ ، وبعد وقت قصير على زيارة القيصر لاسطنبول منح سلطان تركيا امتيازاً الى شركة سكة حديد الاناضول لبناء خط واحد (من قياس عرض اربعة اقدام وثمانى بوصات ونصف) يبدأ من قونية حتى النهاية الشرقية لسكة حديد الاناضول ، ويمتد الى الكويت على الخليج العربي ، ماراً ببغداد ، ويبلغ طوله ألفاً وخمسمائة وخمسين ميلاً .

كان الطريق المقرر ان يسير الخط فيه ، ابتداء من قونية الى ادنه ، ومن هناك يتجه جنوباً الى حلب ، ومنها الى طرابلس ، ثم يجتاز نهر الفرات

الى الموصل ، حتى يصل الضفة الغربية من بغداد ، ومن هناك يسير الى الخليج العربي (١٨٨) .

ولقد افتتح خط (قونية - اوغلي - بلغاريا) ، والبالغ طوله مائة وأربعة وعشرين ميلاً ، في شهر تشرين الاول سنة ١٩٠٤ وعند اندلاع الحسب العالمية الاولى كان حوالي ألفاً ومائتي ميل من مجموع طول الخط البالغ ألفاً وخمسمائة وخمسين ميلاً ، قد كمل بناؤه ما عدا بعض الثغرات في بعض الاقسام المهمة .

كان اول قطار بين البصرة وبغداد قد غادر مدينة البصرة في اليوم الثالث عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ . وفي سنة ١٩٣٦ قررت الحكومة العراقية ربط الموصل بكل من تل كوجك وبغداد من النقطة التي كانت ينتهي بها في « بيجي » وقد كمل بناء هذا الخط وبكلفة ثلاثة ملايين باون ، وافتتح في السابع عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٠ .

(١٨٨) بدأ الالمان العمل في مد سكة حديد بغداد برلين في جانب الكرخ منطقة السكك الحالية في سنة ١٩١١ واعدوا لذلك عمارتين هدمت احدهما وماتزال الاخرى قائمة بجوار دار الإذاعة وباحيداً لو حوافد عليها كثر له اهميته التاريخية وحين اندلعت الحرب العالمية الاولى كان الخط قد وصل الى سامراء فتوقفت الاعمال فيه ، ثم استأنف الانكليز بعد احتلالهم بغداد مدة فاصلوهم الى قضاء الشرافات اول الامر لكنهم مالبثوا ان ارجعوه الى بيجي الى ان شرع باكماله مجدداً في عهد حكومة حكمة سليمان ١٩٣٦ .

الجند الأموي والجيش العباسي

• دراسة في تطور المؤسسة العسكرية في العصرين الأموي والعباسي

بقلم الدكتور

فاروق عمر فوزي

كلية الآداب - جامعة بغداد

من بعضنا البعض وتحتوي على قبائل مميّنة واطلق على هؤلاء القبائل اسم جند (جمع أجناد) . على أن خلفاء بني أمية في بلاد الشام انتهجوا سياسة معينة في سوريا بحيث جعلوا في كل مصر من بلاد الشام قبيلة مميّنة ، فكان جند قنصرين في غالبيتهم قيسية أما حمص فكانت غالباً يمانية وكانت كلب وجذام غالبية على دمشق . (٢) وقد نجحت هذه السياسة في بلاد الشام وأبعدت القبائل العربية إلى فترة ما عن الحزازات والصراعات القبلية وسهلت على الخلفاء الأمويين الأوائل أن يحفظوا التوازن بينها .

وقد كانت السلطة المركزية تدعو القبائل من الخاليس مختلفة عند الحاجة أو الضرورة لقمع تمرد داخلي أو لمواجهة خارجية ، وبقي اصطلاح (الأجناد) يستعمل للدلالة على هؤلاء القبائل ، ولكن ظهرت اصطلاحات جديدة ذات دلالات مترادفة مثل الجيش والمسكر . وكانت نفس التنظيمات القبلية تحفظ أثناء القتال ، فهي رواية تاريخية :

« وقد دعا عدى أهل البصرة فبعث على خمس من أخصائها رجلاً ، فبعث على خمس الأزدي المقرة بن زياد المتكي وعلى خمس بني تميم معروز بن حمران السعدي وعلى خمس بكر بن وائل عمران بن عامر ... ودعا مالك بن الجارود فمقد له على عبيد القيس ودعا عبد الأعلى بن عبدالله فمقد له على أهل العالية .. » (٣)

ولا كانت القبيلة تلعب دورها في تعبئة القبائل فمسن الطبيعي أن أهم عامل لتحقيق النصر على الأعداء هو مهارة القائد وحظه في ترتيب الجند وتنظيمهم في ساحة المعركة ، ذلك أن العصية القبلية كانت تعمل عملها بين الجند ، وإذا ارتكب القائد خطأ استراتيجياً بأن وضع قبيلة ما في المقدمة لتحمل وحدها ضربات العدو ويقع عبء المعركة عليها ، بينما تبقى قبيلة أخرى في الجناح أو المؤخرة لتتقضى في نهاية المطاف وتقتطف ثمرات النصر وتسمى أنها هي التي حققتة ... إذا ارتكب القائد مثل هذا الخطأ فقد يفقد سيطرته على الجند .

في البدء لابد لنا أن نشير بأن استعمالنا لاصطلاح « الجيش » للدلالة على الجند أو القبائل العرب في العصر الأموي يعتبر استعمالاً مبالغاً فيه إلى حد ما ، بل أنه غير وارد تاريخياً ، ذلك لأن العرب المسلمين في صدر الإسلام وردوا من العصر الأموي لم يعرفوا الجيش المنظم الدائم ، وأن المؤسسة العسكرية العربية لم تبلور وتأخذ أبعادها وسماتها الحقيقية إلا في العصر العباسي .

حين جاء الإسلام غدت الأمة كلها مقاتلة ، والأمة المقاتلة تعني أن كل القادرين على حمل السلاح من الرجال ينفرون للحرب عند الحاجة ، ولكن لم يكن هناك تنظيم عسكري يربط هؤلاء المقاتلة ولم تكن هناك مؤسسة عسكرية تفسهم . وحين بدأت حروب التحرير والفتح الإسلامي اشترك فيها المقاتلة من مختلف القبائل ولكن هؤلاء المقاتلة لم يشكلوا جيشاً نظامياً بالمعنى الدقيق المتعارف عليه .

لأنهم لم يكونوا تحت السلاح على الدوام بل انصرفوا إلى أعمالهم الخاصة ومشاكلهم في أوقات السلم ، ولم يسكنوا في ثكنات عسكرية ويتدربوا على السلاح بصورة مستمرة . كما لم تكن تربطهم رابطة قوية واحدة فيما بينهم من جهة أو مع الدولة من جهة أخرى خاصة عند حدوث الفتن أو الأزمات الداخلية .

تطور معنى الجند :

دل اصطلاح الجند في البداية على وحدة من القبائل العرب من قبيلة أو قبائل معينة وربما كانت لا تتجاوز في عددها الكتيبة . وبمرور الزمن تطور اصطلاح الجند فأصبح ذا مضمون جغرافي يعني الأقليم أو المنطقة التي يحكمها أديارياً وعسكرياً قائد يتراأس مجموعة من القبائل ويعتمد على واردات الأقليم في التكوين والمطامير (١) .

ولم يسكن القبائل العرب في البداية المدن في البلاد المفتوحة بل بنوا لأنفسهم مدناً جديدة بدأت على هيئة معسكرات استقروا فيها مع عوائلهم وسببت الأمصار . وقد قسم القبائل في الأمصار الجديدة إلى أرباع أو أخصاص منفصلة

ومن أجل ضمان عدم الوقوع في مثل هذه الأخطاء كان القائد يعتمد على رجل ذي خبرة ، معروف بحنكته في التنبؤ وله تجارب في هذا الباب . وفي مصادرنا روايات تاريخية تشير إلى هؤلاء نقول أحداها مثلا :

« وكان عبدالرحمن بن ابيح إذا نزل الأمر العظيم في الحرب لم يكن لأحد مثل رأيه وكان عبيد الله ابن جبير على تعبئة القتال ، وكان رجال من الموالي مثل هؤلاء في الرأي والمتورة والعلم بالحرب فمنهم الفضل بن يسام مولى بني ليث وعبدالله بن ابي عبدالله مولى بني سليم والبختري ابن مجاهد مولى بني شيان » (١).

وهناك العديد من المقاتلة الذين تصفهم المصادر بعبارة « صاحب رأي في الحرب » ولا شك فهو يختص بوضع الاستراتيجية ويقابل مدير الحركات العسكرية .

مزايا المقاتل العربي :

وكان المقاتل العربي يتمتع بمزايا وصفات حققت له انتصارات فذة ومن هذه المزايا : (٥)

أولا - روح الجماعة والاصرة التي تربط المقاتلة ببعضهم وخاصة أثناء تعرضهم لخطر خارجي على الحدود الشرقية أو الشمالية .

ثانيا - الثقة بقابلياتهم والاعتماد بشجاعتهم فقد كان عدد العرب مجتمعين الكل يكثر من عدد سكان أي إقليم مسن الإقاليم المفتوحة . وإذا كان سكان البلاد المفتوحة قد فاقوا العرب بالعدد فإن العرب فاقوهم بالكيفية وبالقدرة القتالية . لقد كان العربي فارسا يشار إليه بالبنان برمي وهو على ظهر فرسه . لقد امتلك العربي روح البداوة بكل ما فيها من جرأة وإقدام وعنف واعتماد شديد على النفس .

ثالثا - كان المقاتل العربي يتمتع بروح قتالية عالية وفذة ، بينما كانت هذه الروح قد خبت منذ زمن بين سكان البلاد المفتوحة الذين استخدموا المرتقة والمعيد للقتال بدلهم وكانت الدنيا ومناعبها والتعلق بالحياة ولذاتها شغلهم الشاغل .

رابعا - اعتقاد العربي بأن الله معه في نصيبته العادلة وأنه سينصره على عدوه وهذا اعطاء ثقة متزايدة بالنصر .

خامسا - كانت القوة العربية تتكون من قبائل خفيفة الحركة ، أكثر حيلة من الأعداء . وقد حافظت الدولة الأموية على هذه الصفة طالما بقيت سياستها هجومية توسعية ونجحت في توسيع حدود الدولة وفي مجابهة الأعداء وخاصة الترك على الحدود الشرقية في بلاد ما وراء النهر .

الموالي والقتال :

لقد غالى بعض المستشرقين ومن أتبع رأيهم من المؤرخين (٦) في تصوير التمايز الاجتماعي بين العرب وغير العرب من سكان البلاد المفتوحة ووقعوا في تفسير خاطئة ليست من مفاهيم العصر الذي ظهر فيه الإسلام . وإذا كان هناك بعض الحالات الاستثنائية التي تدل على التناظر فإن هناك أمثلة عديدة على الامتزاج والتعاون والاشراك في السلطة . وليس بهما في هذا المجال أن نفصل في الأمثلة ولكننا نقول

بفدر ما يتعلق الأمر بالجند بأن السلطة العربية اشركت مقاتلة من المرتقة من الموالي فهناك الأرمن في أرمينيا والفرانجية والبخارية والسمرقندية والاشروسنية في الساحة الشرقية ، ففي رواية عن الطبري أن هناك ما لا يقل عن ٢٠ ألفا من سكان الإقاليم الشرقية استخدمهم نصر بن سيار في حملاته في الجبهة الشرقية (٧) . وقد وصل بعض هؤلاء إلى مراتب عالية في القيادة .

كما كان الأمويون يستخدمون الرقيق في القتال ، هذا مع ماكدنا بأن القوة الضاربة والرئيسية كانت تكون ممن المقاتلة العرب .

وحدات شبه نظامية :

رغم اعتماد الأمويين على المقاتلة العرب من القبائل المختلفة باعتبارهم جند الدولة فقد برزت بوادر وحدات نظامية دائمة . فالأما استئثار الشرطة ، التي تعتبر خارج نطاق هذا البحث ، ابتدع معاوية بن ابي سفيان نظام الحرس وهي كتيبة خاصة بحماية الخليفة وحذا حذوه أمراء الإقاليم . وكان قائد هذه الوحدة يسمى (صاحب الحرس) وأطلق معاوية على كتيبته اسم القمامة .

ولم يكن صاحب الحرس شخصا عسكريا بالدرجة الأولى بل قد تناط به واجبات أخرى مثل الحجابة أو ديوان الرسائل أو الخاتم . (٨)

وكانت هناك وحدات شبه نظامية أخرى مثل حاميات الثغور وكذلك الروابط على الحدود التي تعتبر وحدات متحركة وخفيفة من الخيالة . كما نظم الأمويون المسالح في الداخل وخاصة في المدن غير المستقرة أو المهمة من الناحية الاستراتيجية مثل مسلحة واسط في العراق ومسلحة الحيرة التي تسيطر على الكوفة . وكانت هذه المسالح تحت قيادة (صاحب المسلحة) . (٩)

المقاتلة العرب :

وفيما عدا الحرس ووحدات الثغور والروابط والمسالح التي لم تكن بأعداد كبيرة وتقوم بواجبات محددة ، فإن القوة العسكرية الرئيسية في الدولة الأموية كانت من المقاتلة العرب من القبائل الشامية والعراقية والمقاتلة العرب من أهل خراسان .

وقد اشرنا فيما مضى بأن هؤلاء المقاتلة العرب كانوا يعيشون في وقت السلم حياة عادية يزرعون أراضيهم أو يتاجرون ببلدانهم أو يمتنون حرفة معينة وقد زاد ولهم بالتجارة والمهنة بعد أن اختلطوا بسكان البلاد المفتوحة . ولكن ما أن يستدعي الأمر بسبب أزمة داخلية أو خطر خارجي كان الجميع يتفرون للحرب وعليهم يعتمد الخليفة الأموي في درء الخطر .

إن هذا الوضع الذي كان عليه الجند في العصر الأموي يحتوي دون شك على نقاط ضعف رئيسية نذكر منها : (١٠)

١ - فقدان عنصر الضبط والربط والنظام بين صفوف المقاتلة تلك الصفات العسكرية التي تعلم المقاتل الطاعة لرؤسائه . إن فقدان هذا العنصر كان يعني عدم تواجد تلك الروابط التي تعلم الطاعة والولاء والمسؤولية تجاه الخليفة الأموي باعتباره رأس الدولة .

محاولات للإصلاح :

وأزاء هذا الوضع حاول بعض الخلفاء أو الولاة محاولات جادة لتغيير الوضع وإصلاحه وذلك عن طريق مزج القبائل وربطها برابطة جديدة أكثر قوة من رابطة القبيلة . ففي سنة ١٠٧هـ / ٧٢٥م حاول أسد الفرس نقل الجند من البروفات إلى بلخ . وقد كان الجند في الأولى منقسمين إلى أخماس ، أما في بلخ فقد خلطهم واسكنهم دون أخذ التقسيم القبلي بنظر الاعتبار . (١٢) كما حاول الخليفة هشام بن عبد الملك أن يخفف من أثر النفوذ القبلي بأن أختار نصر بن سيار وهو حيادي ليس له نفوذ قبلي في خراسان واليا على إقليم خراسان . وأخذ نفس الخليفة موقفا عمليا حين أمر واليه الجنيد بن عبد الرحمن بأن يسقط من الديوان (العطاء) أسماء المقاتلة الذين يرفضون الجهاد وأمره ألا يصطف عليهم لأنه سيرسل له مقاتلة جدد ممن يرغبون في القتال . أن هذا الموقف من السلطة المركزية يدل على إدراك الخليفة بأن هناك بعض المقاتلة لا يرغبون بالاستمرار في القتال ولا يمكن للسلطة الأموية أن تجبرهم على ذلك . (١٣)

ألا أن إرسال عناصر عربية جديدة من البصرة والكوفة أو إرسال الجند السوري أدى إلى حدوث شقاق ونشأ من القامعين الجدد وبين العرب القدماء من أهل خراسان . وبرزت كلتان : المقاتلة من أصحاب الامتيازات والنفوذ السياسي والمستقرين المحرومين ولم يكن في مقدور السلطة إلا أن تعتمد على المقاتلة من أصحاب السلطة والنفوذ.

لقد أدت هذه الحالة إلى استمرار الحركات المعارضة للدولة وأبانت أكثر من أي وقت مضى مدى حاجة الدولة الأموية إلى جيش نظامي دائم قوي . ذلك لأن الثوار رغم قلة عدد المخطئين تحت لوائهم استطاعوا تحدي الدولة وتمكنوا من مطاوتها مدة ليست بالقصيرة لا بسبب ضعف الدولة بل بسبب عدم اعتمادها على جيش دائم ومنظم . ولعل في حركة يزيد بن المهلب (١٥) في خلافة يزيد الثاني ما يوضح ذلك أحسن توضيح . شير مصادرنا التاريخية بأن يزيد بن المهلب حين بدأ حركته لم يكن معه أكثر من سبعين شخصا ، وقد أسمر وإلى البصرة عدى بن أوطاة المقاتلة من الأخماس بالخروج للتصدي ليزيد بن المهلب ولكن أزد البصرة انشقوا عن الوالي الأموي والتحقوا بيزيد بن المهلب لأن المهالبة من اليمانية والأزد من اليمن كذلك . على أن عدى بن أوطاة ربما توقع ذلك ، إلا أنه لم يتوقع الموقف الذي وافته نعيم وعبد القيس وهما من مضر . ذلك أن كليهما انتهزنا الفرصة وفرنا الطلب من الوالي زيادة العطاء الذي كان ٦ درهما شهريا . ولما امتنع الوالي من أجابة هذه المطالبات بحجة أن زيادة العطاء من اختصاص الخليفة امتنعت القبيلتان عن مساعدة الوالي في محنته هذه .

ولم يبق أمام الوالي الأموي إلا الاعتماد على الشرطة وبعض الموالى للدفاع عن البصرة ولكن مقاومته لم تستمر وأجبر على الاستسلام . وقد استولى يزيد بن المهلب على بيت المال في البصرة حيث كان فيه ٩ ملايين درهم استطاع بها أن يجمع عددا كبيرا من الأنباغ ولم تغد حركته إلا بعد أن أرسلت السلطة المركزية في دمشق ٨ ألفا من المقاتلة من بلاد الشام .

أن حركته يزيد بن المهلب لم تكن حالة استثنائية أو

٢ - كان المقاتلة مشغولين بروابط القبيلة ولذلك لم يكن لديهم حافظ محروك واحد للقتال بل كان المحرك يختلف من فئة مقاتلة إلى أخرى فمنهم من يقابل مندفعاً بموايل دينية ومنهم من يقابل من أجل الغنائم أو لأسباب سياسية أو قبلية كما وإن قتالهم ضد الأعداء الخارجيين كان للدفاع عن أنفسهم وحمايتهم . وفي كل الحالات كانوا يتوقعون من الدولة أن تدفع لهم عطاء جيداً مقابل القتال .

٣ - في كل المعارك التي خاضها المقاتلة العرب في العصر الأموي لم يقاتلوا كجند للدولة بل كأفراد في قبائل . ومعنى ذلك أن وحدة الهدف أو الغاية كانت تلتصمهم . بل تحكمت أحيانا المصالح الخاصة بالقبائل أو بزعامة القبائل في الاشتراك بالقتال أو عدمه .

٤ - لم يكن هناك من رادع يمنع المقاتلة من الاشتراك في الصراع السياسي الداخلي ومعنى ذلك الاشتراك في ثورات أو تمردات سياسية ضد الدولة أو التناحر بين القبائل نفسها . وهذا دون شك له آثاره السلبية على الحياة العسكرية والاستعداد الحربي الذي كانت الدولة تريد من المقاتلة . وفي مثل هذه الظروف فقد لا يواجه الخليفة صعوبة في قيادة المقاتلة ضد عدو خارجي ولكن في حالة حدوث تمرد داخلي فإن المقاتلة من القبائل المخطئة ينشقون على أنفسهم بين مؤيد للدولة ومعارض لها . والمقاتلة في كلا المسكرين لهم نفس التدريب والاستعداد والسلاح والتكتيك . وكان حسن تصرف الخليفة واستغلاله لمثل هذه الحالة يعتمد على قابليته ودكانه فقد أرسل عبد الملك بن مروان إلى الحجاج الثقفي رسالة يقول فيها : (١١)

« ... فإنما أمر المؤمنين أمين الله وسيدان عنده منع واعطاء باطل ... وسيأتيك من أمر المؤمنين امران : لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا يوحشك إلا المعصية .. »

أن الأمر الأخير الوارد في الرسالة آفة الذكر يعتبر أكثر أهمية والحاحا . فقد استطاع الخليفة الأموي أن يربط مصلحة القبائل العربية في بلاد الشام بمصلحة الدولة ولذلك فقد كانت الثقة متبادلة بين الطرفين ، ولكن في الأقاليم الأخرى البعيدة عن مركز الدولة فإن نجاح السلطة المركزية كان يعتمد إلى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدا لأكثر عدد ممكن من المقاتلة من أجل ضمان مساعدتهم لسياسة الدولة الأموية . وكان على الوالي الأموي أن يجامل ويدهن شيوخ القبائل والمتنبلين فيها والذين يتحكمون بولاء القبائل ويدهم زمام قيادتها وتوجيهها . ففي رواية للطبري أن ابن هبيرة سأل يوما من سيد قيس : قالوا الأمير ، قال :

« دعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر لو يوق بليل لوافاه عشرون ألفا لا يقولون لم دعوتنا ولا سالونه .. » (١٢)

ولا شك فإن هذه الرواية توضح نفوذ رؤساء القبائل . وقد كان في الأقاليم أكثر من واحد من أمثال الكوثر بن زفر !!

اول جيش نظامي :

وحين انتصرت الثورة العباسية كان هؤلاء المقاتلة العرب من اهل خراسان جند المفيدة العباسية اول جند للدولة الجديدة . وقد استفاد العباسيون من اخطاء الامويين ولذلك سجلوا هؤلاء المقاتلة في (ديوان شيعه بني العباس) حسب افرامهم ومدنهم والاليمهم التي عاشوا فيها بخراسان لاحسب قبائلهم وانسابهم .

ان هذا الاجراء اتبعه العباسيون يعتبر منطقيا جديدا مهما في تاريخ الجيش العربي الاسلامي في العصر الوسيط ، ذلك ان الدولة العباسية ارادت ان تزيل كافة العوامل التي نخرت في كيان الجند الاموي حتى غدا قوة منهكة لا يمكن الاعتماد عليها . لقد شجعت الدولة العباسية باهمية وجود الترابط القوي بين المقاتلة الذين يدعمون نظام الحكم الجديد ويكونون كتلة واحدة صلبة وراء الدولة الجديدة . ومن هذا المنطلق فاننا نعتبر الجيش العباسي اول جيش منظم في تاريخ الدولة العربية الاسلامية . فالجند الهاشمية كانوا نواة اول جند نظامي بالمعنى المتعارف عليه في التنظيمات العسكرية لانهم كانوا ينظمون كافراد لا كقبائل وكان ولاؤهم للدولة التي تعني بتدريبهم وتموينهم المستمر وتجهيزهم شهريا بمظاتهم .

ورغم ابقاء الدولة العباسية على اهل خراسان ، وبالبستهم من العرب ، في وحدة عسكرية واحدة ترتبط بالولاء للدولة التي كانت تسمى بدولة اهل خراسان . فانها نظمت تشكيلات عسكرية اخرى تستند على القبائل فكان هناك فرق ليلية بمانية ومصرية وربيعة . وهذا يشير بوضوح الى ان الجيش العباسي في عصره الاول كان جيشا عربيا - لا كما يقال فارسيا - كما وان قيادة الجيش ظلت في ايدي عربية .

وحين بنى الخليفة المؤسس ابو جعفر المنصور (١٢٦هـ - ٧٥٤ - ٧٧٥هـ) مدينته المدورة بغداد كان هدفه الرئيسي ايجاد مركز اداري وعسكري جديد ولذلك كانت مدينة السلام في بدايتها وكأنها قلعة عسكرية دائرية يسهل الدفاع عنها . ولم يسمح بالسكنى فيها وما حولها الا للشيعه العباسية من من جند خراسان من المقاتلة . ثم بنى الرصافة على الجانب الشرقي لدجلة ووضع فيها حامية عسكرية تحت قيادة ولي عهده المهدي يساعده في ذلك بعض القادة العرب . وكان لهذا التدبير براعة سياسية وعسكرية ، وذلك لغرض ضرب احد العسكريين في حالة تمرد المسكر الاخر .

عناصر الجيش العباسي :

حين يتكلم الجاحظ (١٧) عن تنظيمات الجيش العباسي يقسمه الى العناصر التالية :

(١) العرب (٢) الخراسانية (٣) الموالي (٤) الاتراك (٥) الابناء . ورغم ان الجاحظ عاش في اواخر العصر العباسي الاول (القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي) فان تقسيمه هذا يصدق الى حد كبير على جيش المنصور وخلفائه .

ويتفق المؤرخون الآخرون (١٨) مع الجاحظ في تقسيمه هذا ويفضلون وحدات عسكرية جديدة مثل : الفلجان ، الشاكبة ، الفاربة ، الصماليك . واللاخط ان هذه الوحدات الجديدة لم تكن وحدات رئيسية .

وفي اواخر العصر العباسي الاول اعيد تشكيل الجيش

معزولة بل ان حالات مشابهة لها حدثت مرة تلو الاخرى وفي كل مرة يقف الوالي مكنوف اليدين ويظهر عجزه عن التصدي لها حتى تسخف السلطة المركزية بإرسال القبائل السورية الموالية لها .

الخاتمة :

ان عدم قدرة الخليفة على خلق جيش نظامي دائم مرتبط بالدولة وموال لها ومدافع عن قضيتها ، كان من اهم نقاط الضعف في الخلافة الاموية بحيث جعل السلطة المركزية عرضة لاهواء وميول شيوخ القبائل والمتنفذين في الاقاليم الدولية الواسعة .

ان الازمة التي حدثت في خراسان في اواخر العصر الاموي (١٦) كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح ولم يكن هناك من شيء يمكن عمله لانقاذ الموقف ، فكان الخليفة مروان ابن محمد ، رغم قابليته الفذة ، الفصحية . ويسقطه سقطت دولة الامويين .

الجيش العباسي في عصره الاول ١٣٣هـ - ٢١٨هـ :

تمهيد :

في صدر الاسلام كانت الامة كلها مقاتلة مستعدة للجهاد تنفر للحرب اذا دعت الضرورة ذلك ، ولم يتغير الحال كثيرا في العصر الاموي حيث كان العرب المستقرون في الامصار يزاوون اعمالهم وحرفهم في اوقات السلم وينفرون للحرب حين تعلن الدولة للنزاع العام للقمع حركة داخلية او مواجهة عدو خارجي .

والذي يبحث في اسباب سقوط دولة الامويين سنة ١٣٢هـ / ٧٤٩م يجد ان السبب الرئيسي هو فشل الخلفاء الامويين في انشاء جيش نظامي ثابت واستمرار اعتماد الدولة الاموية على مبدأ الامة المقاتلة . فلما ضعف المقاتلة وضعف تماسكهم من جراء العصبية القبلية او الطامع الشخصية او غيرها وفقدت رابطة الهدف المشترك الذي يربطهم بالدولة انهارت الدولة الاموية .

لقد استغلت الدعوة السرية العباسية في خراسان اسباب تلحق المقاتلة العرب من اهل خراسان الذين نلغوا من سياسة التجبير الاموية التي تقضي ابقاء المقاتلة على الحدود شتاء ودم السباح لهم بالرجوع الى الامصار . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فكان للعرب من اهل خراسان مقاتلة او مستقرين اسباب اخرى للتمرد من السياسة الاموية التي كانت تقطع اعطيانهم احيانا او تسلبهم فيهم ولعنيتهم او تقطع نسبة اكبر مما تستحقه من هذه الفوائد بينما كان الواجب ان تأخذ الدولة الخمس وتترك الباقي يوزع على المقاتلة .

وقد زاد من اسباب استياء العرب من اهل خراسان في اواخر العصر الاموي هو ارسال ريع خراسان من الضرائب الى بيت المال المركزي في الشام بينما طالب اهل خراسان بضرورة صرفه على اقليم خراسان نفسه . واكثر من ذلك كان الوالي الاموي يسلط احيانا الدهاقين الفرس على المستقرين العرب لجباية الضرائب منهم وتقدير نسبتها . وهكذا استطاعت الحركة العباسية (الهاشمية) ان تجلب اليها الكثير من هؤلاء العرب المتلذذين في خراسان وغيرها .

العباسي فقد جعل الترك وحدة عسكرية منفصلة عن الموالي .
وامتجت السلطة العباسية وحدات من الازد والارمن
والزوايل والعماليك والابناء ضمن فرقة الموالي وجعلها
تحت قيادة واحدة (١٩) .

وليس يهنا ان نتتبع تطور الجيش العباسي عبر
المصور وانما سنركز في هذا البحث على الجيش العباسي
في عصره الاول . ولي اعتادنا بان الجيش العباسي في عصر
الخلفاء الاوائل كان يتكون من الوحدات التالية :

(١) العرب :

لقد بانت اهمية العرب للعباسيين منذ ايام الثورة
وزادت اهميتهم أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي
ضد الجند الشامي في العراق . فخلال تقدمه في العراق
ساعدت عناصر قبلية مختلفة الجيش الخراساني . ثم ان
سقوط الكوفة وواسط والوصل والبصرة ودمشق كان نتيجة
مساعدة شيوخ القبائل الذين انضموا الى العباسيين .

وتورد الروايات التاريخية (٢٠) التفرة الكثير من الامثلة
الاستدلالية فقد عملت الخلا من طي كدليل للقوة الخراسانية
المقدمة نحو الكوفة حيث دلتها على احسن الطرق واسلمها .
والمرور ان الكوفة سقطت على يد محمد بن خالد القسري
زعيم اليمانية الذي احتلها باسم الجيش العباسي قبل ان
يدخل هذا الجيش المدينة . كما وان محاولة القائد الاموي
استعادة الكوفة فشلت بسبب انسحاب اليمانية من
صفوف جنده وخاصة بجيلة وبجندل . كما وسقطت مدينة
الوصل بيد الخراسانيين نتيجة تعاون زعماء القبائل في
المدينة مع الخراسانيين حيث انلقوا الابواب في وجه مروان
وجنده . وقد اجبر يزيد بن هيرة والي العراق الاموي على
طلب الامان بعد ان فشلت مقاومته بسبب تخاذل العناصر
اليمانية في جيشه حيث المراهم ابو جعفر (المنصور) قائلا :
« السلطان سلطانكم والدولة دولتكم » (٢١) . ويعود فشل
العباسيين في احتلال البصرة في البداية الى كون والي البصرة
الاموي مسلم بن قتيبة الباهلي كان يتمتع بنفوذ كبير في المدينة
لكثرة اتباعه وانصاره من القبائل . اما دمشق فلم يفلح
عبدالله بن علي العباسي بدخولها الا بعد وقوع الفتنة بين
اليمانية انصار العباسيين وبين الممزية انصار الامويين حيث
استغاث عبدالله العباسي باليمانية قائلا : « انكم واخوتكم
من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وانصارنا واسم دلتهم اليها
مدينة دمشق وقتلتم الوليد بن معاوية وانتم منا وبكم قوام
امرنا فانصرفوا وخلوا بيننا وبين مضر » (٢٢) .

ان الحوادث الفاصلة التي وقعت في بداية نشوء الدولة
العباسية تشهد على الاهمية الكبرى والدور الفاصل الذي
لعبته القبائل العربية . فالطبري يشير الى ان هذه القبائل
كانت تشكل اقلية الجيش العباسي الذي كان يتكون من مضر
واليمن والخراسانية وربيعة . ولذلك كان اكرتية قادة
الجيش في تلك الفترة من العرب الذين لم يقودوا الحملات
فقط ضد التوار ولكنهم لعبوا ايضا دورا مهما في الصراع
السياسي وبصورة خاصة فيما يتعلق بمشكلة ولاية العهد .

ولقد أدرك العباسيون مدى التأثير البالغ الذي يمارسه
شيوخ القبائل على قبائلهم ولذلك عاملوهم معاملة طيبة
ومحترمة . وكان الاحترام والود يتناسب مع عدد اتباع
الشيخ . فقد رفض ابو العباس معاوية اسحق بن مسلم

القبلي بحجة ان ذلك سيؤدي الى ليس . « اتوى قبسا ترغبي
بان نصرب سيدها حدا ، لو دعوته بالبينة لجاؤا مئة من ليس
يشهدون ان القول قوله » . وقد منح نفس الخليفة الامان الى
مسلم بن عقبة الباهلي رغم انه تعدى العباسيين في البصرة
ولم يطلب العفو . وقد كان مسلم الباهلي طرفا في نزاع حدث
في البصرة الا ان الوالي سليمان بن علي العباسي سامحه نظرا
لنفوذه القبلي قائلا : « ما كان مسلم ليقول شيئا الا شهد
له الف نزاري » (٢٣) .

ومن المهم ان نلاحظ ان المنصور ترك في الهاشمية خازم
ابن خزيمة التميمي نائباً عنه ومسؤولا عن الجيش والمرة حينما
خرج سنة ٧٦١/١٢٢ - ٧٦٢ م .

على ان رواية ابن عسار تظهر مقدار القوة التي لم تزل
كامنة في ايدي شيوخ القبائل حتى زمن المأمون العباسي .
وفي الرواية يتهم عبدالله بن طاهر احد شيوخ القبائل محمد
ابن صالح بن يهس لتفاخره بمساعدة المأمون وكان قد اصبح
مساويا لطاهر بن الحسين ولكن محمد بن صالح اجاب قائلا :
« لقد حارب طاهر من اجسل سلطان امير المؤمنين بمال امير
المؤمنين ورجاله ، اما انا فحاربت بمالي ورجالي !! »

وعلى الرغم من ان الدولة حاولت منذ عهد الامويين ان
تنمي بين القبائل العربية شعور الولاء والاخلاص للدولة لا
للقبيلة ، فان هذه المحاولات زادت في الصدر الاول من عهد
العباسيين . فالمنصور مثلاً أكد على الولاء للنظام العباسي
اكثر من تأكيد على الولاء القبلي ، ومع ذلك فان الضرورة
السياسية جعلته يضرب التكتلات القبلية الكبيرة بعضها
بالبعض الآخر مستهدفا في ذلك تحقيق اهداف سياسية ليس
الا . ولقد شهد مهده الكثير من هذه التاورات . وقد نجح
المنصور بكسر الحلف القديم بين ربيعة واليمن وذلك بتحريض
والي اليمن معن من زائدة الشيباني بالتشديد على اهل اليمن
المنردين ثم شجع نفس الخليفة والي اليمانية والبحرين عقبة
ابن مسلم الهثالي للثار من ربيعة (قبيلة معن الشيباني) التي
كانت جزءا كبيرا من سكان اليمانية والبحرين .

(٢) اهل خراسان :

ليس لدينا في هذا المقام مجالا لمناقشة طبيعة القوة
الضاربة الخراسانية التي حققت النصر العباسي والتي كانت
تتكون بصورة رئيسية من العرب من (اهل خراسان) . على
اننا يجب ان نشير الى ان هؤلاء العرب الخراسانية الذين
عاشوا في خراسان لفترة طويلة تكلموا الفارسية المضافة الى
العربية وتزوجوا نساء فارسيات ولبسوا اللباس الفارسية
وتكلموا للغة الفارسية بتقاليدهم العربية واحتفلوا بالاعاد
الفارسية .

ان (اهل خراسان) ، بعد زحفهم الى العراق خلال
الثورة ، مروا بعملية (تعريب) جديدة خاصة وان الخلفاء
العباسيين الاوائل كانوا انفسهم بشعرون الثقافة العربية
والروح العربية في البلاط والجمع .

كانت الفرقة (الخراسانية) واحدة من اربع فرق في
جيش المنصور . اما الثلاثة الباقية فهي : ربيعة ومضر
واليمن . وهذه دلالة واضحة على نسبة العرب الكبيرة في الجيش
العباسي في الصدر الاول من الدولة . وحين يتكلم
الجاحظ (٢٤) عن فترة ابعد قليلا عن عهد المنصور يصف
الجيش العباسي كالآتي :

(١) الخراسانية

(٢) الترك

(٣) السوالي

(٤) العرب

(٥) الأبناء

ويظهر من ذلك أنه حتى في فترة الجاحظ كان العرب والخراسانية والأبناء الذين « استعربوا » لا يزالون موجودين في الجيش . والواقع أن عملية ادخال الأتراك في الجيش من قبل الخليفة المتصم لاقت معارضة قوية من العرب والخراسانية .

لقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية . وبلاحتهم بأن الخراسانية منذ الأيام الأولى للدعوة سجلوا حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم وهذا مما يؤكد حرص العباسيين على الإبقاء على تماسك الفرقة الخراسانية وعدم السماح للمصيبة القبلية بتفكيك وحدتهم . ويصف ابن المقفع الخراسانية فيقول : « فمن الأمور التي يذكر بها أمر المؤمنين أمر هذا الجند من أهل خراسان فأنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام وفيهم صفة بها يتم فضلهم إنشاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة وفصل عند الناس وكف عن الفساد وذل للولاة . فهذا حال لا تعلمها توجد عند أحد غيرهم » . ويذكر ابن المقفع الخليفة بضرورة ضبط أمر جند خراسان ورعايتهم وبشير إلى الانتباه إلى الأمور التالية :

١ - تنظيم أمور الضبط والربط والنظام عن طريق إصدار الخليفة منشور بمن فيه واجبات القادة ومسؤولياتهم وواجبات الجند وحقوقهم . « ... ومن كان إنما يصير على الناس يقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والميرة فهو كراكب الأسد الذي يوجل من راء والراكب أشد وجلًا . فلو أن أمر المؤمنين كتب أماناً مصروفًا محيطًا بكل شيء يحفظه رؤسائهم وتقودوا به دهماءهم » . (٢٥)

وبشير ابن المقفع بصراحة إلى أصل أهل خراسان العربي من أهل العراق وارتباطهم المتين بأهل الكوفة والبصرة فيقول : « ويذكر أمير المؤمنين بأهل هذه المدين (البصرة والكوفة) فأنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة وحقيقته مسح اختلاطهم بأهل خراسان وأنهم منهم فامتهم » . (٢٦)

٢ - على الدولة ألا تسلم القادة العسكريين أموراً مالية كجباية الخراج لأن ذلك يفسدهم ويذهب عن واجبهم الأصلي . « وإذا أريد صلاح هذا الجند فيجب ألا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج . فإن الخراج مفسدة للمقاتلة . وإن جباها الدراهم اجتروا عليها وإذا وقعوا في الخيانة صار كل أمرهم مدخولاً . مع أن ولاية الخراج داعية إلى الذلّة وتحطّر وهوان وانصاف منزلة المقاتل منزلة الكرامة واللفظ » .

٣ - الاستعانة بلوى القدرة والكفاءة والنزاهة منهم . « ومما ينظر في أمرهم أن منهم من الجاهلون من هو الفضل من بعض قادتهم فلو اتسموا واصطنعوا كانوا أعمدة وقوة . وكان ذلك صلاحاً لأن فوقهم من القادة ومن دونهم من العامة » .

٤ - وأن يعتنى بتثقيفهم وتعليمهم الكتاب والسنة ليتجنبوا الأهواء والمعاصي والفرقة .

٥ - أن يكون الخليفة مثلاً أعلى لهم في تجنب الترف والإسراف والغلاة في اللبس والعطر والنساء والظهور بمظهر التواضع المعتدل .

٦ - ضرورة تعيين وقت ثابت لأرزاقهم كل ثلاثة أو أربعة أشهر . وتسجيل أسمائهم في السجلات والقضاء على أسباب شكواهم . وربما كان من الأحسن أن يكون نصف رزقهم عينا والنصف الآخر نقداً .

٧ - على الخليفة أن يستقصي أخبارهم ويستعين بالثقات في معرفتها . « وأن لا يخفي (عن الخليفة) شيئاً من أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم بخراسان والمسكر والأطراف . وأن يحتقر في ذلك الثقة ولا يستعين فيه إلا بالثقات التماسح فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركة من الاستعانة فيه بغير الثقة فتصير مفتحة للجهالة والكلب » .

ولقد دافع الخراسانية في فترات الإزمات العادة عن النظام العباسي ضد الثوار . كما وأن العباسيين افتادوا إرسال قوات خراسانية لمدة طويلة أو قصيرة في المناطق المضطربة أو التي كانت معروفة بميلها للمعادية للعباسيين مثل البصرة والموصل وكذلك الشام والربيعا . كما واشترك الخراسانية في الجهاد ضد البيزنطيين . واستغل الخلفاء اسم أهل خراسان ووقوفهم باخلاص وراء الخلافة العباسية في سبيل تنفيذ مآربهم أو مشاريعهم وخاصة فيما يتعلق بولاية العهد . ويذكر في هذا الصدد ما قاله النصور لمعنى ابن موسى حين حثه على التنازل لولاية العهد الأولى إلى محمد المهدي « ليعلم أمتنا من أهل خراسان أنك أسرع إلى ما رجوا » (٢٧) وحينما أراد المهدي من عسى أن يتنازل عن ولاية العهد أخبره بأن هذا الطلب نابع من إجماع « أهل بيته وشيعته وقواده واتصائه ولغيرهم من أهل خراسان » (٢٨) . « وحين خطب الهادي لتولية أخيه هارون الرشيد ساعده بعض القواد فظلموا هارون وبايعوا لجعفر » ودسوا إلى الشيعة فتكلموا في أمره وتقصوه في مجلس الجماعة » (٢٩)

على أن الخراسانية لم يكونوا الفرقة الوحيدة في الجيش العباسي فقد شكل العباسيون وحدات أخرى - كما ذكرنا ذلك - على أسس قبلية . وكذلك اشتركوا اللبائل في حملاتهم العسكرية . وعلى هذا فإن الخلفاء طبقوا الأسس القبلية فيما يخص الفرقة الخراسانية . فسياسة عدم الاعتراف بالقبيلة ضمن تشكيلات الخراسانية كانت موافقة تماماً لفترة الدعوة العباسية ، وما أن خلق العباسيون النصر حتى وجدوا من الضرورة ضرب القبائل ببعضها البعض ، وعلى هذا نظم العباسيون فرقاً جديدة على أسس قبلية . ثم أن العباسيين ، رغم لقتهم بالخراسانية واهتمامهم برعاية امتيازات هذه الفرقة ، فقد وضعوا أمامهم احتمال حدوث تمرد أو انحراف من جانبها وبهذا شكلوا فرقاً جديدة لتأمين جانبهم من هذه الناحية . بقول الطبري بأن تمرد الراوندية سنة ١١١هـ / ٧٥٨م أشهر النصور بضرورة تقسيم جيشه إلى قسمين ووضع بعضه في بغداد والآخر في الرصافة . وبهذا يستطيع أن يضرب أحدهما بالآخر في حالة حدوث تمرد من جانب ما .

خراسان وغيرهم انك اسرع الى ما اصبو معا عليه رايهم في صلاحهم منهم الى ذلك من انفسهم » .

وقد جعل الخراسانية ، افرادا وجماعات ، على اراضي وارض داخل المدينة المنورة وفي ضواحيها . وقد سكن نسبة كبيرة منهم في الشمال من بغداد وخاصة في الحربية حيث استقروا تبعا للمدن والمناطق التي قدموا منها في خراسان . وبمعنى آخر كان سكناهم على اساس اقليمي لا عنصري .

(٢) الموالي :

ان اصطلاح « الموالي » مثل غيره من الاصطلاحات في هذه الفترة ، اصطلاحا مرنا وغير محدود . وعلى الرغم من ان « الولاء » كان علاقة اجتماعية وقانونية فان موالي الخليفة تمتعوا بميزة خاصة في علاقتهم بالخليفة الذي خدموه ضمن اختصاصات مختلفة .

ولقد كان بين « الموالي » نسبة كبيرة من المبيد المحررين من مختلف العناصر والاجناس . كما وان عددا من « الموالي » كانوا عربا اسروا في الحرب .

ليس من اختصاص هذا البحث ان يتعقب محتوى اصطلاح « الموالي » ولا يهتما ماهية الاعمال المتنوعة التي كان يقوم بها الموالي في المجتمع الاسلامي . على ان ما قصدها من اصطلاح الموالي في هذه الدراسة لا يشير الى كتلة عنصرية مكونة في الاغلب من الفرس ولكن كتلة مزيجية من اجناس عديدة يربطها بالخليفة ولاء الاخلاص (الذي نفسه فوق كل اعتبار ، كما وان ارتباطها بالبلاط العباسي كان اقوى من اي ارتباط اخر .

لقد شعر المنصور منذ بداية حكمه بالحاجة الى مثل هذا السند سواء في البلاط او في الاشارة او في الجيش . وقد عزم على خطة من شأنها جمع هذه العناصر المختلفة ، التي جلبت بطريق الحرب او التجارة وانها جذبت انتباه الخليفة بطريقة او باخرى ، في جسم صلب واحد يستطيع ان يعتمد عليه كليا . وحالا دخل الموالي في عمية الخليفة اصبحوا مرابطين به كليا وبالتالي مطمئن له طاعة عماد .

يقول الجاحظ : « وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي ابن عبيدالله يخصصون مواليهم بالمواكلة والبسط والابناس لا يهرجون الاسود لسواده ولا المميم لدمامته .. ويوصون بحفظهم اكابر اولادهم ويحملون لكثير من مولاتهم الصلاة على جنازتهم وذلك بحظوة من العمومة وبين الامام والاخوة » (٢٢) .

وقد اعتنى المنصور بتدريب البعض من « احدث مواليه » على السلاح وتطورت هذه الكتلة فاصبحت وحدة كبيرة في الجيش .

ويؤكد ابن خلدون في ان البيت والشرف للموالي واهل الاصطناع انما هو بمواليهم لا بانسابهم فيقول : « فاذا اصطنع اهل العصبة قوما من غير نسبهم واسترقوا المبيان والموالي والتحموا بهم كما قلنا ، ضرب منهم اولئك الموالي والمصطفون بنسبهم في تلك العصبة ولبسوا جللتها كانوا عصبيتهم وحصل لهم من الانتظام في العصبة مساهمة في نسبها كما قال رسول الله (ص) « (مولى القوم منهم) ، وسواء كان مولى رق او مولى اصطناع او حلف » (٢٢) ولقد ظهر في الدولة العباسية نوع جديد من الولاء سمي « بولاء الاصطناع » ،

لقد استعمل المنصور البازلين من اهل خراسان في مناصب عالية ، وكان يعرض على الاحتفاظ بولائهم للنظام السياسي . وفي رايه فان تعيين المنصور لخازم بن خزيمة التميمي الروزي الخراساني نائبا عنه في الهاشمية على « المسكر والميرة » (٢٠) حينما ذهب للحج سنة ١١٤ هـ له دلالة الكبيرة من حيث ثقة الخليفة باهل خراسان . فقد استغاث المنصور بهم في اثناء ثورة الحسينيين الخطرة . « يا اهل خراسان انتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا » (٢١) . وادعى ابنه المهدي بهم خيرا حيث قال :

« وادعيتك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بدلوا اموالهم في دولتك ودعائهم دولتك ومن لا نخرج محبتك من قلوبهم ان نحسن اليهم وتجاوز عن مسيئتهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهلته وولده » .

وحين حضرت المنصور الوفاة دعا بني هاشم والشيعة من خراسان ان يتحدوا وراء المهدي ولي العهد ويساعدوه على نسيير امور الدولة . « واسأل الله ان لا يفتنكم بعدي ولا يلبسكم شيئا ولا يدبّق بفضلكم بأس بعض بابني هاشم ويا اهل خراسان ثم اخذ في وصيتهم بالمهدي والكارههم البينة له وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده » .

على ان قلة استعمال اصطلاح « اهل خراسان » في المصادر التاريخية بعد الانتصار العباسي قد يدعو الى استنتاج خاطيء فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي . فالاعتقاد بضعف قوتهم او تلاشيتها ليس له صحة ذلك لاننا يجب ان نلاحظ بان اصطلاح (اهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عرفت به هذه الكتلة السياسية ، فقد كان يطلق عليهم اسم (الشيعة) و (انصار الدولة) (ورؤساء الشيعة) و (القواد) . وبما انهم سجلوا منذ البداية باسماء مدنهم وقراهم ولذلك كان يطلق عليهم كذلك اسم (الروزية) و (البفسين) و (اهل بلخ) و (اهل بخارى) و (اهل فرغانة) والى آخره .

وعلى ذلك فان الكثير من أبرز رجالات اهل خراسان لم يكونوا يعرفون باسم الخراسانية بل باسم قراهم او مناطقهم التي عاشوا فيها . والامتسكة على ذلك كثيرة ومتفرقة في الروايات التاريخية منها :

خازم التميمي (الروزي)

لقطة الطائي (الجرجاني)

الفصل التميمي (الطوسي)

جديع الازدي (الجرجاني)

عبدالمك المتكي (الجرجاني)

ومن هذا المنطلق يمكن الاستنتاج بانه من غير المعقول ولا من الدقة في شيء ان نعت المروزية اتباع خازم التميمي او الجرجانية اتباع عبدالمك المتكي على انهم فرس .

وهناك امثلة كثيرة اخرى في مصادرنا التاريخية لتأثير (اهل خراسان) في سياسة الدولة وكذلك في مشكلة ولاية العهد . فقد تلمذ المنصور باهل خراسان حين كتب الى عيسى بن موسى سنة ١١٤٧ هـ / ٧٦٤ م يسأله للتنازل لولاية العهد لاولي محمد المهدي . « ليعلم انصارنا من اهل

فنية عربية تحمل فيها العنصر العربي المسؤولية على عاتقه حتى بدأت تفلت من يديه بصورة تدريجية .

لقد بدأ (الموالي) بالنمو من حيث الأهمية في البلاط والإدارة منذ عهد الخليفة المنصور . ويجهزنا اليعقوبي بقائمة من أسماء الموالي الذين اختصهم المنصور ووثق بهم ، ومن بينهم : عمارة بن حمزة ، مرزوق أبي الخصيب ، واضح ، منارة ، الصلاء والربيع بن يونس . ويقول ابن قتيبة بأن المنصور غضب غضبا شديدا لما سمع أن والي البصرة سلم بن فنية الباهلي عاقب أحد موالى الخليفة واعتبر ذلك تجاوزا على الخليفة نفسه كما وأن المنصور أوصى ولي عهده المهدي بالموالي قائلا أنه ترك له ثلاثة أشياء مهمة هي : المال ، الموالي ومدينة السلام .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن هذه الرابطة القوية والولاء استمر فشكل الجيل التالي من الموالي . فقد قيل عن حاتم بن هرثة بن أعين مولى الرشيد « فانه ممن لا يعرف إلا بالطاعة ولا يدين إلا بها بما قدر من الله مما قدم له من حال أبيه محمود عند الخلفاء » (٢٤) .

ويظهر أن تأثير الموالي قد تعدى الحدود في عهد الخليفة المهدي . فقد حذر عبد الصمد بن علي ، خال المهدي ، الخليفة - على ما يذكره الطبري - بأن علاقته الودية بالموالي سوف تبعث أهل خراسان عنه . ولكن المهدي أجاب بأن الموالي يستحقون كل هذا التقدير ذلك لأنهم يسطلمون بأى عمل سيطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب مع منزلتهم أو قد يعتبر تحقيرا لهم ، بينما يمتنحرون الآخرون من غير الموالي على مثل هذه الطلبات من قبل الخليفة متملنين بأصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة العباسية .

وفي رواية للخطيب البغدادي عن الربيع بن يونس أن المهدي حين نبأ الخلافة وزع محتويات إحدى خزانات بيت المال بين « مواليه وغلماؤه وخدمته » (٢٥) .

ويقول الجعفي باري بأن المهدي أظهر احتراما كبيرا لعمارة ابن حمزة لدرجة أن القرشيين الذين كانوا يزورون البلاط في ذلك الحين استغربوا من شخصية القادم ، فأجاب المهدي « أنه عمارة بن حمزة مولاي » . وذكر المصادر التاريخية الموالي جنبا إلى جنب مع العباسيين والفرقاء الخليفة القريبين في فوائدهم الهبات والهدايا التي يعطيها الخليفة . كما وأن أهمية الموالي تظهر من الرواية التي تشير بأن المهدي حين رحل إلى جرجان سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م ترك مولاة الربيع بن يونس لينوب عنه في بغداد .

ولقد كن عدد الموالي الذين تقلدوا مناصب سياسية وعسكرية أو اظهروا براعة في المجال السياسي في عهد المهدي وأولاده الذين خلفوه كبيرا ، على أن بعض المؤرخين الذين اعتبروا الموالي كتلة عنصرية (جنسية) لا كتلة اجتماعية سياسية ، يدعون بأن اختيار الخلفاء العباسيين لوزرائهم من (الفرس) كان خطة مدروسة ومصممة تصميما جيدا من قبل الخلفاء كدليل على أن العهد العباسي الجديد شركة بين العرب والفرس . ونستطيع أن نؤكد بأن ليس هناك في مصادرنا التاريخية ما يشير إلى أن المناصب في الدولة العباسية في عصرها الأول كانت توزع حسب اعتبارات أو مقاييس عنصرية . وقد اظهرنا سابقا بأن الموالي لم يعتبروا أنفسهم فرسا كما وأنهم لم ينظر إليهم كفرس من قبل الآخرين . وكان وزراء العصر العباسي الأول أما ذوي أصول غامضة غير معروفة تماما

ويعني هذا اختيار الخليفة لأفراد أو جماعات بغض النظر عن أصلهم العنصري حيث يمنحهم الخلع والرتب ويعهد إليهم بالأعمال المهمة . وعلى هذا فيلاحظ ظهور شخصيات متنوعة في أصلها ولكنها تحس بنفسها كتلة منفصلة عن غيرها وتجمعها مصالحها وأهدافها المشتركة ، كما وأن المهم في الأمر أن الخليفة نفسه كان يعود إلى هذه الكتلة حيث أن بعض الخلفاء العباسيين يرجعون إلى أصول عربية من جهة الأم .

ومما لا شك فيه فإن كتلة الموالي في الدولة العباسية اعتبرت نفسها كتلة مستقلة ومختلفة عن كل من العرب وغير العرب . ويقول الجاحظ في هذا الخصوص بأن الموالي ادعوا بأنهم الفصل من العرب بسبب أصلهم الأعجمي وأنهم الفصل من العجم بسبب روابطهم الجديدة بالعرب . أن مضمون مقالة الجاحظ واضح فالموالي كانوا كتلة متميزة من عرب وغير العرب تجمعهم صلة واحدة ألا وهي أنهم اعتبروا أنفسهم كتلة معينة تختلف عن العرب والعجم . وقد وصف الجاحظ منزلة الموالي بالمقارنة مع العرب والعجم ، وظهر ، وهذا أمر مهم ، دعوهم بأنهم الفصل من العرب والعجم . أن هذه النظرة إلى الموالي يؤيدها إشارة الجاحظ إلى أن كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) . وحين يدافع الجاحظ عن نفسه تجاه أحد نقاده الذين اتهموه بالتكرار فيقول بأن الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفرق بين العرب والموالي . من المحتمل أن الجاحظ يشير هنا إلى تلك الكتلة من الموالي الذين طفت روابطهم بالخليفة على الروابط العنصرية (الجنسية) إذا كان هناك رابطة جنسية ذات بال في تلك الفترة المبكرة من عهد العباسيين ، كما وأن منزلتهم (أي الموالي) في البلاط والإدارة والجيش ميزهم تماما عن كل من العرب والعجم الذين كانوا منافسيهم في كسب رضا الخليفة والحصول على المراكز الحيوية .

على أن الجاحظ يعترف بأن الموالي حصلوا على تلك المنزلة الرفيعة بسبب رعاية الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بهم عربيات على الأغلب ، وادركوا مدى الاستجابة القوية والرابطة المشتركة التي تربطهم بكتلة الموالي من السكان . وبهذا فالجاحظ يرفض رفضا باتا فكرة العنصر كمييار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة عوامل رئيسية في قياس الشخص في تربيته . ومن هذا المنطلق فإن الموالي ثقافيا ولغويا وبيئيا كانوا عربا كما يمثلهم الجاحظ .

يشير الجاحظ واليعقوبي بأن الخليفة المنصور كان أول خليفة عباسي استعمل مواليه وغلماؤه في أعماله . على أن المسعودي والمقريزي يديان بأن المنصور لم يستخدمهم فقط بل فصلهم على العرب أيضا . ويظهر أن الرأي الآخر رأي اعتباطي لا يستند دليل ثابت . وإذا كان الخليفة قد وثق بمواليه وقدمهم فإن ذلك لم يكن بالتأكيد على حساب العرب الذين استمروا يحتفلون بمراكز رئيسية وخطيرة . ويمكن القول بأن ادعاء المسعودي والمقريزي ينطبق على فترة متأخرة (في حوالي منتصف القرن الثالث الهجري) من العصر العباسي ويؤيد ذلك المؤرخ النقاد ابن خلدون الذي يظهر بوضوح نقول العنصر العربي خلال العصر العباسي الأول دون أدنى شك . ويحدد ابن خلدون بدقة إلى أن العرب فقدوا السلطة حين تسلم أبناء الرشيد العرش وانهارت المعصية العربية في عهد المعتصم . وينظر ابن خلدون في تحليله لهذه الفترة المتقدمة من التاريخ الإسلامي ، إلى أن القضية كلها

ترعرعوا في البلاط العباسي أو موالي جربوا لمدة طويلة فكانوا موضع ثقة واثبتوا كفاءة عالية . وقد عينوا في مناصبهم المالية بسبب مهارتهم الإدارية وولائهم السياسي للعباسيين . ويجب أن نضيف بأن الخليفة كان يوسعهم دون أية صعوبة أن يقصدهم من مناصبهم أما لشكك فيهم أو لاعتبارات يعتقد أنها ضرورية .

وفي المدينة المدورة استوطن الموالي قطاعا خاصا بهم سمي (دواب الموالي) ، كما وأن موالي آخرين منحوا قطائع أما أفرادا أو على شكل جماعات مثل عباد الفرغاني والفرغانية ، حسن الشروي والشرورية ، والربيع بن يونس ، سليمان يسويد والخ ... على أننا يجب أن نشير بأن الشرورية هم موالي محمد بن علي ابن عبدالله العباسي ثم موالي للخلفاء العباسيين من بعده . وكان للموالي ديوان خاص بهم في بغداد يسمى « ديوان الموالي والفلمان » .

(٤) الإبناء :

في أواخر عهد المهدي وفي أيام الهادي وهارون الرشيد بدأ يظهر اصطلاح جديد بين كتل البلاط وفي تشكيلات الجيش العباسي ألا وهو (الإبناء) . ويذكرهم ابن سعد في طبقاته باسم (أبناء أهل خراسان) حيث يشير إلى أبي نصر التمار على أنه من أبناء أهل خراسان من نساء . وتؤكد رواية أخرى الأصل الخراساني لكتلة الإبناء هذه في مناقشة بين الرشيد وأحداهم الذي قال يتحدث عن نفسه بأنه « من أبناء هذه الدولة » أصله من مرو وولادته في بغداد . ويذكر الدينوري أن الرشيد حين زار سنة ١٨٠ هـ مدينة الهاتمية التي بناها أبو العباس قرب الأنبار وجد فيها عددا من « أبناء أصل خراسان » لا يزالون يقطنونها . ويشير الدينوري نفسه إلى أن ثورة رافع بن ليث الليثي في خراسان كان سببها سياسة الوالي عيسى بن ماهان التصفية تجاه أهل خراسان ، كما وأن فشلها يعود إلى انحياز بعض السذج كانوا مع رافع الليثي مثل عجيف بن غنبة والاحوس بن مهاجر إلى الجيش العباسي . وفي رواية للطبري يسمي هذه الكتلة « معشر الإبناء وأهل السبق إلى الهدى » والهدى هنا معناه الانضمام إلى الدعوة العباسية . كل هذه الروايات التاريخية تؤكد دون شك الأصل الخراساني للإبناء . وبمعنى آخر أن الإبناء هم أبناء وأحفاد أهل خراسان جند العقيدة العباسية الذين تالوا في وجه السلطان الأموي وزحفوا نحو العراق والشام فعمقوا الدولة الأموية وأقاموا الدولة العباسية سنة ١٢٢ هـ / ٧٥٠ م .

وفي العراق مركز السلطة العباسية الجديد استوطن أهل خراسان محافظين على وحدتهم غير متناشين أصلهم ولذلك برزت كتلة الإبناء من كتلة أهل خراسان كتلة واحدة منسجمة تأثرت بالتطورات الجديدة السياسية والثقافية والحضارية إلا أنها لم تنس القليم أبانها الأول حيث ولدت الدعوة العباسية ونفجرت .

وكما أن أهل خراسان كانوا عربا ومعجما فالإبناء دون شك سيكونون مزيجا من الجنسين ولذلك يصدق ابن طيفور حين يسميهم « أبناء خراسان المولدون » . فمن أبرز العرب من الإبناء هو عبدالله بن حميد بن قحطبة الطائي حيث يشير إليه الخليفة وداود بن عيسى بن موسى الخراساني ومحمد ابن أبي خالد الروزي .

أما أبرز المعجم من الإبناء فهو يحيى بن خالد البرمكي الذي يشار إليه كواحد من « أهل الدولة » .

ومما يدل على الصلة القوية والترابط الوثيق بين (أهل خراسان) و (الإبناء) هو اشتركة الروايات التاريخية لهم جنباً إلى جنب ، فيذكر الجاحظ على لسان الخراساني « أننا النقباء وأبناء النقباء » ويدعي البنوي الأصل الخراساني دائما فاصله في خراسان وفرعه في بغداد . ويؤكد الجاحظ في مناسبة أخرى في مناقب الترك بأن « البنوي خراساني » . يقول البنوي « أنا أصلي خراسان وهي مغرقة الدولة ومطلع الدعوة ... ولرمي بغداد وهي مستقر الخلافة والقرار بعد الحولة وفيها بقية رجال الدعوة وهي خراسان العراق وبيت الخلافة وموضع المادة » . (٢٦)

ويستطرد البنوي فيفخر بنفسه قائلا : « وأنا أعرق في هذا الأمر من أبي وأكثر تردادا فيه من جدي وأحق في هذا الفضل من الولي والعربي . ولنا بعد في أنفسنا ما لا ينكر من العبر تحت ظلال السيوف القصار والرماح الطوال ... ولنا العبر على الجراح وعلى جبر السلاح إذا طار قلب الأعرابي وساء ظن الخراساني » (٢٧) .

وقد اثبتت التجارب السياسية وهوى الإبناء إلى جانب أهل خراسان في فترات الشدة والازمات . فقد وقف الإبناء مع أهل خراسان ضد أهل الشام كما وقف الإبناء مع الجريمة (وهم من خراسان) ضد إجراءات المعتصم بإدخال الترك في الجيش العباسي .

ولكن الإبناء لم يكونوا قوة كبيرة في عهد الخلفاء العباسيين الأوائل ويزداد ذكرهم في عهد الرشيد ثم لعبوا دورا مهما في النزاع بين الأمين والأمين .

وسكن الإبناء في بغداد الأرياض وكانوا يسمون (أهل الأرياض) أو (أبناء الأرياض) . على أن الفرق بين الإبناء وأهل خراسان هو أن أهل خراسان من العرب تاتروا بالبيئة الفارسية وتقاليد حضارتها لاستقرارهم هناك ودحا من الزمن أما الإبناء فتاتروا بتقاليد الخلافة العباسية في العراق الذي كانت بيئته تختلف تماما عن بيئة خراسان الأممية .

(٥) السودان والزنج والعبيد :

لقد تقربت الدعوة العباسية إلى المستضعفين في المجتمع الإسلامي فدعت العبيد إلى الانخراط في صفوف الثوار وعق كل عبد ينضم إليها . ولم يكن وجود العبيد في الجيش العباسي شيئا مبتدعا فقد كان العبيد يرافقون الحملات العسكرية منذ العهد الأموي .

ولذكر المصادر التاريخية وجود الميبد والزنج كتشكيلة في الجيش العباسي فكان هناك وحدة مكونة من ١٠ آلاف زنجي في جيش يحيى بن محمد العباسي وإلى الموصل حين وصوله سنة ١٢٢ هـ / ٧٥١ م كما ورافق السودان الجيش العباسي الذي أرسله المتصور إلى البصرة لأخماد ثورة إبراهيم الحسني . والمعروف أنه كان يوجد في بغداد دار خاصة بالرفيق تسمى (دار الرفيق) (٢٨) . وكان الرفيق يستوردون من مصادر مختلفة منها الشراء أو السبي أو هدايا أو جزء من ضرائب القليم من الأقاليم ..

(٦) الأعراب :

وكما ادخلت السلطة العباسية الصماليك في الجيش
صمت كذلك الزواويل لضبطهم وحل مشكلتهم المعاشية
وايجاد عمل مفيد لهم .

(١٠) عناصر أخرى :

وقد انضم الى الجيش العباسي بمرور الزمن عناصر
أخرى وخاصة في أواخر العصر الأول (٢١) مثل الفرافنة والزط
والأمن وغيرهم على أن أغلب هذه العناصر لم تتبلور في فرق
عسكرية في الفترة موضوعة البحث وربما دخلت ضمن المتطوعة
والقوات النظامية .



الهوامش :

- ١ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ص ٢٠٢ - البغوي ، تاريخ ، ج ٢ ص ١٧٦ طبعة لندن .
- ٢ - ديب ، مروان بن محمد ، أطروحة دكتوراه ، جامعة مارنرد ١٩٢٩ ص ١٢٢ .
- ٣ - الطبري ، تاريخ ، الطبعة الأوروبية ، القسم الثاني ، ١٢٨١ - ١٢٨٢ .
- ٤ - المصدر السابق ، ص ١٥٤٤ .
- ٥ - راجع ديب ، المصدر السابق ، ص ١٢٢ فما بعد .
- ٦ - فان فلوت ، السيادة العربية ، القاهرة ١٩٢٤ .
- ولياوزن ، الدولة العربية القاهرة ١٩٥٨ . جرجس
ريسان التمدن الاسلامي ، ج ٢ ص ١٨ - ٢٨ ، د عبد
الامر دكن الخلافة الأموية ١٠١ - ١٠٤ (بالأكبرية) .
- ٧ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٦٩٠ .
- ٨ - المصدر السابق ، ص ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ .
- ٩ - ديب ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ .
- ١٠ - المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
- ١١ - المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٥ ص ٢٧٦ . وقد
خطب الحجاج الثقفي في القنطرة فقال : « يا واهي
أمير المؤمنين أمرني أعطاكم أعطيكم وأتخاضكم إلى
محزبه عدوكم (الخوارج) مع الملب وقد أمرتكم بذلك
وأحلت لكم ثلاثاً وأعطيت الله عهداً بواحدني بيب
وستوفيه متى أن لا أجد أحداً من بيت الملب بعدها
إلا شربت عنته وانتهت ماله » مروج الذهب ، قامره
ج ٢ ص ١٢٥ .
- ١٢ - الطبري ، تاريخ ، ص ١٤٥٥ .
- ١٣ - المصدر السابق ص ١٤٩٠ .
- ١٤ - د - فاروق عمر فوزي ، العباسيون الأوائل ، الجزء
الأول ، بيروت ١٩٧٠ .
- ١٥ - الطبري ، ص ١٢٧٩ .
- ١٦ - د - فاروق عمر ، طبيعة الدولة العباسية ، بيروت
١٩٧٠ .
- ١٧ - الجاحظ ، البرك (في ثلاث رسائل) ١٩٠٦ ص ٨ .
- ١٨ - الطبري ، تاريخ القسم الثالث ، ١٣٨٠ - ١٢٨١ .

ولقد كان من عادة قادة الجيش العباسي من أصحاب
الثقود القبلي أمثال خازم بن خزيمة التميمي وممن بن زائدة
الشيبياني وحقبة بن مسلم الهناني وعبدالله بن شهاب المسمي
وزيد بن يزيد التميمي أن يصلحوا جزء من قبائلهم مع
الجيش المنظم عند انتدابهم للفرز أو لقمع ثورة وبهذا يستطيع
القائد أن يعتمد على ثقاتهم له في فترات القتال العرجة ثم
أنهم سينتفون بالقوائم والإسلاف ويتيسر للسلطة انخالفهم
لفترة مع الزمن . ولقد استعمل أبو جعفر (المتصور) نفس
هذه السياسة مع قبائل الجزيرة حين كان والياً عليها في
خلافة أخيه أبي العباس .

(٧) الشاكزية :

المعروف أن اصطلاح شاكزية يعني بالفارسية الخدم .
وهؤلاء من المرتقة المرتبطين بالوالي أو القائد ويعتبرون جزءاً
من مواليه وقلعته . وكانت الشاكزية في الجيش تستخدم في
الخدمات بالدرجة الأولى والحراسة . وقد ربطوا في أواخر
العصر العباسي الأول بالمؤسسة العسكرية فسجلوا في ديوان
واحد مع الجند سمي ديوان الجند والشاكزية (٢٩) .

(٨) الصماليك :

ونعني كلمة « صملوك » الفقه الضعيف الحال وأن
انخرطهم في الجيش العباسي في أواخر العصر الأول يعني
دخول عناصر من الطبقات الضعيفة والكادحة في الجيش . ولا
شك فإن قبول هؤلاء في الجيش يدل على سياسة حكيمة
للدولة العباسية فقد انضم هؤلاء الفقراء والمحرومين إلى
حركات التمرد ضد السلطة وسيبوا فلافل كثيرة في أقاليم
عديدة مثل الأربيجان وأرمينية وغيرهم فكان حلاً معقولاً من
قبل الدولة أن تقبلهم في الجيش فقصت بذلك على أسباب
نفهمهم وحلت مشكلة بطالتهم . وكان الصماليك يتواجدون
بين الجند المرتبط في الثور .

(٩) الزواويل :

يورد هذا الاصطلاح عند الكلام عن النزاع بين الأمين
والمأمون . وكان الزواويل كجماعة وفقت إلى جانب الأمين ،
وقالبية هذه الكتلة تتجمع من إقليم الشام والجزيرة وذكر
المصادر بعض زعمائهم أمثال نصر بن سبب العقيلي والعباس
ابن زفر الهلالي وقد حذر المؤرخون في تعيين هذه الجماعة (٤٠)
ونحن نعتقد بأن الزواويل في غالبيتهم عرب من القبائل
القيسية المستوطنة في بلاد الشام والجزيرة . بشر الطبري
إلى أن الخليفة هارون الرشيد أرسل جعفر البرمكي سنة
٧٩٧/١٨٠ لوضع حد للصعيات القبلية بين القيسية
واليمانية « وقتل زواويلهم ومتصلصمتهم » وقد أشرنا بأن
زعمائهم كانوا عرباً .

ولهذا نرى بأن الزواويل عرباً قيسية نصرروا الأمين
وبقوا بعد انتصار المأمون ضد السلطة العباسية ولذلك
نعتهم السلطة « باللموصية » وكان لهذا التعت ما يبرره
لأن هؤلاء البدو كانوا محرومين من المعطاء وربما عمدوا إلى
التهب لاقامة أودهم وبمرور الزمن أصبح اصطلاح الزواويل
اصطلاحاً اجتماعياً يدل على المعطاء من البدو العرب وخاصة
من القيسية .

٢٩ - المصدر السابق ، ص ٥٧٢ - الجمشباري ، الوزراء والكتاب ١٧٤ ، اليمقوبي تاريخ ٤٨٩ - ٤٩٠ .
٣٠ - الطبري ، ص ٦٠٠ - ٦٠١ اليمقوبي ، تاريخ ، ص ٤٩٠ .

٣١ - الطبري ، ص ١٤٢ (القسم الثالث) الطبعة الاوربية .
٣٢ - الجاحظ ، رسائل ، مناقب الترك (تحقيق عبدالسلام هارون ، ص ٢٢ - ٢٤) .

٣٣ - ابن خلدون ، مقدمة ، ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

٣٤ - الطبري ، تاريخ ، ص ٧٦٦ .

٣٥ - الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، ج ٥ ص ٢٩٢ .

٣٦ - الجاحظ ، رسائل (مناقب الترك) ، ص ٢٩ .

٣٧ - المصدر السابق ، ص ٢٦ .

٣٨ - القزويني ، القفي ورقة ٩١ ب .

٣٩ - الكوفي ، الفئوج ورة ٢٢٥ ب - الطبري القسم الثالث ص ٢٩ - تاريخ طبرستان ج ٢ ص ١١٨ .

٤٠ - راجع ، فاروق عمر ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٨ (المقدمة) .

٤١ - Miah, The Reign of Al - Mutawakkil, PH . D., London 1963.

١٤٠٠ ، ١٤٢١ - الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ٢٩ ، ٤٤ ، ٦٤ - السعدي ، مروج الذهب ، ج ٧ ص ٢٥٨ ، ٢٧٢ - ٢٧٧ .

٤٩ - ميا ، عصر المتوكل ، اطروحة (بالانكليزية) ، جامعة لندن ١٩٦٣ .

٥٠ - راجع د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، الفصل الاول ، دمشق ، ١٩٧٣ .

٥١ - راجع مقالنا

The Composition of Abbasid Support:

في مجلة كلية الاداب سنة ١٩٦٨ لفيه معلومات اكثر من مصادرنا الاصلية والحديثة .

٥٢ - الازدي ، تاريخ الوصل ، ص ١٢٤ .

٥٣ - د . فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، ج ٢ ، ص ٢٨ .

٥٤ - الجاحظ ، الترك ، ١٩٠٣ ص ٨ .

٥٥ - ابن المقفع ، رسالة في الصحابة ، ص ١١٩ فما بعد .

٥٦ - المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

٥٧ - الطبري ، تاريخ ، القسم الثالث ، ص ٢٢٨ - ٢٤١ ، اليمقوبي ، التاريخ ج ٢ ، ٥٦ - ٥٧ .

٥٨ - الطبري ، ص ٤٧١ - ٤٧٦ (القسم الثالث) .

بغداد مركز العلم والثقافة العالمية في القرون الوسطى

بقلم الدكتور

جليل كمال الدين

كلية الاداب - جامعة بغداد

الواسعة ، الظروف الضرورية لتجديد
الحضارة ، ولتجديد شباب العالم «
(روجيه غارودي)

« الغرب وليد الشرق ، ولا يزال مفتاح ماضي
الحوادث في الشرق ، فعلى العلماء ان
يبحثوا عن هذا المفتاح فيه «
(غوستاف لوبون)

« إن العلم الغربي ... يدين بوجوده
للحضارة العربية »

(برينغو)

« فنحن في الغرب مدينون للعرب بكل علمنا »
(ج . د . برونال)

« إن الاسلام ... قد خلق ، بفتوحاته

- ١ -

لم تستطع معه حضارة إسلامية أخرى ان
تنافسها ، تستوي في ذلك سامراء (العاصمة
العباسية الشهيرة الثانية) ، ودمشق (عاصمة
الأمويين) ، والقاهرة (عاصمة الفاطميين
والأيوبيين ومماليكهم) . ولعل قرطبة في الأندلس
كانت بالنسبة الى المغرب العربي ، الاسلامي
مثملاً كانت بغداد بالنسبة للمشرق العربي -
الاسلامي . على ان قرطبة واشبيلية ، وفاس ،
والقيروان كانت تتبارى ، فيما بينها ، أو ، كلا
على حدة ، لتقول شيئاً « بغدادياً » ، أو لتروي
شعراً أو حديثاً أو تاريخاً بغدادياً ، حتى ان
بعض المغاربة والأندلسيين نفسوا ذلك على
بغداد ، وعدلوا اهل مصرهم في هذا « التبغداد » ،
والهيام بكل شيء بغدادى ، وشرقي !

وهكذا ، فان من الغريب ، على ضوء مثل
هذه الخلفية ، ان تأتي « الموسوعة الميسرة »
(١٩٦٥) ، في باب « بغداد » ، على ص ٢٨٢ ،
بتعريف بانس ، حقاً لها . ولعل اقليمية كاتب
فقرة « بغداد » ، في احسن الاحوال ، أو جهله ،

لقد اهتم العرب ، مبررين تمام التبرير ،
بمدار السلام ، بغداد ، اهتماماً ليس له مثيل .
فالفوا فيها الكتب ، وصنفوا المصنفات ، ونظموا
الشعر وكتبوا الحكايات والقصص والاساطير ،
والأزجال ، والموااليس والرسوم والتصاوير
المدھنة . ولم يكن كل ذلك دون سبب وجيه ،
فالحق ان بغداد كانت بعظمتها ، وهيبته ،
ومركزها العلمي والثقافي والتجاري ، ومكانتها
الجغرافية والستراتيجية والعسكرية ، معقد
آمال العرب والمسلمين ، على حد سواء . وكان
كثيراً ما يقال ان من لم ير بغداد لم ير الدنيا .
ولهذا كان العلماء والفقهاء والشعراء ، من جهة ،
والتجار والباحثون عن الثروة والعمل ، من جهة
أخرى ، يشهدون الرحال ، جميعاً الى بغداد
ليستقروا فيها بقية حياتهم ، أو ليتزودوا بالعلم
والثقافة ويعودوا الى أوطانهم مجازين في
التدريس ، أو الفقه ، أو الافتاء .

وبلغت عظمة بغداد ومكانتها الراسخة حداً

في أسوأ الأحوال ، هو الذي دفع الكاتب الى هذا « البؤس العلمي » ، إذا أمكن التعبير وصح .

يقول الكاتب ، بعد ان يذكر بغداد هي عاصمة الجمهورية العراقية ، ويشير الى عدد سكانها ، يقول :

« المدينة الحالية اسمها المنصور الخليفة العباسي ، على الضفة اليمنى لنهر دجلة في ٧٦٢م ، وتقع على خط عرض (١٨ ، ٢٦ ، ٢٢) درجة شمالاً ، وعلى خط طول (٩ ، ٢٣ ، ٤٤) درجة شرقاً ، ومنذ ذلك الحين أصبح مركزها التجاري عظيماً لا ينافسه موقع ، وبقيت مركزاً مهماً للعالم الاسلامي لقرون عديدة ، وتحيط بها البساتين والحدائق الفناء ، وبلغت أوجها في زمن الخليفة هارون الرشيد ، وهي ، بالإضافة الى ذلك ، مواطن لعدد من العلماء والمفكرين والفنانين ، تمتعت بمركز مالي هام ، واشتهرت بمنتجاتها كالحرير والفيفساء ، وخلدتها في العالم الغربي قصص (الف ليلة وليلة) . ضعف شأنها بعد انتقال مقر الخلافة العباسية فيها الى سامراء ، ولكن ما لبث ان عاد إليها مقر الخلافة ، ثم جاءت فترة ركود بسبب الصراع الداخلي في الدولة العباسية ، وتمرضت المدينة لغزو المغول (١٢٥٨) ، فدمرت معالمها الرئيسية ومكتباتها ودور العلم بها . ثم بدأت تسترجع مكانتها ، ولكنها دمرت ثانية من قبل تيمورلنك (١٤٠٠م) ، وغزاها الشاه اسماعيل الصفوي (١٥٠٨م) ، ومرت فترة تناوب فيها الفرس والأتراك حكم بغداد ، وكان تعدادها حينذاك (١٤٠٠) نسمة . ولم يبق من آثارها وثوراتها إلا القليل .. » .

إن مثل هذا التعريف محدود جداً ، وهو لا يفي بالحد الأدنى من متطلبات التعريف العلمي الموسوعي لمدينة كبيرة ، شهيرة ، مثل « بغداد » ، ناهيك عن كونه قاصراً في الإحاطة بأبعاد عظمة ومكانتها ودورها الكبير في نشر العلم والثقافة ، وأهميتها العربية والإسلامية والعالمية .

ولعل خير من كتب عن بغداد ، في معرض التفصيل في مكانتها العلمية ودورها الثقافي والحضاري الاساتذة الاجلاء : محمد كرد علي (في كتابه « الاسلام والحضارة العربية ») ، وطه الراوي (في كتابه « بغداد - مدينة السلام ») :

وناجي معروف ومصطفى جواد وأحمد سوسة ومحمد طاهر مكية وشاكر حسن آل سميذ (في كتاب « بغداد ») الذي نشرته (نقابة المهندسين العراقيين) ، بغداد ، (١٩٦٩) ، وطاهر مظفر النعميد (في كتاب « بغداد » ، مدينة المنصور المدورة) ، ورمزية الاطرقجي (في كتابها عن بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور) ، وبدرى محمد فهد (في كتابه « العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ») ، وعبدالله الطيف الراوي (في كتابه « المجتمع العراقي في شمس القرن الرابع للهجرة ») ، وحكمت نجيب (في كتابه « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » : منشورات جامعة الموصل) ، وقدرى طوقان في كسبه (العلوم عند العرب ، الخالدون العرب ، مقام العقل عند العرب ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك) ، ومحمد عبدالغني حسن (في كتابه « ملامح من المجتمع العربي ») وعبدالحاميد العلوجي (في كتابه « تاريخ الطب العراقي ») ، ومصطفى ليب (في كتابه « الكيمياء عند العرب ») ، محمد مفيد الشوباشي (في كتابه « العرب والحضارة الأوربية ») ، وغيرهم بالإضافة الى كوكبة لامعة من المستشرقين في شتى أنحاء العالم .

وعقد لوبون بحثاً طريفاً عن بغداد ، ضمن كتابه الشهير « حضارة العرب » . وكتب كثير من المستشرقين عن بغداد ، في تضاعيف كتاباتهم وكتبهم عن الحضارة العربية ، الإسلامية ، والخلافة العربية ، والدولة العباسية ، والتمازج الثقافي الاسلامي . (١)

ومن المهم ان نشير الى بحث لوبون عن بغداد ، ونجتزئ منه شيئاً . يقول لوبون :

« دور الخلافة في بغداد بآسية ودورها في قرطبة باسبانيا أنظر ادوار الحكم العربي ، ولما استقلت تلك الدولتان بسرعة ، وفصلت بينهما مساوق عظيمة ، كان لهما اصل واحد ودين واحد ولغة واحدة ، تقدمتا تقدماً متوازياً عدة قرون ، وكانت المدينتان الكبيرتان ، بغداد وقرطبة ، وهما القاعدتان اللتان كان السلطان فيهما للاسلام من مراكز الحضارة التي اضاءت العالم بنورها الوهاج ايام كانت اوربا غارقة في دياجير العمية » . (٢)

ويفيض لوبون في التفصيل في مكانة بغداد

الحضارية ، ودورها العلمي والثقافي ، مما سنعرض له ، لاحقاً . وبإمكان المرء أن يقارن بين ما كتبه المستشرق الفرنسي لوبيون عن بغداد وبين ما كتبه كاتب فقرة « بغداد » في « الموسوعة العربية الميسرة » ، ليلمس الفرق في التوجه والمنهجية والموضوعية بين الكاتبين .

- ٢ -

من أين جاء اسم « بغداد » ؟ وماذا يعني ؟
تلكم أسئلة خطرت وتخطر في بال كثير من الباحثين ، والمؤرخين ، ولا بد من البحث عن جواب شاف عنها . وسنستعرض ، فيما يلي ، بعض أهم الآراء في التسمية ، وأصلها ، ومفزاها .
يقول الباحثان العراقيان المعاصران ، الأستاذان : د . مصطفى جواد ، و د . أحمد سوسة ، في بحثهما المشترك « تخطيط بغداد في مختلف عصورها » : في كتاب « بغداد » : وفي فقرة أولى تحمل عنوان « بغداد في أدوارها الأولى » :

« اختلف المؤرخون ، قديماً وحديثاً ، في بيان اسم « بغداد » ، وتعيين معناه ، فمنهم من قال أن أصله « بعل جاد » باللغة البابلية ، ومعناه « معسكر بعل » ومنهم من قال أنه « بعل داد » ، أي الإله الشمس ومنهم من قال أنه كلداني ، وأن أصله « بلداد » ، و « بل » ، اسم الإله الكلداني ، و « داد » كلمة آرامية معناها « الفتك » . ويذهب هؤلاء إلى أنه حدثت على عهد (بختنصر ٦٠٤ - ٥٦٢ ق.م .) ملحمة عظيمة ظفر فيها بأعدائه ، فأنشأ هذه القرية تخليداً لظفره ، وسميت باسم الضم « بل » . ومنهم من يقول بأن الاسم بابلي من عهد حمورابي في القرن الثامن عشر ق.م . ، وأن أصله « بيت كدادا » ، أي بيت الغنم ، ويرى بعض الباحثين أن كلمة بغداد آرية الأصل ، وأن الكيشيين استعملوها أول مرة في مستهل الألف الثاني ق.م . ، ومعناها « عطية الإله » . والفرس يفسرونها على عاداتهم ويرجمونها إلى أصل فارسي هو (باغ داد) أي بستان (ذا دويه) ، أو « بغ داد » أي الضم (بغ) أعطاني ، أو « باغ أي داد » وهو اسم بستان ، أنشأه كسرى انوشروان (٥٢٢ - ٥٧٩ ق.م .) في هذه البقعة ،

فسميت القرية باسمه ، وفيل : كان اسم ملك الصين « بغ » فكان تجار الصين إذا انصرفوا إلى بلادهم يربحهم الوافرة من سوق بغداد ، قالوا « بغ داد » ، أي هذا الربح من عطية الملك ، وهو أضعف الأقوال وأبعدها عن الاحتمال . وقد ورد اسم بغداد في أخبار فتح العرب للعراق في الثلث الأول من القرن السابع للميلاد وأخبار الدولة الأموية ، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب حملت أبا جعفر المنصور على تأسيس مدينته المروسة بمدينة السلام ، والذي يهمنا في هذا البحث الموجز هو أنه عزم عزمًا أكيداً على إنشاء مدينة حصينة بين عدة قرى مكونة مزدهرة - وهي بغداد العتيقة البابلية ، وسونابا الآرامية ، التي من بقاياها الإسلامية اليوم مسجد المنطقة بين بغداد والكاظمية ، والخطابية . وشرفانية ، وبنائورا ، وورثاء ، وبرانا ، وقطفتا التي هي اليوم « محلة المشاهدة » ، بالجانب الغربي من بغداد) ، والوردانية ، وقد اختير لموقع المدينة مزرعة تعرف (بالمباركة) ، تيمناً باسمها على عادة العرب في التفاؤل بالأسماء ، وكانت المزرعة ملكاً لستين شخصاً من أهل بغداد فعوضهم المنصور عنها بالنقد ، وكانت هذه المزرعة في موضع البساتين المنسوبة في أيامنا إلى المرحوم عبدالحسين الجليبي بين المنطقة والكاظمية في الجانب الغربي من بغداد . . . » (٢) .

وهكذا يتبين ، مما كتبه باحثا بغداد ، المعاصران : جواد وسوسة أن اسم (بغداد) لا زالت تحوطه الشكوك أصله وانحداره ، وإن كانا يكادان يقطعان بأن الاسم غير عربي ، ويمكن ملاحظة هذا من ذكر الباحثين لبغداد العتيقة البابلية ، وورود اسم بغداد في أخبار فتوحات العرب للعراق ، مما يعني أن التسمية موجودة ، أو شبيه بها أو قريب منها موجود ، قبل تأسيس مدينة المنصور المدورة باسم بغداد ، الذي اشتهر في التاريخ ، والعلم والثقافة ، على مدى الأزمان ، ومختلف العصور ، والانظمة الاجتماعية - الاقتصادية - السياسية .

إن ما يهمنا هو أن بغداد ، في التاريخ والسياسة والعلم والثقافة والتقدم الحضاري ،

اقتربت دائما بالعرب ، وبمؤسسها أبي جعفر المنصور ، وبانحطارة العربية ، الاسلامية ، في عصرها الذهبي (عصر الرشيد والمأمون) ، وعصورها الاخرى .

نقد كانت روما موطننا للبرابرة قبل ان يحضرها الرومان ، مثلما كانت اثينا وكريت قبل ان يحضرها اليونان . وهكذا ، فان بغداد ، سواء كانت بابلية أم فارسية ، في سحيق الأزمان ، فانها عربية منذ اسسها المنصور ، واستوطنها الشعب العربي الذي انشأ أضخم حضارة في القرون الوسطى ، يوم كانت أوروبا غارقة في سباتها .

ولشهرة اسم بغداد ، والمظلة التي اقترنت بها ، سمى الكثير في المشرق والمغرب العربي ، على حد سواء ، للتميز به ، مسمين عديداً من مدنها به . يقول ناجي معروف ، كاتب المقدمة ، لرسالة الماجستير لطاهر مظفر العميد (بغداد - مدينة المنصور المدورة) ، ما يصلح ان نقتبسه ، هنا ، على سبيل الاستشهاد :

« ويظهر تأثير بغداد واضحاً في تسمية بعض المدن والاماكن باسمها ، فقد سميت مدينة فاس بـ (بغداد المغرب) ، وهي المدينة التي تتكون من مدينتين مسورتين هما (عدوة القرويين) و (عدوة الاندلسيين) ... أما المدن والاماكن التي سميت (بغداد) فكثيرة منها - (بغداد) التي انشأها (زيري بن عطية) في المغرب . ومنها الاسماء التي اطلقت على اماكن مختلفة في العالم القديم والعالم الجديد . فقد اطلق اسم (بغداد) في الولايات المتحدة الامريكية على مدينة في (أريزونا) وفي (فلوريدا) ، وفي كانشاكي ستي ، وعلى قربتين من قرى الولايات المتحدة ايضا ، وسميت إحدى مدن بولونيا في أوروبا باسم (بغداد) ، كما سميت إحدى مدن أستراليا باسم (بغداد) ، أيضاً وفي تانزانيا بأفريقيا اطلقت كلمة (دار السلام) على عاصمتها . وسمى المغاربة بعض مدنها بأسماء المدن الشرقية ، متأثرين بزيارة تلك الديار ، أو ورودهم منها . فنجد اسم (بغداد) يطلق على مكان في مدينة (ميك) لما يتوفر فيه من نخل . وفي مصر اطلق اسم (قصر بغداد) على

قرية من قرى (المنوفية) ويقال في النسبة اليه (القصري) » . (١)

ويمكن ان نضيف الى ذلك ، ان اسم بغداد معروف في جورجيا بالاتحاد السوفيتي ، فقد اطلق اسم (بغدادي) على إحدى مدن جمهورية (جورجيا) السوفيتية ، وهذه المدينة شهيرة في عالم الادب والتاريخ ، لانها موطن الشاعر السوفيتي الكبير فلاديمير ماياكوفسكي ومسقط رأسه (فقد ولد ماياكوفسكي في (بغدادي) بجورجيا في ١٨٩٣ وتوفي عام ١٩٣٠ .

- ٣ -

تقترن بغداد بعظمة الحضارة العربية - الاسلامية ، واكبر دور لها في القرون الوسطى ، على صعيد العلم ، والثقافة ، والفنون ، والعمارة ، والازدهار الحضاري ، عموماً .

إننا نكاد نستطيع الجزم ان مدرسة بغدادية متكاملة قد شكلت في الفكر العربي - الاسلامي ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والفنون ، والعلوم الطبيعية ، والاداب .

ويقرن المؤرخون ، والباحثون ، والمتابعون مدرسة بغداد هذه بعصر الرشيد والمأمون . حتى ان احمد الرفاعي ، الباحث العربي البارز ، ألف كتاباً ، بعدة اجزاء ، عن « عصر المأمون » . أما لوبون (الذي لم ينصف العرب بدواعي المجاملة ، التي لا حاجة لها ، طبعاً - ، بل بدواعي الموضوعية ، وبالضرورات التي امتهنا إنجازات الحضارة العربية (الاسلامية الكبيرة) فهو أيضاً يقرنها بعصر هارون الرشيد ، والمأمون إذ يؤكد في الفصل الثاني من كتابه المشهور « حضارة العرب » ، الذي اسلفنا الإشارة اليه ، ان بغداد بلغت ذروة الرخاء في عصر هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩ م) ، وابنه المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) وصارت اهم مدن المشرق ، وذاع صيت الرشيد ، وطبق الافاق ، فارسلت بلاد التتر والهند والصين رسلاً الى بلاطه ، وأرسل أهل الغرب الحقيقي ، وصاحب الحول واشوكة ، الامبراطور شارلمان ، الذي كان يملك ما بين المحيط الاطلنطي ونهر الالب ، وهو الذي لم يملك غير اناس من الهمج ، وفداً ليلبغ الرشيد أطيب تحياته ، ويلتمس الحماية

لحجيج القدس ، فأجابه الرشيد الى سؤاله ، ورد اليه وفده مع هدايا عظيمة ، ومن بينها فيل مجهز بأفخر جوار ، والفيل كانت تجهله اوريا تماماً ، ولاليء وجواهر وحلي وعاج وعطور ونسائج حريرية وساعة دقاقة تدل على الوقت. وقد قضى امبراطور الغرب شارلمان العجب من هذه الساعة هو وحاشيته المنبربرون الذين لم يكن بينهم من قدر على إدراك كنهها - والذين حاول شارلمان عبثاً ان يحملهم على إحياء حضارة الرومان (١٥).

ومع ذلك فقد أعطى لوبون حيزاً أكبر للرشيد (مقابل المأمون) ، وفعل فعله نيكولاي غوغول ، انقاص الروسي الشهير في القرن التاسع عشر ، في محاضراته عن الرشيد والمأمون في جامعة سانت بطرسبورغ ، فقد أكد غوغول ان الرعية والدولة ، معاً ، انتفعت بالرشيد وحزمه وحذبه وحنكته في السياسة وإدارة شؤون الدولة ، أكثر مما انتفعت بعلم المأمون وثقافته وبيت حكمته (١٦).

ورأينا ، ان الرشيد مهد للمأمون ، وانهما يتكاملان ، ويرفد إنجاز أحدهما إنجاز الآخر ، أما مقابلتهما ، الواحد بالآخر ، فهو ليس أمراً صائباً . لقد كان المأمون يمنح المترجم زنة الكتاب الذي ترجمه ذهباً ، وكان يشرف على أعمال بيت الحكمة ، والتأليف والترجمة ، وكان يعقد المناظرات في ديوانه ، وينصر أحرار الرأي والفكر ، ويضع كل ثقله في جانبهم ، رغم ان ذلك قد جر عليه كثيراً من ألوان المعارضة الدينية المتزمتة ، والخلاف العقائدي غير ان المأمون ما كان يستطيع ان يفعل كل ذلك ، دون الاستناد الى تخصيصات مالية ضخمة ، وإدارة مالية دقيقة ، واستقرار وازدهار اقتصادي ، تحمل المبدأ الأكبر فيه أبوه وسلفه هارون الرشيد .

لقد كانت الجباية موكولة إلى لجنة سميت « الديوان » ، وكان هذا الديوان حازماً ، دقيقاً في عمله . ويمكننا ان نستشير المؤرخ والمفكر العربي الشهير ، ابن خلدون ، صاحب المقدمة الشهيرة (مقدمة ابن خلدون) ، وتاريخه ، لنسمع عنه شيئاً عن فعاليات هذا الديوان الرشيدي البغدادي . يقول ابن خلدون :

« إن ديوان الأعمال والجبايات من الوظائف الضرورية للملك وهي ، القيام على

أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء المساكن بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف إعطياتهم في إياتها والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها قومه تلك الأعمال وقهارة الدولة ، وهي كلها مطبوعة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال ، ويسمى ذلك الكتاب بالديوان .. » (١٧).

واذا عدنا الى لوبون ، وجدناه يفصل في تأثير القاعدة المادية - الاقتصادية على ازدهار العلم والثقافة في بغداد الرشيد والمأمون ، بخامسة . والحق ، ان شهادة لوبون ، المفكر الاوربي الغربي النزيه جديرة بان تدرس ، وتحلل ، وتستلهم أيضاً . فقد طالما ظلم العرب اناس محسوبون على العلم ، والعلم منهم براء . إن عقدة « الأوربية » ، و « التفوق الأوربي » ، و « عبء الرجل الأبيض » ، و « رسالة التمدن » قد تركت أثرها البالغ ، إضافة الى العقليّة الامبريالية ، في طريقة تفكير هؤلاء « المؤرخين » و « المفكرين » الاوربيين الاستعماريين . ومن هنا تبدو شهادة لوبون ، ودراير ، وهوليامارد ، وهوليدت ، وسارطون ، وأضرابهم ، في مقابل هذا الهدر الامبريالي الذي لا يجمعه جامع مع العلم ، والتاريخ العلمي ، موضوعية ، منصفة ، ناهيك القول عن ان الأدلة والوثائق تدعمها دعماً أكيداً .

فلننظر ، إذن ، ما يقوله لوبون ، بخصوص الازدهار المادي - الاقتصادي ، والقاعدة المادية التي كونها ، وعلاقة كل ذلك بالازدهار العلمي - الثقافي في بغداد الحضارة العربية الاسلامية . وبالثقافة العالية ، عموماً .

يقول لوبون (في ذات الكتاب المشار اليه آنفاً) :

« كان انتظام مالية الخلفاء سبباً في القيام بأعمال عظيمة تمود على الناس بالخير ، كتمهيد الطرق ، وإنشاء الفنادق والمساجد والمساني والمدارس في جميع نواحي الدولة ، ولاسيما بغداد والبصرة والموصل الخ . واتسع نطاق الزراعة والصناعة ... وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق ، وصار العرب يستغلون المالح ، ومناجم الكبريت ، والرخام ، والحديد ، والرصاص ، الخ ،

بطرق فنية . ووسعت دائرة التعليم العام . واستدعى الأساتذة من مختلف أقطار العالم ، وبلغ علم الفلك درجة رفيعة من التقدم ، وانتهى الى نتائج لم ينته إليها الأوربيون إلا في العصر الحاضر ، كقياس دائرة نصف النهار ، وتقلت الى الفلسفة العربية كتب علماء اليونان واللاتين ، ولا سيما كتب الفلسفة والرياضيات ، وصارت تدرس في جميع المدارس ، وبحث العرب في آثار القدماء ، فسبقوا الأوربيين الى ذلك ببضعة قرون . وأقدم العرب على تلك الباحث ، النبي لم يكن لهم عهد بها ، بشوق ونشاط ، واكثروا من إنشاء المكتبات العامة والمدارس والمختبرات في كل مكان ، وكانت لهم اكتشافات مهمة في أكثر العلوم . . . (٨)

وبالطبع ، ليس للازدهار الاقتصادي وحده ان يصنع الازدهار في العلم والثقافة . ان الثقافة الامريكية المعاصرة لازالت قاصرة امام الثقافة الأوربية ، مع ان الولايات المتحدة الامريكية تملك من ذهب العالم الراسمالي ورؤوس أمواله ما يفوق ما لأوربا كلها ، بل والعالم الراسمالي كله ، عدة مرات .

إذن ما الذي صنع هذا الازدهار الثقافي والعلمي العربي - الإسلامي في القرون الوسطى ؟ ولماذا تفوقت بغداد على سواها من الحواضر ؟ ولماذا بز العرب والمسلمون المشبهون بالثقافة العربية (حتى انهم ليعيدون مجداً لهم انهم يتقنون العربية ويكتبون بها ، كما يقول البيروني) سواهم من الشعوب ، في تلك العصور ، في حقول العلم والثقافة والمعرفة ؟

اسئلة مشروعة لابد من الاجابة عنها بشكل واف ، او محاولة ذلك على الأقل ، قبل الدخول في تفاصيل إنجازات بغداد الثقافية والعلمية والحضارية .

مرة اخرى ، نستشير لوبون ، مؤرخ وباحث ثقافة العرب ، على الطبيعة (ونحن نعني بذلك - ان لوبون لم يكتف بالثقافة النظرية ، وباستشارة العديد من الكتب والمراجع الهامة ، بل طاف في رحلات عديدة بلاد الشرق العربي ، من مراكش الى دمشق والقدس ، وقد استعان بعديد من رجال العلم والثقافة الفرنسيين ، والاسبان ، والبرتغاليين) .

يقول لوبون (وكأنه ينتظر امثال هذه الاسئلة) ، في بحثه المشار اليه :

« كان حب العرب للعلم عظيماً ، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقاً لاجتذاب اشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها ، ومن ذلك ان شهر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد . وكان العلماء ورجال الفن والادباء من جميع الملل والنحل - من يونان وفرنس واقباط وكلدان ، يتقاطرون الى بغداد ، ويجعلون منها مركزاً للثقافة في الدنيا ، وقال أبو الفرج عن المأمون إنه « كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم ، علماً منه بأن اهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده . . . فلهذا السبب كان اهل العلم مصاييح الدجى وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم » . وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد ، وكان يمكن هؤلاء الخلفاء ان يعدوا قصرهم أول قصور العالم وانصرها » . (٩)

لعل لوبون قد وضع يده على السر في تقدم العرب الحضاري ، وفي عظم إنجازات بغداد الثقافية العربية - الإسلامية ، ودورها العالمي ، في ما اصطلح عليه ، خطأ ، باتقرون الوسطى (بمعنى التخلف والهمجية ، وهو شيء يصح على الشعوب الأوربية في القرون الوسطى ، وليس على شعوب الشرق ، وعلى الخصوص ، شعوب الدولة العربية - الإسلامية) .

إن من المهم ان نشير الى انه حتى الكتب الدينية المقدسة ، وبخاصة - القرآن الكريم تؤكد على وجوب طلب العلم ، وانتهال موارد المعرفة . بل ان أحد ألوان القسم في القرآن ، هو اتقن بالقلم ، كما ان عديداً من السور القرآنية ورد فيها الفعل « اقرأ » ! وثمة حديث نبوي مشهور ، كثيراً ما يورد في معرض الحث على العلم والدراسة ، وهو يقول : « اطلب العلم ولو في الصين » . وهذا الحديث مشهور شهرة حديث آخر ، بليغ الدلالة ، يقول : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . ولعل هذين الاقنومين الجوهريين : العلم والعدل ، هما الأساس في نهضة العرب المذهل ، وازدهار الحضارة العربية - الإسلامية ، وقتذاك .

وليس الأمر مقتصر على القرآن ، والحديث النبوي ، فان نهج الخلفاء الأربعة مضى على ذات المسار . ان الخليفة الرابع ، مثلاً ،

الإمام علي ، نذر نفسه للعلم وتعليمه . ويحفل « نهج البلاغة » - كتاب الإمام علي (ع) - ، وديوانه المنسوب إليه ، بكثير من المغالات البليغة في الدعوة للعلم والمعرفة والتنوير (١٠) .

ونجد مثل هذا لدى الإمام الفزالي ، وكثير من مفكري العرب والمسلمين .

إن مقومات الروح العلمية متكاملة لدى علماء بغداد والدرسة البغدادية ، والعلماء العرب والمسلمين عموماً . ولعل من الظلم أن نسميها روحاً علمية فحسب ، فهي منهجية علمية حقيقية ، سبقت المنهجية العلمية الأوروبية ، وتقائيد البحث العلمي الباكونية (نسبة إلى بايكون) ، وإن كان البعض من مؤرخي الأوروبيين وباحثيهم ، البرجوازيين ، لازالوا لا يريدون أن يعترفوا بذلك . ودواعي عدم اعترافهم بالسبق العربي ، والشرفي في المنهجية العلمية والتقاليد العلمية معروفة ، وهي تنصل ، أولق الاتصال ، بمقدرة التفوق الأوربي ، و « رسالة الرجل الأبيض » ، وما إلى ذلك من خرافات ، واعتبارات لا موضوعية ، تقوم عليها العقلية الأمبريالية ، والبرجوازية الأوروبية ، عموماً .

إن المنهجية العلمية في الفكر العربي - الإسلامي ، في بغداد (وفيما بعد) ، في سائر أرجاء الدولة العربية - الإسلامية الترامية الأطراف ، أي من جابر بن حيان المراقي إلى ابن خلدون التونسي إلى ابن رشد وابن ماجه وابن طفيل في الأندلس ، تقوم ، في جوهرها على الأسس التالية :

١ - التجربة ، والروح التجريبية : ونتجلى هذه ، بشكل خاص ، واستثنائي لدى جابر بن حيان « مؤسس علم الكيمياء » ، والرازي - انعقل العلمي العالمي ألفد ، والجاحظ ، الأديب العالم المشهور . يقول هوليارد : « أن التأمل غير المفيد والبعد عن الملاحظة لم تشهدهما في عبقرية جابر ، الذي كان يفضل العمل داخل المعمل ، تاركاً مجال الخيال . لقد كانت وجهات نظره واضحة ومتقنة ، وبسبب أبحاثه الدقيقة الشاملة استحق لقب « المؤسس الأول للكيمياء » ، على قواعد سليمة وأسس راسخة » (١١) . وقريب من ذلك ما يقوله پول كراوس ناشر مختارات رسائل جابر بن حيان : « إن جابر بن حيان قد سار بالتراث الشرقي - اليوناني في الكيمياء في اتجاه أكثر تجريباً وتنظيماً ، وبعد به عن السرية والرموز » (١٢) .

وبالتأكيد ، فإن جابر بن حيان ، العالم العربي ألفد ، تلميذ أحد الأئمة المسلمين المشهورين « جعفر الصادق » أو زميله ، كان عالماً تجريبياً ، ليس له نظير في عصره ، فهو يؤكد في كتاب « التجريد » : أن « ملاك كمال هذه الصنعة (يقصد الكيمياء) العمل والتجربة ، فمن لم يعمل ولم يجرب لم يظفر بشيء أبداً » (١٣) وهو يضع التجربة قبل كل شيء « لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى إلى أدنى مراتب الاتقان . فعليك يا بني بالتجربة لتحصل على المعرفة » (١٤) . كما أنه لا يقوم بالتجربة لأجل التجربة ، فالتجربة من أجل المعرفة ، والتجربة مسببة ، ولابد من التسيب والغالية في كل عمل علمي ، وهكذا يقول جابر ، في إحدى تجلياته العلمية ألفدة :

- « يجب على المشتغل بالكيمياء أن يعرف انسبب في إجراء كل عملية ، وأن يفهم التعليمات جيداً لأن لكل صنعة أساليبها الفنية ، كما يجب عليه ألا يحاول عمل شيء مستحيل أو عديم النفع » (١٥) .

كما كان جابر يفهم ، فهما استثنائياً ، الفوائين الموضوعية للطبيعة ، ويطالب باحترامها ، واستلهاها . فهو يقول في « كتاب أترجمة الصغير » :

- « واقتف أثر الطبيعة فيما تريده من كل شيء طبيعي فاعتمد عليه » (١٦) .

وهكذا ، فإن جابر ، هذا العالم المختبري الأول في التاريخ ، كان نتاجاً للبيئة العلمية - الثقافية العربية - الإسلامية ، وهي بيئة متفردة في أصولها العلمية وعطائها ، في عصر العرب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وينظر لجابر هذا عالم خطا خطاه العلمية الأولى في البصرة ، وأتمها في بغداد ، وهو الجاحظ . وكان يقول بالتجربة ويعتمدها اعتماد العالم المختبري ، المسلح بنظرية علمية متكاملة نسبياً ، فذة بالنسبة إلى عصرها ، وبالنسبة إلى الشعوب الأخرى المعاصرة للشعب العربي والشعوب المسلمة .

فإن الجاحظ ، الأديب الذي كتب « البيان والتبيين » في النظرية الأدبية والبحث الأدبي والبلاغي ، كتب ، كما فعل العلماء الموسوعيون في عصره - كتاب « الحيوان » ، الذي نقل لنا فيه كثيراً من آرائه العلمية الفذة ، وإيمانه بالتجربة والتجريب سبيلاً إلى المعرفة العلمية اليقينية .

يقول قدرتي حافظ طوقان (وهو من أوائل

من بحث العلوم عند العرب بحثاً موضوعياً ، في
مبحثه عن الجاحظ ، وفي معرض الحديث عن كتابه
« الحيوان » ، اقوالاً بليغة الدلالة :

« وفي هذا الكتاب الجامع تتجلى دقة الملاحظة
والتحصيل عند « الجاحظ » ، فهو يلجأ الى
التجربة ليتحقق من صحة نظرية من
النظريات أو رأي من الآراء ، فقد جرب في
الحيوان والنبات ، وفي كل تجربة كان يسير
على نهج خاص ، ففي بعضها « ... كان
يقطع طائفة من الأعضاء ، وفي بعضها كان
يلقي على الحيوان ضرباً من السم ، وحينما
كان يرمي بتجربته الى معرفة بيض الحيوان
والاستقصاء في صفاته ، وكان حيناً يقدم
على ذبح الحيوان وتفتيش جوفه وقنصته .
ومرة كان يدفن الحيوان في بعض النبات
ليعرف حركاته ، ومرة كان يذوق الحيوان ،
وكان في أوقات يجمع بطن الحيوان ليعرف
مقدار ولده ، وفي أوقات كان يجمع أضداد
الحيوان في إناء من قوارير ليعرف تقاتلها .
وكان يلجأ في بعض الأحيان الى
استعمال مادة من مواد الكيمياء ليعلم
تأثيرها في الحيوان . ولم يقف الجاحظ عند
التجارب بنفسه ، واتباع منهج خاص لكل
منها ، بل كان في كثير من الأحيان يشك في
النتائج التي يتوصل إليها ويستمر في الشك
وتكرار التجربة ، بل ويدعو الى ذلك كله
حتى تثبت صحة النظريات والآراء ، وتتجلى
له الحقيقة ، ويتعرف على مواضع اليقين
والحالات الموجبة لها . وتعلم الشك في
المشكوك فيه تعلماً . فلولم يكن ذلك إلا تعرف
التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج
اليه » (١٧) .

كما قال جابر بن حيان مقولات أخرى
ستعرض لها فيما بعد . ويمكننا ان نقول ، بثقة ،
ان هذا العالم المعتزلي كان قمة من قمم الثقافة
البغدادية ، ومفخرة من مفاخر الثقافة العربية -
الاسلامية ، في عصر بغداد الذهبي . وكانت كثير
من مقولات وتطبيقات جابر بن حيان والجاحظ
(اللذين اشرنا إليهما ، على سبيل المثال) ، علمية
متكاملة ، تقوم على التجربة ، وتعتمد التجريب ،
سبيلاً للبحث العلمي ، وصولاً الى الحقيقة
العلمية ، والمعرفة .

٢ - مشاعية العلم وديمقراطيته : وخير من يمثل
ذلك ، ويقول به العالم الموسوعي العربي ، والاديب

الناقد ، أبو عمرو بن عثمان الجاحظ . يقول قُدري
حافظ طوقان ، في كتابه « العلوم عند العرب » ،
المشار إليه آنفاً ، في بحثه عن الجاحظ وروح
العلمية :

« ... كان الجاحظ يؤمن بأن العلم « مشاع »
ليس ملكاً لأمة دون أخرى ، وأنه إنما وضع
ليستفيد جميع الناس على تعدد أهوائهم
واختلاف نحلهم . جاء في مقدمة كتابه
« الحيوان » ما يلي : « ... وهذا كتاب
تستوي فيه رغبة الأمم وتشابه فيه العرب
والمعجم ، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً
وإسلامياً جماعياً ، فقد أخذ من طرف
الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ،
وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان
الحاسة وإحساس الفريضة .. »
وأدرك الجاحظ ما في الإنسان من مزايا
تدفعه الى التقدم ، جاء في كتاب « الحيوان »
قوله « ... وينبغي ان يكون سبيلنا لمن
بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا . على أننا
قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما
ان من بعدنا يجد من العبر أكثر مما
وجدنا ... » ... ومن هنا يتجلى إدراك
الجاحظ لما أدركه بعض الفلاسفة في هذا
العصر ، فقد سبقهم في ملاحظتهم الدقيقة
عن الإنسان ومزاياه التي أدت الى التقدم
والارتقاء . فالإنسان يأخذ ما عمله غيره
ويضيف اليه » (١٨) .

ويقول طوقان ، ايضاً ، في موضع آخر من
بحثه المشار اليه : « ولقد جاء في كتاب الحيوان »
للجاحظ ما يؤيد أخذه ونقله قال :

« ... وقد نقلت كتب الهند ، وترجمت حكم
اليونان ، وحولت آداب الفرس ، فبعضها
ازداد حسناً ، وبعضها ما انتقص شيئاً ..
وفد نقلت هذه الكتب من أمة الى أمة ، ومن
قرية الى قرية ، ومن لسان الى لسان ، حتى
انتهت اليها ، وكنا آخر من ورثها ، ونظر
فيها ... » . والثالث ان الجاحظ لم يقع
في يده كتاب إلا استوفى قراءته كأنه ما
كان ، حتى انه كان يكتري دكاكين الرواقين
ويثبت فيها للنظر ... » (١٩) .

ومن المشهور عن الجاحظ ، انه صاحب
مقولة ان المعاني مشاعة مرمية في الطريق .
والجاحظ يهدف ، بذلك ، الى القول ان العلم ليس
حكراً على أحد ، وان بإمكان أي عقل بشري ، وأي

انسان . ان يكشف كشافا علميا ، وان يأتي بجديد في العلم . ان هذه النظرة الديمقراطية إنما هي اقنوم اساس لمنهجية الجاحظ وامثاله من علماء المدرسة البغدادية العباسية .

ولابد من القول ان الجاحظ اثر فيمن جاء بعده ، فالبيروني ، مثلا ، ان الذي يتمجد به العرب ، واسيا الوسطى ، على حد سواء ، والذي يمدده سخاو ، العالم الألماني البارز ، وليس دون أسباب وجيهة ، « اعظم عقلية عرفها التاريخ » ، كما يقول جورج سارطون فيه ، انه « ... من اعظم عظماء الاسلام ومن اكابر علماء العالم » ، ان البيروني هذا يقول : « منصف كل الامم ، في التراث العلمي العالمي ، ومنحازا للعرب ، واللغة العربية ، والثقافة العربية ، الاسلامية التي تشربها :

« ... كل واحدة من الامم موصوفة بالتقدم في علم ما او عمل . واثيونانيون قبل النصرانية موصوفون بفضل العناية في المباحث وترقية الاشياء إلى اشرف مراتبها وتقريبها من كمالها ... واما ناحية المشرق فليس فيها من الامم من يهتز لعلم غير الهند . ولكن هذه الفنون خاصة عندهم مؤسسة على اصول مخالفة لما اعتدناه من قوانين المفربين ... ديننا والدولة عربيان وتوأمين يرفرف على احدهما القوة الالهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع في لباس الدولة جلايب المجمة فلم ينسحق لهم في المراد سوق ... والى لسان العرب نقلت العلوم من اقطار العالم وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والاوردة ، وان كانت كل امة تستحلي لغتها التي الفتها واعنادتها واستعماعتها في مآربها مع آلافها واشكالها ، واقيس هذا بنفسى وهي مطبوعة على لغة لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة في المكرب ، ثم منتقلة الى العربية والفارسية ، فانا في كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية احب إلى من المدح بالفارسية ... » (٢٠٦) .

ان طوفان على حق كبير في استنتاجه من مقولات البيروني الدالة ، هذه ، الاستنتاج التالي : « ويمكن الخروج من اقواله ورسائله انه يؤمن بانسانية العلم ، وبالوحدة الشاملة التي يؤدي إليها العلم ، فيوحد بني العقل ويزيل التنافر بينها ، ويقرب بعضها بعض ، ويدعو الى التفاهم على اساس المنطق والحقيقة » (٢١) .

٣ - ابتغاء الحقيقة الموضوعية قبل اي شئ :
اشتهرت مدرسة بغداد ، بين مدارس الفكر والثقافة العالمية ، بريادتها واصالتها في نشدان الحقيقة الموضوعية ، والسمي من اجلها ، واتخاذها ملهما اساسا ، وفيصلا ، ونبراسا في كافة فعاليات البحث العلمي .

وكان العلماء العرب والمسلمون ، في مدرسة بغداد في العصر العباسي الاول ، وما تلتها من مدارس الامصار العربية ، صعودا في التاريخ الى مدرسة ابن خلدون ، وقبلها مدرسة ابن رشد وابن ماجه وابن طفيل (وابن حزم لححد كبير ، ايضا) في الاندلس ، كانوا يطلقون على الحقيقة الموضوعية مصطلحا آخر يسمونه : الحق (في مقابل الباطل) ، والعدل (مقابل النهوى والتعصب) وذلك لا يضير شيئا ، لان الجوهر واحد ، فالحق والعدل هما الحقيقة الموضوعية ، في الاساس ، وان اختلف المصطلح شيئا ، باختلاف العصر .

وكان توجه علماء المدرسة البغدادية في ابتغاء الحقيقة الموضوعية محكوما بضرورات ودوافع تتمدى الدوافع الدينية والاخلاقية ، وتكون شيئا هو من صلب التفكير العلمي - العقلاني - المنطقي - الفلسفي لدى هؤلاء العلماء ، وعلماء الحضارة العربية ، الاسلامية عموما . ومن المهم ان نشير الى ان معظم هؤلاء العلماء ، ان لم يكن كلهم ، قد اشتغل بالفلسفة ، وانطلق منها ، كاطار عام ، وخلفية متكاملة ، إلى بحوثه العلمية . وحسبنا ان نشير الى جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن سينا ، والبيروني وغيرهم .

قال الكندي ، فيلسوف العرب ، واحد « الاثنى عشر عبقرية الدين هم من الطراز الاول في الدكاء » ، كما يقول كاردانو (٢٢) ، والذي يقف مع الحسن بن الهيثم « في الصف الاول مع بطليموس » ، على حد قول باكون (٢٣) ، في رسالته الى المعتصم بالله في الفلسفة الاولى : « فقد جاء في هذه الرسالة ان اعلى الصناعات الانسانية واشرفها مرتبة صناعة الفلسفة . ولماذا ؟ لان حدها علم الاشياء بحقائقها بقدر طاقة الانسان ، ولان غرض الفيلسوف في عمله إصابة الحق ، وفي عمله العمل بالحق » (٢٤) . كما اكد في هذه الرسالة ذاتها ، ايضا ، وجوب إعلاء راية الحقيقة والحق ، وتغليب كلمة الحقيقة على كل ما عداها ، وان جيش الحقيقة وطلاب الحقيقة العلمية الموضوعية واحد ، وان حلقات الحقيقة مترابطة جدليا مثلما هي مترابطة ، جدليا ، ايضا ، مساعي العلماء والبحث

العلمي ، ففضية الحقيقة العلمية والبحث العلمي في سبيلها واحدة لا تتجزأ ، والشعوب جميعاً تتبارى وتتكامل جهودها في سبيلها . وبذلك ضرب الكندي المثل ، حقاً ، في الانتصار للحقيقة العلمية الموضوعية وجيشها العالمي ، مبرهنه ، بذلك ، على طليعية مركز بغداد العلمي ودوره العالمي في العلم والثقافة العالمية ، وأصالته وعظمته في ذلك العصر يقول الكندي :

« ... ومن أوجب الحق ان لا تدم من كان احد اسباب منافعنا الصغار الهزلية ، فكيف بالدين هم اكبر اسباب منافعنا العظام الحقيقية الجدية ، فانهم وان قصروا عن بعض الحق فقد كانوا لنا انساباً وشركاء فيما أفادونا من ثمار فكرهم التي صارت لنا سبلاً وآلات مؤدية الى علم كثير مما قصروا عن نيل حقيقة ، ولا سيما إذا هو بين عندنا وعند البرزين من المتفلسفين قبلنا من غير اهل لساننا . إنه لم ينل الحق ... بما يستاهل الحق - أحد من الناس بجهد طلبه ، ولا احاط به جميعهم ، بل كل واحد منهم ، اما لم ينل منه شيئاً ، واما نال شيئاً يسيراً بالاضافة الى ما يستاهل الحق . فاذا جمع يسير ما نال كل واحد من النائلين الحق منهم اجتمع من ذلك شيء له قدر جليل . فينبغي ان يعظم شكرنا للذين يسير الحق ، فضلاً عن الى بكثير من الحق ، إذا اشركونا في غمار فكرهم وسهلوا لنا المطالب الحقيقة الخفية بما أفادونا من المقدمات المسهلة لنا سبل الحق ، فانهم لو لم يكونوا ، لم يجتمع لنا من شدة البحث في مددنا كلها هذه الأوائل الحقيقة التي بها تخرجنا الى الأواخر من مطلوباتنا الخفية . فان ذلك إنما اجتمع في الأعصار المتقدمة ، عصراً بعد عصر ، الى زماننا هذا ، مع شدة البحث ولزوم الدأب وإيثار التعب في ذلك ... » (٢٥) .

وتكاد مقولات الكندي الثابتة في ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية ان تكون دستوراً ، ينبغي استلزامه ، واعتباره نقطة الانطلاق دائماً إن احدى هذه المقولات ، العظيمة الدلالة ، والخالدة ، بالضرورة ، تقول :

« وينبغي ان لا نستحي من الحق واقتناء الحق من أين يأتي ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا ، والأمم البائسة لنا ، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس

ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائه ولا بالآتي به ، ولا أحد بخس بالحق ، بل كل يشرفه الحق » (٢٦) .

إن تعليق طوقان ، الباحث العربي المعاصر ، على مقولة سلفه العربي العظيم - الكندي - قويم ، في أساسه ، وإن كان يلمح نحسب الى المغزى العالمي لهذه المقولة ، وإرتباطها الجدلي بحرية الرأي ، التي تعتبر حجر الزاوية في كل نشاط علمي أصيل . يقول طوقان ، في معرض الاستنتاج : « ... يرى الكندي ان معرفة الحق ثمرة لتضامن الأجيال الانسانية . فكل جيل يضيف الى التراث الانساني ثمار افكاره ويمهد السبل لمن يجيء بعده ، ويدعو الى مواصلة البحث عن الحق ، والمثابرة في طلبه ، وشكر من يشغل نفسه وفكره في ذلك ، وهو يعتبر طالبي الحق شركاء ، وإن بينهم نسباً ورابطة قوية هي رابطة البحث عن الحق والاهتمام به ، وقد دفعه اهتمامه بالحق وطالبه الى الشعور بمسؤوليته ، وإن عليه ان يساهم في بناء الحقيقة ، ويدعو الى الحدب على طالبها والتفاني في أسفاره ... » (٢٧) .

إن منهج المدرسة البغدادية العلمي في الفكر والثقافة والبحث العلمي الموضوعي يظل يفرض نفسه حتى على علماء متأخرين ، نسبياً ، في الحقبة الزمنية . فان البيروني ، مولود القرن العاشر الميلادي (ولد في خوارزم عام ٩٧٣ م ، ووافاه الاجل عام ١٠٤٨ م) ، يوصي في مقدمة كتابه القيم « الآثار الباقية من القرون الخالية » ، بوجوب نبذ التعصب ، والتحامل ، والأهواء ، والتكريس للعلم والحقيقة العلمية ، وبضرورة « تنزيه النفس عن انوار المردئة لاكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها من الحق ، وهي كالمادة المألوفة ، والتعقب والتظاهر وأنواع الهوى والتغالب بالرئاسة واشباه ذلك ... » (٢٨) .

ولعل الدكتور شاخت لم يبالغ في تبيان عظمة خريج المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، العالم الخوارزمي ، البيروني (الحريص على الكتابة بالعربية وحتى على ان يهجي بها ولا بمدح بلغة أخرى) ، حين أكد يقول :

« ... والحق ان شجاعة البيروني الفكرية وحبه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه - كل هذه الخصال - كانت عديمة النظر في القرون الوسطى ، فقد كان البيروني في الواقع عبقرية مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ... » (٢٩) .

وينبغي القول ان ابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية كان سنة يقول بها كل العقليين التنوريين في الاسلام ، وخصوصا المعتزلة (مدرسة النظام بخاصة) ، الى علماء المدرسة البغدادية جميعا ، دون استثناء ، الى علماء الاندلس والمغرب ، حتى ابن خلدون .

فان صاحب « الرسالة العذراء » ، ابراهيم بن المدير ، انتصر للحقيقة العلمية انتصارا لفت نظر معاصريه . فقد جاء في مفتتح رسالته : « ... نتق الله بالحكمة ذهنك وشرح بها صدرك ، وانطق بالحق لسانك وشرف به بيانك » (٢٠) .

اما الجاحظ المعتزلي ، الموسوعي ، عالم بغداد والبصرة معا ، والمكافح البارز في سبيل العروبة والاسلام ، فقد لبث كتابه المشهور : « الحيوان » بدستور بليغ الدلالة في تقانيد البحث العلمي في المدرسة البغدادية الرائدة في العلم والثقافة العالمية ، وكل مدرسة عربية - إسلامية اخذت حذوها ، اذ طورت تقاليدها ، فيما بعد (كمدرسة ابن رشد وابن باجة) ومدرسة (ابن سينا) ومدرسة (ابن خلدون) . يقول الجاحظ :

« جنبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة سبيلا ، وبين الصدق سبيلا ، وجب إليك التثبت ، وذن في عينيك الانصاف ، واذاقك حلاوة التقوى ، وشعر قلبك عز الحق ، واودع صدرك البر واليقين ، وطرده عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الدلة ، وما في الجهل من الغلة ... » (٢١) .

وجاء ابن الهيثم بذات الدستور ، ولكن بمصطلحه الخاص ، فقد صرح في مدخل كتابه « المناظر » ، بان هدفه في جميع مساعيه العلمية « استعمال العدل لا الباع الهوى » ، وانه يتوخى في كافة مقولاته وتجاريه (طلب الحق لا الميل مع الآراء) (٢٢) . وكان ابن الهيثم متواضعا ، نصيرا فذا للحقيقة العلمية ، فقد ذكر عالم عربي مشهور يدعى البيهقي ، ان ابن الهيثم قال : « اذا وجدت كلاما حسنا فترك فلان تنسبه الى نفسك واكتف باستفادتك منه » (٢٣) .

وانعكس الانتصار للحقيقة العلمية اولا وقبل كل شيء ، حتى في كتابات بعض علماء الحديث ، فقد اكد معاصرنا الباحث العربي ، قدري حافظ موقان ، في كتابه المشهور « العلوم عند العرب » ، مثل ذلك ، حين قال : « وما دنا في صدد

الاخلاص للتحق وتوخي الحقيقة والدقة العلمية ، لابد لنا من الاشارة هنا الى الطرق التي اتبعها علماء الحديث في الوصول الى تمييز الحديث الموضوع من الحديث الصحيح . فقد وضع جماعة منهم طرقا وقواعد للتوصل الى الحقيقة في الحديث ، تتفق في جوهرها واتجاهها والانظمة التي كشفها علماء أوربا فيما بعد في بناء على « الميثودولوجية » ولتقاضي (عياض) رسالة في علم المصطلح ، هي انفس ما صنف في مجموعها وقد سماها تقاضي الى اعلى درجات العلم والتدقيق ، ويعترف الدكتور رستم بفضلها ، فيقول : « ... وعلى الرغم من مرور مائة قرون عليها ، فانه ليس بإمكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا ان يكتبوا احسن منها في بعض نواحيها . وان ما جاء فيها من مظاهر الدقة في التفكير والاستنتاج تحت عنوان تحري الرواية والمجئ باللفظ يضاهي ادق ما ورد في الموضوع نفسه في اهم كتب الافرنج في المانيا وفرنسا وأمريكا وانكلترا ... » . وقد ثبت ان الملك الذي اتبعه العرب في تنقية الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه ، قد اثر الى حد في اساليب العلماء ، اذ ابان لهم اهمية اتباع الطرق التي تؤدي الى الحق ، كما اوضح لهم منهاجا دقيقا للسير بموجبه للوصول الى الحقيقة والى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال ، وكذلك كان للأساليب التي اتبعها علماء الحديث فضل كبير على التاريخ . واصبحت القواعد التي ساروا عليها في تحري الحقيقة هي المعول عليها لدى المؤرخين المعاصرين ومحل تقديرهم واعجابهم » (٢٤) .

وربما يبدو طوقان مبالغاً ، ولكن الوقائع التاريخية تؤيد دعواه ، فقد دفع بعض علماء الحديث ، والمتكلمين ، والفلاسفة ، والمناطق ، ضرائب ثقيلة في غمرات مساعيهم في سبيل الحقيقة العلمية ، والعدل ، والصدق ، والاصالة .

٤ - تغليب سلطان العقل والاستهداء بالمحاكمة العقلية :

ان مما يتصل اوثق الاتصال بالقومات الثلاثة للمنهجية والتقاليد العلمية للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي (وهي ما سبق ان اشرنا اليه ، التجربة والتجريب ، ومشاعية العلم وديمقراطيته ، وابتغاء الحقيقة العلمية الموضوعية) هو الانصياع الى سلطان العقل الانساني وإرادته ، والاستشهاد بمعطيات المحاكمة العقلية . وفي هذا إعلاء ، ولا شك ، ل شأن الانسان ، وعقله ، وإرادته ، وتغليب لها ، على ارادة كل القوى

انخارجية ، بما فيها قوى السلطة الفاشية ، والاستبداد ، والخرافة ، والقيادات .

ولعل من تحصيل الحاصل ان يؤمن علماء المدرسة البغدادية العربية - الاسلامية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، بالعقل ، والتنوير ، والشك ، والمحاكمة العقلية ، والتمحيص . فان كل هذه المقومات الاربعة التي اشرنا اليها (اي مضافا اليها الايمان بالعقل) مترابطة جدليا ، ملتزمة عفويا اذ صبح التعبير ، يؤدي احدهما الى الآخر ، ويشترط احدهما الآخر ، ويتكامل الواحد منهما بالآخر . فالتجربة والتجريب بحد ذاته هو تغليب لسلطان العقل ، وابتغاء الحقيقة العلمية بعيدا عن التعصب والاهواء هو من صلب مايقول به العقليون المسلمون وغير المسلمين ، ومثل ذلك القول بمشاعية العلم وديمقراطيته .

ان العقليين العرب كانوا رائدين افذاذا ، وقد شقوا الطريق لغيرهم من عقلي اوروبا . ويشير الفيلسوف جون لويس ، كما يشير المستشرق السوفييتي البارز : براغينكي الى ريادة عقلي الشرق ، والحضارة العربية - الاسلامية ، والمدرسة البغدادية في هذه الحضارة بصفة خاصة . وليس هنا مجال التفصيل في كل هذا ، فهو موضوع ينبغي ان يوفى حقه من البحث والتدقيق ، لانه يجلو سمورا كثيرة ، غمط حق الشرق العربي - الاسلامي ، فيما اعلى شأن اليونان ، وعقلي اوروبا المتأخرين ، دون وجه حق . ان كل ذلك مرتبط ، ولا شك بعقدة التفوق الاوربية ، التي تغذيها الدعاية الامبريالية ، والعنصرية والفاشية والصهيونية .

لقد ولدت العقلية او العقلانية ، والانسانية في الشرق ، وفي احضان المعتزلة والرازيكاليين العرب والمسلمين ، في صفوف مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . ولم يستطع الغرب الاوربي المناداة بذلك (لا في عصر النهضة ، مقتبسا كثيرا من اصول دعوته من الحضارة الشرقية ، والعربية - الاسلامية ، بخاصة .

ان المستشرق السوفييتي غريغوريان قد اماط اللثام عن بعض هذه الامور في كتابه عن الفلسفة العربية - الاسلامية (الذي ترجمنا فصلا منه لمجلة « المورد » العدد الخاص بالفارابي) ، وجاء مستشرق سوفييتي آخر هو شيروبان (وكلا المستشرقين من ارمينيا السوفيتية) ، باضافة جدية في هذا الصدد . ويوالي كثير من المستشرقين والباحثين السوفييت (وغير السوفييت في المعسكر

الاشتراكي وسواه) بحث هذه الموضوعات الحضارية الهامة .

ان معاصرنا ، الباحث العربي الذي اكثرنا استشارته ، بصفته مختصا في بحث اصول البحث العلمي ، والعلوم عند العرب ، قدرني حافظ طوقان ، يدلي بدلوه ، ويقدم كثيرا مما هو مفيد وقيم ، حقا ، في هذا الخصوص . لقد الف عدة كتب يكمل احدها الاخر ، وان كانت بعض الموضوعات والمضامين تتكرر فيها (وليس دون جدوى) ، ان كنبه الاربعة :

- (العلوم عند العرب ، سلسلة الالف كتاب ، القاهرة) .
- (مقام العقل عند العرب) ، دار القدس ، بيروت) .
- (الخالدون العرب) ، دار القدس ، بيروت) .
- (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار القلم ، القاهرة) .

قيمة مبالغ فيها كثيرا من المشكلات ، والموضوعات الحضارية والثقافية العربية - الاسلامية في عصر العرب الذهبي ، والعصور التي تلتها وهي لازمة ، لا غنى عنها لكل باحث في الحضارة العربية - الاسلامية ، ومدرستها البغدادية .

ان كتاب (الاسلام والحضارة العربية) لمحمد كرد علي ، لا يرقى ، على صعيد العطاء ، الى مستوى كتب طوقان ، ولعل مصادره التي استشارها ، والفتره المبكرة التي جرى تأليفه فيها ، اضافة الى منطلقات ومنهجية المؤلف ذاته ، قد اضعفت ، في مجموعها ، نسبيا من مردود الكتاب الفكري والعلمي ، قياسا الى كتب طوقان .

يفصل طوقان في كتابه القيم (مقام العقل عند العرب) في اصول العقلية والدعوة العقلانية او المذهب العقلاني لدى العرب ، وفي الدين الاسلامي عموما . ومن هذا التفصيل نفهم ان جذور المدرسة العقلية المعتزلية ، في المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، تمتد الى عقلية العربي نفسه ، والى اصول الدعوة الاسلامية ذاتها .

ويسوق طوقان كثيرا من الايات القرآنية في التدليل على المقام الكبير للعقل في الدعوة الاسلامية . وهكذا ، فان العقليين العرب والمسلمين ، من

المتزلة وغيرهم ، في العصر العباسي الاول (عصر العرب الذهبي) ، كانوا يرتكزون إلى خلفية غنية من اصول العقلانية ، خصوصاً أيام الدعوة الإسلامية الاولى ، وأيام الخلفاء الراشدين .

إن طوقان على مطلق الصواب ، في تأكيد ، في تضاعيف هذا الكتاب ، (في فصل : الاجتهاد في الاسلام) ، على أن صاحب الدعوة الإسلامية : محمداً ، نفسه ، كان قد وقف بجانب الاجتهاد رافعاً الشعار (اجتهدوا ، فكل ميسر لما خلق له) ، وتأكيداً أن « سد باب الاجتهاد والتمسك بالتقليد الأعمى » هو من جملة اسباب ما أصاب العرب والمسلمين من تأخر ونكبات . ويقف طوقان مع جمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، والمصلحين الاسلاميين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وينقل نصاً للأفغاني يقول : «

ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ ... وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدى القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم الحديثة وحاجات الزمن وأحكامه ؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا . ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده » (٢٤) .

وإذا ما عدنا إلى العصر الذهبي للخلافة العربية ، نعني العصر العباسي الأول ، وازدهار المدرسة البغدادية في العلم والثقافة والبحث العلمي ، فأننا سنجد أن هذا العصر كان رائداً حقاً في إعلاء شأن العقل والعقلانية والاجتهاد وحرية الرأي .

وحسبنا تقرأ ما كتبه طوقان ، بهذا الخصوص ، في كتابه « العلوم عند العرب » ، ننطلق على الانجازات الرائعة ، الرائدة ، حقاً ، للتقدم الحضاري الانساني ، لبغداد العصر الذهبي في الفكر والثقافة والبحث العلمي .

يقول طوقان : « سار المعتزلة في أسلوبهم على أساس العقل - وكان العقل مقياسهم - وهذا ما جرد كتاباتهم وآراءهم من الأساطير الخرافية ، وفي أقوال بعض المتكلمين من المعتزلة نجد ما يدل على أنهم قد وضعوا الأسس التي بني عليها - فيما بعد (علم البحث والمناظرة) . روى الأصفهاني قال : « ... اجتمع متكلمان فقال أحدهما : هل لك في المناظرة ؟ فقال على شرائط ألا تغضب ، ولا تعجب ،

ولا تشغب ، ولا تحكم ، ولا تقبل على غيري وأنا أكتمك ، ولا تجعل الدموى دليلاً ، ولا تجوز لنفسك تأويل مثلها على مذهبي ، وعلى أن تؤثر انتصاذاً ، وتنقاد للتعارف ، وعلى أن كلامنا يبقى مناظرته على أن الحق ضالته والرشد غايته ... » اليس في هذه الأقوال الجامعة ما يتجلى الروح العلمي الصحيح الذي كان له أكبر الأثر في أسلوب الكثيرين من الفلاسفة والعلماء مما جعل هؤلاء يتوخون في كتاباتهم الحقيقية ، والوصول إلى الحق ، وبلجاؤهم ، في سبيل ذلك إلى السير على أساس علمي دقيق . لقد سار النظام (وهو ذو عقلية قوية سابقة لزمانها) كما يقول الاستاذ أحمد أمين - في كتاباته عن الشك والتجربة . وهما الركنان اللذان سببا النهضة الحديثة في أوروبا ، فاعتبر الشك أساساً للبحث . وقد قال في هذا الشأن : « الشك أقرب إليك من الجاحد . ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك . ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك ... » . وعلى ذكر الشك ، نذكر قولاً لأبي هاشم البصري وهو (الشك ضروري لكل معرفة) . واستخدم النظام التجريبية كما يستخدمها الآن الطبيعي والكيميائي في مختبره . وجاء في كتاب الحيوان للجاحظ ، ذكر تجارب كثيرة للنظام في الحيوان وغير الحيوان لا يتسع المجال لعرضها . وقد عرضناها بشيء من التفصيل في بعض مؤلفاتنا . وهذه التجارب هي أمثلة على البحث العلمي والتجربة الصحيحة القائمة على الدقة والمنطق . ووضع النظام منهجاً بديعاً للدرس ، فهو ينقد من يسير في تعلمه على طريقة حشو المعلومات في الذاكرة ، وأنه ينبغي على طالب العلم أن يتخير من الكتب الجيدة المنتقى ، لأن العلم ليس في جمع الكتب وحفظ ما فيها وإنما هو بالتفكير . وجاء الجاحظ بعد النظام ، وسار على غراره في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الإيمان واليقين . قال الجاحظ : « تعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه ... » . ويأتي بعد ذلك التفريق بين العوام والخواص . لأنهم لا يتوقفون في التصديق ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الأقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد . قال بسلطان العقل ، لا يسلم بشيء ، إلا إذا استساغه العقل ، فالأدب عنده خاضع للنقد ، وكذلك فلسفة أرسطو ، وغيره من فلاسفة اليونان . حتى الحديث نقده ، ولم يقبل الأخذ به إلا على أساس العقل . وإذا اختلف

الناس فالحكم للعقل لا لغيره . ومن يطلع على كتابه الشهير (الحيوان) يتبين له صحة ما ذهبنا إليه ، وأنه هاجم رجال الحديث ، لأنهم على رايه جماعون لا ينفلون عقولهم . وقد قال عنهم : « ولو كانوا يروون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤونة ، ولكن أكثر الروايات مجردة ، وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة ودون الأخبار عن البرهان ... » . وفي هذا الكتاب دقة الملاحظة والتمحيص : فهو يلجأ الى التجربة ليحقق من صحة نظرية أو رأي من الآراء . يجرب بنفسه في الحيوان والنبات ، ويشك ويستمر في الشك ، بل ويدعو إليه حتى تثبت صحة النظريات والآراء . وكان يفضل التجربة على كل ثقل ، ولا يأخذ بقول أحد حتى يتحقق من ذلك بنفسه ، والأمثلة على ذلك عديدة في كتاب الحيوان . وكان يجري في تفسيره للظواهر والطباع حسب العقول وطباع الأشياء . و أبان صراحة بأن العقل الصحيح يجب ان يكون أساساً من أسس التشريع » (٢٦) .

إن مما يدعم طوقان ، وزملاءه في هذا الانتصار لتقاليد ومنهجية البحث العلمي في عصر الازدهار العباسي النموذجي ، العصر العباسي الأول ، وعلو كعب المدرسة البغدادية في العلم والثقافة ، ان مما يدعمهم هو سبل لا ينضب من مقولات علماء بغداد ، والمدرسة البغدادية ، وتلاميذها في كل مكان ومختلف الأزمان ، تقريباً ، في إعلاء سلطان العقل والاحتكام العقلي ، كسبيل أساس ، من بين السبل الجوهرية التي لا بدبل لها ، نحو الحقيقة العلمية الموضوعية ، والكشف العلمي ، والفتوحات الفكرية .

فان الرازي ، شيخ العقليين من علماء المدرسة البغدادية ، والسائر على تقاليد المعتزلة العلمية وفي إطارها الرحب ، يعقد فصلاً خاصاً ، من كتابه (الطب الروحاني) ، في فضل العقل ومدحه) ، تقتطف منه هذه المقتطفات : البليغة الدلالة والمغزى :

« ... فبالعقل فضلنا على الحيوان - غير الناطق - حتى ملكناها وسنناها وذلناها وصرفناها في الوجوه العائدة منافعها علينا وعليها ... وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بغيثنا ومرادنا ... » (٢٧) .

« ... فانا بالعقل أدركنا صناعة السفن واستعمالها ، حتى وصلنا بها الى ما قطع

وخال البحر دوننا ودونه ... وبه نلنا الطب الذي فيه الكثير من مصالح اجسادنا وسائر انصناعات العائدة علينا النافعة لنا . وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة عنا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الأرض وانفلك ، وعظم الشمس والقمر ، وسائق الكواكب وابعادها وحركاتها ... » (٢٨) .

« ... وبالعقل وصلنا الى معرفة الباري عز وجل الذي هو اعظم ما استدركنا وانفع ما اصبنا ... وبالعجلة ، فانه الشيء الذي لولاه كانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين ... والذي به نتصور أفعالنا العقلية قبل ظهورها للحس » (٢٩) .

« ... واذا كان هذا مقداره ومحله وخطره وجلاله فحقيق علينا ان لا نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله - وهو الحاكم - محكوماً عليه ، ولا - وهو المتبوع - تابعاً ، بل نرجع في الأمور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إمضائه ، ونوقفها على إيقافه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكدره والحائد به عن سننه ومحجته ، وقصده واستقامته ، والمانع من ان يبدل به العاقل رشده وما فيه صلاح عواقب أمره ، بل نروضه ونلله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إن فعلنا ذلك صفاً لنا غاية صفاته ، وأضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به ، وكنا سعداء بما وهب الله لنا منه ومن علينا به ... » (٣٠) .

واذا كان الرازي يقول مثل هذه المقولات ذات الدلالة العميقة في الانتصار للعقل ، وحرية الرأي ، والاجتهاد ، فيجعل العقل حاكماً وزماماً ، ومتبوعاً ، ونبراساً ، فان تلامذة آخرين للمدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي يرفدون مقولات الرازي بمقولات أخرى ليست أقل أهمية أو أفضال دلالة . فالفارابي يكرس للعقل رسالة خاصة ، بل يبنى مدينته الفاضلة على العقل انقدي الواعي وبه (٣١) ، وابن سينا يمجّد العقل في كافة مؤلفاته الفلسفية ، والعلمية ، و « القصصية » (بما فيها « حي بن يقظان » ، و « قصة سلامان و إيسال » ، و « قصة رسالة الطير » (٣٢)) وأبو العلاء المعري يترجم كثيراً من تعاليم المعتزلة ، والمدرسة البغدادية ، والحركات

الراديكالية الفكرية في الاسلام ، شعراً بليفا ،
تقتطف منه هذه الأبيات (٤٢) :

أيها النمر إن خصصت بعقل
فاسألته فكل عقل نسي

كذب الظن لا إمام سوى
العقل مشيراً في صبحه والمساء

فاذا ما اطعته جلب الرحمة
عند المسير والأرساء

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة
إذا لم يؤيد ما اتوك به العقل

اللب قطب والأمور له رحي
فيه تدبر كلها وتدار

تفكر فقد حار هذا الدليل
وما يكشف النهج غير الفكر

فاحذر ولا تدع الأمور مضاعة
وانظر بقلب مفكر متبصر

فكروا في الأمور يكشف
لكم بعض الذين تجهلون بالتفكير

فشاور العقل واترك غيره هدراً
فالعقل خير مشير ضمه النادي

عليك العقل وافعل ما رآه
جميلاً فهو مشير الشوار

إذا تفكرت فكراً لا يمازجه
فساد عقل صحيح هان ماصبا

خذوا في سبيل العقل تهدوا بهديه
ولا يرجون غير المهيم راجي

إذا رجع الحضيف الى حجاه
تهاون بالمذاهب وازدراها

فخذ منها بما آداه لب
ولا يغمك جهل في صراها

سألت منجمها عن الطفل الذي
في المهد كم هو عائش من دهره

فأجابها مائة لياخذ درهماً
وأتى الحمام وليدها في شهره

بل ان هذا الشاعر الراديكالي المتطرف (٤٤)
يمضي في النهج العلمي حتى نهاية الشوط ، أحياناً
فيقول بما يقوله العديد من العلماء المعاصرين الآن :
انه لا يقين مطلق ، ولا إطلاق ، بل هو الاجتهاد .
وكل شيء نسبي :

أما اليقين فلا يقين وإنما
أقصى اجتهادي ان أظن واحداً

ولعل طوقان كان محقاً ، تماماً ، حين قرر ،
بخصوص اشعار أبي العلاء العقلانية الناقدة هذه ،
نقال : « ويرى أبو العلاء ان سبب الفساد في
مجتمعه يعود الى عدم الإصغاء الى العقل ، وإلى
إهماله وسيطرة المصالح الخاصة والأهواء . ولقد
تدبرنا عيوب المجتمع في القرن العشرين فوجدنا
انها لا تختلف كثيراً عن عيوب عصر أبي العلاء ،
والسبب في الحائين وفي أسباب الفساد واحد -
هو عدم الرجوع الى العقل وغلبة الغايات
والاغراض » (٤٥) .

أما إخوان الصفا فاعتبروا العقل اشرف
الموجودات ، بل جعلوه رئيسهم وإمامهم الذي به
ياتمون ويهتدون ، فهم يقولون :

« واعلم انه ما من جماعة تجتمع على أمر من
أمر الدين والدنيا وتريد ان يجري أمرها
على السداد ، وتكون سيرتها على الرشاد ،
إلا ولابد لها من رئيس يرأسها ليجمع شملها ،
ويحفظ نظام أمرها ، ويسرع تصرف
أحوالها ، ويرم على الانتشار جماعتها ،
ويمنع من الفساد صلاحها ، ذلك ان الرئيس
أيضاً لابد له من أصل يبنى عليه أمره ويحكم
به بينهم . وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم -
ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة
إخواننا ، والحكم بيننا بالعقل الذي جعله
الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه ...
ورضينا بموجبات قضايا على الشرائط التي
ذكرناها في رسائلنا وأوصينا بها إخواننا ..
فمن لم يرض بشرائط العقل وموجبات
قضاياها ، ولم يقبل تلك الشرائط التي
أوصينا بها إخواننا أو خرج عنها بمد
الدخول فيها ، فعقوبته في ذلك ان نخرج من
صداقته ونتبرأ من ولايته ولا نستعين به في
أمرنا ولا نعاشره في معاملتنا ولا نكلمه في
علومنا ونطوي دونه أسرارنا ونوصي بمجانبتة
إخواننا ... » (٤٦) .

ومع ذلك ، فان طليعية افكار إخوان الصفا
إنما تستمد أصولها من تعاليم مدرسة المعتزلة
البغدادية . فان طوقان يروي في كتابه (مقام العقل
عند العرب) ، الذي أسلفنا الإشارة إليه ان تمجيد
المعتزلة للعقل بلغ حداً « دفعهم الى محاولة إخضاع
النقل للعقل ، وتحوير العقائد الدينية بحيث توافق
التعاليم الفلسفية وقالوا : « اذا تعارض النقل
والعقل وجب تقديم العقل لأنه أساس النقل » (٤٧)
دروى في موضع آخر ، من كتابه الانف ذكره ، ان

أبا هذيل العلاف ، أحد أبرز رجال المعتزلة (واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد) ، وكان يقول : « إن الإنسان مكلف بالأشياء التي يستطيع العقل التمييز فيها بين الخير والشر ولو لم تصل إليه أوامر الشرع ، وإن قصر في ذلك استوجب العقوبة فيجب عليه الصدق والعدل والأعراض عن الكذب والجور ولو لم يصله شرع في ذلك لأن العقل يستطيع أن يدرك حسنها وفسادها لما فيها من صفات حسنة أو قبيحة » (٤٨) .

وقد درس الباحثون العرب المعاصرون وغيرهم تعاليم المعتزلة ، إلا أنهم لم يفوها حقها ، فلا زال المجال متسماً لكثير من الدراسات المبدئية المدققة .

وقد روى طوقان أن الباحث العربي المعاصر شفيق جبري قارن تعاليم الجاحظ بديكارت ، ووجده - وهو محق في ذلك - رائداً للشك سبيلاً للوصول إلى يقين المعرنة ، وقال في ذلك : « ... فالأدلة والبراهين من أعمال العقل ، وهذه الطريقة إنما هي طريقة ديكارت ملاكها العقل ومدار طريقته على هذه الكلمة : لا تصدق إلا ما كان واضحاً ، صدق ما كان واضحاً » . فالوضوح إنما هو أصل الأمر في اليقين . فما ينبغي نفوة من القوى الظاهرة أن يكون لها سلطان على حرية تفكيرنا . وما القوى الظاهرة إلا السلطة والأوهام والمصلحة والأحزاب ... فما أشبه قول ديكارت لا تصدق إلا ما كان واضحاً بقول الجاحظ « لا أجعل الشيء الجائر كالشيء الذي تثبته الأدلة » (٤٩) .

وفيما يبدو ، فإن كلا من طوقان ، وشفيق جبري ، على حق ، فإن الجاحظ كان إماماً من أئمة العقليين العرب ، وأحد أكبر رادة العقليين في العالم ، وحسبنا أن نشير (إضافة إلى ما أسلفنا الإشارة إليه من مقولاته) إلى هذه المقولة الجاحظية الحاسمة :

« فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل . وللأمر حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقل . والعقل هو الحجة » (٥٠) .

ولعل طوقان مصيب في فذلكته ، حين قرن التراث انتقدي عند العرب والمسلمين بالمعاصرة ، مستنتجاً مثل هذا الاستنتاج البليغ ، الذي تقتطفه بنصه :

« ... والآن . . . وقد أشرف موضوع (سلطان العقل عند المعتزلة) على ختامه لا بد لنا من

القول : إن أحياء روح المعتزلة في أعزاز العقل وتمجيده ، والرجوع إليه واعتباره «لحكم» و«لأدليل» - نقول إن إحياء هذه الروح يوجد الجراء ويفتح الأفاق أمام الفكر وبدفع إلى أعمال العقل وتحريكه ، فلا تقوم مع هذه حركات رجعية ولا تنجح محاولات لإيقاف مجرى التقدم . ذلك أن هذه المحاولات وتلك الحركات لا تشر إلا في مجالات كبث الفكر ونجميده وتقديس التقليد » (٥١) .

٥ - ملاحمة التنظير بالتطبيق :

إن الأقسام الخمس من أقانيم منهجية وتقاليد مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي هو - ملاحمة التنظير بالتطبيق ، أو الفكر النظري بالممارسة العملية . إن كافة هذه الأقانيم (التجربة والتجريب ، مشاعية العلم وديمقراطيته ، ابتغاء الحقيقة الموضوعية ، الإيمان بالعقل والعقلانية وحرية الرأي ، وملاحمة النظر بالعمل) تتلاحم ، معاً ، مترافدة ، متكاملة ، لتكون صلب المنهجية والتقاليد التي عملت بها المدرسة البغدادية العلمية - الثقافية ، بهذه الدرجة أو تلك ، وبهذا الشكل أو ذاك .

إن جابر بن حيان أول ، وأبرز من قال بوجود ملاحمة الفكر النظري بالممارسة العملية . فهو في كتاب الميزان - أحد أقيم كتبه وأخطرها - يقول :

« إن كل نظرية تحتل التصديق والتكذيب لا يصح الأخذ بها إلا مع الدلائل القاطعة » (٥٢) .

ويقول في كتاب آخر له ، هو (كتاب الخواص الكبير) ، المقالة الأولى ، مقولة عظيمة المفزى ، بهذا الخصوص :

« إننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط ، دون ما سمعناه أو قيل لنا وفرائنا ، بعد أن امتحناه وجربناه فما صح أو ردناه وما بطل رفضناه وما استخرجناه نحن أيضاً قابضين على أحوال هؤلاء القوم » (٥٣) .

كان جابر ، عالم بغداد المبرز ، يعرف ، جيداً ، العلاقة العضوية بين « العلم » و « العمل » في العملية الكيميائية ، والفعالية العلمية ، و « الصناعة » ، أي التكنولوجيا ، عموماً . فهو لا يوصي بالعمل للعمل ، أو التجريب للتجريب ، بل يلاحم بينهما بذكاء ووعي ، فكل « صناعة » في رأيه « لابد لها من سبق العلم في طلبها للعمل ، لأن

العمل إنما هو إبراز ما في العلم من قوة الصانع إلى المادة المصنوعة لا غير « (٥٤) » .

وأوصى جابر بمراعاة اتقوانين الموضوعية ، وباحترام الواقع والوقائع المادية ، والحقائق الملموسة ، فإن « جهل الجاهل بأمر من الأمور ليس سبباً لارتفاع ذلك الأمر من العالم ، فإنه ليس لأن كثيراً من الناس لم يسمعوا ولم يعرفوا كيف السبب في أمور ، فاذن لا يكون لهذه وجود فيكون جهل الجاهل سبباً لعدم الشيء الكائن فإن هذا جهل وأول في العقل » (٥٥) .

وبالطبع ، كان جابر لا يتلهى بالتجربة والعمل ، بل هو يقوم بذلك ، ضرورة ، وتطبيقاً لأفكار ونظريات سابقة ، فالتنظر أولاً ، والعمل ثانياً . وهو يقول في ذلك :

« العلم سابق . وكل من لم يسبق إلى العلم لم يمكنه إثبات العمل ، وذلك لأن العلة إنما تبرز الصورة في المادة على قدر ما تقدم من العلم وإلا فمال العمل ياليت شعري » (٥٦) .

إن جابر ، ومن وراءه مدرسة بغداد العلمية ، كلها ، ضد العشوائية والاهدار ، فالتطبيق هو اختبار لفروض ونظريات ، ولكنه ، أيضاً ، ضد احتقار العمل اليدوي ، والاستنكاف عن الممارسة (كما كان يفعل علماء اليونان) . من هنا تنطلق نصيحة جابر بن حيان (مجسداً في ذلك طليعية وريادية المدرسة البغدادية العلمية) إلى الكيميائي : « اتعب أولاً تعباً واحداً ، وانظر واعلم ثم اعمل - فانك لاتصل أولاً - ثم تصل إلى ما تريد » (٥٧) .

هكذا ، إذن ، « انظر واعلم ثم اعمل » ، هذا هو شعار جابر ، وعلماء بغداد ، مركز العلم والثقافة العلمية ، في عصرها ، بحق .

إن العالم في العلوم الطبيعية ينبغي أن يقيم في المختبر ، وبذلك يكون التطبيق لفروضه ونظرياته ، كما يكون الربط للعلوم النظرية بالتكنولوجيا . هذا هو ما انتهى إليه علم جابر ، والعلماء البغداديين ، والعلماء الذين سيتعلمون على أيديهم وعلى كتبهم وتعاليمهم ، في الأجيال والعصور اللاحقة . يقول جابر في ذلك :

« من كان درباً كان عالماً حقاً ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً ، وحسبك بالدرجة في جميع الصانع إن الصانع الدرب يحدق وغير الدرب يعطل » (٥٨) .

ومؤدى ما يقوله جابر ، أن النظرية بلا

تطبيق ، والفكر بلا ممارسة ، أمر عقيم ، مثلما يكون التطبيق أو التجربة دون نظرية أمراً عقيمًا ، واهداراً ، هو الآخر ، وهذا بعينه ما يقوله علماء اليوم ، سواء كان ذلك في العلوم الطبيعية ، أم العلوم عامة ، أم السياسة ، والعلوم الإدارية ، والاجتماعية ، جميعاً .

إن النظريين من أرسطو الفكري ، على الطريقة اليونانية ، ممن يستنكفون عن الممارسة والعمل اليدوي والاختبار ، يظلون قاصرين ، محبطين ، ويكون ارتفاع المجتمع بهم معدوماً أو كالمعدوم . يقول جابر ، ملخصاً بعض معطيات الحياة العلمية وجدليتها :

« كم من دارس إذا بلغ إلى العمل وقف ، فيكون أصحاب الصناعة انقذ في ذلك الأمر من العائم الفائق » (٥٩) .

كما يقول ، على صعيد آخر ، متمماً مقولانه هذه :

« ما افتخرت الحكماء بكثرة العفاقر ، وإنما افتخرت بجودة التدبير . فعليك بالرفق والثاني وترك المجلة » .

لقد كان جابر بن حيان ، والجاحظ ، والرازي ، وسواهم من علماء مدرسة بغداد العلمية ذوي منهجية علمية متكاملة ، نسبة إلى عصرهم ، ورأى أن الأفاضل في علومهم ونجاريتهم ، وفي فلسفة علومهم أيضاً . يصف جابر منهجه فيقول قولاً ذا دلالة بليغة :

« ... وقد علمته بيدي وعقلي من قبل وبخشت عنه حتى صح وامتحنته فما كذب » (٦٠) .

هذا هو دستور جابر : نظر وعمل .

فصل بين الاثنين ، ولا تغليب لأحدهما على الآخر إنها جدلية العلم والعمل الذي أنت بها مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، وكانت رائدة فيها ، سابقة لكافة المدارس الأوروبية اللاحقة .

ومن المهم أن ننقل الاستنتاجات التي تطلع بها أخلاف جابر بن حيان وعلماء المدرسة البغدادية ، نعني - علماء العرب المعاصرين ، من دراستهم لجابر ومعطيات علومه . يقول زكي نجيب محمود : في كتابه « جابر بن حيان » : « إن من حق جابر أن نسجل له ، في موضوع الاستقرار ، وأنه يؤدي إلى الحكم الاحتمالي

فقط ، دون اليقين ، سبقاً لرجال المنهج العلمي في العصور الحديثة الذين أوشكوا اليوم ، منذ ديفيد هيوم ، أن يكونوا على اجماع في هذا حتى أصبح من أبرز الخصائص التي تميز العلم اليوم أنه احتمالي النتائج ما دام قائماً على أسس استقرائية « (١١) » .

أما مصطفى ليب ، دارس جابر وعلماء المدرسة البغدادية في الكيمياء وتلامذتهم ، عموماً ، فإنه يسجل جابر « في ميدان الاهتمام بالبحث التجريبي وتفصيل شروطه وتحديد إمكاناته ومداه سبقاً لأعلام البحث وفلاسفة العلم في أوروبا وسبقاً للمحدثين والمعاصرين المهتمين بمفاهيم البحث والقياس الكمي في العلوم الطبيعية » (١٢) .

كما يسجل الباحث لجابر ، طبيعة ونتائج مدرسة بغداد العلمية ، في أن واحد معاً ، تواضعه ، تواضع العلماء الحقيقيين ، ونقديته حرية الرأي والكلمة ، وولعه بالمنظرة في سبيل الاقتناع . فقد قال جابر في كتاب البحث وهو يستعرض نظرية الميزان :

« أنا نحن قد اخترنا لأنفسنا نوعاً من الأوزان ممن اختار أن يعمل به فهو له وإن اختار أن يرسم لنفسه رسماً آخر فذلك إليه . وليس نوصيها لذلك أمراً نه لا بد منه بل ذلك لكل أحد إذا علم القياس بين أفعال الطبائع يرتبه على اختياره كيف ما شاء » (١٣) .

ويقول باحثنا في الختام « أن العالم المنصف في رأي (جابر) - « إذا ذكر شيئاً احتج عليه وله وأخذ حقه من خصومه ووفاهم حقهم وإلا فقد وقع انحناد حماقة وجهلا » (١٤) . . . ولم يكن جابر عالماً محققاً فحسب بل كان فيلسوفاً للعلم ، وكان بالإضافة إلى ذلك ذا نظرة جوانية عميقة تقدر إمكانية الواقع وتحترم حدود التجربة المحسوسة ومع ذلك فهي تتطلع دائماً إلى « الماوراء » وتناهض كل دعسوة قطعية « دجماطيقية » ، ومن أبى ذلك إزمه ، على حد تعبيره ، أن ينكر وجود أشياء كثيرة وهي موجودة » (١٥) .

ونعتقد أن مصطفى ليب وطوقان واضرا بهما ممن درسوا جابراً بن حيان ، مثل هذه الدراسة الموضوعية ، وانتبهوا إلى مثل هذه الاستنتاجات (التي عرضنا لشيء منها) ، نعتقد أنهم مبررون بالوقائع ، والأدلة المادية الملموسة .

إن التجريب ، وربط النظر بالعمل لدى جابر يخضع لضوابط صارمة ، وهناك مثلاً لما يقوله جابر متمماً مقولاته السابقة :

« إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم وبحق أن تعرف البيان من أوله إلى آخره بجميع تنقيته وعمله ثم تقصد لتجرب » (١٦) .

وينضم إلى جابر ، على هذا الصعيد ، الجاحظ معلم العقل والأدب ، عائم بغداد المعتزلي الكبير ، وخصوصاً في كتابه الشهير « الحيوان » .

فإن الجاحظ يجابه زعماء المدرسة الفكرية اليونانية ، من أرسطو إلى الفكر النظري ، أمثال أرسطو ، وبساجلهم ، وبخاورهم ، و « يقاتلهم » بكل فنون المقاتلة ، بما في ذلك التهكم والسخرية المتبنية على المحاكمة العقلية . إن الجاحظ يأخذ على هؤلاء (رغم جلالهم العلمي وسبقهم وفضلهم) ولوعهم النظري ، واستبعادهم عن التجربة ، والعمل ، مما يضع مقولاتهم موضع الأحكام الاعتبارية ، بل يضع بعضها في مصاف الخرافة ، والمستحيل .

يلقى الجاحظ على مزاعم أرسطو في « أن أصنافاً من السباع المتزوجات المتلاحقات ، مع اختلاف الجنس والصورة ، معروفة النواج » ، فيقول مقولة ذات دلالة بليغة ، مشدداً على ضرورة اقتران النظر بالعمل ، وجعل التطبيق (التجربة) المحك الأمثل للنظريات :

« وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل ، وما نظن بشئ أنه يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء ، وما عندنا في معرفة ما ادعى إلا هذا القول » (١٧) .

على أن الجاحظ الناقد العلمي يواجه أرسطو (وهو « المعلم الأول ») بالسخرية لأنه يزعم شيئاً هو خرافة أو كالتخراف ، ولا يمكن للجاحظ ، وهو العالم التجريبي البغدادى ، الذي يقدم التجربة والاحتكام والعقل والتطبيق على كل شيء ، أن يتقبل مثل هذه الخرافة . فأرسطو زعم أن ثوراً القح فور إخصائه ، فتناول الجاحظ هذا الزعم ، بجدلته الثاقبة :

« فإذا افترط المديح ، وخرج من المقدار ، أو افترط التعجيب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يشبهه بالميان ، أو بالخبر الذي لا يكذب فعله وإلا فقد تعرض للتكذيب » (١٨) .

ولا يلبث ان يضيف الى ذلك مفاداً :
استنتاجه الحاسم :

« والصدور تضيق بالرد على اصحاب
النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل » (٦٩)

نرى ، هل كان هناك دستور للبحث العلمي
محدد لدى مدرسة بغداد العلمية ؟

لقد تحدثنا عن هذا الدستور ، مسمين
بعض مقولات علماء بغداد من العرب والمسلمين
فقرات في هذا الدستور العلمي ، الا ان اخوان
الصفاء كفونا المؤونة ، فظلموا علينا ، منذ وقتهم
الرائد ذاك ، والسباق في كثير من المآثر العلمية
والبحثية والفكرية والفلسفية والمنطقية ، بشيء
يمكن تسميته دستوراً متكاملًا لمدرسة بغداد في
العلم والثقافة والبحث العلمي .

فقد جاء في إحدى رسائل اخوان الصفاء (٧٠) ،
ان هؤلاء الاخوان اوصوا باتباع الدستور الآتي في
البحث العلمي ، وهو منهج متكامل ، بحد ذاته ،
رائد في كثير منه . إنها تسعة احكام ، كما وردت
في الجزء الاول :

السؤال الاول : هل هو ؟ يبحث عن وجدان
الشيء ، او عدمه ، والجواب : نعم او لا .

السؤال الثاني : ما هو ؟ يبحث عن حقيقة الشيء .

السؤال الثالث : كم هو ؟ يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع : كيف هو ؟ يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس : أي شيء هو ؟ يبحث عن
واحد من الجملة او عن بعض من الكل .

السؤال السادس : اين هو ؟ يبحث عن مكان
الشيء ، او رتبته .

السؤال السابع : متى هو ؟ يبحث عن زمان كون
الشيء .

السؤال الثامن : لم هو ؟ يبحث عن الشيء المعلوم

السؤال التاسع : من هو ؟ يبحث في التعريف
للشيء .

اما ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة العلمية
البغدادية ، فهو يتم مقولات اخوان الصفاء ،
فيقدم دستوراً عملياً ، يتفق ، في الجوهر ، مع
دستورهم ، ومع كل الدساتير العملية لعلماء
مدرسة بغداد الفكرية وامتداداتها (كجابر
والجاحظ والكندي والخوازمي والرازي وثابت
بن قرة ، وابن سينا وتلامذته ، فيما بعد) ،
ويضيف شيئاً مهماً هو من خصوصيات منهج

واسلوب ابن الهيثم ، لكنه يحمل جوهرًا عمومياً ،
استثنائياً .

فان ابن الهيثم وصف ، في كتاب (المناظر) ،
منهجه في البحث العلمي ، والابداع الفكري ، على
النحو الآتي :

« ... ونبتديء في البحث باستقراء

الموجودات ، وتصفح احوال المبصرات ،

وتمييز خواص الجزئيات ، ولتلقط

باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار

وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من

كيفية الاحساس . ثم نترقى في البحث

والمقاييس على التدرج والتدريب مع انتقاد

المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج ،

ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه

ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ،

وتتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب

الحق الذي يثلج الصدر ، ونصل بالتدرج

واللطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين ،

وتنشر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي

يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد

الشبهات ... وما نحن مع ذلك براء مما

هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية .

ولكننا نجتهد بقدر ما هو لنا من القوة

الانسانية ... » (٧١) .

وفي ضوء مثل هذا « الدستور العملي » في

منهجية البحث العلمي ، لدى عالما ابن الهيثم ،

والتي وضعت أسسها المكيمة مدرسة المعتزلة

الفكرية في بغداد ، في مثل هذا الضوء يبدو ما

يقوله مصطفى نفيف ، الباحث المصري المعاصر ،

في منهجية ابن الهيثم ومساره البحثي ، ودلالته ،

ورتبته المعاصر ، مبرراً تمام التبرير :

« ... ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما

هو ابعد غوراً مما نظن اول وهلة ، فأدرك

ما قال به من بعده (مالك) و (كارل بيرسون)

وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثين في القرن

العشرين . أدرك الوضع الصحيح للنظرية

العلمية ، وأدرك وظيفتها الحقة بالمعنى

الحديث ويمكن القول انه من نصوص اقوال

ابن الهيثم ، ان تفكيره اتجه الى الوجة التي

يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ...

وانه ليس من الغفلة أيضاً القول انه قد

أدرك من بيئة الطريقة الحديثية في البحث

العلمي ، وأدرك الأوضاع الصحيحة الى

تسمية الحقائق العلمية » (٧٢) .

أما قدرتي طوقان فقد ذهب إلى أن ابن الهيثم ، تلميذ المدرسة البغدادية ، قد كان سابقاً فذاً في الطريقة الاستقرائية العلمية ، فهو يقول : « ... وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في بحوثه وكشفه الضوئية قد سبق بكون في طريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك سما عليه » (٧٢) ، « وكان أوسع منه افقاً وأعمق تفكيراً » (٧٤) .

- ٤ -

فلنلق نظرة خاصة ، الآن ، على مراكز بغداد العلمية والثقافية والفكرية ، التي اهلتها لانجازاتها النضخمة ، الفريدة في عصرها ، والرائدة بالنسبة للزمان والعصور التي تلتها .

إن المنهجية والتقائيد العلمية التي طلعت بها المدرسة البغدادية في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، في العصر العباسي الأول ، كان لابد أن تتبلور في مراكز علمية وثقافية . وإذا ما انعمنا النظر في جامعة بغداد « المستنصرية » ، وفي انظمتها وبحوثها وجهودها العلمية ، فإننا سنجد أنها تطوير لجهود علماء المدرسة البغدادية ومراكزها العلمية والثقافية . فقد وضع الرشيد والمأمون ، بخاسة ، حجر الأساس للصرح العلمي والثقافي في بغداد ، وهو الصرح الذي سيتوج ، في قمته ، بالجامعة المستنصرية ، والبشرية ، والعصمية ، والمسعودية .

إن دار الحكمة ، ومراكز الترجمة ، والحلقات والمدارس العلمية والفكرية المبثوثة في زوايا بغداد ، والكوفة ، والبصرة ، كانت ، ولا شك ، أصولاً لجامعة المستنصرية ، فيما بعد ، ومراصد بغداد الفلكية ، وسواها من مراصد الحواضر العربية والإسلامية .

فقد كانت (دار الحكمة) أو (خزانة الحكمة) أو (بيت الحكمة) ، خزانة للرشيد والمأمون ، الخليفين العربيين اللذين أسسا أمجاد ومآثر عصر اتعرب الذهبي ، العصر العباسي الأول . وكانت هذه الدار حافلة بالخزان ، والكتاب ، والمترجمين الملامعين ، « أمثال بني موسى بن شاكر النجم ، وهم ثلاثة إخوة : محمد وأحمد والحسن ، ثم يحيى بن أبي منصور النجم المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، وحنين بن اسحق العبادي ، وابنه اسحق ، وابن اخته حبش بن الحسن الأعسم . وثابت بن قرة ، وعمر بن الفريخان الطبري » (٧٥) .

وقد انضمت إلى هذه الخزانة ، خزائن أخرى ، في العصر العباسي اللاحق ، منها خزانة عضد الدولة البويهية ، وخزانة الوزير أبي نصر ، التي يذكر ابن الجوزي بخصوصها « ... أن أبا نصر ابتاع في سنة ٢٨١ هجرية داراً بالكرخ ... وعمرها وببعضها وسماها « دار العلم » ، وحمل إليها كتب العلم من كل فن حتى بلغت أكثر من عشرة آلاف مجلد . وعمل لها فهرستا ، ووقف عليها الوقوف . ورد النظر في أمورها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى أربعة من كبار علماء بغداد » (٧٦) . ومن هذه الخزائن ، أيضاً ، خزانة الوزير أبي منصور بن فنه ، وخزانة أبي الحسن محمد بن هلال الصايي ، وخزانة الناصر لدين الله العباسي ، وخزانة المستنصر بالله ، وهي الخزانة التي نقل منها فيما ذكره المؤرخون نحو (٨٠) ألف كتاب إلى خزانة المستنصرية » (٧٧) .

هل عرفت بغداد ، في حياتها العلمية المواردة ، « الجامعة » ، بالمعنى المتعارف عليه ، إضافة إلى المراكز العلمية والثقافية التي تحدثنا عنها ، والتي كانت من سمات العصر العباسي الأول ؟

إننا نجد الجواب انشافي ، عن هذا السؤال ، لدى الاستاذ المرحوم ناجي معروف ، أحد أبرز باحثي بغداد المعاصرين .

يقول ناجي معروف ، في بحثه الذي أسهم به في كتاب « بغداد » ، الذي أسلفنا الإشارة إليه :

« يمكننا أن نطلق لفظ « الجامعة » على آخر مرحلة وصلت إليها الدراسة عند المسلمين في العرون الوسطى ، إذا أردنا بانجاممة المؤسسة العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية ببيئاتها الخاصة بها ، ووسائل إيصالها ، وأموالها المرصدة لها ، وما تقوم به من بحوث وتحريات في مختلف ميادين المعرفة النظرية والتقاليد التي كانت تأخذ بها ... وقد ثبت لنا بعد تحرياتنا فيما أنشأ المسلمون في بلادهم الواسعة من معاهد العلم ومن مدارس أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية ومن دور القرآن ، ودور العلم ، ومدارس للطب الخ .

إن المستنصرية ببغداد ، كانت أول جامعة عراقية بل أول جامعة إسلامية في العالم الإسلامي ،

كما تبين لنا من دراسة الجامعات الأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وما بعدهما أنها قد سبقت كل الجامعات الأوربية أيضاً .

— « وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة أخرى على المدارس الإسلامية . وذلك أنه شرط أن يضاف إلى مدرسته الفقه والطب ، فيما ذكر ابن الساعي ، داران آخران لعلمين مهمين من علوم الشريعة الإسلامية : أولاهما ، دار القرآن ، والثانية دار السنة ، وبذلك يمكننا أن نقول : أن المستنصر بالله أول خليفة في العالم الإسلامي ، جمع في آن واحد المذاهب الفقهية الأربعة وعلوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعلم الطب ، والعربية ، والرياضيات ، والفرائض ... وجعلها في مكان واحد يتألف من مبان عديدة متصافية ، أو منجاورة ، أطلق عليها اسم (المستنصرية) بعضها باق . وبعضها درس . وعرض عليه الزمن . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك . فقد كانت مدارس الطب تنسب مستقلة عن مدارس الفقه ، أو دور الحديث ، أو دور القرآن ، كالبيمارستان العسدي بالجانب الغربي من بغداد ، ومدرسة الطب التي أنشأها أبو المنذر باتكين بالبصرة سنة ٦٢٩ هجرية في خلافة المستنصر ، ومدارس الطب في دمشق ، كالمدرسة الدخوارية سنة ٥٦٥ هجرية ، والليودية سنة ٦٦٤ هجرية ، والريعية سنة ٦٨٦ هجرية ... » (٧٨) .

ويشير ناجي معروف إلى ميزات أخرى امتازت بها المستنصرية هي « تعيين المشاهرات النقدية ، وإجراء الجرايات العينية الدارة يوماً على أرباب المستنصرية من فقهاء وطلاب ، ومدرسين ، وموظفين ومستخدمين ، وكانوا نحو خمسمئة شخص » (٧٩) ، و « تأسس حمام في المستنصرية ربه المستنصر بالله لجميع أرباب المشاهرات ، وبدخلون إليه متى احتاجوا ، وفيه من يقوم بخدمتهم ، وهو أمر لم يسبق إليه » ، كما يقول أحمد بن عبدالله البغدادي في كتابه (عيون أخبار الأعيان) « (٨٠) .

ومن كل هذا يتضح أن المستنصرية كانت ، بالفعل ، أول جامعة عربية — إسلامية في الشرق ، بل وفي العالم ، أيضاً ، وأن ما كان فيها من أنظمة ،

وامتيازات ، وميزات ، جعلها ، بالفعل ، جامعة حقيقية . وثبتكم ، ماثرة كبرى أخرى من مآثر مدرسة بغداد العلمية ، الثقافية ، كان لها امتداداتها وتأثيراتها اللاحقة ، في إنشاء جامعات إسلامية أخرى ، كالجامع الأزهر الذي أنشاه الفاطميون في القاهرة وجامعة القيروان في تونس ، وعديد من الجامعات الأندلسية . ولعله من المفيد أن نشير ، مرة أخرى ، إلى ما كتبه ناجي معروف ، استطراداً ، بصفته المصدر المعاصر الوحيد حتى الآن (مما تيسر بين يدينا) في الحديث عن المستنصرية . يقول ناجي معروف :

— « ولما كانت بغداد قد سبقت جميع البلاد العربية والإسلامية ، وسنت لها بناء المدارس الرباعية على المذاهب الأربعة ، فقد تبعنا أخبار المدارس في البلاد الإسلامية التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية ، فوجدنا أن بغداد احتوت على أربع جامعات . كما وجدنا أن مصر أول بلد عربي حدا حذو بغداد ، حيث أنشأت فيه أول مدرسة على المذاهب الأربعة ، بعد عشر سنوات من افتتاح المستنصرية . وتكاثرت هذه المدارس بالقاهرة حتى أننا عثرنا على أخبار سبع جامعات فيها . وكانت حطب البلد العربي الثالث الذي أنشأت فيه مدرسة واحدة على المذاهب الأربعة بعد مضي أكثر من قرن من الزمن على افتتاح المستنصرية . وكانت مكة البلد العربي الرابع الذي أنشأت فيه ثلاث مدارس رباعية في القرن التاسع الهجري » (٨١) .

إن المدارس (الجامعات) البغدادية الأربع هي ، على حد ما يقول الأستاذ ناجي معروف ، المستنصرية ، والبشرية ، والعصمية ، والمسمودية . فاما المستنصرية فقد جرى الحديث عنها ، وأما البشرية فهي ، وفقاً لما يقوله الأستاذ معروف ، أيضاً ، كانت قد استقت اسمها من السيدة « باب بشر » ، زوجة الخليفة العباسي المستعصم . وأما العصمية (٦٧١ هجرية — ١٢٧٢ ميلادية) ، فهي كما يقول أستاذنا الفقيه معروف ، قد شيدت بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشر سنة « أمرت بإنشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي السيدة « شمس الضحى » شاه لبني بنت عبد الخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وهي أم رابعة العباسية حفيدة

المنعصم ، وقد وقفنا على الطوائف الأربع « (٨٢) . وأما المسمودية فتنسب الى « خواجه محمود بن سديد الدولة » ، وهو من أكابر بغداد ... جعلها وقفاً على المذاهب الأربعة على صفة المستنصرية ، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة « (٨٣) .

لقد كان لعلماء مستنصرية بغداد دور كبير في نشر الثقافة العربية - الإسلامية ليس في بغداد فحسب ، بل وفي سائر أرجاء الدولة الإسلامية ، وخارج حدودها أيضاً . يقول باحثنا معروف : « نستطيع ان نؤكد ان علماء المستنصرية كان لهم الفضل الأكبر في نشر الثقافة الإسلامية في أحلك المصور وأشدها ظلاماً . فقد كانوا خلال فترة الحكم الفولي ، أي منذ سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦ هجرية حتى تدميرها بيد تيمور لك سنة ٧٩٥ هجرية وسنة ٨٠٣ هجرية ، يحملون مشاعل العلم ، وينشرون نواج الفكر الإسلامي مدة قرن ونصف القرن « (٨٤) .

وبذكر معروف ، مستنداً ، فيما يبدو ، إلى أوثق المصادر الأصلية ، انه كان من بين كبار مدرسي جامعة المستنصرية ورجالها اساتذة مشهود لهم بالفضل مثل جمال الدين العاقولي وابنه وحفيده ، وآل الجوزي ، ومؤرخون بارزون كالقطيعي وابن النجار ، وابن السامي ، وابن الفوطي ، والداهلي ، وفقهاء معروفون كابن السباك الحنفي « وهو الذي أطلق عليه لقب (استاذ) وانتهت اليه الرياسة بالمستنصرية » ، وجغرافيون كعبد المؤمن بن عبدالحق المعروف بكتابه « مراد الاطلاع » ، وأطباء « مشهورون كانوا ماهرين في الطب ولهم فيه مصنغات قيمة كشمس الدين ابن الصباغ وربييه مجد الدين المعروف بسنجر ، وعلاء الدين الأربلي الكتبي الشافعي ، والبرزبي الذي كان رأساً في الطب « (٨٥) ورياضيون وفرضيون كقصر الدين الحاسب الرياضي الفرضي ، وصفي الدين بن عبد الحق « وكان إماماً في علم الفرائض والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة . ومهندسون كهبة الله الداهلي الشهير باني المهندس وغيرهم ممن ظهرت فضائلهم في العقليات « (٨٦) ، ومقرئون ووعاظ ومفسرون مشهورون ، وشعراء وقصصيون ، ونحويون « انتهت إليهم مشيخة الأدب العربي كابن الانصاري الخزرجي ، وابن القواس الموصلية ، وابن الصيقل الجزري ، وابن الفصيح الكوفي شيخ نحاة بغداد ، ومفتون « أصدروا الفتاوى والأقضية والأحكام كنور الدين

البدياني ، وابن مقبل الواسطي ، والحب بن نصر الله البغدادي ، وجمال الدين العاقولي الذي درس بالمستنصرية نحواً من خمسين سنة ، وأفتى سبعين سنة أو أكثر « (٨٧) ، وخطاطون لامعون ، و « منهم من لبس لباس الفتوة كعبد الله الشار مساحي ... مدرس المالكية فيها ، وعبد الرحمن التكريتي الناظر الأول في مصالح المستنصرية « (٨٨) ، ومن مدرسيها أيضاً محاسبون ، وقضاة ، وسفراء « بين المستنصر بالله وبين الملوك والأمراء ، فقد أرسل المستنصر محي الدين بن فضلان برسالة الى ملك الروم . وأرسل محي الدين يوسف ابن الجوزي الى ملك الروم أيضاً « (٨٩) .

ويؤكد الاستاذ ناجي معروف ، أيضاً ، ان عديداً من علماء المستنصرية ترك « عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة ، منها الطبوع ، ومنها مالا يزال مخطوطاً في امهات المكتبات العالمية ، ومنها ما لم يبق إلا أسماؤها أو ما نقل منها « (٩٠) ويشير ، كذلك ، إلى رحلات بعض علماء هذه الجامعة البغدادية وأسفارهم العلمية ، وعلاقات هذه الجامعة الثقافية ، ومكانتها العالمية ، وخدماتها الجليلة في نشر العلم والثقافة ، بما أتاحه العصر وسمحت به الظروف ، « فقد رحل بعض علماء المستنصرية رحلات طويلة للتبحر والبحث عن الحقائق العلمية ، في الاقطار العربية والإسلامية ، كرحلة ابن فضلان ، وابن النجار وغيرهما . كما قصد هذه الجامعة عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب والمؤلفين من البلاد الإسلامية النائية للدرس والتدريس فيها . وقد حدث كثير ممن رجالها في أغلب البلاد الإسلامية ودرسوا في مدارسها « (٩١) .

إن من أهم مآثر جامعة المستنصرية ، في تضاعيف أنشطة المدرسة البغدادية الكبرى في العلم والثقافة والبحث العلمي ، هو انها حولت العلم الى عمل ، وترجمت انكسار الفكرة الى واقع حضاري اجتماعي - سياسي ، ذي دلالة عظيمة . وبالطبع ، ينبغي ان نفهم هذا ، نسبياً ، وبمواصفات العصر ، وإطاره .

فقد درست النساء - في شبه مساواة عملية - عديداً من رجال المستنصرية ، ودرس هن بدورهن على أيدي اساتذة فضلاء في المستنصرية . يقول معروف : « وكان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المستنصرية فقد درسوا عليهن ، وحصلوا على الإجازات

العلمية منهم ، كما كان لدرسيها فضل عليهن اذ درسن عليهم ، وتلن الاجازات منهم « (٩٢) . إن المرء ليسر ، حقاً ، إذ يسجل مثل هذا المعطى القيم لجامعة المستنصرية البغدادية ، ولكننا كنا نود لو طلع علينا ، باحثنا البغدادي المعاصر ، معروف ، ببعض الامثلة لبعض الشخصيات النسائية .

ومن مآثر مستنصرية بغداد في حرية الفكر ، وتمثل حسن المواطنة ، باعتبار ان انعام مواطن أولاً وقبل كل شيء ، وفوف العديد من علماء هذه الجامعة البغدادية ، سوية مع زملائهم العلماء الآخرين ، ومع المواطنين ، جميعاً ، في وجه الغزاة الاجانب ، ذيادة عن شرف الوطن . والعلم ، والاسلام ، واستشهادهم في سبيل الحرية . إن علماء المقاومة الاجلاء هؤلاء استحقوا ويستحقون التكريم ، والتخليد ، فقد قرنوا شرف الكلمة ، وكرامة العلم ، بشرف البلاد ، وكرامة الوطن ، وحرية ابنائه . ولنا هنا ان نسمع هذا من باحثنا البغدادي المعاصر الاستاذ ناجي معروف : تفصيلاً :

« ويمكننا ان نذكر من بين علماء المستنصرية من اودى ، ومن اسر في وقعة بغداد ، وذهبت مؤلفاتهم ، واثباتهم ، واجازاتهم ، ومن نفى أو اعتقل وسجن : أو هرب من بغداد في اثناء الفن والاضطرابات ، امثال : ابن المحيا العباسي ، وابن وضاح الشهباني ، وابن عكبر العكبري ، والبلالي الأموي ، وغياث الدين ابن العاقولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، ونجم الدين خواجه امام ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وابيه نصر الله ، وابن انطوطي ... كما يمكننا ان نذكر من بين علمائنا وفقهائنا الذين استشهدوا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦ هجرية ، صبراً بسيف التتر وهم يذودون عن دينهم وبلادهم ، كلا من كمال الدين الحموي ، وعلي ابن النيار ، ومحيي الدين ابن الجوزي ، وابنه جمال الدين ابن الجوزي ، ومحمود الزنجاني ، وابن القصاب البغدادي ، وابن البديع التكريتي ، وفخر الدين الأمدي « (٩٣) .

كما ان عديداً من علماء مستنصرية بغداد لم يكتفوا بمقاومة الظلم والقزو الخارجي ، بل قاوموا الظلم الداخلي ، ايضاً ، ونافحوا الاستبداد ، واجتهدوا في آراءهم ، ولم يألوا شيئاً ،

وكافحوا الجور والظلم من اي جاء . يقول ناجي معروف : « ونستطيع ان نذكر ان من بين المدرسين علماء احراراً كانت لهم آراؤهم الخاصة بهم فلم يقلدوا غيرهم من العلماء . وكانوا يقولون ان المشايخ قبلنا كانوا رجالاً ، ونحن رجال ، امثال محمود الزنجاني الشافعي ، وقاضي القضاة ابن اللمعاني ، الحنفي ، وسراج الدين الشارمساخي المالكي ... وكان كثير من علماء المستنصرية من ذوي المكانة العالية لا يفشون الاكابر ولا يخافونهم . وكان من علمائهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويواجه الكبراء بما يكرهون « (٩٤) .

وفيما يبدو ، فان المستنصرية باتت موضع احتذاء وتقليد ، على نطاق واسع ، ولعل ذلك يعود لنجاحها انباهر في اداء مهماتها ورسالتها ، يعود لمكانة بغداد العلمية الراسخة ، وكل ما يتصل بها من مراكز علمية وثقافية . يقول الاستاذ ناجي معروف : « ويظهر ان المستنصرية ببغداد اصبحت قدوة لتؤسس المدارس من الرجال والنساء ليس في العراق فحسب ، بل وفي مصر والشام والحجاز حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الاربعة ، او احتواؤها على دروس الطب والتفسير والحديث والعربية ، وعلى مخازن ودور للكتب ، وعلى بقية المرافق الاخرى . وربما نافسوها في الرياضة فبنوها على غرارها من حيث هندسة البناء والزخرفة واحتواؤها على الاوابين « (٩٥) .

- ٥ -

ان من القصور ان نتحدث عن مراكز بغداد العلمية ومدارسها الفكرية والعلمية والثقافية ، وجامعاتها ، ولا نتحدث عن مراكز بغداد الفلكية التي اشتهرت في عالم القرون الوسطى ، اجمع ، وترسخت مكانتها وتوطدت قدمها ، بصفتها ، في الاساس ، إنجازاً هائلاً للمدرسة ببغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي في العصر العباسي الاول ، وتطويراً وتكميلاً متقناً لهذا الانجاز ، فيما بعد .

وعلى العموم ، فان للعرب فضلاً كبيراً في علم الفلك ، كعلم طبيعي مستقل عن الشعوذة والتنجيم . ويجمل صاحب كتاب « العلوم عند العرب » ، قدرى حافظ طوقان ، ذلك ، فيما يلي : (وبالجملة ، فان للعرب فضلاً كبيراً على الفلك : اولاً) لان العرب نقلوا انكتب الفلكية عن

اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان وصححوا بعض اغلاطها وتوسعوا فيها . وهذا عمل جليل جدا ، لاسيما اذا عرفنا ان اصول تلك الكتب ضاعت ولم يبق منها غير ترجماتها في العربية ، وهذا طبعا ما جعل الاوربيين يأخذون العلم عن العرب ، فكانوا (اي العرب) بذلك اساتذة العالم فيه . (ثانيا) - في اضافاتهم الهامة واكتشافاتهم الجلييلة التي تقدمت بعلم الفلك شوطا بعيدا (ثالثا) - في جعلهم علم الفلك استقرائيا وفي عدم وقوفهم فيه عند انتظريات . (رابعا) - في تطهير علم الفلك من ادراج التنجيم » (٩١) .

إن الاستاذ ناجي معروف ، الباحث البغدادي المعاصر ، الذي تطلع باضائه الحياة الثقافية في بغداد ، من وجهة نظره ، يسلط ضوءه ، كذلك ، على علم الفلك في بغداد . وهو لا يحدو الحق ، حين يصرح بان بغداد كانت مركز علم الفلك في زمانها . ولعل من الخير لنا وللقارىء ان نطلعه على وجهة نظر هذا الباحث ، التي تبدو معززة بالوثائق والادلة التاريخية والوقائع المادية ، التي ذكرها اكثر من باحث عربي ، وأوربي ، بهذا الصدد

يقول معروف : « إن أول من عني بعلم الفلك أبو جعفر المنصور ، فقد قرب المنجمين وشجع المترجمين والعلماء ، واغدى عليهم العطايا ، واحاطهم بعنايته ورعايته ، واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين ولوا الحكم بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين بها فترجموا كتب الأمم التي سبقت العرب ، وصححوا كثيرا من اغلاطها وأضافوا إليها مما ابتكروه او اكتشفوه الشيء الكثير واصبحت بغداد مركزا لهذا العلم مدة خلافة العباسيين ، فانشئت فيها الأرصاد ، ودونت الأزياج ، وتنوعت آلات الرصد ، وظهر كبار الفلكيين الذين نهت أسماءهم واشتهرت أعمالهم ، وقد اعتمدت دار الرصد الفولبية ، التي انشئت سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٦ ميلادية) ، أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة ، على علماء بغداد وفلكيها ، وعلى ما ألف ببغداد من كتب في هذا العلم ، وعلى الكتب التي جمعها نصير الدين الطوسي من بغداد والموصل وواسط والبصرة ، وكانت تبلغ نحو (٤٠٠) ألف مجلد . ويعتبر من جاء بعد العباسيين نقلة ومقلدين بوضوح ما ابتكره العباسيون ببغداد ويختصرون الطول من علم الفلك ويفصلون المختصر منه .. » (٩٧) .

وكان من أشهر الأزياج الفلكية العربية - زيج

أبي بكر محمد الخوارزمي ، وزيج ابراهيم انقزاري ، وزيج البتاني ، وزيج المأمون ، وزيج - ابن السمع ، وابن الشاطر ، وأبي حماد الاندلسي ، وابن يونس ، وأبي حنيفة الدينوري ، وأبي معشر البخعي ، والابرخاني ، وعبدالله المروزي البغدادي ، والصفاني ، والبوزجاني ، والطوسي . وشمس الدين . وملكشاهي ، والمقتبس وغيرها .

لقد كانت مدرسة بغداد الفلكية المتميزة وريقة الاتصال بعلم الرياضيات عند العرب ، وبكل ما انجزه العرب والمسلمون من إنجازات في العلوم الطبيعية ، والمنهجية العلمية ، عموما . وكانت قدم العرب في علم الفلك راسخة ، لحد انه لا زال اكثر من نصف أسماء النجوم عربيا ، ولحد ان خليفة جليلا كالمأمون كان يشرف بنفسه على مراسد بغداد وسواها ، ويتابع ، بنفسه ، الدراسات الفلكية في البلاد ، ولحد ان كثيرا من معطيات علم الفلك المعاصرة ذات اصل عربي . فان اكتشاف بعض انواع الخلل في حركة انقمر يعود الى أبي الوفاء البوزجاني ! وليس الى تيخوبراهي اندانماركي . كما يزعم بعض متعصبين الغرب) ، كما ان آلة الاسطرلاب المشهورة ، والربع ذا الثقب هي مبتكر عربي صرف ، وانى ذلك يمكن ان نصيف إصابة الفلكيين العرب (وخصوصا البتاني) في حساب ميل تلك البروج على فلك معدل النهار ، وتقديفهم (البتاني ايضا) في حساب طول السنة الشمسية . وتحقيقهم مواقع كثير من النجوم ، ورصدتهم الاعتدالين الربيعي والخريفي ، وإشاراتهم الى كلف الشمس ، ووضعهم الجداول الدقيقة لبعض النجوم الثوابت ، واتقانهم بناء المراصد الفلكية وصنع آلاتها (التي منها ، البنية ، والحلقة الاعتدالية : وذات الاوتار ، وذات الحلق ... ، وذات السمات والارتفاع ، والآلة الشاملة ، وذات السميتين ، وذات الجيب ، وذات المشبهة بالناطق ، والاسطرلاب وانواعه المختلفة) (٩٨) .

وبهذا الصدد يؤكد طوقان « ان المأمون أول من اثار باستعمال الآلات في الرصد وقد ابنتى مرصدين على جبل قيسون في دمشق وفي الشمسية في بغداد . وفي مدة خلافته وبعد وفاته انشأت عدة مراسد في انحاء مختلفة من البلاد الاسلامية ، فلقد ابنتى بنو موسى مرصدا في بغداد على طرف الجسر وفيه استخرجوا حساب العرض الاكبر من عروض القمر ، وبنى شرف الدولة ايضا مرصدا في سنان دار الملكة . ويقال ان الكوهي

رصد فيه الكواكب السبعة ، وأنشأ الفاطميون على جبل المقطم مرصداً عرف باسم المرصد الحاكمي ، وكذلك أنشأ بنو الأعمى مرصداً عرف باسمهم ، وأعل مرصد المراغة الذي بناه نصير الدين الطوسي من أشهر المراصد وأكبرها ، واشتهر بالآلة الدقيقة وتفوق المشتغلين فيه . وقد قال الطوسي عنهم من زيج الإيلخاني : « أنني جمعت لبناء المرصد جماعة من الحكماء منهم المؤيد العرضي ، والفخر الرازي الذي كان بالموصل ، والمخر الخلاطي الذي كان بتفليس ، ونجسم الدين بن دبريان القزويني ، وقد ابتدأنا في بنائه سنة ٦٥٧ هجرية » . واشتهرت أرصاد هذا المرصد بالدقة ، حتى لقد اعتمد عليها علماء أوروبا في عصر النهضة وما بعده في بحوثهم الفلكية « (٩٩) » .

إن سؤالاً قد ينشأ : ما هي العلاقة بين مرصد الشمسية المبكر في بغداد العصر العباسي الأول ، ومرصد مراغة للطوسي المبني بعد سقوط بغداد ، وما تأثير ذلك على انتشار العلوم الفلكية في العالم ؟

ولعل ناجي معروف ، باحث بغداد المعاصر ، أولى الباحثين بالإجابة عن مثل هذا السؤال المشروع . وها هو الاستاذ معروف يوضح ذلك في بحث صغير له بعنوان « مدرسة بغداد الفلكية » ، فيقول : « لقد ازدهرت مدرسة بغداد الفلكية سبعة قرون منذ تأسيس مدينة السلام سنة ١٤٥ هـ - ٧٦٢ ميلادية حتى سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ ميلادية وقد أدت هذه المدرسة في خلافة الرشيد والمأمون إلى أعمال مهمة . وادمجت مجموعة الأرصاد التي تم أمرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب « الزيج المصحح » . وقد عين العرب فيه مدة السنة بالضبط . وأقدم فلكيو بغداد على قياس خط نصف النهار ، الذي لم يوفق له الأوربيون إلا بعد ألف سنة ، كما يقول العالم الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون ... ويرى الدكتور لوبون أن عمل العرب في حقل الحضارة قد دام إلى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمان طويل . ودام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي ، حتى بعد أن صارت في قبضة الأجانب . وقد ظلت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري) ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك فأثيروني علم الهند ما انتهت إليه مدرسة بغداد ، وملكشاه السلجوقي أمر في سنة ١٧٢ هجرية (١٠٧٩ ميلادية) بالقيام بأرصاد أدت إلى إصلاح التقويم السنوي بما هو أفضل من التقويم

الغريغوري الذي تم بعد (٦٠٠) سنة . كما ذكر لوبون ، أيضاً ، أن هؤلاء نقل أفضل علماء العرب إلى المرصد الذي أنشأه بمراغة . كما نقل أخوه كوبلاي إلى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك . وقد استنبط هؤلاء معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ولذا يقول لوبون « أن العرب هم الذين نشروا هذا العلم في العالم كله بالحقيقة » . وجمع تيمورلنك بمدينة سمرقند التي اتخذها عاصمة لامبراطوريته المشتعلة على بلاد التركستان وفارس والهند فريقاً من علماء العرب ، وأقبل حفيده أولوغ بك على علم الفلك بنشاط عظيم . ويمكن عد أولوغ بك ، الذي لا يفصله عن كبلر ، سوى قرن ونصف القرن ، آخر ممثل لمدرسة بغداد الفلكية « (١٠٠) » .

وبهذا الخصوص ، تؤكد المعطيات ، والمصادر الروسية والسوفييتية صحة تأثير مدرسة سمرقند الفلكية بمدرسة بغداد الفلكية ، وقبامها على المعارف العلمية الأساسية المستقاة منها .

ولعل من أمجاد مدرسة بغداد العلمية الكبرى ، التي وضعت أصولها ، ونوانها الضخمة مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ، أنها أنقذت الناس من الخرافة والشعوذة ودجل التنجيم ، وأنها قالت « باستدارة الأرض وبدورانها حول محورها » ، وضبطت حركة أوج الشمس « بينما لم ينتشر تعليم حركة الأرض الدورية عند الفرنج إلا بعد سنة ١٥٢٣ م ، عندما وضع ذلك كوبرنيك ، الذي يذكر أن كثيراً من كتب الفلك العربية نقلت إلى اللاتينية والفرنسية والإيطالية » (١٠١) .

أما أشهر مراصد بغداد الفلكية ، على مختلف عصورها ، فهي - المرصد المأموني في الشمسية ببغداد ، (وكان موقعه في أعلى بغداد الشرقية ، عند محطة الصليخ إحدى محلات الأعظمية اليوم) ، على حد ما يقول الاستاذ ناجي معروف (١٠٢) . ومن مراصد بغداد الفلكية أيضاً ، مرصد بني موسى بن شاكر ، ومرصد بني الأعمى ، والمرصد الشرقي ببغداد (وهو المرصد المنسوب إلى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهية ، وقد بناه في حديقة قصره المعروفة بدار الملكة ببغداد على نهر دجلة ... وبرجح أن موقع دار الملكة في أعلى محطة « الميواضية » ، ببغداد اليوم) (١٠٣) .

أما أشهر أرصاد بغداد الفلكيين ، فهم : إبراهيم بن حبيب الفزاري ، « الامام العالم المشهور » المذكور في حكماء الإسلام ، وهو أول من

مهت هذه الحلول السبيل امام علماء اوربا ليتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة ادت الى التكامل والتفاضل ، الذي يعتبر من اهم ما وصل اليه العقل البشري . ويقول غوستاف لوبون : ان ابا الوفاء هو الذي عرف الاختلال الفعري الثالث ... وبرى لوبون ان هذا الاكتشاف عظيم للغاية لان مسيو سبيديو استدل به على وصول مدرسة بغداد في اواخر القرن العاشر الى اقصى ما يمكن علم الفلك ان يصل اليه بغير نظارة ومراقب ... (١٠٨) .

وكذلك اشتهر من رصد بغداد الفلكيين - عبدالرحمن الصوفي (القرن العاشر الميلادي) ، وهو الذي بنى المرصد الشرفي ، « وكان عضد الدولة يفخر بعبد الرحمن الصوفي لانه كان معلمه في الكواكب الثابتة وسيرها » (١٠٩) ، وابراهيم بن هلال بن ابراهيم (ابن زهرون) ، وقد خدم ملوك انمراق من بني بويه ، والبديع الاسطرابي (عبد الله بن الحسين ابو القاسم البغدادي) ، « وكان وحيد زمانه في عمل الآلات ، وقام بأمر عجز عنها المتقدمون : وقد عاش في زمن المسترشد بالله » (١١٠) .

ان الاسطراب العربي قد لعب دوراً كبيراً في تقدم علم الفلك العربي - الاسلامي ، والعالمي عموماً . ويذكرنا ناجي معروف ان العرب اغوا في بغداد وغيرها مؤلفات كثيرة في صنع الاسطراب والعمل به خلال اثني عشر قرناً ، « وقد احصى منها اليوم نحو (٢٠٠) مؤلف ما بين كتاب ورسالة في هذا العلم » (١١١) .

وتتوسع البروفسورة الدكتورة زيفرد هرتكه ، المستشارة الألمانية البارزة (التي زارت بغداد صيف ١٩٦١ ، كما زارت الجمهورية العربية المتحدة صيف ١٩٦٢) ، في كتابها الشهير الذي ترجم الى العربية تحت عنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » ، تتوسع في وصف آلة الاسطراب العربية ، ذات الاصل البغدادي ، وساعات العرب الشمسية ، وساعاتهم « التي تسير على الماء وعلى الزئبق وعلى الشمع المشتعل ، او التي تعمل بواسطة الاثقال المختلفة او ساعات تحمل فتحات منسقة الواحدة تلو الاخرى في شكل نصف دائري ، وما تلبث ان تشرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً في حين يسر فوقها هلال وضاء » .

فتقول :

« وفي عام ٨٠٧ قدم عبدالله رسول هارون

عمل في الاسلام اسطراباً ، وله كتاب في تسطيع الكرة اخذ منه كل الاسلاميين » (١٠٤) ، ومحمد بن ابراهيم الفزاري وكان في حاشية المنصور ، و « الفزاري هو الذي اختار للمنصور الوقت المناسب للبدء ببناء بغداد » (١٠٥) ، وموسى بن شاذل وبنوه الثلاثة ، والحسن بن محمد الطوسي التميمي ، وحجش الحاسب المروزي البغدادي ، وابو معشر البلخي ، ومحمد بن جابر البتاني ، « احد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب ، والمتقدمين في علم الافلاك وحساب النجوم ... ولا يعلم احد في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح ارساد الكواكب وامتحان حركاتها . ابتدا في الرصد من سنة ٢٦٤ هـ الى سنة ٣٠٦ هجرية ... وهو فلكي شامي جاء الى بغداد مع بني الزيات من اهل الرقة ، فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص في سامراء سنة ٣١٧ هجرية . وقد عده الفلكي الفرنسي لالاند واحداً من العظماء فلكياً المشهورين في العالم كله . وقالت هوتكه : لقد كان تأثير هذا العربي الثابتة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الاوربية حتى ايامنا هذه » (١٠٦) ، ويعقوب الكندي العالم الفيلسوف المشهور عدو الخرافة والتنجيم ، وهو من الاثني عشر عبقرية الذين ظهروا في العالم ... لانه كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وناليف الملحوت وطبائع الاعداد ، وقد انتخبه المأمون ليكون احد الذين يعهد اليهم في ترجمة مؤلفات ارسطو ... (وله) آراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الارض دفعت العلماء الى الاعتراف بأنه مفكر عميق من الطراز الحديث . وكان لمؤلفاته في البصريات تأثير كبير في العقل الاوربي ... وقد وضع عدداً كبيراً من الكتب بلغ فيها في النجوم تسعة عشر كتاباً ، وفي الفلك ستة عشر كتاباً ، وثمانية كتب في الكريات ، كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية حتى قيل ان دولة المعتصم كانت تنجمل بالكندي وبمصنفاته ... » (١٠٧) .

ومن رصد بغداد المشهورين : كذلك ، ويجن بن رستم ابو سهل الكوهي ، واحمد بن محمد الصاغاني (ابو حامد الاسطرابي) ، وابو الوفاء البوزجاني الحاسب ، الذي انتقل الى بغداد من بلدته بوزجان (بين هراة ونيسابور) ، « وقد قضى ابو الوفاء حياته ببغداد في التأليف والرصد والتدريس ، وقد انتخب ليكون احد اعضاء المرصد الشرقي ، الذي انشأه شرف الدولة . وقد استطاع ان يجد حلولاً تتعلق بالقطع المكافئ ، وقد

عند العرب » ، الذي أسلفنا الإشارة إليه ، ان « من هؤلاء العلماء العرب الذين توصلوا الى حلول هذه المسائل الصعبة ثابت بن قرة ، وابو جعفر الخازن ، وعمر الخيام ، والخجندي ، وابن الهيثم وغيرهم » (١١٥) .

ان ثابت بن قرة ، الحراني الاصل ، هو احد علماء المدرسة البغدادية اللامعين ، ويقال في مجيئه ببغداد ، انه التقى بمحمد بن موسى الخوارزمي ، عند رجوعه من ارض الروم ، فاعجب الخوارزمي بذكائه ووقدة فكره ، فاستصحبه الى بغداد ، ووصله بالخليفة العباسي المعتضد ، وصار يعمل في معية علمائه (١١٦) وقد حظى ثابت بن قرة بتكريم لا نظير له من جانب خليفة بغداد ، بل ان الخليفة اعتلر منه ، يوماً ، حين « تزيده من يد ثابت ، وقال له : يا ابا الحسن سهرت ووضعت يدي على يدك واستندت عليها ، وليس هكذا يجب ان يكون ، فان العلماء يعلون ولا يعلون » (١١٧) .

وكان ثابت بن قرة ، الذي يتقن السريانية والعبرية واليونانية ، ويجيد النقل عنها ، عالماً موسوعياً ، كمادة علماء المدرسة البغدادية ، جميعاً ، فقد نبغ في الرياضيات ، والفلك ، والطب ، والفلسفة ، إضافة الى كونه قطب مدرسة الترجمة عن السريانية واليونانية في بغداد في عصره .

ويؤكد قنبري طوقان ، انه جاء في كتاب « تاريخ الرياضيات » لسميث ما يلي « ... كما هي العادة في احوال كهذه يتعمر ان نحدد بالتأكيد الى من يرجع الفضل في العصور الحديثة في عمل أول شيء جديد بالاعتبار في حساب التكامل والتفاضل . ولكن في استطاعتنا ان نقول ان ستيفن يستحق ان يحل محلا هاما من الاعتبار . لما مآثره فتظهر في تناول موضوع ايجاد مركز الثقل لاشكال هندسية مختلفة اهتدى بنورها عدة كتاب اتوا بعده . ويوجد آخرون ، حتى في القرون الوسطى قد حلوا مسائل في ايجاد الحجم والمساحات بطرق يتبين منها تأثير نظرية إفاء الفرق ، اليونانية . وهذه الطريقة تنم نوعاً على طريقة التكامل المتبعة الآن . ومن هؤلاء يجدر ان نذكر ثابت بن قرة الذي وجد حجم الجسم المتولد من دورات القطع المكافئ حول محوره ... » (١١٨)

اما محمد بن موسى الخوارزمي فهو احد أبرز كوكبة العلماء الذين استظلوا بظل الخليفة البغدادي العالم ، المأمون . ويذكر ابن النديم ، في (الفهرست) ، ان الخوارزمي هو ابو عبدالله محمد

الرشيد الى انقبصر شارلمان ، في مدينة (أخن) من أعمال ألمانيا ، ساعة من هذا النمط ، وقد علق مؤرخ القصر (انبارد) على هذا الحدث في يومياته قائلاً : « كانت ساعة من النحاس الأصفر مصنوعة بمهارة فنية مذهشة ، وكانت تقيس مدة اثنتي عشر ساعة وفي حين إنعامها لذلك كانت تسقط الى الأسفل اثنتي عشرة كرة صغيرة ، محدثة لدى اصطدامها برفاقص معدني مثبت ، دويًا ايقاعياً جميلاً بالإضافة الى عدد معادل من الأنفاس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتي عشرة بوابة واغلقتها بقفزاتها هذه . وهناك أشياء أخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه الساعة تدعو الى العجب والدهشة ... » . نحن ما زلنا حتى يومنا هذا نقف فاعري الأفواه دهشة وأعجاباً ، كلما راينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية ، وما يرافق دقاتها من ظهور شخص صغير متحركة ، تذكرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد » (١١٩) .

- ٦ -

ان لعلوم بغداد الفلكية صلتها الوثقى ، وانني تكاد تكون عضوية ، بعلومها الرياضية ، بخاصة ، وبقية العلوم الاخرى ، عامة .

لقد قدمت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي رياضيين ممتازين ، كانت لهم مكانتهم العالمية ، في العلوم الرياضية ، فقد طوروا ، وأضافوا ، وابتكروا ، واستنبطوا شيئا من الجديد والاصيل في الرياضيات عموماً .

ان علم الجبر ، مثلاً ، لم يصبح علماً متقناً إلا على يد العرب ، واصبح جزءاً من مآثرهم على الحضارة الانسانية ، ويكفي للدلالة على فضلهم فيه ، انهم مهروه بلفظ من لغتهم ، فانتقلت كلمة « الجبر » الى جميع اللغات الحديثة » (١٢٠) . وقد أكد العالم الغربي (كاجوري) « ان حل المعادلات التكميلية بواسطة قطوع المخروط من اعظم الاعمال التي قام بها العرب ، ويكون انعسب بذلك قد استظلوا بهذا المجال قبل غيرهم من علماء العرب ، وبهذا قد سبقوا ديكارت وبيكر ، وتوصلوا الى حلول بعض المسائل التي يؤدي حلها الى معادلات تكميلية » (١٢١) . ويضيف الاستاذ حكمت نجيب ، في كتابه القيم ، حقاً ، « دراسات في تاريخ العلوم

بن موسى ، رياضي فلكي ومؤرخ من اهل خوارزم ، ينعت بالاستاذ ، ولاء المأمون العباسي منصب بيت الحكمة ، وعهد اليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها وامره باختصار كتاب المجسطي (١١٩) . بيد ان الخوارزمي نبغ في الرياضيات . واشتهر بكتابه « الجبر والمقابلة » ، والذي ألفه بتكليف من المأمون . فقد قال الخوارزمي في مقدمته : « وقد شجعني ما فضل الله به الامام امير المؤمنين مع الخلافة التي حاز له إرثه واكرمه بلباسها وحلاه بزينتها ، من الرغبة في الادب وتقريب اهله وإدنائهم وبسط كنفه اهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستهما وتسهيل ما كان مستوعرا » (١٢٠) .

ويؤكد قدرتي طوقان في كتابه (تراث العرب العلمي) المكانة العلمية الراسخة لكتاب عالم بغداد الخوارزمي ، هذا ، فيشير الى ان روبرت أوف جستر Robert of Chester قد نقله الى اللاتينية ، وافاد منه ليونارد أوف بيزا ، وكاردان ، وتار تاكسي ، ولوقا باصبولي ، وفيراري وغيرهم (١٢١) . ويشير رومر لاندو الى تأثير هذا الكتاب في اعمال ليوناردو فيوناتشي البيزوي (هو نفسه ليونارد أوف بيزا) ، والمعلم يعقوب الفلورنسي ، وعمال ليونارد دافنشي أيضاً (١٢٢) ويمجد ريسلر ، في كتابه (الحضارة العربية) اعمال الخوارزمي وفكره الرياضي ، ويعتبره أعظم رياضي في ميدان علم الجبر ، ومن اكبر علماء العالم الذين اجتروحوا مآثر عظيمة في علوم الرياضة والفلك خدمت الثقافة العالمية والحضارة الانسانية

ولا عجب في ذلك ، فان الخوارزمي كان عقلية فذة حقاً ، فهو ، فيما يشبه طوقان ، « واضع علم الجبر في شكل مستقل منطقي ، وهو المبتكر لكثير من بحوث الجبر التي تدرس الآن في المدارس الثانوية والعالية ، وإليه يرجع الفضل في تعريف الناس بالارقام الهندسية وفي وضع بحوث الحساب بشكل علمي لم يسبق اليه ، بحيث يصح انقول ان الخوارزمي وضع علم الجبر وعلمه ، وعلم الحساب للناس اجمعين . . وخلق في سماء الرياضيات ، وكان نجماً متألّقا فيها اهتدى بنوره علماء العرب وعلماء أوروبا ، وكلهم مدين له ، بل المدينة الحديثة مدينة له بما اضاف من كنوز جديدة الى كنوز المعرفة الثمينة » (١٢٣) .

إن من افضال الخوارزمي العلمية انه مهد السبيل لتبار رياضي في علم الجبر اساسه علم الحساب لا علم الهندسة ، وقام بعض علماء العرب ومنهم الكرجي والسموال بتطبيق العمليات

الحسابية (الجمع وانطرح والقسمة والضرب واخذ الجذور) على العمليات الجبرية ، وتمكنوا بذلك من تعميم علم الجبر تعميماً لم يكن مستطاعاً لو بقي الجبر هندسياً فقط ، مما ساعد كثيراً على تطور علم الجبر الحديث (١٢٤) .

ويوضح طوقان ، اكثر من ذلك كله ، ان عالم بغداد الخوارزمي وضع كتاباً في الحساب كان الاول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة ، وقد نقله ادلارد أوف باث الى اللاتينية تحت عنوان *Algoritmi de Numero Indarum* ، وهذا الكتاب هو اول كتاب دخل أوروبا . وقد بقي زمناً طويلاً مرجع العلماء والتجار والحاسبين ، والمصدر الذي يعتمدون عليه في بحوثهم الحسابية . وقد يعجب القارئ إذا علم ان الحساب بقي عدة قرون معروفاً باسم (الفورتمي) نسبة الى الخوارزمي . ومن هذا الكتاب وغيره من الكتب العربية التي دخلت أوروبا - فيما بعد - عرفت أوروبا الارقام العربية والهندية (١٢٥) .

ونالت مع كتاب الخوارزمي الشهرة « الجبر والمقابلة » وبعده كتب اخرى في ذات الموضوع لتلاميذه الخوارزمي المختلفين في شتى امصار الدولة العربية - الاسلامية ، منها كتاب ابي كامل شجاع بن اسلم (كتاب كمال الجبر وتعمامه واثره في اصوله) ، وكتاب الجبر والمقابلة لابي حنيفة أحمد بن داود الدينوري ، وكتاب الارتماطيقي في الاعداد والجبر والمقابلة لابي العباس أحمد السرخسي (من تلاميذ الكندي) ، وكتاب تفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة لابي الوفاء البوزجاني ، وكتاب الجبر والمقابلة لسند بن علي (معاصر المأمون) ، وكتاب في تصحيح مسائل الجبر بالبراهين الهندسية لثابت بن قرة ، وكتاب الفخري في الجبر والمقابلة لابي بكر فخر الدين محمد بن حسن الكرجي ، وكتاب « الجبر والمقابلة » لعمر الخيام ، ألفه باللغة العربية ، وكتاب في الجبر والمقابلة (كتاب الظفر) لنصير الدين الطوسي (١٢٦) .

أما في علم الحساب فقد قدمت مدرسة بغداد العلمية الكثير ، فقد كان علماء بغداد وسواها يعتبرون ، الحساب ، على حد ما يقول أبو بكر محمد بن حسن الكرجي « ارفع الصناعات درجة واعدها مهنة وانما فائدة » نصناعة الحساب « يحتاج إليها جميع الناس على طبقاتهم واختلاف ادبائهم ولغاتهم لما فيه صلاح الجمهور وسداد الأمور » (١٢٧) . ويؤكد الاستاذ حكمت نجيب انه

السابع عشر الميلادي حيث ظهر بهاء الدين العاملي الذي اشتهر بكتابه « الخلاصة في الحساب » ، الذي يعتبره جلال شوقي دارس رياضياته « عرضاً دقيقاً لعلوم الحساب والجبر والمساحة » ، كذلك لفاهيم العلماء العرب في الرياضيات وطرق حلولها في القرن الاخير من الحضارة العربية .. « (١٢٠) » .

★ ★ ★

ويؤكد قدرى طوقان ، ومن بعده حكمت نجيب ان الاوربيين اخذوا علم الهندسة اليونانية من العرب دون اليونان ، فقد « نقلوها من العربية الى اللاتينية مباشرة وظلوا يتدربونها كما عرفوها من العرب الى اواخر القرن السادس عشر حين عثر الباحثون (٩٩١هـ / ١٥٨٣م) على مخطوط من كتاب اقليدس باللغة اليونانية ، فقد وجد احد علماء الانكليز في اوائل هذا القرن (حوالي عام ١٩١٠) ، مقالتين قديمتين في الهندسة في مكتبة ويستستر ، الاولى كتبها جريوت الذي صار بابا سنة ٩٧٩م ، باسم البابا سلفستر الثاني ، ولم يكن اقليدس في الهندسة معروفا حينذاك (لا في العربية) ، والمقالة الثانية تاريخها بداية القرن الثاني عشر ، وكتبها راهب اسمه « ادلارد اوف باث » كان قد تعلم العربية ودرس في مدارس غرناطة وقرطبة واشبيلية ، والمقالتان كتبتا باللغة اللاتينية من نسخة ترجمت عن ترجمة اقليدس في اللغة العربية ، وبقيت هذه الترجمة تدرس في المدارس الاوربية الى سنة ١٥٨٣م « (١٢١) » .

وقد تركز اهتمام مدرسة بغداد العلمية بالهندسة في الناحية العملية (اكثر من الناحية النظرية) ، ولذلك برزت إنجازاتها وانجازات تلامذتها فيما بعد (وخصوصا ابن الهيثم) في الهندسة المعمارية ، واعمال الري وتوزيع المياه ، والاقنية ، وبناء المباني المختلفة ، بما فيها الجوامع والقصور . إن هندسة الري كانت أبرز وجوه « التنمية » في المجتمع العربي - الاسلامي في بغداد ، والشام ، ومصر ، والمغرب ، والاندلس ، ومختلف الحواضر الاسلامية في فارس وافغانستان وآسيا الوسطى . وذلك مبرر ومفهوم « لان تنظيم الري يتطلب معرفة دقيقة بمستوى الأرض وانحدارها وبكمية المياه وسرعتها ومجراها ، وبمواد البناء لاختيار الأنسب منها ، ومعرفة طرق البناء التي تؤمن السكور ، والسدود ، والمسكنات والشالروانات والبزندات ، ووقوفها بوجه المياه الزائدة القوية الجريان وضبط توزيعها » (١٢٢) .

قد كان « للمؤلفات التي وضعها العرب تأثير كبير على انحرقة العلمية في الغرب ، وان من اهم الكتب التي اثرت في هذه النهضة كتاب في علم الحساب لمحمد بن موسى الخوارزمي ، ضاع اصله العربي ، إلا ان ترجمته اللاتينية بقيت واثرت على بعض علماء الرياضيات في الغرب كرجيو مونتanos ١٤٣٦ - ١٤٧٦م (١٢٨) » .

إن من اهم علماء الغرب في الحساب من تلامذة المدرسة البغدادية وسواها علماء اهتموا بالجبر والهندسة ايضا ، فكانوا علماء ذوي تخصص رياضي عام . ومن أبرزهم سنان بن الفتح الحراني الذي « اشتغل في العلوم الرياضية ولا سيما في الحساب والاعداد وبرع فيها والف في ذلك كتباً مشهورة منها : التخت في الحساب الهندي وكتاب الجمع والتفريق الذي شرح فيه طريقة إجراء الأعمال الحسابية بواسطة الجمع والطرح عوضاً عن الضرب والقسمة وهي الأساس الذي قامت عليه فكرة اللوغاريتمات » (١٢٩) .

ومن علماء بغداد المبرزين في الحساب علماء موسوعيون افلاذ يعرفهم العالم اجمع ، ومنهم الكندي (ابو يوسف يعقوب بن اسحق) وابو الوفاء البوزجاني . ويضيف مؤرخو العلم الاسلامي والعالمي أسئلة عربا آخرين في الرياضيات هم : الكرايسي ، ويعقوب الرازي ، واحمد بن الطيب (من تلامذة الكندي) ، وابو حنيفة الدينوري ، وسند بن علي ، والكلواذي البغدادى ، وابو يرزة الجيلي ، وابو بكر الكرجي صاحب كتاب (الفخري) المشهور الذي يعتبره علماء أوربا « وثيقة فائقة الاهمية في تاريخ الرياضيات » ، والقاضي النسوي الذي بلقبه نصير الدين الطوسي بـ « الاستاذ » ، وعبدالقادر التميمي البغدادى . وثمة علماء آخرون برزوا في الحساب والرياضيات ، وكانوا موسوعيين كعلماء بغداد الأوائل ، ومن هؤلاء ابن الهيثم ، وابو الريحان البيروني . كما كان للمدرسة بغداد في الحساب والرياضيات تلامذة عابرة في المغرب والاندلس ومنهم ابن اللبودي ، وابن البناء المراكشي ، وابو الحسن القلصاري . كما كان لهذه المدرسة البغدادية ابن بار هو قاضي زادة - الذي افاد من معطيات العلم العربي - الاسلامي وكان هو وفيث الدين الكاشي من أبرز العلماء الذين عهد اليهم ارلوع بك في إنشاء مرصد سمرقند ، في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) وقد امتدت تأثيرات مدرسة بغداد الرياضية حتى القرن

ومع ذلك فإن إخوان الصفا أولوا الهندسة النظرية جل اهتمامهم ، لأن إقتانها « يؤدي إلى الخلق في الصنائع العلمية . لأن هذا العلم هو أحد الابواب التي تؤدي إلى معرفة جوهر النفس التي هي جذر العلوم وعنصر الحكمة ، وأصل الصنائع العلمية والعملية ، أعني معرفة جوهر النفس » (١٢٢)

واهتم علماء بغداد ، أوسع الاهتمام ، بكتاب اقليدس ، لأنه الباب الرئيس للعلوم الهندسية في ذلك العصر . ومن هنا كثرت الشروح والتلخيصات العربية لهذا الكتاب . وطلع الكندي فيلسوف بغداد الموسوعي بكتابه الشهير « أغراض كتاب اقليدس » ، ولكنه طلع بكتب عديدة أخرى ، من ابتكاره الاصيل ، في مختلف علوم الهندسيات (ومنها كتاب اختلاف المناظر ، كتاب في تقريب وتر اندائرة ، كتاب في تقريب وتر التسع ، كتاب في شروق الكواكب وغروبها بالهندسة ، كتاب في البراهين المساحية لما يعرض من الحسابات الفلكية ، كتاب في تصحيح قول ابقلاوس في المطالع ، كتاب في صنعة الاسطرلاب بالهندسة ، كتاب في استخراج نصف النهار وسمت القبلة بالهندسة وكتب أخرى) .

وكتب علماء بغداد الآخرون عديداً من الكتب الهندسية ، منها ما كتبه أولاد موسى بن شاكر (محمد وأحمد والحسن) : ومن هذه الكتب « كتاب الشكل الهندسي » لأحمد بن موسى ، وكتاب الشكل الدور والمستطيل للحسن بن موسى . كما كتب ثابت بن قرة كتابه المشهور « كتاب في استخراج المسائل الهندسية » ، إضافة إلى أعمال عديدة أخرى . واشتهر أبو الوفاء البوزجاني بـ « كتاب في الأعمال الهندسية » . ويرى ابن خلكان أن البوزجاني كان أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيها استخراجات غريبة لم يسبقه إليها عالم آخر .

وهناك كتب عديدة أخرى فيها تلامذة مدرسة بغداد العلمية ، في مختلف العصور ، والأمصار الإسلامية (منها ، مثلاً لاحصر ، « شرح كتاب اقليدس في أصول الهندسة » للنيريزي ، و « تحرير اقليدس » لنصير الدين الطوسي وكتاب « التجريد في الهندسة » المنسوب للطوسي أيضاً ، وكتاب مختصر اقليدس لابن سينا ، وكتاب أشكال التأسيس في الهندسة لشمس الدين السمرقندي ، وكتاب المدخل إلى الهندسة لأبي العباس المكناسي المتوفى سنة ١٦١٦ م) (١٢٤) .

★ ★ ★

أما علم المثلثات فقد تحول علماً مستقلاً على أيدي علماء بغداد ، ويعتبره الكثير علماء عربياً . يقول طوقان : لولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن . فائهم يرجع الفضل الأكبر في وضعه بشكل علمي منظم مستقل عن الفلك وفي الإضافات الأساسية الهامة التي جعلت الكثيرين يعبرونه علماً عربياً كما اعتبروا الهندسة علماً يونانياً ومما يزيدنا اعتقاداً بهذا كله ، اعتراف كاجوري بأن هناك أموراً كثيرة ، وبحوثاً عديدة في علم المثلثات كانت منسوبة إلى ريجيو مونتانيوس ، ثبت أنها من وضع المسلمين والعرب ، وأنهم سبقوه إليها ، وكذلك وجد غير كاجوري (أمثال سمث ، وسارطون ، وسيديو ، وسوتر) ممن اعترفوا بأن بعضاً من النظريات والبحوث نسبت في أول الأمر إلى ريجيو مونتانيوس وغيره ، ثم ظهر بعد البحث والاستقصاء خلاف ذلك (١٢٥) .

إن العرب هم أول من استعمل مبدأ الجيب والمماس ، والظل تمام ، وتطور علم المثلثات نوعياً بإبتداع الجيب ، والجيب تمام ، والظل . وقد « اعتبر العالم الفرنسي شاسل استعمال العرب للمماس انقلاباً هائلاً في العلوم ، إذ سهل حل الكثير من المسائل الرياضية . وقام علماء الغرب بنشر أول كتاب علمي في المثلثات سنة ١٤٦٤ ميلادية ونقلوا أكثر ما جاء فيه عن تأليف عربي ، إلا أنهم لم يذكروا فيه شيئاً عن استعمال المماس ، بينما استعمل العرب المماس قبل ذلك بخمسة أجيال » (١٢٦) .

لقد كان علماء بغداد أبرز العلماء العرب الذين عملوا على تحويل علم المثلثات علماً مستقلاً ، وكان البتاني (أبو عبدالله محمد بن جابر بن سنان) في المقدمة . فقد أدخل الجيب ، كما أدخل الظل والظل تمام ، وابتكر الجداول الرياضية لنظير المماس ، وأليه تنسب معادلات المثلثات الكروية الأساسية . « ويعتبر أحد مؤسسي المثلثات الحديثة باكتشافه غالبية النسب المثلثية الأساسية كما تستخدم في الوقت الحاضر . ومن أهم مؤلفاته في هذا المضمار رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات » (١٢٧) .

أما البوزجاني (أبو الوفاء) عالم بغداد البارز فباسمه يقتصرن تطور حساب المثلثات ، وكذلك القول عن أبي اسحق ابراهيم الصابي (ابن زهرون) : الذي نشأ في بغداد ودرس فيها ، ومن مصنفاته (كتاب في المثلثات) وله عدة رسائل في أجوبة مخاطبات لأهل العلم بهذا النوع « (١٢٨) وجاء نصير الدين الطوسي (المتوفى ١٢٧٤ م) بابتكارات

أصله من علم المثلثات ، وحسبه أنه ألف رسالته في الشكل الرباعي (الشكل القطاع) . ويقول الأستاذ حكمت نجيب فيه ، مستندا إلى بحوث خوقان وإلى دراسته المدققة هو ، أن علم المثلثات المستوي والكروي أصبح علما واسع الدعائم بفضل الطوسي ، أساسا ، « فقد عرف الطوسي قانون الجيب في المثلثات المستوية وشرحه . أما في المثلثات الكروية ، فقد عرف وشرح المعادلات الست الخاصة بالمثلث القائم الزاوية ، وبحث جميع الحالات الخاصة بالمثلث الحاد الزاوية ، واستنتج من ذلك العلاقة بين زوايا المثلث وأضلاعه ، وبذلك يكون الكتاب (الشكل القطاع) أول كتاب يفصل المثلثات عن الفلك وأصبح له الأثر الكبير في جعل علم المثلثات علما مستقلا . وترجم هذا الكتاب إلى اللغات اللاتينية والفرنسية والانكليزية ، وبقي قرونا عديدة مصدرا لعلماء أوروبا في المثلثات الكروية والمستوية » (١٢٩) .

وكان لمدرسة بغداد الرياضية في المثلثات تلامذتها ومطوروها في شتى أصقاع الدولة العربية الإسلامية ، فقد كان ثمة جابر بن افطح ، وابن يونس المصري الذي أسهم في تقريب الطريق إلى اكتشاف اللوغاريتمات ، وأبو علي المراكشي صاحب كتاب (جامع المبادئ والغايات في علم الميقات) ، وأولوع بك السمرقندي المتوفى (في ١٤٣٧ ميلادية) .

★ ★ ★

وحسبنا بعد هذا أن نستشهد ، في معرض فدلحة الاستنتاج اللازم من إنجازات مدرسة بغداد العلمية وتلامذتها ومطورها في انرياضيات ، أن نستشهد بالمستشرق الألمانية زيفريدهونكه ، التي تبدو ، في كل الأحوال ، أكثر موضوعية بكثير من غيرها . تقول هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، أثر الحضارة العربية في أوروبا : «

« والعقل العربي الدقيق في تفكيره ، السريع في استيعابه للمسائل التي يغلب عليها الجفاف والخشونة ، كان أول من القى على القصائد وضوحا ناصعا في وضوح الماس . وكان الخوارزمي ، كذلك ، أول من طور فن الحساب ، وجعل منه فنا صالحا للاستعمال اليومي العملي ومنفدا بقية العلوم ، بعد أن وسع فيه ونظمه تنظيما دقيقا . وهكذا أصبح فن الحساب هذا ، بالإضافة إلى ما زاد عليه العلماء العرب وعلماء الفرس ،

خاصة في القرون التي تلت ، تركيزة الأساسية لفن الحساب في بلاد الغرب . ولا ننسى علم الجبر الذي يعود الفضل إلى العرب ، وفي طلبعتهم الخوارزمي ، في وضعه وسكبه بقلب ترتيبه نظامي ، وجعله علما بكل ما في هذه الكلمة من معنى إن أسلوب الرياضيات الذي عرفه الغرب عن طريق العرب ، كان في حقيقة أمره ، فتحا مبيئا جديدا . ذلك لأن التري الهندسي الذي كسا الاغريق الرياضيات به هذا العلم قرحه العرب وعوضوا عنه بأخر جبري حسابي إن علم الجبر لا يزال حتى هذا اليوم يحتفظ بطابع عربي وكما فعل العرب كل هذا ، كذلك فانهم يعتبرون المؤسسين الحقيقيين لعلم المثلثات ، وهذا لعمرى ، ميدان لم يخضه الاغريق البتة ولم يعرفوا عنه شيئا وبهذا يكون العرب قد خلقوا ميدانا نسبيا من العلوم ، كان من قبلهم مجهولا ، صارت له أهمية كبرى في علم الفلك ، والأبحار ، ومسح الأراضي إن أرقام العرب والآلهم التي بلغوا بها حدا قريبا من الكمال ، وحسابهم وجبرهم وعلمهم في المثلثات الدائرية ، وبصرياتهم الدقيقة ، كل ذلك أفضال عربية على الغرب ارتقت بأوروبا إلى مكانة ، مكتنتها عن طريق اختراعاتها واكتشافاتها الخاصة من أن تنزع العالم في ميادين العلوم الطبيعية منذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه » (١٣٠) .

إن هونكه على مطلق الحق ، فان عقلية العرب كما تبرزها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي وتلامذتها فيما بعد (عقلية رياضية ، تعتبر الرياضيات وكنا أساسيا في كل العلوم (بما فيها علم الفلسفة) ، وحسبنا الإشارة إلى الكندي والرازي وجابر والخوارزمي وابن سينا وابن الهيثم وغيرهم .

- V -

لقد أنجزت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي إنجازها الهائل أيضا في حقل علوم الطب والصيدلة والكيمياء والأحياء . ولقد عرضنا ، شيئا ، لإنجازات هذه المدرسة في الكيمياء والتجارب الكيميائية ، حين تحدثنا عن منهجية وتقاليده مدرسة بغداد العلمية .

ونود الآن ان نعرض ، ولو بشكل سريع
ومركز ، لانجازات بغداد وتلامذتها في حقل الطب
والصيدلة .

لقد نقل طوقان إلينا في كتابه « العلوم عند
العرب » ، مقولة للدكتور سارطون ، تقول : « ..
ان بعض الغربيين الذين يجربون ان يستخفوا بما
أسداه الشرق الى العمران يصرحون بان العرب
والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها
شيئا .. هذا الرأي خطأ .. لو لم تنقل إلينا كنوز
الحكمة اليونانية ، ولولا إضافات العرب الهامة ،
لتوقف سير المدنية بضعة قرون » (١٤١) . كما نقل
إلينا مقولة وليم أوسلر التي تقول - « ان العرب
اشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية ، وبلغت
مهنة الطب عندهم أثناء القرن الثامن الى الحادي
عشر للميلاد من المكانة والأهمية مالا تكاد نجد له
مثيلا في التاريخ » (١٤٢) .

وواضح من هاتين المقولتين المكانة التي بلغها
الطب العربي - الاسلامي عموماً (بما فيه الطب
العراقي) ، والدور العالي الذي لعبه في تطوير
المعرفة الطبية . ان القارئ يستطيع الاستزادة من
كتابين غاية في الاهمية هما « الطب العربي - لامين
شكر الله » (١٩٤٦) ، و « تاريخ الطب العراقي
- لعبد الحميد العلوجي » (١٩٦٧) . وثمة كتب
اخرى تضيف الكثير الى هذين الكتابين ، رغم انها
تستند ، في معطياتها الاساسية ، اليهما .

نقد افردت المستشرقة الالمانية زيفريد هونكه
الكتاب الرابع في موسوعتها « شمس العرب تسطع
على الغرب » لبحث الطب العربي - الاسلامي ،
تحت عنوان « الأيدي الشافية » . ومن الصعب ،
حقاً ، الاتيان على كل ما جاءت به هذه الباحثة
الاوروبية الموضوعية المعاصرة بحق إنجازات طبنا
العربي - الاسلامي ، ومدرسته البغدادية ،
بخاصة . غير اننا سنشير الى بعض المقولات التي
جاءت بها ، لانها ذات صلة وثيقة جداً بالموضوع .

لقد اختارت الرازي ، شيخ اطباء العرب
دون منازع ، وقطب المدرسة البغدادية الطبية
العلمية ، فقالت ، فيما قالت :

- « قبل ٦٠٠ عام كان لكلية الطب الباريسية
اصفر مكتبة في العالم ، لاتحتوي إلا على
مؤلف واحد ، وهذا المؤلف كان لعربي كبير .
وكان هذا الأثر العظيم ذا قيمة كبيرة ، بدليل
ان ملك المسيحية الشهير ، لويس الحادي
عشر ، اضطر الى دفع اثني عشر ماركا من

الفضة ومئة تالر من انذهب الخائن لقاء
استعارته هذا الكنز الغالي ، رغبة منه في
ان ينسخ له أطباؤه نسخة ، يرجعون إليها
إذا ما هدد مرض أو داء صحتهم وصحة
عائلته . وكان هذا الأثر العلمي الضخم يضم
كل المعارف الطبية منذ ايام الأغريق حتى
عام ٩٢٥ بعد الميلاد . وظل المرجع الاساس
في أوروبا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك
التاريخ ، دون ان يزاحمه مزاحم أو يؤثر
فيه أو في مكانته مخطوطة من المخطوطات
الهزيلة التي دأب في صياغتها كهنة الاديرة
قاطبة ، وهو العمل الجبار الذي خطته يد
عربي قدير . ولقد اعترف الباريسيون بقيمة
هذا الكنز العظيم وبفضل صاحبه عليهم
وعلى الطب إجمالاً . فاقاموا له نصباً في
باحة القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم ،
وعلقوا صورته وصورة عربي آخر في قاعة
اخرى كبيرة تقع في شارع سان جرمان ،
حتى اذا ما تجمع فيه اليوم طلاب الطب
وقعت ابصارهم عليها ورجعوا بذاكرتهم
للوراء يسترجعون تاريخه ... فمن هو ؟
إنه الرازي ، أو رازاس (Rhases) كما
سمته بلاد الغرب ، وأما اسمه الحقيقي فهو
أبو بكر محمد بن زكريا . ولد في مدينة الري
في خراسان ... كان اعتيادياً كالبقية دون
ان تبرق بارقة تنبئ بشوغيه الفد ، واهتم
كغيره بالدراسات الفلسفية واللغوية
والرياضية . ثم تعاطى الموسيقى فبرع فيها
نوعاً ما ، وأصاب شهرة محلية كمفمن
وعازف ، وظل على هذه الحالة حتى الثلاثين
من عمره ، ثم ضاق ذرعاً بهذا الفراغ الدائم
وبهذه الرتابة ، فعزم على تغيير حياته
جذرياً ، فأدار ظهره لمدينته الأم وانطلق
سعياً وراء تحقيق آماله وطموحه الى
أين ؟ ... الى مدينة الشفاء ومدينة السلام ،
الى بغداد عاصمة الدنيا قاطبة وكعبة كل ذي
قلب كبير يبغي الرفعة والسمو ! (١٤٣) .

وتستطرد هونكه في الحديث عن طبيب بغداد
الاشهر ، ومعلمها الطبي الأكبر ، معرجة على بعض
إنجازات واسانيد الطب العربي - الاسلامي في
بغداد ، قبل الرازي :

- « وبكل قواه وتصميمه الأكيد اندفع في
دراسة الطب فتعلم على يد تلميذ من تلامذة
حنين بن اسحق ، رئيس مترجمي ابن موسى

وكثير من الخلفاء ، ونعلم فن العلاج الاغريقي والفارسي والهندي والعربي الحديث العهد ، ومب منه عبا ، حتى إذا ما ارتوى قفل راجعا الى بلدته الأم ليعمل كمدير لمستشفى هناك ، ولكن ليس لمدة طويلة ، اذ ما لبث ان سعى الى الحصول على منصب رئيس الطبابة في المستشفى الكبير في العاصمة ، وفاز بمطلبه من بين الكثير من منافسيه وبهذا تفتحت امامه ابواب قصور الخليفة ليعمل فيها كطبيب خاص . ولم يمض وقت طويل حتى ذاعت شهرته في طول البلاد وعرضها ، فزحف طلاب العلم من كل اطراف الامبراطورية رغبة في تلقي المعرفة على ايدي الرازي العظيم وتعلم فنون المعالجة واكتشف ، والمعاينة الطبية كلما سار بين مرضاه في مستشفاه الكبير . فكان ان ازدحمت قاعات التدريس « بالاطباء وتلاميذهم وتلامذة غيرهم » ، وكان هذا حدثا جديدا . واصبح الرازي حجة في علم الطب وأي حجة ، ومرجعا اخيرا لكل الحالات المستعصية ومعينا لا يعرف الخطأ ، ويسمى وراءه الجميع من كل حدب وصوب « (١٤٤) » .

لنعتقد انه ثمة حديث افضل موضوعية ، وتدقيقا ، من حديث عالم أوربي بارز معاصر في فضل الثقافة العربية على الثقافة العالمية كهذا الحديث (ناهيك عن طلاوته ، وعناصر التشويق العلمي والروائي فيه) ،

تقد اكدت هونكه ، فيما بعد ، مثلما اكد كثير من المفكرين والباحثين العالميين من فرديناند ، ووستنفلد ، وكارادي فو ، وكارل بروكلمان ، وماكس مايرهوف ، ورونالد كامبل ، وغاريسون ، وادوارد براون ، وباكون الى غريغوريان ، وبارتولد ، ورمضانوف ، وشاه محمديف وغيرهم ، اكدت أصالة علم الرازي ، كبير اطباء بغداد ، وابتكاراته الفذة . فباسم الرازي تقتزن مقلدات الطب النفسي - الجسمي ، والطب الشعبي (طب الفقراء ، أو كما سماه الرازي نفسه في كتابه : « كتاب من لا يحضره الطبيب » ، وباسم الرازي تقتزن حرية الفكر وتمجيد العقل ، فهو القائل (ويسمح لنا القاريء في تكرار مقولته العظيمة) : « ... فبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا ، ويحسن ويطيب به عيشنا ، ونصل الى بفتنا ومرادنا ... وبه لنا الطب الذي

فيه الكثير من مصالح أجسادنا وسائر الصناعات انعائدة علينا النافعة لنا . وبه أدركنا الأمور الغامضة البعيدة منا والخفية المستورة عنا ... وبه عرفنا شكل الأرض والفلك وعظم الشمس والقمر وسائر الكواكب وابعادها وحركاتها ... واذا كان هذا مقداره ومحلّه وخطره وجلاله فحقيق علينا ان نحطه عن رتبته ، ولا ننزله عن درجته ، ولا نجعله وهو الحاكم محكوما عليه ، ولا وهو الزمام مزموما ، ولا وهو المتبوع تابعا ، بل نرجع في الأمور اليه ونعتبرها به ونعتمد بها عليه ... فنمضيها على إضاءته ، ونوقفها على إيفائه . ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته ومكده والحادد به عن سننه ومحجته ... بل نروضه ونذله ونحمله ونجبره على الوقوف عند أمره ونهيه . فانا إذا فعلنا ذلك صفا لنا غاية صفائه ، وإضاء لنا غاية إضاءته ، وبلغ بنا نهاية قصد بلوغنا به « (١٤٥) » .

وبالفعل ، فقد إضاء العقل للرازي غاية إضاءته ، فقرن النظر بالتطبيق ، ووضع لنفسه منهجية علمية صارمة ، ووضع كثيرا من أجهزته وأدريته بنفسه (أو أشار الى صنمها) ، ولاحم الكيمياء والصيدلة بالطب ، حتى قال فيه بعض الباحثين « ان الرازي مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب معا » ، وهو في الحقيقة المعلم الثاني في الكيمياء بعد جابر بن حيان ، والمعلم الأول في الطب العربي ، أو أبو الطب العربي بحق وحقيق . و « أحد أعظم أطباء الإنسانية اطلاقا » على ما تقول هونكه .

إن عالم بغداد الكبير ، خريج ونتاج ومطور مدرسة بغداد العلمية ، الرازي ، قد بهر الجميع ، في الشرق والغرب ، بكتابه (الحاوي في الطب) ، مثلما بهرهم بكتابه (المنصوري) ، « الذي يحتوي على وصف دقيق لتشريح أعضاء الجسم كلها ، وهو أول كتاب عربي وصل اليها في هذا البحث . ترجم الى اللاتينية وكانت له أهميته في أوروبا ، وبقي معمولا به عند الأطباء وفي الجامعات حتى القرن السابع عشر للميلاد » (١٤٦) . وللرازي كتاب الاسرار في الكيمياء ترجمه كريمونا في أواخر القرن الثاني عشر للميلاد ، وكان الكتاب المعول عليه والمعتمد في مدارس أوروبا مدة طويلة . وقد رجع اليه باكون واستشهد بمحتوياته . وكذلك للرازي كتاب نقيس في الحصبة والجذري ، وهو من روائع الطب الاسلامي عرض فيه للمرة الأولى تفاصيل هذه الأمراض واعراضها وانتفرقة بينها ،

وقد أدخل فيه ملاحظات وآراء لم يسبق إليها .
وقد ترجمه الأوربيون إلى اللاتينية وغيرها من
اللغات « (١٤٧) » .

ومن مآثر الرازي قوله بالعدوى ، وبموامل
البيئة المادية في المرض ، وبتجربة العقاقير على
الحيوانات قبل تجربتها على الإنسان (وكان يجربها
على القروء ، بصفة خاصة ، باعتبارها الأقرب إلى
الإنسان) ، وبوجوب استئصال الخرافة والشعوذة
في الطب والمعالجة الطبية ، وبضرورة التدقيق في
الصناعة الطبية واحترام خصوصيتها وقوانينها
تفكيراً وتطبيقاً . نقول هونكه : « كان الرازي
خبيباً عن اقتناع داخلي ، وكان له اقتناع تام
بقدمية مهنته وبرسالته في المجتمع . وشعر
بمسؤولياته تجاه طبقة الأطباء ، ورأى في الشعوذة
وتجار الطب مضار وتدنيًا للرسالة المقدسة ،
فحمل عليهم حملة شعواء كشفت النقاب عن
وجوههم أمام الجماهير ، وانسطر المسؤولون فيما
بعد . كنتيجة لهذه الحملات : أن ازدادوا صرامة
في تعليم النشء الجديد . ثم أدخلت الامتحانات
وإعطاء الإجازات بعد ست سنوات من موته » (١٤٨) .

ومن مآثر الرازي الطبية العلمية ، إلى ما
تقدم كله ، قوله بوجوب إيلاء الاهتمام إلى المراقبة
السريرية ، وبالمعالجة بالأغذية دون الأدوية إن أمكن
ذلك فقد قال : « أن استطاع الحكيم أن يعالج
بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة » (١٤٩) .

وتنسب للرازي كتب أخرى (إضافة إلى ما
ذكرنا : الحاوي ، والمنصوري ، ورسالة في الجدري
والحصبة ، والأسرار وكتاب (إلى من لا يحضره
طبيب)) ، هي : سر الأسرار (الذي ضمنه منهجه
الطبي والعلمي ، و (الكتاب الفاخر) ، وكتاب
(برء الساعة) ، وكتاب الجامع أو « حاضر
صناعة الطب » بل أن ابن أبي أصيبعة ذكر له في
كتابه (طبقات الأطباء) : (٢٣٢) مؤلفاً ، فقد
أكثرها .

يقول الدكتور أمين أسعد خير الله ، في كتابه
« الطب العربي » (الموضوع بالانكليزية ، والمغرب
بقلم الدكتور مصطفى أبو عز الدين ، والمنشور في
بيروت ، عام ١٩٤٦) ، يقول في وصف الرازي :
« أنه كان شغوفاً بالقراءة والمطالعة والكتابة وهمه
الأكبر في الحياة أن يطالع كل الكتب الطبية ، وأنه
اشتهر بدقة الملاحظة ، وهو الذي اختاره عضد
الدولة لبناء المستشفى العضدي في بغداد (فقد
اختار المكان الذي تأخر فيه تعفن اللحم عن غيره)
« وانتخب من بين مئة طبيب لرئاسة ذلك

المستشفى ، وكان بعد فحصه مرضاه ومراقبتهم
يدون الأعراض وسير المرض والعلاج الذي
استعمل . وكانت هذه القيودات أساس كتابه
« الحاوي » . . . (كما) كان الرازي محباً لتلامذته
ومرضاه وخصوصاً الفقراء منهم الذين لا يكتفي
بمعالجهم بل يسميهم بالمال أيضاً » (١٥٠) .

إن قطب مدرسة بغداد الطبية وفيلسوفها
وكيميائها التطبيقي الأكبر والأشهر ، الرازي ،
قد حاز بجدارة ، شهرة علمية عالمية ، وصيًّا
منظرياً . سواء كان ذلك في عصره ، أم في عصرنا
بعد ألف عام ونيف . وها هي البروفسورة
الدكتورة هونكه تختتم فصلها الخاص بطبيب بغداد
الأكبر ، هكذا :

- « في شخصية الرازي الطبيب تتجسد ، كما
في المرأة ، كل ما أمتاز به الطب العربي وما
حققه من فتوحات علمية باهرة . فهو
الطبيب الذي عرف واجبه حق المعرفة ،
وقدس رسالته كل التقديس ، فملات عليه
نفسه وجوانب قلبه وهو ينقذ المعوزين
ويساعد الفقراء ! وهو الموسوعي الشمولي
الذي استوعب كل معارف سالفه في الطب
ومضمها وقدمها للإنسانية أحسن تقديم !
وهو الطبيب العملي الذي يعطي للمراقبة
السريرية أهميتها وحققها ! وهو المراقب
المفكر والبحث الكيميائي المستقل والمجرب
الناجح ! وهو أخيراً المنهجي في عمله الذي
أضفى على الطب في عصره نظاماً زائماً
ووضوحاً يثير الإعجاب . » (١٥١) .

وبالفعل ، فإن العالم الأكاديمي والطبي ، في
كل أنحاء العالم ، وجد في الرازي عملاقاً لا يطاق ،
فخلده في الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ،
على حد سواء ، وفي العديد من أقطار العالم ،
بالتماثيل ، والنصب ، والأجنحة ، والمدارس
والجوائز باسمه .

لقد فصلنا ، بعض الشيء ، في الرازي
وعقليته ومنهجيته وطببه النظري والتطبيقي
وشخصيته العلمية ، ضاربين به المثل لأقطاب
مدرسة بغداد الطبية العلمية .

ولم يمتش الرازي في معزل عن سواء ، كما لم
تكن بیمارستانات (المستشفيات) البغدادية
وسواها من بیمارستانات الدولة العربية -
الإسلامية في العصر العباسي الكبير تزدهر بالرازي
وحده ، فقد كان ، إلى الرازي ومعه وقبله ،
أساتذته ، وتلامذته ، ومعاصروه ، وأخلافه .

وكان المرجع الرئيس لعلم التشريح في سائر
إيطاليا (١٥٦) .

أما ابن سينا الذي تمجد به بغداد، وإيران،
وتركيا، وآسيا الوسطى (بخارى أوزبكستان
السوفيتية وغيرها) . فهو أسطع نجم في الطب
العربي بعد الرازي . ويقدمه البعض عليه ، والحق
أن العصر الذي جاء فيه ابن سينا لابد أن يكون
متقدماً في معطياته العلمية والطبية عن عصر الرازي
الرائد ، إضافة إلى خصوصيات شخصية وإبداع
ابن سينا الفد . كان ابن سينا : تلميذ ومطور
المدرسة البغدادية في الطب ، والصيدلة والكيمياء
الطبية ، عالماً عبقرياً ، موسوعياً . وقد اشهر
بكتابه (القانون في الطب) . الذي ترجم الى اللغة
اللاتينية واللغات الأوروبية عديدة من المرات ،
وبالنظر لأهميته العلمية كان الكتاب المدرسي في
الطب في جامعتي مونبليه ووفان في أواسط القرن
السابع عشر (١٥٧) . ابتدا ابن سينا كتابه
(القانون) بالتشريح ، فعلم وظائف الأعضاء ، فعلم
طبائع الأمراض ، فعلم العلاج . ولابن سينا كتاب
آخر هو (الأدوية القلبية) ، كما له عدد من
الأراجيز الطبية .

ان من مآثر ابن سينا ، مطور مدرسة بغداد
الطبية وقطبها الثاني بعد الرازي ، هي دقته في
تشخيص ووصف التهاب السحايا ، واكتشافه
(الدودة المسنديرة) - الانكلستوما - قبل أن
تعرف أوروبا ذلك بتسمماته عام ١ وقد اعترفت
مؤسسة روكفلر أن ابن سينا عرف مصدر هذا
المرض قبل أن يعرفه الطبيب الإيطالي الذي نسب
اليه هذا المرض (١٥٨) ، ومن مآثره ، الى ذلك ،
اكتشافه ووصفه عضلات العين الداخلية .
والأمراض التي تنقلها مياه الشرب ، واستخدامه
العلاج النفسي في التطبيب .

ومن تلامذة مدرسة بغداد الطبية أيضاً أمين
الدولة بن التلميد (أبو الحسن هبة الله بن أبي
انعلاء صاعد : المتوفى عام ١١٦٤م) ، وكان رئيساً
للبیمارستان العضدي ، واشتهر بشروحه للكتب
الطبية اليونانية والعربية .

وبرز في مختلف الأمصار الإسلامية أطباء
اختصاصيون ، ومؤرخون طبيون أفادوا ، كثيراً ،
من مدرسة بغداد الطبية الرائدة وإنجازاتها
الفخمة . ومن هؤلاء عمار بن علي الموصلی ، الذي
اشتهر بكتابه « المنتخب في علاج أمراض العين » ،
ويعتبر « من أعظم أطباء العيون في عالم
العرب ومن أكثرهم ابتكاراً وإمالة » (١٥٩) ،

فقد استندم المنصور ، مؤسس بغداد عام
(١١٤٥ هـ / ٧٦٥ م) جورجيس بن بختيشوع
النسطوري من جنديسابور ، ليطلبه ، وكلفه
بتدريب العديد من الكتب الطبية . واشتغل ابنه
بختيشوع وجبريل بتطبيب المهدي والهادي
والرشيد . وجعل الرشيد جبريل طبيبه الخاص
ورئيساً للأطباء ، واشتهر بمؤلفه (الروضة
الطبية) . (١٥٢)

والى جانب آل بختيشوع ، برز في الطب
يوحنا بن ماسويه الذي اشتهر بالترجمة ، وبأليف
العديد من المؤلفات الطبية (كتاب البرهان ،
وكتاب البصرة ، وكتاب الكمال والتمام ، وكتاب
في الحميات ، وكتاب في الأدوية ، وكتاب في
الجذام ، وكتاب في الأغذية) . وكان حنين بن
اسحق أحد تلاميذه . كما اشتغل بالطب ثابت بن
فره ، الذي ذكرناه غير مرة في غير موضع لموسوعيته
وتعدد اهتماماته ، وقسطا بن لوقا (١٥٢) .

واشتهر في الطب البغدادي ، تنظيراً وتطبيقاً ،
الطبري « استاذ أبي بكر الرازي » ، واشتهرت
كتبه : مثل كتاب تحفة الملوك ، وكتاب منافع
الأطعمة والأشربة والعقاقير ، وكتاب ترتيب
الأغذية . وقد ذكر علي بن سهل الطبري -
(المتوفى بعد ٨٥٠ م) في كتابه « فردوس الحكمة » .
وهو أشهر كتبه ، أن مصادره وشيوخه هم
: إبقراط ، أرسطو ، جالينوس ، يوحنا بن
ماسويه . حنين بن اسحق . وقد ثار الطبري
على المختصرات : فالف كتاباً جامعاً « ليكون زمناً
لياً وإماماً محيطاً » (١٥٤) .

أما تلامذة مدرسة الطب البغدادية فلم
أشهرهم ابن سينا ، ولكن علياً بن عباس سبقة
زمنياً . وقد ألف علي بن عباس : طبيب القرن
العاشر الميلادي ، كتابه « الملكي » (كامل الصناعة)
وقد انتقد فيه أسلافه من أطباء اليونان ، ونصح
معاصريه بملاحظة للنظر بالعمل والأفادة من
الملاحظة السريرية ، وقال في ذلك : « ومما ينبغي
لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات
ومواقع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم
مع الاستاذين الحذاق من الأطباء ، كثير التفقد
لأحوالهم والأمراض الظاهرة فيهم ، متذكراً لما كان
قد قرأ » (١٥٥) . وقد ترجم هذا الكتاب الى
اللاتينية مرتين عام ١٤٩٢ (بفينيسيا) وعام ١٥٢٣
(بمدينة ليدن) . ويذكر كاربسون أن قسطنطين
الافريقي قام بترجمته بين عامي (١٠٧٠ - ١٠٨٠ م)

في معرفة الادوية سواء كانت من الأصل النباتي أو المعدني أو الحيواني . فهم أول من ألف الاقرباذين وكان يوحنا بن ماسويه السابق في هذا المضمار ثم تبعه سايور بن سهل من مستشفى جنديسابور الذي ألف الاقرباذين الكبير المؤلف من سبعة عشر فصلاً والذي بقي مستعملاً حتى ظهور اقرباذين ابن التلميذ (١١٥) .

وكان ابن التلميذ هذا « عميد اطباء بغداد » ومؤلف الاقرباذين الكبير الذي كان يحتوي على عشرين فصلاً ، والذي بقي كتاب التدريس في البلدان العربية عدة قرون . وقد ألف الاقرباذين الكبير الذي وضع لاستعمال المستشفيات (١١٦) .

وكان لاطباء بغداد فضل اكتشاف ادوية جديدة كثيرة ، منها ، مثلاً لا حصراً ، الكافور ، والسنامكة ، والصندل ، والمسك ، والراوند ، والمر ، والتمر هندي ، والحنظل ، وجوز الطيب ، وخانق الدُّب (اكونيت) ، والقرفة . ومن مآثرهم ، أيضاً ، اكتشاف الاشربة والكحول والمستحلبات وخلصات العطور . وقد اشار مارتن ليفي ، العالم الأمريكي المعاصر ، الى فضل علماء بغداد الكبير في صنع العطور الطبية وغيرها ، وفي الاستخلاص والتقطير ، وابرز دور الكندي وكتابه في التصعيدات وكيمياء العطور ، كما اشار الى الرازي ، واثني على المدرسة الطبية - الكيميائية - الصيدلانية العربية ، وابرز دور رجالها في العلوم الطبية العالمية (١١٧) .

ولم يكن مارتن ليفي الوحيد في ذلك ، فقد انضم اليه وسبقه علماء اوريون وأمريكيون ، واشتراكيون عديدون . (١١٨)

ويؤكد الدكتور امين اسعد خير الله ان ابن سينا توصل الى تغليف الحبوب الموصوفة للمرضى ، وان اطباء العرب استنبطوا الترياق « المؤلف من عشرات بل مئات الادوية » ، وحسنوا تركيب الافيون والزئبق وتوسعوا في استعمالها ، وهم أول من استعمل الحشيش والافيون والزوان للتخدير (١١٩) .

واهتم الكيميائيون البغداديون والعرب عموماً . بتحضير العقاقير ، وكانت طرقهم في ذلك علمية متقدمة ، بل رائدة لعصرها ومصور كثيرة ثلتها ، ومن طرقهم أو (تدابيرهم) : التكبس ، والتشميع ، والتحليل (تحليل ماء الاملاح ، وتحليل الزئبق الحي وغيره) ، والتصميد ، والتقطير ، والتنقية ، والاستزال . وبرز الرازي

ومنهم ، أيضاً علي بن عيسى الكحال الذي اشتهر بكتابه (تذكرة الكحالين) وقد توفي سنة ١٠٣٩ م . واكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة في اوربا فترجم الى اللاتينية والعبرية (١٢٠) . اما اعظم مؤرخي الطب العربي فهو ابن ابي اصيبعة (موفق الدين) المتوفى سنة ١٢٦٩ م وكان « من اطباء العرب المعروفين » ترجم في كتاب واحد اطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ حتى يومه ، ألفه لامين الدولة وزير الملك ، الصالح ، وهو احسن كتب التراجم ، لا يضاهيه كتاب الا كتاب اخبار الحكماء لابن القفطي . فقد قضى سنين طويلة مدققاً ومحققاً حتى تمكن من تأليفه واسماء اطباء عيون الانباء في الاطباء (١٢١) .

وبرز ايضاً خلف بن عباس الزهراوي ، اعظم الجراحين العرب ، واشتهر بكتابه (التصريف) الذي ضم اقساماً في الطب والصيدلة والجراحة ، واستمر اكثر من خمسة قرون ، العمدة في الامور الجراحية في اوربا ، وترجم الى اللاتينية مرات عديدة . (١٢٢)

اما ابن النفيس الدمشقي ، عالم القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد كان اماماً في الطب ، اشتهر (بكتابه الشامل في الطب) ، وهو أول من وصف الدورة الدموية الصغرى قبل ان يكتشفها العالم الانكليزي وليم هارفي في القرن السابع عشر .

★ ★ ★

ولعل من اهم ابتكارات مدرسة بغداد العلمية في الصيدلة والكيمياء الطبية ، هي إفادتها من الاعشاب الطبية ، وكان الرازي يقول : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات الارض فعليك بالاشهر مما اجمع عليه . (١٢٣)

وقد وظفت مدرسة بغداد الطبية معارفها الكيميائية في خدمة الطب ، واشتهر في ذلك الرازي وابن سينا . وعلى العموم فان الكيمياء ، كما سبق ان تطرقنا الى ذلك في مفتتح البحث ، كانت ، وخصوصاً قسمها العملي (التطبيقي) علماً عربياً . « وقد عاشت تعاليم العرب في الكيمياء حتى القرن الثامن عشر » (١٢٤) .

ويؤكد الدكتور امين اسعد خير الله ، صاحب كتاب « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » (الذي سبق ان اشرنا اليه) ، يؤكد ان العرب كانوا رواد علم الصيدلة ومؤسسيه ، « وكل صيدلية او مخزن عقاقير في زمننا هذا يشير الى عبقريتهم فقد برعوا

في ذلك فهو أول من أدخل المستحضرات الكيميائية في الطب لاعتقاده الجازم بأن تأثير الادواء إنما يكون نتيجة « عمليات حيوية تجري بين العقار وخلايا الجسم ، وهذا ما يؤيده العلم الحديث من أن الادوية تتفاعل في جسم الانسان تفاعلات كيميائية وفيزيائية ، مما يؤكد أن الرازي خطأ خطوة كبيرة نحو علم الصيدلة أيضا » (١٧٠) .

ولعل من أبرز مآثر العرب في مدرسة بغداد الطبية - الصيدلانية - الكيميائية ، بخاصة ، ادخالهم « نظام الحسبة ومراقبة الادوية » ، « إذ أن بعض الصيادلة لم يكونوا أمينين ومخلصين في أعمالهم ، فكان قسم منهم لا يكتفي بالتدليس والتفنى ، بل كانوا من الاستهتار بدرجة أنهم يدعون بأن نديهم جميع اصناف الادوية ويمضون لمن طلب منهم أي دواء آخر ... فأمر المأمون بامتحان امانة الصيادلة ، ثم أمر المعتصم أن يمنح الصيدلي الذي ثبتت امانته شهادة تجيز له العمل ، ثم أدخلت الصيدلة تحت مراقبة الحسبة . وانتقل نظام الحسبة الى أوروبا ، ولا تزال كلمة « محتسب » تستعمل في اللغة الاسبانية بلفظها العربي حتى الوقت الحاضر » (١٧١) .

وفيدنا الدكتور امين اسعد خير الله ، أنه منذ زمن المأمون كان الصيادلة خاضعين للامتحان ، والحصول على إجازة الممارسة ، وكانت صيدلياتهم خاضعة للتفتيش النظم ، وكان يوجد في كل مدينة كبيرة عييد للصيادلة الذين كانوا يدعون « طارين » (١٧٢) .

★ ★ ★

يبد أن عبقرية مدرسة بغداد الطبية - العلاجية ، لم تقتصر على التفوق والريادة العالمية في الطب النظري والتطبيقي ، والصيدلة ، والكيمياء الطبية ، بل تجاوزتها الى السبق في فن العلاج والتطبيب أو ما يسمى الاشفاء في البيمارستانات (المستشفيات) ، والصحة العلاجية والوقائية ، والصحة العامة عموماً .

تقول المستشرقة الالمانية البارزة ، زيفرد هونكه ، مقولة ذات دلالة خطيرة حقاً :

« إن كل مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكل صيدلية ومستودع ادوية في ايماننا هذه ، إنما هي في حقيقة الامر نصب تذكارية للعبقرية العربية » (١٧٣) .

ولا تلبث تمل مقولتها هذه بحديث آخر

غاية في الاهمية ، وفي الدلالة العالمية للمستشفيات العربية في بغداد وسواها وعلم الطب والعلاج العربي - الاسلامي في القرون الوسطى ، فتقول (في الفصل الثاني ، من كتاب « الايدي الشافية » ، في موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب » ، وعنوان هذا الفصل وحده دال بذاته « مستشفيات مشالية واطباء لم ير لهم العالم مثيلاً » :

« ... كان ثمة مستشفى عظم الدولة في بغداد بأقسامه الواسعة ، ومستشفى أنثوري في دمشق مع مبانيه المخصصة لكل الفروع ، وجوهرة المستشفيات المستشفى المنصوري بالقاهرة ، وقد اعتبرت كل هذه المستشفيات اشهر المؤسسات الطبية في العالم العربي ... ولم يكن تأسيس المستشفيات وفقاً على الخلفاء والسلاطين أو الرجال الأغنياء ، وإنما دأب أيضاً على تأسيسها الاطباء ، من امثال سنان بن ثابت ، وثابت بن سنان ، ابن ثابت بن قره وحفيده ... كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطب . وكان يتلقى الطلاب فيها علومهم . ويتعلمون كل ما قاله ابقراط وجالينوس وما جاء به اساتذتهم العرب الكبار أنفسهم . وكانوا يستمعون الى كل هذا أيضاً في باحات الجوامع وفي مدارس خاصة طبية كان يديرها اطباء معروفون . هذا وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درساً وحفظاً على ضوء الشموع في قاعات الاديرة كانت التجربة العملية هنا تسير مع العلم جنباً الى جنب ، ونجابه النظريات ، على أسرة المرضى ، حقائق المعاينة واكتشف وحقائق التجارب . فتتجدد الظواهر تفصيلاً علمياً وتنبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً ، بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب حيث كانت النظريات الجافة تملاً عقول رجال الاكليروس وتحول دونهم والاحتكاك بالمخلوقات ذات الدماء الحارة ! » (١٧٤) .

هكذا كانت هي الحال ، إذن ، في الدولة العربية - الاسلامية ، وهكذا كانت (بالمقابل) في أوروبا التي كانت تفت في دياجير القرون الوسطى ! ولعل شهادة المستشرقة الالمانية هونكه هذه ، في غنى عن التعليق .

ابتدات بغداد تقاليدھا العلمية الراسخة في

العلاج والاستشفاء في بيمارستاناتها الشهيرة . وكانت أول البيمارستانات التي بناها العرب ... قد اقيمت على يد الوئيد بن عبد الملك ، إلا أن المنصور والرشد أنشأ هذه البيمارستانات ، على تقاليد علمية ، فقد أنشأ الرشد بيمارستاناً في بغداد سماه باسمه ، وعهد لما سوبه (من أطباء بيمارستان جنديسابور) برئاسة ، كما تولاه جبريل بن بختيشوع أيضاً . وإقام البرامكة في بغداد بيمارستاناً تولاه ابن دهنى (١٧٥) أما البيمارستان الثالث فهو بيمارستان علي بن عيسى (الوزير) - عام ٩١٤ م . والبيمارستان الرابع . هو بيمارستان المقتدر بنىه الوظيفة المقتدر عام ٩١٨ م . وهناك البيمارستان الشهير بالبيمارستان العضدي ، بنىه عضد الدولة عام ٩٨١ م . وثمة بيمارستانات أخرى ، مثل بيمارستان ابن الفرات ، أنشأه ابن الفرات وزير المقتدر ، و « بيمارستان بدر غلمان بنى على طلب سنان بن ثابت » و « بيمارستان السيدة بنىه سنان بن ثابت » (١٧٦) .

وانشرت البيمارستانات ، بعد ذلك ، على طريقة بيمارستانات بغداد (أو حتى بشكل أكثر تطوراً) في سائر أرجاء الامبراطورية الإسلامية . وذلك مثل بيمارستان حران ، وبيمارستان مجاهد الدين في الموصل ، وبيمارستان الرقة ، وبيمارستان ميفارقين ، والبيمارستان النوري في الشام ، وبيمارستان الجندومين في الشام ، والبيمارستان الجديد في حلب ، وبيمارستان القدس (بنىه صلاح الدين) ، وبيمارستان حماه . وبيمارستان مكة ، وبيمارستان المدينة ، وبيمارستانات شمالي افريقيا والاندلس (١٧٧) .

ويؤكد الدكتور أمين أسعد خير الله أن العرب في بغداد كانوا أول من بدأ التدريس في المستشفيات بطريقة علمية ، وأول من أقام العيادات الخارجية ، وأول من اهتم بإدارة المستشفيات وضبط حساباتها ، وأول من أوجب فحص الأطباء قبل الترخيص لهم بمعاونة الطب . كما كانوا أول من الحق بالمستشفيات الصيدليات القانونية . وأكثر من ذلك فإنهم أوجبوا على الإخصائيين أن يقدموا امتحاناً خاصاً ويحصلوا على ترخيص خاص بالفرع الذي تخصصوا به . ويعلق الدكتور خير الله ، في الختام على تقديم الترخيص في التخصصات والفروع ، مذ أنذاك ، أن هذا أمر « لم ندره شأوه حتى يومنا هذا رغم تكرار الطلب والإلحاح » (١٧٨) .

لقد كان المستشفى العضدي في بغداد ، مثلاً ،

مفخرة من مناخر الطب العربي . فقد كان له ساعوره (عميدة) ، كما كان له معاونوه من رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان فيه أربعة وعشرون طبيباً يتوزعون في اختصاصاتهم بين الأمراض الداخلية ، والجراحة ، وأمراض العيون ، والتجبير ، وغيرها . وقد تولى عمادة أطبائه أطباء مشهورون مثل جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع ، وابن التلميذ ، وثابت بن سنان بن ثابت بن قرة ، وأبو بكر الرازي (الذي اختار موقعه) ، وساعد بن بشر ، ونظيف النفيس الرومي ، وأبو الخير بن أبي الفرج الجرجاني . وأبو الحسن بن سنان الصائغ ، وكان ساعوره في البيمارستان ، وله إصابات في الطب ، وتقدمة المعرفة والتوفيق في العلاج عجيبة (١٧٩) .

لقد زار ابن جبير ، الرحالة العربي الكبير ، بغداد ، عام ١١٨٤ ، ووصف المستشفى العضدي بأنه أشبه بالقصر ، يضم عدة أجنحة ، وعدداً كبيراً من الغرف . ويحتوي جيد الفراش ، والوان الراحة ، وفي كل قسم من أقسامه ماء جار من مياه دجلة . وقال في ذلك : « ... وبين الشارع ومحطة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد ، وهو على دجلة ، وتتفقد الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قوائم يتولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق السكن الملوكة ، والماء يدخل إليه من دجلة » (١٨٠) .

وقد تحدث ابن الجوزي في تاريخه المنتظم ، وابن خلكان ، وأبو المظفر في مرآة الزمان ، والعماد الإصفهاني في كتابه « نصرة الفترة » أحاديث مستنبطة عن المستشفى العضدي .

★ ★ ★

ويحدثنا الأستاذ ناجي معروف عن مدرسة انطب المستنصرية (أي - مدرسة الطب في جامعة المستنصرية البغدادية) ، فيقول - كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة تقع بجوار المدرسة المستنصرية أي مقابل باب المدرسة الرئيس . وهي صفة فاخرة تحت الأيوان الذي تكامل سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ ميلادية) ، وقد اتخذت هذه الصفة مكاناً لتدريس الطب ، ومداواة مرضى المستنصرية على اختلافهم . وذكر ابن العبري - أن طبيب المستنصرية كان يتردد إلى مرضاه في بكرة كل يوم بنقدهم . وكان يطلق على

هذا المكان ألبمارستان أو المارستان (أي المستشفى) . وذكر ابن العربي وابن واصل وغيرهما أنه كان في المستنصرية مخزن فيه أنواع الأشربة والأدوية والمغائر . ولا شك في أن هذا المخزن كان بمثابة المذخر الطبي أو الصيدلية فيها ... ومما يحسن ذكره ، في هذا الصدد ، أن بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة الفقه ، ودار السنة ، ودار القرآن الخ كان أمراً ضرورياً وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك الجامعة الواسعة والاستفادة من الامتحانات الأخرى التي امتازت بها المستنصرية كالاستفادة من دار الكتب ، ومن المخزن ، ومن المطبخ الذي كان الطعام يهيا فيه ويوزع على الطلاب وغيرهم . ومما يتصل بمدرسة الطب ما ذكره عبدالرحمن الأربلي بصدد ما كان يدرس بالمستنصرية ، فقد عد حفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان من الأمور التي كانت تحظى بعناية هذه المدرسة وأطبائها . وينبغي أن نذكر أن كثيراً من علماء المستنصرية اشتهروا بالطب والتأليف فيه . فقد كان البرزبي راساً في الطب ... وأليك ما وجدناه من أسماء أطباء هذه المدرسة : ١ - شمس الدين ابن الصباغ ٢ - سنجر الطبيب ٣ - علاء الدين الأربلي ٤ - ابن الكشي الشافعي ... « (١٨١) » .

وانفق معظم باحثي الطب العراقي ، والعربي - الإسلامي ، عموماً وخصوصاً أبرزهم : (الدكتور أمين أسعد خير الله ، وعبد الحميد العلوجي ، والدكتور مصطفى شريف العاني ، ود . أحمد شوكت الشطي ، ود . محمود دياب) وعديد من المستشرقين (بينهم لوبون ، وبراون ، وكارا دونو ، وجاك بيرك ، وآدم متز ، وهونكه ، وغريغوريان ، ونيكولسكي) ، إضافة إلى قدرتي طوقان ، وحكمت نجيب ، وناجي معروف ، وجلال مظهر (ممن بحثوا الطب العربي - الإسلامي ضمن بحوثهم في الحضارة العربية - الإسلامية والعلوم عند العرب) ، يتفق كل هؤلاء ، وعديد سواهم على أن علم الطب عند العرب ، وخصوصاً في مدرسته الأولى الأساس ، المدرسة البغدادية ، لم يتحدد بالنقل والترجمة من الأمم الأخرى ، بل تجاوز ذلك إلى الابتكار ، والتطوير ، فقد تقدم ، نوعياً ، وكمياً ، بشكل استثنائي ، جراء المنهجية العلمية التي اتبعها مدرسة بغداد في العلم والثقافة والبحث العلمي ، على صعيد الملاحظة والتجربة والمتابعة السريرية ، وربط النظر بالعمل والنظرية بالممارسة ، ناهيك عن الابتكارات الأصلية في القول بالمدوى ، وأثر البيئة ، وبالطب النفسي -

الجسمي . والتفاعل الكيميائي لمغائر ، والإضافات في التشريح والجراحة ، وطب العيون ، وطب الأطفال ، والصحة الوقائية ، والصحة العامة .

تقد أدت بمارسنيات بغداد وسواها ، الثابتة والمحمولة (المتنقلة) ، والمستشفيات الحربية ، والمستشفيات المتخصصة (كمستشفيات الجذام ، ومستشفيات المجانين) ، وماوي العميان والإيتام والنساء العاجزات (التي أنشأها المأمون في المدن الكبيرة) ، ومستشفيات السجون . ومحطات الإسعاف (بالقرب من الجوامع) . ومدارس الطب الملتحقة بالمستشفيات . فقد أدت كل هذه المؤسسات الطبية البغدادية وما مثلها في الأمصار العربية والإسلامية دورها في حفظ الصحة العامة ، وفي « تقويم الأبدان » . ونشئة المواطن في الدولة العربية الإسلامية تنشئة صحيحة سليمة يسهم بدوره في العمل والبناء والإنتاج واسع النطاق . في الميادين الحياتية المختلفة .

ومن جملة تقاليد مستشفيات بغداد ونظيراتها في الحواضر العربية والإسلامية تكريس أقصى الاهتمام الرسمي والشعبي للمستشفيات ، وتخصيص الإيرادات الدائمة لها ، وتجهيزها بأحسن الأثاث (حتى لقد قيل أن بعض أثاثها كان بمائل أثاث قصور الخلفاء والأمراء) ، وبالفداء الصحي اللازم (بما فيه لحوم الإبقار والأغنام والطيور) ، والتطبيب المجاني ، والتخصص في قلب والمعالجة (الأبدان ، والعيون ، والأسنان ، والجراحة ، والأمراض العقلية وغيرها) ، والفحص الطبي العدلي (في العصر العباسي : « عند حدوث بعض الوفيات الغامضة أو الإغتيال » (١٨٢)) ، واستحداث أجنحة خاصة للرجال ومثلها للنساء . وإلحاق بعض مدارس الطب بالمستشفيات ، وتواجد صيدليات دائمة في المستشفيات ، إلى جانب العيادات الخارجية ، والمتابعة الدائمة .

وقد أورد الدكتور أمين أسعد خير الله ، في كتابه : « الطب العربي » : (الذي أشرنا إليه غير مرة) ، أن المرضى كانوا يفحصون في مستشفيات بغداد وما مثلها ، أولاً في القاعة الخارجية فمن كان منهم بحالة مرض خفيف يكتب له العلاج ويعصرف من صيدلية المستشفى . أما الذي هو بحاجة إلى المعالجة في المستشفى فكانوا يدخلونه إليه . وبعد قيد أسمائهم يعطون حماماً وثياباً نظيفة وكانت ثيابهم القديمة ترسل إلى المخزن . ويبقى هؤلاء المرضى في المستشفيات حتى الشفاء التام ...

للأمراض من جديد ، فقد ذكر د . خير الله (يؤيده
العديد من المستشرقين والباحثين) :

« في هذا التاريخ كانت المستشفيات في أوروبا
مثل أوكار للأمراض والجراثيم . وهالك ما
قاله ماكس نوردو عن مستشفى « أوتيل
ديو » في باريس الذي كان معاصراً
لمستشفيات العرب ، والذي كان يعد حينئذ
من أحسن المستشفيات في أوروبا ، قال :
« في الفراش الواحد من الحجم المتوسط كان
يرقد أربعة إلى ستة أشخاص الواحد جنب
الآخر وأرجل أحدهم فوق رأس الآخر .
وكان الأطفال يترقدون بجانب الرجال المسنين
والنساء والرجال معاً ... وفي الفراش
الواحد امرأة في دور المخاض وبجانبها طفل
بحالة التشنج ومصاب بالتهيفوس في حالة
الذهيان من ارتفاع الحرارة ومريض بالسل
يسعل سعالاً متواصلاً وبجانب كل هؤلاء
شخص مصاب بمرض جلدي يحك جلده حكاً
شديداً باظفاره الطويلة ... أما الأكل فكان
من أردأ الأصناف وقليل الكمية ويمطى
بأوقات غير منتظمة ... والبنية نفسها تمتع
بالحشرات الدنيئة . وكان هواء قاعات
المرضى فاسداً كريهاً لا يجزأ الخدم أن
يدخلوها إلا إذا سدوا أنوفهم بالقطن المبلول
بالخل ... وكانت جثث الموتى تترك أحياناً
(٢٤) ساعة أو أكثر قبل أن ترفع من فراش
المرضى وكانت تتصاعد منها الروائح الكريهة
ويحوم فوقها الذباب » (١٨٤) .

بل إن الدكتور خير الله يمضي أكثر من ذلك ،
فيستلهم تراث بغداد الطبي العربي من منظور
مقارن معاصر ، ويقول في ختام استنتاجاته ،
مبرراً كل التبرير : « لذلك فالمستشفيات العربية
تعطينا دروساً مفيدة حتى في أيامنا هذه » (١٨٥) .

ولم يكن الدكتور خير الله بالوحيد في
استنتاجاته بخصوص التفوق العربي (البغدادي)
الحاسم للطب العربي في تلك العصور على سواه
من طب أوربي وغيره) ، فإن الباحث الموصل
المعاصر الأستاذ الفقيه حكمت نجيب عبدالرحمن
يستنتج مثل ذلك (في كتابه « دراسات في تاريخ
العلوم عند العرب » منشورات جامعة الموصل ،
١٩٧٧) ، فيقول :

« استمر الطب مزدهراً عند العرب طيلة فترة
القرون الوسطى ، وأصبح فناً وعلماً تخصص

وكانوا عند خروجهم من المستشفى يعطون بدلة من
الثياب ومبلغاً من النقود يكفيهم العوز إلى أن
يصبحوا قادرين على العمل ... وكانت صيدلية
المستشفى في عهدة صيدلي كفاء ... تضاهي في
حسن ترتيبها صيدليات هذا الزمن ... وفي
المستشفيات العمومية كان الساعور (أي عميد
المستشفى) مسؤولاً عن علاج المرضى وبعاونه
رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان الممرضون رجالاً
ونساء يقومون بخدمة المرضى بعناية متصلة . وفي
كل مستشفى كان يوجد أطباء مختصون بالأمراض
الداخلية أو الجراحة أو أمراض العيون ... وكان
يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب فكان
الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى من المستشفى
حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون
المخطوطات الطبية التي راجعها أساتذتهم
وأصلحوها لهم . وكان هؤلاء الأساتذة يلقون عليهم
الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وعلي بن
عباس الجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا الذي
كف الثعالب السابقة له . وكان المساعدون
والطلبة يفحصون المرضى في العيادة الخارجية
ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة
وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً
ويوصف لها العلاج اللازم ... وعدا المحاضرات
التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب
التعليمات اللازمة لكل مريض وتنفذ بدقة وتدون
الملاحظات عن كل مريض متتبع سير المرض . وقد
قبل أن الرازي بنى كتابه « الحاوي » على هذه
الملاحظات . وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية
الجديدة التي كانت تدون معلوماتها في كتاب خاص
تنشر تحت عنوان « التجربات » ... ولم يكن
يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلا بعد الفحص القانوني
... وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية
دقيقة فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي
في بغداد من بين مائة طبيب ... (وكان الأطباء)
يتعاطون ما هو ضمن اختصاصهم فقط وذلك بعد
الامتحان والترخيص الخاص ... أما المشاورة
بين الأطباء فيما يختص بالمرضى فكانت تحدث كلما
دعت الحاجة إليها ... » (١٨٦) .

إن الدكتور خير الله (وهو من أوائل من
كتب عن الطب العربي في بغداد وغيرها ، إن لم يكن
أولهم) يستنتج من كل ذلك ، محققاً ، أنه لا مجال
لمقارنة والحالة هذه بين طب بغداد ، مركز العلم
والثقافة العالمية في عصرها - وبين « الطب »
الأوربي في القرون الوسطى ، وهو شيء أشبه
بالشعوذة والدجل والفوضى إن لم يكن نشراً

المسيحيين الذين تشهد « اوراد القديسين » أن البابا فيليكس الرابع قد خصهم بكنيسة قديمة في « الفوروم » الروماني ، نقول ، اليس بشيراً للخير أن يكون أساتذة هؤلاء الأطباء المسيحيين قد ولدوا عرباً ؟ (١٨٧) .

وبالمثل ، كانت باحثنا الألمانية الكبيرة ، في تمام موضوعيتها العلمية ، حين قررت ، في ختام كتابها « الأيدي الشافية » (أحد كتب موسوعتها « شمس العرب تسطع على الغرب ») ، وبكل ثقة :

« إن كل حبة من حبوب الدواء ، مذهلة أو مسكرة ، إنما هي كذلك ، تذكر صغير ظاهر ، يذكرنا بآتين من أعظم أطباء العرب ومعلمي بلاد العرب » (١٨٨) .

وهي تقصد بذلك الرازي طبيب بغداد الرائد الكبير ، وابن سينا خليفة الرازي ومطور تعاليمه الطبية في بغداد والدولة العربية - الإسلامية .

وإذا كان هذا رمزاً للتأثير العميق النافذ لمدرسة الطب العربية الإسلامية ، ذات المنبع البغدادي ، وإذا كان التأثير العربي قد عاصر في ميدان علم العقاقير في أوروبا فترة ما قبل النهضة ، والنهضة نفسها ، وتعداها حتى وصل إلى القرن التاسع عشر (ففي عام ١٨٣٠ استعملت مصادر عربية في تصنيف الأقرباذين الأوربي) (١٨٩) ، إذا كان هذا قد تم ، بهذا الشكل ، فإن بغداد ، كمركز للعلم والثقافة المالية ، تكون قد بسطت تأثيرها العلمي والعربي ، إذا صح التعبير ، على الحضارة الأوربية في شتى عصورها ، بسفتها منبع وأساس ازدهار العلم العربي والثقافة العربية - الإسلامية التي أضلت بنفوذها أوروبا والعالم كله ، خصوصاً في القرون الوسطى وعصر النهضة أيضاً .

- ٨ -

إن تراث العلم والثقافة في بغداد لا يتحدد بما سبق أن بحثنا لحد الآن (الرياضيات ، والعلوم الفلكية ، والطبية) ، فثمة العلوم الطبيعية ، وثمة الجغرافيا ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية أو الإنسانية ، ولكن إبقاء كل ذلك حقه ، بالتفصيل ، أمر يكاد يكون مستحيلاً ، في مثل هذا الحيز . وحسبنا أننا أشرنا بتفصيل نسبي إلى الأساس والجوهر - نعني بذلك المنهجية العلمية ، وتقاليده البحث العلمي في المدرسة البغدادية ، وهي التي كانت سر نجاح

له المعاهد الدراسية بحيث عرفوا عنه كل شيء قبل اختراع المجهر ... ولقد ذكر فرانك آدمز أن الأطباء العرب الذين أعطوا حياة جديدة للدراسة العلوم الطبيعية في أوروبا وقدموا خدمات جليلة للأوربيين ، ليس فقط عن طريق حفظ أعمال فلاسفة اليونان وعلمائها ، وإنما عن طريق ابتكاراتهم العلمية والتي قدمها علماءهم ، ومن بينهم في الطب والعلوم الطبيعية ابن سينا ، في الوقت الذي لم تكن فيه أوروبا تعرف الطب بالمعنى الحقيقي وكانت متأثرة إلى درجة كبيرة بالتساويل والأحجية والتمائم ، مع الاستسلام لأقوى أنواع الدجل والسحرة بالإضافة إلى التعصب الديني . يورد الأستاذ دواير في كتابه The Intellectual Development in Europe

« بأن الفلاح الأوربي إذا أصابته حادثة وفاجاته الحمى يسرع إلى ضريح قرب قديس انتظارا لبعوث معجزة تشفيه ، وأما العربي الأسباني فكان يعتمد على تعليمات طبية ومشرط وتصميد جراحي » انتقل الطب العربي مبكراً إلى الغرب فأنشأت المدارس الخاصة بالطب في مدن مونبلييه ، ونابلي ، وبيونويا ، وبادوا وأوراليان ، وأوكسفورد ، وكمبريدج وغيرها . وكانت هذه المدارس تستخدم كتب الطب العربية المترجمة إلى اللاتينية ، متخذة إياها أساساً لتدريس الطب » (١٩١) .

ويبدو أن المستشرق الألماني المعاصرة ، هونكه ، على تمام الحق ، حين أكدت تقول : « كان هناك رجل نفى بعظمة الطب العربي وبراعة أساطينه فقال : « لقد برع العرب في علم الشفاء إلى حد اعتقد المرء فيهم أنهم مؤسسوا هذا الفن . وقد كان بإمكانهم أن يدعوا ذلك بسهولة لولا أنهم لم يكتفوا من إيراد الأسماء والكلمات اللاتينية واليونانية ، ولهذا فإن كتب ابن سينا والرازي وابن رشد قد استقبلت بالثقة نفسها التي استقبلت بها كتب أبوقراط وجالينوس ، ونالت ثقة كبيرة ، حتى أن كل من حاول التطبيق بدون الاستناد عليها كان يتهم بسهولة أنه يهدم المصلحة العامة » . هذا الرجل هو أجريافون ناتسهايم ، « الابن الرهيب » بين رجال الثقافة والعلم . اليس بشيراً للخير أن يكون أساتذة الأطباء والمبشرين

العلوم العربية والثقافة العربية - الإسلامية في بغداد ، سواء كانت علوماً رياضية ، أو فلكية ، أو طبية ، أو طبيعية ، أو اجتماعية وإنسانية .

إن هذه المنهجية العلمية التي قامت ، أساساً ، بالروح العلمية والتقاليد العلمية : والأخلاق العلمية أيضاً (تقاليد وأخلاق البحث العلمي) التي طلعت بها بغداد الحضارة العربية - الإسلامية ، هي التي تقف وراء كل نجاحات علماء بغداد والدولة العربية - الإسلامية في مساعيهم وبحوثهم وإنجازاتهم العلمية الجبارة .

ولعلنا مدعوون هنا الى إيضاح حقيقة طالما تثار حولها الجدل ، وهي حقيقة ابتكار وإسالة الفكر العلمي العربي ، والثقافة العربية الإسلامية . فكثيراً ما تهجم المتعصبون والمتحاملون والمتزمتون من أعداء العلم ، وأعداء العرب (عرب بغداد وغيرهم) ، وأعداء الشعوب والثقافة الإنسانية ، على العرب وعلى الثقافة العربية - الإسلامية ووصفوها ظلماً وعدواناً ، بالخواء والهزال ، وبأن دورها في التاريخ لا يعدو أن يكون دور الناقل والمترجم لفلسفة وثقافة اليونان .

ويؤكد ربنان ، مثلاً ، أن الساميين (ومنهم العرب) - بل هو يقصد العرب بالذات - لا يعرفون الثقافة والعلم والفلسفة الا تقليداً . وقد ناصر المنصريون ، والامبرياليون ، والصهاينة ، في كافة أنحاء المعمورة ، هذه المقولة الباطلة ونشروها في كل مكان ، وبشتى السبل (خصوصاً أيام الانتكاسات العربية وبمدها) .

وبالطبع ، فإن الأغراض التي تختفي وراء هذه المقولات واضحة تتلخص في طمس الحقيقة العربية وتشويه علوم العرب وثقافتهم ، والخروج من ذلك الى القول بأن العرب أمة تابعة : مسخرة حيث العلم والثقافة أفيروا ، وأنه لا جديد لديها ولا غناء ، وأن التخلف فيها سمة عريقة ثابتة .

على أن الحقيقة العربية في بغداد العلم والثقافة والبحث العلمي ، بغداد الحضارة العربية - الإسلامية ، وفي كافة الأمصار في الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، إنما هي أمر لا يمكن له (كآية حقيقة موضوعية ، تاريخية ، مادية) أن يخفى أو يطمس . فالتعليم العربي والثقافة العربية - الإسلامية والروح العلمية عند العرب هي من الضخامة والجلال والسطوع بحيث لن يقوى على طمسها أي تزوير أو تزيف ، رجعيّاً ، كان أم امبريالياً ، أم صهيونياً .

فهذا هو البروفسور برنارد لويس يشهد ، في جملة من شهدوا للعلم العربي والعقل العلمي العربي فيقول :

- « إن أوروبا تحمل ديناً مزدوجاً للعرب : أولاً ، محافظة العرب على وقعة الفكر الإنساني ، والميراث العلمي والفكري لليونان وتوسيعهم فيه ، وثانياً : في تعليم أوروبا طريقة جديدة للبحث بوضع العقل فوق السلطة » .

ويؤكد الباحثون المنصفون ، من ذوي النظرة الموضوعية في البحث والتحليل ، أن الفكر العربي - الإسلامي كان ، من حيث الجوهر ، فكراً تجريبياً . ويضيف هؤلاء قائلين أن ذلك لا يعني أن هذا الفكر كان ضد القياس ، ذلك أن التجربة ذاتها تتضمن القياس وتنص عليه ، وتتطلب عضوية . ويزيدون ، أيضاً ، قائلين ، وللقول دلالة البائفة ، أن الفكر العربي - الإسلامي قد تجاوز الأطر الصورية لمنطق أرسطو ، ونشبت بالتجربة العلمية متخذاً إيها ، في أكثر الأحيان ، مصدراً للعلم والفلسفة . ويستنتجون من كل ذلك ، محقين ، أن الفكر التجريبي العلمي العربي - الإسلامي يلاحم بين الدراسة والتأمل النظري والممارسة العملية ، أي ما نسميه نحن بالتطبيق ، ويتجه ، بصورة أساسية ، الى التحديد الكمي . وهكذا ، فهو ليس تقليداً للفكر العلمي اليوناني ، بل هو ، كما يقول هؤلاء الباحثون بالحرف « صفحة جديدة كمل الجدة بالنسبة للفلسفة الأرسطوطاليسية والأفلاطونية » (١٩٠) .

وبالفعل ، فإن الانجاء الى الكم والتجربة هو خروج مباشر على مفهوم جوهري في منطق أرسطو هو التعريف . والتعريف أو الحد الأرسطوطاليسي بالنوع والفصل مثلاً هو تعريف يوافق النظرة الكيفية الى الأشياء .

وإذا كان رجال الفقه والأصول هم أول من خرجوا على منطق أرسطو ، فإن الفلاسفة والعلماء العرب والمسلمين كانوا المطورين لهذا الخروج العلمي الجليل ، الذي أدى ، في مراميهِ البعيدة ، الى تثبيت عملية التجريب العلمي وليس الاستخلاص المنطقي الشكلي نهجاً لاكتساب المعرفة ، وإدراك الحقيقة .

ويؤكد ذلك ، مثلاً لاحصراً ، ابن خلدون (العالم العربي الكبير الذي يشهد له علماء العالم

فالعرب ، في الواقع ، هم الذين ابتدعوا
طريقة البحث العلمي الحق ، القائم على
التجربة (١٩١) .

ونعزل البروفسورة هوتكه مقولتها هذه
بشكل تستشهد ، في تضاعفه بالبحث العلمي
العربي في بغداد ، أساساً ، وفي سائر الحواضر
العربية - الإسلامية ، فيما بعد ، ونذكر ، ضمنياً
بالنظام ومدرسته المنهجية الفكرية ، التي قامت
على الشك سبيلاً إلى التثبت ، والتجربة
والبرهان (مما عرضنا له آنفاً في فصل سابق من
بحثنا هذا) ، فنقول :

- « ... لقد سرت بين العلماء الاغريق ، الذين
ثم يكونوا جميعاً بالاغريقين بل كان أغلبهم
من أصل شرقي ، سرت بينهم رغبة في
البحث الحق ، وملاحظة الجزئيات ،
ولكنهم تقيّدوا دائماً بسيطرة الآراء النظرية
ولم يبدأ البحث العلمي الحق القائم على
الملاحظة والتجربة إلا عند العرب . فعندهم
فقط بدأ البحث الدائب الذي يمكن الاعتماد
عليه ، يتخرج من الجزئيات إلى الكليات .
وأصبح منهج الاستنتاج هو الطريقة العلمية
السليمة للباحثين . وبرزت الحقائق
العلمية كثمرة للمجهودات المصنيعة في
القياس والملاحظة بصبر لا يعرف الملل .
وبالتجارب العلمية الدقيقة التي لا تحصى ،
اختبر العرب النظريات والقواعد والآراء
العلمية مراراً وتكراراً ، فاثبتوا صحة الصحيح
منها ، وعدلوا الخطأ في بعضها . ووضعوا
بديلاً للخطأ منها متممين في ذلك بحرية
كاملة في الفكر والبحث ، وكان شعارهم في
أبحاثهم - الشك هو أول شروط المعرفة -
تلك هي الكلمات التي عرفها الغرب بعدهم
بثمانية قرون طوال . وعلى هذا الأساس
العلمي سار العرب في العلوم الطبيعية شوطاً
كبيراً ، أثر ، فيما بعد ، بطريق غير مباشر ،
على مفكري الغرب وعلمائه ، أمثال روجر
باكون ، وماجنوس ، وفيتليو ، وليوناردو
دافنشي ، وغاليليو (١٩٢) .

ونمل هوتكه بذلك قد قالت القول الفصل ،
رحمت هذه المسألة التي طال فيها الأخذ
والرد ، وبودنا أن نعلق على مقولتين وردت في
رأيها هذا :

جميعاً بالزيادة والنسب في علم الاجتماع ،
والاقتصاد ، والنظرة العلمية ، وإعادة كتابة
التاريخ بروح علمية ، نسبة لمواصفات العصر ،
نقول ، يؤكد ذلك ابن خلدون في مقدمته لمنطلق
أرسطو حيث يقول : « إن الأقيسة المنطقية أحكام
ذهنية ، والموجودات الخارجية متشخصة ،
فالتطابق بينهما غير يقيني . لأن المادة قد تحول
دونه ، اللهم إلا ما يشهد له الحس من ذلك فدليله
سهوده لا تلك البراهين المنطقية » . وينبغي أن
نسارع للقول ، أن مقولة ابن خلدون هذه لا تعني
القضاء الثام على القياس المنطقي ، ذلك أن
عمليات التجريب تتضمن في جوهرها عمليات
قياسية جزئية .

وتدل أبحاث الجاحظ في الحيوان ، وأبحاث
الكندي الفلسفية ، ودراسات وأبحاث وكشوف
جابر بن حيان ، والكندي ، والرازي ، وابن
الهيثم ، وابن رشد والبيروني وابن سينا وابن
باجة وابن خلدون وغيرهم ، على أن الروح العلمية
العربية ، كما بدأها مصدر الإشعاع الفكري
والحضاري العربي - الإسلامي ، بغداد ، روح
أصيل غير مستوردة ، أو مقلدة . كما تدل ، فيما
تدل عليه ، على أن المنهج التجريبي العربي ،
والتوحيد الجدلي بين النظرية والتطبيق ، والنظرة
الشمولية للمادة والإنسان والكون ، والاتجاه
الكمي ، والقيم التجريبية والحسية إنما كان
مصادقاً لهذه الروح العلمية الأصيلة لدى العرب ،
وشهادة بليغة على عمق وضخامة الإضافة العربية
- الإسلامية (بالشكل الذي بدأنه بغداد - المنبع ،
والرائد) إلى العلم والثقافة العالمية .

وإذا كان لنا أن نستشهد ، هنا ، بشيء ،
فإننا نشير إلى مقولة البروفسور برنارد لويس ،
التي ذكرنا تواتراً ، وهي تعليم العرب أوروبا طريقة
جديدة للبحث . وهذه الطريقة الجديدة في
البحث إنما هي طريقة البحث العلمي الموضوعي
الجدلي ، وهي نفسها ما تشير إليه مستشرقتنا
الألمانية البروفسورة هوتكه حيث تقول (وكأنها
تجيب عن التساؤلات حول دور العلم العربي
والثقافة العربية - الإسلامية ، في العملية
انحضارية والثقافية العالمية) ، وذلك في ختام
مبحث لها بعنوان « هدايا العرب للغرب »
(في كتابها المشار إليه آنفاً) :

- « ... لقد طور العرب ، بتجاربيهم وأبحاثهم
العلمية ، ما أخذوه من مادة خام عن
الاغريق ، وشكلوه تشكيلاً جديداً .

١ . أن العناصر الشرقية ، غير الاغريقية (بين العلماء الاغريق) كانت ذا أصل سامي (عربي) . ويمكن الإشارة هنا الى أحدث البحوث في هذا الباب : حول عروبة الساميين ، والهجرات العربية من الجزيرة ، وعروبة الحضارات القديمة في وادي الرافدين : البابلية ، والأكديّة ، والآشورية وغيرها) - ، وخصوصاً بحث الأستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص (بالتراث والمعاصرة) ، العدد الثاني ١٩٧٨ (١٩٣) .

٢ . إن الشك الذي يبرزه بعض الباحثين الأوروبيين غربياً أوروبياً ، هو مذهب عربي ، معتزلي ، قال به النظام والجاحظ (من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، وقال به ابن الهيثم والبيروني (من تلامذة هذه المدرسة ومطوري تعاليمها ، فيما بعد) .

وقد عرضنا سابقاً لمقولات النظام المعتزلي ، كما عرضنا لمقولات الجاحظ في الشك والتجريب ، ونورد الآن مقتطفاً لابن الهيثم ، يقول فيه (مبيناً قيمة الشك والتجريب والبحث وصولاً الى الحقيقة العلمية الموضوعية) .

— إنني لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة ... فكنت متشككاً في جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك اليه . فلما كملت لأدراك الأمور العقلية انقطعت الى طلب معدن الحق ... فخصت لذلك ضروب الآراء والاعتقادات ... فرأيت أنني لا أصل الى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية .. « (١٩٤) .

ومن هذا المقتطف يتبين شيئان — أولهما ربط التجربة الحسية بالتأمل العقلي الفلسفي عند ابن الهيثم ، والثاني هو التحوّل على طريقة التناول (أي المنهجية ، التي يسميها ابن الهيثم ، جهة السلوك الى الحق) .

وتختتم هونكه رأياً السابق (المشار اليه آنفاً) باستنتاج حاسم للغاية ، تقول فيه :

— « إن العرب لم ينقلوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم اهدوها الى الغرب فحسب ، إنهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع . وبالإضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق أغلبها ونسب لآخرين ، قدم العرب اثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت امام الغرب طريقه لمعرفة اسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم » (١٩٥) .

إذن فهدية العرب العظمى الى الغرب (وكل شعوب المعمورة) هي طريقة البحث العلمي الصحيح . وهنا هو سر مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي ، فهي التي اكتشفت هذه الطريقة ، وهي التي اتبعت هذه المنهجية ، وقد اتضح لنا ذلك ، في كل تضاعف بحثنا ، ومقتطفاتنا .

★ ★ ★

لقد نشرت مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي طريقة البحث العلمي الموضوعي ، ولكنها نشرت الى جانبها ، بالضرورة ، وفي تفاعلية جدلية ، الكتاب ، والثقافة . فقد كانت بغداد عاصمة الثقافة في العالم ، ومنجم الفكر فيها . حسبنا أن نستشهد بمقتطف صغير من استاذتنا البروفسورة هونكه (وهو مقتطف تعززه كافة كتابات الباحثين العرب والمسلمين ، ومؤرخي الفكر والثقافة العربية — الإسلامية ، ويكفي أن نشير الى كتب الاساتذة الأجلاء : طه حسين ، وأحمد أمين ، وعبد الحميد العبادي في دراساتهم الإسلامية (فجر الاسلام وظهره وضحاها) ، والى كتب لوبون ، ومتر ، وجاك بيرك ، وجب ، وارنولد ، وآربري ، وكراجكوفسكي ، وغريغوريان ، ورمضانوف ، وشاه محمديف وغيرهم) . تقول هونكه (في كتابها : شمس العرب ص ٢٨٥) :

— « ... وكما يقاس تراء الناس اليوم بمدى ما يملكون من عربات فاخرة مثلاً ، قسدر الناس — في ذلك العصر الممتد من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر — الثراء

بمدى ما يفتنى من كتب أو مخطوطات ...
ونمت دور الكتب في كل مكان نمو العشب
في الأرض الطيبة . ففي عام ٨٩١م يحصى
مسافر عدد دور الكتب العامة في بغداد
بأكثر من مئة . وبدأت كل مدينة تبني لها
داراً للكتب يستطبع عمرو أو زيد من الناس
استعارة ما يشاء منها ، وإن يجلس في
قاعات المطالعة ليقرأ ما يريد ، كما ويجتمع
فيها المترجمون والمؤلفون في قاعات
خصصت لهم ، يتجادلون ويتناقشون .
كما يحدث اليوم في أرقى الأندية العلمية
مكتبة سفيرة كمكتبة النجف في العراق ،
كانت تحوي في القرن العاشر أربعين ألف
مجلد ، بينما لم تحو أديرة الغرب سوى
اثنى عشر كتاباً ربطت بالسلاسل ، خشية
ضياعها . ويحتاج تصنيف الكتب الموجودة
في مدينة الري إلى عشرة فهارس كبيرة .
وكان لكل مسجد مكتبته الخاصة ، بل أنه
كان لكل مستشفى يستقبل زواره : قاعة
فسيحة صفت على رفوفها الكتب الطبية
الحديثة الصدور ، تباع لتكون مادة
لدراسة الطلاب ومرجعاً للأطباء ، يقفون
منه على آخر ما وصل إليه العلم
الحديث . ولقد جمع نصير الدين الطوسي
لمرصده في مراغة (١٠٠٠٠٠) مخطوطة .
وحذا حذو الخليفة في بغداد في مختلف
أنحاء العالم العربي ، فأرابت ، مثلاً ، مكتبة
أمير عربي في الجنوب على (١٠٠٠٠٠)
مجلد .

هكذا كانت بغداد ، وهكذا كان إشباعها
العلمي والثقافي في سائر أرجاء الدولة العربية -
الإسلامية الواسعة .

وإذا كان هذا هو ما تقرره باحثة أوروبية
موضوعية معاصرة ، مثل البروفسورة هونكه ، في
القرن العشرين ، فإن لفوستاف لوبون فضل
السبق ، فقد أشار إلى ذلك إشارة مفصلة ، في
كتابه « حضارة العرب » ، في القرن التاسع
عشر (١٩١٦) . وإذا كنا نشير إلى الباحثين
الأوربيين ، فأننا نريد بذلك تعزيز مقولاتنا
بشهادات موضوعية لعلماء مهمهم كشف الحقيقة ،
ونشرها .

يحدثنا الأستاذ الراحل محمد كرد علي ، في
كتابه « الإسلام والحضارة العربية » (الذي أشرنا
إليه آنفاً) أن قوله قال : « أن العرب علمونا صنع

الكتاب وصنع البارود وعمل إبره السفينة ،
فعلينا أن نفكر ماذا كانت نهضتنا أو لم يكن من
ورائها هذه المخلفات التي وسلتنا من المدنية
العربية » (١٩٧٧) .

وفي التأكيد على الكتاب والثقافة ، كمؤشر
أكبر على المدنية العربية في بغداد والحواضر
العربية والإسلامية الأخرى ، يطالعنا البروفسور
آدم متز ، في كتابه (الحضارة الإسلامية في القرن
الرابع الهجري - من ترجمة محمد عبد الهادي
أبو ريده) ، بمقارنة طريقة ، عميقة الدلالة ،
« ... كان في مكتبة الكاندرائية بمدينة كستانز
في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون
كتاباً . وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما
يزيد على المائة بقليل ... » (١٩٨٨) ومقابل ذلك
« ... عمل علي بن يحيى المنجم ، وكان ممن
جالس الخلفاء ، حوالي منتصف القرن الثالث
الهجري خزانة كتب عظيمة في ضيعته ، وسماها
خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد
فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ،
والكتب مبدونة لهم والصيانة مشتملة عليهم ،
والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى . فقدم أبو
معشر المنجم من خراسان يريد الحج ...
فوصفت له الخزانة ، فمضى وراها وهاله
أمرها ، فأقام بها واضرب عن الحج ... وفي
٢٥٧هـ - ٩٦٧م صودر حبشي بن معز الدولة لأنه
أراد عصيان أخيه أمير بغداد ، فكان من جملة ما
أخذ منه خمسة عشر ألف مجلداً سوى الأجزاء
وما ليس بمجلد ... » (١٩٩١) . وينتقل آدم متز
من ذلك إلى المكتبات العامة - التعليمية ، فيقول:

« على أنه قد ظهرت إلى جانب دور الكتب
مؤسسات علمية أخرى تزيد على دور
الكتب بالتعليم ، أو على الأقل بإجراء
الأوراق على من يلزمها ، فيحكي عن أبي
القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي
الفقيه الشافعي المتوفى عام ٢٢٣هـ - ٩٣٥م
أنه أسس داراً للعلم في بلده ، وجعل فيها
خزانة كتب من جميع العلوم وفقاً على كل
طالب علم ، لا يمنع أحد من دخولها ، وإذا
جاءها غريب يطلب الأدب ، وكان ممسراً
أعطاه ورقاً وورقاً ... وفي سنة ٢٨٣هـ
أسس أبو نصر سابور بن أردشير وزير بني
بويه داراً للعلم في الكرخ غربي بغداد ونقل
إليها كتباً كثيرة اشتراها وجمعها ، وكان
بها مائة نسخة من القرآن بأيدي أحسن

النسخ . هذا الى عشرة الاف واربعمئة مجلدة أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون . . . وكذلك اتخذ الشريف الرضي (المتوفى عام ٤٠٦هـ - ١٠١٥م) نقيب العلويين والتأخر المشهور دارا سماها دار العلم وفتحها لطبقة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه . ويدل مجرد اسم هذه المؤسسات على الفرق بينها وبين دور الكتب القديمة ، فكانت دار الكتب قديما تسمى خزانة الحكمة ، وهي خزانة كتب ليس غير ، أما المؤسسات الجديدة فتسمى دور العلم ، وخزانة الكتب جزء منها . . . (٢٠٠) .

إن كل هذا الذي يقرره البروفسور مقرر وينقله لنا يبدو صحيحا في خلفية فكرية تقول ان حضارة العرب في بغداد كانت شاملة ، متلاحمة ، بحيث يبلغ عدد الاطباء مثلا ثمانمائة رجل ونيفا وستين رجلا في جانب بغداد « سوى من كان في خدمة السلطان » . وبحيث تضم سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد اكثر من مئة متجر . . . لقد كانت حضارة متكاملة حقا ، وكانت بغداد قلبها النابض .



وبكلمة ، كانت بغداد الحضارة العربية - الاسلامية ، منبع الفكر والعلم والثقافة العالية في القرون الوسطى ، والتقليد الوهاج للمعرفة لآمد كبير من الزمن ، وقد امتدت تأثيراتها الى سائر ارجاء الامبراطورية العربية - الاسلامية ، وإلى عديد من الدول والمناطق الاخرى في العالم (من الفولغا في روسيا ، وبحر الخزر وداغستان . والسين والشرق الاقصى ، الى المغرب الاقصى . والاندلس حيث كان لا يعترف بالفضل العلمي والثقافي والفني إلا لما هو مشرقى ، وبغدادى . بخاصة) .

يتحدث الاكاديمي البروفسور الراحل كراجكوفسكي في فصول عديدة من احد مختارات كتبه عن التأثير الثقافي العربي في داغستان ، وجنوبي روسيا . وقد ضمت مجلة « نورد » البغدادية بين جوانبها (في العدد الثاني ١٩٧٩ : مقال كراجكوفسكي عن داغستان واليمن ، وهو يتحدث فيه ، عن تأثير الثقافة والادب العربي ، واصوله البغدادية في داغستان) والترجمة لكاتب السطور (٢٠١) .

ويقرر كراجكوفسكي ، وهو ناشر ومحقق كتاب (البدع) لابن المعتز ، والاعتبار (لاسامة بن منقذ : . والمتحدث عن الادب العربي في بغداد والدولة العربية الاندلسية . يقرر ان تأثير بغداد ودولتها العربية - الاسلامية ، على مختلف العصور . ظل بارزا ، ابدا ، في جنوبي روسيا ، واسيا الوسطى (الاسلامية ، بلاد ماوراء النهر) ، بل ان القرآن الكريم والعملية البغدادية وسواها (في عهد الرشيد والمأمون وخلفاء بغداد ، والخلفاء الآخرين في الامصار الاسلامية) بلغت الباطني ، وتجاوزته الى فنلندا (٢٠٢) .

اما الاديب المؤرخ الفرنسي دوير برينفو ، فيقرر في كتابه « الشعراء التروبادور » - وفقا لما ينقله الاساذ محمد مفيد الشوباشي ، في كتابه « العرب والحضارة الاوربية » . ان « اوربا كانت في القرن الحادي عشر ، والقرن الثاني عشر تتجه الى العرب باحثا عما استجد عندهم من صناعات وعلوم . . . ومن فنون خاصة بالملاحاة كانت السبب في تطورها وتبدل حالها . . . كانت اوربا تتجه إليهم منقبة عن كشوفهم في علوم الرياضة والفلك والطب والكيمياء ، بل كانت تبحث عندهم عن آثار أرسطو ، وابن سينا ، وابن رشد . وكان علماءنا من امثال (دانيال دي موري) و (ميشيل سكونوس) و (دي جريمون) و (دوريلاك) و (ريمون لول) يلتصقون عند العرب حصاد عالم جديد من الفكر والعلم . ووجد (ريجيو مونثانوس) عندهم المعارف التي مكنت (هنري الملاح) و (فاسكو دي جاما) و (خريستوف كولبس) من ارتياد المحيطات ، والوصول إلى اطراف العالم وبحث كل من (البير الاكبر) و (توماس الين) عن فلسفة العقيدة الكاثوليكية نفسها في بلنسية ، وعن الفارابي . . . وفي الوقت الذي انشد الشعراء التروبادور شعرهم على عتبة اسبانيا العربية صرح (روجر بيكون) في اكسفورد بأن وجود الفكر الاوربي ، والعلم الاوربي كان مستحيلا لولا وجود المعارف العربية . لقد دعيت اوربا فجأة الى الحياة بعد ان ظلت غارقة في ظلمات الجهل طوال خمسة قرون ، وهي مدينة بكل مقوماتها الى العالم الاسلامي (٢٠٢) .

إن هذه الشهادة العلمية من دوير برينفو ليست بالوحيدة ، وقد شهدنا لها مثيلات كثيرات ، عرضنا لبعضها ، وقد نعرض غيرها . وبالطبع ، فانه ليس كل المفكرين الفرنسيين مثل غوستاف لوبون ، أو برينفو ، أو غارودي ، أو

جاء بيرك . فهناك رينان الذي انكر على الساميين الشرق . في حين قدر للبصرة ان تغدو على سر الزمن أبرز الموانئ العربية . ومحط رحل التجار ومركز تبادل الصادرات والواردات ، ومخزن البضائع المستوردة من الهند والصين ومصر وأفريقيا الشرقية . وكانت البضائع المصدرة تنقل من البصرة الى سيراك (على الخليج العربي) ، ومنه تشحن على السفن الكبيرة الى الهند والصين . وفي الوقت نفسه لم تفقد موانئ مصر والبحر الاحمر اهميتها ، فقد ظلت تمارس دورها في التجارة العالمية ، واعتبر ميناء مخا في اليمن وميناء مكللا في حضرموت وعمان على الساحل الجنوبي للخليج العربي : من انشط الموانئ العربية والمعا ذكرا في التجارة العالمية القديمة والوسيلة مع الشرق الاقصى (٢٠٥) .

يتبين من حديث الاستاذ السامر ان بغداد أصبحت بالفعل قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى . ودون شك لا يمكن ان تؤخذ بغداد لوحدها - كمدينة - بل ان بغداد كانت عاصمة دولة واسعة (هي اكبر الدول في تلك الحقبة الزمنية : تمتد من الصين الى الاندلس) ، كما ان بغداد كانت عاصمة حضارة ناشطة تمثلت حضارات سابقة وابكرت إضافاتها الكبيرة الجديدة ، الخاصة بها ، وعاصمة ثقافية للدين فيها ، أكثر الاحيان ، مقام اول .

وبالطبع ، فان التجار العرب لم يكونوا سواها ، كما ان التجارة في ذلك الوقت لم تكن بالشكل الذي هي عليه الآن ، فالتجار العرب كانوا يقيمون مستوطنات خاصة بهم ، في كل مكان يحلون به ، وكل قطر يتجرون معه ان انتشار المستوطنات العربية ، وما تبعه من انتشار النجاليات العربية (٢٠٦) ، استتبع ، بالضرورة ، نشر الثقافة العربية - الاسلامية ، التي تستمد معينها الاول من بغداد قلب الدولة العربية - الاسلامية ، ومركز ثقافتها النابض الوار .

واذا ما استشرنا الاستاذ السامر ، مرة اخرى ، فاننا سنفهم ان لتجارة العربية «وجهاً» علمياً ، ثقافياً ، من العبث ان يطمس ، ومن المستحيل ان يحجب . يقول السامر : « ... يجب ان نقرر حقيقة ذات أهمية كبرى ، هي ان كثيراً من منجزات العرب والمسلمين في حقول الحضارة والثقافة والآداب والفنون ، ذات علاقة مباشرة بحمية المسلمين في نشر دينهم في كل بقعة يستطيعون الوصول إليها ، باعتبار ذلك جزءاً من

ودارين التي استمرت تلعب دورها في التجارة مع : بمن فيهم العرب) العلم والحكمة والفلسفة . رزمة عقدة لدى بعض المؤرخين والمفكرين الفرنسيين تكمن في عدم رغبتهم في الاعتراف بتفوق التراث الاندلسي الاندلسي ، او في الاقرار بان حضارة فرنسا المعاصرة وثقافتها وعلومها اخذت الكثير من اصولها من الحضارة والعلم العربي الاندلسي المنتقل الى فرنسا عن طريق اسبانيا ، او عن طريق جنوبي فرنسا ، التي حل العرب في اجزاء عديدة منها ، امداً من الزمن (٢٠٤)

وبالنسبة للتراث العلمي - الثقافي العربي - في بغداد ، بخاصة ، فان انتقاله الى العالم اجمع (بما فيه القارة الاوربية) ، تم بعدة طرق منها المباشرة ومنها غير المباشرة . فمن الطرق المباشرة الانتقال بواسطة التجارة ، فقد كانت بغداد مركزاً تجارياً ناشطاً ، بل لعلها كانت قلب التجارة العالمية في القرون الوسطى ، لتوسطها بين آسيا وأفريقيا وأوروبا . كما كانت مركز الفوائد المختلفة ، وملقى الطرق التجارية ومنطلقها الى الشرق والغرب ، على حد سواء .

يحدثنا الاستاذ الدكتور فيصل السامر في كتابه القيم « الاصول التاريخية للحضارة العربية والاسلامية في الشرق الاقصى - منشورات وزارة الاعلام في بغداد ، ١٩٧٧ » حديثاً ذاتية استثنائية ، بهذا الصدد ، نستطيع القارئ الكريم عذراً في اقتطافه ، للتوثيق والتعميق يقول السامر : « كانت التجارة عاملاً مهماً من عوامل انتشار الاسلام والثقافة العربية في مناطق واقليم قاصية . ذلك ان العرب حلوا سياسياً وعسكرياً محل الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية . ومن ثم قبضوا على اعنة التجارة العالمية في اعصور الوسطى ... ان تطور التجارة العربية مع الشرق ارتبط بقوة الدولة العربية الاسلامية وامتدادها الى اقاليم شاسعة ممتدة من جزر الكناري على ساحل افريقيا الغربي غرباً وحدود الصين شرقاً وبين القوقاز شمالاً وسواحل البحر العربي جنوباً . وقد ادى ضم بلاد السند الى الدولة العربية الى تنشيط التجارة العربية البحرية مع الشرق ، وبخاصة مع الهند . ويعتبر بناء بغداد من قبل الخليفة ابي جعفر المنصور حدثاً مهماً وخطيراً في النشاط التجاري مع الشرق . إذ ربطت عاصمة الدولة العربية لأول مرة مباشرة وبطريق المواصلات المائية بالبحر العربي عبر موانئ الخليج العربي كالابلة وصحار

والصين ، وآسيا الوسطى ، والملايو ، واندونيسيا وغيرها .

وتشهد الف ليلة وليلة . التي تقرر دائماً باسم بغداد . والتي تركت دويماً كبيراً في مملكة الفكر والأدب العالمي (بحيث أن العديد من أدباء العالم يعترفون بتأثيرها على إبداعاتهم القصصية والشعرية والفكرية والفنية وحتى الفلسفية ، وذلك كفولتير وسوذي وبايرون ، وتولستوي ، وجيرنيسيفسكي وعديد غيرهم) ، تشهد على مدى سعة التأثير الأدبي العربي ، المنطلق من بغداد الدولة العربية - الإسلامية ، بدءاً وأساساً ، في الأدب الأوربي بخاصة ، والأدب العالمي عامة . وإذا ما عدنا إلى السامر ودراسته التاريخية - الحضارية ، عن الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى ، الكتاب الذي استشرناه نوا : فإنا سنجد أن (الف ليلة) استمدت بعض أصولها القصصية - الأسطورية . متبادلة التأثير والتأثر مع القصص الملاوية والفيليبينية ، وهو يقول في ذلك : « إننا لا نريد هنا أن نسعرض القصص والحكايات الأسطورية التي رواها الرحالة العرب والمسلمون ، فهي كثيرة ومدونة في بطون الكتب ، وما على القارئ إلا أن يرجع إليها في مظانها . لكنني أردت أن أشير إلى ناحية مهمة هي أن حكايات الف ليلة وليلة (وخاصة رحلة السندباد البحري) تشبه القصص الملاوية والفيليبينية التي وجدت في تلك البلاد منذ العصر الخرافي » (٢٠٩) .

وقد ساحت (الف ليلة) في بلدان العالم طراً ، وترجمت مئات المرات إلى كثير من لغات العالم ، وكانت ملهماً فذاً لخيال كثير من الشعراء ، والقصصيين ، والفنانيين ذوي الموضوعات الشرقية ، رومانتيكية خصوصاً وللأساتذة فاروق سمن ومحمد مفيد الشوباشي ، وعبد الجبار السامرائي ، والدكتور محسن جاسم الموسوي والدكتورة سهير القلماوي ، وغيرهم من الباحثين العرب المحدثين ، ولكاتب السطور أيضاً ، دراسات في هذا الموضوع الهام في العلاقات الأدبية العربية - العالمية والأدب المقارن (٢١٠) .

وعلى صعيد آخر ، انتشرت الأمثال والمأثورات العربية في سائر أرجاء الدولة العربية - الإسلامية ، وتجاوزتها إلى كثير من أقطار الشرق والغرب . ويمكن للقارئ أن يتتبع ، مثلاً لا حصراً ، دراسة كاتب السطور « دراسة مقارنة في الأمثال الروسية والعربية » ، ليلمس تأثير

رسالة الإسلام في أن يندو ديناً للبشرية جمعاء . هذا النشاط بحد ذاته دفع بالكثيرين من المسلمين : تجاراً وعلماء وفقهاء ورحالة وبحارة إلى أن يسبحوا في دنيا الله الواسعة ، وفي أذهانهم هدف نشر الدعوة الإسلامية . كما أن هذه المنجزات ارتبطت بهدف ثان هو النشاط التجاري والاقتصادي الذي صاحب توسع الدولة العربية وامتدادها إلى أقاليم شاسعة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وهنا يجب أن نضع في أذهاننا حقيقة أساسية ، هي أن اتساجر العربي المسلم ، في سعيه لاقتناء الربح في البيع والشراء ، كان دائماً يبذل جهده في نقل عقيدته وإيصالها إلى جميع أولئك الذين يقدر له أن يتعرف عليهم في رحلاته في الأقاليم التي يذهب إليها . (٢٠٧)

وقد نشأت عن هذه التجارة الناشطة ، المتسعة باطراد ، والمرتبطة ، جديلاً ، باشتداد شوكة الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، نشأت عنها جملة عوامل : ساعدت كلها في نشر تأثير بغداد العلمي - الثقافي (الذي كان يمثل ، بجدارة ، جوهر التأثير الفكري والحضاري العربي - الإسلامي ، خصوصاً في عصور ازدهار الحضارة العباسية) .

ومن هذه العوامل ، الاستيطان والتزاوج ، ومنها الرحلات العلمية (الجغرافية - التاريخية) ، ومنها كذلك السفارات والإيفادات وتبادل الهدايا إن هذه العوامل غير المباشرة التي ارتبطت بالتجارة ، ارتبطت ، في ذات الوقت ، بالفتوح والحروب ، وقد تفاعلت كلها ، جديلاً وعضوباً ، لتؤدي ، في نهاية المطاف ، إلى نشر الدين الإسلامي ، وبسط لواء الثقافة العربية - الإسلامية بأوسع نطاق ممكن . ويصح هذا على التوسع الثقافي ، الحضاري العربي - الإسلامي في الشرق ، كما يصح على هذا التوسع والامتداد في آسيا الوسطى والقفقاس وحوض بحر الخزر ونهر الفولغا ، وفي إفريقيا . (٢٠٨)

إن التلاقح والتفاعل الحضاري الذي اشتد أوارده في عهد الدولة العربية - الإسلامية ، في العصور العباسية الأولى ، وإبان ازدهار العربي - الإسلامي في بغداد ، قد أدى ، في ذات الوقت ، إلى إغناء الفكر العربي ، وتعميق الثقافة العربية - الإسلامية ، مثلما أدى إلى نشر هذه الثقافة في الأقطار المفتوحة ، والأقطار المتاجر معها ، والأقطار التي كانت تقيم فيها جاليات عربية كبيرة (كالجاليات العربية في الهند ،

المآثورات العربية العميق في آداب شعوب الاتحاد السوفيتي ، وتأثير الاسلام ، والرحلات ، والتجارة ، والجاليات العربية ، والتفاعل الثقافي المتبادل وغير ذلك من العوامل في ذلك . (٢١١)

إن كراجكوفسكي ، شيخ المستعمرين السوفيت ، واحد أكبر المستشرقين في العالم ، يؤكد ، في كتابه تاريخ الآداب الجغرافي العربي ، أن الرحلات والرحالة ، وأسفار التجار قد أثرت كثيراً في نشر القصص والحكايات والأساطير والأمثال والابداعات الثقافية العربية في أممات كثيرة في العالم بل أن كراجكوفسكي قد تحدث عن أدب عربي المضمون والشكل في أرجاء عديدة في الجنوب السوفيتي ، خصوصاً في القفقاس ، وقد عقد حول ذلك دراسات قيمة (ترجمنا اثنتين منها لجلّة « المورد » الفراء هما : داغستان واليمن ، والآداب العربي في القفقاس الشمالي) (٢١٢) . وفي تضاعيف ذلك يؤكد كراجكوفسكي أن مديداً من الحكم والأمثال والأشعار العربية قد خلّدت في أعمال فنية ، وعلى واجهات المباني والبيوت ، والنحى ، والصناديق ، وحتى على نصال الخناجر والسيوف (٢١٣) .

ودون شك ، قدمت شعوب الإمبراطورية الإسلامية أفواجا من المثقفين والفكرين ، الذين كتبوا ابتداعاتهم وكتبهم باللغة العربية (وأحياناً بلغتين - كفضولي البغدادي ، وعمر الخيام ، وجلال الدين الرومي : ، ويمكن الإشارة ، هنا ، إلى مثال ساطع جداً ، هو أبو الريحان البيروني الذي مر بنا ذكره ، وكيف أنه كان يؤكد أن هجوه بالعربية أحب إليه من مدحه بلغة أخرى) . أن استكمال فتح السند في عهد المنصور والمأمون والمعتصم ، وسيادة اللغة العربية والثقافة العربية في بلاد فارس وأفغان وبلاد ما وراء النهر وطاجيكستان ، وانتشار الثقافة العربية في الهند ، قد أهل البيروني أن يدرس الهند دراسة مدققة ، وأن يطلع ببحوث علمية رصينة أكد فيها منهجيته العلمية التي تستمد أصولها من مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي . وقد ساعد الرحالة العرب وكتبهم (كابن خردادبه في « المسالك والممالك » ، وسليمان السيرافي ، والسعدي في « مروج الذهب ومعادن الجواهر » ، وابن بطوطة في « عجائب الأسفار ») ساعد كل هؤلاء وغيرهم في تقديم أدق المعطيات ، نسبياً ، عن الهند وشعوبها .

ومثل ذلك يمكن قوله عن ابن فضلان

ورحلته إلى الشمال ، والفولغا والنرويجيا ، ومن رحالة آخرين ، بحيث أن مؤلفات هؤلاء الرحالة العرب والمسلمين تعتبر الآن مصادر لدراسة تاريخ روسيا ، وشعوب آسيا الوسطى والقفقاس وما وراء القفقاس في القرون الوسطى (٢١٤) .

إن سفارات ووفود العرب إلى الصين (خصوصاً في العصر العباسي) ، والترحيب العظيم الذي لقيته هناك ، ثم إقامة المستوطنات العربية ونشوء الجاليات العربية في الصين ، إنما يشهد لمعزة الدولة العربية - الإسلامية ورسوخ حضارتها . ويذكر الأستاذ السامر أنه « جاء في التواريخ الصينية : أشار الوزير (ليبي) على إمبراطور الصين بضرورة إقامة أمن الروابط مع العرب . فتساءل الإمبراطور : ولم ؟ فأجاب الوزير : أن العرب هم أقوى الأمم في هذه الأيام » (٢١٥) . ويؤكد السامر أنه بعد عديد من الاحتكاكات العدائية بين الدولتين الكبيرتين العربية والصينية ، استقرت العلاقات وتحولت ودية ، خصوصاً بعد تدخل العباسيين ، أيام المنصور لصالح أسرة (مانغ) الصينية الحاكمة . ويقول السامر : ظلت سفارات عباسية تشرى إلى عاصمة الصين وكانت أهمها تلك التي أرسلها المنصور والمهدي والرشد (الذي سماه الصينيون « آلون ») . ذلك أن بناء بغداد أدى إلى ازدهار الحركة التجارية مع الشرق الأقصى بحيث ارتبطت عاصمة العباسيين ارتباطاً وثيقاً بالطرق التجارية البرية والبحرية مع تلك الجهات . ويظهر من المصادر العربية ومؤلفات ابن خردادبه والمسعودي وابن بطوطة ، أن اتصالات التجارية بين العباسيين وبلاد الصين أصبحت منتظمة منذ القرن الثاني وزادت انتظاماً في القرن الثالث الهجري . وكان من نتيجة هذه المصالح التجارية أن اهتم العباسيون بتقوية العلاقات الدبلوماسية مع بلاد الصين ، كما اهتموا بتقوية الأسطول البحري لحماية التجارة القادمة من الصين والهند ... » (٢١٦) . أن هذه العلاقات العربية - الصينية الوطيدة ، أسفرت ، في تضاعيفها ، عن علاقات ثقافية وعلمية وطيدة ، هي الأخرى (وأن لم تبلغ شأواً العلاقات الثقافية العربية - الهندية) .

ويشهد الفارابي ، وابن سينا ، والبخاري ، وابن المقفع ، والبيروني ، وعديد من علماء اللغة ، والآداب ، والتاريخ ، والجغرافية ، والفلسفة ، والإسلاميات (بكل علومها) ، من أبناء شعوب

الدولة العربية - الإسلامية الواسعة ، وتشهد إبداعاتهم القيمة المختلفة باللغة العربية على تأثير الحضارة العربية ، وقلبها بغداد ، على هذه الشعوب ، التي دخل معظمها في دين الإسلام طوعاً ، بل حتى قاهرو بغداد ، دخلوا فيما بعد في الدين الإسلامي ، وأبدع علماءهم باللغة العربية ، شاعدين ، بذلك ، شهادة يندر مثيلها ، حقاً ، على عظمة الثقافة العربية ، وتسامح الدين الإسلامي وتقدميته (بالنسبة إلى معتقداتهم الوثنية . والمتخلفة) . يقول لوبون : « استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ، وخربوها تماماً ... ولكن أولئك الوحوش الضارية الذين أضرموا النار في المباني وأحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالتهم أيديهم خضعوا لسلطان حضارة المغوليين بدورهم ، حتى أن هؤلاء الذين خرب بغداد وأمر بجر نخبة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب الجديدة في نظره ، فلم يلبث أن صار من حمايتها ، وفي المدرسة العربية تمدن المغول واعتنقوا دين العرب وحضارتهم ، وشملوا متفني العرب وعلماءهم برعايتهم ، وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية من قورهم كما يمكن أن يقال وذلك لأنهم أحلوا حضارة العرب محل الحضارة القديمة ، ولأن سلطان حضارة العرب لا يزال مسيطراً هناك حتى اليوم » (٢١٧) . كما يقول « إن حضارة العرب كان لها من المناعة ما استطاعت أن تهيمن به على البرابرة الذين حاولوا هدمها ، وقد ظهر لنا أن جميع أهم الشرق الكثيرة التي ساعدت على قهر العرب ، ومنها الترك ، أعانت بلا استثناء على نشر نفوذ العرب ، وأن أمماً قديمة قدم العالم ، كالمصريين والهنود ، اعتنقت ما جاءها به العرب أو ورثتهم من الحضارة والدين والغة » (٢١٨) .

إن لازمة لوبون التاريخية ، كاستنتاج علمي حاسم هي :

إن « خلفاء بغداد ملكوا العالم بحضارتهم على الخصوص » (٢١٩) .

ولعل هذه اللازمة - الاستنتاج البليغ تجيب ، بشكل واف ، على التساؤلات التي تدور حول تأثير حضارة بغداد (ومدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ، بالذات ، على الشعوب الأوربية وحضارتها . ولقد فصلنا ، ما استغنينا ، بحثاً وتوثيقاً ، في تأثير الحضارة العربية - الإسلامية المشعة من بغداد . إن هذا

التأثير هو الطريق غير المباشر الذي سلكته الحضارة العربية - الإسلامية في ترسيخ جذورها في التربة الأوربية .

لقد امتد تأثير الحضارة العربية - الإسلامية إلى أوروبا عبر صقلية ، والاندلس . وجنوب فرنسا . كما كان للحروب الصليبية دور في ذلك . ولكنه كان دوراً ضئيلاً نسبياً . أما التأثير الأهم فقد جاء عن طريق الاندلس . ولا يهم ولا يضر كون حكام الاندلس كانوا أمويين ، فيما كان حكام بغداد عباسيين ، والحضارة العربية - الإسلامية هي ذات الحضارة ، والشعب العربي هو ذات الشعب العربي . وقد تمثل البربر حضارة العرب ودينهم ، فأسهلوا ، في العهود التي حكموا الاندلس فيها ، في ترسيخ قيم الحضارة العربية - الإسلامية ومنجزاتها .

يرى الرحالة الإسباني (بنيامين التيطلي) ، الذي زار بغداد عام (١١٦٠ م) ، في عهد الخليفة العباسي (المنفي بالله) ، أن بغداد والقاهرة وطليطلة وقرطبة (تضم جامعات مشتملة على مختبرات ومراصد ومكتبات غنية وكل شيء يساعد على البحث العلمي ، ومن الصعب تقدير عدد الكتب التي كانت في مكتبات بغداد العامة وخاصة ، بذلك لكثرتها وتشعب مواضيعها ، وقد كان للعرب في إسبانيا وحدها سبعون مكتبة عامة . وكان في مكتبة الحكم الثاني في قرطبة (٦٠٠) ألف كتاب ، وفيها أكثر من (٤٠) مجلداً من الفهارس فقط (٢٢٠) .

وواضح من هذا أن الحديث يدور عن مستوى ممتاز ، إن لم يكن واحد في الحضارة العربية - الإسلامية ، وينبغي هنا ، أن نذكر ، أن الاندلسيين استمدوا حضارتهم من المشرق العربي ، فكانوا لا يعترفون بأصالة العطاء الثقافي أو العلمي المعين ، أن لم يتوثقه شهادات و « تركيات » مشرقية (بغدادية) . ولا نريد بهذا أن نفص أو نقلل من مستويات الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس ، أو المغرب ، وإنما الحضارة الأم ، والحضارة - المركز هي التي تفرض التأثير الأساسي ، وشكل أقوى التيارات في الرافد الواحد .

إن صاحب (نفع الطيب) يشير إلى كثير من القصص والتواريخ عن مئات من علماء الاندلس كانوا يشدون الرحال ، باستمرار ، إلى المشرق العربي لاكتشاف مناهل العلم ، ولاقتناء أمهات الكتب ، وجديدها ، كما كان حكام

الاندلس ، على اختلافهم ، في شبه مباراة دائمة ، في تجميع او استنساخ (على الأقل) ذخائر الكتب والمصنفات من حواضر المشرق العربي المختلفة ، وبغداد ، بخاصة ، وبالمثل ، فان عددا من أبرز علماء وفناني المشرق العربي شدوا الرحال الى الاندلس ، ولعل زرياب يشخص هنا مثالا ساطعا . ولعل الدكتور خير الله يسهم ، ابلغ الاسهام ، في حسم مسألة التبادل الثقافي والعلمي بين جناحي الحضارة العربية المشرقية والمغربية ، حين يقول : في ختام بحثه القيم عن (الطب العربي ، الذي اشرنا اليه غير مرة) ، ان « نيار العلم كان متبادلا بين الشرق والغرب يتبادل السياحات من الغرب الى الشرق وبالعكس . فانكرماني سافر من بغداد الى الاندلس حاملا معه رسائل اخوان الصفاء ، وابن ابيطار ادخل للمشرق اقرباذين الغرب » (٢٢١) .

والا هم من كل ذلك ، هو ان تيار الحضارة العربية - الاسلامية فرض نفسه في اوربا ، الفارقة في البربرية انذاك ، فساعدها ، مع الزمن ، على بلوغها عصر نهضتها ، عصر الاحياء (الريسانس) ، وبذلك تكون بغداد قد اذهمت ، لا بالسيف ، بل بالثقافة ، وعن طريق الفكر والبحث العلمي ، ومقومات الحضارة الاساس ، في نقل عصا الحضارة العالمية الى اوربا ، لتسهم اسهامها المتميز في مواصلة المدنية الانسانية وتطويرها . يقول الاستاذ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة في بحثه (ملامح عربية في بواكير الشعر الانكليزي) : « ... لقد نقل زرياب حضارة بغداد العباسية في اوجها ، ثقافة بلاط الرشيد والامون ، بعد ان ادرك ان ليس في القمة متسع لآكثر من عظيم واحد ، وقد سبقه الى تلك القمة اسحق الموصلي . وكما دخل قرطبة يحمل عوده معه ، وجد في المحبل الجديد من الحرية ما جعله يزيد في اوتار عوده وترأ خامسا ، يتخذها من امعاء السباع ، ومن قوادم النسر ريشة يضرب بها فيخرج ما لا عهد للموصلي به من الحان . وكان زرياب شاعرا وقد تغذى بشعر ابي تواس وابي العتاهية ومن سبقهما . وانشأ زرياب مدرسة للفناء والشعر في قرطبة ، واقام مدرسة في القيافة واداب الطعام ، شاعت تعاليمها في طول البلاد وعرضها ... » (٢٢٢) ان امثال زرياب من الشرقيين . وتلامذة مدرسة بغداد في الفكر والثقافة وابحث العلم ، ومطوري تعاليمها ومنهجيتها العلمية في الاندلس قد ساعدوا في خلق اجيال عالمية ، فنانة ، مثقفة ، اضطلعت

بترسيخ القيم الحضارية الجديدة ، التي انتقلت الى الاسبان والفرنسيين . دون جواز سفر . فحفاق العلم والثقافة ومعطيات الفن والتفكير لا تحتاج هذا الجواز ، وقد اسهم جيل المستعربين والمدجنين ، حتى بعد خروج العرب من اسبانيا ، في نشر القيم الحضارية العربية ، رغم محاكم التفتيش ، وكان ان اصبحت اسبانيا الاندلسية . في تلك الحقبة الزمنية . في قمة الحضارة الاوربية . منها نهل الشعراء التروبادور ، وفيها ترجمت كتب العرب وفلسفتهم ومنطقهم . واقتبست حضارتهم ، وفنونهم ، وفيها (وفي جنوبي فرنسا لحد اقل) نشأت بذور الحضارة الجديدة ، مهددة لعصر النهضة العظيم . وكما يقول د . لؤلؤة ، مرة اخرى : كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي ذروة الحضارة العربية ومنها انتقل زرياب الى قرطبة فكان ، مثل هاملت مرآة المدوي وقالب الاناقة ، وما كان زرياب غير واحد ممن حمل مرايا النور الشعري الفخاني وقوالب الحضارة الجديدة من بغداد العربية العباسية الى قرطبة العربية الاندلسية فكان بعض من ساعد اوربا في تلك « الولادة الجديدة » (٢٢٣) .

ان هذه « الولادة الجديدة » هي ما كان قد تحدث عنها ، منذ عام ١٩٤٧ ، الفكر الفرنسي الكبير المعاصر روجيه غارودي ، واسماها مساهمة العرب في تجديد شباب العالم ، باعتبار ان عصر النهضة الاوربية جند شباب الحضارة العالمية ، واحياها . يقول روجيه غارودي (في دراسة له ، نشرت في آذار ١٩٤٧) :

« ان احد مظاهر سياسة التفرقة العنصرية التي يتبعها المستعمرون هي إنكارهم الدور الذي لعبته الحضارة العربية في تكوين العالم الحديث ... فمؤامرة الصمت والتشنيع المنظم على هذه الحضارة إنما تهدف الى تجاهل هذه الحقيقة الواقعية ، وهي ان الامة العربية ساهمت ، في ظروف تاريخية معينة ، بين العصر القديم وعصر النهضة ، مساهمة غنية في التقدم الانساني في كل ميادين الفكر والفن ولكن ... إذا نحن طرحنا جانباً ذلك التحيز الاستعماري والعنصري بدت لنا هذه الحقيقة الاولى ، وهي ان الاسلام ... حتى قبل ازدهار ثقافته الخاصة ... قد خلق بفتوحاته الواسعة ،

الظروف الضرورية لتجديد الحضارة ،
ولتجديد شباب العالم (١٢٤) .

ونكيلا يتهم غارودي بالتعصب للعرب ،
وهو المفكر الفرنسي الحر ، فانه يعلل (ويحيث)
مقولاته الحاسمة هذه (والتي كانت لطمة مدوية
في وجوه المنصريين والامبرياليين والصهاينة وكل
من « ابنى » بلمنة عقدة « انتفوق الاوربي »
ورؤية كل حضارة ، وكل شيء ، من خلال اوربا
فقط !) ، فيقول :

— « بين عامي ٨١٢ — ٨٢٢ م ، وبينما كانت
اوربا تجهل اقراءة ، كان الخليفة المأمون
يؤسس في بغداد « بيت الحكمة » الذي
اشتمل على مكتبة وجامعة ومكتب ترجمة ،
والذي اصبح التراث اليوناني بواسطته في
متناول جميع الذين يتلون القرآن ...
وبعد زمن قليل ، كان الخليفة الحكم الثاني
في قرطبة يملك (٦٠٠) الف مجلد ، بينما
ثم استطع ملك فرنسا « شارل انكليم »
ان يجمع ، بعد ذلك بأربعمئة سنة ، اكثر
من (٩٠٠) مجلد . لقد ظل إنتاج الكندي
(٨٥٠ م) والذي ترجمه جيرار دي كريمون
الى اللاتينية يشق الغرب خلال قرون عدة .
لقد اتسمت الثقافة العربية بأول مظهر من
مظاهر النهضة الاوربية ، مظهر الاحاطة
بالاصول الثقافية القديمة والعمل على
إحيائها ، فكانت اشبه برباط وثيق يصل
بين الثقافة القديمة والحضارة الحديثة .
فهي لم تقتصر على إحياء الحضارات البائدة
التي سبق ان ازدهرت في العراق ومصر
واليونان وروما ، بل قامت اساسا بتطوير
تراث القدماء واجتازتهم في عصرها الذهبي
الذي امتد من عام ٩٠٠ م الى عام ١١٠٠ م .
لقد وثب الشعب العربي ، بزرائعه النظام
الاقطاعي ، وثبة جيازة بالعلوم ، وثبة تلازم
مع الاهداف العلمية التي حددها لها ...
لقد كانت الجغرافيا ، ولاسيما الفلكية ،
ضرورة حيوية لدى اولئك الرجال الذين
دابوا على اجتياز الصحارى والبحار ، وان
مراسد سمرقند وبغداد ودمشق والقاهرة
وقرطبة ، وهي المراسد الاولى في العالم ،
كانت من صنع ايديهم ... وكان
الجغرافيون والفلكيون العرب ، انشاء
وضعهم ، عمليا ادلة الطرق وبيان مراحلها ،

يحافظون على جوهر الفكرة القائلة بكروية
الارض ، هذه الفكرة التي كان ينكرها رجال
اللاهوت المسيحيون ... وحوالي منتصف
القرن العاشر استطاع المسلمون ان يبلغوا
شواطئ كاتلون في الصين ، ولعلمهم بلغوا
كوريا واليابان ايضا .. وبعد خمسمائة
سنة ، كان الملاح الذي ارشد فاسكو دي
جاما الى طريق الهند .. ملاحا عربيا ...
لقد ادت ضرورات التجارة الى قلب علم
الحساب راسا على عقب ، فكان اكتشاف
الارقام العربية ، واخترع الصفر الذي
يرتكز عليه نظام التعداد العشري كله ،
الثورة الثانية في العلوم الرياضية منذ عهد
الفينيقين الذين قاموا بالثورة الاولى ...
ولم تعرف اوربا هذه الاكتشافات الا عن
طريق العرب .. عرفت بها بعدهم بمائتين
وخمسين سنة ... في علم الجبر وفق
الخوارزمي الى إعادة وضع المنهج الذي كان
يعرفه اليونان لحل المعادلات ذات المجهولين
... واستطاع الشاعر الرياضي عمر الخيام
حل المعادلات ذات الثلاث مجهولات بواسطة
المنهج الذي استخدمه ديكرات بعده
بخمسة قرون ، فوضع اسس الهندسة
التحليلية . وفي حساب المثلثات اكتشف
ابو الوفا وليس كوبرنيك الخط القاطع ...
واكتشف الفارابي اللوغاريتمات .. ودرس
ابن سينا الكميات غير المتناهية ... وفي
الطب ، ولبن نذكر الا السرازي ، وحسد
هذا المبقر بين الملاحظة والتجربة فوضع
بذلك تصنيفا منهجيا للأمراض ... وقد
اعيد طبع موسوعته الطبية التي ترجمها
فراجوت الى اللاتينية ، أربعين مرة من
١٤٩٨ — ١٨٦٦ ، وفي عصر النهضة اعيد
طبعا في فيينا عام ١٥٢٠ ، وفي فرانكفورت
عام ١٥٨٨ ... اي انها ظلت خلال الف
سنة ، حتى ظهور كلود برنار ، توجسه
الابحاث الطبية لدى كل الشعوب . ان ابن
سينا الطبيب والفيلسوف ، وابن رشد
الفقيه المجدد والعالم الطبيعي الفذ ، قد
اعلنا قبل ديكرات بخمسة قرون ، حق
إخضاع كل شيء ... الى حكم العقل ...
كانا رائدي الفكر النقدي والمذهب العقلي
الحديث .. لقد ادرك ذلك انشاعر ذاتي
فائى على ابن رشد ثناء عظيم في انشيد

الرابع من كتاب الجحيم في الكوميديا
الالهية ، كما أدرك ذلك روجر بيكون أكبر
مفكر غربي في القرن الثالث عشر ، فقال :
إن الفلسفة مستمدة من العربية .. وليس
من لاتيني واحد يستطيع أن يفهم ..
الفلسفة .. كما ينبغي .. أن لم يكن يجيد
اللغات التي نقل عنها ... » (٢٢٥) .

إن غارودي يتمم ، هنا ، من منظوره
الخاص ، مقولات المفكرين الفرنسيين الكبار
غوستاف لوبون ، وماسينيون ، وبريفو ، وهو
ينطلق من مفهوم علمي متكامل ، درس به
الحضارة العربية - الإسلامية ، في سائر إنجازاتها
العظيمة ، خصوصاً في عصرها الذهبي (عصر
مدرسة بغداد في الفكر والثقافة والبحث العلمي) ،
ويتوصل الى هذه الاستنتاجات مرتاح الضمير .
فهذه الحقيقة التي انتهى اليها ، يشاركه فيها
العديد من مفكري أوروبا الأحرار ، « دووي »
الذي يقول « لقد كان الفتح العربي نعمة بالنسبة
لإسبانيا ، فقد أدى الى ثورة اجتماعية هامة ،
وأزال قسماً كبيراً من المأساوي ، التي كانت
إسبانيا تن تحت عبثها منذ قرون » (٢٢٦) و
« أناطول فرانس » الذي يأسف لانكسار العرب في
معركة بوآيه عام ٧٣٢م ، ولترجع العلم والفن
والحضارة امام البربرية الفرنسية (ويشاركه في
هذا الأسف غارودي وعديد من مفكري أوروبا
الأحرار) ، وبلاسكو أيبانز ، المفكر الإسباني الذي
يقول بالحرف ، حاسماً (بلغة صاحب الدار وهو
أدري بالذي فيها) مسائل الفتح العربي لإسبانيا ،
وعلى نحو غاية في الموضوعية والتجرد العلمي :

« إن تجديد شباب إسبانيا لم يصلنا عن
طريق الشمال مع القبائل البربرية وإنما من
الجنوب مع العرب الفاتحين .. لقد كان
الفتح العربي بعثة حضارية أكثر مما كان
فتحاً ... عن هذا الطريق وليس عن
طريق آخر ... دخلت الى بلادنا هذه
الثقافة الفنية القوية اليقظة ، التي تبعث
على الدهشة لتقدمها السريع ، والتي ما
كادت تولد حتى انتصرت » (٢٢٧) .

إذن ... فالسر في هذه الحضارة الجديدة
التي أتى بها العرب ، حضارة العقل ، وحرية
الراي والضمير ، والموضوعية ، والتقدم ،
الحضارة التي بداتها بغداد ، عاصمة دولة هذه
الحضارة العربية - الإسلامية ، وطورتها بعض
الحواضر العربية ، الحضارة التي « لاتوصي

بالهرب من معترك الحياة او الانفصال عنها ...
والتي أوجدت الظروف الاقتصادية والاجتماعية
الملائمة بإزالة الفوضى الاقطاعية وطبقاتها
الطفيلية » (٢٢٨) .

من هنا ... تأتي بغداد المعاصرة ، بغداد
سبعينات القرن العشرين ، لتكمل رسالة بغداد
أنرشيد والمأمون ، بغداد بيت الحكمة ، وحضارة
العقل والمنطق والموضوعية وحرية الضمير
والتقدم ، لتقول بإعادة كتابة التاريخ بشكل علمي
وتنتصر لانجازات العرب الحضارية ، وفي
مقدمتها طريقة البحث العلمي او المنهجية العلمية ،
وهي أجود ما جاد به العقل العربي في بغداد
وسواها . يقول الرفيق رئيس مجلس قيادة
الثورة في الجمهورية العراقية ، الأستاذ صدام
حسين : « هناك نقطة يركز عليها أعداء العرب
وهي أن العقل العربي ليس من النوع الذي
يحسب التعقيدات ، أي أنه عقل غير مركب ،
متهمين إياه بأنه عقل ذو صفحة واحدة في
الحساب وهو لا يحسب الصفحات المحتملة
الأخرى بطريقة مركبة . في حين تؤكد الحضارة
او الحضارات العربية بشواهد لا تقبل الدحض
أن الأمة العربية قد حسبت أدق الصفحات
والاحتمالات في كافة شؤون الحياة والعلم في
الوقت الذي كانت جميع الأمم تعيش في دياجير
الظلام والتخلف » (٢٢٩) .

إن متهمي العقل العربي بالتقصير ، وهم
المبتلون بمقعدة التفوق الأوروبي ، وبمقعدة (الإغريقية)
بالتالي ، أي أن الحضارة البشرية المعاصرة أوروبية
بدانها اليونان وانتمها شعوب أوروبا الحديثة ،
وليس لأمة أخرى فضل في الحضارة العالمية ! إن
هذه المقعدة الأوروبية التي تمثل أسوأ ما في بعض
المقول الأوروبية والغربية عموماً من تخلف وبربرية
معاصرة هي التي جعلت البروفسور خالوف
يقول : « إن الأسس المتبعة في طرق البحث
التاريخية تجد صعوبة في إزالة الخرافة التي
تعتبر أوروبا في كل العصور ، تمثل تلك الأهمية
سياسياً وحضارياً كالتى تتمتع بها الآن » (٢٣٠)
وقد استعرضنا ، في تفصيل نسبي ، الرد العلمي
المفهم على هذه الخرافة الأوروبية المعاصرة ،
واعتمدنا ، أكثر ما اعتمدنا ، على مقولات المفكرين
الأوروبيين الأحرار ، من لوبون ، الى درابر ، الى
هولبارد ، الى سيديو ، الى بريفو ، وهونكه ،

الهوامش

(١) الإشارة الى كتاب « حضارة العرب » ، للدكتور
هوستاف لوبون (وقد ألفه عام ١٨٨٤) ، ونقله الى
العربية الاستاذ الفقيه عادل زميتير (من نابلس ،
فلسطين) ، وطبع بمطبعة ميسى البابي الحلبي
وشركاه . اما الذين كتبوا عن بغداد واسهامها في
الحضارة العربية والعالمية فهم من الكثرة بحيث لا
يغالهم الحصر ، وتلك الإشارة الى أبرزهم ، لوبون ،
ماسينيون ، عبدالكريم جرمانوس ، يفتيشي بيلابف ،
كراجكوفسكي ، بارتولد ، كرمسكي ، غريغوريان ،
شرويان ، شاه محمود ، بريفو ، دواير ، هوليارد ،
بول كراوس ، مينسكي ، كوفالسكي ، بولدريف ،
سيمينوف ، يوشمانوف ، فرانده ، بارانوف ، تيخو
ميروف ، نسيريلي ، سلطانونوف ، دولينينا ،
سولوفيوف ، بولجاكوف ، غفوروف ، شارباتوف ،
بيلكين ، كوفاليوف ، كامينكي ، ساغال ، كراسنوفسكي ،
بوريسوف ، ايفانوف ، غوته ، بيرك ، دي فو ، ليفي ،
بروفنسال ، ماسه ، رودنسون ، غارودي ، كابتانو ،
نلليشو ، دوزي ، كارليل ، ارنولد ، اربري ،
تومسون ، ستيفارت ، مرجليوث ، نيكولسن ،
ريضانوف ، نيكولايسكي ، براون ، مينورسكي ،
فيلبي ، لاندوا ، غومس ، نوجاليس ، كرايمر ،
شترانس ، ارالون ، سنوك ، هرجونجة ، فلهوزن ،
كيرن ، نولدكه ، بروكلمان ، جب ، جروهمان ، كاله ،
شاخت ، برنال ، كومب ، غولدمير ، فؤاد سزكين ،
كاظم مرزبانك ، جوزي ، كوفاليسكي ، كاشتاليفا ،
شميدت ، فينيكوف ، اليسيف ، زوبر ، نيكل ،
دورنتال ديجا ، جرنوم ، جيرنيشيفسكي ، تولستوي ،
غولبول ، مواله ، جوبار ، بالفريف ، سنكوفسكي ،
ليديفا ، بيكون ، دينان ، كازانوف ، لامس ،
جونثال ، بانسيفا ، يوشين ، بيساريفسكي ،
كوزمين ، فيتجرالد ، أولري ، آدم متر ، روزين ،
شوموفسكي ، كور دوبروف ، ليفين ، كرمسوف ،
ستيبيانوف ، نلانوفسكي ، لونسكي ، لونسكايا ،
عثمانوف ، غالان ، مديو ، بارتلمه ، برناردلوبيس ،
شولتز ، بيل ، ساه ، سارطون ، مايرهوف ،
كاربنسكي ، غريغوريف ، روكيت ، كونوف ، لودفيج ،
لورنس ، محمودوف ، حميدوف ، ميخايلوفسكي ،
هاملتون ، هولبوند ، ويلسون ، يوسوبوف ، ريستر ،
مهديف ، سمديف ، سميانسكايا ، ديمجنكو وغيرهم
كثير .

(٢) لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة عادل زميتير ، فصل
« العرب في بغداد » ، ص ١٧١ .

(٣) ينظر كتاب « بغداد » ، (قامت بشره - نقابة
المهندسين العراقية ، على نفقة مؤسسة كولنكيان) ،
١٩٦٩ - (البحوث من اعداد د . مصطفى جواد ، و
د . احمد سوسة ، د . محمد مكية ، الاستاذ ناجي
معروف) - (اشرفت على التنفيذ لجنة مؤلفة من
الاستاذ المهندس سعيد علي مظلوم ، والدكتور المهندس
رمزي سليمان - اخراج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة ،
بغداد) . [فصل - « تخطيط بغداد في مختلف

وغارودي ، واناتول فرانس ، وبلاسكو ايبانز
وغيرهم . واليوم ، يتفق كل الباحثين العلميين
الموضوعيين ، لوربيين كانوا ام عربا ، اشتراكيين
كانوا ام غير اشتراكيين ، على المقولة التي انتهى
اليها الفكر المصري التقدمي المعاصر الدكتور
محمود امين ، حين أكد يقول : « ان الفكر العربي
العلمي هو جوهر الفلسفة الاسلامية . وان
الفلسفة الاسلامية بهذا ليست امتدادا للفكر
اليوناني بل كانت إضافة جديدة اليه ذات طابع
تجريبي كمي ، كما كانت نقطة انطلاق ، عبر روجر
بيكون ، وديكارت ، وفرنسيس بيكون ، وجاليلو ،
الى نشأة العلم التجريبي الحديث » (٢٣١) .

وليس لنا ، في ختام بحثنا المتواضع هذا ،
إلا ان نقول ، مع البروفسور ج.د. برنال ، العالم
البريطاني الكبير ، والشخصية العلمية العالمية
الشهيرة في حركة السلام ، (في معرض تبيين
الإنجازات الحضارية لدرسة بغداد في الفكر
والثقافة والبحث العلمي ، واستخلاص ،
الاستنتاجات اللازمة من دروس الحضارة العربية
في ضوء النهضة العربية المعاصرة اليوم) :

« ان العلم باعتباره وجهاً من اوجه النشاط

الانساني ليس قائماً بذاته ، بل هو جزء من
الثقافة الانسانية ، ولعل هذا الاعتبار لم
يتحقق في الماضي قط باكثر مما كان في
الدول العربية ، فنحن في الغرب مدينون
للغرب بكل علمنا ، وهم لم ينقلوا إلينا
تراث الاغريق فحسب ، بل اصفوا على
هذا التراث احكاماً أدق وروحاً عملية ، لم
تكن ظاهرة في عمل الاغريق ، وقد اضاف
العرب في الرياضيات والكيمياء إضافات
لا تتكرر في تاريخ العلم ... ولم يكن العلم
عند العرب يعتبر متفرداً قط ، فقد عرف
رجاله الفطاحل مثل جابر والخوارزمي
وابن سينا وابن رشد بالثقافة العامة
واتساع الافق الفكري ... فلنامل ان
عندما تقوم الأمة العربية ، مرة أخرى ،
بإداء نصيبها كاملاً في التقدم العلمي ، ان
يكون ذلك بنفس الروح التي كانت تميز
العلم العربي إبان ازدهاره » (٢٣٢) .

أجل ، لقد نهضت بغداد اليوم ، منطلقة من
روح انبحث العلمي ، اعظم هدية جادت بها
على الثقافة العالمية ، لتكمل مسيرة الاسلاف
العظام .

- (٢٥) نفسه ، ص ٦٦ - ٦٧ .
- (٢٦) قدري حافظ طوفان ، ذات المصدر « فصل » سلطان العقل عند المعتزلة .
- (٢٧) ذات المصدر ، مقام العقل عند الرازي [تنظر ، كذلك ، رسائل الرازي] .
- (٢٨) نفسه .
- (٢٩) نفسه .
- (٣٠) نفسه .
- (٣١) الفارابي ، « رسالة في العقل » . [تنظر ، كذلك ، مجلة « المورد » ، العدد الخاص بالفارابي ، ١٩٧٥ - عدة بحوث ، منها البحث عن المترجمان لكاتب السطور] .
- (٣٢) ابن سينا - (عدد خاص) - مجلة « العلوم » البيروتية ، ١٩٥٧ .
- [تنظر كذلك مجموعة الأبحاث الصادرة بمناسبة المهرجان الالفى لابن سينا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الإسلامية .]
- (٣٣) مجلة الاديب البيروتية ، العدد الخاص بابي الصلاء المصري ، ١٩٤٤ . [تنظر كذلك دواوين المصري ، والدراسات الصادرة حوله ، خصوصا الدراسات التالية للدكتور طه حسين : « مع أبي الصلاء في سجنه » ، وللدكتورة بنت الشاطئ « رسالة الغفران » ، وللكاتب البروفسور كراجكوفسكي - « متنيينا » ، و « العربي والتمني » - وهما دراستان سنترجهما مجلة « المورد » الفراء - ، وكتاب البروفسور شرويان عن أبي الصلاء المصري - بالروسية - ، وكتاب البروفسور غريغوريان (المار ذكره) . بالروسية حول الفلسفة العربية - الإسلامية] .
- (٣٤) هكذا تدعو معظم الدراسات الاستشرافية المعاصرة .
- (٣٥) قدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب (مصدر سابق) .
- (٣٦) اخوان الصفاء ، الرسائل ، الرسالة السادسة من العلوم الناموسية والشرعية .
- (٣٧) قدري حافظ طوفان ، مقام العقل عند العرب ، فصل « سلطان العقل عند المعتزلة » .
- (٣٨) نفسه .
- (٣٩) نفسه .
- (٤٠) نفسه ، فصل ، « سلطان العقل عند المعتزلة » . [ينظر كذلك « الجاحظ » لمحمد عبد المنعم خلفي ، و « الجاحظ » لشارل بلا ، وكتاب البروفسور غريغوريان ، بالروسية ، عن الفلسفة العربية - الإسلامية] .
- (٤١) المصدر السابق ذاته (مقام العقل عند العرب - طوفان) .
- (٤٢) « مختار رسائل جابر بن حيان » (عني بتصحيحها ونشرها بول كراوس) ، مكتبة الغانجي ومطبعها ، القاهرة ، ١٢٥٤ هجرية . [أعادت طبعه بالأوليت مكتبة المتنبي ببغداد] . - (كتاب « الميزان ») .
- (٤٣) المصدر ذاته ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢٢٢ .
- (٤٤) جابر بن حيان ، كتاب البحث (أورده مصطفى ليبب ، « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق) .

- عصورها » للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور أحمد سوسة ، - بغداد في ادوارها الاولى ، كسبة بغداد ، ص ١٦] .
- (٤٥) ينظر - كتاب « بغداد - مدينته النصور المدورة » ، تأليف - طاهر مظفر العميد (الدكتور) - رسالة مقدمة الى جامعة بغداد للحصول على الماجستير بالآثار الاسلامية ، من منشورات المكتبة الاهلية ، بغداد ، ١٩٦٧ . [المقدمة - للاستاذ ناجي معروف] .
- (٤٥) لوبون ، « حضارة العرب » ، ترجمة عادل زعيتير ، « العرب في بغداد » ص ١٧١ - ١٧٢ .
- (٤٦) نفسه . كذلك ينظر - غوغول ، المؤلفات الكاملة (بالروسية) :
Gogol, N. V. Sobranie Sochineivie, tom 6, "Al-Mamyn", p. 62.
[وسنترجم البحث القيم هنا ، قريبا ، مجلة « المورد » الفراء] .
- (٤٧) ابن خلدون ، المقدمة . [كذلك ينظر : لوبون ، حضارة العرب ، مصدر سابق ، ص ١٧٢] .
- (٤٨) لوبون ، حضارة العرب (مصدر سابق) ، ص ١٧٢ .
- (٤٩) المصدر ذاته ، ص ١٧٢ .
- (٥٠) ديوان الامام علي (ع) ، دار كرم ، بيروت .
- (٥١) مصطفى ليبب ، « الكيمياء عند العرب » ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص ٥٩ .
- (٥٢) نفسه .
- (٥٣) نفسه ، ص ٨٢ .
- (٥٤) نفسه .
- (٥٥) نفسه ، ص ٨٢ .
- (٥٦) نفسه ، ص ٨٢ . [أورده هوليارد في « مصنفات في علم الكيمياء للحكيم جابر بن حيان »] .
- (٥٧) قدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » ، (الالف كتاب - ٤) ، مكتبة مصر ، ١٩٥٧ ، ص ٨٢ .
- (٥٨) نفسه ، ص ١١٢ .
- (٥٩) نفسه ، ص ١١٢ .
- (٦٠) نفسه ، ص ١٦٨ .
- (٦١) نفسه .
- (٦٢) نفسه ، ص ١٠٤ .
- (٦٣) نفسه .
- (٦٤) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٦٥) نفسه ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
- (٦٦) نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٦٧) نفسه .
- (٦٨) نفسه ، ص ١٦٥ .
- (٦٩) نفسه ، ص ١٦٦ .
- (٧٠) ينظر كتاب د . داود سلوم « النقد الادبي » ، وكتاب د . احسان عباس « تاريخ النقد الادبي عند العرب » .
- (٧١) ينظر كتاب د . داود سلوم ، النقد الادبي وكتابه : النقد المنهجي عند الجاحظ وكذلك « الجاحظ » لمحمد عبد المنعم خلفي .
- (٧٢) قدري حافظ طوفان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، ص ١٦٠ .
- (٧٣) نفسه ، ص ٧٩ .
- (٧٤) نفسه ، ص ٨١ .

(٥٥) مختار رسائل جابر بن حيان (مصدر سابق) ، كتاب « التصريف » . [ينظر كذلك كتاب « الكيمياء عند العرب » ، مصدر سابق ، (ص ٨٤ - ٨٥)] .

(٥٦) جابر بن حيان ، كتاب البحث ، ص ٢١٠ (الكيمياء عند العرب ، مصدر سابق ، ص ٧٦) .

(٥٧) مختار رسائل جابر بن حيان ، « كتاب الخواص الكبير » ، ص ٢ - ٤ . (مصدر سابق) .

(٥٨) المصدر السابق ذاته ، « كتاب السجين » ، ص ٤٦٤ .

(٥٩) جابر بن حيان ، « كتاب البحث » ، ص ٣٠٨ (الكيمياء عند العرب ، ص ٨٤) .

(٦٠) د . زكي نجيب محمود ، « جابر بن حيان » ، ص ٥٨ .

(٦١) نفسه ، ص ٧٥ .

(٦٢) و (٦٣) و (٦٤) و (٦٥) « الكيمياء عند العرب » (مصدر سابق) .

(٦٦) جابر بن حيان - كتاب التجريد ، ص ١٢٧ - ١٢٨ - نشر هوليارد .

(٦٧) الجاحظ ، كتاب « الحيوان » ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٦٨) المصدر ذاته ، ج ٢ ، ص ٥٠ .

(٦٩) نفسه ، ج ٥ ، ص ٥٠٣ .

(٧٠) رسائل اخوان الصفاء ، الرسالة السابعة .

(٧١) كتاب المناظر لابن الهيثم . [كذلك : الحسن بن الهيثم : بصوته وكشفه البصرية ، لمصطفى نظيف] .

(٧٢) مصطفى نظيف : المصدر ذاته .

(٧٣) فديري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » ، (مصدر سابق) ، ص ٨٦ .

(٧٤) نفسه . [كذلك ينظر كتاب « مذم العقول عند العرب ، لنفس المؤلف ، الباب الخامس] .

(٧٥) كتاب « بغداد » ، (نشرته نقابة المهندسين العراقية) ، مصدر سابق - (ص ١٤٥) .

(٧٦) نفسه .

(٧٧) نفسه .

(٧٨) ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٢ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ - ٩٥) نفسه .

[بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » ، تنظر ايضا ، دراسات طه حسين ، واحمد امين ، وعبدالحمد الصادي عن الحياة العقلية والعلمية والثقافية في فجر الاسلام ، وضحاها وظهوره ، وكذلك كتاب « شمس العرب تسطع على الغرب » ، للمستشرفة الانكليزية زيفريد هوتكه - الترجمة العربية ١٩٦٩ ، وكتاب « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » لحكمت نجيب الموصلي ، ١٩٧٧] .

(٩٦) فديري حافظ طوقان ، « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .

(٩٧) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة إليه) .

(٩٨) ينظر (« طوقان - « العلوم عند العرب ») و (حكمت نجيب - « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ») و (د . امام ابراهيم ، « تاريخ الفلك عند العرب » القاهرة ، ١٩٧٥) .

(٩٩) فديري حافظ طوقان - « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) - ص ٦٤ .

(١٠٠) بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر مرت الإشارة إليه) .

(١٠١) نفسه .

(١٠٢) ١٠٣ ، ١١١ (نفسه) بحث ناجي معروف المشار إليه آنفاً .

(١١٢) زيفريد هوتكه - « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٢ .

(١١٣) « الموجز في تاريخ العلوم عند العرب » ، محمد عبد الرحمن مرجب ، ص ١٢٨ - ١٢٠ .

(١١٤) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » فديري حافظ طوقان ، ص ٧٦ ، ٧٩ .

(١١٥) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٧٧ .

(١١٦) و (١١٧) « العلوم عند العرب » ، فديري حافظ طوقان (مصدر سابق) .

(١١٨) نفسه ، ص ١٢٠ .

(١١٩) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٩٧ .

(١٢٠) كتاب « الجبر والمقابلة » ، للخوارزمي (تحقيق د . علي مصطفى مشرفة ، و د . محمد مرسي أحمد . مطبعة فتح الله الياس ، القاهرة) ، ص ٥ .

(١٢١) « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » ، طوقان (مصدر سابق) ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(١٢٢) « الاسلام والعرب » لروم لاندو ، ترجمة منير البعلبكي ، بيروت ، ص ٢٥٢ .

(١٢٣) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٠٢ .

(١٢٤) نفسه [ينظر كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .

(١٢٥) « العلوم عند العرب » ص ١٠٢ .

(١٢٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .

(١٢٧) - (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) - المصدر ذاته (علم الحساب عند العرب) .

(١٣١) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، فصل « علم الهندسة عند العرب » ، « تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » لطوقان .

(١٣٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » [الاصل هو بحث الاستاذ الدكتور صالح احمد علي ، « دراسة العلوم الرياضية ومكانتها في الحضارة الاسلامية » ، مجلة « المورد » ، مع ٣ ، العدد ٤ ، ١٩٧٤ ، ص ٤٥) .

(١٣٣) رسائل اخوان الصفاء ، القسم الرياضي ، ص ٩٧ ، و ١٠١ .

(١٣٤) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) .

(١٣٥) « العلوم عند العرب » ، ص ٥٩ .

(١٣٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ص ١٦٩ .

(١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) نفسه ص ١٧٠ - ١٧٢ .

(١٤٠) زيفريد هوتكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ص ١٥٨ - ١٦٢ .

(١٤١) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ٤ - ٥ .

(١٨٠) تنظر رحلة ابن جبير . [وكذلك بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف في كتاب « بغداد »] .

(١٨١) [ينظر بحث ناجي معروف « مدرسة الطب المستنصرية » ، في كتاب « بغداد » - (مصدر سابق)] .

(١٨٢) [بحث « بيمارستانات بغداد » لناجي معروف ، في كتاب « بغداد » (مصدر سابق)] .

(١٨٣) « الطب العربي » ، للدكتور أمين أسعد خير الله ، (مصدر سابق) ، الفصل السادس] .

(١٨٤) و (١٨٥) المصدر ذاته ، ص ٧٥ .

(١٨٦) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، حكمت نجيب (مصدر سابق) ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(١٨٧) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، كتاب « الأيدي الشافية - الفصل الأول ، والفصل الثاني . والمقصود بالحجة المسكرة (أي الخلفة بالسكر) والمدهبة (الخلفة بالنهب) ، وهذا تدير كان يلجا اليه ابن سينا مع مرضاه ، سهيلا لتناول الدواء .

(١٨٩) نفسه .

(١٩٠) ينظر كتاب د . محمد أمين ، « موائل فكرية » ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١١٢ .

(١٩١) و (١٩٢) [« شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، (الكتاب الخامس « سلاح المعرفة »)] .

(١٩٣) تنظر مجلة « المورد » العدد الثاني ١٩٧٨ (عدد خاص بالتراث والمعاصرة) ، بحث الأستاذ الدكتور مصطفى شريف العاني « الطب العربي بين التراث والمعاصرة » ص ٩٥ - ١٢٢ . [وتنظر دراسات الأستاذ طه باقر واطروحة حول التراث العربي ، مجلة الملقى عربية ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، وكتاب « معاصرات في التاريخ القديم » للدكتور عامر سليمان واحمد مالك الفتيان ، ١٩٧٨] .

(١٩٤) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ص ١٦٢ .

(١٩٥) « شمس العرب تسطع على الغرب » ص ١٠١ - ١٠٢ .

(١٩٦) يكرس غوستاف لوبون ، لهذه الموضوع ، فصولا عديدة في كتابه « حضارة العرب » ، خصوصا (الباب الخامس) و (الباب الثالث) .

(١٩٧) « الاسلام والحضارة العربية » ، محمد كرد علي ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٢٤ ، ص (٢١٥) .

(١٩٨) و (١٩٩) و (٢٠٠) « الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري » ، آدم متر ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، (القسم الأول) ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، الفصل الثاني عشر « العلماء » .

(٢٠١) تنظر ، مجلة « المورد » ، المجلد الثامن ، العدد الثاني ، صيف ١٩٧٩ ، (ص ١٠٩) ، « داغسان واليمن » للأكاديمي البروفسور كراجكوفسكي ، ترجمة كاتب السطور ، ويتصل بذلك بحث آخر لكراجكوفسكي ، أيضا ، عن (الأدب العربي في القفقاس الشمالي) ، وقد ترجمه كاتب السطور للمورد أيضا .

(١٤٢) المصدر السابق ، ص ١٤ (والاشارة الى كتاب « تطور الطب » للسير وليم أوسلر) .

(١٤٣) و (١٤٤) زيفريد هونكه ، « شمس العرب تسطع على الغرب » ، الترجمة العربية (مصدر سابق) ، [كتاب « الأيدي الشافية » ، فصل « أحد اعظم اطباء الإنسانية اطلاقا » ، ص ٢٤٢ فصاعدا] .

(١٤٥) رسائل الرازي [كذلك « العلوم عند العرب » (مصدر سابق)] .

(١٤٦) و (١٤٧) « العلوم عند العرب » (مصدر سابق) [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب »] .

(١٤٨) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٢ .

(١٤٩) نفسه ، ص ٢٥٠ [كذلك : « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، ص ٤٦] .

(١٥٠) الدكتور أمين أسعد خير الله ، « الطب العربي - مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به » ، تعريب الدكتور مصطفى أبو عز الدين ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(١٥١) « شمس العرب تسطع على الغرب » (مصدر سابق) ، ص ٢٥٧ .

(١٥٢) و (١٥٣) - (١٦٢) « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » (مصدر سابق) ، فصل « الطب في عصر الدولة العباسية » . [كذلك « الطب العربي » للدكتور أمين خير الله ، الفصل السابع] .

(١٦٣) و (١٦٤) و (١٦٥) و (١٦٦) « الطب العربي » (مصدر سابق) الفصل العاشر [كذلك « دراسات في تاريخ العلوم عند العرب » ، الفصل الثالث عشر] .

(١٦٧) Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, By Martin Levey, Elsevier Publishing Company (Amsterdam, London, New York, Princeton), 1959.

(الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين ، للبروفسور مارتن ليفي ، من جامعة تمبل (فيلادلفيا - الولايات المتحدة ، ١٩٥٩) - وقد ترجمناه لحساب وزارة الثقافة والاعلام (بالمشاركة مع د . محمود فياض و د . جواد البدر) .

(١٦٨) يمكن الاشارة الى هوليارد ، وهامرتن ، وهوز ، ومسور ، وبارتنجن ، وأوليري ، وكراوس ، ونيكولايسكي ، وإيلفانوف ، وستابلن ، وتيلر ، ونومسون ، وفون ليبان ، وهافر ، وفرجاسون ، وبرتلو ، وفون ماير ، وبيتروف كأمثلة على ذلك .

(١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) « الطب العربي » ، للدكتور أمين أسعد خير الله (مصدر سابق) ، الفصل العاشر .

(١٧٣) (١٧٤) [« شمس العرب تسطع على الغرب » ، مصدر سابق ، « الأيدي الشافية » ف١ و ف٢] .

(١٧٥) (١٧٦) (١٧٧) « الطب العربي » (مصدر سابق) - [كذلك بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » عن بيمارستانات بغداد (مصدر سابق)] .

(١٧٨) « الطب العربي » (مصدر سابق) ، الفصل السادس

(١٧٩) [بحث ناجي معروف في كتاب « بغداد » (مصدر سابق) - فصل « بيمارستانات بغداد »] .

- (٢٠٢) تؤكد ذلك التلوي والتنقيبات الأخيرة في شمال الاتحاد السوفيتي ، وثمة دراسات عديدة حول ذلك .
- (٢٠٣) ينظر ، كتاب محمد مفيد الشوباشي « العرب والحضارة الأوربية » ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩ - ٤٠ .
- (٢٠٤) يشار إلى ذلك ، في كتاب « تاريخ الفكر الاندلسي » ، اشارات مفصلة .
- (٢٠٥) الدكتور فيصل السامر - « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » ، منشورات وزارة الإعلام في بغداد ، ١٩٧٧ ، (ص ١٣ فصاعداً) .
- (٢٠٦) و (٢٠٧) نفسه ، ص ١٤ ، ٢٧ .
- (٢٠٨) يفسر هذا سر وجود جاليات عربية في عدد من بلدان الشرق ، بمن فيهم عرب آسيا الوسطى .
- (٢٠٩) « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » (مصدر سابق) ، ص ٢٤ .
- (٢١٠) بلغت البحوث المدة في انتشار وتاثير الف ليلة في الادب العالمي اكثر من خمسمائة بحث ، بشتى اللغات
- (٢١١) « دراسة مقارنة في الامثال الروسية والعربية » كتاب الطور ، بغداد ، ١٩٧٨ .
- (٢١٢) و (٢١٣) تعتبر دراسة (الادب العربي في القفقاس الشمالي) للاكاديمي البروفسور كراچكوفسكي مكملة لدراسة (دالمستان واليمن) وهي تستند الى معطياتها ، وتطورها . اما انتشار الحكم والمأثورات العربية في المناطق المسلمة في الاتحاد السوفيتي (وخصوصاً دالمستان) فهو نظير لانتشار هذه المأثورات في الشرق الاسيوي (الهند واليابان واندونيسيا وبعض مناطق الصين والفلبين) .
- (٢١٤) ثمة كتب عديدة حول معطيات المؤلفات العربية (للرحالة العرب أو للكتاب العرب والمسلمين عموماً) ، وأهمية هذه المعطيات في دراسة تاريخ شعوب الاتحاد السوفيتي ، والمنطقة .
- (٢١٥) و (٢١٦) ينظر كتاب الدكتور فيصل السامر - « الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى » ، الفصل الخامس « السفارات العربية الى الصين في العصور الوسطى والإسلامية » (٢١٧) « حضارة العرب » (مصدر سابق) ص ١٧٨ .
- (٢١٨) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .
- (٢١٩) المصدر ذاته ، ص ١٨٠ .
- (٢٢٠) أورده د . جابر الشكري في بحثه « المآثر العربية في دراسة المنتجات الطبيعية » ، مجلة (افاق عربية) ، آب ١٩٧٩ ، ص ٨٦ .
- (٢٢١) « الطب العربي » (مصدر سابق) ص ٢١٧ .
- (٢٢٢) و (٢٢٣) ينظر مجلة « افاق عربية » ، تشرين الاول ١٩٧٧ ، ص ٧٩ .
- (٢٢٤) و (٢٢٥) و (٢٢٦) و (٢٢٧) و (٢٢٨) ينظر « دفاع عن الثقافة العربية » ، فتحي خليل ، ١٩٥٩ ، (ص ٩ - ١٢) .
- (٢٢٩) صدام حسين ، حول كتابة التاريخ ، نشرته مجلة

- « المورد » في انتهائيتها للعدد الثاني ، المجلد الثامن ، ١٩٧٩ (صيف ١٩٧٩) ، وكان هذا النص مقدّم الدرس والتأمل في الاجتماع الموسع لمكتب الاعلام بتاريخ ١٩ ايلول ١٩٧٧ . (ونشر « المورد » أيضاً ، دراسات لبعض الاساتذة استلهما للنص) .
- (٢٣٠) أورده الدكتور فاروق عمر فوزي في دراسته المنشورة في المورد (صيف ١٩٧٩ - المصدر السابق) بعنوان : « آراء خاطئة في تفسير التاريخ العربي » . وقد تحدث بهذا الخصوص د . صالح أحمد العلي ، أيضاً ، في دراسته « أصول ومقومات الحضارة العربية . حاجتها الى اعادة التقييم » ، (انظر دراسة د . فوزي ص ٢٦ ، ودراسة د . العلي ص ١٩) .
- (٢٣١) ينظر كتاب « معارك فكرية » ، للدكتور محمود أمين (مصدر سابق) ص ١٢٢ - ١٢٣ . [من المهم هنا ان ننقل رأي لوبون في ما حققه العرب وما حققه الاغريق ، وفي المساهمة العرب العلمية الى الحضارة العالمية . يقول لوبون ، على ص ٢٢٢ في كتابه المشهور « حضارة العرب » ، وبم عنوان « مناهج العرب العلمية » : « ليست المكتبات والمختبرات والآلات غير وسائل للدراس والبحث ، وتكون قيمتها في معرفتنا الاستفاد منها . وقد يستطيع المرء ان يكون مطلقاً على علوم الآخرين ، ولقد يبقى عاجزاً عن التفكير وابتداع أي شيء مع ذلك ، فيظل ظمناً غير قادر على الارتقاء الى درجة استاذ ... لم يلبث العرب ، بعد ان كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان ، ان أدركوا ان التجربة والرصد خير من الفصل الكتب ، وعلى ما يبدو من ابتداء هذه العملية جد علماء القرون الوسطى في أوروبا الف سنة قبل ان يطمحوا . ويعزى الى بيبكون ، على العموم ، انه اول من قام التجربة والترصد ، اللذين هما ، ركن التناصح العلمية الحديثة ، مقام الاستاذ ، ولكنه يجب ان يعترف اليوم بان ذلك كله من عمل العرب وحدهم ، وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب ، ولاسيما هنبولد ، فبعد ان ذكر هذا العالم الشهير ان ما قام على التجربة والترصد هو ارفع درجة في العلوم قال : « ان العرب ارتقوا في علومهم الى هذه الدرجة التي كان يجعلها القدماء تقريباً » . وقال مسيو سيدو : « ان اهم ما انضمت به مدرسة بغداد في البداية هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لاعمالها ، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقاً مؤدياً الى استنباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها اساتذة العرب ، وكان العرب ، في القرن التاسع من الميلاد ، حازرين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول الى ادوع الاكتشافات » . (لقد انتقل) تراث اليونان العلمي الى البيزنطيين الذين عادوا لا يستطيعون منه منذ زمن طويل ، ولما آل الى العرب حولوه الى غير ما كان عليه فتلقاه ورتبهم وخلقوه خلقاً آخر » . [
- (٢٣٢) ينظر ، (« رسالة العلم الاجتماعية » ، للبروفسور ج . د . برنال ، ترجمه د . ابراهيم حلمي ، ص ١

التماثيل والانصاب في بغداد

بقلم

عادل العركاوي

بغداد - الجمهورية العراقية

● مدخل :

● مع دخول الثورة عامها الحادي عشر ، مليئة بانتصاراتها وتلاحمها مع الجماهير ، تكون بغداد عاصمتنا الزاهرة ، قد تغيرت ملامحها نحو الموقع الابهي والانضل والاجمل .. وهذا ما حدث بالفعل .. ما دامت هذه المدينة العربية العريقة تحمل بين ثناياها ارض الماضي المشرق الذي عاشته قبل عدة قرون .. وما دامت هي هي بغداد الاولى تبث حضارتها الجيدة من جديد في زمن نورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية .

● فمع كل اطلالة فجر باسم جديد يمر بهذه المدينة العامرة .. تكتسب فرحا جديدا ومكسبا عظيما وتغيرا شاملا في هذه الموقع او ذاك .. وتشهد ايضا اجثاثا من الاساس لبقايا النخلف والاهمال الذي عانت منه بغداد ابان العهد الرجعية المندثرة . من بين تلك الملامح الجديدة والاصيلة التي اكتسبتها بغداد في السنوات الاخيرة ظاهرة النصب والتماثيل واللوحات الجدارية الرائعة التي زرعت في ساحاتها ومنعطفاتها ومتنزهاتها الخضراء الفسيحة ، والتي اضفت عليها مسة جمالية اخاذة ذات جذور حضارية مربية تمتد الى عصور هذه المدينة الزاهرة وابامها الذهبية .. يوم كانت موئلا لبلاد العرب والمسلمين .

● وكما في المدن المتقدمة في ارجاء العالم ، فقد تكاثرت هذه النصب والتماثيل بشكل يشير الفخر والاعتزاز بماضي الامة ، وما قدمته من ابداعات في شتى حقول المعرفة والفكر والحضارة .. فانصببت تماثيل عديدة تمجد البطولة وملاحم الشعب ونضالاته .. كذلك تماثيل تذكارية للشعراء

والادباء والفنانين والعلماء والفداة التاريخيين وغيرها من الرموز العربية المستمدة من تاريخ وتراث امتنا العربية وامجادها الفذة ، والتي ساهمت مدينة بغداد عبر تاريخها الطويل بصنعها .

● ليس غريبا على بغداد العربية ان تحتضن هذه المجموعة الكبيرة من التماثيل والانصاب التذكارية الجميلة ، لان هذه المدينة هي عاصمة بلاد الرافدين العريقة بحضارتها واثارها المنتشرة في كل مكان ، والتي تحكي للاجيال قصة الحضارة الانسانية ، وفجر السلالات البشرية التي سكنت وادي الرافدين قديما وتركزت للاجيال التي نلتها موروثا حضاريا واثاريا عظيما ملا قاعات المتاحف العراقية والعالمية الشهيرة .. ومنها ما زال مطورا تحت التراب ، لم تصله يد البحث والتنقيب بعد .. !!

ان حضارات ومخلفات البابليين والاشوريين والسومريين وغيرهم من الاقوام الاخرى .. ما تركته لنا من آثار وشواخص عديدة خير شاهد لهذا الامتداد الحضاري المشرق .. الذي عاشته ارض الرافدين منذ بدء البشرية وحتى يومنا الحاضر .

وما التماثيل والانصاب المنتشرة هنا وهناك في ارجاء العاصمة ومتنزهاتها الا غيض من فيض ذلك الدفق الحضاري الاصيل .. الذي حبي الله به هذه التربة المباركة ، التي شيدت عصر النهضة والانبعاث العربي الاسلامي خاصة في زمن العباسيين .. وتشهد حاليا انتصارات الثورة العملاقة بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي .

● هذه المقالة المتواضعة التي اتناول من

وخل هذا التمثال منتحبا في مكانه متحديا متاعر واردة ابناء الشعب .. حتى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث سارعت الجماهير الى تهديم حجارته وتحطيم قاعدته من الاساس .. وهكذا قضت على هذا الرمز الاستعماري البغيض .

● عبدالحسن السعدون :

● يعتبر تمثال المرحوم عبدالحسن السعدون رئيس الوزراء العراقي في اواخر العشرينات ، من اقدم تماثيل العاصمة اليوم .. فقد اقيم التمثال عام ١٩٣٢ ، وهو من عمل النحات الايطالي (بياترو كانونيك) وهو من خيرة الفنانين الايطاليين آنذاك ، حيث سبق له ان نحت تمثالا لمسطفى كمال اتاتورك مؤسس تركيا الحديثة في انقرة .

وياتي اقامة تمثال للسعدون ، بمثابة تكريم من الحكومة العراقية له ، ولوقفه من الاستعمار البريطاني المتحكم حينها في شؤون البلاد ، مما دفع بعبدالحسن السعدون الى الانتحار برصاصة من مدسه اطلقها على نفسه اثر خلافاته مع المستعمرين الانكليز حيث ترك وصية قال فيها مخاطبا ولده علي : « الشعب يريد الخدمة والانكليز لا يوافقون .. » .

ومن الطريف ان هذا التمثال تنقل مرتين من مكانه ، قبل ان يستقر اخيرا في ساحة النصر .. فعند نصبه اختبر له مكان يقع اليوم في راس جسر الجمهورية من جانب الرصافة .. بعدها تم تحويله من مكانه الى مدخل شارع السعدون الذي اطلق اسم عبدالحسن السعدون على هذا الشارع تخليدا له ايضا .. وذلك لتعارضه مع موقع الجسر المذكور .. وقبل (٧) سنوات وعند المباشرة بمشروع نفق ساحة التحرير ، ولتعارض موقعه مع هذا المشروع نقل مرة ثالثة الى ساحة النصر وما زال في مكانه .

والسعدون من مواليد مدينة الناصرية عام ١٨٨٩م ، وتعلم في المدرسة الحربية في (استنبول) وتخرج ضابطا منها وعمل في الجيش العثماني ، وانتخب في مجلس النواب .. وبعد الحرب الاولى عاد الى العراق ، حيث تقلد منصب وزير العدلية لأول مرة عام ١٩٢٢ ثم اصبح وزيرا للداخلية ، ثم رئيسا لمجلس الوزراء اربع مرات للفترة من ١٩٢٢ حتى ١٩٢٩ حيث حادثة انتحاره المعروفة .

والتمثال مصنوع من مادة البرونز يرتفع على قاعدة من الرخام يمثل السعدون واقفا وهو يرتدي ملابسه الاعتيادية (زي الافندية) ويعتمر السدرة

خلالها موضوعا فنيا ذا ابعاد جمالية ، وجذور تاريخية مستمدة من تاريخ هذا القطر وحضارته ، الا وهو موضوع « النصب والتماثيل في بغداد » ليس بالضرورة ان يكون دراسة فنية اكايدمية ، من حيث حرفية النحت والرسم .. ولكنه موضوع استعراض شامل لمعظم ما موجود من تماثيل في العاصمة حاليا او حتى تلك التماثيل الملقاة منذ معرفة بغداد لهذه الظاهرة اي منذ عشرينات هذا القرن حيث انتصب اول تمثال الى يومنا الحاضر .

● المرحلة الاولى :

● نبدأ اولا بالمرحلة التي سبقت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. اي منذ العشرينات وحتى عام ١٩٥٨ .. حيث ان بغداد لم تشهد شوارعها وساحاتها آنذاك سوى (٣) تماثيل كبيرة وتمثال آخر صغير .. وربما تكون هناك بعض التماثيل الجبسية الاخرى التي تناثرت هنا وهناك بين البيوت والقصور الفخمة حينها .. ومنها العديد من تماثيل الاسرة المالكة في العراق والتي تقبع الان في متحف الازياء والمآثورات الشعبية الكائن في شارع الرشيد / السنك والمائد لوزارة الثقافة والاعلام حاليا .

● « مود » فاتح بغداد :

● الجنرال الانكليزي « مود » الذي فتح بغداد في ١١/ آذار/ ١٩١٧ بجيشه الجرارة بعد هزيمة الاتراك في الحرب العالمية الاولى .. والذي اشتهر بوعده لاهل بغداد « ان جيوشه دخلت العراق محررة لا فاتحة » ! والذي لم يتحقق من وعده شيء يذكر ، بل بالعكس كانت جيوشه غازية ومعتدية وليس محررة للعراق كما ادعى .. !

ولاجتياح مرض (الهيضة) بغداد آنذاك ، وما اكثر الامراض والطوائع التي كانت تجتاح بغداد والعراق وتحصد ارواح البشر بلا رحمة .. فقد خطفت الهيضة حياة الجنرال « مود » في بغداد ودفن في مقبرة الانكليز الواقعة الان في الكوتبينة .

وقد اراد المستعمرون والسائرون في ركبهم تخليد هذا الجنرال المتفطرس ، باعتباره منقذا لبغداد ، وممثلا لجيوش الامبراطورية العظمى ..!! فقد تقرر ان يقام له نصب تذكاري يخلده وبالفعل فتح باب الاكتتاب والتبرع لاقامة هذا النصب البغيض الذي يمثل الاستعمار .. حيث اقيم هذا النصب المشؤوم ونصب في منطقة الشوكاكة في جانب الكرخ في الساحة المقابلة للسفارة البريطانية .

الوطنية فوق رأسه متابطاً في يده اليمنى ملفسة أوراقه .. بينما ازدانت واجهة القاعدة التي يقف عليها التمثال بجدارية تحمل بعض التماثيل .

● فيصل الاول :

● وفي نفس الفترة التي صنع فيها النحات الايطالي (كانونيك) تمثال محسن السعدون ، باشر بعمل تمثال آخر للملك فيصل الاول تخليداً له ، حيث تم نصب هذا التمثال على قاعدة رخامية مرتفعة في ساحة جمال عبدالناصر - حالياً - في الصالحية ، والمواجهة لجسر الاحرار والمسرفة تفاصيل انجاز هذا التمثال يمكن الرجوع الى ما ذكره امين الريحاني ، الرحالة والاديب اللبناني المعروف ، الذي كان يزور العراق آنذاك ، في كتابه (فيصل الاول) حيث يصف وبشيء من التفصيل الساعات الطويلة التي كان يقضيها الملك واقفا امام النحات الايطالي لاكمال ملامح وجهه وتقاسيم جسمه الاخرى .

والتمثال يمثل فيصل الاول بملابسه العربية (الكوفية والعقال والعباءة) وهو يمتطي ظهر جواده ..

وقد ازيل هذا التمثال في صبيحة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .. وظلت قاعدته فارغة الى ان ازيلت بعد حين .. حيث بادرت امانة العاصمة الى تحويل الساحة الى حديقة جميلة ونصبت فيها ساعة للزهور ..

وقبل فترة قصيرة ازيلت هذه الساحة وساعتها الارضية تمثيا مع مشروع تحويل الساحات والشوارع الذي طبق مؤخراً .. وحلت مكانها ساحة صغيرة انتصبت فيها ساعة حديثة من جهاتها الاربعة .

● لجنم .. فوق المنارة

● وكما اقيم للاستعماري « مود » تمثال في الشوكة .. صنع الاستعماريون تمثالا صغيرا آخر لاستعماري آخر له دور كبير في الجاسوسية البريطانية ، التي مهدت للقوات الغازية من احتلال العراق والسيطرة عليه ..

انه القائد الانكليزي « لجنم » الذي قتلته المناضل الوطني الشيخ ضاري المحمود في منطقة خان النقطة قرب مدينة الفلوجة .. في احداث ثورة العشرين المجيدة .. والتمثال يجسد شخصية لجنم بالملابس العربية (ملابس البدو) ، وهو على ظهر جمل دلالة على ان لجنم كان يجوب الصحاري

على ظهر هذا الجمل ، ويعرف مسالكها وتقديرها من الاستعماريين ، والسائرين في ركبهم من رجالات العهد البائد : فقد تم نصب هذا التمثال البغيض في اعلى منارة القشلة التاريخية .. وظل هكذا حتى عام ١٩٥٨ حيث انزل من مكانه واتلف الى الابد .

● المرحلة الثانية :

● بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ .. وبعد ان الفيت كل التماثيل البغيضة .. التي كانت ترمز للاستعمار والظلم والتسلط ، لم يبق في بغداد سوى تمثال واحد هو تمثال عبدالرحمن السعدون في بداية شارع السعدون ..

● الجندي المجهول :

● لم يسبق لبغداد ان شهدت نصبا تذكاريًا للجنود المجهولين ، الذين سقطوا دفاعا عن حياض الوطن عبر الشدائد والملمات .. فكان لابد من تخليد هؤلاء الشهداء الميامين الذين رفعوا اسم الوطن والامة عاليا بنصب تذكاري يخلدهم مدى الازمان ..

فكان عام ١٩٥٩ حيث اقيم نصب الجندي المجهول الحالي تخليدا وعرفانا لدور الجندي العراقي الذي بذل روحه في سبيل تربة هذا الوطن ..

وقد اختيرت الساحة الحالية التي يربض فيها هذا النصب الجميل بالذات تخليدا لدخول قوات جيشنا الباسل من هذه الجهة ، لانهاء الحكم الملكي العميل واعلان الجمهورية صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ..

النصب شارك بتصميمه وعمله ثلاثة مهندسين عراقيين هم : عبدالله احسان كامل ، ورفعت الجادرجي واحسان شيرزاد .

ويقيم هذا النصب الى قسمين الشمالي والجنوبي ، بتوسطه قوس كبير على شكل (طاق) طوله ١٤ متر وارتفاعه ١٨ متر حيث يرمز الى الاقواس التي بناها العراقيون القدماء .. مقارنة بالنهضة العلمية في الهندسة المعمارية في قطرنا ، بينما ترمز الفتحتان في الطاق الى هلالين عربيين .

وبتوسط الطاق من الداخل قبر الجندي المجهول المربع الشكل الذي يتكون من (٤) قطع حجرية بحجم (٩) امتار مربعة تعلوه شعلة من نار متوهجة رمزا لخلود هذا الجندي المجهول ..

ويزور هذا النصب كل الرؤساء والملوك الذين يزورون قطرنا حيث يؤدون مراسيم الزيارة له ،

ويضعون على القبر باقات من الزهور ، كذلك تقام فيه الاحتفالات الرسمية مثل اعياد نموز وعيد الجيش العراقي وغيرها من المناسبات الوطنية الاخرى ..

● نصب جديد للجندي المجهول في بغداد

● وما دما يصدد الحديث عن هذا النصب .. فان نصبا جديدا سيقام قرب ساحة عمان في الكرخ للجندي المجهول .. من تصميم النحات خالد الرحال .. حيث وضع حجر الاساس لهذا النصب في ٦ كانون الثاني عام ١٩٧٦ ..

اذ يعتبر تشكيل نصب الجندي المجهول مثالا لنماذج الهندسة المعمارية الحديثة وتجسيدا لفكرة التصميم والتشكيل التي خلقت مفاهيم وتعبيرات غاية في الروعة والابداع .

وتقدم للقارئ العزيز تعريفا سريعا عن ما يحتويه هذا التصميم الذي لم ينفذ بعد ..

« القبة المائلة تمثل ترسا عربيا اثناء سقوطه على الارض مضرجا بالدماء التي تمثلها بدورها الوان القاعدة .. وهذا يعني سقوط الشهيد دفاعا عن ارض وطنه .. اما العلم داخل القبة فهو يبدأ من القاعدة الداخلية الى نهاية محيطها الامامي ممثلا للعلم العربي الذي يبرقع به الضريح والذي تتجلى لوانه بوضوح .

اما جوانب العلم ، فتمثل جناحي الصقر وتحلى بالزخارف العربية والاسلامية المصنوعة من مادة المري (المعدن اللامع) . اما القاعدة بشكلها البيضوي الاحمر ومدرجاتها ، فانها تمثل صدى وقع الترس على الارض ، وهي باللون الاحمر الذي يرمز لدم الشهيد .

اما العمود الخروطي الطويل الشكل ، فانه يمثل صعود الروح الى خالقها .. وفي ذات الوقت تستعمل كسارية للعلم .

والضريح المكعب الشكل بطبقانه يمثل اكفان الشهيد الذي يشع من داخله الضياء الازرق الذي يعطي الرهبة والسمو للضريح .

وعندما سيكمل بناء هذا النصب الكبير ستحول الاحتفالات والراسيم والزيارات اليه بدلا من النصب الذي سيصبح - قديما - في شارع السعدون .. والذي سيضل نصبا قائما في نفس الساحة ..

● نصب الحرية .. ملحمة الشعب :

● من الانصاب الكبيرة التي شهدتها سنوات ما بعد الثورة ، نصب الحرية الشامخ في الباب الشرقي في قلب بغداد .. حيث ساحة التحرير اكبر ساحات العاصمة بينما تقبع خلفه حديقة الامة من اولى الحدائق الكبيرة في بغداد .. والذي غدى سمة مميزة وعلامة بارزة من ملامح هذه المدينة .

وهذا النصب المعلق ملحمة نضالية خالدة تمثل المراحل النضالية التي مر بها شعبنا العراقي منذ المهود المظلمة ، وثوراته وانتفاضاته ، وحتى ثورة نموز ١٩٥٨ .. وقد نفذه وصممه الفنان العراقي جواد سليم ، الذي وافته المنية قبل ازاحة الستار عنه بفترة قصيرة .. حيث افتتح في عام ١٩٦١ .

تجسد في هذا النصب ، شخوص واشكال عديدة تكمل بعضها الاخر ، لا مجال لذكرها هنا بالتفصيل .. وسأكتفي بتعدادها للتعريف فقط فهي : (الحصان .. ورواد الثورات .. الباكية .. ام ترني ولدها .. ام وطفله .. المفكر السجين .. الجندي .. الحرية .. الدعة والاستقرار .. دجلة والفرات .. الزراعة .. الثروة الحيوانية .. الصناعة .. شموخ العامل ..)

انها بحق ماثرة فنية خالدة تعتبر من المع والبرز الانار المعاصرة التي تمتاز بها مدينتنا الحبيبة بغداد .. صنعها لنا واحد من رواد النحت في قطرنا العراقي .. الفنان جواد سليم رحمه الله ..

● الام :

● من التماثيل التي شهدتها تلك الفترة ايضا تمثال (الام) من عمل النحات خالد الرحال والذي ازيع الستار عنه عام ١٩٦١ في حديقة الامة .. حيث يحيط قاعدة هذا التمثال حوض دائري للماء انتشرت على جانبيه من الداخل النافورات والاشوية الملونة .. وقد نقل هذا التمثال قبل سنوات قليلة الى منتزه الزوراء ..

التمثال يمثل الام وهي تنظر الى مستقبل الجيل الذي يمر عنه بالطفل الواقف الى جنبها والذي وفرت له الثورة كافة المقومات التي تجعله يقف على ارض صلبة .. يبلغ طول التمثال (٤) امتار ونصف المتر ، وهو منحوت من حجر الحلان .

● ١٤ تموز :

بمرور الايام تحتل لها مكانا في ساحات وشوارع العاصمة ..

واكمالا لتنظيم هذا الجانب الجمالي فقد شكلت لجنة عليا لاختيار موضوعات هذه التماثيل وقرارها نهائيا سواء منها التي في بغداد او محافظات القطر الاخرى ..

وامام هذه الاجراءات الجديدة التي اتخذت لصالح هذا التوجه ، بدأنا نلمس اثار هذا الدعم الذي توليه قيادة الحزب والثورة لهذا التوجه .. وبدأنا نرى بين آونة واخرى ان تماثلا نصب في هذه الساحة .. وان نصبا اقيم هناك .. وهكذا هي عطاءات الثورة زاخرة مستديمة ..

● اربعة تماثيل .. لاربعة اعلام :

من بين التماثيل التي شهدتها بغداد في عام ١٩٦٨ خمسة تماثيل في آن واحد تم نصبها في متنزه (الاوبرا) سابقا - (الوحدة) حاليا .. وقد ظلت هذه التماثيل ردا من السنوات هناك ولكن المسؤولين عنها قرروا نقلها الى متنزه المسبح في الكرادة على شاطئ دجلة .. فزادها المكان الجميل الجديد روعة وجمالا ..

وهذه التماثيل هي (المنصور .. المنبئي .. الرازي .. الفراهيدي .. الكندي) ..

● ابو جعفر المنصور :

● الخليفة المنصور ، ثاني خلفاء بني العباس وهو الذي شيد مدينة بغداد المدورة .. واسمه (عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس) ولد عام (٧١٣) م وتوفي عام ٧٧٥ م .. وقد عرف المنصور بالرجل الاداري الحكيم والسياسي المحكم والقائد المقتدر .. حيث تولى الخلافة بعد اخيه ابي العباس السفاح مؤسس الدولة العباسية عام (١٣٦) هـ .. وشهدت مدينة بغداد في عصر المنصور ازدهارا عظيما ، كما تطورت الدولة العربية الاسلامية على يده ، واشتهر عهده بالرخاء والامن وازدهار العلوم والاداب ..

التمثال .. يمثل الخليفة العباسي واقفا نحو الامام ، بينما ارتفعت عمامته نحو الاعلى بعض الشيء .. يبلغ طول التمثال الذي صنعه النحات العراقي محمد غني حكمت في عام ١٩٦٨ .. (٦) امتار وهو من الحجر ..

● ومن النصب التي يعود تاريخها ايضا الى تلك الفترة نصب ١٤ تموز .. الذي ازيح الستار عنه في عام ١٩٦٣ .. وفي موقعه الحالي مقابل القصر الجمهوري بكرادة مريم في الساحة المواجهة لبداية الجسر المعلق .. وهو من عمل الفنان ميران السعدي .. يظهر في النصب اربعة من جنودنا الابطال يشقون طريقهم نحو النصر .. وقد رفع احدهم راية النصر عاليا بينما مسك في يده الثانية بندقيته .. بينما استشهد آخر وهو في طريقه الى المعركة .. فكرة النصب عموما تركز على صلابه الجندي العراقي وقوة بأسه في ساحات الوغى والقتال ..

وعند هذه التماثيل تنتهي مرحلة .. وتبدأ مرحلة اخرى بالنسبة لتماثيل بغداد .. هي مرحلة العطاء الفني الكبير ..

● مرحلة الثورة .. والعطاء الفني الكبير :

● بعد ثورة ١٧ - ٢٠ تموز القومية الاشتراكية عام ١٩٦٨ والتي فجرها وقادها حزب البعث العربي الاشتراكي .. تفجرت ايضا طاقات الفنانين وامكاناتهم ومواهبهم ، وتوفرت امامهم الفرص للبروز والابداع .. حيث شهدت بغداد تغيرات شاملة على صعيد التنظيم والتجميل وتزيين الساحات والشوارع بالنصب والتماثيل والجداريات المستمدة من تاريخ وتراث امنا العربية المجيدة .. فكان ان انتصبت عشرات التماثيل ، واجزل العطاء لمن ابدع من صناعة وتجسيد هذه الانصاب التذكارية لمسيرتنا المعطاءة ..

من ابرز تلك المنجزات في ازدهار الجانب الجمالي والفني لمدينة بغداد .. ان انبسطت مهمة اقامة التماثيل والانصاب بامانة العاصمة باعتبارها الجهة الرسمية المسؤولة عن تنظيم وتجميل العاصمة بما يتلائم ومكانتها السياسية والاجتماعية والحضارية والتاريخية وامام هذا الوضع انشأت الامانة مصهرا متكاملا لمادة (البرونز) بدلا من صب (قوالب) التماثيل في الخارج ، واختير له مكان ثابت في شارع الشيخ عمر .. وتأسست ايضا في عام ١٩٧٤ مديرية عامة تابعة لامانة العاصمة تتولى تنفيذ هذه الامور بديرها الفنان خالد انرحال ..

وهذه المديرية التي نفذت عشرات التماثيل تنهك الان بتنفيذ اعمال فنية اخرى سنشاهدها

● رأس المنصور :

● وما دمنا نتحدث عن أبي جعفر المنصور ، فقد خلدت بغداد مؤسسها مرة ثانية من خلال النصب التذكري الجميل لرأس الخليفة المنصور الذي أنجزه الفنان خالد الرحال والذي نصبه في ساحة الحي العربي بالمنصور .. وأزيح الستار عنه في ٦/ كانون الثاني/ عام ١٩٧٦ بمناسبة الذكرى السادسة والخمسين لتأسيس الجيش العرفي الباسل - النصب يتكون من رأس الخليفة بارتفاع (٣) أمتار ونصف وينصب فوق قاعدة طولها (٦) أمتار ونصف .. وفكرة النصب تمثل قاعدة لحد أبراج سور مدينة بغداد القديمة على شكل دائري .. حيث أن هذه القاعدة مزخرفة من الخارج بنقوش من فن الرياسة الإسلامية البديعة .. وبداخل هذا البرج غرفة على شكل متحف صغير يضم نحتا يمثل الخليفة ، وهو يمثل جواده برفقة نخبة من علماء الفلك والمهندسين ، وهو يؤشر إلى المنطقة التي اختارها موقعا لمدينة بغداد ، إضافة إلى صور قديمة للمدينة وما تبقى من أثارها مثل خان مرجان والمدرسة المستنصرية وغيرها من المعالم .

● الكندي :

● وثاني تلك النصب التي يحتضنها متنزه المسيح حاليا .. نصب للفيلسوف الكندي الذي احتفلت بغداد بذكراه قبل (٢٠) عاما ، عندما احتفلت بعيدها الألفي ..

وهو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الكندي ، وهو عراقي عربي من منطقة (كنده) في الكوفة قضى معظم أيام حياته في مدينة بغداد والبصرة ، وبرع في العلوم خصوصا الفلسفة والرياضيات والطب والموسيقى والفلك ..

وقد قام الكندي بشرح ، وتأليف كتب يزيد عددها على (٣٠٠) كتاب كان لها الأثر البالغ في التراث العالمي ، كما قام المترجمون بترجمة عدد منها إلى شتى اللغات الأجنبية ، حيث استفادت منها أوروبا ، أيام عصورها المظلمة وحملت إليها أفكاره مشاعل العلم والمعرفة .. وفي عام ١٩٦٨ تم نصب هذا التمثال الذي نفذته النحات العراقي محمد الحسني ، إذ يبلغ طوله (٦) أمتار وهو مصنوع من الحجر .

● المتنبي :

● من منا لا يعرف أبا الطيب المتنبي .. الشاعر العملاق الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس)

بأخباره وأشعاره ومغامراته وأسفاره .. وما تركه للأجيال العربية من قلائد شعرية رضية .. ما زالت تحمل سر حياتها إلى يومنا هذا ..

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المعروف بالمتنبي ولد في رحاب محلة كنده في الكوفة عام ٩١٥م وتوفي عام ٩٦٥م - وترعرع في الكوفة وتنقل بين الشام ومصر وإيران وتنقل في البوادي والاقطار العربية الأخرى .. وقد قتل عند رجوعه من بلاد فارس هو وولده (محمد) وعنده .. وقبره الآن قرب قضاء النعمانية في محافظة واسط .. يبلغ طول التمثال الذي نفذته الفنان العراقي عبدالرحمن الكيلاني - (٥) أمتار من الحجر ، ويمثل المتنبي واقفا وكأنه يلقي أحد قصائده حيث يؤشر بيده اليمنى .. بينما قبض بيده اليسرى على السيف ..

تم نصب التمثال عام ١٩٦٨ ..

● نصب جديد للمتنبي :

● في عام ١٩٧٧ شهدت بغداد مهرجانا تكريميا كبيرا للشاعر المتنبي شاركت به العديد من الشخصيات الأوربية الالامعة في الوطن العربي وعدد من المشرقين الأجانب .. المهرجان امتد لأسبوع كامل .. أشرفت على تنظيمه وزارة الثقافة والفنون .. تضمن أماسي شعرية والقاء عدد من البحوث والدراسات الخاصة بأسرار حياة وشعر المتنبي .. وقامت الوزارة بطبع العديد من الكتب القيمة التي تتعلق بهذا الشاعر الفذ .. وتضمن المهرجان أيضا تشييد ما هدم من قبر المتنبي قرب النعمانية وتأسيس مكتبة باسم المتنبي في مدينة الكوفة .. مدينة الشاعر الأولى .. وما يهمنا في هذا الصدد .. هو تمثال الشاعر المتنبي الذي أزيح الستار عنه خلال أيام المهرجان حيث انتصب التمثال على قاعدة حجرية مرتفعة في حديقة بناه المكتبة الوطنية مقابل وزارة الدفاع .. وهذا التمثال الثاني ، في بغداد .. !

وهو من عمل الفنان محمد غني حكمت . وهو يمثل أبا الطيب واقفا .. بينما أخذت الرياح العالية تتلاعب بشيابه الفضفاضة .. بينما مد يده اليمنى على قبضة سيفه .. وقد لبس المتنبي على رأسه غطاء أشبه بالعمامة متصلة مع ملابسه .. في حين ظهر وجه الشاعر مرتفعا نحو الأعلى متطلعا للسمو والانطلاق في الصحراء العربية التي جابهها أكثر من مرة عبر سهول ووديان وجبال العراق

والشام ومصر وبلاد فارس .. وغيرها من الامصار التي استقر فيها ردحا من الزمن .

● الرازي :

● رابع هذه الانصاب .. نصب ابو بكر بن محمد بن زكرياء الرازي .. من مواليد مدينة الري في فارس عام ٨٦٥م ، اقام في بغداد حتى وفاته عام ٩٢٣م - وكان فيسوفاً نابغاً في الطب والموسيقى والغناء والكيمياء .. ولكن شهرته برزت اكثر في مجالي الطب والهندسة ..

وقد الف في حياته (٢٢١) كتاباً منها - الحاوي في الطب - .. وكان الرازي يؤمن بالعلاج السريري .. حيث اصبح في فترة من فترات حياته مديراً لاحدى مستشفيات مدينة القاهرة بمصر .. وقام بطبع قسم من مؤلفاته ، وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية . من المآسي التي مرت بهذا الرجل .. انه فقد بصره في اواخر ايام حياته ومات في بغداد ..

تمثال هذا العلم الرائد نفذه الفنان العراقي صالح القره غولي عام ١٩٦٨ ، ويبلغ طوله (٦) متراً من الحجر الجبسي .. موقعه في متنزه المسبح .

● الفراهيدي :

● التمثال الخامس .. هو لعالم اللغة الشهير ابن البصرة الفحاء الخليل بن احمد الفراهيدي ، الذي ولد عام ٧١٨م وتوفى فيها عام ٧٨٦م .. وقد عرف الفراهيدي اماماً في اللغة والنحو .. وواضعا لعلم العروض ومؤسسا لعلم الاصوات ومخارج الحروف العربية .. ومؤلفا لاقدم معجم عربي - كتاب العين - .

كما يعتبر هذا العالم الجليل في طليعة من الف في النظم والابقاع اذ لا زالت اثاره مرجعا للباحثين .

تمثاله هو الاخر يقبع في متنزه المسبح انجز عام ١٩٦٨ من قبل الفنان ميران السعدي يبلغ ارتفاعه (٥) متراً ، وهو يركز على قاعدة كونكريتية .

ومن المفيد ان نشير الى ان مدينته البصرة قد اقامت له تمثالا اخر نصبت في احدى ساحاتها العامة قبل سنوات تخليدا لابنها البار .. عندها يكون الفراهيدي قد خلد بتمثالين الاول في بغداد والثاني في البصرة ..

● النصور :

● تعود مرة اخرى الى شوارع العاصمة وساحاتها .. وجولة اخرى لمعرفة ما موجود من آثار فنية فيها .. فهذه ساحة النصور قرب جسر (الخير) في الكرخ يتوسطها تمثال جميل عرف ايضا باسم « النصور » تحيط به الاشجار والزهور من كل جانب .. والنصور .. عند العراقيين الاقدمين تعني رمز القوة والجبروت .. وقد عبرت فكرة التمثال بطريقة المقصود منها ، اظهار التلاحم العربي بالشكل الواقعي المنشود .. فالوجه التي تبرز بين ثنايا هذا التمثال الدائري توضح الالتحام العربي .. اضافة الى النصور التي تمثل الجيل المعاصر واندفاعه الى امام بخطى ثابتة لتحقيق اهداف الامة .. يرتكز هذا النصب على قاعدة نصف كروية يبلغ ارتفاعها (٢) متر تعلوها كتلة حديدية يبلغ ارتفاعها (٥) متراً ، تمثل وجه رجل عربي ملثم ، اما الوجه الثاني ، فيمثل وجه فتاة عربية تعلوها مجموعة من النصور التي ترمز للجيل العربي الجديد وبعاء هذه النصور هلال ..

ازيح الستار عن نصب النصور عام ١٩٦٩ ، في نفس الساحة الحالية وهو من عمل ميسران السعدي .

● الشاعر الكاظمي :

● اهتمت حكومة الثورة بالادب والادباء والشعراء وكرمتهم في اكثر من مجال .. ومن ذلك التكريم والرعاية المتواصلة لحملة الفكر .. تاسي مبادرة امانة العاصمة في اقامة نصب تذكاري كبير للشاعر العراقي عبدالمحسن الكاظمي في احدى الساحات الجميلة عند مدخل مدينة الكاظمية من جهة الكرخ ..

وللتعريف بهذا الشاعر الرائد .. نقول هو : عبدالمحسن بن محمد بن علي بن محسن الكاظمي ولد عام ١٨٦٦م في مدينة الكاظمية .. حيث نشأ وترعرع فيها ، بعدها هاجر الى مصر وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٣٥م - والكاظمي يلقب بشاعر العرب .. وهو شاعر غزير الانتاج .. وكان في طليعة الداعين الى وحدة واستقلال الامة العربية .. وكان لقصائده كبير الاثر في تحريك مشاعر الجماهير واثارتها بوجه المحتلين والفاشين ..

من اهم اثاره .. ديوانه المعروف بـ (ديوان الكاظمي) .

وقد ازيح الستار عن هذا التمثال يوم

١٠/ نيسان/ ١٩٧٢ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد سميت الساحة التي تم فيها نصب التمثال باسمه ايضا تكريما له .. وهي الساحة الواقعة عند التقاء شارع الامام موسى الكاظم بشارع عبدالمحسن الكاظمي .. وقد حضرت حفل الافتتاح كريمة الشاعر السيدة رباب الكاظمي .. التي رافقت عملية صنع تمثال والدها .. حيث تغدو الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طوله (٤) امتار وارتفاع قاعدته (٥) امتار ظهر فيه الكاظمي بملابسه التقليدية (الجبة والعمامة) وهو يلقي احدى قصائده ..

● الرصافي :

● الثورة التي كرمت الكاظمي .. كرمت مرة اخرى شاعرا عراقيا بارزا في تاريخ العراق الحديث .. الا وهو الشاعر المشهور المعروف الرصافي ذو المواقف الوطنية الصلبة بوجه الاستعمار واذنايه ..

والرصافي هو معروف بن عبدالقنى البغدادي الرصافي .. ولد ببغداد عام ١٨٧٧م وتوفي فيها عام ١٩٤٥م وقبره الان في الاعظمية .. ولا مبالغة اذا ما قلنا ان الرصافي هو شاعر كبير لا تستغني عنه مكتبة الشعر العراقي والعربي مطلقا .. فقد نظم اروع القصائد في الاجتماع والحث على الثورة ورفض التسلط الاجنبي ..

وقد ايد ثورة مايس / ١٩٤١ التي قادها المرحوم رشيد عالي الكيلاني .. ونظم العديد من اناشيدها ..

وبعد فشل الثورة انتقل الى بغداد .. وعانى من شظف العيش ما عانى وبقي كذلك منزويا في بيته في الاعظمية حتى وفاته .. في ١٦ آذار ١٩٤٥

ومن اثار هذا الرجل .. ديوان شعر شهير يعرف بـ (ديوان الرصافي) .. وتخليدا للكرمي شاعر العراق الكبير معروف الرصافي .. فقد اقيم له هذا التمثال الكبير في واحدة من اهم ساحات العاصمة هي ساحة المأمون .. حيث انها تعتبر ملتقى لشارع الامين بشارع المأمون بشارع الرشيد .. ونظرا لشهرة الرصافي فقد طغى اسمه في السنوات الاخيرة على اسم الساحة .. حيث نسي الناس « المأمون » وعرفت باسم ساحة « الرصافي » ..

التمثال يمثل الرصافي واقفا بملابسه المصرية متعلما نحو الامام .. ازيح الستار عنه عام ١٩٧٠

يبلغ طوله (٣٥٠) متر للفنان اسماعيل فتاح الترك .. وهو اول تمثال عراقي من البرونز يتم صب قوالبه في العراق ..

● الجرار :

● منذ عام ١٩٧٢ .. انتصب نصب الجرار حيث يلاحظ ابن بغداد او زائر المدينة عند وصوله الى ساحة المتحف مجموعة من الجرار الشعبية المرتكزة واحدة فوق الاخرى .. بشكل مخروطي بديع .. حيث تتحول الجرة العليا الى نافورة من الماء تقذفه بالحوض الذي يحيط بالنصب ..

وهذا النصب الذي صنعه ميران السعدي يمثل فكرة قديمة لازمت حياة الاجداد الاقدمين اذ ان لهذه الجرار علاقة حياتية وثيقة بالفرد العراقي خلال معيشته اليومية ومنذ اقدم العصور وما زالت ..

يرتفع النصب حوالي (٦) امتار .. وهو عبارة عن مجموعة جرار متلاصقة .. ولا بأس من الاشارة .. ان الاشجار التي تحيط بهذا النصب غطته اكثر من مرة حيث يجري تشذيبها بين آونة واخرى ..

● كهروانة والاربعةين حرامي :

● هذا النصب الشامخ في شارع السعدون - ساحة علي بابا عند مفرق الكرادة .. حيث يروي حكاية الجارية كهروانة وعلي بابا والاربعةين حرامي .. انها حكاية الف ليلة وليلة التي ولدت في بغداد .. والنصب يجسد هذه الحكاية الشعبية او يروي جزءا منها ..

وكهروانة تلك المرأة الذكية التي استطاعت ان تكتشف الاربعةين حرامي المختبئين في الجرار .. وذلك بسكبها الزيت على رؤوس هؤلاء اللصوص الواحد تلو الاخر .. النصب مصنوع من مادة البرونز .. طول تمثال كهروانة (٣٢٠) متر اما الجرار فهي بين كبيرة ومتوسطة وصغيرة ..

ازيح الستار عن هذا النصب الجميل عام ١٩٧١ وهو من عمل النحات محمد غني حكمت ..

● حمورابي .. ومسلاته :

● الملك البابلي القديم حمورابي ابن الرافدين .. هو اول مشرع للقوانين خلده الثورة ايضا بثلاثة انصاب احتلت لها مواقع متميزة في عاصمتنا الحبيبة ..

في شارع كرامة مريم و قبالة المجلس الوطني .. انتصب هذا الملك العظيم الذي اسهم بحكمته وذكائه وشدة بانه في تكوين وإدارة اعظم امبراطورية عرفها تاريخ العراق القديم .. تلك هي دولة البابليين .

وحورابي يعتبر المشرع الاول للقوانين التي بسطت نفوذها على الارض .. حيث نظمت حياة الافراد .. واشاعت العدل والنظام بين الناس .. وهذه القوانين تدل في جوهرها على التطور السريع في الفكر الانساني والقانوني والاجتماعي والسياسي ايام البابليين ان نصب الملك حورابي ومسلاته .. بما يحمله من سمات فنية رائعة .. وما يعكسه من ادراك وحس متدقق ويجسد عظمة العطاء الذي منحه ثورة السابع عشر من تموز القومية الاشتراكية لتراث هذه الاممة وابنائها المبدعين .. واعترافا صريحا بالحسنة والعدالة التي تمنحها للمواطنين ، والرغبة الصادقة في الذود عنها وحمايتها ..

يبلغ طول تمثال حورابي (٢٣٠) م فيما يبلغ طول القاعدة التي يستند اليها (٢٣٠) م وبمناسبة الذكرى الاولى لتأسيس النفط فقد ازيح الستار عنه في الاول من حزيران عام ١٩٧٣ م وهو من عمل محمد غني حكمت .

● مسلة حورابي :

● كما اقيم تمثال آخر لمسلة القوانين التي شرعها حورابي .. فقد اقيم هذا التمثال الذي يجسد مسلة حورابي المشهورة التي دونت عليها تلك القوانين والانظمة التي شرعها هذا الملك العظيم لكي يطلع عليها شعبه ويعمل بموجبها .. منها هذا النص :

« من احرق احدا احرقناه .. ومن قطع يدا قطعنا يده .. والعين بالعين والسن بالسن ، ومن يسرق من اموال الالهة يقتل .. ويقتل معه من تكون الاموال بحياته .. » الخ من التفاصيل الاخرى .

وهذه المسلة تمثل جزءا من التراث العربي القديم ونموذجا رائعا لابداعات ابن الرافدين انذاك .

ومعروف ان النسخة الاصلية من المسلة منحوتة من الحجر الاسود (اللديورايت) يبلغ ارتفاعها (٢٤٥ سم) وهي الان تقبع في متحف اللوفر بباريس .. سرفت في حينها من العراق موطنها الاصلي مع عشرات القطع والتحف الفنية والآثار التي سرقها المستعمرون قبل قرن من الزمن ..

وهي الان موزعة على اكبر المتاحف في العالم ولمسلة حورابي الاصلية نسخة جبسية مماثلة وضعت في المتحف العراقي ببغداد ..

ويشاهد في اعلى المسلة (التمثال) الاله « شمس » على عرشه وهو اله العدل والحكمة .. بينما يقف حورابي في حضرة وقفة المتعبد .. ليستلم الشرائع المقدسة منه .

تتألف المسلة من (٤٤) بندا قانونيا .. وتقسّم الى ثلاثة اقسام اولا المقدمة وثانيا المواد القانونية وهي (٢٨٢) مادة وثالثا الخاتمة .

والمسلة (التمثال) من نحت الفنان صالح القره غولي وهي مصنوعة من البرونز وارتفاعها (٤٥) مترا .. وهي الان في ساحة قحطان السامرائي قرب جامع ام العبول في الكرخ .

● مسلة اخرى :

● وما دام الحديث متواصلا عن حورابي ومسلته وقوانينه .. فان نصبا اخر لمسلة حورابي تم تشييده في متزه الزوراء قبل (٥) سنوات وموقعا بالقرب من الجنائن المعلقة .. حيث انتصبت هذه المسلة على قاعدة رخامية زينت جدرانها بنصوص مختارة من شرائع حورابي تتعلق بالزواج والدين والموت والحياة .. يحيط بقاعدة هذا النصب المرتفع نسبيا عن الارض (٤) تماثيل لاسود متوجة من الجهات الاربع طليت باللسون الاسود ..

● الفارس العربي :

● في الساحة المقابلة لمرض بغداد الدولي .. انتصب تمثال الفارس العربي ، حيث ازيح الستار عنه يوم ١٩/٥/١٩٧٢ ضمن احتفالات القطر باليوبيل الفضي لحزب البعث العربي الاشتراكي .

التمثال يجسد شغف العرب بالفروسية .. حيث اشتهر الفارس العربي بصفات الكرم والشهامة والشجاعة والبرسالة .. ولا زالت تلك الصفات الحميدة متغلغلة في اعماق مجتمعنا العربي منذ اقدم العصور .

يبلغ ارتفاع التمثال (٥) امتار .. ووزنه (٤) اطنان من البرونز .. حيث يمثل فارسا عربيا بملابس القتال شاهرا بيده السيف ، وهو على ظهر حصانه الذي رفع قوائمه الامامية الى الاعلى توثبا للقفز .. والتمثال من عمل الفنان ميران السعدي .

● عباس بن فرناس :

● ما دمننا في جانب الكرخ فلا بأس ان نخرج على شارع المطار الدولي .. وفي منتصف الطريق نلتقي مع اول عربي حاول الطيران بواسطة جناحين .. هو عباس بن فرناس هذا المخترع الاندلسي والفيلسوف الشاعر الذي عاش في عصر الخليفة الاموي عبدالرحمن الثاني في القرن التاسع للميلاد .. حيث استطاع من خلال ما يتمتع به من مواهب فكرية فائقة وقدرات عقلية نادرة ان يهب الحضارة العربية والاسلامية ائمن عطاء .. وكان من سدة طموحه وثقته بنفسه قد عمد الى الطيران رغم خطورة التجربة .. وعلى الرغم مما أصابه حيث ذهبت حياته ضحية لهذه المحاولة لكنها تبقى محاولة جريئة مهدت الطريق امام العلم لاختراق الفضاء والطيران والتطبيقات فيه ..

وابن فرناس يعتبر اذن اول طيار عربي .. ولاشك انه اصبح رائدا من رواد الطيران .. والذي لا يمكن نسيانه أو تجاوزه على مر العصور .

بزن تمثاله حوالي (٦) اطنان بارتفاع (٦) امتار .. اما فتحة الجناحين ، فيبلغ طولهما حوالي (١٠) امتار .. وتم نصب التمثال فوق قلعة من الحجر ذات جدارين بارتفاع (٧) امتار ، نفذها الفنان العراقي بدري السامرائي ، وافتتح في الاول من كانون الاول ١٩٧٢ .. لمناسبة انعقاد الدورة الحادية عشرة لؤتمر الطيران المدني للدول العربية في بغداد.

● « المسيرة » النصب العملاق :

● لعل آخر نصب تم نصبه في شوارع العاصمة النصب الكبير الذي لانجزه الفنان خالد الرحال (المسيرة) الذي مضى على البدء به حوالي الخمسة سنوات تقريبا .

والنصب يمثل مسيرة شعبنا منذ اقدم العصور ، وحتى قيام ثورة ١٧ تموز القومية الاشتراكية .. حيث يضم النصب مجموعة من التماثيل المتداخلة التي تتخذ في النهاية شكل ملحمة تظهر فيها بداية الحضارة في بلاد وادي الرافدين والتطورات التي طرأت عليها عبر مراحل الزمن .. من هذه التماثيل المتداخلة شخص مثل (كلكامش .. عشتروت .. البراق ..) ورموز تاريخية متوجة بانتصارات الفلاح واندحار الاقطاع .. ثم الانجازات الهائلة التي حققها حزب البعث العربي الاشتراكي .

قاعدة النصب التي ضمتها ساحة المتحف في الكرخ .. فهي تشبه سفينة ذات سبعة اطباق

ويرمز بالاطباق الى يوم ٧ نيسان عيد ميلاد الحزب القائد .

هذا العمل العملاق (المسيرة) يمثل ملحمة تاريخية عريقة تمتد منذ اقدم الازمنة وحتى يومنا الحاضر ، حيث مسيرة الثورة المظفرة التي حولت القطر العراقي الى نموذج نصيل لخلق المستقبل ، لافضل من اجل الوصول الى المجتمع العربي الاشتراكي .

والنصب بمجموعة تماثيله الكثيرة بشكل كلمة (لا) كرمز دائم لرفض التسلط الاجنبي .. ورفض واقع التجزئة والتخلف .. يبلغ طوله (٩) امتار وعرضه (٣) امتار وهو من مادة البرونز والسمنت . وربما اذبح الستار عن هذا النصب في الفترة التي استغرقها نشر هذا الموضوع في هذا العدد الخاص من مجلة المورد الزاهرة عن مدينة بغداد .

● ابو نواس :

● عندما نذكر بغداد .. يتبادر الى الذهن « ابو نواس » شاعرها الخمرى المشهور الذي كرمته بغداد اليوم .. بتخصيصها لاسمه واحدا من اجمل شوارعها الرئيسية الذي يقع على شاطئ دجلة والذي يبدأ من جسر الجمهورية وينتهي عند الجسر المعلق في الكرادة الشرقية ويمتاز بمناظره السياحية الخلابة ولياليه النواسية الساحرة .. حيث ينتصب فيه ابو نواس تمثالا رائعا وسط حديقة غناء من حدائق هذا الشارع الطويل ..

وابو نواس هو الحسن بن هاني بن عبدالاول بن صباح الحكمي .. شاعر عراقي معروف ولد في الاحواز عام (٧٦٣م) وتوفي في بغداد عام (٨١٤) .. ونشأ في البصرة ثم رحل عنها الى بغداد .. وهو اول من أسس للشعر طريقته الحضرية .. واخرجه من اللهجة البدوية التي كانت سائدة آنذاك .. واشتهر هذا الشاعر بقصائده الخمرية الكثيرة التي بز بها كافة شعراء عصره وزمانه .

يظهر ابو نواس في هذا النصب الذي يقع في منتصف شارع .. وهو جالس على اريكة .. ماسكا بيده كأسا للشراب .. بينما ارتدى زيا وعمامة تمثل الترف الاجتماعي الذي عاشه خلال معاصره للخليفين العباسيين الرشيد والمأمون .. تمثال الشاعر من عمل الفنان اسماعيل فتاح الترك .. افتتح في ١٩٧٢/٩/٢٦ وقد اعتبر من اجود التماثيل التي انجزها هذا الفنان ..

بزن التمثال (طن ونصف الطن) من مادة

البرونز ، ويبلغ ارتفاعه (٢٥) متر فيما يبلغ ارتفاع قاعدته المرمية حوالي الـ (٢) متر .. والتي احتوت على ثلاث لوحات برونزية جدارية لتضفي على جونتب التمثال اشراقا .. وهي تمثل مراحل حياة ابي نواس .. والذي تحول نصبه في هذه الايام الى ملتقى الاحبة والخلان .. ومكانا لتجديد الذكريات وتسجيلها بالصور الفوتغرافية .

● شهر يار وشهر زاد :

● حكايات « الف ليلة وليلة » ترعرعت واشتهرت في بغداد .. حيث تقول الاسطورة : ان الملك شهر يار كان يقتل كل ليلة فتاة عذراء .. وهو اذ يفعل هذا العمل فانه ينتقم من خيانة زوجته له .. ولما عجز وزيره عن ايجاد الفتاة المناسبة التي تليق كزوجة لهذا الملك .. وامام حيرة والدهما تطلعت ابنة الوزير « شهر زاد » للزواج من شهر يار الملك ولتثنيه من فعله المتكرر الذي ذهبت ضحيته عشرات الفتيات البريئات من بغداد ..

ولما اصبحت « شهر زاد » في عصمة « شهر يار » اخذت تسليه بان تقص عليه في كل ليلة حكاية جديدة تقطع نهايته عند فصل مشوق لها علاقة بحكاية اليوم التالي .. حيث « تسكت شهر زاد عن الكلام المباح .. بعد ان يدركها الصباح .. » وهذه هي قصة الف ليلة وليلة الحقيقية وباختصار .

التمثال الذي انتصب ايضا في حدائق كورنيش ابي نواس يخلد هذه الاسطورة الشعبية .. وقد اضفى (الصوت والضوء) من حول التمثال رونقا جديدا لم يعهده اي نصب آخر في بغداد من قبل .. حيث تروي للزوار بعض قصص الف ليلة وليلة .. ارتفاع التمثال (٤) امتار و (٢٠سم) ، ويبلغ طول تمثال (شهر يار) (٤) امتار وارتفاعه (٣) امتار حيث يشاهد الملك جالسا ومستمتعا بحكايات شهر زاد بينما وقفت هي بين يديه تقص حكاياتها المشوقة .. يرتكز التمثالان فوق (٧) مدرجات من الحجر بارتفاع مترين .

نفذه الفنان محمد غني حكمت .. وافتتح يوم ١٩٧٥/٥/١٩ في موقعه الحالي على شاطئ دجلة قرب مرسى الزوارق .

● تماثيل رياضية :

● ونحن ما زلنا في شارع ابي نواس .. وقبالة وكالة الانباء العراقية .. انشأ قبل (٣) سنوات حوض كبير على شكل هندسي رائع ،

توسطه نافورة تقذف المياه الى الاعلى بارتفاع (٨) امتار ..

تحيط بهذا الحوض (٩) تماثيل من الجبس تجسد الالعاب الرياضية المختلفة مثل (كرة المضرب .. الطائرة .. رامي الرمح .. رامي القرص) وغيرها من الممارسات الرياضية الاخرى قام بعملها الفنان ميران السعدي .

● وعلى ذكر التماثيل الرياضية .. فان مجموعة اخرى من هذه التماثيل المشابهة التي تم نصبها في ابي نواس .. انتصبت في بداية شارع كورنيش الاعظمية في الساحة القريبة من بنائية المتحف العسكري .. حيث توسط هذه التماثيل نصب صغير ايضا للموبة سامراء .. ازدانت اركانه بالاضوية الملونة ..

● وفي باب ملعب الكشافة الرياضي في الكرة انتصب تمثال شامخ لاحد لاعبي كرة القدم المشهورين في قطرنا .. والذي عرفته الملاعب والمبارات الرياضية الدولية والمحلية بقدرته الفائقة وفنونه في هذا المجال انه تمثال اللاعب الشعبي « جمولي » جميل عباس .. الذي تقاعد عن الرياضة منذ سنوات .. حيث اصبح هذا التمثال المصنوع من مادة البرونز والمرتكر على قاعصة طويلة .. رمزا لتخليد وتكريم هذا الرياضي من قبل وطنه وجمهورية الرياضي .

● وعلى ذكر الرياضة والرياضيين .. فان ساحة الطلائع التي تقع في بداية جسر باب المعظم (جسر ١٧ تموز) من جهة الكرخ ، قد ضمت هي الاخرى (٦) تماثيل لعدد من الرياضيين والرياضيات في مجال رمي القرص .. والرمح .. وغيرها ..

● وفي باب نادي الصيد في المنصور .. نصب صغير لصياد هو وكلبه متوثبين لقنص صيدهما في الصحراء ..

● تماثيل في « الزوراء » :

● المتنزه الجميل الذي يشع بالخضرة والمطر والضياء .. « الزوراء » الذي يعتبر رئة تنفس منها بغداد وزوارها .. في هذا المرج الاخضر .. شمخت في كل زاوية منه العديد من الانصاب والتماثيل والجداريات الجميلة البديعة اضافة الى عشرات النافورات والبحيرات الصناعية التي امتاز بها هذا المتنزه الكبير .. ومن تلك التماثيل :

● الواسطي :

● هو يحيى بن محمد الواسطي ، الفنان ، الرسام ، الخطاط .. الذي اشتهر بتزويقه لمقامات الحريري التي ذاع صيتها في الادب العربي منذ القرن السابع للهجرة .. القرن الثالث عشر الميلادي .. اذ يروي الحريري قصصه باسم الحارث بن همام وهي تشمل نوادر ابي زيد السروجي .

ويعتبر الواسطي فنان عصره .. حيث اصبحت له مدرسة خاصة في الرسم العربي لاقت نجاحات عديدة .. وجسد حياة مجتمعه انذاك خير تجسيد ، وظلت اعماله خالدة الى يومنا هذا .

والادوات التي استخدمها الواسطي في رسوم الحريري ، وغيرها من الاعمال الاخرى فهي ما زالت محفوظة الان في المكتبة الوطنية بباريس .

يوضح التمثال الذي انجزه اسماعيل فتاح الترك .. يحيى الواسطي جالسا على مقعد ويده مخطوطة مقامات الحريري الشهيرة ..

والتمثال اقيم عام ١٩٧٢ في متنزه (الزوراء) بمناسبة مهرجان الواسطي الذي عقد في بغداد انذاك .. وهو مصنوع من البرونز ويبلغ ارتفاعه (٢) و (٣٠) سم .

● ومن المناسب ان نشير ان هناك تمثالا للواسطي في مدخل اكااديمية الفنون الجميلة في الوزارة (من داخل بناية الاكاديمية) .. صنع من الجبس الابيض صنعه طلاب الاكاديمية قسم النحت ووضعوه في مدخل كليتهم تخليدا لهذا الرائد العربي الفنان في مجال الرسم ..

● الفارابي

● ونحن ما زلنا نتجول في « الزوراء » وبالقرب من تمثال الواسطي .. ونحن متجهين الى منطقة المتاحف وخيمة الشعر .. لابد ان يلفت نظرنا الفارابي الفيلسوف الذي يعد من اعظم فلاسفة العرب والمسلمين .. ولقبه المعلم الثاني .. باعتبار ان (ارسطو طاليس) كان يعرف بالمعلم الاول .. !!

والفارابي مؤلفات عديدة .. لا تعد ولا تحصى في الفلسفة والمنطق والموسيقى وغيرها من الموضوعات ..

في النصب يظهر الفارابي جالسا على اريكة وبين يديه كتاب ، وبجانبه آلة العود الموسيقية ..

ازيح الستار عنه عام ١٩٧٥ .. بمناسبة مهرجان الفارابي الذي انعقد ببغداد في تلك السنة ..

نفذه الفنان اسماعيل فتاح الترك .. ويبلغ طول الفارابي فيه (٢٧٥٠) متر وارتفاع قاعدته (١٦٠) متر .

● المرأة العربية :

● من التماثيل الاخرى التي يضمها هذا المتنزه .. تمثال المرأة العربية الذي يصور امرأة عربية تحمل اكليلًا من ازهور لتقدمه هدية الى الجيل الجديد .. جيل المستقبل وصانعي الحياة .. ودلالة هذا التمثال تنطوي على تكريم قيادة الحزب والنورة للمرأة واحترام دورها في عملية البناء والتحول الاشتراكي في قطرنا العراقي المناضل .

حيث انتصب هذا التمثال الجميل الذي ابدعه الفنان العراقي نداء كاظم عام ١٩٧١ .. ويبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار والتمثال يستقر فوق قاعدة عمودية وسط حوض ماء تتدفق منه المياه عبر نافورات جميلة ..

● حاملات الجرار :

● حيث المجمع الاندلسي وسط الزوراء .. انتصبت (٤) (كازينوات) سياحية جميلة شيدت على طريقة الطراز الاسلامي الاندلسي .. يفصل بين كل اثنين منهما جدول صغير تجري فيه المياه سمي بالنهر انعباسي تخليدا لواحد من انهر بغداد القديمة وهذه الكازينوات هي (اشيلية ، قرطبة ، طليطلة ، غرناطة) حيث انتصبت في الحديقة الفناء المواجهة لهذا المجمع (٤) تماثيل نساء قرويات يحملن الماء .. وهذه الجرار صنعت على شكل نافورات يتدفق منها الماء حيث البحيرة الصغيرة التي انتصبت عليها هذه التماثيل الاربعة التي تشكل مجموعة فنية متكاملة ، ذات ميزة تراثية عريقة .. وتتوسط البحيرة نافورة مشمسة الاضلاع ترتفع مترا ونصف المتر ويبلغ قطرها (٢٠) مترا .

ازيح الستار عن هذه التماثيل التي صنعها الفنان ميران السعدي ، عام ١٩٧٥ حيث اضفى على هذه التماثيل مسحة فنية ساحرة خاصة لوجوه هؤلاء النسوة الاربعة واجسامهن وملابسهن القروية البسيطة .

● مراحل الحياة :

● وانت تدخل الزوراء من باب ساحة حلب وتسير قليلا حيث تدلف يسارا وعلى يمين الشارع ، وبالقرب من متحف التاريخ الطبيعي . انتصبت (5) تماثيل صنعت من مادة الجبس الابيض .. وانتصبت على قاعدته مرتفعة نوعا . هذه التماثيل التي نحتها ميران السعدي ايضا تمثل مراحل حياة الانسان منذ ولادته وحتى شيخوخته ، بدأ من مرحلة الولادة .. ثم مرحلة التلمذة والتعلم ، .. ومرحلة الشباب ثم مرحلة الزواج والانجاب ، واخير مرحلة الشيخوخة ونهاية العمر ... كانت شخوص هذه التماثيل تمثل المرأة والرجل والطفل .

● العربة الاشورية .. ومنطقة المتاحف :

● وفي منطقة المتاحف في هذه الجنيينة الفسيحة .. حيث يقبع متحف السيارات الملكية القديمة .. والبيت البغدادي الذي بني على طراز بيوت بغداد القديمة وخيمة الشعر التي تطل على بحيرة كبيرة تحوي صنوفا عديدة من الاسماك العراقية الاصيل ، ونصب على جانبها الثاني احد نواير الفرات والتي تشتهر في مناطق اعالي الفرات (هيت وعنه) .. وفي جانب آخر اقيم المضيف العربي المشهور في احوار الجنوب - حيث رابطت بجانبه العديد من (المشاحيف) والزوارق النهرية .. وكذلك ابراج الحمام والبلابل .. وغيرها من المرافق السباحية الممتعة التي يعج بها هذا البستان البغدادي (منتزه الزوراء) .

● بالقرب من بيت الفنانين .. حيث انتصب تماثيل « العربة الاشورية » التي يظهر فيها الملك الاشوري (اشور بانيبال) .. حيث اشتهرت هذه العربة ايامهم وفي عاصمتهم العتيدة نينوى ..

● بالقرب من تماثيل العربة الاشورية ، وفي الشارع المؤدي الى « الجنائن المعلقة » انتصبت على جانبي الشارع عشرات التماثيل الجميلة لعدد من انواع الطيور البرية الكبيرة وبوضعية مختلفة .. مثل الصقر .. العقاب .. الفراب .. البوم وغيرها .

● وعلى مقربة من هذا الشارع نصب تماثيل صغير لرأس ثور يقذف الماء من فمه .. وهذا النصب واحد من مجموعة انصاب ابراج الحظ .. حيث ستقام انصاب اخرى للجوزاء والميزان والجدي وغيرها في المستقبل .

● وخلف خيمة الشعر بامتار معدودة وعلى

مرتفع ترابي ، تقع مجموعة من النافورات التي هي عبارة عن مجموعة من التماثيل لعدد من الحيوانات البرية مثل : الاسد ولبوة الاسد ، والدب ، وكلب البحر ، والقطة الوحشي وغيرها من الحيوانات الاخرى .. حيث يندفع الماء من افواهها بقوة حيث تتجمع في حوض متدرج ذي سواق متعرجة تحيط به شلالات وسنادرين الورد من كل جانب ..

عام ١٩٧٧م تم نصب هذه المجموعة من التماثيل التي نفذها عدد من طلاب وطالبات معهد الفنون الجميلة بطلب من امانة العاصمة .

● تماثيل اخرى في الزوراء :

● ومن التماثيل الاخرى التي تضمنها « الزوراء » تماثيل لاسدين ينتصبان في مدخل حديقة الحيوانات .

وتماثيل آخر للفارس العربي (عنتر بن شداد) المعروف بطولاته واشعاره الحماسية .. اذ كان التمثال الذي صنعه ميران السعدي في بداية السبعينات ينتصب في ساحة عنتر في الاعظمية .. بعدها نقل الى منتزه الزوراء واستقر في منطقة مخصصة للاعب الاطفال .

وفي المنتزه ايضا هناك نصب آخر يدعى (الحضارة) لعبد الكريم القرغولي والذي نقل هو الاخر من ساحة الجمهورية في الباب المعظم الى الزوراء ..

ونصب برونزي غريب الشكل اطلق عليه اسم (فتانان) للفنان نداء كاظم يقبع في الحديقة المحصورة بين ساعة الزهور واذاعة الزوراء ..

وهناك مجموعة من التماثيل الصغيرة التي نصبت في بحيرة الزوراء .. وهي تمثل حورية البحر .. والجاموس .. وغيرها من الاشكال الفنية الاخرى .

● انصاب وتماثيل متفرقة :

● ولغرض الايام بمعظم الانصاب والتماثيل التي تضمنها بغداد .. خاصة تلك الانصاب غير المعروفة او غير المهمة .. فهناك في جانب الجدار الخارجي لمنتزه الزوراء في شارع دمشق بادر معهد الفنون الجميلة الى نصب العديد من التماثيل التي انتجها طلاب المعهد في ربيع عام ١٩٧٩ .. وذلك لتجميل الشارع .. وهذه التماثيل التي صنعت

من الجبس الأبيض تمثل الطلائع .. والمرأة والثورة العربية والمستقبل .. وانتصار الخير على الشر وغيرها .

● وفي حدائق المعهد وقاعاته انتصبت عشرات التماثيل الكبيرة والصغيرة وهي من انتاجات طلابه .. حيث ظلت هذه التماثيل منتصبة هناك وما زالت حتى ضاقت بها حدائق المعهد .. وكذلك الحال في بناية اكاديمية الفنون الجميلة التي تضم هي الاخرى مجموعة كبيرة من التماثيل من انتاج الطلبة ايضا .. لعل ابرزها تمثال « الواسطي » الرسام المعروف الذي تحدثنا عنه قبل قليل .

● هناك عدة تماثيل تضمها اروقة وقاعات المتحف الوطني للفن الحديث اكثرها بين (نصفي او راسي) لعدد من مشاهير الفن والادب في قطرنا ● وفي منزله ١٤ تموز في الكاظمية قرب جسر الائمة .. هناك نصب شاهق مكون من جداريتين متلاصقتين ذات ارتفاع عال .. كتب في اعلى وجهتي هاتين الجدارتين المصنوعتين من الموزايك عبارة (١٤ تموز ١٩٥٨) اشارة الى تخليد الثورة المذكورة .

● وبالقرب من المتحف العراقي في الصالحية ينتصب (اسد بابل) رمزا للشموخ .. وكذلك انتصب تمثال آخر لملك آشوري ..

● ولا يفوتنا ونحن في هذا الاستعراض ان نذكر ان المتحفين العسكري التابع لوزارة الدفاع والازياء والمآثورات الشعبية في السكك تضم قاعات العرض فيها مجموعة من التماثيل التاريخية التي تمثل مراحل من تاريخ العراق الحديث ..

● بينما ضم المتحف البغدادي التابع لامانة العاصمة عشرات التماثيل التي تجسد حياة البغداديين وطقوسهم اليومية في الزمن الغابر .. حيث غدى هذا المتحف مكانا ترويجيا وسياحيا معروفا في بغداد وبفضل ما يضمه من هذه التماثيل الشعبية .. !!

● تماثيل في الطريق :

● في مصر البرونز يجري العمل حاليا لانجاز تمثال كبير لمؤسس مدينة بغداد (الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور) حينها يكون للمنصور ثلاثة تماثيل في مدينته بغداد .

● بينما العمل يتواصل لاكمال تمثال الخليفة - العباسي (هرون الرشيد) الذي عاشت بغداد

في ايامه عصرها الذهبي ومجدها التليد ونهضتها العمرانية والحضارية .. هذين التمثالين يضطلع بعملهما الفنان النحات خالد الرحال .

● هناك نصب آخر يصنع حاليا في ايطاليا .. يمثل شخصية (السندباد البحري) وحكاياته وسفراته الطريفة التي تتعلق بمغامراته ورحلاته الخطيرة التي انطلق فيها من بغداد حيث جاب ارجاء المعمورة .. سينصب هذا العمل بعد اكماله في عرض نهر دجلة في مكان بارز يمكن مشاهدته ..

● « نبوخذنصر » حامي الحدود :

● لعل ابرز التماثيل التي ستنصب مستقبلا في بغداد ، وتنفيذا لتوجيهات السيد الرئيس المناضل صدام حسين ، تمثال كبير للملك البابلي (نبوخذنصر) الذي تربع على عرش مملكة بابل في الاول من شهر ايلول عام ٦٠٤ ق.م ، واستمر حكمه (٤٣) عاما قضاها بالحروب والعمران حيث حرر هذا الملك العراقي الاراضي السورية والفلسطينية اكثر من مرة وخلصها من ايدي الغزاه والمحتلين الاجانب .

ويعني اسم (نبوخذنصر) (الاله نايو) اي حامي الحدود ..

بتولى انجاز هذا التمثال المهم الفنان خالد الرحال - الذي ينهمك حاليا في دراسة ملامح شخصية هذا الملك العملاق ، وتحديد الفترة الزمنية التي حكم بها ، والانجازات الكبيرة التي حققها لمملكه بابل العظيمة ، والانتصارات الباهرة التي احرزها على اعدائه .

● جداريات بغداد :

● وقبل ان نختم هذا البحث الفني التاريخي عن الانصاب والتماثيل في بغداد ، لابد لنا من تعريف المواطن بعدد من الجداريات الفنية الجميلة التي تشكل هي الاخرى مظهرا جماليا وسياحيا رائعا في عاصمتنا بغداد الحبيبة ..

● جدارية « فائق حسن » :

● في عام ١٩٦٠، تعرفت بغداد لأول مرة على هذا الفن واعني به (الجداريات) . حيث انتصبت في ساحة الطيران وفي مؤخرة حديقة الامة جدارية جميلة من عمل الفنان العراقي فائق حسن وتعتبر اول عمل جداري يقام في العاصمة ..

يبلغ طول الجدارية (١٠) امتار وعرض ارضها (٤) امتار ، وهي مصنوعة من الموزايك الملون وفي

اسفلها نصبت العديد من النافورات الملونة تحيط بحوض من الماء .. حيث تحيل الاضوية الملونة المسطرة على الجدارية ليلا الى آية من السحر والجمال .

● جدارية بغداد قديما وحديثا :

● هذه الجدارية عبارة عن لوحين الاولى تكمل الثانية تنتصبان في باب ساحة «حلب» عند مدخل متنزه الزوراء من جهة الباب الشرقي صنعهما الفنان العراقي غازي السعودي عام ١٩٧١ .

تمثل الاولى نماذج رائعة للمعمار البغدادي القديم والحديث ، مثل بنايات الجوامع والكنائس والقباب والمنائر البغدادية ، اضافة الى النباتات الحديثة الاخرى .. فيما تمثل الجدارية الثانية المقهى والجالسي البغدادي ، وشارع ابي نؤاس ، وصيادي الاسماك ، وطريقة « السمك المسكوف » الشهيرة في بغداد .. حيث تظهر في الجدارية فرقة للموسيقى الشعبية التي تعزف في حفلات الاعراس والختان الشعبية ..

يبلغ طول كل جدارية (١٠) امتار والارتفاع مترا واحدا .. وصنعت من مادة الموزائيك الملون .. وهي اول جدارية موزائيك تصمم وتنفذ داخل القطر .

● جدارية التأميم :

● انتصار التأميم العظيم والاعلان التاريخي الذي بشر به الاب المناضل احمد حسن البكر في الاول من حزيران عام ١٩٧٢ .. جسده جدارية كبيرة انتصبت في شارع المطار الدولي عام ١٩٧٧ .

الجدارية تروي تاريخ العراق قديما وحديثا منذ عهد السومريين والاشوريين والاكديين ، وحتى الفترة المعاصرة ..

وهي تعتبر من اكبر الجداريات في الوطن العربي .. ويعود كبر حجمها الى عظمة قرار التأميم الخالد وسيطرة الشعب على ثرواته النفطية التي كانت نهبا مشاعا للشركات الاحتكارية .

وجه الجدارية الاول المقابل لمدينة بغداد ، نفذه الفنان العراقي نزار الهنداوي .. وفيه تظهر جماهير الشعب وهي تعلن فرحها بالحلم الاتي على شكل طير في السماء .. وهذا الطير يرمز الى حلم التأميم والانتصار العظيم ، حيث بذل فيها الفنان الهنداوي جهودا كبيرة .

اما الوجه الثاني للجدارية فقد تضمن مقاطع

من نص قرار التأميم الخالد الصادر من مجلس قيادة الثورة والذي اعلنه الاب القائد عشيبة يوم الاول من حزيران .. مكتوب بالخط الكوفي البارز المرسوم على الموزائيك نفذه الخطاط العراقي الدكتور سلمان الخطاط .

ولابد من الاشارة الى ان هذه الجدارية ، وقبل ان تستقر في مكانها الحالي سبق لها ان شاركت في معرض الحزب الذي اقيم لمناسبة الذكرى السابعة والعشرين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٧٤ .

تنتصب الجدارية على قاعدة دائرية الشكل بارتفاع متر واحد .. اما ارتفاع الجدارية فيبلغ (١٤) مترا اما عرضها فيبلغ (١٢) مترا و (٦٠) سم وهي من الموزائيك الملون .

● جدارية القادسية :

● على جانبي باب « القادسية » في متنزه الزوراء المواجه لشارع الزيتون .. انتصبت جداريتان من صنع الفنان غازي السعودي في بداية عام ١٩٧٨ ، تمثلان معركة القادسية الشهيرة التي تم النصر فيها للجيش العربي بقيادة سعد بن ابي وقاص ، على الجيش الفارسي .. وعلى اثرها تم تحرير العراق من الحكم الاجنبي .

تصور الجدارية الاولى ، الجيش العربي .. والثانية الجيش الفارسي .. وقد بذل الفنان السعودي جهودا بارعة في تجسيد احداث هذه المعركة الفاصلة في التاريخ العربي .

● « بانورما » القادسية في المدائن :

● ما دمنا نتحدث عن معركة القادسية المشهورة .. لابد ان نعرف شيئا موجزا عن موقع « القادسية » التي حدثت فيه تلك المعركة .. فهي في موقع في الصحراء المحيطة بمدينة النجف الاشرف .. والوصول اليها اما عن طريق بحر النجف او عن طريق مدينة ابي صخير التي تقع بالقرب منها اطلال مدينة الحيرة عاصمة دولة المناذرة الصربية .. وبالفحص فان موقع المعركة الان في وسط الصحراء قرب ناحية (الرحبة) ويمكن الوصول اليها عن طريق الحج البري الذي يربط العراق بالسعودية .

● العمل الكبير الذي تتولى انجازه حاليا امانة العاصمة هو انشاء رابع (بانوما) في العالم وهي بانورما القادسية التي يجري العمل فيها في منطقة المدائن (سلمان باك) قبالة طاق كسرى .

● خاتمة المطاف :

● من هذا ينضج ان بغداد اليوم في زمن الثورة الزاهرة .. أصبحت بالفعل مزرعة خصبة للتمثيل والانصاب التذكارية .. وهي دليل جميل وعرفان لتاريخ هذه المدينة العظيمة ولابنائها من الشعراء والادباء والمؤرخين ورجال السياسة والمجتمع .. كذلك غدت هذه الانصاب مصدر تقييم وتكريم لحضارات وادي الرافدين القديمة والعريقة والفنية بوافر عطاءاتها الفكرية والحضارية والثقافية منذ فجر السلاط البشيرة .. باعتبار ان ارض الرافدين مهد البشرية الاولى .

● في خاتمة هذا المطاف .. لا يفوتني الاعتذار عن الهفوات التي ربما وردت في هذا المقال .. او نسيان بعض التماثيل والانصاب الاخرى التي فاتني ذكرها في هذا العرض السريع .. وامل ان يبادر ذوو الاختصاص في هذا الجانب الحضاري الممتع واغنائه بما يستحق من مكانة فنية وجمالية وتاريخية تتوافق والمكانة العظيمة التي تحتلها عروس الرافدين الحبيبة بغداد عاصمة قطرنا العراقي المناضل وامل كل العرب في كل مكان .. والله الموفق وبه نستعين .



● مصادر المقال :

- ١ - كراس (من اجل بغداد اجمل - التماثيل والانصاب) اعداد فلولي بطرس اصدار امانة العاصمة .
- ٢ - ارشيف امانة العاصمة من الصحف والمجلات العراقية (الصبارة النصب والتماثيل) .
- ٣ - اعداد من مجلة امانة العاصمة للاعوام ١٩٧٧ و ١٩٧٨ .

وهي عبارة عن بناية كبيرة على شكل (زقورة) قاعدتها السفلى (٢٥٠٠) متر مربع وقاعدتها العليا (١٦٠٠) متر مربع ، حيث تضم هذه البناية من الداخل شاشة دائرية (البانورما) حيث ستجسد هذه الشاشة معركة القادسية ، بشكل تفصيلي ينسجها الفلم السينمائي (الصوت والصورة) وتمثل عظمة وانتصار العرب على اعدائهم بقيادة القائد العربي سعد بن ابي وقاص زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عام (٢٢) هجرية ..

وتضم كذلك بناية البانوراما متحفا عسكريا تعرض فيه ابرز الاسلحة المستعملة في تلك الحقبة التاريخية من الزمن .. اضافة الى الملحققات الخدمية الاخرى باعتبار ان هذا المرفق واحدا من اكبر المرافق السياحية والتاريخية في القطر .

وكما قلت فان هذا المشروع العراقي هو رابع مشروع من نوعه في العالم حيث سبقتنا في هذا المجال اربعة دول . وهي تمثل وقائع ومعارك تاريخية معروفة في تلك البلدان سجلت شعوبها فيها انتصارات عظيمة على الاعداء فاستحققت هذا التخليد والتجليل .

● بدء العمل في مشروع بانوراما القادسية عام ١٩٧٥ .. ومن المؤمل الانتهاء منه عام ١٩٨٠ .. ويعمل على تنفيذ رسم تفاصيل المعركة عدد من الفنانين الكوريين الذين سبق لهم خوض مثل هذه التجربة ..

ومما لا شك فيه ان هذا النصب العملاق سيضفي على منطقة المدائن ذات الانوار والشواهد العريقة ، موقعا سياحيا جديدا ، لما يمثله هذا الانتر الكبير من خصائص تاريخية واثارية وترفيهية لكل المواطنين الذين يؤمنون هذه المنطقة السياحية المعروفة ..



وَكَا فَرَّقَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ فِي تَقْوَى الْعَرَبِ عَلَى الْيُونَانِ مِنْ خَزَائِنِ الطِّبِّ

بقلم الدكتور

خَلِيلُ مَسَار

الجامعة اللبنانية - بيروت

يعرفون التخدير ، ويجرون العمليات الصعبة ، والعرب اول من جعل احترام الطب ، تابعا لامتحان ، واول من افتتح الصيدليات المجانية . وهكذا وفق علم الامراض العربي ، ان يتعدى حدود الملمس الاغريقي ، ويسبق في فتوحاته ، ما جاء بعد جالينوس نفسه ، الذي وان اشتهر بتحليلات رائعة صائبة ، الا انه صرف طاقاته الجبارة في تسخير الحقائق لخدمة نظرياته وصباها في بنائه الضخم مهما كان السبب .

حتى جاء الرازي ، فعلم العرب التفكير الطلق والنظر الحر ، فرسالته عن الحصبة والجذري ، ظلت المرجع الاول والاخير في اوروبا ، حتى القرن الثامن عشر . ثم فرق مرض النقرس عن الروماتيزم وكان ابن سينا اول من وضع تشخيصا دقيقا عن التهاب الاضلاع ، والرئة وخراج الكبد ، ثم فرق بين التهاب الرئوي والبلوري ، وبين التهاب السحايا الحاد والناثوي ، وبين عوارض المفص المعوي والمفص الكلوي ، وتعرض لشلل الوجه واسبابه ، ففرق بين الشلل الناتج عن سبب مركزي في الدماغ والناتج عن سبب محلي ، ووصف تشعب الاعصاب في القفص الصدري ، ومن المعروف ان الاغريق قد عالجوا الشلل بوسائل حارة ، فجاء العربي ابن بشر وادخل كعلاج للشلل ، الادوية المبردة وعنصر الماء الرطب وحقق به نجاحا هائلا ، ووضع حدا لاستعمال الوسائل الحارة ، وعالج مرضاه بعاء الشعير وبغيره من النباتات .

ويدين علم الطب لابن زهر باول تشخيص سريري لالتهاب الالهاب (الجلد الخام) الوسطي

كانت بغداد في العصور العباسية ، مدينة الطب والاطباء ، يرنو اليها العربي والاعجمي ، على حد سواء ، ان لجهة الاختصاص في هذا الميدان ، وان لجهة طلب الشفاء من مرض عضال ، اما النهضة الطبية الرائدة ، فان هذه المدينة الخالدة حملت اعباءها حقبة طويلة من الزمن ، حتى تجاوزت الطب اليوناني اشواطا بعيدة .

فهارون الرشيد اول من شجع ترجمة كتب اليونان الطبية ، وكانت مجموعته في هذا الميدان ، مقتطفات من كتب اخبار اليونان ، ولاسيما جالينوس ثم ترجمت كتب ابوقراط وسواء ، ولقد عمل العرب على تنمية تلك العلوم ، وقد بلغ العلم العربي قمة عصره الذهبي بين القرن الثامن والتاسع ، وكان مركزه الاساسي ، بغداد .

ولقد اشتهر من الخلفاء العباسيين ، المنصور والماون بحبهما للتوسع العلمي بحيث اولع هذان الخليفتان بالعلوم اليونانية ، فاشترى مخطوطات كثيرة ، من يونانية وغيرها ، وحفظها في « بيت الحكمة » وامرا بترجمتها الى العربية .

فالطب العربي ، بفضل مدينة بغداد خاصة ، وبعض الحواضر العربية عامة ، سبق الطب الغربي بمئات السنين . . وكانت في بغداد والبصرة والكوفة ودمشق وقرطبة مدارس جامعة ، يقصدها الطلاب من الشرق والغرب ، ويتفق العلماء ، على ان العرب بلغوا شأوا فاقوا فيه اليونانيين بكثير . فدرسوا علم وظائف الاعضاء ، وعلم الصحة وكانت طرق طبهم العلمية ، نظير طرقنا الحاضرة ، ولا تزال حتى اليوم نستعمل كثيرا من ادويتهم وكان جراحوهم

وللتهابات الناشئة والانكابية لكيس القلب ، وقد فرقا عن امراض الرئـة . ويدان له باكتشاف الحقنة الشرجية المغذية والغذاء الاصطناعي لمختلف حالات شلل عضلات المعدة ، وبوصف كامل لسرطان المعدة ، في الوقت الذي اكتشف فيه ابن سينا ان سرطانا موضعيا يعطي عوارض السرطان العام في الجسم ، واكد امكانية عدوى داء السل وخطر الاشعة الشمسية على المصابين به .

اما ابن رشد فقد اكتشف المناعة التي يتركها داء الجدري الاسود لدى اصابته الاولى ، كما ان مبدأ التطعيم يتم بواسطة جراثيم ضئيلة ، وذلك بان نجرح اليد ما بين المصم والابهام ، وبوضع قليل من بثور غير ملتهبة فوق الجرح ، بينما كان الصينيون ، يضمون ضمادة مبلولة بقيح الجدري فوق انف الولد .

وفي النصف الاول من القرن التاسع صور ابن مسكويه صورة شاملة للجذام (البرص) وقال انه مرض معد ، ولقد اهتم به كثيرون غيره كابن الجزار الذي كتب مفصلا اسبابه وطرق علاجه ، وكذلك عندما انتشر مرض الطاعون انتشارا هائلا ، نشر الطبيب الاندلسي ابن الخطيب ، رسالة علمية منطقية عن العدوى بواسطة الاتصال بالمرض ، ومن المؤكد ان اكتشاف العدوى واطارها والوقاء من الهلاك ، الذي كانت تزرعه بين افراد الشعب ، اعتبروا من اعظم الفتوحات العلمية التي حققها الفكر العربي الخلاق .

وكما وفق العرب في الطب ، كذلك وفقوا في فن الجراحة ، واسدوا له خدمات جلـى ، فالجراح الاندلسي الزهراوي ، ادخل تجديدات في مداواة الجروح ، وفي تفتيت الحصاة داخل المثانة ، وفي التشريح واجراء العمليات . وقد اهتم هذا الجراح العربي ايضا بالتهابات المفاصلية ، وبالسـل في خريزات الظهر ، الذي سمي فيما بعد باسم الانجليزي بوت ، الداء المبوتي ، وكذلك طور فرع الامراض النسائية بان ادخل عليه طرفا في البحث والمداواة جديدة ، والات حديثة ، بعد ان كان على يد الاغريق في مستوى غير لائق . كما اوجد لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد ، او ركة الجنين او وضعه المسمى بوضع الارجل (تقدم الارجل من باب الرحم على الرأس) او الوضع الوجهي ، وهو اول من عالج هذا الوضع الاخير واول من اوصى بولادة الحوض ، وعلم القيام بعمليات في المهبل والية لتوسيع باب الرحم .

وقد درس ابو القاسم علاج تشوهات الفم والفك . ونجح في عملية شق القصبة الهوائية ، وقد اجري هذه العملية على خامة . ووفق ايضا في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة محسنا بذلك عملياته الجراحية ، ومسهلا بقطع الاعضاء ، وهو فتح علمي كبير حققه وعلمه ابو القاسم العربي ، كما انه علم تلامذته كيفية تخطيط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئا مربيا منها ، والتدريز المشتمل في جراحات البطن ، وكيفية التخطيط بآبرتين وخيط واحد مثبت بهما ، واستعمل الخيطان المستمدة من امعاء القطط في جراحات الامعاء ، وهو اول من اوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الانسان ، ان يرفع الحوض والارجل قبل كل شيء . وهذا الجراح العربي هو اول من اوجد طريقة فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، واعد الجراحين واطباء العيون والاسنان ، بالالات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها .

اما في طب العيون ، فقد بلغ العرب شأوا عظيما ، تفوقوا فيه على اليونان واول كتاب في هذا الموضوع كان كتاب اسحق بن حنين (العشر مقالات عن العين) وقد بقي مع مؤلفات علي بن عيسى وعمار من الموصل ، المرجع الاول لطب العيون حتى القرن الثامن عشر .

كذلك ، فان العرب برعوا في معالجة تشويه المفاصل والمغظام ، وادخلوا طريقة جديدة لمعالجة خلع الكتف . وقد زاد ابن سينا على المداواة بالحمامات الباردة او الساخنة الموروثة عن القدماء علاجا يقضي بجمع الاثنين في آن واحد ، بفصلهما تراوح زمني بسيط . كما انه اوجد الحقنة الشرجية او كيس الثلج . اما استعمال خيط الشعر للعمليات الجراحية في القرون الوسطى ، فيرجع الى الرازي والعرب هم اول من استخدم المرقد (المخدر) العام في العمليات الجراحية ، وكان التخدير العربي فريدا من نوعه ، يختلف عن المشروبات المسكرة التي كان الهنود والرومان واليونان يجبرون مرضاهم على تناولها كلما ارادوا تخفيف الالم .

لقد اعتقد ابوقراط اليوناني بان تقيح الجروح ما هو الا عملية طبيعية مرغوب فيها جدا ، وذلك لعملية التطهير التي يقوم بها في الجسم ولكن ابن سينا ، عارضه في هذا ، بنظريته عن الجروح الخالصة من القيح . وكان نجاحه هائلا ، والسـر في ذلك يرجع الى انه قد تخلى عن نظرية القيح القديمة ، وعمل ما يوسعه لتجنب اي عامل

كيمادي ، مع الخمرة المعتقة القوية ، واثبت قوة مفعول الخمرة الفاتكة للجراثيم التي توازي قوة البنسلين ، وفي مداواة الجروح تقليد عربي قديم ، ذلك ان عرب الجاهلية قد ابدعوا في مداواة الجروح المعدية ، ووجدوا لها وسيلة ، فعني بها مضادات الجراثيم ، فمن سروج حميرهم ودوابهم حصلوا على المواد المضادة للجراثيم (البنسلين) وعلى دواء الهليون ، وضعوا منها مراهم وعالجوا بها جراحاتهم الملتبحة ، كما انهم نفخوا غبار العفن في الحلق لدى التهابه ، كما هو المهود لدى البدو حتى ايامنا هذه .

والعرب هم اول من عالجوا الامراض العقلية والعصبية بالافيون ، كما هو متبع حديثا ، كما انهم ابدعوا في المعالجة النفسية التي مثلت دورا مهما في مداواتهم بالموسيقى ، ووضعت كتب خاصة بهذا الموضوع ككتاب (تأثير الموسيقى في الانسان والحيوان) لابن الهيثم . ولقد نادى ابن سينا بضم الوسائل النفسانية ، الى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها وازالة الخوف عن المريض قائلا بما معناه علينا ان نعلم ان افضل العلاجات وانجعها ، هي العلاجات التي تقوم على تقوية قوى المريض النفسانية والروحية ، وتشجيعه ليحسن مكافحة المرض ، وتجميل محيطه ، وسماعه ما عذب من الموسيقى ، وجمعه بالناس الذين يحبهم .

ولم يجهل العرب حفظ الصحة ، فكانوا يعرفون

جيذا ، ان علم الصحة ، يعلمنا طرق الوقاية من الامراض التي لا يستطيع الطب شفاؤها . وكانت مناهجهم الصحية . طبية منذ القديم ، وما سار عليه ابناء البلاد الحارة من تفضيل الطعام النباتي على الطعام الحيواني غابة في الحكمة . وكان من عادة مؤلفي العرب ان يوزوا وصاياهم الصحية ، في كلمات جامعة يسهل حفظها ، ويظهر ان مشافي العرب التي انشئت فيما مضى ، افضل صحيا من مشافينا الحديثة ، فقد كانت واسعة ذات هواء كثير وماء غزير ، ولما عهد الى الرازي في اختيار حي في بغداد لاقامة مشفى عليه ، التجأ الى طريقة لا ينكرها عليه اصحاب نظرية المكروب الحديثة ، وذلك انه عاق قطعة لحم في كل حي من اجزاء المدينة ، واعلن ان اصلح حي يقام عليه المستشفى هو الحي الذي يتاخر فيه فساد قطعة اللحم المعلقة .

وكانت مشافي العرب ، ملاجئ للمرضى ، واماكن لدراسة الطلاب بحيث كانوا يتلقون دروسهم في المشافي ، اكثر مما يتلقونها في الكتب ، وانشا العرب مشافي للمصابين ببعض الامراض العقلية ، ولم يجهلوا تأثير الجو الصحي ، ومن ذلك نص ابن رشد في شروحه لكتب ابن سينا ، على تأثير الاقليم في داء السل وابصاؤه المصابين به بان يقضوا فصل الصيف في جزيرة العرب وبلاد النوبة . وكان العرب يعتمدون كثيرا على علم الصحة في معالجة الامراض ، وعلى الوسائل الطبيعية ، ولا يختلف لذلك عن الطب الحديث .

الظرف البغدادي

بقلم

فَاطِمَةُ جَمْرَةَ الشَّاذِلِي

كلية التربية - جامعة بغداد

ومن المحدثين صلاح الدين النجد في كتابه (الظرفاء والشعاذون في بغداد وباريس) وقد استفاد من كتاب الموشى كما افدنا منهما في بحثنا هذا، أما اخبار الظرفاء فقد غصت بها كتب الاخبار والادب والتاريخ وانبتت نصوصها في تأليف كثيرة ككتاب الديارات للشابستي، والاغانى لابي الفرج ونهاية الارب للدينوري وبتيمة الدهر للشعالبي، وكتب الجاحظ، وتاريخ الطبري، والكامل في التاريخ والمنظم. ومؤلفات السيوطي وغير ذلك كثير.

على اننا وجدنا ان في البحث في موضوع (الظرف البغدادي) اطلاع واسع على معرفة الاحوال الاجتماعية في العصر العباسي ولا سيما ان دراسة الاحوال الاجتماعية هي محك او وسيلة من انجع الوسائل التي تكشف الاحوال الثقافية، والعلمية بضروبها المختلفة - والنصوص دالة عليها - وبالتالي اظهار الجانب الحضاري للمجتمع وما بلغه من سمو وعلاء.

ولقد كان (الظرف البغدادي) سمة حضارية لانه يتصل كل الاتصال باسباب حضارتها^(*)، فبغداد - التي خلدها الشعراء في اشعارهم يومذاك استوت فيها الحضارة الاسلامية ونضجت ومال الناس فيها الى كثير من مظاهر الترف والاناقة والتزين بل التنافس في هذا السبيل وكانوا في بحبوحة من العيش وسعة الرزق وتعدد اسبابه وسبله ولا غرو في ذلك، فقد عم الامن،

لا ننكر ان البحث في موضوع (الظرف البغدادي)، شيق ممتع، فضلا عن انه يثير فينا نزوعا نفسيا للاطلاع على جوانب كثيرة مهمة لصيقة بواقع الحياة الاجتماعية للانسان العربي في بغداد العصر العباسي، فالظرف بوصفه ظاهرة حضارية قد سادت المجتمع البغدادي، وفي هذا القول شمولية وسمة نعم المجتمع العربي، لان بغداد يومذاك مثل يحتذى ومثار يشع بكل مقومات الحياة المشرقة، فحين يبحث الدارس في (الظرف البغدادي)، وممارسات الظرفاء، فكأنه يتحسس ويلمس الصورة الطبيعية للحياة الاجتماعية المتوازنة للانسان، في جدها وعزلها في تعقلها، وعواطفها، وفي حكمتها. ما لزم حد المعقول وما تجاوزده. وقد عاشت الحضارة الاسلامية زمن النضج يعلو مبتمها دماثة في الخلق، وحكمة في الرأي منبثة في انتاج العصر على انسنة الظرف شعرا ونثرا، وقد صور هذا الجانب من الحياة بصراحة وجراة بلغت حدا بعيدا، واننا نجد ان الذي ساعد على ذلك هو: الظروف الثقافية وامتلاك وعي الواقع والنضج الحضاري والا لسا اسنيغ، وسجل، ونقل ذلك الادب الظريف بكل انواعه، لكثير من ظرفاء العصر.

ولقد كان لبعض الدارسين القدامى قصب السبق في التأليف في هذا الموضوع، وفي مقدمتهم الوشاء^(*) في كتابه (الموشى). واخبار الظرف والمتماجنين، واخبار الاذكباء، لابن انجوزي.

(*) هو ابو الطيب محمد بن اسحاق عاش في بداية القرن الرابع للهجرة (٨٦٠ - ٩٢٦ م).

(**) ظرفاء النجد ص/٢.

وكثر الخير ، وتفرغ القوم للتمتع وافتنوا في ترف العيش والتنعيم بأسباب الدنيا وحب كل ما هو طريف ظريف ، (وهذه عناصر تتصل بالفن اتصالا وثيقا) (١) .

وفي بغداد عاصمة الدولة العباسية اضحى المجتمع الاسلامي - بسبب الفتوحات وسعة الرقعة الاسلامية - خليطا اجتماعيا انفه الاسلام من عناصر شتى ذات طبائع واخلاق واذواق وبيئات وعادات مختلفة بكل موروثها ، الحضاري ، والثقافي المختلف ، فكان من اغزر المصادر واعجبها (٢) وساعد على خلق انموذج للانسان ، الذي تفاعلت ، وامتزجت في نفسه وروحه كل عوامل المجتمع الجديد ، فكان انسانا متحضرا دمثا ، في سماحة وظرف وذكاء وهي سمة حضارية استمدت مقوماتها من ذلك المزيج .

ومما افاء به الفتح الاسلامي على بغداد ، وغيرها من عواصم الدولة العباسية كثرة الاسرى من الجوارى الفارسيات ، والروميات - وهو سبب نضيفه الى ما ذكرنا آنفا - ، وبذلك دخل - في المجتمع البغدادي - لون جديد ادخل مظهرا جديدا في المجتمع والجديد بطبيعة الحال يلفت النظر ، ويستدعي الاهتمام ، ومن هنا كان للمرأة الاسلامية الجديدة اثرها في مجتمع بغداد (فسمى نحوها الرجال ، وسعت القيان اليهم وتبذلت المساعير ، وكان نتيجة ذلك النظرف والتزين والارضاء) (٣) .

وراجت سوق الجوارى ، وقد افتن النخاسون (٤) في تعليمهم وتاديبهم الشعر ، والفناء فضلا عن حفظ القرآن الكريم ومأثور القول ، كل ذلك لان هؤلاء النخاسين وجدوا فيهن تجارة مربحة رائجة ، وانتشرت تجارة الرقيق في بغداد وعنى بها هؤلاء على اكمل وجه . وكان في بغداد شارع يسمى شارع (دار الرقيق) وقد بكاه الشاعر بقصيدة طويلة آخرها :

(١) الطرفاء / صلاح الدين المنجد طبعة الرسالة ص/٢ .

(٢) نفسه / المقدمة . وانظر تاريخ الادب العربي : الغزالي ص/٦ وتاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : ابراهيم ابو الخشب ص/مقدمة .

(٣) المنجد في الطرفاء ص/١٠ .

(٤) بانمو الرقيق ، واحده نخس . اللسان / نخس . وانظر مليحة رحمة الله : الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع الهجري ص/٨٥ حول الشعر والفناء .

ومهما انس من شيء تولى فاني ذاكرة دار الرقيق (٥)

واشتهر منهم كثير كئبي عمير الذي كان له جوارى قبان لهن ظرف . منهن (عبادة) التي عتوبها عبدالله محمد بن البواب . يقول فيها :

لو تشكى (ابو عمير) قليلا
لاينساه عن طريق العيادة
فقفينا من العيادة حقا
ونظرننا في مقلتي (عبادة)

ومنهم (الخطاب) كانت له جارية تعرف (بذات الخال) التي كان يهواها ابراهيم الموصلي ، وغيرهم كثير (٦) . وقد كان الشعراء يأوون اليهم بسبب ذلك .

وقد احسنت الجوارى اساليب المطارحة الشعرية والمنادمة وسبل المجالسة والمسامرة ، وتطارح الرجال من الشعراء الشعر معهن (٧) ، وكانت بغداد والعصر العباسي مصر هذه المطارحة والمعارضة على الوزن والروي الواحد وبقيّة المعنى ، واكثر ما تكون الغلبة فيها لهن (فقد كن اسرع بديهة ، وارق طبعا) (٨) .

ومن ذلك ما جرى بين الشاعر السلولي وعنان (جارية الناطقي) وصاحبة ابي نواس بعد ان طلبت ان يبدأ السابق في المعارضة (٩) :

قال السلولي :

لقد جدّ الفراق وعيّل صبري
عشيرة غيرهم للبين زقت
فقلت عنان :

كتمت هواكم في الصّدور مني
على انّ الدمعوع عليّ نمت
فكانت اشعر منه .

وقد عجت قصور الخلفاء والوزراء وذوي الجاه والمال منهم بهن ، ظريقات وظرفاء وكانت مجالس سمرهم ومنادمتهم واماكن لهوهم وبساتينهم مكانا لحضورهن ومصاحبتهن .

(٥) الوشى : الوشاء ، مقدمة ص/د .

(٦) نفسه .

(٧) نمار القلوب في المصاف والمنسوب : الثعالبي ص/١٧٧ .

(٨) قول الجاحظ في المصدر السابق نفسه .

(٩) المرأة في ادب العصر العباسي : واجدة الاطرقي ص/٢٠١ .

وفي ذكر انتشار الجوّاري والفلماني أفادنا كتاب أبي حيان التوحّيدي (ت ٤٠٠هـ) : الامتاع والموانسة بنص (١٠) ينير ذلك . قال : (فقد أحصينا في بغداد سنة (٣٦٠هـ) : (٤٦٠) أربعمائة وستين جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الحذق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ، ولا نصل إليه) . وأبو حيان هذا شاهد معاصر وأديب حضارة القرن الرابع يدلي لنا بدلوّه بهذا الصدد .

قلنا ان الحضارة طفت في بغداد (مدينة السلام) وانغمس الناس في الترف ، ورقّت الطباع ، والاذواق واخذ اهل ومجتمع بغداد العادات الفارسية ، وتأثروا بتقاليدهم أيما تأثر ، وكان اثرهم هذا اكثر من اثر اليونان ظهورا ، فقد كان اثر هؤلاء في الحياة العقلية في الفلسفة ، والجدل والمنطق (١١) . ولذا فقد كان تبدل المجتمع في بغداد تبدا جذريا (١٢) . وهذا ما يكاد يجمع عليه المؤرخون في الادب والتاريخ ، وقد كثر التسري والجوّاري ، ويكفي ان نشير هنا ان ستة وثلاثين خليفة من العباسيين امهاتهم من الجوّاري (١٣) .

وفوق ذلك فان الروح الدنيوية سادت قصور الخلفاء ، والوزراء ومجالسهم ، كالرشيد ، والوائق وامثالهما وقد عدّت قصورهم ، وما بدخوا عليها ، وما ضمت عليه من فرش وثيرة ، طنافس ورياش ، وازاهير وتحف ، وسرر وما فيها من حدائق وبرك والوان مما دعا الشعراء ونخص منهم الظرفاء الى وصفها باجمل الابيات وارقتها ظرفا ، مما يبعد من أعجب آيات الفن والمعران حتى انه ليشك (١٤) في انها من الحقائق الواقعة في بغداد وغيرها لولا ما تؤكد عليه النصوص الادبية المتواترة ، ونقول المؤرخين ومعاصري ذلك الترف مما اعتمد عليه البحث في (الظرافة البغدادية) .

ولقد كان الظرفاء من الرجال والنساء يتنادمون وهؤلاء اعطوا أيضا صورة أو وجهها جديدا للشاعر ودوره لانه كان يحمل طابعا تصح تسميته في عصرنا هذا بالمدايع (السياسي) في مراحل الاسلام

(١٠) ١٨٢/٢ .

(١١) ظرفاء التجدد ص/١٠ .

(١٢) الحالة الاجتماعية في العراق : مليحة رحمة الله ص/١٠٧ - ١٠٩ وانظر اعلام النساء ١/١٧٧ .

(١٣) مقدمة الموشى ص/د .

(١٤) انظر مقدمة الموشى ص/و .

السابقة ، الا وهو دور النديم لدى قصور الخلفاء والوزراء ومن هم في عدادهم ، وتغنى المغنون ، والمغنيات بأشعارهم ، والناس في بغداد في هذا العصر يتغنون بالشعر الفصيح ، والجوّاري والقيان يحفظن بل يحرصن على حفظه وروايته وغنائه ، وبرزت ، كثيرات ، ومنهن (عريب) (١٥) ، التي عرفت بجمال صوتها وانه من اجمل الاصوات بين المغنين والمغنيات وكن يغنين من وراء الستائر (١٦) ، مما يوقع الكثير من المستمعين بهواهن ، والحرص على لقائهن لمعرفة صاحبة ذلك الصوت الرخيم .

اسباب نشوء الظرف البغدادية

ان اسباب نشوء الظرف على ما بدا لنا سابقا كثيرة وقد مهدت لها عوامل عدة تضافرت وبلغت ، اوجها زمن الترف ، زمن المهدي (١٥٨هـ) ووصلت حد الانبهار ، زهو في العيش ، تمتع باللذات ، تأنق في كل شيء ميل الى الطرافة والجدة ، والفن ، ترف فائق في الحياة ، توفرت في بغداد فزهوا بذلك كله ، وقد اشار ابو حيان الى ان البغدادية (١٧) مبال بطبعه الى الظرف والتظرف .

وقد كان للفن وكثرة الاموال عن طريق الجباية والخراج عاملا مهما ولما نقل وترجم بنشاط اثر عقلي فالتأثر الفكري الجديد في الفلسفة وعلم المنطق وما الف ادباء بغداد المعاصرين - كان من العوامل الاخرى المؤثرة في زيادة التظرف ، ولقد الف الجاحظ كتاب (التاج) (١٨) .

الظرف ظاهرة ومذهب

تعريف الظرافة ومدلولها :

تناولت مراجع اللغة دلالة (الظرف) وانفقت على مدلولات كثيرة تشتملها الظرافة ، ويتصف بها الظرفاء (١٩) ، فالظرف عندهم : البراعة ، وذكاء القلب ، يوصف به الفتيان الاذوال (٢٠) ، وهم الفلماني

(١٥) شاعرة ومغنية ذات فصاحة وبلاغة ، قيل انها ابنة جعفر البرمكي ، ولها مراسلات مع ابراهيم بن المدير وغيره وكان الامون يشفقها . توفيت سنة ٢٧٧هـ . انظر : المستطرف ص/٢٧ - ٢٨ وطبقات ابن المعتز ص/٢٥ . (١٦) راجع حول الستائر ، مجلة المجمع العلمي بدمشق . مجلد/٢ ، لسنة ١٩٢٢ ص/٢٩١ (مقالة احمد ليمور ، الالفاظ العباسية) .

(١٧) انظر كتاب الصداقة والصديق ص/٢٢ .

(١٨) ظرفاء التجدد ص/٢ .

(١٩) اللسان / حرف ، والتاج كذلك .

(٢٠) البستاني : محيط المحيط مكتبة لبنان ١٨٢٠/حرف

الظرف ، وذكروا أنه لا يوصف به الشيخ ولا السيد فكانه من لوازم الشباب لدواع كثيرة فيه . وما يقرب من هذا المعنى في الدلالة أنه أي الظرف : حسن العبارة ، والهيئة ، وهو مصدر الظريف . وقد ظرف يظرف ، وهم ظرفاء ورجل ظريف من قوم ظرفاء ، وظروف وظراف على التخفيف من قوم ظرفاء . وظراف بتشديد الراء من قوم ظرافين ... ويتظرف : يتكلف الظرف .

والظرافة قليلة في غير الشعر (٢١) . قال ابن الأعرابي : الظرف في اللسان ، والحلاوة في العينين ، والملاحة في الفم . والجمال في الأنف . قال : كانه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق (٢٢) . وفي حديث ابن سيرين : الكلام أكثر من أن يكذب ظريف ، أي أن الظريف لا تضيق عليه معاني الكلام ، فهو يكتفي ويمرض ولا يكذب . والظريف يملك تلك الملكة التي تكون مبدءاً لصدور الالفاظ التي لا تخلو من ظرافة والهام (٢٣) .

وابن الجوزي (٢٤) يذكر للظرافة والظريف مدلولاً يقرب من مفهومنا للظرافة اليوم ، فقد نقل قول الحسن البصري .. كانه وعاء كل لطيف .

والتورية تدخل في معاني الظرف ، فما يوجب خجل المذنب فيورى عنه هو من الظرف كذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام « اذ اخرجني من السجن » (٢٥) ولم يذكر (اُجِب) لئلا يستحي اخوته .

واحسب ان ما ذكره ابن الجوزي ممهداً للتوسع في بعض معاني ومدلول الظرف الذي فيه حلاوة النكتة (٢٦) .

وقيل : ان الظرف لا يكون الا في اللسان (٢٧) يقال : فلان ظريف أي هو بليغ جيد المنطق ومنه حديث عمر (رض) : اذا كان اللسان ظريفاً لا يقطع أي ان له لساناً يتحجج به فيدفع عن نفسه .

قال : هو الخفيف الظريف يعجب ممن عرفه ، والجمع : ... ، وفي حديث النساء : (بزولة وجلس) ، هي الفطنة الداهية ، وقيل : الظريفة ، وتزول : تنامي ظرفه ، وانظر اللسان / زول .

(٢١) اللسان / زول .

(٢٢) اللسان / ظرف وزول .

(٢٣) البستاني / ظرف ، والسابق نفسه .

(٢٤) الظراف والمتماجنون ص/٢ .

(٢٥) الآية ١٠٠ يوسف .

(٢٦) الظراف والمتماجنون ص/٢ .

(٢٧) الاصمعي وابن الأعرابي : الموشى ١٥٩/٢ - ١٦٠ .

فانت تجد مدلولات مترابطة المعاني لا ينفك بعضها يشد أزر بعض ، فالدكاء وبراعة اللسان ، والبداهة وتعدد الجواب والبلاغة والتورية منها دائرة في فلك واحد على التوسع في المعنى الذي وصل اليه الظرف بعدئذ .

صفة الظريف وسنن الظرافة :

لادب لمن لامروءة له ولا مروءة لمن لاظرف له ، ولاظرف لمن لاادب له . فانوشاء (٢٨) هنا يجعل للظريف من الخلال ما يلزم به فهو اديب متادب تحمد خلاله ذو مروءة ، وليس هذا فحسب فقد نعته بنموت كثيرة ، فالفضاحة ، والبلاغة ، والعفة والنزاهة ، فضلاً عن أنه حسن الوجه . رضي الهيئة ، فد اخذ من العلوم ، فصار وعاء لها ، رقيق الطبع . صادق اللهجة . كانما للسر . هذا هو سلوك الظريف ولا يكون بخلافها ممن يمد منهم . كما ان للظرفاء البغداديين سلوكاً اجتماعياً يكن عن مبلغ الكمال في حسن السيرة والسلوك . منها حفظ ذمار الجار والوفاء له ، والانفة من العار ، وطلب السلامة من الاوزار ، والوشاء حين ينقل لنا ماذكرناه قد استشفها من واقع ممارسات الظرفاء في بغداد من ذلك أنه (الوشاء) سأل ظريفاً عن انظرف : (فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران) (٢٩) . فالظرفاء في بغداد لهم ميزات تنبئ عنهم لما فيهم من لطف في الشرائع ، ورهافة في الحس ، وتتبع للجمال والتائق في الملبس ، والتطيب ، والزينة ، والهيام بالرياض . والازهار والولوع بالظريف الذي لم تعرفه العوام ، واللباقة في التعبير عن الاحساس بالافكار والمتظرفات لمن زهو حلو وعناية بالشعر الفنائى العربي الذي يترجم المواطف والهوى (٣٠) . وفوق ذلك لا تخلو حياتهم من بساطة في جمال . وقد تجاوز هذا الى فوضى لدى بعضهم : وفيه يقول الوشاء : (سألت بعض متظرفات القصور عن ظرفهن فقالت من كان فصيحا عفيفا كان عندنا ظريفا متكاملا ، ومن كان غنيا عاهرا كان ناقصا) (٣١) ، والصراحة من شؤونهم وبلغوا مبلغ عمر بن ابي ربيعة ، من ذلك شعر ابن المعتز ومسلم بن الوليد ، قال مسلم :

انسي احبك فاعلمي

ان لم تكوني تعلميننا

(٢٨) الموشى ١٠٠/١ .

(٢٩) الوشاء ص/٥٢ .

(٣٠) النجد في الظرفاء ص/٢ .

(٣١) الوشاء ص/٥٢ .

هبا أقل قليله

كجميع حب العالمينا

وتفانوا في حبهم كقول قائلم :

انا الذي لم تدع فيه محبتكم

فضلا لغيرك من انس ولا جان

سلبت روحي واسكنت الهوى بدني

فصار فيه مكان الروح في الجسد

ولا يفوتني هنا ان اذكر شيئا من فطنة ظرفاء

بغداد مما ذكره ابن الجوزي في اخبار الظرفاء (٢٢)

وذلك : (ان المأمون غضب يوما على طاهر بن عبدالله

فاراد طاهر ان يقصده فورد كتاب له من صديق له

ليس فيه الا سلام وفي حاشيته : (يا موسى ،

فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك . وكان له جارية

فطننة فقالت : (يا موسى ان الملا يائسرون

ليقتلوك) (٢٣) .

وفيه ايضا : (قال المأمون لزبيدة لما قتل

ابنها : لن تعدني الا عينيه ، وانا ولدت مكائسه

فقالت : ان ولدا افادنيك جدير ان اجزع

عليه) (٢٤) .

وفي صدد سنن الظرفاء وما عليهم من شرائع

قول الوشاء : فيما نصه :

(واعلم ان للعشق سنة مقصودة ، وللظرف

شرائع محدودة ورأينا اربابه واهله وطلابه متبعين

لسبلها ، متمسكين بحبلها ، متى حالوا عنها سموا

بغير الظرفاء عند اهل الظرف ودعوا الى غير سنة

العشاق والادباء ولهم فيما استحسوه من الزي

والطيب والثياب ، والهدايا والطعام والشراب حد

محدود ، مستحسن معلوم ، وزى بين الطائفتين

مقسوم ، لا الرجال يتجاوزون الى ما حد لهم الى

حد متظرفات النساء ، ولا النساء يتجاوزن حدهن

الى حد الرجال الظرفاء ..) (٢٥) .

الظرف مذهب

غدا الظرف مذهبا واستوى وله سنن وعادات

زمن المهدي (١٥٨ هـ) زمن الترف في بغداد (٢٦) ،

واعتنقه كثير منهم وبعد ان كان في بغداد ظرفاء

(٢٢) ص/١٤٨ .

(٢٣) القصص : ٢٠ .

(٢٤) اللراف والمتاجنون ص/١٥٩ .

(٢٥) الوشاء ص/١٥٩ - ١٦٠ .

(٢٦) ظرفاء المنجد / ١ .

أخذ الآخرون من البغداديين وغيرهم يتظرفون ،

قاصدين اليه ، ومنتقين اياه .

وقد نما انظرف والتظرف في وقت شاعت

فيه الزندقة بين الناس ، واحب الظرفاء رقة

الزنديق ولطفه وصراحته فضلا عن انهم نشدوا

العلم والعقل والادب فاصبحت الزندقة مدعاة الى

الظرف وعبر الناس عن ذلك فقالوا في المثل :

(اظرف من زنديق) (٢٧) (٢٨) .

وانحل كثير من الظرفاء الزندقة منهم

محمد بن زياد ، قيل انه تزندق تظارفا فقال ابن

منادر فيه :

لست بزنديق ولكنما

أردت ان توسم بالظرف (٢٩)

وقد تزندق المتظرفون حتى قيل انهم تزندقوا

وغلبت عليهم هذه الصفة او ليضيفوا الى الظرف

زندقة . كما في قول الشاعر :

فقد بقي التزندق فيه وسما

وما قيل الظريف ولا الخفيف

تزندق معلنا نيقول قوم

من الادباء زنديق ظريف

واستغضب الظرف الناس فصار مدعاة للفخر

والاعتزاز ، ونظر له العوام طموحا يسمون اليه

ولا سيما . بعد ان كانت للظرفاء حظوة لدى

ال خلفاء والامراء .

وقد افادنا الثعالبي في ذلك فاورد في كتابه

نمار القلوب (١) نسبة الظرف الى الزنديق فقال :

اما قولهم : اظرف من الزنديق فقد صار مثلا في

زمان كثير ظرفاؤه وهو زمان المهدي ، وكانوا

يرمون بالزندقة كابي العتاهية ، وبشار بن برد ،

ومطيع بن ابياس .. وغيرهم ثم قال وما منهم الا

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

نظيف البزة ، جميل الشكل ، ظاهر المروءة ، فصيح
اللهجة وكان أبو نواس يعد فيهم :

وصيف كاسد محدثه ملك

فيه مثنى وظرف زنديق (٤٢)

ظرف العامة :

ونقد كان هذا الظرف الذي تحدثنا عنه يمثل
الطبقة الارستقراطية في المجتمع لانه ظرف
المترفين في القصور وتأثرت العامة بذلك فنشأ هناك
ما يسمى بظرف العوام ونذكر هنا خيرا يمكن ان
يعطينا ولو صورة بسيطة عن هؤلاء ويوضح الفرق
بينهما جاء عن أبي الفرج الاصفهاني ان محمد
ابن ذي السيفين ارسل طعاما الى (عريب) يوما
فلما رآه امرت فانهب ، فارسلت إليه طعاما ،
ورقعة فيها : يا عجمي يا غبي ظننت انني من
الأتراك وحشرش من الجند ، فبعثت الي بخبز
ولحم وحلواء ، يا فذلك نفسي قد وجهت اليك
زلة من حضرتي فتعلم ذلك اخلاق العاصية في
الظرف فيزداد العيب والعتب عليك فكشف محمد
المنديل ، فاذا طبق ومكبة من ذهب وفيه زبيبة
فيها لفتان من رقاق قد عصبت طرفيهما وقطعتان
من صدر دراج مشوي (٤٣) .

اثر الظرف في المجتمع البغدادي

لقد كان للظريفات خاصة والظرفاء عامة
اثر في المجتمع البغدادي ، من بينهم الجوّاري فقد
كان لهم بليغ الاثر في التمدّج بمذهب (الظرف)
وبنوره ، فقد تفشّ الظرفاء في التقرب اليهن ،
واخذ ظرفاء العوام يقلدونهن ، زد على ذلك ما لهن
من الاثر السياسي في الدولة فقد برعت منهن
شخصيات عرفت في الميدان السياسي وذلك برجاجة
عقولهن وصواب آرائهن الى جانب اجادتهن الشعر
والادب والفناء ، والمنطق .

وممن اشتهر من الجوّاري (أم المقتدر) (٤٤)
فقد برزت وكانت صاحبة نفوذ وقوة ، وسلطنة
وبقيت في العصر العباسي الثاني ، ودام ذلك امدا .
وام المعتز (٤٥) : جارية رومية رائعة الجمال

(٤٢) ديوان أبي نواس ص/٥١ ط. بيروت .

(٤٣) ظرفاء المنجد ص/٢٦ - ٢٧ .

(٤٤) انظر ابن الاثير في الكامل ١٢٩/٨ حوادث سنة (٢١١ هـ)
والمنتظم : ابن الجوزي ١٧١/٦ ، ١٧٤ - ١٨٥ .

(٤٥) اعلام النساء ١٨٤/٢ ، نساء الخلفاء / ٨٢ ، المستطرف
٥٧/ .

سميت (قبيحة) من باب تسمية الشيء بضده ،
وكان المتوكل يفضلها على جواريه واصبحت بعدئذ
سيدة انبلاط العباسي . وكانت وفاتها سنة
(٢٦٤ هـ) بسامراء .

ومنهن اتقهرمانات (الحاكمات) اللواتي لهن
ادوار سياسية كام موسى الهاشمية وحسن
الشيرازية وزيدان الشيرازية ونظم فالاولى وصيفة
أم المقتدر كانت تشرف على حبس رجال الدولة
قيل ان المستكفي كان عبدا لها (٤٦) .

والخيرزان زوج المهدي وام الرشيد كانت
ذات نفوذ وسلطان (٤٧) ، فاحشة الثراء سمعت في
قتل المهدي وتولية الرشيد مكانه .

وبذلك اصبحت انظريفات شغل المجتمع
الشاغل مع الظرفاء ، وخاصة في قصور الخلفاء
وتجلت مطارحاتهن ومعارضاتهن في الشعر وما
وقع لهن من اخبار مع عشاقهن من الخلفاء والوزراء
كان موضع اهتمام ادباء وكتاب العصر فجلوا
كل ذلك ، واختصت به مؤلفات تناقلتها افسار
مهمة من المظان المختلفة ، فقد اثلت بكل طريف
ظريف نذكر بعضها ، وقد احتوى بعضها على قسم
من طرائف وملح الظرفاء :

رسالة النيران (ثلاث رسائل) للجاحظ .

اشعار النساء للمروزياني .

اخبار الظرفاء والمتعاجنين لابن الجوزي .

المستطرف من كل فن مستظرف : للابشيبي

المستظرف من اخبار الجوّاري تليوطني

جلال الدين .

نساء الخلفاء لابن الساعي . تحقيق مصطفى

جواد .

اخبار النساء لابن قيم الجوزية .

الاذكياء لابن الجوزي .

بين الخلفاء والخلفاء في القصر العباسي

صلاح الدين المنجد .

الموشى للوشاء .

اعلام النساء عمر كحالة .

ومن المعاصرين صلاح الدين المنجد في كتابه

(الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس) .

وادب المرأة في العصر العباسي

واحدة الاطرقجي (٤٨) ومقالات الدكتور مصطفى

(٤٦) الخلفاء والخلفاء / ١٧ .

(٤٧) المستظرف / ٢١ .

(٤٨) رسالة دكتوراه لم نطبع بعد / ١٩٧٨ .

عجواد والمنجسد وغيرهم في المجلات . هذا وكل
المراجع المذكورة في ثبت المراجع ، وغيرها مما لم
تصل اليه ايدينا كثير .

ولمكانتهن والاعتزاز بهن كن يرثين ننقل اليك
من قول ابي احمد يحيى بن علي المنجم يعزي ولد
(اسحاق جارية المتوكل وام المؤيد والموفق) الموفق
بوفاتها فيقول (٤٩) :

لقد اظلمت بغداد عند وفاتها
كاظلامها للشمس ساعة تغرب
فولت وولي انحمد يتبع نمشها
ويصدق من يشي عليها ويندب
وما مات من ابقى الامير ومن له
من الفضل ما يغتري اليها وينسب
تقدمها اياك بعد بلوغها الـ
منى فيك ما كانت من الله تطلب
فقد اعطيت في ذاوذلك سؤلها
وبانت كما بات الحيا المتحلب
فاحسن عزاء وابق فينا مسلما
مفدى من الاسواء ترجى وترهب

وقد اعتزت الظريفات باسيادهن فرئيسهن
وهذه (تيماء) جارية ابي العباس خزيمة بن خازم
النهملي فقالت ترثيه (٥٠) :

ان ابا العباس خدن العلى
خزيمة الياس قتي الجود
والمثلف المخلف رب النمدى
اودى فما جود بموجود
لئن حواه القبر ميتا فقد
تضييق عنه سعة البيد
كانه لم يغن يوما ولم
يَعُدْ على النسم الصناديد

ولما ماتت (شاجي) وهي محنة مبرزة
متقدمة في الفناء (ت ٢١٩) (٥١) - جارية علي عبيدالله
ابن عبدالله بن طاهر - حزن عليها حزنا شديدا
وانشد :

زدمت وشاجي بيتنا من شيبتي
غراس الهوى فاعتم بالشمر العذب
فشاب بنو شاجي لظهري وادركوا
وشاب بنوهم وهي مالكة قلبي

وفي كثير من الأحيان كان الظريفات انداد
يعارضوهن الشعر ويهاجونهن كالذي جرى بين
ابي نواس ودنانير (٥٢) وما جرى بين العباس بن
الاحنف وعنان فقد كان يهواها فجاء ابا جعفر
النخعي يوما فقال : امضي بنا الى عنان ، فكانت
كالهاجرة له فجلسا قليلا فابتدا العباس فقال :

قال عباس وقد اجهد في وجد شديد
ليس لي صبر عن الهجر ولا للدع الصدود
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديد

فقالت عنان :

من تسراه كان اغنى
منك عن هذا الصدود
بعد وصل لك مني
فيه ارغام الحسود
فاتخذ للهجر ان شئ
ت فؤادا من حديد
ما راينالك على ما كن
ت تجني بجلبد

فقال العباس :

او تجودين بصفح
عن اخي وجد شديد
واخي جهل بما كا
ن يجني من صدود
ليس من احدث هجرا
لصديق بسديد
ليس منه الموت ان
لم تصلبه ببيد

قال : فقلت : ويحك ما هذا الامر ؟ فقال :
انا جنيت على نفسي بتياهي عليها ، فلم ابرح حتى
ترضيتها له .

الحب عند الظرفاء

انم تعلم فذاك ابي وامى
بان الحب من شيم الظراف
هذا البيت للشاعر محمود الوراق ، وقد
ذكره الوشاء (٥٢) مشيرا الى ان الحب من صفاتهم ،

(٥٢) جارية اديبة ، شاعرة ، مفتية ، راوية للشعر والفناء .
حكى لحناء ابراهيم الوصلي . اعلام النساء ١٧/١
والسترف / ٢٨ .
(٥٣) الوشاء ٥٩/١ والوراق هذا كان نخسا يبيع الجوازي .

(٤٩) انظر السترف / ١٠ - ١١ ونساء الخلفاء / ٨٢ .
(٥٠) السترف / ١٦ - ١٧ .
(٥١) السترف / ٢٥ ، ونشوار العاهرة ٦٢/١ - ٦٤ .

وقد حفل أدب الطرف به . ولظرفه حب ووفاء
للأصدقاء قبل حب العشاق والمشوقات فهم أوفياء
أشد الوفاء . وهذا التزام لا خروج عنه عند
الظريف وله حدوده المقولة المطلوبة دون إفراط
واستهانة ، والنصوص شاعرة على ما ذكرنا شعرا
ونثرا ومنها أن بعضهم سئل :

(أخوك أحب إليك ، أم صديقك لا فقال :
أخي إذا كان غير صديق لم أحبه .) (٥٤) .

ولهم ملاحظات ذكية : وحدود في حب
الأصدقاء وقول الشاعر في أن حب الصديق للصديق
دون إفراط جميل محبب ، مفضل ، حذر انكشاف
الضد : دليل ذلك قول الشاعر :

فهيونك في حب وبعض فريما

ينرى جانب من صاحب بعد جانب (٥٥)

ولا ينكر أن حب الحبيب والمحبوب هو
الجانب الذي طغى على ظرف الطرفاء فقد طفت
عليه المشاعر ، وإليه انست نفوسهم ، وانبعثت
فيها كل أنواع المودة والعوامل كثيرة كنا قد ذكرناها
من أول هذا البحث .

وفيما رأى الوشاء (٥٦) إنما هو إشارة إلى
مصاحبة عفة النفس وعدم التبذل والترفع عن
الدنيا ، وهو حب لا يدعو إلى ريبة ، ولا سيما
وأن كمال الظرف أن (يكون عن الحرام عفيفا) (٥٧) ،
ويبدو أن الوشاء وقد عاش عصر الظرفاة وسجل
لنا سننهم وشرائعهم التي لا تتجاوز ولكن الذي
وضح لدينا أن النصوص الواردة والجزء الأول
خاصة كان لظرفاء عشقوا واحبوا حبا عذريا عفيفا
في زمن كان فيه ما يزال السلطان للدين قائما .
ولكن الظريف لابد أن يكون قد عانى في هذا السبيل
فهو لا يخلو من هوى ، (ولا يعزى من ضنى ، لأن
الهوى كما وصفه العلماء ، وكما قال فيه الحكماء :
أنه أول باب تفتق به الأذهان ، وتنفس به الجنان ،
وله سورة في القلب ، يحيا بها اللب .) (٥٨) .

ولقد أفر مسألة الحب والعشيق عند
الظرفاء ، ولكنه ابتعد بهم عن التبذل والترخص

(٥٤) نفسه .

(٥٥) نفسه .

(٥٦) ظرفاء المنجد ص/ ٢٨ ، وانظر قول ابن سيرين في الامتاع
والمؤانسة ٥٦/٢ .

(٥٧) الوشاء ٥٩/١ .

(٥٨) نفسه .

وعند الوفاء أو السمي وراء لذة دنيوية مؤقتة ،
نعم لقد هاموا عشقا :

بي اليأس أو داء الهيام أصابني
فإني لك عتي لا يكن بك ما يسا

والهيام داء يأخذ الأبل فتشرب فلا تروى ،
ولم يكن يبعد موت بعض العشاق بسبب هيامهم .

لأن (العشق يحسن بأهل العفة والوفاء ،
ويقبح أهل العهر والخنا) ، وعاب على الظرفاء
المتماجنين ومباذلهم ، لأنه كما يقول : (ما وجدنا
أحدا من العرب يفعل ذلك ، وقد كان الواحد
منهم يعشق من أول دهره إلى آخره ، لا يحاول
فسقا ، ولا يقرب رفثا) (٥٩) .

أقول هنا أن الوشاء بصفته أول من كتب
عن الظرفاء بهذا الشكل الموسع انكر المبادل
واحسب أن عبارة ابن سيرين الواردة في كتاب
الامتاع والمؤانسة نافعة بهذا الصدد حيث يقول :
(كانوا يعشقون في غير ريبة وكان لا يستنكر من
الرجل أن يجيء إلى أهل البيت ثم يذهب ، قال
هشام ، ولكنهم اليوم لا يرضون إلا بالموافقة) (٦٠) .

وقد حمل الوشاء (٦١) على اتقيان والجواري
فقال : (أعلم أنه لم يبتل أحد من أهل المروءات ،
والأدب ، ولا امتحن سراة الفتيان ببلية هي أعظم
من هوى اتقيان . .) .

أود أن أقف عند مقولة الوشاء هذه ومن
شايمة الرأي من معاصري هذه الحقبة ولم يشبوا
عنده بل سرعان ما خالفوا ما ذكروا ، والجاحظ
منهم (٦٢) فأقول :

١ - أن الجواري والقيينات كانت مهماتهن بقدر
ما وجهن إليه ودرجن عليه مثل حفظ الشعر
والمطارحة والغناء ، والتزين وإظهار الفنج
وما يلحق به .

٢ - أنهن على ما بدا لنا قد وقعن فريسة بيد
النخاسين ومن هم دون ذلك .

٣ - أنهن وما بنين من العلاقات المستهجنة وما
أخذ عليهن من الممارسات لهن دور مبادلة
طرف آخر .

(٥٩) انظر في هذا الموضوع الوشاء ٩٩/١ .

(٦٠) التوحيد ٥٦/٢ .

(٦١) الوشاء ١١٦/٢ .

(٦٢) تمار القلوب ص/ ٤٩٠ . ورسالة القيسان للجاحظ
ص/ ٨٢ .

٤ - لقد وقمن - في الغالب - تحت ظهر وضغط من ملكن من الاسياد . وهذا لا يحتاج الى بيان لان النصوص الادبية والتاريخية شاهدة عليه وهي كثيرة .

٥ - وحقيقة اخرى اسوقها هنا وهي : انهن لم يكن عربيات .

اضيف الى ما ذكرت ان روح العصر ، وظروفه الثقافية والاجتماعية توحى للباحث وتبدي له ان الكلام عن الجنس والتحدث بذلك كان مباحا لا يتخرج منه دليل النصوص الكثيرة الظرفية الشعرية وغيرها . والتداول منها في مجالس السمر ، والندمان والشرب اكثر ، مما يجعلنا نقول ان ما نستنهجه اليوم في التحدث بمثلها كان يجري جريانا طبيعيا وبأخذ طريقه في حياتهم .

ومن الجواردي من لم يتعد من اخلاصا ووفاء ، فهذه (دنانير) ابت على الرشيد ان تغني بعد نكبة جعفر البرمكي ففضب الرشيد وصفها وجعلها تقيم على رجلها ، واعطيت العود فأخذته وهي تبكي أمر البكاء واندفعت تغني :

يا دار سلمى بنسازح السند
بين الثنايا ومسقط اللبد
لما رايت الدار قد درست
ايقنت ان النعيم لم يعد
فرق لها الرشيد وامر باطلاقها .

ثم التفت لابراهيم بن المهدي فقال : كيف رايتها ؟ فقال رايتها تخته برفق وتقره بحذق . خطبها عقيل مولى صالح بن الرشيد والى فلم تجبه .. واقامت على الوفاء لمولاها فكتب لها عقيل :

يا دنانير قد تنكر عقلي
وتحيرت بين وعد ومطل
شغفي شافعي اليك والا
فاقتليني ان كنت تهوين قتلي
انا بالله والامير وما
آمل من موعد الحسين وبدل
ما احب الحياة يا اخت ان لم
يجمع الله عاجلا بك شمل
وفاء (محبوبة) (١٤) جارية المتوكل التي

نسبت دون الجواردي حتى توفي المتوكل واقامت في بغداد على وفائها له حتى ماتت .

وفاء (هند) (١٥) جارية ابي محمد بن مسلمة الشاطبي الكاتب التي ظلت على وفائها للفتح بن خاقان ورثته بقولها :

قلت للموت حين نازله
والموت مقدامة على البهائم
لما تبينت ما فعلت اذن
قرعت سنا عليه من الندم
فاذهب بمن شئت اذ ذهبت به
ما بعد فتح لموت من الم
ولم تزل تبكي وتنوح عليه حتى ماتت .

وفي اخبار النساء ووفائهن روى ابن فيم الجوزية (١٦) هذه الرواية : (قال الاصمعي : قال الرشيد : امض الى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم . فالتحذوت ، فنزلت على صديق لي بالبصرة ، ثم بكرت انا وهو الى المقابر ، فلما صرت اليها اذا بجارية نادى البنا ربح عطرها قبل الدنو منها ، عليها ثياب مصبغات وحلي ، وهي تبكي احمر بكاء . فقلت : يا جارية ما شأنك ؟ فانشأت تقول :

فان تسألني فيم حزني ؟ فاني
رهينة هذا القبر يا فتيان
اهابك اجلا ، وان كنت في الثرى
مخافة يوم ان يسؤك مكاني
واني لاستحيبك ، والترب بيننا
كما كنت استحيبك حين تراني

فقلنا لها : ما راينا اكثر من التفاوت بين زيك وحزنك فاخبري بشأنك ؟ فانشأت تقول :

يا صاحب القبر ، يا من كان يؤنسني
حيثا ويكثر في الدنيا مواساتي
ازور قبرك في حلي وفي حنن
كانني لست من اهل المصيبات
فمن رآني ، رآى عبرة مفجعة
مشهورة الزى تبكي بين اموات

(١٥) المستطرف ص/٧٤ .

(١٦) ص/١٢٦ - ١٢٧ .

(١٢) اعلام النساء ١/٤١٨ - ٤١٩ .

(١٤) انظر المستطرف ص/٦٧ .

فقلنا لها : وما الرجل منك : قالت بعلي ،
وكان يحب أن يراني في مثل هذا الزماني ، فقلت
على نفسي أن لا أغشى قبره إلا في مثل هذا الزماني
لأنه كان يحبه أيام حياته وانكرتاه علي .

ولما سمع الرشيد خبرها خطبها من أهلها
وحملوها إلى الرشيد وهي لا تعلم ثم علمت الخبر
فشهقت شهقة فماتت .

وفيه أيضا (١٧) عن أبي بكر الأنباري
- اللغوي المشهور - عن أبي اليسر قال : دخلت
منزل نخاسي لشراء جاربية ، فسمعت في بيت
بازاء بيت جاربية تقول :

وكنّا كزوج من قطا في مفازة
لدى خفض عيش معجب موق رعد
أصابهما ريب الزمان فافردا

ولم أر شيئا قط أوحش من فرد
فقلت للنخاس : أعرض علي هذه المنشدة .
فقال : أنها حزينّة . قلت : ولم ذلك ؟ قال
اشتريتها من ميراث ، فهي باكية على مولاهم لم
البث أن أنشدت :

وكنّا كفصني بانه وسط دوحه
نشم جنا الجنات في عيشة رعد
فأفرد هذا الفصن من ذلك قاطع

فيا فردة باتت تحسن إلى فرد
قال أبو السمراء : فكتبت إلى عبدالله بن
طاهر (قائد وسياسي وشاعر) فكتب إلي : أن
اللق عليها هذا البيت ، فإن أجازته فاشترها ولو
بخراج خراسان . والبيت :

قريب صد ، بعيد وصل
جعلت منه لي ملاذا
فقلت مرة :

فعايبوه ، فزاد شوقا ،
فمات عشقا ، فكان ماذا
قال أبو السمراء : فاشتريتها بالف دينار
وحملتها إليه ، فماتت في الطريق فكانت إحدى
الحشرات .

وكانت الجارية (ريم) قد أحبت (أشجع بن

عمرو الأسلمي) وكان يبادلها آياه ويجذ بها
وجدا شديدا . وكانت تحلف له أنها إن بقيت بعده
لم يحكم عليها رجل أبدا فقال يخاطبها :-

إذا غمضت فوقي جفون حفرة
من الأرض فابكيني بما كنت أصنع
تعزيك عني بعد ذلك سلوة
وان ليس فيمن وارث الأرض مطمع

فاجابته ريم تقول :-
ذكرت فراقا والفراق يصدع
وأي حياة بعد موتك تنفع

إذا الزمن الفدار فرق بيننا
فمالي في طيب من الخيش مطمع
فلو أبصرت عينك عيني أبصرت
شأبيب جدر غيشتها ليس تقشع
وقال فيها أيضا (١٩) :

وليس لآخوان النساء تطاول
ولكن آخوان الرجال بطول
فلا تبخلي بالدمع عني فان من
يضمن ، بدمع غير ذا لبخيل
فمالي إلى برد الشبيبة حيلة
ولا لي إلى دفع المنون سبيل
وان لداني قد مضوا لسبيلهم
وان بقائي بعدهم لقليل
فاجابته ريم :-

بكي من صروف خطبهن جليل
ومن ذا به عمر الحياة يطول ؟
ومن ذا الذي ينمي على حدث الردي
وللموت في أثر النفوس رسول
وكل جليل سوف يلقي حمامه
وكل نعيم دائم سيزول
لي الويل ، إن عمّرت بعدك ساعة
وان كثير الويل لي لقليل
وتزعم اني لا أجود بعبرة
إذا نجمته قد حان منه أقول

(١٨) من بني سليم . انظر طبقات ابن المعتز ص/٢٥١ - ٢٥٢ .
(١٩) انظر اخبار النساء ص/١٤١ - ١٤٢ .

(٢٧) اخبار النساء ص/١٢٧ - ١٢٨ .

ومتن' ذا الذي ابكى له ، إن فقدته
سواك ، ومن دمي عليه يسيل
فلا وقيت ريم ، إذا ، ما تخافه
إذا ناب خطب' للزمان جليسل'
ولا لقيت يوم القيامة ربها
وميزانها بالصالحات ثقیل
إذا ما سخا قلب' امرئ بمودة
فقلبي بودي عن سواك بخيل
ولما مات اشجع ، آئت على نفسها ان لا تاكل
طعاما ، ولا تذوق شرابا ، فعاشت بعده اباما ثم
توفيت ودفنت الى جانبه .

وما ورد من امثال ذلك كثير في مظان الكتب
التي تحدثت عن وفاء النساء وتكتفي بما ذكرنا ،
ولعله يغني بالفرض .
وقد جاء في النصوص التي اوردها الوشاء
ما يشير او يرد على الوشاء قوله السابق في القيان
منها الايات الآتية :

زعموا خلة القيان غرور'
كل' زعم من المقالة زور
فما للقيان بالمهد أوفى
من جوار تضمهن الخدود'
انما زخرف المغاليس هذا
حين قلت صحاحهم والكسور'
اهل' هذا الزمان اطرى من الآ
سر وكل' مشوه' مستور'

ولا ينكر ان دواعي انظرافة والحب في بغداد
زمن العباسيين كانت كثيرة ، فقد حفل العصر بكل
مظاهر الحضارة ، فن وادب وعلم وتائق وجمال ،
وجوار حسان وترف عيش ، ثم صار مغالاة' في
التزين والتائق ظهر على رقة الناس في خلقهم
وظرفهم مما لا يخطر ببال في العصور الاسلامية
السابقة .

ولكن الذي وجدنا فيما اطلعنا عليه البحث
من سيرة الظرفاء والظريفات ان فيهم غالبية
تبذلت في الحب في زمن انطلاق وحرية وترف
عيش ، ولربما كان بعضها يقتصر على التعبير عن
مواقف كان القصد من ورائها حسن المجالسة ،
واللطف والمجالسة بسبب روح التحضر ، والثقافة
التي سادت بغداد وعواصم الدولة العباسية

الاخرى وما نهيا من أسباب الاختلاط بمادات
شعوب اخرى والفارسية ، خاصة ، والا فبیم
تعلل النقول الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى مما
ذكرته كتب الاخبار والتاريخ ، والادب والفن
واخبار النساء وأدبهن ١٩

وانذي بدا لنا ان ادب المرأة (٧٠) (الجواري
والقيان) وان بدا عليه المجون في قسم منه فهو
من المصادر التي شاركت في ادب العصر آنذاك
وازدادت مع توغل الحضارة وكان له الأثر الكبير
في نظرف المجتمع البغدادي .

والى جانب ما ذكرنا فقد كن عاملا مهما في
الاحساس الفني ونشر الشعور به وبذلك ساعدن
على بحث حركة فنية في النساء والتصوير
والرقص . فالتجمل والتائق في المنبس وتزيين
الوجه والتفنن بنسج الشعر وما يلحق ذلك من
ادوات الزينة والحلي يبعث على الاحساس بفن
التجمل . وقد تمتعت كثير منهن باصوات جميلة
كمربب وفريدة ودنانير وغيرهن . وبذلك بلغت
غاية في الملاحة والظرف والفن .

وفي صفة العاشق من الظرفاء ذكر قول
المأمون في ابراهيم المهدي (٧٢) :

وجه' انذي يتعشق' معروف
لائه' اصفر' منحوف'
والعرب تمدح الضمير وتذم السيم ،
وتنسب اهل النحول الى المعرفة والادب ، وأهل
السمن الى الحمق والغدامة وقلة الفهم (٧٣) .
وفي ذكر علامات العشق والتولاه بالمحجوب ،
قال الوشاء (٧٤) انشدني بعض الادباء ولم يذكر
اسمه :

علامة من كان الهوى في فؤاده
إذا ما لقي احبابه' يتحيرا
ويصفر' لون الوجه بعد احمراره
فان حر'كوه للكلام تنسورا

ويحسن هنا ان نذكر ابيات ابن الرومي ابي
الحسن في وصف ما يخلق نفس العاشق إذ
يقول :

- (٧٠) الوشاء ١٢٧/٢ .
(٧١) ادب المرأة في العصر العباسي ص/٢٣٦ .
(٧٢) الموشى ٦٢/١ .
(٧٣) اخبار النساء ٦٢/١ .
(٧٤) الموشى ٦٦/١ .

أرى ما بي عطش شديد
ولكن لا سبيل إلى الورود
أما يكفيك أنك تملكيني

وإن الخلق كلهم عبيدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت من الهوى أحسنت زبدي

وقال ابن الرومي في فتاة (٧٥) :

غيداء من ماء الشباب الآغيد
كأنما ترنو بعيني فرقد
تضرب متنها بوحف أسود
دافعتها فما اتقنتني باليد

وقد تطارح الأطراف والظريفات الشعر في
مجانس اللهو والطرب متغزلات متوجدات . ومنه
قول عنان :

وما زال يشكو الحب حتى رابته
تنفّس في أحشائه وتكلمها
قالت :

ويكي فابكي رحمة لبيكائه
إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما
وجرت معارضات بين الشوامر والشاعرات
الظريفات نورد منها هنا :

ما ذكره ابن الجوزي (٧٦) : قال المتنبّي :
سمعت الفضل بن إبراهيم يقول : مرّ شاعر
بنسوة فأعجبه شأنهن فجعل يقول :

إن النساء شياطين خلقن لنا
نمؤذ بالله من شر الشياطين

قال فأجابته واحدة منهن تقول :

إن النساء رياحين خلقن لكم
وكلكم يشتهي شم الرياحين

وقد عشق أكثر العرب (٧٧) وكتبوا في ذلك
أروع المعاني والطف الشعر وأرقه وفي عصر
الظرافة والتظرف في بغداد كان منهم كثير ، ومن

(٧٥) الطرفاء ص/٥٠ .

(٧٦) الأذكياء ص/٢٢٠ ، بيروت .

(٧٧) ذكر الوشاء ٦٩/١ أنه الفرد كنّا لذكر العشاق والتميم
واخبارهم وملحهم وأشعارهم وصفاتهم أسماء (القتبي)
ولا ندرى ما تزال نسخه موجودة أم لا .

عرفوا به المباس بن الاحنف عشق (فوز) وأبو
العتاهية عشق (عتبه) وأبو الشيص عشق
(أمانة) :

ومن قول (فبيحة) (٧٨) بخط (فضل) في
هذا الباب (٧٩) :

لأصبرن على ما بي من المَضض
حتى أموت ولا يشعُر بي الناس
ولا يقال شكّا من كان يعشقه

إن الشكّة لمن يهوى هي اليأس
ولا أبوح بسرّ كنت اكتمه
عند الجليس إذا ما دارت الكاس

والحب فيه عند الطرفاء مرارة وحلاوة وهو
مع ذلك مستحسن عندهم قال الكميّ بن
زيد (٨٠) :

الحُبُّ فيه حلاوة ومرارة
سائل بذلك من تطاعم أو ذاق
ما ذاق بثؤس معيشة ونعيمها
فيما مضى أحد إذا لم يعشق

وقد أدلى الجاحظ بدلوه في حب القيان
والاماء فقال : إنما هو (طمع وعرض) (٨١) ، ولكنه
عاد في موضع آخر إلى اقرار بالواقع فذكر :
(وليس هذا مما يؤذ لهم ولكنه من فرط المدح ،
فليس بحسن هاروت وما روت ، وعصا موسى ،
وسحرة فرعون إلا دون ما يحسنه) (٨٢) .

والعبارة فيها بيان كبير لا يحتاج إلى
تفصيل .

وقد قال بعض الطرفاء في ذم هوى القيان :
فهذه فضل تقول (٨٣) :

يا حسن الوجه سيء الأدب
شبّثت وانت الغلام في اللعب
يا ويّلل ان القيان كالشرك الـ
منصوب بين الفرور والعطب

(٧٨) هي أم المتمر جارية التوكل وزوجه . عائلة ، فاصلة .
شاعرة سميت فبيحة لشدة جمالها توفيت ٢٦٢ للهجرة .

(٧٩) سنائي ترجمتها في (أدب الطرفاء) .

(٨٠) الوشاء ٨٧/١ .

(٨١) الوشاء ١١٦/٢ .

(٨٢) رسالة القيان للجاحظ ص/٦٣ .

(٨٣) الوشاء ١٢٢/٢ .

وقول احمد بن غزال لنفسه (٨٤) :

إذا تعرضت للقيان
فمثل الفقر بالقيان
واعزم على فلة اسافا
امض من طمنة السنان
وابيات اخرى كثيرة .

ويبدو ان الظرفاء فضلوا حب الجواري
من غير الاماء المقدّمات (٨٥) على الفيان كثيرا
لانا لم نجد من النصوص في ذم حب الجواري
فيما وقعنا عليه ما بلغ من التعرض والانتقاد كحب
القيان والاماء فانه كثير ونصوصه الشعرية
كذلك .

والذي يبدو فان التدرج من البساطة الى
التكلف ومن الاناقة الى التائق رافقه تحول من
الظرافة الى النظر والحرية والانطلاق ولقد كان
خلفاء بني العباس كلهم (٨٦) يحبون مجالس المائدة
والطرب والغناء . وان تباينوا نسبيا ، وكانت
القيان يدخلن متزينات الى الدواوين وليس هناك
من منكر ولا عائب (٨٧) . وشاعت الزينة والتزيين
في كل شيء .

ولذا يمكن القول ان من بين هؤلاء الظراف
من التزم بسنن الظرافة الاولى او في بدايتها
وتشويها واختار البعض الآخر الانغماس والانغماس
فيما هيا له العصر من ملذات وغلب عليه ذلك فلم
يقنع بالبسمة والنظرة والحديث والنجوى فتحوّل
الى القبلّة واللّهو والاجتماع في النوادي والمقاصف،
والاديرة متشادين سامرين ساهرين شاربين عابثين
ولسان حالهم يقول (٨٨) :

وكلنا من طرب
يطير أو يكاد
ولهونا لليل
لم تلهه العباد

(٨٤) الوشاء ١٢٢/٢ .

(٨٥) الجارية : الشمس والسفينة : واستمر مجازا الى
الجواري من النساء / اللسان / جرى القينة : العبة
والالة بنت ام لم تقني ، ويقال في جمعها قيان وقينات
اللسان : قين .

(٨٦) التاج في اخلاق الامم والملوك ص/٢٣ - ٢٨ .

(٨٧) رسالة القيان ص/٦٢ .

(٨٨) ظرفاء النجد ص/٣٩ .

ومنه : ما جرى بين حماد وسعاد (٨٩) :

قبلني سعاد ، بالله قبله
واسألني لها ، فديتك ، نحلّه
فيدفع حماد سعاد هذه ، ويقول :
فاجبي وانعمي وخذي البدل
ل واطفي بقبله منك نحلّه
ومما ذكره الاصفهاني (٩٠) :

كان لابي الشيم (٩١) جارية سوداء اسمها
(تبر) (٩٢) وكان يعشقها وفيها يقول :
لم تنصني باسمية الذهب
تتلف نفسي وانت في لعب
بالبنّة عمّ المسك الذكي ومن
لولاك لم يتخذ ولم يطيب
نائبك المسك في السواد وفي الرب
ح فاكريم بذال من تسب
وكان الشاعر ابن المعتز من بين الشعراء الذين
انطلقوا او فازوا باللذات وعبروا عن مشاعرهم في
ذلك .

اذ يقول :

فقد كان دأبي جنة اللهو والصبا
وما زلت باللذات والعيش لعبا (٩٣)
ولقد سحر الحب هذا الامر وصرعه الهوى
والشباب . ولصرع الفواني : مسلم بن الوليد دلاء
ذكرها لا يتسع له المجال نذكر قليلا من قوله :
هل العيش إلا ان تروح مع الصبا
صريع حميّا الكاس والاعين النجل (٩٤)
وله ايضا :

ان شئت غاداني صبح من الهوى
وان شئت ما ساني غبوق من الخمر

(٨٩) ظرفاء النجد ص/٤٠ .

(٩٠) الاغانى ٢٢٠/٢ - ٢٢١ .

(٩١) محمد بن رزين ويكنى بابي جعفر ، وقد هاجر ابا نواس .
الافاني ٢١٩/٢ ، اعلام النساء ١٦٤/١ .

(٩٢) اعلام النساء : ١٦٤/١ .

(٩٣) ديوانه / ٩ . الظرفاء ص/٤١ .

(٩٤) الظرفاء ص/٤٢ .

وعرب لها في هذا الشعر ضلع كبير فقد قيل فيها (٩٥) :

قائل الله عريبا

فعملت فعلا عجيبا

سبرت حتى إذا ما

اقصد النوم الرقيبا

فندلت لحسبا

فتلقاها حبيبا

جذلا قد نال في الد

نيا من الدنيا نصبا

وقول مسلم بن الوليد (٩٦) :

إن ورد الخدود والاعين النج

ل وما في الثغور من اقحوان

واسوداد الصلدغين من واضح الخ

د ، وما في الصدور من رمان

تركبني لدى الفواني صريبا

فلهذا ادعى : صريح الفواني

وفي قصور الخلفاء والوزراء كانت دواعي الحب واللهو كثيرة لدى الظرفاء مما جعلهم يولعون بالاقبال عليها اكثر فقد لوئت الحياة امامهم وبدت لهم بحلة قشبية مغرية فاقبلوا يردون من مناهل البهجة ما شاءوا وقد تعلقت بذلك مظاهر كثيرة تبدو ليست جوهريّة ولكنها ذات اثر فعال في الظرفاء البغداديين نذكر منها .

ازياء الظرفاء :

(احسن الزي عندهم ما تشاكل وانطبق وتقارب واتفق) (٩٧) . . هذا يعني أن لهم ذوقا فيما يلبسون ، وانهم متمدنون متحضرون ، ذلك ان ، انسجام الالوان وعدم تنافرها يوحى للناظر راحة في النفس وطمأنينة ، وهو دليل اناقة وحس ذواق سليم وميل فني .

والرجال من الظرفاء يلبسون من الالوان تقيها ناعمها ، مثل الدبقي . منسوب الى دبيق قرية من دمياط بمصر (٩٨) وهو المنقل من الثياب ، والفلائل وهي شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع (٩٩)

(٩٥) الظرفاء ص/٤٢ .

(٩٦) الظرفاء ص/٤٢ .

(٩٧) الوشاء ١/١٦١ .

(٩٨) معجم البلدان ٢/٤٨٨ طهران .

(٩٩) انظر تشوار الحاضرة الجزء الاول .

والسفاق الكثيف . ودراريع البرّاذير د هي بلدة بين الكرخ وهدان والاردية المحشاة المعدنية ، والجباب والطبالسة النيسابورية والاكسية الفارسية الخزوز الكوفية وكل ما اشبه ذلك وقاربه (١٠٠) .

وفوق هذا فهم نظيفون وهذا عنوان الطريف ودليل مظهره الانيق اذ لا يلبسون من الثياب المغسول الوانها بل النقية الصافية غير مصبوغة بالزعفران ولا مغسوة بالطيب لان هذا من لبس القيان والاماء .

وهم يلبسون من النعال الزيجية والمشمرة اليمانية والمختمة بالخفاف ويشرك فيها الاسود بالاحمر والاصفر بالاسود ، والجوارب الخز المرعزي والقز ويعيبون لبس الاحمر منها .

ومن النمل يلبسون الابريسمية والخزية ، ومن المطارف القطنية والمنقوشة الاردنية .

ويتختمون بالعقيق الاحمر ، والغبروزج ، الاخضر ، والفضية الحرق ، واليمانية السود . والمضروبة المتوكلية . ولا يتختمون بالذهب لانه من لبس النساء ، والصبيان والاماء .

ويتعطرون بالطيب والمسك المسحوق المحلول بماء الورد . ويستعملون العود المعبر بماء القرنفل والعنبر البحراني والكافور المحرق المخلوط بعبر المسك ويتجنبون طيب النساء .

ولا يستعملون من الطيب ، ما كانت رائحته شديده السطوع .

ولهم في اساليب اكلهم نظام خاص فكانوا ، يتبعون نظام الاطباق كل لون في صفحة خاصة ويرقع الطبق ، ويؤتى بغيره . وقد اترفوا في استعمال الملاعق حتى كانت من الفضة البلور . وقد تكون من الزبرجد (١٠١) ولا تستعمل الا في لقمة واحدة .

ولوائدهم كما يبدو آداب واصول فاذا قاموا الى الطعام غسلوا ايديهم بالماء والطيب ، وربما مسحوها بالادهان العطرية لئلا يتمكن الزفر من مسامها . وهم لا يضحكون ولا يثرثرون في اثناء الطعام ، ويصفرون لقمهم ويعدون عن الشره والنهم . ولا ياكلون القديد ولا يتبعون مواضع الدسم ولا يمششون (بمصون) العظام ولا يلطمون

(١٠٠) الموشى ١/١٦٠ - ١٦١ .

(١٠١) قال الجاحظ في البصرة ص/١٤ : خير الزبرجو ، الشديد الخضرة الصافي .

اصابعهم ولا يجلسون في مضفهم ، ولا بجانب الشدقين ، ولا يجاوزون ما بين ايديهم ولا يأكلون شيئا من الكواريج وانصحناء (السمك الصغير المملوح) ، ولا شيء من الكواميخ (المخللات مسن الطعام) ، وقد تأكل ذلك المتطرفات ولا يأكلون في النهار اكثر من اكلة ، ولا يتحفزون لمجيء المائدة قبل ان توضع ولا يكثرون من اكل النقل (١٠٢) . ويتجنبون الاكل البارد كالقفل والحرف والكراث والهندبا (بقل يؤكل) . ولا يأكلون ما يغير لون الاسنان او ما يحدث رائحة وتغيير كالثوم والبصل .

ومن الفاكهة يأكلون انواعا كثيرة من النمر كالارطاب ، والمشمش والنبق والعناب والخوخ والاجاص .

وكان الخلفاء والظراف يحلون مواعيدهم (بالزماورد) (١٠٣) اي لقمة الخليفة كما كان يسمى في العصر العباسي ولقمة القاضي .

والزماورد يتخذ من اللحم والبيض في بغداد وذكر الجاحظ (١٠٤) انه مما يعجب به اهل خراسان ويتخذونه من فراخ الزنابير .

ويرغبون في السكباغ ويسمونه مخ الاطعمة ، وسيد المرق يؤكل حارا وباردا ويتزود منه في السفر . وفي الشتاء والصيف .

وكان السمك مرغوبا فيه وكبود الدجاج كذلك (١٠٥) .

زي الظريفات (١٠٦) :

اما زي الظريفات فالحدث عنه يطول نجزيء بعضه من بعض فنذكر انهن لا يقلن اناقة وترفا وظرفا في لبسهن بل كان ما يلبس مميزا عن الظرفاء في اللون والنوع فمن الالوان الاسود والاصفر وما لا يصيغ الا ما ازرق واخضر ، والمورد والاحمر ، يتخذن ذلك من الحرير والقز والديباغ .

والحمرة والسواد والزرقة عندهم من لبس الارامل والحداد والاحمر عندهن دليل الفرح والسرور .

(١٠٢) انظر الديارات ١٦٧ - ١٧١ ، وقد اورد الوان كثيرة .

(١٠٣) الحيوان ٤/٤٢ ، شفاء الغليل / ٩٨ .

(١٠٤) الخلفاء والخلفاء (مآكل الخلفاء) ص/ ٨١ .

(١٠٥) ثمار القلوب ص/ ٤٩٠ .

(١٠٦) الوشاء / ١٦٢ - ١٦٣ ، وظرفاء النجد ٥٢ - ٥٤ .

ويلبس الاردية الرشيدية . والغلائل الدخانية والنصب الملون والحرير المعين الموشى بالذهب قيل ان (زبيدة) كانت تلبسه . ومن السراويل يلبس الطويلة البيضاء ، والكمسام المفتوحة . ويتمنطقن بمنطقة من ذهب ، وبعضهن يتنقبن ، قيل ان (متيم) (١٠٧) انهاشمية لا تخرج الا منتقبة وانها اول من عقد من النساء في طرف الازار زنارا وخيط ابريسم .

وما تنقله وتصفه المراجع من زركشة الالوان وحسن صنع اللابس يوحى بصور فنية جميلة فكن ينقشن عليها ابياتا شعرية بخترنها ولهن مراد من ورائها .

ومما زاد ظرفهن ظرافة انهن تفنن في انواع الملابس ، فقد لبس العصائب وكانت آية في الفن والنقوش وكتابة رقيق الغزل والتوجد ، عليها . وكانت (عطية) بنت المهدي ، قد ابتدعت هذه البدعة الحسنة فقد كان في جبينها فضل سعة تسمح به فاخففته بلبس العصائب المكلفة بالدر والجوهر ، فقلدتها الظريفات في ذلك فصار تقليدا (تقليعة وموضة مما يدعو الناس اليوم) وينقش عليها الشعر وينشر اللؤلؤ ، وانواع حجوم الدر وغيره .

حدث علي بن الجهم قال : حضرت مجلسا نظرفاء فخرجت علينا جارية كأنها تمثال ، وعليها عصاية قد ارسلت طرفين في صدرها مكتوب :

من يكن صبا وفيا

فرماني في يديه

خذ مليكي بعناني

لا انازمك عليه

فوثب ابن الجهم حتى اخذ بطرفي العصاية وقال : انا والله صبا ، واوئى خلق الله لحبه (١٠٨) .

وكتبت اخرى على وشاح (١٠٩) :

اغيب عنك بود لا يفيره

نأي المحل ولا صرف من الزمن

تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا

الشغل للقلب ، ليس الشغل للبدن

(١٠٧) المستطرف ص/ ٦٢ .

(١٠٨) الظرفاء ص/ ٥٨ .

(١٠٩) الظرفاء : ٥٩ .

وعلى طراز الرداء (١١٠) :

أقل الناس في الدنيا نصيبا

محبب قد نأى عنه الحبيب

وانخذل القلائس والتيجان ونقشن عليها
أبيانا من الشعر أيضا وصفن التيجان من الذهب
على شكل نرجس مشوب بانفضة . كتبت
(عكل) على قنسوة من ديباج (١١١) :

ما يَمَلُّ الحبيب طول التجني

لبلائي به ، ولا الصدد عني

وليسن الزناير والنعال والخفاف ونقشن
عليها طرائف . كتبت (طريفة) على نعلها
بالذهب (١١٢) :

لم ألق ذا شجن يسوح بحبسه

إلا حبك ذلك المحبوبا

حذرا عليك ، وانني بك واثق

الا ينال سواي منك نصيبا

وقد افتتن في تصفيف شعورهن وسريحها
وترجيلها وكن يضمن المسك والعنبر ، ولهن
وصيفات تزينهن وتمشط شعورهن . وجدالهن
كن يتركنها تتدلى على اكفافهن . وهؤلاء
هن (الفلاميات) . وقد روى المأمون بسوم
الشعائين (١١٣) ، وبين يديه عشرين وصيفة مزورات
تزين بالديباج وزر من الاصداع فقال أحمد بن
صدقة فيهن :

ظباء كاللذنانير

ملاح في المقاصير

وقد زرّفن اصداغا

كاذناب الزرازير (١١٤)

وربما جمن شعورهن كالجمّة السكينية
نسبة إلى سكينة بنت الحسين - أي جمعه إلى
الخلف - وكانت العباسة أخت الرشيد تفعل
ذلك ، وهو مستطع . وقد يجعلن الجمّة مرصعة
بالماس والزمرد .

أما الطيب فقد تطيبن بأنواع منه كثيرة
منها : العطور البرمكية وعطور الازهار كالزنبق

(١١٠) نفسه .

(١١١) نفسه .

(١١٢) الظرفاء ص/٦٠ .

(١١٣) عيد من اعياد النصارى .

(١١٤) الظرفاء ص/٦٢ .

والبنفسج ولا يتعطرون بعطور الظرفاء من
الرجال . ولهن الزعفران والقرنفل والكافور
وعطور الورد (١١٥) .

أما الحلبي فهي من الجواهر والدر ومخائق
القرنفل تجلب اليهن من كل حدب وصوب .
والقلايد الذهبية . والمؤثو والحب الاصفر ،
واصناف الباقوت (١١٦) .

أما الخوائيم فمن الماس والمقيق ولا يصنعها
من انفضة . وكانت تقدم اليهن الهدايا ما غلا منها ،
ويتقرب بها اليهن ، الخلفاء والظرفاء ، من الجواهر
وانواع غريبة من الحلبي والجواهر فقد اشترى
الرشيد جوهرا بمائتي ألف دينار لدنانير البرمكية
لاسترضائها .

واغضب الائق (فريدة) فاسترضاهما بحق
فيه عقد جوهرا ما رؤي مثله لخليفة (١١٧) .

أما الازهار فقد اهتمن بها وفضلنها ،
وتزين بها فجعلنها اكاليل ، وقد أعجب بالبنفسج ،
والورود خاصة ، يؤثره على غيره من كل ريحان
وطيب وأعجبت (متيم) بالبنفسج حتى انها من
شدة إعجابها ، كان لا يخلو من كمها ، وافرطوا في
نعت انواع الورود ووصفها وتهادبها وزهت
مجالسهم بها ، وغطيت برك قصور الخلفاء بها
في اوقات الاعراس والافراح ، وتزين البيوت بها
وعنوا بالورود عناية خاصة وشبهوا الخدود به .
قال الشاعر (وهو خالد بن يزيد الكاتب المتوفى
- ٢٦٢ هـ) :

عشيّة حيّاني بورد كانه

خدود اضيفت بعضهم الى بعض

وولى وفعل الخمر في حركاته

فيعال نسيم الريح بانفصن النفس

وقال آخر :

يضحك الورد الى ور

د بخدك مقبم

جمعا شكلين وقفني

ن لاحاظ القديم

غير ان المسك اولى

بك في كل نسيم

(١١٥) آدم منز الحضارة الاسلامية ٢/٢٠٥ .

(١١٦) انظر الجواهر في معرفة الجواهر : البيروني . ص/٢٢ .

(١١٧) الحسن والمساوي ٢/٥٤٢ .

وتطير بعضهم . قال الوشاء : (خبرت أن
قينة اهدت الى ربيط لها قصن آسر فسر به
فقال :

والآس يبقى وإن طال الزمان به
والورد يفتنى ولا يبقى على الزمن

واهدت له وردا فتطير منه وقال :

انت ورد وبقاء الـ

ورد شهر لا شهر

يذهب الورد ويفتنى

والى الأس نصير

فكتب اليه بعض اخوانه :

وسر بالأس الذي اهدت له

ثم لما اهدت الورد جزع

ذاك أن الأس باق دائم

ولأن الورد حيناً ينقطع

والسواك استعملوه لتنظيف أسنانهم
وتبييضها بالقدو والعشي على الريق وقبل النوم
(وهو من شجر الأراك ، وأصول السوس)
واعتنوا به وحافظوا عليه في إباريق خفاف وأبعدوه
عن كل ما يفسد من غبار . فالسواك عند الطرفاء
مظهرة للغم مرضاة للرب (١١٩) .

وقد نهادوا بالسواك وكانوا يتخذون
العصائب لحفظها ، قال العباس بن الأحنف (١٢٠) :

طال ليلى بجانب المبدآن

مع جوارى المهدي والخيزران

ارسلت باللبان قد متفتتة

بين تفاحتين في ربحان

وبسواكها الذي اختاره الا

نة لعبتها من طيب الاغصان

فكأنني وجددت ربحاً من الفير

دوس فاحت من ربيع ذاك اللبان

ومن قول بشار بن برد في السواك :

يطيب سواكها من طيب نكهتها

وإن ألم بجلد جلدتها طابا

وقال أيضاً :

تسواكت لي بمسواك ليتعلمين

ما طعم فيها وما همت باصلاح

لما أناني على المسواك ريقها

مثلوجة كزلال الماء بالراح

تبتلت ما مس فاهها ثم قلت له

يا ليتني كنت ذا المسواك يا صاح

اقول لقد بلغ فن التجمل عندهم حدا بعيدا
والظريفات اختصن به أكثر . ولتكتف عن إبراد
التفاصيل بذكر نص من رسالة لابن عبدون
البغدادي (١١١) تبين ما بلغت من تائق وبراعة في هذا
الجانب يقول : (وكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء
مذهبة ، وكم جعلوا العين زرقاء كحلاء ، وحمروا
الخدود المحفورة وسمنوا الوجوه المقعقة . وكبروا
الفقاح الهزيلة ، وأعدوا الخدود شعر اللحى ،
واكبوا الشمور الشقر حالك السواد ، وجعدوا
الشعور البسيطة وبيضوا الوجوه السمرة ،
ودملجوا السيقان المرققة ، ورطلوا الشعور
الممرطة ، وأذهبوا آثار الوشم والنمش والحكة . .
وطولوا الشمور بوصلها من أطرافها بشعور من
جنسها . وكانوا يزيلون روائح الأنف بالسعوط
بدهن التبنسج والنيلوفر ونحوهما . ويجلون
الأسنان بالسواك بالاشنان السكر وسحق الصني
أو النعم أو الملح المدقوق وكانوا يزيلون الثمت
من أصول الأظفار بفلسها بالخل والعسل أو دهن
الورد والموز المر .

« وكن يخضبن حواجبهن وأطرافهن ،
ويصبغن بصيغ أحمر شفاههن فإن كانت الجارية
بيضاء ، فبالخضاب الأحمر ، وإن كانت صفراء
فبالأسود ، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في
كف القد بضده . »

الهدايا وقد عنوا بها وكانت من سجاياهم
وكانوا بها ظرافا ، وأهدى العشاق لمعشوقاتهم
وأهدين كل معجب أنيق جميل ، فالثياب والأزر
والمصائب المرصعة وخواتيم الباقوت المنقوشة منها
بالشمر وعود الهندي والنسد والمسك والمنبر
ونضود الرياحين والفواكه وصنوف الطعام
واستخدم الخلفاء الطرفاء الهدايا سبيلا لاسترضاء
جواربهم ومن لفن الحظوة لديهم من الجوارى
بنقدريه أثنى أنواع الجواهر والدرر (١٢٢) .

(١٢١) الطرفاء ص/٦٦ - ٦٧ .

(١٢٢) انظر ص/٥٢ من هذا البحث ص/٥١ .

(١١٨) الوشاء في الموشى ١٨٢/٢ .

(١١٩) الوشاء ١٨٤/٢ .

(١٢٠) الأبيات من الموشى ١٨٦/١٨٥/١٨٤/٢ .

ومن ظريف ما كان يهدى نروي لك هذه
انهدية الظريفة التي اهدتها (شجرة الدر) وقد كان
المتوكل يميل اليها كثيرا فهي من حظايا المقربات فلما
كان يوم المهرجان جاءته بعشرين غزالا تربية ، على
كل غزال خرج صغير مشبك حرير فيه المسك
والعنبر والغالية واصناف الطيب ، ومع كل غزال
وصيفة بمنطقة ذهب ، وفي يدها قضيب ذهب في
رأسه جوهرة . فقال المتوكل لحظاياها : ما فيكن
من تحسن مثل هذا وتقدر عليه (فحسنتها وعملن
على قتلها بشيء سقيته لها فمالت (١٢٢) .

ومن الهدايا الظريفة ايضا ما حدث في سنة
(٢١٠ هـ) (١٢٤) ان هدية وصلت الى ابن المادرائي
الحسين بن احمد من مصر وهي بغلة ومعهما فلو ،
وغلام طويل اللسان يلحق طرف لسانه انفه .

واهدى ابو دلف الى عبدالله بن طاهر يوم
(الفصد) هدية فجمع ما في السوق من الورد
وارسله له (١٢٥) .

وكانت (محبوبة) جارية المتوكل قد قدمت
له هدية من ابن طاهر (١٢٥) .

ولعل في ذكر الوان الهدايا بيان لاحوال
الظرافة وتعدد سبلها وانعكاس لاحوال اجتماعية
كثيرة .

وتطيروا من بعض الاشياء او من اسمائها او
معانيها . فقد تطيروا من : الاترج لان باطنه خلاف
ظاهره مختلف الطعم والرائحة .

السفرجل لانه يبدأ بالسفر

الشقائق لانه يبدأ بالشقا

والياسمين لانه يبدأ بالياس والاس كذلك .

والسوسن اسمه السوء . ومن الجوز
والموز . والبطيخ اذا انصدع وانكسر واحبوا :
الزمان لان معناه الوصل قد آن ، وانبتفج لان
معناه فداء النفس . وبالغوا في تفضيل التفاح
وكانت (محبوبة) ترسل التفاح الى حبيبها وعليها
اثر عفتها وهي علامة حب . قال ادم متر في هذا
انه من عادات الرومان (١٢٦) .

واعجبوا بالخوخ وشبهوا الخدود به ، ولكن
لا يعدل التفاح عندهم شيء فيه تهذا اشجانهم

(١٢٢) الخلفاء والخلفاء ص/٧١ .

(١٢٤) المنتظم ١٦٧/١ .

(١٢٥) انظر الخلفاء والخلفاء ص/٧٠ .

(١٢٦) ادم متر : ١٦٨/٢ .

وعنده يضعون اسرارهم (١٢٧) ، وليس في هداياهم
ما يعادله ، قال انحكي :

تفاحية جاءت وقد علقت

وركتبت بالورد والاس

اشرب من كاسي على ربحها

بالرغم من اهلي وجلاسي

وقال آخر :

تفاحية من عند تفاحية

قريبة العهد بكفيها

احب بها تفاحية اشبهت

حمرتها حمره خديها

وقال آخر :

تفاحية حمراء منقوشة

ركبتها في خضرة الاس

فلم تزل في كف ندمانينا

تدور من كاس اني كاس

وقد يكتبون بماء الذهب كالآتي (١٢٨) :

قبل ان تهدوني فخطوا

في سطر من ذهب

اني اعطف من صـ

بد ليصنفي ذا كرب

وكتبوا عليه ونقشوا كثيرا من لواعجهم وقد
طاوعتهم طبيعة التفاح . قال شاعرهم على لسان
تفاحية حمراء :

انا حمراء دعوني

لحبيب وحبيب

وكلوا ذات بياض

اكلها غير معيب

وكتب على اخرى :

لي طراوات وريح

ثم ماء وتضاره

ليس للياقوت فضل

كل ياقوت حجاره

(١٢٧) الموشى ٢١٨/٢ .

(١٢٨) النصوص مختارة من الموشى في الجزء الثاني .

ولقد امر عضد الدولة ان تنقش على خواتيم الجواري ابيات السلامي (١٢٩) :

مرقومة الجنبات بالبدع التي
لم يهتد قط من الربيع لروضة
كنمت روائحها ، فلما عذبت
بالنار فاح نسيمها فاقرت

اما شرابهم (١٣٠) : لا يشربون من الشراب الا
اجوده ، مثل الشمس والزبيبي ، والمسل ،
والطيوخ ، ولا يشربون ما ثخن وما اشتد ولا
لمكدر منه الا ما صفا شرابه ، ويرفعون عن شرب
العامة والرعاع ، وشرب السوقة ، والاتباع ، ولا
يتنقلون على شرابهم بالاشياء الرذيلة . بل ان
الظرفاء يتنقلون بالبندق ومقشر الفستق والملح
النفطي والعود الهندي والتفاح الشامي ويضعونها
في اجمل الاواني الزجاجية النقية . ولهم زي خاص
في مجالس الشراب فالألوان الزاهية والتي لا
يلبسونها في الغالب تلبس عند الشراب زيادة في
الظرافة وتحلية لمجلس الشراب ، ولكي يزدادوا
انسا على انس ومرحا على مرح .

الظرف والاديرة (١٣١)

كان للاديرة اثرها في ظرافة الظرفاء من
الادباء والشعراء فقد اتاحت لهم فرصا واجواء
ذات فضل ، في العصر العباسي ، فقد وجدوا في
ابنتها العامرة ، رياضا ترتاح اليها نفوسهم ، ففي
مواقعها طبيعة جميلة مؤنقة ، وهواء عذب ، وماء
زال ، وشراب ميسور وخدمات جليلة من
الديوانيين ، ويبدو ان الاديرة في داخل بغداد او
حواليها او في خارجها اختير لها جميعا من الطبيعة
اجملها واحسنها (١٣٢) .

والاديرة هذه منها الصغير البناء ومنها العالي
ال عمران الواسع الكبير ويشترط فيها او في كل منها
ان تكون منه كنيسة يصلي بها (الديوانيون) وفيها
صوامع تستوعب الرهبان .

وهذه الاديرة لا تخلو ، والكثيرة منها على وجه
الخصوص ، من (خزانة كتب) يجد فيها انربان

(١٢٩) انظر : المجتمع الميرافي في شعر القرن الرابع :

(رسالة ماجستير) ص/٢٤٥ .

(١٣٠) الموشى ١٧٢/٢ .

(١٣١) واحدة الدير : وهو خان النصارى . اللسان
والتاج / دير .

(١٣٢) يراجع كتاب الديارات ففيه تفصيل كثير .

ما ينشدون من التأليف التي تتناول مواضيع دينية
وادبية ، وعلمية مختلفة ، كالكتب المقدسة وتفسيرها
والفلسفة واللاهوت وسير الشهداء والتقيسين ،
والادب والشعر وغير ذلك فهي حافلة بالكثير الوفير
زد على ذلك ان فيها دور ضيافة وبيوتا واسعة
الرقعة حتى ان بعض الخلفاء والملوك والاعيان كانوا
ينزلون بها فيشتون عليها . وتحيط بها بساتين الكروم
والرياحين مما يبهج النفس ويسرها وبشرحها .

ادب الظرفاء

زهت بغداد في العصور العباسية وتطافرت
كل الاسباب لما يسمى بـ (ادب الظرفاء) فقد شملت
الحضارة في بغداد ، وسما العمران ، وعجت بالعلماء
والشعراء وتنادى هؤلاء في كل حذب وصوب ، وكان
بين الادباء الظرفاء ، والشعراء الخلفاء والوزراء ،
وكثر الندامى في قصورهم وشهد هذا العصر وجه
الشاعر (النديم) الذي لم يكن عرف سابقا .

وهذا الشاعر النديم الطريف شاركته الطريفات
من الجواري المتأديات في قصور منعمة ، مترفة
يعجز الوصف عن بيان آيات الفن في رياضتها ، فمن
برك ، وحدائق زاهية ، وابهاء مفروشة بكل غال
انيق ، وتحف عجيبة غريبة مجلوبة ، وجدران
مكسوة مزوقة وشلروانات افنتت فيها يد ،
المغنيين فجعلتها من آيات الفن تبهر الناظرين .

وتناثرت التماثيل في كل مكان ، من ستور حمر
وممصفرة ، ومجالس وازاهير مشرقة ، وابواب
عظام مسمرة بالذهب والفضة . ونفيس الجواهر
وفرش مختلفات الانواع والاصناف وامتدت على
الارض فرش زركشت وطرزت بالحريز ، واذا ،
فرحوا فلا تسل عن البلخ ولا تحفل بالدنانير ولا
تشدهك الاناقة (١٣٣) ، وغيره مما يروع القاري حتى
لنظن ذلك الترف ، وذلك البلخ ضربا من الخيال (١٣٤)
لولا ما يؤكد ذلك ويقطع الشك باليقين مما تدعمه
وتتناقله المراجع والشروح في بيان دقائق كل شيء .

كل ذلك جعل ادب الظرفاء وهم يمثلون الطبقة
الارستقراطية يملوه الترف والرقعة في التعبير ،
والسلاسة في الطبع ، فكان شعرهم رقيقا ونثرهم
عذبا منسجما مع ما طبعوا عليه من ظرف الروح ،

(١٣٣) الظرفاء ص/٢ .

(١٣٤) انظر تاريخ الادب العربي في العصر العباسي ، ابراهيم

ابو الخشب ص/٦٩ .

وانظر ادم متر في الحضارة الاسلامية ١٩٢/٢ . وتاريخ

الادب العربي : عباس المزوي ص/٦ .

وملاحة اللسان ، وشعرهم رشيق الاوزان خفيفها
مننى سألحا لذلك في اغلب الاحيان ، معبرا عن
المناسبات التي قيل فيها خير تعبير ، واصفا لواعج
من احب منهم بصدق .

هذا الى جانب ما اتفق فيه ادبهم مع شعراء
العصر كافة ان نظرنا الى كونه جزءا من ادب العصر
متصفا في ميل الظريف البديع كالطباق والجناس
والمقابلة ، والتورية وغيرها ، وانت تجد مصداق
ما قلنا في الامثلة الشعرية والنثرية متناثرة في اجزاء
البحث .

وفي ذلك من قول فضل . الشاعرة الظريفة :
يَصْنُدُ وادنو بالودة جاهداً
ويبعد عني بالوصال واقرب (١٢٥)

ورصد انشاعر الظريف المعاني طريفها ولطيفها
وربما يبدو غريباً ، وفيه صور حسية واضحة ،
وفيه الانفعالات والعواطف وكل ما هو منجم مع
التظرف بعدئذ .

واللفظ عند الظرفاء مختار ، رقيق ، معبر ،
موظف بذكاء وفطنة يشد ازر المعنى العام ويبين
المراد .

واغراضهم فيما نظموا وترسلوا دائرة في
فلك نيس يبعد عن الشعر من حيث العموم ، ففي
الغزل لهم قصب السبق لروقة عواطفهم وانهم غزلين
دعتهم كل دواعي هذا الغرض من المعاني الطريفة ،
الظريفة مثل قول الشاعر (١٢٦) .

واني لاخلو مذ نقدتك دأباً
فانقش تمثالا لوجهك في التراب
فأسفيه من عيني واشكو تضرعاً
إليه بما القاه من شدة الكرب
فوالله ما ادري بما انا مذنب
إليك سوى الافراط في شدة الحب

ومن المديح لهم طرف كبير ، ولابن سكرة
الهاشمي (١٢٧) دلو في هذا الباب وفي غيره من ظريف
الشعر .

قال في ابي الحسن بن عمرو بن يحيى
(من العراق) (١٢٨) .

(١٢٥) نساء الخلفاء / ٩١ .

(١٢٦) الظرفاء ص / ٧٤ - ٧٥ .

(١٢٧) قال الثعالبى في اليتيمة ٢/٢ كان قاتلاً في قول المصح
والظرف .

(١٢٨) الثعالبى ٢٧/٢ .

تقد امسكت من عمرو بن يحيى
بجبل لا اخاف له انبتانا

حباني في الحياة ورمّ حالي
واوصى بي ابا حسن ومائنا
فكنت مجاوراً للبحر منه

فلما مات جاورت الفرائدا
فقد قيل : (ان زمانا جاد بابن سكرة وابن
الحجاج لسيء جدا) (١٢٩) .

والمدح عند الظرفاء كثير كان فيه متنفسا للملاحة
انستهم :

ومن مليح شعر ابن ابي سكرة اخترت هذا
البيت :

هو البحر الا اته عذب مَوْرِدِ
ومن عجب ان العذوبة في البحر (١٣٠)

وجعلوا من الرثاء وسيلة يتظرفون من خلالها
رغم ان الرثاء كما عهدناه تتفجر فيه الام الرائي على
المرثي :

كقول ابن الحجاج في رجل سقطت امراته من
السطح فماتت (١٣١) .

عفا الله عنها انها يوم ودعت
اجل فقيده في التراب مغيث
ولو انها اعتلت لكان مصائبها

اخفت على قلب الحزين المذنب
واهوت إليه من يفاع ودوته

نمانون بائنا في علو مصوب
فصارت حديثا شاع بين مصدق
تحققته علما وبين مكذوب

الى ان قال :

فاعظم يا هذا لك الله ربها
وربك اجر الكحل في شاة اشعب

وعشق الظرفاء الطبيعة ووصفوها باشعارهم
ففي وصف بستان قال احدهم (١٣٢) .

(١٢٩) نفسه ٢/٢ .

(١٣٠) الثعالبى ٢٩/٢ .

(١٣١) الثعالبى ٢٩/٢ ، وفيه غير ذلك من شعر ابن سكرة
فقد اليه في الغزل والنسيب والخمريات ، وماجنى
الشعر .

(١٣٢) ظرفاء المنجد ص/ ٧٥ .

إذا لم يزرني ندمانيه
 خلوت فنادمتُ بسانيه
 فنادمته خفيرا مؤنقا
 بهيج لي ذكر اشجانيه
 يغرب لي فرحة المستلد
 ويُبْعِدُ همي وآحزانيه
 ارى فيه مثل مداري الظبي
 تظل لاطلائها حانيه
 ونور اقحار شيت النبا
 ت كما ابتسمت عجبا غانيه
 ورجسة مثل عين الفتاة
 الى وجه عاشقها رانيه
 وفي وصف البدر قال بعضهم (١٤٢) :

والبدر في افق السماء كدرهم
 ملقى على دياجية زرقاء
 وفي ليلة قمراء قال آخر (١٤٤) :

هل لك في ليلة بيضاء مقمرة
 كانها فضة ذابت على البلد
 اما في العشيق ، والحب ووصف لواضع
 الشوق واحوال الحبة قالوا الكثير ما لا يحصى
 ولا يعد ، وقد مر بعضه في اثناء البحث ، نذكر
 بعضا آخر :

من قول العباس بن الاحنف (١٤٥) :

اغيب عنك بود لا يفتره
 ناي المحل ولا صرف من الزمن
 تغل بالشغل عنا ما تكلمنا
 الشغل للقلب ليس الشغل للبدن
 وقال آخر ، من قصيدة طويلة ، هذه بعض
 ابياتها (١٤٦) :

يا ايها المممود
 قد شئت الصدود
 فانت مستهام
 خالفك السهود

يا عاذلي كفا
 فانسى ميمود
 قد انصت فؤادي
 خمصانة خريد

واني لواحدة في ادب انظر فاء انسجاما مع
 طبيعة الحياة المترفة التي كانوا يحيونها فهم
 راقون في الحرية والانطلاق ، والتحدث عن
 ذكرياتهم والاعتراف برغباتهم ، وما تهفو اليه
 نفوسهم ، ولذا فلقد كانت صور شعرهم - في كثير
 منها - زاخرة بمعان حسية واضحة .

ومن قول ابن سكرة (١٤٧) :

في وجه انانة كلفت بها
 اربعة ما اجتمعن في احد
 الخد ورد ، والصدغ غاليه
 والريق خمرة ، والثغر من برود
 لكل جزء من حسنها بدع
 تودع قلبي بدائع الكمود

ومن ظريف ادب انظر فاء انهم يختارون من
 الفاظ الارباء في مكاتباتهم الحسن المليح ومعانيهم
 التي كانوا يضمنونها مانور القول والشعر :

ا اخبرني الوضاح بن ثابت الكاتب قال :
 كنت عند بعض الكتاب اذ دخلت عليه وصيفة
 كانها قمر ، تتثنى في مشيتها كانها جان ، او كانها
 غصن بان ريان ، حتى وقفت بين يديه ، فقالت :
 مولاني تقرا عليك السلام وتقول لك : يا اخي
 جفوتنا من غير استحقاق للجفاء ، وملت الي غير
 مذاهب الظرفاء ، واني نم ازل واثقة باخائك ،
 راجية لحسن وفائك ، وتحقيق مؤملك اولى من
 الوقوف على تجنيك .

فقال لها : اقربي عنيا السلام ، وقولي لها ،
 يا اختي انا من ودك على احسن عهدك ، ومن الامل
 لك اضعاف ما عندك ، ولقد استوحشنا من فقدك
 فاجعلي لنا حظا من انسك (١٤٨) .

وكتب بعض الكتاب (١٤٩) الى صديق له : ما
 زال ما احمد من عواقب رايتك واشبه من وفائك ،
 حتى وثق في ضميري من مودتك ما استجدني
 لطاعتك واستوى علي من موافقتك ، ما سهل علي

(١٤٧) الثعالي ص/٧٢ .
 (١٤٨) الوشاء ١٩٩/٢ .
 (١٤٩) نفسه .

(١٤٢) نفسه .
 (١٤٣) نفسه .
 (١٤٥) ظرفاء المنجد ص/٧٢ .
 (١٤٦) نفسه ص/٧٢ .

سبيل عتبك ، فما أسألك بغلبة الهوى طريقا إلا
رضاك إلى أن قال :

عليّ رقيب من هـواك يقودني
إليك على الحالات في السخط والرضا
وليس هـواي حيث لا يستحقه
ولكن هـواي حيث كان لك الهوى
لساني رهين* بالذي أنت فاعل
ورأيي موصول* بما كنته* يرى
وما زلت لي عوناً برأيي موفّق

على صلة القربي يهدي أولى النهى
ولعل اظرف ما كان يجري في المجالس ادب
المنظرات والمعارضات والمطارحات الشعرية نذكر
من ذلك من قول عنان (١٥٠) : جارية الناطقي الذي
كان يدعو الشعراء لمطارحتها في المجلس في بيته : من
ذلك دموته (أبا حنشل) فقال له : هلم إلى عنان
فطارحها . قال أبو حنشل : فمزمت على الغدو
فبت ليلي أقول بيتين ثم غدوت عليها فقلت :

احب الملاح البيض قلبي وربما
احب الملاح الصفر من ولد الحنشل
بكيت على صفراء في الدهر مرة
بكاء اصاب العين مني بالعمش
وكانت عنان ذات وجه جميل ، صفراء
اللون .

فقلت :

بكيت عليها أن قلبي يحبها
وأن تؤادي كالجناحين ذو رعث
نميننا بالشمر لما أيتنا
فدونك خذه محكما يا أبا حنشل
وكانت عنان هذه تفعم الشعراء معارضة
ومنهم أبو نواس شيخ الماجنين ومما جرى بينهما
أنه قال :

عنان لوجدت لي فاني
عمري في آمن الرسول بما
عنى بذلك أنه في آخر العمر .
فردت عليه قائلة :

فإن تمادي ولا تماديت في
قطمك حبلني أكن كمن ختما

فردت عليها :

علّفت منّ لو اتى على انفس
الماضين والفارين ما ندما

فردت عليه :

لو نظرت عينها إلى حجر
وند فيه فتورها سقما

ومن طريف ما رواه صاحب الاغانى (١٥١) عن
أبي نواس ، وجنان جارية آل عبد الوهاب عبد المجيد
الثقفي المحدث قال : (كانت جنان قد شهدت
عرسا في جوار أبي نواس ، فانصرفت وهو جالس
معا ، فراها فأنشدنا بديها قوله :

شهدت جثوة العروس جنان
فاستحالت بحسبها النظارة

حسبها العروس حين راوها
فألبها دون العروس الإشارة

قال اهل العروس حين رواها
ما دهانا بها سواك عمارة

قال : وعمارة زوج عبد الرحمن الثقفي ،
وهي مولاة جنان .

وفي خبر آخر قبل انها (١٥٢) (أي جنان)
غضبت (من كلام كلمها به أبو نواس فأرسل يعتمر
إليها ، فقالت للرسول : قل له : لا برج الهجران
ربك ولا بلغت أملك ممن أحبتك ، فرجع الرسول
إليه ، فسأله عن جوابها فلم يخبره ، فقال :

فديتك فيم عتبك من كلام
نظقت به على وجه جميل

وقولك للرسول : عتبك غيري
فليس إلى التواصل من سبيل

فقد جاء الرسول له انكسار
وحال ما عليها من قبول

ولو ردت جنان مرد خمر
تبين ذاك في وجه الرسول

فردت عليه .

فأنشأ يقول (١٥٣) :

يا ذا الذي عن جنان ظلّ يخبرنا
بالله قلّ واعد يا طيّب الخبر

(١٥١) ٦/٢٠ الاغانى .

(١٥٢) نفسه .

(١٥٣) الاغانى ٨/٢٠ .

(١٥٠) المرأة في الادب العربي ص/٢٠١ .

مراجع البحث

اخبار بغداد - مخطوطة المكتبة المركزية رقم ٩/ محمود شكري
الالوسي .

اخبار الطراف والتماجين - ابو الفرج عبدالرحمن الجوزي
(ت - ٥٩٧هـ) تقديم وتعليق محمد بحر المنوم .
التجف الحيدرية .

اخبار النساء - ابن تيم الجوزية (٦٩١هـ - ٧٥١هـ) . تحقيق
نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة -
بيروت .

الاذكياء - ابن الجوزي ، ط . بيروت .

اساس البلاغة - الزمخشري : جار الله محمود بن عيسى .
مطبعة النسيب ، القاهرة ١٩٦٠ .

اشعار النساء - المزياني : ابو عبدالله محمد بن عمران
(ت ٢٨٤هـ) . تحقيق ساسي مكي الماني وعلال
ناجي . الرسالة - بغداد ١٩٧٦/١٩٩٦ .

اعلام النساء - عمر كحالة ، ط : ٢ ، دمشق ، الهاشمية .
الاغاني - الاسميني : ابو الفرج : تحقيق عبدالستار فرج ،
دار الثقافة بيروت ١٩٥٩ .

الامتناع والموانسة - التوحيدي : ابو حيان . ضبط وتصحيح
وشرح احمد امين واحمد الزين . دار مكتبة الحياة
في بيروت .

بين الخلفاء والخلفاء - صلاح الدين النجد ، دار الكتاب
الجديد .

التاج في اخلاق الامم والملوك - الجاحظ : ابو عمرو بن بحر ،
الاسرية ، القاهرة ١٢٢١هـ / ١٩١٤م .

تاج العروس من جواهر القاموس - الزبيدي : محمد مرتضى :
منشورات مكتبة الحياة ، لبنان .

تاريخ الادب العربي - عباس المزاري . الجمع العلمي ،
بغداد ، ١٢٨٠هـ / ١٩٦٠م .

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول - ابو الخشب
ابراهيم ، ١٩٦٦م .

التبصر بالتجارة - الجاحظ : ابو عمرو عثمان . الطبعة
الثانية / الرحمانية ١٢٥٤ / ١٩٣٥ . القاهرة .

تعار القلوب في المصاف والمنسوب - الثعالبي : ابو منصور
مبدالله بن محمد . مطبعة الطامير ، ١٢٢٦ /
١٩٠٨ .

الجماهر في معرفة الجواهر - البيروني ابو الريحان محمد بن
احمد (٢٠هـ) ١٢٥٥هـ حيدر آباد / المصارف
المثمانية .

الحالة الاجتماعية في الروايات في القرنين الثالث والرابع بعد
الهجرة - ابو ريده بغداد ، مطبعة الزهراء /
١٩٧٠ .

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع للهجرة - آدم منز .
ط : ٢ ، ١٢٦٧هـ / ١٩٤٨م .

الحيوان - الجاحظ . تحقيق وشرح عبدالسلام هارون ،
١٢٥٩هـ / ١٩٤٠م ط : ١ .

قال اشتكتك ، وقال ما ابتليت به

اراه من حيث ما اقبلت في اثري

ويُعمل' الطرف نحوي إن مروت به

حتى ليخجلني من حدة النظر

وإن وقفت له كيما يكلمني

في الموضع الخلو لم ينطق من الحصر

ما زال يفعل بي هذا ويدمنه

حتى لقد صار من همي ومن وطري

ويطول ذكر مثل هذه المعارضات والمطارحات

الرقيقة التي تنم عن القدرة والبراعة وسرعة

'البديهة لديهن .

وابدين ظرافة في ادب المراسلات كذلك من

ذلك ان الشاعرة عنان كتبت الى الفضل بن الربيع

كتابا تستحبه فيه ان يشفع لها عند الرشيد

ليشترها وقانت (١٥٤) :

كن لي هديت الى الخليفة شافعا

بوركت يا ابن وزيره من معلم

حُثَّ الامام على شرائي وقل له

ريحانة ذخرت لانفك فاشم

وكتبت عنان الى ابي النصر وكان قد كتب

يدعوها للقائه بقوله :

إن لي حاجة فرايك فيها

لك نفسي الفدا من الاوصاب

وهي ليست مما يلفه غيري

ولا استطيعه بكتساب

فقلت :

انا مشغولة بمن لست اهوى

وقلبي من دونه في حجاب

فاذا ما اردت امرا فاسرر

ولا تجعله في كتاب

ومثل هذه المراسلات كثيرة مما جرى بين

الظريفات والظرفاء (١٥٥) . وقد مرت منها امثلة .

(١٥٤) المحاسن والاصداد ص/ ١٥٦ .

(١٥٥) انظر الزيد في المرأة في ادب العصر العباسي ص/ ٢٢٧ -

٢٢٥ .

الديارات - الناشئي : ابو الحسن علي بن محمد (ت - ٢٨٨هـ / ٩٩٨م) تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف / بغداد ١٩٥١ .

ديوان ابي نواس - تحقيق وضبط احمد عبدالمجيد الفزالي . دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .

رسائل الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة الخانجي - القاهرة / ١٩٦٤م / ١٩٦٥م .

شفاء القليل - الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٢٧١هـ ، ١٩٥٢م التبرية / الازهر . القاهرة .

الصدافة والصدق - ابو حيان التوحيدي - تحقيق ابراهيم الكيلاني - دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .

طبقات الشعراء لابن المعتز - تحقيق عبدالستار احمد فراج ، مطبعة المعارف ، مصر .

طبقات النحويين واللفويين لابي بكر الريددي ، تحقيق محمد ابو الفضل / المعارف ، مصر .

الرفاء والشعائلون في بغداد وباريس - صلاح الدين النجد . الرسالة ، بيروت .

الكامل في التاريخ - ابن الاثير : محمد بن محمد (٢٦٩هـ) ، بيروت ١٢٨٦ / ١٩٦٦م دار الثقافة ، سائر وبيروت .

لسان العرب - ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦ / ١٢٧٥ .

المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة ماجستير) لمبداللطيف عبدالرحمن / (١٩٧١م) .

الحاسن والمساوي - ابراهيم بن محمد البيهقي - تحقيق محمد ابو الفضل القاهرة / ١٢٨٤ .

الحاسن والاصداد - الجاحظ / دار مكتبة التراث ، مطبعة الساحل الغربي .

محيط الحيف - بطرس البستاني .

المرأة في الادب في العصر العباسي - واجدة الاطرجي (رسالة دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري . ١٢٩٨ / ١٩٧٨ .

المستطرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين احمد الابشهي (ت ٨٥٠هـ / ١٢١٤ .

المستظرف من اخبار الجوارقي - البوطي : جلال الدين ، تحقيق صلاح الدين المنجد ١٩٧٦ / بيروت .

مطالع البذور في منازل السرود لابن عبدالله البهائي الفرولي ط : ١ ، ١٢٠٠ ، مطبعة الوطن .

معجم اللغات القرآن الكريم - عبدالباقي . القاهرة .

معجم البلدان - الحوي : ياقوت ، ط : طهران .

المغرب - الجواليقي : ابو منصور : موهوب بن احمد (٥٤٠هـ) تحقيق احمد محمد شاكر ، ١٢٠٩ (بلاغت) طهران ١٩٦٦ .

المنتظم في تاريخ الامم والملوك - ابو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . حيدر آباد / الدكن ، ١٢٥٩ .

الموشى - الرشاء : ابو الطيب محمد بن اسحق . تحقيق كمال مصطفى ط : ٢ / الخانجي القاهرة ١٢٧٢ / ١٩٥٢م .

نساء الخلفاء - ابن السامى : علي بن انجب . تحقيق : مصطفى جواد .

نشوار الحاضرة واخبار المذاكرة - دار المعارف / مصر .

الواقي بالوفيات صلاح الدين ايبك ١٢٨١ - ١٩٦١ . ط : ٢ .

الورقة لابن الجراح : ابو عبدالله محمد بن داود تحقيق عبدالوهاب عزام طبعه المعارف/مصر .

وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - ابن خلكان ت (٦٨١هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد . النهضة/ مصر ، ١٢٦٧ / ١٩٤٨ . ط : ١ .

يتيمة الدهر في معاصر اهل العصر لابي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي (ت - ٤٢٦) حققه محيي الدين عبدالحميد .

المجلات :

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م / ٣ ، مقالة .

مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٢٢م / ٢ .

مجلة الرسالة لسنة ١٩٤٠ / ٨ مقالة ميخائيل عواد .

مجلة لغة العرب ١٩٢٠ مقالة انستاس الكرملى .

الديارات - الناشئي : ابو الحسن علي بن محمد (ت - ٢٨٨هـ / ٩٩٨م) تحقيق كوركيس عواد ، مطبعة المعارف / بغداد ١٩٥١ .

ديوان ابي نواس - تحقيق وضبط احمد عبدالمجيد الفزالي . دار الكتاب العربي / بيروت ، لبنان .

رسائل الجاحظ - تحقيق عبدالسلام هارون . مطبعة الخانجي - القاهرة / ١٩٦٤م / ١٩٦٥م .

شفاء القليل - الخفاجي : شهاب الدين . ط : ١ ، ١٢٧١هـ ، ١٩٥٢م التبرية / الازهر . القاهرة .

الصدافة والصدق - ابو حيان التوحيدي - تحقيق ابراهيم الكيلاني - دار الفكر بدمشق / ١٩٦٤ .

طبقات الشعراء لابن المعتز - تحقيق عبدالستار احمد فراج ، مطبعة المعارف ، مصر .

طبقات النحويين واللفويين لابي بكر الريددي ، تحقيق محمد ابو الفضل / المعارف ، مصر .

الرفاء والشعائلون في بغداد وباريس - صلاح الدين النجد . الرسالة ، بيروت .

الكامل في التاريخ - ابن الاثير : محمد بن محمد (٢٦٩هـ) ، بيروت ١٢٨٦ / ١٩٦٦م دار الثقافة ، سائر وبيروت .

لسان العرب - ابن منظور : جمال الدين محمد ، ١٩٥٦ / ١٢٧٥ .

المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع الهجري : (رسالة ماجستير) لمبداللطيف عبدالرحمن / (١٩٧١م) .

الحاسن والمساوي - ابراهيم بن محمد البيهقي - تحقيق محمد ابو الفضل القاهرة / ١٢٨٤ .

الحاسن والاصداد - الجاحظ / دار مكتبة التراث ، مطبعة الساحل الغربي .

محيط الحيف - بطرس البستاني .

المرأة في الادب في العصر العباسي - واجدة الاطرجي (رسالة دكتوراه) حتى نهاية القرن الرابع الهجري . ١٢٩٨ / ١٩٧٨ .

المستظرف في كل فن مستظرف - شهاب الدين احمد الابشهي (ت ٨٥٠هـ / ١٢١٤ .

شِفَانَةُ مُرَجِّعٍ كَبِيرٍ إِلَى الْأَمْبَرَاتُورِ الْبِيزَنْطِيِّ الْثَانِي

بقلم

(أميدروز^(١))

ترجمة

يَعْقُوبُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مَرْصُورٍ

بغداد - الجمهورية العراقية

مؤخرا الى عضد الدولة ، ومنها اوفد شقيقه (قسطنطين) رسولا عنه الى بغداد ، مناشدا اغاثته^(٤) ، وعارضا له الولاء . في ذات الحين ، قدم الى بغداد رسول من الامبراطور (باسيل) مع تعليمات بالظفر : مهما كلف الامر - بتسلم (سكليروز) الذي يبدو انه كان رهانا ثميناً في لعبة العاهل السياسية . عليه ناصر عضد الدولة قدومه الى بغداد سريعا مع اتباعه ، وابتدأت اللعبة .

لقد عولج تاريخ الامبراطورية البيزنطية في هذه الحقبة من قبل المؤرخ شلمبرغر^(٥) في مؤلفين فرنسيين موسومين : (امبراطور بيزنطي في القرن العاشر)^(٦) بمجلد واحد بغطى فترة حكم (يسيفوروس فوكاس)^(٧) و (الملحة البيزنطية في ختام القرن العاشر)^(٨) في ثلاثة مجلدات ، الاول يستعمل على فترة حكم (جون زيميسكس)^(٩) ، وعهد

تستعمل الصفحات التالية على عرض تفصيلي نوعا ما ، بمفاوضات خاصة بين عضد الدولة البويهى وبين الامبراطور (باسيل) - ذابح البلفاريين - جرت في اعقاب وجود (برداس سكليروز)^(٢) - المنافس المفلوب للامبراطور باسيل - في بغداد اسيرا معززا . ان اندحاره في بانكاليا^(٣) عام ٩٧٩ كان قريب العهد جدا باحتلال العراق نهائيا من قبل عضد الدولة ، تلاه اقضاء ابي تغلب الحمداني قسرا عن الموصل . لقد جمعت المصلحة الذاتية بين عضد الدولة وبين (برداس سكليروز) ، وقد عززت تلك المصلحة رابطة تجلت في مؤازرة احدهما الاخر لمجابهة خصمي كل منهما ، وقد تم قهرهما . كان اندحار ابي تغلب الحمداني نهائيا عندما تم لمساكر عضد الدولة البويهى اخراجه من ديار بكر ، ففر الى سوريا حيث قضت عليه يد غادرة ، لكنه حتى آنذا لم يقم اي هائق منيع حال دون مطمح (سكليروز) . لقد فر الى ميفارقين التي آلت

(٤) استعمل صاحب البحث كلمة (Succour) وهي تعني الاغاثة او اللجوء .

(٥) M. Schlumberger

(٦) Un Empereur Byzantin au Xe Siecle

(٧) الذي ذكرته المصادر العربية Nicephorus Phocas التي اعتمدها صاحب البحث باسم (نفور) .

(٨) L'Épopée Byzantine a la Fin du Xe Siecle

(٩) John Zimisceas

(١) والبحث منشور بمجلة الجمعية H. F. Amedroz - الآسيوية الملكية

Journal of The Royal Asiatic Society لعام ١٩١٤ - المجلدات ٩١٥ - ٩٢٢ .

(٢) الذي تذكره المصادر العربية التي اعتمدها صاحب البحث باسم (ورد) .

(٣) لم اعتد اليها في معجم ياقوت Pancalia

(باسيل) (١٠) وحتى عهد يعدو اوان تلك الاحداث. لهذه الحقبة بالذات ، انتفع المؤلف بالمقتبسات ، المئق عليها بالحواسي ، من تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي المكتوب حوالي عام ٤٠٦ للهجرة (الموافق ١٠١٥ م) والذي هو تمة لكتاب (يوطيخوس) المعروف بسعيد بن البطريق الاسكندري ، اللذين نشر عام ١٨٨٢ من قبل فون روسن (١١) .

ان (شلمبرغر) يذكر ان عرض يحيى بن سعيد الانطاكي للاحداث ينسجم بكونه اكثر استفاضة كما هو اكثر اتسافا مع الارضية مما هو مستقى من المصادر البيزنطية ، ولذا فقد عدها اساسا لسرده الاخباري . كما ان عرض يحيى الانطاكي يتفق تماما مع نصوص تاريخ (تجارب الامم) لابي علي مسكويه ، التي تم الوقوف عليها مؤخرا ، وتمتها (ذيل تجارب الامم) لابي شجاع (١٢) . طبعة جب ، المجلد السادس ، ومنها تم استقاء تفصيل هذه المفاوضات .

نمة بعض الالتباس في التواريخ الاسلامية بشأن اسمي برداس : فوكاس وسكليروز . فيحيى بن سعيد الانطاكي يميز بينهما بشكل صحيح . والآخر (١٣) مشار اليه في (تجارب الامم) ص ٤٨٨ فيما يتعلق بابي تغلب ، بكونه الحاكم البيزنطي المعروف ب (ورد) الذي استبدلته الممالك الناقمة بالحاكمين (باسيل) و (قسطنطين) . كما ورد ذكره ثانية في ص (٥٠٠) فيما يتعلق بابفاد اخيه كرسول الى بغداد باسم « سكليروز المعروف باسم ورد » ، وفي فقرة من (ذيل تجارب الامم) الذي هو العماد في رواية ابن الاثير ، المجلد ٨ ص ٥١٦ - ٥١٧ ، يدعى (فوكاس) باسم (ورد) و (ورديس) بن لاؤون ، بينما (سكليروز) يدعى (ورد بن منير) . هذه التسمية الاخيرة عسيرة على الفهم ، ولو انها استعملت للدلالة على (فوكاس) بدلا من (سكليروز) لكنت اقل غموضا ، اذ ادى هذا اللبس في اسمه الى ان يدعى (فوتيوس) (١٤) . فان السيد (بروكس) (١٥) يفيدني بان نصا سريانيا

أعده (ناو) (١٦) للنشر استنادا الى مخطوطين سريانيين مشتملين على اسماء لقديسين مختلفين تظهر بشكل مترجم (١٧) ، حيث نفس القديس في احد المخطوطين يدعى (فوكاس) ويدعى في المخطوط الاخر (نوهرا) التي تعني الضوء بالسريانية .

ان مبعوث الامبراطور باسيل الى بغداد يعرف عند المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي ب (يسيفوروس اورانوس) الذي غدا فيما بعد قاضيا وواليا لانطاكية (١٨) بينما كتاب (تجارب الامم) في ص ٥٠٠ يذكر فقط ان المبعوث كان شخصا ذا منزلة متميزة ، ويؤكد على الحقيقة انه وسقيق (سكليروز) كانا سوية في بغداد يخطبان ود عضد الدولة ابان العام ٣٦٩ هـ باكملة كظرف يفضي كثيرا الى اجلال ذلك الماهل . ونص (ذيل التجارب) المشار اليه آنفا ، الذي اورده ابن الاثير (١٩) ، يذكر اندحار

Nau (١٦)

Pat. Or. الجزء العاشر ص ٥٢ .

(١٨) في ص ١٥٨ ، ١٥/١ ثم في ص ١٨٤ ، ١/١ ويدعى Magister Kuntus . وفي ص ١٦٧ ، ٦/١ نقف على امر فراره من بغداد بعد اطلاق سراح (سكليروز) والتحق ثانية بباسيل . في العام ٩٩٦ دحر البغديزيين (الملحمة ١٢٤/٢ - ١٢٢) وفي عام (١٠٠٠) اصحى واليا على انطاكية خلفا لـ (دميانوس دالاسينوس) الذي اندحر وقتل في (الاميا) - انظر (ابن الفلاس ص ٥١ - ٥٢) و (الملحمة ص ١٥٨) - اميدروز .

(١٩) اكتشف (فون روسن) من دراسته لشرط يتعلق بـ (يورليان) في كتاب (تجارب الامم) المخطوط ، ص ٢٥٧ ، انه المصدر الذي اعتمدته رواية ابن الاثير (الملحمة ٢١/١ رقم ٤) . كما ان ابن الاثير استفاد من (ذيل التجارب) وفي الجزء ٨/ص ٥١٧ ود ذكر وفاة زيمبسكس بفعل السم الذي دسه له الشقيق المخفي لثيوفانو ، وهو الشقيق « الذي كان وليرا منذ وفاة (رومانوس) ، والذي كان لقبه باركاموس (**) » - او باراكوي مومينوس (**) - وبهذا الشكل توصل الى السلطة . ان الخصى السالف ذكره كان (باسيل) ، الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكابينوس (**) الذي اعان نقفور (نيسيفوروس) في اعتلائه العرش ، والقصى برنجاس (**) . لكن في فقرة اخرى يورد ابن الاثير رواية اخرى . في استمرارته التاريخ البيزنطي حوالي ٢٢٢ هـ ، عند مولد باسيل فصاعدا (الجزء ٩ ص ٢٤٠ - ٢٤٢) يمزو دس السم الى كاهن هرسته « لثيوفانو (****) » من مناهلها في

- * Barkamus
- ** Parakomomenos
- *** Romanus Lecapenus
- **** Bringas
- ***** Theophano

(١٠) Basil

(١١) في كتابه الوسوم :

Von Rosen

Zapiski Imp. Ak Nauk Vol. XLIV.

Appendix I.

(١٢) تم العثور على مخطوطة في استانبول من قبل احمد زكي باشا (اميدروز) .

(١٣) بقصد سكليروز (Scleros)

Photius (١٤)

Mr. E. W. Brooks (١٥)

(ورد بن منير) امام (ورديس بن لاؤون) بعد
منازلتهما منفردين (انظر الملحة ٤٢٣/١ - ٤٢٤)
ما يلي ترجمة نص (ذيل تجارب الاسم)
- النسخ المصورة ١١ - ٦٦ - التي يعود الفضل
فيها كثيرا الى الاستاذ مرجليوث (٢٠) .

بيان بالمفاوضات التي جرت بين عهد الدولة وبين الحاكم البيزنطي بتبادل الاتصالات شفاهها

ان الباعث على هذه الاتصالات ، هو التحقق
التي سبق ذكرها ، الا وهي ان (برداس) قد نفذ
الى الامصار الاسلامية ، وكان ذلك بمثابة نذير
للحاكم البيزنطي ، فوافد مبعوثا الى عهد الدولة .
وارسل كرد بوساطة ابي بكر محمد بن الطيب
الاشعري ، المعروف بابن الباقلاني (٢١) ، اندي آب
مع مبعوث يعرف بابن فونس الذي ، عند رجوعه ،
مضى برفقة ابي اسحق بن شهرام بطلب عدد من
الماعل من الماهل البيزنطي . فوصل ومعه رسون
يدعى نيسيفوروس الكانكلي (٢٢) وهو يحمل هدية
سبية .

خلاصة بكل ما جرى حسب اقوال ابن شهرام نمت عن حصافته وحيطته وحزمه

تقول الخلاصة : « عند وصولي خرشنة ،
علمت ان الخصيص (٢٣) (يقصد برداس فوكاس)
قد غادر القسطنطينية ، وشرع في اعداد استعداداته
وان معه مبعوثا من حلب يعرف بابن (مامك) ،
وكذلك كليب ، حمو ابي صالح السديد . وكان
كليب احد مناصري (برداس) وضمن المتمردين
الذين صدر الصفع عنهم ، واقاموا في ارض بيزنطية
بعد تغربهم . لقد اعتزم البيزنطيون تغريبه . سورة

(٢٠) Professor D. S. Margoliouth

(٢١) انظر ابن خلكان ٦٧١/٢ - اميدروز

(٢٢) هذا المامور هو نيسيفوروس

Nicephorus the Kanikleios

(نغفور) اورانوس ولد نمت في (ذيل تجارب)
بالكانكلي الماخوذة من (كانيكليوس) الرومية التي تعني
حامل الدواة (العجيرة) .

(٢٣) استنادا الى بعض القواميس استطع ان ادل على كلمة
(Domesticus)

بمعنى (خصيص) وهي في اعتقادي توازي رتبة مدير
الكتب الخاص في عهدنا وقد دل عليها (ذيل تجارب
الامم) ب (الدمستق) .

ان الخطوة الثانية في اللعبة السياسية كانت
ارسال مبعوث مسلم الى بيزنطية في عام ٢٧١ هـ ،
هو القاضي ابو بكر الباقلاني (ابن الاثير الجزء ٩
ص ١١ - ١٢ ، وقد ترجم له ابن خلكان في الجزء
٢ ص ٦٧١) . ويذكر المؤرخ يحيى الانطاكي
(ص ٣/١/١٥٩) ان ارسال مبعوث بخصوص
(سكليروز) الذي يدعوه (ابن سهره) - وفي احد
مخطوطات الكتاب يرد ذكر الاسم صحيحا بانه ابن
شهرام - وعد فون روسن هذا تحريفا لاسم القاضي
وهذا من دواعي استغراب شلمبرغر (ص ٤٤٢) رقم
(٢) نظرا لعدم المامه بالاحتمالات التي يعطيها الحرف
الشرقي ، ويلوح ان استغرابه له ما يبرره . ان
المهمة ، التي من اجلها ارسل القاضي ، لم تؤد الى
نتيجة ملموسة ، هذا اذا تركنا جانبا الروايسة
الدرامية لتخلصه من تقديم الاجلال الى (باسيل)
كما سردها ابن الاثير ، وكذلك السمعاني في ملاحظته
عن القاضي في (الانساب) - طبعة جب ١/١٦٢ -
وافاد فضلا عن ذلك - كما يفيد فون روسن -
بابفاد رسول عن عبدالرحمن القرطبي الى احد ملوك
النورماند . اما انطلاق ابن شهرام في مهمته ، فقد
جرى في تاريخ لاحق ابان عام ٣٧١ هـ ، وكانت
تعليماته - كما اورد يحيى بن سعيد الانطاكي -
تتفق تماما مع نص (ذيل تجارب الامم) ، بيد ان
نصا لاحقا اورده يحيى الانطاكي بشأن احتجاج
(نيسيفوروس اورانوس) في بغداد بباعث من
الارتباب في تدبير مكيدة القضاء على (سكليروز)
بدس السم له (وهذا يتكرر في «المكين» و «الملحة»
٤٢٣/١ رقم ٥) ، ليس ما يؤيده في كتاب (تجارب
الامم) ولا في (ذيله) ، ويبدو انها في الحقيقة تتعارض
كلها مع التفاصيل التالية بصدد المامورية التي من
اجلها اوفد ابن شهرام .

دبر ناه ، ومنه عادت في اليوم الذي قضى فيه زيمسكي ،
بينما ورث باسيل العرش وهي وصية عليه بسبب
حدثاته . وتاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ص ١/١/١٤٧
يذكر فقط وفاته عام ٣٦٥ هـ ، ويقول ان باسيل
وقسطنطين ولدي (رومانوس) اصبحا الحاكمين
الحقيقيين ، لكن الحكومة اديرت من اكبرهما (باسيل)
فقط . وكانت سنة ائلك ١٨ عاما ، وانه اعتمد على
(البركاموس) واستدعى والدته (نيوفانو) من المنفى
- اميدروز .

إبان عن لطفه ، وارتضى المصالحة المعروضة مع
الأعراب عن شكره .

ثم استفهمني الغرض من قدومي ، فاوقفته
على ذلك بشكل واف . واسترعى (ابن قونس)
انتباهه الى الصيغ المشترطة ، فلما اطلع عليها ،
قال : لو افلح الرؤساء في جعلنا نتخلى لهم وديا عن
المناطق والحصون التي يرومون ، لشرع كل منهم في
التخطيط لتحاشي ضرورة الابقاء على قوة من
الرجال ، والقيام بتسديد الاموال . فاجبت : انه
حيث تم دعم التدبير بالقوة والمقدرة ، فهذا برهان
على نبل المملك ، ويجب ان يجابه بالتبصير .
فاستفسر : « لكن ماذا بشأن حلب ؟ فهي ليست
شظرا من منطقتكم (يقصد ملك عضد الدولة) ،
وحاكمها لا يهتم بكم ، ومبعوثه هنا وكليب يعرضان
علينا خراج ارضها ، وينشدان حمايتنا ، اما
بخصوص الحصون ، فقد ضبطت في عهد عمي
نيسيفوروس (٢٦) وملوك آخرين ، ولسنا احرارا
في التخلي عنها . لذا ان استطعت ان تقدم اي
اقتراح عداه ، فانمل ، والا فوفر على نفسك مشقة
الرحلة الطويلة » . اجبت : « ان حزت ايعاز مليكك
بمغادرتي ، فاني سابعرج ، لكن اذا قلت ذلك من
تلقاء ذاتك فقط ، فالمليك يجب (٢٧) ان يصفي الى
ما اقول ، واسمع رده كي اعود بمعلومات موثوقة » .
فاجاز سيري . فانطلقت نحو القسطنطينية ،
ودخلتها بعد ان استقبلني ورافقني مأمور البلاط
بمنتهى اللطف . وانزلت باعزاز في جوسسق
نيسيفوروس (حامل الدواة) - المبعوث الذي
معي - وكان من اعوان العاهل . ثم استدعيت
للمثول امام الحاجب (اي باسيل المخصي) الذي
قال : « قد وقفنا على المخاطبات التي حملت على
ارسالك ، لكن افصح عن مراميك » . آنذاك ،
ابرزت الاتفاق الحقيقي (٢٨) الذي تفحصه ، ثم قال
« ألم يتم حسم التخلي عن خراج بلاد ابي تغلب (٢٩) ،
سابقا ولاحقا ، مع الباقلائي وفقا لرغباتكم ؟ ألم
يرتض شروطنا لارجاع الحصون التي قد

بالاخرين ، وليخسر الاملاك التي وهبت له عندما
استنبط وسيلة لتسليمهم حصن (برزويه) (٢٤) .
لكنه انى وسيلة لارضاء الحاجب (٢٥) والخصيص ،
واستطاع الحصول على تعهدات للمعامل البيزنطي
بخصوص حنب وغيرها ، كانت كافية ان تدفع
خطرا عاجلا ، مع العرض بضمان دفع فوري لما
يتعلق بخراج حلب وحمص لان قريبه هو الذي وعد
وما كان ليعارضه . فتخلص منه بهذا الشكل . اما
المبعوث من حلب ، فلم تتم تسوية اي شيء معه ،
لكنه طوالب بتراكمات خراج السنين السالفة .

وعند وصول الخصيص الى موضع يثاي عن
طريق البريد ، انطلق نحوه ابن (قونس) وانا معه ،
فالفينه حدنا مزهوا بنفسه ، وكارها اتمام المهادنة
لعوامل مختلفة ، احدها انه يستطاع الاستغناء
عنها في الوقت الراهن ، وانها ستضر بسمعته ،
وثانيها ان الحاكم البيزنطي كان تواقا اليها ،
معبرا : « ونحن في خشية من ابداء بلحقنا منه » ،
وثالثها : آماله وامنياته الذاتية . لكن في ذات الوقت

(٢٤) استنادا الى ياقوت الحموي : « حصن قرب السواحل
الشامية على سن جبل شافق ، يغرب بها المثل في
جميع بلاد الفرنج بالحصانة ، تحيط بها اودية من
جميع جوانبها ، ولدرع علو قلعتها (٥٧٠) لراعا ،
كانت بيد الفرنج حتى فتحها الملك الناصر صلاح الدين
يوسف بن ايوب في سنة ٥٨٤ هـ . ويقول اميدروز
صاحب البحث انها كانت على الطريق التي سلكها
(زيمكس) في آخر حملة على سوريا عام ٣٦٤ هـ ،
وان وصف يحيى الانطاكي في تاريخه بشأن التسليم ونسبية
كليب حاكما على انطاكية (ص ١٤٦ / ٥) وارد في الملحمة
(٢٩٩ / ١) ، وقد سلم كليب نفسه وانطاكية ايضا فيما بعد
الى (سكليروز) الذي جعله واليا على (ملاطية) ص
٨ / ١ / ١٤٧ و ٦ / ١ / ١٤٨ - و (الملحمة ٢٧٦ / ١ - ٢٧٧) ،
وان سيف الدولة ضبط (برزويه) من البيزنطيين عام
٣٢٧ كما ورد في كتاب موسوم (امراطور بيزنطي ص
١٢٢ / ١) .

(٢٥) استنادا الى القواميس تعني هذه الكلمة
(Chamberlain) :

« الحاجب » كما تعني امين الخزانة او المال ، والمعنى
الاول اقرب الى المراد في اعتقادي ، وقد أوردها كتاب
(ذيل تجارب الامم) بصيغة (البركموس) وهو المخصي
(باسيل) الذي أعلن عن موالاته لنيسيفوروس فوكاس ،
وعند فوزه حل محل برنجاس (*) كرئيس المستشارين ،
وابت ذلك حتى طرده (باسيل) عام ٣٧٥ هـ (عام
٩٨٥ م) استنادا الى تاريخ يحيى الانطاكي (ص ١٦٥ / ١
١٢) والى (الملحمة ٥٧٢ / ١) - اميدروز والمترجم .

(*) Bringas

(٢٦) كان المتكلم نجل ليون فوكاس ، شقيق نيسيفوروس -
اميدروز .

(٢٧) استعمل صاحب البحث معنى الوجوب بكلمة (Ought)
بينما صاحب (ذيل التجارب) استعمل معنى الجواز
بكلمة (يجوز) .

(٢٨) ان النص الانكليزي للبحث نعمت الاتفاق بكونه (الحقيقي)
بينما نص (ذيل التجارب) نعمته بكونه (الظاهر) .

(٢٩) ابن ووريت حكم ناصر الدولة في الموصل - اميدروز .

ضبطناها (٢٠) ، وفي القبض على برداس (ورد) ؟
لقد ارتضى سيدك هذا الاتفاق ، وعمل وفقاً
لرغباتنا ، اذ لديكم تصديقه على المهادنة بخط
يده (٢١) . فأجبت : « لم يتوصل الباقلاني الى
أي اتفاق قط » . فأجاب : « انه لم يغادر الا بعد
ان سوى شروط الاتفاق الذي مصادقة مولاه عليه
كانت سترسل اليها ، وقد سبق ان ابرز خطابه
بشأن الموافقة على الشروط باكملها » . لذا ارغمت
ان اجد وسيلة لمجابهة هذا الوضع (٢٢) .

فكرة رائعة عنت لابن شهرام رد حجة الخصم

فقلت : « لم يتوصل ابن الباقلاني الى أي
اتفاق معكم . ان ابن قونس هو الذي صاغ هذا
العهد واخذ نصه الافريقي » . عندئذ استشاط (٢٣)
الحاجب واستفهم ابن قونس : « من خولك بهذا ؟ »
فأجاب انه لا هو ولا ابن الباقلاني قد سويا أي شيء .
وانسحبت .

وغب ايام استدعائي الحاجب ، واعاد قراءة
الاتفاق ، فتوقف حيث تطرق الموضوع الى « ما
يجب حسمه مع ابن شهرام على اساس ما تضمنته
النسخة الثالثة » . فقال بان هذه إحدى النسخ :
فأين النسختان الاخرتان ؟ لدى مراجعتي تلك
الفقرة ، الفيت السهو قد وقع في ترك ذلك ، وقلت :
« معنى الفقرة هو ان يكون الاتفاق بثلاث نسخ :
احداها تكون لدى الحاكم البيزنطي ، والثانية تكون
في حلب ، والثالثة في العاصمة - بغداد » فدحض
ابن قونس ذلك ، قائلا ، ان تعليماته كانت ان يدون
المعنى الحقيقي للاتفاق وقال الحاجب ان هذه

(٢٤) نص البحث يفيد قول الحاجب البيزنطي بموافقة
الباقلاني على شروط البيزنطيين لاعادة الحصون التي
قد ضبطوها :

"The Fortresses we had taken,..."

بينما نص (ذيل التجارب) يفيد التقيض : « رد الحصون
التي اخذت منا » .

(٢٥) نص البحث يعطي المعنى الذي ترجمته للعبارة :

"For you have his ratification of the
truce under his own hand"

بينما نص (ذيل التجارب) فاسد المعنى : « وطينا ان
خطك معك بتمام الهدنة » .

(٢٦) نص (ذيل التجارب) لهذه الجملة متسم بالضعف
والغموض : « فاحتجت الى ان اطلب مجالا اطوم به
مجالهم » .

(٢٧) في (ذيل التجارب) وردت هذه الكلمة (اشتط)
وصحیحها اشتط او اشتط .

النسخة كانت المول عليها (٢٨) ، وان النسخة الثانية
انت على ذكر لتخلي عن الحصون ، بينما النسخة
الثالثة لم تتطرق الى أي ذكر لحلب ، وان الاتفاق
تم توقيعه بمقتضى الشروط المتفق عليها مع ابن
الباقلاني ، والغرض الوحيد من ارسال هذه النسخة
هو استحصال توقيع الملك وختمه عليها . فكان
ردّي على ذلك : « يستحيل ان يكون الامر كذلك ،
فتعليماتي هي مجرد ما ذكرت بشأن حلب
والحصون ، وفقا للاتفاق الذي شاهدت » .
فأجاب : « لو كان برداس (ورد) - أي سكليروز -
هنا في المعسكر ، وضبطتمونا جميعا اسرى ، ما كان
في مقدورك ان تطالب باكثر مما طلبت . فكيف
و (ورد) هو في الواقع اسير ؟ » .

رد حصيف لابن شهرام

أجبت : « لا اهمية (٢٩) لافتراضك : « لو كان
(ورد) في المعسكر » ، لانك تعلم جيدا (٣٠) ان ابا
تغلب (الذي لا يرقى الى مصاف ادنى اتباع عضد
الدولة) عندما اعان وردا ، الحق الهزائم (٣١) بالملوك
البيزنطيين طيلة سبعة أعوام . فكيف كانت الحال
ستفدو لو ان عضد الدولة اعانه بجيشه ؟ ومع ان
(وردا) اسير في قبضتنا ، فهو ليس عرضة للتمثيل
كما تفعلون باسراكم . ووجوده في العاصمة افضل
لنا (٣٢) ، اذ اننا لم نجعله مقيدا . ولو فعلنا ، لربما
ضاق صدره بصدده عنا ، وبش منا مستوحشا ،
وتخلى عنا . بيد انه يعمل الان برفقتنا ، ومطمئن
الى الابهة والامن اللذين يشاهدهما في العاصمة .
والحقيقة اننا نمسك بكل الحبال » .

لقد اترت فيه كلماتي ، واريكنه كثيرا ، لانه
ادرك صحتها . فقال : « ليس في الوسع تلبية
مطلبك . ان اردت ، سنوقع على ما اتفق عليه مع
الباقلاني ، والا فانصرف » فأجبت : « ان شئت
انصرافي بدون الاستماع الى العاهل ، فسا فعل »
اجاب : انه تكلم نيابة عن العاهل ، لكنه سيأذن لي
في المثول امامه .

في غضون ايام قلائل استدعيت فحضرت .

(٣٤) في النص الانكليزي ورد هذا اللفظ (Ruling) وهو
مرادف للفظ الدارج (يحكم او ياكل) بينما نص (ذيل
التجارب) يذكر (النسخة الظاهرة) .

(٣٥) نص (ذيل التجارب) يذكر « غلط » هذا القول المفترض
(٣٦) نص (ذيل التجارب) يذكر (تعلم) فقط .

(٣٧) نص (ذيل التجارب) يذكر (اهلك ملك الروم) .

(٣٨) نص (ذيل التجارب) يذكر (احوط لنا) .

خراج سمند (٤٦) (تكتب كذلك اسمند - قرية قرب سمرقند - استنادا الى ياقوت الحموي) . ولما استفهموا معنى ذلك ، اجبت : « ان الاطراف القصوى فقط هي التي تحدد في الاتفاق كي يكون جليا ان كل ما هو ضمن الاطراف مشمول بالهدنة فحصر (كيفا) هو قبل آمد (ديار بكر) بخمسة ايام . فكيف تذكرونه ؟ » .

اما الخلاف بشأن حلب ، فظل قائما حتى قال المشر (او القيم) : « ان سدد حاكم حلب الخراج اليينا ، فسنعلم ان اقوالك باطلة ، وانه يفضلنا عليكم » . فاجبت : « وما هو الاثبات الذي نملك بانكم لم تستميلوا كاتبه وحماه كليبا ليؤدي لكم شيئا ، فتتخذوه حجة ؟ فبغير حيلة ، اعلم ان ذلك لا يصح » ثم انصرفت .

ثم استدعاني الماهل ، وكان خراج حلب قد وصل آنذاك ، فالفيت لهجتهم قد تغيرت في الحدة والحزم ، اذ قالوا : « ها قد اتى خراج حلب ، وقد طلب اليينا حاكمها التوصل الى اتفاق معه بشأن بلدي (حران) و (سروج) وفي مؤازرته لهاجمتكم وقوى اخرى » . فقلت : « انا اعلم ان اسلامكم الخراج بحيلة ، اذ ان عضد الدولة لم يتصور انكم ستجيزون لانفسكم القيام بما اقدمتم عليه ، والا كان في مقدوره ان يجرد جيشا لايقاف عسكركم . اما الذي تروونه عن حاكم حلب ، فانا اعلم منكم بافكاره ، وكل ما بلفكم عنه عار عن الصحة ، والدعوة فيها (حلب) قائمة لعضد الدولة (٤٧) . فسألوا ان كان لدي ما اضيف ، وعند اجابتي « كلا » ، اجابوا بان استاذن الملك بالانصراف مصاحبا بالحماية . فقلت : سافعل ذلك فورا . واستدريت نحو الماهل للاستئذان منه .

تحليل سليم لابن شهرام في هذا المازق

ان تعليقه كما يلي : « تأملت الحال ، مدركا ان الحاجب والمشر (او القيم) والباقيين معهما يمارضون الهدنة المقترحة (فرجال الجيش يخشون الاستغناء عن سيوفهم ، والنقص في ارزاقهم كما كانت الحال عندما تعقد الهدنة في بيزنطية) ،

(٤٦) بلا حظ التمكن اللبيب انطواء هذا القول على سخرية بدلالة السطود التي ليه .

(٤٧) عندما وصل الى بغداد سدد الدولة ، نجل سيف الدولة ، قدم خضوعه الى عضد الدولة ، وادخل اسمه في الدماء بعد اسم الخليفة (يحيى بن سعيد الانطاكي من ١٨/١/١٥٧) - اميدروز .

وطلب الماهل البيزنطي (باسيل) اعادة ما سبق ان تم التذاكر بشأنه في حضوري ، فقال : « لقد جئنا برسالة تستحق الشجب (٢٩) ، فرسولكم جاء واستحصل قبولنا بشروط معينة ، تضمنت إعادة الحصون التي ضبطت اiban المصيان ، واثت الان نطلب التخلي عن حصون اخرى استولى عليها اسلافي . فاما ان ترتضوا ما تم عليه الاشتراط اولا ، او انطلق بسلام » . فاجبت : « لكن الباقلائي لم يتفق على شيء ، اذ فيما يتعلق بالصك الذي جئ به معه ، لقد جردتمونا - وفق شروطه - من نصف اراضيها . فكيف نقر شيئا كهذا ضد انفسنا ؟ فالحصون في ديار بكر (٤٠) لا تضبطون منها شيئا ، وديار بكر الان تؤول اليينا (٤١) . كل ما تستطيع ان تفعل هو ان تنازعنا اياها ، ونجهل ما سيفقد مصير الصراع . آتئذ تدخل الحاجب (٤٢) قائلا : « هذا السفير متفنن في الجدل ، وفي مقدوره ان يزبن الكلام (٤٣) ، والموت افضل لنا من الاذعان لهذه الشروط . دعه ينصرف الى سيده » . فنهض الماهل ، وانصرفت .

انصرف شهران على مكوثي في القسطنطينية ، فاستدعاني الحاجب ، وكان يرفقته المشر (٤٤) - وهو وائد الخصيص - الذي الحق به العمى (٤٥) ، وعدد من البطارقة وتداولنا في امر الحصون . فمرضوا التخلي عن خراج حصن (كيفا) في حوزة والدته ابي تغلب التي كانت تستلم الخراج ، فكان جوابي عن ذلك : « وانا بدوري سأنازل لكم عن

(٢٩) نص (ذيل التجارب) يذكر : (يا هذا قد جئت بامر منك) .

(٤٠) في نص (ذيل التجارب) ورد هذا النص كالاتي : « فالحصون التي في ديار بكر منها شيء في قبضك » واعتقد ان النص يجب ان يكون : « ... ليس منها شيء » .

(٤١) لا يشتمل نص (ذيل التجارب) على هذه العبارة « وديار بكر الان تؤول اليينا » .

(٤٢) لا بنمت (ذيل التجارب) مقال الحاجب بالتدخل بل يذكر : « فقال البركموس » .

(٤٣) نص (ذيل التجارب) يذكر : « هذا رجل ذك جسد ونموه للاقوال » .

(٤٤) النص الانكليزي يذكر (Marshal) بينما نص (ذيل التجارب) يذكر (القربلاط) وهي تعني كذلك القيسم على البلاط او المراسيم او التشريفات .

(٤٥) هذا المشر او القيم هو ليون فوكاس ، وقد الحق به العمى بسبب لستره على مصيان نجله برداس (ورد) على جون زيميسكس . لكن التمثيل به في هذه المسرة اجري قصدا برفق . انظر (الملحة ٦٦/١) - اميدروز

والسبيل الوحيد الذي تبقى هو استمالة المليك واسترضاؤه (٤٨) ، فخاطبته قائلا : « ايها الماهل الا تتأمل مسلك عضد الدولة تجاهك في عدم مناصرتك عدوك ، وفي عدم مهاجمته بلادك عندما كنت منشغلا مع العصاة ضدك ، اذ انك تعلم ان ارضيته لوحده ، وهو مليك المسلمين ، فذلك امر جيد وخير ، وخلافا لذلك يتحتم عليك ارضاء الالوف من مشايعتك ، ورضاهم غير موثوق منه ، واذا اخفقت في الحصول عليه ، فربما عليك ان تسترضي عضد الدولة فيما بعد . كما تعلم ان جميع من حوله يعارضون الهدنة المطروحة ، اذ هو فقط يميل اليها ، فهو قادر ان يفعل ما يريد ، اذ لا يجرؤ فرد ان يحاججه في ذلك . ارى انك تحبذ المهادنة معه ، لكن قد تكون رغبتك غير مدعومة من قبل اولئك المحيطين بك » . فانفعل بحدیثی ، ولاح عليه الهم (٤٩) من جراء علمسى بمعارضة مستشاريه ، فنهض وغادر .

ان الشخص الخصيص بالماهل ، والذي يقف حياله ، ويوقع نيابة عنه باللون الارجواني ، والملم بكل شؤونه الرسمية ، كان نيسيفوروس (تقفور) الكاتكلي (حامل الدواة) الذي رافقني مبعوثا ، فسألته الانصراف معي ، ففعل .

الترتيب الذي توصل اليه ابن شهرام مع المستشار الخصيص بالماهل ، وبه اصاب غرضه

عندما انفردت به ، تكلمت : « اروم ان تبلغ عني رسالة الى المليك . لقد طال مقامي هنا ، فعرفتي بقراره النهائي . ان لبي مطالبي ، فهذا حسن ، والا فلا وجه لقامي بعد الان » . وقدمت الى هذا الخصيص هدية تكميمية مما قد جلبته معي ، مشفوعة بوعود حسنة نيابة عن عضد الدولة . كانت رسالتي كالتالي : « ايها المليك : الاهتمام الاول هو ان تصون نفسك ، ثم ملكك ، ثم اتباعك عليك الا تثق بفرد ، مصلحته في اضرارك ، فبعون ابي تغلب نجم ما جرى في بلادك . اذا ماذا سيحدث لو ان عضد الدولة آزر القوات المعادية ضدك ؟ ان التوصل

(٤٨) يذكر نص (ذيل التجارب) : « الفرق به » وهذه كلمة كبيرة في حدودها من رسول يتعامل مع ماهل ، وقد استعمل صاحب البحث كلمة (Conciliate) التي تعني (يسترضي) وهي انسب في اعتقادي .

(٤٩) استعمل صاحب البحث كلمة (Concern) وهي تعني الهم هنا ، بينما مؤلف (ذيل التجارب) اورد (الامتناع) .

الى المهادنة بينك وبين اول الرجال (٥٠) وحاكم الاسلام : لا اراه موافقا لهوى مستشاريك . لا يدرك الانسان الا ما لم يجرب ، ولقد حصلت لديك تجارب سبع سنين من العصيان عليك وعلى سلطتك فضلا عن ذلك ، ان دوام الدولة لا يعني دوام بقائك فالبيزنطيون لا يبالون بمن يكون عليها امبراطورا (النص هنا محرف) (٥١) . هذا على افتراض ان عضد الدولة باق في السلطة ، لقد اسديت اليك حسن المشورة ، لعلمي بميل صاحبي وتقديره نحوك . لذا تأمل خطابي ، وافعل كما تراه الافضل » فعاد (تقفور) قائلا : « الجواب هو ان الامور كما ذكرت ، لكن ليس في مقدوري مقاومة الجماعة ، وهم يحماون عني فكرة من غشهم وآذاهم . مع ذلك ، سامضي في الامر ، وافعل بقدر ما استطيع »

ومن حسن الطالع ، صادف ان الحاجب (باسيل المخصي) مرض مرضا شديدا ، وعجز عن الخروج ، واستمر تراسلي مع الماهل ، ومثلت امامه في ايام متوالية ، وخاطبني بنفسه ، وآذرنى الخصيص (حامل الدواة) بدافع من البغض والحسد اللذين يكتنهما للحاجب ، حتى تم الاتفاق على الهدنة وفقا لجميع الشروط في الاتفاق ، ولم تلق المحاولات لاجراء حلب قبولا . وعند الحاجي على هذه النقطة بعزم قائلا : « بدون حلب لا يمكن ان يتم هذا » ، قال : « اقلع عن الاصرار ، فاننا لن نتخلى اكثر مما تخلينا عنه ، كما لن نخلي منطقة نستلم خراجها الا قسرا . لكنني سأنفذ معك خطايا الى صديقي مولاك ، لاني واقف على نبذه ، ولانه متى عرف الحقيقة ، فان بجانبها » . ثم طلب الى الذين حوله ان يبتعدوا ، وسرني قائلا : « قل لمولاك اني انشد حقا رضاه ، لكن يجب ان امسك برهانا عليه . ان شئتم ان نحول اليكم خراج حلب او ان اترك لكم جبايته شريطة ان يطرد ابن حمدان من حلب ، فانجزوا ما وعدتم عن لسان ابن قونس » - ملحما الى تسليم بدراس « ورد » - فقلت : « لم اسمع بذلك ، ولم اكن حاضرا آنذاك ، لكنني احسب فعله مستبعدا » . فانكر ذلك قائلا : « اقلع عن هذه الاطالة ، فلم يبق لديك شيء آخر تحاورني بشأنه » . ثم اوعز بتحرير الردود ، وكتبت جوابي ، وحضرت للاستئذان بالرحيل .

(٥٠) هكذا جاء في نص البحث "First of Men" بينما في

(ذيل التجارب) وصف بأوحد الدنيا .

(٥١) هذه ملاحظة صاحب البحث .

حادث سعيد لابن شهرام

ولعدم رغبتى في وقوع مقدور يؤدي الى موت من راموا تسليمه ، كما يقع في نظير هذه الاحوال (النص هنا يبدو محرفا) (٥٢) ، وكى تكون الهدنة مشتملة على جميع امصارنا حتى دون الفرات وبلاد باد (٥٣) بدون حلب . قلت : « تعلم اني عبد مأمور ولست ملكا ، وعلى الا ان تخطى التعليمات التي تقلتها اليك بصدق . اما شروطك بشأن حلب ، فقد اقسمت لك بانى لم اسمع شيئا بخصوصها في بغداد . لكن هل جلالتك مستعد للنظر في تدبير خطر لى بانه من الصواب ان تقرأه ؟ فاستفهم : « ما هو ؟ » واجبت : « ان تنص على الهدنة بيننا وبينك لتضمن كل اقاليمنا من حمص الى منطقة باد بدون اي ذكر لقضية التسليم التي تنشدون ، فقط ولا شيء عدا ، وتقسم عليه بدينك ، وتوقعه بامضائك ، وتختمه بختمك في حضوري ، ومبعوثك سيوصله الى العاصمة معي ، حيث اما ان يقر واما ان يعيده مبعوثك » فسؤلت : « وهل ستعطي تعهدا خطيا مماثلا ؟ » فاجبت : « اجل ، عند تسليمي شروطك التي تبني » فأجاب : « ولكن هل ستذكر في صكك تسليم الرجل ؟ » فقلت : « لا يسعني ذكر ما هو خارج تفويضي » . فقال : « اذا ساهي انفاقين ، احدهما لما يتعدى الفرات ومنطقة باد ، والاخر بشأن حمص وحلب كما قد اشترط . عندئذ ، اذا اختار مولاك الاتفاق الذي يتخطى تخوم الفرات شريطة اقصائه (بدراس) ، فيستطيع ان يبقيه لديه ، وان اثر الاتفاق الاخر ، فبمقدوره ان ينفذه » . فاقترحت تحرير الاتفاق بدون اي ذكر لهذه المسألة ، فقال : « اذا ، دون ذلك ، اذ لن اعطي اي شيء مكتوب بدون ان استلم الشيء

(٥٢) هذه ملاحظة صاحب البحث ، واعتقد انه محق في ذلك فنى (ذيل التجارب) يذكر : « ما يعرف مثله فيخرج من الجميع بغير ميتة (كلا) » . فالتشويش والغموض هنا جليان .

(٥٣) اورد صاحب البحث هذه الملاحظة بشأن (باد) : « هو الجد الاملى لسلالة بني مروان الحاكمة في (ميفارقين) قام (باد) بمحاولة جريئة ضد الموصل بعد وفاة ضد الدولة ، لكنه اُخلف وخر صريحا في المعركة . ولم يتسن لى التثبت من صحة هذه المعلومات .

المكتوب » . فقلت : « اذا ، دع ترجمائك ينشئ نسخة من اقوالي ، فان اقرها عند الدولة ، امكن نسخها في حضوره ، وتوقعها من قبله » فوافق على هذا . استنادا الى ذلك ، حررت الشروط ، وجعلت الهدنة لعشر سنين . وعند الفراغ من هذا ، قلت : « لا تجعل رسواك كمجرد فيج (٥٤) : لكن اطلعه على ما تروم منه ان يفعل طبقا لما اتفقنا عليه ، ووفقا لما يرتبته ، وصادق على كل ما يقره » . فارتضى ذلك ، وحررت الصكوك بمقتضاه .

وعند مبارحة الحاجب داره غب ابلاله : هاج لاسباب منها تفرد الخصيص (حامل الدواة) بمليكه ، ومنها انجاز الامر في غيبته ، والسبب الثالث هو مسألة حلب وحمص والضمانات التي قدمها اليه كليب .

حديث مليك بيزنطية ، به استمال

مشاعر الحاجب

حسبما افادني به بعض خواصهم ، قال العاهل مخاطبا حاجبه : « ليس حولي ، كما تعلم يا حاجبي ، من يشفق علي نظيرك ، ولا من يحتل موقعك عندي ، اذ انت مني في ادنى نسب وصله (٥٥) ، اما الباكون ، كما قال السفير ، فغير مباينين ان كان الامبراطور انا ام غيري . يجب ان تصون نفسي ونفسيك ، ولا تصفي الى قول المشر (ليون فوكاس) ، ولا تثق به او بمشورته ، اذ انت تعلم ما رواه ابراهيم عنه وعن ابنه (ورد) حول اضرارهما النفس للكنيا وخبث نياتهما نحونا » . فسألت محدثي : من يكون ابراهيم ؟ اجاب : « انه رسول الخصيص اليكم ، وهو الذي أعلن للعاهل ناصحا ان الخصيص (اي برداس - ورد) قد انفذه

(٥٤) بفتح الفاء ونسكين الياء وتعني رسول السلطان ، الذي يسمى على رجليه ، وهي من الدخيل وقد اوردتها صاحب (ذيل التجارب) في نصه حول الموضوع وترجمتها صاحب البحث الى (Courier) ، ومن معانيها الساعي او رفيق السياح .

(٥٥) باسيل الخصيص كان الابن الطبيعي (غير الشرعي) لرومانوس ليكاپينوس والد هيلين قرينه قسطنطين يورجيوچينيتوس جد الامبراطور (باسيل) - اميدروز .

اليكم (يقصد المسلمين) ناشدا منكم معاضدته على العصيان .

فنقبل الحاجب مقالة المليك ، وعندمنا استدعاني ، لاحظت فيه لهجة وانبساطا خلافا للسابق ، لكن نظراته ، في ذات الوقت ، ابانت عن عدم موافقته على الشروط التي حصل الاتفاق عليها . وتم ترشيح حامل الدواة ليكون رسولا معي بعد رفضه المهمة ، لكن العاهل الح عليه بذلك بعد ان لم يجد عداه في اهليته ، واعانه الحاجب قائلا : « انت وانا اهم شخصيتين في البلاط ، وابتنا ينبغي ان يذهب » . وبلغ من جده في الامر حدا عزوته الى رغبة في اقصائه ، والى حسد لما راي من منزلته الحميمة لدى العاهل .

هذا هو موجز معاني الفاظ ابن شهرام . آنذاك كان عضد الدولة عليلا ، ودخول الناس عليه كان محظورا ، فاعز ان يقدم اليه تقرير عما جرى . تلك العلة اودت بحياة عضد الدولة ، وبعد وفاته ، مثل المبعوث البيزنطي امام مصمص الدولة ، وتسلمت الهدايا منه ، وانجز المهمة التي قدم من اجلها ، فتم تحرير اتفاقين : احدهما الاتفاق الذي حصل مع ابن شهرام على اساس كونه كاملا ودائما والآخر الاتفاق المسبق الذي عقد مع تقفور (٥٦) .

الاتفاق بشأن ورد واخيه ونجله

ان المداولات اسفرت عن ان تقفور سيمكث في بغداد ، ويوفد مندوبا عنه برفقة آخرين من بغداد لاستحصال توقيع العاهل وختمه لشقيق (ورد) - المعروف عند الروم باسم سكليروز - وابنه ، والامان والتوثقة لهما بضمان احسانه ، واعادتهما الى منصبيهما السابقين ، والى وضعهما المستقر . وعند وصول ذلك ، كان على تقفور ان يرسلهما الى العاهل البيزنطي ، بينما على ورد (سكليروز) ان يلبث في البلاد الاسلامية ، وان يمنع من التوجه نحو البلاد البيزنطية بفرض الاضرار ، وانه عند اتضاح حسن معاملة الاثنين

(٥٦) أي عندما كان في بغداد ورسولا من باسيل بعد فرار سكليروز (ورد) الى بلاد الاسلام - اميدروز .

الآخرين وفقا للتعهد ، عندئذ يجب ارسال (ورد) ايضا في غضون العام الثالث ، بعد استحصال الوثيقة بمقتضى شروط على غرار ما تم مع ابنه واخيه ، وان المبلغ المدفوع كجزية (٥٧) عن حمص وحلب من ابن حمدان الى العاهل البيزنطي ، ينبغي - اعتبارا من ارسال ورد الى بيزنطية - تسديده الى خزانة مصمص الدولة ، واذا تأخر ابن حمدان عن التسديد ، فمك بيزنطية برغمه آنذاك ، كي يوفر على مصمص الدولة ضرورة تجريد حملة عليه اما امر بلاد باد) ، فيجب ان يتعين على ما كان من هدايا المجاملة (٥٨) الى الملك البيزنطي ، على اساس من المفهوم ان الاخير (٥٩) لن يعين (بادا) او يجيره ان اعتصم بالبيزنطيين . لقد ارسل الاتفاقان سوية وتم توقيعهما .

اما بخصوص ما جرى بشأن اطلاق (ورد) من محبسه ، فسيلي ذكره بعدئذ .

* * *

ان اعطاء الامان المقترح الى سكليروز (ورد) واقربائه لم يحصل ، واطلاقه من قبل خلف عضد الدولة جرى بعد انصرام عدة اعوام فقط عند اخفاق (باسيل) في حملته البلغارية ، وبسبب قيام (ورد) بالعصيان عليه بالاشتراك مع (فوكاس) - استنادا الى (المحمة ٦٧٥/١) وتاريخ يحيى الانطاكي ١١٤/١/١٦٦ ، كان نجل سكليروز ، المدعو (رومانوس) قد تخلى آنذ عن قضية والده ، فاصاب حظوة رفيعة عند باسيل (المحمة ٦٩٤/١) . هذه الرواية لا تدعم حكاية احتجاز (اورانوس) في بغداد بسبب تدبيره قتل سكليروز (ورد) بدس السم له ، ولا تعطي دليلا ما ان باسيل

(٥٧) وصف صاحب (ذيل التجارب) هذا المبلغ بكونه (مال المفارقة عنهما) ، بينما عبر عنه صاحب البحث بالجزية (Tribute) كما تعني الاناوة او الضريبة الثقيلة .

(٥٨) نص (ذيل التجارب) يقول : « على ما كان عليه من اللطافة » وهذا غير مفهوم في زماننا وقد ترجمه اميدروز الى (Complimentary Presents)

(٥٩) يقصد صاحب البحث العاهل البيزنطي .

كان ساخطا على حكم وزيره (٩٠) ، باسيل المخصي ،
الذي كان سقوطه مقبلا في عام ٢٧٥هـ (٩٨٥م) وهو
التاريخ الذي حدده يحيى بن سعيد الانطاكي (الملحمة
٥٧٣/١) .

كما انها تبين ان القيمة التي علقها باسيل على
تسليم سكليروز (ورد) كانت كما لو انه على
استعداد لشرائها على حساب الخراج باكملة او
الجزية ، الواجب دفعهما اليه من حلب بمقتضى
شروط استلامها الى (پيتر فوكاس) في عام
٣٥٩هـ (يحيى الانطاكي ١٣٤/١٥ و « امبراطور
بيزنطي » ص ٧٣٠) . ان هذا الشرط من المعاهدة
قد ابطال ، واستمر دفع المبالغ من حلب ولو بمقادير
اقل (يحيى الانطاكي ١٦٥/٢ و ١٦٦/١/٢٢
والملحمة ١/٥٥٠ ، ٥٧٠ - ٥٧١) ، ومرة واحدة
سددت كاملة « يحيى الانطاكي ١٧٦/١/١٢ والملحمة
٩٢/٢) . ان (شلمبرغر) يفترض ارسال المبالغ
بانتظام (ص ٤٣٥) ، ومن المؤكد ان قسطا كان في

(٩٠) لأول مرة يذكر صاحب البحث بان باسيل المخصي كان
وزيرا ، بينما في الواقع المسألة ذكر « العاجب » .
وحتى صاحب (دليل التجارب) ذكر الصيغة الرومية
« بركموس » ولم يذكره كوزير مطلقا .

سبيله الى بيزنطية عندما اعترسه سكليروز (ورد)
في الايام الاولى لتعمرده (٢٨٣/١) . ويهمنسا ان
نعرف مدى اهمية هذه الجزية في بيزنطية كمال
مضمون للدولة ، وبتعبير آخر : ما كانت عليه قيمتها
الشرائية في السوق . ثمة كشف دقيق في كتاب
(الفرج بعد الشدة) ١٣٢/٢ و ١٢/١ ، انه قبل
زهة نصف قرن من ذلك التاريخ ، كانت قيمة
قطعة ارض في سواد بغداد شروى اربعة اعوام ،
بعد خصم الخراج وحقوق الدولة الاخرى . كما
يتضح ان ما متوقع استلامه من ضرائب الاراضي ،
احرزت قيمة مبيع عالية ، لانه هكذا كان المعول على
الواردات المالية للوزيرين (ابن مقلة)-تجارب الامم
الجزء ٥/٢٢٧ - ٢٢٨ - والمهلبى (الجزء ٦/١٦٨ -
١٦٩ - وقارن هذا بما جاء في ص ٨٢٩ و ٨٣٦ من
مجلة الجمعية الاسبوية الملكية لعام ١٩١٣) . لكن
من ناحية ثانية ، كانت اهمية ما يتوقع الخليفة
من الجزية من حاكم خاضع له ، باعتبار ما جرى
بين رسول الخليفة وعم عضد الدولة وسلفه
(الجزء ٥ ص ٤٦٥ - ٤٦٦) تعتبر قليلة جدا في
سوق بغداد ، ومن الجائز ان ذات الافتراض سيكون
صحيحا فيما يتعلق بجزية حلب في سوق بيزنطية .

حَدَائِقُ الْحَيَواناتِ فِي بَغْدَادَ

بِاسْمِ
عَالِمِ الْحَمْدِ

وزارة الشباب - بغداد

بابل المعلقة الشهيرة كانت تضم بين ما تضم من حدائق غناء جناحا كبيرا من انواع الحيوانات والطيور ولا سيما التي تعيش في المناطق الجبلية . في حين لم يبق الاكديون ببناء مثل هذه الصيغ من حدائق الحيوان ! .

والشكل الثاني هو احاطة مناطق تواجد الحيوانات بقوانين صارمة لحمايتها لا من منطلق الحفاظ عليها واتما من اجل توفيرها لاغراض الصيد مثل هذا النوع من القوانين كان واضحا ايام الملك الاشوري ، آشور ناصربال الثاني (.

واحتوت مسلة الملك الشهير حمورابي في احدى موادها مواصفات للرفع الارضية وغطائها الذباني واماكن اختباء الحيوانات وكانت كلها تهدف الى حماية تواجد الحيوانات البرية في مناطق الامبراطورية البابلية وهي اشبه ما تكون حدائق حيوانات مفتوحة اي ما يسمى الان بالمحميات الطبيعية .

وقد انقرضت كثير من الحيوانات في تلك الفترة نتيجة الصيد المستمر ، ويبدو ان حيوان البيسون الذي كان يرتاد سهول امريكا بصورة خاصة كان نوعا منه على ما يظن موجودا في العراق وكان يعرف بالسومرية بكلمة « الم » وكانت له قدسية في العصر الكلاسيكي ، ولما انقرض (في الالف الرابع ق. م) استمر السومريون على تمثيله في فنونهم برأس عجل تشد عليه لحية متعارة لان البيسون يتميز عن الثور بلحيته ، وهذا ما نشاهده في القيثارة الذهبية الماثورة عليها في اور التي تبعد 15 كم عن مدينة الناصرية حيث

فللثة من فكرة انشاء حدائق الحيوان في وادي الرافدين

لقد كان العرب سباقين في كل شيء طرقوه من اركان الحضارة الانسانية في الابتكار والاختراع والتطوير ، فهم اسباد افكارهم وبناء العلوم التي اصبحت فيما بعد اهم اسس بناء الحضارة العلمية العالمية . وقد يندهش اكثرنا اذا علم ان الاقوام العربية القديمة كانت هي اول من عرف اقتناء الحيوانات وبناء اماكن شبيهة بحدائق الحيوانات الحالية ، ويشير المؤرخون الى ان عملية انشاء اقامة حدائق الحيوان في العصور القديمة في العراق مرت بثلاثة اشكال من الحدائق ، الشكل الاول مناطق الصيد المتواجدة ضمن الرقعة المملوكة لهذا الامير او ذاك وهذا ما شهدته على وجه التحديد فترة السومريين فقد كان ملوك هذه الدولة يمتلكون حدائق مسورة تضم كثيرا من الحيوانات لاغراض الاحتفالات التي كانت تعد لكهان وقادة الشعب والملوك (الذين يسهمون في خدمة آلهة القوم) وحاشيتهم فيرخي في اثناء مسيرته الدرج الثلاث لبلوغ قمة برج المعبد . ومن هذا الطاف السامق يتاح للمحتفلين ان يشاهدوا دخان الضحايا منبعثا من مزارات بعيدة ، وبعدئذ يهبون الالهة الضحية التي تطلبها من المخلوقات الحية والتي تقضي بها الطقوس المقدسة (1) . ويؤكد المؤرخون على ان جنائن

(1) المعرفة/المجلد الاول - بيروت/ص 175 .

نرى اللحية مثبتة بشريط على انف المعجل في مقدمة القيثارة (٢) .

ويذكر لنا الملك الاشوري تغلات بلاصر الاول (١١١٢ - ١٠٧٤ ق.م) بأنه بعد ان طارد قبائل احلامي في حملته العسكرية الخامسة عبر نهري الخابور قتل في المنطقة الواقعة بالقرب من مدينة حران عشرة فيلة واصطاد اربعة احياء نقلها الى بلاده ليحتفظ بها في الحديقة التي نظمها لمشاهد الحيوانات بصورة حية .

ويبدو من هذه الاشارة ان عدد الفيلة اخذ يقل في هذه الفترة . وظلت اعداد منها ترتاد الفرات في زمن اشور ناصربال الثاني الى ان انقرضت باصطيادها من قبل الاشوريين انفسهم في القرن الثامن قبل الميلاد . اما الاسود فقد كانت منتشرة في شمال العراق وجنوبه وظلت تذكر في الكتب العربية ، واخر اسد ذكر اصطياده كان عام ١٨٩٦ (٣) .

ومثلما انقرض البيسون والفيل والاسد ، كذلك انقرضت الخيول البرية والنمور والفهود والقطط وبقر المها وحمر الوحش والايائل واليحمور والضباع والضان البرية ، ومن الطيور النعام وغيرها .

وينقل لنا زينفون صورة للبيئة التي شاهدها بنفسه عندما رافق في حدود عام ٤٠٠ ق.م الحملة التي سار بها كورش الامير الاخميني الثائر من آسيا الصغرى الى طيسفون (المدائن) . ويقول زينفون : البلاد سهلة منبسطة كالبحر مكسوة بشجيرات الالفنتين وبكل ما ينبت من الاعشاب والشجيرات ذات الرائحة العطرية ، الا انه لا توجد اشجار . ومن الحيوانات البرية الكثيرة الانتشار الحمار الوحشي والنعام ، وبلي ذلك كثرة الجباري ثم الغزالان التي طاردها فرساننا . والحمر الوحشي لما طوردت سبقت الخيل (لانها اسرع منها) ، ثم وقفت ولما اقتربت منها خيولنا ركضت ثانية ثم وقفت ، وهكذا لم يتمكن فرساننا من اصطيادها الا بعد ان انقسموا الى زمر فتمكنوا من ملاحقتها من جميع الجهات واستطاعوا اصطياد الواحد منها بعد الآخر . ان لحم الحمر المصطادة يشبه في طعمه

(٢) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/سومر ، الجزء

١ و ٢ ص ٥ .

(٣) المصدر السابق/ص ٧ .

لحم الغزال الا انه اكثر طراوة . وظل هذا الحيوان يرتاد بادية جزيرة العراق الى زمن حديث . يذكر لنا المنقب المشهور ليارد بأنه شاهد قطعاً من حمر الوحشي في طريقه من سنجار الى تلعفر في عام ١٨٤٦ (٤) .

اما الشكل الثالث فهو اقامة حدائق حيوانات حاوية على حضائر او بيوت من الاسلاك المشبكة ضمت الطيور بشكل اساسي ، وبطمئنها الطيور التي كانت تأتي كهذا . وفي عهد ظهور الاسلام والدولة العربية اخذت حدائق الحيوان شكلاً مميزاً يتسم بالروعة والبهجة حيث احتوت قصور الخلفاء على نوادر الطيور والحيوانات الوحشية ، وفي نفس الوقت ومع بداية التطور العلمي في العصر الذهبي للعرب كانت حدائق الحيوانات والنباتات تتخذ كمراكز للتزود العلمي للفقهاء والعلماء في ذلك العصر . يقول الاب انستاس ماري الكرمللي « ان العرب سبقوا غيرهم من الامم في انشاء حدائق الحيوانات وانهم كانوا يسمون حديقة الحيوان (حبراً) ، وجمعه (حيران) ، ومنها القصور الشهيرة التي بناها الامويون في اطراف الجزيرة العربية مما يلي الاردن وسوريا من امثال قصر الحير الشرقي والحير الغربي وغيرها » .

ويقول الاستاذ ميخائيل عواد : (اتخذت الحيوانات الكاسرة في بدء الامر للهو فقط ، ثم جاء خلفاء بني العباس فاتخذوها الاوائل منهم لاقامة الهيبة وحفظ نظام المملكة وحراستها من اطماع الرغبة ، فارتبطوا بالاسود والفيلة والنمور . ذكر المؤرخون ان الخليفة المنصور عني بجميع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها واقتنائها لها واعدادها للحروب والزينة في الاعياد وغيرها ، انها اوطأ مراكب الملوك وامهرها . وكان للرشيدي اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها . ثم تطور الامر من بعد ذلك فعنى الخلفاء والامراء والملوك واعيان القوم بتخصيص محل واسع الارعاء يضم جملة كبيرة من مختلف اصناف الحيوان الكاسرة والداجنة والطيور والهوام والحشرات ويطلق على ذلك المكان «حير الوحوش» فالحير : بستان واسع فيه انواع الحيوان وهو المسمى بالانكليزية (Zoo) ، والعرب سبقوا الامم المتقدمة . الى اتخاذ تلك الحضائر لجس الوحوش والحيوان فيها ، ودرس اخلاقها وعاداتها ، مع التفرج على ما هنالك من عجيب المخلوق (٥) .

(١) المصدر السابق/ص ٧ .

(٥) حدائق الحيوان في العصور الاسلامية/ص ٢٠ .

بغداد أسبق العواصم في إنشاء حدائق الحيوان

لقد ولع الخلفاء العباسيين باقتناء أنواع الحيوانات والطيور والأسماك ، وذلك لحبهم للطبيعة وما يتعلق بها ، وبالنظر لان بغداد كانت عبارة عن غابة متشابكة الاشجار والتخيل مما جعلها تعج باصناف كثيرة من الطيور والحيوان وهذا كان يدفع الخلفاء والامراء والناس الى التمثل بهذه الغابة الكبيرة بحيث يجعلوا بعض الاماكن في دورهم او بقربها غابات مصغرة لذلك .

ويشير الاستاذ سليم طه التكريتي الى ذلك فيقول : (بغداد سبقت غيرها من عواصم العرب والشرق في إنشاء حدائق الحيوانات وان تلك الحدائق لم تكن من معالم الابهة والزينة التي اغرق فيها بعض الخلفاء العباسيين ومن جاء بعدهم من السلاطين حسب ، وانما شاركهم في هذه الهواية انشاء حدائق الحيوان عدد كبير من الهواة الذين بزوا البعض من الخلفاء والوزراء في هذا المضمار) .

واشهر من استأنس الحيوانات وانشا لها الحدائق والمرابي ، وعهد الى ذوي الاختصاص رعايتها والقيام على شئونها الخليفة هارون الرشيد ففي عام ٧٩٧م ارسل الخليفة نفسه الى الملك الفرنسي شارلمان هدية تتكون من فيسل وبعض النسائيس اخرجها من حديقة حيوانات بغداد آنذاك . ولما افضت الخلافة الى الامين وجه الى جميع البلدان في طلب الوحوش والسباع والطيور وغير ذلك . ولشدة ولعه بجمع الحيوان امر بعمل خمس حراقات في دجلة . والحراقات : (جمع حراقة وهي ضرب من السفن) وجعلها على شكل حيوان (اسد ، فيل ، عقاب ، حبة ، فرس) . وكان الامين يتردد كثيرا على حير الوحوش ومعه ابراهيم الموصلي المكنى الشهير - قال شاهد عيان ان ابراهيم غنى في احد الايام اشد طبقة يتناهى اليها في العود .

قال : وما سمعت مثل غنايه يومئذ قط ، ولقد رايت منه شيئا عجيبا لو حدثت به ما صدقت كان اذا ابتدا يغني اصفحت الوحوش اليه ومدت اعناقها ولم تزل تدنو منا حتى تكاد ان تضجع رؤوسها على المحل الذي كنا عليه ، فاذا سكنت

وقد تجدد الاهتمام بانشاء حدائق الحيوانات في العراق في العهد العباسي لان انشاء مثل تلك الحدائق كان من مظاهر الترف الكبرى التي تفنن المراقبون في تنظيمها وتزيينها ، ومن هنا راح بعض الخلفاء وغيرهم من الموسرين والهواة يقبلون على انشاء حدائق الحيوانات في قصورهم وحدائقهم ويبدلون الاموال لجلب مختلف انواع الحيوانات من اقصى بقاع الارض .

وكانت حدائق الحيوانات لدى المراقبين تصمم على اشكال متباينة فالبعض من الهواة كانوا يجمعون الحيوانات والطيور في اقفاص وحظائر بين اشجار الفاكة والكروم والاوراد . وكان بعض الناس يجمع بالاضافة الى الطيور والحيوانات المختلفة انواع الافاعي والحيات والعقارب والضبية (مفردة ضب ، نوع من الزواحف) والقطايا وما شاكلها في اقفاص خاصة بها في تلك الحدائق ايضا . وكان البعض الاخر يقيم حديقة منفصلة او يقنطع ركنا واسما من احدى حدائق قصره ليجمع فيه ما يستطيع جمعه من كل زوجين اثنين ويجعل لكل زوج منها قفص خاص به . وهناك من يفرد لكل زوج من الحيوان او الطير جناحا خاصا واسما يكون مسورا نسورا قويا وعاليا بحيث تستطيع الحيوانات ان تتحرك فيه وان تحلق الطيور في اجوائه بكل حرية ، فالحيوانات في مثل هذه الاجنحة لا تقيد بالسلاسل ولا تحتجز داخل الاقفاص وانما تترك حرة طليقة داخل تلك الاجنحة (٦) .

وكان لهذه الحيوانات رجال مواظبون يعنون باطعامهم وتنظيفها ويتحققون من نظافتها ونظافة الاماكن التي تعيش فيها .

وكان جمع هذه الحيوانات وجلبها من اقاصي المعمورة يكلف أموالا طائلة ، فالبعض من الخلفاء والموسرين لم يكن ليكتفي بارسال المبعوث والرسول الى مختلف الاقطار لجلب اندر الحيوانات والطيور فحسب وانما كانوا يستخدمون امهر القناصة والصيدان لاصطياد الطيور والحيوانات المتوحشة ايضا .

فقد كان لدى الخليفة الامين جماعة من اصحاب اللبايد والحرايب (وهي العدة الخاصة باقتناص الحيوانات الضاربة) يركبون البغال ويصطادون له الاسود ويضعونها في اقفاص ثم يجلبونها الى قصر الخليفة (٧) .

(٦) حدائق الحيوانات في العراق/ص ١٧ .

(٧) المصدر السابق/ص ١٨ .

نفرت وبعدت عنا حتى تنتهي الى ابعد غاية يمكنها
التباعد فيها عنا . وجعل الخليفة الامين يعجب من
ذلك (٨) .

ويقول الدكتور احمد سوسة في كتابه (ري
سامراء في عهد الخلافة العباسية) : (ويستدل بما
ذكره المؤرخون ان المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ /
٨١٢ - ٨٢٢ م) قد انشا حير للوحوش حيث جاء في
معجم ياقوت ان الحير كان قد انشىء من قبل
المأمون قبل توليه الخلافة ، وقد انشا بجواره ميدانا
اركض الخيل واللعب بالصوائجة وقد الحق الميدان
والحير بالقصر المعروف بالجعفري وهو القصر الذي
بناه جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك قبل ان اوقع
ارشيد بالبرامكة ، ثم سمي هذا القصر بالمأموني
ثم الحسيني عندما وهبه المأمون الى عمه حسن بن
سهل وذلك بعد ان تزوج المأمون بنت بيوران بنت
الحسن بن سهل ، واليك ما كتبه ياقوت في مادة
التاج ، قال : « وكان قصر الجعفري احب المواضع
الى المأمون واشهاها لديه واقتطع جملة من البرية
عملها ميدانا لركض الخيل واللعب بالصوائجة وحيروا
لجمع الوحوش وفتح له بابا شرقيا الى جانب البرية
واجرى فيه نهرا ساقه من نهر الملى وابتنى مثله
قريبا مثل منازل برسم خاصته واصحابه سميت
المأمونية » (٩) .

وكان في قصر الخليفة المقتدر بالله ببغداد
حوالي عام (٣٠٠ هـ / ٩١٢ م) حيرة بها قطعان من
اصناف الوحش ، وصار يفتيها بكل غريب من
الحيوان من جميع العالم وخاصة الاسود ، ولم
تكن السباع في ذلك العصر نادرة بالشام ولا على
شواطئ نهري دجلة والفرات ، بل كانت اجيالا
تدنو قريبا جدا من بغداد ، حتى انه في عام
٢٢١ هـ - ٩٤٣ م خرج الخليفة المقتدر الى الشام
بجوار بغداد لصيد السباع (٩) . وجاء ذكر هذه
الحدائق التي تقع في مدينة بغداد الشرقية باسم
الحير ايضا اذ ذكر ابن مسكويه في كتابه (« تجارب
الامم » ان بعض جند المقتدر شق عصا الطاعة
(٢٦٥ - ٢١٠ هـ / ٩٠٨ - ٩٢٢ م) . فنهب قصر
الثريا وذبح الوحش الذي في الحير وذبحوا البقر
التي لاهل القرى التي حوله وخرج اليهم مونس
وضمن لهم ارزاقهم فرجعوا الى منازلهم (١٠) .

(٨) حدائق الحيوان في العمود الاسلامي/مجلة هناء
بغداد/ص ٢١ .

(٩) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٢ .
(١٠) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/ص ٢٩٦ .

ولعل الحيوانات التي في هذه الحير هي من
جملة الوحش الذي نقل من (سر من رأى = سامراء
الحالية) الى حير بغداد ، وذلك بعد ان تم ارجاع
مقر العاصمة الى مدينة السلام في عهد المتنشد
(٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢ م) وفي عام ٣٠٥
الهجرة (٩١٧ م) وصل الى بغداد سفراء من
القسطنطينية للتفاوض للصلح بين الخليفة المقتدر
وعاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فشهدوا
في بغداد ما وصفه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد
بقوله : « ولقد ورد رسول لصاحب الروم في ايام
المقتدر بالله ، ففرشت الارض بالفروش الجميلة
وزيت بالالات الجليلة . . ووقف الجند صفين
بالثياب الحسنة ، وتحتهن الدواب بمراكب الذهب
والفضة ، وبين ايديهم الجنايب (هي الخيل ، جمع
جنيبة ، وهي الفرس نقاد ولا تركب) ، على مثل
هذه الصورة » .

« وادخل رسل صاحب الروم من دهليز باب
العامة الاعظم الى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهي
دار اكثرها اروقة باساطين رخام ، وكان فيها من
الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة
مركب ذهب وفضة بغير اغشية ، ومن الجانب الايسر
خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج (جل الدابة) ،
كثوب الانسان يقيه البرد) بالبراقع الطوال ، وكل
فرس في يدي شاكري بالبرزة الجميلة » .

« ثم ادخلوا من هذه الدار الى الممرات
والدهاليز المتصلة بحير الوحش (الحير : الحظيرة
او الحمى) . وكان في هذه الدار من اصناف
الوحوش التي اخرجت اليها من الحير قطعان تقرب
من الناس وتنشيمهم وتأهل من ايديهم . ثم اخرجوا
الى دار فيها اربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ،
على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرافين
بالنار . . . فقال الرسل امرها » .

« ثم اخرجوا الى دار فيها مائة سبع ،
خمسون يمنة وخمسون يسره ، في رؤوسها واعناقها
السلاسل والحديد ، وشاهدوا الزرافة والفهود
وحوانات اخرى كثيرة » (١١) .

(١١) حدائق الحيوان/دائرة مصارف الشعب/ص ١٩٧ -
١٩٨ .

وأشتهر عضد الدولة البويهى بتربيته الحيوانات وأفرد حديقة خاصة بها في قصره . وكان مما اعتاده عضد الدولة انه اذا جلس على كرسيه يأمر باحضار النمر والسباع وغيرها من الحيوانات المفترسة فتحضر اليه مقيدة بالسلاسل ثم توضع في حواشي مجلسه ، وكان يفعل ذلك بغية ارباب الناس واخافتهم وكان للخليفة القاهر بالله ببغداد بستان للطير ، كانت لذته من الدنيا . وصفها المؤرخ والرحالة العربي المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » بقوله : « كان نحو جريب (فدان) قد غرس فيه النارج وحمل اليه من البصرة وعمان مما حمل من ارض الهند ، وقد اشتبكت اشجاره ولاحت ثماره كالنجوم من احمر واصفر ، وبين ذلك انواع الفروس والرياحين والزهر ، وقد جمل في ذلك الصحن انواع الاطيار مما قد جلب اليه من الممالك والامصار . وكان في غابة الحسن » .

واشتهرت حديقة الحيوان للوزير ابن مقلة (عاش في اواخر القرن الثالث واول القرن الرابع الهجري) في منطقة الزاهي من شمالي بغداد الحالية على نهر دجلة وخبرها طريف للغاية لما كانت عليه من النظرة والبهجة والبهاء . حكى شاهد عيان انه رأى شبكة الابريس التي كان افرخ فيها ابن مقلة الطيور الغريبة قال : فعمد الى مربع كبير فيه بستان عظيم عدة اجربة (اي فدادين) فقطع منه قطعة من زاوية ، فكان مقدار ذلك جريبين بشباك ابن ابريسم ، وعمل في الحائط بيوتا تاوى اليها الطيور وتفرخ فيها . ثم اطلق فيها القماري والدباس والقبيج والفواخت والطيور التي من اقاصي البلاد من المصونة ومن الميعة الريش فتوالسدت وجاءت باجناس غريبة ، ثم عمد الى باقى الصحن فطرح فيه الطيور التي لا تطير كالطواويس والبط وعمل منطقة اقفاص فيها فاخر الطيور وجمل من خلف البستان الغزلان والنعام والايائل والارانب والابل والبقر البدوية وحمر الوحش . ولكل صحن ابواب تنفتح الى الصحن الاخر فيرى من مجلسه سائر ذلك . ويقول ابن الجوزي في كتابه « المنتظم في التاريخ » ان ابن مقلة كان يحاول ان يجسرب التزاوج بين الحيوانات المختلفة . وحدث ذات مرة ان وقع طائر بحري في حديقته تلك على طائر بري فازدوجا وباضا وافقا فلما بشر بذلك اعطى من بشره به بهدية مائة دينار على ذلك .

ومن الذين اشتهرت حدائق الحيوان لديهم

في بغداد ايضا « أبو جعفر محمد بن جعفر القوملي » وكان من السراة المترفين ، ابنتى له في بغداد دارا فسيحة يحيط بها بستان واسع يضم مختلف اشجار الفاكة وانورود وافرد في تلك الدار حديقة خاصة بالحيوانات التي كانت تضم اندر الطير والغزلان والسباع وغيرها . وقد تحدث « أبو عبد الرحمن الغنوي » انه دخل ذات يوم على محمد القوملي وهو جالس على ضفة تقع على بركة ماء ويشرف منها على البستان وحير الغزلان وحظيرة القماري واشباهها ، فقلت له : « يا ابا جعفر انت والله جالس في الجنة ! » فقال : « فليس ينبغي لك ان تخرج من الجنة حتى تصطبغ فيها ! » .

سامراء تتوج بهاءها ببناء حدائق حيوانات كبيرة فيها

وكان بقصر الخليفة سامراء على عهد المعتصم مكان يحفظ به الحيوان ، وهو يسمى « حير الوحش » ، ويحكى عن الممتز حوالي منتصف القرن الثالث الهجري انه اطلع عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نزل ضيفا عنده على عراك بين اسد وقيل ، وكان ذلك احد المعجائب التي اطلعه عليها (١٢) .

وقام الخليفة المتوكل ، بانشاء حير للحيوانات: وتقع هذه الحدائق خارج مدينة سامراء ومشتعلاتها من جهة الشرق بين القاطولين ، القاطول الاعلى الكسروي وبين القاطول الاسفل (نهر القائم) وهي مسورة بسور من الطين يحيط بها من جميع اطرافها ويستدل من آثار هذا السور على ان الحديقة كانت مستطيلة الشكل يمتد ضلعها الجانبيان باتجاه الشمال ، اما الضلعان الاخران فان الضلع الشمالي الذي يمتد من الغرب الى الشرق يتصل بكل من الضلعين الجانبيين في ركنيهما بزاوية قائمة . اما الشرقي فيسير على محاذاة نهر القاطول الاسفل (مجرى القائم) على مسافة ٦٥٠ مترا تقريبا من منفته اليسرى ، ويتصل الضلع الاخير هذا بالقصر الذي بالمشروعات حيث يقع في منتصف هذا الضلع تماما . وبلغت مساحة الحير حوالي ٢٠ ألف مشارة وجاء ذكر حير الحيوانات التي ابتناها المتوكل عند اليعقوبي قال : « وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت الى اقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائط غيره وخلف الحائط الوحش من الضياء

(١٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ص ٢٦٤ .

والحمر الوحش والآبائل والأرانب والنعام ، وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة « (١٢) .

ومما يدل على أن الساحة التي تقع فيها حديقة المتوكل للحيوانات كانت تسمى بالبحر ، وأنها كانت إلى جانب القاطول ، وصف للبحثري لهذه الحديقة في شعره فقد سماها بالبحر أي بمعنى الحديقة أو البستان ، فقال يخاطب المتوكل مشيراً إلى حيوانات الحديقة .

يرعن منك إلى وجهه يرين له

جلالة بكثر التسبيح راليها
حتى قطعت بها القاطول واخترقت

بالبحر في عرصة فسح نواحيها
ويشير البحثري كذلك في أشعاره إلى أن عدد الحيوانات التي كانت في البحر الذي أنشأه المتوكل ، يقدر بالغى وحش وفي ذلك قال وهو يخاطب المتوكل .

الفان واخت على قدر مسارة

إلى قبول الذي حاولته فيها
وهذه الأبيات مما أنشده البحثري يصف بها حديقة حيوانات المتوكل وصفاً رائعاً :

ولم انسّ وحش الفصر إذ ريع سربه
وإذ دُعرت أطلاؤه وجأذره
وإذ صبح فيه للرحيل نهكت
على عجل استاره وسناره
ووحشته حتى كان لم يقسم به
أنيس ولم تحسن لعين مناظره
كان لم تبت فيه الخلافة طلقه
بشاشتها والملك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها

وبهجتها والميض غش مكاسره
ومما يؤيد وجود السباع في حير المتوكل ما ذكره المسعودي عن قتلها على عهد المهدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ / ٨٦٩ - ٨٧٠ م) وهذا نصه :
« وقد كان المهدي بالله ذهب في امره إلى القصد

والدين فقرب العلماء ورفع من منازل الفقهاء وعمهم بیره وكان يقول يا بني هاشم دعوني حتى أسلك ملك عمر بن عبدالعزيز فأكون فيكم مثل عمر بن عبدالعزيز في بني أمية . وقلل من البأس والغرش وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فمحييت وذبح الكباش التي كان يناطح بها بين أيدي الخلفاء ، والدبوك وقتل السباع المحبوسة ورفع بسط الديباج وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته « (١٤) .

ويمكن أن نستخلص أن البحر المذكور كان يضم عدداً كبيراً من الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية ، وكانت هذه الفوارى في الأقفاص وضمن الجدران الداخلية وكان قسم آخر منها وهو القسم الأكبر طبقاً وسط البحر الواسع ، وكانت مساحة البحر من السعة بحيث يسهل معها الصيد والتنصص .

حدائق الحيوان والصيد

بعد مجيء خلفاء بني العباس إلى الحكم وبناء المدينة المدورة بغداد ، أقبل الحكام والمتنفذون والمحكومون على الترف وكانت متعة الصيد وجمع الحيوانات في أقفاص ولذائذه في طليعة ما أقبلوا عليه ، فجمعوا يتقضون في حفلاته ورحلاته أجمل أيام العمر ، وينفقون على جوارحه وضواريه أنفس المال . فكان المهدي محباً للصيد مشغولاً به حتى أنه لا يكاد يقبض (من أقب القوم : أي أحاطهم يوماً وتركهم يوماً) أو يصير عنه ، وقد أكثر من رحلات الصيد ورويت له فيها طرائف وحوادث منها ما نقله المسعودي وغيره عن الفضل بن الربيع أنه قال : خرج المهدي متنزهاً ومعه مولاة عمرو بن ربيع وكان شاعراً فانقطع عن المعسكر والناس في الصيد فانتاب المهدي جوع شديد ، فقال لعمرو : ويحك ألا أنسا عندنا ما نأكل ! ! فما زال عمرو يطوف إلى أن وجد صاحباً مبقلة وإلى جانبها كوخ له فقمع إليه ، فقال هل عندك شيء يؤكل ؟ قال : نعم ، رقاق من خبز شعير وزبيب وهذا البقل والكراث ، فقال له المهدي : إن كان عندك زيت فقد اكملت ، قال : نعم عندي فضلة منه ، فقدم اليهما ذلك فأكلا أكلاً كثيراً . وأوفى المعسكر ولحقته الخزائن والخدم والموكب ، فأمر لصاحب البقلة بثلاث بدر دراهم (١٥) .

(١٤) المصدر السابق/ص ٢٩٦ .

(١٥) الصيد عند العرب/ص ٤٤ .

(١٢) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/الجزء ٢/ص ٢٩٤ .

وقد عرف ملوك البلاد المجاورة ولع المهدي بالضواري وشدة شغفه بالصيد وجمع الحيوانات حتى ان « ميخائيل بن ليون » عظيم الروم لما وقف على ذلك اهدى اليه كتابا في دفن البيزرة كان لاوائل الروم . وقيل ان المهدي كان يحتفظ بانواع عديدة من الحيوانات التي كان يصطادها في مكان ملحق بقصره على شكل حديقة حيوانات صغيرة .

وكانت للرشييد رحلات صيد صاخبة يقوم بها ومعه رجال دولته وبعض شعرائه من امثال ابي نواس ، وكان الخليفة يتخلى في هذه الرحلات عن وقاره . وكان اذا نهي اليه خبر متفنن في الصيد استقدمه اليه واتخذة لنفسه ، فقد روى صاحب (انس الملا) انه كان في زمن الرشيد رجل من اهل البصرة اسمه ابراهيم البازيار بصيد جميع الطير وكان له كتاب في البيزرة ، وكان من ادوات صيده التي استحدثها قصب الدبق ، فاستدعاه الرشيد اليه واحله عنده منزلة عالية لمعرفته بالضواري وبالدبق ، وتفرغ التدبيق من ابراهيم البازيار ، ودبق الناس بعده بخمس قصصيات او اكثر زمن المأمون . وكما عرف عن المهدي في الافاق ولعه بالصيد وادواته فقد عرف مثل ذلك عن الرشيد فاعتنم « نفقور » ملك انروم باحدى المناسبات الطبية واهدى الرشيد اثني عشر بازيا واربعة اكلب من كلاب الصيد ليتقرب اليه بها (١١) . وقد ضمها الرشيد الى حديقة حيواناته بعد ذلك .

وبعد ان آل الامر من بعد الرشيد الى ابنه محمد الامين فقد كان اشد حبا للصيد واحرص عليه من كل من تقدمه . فقد روى المسعودي ان الامين اصطحب يوما وكان اصحاب اللبايد والحرا ب قد خرجوا على البغال الى سبع كان بلغهم خبرة بناحية (كوثي) (والقصر) فاحتأوا عليه الى ان اتوا به في قفص من خشب على جمل يخفى فحط بباب قصر الامين وادخل عليه فلما مثل في صحن القصر والامير مصبح قال لهم : خلوا عنه وافتحوا باب القفص ، فقيل له : يا امير المؤمنين ، انه سبع هائل اسود وحشي . وقد قال « ابراهيم بن المهدي » استأذنت

على الامين يوما وفد اشتد عليه الحصار من كل وجه فاذا هو قد طلع الى دجلة بالشباك ، وكان في وسط قصره بركة عظيمة وفي المخترق شبك حديد فسلمت عليه وهو مقبل على الماء والخدم والغلمان قد انتشروا يفتشون الماء وهو كالواله ، فقال لي وقد ثنيت بالسلام وكررت ، لا تؤذوني فمقرطقتي ذهبت في البركة مني الى دجلة ومقرطقتي هذه سمكة كانت صيدت له وهي صغيرة فقرطها حلقتين من ذهب فبهما حبنا در ، قال فخرجت وانا يائس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع من وقت لكان هذا الوقت « (١٧) » .

وورث المتوكل عن اجداده الولع بالصيد من اجل اشباع رغبته في اكلار حيوانات حيرة التي كانت من اعظم حير الحيوانات في ذلك الوقت . وشغف المعتضد بالله بالفهود والاستكثار منها واربى عليه في ذلك حتى قال صاحب الجمهرة « واكثر من اسهر باللعب بالفهود من العباسيين المعتضد ، فانه كان شديد الغوايه بها » (١٨) .

والحقيقة ان الصيد الذي مارسه خلفاء بني العباس وغيرهم من الوزراء والامراء يكن لجسرد الاستمتاع واللهو كما يظن الكثيرون وانما كان في اكثر الاحيان لغرض تزويد الحدائق التي ابتناها لهم بالحيوانات المختلفة وارسال قسم منها كهدايا للملوك وامراء الدول المجاورة لهم لتقوية مركزهم الدولي .

بغداد تعيد مجدها من جديد في انشاء حدائق الحيوانات

وبعد مرور حقبة تاريخية طويلة اندثرت فيها فكرة انشاء حدائق الحيوانات بسبب الحروب والغزوات المتتالية التي تعرض لها العراق ومن بينها بغداد ، الا انه كانت هناك محاولات شخصية قام بها ولاية وحكام مناطق وشخصيات كبيرة ووجهاء في اقامة حدائق للحيوانات المختلفة وللطيور او لحيوان معين فقط ، في قصورهم او اراضيهم

(١٧) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٨) المصدر السابق/ص ٤٩ .

(١٦) المصدر السابق/ص ٤٨ .

الزراعية . وفي هذا الصدد يقول الاسناد سليم طه التكريتي : (ولقد ظل المراقبون سائرين منذ ذلك الوقت على هذه الهواية اللطيفة الفريية ، هواية اقامة حدائق الحيوانات في بيوتهم وبساتينهم وفي اوائل القرن الحالي اشتهرت دار محمد فاضل باشا الداغستاني وكانت تقع مقابل وزارة الدفاع الحالية وبجوار جامع المرادية بوجود حديقة فيها تضم الاسود والفهود والنمور والذئبة وغيرها . واذكر حادثة وقعت في دار محمد باشا الداغستاني مؤادها ان طفلا من احد الافاق التي وضعت فيها الاسود وسرعان ما خرج اسد كفه من بين القضبان وامسك بالطفل وسحبه واطبق على اطرافه بفكيه . واذعلا صراخ الطفل واكتشف امره استدعي محمد باشا على عجل الى مكان الحادث فاسرع بفتح باب القفص وتوجيه لكمة قوية الى راس ذلك الاسد الذي اطلق الطفل من بين فكيه وتم بذلك انقاذه من موت محقق) .

وفي عام ١٩٥٧ بدأت فكرة انشاء حديقة حيوان بغداد اسوة بباقي المواسم العربية والعالمية وتوجها لحضارة وادي الرافدين المريقة فاتخذ من المنطقة المجاورة للمحطة العالمية لسكك حديد الجمهورية العراقية في منطقة علاوي الحلة كنواة لحديقة حيوانات ، فضمت هذه الحديقة الصغيرة بعض انواع من الفولان العراقية والطيور المتنوعة عراقية وغير عراقية وبعض انواع من الضبباع والثعالب والذئاب والنمر العراقي الذي يمش في شمال القطر جلبت على شكل هدايا قدمت من قبل اشخاص كانوا يحتفظون بها في بيوتهم وحدائقهم حصلوا عليها عن طريق الصيد او الشراء . وبعد ان ضاقت هذه الحديقة بالحيوانات التي جلبت لها وعدم ملائمة موقعها كحديقة وصغر مساحتها ، فكرت الجهات الرسمية بنقلها من هذا المكان الى منتزه حدائق الزوراء وتوسيعها لتصبح احدي الحدائق الكبيرة في المنطقة العربية .

فقامت امانة العاصمة بانشاء حديقة الحيوانات باعتبارها مرفق ترويح تمثل احدي مظاهر وسعات التطور التي تنطوي عليها مجالات التسلية في المدن المصرية .

ومن اجل ذلك خصصت الامانة موقعا كبيرا وسط منتزه الزوراء الفسيح لانشاء مثل هذه

الحديقة في عام ١٩٧١ . وقامت بتحويل اقسام هذا الموقع الذي يضم بحيرة وجزيرة ومضيفا للراحة داخل الجزيرة ، الى اجنحة لمجاميع عديدة من الحيوانات في بيئات مختلفة من بينها حيوانات من البيئات العراقية ، وضمت هذه المجاميع الكثير من الحيوانات والطيور من مختلف قارات العالم مثل الاسود والنمور والذئاب والضباع والذئبة والكركدن والحمار الوحشي والفهود والقردة بانواعها والخنازير والنعامة والزرافة والفولان بانواعها ومجاميع عديدة من انواع واصناف الطيور والاسماك وغيرها .

وزودت الحديقة بالمشرفين والمروضين والاطباء لرعاية الحيوانات ومعالجتها ، كما زودت الحديقة ببناقد خاصة لاطلاق الابر المخدرة في اجسام الحيوانات الضاربة لدى معالجتها او الحيلولة دون هربها . ويقصد حديقة حيوانات بغداد عشرات الالوف من المواطنين سنويا . واعادت امانة العاصمة النظر في الحديقة الرئيسة لتعدها اكثر عصرية ونظورا واوفى غرضا من حيث بيئتها وتشكيلها العلمي وشروطها الصحية ، فقامت بانشاء عديد كبير من بيوتات الحيوانات الحديثة التي تتوفر فيها كافة الشروط المتكاملة لاي حديقة حيوان حديثة وهي بمواصفات بدية من حيث الشكل والمحتوى وقامت الامانة باستيراد اعداد كبيرة من انواع الحيوانات التي تدخل الحديقة لاول مرة كالقروود العليا (السان الغاب والغوريلا) والقيلة وافراس النهر وكلاب البحر الخ . . وقد استغلت الجزيرة الوسطية للحديقة لانشاء حديقة طليقة للقروود تحاكي بيئتها الاصلية .

وانجهدت نية امانة العاصمة الى اقامة العديد من حدائق الحيوان الصغيرة والمتوسطة في منتزهاتها المختلفة مثل الحديقة التي تنوي الامانة اقامتها ضمن مشروع نهر الخير ، حيث انتهت من تحديد العمل في انشائها في كورنيش الاعظمية وابي نواس .

وسبق ان انتهت الامانة من انشاء ثلاث منتزهات هي الف ليلة والفردوس والرياحين وتضم هذه المنتزهات حدائق صغيرة - تتراوح مساحتها بين ثلاثة الاف الى خمسة الاف متر مربع فيها عددا من انواع الطيور والفولان والقردة وغيرها من الحيوانات النادرة .

المراجع

- (١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/أدم متر ،
ترجمة : محمد عبدالمهدي أبو ريدة . القاهرة -
١٩٤٧ .
- (٢) ري سامراء في عهد الخلافة العباسية/د. أحمد سوسة/
الجزء الثاني ، مطبعة المعارف - بغداد ، ١٩٤٩ .
- (٣) الصيد عند العرب/د. عبدالرحمن رائف الباشا/دار
النفائس ، بيروت - ١٩٧٤ .
- (٤) مروج الذهب/للمسعودي . طبع القاهرة .
- (٥) حدائق الحيوانات في العراق/سليم طه التكريتي/مجلة
السباحة (مصلحة السباحة العامة) ، بغداد -
١٩٧٤ ، العدد (٥) .
- (٦) حدائق الحيوان في المصور الإسلامية السالفة/ميخائيل
مواد ، مجلة هنا بغداد - ١٩٥٧ ، العدد (١٥٢) .
- (٧) حدائق الحيوانات التي أنشأها فيروز باشا شاه/مجلة
المنطف/الجلد ٢٩ ، القاهرة .
- (٨) حدائق الحيوانات في التاريخ / عادل محمد علي الشيخ
حسين/مجلة السباحة العدد ٧٥ ، السنة (٢) ، بغداد
١٩٦٧ .
- (٩) تطور علم الحيوان في الحضارات القديمة/مصام الملاثة،
مجلة سوسر ، الجزء (١ و ٢) ، المجلد (٢٠) ، بغداد -
١٩٧٤ .
- (١٠) البيئة الطبيعية القديمة في العراق/فؤاد سفر ، مجلة
سوسر ، الجزء (١ و ٢)/المجلد (٢٠)/بغداد - ١٩٧٤ .
- (١١) حدائق الحيوان/د. حسين فرج زين الدين وسعيد
محمود محمد (دائرة معارف الشعب) القاهرة -
١٩٦١ .
- (١٢) الحدائق في المصور القديمة/المرقة/المجلد الأول ،
بيروت . ل. بذكر التاريخ .
- (١٣) البركة الجعفرية في سامراء/د. أحمد سوسة/مجلة
بغداد ، العدد ٨ - بغداد ١٩٦٢ .
- (١٤) مديرية الاعلام في امانة العاصمة - بغداد .
- (١٥) مجلة امانة العاصمة ، العدد ٥ - ١٩٧٧ . بغداد
(عن حدائق حيوان الزوراء) .
- (١٦) معلومات شخصية عن حدائق الحيوانات .
- (١٧) دائرة المعارف الانكليزية/المجلد (١٩)/١٩٦٧ - لندن
(عن حدائق الحيوانات في العالم -) .

حبة بختك

بقلم الدكتور

جليل كريم ابوالحب

وزارة الزراعة والإصلاح الزراعي

مقدمة

كما تشتهر بغداد بترانها العلمي والادبي وبجلتها ونخيلها وبشهرزادها والفا ليلتها ورشيدها وسندبادها ، فانها تشتهر بحبة بغداد او اخت بغداد ، واخت بغداد ندبة واسعة او صغيرة ولكنها واضحة تبقى على الجلد لاسيما الوجه نتيجة الإصابة بمرض جلدي يسمى الـشـمـانـيا الجلدية ، وبالرغم من الشفاء فان الاثر يبقى ولا يزول مع العمر وتسمى اخت بغداد لانها دائما لا توجد منفردة بل هناك ندبتان او اكثر ، الواحدة اخت الاخرى او ان التسمية بالاخت نتيجة ملازمة هذا المرض البغدادي دون او اكثر من غيرهم في العراق ، فهناك تلازم بين الندبة والبغدادي كما يوجد تلازم بين الاخت والاخ برعاية ابهم .

لا يكاد يخلو فرد بين سكان بعض مناطق بغداد من اجيال الاربعينيات وما قبلها من الاخت . فقد كانت الإصابة عامة بحيث كانت بين اطفال الاعظمية والحيدرخانة والسك والكرخ وبعض المناطق الاخرى تصل الى ١٠٠٪ ، اي انك اذا دخلت اي بيت في هذه المحلات وكان فيه لنفرض خمسة اطفال فان الخمسة مصابون بالاخت بادوار مختلفة من المرض بالإضافة الى الوالدين . كان من الشاذ جدا ان يصل البغدادي سن الرشد بدون ان تظهر عليه اخت واحدة او اكثر ويتساوى بذلك الاولاد والبنات والفقراء والاغنياء وحتى في زمن متاخر كانت الاصابات في الاعظمية قد تصل ، الى نسبة

٧٠٪ ، انخفضت هذه النسبة في اواسط وواخر الخمسينات ولكنها عادت فارتفعت في اواخر الستينات واولل السبعينات . ليس لدينا الا القليل من المعلومات عن سبب انخفاضها كما ان معلوماتنا عن عودة ارتفاع نسبة الإصابة ليست تامة .

يعتقد البعض ان انخفاضها كان بسبب استخدام المبيدات الحديثة ضد بمرض الملارييا وبصورة غير مقصودة ضد الحرمن الواخر ، وانخفاض مستوى الماء الجوي الذي ساعد في التقليل من تكاثر الحرمن في البيوت والذي يكون عادة في عمق لا يزيد عن سنتيمتر او اثنين عن سطح الارض . ان عودتها ، اي عودة ارتفاع نسبة الإصابة وان كانت على مستوى اقل من الماضي ، قد يكون بسبب نشوء المقاومة في الحرمن الواخر الناقل ضد المبيدات . فالحرمن لم يعد يموت بنفس السهولة التي كانت في اواخر الاربعينات واولل الخمسينات .

ان شهرة الاخت البغدادية والاثر الذي تركه جمل من الصعب على اي سائح لبغداد في القرون الخمسة الماضية ان لا ينتبه لها ويذكرها في كتاباته .

الحبة او الاخت ليست في الحقيقة خاصة ببغداد كما قد يتبادر الى الذهن من اسمها ، بل انها توجد في محلات كثيرة اخرى في العالم وتسمى باسماء مختلفة هناك . فهي حبة حلب في سوريا ، وحبة ارمينيا في القفقاس وايران وحبة دلهي في

الهند ، كما أن لها أسماء عامة أخرى مثل القرحة الشرقية وحب بكرة ، وحب البلاد الحارة ومسمار بكرة وحب النيل وحب السنة وقرحة الصحراء وقرحة النيل ... الخ ...

المرض متوطن في كثير من الاقطار الاستوائية وشبه الاستوائية ، ويشمل وجودها في غرب آسيا ، بالإضافة الى العراق ، تركيا وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية وإيران وقفقاسيا وارمينيا والجزء الجنوبي من روسيا وفي تركستان ، ويمتد وجودها جنوبا الى البنجاب وبمباي في الهند وفي الصين توجد حوالي منطقة هيونان . كما انها توجد في جميع البلدان التي تحيط بالبحر الابيض المتوسط وجزره ، فهي موجودة في مصر وتونس ومراكش والجزائر وفي قبرص وكريت وسردينيا وفي اليونان وإيطاليا وإسبانيا . وفي افريقيا تصل الى الصحراء الغربية والسودان واثيوبيا والتشاد والنيجر حتى انغولا جنوبا .

ويجب ان لا ننسى ان هناك مرضا مشابها لحب بغداد بل وافضع منه في امريكا اللاتينية يترك تشوينا على الوجه ويعيش مسببه في المناطق الغضروفية في الوجه ويسمى هذا المرض النيشيمانيا البرازيلية .

حب بغداد في المدن العربية الاخرى :

قبل حوالي ستين سنة كان المرض محدودا في مناطق معينة من سوريا وفلسطين ، وبالذات في منطقتي حلب واريحا على التوالي . كانت اول حالة للمرض في مصر قد ظهرت عام ١٩٢٠ وبعد سنتين ثبت وجودها في القنطرة (قناة السويس) . وفي عام ١٩٢٤ ظهرت في الاسكندرية وفي عام ١٩٢٥ ظهرت بين بافا والقدس وفي القدس نفسها سنة ١٩٢٦ وفي عام ١٩٢٧ ظهر المرض في دمشق . وفي سنة ١٩٢٤ ظهرت الحبة في منطقة تبعد ٣٠ - ٤٠ ميلا الى الشمال الشرقي من القاهرة على طريق قناة السويس . ثم ظهر المرض عام ١٩٣٦ في حيفا . وفي عام ١٩٤٠ ظهر المرض في عشر مناطق في مصر حتى مدينة المنيا التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب القاهرة وفي عام ١٩٤٥ ظهرت حالات كثيرة في فلسطين قرب بيت لحم ، حتى انه ظهر عام ١٩٤٧ في النقب .

وفي هذه الفترة ظهرت حالات المرض في افريقيا العربية وغربي السودان . قد يكون تسجيل هذه الحالات في هذه الفترات المتأخرة يعود الى سبب التعرف والتشخيص الاحسن للمرض اكثر منه بسبب وقت الغزو الفعلي .

حب بغداد عبر العصور :

بعد هذه المقدمة عن شهرة حب بغداد وانتشارها في البلدان العربية ، فان من المناسب ان نعود الى التاريخ لتتحرى عن حب بغداد عبر العصور القديمة في العراق والمناطق المجاورة . ان طبيعة المرض واعراضه تساعد على دراسة المرض تاريخيا وعلى تتبع انتشاره عبر القرون . فالقرحة تستمر لمدة طويلة وتشفى ولكنها تترك اثرا دائما في محل بارز ، وبميل المرض ان يتركز في مناطق معينة من البلاد دون غيرها حيث يستمر بترك الندب والاثار والتشوهات بين عدد كبير لا بأس به من سكان تلك المناطق . هذا الاثر والتشويه واضح ويجلب النظر بسهولة بحيث كان من السهل على الناس ولا سيما المتطبين منهم تشخيص واعطاء الاسماء المختلفة حسب المناطق كما ذكرناها في المقدمة . كما ان هذه الاعراض تمكن الطبيب والسائح في تلك البلدان من ملاحظتها وتسجيلها بدون ادنى شك او تردد .

لقد استطاع Pringle (١٩٥٧) وبمساعدة بعض الكتب في تاريخ الطب وملاحظات السواح الاجانب ، ان يعطينا فكرة جيدة (وهو يسميها سطحية نواضحا منه) عن تاريخ هذا المرض في الشرق الاوسط ، وفي بحثنا هذا اعتمدنا كثيرا على دراسة Pringle المشار اليها اعلاه مع الرجوع الى الكتابات العربية مباشرة والتي يشير اليها Pringle وقد اخذها من المؤلفين الغربيين الذين كتبوا عن هذا المرض .

العراق القديم :

ينقل الاب انستاس الكرمللي انه جاء في كتاب « وقائع السحرة والمنجمين » في الرقم ٢٥ ما تعريبه : « اما ما يتعلق بداء الجلد فان الملك لم يكلمني عنه مريحا ، فهذا الداء يدوم سنة واحدة وكل من يصاب به لن يشفى منه ، وعليه فقد شاع الان ان الحبة تدوم سنة واحدة » . والكتاب يتحدث عن عهد الاشوريين ، وقد اورد الاب الكرمللي هذا النص ليجيب عن سؤال اتاه من احدهم وهو هل ان حب بغداد كانت معروفة في العراق القديم ؟ لم يذهب الاب الى ابعد مما اورده اعلاه .

لم يعثر المنقبون والاثاريون حتى الان على تمثال او رسم شخص يظهر على وجهه او اطرافه الندب او التشوهات التي قد تعزى الى حب بغداد .

والبحوث التي اجراها Campell - Thompson (١٩٣٦) وكتبا الدكتور عبداللطيف

البدرى عن الطب الاشوري والاكدي اعطتنا صورة عن الادوية التي استعملها الاطباء القدماء والتي وردت اسمائها في بعض الرقم والكتابات المسمارية. تدل هذه الدراسات على ان الادوية كانت في تلك العهود متقدمة فيما يخص محلات استخدامها ولكنها كانت بسيطة وكانت تهدف الى ازالة الاعراض والقروح بدلا من مداواة المرض ولم يكن من الممكن تشخيص الامراض التي كانت تستعمل لها تلك الادوية حتى ان الدكتور البدرى ترك فهم وتشخيص الامراض الى القارىء .

وعلى هذا نلم يمكن تشخيص حبة بغداد من بين الكثير من القروح والدمامل التي وصفت ووضعت لها الادوية . في الحقيقة كانت الوصفات المخصصة للقروح والدمامل الجلدية قليلة مما يدل على عدم توطن اي مرض يتصف بالقروح المستديرة في بلاد الرافدين قديما ، ومثل هذه القروح هي الصفة الرئيسية والمهمة في حبة بغداد .

وقد عثر (Bray et al., 1967) على ترجمة قام بها فيرولود عام 1907 لرقم مسماري من مكتبة آشوربانيبال في نينوى وقد كان هذا الرقم قد طبع بصورته الاصلية من قبل بواسير (1894) .

تسجل الكتابة على هذا الرقم تنبؤات وتكهنات (فتح قال) عن المستقبل للشخص الذي تظهر عليه بعض القروح او الندب وهذه التكهنات تعتمد على موقع الندب او القروح في الجسم . فالقروح او الخراجات قد تقع على الوجه والراس مثل الجبهة والخذ والشفة او على الرقبة والايدي والبطن والركبة والقضيب او على كل انحاء الجسم . يظهر ان القرحة تحدث بصورة اعسم على الوجه اذ ان هناك تنبؤات كثيرة عن موقعها على الشفة العليا او السفلى ، على الخد الايمن او الايسر . اما مواقعها على المحلات الاخرى في الجسم فلم تلاق نفس الاهتمام .

لم يوجد في هذه الكتابات اي تشخيص او معالجة او سبب مع ان مثل هذه الامور كانت تذكر بكثرة في الكتب الطبية الاكدية والتي وجدت بنفس المكتبة . طبعا ان المعلومات الطبية التي وردت في الكتب لا تعنى انها تخص العراق ، بل انها انحدرت من اصول اقدم ومن مناطق اخرى .

من الظريف ان نذكر ان المريض سوف يواجه مصائر مختلفة حسب هذه التنبؤات المعتمدة على موقع القرحة ، فانه قد يصبح غنيا او معدما قد

يموت اطفاله او اعداؤه ، قد يكون قانعا او حزينا قد يموت بالتدريج الرئوي او يعيش طويلا .

يستنتج (Bray et al., 1967) من هذه الكتابة انه قد لا يكون خياليا لو اعتقدنا ان حبة بغداد كانت موجودة في العراق قبل 2000 - 4000 سنة .

ان هذا الاستنتاج لا يؤيده الكتب الطبية التي كتبها فطاحل الاطباء في الفترة العربية - الاسلامية حتى اواخر القرن الخامس عشر الميلادي ، مما اوحى الى (Elgood, 1934) ان يفترض ان حبة بغداد دخلت العراق مع جيوش هولاكو التي جاءت من اسيا الوسطى والتركمانية وايران .

ان دراسة الاثار والكتب الطبية التي تركتها مراكز تعليم الطب والمستشفيات مثل جنديسابور وبغداد تؤيد وجهة النظر المشار اليها اعلاه وهي عدم توطن اي نوع من القروح المستديرة في العراق القديم . هذه المراكز والمدارس الطبية بلغت شهرة واسعة من تعليم الطب وممارسته من خلال دمجها الاسس اليونانية والاعمال الطبية البابلية والفارسية والبيزنطية في المنطقة . ان العلوم الطبية التي انتقلت الى جنديسابور وبغداد جاءت من منطقة حوران والرفة والرها في مناطق اعالي الفرات ، ولو كانت هذه القرحة موجودة في العراق لما فات الاطباء ملاحظتها . مع العلم ان هذه المنطقة اصبحت فيما بعد مشهورة بهذا المرض .

مصر القديمة :

لقد ورد ذكر ، وجود دملة مصر او قرحة مصر في الكتابات المصرية القديمة التي عثر عليها في اوراق البردي ، ويمود تاريخها الى ما قبل 2000 سنة ق.م . ، منذ عصر السلالات الحاكمة الاولى . قد تكون هذه الدملات مشابهة لحبة بغداد كما نعرفها اليوم .

كما ان هناك اشارات متعددة في التوراة الى بعض الامراض الجلدية وردت فيها كلمات دملات وقروح وبثور وهذه ايضا قد تعنى اولا تعنى حبة بغداد ، ففي كتاب الخروج (Exodus) ، الاصحاح التاسع الايات 8 - 12 ورد ما يلي :

« ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء ايديكما من رماد الاتون (الثور) وليذر موسى نحو السماء امام عيني فرعون ليصير غبارا على كل ارض مصر . فيصير على الناس وعلى البهائم دملات طالعة ببثور في كل ارض مصر ، فاخذوا رماد الاتون

ودفعا امام فرعون وذراة موسى نحو السماء فصار دما ملاما وبشورا طالعة في الناس وفي البهائم ، ولم يستطع العرافون (السحرة) ان يلقوا امام موسى من اجل الدما مل ، لان الدما مل كانت في العرافين وفي كل المصريين .

لقد كتب كتاب الخروج حوالي ١٠٠ سنة ق.م وقد تشير هذه الحادثة الى ما قبل الخروج بقليل اي حوالي ١٢٢٠ سنة ق.م . بعهد حكم قرايين بتنا .

كذلك ورد ما يلي في كتاب التثنية (Deuteronomy) في الاصحاح ٢٨ وفي الايات ٢١ - ٢٧ :

« يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الارض التي انت داخل اليها لكي تملكها . بضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول ، فتتبعك حتى تغنيك ، بضربك الرب بقرحة مصر والبواسير والجرب والحكة حتى لا تستطيع الشفاء .

وقد كتب كتاب التثنية بعد كتاب الخروج بحوالي ٣٠٠ سنة ولغرض غير الغرض الذي كتب من اجله كتاب الخروج . فقد كان في كتاب الخروج الدعوة على مصر والمصريين اذا هم لم يسمحوا لموسى ان ياخذ اصحابه .

اما في كتاب التثنية فقد كان هناك تهديد لليهود انفسهم لانهم راحوا يخالفون تعاليم الرب . وعلى اية حال تظهر الاشارة الى نفس المرض الذي بقي عاقبا في الاذهان جيلا بعد جيل بحيث يمكن تهديدهم به اذا هم خالفوا ولم يطيعوا تعاليم وشريعة موسى . وفي كتاب التثنية ورد ذكر المرض باسم « قرحة مصر » .

وقد علق Millington (١٨٧٢) على هذه القرحة بقوله : « انها تختلف عن جميع الانواع الاخرى من الدما مل والقرح من حيث الاصل ومن حيث تأثيرها ، كما تختلف عن الاوبئة الاخرى اذا انها توقفت عند حدود ارض معينة وانها لم تصب اليهود وان كانوا يعيشون في المدن المصرية . وقد علق Pringle (١٩٥٧) عدم اصابة اليهود بها الى احتمال انهم قد بدؤوا من مجتمع ديني غير مهم وكانوا يعيشون حياة البداوة في الصحراء على حواف الدلتا مما ساعد على تخلصهم من الاوبئة الحضرية في المدن . وقد يكون تعليل Pringle هذا معقولا لان اليهود بعد ان عاشوا في المدن كانوا ممن تتغشى بينهم حبة بغداد بكثرة .

ان اشارة التوراة الى القرحة حتى بعد الخروج بـ ٣٠٠ عام تدل على ان هذه القرحة ظلت تخيف اليهود الذين هربوا من مصر . ان هذه الاستنتاجات قد تكون برهانا على ان « قرحة مصر » هي نفسها دملة النيل التي ورد ذكرها في الكتابات المصرية على البردي قبل التوراة . ولكن يبدو ان هذه الدملة كانت مميتة و رهيبه اكثر من حبة بغداد التي لا ينظر لها الناس في اماكن تواجدها بهذه الرهبة .

الحبة في العصور الوسطى :

لقد شهد الشرق الادنى عصرا زاهرا بالعلم والطب وقد ترك لنا العلماء المسلمون والعرب موسوعات ضافية عن الطب ظلت لفترة طويلة هي المول عليها حتى ظل علينا عصر الطب الحديث . ولكن مع الاسف لا يوجد في اعماق الموسوعات الطبية الاسلامية العربية المبكرة اية اشارة الى مرض جلدي يمكن مقارنته بحبة بغداد ، فمثلا كتاب « الذخيرة في الطب » الموسوعي الذي وضعه ثابت ابن قرة ، والذي يضم قسما كبيرا عن امراض الجلد ، لا يشير ابدا الى اعراض او حالة تشبه حبة بغداد بالرغم من ان هذا الطبيب جاء من منطقة حراء والرقه والرها - اعالي الفرات - وليس بعيدا عن حلب . فلو كانت حبة بغداد موجودة حينذاك في هذه المنطقة او في بغداد فانه بدون شك كان سيطلم عليها اذ انه كان ذا اطلاع واسع على الامراض الجلدية في وسط العراق .

يقول Pringle ان ابن قرة وضع كتاب الذخيرة حوالي عام ١٢١٠م وهذا غير صحيح لانه اي ابن قرة ، كان قد توفي سنة ٩٠١م وقد يكون المستشرقون الذين اخذ عنهم Pringle قد اختلط عليهم اسم هذا الطبيب الذي تعاقبت اجيال من ذريته في الطب واستعمال هذه الاسماء .

لقد حاول المؤرخ الطبي Elgood (١٩٢٤) ان يبرهن ان مرض حبة بغداد بدأ بالظهور والوجود في البلدان الاسلامية الشرقية في بلاد ما وراء النهر . وقد تبعه بعد ذلك Pringle في هذا الاتجاه كما سيأتي فيما بعد . لقد ذكر Elgood ان اعراض حبة بغداد كانت موجودة في منطقة بلخ منذ وقت بعيد ، وبلخ هذه هي القصة السياسية لولايه خراسان ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وهي الان ضمن مناطق تركستان السوفيتية المناخمة لحدود افغانستان .

من اقدم الاطباء الذين وصفوا حبة بغداد واعطوا اعراضها بصورة دقيقة وواضحة جدا من بلخ هو ابو منصور حسن بن نوح القمري البخاري الدين كان في بخارى ، ومات عام ١٩١١ م . كان ابو منصور احد اساتذة ابن سينا ، ألف كتاب « غنى ومنى » وهو كتاب « الحياة والموت » وهو مقسم الى ثلاثة اقسام : الامراض الباطنية ، الامراض الظاهرة ، والحميات . كما ان لابي منصور مقالة في الطب .

ومن اشار الى حبة بغداد الطبيب والفيلسوف الاسلامي العالمي الشهير ابن سينا المتوفى ١٠٣٤ م ، وقد ذكرها باسم قرحة او حبة بلخ في كتابه المشهور « القانون في الطب » ويظهر انه اسماها ايضا البلخية . ومن الممتع ان نذكر انه جرى جدل علمي طريف بين المرحومين الكرمللي وداود الجلي في الثلاثينات من هذا القرن على صفحات لغة العرب . فقد اورد الكرمللي اسمها مرة البلخية ، فاعترض عليه الجلي قائلا انها البلخية « بالحاء » لانها تتواجد دائما حيث يوجد البلخ وان ابن سينا اسماها البلخية . فاجابه الكرمللي انها لا ترتبط بوجودها بالبلخ واحسن دليل على ذلك وجودها في محلات لا يوجد فيها البلخ « التمر » وان ورودها في القانون باسم البلخية قد يكون تصحيف النسخ لان هناك نسخا من الكتاب تذكرها باسم البلخية ، ونظرا لورودها باسم البلخية في كتب اخرى قديمة من المنطقة « انظر ادناه » وللحجج التي ساقها واوردوها الكرمللي فان الكلمة الصحيحة هي البلخية ، وقد يكون قد حدث تصحيف في الكلمة في نسخة القانون للمخطوطة التي كانت لدى الجلي .

وايضا من اشار الى هذا المرض الطبيب ابو الفضائل اسماعيل بن الحسن زين الدين الجرجاني والذي يسمى غالبا سيد اسماعيل . كان هذا الطبيب يكتب بالعربية والفارسية وتوفي عام ١١٣٧ م (٥٣١ هـ) واهم كتبه الكتاب المعروف « ذخيرة خوارزمشاه » بالفارسية . والكتاب دائرة معارف طبية ألفه للشاه قطب الدين محمد ، كما ألف ايضا لوزيره العزيز كتاب « اغراض الطب » وهو صغير الحجم ، ملخص للذخيرة . وقد ورد اسم كتاب الذخيرة في مقالة Pringle (١٩٥٧) باسم System of medicine . والسيد اسماعيل كتاب الطب الملوكي وكتاب زبدة الطب وتدير يوم وليلة وهو في الطب ايضا . يذكر الجرجاني ان حبة بلخ - أي حبة بغداد - كانت لا تزال متوطنة في بلخ وانها كانت موجودة في خانات دهستان . يطلسق

السكان في قصبة بلخ اسم عضة البعوض (ييش غاز بيداجي) على الحبة . ان من المناسب ان ننتبه هنا الى ان الناس في بلخ ربطوا بين المرض وبين عضة البعوض ، وقد يكون ذلك من اقدم الاشارات الى حدوث او انتقال مرض ما مستديم ومتوطن بعد عضة البعوض او بكلمة اعم حشرة ما . طبعا نحن نعرف الان ان الحرمس وليس البعوض هو الناقل لطيفلي حبة بغداد ولقد اطلق اهالي منطقة داهستان اسم « ساخك » على حبة بغداد الذي يعني البعوض او عضة البعوض .

وفي اوائل القرن الخامس عشر كانت لا تزال الحبة موجودة بنفس المنطقة حيث اطلق عليها الطبيب منصور بن محمد بن احمد بن يوسف بن فقيه الياس اسم البلخية وهذا يؤيد ما ذهب اليه الاب الكرمللي من انها البلخية وليس البلحية كما ذهب اليه الدكتور داود الجلي ويعتقد المؤرخ الطبي Elgood (١٩٣٤) ان المرض دخل مدن السرى ومشهد في شمال شرقي ايران في هذه الفترة .

تاريخ حبة بغداد في بغداد :

ان اول اشارة الى وجود هذا المرض في بغداد والشرق الاوسط هو ما ذكره الطبيب بهاء الدولة ابن مر قوام الدين قاسم نور بخش الرازي (وهذا ليس الطبيب محمد بن زكريا الرازي الشهير) في كتابه « خلاصة التجارب » والذي وضعه حوالي عام ١٥٠٠ م من ان الحبة لا تزال متوطنة في بلخ وانها منتشرة بكثرة في بغداد وقد اسماها بعض الناس لوجودها بكثرة في بغداد « لوزينج بغداد » . ويذكر بهاء الدولة الرازي انها تكثر بين الفقراء ، وقد تستمر لمدة سنة اذا بقيت بدون مداواة ، قد يكون كتاب « خلاصة التجارب » هو اقدم كتاب ذكر وجود حبة بغداد في بغداد والعراق . وفي هذه الاثناء ذاع صيت المرض بين الايرانيين وقد اسموها « حبة ارمينيا » وبقي هذا الاسم حتى العصور الحديثة . لقد ذكر وجودها لأول مرة في اصفهان عام ١٨٣٠ وفي طهران عام ١٨٤٠ بالرغم من وجودها في شمال شرقي ايران منذ مدة طويلة .

ان كتب بعض السواح الذين زاروا بغداد في القرون الاخيرة لا سيما القرن التاسع عشر ، تشير الى حبة بغداد ، فقد ذكرها Dupre الذي زار بغداد عام ١٨٠٨ ومكث فيها مدة طويلة ، فقد جاء في كتابات Dupre حسب ترجمة سعاد العمري في كتاب « بغداد كما وصفها السواح

الاجانب في القرون الخمسة الماضية « عام ١٩٥٤ ، ص ٤٣ - كما يلي :

« ويوجد في بغداد ايضا كما يوجد في حلب وماردين وغيرها من المدن حبة بغداد (الاخت) . تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة عامة ولا ينجو منها حتى الاوربيين الذين يسكنون بغداد سنوات عديدة » .

ذكر القس Southgate ١٨٤٠ ، وجود الاخت في بغداد بنفس العام ، وقال عنها ما يلي :

« الاطفال الذين رايتهم في الشوارع كأنهم مرضاء وكانت وجوههم مشوهة بندب قبيحة ، هذه الندب تظهر نتيجة القرحة والتي تظهر باديء الامر بشكل دملة على الجلد وتكون بعد ذلك وتنزع منها القشور على التوالي . لم اتمكن من اكتشاف سببها . انها خاصة بالبلد واذا كانت مصابرة اخباري صحيحة فانها تنتشر في محلات على الحدود الغربية الصحراوية في الجزء الشمالي من سوريا . الغريب الذي يعيش طويلا في بغداد لا ينجو منها ولكن تصيبه مرة واحدة واحيانا لا تظهر الا بعد شهور من وصوله . انها تصيب الحيوانات ايضا كما هي الحالة في الانسان » .

ومما جاء عن حبة بغداد في القرن الماضي ما ورد في كتاب نائب القنصل الفرنسي في بغداد الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٨٦٣ ، فقد جاء في تلك الرسالة ما يلي . (وانقل هنا نص الترجمة كما جاءت في كتاب الحياة في بغداد منذ قرن لمؤلفه بير دي نوصيل وترجمه د . اكرم فاضل عام ١٩٦٨) :

« منذ عودتي من طوافي بديار بابل زرنت بانثاق حبة بغداد ، فقد كان من سوء حظي ان اصاب بخمس وثلاثين حبة في كل انحاء جسمي ، ويقول اطباء هذا البلد ، يا سيادة الوزير ، انهم لم يشهدوا طوال اعمارهم طفعا بهذه الكثرة ، وقد انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة ، لا سيما على الساعد الايسر ، بحيث يخشى طببي ان يظل منشجا . وهذه القرحة التي ينساب من اوساطها وبدون انقطاع قيح اصفر تنن حاد يثير لدى حركات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعا هائلة . والآنكى من ذلك ، يا سيادة الوزير ، انني منذ ملازمتي الفراش قبل خمسين يوما لم اغمض جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه اللبالي المؤرقة تكاد تقتلني ، وما قد انهارت قواي ، ولا يوجد دواء لهذا المرض وان جروحي التي سعة

اصفرها كسعة نصف راحة السيد تتيبس اعتياديا بعد ثلاثة او اربعة شهور فتصبح بشكل قشرة نضيجة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط . وقد اكد لي مختلف الاطباء الذين استشرتهم بان مرضي يشارف على نهايته وان هذه الخراجات ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها وهو كل ما اشتبهه ، يا سيادة الوزير ، بغية التخلص بسرعة من حالتي النعيسة التي اتخبط في احوالها ذلك لان الامي هائلة » .

وفي سنة ١٨٨٢ ياتي ذكر حبة بغداد في كتاب « رحلة مدام ديولافوا الى كلدان العراق » والذي نقله الى العربية عن الفارسية على البصري عام ١٩٥٨ . فقد جاء في الصفحة ٧٩ ما يلي :

« ولكن من المؤسف انهن (اي النساء الكلدانيات في بغداد) مثل النساء الاخريات في هذه البلاد - اليهوديات والمسيحيات والمسلمات - مبتليات بعدو خبيث يسمى (الاخت البغدادية) يشوه جمال صورتهن بما يترك فيها من ندب ولم اجد حتى الان امرأة من هؤلاء النسوة تكون قد نجت من هذه الافة اللعينة ، ويخيل للرائي انه قد رمى على صفحة وجه كل منهن اوكسيد السولفريك نشوها هذا التشويه . . وهذه الاخت البغدادية اول ما تظهر تكون نقطة بيضاء على الخد او اي مكان اخر من الوجه ثم تحمر وتتورم بشكل ظاهر تظهر عليها بعد ذلك قشرة كبيرة كما هي الحال في الجدري وعندما تتيبس هذه القشرة وتسقط تتخلف عن ذلك ندبة صغيرة في الوجه تشوه جماله . ولقد علمت انه حتى الوافدين على بغداد من الخارج لا ينجون منها فان لم تكن اصابتهم بها حال قدومهم فلا محالة انهم يصابون بها بعد حين على ابعد الاحتمالات ولكن الذي يبعث على العجب ان هذه الافة لا تصيب الا البلديات من اهل البلد اما الاوربيات فان اصبن بها فيكون ذلك على ابدانهم لا على وجوههم مع علمنا بان اصابتهن جد قليلة .

اغرب من ذلك ان الاطباء لم يستطيعوا ان يجدوا دواء يعالجون به هذه الافة حتى الان » .

وعلى الصفحة ١٢١ من نفس الرحلة تعود المدام فتقول :

« مخاطر مرض الطاعون والاخت البغدادية . . ولا يغوتني ان اقول ان البلاتين الاخيرين عسدي هما اسهل تحملا - اي الطاعون والاخت البغدادية - من وجود الموظفين العثمانيين » .

وحتى في وقت متأخر مثل عام ١٩٢٢ ، ذكرت الليدي دراوير في كتابها « بلاد الرافدين ، صور وخواطر » ترجمة فؤاد جميل عام ١٩٧١ على الصفحة ٢٢١ : « وقد يصاب الطفل بحبة بغداد (الاخت) عادة وما ان تتقيح الا وتعمد الام الى طلائها بمستحضر قيري وعلى الرغم من ان هذا المستحضر غير ضار بحد ذاته ، لكن القيق قدارة والقذارة يقف عليها الذباب فتسوء حالة الطفل لذلك » وكما ترى لم تذكر الليدي دراوير شيئا عن الاثر او الندبة التي تتركها القرحة .

الا ان من العجيب ان بعض الرحالة المشهورين مثل بنجامين الثبلي وبكنفهام ونيبوروصون ورج لم يذكروا شيئا عن حبة بغداد ، كما ان الرحالة العرب المشهورين مثل ابن جبير وابن بطوطة ايضا لم يذكروا شيئا عن الاخت البغدادية ، قد يكون لعامل الزمن دخل بذلك لا سيما للوائل من هؤلاء الرحالة .

اما بالنسبة للدراسات العلمية حول الحبة فقد بدأت منذ اوائل هذا القرن ، عندما نشر د . نابليون الماريني ، اخو الاب انستاس الكرملي ، في الاعوام ١٩٠١ و ١٩٠٤ وفي مجلة المشرق البيروتية ، وقد عربها المرحوم الكرملي عن الفرنسية . نشر الماريني دراساته وتجاربته وتصويراته عن هذه الحبة ، كما انه ذكر دراسات بعض الاطباء الفرنسيين عن هذه الافة في حلب وفي عام ١٩١٠ جاء الى بغداد الاستاذ وبتن وقام بدراسات مطونة وسجل كثيرا من الملاحظات اجراها في آذار - تشرين الثاني من نفس السنة .

فقد ذكر انها عامة الوجود لذلك كان من السهل عليه دراستها . ان الاطفال معرضون ويتوقعون بالاصابة بها كما يتوقع اطفال بريطانيا بالاصابة بالحصبة ، الا ان الناس لا يخافون الاخت البغدادية . وقد ذكر انها تصيب الاطفال بين السنة والثلاثة واول ما تظهر على الاطفال ، والبسو غير مصابين كما هي الحالة بين سكان المدن . وتظهر في اي وقت من السنة ولكن اكثر ما تكون في الخريف في وقت نفوج التمر ، ولكنه يسرع ويقول ان هذا لا يعني ان هناك اية علاقة بين الاصابات والتمر ، الا ان الاطفال الذين لا ياكلون التمر ايضا يصابون بها . يعتقد الناس ان هناك نوعين منها - ما يسمونه بالذكر والانثى - وقد وجد ذلك صحيح سريريا ، المتقيحة وغير المتقيحة وان كان الاثنان يبدآن بنفس الشكل ، - لا يمكن الا القليل من المعالجة - وكل

الادوية المستعملة لا تعط اي نتائج . يقول ان حشر ، ما تقوم بنقل المسبب ، وقد شك بالبعوض وبقي الفراش ، ويضع الحرمس على راس القائمة . كما انه وجدها في الكلاب . كما انه يذكر ان بعض الناس يعتقدون فقط ان من يشرب ماء الفرات او دجلة يصاب بالمرض .

ومن المناسب ان نذكر هنا ، وسوف يأتي بعد ذلك بالتفصيل ، ان هذا العالم هو الذي اثبت بصورة قطعية بعد دراساته في حلب ان الحرمس هو الحشرة الناقلة لمسبب المرض .

وممن اشتغل علميا على حبة بغداد من الاجانب الدكتور غوردن جيري برنكل الذي جاء الى العراق عام ١٩٤٧ ليرأس معهد الامراض المتوطنة والذي كان قد انشا حديثا لمكافحة الملاريا ، بقي برنكل بالعراق عشرة سنوات . لقد كان لهذا العالم البريطاني الفضل في وضع عدة دراسات عن الامراض المتوطنة في العراق مثل الملاريا وحبة بغداد والتكلازار وقد نشر جل بحوثه في مجلة الامراض المتوطنة التي لا تزال تنشرها وزارة الصحة منذ ١٩٥٤ . وسوف نأتي فيما بعد تفاصيل بحوث برنكل عن حبة بغداد .

اما العراقيون فقد اشتغل الكثيرون منهم حول هذا المرض . اول من اشتغل ، كما ذكرنا ، د . نابليون الماريني ، ثم نشر ادوارد بصمه جسي كتيب باسم « بعض الملاحظات عن حبة بغداد في العراق » (دار الطباعة الحديثة / بغداد ١٩٣٠) (مع الاسف لم يتمكن ان اجده او اعثر عليه) . كذلك اشتغل على الاخت الدكتور جورج فرج رحيم استاذ الامراض الجلدية في كلية طب بغداد سابقا والدكتور اسماعيل التتار الاستاذ في كلية الطب في الوقت الحاضر والدكتور المرحوم سلمان تاج الدين .

كما جرت دراسات كثيرة عن الحرمس الناقل لمسببات هذا المرض في العراق من قبل برنكل وجليل ابو الحب وزهير محسن وبدر المزوي وسعد عبدالوهاب وفؤاد سكر وغيرهم . وسوف يجد القارئ في اخر البحث نبئا بالدراسات والبحوث عن الحبة واناقل (الحرمس) والحيوانات الخارئة في العراق وبالمغة الانكليزية .

الحبة في حلب :

وما زلنا في صدد البحث عن حبة بغداد في بغداد ، فان من اللالئ ان نذكر ما نعرفه عن تاريخ هذه الحبة في حلب ، محل اخر مشهور جدا بهذا

المرض في البلاد العربية ، أول من كتب عن حبة حلب كان الدكتور Russell (١٧٥٧) وقد يكون هذا الدكتور هو أول من وصف الحبة باللغة الانكليزية ومن حلب بالفرات . فيما يلي وصف الدكتور لهذه الحبة (نقل عن برنكل - ١٩٥٧ - والذي نقله بدوره ترجمة كاملة من الفصل المعنون حبة او مرض حلب Mal de Aleppo في كتاب « التساريخ الطبيعى لحلب » ونحن بدورنا نترجمه عن ترجمة برنكل المشار اليها اعلاه) :

« ينتشر بين الاوربيين اسم مرض حلب او شر حلب "Aleppo Evil" وهو مرض جلدي ، يعتقد البعض انه خاص بهذه المنطقة بسميه الاهالي حبة او قرحة السنة بالنسبة لفترة بقائه والتي تدوم سنة كاملة ، وتسمى بالتركية «طالب جوبان» او قرحة حلب . ان هذا المرض في الحقيقة ليس خاصا بهذه المنطقة فهو يوجد في عنتاب والقرى الاخرى على نهر سيجور Sejour وسويك Coick وكما هو الحال في حلب . وجوده في هذه المناطق يوحى بفكرة تسببه عن الماء .

يصف الاهالي نوعين من المرض ويميزون بينهما باسم ذكر وانثى وهناك نوع ثالث يعزى الى عفة خاتم سليمان او قملة الخشب ولكنه بالنسبة لي هو نفس المرض ولكن على درجة اخف . ان ما يدعوه الاهالي بالذكر يظهر في بادىء الامر بشكل دملة او درنة صغيرة وحمراء وقوية وتستمر لمدة اسابيع لا يكثر لها الاهالي اذ انها لا تسبب اي ألم . ثم بعد ذلك تبدأ بالتوسع وعادة تصل الى حجم عملة الست عانات الانكليزية (Six pence) انها تبقى حتى تندمل ، اجزاؤها تحت الجلد ، هذا اذا لم يحاول المريض حلها واللعب بها ، تسقط القشرة العليا تاركة اثرا صغيرا . ان فترة هذه الحالة نادرا ما تزيد عن ثمانية شهور .

اما ما يسمونه بالانثى فانها تبدأ قبل حالة الذكر ولكنها تتأخر عنها بشهر أو شهرين ، تصبح مؤلمة وتتوسع تقريبا الى ضعف حالة الذكر وتفرز كمية كبيرة من القيح تحت القشرة وتصبح بشكل قرحة حشرافية تحيط بها دائرة فعالة ولكنها اعماق . تبقى على هذه الشاكلة لمدة شهور ، عادة الى حوالي السنة من بدء ظهورها ، قبل ان تشفى . ان هذه المدة ليست ثابتة ، كثير من الحالات تشفى وتزول لبضعة شهور قبل ذلك ، بينما تستمر حالات اخرى وتبقى لشهور اطول بعد ان تشفى ، تترك اثرا قبيحا مستديما مدى الحياة وتبقى لمدة شهور

حمراء ، واذا لم يلعب بها المريض فانها نادرا ما تكون مؤلمة .

اما النوع الثالث من المرض والذي يسمونه وخزة خاتم سليمان ، فانه يبدأ مثل الآخرين ولكن نادرا ما يمتد ويتوسع الى اكثر من ضعف راس دبوس كبير ولا يبدل مظهره ابدا . يبقى المرض بشكل درينة صغيرة لمدة شهور وبدون ألم . بعد ذلك تتساقط منه بعض القشور الحشرافية ويختفى ولكن بعض الاحيان قد يبقى مدة اطول .

المرض يصيب الاهالي وهم اطفال وعادة على الوجه وان كان يصيب بعضهم على الاطراف وان اكثرهم يحمل ندبتين او ثلاثة او اكثر والنادر منهم من يحمل ندبة واحدة . اما بين الغرباء ، فانه يظهر بعد بضعة شهور من دخولهم ولا يظهر بكثرة على وجوههم مثل الاهالي . قليل من الناس من يشكو من المرض ولكنه نادرا ما يصيب نفس الشخص اكثر من مرة واحدة . يصيب المرض الكلاب والقطط كما يصيب الانسان وعادة يظهر على الخطم (البوز) في هذه الحيوانات .

اما بالنسبة للعلاج فكما هي الحالة مع اوجاع الاسنان والزكام عندنا ، كل واحد بصف علاجا للمرض لكن الوجوه الجميلة والتي يشوهها المرض احسن دليل على عدم جدوى هذه الادوية . في الحقيقة ومن ملاحظاتي ، ان من الاحسن كثيرا ان لا نستعمل دواء وذلك خير من الادوية غير المجدية التي يستعملونها .

ومن كتب عن المرض في حلب من السواح Pecoche عام ١٧٦٥ وقد سجل الملاحظة التالية :

« ان للماء هنا خاصية معينة والتي تسبب بين الغرباء الذين يشربونه انتشار ثلاثة او اربعة قروح حول الايدي والعضد ، تستمر هذه القروح من مدة نصف سنة الى سنة وتكون مزعجة . بعض الغرباء لا تظهر عليهم هذه القروح الا بعد ان يعيشوا هناك عدة سنين ، ومن الملاحظ انها تصيب الاهاليين مرة واحدة وعلى وجوههم عادة . ليس هناك اي دواء لها . يسميها الانكليز (مرض حلب) » .

الحبة في اعالي الفرات :

اوديسا (الرها) من المحلات الاخرى المشهورة بالمرض . وارتدت ان اذكر هنا ملاحظة احد السواح لهذه المدينة عن الحبة ، المهم في هذا هو ان هذا السائح نفسه كان قد بقى في بغداد والموصل لمدة لا بأس بها ، ضيفا على المقيم البريطاني كنودبوس دج

ومع انه سجل ملاحظات عن المرض في اوديسا فانه لم يسجل اي شيء عنه في بغداد او الموصل مع ان المرض كان معروفا هناك . ان هذا السائح هو Buckingham وقد كتب سنة ١٨٢٧ يقول :

« لا ينجو واحد من خمسة من هذا المرض . كل السكان في اوديسا بمختلف طبقاتهم معرضين للمرض بشدة وبصيبهم على الوجه مثل المرض الذي ينتشر في حلب - لكن في هذه المنطقة يعم على درجة اكثر . لم ار واحدا من خمسة من سكان هذه المنطقة بدون المرض بينما يكون نصف الاهالي في حلب مصابين به . وهنا ايضا الافر الذي تركه القرحة اكثر عددا وتشويها ، يغطي جميع الوجه احيانا وغالبا ما يمنع نمو اللحي من بعض المناطق . وغير ذلك فان المرض يشوه الناس الذين هم من كل الوجوه ، اصحاء وذو جمال . يعتقد الاهليون في حلب ان القرحة تظهر بسبب الماء ، اما هنا فان الاهالي يعتقدون انها بسبب الهواء . من المحتمل ان الاثنين هما اسباب غامضة يعزى لها مرض غير معروف او مدروس جيدا » .

ويذكر نفس السائح Buckingham نفس الحالة في ماردين . فهو يقول انها توجد بنفس مستوى وجودها في حلب . اما في ديار بكر فانها تصيب واحدا من اربعين فقط من سكان هذه المدينة .

ان اوديسا هنا هي الرها او اورفا وتكتب Edesse ، وليست المدينة التي هي مرفا في غرب الاتحاد السوفيتي (اوكرانيا) ، كما ان Buckingham لم يكتب شيئا اخر في بغداد او الموصل لانه كان هناك في عام ١٨١٦ وزار الرها بعد ذلك ، ورحلته كانت قد نشرت عام ١٨٢٧ وان ما ذهب اليه Pringle من ان هذا السائح زار بغداد والموصل بعد منطقة اعالي الفرات يظهر انه خطأ ، لانه كان ضيفا على رج المقيم البريطاني والذي توفي بالكوليرا عام ١٨٢١ في جنوب ايران .

منشأ المرض

يورد برنكل نظرية ظريفة - وقد تكون اصلية - عن منشأ المرض ووصوله الى الانسان ، اقدمها فيما يلي باختصار من اجل الفضول العلمي :

من الممكن القول ان حبة بغداد غزت الشرق الاوسط من بؤرة متوطنة قديمة في اواسط آسيا . ان قدم هذه البؤرة في هذه المنطقة واضح ليس فقط لان الاصابات كانت قد ذكرت هناك لأول مرة

بصورة اكيدة ، ولكن ايضا بسبب حقيقة هي ان ضربا من الطفيلي المسبب لا يزال يعيش ويوجد في نفس المنطقة بين قوارض الصحراء . فالحرمس الناقل يكون وسيلة لبقاء هذا الطفيلي في مستعمرات البيروع وسنجاب الارض . من السهل اذن ان نفترض ان هذه البؤرة تمثل بقاء نمط الوبائية من عصور سحيقة وقديمة اقدم من تلك التي توجد في المدن وعلى الانسان . تحدث احيانا اصابات بهذا الضرب من الطفيلي للانسان الذي قد يوجد في وحول مناطق هذه القوارض البرية وعن طريق الحرمس ايضا . القرحة الجلدية الناتجة من الاصابة بهذا الضرب وان كانت تشبه من حيث الاساس حبة بغداد ، فانها تبقى لمدة اقصر ، ومن الصعب العثور على الطفيلي في منطقة القرحة على الانسان . ان هذا يعني صعوبة وقلة انتقال هذا الضرب من ولى الانسان ولا سيما وان هذا الضرب لم يتكيف جيدا للتطفل على الانسان في قفقاسيا . ويوجد بالقرب من المحلات ، حيث يوجد المرض متوطنا بين القوارض ، عدد من مناطق حبة بغداد المتوطنة بين الناس . بعض هذه المناطق قريبة او بين اقدم المحلات التي عرف فيها المرض ، لكن المرض هنا ينتشر بصورة رئيسية في المدن ، والقرحة على الانسان لا تشبه تلك التي توجد في مناطق اخرى يتوطن فيها المرض في العالم القديم . تدل الدراسات الوبائية في هذه المناطق على ان القوارض وغيرها من الحيوانات لا تلعب دورا مهما في خزن او انتقال مسببات المرض . ان من المفري ان نفترض ان هذا الضرب من الطفيلي الذي ظهر لأول مرة على الانسان في قفقاسيا نشأ من ضرب تكيف للتطفل على الانسان وهو من نفس نوعية الضرب الذي يصيب القوارض . ان هذا لم يكن ليحدث الا بعد ان بدأ الانسان في اقتصاد الاستقرار والعيش في المدن . بعد ان وصل الانسان الى هذا الدور المتقدم فقط صار الحال مفتوحا لكي يتكيف الضرب المحلي (والذي كان على القوارض) على الممبل والبيئة الجديدة فانها اكتسبت الصفات الملائمة على الاقل قبل الف سنة .

لقد انتشر المرض الى محلات وجوده الان في الشرق الاوسط من منشئه في اسيا الوسطى وبصورة خاصة من منطقة جرجان وبلغ المعروفتين مستعينا بنوع معين من الحرمس ، الحيوان الناقل . فمن قفقاسيا وارمينيا الى الاناضول واخيرا الى العراق . ان يؤر تواجد الصغيرة في ارمينيا وجورجيا وداغستان والمعروفة اليوم ما هي الا بقايا

معزولة اثرية من الوجود الاصلى الواسع هناك ، حسب نظرية العالم Latyshev (١٩٥١) .

لقد اعتقد Elgood (١٩٢٤) ان المرض وصل العراق وبغداد عن طريق جيوش المغول والتتر الغازية والتي كانت قد دمرت خراسان و ايران قبل ان تصل وتدمر بغداد . اذا صحت هذه النظرية فانها « ماثرة وانجاز » اخر اسدتها جيوش جنكيزخان وهولاكو . وقد يكون عدم ذكر المرض من قبل بنجامين التظلي وابن بطوطة وابن جبير في رحلاتهم ان المرض كان بعد لم يصل بغداد لانهم زاروا بغداد قبل جيوش هولاكو او بعده بقليل (ابن بطوطة في اوائل القرن الثامن وابن جبير في اوائل القرن السابع) .

لكن برنكل يعتقد ان المرض دخل العراق بالتال البطيء الطبيعي من الاناضول جنوبا ، مستفيدا من جيوب من الاصابات استعملها بمثابة « قناطر عبور » . في القرن الخامس عشر كانت بغداد قد دمرت جزئيا من قبل الجيوش الغازية والطاعون . وفي حالات مثل هذه تتوقف عادة الادارة والعناية وتتلغ الممتلكات . هذه الظروف شجعت على زيادة نكاثر الحرمس في المدن ، لذلك فان تمرکز المرض في بغداد في القرن الخامس عشر صادف ظروفًا ملائمة .

قد يكون المرض ايضا منتشرا في افغانستان وبلوچستان في نفس الوقت الذي كان ينتشر فيه في ارمينيا والاناضول وبغداد وقد يكون عن هذه الطريقة قد انتشر ضرب الطفيلي الشرقي .

وصف المرض :

يصف الدكتور فرج جورج رحيم والدكتور اسماعيل التتار (١٩٦٦) المرض كما يلي :

« حبة بغداد قرحة خاصة تظهر عادة على الاجزاء المكشوفة من الجسم في محل عضه حشرة الحرمس المصابة . الدملة في البداية تكون صغيرة حمراء ، ولا تظهر الا بعد ٢ - ٨ اسابيع واحيانا اكثر ، بعد العضة المعدية . تتوسع الدملة الحمراء المستديرة تدريجيا بالحجم وتبدأ بعد ٢ - ٦ شهور بالرخاوة والتلين في وسطها مكونة حراشف على السطح وبالنهاية تتقيح . يمكن تقسيم ادوار المرض الى الادوار التالية

- ١ - دور الدملة الصغيرة The Nodular stage
- ٢ - دور التحبب The granulomastous stage
- ٣ - دور الندبة The cicatrasation stage

موسم الاصابة :

يكاد يجمع كل من ذكر حبة بغداد في الكتابات القديمة على انها توجد على الانسان في جميع شهور السنة . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني بان نصلي الخريف والشتاء هما وقت ظهور الاصابة بسبب فترة الحضانة للميكروب المسبب . اما البحوث الحديثة فان دراسة رحيم والتتار (١٩٦٦) تحمل معلومات عن موسم الاصابة . فقد ذكروا ان الاصابات الجديدة تظهر وتبدأ بالزيادة في شهر ايلول وتشرين الاول وتصل حدها الاعلى في كانون الثاني وشباط ، ثم تنخفض الاصابات في آذار وتكون على اقلها في تموز وآب . وقد كان هذا النمط نفسه ثابتا ولمدة ثلاث سنوات من الملاحظة والدراسة .

علاقة العمر بالاصابة :

لقد لاحظ الاقدمون ان الاطفال هم اول من تحدث لهم الاصابة . وفي مسح شامل في البيوت بالاعظمية وجد برنكل (١٩٥٧) ان الاصابة تبدأ في وقت مبكر من عمر الطفل قبل السنتين وتزداد مع تقدم العمر كما يوضحها الجدول التالي :

جدول رقم (١)

علاقة العمر (بالسنين) بالاصابة بحبة بغداد

العمر بالسنين	عدد	نسبة الاصابة
المفحوصين (قديمة وحديثة)		
٢ - سنة	٢٥ فردا	١٢٪
٢ - سنة - ٦ سنة	٦٥ فردا	٣٠٪
٦ سنة - ١٢ سنة	٤٢ فردا	٥٦٪
فوق ١٢ سنة	١٦٩ فردا	٨٠٪

طبعا ان هذه النسب لا تعني الاصابة بهذا العمر ولكنها تعني اصابة تجميعية (تكور) اي قد يكون الشخص المفحوص والذي كان مصابا قد اصيب بعمر قبل العمر الذي جرى فيه فحصه .

يؤيد ذلك رحيم والتتار (١٩٦٦) اذ يقولان ان الاصابة تحدث في اي عمر كان ، وقد كان اصغر مريض عالجه بعمر ستة شهور ، واكبر مريض عالجه كان بعمر ٥٤ سنة . وقد كانت الاصابة على اكثرها في العمر ٦ - ١٢ سنة .

مسبب المرض :

لقد مر بنا . علاه ان الناس في بعض البلدان حيث يتوطن المرض قد ربطوا بينه وبين عضفة البعوض أو بعض الحشرات ، كما جاء عن اهل بلخ وجرجان . كما ان بعض الناس ربطوا بين حبة بغداد وبين الماء كما في حلب ، وكذلك بين المرض والهواء كما في الرها . وقد ذكر الدكتور نابليون الماريني في مقالته الموسومة « الفوز بالمراد في تعريف حبة بغداد » والمنشورة في مجلة المشرق البيروتية عام ١٩٠١ وثنائية عام ١٩٠٤ ، فكرة جيدة عن كل ما كان يعرفه العلم لحين كتابة مقالتيه . فقد ذكر انه لم يعرف بعد السبب المحدث لها . فقد يعتقد بعض الناس انها تعدي بينما يقول اخرون انها لا تنتقل بالعدوى . ولكن الدكتور نابليون الماريني يقول انها من الامراض المغنية تعدي الغير بنفسها وفيها ميكروب والعدوى فيها من جوهرها ، فعلها محصور في الجلد لا غير . وقد تكون الحشرات ناقلة للعدوى مثل البعوض أو الحرمن وفي الغالب الذبابة أو البرغوث . يبدو القيق في الخريف والشتاء نتيجة الحضانة ، وقد ينقل التلامس او الادوات العدوى ايضا اذا وضعت على القيق او جرح دام . ويعتقد احد الاطباء في حلب من الفرنسيين ان الجرثومة تأتي من نبات خاص موجود فقط في حلب ، تاخذه الحشرة الى الجسم الصحيح . وكذلك قد تنتشر الجرثومة في الهواء وتتساقط على الجرح او القيق ، وقد قام نابليون بتجربة ، فاخذ القيق في الماء المقطر وطعم احد المتطوعين فحدثت الاصابة ولكنها شفيت بوقت اسرع ، واخذ القيق ولحق به اربعة من الجيران فظهرت فيهم الحبة مع انهم كانوا مصابين بها من قبل ولكنها لم تبق طويلا .

لقد اردت ان اخص هنا مع بعض الاطالسة النظرة العلمية التي اوردها طبيب عراقي عن سبب مرض حبة بغداد . قد تكون هذه النظرة ، وقد ظهر بعد ذلك فعلا ، غير صحيحة ، ولكنها بداية جيدة واهتمام بالمرض ، نحن نعرف الان ان السبب ليس جرثومة وليس هناك اي نبات او ما اشبه ذلك له علاقة بالمرض وان الناقل هو فقط انواع من الحرمن الواخر .

كان J. H. Wright اول من اكتشف ووصف طفيلي حبة بغداد عام ١٩٠٣ من طفل جاء من ارمينيا الى بوستن في الولايات المتحدة الامريكية وقد اعطاها الاسم العلمي Helocosoma tropicum وقال انه من الحيوانات الابتدائية .

وبعد ذلك ظهر ان هذا الحيوان يعود الى الجنس Leishmania وهو من الابتدائيات السوطية يمت بصلة القربى : بالدرجة الثانية . الى سبب مرض النوم الافريقي . ونتيجة للدراسات ابدل اسم طفيلي : الحبة الى Leishmania tropica Wright . ومن المناسب ان نذكر هنا ان العالمين الروسيين Borow و Marzinowsky كانا قد اكتشفا ايضا عام ١٩٠٤ طفيليا من مريض بالقرحة الشرقية (حبة بغداد) من حالة مريض كان قد عاش في ايران وقد اعطى هذان العالمان للطفيلي الذي اكتشفاه الاسم العلمي Ovoplasma orientale وقد اثبتت البحوث فيما بعد ان النوع O. orientale هو نفسه L. tropica اي انهما اسمان لحيوان واحد لذلك اطلق عليه الاسم Leishmania tropica Wright لانه اقدم الاسمين وحسب نظام او قانون الاسبقية في التسمية .

وبائية حبة بغداد :

كانت هناك عدة آراء للاقدمين عن سبب حبة بغداد وعن كيفية انتقال المرض وقد مرت بنا هذه الآراء . لكن من المهم ان نذكر ان الاقدمين قد ربطوا بين المرض والحشرات وانها تلعب دورا مهما بنقله ومنذ ان اكتشف الانسان علاقة الحشرات ومفصلية الارجل في انتقال وانتشار مسببات الامراض وكذلك اكتشاف ان المسبب من الحيوانات الابتدائية ، اتجهت الافكار نحو الحشرات واهميتها في نقل وانتشار مسببات هذا المرض . فقد اعتقد البعض بان بقعة الفراش هي الحشرة الناقلة وكان من هؤلاء بانن ، لكن هذا العالم ترك هذه النظرية بعد ان جاء الى بغداد اثناء الحرب العالمية الاولى ووجد ان حبة بغداد منتشرة في بغداد ولكن بقعة الفراش اما قليلة الوجود جدا او معدومة كليا مما يدل على عدم اهميتها في نقل هذا المرض . وقد توصل وينسون الى نفس الاستنتاج قبل باتن بستين طويلة . وقال البعض باهمية الذباب الماص للدم ، مثل ذباب الاسطبل وذباب الكلب ، ولكن ايضا لاسباب عديدة وبعد تجارب كثيرة اضطر اصحاب هذه النظريات الى تركها ، كذلك كان الامر بالنسبة للبعوض .

لم اتجهت الانظار نحو الحرمن . في الحقيقة لم يكن هذا امرا جديدا ، فقد ذكر بعض الاطباء الاقدمين البعوض والجرنس (الحرمن) من مسببات هذا المرض .

كان بريسات وسرجنتس من اوائل من نادى

القريبة منه ، وبحكم هذه المادة والطبيعة فان هذه الانواع هي المهمة والضارة واكثر هذه الانواع انتشارا هو النوع المسمى *Phlebotomus papatasi* الذي يعيش على الحيوانات الزراعية والقوارض وكذلك يدخل البيوت ويهاجم الانسان . يظهر هذا النوع باعداد كبيرة في الربيع ثم تقل اعداده في الصيف ويعود الى الارتفاع مجددا والى حد عال في ايلول وتشرين اول . يقضي الشتاء بدور الاناث البائقة او بدور اليرقات في التربة . وتكثر انواع الحرس في التربة الخفيفة الرطبة والتي تكون غنية بالمواد العضوية وتفضل المحلات المظلمة . تمر دورة الحياة باربعة ادوار هي : البيض - اليرقة - الخادرة - البالغة ، وهذا ما يسمى « الاستحالة الكاملة » . ان الاناث وحدها تنفذي على الدم وتهاجم الحيوانات اما الذكور فانها لا تعيش طويلا ولا تعتمد على الدم في غذائها .

تقوم الان في العراق عدة جماعات للدراسة والبحث في موضوع الحرس الناقل والطفيلي المسبب للمرض .

قد يكون شهر ايلول واواخر آب واولائل تشرين الاول هي اوقات حدوث العدوى لان الحرس يكون باعداد عالية في هذه الاوقات ، ولكن المرض لا يظهر الا في اواخر الخريف وفي الشتاء بسبب ان مدة حضانة الطفيلي في الانسان قد تطول بين ٢ - ٦ اشهر . ان هذا لا يعني انه ليس هناك حدوث عدوى وظهور اصابات في بقية ايام السنة ولكنها تكون بصورة اخف واطا .

حبة بغداد على الحيوانات :

لقد ذكر بعض الاطباء القدامى مثل Russell (1757) في حلب ، والتس Southgate (1810) في بغداد ان حبة بغداد توجد على الحيوانات الاخرى مثل القطط والكلاب .

تحدث اصابات الكلاب بهذه الحبة في المناطق التي يوجد فيها المرض متوطنا مثل قفقاسيا وايران والعراق وبعض المناطق مثل حلب . في العراق حبة بغداد تكون اعتيادية بين الكلاب وتنتشر كثيرا في بعض الفصول وقد تكون الكلاب هي الحيوانات الخازنة للطفيلي والذي يكون مصدر العدوى الى الانسان عن طريق الحرس ، فقد ذكر Machattie و Chadwick (1927) اصابات عالية بين الكلاب

باهمية الحرس في نقل مسببات حبة بغداد في العصر الحديث ، لكن يظهر ان وبنون الذي اشتغل في حلب وبغداد كان اول من اقترح واثبت ان الحرس هو الناقل وكان هذا الاكتشاف من حظ هذا البحاث . لقد برهنت تجاربه التي اجراها في حلب ان الحرس هو الناقل ، ثم ايد هذا الاكتشاف Connor و Short (1918) ثم Acton (1919) فيما بعد ، في العراق حيث جرت بحوث عديدة من قبل اناس اجانب في بادىء الامر مثل Theodor و Adler (1929) وبعد ذلك Pringle (1952) - (1957) ، وبعدها قام الكثير من العراقيين اطباء ومختصين بالحشرات الطبية بعمل ابحاث وتجارب في هذا المضمار .

قال Theodor و Adler (1929) ان نوع الحرس الناقل المهم هو *Phlebotomus sergenti* في منطقة بغداد ، اذ انهما جمعا ٦٨٤ نموذجا من انثى هذا النوع ، وبعد التشريح عثرا على اثنين من هذه الاناث مصابتين . وقد ايد Pringle (1957) هذا الرأي معتمدا على رأي هذين العالمين ، ولكننا نشك كثيرا بهذا الاستنتاج اعتمادا على دراستنا التي اجريناها مؤخرا . لقد اظهرت هذه الدراسات ان النوع المزعوم *Phlebotomus sergenti* قليل الوجود في بغداد واطرافها ، بل وحتى في جميع العراق . اما النوع الذي ينتشر بكثرة ويكاد ان يكون ٩٠٪ من مجموع افراد انواع الحرس التي يجري جمعها في الحقل هو النوع *Phlebotomus papatasi* من المعروف ان هذا النوع ناقل مهم لطفيلي حبة بغداد في اماكن اخرى وانه بعد التشريح عثرا فيه على كائنات سوطية تشبه المسبب لمرض حبة بغداد . هذا وقلة وجود النوع الاول قادنا الى الاعتقاد ان الناقل المهم لمسبب حبة بغداد في العراق هو نوع الحرس المسمى *Phlebotomus papatasi*

الحرس في العراق :

يوجد في العراق ١٦ نوعا من الحرس ، تنتشر في محلات مختلفة من العراق ، لكن بعضها موجود باعداد قليلة جدا وباقوات قصيرة ، وهناك بعض الانواع التي لا تقترب من الانسان بل تعيش برية على القوارض والزواحف والطيور او الحيوانات الزراعية . ان الانواع المهمة والضارة هي تلك التي تعيش على دم الانسان وعلى دم الحيوانات الاخرى

في بغداد والموصل وكركوك وخانقين وأنصارية وبعقوبة والحلة والعمارة . وقد ثبت ان الطفيلي الذي يصيب الكلاب هو نفسه الذي يصيب الانسان او انه يمكن ان يصيب الانسان .

ظهرت في كتابات العديد من الباحثين اشارات الى حيوانات اخرى مصابة بالطفيلي مثل اليرابيع والقوارض البرية الاخرى والفئران البرية والجرذان البرية والسنجاب والديبة بل وحتى القطط . لكن دراستنا في العراق حتى الان لم تثبت الاصابة على اي من هذه الحيوانات ما عدا الكلاب ولم يثبت بعد ان الكلب هو الحيوان الخازن للطفيلي .

انتشار حبة بغداد في العراق :

ظهرت اثناء الحرب العالمية الاولى اصابات بين الجنود في منطقة شيخ سعد والبصرة ولكن اكثر المناطق شدة كانت بغداد والموصل . في عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥٠ أجرى معهد الامراض المتوطنة وبإشراف برنكل مسحاً عاماً لهذا المرض بين اطفال المدارس . والجدول التالي رقم (٢) يعطينا فكرة عن نتائج هذا المسح .

جدول رقم (٢)

نتائج مسح حبة بغداد في مناطق العراق عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠

المنطقة	عدد المدن المفحوصة	عدد المدن الموجبة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شط العرب وهور الحمار	٣٥	٢٩	١٩١٤	٤١٪
سهول الفرات	١١	٨٩	٤٩٠٨	٢٠.٨٪
سهول دجلة	٢٩	٢٧	١٨٥٧	٢٧٪
سهول دبالى	٤٤	٢٧	١٢٨٥	٢.٣٪
مناطق شمالية	٢٤	٢٠	—	—

وسط العراق :

تحتل بغداد المركز في منطقة واسعة من الاصابة بين الناس بحبة بغداد ، وتمتد هذه المنطقة من الحدود الشمالية للسهول الرسوبية حتى القادسية وشمال ذي قار وميسان ، ويكون الانتشار في هذه المنطقة غير منتظم في المدن الكبيرة ونسبة الاصابة تكون عالية بينما قد تكون المناطق الريفية القريبة خالية من الاصابة . ولكن بعض القرى في ناحية الحسينية (كربلاء) وفي الحلة تعاني من الاصابة وكذلك على قنوات خريسان (بعقوبة) ومهروت (دبالى) وفي القرى على شواطئ دجلة .

شمال العراق :

المرض في الشمال يكون نادراً او غير موجود ولكن في السهول الشمالية حيث تقع الموصل وبعض المدن والقرى الاخرى تكون الاصابة عالية وهناك اصابة متوسطة في سنجار وعقرة والعمادية وشقلاوة ، اما في مدينتي اربيل وكركوك فيكون

المرض نادر الوجود . لم يسجل رحيم والتتار (١٩٦٦) اكثر من ١٨ حالة لفترة ٢٤ شهراً من الدراسة والملاحظة .

جنوب العراق :

ايضا يكون المرض هنا نادراً او غير موجود تقريباً او انه اختفى من محافظتي ذي قار والبصرة ولكنه يوجد في المناطق على الانهار في شمال محافظة ميسان . لقد ذكر رحيم والتتار (١٩٦٦) تسجيل ٢٢ حالة فقط من هذه المنطقة لفترة ٢٤ شهراً .

انتشار المرض في مدينة بغداد :

ان هذه البؤرة المشهورة بالمرض تهيء فرصة ثمينة لدراسة المرض . ففي عام ١٩٢٩ كانت الاصابة اعلى منها في عام ١٩٥١ ، فكانت الاصابة في الاعظمية والحيدرخانة والكرخ والسكك تصل ١٠٠٪ بينما كان المرض نادراً في العلوية وكب الارمن ومعسكر رشيد . اما في سنة ١٩٥١ فقد وجد برنكل (١٩٥٧) ان معدل الاصابة في الاعظمية

كان ٦٩٪ أي أقل مما كانت عليه عام ١٩٢٩ . أما في الوقت الحاضر والسبعينات من هذا القرن ، فلا يوجد لدينا احصائيات مماثلة للمقارنة ، ولكن وكما ذكرنا في المقدمة فقد هبطت لاصابات في الخمسينات وعادت الى الارتفاع في الستينات ولكن ليس بالمستوى القديم . ثم ان الهجرة الى بغداد تجعل من الصعب اجراء مسح يعطي فكرة صحيحة عن لاصابات في بغداد لان الناس تقاطروا على العاصمة من جميع الجهات . ان الجدول رقم (٣) يعطينا المحلات البغدادية التي سجلها برنكل في مسح ١٩٤٩ - ١٩٥٠ .

جدول رقم (٣)

محلات بغداد المصابة بحبة بغداد
(١٩٤٩ - ١٩٥٠)

المحطة	عدد المفحوصين	نسبة الاصابة
شيوخ	١٢٨	٣٧٪
نصبة	٤٣	٧١٪
حرة	٢٧	١٠٠٪
راغبة خاتون	٨٠	٤٧٪
هيبت خاتون	٢٨	٦١٪
سفينة	١٥١	٧٤٪
كاظمية	٥٢	٦٩٪
عبواضية	٥٠	٣٤٪
وزيرية	١٠٠	٥٠٪
شالجية	١٨٦	٤٥٪
كرخ	٥٠	٦٢٪
كرادة مريم	٥٠	٥٢٪
باب الشيخ	٥٠	٢٤٪
بتاوين	٥٠	٣٠٪
علوية	٢٠	صفر
كرادة (برة)	٦٦	٤٩٪
كرادة (جوة)	٥٠	٣٦٪
حي دراغ	١٠	صفر
حارثية	٢٥	٢٠٪
صليخ	١٨٤	٥٨٪
فحامة	٥٠	٥٠٪
زعفرانية	٥٠	٣٦٪
تل محمد	٥٠	١٦٪
رستمية	٢٢	١٦٪
دورة	٢٥	٣٠٪
وشاش	٩٢	٥٠٪
غرب الكاظمية	٢٥	٢٠٪

حبة بغداد المعروفة بـ *Leishmania recidiva* هذه الحالة الغريبة والتي تبقى لمدة طويلة . تبدأ دائما من حواف حبة بغداد مندملة وتظهر عادة بشكل اندبة العادية (وهي مرض جلدي يشبه بالذئب وقد سماها سندرسن بالاسم العلمي للذئب *Lupus vulgaris* . انها ندبات مسطحة حمراء ، تنتشر ضمن الاخت او القرحة الشافية . من الصعب العثور على الطفيلي في هذه الحالة الا اذا انتزعت جميع الندبة ثم زرعت . يعتقد برنكل انها تحدث في ١٥٪ من الحالات الشافية من حبة بغداد ، بينما رأى رحيم والتار (١٩٦٧) اثنتي عشر حالة من بين ٢٧٨٨ حالة من حبة بغداد .

يسمى برنكل *Leishmania recidiva cutis* . قد تبقى الندب غير واضحة وقليلة الارتفاع او انها تندمج مع بعضها لتكون منطقة مرتفعة ملساء ، مع توسع بطيء بالحواف قد يمتد لعدة سنوات ، اما مركز القرحة فيصبح شاحبا ومغطى بطبقة حرشفية . قد تستمر الحالة لمدة خمس سنوات او اكثر قبل ان تندمل . وبنفس الوقت يكون لها مظهر منطقة حمراء واضحة المعالم عليها لطخات من لون اعمق ومغطاة وايضا عليها ندبات وطبقات سطحية من نسيج ندى حديث . ان هذه الحالة تشبه الوجه اكثر من حبة بغداد (وقد ذكر ذلك بكنفهام (١٨٢٧) في منطقة اورفا (الرها) قد تشمل نصف الوجه ولم يمكن علاجها بأي شيء ، مع ان هذه الحالة مرافقة لاصابة حبة بغداد سابقا ، الا انه لم يمكن عزل المسبب (*Leishmania*) منها . لا تختلف الندبة على الوجه عن حالة حبة بغداد من الناحية الباثولوجية والنسجية . ان وجودها في العراق محدود اكثر من وجود حبة بغداد فهي مثلا لم توجد بين مئات الاطفال المصابين بحبة بغداد والسدين فحسوا من قبل برنكل (١٩٥٧) من منطقة الفرات الجنوبية ، في هذه المناطق تكون حبة بغداد ضحلة صغيرة ، واهليجية الشكل . يقول رحيم والتار (١٩٦٦) انهما صادفا ١٢ مريضا من مجموع ٢٧٨٨ حالة حبة بغداد وعلى مدى ثلاث سنوات مصابين بهذه الحالة ان الندب المضاعفة من اثر حبة بغداد اما ان تحيط بها او في وسطها ، ويحدث التقيع وسقوط الحراشف بعدها وقد تتوسع الندبات .

يستنتج الباحثان ان *Leishmania* الدائرية نادرة الوجود في العراق .

Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of man-biting *Phlebotomus* (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Annals of Trop. Med. and Parasitology*, 66 (1) : 165-166.

Acton, H. W. 1918.
A study of the distribution of the Baghdad boils on the body made with view to the discovery of the transmitting agent; *Indian Jour. Med. Res.* 6 : 202.

Adler, S. and O. Theodor, 1929b.
The distribution of sandflies and Leishmaniasis in Palestine, Syria and Mesopotamia. *Ann. Trop. Med. Parasitology*, 23 : 269 - 306.

Adler, S. and O. Theodor, 1930.
The Inoculation of Canine Leishmaniasis into man. *Ann. Trop. Med. Parasit.*, 24 : 197 - 210.

Ahmad, S. A., 1976.
A revision of the Phlebotomidae (Diptera) sandflies in Iraq. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the Degree of M. Sc.

al-Azzawi, B. M. 1975.
Vector potential of *Phlebotomus papatasi* Scopoli (Diptera, Psychodidae) to kala azar in Baghdad area. Thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

al-Azzawi, B. M and J. K. abul-hab, 1977.
Vector potential of *P. papatasi* Scopoli (Diptera, Phlebotomidae) to kala azar in Baghdad area; *Bull. End. Dis. Baghdad*; XVIII (1-4) : 35-45.

al-Adhami, B. H. 1974.
Protozoal parasites of blood of Muridae (rats and mice) in Baghdad area. A thesis submitted to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.

Bashir, Y. 1954.
A pre. note on Occ. kala azar in No. Iraq. *Bull. End. Dis.*, 1 : 77-80.

Boissier, A. 1894.
Doc. Assy. Presage, Vol. 1, Lib. Emile Boui. Paris (Cited by Pray et al., 1967.

بعض المصادر العربية التي ورد فيها ذكر حبة بغداد

- ١ - ابن سينا ، ابو علي . توفي ١٠٣٧ هـ ، كتاب القانون في الطب .
- ٢ - الجرجاني ، اسماعيل بن حسين (السيد اسماعيل) . توفي ١١٣٧ هـ . كتاب « خوارزمشاه » حوالي ١١٢٠ هـ .
- ٣ - الرازي ، بهاء الدولة . خلاصة التجارب حوالي ١٥٠٠ م .
- ٤ - الكرمل ، انستاس . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٦٢٤ و ٧٧٧ - ٧٨٢ سنة ١٩٢٠ .
- ٥ - الجلي ، داود . مجلة لغة العرب . مجلد ٨ ، ص ٧٧٧ - ٧٨٢ ، سنة ١٩٢٠ نقاش مع الاب انستاس .
- ٦ - المصري ، سعاد . بغداد كما وصفها السواح الاجانب (ص ١٢) ، (مترجمة من "Dupre" مطبعة دار المعرفة .
- ٧ - الكتاب القمسي (كتاب العهد القديم والعهد الجديد) الطبعة الامريكية في بيروت سنة ١٩٢٩ . كتاب الخروج ، اصحاح ٩ ، آية ٨ - ١٢ ، وكتاب التثنية اصحاح ٢٨ ، آية ٢١ - ٢٧ .
- ٨ - بصلجي ، ادوارد . « بعض الملاحظات من حبة بغداد في العراق » . دار الطباعة الحديثة بغداد ١٩٢٠ (لم اطلع عليه) .
- ٩ - فوسيل ، بيرو دي . الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٥ (١٩١٤) ، ص ٥٤ - ٥٥ . ترجمة اكرم فاضل ١٩٧٤ .
- ١٠ - ديو لاغوا ، مدام . رحلة الى كلدان - العراق . ترجمة علي البصري عام ١٩٥٨ دار منشورات البصري . بغداد .
- ١١ - ماريني ، نابليون . مجلة المشرق . رقم ٤ ، ص ٢٥٤ - ٣٦١ ، سنة ١٩٠١ ، ورقم ٧ ص ٦٥٢ - ٦٦١ ، سنة ١٩٠٤ .
- ١٢ - داور ، ليدى . « في بلاد الرافدين » صور وخواطر « ترجمة نؤاد جميل ١٩٦١ .

المصادر باللغة الانكليزية

عن الحرمس وحبة بغداد في العراق ؛ -

Abul-hab, J. K. and M. T. Mehdi, 1970.
Seasonal occurrence of Phlebotominae (Diptera, Psychodidae) sandflies of Baghdad area, *Bull. End. Dis. Baghdad*, XII (1-4) : 81.

Abul-hab, J. K. and R. al-Baghdadi, 1972.
Seasonal occurrence of five species of *Phlebotomus* (Diptera, Psychodidae) in Baghdad area; *Ibid.*, XIII (1-4) : 55-75.

- Lamborn, W. A. 1955.
The Haematophagous fly as a possible vector of *Leishmania*. Bull. End. Dis. Baghdad, 1 : 239 - 249.
- Ledingham, J. C. G. 1919.
Kala azar in Mesopotamia. British Med. Jour., 2 : 88. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1920.
Notes on cutaneous Leishmaniasis of dogs in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg. 20 (7) : 422-432.
- Machattie, C., E. A. Mills and C. R. Major, 1931.
Naturally occurring oriental sore of the domestic cat in Iraq. Ibid., 25 : 103.
- Marinkelle, C. J., 1975.
Visceral leishmaniasis control, Iraq, WHO, Reg. Office Eastern Med. an assignment report., pp. 13.
- Millington, H. 1873.
Signs and wonders in the Land of Ham, John Murry, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Milla, E. A., Machattie, C. and C. R. Chadwick, 1930.
A preliminary note on the relationship of the parasites of human and canine dermal leishmaniasis. Trans. Roy. Soc. Tro. Hyg. 23 : 413-416.
- Mohsen, Z. H. 1973.
Lab. Studies on the Bio. and Vec. Pot. of man-biting *Phlebotomus* sandflies (Diptera, Psychododae) in Baghdad area; a thesis to the Univ. of Baghdad for the M. Sc. Degree.
- Mohsen, Z. H. and J. Abul-hab, 1975.
Lab. studies on the biology of *Phlebotomus papatasi* Scopoli (Diptera, Psychododae); Bull. End. Dis. Baghdad 16 : 33-56.
- Patton, W. S. 1919. Notes Epid. Oriental Sore in Meso. Bull. Soc. Path. Exot. 12: 500-504.
- Pecocke, R. 1765.
A description of East. Vol. II, Bowyer, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Bray, R. S., G. F. Rahim and S. Taj el-Din. 1967.
The present State of Leishmaniasis in Iraq; Protozoology, 11 : 171-186.
- Buckingham, J. J. 1827.
Travels in Mesopotamia, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Budge, E. A. Wallis, 1920.
By Nile and Tigris. John Murray, London. (Cited by Pringle, 1957).
- Campell-Thomson, R. 1936.
A dictionary of Assyrian Chemistry and Geology. Clarendon Press. (Cited by Pringle, 1957).
- Candler, E. 1919.
The long road to Baghdad. Cassel & Co. London (Cited by Bray et al, 1957).
- Chadwick, C. R. and C. Machattie, 1927.
Cutaneous Leishmaniasis in Iraq; Trans. Roy. Soc. Trop. Med. Hyg., 20 : 422-432.
- Connor, R. and H. E. Short, 1918.
Dermal Leishmaniasis in Iraq. Indian Jour. Med. Res., 6 : 162.
- Corradetti, A. 1965.
Informations on Leishmaniasis collected in Lebanon, Syria, Iraq, Iran and Turkey. WHO Pub. PA/66. 80.
- Elgood, C. 1934.
The early history of the Baghdad boil. Jour. Roy. Asiatic Soc., III : 519-533.
- Elgood, C. 1951.
A med. Hist. of Persia and E. Caliphate, Univ. Press, Cambridge.
- Kirchmair, H. 1954.
Kala azar in North Iraq. Jour. Med. Prof., 2 : 50-55.
- Kultz, L. 1916.
Pathologische und theapeutische Beobachtungen aus Niedermesopotamien. Arch. Schiffs. Tropenhyg. 20 : 487-502. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Labat, R. 1951.
Traite Akkadien de Diagnostica et prognostics medicaux. Vol. 1, E. J. Brill Ed., Leiden, p. 75. (Cited by Bray et. al., 1967).

- Sprawson, C. A. 1919.
Kala azar in Mesopotamea and its incubation period. *British med. Jour.* 2 : 667-668.
- Sukkar, F. 1972.
Visceral leishmaniasis in Iraq; *Bull. End. Dis. Baghdad*, 13 : 77-83.
- Sukkar, F. 1974.
Study on sandflies as vectors of kala azar in Iraq; *Ibid.* 15 : 85-104.
- Sukkar, F. 1976.
Some Epid. Information from annual rep. on kala azar in Iraq during 1974. *Ibid.* 17 : 119-127.
- Taj el-Din, S. and K. al-Alousi, 1954.
Kala azar in Iraq; Report of four cases; *Jour. Fac. Med. Baghdad*, 18 : 15 - 19.
- Taj el-Din, S. and M. H. al-Hassani, 1961.
Kala azar in Iraq, Analysis of 100 cases : *Jour. Fac. Med.* 3 (New Series) : 1-9.
- Virolleaud, Ch. 1907.
Pronostics sur l'issue de diverses maladies avec 2 planches. *Babyloniaca* 1 : 1-103. (Cited by Bray et. al., 1967).
- Wenyon, C. 1911. Oriental sore in Baghdad; *Parasitology*, 4 : 273-344.
- Zein el-Din, K., 1973.
Visceral leishmaniasis in Iraq, in search of a reservoir host and a vector; *Jour. Egypt. med. Assoc.* 56 : 689.
- Pringle, G. J. 1952.
The sandflies (Phlebotominae) of Iraq; *Bull. Ent. Res.*, 43 : 707-734.
- Pringle, G. J. 1956.
Kala azar in Iraq : Preliminary epidemiological consid., *Bull. End. Dis. Baghdad*, 1 : 275-294.
- Pringle, G. J. 1957.
Oriental Sore in Iraq, Historical and Epidemiological Problems; *Ibid.*, 2 : 41-70.
- Rahim, G. F. and I. H. Tatar 1966.
Oriental Sore in Iraq. *Ibid.*, 8 : 1 - 4.
- Rahim, G. J., 1967.
Present Problems of Oriental Sore in Iraq, *Ibid.*, 9 : 48-58.
- Russel, Alex., 1756.
The Nat. Hist. of Aleppo and parts of Adjacent. Millar, London, (Cited by Pringle, 1957).
- Salim, H. H., Z. Hayatce and A. Awaness, 1968.
Dehyd. Resi. for oriental sore. *Lancet*, 1 : 1428.
- Sinderson, H. 1931. Lupus vulgaris and oriental sore. *Trans. R. Soc. Trop. Med. Hyg.* 25 : 75-76.
- Southgate, Rev. H., 1840.
Narrative of a tour through Armenia Kurdistan, Persia and Mesopotamea. Appleton & Co., New York. (Cited by Pringle, 1957).

قبتان محروطينتان من بغداد

بقلم
عطاء محمد صالح العبدى

الدار الوطنية للتوزيع والاطلاع - بغداد

نبذة تاريخية

ان دراسة الطبيعة الجغرافية لوسط وجنوب العراق توضح لنا ان هناك ثمة عوامل طبيعية وبيئية قد تحكمت في اساليب البناء نتيجة لندرة مسواد انشائية معينة ووفرة اخرى وفي دراستنا للقباب وما لوفرة مادة الطين بكميات هائلة في هذا الوسط وندرة مادة مهمة كالخشب والحجر دفعت المعمار العراقي القديم الى ابتكار فنون معمارية جديدة في تسقيف الابنية وذلك باستخدام العقود والاقبية عوضا عن السطوح المستوية والاستغناء عن استخدام الاعمدة والدعائم طالما ان مادة الطين بطبيعتها مادة مرنة تعطي البناء القدرة والكفاءة في التحوير والتحكم ، ان هذا العامل لعب دورا كبيرا في تحديد انواع وفن العمارة في العراق .

لذلك فان دراسة مراحل التطور التقني والحضاري لوادي الرافدين الذي كان له اوفر نصيب في بلوغ النضج الحضاري واقامة حضارة اصيلة في تاريخ البشرية مقارنة بالحضارات الاخرى التي قامت الى جانب حضارة وادي الرافدين ، توضح لنا ان الانسان في هذه المنطقة ابتدع كل ما هو جديد في الفنون الممارية وعلى ذلك يمكن ان نجد اصول الابنية المقيمة في العمار القديمة التي شيدت في بلاد وادي الرافدين ومنها انتشرت الى العالم القديم .

فالقبة اذن عنصر عماري محوري عن فنون الازج (١) الممارية التي تعد من اهم الخصائص البنائية

(١) الازج : ضرب من الابنية ومصطلح عماري للدلالة على كل بناء شيد مقوسا . « الفيروز ابادي القاموس المحيط

المميزة لابنية وادي الرافدين عن سواها « فابتداع التاريخ في البناء وحز الحناجر كان فنحا عظيما في الفن العماري فهو يساوي اختراع العجلة في الاته وادواته مع اشتها الرومان ببناء القناطر التي هي حناجر وبيضاء عقود الظفر المعروفة باقواس النصر ، فاول من ابتدع الحفر والتاريخ والتقويس في البناء هم سكان وادي الرافدين القدامى (٢) .

فقد هدتنا التنقيبات الانسرية الى نمط التسقيف في ابنية مرحلة القرى الزراعية المتطورة « الالفين السادس والخامس قبل الميلاد » (٣) ، فحفريات تل حسونة اثبتت لنا ان السقف كان مسلما بينما ظهر في عصر حلف (٤) على شكل قبة (٥) .

وقد دلت الحفريات التي اجريت في موقع الاربعية (٦) عن بناء القبة واورد الاستاذ ملوان

ج ١ ص ١٧٧ - دار الفكر - بيروت « والدكتور مصطفى جواد ، سومر ٢٥ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .

(٢) الخيرة : عند الطاق المني والقوس او بلاور والمقد المصروب ليس بملك العربي . « الفيروز ابادي القاموس المحيط ج ٢ ص ١٤ - دار الفكر - بيروت « د . مصطفى جواد ، سومر ٢١ ص ١٦٤ بغداد - ١٩٦٩ .

(٣) لؤاد سفر سومر ١ ج ٢ ص ٢١ بغداد - ١٩٤٥ .

(٤) تقع قرية حسونة على نحو ٥ كم في الضفة اليمنى لدجلة وعلى ٢٥ كم جنوب الموصل ، نقت فيها مديرية الآثار العراقية في عامي ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وهي قرية كبيرة في العصر الحجري الحديث يقدر تاريخها بنحو (٥٨٠٠ - ٥١٠٠ ق . م) .

(٥) يقع تل حلف في شمال سوريا على ٥ كم جنوب حمص راس العين قرب منبع الخابور نقت فيها بقعة المانية عن متحف برلين سنة ١٩١٠ ، ١٩١٣ ، ١٩٢٩ .

(٦) الاربعية : موقع الري يقع بالقرب من اطلال نينوى ويرجع تاريخه الى (١٩٠٠ - ٢٠٠ ق . م) .

نماذج مختلفة لها وأشار إلى أن الطراز ، أي بناء القبة يختلف من مكان لآخر فهناك نموذج بشكل قبة دائرية وآخر بشكل قبة مخروطية (٧) .

وقد وجد الأستاذ ليونارد ولي في المقبرة الملكية بـ اور في العهد السومري «الالف الثالث ق.م» نماذج لسقوف معفودة بشكل اقبية وقبساط مخروطية .

نما في المصدر الإسلامي فإن أقدم مثال عراقي لقباب ما زال قائما فيه هو قبة قصر الأخيضر التي تعود إلى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة . . . أما أقدم قبة إسلامية في بغداد ذكرها لنا المؤرخون العرب فهي : قبة قصر المنصور ، الخضراء

أن خير من وصف قصر المنصور وقبته الخضراء هو الخطيب البغدادي حيث روى أنه : « كان في صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراع وعرضه عشرون ذراع وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه إلى حد عقد القبة عشرون ذراعا تصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراع » ويضيف أنه كان على رأس القبة الخضراء تمثال فرس عليه فارس في يده رمح يتجه مع الريح ، وكانت ترى من أطراف بغداد .

ويذكر لنا الخطيب أن قبة المنصور بقيت قائمة حتى سقط رأسها في يوم الثلاثاء لسبع خلون من جماد الآخر سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وكان ليأتلد مطر عظيم ورعد هائل وبرق شديد وكانت هذه القبة تاج بغداد وعلم البلد ومآثرة من مآثر بني العباس ، بنيت أول ملكهم وبقيت إلى هذا الوقت « إلى آخر الأمر الوائق » (٨) .

ويذكر لنا ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٥٢ أن سبب سقوط القبة الخضراء هو الفرق العام الذي خرب مدينة بغداد ، حيث كانت تتعرض لفيضانات مستمرة وبالتأكيد أن تأثير المياه على العمران كان كبيرا (٩) .

أن ما يعنيننا من هذا الموضوع هو دراسة قبتي زمرد خاتون وأنسهروردي وهما « وأمثالهما من القباب المخروطية تكاد تكون خاصة بمشاهد

M.E.I. Mallawan and Jerviklovnd (٧)
Rose, Excavations at Tell Arpa-
chiyah Iraq Volc. 11, Part LPP,
25 Lonlan 1935.

(٨) الخطيب ج ٧٢/١ طبع المكتبة السلفية - الرياض .
(٩) الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٧٠٢ .

الائمة والكبراء والكبيرات منذ زمن العباسيين » ، وقد انتشرت في العراق في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري حتى نهاية القرن السابع الهجري ومما بقي منها في العراق قائما حتى الآن ثمانى عشرة قبة وفي الغالب تكون قبة الضريح منفردة وقد تكون ملحقة بمدرسة أو جامع ، وتكون شرفة الضريح على الأكثر ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تعني غالبا قيام بناء مخروطي وتأتي بعدها الثرية الرباعية الاضلاع .

والقباب المخروطية أنواع منها ذات المقرنصات من داخل البناء وخارجه وهو السائد ويكون هذا المخروط صقوفا من المقرنصات تستمر حتى نهاية القبة ويكون الشكل الخارجي مشابها للشكل الداخلي ومن القباب ما تكون مخروطا من الداخل وهي مضلعة من الخارج وهذا النوع يكون على شكل قبتين داخلية وخارجية بينهما فراغ . كما في قبة يحيى أبي القاسم في الموصل .

قبة السيدة زمرد خاتون

تقع قبة السيدة زمرد خاتون في الجانب الغربي من مدينة بغداد « جانب الكرخ » إلى الجنوب الغربي من ضريح الشيخ معروف الكرخي في وسط المقبرة المعروفة باسمه (١٠) .

يعرف الضريح - عند العامة - باسم الست زبيدة ولا زال . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الضريح وأغلب الآراء لا تنسبه إلى السيدة زبيدة - بنت أبي جعفر المنصور ، فقد رأى الرحوم الأستاذ عباس المزاري في كتابه تاريخ العراق بين احتلالين أن الضريح يعود إلى زبيدة بنت هارون الجوني المتوفاة سنة ٧٠٦ هـ (١١) في حين يذكر لنا الأب أنستاس الكرمل في الضريح تعود نسبته إلى زبيدة خاتون ابنة السلطان بركباروق زوجة السلطان مسعود بن السلطان ملكشاه المتوفاة سنة ٥٢٢ هـ ويؤيد هذا الرأي الأستاذ عبدالرزاق الحسني (١٢) .

(١٠) تسمى المقبرة التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي بمقبرة باب الدبر . ثم بنيت له ثرية واحترقت عام ٢٥٩ هـ ثم أمر الخليفة القائم بأمر الله بعمارة المكان .
« د . مصطفى جواد ، المعاصر الإسلامية العتيقة سومر م ٢ سنة ١٩٢٧ » .

(١١) عباس المزاري / تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ٤٠٦ .

(١٢) الأب أنستاس ماري الكرمل لغة العرب مج ٦ ص ٧٥٥ .
دائرة المعارف الإسلامية ج ٤ ص ١٧ (حاشية) .

ويرى السيد محمود شكري الالوسي انه ربما كان يمثل ثرية لزوجته او بنت احد الامراء او ملك من الملوك أي لا صلة له بالسيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد (١٢) .

اما الدكتور مصطفی جواد فينسب الضريح الى السيدة زمرد خاتون ام الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩ هـ وهو الراي الراجح الذي تؤكد الروايات التاريخية (١٤) .

تقوم قبة السيدة زمرد خاتون على قاعدة تتكون من ثمانية اضلاع لان كثرة الاضلاع في الشكل المضلع تساعد كثيرا على قيام بناء مخروطي عليها أي قيام دوائر في البنية متضائلة شيئا فشيئا حتى تنتهي بسماوته أي بنقطة اعلاه (١٥) انظر صورة رقم (١) .

يتوسط احد اضلاع القبة مدخل تتقدمه غرفة مربعة تعود الى فترة متأخرة من العهد العثماني كما يدل على ذلك طرازها المعماري حيث سقطت بقباب نجمية الشكل عرفت بالصينية ، وهو طراز شائع في بغداد في تلك الفترة (١٦) .

تقوم القبة على جدران صلبة ثمانية الاضلاع مبنية بالاجر والجص ، اما خارجها فتزينها زخارف اجرية بسيطة محفورة حفرا قليل الغور ومكونة من نجوم وبعض الاشكال الهندسية والزخارف النباتية . انظر صورة رقم (٢) .

وشكل رقم (١) الذي يمثل نماذج لحشوات زخرفية اجرية .

وفي ظاهر كل وجه من اوجه القاعدة الثمانية بابان معيان وفي صورتها التي صورت قبل سنة ١٨٥٠ اربعة ابواب معماة اثنان من فوق واثنان من تحت ولم تحافظ هذه العمارة على شكلها القديم نتيجة الترميمات الحاصلة عليها ولعدة مرات (١٧) . اما ظاهر القبة فقد غطي بالجص .

(١٢) محمود شكري الالوسي : تاريخ مساجد بغداد واثارها ص ١٢٩ .

(١٤) د . مصطفى جواد : سادات البلاط العباسي ص ١٨١ ، د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٥) د . مصطفى جواد / العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٦) مظا العديشي / هناء عبدالخالق - القباب المخروطية في العراق ص ٢٩ .

(١٧) د . مصطفى جواد العمارات الاسلامية العتيقة سومر ٢ سنة ١٩٤٧ .

تتراوح اطوال اضلاع المثلث ما بين ٢/٧٢ م - ٢/٩٣ م وهذا الاختلاف في الاطوال متناهي من الترميمات العديدة التي اجريت عليها خلال الازمان . يتوسط الضلع الشمالي الشرقي مدخل القبة الاصلي والى يساره درج البناء قد فتح من صلب الجدار يؤدي الى سطح البناء .

يبلغ ارتفاع اضلاع الشكل المثلث اي الجدران الحاملة للقبة ٤/٨٠ م وهي قائمة ليس بها اي عيب .

تقوم في اعلى زاوية المثلث مقرنصات معقودة ومركبة لتكون منطقة الانتقال من الشكل المثلث الى القاعدة الدائرية . وتتكون من ثلاثة صفوف متتالية الواحد فوق الاخر تنتهي بقاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا . انظر صورة رقم (٣) .

هناك اختلاف واضح في مقرنصات منطقة الانتقال عنها في مقرنصات انحناء القبة وهذا الاختلاف متناهي من الغرض المعماري في احداثها .

فمقرنصات منطقة الانتقال هو تحويل القاعدة المثلثة الى قاعدة ذات ستة عشر ضلعا كما ان التثبيت على قواعد ذات ستة عشر راسا تبدأ من ارتفاع ٩/٥ م ففي هذه الحالة يكون ارتفاع منطقة الانتقال ٤/٧٠ م .

تكون مقرنصات القبة الدائرية عشرة صفوف متتالية يحوي كل صف من الصفوف السبعة الاولى ستة عشر مقرنصا (١٨) .

بينما تحوي الصفوف الثلاثة الاخرى ثمانية مقرنصات لكل منها .

يتم الانتقال من السابع الى الثامن بعقود صغيرة تجمع رؤوس كل مقرنصين متجاورين ويفصل بين كل ضلعين من صفوف مقرنصات القبة قاعدة نجمية ذات ستة عشر راسا في الصفوف السبعة الاولى وذات ثمانية رؤوس في الصفوف الثلاثة الباقية ، حيث ينتهي الصف العاشر بقبة صغيرة نجمية ذات ثمانية رؤوس (١٩) .

ومن دراسة العناصر المعمارية والزخرفية للقبة اضافة الى الروايات الاستطرادية نستطيع تنسيب تاريخ بنائها الى القرن السادس الهجري . هذا وان المرقف يحتوي على خمسة قبور اضافة الى قبر السيدة زمرد خاتون .

(١٨) مظا العديشي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

(١٩) مظا العديشي وهناء عبدالخالق / القباب المخروطية في العراق .

قبة ضريح السهروردي

تقع في الجانب الشرقي من مدينة بغداد « الرصافة » بالقرب من الباب الوسطاني احد ابواب مدينة بغداد الذي لا يزال قائما (٢٠) وفي المحلة التي تنسب اليه وهو الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي المدفون في المقبرة الوردية (٢١) .

في الاصل يتكون البناء من غرفة الضريح والحق بها مؤخرا مسجد يعود تاريخ بناءه الى سنة ٩١٧ هـ ، لها مدخلان الاول وهو الباب الرئيس من داخل المسجد تعلوه كتابة تحمل تاريخ اصلاح القبة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، جدد هذه العمارة المباركة الشريفة لضريح الشيخ القدوة الرباني خطب الاولياء والعارفين شهاب الدين عمر ابن محمد السهروردي روض الله مرقدته محمد ابن رشيد اصلح الله شأنه وذلك في شهر سنة خمس وثلاثين وسبعمائة والحمد لله وحده وصلواته على نبيه محمد وآله) انظر صورة رقم (٤) .

والثاني يدخل من مجاز اضيق الى البناء سنة

٧٣٥ هـ

(٢٠) الباب الوسطاني : ويسمى قديما باب القلرية وهو احد ابواب سور الجانب الشرقي الاربعة .

وظل معظم هذا السور قائما مع ابوابه الى عهد قريب حيث اندثر على عهد الوالي مدحت باشا . لم زالت الاسماء الباقية منه مع الابواب بعد ذلك ولم يبق منه غير باب واحد في جهته الشمالية الشرقية وهو الباب الوسطاني الذي رفعت مديرة الآثار وانخلت منه متعلا للأسلحة القديمة في سنة ١٩٢٩ .

(٢١) أبو حفص عمر بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عمويه واسمه عبدالله البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي . ويصل نسبه الى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان خطيبا شافعي المذهب شيطا صالحا ورعا كبير الاجتهاد في العبادة والرياسة وتخرج عليه خلق كثير من الصوفية وصحب منه أبا النجيب وعنه أخذ التصوف والوعظ والشيخ أبا محمد عبدالقادر صالح الجيلي وغيرهما من الشيوخ وعقد مجلس الوعظ سنين ، وكان شيخ الشيوخ ببغداد ، وتوفي سنة اثنين ولان وستمائة ببغداد ودفن بالوردية . ابن خلكان / وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٦ . دار الفكر - بيروت .

تقوم القبة على غرفة مربعة الشكل ابعادها ٤/٧ م ٤/٩ م خالية جدرانها من الزخرفة على علو ٦/٥ م حيث تزين الجدران دخلات عددها اثنا عشرة دخلة تلف مع جدران الغرف تحيط بها اعمدة خمسة من هذه الدخلات تتوج قسامتها عقود مفصصة والاخر عقود مدببة . يعلوها صفان من المقرنصات يقوم فوقها غطاء القبة تزينه كتابة حديثة العهد . انظر الشكل رقم (٢) .

ومن الخارج فان ظاهر القبة مكون من احد عشر صفا من فوق المنحني الذي تقوم عليه القبة . فهناك اختلاف في مقرنصات القبة الخارجية عنها في الداخلية . صورة رقم (٥) .

فتكون قبة السهروردي مكونة من قبتين الاولى وجه المخروطية وهي الاصلية والثانية اضيفت فيما بعد وهي في باطن القبة الاولى وبينهما فراغ .

وفي سطح المسجد وعلى الواجهة الخالية للقبة من الخارج شريط كتابي :

فانظر الى اثار رحمة ربك كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير . امر بتجديد بعد ثورة... صورة رقم (٦) .

اما تاريخ بناء القبة استنادا الى الرواية التاريخية حيث ذكر د . مصطفى جواد ان احمد ابن عبدالله البغدادي ذكر في كتاب اصول الادب والتاريخ م ١٦ ص ٢٢ عن حوادث سنة ٦٢٢ وفيها توفي الشيخ شهاب الدين ابو حفص عمر السهروردي . ودفن قريبا من الباب الوسطاني داخل بغداد وعقد على قبره اضافة الى هذا وعلى ضوء الصيانة التي اجرتها دائرة الآثار مؤخرا حيث اظهرت لنا زخارف بنائية (٢٢) ملونة وصفوف المقرنصات فاستنادا الى اسلوب رسم الزخارف البنائية وطريقة تصفيف المقرنصات يمكن نسبة بناء القبة الى سنة ٦٢٢ هـ وهي سنة وفاة الشيخ السهروردي (٢٢) .

(٢٢) د . مصطفى جواد : العمارات الاسلامية العتيقة سوم م ٢ سنة ٤٧ .

(٢٣) عطا الحديشي وهناء عبدالخالق / اللباب المخروطية لـ العراق .

الخطيب البغدادي وتاريخه

بقلم المرحوم

عباس المزاري

اخراج

فاضل عباس

بغداد - الجمهورية العراقية

وكشف عن اكابر سلفوا ونهضة مضوا واصحاب نحل
درجوا ... ابان عنهم واوضح مناهجهم وسجل
آراءهم وما قيل فيهم ...

كان موضع الاخذ والرد ، والنقد والتمحيص ،
والجدل والمناظرة ... في عصور مختلفة وازمان
عديدة ومتوالية ... فكان لنقله ، ولآرائه الاثر
الجليل في احتكاك المقالات وايجاد النقول على
اختلافها ... فلم يكن مداحا . وانما اورد ما اعتمد
مما قيل للمرء وعليه ... وهو في كل هذه وغيرها
مرجع المام والخاص ، ومدار النقل والاستدلال
... ولا نقالي اذا قلنا انه لم يسد مسده تاريخ بل
لم نر في موضوعه ما هو خير منه ، او ان يكون اولى
بالاخذ دونه ... فهو يستحق كل تقدير ، واهل
لكل مدح واطراء ... ولسان القلم عاجز ان يقوم
بهذه الخدمة نظرا لعظم العمل الجليل الذي زاولة
فقام به ، وتم على يده ...

وللخطيب مكانة علمية مرموقة تتمثل في هذه
الشهادات سلبا وايجابا :

١ - قال المؤتمن الساجي : « ما اخرجت بغداد
بعد الدارقطني احفظ من الخطيب »

٢ - وقال ابن الجوزي : « من نظر في تصانيفه
عرف قدر الرجل وما هي له مما لم يهيا لمن
كان احفظ منه كالدارقطني وغيره » وقال .
« كان حريصا على علم الحديث . كان يمشي
في الطريق وفي يده جزء يطالعه وكان حسي

يعتبر القرن الخامس الهجري من خسر
المصور الاسلامية وارقاها حضارة وتقدما علميا .

ففيه نضجت العلوم المختلفة وازدهرت بل
تكاملت حيث نالت حظا وافرا من العناية والرعاية
فلا غرو اذا عد هذا العصر من العصور الذهبية للامة
الاسلامية ... كما برزت فيه الآراء والنحل وانجلي
ما غمض منها وابهم .

في هذا العصر الزاهر ظهر مؤرخنا فابرز اعظم
اثر في تاريخ بغداد ، ولم يكن مبرزاً فيه وحده وانما
الف في موضوعات اخر ولم يقصر همته وجهده عليه
وانما كان كما وصفه ياقوت في معجمه ارشاد
الاربيب :

« الخطيب ابو بكر احمد بن علي بن ثابت بن
احمد بن مهدي البغدادي » ، الفقيه الحافظ احد
الائمة المشهورين المصنفين الكثرين ، والحفاظ
المبرزين ومن ختم به ديوان المحدثين .

ولد يوم الخميس لست بقين من جمادى
الاخرة سنة ٣٩٢هـ (١٠٠١م) وتوفي سنة ٤٦٣هـ -
(١٠٧٠م) .

ان العراق يفخر بمؤرخه العظيم هذا ولا يزال
شاكرا لصنعه ومعجبا بعظيم ما قام به فقد خلد
ذكرى جليلة ومنقبة فائقة لا تقدر بشمن ولا يوازيها
عمل تاريخي الى اليوم ... ولم تقف فائدة تاريخه
معد العراق وحده وانما لهج به واثني عليه اكابر
علماء العالم الاسلامي فقد جلا صفحات غامضة

القراءة ، فصيح اللهجة ، عارفاً بالادب يقول الشعر الحسن .

٣ - وقال اسماعيل بن ابي الفضل القومسي - وكان من اهل المعرفة بالحديث - . « ثلاثة من الحفاظ لا احبهم لشدة تعصبهم وقلة انصافهم . الحاكم ابو عبدالله . وابو نعيم الاصبهاني ، وابو بكر الخطيب . قال ابو الفرج . وصدق اسماعيل وكان من اهل المعرفة فان الحاكم كان متشيعاً ظاهر التشيع ، والاخران يتمصبان للمتكلمين والاشاعرة ...

٤ - وقال السمعاني في المذيل . « والخطيب في درجة القدماء من الحفاظ والائمة الكبار كيحيى بن معين ، وعلي بن المديني واحمد بن ابي خيثمة وطبقتهما . وكان علامة العصر . اكتسى به هذا الشأن غضارة وبهجة ونضارة . وكان مهيباً وقوراً نبيلاً ، خطيراً ، ثقة ، صدوقاً ، متحرباً ، حجة فيما يصنفه ويقوله وينقله ويجمعه . حسن النقل ، والخط ، كثير الشكل والضبط ، قارئاً للحديث ، فصيحاً . وكان في درجة الكمال ، والرتبة العليا خلقاً وخلقا وهيئة ومنظراً ، تنتهي اليه معرفة الحديث وحفظه ، وختم به الحفاظ رحمه الله .

٥ - كتب ابو بكر البرقاني الى ابي نعيم الاصبهاني بوصيه بالترجم . (منه)

« ... وقد نفذ الى ما عندك عمدا متعمدا اخونا ابو بكر ... ليقتبس من علومك ويستفيد من حديثك . وهو عبدالله ممن له في هذا الشأن سابقة حسنة ، وقدم ثابت وفهم به حسن . وقد رحل فيه وفي طلبه وحصل له منه ما لم يحصل لكثير من امثاله الطالبين له . وسيظهر لك منه عند الاجتماع من ذلك مع التورع والتحفظ وصحة التحصيل ما يحسن لديك موقعه ، ويجعل عندك منزلاته . وانا ارجو اذا صحت منه لديك هذه الصفة ان يلين له جانبك ، وان تنوفر له وتحتمل منه ما عساه يورده من تثقيب في الاستكثار ، او زيادة في الاصطبار فقديمنا حمل السلف عن الخلف ما ربما ثقل . وتوفروا على المستحق منهم بالتخصيص والتقديم ما لم ينله الكل منهم . اهـ .

ونحن لا نستطيع في هذه العجالة ان ننقل اسماء كافة من اطروه ، واثنوا عليه او اقتبسوا منه ، واخذوا عنه جميعا ... فضلا عن ايراد ما قالوه فيه او في مؤلفه ... ولا تسئل ايها القارئ

عما عناه في وضع مؤلفه من الاتعاب . والسياحات والاسفار ، وما استند اليه من المنقول وما راعاه من المعينات ، والتواريخ التي اعتمد عليها او عول على صحتها فنقل عنها ، او اخذ منها ، وصرح باسمها ... فهو لم يقل قولاً فينسبه لنفسه وهو يعلم انه لغيره وهذا غاية التوفى في النقل ... فلم يضبط حق احد او يسرق قوله ...

فهو المؤرخ الصادق ، والخبر المطلع ، الذي لا نرى في عياره غيره في مختلف العصور ولا يضيع قولاً لقائل . ولا يتأخر عن الجهر به ونقله كما وصله ... في حين اننا لا نراه اعتمد كذاباً ، ولا اخذ عن مغتر ولا مجهول ... وانما تلقى عن المشاهير الاكابر في سائر الاقطار الاسلامية لا في العراق وحده وان كان العراق مركز الثقافة ، ونقطة دائرتها اذ ذاك ... مما حجب مؤلفه للناس .

لا نرى ان ناني هنا على كافة المعدلين له والواقفين به ... وانما الطاعنون كما نقل في الفقرة الثالثة مما جاء في الاقوال فيه انه من المتكلمين وانه يتمصب للاشاعرة منهم فاذا كان هذا مذهبه فلم يكن مضطراً لتحبيذ الآراء الاخرى المخالفة له وهل هذا يعد تمصباً ... اما رجال الشافعية فيعدونه من اكابر ائمتهم والمحدثون يعتبرونه من اساطينهم ، وسائر علماء الاسلام بشون عليه ...

ويكفي للبرهنة على الوثوق منه ان مؤلفه من حين انتشر وتداولته الايدي انصرفت اليه الانظار ، وصارت تفكر في الاستفادة منه والاستقاء من معينه والاعتماد على ما جاء فيه ... او افراغه بقوال باخرى بان تراعى نسقاً اخر لعرضه الى العموم ... بوضع آثار خالدة مقننة في الحقيقة منه ، ومستنبطة نصوصها من اثره الجليل النفيس ... او راعت اسلوبه وطريقة سيره ... فهذا السمعاني قلب تاريخه الى قاموس وجعله بشكل آخر (الانساب) كما انه ذيله ، وهذا ابن الاثير راعى تاريخ الحوادث فقلبه الى شكله وصار خير مرجع له ... وغيرهما ممن كتب في الرجال مال اليه واخذ عنه ، او اختص ، او اضاف ببعض زيادات ... وهكذا . اما الذبول عليه والتمتات له سواء من قبل السمعاني ، او ابن التجار او غيرهما فكثيرة ... وتدل على شدة الرغبة فيه والاعتناء بموضوعه ... وعلى كل لم يظهر في الاسلام مؤرخ بلغ درجته ، او حاول ان يحصل على منزلته من الشهرة والثناء ، والوثوق ، والصدق ، والاخلاص ...

والبغدادي - كما مر - تعرض الى صنوف

متعددة من اهل العلم وارباب نحل عديدة . . .
ومنها ما يخالف خطته ، ويمارض مذهبه . . . وفي
كل هذه التزم الحياد ، وراعى الحيطة بكل معناه ،
ولم يتحامل لمخالفة في النحلة ، ولم يرم لزيع كان قد
راه في عقيدة الخصم . . .

ولا ادل على ذلك اكثر مما نقله صاحب
(السهم المصيب في كبد الخطيب) عن البغدادي
حيث قال :

« قد سقنا عن ايوب السخيتاني ، وسفيان
الثوري ، وسفيان بن عيينة ، وابي بكر ابن عياش ،
 وغيرهم من الائمة اخبارا كثيرة تتضمن تقريب ابي
حنيفة والمدح له والثناء ، والمحفوظ عند ثقله
الحديث عن الائمة المتقدمين وهؤلاء المذكورين منهم
في ابي حنيفة وكلامهم فيه كثير لامور شنيعة حفظت
عليه يتعلق بعضها باصول الديانات وبعضها بالفروع ،
نحن ذكروها بمشيئة الله ومعتذرون الى من وقف
عليها وكره سماعها ، بان ابا حنيفة عندنا مع جلالة
قدره اسوة بغيره من العلماء الذين دوننا ذكرهم في
هذا الكتاب واوردنا اخبارهم وحكيما اقوال الناس
فيهم على تباينها (١) . » ا هـ .

وبهذا هدم اقوال من تحامل عليه واجابهم عما
كان يامل ان ينقلوا به ولا عجب ان يؤيد نزاهته
وينقل الاقوال على تباينها فيه وفي غيره ولم يشأ
ان يخرج عن الخطة القويمة وان يتمداها في بعض
دون بعض . . . وانما ترك حق التقدير للقارىء .

وما نقول في الردود الا ان الرجل نقل ما
وصل اليه مما قيل لمن ترجمه او عليه وبعضها
ناشئ عن مخالفة في المعتقد ، او تخالف في الفقه
والفروع او تحامل من جراء واحدة من هاتين . . .
ولا يسلم امرؤ من مبغض او محب . . . وقد قيل
من الف فقد استهدف . . . والذي يريد معارضة
البغدادي في هذا فانما ينبغي ان يصب معارضته
في صحة النقل فيطلب التصحيح والا فلا يهدم نقله
بأدلة اوردها عقلية ، او عقائدية او ما مائل من نحل
وآراء او تحاملات . . . فهذه ليست من شأن
المتناظرين في القول وامر تصحيحها او طلب
مستنداتها . . . في حين اننا لا نرى من كذب النقل
لا في حياة الخطيب ولا بعد وفاته فهذا هو الذي
يجب ان يلاحظ في النقل . . .

وللخطيب مع هؤلاء المتحاملين عليه اسوة
بغيره من الصحابة واهل العلم من التابعين

وتابعيهم . . . وكذا يقال في ابي حنيفة والطاعنين
فيه . . . والرجل العظيم لا يدقق من ناحية المدح
والدم وانما ينظر اليه من جهة اعماله التي قام بها
ومبادئه التي بتها والخطة التي نهجها . . . فاللوم
الشخصي لا قيمة له ولا اعتبار . . . ومن غلبت
حسناته على سيئاته رجح وكل احد يؤخذ من قوله
ويرد الا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ويصدق هذا على الكل فقد اورد الذهبي عن
عبدالله بن مسعود رضي الله عنه انه انفرد في امور
حفظت عليه خالف بها الجمهور وقال : ان هذه مما
لا تظن في مكانته ولا تقتل من منزلته . . . وكل
احد يؤخذ من قوله ويرد الا الرسول صلى الله عليه
وسلم . . . والمنقول عن الامام مالك رضي الله عنه
مثل هذا او هو المنقول عن اصل هذا القول :

ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها
كفى المرء نبلا ان تعد معايبه

ان المدونات التاريخية لا يصح الاكتفاء ببعضها
عن بعض بان يقال هذا اجمع ويغني عن غيره وما
ماثل وانما يلاحظ في كل مؤلف ما صرف نظره
للبحث فيه وما حاول الكلام عليه وجعله مدار بحثه ،
ومرتكر اهتمامه ، وذلك ان من كان يميل الى
الحوادث لا يستغنى بما يكتبه عن العلاقات
السياسية او العلمية او الصناعية ، او الشرعية
وهكذا . . . لم نجد تاريخا يبحث في هذه الامور ،
او يتكلم عليها بسعة وكذا ما كان قريبا او جغرافيا
لا يغني عنه غيره . . . وهكذا .

ولذا ينبغي ان نعقب كل جهة من جانب
ليتبر لنا الجمع ، والاخذ بكل الجهات ، ومن كان
همه المذاهب السياسية فلا يكفي بكل ذلك وانما
يجب ما يجب الاطلاع عليه مجرى السياسة والطرق
المتبعة فيها ، والوسائل التي راعاها كل سياسي .

وهذه لا نراها صريحة في كتاب ، او نعلمها من
تاريخ . . . وانما ذلك مواهب تستفاد من مجرى
الحوادث واتصالها وسائر حوادثها فلا يمكن العثور
عليها مجموعة . وما وجد كان بالنسبة لراي شخص
او استنتاجا فردا يصح ان يصيب شاكلة الحق
في امر ويخطئ في امر . . . وهكذا وانما نرى
بصيص نورها في مؤلفات ذلك العصر ، وآثاره
ووضع الجغرافي ، والاقتصادي ، والمدني . . .

والهم هنا البيان عن تاريخ عرك صاحب
الامور وما هديته السياحات ، وراعى البصيرة في
بحوثه التي سقلتها التجارب . فهو وان لم يتعمد

٢ - المشاهدات :

عاش ببغداد وعاد اليها ورأى آثارها ودخل جوامعها ومساجدها وفانسل مثل هذا لا يكذب بصره ما رأى ... وترى ذلك واضحا فيما حكاه عن مسجد برانا وما ناله من التقلبات .

٣ - العلماء والصلحاء :

يحكى عنهم ويتكلم معهم وينقل ... وبوسعنا ان نقول ان المترجم وضع مؤلفه في تراجم علماء كثيرين مختلفي النزعات والمذاهب ، فاطنب في تراجمهم ونقل ما قيل فيهم وتبسط في القول حتى بلغ غايته ...

٤ - التراجم :

ترجم لكثيرين من العلماء والفضلاء . ومن اراد ان يترجم لمن يتعصب عليه بعضهم نقل ما اسند روايته ، وحكى ما قيل فيه على لسان غيره وراعى حقيقة صفته ولم يبد رأيا ، ولا تكلم عن محاكمة له وهكذا ... وترى ذلك واضحا في ترجمة معاوية ...

ظهر تاريخ بغداد مطبوعا سنة ١٢٤٩هـ - ١٩٣١م وكان الناس يسمعون به ولا يرونه فهو اشبه بمنقاء مغرب ، ولم يصلنا خبر المباشرة في طبعه حتى وافى الكتاب .

يعود لمصر الفضل في المبادرة الى طبعه وان كان احد العراقيين قد اشترك في ذلك وهو صديقنا الاستاذ نعمان الاعظمي الكتبي وكذا لها الفضل الاكبر في احياء تراثنا الفكري الخالد .

وكيف لا تحرس على ذلك وهي اهم قطعة في البلاد الاسلامية العربية التي تقدمت بل عرفت ان تحيي المدنية . اغارة وتضيف اليها حضارة عربية جديدة نافعة فتعيد الثقافة العربية والاسلامية ...

واني الان في معرض ذكر التاريخ المبين في صدر هذا المقال .

ان هذا التاريخ منذ تاليفه الى اليوم ينقل عنه السياح لوصف ما جاء فيه والمؤرخون يتناولون منه اقتباسا واختصارا وتوسعا وهكذا ... فكان - ولا يزال - معينا لا ينضب وبحرا لا يفور ولا ينفد ... وكل هذه لم تف بالحاجة او لا تخلو من تكرار ، وقد مللناها وسئملناها وضجرنا من قولها واسترنا في صحتها لتفاوت النقل بين السعة والاختصار .

السياسة ، ولم يجرب الادارة ففي البصيرة ، والتجوال ما يلفت النظر ويدعو لجمع معلومات جيدة ، واحوال طيبة من شأنها ان توقف المتبعين على بعض المجاري ، وقد يرى منها ما يشفي غليله وفي الاشارة ما يدعو الى ان يوضح له في طريقه ...

وهذا التاريخ لاكبر مؤرخ نال في عصره مكانة ، وحصل على رضا الناس وكسب رغبة تامة اعني به ابا بكر البغدادي .

لا يمكن الوقوف على غالب البحوث السياسية الا من طريق التاريخ ولكن يجب استنطاق مؤرخين كثيرين ومجاورين لمعرفة حقيقة الواقعة ، وماهية الوضع .

اما البحوث العلمية والادبية فانها قابلمان للجهود التي بذلها القوم ، والآثار التي خلفوها ... على عكس تلك ... وقد تغيب من البين وتنعدم ولكن عزاءنا عن ضياعها كثرة امثالها وتكررها ... الا ان من يهمه احوال محيطه يأسف لضياع ما وقع وما جرى حكمه عليه ...

وقد كتب مؤرخون عن هذا المحيط وعلاقته بالاقوال والممالك الاخرى او بصورة منفردة واوضحوا ما شاهدوا وقرروا ما راوا ... الا ان مؤرخنا ممن حاز قصب السبق وحصل على الشهرة الفاتنة ... فوقف المؤرخون عنده فلم يجتازوه ولكنهم حوروا وغيروا فوصلوا الى اغراضهم استقاء من تاريخه ...

واخرون اختلفوا طريقته ومشوا مشيته فذبلوا من حيث وقف وانما وصل عندهم الى ما وصلوا اليه ، او عقبوا الاثر ومشوا من حيث وصل السابق وهكذا ...

واني ذاكر هذا المؤرخ ، وتاريخه ، ونهجه بالنظر لعصرنا والنقد الوجه عليه من كل وضع ... وليعذر القارئ العصر والتفاوت فيه واختلاف النهج التاريخي ...

وهنا مجمل ما يقال انه كتب تاريخه بعد ثلاثة عصور مضت عن تاريخ بناء بغداد وراعى فيها المصادر التالية :

١ - الروايات :

ولما كان من المحدثين فانه يعول على روايته وبؤخذ بسنده ويسمع قوله ، وقد اخذ عن الثقات ومؤلفاته في الرواية كثيرة ، وقد محص الروايات وقرر رايه الاخير فيها (راجع الاحاديث المروية عن بغداد) .

١ - الكتاب

ان هذا التاريخ لم يوصف اصله، ولم ينحرف عن نسخه ولا روعي قدمها في خزائن الكتب العامة المتفرقة في انحاء المعمورة ، وللطابعين العذر اذ لم يروا مساعدات مشجعة ولم ينالوا ترغيبا ولا انعامات ليراعوا شروط الطبع بحيث يضارع طبع المطابع المصرية التي في حوزة الحكومة وكان ذلك يقتضي قيام تعاون ثقافي بين مصر والعراق ، لتحقيق هذا المشروع كما يوجب ذلك قيام لجنة علمية لتقابل النسخ المختلفة والتعليق عليها ، واتخاذ فهارس نافعة توفر على القارئ كثيرا من الجهد والوقت .

٢ - الورق المطبوع عليه الكتاب :

لم يلاحظ الورق وجوده الامر الذي شرحناه .

واذا تعذر على الحكومة النهوض بهذا العمل الشاق فلا تعذر في المعاونة والشروط على الطابعين لفرض ابرازه بشكل كامل بعيد عن عيوب الطبع واخطائه .

ان الكتاب لا يخلو من اغلاط مطبعية واغلاط اخر تظهر للرأي فهذه - للاسف - لم تلاحظ

٣ - الاعلام الواردة فيه :

لقد ذكرت في كتب اخرى ان الواجب كان يقتضي ان ينسج الى مواطن الاختلاف في النسخ المعتمدة في الطبع لتبصر القارئ المتبع والباحث المتخصص .

ملاحظة اخيرة :

اذا فات الجهات الرسمية عندنا المساهمة في طبع جزء من هذا الكتاب فبوسعها ان تتلافى ذلك في الاجزاء التالية ، او اذا كانت لا تستطيع الاشتراك في هذا الكتاب فبوسعها ان تعقب ذبول هذا التاريخ وتتخذ الالزمة لطبعها وتقوم بعمل كبير وخدمة نافعة ... ولتبرهن على حبها لتاريخنا القومي بعمل ما فاذا كانت تتحرى الآثار القديمة وخدمتها للحضارة والاحتفاظ بها فقصورنا ومنشأتنا العربية والاسلامية اولى بالاحتفاظ ، خصوصا انها لم تقطع علاقة معها ولا تزال ذات صلة دينية ووشائج قومية فهي منها واليها .

وقد برز اليوم هذا التاريخ الى الوجود فزال ما ران على البحوث من الابهام وكشف الحجاب فلم يبق بيننا وبينه حاجز ولا حائل ، فهو بين ايدينا نقرؤه ونندبره وتأخذ عنه مباشرة ولا شك انه سوف ينسخ الاراء التي لا قيمة لها ويبطلها مما قد شاع وانتشر بين ظهرانينا فواساطير بقيت في عماء بسبب قلة نسخه وندرتها .

فلا يسمننا الا ان نرجي الشكر والثناء للقائمين على طبعه والسامعين في نشره فلم فضل السبق والمبادرة وينبغي الا تقف عند التحصيل الابتدائي وتكثر مدارسه وما مائل من الامور الاولى فقط وانما نحتاج الى الثقافة العليا والتربية الراقية واهمها الكتب العامة وتاريخ القطر ومعرفة اهليه وطبع آثار اسلافه مما يخدم العلم الصحيح والامم المتقدمة اليوم لم تكتف بالتحصيل الابتدائي ولا الثانوي بل ولا العالي ، وانما نلاحظ المجامع العلمية ، واحياء الآثار التاريخية ، والتسربية الاسلامية ... لتوليد الاختصاص وكل هذه لم تحل عندنا المحل اللائق بها اذ كان ينبغي لها ان تجلب المؤلفات النادرة وتعهد به الى بعض الفضلاء ليتولوا تحقيقها بل انها لم تحصر على آثارنا الفكرية ونقائس المخطوطات فتسربت الى الخارج واصبحتا نلتمس وجودها في عواصم أوروبا وأمريكا عندما نريد التأليف أو الاستشهاد ببعض ما ورد فيه مما له علاقة بتاريخنا أو حياتنا العقلية .

يتميز كتاب (تاريخ بغداد) بمزية واحدة وهي انه عرف بمحيطنا في ايام قليلة لا ندري ما جرى وراءها ، او انه ذكر صفحة تمكن من ذكرها ولكن وراءها كثير من الامور التي اغفلها ، فهذه يجب ملاحظتها ودراستها ، وهذا لا يتيسر ما لم تعد المادة وتحفز الهمم للقيام بهذا العمل .

لقد سلخ هذا القطر اياما سعيدة في الادارة ، واصابته نكبات وبيلة ، او كان بين هاتين الفترتين مدهوشا ومتحيرا لا يدري اين يتوجه فكشف هذه الحالات يحتاج الى سهر دائم ، وشغل مستمر ... والا فلا تكفينا بسد مبتورة ، ووثائق مختزلة ، واشارات مبهمه ...

واعمالنا الفردية لا تفي بهذه الحاجات وانما نحتاج الى مجامع علمية وجمعيات تاريخية ، وبعثات نافعة ...

ولنرجع الى التاريخ :

اعلام في بلاد اندلس في بغداد

بقلم الدكتور

محسن جمال الدين

كلية الاداب/جامعة بغداد

مقدمة

ان خطة البحث تدور في مجملها حول النقاط الآتية :-

- ١ - بين بغداد وقرطبة .
- ٢ - اثر بغداد في الاندلس : في النواحي : الثقافية ، ولادبية ، والفنية .
- ٣ - اثر المعاهد العراقية ، والعلماء العراقيين على الحركة العلمية ، والادبية ، والفكرية في الاندلس .
- ٤ - اثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي .
- ٥ - اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية .
- ٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

١ - بين بغداد وقرطبة

قال (الحموي) في معجم بلدانه : « بغداد ام الدنيا وسيدة البلاد » (١) .

ووصفها ابن زريق الكوفي الشاعر بقوله : (٢)

سافرت ابني لبغداد وساكنهم

مثلا ، قد اخترت شيئا دونه الياس

هيات بغداد ، والدنيا باجمعهم

عندي وسكان بغداد هم الناس

وقال (ياقوت) (٣) . نقلا عن بعض الافاضل :

« بغداد ، مدينة السلام ، وجنة الارض ،

وقبة الاسلام ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ومجمع

الحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف ! ! »

تلك شهادات صادقة عن عاصمة العراق ، في ماضيها التليد ، وحاضرها المجيد .

وذكر ايضا فقال : (٤)

كان (ابن العميد) اذ طرا عليه احد من منتحلي العلوم والاداب ، واراد امتحان عقله سألته عن (بغداد) فان فطن بخواصها ، وتنبه على محاسنها ، واثنى عليها جمل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ثم سألته عن (الجاحظ) فان وجد اثرا لمطالعة كتبه ، والاقتباس من نوره ، والاغتراف من بحره ، وبعض اقبام بمسائله ، قضى له بانه غرة شاذخة من اهل العلم والاداب .

وان وجدده ذاما لبغداد غفلا عما يجب ان يكون موسوما به من الانتساب الى المعارف التي يختص بها (الجاحظ) لم ينفعه شيء من الحاسن !

ولما رجع (صاحب) عن بغداد سأل (ابن العميد) فقال : بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثلا في الغاية في الفضل (٥) .

ان السر الذي يكمن في (بغداد) كعاصمة للخلافة العباسية ، في انها جمعت بين حسن الموقع ، واعتدال الطبيعة ، وتباين المجتمع ، وعمارة الاسواق ، وتصارع الافكار ، وتصادم الآراء ، وتمازج العقول ، وتقبل الغرباء ، والترحيب بالاصدقاء ، ومحاربة الاعداء . الى ندوات العلم العامرة ، ومنائر الدين الشامخة ، ومعاهد المعرفة السامقة ، ومساجد التقوى الواسعة ، وجوامع الفضيلة الهادية ، وخزائن الكتب المزدحمة ، واسواق الوراقين المتعددة . الى مستشفيات ، ومصحات ، ومنزهات ، وفنادق ، وحمامات . كلها تدعو للعلم والايمان والفضيلة والصحة والرعاية بالمرض والمعجزة والمنقطعين والبائسين . يقابل ذلك حب الخلفاء والامراء والقادة والحكام ، للعلم والمعارف . والعناية ، والرعاية بالعلماء والادباء والشعراء . وكان من ابرزهم . المنصور ، والمهدي ، والهادي ، والرشيد ، والمأمون ، والناصر لدين الله .

هذا في الطرف الشرقي من العالم الاسلامي . وفي العراق ، وعاصمته بغداد .

اما في الطرف الغربي من العالم الاسلامي فتطل علينا (قرطبة) الاندلسية عاصمة الامارة والخلافة الاموية ، وما حل بها من امراء الطوائف ، ومن المنتزعين على الخلافة من المرابطيين والموحدين قال : صاحب (الروض المعطار) في موسوعته الجغرافية (٦) عن (قرطبة) :

« وقاعدة الاندلس ، وام مدنها ومستقر خلافة الامويين بها ، وآثارهم بها ظاهرة ، وفضائل (قرطبة) ومناقب خلفائها اشهر من ان تذكر . وهم اعلام البلاد ، واعيان الناس . اشتهروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزي ، وعلو الهمة ، وجميل الاخلاق .

وكان فيها اعلام العلماء ، وسادات الفضلاء . وتجارها مياسير ، واحوالهم واسعة وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى (جبل العروس) . »

واستمر يصفها ويصف جامعتها الكبير فقال : « وبها الجامع المشهور امره ، الشائع ذكره . من اجل مصانع الدنيا كبر مساحة ، واحكام صنعة وجمال هيئته ، واتقان بنية . صار يحار فيه

الطرف . ويمجز عن حسنه الوصف . وليس في مساجد المسلمين مثله تنميحا وطولا وعرضا ! ! » .

ومثلما تنافس الشعراء البغدادية من المشاركة في وصف مدينتهم (بغداد) رأينا الاندلسيين اخذوا يجارون اهل المشرق ، في وصف (قرطبة) ومدحها قال الشاعر عبدالحق بن عطية الغرناطي يصفها مادحا : (٧)

باربع فاقت الامصار (قرطبة)
وهن قنطرة الوادي ، وجامعها
هاتان تثنان ، والزهرراء نالثة
والعلم اكبر شيء ، وهو رابعها
وقال احد الشعراء في وصف (قرطبة) (٨) .

دع عنك خضرة (بغداد) وبهجتها
ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الارض قطر مثل (قرطبة) .
وما منى فوقها مثل ابن حمدين
والف (ابن سعيد المغربي) كتابا اسما
(النصب الثاقبة ، في الانصاف بين المشرق والمغرب) (٩) . وبه يتحدث عن مدن الشرق والاندلس ويقارن بينها . اقتبس منه (ابن فضل الله العمري) في كتاب (ممالك الابصار) .

وزارها (ابن حوقل الموصل) ووصفها في (رحلته) وقارن بينها وبين بغداد . فقال : (١٠)

« هي اعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه في كثرة اهل ، وسعة محل . وفسحة اسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق .

ويتعدد الكتاب والمؤرخون الاندلسيون الذين امتدحوا بلادهم ، كابن سعيد المغربي ، وابن حيان ، والرازي ، والحجازي وغيرهم . »

ومما قاله (الحجازي) عن (قرطبة) (١١) :

« منتهى الغاية ، ومركز الراية ، وام القرى ، وقراره اولي الفضل والتقوى ، ووطن اولي العلم والنهى ، وقلب الاقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن افقها طلعت نجوم الارض ، واعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها انشئت الناليف الرائقة ، وصنفت التصنيفات الفائقة . »

وهذه شهادات لها قيمتها في عالم التاريخ !

٢ - اثر بغداد في الاندلس ، في النواحي الثقافية ، والادبية ، والفنية .

ان نظرة عامة على العاصمتين العباسية ،
والاندلسية نجد ان (بغداد) هي صاحبة الفضل
والايبادي السابقة على (قرطبة) . فلقد كان العالم
في الاندلس لا يجد له منزلة بين قومه حسب - قول
المصادر الاندلسية - القديمة . ما لم يكن قد زار
بغداد . واتصل بالشرق عن طريق الرحلة والدراسة
والتحصيل والزيارة .

واذا استعرضنا جمهرة العلماء الوافدين الى
المشرق عامة ، وبغداد خاصة كما ذكرهم اصحاب
المكتبة الاندلسية B.A.H. ، كابن الفرضي وابن
بشكوال ، وابن الابار ، والحميدي ، وابن خسر
الاشبيلي ، وابن سعيد المغربي ، والمقري لدهشنا
من كثرة عددهم ، واختلاف طبقاتهم ، وثمرات
عقولهم ، وعظيم نتاجاتهم ، العلمية ، والادبية ،
والفكرية ، والفنية ، والفقهية .

ولقد قمنا بدراسة منذ سنوات عنهم بعنوان
(الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية) (١٢)
ونشرناها في (مجلة كلية الاداب) (جامعة بغداد) .

ومثلما كان خلفاء بني العباس يشجعون العلم
والعلماء . كان خلفاء بني امية في الاندلس يدعون
الى ذلك ، ويبذلون الاموال في سبيله . ففي (قرطبة)
كانت اسواق الكتب رائجة ، ومنتديات العلم
منتشرة .

ومن اعظم اولئك الامراء والخلفاء يانسي في
المقدمة (صقر قریش) الامير عبدالرحمن الداخل ،
والامير عبدالرحمن الثاني (الوسط) ، وعبدالرحمن
الناصر ، والحكم المستنصر (١٣) .

ونلاحظ ان صاحب الفضل الكبير في فتح
ابواب الاندلس امام الثقافة البغدادية العراقية .
كما اجمعت عليه المصادر القديمة ، والمراجع
الحديثة . انما هو عبدالرحمن الاوسط الذي تولى
السلطة عام (٢٠٦ هـ - ٨٢٢ م) واتسع مجال
النشاط الفني والادبي في عهده ، لانه كان مثقفا ،
شاعرا ، محبا للفلسفة والشريعة . (١٤) ورحب
بالوافدين اليه من (بغداد) واستقبلهم خير
استقبال وافاد مما حملوه معهم من طرز الحياة ،
وانماط الحضارة ، وتعدد الثقافات .

وان التأثيرات البغدادية على الحضارة
الاندلسية ، لم تكن مقتصرة على الفن وطراز العيش ،
بل رايثا تأثير الشعر العباسي والنثر ، يبدو واضحا

على الادب الاندلسي ، في بداية مدرسته المحافظة ،
وفي حركة مدرسته المجددة .

واصاب اهل الاندلس من الشعراء والمؤلفين
غيرة التقليد والمعارضة . يسرون فيها على شاكلة
البغاددة واهل العراق .

فابو تمام المغرب ، ومثنبي المغرب ، وبحثري
المغرب . وغير هذه الالقاب والمظاهر ! كما عورضت
قصائد ابي تمام ، والبحثري ، وابي نواس ، والمثنبي
والمرعي ، والشريف الرضي .

ونقد بعضها ودرسه دراسة محايدة (ابن
بسام) في (ذخيرته) (١٥) كما اخذ على بني قومه
تقليدهم للمشاركة . - ولكنه - قد نسي نفسه يوم
تأليفه لكتاب (الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة)
الذي سار به على غرار (يتيمة الدهر) للثعالبي (١٦)
ولقد قال حائنا قومه ، ومثيرا لتقليدهم :

.. « الا ان اهل هذا الافق ، ابو الا متابعة
اهل المشرق ، يرجعون الى اخبارهم المعتادة ، رجوع
الحديث الى قتادة . حتى لو نطق بتلك الافاق غراب ،
او طن باقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا
سمنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما » (١٧) .

وهذا برهان ساطع على تاثر اهل الاندلس
بالمشرق ، واهتمامهم بما تبذره القرائح العراقية في
بغداد .

٣ - اثر المعاهد العراقية والعلماء العراقيين على الحركة العلمية والادبية في الاندلس .

كانت ابواب دار الحكمة ، والنظامية ،
والمستنصرية مشرعة امام الوافدين اليها من الاندلس
وبقية الاقطار الاسلامية شرقا وغربا . وفي (تاريخ
بغداد) للخطيب البغدادي .

وكتب البلدان ، والمدن ، والرجال ، والتراجم ،
الامثلة التي لا يحتاج لها دليل وبرهان على عظمة
الحركة العلمية في العراق .

ومن الطبيعي ان الطلبة الوافدين من الاندلس
شانهم ، شأن الآخرين ، يتلقون العلم على جلة العلماء
المشهورين ، في مختلف حقول الثقافة ، واللغة ،
والفقه ، والادب . وغيرها من فنون المعرفة الانسانية
والعلمية .

وقد وجدنا منهم طبقة درست على الامام
(الفزالي) كالمهدي بن نومرت رئيس حركة الموحدين
الذي جاء من المغرب ، وادخل مبادي حركته

الدينية والسياسية في عقول انصاره الذين اسسوا دولتهم في المغرب واحتلوا بعدها الاندلس (١٨) .

ووجدنا القاضي (ابا بكر ابن العربي) يصاحب العالم العراقي ابا بكر الشاشي (١٩) ووجدنا الحميمي يعيش في بغداد ويتلمذ على الخطيب البغدادي ، ويتلقى العلم على طبقة اخرى من مشاهير العلماء ، ويؤلف كتابه الشهير (جذوة المقتبس) (٢٠) في بغداد ، ولم يغادرها وفضل البقاء فيها حتى مات ودفن في تربتها .

وهناك عالم الاندلس المعروف (ابو الوليد الباجي) الذي قضى شطرا من حياته في بغداد تلميذا وعاد لبلده عالما ، وقد تلمذ على ابي الطيب الطبري في بغداد ، وعلى ابي اسحق الشيرازي .

والملاحظ - مع الاسف - ان اغلب هؤلاء العلماء الذين استوطنوا (بغداد) زمنائهم عادوا لوطنهم ، لم يضعوا لنا كتباً عن انطباعاتهم ، وقضايا حياتهم ، وتراجم علمائهم ، الذين تلقوا العلم عنهم ، الا فئة قليلة من اصحاب (الرحلات) الذين زاروا البلاد ووصفوها وصفا يختلف اختصارا وشمولا ، وعمقا وسطحية .

ومن هؤلاء الرحالة الاندلسيين (بنيسامين التطيلي) الذي جاء ليستطلع احوال اليهود في الشرق الاسلامي ولف رحلته المروقة باسمه (٢١) .

وكذلك الرحالة الكناني (ابن جبر الاندلسي) الذي وصف الاقطار الاسلامية التي مر عليها ومن ضمنها العراق (٢٢) .

انا اذا اردنا ان ندرس الخطى الاندلسية التي جاءت من ديار الاندلس باصحابها الى (بغداد) نجد انها قد مرت على بلاد متعددة برية ، وبحرية ، ومغربية ، وشرقية .

وقد سلك في سيرها طريق البحر والبر . طريق البحر في العبور من الجزيرة الخضراء ، و (جبل طارق) ، ومواني الاندلس الجنوبية والدخول الى (سبتة) ومن ثم السير برا في سواحل الشمال الافريقي . والوصول الى (مصر) والبحر الاحمر ، وزيارة الديار المقدسة ، وبيت المقدس ، وبلاد الشام ، والعراق . ومنهم من يجعل السفر بالسفن التي تمر في البحر المتوسط وينزل في بعض جزره ، ثم يواصل الرحلة حتى ترسو به باحدى المواني العربية . وبعدها يسلك طرق البر كي توصله الى (دار السلام) !!

وفي رحلة (ابن جبر) المثال على ذلك !!

وكان من الطبيعي ان تجذب بغداد اليها العديد من الناس من هنا وهناك . من اقاصي المشرق الاقصى ، وما وراء النهر ، الى سواحل الاطلسي ، واطراف المغرب ، وكل هؤلاء كانوا يفدون اليها للعلم ، والتجارة ، والسياحة ، والاطلاع ، والمراقبة ، ورصد المعلومات ونقل الاسرار ، وفي رحلة (التطيلي) ما يدل شاهدا على ذلك الامر ، ومثالا على الغرض الخفي لتلك الرحلة ! ! .

كما ان الامر يكون معكوسا احيانا للغرض نفسه من العراق الى الاندلس . كما وجدناه في رحلة (ابن حوقل) الموصل ، الذي زار تلك البلاد ، وصور واقعها الاجتماعي ، والسياسي ، والعلمي . وقد اتهم بان زيارته ورحلته كانت يدافع سياسي ، من الخلافة العباسية !! (٢٣) .

٤ - اثر النتاج العراقي في حركة التأليف الاندلسي

مما لا شك فيه ان مدرسة بغداد العلمية ، كانت هي الرائدة في حقل الترجمة ، والتأليف . من طب ، وفلسفة ، وحكمة ، ومنطق ، وكلام ، واداب ، وتاريخ ، وجغرافية ، وعلوم ، وفنون .

وكان العراقيون هم الاساندة في مختلف هذه الميادين ، لما ترجموه ، ودرسوه ، واخذوه ، وهضموه ، من الامم الاخرى وما ابتكروه بانفسهم . بحيث امتزجت تلك الثقافات في بوتقة الفكر العربي ، واصبحت ذات طابع عراقي عربي معروف .

وفي اي ميدان من الميادين العلمية ، والادبية ، والثقافية . كان لبغداد الحصة الكبيرة ، والريادة الهادفة النافعة .

فاذا الف (الجاحظ) مثلا رسالة التربيعة والتدوير . سار على خطاها في النقد والفكاهة (ابن زيدون) في رسالته الهزلية .

واذا الف (ابن داود الظاهري) كتابه (الزهرة) الف هناك (ابن فرج الجياني) كتابه (الحقائق) واذا صنف (النعالي) بنسمة الدهر ، راينا (ابن بسام) يؤلف الذخيرة في محاسن (اهل الجزيرة) .

واذا الف (ابن سينا) (حي بن يقظان) في المشرق ، راينا (ابن طفيل) يؤلفه في الاندلس . واذا صنف (ابن قتيبة) كتابه (عيون الاخبار) في بغداد . وجدنا (ابن عبد ربه) يؤلف (العقد الفريد) . وهكذا تستمر هذه الصورة في مختلف الاطارات التي تحيط بها (٢٤) .

وقد نقلت روائع العراق الى الاندلس عن طريق طلبة العلم ، والمسافرين ، والرحالة ، والتجار ، والوسطاء ، والوافدين ، والمهاجرين الى هناك . وتشجيع الخلفاء الامويين في قرطبة ، والامراء في اشبيلية ، وبقية مدن الاندلس المأمرة . لنقل تلك الروائع . كما حدث ذلك في زمن الناصر والحكم المستنصر في (قرطبة) وابراهيم بن حجاج في (اشبيلية) (٢٥) والمثال على ذلك كتاب (الاغانى) الذي انتشر في قرطبة قبل ان يقرأ في (بغداد) . لكن يا ترى ، ما هو المعيار الفني ، والنقدي ، للمقارنة بين هذين النتاجين ، العراقي ، والاندلسي ؟

ان لتلك البلاد نتاج له خصائصه ، وله روعته . ولكن يبقى اثر العراق هو البارز ، وثمرات افلام ابناء الرافدين هي المتميزة على غيرها . اللهم الا باختراع الفنين الشعريين (الموشحات) ، و (الازجال) . اللذين تميزت بهما العبقرية العربية في الاندلس ! ! .

٥ - اثر العلماء والفنانين العراقيين الذين رحلوا الى الاندلس ، واثروا في حياتها الادبية والاجتماعية

في بعض ظروف لم يكن معلوما لدينا سرها الان ، بوضوح ، عن اسباب هجرة من العلماء ، وارباب الفن العراقي ، للاندلس في عصر كان مزدهرا ، حسب قول المؤرخين العرب ، فمنهم من كان يعزى هجرتهم الى اضطهاد فكري ، ومنهم يرجعها الى فقر مادي ، ومنهم من يعطونها الى حب الفسامة والاستطلاع . ومهما كانت الاسباب . فقد حفلت كتب التراجم الاندلسية بطائفة من اخبار (الغرباء) الذين وفدوا على الاندلس و (الطارئين) عليها . وفي مجموعة (المكتبة الاندلسية) B. A. H. الكثير منهم . وفي (الذخيرة) لابن بسام ابرزهم ، وفي (نفح الطيب) اشهرهم .

ومن هؤلاء من دخلها في عصر الامارة ، ومنهم ايام الخلافة ، ومنهم في عصر الانحدار والتأخر والفتنة ، وعصر الطوائف ، وايام المرابطين والموحدين ونهاية مملكة غرناطة .

وكان من ابرزهم دون منازع العالم العراقي (ابو علي الغالي البغدادي) (٢٦) الذين ذهب اليها ايام الناصر لدين الله (٣٠٠ هـ - ٣٥٠ هـ) و (صاعد البغدادي) (٢٧) الذي قصدها ايام المنصور بن ابي عامر (٣٢٦ هـ - ٣٩٢ هـ) و (زرياب المغربي

البغدادي) (٢٨) الذي هاجر اليها ايام الامير عبدالرحمن الثاني (١٧٦ - ٢٢٨ هـ) والشاعرة المغنية (قمر البغدادية) (٢٩) التي جلبها واشتراها الامير ابراهيم بن حجاج الاشبيلي وهي التي حنت لوطنها العراق ، ولايام (بغداد) فقالت : (٣٠)

آها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في احداقها
ومجالها عند الفرات بأوجها
تبدو اهلتها على اطواقها
متبخترات في النعيم كأنما
خلق الهوى المدري من اخلاقها

نفسى الغداء لها فاي محاسن
في الدهر تشرق من سنا اشراقها
والعالم الشاعر (ابو الفضل البغدادي) الذي ترجمه (ابن بسام) في (ذخيرته) ونقل لنا طائفة كثيرة من اشعاره والتي منها يتشوق لبلاده حيث قال : (٣١) وكان ذلك في عصر الطوائف : -

اهيم بذكر الشرق والغرب دائباً
وما بي شرق للبلاد ولا غرب
ولكن أوطاناً ذات واجب
فقدت متى أذكر عهودهم أصب
إذا خطرت ذكراهم في خواطري
تنائر من أجفاني اللؤلؤ الرطب
ولم انس من ودعت بالشط سحرة
وقد غرد الحادون واستعجل الركب
اليغان هذا سائر نحو غربة
وهذا مقيم سار عن صدره القلب
وقال (ابن بسام) في القسم الرابع من (ذخيرته) عن هؤلاء الوافدين (٣٢) .

« افردته لمن طرا على هذه الجزيرة في المسدة
المؤرخة من اديب شاعر ، واوى الى ظلها من كاتب
ماهر ، واتسع فيها مجاله ، وحفظت في ملوكها اقواله
ووصلت بهم ذكر طائفة من مشهوري اهل تلك
الافاق ، ممن نجم في عصرنا بافريقية والشام
والعراق » .

وقد عد في مقدمتهم (صاعد البغدادي) اللغوي وتلاه (بابي الفضل الشاعر البغدادي) اما صاحب (النفح) فقد اشار في مقدمة تراجم الوافدين الى الاندلس بقوله : (٣٣)

« اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق
قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم ، فضلا عن غيرهم ،

والاندلس هي التلميذة النابغة ، التي تخرجت في جامعة (بغداد) وافادت من ثقافة اساتذتها ، وتاليف علمائها بحيث انها لم تستطع يوما ان تنكر هذا الفضل ، او تجحد ذلك العلم ، او تتناسى تلك الروابط العربية والاسلامية .

* * *

والغريب في تأثير العراقيين على الاندلسيين ان الخلفاء انفسهم هناك اصابتهم حرارة الفيرة من بني العباس في بغداد . فترصدوا اخبارهم ، وتشبهوا بطرز الحياة ، وانماط العيش ، التي كانت تدور في قصورهم ، وفي جنبات جنائنهم . وفي اروقة مجالسهم الخاصة والعامة . فاذا نظم خليفة عباسي ابياتا يتغزل بها بجارية من جواربه ، جرى على نمطها ، وسار على غرارها امير او خليفة اموي اندلسي .

ولم يكنفوا بهذا بل رايناهم يؤلفون فرقا من الجناد والحرس (٢٧) المرتزة على غرار ما كان يفعله المأمون والمعتصم في العراق . ويبدون في المجتمع وهم بأبهى زينة ، وبمختلف الالقاب . كما حدث ذلك ايام اماره (الحكم الرضي) في حوادث الثورة والفتنة التي قامت في عهده .

ولم يرتح الامير (عبدالرحمن الثاني) الاوسط الا بشراء التحف العباسية ، التي تنائرت بعد مقتل (الامين) ومنها العقد النفيس المسمى (بعقد الشفاء) الذي كانت تمتلكه (السيدة زبيدة) والذي وصل بعد ذلك الى (قرطبة) لتتحلى به (طروب) محظية الامير عبدالرحمن الاوسط !!!

٦ - اعلام من الشخصيات الاندلسية التي درست في بغداد ، وعادت تحمل العلم للاندلس .

لا نريد في هذه الدراسة ، ان نعدد ونذكر جميع من دخل (بغداد) من الاندلسيين ، ودرس فيها ، وتعلم في معاهدها ، فذاك امر تصعب الاحاطة به ، والتتبع لدقائقه . لاسباب لا يمكن حصرها الان . منها ان بعضهم لم يكن بالعالم الشهير ولا بالذكي المتميز ، ولا بالمؤلف البارع ، ولا بالشاعر المعروف .

ومنها ان بعضهم لم يستوطن (بغداد) زمنا طويلا ، صابرا على طلب العلم ، متحملا لآلام الغربة ، وقساوة الفاقة !!! والطبيعة !!!

غير اننا نقتصر الان على البارزين منهم ، والذين عادوا لبلدهم فاثروا في حركته العلمية ، والادبية ، والفكرية . على ان لنا عودة - ان شاء الله - في تاليف

ومنهم من اتخذها وطنًا ، وصيرها مسكنًا ، الى ان وافته منيته ، ومنهم من عاد الى المشرق بعد ان قضيت بالاندلس امنيته . « وترجم لبعض هؤلاء البغداديين وذكر مجموعة من اشعارهم ومنهم .

(ابو الحسن البغدادى الفكيك) (٢٤) . وكان كما قال حلو الجواب ، مليح التندر ، يضحك من حضرة ، ولا يضحك هو اذا ندر . عاش في عصر الامير (المعتمد بن عباد) صاحب (اشبيلية) ومما قاله في مدح (المعتمد) وبه اشارة لطريفة للحنين الى الوطن ، ولحبته الى (بغداد) ، والى كرم المدوح وجوده .

.. ولي بحيانك الريع عاما واشهرها
ازخرف اعلام الثناء وارقم
وانفقت ما اعطيتني ثقة بما
اوتمل فالدنيا عندي درهم
وقلبي الى (بغداد) يصبو وانسي

لنشر صباهها دائما اتسسم
وذكر لنا من الوافدين على الاندلس من اصحاب الخط والضبط (ظفر البغدادى) (٢٥) الذي قصد الحكم المستنصر ، وعاش في (قرطبة) وكان مسن رؤساء الوراقين المعروفين في عصره كعباس بن عمرو الصقلي ، ويوسف البلوطي . وجعله الخليفة الاندلسي (الحكم) في مقدمة خطاطي قصره ، وفي خزائن مكتبته الشهيرة !!

* * *

وهناك ايضا من الراحلين العراقيين الذين لعبوا دوراً في الحركة الادبية والفنية في الاندلس .

الشاعر (سعيد البغدادى) (٢٦) (وابو محمد المذري) النحوي ، وكل هؤلاء الذين ذكرناهم مندعوا ابناء الاندلس الكثير من ادابهم ، وعلومهم ، وفنونهم وكانوا حركة دائمة ، ونشاطا مستمرا ، في خلق الجو الادبي والفني هناك ، وفي تأثيرات (القالي البغدادى) وما اتقاه من محاضرات ، وما افقه من كتب ، وما بعثه من حياة فكرية . لخير دليل على اثر العراقيين في ديار الاندلس النائية .

ناهيك بانثر (زرياب) الفني والاجتماعي وما قدمه للمجتمع الاندلسي من عطاء لا ينكر فضله ، ومن فنون لا تجحد قيمتها . كان من أبرزها التطور الموسيقى والفناني الذي ساعد وخلق فيما بعد الجو المناسب لانتشار الموشحات ، وتقبل وجودها ومزاحمتها لمدرسة الشعر العربي الخاضع للروي والقافية والبحر الواحد .

كتاب يضم شملهم ، ويجمع شتاتهم . ويدرس اهم
مظاهر حياتهم ، وما خلفوه لنا من آثارهم .

هناك سؤال يتبادر الى الذهن ، ويلح على
الفكر . وهو كيف عاش اهل الاندلس في بغداد ؟
وكيف كانوا يتحملون طبيعة المناخ العراقي ؟ وهل
اختلفوا في المجتمع العباسي ؟ . وهل جمعوا بين
العمل والعلم ؟ وهل سكنوا جانب الرصافة - لكثرة
المعاهد العلمية فيها ، اكثر من جانب الكرخ ؟ وهل
كان يشملهم نظام الاعطيات ، والرواتب ، والمنح
المالية ، التي يعطيها اصحاب الخير ، والهبات ،
والاموال ، والدولة ، لطلبة العلوم ؟ وهل تقرب
بعضهم لدور الخلافة العباسية ، واحتلوا منزلة
مرموقة فيها ؟ وهل منهم من فضل البقاء في (بغداد)
وعدم العودة الى اهل ووطنه ؟

اننا لم نجد - مع الحسرة والاسف - من الف
لنا منهم تاريخا وسجلا لرحلتهم الى العراق . او
كتب لنا وصفا لما كان يحيطهم يومذاك ولعل الايام
القابلة تكشف لنا مخطوطا مؤلف اندلسي - صور لنا
فيه حياة العلماء الاندلسيين في (بغداد) ، وليس في
الحياة شيء غريب ، ولا في الوجود امر مستبعد !

نعم ! وجدنا وصفا مفيدا لحياة (الحمدي)
ولابي الوليد (الباجي) ، الذي كان يشغل حارسا
في الليل ، ويدرس في النهار ، وقد صبر فظفر ،
ورجع الى الاندلس يحمل معه ثروة علمية وخطية
من آثار العراق الثقافية . ومنهم من اسمى نفسه
(بالبغدادي) لطول اقامته في (بغداد) وحبها !!
امثال ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابراهيم
الخرزرجي (٢٨) ومنهم من اشتهر باسمه العراقي لعلمه
وبراعته في الطب (بحكيم الزمان) وهو ابو الفضل
محمد بن عبد المنعم الجلياني الطبيب (٢٩) الذي درس
في (النظامية) .

ومنهم من قضت عليه همجية التتر ووحشيتهم
فمات شهيدا غريبا محتسبا ، امثال ابي عبدالله
محمد بن احمد الزهري الاشيلي (٣٠) .

وقد اخترت لهذه الدراسة مجموعة من اولئك
الاعلام ، واقتصرتهم على (عالم) و (اديب) ، و
(شاعر) ، و (رحالة) . ولم ارد الشمول والاطالة .
ومن هؤلاء الخالدين فئة كان لها مقامها ، ولها علمها ،
ولها اثرها الطيب ، في دنيا العلوم والمعارف ، وفي
ميدان التأليف والتدريس ، وفي رياض الشعر
والادب !!

ابو الوليد الباجي (١)

(٤٠٣ هـ - ٤٧٤ هـ)

(عالم من الاندلس)

التعريف به :

ابو الوليد سليمان بن خلف بن وارث الباجي .
اصله من مدينة (بطليوس) Badajoz وانتقل اباؤه
الى (باجة) Baçe واليها نسب .

عالم جليل من الاندلس ، درس في بلده على
نخبة من العلماء منهم : ابو الاصمغ ، ومحمد بن
اسماعيل ، وابو محمد مكي بن حموش ، وابو شاعر
وغيرهم ...

قصد المشرق عام ٤٢٦ هـ ، وجاور بمكة
المكرمة ، ودخل الموصل ، واستوطن بغداد زمنا ،
وكان من زملائه واساتذته المشهورين الخطيب
البغدادي .

صفاته :

يتميز عن سواه ، في انه كان صلب العود ،
فقيها ، شاعرا ، ناثرا ، مفسرا ، ادبيا . ثارت عليه
العامّة يوم ان عاد الى وطنه وناظر ابا بكر الصائغ في
قضية امية الرسول الاعظم (ص) في حديث الكتابة
يوم (الحديبية) الذي ورد في البخاري . وقال ابو
الوليد (الباجي) بظاهر لفظة . وصنف ابو الوليد
رسالة بين فيها ، ان ذلك غير فادح في المعجزة (٢) .

روى عنه حافظ المشرق والمغرب . ابن عبد
البر في الاندلس ، والخطيب البغدادي في العراق .
وكان يسمى (بشيخ الاندلس) .

قال عنه (ابن بسام) في ذخيره (٣) :

« غنى الزمان بفرائب شعره ، حتى جن
الاحسان بذكره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره
عن خبره . ولم تزل تلك الافاق تراسله ، وعجائب
الشام والعراق تغالزه » .

« دخل (بغداد) والحرمان قد كساه سراويل ،
ورماه بطير ابابيل » .

ووصفه ابن خاقان في (قلائده) (٤) فقال :

« كان امام الاندلس الذي تقتبس انواره ،
وتنتجع نجوده وانوارده ، رحل الى المشرق فمكف
على الطلب ساهرا ، وقطف من العلوم ازاهرا » .

وذكر صاحب (النفع) (٥) :

بانه كان يؤجر نفسه ببغداد لحراسة الدروب ،
تفقره وحاجته .

وفي هذه المناسبة جرت بينه وبين (ابن حزم)
الظاهري (مناظره . حول همة كل واحد منهما في
طلب العلم ، وما وصل اليه من منزلة ومقام (٤١) .

قال (الباجي) يخاطب (ابن حزم) :
« انا اعظم منك همة في طلب العلم ، لانك طلبته
وانت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب . وطلبته وانا
اسهر بقنديل بائت السوق .

فقال (ابن حزم) . . هذا الكلام عليك لا لك ،
لانك انما طلبت العلم ، وانت في تلك الحال رجاء
تبدلها بمثل حالي ، وانا طلبته في حين ما تعلمه وما
ذكرته ، فلم ارج به الا علو القدر العلمي في الدنيا
والآخرة . فافحمه !! »

له درهما ! ودر اصحاب الهمم العالية في
طلب العلم ، والسعي وراء المجد ! !

من ازاخير شعره . . (٤٧)

قال (الباجي) من قصيدة رائعة يمدح بها
قاضي القضاة ببغداد (ناصح الدين وتاج الاسلام)
السمناني جاء منها .

ما طال عهدي بالديار وانما
انسى معاهدنا اسى وتبلد
.. لله ايام الشباب وحنينها
وغصونهن المائعات الميسر
ايام انقض للمراح ذؤابتي
بين الشباب ودرع بردي مجسد
انقض الطليات في سبل الصبا
فيصيدهن لي المدار الاسود
حتى علاني الشيب قبل تحلم
وابر ما سبق المشيب الولد

ومنها :

ما هالني صعب المرام ولا الذي
تستبعد الايام عندي بيمس
استقرب الفزو البعيد بهمة
ادنى منازلها السها والفرقد
اسري اذا عنكر الظلام وقادني
امل ، مطالبها العلا والسود

مؤلفاته : (٤٨)

له آثار عديدة المناحي ، ومختلفة المواضيع .
ولكنها في الغالب تدور حول فقه المذهب المالكي .
سردها (ياقوت) في معجم ادبائه (٤٩) ونذكر الان
ابرزها اثرا ، واغلبها شهرة :

- ١ - الاستيفاء في شرح الموطا .
- ٢ - المنتقى .
- ٣ - الايماء .
- ٤ - السراج .
- ٥ - التعديل والتجريح .
- ٦ - احكام الفصول .
- ٧ - المعاني .
- ٨ - تفسير القرآن .
- ٩ - المقتبس في علم مالك بن انس .
- ١٠ - الناسخ والنسخ .

القاضي ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى الليثي (٥٠)

(٢٨٤هـ - ٣٣٧هـ)

(اديب من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو عبدالله محمد بن ابي عيسى من بني
يحيى بن يحيى الليثي . اديب ، فاضل ، شاعر . من
اسرة عرفت بالعلم ، والوجاهة ، والادب .

جعله الناصر لدين الله قاضي الجماعة بقرطبة
سنة ٣٢٦هـ . وقدمه على الاخرين ، وجعله كذلك
سفيرا بين الامراء ، ومشاورا في شؤون الحسب
والقضاء .

صفاته :

لطيف العشر ، سمح الخلق ، طيب النفس ،
رقيق الحاشية ، يهتز للشعر ، ويرتاح للجميل ،
له ثقافة عالية . في قضايا الشعر ، ومعانيه ، وفي
اللفة ، ومشاكل الاعراب . وصفه (ابن خاقان) في
مطمح الانفس فقال : عنه « ثينة علم وعقل ،
وصحة ضبط وتقل » . واثار عنه صاحب (النفح)
وذكر صفاته « كان له نصيب وافر من الادب ،
وحظ من البلاغة اذا نظم او كتب » .

من لطائف اخباره واشعاره : (٥١)

ذكر (الحميدي) في (جذوة المقتبس) رواية
عن ابي محمد علي بن احمد . قال : اخبرني القاضي
ابو الوايد يونس بن عبدالله عن ابيه . انه شاهد
قاضي الجماعة محمد بن ابي عيسى في دار رجل من
بني حدير مع اخيه ابي عيسى . في ناحية مقابر
قريش ، وقد خرجوا لحضور جنازة ، وجارية
لحديري تعنيهم هذه الابيات : (٥٢)

طابت بطيب لثاتك الافراح
وزهى بحمرة خدك التفاح

واذا الربيع تنسجت ارواحه
طابت بغيث نسيمك الارواح
واذا الخنادق البست ظلماءها
فضياء وجهك في الدجى المصباح
قال : وكتبها قاضي الجماعة في يده ، ثم
خرجوا ،

قال : فلقد رايتك يكبر للصلاة على الجنائز ،
والابيات مكتوبة على باطن كفه !!
ومن شعره :

بعد ان عاد الى وطنه ، من غربة شاقة ،
ونوى مؤلم : (٥٣)

كان لم يكن بين ولم تك فرقة
اذا كان من بعد الفراق تلاق
كان لم تترك بالعراقين مقلتي
ولم تمر كف الشوق ماء ماتي
ولم ازر الاعراب في جنب ارضهم
بذات اللوى من راقية وبراق
ولم اصطحب باليد من قهوة الندى
وكاس سقاها في الازاهر ساق

ومن شعره في الحنين الى (قرطبة) قوله: (٥٤)
ماذا اكابد من ورق متفردة
على قضيب بذات الجزع مياس
رددن شجوا شجا قلب الخلي فهل
في عبرة ذرفت في الحب من باس
ذكرنه الزمن الماضي بقرطبة
بين الاحبة في امن وايناس
هم الصباة لولا همة شرفت
فصيرت قلبه كالجنبدل القاسي

هذه شخصية من شخصيات الاندلس ،
امتازت بصفات العلم والادب ، وافادت من ثقافة
العراق والمشرق . وعادت تحمل لوطنها القرف
العراقي ، والاخلاق البغدادية . وامثالها الكثيرون
في سجل التاريخ ! .

ابو بكر بن العربي (٥٥)

(٦٨ هـ - ٥٤٣ هـ)

(شاعر من الاندلس)

التعريف به :

هو ابو بكر محمد بن عبدالله بن العربي
المعافري من اشبيلية . اشتهر بأدبه . وعلمه ،

وشعره ، ورحلته الشهيرة . ويكتابه المعروف
(العواصم من القواصم) .

زار المشرق مع والده ، وكان صغيراً ولاقى
الشدة والعذاب ، في مطلع حياته ، واوان شبابه ،
وبداية سفره زار المغرب ، ومصر ، والقدس ،
والديار المقدسة ، والعراق . واتصل بالمعلم
الزاهد ابي بكر الطرطوشي صاحب كتاب (سراج
الملوك) . وقصد دمشق واخذ عن عالمها ابي الفتح
نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي .

ودخل (بغداد) مع والده ايام الخليفة
المفتدى بالله . (٥٦) ومن اساتذته في دار السلام .
ابو الحسين المبارك ، وابو الحسن علي بن ايوب
البزاز والقاضي ابو البركات الحنبلي ، وابو بكر
محمد الشافعي الشافعي . واتصل بالامام حجة
الاسلام (الغزالي) في المدرسة النظامية ، وفي
دمشق ، ولازمه زمناً ، وكان من تلامذته المقربين .
اضافة لاساتذته في الاندلس كالمرقسلي .
وغیره ..

صفاته :

امتاز (ابن العربي) ، بالجرأة في القول ،
والصراحة في الرأي ، والصبر على المكاء ، وعاش
في عصر الطوائف . وفي اعماله القضائية عسرف
بالصرامة ، والشدة في الاحكام . مع الرفق بالضعفاء
والمساكين . ووصلت اليه الرياسة الدينية ايام
المرابطين .

وصفه ابن سويد المغربي بقوله (٥٧) « طبق
الافاق بفوائده ، وملا الشام والعراق بأوابده ،
وهو امام في الاصول والفروع » .

اما ابو نصر الفتح بن خاقان فقد وصفه في
(المطمح) (٥٨) حيث قال عنه : « علم الاعلام الطاهر
الاثواب ، الباهر الابواب .. سقى الله به الاندلس
بعدما اجذبت من المعارف ، ومد عليها منه الظل
الوارف . فكساها رونق نبلة ، وسقاها ريق
وبله » . هذا وقد عرف بالقضاء ، كما عرف
بالشعر ، وعقدت عليه دراسات ، ونشرت عنه
ابحاث ، واحيا المحققون رحلته .

من ازاخير شعره : (٥٩)

حاولت ان اقدمه (شاعراً) واترك اميره
(قاضياً) . وابتمد في بحثي هذا عن نهج التقليد ،
واتر الاعادة والترديد .

قال رحمه الله تعالى - دخل علي الاديب

(ابن صارة) وبين يدي نار علاها رماد . فقلت له :
قل في هذه ، فقال : (١٠)

شابت نواصي النار بعد سوادها
وتسترت عنا بشوب رماد

ثم قال لي : اجز ، فقلت :

شابت كما شبتنا وزال شبابنا
فكانما كنا على ميمماد

ومن رائق نظمه : (١١) ومن رقة شعره :

انتنسي تؤننسي بالبكاء
فاهلا بها وبثانيهما

تقول وفي نفسها حسرة :

البكى بمن تراني بها ؟

فقلت : اذا استحسنت غيركم

امرت جفوني بتعديهما

ومن شعره وهو في شوق الى (بغداد) (١٢) :

امنك سرى والليل يخدع بالفجر
خيال حبيب قد حوى قصب الفخر ؟

جلا ظلم الظلماء مشرق نوره

ولم يخبط الظلماء بالانجم الزهر

ولم يرض بالارض البسيطة مسحبا

فسار على الجوزا الى فلك بجري

وختمها بقوله :

سقى الله مصرأ والعراق واهلهما

وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن طرائف ما رواه في (رحلته) للعراق .

قال : (١٣)

انه كان بمدينة السلام امام من الصوفية واي
امام يعرف بابن عطاء . فتكلم يوما على يوسف
واخبره حتى ذكر تبرئه مما ينسب اليه من مكروه
فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخلقة
من كل طائفة . فقال يا شيخ ، يا سيدنا ، فاذن
يوسف هم وما تم ، فقال نعم ، لان العناية من ثم
فانظروا الى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العاقل
في سؤاله ، والعالم في اختصاره واستيفائه .

آثاره ومؤلفاته : (١٤)

ترك (ابن العربي) آثارا كثيرة ، منها قد طبع
وانتشر ومنها لا زال مخطوطا . ومن مؤلفاته
المعروفة :

١ - انوار الفجر في تفسير القرآن . وهو من اكبر
آثاره .

٢ - قانون التأويل .

٣ - احكام القرآن .

٤ - القيس في شرح موطا مالك بن انس .

٥ - عارضة الاحوذى .

٦ - حديث الاءفك .

٧ - ترتيب الرحلة .

٨ - نواهي الدواهي .

٩ - العواصم من القواصم .

١٠ - الناسخ والمنسوخ .

الطبيب ابو الفضل محمد بن عمر الجلياني (١٥)

(٥٣١ هـ - ٦٠٢ هـ)

(حكيم من الاندلس)

طبيب ، اديب ، رحالة ، سائح ، مؤلف ،

شاعر ، اصله من (وادي آش) . ولد بقرية

(جليانة) التابعة (لفرناطة) . وصل في رحلته الى

القاهرة ، ودمشق ، ودخل بغداد سنة ٦٠١ هـ .

وسكن المدرسة النظامية .

صفاته :

اشتهر بآدبه ، وشعره ، وحكمته ، وطبه ،

وبراعته في الرياضيات ، وادب النفس مع حسن

في الاخلاق ، ولطف في المعاشرة ، وحضور في الاجابة

ولقبوه (بحكيم الزمان) . وسافر الى دمشق .

وحضر مجلس السلطان (صلاح الدين الايوبي)

واتصل بحاشيته . وكان من معاصريه القاضي

الفاضل ، وترجمه صاحب (خريدة القصر) واشاد

بشاعريته وفنون ادبه .

ازاهير من شعره : (١٦)

ترك الشاعر دواوين شعر عديدة ، ذكرها لنا

صاحب (فوات الوفيات) ابن شاکر الكتبي (١٧)

وتغلب على شعره الحكمة ، والكرامة ، وعزة

النفس ، واستعمال المحسنات البديعية ، اسوة

ببعض شعراء عصره .

ومن جيد شعره :

فابض شيء حكمة عند جاهل

واهون شيء فاضل عند ظالم

فلو زفت الحسناء للذئب لم يكن

بري قريها الا لاكل المعاصم

ومن لطيف وجدانياته :

أؤمل لقاءكم وإن شطت النوى
وأزجر قريبا في مرور السوانح
وبذكي اشتياقي زبد تذكاري عهدكم
وما الشوق إلا بعض نار الجوانح

ومن حكمه :

قالوا ترى نفرا عند الملوك سموا
وما لهم همّة سمو ولا ورع
وانت ذو همّة في الفضل عالية
فلم ظلمت وهم في الجاه قد كرموا ؟
فقلت : باعوا نفوسا واشتروا ثمنها
وصنت نفسي فلم أخضع كما خضعوا
قد بكرم الفرد أعجابا بخسسته
وقد يهان لفرط النخوة السبع

ومن شعره :

لابد للجسم من قوام
فخذه من جانب اعتدال
واقرب من العز في اتضاع
واهرب من الذل في المعالي

ومن بديع قوله : (١٧)

إلا إنما الدنيا بحار تلاطمت
فما أكثر الفرقى على جنبات
وأكثر من لاقيت بفرق الفه
وقل فتى بنجى من القميرات
وقال من أشعاره الحكيمية : (١٨)

قالوا نراك عن الأكابر تعرض
وسواك زوار لهم متعرض
قلت الزيادة للزمان انشاعة
وإذا مضى زمن فما بتموض
إن كان لي يوما اليهم حاجة
فبقدر ما ضمن القضاء تقيض

ومن أشعاره الدالة على عزله ، وبعده عن
المشاكل . قوله : (١٩)

خبرت بني عصري على البسط والقبض
وكاشفتهم كشف الطبائع بالنبض
أرى الشخص من بعد فاغضي تغافلا
كمشده بال في مهمته بمضي
ويحسبني في غفلة وفراستي
على الفور من لمحي بما قد نوى تقضي

أجانبهم سلما ليسم جانبى
وليس لحقد في النفوس ولا بغض
تخلت عن قومي ولو كان ممكن
تخلت عن بعضي ليسم لي بعضي
ومن شعره في مدح السلطان صلاح الدين
الأيوبي قوله : (٢٠)

أيا ملكا أفنى العداة حسامه
ومتجما أفنى العفاة إنسامه
لقاؤك يوما في الزمان سعادة
فكيف بشاؤ في حماك حمامه
.. أتينا لما عودتنا من مكسارم
يلوذ بها الراجي فيشفى غرامه
مرحماك غوث لا يغيب نصيره
ونعماك غيث لا يغيب انسجامه

آثاره ومؤلفاته : (٢١)

من آثاره الشعرية .

- ١ - ديوان الحكم وفتور الحكم .
- ٢ - ديوان المشوقات .
- ٣ - ديوان السلوك .
- ٤ - ديوان نوادر الوحي .
- ٥ - ديوان تحرير النظر .
- ٦ - سر التبلاغة ومنافع البديع .
- ٧ - ديوان المبشرات .
- ٨ - ديوان الغزل والتشبيب والموشحات
والدوبيت .
- ٩ - ديوان تشبيهات والغاز ورموز وأحاجي
وأوصاف وخمريات .
- ١٠ - ديوان ترسل ومخاطبات .
- ١١ - منادح الممدوح وروضة المائر والمفاخر . في
خصائص الملك الناصر .
- ١٢ - جامع أنماط المسائل في العروض والخطب
والرسائل .

سعد الخير بن محمد الأنصاري البلسي (٢٢)

(توفي - ٥٤١ هـ)

(رحالة من الأندلس)

التعريف بشخصيته :

هو أبو الحسن الأنصاري سعد الخير بن محمد
بن سعد . محدث . رحالة . لم يشرك أرضا إلا

الهوامش

- (١) راجع / معجم البلدان المجلد الاول ص / ٥٦ .
- (٢) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٣) راجع / المصدر السابق ص / ٤٦١ .
- (٤) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٥) راجع / المصدر نفسه ص / ٤٦١ .
- (٦) راجع / الروض الطيار ص / ٥٦ .
- (٧) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦١٦ .
- (٨) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٥٩ .
- (٩) راجع / المصدر نفسه ج / ١ ص / ٢١٠ .
- (١٠) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦٠ .
- (١١) راجع / المصدر ذاته ج / ١ ص / ٤٦١ .
- (١٢) راجع / مجلة كلية الآداب - جامعة بغداد . العدد ١١ سنة ١٩٦٨ . ص / ١٤٦ وما بعدها .
- (١٣) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٦ . وناريخ المسلمين وانارهم في الاندلس ، ص / ٢٢٩ .
- (١٤) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٣٥ وما بعدها . وناريخ المسلمين وانارهم في الاندلس ص / ٢٢٨ وما بعدها .
- (١٥) راجع / الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسلام القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢٩٧ وما بعدها .
- (١٦) راجع / المصدر نفسه - مقدمة الكتاب ص / ب وما بعدها . و ص / ٢٠ من مقدمة المؤلف .
- (١٧) راجع / الذخيرة - القسم الاول - المجلد الاول . ص / ٢ .
- (١٨) راجع / نفع الطيب ج / ١ ص / ٦٠٩ ج / ٢ ص / ٢٧ .
- (١٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢٥ وما بعدها .
- (٢٠) راجع / دراسات عن (الحميدي) في مجلة كلية الآداب - العدد ١٠ ص / ١٧٩ وما بعدها - ١٩٦٧ م . جامعة بغداد .
- (٢١) راجع / عن رحلة بنيامين التيطلي ، كتاب تاريخ الادب الجغرافي ، للمستشرق كراشكوفسكي ج / ١ ص / ٢٢٨ والرحلة نفسها المطبوعة في بغداد سنة ١٩٤٥ م .
- (٢٢) راجع / عن ابن جبير ورحلته . نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٨١ . ورحلة ابن جبير بطبعات متعددة .
- (٢٣) راجع / عن رحلة (ابن حوقل) . تاريخ الادب الجغرافي . ج / ١ ص / ٢٠٠ ورحلة ابن حوقل في المكتبة الجغرافية .
- (٢٤) راجع / الشرق الاندلسي ، لفرسيار لوموز ص / ٢٨ ودراستنا (الاندلسيون الاوائل من حملة الثقافة العراقية) مجلة كلية الآداب العدد ١١ ص / ١٤٦ / ١٩٦٨ م .
- (٢٥) راجع / البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٨٨ .
- (٢٦) راجع / عن ابي علي القالي البغدادي - دراستنا عنه في كتابنا (ادباء بغداديون في الاندلس) بغداد . ط ١٩٦٢ ص / ١٢ .
- (٢٧) راجع / عن صاعد البغدادي . دراستنا عنه في مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد . العدد ٦ سنة ١٩٦٢ . ص / ٢٦٥ .
- (٢٨) راجع / دراستنا عن (ذياب الفتي البغدادي) في (ادباء بغداديون في الاندلس) ص / ١١ وكتاب (قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس) ج / ٢ ص / ٨٧ وما بعدها .

زارها في المشرق ووصلت خطواته الى (الصين) .
 وكان يسمى نفسه بالصيني البلسني . وهو اشتهر
 بابي حامد الفرناطي . صاحب (تحفة الاكتاب) .
 وابن جبير الكنائي ، وابن سعيد المغربي . الا انه
 اختلف عنهم وفاقهم جميعا في الوصول الى (الصين)
 وسدها العظيم !! وتشابه مع (ابن بطوطة) . في
 حياته ، وزواجه ، غير انه اكثر علما ، ورواية ،
 وفقها ، منه .

صفاته :

كان من صفاته حب المغامرة ، والعبر على
 المشاق وركوب البحار ، وقطع الفياقي والقفار ،
 ومصاحبة العلماء ، ومجالسة الادباء .

ومن اسانده : ابو زكريا التبريزي ، وابو
 حامد الغزالي . وروى عنه السمعاني ، والكندي ،
 وابن الجوزي ، وطوب بالبلاد . ثم عاد مشتاقا الى
 بغداد ومات فيها سنة ٥٤١ هـ . ودفن بحسب
 وصيته في تربة الامام احمد بن حنبل (رض) .

آثاره :

كان هذا الرحالة الاندلسي . كما يبدو محدثا
 لا مؤلفا . ولعل له رحلة مخطوطة ، ومشاهدات
 طريفة عن البلاد التي زارها وسكنها في اقاصي
 المشرق . وفي وسط الجزيرة العربية . نأمل ان
 تكشف لنا الابام القابلة . والسنين الاتية : عما
 خفي من آثاره ومولفاته .

لقد اخترته مثالا للعالم المغامر ، والرحالة
 الرائد . والمحجب المعجب ببغداد ، بحيث انه فضلها
 على البلاد التي زارها . وعأوده الشوق اليها . ثم
 مات في تربتها . بين اعلام العلم ورجال الفضيلة .
 واساطين السياسة ، ومشاهير الادب !!

* * *

هذه دراسة ارجو انني وفقت في عرضها ،
 وتقديم الصورة الواضحة ، عن مضمونها ، واعطاء
 النماذج من الشخصيات الاندلسية ، التي زارت
 (بغداد) وتعلمت فيها ، وتركت آثارا في دروبها .
 ونقلت العديد من تراثها الفكري والعلمي والادبي
 لبلادها . فكم (لبغداد) من اباد لا تنسى على
 الناس !! وعلى (الاندلس) . وكم لها من فضل
 لا تمحو آثاره أحداث الزمن !!

- (٦٥) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦٢٥ و ج / ٢ ص / ٦١٤ وقد ترجمه مرتين ، راجع / الدبل والتكملة ج / ٥ ص / ٥٧ .
- (٦٦) راجع / مجموعة من اشعاره في (فوات الوفيات) ج / ٢ ولم ٢٦٢ . ص / ٢٥ .
- (٦٧) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ .
- (٦٨) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٢٦ .
- (٦٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٦ .
- (٧٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٧ .
- (٧١) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦١٤ وفوات الوفيات ج / ٢ ص / ٢٥ وما بعدها .
- (٧٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦٢٢ .

اهم المصادر والمراجع

المصادر القديمة :

- ١ - نفع الطيب - ط ١ / صادر - بيروت / ١٩٦٨ م .
- ٢ - فلاند العتيق - لابن خاقان - مصر ١٢٨٤ هـ .
- ٣ - المغرب - لابن سعيد - ط ١ / مصر ١٩٥٣ م .
- ٤ - الذخيرة - لابن بسام ط ١ / مصر ١٩٢٩ م .
- ٥ - الذخيرة - لابن بسام ط ١ / مصر ١٩٧٥ م .
- ٦ - مطمح الانفس - لابن خاقان ط ١ / الاسكندرية ١٣٠٢ هـ .
- ٧ - الرقبة العليا - للنباهي ط ١ / مصر ١٩٤٨ م .
- ٨ - البيان المغرب - لابن عذاري ط ١ / بيروت ١٩٥٠ م .
- ٩ - معجم البلدان - لياقوت ط ٢ / دار بيروت ١٩٧٧ م .
- ١٠ - معجم الادباء - لياقوت - دار المأمون - مصر ١٩٣٦ م .
- ١١ - فوات الوفيات - لابن شاعر ط ١ / مصر ١٩٥١ م .
- ١٢ - جذوة المقتبس - للحمدي ط ١ / مصر ١٣٧٢ هـ .
- ١٣ - الدبل والتكملة - للمراكشي ط ١ / بيروت ١٩٦٥ م .
- ١٤ - المواعصم من القواصم - لابن العربي ط ١ / مصر ١٣٧٥ هـ .

المراجع الحديثة :

- ١ - فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزیز سالم ، ج ١ / ط ١ / بيروت / ١٩٧١ .
- ٢ - فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . ج ٢ / ط ١ / بيروت / ١٩٧٢ .
- ٣ - الشعر الاندلسي . غريب غوز (الطبعة العربية) ط ٢ / القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٤ - تاريخ المسلمين وانايرهم في الاندلس . للدكتور السيد عبدالعزیز سالم ، ط ١ / دار المعارف - بيروت ١٩٦٢ .
- ٥ - ادباء بغداديون في الاندلس . للدكتور محسن جمال الدين ، بغداد - ١٩٦٢ م .
- ٦ - تاريخ الادب الجغرافي . للمستشرق كراشكوفسكي ، الطبعة العربية - مصر ١٩٦٣ م .
- ٧ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٣ م .
- ٨ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٧ م .
- ٩ - مجلة كلية الاداب - جامعة بغداد / ١٩٦٨ م .
- ١٠ - الاعلام - للزركلي ط ٢ / القاهرة ١٩٥٩ م .
- ١١ - معجم المؤلفين - لمر كحالة ط ١ / دمشق ١٩٥٨ م .
- ١٢ - دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة العربية) مصر ١٩٢٣ م .

- (٢٩) راجع / من المغنية (قمر) البيان المغرب ج / ٢ ص / ١٩٤ ونفع الطيب ج / ٢ ص / ١٤٠ .
- (٣٠) راجع / الابيات في نفع الطيب ج / ٢ ص / ١١٥ .
- (٣١) راجع / الذخيرة . القسم الرابع / المجلد الاول ص / ٧٧ .
- (٣٢) راجع / المصدر السابق . القسم الاول ، المجلد الاول ص / ١٨ .
- (٣٣) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٥ وما بعدها .
- (٣٤) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ١١٩ .
- (٣٥) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ١١١ .
- (٣٦) راجع / فرطية حاضرة الخلافة في الاندلس . ج / ١ ص / ٥٨ و ص / ٥٩ .
- (٣٧) راجع / المصدر السابق ج / ١ ص / ٥٥ .
- (٣٨) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ١٥٦ .
- (٣٩) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٦٢٥ .
- (٤٠) راجع / المصدر نفسه ج / ٢ ص / ٢١٤ .
- (٤١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٦٧ وبهامشه عدة مصادر عنه .
- (٤٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦٨ .
- (٤٣) راجع / الذخيرة لابن بسام - القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٠ وما بعدها .
- (٤٤) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٧٤ وام اجد النص هذا في القلائد .
- (٤٥) راجع / عن الباجي وحياته معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٤٦ . والرقبة العليا ص / ٩٥ . ونفع الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
- (٤٦) راجع / المناظرة في نفع الطيب ج / ٢ ص / ٧٧ .
- (٤٧) راجع / الذخيرة . القسم الثاني - المجلد الاول ص / ٨٢ . وله اشعار في نفع الطيب ج / ٢ ص / ٧٥ وما بعدها .
- (٤٨) راجع / مؤلفاته في نفع الطيب ج / ٢ ص / ٦٩ .
- (٤٩) راجع / معجم الادباء ج / ١١ ص / ٢٦٤ وما بعدها .
- (٥٠) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ١٢ . والرقبة العليا ص / ٥٩ . وجذوة المقتبس ص / ٦٩ .
- (٥١) راجع / جذوة المقتبس ص / ٦٩ وما بعدها . ونفع الطيب ج / ٢ ص / ١٢ وما بعدها .
- (٥٢) راجع / الابيات في المصدرين السابقين (الجدوة) ص / ٧٠ والتلح ص / ١٤ .
- (٥٣) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ١٢ .
- (٥٤) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ١٢ وفي الجدوة ص / ٧٠ رواية اخرى للابيات مع زيادة .
- (٥٥) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٥ . والمواصم من القواصم ص / ١٠ .
- (٥٦) راجع / المواصم من القواصم ص / ١٧ .
- (٥٧) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٦ .
- (٥٨) راجع / مطمح الانفس ط ١ / الجواب - الاسكندرية ١٣٠٢ م / ص / ٦٢ . وكذلك نفع الطيب ص / ٢٢ - ج / ٢ .
- (٥٩) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٠ .
- (٦٠) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٢٠ .
- (٦١) راجع / المصدر السابق ج / ٢ ص / ٢٠ .
- (٦٢) راجع / نفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٤ .
- (٦٣) راجع / المصدر ذاته ج / ٢ ص / ٤١ .
- (٦٤) راجع / المواصم من القواصم ص / ٢٧ وما بعدها . ونفع الطيب ج / ٢ ص / ٢٥ .

مقدمة حكاية البراءة لفرس البغدادي*

بقلم المستشرق

آدم ميتز

ترجمة

طارق حليم العائني

بغداد - الجمهورية العراقية

والتعبير ابتداء من ابن المعتز وانتهاء بابن الحاجج .. وظهرت لعبة الشطرنج ، لأول مرة ، أداة بلاغية ، وحلية للحوار الفني الذي كان يرافق كل نقلة أسوة بملاتوف في المسرح الآسيوي الشرقي . لقد وزع الشاعر رغباته بين (نعم) و (لا) .. ولكنه أهمل نسق الأضداد التي انحدرت مادتها المدرسية . في ذلك الوقت ، عن طريق كتاب الثعالب (مدح الشيء وذمه) . و (الشيء) عنده لم يكن الفكرة ، بل الشيء المجرد نفسه .. فهو لا يذكر السبب وضده في بناء البيت ، وإنما يصف لنا البيت أما بالجودة أو بالسفاهة (١) . ونم يمر المؤلف أية أهمية للأقبال على الطعام أو الامتناع عنه .. بل أبان لنا كيف يتناول البغدادي الثري ضمامه ، وكيف يأكل الفقير في أصفهان ، هذه المفارقة لا وجود لها في الكتب القديمة - بما فيها البلاغة - لأنها منتزعة من الشاهدة ، وربما اغتنت انحرقة التوفيقية بين العقائد المتعارضة فن الوصف الذي ضمن لهذه الحكاية انجاساً أدبياً ذا منحنى واقعي . ولهذا تعتبر حكاية أبي القاسم عند أبي غويه (٢) و (كريباجك) من المصادر القيمة . ومن هنا استقلالها عن الأدب المدرسي بصورة جلية : فنوادر الملاحين مكانها الثابت في المصادر المعروفة ، ومن يقارن نماذج (الراغب الأصفهاني) أو نماذج (المستطرف) بنماذج أبي القاسم (ص ١٠٧ والتي تليها) (٣) يقع على الشمولية في مكان ، والاستبصار في مكان آخر ، دون أن يعي الأشكال المألوفة ، رغم أن القيمة التاريخية الأدبية للإنتاج

لو طرح على مؤلف « الحكاية » ما قاله أحمد بن أبي طاهر في سعيد بن حميد* (فهرست ابن النديم ، ص ١٢٣) ونو طبقنا هذه المقولة « أرجع الى أهلك » لما وجدنا عنده من الجيد إلا القليل ، ومن غير المحمود ربما الكثير . لقد استطعت أن أرجع أغلب المواد الى أصولها ، ولكنني اصطدمت بـ « أصول » غريبة في جوانب أخرى من الحكاية ، والمؤلف نفسه يصف عمله أساساً بأنه مجموع أدبي مختار ، فقد برزت في حكايته أشياء كثيرة كانت ذات أهمية في عهده ، كالأوطان والبيت والحصان والحصار والخمر والكأس وحفلات المائدة والنديم والراقصة والفلام والجارية والفني والموسيقي والخطيب والمستمع والمتطفل والمتفاخر ، وقد اتبعت بعض الآليات الشعرية ، مباشرة ، من مؤلفات مرتبة تاريخياً (كما في الصفحتين ٥١ و ١٢٩) ومنفعة بالاحساس

* حقق الأستاذ آدم ميتز حكاية أبي القاسم البغدادي ، ونشرها في هايدلبرج سنة ١٩٠٢ ، وصدرت عن مطبعة كارل ووتر (وأعادتها طبعتها بالأوفست مكتبة المتني في بغداد) . ولد الحق أ . ميتز بالنمسا العربي مقدمة نفيسة باللغة الألمانية ، ووجدنا بعضها جديراً بالنقل الى اللغة العربية ، وهو هذا الذي بين يدي القارئ [رئيس تحرير المورد] .

* عبارة ابن النديم وردت هكذا : « لو قيل لكلام سعيد وشعره أرجع الى أهلك لما بقي معه منه شيء . هذا لفظ أحمد بن أبي طاهر » . ويلهم من النص أن الشاعر سعيد بن حميد كان مشهوراً بالسرفة [رئيس تحرير المورد] .

استقرت في الشكل لا في المضمون . كانت المائة والخمسون سنة الأولى من عمر الإسلام مثقلة بنوع من ذي جانب واحد من أدب الحرب ، ولم يستطع عصر الرشيد والأمين أن يجودا بأسلوب موحد للحياة . وكان على المرء أن يقاسي كثيرا لكي يتلاءم اجتماعيا وفكريا مع الحياة الجديدة . فلا غرو إذا انطلق الأدب الرفيع - وبصورة أساسية - صدى واسعا للشكل القديم ، فاسحاق الموصلي عكف على المعرفة التاريخية العميقة للأغاني الحضرية ، فضلا عن النقد الفني الرائع في كتابه (الأغاني والشعراء) الذي يربطه إياه المشهور ، وإدهش الآخرين (الأغاني ٦ : ١٧ و ١٨ : ١٧٦) حتى أن أبا نواس لم يسلم منه (الأغاني ٧ : ٢١) .

.. كما أن الزمن المصيب الذي اطمأن لأنواع الجديدة لم يكن ، عهد ذاك ، حديثا ، ومع ذلك استمعين به ، وبفخر ، في الهجوم على القديم . فقد كان جديده نورا ، ولكنه مشبع بالموروث العتيق . وقد قورن عدي بن زيد بابي نواس ، وابن الأحنف ومسلم وكشاجم بن عمر بن أبي ربيعة وبنار بن برد (رائد الجديد) الذي يقال أنه نظم (١٢٠٠) قصيدة (راجع : الحصري ، وانعقد ألفريد ٢ : ٢٠) . ولم يغير فيض المادة الجديدة الأدب (كما يزعمون) فقد كانت نلادب حصانة غير حضرية ، فهو لم يمتن إلا بأراجيز القتال بعد ازدهارها في حرب الخوارج والناء قيام الدولة العباسية (١) ، وليس لذلك أية علاقة بشعر الحرب الذي فيل في بلاط الحمدانيين .. ولكن شيئا واحدا كان جديدا ، هو : أن بغداد باعتبارها أول حاضرة إسلامية لم تكن معكرا حرييا بالمعنى الحقيقي ، ولذلك خففت من غلواء المشاكل السياسية الداخلية ، ومن الاهتمام بالأنساب والتقاليد . ففي هذه المدينة ترعرعت برجوازية جديدة عن طريق قوة التمركز التي عمت أرجاءها (٢) . وثبتت الحياة الدنيوية ، وطورت الحقبة منذ الحروب الصليبية ، وحولتها إلى عصر حضارة التجارة (٣) . فقد سبب ازدهار التجارة ذات الامتيازات القوية ، ثم تفرض ضريبة على أسواق بغداد إلا في عصر الخليفة المهدي لأول مرة - البيهقي ٢ : ٤٨١) والأقبال على الفنون حركة شعرية ناشطة ، فكانت تدرس ، عند إبراهيم الموصلي ، أحيانا ، ثمانون مقبلة (الأغاني ٥ : ٦) كهن من الفتيات انجيلات الكريمات . وممن يهوين تلقى منه الذي يحكوه السودان والروم (الأغاني ٥ : ٩) . فلقد أصبح التمتع بالفن باهض الثمن ، كثير المتطلبات ، واضحى المل ،

والاذن المنعبة علامة مميزة لكل الأدب الحضري والاجتماعي الذي لم يتلاءم - لا خلال الحرب ولا في مواسم الزرع - مع لحن الطبيعة الموصول ، وبات كل مباح - من الآن فصاعدا - لامصدر له - سوى الأقوام الدخيلة المزعجة .. ففي ذلك الوقت احتل الفعل (مل) مكان الصدارة في النقد (قال أحد أصدقاء جعفر البرمكي للشاعر : قل أبيتا ولا تطل : فانه يمل الإطالة . فقلت : لست بصاحب إطالة - الأغاني ١٧ : ٢٢) . وكذلك القصة النثرية . فانها لم تستعمل إلا في إهداء الإيجاز ، ولم يكن المرء يمتت - أكثر مما يمتت - القصص الطويلة (حلية الكمي ، ص ٣٠ . طراز المجانس . ص ٦٦) ولا بد أن يكون ذلك من دواعي انقضاء على الشكل الطويل للقصيدة .

هذا العالم المصغر الذي لم تنقصه غير الصحراء (٧) كان بالنسبة للعرب (كالأخيلة الكنائسية بالنسبة للفن التشكيلي) ان (ما) او (ماذا) كانت موجودة دائما فالامر متعلق فقط بـ (كيف) . ولم يشقف هذا العالم الصحراوي الفئتين فقط بل انجمهور أيضا ، وهذا ما لا يجب أن نطمح إليه قصص أخرى ، وهكذا أجاد الجمهور سماع مصطلح جميل ، وحكاية سورية رمزية جديدة . وانتقالة موفقة ، وتقسيم مثير جدا . كما حافظت القصيدة التي كانت بحاجة إلى المحسنات البديعية على الطراوة والتجريد وعلى انعامية التي كادت تختفي في سراع الكلام ، والثقة مدينة قبل كل شيء إلى ملكة القصيدة . وقد اعتاد المؤمن حينئذ أن يسمع منها التشبيب والوصف فقط ويبتين أو ثلاثة من المديح (الأغاني ٨ : ٩٢) ولم يسمح إبراهيم بن العباس المتوفى في سنة (٢١٢ م) عند التلاوة ، إلا بقراءة أبيات قليلة من القصيدة ولم يرو إلا بيتا أو بيتين أحيانا (الأغاني ٩ - ٢١) وقد تبع هذا التدهور تحلل كامل فقد كانت السنوات الأربعون قبل وبعد عام ٢٠٠ عهد اضطراب شديد في الأدب وعهد بحث عن أسلوب جديد . إذ كانوا ينتقلون وبسرعة من أسلوب إلى أسلوب ومن صيغة إلى صيغة . قال الجاحظ (البيان ٢ : ١٦٤) لا يغيب الراوي في وقته راويا إذا لم يحفظ قصائد المجانين والمصوص والعشاق وأشعار الرجز القصيرة عند البدء (٨) والأشعار المنصفة ، ثم وجدوا ذلك مملا فتمسكوا بالنوادر والمقاطع والحكم والأقوال الماثورة والمختارات البراقة ثم انقض كل شيء على الشعر الوجداني العاطفي للعباس بن الأحنف (٩) إلى أن جاء خلف الأحمر بنصيب البدء

في الصيغة (١٠) وارتد كل شيء عن ابن الاحنف . وما كاد خلف يجمع كل شيء باعتناء حتى نسي الجميع فصائده وجلسوا ينصتون الى النخلة ولا يهتمون الا بالقصيدة ذات النعير النادر (١١) والمعنى الدقيق الذي يحتاج الى تاويل وكذلك بالقصيدة ذات التركيب المنع ، وهذا يعني : ان الشاعر كان متوقفا تماما بينما كانت الطريق مفتوحة للنشر وكان الخطيب دائما خصما للشاعر والخرافة القائلة بان في العائلة لا يمكن ان يصبح الصغير خطيبا قبل ان يموت الخطيب الكبير تبرهن على ان الخطيب نفسه يشارك في رسم الهالة الالهية حوله (الاغانى ١٨ : ١٧٣) ويقول البيان (١ : ١٨) انه ارتفع عندما انحط الاخر . ان اسباب النمو الادبي للنشر كثيرة ، فالتدريس الفني للخطيب (ابحاث كولد زهر - ١ - ٦٦ والصفحة التي تليها) الا تقوية الكلام التي يرجعها الفهرست بصورة رئيسية الى حركة المعتزلة (W. Z. K. M - ٤ - ص ٢١٧ والصفحات التي تليها) والاسطورة التي رعاها واهتم بها القاص والتي تسبق عليها فن الرواية (١٢) ، وشكل الحكومة البيروقراطية بمأثوراته (١٣) المغاير تماما للنظام الاقطاعي الاموي ، ولكن الاخلاص المألوف آنذاك والذي كان يبدأ عادة بالاشياء الصغيرة بدلا من المتوسطة وكذلك الاهتمام بالمحيط هما من اهم عوامل نمو الادب النشري وكان الاخلاص يظهر على شكل سرور وانسباط عند مختلف طبقات الشعب .

صحيح ان لهارون رغبة في مرددات الملاحين والبنائين والسقائين ولكنها كانت على الاغلب رغبة السادة الكبار من رجال البلاط ويتمثل ذلك في الاديب الذي جلس على احد جسور بغداد واخذ يدون حديث المارة (ورد ذكره في فهرس ابواب كتاب الاغانى) ولكن « علم نفس الجماعات » قام بعمله مسبقا ، فابعد الادب عن العنصرية باتجاه التصنيف الاجتماعي وفي نفس المعنى توجد رسالة في فصول الجاحظ ا لندن . شرقيات - ٢١٢٨) كتبها الجاحظ نفسه الى المعتصم ولكنها لم تصل الى الخليفة لاسباب لم يود المؤلف التطرق اليها . وتعتبر هذه الرسالة مهمة جدا من الناحية الموضوعية وجاء على وجه الورقة (٨٢) ما يلي : لا يتعلق الامر بالعمق ، بل ان كل حلاق مهما يكن اصله وموطنه يجب عرق التمر وكل رفاع وسماك ونحاس وحائك مهما يكن اصله وموطنه فهو احقر ما خلق الله في الحياة العامة . ان الاسم الذي يتعلق به هذا التعبير هو اسم الجاحظ ، فلا يقرأ المرء غير ديوان اوصاف

التطبيقات في طراز المجالس ١ ص ٦٧ والصفحات التي تليها (١٤) كل شيء ثان ، مهما ومهما بالنسبة انه ابتداء من بني هاشم الى الحصرى مقالة حول هذا الموضوع . المقد - ١ - ص ٥٦ والصفحة التي تليها) الى قوامي المدارس (المنظر ٢ - ١٩٩) والصفحة التي تليها وكان قوام المدارس اكثر اهمية من الاوائل (بني هاشم) . لقد كان طفلا مدبلا حقيقيا (١٥) اذ اصبح اديبه في تناول الجميع كخليفة سقراط القبيح (١٦) وينزل اديبه الى الشارع حصلت لفته على دم حار ونشوة وديناميكية .

وهكذا يعود النشر الحضري الجديد المنتت بعض الشيء والمطول ذا حيوية وبارعا وملبسا بجيد الماني (١٧) وهذا ما كان يعرفه الثعالبي عندما اطلق على انجاح اسم (ابو النشر) (اليتيمة ٣ : ٢٢٨) وهذا ما عرفه ابن العميد مستشار ركن الدولة وواحد من اكبر كتاب النشر في القرن الرابع (١٨) ، عندما كان يسأل كل من يريد ان يختبره عن رايه ببغداد والجاحظ (لطائف المعارف ص ١٠٥ يافوت ١ : ٦٨٦) ، حتى انه سمي بالجاحظ الثاني (اليتيمة ٢ : ٢) ولهذا السبب اطلق الهمداني اسمه على احدى مقاماته واستطاع ابن عرب شاه وهو من المتأخرين ان يستقي لعبة الكلمة القديمة « كنية البحر ابو الجاحظ » عمرو بن بحر (فاكهة الخلفاء - ص ٢٥) .

يبدو ان المدرسة القديمة قد شمرت بالهزة القادمة ولهذا ثبتت في القرن الثالث اهراماتها في المؤلفات الرائعة التي وضعها ابن قتيبة (١٩) والمبرد والبلاذري والطبري - حتى ان العقد قام بسرعة خزانات الجاحظ بالاضافة الى غزواته على ابن قتيبة . ان هذا الاكتشاف الحاصل من قبل ذوى الخبرة اثار الاهتمام الفضولي بالعالم البعيد واخذت مواد المقارنة تصب من جميع الجهات لفتح الافاق . لقد حكى الجاحظ عن الزنجي الذي قلد كل الشعوب المعروفة ، البيان - ١ - ٣١) ومثل زميله المتأخر المازلي بين بدى الخليفة المعتضد السعدي ٨ : ١٦١) وكما يقول لنا كتاب (عجائب الهند) فقد كانوا يرسلون الى الخليفة الكتب الضخمة في مختلف مجالات المقامرة بينما لم يكن يخطر من قبل على بال احد ان مثل هذه الامور ستجد عند البلاط اهتماما .

فمن فهرس عجائب القصور الذي عرض على الاغريق في عام ٣٠٥ تظهر اشياء تنطوي على

أكثر من التبجح العادي حتى أن السعدي ذهب في عام ٢٠٤ إلى الصين وذهب ابن فضلان إلى روسيا في عام ٢٠٩ . كان ذلك الوقت حينما جاء في عجائب الهند العصر الذهبي للبحارة المسلمين المغامرين ومن ثم فإن كتاب « مغامرات البحار » المدون بجدية لم يكن ممكنا في السابق ولم نستطع بعد أن نلاحق بالتمام كيف تطور الأدب الرفيع في هذا الوقت الجديد .

فالخوارزمي ياتي بفهرس المؤلفات الادبية والمثالية على الاقل بالنسبة لاتجاهه (الرسائل ص ٣٦) والتي تظهر كما تظهر رسائله بأنه بقدر ما كان ممكنا في ذلك الوقت رجلا من رجال المدرسة القديمة - انه استاذ علم البلاغة الجمالي - كان طريق الجاحظ يؤدي الى الهمداني وبينهما يقف الاحنف (من عكبرا) شاعر المكدين الاكبر حينما جاء في اليتيمة (٢ : ٢٠٥) وقام باتمام الموضوع الذي سده الجاحظ (كتاب البخل - ص ٤٧) والصفحات التي تليها (وعلى ما يبدو انه اوجد النظائر الذي اوصل الهمداني الى شكل جديد واعطى اهتماماته الى الرحالة ابي دلف الذي كتب قصيدته الساسانية والتي مده الاحنف بمادنها (اليتيمة ٣-١٧٥) وتبعه الهمداني في المقامة الرصاصية (يقرأ ذلك فقط في طبعة بومباي او القسطنطينية) ولكنه تجنب ان يعيد فيها ما كان واردا ولكن اقتباسه لبعض ابيات ابي دلف (اليتيمة ٣-١٧٦) جعله يشعر بأنه من اتباعه . وقف الجاحظ والاحنف وابو دلف الى جانب الشكل الواسع الجديد للمقامة المجموعة وان كانت ما تزال مفككة - على ما يبدو وقد نشأت مختارة من ٤٠٠ مقولة مدرسية من الهمداني تدور حول شخص واحد . ان المعلم الكبير لهذه الحضارة الجديدة والذي قدم بحرية وثقة معطيات واسعة وحكيمة مصحوبة بانفطرة لما هو حي وبالنظرة للشكل ، هو ابن الحجاج . . . انه احد القلائل في الادب العالي على الاطلاق ممن جمعوا بين الحماس والروعة وكل ذلك كان بلغة تمتلك طلاقة اسلوب الجاحظ وتكتب شكلا فويا بعد قرن من التمرين وغلفها برداء الحياة اليومية الملون (مصبوغة بصيغة الحياة اليومية) (٢٠) .

لقد اراد ابن الحجاج ان يبرغ اسلوب الجاحظ في النوح وفي عمله هذا تلبية قوية لمساعي سابقيه ، حيث ان البدايات الاولى للشعر الحضري عند بشار بن برد كانت تتعامل بالفحش

كمادة وقيمة وما تزال اللغة البدوية اظهر بكثير من لغة الحضرة (Landberg proverb P. 16) ويشكل هذا الفرق القمة في قصة ابنة القاضي الغنية في البصرة والبدوي الذي اراد ان يتوج اسمه بها (ان يذهب نبله بها) (العقد ٣ : ٢١٦) انها احدي اروغ القصص التي عرفناها . ان اهل المجون (٢١) لابد انهم كانوا طبقة مستقلة متميزة تابعة لجماعة اردشير السكير (قطب السرور ، ظهر الورقة ١٠٥ والورقة التي تليها) . اقام ابو العبر في عصر المتوكل مدرسة للشعر في سامراء حيث يلتقي المجان ويستسخون (الاغاني - ٢٠ - ٩١) وتظهر اليتيمة ان لابن الحجاج الكثير من المرافقين على هذا الدرب وربما يمكن ان يذكر بعضهم « سريع الدلاء البغدادي » (المتوفي في ٤١٢ م) والذي كتب قصيدة طويلة بالسلوب ماجن (الدميري ٢-٢٢٣) ، لقد حافظ هذا الاسلوب الذي له كغيره وقته الخاص به على نفسه كرد فعل للشعر العالي بالفحش . وهكذا فرح ابو نواس والذي يعتبر بجانب المتأخرين ماجنا بسيطا باغاظته لابن الاحنف (حيث سخر شعره الوجداني العاطفي - مصارع العشاق ، ص ٢٠٦) وفرح ابن الحجاج باغظة البستي الورع حيث قال ابن الحجاج (ص - ٢) .

بشرين هرون حين يسمها
يعجب منها ويفضح البستي
يا سيدي فاستمع لنادرة
غريبة قد مشى بها وقتي

وأكثر اصابة هو ما نمكته نادرة العاشق الذي يتوسل بالرسائل وفق الاسلوب القديم من محبوبته ان تظهر له ولو في الحلم فتد عليه بانها تأتيه بنفسها حية بدرهمين (ابو القاسم ص ١٧٢)

ارشدني الى خيالك حتى
اتقاضاه موعدا لي عليه

قال فقالت لجاريتها : ويحك قلني لهذا الرقيب يا مدبر انا اعمل بك ما هو خير لك من ان يطرقك خيالي احمل دينارين في قرطاس حتى أجيبك انا بنفسي . الخ .

ان شاعرنا ابو المظهر محمد بن احمد الازدي هو من اتباع مدرسة ابن الحجاج ويستشهد في المقدمة به وبالجاحظ ولم يذكر اي مرجع ادبي اسمه او اسم كتابه . ولما كان في نهاية كتابه (ص ١٠٥ والصفحات التي تليها) بهجو بغداد ويمدح اصفهان فانه يكتب اذا لصفهان وهذا

يعني أنه عاش في أصفهان . وليس من السهل تحديد وقت التأليف على الرغم من أن بعض التواريخ قد وردت في الكتاب . ففي ص ٨٧ يحكي أبو القاسم جوارى بغداد في عام ٣٠٦ . .

« ولو ذكرت هذه الاضطراب من المستمعين والاغاني من الرجال والصبيان والجواري والحرائر لطال ومل وكنت كالمزاحم لمن صنف كتاب الغناء والالحان والمعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد احصيت أنا وجماعة في الكرخ اربعمائة وستين جارية في الجانبين وعشر حرائر وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحلق والظرف ما يفوت حدود الوصف هذا سوى من كنا لا نغفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء والضرب الا اذا نشط في وقت أو نمل في حال وخلع العذار في هوى قد حالقه واضناه وترنم واوقع وهز رأسه وصعد انفاسه واستكتم جلاسه وكشف حجابيه وادعى الشقة بالحاضرين » .

وفي ص ٢٤ يذكر دار الميز التي بنيت في عام ٣٥٠ وفي ص ٢٣ يرد ذكر جامع براتا الذي هجر في عام ٤٥١ .

« ربي بحق امام صلى الله عليه في براتا »
ووصف الباذنجان في ص ١٠٠ .

ويتذكر أبو القاسم في ص ٨٨ حفلة في قرية مع ابن الحجاج واصدقائه (بين عام ٣٦٦ وعام ٣٩١) وقد ورد في ص ٧٨ ذكر طرب ابي عبدالله المرزباني المتوفى في (٣٨٤) وفي صفحة ٧٩ جاء ذكر طرب القاضي بن سبر (المتوفى في عام ٣٨٨) وطرب قاضي القضاة ابن معروف (المتوفى في عام ٣٩٠) وفي صفحة ٨٠ ذكر طرب الشاعر ابن نباتة (المتوفى في عام ٤٠٥) وجاء ذكر طرب ابن غيلان البزاز (المتوفى في عام ٤٤٠) في صفحة ٨١ وفي هذا تناقض اذ لا يتطابق ما ورد ذكره عن عام ٣٠٦ بصورة معقولة مع ما ورد ذكره مؤخرا . فقد اخذ المؤلف مادته من مراجع اخرى عندما استنسخ ديوان الطرب ، ولكنه اراد عندما اخذ ذلك التاريخ ان يضع الحديث في القرن الرابع (٢٢) وتظهر قصص الطرب مستقاة على أي حال من أحد الدواوين ويظهر من الرجوع الى الهمداني أن تأليف الكتاب جاء بعد عام ٤٠٠ . كما وان نهاية عهد سلطة السلجوقيين في بغداد مع ما حدث من تبديلات في ذلك العصر لم يذكر عنها شيء ولم

يمجد كذلك جامع براتا بعد اندثاره . فاذا كان أبو المطهر قد كتب في أصفهان في النصف الاول من القرن الخامس وأن الباخري (المتوفى عام ٤٦٧) قد زار كاتبا في أصفهان يدعى أبو المطهر الدمية - لندن ١٩٩٤ وجه الورقة ٤ - ملحق ٢٢ - ٢٧٤ ظهر الورقة ٣) فلا بد أن يكون هذا هو كاتبنا ، ويقال أنه كتب بعد ذلك « طراز الذهب على وشاح الادب » وتكن الباخري يسكت عن هذه الحكاية .

تبين المقدمة القيمة ان ابا المطهر كان على يقين بأنه قد اعطى للادب شكلا جديدا ويستشهد فقط بالفدوة العملية لابي ربويه الذي يحكي عنه الجاحظ ان التقليد مع المبالغة المضحكة قد استعمل فعلا في الثقافة العربية (وهو بالتأكيد احد الانتصارات القديمة لشخص على آخر) يا قوت - بوركات (فقد أدى فن النقل (من جيل الى جيل) القوي عند اللاهوتيين وعلماء فقه اللغة الذين ادخلوا كلمة حكاية في الادب بعد فترة قصيرة الى حمل المحاكاة على محمل الجد بينما بقي تأثيره في أوروبا مضحكا دائما (وهكذا رويت كلمات الحجاج بصوته الخافت (عيون الاخبار) بروكلمان ص - ١٢٩) واعيدت حكاية مغن وكأنه حي (الاغاني - ٨ - ١٦٢) . كان التقليد يعتبر دائما تدريبا فنيا يسمى القائم به باسمه ويستمع اليه باهتمام يكاد يكون علميا . مثل ابي ربويه ومن ثم ابن المغازلي وفي القرن الرابع الشاعر الأبيوردي (اليتيمة - ٣ - ١٤١ والصفحات التي تليها) ولدينا من لدن المؤرخين العرب الكثير مما يعكس صورة الزمن ولا يمكن التفكير بان مثل هذه الحكاية هي من الاعمال الفنية الادبية الا بعد ان يكون للحياة اليومية نصيب في الادب ، وهكذا تكون حكاية ابي المطهر (٢٢) قد وقعت في نهاية القرن الثاني عندما بدأ الادب العربي يغزو مملكة هذا العالم .

انتصرت مع الحريري المدرسة القديمة ثانية والتي كانت الى هذا الوقت ممثلة بالخوارزمي وابي العلاء ، فالمادة بالنسبة لـ«حريري» كانت فقط ذلك الخيط الرفيع جدا الذي يرقص عليه واذا قورن بالهمداني يبدو كمن يعمل بلا كواليس . فقد ائتمل بكتاب كلاسيكي على القرون اللاحقة ولم يفت الكاتب ان يذكر بفخر بان اداة الشاعر لم تكفه في عمله ، مثل ابن الاثير المثل السائر - ص ٥٠ . لقد شكل أبو المطهر المادة في ادبه منذ بناء القصيدة بقوة تنظيمية هائلة حيث يقدم البطل اولا ثم يوصف وهذا ما لم يفكر به الهمداني ، وهذه بداية طاهرها ديني :

بسم الله الرحمن الرحيم كان هذا الرجل المحلى يعرف بابي ... الخ ثم يصفه مدحا ولما ... الخ ويصف عادته وأعماله ... الخ .. عن ٢ والصفحات التي تليها ..

ثم يتم تغيير الموقف عن طريق ضحكة ضيف يتعرف من خلالها على الحاضرين بصورة سيئة كان يشتم جوانب المجتمع مثلاً . وفي ص ١٧ يؤخذ الضيف نفسه بعين الاعتبار « فيقول صاحب الدار يا أبا القاسم ما بقي في المجلس أحد ثم تذكره غيري فيقول يا سيدنا وما عسى أن أقول فيك إلا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل وكما قال الشاعر:

الى المرء لا تنظر بل انظر خليله

فكل امرئ يصبر الى من يجانبه

من يكون هؤلاء السادة ندماءه واصفياؤه واخلاءه ايش يقال فيه . وحياتي ما الف اللاماني منكم : في السماء ملك اسمه العنندر يؤلف بين الاشكال أبصر بعضهم بقاء وغرابا ويوما في موضع واحد فمجب من انفاقهم وتأملهم فاذا الغراب اعور والبيضاء اعرج واليوم مكسور الجناح فقل انما جمعتمكم العاهة ويحدق النظر الى اثنين منهم وهما صديقان فيقول لا اله الا الله ينضاف الثوم كما ينضاف البصل الى الثوم اطلع القرد في الكنيف قال ما تصلح هذه المرأة الا لهذا الوجه ... الخ » .

وتنهي محاكاة الواسف الوقور القسم الاول بعد ان تقاطع بمفاخرة قصيرة عن طريق تهكم احد السامعين :

« فيضحك واحد ممن في المجلس فيقول ذبحه ذابحه .. الخ نبشت القبر نصبت المجانيق على الكعبة .. الخ يا مدبر من ايش تضحك انما قلت :

كل دجاجة وفراخا وجدا
واشو حملانا صفارا رضما
واشرب الراح التي في دنها
شاهدت عادا ولاقت تبمما

ويبدأ القسم الثاني بشرب نخب اصفهان وهو عبارة عن مقارنة بين بغداد واصفهان تمتد من ص ٢١ الى ص ٩١ . وتعطي اللسة التقنية الفرصة لوصف بغداد بالرفقة والعدوبة ولدفع آلات الطرب الرئيسية في ذلك الزمان الى الامام ولسلب الفضائل والتعصب لتواسع الانتشار . انها المناظرة القديمة وكيف انتقلت من القبايل الى

المدن كما عند ابن الفقيه - ١٦٧ والصفحات التي تليها (والاغاني ٥ - ١٥٧) بين التكوفا والبصرة : ابن الفقيه - ٢٢٧ والصفحات التي تليها وياقوت : ٤ - ٩٨٤ والصفحة التي بعدها (بين همدان والعراق (المقدمة - ١١٧) بين بغداد والبصرة (حلبة الكميت - ٩٦) بين العراق واصفهان (١٢١) .

كانت اصفهان تسمى في القرن الثالث بغداد الثانية (ابن الفقيه - ٢٥٤) ففي عام ٢٢٠ تجمع المقيمون في بغداد واعاقوا الخطبة في الجامع الغربي وخرّبوا المحافل في قصر الخلافة بالحجارة وانزلوا الخطيب من على ظهر حمارة وهو في طريقه الى البيت واخذوا منه عمامته (حمزة - ٢١٥) .

ثم يسأل أبو القاسم عن الطعام وبه يبدأ القسم الثالث : انه حفلة السمر تتخلل طعام الفطور المختصر المصحوب بكلمات الاسكندري الوثقة (مقامات الهمداني - ٨٩ والصفحة التي بعدها) والوجبة الاساسية لعبة شطرنج هزلية وتصحب كل نوع من الطعام في الوجبة الرئيسية نادرة لطيفة وتعطي جرعة ماء المناسبة الاولى للتفكير باصفهان بصورة احسن (ص ١٠٢) ويستدعي في خلال ذلك ماء ويشربه ويقول والله اني اظلم اهل اصفهان في احوال : عمر الله اصفهان ماؤها الماء العذب وجليدها البلور الرطب وفي خلال ذلك يكون الشيخ قد انشغل بالسؤال عن اثنين من اهل بغداد بتحفظ بلاغي محجب .. ثم تبدأ المحاوراة المتضاربة بما تشتهر به بغداد من الخمور المعتقة من عرق الدندى الى الداذي المركز وعن المصطلحات المجيبة عند السباحين والملاحين [ص ١٠٧-١٠٨] فيقال له في اثناء المحاوراة يا أبا القاسم تعرف شيئا من السباحة فيقول يا احمق وسوادي لا يحسن ان يركب البقر وتركي لا يحسن ان ينزع في القوس انا والله اسبح من الضفدع ومن التنين اعرف من السباحة انواعا لم يحسنها قط سمك ولا بط ... الخ » . ينتقل بعدها الى سكة الجوهري حيث يسكن في بغداد وعن الوصف المختصر لادارته البيئية الاخلاقية وعن سعر الخمر ومدح الضيف الذي سرعان ما يتراجع عن مدحه له بصوت خافت (ص ١١١) .

« احمد الله على نعمه
قد انجز الدهر بها وعده
للت الذي مارئت اغرى به
على طريق الفأل مذ مده
والمن للمولى على عبده
في فعله لما اشترى عبده

ولا يزال يتلقاه بهذه المادح التي ينسبها
عن صدق الولاء وحسن العهد والمثيرة والثناء
إلى أن يتفوس في بعضهم سوء اعتقاد في هذا
الصاحب الذي بقرظه بأمثال ذلك فيقول له : « را
يا سيدنا من ذا ما هو الا طاعون في مجرى النفس
ليمنسي حممت سنة ولم اعرفه ما هو والله نا
سيدنا الا كما قال الشاعر :

انفاسه كذب وعقد ضميره

دجل وطلعنه سقام الروح »

ومن ثم ينصت إلى جاره على يمينه ويمدح
مجالسته ثم يذمه عند الذي على يساره ..
: ويتكرر مدح الحديث وذمه عدة مرات (١٢١)
والصفحات التي تليها () إلى أن نكت الموسيقى
ونحصل الطنبوري والمواد والمغنية على التثناء
اعتاد (١١٥) والصفحات التي تليها () وأخيرا تأتي
نسبة العريضة وعندما تفعل الخمرة فعلها وتغرب
أبو القاسم من المغنية ويدهد قدح شراب وهو
تلفظها بابيات من القول ولا يضحك على :

تغرب منها يطره الشيخ بوابل من سباب القرن
الرابع المختار تكونه رقبيا مفيدا للحب (ص ١٨١)
والصفحات التي تليها () وغالبا ما تؤخذ المادة من
الخوارزمي والهمداني وابن الحجاج كما تظهر
انها امتش لقد قام هؤلاء الثلاثة بتطوير هجاء القرن
الرابع . تراجع المنطوق (٢ : ٢) وعند ابن
بسام المتوفى في عام ٢٠٢ يمكن البحث عن
الانتقال من هجاء القرن الثالث الذي وصف
تطوره (٢٥٠) كوندتسبير (المستشرق الجفاري)
(البند - ٤٦ ZDMG) .

يود الحاضرون الاسراع بتصعيد التشنوة
عنده فيزيدون له من الشراب ليتخلصوا منه
فيلاحظ الهدف حيث يتروشح له اكثر فاكثير
أبوقفوا شيفني وبرفص ويتروشح إلى أن يتعب المني
ويستنه ليمتدري أبو القاسم ذلك بالشكل القديم
في رسم المئين (ص - ١٢٤) والصفحة التي
تليها (.....)

من استخف بقديري

نسم يا مخش عني

وعندما يدافع ثالث يبدأ هجاء قاس مع فخر
ثالث (ص - ١٢٧) والصفحة التي تليها () إلى
بعينيك واصغ إلى بأذنبيك لا تحرك يدك ولا
منكبيك نبه مستضعفا وأولئك اصدقائي اكثر من
خوص البصرة وبلوط الجبل وخردل مصر وعدس
الشام وحما الجزيرة وشوك القاطول وحفلة

الموصل ونبي الاهواز وزيتون فلسطين .. الخ
لم يكن تلفخر في خصومات الجاهلية مكانة دينية
إلى جانب الهجاء وقد انحصر فعله بصورة رئيسة
في كسب انمروس (الاغاني - ١٨ - ١٦٦) . ان
الانعطاف نحو الخيال الغريب انشأ جاء عن طريق
وعاظ الصدقة والادباء المتجولين كما يبين كتاب
البخلاء في (ص ٤٩) والصفحات التي تليها ()
حيث كان المواطنون رحلا وتنقل معهم الاسفار
والاخبار بسرعة الحصان الجامع .

ينعكس كل رد الفعل ضد المجتمع الاموي
في (ارلندو) العاشق لتغضب وفي (رابلياس) في
قصص الفرسان [ارلندو فوريوزو - ديوان
الشاعر الايطالي : اروسو رابلياس كاتب فرنسي
نقد الحكم بنوادره - ١٤٩٤] . كان القرن الرابع
مرة غريبا عن هذا النوع من السخرية ،
فالخوارزمي يستعمل عباراتها مبتسما (الرسائل
ص - ١٠٦) والمعجوز السكران الذي يرتعش
أمامه الاسكندر ونمرود الشيطان والذي يتبجح
باصدقائه ذوي الاسماء غير المحببة كالمكاري
والارمني والصقلي كان بالنسبة لأبي المظهر نمثيلا
هزليا .

ان نقل المفاضلة الذي تم أولا في القرن
الثالث على المادة والمعنى والذي اعتاد ان يتعامل
مع التقاليد في استعمال الازداد كالتوبيخ
والخريف ، البخل والكرم ، الشمر والنشر اسم
بنوضح الا عن طريق تأثير مذهب التوفيق اليوناني
وخلال ذلك يكون أبو القاسم قد غط بفعل الخمرة
في نوم عميق وأول شيء يسمعه المرء في الصباح
الثاني هو صلاته ثم يبدأ بفنائه الاستهلاكي ويأخذ
فيلسائه ويقول : السلام عليكم ..

هذا تظهر ايضا بوضوح المقولة القائلة « لا
تكون البداية في المادة بارعة » فالن القصي
العربي لم يعرف نهاية هذا الوقت بغير المتولوج
والحوار . فبينما يأخذ الهمداني أحيانا نماذج
قصيرة للمحادثات العامة يعذب أبو المظهر نفسه
بشدة لي طرح اسئلة وليضع محادثة . انه يأخذ
أحيانا مع العبارة ملحقها الذي لا يلائمها مثل
مقارنة ابن الرومي ص - ١٠٠ . وحيث وجب
عليه تغيير المنشأ بسبب العلاقة المحلية فانه فشل
في تحقيق ما يمهده بصورة غير مرضية مثلما ورد
في ص ٥٩ . وفي ص ٢١ حيث أيد اصفهان في
القصيدة الساخرة بينما يصبح الشيخ المعجوز
والذي لابد ان يكون نموذجا للبغدادي ، في البيت
الثالث اصفهانيا بالولادة

يا سائلي عن اصفهان واهلها
حكم الزمان بنحسهم وخرابها
سبائها ككهولها وكهولها
كشيوخها وشيوخها ككلاها

الاضداد للجاحظ يظهر بالمقارنة مع ما في كتاب ابي
المظهر في ثقافة هذا الحقل الخاص (٢١) . فالاسلام
لا يتحدث بالسوء عن عاصمته . واذا كان ابن جبير
يشكو غرور البغداديين فان ذلك لا يعني كثيرا
بالنسبة لفخره المتعصب . ويرى ياقوت - ١ - ٦٩٠
ان بغداد عاصمة الاغنياء بينما يجد الفقير نفسه
فيها كالقرآن في بيت الكافر .

ان اصدار مثل هذا الكراس من مخطوطة
فريدة متأخرة يحتاج الى الثقة فيجب قبل كل
شيء ان يعامل كتاب الادب الرفيع في القرن
الخامس بطريقة تختلف تماما عن التي يعامل بها
كتاب القرن الثالث او الكتاب اللغوي .

ولوصف مخطوطة الفهرس لابد من القول
ان توابع ٥٢ ، و ٥٢ مربوطة ومرقمة خطأ وان
بعض العبارات تشكل تشويشا (لغزا) لا يمكن
حله الا بصعوبة بالغة جدا وبهذا اسعدتني كثيرا
مساعدة البروفسور هورن وانا مدين ايضا الى
السيد البارون فون روزن لتفضله بوضع نسخة
المخطوطات تحت تصرفي .

الهوامش

- (١) كانت الهندسة المعمارية من المواضيع المحببة في المعاصرة
(لارن « القائمة الوصلية للهمداني » و « قواعد الموائد »
مخطوطة الفاتيكان ، رقم ٢٥٦ ، ظهر الودقة ١٧٤) من
الناس من يدخل الدار فيبتدىء بالهندسة فيقول كان
المجلس يصلح بابه من هنا والابواب ان يكون مقابلا لهذا
الباب وهذه الخزنة ما كان يليق ان تكون ها هنا .
(يبرز كتاب الميرون خصصت صور الخلفاء ، في
نهاية القرن الاول : غنى عصر الوليد تكلم الناس على
البناء وفي عصر سليمان على النساء وفي عصر عمر الثاني
على الدين (Fragm. hist. S. 11) .
- (٢) ان ما يذكره (قرب السامرة) يناسب بصورة خاصة
ما هو اشتهر بالامام (قطب السور - فينا - الجزء
الثاني - ظهر الودقة ١٩٦٠) .
- (٣) ومع ذلك فهو يحمل هذا اللقب بحق . انه رائد
الواقعية في الحياة العصرية .
- (٤) الدولة هي الانقلاب ، والثورة و « الواحد بعد الآخر »
وتسني في احدى قصائد العصر الاموي (اللائلي ١٠ : ١١٢)
سخط الافخاذ الحكومة على العائلة الحاكمة . ولم يد

وبالعكس من ذلك فلا بد من الاعتراف بان
الشاعر قاوم ظاهرة التبغدد التي جاءت اليه
بالتاكيد بعد دراسة العكبري ولبي دلف . كان من
الممكن ان يبقى تاليغه ترحابا عند علماء اللغة ولكنه
اصبح غير ادبي حيث ان الادب والشعب لا يمكن
ان يلتقيا الا وفق قوانينهما وذلك اهم ما في تاريخ
الادب . ان بغداد ابي القاسم ليست بغداد
المقدسي (ص - ١١٩) الذي قال ان بغداد في
طريقها الى السقوط (ص - ١٩٣) وعلى الرغم
من ورود ذكر المستشفى فلا بد انه قد رأى
المدينة قبل ان تزدهر على يد عضد الدولة (ابن
الاثير - ٥١٨) . لقد كان المرض كامنا ثم انفجر
بعدئذ وكان من الممكن ان يقضى على حروب
الشوارع المستمرة منذ عام ٣٠٨ ولكن الشؤم كان
في اسكان معز الدولة لاتباعه وجنوده في العراق
وهؤلاء نشروا الفوضى ولم يدعوا لموظفي الدولة
ابن الاثير - ٨ - ٢٤٢) وهكذا أصبحت المدينة
معتمدة كلياً على الواردات وعندما حوصرت المدينة
في اوقات الحرب بيع لأول مرة كل شيء في
العاصمة من اجل لقمة العيش (المصدر نفسه ،
ص ٢٤٩) وابندت في نفس الوقت الضائقة المالية
بسبب تناقض الدخولات المراقبة ولهذا بيع
كرسي القاضي لأول مرة في عام ٣٥٠ وتبعه بيع
شرطة المدينة والبلاط (شرطه وحسبه - ص
٣٩٩) ولكن العواقب ظهرت اولا في العصر
السلجوقي . يظهر ابو المظهر المدينة الكبيرة البراقة
المتهورة مع غواية محلات الموضة (مودة) وفناني
الموضة (كذلك مقامات الهمداني - ص - ١٠٥)
والمحاضيات المستهترات تارة والعاطفيات تارة
اخرى واللواتي يتم تصديرهن حتى الى مصر .
الاضداد الجاحظ - ١٨ - ومصارع العشاق ص
١٠٨ .

ان كلام النساء في كتاب لب الباب وفي كتاب

ابن المقفع مع الأسف أي رأي (الدرر اليتيمة ، بيروت ، ص ١٤) : « إذا كان سلطانك عند جدة دولة ... » .
ويبدو أن هذه الكلمة كانت مصطلح اندعاه المهدية القديمة (انظر : بيت أبي دلامة في عيون الأخبار ، بروكلمان ، ص ١٤) وعند ابن أبي أصيبعة (٢ - ٢٧)
لذكره كتاب أخبار الدولة كانت بداية حكم عبيد الله المهدي . لقد عمل دعاة العباسيين كما هو معروف بمثل هذه المصطلحات وهكذا فإن الدولة هي انتفاستهم أو كما نسمي في الأغاني (٣ : ٥٨) في موضوع قديم : دولة أهل خراسان . وفي خراسان تم تحديد معنى الدولة ويستشهد ابن الفقيه (٥ : ٦٥) بكتاب الدولة العباسية وأمرأ خراسان - وتسمى باب خراسان في بغداد استنادا إلى المسعودي في وقت سابق بباب الدولة (ص - ٢٤ (La Strange Bagd.)

وأنه معروف أن أبا مسلم غالبا كان يسمى بصاحب الدولة وصاحب الدعوة ويشهد البيان (١ : ١٢٨) و (١٢٩) بأنه عالم بالدولة وبرجال الدعوة . وبذلك يكون الكلمة مرادفة لهذه « الدعوة » في رسائل الجاحظ (لندن ، رقم ٢١٢٨ الورقة ٦٤) « كهول من أبناء رجال الدولة » . أنها تلك التي اسمها فهمها بعبارة (أبناء الدولة) كما في فهرست (WZKM - الجزء الرابع - ٢٠٤) حيث أن الراونديين الأوائل كان قد أطلق عليهم (أبناء الدولة) وهم يؤلفون بجانب الهاشميين في بغداد طبقة من النبلاء نهيم على أمور الدولة حتى قيل (المصدر نفسه ص ٧٠٦) : في مدينة بغداد بيت الخلافة وفيها بقية رجال الدعوة . أن أول تحويل لمعنى الدولة وجدته في الأغاني (١٥ : ٢٦) في صيغة : دولة برمك وفي (عيون الأخبار ، بروكلمان ، ص ١٢١) حيث قيل للخليفة المأمون : أنا سليل نعمك وابن دولتك) وب نفس المعنى في نفس الوقت (الأغاني ١٨ : ٥ و ١٦ : ٢١ و ٧٢) والكندي (الأبحاث الشريفة ، ص ٢٧٧) : ونقل الملك والدولة إلى العراق . إذا كان المرجع صحيحا وقد يدور الحديث على الدولة الأموية ولهذا كان أبو مسلم ناقد الدولة (حمزة الأصفهاني ، ص ٢١٨) . أما الدولة اليوم فتعني حكومة ولي اليمن سمي والي المدينة في عصر نيبور بالدولة (Kop. 1774, P. 295) -

(٥) كان الهاشميون يتواجدون سوبة في مقر باب البصرة (ابن الأثير ٩ : ١٢٦) وأعلنوا معارضتهم الدائمة لدار الخلافة ولأهل الكرخ (٩ : ٢٨٦) حتى أن باقوت ذكر بحث كلمة (كرخ بغداد) أنه كان هنا بعض الطوائف لم تكن لهم أية جدوى في الحياة الفكرية حتى أن المنصور قد شكى فله احتة لهم بالأدب (الأغاني ٦١ : ٦) وكذلك (الحجازيون المقيمون في سامراء بامر من النوكل) لم يقدموا أبدا شيئا يذكر . وهكذا

كان البلاط المعطى للأدب ضميما على الرغم من أن الشعراء في عصر هارون الرشيد كانوا يملكون رتبة خاصة في طاق أسماء (باقوت : ٢ - ١٨٩) وكان الكثير منهم يجتمعون في حلقات خاصة في الكرخ (٩ : ١١٢) وخصصوا ساعات الفناء والخطابة عند النخاسين الكبار (الأغاني ٢٠ : ١٢) .

(٦) شهد على ذلك ، في عام ٤٠٠ ، رسالة المري (ص ٦٩ وما بعدها) .

(٧) للريف معنى عند الشرفيين لا يتعدى كونه قطعة صغيرة بحجم السجادة : واجهة معدودة بدون ساحة . وهذا يمكن الوقوف عليه في كتاب الدنارات للشابنسي .

(٨) وكانت تقى في الحرب والحدا عند الأخيرة (الأغاني ١٨ : ١٦٤) .

(٩) سخر منه أبو نواس (مصارع المشال ص ٢٠٦) .

(١٠) رواية في ديوان أبي نواس (ظهر الصفحة ٢٥ - Gotha ٢٢٢٥) جاء الشاعر إلى خلف الأحمر ليتعلم عنده الشعر ، فحفظه في بادي الأمر ألف قصيدة يدوبه وطلب منه أن يتساها ثم سمح له أن يبدأ بنفسه .

(١١) استعمل راسي المعزلة البصري ابن أبي داود (التوفي في عام ٢١٠) الأعراب حتى في اسم وكنية أطفاله المديدين (الفهرست WZKM ٤ - ٢٢٢) .

(١٢) وفي أسطورة « ولد النين » يرد موضوع في قصة علاء الدين يشبه ما جاء في قصص الأنبياء (القاهرة - ١٣٠٨ - ص ٢٦١) .

(١٣) أن الرسالة حسبما هو معترف عليه هي من أصل فارسي (سانس ٣٦٨) . أما مجموعة رسائل المستشار الأموي عبد الحميد التي ذكرها المسعودي فكانت زوبرا وغالبا ما يقيم التأثير الفارسي على الأدب بصورة معكوسة فتشذيب الأسلوب المشبه غير صحيح ويبدو الرسائل وكأنها واقعة تحت تأثير أن أسلوب ابن المقفع طولي وبكل بساطة ضد انجازات « بني الأهم » القدماء وكذلك يبدو رسائل أبي يوسف الكندي فهي تأخذ مع الشكل الصيغة الجامدة من هناك .

(١٤) استعمل هنا مؤخرا في المصنات البلاغية - الحضري (المقد ١ : ١١٢ والصفحات التي تليها) .

(١٥) وحسبما جاء في غرر الفوائد للمرتضى (طهران ١٢٧٢ - لم استطع الاستشهاد إلا بنسخة المكتبة غير المرقمة) كان أبو نواس شاعره المحبوب . أما الولي سابقة فهو عدي بن زيد الذي لم يؤخذ به كليا كحضري (الأغاني - ١٥ - ١٧ و ١٧ - ١٢) . لم يصر للفلاحين اهتماما وهؤلاء ظهروا في الأدب أولا في كتاب « عز القحوف » .

(١٦) هكذا كان تعرفه تجاه السلف في كتاب البغلاء متميزاً، رغم كل حبه للكتب وجمعها (الفهرست ص - ١١٦ وغرد الفوائد) .

(١٧) اشتهر الجاحظ بأنه صانع القول البارع (الملاحظة الطريفة) (الاغانى ١٨ : ٥) .

(١٨) حسب كتاب المرفعات (ص ٨) اسناد ابن عباد .

(١٩) الذي اترف عند اختيار الشعراء ما سمي اخيراً في مواجهة الموضة بمفهم (انتهزي) (تولدته - معاصرة ص - ٦ ، البيان - ٢ - ص ١٦٤) .

(٢٠) يعتبر ابو العلاء بجانبه نموذجاً للمثاقم (بالاضافة الى ذلك فقد انتقل رواد مدرسة الصنوبري الشعرية الى مدرسة المهلبى . انهم الفنانون الذين يمكن ان يصيحوها في ، حضارة اخرى ، رساميه .

(٢١) الترجمة الحرة لكلمة ماجن هي في احسن الاحوال تقابلها في الفرنسية كلمة (الفاجر) ومعناها في الاغانى (٥ : ١٧٥) متهور ، وهي في الاغانى (: ٦٤) تعني بدون حكم سابق متساو في الحقوق . وكذلك في ديوان مسلم ص ١٤١ و (اخبار الهند ، ص ١٤٩) فالماجن هو المازح او الهازل او المرح بكل ما تعنيه الكلمة .

(٢٢) حسبما جاء في الصفحة الاولى : في الوقت الذي كان

فيه هو في بغداد (يذكر ابن الحجاج في ديوانه اسم مظهر من بين اصحابه انتم اجد على اي حال مثلاً آخر لاختصار الاسماء في بيت الشعر يمثل هذه الصورة :

وصلوا بمولاهم ركوعاً وسجداً

يوم ابن هرون بهم والطهر

(٢٣) العنوان لا يكون « ناربخ ابى القاسم » بل « عاتورات ابى القاسم » . الخ . يؤخذ في الالمانية المعنى المجازي للعنوان فيكون « ابو القاسم - صورة اخلاق بغدادية . »

(٢٤) كلها وضعت اما سجماً او في قافية بينما كانت المناظرة الشخصية القديمة بلا قافية . نقطة التبلور : الحسن ضد عمرو بن العاص ومروان في بلاط معاوية (مثلاً الجاحظ - كتاب الاصداد - ١٤٠ وما بعدها) . لقد كانت بلا قافية نهائياً .

(٢٥) جاءت ملاحظات خلف ربما خلف الاحمر بصورة غير مرتبة واليه ترجع المقامات (رقم - ٤ - ١٢٧) وكذلك ابن بسام التوفى في عام (٥٤٢ م) وللمقارنة يرجع الى ابن خلكان ، طبعة باريس (سلين - ٢ - ١٢٠٤ .

(٢٦) كما جاء في ص ٧٥ كانت صناعة مثل هذه التوارد عند النخاس .

بَعْدَ إِذْ وَضَعْتَ لِلْخَطِّ الْعَرَبِيِّ مَقَائِدِيرَهُ

بقلم

محمّد شكر الجبوري

وزارة التربية - بغداد

الكريم ، كان نتيجة لدراسته العظيمة في نشر المعرفة ، والاهمية القصوى في الكتابة في تحديد علاقات الناس بعضهم ببعض وثبتت ما لهم وما عليهم اضافة الى اهميتها في تدوين آيات القرآن المجيد . (وجاء في المدونات التاريخية الاسلامية ، ان النبي الكريم قد ارسل عددا من الرسائل الى الملوك وامراء الدول المجاورة يدعوهم فيها الى الاسلام) .

وقد وردت اشارات عن الذين كتبوا عند رسول الله ومنهم علي بن ابي طالب (رض) وعثمان ابن عفان (رض) وزيد بن ثابت ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهم .

وقد وصلتنا من عصر الخلفاء الراشدين وثائق تبدأ من زمن خلافة عمر بن الخطاب (رض) (١٢-٢٣ هـ) اقدمها يرجع الى سنة (٢٠ هـ) واخرها يرجع الى اواخر عصر خلافة الامام علي بن ابي طالب (رض) (٤٠ هـ) وتشمل تلك الوثائق المكتوبة مسكوكات ولغائف بردي واحجار .

وان دراسة الخط على المسكوكات على درجة كبيرة من الاهمية لكونها وثائق رسمية تصدرها الدولة . فالخط فيها معتنى به عناية كبيرة .

وتلك المسكوكات لها ولاشك اهمية كبيرة في دراسة تطور الخط العربي (١) .

(١) انظر :

الفقشندي : صبح الاعشى (مطابع كونستانتينوس ،

١١/٣) .

ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية (سلسلة اقرأ ،

٢١ - ٢٥) .

سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره

حتى نهاية العصر الاموي (٧٨ - ٩٨) .

←

الكتابة العربية قبل الاسلام وبعد ظهوره

قيل ان الخط العربي اصله من اليمن وهو (المسند الحميري) الذي كتبت فيه دولتا سبا وحمير ودونت به الكتابات المعينية والسبئية والحميرية .

وقيل ان اصل الخط العربي من الحيرة والانباء وهو الخط المسمى بالحميري او الانباري ، والذي نشأ في ارض العراق .

وقيل ان اصل الخط العربي هو (الفنيقي) نسبة الى فنيقيا ارض كنعان .

ورويت عن الاصل آراء كثيرة واخيرا قبل استنادا على ما اعتمد عليه المؤرخون والباحثون من خلال نقوش الاحجار التي وجدت في الاثار النبطية والتي تبين (ان الخط النبطي اخذ عن الخط الارامي والخط العربي اخذ عن الخط النبطي بدليل وجوده في كتابات المصاحف التي دونت في العهد الاول للاسلام) .

(ونحن هنا لا نريد الخوض في بحث هذا الموضوع ، ربما يتطلب مجالا قد يطول فيه الكلام)

وقد وصلت الكتابة العربية الى الحجاز بعدة طرق سواء اكانت التجارية منها او الصلات الاخرى ونستخلص من ذلك ان الكتابة العربية موجودة قبل ظهور الاسلام وفي قريش من يقرأ ويكتب .

ولقد ادرك النبي محمد (ص) ان للكتابة ارضا عظيما وعونا كبيرا في نشر الدعوة الكريمة : وكان اقرب الناس اليه الكتاب . وخاصة كتاب الوحي .

ان ذاك الحرص الشديد من لدن الرسول

البدايات الاولى في التحسين

بعد مقتل الامام علي بن ابي طالب (رض) في سنة ٤٠ هـ . انتقلت الخلافة بعد ذلك بقليل الى معاوية بن ابي سفيان مؤسس حكم الاسرة الاموية (٤٠-١٣٢ هـ / ٦٦٠-٧٤٩ ميلادية) .

وكان من اول اعمال معاوية ان نقل مركز الخلافة في الكوفة الى دمشق ببلاد الشام . وفي العصر الجديد اتسعت رقعة الدولة العربية كثيرا واقد تميز هذا العصر بانصراف المسلمين بشكل عام الى الحياة الدنيوية - عكس ماكان عليه الحال في عصر الراشدين حيث تجنب العرب الى درجة كبيرة البسج والترف - فتقدمت الفنون المعمارية كما مال العرب الى الخط والنحت والتصوير والزخرفة

ومن المعروف ان الخلفاء الامويين قد اولوا الخط عناية بالغة وذلك لاحتاجهم الماسة اليه سواء في الكتابة على المماثر ولتحف ام في استعماله في كتابة المصحف الشريف والمراسلات والنقود ان لكثرة النقوش الكتابية التي وصلتنا واختلفت المواد التي دونت عليها تساعد ولاشك في تتبع تطور الخط العربي في العصر الاموي (٢) .

ولقد اشتهر في هذا العصر خطاطون منهم خالد ابن الهياج وشعيب بن حمزة الكاتب المتوفى ١٦٢ هـ ومالك بن دينار المتوفى سنة ١٣٠ هـ . اما قطيعة المحرر المتوفى سنة ١٥٤ هـ فقد كان « اكتب الناس على الارض في العربية » . (ويقال انه هو الذي بدأ في تحويل الخط الكوفي وهو الذي اخترع القلم الطومار والقلم الجليل) . وقد أصبح للمشق في العصر الاموي اصوله وقواعده يعمل اليه الكثير من الخطاطين .

واخيرا فقد ظهر على الخط في العصر الاموي بوادر زخرفية جديدة (٣) .

بغداد تجود الخط العربي

اقد زاد تطور الخط العربي في اوائل الدولة العباسية على يد رجل من اهل الشام في خلافة

محمود شكر الجبوري : كتاب نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٢٨) .

مجلة افاق عربية (المند ٢ - ١٩٧٧ ، ٦٤ - ٦٩) .

مجلة افاق عربية (المند ٦ - ١٩٧٩ ، ٩٠ - ٩٧) .

(٢) سهيلة ياسين الجبوري : اصل الخط العربي وتطوره حتى نهاية العصر الاموي (ص ١١٩) .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٧ .

السهاح اول خلفاء بني العباس : يقال له (الضحاك بن عجلان الكاتب : فزاد على (قطيعة) ، فكان بعده اكتب الخلق ثم كان بعده اسحاق بن حماد الكاتب في ايام خلافة المنصور والمهدي : فزاد على (الضحاك) .

وكانا هذان الكاتبان بخطان (الجليل) وكانه يراد به الطومار او قريب منه .

ثم ازدهر عصر المأمون بتلامذة اسحاق بن حماد ، الذين كتبوا « الخطوط الاصلية الموزونة » التي لا يفوق عليها احد الا بالتعليم الشديد . وعدتها اثنا عشر قلما يخرج منها اثنا عشر قلما (٤) . وهذه الاقلام هي

- ١ - قلم الجليل ٧ - قلم المفتح
- ٢ - قلم السجلات ٨ - قلم الحرم
- ٣ - قلم الديباج ٩ - قلم المؤامرات
- ٤ - قلم الطومار الكبير ١٠ - قلم العبود
- ٥ - قلم الثلثين ١١ - قلم القصص
- ٦ - قلم الزنبور ١٢ - قلم الخرفاج (٥) .

و (ابراهيم الشجري) : وكان الخط اهل دهره . اخذ عن اسحاق (الجليل) : واخترع منه قلما اخف منه سماه (قلم الثلثين) ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه (الثالث) .

واخوه (يوسف الشجري) : اخترع من القلم الجليل قلما ادق منه . فاعجب به الفضل بن سهل وزير المأمون وسماه (القلم الرئاسي) وقبل ان الاصول المحرر استنبط من الثلثين والثلث فتي سماه (النصف) : وقلما اخف من الثالث سماه (خفيف الثالث) . واقلام اخرى مثل (المسلسل) و (غبار الحبة) و (خط المؤامرات) و (خط القصص) و (الحوائجي) الا ان خطه مع حسنه وبهجته كان غير محكم ولا متقن (٦) .

وكان ينافس في عصره (وجه النعجة) محمد بن معدان المعروف بابي درجان وكان مقدما في

(٤) الدكتور سهيل انور : الخطاط البغدادي علي بن هلال (٤٤) .

(٥) عبدالله الشهور بحاجي خليفة : كشف الظنون (طهران) ٧١٠ - ٧١١ .

(٦) القلقشندي : صبح الامشي (١٤/٢) .

د . سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ١٥) .

البطيوسي : الاقتصاب (٨٧ - ٨٩) .

محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي وتطوره (ص ٥٨) .

يوم الخميس لتسع بقين من شوال سنة ٢٧٢ هجرية (١٠) .

انه كان « مقلة حدقة الزمان يافسوت العرفان ، مصور النقوش القدسية بالصور الروحانية ، وحضر الخطوط الهندسية بالادوات الجسمانية . عليه الرحمة والرضوان ما كتب القلم وظهر الرقم » وهو بغدادى ، يكنى بابي الصدر محمد بن علي بن حسن بن مقلة الوزير (١١) .
رغب عن عمل ابيه ، وانصرف الى الدرس ، ويقول مؤلف كتاب (تحفة الخطاطين) ان (اباه) كان زياتا ، يبيع الزيت ، . . وكان ابوه كاتباً ملبح الخط ، وعلى خطه كتب ولداه : ابو علي ، وابو عبدالله . بلغ مرتبة عالية في علم الاعراب ، وحفظ اللغة ، وبلاغة البيان منشورة ومنظومة ، كما شهد له اصولي بذلك ونضائل اخرى ايضا تميز بها على اقرانه في اهل عصره (١٢) .

ومن الحق ان ابن مقلة الذي عد (انسان عين الاعيان ، واستاذ اساتذة الزمان ، ووزيرا ذا شأن) ، كان اكبر معرفته هذا الانقلاب الذي احده في الخط . وهو لم يقتصر على الخط وحده كأمثاله من ارباب المعرفة ، بل لقد قرض الشعر ايضا ، ومن شعره في ابن خلدون قصيدة رثية في الخط (١٣) .

وقد افاض العلماء المعنيون ببحوث - الخط العربي ، من القدماء خاصة في شرح قوانين الكتابة المنسوبة ، وما تعارف عليه الخطاطون من تناسب الحروف ومقاديرها في كل قيم ، ونسبة بعضها الى بعض ، مما توجه به قوانين الهندسة والنسبة الفاضلة ، وكتبوا رسائل كثيرة . ونجد مثالا لذلك مختصرا وواضحا في كلام صاحب (رسائل اخوان الصفا) في رسالة الموسيقى منها ، وفي (الفية زين الدين شعبان الأناري) ، وكلام شرف الدين ابن عبدالسلام في (صبح الاعشى) ، وغيرهم (١٤) .
ومما اوردته في قواعد تتعلق بالكتابة التي لا يستغنى الكاتب الجيد عن معرفتها . في هندسة الحروف ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب الحروف : (ومما قاله الوزير ابو علي بن مقلة : عنها :

(الجليل) ، واحمد بن محمد بن حفص المروف بـ (زاقف) وكان اجل الكتاب خطا في (الثلث) .

وكان ابن الزيات في ايام ابن طولون وزير المتعصم يعجبه خطه ولا يكتب بين يديه غيره .

وانتهت رياسة الخط بمصر الى طبطب المحرر جودة واقفان (١٥) ثم انتهت جودة الخط وتحريره على راس الثثمائة الى الوزير ابي علي محمد بن مقلة واخيه عبدالله (١٦) .

ثم اخذ عن ابن مقلة محمد بن السمساني ومحمد بن اسد ، وعنهما اخذ الاسناد ابو الحسن علي بن هلال المروف بأبن البواب . . . ومن اخذ عنه محمد بن عبدالملك ، وعن محمد بن عبدالملك اخذت الشيخة المحدث الكاتبة زينب الملقبة بشهادة ابنة الابري ، وعنهما اخذ امين الدين ياقوت ، وعنه اخذ ولي العجمي ، وعليه كتب العفيف ، وعن العفيف اخذ ولده الشيخ عماد الدين ، ويقال ، انه كان كاهن البواب في زمانه ، عن الشيخ الدين بن العفيف اخذ الشيخ شمس الدين بن ابي رقية محتسب القسطنطين ، . . واخذ عنه الشيخ شمس وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها اليه في صنعة الكتاب ، احسن فيه الصنيع ، وبه تخرج الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الأناري محتسب مصر ، ونظم في صنعة الخط الفيه وسمها بـ (العناية الربانية في الطريقة الشعبانية) ، لم يسبق الى مثلها ، ثم توجه بعد ذلك الى مكة ، ثم الى اليمن والهند ثم عاد الى مكة فاقام بها ونبغ (١٧) .

نستخلص من العرض اعلاه ان مناخ بغداد كان ظرفا مناسباً مما جعل الخط يتطور ويجود وتنمى اوضاعه وتصبح له اشكال خضعت الى قواعد ومقاييس كانت الاساس المتين لهذا الفن الرفيع .

(اللوحات التالية تمثل انواع الخطوط العربية في العصر العباسي والتي جودها الخطاطون الاوائل عبر العصور) .

ابن مقلة هندس الحروف العربية وقدر مقاييسها

ولد ابو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة

(١٠) وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٠) .

(١١) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ١١) .

(١٢) المصدر السابق ، ص ٥٢ .

(١٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٥ .

(١٤) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(١٥) الفلكنشدي : صبح الاعشى (١٣/٢) .

د. سهيل انور : الخطاط البغدادي (ص ٢٥) .

(١٦) الفلكنشدي : صبح الاعشى (١٣/٢) .

(١٧) المصدر السابق (١٤/٣) .

الالف : هي شكل مركب في خط منتصب ، يجب ان يكون مستقيما غير مائل الى استلقاء ولا انكباب : قال : وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر .

الباء : هي شكل مركب من خطين : منتصب ومنسطح . قال ونسبته الى الالف بالمساواة ثم قال وهذا الحرف وما يجري مجراه من يمنة الى يسره ، وكل ما كان كذلك فينبغي ان يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا . ولا يخفى ان الناء والباء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجيم : هي شكل مركب من خطين : منكب ونصف دائرة ، وقطرها مساو للالف .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نخط عن يمينها وشمالها خطين فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

ولا يخفى ان الحاء والخاء في معنى الجيم من جميع ما تقدم .

الدال : هي شكل مركب من خطين : منكب ومنسطح مجموعهما مساو للالف وقال ايضا : واعتبار صحتها ان نصل طرفيها بخط فنجد مثلثا متساوي الاضلاع . ولا يخفى ان الدال في معنى ما تقدم .

الراء : وهي شكل مركب في خط مقوس هو ربع الدائرة التي قطرها الف وفي راسه سنه مقدرة في الفكر .

وقال ايضا : واعتبار صحتها ان تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة .

ولا يخفى ان الزاي في معناها .

السين : وهو شكل مركب في خمسة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنتصب ، ومقوس ومنتصب .

وقال ايضا : واعتبار صحتها يعني صحة راسها ان تمر بأعلىها وأسفلها خطين فلا تخرج عنهما ولا تنقص .

ولا يخفى ان حكم السين ايضا كذلك .

الصاد : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ومقوس وقال : اعتبار صحتها ان يكون راس النون مشرفا على آخرها .

ولا يخفى ان الصاد كذلك .

الطاء : قال ابن عبدالسلام : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ، ومنسطح يبدأ اوله بنقطة واخره بنقطة . قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كثلثي الف خطه .

قال ابن مقلة : واعتبارها كاعتبار (الصاد) وقال ابن عبدالسلام : اعتبار صحتها ان يكون المنتصب كالف في خطه في الانتصاب والطول : والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسله .

ولا يخفى ان حكم الطاء في ذلك كالطاء .

العين : وهي شكل مركب من خطين : مقوس ومنسطح ، احدهما نصف دائرة .

قال : واعتبار صحتها كاعتبار الجيم . ولا يخفى ان العين في الحكم كذلك .

الفاء : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ومنتصب ومنسطح .

وقال : واعتبار صحتها ان نصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا قائم الزاوية .

القاف : هو شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومقوس .

وقال : واعتبار صحتها كاعتبار النون ، وسيأتي ذكره .

الكاف : شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومنسطح ، ومنتصب ومنسطح .

قال : واعتبار صحتها ان ينفصل منها باءان :

قال ابن عبدالسلام : يعني مستقيمة ومقلوبة .

اللام : هي شكل مركب من خطين : منتصب ، ومنسطح .

قال : اعتبار صحتها ان تخرج من اولها الى آخرها خطا يماس الطرفين فيصير مثلثا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الانواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الميم : هي شكل مركب من اربعة خطوط : منكب ، ومستلق ، ومنسطح ومقوس .

وقال : واعتبارها كاعتبار الهاء . وسياتي .

النون : هو شكل مركب في خط مقوس ، هو نصف الدائرة وفيه سنة مقدرة في الفكر .

وقال : واعتبار صحتها ان يوصل بها مثلها فتكون دائرة .

الهاء : شكل مركب في ثلاثة خطوط : منكب ، ومنحصب ، ومقوس .

قال : واعتبار صحتها ان تجعلها مربعة انزاويتين السفلاوين .

الواو : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

اللام الف : قال ابن عبد السلام : هي شكل مركب من ثلاثة خطوط : منكب ، ومنسطح مستقيم ، ومستلق ، طول المنكب كطول الف من قلم الكتابة وطول المنسطح كثنسي الف الكتابة ، وطول المستلق كطول الف الكتابة ، يبدأ أول المنكب بنقطة ، وكذلك المستلق .

قال : ومنها نوع آخر مركب من ثلاثه خطوط : منكب ، ومستدير بقارب الف ، ومستلق يقابل طرفه المنكب .

الياء : شكل مركب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكب ، ومقوس .

قال : واعتبارها كاعتبار الواو (١٥) .

ويتضح لنا : ان الحروف العربية حيوية شديدة ناشئة من مطاوعتها واستدارتها وانبتها جميعا ، على اصل هندسي ثابت وقاعدة رياضية معروفة ، فاصل الحروف العربية « الالف » التي هي خط مستقيم جملوه قطر الدائرة ، اما بقية الحروف فهي اجزاء من الدائرة المحيطة بهذا القطر منسوبة اليه ، او اعيدت الى التسطيح وازيل تقوسها فكانت كلها من الالف بنسبة معينة ثابتة .

لكل حرف من حروف العربية هندسته الخاصة ، والحروف كلها باجزائها وطلباتها مردودة الى نسبة ثابتة ، عرفت بالنسبة الفاضلة (١٦) .

ابن البواب بين الصياغة والقاعدة

الاستاذ علي بن هلال ، بغدادي ، اشتهر باسم « علاء الدين بن البواب » وكني بابي الحسن . وكان ابوه يعرف بابن سري ، وكان في دولة آل بويه بوابا عند ملوكهم .

توفي في بغداد سنة ٤٢٣ هـ ودفن بجوار الامام بن حنبل (على ما رواه ابن خلكان) .

كان علي بن هلال يحفظ القرآن الكريم ، وقد اخذ الخط في حديثه من محمد بن اسد ، ثم من محمد بن السمساني صاحب محمد بن اسد والمبيده على قوله . ثم جمع خطوط محمد بن مقله في النسخ والثلاث الذين قلبيهما من الخط الكوفي ، واذهبها ، ونفحها ، وصححها ، وروجاها ، فاستقام بفضلها اسلوب بن مقله في كل الوجوه ، وخلص اسمه ونال شهرة عظيمة باقية الى يوم الدين ، حتى اطلق عليه لقب « الناقل الاول » . ولكن الحقيقة ان ابن مقله ليس هو الناقل الاول ، وانما الناقل ابن ابي طالب على ما اوضح ذلك « مستقيم زاده » في بحثه في محمد بن الحسن بن مقله (١٧) .

ولقد نشأ ابن البواب محبا لفن الخط العربي وما اليه بكله وكان في شبابه مزوقا يستغل بنصير الدور والكتب والدواوين ثم تعمق فن الخط والتعمق نبوغه . واتقن قاعدة ابن مقله ثم جودها وحسنها وابدع في اوضاع الحروف العربية وابعادها (١٨) ومن اعظم اعمال ابن البواب وسبب شهرته انه اكمل اسلوب الكتابة الذي امتداه قبل قرن من الزمان الوزير ابن مقله .

وهو الذي وضع المقومات الفنية التي كان الخط المنسوب لابن مقله بحاجة اليها وقد كان ابن البواب فنانا بالفطرة وله نظرة فنية وهذا يبدو جليا في انتظام وحركة خطوط الاقواس العظيمة التي انشاها ويمكن ان ندعوه حقا مؤلف الخط المنسوب المنسجم دون منازع ودون الحاجة ان نخلط معه ابن مقله او نذهب بعيدا الى اصل من بدأ بهذا الخط (١٩) .

وقد نظم علي بن هلال قصيدة رائية جليلة ضمنها قواعد الخط ، وشرحها كثير من العلماء ،

(١٧) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٦ - ٧ .

(١٨) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين (ص ١١٥) .

(١٩) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي ونظيره في المصور المبسطة في العراق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٥) الفلقشندي : صبح الاعشى (٢/٢٢ - ٢٤) .

(١٦) محمود شكر الجبوري : نشأة الخط العربي ونظيره ، ص ١٢ .

لأنها تشتمل على قواعد علم الخط . وقد ذكرها ابن خلدون في تاريخه ، وعدتها ثمانية وعشرون بيتا ومظلمها :

يا من يريد اجازة التحرير

ويروم حسن الخط والتصوير

وعد اكبر كتاب الخط بعد ابن مقلة ، لأنه في حقيقة الامر - استطاع ان يقلب الخط على وجه يسترمي الانتباه ، وان يستنبط منه اسلوب الثلث والنسخ ، ويعطو بهما الى مرتقى رفيع من الكمال .

وتدرج خط علي بن هلال في مدارج على مر الایام . وارتقى كثيرا من بعد علي يد ياقوت المستعصي . لكن الفرع الذي استمر الى القرن الخامس عشر في مصر ، متبعا لطريقة علي ابن هلال اتباعا تاما ، لم يستطع في استمراره ان يبلغ مرتبة مدرسه (٢٠) .

والخطاط العظيم ابن البواب ، قد ارسى قواعد الخط العربي ، وهذب حروفه ، واجاد في تراكيب السطور ، وبقيت قاعدته ثابتة الى اليوم ، ولم يحل الى مرتبته أحد ، حتى برز الخطاط البغدادي ياقوت المستعصي فجود طريقة ابن البواب وحشا ، وهذبا في القرن السابع الهجري (٢١) .

ياقوت المستعصي قبله الكتاب

هو ابو النور جمال الدين ياقوت المستعصي الرومي الكاتب . اشراه الخليفة العباسي المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين . ونشأ ياقوت في دار الخلافة ، (واصل ياقوت رومي وكان من معاليك المستعصم فانتسب اليه . تميز بالادب ، والشعر ، وجودة الخط . وهو آخر من انتهت رئاسة الخط المنسوب اليه) .

اعتنى بتعليمه فنون الخط الشيخ صفى الدين عبدالمؤمن أحد فقهاء المدرسة المستنصرية واشهر كتاب زمانه .

وقد عشق ياقوت فنون الخط العربي منذ صباه ، حتى برع فيه ، واظهر من المهاراة ما جعله في مصاف عظماء الخطاطين . وبقي ياقوت يتحلى خطوط الائمة الجودين ممن سبقوه في هذا المضمار

(٢٠) د. سهيل انور : الخطاط البغدادي ، ص ٨ .

(٢١) الخطاط وليد الاعظمي : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ص ١٢٢ .

حتى بلغ الغاية في حسن الخط ، وضبط قواعده واصوله وفاق ابن البواب في جمال الخط وحسن تنسيقه والابداع في تراكيبه فلقب بـ (قبله الكتاب) وتصدر ياقوت لتعليم فنون الخط ، وبلغت شهرته الافاق وفصده الناس ، وبالغوا في اقتناء خطوطه (٢٢) .

كان ياقوت المستعصي خازنا بدار الكتب في المدرسة المستنصرية باشراف المؤرخ الكبير ابن الفوطي .

وقد افاد ياقوت من دار الكتب كثيرا ، وكان يجتمع بالادباء والعلماء والشعراء والوزراء ، فعرفوا فضله ، وقدروا فنه ، ونال رعايتهم وتشجيعهم . حتى بلغ القمة وتربع على عرش الخط العربي ، وصار مضرب المثل في حسن الخط .

حتى كان الناس اذا استحسنوا خطا قالوا : خط ياقوتي . وبرع في تجويد الخط كثيرا وهذب اوضاع الحروف ، وحوار في انكباب واستلقاء بعضها ، وصارت مدرسة بغداد الخطية هي السائدة في العالم الاسلامي بفضل جهوده حيث سمى الخطاطون في الافاق يقلدون خطوطه ويمشقون على قاعدته التي لا تزال الى يومنا هذا متمسكة بخصائصها عن المدرسة العثمانية التي اعقبتها . وعند سقوط بغداد على يد هولاء ، عزل ياقوت عن خزانة كتب المستنصرية وفوض امر خزان الكتب الى موفق الدين ابن ابي الحديد واخيه عزالدين (٢٣) .

ويقال انه انتقل الى المدرسة المستنصرية قبل احتلال بغداد . . واخذ يقرأ ويتعلم وينهل من العلوم والكتب الموجودة فيها تارة يدرس اللغة العربية ويتعرف على اسرارها وقواعدها وتارة تتعلم اصول الخط .

ويقال ان هذه المدرسة لم يصلها الدمار مثل ما اصاب الامكنة الاخرى . ولم تعطل فيها الدراسة الا لمدة وجيزة من الزمن (٢٤) .

وقال فيه صاحب كتاب الاعلام باللغة الفارسية (ان في يده سرا من اسرار الله) (٢٥)

(٢٢) المصدر السابق : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

(٢٣) المصدر السابق نفسه : تراجم خطاطي بغداد المعاصرين ، ص ١٢٦ .

(٢٤) ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ص ٤٢ .

(٢٥) شمس الدين سامي : قاموس الاعلام ، ١/٤٧٨٦ .

وكان ياقوت المستعصي يكتب على طريقة ابن البواب ، الخطاط الا انه قطع راس قصب الطيب (الريشة) بصورة مائلة ونتيجة لذلك كان خطه رفيعا من جهة وغلظا من جهة اخرى وبهذا اصبح اكثر اناقة (٢٦) .

الخلاصة

يرى المتتبع لتطور الخط اهتمام الكتاب به باعتباره الوسيلة التي كتبت به آيات القرآن الكريم . وبرزت أهمية تجويد الكتابة والعناية بها لقدسيتها ومكانتها العظيمة عند المسلمين . وليس من شك ان الفنان المسلم ابتعد عن رسم كل ما فيه روح ، نبع ذلك من عقيدته ،

(٢٦) سهيلة ياسين الجبوري : الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق ، ص ٦٤ .

فسخر كل طاقاته وملكانه بالابداع بالخط وبالغ بزخرفته . واصبحت تلك الوسيلة التي كتبت بها آيات القرآن الكريم فنا رفيعا ، وبالخط العربي كتبت مؤلفات ائمة المفكرين المسلمين . وعد هذا الفن من اسمى الفنون العربية والاسلامية .

والتفحص لتطور الحروف وتجويدها يجد بفيته بيد الكتاب الاوائل النابغين الذين عسوا بتحسينه والابداع به .

وفي بغداد هندست الحروف العربية وقدرت مقاييسها واجيد تحريرها على يد ابن مقلة وابن البواب وياقوت المستعصي وهؤلاء الرواد جهابذة الخط سموا الى نشر قواعده واشاعته في مشارق الارض ومغاربها . وشغف الناس بتعلمها والاحتفاظ بالمخطوطات النادرة الثمينة . وضمت المكتبات منها ما حوت من العلوم والفنون نماذج منها كانت رائعة وجبلة شكلا ومضمونا .

مَقَامَاتِي فِي قَوَاعِدِ بَغْدَادَ

في الدولة العباسية

تأليف : ظهير الدين الكازرونى (ت : ٦٩٧هـ = ١٢٩٨م)

تحقيق

كوركيى عواد وميخائيل عواد

تمهيد :

في خزانة كتب السلطان محمد الفاتح بجامع السليمانية في استانبول ، مجموع خطي نفيس كبير ، برقم ١١٥٤١١ ، كتب بخطوط مختلفة وازمنة متفاوتة ، يرقى بعضها الى المئة السابعة للهجرة . ولعل تلك الاعلاق كانت متفرقة متبعثرة ، حتى عمد بعضهم في زمن مجهول لدينا ، الى جمع شملها بين دفئتي هذا المجلد .

وفي ما باتي ثبت "باجل" ما ينطوي عليه هذا المجموع من كتب ورسائل ونبذ (٢) :

١ - كتاب مفرج النفس : لشرف الدين ابي نصر محمد بن عمر بن ابي الفتوح البغدادي ثم المارديني المعروف بابن المراه . تاريخ النسخة ٦٨٨هـ = ١٢٨٩م (الورقة ١ - ٣٣) .

٢ - مقامة اتشاهها ظهير الدين ابو الحسن علي بن محمد الكازرونى ، في قواعد بغداد في الدولة العباسية (الورقة ٣٥ - ٤٦) .

(١) صور بعضه بالكروفلم ، صديقنا المرحوم يوسف يعقوب مسكوني ، وقد ولفنا على ما صورده ، فلذا به ينتهي عند الورقة ١٧٢ من المخطوط .

(٢) اشار مؤلف « فهرست خزانة فاتح » الى ثلاثة تأليف فقط مما يحتويه هذا المجموع الخطي الواسع ، وهي ثلوات الارقام ١ و ٦ و ٨ . اما الباقي وهي ١٨ مؤلفا ، فقد الغفل ذكرها .

٣ - صفة عمل الجبن المقلوب وغير ذلك (تنمة الورقة ٤٦) .

٤ - رسالة في تفسير قول النبي : تفرق امتي على ثلاث وسبعين فرقة (الورقة ٨٩ - ١٩٧) .

٥ - نبذة من تذكرة الكحالين (٢) (الورقة ٩٧) .

٦ - فصل في معرفة صوم النصارى (الورقة ١٠٣ - ١٠٥) .

٧ - من كلام ما شاء الله (الورقة ١٠٥ ب) .

٨ - دلائل الشهور الرومية والمربية : جمع الحسن بن البهلول الكاتب النصراني (٥) . تاريخ النسخة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م (الورقة ١١٣ - ١١٣٧) .

٩ - من كتاب المواليذ : لابن ابي الخصيب الكاتب (الورقة ١٣٧ ب) .

(٣) تذكرة الكحالين : من اشهر كتب التراث العربي في طب الميئون . ألفها علي بن عيسى الكحال ، المتوفى سنة ١٠٢٩هـ = ١١٢٩م .

وقد طبعت في حيدر اباد سنة ١٩٦٤ ، في ٤٠٠ ص . (١) هو المنجم اليهودي ما شاء الله ، كان في زمن المنصور وعاش الى ايام المأمون . ترجمته في (« الفهرست » لابن النديم ، ص ٢٧٣ ؛ طبعة ليبسك) ، (« اخبار الحكماء » للقلطي ، ص ٣٢٧ ؛ طبعة ليبسك) ، (« تاريخ مختصر الدول » لابن العبري ، ص ٢٤٨) .

(٥) من أهل المئة الرابعة للهجرة (= العاشرة م) . وهو صاحب « المعجم السرياني » الذي طبع في باريس .

١٠- رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي في أحداث الجوس (الورقة ١١٤٨ - ١٤٩ ب) .

١١- كلام لابن وحشية (٧) (الورقة ١٥٠ - ١٥٤) .

١٢- فصل في معرفة اعياد اليهود (الورقة ١٥٤ - ١٥٨) .

١٣- فصل في شرح اعياد اليهود (الورقة ١٥٨ ب - ١٥٩ ب) .

١٤- فصل في صفة الارغنون (٨) (الورقة ١١٦٠ - ١١٦١) .

١٥- آلات الروم [الموسيقية] (الورقة ١١٦٣) .

١٦- صفة عمل برّ شمشا (٩) : ترجمة الحكيم ابي البركات اوحّد الزمان (٩) . منقول من السرياني . (الورقة ١٦٣ ب) .

١٧- فائده في معنى لفظة « العراق » (الورقة ١٦٤ ب) .

١٨- تقويم فلكي (الورقة ١٦٥) .

١٩- في تأثيرات الكواكب وحلولها البروج (الورقة ١٦٧ ب - ١٧٠) .

٢٠- انحكّم والامثال (قصيدة نونية) لابي الفتح علي بن محمد البستي (١٠) (الورقة ١٧٠ ب - ١٧٢) .

(٧) حققها ونشرها : يوسف بطوب مسكوني (بغداد ١٩٦٥) .

(٧) هو ابو بكر احمد بن علي ، المعروف بابن وحشية الكلداني ، العالم العراقي بالفلاحة ، المتوفى سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م . له تصانيف كثيرة في الزراعة والكيمياء ، أشهرها كتاب « الفلاحة النبطية » في اجزاء . ولم يطبع . وقد نشر عادل ابو النصر ، خلاصته في بيروت .

(٨) آلة موسيقية قديمة . تعرف اليوم بـ (الارغن) .

(٩) لفظة سريانية بمعنى « ابن الساعة » ويراد به الدواء الذي يفعل عمله في ساعته . ونظير هذه اللفظة ما اتخذهُ ابو بكر الرازي عنواناً لاحد تاليفه وهو « برء الساعة » . راجع : (« تذكرة داود الانطاكي » ١ : ١٠١ - ١٠٢ ؛ بولاق ١٢٨٨ هـ) .

(٩) هو ابو البركات اوحّد الزمان بن ملكا (او : ملكان) ، الطبيب الفيلسوف العراقي ، ت ٢٧ هـ = ١١٥٢ م ، مؤلف كتاب « المختبر » وغيره من التصانيف . راجع ترجمته في « تاريخ حكماء الاسلام » لليبتي . تحقيق : محمد كرد علي (دمشق ١٩٦٦ ؛ ص ١٥٢ - ١٥٤) .

(١٠) توفي سنة ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م . له ديوان شعر . حققه : د. محمد مرسى الخولي . وسينشر قريباً .

٢١- نبذة في كيفية الاذان عند الشيعة (الورقة ١٧٢) .

المخطوط الذي نشره :

يتضح من هذا السرد ، ان المخطوط الذي نشره اليوم ، هو ثاني ما في هذه المجموعة ، وقوامه إحدى عشرة ورقة ، تقع في هذا المجموع بين الورقة ٣٥ و ٤٦ على ما أسلفنا .

وكان معهد المخطوطات العربية في القاهرة ، قد صوّر هذه « المقامة » في جملة ما صوّره من مخطوطات خزائن كتب استانبول (١١) .

وخط هذه « المقامة » فيما يبدو ، من خطوط المئة الثامنة للهجرة ، وهو ، على ما يراه القاري في النماذج المنشورة هنا ، من الخطوط الوعرة التي تصعب قراءتها . ذلك ان النسخ ، ولم يرد لإسمه ذكر في المخطوط ، قد اغفل تنقيط بعض الحروف المعجمة ، كما وقع له في انشاء النقل تصحيفات تدرت في مواطن مختلفة منها .

تنطوي هذه المخطوطة على « مقامة » ادبية تاريخية عمرانية ، تتناول بالوصف مدينة بغداد في اواخر ايامها العباسية ، وبمبني سقوطها بأيدي الفول .

اتّساق هذه « المقامة » ظهير الدين الكازدوني البغدادي الشافعي ، احد علماء المئة السابعة للهجرة . وسبأني الكلام عليه .

ونسخة هذه « المقامة » فيما بدا لنا ، فريدة لا يعرف لها نظير . فهي أكثر ألف بحسن إحيائه بالتحقيق والنشر .

وقد سبق لنا ان حققنا هذه « المقامة » ، سنة ١٩٦٢ ، بمناسبة احتفالات بغداد والكندي . ونشرتها حينذاك « وزارة الإرشاد » . ولكن نسخها المطبوعة لم يتم توزيعها يومئذ لأسباب لا محلّ لذكرها ، فبقيت مطمورة . وهذا ما حدا بنا الى إعادة تحقيقها وإخراجها اليوم بهذا الوجه الجديد ، على صفحات مجلة « المورد » الزاهرة .

(١١) راجع في ذلك : (« فهرست المخطوطات المصورة » الجزء الأول . لفؤاد سيد . القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٢١ ؛ الرقم ٧٩٩) .

وانظر : (« تاريخ الادب العربي في العراق » لمباس الغزاوي ١ : بغداد ١٩٦١ ، ص ١٦١) .

المقامات البغدادية :

ولنا ان نؤمّه بأنّ غير واحد من منشئي المقامات ، قد افرد مقامة اسمها بـ « المقامة البغدادية » ، من ذلك :

انّ المقامة الثانية عشرة من مقامات بديع الزمان ايمداني (المتوفى سنة ٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) ، عُرِفَتْ بِـ « البغدادية » .

وانّ المقامة الثالثة عشرة من مقامات الحريري (المتوفى سنة ٥١٦هـ = ١١٢٢م) ، عُرِفَتْ ايضاً بِـ « البغدادية » .

وانّ المقامة الاولى من المقامات الزينية لابن الصبّاح الجزري (المتوفى سنة ٧٠١هـ = ١٢٠١م) ، عُرِفَتْ بِـ « البغدادية » ايضاً .

وقد خصّ الشيخ ناصيف اليازجي (المتوفى سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧١م) ، بغداد ، بالمقامة الثامنة من مقاماته الموسومة بِـ « مجمع البحرين » .

وافرد الشيخ عبدالله بن مصطفى الفيضي الموالي (كان حيّاً سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦م) مقامة بعنوان « المقامة البغدادية » . لم تُطْبَع . منها نسخة لدى حفيده نشاة الفيضي في الموصل . ذكرها الدكتور داود الجبلي (« مخطوطات الموصل » ص ٢٩٩ ؛ انرقم ١٥) .

المؤلف :

١ - مراجع ترجمته :

في كثير من المؤلفات القديمة والحديثة ، ذُكِرَتْ لظهير الدين الكازروني . وقد رجعنا إليها ومَحْصَنّاها ، ناذا بترجمته واخباره في جميعها محدودة ضيقة النطاق لا تنعدي في جملتها كلمات معدودات .

وفي ما يأتي ثبت بهذه المراجع ، وقد رتبناها فيه وفق السياق الهجائي لعنواناتها :

الأعلام : لخير الدين الزركلي (٥ : ١٥٥) .
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون :
لاسماعيل باشا البغدادي . (١ : ٣٢٨ ؛ ٢ : ٧١٤ - ٧١٥) .

تاريخ الادب العربي في العراق : لعباس العزاوي (١ : ٢٥ - ٣٦ ، ٩١ ، ٢٦١ ، ٢٦٧) .

تاريخ العراق بين احتلالين : لعباس العزاوي (١ : ٣٤١ ، ٣٨٠ ، ٤٣٣ ؛ ٢ : ٦٨) .

تاريخ علم الفلك في العراق : لعباس العزاوي (ص ٦٧ - ٦٨) .

التعريف بالمؤرخين : لعباس العزاوي (١ : ١٢٧ - ١٢٩) .

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة (١٢) : لابن الفوطي (ص ٤٩٧) .

الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة : لابن حجر العسقلاني (٣ : ١١٩) .

دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً : للدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة (ص ٢٢٦ ، ٢٢٣) .

طبقات الشافعية الكبرى : للسكي (٦ : ٢٤٢) .

غاية الاختصار في اخبار البيوتات العلوية المحفوظة من القبار ، النسب الى ابن زهرة الحسيني الحلبي (بولاق ١٣٠٩ هـ ، ص ١٢) .

فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات العربية : لفؤاد سيّد . (١ : ٥٣١ ؛ ٢ : [التاريخ : القسم الثاني] ص ١٣٤) .

كشف الظنون عن اسامي الكتب وائنفون : لحاجي خليفة . (١ : ٩٢٣ ؛ ٢ : ١٠١٣ ، ١٩٢٣ ، طبعة استانبول الثانية) .

مختصر التاريخ للكازروني : تحقيق : د . مصطفى جواد . (مقدمة المحقق . ص ٣ - ٢٢) .
اسمه ونسبه - مذهبه - ولادته وثقافته - وفاته . مؤلفاته .

معجم المؤلفين : لعمر رضا كحالة (٧ : ٢٣٢) .

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي : لابن تفردي بردي .

عمد المستشرق الاناري جاستون قبيت ، الى

(١٢) نشره الدكتور مصطفى جواد ، في بغداد سنة ١٣٥١هـ . وقد ذهب حينذاك الى انه لابن الفوطي (المتوفى سنة ٧٢٢هـ) . ثم تحقق له بعد ذلك ان كلا العنوان والمؤلف غير ثابت لديه .

وَضَع فهرس شامل بأسماء المترجمين فيه ،
ونشره بالفرنسية - في القاهرة سنة ١٩٢٢ -
بعنوان :

Wiet (Gaston) : Les Biographies des
Manhal Safi.

وقد أشار (ص ٢٤٠ : الرقم ١٦٣٩) الى
ورود ترجمة الكازروني في هذا الكتاب .

طبع الجزء الاول من « النهل الصافي » :
(القاهرة ١٩٥٦) وفيه تراجم من اسمه (ابراهيم ،
واحمد) فقط .

مؤرخ العراق ابن الفوطي : لمحمد رضا
النسبي (١ : ٩٧) .

هدية العارفين ، اسماء المؤلفين وآثار
المصنفين : لاسماعيل باشا البغدادي (١ : ٧١٥) .

* * *

وهناك مراجع مخطوطة ، نوهت
بالكازروني ، لم يتسن لنا الوقوف عليها . قال
صاحب « الدرر الكامنة » في اثناء ترجمة الكازروني :
« مات بعد انبعاثه فيما ذكره البرزالي . وقال
الادفوي : في ربيع الاول سنة ٦٩٧ . وقال الذهبي :
كتب اليه بعروياته سنة ٦٩٧ » .

نفى هذا الكلام دليل على ان هؤلاء المؤرخين
الثلاثة قد ذكروه في مؤلفاتهم .

اما المراجع الانرجية الإستشرافية ، فان
نصيب الكازروني منها ، الالهال والاغفال . فهذا
(بروكلمان) لم يذكر الكازروني بكلمة في كتابه
« تاريخ الادب العربي » ، لا في الاصل ولا في الدبل .
ومثله « دائرة المعارف الإسلامية » .

٢ - ترجمته :

لم نجد المؤرخين القدامى والمحدثين الذين
افردوا ترجمة لظهير الدين الكازروني ، من اطلال
القول في تلك الترجمة ، او اسهب فيما كان عليه
من مقام في العلم والادب ، ومنزلة في المجتمع . وغاية
ما ذكروه فيه كلمات معدودات ، على ما اسلفنا ،
في وسعنا ان نجملها بما يأتي :

هو الشيخ ظهير الدين علي بن محمد بن

محمود بن ابي العز بن احمد بن اسحاق بن ابراهيم
الكازروني^(١٣) ، ثم البغدادي ، الشافعي .

ولد سنة ٦١١ هـ (١٢١٤ م) . وسمع
الحديث من الامير ابي محمد الحسن بن علي ابن
المرتضى . وابي عبدالله محمد بن سعيد المعروف
بابن الدينني الواسطي (المتوفى سنة ٦٢٧ هـ =
١٢٢٩ م) وغيرهما .

كان الكازروني من رجال العصر المغولي في
العراق ، من اهل بغداد . خدم الديوان في الاعمال
الجليلة . وكتب خطا جيدا .

كان مؤرخا ، حنبلياً ، فريضياً ،
لفوياً ، فقيهاً . شاعراً . قال السبكي : له شعر
حسن . واوردته ابن حجر العسقلاني هذين
البيتين :

زارني في الظلام اهيف كالبدر
بوجه منه يلوح النور
قلت اهلاً لو كنت زرت نهراً

قال مهلاً في الليل تبدو البدر
لقد كان الكازروني شيخ ابن الفوطي المؤرخ
البغدادي الشهير (المتوفى سنة ٧٢٢ هـ = ١٣٢٣ م) ،
ونسب بمسبغ ان يكون ابن الفوطي قد خص
استاذة بترجمة في كتابه الموسوم بـ « تلخيص مجمع
الاداب في معجم الالقاب » . ولكن الجزء الذي فيه
حرف « الظاء » ضائع لا يعرف له وجود اليوم .

ويؤخذ من ترجمة حياة البرزالي المؤرخ
الشهير ، ان الكازروني كان قد اجازته باجازة
علمية^(١٤) .

ولنا ان نقول ان مؤلف « الحوادث الجامعة »
كثيراً ما ينقل عن تاريخ الكازروني ومثله
الذهبي^(١٥) .

وقد اختلف المؤرخون في سنة وفاة
الكازروني . على ما سبقت الإشارة إليه . ولكن
اغلب الروايات تقول انه توفي سنة ٦٩٧ هـ
(١٢٩٨ م) .

(١٣) نسبة الى كازرون . بفتح الزاي وهم الراء . مدينة
في ايران في غرب شيراز .

(١٤) عباس الخزاعي : مؤرخ الشام او البرزالي ولابظه :
(« مجلة الجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥]
ص ٢١) .

(١٥) (« تاريخ العراق بين احتلالين » ١ : ٢٨٠) ،
و (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨) .

٣ - مؤلفاته :

إن كانت الخسارة بضالة وقوفنا على ترجمة الكازروني كبيرة ، فإن الخسارة بضباع مؤلفاته أدهى وأندح من تلك . ذلك أن مترجميه ذكروا له جملة مؤلفات لم ينته إلينا منها ، فيما نعلم سوى ثلاثة ، هي : هذه « المقامة » التي نشرها اليوم ، و « مختصر التاريخ » ، و « الإختيارات » . أما سائر مؤلفاته فقد امتدت إليها يد الضياع وأصبحنا لا نملك من أمرها أكثر من اسمائها .

وفي ما يأتي ثبت بهذه المؤلفات ، وقد رتبناها على السباق الهجائي :

١ - الإختيارات : في علم النجوم واختيار اوقات الأعمال والأفعال والحركات للإنسان :

جاء في (« الحوادث انجامة » ص ١٩٧) :
أن الكازروني « عمل كتاباً في الإختيارات سلك فيه طريقة ابن حزم في الإختيارات التي عملها لشرف الدين إقبال الشراي » (١٦) .

٢ - تاريخ المعدلين عند قاضي القضاة [سراج الدين] الهنيسي :

ذكره ابن الفوطي (« تلخيص معجم الألقاب » ج ٤ : القسم الأول ، ص ٢٢٩ ، ٢٦٦ ، ٦٥١) .
ولا نعرف لهذا الكتاب نسخة مخطوطة في زماننا .

٣ - التذييل :

قال عباس العزاوي : « هذا الكتاب جاء ذيلاً على تاريخ العمراني في الدولة العباسية من أوائلها إلى أيام المستنجد بالله (١٧) . وهو تأليف الشيخ الثقة محمد بن علي بن محمد ابن العمراني ، ابتداء في الذيل في أول ولاية المستنجد ، وختمه بآخر إمارة المستنجد بالله (١٨) . عثرت على تاريخ العمراني (١٩) ولم أعثر على التذييل . وجاء ذكر الأصل والتذييل

(١٦) عنوان هذا الكتاب « الإختيارات الزمانية للأعمال الكلية » . وقد علمنا أن نسخة الأصل التي كتبت لخزانة الأمير إقبال الشراي . وهي نسخة خزائنية نفيسة ، في مكتبة عثمان فوزي في استانبول .

(١٧) دامت خلافته من ٥٥٥ إلى ٥٦٦ هـ (١١٦٠ - ١١٧٠ م) .

(١٨) دامت خلافته من ٦٤٠ إلى ٦٥٦ هـ (١٢٤٢ - ١٢٥٨ م) .

(١٩) عنوان هذا التاريخ : « الإنباء في تاريخ الظلاء » . وقد حققه وقدم له : د. فاسم السامرائي (مطبعة بوبل -

ليدن ١٩٧٣ ؛ ٢٦٧ + ١٥ ص) .

في كتابه (مختصر التاريخ) عند الكلام على خلافة الناصر لدين الله . فكان لإشارته قيمتها » (٢٠) .

وانظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد ، على (« مختصر التاريخ » ص ٢١ - ٢٢) .

٤ - التتولات (٢١) :

٥ - روضة الأريب (٢٢) :

في التاريخ (٢٣) : في سبعة عشر صفراً (٢٤) .
قال الدكتور مصطفى جواد ، في مقدمته على كتاب (« مختصر التاريخ » ص ١٨ - ١٩) : يصدد هذا الكتاب ، ما يأتي : « روضة الأريب » ، بالراء كما جاء في كشف الظنون ، وتصحفت في أكثر الكتب الأخرى إلى (روضة الأدب) . بالدال المهملة ... ، وهو كتاب في التاريخ جليل كبير ، لم نعر إلا على نقول منه تدل على جزالة فوائده ... وطريقته كانت على حسب استمرار السنين » .

٦ - السيرة النبوية (٢٥) :

سمّاها صاحب (« هدية العارفين » ١ : (٧١٥) ب « الدرورة العليا في سيرة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم » . ولعل هذه « السيرة » من ضائعات الكتب .

٧ - كنز (٢٦) الحسّاب في الحساب :

في مجلد (٢٧) . ولا نعرف له نسخة خطية .
٨ - مختصر التاريخ : من أوّل الزمان إلى منتهى دولة بني العباس :

منه نسخة فريدة ، بخط قديم ، في خزانة

(٢٠) (« التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٩) .

(٢١) (« إضاح المكنون » ١ : ٢٢٨) ، (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) .

(٢٢) (« طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢) ، (« الدر الكامنة » ٣ : ١١٩) .

(٢٣) في (« كشف الظنون » ١ : ٩٢٣) : في التاريخ ، أي تاريخ بغداد .

(٢٤) في (« كشف الظنون » ١ : ٢٨٨ و ٩٢٢) ، و (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) : في سبعة وعشرين مجلداً .

(٢٥) (« الدر الكامنة » ٣ : ١١٩) ، (« الإعلان بالتوبيخ لمن لم التاريخ » للسرخاوي ، ص ٨٩) ، (« كشف الظنون » ٢ : ١٠١٣) .

(٢٦) في (« هدية العارفين » ١ : ٧١٥) ، و (« إضاح المكنون » ٢ : ٧١٤) : تصحفت اسمه إلى « وكسر الحساب » . وفي (« معجم المؤلفين » ٧ : ٢٢٢) : كسر ...

(٢٧) (« الدر الكامنة » ٣ : ١١٩) .

جار الله باستانبول برقم ١٦٢٥ ، كتبت سنة ٦٦٢ هـ ، مكتوب بأولها أنها بخط المؤلف . وهي في ٩٧ ورقة ، بحجم ١٤ × ١٨ سم . وعنها نسخة مصورة في معهد المخطوطات العربية (٢٨) . وأخرى كانت في خزانة عباس المزاري ببغداد . أوله بعد البسملة : ذكر مدة الزمان وما مضى منه . وآخره : وانتقلت الدولة العباسية فسبحان من لا ينقضي ملكه ولا يزول سلطانه .

وقال عباس المزاري فيه : « في سنة ١٩٣٩ ، وقفت عليه بخط مؤلفه . كنه بعد سقوط الخلافة العباسية بنحو سبع سنين . وكنت اظن أن آثاره طمست ولم يبق ما يشير الى مكانته التاريخية . وفيه مطالب مهمة عن الآثار العراقية ، وتوضيح لمشاهدات في عمارات خيرية ، وكلام في الاسرة العباسية لا نجدها في غيره . فكان عظيماً في اختصاره وهو صفوة تاريخ العراق ، ومتن متين فيه ، يغني على اختصاره عن مطالعة أسفار . وهو زبدة تصنيف وروح المطالب . وهذا المؤرخ ممن له اصبع في الإدارة أو علاقة في الدولة ، ويستفاد من حجة نقله نبصره في شؤونها ، وكتب كما يريد ولم يكتب كما يراد » (٢٩) .

حقق هذا الكتاب الجليل وعثق عليه : الدكتور مصطفى جواد . ولكنّه توفي قبل أن يطبع . فنشرته وزارة الإعلام . وقد وضع فهارسه وأشرف على طبعه : سالم الألوسي : (مطبعة الحكومة - بغداد ١٩٧٠ ؛ ٤٣٣ ص) .

(٢٨) « فهرست المخطوطات المصورة » : الجزء الثاني - القسم الثاني : المؤاد سيد ، ص ١٢٤ : القلم ٨٢٢ .
(٢٩) « التعريف بالمؤرخين » ص ١٢٨ - ١٢٩ .

راجع بسانه ، ما كتبه :

د. قاسم السامرائي : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٨ [دمشق ١٩٧٢] ص ٤١٢ - ٤٢٨ .

صبحي البصام : « مجلة مجمع اللغة العربية » ٤٩ [دمشق ١٩٧٤] ص ١٦٩ - ١٨١ .

٩ - مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية :

وهي هذه التي نشرها اليوم . ولم نجد بين المؤرخين الاقدمين من ذكرها .

١٠ - الملاحه في الفلاحه (٢٠) :

وهو من التصانيف الضائعة .

١١ - المنظومة الاسديّة (٢١) :

في اللغة العربية . نظم فيها رسالة « أسماء الأسد » للصغاني .

١٢ - التبراس المفيء (٢٢) :

في اللغة .

(٣٠) « العدد الثامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » (٧١٥ : ١) .

(٢١) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ ، « تاريخ الادب العربي في العراق » ١ : ٣٥ .

(٢٢) « طبقات الشافعية الكبرى » ٦ : ٢٤٢ ، « العدد الثامنة » ٣ : ١١٩ ، « هدية العارفين » ١ : ٧١٥ .
ولي (« كشف القنسون » ٢ : ١٩٢٣) : « تبراس المفتي » . وهو وهم . ولي (« الاعلام » للزركلي ، ٥ : ١٥٥) : « لفقه الشافعية » .

مقامة

أنشأها الشيخ العالم العدل ،
 ظهير الدين أبو الحسن علي بن محمد بن
 محمود بن الكازروني ، تغمده الله برحمته ،
 في قواعده بغداد في الدولة العباسية

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلت .

حدثنا قاضي تبريز ، وهو من ثقات المحدثين وسادات المحدثين ، قال : كنت
 لا أريم^(٣٣) عن بلدي المألوف ولو رغبت بالألوف . وكنت ضنينا أن أفارق بلدة بتربتها
 نيضت علي التائم . إلا أنني كنت أسع من جؤاب الأقطار وطراق البلاد والأمصار ، أن
 دار السلام هي كعبة الاسلام وحرم الإمام ومعدن الكرام ودار الخلافة ومحل الأمن من المخافة .
 وبها مقر الملك وسريه وإمام العصر وأميره ، خليفة^(٣٤) الله وابن عم نبيه الأواه . تدعن
 الملوك بالطاعة لسلطانها ، وتتدأك^(٣٥) على أبوابه لتقبل أركانها . والعدل بها ممدود الرواق ،
 والعلم مديد الأطناب في الآفاق . والدين منشور اللواء ، والإسلام محروس الجناح بالخلفاء .
 وقطانها أعذب الناس أخلاقاً [١٣٦] وأكثرهم حياءً واطراقاً ، وأتق العالم بصيرة ، وأعدلهم
 سيرة ، وأصفاهم سريرة ، وأدشهم للصدق ، وأحناهم على الصاحب والرفيق . وزاهدتهم العلم
 المشهور ، والقعدة المشار إليه في الأمور . وعوامها السوقية تغتم مفاكمتهم وتروق
 مجالستهم . أخلاقهم عذبة للصاحب ، وخواطرهم من أعجب العجائب . يسبق ادراكهم البرق
 اللامع ، ويدهش ذكاؤهم الرائي والسامع . قد اعتدل هواؤها ، وطاب فناؤها ، وعذب ماؤها ،
 ورقت أسجارها ، وورفت^(٣٦) أشجارها . فهم في خفض من العيش يتقلبون . « لَهِمْ دَارُ
 السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »^(٣٧) .

(٣٣) المخطوط : لا ارم . والوجه ما في اعلاه .

(٣٤) المخطوط : وفيها خليفة .

(٣٥) المخطوط : وتتباك . يقال : تدأك عليه القوم بمعنى ازدحموا .

(٣٦) المخطوط : وزفت .

(٣٧) سورة الانعام . الآية ١٢٦ .

فخطر ببالي في بعض الليالي ، أن البسر سربالي البائي وأفارق أشبالي ، وأجعل على الله
 انكالي ، في قطع فيافي البيداء ، ورفض الدعة للحث [٣٦ ب] الى الزوراء^(٢٨) . فرأيت في المنام
 قائلاً أسع نداءه ولا أتحقق مرآه ، ويملاً سمي صوته وإن كنت لا أراه ، يقول :
 يا عبدالله « فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »^(٢٩) .

فنهض بي عزمي لإجابة الداعي ، وقعداً طفلي يتحبون لوداعي ، وأنا أعد للرحلة
 زادي ، وأملأ بالماء ، لبعد المسافة ، مزادي^(٣٠) . فلما اقتعدت راحتي وأنفيتها في قطع مسافتي ،
 وافتتها بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جائمة^(٣١) ، وقصوراً خاوية ، وعراصاً باكية .
 قد رحل عنها سكانها ، وبان عنها قطانها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد . وقصورها
 المشيدة مهدومة ، ونماؤها مطلوبة معدومة ، موحشة لفقد قطانها ، باكية بلسان الحال على
 سكانها . عظام العظام بالية تسفي عليها الرياح السافية . « فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ »^(٣٢) .
 فوقت أبكيها وأندب ربوعها ومن كان فيها .

[١٣٧] وأندب أطلالها تارة وأبكي على فرقة الطاعنين
 فلو ذهبت مقلّة بالبكاء لفرط الغرام لكنا عينا

وهناك شخص قد بصر بحالي وهو يذري^(٣٣) دمه لساع ارتجالي . فقلت له :
 ما جلاؤك فقد أعجيني حالك . فقال : إليك عني واذهب لسيلك ودعني . فاني أتمتع بالبكاء
 وأسح^(٣٤) الدمع على هذه الأصلاء ، وأقيم مأتم العزاء . فلو رأيت من هذه البلدة ما رأيت .
 لأذريت معي الدمع ولأسح بكاؤك الجمع . فقلت له : حدثني كآثي أشاهد ، وصف لي ما
 كان بها من المشاهد . فقال : يتصدّع قلبك ويطير لساع ذلك ليك . وإذا شئت فاتبعني وحدث
 عن هسك ولا تروعي . فأسرعت خلفه أقص أثره ، حتى وقف بي على عبرة ما^(٣٥) اعتبره .

(٢٨) من أسماء بغداد .

(٢٩) سورة آل عمران . الآية ١٥٨ .

(٣٠) المزاد : فربة الماء .

(٣١) المخطوط : جائلة .

(٣٢) سورة الحاقة . الآية ٧ .

(٣٣) أذرت العين دمعها : صببته .

(٣٤) سح الدمع : نزل بغزارة .

(٣٥) المخطوط : من .

فرايتُ حرم الخلافة مهانا ، بعد أن كان كعبة وأمانا . فظاف [٣٧ ب] بي ببعض قصوره^(٤٦) واعتذر عن الباقي لقصوره ، وقال : يكفيك ما المحك وأريك . هذا رواق^(٤٧) عزيز ، الرفيع البناء ، وهو سرير ملك الخلفاء ، ومحل أنس السادة الأمراء ، ومهبط الخول^(٤٨) والحشم ، ومقر الحور والخدم ، يروح النظر منه في أنضر مقام ، وترتع العين منه في أبهى خليفة وإمام .

مقام عليه للنبوّة هبة وفيه من الركن العتيق ملامح
يودّ بيط الجوّ لو أنّه له بساط وانّ الشهب فيه مرائح^(٤٩)

كانت تبرز منه الأوامر الشريفة الى الديوان بعلم الخليفة ، تارة بجزيل الصلات ، وتارة بالمعروف وإقام الصلاة ، وتارة بالنهي عن المنكرات ، وتارة بالقصاص من أهل الجنايات ، وتارة الى الملوك بالتقدمات ، وتارة بالتخويف من التبعات . ترعد فرائض الملوك لورودها ، وينزل بها الرعب في صدورهم ، فتقابلها بالامتثال [١٣٨] وامضاء مراسمها في الحال بعد التبرك بها ، وامرارها على نواظرها . طوبى لمن كانت تصل إليه ، ويا حيرة من فاته ثقيلها^(٥٠) ، وواها لمن^(٥١) كان يصل الى هذا المقام أو يتمناه أو يبلغ درجة المثول به ، أو يراه . فد تبدّل بعد الأنس بالكتابة ، حتى صار بهذه المثابة يستوقف بلسان حاله ، ويستبكي على تغيير أحواله . فسبحان من له الدوام والبقاء والعظمة والكبرياء . « قلّ اللهمّ مالِك المُلْكِ تُوَتِّي المُلْكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكِ مِنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ »^(٥٢) .

ثمّ قال : وهذا باب الحُجْرَة^(٥٣) الشريفة المشار إليه ، وعنده كانت تقف^(٥٤) دابة

(٤٦) : راجع بشأن قصور دار الخلافة العباسية ببغداد ، ما كتبه : د. مصطفى جواد بعنوان « دار الخلافة العباسية : تعيين موزمها وأشهر مبانيها » : (« مجلة المجمع العلمي العراقي » ١٢ [بغداد ١٩٦٥] ص ٩٨ - ١١٥) .

(٤٧) : من أروقة دار الخلافة ببغداد . كان قائما في اواخر أيام الدولة العباسية ، وبعد انقراضها . راجع : مقالة « عثور الجدود على النقود » لكوركيس موزاد : (« مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق » ٢٠ [١٩٤٥] ص ١٥٤ - ١٥٦) . وانظر (« دليل خارطة بغداد » ص ٢١٦ - ٢١٩) .

(٤٨) : الخول ، محرّكة : جمع خولي . العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .

(٤٩) : المخطوط : طلايح . والطرائح جنمّع طرحة ، وهي ها هنا بمعنى الطيّلسان .

(٥٠) : المخطوط : فضيلتها .

(٥١) : المخطوط : وواها عليه من كان .

(٥٢) : سورة آل عمران . الآية ٢٥ .

(٥٣) : راجع (« معجم البلدان » ١ : ٤٤٤) ، طبعة وستنفلد . ليبسك ١٨٦٦ م .

(٥٤) : المخطوط : يقف .

النوبة والمعوّل من الأبواب عليه ، لأنه باب أمّ الخليفة ، فلذلك فضلها . وعنده كان ينادي بالصلاة لكلّ فريضة افترضها . فلو سمعت ترجيع القراء به من الأذان واختلاف الأصوات [٣٨ ب] بضجيج الألحان ، لأنسيت مطربات القيان . ولو عاينت وقوفهم بهذا المكان يودّون لو صافحوه بالأجفان ، لعلمت موضع هيبته ، ولظهر^(٥٥) لك حقيقة حرمة . ولكن أنت تشاهد الآن أصداء بالية وربوعاً خالية .

ثمّ استدبره وتعداه ومضى عنه وخلاه ، وأنا أتبع ظلك أينما ذهب ، واقفوا^(٥٦) أثره لأنظر العجب .

فجنح الى بعض الأماكن ، وقال : وهذه دار الطبل ، ولكن أين الساكن ؟ كانت أهلة بالمبنيكين^(٥٧) ، عامرة بالساعاتية لإدراك وقت التآذين . فاذا دخل وقت الصلاة ، ضربت النوبة في جميع الأوقات .

وهذه القصور التي تراها ، والنعمة الظاهر أثرها ، أين من بناها ؟ كانت الجهات^(٥٨) بها محمية الجانب الى أن حكم فيها الأجانب ، فاسترقوا كالإماء ، واستهينوا كالعبيد ، بعد الملك والثراء والنعيم والضوضاء والصيتة [١٣٩ أ] والعلاء والمنزلة الرفيعة العليا .

ثمّ هرول قدّامي وأنا أثقل خلفه أقدامي ، حتى خرج من الدار ، وقال قد وقعت على الآثار ،

(٥٥) المخطوط : وظهر .

(٥٦) المخطوط : واقفوا .

(٥٧) هم الذين إليهم النظر في البنكومات . والبنكومات آلات يقدر بها الزمان . وهي اصناف : رملية ، ومائية ، ودورية أي معمولة بدواليب يدير بعضها بعضاً . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ٢٥٥ ؛ طبعة استانبول ١٩٤١) .

وراجع في هذا الشأن :

يوسف غنيمة : « صناعات العراق في عهد العباسيين : البنكومات والآلات المتحركة » : (« مجلة غرفة تجارة بغداد » [بغداد ١٩٤١] ج ٨ : ص ٥٧٥) .

د. مصطفى جواد : « البنكومات والساعات المائية » : (مجلة « العلم والحياة » بغداد - آذار ١٩٦٩) ، و (جريدة « الثورة » بغداد ٢٢ - ١٢ - ١٩٦٩ ، ع ٤٠٤ ، ص ٦) .

ولشمس الدين محمد بن عيسى بن احمد الصوفي ، رسالة تقع في مقدمة وخمسة ابواب وخاتمة ، عنوانها « الإعلام بشدّ البنكام » ألّفها سنة ٩٤٣ هـ = ١٥٣٦ م . ذكر فيها طريقة آلة الساعة من الرمل في القارورة . انظر : (« كشف الظنون » ١ : ١٢٧) . ومنها نسخة خطية في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب من جامعة بغداد .

(٥٨) الجهات واحدها الجهة . وهي كناية عن المرأة السيدة الجليلة القدر . انظر : (« صبح الأعشى » للقلقشندي ٥ : ٥٠٢) ، و (« الألفاظ الإسلامية » لحسن الباشا ، ص ٢٤٨) .

فقلت : بالذي حكم بما نحن فيه ! اجعلني ممّن تصطفيه ، فقد أنت بصحبتك نهاري ،
ورحضت^(٥٩) فكاهتك تعبي وأفكاري . فقال : سمعاً لك وطاعة ، فقد وجب حقك في هذه
الساعة . فمن صَحَّ قصده إلينا وجب حقّه علينا ، وسانكنم بك إلى داري ، وأسهمك
درهمي وديناري . فشكرت له عن صالح ما نواه ، وقطعت أمني عمّن سواه . فلما صِرت
معه إلى داره ، فصُرت^(٦٠) بوجهي إليه لاستماع أخباره . قلت له : غرضي ، حيث ند فاتي العيان
أن أعرف ما كانت عليه بغداد^(٦١) ، فأبسط لي بالحديث ولا تبق^(٦٢) من قديم ولا حديث .
فقال : أمّا الدولة الإمامية فمن يتهي إلى وصفها ؟ ، وكيف أبلغ إلى حقيقة نعتها ؟ . كانت
دار الوزراء ينزلها الأمراء ، لأنها باب الخليفة الظاهر ، وإليها التقديمات لشريف الأوامر .
والصدور تختلف إليها ، وتراجع الديوان فيما يقتاض عليها [٣٩ ب] ، وحاجب المجلس بصدور
إنفاذ التقديمات وامضاء المراسم وإبرام المهمات . والحجّاب على اختلاف طبقاتهم بين يديه ،
[والنقباء في أماكنهم إلا أنهم أهون عليه . فحجّاب المناطق^(٦٣) كالمرائس في صدور
المجانس ، أو الأقنار في الليل الدامس ، والقيام قياماً لا يزالون ، والنقباء بمدّهم في الخدمة
يقفون]^(٦٤) . والمركوب يقف عند ستر الباب الثاني على أجمل هيئة وأحسن معاني . وبمده
الدار الوسطى . وبها دست^(٦٥) الوزارة في الإيوان . وكاتب السلّة [ونواب الديوان
وكتّابه على صفّة وتجاههم عارض الجيوش ومسومها^(٦٦) على صفّة]^(٦٧) . وبواب العرض
في ذلك المكان ، كلّ منهم يختصّ بقطر منها ، وله مقام لا يحول عنها . والوزير منها بعد الستر

(٥٩) رحضت : غسّلت .

(٦٠) من صار يصور : بمعنى أمال بميل .

(٦١) بغداد لغة في بغداد . وفي (« معجم البلدان » ١ : ٦٧٨) : سبع لغات وردت في اسم بغداد .

(٦٢) المخطوط : تبق .

(٦٣) المناطق ، واحدها المنطقة : ما يشد في الوسط . وعنها يعبر أهل زماننا بـ « الحياصة » .

(٦٤) ما بين المربعين يعتوره غموض فيما نرى .

(٦٥) الدُست ، جمعها : الدُستوت : لفظة معربة بمعنى الديوان ، ومجلس الوزارة . أو

ما ينهيّ لجنوس الخليفة أو الأمير أو الوزير أو كبار الناس .

راجع : (« رسوم دار الخلافة » لـ لعل بن الحسن الصابي . حققه وعلّق عليه ونشره :

مبّخائيل عواد . مطبعة ألماني - بغداد ١٩٦٤ : ص ١٣) ، (« شفاء الغليل » للخفاجي ،

ص ٩٧ ؛ طبعة الوهبية - مصر ١٢٨٢ هـ) .

(٦٦) التسويم : التعليم ، أي وضع العلامات .

(٦٧) ما بين المربعين ورد في هامش الصفحة .

الثاني تحفته ولدائه المعوذون بالمشائي . فمن ورد من الصدور وذوي المراتب جلس الى أن يأذن له الحاجب . وإن قدم رسول ، تأهبوا للخروج وجعلوا صدر الموكب من يليق بحاله للتسليم عليه حبراً^(٦٨) لمرسله وتشريفاً لمنفذه ومحملة ، فيدخل والدعاة بين يديه والجاووشية^(٦٩) تصيح بالتطريق^(٧٠) ، والجاندارية^(٧١) التي جانيه ، والماليك في طريقه صفوفاً وعلى الخدمة عكوفاً [٤٠ أ] ، فإذا وصل باب النوبي^(٧٢) ، عضدوه وفسحوا له فحطوه . فصلّى به ركعتين ، وقبل مرة بعد مرتين ليحصل له بذلك كمال الدخول في طاعة الديوان والتشرف^(٧٣) بالثول في ذلك المكان . ثمّ يُحسّل الى دار خدمته وتدرّ عليه الإقامة^(٧٤) من ساعته كذلك ثلاثة أيام . ثمّ يُستدعى للكلام . فإذا نجزت أشغاله وآن ارتحاله ، كتب له الجواب ، وشرف بأفخر الثياب . وكانت البدرية أحد أبواب الخليفة^(٧٥) العلية ، يسكن بها الشرايبي أحد خدمه وصاحب^(٧٥) الحكم في داره وحرمة ، وخاصّ الخواص وسيّد العام والخاص وزعيم الجيوش والقواد ومالك الأمر في البلاد ، وإليه ترجع الماليك والخدم ، وعلى يده تنقّص الأموال والنعم . فمنها أنه في

(٦٨) يُقال حبره حبراً : سره وإبهجه .

(٦٩) الجاوش والجاوش والشاوش : لفظ تركي . جمعه جاوشية وجاوشية . وهم جنود وظيفتهم السير أمام السلطان في مواكبه للنداء وتنبيه المارة . راجع (« معجم الأدباء » ٧ : ١٩٩ ، طبعة مرجليوث) ، و (« السلوك » للمقريزي ، ١ : ٨٧٠ ، الحاشية ٢ ، تحقيق : د. محمد مصطفى زيادة) و (Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes. I, 169.) وما كتبه الأب انتاس ماري الكرملّي ، في « لغة العرب » [بغداد ١٩٢٧] ص ٦١١-٦١٢ ، و (« الرتب والالقب المصرية » لأحمد تيمور . القاهرة ١٩٥٠ ؛ ص ٥٥-٥٦) .

(٧٠) طريق له بتشديد الراء : جعل له طريقاً .

(٧١) الجاندارية : فئة من ماليك السلطان أو الأمير . واللفظة فارسية من : « جان » بمعنى سلاح ، و « دار » بمعنى مصك . راجع : (« السلوك » للمقريزي ١ : ١٣٣) ، و (« دائرة المعارف الإسلامية » : الترجمة العربية ٦ : ٢٤٧ : مادة « جاندار ») .

(٧٢) باب النوبي : من أبواب دار الخلافة العباسية ببغداد . كان يدعى بباب العتبة أيضاً ، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا ببغداد . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ١٥٨) .

(٧٣) المخطوط : والتشريف .

(٧٤) الإقامة وجمعها : الإقامة : يراد بها أنواع المون .

(٧٥) لعلّ الأصل : أحد أبواب دار الخليفة ، أودار الخلافة .

(٧٥) المخطوط : فصاحب .

كلّ عام يجلس للخاصّ والعام ، ويفض من المنابر ما يجاوز حدّ الإكثار ، فيشمل بعبائه الداني والقاصي ، ويعمّ بنائله المطيع والعاصي ،

شعر :

يكاد يحكيه صوب الغيث منمرا لو كان طلق المحيا يطر الذهبا

[٤٠ ب] فيستر على ذلك أياماً ، يعطي فيها أموالاً جساماً ، نيابة عن مولاه ، إذ هو أجلّ من أن يتولاه ، إلا أنه يشاهد فضّ الأموال من وراء الحجاب ، ويسمع اهتمام المخلصين بالدعاء المجاب ، فإذا انتقضت أيام العطاء ، انتصب لتدبير ملك الزوراء مشيراً بالمصالح ، ومنبهاً على الخير اللائح . وله مركوب يوقف^(٧٦) بها إلى الليل^(٧٧) ، ثمّ يحمل إلى مقام الحيل ، تحفّه غلمان كالقبيان ، وتزفّه في مركب من العقيان . وكانت الصدور كالأهلة لا [بل]^(٧٨) كالبدور . فصاحب ديوان الزمام^(٧٩) هو صدر صدور الإسلام وخالصة

(٧٦) المخطوط : يقف .

(٧٧) كذا ورد في النص . والظاهر أن المقصود أن له محفة بطوف بها على المصالح .

(٧٨) زيادة اقتضاها المقام .

(٧٩) عُرف أيضاً بـ « الديوان » و « ديوان المزبّر » و « ديوان زمام الأزمّة » . لم يكن موجوداً في عهد بني أمية . أنشئ في سنة ١٦٢ هـ . والمراد به : الديوان الأعلى المشرف على دواوين الدولة . قال الطبري (في حوادث سنة ١٦٢ هـ) : « وفيها وضع المهدي دواوين الأزمّة ، وولّى عليها عمر بن يزيد مولاه ، فولّى عمر بن يزيد ، النعمان بن عثمان أبا حازم زمام خراج العراق » .

وذكر الطبري أيضاً (حوادث سنة ١٦٨ هـ) : « وفيها وُلّي المهدي ، عليّ بن يقطين ديوان زمام الأزمّة على عمر بن يزيد . وذكر أحمد بن موسى بن حمزة ، عن أبيه ، قال : أول من عمل ديوان الزمام عمر بن يزيد في خلافة المهدي ؛ وذلك أنه لما جُمعت له الدواوين ، تفكّر ، فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كلّ ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمّة ، وولّى كلّ ديوان رجلاً ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج اسماعيل بن صُبَيْح ، ولم يكن لبني أمية دواوين أزمّة » .

وراجع بشأن هذا الديوان : (« الوزراء والكُتّاب » للجهشياري ، ص ١٦٧ - ١٦٨ ، تحقيق : مصطفى السقا وزملائه . القاهرة ١٩٣٨) ، (« تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء » لـ هلال الصابئ ، ص ١٢٤ ، ١٨٣ ؛ طبعة أمدرود ، بيروت ١٩٠٤) ، (« تكملة تاريخ الطبري » لمحمد ابن عبد الملك الهمداني ، ص ٢٠٥ ، الطبعة الثانية - بيروت ١٩٦١ ؛ بتحقيق : النبرت يوسف كنعان) ، (« الجامع المختصر في عنوان النوارخ وعيون السير » لابن الساعي ، ٩ : ١٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٠١ ، ٢٢١ ، ٢٨٠ ، بتحقيق : مصطفى جواد . بغداد ١٩٣٤) .

وانظر أيضاً : (« الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية » : لمحمد ضياء الدين الرئيس ، ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ؛ القاهرة ١٩٦١) .

الإمام وسيّد أصحاب الأقلام ، وصاحب البلاد ، والمؤتمن على الطارف والتلاد ، الحاكم في السهل والجبل ، المطاع الأمر ان قال أو فعل ، لا يدرك شأوه أصحاب المراتب ، ولا ينال درجته أرباب المناصب ، لقربه من الخليفة ، ومثوله عند السدة الشريفة ، في حالتي السفر والحضر ، إن غاب شخصه عنه أو حضر . يتخصّص بذلك عنهم ، فإن جحدوه فضله ، فانه تنزل لركوبه أرض الزوراء ، وترعد لهيئته فرائص الكبراء ، وتشر خلفه [٤١ أ] أعلام المشاد ، وتضرب له الطبول في سائر البلاد ، وفي خدمته النظار والصغار والكبار ، والأترار والأمراء والسادة والعظماء . حتّى انّ الخليفة جلس يوماً عند عوده من البلاد ، والسادة ولده الأجواد ، لينزههم في موكبهم ويشاهد ركوبه في منصبه . وكفى بذلك شرفاً ، فأها على المثلّك كيف قد عفا .

وأستاذ^(٨٠) الدار بصدد مصالحها ، وله منصب شريف بها ، يتولّى أمور الأمراء ، وديوان الأبنية ، وأبواب الخلفاء ، وخزائن السلاح وأمر فوابها ، ورجال الأبواب وما يتعلّق بها ، وخزانة الفرش للاستعمال ، وإليه في الكلّ المرجع والمآل .

وقاضي القضاة لمصالح المسلمين وتشييد قواعد الدين ، واثبات الحقوق الشرعية والعمل بالشرعية المحمدية ، يسجّل بشهادة المعدّلين^(٨١) ، ويعقد الأنكحة بين المسلمين . يكتب له تقليد عند تربيته ، وتفوض إليه الأمور ليعني منار الشرع بزمه [٤١ ب] وعزّمته . ومال الأيتام إليه وممولهم في حفظ أموالهم عليه .

وصاحب المخزن أحد الصدور المنصوص عليه ، وصاحب الرأي المشار إليه ، يتولّى أعمال المخزن ونواحيه ، وتدير كثير من مصالح الديوان ويليّه . فطوبى لمن أهمل لمقامه ، وشرف بسا فوض إليه في اهتمامه .

والنقيبان ، فأحدهما ينظر في مصالح الطالبين الأكارم ، والآخر يلي أمر الأسرة^(٨٢) من بني هاشم . وكلّ منهما عالي الدرجة والمكان ، عظيم القدر جليل الشأن .

وحاجب الباب هو صاحب سيف الإمام ، المتفرّد بالسياسة في العوام بالعدل في الأحكام .

(٨٠) ويقال فيها استدار واستادار واستاداندار . وهي مركبة من لفظين فارسيين : استاذ أو استد بمعنى « الأخذ » ، ودار بمعنى « المسك » . وهو لقب من يتولّى قبض مال الخليفة أو السلطان أو الأمير ، وصرفه . وتمثل فيه أوامره .

(٨١) هم الذين ثبتت لهم العدالة في الديوان الشرعي .

(٨٢) يقصد الأسرة العباسية .

فَسَن سرق قطعه ، وَمَن انتهك المحرمات رده ، وَمَن قتل قتله ، واقتص للمظلوم ممن ظلمه .
وبين يديه النواب والأعيان ، والحجّاب يتقلّدون ذلك أجمع ويقتصّون في ملا ومجمع .

وعارض الجيوش بصدد مصالحهم والمرض في الديوان لتخير صالحهم ، واعتبار^(٨٣) الأسلحة
والدواب [٤٢ أ] واصطفاء الأكفاء والشباب .

إلا أنّ سبحانه وتعالى ، لما أرسل عذابه سلب كلّاً منهم عقله وصوابه . فنفذ سهم القضاء ،
وانتشرت جناح الحِمام في الفضاء ، فلم تنفع الجئنة ولا السلاح ولا البواتر ولا الرماح .
فوقع الفشل وعمّ الكسل وساء العمل وكثر الزلل ، وبطل التدبير وحار الوزير : فنزل بهم
العدو حين اختلّوا ، و « ما غزري قوم » في عتق دارهم إلا ذكّوا^(٨٤) .

ولقد كانت الملوك كالأسود الفسّاري ، أو كالعقبان على ظهور المهاري . والممالك كالبدور
والبرّاة والصقور . والمثلك على سوقه قائم ، ورّواق المسلكة رفيع الدعائم . والأيام أعياد
وأفراح ، والليالي أعراس ومراح ، ورياض الزمان متفتحة الثوّار ، وساعات الأيام مشرقة الأنوار .
وشخص العطاء مهزوز الأعطاف ، وسحاب الإنعام غدقة النّطاف . وبروق الآمال مطرة الأنواء ،
واقطار المواهب عبقة الأرجاء . وأفنان الأفراح خضرة الأغصان ، وأطيّار [٤٢ ب] المسار خاطبة
على منابر الأفنان^(٨٥) . ففي كلّ وقت تضرب طبول الهناء على أبواب الأمراء ، وتخفق بوقات
السراء مؤذنة بدوام النماء . فلا وحقتك لا والله ، ما نظرت عيني إلى أحسن^(٨٦) منها
بلدة أبداً . وكيف يمثل بها أو يقاس ، أو يشبّه بالقدم ، الرأس .

وقد كانت تمضي لأهلها الأوقات والأيام والساعات كاملة المسار واللذات ، ولهم فيها من
كلّ الثرات . والمواسم تجلى في حلي النضارة ، وتلذّ أيامها للنظارة .

فمنها موسم الحاج ، وهو أعظم مواسم السنة التي تكلّ عن وصف حسنه ، الألسنة ، وتفتح
فيه آدُر المضيف لكلّ بائس من الحاج وضعيف . وتضرب على دجلة الحياض والروايا ،
ويؤذن بالحجّ في سائر الرعايا . ثمّ يهرع الناس إلى الفرجة على التبريز في حلل الإبريز ، ما بين

(٨٣) اعتبر الشيء : اختبره .

(٨٤) من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في « نهج البلاغة » (١ : ٦٤) ، من طبعة محمد محيي
الدين عبد الحميد - في القاهرة) .

(٨٥) في أعلى هذه الكلمة : جمع فنّس .

(٨٦) المخطوط : بأحسن .

فتى وفتاه ، وشاب قد فُتِن بحسنه فتاه . يرتعون في رياض الجانب الغربي ، ما بين مائسٍ أو مستطيرٍ صهوة عربي . فلا يزالون كذلك أياماً يرحلون وحناناً [٣ ؛ ١] وفنأماً^(٨٧) . والسبل تجلى في المواكب الى الخيام ، وتزف الى منازلها بالبيد والخدام . فاول ما يتقدمها العلكم ، وهو محمل الخاص . وبعده الكئوس^(٨٨) ، وجند السفر ، والنوبة المكينة في الأثر ، تتهادى بين الحجاب والدعاة ، والقرءاء في أحسن الصفات . ثم يتوالى في كل يوم سيل بعد سيل ، ورَّحل كل جهة^(٨٩) محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيُخلع على الأمير ويككل ، ويُنعم عليه ثم يُحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته .

فاذا رجعوا سالمين ، فهو موسم ثانٍ للمتفرجين ، يُفَض فيه من التشريفات^(٩٠) على العاشية والولاة ، ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . وما منهم إلا من قد بَخْبَخ^(٩١) بسلامة أهله ، مرجين « بما آتاهم الله من فضله »^(٩٢) .

(٨٧) الفنام : الجماعة من الناس .

(٨٨) الكئوس : بضم أوله ، جمعه الكئوسات . وقد ورد ذكره في كثير من المراجع العربية القديمة . ويؤخذ مما جاء فيها أن له مدلولتين :

الأول : الطبل الذي يُتخذ في أيام الحروب لتنبيه الناس ، وقد يُتخذ لغير أوقات الحرب ، كتنبية الناس الى بدء الصيام أو نحو ذلك . انظر : (« مقدمة ابن خلدون » طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦) ، (« تاج المروس » [القاهرة ١٣٠٦ هـ] ص ٢٢٦) .

الثاني : الصنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص . راجع : (« صبح الأعشى » ٤ : ٩) .

وقد عقد هلال بن المحسن الصابي ، فصلاً بعنوان « ضرب الطبل في أوقات الصلوات » : راجع كتابه (« رسوم دار الخلافة » ص ١٣٦ - ١٣٧) ، وما ذكر من مراجع في حواشيهما .

(٨٩) الجهة : كناية عن المرأة السيدة الجليلة القدر . وقد سبقت الإشارة اليها في الحاشية (٥٨) .

(٩٠) التشريفات جمع « التشریف » . وقد وردت في « صبح الأعشى » ٤ : ٥٢ (بصورة « التشاريف » ويُرَاد بها : الخلع والهدايا التي يشرف بها بعض الناس .

وراجع الفصل الموسوم بـ « خلع التقليد والولاية والتشريف والمناذمة » في كتاب (« رسوم دار الخلافة » ص ٩٣ - ٩٩) .

والفصل الذي يليه ، بعنوان « ما يُخدَّم به الخليفة عند التقليد والتشريف بالتكنية واللقب » (ص ١٠٠ - ١٠٣) .

(٩١) بخبخ الرجل قال له : بخر بخر . وهي نقال للمدح وإظهار الرضى بالشيء .

(٩٢) سورة آل عمران . الآية ١٦٩ و ١٧٩ ، سورة النساء . الآية ٣٦ و ٥٣ .

ومنها شهر الصيام ، المختص بالعبادة والقيام ، المفتوح بالصدقات ، المنور الليالي بالصلوات . ففي أول يوم منه يثقف على العلماء والمتصوفة [٤٣ ب] والنبلاء من يدّر الإنعام وبثدّن الإنعام ما يجاوز حدّ الإكثار . ويثغني وقت الإفطار . ثمّ تفتح آدّر المضيف للعوام والفقراء والأيتام ، فلا يبقى من لا^(٩٣) يشمل الإنعام ، ويحصل له القوت في الصيام . وما من الملوك إلاّ من عليه راتب ، وكذلك الصدور وأصحاب المراتب ، يثطر على أطباقيهم الأمائل ، وأطاب الألوان تصل الى الفقير والسائل . ولياليه مشرقة بالمصاييح ، والمساجد منيرة بالصلوات والتراويح . والعوام ملتمة بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى وقت العشاء . ثمّ ترفع قناديل التحير ، وتناغى شحارير التذكير . وأيامه كلّها عبادة ، وأوقاته طاعة وزيادة . فاذا بقي من الشهر أربع ليال ، وعاد جديده كالأسمال ، خلع المخزن تشريفات الخليفة على صدور الدولة الشريفة ، ثمّ بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولّده الأطايب ، حتى يصل الإنعام الى الخاص والعام . فقلّ من لا ينال منها نصيباً ، وفي البعيد من لا يكون منها قريباً .

ثمّ يتهيأ الناس للعيد المشهود والمجمع المحشود الذي تكلّ عن حن رصفه السينة البلقاء ، وتعجز عن ادراك وصفه عقول الألباء ، فلا ينتهي الى نعته [٤٤ أ] قول قائل ، ولا يصل الى مثله الأواخر ولا الأوائل ، ولا رثي لأحد من الملوك ما يناسبه ، ولا حكي أن لهم مثله أو ما يقاربه . فيباكر إليه في أحسن زينة ولباس ، ويجتمع لرؤية الموكب أكثر الناس . ثمّ يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب بأهله وصغاره ، والملوك في أحسن زينة وأبهى حلية ، وأعظم سكية . فلا يزال الموكب والعساكر تجري كالسيل في جمع كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة أيام حتى ينقضي منقضاء ، ويصل آخره ومنتهاه ، وقد تكاملت للعالم المسار في آناء الليل والنهار .

فإن كان الأنحى نحر الخليفة في أبوابه ، وكذلك أهل بلده ، رغبة في ثوابه . فيمتار الفقراء ، ويؤجر الأغنياء .

ومنها موسم التشرّب^(٩٤) ، وإنيها المتقلب . فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء والصدور والكبراء ، في موكب مشهّر الى الرصافة ، وهي مدفن ولاية الخلافة . فيجتمعون بها للقراءة والدعاء

(٩٣) في المخطوط : فلا يبقى الا من يشمل . والوجه ما في اعلاه .

(٩٤) القبور .

وإهداء الثوب للخلفاء ، كذلك أياما يُشترَق [فيها]^(٩٥) ويُغْرَب^(٩٦) ، وقرءاء المواكب
تُشَوَّق وتُطْرَب . فإذا كان الليل اجتمع المتصوفة والفقهاء ، وأوقدت الشموع ، وقرأ
القرءاء ، وشرع الوعاظ في الكلام [٤٤ ب] والاحياء الى آخر الظلام . فإذا أسفر الصباح
وبادر المؤذن بالفلاح ، فُضَّ على المذكورين من الحلواء وأطيب الطعام والغذاء ما يستغرق حدَّ
الإكثار ، ويعمَّ ذوي الاقتار . على أن الأيام كتبت كانت تضي أفراحاً ومواسم يرتاح إليها
الناس ارتياحاً . ففي كلِّ سبت^(٩٧) عيد جديد وموسم سعيد ، يخرج الناس الى الرياض
والأزاهر لسماع أصوات الشحارير ، والفلمن كالولدان^(٩٨) ، والجواري كالبحور الحسان ، ما بين
أهيف وأحور وأكحل وأغبيد وأعطر^(٩٩) .

في البدر من وجنته ثكته وفرة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه كائنه يشي الى خلفه
ومثله تكامل شبابها ، وطاب عرفها ، وعذب رضاها ، ترمي عن قيبي الحواجب بسهام الفتح
الصوائب .

شعر :

وتنال منك بعد مقلتها ما لا تنال بعدها النصل
وإذا نظرت الى محاسنها فلكل موضع نظرة تبطل
والناس في أرغد عيش ، وأطيب زمان ، وأعدل وقت . وأصفى أوان .
وأما زمان الربيع وأيام الوشي البديع ، فاتهم كانوا [٥ ؛ ١] يصطحبون ويتجمعون
وينتالون « كائهم إلى ثشب يوفضون »^(١٠٠) . فينزلون الجواري في رهط من

(٩٥) زيادة اقتضاها المقام .

(٩٦) أي يحضر وقت الشروق والغروب .

(٩٧) راجع : ١ - حبيب زينات : (أيام السبت في دمشق في عهد العباسيين) : مجلة
« المشرق » ٢٦ [بيروت ١٩٢٨] ص ٤١ - ٤٦ .

٢ - ميخائيل عواد : (العطلة الأسبوعية في الدولة العباسية) : « مجلة المجمع
العلمي العربي » ١٨ [دمشق ١٩٤٢] ص ٥٨ .

(٩٨) يقصد الولدان المخلدين .

(٩٩) كذا . ولعلها : واقمر ، ما نونه لون القمر .

(١٠٠) سورة المتارج . الآية ٤٢ .

الجواري ، ويدخلون نهر^(١٠١) عيسى ، ويباكرون نحو قصده تغليبا^(١٠٢) . فيجتمعون بالبحول^(١٠٣) ، إذ عليه في الحسن الممّول . فيخترفون^(١٠٤) أشجاره ، ويقطعون ثماره ونوّاره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ، وينزلون غيطانه وأنهاره . ثمّ تعزف القيان ، وتصطبّب العيدان ، وتصفق الغدران ، وترقص الأغصان ، وتسد الأفنان . وكلّما دسح^(١٠٥) الراووق^(١٠٦) طالب المشوق ، وكلّما بكى السحاب ضحك الحباب^(١٠٧) . وكلّما طرب العود زمجرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة . كذلك أياماً لا يطعمون مناماً . إلاّ اتهم اتهموا المحارم وارتكبوا المآثم ، وأصرّوا على الفجور وسفك الخمر . ولا جرم أنّ المرش اهتزّ غضباً ، وسعيرت جهنم حصباً^(١٠٨) ، وازدادت لهباً ، فأخذهم الله تعالى إليه « آخِذْ عَزِيزَ مَقْتَدِرٍ »^(١٠٩) ، « وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ »^(١١٠) . فأين المثلّك الباذخ [٥٤ ب] والشرف الشامخ . ذهبت والله الشهوات ، وبقيت التبعات . وخشعت الأصوات ، وسقيت الرفات من أعظم العظات . فالمرجع الى الله تعالى في الملهمات ، فأنه « رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ »^(١١١) ، وهو الذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْمَقُوا عَنْ السَّيِّئَاتِ »^(١١٢) .

(١.١) نهر كان بروي منطقة بغداد الغربية . عُرف في العصر العباسي بهذا الاسم نسبة الى عيسى بن عليّ عمّ المنصور .

(١.٢) غلّس : قام عند الغلّس ، وهي ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

(١.٣) المخطوط : بمحول . والمحمول على ما ذكر ياقوت (« معجم البلدان » ٤ : ٢٢) ، طبعة وستنفلد : « بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه . بينها وبين بغداد فرسخ . وآثارها عند التلول المروفة اليوم باسم « المضيق » ، على الطريق بين بغداد و أبي غريب على بُعد زهاء ستة كيلومترات من جسر الخرّ . انظر : (« دليل خارطة بغداد » ص ٤٧) .

(١.٤) اخترف الثمر : جناه .

(١.٥) دسح الإناء : ملاه .

(١.٦) الراووق : الكأس ، أو الإناء يروق فيه الشراب .

(١.٧) الحباب : الفقاقيع التي تعلق الماء والخمر .

(١.٨) الحصب : ما هنيئاً للوقود من الحطب .

(١.٩) سورة القمر . الآية ٤١ .

(١١٠) سورة القمر . الآية ١٤ .

(١١١) سورة غافر . الآية ١٤ .

(١١٢) سورة الشورى . الآية ٢٤ .

فما رأيك أيها العبد الصالح ، في الإشتغال على المصالح . ورفض الدنيا والإلتفات ، والتطبع
بأحسن الطبائع . فقلت : نعم ما رأيت والبشرى لك في ما نويت . فعاهدني على
الزهادة والتخلي لنوافل العبادة . ودع عنك الأباطيل « واللّه على ما نَقُولُ وَكِيلٌ » (١١٣) .
ثم أكد بيني وبينه الميثاق وعزم على الإنطلاق فزودته بما حضر من العيّن (١١٤) ،
وودّعته وعيني كالعيّن (١١٥) ، فلا أدري ، وأبيك ، أين سلك ، ولا أعلم أحي هو أم
هلك .

تمت المقامة منسّخة من خط مصنفها . والحمد لله رب العالمين وصلواته
على سيدنا محمد النبي وآله الطيبين الطاهرين وسلامته .

(١١٣) سورة القصص . الآية ٢٧ .

(١١٤) العيّن : النقد المضروب من المعدن ، نحاسا كان أم فضة أم ذهباً .

(١١٥) العيّن : ينبوع الماء .

بغداد في الكتب البلدانية العربية

اعداد

عزّاز محمد الطمّار

قرنطة - اسبانيا

كانت فكرة صائبة وخطوة جليّة والتفاته جميلة تلك التي دعت لها مجلة المورد باصدار عدد خاص عن (بغداد مدينة السلام) .

في البحث الذي أعدته وهو بغداد في الكتب البلدانية العربية ، توخيت فيه جمع ما كتبه الجغرافيون العرب عن مدينة دار السلام ، وكانت هذه الكتب قد تناولت بغداد طبوغرافيتها، مساحتها وسكانها ، محالتها وبيوتها حالتها العمرانية ، الجداول والسواق والساتين والرياض ، الجوامع والاسواق وأبوابها المشهورة، كلاً حسب منهجه في الكتاب ، وارتأيت أن أنقل النصوص كما هي دون تعليق مني على المادة ، واستصواب رأي . بل تركت النصوص كما هي مشيراً الى الطبعة التي أخذت منها النص . فليست وظيفتي في الجمع البلداني أن أدقق في النصوص وأحققها ، بل هي من عمل محققي تلك الكتب ، ولا يجوز لي التجاوز على عملهم ، وإن يكن ثمة جهد لي ، فهو نقل النصوص فقط وترتيب المصادر حسب وفيات مؤلفيها كما استثيت كتاب الهمداني عن بغداد ذلك لأنه كتاب مستقل وقد أخرجه وزارة الثقافة والاعلام من ستين . كذلك تركت ما يتعلق ببغداد في الكتب التاريخية من مواد جغرافية ، وكذلك كتب الموسوعات الأدبية ، مثل صبح الأعشى .

وأقول بتواضع إن العمل ليس لي البتة ، إنما لأولئك العظماء من سلفنا الجغرافي ، كما اني لا أريد الإشارة الى ميزة كل كتاب عن بغداد فذلك ما يدعو القارئ أن يصرف نظره عن الاستفادة وعدم استمتاعه بقراءة النصوص ، فتركها له دون ما إشارة كي يلتمس متعته ويجد ضالته ويعفيني من الخطأ ويعذرني من السهو ، ومن الله التوفيق .

اليقوتى : احمد بن ابي يعقوب بن واضح
الكاتب ت/ ٢٨٤هـ (*)

- « بغداد » -

وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا
وسرة الارض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق
والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق
الارض ومقار بها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه
وصحة وهواء ولأنه سكنها من اصناف الناس
واهل الامصار والكور ، انتقل إليها من جميع
البلدان القاصية والدانية وأثرها جميع اهل الافاق
على اوطانهم ، فليس من اهل البلد الا ولهم فيها
محلة ومتجر ومنصرف ، فاجتمع بها ما ليس في
مدينة في الدنيا ثم يجري في حافتيها النهران
الاعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والمير
برا وبحرا بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر
يحمل من المشرق والمغرب من ارض الاسلام وغير
ارض الاسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند
والصين والتبت والترك والديلم والخزر والحشة
وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان
اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات
منها ويكون مع ذلك اوجد وامكن ، حتى كأنما
سيفت إليها خيرات الارض ، وجمعت فيها ذخائر
الدنيا ، وتكاملت بها بركات العالم ، وهي مع هذا
مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم ، لم
يبتد بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ،
ولان سلفي كانوا القائمين بها ، واحدهم تولى
امرها ، ولها الاسم المشهور والذكر الدائع ، ثم
هي وسط الدنيا ، لأنها على ما اجمع عليه قول
الحساب وتضمنته كتب الاوائل من الحكماء في
الاقليم الرابع ، وهو الاقليم الاوسط الذي يعتدل
فيه الهواء في جميع الازمان والفصول ، فيكون
الحر بها شديدا في ايام القيظ ، والبرد شديدا في
ايام انشاء ، ويعتدل الفصلان الخريف والربيع
في اوقاتها ، ويكون دخول الخريف الى الشتاء
غير متباين الهواء ، ودخول الربيع الى الصيف غير
متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء
الى هواء ، ومن زمان الى زمان ، فلذلك اعتدل
الهواء : وطاب الشوى ، وعذب الماء ، وزكت
الاشجار ، وطابت الثمار ، واخصبت الزروع ،
وكثرت الخيرات ، وقرب مستنبت معينها ،

(*) كتاب البلدان ، منشورات المطبعة العمومية - النجف
١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م ، ص ٢ - ٢١ .

وباعتدال الهواء ، وطيب الثرى ، وعدوبة المساء
حسنات اخلاق اهلها ، ونضرت وجوههم ، وانفتحت
اذهانهم حتى فضلوا الناس في العلم والفهم والادب
والنظر والتميز والتجارات والصناعات والمكاسب
والحدق بكل مناظره ، واحكام كل مهنة ، واتقان
كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ، ولا ادرى
من ادرتهم ، ولا اجل من متكلمهم ، ولا اعرب من
نحويهم ، ولا اصح من قارئهم ، ولا اوفر من
منطقيهم ، ولا احق من فنيهم ، ولا الطف من
صانعهم ، ولا اكتب من كاتبهم ، ولا ابين من
منطقيهم ، ولا اعيد من عابدهم ، ولا اورع من
زاهدهم ، ولا افقه من حاكمهم ، ولا اخطب من
خطيبهم ، ولا اشعر من شاعرهم ، ولا افنك من
ماجنهم ، ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة ،
اعني ايام الاكاسرة والاعاجم ، وانما كانت قرية من
قرى طسوج بادوريا ، وذلك ان مدينة الاكاسرة
التي خاروها من مدن العراق المدائن وهي من بغداد
على سبعة فراسخ وبها ايوان كبرى انو شروان
ولم يكن ببغداد الا دير على موضع مصب الصراة
الى دجلة الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير
الذي يسمى الدير العتيق قائم بحاله انى هذا
الوقت ، نزله الجاثليق رئيس النصارى
المنسطورية . ولم تكن ايضا بغداد في ايام العرب
لما جاء الاسلام لان العرب اختطت البصرة والكوفة ،
فاختطت الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب ،
واختطت البصرة عتبة بن غزوان المازني - مازن
قيس - في سنة سبع عشرة وهو يومئذ عامل عمر
ابن الخطاب ، واختطت العرب في هاتين المدينتين
خططها الا ان القوم جميعا قد انتقل وجوههم
وجللتهم ومياسر تجارهم الى بغداد . ولم ينزل
بنو امية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان
معاوية بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب
ثم لعثمان بن عفان عشرين سنة ، وكان ينزل مدينة
دمشق واهله معه ، فلما غلب على الامر وصار
اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق التي بها
كان سلطانه وانصاره وشيعته ثم نزل بها ملوك
بنى امية بعد معاوية لانهم بها نشأوا لا يعرفون
غيرها ولا يعيل اليهم الا اهلها ، فلما افقت
الخلافة انى بنى عم رسول الله (ص) من ولد العباس
ابن عبدالمطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة
عقولهم وكمال ارائهم في فضل العراق وجلالتهما
وسمتهما ووسطها للدنيا ، وانها ليست كالشام
الموبسة الهواء ، الضيقة المنازل ، الحزنة الارض ،
المتصلة الطواحين ، الجافية الامل ولا كمصر المتغيرة

الهواء ، الكثيرة التوباء ، التي هي بين بحر رطب
عفن كثير البخارات الرديئة التي تولد الادواء
وتفسد الغذاء ، وبين انجبل اليابس الصلد الذي
ليسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ولا
ينفجر منه عين ماء . ولا كافر يقية البعيدة عن جزيرة
الاسلام وعن بيت الله الحرام ، انجافية الاهل ،
الكثيرة العدو ، ولا كآرمينية ، النائية الباردة ،
الصدرة الحزنة التي يحيط بها الاعداء . ولا مثل
كور انجبل ، الحزنة الخشنة الثلجية ، دار الاكراد
ولا كارض خراسان . الطائفة في مشرق
الشمس ، التي يحيط بها من جميع اطرافها
عدو كلب ، ومحارب حرب . ولا كالحجاز ، النكدة
المعاش ، الضيقة المكسب ، التي قوت اهلها من
غيرها . وقد انبأنا الله عز وجل في كتابه عن ابراهيم
خليفه عليه السلام فقال : « رب اني اسكنت من
ذريتي بواد غير ذي زرع » . ولا كالثبت ، التي
بفساد هوائها وغذائها تغيرت الوان اهلها ، وصفرت
ابدانهم ، وتجمدت شعورهم فلما علموا انها افضل
البلدان نزلوا مختارين لها ، فنزل ابو العباس امير
المؤمنين وهو عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله
ابن انبساط بن عبدالمطلب الكوفية اول مرة ثم
انتقل الى الانبار فبنى مدينة على شاطئ الفرات
وسماها الهاشمية ، وتوفي ابو العباس (رض)
قبل ان يستتم المدينة فلما وني ابو جعفر المنصور
الخليفة وهو ايضا عبدالله بن محمد بن علي بن
عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بنى مدينة بين
الكوفة والحيرة سماها الهاشمية ، واقام بها مدة ،
الى ان عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو
الصقالبة في سنة اربعين ومائة ، فصار الى بغداد ،
فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ قيل له
بغداد . قال : والله المدينة التي اعلمني ابي محمد
ابن علي اني ابنها وانزلها ولدي من بعدي ،
ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والاسلام حتى
يتم تدبير الله لي وحكمه في ، وتصع الروايات ،
وتبين الدلائل والعلامات ، والا فجزيرة بين دجلة
والفرات ، دجلة شرقها ، والفرات غربها ، مشرقة
للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة من واسط والبصرة
والابلة والاهواز ، ونارس وعمان واليمامة
والبحرين وما يتصل بذلك ، فاليها ترقى ، وبها
ترسى . وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة
واذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة . وما يأتي من ديار مصر والرقه والشام
والشعر ومصر والمغرب مما يحمل في السفن في
الفرات ، فيها يحط وينزل ومدرجة اهل الجبل
اصبهان وكور خراسان ، فالحمد لله الذي ذخرها

لي واغفل عنها كل من تقدمني ، والله لابنيها سم
اسكنها ايام حياتي ويسكنها ولدي من بعد ، سم
لتكونن اعمر مدينة في الارض ، ثم لابنين بعدها
اربع مدن لا تخرب واحدة منهن ابدا نبأها ، وهي
الرافقة ولم يسمها ، وبني ملطية المصبية ، وبني
المنصورة بالسند ، ثم وجه في احضار المهندسين
واهل المعرفة بالبناء والعلم بالذرع والمساحة
وقسمة الارضين حتى اختط مدينته المعروفة
بمدينة ابي جعفر واحضر البنائين والفعلة والصناع
من التجارين والحدادين والحفارين ، فلما اجتمعوا
وتكاملوا اجري عليهم الارزاق واقام لهم الاجرة
وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا
من البناء فحضره مائة الف من اصناف المهن
والصناعات ، خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتى تكامل له من
الفعلة واهل المهن مائة الف ، ثم اختطها في شهر
ربيع الاول سنة احدى واربعين ومائة ، وجعلها
مدورة . ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها . ووضع اساس المدينة في وقت
اختاره نوبخت النجم ، وما شاء الله بن سارية ،
وقبل وضع الاساس ما ضرب اللبن العظام . وكان
في التينة الثامنة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا
رطل والتينة المنصفة طولها ذراع وعرضها نصف
ذراع ووزنها مائة رطل وحفرت الآبار للماء وعملت
القناة التي تأخذ من نهر كرخايا ، وهو النهر الآخذ
من الفرات فانقنت القناة واجريت الى داخل
المدينة للشرب ونضرب اللبن وبل الطين وجعل
للمدينة اربعة ابواب ، بابا سماه باب الكوفة ، وبابا
سماه باب البصرة ، وبابا سماه باب خراسان ،
وبابا سماه باب الشام ، وبين كل باب منها اثنى
الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء من خارج
الخندق ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيم
جليلان ، ولا يفتح الباب الواحد منها ولا يفتح
الا جماعة رجال ، يدخل الفارس بالعلم والرامي
بالرمح الطويل من غير ان يعيل العلم ولا يشي
الرمح ، وجعل سورها باللبن العظام التي لم ير
مثلا قط على ما وصفنا من مقدارها والطين ،
وجعل اساس السور تسعين ذراعا بالسوداء ثم
ينحط حتى يصير في اعلاه على خمس وعشرين
ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات ، وحول
السور فصيل جليل عظيم ، بين حائط السور
وحائط الفصيل مائة ذراع بالسوداء ، والفصيل
ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة ، وخارج
الفصيل كما يدور مسناة بالاجر والصاروج متقنة
محكمة عالية والخندق بعد المسناة قد اجري فيه

الماء من القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وخلف
 انخندق الشوارع العظماء ، وجعل لابواب المدينة
 اربعة دهاليز عظاما آزاجا كلها ، حول كل دهليز
 ثمانون ذراعا كلها معقودا بالآجر والجص فاذا دخل
 من الدهليز الذي على الفصيل وافى رحبة مقروشة
 بالصخر ثم دهليزا على السور الاعظم عليه بابا
 حديد جليلان عظيمان ، لا يفلق كل باب ولا يفتح
 الا جماعة رجال ، والابواب الاربعة كلها على ذلك ،
 فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في رحبة
 الى طاقات معقودة بالآجر والجص فيها كواء رومية
 يدخل منها الشمس والضوء ولا يدخل منها المطر
 وفيها منازل الفلمان ، ولكل باب من الابواب
 الاربعة طاقات وعلى كل باب من ابواب المدينة التي
 على السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
 مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرف على كل
 ما يعمل به ، يصعد الى هذه القباب على عقود
 مبنية بعضها بالجص والآجر وبعضها باللبن العظام
 قد عملت آزاجا بعضها اعلى من بعض فداخل
 الآزاج للرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد
 الى القباب التي على الابواب على الدواب ، وعلى
 المصعد ابواب تفلق فاذا خرج الخارج من الطاقات
 خرج الى رحبة ثم الى دهليز عظيم أزج معقود
 بالآجر والجص عليه بابا حديد يخرج من الباب
 الى الرحبة العظمى وكذلك الطاقات الاربعة على
 مثال واحد ، وفي وسط الرحبة القصر الذي سمي
 بابيه باب الذهب ، والى جنب القصر المسجد
 الجامع ، وليس حول القصر بناء ولا دار ولا
 مسكن لاحد إلا دار من ناحية الشام للحرس
 وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر
 والجص يجلس في احدهما صاحب الشرطة وفي
 الاخرى صاحب الحرس ، وهي اليوم يصلي فيها
 الناس وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد
 المنصور الاصاغر ومن يقرب من خدمته من عبده
 وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل
 وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند
 وديوان الحوائج وديوان الاحشام ومطبخ العامة
 وديوان النفقات ، وبين الطاقات الى الطاقات
 السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان
 كل سكة ، فمن باب البصرة الى باب الكوفة سكة
 الشرطة وسكة الهيثم وسكة المطبق وفيها الحبس
 الاعظم الذي يسمى المطبق وثيق البناء محكم
 السور ، وسكة النساء وسكة سرجس وسكة
 الحسين وسكة عطيفة مجاشع وسكة العباس
 وسكة شزوان وسكة ابن حنيفة وسكة الضيقة .
 ومن باب البصرة الى باب خراسان سكة الحرس

وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع
 وسكة مهمل وسكة شيخ بن عميرة وسكة
 المروودية وسكة واضح وسكة السقائين وسكة
 ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد
 والدرب الضيق . ومن باب الكوفة الى باب الشام
 سكة العكي وسكة ابي قره وسكة عبدويه وسكة
 السميدع وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم
 وسكة مثارة . ومن باب الشام الى باب خراسان
 سكة المؤذنين وسكة دارم وسكة اسرايل وسكة
 تعرف في هذا الوقت بالفواريري قد ذهب عن اسم
 صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة
 وسكة صاعد مولى ابي جعفر وسكة تعرف اليوم
 بالزيادي وقد ذهب عن اسم صاحبها وسكة غزوان
 هذه السكك بين الطاقات ، والطاقات داخل المدينة
 وداخل السور ، وفي كل سكة من هذه السكك جلة
 القواد الموثوق بهم في النزول معه وجلة مواليه ومن
 يحتاج اليه في الأمر المهم وعلى كل سكة من طرفها
 الابواب الوثيقة ، ولا تتصل سكة منها بسور الرحبة
 التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور الرحبة كما
 تدور الطريق وكان الذين هندسوها عبدالله بن
 محرز والحجاج بن يوسف وعمران بن الوضاح
 وشهاب بن كثير بحضرة نوبخت وابراهيم بن محمد
 الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب .
 وقسم الارياض اربعة ارباع وقلد تليقيا بكل ربع
 رجلا من المهندسين واعطى اصحاب كل ربع مبلغ
 ما يصير لصاحب كل قطعة من الذرع ومبلغ ذرع
 ما لعمل الاسواق في ربض ربض ، فقلد الربع من باب
 الكوفة الى باب البصرة وباب الحول والكرخ وما اتصل
 بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن
 الوضاح المهندس . والربع من باب الكوفة الى باب
 الشام وشارع طريق الانبار الى حد ربض حرب بن
 عبدالله بن سليمان بن مجالد وواضح مولاة وعبدالله
 ابن محرز المهندس . والربع من باب الشام الى
 ربض حرب وما اتصل بربض حرب وشارع باب
 الشام وما اتصل بذلك الى الجسر على منتهى
 دجلة حرب بن عبدالله وغزوان مولاة والحجاج ابن
 يوسف المهندس ، ومن خراسان الى الجسر الذي
 على دجلة مادا في الشارع على دجلة الى البغين
 وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن
 حمزة وشهاب بن كثير المهندس . ووقع الى كل
 اصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولن معه
 من اصحابه وما قدره للحوانيت والاسواق في كل
 ربض ، وامرهم ان يوسعوا في الحوانيت ليكون
 في كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات ، وان
 يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة

وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل ، وان يسموا كل درب باسم الغائد النازل فيه أو الرجل النبيه الذي ينزله أو أهل البلد الذين يسكنونه ، وحدهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعاً بالسوداء ، والدروب ستة عشر ذراعاً ، وان يبتنوا في جميع الارباض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكفي بها من في كل ناحية ومحلة وامرهم جميعاً ان يجعلوا من قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً للتجار يبتنونه وينزلونه والسوقية الناس وأهل البلدان وكان أول من اقطع خارج المدينة من أهل بيته عبدالوهاب بن ابراهيم بن محمد بن علي بن العباس بأزاء باب الكوفة على الصراة السفلى التي تأخذ من الفرات ، فربضه يعرف بسويقه عبدالوهاب وقصره هناك قد خرب . وبلغني ان انسويقة ايضا قد خربت . واقطع العباس بن محمد بن عتي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب الجزيرة التي بين الصراتين فجعلها العباس بستاناً ومزرعاً وهي العباسية المذكورة المشهورة التي لا تنقطع غلاتها في صيف ولا شتاء ولا في وقت من الاوقات . واستقطع العباس لنفسه لما جعل الجزيرة بستاناً في الجانب الشرقي وفي آخر العباسية تجتمع الصراتان والرحا العظمى التي يقال لها رحا البطريق . وكانت مائة حجر تفل في كل سنة مائة ألف ألف درهم ، هندسها بطريق قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه . واقطع الشروية وهم موالي محمد ابن علي بن عبدالله بن العباس دون سويقة عبدالوهاب ممسكاً بلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي . واقطع المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبأزائه قطيعة ياسين صاحب التجائب وخان التجائب ، ودون خان التجائب اصطبل الموالي ، واقطع المسيب ابن زهير النضبي صاحب الشرطة بمئة باب الكوفة للداخل الى المدينة مما يلي باب البصرة ، فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المنارة الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب مما يلي القبلة وهو على الصراة ، وهناك دار ازهر وبستان ازهر الى هذه الناية . ويتصل بقطيعة المسيب وأهل بيته قطيعة ابي العنبر مولى المنصور مما يلي القبلة ، وعلى الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ويمن ، وهناك دار عباس المنتوف وغيره ، ثم قطيعة يقطين بن موسى احد رجال الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمى التي اجتمعت فيها الصراتان

الصراة العليا ، والصراة السفلى ، وعليها القنطرة المعقودة بالجص والاجر المحكمة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة ، لانها اول شيء بناه وتقدم في احكامه ، فنخرج من القنطرة ذات اليمين الى القبلة الى قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره شارعاً على الصراة العظمى من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي اثنى قطيعة ابي السري الشامي مولى المنصور ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف باب المحول فتصير منه الى ربض حميد بن قحطبة الطائي وربض حميد شارعاً على الصراة العليا ، وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من آل قحطبة بن شبيب ، ثم يتصل ذلك بقطيعة الفراشين ، وتعرف بدار الروميين وتشرع على نهر كرخا ثم تعود الى الشارع الاعظم وهو شارع باب المحول ، وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ، ثم يتصل ذلك بالحوض المتبق ، وهناك منازل انغرس اصحاب ائشاء ، ثم يستمر المسير الى الموضع المعروف بالكناسة ، فهناك مرابط دواب العامة ، ومواضع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة بالكناسة مادة الى نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات والديباغين ، وبأزاء قطيعة الروميين على نهر كرخا اندي عليه القنطرة المعروفة بالروميين دار كعبوبة البستانيان اندي غرس النخل ببغداد ، ثم بساتين متصلة غرسها كعبوبة البصري الى الموضع المعروف ببرائا ، ثم رجعنا الى القنطرة العتيقة ، فقبل ان تعبر القنطرة مشرقاً الى ربض ابي الورد كوتر بن اليمان خازن بيت المال وسوق فيها سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الى باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوتر بن اليمان قطيعة حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانباريين كتاب ديوان الخراج ، وقبل ان تعبر الى القنطرة العتيقة وانه مقبل من باب الكوفة في الشارع الاعظم قطيعة سليم مولى امير المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ابوب بن عيسى الشروي ثم قطيعة رباوة انكرماني واصحابه وتنتهي الى باب المدينة المعروف بباب البصرة وهو مشرف على الصراة ودجلة وبأزائه القنطرة الجديدة لانها آخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبير فيها سائر التجارات مادة متصلة ، ثم ربض وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بقصر وضاح صاحب خزائنة السلاح ، واسواق هناك واكثر من فيه في هذا الوقت انوراقون اصحاب الكتب فان به اكثر من مائة حائوت للوراقين ، ثم الى قطيعة عمرو بن سميان الحراني وهناك طاق الحراني ثم الشرقية وانما

سميت الشرقية لانها قدرت مدينة للمهدي قبل ان يعزم على ان يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير ، وكان يجمع فيه يوم الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم اخرج المنبر منه ، وتخرج من الشرقية مارا الى قطيعة جعفر بن المنصور على شط دجلة ، وبها دار عيسى بن جعفر وتقرّب منها دار جعفر بن جعفر المنصور ، ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة التي ذكرنا الى شارع باب الكرخ فاولها عند باب النخاسين ، ثم الاسواق مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ متيامنا الى قطيعة الربيع مولى امير المؤمنين التي فيها تجار خراسان من البزازين واصناف ما يحصل من خراسان من اثياب لا يختلط بها شيء وهناك النهر الذي يأخذ من كرخايا عليه منازل التجار يقال له نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر قطيعة الربيع منازل التجار واختلط الناس من كل بلد يعرف كل درب باهله وكل سكة بمن ينزلها ، والكرخ السوق العظيم مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع الى دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ، ولا يختلط اصحاب المهمن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل اهل منفردون بتجاراتهم ، وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم وبين هذه الارياض التي ذكرنا والمقطائع التي وصفنا منازل الناس من العرب والجنود والدهاقين والتجار وغير ذلك من اختلاط الناس ينتسب اليهم الدروب والسكك . فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير الذي تولاه المسيب بن زهير ، والربيع مولى امير المؤمنين ، وعمران بن الواضاح المهندس ، وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه . ومن باب الكوفة الى باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولى هذا الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضع ثم قطيعة عامر بن اسماعيل المسلي ، ثم ربض النحس بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شارع في الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد الخوارزمية وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة ... مولى امير المؤمنين صاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى بن الهاشمي ، ثم اشتراها كاتب لحمد بن عبدالله بن طاهر ، يقال

له طاهر بن الحارث ، ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض الخطاب بن نافع الصحاوي ، ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب الاقفاص ، ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا متصل بدرب القصارين . ومن شارع طريق الانبار القطائع ، قطيعة واضع مولى امير المؤمنين وولده . ودرب ايوب بن المغيرة الفزاري بالكوفة ، والدرب يعرف بدرب الكوفيين ، ثم قطيعة سلامة بن سمعان البخاري واصحابه ، ومسجد البخارية والمنازة الخضراء فيه ثم قطيعة اللجلاج المنطبي ، ثم قطيعة عوف ابن نزار اليمامي ودرب اليمامية النافذ الى دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل بن جعونة الرازي ، وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كتب ام جعفر المعروف بداود النبطي ، ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو ، وعلى السيب قطيعة صالح البليدي في درب صباح النافذ الى سويقة عبدالوهاب ، وقطيعة قابوس بن اسميدع ، وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي صالح يحيى بن عبدالرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام الرشيد ، فتعرف بدور ابي صالح ، ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي ، ثم ربض اتقن مولى المنصور ، وبستان اتقن المعروف به ، ثم ربض الهيثم بن معاوية بشار سوق (شهارسو) الهيثم ، وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الى شار سوق (شهارسو) الهيثم ، ثم قطيعة الموروذية آل ابي خالد الانباري ، ثم ابي يزيد الشووي مولى محمد بن علي واصحابه ، ثم قطيعة موسى بن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ، ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ، ثم قطيعة سعيد بن دعلج التميمي ، ثم قطيعة الشخير وزكريا بن الشخير ، ثم ربض ابي ايوب سليمان ابن ايوب المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني (وموريان قرية من كورة من كور الاهواز يقال لها منادر) . ثم قطيعة رداد بن زاذان المعروفة بالردادية ، ثم الممدار ، ثم حدد ربض حرب . ودونه الرملية : وهذا الربع الذي تولاه سليمان ابن مجالد وواضح مولى امير المؤمنين والمهندس عمران بن الواضاح . والربع من باب الشام فاول ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي ، والى جنبه السجج المعروف بسجج باب الشام والاسواق المعروفة بسوق الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال اهلة عامرة الشوارع

والدروب والعراض ، وتمتد في شارع عظيم فيه اندروب الطوال ، كل درب ينسب الى اهل بلد من البلدان ينزونه في جنبتيه جميعا الى ربض حرب بن عبدالله البلخي ، وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا في الحال منه . واهله اهل بلخ واهل مرو واهل الختل واهل بخارى واهل اسبشباب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل بلد قائد ورئيس . وقطيفة الحكم بن يوسف البلخي صاحب الحراب وقد كان ولي الشرطة . ومن باب الشام في اشراف الاعظم الماد الى الجسر الذي على دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال . ثم ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر الذين يباعون من الافاق وكانوا مضمومين الى الربيع مولا ، ثم ربض الكرمانية والقائد بوزان ابن خالد الكرمانى ، ثم قطيفة الصفد ودار خرفاش الصفدي ، ثم قطيفة ماهان الصامغاني واصحابه ، ثم قطيفة مرزبان ابي اسد بن مرزبان الفاربابي واصحابه واصحاب العمدة ثم تنتهي الى الجسر . فهذا الربيع الذي تولاه حرب بن عبدالله مولى امير المؤمنين والمهندس الحجاج بن يوسف . والربيع من باب خراسان الى الجسر على دجلة وما بعد ذلك بازائها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض وقصر يشرع على دجلة ثم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي قبل ان ينتقل الى قصره بالرصافة الذي بالجانب الشرقي من دجلة . فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر ، فاذا جاوزت ذلك فاول القطائع قطيفة سليمان بن ابي جعفر في الشارع الاعظم على دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان . والى جنب قطيفة سليمان في الشارع الاعظم قطيفة صالح بن امير المؤمنين المنصور وهو صالح المسكين مادة الى دار نجيب مولى المنصور التي صارت لعبدالله بن طاهر . وآخر قطيفة صالح قطيفة عبدالله بن يزيد الجرجاني المعروف بابي عون واصحابه الجرجانية ، ثم قطيفة تميم الباذغيسي متصلة بقطيفة ابي عون ، ثم قطيفة عباد الفرغاني واصحابه الفراغية ، ثم قطيفة عيسى ابن نجيب المعروف بابن روضة وعلمان الحجابة ، ثم قطيفة الافارقة ، ثم قطيفة تمام الديلمي مما يلي قنطرة التبانين ، وقطيفة حنبل ابن مالك ، ثم قطيفة البقيين اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن ابراهيم ، ثم السوق على دجلة في الفرسية ، ثم قطيفة نجعفر ابن امير المؤمنين المنصور صارت لام

جعفر ناحية باب قطربل تعرف بقطيفة ام جعفر ، ومما على القبلة قطيفة مرار العجلي وقطيفة عبد الجبار بن عبدالرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه خراسان فعصى هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتى ظفر به فحمله الى ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه . وفي هذه الارياض والقطائع ما لم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع وتوارثوا . واحصيت الدروب والسكك فكانت سنة الاف درب وسكة . واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك . واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك . وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الآخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها معقودة عقدا وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارياض تجري صيفا وشتاء قد هندست هندسة لا ينقطع بها ماء في وقت ، وقناة اخرى من دجلة على هذا المثال وسماها دجيل . وجر لاهل الكرخ ومما اتصل به نهرا يقال له نهر الدجاج ، وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ، ونهرا يسمى نهر طابق بن الصية ولهم نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم انهارات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقصة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الى فرسة عليها الاسواق وحوائيت التجار لا تنقطع في وقت من الاوقات فاما لا ينقطع ، ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة شرب القوم جميعا منها ، وانما احتيج الى هذه القنوات تكبر البلد وسعته والا فهم بين دجلة وانهارات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتى غرسوا انخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والاحنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها ، وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها من كل افق ونزعوا اليها من الاداني والاقاصي ، فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الارياض ، وفي كل طرف منه مقبرة وقرى متصلة وعمارات مادة . والجانب الشرقي من بغداد نزه المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابندا بناءه في سنة ثلاث واربعين ومائة فاخطت المهدي قصره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي في

بالخرم ، ثم قطعة معاذ بن مسلم الرازي جسد اسحاق بن يحيى بن معاذ ، ثم قطعة الغمر بن العباس الخثعمي صاحب الجسر ، ثم قطعة سلام مولى المهدي بالخرم وكان يلي المظالم ، ثم قطعة عتبة بن سلم الهنائي ، ثم قطعة سعيد الحرشي في مريمة الحرشي ، ثم قطعة مبارك التركي ، ثم قطعة سوار مولى امير المؤمنين ورحبة سوار ، ثم قطعة نازي مولى امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ، ثم قطعة محمد بن الاشعث الخزاعي ، ثم قطعة عبدالكبير بن عبدالحميد بن عبدالرحمن بن زبد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ، ثم قطعة ابي غسان مولى امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل الجند وسائر الناس من النساء ومن التجار ومن سائر الناس في كل محلة وعند كل ربض . وسوق هذا الجانب العظيم التي تجتمع فيها اصناف التجارات والبياعات والصناعات على راس الجسر مارا من راس الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من اصناف التجارات والصناعات . وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة اقسام ، فطريق مستقيم الى الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد الجامع ، وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن طرائف الصين وتخرج منها الى الميدان ودار الفضل بن الربيع ، وطريق ذات اليسار الى باب البردان ، وهناك منازل خالد بن برمك وولده ، وطريق الجسر من دار خزبة الى السوق المعروفة بسوق يحيى بن الوليد ، والى الموضع المعروف بالدور الى باب بغداد المعروف بالشماسية ، ومنه يخرج من اراد الى سر من راي ، وطريق عند الجسر الاول الذي يمر عليه من ابي من الجانب الغربي ياخذ على دجلة الى باب القير والخرم وما اتصل بذلك ، وكان هذا اوسع الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في انجانب الغربي كما وصفنا فنزله المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ، ونزله موسى الهادي ، ونزله هارون الرشيد ، ونزله المأمون ، ونزله المعتصم ، وفيه اربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوى ما زاده الناس ، وخمسة آلاف حمام سوى ما زاده الناس بمعد ذلك ، وبلغ اجرة الاسواق ببغداد في الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء : المنصور ، والمهدي ، وموسى الهادي ، وهارون الرشيد ، ومحمد الامين وعبدالله المأمون ، والمعتصم . فلم يمت بها منهم واحد

الرصافة وحفر نهرا ياخذ من النهر وان ساه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي . واقطع المنصور اخوته وقواده بعدما اقطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وقسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بمسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة ، وتنافس الناس في النزول على المهدي لمحبته له ولاتساعه عليهم بالاموال والعطايا ولانه كان اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الى الجانب الغربي وهو جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه وصار فيه الاسواق والتجارات ، فلما ابتدء البناء في الجانب الشرقي امتنع من اراد سعة البناء فاول القطائع على راس الجسر لخزيمة ابن خازم التميمي وكان على شرطة المهدي ، ثم قطعة اسماعيل بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطعة العباس بن محمد بن علي ابن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب لانه جعل قطيعته في الجانب الغربي بستانا ، ثم قطعة السري بن عبدالله بن الحارث بن العباس بن عبدالمطلب ، ثم قطعة قثم بن العباس بن عبيدالله ابن العباس بن عبدالمطلب عامل ابي جعفر على اليمامة ، ثم قطعة الربيع مولى امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والميدان ، ثم قطعة جبريل بن يحيى البجلي ، ثم قطعة اسد بن عبدالله الخزاعي ، ثم قطعة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ثم قطعة سلم بن قتيبة الباهلي ، ثم قطعة سفيان بن معاوية المهلب ، ثم قطعة روح بن حاتم ، ثم قطعة ابان بن صدقة الكاتب ، ثم قطعة حمويه الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة سلمة الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي ، ثم قطعة بدر الوصيف مع سوق العطش وهي السوق العظيم الواسعة ، ثم قطعة العلاء الخادم مولى المهدي ، ثم قطعة يزيد بن منصور الحميري ، ثم قطعة زياد بن منصور الحارثي ، ثم قطعة ابي عبيد معاوية بن برمك البلخي على قنطرة بردان ، ثم قطعة عمارة بن حمزة بن ميمون ، ثم قطعة ثابت بن موسى الكاتب على خراج الكوفة وما سقى الفرات ، ثم قطعة عبدالله ابن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب على ديوان الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذربيجان ، ثم قطعة عبيدالله بن محمد بن صفوان القاضي ، ثم قطعة يعقوب بن داود السلمي الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته ثم قطعة منصور مولى المهدي وهو الموضع الذي يعرف بباب القير ، ثم قطعة ابي هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف

الا محمد الأمين بن هارون الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر . وهذه القطائع والشوارع والحدود والسكك التي ذكرتها على ما رسمت في أيام المنصور ووقت ابتدائها وقد تغيرت ومات المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل بعد جيل ، وزادت عمارة بعض المواضع ، وملك قوم ديار قوم ، وانتقل الوجوه والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ثم اتصل بهم المقام في أيام الواثق والمتوكل ، ولم تخرب بغداد ولا نقصت اسواقها ، لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى في انبر والبحر اعني في دجلة وفي جانبي دجلة .

- ٢ -

عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة (١)

معرفة انهار مدينة السلام - في الجانب الشرقي

فاما انهار مدينة السلام الجارية فيها ومنها شرب من يقرب اليها فاول ما نبدأ به من ذلك الانهار التي في الجانب الشرقي وهو عسكر امير المؤمنين المهدي من ذلك نهر يقال له نهر موسى اوله من النهريين في ظهر قصر المعتضد المعروف بالثريا ، واول النهريين من النهرين فوق الجسر بشيء يسير يمر جاريا ويتفرع منه انهار كثيرة تسقى سواد بغداد ويمر في شرقي الثريا وعليه قرى وضباع ويستقى بعض طسوج كلواذي ويصب في دجلة اسفل من مدينة السلام باقل من فرسخين . ويحمل منه ايضا النهر المعروف بنهر موسى واوله في الموضع الذي تقدم ذكره يمر فيدخل قصر الثريا ويدور فيه ويخرج منه ثم يصير الى موضع يقال له مقسم الماء ، فينقسم هناك ثلاثة اقسام فيمر الاول منها الى باب سوق الدواب ويجتاز بباب عمار ويحمل منه هناك نهر يمر الى دار البانوجة ويفنى هناك ويمر نهر موسى فيدخل من باب سوق الدواب ويمر الى باب متقي الكبير فيحمل منه هناك نهر يمر الى دار ابن الخصيب في الشارع المعروف بسعد الوصيف ويخرج الى العتلات فيصب في النهر الذي حفره المعتضد للبحيرة ويمر في الشارع المعروف خلف الحوائيت الى العتلات في باب المخرم

(١) تصنيف سهراب . اعني بنسخه وتصحيحه هانسي لون مزبك ص ١٢٩ - ١٣٤ ط فيينا ١٣١٧ - ١٩٢٩ .

ويمر في فطرة العباس التي في باب المخرم ويمر في الشارع الى المخرم ويفنى هناك . ويمر نهر موسى الى فطرة الانصار فتحمل منه هناك ثلاثة انهار يصب احدها في حوض الانصار والثاني في حوض هيلانة والثالث في حوض داود ، ويمر نهر موسى الى شارع درب الطويل وقصر المعتصم بالله فيحمل منه هناك نهر يمر الى سوق العطش ماداء في وسط شارع كرم العرش ويصب في دار الوزير علي بن محمد بن الفرات ويفنى هناك ويمر نهر موسى ملاصقا لقصر المعتصم الى ان يخرج الى الشارع الاعظم ثم يخرج الى شارع عمرو الرومي ثم يدخل الى بستان الزاهر فيسقيه ثم يصب في الدجلة اسفل البستان بشيء يسير ، ثم يمر النهر الثاني من المقسم الى باب ابرو فيدخل الى بغداد من هناك ويسمى نهر الملقى ويمر بين الدور الى باب سوق الثلاثاء ثم يدخل قصر المعتضد المعروف بالفردوس ويدور فيه ويصب الى دجلة مع القصر ، ويمر النهر الثالث من المقسم الى باب قطعة موشجير ثم يمر الى باب العامة ثم يدخل الى القصر المعروف بالحسني فيدور فيه ويصب في دجلة مع قصر المكتفي بالله المعروف بالناج ويحمل من النهريين نهر يقال له نهر علي اوله فوق نهر موسى بشيء يسير يمر معترضاً لطريق خراسان الى قرية الاثلة ويمر فيسقى طسوج نهر يوق ورستاق الأفروط ويصب في نهر من الخالص ويحمل من نهر الفضل نهر يقال له نهر الجعفرية يمر بقرى وضباع ويصب في سواد بغداد الذي في شمالها ويحمل من نهر الجعفرية نهر يقال له نهر السور يمر مع سور بغداد اوله من نهر الجعفرية يمر بباب خراسان وباب البردان ويصب في نهر الفضل اندي يصب بباب الشماسية ، ويحمل من نهر الخالص الذي قلنا انه يصب اسفل الراشدية نهر يقال له نهر الفضل يجيء الى باب الشماسية يمر فيسقى ضياعا عليه وقرى ويصب في دجلة مع باب الشماسية ويحمل من نهر الشماسية وهو نهر الفضل نهر يقال له نهر المهدي اوله فوق الباب بشيء يسير يمر فيدخل الى مدينة السلام من باب الشماسية ويجيء الى سوق جعفر ويمر في الشارع المعروف بشارع نهر المهدي ثم يجيء الى فطرة البردان ويدخل في دار الروميين ثم يخرج الى سوق نصر بن مالك ثم يدخل الرصافة في مسجد الجامع الى بستان حفص ويصب في جوف قصر الرصافة في بركة فيه ، ويحمل من هذا النهر نهر اوله في سوق نصر مع

الابواب الحديد يمر في وسط شارع باب خراسان
ماداً الى ان يصب في نهر السور بباب خراسان ،
فهذه انهار الجانب الشرقي ، وبقي انهار الجانب
الغربي وانا ابينها ان شاء الله .

« معرفة انهار مدينة السلام في الجانب الغربي »

من ذلك نهر يقال له الصراة اوله من نهر
عيسى فوق قرية المحول الكبير بشيء يسير يمر
هذا النهر فيسقى ضياع وبساتين بادوريا ويتفرع
منه انهار كثيرة ويدخل بغداد فيمر بقنطرة العباس
ثم يمر الى قنطرة الصينيات ثم يمر الى قنطرة
رحا البطريق وهي قنطرة الزبد ثم يمر الى قنطرة
العتيقة ثم يمر الى قنطرة الجديدة ثم يصب في
دجلة اسفل الخلد بشيء يسير ويحمل من الصراة
نهر يقال له خندق ظاهر اوله من نهر
الصراة اسفل من فوهته بفرسخ يمر
فيسقى الضياع ويدور حول مدينة السلام ممّا
بلى الحربية فيمر الى باب الانبار وعليه هناك
قنطرة ثم يمر الى باب الحديد وعليه هناك قنطرة
و يمر الى باب حرب وعليه هناك قنطرة و يمر الى
باب فطربل وعليه هناك قنطرة رحا ام جعفر و يمر
في وسط قطيعة ام جعفر ويصب في دجلة فوق
دار اسحاق بن ابراهيم الطاهري بشيء يسير ،
ويحمل من الخندق نهر يقال له الصراة الصغيرة
يجيء قاطعاً للبساتين يمر بيمض بادوريا ويصب
في الصراة الكبيرة اسفل من رحا البطريق بشيء
يسير ، ويحمل من نهر عيسى نهر يقال له كرخايا
اوله اسفل المحول الكبير بشيء يسير يمر في وسط
طسوج بادوريا ويتفرع منه انهار نبت في بادوريا
نسمى وتعرف وعلى جانبه قرى وضياع وبساتين
ماداً الى ان يدخل بغداد من باب ابي قبيصة
و يمر الى قنطرة اليهود و يمر الى قنطرة درب
الحجارة و يمر الى قنطرة البيمارستان وباب
محول فيتفرع منه هناك انهار الكرخ كلها ، فمن
ذلك اذا جاوز كرخايا قنطرة البيمارستان فاول
الانهار نهر يقال له نهر رزين يمر فياخذ في ربض
حميد فيدور فيه ثم يمر الى سويقة ابي الورد
ثم يمر الى بركة زلزل فيدور فيها ثم يمر الى
باب طاق الحراني ثم يصب في الصراة الكبيرة
اسفل من القنطرة الجديدة مع القنطرة و يمر
بنهر ابي عتاب ، واذا صار نهر رزين الى باب
سويقة ابي الورد يحمل منه نهر يمر في قورج عنى
قنطرة العتيقة فيمر ماداً الى شارع باب الكوفة
فيدخل من هناك الى بعض اثار مدينة ابي جعفر

النصور وينقطع فيها و يمر النهر من باب الكوفة
ماداً الى شارع القحاطبة يمر الى باب الشام و يمر
في شارع الجسر الى طرف الزبيدية وبغنى
هناك ، ثم يمر نهر كرخايا من البيمارستان فاذا
صار الى الدرابيات يسمى هناك العمود وهو
النهر الذي تنفرع منه انهار الكرخ الداخلة فيمر
النهر من هناك الى موضع قريب منه فيسمى هناك
رحا ابي القاسم ثم الى موضع يعرف بالواسطيين
ثم يمر الى موضع يعرف بالخففة فيحمل منه
هناك نهر يقال له نهر البزازين يعطف فيخرج في
شارع المصور ثم يمر الى دار كعب ثم يخرج الى
باب الكرخ ثم يدخل البزازين ثم يمر الى الجزارين
ثم يدخل في اصحاب الصابون ثم يصب في دجلة
تحت دار الجوز ثم يمر النهر الكبير من الخففة الى
طرف مربعة الزيات فيعطف منه هناك نهر يقال
له نهر الدجاج يمر فياخذ ماداً الى اصحاب القنى
ثم يمر الى اصحاب القصب وشارع القيارين
ويصب في دجلة في اصحاب الطعام ثم يمر النهر
الكبير من مربعة الزيات الى دوار الحمار فيعطف
منه هناك نهر يقال له نهر الكلاب ياخذ في شارع
قطيعة الكلاب ماداً حتى يصب تحت قنطرة الشوك
في نهر عيسى بن موسى ثم يمر هذا النهر الكبير
من دوار الحمار الى موضع يقال له مربعة
صالح فيعطف منه هناك نهر يقال له نهر القلائين
يمر ماداً الى السواقين ثم الى اصحاب القصب
ويصب هناك في نهر الدجاج ويصيران نهراً واحداً
ثم يمر النهر الكبير من مربعة صالح الى موضع
يعرف بنهر طابق ثم يصب في نهر عيسى في موضع
يعرف بمشرعة الاس بحضرة دار البطيخ ، فهذه
انهار الكرخ وبقي انهار الحربية وانا ابينها ان شاء
الله تعالى .

من ذلك نهر يحمل من دجيل يقال
له نهر بطاطيا اوله من اسفل فوهة دجيل بسة
فراسخ يمر فيسقى ضياعاً وقرى و يمر في وسط
مسكن ويصب في الضياع وبغنى فيها ويحمل منه
نهر اسفل جسر بطاطيا بشيء يسير يجيء نحو
مدينة السلام فيمر على عبارة قورج قنطرة باب
الانبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمر في شارع
باب الانبار و يمر في شارع الكبش وبغنى هناك ،
ويحمل من نهر بطاطيا نهر اسفل من النهر الاول
يجيء نحو بغداد فيمر على عبارة يقال لها عبارة
الكرخ بين باب حرب وباب الحديد ، و يمر فيدخل
بغداد من هناك و يمر في شارع دجيل الى مربعة
الفرس فيحمل منه هناك نهر يقال له نهر دكان
البناء وبغنى هناك و يمر النهر الكبير من مربعة

الفرس الى قنطرة ابي الجون فيحمل هناك منه نهر الى كتاب اليتامى الى مربعة شبيب ويصب هناك في نهر الشارع سنذكره ، ثم يمر النهر الكبير من قنطرة ابي الجون الى شارع قصر هاني ، ثم يمر الى بستان القس ويصب في النهر الذي يمر بشارع القحاطبة ، ويحمل من نهر بطاطيا نهر اوله من قناة الكوخ يجرى الى بغداد ويمر على عبارة قورج على قنطرة باب حرب ويدخل بغداد من هناك ويمر في وسط شارع باب حرب الى شارع دار ابن ابي عون ، ويجرى الى مربعة ابي العباس ثم يجرى الى مربعة شبيب فيصب فيه النهر الذي ذكرناه ثم يمر الى باب الشام ، فهذه انهار مدينة السلام قد بيئناها ، وهذه الانهار التي في الحربية من قنى تحت الارض واولئها مكشوفة فافهم ذلك ان شاء الله .

- ٣ -

الاصطخري : ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الكرخي - المتوفى في حدود النصف الاول من القرن الرابع .

المسالك والممالك (١)

واما بغداد فإنها مدينة محدثة في الاسلام . لم تكن بها عمارة فابتنى المنصور المدينة في الجانب الغربي ، وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ، مثل قطيعة الربيع ، والحربية وغيرها ، ثم عمرت ، فلما كان في ايام « المهدي » جعل معسكره في الجانب الشرقي ، فسمى عسكر المهدي ثم عمرت بالناس والبنيان ، وانتقلت الخلافة الى الجانب الشرقي ، وهي اليوم اسفل هذا الجانب بالحريم ، ليس وراءها بنيان للعامة متصل ، وتفرش قصور الخلافة وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد حتى تتصل الخلافة مرتفعاً على دجلة الى الشماسية نحو خمسة اميال . ولحاذي الشماسية في الجانب الغربي الحربية ، فيمتد نازلاً على دجلة الى آخر الكرخ وسمى الشرقي جانب الطاق (باب الطاق) وجانب الرصافة وعسكر المهدي ، فمن نسبته الى الطاق يعني ان اوله باب الطاق ، وهو موضع السوق الاعظم ومن نسبته الى الرصافة نسبة

الى قصر كان الرشيد بناه بقرب المسجد الجامع بها ومن نسبته الى عسكر المهدي فإن المهدي كان عسكر من هذا الجانب بحذاء مدينة ابي جعفر ، وسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبنفسداد مساجد جوامع في ثلاثة مواضع ، في مدينة المنصور ، وفي الرصافة وفي دار الخلافة وتتصل العمارة والبنيان بلكواذي وبها مسجد جامع فلو عد في جملة بغداد لجاز ، وقد عقد بين الجانبين على دجلة جسران من سفن ويكون من باب خراسان الى ان يبلغ باب الياسرية ، وذلك عرض الجانبين جميعاً نحو خمسة اميال ، واعمر بقعة منها الكرخ وبها اليسار ومساكن معظم التجار ، واما الاشجار والانهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة ، فإنها من ماء النهرين وتامراً ، وليس يرتفع إليها من ماء دجلة الا شيء يسير يقصر عن العمارة وينضج بالدواليب ، واما الجانب الغربي فإنه قد شق إليه من الفرات نهر عيسى من قرب الانبار تحت قنطرة ديمية ، وتتطلب من هذا النهر صهاريج تجتمع فتصير نهراً يسمى الصراة وسفحها منها انهار ، وبها عمارات الجانب الغربي وتقع ما بقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة في دجلة . وينتهي آخر نهر عيسى الى دجلة في جوف مدينة بغداد ، واما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى ان يفسح في دجلة ، واما الصراة فإن فيها حواجز تمنع من جري السفن ، فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة ، ثم يحول ما فيها ويجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها (١) .

- ٤ -

ابن حوقل : ابو التمام المتوفى بمسدد عام ٢٧٠ هـ .

صورة الأرض (١)

ومدينة السلام محدثة في الاسلام ابتناها ابو جعفر المنصور في الجانب الغربي من دجلة وجعل حوالها قطائع لحاشيته ومواليه واتباعه ،

(١) صورة الأرض ، ٢١٥ - ٢١٧ ، ط بيروت د . ت . ويشير الناشر الى ان ابن حوقل هو من القرن العاشر الميلادي اي القرن الرابع الهجري وفي نصوص الكتاب اشارات صريحة لي مواضع ذكرت في بغداد سنة ستين وخمسمائة اي ان تغييرات اساسية واصحافات زيدت على الكتاب . تراجع بشأن ابن حوقل كراشكوفسكي (تاريخ الادب الجغرافي العربي) ٢٠٠/١ - ٢٠٥ .

(١) المسالك والممالك ، ٥٨ - ٥٩ ، تحقيق الدكتور محمد جابر عبدالمال - ط . وزارة الثقافة والإرشاد القومي دار القلم ١٢٨١ هـ - ١٩٦١ م القاهرة .

كقطيعة الربيع والحريصة وغيرهما ثم عمرت وتزايدت . فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمى عسكر المهدي وتزايد بالناس والبنيان وكثرت عمارتهم ، وانتقل اسم الخلافة الى الجانب الشرقي ، ودار من بيده حال من اسم المملكة وعمل الى اسفل هذا الجانب بالمخرم واستحدث الدار التي في اسفلها للسلطان وليس بها ورائها بنيان للعامة متصل . ويتصل قصور السلطان وبساتينها من بغداد الى نهر بين فرسخين على جدار واحد ، ثم يتصل من نهرين الى شط دجلة . ويتصل البنيان بدار خلافتهم مرتفعا على دجة الى الشمساسة نحو خمسة اميال وتحاذي من الجانب الغربي انحرية فيمتد نازلا على دجلة البنيان الى آخر الكرخ . ويسمى الجانب الشرقي منها جانب باب الطاق وجانب الرصافة . ويسمى عسكر المهدي لانه كان عسكر بغداد مدينة ابي جعفر النصور ا وبنى هناك مسجد جامع حسن . والآن فقد خرب ذلك المكان ولم يبق معمور غير الجامع ومقابر قريش والمحلة المعروفة بغبر ابي حنيفة رضي الله عنه . وانتقلت العمارة الى نهر معلى وقد سور في زماننا هذا وهو عشر السنين وخمسمائة بسور حصين منيع . وبين يديه خندق عميق محيط به يتخرقه ماء الدجلة [٢] ويسمى الجانب الغربي جانب الكرخ وبها مساجد للجمعة وصلاتها خاصة في اربعة مواضع منها فمناها في الجانب الغربي الذي بمدينة ابي جعفر ، وبالرصافة جامع آخر لاهل باب الطاق وفي دار السلطان ايضا جامع يحضره الخاصة والعامة ومسجد برانا في الجانب الغربي واستحدثه امير المؤمنين علي صلوات الله عليه وتتصل عمارة الجانب الشرقي في اسفل دار الخلافة بكلواذي ، وهي ايضا مدينة قصدة فيها مسجد جامع ولو عد في جملة بغداد نجاز لان كثيرا من اهلها يصلون فيه . وبين الجانبين في وقتنا هذا جسر بقرب باب الطاق ، وكانا اثنين لعبير المجازين ، ولما بان النقص عليهما عطل احدهما لبيان الاختلال وهلك اكثر محالها وذلك انه كان من باب خراسان عمارة الى ان تبلغ الجسر وتمتد الى باب الباسرية من الجانب الغربي وعرضها فقد اختل ايضا من الجانبين جميعا نحو خمسة اميال ، ونقص وهلك منه الكثير واعمر بقعة بها اليوم الكرخ وجانبه لان اهل الباسرية ومعظم ساكن

(٢) ما بين القوسين زيادة مقحمة في النص . وانبتها كما هي حفاظا على الامانة العلمية .

التجار هناك وذكر بعض المؤلفين ان الموفق امر بمساحتها فوجد الجانب الشرقي مائتي جبل وخمسين جبلا وعرضه مائة جبل وخمسة اجبل . ويكون ذلك ستة وعشرين الف جريبا ، ومائتين وخمسين جريبا ، وهذا حساب لا اعرفه ووجد الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلا والعرض سبعين جبلا ، سبعة عشر الف وخمسين مائة جريب . الجميع ثلاثمائة واربعون الف جريب وسبعمائة وخمسون جريبا . ويكون بفدان مصر حساب كل جريبين ونصف فدان سبعة عشر الف فدان وخمسين مائة فدان ، وكانت هذه مساحة رفعتها .

فاما الاشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة فاتها من ماء انهر روان وتامرا . ونس يرفع إليها من دجلة الا شيء يقصر عن العمارة . واما الجانب الغربي فيشق ابيه من الفرات نهر عيسى من قرب الأنبار تحت قنطرة ديمنا ، وتتخبط من هذا النهر صبايات تجتمع فتصير نهرا يسمى الصراة يفضي ايضا الى بغداد [عند المحلة المعروفة بباب البصرة] (٢) وعليه عمارات كثيرة للجانب الغربي وتنفجر منه انهار كثيرة اعمارات الناحية ، ويقع ما يبقى من ماء الصراة الصغيرة والكبيرة فيما بجاور نهر عيسى من بغداد في نحو نصف المدينة وعليها كثير من مساكنهم ودورهم وبساتينهم .

فاما نهر عيسى فإن السفن تجري فيه من الفرات الى ان يقع في دجة والصراة فيها حواجز وموانع من جري السفن بسكور ودوال فيها ، فتنتهي السفن فيها الى قنطرتها ثم يحول ما يكون فيها فيجاور به ذلك الحاجز الى سفن غيرها . وبين بغداد والكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق ابيه انهار من الفرات ، فاولها مما يلي بغداد نهر صرصر عليه مدينة صرصر تجري فيه السفن ، وعليه جسر من مراكب يعبر عليه ومدينة صرصر عامرة بالخشيل والزروع وسائر الثمار صغيرة من بغداد على ثلاثة فراسخ . ثم ينتهي على فرسخين الى نهر الملك وهو كبير ايضا اضعاف نهر صرصر في غزر مائه ، وعليه جسر من سفن يعبر عليه ونهر الملك مدينة اكبر من صرصر عامرة باهلها ، وهي اكثر نخلا وزرعا وثمرات وشجرا منها . ثم ينتهي الى قصر ابن هبيرة ، وليس بين بغداد والكوفة مدينة اكبر منها وهي بقرب نهر الفرات الذي هو العمود ويطلع إليها هناك عن يمين وشمال انهار مفترقة ليست بكبار ، الا انها تعمهم

لحاجتهم وتقوتهم وهي اعمر نواحي السواد ، ثم ينهي الى نهر سورا وهي مدينة مقتصدة ونهر كثير الماء وليس للفرات شعبة اكبر منه وينتهي الى سائر سواد الكوفة ، ويقع الفاضل منه الى بطائح الكوفة وسورا هذه بين تلك النواحي اكثرها كروما واشربة ، وكربلا من غربي الفرات فيما يحاذي قصر ابن هبيرة ، وبها قبر الحسين بن علي صلوات الله عليهما ، وله مشهد عظيم وخطب في اوقات من السنة بزيارته وقصده جسيم .

- ٥ -

المقدسي : محمد بن احمد ، ت/ ٣٩٠ هـ

احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

بغداد في مصر الاسلام ، وبها مدينة السلام ، ونهر الخصائص والظرافة والقرايح واللطفانة هواء رقيق وعلم دقيق ، كل جيتد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها وكل ظرف لها . وكل قلب إليها وكل حرب عليها ، وكل ذب عنها ، هي اشهر من ان توصف واحسن من ان تنعت واعلى من ان تمدح احدثها ابو العباس السفاح ثم بنى المنصور بها مدينة السلام وزاد فيها الخلفاء من بعده ولما اراد بناء مدينة السلام . سأل عن شتاها وصيفها ، والأمطار والبق والهواء وامر رجالاته حتى يناموا ، فيها فصول السنة حتى عرفوا ذلك ثم استشار اهل الرأي من اهلها فقالوا نرى ان تنزل اربع طاسيج في الجانب الشرقي بوق وكلواذي وفي الغربي قطربل وبادوريا فتكون بين نخل وقرب ماء فان اجذب طشوج او تاخرت عمارته كان في الآخر فرج وانت على الصراة تجيئك الميرة في السفن الفراتية والقوافل من مصر والشام في ابادية وتجيئك آلات من الصين في البحر ومن الروم والموصل في دجلة فانت بين انهار لا يصل إليك العدو الا في سفينة او على فطرة على دجلة وفرات فبناها اربع قطع مدينة السلام وبادوريا والرصافة وموضع دار الخليفة اليوم وكانت احسن شي للمسلمين واجل بلد وفوق ما وصفنا حتى ضعف امر الخلفاء فاخذت وخف اهلها ، فاما المدينة فخراب والجامع فيها يعمر في الجمع ثم يتخللها بعد ذلك الخراب اعمر موضع بها قطعة الربيع والكرخ في الجانب الغربي وفي الشرقي باب الطاق وموضع دار الامير والعمارات والاسواق بالغربي اكثر والجسر عند باب الطاق الى جانبه بيمارستان بناء عهد الدولة حصل في كل

طشوج منا ذكرنا جامع وهي في كل يوم الى ورا . واخشي انها تعود كسامرا مع كثرة الفساد والجهل والفسق وجور السلطان اخبرنا ابو بكر الاسماعيلي بجرجان قال حدثنا ابن ناجية قال حدثنا ابراهيم الترجماني قال حدثنا سيف بن محمد قال حدثنا عاصم الاحول عن ابي عثمان النهدي قال كنت مع جرير بن عبدالله فقال اي شي يدعي هذا النهر قالوا دجلة قال فهذا النهر الاخر قالوا دجيل قال فهذا النهر قالوا صراة قال فهذا النخل قالوا قطربل قال فركب فرسه واسرع ثم قال سمعت رسول الله : صلعم يقول تبني مدينة بين دجلة ودجيل وقطربل والصراة تجبي اليها خزائن الارض وجابوتها يخسف بهم فهم اسرع هوبتا في الارض من التود الحديد في الارض الرخوة ، وانهار الفرات تغلب في دجلة في جنوبيتها وما حاذي المدينة وما شماليتها دجلة حسب وتجرى في هذه الشعب الفراتية السفن الى الكوفة وفي دجلة الى الموصل وذكر الشيمشطا في تاريخه ان المنصور لما اراد بناء مدينة السلام احضر اكبر من عرف من اهل الفقه والعدالة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيهم ابو حنيفة النعمان بن ثابت والحجاج بن اربعة وحشر الصنائع والفعلة من الشام والموصل والجيل وسائر اعماله وامر بخططها وحفر الاساسات في سنة ١٤٥ وتمت في سنة ٤٩ وجعل عرض السور من اسفل خمسين ذراعاً وجعلها بشمانية ابواب اربعة داخلية صغار وابربعة خارجية كبار باب البصرة وباب الشام وباب خراسان وباب الكوفة وجعل الجامع والقصر وسطها وقبلة جامع الرصافة اصح منه ووجدت في بعض خزائن الخلفاء ان المنصور انفق على مدينة السلام اربعة آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثلاثين درهماً لان اجرة الاستاذ كانت قيراطا والروزكاري حبتين .

- ٦ -

المنجم : الشيخ اسحق بن حسين المنجم ت/ حوالي « القرن الخامس » .

آكام المرجان (١)

ذكر مدينة بغداد

وانما رجعنا الى ذكر مدينة بغداد بعد تقديم

(١) آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ص ٤٠٠ طبعة بالادبيات د. ت .

ما وجب تقديمه لأنها أصل المدائن وأحسنها
 بنياناً وأطيبها هواء وهي في وسط الأقليم الرابع
 الذي هو أعز الأقاليم وأهلها أعظم الناس في ضروب
 الثلب والفهم بناها أبو جعفر المنصور من بني
 العباس وأبتدا بذلك في الأول سنة إحدى وأربعين
 ومائة ونقل إليها البناء والحدائق والصنائع من
 جميع البلدان وجعلها مدورة ووسع رياضها
 وأزقتها وكان الذي تولى ذلك من أهل الحساب
 والمهندسين الحاج بن يوسف الحاسب والطبري
 وإبراهيم الفزاري ولها درب بابواب في دورها
 عثرون ذراعاً ولها أربعة أبواب ما بين كل باب
 خمسة آلاف ذراع باب الكوفة وباب البصرة وباب
 خراسان وباب الشام وعلى كل باب تلبس من
 الحديد لا يفتقها إلا جماعة من الرجال ولكل باب
 منها دهليز وعلى كل باب منها قبة عظيمة مزينة
 بالذهب وحول القصر دور الأولاد من بني العباس ،
 وأهل الخدمة واقصر في وسط المدينة ، وإلى
 جانبه المسجد الأعظم وهي بين نهر الدجلة والفرات
 وكان بها من المساجد في القديم ألف مسجد
 وعثرون ألف حمام وبعدها عن خط المغرب سبعون
 درجة وذلك من الأميال أربعة آلاف وستمائة
 وعثرون ميلاً وبعدها عن خط الاستواء في
 الشمال ثلاث وثلاثون درجة وذلك من الأميال
 ألفان ومائة وثمانية وسبعون ميلاً وكان المنصور
 قد نقل إليها النخل والأشجار فأنبت ونمت في
 مدة يسيرة وذلك لطيب مائها واعتدال هوائها
 وكذلك نقل إليها الرخام والأساطين والصنائع من
 كل بلد وأمر أهل الخدمة أن يقطع كل واحد منهم
 ويبنى فقطعوا وأكثروا البناء وقامت في أقل مدة
 ويساتينها تسقى بماء الدجلة والفرات في قنوتات
 وكان سكنى المنصور قبل ذلك في مدينة الأنبار ثم
 نزلها السفاح أول خلفاء بني العباس .

قال ابن الأنباري : أنبأنا أبو العباس ؛ قال :
 سمعت بعض الأعراب يقول : لولا أن تراب بغداد
 كحل نعمي أهلها . وأنشد :

ما أنت يا بغداد إلا سكنج
 وإن سكنت فتراب بترح
 وأنشد أبو بكر المخزومي في بغداد :

اقرأ سلاماً على تجدر وساكنيه
 وحاضر باللوى إن كان أو بادي
 سلاماً مقرباً بفدان منزله
 إن أنجد الناس لم يهنم بأنجاد

وأنشد صاحب العين شاهداً على بغداد :
 لما رايت القوم في اغداد
 وإنه السير إلى بغداد
 جئت فسلمت على معاذ

قال أبو حاتم : سألت الأصمعي كيف يقال :
 بغداد أو بغداد : أو بفدان ، أو بفدين ؟ فقال :
 قل مدينة السلام وأبغضه الي بغداد ، بالذال
 المنقوطة هكذا نقل عنه أبو حاتم قال أبو حاتم :
 وإنما كره الأصمعي هذه الأسماء لأن بغداد
 بالفارسية عطية الصم ، لأن [بغ] صم ،
 و [داد] عطية وكانت قرية من قرى الفرس
 فأخذها أبو جعفر غصباً فبنى فيها مدينته .

قال الجرجاني : باغ بالفارسية هو البستان
 الكثير الشجر وداذ معطى ، فمعناه معطى
 البساتين .

- ٨ -

باقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله
 باقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ

(١) المشترك وضعاً والمفترق صقلاً

بغداد البلد المشهور المعروف فيه لغات وله
 اشتقاق بسطت القول فيه في المعجم (معجم
 البلدان) . وبغداد حدثني الحافظ أبو عبد الله
 محمد بن محمود ابن النجار قال : خرجنا من
 مكة نريد جدة فسمعتم يقولون الليلة نبيت في
 بغداد فباتوا في منزل قفر هناك ، لا أدري قال في

- ٧ -

البكري :

معجم ما استعجم (١)

بغداد : فيها أربع لغات - بغداد بدالين
 مهملتين ، وبغداد معجمة الأخيرة وبغدان بالنون ،
 وبغدان بالميم بدلاً من الباء ، تذكر وتوثث .

(١) أبو عبيد عبد الله عبد العزيز البكري الأندلسي ت ٤٨٧هـ
 معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ٢٦١/١
 تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الأولى - ١٩٤٥ القاهرة .

(١) تحقيق : فردناند وستنفلد . ط . جوتنجن ١٨٤٦ .
 ص ٦٠ .

المنزل الأول أو الثاني من مكة . وقال لي الشيخ الإمام أبو الربيع سليمان بن الريحاني جزاء الله خيرا اسم هذا الموضع بفيديد بالتصغير وهو على ليلة من مكة (٥) .

✽ باب الحريم : بفتح الحاء وكسر الراء ، وياء ساكنة الأول [وميم] حريم دار الخلافة ببغداد وهو مقدار ثلث مدينة السلام ببغداد ، وعليه سور ابتداءه من دجلة وانتهاءه الى دجلة كهبة الهلال أو نصف دائرة وله ابواب اولها باب الغربية على دجلة ثم باب سوق التمر ، باب شاهق البناء واغلق في أول أيام الناصر أبي العباس أحمد ، واستمر غلقه الى الآن ثم باب البدرية ثم باب النبي . وفيه العتبة التي تقبلها الرسل والملوك وغيرهم . إذا قدموا ببغداد . وهي قطعة من عمود رخام أبيض مطروحة امام هذا الباب طولاً ، ثم باب العامة ويقال له أيضاً باب عمورية ، وبين هذين البابين محال يسكنها عامة الناس بينهم وبين دار الخلافة سور آخر فيه عدة ابواب منها باب الدوامات وباب عليان ، وباب الحرم وغير ذلك ، ثم تمتد السور من باب العامة نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان في آخر المأمونية تحت المنطرة التي تنحدر تحتها الضحايا في الأعياد ، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة من جهة باب الأزج نحو رميني سهم وهو من ناحية الشرق وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يسمى حريم دار الخلافة فيه محال واسواق وخانات ودور كثيرة للرعية كأكبر مدينة وبين منازل الرعية وبين دجلة سور آخر من دونه دور الخلافة لا يشركه فيه شيء من منازل غيره وإنما بسطنا نقول في هذا ، وذكرناه لكثرة ما بجيء ذكره في التواريخ والأخبار ، وربما نسب إليه بعض الرواة . الثاني باب الحريم الطاهري في أعلا مدينة دار السلام ببغداد في الجانب الغربي كان منازل آل طاهر بن الحسين وكان من لجأ إليه آمناً فسمي الحريم ، وقد نسب إليه جماعة من رواة الحديث منهم ... (٥)

والدور محلة في طرف بغداد بباب الطاق قرب مشهد أبي حنيفة الإمام خربت يشب إليها أبو عبدالله محمد بن مخلد بن حفص الدوري الأعطار ، سمع يعقوب الدوري والزيبر بن بكار وغيرهما ، روى عنه الدارقطني وأبو الحسين الأجرى والجماني وغيرهم ، وكان ثقة ولد في

(*) في الأصل بياني ١٢٩ - ١٢٠ .

رمضان سنة ٢٢٢ هـ ومات في جمادى الآخرة سنة ٢٢١ هـ وأنهى بن محمد الدوري .

باب دولاب : يروى بضم الدال وفتحها دولاب مبارك في شرقي بغداد ينسب إليها أبو جعفر محمد بن الصباح البزاز الدولابي سمع إبراهيم بن سمد واسماعيل بن جعفر وشريكا وغيرهم ، روى عنه أحمد بن حنبل وابنه عبدالله وإبراهيم الحربي وأصله من هراة مولى لمزينة سكن ببغداد وابنه أحمد بن محمد بن الصباح حدث عن أبيه وغيره .

باب وريش الأرباض كثيرة قل ما نخلو مدينة من موضع فيها يقال له الريش ، وإنما المذكور منها ها هنا ما نسب إليه أحد أو ما لا يعرف إلا بأضافته الى رجل ، والريش في الأصل حريم الشيء يقال انريش بالضم وتسكين الباء أساس المدينة والريش بالفتح والتحريك ما حوله من خارج وقبل هما لغتان ، وقد نسب الى هذه الأرباض قوم يحتاج الى التفرقة بينهم ، الأول وريش أبي حنيفة بالجانب الغربي من بغداد قرب الحريم الطاهري ينسب الى قائد من قواد المنصور يقال له أبو حنيفة ، وريش أبي عمون ببغداد وأبو عون من موالي المنصور . وريش أصبهان ينسب اليه أبو شكر أحمد بن محمد بن علي الرضي سمع الأصبهانيين روى عنه أبو مسعود سليمان بن إبراهيم الحافظ الأصبهاني ، وريش حرب وهو المحلة المعروفة اليوم بالحربية ببغداد ، وحرب من قواد المنصور وريش حمزة محلة كانت في غربي بغداد خربت .

وريش حميد بن قحطبة الطائي ببغداد ومتصل بالنصرية .

وريش الخوارزمية ببغداد أيضاً متصل بريش الفرس من الجانب الغربي .

وريش رشيد ببغداد متصل بريش الخوارزمية ، ورشيد من موالي المنصور وهو والد داود بن رشيد المحدث ، وريش زهير بن المسيب ببغداد متصل بريش سعيد بن حميد ، وريش سعيد بن حميد ، وريش سلمان بن مجالد مولى المنصور ببغداد .

وريش عثمان بن نهيك متصل بريش الخوارزمية .

وريش نصر بن عبدالله ببغداد يعرف اليوم بالنصرية .

وريش هيلانة بين الكرخ وباب مَحْوَل

وهيلانة قهرمانة المنصور أو حظية الرشيد وإلى أحد هذه الأرباض التي ببغداد ينسب أبو أيوب سليمان الرضوي الضرب حدث عن داود بن المحبر ابن محمد ، روى عنه إبراهيم بن الوليد الحنطاش .

(باب الرصافة)

بضم الراء رصافة بغداد محلة كبيرة بالجانب الشرقي عمرها المنصور لابنه المهدي وهي التي نعرف أيضاً بعسكر المهدي وقد حدث من أهل هذه الرصافة جماعة منهم محمد بن بكر بن ريثان أبو عبدالله الرصافي مولى بني هاشم وجعفر بن محمد بن علي أبو الحسن السمار وغيرهما كثير .

الرملة محلة كانت ببغداد في مشرعة الكرخ إلى دجلة ثم خربت وهي في الجانب الغربي .

روذبار من قرى بغداد ينسب إليها أحمد ابن عطاء الروذباري ابن اخت أبي علي الروذباري قاله أبو موسى الحافظ والنسوي ، والباطقاني إلى روذبار بغداد .

الريان محلة ببغداد عامرة إلى الآن بالقرب من باب الأزج ينسب إليها أبو المعالي هبة الله بن الحسين بن الحسن بن أبي الأسود الرياني يعرف بابن التل حدث عن قاضي البمارستان وغيره .

باب الزبيدية : منسوبة إلى زبيدة بنت جعفر بن المنصور أم محمد الأمين بن الرشيد ، والزبيدية محلة ببغداد بالجانب الغربي قرب باب التبن ، والزبيدية أيضاً محلة ببغداد من الجانب الغربي أسفل مدينة السلام .

باب الزعفرانية : والزعفرانية قريبة قرب كلواذا تحت بغداد ينسب إليها الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني وإليه ينسب درب الزعفراني ببغداد وهو صاحب الشافعي قرا عليه كتبه لما ورد إلى بغداد فقال له الشافعي من أي العرب أنت فقال ما أنا بعربي وإنما أنا من قرية يقال لها الزعفرانية فقال له أنت سيد هذه القرية وسمع أيضاً ابن عيينة وغيره روى عنه أبو داود السجستاني والترمذي وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٩ في ربيع الآخر وقد نسب جماعة إلى درب الزعفراني هذا ، هكذا .

باب الزوراء بفتح الزاي وسكون الواو ، وراء والمد ، الزوراء اسم لدجلة ببغداد

سميت بذلك لميلها وانعراجها ، والزوراء مدينة المنصور ببغداد تسمى الزوراء (أيضاً) ، قالوا لأنه جعل أبوابها الداخلة مزورة عن أبوابها الخارجة .

باب الزهيرية : ربح كان ببغداد ينسب إلى زهير بن المسيب في شارع الكوفة .

والزهيرية (أيضاً) محلة كانت ببغداد أيضاً يقال لها قطيعة زهير بن محمد الأبيوردي وهو ازدي غامدي إلى جانب قطيعة أبي النجم .

الزبدية : قرية من سواد بغداد من أعمال بادوريا ، ينسب إليها أبو بكر محمد بن يحيى بن محمد الشوكي الزبيدي سمع محمد بن اسماعيل الوراق وأبا حفص بن شاهين وغيرهما .

باب السلام بفتح السين مدينة السلام ببغداد ينسب إليها سلامي ، كما نسب إليها محمد بن عبدالله السلامي الشاعر مات سنة ٣٩٢ هـ وأبو الفضل محمد بن ناصر السلامي الحافظ ولد سنة سبع أو ثمان وستين وأربعمائة ومات في شعبان سنة ٥٥٠ هـ وغيرهما وقصر السلام من أبنية الرشيد بالركة .

سوق الثلاثاء بنهر الملقى من محال مدينة السلام ببغداد كانت تقام فيه سوق في كل شهر مرة في يوم الثلاثاء فنسب إليه اليوم الذي كانت تقام فيه وذلك قبل أن يعمر المنصور ببغداد وهو الآن من أعمار محال بغداد وبه معظم سوق البزازين .

سوق السلاح محلة كانت ببغداد نسب إليها أبو الحسين محمد بن محمد بن المظفر بن عبدالله الدقاق السلاحي المعروف بأبن السراج بغدادي سكن سوق السلاح سمع أبا القاسم بن حبابة وعلي ابن عمر انحربي وأبا عبدالله المرزباني سمع منه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، وكان صدوقاً مولده سنة ٣٧٤ ، ومات سنة ٤٤٨ .

وسوق عبدالواحد كان ببغداد بالجانب الغربي عند باب الكوفة قرب باب البصرة ، وسوق المعطش كان من أكبر محال بغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر الملقى بناء سميد الخراسي للمهدي ، وقال له المهدي عند تمامه سمع سوق الري فقلب عليه سوق المعطش ، والخراسي نسبة إلى خراسان وكان صاحب الشرطة ببغداد .

وسوق يحيى ببغداد بين الرصافة ودار الملكة منسوبة إلى يحيى بن خالد البرمكي وأبائها عن ابن حجاج بقوله [إلى وطني القديم بسوق يحيى فقلبي عن هواه غير سالي] .

سويقة حجاج منسوبة الى حجاج الوصيف مولى المهدي كانت شرقي بغداد خربت.

سويقة العباسية بنت الرشيد بن المهدي ببغداد .

وسويقة ابي عبيدالله بن معاوية بن عمرو وزير المهدي كانت بين الرصافة ودار الملكة خربت .

وسويقة عبدالوهاب محلة قديمة في غربي بغداد تنسب الى عبدالوهاب بن ابراهيم الامام بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس .

وسويقة خالد ببغداد تنسب الى خالد بن برمك كانت بباب الشماسية من شرقي بغداد .

وسويقة غالب من محال ببغداد ينسب اليها بعض الرواة .

وسويقة نصر وهو نصر بن مالك الخزاعي في شرقي بغداد اقطعه اياها المهدي وهو والد احمد ابن نصر الزاهد المتحن في ايسام انواتق في خلق القرآن المصلوب فيه ولم يقل انه مخنوق .

وسويقة ابي الورد في غربي بغداد بين الكرخ والصراة تنسب الى ابي الورد عمر بن المطرف الخراساني صاحب المظالم في ايام المهدي .

وسويقة الهيثم في غربي بغداد تنسب الى الهيثم بن سعيد بن ظهير مولى المنصور قرب مدينة المنصور .

شارع الأنبار من محال ببغداد قرب مدينة المنصور من جهة الأنبار فلذلك سميت شارع الأنبار .

شارع دار الرقيق ببغداد ايضاً محلة متصلة بالحريم الطاهري من الجانب الغربي عامرة الى الآن .

شارع الميدان من محال ببغداد ايضاً بالجانب الشرقي بظاهر الرصافة ، وكان شارعاً ماداً من باب الشماسية الى سوق الثلاثاء ، ولهذه الشوارع ذكر في الأخبار والاشعار كثير ، فذاك الذي اوجب ذكرها .

باب طاق : طاق اسماء في شرقي بغداد بين الرصافة ودار الملكة منسوب الى اسماء بنت المنصور وهو الذي يقال له رأس الطاق كان طاقاً عظيماً يجئ الى الشعراء . وطاق الحراني محلة كانت ببغداد في الجانب الغربي قالوا هو من حد القنطرة الجديدة . والحراني هذا هو ابراهيم

ابن ذكوان بن الفضل الحراني من موالي المنصور ووزير الهادي موسى بن المهدي .

الطاهرية : من قرى بغداد يستنقع في موضع من ارضها فضلات مياه الامطار والانهار فيتولد فيه سمك كثير جداً يسميه اهل العراق البني اطيب ما يكون من انواع السمك فيضمنه السلطان بمال وافر .

والطاهري بغير هاء الحريم الطاهري (محلة) ببغداد (معروفة) تقدم ذكره في الحريم .

باب عسكر : عسكر ابي جعفر المنصور امير المؤمنين وهي مدينته المسماة اليوم **باب البصرة** التي بها جامع المنصور ، وقصره ببغداد .

باب القرية وهو تصغير انقرية القرية محلة كبيرة في حريم دار الخلافة ببغداد سكنها وكان بها جماعة من اهل العلم ونسبوا اليها **والقرية** ايضاً محلة كبيرة كالمدينة ذات اسواق وجامع مفرد بالجانب الغربي من بغداد مقابل سوق المدرسة النظامية كان بها جماعة ممن روى الحديث .

باب القطيعة اربعة عشر موضعاً بفتح القاف وكسر الطاء وياء ساكنة وعين مهملة وهاء وجميعها محال ببغداد قد نسب الى بعضها قوم من المحدين فذلك اوجب ذكرها كان ابو جعفر المنصور لما عمر بغداد اقطع كل واحد من قواده واعيان اصحابه موضعاً ليعمره ويسكنه ، هو واتباعه ففعلوا ونسبت كل قطيعة الى من عمرها وانا اذكر من اضيفت اليه القطيعة على حروف المعجم : قطيعة اسحق الأزرق الشروبي مولى محمد بن علي بن عبدالله بن عباس ، وهو قرب الكرخ ، وقطيعة ام جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور كانت ببغداد قرب باب التين من الجانب الغربي ينسب اليها اسحق بن محمد بن اسحق القطيبي الناقد حدث عن الحسن بن عرفة وغيره ، وقطيعة بني جدار بطن من الخزرج نسب اليها بعض الرواة جداري ، وقطيعة الدقيق ببغداد بالجانب الغربي ينسب اليها ابو بكر احمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيبي وكان من الكثيرين روى عنه الائمة ، ومات سنة ٣٦٨ ، وقطيعة الربيع بن يونس حاجب المنصور ، اقطعه اياها المنصور ، وتعرف بالقطيعة الداخلة ينسب اليها ابو معمر اسماعيل بن ابراهيم بن معمر بن الحسن الهروي القطيبي بغدادية ثقة ، وقطيعة الربيع ايضاً ، وتعرف بالقطيعة الخارجة اقطعه

أياها المهدي بآلته أمير المؤمنين ، وقطيفة ربانة بعض انقهارمة محلة كانت بقرب مسجد وغبان في غربي بغداد قرب باب الشُّمير ، وقطيفة زهير قرب حريم بني طاهر بالجانب الغربي وهو زهير بن محمد الأبيوردي ، وقطيفة المعجم بالجانب الشرقي بين باب الحلبة وباب الأزج محلة كبيرة ينسب إليها جماعة منهم أبو العباس أحمد عمر القطيعي الحنبلي كان واعظاً وابنه أبو الحسين محمد تركته ببغداد حياً سمع وروى وصنف ويرى أنه من الحفاظ الأعيان ، وقطيفة العكي وهو مقاتل بن حكيم بن عبدالرحمن بن الحرث من قواد المنصور بين باب البصرة وباب الكوفة من مدينة المنصور . وقطيفة عيسى بن علي بن عبدالله بن عباس - عم المنصور - ببغداد ينسب إليها إبراهيم ابن محمد بن الهيثم القطيعي كان يسكن في جوار عبيد العجل بقطيفة عيسى حدث عن منصور بن أبي مزاحم وأبي ممر الهذلي وعمرو اثناقد وغيرهم روى عنه أبو عبدالله الحاملي وغيره ، وقطيفة الفقهاء بالكرخ وقد فرق المحدثون بينها وبين قطيفة الربيع بالكرخ فنسبوا إلى هذه أبا اسحق إبراهيم - بن محمد - بن منصور القطيعي الكرخي روى عن خديجة بنت محمد بن عبدالله الشاهجانية وأبي بكر الخطيب وغيره ذكره أبو سعيد في شيوخه وتوفي سنة سبع أو ثمان وثلاثين وخمسماية ، وقطيفة أبي النجم أحد قواد المنصور متصلة بقطيفة زهير متصلة بالحريم انطاھري ، وقطيفة النصارى محلة متصلة بنهر طابق من محال بغداد .

المالكية قريبة على باب مدينة السلام - بغداد - مقابل باب الظفرية .

باب الحمديّة : والحمدية أيضا من قرى بغداد من ناحية نهر سلّ نسبوا إليها أبا علي محمد ابن الحسين بن أحمد بن الطيب الحمدي الاديب روى عنه هبة الله الشيرازي .

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت/٦٢٦هـ .

(ب) معجم البلدان (١)

بغداد أم الدنيا وسيدة البلاد . قال ابن الانباري اصل بغداد للأعاجم والمرب تختلف في

(١) معجم البلدان ١/٥٦ - ٦٧ ، ط . دار صادر بيروت ، ١٢٩٧/١٩٧٧ م .

لفظها إذ لم يكن أصلها من كلامهم ولا اشتقاقها من لغاتهم . . قال بعض الأعاجم تفسيره بستان رجل ، فباغ بستان وداد اسم رجل وبعضهم يقول بغ اسم تلصم فذكر أنه اهـدى إلى كسرى خـصي من المشرق فاقطعه إياها وكان الخصى من عباد الأصنام يبلده فقال بغ داد أي الصنم اعطاني وقيل بغ هو البستان وداد أعطى وكان كسرى قد وهب لهذا الخصى هذا البستان فقال بغ داد فسميت به . . وقال حمزة بن الحسن ببغداد اسم فارسي معرب عن باغ داذوبة لأن بعض رقعة مدينة المنصور كان باغا لرجل من الفرس اسمه داذويه وبعضها أثر مدينة دارسة كان بعض ملوك الفرس اختطها فاعتلّ فقالوا : ما الذي يأمر الملك أن تسمى به هذه المدينة فقال : هليدوه وروزه أي خلوها بسلام فحكى ذلك للمنصور فقال سميتها مدينة السلام . وفي بغداد سبع لغات - بغداد وبغدان وبابى أهل البصرة ولا يجيزون بغداد في آخره الذال المعجمة وقالوا لأنه ليس في كلام العرب كلمة فيها دال بعدها ذال . . قال أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق فقلت لأبي اسحق إبراهيم ابن السري فما تقول في قولهم خرداذ فقال هو فارسي ليس من كلام العرب قلت أنا وهذا حجة من قال بغداد فإنه ليس من كلام العرب وأجاز الكسائي بغداد على الأصل وحكى أيضا مفـداد ومفداد ومفدان وحكى الخارزنجي بغداد بدالين مهملتين ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث وتسمى مدينة السلام أيضا . . فاما الزوراء فمدينة المنصور خاصة وسميت مدينة السلام لأن دجلة يقال لها وادي السلام ، وقال موسى بن عبدالحميد النسائي كنت جالسا عند عبدالعزيز ابن أبي رواد فأتاه رجل فقال له من أين أنت فقال له من بغداد فقال : لا تقل ببغداد فان بغ صنم وداد أعطى ولكن قل مدينة السلام فإن الله هو السلام والمدن كلها له وقيل إن بغداد كانت قبل سوقا يقصدها تجار أهل الصين بتجاراتهم فيربحون الربح الواسع وكان اسم ملك الصين بغ فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا بغ داد أي ان هذا الربح الذي ربحناه من عطية الملك وقيل إنما سميت مدينة السلام لأن السلام هو الله فأرادوا مدينة الله . . وأما طولها فذكر بطليموس في كتاب الملحة المنسوب إليه أن مدينة ببغداد طولها خمس وسبعون درجة وعرضها أربع وثلاثون درجة داخلية في الأقليم الرابع . . وقال أبو عون

وغيره إنها في الأقليم الثالث . قال : طالعها السماك الأعزل بيت حياتها الفوس لها شركة في الكف الخشب ولها أربعة أجزاء من سرّة الجوزاء تحت عشر درج من السرطان يقابلها مثلها من الجدي عاشرها مثلها من الحمل عاقتها مثلها من الميزان ؛ قلت أنا ولا شك أن بغداد أحدثت بعد بطليموس بأكثر من ألف سنة ، ولكنني أظن أن مفتري كلامه قاسوا وقاسوا ؛ وقال صاحب الزيج طول بغداد سبعون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاث وتعدل نهارها ست عشرة درجة وثلاثا درجة . وأطول نهارها أربع عشرة ساعة وخمس دقائق وغاية ارتفاع الشمس بها ثمانون درجة وثلاث . وظل الظهر بها درجتان ، وظل العصر أربع عشرة درجة ، وسمت القبلة ثلاث عشرة درجة ونصف ، وجهها عن مكة مائة وسبع عشرة درجة في الوجود ثلاثمائة درجة هذا كنه نقلته من كتب المنجمين ولا أعرفه ولا هو من صناعتى . . وقال أحمد بن حنبل بغداد من الحيرة إلى باب التين وهو مشهد موسى الكاظم ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن الإمام علي بن أبي طالب ، ثم زيد فيها حتى بلغت كلواذى والمخرم وقطر بئل قال أهل السير ، ولما أهلك الله مهرا بآرض الحيرة ومَن كان معه من النجم استمكن المسلمون من الغارة على السواد وانتفضت مسالح الفرس وتشتت أمرهم واجتروا المسلمون عليهم وشنوا الغارات ما بين سسورا وكسكر والصراة والفلايج والاسنان . . قال أهل الحيرة للمثنى إن باتقرب منا قرية تقوم فيها سوق عظيمة في كل شهر مرة فيأتيها تجار فارس والاهواز ، وسائر البلاد يقال لها بغداد وكذا كانت إذ ذاك فأخذ المثنى على البر حتى أتى الأنبار فتحصن فيها أهلها منه فأرسل إلى سفروخ مرزبانها ليسر إليه فيكنمه بما يريد وجعل له الأمان فعبر المرزبان إليه فخلا به المثنى وقال له أريد أن أغير على سوق بغداد وأريد أن تبعث معي ادلاء فيدلوني الطريق وتعقد لي الجسر لأعبر عليه الفرات ففعل المرزبان ذلك وقد كان قطع الجسر قبل ذلك للآت عبر العرب عليه فعبر المثنى مع أصحابه وبعث معه المرزبان الادلاء فسار حتى وافى السوق ضحوة فهرب الناس وتركوا أموالهم فأخذ المسلمون من الذهب والفضة وسائر الأمتعة ما قدروا على حمله ثم رجعوا إلى الأنبار ووافى معسكره غانماً موفوراً وذلك في سنة ١٣

لهجره فهذا خبر بغداد قبل أن يمتد بها المنصور لم يبلغني غير ذلك .

الفصل في بدء عمارة بغداد . . كان أول من ممتد بها وجعلها مدينة المنصور بالله أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب ثاني الخلفاء وانتقل إليها من الهاشمية . وهي مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ١٤٥ ونزلها سنة ١٤٩ ؛ وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده فبلغه ذلك من فعلهم فانتقل عنهم يرتاد موضعاً . وقال ابن عباس : بعث المنصور رؤاداً وهو بالهاشمية يرتادون له موضعاً يبني فيه مدينة ويكون الموضع واسطاً رافقاً بالعامية والجند فنعت له موضع قريب من بارما وذكر له غداؤه وطيب هوائه فخرج إليه بنفسه حتى نظر إليه وبات فيه فرأى موضعاً طيباً فقال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب المرزباني وعبد الملك بن حميد الكاتب ما رأيكم في هذا الموضع قانوا طيب موافق فقال صدقتم ولكن لا مرفق فيه للرعية وقد مردت في طريقي بموضع تجلب إليه الميرة والأمتعة في البر والبحر وأنا راجع إليه وباتت فيه فإن اجتمع لي ما أريد من طيب الليل فهو موافق لما أريده لي وللناس ؛ قال فأتى موضع بغداد وعبر موضع قصر السلام ثم صلى العصر وذلك في صيف وحر شديد وكان في ذلك الموضع بيعة فبات أطيب مبيت وأقام يومه فلم ير إلا خيراً فقال هذا موضع صالح للبناء فإن المادة تأتيه من الفرات ودجلة وجماعة الأنهار ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله فخط البناء وفدر المدينة ووضع أول لبنة بيده فقال بسم الله وأنحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله ؛ وذكر سليمان بن مختار أن المنصور استشار دهقان بغداد وكانت قرية في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي وما زالت داره قائمة على بنائها إلى أن خرب كثير مما يجاورها في البناء فقال الذي أراه يا أمير المؤمنين أن تنزل في نفس بغداد فإنك تصير بين أربعة طاسيج ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي فاللذان في الجانب الغربي قطربئل وبادوريا واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذى فإن تأخرت عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً وانت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تحيطك بالميرة من القرب وفي الفرات من الشام والجزيرة ومصر وتلك البلدان وتحمل إليك طرائف

الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة
وتجيك ميرة أرمينية واذريجان وما يتصل بها
في تامة وتجيك ميرة الموصل وديار بكر وربيع
وانت بين انهار لا يصل إليك عدوك الا على جسر
او قنطرة فاذا قطعت الجسر واقنطرة لم يصل
إليك عدوك وانت قريب من البر والبحر
والجبل ؛ فاعجب المنصور هذا القول وشرع في
البناء ووجه المنصور في حشر الصنائع والفعل من
الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط فاحضروا
وامر باختيار قوم من اهل الفضل والعدالة والفق
والأمانة والمعرفة بالهندسة فجمعهم وتقدم إليهم
ان يشرعوا على البناء وكان ممن حضر الحاج بن اربعة
وابو حنيفة الامام وكان اول العمل في سنة ١٤٥
وامر ان يجعل عرض السور من اسفله خمسين
ذراعاً ومن اعلاه عشرين ذراعاً وان يجعل في البناء
جرزاً القصب مكان الخشب فلما بلغ السور مقدار
قائمة اتصل به خروج محمد بن عبدالله بن حسن
ابن حسن بن علي بن ابي طالب فقطع البناء حتى
فرغ من امره وامر اخيه ابراهيم بن عبدالله بن
حسن بن حسن ..

وعن علي بن يقطين قال كنت في عسكر ابي
جعفر المنصور حين سار الى الصراة بلمس
موضعاً لبناء مدينة ، قال فنزل الدير الذي على
الصراة في العتيقة فما زال على دابته ذاهباً جالياً
منفرداً عن الناس يفكر قال وكان في الدير راهب
عالم فقال لي لم يذهب الملك ويحيى قلت انه يريد
ان يبني مدينة .. قال فما اسمه ؟ قلت : عبدالله
ابن محمد .. قال ابو من ؟ قلت : ابو جعفر قال
هل يشغب بشيء قلت المنصور قال ليس هذا الذي
يبنيها قلت ولم ؟ قال لا تا قد وجدنا في كتاب
عندنا نتوارثه قرناً عن قرن ان الذي يبني هذا
المكان رجل يقال له : مقلص .. قال فركبت من
وقتي حتى دخلت على المنصور ودنوت منه فقال
لي ما وراءك قلت خير القيه اني امير المؤمنين
واربحة من هذا العناء فقال : قل ، قلت امير
المؤمنين يعلم ان هؤلاء معهم علم وقد احبرني راهب
هذا الدير بكذا وكذا فلما ذكرت له مقلص ضحك
واستبشر ونزل عن دابته واخذ سوطه واقبل
يلدع به فقلت في نفسي لحقه اللجاج ثم دعا
المهندسين من وقته وامرهم بخط الرماح فقلت
له اظنك يا امير المؤمنين اردت معاندة الراهب
وتكذيبه فقال : لا والله ولكني كنت ملقباً بمقلص
وما ظننت ان احداً عرف ذلك غيري وذلك اننا
كنا بناحية الصراة في زمان بني امية على الحال

التي تعلم فكنت انا ومن كان في مقدار سنني من
عمومتي واحوتي نتداعي وتعاثر فبلغت النوبة
اني يوما من الايام وما املك درهما واحداً فلم
ازل افكر واعمل الحيلة التي ان اصبحت غزلاً لداية
كانت لهم فسرقته ثم وجّهت به فبيع لي واشترى
ني بشمته ما احتجت إليه وجئت اني الداية وقلت
لها افعلي كذا واصنعي كذا قالت من اين لك ما ارى
قلت اقترضت دراهم من بعض اهلي ففعلت ما امرتها
به فلما فرغنا من الأكل وجلسنا للحديث طلبت
الداية النزل فلم تجده فعلمت اني صاحبه وكان
في تلك ليلتي يقال له مقلص مشهور بالسرقة
فجاءت اني باب البيت الذي كنا فيه فدعيتني فلم
اخرج اليها علمي انها وقفت على ما صنعت فلما
انحت وانا لا اخرج قالت اخرج يا مقلص ، الناس
ينحدرون من مقلصهم وانا مقلصي معي في البيت
فمزح معي اخوتي وعمومتي بهذا الثقب ساعة ثم
لم اسمع به الا منك الساعة فعلمت ان امر هذه
المدينة يتم على يدي لصحة ما وقفت عليه ..
ثم وضع أساس المدينة مدوراً وجعل قصره في
وسطها وجعل لها اربعة ابواب واحكم سورها
وفصلها فكان القاصد إليها من الشرق يدخل من
باب خراسان والقاصد من الحجاز يدخل من باب
الكوفة والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام
والقاصد من فارس والاهواز وواسط والبصرة
واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة ..
قالوا فانفق المنصور على عمارة بغداد ثمانية عشر
الف الف دينار ، وقال الخطيب في رواية انه
انفق على مدينته وجامعها وقصر الذهب فيها
والابواب والاسواق الى ان فرغ من بنائها اربعة
آلاف الف وثمانمائة وثلاثة وثمانين الف درهم
وذلك ان الاستاذ من الصنائع كان يمسك في كل
يوم بقيراط الى خمس حبات والروز جاري بحبتين
الى ثلاث حبات وكان الكباش بدرهم والحمل بأربعة
دنانير والتمر ستون رطلاً بدرهم ، قال الفخيل
ابن دكين كان ينادي على لحم البقر في جبانة كندة
تسمون رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستون رطلاً
بدرهم والعسل عشرة ارطال بدرهم ، قال وكان
بين كل باب من ابواب المدينة والباب الآخر ميل
وفي كل ساف من اسواف البناء مائة الف لينة
واثنان وستون الف لينة من اللبن الجعفري ؛
وعن ابن الشروي قال هدمنا من السور الذي يلي
باب المحول قطعة فوجدنا فيها لينة مكنوبة عليها
بمفرة وزنها مائة وسبعة عشر رطلاً ، فوزناها
فوجدناها كذلك . وكان المنصور كما ذكرنا بني

ومدينته مدورة وجعل داره وجامعها في وسطها
وبنى القبة الخضراء فوق ايوان وكان علوها ثمانين
ذراعاً وعلى رأس القبة منبر على صورة فارس في
يده رمح ، وكان السلطان إذا رأى أن ذلك الصنم
قد استقبل بعض الجهات ومدّ الرمح نحوها علم
أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة فلا يطول
عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجياً
قد هجم من تلك الناحية ؛ قلت أنا هكذا
ذكر الخطيب وهو من المستحيل والكذب
الفاحش وإنما يحكى مثل هذا عن سحره
مصر وحلسمات بليساس التي أدهم الأعمار صحتها
تطاول الأزمان والتخيل أن المتقدمين ما كانوا بني
آدم ؛ فاما الملة الإسلامية فانها تجلّ عن هذه
الخرافات فإن من المعلوم أن الحيوان الناطق
مكلف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئاً مما
ينسب إلى هذا الجماد ولو كان نبياً مرسلًا وإيضاً
لو كان كلّمّا توجهت إلى جهة خرج منها خارجي
لوجب أن لا يزال خارجي يخرج في كل وقت لأنها
لا بد أن تتوجه إلى وجهه من الوجود ؛ والله
اعلم .. قال وسقط رأس هذه القبة سنة ٣٢٩ هـ
وكان يوم مطر عظيم ورعد هائل وكانت هذه القبة
تاج البلد وعلم بغداد ومآثرة من مآثر بني العباس
وكان بين بنائها وسقوطها مائة ونيّف وثمانون
سنة ونقل المنصور أبوابها من واسط وهي أبواب
الحجاج ، وكان الحجاج أخذها من مدينة بازاء
واسط تعرف بزنتد وراد ؛ يزعمون أنها من بناء
سليمان بن داود عليه السلام وأقام على باب
خراسان باباً جدياً به من الشام من عمل الفراعنة
وعلى باب الكوفة باباً جدياً به من الكوفة من عمل
خالد القسري وعمل هو باباً لباب الشام وهو
أضعفها وكان لا يدخل أحد من عمومة المنصور
ولا غيرهم من شيء من الأبواب إلا راجلاً إلا داود
ابن علي عمّه فانه كان متفرساً وكان يحمل في
محققة وكذلك محمد المهدي ابنه ؛ وكانت تكنس
الرحاب في كل يوم ويحمل التراب إلى خارج فقال
له عمّه عبد الصمد يا أمير المؤمنين أنا شيخ كبير
فلو أذن لي أن أنزل داخل الأبواب فلم يأذن له
فقال يا أمير المؤمنين عيّدني بعض بغال الروايا التي
تصل إلى الرحاب فقال يا ربيع بغال الروايا تصل
إلى رحابي تتخذ الساعة قني بالساج من باب
خراسان حتى تصل إلى قصري ففعل ومدّ
المنصور قناة من نهر دجيل الأخذ من دجلة وقناة
من نهر كرخايا الأخذ من الفرات وجروهما إلى
مدينته في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج

فلنذكر الآن ما ورد في مدح بغداد

ومن عجيب ذلك ما ذكره أبو سهل بن
توبخت قال : أمرني المنصور لما أراد بناء بغداد
بأخذ الطالع ففعلت فإذا الطالع في الشمس وهي في
القوس فخبرته بما تدلّ النجوم عليه من طول بقائها
وكنز عمارتها ونقر الناس إلى ما فيها ثم قلت وأخبرك
خلة أخرى أسرك بها أمير المؤمنين قال : وما هي ؟
قلت نجد في أدلة النجوم أنه لا يموت بها خليفة أبداً
حتف أنفه قال فتبسم وقال الحمد لله على ذلك
هذا من نضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم ؛ ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن
بلال بن جرير بن الخطفي :

أعانت في طول من الأرض أو عرض
كبغداد من دار بها مسكن الخفض
صفا الميش في بغداد واخضر عوده
وميش سواها غير خفض ولا غص
نقول بها الأعمار إن غداها
مريء وبعض الأرض أمرا من بعض
فضى ربها أن لا يموت خليفة
بها أنه ما شاء في خلقه يقضى
تسام بها عين الغريب ولا ترى
قريباً بأرض الشام يطعم في الغمض
فإن جزيت بغداد منهم بقرضها
فما أسلفت إلا الجميل من القرض
وإن رُميت بالهجر منهم وبالغلي

فما أصبحت اهلاً لهجر ولا بغض
وكان من أعجب العجب أن المنصور مات
وهو حاج والمهدي ابنه خرج إلى نواحي الجبل
فمات بماسبذان بموضع يقال له الرّوذ والهادي
ابنه مات بماسبذان قرية أو محلة بالجانب الشرقي
من بغداد والرّشيد مات بطوس والأمين أخذ في
شبارته وقتل بالجانب الشرقي والمأمون مات

بأنبلندون من نواحي المصيصه بالشام والمعتصم
والوائق والتوكل والمنتصر وباقي الخلفاء مالمسوا
بسامرا ثم انتقل الخلفاء الى التاج من شرقي بغداد
كما ذكرناه في التاج وتمطلت مدينة المنصور منهم .

وفي مدح بغداد قال بعض الفضلاء : بغداد
جنة الارض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع
الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ودار الخلافة
ومجمع المحاسن والطيبات ومصدر الطرائف
واللطائف وبها ارباب الغايات في كل من واحاد
الدهر في كل نوع وكان ابو اسحق الزجاج
يقول بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية ؛ وكان
ابو الفرج البغا يقول هي مدينة اسلام بل مدينة
الاسلام فان الدولة النبوية والخلافة الاسلامية بها
عشتا وفرختا وضربنا بعروقهما وبسقتا
بفروعهما وان هواءها اغذى من كل هواء وماءها
اعذب من كل ماء وان نسيمها ارق من كل نسيم
وهي من الاقليم الاعندالي بمنزلة المركز من الدائرة
ولم تزل بغداد موطن الاكاسرة في سالف الأزمان
ومنزل الخلفاء في دولة الاسلام ؛ وكان ابن العميد
إذا طرا عليه احد من منتحلي العلوم والاداب وأراد
امتحان عقله سأل عن بغداد ، فان فطن بخواصها
وتنبه على محاسنها واثنى عليها جعل ذلك مقدمة
فضله وعنوان عقله ثم سأل عن الجاحظ فان وجد
اثرا لمطالعة كتبه والاقتباس من نوره والاقتراف
من بحره وبعض القيام بمسائله قضى له بأنه غرة
شادخة في اهل العلم والاداب وان وجده ذاما
لبغداد غفلا عما يحب ان يكون موسوما به من
الانتساب الى المعارف التي يختص بها الجاحظ لم
ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن ؛ ولما رجع
الصاحب عن بغداد سأل ابن العميد عنها فقال
بغداد في البلاد كالاستاذ في العباد فجعلها مثالا في
الغاية في الفضل . . وقال ابن زريق الكاتب
الكوفي :

سافرت ابغى لبغداد وساكنها
مثلا قد اخترت شيئا دونه الياس
هيئات بغداد والدنيا بأجمعها
عندي وسكان بغداد هم الناس
وقال آخر :

بغداد يا دار الملوك ومجتنى
صنوف النى يا مستقر المناير
ويا جنة الدنيا ويا مجتنى الفنى
ومنبسطة الامال عند المتاجر

. . وقال ابو يعلى محمد بن الهيثارية سمعت
الشيخ الزاهد ابا اسحق ابراهيم بن علي بن
يوسف الفيروز ابادي يقول من دخل بغداد وهو
ذو عقل صحيح وطبع معتدل مات بها او بحسرتها ؛
وقال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين
على قلبها في كل ما حين
ما بين قطربن فالكرخ نرجسة
تسدى ومنبت خيري ونسرين
تحيا النفوس برشاها إذا نفخت
وخرشت بين اوراق الرياحين
سقا لنك القصور الشاهقات وما
تخفي من القصر الانسية العين
تستن دجلة فيما بينها فتري
دهم الثفنن تعالى كالبرازين
مناظر ذات ابواب مفتحة
انيقة بزخارف وتزيين
فيها القصور التي تهوي بأجنحة
بالزائرين الى القوم الزورين
من كل حراقة تملو فقارتها
قصر من الساج عال ذو اساطين
وقدم عبدالملك بن صالح بن علي بن عبدالله
ابن عباس الى بغداد فرأى كثرة اناس بها فقال
ما مررت بطريق من طرق هذه المدينة الا ظننت
ان الناس قد نودي فيهم ؛ ووجد على بعض
الاميال بطريق مكة مكتوبا :

يا بغداد يا اسفى عليك
متى يقضى الرجوع لنا إليك
قمنا سالين بكل خير
وينعم عشنا في جانبك
ووجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوبا :

فهل نحو بغداد مزار فيلتقى
مشوق ويحظى بالزيارة زائر
الى الله اشكو لا الى الناس إنه
على كشف ما ألقى من الهم قادر

وكان القاضي ابو محمد عبد الوهاب بن علي
ابن نصر المالكي قد بنا به المقام ببغداد فرحل الى
مصر فخرج البغداديون يودعونه وجعلوا يتوجعون

لفراقه فقال والله لو وجدت عندكم في كل يوم مداً
من الباقلي ما فارقتكم ، ثم قال :

سلام على بغداد من كل منزل
وحق لها مني السلام المضعف
فوالله ما فارقتها عن قلبي لها
واني بشطى جانبها لمارف
واكنها شافت علي برحبها
ولم تكن الاوراق فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه
واخلاقه تنأى به وتخائف
ولما حج الرشيد وبلغ زرود التفت الى ناحية
العراق وقال :

اقول وفد جزنا زرود عنيّة
وكادت مطايانا تجوز بنا نجدا
منى اهل بغداد السلام فاني
ازيد بسرى عن ديارهم بعدا

وقال ابن مجاهد المقرئ رايت ابا عمرو بن
العلاء في النوم فقلت له ما فعل الله بك فقال دعني
مما فعل الله بي من اقام ببغداد على السنة
والجماعة ومات نقل من جنة الى جنة وعن يونس
ابن عبد الاعلى قال : قال لي محمد بن ادريس
الشافعي رضى الله عنه ابا يونس دخلت ببغداد
فقلت لا فقال ابا يونس ما رايت الدنيا ولا الناس .
وقال طاهر ابن المظفر بن طاهر الخازن :

سقى الله صوب الغاديات محلة
بغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هي البلدة الحسنة خست لاهلها
باشياء لم يجمعن مذ كن في مصر
هواء رقيق في اعتدال وصحة
وماء له طعم الماء من الخمر
ودجلتها شطآن قد نظما لنا
بشاج الى تاج وقصر الى قصر
تراها كمسك والبياد كفضة
وحصاؤها مثل اليواقيت والدر
.. قال ابو بكر الخطيب اشدني ابو محمد
الباقي قول الشاعر :

دخلنا كارهين لها فلما
انفناها خرجنا مكرهيننا

فقال يوشك هذا ان يكون في بغداد ؛ قيل
وانشد لنفسه في المعنى وضمنه البيت :

على بغداد ممدن كل طيب
ومعنى نزهة المتنزهيننا
سلام كلما جرحنا بلحظ
عيون المنتهين المنتهيننا
دخلنا كارهين لها فلما
انفناها خرجنا مكرهيننا
وما حب الديار بنا ولكن
امر العيش فرقة من هويننا
قال محمد بن علي بن حبيب الماوردي كتب
اني اخي من البصرة وانا ببغداد :

طيب الهواء ببغداد يشوقني
قدما اليها وان عاقت معاذير
وكيف صبري عنها بعد ما جمعت
طيب الهواءين ممدود ومقصود
وقلد عبيدالله بن عبدالله بن طاهر اليمن
فلما اراد الخروج ، قال :

ابرحل اليف وقيم اليف
وتحبا لوعة ويموت قصف
على بغداد دار اللهو مني
سلام ما سجا لتعين طرف
وما فارقتها لقلبي ولكن
الا جار من الحدثن كهف
لمل زماننا سيعود يسوما
فيرجع آلف ويسر اليف
فبلغ الوزير هذا الشعر فاعفاه ؛ وقال
شاعر يشوق بغداد :

ولما تجاوزت المدائن سائرا
وايقنت يا بغداد اني على بعد
علمت بان الله بالغ امره
وان قضاء الله ينقد في العبد
وقلت وقلبي فيه ما فيه من جوى
ودمعي جار كالجمان على خدي
تري الله يا بغداد يجمع بيننا
فالتي الذي خلفت فيك على العهد

وقال محمد بن علي بن خلف التيرماني :

فدى لك يا بغداد كل مدينة
من الارض حتى خطى ودباريا
فقد طفت في شرق البلاد وغربها
وسيرت خيلي بينها وركابيا
فلم ار فيها مثل بغداد منزلا
ولم ار فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارق شمالا
واعذب الفاظا واحلى معانيا
وقائلة لو كان ودك صادقا
بغداد لم ترحل فقلت جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بارضهم
وترمي النوى بالمقترين الراميا

- ٩ -

القزويني : زكريا بن محمد بن محمود /

٦٨٢هـ

آثار البلاد واخبار العباد

بيروت دار صادر

١٩٦٠م ص ٢١٢

بغداد

ام الدنيا وسيدة البلاد وجند الارض ومدينة
السلام ، وقبة الاسلام ومجمع الرافدين ، ومعدن
الظرائف ومنشا ارباب الغايات ، هواؤها الطف من
كل هواء ، وماؤها اعذب من كل ماء ، وتربتها
اطيب من كل تربة ، ونسيمها ارق من كل نسيم ،
بناها المنصور ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي
ابن عبدالله بن عباس ، ولما اراد المنصور بناء مدينة
بعث روادا يرتاد موصلا ، قال له : ارى يا امير
المؤمنين ان تبني على شاطئ دجلة ، تجلب إليها
الميرة والامعة من البر والبحر ، وتأتيها المادة من
دجلة والفرات ، وتحمل إليها ظرائف الهند
والصين ، وتأتيها ميرة ارمينية واذريجان ودبار
بكر وربيعه ، لا يحمل الجند الكثير إلا مثل هذا
الموضع . فاعجب المنصور قوله واخذ المنجمين ،
وفيهم نوبخت ، باختيار وقت للبناء فاختروا
طالع القوس الدرجة التي كانت الشمس فيها ،
فاتفقوا على ان هذا الطالع مما يدل على كثرة
العصاة وطول البقاء ، واجتماع الناس فيها
وسلامتهم عن الأعداء فاستحسن المنصور ذلك ثم
قال نوبخت : وخلة اخرى يا امير المؤمنين قال :

وما هي ؟ قال : لا يتفق بها موت خليفة ! فتبسم
المنصور وقال : الحمد لله على ذلك . وكان كما
قال ، فإن المنصور مات حاجا ، والمهدي مات
بماسبذان ، والهادي بميسان ، والرشيدي بطوس ،
والأمين اخذ في شبارته ، وقتل بالجانب الشرقي ،
والمأمون بطرسوس ، والمعتصم والواثق والمتوكل
والستنصر بسامرا . ثم انتقل الخلفاء الى التاج
وتعطلت مدينة المنصور من الخلفاء ! قال عمارة بن
عقيل :

اعيشت في طول من الارض او عرض
بغداد من دار بها مسكن الخفض ؟
سقا العيش في بغداد واخضر عودها
وعيش سواها غير خفض ولا غض
قضى ربها ان لا يموت خليفة
بها ، إنه ما شاء في خلفه يقضي

ذكر ابو بكر الخطيب ان المنصور بنى مدينة
بالجانب الغربي ، ووضع البنية الاولى بيده ،
وجعل داره وجامعها في وسطها ، وبني فيها قبة
فوق ابوان كان علوها ثمانين ذراعا ، والقبة
خضراء على راسها تمثال فارس بيده رمح ، فاذا
راوا ذلك التمثال استقبل بعض الجهات ومد
رمحه نحوها ، فعلموا ان بعض الخوارج يظهر
من تلك الجهة ، فلا يطول الوقت حتى يأتي الخبر
ان خارجيا ظهر من تلك الجهة . وقد سقط رأس
هذه القبة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة في يوم
مطير ريح ، وكانت تلك القبة علم بغداد وتاج
البلد ، ومأثرة بني العباس . وكان بجانبها
اشرقي محلة تسمى باب الطاق ، كان بها سوق
الطير فاعتقدوا ان من تصبر عليه شيء من الأمور
فاشترى طيرا من باب الطاق وارسله ، سهل عليه
ذلك الأمر . وكان عبدالله بن طاهر طال مقامه
ببغداد ونم يحصل له اذن الخليفة ، فاجتاز يوما
بباب الطاق فرأى قمرية تنوح ، فامر بشرائها
واطلاقها ، فامتنع صاحبها ان يبيعها إلا بخمسمائة
درهم ، فاشتراها واطلقها وانشأ يقول :

ناحت مطوقة بباب الطاق
فجرت سوابق دمي المهرق
كانت تغرد بالأراك وربما
كانت تغرد في فروع الساق
فترامى العراق بها العراق فاصبحت
بعد الأراك تنوح في الأسواق

فجعت' بإفتراج' فاسبل دمعتهما
 إن' الدموع تبسوح' بالمشاق'
 تمس' الفراق' وتب' حبل' وقينه
 وسقاه' من سم' الاسود' ساقى
 ماذا اراد بقعده' قمرية'
 لم تدر ما بغداد' في الاناق'
 بي مثل' ما بك' يا حمامة' فاسالي
 من فك اسرك ان يحل' وثاقى

هذه صفة المدينة الغربية، والآن لم يبق منها
 اثر . وبغداد عبارة عن المدينة الشرقية كان اصلها
 قصر جعفر بن يحيى البرمكي ، والآن هي مدينة
 عظيمة كثيرة الامل والخيرات والثمرات ، تجبي
 إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم إذ ما من متاع
 ثمين ولا عرض نفيس إلا ويحمل إليها ، فهي
 مجمع لطيبات الدنيا ومحاسنها ، ومعدن لأرباب
 الغايات وأحاديث الدهر في كل علم وصنعة . وبها
 حريم الخلافة ، وعليه سور ابتداءه من دجلة
 وانتهاءه إلى دجلة كشبه الهلال ، وله أبواب : باب
 سوق التمر باب شامق البناء عال ، أغلق من أول
 أيام الناصر واستمر إغلاقه . ذكر ان المسترشد
 خرج منه فاصابه ما اصابه فتطيروا به وأغلقوه .
 وباب النوبي وعنده العتبة التي يقبلها الملوك
 والرسول إذا قدموا بغداد . وباب العامة وعليه
 باب عظيم من الحديد نقله المعتصم من عمورية لم
 يثر مصرعان أكبر منهما من الحديد ، ومن عجائبها
 دار الشجرة من ابنية المقتدر بالله ، دار فيحاء
 ذات بساتين مؤنقة ، وإتاما سُميت بذلك لشجرة
 كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة
 كبيرة امام أبوابها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية
 عشر غصنا ، ولكل غصن فروع كثيرة مكللة
 بأنواع انجواهر على شكل الثمار . وعلى أغصانها
 انواع الطير من الذهب والفضة ، إذا هبّ انهبوا
 سمعت منها الهدير والصفير وفي جانب الدار عن
 يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً ، ومثله عن
 يسار البركة قد البسوا انواع الحديد المذبج
 مقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم المطارد يحركون
 على خط واحد ، فيظن أن كل واحد قاصد إلى
 صاحبه . ومن مفاخرها المدرسة التي أنشأها
 المستنصر بالله . لم يبن مثلها قبلها في حسن
 عمارتها ورفعة بنائها ، وطيب موضعها على شاطئ
 دجلة واحد جوانبها في الماء . لم يعرف موضع أكثر
 منها أوقافاً ولا أرفه منها سكاناً . وعلى باب
 المدرسة إيوان ركب في صدره صندوق الساعات

على وضع عجيب ، يعرف منه اوقات الصلوات
 وانقضاء الساعات الزمانية نهارة وليلاً ؛ قال ابو
 الفرج عبدالرحمن بن الجوزي :

بنا ايها المنصور' يا مالكا
 برايه صعب اللياني يهسون'
 شبدت' لله' ورضوانه
 اشرف' بنيان' بروق' العيون'
 إيوان' حُسن' وصفه' مدهش'
 يحسار' في منظره' الناظرون'
 تهدي' إلى الطاعات' ساعاته'
 الناس وبالنجم هم يهتدون'
 صور' فيه' فلك' دائر'
 والشمس' تجري' مالها من سكون'
 دائرة' من لازورد' حلت'
 نقطة' تبشر' فيه' سر' مَصُون'
 فتلك' في الشكل' وهذا معاً
 كمثال' هاء' ركب' وسط' نون'
 فهي' لإحياء' العلى' والندى
 دائرة' مركزها' العالمون'

وأما اولو الفضل من العلماء والزهاد والعباد
 والأدباء والشعراء والصناع فلا يعلم عددهم إلا
 الله . ولندكر بعض مشاهيرنا إن شاء الله .
 ينسب إليها القاضي أبو يوسف . ذكر انه كان رآه
 رجل يهودي وقت الظهيرة يمشي راكباً على بغلة ،
 واليهودي يمشي راجلاً جائعاً ضعيفاً ، فقال
 للقاضي : أليس نبيكم يقول أندنيا سجن المؤمن
 وجنة الكافر ؟ قال : نعم . قال : فأنت في السجن
 وأنا في الجنة والحالة هذه ! فقال القاضي : نعم
 يا عدو الله ، بالنسبة إلى ما أعد الله لي من
 الكرامة في الآخرة في السجن ، وأنت بالنسبة إلى
 ما أعد الله لك في الآخرة من العذاب في الجنة !
 وحكي ان الهادي الخليفة اشترى جارية فاستغنى
 فقال الفقهاء : لا بد من الاستبراء أو الاعتاق والتزويج .
 فقال القاضي أبو يوسف : زوجها من بعض أصحابك
 وهو يطئقها قبل الدخول وحلت لك . وحكي ان
 الرشيد قال لزبيدة : أنت طالق ثلاثاً إن بت الليلة
 في مملكتي ! فاستفتوا في ذلك فقال أبو يوسف :
 تببت في بعض المساجد فإن المساجد لله ! فولاه
 القضاء بجميع مملكته . وحكي ان زبيدة قالت
 للرشيد : أنت من اهل النار . فقال لها : إن كنت
 من اهل النار فأنت طالق ثلاثاً ! فسألوا عنه فقال :

هل يخاف مقام ربّه ؟ قالوا : نعم . قال : فلا يقع الطلاق لان الله تعالى يقول : ولم يخاف مقام ربّه جنتان . وينسب اليها القاضي يحيى بن اكنم . كان فاضلاً عزيز العلم ذكي الطبع ، لطيفاً حسن الصورة حلو الكلام ، كان المأمون يرى له لا يفارقه ، ويضرب به المثل في الذكاء . وثني القضاء وهو ابن سبع عشرة سنة فقال بعض الحاضرين في مجلس الخليفة : اصلح الله القاضي ! كم يكون سنّ عمره ؟ فعلم يحيى انه قصد بذلك استحقاقه لقلة سنه ، فقال : سنّ عمري مثل سن عمر بن عتاب بن اسيد حين ولاه رسول الله ، عليه السلام ، قضاء مكة ! فتعجب الحاضرون من جوابه . وحكى انه كان ناظر الوقوف ببغداد فوقف العميان لسه وقالوا : يا ابا سعيد اعطنا حقنا ! فأمر بحبسهم فقبل له : لم حبست العميان وقد طلبوا حقهم ؟ فقال : هؤلاء يستحقون ابلغ من ذلك ، إنهم شبهوني بأبي سعيد التوطي من مدينة كذا ! وكان هذا قصدهم فما فات القاضي ذلك . وحكى انه اجتاز بجمع من ممالك الخليفة صبيانا حسنا فقال لهم : لولا انتم لكنّا مؤمنين . فعرف المأمون ذلك فأمر ان يذهب كل يوم الى باب داره اربعمائة مملوك حسن الصورة ، حتى إذا ركب يمشون في خدمته الى دار الخلافة ركابا . وينسب إليها أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - كان أصله من مرو وجيء به حملاً الى بغداد فنشأ بها - فلما كان ايام المعتصم وقع في محنة المعتزلة ، جمع المعتصم بينه وبين المعتزلة وكبيرهم القاضي أبو داود . قالوا : ان القرآن مخلوق . قال لهم أحمد : ما الدليل على ذلك ؟ قالوا : قوله تعالى : وما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث . فقال لهم أحمد : المراد من الذكر ههنا الذكر عند قوله تعالى : ص وانقرآن ذي الذكر . فالذكر مضاف الى القرآن فيكون غير القرآن ، وههنا مطلق وفي ص مفيد ، فيجب حمل المطلق على المقيد . فانقطعت حجّتهم ، فقال المعتصم لأبي داود : ما تقول في هذا ؟ فقال القاضي : هذا ضالّ مضلّ يجب تأديبه ! وعن ميمون بن الأصبع قال : كنت حاضراً عند محنة أحمد ، فلما ضرب سوطاً قال : بسم الله ، فلما ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، فلما ضرب الرابع قال : لا يصيبنا الا ما كتب الله لنا !

وعن محمد بن اسماعيل قال : سمعت شاباً يقول ضربت لأحمد ثمانين سوطاً لو ضربت قبلاً لهدته فجرى دمه تحت الخشب . ثم أمر بحبسه

فانتشر ذكر ذلك واستقبح من الخليفة . وورد كتاب المأمون من طرسوس بأمر باشخاص أحمد فدعا المعتصم عند ذلك أحمد وقال للناس انصرفوا هذا الرجل قالوا نعم هو أحمد بن حنبل قال انظروا اليه ما به كسر ولا هشم وسلّمه اليهم . وحكى صالح بن أحمد قال دخلت على أبي وبين يديه كتاب كتب اليه بلغني ابا عبدالله ما انت فيه من الضيق وما عليك من الدين وقد بعثت اليك أربعة آلاف درهم على يد فلان لا من زكاة ولا من صدقة وانما هي من إرث أبي . فقال أحمد قل لصاحب هذا الكتاب اما الدين فصاحبه لا يرهقنا ونحن نغافيه والعيال في نعمة من الله قال فذهبت الى الرجل وقلت له ما قال أبي والله يعلم ما نحن فيه من الضيق فلما مضت سنة قال لو قبلناها لذهبت .

وحكى أحمد بن حرار قال كانت أمي زمينة عشرين سنة فقالت لي يوما : اذهب اني أحمد بن حنبل وسلّمه ان يدعو الله لي . فذهبت ودققت الباب فقالوا من ؟ قلت : رجل من ذاك الجانب ، وسألني أمي الزمينة ان أسالك ان تدعو الله لها . فسمعت قائلاً يقول : نحن أحوج إلى من يدعو الله لنا ! فوليت منصرفاً فخرجت عجوز من داره قالت : انت الذي كلمت ابا عبدالله ؟ قلت : نعم . قالت : تركته يدعو الله لها فجئت الى بيتي ودققت الباب ، فخرجت أمي على رجلها تمشي وقالت : قد وهب الله لي العافية . وذكروا ان أحمد بن حنبل جعله المعتصم في حل يوم قتل بابك الخرمي او يوم فتح عمورية . وتوفي أحمد سنة إحدى وأربعين ومائتين عن تسع وسبعين سنة . وحكى أبو بكر المروزي قال : رأيت أحمد بن حنبل بعد موته في المنام في روضة ، وعليه حلّتان خضراوان وعلى رأسه تاج من نور ، وهو يمشي مشياً لم اكن اعرفه . فقلت : يا أحمد ما هذه المشية ؟ قال : هذه مشية الخدام في دار السلام ! فقلت : ما هذا التاج الذي اراه فوق رأسك ؟ فقال : ان ربّي أوقفني وحاسبني حساباً يسيراً ، وحباني وقربني وأباحني النظر وتوجّني بهذا التاج ، وقال لي : يا أحمد هذا تاج الوقار توجّتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق . وينسب إليها أبو علي الحسين ابن صالح بن خيران . كان عالماً شافعي المذهب جامعاً بين العلم والعمل والورع . طلبه علي بن عيسى وزير المقتدر ثوليته القضاء فأبى وهرب فخنم بابه بضعة عشر يوماً ، قال أبو عبدالله بن الحسن العسكري : كنت صغيراً وعبرت مع أبي علي باب أبي علي بن خيران ، وقد وكل به الوزير علي بن عيسى .

وشاهدت الموكلين على بابہ فقال لي أبي : يا بني ابصر هذا حتى تتحدث ان عشت ان انساناً فعل به هذا فامتنع عن القضاء ، ثم ان الوزير عفا عنه وقال : واردنا بالشيخ أبي علي إلا خيراً ، واردنا ان نعم الناس ان في ملكنا رجلاً يعرض عليه قضاء الشرق والغرب وهو لا يقبل . توفي ابن خيران في حدود عشرين وثلاثمائة . وينسب إليها أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي . كان عالماً بعلم التفسير والحديث والفقه والادب والنوعظ ، وله تصانيف كثيرة في فنون العلوم .

توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وينسب إليها الوزير علي بن عيسى وزير المعتذر ووزير ابنه المطيع ، ركب يوم الموسم كما كان الوزراء يركبون في موكب عظيم ، فراه جمع من الغرياء قالوا من هذا ؟ وكانت امرأة عجوز تمشي على الطريق قالت : كم تقولون من هذا ، هذا واحد سقط من عين الله تعالى فابتلاه الله بهذا كما ترونه ، فسمع هذا القول علي بن عيسى فرجع الى بيته واستغنى من الوزارة ، وجاور مكة الى ان مات . وينسب إليها أبو نصر بشر بن الحارث الحافي ذكر أيوب المطار انه قال له بشر : الا احدك عن بدو امري ؟ بينا انا امشي إذ رايت قرطاساً على وجه الارض عليه اسم الله تعالى فاخذته وكنت لا املك الا درهماً واحداً اشتريت به الماورد والمسك ، غسلت القرطاس بالماورد وطيبته بالمسك ثم رجعت الى منزلي ونمت ، فأتاني أت يقول : طيبت اسمي لاطيبين ذكرك وطهرتك لاطهرين قلبك !

وحكى ان بشراً الحافي دعى الى دعوة ، فلما وضع الطعام بين يديه اراد ان يمد يده اليه فما امتدت حتى فعل ذلك ثلاث مرات فقال بعض الحاضرين الذي كان يعرف بشراً : ما كان لصاحب الدعوة حاجة الى إحضار من أظهر ان طعامه ذو شبهة .

وحكى ان احمد بن حنبل سئل عن مسألة في الورع فقال : لا يحل لي ان اتكلم في الورع وانا آكل من غلة بغداد ! لو كان بشر بن الحارث حاضراً لأجابه فانه لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد ! توفي سنة تسع وعشرين ومائتين من خمس وسبعين سنة .

وحكى الحسن بن مروان قال : رايت بشراً الحافي في المنام بعد موته فقلت له : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ولكل من تبع جنازتي ،

وكانت جنازته قد رفعت اول النهار فما وصل الى القبر الا وقت العشاء لكثرة الخلق . وقال لي خزيمة رايت احمد بن حنبل في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي وتوَجَّني والبسني نعلين من ذهب ! قلت فما فعل الله ببشر ؟ قال : بخ بخ ! من مثل بشر تركته بين يدي الخليل وبين يديه مائدة الطعام والخليل مقبل عليه ، وهو يقول له : كل يا من لم يأكل واشرب يا من لم يشرب ، وانعم يا من لم ينعم ! وقال غيره : رايت بشراً الحافي في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي وقال يا بشر اما استجبت مني وكنت تخافني كل ذلك الخوف ؟ وراه غيره فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي يا بشر لقد توفيتك يوم توفيتك وما على وجهه الارض احب إلي منك !

وينسب إليها أبو عبدالله الحرث بن اسد المحاسبي . كان عديم النظر في زمانه علماً وورعاً وحالاً كان يقول : ثلاثة اشياء عزيزة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الخلق مع الديانة ، وحسن الاجابة مع الامانة ، مات ابوه اسد المحاسبي وخلف من المال الوفا ما اخذ الحارث منه حبة ، وكان محتاجاً الى دائق ، وذلك لان ابيه كان رافضياً فقال الحرث : اهل ملتين لا يتوارثان !

وحكى الجنيد : ان المحاسبي اجتاز بي يوماً فرايت اثر الجوع في وجهه ، فقلت : يا عم لو دخلت علينا ساعة ! فدخل فعمدت الى بيت عمي ، وكان عندهم اطعمة فاخرة فجلست بأنواع من الطعام ووضعت بين يديه فمد يده واخذ لقمة رفعها الى فيه بلوكها ولا يزدريها ، ثم قام سريعاً ورمى اللقمة في الدهليز وخرج ما كلمني فلما كان الغد قلت : يا عم سررتني ثم نفست علي ! فقال يا بني اما الفاقة فكانت شديدة وقد اجتهدت ان انال من الطعام الذي جعلته بين يدي ، ولكن بيني وبين الله علامة وهي ان الطعام اذا لم يكن مرضياً يرتفع منه الى انفي زفر ! لا تقبله نفسي ! توفي سنة ثلاث واربعين ومائتين . وينسب إليها أبو الحسن السري ابن المفلس السقطي ، خال أبي القاسم الجنيد واستاذه وتلميذ معروف الكرخي . دعا له استاذه معروف وقال له : اغنى الله قلبك ! فوضع الله تعالى فيه الزهد . وقيل ان امرأة اجتازت بالسري ومعهما ظرف فيه شيء فسقط من يدها وانكسر . فاخذ السري شيئاً من دكانه واعطاها بدل ما ضاع عليها فرأى معروف ذلك فاعجبه وقال له ابغض الله إليك الدنيا ، فتركها وتزهد كما دعا له .

وحكى ان امرأة جاءت الى السري وقالت يا ابا الحسن انا من جيرانك وان ابني اخذه الطائف واني اخشى ان يؤذيه فان رايت ان نجى معي او تبعت إليه احدا فقام بصلي وطول صلاته فقالت المرأة ابا الحسن ، الله الله ، في ولدي ! اني اخشى ان يؤذيه السلطان فسلم وقال لها : انا في حاجتك فما برحت حتى جاءت امرأة وقالت لها : تلك البشري فقد خلّوا عن ابنك . حكى الجنيد قال : دخلت على السري فاذا هو قاعد يبكي وبين يديه كوز مكسور ، قلت : ما سبب انكباء ؟ قال : كنت سائما فجاءت ابنتي بكوز ماء فملقته حتى يبرد فافطر عليه ، فاخذتني عيني فتمت فرايت جارية دخلت علي من هذا الباب في غاية الحسن ، فقلت لها لمن انت ؟ قالت : لمن لا يبرء الماء في الكيزان الخضر وضربت بكما الكوز ومررت وهو هذا . قال الجنيد فمكثت اختلف إليه مدة طويلة ارى الكوز المكسور بين يديه ، وحكى ان السري كل ليلة اذا افطر ترك لقمة ، فاذا أصبح جاءت عصفورة واكلت تلك اللقمة من بده ، فجاءت العصفورة في بعض الأيام ووقعت على شيء من جدار حجرته ثم طارت وما اكلت اللقمة فحزن الشيخ لذلك وقال بذنب مني نفرت العصفورة حتى تذكر انه اشتى الخبز بالتقديس فاكل ، فعلم ان انقطاع العصفورة بسبب ذلك ، فعهد ان لا يتناول ابدا شيئا من الآدام فعادت العصفورة .

وحكى انه اشترى كوز بستان ديناراً وكتب في دستورته ثلاثة دناتير ربحه فارتفع الريح وصار الكوز يتسعين ديناراً فاتاه الدلال واخبره انه يتسعين ديناراً فقال اني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني ابيع بثلاثة وستين لاجله لست ابيع به بأكثر من ذلك فقال الدلال واني عقدت عقداً بيني وبين الله تعالى اني لا اغش مسلماً ، توفي السري سنة احدى وخمسين ومائتين . وينسب ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد اصله من نهاوند ومولده بغداد ، كان ابوه زجاجاً وكان هو خرازاً ، صاحب الحرث المحاسبي وخاله السري النسقطي وكان الجنيد يفتي على مذهب سفيان الثوري كان ورده في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثين الف تسبيحة ، ومن جعفر الخلدي ان الجنيد عشرين سنة ما كان يأكل في كل اسبوع الا مرة . حكى ابو عمرو الزجاجي قال اردت الحج فدخلت على الجنيد فاعطاني درهماً شددته في مئزري ، فلم انزل منزلاً الا وجدت رزقا فما احتجت إلى اخراج الدرهم

فلما عدت الى بغداد ودخلت عليه مده يده واخذ الدرهم .

وحكى بعض الهاربين عن ظالم قال : رايت الجنيد واقفاً على باب رباطه فقلت : يا شيخ اجرتني اجارك الله ! فقال : ادخل الرباط . فدخلت فما كان الا يسيراً حتى وصل الطالب بسيف مسلول ، فقال للشيخ اين منى هذا الهارب فقال الشيخ : دخل الرباط ، فمر على وجهه ، وقال تريد ان تقويه علي ! قال الهارب : قلت للشيخ كيف دللته علي ، انيس لو دخل الرباط قتلني ؟ فقال الشيخ : وهل تجوت الا بقولي دخل الرباط ؟ فما زال منا الصدق ومنه النطق .

وحكى ان رجلاً اتى الجنيد بخمسمائة دينار ، وكان هو جالساً بين اصحابه ، وقال له خذ هذا ، وانفق على اصحابك فقال له : هل لك غيرها ، قال نعم لي دناتير كثيرة قال : فهل تريد غيرها ؟ قال نعم ، قال خذها إليك فانت احوج إليها منا .

قال ابو محمد الجزري : لما كان مرض موته كنت على راسه وهو يقرأ ويسجد ، فقلت : ابا قاسم ارفق بنفسك . فقال : يا ابا محمد هوذا صحيفتي تطوى ، وانا احوج ما كنت الساعة ! ولم يزل ياكباً ومساجداً حتى فارق الدنيا سنة ثمان وستين ومائتين .

وقال جعفر الخلدي : رايت الجنيد بعد موته في المنام قلت : ما فعل الله بك يا ابا قاسم ؟ فقال : طاحت تلك الاتسارات وغابت تلك المبارات ، ونفدت تلك العلوم وامضت تلك الرسوم ، وما بقينا الا على الركيعات التي كنا نصلّيها في جوف الليل .

وينسب اليها ابو الحسن علي بن محمد المزيّن الصغير . كان من المشايخ الكبار صاحب انحالات والكرامات . حكى ابو عبدالله بن خفيف قال : سمعت ابا الحسن بمكة يقول : كنت في بادية تبوك فقدمت الى بئر لاستقي منها ، فزلقت رجلي ، فوقعت في قعر البئر فرايت في انبثر زاوية ، فاصلحت موضعاً وجلست عليه لئلا يفسد الماء ما علي من اللباس ، وطابت نفسي وسكن قلبي ، فبينما انا قاعد اذا انا بشخصة فتأملت فاذا حبة عظيمة تنزل علي ، فراجعت نفسي فاذا نفسي ساكنة ، فنزات ولغت ذنبها علي وانا هاديء السر لا اضطرب شيئاً ، واخرجتني من البئر وحلت عني ذنبها ، فلا ادري الارض ابتعثتها ام السماء رفعتها؟ فممت ومشيت الى حاجتي .

وحكى جعفر الخلدي : عزمت على السفر فودعت ابا الحسن الزين وقلت زودني شيئا . فقال : ان ضاع شيء و اردت وجدانه او اردت ان يجمع الله بينك وبين انسان فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد . ردا الي ضالتي او اجمع بيني وبين فلان . قال : فما دعوت في شيء الا استجبت . توفي بمكة مجاورا سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة .

وينسب اليها محمد بن اسماعيل ، ويعرف بخير النساخ ، كان من اقربان الثوري عاش مائة وعشرين سنة . كان اسود عزم الحج . اخذه رجل على باب الحرم وقال : انت عبدي واسمك خير ! فمكث على ذلك مدة يستعمله في نسج الخز لم يعرف انه ليس عبده ولا اسمه خير ، قال له : انت في حل من جميع ما عملت لك . وفارقه .

وحكى ان رجلا جاءه وقال له : يا شيخ امس قد بعث الغزل وشددت ثمنه في مذكرك ، وانما جئت خلفك وحللت به فقبضت يدي ! فضحك الشيخ واومى الى يده فحلت وقال : اصرف هذه الدراهم في شيء من حاجتك ولا تعد الى مثلها . ورئي في المنام بعد موته ، قيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : لا تسألني عن هذا ، استرحت من دنياكم الوضرة !

وينسب اليها ابو محمد رويتم بن احمد البغدادي . كان من كبار المشايخ وكان عالما بمعلم القراءة والفقه على مذهب داود ، وكان يقول : من حكمة الحكماء الشريعة على اخوانه والتضييق على نفسه ، لان حكم الشريعة اتباع العلم وحكم الورع التضييق على نفسه .

حكى انه اجتاز وقت الظهيرة بدرب في بغداد وكان عطشان ، فاستسقى من بيت فخرجت جارية بكوز ماء فاخذ منها وشرب ، فقالت الجارية : صوفي يشرب بالنهار ! فما افطر بعد ذلك . توفي سنة ثلاث وثلاثمائة .

وينسب اليها ابو سعيد احمد بن عيسى الخزاز . كان من المشايخ الكبار . صاحب ذا النون المصري والسري السقطي وبشرا الحافي ، وكان ابو سعيد يمشي بالتوكل .

حكى عن نفسه قال : دخلت انبادية مرة بغير زاد فاصابني فاقة ، فرايت المرحلة من بعيد فسرت بان وصلت الى العمارة ثم فكرت في نفسي اني سلوت ، واتكلت على غيري فآليت الا ادخل المرحلة الا اذا حملت اليها ، فحفرت لنفسي في

الرمل حفرة وواربت جسدي فيها الى صدري ، فلما كان نصف الليل سمعوا صوتا عاليا : يا اهل المرحلة ان لله ونيا في هذه المرحلة فالحقوه فجاءت جماعة واخرجوني وحملوني الى القرية .

وينسب اليها الاستاذ علي بن هلال الخطاط ، ويعرف بابن البواب . كان عديم النظر في صنعته ؛ لم يوجد مثله لا قبله ولا بعده ، فان الكتابة العربية كانت بالطريقة الكوفية ثم ان الوزير ابا الحسن ابن مقله نقلها الى طريقته ، وطريقته ايضا حسنة ، ثم ان ابن البواب نقل طريقة ابن مقله الى طريقته التي عجز عنها جميع الكتاب من حسناتها وحلاوتها وقوتها وصفاتها ، ولا يعرف لطافة ما فيها الا كبار الكتاب ، فانه لو كتب حرفا واحدا مائة مرة لا يخاف شيء منها لانها قلبت في قالب واحد ، والناس كلهم بعده على طريقته . توفي سنة ثلاث وعشرين واربعمائة .

وينسب اليها ابو نواس الحسن بن هانيء كان ادبيا فصيحيا بليغا شاعرا اوجد زمانه . حكى ان الرشيد قرا يوما : ونادي فرعون في قومه قال : يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون ؟ فقال : اطلبوا لي شخصا اتدل ما يكون حتى اوليه مصر . فطلبوا شخصا مخبلا كما اراد الخليفة ، فوله مصر وكان اسمه خصبيا . فلما ولي احسن السيرة وباشر الكرم وانتشر ذكره في البلاد حتى قيل :

إذا لم تزر ارض الخصب ركبتنا
فاين انسا ارض سواه نرور
فتي يستشري حسن الثناء بمانه
ويعلم ان الدائيرات تدور

فقصده شعراء العراق وابو نواس معهم وهو صبي ، فلما دنوا من مصر قالوا ذات يوم : نحن من ارض العراق وندخل مصر فلا يأخذن علينا المصريون خطأ او عيبا ! ليعرض كل واحد منا شمره حتى نعتبره ، فإن كان شيء منها محتاجا الى اصلاح اصلحته . فظهر كل واحد ما معه على القوم فقالوا لابي نواس : هات ما عندك . فقال عندي هذا :

والليل ليل والنهار نهار
والبقل بقل والحيمار حيمار
والديك ديك والدجاجة زوجه
والبط بط والهزار هزار

فضحكوا وقالوا : هذا ايضا له وجه
للمضاحك ! فلما دخلوا على الخصيب وضعوا
كرسيًا كل واحد من الشعراء يقف عليه ويورد
شعره حتى اوردوا جميعهم . بقي ابو نواس فقال
بعض الشعراء : ارفعوا الكرسي ، ما بقي احد !
فقال ابو نواس : اصبروا حتى اورد بيتا واحدا
ثم بعد ذلك ان اردتم فارفعوا ، فانشا يقول :

انت الخصيب وهذه مضر

فتشابتها فكلاهما بحر
فحير الشعراء وانشد قصيدة خيرا من
فصائلهم كلها .

وحكى ان محمدا الامين امر بحبسه وامر
ان لا يترك عنده كاغد ودواة ، فحبس في دار ،
فدخل عليه خادم من خدام الخليفة ونام عنده
وعليه جبة سوداء ، فاخذ قطعة جص من الحائط
وكتب على جبة الخادم :

ما قدر عبيدك بي نواس

وهو ليس بذي لباس
وتغيره اولى بهيما
ان كنت تعمل بالقياس
ولتين قتلت ابا نواسيك
قييل من هو بو نواس

فقرأوا وفرجوا عنه .

وذكر انه رثي في المنام بعد موته فقيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : قد غفر لي بابيات قلنتها
وهي تحت وسادتي ، فوجدوا تحت وسادته رقعة
فيها مكتوب :

يا رب ان عظممت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بان عفوكم اعظم
ان كان لا يرجوكم الا المحسن
فمن الذي يرجوه عبيد مجرم
ادعوك يا ربى اليك تضرعا
فاذا رددت يدي فمن ذا يرجم
مالي اليك وسيلة غير الرجاء
وكريم عفوكم ثم اني مسلم

جرجرايا : قرية من اعمال بغداد مشهورة
بنسب اليها على الجرجرائي كان من

الابدال لا يدخل العمران ولا يختلط باحد ، حكى
بشر الحافي قال لقبيته على عين ماء ، فلما ابصرني
عدا ، قال بذنب مني رايت اليوم انسيا فعدوت
خلفه ، وقلت اوصني فالتفت الي ، وقال عانق
انفقر وعاشر الصبر ، وخالف الشهوة واجعل بينك
اخلى من لحدك يوم تنقل اليه على هذا طاب المصير
الى الله تعالى .

الطاهرة : قرية من قرى بغداد بها
مستنقع يجتمع فيه في كل سنة ماء كثير عند زيادة
دجلة فيظهر فيه السمك المعروف بالبنى فيضمونه
انسلطان بعل وافر ولسمكه فضل على سائر
السمك لطيب لحمه ، وانه غلة من حاصل هذه
القرية مع سائر غلاتها ، والله الموفق .

كرخ

قرية فوق بغداد على ميل منها . وبها دكاكين
الكاغد والنياب الابريسية .

بنسب اليها ابو محفوظ معروف بن فيروز
الكرخي وكان من المشايخ الكبار مستجاب الدعوة
من موالي علي بن موسى الرضا ، كان استاذ السري
انسقطي ، فقال له يوما اذا كان لك الى الله حاجة
فاقسم عليه بي واهل بغداد يقولون قبر معروف
ترياق مجرب . حكى ان زبيدة بنت جعفر عبرت على
معروف مع مواليها وخدمها ، فدعا عليها بعض
الحاضرين فقال له معروف : يا رجل كن عون
رسول الرحمن ولا تكن عون رسول الشيطان ان
رسول الرحمن يريد نجاة الخلق كلهم قال الله تعالى :
وما ارسلناك الا رحمة للعالمين . ورسول الشيطان
يريد هلاك الخلق كلهم قال الله تعالى مخبرا
عنه . بعزتك لاغوينهم اجمعين ، ان الذي اعطاهم
اندنيا على هواهم قادر ان يعطيهم الآخرة على
مناهم .

وحكى ابراهيم الاطروش انه قال لمعروف :
ابا محفوظ بلغني انك تمشي على الماء فقال ما
مشيت على الماء ولكن اذا هممت بالمعبر يجمع
لي طرفها ، وحكى خليل الصياد قال : غاب ابني
الى الانبار فوجدت امه وجدا شديدا فذكرت ذلك
لمعروف فقال : ما تريد ؟ قلت ان تدعو الله ليرده
عينا فقال اللهم ان السماء سماؤك والارض ارضك
وما بينهما لك فات به !

قال خليل : اثبت باب الشام فاذا ابني قائم
منبر يقول : الساعة كنت بالانبار .

وحكى محمد بن صبيح انه مر بمعروف رجل سقاء ينادي رحم الله من شرب ! فشرب منه وكان صائما وقال : لعل الله ان يستجيب منه .

وحكى عبدالله بن سعيد الانصاري انه رأى معروفا في النوم واقفا تحت العرش فيقول الله ملائكته : من هذا ! فقالت الملائكة : انت اعلم يا ربنا ، هذا معروف الكرخي قد سكر من حبك لا يفيق الا بقلائك !

وحكى احمد بن أبي الفتح قال : رأيت بشرا الحافي في المنام قاعدا في بستان وبين يديه مائدة يأكل منها ، فقلت : ابا نصر ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمني وغفر لي واباحني الجنة بأسرها وقال : كل من ثمرها ، واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها لما كنت تحرم نفسك شهوات الدنيا ! قلت ابن احمد بن حنبل ؟ قال : قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق ! قلت : وما فعل معروف الكرخي ؟ فحرك رأسه وقال هيهات ! حالت بيننا وبينه الحجب إن معروفا ما كان يعبد الله شوقا إلى جنته ولا خوفا من ناره ، وإنما عبده شوقا إليه ، فرفعه الله إلى الرفيع الأعلى ووقعت الحجب بيننا وبينه ، ذاك التبريق المقدس المجرب ، فمن كانت له إلى الله حاجة فليات قبره وليدع فإنه يستجاب له . وحكى انه قال : إذا مت تصدقوا بقميصي فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها ، توفي سنة إحدى ومائتين .

- ١٠ -

الحميري : محمد بن عبدالمعتمد ت/٧٢٧هـ

الروض المطار في خبر الاقطار

بغداد : دار ملكة خلفاء بني العباس وفيها أربع لغات ، بغداد بدائين مهملتين وبغداد معجمة الأخيرة وبغداد بالنون ، ومقدان بالميم بدلا من الباء ، وتذكر وتؤث . قالوا : وبغداد بالفارسية عطية الصنم لأن يغ صنم ، وداذ عطية ، ولذلك كره الأصمعي هذه التسمية . وكانت قريبة من قرى الفرس فأخذها أبو جعفر غصبا فبنى فيها مدينة وقال الجرجاني باغ بالفارسية هو البستان

الكثير الشجر ، وداذ معطي . فممنسأه معطي البساتين : قال أبو عثمان النهدي : كنا نسير مع جرير بن عبدالله البجلي حتى انتهى إلى موضع فقال : أي موضع هذا ؟ قالوا : قطربل ، فحرك دابته ثم قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : تبنى مدينة بين دجلة والديجيل والفرات وقطربل يجبي إليها خراج كل أرض وتجمع إليها جباية الأرض ، وفي رواية يخسف بها كذا أحسب . وسميت بغداد لانه أهدي إلى كسرى خصي من المشرق ، وكان له صنم يقال له يغ ، فقال الخصي : بغداد أي أعطاني إلهي يعني الصنم ، ولهذا كان المتورعون يكرهون أن يسموا ببغداد بهذا الاسم ويقولون بغداد بالبدال المهمة .

وكان أبو جعفر المنصور بعث رجلا سنة خمس وأربعين ومائة يطلبون له موطعا يبني فيه مدينة فطلبوا فلم يرضوا موطعا حتى جاء موطعا بالفرات وقال : هذا موضع أرضه تأتيه الميرة من الفرات ودجلة والفرات ، وكان أبو جعفر هذا وهو عبدالله ابن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، بنى مدينة بين الكوفة وأنجزيرة سماها الهاشمية ، فأقام بها مدة إلى أن عزم على توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصائفة في سنة أربعين ومائة فصار إلى بغداد فوقف بها وقال : ما اسم هذا الموضع ؟ فقيل : بغداد ، فقال : هذه والله المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أنني أبنيتها وأنزلها وأنزلها ولدي من بعدي ، ولقد غفلت عنها الملوك في انجاهلية والاسلام حتى يتم تدبير الله تعالى وحكمه في وتصح الروايات وتبين الدلالات والعلامات تأتيها الميرة في الدجلة والفرات من واسط والأبله والاهواز وفارس وثمان واليمامة وما يتصل بذلك وكذلك ما يأتي من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينية والرقه والشام والثغور ومصر والمغرب وأصفهان وكور خراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل عنها كل من تقدمني والله لأبنيها ثم أسكنها أيام حياتي ويسكنها ولدي من بعدي ثم لتكونن* أمير مدينة في الدنيا ثم لأبني* بعدها أربع مدن لا تخرب واحدة منهن* أبدا فبناها وبنى

الرافقة ولم يستنمها وبني ملطية والمصيصة والمنصورة ، فوجه في حشر انصناع والفيلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة وأمر باختيار قوم من أهل الفضل والعدالة والعفة والامانة والمعرفة بالهندسة وكان فيمن احضر الحجاج بن ارطاة وابو حنيفة فكان اول ما ابتدئ ببنائها في سنة خمس واربعين ومائة ثم قسم الارض اربعة اقسام وقُتد القيام بكل ربع رجلاً من قواده ورجلاً من مواليه ورجلاً من المهندسين ونظر عند بنائها من اخذ الطالع فكان المشتري في القوس فدلّت النجوم على طول ثباتها وكثرة عمارتها وانصباب الدنيا إليها قال المخبر : ثم قلنا يا امير المؤمنين وخلة اخرى فيها تدل النجوم على انه لا يموت فيها خليفة ، فتبسم وقال : الحمد لله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولذلك قال بعض مداح المنصور :

إن خير القصور قصر السلام

إذ به حلّ سائس الاسلام

منزل لا يزال من حلّ فيه

أمناً من حوادث الايام

ولهذا قالوا : نزل بغداد سبعة خلفاء : المنصور والمهدي وموسى الهادي وهارون الرشيد ومحمد الأمين وعبدالله المأمون والمعتصم فلم يمت بها واحد منهم الا محمد الأمين فإنه قتل خارج باب الأنبار عند بستان طاهر ، وانتقل المعتصم سنة ثلاث وعشرين ومائتين الى سر من رأى فهذا مصداق ما دلّت عليه النجوم . وانما سميت مدينة السلام لان دجلة كان يقال لها وادي السلام فقبل لبغداد مدينة السلام ، وقبل لاثم ارادوا مدينة الله واسمها الاول عند الناس الزوراء لانعطافها بانعطاف دجلة . وتسمى القوس زوراء لانعطافها ، وكان بعضهم يسميها الصيادة لانها تعيد قلوب الرجال ، وقال رجل من أهل البصرة : مررت ببغداد في السحر فاعجبني كثرة الاذان فيها فهتف بي هاتف : ما الذي يعجبك منها لقد فجر فيها ابارحة سيمون الفا . وراى ابو بكر الهذلي سفيان بن عيينه ببغداد فقال : باي

ذنوبك دخلتها لا وقيل لرجل : كيف رايت بغداد ؟ فقال : الارض كلها بادية وبغداد حاضرتها . وقال آخر : لو ان الدنيا خربت وخرج اهل بغداد تعمروها ، وكان فراغ المنصور من بنائها ونقل الخزائن إليها والدواوين وبيوت الاموال سنة ست واربعين ومائة وكان استنمامه لجميع امر المدينة سنة تسع واربعين .

وقال احمد بن ابي يعقوب : بغداد وسط العراق ، والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الارض ولا في مغاربها سعة وجلالة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء ، سكنها اهل الامصار والكرور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع اهل الافاق على اوطانهم يجري في حافتها النهران الاعظمان دجلة والفرات فتأتيها التجارات والميرة براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل فيها كل متجر من المشرق والمغرب من ارض الاسلام ومن غير ارض الاسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والحبشة والترك والديلم والخزر والحشة وسائر البلدان القاصية والدانية حتى يكون بها من التجارات اكثر مما في البلدان التي خرجت التجارات منها إليها ، وهي مدينة بني هاشم ودار مملكتهم ومحل سلطانهم لم يستبد بها احد قبلهم ولم يسكنها سواهم وهي وسط الدنيا لانها من الاقليم الرابع وهو الاقليم الأوسط الذي يعتدل فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر شديداً في ايام القيظ ، والبرد شديداً في ايام الشتاء ويعتدل الفصلان الربيع والخريف . قال وباعتدال الهواء وطيب الشرى وعدوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونضرت وجوههم وانفتحت اذهانهم حتى فضّلوا الناس في العلم والفهم والنظر والتمييز والتجارات والحدق بكل مناظرة وإحكام كل مهنة واتقان كل صناعة ، فليس عالم اعلم من عالمهم ولا اروي من روايتهم ولا اجل من متكلمهم ولا اعرب من نحويتهم ولا افصح من قارئهم ولا اوفر من طبيبهم ولا احذق من مغنيهم ولا اللطف من سامعهم ولا اكتب من كاتبهم ولا ابين من منطبقهم ولا اعبد من عابدهم ولا اوعى من

زاهدهم ولا افقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افتك من ماجنهم . وكانت بغداد في ايام الاكاسرة قرية من قرى طسوج بادوريا ومدينة الاكاسرة إذ ذاك [المدائن] من مدن العراق وهي من بغداد على سبعة فراسخ وبها ايوان كسرى انوشروان ، ولم تكن بغداد إلا ديرا على مصب النجف ولم يكن ببغداد ملك اثر قديم ولا حديث . اما ملك العرب فبدأ أولا بالحجاز ثم استقر بدمشق من ايام معاوية رضي الله عنه لا يعرف بنو امية غيرها ، فلما جاء ابو العباس السفاح عرف فضل العراق وتوسطها في الدنيا وهو عبدالله بن محمد بن علي بن [عبدالله] العباس فنزل الكوفة اول مدة ثم انتقل الى الانبار فبنى بأعلى شاطئ الفرات الهاشمية ، وتوفي قبل أن تستتم المدينة ثم كان من بنيان ابي جعفر ببغداد ما كان . ووضع الاساس وضرب اللبن العظام وحفرت الابار وعملت القناة التي من نهر كرخايا وهو الاخذ من الفرات واجريت الى داخل المدينة للشرب ونضرب اللبن ، وجعل للمدينة اربعة ابواب : باب الكوفة ، وباب البصرة وباب خراسان وباب الشام ، بين كل باب منها الى الآخر خمسة آلاف ذراع بالذراع السوداء ، وعلى كل باب منها بابا حديد عظيمان جليلان لا يفلق الواحد منهما ولا يفتح الا جماعة رجال يدخله الفارس بالعلم والرمح الطويل من غير ان يشيه ولا يميله ، وجعل عرض اساس السور تسعين ذراعا ثم ينخرط حتى يصير في اعلاه خمس وعشرون ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرفات ، وحول السور فصيل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع وبالفصيل ابرجة عظام وعليه الشرفات المدورة ، وحد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع خمسين ذراعا وان يبنوا في جميع الارياض والدروب من الاسواق والمساجد والحمامات ما يكتفي به اهل كل ناحية ومحلة ، وامرهم ان يجعلوا قطائع القواد والجند ذراعا معلوما وللتجار ذراعا معلوما يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس واهل البلدان ، وآخر ما بنى القنطرة الجديدة وبها اسواق كثيرة فيها سائر التجارات

مادة متصلة ثم ربح وضاح مولى امير المؤمنين المعروف بفصر وضاح حاجب خزانة السلاح وهناك اسواق واكثر من كان فيه في هذا الوقت القريب ، الوراقون اصحاب الكتب فإن به اكثر من مائة حانوت للوراقين ، والكرخ السوق العظمى مادة من قصر وضاح الى سوق الثلاثاء طولا مقدار فرسخين ، وكل تجارة لها شوارع معلومة في تلك الشوارع حوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجاور تجارة تجارة ، واحصيت الدروب والكك فكانت ستة آلاف دربر وسكة ، واحصيت المساجد فكانت ثلاثين الف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك واحصيت الحمامات عشرين الف حمام سوى ما زاد بعد ذلك ، وحفرت القناة التي تأخذ من الفرات في عقود وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها ، فتدخل المدينة وتنقل في اكثر شوارعها وشوارع الارياض صيفا وشتا قد هندست هندسة لا ينقطع الماء منها في وقت ، وقناة أخرى من دجلة على هذا المثال سماها دجيلا ، وجر لاهل الكرخ وما اتصل به نهرا يسمى نهر الدجاج لأن اصحاب الدجاج كانوا يقعدون عنده ، ونهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة يحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر وتسير الى فريضة عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع صيفا وشتا ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات وانما احتيج الى هذه القنوات لكبر البلد وسعته ، وإلا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تتدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة وغيرها فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد ، وغرسوا الاشجار فاثمرت ثمرات عجيبة وكثرت البساتين والجنات في ارض بغداد من كل ناحية لطيب المياه وطيب الارض وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لان حذاق اهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد وانوها من كل الفق ونزعوا إليها من الاداني والاقامي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب الكرخ وجانب الارياض ، وفي كل طرف منه

مقبرة وقرى متصلة وعمارات مائة ، والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو وثي عهد أبيه وأبتدا ببناءه سنة ثلاث وأربعين ومائة واخط المهدي قصوره بالرصافة الى جانب المسجد الجامع الذي بالرصافة وحفر نهراً يأخذ من النهر وان سَمَّاهُ نهر المهدي يجري في هذا الجانب واقطع المهدي اخوته وقواده بعد من اقطع في الجانب الغربي وهو جانب مدينته ، وقسمت القطائع في هذا الجانب وتنافس الناس في النزول مع المهدي لمحبتهم له ولتوسعته عليهم ولاته كان اوسع الجانبين أرضاً . وفي الجانب الشرقي الذي نزله المهدي أربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر ألف مسجد سوى ما زاد الناس وخمسة آلاف حمام سوى ما زاد الناس بعد ذلك . وانتقل المعتصم الى سر من رأى في سنة ثلاث وعشرين ومائتين واتصل مقامه بها مدة حياته وأيام الوائق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا تقضت اسواقها لأنهم لم يجدوا منها عوضاً ولاته اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسر من رأى .

قال احمد بن أبي الطاهر : اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد الأمير الناصر لدين الله عند دخوله مدينة السلام فوجد مائتي جبل وخمسين جبلاً ، وعرضه مائتي جبل وخمسة احوال تكون سنة وخمسين ألف جريب ومائتين وخمسين جريباً ووجد طول الجانب الغربي مائتين وخمسين جبلاً وعرضه خمسين جبلاً يكون ذلك سبعة عشر ألف جريب وخمسمائة جريب فجميع ذلك ثلاثة وسبعون ألف جريب وسبعمائة جريب وسبعون جريباً .

وحكى الهيثم بن عدي أن المنصور لما جلس في قصره بباب الذهب اذن لرسول ملك انروم فدخلوا عليه فقال لرسول ملك الروم : هل ترى عيباً ؟ قال : نعم عيوباً ثلاثة ، قال : ما هي ؟ قال : النفس خضراء ولا خضرة عندك ، والحياة في الماء ولا ماء عندك ، وعدوك مخالطك ومطلع على سرّك قال : أما الماء فحسبي منه ما بلغ الشفة ، وأما الخضرة فللجد خلقت لا للعب وأما السر فلا

أبالي علم بسري رعتي أم ولدي وخاصتي ، فامسك الرومي عن الكلام . ثم تعقب أبو جعفر الراي فرأى أن القول ما قال فاتخذ العباسية وأجرى القناة من دجلة وأخرق السوق عن المدينة ، فلما فعل ذلك وجلس في قصره بالخلد نظر الى التجار من البزازين والصيرفي والقصاب وطبقات السوق فتأمل بهذين البيتين :

كما قال الحمار لسهم رام
لقد جمعت من شتى لا تشر
جمعت حديدية وجمعت نصلاً
ومن عقب البعير وریش نيشر

ثم قال : يا ربيع ان هذه العامة تجمعها كلمة وترأسها السفلة ولا اربك معرضاً عنها فإن اصلاحها يسير واصلاحها بعد إفسادها عسير فاجمعها بالرغبة وأملأ صدورهم بالهيبه وما استطعت من رفق بها واحسان إليها فأفعل .

وفي هذا الذي ذكرناه من اولية بغداد كفاية وهي اعظم مما قيل واشهر حالا مما ذكر فلنقتصر على هذا القدر ثم إن دولة بني العباس استمرت بها من مبايعة السفاح بالكوفة يوم الخميس لثلاث عشرة خلون من ربيع الآخر سنة اثنين وثلاثين ومائة الى ان ملكها الطاهر (التتر) حين دخلوا العراق واستولوا على تلك الافاق ، وقتلوا الخليفة المستعصم .

(*) كتاب الروي المطار في خبر الافطار ، ١٠٩ - ١١٢ نه : احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- ١١ -

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر صاحب حماه ت/٧٣٢

تقويم البلدان (١)

قال في الباب : وانما سميت بغداد بهذا الاسم لأن كسرى اهدى إليه خصي من المشرق

(١) تقويم البلدان ٢٩٢ - ٢٩٣ ، تحقيق رينود ، والبارون ديسلان ، باريس ، ١٨٤٠ .

فأقطع بغداد ، وكان لهم صنم يعبدونه بالشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصي بغ داد يقول اعطاني الصنم ، والفقهاء يكرهون هذا الاسم من أجل هذا وسمّاها المنصور مدينة السلام لأن دجلة كان يقال له وادي السلام . قال وكان ابن المبارك يقول ، لا يقال بغداد يعني بالذال المعجمة ، فإن بغ شيطان و داد عطية وانها شرك ، وانما يقال بغداد يعني بالدالين المهملتين وبغدان ايضاً وقال بعضهم إن بغ بالعجمة البستان و داد اسم رجل يعني بستان داد ، والحريم ببغداد هو حريم دار الخلافة قال ياقوت الحموي في المشترك ، بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ، ثم مثناة من تحتها ساكنة وفي آخرها ميم ، قال ومقدار الحريم قريب من ثلث بغداد ، وعلى الحريم سور ابتداءه من دجلة وانتهاه الى دجلة من الجانب الشرقي كهيئة الهلال أو كنصف دائرة وله أبواب اولها باب الغربية وهو على دجلة ، ثم يليه باب سوق التمر وهو باب شاهق وأغلق في أيام الخليفة الامام الناصر واستمر غلقه ، ثم باب البدرية ثم باب النوى وفيه العتبة انتي كان يقبلها الملوك والرسل ثم باب العامة ويقال له ايضاً باب عمورية ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه الا باب بستان تحت المنطرة التي تنحدر تحتها الضحايا ثم باب المرائب وبينه وبين دجلة نحو رميتي سهم قال وجميع ما يشتمل عليه هذا السور يقال له حريم دار الخلافة وفيه محال واسواق ودور كثيرة للرعية وهو كأكبر مدينة تكون ، قال وبين دور الرعية التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر ، وداخل السور الثاني دور الخلافة لا يداخلها شيء من دور العامة . قال في اللباب والسندية بكسر السين المهملة وسكون النون وكسر الدال المهملة قال وهي قرية بنواحي بغداد ينسب اليها السندواني .

وبغداد على شطى دجلة ، فالجانب الغربي يسمى الكرخ وبه كان سكنى أبي جعفر المنصور ولما بنى بغداد سميت الزوراء لانه جعل ابواب المدينة الداخلة مزورة عن الابواب الخارجة واما الجانب الشرقي فيسمى عسكر المهدي لأن المهدي ابن المنصور أول من سكنه بعسكره ، ويسمى

ايضاً الرصافة لأن الرشيد بنى فيه قصراً وسمّاه الرصافة ويسمى جانب الطابق نسبة الى رأس انطاق موضع السوق الأعظم قال في المشترك ونهر مملّى منسوب الى المملّى بن طريف مولى المنصور قال وهو اعظم محلة ببغداد من الجانب الشرقي وفيها الحريم ودور الخلافة (٢) .

قال في اللباب وكلوذا قرية مشهورة من قرى بغداد قال في العزيزي ومدينة كلوذا بينها وبين بغداد فرسخان ومن كلوذا الى النهروان اربعة فراسخ .

(٢) تقويم البلدان ٢٠٢ .

- ١٢ -

البغدادى : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادى ت/٧٣٩هـ

مراسد الاطلاع (١)

(بغداد) كانت ام الدنيا وسيدة البلاد ، فيها سبع لغات : بغداد ، وبغداد وبغداد ، ومغداد ، ومغداد ، ومغدان ، وبغدان ، وهي في اللغات كلها تذكر وتؤنث ، وكانت في زمن الفرس قرية تقوم بها سوق للفرس . فأغار عليها المشنى في أيام سوقهم ، فانتسفا . قال احمد بن حنبل : ببغداد من الصراط الى باب الثبن ثم انتقلت الى الجانب الشرقي من الشماسية الى كلوذى ، وكانت عظيمة فخربت باختلاف المساكن إليها واستيلائهم على دور الناس وامتعتهم ، فلم يبق من الجانب الغربي الا محال متفرقة ، اعمرها كان الكرخ وخرب من الجانب الشرقي من الشماسية الى المخرم ، وبني السور على ما بقى منه على جانب دجلة حتى جاء النثر اليها فخرب اكثرها ، وقتلوا اهلها كلهم ، فلم يبق منهم غير آحاد كانوا انموذجاً حسناً وجاءها اهل البلاد فسكنوها وباد اهلها ، وهي الآن غير التي كانت ، واهلها غير من عهدناهم والحكم لله تعالى .

(١) مراسد الاطلاع على اسماء الامكنة والبلاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ١٩٥٠ . ٢٠٩/١

الباكوي : عبدالرشيد صالح بن نوري ، كان
حيًا ١٤٠٢/٨٠٦ - ١٤٠٤

تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار

بغداد سيّدة البلاد ومدينة السلام هواها الطف
من كل هواء ، وماؤها أعذب من كل ماء ، وتربتها
أطيب من كل تربة ونسيمها أرق من كل نسيم ،
بناها المنصور أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي
ابن عبدالله بن العباس على طالع القوس والشمس
في درجة الطالع ذكر انه بناها بالجانب الغربي ووضع
اللبنة الأولى بيده وجعل داره وجامعها في وسطها
وبنى فيها قبة فوق إيوان كان علوها ثمانين ذراعاً
والقبة خضراء على رأسها تمثال فارس بيده رمح
وقد سقط رأس القبة سنة تسع وعشرين وثلثمائة
والآن لم يبق منها أثر وبغداد عبارة عن المدينة
الشرقية كان أصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي

مخطوطة باريس اللبنة المرقمة Arab 585-945
نقلت من نسخة كتبت سنة ٨١٦ نقلها علي المصري نزيل
اللاذقية .

وهي المدينة العظمى كثيرة الأهل والخيرات
والثمرات يجبي إليها لطائف الدنيا وظرائف العالم
نما سور ابتدأه من دجلة وانتهاؤه إليها كشبه الهلال
بها دار الشجرة من أبنية المقتدر بالله دار فسيحة
ذات أشجار وبساتين موققة وبها المدرسة التي
أنشأها المستنصر بالله لم يبن مثلها قبلها في حسن
عمارتها ، وعلى باب المدرسة إيوان ركب في صدره
صندوق الساعات على وضع عجيب . وفي سنة
ست وخمسين وستماية سار إليها هولاكو بجنوده
وأخذها . وقيل الخليفة المستعصم بالله نسب
إليها القاضي يحيى بن اكرم كان فاضلاً عزيزاً (٢) العلم
ذكي الطبع وأبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل
كان أصله من مرو جيء به إلى بغداد فنشأ بها
توفي سنة إحدى وأربعين ومايتين عن تسع
وسبعين سنة وينسب إليها أبو الحسن السري
ابن الفيلس السقطي خال أبي القاسم الجنيد ، ابن
محمد وأستاذه وكان أصل الجنيد من نهاوند
ومولده بغداد ، ومنها الأستاذ علي بن هلال الخطاط
يعرف بابن البواب كان عديم النظر في صنعه لم
يوجد مثله .

(٢) هكذا في الأصل ونقل « وينسب » . في الأصل عزيز .

بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين

ترجمة الدكتور

أكرم فاضل

مديرية التراث الشعبي - بغداد

- ١ -

بغداد في العهد العثماني

بقلم

روبير مانتران

الصفويين في إيران . هؤلاء لم يكونوا يمثلون للعثمانيين خصوما سياسيين وسادة للأقاليم الممتدة من شرقي آسيا الصغرى ، يهددون بشكل خطير غالبا السيادة التركية فحسب ، وإنما كان هؤلاء الصفويون كذلك من متحمسي المدافعين عن أحد المذاهب ، وبهذه المثابة كانوا يؤلفون على الصمد الديني خصوما من الحق أهمال شأنهم ، لأنهم كانوا يستطيعون الاعتماد على جماعات ابتداعية مبشرة في شرق الإمبراطورية العثمانية . وعلاوة على ذلك فإن أقاليم شاهات إيران كانت تشكل عائقا خطيرا بوجه الزحف التركي صوب الشرق ، ولا سيما صوب آسيا الوسطى والمحيط الهندي .

في عام ١٥١٤ سحق سليم الأول الجيوش الصفوية في جلدردان واستولى على تبريز ، ولكن مهما بلغت أهمية هذا الفوز فإنه لم يجلب حلا شافيا للمشاكل التي أجهد العثمانيون أنفسهم بحلها لصالحهم . بالإضافة إلى أن الصفوي طهماسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) وضع للمرة الثانية بغداد في إطار

يوم دخل بغداد - قانوني سليمان - سليمان القانوني - المعروف أكثر في الغرب باسم سوليمان له مانيفيك Soliman le Magnifique

سلطان العثمانيين ، وذلك في ٢٤ جمادى الأولى ٩٤١ (١ كانون الأول ١٥٢٤) أكمل على هذه الصورة التسلط التركي على الأقاليم العربية في الشرق الأدنى واستطاع أن يفرض نفسه كوارث شرعي للخلفاء العباسيين ، الذين وقع أخيرهم أسيرا بيدي أبيه سليم الأول في القاهرة منذ سبع عشرة سنة خلت . ولكن فتح العراق هذا واحتلال عاصمته بوافقان في أذهان العثمانيين تاريخ مشاغل عديدة . فقبل كل شيء اتاح غزو بغداد للأتراك وضع أيديهم على جميع المراكز العمرانية الكبرى للعالم العربي الإسلامي الشرقي ، وذلك ما ضمن لهم مكانة سياسية غير منكورة وأكد لهم تفوق إحدى الفرق الدينية الظاهرة ، الممثلة في شخص السلطان التركي الذي أصبح خليفة منذ الاستيلاء على مصر . ومن جهة أخرى فإن الاستحواذ على بغداد وضع حدا للتناحرات الناشئة من مطلع القرن مع العواهل

الولاء الإيراني الوثيق بعد محاولة انفصال الوالي ذي
الفقر (١٣٥ - ١٥٢٩) .

واخيرا ، وهذه النقطة ليست النقطة الأقل
اهمية ، فمند نهاية القرن الخامس عشر نجمت
اضطرابات اقتصادية . وعلى الأخص لدى اكتشاف
طريق رأس الرجاء الصالح . فبالرغم من استغلاله
استغلالا محدودا ، فسيأتى من جانبه خطر قريب
أو بعيد لتقويض دور الوسيط للشرق الأدنى بين
أقطار المحيط الهندي والشرق الأقصى واقطار
الغرب . وكان العثمانيون وهم سادة مصر والسواحل
الغربية للجزيرة العربية ، يراقبون البحر الأحمر
وشواطئه المباشرة ، وبالتالي حركة التجارة التي
واصلت نشاطها . وسيكون وضعهم أفضل لو
استطاعوا كذلك مراقبة الخليج العربي وبلاد ما بين
النهرين ، وهي إحدى الطرق المعتادة التي
تسلكها البضائع القادمة من الهند وآسية الشرقية .
وعلى هذه الشاكلة سيكون بمقدورهم حفظ التوازن
بين تأثير تحول المسيرة التجارية من جنوب افريقية
والسيطرة في الوقت نفسه ، أي بموجب ذات
الانظمة ، على الوضع المنحاز للشرق الأدنى في التجارة
الدولية ، التي كانت بعيدة عن هجر طرقها التقليدية
من البحر الأبيض المتوسط الى المحيط الهندي .

كل هذه الأسباب حملت سليمان القانوني على
التحرك : ففي عام ١٥٣٤ شن على فارس « حملة
العراقيين » (عراقيين سفري : عراقي عجم وعراقي
عرب) تلك الحملة التي مكنته من الاستيلاء على
أذربايجان ، في حين انحدر صدره الأعظم إبراهيم
باشا الى بلاد ما بين النهرين ، فاحتل بغداد دون
كبير عناء بعد أن غادرها واليها الصفوي ، فسلمه
أغنيائها مغابيحها في تموز ١٥٣٤ . وقد حدث دخول
السلطان المهيبة الى بغداد المفتوحة في الأول من كانون
الأول التالي . وباستثناء الفاصل الزمني الوجيز في
القرن السابع عشر ، بين ١٦٢٣ و ١٦٣٨ ، الذي فيه
خضعت مرة أخرى لحكم الصفويين ، فقد ظلت
بغداد بأيدي العثمانيين حتى آذار ١٩١٧ ، التاريخ
الذي احتلها فيه الإنكليز .

خلال هذه الفترة الطويلة التي بلغ زهاء
اربعة قرون ، ظل تاريخ بغداد بعيدا عن كونه خاليا
من القلاقل خاويا من الحوادث . إذ يمكننا أن نميز
فيه بين ثلاث مراحل :

- ١ - حكم العثمانيين المباشر (١٥٣٤ - ١٧٠٤) .
- ٢ - حكم الكولنديين أو الماليك (١٧٠٤ - ١٨٢١)
- ٣ - عودة الادارة العثمانية (١٨٢١ - ١٩١٧) .

١ - حكم العثمانيين المباشر .

ما ان وصل سليمان القانوني الى بغداد حتى
عكف على تنظيم ادارة المدينة والاقاليم المرتبطة بها ،
فقام بمسح الاقاليم وسجل الاراضي ووزع التيمارات
والزيامات ونصب واليا يحمل عنوان باشا ، يساعده
دفتر دار (ناظر الخزانة) مع قاض (حاكم) . وكان
سليمان باشا الوالي الأول .

وانشئت حامية للاتكشارية في المدينة لضمان
الدفاع والأمن . واخيرا ، لاجل اظهار استقرار
الاسلام الحنيف ، شيد سليمان القانوني مقاما لابي
حنيفة (لا تنسى ان الأتراك كانوا على المذهب الحنفي)
الذي بنيت بالقرب منه مدرسة ، واشاد ضريحاً ،
واقام تكية للفقير الحنبلي الشهير عبد القادر الكيلاني ،
وتم بناء مسجد الكاظمية ، الذي بدا بينائه الشاه
اسماعيل .

وقد اكمل فتح بغداد ، بعد ذلك بسنوات ،
بفتح البصرة التي احتلها اياس باشا والي بغداد عام
١٥٤٦ . وكرست معاهدة اماسيا المؤرخة في ٢٩
مايس ١٥٥٥ ، التي وضعت نهاية للنزاع الناشب
بين العثمانيين والصفويين ، السيادة العثمانية
الرسمية على العراق وبصورة اخص على بغداد .

ساد الهدوء في القطر حتى نهاية القرن
السادس عشر ، وشرع عدة ولاة ببناء المساجد
والتكايا والخانات والاسواق . وعمل حسن باشا
على احاطة جانب الكرخ بسور وخذق ليجمعه في
مأمن من غارات القبائل البدوية . وصينت المواقع
الدفاعية احسن صيانة ورممت . فالقلعة الداخلية
القريبة من دجلة تشتمل على عدة مهاجع للاتكشارية
وعلى مستودع للذخيرة ومخزن للأقوات والاموال .
وكان قصر الوالي يجاور كل هذا .

ظلت بغداد طوال هذه الفترة تمثل مركزا
عظيما للقوافل . فنشطت فيها التجارة . وخف
السواح الأوربيون لزيارتها في ختام القرن السادس
عشر . فوسفوا باعجاب ميادينها واسواقها
ومتاجرها التي وجدوا فيها البضائع المقبلة من
الشرق الأدنى أو الأقصى ، وكذلك المنتجات المحلية :
من اقمشة حريرية وقطنية واسلحة وامتعة معدنية

دمشقية كالسروج ومختلف اصناف السراجة . ويلوح لنا ان عدد السكان آنئذ ، وهم مؤلفون بصورة اساسية من العرب والأتراك واليرانيين ، لم يتجاوز الاربعين او الخمسين الف نسمة .

بعد حكم احمد الاول (١٦٠٤ - ١٦١٧) ادى ضعف حكومة اسطنبول الى اضطرابات في الاقاليم التي كانت فيها الادارة المحلية اما محرومة من وسائل الادارة ، واما انها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الداني لمصلحة الوالي او لمصلحة من يستطيع الانتفاض على السلطة . ففي بغداد تمرد احد ضباط الانكشارية الشوباشي بكر مع اغا الازاب محمد قنبر وجرا معهما شطرا كبيرا من القوات المقاتلة ، ولم ينطع الوالي حافظ احمد باشا فقم التمرد ، الذي لعله استفاد من دعم شاه ايران ، والواقع ان الشاه عباس الاول كان يفكر ، وهو يشهد مهزلة الفوضى العثمانية ، بسبب الاتساراك الاقاليم المضاعة في القرن السابق ، فاتصل ببكر . وخلال بعض الوقت تفاهم بكر ومحمد قنبر ثم انتهيا الى التصادم : فانتصر بكر وظل وحده سيد بغداد التي اشاع فيها الارهاب ، بحيث ان فسمما من السكان ولوا فرادا .

ارسل السلطان لمحاربة بكر جيشا بامرة حافظ احمد باشا الذي اقترب من بغداد . حينئذ استفاد بكر بالشاه عباس ووضع نفسه تحت حمايته . فاعز الشاه عباس الى والي همدان صفي قلي خان بالاستيلاء على المدينة . آنئذ اخذ حافظ احمد باشا على عاتقه مسؤولية تعيين بكر واليا على بغداد لحساب العثمانيين . ولما لم يعد لدى بكر سبب لتسليم المدينة للصفيين اعترض قوات صفي قلي خان الذي شرع بمحاصرة بغداد دون تلكؤ . دام هذا الحصار ثلاثة اشهر استسلمت المدينة في ختامها ، بعد ان كانت الاهوال من الجوع . ورغم عوده بالصفح ، ذبح صفي قلي شطرا من السكان ، وعلى راسهم بكر والقاضي نوري افندي ، في حين بيع السكان الآخرون بوصفهم عبيدا . وخرب بعض قبور الصالحين ، واغلق عدد كبير من المساجد والمدارس . فهجر المدينة الكثير من السكان (١٠٢٢ - ١٦٢٣) .

لقد اهتزت اسطنبول اهتزازا عنيفا لخسارتها بغداد ، وكلفت حافظ احمد باسترجاعها ، فحاصرها من ١٣ تشرين الثاني ١٦٢٥ الى ٣ تموز ١٦٢٦ ، ولكنه اخفق وانسحب لدى وصول الجيش اليراني . فحوصرت المدينة للمرة الثانية من قبل بوشناق خسرو باشا طوال اربعين يوما في خريف ١٦٣٠ ، ولكن دون جدوى . اذ مات صفي قلي خان بعد ذلك بمدينة ، فعين بكتاش خان واليا على بغداد ، وكانت اثناء ولايته فريسة لوباء عنيف : ذكر بعض المؤلفين ان السكان تناقصوا آنئذ فاصبحوا يعدون ١٥٠٠٠ نسمة . وخلال هذه الفترة القصيرة كانت العمارة الوحيدة الشامخة هي السراي ، او دار الحكومة ، التي بناها صفي قلي خان .

في عام ١٦٣٨ شرع السلطان مراد الرابع ، بعد ان اصبح السيد المسود للسلطة في اسطنبول ، باسترداد بغداد من ايدي اليرانيين . فوصل على رأس جيش جرار امام المدينة في ١٥ تشرين الاول ١٦٣٨ وضرب حولها الحصار : دام التطويق ٤٠ يوما . وقد استفاد مراد الرابع من ايام الحصار الاخيرة بوقوع الخلاف بين اثنين من قادتها ، فهاجم النقاط الاضعف في السور ، لاسيما الباب الابيض (آق قايي) . فجرت معارك طاحنة ، لقي مصرعه خلالها صدره الاعظم طيار محمد باشا . وانتهى الامر ببكتاش خان الى الاستسلام ، ولكن بعض ضباطه واصلوا المقاومة ، فحدثت من جراء ذلك مجازر وتخريبات هامة . وعين مراد الرابع واليا جديدا هو كچك حسن باشا . ولخرب المدينة امسر بنائها : فاعيد تشييد قبور ابي حنيفة وعبدالقادر الكيلاني وشهاب الدين عمر السهروردي والشيخ سراج الدين ، واعيد ترميم القلعة وامتدت الاسوار الى الجانب الثاني من النهر لتقوية الدفاع عن المدينة . وسور باب الظلم وظل على هذه الحالة حتى عام ١٩١٧ . وافتتحت مدارس ودور علم وتكايا وحمامات باعداد كبيرة .

ابرمت معاهدة قصر شيرين في محرم ١٠٤٩ - مايس ١٦٣٩ ، بين العثمانيين والصفيين التي نصت على عودة بغداد الى حوزة الامبراطورية

العثمانية . وعرفت بغداد وارباضها حتى نهاية القرن السابع عشر فلاقى منشؤها فتن الانكشارية واضطرابات القبائل البدوية او الكردية ، ولكن الولاة (٢٤ واليا من ١٦٢٨ حتى ١٧٠٤) وصلوا الى قمع القلاقل الناجمة في كردستان او الخليج العربي . اذ سحق قره مصطفى تمرد والي البصرة حسين باشا (١٦٦٧) . وغلب ذلك استولى الايرانيون على البصرة ، في حين ثارت عشائر المنتفك وشمر وبني دجيل والزيد ، ولم يسمح الطرف بارسال قوات من اوربا الى العراق الا بعد توقيع صلح كارو لوثير (١٦٩٩) فاستطاع والي بغداد الطبان مصطفى باشا ازالة العقاب بالثوار واستعادة البصرة (١١١٢ - ١٧٠١) . خلال هذه الفترة التي تلت استرداد بغداد شيد الولاة العثمانيون العديد من الممارات واسهموا في تقوية المواقع الدفاعية للمدينة . فكجك حسن باشا بنى ثلاثة ابراج : اق قابي وبرجي معجم وقرانليق قابي (١٦٤٢) .

اعاد دلي حسن باشا ترميم جامع الفهرية (١٦٤٤) وسلا حدار حسين باشا ، جامع الفضل ، أصبح مسجد حسين باشا ، ورم عبد الرحمن باشا (١٦٧٤) مسجد الشيخ معروف واتم السداد الذي يحمي حي الانظمة . واصلح قبلان مصطفى مسجد الشيخ قدوري الذي اصبح يدعى مسجد القبلاية (١٦٧٦) . وكال عمر باشا نفس الكيل لمسجد ابي حنيفة (١٦٧٨) وقام بنفس العمل ابراهيم بالنسبة لمسجدي السلطان علي والسراي . وشيد احمد بوشناق خان بنى سعد وسلا حدار حسين باشا سوقا جديدة قبالة المدرسة المستنصرية ، فعمرت المدينة نشاطا هائلا . ومحبت الاضرار التي خلفتها الحروب التركية الايرانية . وشرع الاهالي بالتكاثر ، وظلت حركة التجارة ، على وجه العموم ، ناشطة كنشاطها في العصر السالف . تعتبر بغداد اهم مدينة في الشرق العثماني . وتؤدي المنازعات التي كانت بغداد مسرحا لها بين الاتراك والاييرانيين هذا القول بجلاء . اذ ليست المسألة مسألة استيلاء - او محافظة - على مدينة تاريخية فحسب ، وانما بالاضافة الى ذلك ضمان السيطرة على طسرق موصلات خطيرة بين الخليج العربي وارمينية ،

وكردستان او سورية . وتؤلف بغداد كذلك بوقوعها على مفربة من الحدود التركية الايرانية موقعا ستراتيجيا تطاحن حوله العثمانيون والصفويون ، فغاز باللذة العثمانيون . صحيح ان فترة السيادة الاولى العثمانية هذه لم تحمل على الدوام الى المدينة السلام والرخاء اللذين من حقها ان تنتظرهما من مالكيها الجدد . ومع ذلك يوسنا القول انه بالنسبة للعصور المتقدمة مباشرة عرفت بغداد فورة شهره عادت عليها بسيدات عديدة واسهمت على الاخص حتى مطلع القرن السابع عشر ببناء هذه انسطوة العثمانية التي كانت عندئذ اول سطوة للعالم القديم .

٢ - حكم الماليك .

اغداد اي تعيين ايوب حسن باشا واليا على بغداد عام ١٧٠٤ الى تحول عميق في ادارة المدينة والأقاليم : فانواقع ان حسن باشا ، الذي تلقى تربيته في سراي اسطنبول وامضى فيه يفاعته وشبابه ، تركت هذه التربية اثرا قويا في نفسه وطبعها بطابع سمح بتكوين شخص مخلص مقتدر ، متفرغ بكلينه لخدمة السلطان . فوضع حسن ايوب باشا موضع التطبيق اساليبه الخاصة فائشا في قصر الولاية غرفة خاصة (خاص اوده) ، غرفة للمال (خزينة اودهسي) ، وغرفة ادارة ومدرسة امر ان يربى فيها فتية من عبيد الاباز والجيورجيين والتركس ، وكذلك بعض ابناء ضباطه : كان اولئك الكولنديين (الماليك) . وعهد بهم الى معلمين ومربين ، فتلقوا من هؤلاء تعاليم الدين الاسلامي والمعلومات الثقافية التي لا غنى عنها ، ودربوا على استعمال الاسلحة ومروا تمرينات بدنية .

بعد ان ينهي هؤلاء « الوصفاء » من تعليمهم ، وكان يحصل عددهم احيانا الى ٢٠٠ ، يتلقون شهادة وراثيا ، ويدرجون تحفظتند في حنف اغوات الداخل (اغاياني اندرون) : على هذه الشاكلة تالفت طبقة متعلمة من الرجال وضموا على راس الخدمات المدنية والعسكرية الرئيسية في بغداد والأقاليم ، نوازنوا سطوة الانكشارية باخلاصهم للباشا واطاعتهم له . وقد وصل بعض هؤلاء الكولنديين الى رتبة (كتخدا) او مساعد والي وتقلدوا بعدئذ القضاة الأعلى في الاقليم .

وفي تنظيم الكولنديين كان يجيء بعد الكتخدا القابيلر كتخداسي المسؤول عن الخدمة الداخلية ، والخازندار ، قائد الماليك ، اما الشؤون الادارية الهامة التي تخص البلدة واقليمها فكانت تجري المناقشة بشأنها في الديوان المؤلف من السدوات الرئيسية في الولاية : الوالي . الكتخدا . القاضي . الخازندار ، الدفتر دار . الديوان افنديسي (رئيس الديوان) . وقد ظل هذا النظام ، الذي اقامه ابوب حسن باشا ، يتبعه ابنه احمد باشا وكذلك اعقاباه حتى عام ١٨٣١ . واستفاد النظام خاصة من المدة الطويلة لولايتي حسن باشا واحمد باشا ، فضمن لهما وللولاة التاليين انصارا وهيئة من الاداريين اتاحوا لهم احيانا معارضة القرارات الصادرة من اسطنبول والسير بموجب سياسة شخصية .

لقد ظل ابوب حسن باشا واليا على بغداد مدى ١٩ سنة ، من ١٧٠٧ حتى ١٧٢٣ مستعينا بالقوة والدبلوماسية ، فنجح في اخضاع القبائل الشائرة كردية ويزيدية . واستطاع نيل رضى الاهالي بالفاء الضرائب على المواد الغذائية والخشب الداخل الى بغداد . وبفضله استتب الامن في العراق ، وتحسنت احوال الاقاليم بصورة ملحوظة . ومنح ولاية البصرة لمساعدة وصهره مصطفى آغا . وحين ادركته الوفاة عين ابنه احمد باشا واليا على بغداد وقائدا لجيش الاقاليم الشرقية : اصبح الحكم متزيبا بزي وراثي . واتبع احمد باشا نفس السياسة الحكيمة التي سار عليها والده فحكم من ١٧٢٤ حتى ١٧٤٧ (مع فجوة قصيرة من ١٧٢٤ حتى ١٧٣٦) .

وفي عام ١١٤٥ - ١٧٣٣ هاجم عاهل ايران نادر شاه بغداد وحاصرها مدى ٩ اشهر ، ولكن انتصار طوبال عثمان باشا على نادر شاه ، في ٧ صفر ١١٤٦ - ٢٠ تموز ١٧٣٣ انتقد بغداد . وغلب ذلك بعشر سنوات اعاد نادر شاه الكرة ، فاندحر مجددا ولم تقم له قائمة .

لقد اثار موت احمد باشا بعض القلاقل : ففي الواقع خلق الكولنديون متاعب للوالي الجديد محمد باشا ، الذي لم يكن ناجما من صفوفهم ، ولعل هذه القلاقل كان مصدرها سليمان باشا ، الملوك القديم

المعتوق الذي اصبح صهرا لاحمد باشا واليها لاطنة . وكان سليمان باشا يأمل في الحصول على ولاية بغداد ، ولكنه لم يفز الا بولاية البصرة ، ومحمد باشا ، الذي كان يحترس منه ، صوره بصورة المتمرّد لدى حكومة اسطنبول التي قامت بالتحقيق ، ولكنها تخلت عنه امام عداء الماليك ، وقلدت سليمان باشا ولاية بغداد بالاضافة الى ولاية البصرة (١١٦٣ - ١٧٤٩) فلبث سليمان باشا ١٢ سنة في هذه الوظيفة ، وعاش العراق خلال هذه الفترة في هدوء شبه شامل ، في حين كان يشتد عود نظام الكولنديين . وبعد رحيل سليمان فاز كتخدائيان بالولاية الواحد بعد الآخر ، وهما : علي باشا وعمر باشا ، رغم عدم رغبة الحكومة المركزية في ذلك .

في عام ١١٨٦ - ١٧٧٢ انتشر طاعون مروغ عاث في المدينة طوال ستة اشهر ، وافضت المنافسات بين الكولنديين الى اضطرابات وفوضى وشغب ، واندلعت ثورات في كردستان ، في حين كان شاه ايران ، زند كريم خان ، يساعده متصرف البايانات ، يحاصر البصرة ثم يقتحمها ويبعد متسلمها (معاون الوالي) الى شيراز . وبعد موت زند ، عاد سليمان الى العراق واستولى على السلطة في بغداد : واعترف به السلطان واليا على المدينة وعهد اليه كذلك بولايتي البصرة وشهرزور (١٧٧٨) .

وقد حكم سليمان باشا الملقب ببوك (الكبير) مدى ١٤ عاما : وامتدت سلطته من منطقة ماردين حتى الخليج العربي ، واعتبر بالنالي كاقوي شخصيات الامبراطورية العثمانية ، وفي اناء ولايته تحتم عليه ان يخضع القبائل العربية والكردية الشائرة وان يواجه هجمات الوهابيين ، ثم ، دسائس عاهل ايران فتح علي شاه . وعلاوة على ذلك اقض طاعون مضاجع اهل بغداد في مطلع القرن التاسع عشر . وقد اعان ببوك سليمان باشا كثيرا على ازدهار التجارة والزراعة وشجع الاعمال العمرانية . ورمم هو بنفسه اسوار بغداد ، وحمى الكرخ بسور وخندق . وهدم السراي وبنى مكانه سرايا جديدا قدر له ان يحترق اثناء حوادث عام ١٨٢٠ - ٢١ . وبغداد مدينة له كذلك بالمدرسة السليمانية والمكتبة

العامة وسوق السرايين ، بالإضافة الى تعمير عدة مساجد (القبلانية والفضل والخلفاء) . وقد توفي بيوك سليمان في ٨ ربيع الثاني ١٢١٧ ٨ آب ١٨٠٢ . اما خلفه قابو غدار علي باشا ، الذي تلقى مهمة عقاب الثوار الوهابيين ، ولكن رغم معونة والي دمشق العظيم زادة عبدالله باشا ، لم يستطع الوصول الى نتيجة . اذ سرعان ما اغتيل . وقد امس اثناء ولايته المدرسة العلية ، التي اعتبر المدرس فيها رئيس علماء بغداد . بعد وفاة ابي غدار علي باشا ، صممت حكومة اسطنبول على استئصال شافة نظام الكولنديين فعبئت لبغداد واليا من خارج صفوفهم هو يوسف زيا باشا ، ولكن تجاه المقاومة التي جوبه بها ، وبناء على توصية السفير الفرنسي ، سياستيان ، عينت اخيرا المملوك كجك سليمان باشا . فافق هذا في أعماله التي مارسها ضد البزيرية ، ولكنه نجح في قمع الوهابيين ، اذ كسر شوكتهم وقهرهم واخضعهم . وفي مجال العدالة قام كذلك بمبادرات لم ترق حكومة اسطنبول مثل : الغاء عقوبة الاعدام (باستثناء العقوبات التي جاءت بها المحاكم الدينية) . منع مصادرة الاموال . الغاء رسوم المحاكم . تخصيص مرتب للقضاة . فتذرت اسطنبول بحجة رفض كجك سليمان باشا دفع بعض المبالغ المطلوبة ، فقررت وضع نهاية لسلطته وارسلت احدى شخصيات الباب العالي الرئيسية بدله هو حالت افندي . فاستعان هذا بمتصرف الباباتات ووالي الموصل ، فزحف على بغداد (رمضان ١٢٢٥ - تشرين الاول ١٨١٠) . فاندحرت قوات سليمان ، وفر هو نفسه ، فما لبث البدو ان قتلوه .

عين حالت افندي بصفة وال احد الكولنديين ، عبدالله باشا ، ودون ان يخطو خطوة الغاء نظام الممالك أعلن الاعتراف بسلطة حكومة اسطنبول . فوجد عبدالله باشا نفسه حالا تجاه معضلتين اساسيتين : هجوم شاه ايران فتح علي باشا ، يدعمه متصرف الباباتات عبدالرحمن باشا ، وعمل سعيد بك ، ابن كجك سليمان باشا ، الذي تسانده عشائر المنتفك . فتوصل عبدالله باشا الى التفاهم مع عبدالرحمن باشا ، ولكن قهره سعيد بك (صفر

١٢٢٨ - شباط ١٨١٣) الذي اعتقله اثناء فراره وصب عليه الموت . فاعترف الباب آتئذ سعيد بك بصفة وال على بغداد والبصرة وشهرزور . ولكنه اثار نائرة الكولنديين ضده بأعماله الخرقاء ، وكذلك سخط سكان المدن والارياف . فجمع صهره الكتخدا القديم داود باشا ضده المعارضين ، وباتفاق مسع حالت افندي زحف على بغداد فاحتلها في ٥ ربيع الثاني ١٢٣٢ - ٢٢ شباط ١٨١٦ ، واعدم سعيد باشا على الفور . فاعترف به الباب رسميا واليا على بغداد ، وهو المنصب الذي تمسك به ١٥ سنة . وتثبت داود باشا في احلال السلام في الارياف . وما لبث ان شيد ثلاثة مساجد ، ولاسيما مسجد الحيدر خانة ، والمسجد والمدرسة الصافية والسوق والقصر . ومن جهة اخرى افتتح مشاغل للنسيج واستدعى الفنيين الاوروبيين ، فنهضت الصناعات اليدوية نهضة جديدة ومثلها الزراعة . واستعان بخبير عسكري فرنسي من مرافقي نابليون واسمه دقو Devaux فدرّب جيشا قوامه ١٠٠٠ رجل ، بين مشاة ومدفعين . وبهذا الجيش نفسه توصل الى دحر هجوم ابن شاه ايران محمد علي ميرزا ، الذي تقدم حتى وصل الى مقربة من بغداد (١٢٣٦ - ١٨٢١) .

ولكن تجديد حكم الممالك في بغداد لم يتسق مع سياسة الاصلاحات الادارية والسياسية التي شرع بها السلطان محمود الثاني . فعلى اثر رفض داود باشا حمل معونة مالية الى الحكومة العثمانية اثناء الحرب التركية الروسية عامي ١٨٢٨ - ٢٩ ، رفض السلطان استجابة طلب الباشا بأن يضم الى ولايته ولاية الموصل ، ثم ارسل الى الموقع الدفتردار الاول صادق افندي لتوطيد هيبة السلطة المركزية (ربيع الاول ١٢٤٦ - آب ١٨٣٠) . ولكن داود باشا اعدم صادق افندي ، فاضطر السلطان الى ارسال والي حلب علي رضا باشا لقمعه . فاوفد هذا الى بغداد احد مساعديه قاسم باشا ، مع بعض القوات : فدارت رحى المعارك في المدينة ، واتهم الحريق قصر الوالي . واخيرا انكر قاسم باشا وقتل . حينئذ زحف علي رضا بنفسه على بغداد وضرب حولها الحصار مدي ٩٠ يوما . وفي ٩ ربيع

الثاني ١٢٤٧ - ١٧ أيلول ١٨٣١ فتح الأهالي الجباع الباب الشرقي ، فاستطاع علي رضا النفوذ الى المدينة . وسرعان ما اعدم جميع المالكين ودمر بهذه الصورة اوجافهم . اما داود باشا فقد شمله الغزو بفضل خدماته التي اداها سابقا ، فلك طريق المنفى . وهكذا انتهى هذا النظام الذي بدأ في ١٧٠٤ ، والذي كان له مزية اعطاء بغداد اهميتها بوصفها مركزا سياسيا واداريا عظيما ، وذلك بتسيخ سلطة والي الاقاليم على القبائل البدوية او الكردية ، وباخضاع السناجق المجاورة للبصرة لهيمنة بغداد ، وكذلك شـهرزور والموصل . ومع ذلك كان يمثل خطـر تأليف اتجاه بالغ الوضوح في الاستقلال الذاتي في قلب الامبراطورية العثمانية ، وبهذا الشاكلة يشجع المطامع الايرانية في الاقاليم . ولكن رصيده على العموم ايجابي . فقد اسهم في تحسين الوضع السياسي والاقتصادي اسهاما لا ينكر ، وولد دفعا جديدا لتعمير المنشآت الدينية وذات المنفعة العامة . وقد تزايد عدد السكان بصورة ملموسة ، فوصل زهاء ١٠٠.٠٠٠ نسمة حوالي عام ١٨١٦ وعلى الأقل الى ١٢٠.٠٠٠ عام ١٨٣٠ .

كان هؤلاء السكان يؤلفون منطقيا عدة مجاميع : فالقادة والعسكريون كانوا اترাকা او ممالك ، وكان التجار والصناع عربا او فرسا او يهودا ، او مسيحيين احيانا . وقد لوحظ كذلك وجود اكراد وهنود . وكان الاوربيون اقل ما كانوا ، ولم يكن ديدنهم غالبا الا التجول في المدن دون الإقامة فيها طويلا . وكانت بغداد آنئذ تعد من بين مدن الامبراطورية العثمانية الكبرى .

٢ - عودة الإدارة العثمانية الى الحكم .

في اعقاب انتصاره على داود باشا ، عين علي رضا باشا واليا على بغداد : فظل في هذا المنصب ١٦ سنة . ولكن ما ان تسلم زمام الحكم حتى نكبت بغداد بوباء فظيع اضيفت اليه فيضانات مدمرة . فسرعان ما اسبح الوضع منجعا ، اذ هلك قسم من السكان او هرب : في عام ١٨٣٧ لم يبق من سكان بغداد اكثر من ٤٠.٠٠٠ نسمة ، ولم يرتفع هذا

الرقم الا ببطء شديد بعد ذلك : ٦٠.٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٣ ، ٨٠.٠٠٠ نسمة تقريبا عام ١٨٧٧ ، ٩٠ الى ١٠٠ الف بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ ، ٢٠٠.٠٠٠ عام ١٩١٨ .

وقد انهمك الولاة ، الذين غدوا يرتبطون مباشرة بالسلطة المركزية ، بمعالجة الوضع الاجتماعي والاقتصادي . واول من عقدت له صدارة حركة التجديدات هو محمد رشيد باشا ، الذي اسس عام ١٨٤٧ شركة ملاحية للنقل التجاري بين بغداد والبصرة . وامر نامق باشا ببناء مشغل لتعليق (دمرخانة) لسفن هذه الشركة (١٨٥٣) ، ولكن الفضل الاكبر يعود الى مدحت باشا ، الذي افام الاصلاحات على قدميها اثناء ولايته (١٨٦٩ - ١٨٧٢) وهي اعمق اصلاحات ، وذلك بعد ان قمع ثورة بدوية واخضع نجدا ، الذي الحقه بولاية بغداد . وادخل في الاقاليم النظام الاداري الجديد ، معززا بموظفين يخضعون للسلم الوظيفي والخدمات المتخصصة (التعليم العام ، مسح الاراضي ، التسجيل ، المحاكم المدنية) . واسس مجلسا بلديا ، نصف اعضائه منتخب ونصفه معين ، مع منتخبين اثنين يمثلان غير المسلمين . ولفى عددا من الضرائب القديمة التي تشكل عقبات في سبيل التنامي الاقتصادي ، وانشأ مطبعة ودارا للنشر ، واحدر جريدة رسمية للاقليم باسم الزوراء ، الجريدة الاولى التي ظهرت في بغداد . وفتح مدارس عصرية ابتدائية وثانوية ومدرسة حكومية للصناعة (لم يكن يوجد آنذاك الا بعض المدارس الابتدائية التي يديرها المبشرون الفرنسيون) . وهدم اسوار المدينة ، وافتتح شارعا كبيرا يصل شمال بغداد بجنوبها ، ووسع الطرق ، واستحدث عام ١٨٧٠ خط الترمواي الذي يربط بغداد بالكاظمية ، واتم بناء السراي ، الذي بدأ به نامق باشا ، وشرع ببناء مستشفى عصري - كمل عام ١٨٧٩ . ان الدفع الذي احدثه مدحت باشا لم يحذ حذوه خلفاؤه بحزم وقوة . ومع ذلك فثمة مدارس اخرى بنيت ، ولاسيما مدرسة البنات الاولى عام ١٨٩٩ ، ومدرسة دار المعلمين عام ١٩٠٢ . واقام جسر جديد على دجلة استطاعت وسائل النقل المرور عليه . وفي عام ١٩١٠

اقام ناظم باشا سدادا حول بغداد الشرقية لحماية هذا الجزء من المدينة من الفيضانات . وشق شارع كبير حين كانت حرب ١٩١٤ - ١٨ على الابواب : ثم اتته الانكليز .

في عام ١٨٢٧ اضحت بغداد مقر قيادة الجيش السادس التركي ، وبعد ذلك مقر الفيلق الثالث عشر . واصبحت الموصل عام ١٨٦١ والبصرة عام ١٨٨٤ ولايتين مستقلتين ، فانقسمت ولاية بغداد حينئذ الى ثلاثة سناجق : بغداد . الحلة . كربلاء .

وفي مستهل القرن العشرين اختلط حابل السكان بنابلهم ، ولكن العنصر العربي - ظل فيها يمثل الاكثرية وظلت اللغة العربية اللغة العامة .

وكان الاتراك يفضلون سكنى الاحياء الشمالية ، واليهود (الذين كان لهم ٦ كنائس) والمسيحيون (٦ كنائس) سكنى الاحياء الشمالية والغربية من سوق الفزل . ويؤثر الفرس الاقامة في الجزء الغربي ، والعرب في جانب الكرخ دون سواه . وكان موقع المركز التجاري للمدينة في شرق الجسر وهو يؤلف اساسا اسواق السراي والميدان والشورجة وحوانيت الاعمشة .

جهز الانكليز خلال حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ حملة عسكرية اخترقت اراضي العراق واحتلت البصرة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٤ والقرنة في ٩ كانون الاول . واستولى الجنرال الانكليزي طاوتسند على كوت الامارة ، على طريق بغداد ، في ٢٨ ايلول ١٩١٥ ، ولكن القوات التركية صدت تقدمه . فاضطر الى التحصن بكوت الامارة وارغم على الاستسلام في ٢٩ نيسان ١٩١٦ . ثم حشد الانكليز قوات جديدة فشنوا هجوما حاسما واعادوا احتلال كوت الامارة في ٢٥ شباط ١٩١٧ ، ثم استولوا على بغداد في ١١ آذار التالي . وبالرغم من كون بغداد والعراق يعتبران حتى معاهدة لوزان (تموز ١٩٢٣) جزءا من الاقليم التركي ، فالواقع ان الانكليز جعلوا منهما

منذ هدنة ١٩١٨ مملكة عهدا بها الى فيصل الاول ، الذي تسلم العرش بصورة مهيبة ببغداد في ٢٣ آب ١٩٢١ .

واذا كانت بغداد احد المراكز الكبرى للفكر والادب العربي في زمان الخلفاء العباسيين ، فانها لم تشهد خلال الحكم العثماني الا ولادة او حياة عدد محدود من رجال الادب البارزين . ومع ذلك فمن المناسب ذكر بعض الاسماء : الشاعر فضولي ، الذي عاش في فترة احتلال سليمان القانوني لبغداد ، فكتب قصائد مدح للسلطان وبعض رجال الدولة العثمانية . وكان ابنه فضلي كذلك شاعرا مقلعا ، ومثله روعي البغدادي ، (مؤلف گلستاني شعراء) ، ونظيره عهدي بغدادي وذهني وعزيز وعلمي يحيى دده . ومن المؤرخين : مرتضى (مؤلف گلستاني خلفاء) وواصف افندي وشفقة افندي (مؤلف حديقة الوزراء) . ومن رجال القضاء : عبدالله السويدي وابو الشاء الالوسي . ومن الكتاب المحدثين تجمل الاشارة الى احمد هاشم ، المولود في بغداد عام ١٨٨٩ ، والمتوفى عام ١٩٢٣ ، الذي اصهر الى اسرة الالوسي ، صاحب مذهب الفن للفن .

ولنلاحظ اخيرا انه منذ عقود السنين الاخيرة للقرن التاسع عشر كان شباب الاسر الكبيرة يرحلون الى اسطنبول لاتمام دراساتهم فيها ، حيث الجامعة الوحيدة العصرية للامبراطورية ، فيدخل الطلاب ليختلطوا ليس بالشبيبة التركية المحلية فحسب ، وانما كذلك بالمجتمع العالمي للعاصمة العثمانية . فنعرفوا على الافكار السياسية والتيارات الفكرية الجديدة ، التي كانت ولا سيما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٨ ترج العقول رجا عنيفا وتأتي بتحولات عميقة في امبراطورية السلاطين العتيقة ، واذا كان النظام الجديد الذي انتصب في بغداد عام ١٩١٨ هو ثمرة السياسة الانكليزية للشرق الأدنى ، فقد وجد لتحقيقه رجالا ، رجالا عراقيين لم تكن الثقافة العثمانية لديهم كلمة عقيمة .

النثر العربي في بغداد

بقلم

شارل بيللا

الأعمال النثرية نادرة ، على الأقل الأعمال التي سجلت نثراً ، ذلك لأن النثر الأعظم من الوثائق الأدبية التي جمعها الأساتذة المعروفون تؤولف موضوع المحاضرات العامة التي قيل أن تثبت مادتها بالكتابة ، كانت تروى شفاهاً في لغة عارية من كل زخرف ، خرفاء ، جافية ، ولا تشكل مطلقاً هذه المحاضرات في الواقع جزءاً من الأدب الخالص ، ولكن يجب أن نحسب حسابها لأنها تحتوي على وثائق أساسية اجتهد المتأخرون في استغلالها معتمدين على رواية شفوية ثم كتابية ، ويجمل بنا أن نذكر أيضاً الأعمال التي حققها العلماء الأوائل في مجال العلوم الدينية ، ولكننا سنتمسك عن ذلك ، لأننا دون أن نرفض رفضاً باتاً كل قيمة فنية للأعمال الدينية الغزيرة ، أو للأعمال ذات الطابع الفلسفي أو الفني الذي يحمل تاريخ فترة الخلافة العباسية ، نرى من واجبنا ، في هذه المقالة الوجيزة قصر أنفسنا على الإشارة إليه إشارة سريعة ، لنشغل أنفسنا بنشر الأدبي الخالص سواء كان مرسلاً أو مسجوعاً ، وبمختلف تفرعات الأدب الذي رفع مناره ابن المقفع .

على نهج التقليد الإيراني استوحيت الأعمال الأدبية الأولى من الاهتمامات التعليمية وتوجهت إلى عظماء العالم على وجه التخصيص والتقريب . وهي مع حرصها على أن تكون مسلية القراءة عذبتها ، فإنها تعرض قواعد سلوك الملوك والأمراء ، وهي تقص علينا أخبار الوزراء وعلية القوم ونواديرهم ، وتورد لنا كذلك مبادئ الأخلاق ، مع تعزيز كل ذلك بحكايات تهذيبية . وربما كان أول ممثل لهذا النوع كتاب ثعالة وعفراء لأمين بيت الحكمة سهل ابن هرون (م في بداية القرن الثالث) وقد ضاع هذا الكتاب المشابه لكتاب كليله ودمته ، كما اختفت كل

يتفق مؤرخو الأدب على الاعتراف بأنه إذا كان قد ولد نثر عربي متردداً وناقصاً ، في مطلع الإسلام ، ولكنه ترعرع واستوى على ساقه بعد ذلك ، بفضل جهود عدد متزايد من علماء تشبثوا بصورة رئيسية بالعلوم الدينية في تكوينهم ، فإن الفخر بخلق نثر أدبي حقيقي يعود إلى كتاب الدواوين الأموية الذين من بينهم يتالسق اسم عبد الحميد الكاتب (١٢٢ - ٧٥٠) . فهو مؤسس فن الرسائل ، وكذلك ابن المقفع ، صاحب المبادرات الفنية الجديدة في النوع المعروف باسم الأدب . لقد حمل ابن المقفع إلى أعظم المثقفين من معاصريه تجديدات كبيرة للغاية من حيث المضمون والشكل . لقد اكتشف لهم في اللغة العربية بنابيع لا يتطرق إليها الشك . فالحكم القصيرة الوعظية للسامية القديمة ، تخلت عن مكانها في كتاباتها ، إلى التنامي الواسع الدقيق للمفاهيم الجميلة العامة . فاحتلت محل الجمل القصيرة المتزاوجة بسداجة لأرباب النثر ، مقاطع ذات مفاصل متعددة ، حاملة ، بيرئسي ودون الإخلال بالتوازن ، حشداً من الأحداث المتنوعة . ولكن بحكم هذه التصرفات الظالمة للقدر الشاحصة على مجرى التاريخ ، حدث بالضبط في مستهل سلطة السلالة العباسية ، خلال سنوات معدودات فقط (١٣٩ - ٧٥٧) قبل تأسيس بغداد (١٤٥ - ٧٦٢) أن نفذ حكم الإعدام بأمر المنصور بهذا المزدكي الذي اعتنق الإسلام ، في حين أصبح انتاجه مثلاً يحتذى ، أو على الأقل كنقطة انطلاق لأجيال النثرين التي بوسع عاصمة الخلافة الجديدة أن تزدهر بهم ، وهي على حق .

وإذا كان الشعر من النمط الكلاسيكي قد ازدهر في منتصف القرن الثاني للهجرة . والشعر « المحدث » في طريقه إلى التكوين ، فقد ظلت

أنار سهل الأخرى ، اللهم إلا رسالة في البخل أرثاني الجاحظ ادراجها في كتابه البخلاء .

هذا الادب . من النسق الذي تريد ان ندعوه بالتقليدي ، سيدوم وسيتمقرط ، بهذا الاتجاه الذي سنرى منه في بغداد ازدهار سلسلة من الكتب الممتعة القراءة نوعا ما والمكرسة لتعليم الاخلاق والتكوين الفني للجماعات المتباينة والاصناف الاجتماعية التي اخذت بالاتساع شيئا فشيئا : كتاب الادارة ، القضاء ، معلو المدارس ، الخ . . . ويريأ ادب الكاتب او ما نسميه الرفيق الملازم او الكتاب المفضل vade mecum لكاتب ديوان الانشساء ابن قتيبة كيف يستطيع نوع ادبي اصل ان ينتهي الى كتاب مدرسي او مهني بسيط .

عبر تلك الفترة لم تنتشر انواع جديدة كالتاريخ والجغرافية بصورة محسوسة فحسب ، بل كذلك الادب ذو الجذر الساساني الذي ، ولتكرر القول ، يهدف الى التعليم والاياناس معا ، وقد تفرع الى عدة فروع ، فالعصر المسلي انجب نوعا مستقلا ، والغاية التعليمية سمحت باحتضان عدة فنون مختلفة ، متممة بسمة ايسط والطف واقل تجهما . فالبنية التحتية من النمط الجديد لهذا الادب ، الذي تحول من ايراني الى عربي اسلامي ، وفرته التراجم من الفهلوية واليونانية ، وبدرجة عليا ، جمهرة المعارف ، التي جمعها العلماء المتبحرون في العلوم اللغوية ، من بداية الاسلام ، وذلك بلم اشتات تراث العرب القدماء ، فكانت هناك موروثات قبلية وامثال واشعار وتجارب شخصية . وعلى المستوى الثاني ، جمع المحققون نتاج جهودهم في كتب علمية قليلا او كثيرا . وبانتشار صنع الورق ، بدأت هذه الاسانيد تأخذ طريقها الى التقييد كتابة . ونسخ النساخون منها اعدادا ، لأنها تمهم جمهورا لا بأس بضخامته . وفي نهاية القرن الرابع استطاع الوراق ابن النديم ان يكتب فهرستا ، جزئيا دون شك ، ولكنه نسق الطريق بسعته امام فهارس اخرى من هذا النوع . لم يحتفظ بها وجه العموم حتى يومنا هذا ، لان كتبها اخرى اعم جعلت هذه عديمة الفائدة .

ومن هذه الكتلة المتناثرة اجزاؤها حتى اليوم ، والفوضوية والمفرطة في الضخامة والموسوعية ، التي لا تستطيع ارجح العقول هضمها ، من هذه الكتلة ستستخلص المعطيات التي ستأسس عليها الثقافة العربية الاسلامية الدنيوية ، وفي كل مكان سيقوم عليها النشر الذي سيزدهر قبل كل شيء في بغداد ، وبصورة جوهريّة .

اصبح الواجب الاول من ذلك الوقت للكتاب

المتنبهين الى حاجات الجماعة التي يعيشون بينها ، والحريصين على بناء روحها وذوقها ، ان يوجدوا مختارات وان يقدموا الى معاصريهم ، الراغبين في تثقيف انفسهم دون ان يتيهوا في التفاصيل العقيمة او الثانوية ، تأليفا بالغ الفنى نابها لئلا يحسدوا الافق ، مع تقديم الماهية .

واذا كانت الثقافة ما يبقى حين ننسى كل شيء ، فانها في بغداد ما يبقى عندما تطرح التوابع عن رضى وطواعية . والخطر يكمن في ان الجوهر يوشك في يد الاغرار ان يرفض لمصلحة التوابع . وهذا ما لم يلبث ان وقع .

ومع ذلك فالفضل يعود الى الجاحظ (م ٢٥٥ ٨٦٨) في انجاز اول غريلة ، واقامة معيار منصف عقلاني لمختلف العناصر الثقافية ، وتقديم توفيق بين المعارف المفيدة « للانسان المهذب » في عصره . . . لم يكن هذا الكاتب الموفق المرموق بغداديا ، ولكنه عاش نصف قرن في العاصمة ، التي كانت الاوساط الثقافية فيها يتألف معظمها بالضرورة من اشخاص من الاقاليم جرهم القصر الذي جاءوا يبحثون فيه عن استثمار مواهبهم . كم من الشعراء ولدوا في البصرة او في دمشق جربوا فيه حظهم ، وكم من النحاة والمحدثين والفقهاء والمتكلمين هجروا واحدا بعد الآخر اربافهم وهي مساقط رؤوسهم ، في محاولة لاعلاء شان اسمائهم ، وكسب اقواتهم بصورة وافرة - قرب السلطان - لاغرابة في ذلك كله ، ولكن المغزى الاكبر يكمن في ان يدعى الجاحظ ، وكان مغمورا في البصرة ، الى تأليف كتاب عمن الامامة ، وان يستندى بعد ذلك الى القصر لتلقي التهناني من المأمون ، واخيرا وضع مواهبه في خدمة العباسيين .

صحيح ان الشعراء لم يكونوا نادرين حول العواهل الذين يكرسون لهم اماديع من الطراز الكلاسيكي او المحدث ، ولكن الشعر لم يعد يمارس على انسامعين وعلى رعايا الخليفة نفس التأثير الذي كان يحدثه في عهد الامويين . والان ، بعد استيلاء العباسيين ، ينبغي التوجه الى العقل اكثر من التوجه الى القلب ، والاقناع بواسطة الوثائق المشغولة باتقان وامعان ، ومهمة كهذه لا يمكن النهوض بها الا بالنشر . اذن فقد نصب الجاحظ من نفسه محاميا للسلاطة وكتب كراريس صرح هو نفسه بانها انتشرت في انحاء الامبراطورية على الفور . ذلك لان هذا النشر السياسي الذي يحمل طابعا جديدا كل الجدة هو في عقل السلطان ذو طبيعة تجمع المعارضين حول السلاطة ، وهم الاكثريّة . ولا بد اننا متشوفون الى

معرفة النتائج الواقعية لهذه الدعاية ، ولكن ما نعلمه هو أن الجاحظ اصطدم في أحيان كثيرة بخصوم عنيدين لم يترددوا بنقض كتاباته ، بنشر هو أقل مرتبة فنية من نشره . والسفاه ! . . . والجاحظ هو نفسه يبلغ به الأمر أن يؤلف إمداح نثرية ، وأهاجي ومرائي ، وعلى هذه الصورة يبادي الشعراء على صعيدهم الخاص ، وهذا الانقلاب في مواقع الطريقتين الرئيسيتين في التعبير ذو طابع متميز ، بحيث أن الأستاذ هـ . أ . ر كيب جعل النشر في النصف الأول حين واجه الفترة التالية ، وكان أعطى الموقع الأول للشعر في القرن الثاني للهجرة ، وذلك في مقاله الجميل المكرس لتاريخ الأدب العربي ، في دائرة المعارف الإسلامية .

لا نستطيع ، ونحن بصدد دراسة عن النشر في بغداد ، ردع أنفسنا عن التوسع المطول في الجاحظ ، لا بسبب التأثير الذي أحدثه في خلفائه وهو ضئيل نسبياً ، لأن أصالته وشخصيته كانتا قويتين بأفراط بحيث استطاع إنشاء مدرسة حقيقية لنهجه ، وإنما لإقامة نوع رصيد لنشاطه وقد مارس على وجه التقريب كل الأنواع التي انتشرت في اتجاهات كثير اختلافها أو قل .

لقد حافظ الجاحظ ، بوصفه أدبياً قبل كل شيء ، على طريقة الكتاب إلى حد كبير ، فكتب عدة رسائل ذات طابع نصلي واضح ، ولكنه وسع أفق الأدب بمعناه المريض فجعله يشمل حتى العلوم ذاتها ، والنقد الأدبي والجغرافية بل وعلم الحيوان ، وابتكر أخيراً ، بفضل عقله الملاحظ ، شكلاً من الأدب الشخصي الذي ينصب على تصوير الأخلاق والمجتمع ، دون الانقطاع عن تكريس جزء من نشاطه للمشاكل السياسية والدينية ، كما رأينا ، طالما هو مناصر متحمس لمذهب الاعتزال . وهنا لم يسلك الطريقة الأدبية التي اختطها لنفسه بمزج الجد بالهزل ، ولكننا في كتاباته الأخرى نراه شديد الحرص دوماً على تعليم الناس وهو يمازحهم ويداعبهم وبماشهم ، فيمزج الجد بالهزل ، ليس دون السقوط أحياناً في وهدة الابتذال . وقد يفلح حيناً بيث الانسجام في كتاباته المشوبة باللونين ، وحيناً آخر يصد منا بأقواله ويخزنا .

ويعترف هو نفسه باستهائته بالمحاولات التي حاولها معاصرون له بهدف خلق أدب خيالي أصيل ومسل . وهو يقوم بشطره الأعظم على الموروث النبوي الذي يظهر مشوهاً ومزوقاً في قصص الحب

التي حفظ لنا الفهرست عناوينها ، ولكن ينبغي الاعتقاد بأنها كانت هدى تعليقاً عابرة ، لأنه لم يبق منها عملياً إلا بعض الشذرات الناجية ، ولا سيما ماصانه أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني .

وعلاوة على قصص الحب ، فإن الفهرست يعدد جمهرة من المكتوبات التي ، إذا حكمنا بعناوينها ، حملت على الضحك والإثارة الجنسية والأدب البذيء في مقولات أدبية لاشك أن الجمهور البغدادي كان يستملحها ، وكانت كذلك عامرة بالحكايات الطريفة والأخبار والنكت التي كان البغداديون المحترفون يارعون في تزويقها لابن ساس زبائنهم . وهناك مجاميع فكاهية الفت في هذه الفترة ، ربما تكون المجموعة المنسوبة إلى جحا الوحيدة التي صارت الزمن ، ولكن بعد مسوخات أو شك لا يبقى معها شيء ذو قيمة من المجموعة الأصلية ، أن معظم الآثار التي جئنا على الإشارة إليها غفل من أسماء مؤلفيها أو هي منسوبة إلى مؤلفين معروفين . كابي العباس الصيمري ، ولكنها قبع في الظلام بفعل الجاحظ الذي هيمن نشاطه على النصف الأول من القرن الثالث بأسره .

بعد موت الجاحظ ، نستطيع اعتبار النشر الأدبي قد بلغ أشده وارتفع إلى قمة بمستواها لن يقدر ثراء العصور التالية بلوغها إلا نادراً . والواقع أن فن الجاحظ يقلت من كل مقارنفة ، والنقاد المظلمون على حقيقة الوضع قدروه فأحسنوا تقديره بانخاذ لقبه شعاراً لتعبيرية الأدبية ، دون أن يخبرونا مع ذلك بما أعجبهم في كتابته ، ذلك لأن الشعر (بالاستقلال عن القرآن بالبدئية) هو في نظرهم جدير بأن يكون محل تحليل أسلوب .

وإذا كان ينبغي تشخيص أسلوب الجاحظ بكلمات معدودات ، فبوسعنا القول أنه يتميز بسعة العبارة المؤلفة من جمل مقطعة أو من تفريمات تبرز فيها لفظة ذات غنى خارق بشكل يتألف من أمثاله وحدة كمية غالباً متساوية أو متجاوزة وبمعنى مماثل أو مضاد ، دون أن تستعمل القافية إلا عرضاً ، ويحدث أن تقطع جملة صفحة كاملة ، وهذه النفحة غير المعتادة ما زالت إلى الآن تشوش الناشئين الذين يقع لهم أما نسيان أداة لا غنى عنها لهيكل الجملة ، أو وضع نقطة والمضي إلى سطر في قلب العبارة . صحيح أن الجاحظ ليس مؤلفاً سهلاً وأن الأفكار ، المضطربة شيئاً ، لا تتسلسل لديه دائماً بشكل غاية في الوضوح . إذن نفهم من ذلك أن أجزاء دائرة الكلام نقلت أحياناً من أولئك الذين لم يكرسوا أنفسهم للتحليل المنطقي .

ولو استطاع ضبط نفسه ، لكان من الصعوبة ضمان وارث له ، ولكن وجد من يضبط نفسه ، لاشغال واجهة المشهد ، بعقل منهجي منسق ، ونعني به ابن قتيبة (م عام ٢٧٦ - ٨٨٩) . فباستفادته من انعدام الثقة الذي غرق فيه المعتزلة منذ منتصف القرن ، فان « محدد الخلافات » هذا ، اذا سمح لي بهذا التعبير ، اجهد نفسه باحلال الوفاق في الصفوف المنتصرة ، ووضع القول المأثور موضع التطبيق « خائف تذكّر » فنصب نفسه خصما للجاحظ بعد موته .

واذا كان ابن قتيبة فقيها ونحويا قلبا وقالبا ، فانه كان بعيدا ، كل البعد عن امتلاك الروح المفتحة واسلوب سلفه ، ومع ذلك فانه هو الذي ثبت حدود الثقافة العامة ، بتحديد حقلها ، مع همه في الوقت نفسه ، كما يبدو ، بتنمية قوامه الديني . والجاحظ بوصفه معتزليا صحيحا لم يفصل بطبيعة الحال الثقافة الدينية عن الثقافة الدنيوية ، ولكنه استعان بالعقل والمنطق لاستغلال المنابع الثلاثة الرئيسية للمعارف العامة : الانسانيات العربية ، المؤسسة بسعة على السنة البصرية ، الهلينية ، وبمقياس أضال ، الحضارة الهندية الفارسية ، فأحسن الاستغلال .

ابن قتيبة ، بوصفه معتدلا قحاً ، وضع النقاط على حروف الشريعة السمحاء ، وفي المجال الدنيوي اجتهد في تنسيق الأسانيد وتصنيفها ، وكانت مشوشة مبثورة ، وازدادت اقساما وفروع اقسام ، وبكلمة ، نظم واستأنس الثقافة العربية الاسلامية ، وفي الوقت نفسه وجهها ومهرها باطار بالغ الاستقرار . على انه نزر الحساسية تجاه التأثير الاغريقي ، اذ اعطى الاولوية للسنة الكونية واخلى للثقافة الايرانية ، التي كان الجاحظ يرتاب منها ، وهو على حق ، موضعا افسح ، ولم يسر بعمله هذا الى كتاب الدواوين الذين فقدوا بالتدريج ، خلال القرن الثالث ، تفوقهم في المادة الادبية .

ولم يكتف بجعلهم يلمسون باصابعهم وبتأليف كتاب عملي لهم ، هو كتاب ادب الكاتب ، وانما قدم لهم ، صنع الرجل المهذب ، موسوعة ادبية ، هي عيون الاخبار ، على تقيض الجاحظ الذي حدد نفسه في حقل النقد بقذف افكاره في البيان والتبيين كيغما اتفق ، اذ كرس للشعر كتبا ضخمة بينها مختارات منسقة ، اعني كتاب الشعر والشعراء ، الذي ظل حتى يومنا هذا وثيقة مفيدة . ولكنه فرض مختارات تحكيمية بعض الشيء . ويكتب كذلك كتابا يمكن ان نصفه بالادب التاريخي ، هو كتاب المعارف ، يجمع فيه المطيات التاريخية التي براه

يجب ألا يجهلها مسلم مثقف . وهذه الكتب المدرسية لم تنقطع عن التمتع ، في الاوساط الناطقة بالعربية ، بشع لم يعبر عنها تعبيرا جيدا ، ولكنها انالت مؤلفها شرف الاستشهاد به كثيرا في نفس مجال الجاحظ . ومع ذلك فان الرجلين مختلفان جذريا كل الاختلاف ومتعارضان في كل النقاط . مقابل ذلك ، اذا لم نعتبر الا كتاب المعارف ، ثمة مقارنة ممكنة معقولة مع معاصر لابن قتيبة هو يعقوبي (م حوالي ٢٨٨ - ٩٠١) . فان موازنة بين كتاب المعارف وتاريخ يعقوبي - الذي هو ليس بمؤرخ - ولكنه اديب - تكشف على الفور ثدي هذا الاخير عن سعة في النظرات وعن تطلع الى الشعوب الغريبة عن الاسلام ، التي تحمل على التفكير بان المعتزلة وجدوا في بعض الفرق المعتدلة الورثة اللاتين بهم .

وفضلا عن ذلك ، فقد حدث ان ذكر يعقوبي في عداد « الجغرافيين » . ونحن نعلم ان الاعمال الجغرافية الاولى قد لوححت بها اهتمامات ادارية وسياسية ومالية ليس لها اي علاقة بالادب .

ومع ذلك فان الجاحظ ، الجاحظ ايضا ، مد الادب الى هذا العلم ، والف كتابا اسمه كتاب البلدان المفقود في يومنا هذا ، ولكن شذراته النادرة المحفوظة تحتوي على ماثورات وحكايات اسطورية عن عدة مدن ، ونظم كذلك ملامح يمكن ادراجها دون مشقة في دراسة عن الجغرافية البشرية .

في هذا الحقل يكون الوارث الحقيقي المحامي للجاحظ معاصرا لليعقوبي ويحمل اسم ابن الفقيه الذي يدخل كتابه البلدان في نطاق الادب الخالص ويتعد كثيرا عن الجغرافية العلمية . والخلاصة اننا لا نعلم على وجه اليقين ما اذا كان ابن الفقيه بغداديا ، بل بوسعنا التردد في حسابان يعقوبي في عداد كتاب العاصمة . وعلى كل حال فان كتاب البلدان لهذا الاخير هو من الجغرافية الوصفية ، وبهذه الصفة يبرز كوجه رائد . وسيمالج هذه الفترة من الجغرافية في القرن التالي مؤلفون اهمهم المقدسي الذي لم يكن بغداديا (كتابه في ٢٧٥ - ٩٨٥) .

على ان الكاتب الذي يذكرونا مباشرة باليعقوبي مولود في بغداد ، اي المسمودي (م عام ٢٤٧ - ٩٥٨) ، الذي ارتأى ان يقدم التاريخ والجغرافية بصيغة لذيدة . وهو لا يغالي الى حد ترصيع كتاباته بالنوادر المسلية ، كما كان يصنع الجاحظ ، وانما يحرض على عدم الاملال فيطلع على الدوام تقريبا . وبما انه رحالة كبير وعقلية متشوفة فهو يلتقط من الاقطار التي يزورها معلومات اصلية يضيف اليها وثائق يستعيرها من اسلافه ، ويخرج هذه كلها

فغننيا بأسلوبه ، بحيث أن غيرته على الأناقة تؤدي به الى قلب معاني بعض النبد المنسوخة من كتب أخرى راسا على عقب ، ولا يتردد في كتابه مروج الذهب عن ادراج فصول حول الامم اللامسلمة ، وانشاء ثبت بملوك فرنسا حتى عصره ، كما قام بنفس الصنيع اليعقوبي ولكن بتوسع اكثر ، أما عن التاريخ الإسلامي فلا يستبقى الا التفاصيل التي يتصورها واخره اكثر من سواها . ويتنعد عن ايراد كل الحوادث عن حكم اذا استوخم ظلها .

وعلى ذلك فان مسألة معرفة ما اذا كان انتاج المسمودي كما نعهده من التاريخ او من الجغرافية او مجرد كونه ادبيا ، فانا نستطيع ان نجيب على ذلك بدقة : المسمودي اديب يعرف ان الضجر يتولد يوما . . . من الرغبة في قول شيء ويجهد نفسه في شد قرائه اليه وهو يقص بلغة مستساغة وبصورة عامة واضحة ، الوقائع التي يحسبها الأهم والأجذب .

لم تكن حالة المؤرخين الحقيقيين بال تأكيد على هذه الشاكلة ، وهم الحريصون على ان يكونوا واضحين ، وعلى الا يتركوا شيئا في العماء ، فجمعوا الاحاديث وتركوا الصدارة للعلم لا للادب ، مع اننا نستطيع ان نكتشف لديهم صفحات جميلة من المختارات : وعلى هذه الصورة البلاذري (م نهاية القرن الثالث) او الطبري (م عام ٢١٠ - ٩٢٢) . وهما اعظم ممثلين لهذا العلم . ومع ذلك ، فبعد هذا بقليل كتب الصولي مذكرات شخصية عن التاريخ البغدادي الذي اتبعه بمختارات من القصائد نظمها امرء عباسيون او شعراء من حواشيهم ، والف كذلك لكتاب الدواوين كتاب ادب الكتاب المختلف بصورة محسوسة عن كتاب ابن قتيبة .

ثمة شكل آخر من التاريخ يمثل ابو الفرج الاصفهاني (م ٢٥٦ - ٩٦٧) في كتاب الاغانى ، حيث يجمع اشعارا واخبارا عن الشعراء والموسيقيين وشخصيات المجتمع الكبرى . هذا الكتاب الهائل ، الذي يمكن تصنيفه مع كتب الادب ، له قيمة وثائقية عليا ، وهو يتحفنا بطائفة من المعلومات لا نستطيع العثور عليها في مكان آخر ، لان الشطر الأعظم من مصادر ابي الفرج مفقود .

هناك وجهة نظر تقول ان كتاب الاغانى يعتبر كتاب نقد ادبي ، هذا العلم الذي احتل في تلك الحقبة منزلة رفيعة ، وكان مترجرا لدى الجاحظ واكثر منهجية لدى ابن قتيبة ، فاصبح تقنيا فنيا عند ابن المعتز (م ٢٩٦ - ٩٠٨) الذي يفكر في كتابه البديع بتصنيف الصور البلاغية ، ولا سيما لدى قدامة (م نحو ٣٢٦ - ٩١٨) الذي يؤلف فنا شعريا

حقيقيا . وجاء بعده ابو هلال العسكري (م بعد ٤٠٠ هـ - ١٠١٠ م) مستوحيا الجاحظ ، فعرض بطريقة منهجية مواعيد البلاغة العربية ، في حين حرص معاصره البافلاني (م ١٠٣ - ١٠١٢) على اقامة الدليل على اعجاز القرآن .

لا نجد اي شيء ، في هذه الكتب ، حول نشر الكتاب العرب ، ولا نستطيع ان نكون فكرة عن الاذواق النقدية الا في بعض المختارات والمجاميع . تلك الاذواق التي قصرت نفسها على ايراد المتطوعات التي استهوت مختاريها ، دون تبرير الاختيار .

زبدة القول ان الادب استحال بمعناه الصحيح ، بعد ابن قتيبة بالضبط ، الى منتخبات ومجاميع تختلط فيها العناصر المختلفة للثقافة العربية الإسلامية ، حيث تجتمع المعطيات المتباينة عن الشعر والتاريخ والاخلاق والسياسة ، الخ . وبالأجمال فان هذه المؤلفات النافعة لا تقدم اي امالة ولا تعمل اكثر من صيانة التراث : الكامل في الادب للنحوي المبرد (م ٢٨٥ - ٨٩٨) برهان ساطع على ذلك .

من النوع الترفيهي صدرت بعض المؤلفات القيمة ، وعلى سبيل المثال جمع التنوخي (م ٣٨٤ - ٩٤٤) امثالا ونوادير وماتورات وحكايات تناقلها القضاة اكثر من سواهم ، عن موضوع الفرج بعد الشدة في كتابه المشهور ، وجمع من كل حديقة زهرة ليؤلف كتابه نشوار المحاضرة . اما ابن الجوزي (م ٥٩٧ - ١٢٠٠) فهو رغم كونه فقيها ، اديب كامل يخيل اليانا انه لم ينصف حتى الآن .

ان ملاحظة البيئة الاجتماعية ، التي استمد منها الجاحظ بفزاره ، لم يتسع لها عدد صغير من المؤلفات ، التي تتميز مع ذلك باصالتها وطابعها الشخصي عن بقية المؤلفات الأدبية التي قوامها الاعظم الشواهد . فالوشاء (م ٢٢٢ - ٩٣٤) يستلهم الجاحظ ولا سيما في كتابه الموشى ، الكتاب المغربي للغاية وموضوعه احوال الاوساط المتميزة ومتانتي عصره . وابتكر ابو المطهر الأزدي (القرن ٤ - ١٠) نوعا بالغ الجودة في رسم لوحة منتزعة من الحياة البغدادية واخلاقها وفي جملة احد الاشخاص يصف مناهد حية من الواقع . والرابطة التي يمكن ان توجد بين انتاجه ونوع المقامة منكور ولا يمكن مناقشته هنا ، ولكن مما لا مشاحة فيه ان ابا المطهر يحتل مكانة خاصة في نطاق تاريخ الادب العربي . . .

بعد انقضاء بعض الوقت نجم بدوره نائر آخر هو ابو حيان التوحيدي . فانتج بمهارة احاديث تتسم على الاخص بالطابع الفلسفي ، ورسم لوحات

ساخرة لاذعة لمعاصريه (ولا سيما لابن عباد وابن العميد) والف رسائل تذكرنا بالجاحظ . ولا شك ان التوحيدي هو الممثل الاعظم والاخير في سلالة اكبر نائر للقرن الثالث ، الذي يدعي التوحيدي انتسابه الى طريقته ويعلن اعجابه به ، ويتفرد ثمره اللامع جدا بمزية عدم الالتجاء الى الاسجاع ، في فترة اصبحت فيها هذه الحسنات اللفظية شبه اجبارية في ادب الرسائل واعمال كتاب الدواوين ، فباتت سيدة الموقف في الاوساط التي كان يرتادها ابو حيسان .

ان كتاب الدواوين الذين كانوا شبه محتكرين في ايام الامويين وعهد العباسيين الاوائل لاستعمال النثر المسجوع ، جاء الجاحظ فاطفا نجمهم . واذا كانوا استعملوا الرسائل ، كوسيلة للتقديم ، فعلى الاقل اضطروا للتكيف مع طريقة تلك الفترة وتحجير وثائقهم في نثر بسيط ، دون افتعال مفرط . ومع ذلك ، وبعد ان اتبعوا هذه القاعدة خلال القرن الثالث ، استدرجوا ، دون شعور منهم ، الى تزويق كتاباتهم ... الى استعارة جزء من وسائل الشعر ، فاحبوا النثر المسجوع ، الذي لم يجرؤوا على استعماله بصورة منتظمة ، احتراماً للنص القرآني ، فنشروا قابلية لم تلبث ان استحالت الى بهارج لفظية . وهكذا حين وضع كتاب الديوان في الدرجة الثانية اخذوا بثأرهم فدبحوا بتحدائق مقيت ليس المراسلات الرسمية فحسب ، وانما رسائلهم الخاصة ايضا واعمالهم الادبية . ودفاعا عن بغداد ينبغي القول ان هذه البدعة الجديدة التي تفشت في الادارة عمت خارج مدينة الخلفاء ، التي اصبحت من ذلك الوقت محرومة من طابعمها كعاصمة امبراطورية ، فالوزيران البويهيان ، ابن العميد (م ٣٦٠ - ٩٧٠) الملقب ظلما وعدوانا بالجاحظ الثاني ، وابن عباد (م ٢٨٥ - ٩٩٥) تمتعا بهذا الصدد بشهره يستحقانها . ومع ذلك فان استاذ النثر المسجوع الكبير هو بديع الزمان الهمداني (م ٢٩٨ - ١٠٠٧) مبتكر نوع المقامة ، ولم يحظ اي بغدادي بالتسمي باسم هذا النوع الادبي حقا ، الذي توج في القرن التالي باسم نحوي من البصرة هو الحريري (٥١٦ - ١١٢٢) .

ان بغداد التي تالقت بشماع لا مثيل له اثناء ما ندعوه بـ « العصر العباسي الاول » ، الذي نهضت خلاله الحضارة الاسلامية ، قد مني بصدمة قاسية ايام حكم البويهيين . اما في عهد السلاجقة (من ٤٤٧ - ١٠٥٥) فقد كتفت بالعيش على مجدها السالف . وعجل انشاء المدرسة النظامية بانحطاطها وذلك بفرض مانتعته بالمدرسية . وقد اتم استيلاء

المقول على بغداد (٩٥٩ - ١٢٥٨) خرابها ، ومن ذلك الوقت اصبحت مركز النشاط الادبي في اقطار ناطقة بالعربية ، ويقع اكثرها غربا . وما يزال بعض البغداديين يرد ذكرهم في تاريخ الادب ، ولا سيما النحوي عبدالعادر البغدادي (م ١٠٩٢ - ١٦٨٢) الذي اسهم في مجهودات مؤلفي الموسوعات ، بتأليفه فيما الف ، كتاب خزانة الادب ، ولكن في القاهرة ، لافي بغداد .

ان الحدود الضيقة التي ارتضيتها للمقالة الراهنة . واشار كاتبها للنثر الادبي الخالص ، فرشت استبعاد كل النشاط الديني والفلسفي والعلمي ، الذي كان اطاره عاصمة الخلافة ، والذي كان في القرنين الثالث والرابع خاصة على كثافة هائلة . وتاريخ بغداد للمحدث الخطيب البغدادي (م ٤٦٣ - ١٠٧١) المكرس مبدئيا لعلماء الدين الذين عاشوا فيها ينفج بذاته بوثائق واسعة لمن يريد ان يسطر بالتفصيل النشاط الفكري للعاصمة ، ويقدم مسردا بالمؤلفات النثرية التي كتبت . ويتواضع اكبر ، لقد حاولنا متابعة خط الدرر ، مسدلين ستار الصمت على المؤلفين الذين نعتبرهم ثانويين ، بهدف ابراز الاسماء الاشهر والامع . وهناك اربعة مؤلفين جوهريين : الجاحظ في عهد الاعنزال ، وابن قتيبة اثناء عصر الاحياء (الرئيساس) ، المسعودي في العهد الذي سماه لويس ماسينيون « العهد الاسماعيلي » ، واخيرا التوحيدي الذي ظهر في ايام البويهيين كأحد الرماة الاحرار واخيرا التوحيدي الذي ظهر في ايام البويهيين كأحد franc - tireur او المناضلين ، وراى نفسه متهمه ، خطا ولاشك ، بالزندقة ، ولا نكاد نجد في تاريخ عام للادب العربي ، اسما لامعة كهذه الاسماء ، للفترة والانواع المعتبرة . وهذا يثبت بجلاء تفوق بغداد الفكري خلال الحقبة الزاهية للخلافة العباسية .

ومع ذلك هناك احتراز يفرض نفسه . ففي تقييمنا للادب نحن ضحايا الزمن والناس الذين اثلفوا - عمدا او سهوا - جمهرة من المخطوطات . فان اختفاءها يحرمنا من مصطلحات مقارنة لا غنى عنها ، ويجعلنا نؤدي غرامة النقد العرب ، ولكن من المحتمل ان هؤلاء الآخرين لم يكونوا متوهمين في حكمهم ، وانهم عرفوا الاعتراف بقيمة أعمال اجدادهم الذين استأهلوا الوصول الى الابناء . ينبغي فقط تمنى ان يسمح اكتشاف المخطوطات الجديدة بتصليح بعض اخطاء المنظور ، وتوفير التكرير المستحق لكتاب ربما نسوا بدون حق .

تيمورلنك في بغداد

بقلم

جان أوبان

واحدة (٢) جعلته يقف امام بغداد وجها لوجه في ٢٩ اغسطس ١٣٩٢ (٢) في حين لم يكد يبدأ مناخ بلاد ما بين النهرين الصيفي المتهب بالانخفاض والتلف . لم يدع هذا الزحف الصاعق للعاهل الجلائري السلطان احمد الوقت الكافي لاتخاذ اي اجراء كان . ومع ذلك فان هدف الحملة ، الذي انحصر في القاء القبض عليه حيا او ميتا ، لم يتحقق ، فقد اشمره الحمام الزاجل في المشية السالفة بخطر وصول العدو ، وعشا ارسل اليه تيمورلنك حماما آخر يحمل رسالة تصحيحية تعلن بان سحب القبار التي ظن الظانون ان الجيش التيموري قد اثارها ، لم تكن الا من آثار قطعان الماشية المنقلة .

لقد انسحب السلطان احمد الى الساحل الايمن من دجلة وجر معه كافة السفن والزوارق التي لم يقدر لها ان تفرق . اما الجيش التيموري فلم يتوقف تحت اسوار بغداد . بل اخترق النهر فطوق الاسوار من اعلى النهر واسفله . وسحب تيمورلنك النهر على يخته الملكي الذي يدعى الشمس ، وقد جلب اليه من الضفة اليمنى . فأضاع عليه الذهب والاياب بعض الوقت . فاعترف بعد ذلك لخلصائه بقوله : لو في اللحظة التي وصلت فيها اندفعت الى الماء واجتزت دجلة ، لكنت قبضت على السلطان احمد . ولكن بما انني توقفت ، فقد فاز بمهلة ، وبمضي الزمن الذي انفقته الجنود في العبور استطاع الابتعاد عنا مسافة (١) . وقد ثناه الامراء عن قيادة حملة لتعقبه بنفسه ، وفي حين كانوا

لم تعد بغداد منذ الغزو المغولي عام ١٢٥٨ سوى عاصمة اقليمية . فليس من سفر للحجيج العراقي . وباحتفاظها بالمدارس التي بفي للتعليم الديني فيها بعض المنزلة ، ظلت بغداد ماثوى للحياة العقلية . وتكونها مرحلة على الطريق بين الخليج العربي والقفقاس ، لبثت كما كانت ، رغم مساحتها الضيقة ونشاطها العمراني المتخلق حول الجانب الشرقي من دجلة ، مركزا اقتصاديا له أهمية نسبية .

ان الامراء الجلائريين ، الذين اقتطعوا لانفسهم ، بعد سقوط الايلخانيين ، مقاطعات ذات تركيب اصيل شمل اذربايجان وبلاد ما بين النهرين ، فانخذوا من بغداد عاصمتهم الصيفية ، استدرجوا الى قصورهم الادباء والفنانين . ولكن هذا الاشعاع الفني الوليد تبرد من جراء تدفق غزو جديد ات من آسيا الوسطى ، هو غزو جغتاي تيمورلنك .

في عام ١٣٩٢ شرع تيمورلنك بضم ايران الغربية ، وبالتالي ، الدولة الجلائرية . وكانت الحملة على بغداد تحمل طابع العبقرية العسكرية للقائد الكبير . فالجيش الجغتائي ، الذي عسكر في الهضاب العليا لغربي ايران تلقى في منتصف اغسطس الامر بالتزود بالقطع الخشبية لعبور دجلة بوسائله الخاصة . وقد اعطيت اشارة الرحيل في ٢١ اغسطس . وكان تيمورلنك يقود الطليعة بنفسه وبسرعة غاية في الخفة ، بحيث انه ، كما قال احد المؤرخين : « لم تستطع الخيالة الخفيفة اللحاق بقبار افراس الفارة له » (١) وان الكيلومترات المائة والاربعين الاخيرة التي طار بها تيمورلنك مرة

(٢) خوانفيمر ، حبيب السير ، ط خيام ، ٣ ، ص ٥٦ .

(٣) ٢٠ شوال ٧٩٥ ظفر ناه .

(٤) حافظ ابرو - زبدة التواريخ .

(١) ننتزي ، طهران ، ١٩٥٧ ، ص ٢٥٦ .

يظاردون السلطان أحمد الذي أفلت منهم بأعجوبة ،
فقل تيمورلنك عائدا إلى بغداد .

عامل تيمورلنك المدن العدو التي أبدت
مقاومة بشكل يختلف عن تلك التي استسلمت
لرحمته طبقا للقواعد المحددة . أما قضية بغداد عام
١٣٩٣ فخاصة : لم تكن تمة مقاومة ، بواقع هروب
السلطان أحمد ، ولكن فراره سبق وصول قوات
الجفطاي بفترة قصيرة بحيث أن سراة بغداد لم
يتوفر لهم الوقت الكافي لإرسال وفد إلى المعسكر
التيموري لطلب الغفران وطرح اقتراح اقتداء
أنفسهم .

إن نظام الدين الشامي ، الذي كان أول من
خرج من المدينة ذاهبا لتحية تيمورلنك ، رأى دجلة
مغطاة بالرجال الذين كانوا يعبرون إلى الجانب
الأيمن . وشاهد العيان هذا ، الذي دبح غب ذلك
بسنوات معدودات أول تاريخ رسمي لحملات الرجل
الكبير ، المسمى ظفر نامه . لم يشر إلى ماهية
التقارير الدقيقة للسلطات المحلية ولا إلى كنه القيادة
الجفطائية .

وهناك شاهد آخر ، هو عزيز الاسترابادي ،
الذي احتفى بالنجف ، إذ يروي أن الجنود أوتقوا
بالاغلال كل من وجدوا من الرجال وعذبوهم ، وجروا
الفتيات اليافعات إلى حانات عريقاتهم واعتدوا على
عفافهن ، وحطموا ثريات المساجد وعلقوا بها
الألثة ، وثلوا المحاربين ، وأحرقوا المنائر ، وربطوا
خيولهم في المدارس ، ومشاهد الاغتصابات الجنسية
التي تشير إليها مصادر أخرى (٥) لا بد من حدوث
أشباهاها في أماكن أخرى من العراق ، التي وطنها
أقدام عصابات جفطاني بحثا عن الفنائم والنفود ،
وفي الضواحي خارج أسوار بغداد .

وبينما كانت هذه المصائب تعيث فسادا في
أرجاء القطر « كان أهالي بغداد ، ضنا بحياتهم
وبحياة أولادهم ، قد رضوا بتأدية فدية للمساهمة
في نفقات الجيش التيموري » . وقد فرضت هذه
الأتاوة بسلطة مسؤول . وفي المدن الأخرى التي جنى
فديتها تيمورلنك ، لم تدخل إلى قلب الأسوار
إلا بعض الفصائل المكلفة بحماية جياة النفود
ومساعدتهم ، وظلت أبواب المدينة مغلقة بعناية
واحتراس لاجتناب ويلات نهب الأموال على أيدي
الجنود الأشرار . أما عن حالة بغداد في عام ١٣٩٣ ،
فرغم وصفها الشاذ الذي يمكنه تشوش المصادر

(٥) المزوي ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج ٢ ، ص ٢٠٥
و ٢١٢ - وتاريخ الفياني .

حول هذه النعطة ، بوسعنا أن نتصور أن سكان
المدينة القابعين داخل الأسوار كانوا محميين ، بصورة
نسبية على الأقل . من التماس المباشر مع القوات
الملحقة . على أن هذا الواقع لم يخل من شروخ
التصرفات الهمجية التي انصبت على رؤوس الذين
أخفوا أموالهم ، أو الذين حامت حولهم الظنون .
مكث تيمورلنك شهرين في بغداد ، وقال ابن عرب
شاه ، الذي صنف كتابا موتورا عنه ، أنه امضى
أياما لذيدة في السراقات المفامة على ضفاف دجلة .
وعلى أقل تقدير فإن هذه الباهج والمتع كانت
محفوفة بالحشمة والوقار . فقد أريق الخزون من
خمر الموصل وخمر ديار بكر التي اكتشفت في
مداخل السلطان أحمد في دجلة .

ويروي الرواة أن الأسماك الثملة طفت بطونها
مواجهة الهواء ، كذلك الأسماك التي هلكت ، والتي
أخذ الجنود يصيدونها بسهولة . وقد أمر تيمورلنك
إنشاء أقامته بترميم مرقد الإمام أحمد بن حنبل ،
الذي أضرت به فيضانات دجلة .

غادر تيمورلنك بغداد في الرابع والعشرين من
ذي الحجة ٧٩٥ - ٢١ تشرين الأول ١٣٩٣
مصطحبا معه الأدباء والفنانين الذين زانوا البلاط
الجلاني مع عدد من أسرى الحرب وأسيرانها ،
الذين ما لبثوا أن بيعوا بصفة عبيد . وقد أثار
التوقف الطويل للجيش التيموري ، الذي عاش في
القطر ، الفحط في بغداد بعد رحيله . وكان
تيمورلنك قد ترك في بغداد حاكما خراسانيا ، هو
الخواجه مسعود السبزواري ، الذي كان خبيرا
بشؤون الأقاليم العربية ، إذ سبق له أن تولى في
آذار ١٣٩٣ إدارة ولاية شستر . ويمتدح نظام
الدين الشامي طبعه الدمث الكريم ، فيقول :
« لقد عكف على أسعاد من بقي من السكان » و
« بذل كل ما في مقدوره لتكريم العلماء وإعالة الفقراء » ،
ولم يغفل لحظة واحدة عن القيام بالتصدق على
المعوزين » .

ويقال أن إغلاق بيوت الدعارة ، الذي طبق
في ولايات تيمورلنك رغم الخسائر التي نجمت عنه
بالنسبة للخزانة العامة ، في تاريخ ، أو في تواريخ
متلاحقة وفي ظروف غير معروفة لدينا ، قد أصاب
بأضراره فيما أصاب بيوت سوق السلطان في بغداد ،
ومن حقنا أن نتصور أن الإجراء طبق بعد رحيل
الجيش ، في عهد إدارة الخواجه مسعود
السبزواري . . لقد كان الخواجه مسعود

السبزواري ، ابن اخت الرئيس الاخير للسريدارية ووارثه ، وهم الذين اسسوا دولتهم المعروفة في سبزواري ، في خراسان . وحين هددتهم تطرف الطبقات الشعبية ، انضم زعماء السريدارية بحماس الى تيمورلنك ، الذي كانت معتقداته تغذيها ، قبل كل شيء ، المحافظة الدينية والاجتماعية . وعلى ذلك فينبغي ان نحترس لسلا نعزو لتعيين اي حاكم في بغداد مغزى دينيا . وكل ما نستطيع ان نتصوره ان اختيار شخصية مخلصه للسلطة التيمورية املاء الحرس على تفادي تفشي اندفاعات الحمية التي كانت كامنة في الاوساط المتطرفة العراقية . وتعيين الخواجة مسعود السبزواري يثبت ، من جهته اخرى ، ان تيمورلنك كان ينوي توطيد سلطته بشكل دائم في العراق العربي . وهي النية التي تشير اليها بوضوح اعمال التقوية لاسوار بغداد وخنادقها ، التي عمل على تحقيقها الخواجة مسعود .

لم تسمح الثلاثة الاف من السريدارية من « جيش سبزواري » للخواجة مسعود بالدفاع عن بغداد ضد عودة هجومية جلاثرية . ففي خريف عام ١٣٩٤ ارغم على الانسحاب صوب ششتر ، في حين كان السلطان احمد يدخل بغداد ، حيث استأنف عاداته من المرح واللهو والتدلب . وفي عام ٨٠٠ - ١٣٩٧ جمعت مؤامرة طبخت لقتله يقال ان تيمورلنك اوحى بها - كل سراة القوم ضده ، من الامراء الى بعض سيدات الحريم . فحطم المؤامرة بحيلة ، وقتل بيده عدة متآمرين ، تاركا بغداد خفية ، ماضيا الى طلب العون من زعيم التركمان قره قوينلو ، قره يوسف .

وكان سكان بغداد يجهلون الاحابيل التي تحاك وراء ابواب القصر المقفلة ، فلم يعملوا بقياب العاهل الا في لحظة ظهور تركمان قره يوسف على الساحل الايسر من دجلة . وقد اسال لعابهم مشاهد السلب والنهب . فرفض السلطان احمد بفتة اعطاء السفن الضرورية لاجتياز النهر ، وابعدهم في الختام بهدايا باهظة ، من النقوش والمنسوجات والخيول والنفائس الاخرى .

ويقال ان السلطان احمد عمل آتشد بنجاح على استعادة شعبيته لدى رعاياه . وفي صيف ٨٠٠ - ١٣٩٨ هبط ميران شاه ، ابن تيمورلنك ، الذي

كان يحكم في اذربايجان ، وقد اصيب منذ فترة قصيرة باضطرابات عقلية ، على بغداد في حمارة القيقظ الالهية ، دون الاصاخة بسمعة الى نصائح مستشاريه . اما السلطان احمد ، فلوثوقه بالمناخ ظل ساكنا خلف اسوار - بغداد . وبعد وصول ميران شاه بيومين استدعى الى تبريز لنشوب قلاقل مهددة له . وفي عام ١٤٠٠ ، وقد علم بنزول تيمورلنك في الاناضول الشرقي ، هجر السلطان احمد بغداد ولكنه جرؤ على الظهور فيها مرة اخرى مدى بضعة ايام في الشتاء التالي ، في حين كان الغازي مشغولا في سورية ، ثم عهد بالمدينة الى احد ضباطه الامير فرج ، فالتجأ الى الاقليم العثماني .

في ميس ١٤٠١ ارسل تيمورلنك الذي كان في الموصل - تشكيلة مؤلفة من خمسة آلاف رجل ليحمل البغداديين على تادية نفقات الحرب . ولكن خلاف كل توقع اصطدم الجفطاي بالتركمان على الجانب الايسر من دجلة ، وقد تضخم عددهم بالبدو الذين دعاهم فرج لنجدته . وقد اقام هذا جبرا من الزوارق لقلد الامدادات على مؤخرة الجيش . حمل الجفطاي على البدو فبددوا شملهم ونزلوا تحت اسوار بغداد تموزهم الوسائل لتقويضها او تسليقها . فهبط تيمورلنك بشخصه ، من جهة التين كوبري «التون كوبري» ، صوب بغداد التي حاصرها من جهة الشرق ، في حين شرعت قوات بمعدة ميران شاه بتمشيط الجانب الغربي من دجلة . وكانت عملية خطيرة حيث عشرات الالوف من الرجال ، في موسم الحرارة المحرقة ، يحلون في سهل بغداد . وعلى ذلك فلم يجلب تيمورلنك الا الحد الادنى من القوات تاركا جماع جيشه مخيما في مخارم كردستان .

لقد اتخذ فرج بضالة عدد المحاصرين ، فابى الاعتقاد بوجود خصمه المرعب بينهم . وقد اضطرت تيمورلنك حبال المقاومة التي واجهها ، الى استدعاء قواته الاحتياطية ، فتم له بذلك اكتساح بغداد اكساحا تاما . دام الحصار قرابة اربعين يوما . وبؤكد كتاب ظفرنامه ان تيمورلنك رفع الحصار عدة مرات على استسلام المدينة والحفاظ على محاسنها . ذلك الحصار الذي طلبه ضباطه . وفي المدينة التي عمها القحط هربت جموع من الجنود والسكان الذين انحدروا من اعالي الاسوار . ثم أعلن

الهجوم اخيرا في ٢٧ ذي القعدة ٨٠٣/ - ٩ تموز ١٤٠١ ، عند الظهيرة . ونصب جسراً للقوارب في اعلى دجلة مزودة برماة قطعوا طريق النهر على من تسول لهم انفسهم محاولة الهرب مع مجرى النهر وروقت ضفاف المدينة من الجانبين . فذبح كل الناس القيمين في بغداد ، ومن ضمنهم الاطفال ، مع سبق الاصرار . وفرض على كل جندي ان يقدم راسا الى المكاتب التي يقوم على حساباتها ضباط . فارتفعت اثر ذلك ابراج من الرؤوس المقطوعة في مختلف ارجاء المدينة . واختلف تقدير عدد الضحايا باختلاف المصادر . وعلى كل حال قدرت قرابين المجزرة بمشرات الألوف . اما الذين نجوا ، وهم قلة في تقدير ظفر نامة - واحد من مائة تقريبا - فقد بيعوا بصفة عبيد . ولم يستثن منهم الا الفقهاء والشيوخ والدرائش الذين افلحوا في الوصول الى سرادق تيمورلنك . فوزعت عليهم الانسوات والملابس ، وارسلوا الى مكان امن .

ترك الجيش بغداد ، بعد ان اصبحت مدائن ، حوالي ١٥ تموز ، قاسدا مراعي كردستان المربعة . وعلى تقويض ما حدث عام ١٣٩٢ ، لم يكتف اي احد من ممثلي السلطة التيمورية في موضعه ، اذ لا جدوى في ذلك . وتذكر التواريخ ان تيمورلنك ساوى الاسوار بالارض ، اما الممارات ذات المنفعة العامة والاسواق والبيوت والمشيدات ذات الطابع الديني ، كالمساجد والمدارس والخانات ، فقد استثنيت لوحدها .

وهناك كما في كل مكان آخر حدثت فيه امثال هذه التخريبات لم يوفر شيء الا بتحفظ . فلم يكن للجيش التيموري في بغداد الوقت ولا الوسائل التقنية لتدمير مدينة من المدن ذات اهمية متوسطة ومواقع دفاعية تمتد الى عدة كيلومترات . وقد تأيد علاوة على ذلك ، خلال القرن الخامس عشر برمته ، ان الاسوار حمت الاهالي المتجمعين في موقع بغداد من غارات البداة الشعواء .

وبتشبث ليس له من نظير الاتهاونه ، عاد السلطان احمد الى بغداد فور انقشاع الغمة . فوصل اليها في مستهل عام ١٤٠٢ ، وحاول انهاض القطر من كبوته . فارسلت لحربه تشكيلة من الجفطاي على وجه السرعة مختربة بعناء ومشقة

كردستان المغطى بالثلوج واثبتت وجودها على الفور امام المدينة . فانهمز السلطان احمد بقميصه . وعاد بعد ذلك بعدة اشهر الى عاصمته مصحوبا بقصره يوسف وكان قد طرد منها على يد هذا الاخير ، الذي تمسك ببغداد حتى وصول احد احفاد تيمورلنك ، ابي بكر بن ميران شاه ، وذلك في خريف ١٤٠٢ .

ما كاد تيمورلنك يلفظ انفاسه عام ١٤٠٥ حتى اخذت الولايات التي اقتطعها لاحفاده في غربي ايران بالانهيار . فاغتم السلطان احمد الفرصة لاحتلال بغداد مرة اخرى واعاده تشييد اسوارها . وخلال السنوات المتعددة لاستئناف الحكم الجلائري كانت بغداد بؤرة للمؤامرات ضد العاهل الخامل المنهمك باللهي والملذات . ففي عام ١٤١٠ نفذ فيه عملية الاعدام صاحبه التقديم قره يوسف . . . في تبريز ، ومنح العراق العربي لولده شمس محمد . فصمد الاتباع الجلائريون بعض الاشهر في بغداد التي حاصرتها قوات قره-قوبللو . واخيرا اخترقها شمس محمد في الخامس من محرم ٨١٤ - ٢٩ نيسان ١٤١١ . فنهب رجاله المدينة طوال يوم كامل .

هكذا بدأت الفترة التركمانية من تاريخ بغداد ، التي قدر لها ان تدوم حتى الاحتلال العثماني عام ١٥٣٥ ، والتي كانت بالنسبة لعاصمة العالم الاسلامي فترة اندثار . وفي عهد حكم امراء اصقاء للفنون والآداب واداريين مستبشرين ، استطاعت بغداد ان تنفض غبار الدل عن نفسها بعض الشيء ، وان تصحو من هول صدمة احتلال الجفطاي المضاعف . وكانت الفترة التركمانية . بمجموعها غير مؤاتية للحياة العمرانية ، وزاد الموقف المخوف من جراء الغزوات التيمورية تفاقمها على تفاقم .

وبحكم كون بغداد مدينة صفري واقعة على مناي من الطرق الحيوية ومتروكة لصفار البيوتات الحاكمة او المقامات التي ينكر سلطتها المنكرون ، قدر لها ان تعيش خاملة . وبصف القريري وضعها عام ١٤٣٧/٨٤١ فيقول ان بغداد خربة . فليس ثمة من مسجد ولا من مصلين ولا من اذان ولا من سوق . جف فيها معظم النخيل ، وتعطلت القنوات ، فلا تستطيع تسقيتها مدينة .

العلوم والفلسفة في حضارة بغداد أيام العباسيين الاولى

بقلم

روجيه ارنالدين

وبضروب المحاكمات العقلية . اما الطرق البرية
والنهرية فكانت تتلاقى حول هذا المركز ، فالموقع
سرة الدنيا ، تجلب اليه كل الثروات المادية والروحية
من جميع أرجاء العالم .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار فخامة الاسلوب
الشرقي فيظل صحيحا ان بغداد كانت في غاية حسن
الموقع لاستقبال وجمع تأثيرات مختلف الاقطار
التمدنية ولتطف ثمار الحضارة اليونانية-الاسكندرية
مع ثمار الحضارة الفارسية او الهندية بل حتى
العينية . وقد استطاع مابرهوف ان يرسم
المسار الذي هاجرت بموجبه الثقافة الهلينية
والرومانية من الاسكندرية الى بغداد ، ونحن نعلم ،
من جهة اخرى ، كيف جعل تاسيس اكاديمية العلوم
على يد الامون من بغداد وريثة لمدرسة جنديسابور
حيث النسطوريون ، المطرودون من الرها في القرن
الخامس ، ثم فلاسفة مدرسة اثينا ، التي اغلقتها
جوستنيان عام ٥٢٥ ، كيف تواجد هؤلاء مجتمعين
بعلماء قدموا من فارس والهند . وصحيح ان في
بوقة بغداد تألفت ، بالاخصاب المتبادل ، معارف
من جميع الشعوب ، هي علم جديد أصبح ينبوع
الرئيسي لعلمنا الغربي .

ولكننا لم نأخذ على عاتقنا معالجة فصل من
فصول تاريخ العلوم والفلسفة الذي ، بكونه تاريخ
تسلسل ونقل المذاهب ، والاكتشافات والاختراعات ،
سيفتح منظورات واسعة عبر الأزمنة وسيهمل
السند القوي للأحداث الخاصة وبالتالي المحلية .
وبالعلاقة مع بغداد ، وهي مدينة اسلامية ، وعاصمة
الخلافت المنغمسة في مشاكل الملى والنحل والانتماء

حين عزم الخليفة المنصور على تأسيس بغداد:
جمع الفلكيين والاطباء والمساحين والمهندسين .
لدراسة الموقع والمناخ . لعمل كشوف . لاستخراج
طوائع . لإعداد مخطط . لتقرير انسب لحظة
للبدء بالأعمال ، اذن لقد ولدت عاصمة الخلافة
العباسية تحت رعاية العلماء وعنايتهم ، وربما ينبغي
ان نرى في هذه علامة على الدور الذي ستلعبه في
تنامي العلوم والفنون والفلسفة . ولكن اذا كانت
العلوم ، كشان السلطان القوام ، قد ترائت
المشروع وتزعمت بناء بغداد ، فذلك لسبق وجودها .
يذكر اليعقوبي ضمن هؤلاء العلماء الفسزاري
والثوبختي وما شاء الله والطبري . الاول حسبما
يروى سوتر Suter ، هو ابراهيم بن حبيب بن
سليمان بن سامور بن جندب ابي اسحق ، اول مسلم
صنع الاسطرلاب السطحي او المسطح ، وكان كتب
عدة كتب لها اساس بالات الوزن والقياس
والحساب ، وعن الاسطرلاب وعن مواقع الافلاك ،
وتعيين الظهيرة الحقيقية (الزوال) والثاني كان
فارسي ، منجما للخليفة المنصور . وكان ماشاء
الله يهوديا ، وقد صنف عدة كتب في التنجيم .
والمذكور الأخير هو عمر بن الفروخان ابو حفص
الطبري ، الفلكي المنجم ، شارح المقالات الأربع
لبطليموس ومترجم كتب فارسية .

اما الجغرافيون الذين اثنوا على بغداد ،
ولا سيما المقدسي واليعقوبي ، فلا ينضب لهم معين .
فالموقع مختار منذ الازل ، وقد كشف عنه القناع
للمرسول . والهواء كان نقيًا وصحيًا ، والارض
خصبة ، ومطروس مختلف الفصول متوازنة . وكان
سكانه ذوي عقول راجحة ، مشغوفين بالعلوم

الفومي المحدد كل التحديد ، سنفحص الافكار العلمية والفلسفية .

لا يجهل احد ان العباسيين ، بسبب ظروف دعايتهم ، وكذلك بطة المحالفات التي مهدت لمجيئهم الى الحكم ، قد استداروا صوب البلدان المفتوحة وانسجموا مع اساليب تفكير ، انتشرت بتأثير المنازع العلوية بين الفرق الاخرى . فالتاريخ يعلمنا كم كان دقيقا وعويضا موقف خلفاء بغداد في مواجهة المناغبين او المدعين المتطرفين الذين كانوا يتظاهرون بلا انقطاع تقريبا . ولم تكن سياسة الخلفاء تجاههم بمجموعة حازمة ولا محددة : فهناك اجراءات مشددة ، لا تتخذ الا في انسب الحالات ولكنها لا تصل الى حد النصر النهائي ، ويتلوها محاولات للتوفيق تذهب بعيدا في بعض الاحيان . ذلك لان الخلفاء في الحقيقة تواجدوا وجها لوجه مع قوة ثابتة للمعارضة ، هي قوة القومية اللاعربية التي تزيت بأزياء دينية وفلسفية .

وقد استطعنا ان نلاحظ مثلا ان بعض الاطباء في القرن السابع والثامن ، كانوا من غير المسلمين . وقد ازداد عدد المسلمين من ممتنهي الطب خلال القرن التاسع واصبحوا الاكثرية في القرن العاشر . ويمكن تعميم هذه الملاحظة بسهولة على النشاط العلمي كله .

الواقع ان العرب جلبوا كنزا كان يمثل في اعينهم كل شيء : لغتهم ، تلك اللغة التي انزل فيها القرآن ، الوحي الحاسم ، وهم على شعور تام بهذه القيمة ، وقد نجحوا في اقناع الشعوب التي استولوا عليها بهذا الامر . ولكن هذه اللغة ، التي اختارها وامتدحها المفكرون غير المسلمين ، كاكمل لغة واوقاما بالتعبير عن الافكار العلمية والفلسفية الكبرى ، لم تكن الا جزئيا اللغة القرآنية . فقد اتقنت وعمقت ومططت بصنع المترجمين ، وكانت تحمل في ذاتها طابع مختلف الحضارات التي اربطت بها المؤلفات المترجمة . وقد اصبحت اللغة النسي بواسطتها استطاعت شعوب متميزة الانفتاح على بعضها والتفاهم والتوصل والتجمع . واستطاعت لعب دور اللغة الاغريقية في العصر الاسكندراني ، ولكن بشكل اتقن وعلى مقياس اوسع بكثير . فان فكرة يعبر عنها بالعربية ، مهما كان اصلها ، تصبح ميسورة التداول مباشرة لجمع كبير من الناس ، من اصول وتقاليد مختلفة ، وتسير جنباً الى جنب عالمية « العلم العربي » وعالمية اللغة العربية .

مما لا شك فيه مبدئيا ان هذه اللغة العربية المحدثه آنذ لم تكن بصورة اساسية لغة اخرى غير

لغة القرآن العربية ، ولكن بالتحديد هذا هو ما اوقع الدراما . لو كان ثمة ازدواجية واضحة فان النصوص المنزلة ستصير محمية ومحفوظة في امان بالطابع الخاص للغة خاصة . ولكن عربية العلماء والفلاسفة كانت ، بالقياس الى عربية القرآن ، مشابهة كل التشابه ، ومتباينة كل التباين . فلم يمكن تجنب جر قارئ الكتاب المقدس الى تداعيات افكار وطرق تفكير لم تكن قرآنية . لقد اتاحست تفسيرات تتعارض مع السنة لبعض الفئات ، نوعا من التثبيث بافكار غير اسلامية . والخلفاء ، المدفوعون بالعقيدة الخالصة والشعائر الدينية الصحيحة ، ليس لهم الا ان يحولوا دون هذا الغزو الويل . ولكنهم لم يمددوا يستطيعون ، لو فرضنا انهم ارادوا . لقد كانت الحركة باللغة السرعة ، باللغة العنف . والسياسة « الثقافية » لهذه الفترة ، حتى التدخل الحازم للاتراك ، يصادف نفس المشاكل الدقيقة وذات الصعاب كالسياسة تجاه العلويين . كان هناك بالنسبة للخلفاء العباسيين حد ادنى يجب اتقاذه . كان ينبغي اخلاء مكان ، كبير او صغير ، ولكنه كاف ، للروح الجديدة . ولنلاحظ من جهة اخرى ان المع اللامعين من بينهم قاموا بهذه المساومات تلقائيا وبطبيعة خاطر . كحالة المأمون . ولكن المنصور قبله كان كلف ابا يحيى بن البطريق بترجمة كتب قديمة ، مؤلفات ابو قراط وجالينوس ، وترجم محمد بن ابراهيم الفزاري ، ابن باني الاسطرلابات المذكور آنفا ، كتابا من الهندية الى العربية هو السد هانتا ، الذي ظل طويلا يستعمل كأساس لاقامة الزيج ، بالتعاون مع التراجم العربية للأزياج الفارسية المؤلفة بالفهلوية ايام الساسانيين . فضلا عن ذلك ، لم يكن الخلفاء وحدهم الذين اهتموا بهذا بهذا العمل وشملوه برعايتهم ، ولكن حدا حذوهم كبار القادة من حاشيتهم مثل : الفضل بن سهل السرخسي ، وزير المأمون ، فقد كان من أوائل الفلكيين في عصره وكان ، مع يحيى بن خالد البرمكي ، صديق هذا المترجم العالم ، الطبري ، الذي سبق ان ذكرناه ، كان في خدمته ابو علي يحيى بن ابي منصور ، وابو عثمان سهل بن بشر بن هاني .

كان هناك عهد كامل مكرس للتراجم توزع على فترات . كان هائلا عدد المترجمين : يؤسفنا القول ان بعض العلماء والفلكيين والمهندسين والرياضيين والاطباء الذين لم يكونوا عربا اقحاحا والذين كانوا غير مسلمين يعرفون لغات اخرى غير العربية ، وكانوا يترجمون لانفسهم او لاحد المحسنين . ولكن هذه التراجم لم تكن كلها ذات قيمة واحدة . فالتراجم الاولى من حيث الزمان كانت مشحونة بالاغلاط او

غامضة لحرفيتها ، أو لضعف في التفهم ، وكذلك لأن اللغة العربية لم تكن باللغة المرونة آنذاك ولم توهب مصطلحات تقنية كافية . ولهذا رأينا اجراء مراجعات للتراجيم المشغولة سافا ، وذلك لتقويمها وتحسينها حتى يقر المترجمون الكبار بصلاحها بعد مراجعتها .

لقد كان بنو موسى ثلاثة اخوة ، محمد واحمد وحسن . وكلهم علماء متميزون في الفلك والميكانيكا والهندسة . وكانت لهم علاقات وثيقة مع مشاهير المترجمين : حنين بن اسحق ، المؤود في الحيرة عام ١٩٤ - ٨٠٩ ، المتوفى في بغداد عام ٢٦٠ - ٨٧٢ ، وابن اخته او اخيه جيبش بن الحسن ونابت بن قرة ، الصابئي من حران . وشجع بنو موسى هؤلاء مشاريع الترجمة وساندوها . ولجلهم قام حنين برحلات الى الاقطار الرومية لجمع كتب قديمة : ونحن مع هذه الجماعة ، في اوج الفترة المزدهرة بالتراجيم : لقد ادخل كل هؤلاء تحسينات على جهود اسلافهم : هكذا راجع حنين ترجمة ارسطو ليحيى بن البطريق ، وترجمة مقالات بطليموس الرابع (رابوعات) لابراهيم بن الصلت ، في حين يذهب ابن ابي اصيبعة الى ان ثابت بن قرة راجع ترجمة اوقليدس التي صنعها الحجاج (وطبقا لقول سوتر صنعها اسحق بن حنين) . ولكن التراجيم لم تستعمل ابدا دون نقد ، وسنرى الفلاسفة الكبار يغيرون هذا التفسير او ذاك في النصوص العربية لكتاب ارسطو في الطبيعة ، حيث يصحح ابن رشد غالبا تفاصيل في نص قسطا بن لوقا ، المسيحي من بغداد (المتوفى حوالي عام ٣٠٠ - ٩١٢) وكان مترجما ذائع الصيت وفيلسونا وفلكيا ورياضيا وطيبا ، في آن واحد .

ينبغي التوقف ازاء هذا العمل الضخم الذي صنع من اللغة العربية لغة فلسفة وعلم . وبالنزول الضليل الذي قلناه تلحظون ان هذا العمل نفذ بعناية فائقة وموافقة هائلة وحماس متقد . ولكن ماذا كانت النتيجة من وجهة نظر الفلسفة والعلم ؟ لا نستطيع الدخول في بحث عن اعداد مكتسبات الفلسفة والعلم العربيين ، فنحن منهمكون في تفهم وضع ، وليس في تعداد مذاهب وتحليلها . عندما نستعرض تاريخ الاسلام نوشك ان تقع ضحية وهم استذكاري استعادي Retrospective

مسؤول عنه ولا شك مؤرخو البدع المتأخرون بعض الآخر : نحن نفكر بالسنة الاصلية المؤسسة اقوى تاسيس منذ البداية والتي تدور حولها الفرق ، من القريين من العقيدة البدائية حتى اضل المعتقدات

ولكن بالنسبة للمسلمين الذين عاشوا فترات الاضطرابات التي تلت الفتنة ، لم يكن وضع الاسلام ومن بعيد ، واضح الملامح . لقد تحدد التمسك بالسنة لديهم شيئا فشيئا ، عبر معارك سياسية واجتماعية ودينية عديدة . وحتى حين كان ابو الحسن الأشعري يضع اسس السنة في مطلع القرن العاشر ، كانت الخلافات متصلة ، ليس بشكل هجمات خارجية آتية من الهراطقة المظنودين من جماعة الايمان . وانما على هيئة حركات متولدة من داخل اسلام كان يصارع ويكافح . واولئك الذين نرى فيهم حراما اغيارا للغاية على السنة الصعبة الراسخة ، الذين انطلقا من القرن التاسع وجدوا تمبيرهم في المذهب الحنبلي ، كانوا يؤلفون معارضة صفري رغم كونها نشيطة جدا . وبالنسبة لهم لا توجد تعاليم مشروعة الا التعاليم التي جاء بها القرآن او التي ترشحت من العلوم القرآنية . وقد استنكروا كل الاستنكار ، لا الفلسفة والعلوم ذات الاصل الاجنبي والانساني فحسب ، وانما اضافوا الى ذلك استنكار كل لاهوت وكل اخلاقيات متأثرة بتأملات الكفار . ولكن تصلب موقفهم نفسه ومطالبهم حالت دون اقتداء الجماهير بهم : كما هي حالة الكثرة من المذهبيين ، فلم يستنطبوا العبث الا في حرم المعارضة .

وفيما عدا المذهب الحنبلي ، الذي كان بمقدوره تثبيت العقول لولا انه كان على درجة من الصبر بحيث يصعب اتباعه ولا سيما تعميمه ، ينبغي ان نعترف ان حيرة عظمى سادت فتركت جميع الذين كانوا قادرين على الاطمئنان واليقين في ارباك من امرهم . وتسبب الحياة الاخلاقية وانحطاط العادات ، والشواهد عليهما كثيرة ، كان لها اسباب عديدة . ولكن اضطراب العقيدة يعتبر من اهم الاضطرابات ، فالشاعر مطيع بن اباس ، الذي عاش في كنف الخلافة العباسية ، يظهر عبر الاخبار التي يرويها عنه كتاب الاغانى ، كنموذج من الرجال الذين يحبون الفضيحة والتجديف . فقد انهم بالزندقة ، والملاحدون من شاكلته ، ولو قامت القيامة ضدهم ، كانوا حينئذ عديدين ، وقضايا ابسى نؤاس معروفة كثيرا فلا حاجة للنص عليها . ومن طراز مختلف ، هناك شاعر آخر هو ابو العتاهية ، الذي يهينا شهادة هي كذلك مثيرة . انه سناجة اليأس والموت . ويروي كتاب الاغانى ان بعض معاصريه عزوه الى فريق الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالنشور ، ذلك لان اشعاره لا تتحدث الا عن الخراب والفناء :

لنوا للموت وابنوا للخراب
فكلكمو يصير الى التراب

اما مذهبه الصوفي فمتوحى من خيصة
الامل ، والبارى بالنسبة له هو الموت وليس
الحياة :

سكن يبقى له سكن
ما بهذا يؤذن الزمن
نحن في دار يخبرنا
ببلاها ناطق لسكن
دار سوء لم يدم فرح
لا مریء فيها ولا حزن
في سبيل الله انفسنا
كلنا بالموت مرتهم
كل نفس عند ميتها
حفظها من مالها الكفن
ان ما المرء ليس له
منه الا ذكره الحسن

الا كلنا بالسد
واي بنى آدم خالد ؟
وبلؤهم كان من ربهم
وكسل الى ربه عائد
فيا عجباً كيف بمعنى الاله (م)
ام كيف بجوده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

حبك مما تبغيه القوت
ما اكثر القوت لمن يموت

الناس في غفلاتهم
ورحى المنية تطحن

وقد تمثل لتدهور الاخلاقي في تلك الحقبة
بعبادة رومانية للظرف . ففي معظم الاحيان تكون
القضية قضية سحر موسيقي ولحن عذب ، كما
هي الحالة لدى الشاعر ابن الاحنف . ولكن يلوح
ان في الاوساط المترخصة كان الباحثون يفتشون
عن استنارات اعنف واكثر افتمالا . وبوسعهنا
تخمين هذا عبر الشعر الغزلي لامثال ابى نؤاس ،
حيث الخمرة بنشوتها ، تقارن بالمرأة . ودليل آخر
على الخلق المريض لهذه الانحلالات الخيالية تزودنا

بها قصة جعفر المحزنة . بن الخليفة المنصور
السدي . حسب رواية كتاب الاغاني ، اتخذ
مطيع بن اياس المتشكك نديما له . وقد وقع لهذا
ان احب حبا مذهلا امرأة من الجن . وبذل كل ما
في طوقه لتزوجها عن طريق ممارسة السحر . ورافق
هذا الاضطراب العقلي ازيمات صرع زاد تكرارها
الحالة سوءا على سوء حتى ادى الى وفاة المصاب
بها . في احوال كهذه ، كيف جرى تقديم العلوم
والحكمة الآتية من اليونان او من الهند ؟ ليس في
الاجابة غموض : لقد جلبت اليقين والطمأنينة الى
عالم مهدد بالرحيل الى المجهول .

ولكن ربما شعر الناس بهذه الطمانينة بشكل
مختلف فبالنسبة لهؤلاء . هي مسألة تهدئة
الهواجس اوقية صرفا . وكانوا يؤلفون الاكثرية
الكاثرة . حتى بين الرجال المتعلمين والشخصيات
الكبيرة . وهذا توضيح لموجة هذه العلوم التي مع
شمولها للعناصر التجريبية ظلت « علوما خفية »
قريبة من علوم السحر والتنجيم : التنجيم القضيائي .
علم الطلاسم . نوع طبي تجريبي . السيمياء باشكالها
السوقية . كانت في ممارستها تتعارض بصورة
مباشرة مع روح الاسلام . وقد شهر بها « السحر »
الفقهاء بوصفها من « العلوم المذمومة » تحت اسماء
عامية السحر « السحر » ولنفهم منه السحر الاسود .
الطلاسم - الموجودة مع ذلك حتى في تصنيف العلوم
لابن سينا علم الشعبة « . كل هذه الممارسات كان
لها الصدارة ، والجزء الاعظم من السبب يكمن في
ازدياد انتشار الخرافة كلما تفكك المجتمع . ولكن
هذه الممارسات وجدت متجاوبين معها لدى الاقدمين
ولا سيما في منازعات اجل حيران . ومع ذلك
فان معارضة الفقهاء ما لبثت ان وجدت حلفاء لها
بين الفلاسفة والعلماء انفسهم .

هناك آخرون انتظروا من الفلاسفة والعلماء
يقينيات ارفع ونظريات جديدة او ما نسميه نحن
اليوم Weltanschauung جديدة بتوجيه
الناس ، ان في حياتهم المادية والاخلاقية الفردية ،
وان في حياتهم الاجتماعية والسياسية . وبرز الفكر
الاغريقي بوحدة العالم الاعتقاد الاساسي بنظرية
اتصال وثيق بين العالم الاكبر (الكون) والعالم
الاصغر .

الانسان في ائتلاف يجمع بين كافة اجزاء
العالم . ونتج عن هذا ايضا الاقتناع الفلسفي بوحدة
العلوم ، ومعنى ذلك : في التحليل الاخير ، الاقتناع
بقيمة النظام الوحيد للمبادئ المطبقة على العالم

بأسره . وهذا ما يفسر قدرة التشمات التنجيمية على اجتذاب علماء اقحاح : قضية التنجيم هي ، في الواقع قضية تواصل شامل بين الكائنات . وعلى صعيد آخر . ولكن بنفس الروح . ما يفسر ما نلاحظه في كتابات المدونة الجابرية . من الرابطة الوثيقة التي وجدت بالنسبة لمفكري هذه الحقبة ، بين التنجيم والسيمياء والطب : كل شيء يقوم في كل مكان على نفس النظام في تاليف الصفات الأولى : البرد والحر ، الجفاف والرطوبة . ومن هذه الأمشاج المختلفة تخرج العناصر ، ثم الاجسام الكيميائية المحمولة على الكواكب ، واخلط الجسم ، التي تحصل الصحة ويحدث المرض من توازنها وفقدان توازنها . والاخلط البسيطة التي هي في اساس العقاقير ، تعطى نفس التركيب ، وكذلك الاغذية والسموم . والطقوس والظواهر النووية بدورها تجيب على نفس النظام . ولذلك فان العالم بأسره ، من كواكب الى حيوانات ونباتات ومياه معدنية وخاصية الاراضي والمياه والهواء ، كلها يمكن ان تعدد المساعدة للطبيب الذي يريد ان يشفي المرض . ما دامت المسألة دائما مسألة اما تغيير درجة الصفات السيئة التوازن في جسم الانسان ، واما بتحريكها من مواضعها . وبصورة مبدئية ستكون معرفة اسماء له مفيدة كما هي مفيدة له معرفة الحقائق الارضية والجسم البشري .

وبالاجمال ، فان العالم ، بواقع وحدته ، هو ربما يمكننا ان نقول عنه انه عالم مكمل : كل شيء قائم فيه وفق نوع علاقات جبرية متبادلة ، وبموجب توازن اجزاء يحكمها المبدأ الاسمي ، وهو المبدأ الذي ينبج كماله هذه الوحدة ويصونها ويضمنها . الانسان غير مسلم الصدفة . ولكنه ان يكون بهنجي من كل تقلبات الزمان والافلات من كل قلق ، شريطة ان تكون لديه معرفة دقيقة بالواقع والتكيف لهذا الواقع . ليس المثل الاعلى الغنوصي هو تسوية كل شيء بالمعرفة واشاعة الامن بواسطة المعرفة ؟ والواقع ان غنوصية الافلاطونية المحدثه هي التي اختيرت . بالفريزة تقريبا ، لتأسيس هذا البناء المطمئن وتنويجه . وغب اعمال بول كراوس وريتروثالتون ، ينبغي ان نسلم بان الافلاطونية المحدثه قد انشرت تأثيرا عميقا في الكندي ، « فيلسوف العرب » واول الفلاسفة . واذا كان الفارابي ، كما يؤيد ذلك كراوس ، « قد كشف القناع عن اتجاه مضاد للتصوف ونقاد بشدة ، لا تكاد تكون له علاقة بالتيار الافلاطوني » ، واذا كان اشد اخلاصا من المتصوفين الاستبطنيين للمثل الاعلى الافلاطوني بالرجوع الى الكهف لبناء المدينة الفاضلة فيه ، فانه يحتفظ في

الوقت نفسه بالفكرة الرئيسية الاساسية لتسوية كونية ، تستقبل المعرفة بترحاب . وقادرة ، سواء بواسطة الحكماء او بواسطة الانبياء ، على خدمة النموذج الامثل للشرائع التي يجب ان تحكم الانسان والمجتمع الانساني . ويقدم العلم والحكمة دائما الضمانة التي ترسي دعائم التفاؤل والايمان بالسعادة المحتاج اليها الناس .

ولكن عن هذه الوجهة نفسها ينبغي القول ان هذه التاملات . المستوحاة من مثل عليا يونانية قديمة لا علاقة لها بالاسلام ، شأنها شأن كل غنوص . حتى حين تلبس لبوس الافكار الدينية المستعارة من كتب مقدسة . تدير ظهرها لما عليه الطابع الخاص للاديان السماوية : اعجز الانسان عن بلوغ حقيقة منفذة وخير حقيقي . بعقله الخاص ويبحث العلمي والفلسفي الخاص . وما كان خطيرا ، لم يكن بسبب تفصيل المذهب . كمسألة الخلق ، او مسألة بعث الاجساد : او العقوبات والحسابات في الحياة الاخرى . فالفلسفة عارضت التعاليم الدينية .

ومقابل ذلك انطلقت هذه الغنوصية للافلاطونية المحدثه لخدمة الفرق المتطرفة المعروفة ، التي كانت تبحث لا عن فهم النص القرآني كحقيقة مسنم بها ، وانما للاستعانة به وتفسيره ، في سبيل ايجاد افكار لم تكن مستوحاة منه بصورة مباشرة .

ستعترضون بان تفكير احدي الطوائف تمنح التفاؤل والصفاء للدين حسينا اننا لمسنهما في الاساليب العلمية والفلسفية . لاريب ان بعض الطوائف من وجهة النظر هذه اشد قلقا من الطوائف الاخرى التي لديها يقين دون مشاكل والتي وجدت للمرة الاولى حثيقة لا سبيل الى مناقشتها . ولكن كما راينا ذلك ، ان منظري اهل السنة الرضية كانوا اناسا ذوي ارادة محنكة ، وقد رفضوا بحزم الخروج من الكتاب الذي قالوا انهم وجدوا فيه كل شيء ، والذين قالوا لا لكل القضايا واستنكروا في الوقت نفسه جذريا حتى طرح هذه المشاكل . والفلسفة المظننة لم تكتب لامثال هؤلاء الناس ، وانما قدرت للذين شملهم الاضطراب والذين ، كاهل بعض الطوائف ، كانوا دون انقطاع مرهقين بنصيب تاعس ، وقد توقفوا في محاولاتهم وتحددوا بنجاحاتهم نفسها . اولئك كانت لديهم حاجة بالفلسفة كسلوى ، والغنوصية للافلاطونية المحدثه كانت بالنسبة لهم فلسفة السلوان .

ولكن يبدو ان الفلاسفة بدورهم قد شعروا بالحاجة الى ضمان وحدة هذه الطريقة المنسجمة

التي اقاموها لمواطنيهم . لقد وجدوا هذا الضمان في وحدة العقل ، كما ينجم ذلك من منطق ارسطو . وقد عرفنا ولا شك مؤلفات الفلسفة الطبيعية وطبيعة ارسطو . وكانت ترجمت الى العربية ، ولكن ارسطو بالنسبة لمفكري هذه الفترة على الاخص هو استاذ المنطق

والفارابي حين وصوله الى بغداد عشر فيها على المنطق الشهير ابي بشر متى بن يونس ، الذي يعلمنا ابن خلكان بنجاحه : مئات التلاميذ الذين كانوا يجتمعون كل يوم حوله ليسمعه يقرأ الاورفانون - منطق ارسطو - ويشرحه . كان يملئ على طلابه الشرح . وكان اسلوبه واضحاً . كان يستعمل البسط والتدليل . ولعل ذلك يرجع الى الثقة بالمنطق وبنتائج التي يسرت فكره الوفاق بين المذاهب التي نادى بها حكيماء اليهود القديمة افلاطون وارسطو ، ذلك الوفاق الذي كرس له الفارابي مصنفاً . هناك يملأ الفيلسوف بجلاء ووضوح ان غايته قطع جبل الشك في ثوب اولئك الذين يدرسون كسهما . ويقول : لا يمكن ان تساور نفوسنا غاية اهم وانفع . انسان واحد يمكن ان يتوهم ، ذلك لان الاشياء تخامر ذهنه بصورة مغايرة لصورتها الحقيقية . بل احياناً يتوهم عدة اشخاص توهموا موحداً : ذلك لانهم يتبعون عن طريق التقليد استاذاً واحداً هو نفسه واقع في الخطأ . ولكن عندما يتوافق عقلان نتيجة تأمل ، تدرب . بحث . تنقير . معاندة . تبكيث . حينئذ يمكن ان نطمئن على حقيقة مذهبهما . ما عسى ان نقول سوى ان الانسان الذي يبحث عن نفسه ، بعقله المنطقي وحده ، دون هوى او خيال ، سيتفق في مجال الحقيقة مع جميع الذين يتصرفون تصرفه ؟

وعلى هذا النوال فان المنطق الارسطوطاليسي كان مفتاح قبة الفلسفة . ولكنه في الواقع ظل غريباً عن الاهتمامات العملية للعلوم . وفي هذا المجال نشهد تشكل حالة عقلية جديدة كل الجدة . فالعلماء الذين تعلقوا بفروع علمية خاصة استطاعوا اعلان نياتهم بأن يصبحوا نافعين لاناسي عصرهم ، ولا سيما لأولئك المكلفين بقيادة الآخرين . وفكرة المنفعة كثيراً ما تنساب على الالسن . وقد دأب العلماء على اثبات وجوب المام بالخلفاء والامراء واعوانهم ، لممارسة وظائفهم ممارسة جيدة ، بهذه العلوم وتلك ، او ان يلقنهم اياها اختصاصيون . ولكن حدث ان ارتفع الباحثون - كما اراد ارسطو - الى درجة ارفع ، من وجهة النظر ، وتركوا انفسهم متوقدة باغراضها . وكذلك المترجمون الذين انكبوا

دائماً على النصوص القديمة والتنصقوا بها ، ومثلهم العلماء الذين ارادوا تحقيق اقوال اسلافهم . في حين انهم قبلوا دون مقاومة المذاهب العامة ، ولو بفهمها على طريقتهم وحسب حاجاتهم (على هذه الشاكلة الطبيب ابن الطبري ، في كتابه فردوس الحكمة ، فهو يعطي للافكار اللاهوتية وللعمل والقوة والمادة والشكل ، معنى محسوساً طبيعياً محضاً لا يوجد لدى ارسطو مثيله) .

لقد كانوا مستقلين اكثر في كل مكان سقطت فيه الافكار تحت نقد الملاحظة والتجريب . وقد احسوا ان يوسعهم تحسين المقاييس واتقان وسائل الحساب وتحديد التجارب .

لقد برزت فكرة تقدم العلوم والحضارة : فهي لدى ابي بكر الرازي ، وظهرت لدى التوحيدي .

وهكذا . اسلحوا القدماء ، او اكملوهم ، بعد ان ترجموهم . وسنورد لاسناد رايانا ، الملاحظات المختلفة التي حدثت في مرصد بغداد في حي الشماسية عام ٨٢٩/٢١٤ ، ثم في دمشق عام ٨٣٢/٢١٧ في مرصد جبل قاسيون . كانت المسألة ، بين مسائل اخرى ، قياس ميلان الارض على صعيد الخوف ، وتعيين الذروة وطول السنة الشمسية ، وظاهرة الاعتدالين .

وقد شارك في هذه الملاحظات حشد كبير من الفلكيين منهم ، ابو علي يحيى بن ابي منصور ، ابو عبدالله بن موسى الخوارزمي ، المشهور بجبره وأعماله الرياضية ، كشهرة في الزيج ، وخالد بن عبدالله المرورودي وسند بن علي و علي بن عيسى والعباس بن سعيد الجوهري ، وآخرون غيرهم . وهذه الاعمال اتاحت اصلاح الالواح (الازياج) طبقاً للسندهاننا ، والى اقامة الواح جديدة ينبنى ان نذكر من بينها (الزيج المنحن) ، والواقعة الاخرى تحقيق طول قوس درجة نصف النهار الارضية . ويروي ابن خلكان قصة اجراء العملية ويعزوها الى بني موسى (ينكر سوتر هذه النسبة ويروي روايتين اخريين تتضمنان اختلافات في الاشخاص والاماكن . واليكم رواية ابن خلكان :

(ابو عبدالله محمد بن موسى بن شاكر)

« احد الاخوة الثلاثة ، الذين ينسب اليهم جبل بني موسى ، وهم مشهورون بها ، واسم اخويه : احمد ، والحسن ، وكانت لهم هم عالية في تحصيل العلوم القديمة ، وكسب الاوائل ، واتبعوا انفسهم في شأنها ، وانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم ، واحضروا النقلة من

الاصقاع الشاسعة، والاماكن البعيدة بالبدل السني .
فاظهروا عجائب الحكمة .

وكان انقلب عليهم من العلوم الهندسة ،
والحيل ، والحركات ، والموسيقى ، والنجوم ، وهو
الاقل .

ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر . يشمل
على كل غريبة . ولقد وقفت عليه ، فوجدته من
احسن الكتب وامتها . وهو مجلد واحد .

ومما اختصوا به في ملة الاسلام واخرجوه من
القوة الى الفعل - وان كان ارباب الارصاد المتقدمون
على الاسلام قد فعلوه . لكنه لم ينفل ان احدا من
اهل هذه الملة تصدى له وفعله ، الا هم - وهو ان
المامون كان مفرى بعلوم الاوائل وتحقيقتها ، ورأى
فيها ان دور كرة الارض اربعة وعشرون الف ميل كل
ثلاثة اميال فرسخ ، فيكون المجموع : ثمانية الاف
فرسخ ، بحيث لو وضع جبل على اي نقطة كانت
من الارض ، وادركنا الجبل على كرة الارض حتى
انتهينا بالطرف الآخر الى ذلك الموضع من الارض .
والنقى طرفا الجبل . فاذا مسحنا ذلك الجبل كان
طوله اربعة وعشرين الف ميل ، فاراد المامون ان
يتف على حقيقة ذلك ، فسأل بني موسى المذكورين
عنه ، فقالوا : نعم ، هذا قطعي . وقال : اريد منكم
ان تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى تبصر
هل يتحرر ذلك ام لا ، فسألوا عن الاراضي المتساوية
في اي البلاد هي ؟ ففيل لهم : صحراء سنجان في
غاية الاستواء . وكذلك وطأت الكوفة ، فاخذوا
معهم جماعة ممن يثق المامون الى اقوالهم ، ويركن
الى معرفتهم بهذه الصناعة ، وخرجوا الى سنجان ،
وجاءوا الى الصحراء المذكورة : فوقفوا في موضع
منها ، فاخذوا ارتفاع القطب الشمالي بعمد
الات ، وضربوا في ذلك الموضع وتدا ، وربطوا فيه
حبلا طويلا ، ثم مشوا الى الجهة الشمالية على
استواء الارض من غير انحراف الى اليمين واليسار
حسب الامكان . فلما فرغ الجبل نصبوا في الارض
وتدا آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى
جهة الشمال ايضا كفعلهم الاول .

ولم يزل دابهم ، حتى انتهوا الى موضع
اخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور ، فوجدوه قد زاد
على الارتفاع الاول درجة ، فمسحوا ذلك القدر
الذي قدره من الارض بالحبال ، فبلغ ستة وستين
ميلا وثلاثي ميل ، فعلموا ان كل درجة من درج
الفلك ، يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلا
وثلاثان .

ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه التود
الاول وشدوا فيه حبلا ، وتوجهوا الى جهة
الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا
في جهة الشمال : من نصب الاوتاد . وشد الحبال ،
حتى فرغت الحبال . انني استعملوها في جهة
الشمال ، ثم اخذوا الارتفاع فوجدوا القطب
الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة ، فصح
حسابهم . وحققوا ما قصدوه من ذلك ، وهذا
اذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقة
ذلك .

ومن المعلوم ، ان عدد درج الفلك ثلثمائة
وستون درجة ، لان الفلك مضموم باثني عشر برجاً ،
وكل برج ثلاثون درجة ، فتكون الجملة لثلاثمائة
وستين درجة . فضربوا عدد درج الفلك في سنة
وستين ميلا - اي التي هي حصة كل درجة -
فكانت الجملة اربعة وعشرين الف ميل ، وهي :
ثمانية آلاف فرسخ ، وهذا محقق لا شك فيه .

فلما عاد بنو موسى الى المامون واخبروه بما
صنعوا . وكان موافقا لما رآه في الكتب القديمة
من استخراج الاوائل ، طلب تحقيق ذلك في موضع
آخر ، فسيرهم الى الكوفة ، وفعلوا كما فعلوا في
سنجان ، فتوافق الحسابان ، فعلم المامون صحة
ما حرره القدماء في ذلك .

لقد روينا هذه القصة لانها تحسن الاشارة
الى الحرص على المنهج والبحث عن الدقة في جميع
مراحل التجربة .

ويوسفنا الاكثار من ضرب الامثلة التي سترينا
ان العلماء العرب تحرروا في كل العلوم تدريجا من
اساتذتهم الاغريق في كل مكان على نطاق الملاحظة
والتجريب والقياس والطرق العملية في الحساب .
اما في الطب : فالى جانب المناقشات المدرسية
(الاسكولائية) كالمناقشات التي جرت بين رضوان
وابن بطلان ، تنبهي الاشارة : لدى اطباء امثال
ابي زكريا الرازي ، الى قيمة الملاحظات السريرية .

وعلى هذه الصورة هدف العلم عند العرب
الى الحصول على بعض الاستقلال تجاه الفلسفة ،
لكي يصبح علما يقينيا غنيا بالتجارب والحسابات .
واخير ، بالرغم من ان مثليه بين المسلمين ظلوا
في معظم الاحيان متهمين بشيء من الزندقة ، فقد
تناقص ايحاؤه بالخوف لدى المؤمنين الحقيقيين بحيث
انه استطاع بعد ذلك احد قادة السنة الاقحاح ،
وهو الفزالي « الكتابة بان الرياضيات ومن ضمنها
الطبيعة (اي بصورة يقينية) والطب لا تحمل اي

خطر بذاتها . وعلاوة على ذلك فان العديد من هذه العلوم قدم خدماته للدين : فالحساب والجبر تدخلتا في حساب حصة كل وارث في قسمة الموارث ، بقدر قرابته وموقعه من اصحاب الحق ، وعلى هذا كتب ابو حنيفة الدينوري في هذا الموضوع كتابين (حساب الوصايا وحساب الدور) .

واستعمل كذلك علم الفلك وعلم المثلثات (حيث كان العرب فيه مع ابي الوفاء من المخترعين) في تعيين اتجاه القبلة : وكتب الدينوري والبتاني وبعدهما ابن الهيثم عن هذه المسألة . واستخدم كذلك علم الفلك المسمى بعلم الوقت . لتعيين ساعات النهار والليل ولضبط مواقيت الصلوات الخمسة التي فرضها الشرع .

ولكن ينبغي علينا كذلك ملاحظة ان العلوم الخاصة . الدائرة في فلك ابحاثها الخاصة ، قد افضى بها الامر الى تبني فرضيات للعمل وتخطيطات للنماذج لتمثيل الظواهر ، وبالنتيجة : لاتباع طرق كان الاتفاق عليها بعيدا . والوحدة المنطقية للعلم والعقل التي اعتبرت الفلسفة كشيء مسلم به وكمثل اعلى . وجدت نفسها تقاوم بضراوة : ففي علم الفلك مثلا ، بنى العلماء نظام بطليموس ، الذي سمح لهم بترجمة ملاحظاتهم بوضوح في لغة هندسية .

وعلم الفلك الذي نستطيع ان نسميه طبيعة . ترك ايضا للفلاسفة الذين يدرسونه في منظور ما وراء الطبيعة عندهم . ولكن معارضة الطريقة الهندسية بالطريقة الفيزيائية ، ما تزال تبدو اكثر تميزا في المسائل البصرية . وهذا ما يرهس عليه مايرحوف في مقال حول المذهب الارسطوطاليسي للضوء لدى حنين بن اسحق : حنين الذي بحث اثر ارسطو في تحديد او تعريف طبيعة الضوء ، كان عليه ان يواجه جميع اولئك الذين يحددون نشاطهم في دراسات هندسية للشعاع الضوئي والمرايا ، حسب طريقة كبار الرياضيين القدماء ، افليدس وبطليموس . ونحن ندرك اهمية هذه المعارضة : انها هي نفسها التي نجدها ، على طول امتداد تاريخ العلوم ، بين الطبيعيات نفسها والظواهر ، بين الاسباب والقوانين . في هذه الحقبة ظل علم طبيعة الكائنات وعلم اسبابها ، في القالب الميتافيزيقي . وهذا هو العلم الذي لم يتقبله الاسلام ، نظرا لان فلسفته الفيزيائية التي تتعارض كل التعارض مع فكرة جبرية الطبيعيات ، بوصفها محددة للحرية المطلقة لله . وهذا ما يفسر الاستنكار الذي لا علاج له الذي انتهى بضرب مذهب الاعتزال :

هذا المذهب كان يقول ، في الواقع ، بان الله لا يخلق الا الوجودات وليس الماهيات . ولكن مقابل ذلك ، ان علم الظواهر المعطاة للحواس وعلم الشريعة المفهوم على هيئة مؤشرات لمجرد علاقة بين هذه الظواهر . هما اللذان سمحا بان يروا فيهما عادة وسيرة يسيرهما الله بحرية دون اي ضرورة من جانب الشيء . هذا العلم تقبله المتكلمون بسهولة ، وادركوا ضرورة التزام الاسلام بعدم رفض كل ما تجلبه الحضارة « المعصرية » .

اما الذي ظل عدوا للاسلام فهي الفلسفة ، هذه التلقيفية التوفيقية القائمة على الافلاطونية المحدثة المزعومة استنادها الى منطق ارسطو ، ومعنى ذلك على قانون العلة الوحيدة الشاملة .

اذا كان الفارابي قد ألف كتاب « الجمع » فانه كما قال هو نفسه ، لان بعض معاصريه فكروا بوجود خلاف وجهة نظر بين افلاطون وارسطو . اذن فالإيمان ووحدة العقل قد اهتزتا . ومشكلة معرفة ما اذا كان العقل هو صاحب الضرورة قد طرحت على بساط المدرسة الأشعرية . وهناك مفكرون كبار امثال الجويني والغزالي يحددون مزاعم العقل (وبالتالي ادعاءات المنطق) بوصفها من مقومات النواقع . وسيكون نعمة نظام للمعرفة ، ولكنه نظام خاص بها ، ولن يهيمن ابدا على نظام الوجود .

ونحن واجدون لدى التوحيد مناقشة طريقة . للغاية بين النحوي ابي سعيد السيرافي ومتى بن يونس . . . يرى متى ان المنطق يشبه ميزانا لوزن الحقيقة والخطأ ويخالفه ابو سعيد السيرافي مخالفة تامة : واليك بعض هذا الحوار :

« فقال ابن الفرات : انت لها يا ابا سعيد . فقال ابو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هجئة . ثم واجه متى فقال : حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فانا اذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه ورد خطئه على سنن مرضي وطريقة معروفة .

قال متى : اعني به انه آلة من الات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني اعرف به الرجحان من النقصان ، والنائل من الجانح .

فقال : ابو سعيد : اخطأت : لان صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المؤلف والاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل . وهبك عرفت الراجح من الناقص من طريق الوزن ، فمن

لك بمعرفة الموزون إنما هو حديد أو ذهب أو شبه
أو رصاص .

قال متى : إنما انرم ذلك لأن المنطق بحث عن
الأغراض المعقولة ، والمعاني المدركة ، ونصفح
للخواطر الساذجة والسوانح الهاجسة . والناس في
المعقولات سواء . إلا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية
سواء عند جميع الأمم ، وكذلك ما أشبهه .

قال أبو سعيد : لو كانت المطلوبات بالعقل
والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المخلفة وطرائفها
المتباينة إلى هذه المربعة البينة في أربعة وأربعة وانهما
ثمانية .

قال : نعم .

قال : أخطأت . قل في هذا الموضع : بلى .

قال : بلى . أنا أفندك في مثل هذا . .

قال : إذا لست تدعونا إلى علم المنطق . إنما
تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة
يونان ، فكيف صرت تدعو إلى لغة لا نفي بها ؟ على
أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة
بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، لم
من هذه إلى أخرى عربية ؟

قال متى : يونان وإن بادت مع نعتها . فإن
الترجمة حفظت الأغراض ، وأدت المعاني ، وأخلصت
الحقائق .

قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة
صدقت وما كذبت ، فكذلك تقول : لا حاجة إلا عقول
يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما
أبرزوه .

قال متى : ولكنهم بين الأمم أصحاب عناية
بالحكمة والبحث عن ظاهر العالم وباطنه . . .

قال أبو سعيد : أخطأت وتعصبت ومات مع
الهوى ، فإن علم العالم مبثوث في العالم بين جميع
من في العالم .

قال متى : هذا قد مر في جملة كلامك أنفا .

قال أبو سعيد : فهل وصلته بجواب قاطع ؟
أسألك عن حرف واحد وهو (الواو) ما أحكامه ؟
وكيف مراقبه ؟ وهل هو على وجه أو وجوه ؟

فببت متى وقال : هذا نحو ، والنحو لم انظر
فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه ، وبالنحوي حاجة
شديدة إلى المنطق .

قال أبو سعيد : أخطأت لأن الكلام والمنطق
واللغة واللفظ من واد واحد بالمشاكلة والمائلة .

فقال متى : يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل
والحرف . فاني أتبلغ بهذا الفدر نى أغراض قد
هديتها لي يونان .

قال أبو سعيد : أخطأت : لأنك في هذا الاسم
والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب
الواقع في غرائر أهلها ، وكذلك أنت محتاج بعد إلى
حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف .

قال متى : لو نشرت أنا أيضا عليك من مسائل
المنطق أشياء لكان حالك كحالي .

قال علي بن عيسى وتقوض المجلس وأهله
يتعجبون من جاش أبي سعيد الثابت ولسانه المتصرف
ووجهه المتملل وفوائده المتتابعة . .

وأتوقع أن منطق أرسطو هو عمل أحد
اليونانيين ، وضع حسب اللغة اليونانية فلا يلزم
العرب بشيء ولا الفرس ولا الهنود . ويحتج متى بأن
المنطق يحمل على حقائق واضحة ، وأن العقل واحد
طالما كان الناس متساوين أمام المفاهيم ، وعلى
سبيل المثال أربعة وأربعة تساوي ثمانية بالنسبة
للجميع .

إننا لا نتحدث عن مراجع . حتى لو كانت
أمانة - ولا تستطيع أن تكون أمانة - إذن فلماذا
نهرع إليها ؟ لتبرير ذلك . ينبغي افتراض كون
الأغريق هم الشعب الوحيد الذي وهب عصمة
لا تفتحم ، من ذكاء طبيعي متفجر إلى طبيعة خاصة .
بحيث لم يقع في الخلط ، حتى لو كان أراد . ولكنه
لكل الشعوب بصيب مرة ويخطئ أخرى . وعلاوة
على ذلك ، فالمسألة ليست مسألة الإغريق كافة ،
ولكن قضية أغريقي واحد . هو أرسطو . كانت
قبله وبعبده اختلافات بين الناس ذلك لأن التباين
في الآراء شيء من الصميم وطبيعي . فهل يوسع
فرد أن يلقيه بجنب منطق ، إذا كان ممة اختلاف
طبيعي بين العقول ؟ على هذه الصورة لا توجد شمولية
للعقل . بوسعه تحقيق أجماع بين الناس ، وبين
الشعوب والأفراد لا يستطيع أحد بصورة خاصة
ادعاء التمتع بامتياز في هذه المادة . وكما سيقول
أفغزاني ، لا يمكن للعقل أن يكون حكما أعلى . وليس
بمقدور عقل فاعل إضاعة فكر الحكماء أو تصورات
الأنبياء . لا يستطيع الإنسان أن يكتسب بنفسه
أضال يقين يفرض نفسه . أنه لا يحصل على
انيقين إلا باتباع الشريعة التي تحكم العالم في كل
معارج الحقيقة ، الطبيعية والأخلاقية والسياسية
والدينية . ولكن إذا كان لابد من العثور على هذا
الشرع بجهد العقلاني الذاتي ، فينبغي ، للتلايته .

أن يعرف جهده قبل كل شيء . إذن فهو حبيس في دائرة لن يخرج منها إذا كان قد أعطى الشرع مقدما .

اللغة التي خلقها الله ، والعالم المحسوس الذي خلقه كذلك ، هما معطيان بالنسبة للإنسان .
فالكلمات تعين معاني إذا فهمت أدت إلى معرفة الأشياء ونظامها وصفاتها . أنها تفتح كذلك على عالم أخلاقي وديني . إذن فهي مفتاح كل معرفة .
والحقيقة هي ما ينبغي قوله وما قيل كما ينبغي .
والكلام المنزل مكتوب في هذا المجموع من المعاني وسنده . وبالتالي ، فقد وجد الإسلام الصميم طريقه في اسمانية *Nominalisme*

عالمية ذات أساس الهي ، ولكنها استطاعت بسهولة أن تنسجم مع الاسمانية العلمية التي بذر الإسلام بذرتها الأولى دون أدنى ريب . وحين قال الأشعري أن الصفات الإلهية ليست هي الله ، ولكنها ليست شيئا آخر سوى الله فإن هذا اللفظ ، من وجهة نظر المنطق الإغريقي سيكون مفهوما بهذا المعنى ، وهو أننا حين نقول أن الله عالم . مقتدر ، الخ ، فإننا نقول أكثر مما لو حدثنا أنفسنا بالنطق باسم الله وحده .

ومع ذلك ، فإننا لا نسمي شيئا أكثر مما نسمي الله . إذن يجب أن يفهم هذا الأمر بنسيان التصور

اليوناني لحكم الصفة : س = ب ، وكل النظرية المنطقية النحوية للصفة ، أساس الميتافيزيقا التعقلية للصفات . وعلى الصعيد العلمي ، فإن الأشعرية للباقلاني ستعني هذه الاسمانية في مذهب الجوهر الفرد المرضي .

وعلى هذا المتوال اتسعت الوشائج بين العلم والفلسفة والوحي القرآني ، أيام العباسيين الأولى .

إن مقاومة الفلسفة للأفلاطونية المحدثة في خدمة الفرق المتطرفة ، والنضال ضد منطق أرسطو الذي قدر له أن يدوم حتى عهد ابن تيمية ، قد انتهيا بفتح الطريق إلى كلامية سنية خالصة لم تستطع أن تشكل نفسها قبل ذلك ، لأن الإسلام الحنيف بمؤمنيه الأصفياء وبتحفظه تجاه الحكمة الأجنبية للكفار وحيال أخطار معتزلية ، ورفض حتى فكرة ما وراء الطبيعة (الإلهيات) وكذلك لأن الكتلة الموحدة التي ألفها العلم والفلسفة لم تكن قد تفككت بعد ، فعارض دون مساومة ممكنة مذهب انصار الوحدة في السياسة والدين ، فظلت العقيدة الإسلامية راسخة البنيان .

ومن الجانب الآخر لابن سينا ، أدى هذا الطريق إلى أفكار الفزالي ، الركنية ، وأفكار فخر الدين الرازي ، الرصينة .



تراث بغداد في ائمة عراق

تحقيق وتقديم

حميد مجيد هذه

معهد الفنون الجميلة / بغداد

توطئة

(السيل على الذيل) في ثلاثة مجلدات (١) . وغيرهم
كثيرون ذكرهم صاحب كشف الظنون .

أما من اهتم ببغداد من المتأخرين فهم كثيرون
أيضا نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

عبدالرحمن السويدي الف (حديقة
الزوراء) (١) ويسمى تاريخ بغداد ، وتاريخ بغداد ،
سليمان فائق وضعه بالتركية وترجمه الى العربية
موسى كاظم نورس (٢) ودوحة الوزراء في تاريخ
وقائع بغداد الزوراء ، للشيخ رسول الكركوكلي
وضع بالتركية وترجمه الى العربية موسى كاظم
نورس وقد طبع في بيروت ولم يذكر تاريخ طبعه ،
وتاريخ بغداد للمرحوم العلامة طه الراوي وهو
مطبوع في مصر ضمن سلسلة اقرا ، وتاريخ بغداد ،
نعلي ظريف الاعظمي (طبع في بغداد سنة ١٣٤٤ هـ)
وحضارة الاسلام في دار السلام ، لجميل نخلة
الدور المتوفى سنة ١٩٠٧ أيضا طبع في بيروت .

ويعتبر دليل خارطة بغداد الذي ألفه المرحوم
الدكتور مصطفى جواد ، والدكتور أحمد سوسة
من خير ما كتب عن بغداد في العصر الحديث وقد
طبع في مطبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥٨ .

وهناك كتب اخنصت بجانب معين من بغداد
مثل : مساجد بغداد ، لمحمود شكري الالوسي ،
وعمران بغداد ، لمحمد صادق الحسني ، ومناقب

من اوائل الذين كتبوا عن بغداد احمد بن ابي
طاهر بن طيفور البغدادي (١) وتبعه احمد بن الطيب
السرخسي في كتابه (فضائل بغداد واخبارها) ،
وبزجورد بن مهنداد في كتابه (فضائل بغداد
وصفتها) (٢) . ويعتبر الخطيب البغدادي ،
احمد بن علي المتوفى (٦٣٢ هـ - ١٠٧٠ م) في كتابه
تاريخ بغداد الملبسوع في ١٤ مجلدا ابرز من
تعرض الى بغداد في تأسيسها ، وسبب تسميتها ،
وانهارها وقصورها وخطوطها ومساجدها والاعلام
الذين درسوا فيها او مروا بها وراوها .

ولم يكتف المؤرخون من بعده بذلك بل
توسموا في تراجمهم وشروحهم ومتابعاتهم فالفوا
ذبولا على تاريخ الخطيب منها : ذيل تاريخ مدينة
السلام ببغداد ، للحافظ ابن الديلمي المتوفى
٦٣٧ هـ ، حقق المجلد الاول منه الاستاذ بشار
عواد معروف (٣) ، وكذلك التكملة لوفيات النقلة
لعبدالعظيم المنذري المتوفى ٦٥٦ هـ (٤) . ومن
الذيل على تاريخ بغداد ذيل للسمعي صاحب
الانساب المتوفى ٥٦٢ هـ في خمسة عشر مجلدا ،
وجاء محمد بن محمد بن حامد الكاتب المتوفى
٥٩٧ هـ فكتب ذبلا على ذيل السمعي سماه

(١) انظر كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، ومجلة لغة العرب السنة
٢ ج ٧ : ٢٢٨ .

(٢) بغداد مدينة السلام ، للهمداني ص ٦ .

(٣) صدر عام ١٩٧٤ عن وزارة الاعلام العراقية (الثقافة
والاعلام الآن) .

(٤) حققه بشار عواد معروف وصدر في اربعة مجلدات سنة
١٩٦٨ - ١٩٧١ .

(٥) كشف الظنون ١ : ٢٨٨ ، وشراء بغداد ، للخافاني
ج ١ : ١٥ .

(٦) حقق ج ١ منه الدكتور صفاء خلوصي وطبع سنة ١٩٦٢
ببغداد .

(٧) طبع في بغداد سنة ١٩٦٢ بمطبعة المعارف .

بغداد لابن الجوزي وشعراء بغداد لعلي الخاقاني ،
وقيان بغداد لعبدالكريم الاعلاف ، وفيضانات بغداد
للدكتور احمد سوسة في ٣ مجلدات صدر الاول
سنة ١٩٦٢ وغيرها الكثير مما لا يتسع المجال
لذكرها^{١٨} .

اما الآثار المخطوطة للمؤرخين التي ألفوها من
بغداد فهي ايضا كثيرة نذكر منها على سبيل المثال
لا الحصر : مزارات بغداد ، للاب انستاس ماري
الكرمل المتوفى سنة ١٩٤٨ ، ومجموعة تراجم
علماء بغداد ، لعلي الالوسي المتوفى سنة ١٩٢١ ،
وتاريخ قضاة بغداد ، لابراهيم الدروبي ، ونبل
المراد في احوال العراقي وبغداد ، لعباس البغدادي
ومنتجع المرتاد في تاريخ بغداد وهو الكتاب الذي
دققنا النظر فيه ووقفنا على مباحثه وموضوعاته
ودرسناه دراسة منهجية علمية بعد ان حققنا
نصولا منه .

الاختلاف في اسم الكتاب

اختلف في تسمية الكتاب فبعضهم يسميه
منتجع المرتاد في تاريخ بغداد كما هو مكتوب على
الكتاب (نسخة الكرمل المتوفى سنة ١٩٢١ والتي لا
تانية لها) وسميه رزوق عيسى في مقاله بمجلة
نفاة العرب السنة الثالثة ج ٧ : ٢٤٥ باسم : مختصر
المستفاد من تاريخ بغداد ، والراجح ان الكتاب
اسمه : مختصر المستفاد في تاريخ بغداد او منتجع
المرتاد في تاريخ بغداد .

من هو المؤلف ؟

المؤلف هو الكونت جبرائيل حنوش اصفر
١٨٥٠ - ١٩٢٣ من اهل بغداد له مؤلف
مطبوع اسمه : الابحاث العليا في علم الفلك ، مطبوع
في بيروت سنة ١٨٧٥ .

وصف المخطوطة :

الكتاب في خزانة المتحف العراقي تحت رقم
١١٠٤ وهو ضمن المخطوطات التي كانت في دير
الاباء الكرمليين ببغداد وانتقلت الى الآثار بعد وفاة
الاب انستاس ماري الكرمل .

(٨) من اراد الوقوف على كل ما يتعلق ببغداد فليراجع جبهة
الراجع البغدادية الذي ألفه الباحثان كوركيس عواد
وعبد الحميد العاوي ، مطبعة الرابطة - بغداد سنة
١٩٦٢ .

(٩) معجم المؤلفين العراقيين ١ : ٢٢٦ .

يفع في ٣٠٥ صفحة ، ناقصة الآخر ، وقد
كتب بخط متوسط معنون بالحمري ولم يذكر
عليه اسم الناسخ ولعله يكون المؤلف نفسه قد
كتبه ، ولم اعثر على نسخة اخرى منه فعلى ذلك
تكون نسخة المتحف هذه هي المتمددة والتي
سندرسها ونحقق بعض فصولها .

اولها : الحمد لله الازني الضابط الكل ، الاله
العلي الذي بوصفه نبي ونمل وتكل ... وبعد
فيقول ... جبرائيل يوحنا اصفر انه لما كان علم
التاريخ كضربة لازب للخاص والعام . اذ كان فيه
المرام نافعا للكبير والرفيع والصغير والوضيع
ومفيدا للعالم والجاهل ... الخ (ص ٣ - ٤) من
المخطوطة .

آخرها : ترجمة محمود العمري بن يونس
افندي العمري الموصل المتوفى سنة ١٢٠٢ هـ .
ومن شعره :

سل التواضع عن كربي وتمذيبي
في حب مرهفة بيضاء عيوب
(ص ١٣٠٥) .

مباحثها وفصولها :

اما مباحثه فهي : بغداد ، الاصل في تسميتها
تاريخها . ذكر خلفائها من بني العباس حيث يذكر
سبعة وثلاثين خليفة حكموها طيلة ٥٢٤ سنة .
يبدأ بالسفاح وينتهي بالمستعصم بالله . ثم بعد
ذلك يذكر من ملوك بغداد من بعد بني العباس
وكذلك اسماء ولاة بغداد من سنة ١٠٤٩ هـ -
١٦٦٠ م) الى سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ومدة حكمهم
فأولهم : كوجك حسن باشا سنة ١٠٤٩ هـ ومدة
حكمه سنة واحدة ، وآخرهم علي باشا ومدة حكمه
سنة واحدة كانت سنة ١١١٥ هـ - ١٧٠٣ م (انظر
ص ١٢٧ المخطوطة) .

ثم يستمر في سرد الحوادث واسماء الولاة
من العثمانيين الى ان ينتهي برديف باشا الذي
تولى بغداد سنة ١٢٩١ هـ - ١٨٧٣ م وحكمها سنة
واحدة (انظر ص ١٥٤ المخطوطة) .

ثم يذكر محلات بغداد وقصورها وطاقاتها
واسواقها وما كان في بغداد من البيع والديور ،
والمدارس القديمة والحالية (التي عاصرها المؤلف)
والحمامات والانهار (من ص ١٥٥ - ١٧٥) .

ولا يقتصر المؤلف في سرده وتفصيله عن بغداد

وما يتعلق بها بل بتعدادها الى ما اضيف اليها من البلاد كالبحرة والكوفة والحلة والموصل فيتحدث عن تواريخها ونم اعثر فيها على رأي جديد او خبر طريف اذ هو عبارة عن نقولات حرفية من بعض التواريخ المعروفة دون ان يشير اليها المؤلف .

وفي الصفحة ٢٢٨ يبدأ بكتابة فصل جديد عنوانه : ذكر من طرق ارض بغداد من الصحابة ومن سكنها من العلماء والفضلاء والشعراء وارباب القلم .

وفي الاخير يترجم نرجال الموصل من العمرين الذين مروا بالزوراء وبهذا يختم كتابه .

ماذا حققت من الكتاب ؟

بعد التدقيق والبحث في فصول الكتاب وجدت ان المؤلف نقل بعض الباحث من المراجع



ذكر أماكن وقصور وطاقات بغداد

الحريم الطاهري : وهو قصر بالجانب الغربي في اعلى بغداد ينسب الى الامير طاهر بن الحسين الخزاعي (١٠) .

قصر ام حبيب : هو لبنت الرشيد ، وهو في الجانب الشرقي وكان من نزه الدنيا (١١) .

قصر السلام : بالرفقة (١٢) عمره الرشيد ومصرف عليه اموالا (١٣) كثيرة .

قصر عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس : هو اول قصر عمر في بغداد وكان على شاطئ نهر الرافيل عند مصبه في دجلة وهو الآن وسط العمارة بالجانب الغربي ولم يبق نه الآن اثر (١٤) .

(١٠) قائد جيش المأمون الذي ارسله لمحاربة اخيه الامين في بغداد وذلك سنة ١٩٨هـ (معجم البلدان ٤ : ٢٥٧ ، دليل خارطة بغداد ٧٨) .

(١١) معجم البلدان (٤ : ٣٥٥) .
(١٢) الرفقة : تقع في الضفة الغربية من دجلة اشتهرت ببساتينها الطامرة وكان الخلفاء من بني العباس ينتزهون فيها (دليل خارطة بغداد ٦٥) .

(١٣) في الاصل (اموال) .

(١٤) انشاء عم النصور عيسى بن علي في موضع قصر سابور وهو في موضع مسجد قربة الحالي (معجم البلدان ٤ : ٢٦١ ، دليل خارطة بغداد ١١) .

التاريخية نقلا مباشرا دون اشارة الى ذلك فالفصل المتعلق بانخلاء العباسيين وتسمية بغداد وولادة بغداد في العصر العثماني كلها نقول لا فائدة ولا جدوى من تحقيقها لانها تكرر لما هو معلوم فلم اجد اضافة ولو قليلة من لدن المؤلف فتركت ذلك وراء ظهري .

لذا انصب اهتمامي على الباحث الآتية : فاعدت النظر فيها وحققت اصولها وسححت ما امكن تصحيحه مما وقع فيه من الأوهام مستندا الى المراجع التاريخية ومشيرا الى ذلك كل في مكانه والمباحث هي : قصور وطاقات بغداد ، اسواقها مدارسها جوامعها ... الخ .

ختاما : ارجو ان اكون قد ساهمت في ابراز معالم بغداد ال اثرية ... بغداد الشامخة أمس واليوم .

قصر وضاح (١٥) : قريبا من الرصافة بنياه النصور لولده المهدي وزوجه وفيه يقول الشاعر (١٦) :

سقى الله باب الكرخ من متنزه
الى قصر وضاح فبركة (١٧) زلزل

منازل لا يستتبع الفيث اهلها
ولا اوجسه اللذات عنها بمعزل

منازل لو ان امرا القيس حلها
لا قصر عن ذكر الدخول فحومل

إذا الليل ادنى مضجعي منه لم يقل (١٨)
عقرت بعيري يا امرا القيس فانزل

قصر التاج : اسم دار الخلافة بناء الخليفة المعتضد بالله ولم يتم عمارته ومات قائمه ولده المكتفي بالله (١٩) .

(١٥) هو وضاح بن شبا من موالي الخليفة النصور وكان احد الرقباء على بناء المدينة المدورة وعين بمعد صاحب خزنة السلاح (دليل خارطة بغداد ٨٦) .

(١٦) الابيات لعلي بن الجهم المتوفى ٤٢٩هـ (ديوان علي بن الجهم ٥٥ ، معجم البلدان ٤ : ٢٦٤ - ٢٦٥) .

(١٧) في الاصل (وبركة) والصواب ما نقلناه من الديوان ص ٥٥ ومعجم البلدان (٤ : ٢٦٤) .

(١٨) في الاصل (أقل) والصواب ما استنباه منقولاً عن الديوان ص ٥٦ ، ومعجم البلدان (٤ : ٢٦٥) .

(١٩) وضع اسس هذا القصر المعتضد واتم بناؤه ابنه علي

قصر الخلد (٢٠) : بناه الخليفة المنصور بعد تمام بناء بغداد على شاطئ الدجلة وكان موضعه دير فيه راهب وكان من اشرف المواضع (٢١) .

قصر الخيل : هو دار الخيل احد دور الخلافة وكان صحنها ألف ذراع في ألف ذراع وكان يوقف بها في الأعياد وعند ورود الرسل من البلاد في كل جانب خمسمائة فرس ملبسة بالذهب والفضة .

قصر الرياحين (٢٢) : احد دور الخلافة مشرف على سوق الرياحان أحدثه الخليفة المستظهر (٢٣) وهو محل واسع غير انه كفيه لم يبق له ذكر ولا رسم .

قصر الخلافة : يعرف بـ الحريمي وهو دار الخلافة وكان مقدار ثلث بغداد قائم في الوسط ودور انعامه محبطة به وله سور كانه نصف دائرة وله عدة ابواب .

دار الشجرة : داخل دار الخلافة بناه المقدر سمي بـ الشجرة لان فيه شجرة من فضة وذهب فيها ثمانية عشر غصنا (٢٤) ، لكل غصن فسروع مكللة بالجواهر على شكل الاثمار وعليها طيور من ذهب فاذا هب الريح ظهر لها صفيح وهدير مختلف كاصوات وتغريد الطيور ، وكان بها بركة ماء عليها خمسة عشر فارسا (٢٥) مصورين من الذهب وخيولهم من الفضة عن يمين البركة ومثلهم عن الشمال (٢٦) .

دار الطواويس : وهو ايضا بدار الخلافة بناه الخليفة المطيع وكان اعجوبة الزمان الحسنة .

المكتفي ، ويقع على سفة دجلة تحت القصر الحسني وكان يشرف على المساة كانه التاج . وقد شب حريق في قصر التاج سنة ٥٤٩ هـ تحول فيها الى دكان من الرماد الا انه اعيد بناؤه على عهد المستفي (دليل خارطة بغداد ١٢٥ - ١٢٦) .

(٢٠) انظر : تاريخ بغداد (١ : ٨) .
(٢١) سمي بقصر الخلد نسبة الى حدائقه الواسعة وتشجيرها بجنة الخلد . يقع شمال الدير المنيق (دير مار فثيون) بقليل . كمل بناؤه في حدود سنة ١٥٩ هـ - ٧٧٦ م ، وكان الرشيد قد فصل الإقامة فيه بدلا من قصر باب الذهب . (تاريخ بغداد ١ : ٧٥ ، دليل خارطة بغداد ٥٦) .

(٢٢) ويسمى بـ دار الربيعانيين نسبة الى سوق الربيعانيين الواقع على مقربة من الدار (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .
(٢٣) انشاء المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) - (١١٦٠ - ١١٧٠ م) (دليل خارطة بغداد ١٥٨) .
(٢٤) في الاصل (فصح) .
(٢٥) في الاصل (فارس) .
(٢٦) حذفنا لفظة (من) في الاصل لعدم جدواها .

الطاقات

طاقات ابي سويد (٢٧) : هي ما بين مقابر باب الشام .

طاقات الراوندي (٢٨) : ينسب الى محمد بن احسن صهر الوزير ابن ماهان .

طاقات العكي (٢٩) : بالجانب الغربي بالشارع .

طاقات القطريف (٣٠) :

طاق اسماء : بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر الملقى . ينسب الى اسماء بنت المنصور (٣١) .

طاق الحرائي (٣٢) : بالجانب الغربي وشارع ذلك الى شارع باب الكرخ .

قنطرة البردان (٣٣) : في شارع بغداد .

قنطرة بني زريق (٣٤) : على نهر الرافيل (٣٥) .

(٢٧) عمر ايام الخليفة احمد بن المستفي (معجم البلدان ٤ : ٢٥٥) .

(٢٨) نسبة الى وردان بن سنان من قواد المنصور (معجم البلدان ٢ : ٢٩٤) .

(٢٩) في الاصل (ابو) .

(٣٠) واسمه : الجارود (الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٧٦) .

(٣١) هو مقاتل بن حكيم . اصله من الشام (تاريخ بغداد ١ : ٨٢) .

(٣٢) هو القطريف بن عطاء ، اخو الخيزران خال المهدي والرشيد ، ولي اليمن ويقال انه من بني الحسارث بن كعب (تاريخ بغداد ١ : ٨٢) .

(٣٣) كان طافا عظيما وكان في دارها التي صارت لعلي بن الجهمشيار (بمشرفة الصخر) وعند طاق اسماء كان مجلس الشعراء وهناك كانوا يجتمعون في ايام الرشيد (بغداد مدينة السلام ٥٥) .

(٣٤) نسبة الى بانيه رجل من حران كان موليا للخليفة المنصور ، ووذيرا له ، اما المؤرخ اليعقوبي فيذكر ان الحرائي هو رجل آخر يسمى عمرو بن سمان وكانت له قطعة في هذا الموضع . وموقعه على الطريق النازل من باب البصرة (معجم البلدان ٤ : ٤٠٥) ، دليل خارطة بغداد ٨٦) .

(٣٥) انظر معجم البلدان (٤ : ٤٠٥) .

(٣٦) قنطرة مشيدة بالرخام نسبة الى بني ذريق وهي اسيرة فارسية من البثانيين (معجم البلدان ٤ : ٤٠٦) ، دليل خارطة بغداد ٨٥) .

(٣٧) عرف على عهد المنصور بـ نهر عيسى نسبة الى عيسى بن

قنطرة الشوك : على نهر عيسى غربي بغداد .
قنطرة المعبدى (٢٨) : بالجانب الغربي على
النهر ، وكانت أشهر القناطر في بغداد .

ذكر اسواق بغداد

سوق الثلاثاء (٢٩) : كان قبل ان تعمّر بغداد ،
وسمي كذلك لان كان يباع فيه نهار الثلاثاء فقط .
سوق السلاح (٣٠) الى الآن . سوق حجاج (٣١)
مولى . سوق يحيى (٣٢) . سوق الرياحين (٣٣) يباع
فيه الازهار والعطريات . سوق العطارين (٣٤) الى
الآن . سوق البزازين الى الآن يباع فيه الخبز
والحرير . سوق الحدادين (٣٥) . سوق النجارين .
سوق الصياغ (سوق الذهب) . والمشهور الآن من
الاسواق : سوق دانيال . سوق باعة الاجواخ .
سوق الهرج (٣٦) ... الخ .

ذكر مدارس بغداد القديمة

لهذه المدارس اسم لا رسم ، فالتاجية كانت
مدرسة جليلة العلم تلاميذها قير العلامة اسحق بن

علي بن المنصور الذي جدد انشاءه وشيد عند معبه في
دجلة قصرا في موضع قصر سابور العتيق سمي باسم :
قصر عيسى ولكن التسمية القديمة ظلت مستعملة عند
بعض المؤرخين كابن الجوزي ، وبافوت الحموي .
والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر اسمه - دهقان -
من الفرس . (تجارب الامم ٦ : ٩ ، ودليل خارطة
بغداد ٦٤) .

(٣٨) دعت بذلك نسبة الى عبدالله بن محمد المعبدى وقصد
بنى نكهم القنطرة على نهر عيسى (معجم البلدان) :
٤٠٧ ، دليل خارطة بغداد ٨٧) .

(٣٩) سمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق لاهل كلواذا واهل
بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب الى اليوم الذي
كانت تقوم فيه السوق واليوم سوق باب الاغا (دليل
خارطة بغداد ٣٤ ، معجم البلدان ٢ : ٢٨٣) .

(٤٠) (معجم البلدان ٣ : ٢٨٤) .
(٤١) نسبة الى الحجاج الوصفى مولى المهدي (بغداد مدينة
السلام للمهدي ٥٨ ، تاريخ بغداد ١ : ٩٦) .

(٤٢) نسبة الى يحيى بن خالد البرمكي ، موضع السوق كان
مجاورا لشهد ابي حنيفة (انظر دليل خارطة بغداد
١١٤ - ١١٥ ، معجم البلدان ٣ : ٢٨٤ ، تاريخ بغداد
١ : ٩٣) .

(٤٣) الصواب سوق الرياحين .
(٤٤) بالجانب الشرقي وهو سوق الشورجة اليوم .
(٤٥) اسواق قائمة الى اليوم في محلة باب الاغا بجانب
الرصافة .

(٤٦) في محلة باب الاغا من الجانب الشرقي لبغداد قرب باب
المدرسة المستنصرية (دليل خارطة بغداد ١٧٥) .

ابراهيم الفيروز آبادي (٤٧) بناها تاج الملك ابو الغنائم
المرزبان خسرو (٤٨) ، قيل دخل شاعر على الرئيس
ابي الغنائم يمتدحه بابيات فقال الشاعر (٤٩) :

فبحسان الذي اعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير
انذكر ان فراشك جلد شاة
وان خفك من جلد البعير

نقال له بعض من حضر : لا ام لك تقول هذا
في الرئيس والله ما ظننت اني قلت عيبا غير اني
مدحتك فضحك منه ووصله .

المدرسة المستنصرية : في الجانب الشرقي
من بغداد وهي التي تكلم عنها كثيرون من العرب
بانها كانت زمنا طويلا تقبل التلامذة ارا الآن فقد
عُجِر (٤٩) هذا المحل وقد ملئ (٥٠) بالالات الحديدية
انتي جنبتها الحكومة من اوروبا فترى كل قاعاتها

(٥٧) الصواب هو ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي
الفيروزآبادي المتوفى ٤٧٦ هـ - ١٠٨٣ م ويعرف بـ ابراسحق
الشيرازي وهو من مدرسي المدرسة النظامية . (الاعلام
١ : ٤٤ ، معجم البلدان ٢ : ٥ ، دليل خارطة بغداد
١٥٥ ، المعبر في خبر من غير ٢ : ٩٩) .

(٥٨) وزير السلطان ملكشاه توفي سنة (٤٨٦) . ثم انشاها في
حدود سنة ٤٨٢ هـ - ١٠٨٩ م (دليل خارطة بغداد
١٥٦) .

(٥٩) المشهور ان هذه الابيات قالها اعرابي اراد ان يثير غضب
ممن بن زائدة الشيباني المتوفى ١٥١ هـ وكان معسوكا
بالعلم والكرم ، فانشد اعرابي هذه الابيات بين يديه :
انذكر ان لحافك جلد شاة

والا نعلك من جلد البعير
فبحسان الذي اعطاك ملكا
وعلمك الجلوس على السرير
فلست مسلما ان عشت دهرنا
على معن بتسليم الامر
سارحسل عن بلاد انت فيها
ولو جار الزمان على الفقم

... الخ .

فلم يستطع هذا اعرابي ادارة (الشيباني) فآكرمه ودعا له
ونعجب اعرابي بانائه وحلمه وكرمه (قصة الابيات
كاملة في قصص العرب ج ٢ ص ٢٢٢) تأليف محمد احمد
جاد الولي وجماعة) .

(٥٩) في الاصل (انهجر) والصواب ما اتيته : محيط المحيط
٢ : ٢١٥٨) .

(٥٠) في الاصل (وقد املوه من الات) والصواب ما اتيته :
(محيط المحيط ٢ : ١٩٩٩) .

مغلقة (٥١) بعد ان كانت تسكنها العلماء في ذلك العصر المجيد (٥٢) . هذا ومن الجهة المشرقة على الدجلة نقرا الكتابة الآتية : (ثم يترك المؤلف بيضا بقدر صفحة لم يكتب فيها) .

ذكر مدارس بغداد الحالية

ابن الان (٥٢) بغداد من عظمتها السالفة فقد اندرس رونقها السالف تحت برقع الجهل والغباء فما فيها مدارس تستحق الذكر مع انك اذا اعتبرت مدارس الاسلام تراها عديدة وربما وجدت لكل جامع قاعة انزوى فيها معلم انحصرت وظيفته على تعليم الشبان مبادئ القراءة (بالقرآن) واصول الكتابة لا غير لكن هذه ماذا تكون في هذا العصر عصر التمدن والتقدم هذا مع قطع النظر عن البعض الذين يدرسون على علماء افاضل في بغداد وفي اماكن معدة لهم ولكن هؤلاء قليلون . اما مدارس النصارى قليلة واحسنهن مدرسة اللاتين لآباء الكرملتانيين المحترمين يدرسون فيها الفرنسية والعربية باصولهما مع العلوم ، والتركية قليلا وانا افتخر بكوني احد تلامذتها ولكني ارى انها الآن ليست على ما كانت عليه قبل ثلاث (٥٤) سنين غير ان حضرة رئيسها المحترم قد قال لي غير مرة : انه مهتم في امر تنشيطها وترقيتها لدرجة عالية من الاتفاق فوق الله مقاصده ونجح اعماله .

ثم لليهود ايضا مدرسة يدرسون فيها الثلاث لغات المذكورة مع العبرانية . ثم لطائفة الكلدان مدرسة يدرسون فيها العربية باصولها ثم الكلدانية والفرنساوية قليلا وقد اعنى بها معلموها (٥٥) كثيرا وكذلك لطائفة السريان مدرسة ففي هذه لا يدرس الا العربية فقط ويا حبذا لو اعنى القوم في امر المدارس فانها لا غرو الواسطة لاسترداد ما سلبته منا ايدي الزمان وطوارق الحداث .

(٥١) في الاصل (مغلوقة) والصواب ما ابتداء ، قال ابو الاسود الدؤلي :

ولا اقول لقد القوم قد غليت

ولا اقول لاسباب الدار مغلوق

(محيط المحيط ٢ : ١٥٤٦) .

(٥٢) اما اليوم فقد اهتمت بها المؤسسة العامة للآثار فجددت بناءها وفتحت ابوابها للزائرين .

(٥٣) الآن يقصد به تاريخ التأليف اي مطلع القرن العشرين اما اليوم فقد عادت عظمة بغداد ومكانتها بين عواصم العالم المتحضر .

(٥٤) في الاصل (ثلاثة) .

(٥٥) في الاصل (معلمها) .

ذكر جوامع وبيع وحمامات بغداد

الحالية

وفي بغداد جوامع كثيرة لكن المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة اثنا عشر مسجدا منها ثمانية بالجانب الغربي واربعة بالجانب الشرقي ، وللنصارى اربع (٥٦) كنائس لكل طائفة منهم واحدة اعني كنيسة البوآثر الكرملتان ، وكنيسة لطائفة الكلدان ، وكنيسة للسريان ، وكنيسة للارمن القاثوليك ، وكنيسة للارمن القدماء ، وتوراة لليهود ، واحسن هذه البيع بيعة اللاتين فانها حنة البناء جميلة المنظر واسمة المكان .

وفي بغداد حمامات كثيرة مسطحة باتقار ولكن بين اتقان ونظافة غيرها من البلدان المتعدنة يون عظيم (٥٧) وقد عرف ذلك من اختبار المحليين .

ذكر بغداد القديمة

لا يخفى ان بغداد التي (كان) (٥٨) عمرها الخليفة ابو جعفر المنصور (٥٩) كانت على الغرب من الدجلة ليس كما هي الآن فانها على يمينه نظرا لخراب الجانب الغربي وعمار الجانب الشرقي غير انه بنى على الساحل الغربي حارة برانية حيث اقام قلعة ولكن لم يبق من هذا البناء شيء الا قرية المعظم (٦٠) حيث دفن الامام ابي حنيفة ... الخ .

ذكر بعض عمارات بغداد الحالية

ومن العمارات الجميلة الشهيرة التي انشاها في بغداد سعادة مدحت باشا (٦١) في ايام اقامته فيها سراية الحكومة وقاعات العساكر ثم مدرسة عظيمة دعيت بالرشدية ثم مدرسة الصنائع ثم دار

(٥٦) في الاصل (اربعة) .

(٥٧) العبارة مربكة وغير مستقيمة وكان الاولى والاجسدر ان يقول : ولو فارنا تلكم الحمامات مع مثيلاتها في البلدان المتعدنة من حيث النظافة واتقان البناء لوجدنا بينهما بونا شامسا وعظيما .

(٥٨) (كان) زائدة حشرها المؤلف من دون ميرر .

(٥٩) بناء بغداد على يد الخليفة ابي جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ وارفع بناؤها سنة ١٤٩ هـ (بغداد مدينته السلام ، للهمداني ٢٨) .

(٦٠) وهي محلة الاعظمية اليوم .

(٦١) دامت ولايته من ١٢٨٥ هـ - ١٢٨٨ هـ (دليل خارطة بغداد ٢٢٠) .

الطباعة والمكتبة ثم مستشفى في جانب الكرخ وكل هذه الابنية على جانب عظيم من النظام والاتقان والجمال على النسق الافرنجي اللطيف وفي بغداد جسر عظيم امر بتمميمه انوالى الموما اليه قبل دخول ناصر الدين شاه لبغداد سنة ١٨٧٢م بمشون عليه نهارا وليلا رجلا ونساء فهم في ذلك في نزهة متصلة غير انه اذا زادت مياه الدجلة انقطع فتقوم عوضه القوارب وهي التي يعبرون عنها بـ القفف ... ويركبها عشرة او خمسة عشر نفسا وقد تعمّر ايضا في بغداد طريق مركبات بين بغداد والكاظمية نظير الذي بين بيروت والشام وسلمت ادارته بيد الاهالي فانتفعوا منه كثيرا . وبجانب الكرخ معملان واسمان جدا يشتغل فيهما الحديد والاخشاب مما يتعلق بتمميم المراكب وغير ذلك وبجانب الرصافة قرب المدرسة المستنصرية ترى مركز ادارة البواخر العثمانية وهو بناء جميل قد قام على شكل مستطيل على الدجلة .

ذكر ما كان في بغداد من الانهار

واكثرها الى الان

نهر الخائن (١٢٢) : هو شعبة من دجلة وهو نهر عظيم عليه زروع وقرى عامرة منها :
دوخلة وهي قرية كبيرة ثم ينكجه ثم سكران ثم لقمان ثم هبيب .

نهر دجيل (١٢٣) : نهر مشهور وهو شعبة من دجلة عليه قرى ومزارع كثيرة .

نهر موسى : هذا يأخذ من نهريّن الى ان يصل الى قصر الشرا (١٢٤) ثم ينقسم الى ثلاثة انهار ويجري في الجانب الشرقي من بغداد .

(١٢٥) يتفرع من النهروان ولا تزال اثار نهر الخالص الرئيسي القديم لانه ممكن تبينها في منجه النهر المتبق المعروف اليوم بنهر الوزيرية الذي يسير في جهة الغرب نحو تلّول باب الشام ومن ثم نهر دجلة فينتهي هناك في اسفل الراشدية (دليل خارطة بغداد ١١٠) .

(١٢٦) في الاصل نهر الدجيل ، وكان هذا النهر يروي القسم الاعلى من الجانب الغربي من بغداد (مختصر التاريخ ٧٩) .

(١٢٧) انشاء المتضد ويعبر من القصور الفخمة فقد جعل حوله جنائن زاهرة وساحات واسعة وظل القصر فائما حتى فاضت دجلة فيضانا شديدا فاحدثت خرابا عظيما في بغداد وكان من جملة ذلك خراب الشرا ولا سيما فيضان سنة ١٦١هـ (المنظم ٨ : ٢٥٤ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٤ - ١١٥) .

نهر الملكاه (١٢٨) : وهو نهر عظيم عليه (كان ١٦٠) تلماية وستون قرية على عدد ايام السنة وعليه مزارع غزيرة ويجلب منه الى بغداد فواكه وحبوب كالارز والماش والعنبر وامثال ذلك .

نهر المولى (١٢٩) : هو اشهر الانهار وانغمها واعظمها . مجراه في دار الخلافة وهو مستمد من الخالص ونهر موسى .

نهر القلايين (١٣٠) : يجري في بغداد في (محلها اهلها ...) كذا في الاصل .

نهر عيسى (١٣١) : عليه فرى في غربي بغداد ، وماخذه من الفرات عند القنطرة ويصب في دجلة عند قصر عيسى .

نهر طابق (١٣٢) : في محلة تسمى به بالجانب الغربي قرب نهر القلايين شرقا واصل اسمه نهر بابك (١٣٣) وماخذه من كرخايا ويصب في نهر عيسى .

نهر الرفيل (١٣٤) : هو نهر كبير يأخذ من نهر عيسى ويصب في دجلة عند بغداد وهو الذي عليه قنطرة الشوك .

نهر اندجاج (١٣٥) : عند محلة تسمى به وهو قرب الكرخ من الجانب الغربي .

نهر انصراة : هو نهران في بغداد الواحد يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة المحول يسقي قرى بادوربا (١٣٦) ويتفرع منه انهار الى ان يصل الى بغداد ويصب في دجلة .

(١٣٧) ويسمى نهر ملكا فرع من الفرات وكان من السمة بحيث اعتبره البعض عمودا للفرات وقد عد القسم الذي يسير نحو الجنوب من الكوفة فرعا من الفرات (وادي الفرات ٢ : ٧٨ - ٨٥) .

(١٣٨) لفظة (كان) زائدة لا مبرر لافهامها .

(١٣٩) نهر يسير باتجاه الجنوب الغربي خارج سور السمين حتى يدخل المدينة ويدخل قصر الفردوس الذي انشاء المتضد ويدور حوله حتى يصب في دجلة عند القصر (دليل خارطة بغداد ١٢٢) .

(١٤٠) الفرع الرابع اليسر الذي يتفرع من نهر كرخايا وتقع عند هذا النهر محلة نهر القلايين (دليل خارطة بغداد ٨٢) .

(١٤١) سمي بهذا الاسم نسبة الى عيسى بن علي عم المتصور .

(٧٠) في الاصل مطلة بالالف واللام (الطابق) والصواب ما انتباه (بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢) .

(٧١) هو بابك بن بهرام بن بابك (بغداد مدينة السلام ٤٣) ، ودليل خارطة بغداد ٧٩) .

(٧٢) الانهر نهر رفيل (بغداد مدينة السلام ١٤) .

(٧٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٢ .

(٧٤) في الاصل (فرابادربا) وتقع على بين نهر الصراة

ذكر من سافر الى بغداد

من فضلاء الامصار الاجواد

اهل العلم والعمل والراي والسداد

الشيخ ابراهيم بن ادهم بن منصور بن بكر بن وابل :- مولده في مدينة بلخ (٧٥) سألته يوما ابراهيم بن يسار عن امره فقال : كان ابي من ملوك خراسان فخرجت للميد وتبعني صيدا فسمعت قائلا ما لهذا خلقت فوقفت ولم ار احدا فلتعت ابليس ومن بعدها تركت اهلي وقدمت لبغداد وقال ايضا عن نفسه : انه رحل الى طرسوس وصار بستانيا فلما اشتهر هرب منها ، توفي سنة ١٦٢هـ (٧١) .

الامام محمد بن ادريس الشافعي : مولده بمدينة غزة اخذ العلم عن مالك (٧٧) ومسلم بن خالد وسفيان بن عيينة وقدم الى بغداد (٧٨) وسمع الحديث من محمد بن الحسن الشيباني وعبد الوهاب الثقفي واسماعيل بن عثينة وغيرهم وكان قدومه سنة ١٧٥هـ ثم رحل عنها سنة ١٧٨هـ لما امتحنت العلماء باقبول في خلق القرآن وقد ناظر فيها بشر المعتزلي وحقق وافهمهما وخرج من بغداد وقدم الى الموصل ثم رحل الى مصر وتوفي بها سنة ٢٠٤هـ ومن نظمه قوله :

واحق خلق الله بانهم امرؤ (٧٩)

ذو همسة يبلى بعيش ضيق

وقوله :

اكل العتاب بقوة جيف الفلا

رجنى الذباب الشهد وهو ضعيف

في القسم الاسفل والوسط من منطقة بغداد وكما يدعى عند العرب ما كان من شرقي العراق (تاريخ بغداد ١ : ١١١ ، دليل خارطة بغداد ٢٠) .

(٧٥) فيه اختلاف لبعض المؤرخين قال في نزهة ، والاخير في اليمن وآخر في الشام والاشهر في غزة (الاعلام ٢ : ٥٦ ، طبقات الشافعية الكبرى ٦ : ٢٥٠ ، تاريخ بغداد ١ : ١٨٥) .

(٧٦) اختلف في وفاته ففي البداية والنهاية (١ : ١٢٥) ، وتهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٧ أن وفاته سنة ١٦٥هـ ، وفي الاعلام ١ : ٢١ وفاته ١٦١ ، وفي دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٢ وفاته ١٦٢ .

(٧٧) مالك بن انس ، ومسلم بن خالد الزنجي ، وعبد الوهاب ابن عبد الجيد الثفلي (تاريخ بغداد ٢ : ٥٦) .

(٧٨) قدم الى بغداد مرتين الاولى سنة ١٩٥هـ ، والثانية سنة ١٩٨ (تاريخ بغداد ٢ : ٦٨) .

(٧٩) في الاصل امرؤ (طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢٠٥) .

الامام عبدالله بن محمد السمناني (٨٠) : مولده في خراسان وسمع بها ثم رحل الى بغداد وسمع بها الحديث ثم توجه منها الى الشام وتوفي سنة ٢٠٢هـ ومن شعره :

تري المرء يهوى (٨١) ان يطول بقاءه
وطول البقا ما ليس يشفي له صدرا

ولو كان في طول البقاء صلاحنا
اذا لم يكن ابليس اطولنا عُمُرا

ابو بكر محمد بن اسماعيل القفال الشاشي الشافعي (٨٢) : قدم الى بغداد واخذ عن ابن سريج وروى عن الطبري ورحل الى الشام ثم الى الحجاز وتوفي سنة ٢٦٤هـ .

ابراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي : مولده (٨٣) في شيراز وقدم الى البصرة وتفقه بها ثم قدم الى بغداد (٨٤) وكان إماما في المذهب والاصول والخلاف وله تصانيف كثيرة منها : المذهب ، والمخصص (٨٥) ، والنكت ، واللمع ، والتبصرة ، ورؤوس المسائل و (قاموسه المشهور) (٨٦) . توفي سنة ٤٢٥هـ (٨٧) ومن شعره قوله (٨٨) :

سألت الناس عن خل وفي

فقالوا ما الى هذا سبيل

تمك ان ظفرت بذيل حر

فان الحر في الدنيا قليل

امام الحرمين عبد الله (٨٩) بن عبدالله بن

(٨٠) ترجمته في هدية العارفين (١ : ٤٤٢) كما يلي : عبدالله ابن محمد بن عبدالله بن بونس بن عبدالله (ابو الحسين) السمناني (الانساب للسمناني ٧ : ٢٤٠) .

(٨١) في الاصل (ان يهوى) والصواب ما ذكرناه ، انظر البيت في (معجم البلدان ٢ : ٢٥٢) .

(٨٢) هو محمد بن علي بن اسماعيل القفال ، وفاته ٢٦٥هـ (وفيات الاعيان ١ : ٢٠٠ ، الاعلام ٧ : ١٥٨) .

(٨٣) سنة ٢٩٣هـ وفيه اختلاف (الاعلام ١ : ٤٤) .

(٨٤) كان ذلك سنة ٤١٥هـ (وفيات الاعيان ١ : ٢١) .

(٨٥) في الاصل (التخليص) (الاعلام ١ : ٥) وابن خلكان في وفيات الاعيان ١ : ٢٩ سماه : التخليص في علم الجدل .

(٨٦) هذا وهم من المؤلف حيث خلط بين الترجمة له وبين معجم الدين الفيروز آبادي المتوفى ٨١٧هـ صاحب القاموس المحيط .

(٨٧) وهم المؤلف فوفاته الترجمة له سنة ٤٧٦هـ (الاعلام ١ : ٤٤) ، وفيات الاعيان ١ : ٢٩ .

(٨٨) وفيات الاعيان (١ : ٢٩) .

(٨٩) الصواب عبدالله بن عبدالله (الاعلام) : ٢٠٦ ، وفيات الاعيان ٢ : ١٦٧ .

يوسف الجويني : إمام العلماء وصاحب التصانيف منها : نهاية المطالب . قدم الى بغداد وأخذ عن مشايخها وأخذوا عنه الكثير ثم رحل الى الحجاز وأقام بمكة والمدينة أربع سنين يدرس ويفتي ويصنف ثم توجه الى نيسابور ومات بها سنة ٤٧٨ هـ وعند موته أغلقت الاسواق (وسكرت) (٩٠) الحوانيت وكان ٩١ تلامذته نحو أربعمائة فكروا محابرههم وأقلامهم حزنا .

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي : مولده بمدينة طوس ٩٢١ قرأ على إمام الحرمين وقدم الى بغداد ودرس بالانظمة ثم تزهد وحج ، ومن تصانيفه : البسيط ، والوسيط ، والخلاصة ، والوجيز ، والمنحول ، والمنتحل في علم الجدل . توفي سنة ٥٠٥ هـ .

القاضي حين بن محمد المصروف ب ابن سكرة : ـ مولده بالاندلس ، قدم الى بغداد وسمع من البانياسي وأخذ عن أبي بكر الشاشي (٩٢) وذهب الى دمشق وحج وعاد الى الاندلس ومات بها سنة ٥٢٤ هـ ٩١١ .

أبو بكر بن الوليد الاندلسي : ـ مولده (٩٥) في مدينة طرطوشة بلد أقصى بلاد الاندلس سافر الى بغداد وثقف على الشاشي والجرجاني (٩٦) ثم رحل الى الشام وسكنها ودرس بها . توفي سنة ٥٢٠ هـ ، وله شعر منه :

إذا كنت في حاجة مرسلًا
وانت بانجازها مفروم
فارسل بأكمة خلابه
به صمم اغطني أبكم

(٩٠) في الأصل و (تسكرت) والصواب ما ابتناه (يراجع معاجم اللغة مادة سكر) .

(٩١) في الأصل (وكانوا) وهذا لا يجوز الا على لغة اكلوني البراهيث .

(٩٢) ولادته سنة (٥٠٠ هـ - ١٠٥٨ م) (الاعلام ٧ : ٢٧) ، وفيات الاعيان ٤ : ٢١٦ .

(٩٣) محمد بن أحمد الشاشي المتوفى سنة ٥٠٧ هـ (الاعلام ٦ : ٢١٠) .

(٩٤) وفاته في الاعلام ١٤ هـ (الاعلام ٢ : ٢٧٩) .

(٩٥) هو محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الاندلسي الكنى ب أبي بكر الطرطوشي مولده سنة ٤٥١ هـ - ١٠٥٩ م ، واختلف في وفاته ، فلي وفيات الاعيان سنة ٥٢٠ (٤ : ٢٦٤) أما الزركلي في الاعلام (٧ : ٢٥٩) فقد

ثبت وفاته سنة ٥٢٠ الا انه ذكر مصادر الاختلاف فيها .

(٩٦) هو أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي المعروف ب المستطيري ، والجرجاني هو علي بن أحمد (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

ودع عنك كل رسول سوى

رسول يقال له درهم ٩٧

محمود بن عمر بن محمد بن عمر الزمخشري الخوارزمي : أصله من خوارزم وكان حنفي المذهب له تصانيف منها : الكشف ، والمفصل في النحو ، و (المطول) (٩٨) في البيان ، وكان أستاذا في الاعتزال . قدم الى بغداد وأخذ عن مشايخها الكثير وأخذوا عنه الوفير والفزير ورحل الى مكة وجاور فيها (١٠٠) فسمي جارالله ثم رجع عن الاعتزال آخر عمره . توفي سنة ٥٢٨ هـ ، ومن نظمته :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الابل

ويرى مناط عروقتها (١٠١) من لحمها

والخ في تلك العظم النحل

امن عني برحمة مهيودة

لك يا الهي في الزمان الاول (١٠٢)

وله أيضا (١٠٣) :

وقائلة : ما هذه الدرر التي

تساقت من عينيك سملتين سملتين؟

فقلت : لها الدر الذي كان قد حشا

أبو مضر أذني تساقط من عيني

(٩٧) الايات منسوبة الى الطرطوشي (وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

ولابن فارس اللغوي بيتان يشتملان على اكثر الفاظ هذه الايات وهما :

إذا كنت في حاجة مرسلًا

وانت بها كلف مفروم

فارسل حكيمًا ولا توصه

وذاك الحكيم هو درهم

(انظر وفيات الاعيان ٤ : ٢٦٢) .

(٩٨) ابن أحمد في الاعلام ٨ : ٥٥ .

(٩٩) لم يؤلف الزمخشري مثل هذا الكتاب .

(١٠٠) في الأصل (بها) .

(١٠١) في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٢) ويرى عروى نياطها لي نحرها .

(١٠٢) ويروي البيت في وفيات الاعيان (٥ : ١٧٢) بالصورة الآتية :

أفتر لعبد ناب من فرطانه

ما كان منه في الزمان الاول

(١٠٣) في رثاء شيخه أبي مضر منصور (وفيات الاعيان ٥ : ١٧٢) .

علي بن أبي الوفا ابن مسهر (١٠٤) الموصلی :-
كان شاعرا ادبيا رئيسا مقدما سافر الى بغداد
وامتدح الخلفاء وعاد الى الموصل وتوفي بها سنة
٥٤٣ هـ . ومن شعره (١٠٥) :

ولما اشتكت اشتكى كلما
على الارض واعتل شرق وغرب
لانك قلب لجسم الزمان
وما صح جسم اذا اعتل قلب

احمد بن محمد : وقيل ، سعد بن محمد
المشهور بـ الحيص بيص :- مولده بالري (١٠٦)
وتأدب وتفقه بها قدم الى بغداد وكان يلبس زي
العرب ويتقلد بالسيف وفيه طيش وتيه حتى قال
فيه ابن ابي الفضل (١٠٧) شعر :

كم نبارى وكم تطول طرطورا
وما فيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من بضيف ولا يقر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم

فاجابه :

لا تضع من عظيم قدري وان كنت
ت مشارا اليه بالتعظيم

(١٠٤) هو علي بن سعد بن علي المعروف بـ ابن مسهر الموصلی
(الاعلام ٥ : ١٠١ ، وفيات الاعيان ٣ : ٢٩١) .
(١٠٥) الابيات في وفيات الاعيان (٢ : ٢٩٢) .
(١٠٦) ولادته في بغداد سنة ٤٩٢ هـ (ديوان حيص بيص ١ :
٢٧) .

(١٠٧) الصواب هو : هبة الله بن الفضل المعروف بـ ابن
القطان المتوفي سنة ٥٥٨ هـ والابيات ترد في ديوانه المذكور
اعلاه (الديوان ١ : ٤١) :

كم تبارى وكم تطول طرطو
ولا ما فيك شعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل اليا
بس واشرب ماشيت بول الظليم
ليس ذا وجه من بجبر ولا يقر
ي ولا يدفع الاذى عن حريم
فاجابه حيص بيص :

لا تضع من عظيم قدر وان
كنت مشارا اليه بالتعظيم
لالشريف الكريم ينقى قدرا
بالتعدي على الشريف الكريم
(الديوان ١ : ٤٢) .

فالشريف الكريم ينحط وزرا
بالتجري على الشريف الكريم
حكى ان الحيص بيص سكر يوما في بغداد
وقتل جرو كلب فاخذ ابو القاسم بن ابي
الفضل (١٠٨) كلبة وعلق في عنقها قصبة واطلقها
عند باب الوزير (١٠٩) فاخذت القصبة من عنقها
فوجد فيها ورقة مكتوب فيها هذه الابيات (١١٠)
شعر :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتي
بخزية اورثته العار في البلد
ابدى شجاعته في الليل مجتريا
على جري ضعيف البطش والجلد
فانشدت امه من بعد ما احسبت
دم الايلق عند الواحد الصمد
اقول للقلب تاساة وتعزية
احدى يدي اصابني ولم ترد
كلاهما خلف من بعد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي
توفي سنة ٥٧٤ هـ (١١١) .

علي بن القاسم بن علي بن الحسن المعروف
بـ ابن عساكر (١١٢) : مولده بدمشق وقرأ بها وتعلم
العلم الوافي ثم جاء الى بغداد واخذ عن علمائها
ثم راح الى خراسان وسمع الحديث ورجع فجرحه
اللصوص في الطريق وعند وصوله الى بغداد مات

(١٠٨) هو ابن القطان المار ذكره .
(١٠٩) بقصد به : علي بن طراد الزينبي .
(١١٠) وردت الابيات في الديوان المطبوع (١ : ٤٢) بالمسورة
الآتية :

يا اهل بغداد ان الحيص بيص اتي
بفلة اكبتته الغزي في البلد
هو العيبان الذي ابدى تشاجمه
على جري ضعيف البطش والجلد
وليس لي بده مال يديه به
ولسم يكن ببواء عنه في القود
فانشدت جمدة من بعد ما احسبت
بت دم الايلق عند الواحد الصمد
(القول للنفس تاساء وتعزية
احدى يدي اصابني ولسم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا اخي حين ادعوه وذا ولدي)

(١١١) ودفن في مقابر قرش بالكافة اليوم (ديوان حيص
بيص ١ : ٤٨) .
(١١٢) مرآة الجنان (٢ : ٢٥ ، النكلة لوفيات النقلة) :
٢٨٤ ، النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٦ .

سنة ٦٠٦ هـ وفيه يقول ابن عني (١١٣) بهجوه مع
فرط علمه وذكائه . شعر :

يا ابن العاكر ان صح انتابك ذا

فانت من ام صورت مبيوكا

يا ابن الدجاجة كل الناس كان لها (١١٤)

اب (١١٥) فانت ابن من حتى اناديك

فلما راي الاديب الارب امين العمري (١١٦)

الشاعر الموصل هذين البيتين قد اثبتهما في ديوان
قال مجيبا عن ابن عساكر :

يا من كمتين له نبة

ما هذه النبة امر حسن

تعبّر الناس بانسابهم

ابوك عني فانت ابن من ؟

عبدالله الكردي : علامة العلوم ، مولده في

جبال الاكراد سافر الى بغداد واخذ عن علمائها

الاجواد ثم سافر الى دمشق وسكنها ثم غلب عليه

الحال فالتقى كثيرا في الماء ، توفي سنة

١٠٠٣ هـ (١١٧) .

صفي الدين بن محمد الكيلاني : نزيل مكة

مولده في كيلان اتقن فيها العلوم ثم قدم الى بغداد

وصاحب علمائها وقرا الطب وبرع فيه ثم عاد الى

الحج وسكن مكة ومن فراسته مروت عليه يوما

جنازة فقير قدمي به فنظر اليه واخذ شيئا من

القطار ونفخ في انفه ففاق الميت وجلس فسألوه

كيف عرفت ذلك قال : نظرت اقدامه واقفة فعلمت

انه حي وطالما صدر مثل ذلك ولم يستحسن به

الناس (فلذلك عند الافرنج عادة) (١١٨) لا يرفعون

الميت قبل مرور اربعة وعشرين ساعة وناهيك

(١١٢) توفي سنة ٦٢٠ هـ (ديوان ابن عني ٣) .

(١١٤) في الاصل : له ، (ديوان ابن عني ٢٠١) ومحقق

الديوان يترجم ابن عساكر غير الذي نحن بصده

فيقول : ابن عساكر تاج الامناء ابو الفضل احمد بن

محمد بن الحسن بن هبة الله ولد ٥٤٢ هـ وتوفي ٦١٠

وهذا وهم من المحقق (ديوانه ٢٠١) .

(١١٥) في الاصل (ديكا) (الديوان ٢٠١) .

(١١٦) محمد امين بن خيرالله بن محمود بن موسى الخليل

العمري ولد ١١٥١ هـ وتوفي ١٢٠٣ هـ . (الاعلام ٦ : ٢٦٧)

منهل الاولياء (مقدمة المحقق سعيد الديوهجي) .

(١١٧) ترجمته في خلاصة الاثر ، للمعجب (٣ : ٨٥) .

(١١٨) العبارة مضطربة وكان الاولى به ان يقول : والافرنج

عادة ... الخ .

انها عادة مفيدة وحميدة . توفي سنة
١٠١٠ هـ (١١٩) .

الوليد بن عبادة (١٢٠) البحتري : الشاعر

المشهور صاحب الديوان الموفور مولده بمدينة

منبج وتادب بها وسافر الى بغداد وامتدح الخليفة

المتوكل ومولده سنة ٢٠٦ هـ ومات بها سنة

٢٨٣ هـ (١٢١) . حكى عنه قال : صرت في اول امري

الى ابي تمام في مدينة حمص وعرضت عليه شعري

فأقبل عليّ وترك الناس وسأني عن حالي

فشكوته الفاقة فكتب الى اهل المرة وشهد لي

بالحداقة والفهم فلما وصلت الى المرة وامتدحتهم

فاكرموني واقاموا لي باربعة آلاف درهم فكانت

اول مال اصبته . قيل ان البحتري شرب يوما

مع ابي (١٢٢) هفان عند بعض الرؤساء فلما خرجا

ركب البحتري فرسه واردف وراءه ابو هفان ،

فانشد هذا ارتجالا . يقول : شعر :

نلبس للحرب الوابها

وقال اننا الشاعر البحتري

فلما راي الخيل قد اقبلت

اذا هو في سرجه قد خرى (١٢٣)

ففضب البحتري ودفعه فرماه الى الارض .

ومن شعره في المتوكل (١٢٤) :

اخفي (١٢٥) هوى لك في الضلوع واظهر

والام في كمدك عليك واعذر

بالبر صمت وانت افضل صائم

وبسنة الله الرضي تفتخر

فانعم بيوم الفطر عيدا (١٢٦) انه

يوم اعز من الزمان مشهر

اظهرت عز (١٢٧) الملك فيه بجفيل

لجب يحاط الدين فيه وينصر

(١١٩) ترجمته في خلاصة الاثر (٢ : ٢٤٤ - ٢٤٥) .

(١٢٠) الوليد بن عبيد وكنيته (ابو عبادة) (ديوان البحتري

ص ٢) .

(١٢١) الاشهر انه ولد ٢٠٤ هـ وتوفي ٢٨١ هـ (الاعلام ٩ : ١٤١١)

تاريخ بغداد ٤٦ : ١٢٠١ ، المنتظم لابن الجوزي (١١ : ٦)

(وفيه وفاته ٢٨٥ هـ) .

(١٢٢) في الاصل مع (ابو)

(١٢٣) الابيات في وفيات الاعيان (٢ : ١٧٥) ، تاريخ بغداد

(٤٦ : ١٢٠١) ، معاهد التنصيص (٢٢٤ : ٢٢٥) .

(١٢٤) ويذكر خروجه يوم الفطر (ديوان البحتري ١٠) .

(١٢٥) في الاصل (اخف) .

(١٢٦) وقع المؤلف في نفس الظلم الذي وقع فيه جامع الديوان

حيث ذكر (وعينا) والصواب ما اثبتناه (عيدا) .

(١٢٧) في الاصل (عن) (١٢٨) في الديوان (فالخيل) ص ١١ .

والخيل^(١٢٨) تفهل والفوارس تدعى^(١٢٩)
والبيض تلمع والاسنة تزهـر
والشمس طالعة توقد^(١٣٠) في الضحى
طورا^(١٣١) ويطفئها العجاج الاكدر
حتى طلعت بنور وجهك فانجلي
ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير^(١٣٢)
وافتن^(١٣٣) منك الناظرون فاصبح^(١٣٤)
يؤمى اليك بها وعين تنظر
ذكروا بظلمتك النبي فهللوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهت الى المصلى لابساً
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو ان مشتاقا تكلف فوق ما^(١٣٥)
في وسعه لسمى إليك المنبر
أبدت من فصل الخطاب بحكمة
تنبي عن الحق المبين وتخبر
ووقفت في سرد النبي مذكراً
بالله تذكر تارة وتذكر^(١٣٦)
وهي طويلة وفي هذا كفاية اشارة لفضله وعلو
نهاه .

ابو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي : الشاعر
المشهور صاحب الفضل الوفور مولده بالكوفة في
محلة (كندة) ولذلك نسب اليها . كان ابوه سقاء
بالكوفة ولذلك قال فيه الشاعر^(١٣٧) :
اي فضل لشاعر يطلب الفضل
من اناس بكرة وعشيرة
عاش حيناً يبيع بالكوفة الماء
وحيناً يبيع ماء المحبة
ولما كبر وانتشى سولت له نفسه عصيان
ربه فادعى النبوة في بركة السماوة^(١٣٨) وتبعه بنو

(١٢٩) في الديوان (والشمس مائة) ص ١١ .

(١٣٠) البيت في الديوان ص ١١ :

حتى طلعت بسوء وجهك فانجلت

تلك الدجى وانجاب ذاك العثير

(١٣١) في الاصل (فاصبح) والصواب ما ائتتاه (الديوان ١١) .

(١٣٢) في الديوان (فبرما) ص ١١ .

(١٣٣) في الديوان (وبشر) ص ١١ .

(١٣٤) البيت في مقدمة ديوان المتنبي - شرح البرقوقي ص ١٠ ،

في وفيات الاميان (١٢٤ : ١) .

(١٣٥) في الاصل (سماوة) .

كلب، فخرج اليه نائب حمص^(١٣٩) وقبضه وهربت
امته وجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب
الصفصاف ، فاشد المتنبي :

زعم المقيم بكونكسين بانه
من آل هاشم ابن عبد مناف
فاجبته مذ صرت من ابنائهم
صارت قيودهم من الصفصاف^(١٤٠)

وخل عليه ابن والي حمص وهو
محبوس فوجده منزعجا فقال له : اصبر كما صبر
اولوا^(١٤١) العزم من الرسل فقال له المتنبي : وما
كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم
يستغفرون ثم تاب وحسن اسلامه فاطلقه .

وديوانه مشهور وقد طبع في مصر وبيروت
واشعاره فايقة على كل شعر .

سافر الى بغداد وامتدح بها ثم خرج منها فلما
وصل الى دبر العاقول خرج عليه : فأتك بن ابي جهل
ابن فارس من بني اسد ومعه جماعة فعرفوه وتذكروا
هجاءه الشنيع لضبة الاسدي وهو هجاء لاذكروه
لاخراجه عن دائرة الادب فلما عرفوه حملوا عليه
فعزم على الحرب فذكره غلامه قوله :

فانخيل والليل والبيداء تعرفني
والطعن والضرب والقرطاس والقلم^(١٤٢)

فقال له قتلني لانه عرف اذا رجع يقتل وهكذا
جري فانه لما كر راجعا اخذ يحاربهم حتى قتل
وذلك سنة ٣٥٤ هـ .

بركة بن ابي يعلى الضريري^(١٤٣) : مولده بالانبار
وبها تعلم وتادب ثم قدم الى بغداد ونظم فيها الاشعار
اغالب وجدي فيهم وهو غالب
واحبس دمي وهو في الخد ساكب
وقد عيل صبري واعترتني وساوس
تماعني طيب انكري وهو آيب

(١٣٦) هو لؤلؤ بن علي الهاشمي ، وكان قد قبض عليه في قرية
يقال لها : كوتكين (العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب

١٣٦) .

(١٣٧) البيت في العرف الطيب ٦٣٦ .

(١٣٨) في الاصل (صبروا اولوا) .

(١٣٩) يروي البيت في العرف الطيب ٦٣٦ بالصورة الآتية :

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(١٤٠) هو بركة بن ابي يعلى بن ابي القاسم الانباري الضريري ،

من رجال القرن السادس الهجري (نكت الهميان في نكت

العميان ١٢٥) .

وقد حرت لما أصبح الركب راحلا
وقد قوشت نيرانهم والمضارب
حدا بهم الحادي فاضحيت بالحمى
كئيباً وقد ضاقت علي المذاهب (١٤١)
توفي سنة ٥٧٠ هـ .

الفضل بن جعفر المعروف بالبصري (١٤٢) .
مولده الكوفة وبها تأدب ونظم الاشعار .

قدم الى بغداد وامتدح الخليفة المعتصم ،
والمشركل ووزيره الفتح بن خاقان . . . وكان يجلس
مع اخوانه للشرب فيقوم لحاجته ويتخطى الزجاج
والكأس ويعود ، واختل عقله قبل موته فكان ينشد :
خبأ مصباح عقل ابي علي
وكانت تستضيء به العقول
اذا الانسان مات الفهم منه
فان الموت بانباقي كفيل (١٤٣)
توفي سنة ٢٥٥ هـ .

الحسين بن احمد الهمداني المعروف بـ ابن
خالويه (١٤٤) : مولده بمدينة همدان وبها تأدب وتعلم
ونظم الشعر . قدم الى بغداد وقرا على السيرافي
ورحل الى الشام وسكن حلب . كان اماما في النحو
له تصانيف منها : الجمل في النحو ، واعراب ثلاثين
سورة من القرآن ، كتاب الاشتقاق ، وكتاب المقصور
والممدود ، والمذكر والمؤنث ، ومن شعره :

اذا لم يكن صدر المجالس سيداً
فلا خير فيمن صدرته المجالس
وكم (١٤٥) قيل لي مالي رابتك راجلاً
فقلت له : من اجل انك فارس (١٤٦)
توفي سنة ٣٧٠ هـ .

ابراهيم بن عثمان بن محمد الغزي : مولده
بمدينة غزة (١٤٧) . وبها درس وتعلم جاء الى بغداد

- (١٤١) الابيات ذكرها الصفي الموما اليه في نفس الصفحة من
نكت الهميان .
(١٤٢) هو الفضل بن جعفر بن يونس النخعي توفي سنة (٢٥٥) هـ
٨٦٩ م (الاعلام ٢٥١:٥ ، معجم الشعراء ٢١٤ ، نكت
الهميان ٢٢٦ .
(١٤٣) نكت الهميان ٢٢٦ .
(١٤٤) ترجمته في الاعلام (٢ : ٢٤٩) ، ووفيات الاعيان (٢ : ١٧٨)
طبقات الشافعية (٢ : ٢١٢) .
(١٤٥) في وفيات الاعيان ١٧٩:٢ (وكم قائل) .
(١٤٦) البيتان في وفيات الاعيان (٢ : ١٧٩) .
(١٤٧) ولادته سنة ٤٤١ هـ (الاعلام ١٤٠:١) .

واقام بالمدرسة النظامية سنين واياما ورحل الى
خراسان وظهر بها فضله الى ان توفي سنة ٥٢٤ هـ .
وله ديوان اشعار ما يزيد على الف بيت ، منه :
حملنا من الايام مالا نطيقه
كما حمل العظم الكسير العصايا (١٤٨)
وسئل رجونا ان يدب عذاره
فما اختط حتى صار في الفجر شايبا (١٤٩)
وقوله :

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة
باب البواعث والدواعي مفلق (١٥٠)
خلت اندبار فلا كريم يرتجى
منه النوال ولا مليح (١٥١) يعشق
ومن العجائب انه لا يشتري
وبخان (١٥٢) فيه مع الكساد ويسرق
قيل انه قبل مماته هجر الشعر وغسل كثيرا
من نظمه بعد ان نظم هذه الثلاثة ابيات التي ذكرناها .

محمد بن يوسف موفق الدين الاربلي : مولده
بمدينة اربل (١٥٣) وبها تأدب وتعلم ونظم الاشعار الرائقة
كان بارعا بالعروض والشعر واللغة وكان له يدبكتاب
اقلبيديس بالهندسة . سافر الى بغداد وامتدح بها
الاجواد وحظي منهم بنعمة وعاد الى بلده وامتدح
صاحب اربل زين الدين يوسف ، منه (١٥٤) :

رب دار بالحمى طال بلاها
عكف الركب عليها فبكاها
كان لي فيها زمان وانقضى
فسقى الله زماني وسقاها
قل لجيران مواليقهم
كلما احكمتتها (١٥٥) رك قواها
كنت مشغوفاً بكم اذ كنتم
شجراً لا يبلغ الطير ذراها

- (١٤٨) وفيات الاعيان ٨٠:١ .
(١٤٩) في المصدر السابق نفس الصفحة يروي الشطر الثاني :
فما اختط حتى صار بالفجر شايبا .
(١٥٠) المصدر السابق ايضا (٨٠:١) ورد الشطر الثاني :
باب الدواعي والبواعث مفلق .
(١٥١) في الاصل (مليح) المصدر السابق ٨٠:١ .
(١٥٢) في الاصل (وبخاف) المصدر السابق ٨٠:١ .
(١٥٣) ولادته في البحرين سنة ٥٨٥ هـ (الاعلام ٢٢:٨) .
(١٥٤) الابيات في وفيات الاعيان (١٠:٥) .
(١٥٥) في وفيات الاعيان ١٠:٥ (رنت) .

وإذا ما طمع أغرى بكم
عرض الياس لنفسي فشاهها
فصبايات الهوى اولها
طمع النفس وهذا منتهاها
لا تظنوا بي (١٥٦) اليكم رجعة
كشف التجريب عن عيني غطاها (١٥٧)
إن زبسن الدين اولاني بدأ
لم تدع لي رغبة فيمن سواها
توفي سنة ٥٨٥ هـ .

(١٥٦) في وفيات الاميان ١: ١٥ (ل) .
(١٥٧) في وفيات الاميان ١: ١٥ (معاه) .

★ ★ ★

مصادر التحقيق والتقديم

- ١٦- ديوان علي بن الجهم - تحقيق : خليل مردم - مطبوعات
المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .
- ١٧- شرح ديوان المتنبي - لعبد الرحمن البرقوني - ط ٢
الاستقامة - القاهرة ١٩٢٨ .
- ١٨- شعراء بغداد - للشيخ علي الخائاني - ط اسعد بغداد
- ١٩٦٢ .
- ١٩- طبقات الشافعية الكبرى - لتاج الدين المبكي -
تحقيق : محمود الطناحي ، وعبد الفلاح العلوي - ط ١ -
ميس البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٦٤ .
- ٢٠- العبر في خبر من غير - للحافظ الذهبي - تحقيق :
فؤاد سيد - ط الكويت - ١٩٦١ .
- ٢١- المعروف للطبيب في شرح ديوان ابي الطيب : للشيخ
ناصر البازجي - ط الادبية - بيروت ١٣٠٥ هـ .
- ٢٢- نصوص العرب - لعماد احمد جاد الولي وجماعة -
ط ٢ - دار احياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥٦ .
- ٢٣- كشف الطنون - لعاجي خليفة - النسخة المصورة التي
نشرها المكتبة الاسلامية بطهران - ١٩٦٧ .
- ٢٤- مجلة لغة العرب - للاب انستاس ماري الكرمل - السنة
٣ ، ج ٧ ، ص ٢٢٨ مقال : رزوق ميس .
- ٢٥- محيط المحيط : لبطرس البستاني - النسخة المصورة -
بيروت ١٨٧٠ .
- ٢٦- مختصر التاريخ : لظهير الدين البغدادي المعروف بـ ابن
الكاذروني - تحقيق : الدكتور مصطفى جواد - ط
الحكومة - بغداد ١٩٧٠ .
- ٢٧- مرآة الجنان : لمبدالله اليافعي - الطبعة المصورة -
مكتبات مؤسسة الاعلمي - بيروت ١٩٧٠ .
- ٢٨- معاهد التنصيص : لعبد الرحيم بن عبد الرحمن العباسي
- ط البنية - القاهرة - ١٢٠٤ هـ .
- ٢٩- معجم البلدان : لبانوت الحموي - ط دار صادر -
بيروت ١٩٥٧ .
- ٣٠- معجم الشعراء : لعماد بن عمران المرزباني - تحقيق :
عبد الستار احمد فراج - دار احياء الكتب العربية -
القاهرة ١٩٦٠ .
- ٣١- معجم المؤلفين العراقيين : لكوركيس عواد - ط الارشاد
- بغداد ١٩٦٩ .
- ٣٢- المنتظم : لابن الجوزي - ط دائرة المعارف العشانية -
حيدر آباد الدكن - الهند ١٢٥٧ هـ .
- ٣٣- منزل الارلياء - لعماد امين العمري - تحقيق : سميد
الدبويجي - ط الجمهورية - الموصل ١٩٦٧ .
- ٣٤- النجوم الزاهرة - لابن تفرج بردي - الطبعة المصورة
عن طبعة دار الكتب القاهرة .
- ٣٥- نكت الهميان في نكت المبيان - لصلاح الدين خليل
الصفيدي - تحقيق : احمد زكي - القاهرة ١٩١١ .
- ٣٦- هدية العارفين - لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة
المصورة - طهران ١٩٦٧ .
- ٣٧- وادي القنات - للدكتور احمد سوسة - ج ١ ط
الحكومة - بغداد ١٩٤٤ ، ج ٢ ط المعارف - بغداد
١٩٤٥ .
- ٣٨- الوافي بالوفيات : لصلاح الدين خليل الصفيدي ، ج ١
ط ٢ باقتناء علموت رينر ١٩٦٢ .
- ٣٩- وفيات الاميان - لابن خلكان - تحقيق : الدكتور احسان
مباس دار الثقافة - بيروت .

- ١ - الاعلام - لخير الدين الزركلي - ط ٢ المصورة - بيروت
١٩٦٩ .
- ٢ - الانساب - لعبد الكريم بن محمد السمعاني - ط ١
حيدر آباد الدكن - الهند ١٩٧٦ .
- ٣ - البداية والنهاية : لعماد الدين ابي الفداء اسماعيل
ابن عمر المعروف بـ ابن كثير - ط السعادة - مصر .
- ٤ - بغداد مدينة السلام - لابن الفقيه البغدادي - تحقيق :
الدكتور صالح احمد علي - ط ١ دار الطبعة للطباعة
والنشر - باريس ١٩٧٧ .
- ٥ - تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي - الطبعة المصورة -
دار الكتاب العربي بيروت .
- ٦ - تجارب الامم - لابي علي احمد بن محمد ، ابن مسكويه -
ط مصر .
- ٧ - النكتة لوفيات النقلة - لابي محمد عبد العظيم المنذري -
تحقيق : بشار عواد معروف - ط الاداب - النجف
١٩٦٨ - ١٩٧١ .
- ٨ - تهذيب ابن مسافر : لابي القاسم علي بن الحسن بن
هبة الله - ط الشام ١٢٣٠ هـ .
- ٩ - جهمرة المراجع البغدادية - لكوركيس عواد ، وعبد الحميد
الملوحي - ط الرابطة - بغداد ١٩٦٢ .
- ١٠- خلاصة الانر - لعماد المحي - ط الوهبة - مصر
١٢٨٤ هـ .
- ١١- دائرة المعارف الاسلامية - لجماعة - القاهرة ١٩٢٣ .
- ١٢- دليل خاوية بغداد - للدكتور مصطفى جواد ، والدكتور
احمد سوسة - ط المجمع العلمي العراقي - بغداد
١٩٥٨ .
- ١٣- ديوان ابن عتير - تحقيق : خليل مردم - دمشق
١٩٤٦ .
- ١٤- ديوان البحرني - ط ١ - الجوانب - القسطنطينية
١٣٠٠ هـ .
- ١٥- ديوان حبش بيمن - تحقيق : مكي السيد جاسم ،
وشاكر هادي شكر - مطبوعات وزارة الاعلام (الثقافة
والفنون) بغداد ١٩٧٤ .

أقدم وثيقة عثمانية عن بغداد

تعريب وتعليق وتحشية :

عطاء ترزي باشي

كر كوله - محافظة الناميك - الجمهورية العراقية

كثير من المعلومات التي اوردها المؤرخون في مؤلفاتهم الحديثة (١) .

ان هذه الوثيقة تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية والسياسية في العراق ، ليس في العهد العثماني فحسب ، وانما في عهود دولتي الـ (آق قوئينلي) و (النصفويين) ايضا . وقد عثر عليها ناشرها في مكتبة بايزيد العامة (٢) باستانبول فنشرها ضمن مجموعة كبيرة من الوثائق المماثلة والخاصة بسائر انحاء الامبراطورية . وقد قدم تلك المجموعة بدراسة عامة مسهبة عن ماهية وتاريخ هذا التسوع من الوثائق . الا ان الوثيقة المتعلقة بالعراق منها لم تحظ بعناية الناشر ، فجاءت خالية عن اي تعليق يذكر . ومهما يكن من شيء فان الفضل في هذا الشأن يعود له لعرضه اياها لأول مرة في عالم النشر .

ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى سنة ٩٤٢ هـ . وهي صادرة من السلطان سليمان القانوني الى والي ولاية بغداد وقاضيه . وهي تعد اقدم وثيقة عثمانية معروفة لدينا عن العراق ، وان كان قد ورد في صلبها اشارة الى وثيقة اخرى من نوعها صادرة من نفس السلطان بعد استيلائه على بغداد مباشرة في سنة ٩٤١ هـ . ولكننا نجهل نصها .

واما الوثيقة التي نحن بصدد موضوعها فهي مؤرخة في ٤ رمضان ٩٤٣ هـ . وبذلك يكون هذا التاريخ موافقا لتاريخ ١٤ شباط ١٥٣٧ الميلادي حسب ما ذكره ناشر الوثيقة ، و ١٩ شباط ١٥٣٧ وفق

ان الوثائق التاريخية المتعلقة بالعراق في ايام العهد العثماني والموجودة حاليا في مكتبات استانبول وفي ارشيف المستندات الخطية هناك تشكل عددا هائلا لا يستهان به ، ومن المؤسف ان الباحثين لم يبذلوا جهدا يذكر في تدقيق هذه الوثائق وترجمتها الى اللغة العربية للافادة منها في قطرنا . ويعود السبب في ذلك الى العناية والمشاغ التي يتحملها الباحث في الكشف عن تلك الوثائق وتحقيق محتوياتها وترجمتها بشكل علمي صحيح ، فان الامر يتطلب جهدا متواصلا في البحث والتحري وعناء كبيرا في قراءة النصوص قراءة سليمة اذ هي مكتوبة على الاغلب بخط ديواني معقد او بما يشابهه من خط عربي قديم تصعب على الشخص العادي قراءته ، بالإضافة الى صعوبة فهم لغتها التركية المنمقة المليئة بالكلمات الفارسية والعربية المولدة ، وبالمصطلحات التاريخية المستعملة في ذلك العهد .

ولذا فان عدد ما نشر من هذه الوثائق لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة . . ومن ضمن هذه المنشورات اطلعت على اقدم وثيقة وصلتنا حتى اليوم ونتم تاريخ العراق في العهد العثماني . هي تلك التي نشرها السيد خليل اينالجي في مجلة « بلكه نر » (١) التي يصدرها مجمع التاريخ التركي بانقرا . وهي وثيقة ذات قيمة تاريخية كبرى تهم الباحثين والمؤرخين في العراق لاحتوائها على معلومات جديدة وطريقة من التاريخ الضرائبي والمالي في العراق خلال حقبة من الزمن . وهي توجب تصحيح

(١) ولا سيما ما ورد في كتاب « تاريخ المراتب العراقية » للمرحوم عباس المزوي ، المطبوع في سنة ١٩٥٨ .
(٢) خزائن ولي الدين الندي ، الرقم ١٩٧ .

(١) بمديها الرقمين ٢ و ٤ من المجلد الثاني الصادر في عام ١٩٦٥ .

ما ينطق به « دليل تحويل التواريخ الهجرية الى الميلادية » (١) .

ويستبان من فحوى الوثيقة انها تسمى بـ « امر » و « حكم » . فهي قرار بمثابة قانون . وتسمى بـ (عدالتنامه) اي كتاب العدل لانها تتضمن الامر برفع الحيف الذي يلحق بالمواطنين من جراء فرض ضرائب ورسوم باهظة عليهم . . .

وتتميز هذه الاوامر السلطانية عن (الفرامين) و (البراءات) بكونها لمصلحة الشعب وليس لمصلحة فرد او اشخاص معينين . فلا يرد فيها ذكر لاسم الشخص الثالث او للمصلحة المقررة له كما هو الحال في الفرامين والبراءات التي تصدر باسماء اصحابها ، وتتضمن ماهية المصلحة المخصصة لهم كما في تعيين زيد بوظيفة معينة او كمنح مقاطعة لعمرو . . . وبذلك يمكن عد الاوامر السلطانية بمثابة قوانين تشرع لمصلحة المواطنين كافة او لمصلحة فئات تقطن بمنطقة معينة من البلاد كما هو الحال في الوثيقة موضوعة البحث حيث ان احكامها تسيّر على سكان ولاية بغداد التي كانت تشمل آنذاك على كل ارجاء العراق تقريبا . ويتحتم على المسؤولين في المنطقة المشمولة باحكامها . وهم كل من والي الولاية وقاضيا ورؤساء الوحدات الادارية الاخرى التابعة لها في ذلك العهد وقضاتها ، تنفيذ محتوياتها فوراً . .

وبلاحظ من نص هذه الوثيقة ان السلطان يأمر والي والقاضي بوجوب الاعلان عنها في الاماكن العامة المكتظة بالجمهير ، وتفهم صيغتها وفحواها لهم . وكان المنادون يدعون الناس للتجمع في تلك المحلات للاصغاء الى اوامر السلطان التي يتلوها عليهم قاضي البلد علنا ويوضح لهم ما فيها من الاحكام .

وكان السلطان يتحقق من صحة نشر الاعلان لاوامره وعن سير العمل في تنفيذها بوسائل عديدة منها التقاؤه بالناس عند تجواله في الولايات او اجتماعه بهم متنكرا في زي رجل معتاد . وكان يرسل بين حين وآخر اعوانه وجواسيسه خفية الى جميع انحاء الامبراطورية للفرص نفسه . كما ان هيئات التفتيش للدولة كان لها دور بارز في هذا الشأن . وبالإضافة الى كل ذلك ديوان خاص للمظالم ، ينظر في شكاوى المواطنين ضد المسؤولين من الولاة والقضاة وغيرهم . وكان السلطان يشرف

(١) للاستاد فائق رشيد اونات . والكتاب هو من منشورات مجمع التاريخ التركي بانقرا وقد طبع في سنة ١٩٧٤ .

بنفسه على هذا الديوان ، وينزل العقوبات انصارية بحق المقصرين من المسؤولين في تنفيذ اوامره .

ويقصد من اصدار هذه الاوامر تحقيق العدل بين المواطنين وتوفير الامن لهم . وكذلك الحيلولة دون استغلال المتنفذين والمسؤولين في الدولة مراكزهم الحساسة وسلطانهم الواسعة في منافع واغراض شخصية .

ويتضح من مضمون هذه الوثيقة ان كاهل المواطنين كان قبل مجيء السلطان سليمان القانوني الى العراق مثقلا بعبء كبير من الضرائب والرسوم التي فرضتها عليهم حكومة الصفويين . فقد انقضى القانوني بهذا الامر اكثر من خمسة عشر لونا من الوان الضرائب والرسوم الباهظة التي كانت تستوفي من المكلفين عينا او نقداً . . . وقد تقرر بموجب هذا الامر اعفاء جميع المكلفين ممن يشيدون ابنية حديثة على العرصات من الضريبة لمدة سنة كاملة وذلك تشجيعا للحركة العمرانية في البلاد كما جاء في اسبابه الراجعة . وهذا المبدأ الذي احده القانوني قبل اكثر من اربعة قرون قد اقره المشرعون المعاصرون ايضا . فاخذ مكانه اللائق في القوانين الحديثة التي تنظم احكام الاجار .

وينهم من فحوى الوثيقة التي نحن بصددنا ان السلطان سليمان القانوني كان ينظر الى اهل العراق نظرة حب ومودة . وهو يرجع سبب ذلك الى كونه قد انقذهم شخصيا من ظلم الصفويين وان مؤسس دولتهم الشاه اسمعيل الخطائي (١) كان شاعرا من الغلاة الباطنيين . وله ديوان شعر كبير متداول بين الناس ، وقد كتبه باللهجة التركمانية . . وكان القانوني بدوره شاعرا مجيدا وصاحب ديوان شعر بالثقة التركية ، وكان الصراع المذهبي عنيفا بينهما . وعمل مرد ذلك هو التنافس على السلطة . . وتنطق هذه الوثيقة عن قيام القانوني بالغاء جميع الضرائب والرسوم الاضائية التي كان الصفويون قد فرضوها على

(٥) يلاحظ ان هناك فرقا بين الرسم والضريبة هو ان الرسم يستولى من الافراد كمقابل لما يبذله المستولي من خدمة خاصة يقدمها لهم . في حين ان الضريبة تستولى دون اداء خدمة خاصة وانما لتغطية بعض النفقات العامة للدولة . على ان تداخل المصالح المالية والادارية وتضاربها مع بعضها جعل تمييز الرسوم عن الضرائب امرا صعبا في تلك العهود . ولكن الرسوم كانت لها الصفة القالبة .

(٦) خطائي هو اللقب الشعري له .

المراق . وثبت ما كان منها مقررا في عهد الاق
قويانية .

ويتضح من اجراء الموازنة بين اصناف الضرائب
والرسوم ومقدارها المستوفى من المواطنين ان هناك
تفاوتا كبيرا بينها في المهددين العثماني والصفوي .

وتكشف لنا هذه الوثيقة عن اسم قاض عينه
القانوني على قضاء ولاية بغداد وهو (قاضي زادة
شيخ محمد) . وربما كان وكيل الوالي ايضا
حيث لم يذكر اسم الوالي في تلك الوثيقة اضافة
لوظيفته . ولم يكن لنا علم بالقاضي المشار اليه قبل
اطلاعنا على هذه الوثيقة . وقد وهم المرحوم عباس
المزاوي فيما ذكره من ان المولى مصلح الدين
مصطفى النيكساري كان اول قاض بغداد في العهد
العثماني . اذ كان حسب قول المزاوي مدرس
مغنييا واعيد لقضايتها سنة ٩٤٧هـ (٧) . ونعتقد
ان القاضي الذي ورد ذكر اسمه في الوثيقة هو نفس
قاضي بغداد الذي مدحه الشاعر محمد فضولي
البغدادي (المتوفى سنة ٩٦٣هـ) في احدي قصائده
حيث سماه بـ (مير سيد محمد غازي) (٨) .

وهناك جوانب اخرى يمكن للباحثين الافادة
منها عند دراسة هذه الوثيقة التي ترجمناها الى
اللغة العربية . . ولقد راعيت في التمريب اسلوب
الترجمة الحرفية نصا ومعنى وذلك باستعمال
نفس الكلمات العربية الموجودة فيها اصلا ، وبترجمة
الكلمات والعبارات الاخرى بما يقابلها في العربية مع
المحافظة التامة على المعنى بحيث يشعر القارئ
العربي انه يطالع الاصل التركي للوثيقة . فيستفيد
منها كما يستفيد من النص الاصلي تماما . وما
اضفته من عندي الى الترجمة من الكلمات والعبارات
اكمالا للمعنى ، فقد وضعتها بين قوسين () لكي
لا تفقد الوثيقة قيمتها التاريخية . فاسلوب ترجمتنا
هو اقرب الى الاسلوب العلمي منه الى الاسلوب
الادبي .

واما اسلوب الوثيقة نفسها فهو اسلوب صعب
ولكنه واضح وجميل . فبالرغم من ان الجمل مرتبطة
ببعضها ارتباطا مسلسلا بحيث تتكون كل جملة من
عشرات الكلمات ، الا ان معناها مفهوم لنا باستثناء

(٧) المزاوي ، القضاء في العراق في ايام العهد العثماني ،
مجلة « القضاء » التي تصدرها نقابة المحامين العراقيين
ببغداد ، العدد ٥ ، السنة ٩ ، تموز ١٩٥١ . وانظر
في كتابه « تاريخ العراق » ج ٤ ، ص ٢٧٠ ، بغداد
١٩٤٩ .

(٨) ديوان فضولي الطبري في الاستانة سنة ١٩٢٤ ، ص ٦٥
- ٦٧ منه .

موضعين . نعتقد بسقوط بعض الحروف والكلمات
عنهما اثناء طبع الوثيقة ، وقد اشرنا الى ذلك في
الحاشية . وكانت الدقة العلمية تفرض علينا وجوب
مراجعة اصل المستند ، الا ان ذلك لم يتيسر لنا في
الوقت الحالي . . واما التكرار الذي نلاحظه في بعض
المبارات من النص المطبوع فان مرده الى التاكيد على
فحوى الموضوع وتذكير بالمعنى لطول العبارة الذي
اقتضاه اسلوب كتابة الوثيقة . ولقد اقيمت المبارات
او الجمل المكررة في الترجمة ايضا وذلك حرصا مني
على صون قيمة الوثيقة التاريخية .

x x x

وفيما يلي تقدم الترجمة الكاملة للوثيقة مع
الحواشي اللازمة :

« حكم (٩) (موجه) الى امير امراء ١٠١٠ بغداد وفانسيها:
لقد سبق صدور امر (١١) بوجوب مسك سجل
تدون فيه مجددا الاحوال التفصيلية لولاية بغداد دار
السلام المحمية . فقدم اليها (من بغداد) في الوقت
الحالي من هو فخر الاماجد والاكادم (الشيخ محمد
قاضي زادة) زيد مجده ، وحل في عتبة دارى العلية
العالية الشمول ، وتبين بسدتي السنية المباركة .
وعرض على مقامي المعزز والموفور بالحضور ،
المستوجب للسرور انه بمقتضى امرى الجليل الفدر .
قد مسك سجلا حرر فيه بالتفصيل شئون الولاية
المشار اليها ودون فيه القواعد والقوانين التي كانت
مقررة للرعايا (١٢) والبرايا (١٣) في السنين الماضية من
عهد السلاطين المعروفين بمدالية اجراءاتهم . ثم شرح
ما كان قد شرعه من بعدهم القزلباش (١٤) الاوباش (١٥)
من المظالم والبدع (١٦) . وبما ان تلك الولاية قد

(٩) اى قرار بمثابة قانون .

(١٠) ولي النص المطبوع (بكرر بكي) ؛ وهو وال بدرجة وزير ،
وكان يتمتع بصلاحيات واسعة لا يمتلكها غيره من الولاة .

(١١) اى حكم او قرار بمثابة قانون كما ذكرناه .

(١٢) الرعايا لغة جمع رعية بمعنى القوم ، واصطلاحا هم
المواطنون الخاضعون للرسم او الضريبة .

(١٣) البرايا لغة جمع بربة بمعنى الخلق ، واصطلاحا : الناس
الفقراء الذين يشكلون سواد الشعب .

(١٤) طائفة معروفة من الغلاة .

(١٥) اى سفهاء الناس واراذلهم .

(١٦) جمع بدعة بكسر الباء ، لفظة مولدة تعني الضلالة او
الباطل ، ولعلها معرفة من فصل بدع بمعنى الزع .
 واصطلاحا تطلق على التشريعات الجائرة .

فُتحت بها بحد سيفي الظافر ، المقرون بعلو عناية الله سبحانه وتعالى ، وظهور معجزة هدى سيد الكائنات عليه افضل الصلوات ، وبقدسية ارواح الخلفاء الراشدين العظام رضوان الله عليهم اجمعين ، فان رعية تلك الولاية يجب ان ينالوا وافر نفعي واهتمامي وكامل شفقتي وعدلي . لذا فقد امرت ان تظل جميع المعاديات [أي الرسوم] المعروفة التي كانت سائدة في عهد المرحوم حسن باشا (١٧) غفر الله له [ذنوبه] ونور مرقده مرعية في الوقت الحالي؛ والفيت كلها جميع المظالم والبدع التي احدثت في عهد القزلباش . فمنذ اليوم يجب ان لا يحصل أي ظلم او اعتداء على اهالي تلك الولاية او على احد افراد رعاياها وبراياها ، خلافا للشريعة الطاهرة وللقانون المرعي . ويجب السير وفق النسق الذي امرت به . وقد ارسلت هذا الامر المزم [للمسئولين] والواجب الاتباع [من قبلهم] وقضيت انه عند وصوله [اليك] ان شاء الله الاعز ، وهو (امر) مقبول في نطاق العالم وواجب الاتباع ؛ ان يقرأ بالتمام علنا في جميع الممرات الواقعة في مدن الولاية وقصباتها والاماكن التي يجتمع فيها الناس . وان عليك ان تعلن [للبلاد] القوانين والقواعد المقررة [من قبلي] بعد انهاء البدع الحادثة ومنعها [من النفاذ] بصدور امري العادل (هذا) فيطلع الرعية على [ماهية] التكاليف المفروضة عليهم . فيؤدون [رسوما وضرائب عن] حاصلاتهم بموجبها . وينبغي ان لا يتوقع احد [بعد اليوم] حصول اي اعتداء عليه او الظلم به من قبل شخص ما [من المسؤولين والمتنفذين] . ويجب عليك ان تتصف بالعدل المتواصل الذي يرضيني . وان تقوم بالاشراف على اموال الرعية والبرية بصورة دائمة . وان لا تسكت على استيفاء قرش (١٨) واحد من أي فرد يزيد على الحد المقرر في القانون القديم (١٩) . وعليك ان لا تضع دقيقة واحدة [من وقتك] في

(١٧) هو (اوزون حسن) أي حسن الطويل ، سلطان الاق قوبلية الذي استولى على بغداد سنة ٨٧٤هـ (١٤٧٠ م) ، وتوفي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧ م) .
(١٨) ورد في النص (آقچه) . انظر الحاشية رقم ٢١ أدناه .
(١٩) ويقصد به قانون السلطان حسن الطويل .

ابداء المساعي الحميدة بشأن اعانة المظلومين ، واهانة الظالمين . وعلى سبيل المثال (نقول) انه كانت تستوفي (من المواطنين) في الولاية المشار اليها ما يسمى بـ (چهار ماهه) (٢٠) و (رسم استيفاء) وكانت تستوفي من المحصولات التي تبلغ قيمتها الفی آقچه (٢١) (مبلغ قدره) مائتان وثمان مائة آقچه بالإضافة الى مائة واربعين منا من الشمر . وكانت تستوفي من مجموع الحاصلات ثلاثة طغارات من كل مائة طغار من (التركة) (٢٢) تحت اسم (صديقه) (٢٣) . وبما ان هذه التكاليف مظلمة وجور محض فانني الفيتها ايضا . وعليك منذ اليوم عدم انساح المجال لاستيفاء حبة واحدة مما يسمى بـ چهار ماهه ورسم استيفاء وصديقه خلافا لأمري . ويجب عليك ان تعتبر هذه التكاليف ملفية ومرفوعة وان تزيل هذه الاسماء (او المصطلحات) عن تلك الولاية . . لقد كان في ايام عهد المرحوم حسن بك المشار اليه (اعلاه) يستوفي من اصحاب الجواميس اثنان و عشرون آقچه من كل شخص ، ولم يكن يستوفي اكثر من ذلك . الا انه في ايام القزلباش اخذوا يستوفون عشرين الف آقچه والف من من الدهن باسم (ضريبة او رسم) (يشكش) (٢٤) وبالإضافة الى ذلك صاروا يستوفون اثنين وعشرين آقچه عن كل رأس من الجاموس وما مقداره خمس آقجات باسم (ميرانه) (٢٥) فضلا عن استيفاء (عشر) عن هذا المبلغ . فقد الفيت هذه (الرسوم او الضرائب) ايضا . فعليك عدم انساح المجال لاستيفاء هذه البدع (أي الرسوم او الضرائب

(٢٠) لفظة فارسية مكونة من كلمة چهار بمعنى الاربعة وكلمة ماه بمعنى الشهر فيكون معنى اللفظة مع الهاء اللعقة بآخرها « الاربعة اشهرية » ان صحت التسمية . ولعلها كانت ضريبة تستوفي من الحاصلات الموسمية القصيرة المدة .

(٢١) آقچه ، لفظة تركية تعني السكة البيضاء وبالأحرى الفادرة للبياس . وهي تطلق على نقد فلي كان وزنه في عهد القانوني ثلاث قراريط ونصف القيراط . وكان يسك آنذاك في بغداد ايضا بعميار ٨٥ د. من الفضة . .

(٢٢) التركة اصطلاحات هي اللال كالقمح والشمر .
(٢٣) لفظة معروفة حسب اعتقادنا من (صديق) الفارسية بمعنى الواحد بالمائة .

(٢٤) لفظة فارسية بمعنى الهدية او (بالعرضة) العامة .
(٢٥) ونعني الامرية أي حصة الامر .

الجائرة) السمة ب (يشكش) و(ميوانه) و(عشر) ..
وهناك في نواحي مهرود (٢١) وطريق خراسان (٢٧)
والخالص مهنة « السكارية » ، وان النصف (من
الناتج) خاص والنصف الاخر يعطى الى من يقوم
بعمل السكر . عليك ان تثبت هذا الخصوص بحسب
العادة القديمة وذلك بتخصيصه الى القائم بالعمل المذكور
عن طريق (التيمار) (٢٨) . فيكون القائم والمشراف
على العمل متصرفا وفق العرف المعتاد قديما ..
وهناك في كل قرية (كارخ) (٢٩) يقوم منذ قديم الايام
بزراعة ارض بمقدار طفار واحد يتصرف بالحاصل
لنفسه . واما اليوم فان الكارخين قد تركوا زراعة
الارض واخذوا يستوفون من رعايا كل قرية ستة
طفارات من المحصول ظلما . لقد رفعت هذه المظلمة
فيمنع الكارخون منذ اليوم عن استيفاء اي شيء من
الرعية . ولهم ان يزرعوا حسب العادة القديمة
ارضا تخصص لهم من قبل (الامارة) (بمساحة
تكفي للزراعة) بمقدار طفار واحد لكل كارخ ،
فيتصرف بمحصولها لنفسه .

وعليهم (اي على الكارخين) ان يمارسوا عملهم
دون استيفاء اي شيء من الرعية . . و (علمنا)
ان القائمين على (شؤون) الحصاد يستوفون
كميات من الغلال باسم (عليق) (٢٠)
و (زكار دسسته) (٢١) فأنني الفيت ذلك

(٢٦) ورد هذا الاسم الجغرافي في النص المطبوع على شكل
(مهزود) . وورد في الكتب القديمة على صورة (مهروذ) ،
وفي التاريخ الفياني على شكل (مهروذ) . ويسمى في
الوقت الحالي بـ (مهروت) . ويطلق على منطقة تشكل مع
خراسان والخالص صدور جداول دبالى حيث يسمى
الجدول الذي يمر من مهروت بنفس الاسم .

(٢٧) طريق خراسان هي محافظة دبالى الحالية باستثناء
الخالص ومهروت حيث انهما كانتا ناحيتين مستقلتين .

(٢٨) التيمار هي الارض الاميرية التي كانت تمنح من قبل
السلطان الى رؤساء الخيالة وكبار موظفي الدولة كعصمة
من بيت المال لقاء مشاركتهم في الحروب والفحوصات
باسلحتهم ومعداتهم الخاصة لهم .

(٢٩) هو القائم بعملية توزيع المياه على البساتين .

(٣٠) أي الشمر ونحوه مما تطلقه الدابة .

(٣١) لفظة فارسية تكون من اداة (ز) بمعنى من وكلمة
(كار) بمعنى العمل وكلمة (دسسته) بمعنى الباقية
او الحزمية . وبذلك يكون معنى اللفظة الظاهري
« من عمل الباقية » .

أيضا . وعليك ان لا تسمح (لاحد) باستيفاء ما ذكر
(من الضريبة او الرسوم من المواطنين) .. و (علمنا)
انه تستوفى من اصحاب الاغنام شاة واحدة من كل
ثلاثمائة شاة باسم (جويان بكى) (٢٢) وان
المباشرين (٢٣) لهذا العمل يستوفون ثلاث آقجات من
كل قطيع ظلما ، ومن كل ثلاثمائة غنم ما يسمى بـ
(كرو) (٢٤) وبعد استيفاء هذه الرؤوس الستة (٢٥) فان
المباشرين يأخذون شاة اخرى . وان الكاتب
والمحصل (٢٦) يأخذان غصبا من كل عشيرة بغلا
وشركا (٢٧) . لقد الفيت (كل هذه الرسوم اي)
رسم جويان بكى ورسم كرو والعشر آقجات
الاضافية من جويان بكى ورسم الغنم من كرو
والبغل وشركه للكاتب والمحصل . فعليك ان لا تدع
مجالا لاحد في استيفائها بعد اليوم .. وان نا (٢٨)
التواجدات في مركز بغداد المحمية (٢٩) بداخل
السور ، وفي الجانب الغربي من الجدول (اي
الساقية) ، وفي مركز الحلة كانت معفاة (من
الرسوم) ، فلم يكن يستوفى منها شيء . فأنني
بكامل شفقتي وعظمتي (على اهالي محافظة بغداد)
امرت بان يكون الاعفاء المذكور ساري المفعول
(في عهدي ايضا) . فعليك ان لا تسمح لاحد
باستيفاء اي شيء (بهذا الشأن) .. وهناك في الولاية

(٢٢) لفظة تركية تتكون من كلمتين هما (جويان) بمعنى
الرامي و (بك) بمعنى الأمير ، والياء الملحقه بأخر
كلمة بك هي للاضافة . فيكون معنى اللفظة اللغوي
« أمير الرامي » .

(٢٣) ورد في نص الوثيقة لفظ (وارنار) ومعناه الواصلون
اي المباشرين المستوفون للضرائب والرسوم .

(٢٤) وردت هذه اللفظة بكسر الكاف وفتح الراء وسكون الواو،
ولعلها (كره) المحرفة من (الكراء) العربية بمعنى
أجرة الدابة .

(٢٥) يبدو ان هناك عبارة سافطة أثناء الطبع ، او ان (كرو)
الأنف الذكر هو مصطلح مالي يطلق على ضريبة معينة
مقدارها ستة رؤس من الاغنام تستوفى من المكلفين .

(٢٦) المحصل هو الموظف المكلف بجباية اموال الدولة .

(٢٧) لم اشر في المعجمات التركية على كلمة شرك وهي بالكاف
النونية ، ولعلها محرفة من (ششك) بمعنى الجذع
من الغنم .

(٢٨) لم اهتم معناها ، ولعلها صدر لللفظة (ناور) وقد
سقط عجزها أثناء الطبع .

(٢٩) أي المحفوظة من الآلات والمصاب .

المشار اليها (بغداد) من يمتلك حق (المالكانه) (١٠) فقررت لهم ذلك . فانهم يستمرون على تصرفهم القديم بالشكل المتعارف عليه . ويجب ان لا يعارضهم احد في ذلك خلافا للشرع الشريف والقانون ما دام هذا الحق مخصصا لهم منذ قديم الزمان . وان هناك في الولاية المشار اليها عرصات خالية . وان اشخاصا يتون من الخارج (اي من خارج المدينة) ويرغبون في عمارتها ، فائني امرت بان لا يدفع هؤلاء اي شيء (من الضرائب) لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد (١١) فعليك السبر على هذا النوال واعفاء من يعمر الخربات (من الضريبة) وعدم استيفاء اي شيء منهم لمدة سنة واحدة . وبعد ذلك يستوفى منهم خمس مجرد فقط دون مطالبتهم باية زيادة . وذلك لكي تعمر الخربات وتزدهر في ايام دولتي . . و (علمنا) انه في بغداد المحمية والاماكن الاخرى التابعة لها (ان بعض الاشخاص من المتنفذين)

(١٠) المالكانه هي الاراضي أو المزارع التي كانت تمنح للمعكرين والمدنيين ممن يسدون خدمة للدولة ، وكان لهم حق استغلالها والتصرف بها تصرف المالك المطلق على قيد الحياة .
(١١) خمس مجرد ، لفظة مولدة ، والقاهر انها حربية تعادل خمس القريبة التي يسدها غير المتزوجين للدولة .

يدخلون البيوت ويعتدون على اهلها ويأخذون منهم غصبا وظلما العلف والمأكولات والدجاج والاغنام والخرفان باسم (آفجه سوز) (١٢) وان المواطنين متضجرون من هذا العمل تماما . فعليك ان لا تسمح بعد اليوم (لاحد) بالاعتداء على اهل احد وعياله وارغامهم على دفع اي شيء من قبيل آفجه سوز . . و (علمنا) انه تفتصب مزارع النخيل والبساتين من بعض الاشخاص كرها ، ويعتدي عليها بزراعتها بالمحصولات . عليك ان تمنع هذا العمل ايضا . . ويجب ان تكون على علم من ان جميع المظالم والمخاوف التي حلت بالولاية المشار اليها في عهد القزلباش الاوباش قد ازيلت (بهذا الامر) . . وفي ضوء ذلك يجب ان تكون مجدا وساعيا مقداما ومهتما بخصوص طمأنينة (اهل) الولاية ورفاهية المواطنين وامنهم وراحتهم واستقرار امورهم . .

في { ن سنة ٩٤٣ (١٢) بمقام ادرنه } .

(١٢) تكون هذه اللفظة من الچه التركية بمعنى النقد وسوز الفارسية بمعنى الحارق ، فيكون معنى اللفظة الحرق هو حارق النقد أي مبلره .
(١٣) يلاحظ ان حرف النون في التقويم الهجري رمز لشهر رمضان .

فصول من كتاب - نيل المراد في احوال العراق وبغداد

تأليف

عباس بن جواد بن رجب البغدادي

تحقيق

عبد الحسين مجيد

متوسطة حي الحسين - كربلاء
الجمهورية العراقية

اما ترجمة المؤلف فلم اعثر عليها في المراجع الحديثة لذا اعتمدت على ما كتبه عباس الغزاوي في صدر مخطوطة الكتاب التي كانت بحوزته وهي مختصرة جدا لم تزد على ايراد اسمه واسم ابيه وجده ونقبه اما سنة وفاته فلم اعثر عليها .

للبغدادي مؤلفات وآثار غير هذا الكتاب هي :

١ - انروض النضر في اسماء السادة اهل بدر . قصيدة طويلة نظمها وضمنها اسماء اهل بدر ، انتهى من نظمها في شهر ربيع الآخر سنة ١٢٢٣ هـ . تقع في ٦٨ بيتا وفي ثنايا هذه المنظومة تعرض الى حال الناس في عصره وما هم عليه من بؤس وشقاء وكذلك رجع الى الوراء الى ايام بني العباس كيف كان حال العراق وبغداد وساكنيه وابدى تدمره وشكواه من اوضاع بغداد ايام زمانه .

مطلع القصيدة :

اقول بمد البدء بسم الله

حمدا لمن جل عن الانسنة

وفيه يقول :

فكيف كانت اولاً بغداد

وما الذي كان بها يراد

من الآثار المخطوطة المؤلفة عن بغداد في العصر الحديث كتاب نيل المراد في احوال العراق وبغداد للسيد عباس بن جواد بن رجب بن عبدالله البغدادي انتهى من تأليفه في الخامس من شهر شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة والفر للهجرة .

عثرنا على نسختين مخطوطتين من الكتاب . الاولى في خزانة المتحف العراقي ببغداد تحمل الرقم ٩٠٩٢ وهي ضمن المخطوطات التي ابتاعها المتحف من وديعة عباس الغزاوي .

تقع هذه النسخة في ٥٠٥ من مكتوبة بخط جميل جدا ومعنونة بالحمري : كتبها : عبدالرزاق الملا محمد الحاج فليح البغدادي في ٦ محرم ١٢٥٥ هـ .

اما النسخة الثانية فهي نسخة الباحث الاستاذ كوركيس عواد والتي هي اليوم ضمن مخطوطات مكتبة الدراسات العليا في كلية الاداب ببغداد تحمل رقم (٩٥) وهي بخط المؤلف وتقع في ٢٢٥ صفحة تمت كتابتها في ٥ شعبان ١٢٢٣ هـ وقد اشار اليها الاستاذان عبدالحميد العلوجي وكوركيس عواد في كتابهما : جبهة المراجع البغدادية ص ٢٢٥ .

وقد اعتمدنا في استخراج هذه الفصول على هاتين النسختين .

كانت عروس الملك في الاقطار
مصونة عن وصمة الاكدار

آخرها :

نجزت والله الحمد في شهر ربيع الآخر من عام
ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

٢ - مجموعة شعرية تحوي بعض القصائد ،
والمقطوعات .

ونيل المراد يبدأ اوله : بعد البسلة والحمد .
أما بعد : فهذه نبذة بسيرة تتعلق بذكر احوال العراق
من القرى والبلاد سيما عن قلاوته بغداد فقد صرقت
اكثر البحث اليها لا يبين ما جرى عليها من الحوادث
والعواصف ... اما آخره : وهذا ما ليسر للضعيف
جمعه على حسب الطاقة والامكان وتماقب
مصائب هذا الزمان واستحالة الحال ونشويش
البال فالمرجو ممن وصل هذا المختصر اليه ووقع
شريف نظره عليه ان يصفح عما فيه من الخطأ

والنسيان وانا لم آل جهداً في صحة التبيان فان
مقام المعصمة عظيم لم يثبت لغير القرآن
الكريم ... الخ .

اما فصوله ومحتوياته فالقسم الاول منه
يبدأ بدراسة المدن والقصبات العراقية دراسة
واقية تتسم بالطابع التاريخي العام ، اما القسم
الثاني من الكتاب ففيه ذكر بغداد قبل المتغلبين
واسماؤها ، محلاتها ، مقابرها ، انهارها ،
حدائقها ، قصورها ، نباتاتها وازهارها . ومقالة
لا جرى على بغداد من المحسن والمصائب والفن
حيث يترجم لخلقاء بني العباس . وبعدها يتعرض
لمساجد بغداد الحالية ومشاهدتها ومدارسها
الحديثة والفن التي حدثت في عصره . اما ما
اخترته من موضوعات الكتاب فهي :

اسماء بغداد وما قبل فيها ، متنزعات وقصور
بغداد ، جوامعها ، محلاتها ، جسورها ، مدارسها
بساتينها ، بغداد الحديثة ، اخلاق اهلها .



((ذكر ما قيل في اسماء بغداد واوصافها))^(١)

ومن اسمائها الزوراء قيل لا زوراء قبلتها اي لانحرافها^(٢) ، وقيل لان المنصور لما بناها جعل ابوابها الداخلة مزورة اي منحرفة عن ابوابها الخارجة . وقيل لازورار دجلتها وفي الخبر قال علي بن ابي طالب (ع) : سمعت النبي (ص) يقول : تكون مدينة بين الثرات ودجلة يكون فيها ملك بني العباس وهي الزوراء يكون فيها حرب مفضعة تسبى فيها النساء وتذبح فيها الرجال كما يذبح الغنم .

ومن اسمائها : دار السلام^(٣) وفي سبب تسميتها بذلك قولان : الأول : السلام اسم لدجلة^(٤) ، والثاني انه يسلم فيها الخلفاء .

ويقال ان اسمها بك دار ، ومعنى بك بالتركية : الرب ودار : العادل . وقيل غير ذلك . وهي مدينة عظيمة تذكر وتؤث وتكانت من القرى القديمة اختارها ابو جعفر وبنى فيها مدينة فكانت ام الدنيا وسيدة البلاد ومدينة السلام^(٥) وقبة الاسلام حتى قيل : بغداد في البلاد كالاستاد في المباد^(٦) هواها اللف من كل هواء وماؤها اعذب من كل ماء وتربتها اطيب من كل تربة . ومن اوصافها انها لم يست فيها خليفة^(٧) ولذلك قيل فيها^(٨) :

قضى ربنا ان لا يموت خليفة بها انه ما شاء في خلقه يقضي
وقال آخر^(٩) :

طيب الهواء ببغداد يشوقني قرباً اليها وان عاقت مقادير^(١٠)
وكيف ارحل عنها اليوم اذ جمعت^(١١) طيب الهوائين ممدود ومقصور

- (١) ص ١٢٦ من مخطوطة الدراسات العليا ، ص ٢٠٧ من مخطوطة المتحف العراقي .
- (٢) الحموي ، معجم البلدان ٣ : ١٥٦ ، ١ : ٤٥٦ .
- (٣) نفس المصدر ٢ : ٤٢١ .
- (٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١ : ٥٨ ، معجم البلدان ٥ : ٧٩ .
- (٥) البكري ، معجم ما استعجم ١ : ٢٦٢ .
- (٦) العمري ، غاية المرام ١٧ .
- (٧) إلا الخليفة الامين فانه قتل في شارع باب الانبار وحمل رأسه الى طاهر بن الحسين وهو في معسكره (تاريخ بغداد ١ : ٦٨) .
- (٨) البيت من قصيدة لعمارة بن عقيل بن بلال الخطفي المتوفى ٢٣٩ هـ مطلعها :
اعاينت في طول من الارض او عرض كبغداد داراً انها جنة الارض
(ديوان عمارة ٩٧ ، تاريخ بغداد ١ : ٦٨ وفيها ينسب هذه الابيات لمنصور النوري) .
- (٩) البيتان في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ رواهما علي بن محمد بن حبيب الشافعي البصري المعروف بـ الماوردي صاحب الاحكام السلطانية رواهما من اخيه الذي كان بالبصرة وهو ببغداد . وذكرهما ياقوت ، معجم البلدان ١ : ٦٣ .
- (١٠) الشطر الثاني في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ (قدماً إليها وان عاقت معاذير) .
- (١١) الشطر الاول في تاريخ بغداد ١ : ٥٤ (فكيف صبري عنها الآن إذ جمعت) .

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي المالكي (١٢) :

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعف (١٣)
فوائده ما فارقها عن فني لها واني بشطي جانبيها لعازف
ولكنها ضاقت علي برحبها (١٤) ولم تكن الاقدار (١٥) فيها تساعف
وكانت كخل كنت اهوى دنوه واخلاقه تنأى به وتخائف
والطف من ذلك قول ابن الرومي (١٦) :

بلد صحبت بها الشبية والصبا ولبت ثوب العيش وهو جديد
فاذا تشل في الضمير رأيت وعليه اغصان الشباب نيد
ولبعضهم وقد اجاد :

أها على بغدادها وعراقها وضباها والحر في احداها
ومجاها عند الفرات باوجه تبدو أهنتها على أطواقها
متبخرات في النسيم كائنا خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفي الفداء لها فاي محاسن في الدهر تشرق من سنا اشراقها

والطف من ذلك قول القاضي أبي الحسن علي بن النيه من قصيدة :

أنت بالعراق بدر أميرا فضوت غيمها وخاضت هجيرا
واستظأت ريا سائم بغداد فكانت لولا البرا أن تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا لم يزل نافرا وماء نسير
واجتنت منه ريا المحصول نورا واجتلت من مطالع التاج نورا

وقال آخر :

لهني على بغداد من بلدة كانت من الاسقام لي جنة
كأني عند فراقها لها آدم لما فارق الجنة

(١٢) ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ٢١٩ - ٢٢٨ وفيه توفي ٤٢٢ هـ ، والابيات في ص ٢٢٠ منه ، ومعجم البلدان ١ : ٤٦٢ .

(١٣) في وفيات الاعيان ٣ : ٢٢٠ سلام مضاعف .

(١٤) نفس المصدر السابق : بأسرها .

(١٥) نفس المصدر السابق : الارزاق .

(١٦) الابيات في ديوان ابن الرومي ٢ : ٧٦٦ والبيتان فيه :

بلد صحبت به الشبية والصبا ولبت فيه العيش وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيت وعليه افنان الشباب تميد

وقال ابو العلاء المعري^(١٧) :

بث ازمان جبالي من جبالكم أعزز عليّ بكون الوصل مبثوثا
ذم الوليد ولم اذمم جواركم فقال ما انصفت ببغداد حوشيتا

والزوراء^(١٨) من اسماء الجانب الشرقي خاصة بخلاف بغداد فانه اسم للجانبين وقد ذكروا ان المنصور انفق على بنائها أربعة آلاف دينار^(١٩) ونقل ابواب مدينة واسط^(٢٠) وجعلها عليها وجعل عليها سوراً محكماً عظيماً ابتداءً من الدجلة وابتداءً الى اندجلة وهو محيط بها كسبه الهلال وهذه المدينة التي في الجانب الغربي فصارت كما قيل في وصفها بلدة تكل عن حسن وصفها الانس كأنها الفردوس فيها ما تشتهي النفس وتلذذ العين ذات القدر الشريف والفضل المنيف مثوى الخلفاء ومقر العلماء لم تزل معرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة القرشية والجانب الغربي منها هو الذي عمر أولاً . وفيل لرجل كيف رأيت ببغداد ؟ فقال : الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها^(٢١) . وقال : ابن جبير^(٢٢) في وصف دجلتها التي بين شرقها وغربها هي كالمرآة المجلاة بين صفحتين^(٢٣) ، والعقد المنتظم بلبتين فهي تردها فلا تظلم وتطلع في مرآة صقيلة فلا تصدأ والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها فهي معروفة بفتن الهوى إلا ان يعصم الله منها . وقال وكنا نسمع ان هواء ببغداد ينبت السرور في النفس ويبعث دائماً على الانبساط والانس فلا تكاد نجد فيها إلا جذلان طربا وان كان نازح الديار مفتربا حتى حلت بقرية وزيران وهي على مرحلة منها فلما تفحطنا نوافح هوائها ونقعنا الغلة يبرد مائها احسنا من انفسنا بالرغم على وحشة الافراد دواعي من الاطراب واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالاياب وهتفت بنا محركات من الانس ذكرتنا معاهد الاحباب في عصر الشباب وهذا للغريب النازح الوطن فكيف الوافد فيها على اهل وسكن :

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورد الى الاوطان كل غريب^(٢٤)

وقال الخطيب البغدادي^(٢٥) : « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة

(١٧) شروح سقط الزند - القسم الرابع ١٦٠١ .

(١٨) ص ١٢٨ من مخطوطة الدراسات العليا .

(١٩) في تاريخ بغداد (١ : ٦٩) أربعة آلاف وثمانمائة وثمانين درهما ، وفي معجم البلدان (١ : ٤٥٩) انه انفق عليها ثمانية عشر الف الف دينار .

(٢٠) تاريخ بغداد ١ : ٧٥ .

(٢١) تاريخ بغداد ١ : ٤٥ ، بغداد مدينة السلام ، للهمداني ٤٢ .

(٢٢) هو ابو الحسين محمد بن احمد بن جبر الاندلسي المتوفى ٦١٤ هـ (رحلة ابن جبير ص ١١) .

(٢٣) رحلة ابن جبير ٢١٨ .

(٢٤) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد في الجانب الشرقي تعرف بطاق اسماء (معجم البلدان ١ : ٣٠٨) .

(٢٥) تاريخ بغداد ١ : ١١٧ - ١١٩ .

أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتييز خواصها وعوامها وعلم أقطارها وسعة أطوارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها^(٢٦) ومحالها وأسواقها وأماكنها^(٢٧) وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها^(٢٨) وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها ويرد اطلالها وافنائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ما حصر من سكانها » .

وقال أيضاً : « كان ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسين ألف جريب وسبعمائة والغربي سبعة وعشرين ألف جريب والقرى تسعة آلاف وثلاثمائة جريب^(٢٩) .

قال^(٣٠) وعدد الحمامات في بغداد ستون ألف حمام^(٣١) وقيل غير ذلك ثم قال : وأقل ما يكون في كل حمام خمسة نفر حمامي وقيم وزبال ووقاد وسقا فيكون ذلك ثلاثمائة ألف رجل وذكر بعضهم أن بازاء كل حمام خمسة مساجد وعلى ذلك فهي ثلاثمائة ألف مسجد وعلى الأقل أن يكون بكل مسجد من الموظفين خمسة نفر فيبلغ عددهم في الحمامات والمساجد ألف ألف وخمسمائة ألف رجل . قلت : فإذا كان فعلة الحمامات والمساجد بهذا عددهم فالساكنون لا يحيط بهم إلا الذي احصاهم عدداً .

جسورها^(٣٢) :

ويقال لما بنى المنصور قصره عقد الجسر على باب الشمير^(٣٣) ثم عقد بباب البستان ثلاثة جسور^(٣٤) وعقد الرشيد جسرين وكان لابن جعفر جسر عند مربعة فكانت الجسور بها سبعة ما عدا القنطرات التي على سائر الأنهر وإن قصور الخلفاء ودورهم كانت شرقي الرصافة كما تقدم وأظهر بقاع القصور الخطة التي فيها مشهد السيد السلطان علي ويؤيد ذلك أن مربع أبي جعفر المنصور كان هناك وإلى اليوم تعرف تلك الخطة المربعة تفرعاً على اسم القصر المذكور ومن

(٢٦) في تاريخ بغداد ١ : ١١٩ (وشعوبها) .

(٢٧) نفس المصدر السابق (وسككها) .

(٢٨) نفس المصدر السابق (وطرزها) .

(٢٩) في هذه الأرقام التي أوردها المؤلف اختلاف بين المؤرخين ، فإذا رجعنا إلى تاريخ بغداد ١ : ١١٧ وجدناه يقول : « أن ذرع بغداد الجانبين ثلاثة وخمسون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، منها الجانب الشرقي ستة وعشرون ألف جريب وسبعمائة وخمسون جريباً ، والغربي سبعة وعشرون ألف جريب » . وحتى في هذا اختلف المؤرخون (التفاصيل في المصدر السابق ١ : ١١٧) .

(٣٠) ص ١٤٠ من نسخة الدراسات العليا .

(٣١) وهناك اختلاف في تحديد عدد الحمامات (الحافظ الذهبي ؛ تاريخ الإسلام ٦ : ٢١ ، تاريخ بغداد ١ : ١١٨) .

(٣٢) ص ١٥٤ من نسخة الدراسات العليا .

(٣٣) باب الشمير محلة ببغداد فوق مدينة المنصور قالوا كانت ترفأ إليها سفن الموصل والبصرة ، والمحلة التي ببغداد المعروفة بباب الشمير هي بعيدة عن دجلة (تاريخ بغداد ١ : ١١٥ ، دليل خارطة بغداد ٩٢) .

(٣٤) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .

المعلوم ان قصور الخلفاء كانت متصلة بقصور البرامكة كما في كتب التاريخ وذكر بعضهم ان ارض بغداد كانت قبل ان تحتمي بحمي الاسلام متنزهاً لملوك بابل لاعتدال هوائها وعذوبة مائها وكثرة بساتينها وحيطانها وبعد انقراض البابليين اتخذها ملوك فارس متنزهاً وقد اعطاها احد ملوك الفرس لبعض المرازبة ، وفي زمن الاكاسرة كان فيها اسواق كبار يقصدها التجار من الاقطار لكن قد بلغت الغاية القصوى والدرجة العليا في العمارة والحضارة والصناعة والتجارة في ايام الرشيد والمأمون حتى يقال ان خارجها كان من معامل القوارير اربعة آلاف معمل ومن معامل الفخار ثلاثون ألفاً ومن الجسور خمسة وخمسون جسراً وكان ريعها ونمو فواكهها وينعما من نهري دجلة والفرات .

محلات بغداد في عصر السلطان محمد رشادخان العثماني (٣٥)

ولم تزل تأخذ بغداد بالترقي حتى طار صيتها في البلاد ، وربما فضلها بعض الناس على حالها يوم بني العباس ، فاتصل عمران جانبها الغربي من نحو الشريعة البيضاء الى قرارة ، وعمران جانبها الشرقي من موضع مشهد الامام احمد بن حنبل (٣٦) الى النهر المعروف بديالة وبلغت محلات الجانب الشرقي ما تحت السور فقط اربع عشرة محلة من ذلك : محلة حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني ، ومحلة الشيخ سراج الدين (٣٧) ، ومحلة جامع الخلفاء ، ومحلة المربعة ، ومحلة السبع ابكار ، ومحلة راس القرية ، ومحلة بني سعيد ، ومحلة المهديّة ، ومحلة قنبر علي ، ومحلة باب الاغا ، ومحلة الحيدر خانة ، ومحلة محمد الفضل (٣٨) ، ومحلة الميدان ، ومحلة جديد حسن باشا .

وهذه المحلات هنّ الامهات ويتشعب من كل منهن محلة أو محلتان حسب اصطلاح الوقت .

واما محلات الجانب الغربي مما تحت السور أيضاً فقد بلغت احدى عشرة محلة من ذلك محلة

(٣٥) ولد هذا السلطان في ٢٠ شوال ١٢٦١ هـ وهو ابن السلطان عبدالحميد جاء بعد خلع السلطان عبدالحميد الثاني في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧ ، توفي ١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ . تاريخ العراق بين احتلالين ١٧٦ .

(٣٦) توفي الامام احمد بن حنبل ٢٩٠ هـ - ٩٠٣ م ودفن في مقبرة باب الثمن التي تقع في الشمال من مشهد الكاظمين إلا انّ توغل نهر دجلة في الجانب الغربي من هذه المنطقة وفيضان المياه ادّيا الى انهيار قبره في الماء وكان ذلك في حدود منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ولم يعد له اليوم اي اثر (دليل خارطة بغداد ١٠٢) .

(٣٧) نسبة الى الشيخ عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ، جاء الى بغداد سنة ٧٠٠ هـ وتوفي سنة ٧٥٠ هـ (دليل خارطة بغداد ٢٣٧) .

(٣٨) هو محمد بن الفضل اسماعيل بن الامام الصادق وتنسب اليه المحلة الا ان هذه النسبة يطعن فيها حيث يقول الدكتور مصطفى جواد انه غياث الدين محمد بن الفضل وزير السلطان ابي سعيد بهادر خان أو الفضل الاسفرائيني المتوفى ٥٤٨ هـ . وهذه المحلة كانت تسمى باب ابرز (دليل خارطة بغداد ٢٣٨) .

الكريمات ، ومحلة باب السيف ، ومحلة علاوي الحلة . ومحلة الشيخ بشار^(٣٩) ، ومحلة الشيخ صندل^(٤٠) ، ومحلة الفلاحات ، ومحلة المشاهدة ، ومحلة الست نيسة ، ومحلة الشيخ علي ، ومحلة الدهدوانة ، ومحلة الجعيفر ، ويتشعب أيضاً من بعضهن محلة أو محلتان .

مساجد بغداد^(٤١) :

وأما مساجد بغداد فقد بلغت عدداً كثيراً يؤدي ذكر جميعها إلى السآمة فمن مساجد جانبها الشرقي : مسجد السيد سلمان أفندي ابن السيد علي أفندي النقيب^(٤٢) وهو بالجادة النافذة إلى الباب الشرقي ويحتوي على سقاية طيبة الماء وإن هذه العائلة تنسب إلى حضرة الشيخ عبدالقادر الجيلاني وبمقربة من المسجد المذكور مشهد الشيخ الزهري ، والعلامات ونقل الثقات يدلان على أن هذا المشهد كان من أكبر المساجد هدمه الفرق أيام داود باشا^(٤٣) ولم يمر بعد وبمقربة منه المسجد المعروف بـ مسجد السادة^(٤٤) وهو وإن كان صغيراً إلا أنه مسجد قديم يجد المصلي فيه خشوعاً وعلى القرب منه المسجد المعروف بـ مسجد النعماني^(٤٥) له مئذنة وتقام فيه الجمعة ولم يبق منه الآن إلا المئذنة لأنه تهدم نتيجة الفرق وقريباً من المسجد المدفون فيه الشيخ الميبدروسي^(٤٦) وكان رحمه الله من مشاهير العلماء وأكابر المشايخ الصلحاء .

ومن المساجد أيضاً مسجد التسايل^(٤٧) ، ومسجد رأس الساقية ، ومسجد الشيخ الالفي^(٤٨) ، ومسجد آل الخضير وهو مسجد قديم كان قد اندثر فعمره الحاج عبدالرزاق

(٣٩) نسبة إلى الشيخ علي بن محمد بشار المدفون هناك (دليل خارطة بغداد ٢٤٦ ، ٢٢٥) .
(٤٠) نسبة إلى عماد الدين صندل بن عبدالله الحبشي المعروف بـ المقتفوي المتوفى سنة ٥٩٣ هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٦) .

(٤١) صفحة ٤٤٦ من مخطوطة المتحف العراقي .

(٤٢) تاريخ بنائه ١٢١٢ هـ وتاريخه :

فعلى نهج الهدى قد أرخو (وعلى تقوى اقامت المسجدا)

وكانت وفاة المؤسس سنة ١٣١٥ هـ (تاريخ مساجد بغداد واثارها للالوسي ٨٠) .

(٤٣) تولى ولاية بغداد ١٢٣٢ هـ - ١٢٤١ هـ المصادف ١٨١٧ م - ١٨٢٦ م (دليل خارطة بغداد ١٨١) .

(٤٤) ويسمى مسجد السادات ويقع في محلة السنك (تاريخ مساجد بغداد ١٤١) .

(٤٥) جدده داود باشا سنة ١٢٣٩ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٦) .

(٤٦) يقع في محلة رأس الساقية على الشارع الذي يؤدي إلى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلاني أو الجيلاني وقد جدد سنة ١٣٢٤ هـ (تاريخ مساجد بغداد ١٤٢ ، دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٤٧) ويسمى مسجد التسايل نسبة إلى اقامة أهل دسبول فيه والصواب دسبول من أعمال إيران الجنوبية يقع في محلة باب الشيخ هدم ولم يبق له أثر (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

(٤٨) هو محمد الالفي (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٤٩) يقع في محلة الصدرية ، عمره عبدالرزاق الخضري سنة ١٣٠٢ هـ ، كما ذكر في إبيات تاريخه :

ولما استتم بناؤه قد أرخوا (است في تقواك يوماً مسجداً)

توفي بانيه ١٣١٥ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٧٨) .

الخضيري^(٤٩) ، ومسجد الحاج فتحي^(٥٠) ، ومسجد السيد سلطان علي^(٥١) وهو مسجد حافل معصور بالجسج والجماعات وله مدرستان مخصص عليهما مبلغ وافر لاطعام الطعام .

وبقربة من مسجد السيد سلطان علي المسجد المنسوب لآل الباجهجي^(٥٢) وهو مسجد معصور في الاوقات الخمسة وقريباً منه مسجد جمعة يعرف ب جامع بنات انحن^(٥٣) وفيه مشهد يزار وله منذنة ويليه مسجد قديم جدده أحد التجار . ومسجد رأس القرية الشهير ب جامع محمد امين وهو مسجد جمعة وفيه مدرسة ولها مدرّس^(٥٤) وقريباً منه المسجد الشهير ب التكية الخالدية وهذا المسجد من المساجد الملوثة المعمورة فيه رواج للجمعة والجماعات وزحام للمصلين في اوقات الصلاة وفيه مدرسة ومكتبة فيها الكتب النفيسة الثمينة^(٥٥) وقريباً من هذا المسجد مسجد عادلة خاتون^(٥٦) من بنات وزراء بغداد السابقين وهو جامع جمعة وفيه مدرسة ومنذنة .

ومن المساجد جامع الخلفاء^(٥٧) وشأن هذا الجامع عظيم في زمن بني العباس وكانت له منذنة

- (٥٠) جدته الاوقاف عام ١٢٤١هـ (تاريخ مساجد بغداد ٥٦) .
- (٥١) هو علي بن الامام موسى الكاظم (ع) ، ويشكك الدكتور مصطفى جواد في نسبة الجامع المذكور الى هذا الرجل حيث يقول : (ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى بالسيد السلطان علي إلا السلطان علي بن محمد بن فلاح الشمشع المقتول سنة ٨٦١هـ ثم يستمر في السرد ويقول : اننا لم نجد فيما بين ايدينا من التواريخ ان الشيخ عليا توفي ببغداد فانه قتل في وقعة بينه وبين اخيه احمد في بلاد ايران ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر قائماً ايضاً (دليل خارطة بغداد ٣٠٤ ، تاريخ العراق بين احتلالين ٢ : ١٧٢) .
- (٥٢) يقع هذا المسجد في محلة العمار ينصل من جهة شارع الرشيد بمحل المصور ارشاك والمسجد من اوقاف امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجهجي وقد شيد هذا المسجد نعمان جلي الباجهجي سنة ١٢٢٦هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٥) .
- (٥٣) يقع في محلة انظارخانه وقد جدد من قبل الاوقاف سنة ١٢٨١هـ - ١٩٦٢م والآن مفلق (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٦٧) وهناك مسجد صغير في سوق الشورجة في الرقاق الذي يسبق سوق الصابون واليوم يقع خلف السوق العباسي الجديد يعرف بجامع بنات الحسن ايضاً .
- (٥٤) شيد الحاج امين جلي الباجهجي سنة ١٢٢٧هـ (البغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٥) .
- (٥٥) ويسمى ب جامع الاحساني نسبة الى قبر الشيخ محمد بن احمد الاحساني المتوفى ١٠٨٢هـ . يقع في قلب الرصافة وبالضبط في شارع المستنصر (النهر) ، ولما اقام فيه الشيخ خالد النقشبندي بعد عودته من الهند سنة ١٢٣١هـ عمره له والي بغداد واصلحه فسمي ب التكية الخالدية (تاريخ مساجد بغداد ٢٢٦ والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٢٢٣) .
- (٥٦) انشأته عادلة خاتون بنت احمد باشا الذي تولى ايلة بغداد من سنة ١١٤٩هـ - ١١٦١هـ . (تاريخ مساجد بغداد ٤٣) .
- (٥٧) انشأه الخليفة العباسي علي المكنى بالله خلال ست سنوات من حكمه ٢٨٩ - ٢٩٥هـ (٩٠٢م - ٩٠٨م) وكان يصرف في اول تاسيسه ب جامع القصر نسبة الى القصر الحسني ثم اطلق عليه اسم جامع الخليفة ثم جامع الخلفاء وكان الجامع الرسمي للدولة العباسية ففيه تقرا عهود القضاة ويصلى على جنازات الاعيان والعلماء وتمقد فيه حلقات الفقهاء والمناظرين والمحدثين . ومنذنه الحالية شيدت سنة ٦٧٨هـ - ١٢٧٩م واليوم تعرف ب منارة سوق

لم يسبق بثلاثها ولم يحدث بعدها على شكلها يصعد عليها من مسلكين مستقلين قد انشأوا فيها للمؤذن موضعين أحدهما في ربعمها السفلي والآخر في العلوي يشير لسان حالها وبديع شكلها الى عظم رجالها وشوكة أهلها ومن غريب ما فيها من حسن الصنعة ان محيط قطرها يستوعب طولها ومع ما مرّ عليها من العصور واعتورها من الاحقاب والدهور فهي الآن في بهجتها البهيبة كالعادة المجلية غير ان مقداراً يسيراً من ثوبها الأعلى أخلفه أحد المتغلبين حين استولى حتى قيل فيها :

لم ندر أنتِ منارة أم آية قامت على عليا بني العباس
هذا الزمان على تنوع غدره لا يسا بالسادة الاكياس
ما ان أغار على جمالك عادياً إلا وعاد بخيبة واياس

وهذا الجامع لما استولت التتار على بغداد تسببوا في خرابه ولما استوزر سليمان باشا ابو سعيد ببغداد^(٥٨) عمّر بدله الجامع الموجود الآن واكتفى بهذه المئذنة عن انشاء مئذنة فيه وان كانت خارجة عنه نحو سبعين ذراعاً وجعل هذا الوزير لهذا المسجد مدرسة مدرستها الحالي ملا عبدالله افندي الموصللي وفي هذا الجامع سقاية أحدثها صبغة الله الحيدري^(٥٩) .

وعلى القرب من هنا : المسجد المعروف بـ قاضي الحاجات^(٦٠) ومسجد جادة بني سعيد ، ومسجد قنبر علي^(٦١) وهو مسجد الجمعة معمور الجماعة وبمقربة منه مشهد قنبر علي المذكور ويقال هذا هو مولى علي بن ابي طالب (ع) .

ويوجد ببغداد بعض مساجد لم يبق منها إلا آثارها وقد خربت بواسطة استيلاء اليهود على تلك الجهة بالسكنى والاستيطان .

وهناك مساجد ومدارس دينية كثيرة لازالت قائمة الى الآن .

أما مساجد الجانب الغربي من بغداد فمنها مسجد مشهد الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق^(٦٢) وهو مقابل لمشهد ابي حنيفة^(٦٣) ، وهذا المشهد كبير جداً ليس له نظير

الفضل واما في الوقت الحاضر فيطل على شارع الجمهورية وهو بهيئة جديدة مشيدة حديثاً (دليل خارطة بغداد ١٢٥) مباحث عراقية ١ : ١٢٢ - ١٥١) اما الألوسي في تاريخ مساجد بغداد ص ٢٩ ذكر ان هذا الجامع انشئ على عهد الخليفة المهدي سنة ١٥٩ هـ والصواب ما ذكرناه .

(٥٨) تولى ولاية بغداد سنة ١١٩٣ هـ توفي سنة ١٢١٧ هـ (تاريخ مساجد بغداد ٤٠) ومباحث عراقية ١٥١ ، ودليل خارطة بغداد ١٢٥) .

(٥٩) مؤلف كتاب : عنوان المجد في احوال بغداد والبصرة ونجد ، توفي ١١٨٧ هـ . (غاية المرام ٢٦٢) .

(٦٠) يقع في محلة القشل (دليل خارطة بغداد ٣٠٧) .

(٦١) نسبة الى قنبر علي وهذه التسمية مزورة لان قنبراً قتل قبل بناء بغداد بسنين كثيرة (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .

(٦٢) توفي سنة ١٥٠ هـ ، وفيه أيضاً مشهد حفيده الامام محمد الجواد المتوفى ٢٢٠ هـ .

(٦٣) يفصل بينهما نهر دجلة .

بغداد واكثر جدران الروضة مطلاة بالذهب وله أربع مآذن وقبتان والكل مطلي بالذهب أيضاً وللروضة أربعة ابواب مصفحة بالفضة الخالصة ويحيط بالقبر الشريف شباكاً متلاصقان الخارج من النضة الخالصة والداخل من القولاذ وفي هذا المشهد جامع جعة كبير وفيه أيضاً قبة فيها مشهذان لابنية الامامين ابراهيم واسماعيل^(٦٤) وعلى اثرهما مشهد ابي يوسف^(٦٥) صاحب ابي حنيفة وبمقربة من مشهد الامام موسى الكاظم مشهد المرتضى^(٦٦) وقريباً منه مشهد يقال له الرضى^(٦٧) وهما من العلويين وعلى مسافة نحو ميل من مشهديهما مسجد برائا^(٦٨) ويعرف به المنطقة وبمقربة منه مسجد وفيه مشهد يقال له والله اعلم مشهد نبي الله يوشع^(٦٩) وقيل هو مشهد فتى نبي الله موسى بن عمران وعلى اثره مسجد فيه قبر يقال انه قبر البهلول^(٧٠) وقريباً منه مشهد داود الطائي^(٧١) وتليه قبة (ابي الحسين) الحلاج^(٧٢) وعلى اثرهما مسجد وفيه قبة تحتها قبر رئيس الطائفة الصوفية الجنيد البغدادي^(٧٣) ويقابله قبر العارف بالله مولانا

(٦٤) لم يبق اليوم من اثر لهما حيث هدم المشهذان في سنة ١٢٧١ هـ والمؤرخون يختلفون في صحة المدفن ومن اراد التوسع فليراجع تاريخ المشهد الكاظمي للشيخ محمد حسن آل ياسين ص ٢٠٧ .

(٦٥) هو قاضي القضاة يعقوب بن ابراهيم توفي في عهد الرشيد سنة ١٨٢ هـ ، وان المؤرخين القدامى لم يذكروا موضع دفن ابي يوسف وبعضهم شكك في قبره الحالي (تاريخ المشهد الكاظمي ٢٥٥) .

(٦٦) هو الشريف علي بن الحسين المتوفى ٤٣٦ هـ والقبر موضع شك لان معظم المؤرخين يذكرون ان المرتضى توفي ببغداد ودفن في داره ثم نقل بعد ذلك الى كربلاء ليدفن فيها (تاريخ المشهد الكاظمي ٢١٢ ، دليل خارطة بغداد ١٠١ ، عمدة الطالب ١٩٤ ، وغيرها من المراجع ، واما هذا القبر فهو لابراهيم الاصغر ابن الامام موسى بن جعفر (ع) .

(٦٧) توفي الشريف الرضي ٤٠٦ هـ وهو جامع نهج البلاغة وتقيب الطالبين وامير الحاج . وبشكك المؤرخون كذلك في صحة قبره الحالي في الكاظمية اذ المشهور والمحقق انه مع اخيه دفن في حائر الحسين بكربلاء (دليل خارطة بغداد ١٠١ ، الاعلام ٦ : ٢٢٩ ، تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦) .

(٦٨) ان مسجد برائا الحقيقي هو غير هذا المعروف اليوم في المنطقة بين الكرخ والكاظمية ومكانه الاصلى جنوبي بغداد وقد عفا وزالت آثاره بعد القرن السابع للهجرة او الثامن (دليل خارطة بغداد ٩١) اما جامع برائا اليوم فهو جامع المنطقة وكان يعرف بمشهد العتيقة (سونايا) (دليل خارطة بغداد ٢٩٧) .

(٦٩) غاية المرام ٣١ .
(٧٠) وبهلول هذا يقال انه كان نديم هارون الرشيد المقرب وعلى لوح القبر تاريخ سنة ٥٠١ هـ ولكن الدكتور مصطفى جواد وزميله في دليل خارطة بغداد ص ٢١٤ يكذبان هذا الادعاء لانه لم يرد ذكر لذلك في اي مصدر تاريخي سوى خارطة نيور وهذه متأخرة لان هذا الرحالة زار بغداد ١١٨٠ هـ - ١٧٦٦ م .

(٧١) هو داود بن نصير الطائي الزاهد المشهور (دليل خارطة بغداد ٢٠٨) .
(٧٢) كنيته ابو مغيث واسمه : الحسين بن منصور الحلاج ، فيلسوف متعبد زاهد نشأ بواسط وانتقل الى البصرة ودخل بغداد وعاد الى تستر . امر المقتدر العباسي بالقضاء القبض عليه فسجن وعذب وضرب وقطعت أطرافه ثم حُزَّ رأسه واحرق جثته ولما صارت رمادا القيت في نهر دجلة وكان ذلك سنة ٣٠٩ هـ (الاعلام ٢ : ٢٨٥) .

(٧٣) هو الشيخ جنيد بن محمد بن الجنيد القواريري الخزاز ، من الزهاد توفي سنة ٢٩٨ هـ (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

السري السقطي^(٧٤) وبمقربة من ذلك جامع جمعة فيه مشهد الشيخ معروف الكرخي^(٧٥) وقريباً منه مشهد الصالحة العابدة الست زيدة^(٧٦) وعلى ضريحها المنور قبر مقتول محكم البناء كانه من آثار الخلفاء وبهذه المقبرة اعني الشونيزية^(٧٧) مشاهد كثيرة للعلماء العاملين والاولياء الكاملين عفى رسمهما واندثر لمرورا لاعوام وتبدل الايام وفي هذه المقبرة تربة الشيخ الحريشي^(٧٨) صاحب الدر النفيس في المواعظ وقبره معلوم يزار .

وفي الجانب الغربي من جهة الدجلة مقام من آثار الخلفاء العباسيين يقال انه مقام سيدنا الخضر وقد استولت دجلة عليه فلم يبق إلا الاسم وبعض اصول الجدران وقريباً منه المدرسة المرووفة بسدرسة خضر الياس وبمقربة منه مسجد يعرف بجامع القرية^(٧٩) وهو مسجد معمر وفيه مئذنة وباتصاله مدرسة العمرية^(٨٠) ومنذ زمن غير يسير اهملت عن التدريس وقريباً منها مسجد الحنان^(٨١) وهو مسجد جمعة وفيه مئذنة ثم مسجد الشيخ صندل^(٨٢) ثم مشهد مولانا حبيب المعجمي^(٨٣)، ثم مسجد الشيخ موسى الجبوري^(٨٤)، ومسجد الست نفيسة^(٨٥)، ومسجد السيف^(٨٦)

(٧٤) هو خال الشيخ جنيد توفي سنة ٢٥١هـ - ٨٦٥م وفي (غاية المرام ص ٢٥) انه توفي سنة ٢٥٣هـ . (انظر دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٥) دفن الكرخي سنة ٢٠٠هـ - ٨١٦م ، وفي سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٧م احترق المقام الذي شيّد فوق القبر فأعاد الخليفة القائم بناءه (دليل خارطة بغداد ٩٠) .

(٧٦) هذا وهم من المؤلف اذ ان الست زبيدة زوج هارون الرشيد دفنت في مقابر قرش بالكاظمية واما القبر المعروف اليوم باسمها هو قبر زمرد خاتون زوج الخليفة المستضيء بأمر الله وام الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة ٥٩٩هـ - ١٢٠٢م (دليل خارطة بغداد ١٧٠) .

(٧٧) يعني مقبرة الشيخ جنيد اليوم (دليل خارطة بغداد ٩١) .

(٧٨) هو شعيب بن عبدالله بن سعد المشهور بالحريشي المتوفى ٨٠١ (معجم المطبوعات العربية والمصرية ٧٥١) ولكن لم نعثر في الكتب التي ترجمت له من انه جاء الى بغداد (انظر شذرات الذهب ٧ : ٧ ، وهدية العارفين ١ : ١٨) وسماه : شعيب بن عبدالعزيز وقال انه توفي ٥٩٧هـ وهذا وهم منه .

(٧٩) سمّي نسبة الى الموضع الذي بني عليه ، وقمرية من اهل بيت الناصر لدين الله الخليفة العباسي او احدى حظاياه ، وقد شيّد هذا الجامع سنة ٦٢٦هـ - ١٢٢٨م في عهد الخليفة المستنصر بالله (تاريخ مساجد بغداد ١١٤ - ١١٥ ، والبغداديون اخبارهم ومجالسهم ٣٤٢) .

(٨٠) اقامها عمر باشا أحد ولاة بغداد سنة ١٠٨٨ - ١٠٩٢هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٠) .

(٨١) يقع في ساحة جسر الشهداء في الكرخ وهو من المساجد القديمة (البغداديون ٣٢٥) .

(٨٢) نسبة الى صندل بن عبدالله الحبشي المتوفى ٥٩٣هـ (دليل خارطة بغداد ١٩٥) .

(٨٣) وهو قريب من دجلة في محلة الشيخ بشار والصواب ان حبيب المعجمي توفي بالبصرة وقد زار قبره ابن بطوطة سنة ٧٢٧ (الرحلة ١ : ١١٧) وعلى هذا كما جاء في دليل خارطة بغداد ٢٩٩ : ان قبر المعجمي اقرب الى قبر ابي القائم : عمر بن مسعود البزاز المتوفى ٦٠٨هـ ، اما الألوسي فقد ذكر وفاته ١٤٠هـ اي قبل تأسيس بغداد (تاريخ مساجد بغداد ١٢٤) .

(٨٤) يقع قرب جامع معروف الكرخي في آخر المدينة جدده الشيخ موسى الجبوري سنة ١٢٩٤هـ فنسب اليه (تاريخ مساجد بغداد ١٢٠) .

(٨٥) في محلة الست نفيسة من محال الكرخ الغربية على طريق الكاظمية (يسمى اليوم شارع الامام موسى الكاظم) (تاريخ مساجد بغداد ١٤٥) .

(٨٦) هذا المسجد واقع على شاطئ دجلة في الجانب الغربي ، من المساجد القديمة وفي سنة

وجملة مساجد ذكر مفرداتها يجر الى السائمة وفيما ذكرناه لك من المساجد برهان قاطع على ان بغداد قد بلغت في هذه الايام الاخيرة من العمارة وكثرة الدور والقصور ما تحاكي به حسنهما ونضارتها في زمانها القديم .



أما بساكنها^(٨٧) في الحال الحاضر فهي متصلة على حافتي دجلة من الجانبين ولبنغداد اليوم اربعة جسور احدها بمحلة الامام الاعظم^(٨٨) ، والثاني تحت باب المستصرية من جهة دجلة^(٨٩) ، والثالث في الموضع المعروف بقرارة ، والرابع معقود على النهر الشهير بنهر الخر^(٩٠) .

وللحكومة فيها ما بين دار إماره ومستشفى ومكتب ومخفر ومخزن اسلحة ومربط دواب وقلعة جند وميدان تعليم وقاعة مجلس ما يتجاوز المئات واما دورها وقصورها فانها تتجاوز على التي الف موضع .

واما قوسها فمن المعلوم انها اصناف الدور والقصور .

اخلاق البغداديين^(٩١) :

كانت اخلاق اهل بغداد قبلهم اهم يعظمون الكبير ويرحمون الصغير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يراعون الجوار ويحفظون الذمار حتى ان احدهم اذا رأى من جاره ادنى مثبة سارع في تأديبه وبالنح في ترمييه فاذا سمع رب بيت ذلك المنيء قابل جاره بالشكر والثناء وانواع الدعاء غيبة وحضوراً فينزل كل احد منهم غيره منزلة الاخ والاب أو الأخت أو الوالد وكان من اخلاقهم انهم يحملون السيف ويكرمون الضيف ويفشون السلام ويطعمون الطعام ويأوون الغريب ويشفقون على القريب ويكثرون في صحبة العلماء ويترنحون لذكر الكرماء ومنها انهم يعودون المرضى ويشيئون الجنائز ويبالغون في اعطاء الجوائز . . ومنها انهم يأنفون من عشرة من لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرغبون في وظائف الحكومة ويمدون الاعراض عنها اكرامة ومنها انهم يقرضون المحتاج ويصبرون على المعسر ويتعوزون من العتوق ويبادرون لايفاء الحقوق ويواسون البائس العديم ويرحمون الأرملة واليتيم يؤدون

١٢٣٦ هـ جدد عمارته داود باشا والي بغداد، ولكنه هدم اخيراً ولم يبق له اثر (تاريخ مساجد بغداد الحديثة ٢٩٢) .

(٨٧) صفحة ٦٥ من مخطوطة المتحف العراقي للكتاب .

(٨٨) وهو جسر المعظم الخشبي الذي كان يربط الكاظمية ببغداد ونقل سنة ١٩٥٧ الى النعمانية حيث حل محله جسر ثابت حديث يقع الى شماله بقليل يعرف اليوم بـ جسر الائمة .

(٨٩) كان يسمى جسر المأمون ثم غير الى جسر الشهداء وهو يربط الكرخ بالرصافة .

(٩٠) وهي قنطرة كبيرة وليست جسراً .

(٩١) صفحة ٢٨٦ من نسخة الدراسات العليا ، ويتحدث المؤلف عن اخلاق اهل بغداد في زمانه .

الأمانات الى اهلها ويمدلون في القضايا وفصلها الظالم عندهم محذول وان كان من المشروع أو الاصول لا تأخذهم في الله لومة لائم وكلهم اماجد اكارم يتحرون أكل الحلال ولو في رؤوس الجبال ويهربون من الحرام - كما يقال - مسيرة عام لا يشقون عصا المسلمين ولا يركنون الى الظالمين . ومنها انهم يحافظون على العبادات ويغضون من اجترام السيئات . لباسهم التقوى والشامة وفاكهتهم البحث في احوال القيامة . يعرضون عن الملاهي والملاعب إلا ما قل منهم والحكم للغالب . يتوسعون في اللطائف والمكاملة ويتعاطفون الظرائف والمنادمة يتواضعون ولكن للتواضع وينخدعون ولكن من طيب المراضع يقول واعظمهم اذ ينصفهم :

خدع جعلناها إليك وسيلة إنَّ الكريم بكل شيء يخدع

واما الآن فعلى عثلاتهم فقد ثبت بالساع والعيان انهم اعدل الناس سيرة واسلمهم سريرة وما ذاك إلا لكون انا، العطر اذا نفدت غاليه بقيت رائحته ، وجودة الاصل تتج حسن الفعل .

مراجع التحقيق

١٢- ديوان حمارة بن عقيل : تحقيق وجمع شاعر الماشور - مطبعة البصرة ١٩٧٢ .

١٣- رحلة ابن بطوطة : محمد بن ابراهيم المعروف ب ابن بطوطة المتوفى ٧٧٩هـ دار صادر - بيروت ١٩٦٠ .

١٤- رحلة ابن جبير : محمد بن احمد بن جبير الاندلسي المتوفى ٦١٤هـ - ط لندن ١٩٠٧ .

١٥- شذرات الذهب في اخبار من ذهب : لمبدلحي بن العماد الحنبلي المتوفى ١٠٨٩هـ - مكتبة القدسي - القاهرة ١٢٥١هـ .

١٦- شروح سقط الزند : تحقيق مصطفى السقا وجماعته - النسخة المصورة على طبعة دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٦٤ .

١٧- عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب . لاحمد بن علي الداوري المعروف ب ابن عتبة المتوفى ٨٢٨هـ - النجف - الطبعة الحيدرية ١٢٣٧هـ .

١٨- فباة المرام في تاريخ معاصر بغداد : للشيخ ياسين العمري الموالي - مطبعة دار البصري - بغداد ١٩٦٨ .

١٩- مباحث عراقية : ليعقوب سركيس - مطبعة شركة التجارة - بغداد ١٩٤٨ .

٢٠- معجم البلدان : لياقوت بن عبدالله الحموي الرومي ت ٦٢٦هـ - دار صادر بيروت .

٢١- معجم ما استمعهم : لعبدالله بن عبدالعزیز البكري المتوفى ٤٨٧هـ - القاهرة ١٩٤٥ .

٢٢- معجم المطبوعات العربية والعربية : ليوسد اليان سركيس - القاهرة ١٩٢٨ .

٢٣- هدية العارفين : لاسماعيل باشا البغدادي - الطبعة المصورة - طهران ١٩٦٧ .

٢٤- وفيات الاميان : لاحمد بن محمد ، ابن خلكان المتوفى ٦٨١هـ - تحقيق الدكتور احسان عباس - دار الثقافة - بيروت .

١ - الاطلام : لخير الدين الزركلي - ط الثالثة المصورة - بيروت ١٩٦٩ .

٢ - بغداد مدينة السلام : لابن الفقيه الهمداني - تحقيق الدكتور صالح احمد المكي - مطبعة دار الطليعة - باريس ١٩٧٧ - مطبوعات وزارة الثقافة والفنون - بغداد .

٣ - تاريخ الاسلام : للحافظ شمس الدين محمد بن احمد الذهبي المتوفى ٧٤٨هـ - مكتبة القدسي - القاهرة .

٤ - تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، احمد بن علي المتوفى ٤٦٢هـ - دار الكتاب العربي - بيروت - الطبعة المصورة .

٥ - تاريخ العراق بين احتلالين : لعماس الزاوي - بغداد ١٩٢٥ - ١٩٥٦ .

٦ - تاريخ مساجد بغداد وانارها : لاحمد شكري الالوسي - تحقيق محمد بهجة الاثري - مطبعة دار السلام - بغداد ١٢٤٦هـ .

٧ - تاريخ مساجد بغداد الحديثة : يونس الشيخ ابراهيم السامرائي - مطبعة الامة بغداد ١٢٩٧هـ - ١٩٧٧م - منشورات وزارة الاوقاف العراقية .

٨ - تاريخ المشهد الكاظمي : للشيخ محمد حسن آل ياسين - مطبعة المعارف - بغداد ١٩٦٧ .

٩ - جوهرة المراجع البغدادية : كوركيس عواد ، وعبدالحاميد العلوي - مطبعة الرابطة - بغداد ١٩٦٢ .

١٠- دليل خارطة بغداد : للدكتور مصطفى جواد ، واحمد سوسة - مطبعة الجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٨ .

١١- ديوان ابن الرومي : تحقيق الدكتور حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٤ القاهرة .

من افلحوا في البعداء

بقلم
سيد محمد الجليلي

مدرسة الولاء - الكرخ - بغداد

- ١ -

قصة الساعات في بغداد

المزولة الشمسية

اختلف الباحثون في تعيين أي من بلدان الشرق مهد الحضارات كان له فضل الاسبقية في ابتكار الساعة بأنواعها ، ولا احد يستطيع ان يقرر من هو اول من أدرك فكرة استعمال الساعة لقياس الوقت ، ولكننا نعلم بان الانسان القديم استعمل الساعة الشمسية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه الى العصر الحجري ، وقد سميت ساعة الشمس بـ « المزولة » واقدم ساعة شمسية عثر عليها المتقنون هي المزولة المصرية التي يحتفظ بها اليوم متحف برلين والتي يعود تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد شاع استعمال المزولة في جميع انحاء العالم الاسلامي وفي مساجده المختلفة لمعرفة اوقات الصلاة فهي بمثابة ساعة التوقيت المحلي وقد وجدت قبل اختراع الساعات الميكانيكية الحديثة والتي تعتمد بصورتها البسيطة على ملاحظة ظل العصا ، وهناك شواهد كثيرة في العراق القديم وفي مدينة سامراء بالذات تدل على وجود مثل هذه الساعات في العراق ، ومن ذلك ما ذكره الدكتور محمد صديق الجليلي المتخصص بشؤون المزولة الشمسية واقتراحاته في تعميمها كوسيلة للتوقيت

في عراقنا الحبيب في اللقاء الذي أجرته معه مجلة آفاق عربية الغراء ، فيقول : « .. فللمرة الاولى ظهرت المزولة الشمسية في الآثار المراقية .. كان ذلك في سامراء ، وقد اعلنت استمدادي لاعادة نصبها وتشغيلها ، ومن المؤسف ان الساعة ارسلت الى البصرة حجرا عام ١٩٧٥ .. ان هذه الساعة اثر علمي مهم في دراسة الحضارة العربية الاسلامية وهناك ايضا عدة مزاوول في بلدان المغرب العربي في تونس والمغرب ..

انني ادعو الى تعميم اعتماد الساعات المزولية في كل مدينة عربية ، ولقد صممت مزولة افقية لبغداد واهديتها الى امانة العاصمة وانا بانتظار الموافقة على نصبها ، ولا احد سواي يهتم بهذا القدر بالمزاوول الشمسية ، وقد سمعت من اناس اعدوا ساعات اعتيادية ، وهي ساعات بإمكان أي ميكانيكي ان ينصبها على غرار ساعة الاعظمية للسيد عبدالرزاق محسوب .

وبالنسبة للساعات المزولية العربية فانا الان اعمل على حل رموز مزاوول الجامع الاموي في دمشق ، وجامع عقبة بن نافع في القيروان بتونس ، فقد بعثوا الي بتخطيطات هذه المزاوول لدراستها ..

وانا اليوم ادعو الى اعتماد التوقيت الشمسي الظاهري المحلي الى جانب التوقيت الاعتيادي ، وهو توقيت كان معروفا منذ القدم ولعلنا نعلم ان هناك من المزاويل ما تكون احيانا بصورة ضخمة جدا يمكن ان تشاد امام البنايات والمؤسسات العلمية او في الحدائق والساحات العامة الواسعة وفي هذه الحالة تكون لوحة المزولة هي الساحة نفسها ..

وقد ادركت معظم الدول الكبرى اهمية مثل هذه الساعات كآثر تراثي اقامتها في ابرز ميادينها العامة ، من ذلك ساعة الشمس « المزولة » التي تنتصب اليوم في حديقة لندن وفي ابرز مكان فيها ، لا تستعمل لغرض معرفة الوقت وانما نصببت كآثر تاريخي تزين به هذه الحديقة الجميلة .

الساعة المائية

لم يشأ الانسان المبدع بعقليته ، والطموح بفطرته ان يقف الى الحد الذي يعين به نهاره بالساعة التي عرفها نقيس وقته منذ شروق الشمس وتنتهي مهمتها بغروبها ، بل ولا بد وان يندفع نحو الامام ليبتكر مقياسا آخر يواكب سير حضارته يعين به وقته في الليل وفي النهار فاوجد بذهنية متفتحة « ساعة الماء » .. ويجمل بنا ان نيسط هذه الفكرة التي قامت على اساسها هذه الساعة والتي كان لاكتشافها اثر كبير في سير ركب المدنية نحو التقدم . كما جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » للمحامي ناجي جواد : « ان فكرة ساعة الماء كانت بدائية تماما اذا ما قيست بمصرنا الحاضر ولكنها اكتشاف عجيب اذا ما قيست بازمان ما قبل التاريخ .. فساعة الماء عبارة من وعاء من حجر مثقوب من الاسفل يطفو عائما على سطح الماء ، وعندما يتصاعد الماء مترشحا الى داخل الوعاء فالنسبة التي يستوعبها الوعاء حتى اول اشارة تعتبر ساعة ، واذا ارتفع الماء الى الاشارة الثانية تعتبر ساعتين وهكذا .. فالفترة التي يستغرقها الوعاء حتى يفرق تعتبر المدة الزمنية المقصودة على وجه التقريب .. ومن عيوب هذه الساعة من جهة التفاوت للضغوط ، الناتج من عدم تناسب ترشيح الماء حينما يكون الوعاء مقاربا للامتلاء او عندما يقارب النضوب من جهة ، ومن جهة اخرى فسان لتقلبات الجو تائرا مباشرا على سيرها بانتظام ، فان اختلاف درجة الحرارة مثلا ، ارتفاعا وهبوطا ، لما يؤثر تائرا مباشرا على سيرها بالدقة المطلوبة » ..

وكان لوادي الرافدين افضلية السبق في اكتشاف واستعمال مثل هذه الساعات على ارجح

الأراء ، وبالاخص في عهد البابليين ، فقد ارتبط الابداع والابتكار في شتى ميادين الحياة بالحضارات الانسانية وسيرها على مدى فترات التاريخ ، ولما كان الشرق والعراق جزء منه مهد الحضارات فلا غرابة ان يكون اختراع الساعات على اختلافها من بنات افكار ابنائه ومن ابتكارهم ، فالساعة الشمسية وهي ساعة النهار فقط قال عنها هيرودس : ان الاغريق استعاروها من البابليين .. وكذلك الساعة المائية وهي ساعة اليوم ليله ونهاره قد عرفها البابليون قبل غيرهم من الاقوام الاخرى .. وكان العراقيون القدماء يقيسون ساعات اليوم بهذين النوعين من الساعات ، وحجة القائلين باسبقية البابليين في اختراع هذه الساعات تستند على سبقهم تقسيم الوقت الى ايام وساعات ومن مجموع هذه الايام تكون السنة الواحدة .

فكانت السنة السومرية والبابلية تتألف من اثني عشر شهرا قمريا وكل شهر يساوي ثلاثين يوما ولذا اصبح عدد ايام السنة السومرية لا يطابق عدد ايام السنة الشمسية .. وقد قسم البابليون اليوم الفلكي الى اثني عشر فسا وكل قسم يساوي ساعتين من توقيتنا الحالي .. والساعة الى ثلاثين جزءا اي ان يومهم الفلكي كان مقسما الى (٣٦٠) قسما متساويا وكما ان في السنة الواحدة (٣٦٠) يوما فكانت الدقيقة عندهم تساوي اربع دقائق من دقائقنا ، وقد جاء هذا التقسيم منذ السلالة الاكدية .. وتلافيا للفرق الحاصل بين عدد ايام السنة السومرية وعدد ايام السنة الشمسية ، وما دامت الفصول تتوالى حسب السنة الشمسية فقد اقتضت العادة من اجل ضبط الفصول ان يلحق شهر اضافي (كبيس) الى اشهر السنة الاعتيادية بعد مرور عدد من السنين لتعويض الفرق الحاصل بينهما ..

وقد عثر على ساعة الماء في معبد « الكرنك » في عام ١٩٠٤م ، وهي الان معروضة في متحف القاهرة ، وتوجد نسخة عنها معروضة في متحف العلوم في لندن .. وقد دل تاريخها الى عهد الملك امنحوتب الذي حكم مصر في الفترة الواقعة خلال (١٣٨٠ - ١٤١٥) قبل الميلاد ، وهي عبارة عن وعاء من حجر يؤشر عليه من الداخل بخطوط افقية ومثقوب من الاسفل ..

وهناك انواع اخرى من الوسائل الطبيعية والساعات البدائية لمعرفة الوقت كالساعة الرملية التي جاء وصفها في كتاب « قصة الوقت » : « فالشمس والماء والنار قد لعبت دورا مهما في علم

قياس الوقت .. واخيرا ظهرت الساعة الرملية فاخذت مكانها بين الساعات الاخرى في قياس الوقت ، فزجاجة الساعة الرملية انحنت رمزا للوقت وكانت دقة قياسها للوقت موضعا لثقة الاقدمين في هذه الفترة الزمنية بينما اصبحت هذه الساعة الرملية تستعمل اليوم في المطابخ حيث يستفاد منها لتمييز وقت نضج البيض على النار .

ساعة الرشيد لشارلمان العجيبة

ساهم العرب في عصر الدولة العباسية في تطور فن صناعة الساعات واخصها الساعة المائية ، وكانت الصناعة والابتكار والترف الفكرى والحضاري من ابرز حضارة العرب المسلمين في العصر العباسي الاول حتى سمي بحق عصر الرشيد الزاهر بكل فنون العلم والمعرفة بـ «العصر الذهبي» في وقت كانت اوربا المسيحية غارقة في ظلام من الجهل قائم اسود ..

فقد بلغت بغداد على عهد هارون الرشيد اوج عزها ومجدها واصبحت محط انظار طلاب العلم والمعرفة ، ويقصدها الداني والقاصي ليتزود من معارفها ويرتوي من عذب ماثها وصفائه ، ويأتيها الناس من كل فج عميق لتعطيهم الشيء الكثير دون ان تأخذ منهم شيئا ، فكانت بغداد العباسية تزدهو بعلمائها الافذاذ ورجال الفكر فيها ، فمنها انطلقت الحركات الفكرية لتصارع الافكار الاخرى وتنازعها السيادة والسلطان فكان على رأسها اشهر فلاسفة التاريخ : منهم الفارابي والكندي وابن سينا والفزالي ، وفي بغداد مدارسها الفقهية وعلى رأسها وفي مقدمتها مدرسة الرازي والقياس وسيدها الامام الاعظم ابو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي .. وفيها المصانع الفخمة والمعامل التي تنتج للعالم كله ، واصبحت جوامع بغداد وتصورها واسواقها ومدارسها من ابرز مظاهر حضارتنا .. لذا ليس بالغريب ان تصل الساعة المائية والتي صنعتها وصممتها الايدي المراقبة الماهرة في زمن الرشيد الى غابة الابداع في الفن ودقة العمل .

وكانت هذه الساعة مفخرة ما توصل اليه العلم في مجال الابتكار والاختراع في عراقتنا الحبيب .. في بلاد الف ليلة وليلة العباسيين ..

اما قصة هذه الساعة فهي : لقد اراد شارلمان ملك الافرنج الذي عاصر الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد ان تتوثق العلاقة بينه وبين الرشيد بمد ان علم بقوته وعظمة دولته وسلطانه ليتسنى

للمسيحيين الاوربيين زيارة بيت المقدس ولحجهم في ذهابهم وايابهم .. لذا ارسل اليه السفراء يحملون اليه الهدايا الفاخرة استرضاء له وكسبا لودته ، فرد عليه الرشيد هديته باحسن منها فكانت قصة الزمن ظلت مع الزمن خالدة تروي للاجيال مظاهر حضارتنا واصالة مدنيتنا .. وكانت من هذه الهدايا ساعة مائية دقاقة مصنوعة بمهارة عظيمة اعجب بها شارلمان ودهش رجاله ، حتى زعم ان بعضهم هرب من المجلس عند سماع دقاتها فلما منه بأن شيطاننا يختفي في داخلها ..

وذكر فولتير المؤرخ الفرنسي : ان اول ساعة عرفت في اوربا هي الساعة التي اهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ م . وكانت بدعا في ذلك العصر ، حتى انها اورثت رجال الديوان حيرة وذهولا .. كان لها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيقرع ويطن بعدد الساعات ، وتبقى الابواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثني عشر فارسا على خيل تدور على صفحة الساعة(*) .

ساعة المستنصرية في بغداد

لقد برع العرب في صناعة الساعات المائية الروحانية ، فكانت هذه الساعات عربية صميعة في صنعها .. ويراد بالساعات الروحانية - كما كانت تسمى - هي التي يحركها شيء خفي يشبه الروح في تحريك الاجسام بحسب راي كثير من الناس ، والساعات الروحانية فرع من فروع علم « البنكام » وهو علم صناعة الساعات لمعرفة الاوقات وقد صنف العرب المصنفات في هذه الصناعة ومنهم بديع الزمان او المعز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري (نسبة الى جزيرة ابن عمر) الذي ألف كتاب « الآلات الروحانية » في ذلك . وقد طبع قسما منه بعض المستشرقين ، ألفه بديع الزمان لقره ارسلان التركي الارمني ملك ماردين « ٦٥٨ - ٦٩١ هـ » وجعله ستة انواع : الاول في الساعات ، والثاني في الاواني العجيبة ، والثالث في الآلات الزامسة ، والرابع في آلات اخراج الماء من المواضع العميقة ، والخامس في الاباريق والطسوت ، والسادس في صور واشكال تختص بذلك .. ونقل هنا صورة شبيهة بساعة المستنصرية نشرها صاحب كتاب « قصة الوقت » في كتابه منقولة عن كتاب « معرفة

الحيل الهندسية « لبدیع الزمان الجزري . . .
وسبق ان نشرتها مجلة اهل النفط في بحث الدكتور
مصطفى جواد - رحمه الله - عن مجلة « الادب
والفن » التي كانت تصدر في انكلترا باللغة العربية
والتي اعدنا نحن بدورنا نشرها في هذه المجلة
لنقاستها الا ان نشرها الاول في مجلة الادب والفن
ظنها « صورة لموسيقارين لبعض السلاطين في مدخل
قصره » وفي الحقيقة ما هي الا صورة ايوان
الساعة . . ومن اشهر الساعات الروحانية الماثية
الساعة التي وصفها ابن جبير الرحالة الاندلسي ،
وكانت في مسجد دمشق في القرن السادس للهجرة
وما بعده وصفا رائعا دقيقا ، وقد رأى ابن جبير
هذه الساعة العجيبة سنة « ٥٧٩هـ / ١١٨٣م » . وقد
انشئت بعدها ببغداد سنة « ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م »
ساعة مثلها قبالة باب المستنصرية التي لا تزال
بفخامة بنائها تمتد فخرا لفن العمارة العربي ، قال
ابن الفوطي في احداث سنة « ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م »
بصدد هذه الساعة ما نصه : « وفيها تكامل بناء
الايوان الذي انشئ مقابل المدرسة المستنصرية ،
وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته
الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى
فيداويهم . . وبني في حائط هذه الصفة دائرة
وصور فيها الفلك وجعل فيها طاقات لطاف لها
ابواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين
من ذهب وراءهما بندقتان من شبه لا يدرکہما
الناظر ، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين
ويقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح
باب من ابواب تلك الطاقات ، والباب من ذهب ،
فيصير حينئذ مفضضا ، واذا وقعت البندقتان في
الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع اعمار
من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع
الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع
غيوبتها - كذا . . فاذا جاء الليل فهناك اعمار طالعة
من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء
في دائرة القمر ، ثم يبتدىء في الدائرة الاخرى الى
انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك اوقات
الصلاة . . وجاء ذكر هذه الساعة في كتاب
« خلاصة الذهب المسبوك » لعبدالرحمن الاربلي
المتوفى سنة ٧١٧هـ ما نصه ايضا : « . . . وبني في
حائط هذه الصفة دائرة عجيبة وصورتها صورة
الفلك وجعل فيها طاقات صفار لها ابواب كلما
سقطت بندقة انفتح باب من ابواب الطاقات وهو
مذهب نضار مفضض ومضت ساعة من الزمان
والبندقتان من شبه بقمعان من قم بازين من ذهب
في طاستين من ذهب ويذهبان الى مواضعهما وتطلع

شموس من ذهب في سماء زرقاء في ذلك الفلك ومع
طلوع الشمس تدور دورانها وتغيب مع غيوبها فاذا
غابت الشمس وجاء الليل فهناك اعمار طالعة من
خلفها كلما مضت ساعة تكامل الضوء في دائرة القمر
ثم تبدو بالدائرة الاخرى الى انقضاء الليل وطلوع
الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة . . وقد نقل
التقي الفاسي المكي في ترجمة احمد بن علي بن تغلب
ابن ابي الضياء البعلبي الاصل ، البغدادي المولد
والمنشأ المعروف بابن الساعاتي ، ان ابيه هو الذي
عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد
لانه كان مشتهرا بعلم الهيئة والنجوم وعمل
الساعات . . وقد عين ابن الفوطي سنة ولادة هذا
الرجل ووفاته بقوله : « وفيها اي في سنة
٦٨٣هـ / ١٢٨٤م توفي نور الدين علي بن تغلب
الساعاتي وكان يتولى الساعات المشهورة تجاه
المستنصرية ، وكان مولده سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م » .

وقد اشتهرت جماعات بحرفة هذه الساعات
فعرفوا بالساعاتيين والواحد « ساعاتي » وعرف كل
من ابنائهم بابن الساعاتي ذكر منهم الدكتور مصطفى
جواد عن كتاب تكملة اكمال الاكمال « ص ٢٢٧ » طبعة
المجمع العلمي العراقي : « . . ومنهم ابن الساعاتي
الشاعر المقندر المشهور (بهاء الدين علي بن رستم)
واخوه الحكيم الطبيب (فخر الدين رضوان رستم) و
(نور الدين علي بن تغلب الساعاتي) وكان يتولى
تدبير الساعات التي كانت تجاه المدرسة المستنصرية
وابنه (مظفر الدين بن علي المعروف بابن الساعاتي)
وحفيده (محمد بن احمد بن الساعاتي) و (محمد
ابن احمد بن الساعاتي) و (ابن عمرو عثمان برمكي
السعدي) قال جمال الدين بن الصابوني عنه : وهو
كثير المحفوظ ، وله اليد الطولى في عمل الساعات
ومعرفة الاصطلاب . .

ومن الف في صناعة « البنكام » تقي الدين
محمد المعروف بالراصد المتوفى سنة ٩٩٣هـ فله
كتاب « الطرق السنية في الالات الروحانية » وكتاب
« الكواكب الدرية في البنكامات الدورية » . . ومن
الكتاب الاخير نسخة محفوظة بدار الكتب الوطنية
بباريس .

وقد تفنى الشعراء بساعة المستنصرية ونظموا
القصائد في وصفها وعجيب صنعها ، منها قول
ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي بمدح الخليفة :

يا ايها النصور يا مالكا

برايه صعب الليالي يهون

تهدي الى الطاعات ساعاته الـ

سنان وبالنجم هم يهتدون

سور فيه فلك دائر

والشمس تجري ما لها من سكون

دائرة من لازورد حكمت

نقطة تبر فيه سر مصون

فلك في الشكل وهدي معا

كمثل هاء ركبت وسط نون

فهي لآحياء العلى والندى

دائرة مركزها العالمون

وفيه يقول ذو الملكتين الشاعر عز الدين

عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني :

ما مثل الفلك العظيم لبصر

في الارض قبل ابالة المستنصر

هذا بناء معرب عن قدرة

رفعت قواعده بفعل مطهر

حدث به الارض السماء ولم يزل

حسد الفضائل في طباع العنصر

انظر تجد نظم الثريا في ذرا

شرفاته وضياء نور المنيري

فالافق بين مفضض ومذهب

والجو بين مكوفر ومعبر

والارض حاسرة التضاع كأنها

خود تبرج في رداء اخضر

وقال كشاجم الاديب الشاعر يصف «البنكام»

الذي معناه بالفارسية (اناء مثقوب لقياس الاوقات)

فعربه العرب بصورة « بنكام » وجمعوه على

« بنكامات » :

روح من الماء في جسم من الصفر

مؤلف بلطيف الحس والنظر

تنشأ له حركات في اسافله

كانها حركات الماء في الشجر

ان ساعة المستنصرية التي تعد من بدائع

الصناعة ونفائس الآثار ، لم يبق لها اليوم اثر ما

لذا كانت دعوة بعض الباحثين لانشاء ميدان فسيح

امام المستنصرية وازالة المباني المستحدثة حولها

دعوة صادقة ومنهم الدكتور ناجي معروف - رحمه

الله - الذي دعا الجهات المختصة الى صيانة حرمة

تراثنا الحضاري البغدادي ، وذلك فيما يخص اول

جامعة عربية كبرى وهي مباني المدرسة المستنصرية

.. وقد استعرض الدكتور معروف هذه القضية

باسهاب طالب باستخدام الاماكن التي تقع قرب

المدرسة للاغراض السياحية في القطر وللصورة

والصوت وهي كلها تمثل طرازا ببغداديا اصيلا ،

روضع مخططا لذلك البت فيه اهم المواقع والمنشآت

التابعة لهذه المدرسة ومنها موقع الساعة المائية

وقبتها الجميلة والتي عينها قبالة الباب الرئيسي

بمسافة عشرات الامتار وبعدها يأتي موقع مدرسة

الطب المستنصرية والمستشفى ونشر هذه الدعوة

في جريدة الجمهورية البغدادية الفراء في عدد يوم

الجمعة ٣١-٣-١٩٧٢ .. ونحن بدورنا نثبت هذا

المخطط على صفحات هذه المجلة لتفطي صورة

واضحة عن هذا المشروع المقترح ، نقتطف شيئا مما

ذكره الدكتور معروف فيما يخص ساعة المستنصرية

« .. ولم تعول هذه المدرسة (اي المستنصرية)

على الدراسات النظرية فقط ولم تكن في معزل من

المجتمع بل عقدت فيها مجالس المظالم والمناظرات

والندوات الادبية والعلمية واستخدمت الكثير من

الاغراض الاجتماعية فذاع صيتها في العالم وقصدها

العرب المسلمون والاجانب للدراسة والمناظرة

والتزود من علوم اساتذتها والتفرج على بنيانها

حتى كان من اغلى امانى الملوك والسلاطين والوزراء

والاعيان والعلماء عندما كانوا يقدون الى بغداد

بصورة رسمية او غير رسمية ان يؤذن لهم يومئذ

في زيارتها وحضور الحفلات التي تقام فيها

والاستماع الى البحوث والمحاضرات العلمية التي

يلقيها كبار رجال العلم من اساتذتها والاطلاع على

خزائنها التي كانت يومئذ اعظم خزائنة للكتب في

العالم اذ وضع فيها مؤسستها المستنصر بالله عند

افتتاحها ثمانين الف مجلد من المخطوطات ، والتفرج

على ساعتها العجيبة التي كانت من المآثر الجليلة لبني

العباس ببغداد ...

فقد اصبح من حق المستنصرية العناية

بإبرازها للزوار والسياح والعلماء والدارسين

والباحثين في حضارة بغداد . ولا تتحقق هذه

العناية الا بازالة جميع ما حولها من مباني مستحدثة

مشوهة واسواق مغطاة بصفائح « الجينكو » وانشاء

ميدان فسيح امامها يمتد من بابها الشاهق حتى

شارع الرشيد وشارع الامون واعادة ساعتها

العجيبة .. » ..

الساعات البغدادية الحديثة

عرف البغداديون الساعة الحديثة منذ القرن الثامن عشر ، وكان التاجر البغدادي من أنشط تجار العالم تنافسا في استيرادها من مواطن صنعها في ألمانيا .. وكان الموسرون من أبناء بغداد وحتى متوسطي الحال مولعين في اقتناء ساعات الجيب والساعات الجدارية لتزين جدران بيوتهم ودواوينهم وما زال بعض هذه الساعات في حوزة أصحابها حيث تعمل بدقة دون أن تتأثر مؤثرات الزمن .. فمن هذه الساعات الساعة التي يحتفظ بها أحد المواطنين والتي أشارت الى ذكرها مجلة «الفباء» في عددها (٦٨) تحت عنوان « أقدم ساعة في بغداد » والتي يعود تاريخ صنعها الى عام ١٨٠٠م حين دخلت بغداد ضمن أول وجبة ساعات استوردت إبان العهد العثماني من ألمانيا عام ١٨١٠م والتي ما زالت صالحة تعمل بدقة لحد الان .. وبرز مواطن ببغداد آخر يعقب على هذا الخبر في المجلة المذكورة بعددها اللاحق (٧١) : ينفي فيه أن تكون تلك الساعة هي أقدم ساعة في بغداد بل أن التي أقدم منها هي الساعة التي يمتلكها هو والتي آلت من جده الى والده ومن ثم اليه ، وهي من الساعات المعروفة بـ (أم الطمفة) يرجع تاريخ صنعها الى سنة ١٧٤٩م كما هو مثبت في داخلها وهي بحالة جيدة وتشير الى الوقت بدقة حتى هذه اللحظة !!! .

يا ترى كم من هذه الساعات الاثرية يحتفظ بها البعض ولا نعلم عنها شيئا !!! .

ماذا لو دعت جهة من الجهات المختصة ولكن امانة العاصمة الى تملك امثال هذه الساعات التي كانت تزين جدران البيت البغدادي ايام زمان والتي يحتفظ بها تبقى منها بعض المواطنين والمودع بعضها الاخر وقفا في بعض المساجد والجوامع الكبيرة خاصة بعد ان أصبحت نادرة وتمتاز بمسحة اثرية ووضعتها في جناح خاص من المتحف البغدادي لتمثل جانبا من مخلفات المجتمع البغدادي في القرن الماضي قبل أن تختفي وتزول ويمحي اثرها ؟ لاشك انها ثروة تراثية لا تعوض !!! .

ومن طريف الاخبار ما ذكرته مجلة لغة العرب في مجلدها الثاني - العدد ١ عن تموز ١٩١٢ في باب (تاريخ وقائع الشهر) .. وهو خبر الساعة الزوالية الذي يقول : « اتخذت الحكومة في دواوينها العسكرية والملكية الساعة الزوالية (الافرنجية) مع بقاء الساعة الغروبية للصلاة والاذان وعليه فيكون

فتح دواوين الحكومة في الساعة السابعة صباحا الى الساعة الثانية عشرة والنصف وحفظوا لمصالح متوظفي الحكومة وحرسا على اوقاتهم اقيمت ساعتان عند باب دار الحكومة الواحدة لافقات العباداة واثنان لافقات الشغل » . مما يدل على اهتمام الناس بقيمة الوقت وضرورة ضبطه لتحديد اوقات العباداة والعمل !!! ..

الساعات البغدادية ذات الابراج

وعرفت بغداد الساعات الكبيرة ذات الابراج العالية على غرار المنائر ايام حكم الوالي العثماني المصلح مدحت باشا حيث شيد لأول مرة في تاريخ بغداد هذا النوع من الابراج لينصب في اعلاه ساعة القشلة الشهيرة ، وكان ذلك حدثا مهما في تاريخ عاصمة العراق حضارة في التاريخ وتم ذلك عام ١٨٦٩م اي بعد عشرة اعوام من نصب ساعة (بكين) الشهيرة والتي تعلو مبنى مجلس العموم البريطاني في العاصمة لندن وتذاع دقاتها من الاذاعات البريطانية الى جميع انحاء العالم ويعود لها الفضل في ضبط الساعات وتوقيتها في بقية اقطار الدنيا .. ثم توالى نصب الساعات ذات الابراج في بغداد بعد ساعة القشلة فكانت ساعة الكاظمين عام (١٢٠٠هـ / ١٨٨٢م) ، ثم ساعة الحضرة الكيلانية عام (١٣١٦هـ / ١٨٩٨م) ، فالساعة الاعظمية عام (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م) ، ثم ساعتا المحطة العالمية عام ١٩٥٥م في بغداد .. وسنبين تاريخ كل منها على التوالي :

ساعة القشلة (١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م)

ارتبط تاريخ هذه الساعة الاثرية ببناء القشلة (الشكنة العسكرية وسراي الحكومة فيما بعد) التي ما زالت قائمة ومائلة امام انظارنا تحكي قصة الزمن في فترة من فترات التاريخ وبقيت وستبقى لتكون أحد معالمنا الاثرية في بغداد .. وكان الشروع في بناية هذه القشلة سنة (١٢٧٨هـ / ١٨٦١م) ايام الوالي نامق باشا الكبير وفي عهده لم يكمل بناؤها وقد اكمله مدحت باشا (١٨٦٨-١٨٧١) واقام في ساحتها برجاً نصب عليه الساعة المذكورة لغرض ايقاظ الجنود الى اوقات التدريب العسكري حيث اتخذ القشلة مركزا لقواته الخيالة وكذلك مقرا لولايته ، ومن ثم اشغلت من قبل بعض الوزارات في العهد الملكي الغابر .. وساعة القشلة تدق الساعة فقط وكان رنين صيوتها تسمعه ببغداد كلها - بجانبها الرصافة والكرخ - وخاصة في اوقات

الليل والفجر حيث يستيقظ على دقائها العمال والموظفون ليذهبوا الى اعمالهم اضافة الى انها كانت تزينها المصابيح مما يساعد على رؤيتها من مسافات بعيدة في الليل .. اما اليوم فان البنايات العالية حجبته عن الانظار كما حجبت صوتها عن الاسماع وكان الناس قد اعتادوا ان يضبطوا ساعاتهم والموظفون ان يتبينوا بها مواعيد بدء الدوام الرسمي وانتباهه من دواوين الحكومة فهي الحكم الفصل في كل اختلاف بالزمن .

بنيت القشلة وبرج ساعتها وبعض ابنيصة مدحت باشا التي تميز بها عهده من حجارة سور بغداد الشرقية حيث كان قائما يومذاك ، وقد هدمه الوالي المذكور على اعتبار ان بغداد ليست في حاجة له بعد استعمال المدافع كاسلحة حديثة في الحروب وذلك الحصون .

انتصب برج ساعة القشلة الذي يطل على شاطئ دجلة الشرقي على مساحة مربعة الشكل طول ضلعها اربعة امتار يضيق كلما ارتفعنا عن الارض شبيها بالهرم وكان في تصميمه ايضا يشبه الى حد بعيد المئذنة ، وارتفاعه ثلاثون مترا ، وبداخله سلم حلزوني يحتوي على (٧٢) درجة ، وفي نهايته حوض كبير يضم مكان الساعة ذات الجهات الاربع ، كما يوجد ايضا جرس الساعة الذي يبلغ ارتفاعه مترا واحدا وقطره ثلاثة امتار وهو منفصل عن الساعة وعند عملية التشغيل تتصل الساعة بالجرس بواسطة جرس صغير ، ويتم عملية النصب بواسطة مفتاح يشبه الى حد كبير « هندر السيارات » لتعطي الساعة قوة تشغيل لمدة عشرة ايام والجرس لمدة سبعة ايام . ولهذه الساعة اربعة اوجه فالوجهان الجنوبي والغربي على التوقيت الغربي (العربي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم العربي المألوف ، اما الوجهان الاخران وهما الشمالي والشرقي فعلى التوقيت الزوالي (الافرنجي) وتشير عقاربها الى الزمن بالرقم اللاتيني القديم ..

ويعتلى برج الساعة سهم حديدي قائم يرتبط في منتصفه بسهم حديدي بشكل افقي متحرك يؤثر هذا الرمح حركة الرياح واتجاهاتها .. ويوجد سهم اخر تحت السهم المتحرك رسم فيه الحروف (N) بالانكليزية ويعني اتجاه الرياح الشمالية ، والحرف (S) ويعني اتجاه الرياح الجنوبية حيث يؤثر السهم المتحرك عند هبوب الرياح على واحد من هذين الحرفين لمعرفة اتجاه الرياح ، وقد صنع مؤشر الرياح هذا عند دخول

الانكليز بغداد عام ١٩١٧ مع التاج وتمثال الجمل وبعض الاصلاحات والاضافات الاخرى على البرج .

وكان تمثال الجمل الذي وضع فوق مرتكز الرمح قد صنع من البرونز للقائد الانكليزي « لجمن » الذي جاب الصحراء العراقية وهو يركب الجمل فاسقط هذا التمثال مع التاج من فوق برج الساعة بسقوط النظام الملكي في العراق في تموز عام ١٩٥٨ م ..

وكانت تعترض ساعة القشلة مشاكل بسيطة وسببها المطر والغيار اللذان يدخلان الساعة عبر الشبائك فيؤديان الى تعطلها عن العمل مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار .. وكان الرجل المسؤول عن كل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادارتها يدعى السيد عبداللطيف احمد الساعاتي وهو في العقد السابع من العمر عايش هذه الساعة وظل يعمل معها فராبة النصف قرن ، وقد توفي رحمه الله في مطلع عام ١٩٧٨ م .. وقد خلفه في هذه المهمة المدعو السيد جبار وهو شاب في مقتبل العمر فنتمنى له العمر المديد ومزيدا من الاهتمام في رعاية اقدم ساعة في بغداد ..

ساعة القشلة وتجربة التوقيت في الاذاعة والتلفزيون

ثبت ان ساعة القشلة من الساعات المضبوطة في توقيتها لان حركتها (ميكانيكية) مؤسسة على اجود وادق النظريات في صناعة الساعات ولهذا السبب ومنذ تأسيسها كان اعتماد الكثير عليها في توقيت ساعاتهم .. لذا يجب ان تال هذه الساعة قسطا كبيرا من الاهتمام والرعاية لادامة ضبطها للوقت . وبهذه المناسبة نطرح وسبق ان طرحنا اكثر من مرة تجربة مهمة تهم الجميع لعل المؤسسة العامة للاذاعة والتلفزيون ان تفيد منها في ضبط الوقت داخل المؤسسة على الاقل فيكون بإمكان اذاعة بغداد وصوت الجماهير وتلفزيون بغداد ان ينهوا الخلاف والاختلاف الذي لا يزال مستمرا بل صار مزما .. فتدق الساعة في احدى هذه المحطات في الوقت الذي نسمع فيه نشرة الاخبار قد بدأت تذاع من محطة اخرى ، والبرنامج المقرر لم ينته بعد في المحطة الثالثة وهكذا يقع المواطن في حيرة من امره وهو ممسك بزمام ساعته يريد ضبط الوقت فيها وتوقيتها !! ..

والجربة تلخص في شروع الاذاعات البريطانية

في التوقيت على ساعة (بكين) الشهيرة في لندن وكذلك الاذاعات والتلفزيون في الشقيقة جمهورية مصر العربية في التوقيت على ساعة جامعة القاهرة، فحين تدق الساعة في الجامعة تكون قد دقت في داخل الاذاعة والتلفزيون معا في اللحظة ذاتها وهذا مما يجنبها الاختلاف في ضبط الوقت ، وسوف لن تكون هذه التجربة بأقل نجاحا مع ساعة القسلة اذا اريد لها ان تكون اساس التوقيت لمدينة بغداد !! .

ساعة الكاظمين (١٢٠٠هـ / ١٨٨٢م)

ومن ساعات بغداد القديمة ذات الابراج ساعتنا المشهد الكاظمي الذي يضم قبري الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام ، فكانت الاولى على الباب الشرقي مقابل ساحة النافورة ، والثانية على الباب القبلي ، وكان قد اهدى الساعة الاولى وهي من الساعات الكبيرة الوزير الايراني « دوست محمد خان » عام زيارته للعراق بصحبة ملك ايران ناصر الدين شاه سنة (١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م) ولما لم يكن لها موضع تنصب فيه فقد بقيت في مخزن الهدايا المائد للمشهد الكاظمي الى حين شيدت قاعدة وبرج تنصب عليه ، وتم ذلك في حدود سنة (١٢٠١هـ / ١٨٨٢م) وهي قائمة الى اليوم تعمل بانتظام ..

اما الساعة الثانية وهي اكبر واضخم من الاولى فقد وضعت على الباب القبلي وقد اهدى هذه الساعة احاج محمد مهدي ابوشهري الايراني بعد تشييد القاعدة الثانية والبرج وكان ذلك سنة (١٢٠٢هـ / ١٨٨٥م) .

وقد ارتبط تاريخ هاتين الساعتين بالمشروع الضخم لتجديد عمارة المشهد الكاظمي والسذي تطوع على الانفاق عليه الامير (فرهاد ميرزا القاجاري) عم ناصر الدين شاه عام (١٢٠٠هـ / ١٨٨٢م) . وقد اوكل على ذلك اثنين من كبار تجار الكاظمية وهما الحاج عبدالهادي والحاج مهدي الاسترياديان للقيام بهذه المهمة واذن لهما التصرف المطلق والانفاق بالمبلغ غير المحدود ، فكان بدء العمل بالعمارة يوم (١٧ - ذي القعدة - ١٢٩٦هـ / ١٨٧٨م) والانتفاء منه بجميع ما فيه في (١٧ - ربيع الاول - ١٣٠١هـ / ١٨٨٢م) واحتفل بهذه المناسبة لمدة ثلاثة ايام ، ويقال ان مجموع نفقات هذه العمارة بلغ مائتي الف ليرة عثمانية .. وقد اشتمل هذا التعمير على بناء سراديب منظمة

لدفن الموتى في ساحة الصحن وايوانه وحجراته ، وتذهيب المنائر الاربع الكبرى من حد وقوف المؤذن الى فمتها . وتشيد سور مرتفع للصحن يتكون من طابقين بالاجر بعد ان كان من اللبن ، ثم تأسس قاعدتين ضخمتين في سطح الطابق الثاني من الصحن فوق البابين الرئيسيين في جانبي الشرق والجنوب لتقوم عليهما ابراج الساعتين ، وقد استغرق هذا البناء الضخم اربع سنوات ، ومن ثم تم نصب الساعتين المذكورتين عليهما .

وقد امتازت الساعة التي نصبت على الباب القبلي بفخامتها اضافة الى قدمها وجمال برجها ، فكان بداخل البرج سلم خشبي ذو عشرين درجة . اما آلة الساعة فقد ركزت في الطبقة الثانية وهي ذات اربعة اوجه مدورة ، تدق الساعات والانصاف والارباع وتحتوي على جرس ومطرقة فخمين .. وكان الصوت المنبعث منها عاليا جدا يصم الاذان فافرغت في الجرس كمية من الرصاص للتخفيف من حدة الصوت .. ويبلغ ارتفاع البرج اعتبارا من سطح الباب الى القمة - وهي على شكل خنودة ذهبية الطلاء - ستة عشر مترا ونصف المتر ، كما بلغ عرض الكتابة ثلاثة امتار ، وغرفة الآلة خمسة امتار .. وقد زاد في روعة منظرها ذلك الكاشاني الجميل النقش والزخرفة البديعة اللذان يكسوان جدرانها ..

ومن اهم المشاكل التي كانت تعترض الساعة انذاك انها حين تتوقف عن العمل ويعجز المصلحون المسلمون عن تصليحها يتخرج الوقف بدخول المصلحين لاجانب الى المشهد المقدس بدافع الاضطرار .. ومن طريف ما يروى عن تصليح هذه الساعة يوم توقفت مما تروبه السيدة « مدام ديولافوا » الادبية والمؤرخة الفرنسية يوم زارت العراق برفقة زوجها المهندس « مارسل ديولافوا » ودونت مشاهداتها في رحلتها المشهورة سنة (١٨٨١م / ١٢٩٩هـ) .. وفي رحلتها من بغداد اتى الكاظمية بالكاري برفقة خادم القنصلية الفرنسية تذكر انهم تعرفوا في بغداد على مهندس فرنسي خبير في تصليح الساعات يعمل في بغداد ويدعى « الميوميكل » فزودهم بتوضيحات كافية عن المشهد الكاظمي المقدس ، واعطاهم صورة موضحة للمقبرة بكافة مرافقها بعد ان نقلوا اليه تفاصيل سفرتهم غير الموفقة هذه ، وحدثوه بما راوه من صعوبات ومضايقات في زيارتهم لهذا المشهد ، ولم يستطع هو ايضا الدخول اليه في مبدأ الامر لكونه نصرانيا ، لكن الساعة الكبيرة في الصحن توقف دقاتها الكبير في يوم من الايام وتعرض تصليحه فتبرع

هو لاصلاحه وتشغيل الساعة ، فحمل ادواته الهندسية ، وآلة التصوير الدقيقة في الوقت نفسه واستطاع ان يلتقط عدة صور من فوق السطح والبرج ومن الجوانب المختلفة . وتذكر السيدة مدام ديولافوا : ان الدليل خادم القنصلية الفرنسية وهو مسلم هندي وكان يلبس الطربوش ويجيد اللغة العربية المحلية - قد اكد انه لم يسبق لاحد الا فرنج ان دخل هذا المشهد المقدس ابدا . . . ! ! .

ساعة الحضرة الكيلانية (١٢١٦هـ / ١٨٩٨م)

وبعد بضع سنوات من نصب ساعة الكاظميين اهديت من المسلمين بالهند ساعة كبيرة ذات وجهين تدق الساعات وانصاف الساعات فقط الى الحضرة الكيلانية المقدسة في بغداد ، وفعلت تم نصبها في الحضرة المذكورة وكانت تعمل بانتظام حتى حلت محلها ساعة ضخمة اخرى ذات اربعة اوجه كبيرة وهي الساعة القائمة اليوم في صحن الحضرة الكيلانية ، ورفعت الساعة القديمة من محلها وقدمت هدية الى مديرية الاوقاف لتنصب في جامع الامام الاعظم في الاعظمية . . اما الساعة الجديدة فهي ذات اربعة اوجه مدورة كبيرة وتحتوي على ثلاثة اجراس احدها للساعات والاخر لنصف الساعات والثالث للارباع . . وقد تم صنع هذه الساعة الفخمة في معامل (بونه) الشهيرة في مدينة بومبي بالهند . وقد شيد لها المرحوم عبدالرحمن النقيب ، نقيب اشراف بغداد الاسبق المتوفى سنة ١٣٤٥هـ ، برجاً عالياً يبلغ ارتفاعه (٣٠) متراً ، وكان الانتهاء من تشييده في سنة (١٢١٦هـ / ١٨٩٨م) كما هو مدون على واجهة البرج الشمالية بالكاشاني الازرق البديع ، ونقشت طقراء السلطان عبدالحميد خان بالكاشاني الازرق ايضا وتحتها سنة ١٢١٧هـ على واجهته الغربية ، وثبت لوح من المرمر كتب عليه اطراء وثناء ودعاء للسلطان عبدالحميد الثاني على واجهته القبلية وكانت هذه الكتابات بخط السيد عبدالجبار آل خان زاده رئيس كتاب مديرية اوقاف بغداد سابقا والمتوفى سنة ١٣٢٤هـ . وكان البرج من صنع المعمار البغدادي الحاج اسطه درقي الذي حاكى في بنائه برج ساعة القشلة وكان لا يخلو من بعض الاضافات منها المحجران السفلي والعلوي فوق حجرة الساعة واللذان يحيطان بالبرج من جهاته الاربع ، ويرتقى الى الساعة من داخل البرج بسلام خشبية .

وقد قام هذا البرج على قاعدة ارضية طول ضلعها ثلاثة امتار ونصف المتر ثم يرتفع البرج

هرمياً حتى يصل عرض ضلعه المترين ونصف المتر وهي شبيهة بساعة القشلة الشهيرة في كثير من الوجوه . . وتعرض هذه الساعة من المشاكل ما تعرض ساعة القشلة من مطر وغبار مما يستوجب مسحها وتنظيفها وطلاءها بالدهن باستمرار ويقوم بكل ذلك وعن توقيتها وضبطها وادامتها رجل في العقد السابع من العمر وهو من الهنود المسلمين الذين نلدوا انفسهم لخدمة الحضرة الكيلانية المقدسة ويدعى هذا الرجل (غلام دستكير) الذي ظل يزاول خدمته هذه منذ اربعين سنة ونيف والى يومنا هذا . .

الساعة الاعظمية (١٣٥٠هـ / ١٩٣٠م)

يحق لكل عراقي ان يشبه فخرا واعتزازا بكل ما ابدعته اليد العراقية الماهرة في الحقل الصناعي على مر العصور ويزهو بنفسه على ذلك العطاء الثمر الذي قدمه للانسانية مساهمة منه في كثير من مجالات الفكر والعلم والفن والصناعة . وقد اثبتت الايام بان كثيرا من القابليات والكفاءات ظلت فترة من الزمن مطوية في عراقنا الحبيب حتى اذا ما تهيأت لها الفرص المسعفة برزت للوجود فبرهنت للملا على نبوغ العراقي وابداعه في جميع المجالات وكشفت عن قابلياته وجلت مواهبه ونهضت دللا على ان النبوغ والابداع لا يختصان ببلد دون اخر وينفرد بهما شعب دون سائر الشعوب . وكان من هؤلاء النوابغ المبدعين الذين تهيأت لهم فرص العمل بعصامية فذة وب عقلية مبدعة متطورة المرحوم الحاج عبدالرزاق محسوب الاعظمي منشيء الساعة البغدادية المشهورة باسم « ساعة المعرض » او الساعة الاعظمية نسبة الى الامام الاعظم ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي - رحمه الله - .

وتبدأ قصة هذا الصانع الوهوب مع الساعة الاعظمية في عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م) يوم اهديت الساعة الكبيرة ذات الوجهين والتي كانت منصوبة في الحضرة الكيلانية كما قدمنا الى جامع الامام الاعظم لتصليحها ونصبها فيه غير ان هذه الساعة كانت قديمة وقد تلف الكثير من اجزائها اثناء رفعها ، وقد طلبناظر الاوقاف في حينه الى سلطات الاحتلال البريطاني ارسال خبير لتصليحها ، كما كتب الى الدوائر المختصة للقيام بذلك ، غير ان النتيجة كانت سلبية مما اضطر دائرة الاوقاف الى الاعلان عنها في جريدة العراق الصادرة في (١٧ شباط ١٩٢١) تطلب من بعض المنهيين من ذوي الاختصاص في موضوع تصلح تلك الساعة مراجعتها

وكان ذلك الاعلان بتوقيع الحاج حمدي الاعظمي (العالم الفقيه والاستاذ في تدريس الشريعة الاسلامية في كليات بغداد ومؤسس المكتبة المعروفة باسمه والكائنة في محلة السفينة بالاعظمية) . وكان آنذاك مديراً للاوقاف ، فلم يلب الطلب احد .

وفي (١٩ آذار ١٩٢١) تقدم اليها الحاج عبد الرزاق محسوب الاعظمي منعهدا تصليحها ، فلما فحصها وجدها غير صالحة ، فراودته فكرة اقيام بصنع ساعة مثنها ، فأعلن تعهده على انشاء ساعة جديدة بعد ان ذكر ان الساعة القديمة لا يمكن اصلاحها . . وقد وافقت مديرية الاوقاف على الطلب بتاريخ (٢٠ آذار ١٩٢١) وكتبت له بتاريخ ٢٤ منه بموافقتها على قيامه بصنع ساعة جديدة بدلا من تلك الساعة التالفة . . وفي ٢٥ منه بدأ المشروع بنفذ في معمل محسوب في الاعظمية (ولا تزال بناية المعمل قائمة حتى اليوم في محلة الشيوخ قرب جامع ملا خطاب) . .

وكانت فكرة رائعة تحكمت في احساسه ومشاعره حتى اقضت مضجعه في الليل واستترفت الكثير من وقته في النهار ، فراح يرسم خطوطها الرئيسية منذ تلك اللحظة ودب نشاط غير اعتيادي في معمل السيد محسوب الذي راح يوزع الاعمال بين عماله باهتمام بالغ وجدية ملحوظة وفي ذهنه تصميم لصنع ساعة كبيرة مع هيكلها الخاص ذات اربعة اوجه بدلا من تلك الساعة ذات الوجهين . وهكذا واصل السيد محسوب عمله المضني في صنع هذه الساعة بهمة لا تعرف الكلال والميل وبمساعدة ولديه السيد محمد رشيد وعبد الهادي حتى افرغ في سبيل ذلك كل جهد وانفق كثيرا من المال فاتم صنعها بتاريخ (٢٨-١٢-١٩٢٩م / ١٢٥٠هـ) وبعد الانتهاء من صنعها وتنظيمها واجراء بعض الفحوص والتجارب عليها امام جمهرة من اهل الخبرة وشاهدي العيان طلب من ادارة الاوقاف تسليمها هبة منه وبدون عوض بدلا من تلك الساعة التالفة لتقوم بنصبها في جامع الامام الاعظم متبرعا بها لوجه الله تعالى ، وطلب اليها اقيام ببناء البرج المناسب لها وارفق طلبه بمخطط لذلك البرج . الا ان العقليات القاصرة وغير المدركة التي كانت تسيطر على شؤون الاوقاف حينذاك تشككت في صنعها فاخذت تماطل في ذلك . واخيرا رفضت تسليمها فاحتفظ بها واقام لها برجا حديديا في جانب من

معمله الكائن في الاعظمية وقد تجاوزت آفاهه باصداء دقات تلك الساعة وهي تعلن عن الوقت بانتظام وبارك جهود السيد محسوب وعمله البدع في خدمة بلاده . . وما هو جدير بالذكر ان جميع اجزاء هذه الساعة وآلاتها كانت عراقية الصنع مائة في المائة بحيث لم يستورد اي جزء لها من الخارج اذ قامت بصنعها وهندستها الابدي الفنية العراقية في معمل محسوب وبإشرافه .

ولما اقيم المعرض الزراعي الصناعي في حدائق بيب المعظم في بغداد والذي افتتح في (٧ نيسان - ١٩٢٢م) في عيد الملك فيصل الاول ، نقلت اجزاء هذه الساعة الى حدائق المعرض في الفترة ما بين (١٠-١١-١٩٢٢) لتتنصب على ارضها ، فكانت هذه الساعة الشامخة - والتي فازت بحق وجدارة بالجائزة الاولى - من ابرز المعروضات واجدرها باهتمام الجمهور . واخيرا وبعد هذا الفوز الساقط على غيرها من المعروضات وافقت الاوقاف على تسليمها وتسليمها بالفعل لا لتوضع في جامع الامام الاعظم وانما لتوضع رهن التوقيف والحجز في احد مخازنها فداهمها الصدا وكادت ان تلف لولا ان تداركها قرار مجلس الوزراء الصادر بعد ثورة تموز المجيدة عام ١٩٥٨م والقاضي بالاخراج عنها ونصبها على برج يناسبها في جامع الامام الاعظم . .

بقيت الساعة تعمل بانتظام في حديقة المعرض حتى اواخر شباط من سنة ١٩٢٣ حيث طلبت السلطات المختصة من صاحبها رفعها من مكانها فاعيدت الى المعمل في الاعظمية . . وهناك وضعت الاتنا بعد تفككها في صناديق انتظارا لنصبها في جامع الامام الاعظم . . وقد استمرت دائرة الاوقاف تماطل في بناء البرج متعلقة بشتى المعاذير بالرغم من الحاج صاحبها الذي توفاه الله في (٧-١١-١٩٥٢) وفي نفسه حسرة لانه لم يشاهد ساعته فوق برجها الذي صممه وفقا لذلك حتى هيا الله لها ان تنصب اخيرا في اواخر عام ١٩٥٨ في مكانها الحالي في ساحة جامع الامام الاعظم بجهود نجل صانعها الدكتور صالح عبدالرزاق (عضو محكمة تمييز العراق سابقا) وبمساعدة اخوته . .

ومن طريف ما يروى ان السيد فؤاد حفيد الحاج عبدالرزاق محسوب كان تلميذا في مدرسة الاعظمية الثانية للبنين واحتاجت مدرسته السي جرس لتنبه الطلاب الى مواعيد الدروس والغرض

فوعد التلميذ معلمه المرشد بنهيئة جرس للمدرسة المذكورة وفعلًا بر التلميذ بوعده فجلب جرسًا من اجزاء ساعة جده المفككة وكان بحجم جمع انكف ولما استعمل كان له رنين واضح يفوق حجمه بكثير وكانت تلك بداية معرفة تلاميذ مدرسة الاعظمية بتلك الساعة العربية ..

وبعد ثورة تموز ١٩٥٨ عهد الى وزارة الاسكان بناء الابواب الرئيسية وسياج الجامع مع برج الساعة ، وبعد وضع التصاميم والخرائط بوشهر بالعمل ونفذ بناء برج الساعة بالكونكريت المسلح وعلى شكل اسطوانتي وبارتفاع (٢٥) مترا ومحله قرب الباب الرئيسية من جهة الشرق ثم كسي البرج بالفيسفائ الايطالي ذي اللون الازرق والابيض ، كما بنيت الابواب على شكل اقواس ثلاثة بالكونكريت المسلح ايضا كما كسيت بنفس النوع من الفيسفائ . وبعد اكمال بناء البرج سنة (١٣٨١ هـ / ١٩٥٨ م) نصبت الساعة المذكورة اعلاه وهي قائمة تعمل بانتظام ودقة ..

وفي سنة ١٩٧٣ م قامت الاوقاف باكساء البرج بصفائح من معدن الالمنيوم المضلع ذي اللون الذهبي فزاد ذلك من روعة منظره ..

أما عن وصف هذه الساعة : فقد بلغ ارتفاعها ثمانية اقدام ، وهي ذات وجوه اربعة مدورة ، وقطر كل منها متران ، وعلى كل وجه ثلاثة عقارب، اثنان منها يشيران الى الدقائق والساعات والثالث يشير الى الايام ، وصممت هذه الساعة على مبدأ الثقل حيث يتدلى منها ثلاثة اقال تحرك ثلاث مكائن ويقع موقع الثقل الأول في الوسط وهو الذي ينظم حركة العقارب ، وموقع الثاني من الجهة اليمنى وهو الذي ينظم دقات ارباع الساعة ، وموقع الثالث في الجهة اليسرى وهو الذي يعين بدقات قوية عن الوقت ، ويبلغ وزنها ثمانية اطنان من الحديد ..

وليس ادل على مبلغ ما استأثرت به هذه الساعة من اهتمام رواد المعرض الزراعي الصناعي عراقيين واجانب مما اورده (امين الريحاني) خطيب المعرض المذكور عند افتتاحه فقال يصف

المشهد الرائع والحدث المهم في تاريخ النهضة العراقية : « .. وكان الناس محتشدين حول الساعة العظيمة - الاعظمية - التي صنعها احمد ابناء البلدة المشرفة باسم الامام الاعظم وبحجرته لتعرض في معرض الزراعة والصناعة ببغداد . وكانت الساعة قائمة في باحة المعرض الكبرى فوق قاعدة عالية من الحديد ، وهي تردد نبا الزمان - ايامه وساعاته ودقائقه - وتبشر المراق بعهد جديد . والناس متلون ، والعيون منهم محدقة بهذا الاثر الصناعي العربي البغدادي الاعظمي ، وانكل معجبون به - هذه الساعة مفخرة المعرض ، والله بل مفخرة للعراق - ومن ذا الذي يقول ان العقل العربي عقيم لا يحسن الاختراع - انها بيت الفصيد في هذا المعرض - وقد قال احدهم : قد يكون صانعها من سلالة ذلك العربي الذي صنع الساعة التي اهداها الخليفة هارون الرشيد الى عاهل الفرنجة الامبراطور شارلمان .

ترجمة الحاج عبدالرزاق محسوب

وجدير بنا هنا ان نتعرض لحياة الحاج محسوب ومواهبه وخبرته الفنية الصناعية في غير مجال عمل الساعات ونلقي بعض الضوء على فترة من فترات التاريخ مرت على عراقنا الحبيب من خلال حياة صانع الساعة الاعظمية :

ولد الحاج عبدالرزاق محسوب في بلدة الاعظمية يوم كانت قرية من قرى بغداد سنة ١٢٩٢ هـ ، وقد دخل المدرسة الابتدائية ولم يتبها بعد ان تعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها فتركها وانصرف ينمي رغبته الى تعلم احدي الحرف الصناعية فاختر حرفة التجارة فابدى فيها براعة متناهية ، وقد مارس هذه المهنة حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى حيث ارسل كجندي اجباري مع القوات العثمانية لمحاربة الانكليز في جنوب العراق واشترك في معركة « الحويصرة » .. وعندما انتصر العثمانيون في هذه المعركة وغنموا من الانكليز مدفعين كانت القوات البريطانية قد جردت احدهما من جميع آلاته الدقيقة ومنها (القامة) ..

وبالنظر لعدم توفر الاسلحة الحديثة لدى القوات العثمانية فقد حاولت الاستفادة من هذا المدفع ولذلك عرضته على مهندسيها المختصين

بصناعة الاسلحة فقررنا عدم صلاحه وعدم امكان
تصليحه لتعذر توفير الآلات المفقودة وعدم تمكن
المعامل العثمانية من صنعها .

وقد دفعت الحمية الدينية المرحوم عبدالرزاق
فطلب الى السلطات العسكرية قبول استعداده
بصنع نوافص المدفع المذكور على مسؤوليته
الخاصة واحتماله عقوبة الاعدام في حالة فشل
المهمة ، وبعد مراجعات طويلة ومنعددة والحاج
متزايد وافقت السلطة العسكرية على طلبه في تصليح
الادوات المفقودة على ان يباشر عمله هذا في معمل
(العباخانه) ببغداد ، وبعد عراقيل كثيرة وضعها
في طريقه المهندسون ومدراء المعمل يدفعهم لذلك
عامل الحسد والغيرة اتم بنجاح صنع جميع الآلات
الناقصة في المدفع ، واجريت تجربته بنجاح قرب
الاعظمية خلف ثكنة الخيالة وبحضور القائد يوسف
ضياء بك وغيره من كبار العسكريين وجمع غفير من
الاهالي .. ومن اطرف ما يروى عنه : ان شركة
انكليزية معينة : فتحت لها فرعا في بغداد ابان
الاحتلال الانكليزي وحصلت استيراد الادوات
الحديدية والاحتياطية بها وراحت تفرض على
سلمها اسعارا خيالية لا يقبلها العقل فكان الحاج
عبدالرزاق محسوب يذهب لقر الشركة ويتناول
الاداة التي يحتاجها ويبدأ يتفحصها بدقة اثناء
المساومة حتى يتأكد من شكلها وابعادها ومقاييسها
ثم يقفل راجعا لمعمله لينتج اشباها لها يبيعها باثمان
زهيدة حتى فسح منه مدير الشركة بعد ان علم بحاله
فاصدر تعميما يقضي بمنع دخوله الى مقر الشركة
.. هذا هو الصانع البغدادي الموهوب الحاج
عبدالرزاق محسوب رحمه الله وجعل مثواه فسيح
جناته .. !! .

ساعتنا المحطة العالية

وجدير بالذكر في معرض هذا البحث ان نذكر
ساعتي محطة السكك العالية وقد نصبت هاتان
الساعتان على برجين شامخين يرتفعان على واجهة
الباب الشرقي من ابواب هذه المحطة التي اكمل
بناؤها عام ١٩٥٥ ، وما اروع وازهى منظر البرجين

وهما يحتضنان القبة الزرقاء ذات الطابع الشرقي
الاسلامي .. وقد علت كل برج منهما ساعة كبيرة
ذات الوجه الواحد المدور ، فالساعة الجنوبية منهما
تعن عن الوقت بالتوقيت الغروبي (العربي) ،
والساعة الشمالية تشير الى الزمن بالتوقيت
الزوالي (الامرنجي) .

الساعات وامانة العاصمة

ان امانة العاصمة كدائرة من دوائر الدولة
وجهاز حيوي انيطت به مسؤوليات جسيمة تتجلى
بالخدمات الاجتماعية المتنوعة لكان العاصمة
وتحقيقا لشعار « من اجل بغداد اجمل » ادركت
مهماتها وعملت وما تزال وبشكل مستمر من اجل
اضفاء المسح الجمالية لوجه مدينة بغداد .. ومن
هذه المهمات ادراكها لاهمية الوقت بالنسبة
للمواطنين واعترافا منها بقيمته حيث اصبح ضبط
الوقت حاجة اجتماعية عامة لذا اهتمت بتوفير
امكانيات معرفة الوقت بنصب الساعات الزمنية
الجدارية وساعات الزهور الناطقة والساعات
البرجية ..

ساعات الزهور

وكانت ساعة الزهور التي نصبت في احدى
ساحات متنزه الزوراء باكوردا اعمالها في هذا
المجال .. وبعد ذلك عممت الفكرة بشكل اوسع
فنصبت ساعة زهور ثانية ذات الوجه الواحد في
« متنزه الاعظمية » الكورنيش . وساعة ثالثة ذات
الوجه الواحد ايضا في « ساحة النصر » في الكرادة
الشرقية ، وساعة زهور ناطقة رابعة في « متنزهات
شارع ابي نواس » مقابل مديرية الحفر والآلات
الزراعية ، كما نصبت ساعة زهور ذات الوجه
الواحد في « ساحة الامام الجواد » المقابلة لمركز
شباب الكاظمية ، اما الساعة السادسة والاخيرة فهي
ساعة زهور ناطقة ذات الوجهين نصبت في الساحة
التي يلتقي عندها شارعا حيفا بموسى الكاظم في
منطقة الجعفر في الكرخ وهي « ساحة الشهيد
حماد شهاب » .

اما الان فقد رفعت من مكانها بعد ان عبثت
بها يد الاطفال فخربتها وعطلتها عن العمل ..

الساعات البرجية

والى جانب الساعات الزمنية الجدارية وساعات الزهور الناطقة قامت امانة العاصمة مجموعة من الساعات المتعددة الوجود والمعلقة على ابراج ذات تصاميم متنوعة ومتعددة الاشكال . فقد نصبت ساعة برج ذات ربعة وجوه في «ساحة الشواف» في كراة مريم في الكرخ .. وساعة برج ثانية في «ساحة يونس السبعائي» «ساحة الطيران سابقا وهي ذات وجهين احدهما باتجاه شارع بور سعيد والاخر باتجاه شارع بي تمام وهناك ساعة برج ثالثة ذات اربعة وجوه في «ساحة الفتح» مقابل منتزه الاديرة في منطقة الكرادة الشرقية ، اما الساعة الرابعة فهي ذات وجهين نصبت في «المدخل الرئيسي لمنتزه الزوراء» .. والساعة الخامسة ذات الاربعة وجوه في «ساحة باب المعظم» . وقد رفعت الان بسبب مقتضيات تنظيم الشوارع المؤدية الى جسر ١٧ تموز في الباب المعظم على ان تعود في موقعها المناسب بعد اتمام العمل ..

وفي سنة ١٩٧٢ تم نصب ساعة برج الجامعة في «ساحة الحرية» على شارع الجامعة المؤدي الى رئاسة جامعة بغداد في منطقة الجادرية ، وهي ذات اربعة وجوه تقوم على برج يبلغ ارتفاعه خمسة امتار ويرتكز على قاعدة مساحتها حوالي الثرين مربعين ، وتعلن الساعة عند الاشارة بثلاث لغات هي العربية والانكليزية والفرنسية . والساعة الاخيرة تم نصبها سنة ١٩٧٤ في الساحة التي يلتقي عندها شارع سعد بن ابي وقاص بشارع المثني بن حارثة الشيباني في منطقة العلوية قرب مصلحة المجاري وهذه الساعة ذات الاربعة اوجه وتقوم على برج ذي شكل هندسي جميل ارتفاعه سنة امتار تحيط به ثلاثة احواض كونكريتية دائرية متباينة السعة والارتفاع لاستخدامها في زراعة بعض النباتات المناسبة .. كما قررت امانة العاصمة توسيع شبكة نصب الساعات ذات الابراج في مختلف انحاء بغداد وضمن حدودها وقد شرع العمل لاختيار الاماكن المهمة والمناسبة لذلك في مدينتي الثورة والشعلة وغيرهما من المدن والضواحي ..

وقد تم اخيرا نصب مثل هذه الساعات في

«ساحة كمال جنبلاط» في الكراة الشرفية - الزوية - واخرى في «ساحة جمال عبدالناصر» في الصاحية واخرى في «ساحة النهضة» على شارع الجمهورية ..

والجدير بالذكر ان جميع هذه الساعات تشغل ويدار بواسطة التيار الكهربائي ، ومن عيوب ذلك ان اصبح الخطا مرصا مزمنا فيها وذلك يحصل بسبب انقطاع التيار الكهربائي عن بعضها فتتوقف عن العمل لحين عودة التيار الكهربائي انبها وحين يعود تكون الساعة قد اشارت الى وقت بشكل خاطيء عن الوقت الصحيح مقدار الفترة الزمنية التي قطع فيها التيار عنها ، وبلايا لمثل هذه الحالات وغيرها فقد خصصت امانة العاصمة كادرا متخصصا من العمال والمهندسين الكهربائيين لصيانة وادامة تلك الساعات والاشراف عليها بصورة مستمرة من حيث نصب وضبط وقت تلك الساعات واصلاحها في حالات الخلل الذي قد يطرأ عليها . وهذه الكوادر المتخصصة لديها الاجهزة والموازم الخاصة بذلك ، علما بان اصلاح الساعة لا يمكن ان يتم بشكل فوري بل يحتاج الى الوقت الذي يتم فيه التبليغ حيث تنقل فيه وحدة مسانة اليها لتقوم باصلاحها ..

وقد روعي في توزيع هذه الساعات المكان المناسب لنصبها وتحقيق اوسع خدمة للجمهور لذا فقد وضعت في التقاطعات المهمة وبعضها باربعة وجوه بينما البعض الاخر بوجهين او وجه واحد فقط .. اما ساعات الزهور الارضية فقد اختير لنصبها بعض الساحات المهمة تحقيقا لغرضين في آن واحد : اضافة مسحة جمالية على المدينة وضبط الوقت فيها .

ان الاهتمام بتوفير هذا العدد من الاجهزة التوقيت في الشوارع والساحات العامة والمنتزهات بدلل بوضوح على تزايد الادراك بقيمة الوقت في حياة الشعوب المتطلعة الى حياة افضل .. وان فكرة تعميم هذه الساعات وهذا الاهتمام بالوقت جاء في وقت متأخر من قبل المسؤولين في امساة العاصمة حيث كانت البداية في نصب الساعات المذكورة آنفا في سنة ١٩٦٨ وما زالت الجهود متظافرة لتعميمها على المناطق المهمة في مدينة بغداد وضواحيها ..

مراجع البحث

- ١ - ارشيف امانة العاصمة .
- ٢ - البار الاشهب - ابراهيم الدروبي .
- ٣ - بغداد القديمة - عبدالكريم الملاي .
- ٤ - تاريخ المشهد الكاظمي - الشيخ محمد حسن ال ياسين .
- ٥ - جامع الامام الاعظم - الشيخ هاشم الاعظمي .
- ٦ - رحلات الى العراق - سرواليس بج ، ترجمة فزاد جميل .
- ٧ - رحلة مدام ديولانوا - ترجمة ونشر على البصري .
- ٨ - فيصل الاول - امين الريحاني .
- ٩ - قصة الوقت - ناجي جواد الساعاتي .
- ١٠ - مجلة امانة العاصمة - العدد (١٤١) تحقيق عن بناءة الفشة ، عادل المرادوي .
- ١١ - مجلة امانة العاصمة - العددان ، ١٦ و ١٧ ، الساعات البغدادية ذات الابراج ، صادق الجبيلي .
- ١٢ - مشاهدات ومقابلات شخصية .
- ١٣ - موسوعة الفتيات المقدسة ، الجزء الاول ، - ترجمة جعفر الخطاط .
- ١٤ - جريدة الجمهورية البغدادية - عدد يوم الجمعة في ٢١-٢-١٩٧٢ . والعدد الصادر في ٢٠-٢-١٩٧٢ .
- ١٥ - تاريخ المصور القديمة - للصف الاول المتوسط الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ .
- ١٦ - مجلة افاق عربية - السنة الرابعة نشرين الثاني ١٩٧٨ - العدد / ٣ بحث للدكتور محمد صديق الجبيلي من (المذولة) .
- ١٧ - غلامه الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك - عبد الرحمن شبط الاربلي المتوفى سنة ٧١٧هـ - طببع مكتبة النني - سيرة المستنصر بالله العباسي .
- ١٨ - مجلة اهل النفط - (العدد ٧٥) السنة السابعة كانون الثاني ١٩٥٨ . مقال بقلم الدكتور مصطفى جواد بعنوان « الساعات العربية الروحانية » .
- ١٩ - مجلة لمة العرب - المجلد الثاني - صحيفة (٢٨) .
- ٢٠ - مجلة سومر - بحث عن المدرسة المستنصرية بقلم الاستاذ كوركيس عواد - السنة الاولى ، الجزء الاول ، والجزء الاول والثاني للمجلد الثالث عشر .
- ٢١ - الحوادث الجامعة - لابن الفوطي تحقيق الدكتور مصطفى جواد .
- ٢٢ - نكتة كمال الاكمال - جمال الدين بن الصابوني - طبعة النجم العلمي العراقي .
- ٢٣ - نشرة مملحة نقل الركاب - (العدد ١٥٨) كانون الثاني ١٩٦٥ . من موضوع تحت عنوان « ساعة عربية نتحدث الزمن » للسيد طارق عيسى حسن .
- ٢٤ - رحلة ابن جبر .
- ٢٥ - دليل خارطة بغداد قديما وحديثا - الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة .
- ٢٦ - مجلة الوعي الاسلامي الكويتية - العدد السابع والثلاثون - السنة الرابعة : غرة محرم ١٢٨٨هـ / مارس ١٩٦٨ م ، ص ٩٥ .

مذكرات بغداددي

من دفتر مذكرات المرحوم محمد رؤوف السعودي

(ابو عطف) كتبها في عام ١٩٦٩ م ...

اطلعتني الاستاذ يحيى السعودي على سجل كتب بخط اخيه المرحوم محمد رؤوف السعودي يتضمن مجموعة خواطر ومقتبسات في شتى الموضوعات .. ووصف شيق لبعض محال وصافة بغداد وتدوين صادق لبعض المشاهدات التي بقيت عالقة في الذاكرة عن بغداد الامس القريب .. فاجاز لي نشرها بعد تهذيبها وتصحيح الاخطاء النحوية فيها ..

★ ★ ★

ترجمة كاتب المذكرات

هو محمد رؤوف السعودي ويكنى بابي عطف .. وابو عطف هذا رجل عركته الحياة واكسبته خبرة وتجربة ، عاش حياته بعصاميّة فذة واجتازها بسلام ولم يترك لاسرته من متاع او نشب وانما ترك لها دفتر مذكراته وهو مشحون بشتى الموضوعات الاجتماعية والفلسفية والتاريخية والدينية ، كما دون فيه وصفا دقيقا لبغداد القديمة وما جرى فيها من احداث عاصرها وشاهدها بنفسه وكتب فيها بأسلوبه الشيق الجذاب .. يرد فيه القصص والحوادث التي لم يسمعها او يقرأها المواطن في مكان اخر ، انها جلاء للغماض والمجهول من تلك الفترة التي عاشها .. ونظرا لاهميتها اثرنا ان نجتزئ من هذه المواضع ما يختص ببغداد واحداثها وشخصياتها ونشرها على صفحات هذه المجلة علها تعطي الصورة الحقيقية عن بغداد ايام زمان والتي يجهلها الكثير من اهل بغداد اليوم بعد ان طرا على هذه المدينة العريقة من تغيير وعمران كبيرين ..

ولد ابو عطف في بغداد سنة ١٨٩٣ وعاش فيها ولم يدرس بمدرسة ولم يتخرج في معهد بل كانت مدرسته الحياة كلها ، اخذ عنها الكثير وكتب فيها .. كانت مهنته حياكة الازر ويزاولها في معمل والده علوان في محلة « صبايغ الال » (١) في رصافة بغداد .. ولما ذهب الزمان بهذه المهنة بزوال لبس الازر « والازر لباس خاص بالمرأة المسيحية في بغداد

يقوم مقام العبادة تلبسه المرأة ايام الاعياد والاعراس » كسدت هذه الصناعة وهجرها اهلها ومنهم ابو عطف .. وفي سنة ١٩٣١ م استطاع ان يستاجر الحانوت العائد لدائرة البرق المركزي في محطة السكك بالباب الشرقي ويعمل فيه بتواضع بقية حياته التي امتدت الى اوائل السبعينات حتى توفاه الله في بغداد في ٦-٥-١٩٧١ ..

قصة السبع ايكار وتحديد مركز الرصافة

في بغداد محلة كبيرة قديمة تدعى (محلة السبع ايكار) (٢) في جانب الرصافة .. وقصة السبع ايكار وتسميتها كما سمعتها وشاهدتها بعيني في طفولتي سنة ١٩٠٤ .. كانت هناك قطعة من الارض تشرف على دجلة وتظلها بضعة شجيرات باسقات سامقات ترتفع عاليا مما يدل على قدمها منها شجرة النبق (السدر) ومنها شجرة التكي (التوت) ومنها شجرة التين ومن بينها شجرة واحدة هي (الصفصاف) .. وكانت تقدر مساحة هذه العرصة زهاء الالف والخمسمائة مترا مربعا وبنيت امامها على الشط مسناة على عرض ارضها سميقة وواسعة وقوية وعميقة الفور اتخذت بئرا ، ولها فتحات بعق اربعة امتار متصلة بنهر دجلة الى داخل البئر ، ونصبت على حافة البئر سبع بكرات من جهتها العليا لجلب الماء من النهر الى البئر اولا بواسطة الادلاء جمع دلو وسوقه وتوزيعه بواسطة السواقى الى المسافات البعيدة

في الحدائق والبساتين القريبة من النهر وخزانات المياضيء - اي احواض الوضوء في الجوامع والمساجد والتكايا - وتوفير المياه الصالحة لها ، وهذه الادلاء مصنوعة من جلود الجاموس المدبغة السمينة والقوية والتي تربط وتُدلى من اللولب الكبير الحجم الى عمق البئر تسحبه احدى الدواب فتنزل في مدرج او منحدر حتى يلامس الدلو سطح الماء ثم يصر فيه ويمتلئ الدلو بالماء ثم يسحب الى الاعلى ويسكب الماء في حوض واسع باعلى حافة البئر لتوزيعه الى الجهة المراد توجيهه اليها ثم تكرر عملية الصعود والنزول في هذا المنحدر الواسع الذي يستوعب الحيوانات السبع التي تتناوب الصعود والهبوط جملة او فرادى حتى تسقى الحدائق والبساتين وتزود الجوامع واقصور بالماء الكافي ويخزن بعضه بالاحواض والمياضيء .. وكان موقع هذه (السبع ابكار) وبشرها الكبير الواسع : البناية المتخذة اليوم (نادي نواب الضباط العسكري) والبناية المجاورة لها والتي هي (فندق جبهة النهر) عند مدخل جسر الاحرار من جانب الرصافة والتي كانت تسمى في العهد العثماني بـ (شريعة بيت الباجهجي) الذين كانت بيوتهم وقصورهم تحيط بمداخل ومنافذ هذه الشريعة وتكتنفها من كل الجهات ..

اول اسالة ماء بدائية في بغداد بواسطة (الكرد) (١٢)

والاماكن السبعة التي تستفيد من مياه السبع ابكار

وكانت هذه السبع ابكار تسقي وتوفر الماء لسبعة اماكن او اكثر على طريقة السقي والارواء القديمة حيث لم يكن هناك آلة ولا ساحة ولا آلة ماصة ولا دافعة ولا ضاغطة بخارية او ميكانيكية غير بئر (الجرد) حتى ولا اسالة مطلقا كما نعرفها الآن من السهولة واليسر بفضل التكنيك والالات التي اخترعها واوجدها العقل البشري في كل مجالات الحياة الانسانية .. وهناك وسائل اخرى لجلب الماء وتوفيره في البيوت وذلك بواسطة الادلاء من البئر المألحة والموجودة في كل بيت من البيوت البغدادية او بواسطة السقائين الذين يجلبون الماء من النهر مباشرة في قيرب من الجلد محملة على ظهور الدواب للشرب والغسيل والطبخ او يجلب الماء من السواقي التي يجري فيها الماء بواسطة الكرد او الناعور من نهر دجلة ان وجد بالقرب منها .. وكانت سواقي السبع ابكار تسقي وتمون وتوزع المياه الى الاماكن التالية :

اولا - دور ومنازل وقصور آل الباجهجي القريبة منها مع حدائقها .

ثانيا - حديقة دار القنصلية الروسية (القيصريّة) والتي هي اليوم مجموعة المباني والمخازن والعمارات التي تحيط بكازينو شط العرب .. وقد اتخذت دار القنصلية هذه فيما بعد فندقا كان يسمى منذ عهد الاحتلال الانجليزي لمدينة بغداد بـ (اوتيل مود) الذي نقل فيما بعد الى البناية الفخمة على دجلة في محلة السنك والذي هو اليوم (فندق السندباد) .. ويدخل ضمن هذه المجموعة المذكورة ايضا مiazza مسجد آل الباجهجي (١) وحوضه الكبير والذي ما زال موجودا يصل به حتى الآن ويقع اليوم في الشارع الفرعي الذي يصل بين شارع الرشيد وشارع النهر وعند مدخله من جهة الرشيد استوديو المصور ارشاك .

ثالثا - تم توصيل الماء الى نكية سيدي البدوي (٥) ومسجده وحديقته الغناء الواسعة والتي كانت تتوسط شارع الرشيد ثم بناية شركة (اسطيفن لنج) (٦) على شارع النهر في راس القرية (٧) .. ولكن عندما فتح خليل باشا (٨) جادة بغداد (جاده سي) من الباب الشمالي (باب المعظم) الى الباب الشرقي منها (٩) ذهب معظم هذه النكية ومسجدها وحديقتها ضمن الجادة المذكورة وذلك سنة ١٩١٥م ولم يبق منها اليوم الا هذه العمارة المسماة « عمارة السيد البدوي » وقبة وضريح الصقنا ببناية العمارة ، والضريح هو لاحد اولياء الطريقة البدوية في بغداد والذي اكتشف في اوائل الستينات باسم الولي (ابو شيبة) .

رابعا - وكانت تسقي ايضا دار القاصد اترسولي الذي وضعه الان مقر شركة (حافظ القاضي) وبضمنها حديقتها المقابلة لها والتي هي الان مجموعة المباني والمخازن والفنادق ودور السكن وعيادات الاطباء والصيدلة ومحال الاعمال والمتاجر ضمن نصف الدائرة المحيطة من شارع الرشيد الى نفاذ شركة حافظ القاضي قبالة جسر الاحرار المؤدي الى ساحة الوثبة بالنقائه بشارع الرشيد شمالا ويتبعها سينما الرشيد وسينما الوطني وما حولهما من المتاجر والمخازن ودور الاعمال وما حولها من دكاكين البقالة واصحاب المهن من محال ومطاعم وما يملؤها من فنادق ومكاتب وشقق ودور سكن الى غير ذلك مما يرى ويشاهد وكلها كانت حديقة كبيرة وواسعة جدا يحوطها سور عال من الطين زرعت بانواع الفاكهة والحمضيات على اختلاف انواعها وتعلوها النخيل الباسقة ودوالي الاعناب وقد تمددت وانتشرت فوق الفسقيات والشدروانات المظلمة بمناقيد الاعناب على اختلاف طعومها واشكالها

وحجومها .. وكانت من موقوفات السيد عيسى ابن السيد مصطفى بن السيد محمد الشهير بالمطار البغدادي (١٠) وقد جاء شارع الرشيد فشطرها الى قسمين شرقي وغربي وذلك سنة ١٩١٦ م ..

خامسا - تسقي هذه السبع ابكار بستان (عدول) التي هي اليوم الشارع المسمى بـ (شارع عرصات النعمان) الواقع بين (عقد الجاموس) وبين مصلحة توليد القوة الكهربائية القديمة (المباخنة) (١١) حتى جامع الحاج فتحي (١٢) في العوينة على شارع الجمهورية اليوم ، وكانت هذه بستانا كبيرة تنفرع منها ساقية يدخل اليها الماء الى تكية ومسجد الامام عبدالكريم الجيلي (١٣) احد ائمة الصوفية والذي ذكره كثيرا المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الاسلامي» .. وكانت له باب يقع مدخلها من (عقد الجاموس) قرب حمام تاجة من محلة الحاج فتحي وله حديقة كبيرة ذات نخيل واشجار باعة مشمرة .

سادسا - وتنسحب من هذه السبع ابكار ساقية سادسة لارواء وتسقي جامع السيد سلطان علي (١٤) وحديقته الواسعة وتسقي بجواره ايضا مرقد احد السادة العلوية الذي موضعه اليوم وسط شارع الرشيد ، ومسجده الذي خربه خليل باشا عند فتحه جادة (خليل باشا جادة سي) كما كتبت قطعة مربعة تحت الجدار مما يلي قاعدة المنارة القديمة من جامع السيد سلطان علي بقدر متر ونصف المتر من القاشاني الملون خط فيها بخط فارسي (خليل باشا جادة سي) وفي اوائل العهد الملكي ازيلت هذه القطعة وجددت عمارة المسجد وكتبت على لوح معدني بدلها عبارة (شارع الرشيد) واما ما بقي من حديقة وبستان نخيلة فقد شيدت فوق ارضها العمارات والفنادق والمتاجر الكبرى المهمة ومخازن وشركات عالية اشهرها شركة بانا للاحذية الجلدية ، وسينما الشعب حتى ملتقى محلة المربعة واول واكبر محل تجاري شيّد على ارض هذه البستان هو (بنية شركة سيارات فورد) ومخازنها ومحلات تجارية ومعارض سياراتها ومكاتبها ووكلاؤها ومحلات لبيع المحركات والمكائن الزراعية والصناعية وتجار الجملة والفرد وغيرها من الاماكن المحيطة بجامع السيد سلطان علي ..

سابعا - وهناك تختم السبع ابكار عملية توزيع المياه بالساقية التي تروي دار (آل الاصفر) وحديقته المشرقة على النهر والتي هي ملاصقة لدار القنصلية الروسية في العهد العثماني الحميدي (وعائلة بيت اصفر هي من العوائل العراقية

التجارية التي توكلت في بغداد منذ قرنين فاكثر لعدة شركات انكليزية واوربية وكانت لها اليد الطولى في ارتباط الوثائق والتعهدات التجارية ليس في بغداد والمراق فحسب بل في جميع انحاء الامبراطورية العثمانية في الصادرات والاستيرادات والاسواق التجارية والمالية والبورصة والمصارف والبنوك) . ومن جوار حديقة بيت اصفر تجتاز عبر الحائط ساقية خاصة لارواء مسجد وتكية وحديقة وميضة آل (قره علي) وكانت تقوم على قطعة ارض واسعة وقد اتخذتها شركة (اورزدي باك) قبل اكثر من عشرين سنة (اي في الخمسينات) وقد امتتها اليوم الحكومة وسمتها شركة الاسواق والمخازن التجارية العراقية وهي المركز الرئيسي في بغداد ..

هذه هي قصة السبع ابكار كما اوردناها هنا .. وقد اشترت عائلة الباجهجي العرصة التي كانت تقوم عليها السبع ابكار وضمتها الى ممتلكاتها عند نهاية العهد من القرن التاسع عشر .. وبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى شيدت على ساحتها القصور والفنادق كما اخذ اصحاب الكرود المحتاجة الى الماء بنصبها في غير هذا المكان من بغداد ومن هذا التاريخ اهملت واندرست معالمها ثم قضت على البقية الباقية منها مكائن اسالة الماء الحديثة التي عمت كل محلات بغداد منذ سنة ١٩٠٨ م ..

● مدحت باشا واصلاحياته الادارية في بغداد

وقد اشتهرت المنطقة باسم (السبع ابكار) في زمن الوالي المصلح المجدد (مدحت باشا) الذي وضع مجالس الولايات ومجالس البلديات والمجالس الخاصة بالمتصرفيات ، وقسم بغداد الى محلات واطراف وجعل لكل محلة اسما وعين لها مختارا ومعاون مختار ، ورقم ابواب الدور وغير ذلك من الاصلاحات البلدية من توسيع الادارة وتشكيل المحاكم واصلاح السجون وتوسيع المعامل الميكانيكية

اما فيما يخص بحثنا الان من توزيع البلدية الى محلات فقد عرفت هذه المنطقة بالسبع ابكار من قديم واضيف اليها فيما بعد سكة محلة العمار والجنابيين وهما من قبيلة (زبيد) اللتان حلتا في بغداد قبل قرون كما حلت اخواتها بقربها (العاجليين) وهم من بني عجيل وبني سويدان وبني سميد وغيرها من قبيلة زبيد التي تقطن في المحلات التي اشتهرت باسم قبائلها في بغداد لحد الآن قبل زمن داود باشا والي بغداد اي قبل اكثر من ثلاثة قرون مضت !! .. وكما قلنا ان المنطقة غلبت عليها لفظة

(سبع ابكار) وتبناها للزيادة والتوسيع البلدي (عمّار جنابيين) فصارت كلمة (عمار سبع ابكار) هي الغالبة اليوم ، اما (الجنابيين) فبقيت ملحقة بزقاق الجنابيين في راس القرية ..

● سبع ابكار الصليخ او كرود خليل باشا

وهناك سبع ابكار اخرى شمالي بغداد في منطقة الصليخ في قضاء الاعظمية وقصتها :

في اواخر سنة (١٩١٥ م) عينت امرية القيادة التركية في العراق القائد التركي (خليل باشا) ولما وصل هذا القائد الشاب بغداد ، هيأت له الحكومة مسكنا وقصرا منيفا فخما جوار بستان ومرمرة كانت تسقى وتروى من بئر عليها (سبع ابكار) في شمالي الصليخ .. ثم ابدلت السقاية والارواء بالمكائن الزراعية واسالة الماء الحديثة وهدمت السبع ابكار ، ولكن المنطقة بقيت تسمى بـ (السبع ابكار) ولاجل الفارق والتمييز بين سبع ابكار العمار في بغداد وسبع ابكار الصليخ ان اطلق على هذه الاخيرة سبع ابكار خليل باشا او كرود خليل باشا حتى يومنا هذا ..

الست سكيّنة حسن المصرية في بغداد

وصف لمدينة بغداد سنة ١٩٠٦

كانت بغداد عند اعلان الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ حتى نهاية سنة ١٩١٥ كما شاهدها وانا صبي يافع لم اتجاوز السن الثانية عشرة من عمري ليس فيها شوارع كالتي نراها اليوم طويلة ومستقيمة تخترقها من الشمال الى الجنوب .. ولكن كان فيها عندما ندخلها من الباب الجنوبي الذي نسميه (الباب الشرقي) حسب الاصطلاح البغدادي (١٥) وبعد ان تترك خلفك المعمل الحكومي المسمى (الدباغ خانة) وهو اخر ما بقي من سور بغداد الذي شيده ابو جعفر المنصور سنة ١٠٥٠ هـ (١٦) واتخذة الوالي مدحت باشا معملا لدباغة الجلود الخاص بصنع احذية الجنود وحقائبهم واحتياجاتهم ولوازمهم الحربية الاخرى من هذه الجلود وهو من جملة اصلاحاته المهمة في بغداد سنة ١٨٦٩ واليوم لم يبق اي اثر من ذلك المعمل بينائه العباسي وقاعاته وعمده وعقاداته وعرض أسسه التي تبلغ في بعض قلاعه وركائزه حوالي العشرة امتار حيث هدم هذا المعمل واسس في موقعه محطة نقل الركاب الذي يمتد من ساحة التحرير عند مدخل شارع الجمهورية حتى نهر دجلة في ساحله الذي كنا

نسميه بشريعة (القولة) والذي هو الان مدارج جسر الجمهورية عندما يعلو فوق شارع الرشيد ويلتقي بشارع ابي نواس المشرف على نهر دجلة من جانب الرصافة في الباب الشرقي ..

وكان طول مدينة بغداد من جهة جانب الرصافة من شريعة القولة (بتفخيم اللام) ومن باب الدباغ خانه في الباب الشرقي حتى منتهاها في الباب الشمالي الذي هو باب المعظم ، وكما نسميه نحن بالباب الغربي .. وعلى هذا الاساس تقدر مساحة جانب الرصافة بثلاثة كيلو مترات طولا في زهاء الكيلو مترين عرضا ، وبقدر نفوس مدينة بغداد آنذاك بجانبها بربع مليون نسمة ، وليس في مدينة بغداد كما شاهدتها من وسائل النقل الحديثة الا عدة عربات فخمة (١٧) تجرها الخيول الاصيلة والجباد المظلمة احداها خاصة بالوالي العثماني واخرى للسيد نقيب اشراف بغداد من اسرة آل الكيلاني وانتي يجرها حصان واحد ، وثالثها وكنت اراها افخم العربات من حيث اناقتها وما فيها من ابهة ومهارة في الصنع حيث رصعت بالمسامير الدقيقة المصنوعة من الذهب والفضة والظاهرة على فوانيسها وطاقم سيور عدتها ولجام حصانها انجملين الاصياين ، وكانت هذه العربة خاصة بالسيد داود نجل السيد سلمان نقيب اشراف بغداد وهو عم السيد عبدالرحمن النقيب على بغداد عصرئذ ! ! وهناك عربة رابعة تخص الرحوم العلامة عبدالوهاب الناب ، وما عدا هذه العربات كانت وسائل نقل الركاب كافة من الحمير والخيول الكدش والبغال في داخل البلد .. والسقيفة والمهايل الشراعية للمسافات البعيدة بين المدن والقصبات في نهري دجلة والفرات خارج مدينة بغداد .. اما في داخلها من وسائل النقل النهري الزوارق (البلام) جمع البلم (والبلم تركيبة الاصل دخلت في انعامية البغدادية وتعني الزورق) والتي تجذف بالبلم ، والقفف الكبيرة والصغيرة و (الشخائر) والرمث (الكلك) .. اما البواخر (وهي الزوارق البخارية فكانت تحمل البضائع التجارية والمسافرين والتي تمرر عاب دجلة (دون الفرات) بين بغداد والكوت والعمارة والبصرة ..

اما البضائع التجارية التي تجلب من انحاء اسيا واوروبا وبلدان الغرب الاخرى فكانت تحمل بواسطة البواخر التجارية الكبرى والتي تمتلكها شركتان تجاريتان اجنبيتان ، الاولى تخص بيت اسطيفان ونج المحدودة والثانية شركة (بلوكي كرى

وشركاء ، وكلا الشركتين مؤسستان في لندن وهما من الشركات البريطانية العاملة في العراق ، وكانت بواخرها لا تتجاوز العشر بواخر ..

ولما اعلنت تركيا الحرب ضد الحلفاء وانضمت الى جانب الالمان اخرجت رعايا الدول التي كانت تشكل تضامنا وهو ما يسمى بالحلفاء من كافة الامبراطورية العثمانية ووضعت يدها على ممتلكاتها وبالاخص الممتلكات الانكليزية والفرنسية وغيرهما من دول الحلفاء ، ومنها البواخر التي كانت تعود الى بيت النج وبلوكي كرى واستعملتها لاغراض الدولة الحربية والعسكرية وكان في بغداد جسر واحد نقلته الدولة الى الجهات الجنوبية بين الصويرة والكوت .. وظلت بغداد بلا جسر حتى سنة ١٩١٨ وكان يتم العبور بين جانبي بغداد الكرخ والرصافة بواسطة (البلام والقفف) ما يقارب الثلاث سنوات ! ! !

وكان في بغداد عشرات الطرق والدروب الضيقة والعقود والاطراف والمحلات التي تخترقها طولا من جنوبها الى شمالها بباب المعظم ، وكذلك مئات الدروب التي تتفرع من طولها عرضا والتي تصل بعضها ببعض بطريقة حلزونية متداخلة متلازمة لا تنفك ولا تنفذ الى غيرها وكان شبكة هذه الطرق الخلية المحكمة الصنع .. وكانت هذه الطرق والدرابين تضم في منعطفاتها المئة دار او اقل او اكثر .. ومن هذه الطرق الزقاق الصغير (الدربونة) تصغير وتانيث الدرب الذي جمعه الدروب او الدربونات وتضم مجموعة من الدور المتلاصقة والصغيرة والتي تعد بالعشرات حتى تصل المئة دار ومن عدة درابين تتكون المحلة الواحدة والتي يقطنها غالبا ابناء العشيرة الواحدة وتسمى المحلة بأسمها ...

اما الشوارع والازقة التي تنفذ اليها في جميع مناطق بغداد فلم يكن لها اسماء خاصة بها بل تسمى وتعرف باسمائها الشعبية المعروفة او تسمى باسماء المحلات والاطراف التي تقع فيها او تسمى باسماء الاسواق او اسماء ذوي المهن والحرف واماكن الاخذ والعطاء والبيع والشراء او باسماء ابرز معلم ائري اشتهرت به المحلة ..

فمثلا عندما تصل محلة (الفناهرة) من شارع الدباغخانة وهي اول حي من احياء بغداد عند مدخلك من الباب الشرقي وتنوغل في محلة السنك تنسحب امامك عدة طرق ودروب وازقة ضيقة كما وصفناها تعقدت عليك مداخلها ومخارجها فاذا

وجدت نفسك في شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني وانت خارج من فسحة جامع الشيخ الخلاني المتصل به من محلة الساقية ، فمن هذا الشارع العرضي تتفرع كل مداخل الطرق والمحلات الطولية لمدينة بغداد وكلها تصلك الى مجمعها الرئيسي في الباب المعظم .. وكان شارع الكيلاني العرضي يبتدىء من شريعة بيت النقيب على نهر دجلة في السنك ويمتد حتى يصلك بجامع الحضرة الكيلانية فمقبرة الشيخ الغزالي وهذا الشارع ما زال قائما ..

والان نقف برهة عند الباب الشمالي من صحن جامع الحضرة الكيلانية المقدسة لننظر على ذلك المشهد الرائع حيث جموع النسوة والبنين والبنات والمجانز والشيوخ والاطفال وكلهم تجمهروا بحفل كبير يتطلعون الى تلك اللحظات التي تخرج فيها عليهم الملاية والقارئة المصرية الست سكبنة حسن حديث الساعة في بغداد ، وقد ضاق المكان بتلك الحشود من الناس على سعة تلك الساحة الفسيحة الواسعة امام مخفر شرطة باب الشيخ قبالة الحضرة الكيلانية والذي كان يسمونه اهل بغداد ب (النقش) وهي كلمة تركية والتي تجمهروا فيها ، ولم تبدر اية بادرة من رجال (الضابطة) الجندرية فتقوم بتفريقهم او التدخل في شؤونهم .. وكانت الست سكبنة قد اتخذت من احدى الغرف والاودين في صحن جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني منتجعا لها ومقر سكناها حيث حلت في الجامع المذكور من بضعة اشهر ، وقد اعتادت ان تخرج منه الساعة التاسعة صباحا وتعود اليه الساعة الرابعة مساء تجوب ارجاء بغداد واسواقها تنشد القصائد الدينية والمدائح النبوية بصوتها الساحر الاخاذ فتنهال عليها عبات المحسنين من اهل الخير والجود ..

وقد اذنت ساعة الخروج فطلعت الست على عاداتها فاستقبلتها الجموع الحاشدة بالتهنئات والصلوات والتكبير والتهليل ، وتهاوت عليها النسوة والبنات والفتيات والصبيان يقبلون بديها ووجهها ورأسها ويتمسحون بشبابها تبركا بها وقد احاطوها بهالة من حب وتقدير واحترام .. فنظرت اليها فاذا هي امرأة في سن الشباب لم تتجاوز الثلاثين من عمرها ، ربعة القامة معتدلة الجسم ، سمراء ادمة الوجه على وجهها سمة البداوة واصالة العرب ، اغمض الله جفنيها واخذ منها نور عينيها. وبدت لنا غير مبصرة ولا ناظرة (عمياء) .. وتقدم نحوها رجل بربو عمره على الاربعين فوقف امامها فرفعت يدها اليمنى فوق كفه وسار بها يدها السبيل لتعفي ببطء ثقيل تشق زحام الناس

وتبعثها الحشود تتخاطف امامها وعن يمينها وعن يسرها ومن خلفها كموج البحار يتدافع ويتراطم مع بعضه ، والعم المغربي الدليل كما عرفناه يسير الهويثا وهو متأزر وملثف بعباءته السعدونية (تخته وتخته) اي تخته بيضاء وتخته سمراء وتبرية وعلى راسه عمة بيضاء بحجم العمامة المصرية ، يعني وقد الف الصمت والسكون وكان على راسه الطير ، وكأنه اخرس ابكم لا يكلم ولا يتكلم واتجه الموكب كعادته تسوده السكينة والمهابة من محطة باب الشيخ نحو ازقة بغداد ومحالها واسواقها تشد للناس وتمتمهم بصوتها الساحر وتستيقظ بغداد كل يوم على انغام انشادها ومدائحها النبوية فتحبى القلوب بذكر الله .. واتجه الموكب من محطة باب الشيخ الى سوق الصدرية ، ثم وقف الموكب الفخم عند باب جامع الشيخ سراج الدين في محطة الصدرية ، وهنا ساد صمت عميق والعيون ترو وتطلع الى الست واذا بصوت سكينة حسن تشد بيتين من قصيدة للشيخ محمد البوصيري شيخ اهل الطرائق الصوفيين الرمزيين وسيد شعراء الغزل الالهى وذات النبي الكريم :

كيف ترقى رفيك الانبياء

يا سماء ما طاولتها سماء

قد يساووك في علاك وقد

حال سنا منك دونهم وسناء

وتعالت اصوات المعجبين بالتهليل والتكبير والصلوات على خير البشر، حتى وجدت بعض النسوة يترنحن يمينا وشمالا ويرددن (لا اله الا الله .. لا اله الا الله) على طريقة الدراويش في اذكارهم وقد اخذتهن سورة سمو الروحي فتدروشن على الطريقة الشيعية ..

اما انا فقد سحرني صوت الست سكينة الملائكي وصمقني صمقة مذهلة اثارت في كل احاسيسي وشجوني وانساب لحن صوتها الشجي وانغامه المذبة الرقيقة مع دمي في عروقي . وكان لترنيمة ذي المقاطع الموسيقية العندليبية ذات الصدى الصداح اشعرتني وكان نفسي تطير من بين جوانحي وترفرف باجنحة خافتة ساكنة هادئة كرفيف جناحي الخفاش في الليل البهيم تعلو بي سعدا في اجواء السماء ، في عالم الغيب ، في ملكوت الصفاء والنقاء والخيال ، من هنا عرفت السر في تقدير الناس ومحبتهم وشدة احترامهم للسكينة سكينة حسن وتعلقهم باذيالها تبركا بنفحات صوتها وعدوبة الفاظه ، فكانت دائما تمنحهم بضاعتها

المزجاة من انغام ولحن وسحر وبيان وبلاغة عربية وكلام فصيح بحروف ابجدية لا يتداخلها حروف (الكيم) بدل الجيم ولا كلمة (برئوء) بدل كلمة (برقوق) اي (الكوجة والعنجاص) على طريقة الرطانة العامية المصرية .. والست سكينة حسن مصرية من عرب الصعيد ، واهل صعيد مصر من قبيلة كنانة المصرية الذين نزحوا من الجزيرة العربية ناشرين الاسلام تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيادة القائد العربي عمرو بن العاص في الفتح الاسلامي الاول واستقر اكثرهم في ارض الصعيد جنوب مصر .

اما السبب المباشر لوجودها في بغداد بين سنة ٩١٤ - ٩١٥ ومن جاء بها فذلك اجهله ولعلها قد نظمت سفرات لبعض الاقطار العربية لتمنح ابناؤها بعض ما تمنحنا به وتثير في نفوسهم المشاعر والعواطف الدينية بما تشده من قصائد صوفية في ذكر الله ومدح رسوله وتصف مناقب آل بيته وصحابته .. وعلى كل حال لا يهمني من كل ذلك سوى انني احضر كل يوم وفي وقت الضحى لاستمع وامتع نفسي بصوت الست سكينة واهيم كما يهيم غيري بما ترسله من انغام والحن شجية تهز بها اوتار القلوب فتوقظ في النفس الاحاسيس وتحبى القلوب بذكر الله .. والحقيقة اقولها : كنت بواسطة اوتار حنجرة الست سكينة القوية المنعشة بدات استشعر حلاوة الايمان وافهم معنى الحياة الروحية .

وانظم الموكب وسار من الحضرة الكيلانية فسوق الصدرية فالهيتاويين فجامع المصلوب حتى سوق الدهانة !! (ومن اول هذه السوق تبتدىء اول سلسلة مسقفة بالجمالون (الجمالي) المتخذ من الخشب المغطى بالبوارى والحصران والقصب الملوج بالطين الاحمر حتى اذا ما هطل المطر انحدرت مياهه الى المجاري (المرازيب) ثم تنساب الى الارض خارج السوق .. والقسم الاخر من السوق بني سقفة بالجص والطابوق بشكل معقود على الطراز العباسي القديم على اعمدة حجرية قوية) وتقع هذه السوق في النصف الجنوبي من بغداد حتى منتهى جامع الحيدرخانة في النصف الشمالي من بغداد ثم يتجه الموكب وقد ازدحم اكثر فاكثر نحو سوق السراي فسوق خان الرماح فسوق الفازجية الذي يشمل سوق الهرج القديم وسوق (خان جفان) وسوق الخفافين الذي يحيط بالمدرسة المستنصرية التي اتخذتها الحكومة العثمانية دائرة كمارك ومكوس ثم سوق الحصران والمدات

المصنوعة من ورق البردي فوق الازر فوق الصفافير فسوق انجوخجية فسوق الحبيص والهميانات فسوق الابريس وخان الزرور والقياطين وسوق الجايف وخان دلة للتجارة والفومسيون وسوق البزازين واسواق لم نذكرها وسنأتي على ذكرها فيما بعد !! فهذه الاسواق كلها كانت مستقفة بالجمالون في الوقت الذي لم يكن في بغداد شارع حديث كشوارعنا الحالية ، ففي ذلك الزمن لم يكن في بغداد لا شارع الرشيد ولا غيره من الشوارع العلوية والمرضية المنظمة العصرية .

وعادت الست سكية للقراءة والانشاد بنغم الحجاز موالا .. مدائحيا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من نظم مطلعته :

يا حسادي العيس يا نلسي للنبي رابع!!

خذني معاك ازور قبر النبي واشتم الروائح!!

وظلت تردد هذا الموال عدة مرات حتى خرجت من سوق لحم البقر في الدهانة وسوق الفزل والقطن وسوق علاوي الحبوب نهاية سوق الدهانة وعند مدخل سوق الشورجة حتى انشدت هذه الارجوزة المدائحية !!

صنوا على احمد يا الحاضرين

خير البرايا في العالمينا

فيردد الجمهور الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما ، بلحن ابقاعي : وهي مستمرة بالقائنها وانشادها وحماسها الديني الصوفي العذب المتسق : حليلة لما رات انواره قد اشرقت .. مالت اليه وعانقت وقالت : هذا .. هذا نبينا !! خير البشر نبينا : صلوا على من جاءنا بالحق اظهر ديننا !!

والجمهور يردد الدور : صلوا عليه وسلموا تسليما

وسار الموكب وقد وصل علاوي التمسور والفاكهة في الشورجة وسوق الكوازين (الحباب والخباب والبسابق والشارب الفخارية الطليبة بخليط القاشاني) والمواد الزجاجية « السراميك » وسوق الغرابيل والمناخل (وهي المصنوعة من اوتار امعاء الحيوانات « المصارين » المنسوجة منها والمحبوك الناعم الدقيق ومنها المخرم الواسع ويسمى واحده منخلا وغالبا ما يستعمل لتخل اي تصفية الدقيق من مطحون حبوب القمح وغيره لعمل الخبز منه ، والمخرم الواسع يسمى بـ « الغربال »

او « الغريل ») .. وفي نهاية سوق الشورجة الكبير ينتهي عنده سوق البقال خانة وفيه تباع اصناف البقالية والفواكه والاعشاب الصيفية والشتوية الطازجة المحلية والجافة المستوردة من الهند وايران وتركيا ومن عمان وبقية امارات الخليج العربي والاحواز ويكون من ضمن هذه السوق سوق اخر هو سوق المواين والفرفوري والاولاني الزجاجية والفخارية المستوردة من الصين واليابان وروسيا على اختلاف اشكالها واحجامها وكانت تصنع خصيصا لتلائم الذوق البغدادي ومقتضياته (الضرورية) ويختم سوق الشورجة بسوق المعاضد والاسوار وادوات الزينة النسائية كالودع والدهش والمسابيح والقلائد المصنوعة من الزجاج الملون الرخيص ، وما اشتهرت به هذه البضائع الزجاجية فرع من السوق (دربرونة) العلامة حسين بن روح احد الفقهاء والعلماء البارزين من ائمة المذهب الاثني عشرية الامامية والذي توفي في القرن الثالث الهجري ودفن في داره في الشورجة وقد اقيم له مسجد في العهد العثماني وقد تجدد عدة مرات وما زال عامرا تؤمه الناس للصلاة) .. ومن هذا الحد يبدأ سوق المطارين (سوق المطاطير) حسب الاصطلاح البغدادي ..

والناظر الى الست سكية حسن وهي بملاءتها اي ازارها او عباءتها يتبادر الى الذهن لاول وهلة انها مصرية تسير في شارع سيدي الحسين من ازقة وسكك القاهرة بانشادها وطاخمها البشري من المحبين والمريدين وكان بغداد بمن فيها صارت القاهرة حيث لم تالف مثل ذلك من قبل ..

وعند بداية سوق المطاطير الى جامع مرجان (وهو السوق الكبير الذي يباع فيه كل شيء ، تحتاجه العائلة البغدادية المتحضرة وفيه عدة مخازن واناير اي خانات وعناير خاصة بالتجار المستوردين والمصدرين وباعة المفرد والجملة من السكر والشاي الحديث العهد في بغداد والبهارات والافاوية والصايون والعقاقير والاعشاب النباتية الطبية التي تجلب من الصين والهند والافغان وبلاد بخارى وما وراء النهر ومن بلاد سمرقند وطاشقند ومرو) ، وكنا نرى في هذه السوق التجار والباعة واصحاب اندكاكين والعمال والحمالين وعيونهم محدقة واعناقهم مشرربة وانتباههم مرهف الى صوت مدائح وموالات وموشحات وارجيز وقطع الابيات الشعرية من تلاحين وثرانيم الست سكية حسن (الاوكسيرا) العظيم عدا الموكب الشعبي الذي

صحابها من الحضرة الكيلانية المقدسة والذي قادته
سكينة وشدته اليها بما تملك من مواهب نادرة كانت
تفتقر اليها بغداد .. ومن هنا بدأت تنشأ بعض
الابيات الشعرية من نظم شاعر الرسول حسان
ابن ثابت ومن قصيدة طويلة صدحت بها من نظم
الصبا جعلت الناس هادئين تسودهم الدهشة ولا
تسمع منهم إلا نبرات الإعجاب ورنات وآهات
انتزعها من صدورهم الكلمة وهي تفرد وليس
تغريد العنديل وهي تسجع وليس سجع الحمام
وتقرأ من هذه القصيدة :

الم تر يا ان الملامسة نعمها

قليل اذا ما الشيء وثى وادبرا

تهيج البكاء والندامة ثم لا

تغير شيئا غير ما كان قدرا

اتيت رسول الله اذ جاء بالهدى

وينلوا كتابا كالمجرة نيرا

اقم على التقوى وارضى بفعلها

وكن من النار المخوفة احذرا

وظلت تردد هذه الابيات بعدوبة وموسيقية
مدهشة من جامع مرجان حتى سوق البزازين
وسوق الوفاية (الكبيجية) حتى قهوة العنبار في
المصبغة وخان الدفتر دار وسوق السرجية وخان
الشابندر المجاور للمحكمة الشرعية .. وتنهل
عليها الهبات والمطاءات والهدايا النقدية من قبل
جمهور المستمعين واهل الخير والصلاح فيأخذها
شيخنا الدليل المغربي وهذا الحد هو اخر الاسواق
المسقة الكبيرة التي ابتدأنا من سوق الدهانة
حتى جامع الجدرخانة وسوق الميدان وسوق
الراي كما قدمنا وذكرناه سابقا بما فيها الاسواق
الفرعية كسوق الحدادين والتنجية والتكمجة
والاسكجة (بياعة الاحذية القديمة المستعملة) وسوق
باب الاغا ومدخل العاقولية وسوق المولى خانة برأس
الجسر من جانب الرصافة ولو ان في بغداد كثيرا من
الاسواق المهمة في انحاءها الاخرى ومحللاتها القديمة
الا انها ذات جماليات ومعقودات قصيرة غير متصلة
بمجموع الاسواق الكبرى ذات السقوف الجمالية
مثل سوق الفضل وسوق قمر الدين والصابونجية
وسوق قنبرعلي وسوق حنون وسوق ابو سيفين
وسوق ابو دودو وسوق رأس القرية وسوق
الصدرية وسوق القاطرخانة وسوق العوينة وغيرها
من الاسواق الصغيرة وهناك اسواق صغيرة ومحلية
اخرى الا انها مكشوفة غير مسقوفة مثل دكاكين
حبوب وسوق التسابيل وسوق قهوة شكر وفضوة

عرب وما اليها وكل هذه الاسواق تمتد في ما يقارب
الى نصف بغداد القديمة من ناحية الرصافة ولها
مداخل ومخارج وتكون غير مستقيمة متعرجة
وضيقة جدا في بعضها .

وتستمر الست سكينة حسن في انشادها
ومدائحها والجموع وراءها تردد دور انشادها وهي
مارة امام جامع العدلية الكبير والمحكمة الشرعية
وحمام القاضي وشريعة الوالي وشريعة النواب من
محلة رأس القرية وسوقها وحمام حيدر القابل
محلة الجنابيين ومركز شركة اسطيفن لنج التي
اتخذتها الحكومة العثمانية مركزا للشرطة (البوليس)
لانضباط قانون البوليس النظامي ثم تمرج شطر
جامع امين الباجهجي ومنازل آل الباجهجي وبيت
الزبيق في محلة العمار وسبع ايكار ومدخل معامل
النسيج والخياطة ومعامل الحدادة والنجارة
الحكومية في المباشانة (اعمال خانة فابريقهسي)
التي هي مدخل محلة القاطرخانة وسوقها الكبير ..
وهنا يأخذ الموكب بالسير السريع وتنشد الجموع
اناشيد ايقاعية فترقص لها الصبية والاولاد والبنات
ويتوقف الانشاد قليلا حين تمر الست سكينة حسن
من جامع السيد سلطان علي مبعدة وجهها نحو محلة
الربعة ومنها نحو شارع الشيخ عبدالقادر الكيلاني
ثم في طريقها تمر بساحة الخلاني في محلة رأس
الساقية وتلك سبيلها حتى تغيب عن الانظار في
فناء جامع سيدنا الشيخ عبدالقادر الكيلاني قدس
الله سره وعطرا الله فريجه واعلا مقامه حيث دلفت
الى حجرتها لتستريح من عناء رحلتها اليومية
المتعبة في اسواق بغداد وطرقاتها التي تسفرق في
الغالب السبع ساعات كاملة ويتجدد الموكب ضحى
كل يوم حتى تعود اهل بغداد التجمع حول بيوتهم
ومنازلهم ومحال اعمالهم ومهنهم وحرفهم ليشتفوا
اسماعهم بمدائح وانشاد وقصائد الست سكينة
ويعتصروا انفسهم بعدوبة الالفاظ وسحر البيان
ورخامة الصوت الذي تسحرهم به دائما ..

والحق انني سمعت كثيرا من اصوات النساء
اللائي وهبن الله قوة الحناجر وعدوبة ورقصة
الصوت وفن اداء الترانيم والغناء الذي يسمو
بالارواح نحو اللطف والكمال وتهذيب المدارك
والافهام لم اناثر بشيء من هذا ما تأثرت به من
صوت ومهارة غناء الست سكينة حسن .. فقد
سمعت صوت منيرة المهدي ومولاتها وقصائدها
المقناة وسمعت وانا طفل غناء الست طيرة المصرية
واغانيتها وصوتها العذب الذي سحرت به عقول
واذواق الشباب البغدادي وذلك سنة ١٩٠٦ ..

كما سمعت صوت وغناء السيدة أم كلثوم سنة ١٩٢٢ أميرة الطرب والغناء ، ثم سمعت غناء (نادرة) وغيرها من شهرات المغنيات والمطربات المحترفات فتلاشت هذه الاصوات كلها امام صوت الست سكيئة فلم يستهوني ولم يؤثر في اعماق احاسيسي وشعوري ولم يسحرني ويشير حماسي الى الفن والترنيم في تلاوة السيرة النبوية ومناقبها مثلما اثر في من صوت وغناء الست سكيئة الفاضلة الكريمة والمرأة الزاهدة المؤمنة والتقية الورعة .. جاءت بغداد فلم تغني لاحد ولم تحضر حفلة طرب من الحفلات الخاصة ولم تحترف الغناء ليدر عليها المال من كل جانب وان ما تحصل عليه من هبات المعجبين يوزع الى فقراء بغداد وبالاخص منهم فقراء الحضرة الكيلانية بعد ان تفتت بشيء يسير منه ولو فعلت لكنت من اثري المغنيات في العالم العربي .. ولم اكن مغاليا اذا قلت اني افضل حنجرة الست سكيئة على حنجرة ام كلثوم على ما عرفت به من موهبة خارقة في فن الغناء ومكانة وشهرة في المجتمع العربي والشرقي .. بل كرست الست سكيئة حياتها وفنها وانشادها لخدمة مدح الرسول والترانيم والموشحات الدينية والعناية الفائقة في تلحين وانشاد السيرة النبوية الخالدة ..

ومرت الايام وتوالى السنون وبدا العالم ينفض ما عليه من غبار الحرب العالمية الاولى وبدأت الامور تعود الى مجاريها الطبيعية وبدا اهل بغداد يستعيدون ذكرياتهم مع الست سكيئة حبيبنا المصرية وبدا النشاط يدب في اسواق بغداد ومحالها التجارية ..

وفي ذات يوم استهواني حب الاستطلاع فدخلت محل شركة (بيضافون كمپني) لبيع الات الحاكي (فونوغراف) والاسطوانات المتنوعة وذلك سنة ١٩٢٥ وكان ذلك في سوق راس القرية وطلبت فهرسا ودليلا باسماء ما موجود لدى الشركة من الاسطوانات .. وبينما انا اقلب صفحات الكراس وما فيه من اسماء المغنين العرب على اختلاف اقطارهم اذ وقع نظري على اسم عابر اعرفه جيدا فدققت النظر وحدثت فيه بملء بصري ونظرت اليه بدقة وانتباه اثار شعوري وهزني كما هزني اول انشاد سمعته من الست سكيئة فاذا انا باسطوانات الست سكيئة حسن القرنة الحافظة وعددها اربع اسطوانات من سورة يوسف ، فتقدمت نحو بائع الشركة وطلبت منه الاربع اسطوانات دفعة واحدة وسأومته قيمتها فطلب مني (ثلاثين روبية) وهي العملة الهندية الانكليزية المتداولة في العراق بعد

الاحلال فانقذته المبلغ ورقا بنكنوت واخذت اسطواناتي وحظيت بترتيل اعظم مجودة وقارئة للقرآن الكريم من النساء بصوت عذب شجي والقاء صوفي الهامي وحنجرة قوية ونغم مرخم ذات مقاطع موسيقية وهي تتصرف بادائها الترتيلي مما ياخذ بمجامع القلوب المستأنسة بذكر الله من كلامه الكريم .. وهل كنت اصدق بانني في يوم من الايام ساسمع ذلك الصوت الذي فقدته بغداد ، صوت الست سكيئة واسمع منها ترتيل القرآن الكريم .. كم تملكني من شعور واحساس حين قبضت على الاسطوانات الاربع وتملكتها فوالله كاني تملك الدنيا كلها .. وبقيت سنوات وانا اسمع ترتيل القرآن من هذه الاسطوانات ومن الاكرامافون الذي بحوزتي حتى عفى عليها الزمن وامحت آثار الصوت من تلكم الاسطوانات حتى بطل مفعونها .. وذهب الزمان بالاكرامافون وحل محله الراديو في الثلاثينات وسمعت من اذاعة مصر ومن مقرني القرآن الكريم فلم اسمع في يوم ما صوت الست سكيئة حسن مع ان لها تسجيلات كثيرة على الاسطوانات .. ودخلت سنة ١٩٤٠ وبينما انا اتصفح احدى المجلات المصرية فقرات نعي المرحومة الست سكيئة حسن رحمها الله فحزنت على موتها حزنا عميقا .. ولا تزال تتردد على مسامعي اصداها ترتيلها وانشادها كلما سمعت صوت ام كلثوم يصدح على امواج الاثير . وفي يوم ما ذهبت الى السينما لمشاهدة احد افلام مطربة الشرق والامة العربية السيدة ام كلثوم وهو فلم (سلامة) وهي ترتل بعض آيات القرآن الكريم فاستبان لي الفارق بين الترتيلين فكان البون شاسعا وكبيرا بين الادائين بصوت السبدين المذكورين ..

ذكرياتي عن الحرب العالمية الاولى وما صاحبها من احداث في بغداد

وقد حدثت احداث زمنية قبيل سنة ١٩١٥ منها الطبيعية ومنها الاخطاء في القيادة العسكرية : فمن هذه الاخطاء العسكرية التي اثرت فينا اي تأثير : انه في سنة ١٩١٤ اعلنت الحرب العالمية ودخلتها الدولة العثمانية بجانب المانيا ضد الحلفاء وجردت لها حملة عسكرية قوامها عشرون الف جندي مقاتل من لواء بغداد وقضاء الكاظمية وقضاء سامراء وبعض الاقضية التابعة لبغداد والاقضية التابعة الى لواء ديالى وسفرتهم الى شمال شرقي تركيا وعلى سفوح جبال القفقاس المتاخمة لتركيا لجابهة القوات الروسية المهاجمة على حدود تركيا

وحدودنا الشمالية في مناطق الاكراد .. فصادف ان تساقطت الثلوج بكثرة هائلة على جبال القفقاس واشتد البرد وانهارت القطع الكبيرة من الثلوج على مخيمات الجنود العراقيين الذين لم يالفوا برد الطبيعة وثلوجها فدقتهم تحت هذا الركام من الثلج فماتوا الا قليلا وهذا القليل الذي نجا من الموت وفر من هول الكارثة وقع اسيرا في قبضة الجيش الروسي ، وعلى اثر ذلك تجمدت بحيرة (وان) (١٨) وصدرت اوامر احد القادة الانراك - وتحت امرته كثير من الجنود العراقيين - الى قطع جيشه بالسير فوق البحيرة المنجمدة فلما منه انها تحملهم وعتادهم وخيولهم لانها متجلدة صلبة فما اجتازوا واوغلوا في منتصفها الا وانفجرت وغاص الجيش تحتها بما فيه من رجال وسلاح ومون وخيول وقد غمرتهم مياه البحيرة غرقا والذين لا يزالون يسرون خلفهم على ارض منجمدة تماما لما شاهدوا ما حل باخوانهم من الفرق والدمار اخذهم هول المصيبة وسادهم الفزع والخوف والهلع فهاموا على وجوههم تيه في تلك الاكسام والجبال والثلوج فماتوا من شدة البرد والجوع والتعب وفشت الوبئة المختلفة بالبقية الباقية من الجيش ولم ينج من تلك الحملة والتي يقدر عددها بعشرين الف جندي عراقي الا المائة او المائتين منهم على اكثر تقدير .. ونالت اخبار النكبة على بغداد الشكلى فجعلت في كل بيت من بيوتها مناحة وعزاء وجزع نساؤها على ابنائها فلطمن الخدود وشفقن الجيوب ونثرن الشعور واكتست بغداد ثوب الحزن وظلت هذه الفاجعة ذكرى مؤلة تروىها الاجيال بعد الاجيال ..

والامر الطبيعي : هو الفيضان الهائل الذي اغرق بغداد ودمرها برمتها ولم ينج منه الى بعض المحلات العالية المرتفعة التي لم يصلها الماء . اما الاطراف والاماكن السكنية المنخفضة فقد غمرتها المياه وفر اهلاها الى الاماكن المرتفعة حيث بيوت الاقرباء والاصدقاء والجوامع والكنائس يحتمون بها وينجون بانفسهم من طغيان دجلة الذي داهم بغداد على حين غرة فكنت ترى البيت الذي كان يستوعب عائلة او عائلتين قد ازدحم ببضعة عوائل بما فيهم دوابهم وانعامهم ، والدار الذي لم تفرقه المياه فقد هدمته الرطوبة واحالته خرائب تنشق فيها البوم .. انها لمصيبة وما اكبرها واعظمها من مصيبة شاهدها وانا صبي وما ازال اتذكرها فتشير في نفسي مكانم اللوعة والاسى .. وكان ذلك في ١٥ و ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ .

ولم تكد كارثة الفرق ان تهدأ بعد هبوط مناسب نهر دجلة وروافده الا وفوجئنا بخطر الحريق (١٩) الذي اتهم محلة العوينة وقسما من محلة المربعة وقسما من محلة الصدرية ومحلة الشيخ سراج الدين وقسما من محلة الحاج فتحي .. اما كيف حدث هذا الحريق المروع الهائل فاليك بيانه : لما اعلنت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ وضعت الدولة العثمانية يدها على الاموال الاجنبية التابعة لاشخاص وشركات دول الحلفاء اعداء الدولة فسفرتهم الى خارج ممالكها وكانت شركة (لنج) وشركة (بلوكي كرى ومكنزي وشركاهم) البريطانيتين والتي تمتلك في بغداد كثيرا من محلات التجارة والاستيراد وبواخر كما بينا ، فكان لهما كذلك مستودعات بترولية وغازية ونفطية جمعتها الدولة في علوة المخضرات في العوينة لسمتها وكبر فنائها الذي استوعب اكبر كمية من صناديق النفط والمواد الاخرى القابلة للاشتعال السريع وفي صبيحة يوم من ايام شهر ايار سنة ١٩١٥ علا الجو دخان فاقم ساخم انتشر بسرعة هائلة فعم سماء بغداد واعقبه ضرام نار حادة وحدث بعدها دوي مخيف امتدت على اثره السنة النيران الى عنان السماء وظلت النيران تضطرم خمس عشرة يوما بلياليها .. وفي خلالها دعا داعي الحمى ليقوم الاهلون بواجبهم فهبوا شيبا وشبانا نساء ورجالا فاقترحوا النيران المستمرة وخاضوا ماء التريز حول العلوة وانتشلوا البقية الباقية من صناديق الوقود وصفائح النفط التي لم تصلها النار بعد .. وقد التهمت النيران خلال الاربع عشرة يوما زهاء الثلثمائة دارا وخانا ودكانا الامر الذي جعل اهل بغداد يقمون في ضيق وخرج سبب بعض المجاعة من جراء هذه الحرائق والفيضانات وانتشرت الوبئة في انحاء بغداد كالطاعون والتيفوئيد .

وفي خضم هذه المكاره والنوازل المحقة فتح الحلفاء الجبهة الشرقية في العراق واحتل الانكليز البصرة والعمارة حتى وصلوا الى الكوت .. واخذ الانراك يجندون الشباب والصبيان ممن لم يجند من قبل لان جميع ابناء بغداد جندوا وارسلوا الى القفقاس وهلكوا جميعا الا ما ندر كما قدمنا وذكرناه من قبل .. حتى انا وان سلمت من الموت فلم اسلم من مرض التيفوئيد لمدة اكثر من سنة حيث لا طبيب ولا دواء ولا معالجة في المستشفيات ولا رجال ولم يبق في بغداد بعد هذا التجنيد غير الاطفال والنساء والشيوخ والامراض والقحط والمجاعة وتوالت علينا الفواجع المتوالية فانستني حتى نفسي واوجاعي

والآلام التي بقيت اعاني الامرين منها وما ان تقهت من مرضي حتى تم تسفيري الى جسر ديالى في الزعفرانية لحفر الخنادق (السويبات) للدفاع عن بغداد ضد الانكليز المستعمرين .. ولاول مرة بعد ابلالي من مرضي في اوائل سنة ١٩١٦ بوشر بشق شارع جديد طويل يبدأ من باب المعظم الى الباب الشرقي وفي مطلع سنة ١٩١٧ تم افتتاح الشارع من قبل والي بغداد خليل باشا وثبتت بعض الكتابات على جدران جامع السيد سلطان عيسى بالخط الفارسي (خليل باشا جادة سي) وجاء الانكليز ودخلوا بغداد بدعوى انهم جاءوا محررين لا فاتحين . وكان يوما مشؤوما هو يوم ١١/٣/١٩١٧ الذي دخل فيه الانكليز بغداد وكان حالهم اسوأ على العراقيين فقد لاقوا منهم ما لاقوا من عننة وعجرفة وكبرياء مما لا يطاق مما عجل بالثورة العراقية سنة ١٩٢٠ (١٩٢١) وانتهت بقيام الحكم الاهلي الملكي في العراق .. وهكذا اسدلت صفحات سوداء تحت ظل الاحتلال العثماني وظروف الحرب العالمية وسيطرة المستعمرين الانكليز

ذكرياتي مع مريم نرمة من اوائل الصحفيات في العراق

معرفتي بالسيدة الفاضلة مريم نرمة سنة ١٩٢٤ اذ كانت تسكن دارا في محلتنا (القاطرخانة) مقابل شرطة العباخانه التي هي اليوم بناية الثانوية الجعفرية في شارع الوئبة وبحكم الجوار دعنتني السيدة لزيارتها في بيتها فلبيت الدعوة ، وشربنا القهوة وجرى بيننا الحديث عن الصحافة والادب والكتاب والضجة التي بدأ يثيرها بعض الشباب المتطرف حول سفور المرأة وتبرجها ومناصرة الدعوة الى تحرر المرأة وسفورها متأثرين ببعض الكتاب في مصر حيث الدعوة بدأ لها رواج من بعضهم وكانت السيدة مريم متأثرة اشد التأثر من حملتهم الشمواء على الحجاب والدعوة الى التبرج والسفور المطلق في بلد لا تسمح ظروفه الاجتماعية ان تروج فيه مثل هذه الدعوات ودون ان تسبق ذلك دعوة الى تعليم المرأة وتنقيتها وكان من هؤلاء الشباب الاساتذة مصطفى علي وحسين الرحال وعوني بكر صدقي واخوه لطفي ومحمود السيد ، اذ أصدروا صحيفة يحررون فيها ما يلائم فكرتهم ويروج لدعوتهم .. وكانت السيدة مريم كلها ثورة ونقمة على هؤلاء الشبان ، وكلها نار حامية على الاوانس والسيدات اللواتي انسقن وراء هذه الدعوات من غير تبصر وروية وفي نظرها ان تكون مرحلة تعليم

المرأة الخطوة الاولى لتحريرها من كل الانكسار والاوهام التي تسيطر على عقليتها وبعد ذلك فعلى المرأة هي التي تقرر مصيرها بنفسها ، فالجهل آفة من الآفات الاجتماعية الخطيرة التي يجب القضاء عليها بكل ثمن وعلى هؤلاء الشباب ان يصرفوا الجهد الى ذلك .

وكانت السيدة مريم امراد جاوزت العقد الثالث ، متزوجة ولكنها عقيم لا تنجب ، محافظة ومتدينة ملازمة البيعة في الكنيسة تصلي بكرة واصيلا ، ترتدي الملابس الطويلة ، وتلتفع بازار يضم اطراف جسمها ولا يظهر منها الا الوجه والكفان ونباسها شبيه باللباس الشرعي الاسلامي العربي الذي كانت ترتديه المرأة المسلمة في الحواضر والبادي والارياف .. وكانت تصب جام غضبها على (...) وعلى شقيقها (...) ، لانها اول فتاة عربية مسلمة نزعت حجابها واسفرت سفورا مطلقا .

وكانت السيدة مريم تكره قاسم امين صاحب هذه الدعوة في مصر وتعتبره اصل البلاء لانه اول من نادى بحقوق المرأة وتحررها من القيود ودفعها الى اوضاع المجتمع الممزق المنهري من الاداب تقليدا للمرأة الغربية ... والمرأة المثالية عندها هي الكاتبة والشاعرة والاديب « ملك حفني ناصيف » المرأة المثقفة ثقافة عالية ولكنها في نفس الوقت غير متبرجة ولا سافرة سفورا مطلقا متحجبة حجابا معتدلا ، فكانت ملك تكتب وتنظم القصائد وتدبج المقالات في الفضيلة والحشمة والاخلاق في مجلة « المقتطف » المصرية باسم « باحثة البادية » بمقالات متسلسلة تباعا ، وهي المرأة التي وضعت الخطة الناجحة والقدرة الحسنة لتحرير الفتاة والمرأة العربية وذلك عن طريق التحلي بالاداب والفنون والمثل والتعلم .

وكانت السيدة مريم تنظر الى السفور كفضة ثانوية فاللباس لا يغير شيئا من طبيعة المرأة اذا عرفت نفسها وما لها وما عليها .. الا انها اي السيدة مريم لا تؤمن بالطرفة والقفرة السريعة التي تحركها الاهواء .

وكانت السيدة مريم ذات نزعة اصلاحية اجتماعية متأثرة ببعض الكتاب الغربيين ومنهم الكاتب الاجتماعي « جون سيمون » ونقده حالة المرأة الاوربية والغربية على تنكرها وتمردا على واقع الحياة الزوجية .

وفي عام ١٩٢٨م اخبرتنى السيدة مريم بانها

عزمت على اصدار مجلة ادبية عنوانها « فتاة العراق » (٢٠) .. وفي عام ١٩٣٢ زرناها في دارها الجديدة التي اشترتها في عقد المريض من المحلة ذاتها ، وقرات لوحا من الخشب على واجهة باب دارها عليها (ادارة مجلة فتاة العراق) فاستبشرت خيرا . فطرفت الباب واستاذنت بالدخول فاستقبلتني السيدة مريم بالترحاب الحار والاستئناس وقدمتني الى شخص لم اكن اعرفه من قبل وقالت له : اقدم لك (اخي) وقالت لي : اقدم لك صديقي الاستاذ الكاتب الاديب (يونان عبو يونان) فرحبت به وفرحت بلقائه لاني كنت كثير الاعجاب بكتابات ومقالاته في الصحف والمجلات عن الاصطيفاء في ربوع الشمال الحبيب وعلى الاخص عن « سر عمادية » و « زاوته » و « بامرني » و « تل اسقف » و « بعثيقا » ومصيف « ديرمتي » وغيرها من المصايف العراقية .. وفي الحقيقة كانت كتابات الاستاذ يونان شيقة وممتعة ومحبة للنفوس وتروغها لزبارتها والاستمتاع بجمال الطبيعة فيها .

وفي نظري ان يونان اول ذنعية اعلامي ومرغب المصايف العراقية منذ سنة ١٩٢٦ حتى اواخر الثلاثينات عند بدء الحرب العالمية الثانية .. واردفنت السيدة قولها : ان الاستاذ عبو سيكون رئيس تحرير مجلتي .. وفي سنة ١٩٣٤ صدر العدد الاول من مجلة « فتاة العراق » وفي العدد الثاني ساهمت بتحرير مقالة بقلم عنوانها « وجوب العناية باللغة العربية في المدارس الاهلية » واقصد بها المدارس المستقلة عن المنهج الوزاري وعلى الاخص المدارس الاجنبية والطوائف الدينية منها .. وصدر العدد الاخر ولم يصدر عدد رابع حتى كتابة هذه السطور اي في سنة ١٩٦٩ ، واخبرتني السيدة مريم انها خسرت مائة دينار بسبب اصدار هذه المجلة التي لم يكتب لها الرواج والتوفيق وظلت اللوحة في مكانها تملو باب دارها الى ما بعد انتهاء الحرب تحمل اسم المجلة !! ..

وغمرتنا الحرب العالمية الثانية بما تحمل من مآسي وويلات ، وتبدل الزمن وتغيرت الدنيا وحدثت احداث وانقطعت علاقتي بالسيدة مريم فلم اسمع عنها شيئا .. وفي يوم من ايام سنة ١٩٤٧ بينما كنت اسير في شارع « حافظ القاضي » في الكرادة الشرقية لفت نظري لوح قديمة عتيقة سبق ان

الفتها فتفرستها ودققت النظر فيها فاذا بي امام تلك اللوحة التي تحمل ادارة مجلة فتاة العراق والتي طالما كنت اراها مثبتة فوق باب دار السيدة مريم بمقد المريض لم تتغير ولم تبدل هي نفسها مائلة امام عيني ، فسألت عن صاحب الدار ، هل هي السيدة مريم نومه ؟ ! فاجبت بالايجاب الا انها الان غير موجودة واظن ان اللوح موجودة الى الان ولكنني لا استطيع الوصول اليها لمرضي الذي اعاقني واقعدني فاصبحت رهين الحبسين ، المرض والشيخوخة ..

والذي علمته من السيدة انها تعلمت في مدرسة الراهبات القديمة واشتغلت بالتعليم الخصوصي لتدريس بنات ذوي الوجاهة ورجال الحكم في بيوتهم ، وكان زوجها (العم منصور) موظفا في الكمارك والمكوس وهو رجل طيب القلب ، دمث الاخلاق ، هادئ النفس ..

هذا كل ما اعرفه وذكرياتي عن السيدة المحترمة مريم نومه وعن انتاجها وتاريخها الادبي والصحفي والعلمي ، وقد ذكرني به بعض ما كتبه عنها السادة الافاضل : عن قدم صحفية عراقية مريم نومه ام بولينا حسون ؟ ! (٢١) .. وكلتاهما قد اشتغلنا بالكتابة والصحافة في آن واحد الا انه صدرت مجلة « ليلي » لبولينا حسون في اعداد ستة ١٩٢٤ او ١٩٢٥ وصدرت منها بضعة اعداد ثم احتجبت عن الصدور ، وبولينا كانت على نقبى السيدة مريم ، فكانت عصرية في زبها ونشأتها ، متحررة في تطورها واشتغلت في التعليم النسوي في المدارس الرسمية العراقية ، وبعد هذه السنوات لا اعلم عن السيدة مريم شيئا حتى يومي هذا (٢٢) .. واما الذوات الافاضل الذين وردت اسماءهم في هذا البحث فعلى ما اعلم : فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر فنرجو الماعدة عما بدا منا تجاههم من هفوات .. وما ذكرناه للتاريخ والتاريخ فقط ..

الدكتور داود الجليبي (٢٣)

بمناسبة اهتمام محافظة الموصل (نينوى) بافتتاح مكتبة المرحوم الدكتور داود الجليبي الذي خصص من املاكه وجعلها وفقا خاصا لهذه المكتبة التي تضم آلاف المجلدات ومنها المخطوطة النادرة والكتب المطبوعة النفيسة القيمة وبمختلف اللغات (٢٤) .. وجعل هذه المكتبة (٢٥) بما فيها من

بنايات وفاعات وأثاث ورفوف ومناضد ومقاعد خاصة للمطالعة وسجلها وقفا رسميا خصصت لخدمة المواطنين من أبناء الموصل الحذباء والحق بها بعض المستشفيات والمقارن يصرف ريعها وعوائدها على شؤون هذه المكتبة وعلى ما تحتاجه من كتب وموسوعات وتوسيعات في ملاكها في المستقبل ، وهي واقعة في محلة باب الدواصة في مدينة الموصل الفيحاء .. ووجود مثل هذه المكتبة مفخرة من مفاخر أبناء العراق في هذا القرن الذين يجعلون الثقافة للجميع ويرصدون لها الاموال من اجل نشر العلم والثقافة بين أبناء الجيل وفي مثل هذه المدينة العريقة الطبية ..

وجدت بنا ان نلمح ولو باختصار واقتضاب عن ترجمة حياة المرحوم داود الجلي .. ولد داود الجلي في مدينة الموصل في اواخر سنة ١٨٧٩ (٢١) من سلالة اشتهرت بحرفة الطب والتطبيب قبل قرنين من الزمان او اكثر في مدينة الموصل ، ولجل المهنة .. وبعد ان اكمل الدراسة الاولى ومبادئ العلوم في مدارس الموصل والمكتب الاعدادى الملكى دراسته في اللغات في مدرسة الرسالة (الدومنيكية) وبعدها رحل الى الأستانة فدرس الطب في المدرسة الطبية العسكرية فيها ، وخدم في الجيش التركي الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ثم عاد الى العراق بعد الهدنة وبعد الثورة العراقية وتشكيل الحكم الملكى في العراق عاد الى الجيش واشتغل في مديرية

الامور الطبية في وزارة الدفاع برتبة زعيم ، وكان احد الاعضاء في لجنة تدقيق المعاهدة العراقية - البريطانية .. ثم عين مديرا للصحة العامة ، وبعد احواله على التقاعد سنة ١٩٣٣ اشتغل بالطب في عيادة اهلية في الموصل خاصة به .. نال وسام الرافدين من النوع العسكري وشارك في جمعيات خيرية وطبية واجتماعية .. يتقن كثيرا من اللغات الاجنبية الى جانب اللغة العربية كالفارسية والتركية والفرنسية وشيئا من اللغة الانكليزية .. وكان ولما بافراط في جمع الكتب واقتناء النادر والتفيس منها منذ شبابه حتى استطاع ان يكون من هوايته المفضلة مكتبته العامرة الذي نحن بصدد ذكرها .. وقبل سنوات من وفاته اقعدته واهنته الشيخوخة فلازم بيته حتى اسلم الروح الى بارئها في مدينة الموصل مستقر راسه في ٢٨ ايار ١٩٦٠ .. وقد عاش الدكتور المرحوم داود الجلي عمرا مديدا كريما نيف على التسعين عاما ..

وله من التأليف : (٢٧) (مخطوطات الموصل) وكتاب (الآثار الارامية في العامية الموصلية) ، وكتب الموضوعات ونشر المقالات في مجلة لغة العرب لانستاس الكرملى ، وله بعض التصانيف غير المطبوعة للجاحظ وكتب اخرى لابن فارس وبعض المقالات والبحوث في مختلف المجالات والصحف المحلية والعربية في مصر ، ومراسلة الصحافة العربية والاجنبية بمختلف اللغات ..

الهوامش والتعليقات

من وسطها .. ولي هذه المحلة مسجد آل الباجهجي الذي ذكره المرحوم العلامة محمود شكري الالوسي في « مساجد بغداد » : ان هذا المسجد في محلة نهر الملى الشهيرة اليوم بمحلة سبع ابيكار .. كما جاء في ذكر جامع السيد سلطان على قوله : واقع على دجلة من نهر الملى .

(٢) البكرة والكرد بمعنى واحد ، والكرد لفظة فارسية وتعنى آلة رفع المياه من الانهار والآبار واستخدامه لسقي الزراعات والبساتين .. وفسوم الكرد بكرد واحدة او اكثر حسب الحاجة وكانت شائعة الاستعمال في شرائع بغداد بمثابة اسالة ماء بدائية ، اما طريقة سحب الماء وتوزيعه بواسطة الكروود فيتم بان يصب الماء بواسطة دلو في حوض اعد له على تريعة من شرائع دجلة فيذهب الماء بالساقية الحفورة تحت الارض والمزينة ترقيتا متقنا ولقد كان جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني

(١) صبايغ الال - محلة من محلات الجانب الشرقي في بغداد (الرصافة) .. وبعدها من جهة الشمال محلة القشل والدهانة ، ومن الشرق محلة الشيخ سراج الدين والحاج فتحى ، ومن الجنوب محلة القاطرخانة ، ومن الغرب محلة السبع ابيكار .. وبني هذا اللفظ في اللغتين الكردية والتركية اللون الاحمر او الصبغ الاحمر ، ونسب هذه المحلة الى جماعة من الصباغين سكنوا هذا الموضع من بغداد القديمة ومارسوا فيها مهنة صبغ الخيوط والافئشة المختلفة بالالوان وخاصة اللون الاحمر ، فنسبت المحلة اليهم واشتهر الاسم بهم .

(٢) محلة السبع ابيكار احدى محلات الجانب الشرقي من بغداد (الرصافة) .. وبعدها من جهة الشمال محلة صبايغ الال والقاطرخانة ، ومن الجنوب نهر دجلة ومن الغرب محلة رأس القرية وبخترقها شارع الرشيد

واللغة والتاريخ والأدب والفلسفة وغير ذلك من العلوم » .

(٥) لم تنسب هذه التكية الى السيد احمد بن علي بن ابراهيم الملقب بالسيد البدوي صاحب الطريقة المعروفة باسمه والتولي في مصر في مدينة طنطا سنة (١٢٧٥ هـ / ١٢٧٦ م) . وانما نسبت هذه التكية لشيخ آخر من شيوخ السادة الرفاعية في بغداد اسمه (الشيخ بدوي) وله ترجمة وإلمية في كتاب « تنوير الابصار » لشيخ الاسلام ابي الهادي المصاوي الرفاعي . . . وفي سنة ١٩٦٠م قدمت ادارة الاوقاف هذه التكية وقد نسجت كثيرا من الكرامات حول تهديم قبره مما كانت حديث اهل بغداد وهوامه حينذاك ، واهلعت على انقاض التكية عمارة ضخمة ذات عدة طوابق تصرف اليوم بعمارة البدوي على شارع الرشيد في رأس القرية وابنت القير في حجرته ارضاء لمواظف العوام وتهذبة لتوحيدهم ولم ينقل الرفاعة الى القابر العامة بعد ان جددت عمارة الحجرية والصمت بالعمارة وبميزها باب من العديد على شارع الرشيد . .

(٦) لا تزال هذه البناية قائمة اليوم وتمتاز بعمارتها بالرياسة البغدادية ، وتقع على شارع الرشيد جهة شارع النهر قرب جسر الاحرار مقابل عمارة كالم مكية وهي تصعود الى شركة (لنج) التي أسسها هنري لنج . وكانت شركة للنقل النهري في نهر دجلة وتعتبر بالنسبة للعراق بمثابة شركة الهند الشرقية بالنسبة للهند ، وهنري لنج الشير الكثر عن حوض نهر دجلة حيث قام بمسحه وتخطيطه ودراسته من عدة وجوه . . . وكان هنري لنج هذا الساعد الايمن لـ (جيسني) في مشاريعه الفاشلة في الفرات واصبحت شركة لنج من اربح الشركات ، وكانت على صلة بشركة الهند الشرقية ، وفامت هذه الشركة اخيرا بالاضافة الى النقل النهري باعمال تجارية واستيراد الماكائن الزراعية . . . وقد قضت اعمال هذه الشركة في العهد الجمهوري ولم يبق لها كيان يذكر . .

(٧) رأس القرية : احدى محلات بغداد الرئيسية في الجانب الشرقي (الرصافة) والقرية من شارع الرشيد قامت في وسطها اليوم ساحة عبدالوهاب الفريوي التي انطلقت فيما بعد موقفا للسيارات لتكتنفها عمارات حديثة واسواق عصرية . . . وهناك من يلفظ الاسم بالتصغير وهذا هو الأشهر وتسميها العامة (رأس الكربة) . . . اما الاتراك فكانوا يلقون (قرية باشي) بدون تصغير وقد ذكرها رحلتهم اولياجلي بصورة (قورنه باشي) . . . وسوق رأس القرية واقع تحت شريعة خان التمر وهو يمتد من الشمال الى الجنوب وبه تصل محلة رأس القرية من جهة الشرق وهو قسم من الشارع المسمى اليوم بشارع النهر (شارع المستنصر) . .

والحلة هذه شأنها شأن أية محلة من محلات بغداد القديمة تكون من مجموعة عسود ودرابين وهي طرق متعرجة غير مستقيمة وصيقة جدا لعدم وجود التنظيمات البلدية في تخطيط المدن حينذاك فالطريق النافذ كانوا يسمونه عقد وغير النافذ يسمونه دربونة طالت ام قصرت . . فمن عقود محلة رأس القرية في

وجامع الشيخ عمر السهروردي قبل مشروع اسالة الماء الحديث يجهز لهما الماء من ساقية يجري فيها بواسطة (كرد) الاول منها نصب في شريعة الشيخ بالسكك والثاني في شريعة الميدان . . . وقد سميت محلة رأس الساقية نسبة الى تلك الساقية الممتدة من نهر دجلة الى جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني . . . اما ارواء البساتين والحدائق الحيطية ببغداد فكانت تسقى بواسطة (النواعير) جمع ناعور والتي تسحبها الخيول او البغال . . . اما بقية محلات بغداد فكانت تشتري الماء من السفائين وكانت طبقة السفائين منتشرة في كل مكان من بغداد وموزعين على محلاتها يستقون الماء من دجلة ومن الشرائع المشهورة عليه ، ثم ينقلونه الى البيوت في قرب كبيرة على ظهور الحمير او البغال او الخيول فكانت توضع على جانبي كل دابة قربتان وفي سنة ١٢٢٥ هـ يقابلها سنة ١٩٠٧م أيام الوالي حازم بك انشئت ماكينة (سالة الماء في بغداد بواسطة مضخة نصبت في شريعة الميدان واجري الماء بواسطة انابيب ، وكان موضع هذه الماكينة في البوخذانة (محلة البقجة) امام مدرسة الصنائع التي هي اليوم قصر الثقافة والفنون في الميدان . . . وكانت هذه الماكينة تسحب الماء من دجلة وترسله الى المحلات القريبة منها وهي : الميدان وبعض الحيدرخانة والصابونجية وجديد حسن باشا والطوب وكان مجموع البيوت التي يوزع اليها الماء في هذه المحلات ٢٦٠ دارا مشتركا لقاء اجرة شهرية لكل دار وهي عشرة فروش وهو مبلغ زهيد جدا وهو ما يساوي بمحلة اليوم مئة فلس فارناحت ببغداد من عناء الارواء ونجت الجوامع والحمامات من مياه الابار المالحة . . . وفي السنة التي تلتها اي في سنة ١٩٠٨م نصبت مضخة اخرى في شريعة المصيفة قرب من قهوة التشل نهاية شارع المسحول من جهة نهر دجلة ومدت الانابيب لتوزع المياه الى المحلات القريبة منها ، ثم اشيع استعمال المضخات وتقلص مهام السقة في بغداد حتى ازيل بالمرّة بعدئذ . .

(٨) ومن ذكر هذا المسجد (مسجد ال الباجهجي) السيد ابراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) ضمن مدارس بغداد فقال : « هذا المسجد واقع في محلة العمار سبع ابتكار بتصل به من جهة شارع الرشيد محل ارتداد الصور ، وهو من اوقاف صاحبة الخيرات امينة خاتون بنت عبدالرحمن الباجهجي . . . شيد هذا المسجد الحاج نعمان جلي الباجهجي ابن عثمان جلي سنة ١٢٢٦ هـ . . . وكان سابقا مدرسة علمية يدرس فيها العلوم العقلية والنقلية ثم اعاد الحاج نعمان بناء هذه المدرسة المذكورة واوقف عليها وعلى المسجد المذكور اوقافا معلومة وشروط صرف لثاتها على فوازم المسجد والمدرسة بموجب الاظام الصادر من محكمة شرعية ببغداد المؤرخ ١٠ شوال سنة ١٢٥٣ هـ . . . وقد درس في هذه المدرسة علماء اعلام منهم العلامة غلام رسول الهندي والعلامة الملا مصطفى امام وخطيب جامع السيد سلطان علي ومدرسها الحالي الفاضل عمر مولود الديبكي الكردي . . . وفي هذه المدرسة مكتبة قيمة تضم نوادر الكتب المخطوطة في التفسير والحديث والفقه

القرن الماضي ولا يزال آثارها باقية إلى وقت من هذا القرن وهي : عقد السقاقي ، عقد الخاصكي ، عقد الكاوير ، عقد القصيف ، عقد الرواق ، عقد حاجي أمين ، حمام حيدر ، الجنابين ، العمار ، تكية البدوي ، المقعد الصيق وعقد أبو يعقوب .. واسم رأس القرية هذا في رأي بعض الباحثين يعني بداية الأراضي السهلة أو الواطئة المنخفضة ..

(٨) و خليل باشا هذا عرف بـ (خليل بك) أيضا : تولى ولاية بغداد وقيادة الجبهة في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦م الموافق ٦ ربيع الأول ١٣٣٤هـ وفي أيامه الأولى اندحر الجيش البريطاني في معركة سلمان باك ، وحوصر في الكوف ، وفي عهد ولابته فتحت بغداد أول (جادة) يعرف ١٦ مترا سميت بـ (جادة خليل باشا) .. وكان افتتاحها في ٢٢ تموز ١٩١٦م الموافق ٢٢ رمضان ١٣٣٤هـ . وهذا الشارع سماه البريطانيون بمسند احتلالهم لبغداد (الشارع الجديد) وهو المسمى اليوم بشارع الرشيد نسبة إلى الخليفة المباسي العظيم هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) ..

وقد وصف المؤرخون « خليل باشا » هذا بأنه كان من أعظم القادة العسكريين حنكة ومقدرة حربية وهو من كبار الاتحاديين إلا أنه بالرغم من ذلك كن منهمكاً باللدائد مستسلماً للنساء رغم أعاصير الخطر التي كانت تعصف بالبلاد من جميع أطرافها .. وقد هام وجدا بأحدى المومسات في بغداد ، فاستولت عليه واستبدت بعقله والتهته عن الأمر المهم الذي أنيط به ، حتى أنه كان يقول لها وهو في لحظات نشوئه : أنا قائد الجبهة وانت الحاكم المطلق عليّ ! وما كان يعلم هذا المسكين أن هذه المومس التي حكمته حكما مطلقا هي الجاسوسة الإنكليزية « فلكم » ..

(٩) المقصود بهذه الجادة هو شارع الرشيد الحالي ولم يكن من الباب العظيم إلى الباب الشرقي في عهد خليل باشا بل امتد من الباب العظيم إلى الكمره في السك ، بسبب أن بناية الكمره التي اتخذت اليوم متحفا للآثار العراقية كانت في عهد الدولة العثمانية دار القنصلية البريطانية وتسمى عند العامة (القنصلخانة) وكانت البناية تمتد إلى استقامة شارع الرشيد ولحما منها في دائرة البرق المركزية فامتد الشارع إلى سور القنصلية وتوقف الممل فيه إذ اقترعت الحكومة البريطانية أن يهدم قسم من قنصليتها في بغداد وأصر خليل باشا على هدمها وكادت أن تحدث أزمة سياسية بين بريطانيا والدولة العثمانية بسبب ذلك لولا اشتغال نيران الحرب العالمية الأولى وانشغال الدولتين بها فاهمل المشروع وتوقف الشارع إلى هذا الحد وخسرت الدولة العثمانية الحرب وخرجت من العراق وحلت الدولة البريطانية محلها في احتلال العراق وفي عهدها امتد هذا الشارع إلى الباب الشرقي عند الدبالخانة العسكرية وبمحاذاة نهر دجلة من جانبه الشرقي ...

(١٠) عرف أبناء الوائف السيد عيسى بقرية السيد عيسى وقد ذكر مجلسهم ضمن المجالس البغدادية السيد إبراهيم الدروبي في كتابه (البغداديون) فقال : هذا البيت من أرفع وأجل بيوتات بغداد وال السيد عيسى سادة حسنية وقد

نشأ منهم علماء أعلام ذكرهم الحيدري في كتابه (عنوان المجد) . وهذه الأسرة مربية ببغداد ... وكان آل السيد عيسى مجلس علمي ببغداد يتردد إليه العلماء الأعلام من آل النقيب وآل الألوسي وآل الجميل وآل السويدي وآل كبة ، وكانت لهذا البيت مكتبة حافلة بشتى العلوم وتضم نوادر المخطوطات ..

(١١) المباحنة - محلة من محال بغداد القديمة في الجانب الشرقي منها وتحيط بها المحلات التالية : السيد سلطان علي أو المربعة من الجنوب والعمار سبع أباكار من الغرب والفاطرخانة وصبايغ آل من الشمال ومحلة الحاج فتحي من الشرق وكان موضع هذه المحلة يسمى سابقا (حمام الراعي) .. وفي عام ١٨٦٤م أسس الوالي نافع باشا أول معمل حديث للنسيج في العراق ، وهو الذي أطلق عليه البغداديون اسم (المباحنة) أو (الفاطرخانة) وبه عرفت المحلة المحيطة به . وكان يدار بقوة البخار وينتج بعض حاجيات الجيش من البسة وخيام ، وحين جاء مدحت باشا عمل على تطوير المعمل وتوسيعه حتى وصل إنتاجه في اليوم الواحد إلى ثلاثة أمتار من الأقمشة الصوفية وأربعمائة متر من الأقمشة الفضية السمكية ..

(١٢) جامع الحاج فتحي - إحدى محلات الجانب الشرقي من بغداد وسميت بهذا الاسم نسبة إلى هذا الجامع الذي آل اليوم إلى خربة تعود ملكيتها إلى الأوقاف ويطل على شارع الجمهورية .. وقد ذكره العلامة محمود شكري الألوسي في « تاريخ مساجد بغداد » عند الكلام عن الحاج فتحي فقال : « سالت بعض من في الجامع الشيوخ والكهول عن الحاج فتحي الذي ينسب إليه المسجد والمحلة التي حوله فقالوا : كان على ما سمعنا دروبشا جاء من الموصل وأقام في المحل وصار له أتباع ومريدون في هذا المسجد ، ولما توفي دفن عند الباب من شمال الداخل ، وقد جعلت الأوقاف قبره في عمارتها الأخيرة حائوتا .. عرفت أن هذا المسجد كان قفرا فاتخذته الحاج فتحي مسجدا عام ١١٦٩هـ » .

(١٣) من مذكرات السيد محمد رؤوف السيد طه الشيلخي والتي دونها في كتابه « مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها » يقول أثناء الكلام عن تعلمه في الكتائب في عهد الطفولة ، وكان الكتاب الذي تعلم لديه القرآن الكريم هو عمه السيد عبد الحميد الذي كان يباشر تعليم الأطفال مع شقيقه : فتعلمت لديه القرآن الكريم والكتابة وشيئا يسيرا من الحساب وكان للأخوين المذكورين وظيفة أخرى في جامع السيد عبد الكريم الجيلي وهو وضع في الطريق الذي بين جامع الحاج فتحي وجامع السيد سلطان علي وكان يسمى (عقيد الجاموس) فكانت أذهب مع عمي السيد عبد الحميد عصر كل يوم إلى جامع السيد عبد الكريم الجيلي فيتفقد نظافة المحل وحالة الأشجار من نخيل وغيرها لأن الجامع المذكور كان متصلا ببستان صغيرة أو قل الجامع هو داخل البستان ..

وكان في شريعة السيد سلطان علي كرد خاص يرفع الماء من دجلة بواسطة فتون حاجته من الماء أولا ثم تستمر الساقية في طريقها تحت الأرض إلى جامع السيد

عبدالكريم الجيلي فتسقى البستان ومن هناك الى جامع الحاج فتحي فتؤمن حاجة السبيل الموجود فيه ..

(11) جامع السيد سلطان علي - هذا الجامع مظل على دجلة من نهر المظلي من انهار بغداد القديمة وموضعه اليوم بمحلة سبيع ايكار او المربعة بلصق شركة المخازن العراقية المركز الرئيسي على شارع الرشيد في بغداد.. يقول الدروبي في بناء الجامع : ولا يعلم بالتحقيق تاريخ بناء هذا الجامع الا انه يصادف العصر الذي بنى فيه المدرسة المرجانية والنظر الى مثلثة كل منهما نجعلنا نقطع بان البناء متقارب في الزمان ان لم يكن مماثلا ومثلثة جامع النعماني لا تختلف منهما .. وقد ذكر العلامة الحاج علي الاطوسي القاسبي في تعليق له على كتاب كلشن خلفا عند ذكر الشيخ علي ما نصه : والظاهر ان الشيخ علي هذا هو المنسوب اليه جامع السيد سلطان علي فانه ولي بغداد وتولي فيها وموضوع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية كما اكد ذلك الاستاذ المرحوم عباس الغزالي في تاريخه .. والحقيقة ان السيد علي هو والد الصوفي الشهير السيد احمد الرفاعي صاحب الطريقة المروية باسمه وله ترجمة وفيه نؤكد الموضوع الذي ذكر فيه في كتاب « روضة الناظرين » وخلاصة مناقب الصالحين » للعلامة الكبير الشيخ احمد بن محمد الوترى ، الاوصلي الاصل ، البغدادى الدار ، المصري الوفاة الذي توفي في سنة ١٩٨٠ هـ .. وفي سنة ١٢١٠ هـ جدد عمارة الجامع السلطان عبدالحميد خان العثماني وانشأ فيه مدرستين لتدريس العلوم العقلية والنقلية وبنى فيه حجرا لطلاب العلم .. واما الكتابات التي على باب الجامع كما يذكر الدروبي فهي بخط عثمان باور الخطاط المشهور ، وعثمان باور هذا خطاط معروف من تلاميذ الخطاط الشهير بسامي بك ومن آثاره الخطية ما كتب على الكاشاني الاثرى في مشهد الامام الاعظم والشيخ معروف الكرخي والواج خطية ، وكان حسن الخط دعاه من الاستانة الى بغداد الحاج حسن باشا والي بغداد ابام ولايته وفي ايامه عاد الى استانبول وتوفي هناك سنة ١٣٢٢ هـ وفي هذا الجامع تكية للسادة الرفاعية من ال رجب الراوي وكان عميدها الشيخ ابراهيم الراوي ومجلسه الادبي والديني فيه يذكره اهل بغداد في جملة مجالسهم ولا تزال هذه التكية عامرة بروادها وتكون بنائها في القسم العلوي من الجهة الشمالية من هذا الجامع ولها مكتبة قيمة تضم نوازل المخطوطات والكتب المطبوعة النفيسة ، والذي يقوم الان برعاية هذه التكية ومكتبتها الاستاذ الحامي جمال بن اسماعيل الراوي بمسند وفاة الاستاذ الشاعر خاشع الراوي - رحمه الله - .

(15) جاءت تسمية (الباب الجنوبي) من جريان نهر دجلة من جهة الشمال الى الجنوب فيشطر مدينة بغداد الى قسمين ، فالجانب الغربي منه ويسمى (الكرخ) ، والجانب الشرقي ويسمى (الرصافة) .. اما تسمية (الباب الشرقي) فمن مدار الشمس فيكون موقف الباب في الجهة الشرقية من بغداد وهي جهة شروق الشمس وتنطبق التسميتان (الشمالي او الغربي) على الباب المعظم وفقا لذلك .

(16) لم يكن الكلاب دقيقا من الناحية التاريخية لانه ليس من الباحثين ، فقد انشده هنا السور في زمن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سنة (٦١٨) هجرية كما يدل على ذلك الكتابة التي كانت على موضع من احد ابواب السور المسمى بـ (باب الطلسم) وقيل ان ناسيه يسبق ذلك بزمان لم يسر وان الخليفة الناصر انشا بعض القسامه وبلاخص ابوابه !! وعلى كل حال فان السور لم يكن في زمن ابي جعفر المنصور بل ولم تكن الرصافة معروفة في زمنه ، فلولا ما بنى من بغداد الجانب الغربي ومن بعده بنيت الرصافة . وقد هدمه الوالي مدحت باشا بدافع عدم فائدته ولاجل توسيع بغداد ..

وما كان للسور اثر او معالم ظاهرة في بغداد سوى ابوابه الاربعة وضمني القلعة الخارجيين من جهة الجديدة (المستشفى الجمهوري ومدينة الطب) ومن جهة دجلة باعتبارهما من السور لانه كان متصلا بهما وكذا ضمنى الدبالمخانة اي من الباب الشرقي الى دجلة ومن هناك ينحطف على زاوية قائمة باستداد النهر الى شريعة القاهرة وبعض الاسس في محال اخرى متفرقة.. اما الان فلم يبق من هذا وذاك سوى الباب الوسطاني القريب من مقبرة الشيخ عمر السهروردي وجامعه ..

(17) وذكر ايضا السيد محمد رؤوف الشيعلي في مذكراته مثل ذلك فقال : وكان يوجد في بغداد من العربات الخصوصية ثلاث او اربع عربات فقط وهي : عربية النقيب وعربة ابن جميل وعربة الوالي وعربة نصرت باشا مفتش الجيش .

وكان لبعض القناصل عربات ذات دولابين فقط ويجرها حصان واحد ويجلس فيها القنصل وهو سائقها وبجانبه زوجته فيخرجون للتزهة الى الباب الشرقي ثم يعودون من حيث اتوا ..

(18) تقع بحيرة « وان » في تركيا الشرقية بين جبال طوروس ، وعلى سفنها الشرقية تقع مدينة « وان » المشهورة بيسانينها وتنوع ثمارها .

(19) سميت علوة المخضرات التي وقع فيها هذا الحريق الهائل بـ « خان النفط » بعد خزن صفائح النفط فيها وذكر السيد عبدالكريم الطلاف في « بغداد القديمة » هذا الحريق بالتفصيل فقال : وفي مساء يوم السبت ٢٢ جمادي الاولى سنة ١٢٢٠ هـ ويقابلها سنة ١٩١٢ م ايام الوالي جمال باشا حدث حريق هائل في بغداد بخان النفط الواقع في محلة العوينة العائد الى السيد محمد السيد محسن آل العطار وهم من السادة الحسينيين المروفيين في بغداد ودام هذا الحريق الى يوم ٢٠ من الشهر اي الى يوم السبت وكان ما التهمته النيران بربو على ثلاثة عشر الف صندوقا من النفط وعائنين وخصين صندوقا من الكحول (اسبرتو) ومائتين صندوقا من البازين ، وقد كنا نشاهد صفائح النفط تتطاير بعد الانفجار في الجو ، وهذا اعظم حريق في بغداد عرفته الحكومة العثمانية .. ولعل هذا الحريق اول حريق في بغداد وعقبه حريق ثان هو الذي ذكره صاحب المذكرات لاختلاف الروايتين في تاريخ وقوعه وكمية الخسائر وان اتحد المكان في كلا الروايتين

أن حدثا في علوة المخضرات التي هي خان النفط في محلة الموبنة في بغداد .. ورواية الصلاف هذه تطابق ما أورده الأستاذ عباس المزوي في تاريخه ج ٨ ص ٢٣٠ .

(٢٠) ورد اسم المجلة « فتاة العرب » في كتاب « أول الطريق » مؤلفته صبيحة الشيخ داود ، حيث ذكرت فيه : « أصدرت السيدة مريم نرمة مجلة « فتاة العرب » في ٦ أيار ١٩٢٧ ، وهي (مجلة أدبية نسائية اجتماعية غايتها خدمة الفتاة العراقية) . وكانت السيدة نرمة في طليعة الكاتبات اللواتي ساهمن في معالجة الشؤون الأخلاقية والاجتماعية في الصحافة على عهد الثورة العراقية ، إلا أنها لم تصدر مجلة باسمها قبل سنة ١٩٢٧ ..

ولدت السيدة مريم نرمة في بغداد في ٢ نيسان ١٨٩٠م ، ووالدها المرحوم رؤفائيل يوسف روميا ، ولقيت باسم « نرمة » وهي كلمة كلدانية فارسية ومعناها « لطيفة » وقد أقيم لها في ١٩ مايس ١٩٤٥م احتفال تكريمي بمناسبة ذكرى اليوبيل الفضي لشاركتها في النشاط الأدبي عن طريق الصحافة ، وكان عزم نرمة معقودا على إصدار مجلة باسم « فتاة العراق » عدلت عنها إلى « فتاة العرب » بعد أن صدرت مجلة تحمل نفس العنوان (وكانت صاحبة امتيازها حسيبة قاسم راجي) . وقد عاشت « فتاة العرب » ستة أشهر واضطرت صاحبها إلى إبقائها بسبب الخسران المادي الذي لحقها ، وقالت : أنه بلغ ٥٠ ليرة ذهباً ...

(٢١) كان ذلك بمناسبة العيد المؤي للصحافة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) والذي دعت إلى الاحتفال به وزارة الثقافة والأعلام لتكريم أولئك الذين وضعوا اللبنات الأولى في صرح الصحافة في القطر العراقي ومنهم السيدة مريم نرمة وقد شاركت في هذا الاحتفال ، وقد صدرت بمناسبة كراس عن لجنة الاحتفال يعرف بهذه الصحيفة ويترجم حياتها بسطور : اسمها الكامل « مريم نرمة » . عمرها ٧٩ عاماً .. ولدت في بغداد .. ثم انتقلت إلى البصرة .. وعادت إلى بغداد حيث لا زالت تعيش الآن .. أنها عراقية .. عربية .. بدأت أول كتاباتها الصحفية في الأول من أيار سنة ١٩٢١ . وذلك في مجلة « دار السلام » الأدبية التي كان يصدرها المرحوم الأب انتناس الكرملي .. وكان عنوان المقال : « نلقوا أولادكم وبناتكم لمكافحة الاستعمار » .. ثم نشرت سلسلة من المقالات والمواضيع في صحف عراقية عديدة كان منها : جريدة « العالم العربي » ومجلة « الصباح » وجريدة « الأحد » وغيرها .. ناقشت الكثير من الكتاب المائلين في أمور وطنية واجتماعية .. فقد ناقشت « الفرد كروس » الأستاذ بجامعة كاليفورنيا بأمريكا وهاجمته لأنه هاجم المرأة العربية في مقالات نشرها في الصحف الأمريكية .. وفي سنة ١٩٢٧ أصدرت جريدة « فتاة العرب » وجعلت شعارها « بلاد العرب للعرب » !! ورغم كل كتاباتها عن المرأة ووجوب تقيفها وتحررها فإنها هي نفسها كانت محجبة حتى إلى ما قبل بضع سنوات !! ..

وأخر ما قاله في عيد الصحافة هذا : « انني جدا سعيدة لأن تأتي حكومة وطنية ولأول مرة في تاريخ عراقنا الحبيب لتغطي الصحافة حقها .. وتحتل بميدانها .. انها أمنية غالية كانت تتمثل في صدري .. وفق الله العاملين للخير والعطاء .. !!

(٢٢) أنها توفيت بعد غالب المذكرات بسنوات .. في حدود سنة ١٩٧٢ والكاتب توفي في ٦ مايس ١٩٧١ ..

(٢٣) انظر ترجمته بتوسع وتفصيل فيما يلي : ١ - اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : لم بصري . الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ . ٢ - الرسالة الإسلامية - مجلة ديوان الاوقاف في العراق / الممدان : ٧٠ و ٧١ ص ٦٤ . ٤ - الدكتور داود الجليبي حياته ومخطوطاته وخزائنه : فيصل دبدوب ..

(٢٤) بلغت الكتب عند انضمام مكتبة الدكتور داود الجليبي إلى خزائن مكتبة الاوقاف في الموصل من المخطوطات (٢٠٩) ومن المطبوعات (٧١٤٤) ..

(٢٥) انشئت مكتبة داود الجليبي عملاً بوصيته لتكون مكتبة عامة في الموصل تضم كتيبه ومخطوطاته .. وتم تشييدها والتتعت في حزيران سنة ١٩٦٨ .. وظلت تزاوّل هذه المكتبة عملها في خدمة المواطنين حتى انضمت خزائنها إلى مكتبة الاوقاف العامة في الموصل في مايس سنة ١٩٧٢ .. وبيعت قسم من هذه الكتب إلى مكتبة المتحف العراقي في بغداد من قبل ورثته ..

(٢٦) هو الدكتور داود بن محمد سليم بن احمد بن محمد الجليبي الموصل .. ولد في الموصل في ١٦ كتون الاول سنة ١٢٩٧/١٨٧٩هـ .

(٢٧) وهذه تاليفه على سبيل الحصر : مخطوطات الموصل (١٩٧٢) ، كتاب الطبيب محمد بن الحسن الكاتب البغدادي (حققه ونشره سنة ١٩٢٤) ، الآثار الاربعة في لغة الموصل العامة (١٩٢٥) ، اقتراح وهو بحث موسّع مرفوع إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة عن تيسر القراءة والكتابة العربية (١٩٤٤) ، كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل (١٩٦٠) ، قاموس فرنسي عربي للاصطلاحات الطبية الخاصة بأمراض الجلد (١٩٤٦) ، التندباد - وهو من كتب الجوس المقدسة - ترجمه عن اللغة الفرنسية (١٩٥٢) الطبيب محمد بن زكريا الرازي (١٩٤٨) ، الموصل - مجموعة معاصرات - (١٩٤٩) .. وله عدا ذلك مقالات وبحوث كثيرة نشر معظمها في مجلة لغة العرب والمقتطف ومجلات الجامع العلمية في دمشق وبغداد والقاهرة ومجلة غرفة تجارة بغداد .. وكان داود الجليبي فيما كتب عالماً واسع الافاق ، ذووياً على العمل ، حريصاً على تنظيم وقته ، حتى شملت بحوثه وكتاباته مواضيع متعددة في شتى ميادين العلم والمعرفة ..

كشاف المراجع

- ١ - البغداديون : ابراهيم الدروبي .
- ٢ - بغداد القديمة : عبدالكريم العلاف .
- ٣ - دليل خارطة بغداد : الدكتور مصطفى جواد واحمد سورة .
- ٤ - تاريخ بغداد : ساجان فائق ترجمة موسى كاظم نورس .
- ٥ - قلم وزير : من آثار ابراهيم صالح شكر تطبيق خالد محسن اسماعيل .
- ٦ - مراحل الحياة في الفترة المظلمة وما بعدها : السيد محمد رؤوف الشيعلي .
- ٧ - احداث اجتماعية من تاريخ العراق الحديث - الدكتور علي الوردي .
- ٨ - تاريخ العراق بين احتلالين : الاستاذ عباس المزوي .
- ٩ - آفاق مربية العدد / ١٠ / حزيران / ١٩٧٦ . محلات بغداد لجمال بابان .
- ١٠ - لب الالب : محمد صالح السهروردي .
- ١١ - مكتبة الاوقاف العامة تاريخها ونوادير مخطوطاتها : عبدالله الجبوري .
- ١٢ - تاريخ مساجد بغداد : محمود شكري الالوسي العلامة
- ١٣ - روضة الناظرين وخلاصة مناقب السالطين : الشيخ محمد بن احمد الموزي .
- ١٤ - المنجد في الادب والعلوم : فردينان تونل .
- ١٥ - اول الطريق : صبيحة الشيخ داود .
- ١٦ - كراس بمناسبة العيد الثوي للمحافظة العراقية (١٨٦٩ - ١٩٦٩) صادر عن وزارة الثقافة والاعلام .
- ١٧ - اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث : مير بهري .
- ١٨ - مجلة الرسالة الاسلامية / المبدان : ٧٠ و ٧١ .
- ١٩ - الدكتور داود الجلبي حياته ومخطوطاته وخزائنه : فيصل دبدوب .
- ٢٠ - الدليل العراقي لسنة ١٩٢٦ .

بُغْدَادُ مِنْ خِلَالِ الْمَقَامَاتِ

صَبِيحُ صَالِقُ

القسم الثقافي - جريدة الجمهورية - بغداد

تم ترتيب النصوص حسب التدرج الزمني لصاحبها .. وفي احيان كثيرة قد يكون هناك نص واحد فقط او نصين يعتمد أحدهما بعدة قرون عن الآخر .

من الملاحظات المهمة حول المقامات انها ظهرت ابان انحلال الدولة العربية الاسلامية سياسيا ، اي ان بغداد كانت في بداية اضمحلال حضارتها ولهذا جاءت الكثير من مظاهرها وصف لحالة التدهور الذي تعيشه وليس وصف لحالة التمدن التي شهدتها بغداد ..

والمقامات التي عثرنا فيها على مادة الموضوع هي :

- (١) مقامات بديع الزمان الهمداني المتوفى عام ٢٩٨هـ/١٠٠٨م وقد طبعت طبعات عدة .
- (٢) مقامات ابن نايقا (عبدالله بن محمد) المتوفى عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢م المطبوعة في استانبول - مطبعة احمد كامل - سنة ١٢٣٠هـ .
- (٣) مقامات الحريري المتوفى عام ٥١٦هـ/١١٢٢م المطبوعة طبعات عدة .
- (٤) مقامات ابن ماري/ يحيى بن سعيد [المعروفة باسم المقامات المسيحية] المتوفى عام ٥٨٩هـ . وهي مخطوطة في مكتبة المتحف العراقي برقم ٣٢٠ ، وقد ورد نص المقامتين بعد هذا البحث .

- (٥) مقامات الكازروني علي بن محمد المتوفى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٨م بتحقيق الاستاذين كوركيس عواد وميخائيل عواد . مطبعة الارشاد بغداد - ١٩٦٢ .

- (٦) مقامات ابن الصبقل الجزري المتوفى عام ٧٠١هـ/١٣٠١م بتحقيق الدكتور عباس مصطفى

هذا البحث محاولة لاستشفاف اللامع العامة عن بغداد من خلال نصوص المقامات التي دارت أحداثها فيها او قيلت حولها .. ولا يتوقع القارئ اكثر من ذلك .. فخطه هذا البحث هي جمع كل المقامات التي قيلت في بغداد واستخلاص المعالم الاجتماعية والاقتصادية وسواهما من المتفرقات التي تخص الحياة البغدادية في بحث مستقل يمتد من القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي .

وبصورة عامة فان قلة عدد المقامات قد سببت إرباكا في هذا الموضوع لتوفر نصوص عديدة في جانب من الجوانب وعدم توفرها في جانب آخر . ولم تكن جميع المقامات قد تحدثت عن بغداد فهناك من المقامات ما لم تكن لها علاقة ببغداد مثل مقامات الزمخشري والسيوطي وابن الوردي وغيرها .. ولكن المقامات المهمة مثل مقامات الهمداني والحريري والكازروني وغيرها تحدثت عنها . نعتني مقامات الهمداني والحريري عدة مقامات منهما جرت أحداثها في بغداد . ووردت في مقامات ابن نايقا وابن ماري مقامتين في كل منهما جرتا في بغداد . وجاءت مقامات الكازروني والالوسي كلها عن بغداد . بينما خصص الجزري مقامة واحدة عن بغداد ..

قسّم هذا البحث الى عدة اقسام ، فالقسم الاول يتحدث عن المواسم الاجتماعية والدينية كما صورتها المقامات ، ثم القسم الثاني عن الحالة الاقتصادية في بغداد . وفي القسم الثالث جوانب متفرقة مثل انطباعات اصحاب المقامات عن بغداد واهلها والوان الطعام والشراب عندهم والتعامل في السوق وبعض الفصول حول الحوادث التاريخية وغيرها ...

الصالحى (رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة
الكاتبة في المكتبة المركزية - جامعة بغداد .)

(٧) مقامات الأوسى محمود بن عبدالله
الحسينى المتوفى عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م المطبعة
الحجرية في كربلاء . سنة ١٢٧٣هـ .

(٨) مقامات ناصيف اليازجى (مجمع
البحرين) المتوفى عام ١٢٨٧هـ / ١٨٧١م المكتبة
التجارية بيروت .

المواسم الاجتماعية والدينية

كان الكازرونى (القرن الرابع الهجرى)
أكثر اصحاب المقامات وصفا للمواسم في بغداد
مثل مواسم رمضان والعيد والحج والربيع والترب
وغيرها . والنصوص التي تم جمعها حول هذا
الموضوع تعود الى القرن السابع الهجرى - أي
عصر الكازرونى - وهي فترة مهمة من حياة بغداد
لستقطها بأيدي المغول ، ومصادر هذه الفترة أقل
بكثير من المصادر التي تؤرخ للفترة السابقة
عليها ، ولهذا يمكن إضافة هذه النصوص الى
نصوص كتب التاريخ في وصف بغداد .

شهر رمضان

يصف الكازرونى ما يحدث ببغداد في شهر
رمضان حيث توزع الهدايا في أيامه الأولى على
العلماء والمتصوفة والنبلاء ، وفي وقت الفطور من
كل يوم كان الإفطار يوزع على كل محتاج ، يقول
الكازرونى :

« ... شهر الصيام ، المختص بالعبادة
والقيام ، المفتتح بالصدقات ، المنور
الليالى بالصلوات ، ففي أول يوم منه
ينفض على العلماء والمتصوفة والنبلاء
من يدر الانعام ويُدن الانعام ، ما يجاوز
حد الاكثار . وينتهي وقت الإفطار ، ثم
تفتح آدُر المضيف للمساكين والفقراء
والايتام فلا يبقى من لا يشمل الانعام
ويحصل له القوت في الصيام . وما من
الملك الا من عليه راتب ، وكذلك الصدور
 واصحاب المراتب ينظرون على اطباقهم
الامثال ، واطياب الالوان تصل الى الفقير
والسائل » .

ثم ينتقل الى وصف ليالى شهر رمضان
حيث توقد المصابيح وينشغل الناس بالصلوات او
بقضاء أوقاتهم في السمر حتى وقت انشاء .
ويقرا آخرون القرآن . يقول الكازرونى :

« ولياليد مشرقة بالمصابيح ، والمساجد
منسيرة بالصلوات والتراويح والمساووم
ملتية بالملاذ والغناء والفرح الى منتهى
وقت انشاء ثم ترفع قناديل السمر
وتتناهى شحارير التذكير وایامه كلها
عبادة وأوقاته طاعة وزيادة » .

ثم يصف عادة توزيع الهدايا قبل حلول عيد
الفطر حيث يتم توزيعها على الجميع ..

« فاذا بقي من الشهر أربع ليال وعاد
جديده كالاسمال ، خلع المخزن تشریفات
الخلیفة على صدور الدولة الشريفة ثم
بعده الملوك وأرباب المراتب والسادة ولده
الاطاب حتى يصل الانعام الى الخاص
والعام فقل من لا ينال منها نصيبا وفي
البعد من لا يكون منها قريبا » .

موسم العيد

وصفت مقامة الكازرونى (القرن السابع
الهجرى) موسم العيد في بغداد والتهيوء له ، وكان
نفسه - أي الكازرونى - ممجبا بمظاهر العيد
في بغداد ، فقال :

« ينهى الناس للعيد المشهود والمجمع
الحشود الذي تكيل عن حسن وصفه
السنة البلاء وتعجز عن ادراك وصفه عقول
الالباء فلا ينتهي الى نعمته قول قائل ولا
يصل الى مثله الاواخر ولا الاوائل ، ولا
رئى لاحد من الملوك ما يناسبه ولا حكي
ان لهم مثله او ما يقاربه » .

ثم يصف الاحتفال الرسمي بهذه المناسبة
والاحتفال الشعبي فيها :

« يباكر اليه في احسن زينة ولباس
ويجتمع لرؤية الموكب اكثر الناس ، ثم
يجلس الخليفة في داره ويعرض الموكب
بأهله وصفاره ، والملوك في احسن زينة
وابهى حلية ، واعظم سكينة ، فلا يزال
الموكب والمساكين تجري كالسيل في جمع
كنجوم الليل ، كذلك ثلاثة ايام حتى
ينقضي منقضاءه ، ويصل آخره ومنتهاه
وقد تكاملت للعالم المسار في آناء الليل
والنهار ، فان كان الاضحى نحر الخليفة
في ابوابه ، وكذلك اهل بلده ، وغبية
في ثوابه فيمتار الفقراء ويؤجر الاغنياء » .

موسم الربيع

كان اهل بغداد يخرجون في الربيع الى الحدائق والبساتين والانهار ويقضون اوقاتهم هناك بين الغناء والموسيقى .. وقد وصف الكازروني (القرن الخامس الهجري) خروج اهل بغداد في الربيع فقال في مقامه :

« واما زمان الربيع ، واسبام الوشي البديع فانهم كانوا يصطحبون ويتجمعون وينشالون » كانهم الى نصب يوفضون « فينزلون الجواري في رهط من الجواري ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون نحو قصده تغليسا . فيجتمعون بالحوّل اذ عليه في الحسن المموّل فيخترقون اشجاره ويقطفون ثماره ونواره ، ويفترشون رياضه وازهاره وينزلون غيطانه وانهاره . ثم تعزف القيان وتصلخب الميّدان وتصفق الفدران وترقص الاغصان وتميد الافنان وكلما دسع الراوق طاب المشوق وكلما بكى السحاب ضحك الحنّاب . وكلما طرب المود زمجرت الرعود وقد انتظموا في سلك الراحة واجتمعوا للاستراحة ، كذلك اياما لايطعمون مناما . »

ثم يتحول الكازروني الى وصف ما آلت اليه بعد ذلك :

« الا انهم انتهكوا المحارم وارتكبوا المآثم واصروا على الفجور وسفك الخمر ، ولا جرم ان المرش اهتز غضبا ، وسُعيرت جهنم حميا ، وازدادت لها ، فاخذهم الله تعالى اليه « اخذ عزيز مقتدر » ولقد تركناها آية فهل من مدكر » فابن الملك الباذخ والشرف الشامخ ذهبت والله الشهوات ، بقيت التبعات ، وخشمت الاصوات ، وسقيت الرفات من اعظم المعطات ... »

موسم الحج

ذكر الكازروني (القرن السابع الهجري) موسم الخروج للحج في بغداد فوصف مفادرة الحجاج بغداد وكيف يتم الاحتفال بهذه المناسبة على ضفاف دجلة ويكتظ الناس للمشاهدة ..

يقول الكازروني

« .. منها موسم الحاج وهو اعظم

مواسم السنة التي تكل عن وصف حسنه الالسنه ، وتفتح فيه آدُر المضيف لكل بائس من الحاج وضعيف ، وتضرب على دجلة الحياض والروايا ويؤذن بالحج في سائر الرعايا . ثم يهرع الناس الى الفرجة على التبريز في حلل الابريز ما بين فتي وفناه وشاب قد فتن بحسنه فتاه . يرتفعون في رياض الجانب الغربي ما بين ماشر او ممتط صهوة عربي فلا يزالون كذلك اياما يمرحون وحدانا وفناما (الجماعة من الناس) والسبل تجلى في المواكب الى الخيام وتزف الى منازلها بالعبيد والخدام . فاول ما يقدمها العلم وهو محمل الخاص ويعد الكوس وجند السفر ، والنوبة المكية في الاثر تنهادى بين الحجاب والدعاة ، والقراء في احسن الصفات ، ثم يتوالى في كل يوم سبيل بعد سبيل ورّحل كل جهة محمل جميل ، حتى ينتهي خروج الحاج المجتمعين في الفجاج ، فيخلع على الامير ويكلال ، ويتنعم عليه ثم يحمل ، فيخرج من ساعته ويدخل الحاج في طاعته . »

ثم يصف الكازروني بعد ذلك مودتهم بقوله :

« فاذا رجعوا سالمين فهو موسم ثان للمتفرجين ، يفض فيه من التشريفات على الحاشية والولاة ما يدهش الناظر ويجلو النواظر . ومانهم الا من قد يتخبّخ بسلامة اهله مرحبين (بما اتاهم الله من فضله) . »

التنزه

اعتاد اهل بغداد التنزه في العديد من الاماكن ، وقد وسفت المقامات تنزه اهل بغداد فيتحدث الهمداني (القرن الرابع الهجري) في مقامه القردية على لسان عيسى بن هشام اذ يقول :

بيننا انا « على شاطئ الدجلة ، انامل تلك الطرائف وانقصى تلك الزخارف ، اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب اعناقهم ويشق الضحك اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم حتى وفقت بسمع صوت رجل دون مرأى وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فاذا هو قراد يرقص قرده ويضحك من عنده .. »

وهذا النص يوضح هواية أهل بغداد بالتنزه على نهر دجلة وأن بعض الناس كانوا يقومون ببعض الفعاليات كما هو الحال بالنسبة للفراد الذي يجتمع الناس عنده للترفيه والضحك ، وهذه القصة وأن كانت من اختراع الهمداني إلا أنه يبدو أنها كانت شيئاً عادياً آنذاك .

وفي القرن السابع الهجري وصف الكازروني خروج الناس للتنزه الى الحدائق والبساتين فقال :

« على أن الأيام كلها كانت تمضي أفراحاً ومواسم يرنح إليها الناس ارتياحاً ففي كل سبت عيد جديد وموسم سعيد يخرج الناس الى الرياض والأزاهر لسماع اصوات الشحارير والفلمان كالولدان والجواري كالحيور الحسان ما بين أهيف واحور واكحل واغيد واعطر .

في البدر من وجنته نكتة
وفترة في العين من طرفه
إذا مشى جاذبه ردفه
كانه يمشي الى خلفه
وطفلة تكامل شبابها وطاب عرفها وعذب
رضابها ترمي عن قسي الحواجب بسهام
الفتج الصواب .
وتنال منك بحد مقلتها
ما لا تنال بعدها التصل
وإذا نظرت الى محاسنها
فلكل موضع نظرة تبطل
والناس في أرغد عيش وأطيب زمان وأعدل
وقت وأصفى اوان » .

موسم زيارة القبور

من المواسم التي سجلتها المقامات موسم زيارة القبور الذي تتم فيه مراسيم خاصة للترحم على الولي بقراءة القرآن وإيقاد الشموع وتوزيع الطعام والحلوى .

يقول الكازروني (القرن السابع الهجري) :

ومنها موسم الترتب ، واليه المنقلب .
فيركب الوزير في أرباب الدولة والأمراء
والصدور والكبراء ، في موكب مشهور
الى الرصافة ، وهي مدفن ولاية الخلافة
فيجتمعون بها للقراءة والدعاء وأهداء
الثواب للخلفاء كذلك أياماً يشرق فيها

ويُترتب ، وقراء المواكب تشويق
وتطريب فإذا كان الليل اجتمع المتصوفة
والفقهاء ، ووقدت الشموع وقرا القراء
وشرع الوعظ في الكلام والأحياء الى آخر
الظلام فإذا أسفر الصباح وبادر المؤذن
بالفلاح ، فض على المذكورين من الحلواء
وأطيب الطعام والغذاء ما يستغرق حد
الاكثار ويعم ذوي الاقتار . »

حالة التعليم

لم نثر على نصوص كثيرة حول طبيعة التعليم من خلال المقامات باستثناء اشارتين وردت الأولى في مقامات يحيى بن سعيد والثانية في مقامات الألوسي .

في مقامات يحيى بن سعيد (القرن السادس الهجري) انتقاد للتعليم في مجال الطب حيث ورد في المقامة الخمسين التي تعرف بالدارية على لسان أحد اساتذة الطب عندما ناقشه الراوية يحيى بن سلام فيقول له الأستاذ :

« اقتصروا من العلم على جس العرق
بغير عرفان . ومن القارورة على الأصباغ
والألوان وحوت نجوم اسرار جالينوس
وبقراط . ووهت عقود آراء افلاطون
وسقراط . وصار من كبر العصبية وكثر
العصبية . يوماً اليه بمفرج الغم .
ومحي الرمم . تالله ان تلك العمائم على
عقود البهائم ما حوت قشب الملابس
والبرانس غير افهام الانعام النسانس لو
سالت احدهم مسألة رأيت ارضاً ممحلة
ووجوهاً مغبسة واموراً ملتبسة ، ثم
انشد :

ينمقون احاديثاً لمكتسب
وفي السؤلات يبدون الماذيرا
وهل ينال علوماً جل موقعها
الا فتى جسد تلقينا وتكريرا
واتلف النفس تدريساً اناط به
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزبرا

ومن هذا النص يتوضح ان دراسة الطب اخذت تتدهور إن صح ما يقوله صاحب المقامة !

أما الألوسي (القرن الثالث عشر الهجري) (التاسع عشر الميلادي) فقد وصف طبيعة تعليمه هو ، ومن خلاله يتوضح طبيعة تعليم الافراد آنذاك فقال :

« قرأت على أبي علم النحو وطرفا من
فقه انشائية والفرائض وكان لي لزيد
شفقتة ومضاعف رافته بمنزلة ألف
رأض ثم قرأت على زيد وعمرو ممن
في مصري من علماء العصر » .

وفي مقامات ناصيف اليازجي (القرن الثالث
عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي) جاء في المقامة
البغدادية :

« دخلت يوما بعض المدارس وإذا
شيخنا الخزامي هناك جالس . والطلبة
قد أقبلوا عليه ، واحدقوا به واليه .
فسلمت عليه تسليم المشقوق ،
وابتهجت به ابتهاج العاشق بقاء
المشوق . وجلينا فتشاكى النوى
ونتباكى للجوى وإذا امرأة تنادي يا شاري
البن الرخيص الثمن . وهي في انشاء
الكلام تتلاعب في الاعراب على الثلاثة
الاحكام ... قال : والشيخ بين ذلك
يقلب وجهه في السماء ويقول سبحان من
علم آدم الاسماء ... قال : وما فرغ
الشيخ من الكلام حتى ابتدر القيام .
فتعلقوا به وقالوا : لات حين مناص فان
دواء الشق ان يحاص . ولقد اثبت
حيث ائس فلا تذهب من حيث ليس .
فعاد الى المقام وقال صبرا : على مجامر
الكرام . ثم اندفع في شرحه كالبحر
حتى ملا العيون . ولما قضى الوطر
نهض على الاثر فقام القوم يودعونهم وهم
يودون لو يتبعونه ... الخ .

الحالة الاقتصادية

ظهرت المقامات في القرن الرابع الهجري/
العاشر الميلادي اي في عصر الانهيار السياسي
لبغداد فتبع ذلك تدهور اقتصادي واضح حيث
تركزت الثروة بيد فئة معينة ، بينما عاشت الطبقة
العامة في فقر وحرمان ، وإذا ما عرفنا ان المقامات
وبانذات مقامني الهمداني والحريري قد الفنا
لفرض الكدية والحيلة في الحصول على المال الوضع
مدى اثر التدهور الاقتصادي في كتابة المقامات .

لقد صورت المقامات حالة الفقراء والمسولين
بشكل دقيق ووصفت الاساليب التي يتبعونها في
الحصول على قوتهم ، وهي وان كانت قصصا ادبية
إلا انها تمكس وقائع حالة بغداد وانهيارها
الاقتصادي آنذاك .

ففي القرن الرابع الهجري يضع الهمداني
مقامة باسم المقامة (المجاعية) وهي انعكاس للفقر
والمجاعة آنذاك . يقول عيسى بن هشام :

« كنت ببغداد عام مجاعة فملت الى
جماعة قد ضمتهم سيمط الثريا .
أطلب منهم شيا ... »
ثم يلتقي بفلام فيقول له :

« حالان لا يفلح صاحبهما : فقير كده
الجوع وغريب لا يمكنه الرجوع فقوال
الفلام : اي التلمتين تقدم سداها ؟
قلت : الجوع فقد بلغ مني مبلغا .

يفصف الفلام لعيسى بن هشام ثلاثة اشياء
الاولى طعام والثانية شراب والثالثة مجلس
مريح) .

« قال عيسى بن هشام . قلت : انا
عبد الثلاثة .

فقال الفلام : وانا خادمها لو كانت .
فقلت : لا حياك الله احييت شهوات قد
كان الياس اماتها ثم قبضت لهاتها فمن
اي الخرابات انت .
فقال :

انا من ذوي الاسكندرية
من نعمة فيهم زكية
سحف الزمان واهله
فركبت من سحف مطية

وهذه المقامة لا تحتاج الى تعليق في بيان
انتشار الجوع فعيسى بن هشام الذي يتوقع ان
الفلام (ابو الفتح الاسكندري) سيقدم له الطعام
والشراب وإذا به فقير مثله ! وهذه القطعة وان
كانت اقرب الى الطرفة ولكنها تمكس حالة من
الحالات التي عانتها بغداد .

ويحدثنا الهمداني كذلك في مقامته
(الازازية) عن حيلة طريفة وفيها وصف للحاجة
الى الطعام جاء فيها :

حدثنا عيسى بن هشام قال ..
« أخذت عيناى رجلا قد لف رأسه
ببرقع حياة ونصب جده ويط يده
واحتضن عياله ، وتابط اطفاله ، وهو
يقول بصوت يدفع الضعف في صدره
والمرض في ظهره .

وبلي على كفين من سويق
او شحمة تضرب بالدقيق

او قصعة تملأ من خير ديق
بغشا عنا سطوات الريق
يقبنا عن منهج الطريق
يا رازق الثروة بعد الضيق
سهل على كف فتى لبيق

ذي نسب في مجده عريق
(ثم يميظ لثامه فاذا به ابو الفتح
الاسكندري) .

وفي المقامة (المراقية) يصف الهمداني حالة
متسول شاب حزين يسأل الناس ..

« حدثنا عيسى بن هشام قال : طفت
الافاق حتى بلغت العراق ... واصلتني
بغداد فينما أنا على الشط اذ عن لي
فتى في اطمار يسأل الناس
ويحرمونه » .

واذا به ابو الفتح الاسكندري .

تدل هذه المقامة على انتشار عادة التسول
حتى بين الشباب .

اما الحريري (القرن الخامس الهجري) فقد
جاءت مقاماته في هذا المجال مشابهة لمقامات
الهمداني وقد صورت حالة البؤس اكثر مما
صورته مقامات الهمداني .. ففي المقامة البغدادية
للحريري تلاحظ فقيراً يتمنى الموت .. ولا هم له
سوى الحصول على لقمة تشبعه وكساء يغطي
جسمه ..

جاء في هذه المقامة عندما تأتي عجوز الى
مجلس فيه الحارث بن همام فتصف حالة فقرها
بنائلي :

« فحبذا الموت الاحمر وتلوى من
تروى عنه قراره » (مثل يضرب لمن
يدل ظاهره على باطنه) .

— وترجمائه اصفراره (اي تبيانه
اصفراره) .

— قصوى بنية احدهم ثرودة (اي نهاية
ما يتنبه احدهم ثريد) .

— وقصارى امنيته ثرودة (اي منتهى
ما يتمناه كساء يلبسه) .

ثم تبدأ هذه العجوز بالانشاد فتقول هذه
المقطوعة المركزة حول حالتها الفقيرة التي تدفعها
لقول القريض أملاً في شيء من الطعام :

يا رازق الثياب في عنثيه
وجابر العظم الكسير المبيض
انح لنا اللهم من عير ضيه

من دتس الدم تقى رحيض
يطفى نار الجوع عننا ولو
بمذقة من حازر او مخيض
فهل فتى يكشف ما نابهم

ويتغنم الشكر الطويل المريض
فوالذي تعينو النواصي له
يوم وجوه الجمع سود وببيض
لولا هم لم تبد لي صفحة

ولا تصدئت لنظم القريض
وفي نهاية القصة يظهر ان هذه العجوز هي
ابو زيد . وهذه المقامة وان كانت تدل على حيلة
طريفة ولكنها تعكس حالة التردى في المستوى
المعاشي آنذاك .

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن
سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية
عشرة وردت فيها قصة رجل يدخل المستشفى
وهو شحيح البدن وعندما يسأله احد اصدقائه
بقوله :

« ما الذي دعاك الى هذا المقام والتردى
برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
الرسن لا مانع لك عن سجن .
فقال :

لست من تذهب عليه اغلظة وما
عقاك بانسوة لولا غريم كدتي تقاضيه
ولم اجد ما يرضيه ما النجات بهذه
البقعة مع سعة الوقعة وها انا اكل
اطياب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر
كسرى ويباهي من غير مشقة ولا تحفز
لنعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى
صفو ولو بالجنون
ان المكاسب شتى

وانساس فيها فنون

والتعسة واضحة في ان سبب دخوله
المستشفى هو للحصول على الطعام مجانا . وهنا
لا بد ان نشير الى ملاحظة مهمة هي بالرغم من
الانهيار السياسي والاقتصادي فان التقدم العلمي

كان لا يزال مزدهراً بدليل العناية التي يلقبها
المرضى في المستشفيات ..

وفي القرن السابع الهجري كتب ابن الصيقل
الجزري في مقامته البغدادية حيث يقول أحدهم
لآخر حول ما يعانيه :

ولما وردت هذا القلب (البئر) ووردت
في متجر الندامة القلب ، بادرت لأبل
غاشي وأبل . من مرض هاتيك عيلتي
فشغلت لوجود الالتياح (الجوع) وعدم
الارتياح .. »

وبالرغم من أن ابن الصيقل الجزري في مقامته
كان يركز على اللفظ أكثر من الحادثة إلا أن
الشكوى من الجوع تعكس هذه الظاهرة آنذاك .

كثيرة اصحاب العلم

حاولت المقامات إبراز أهل الكثيرة من العلماء
وأهل المعرفة والأدب اضطرتهم سوء حالتهم المادية
إلى الحيلة والكثيرة . وهي نتيجة طبيعية لاختلال
التوازن الاقتصادي وسوء توزيع الثروة . وقد
أبرزت المقامات هؤلاء بأنهم من ذوي الكفاية في
المجتمع ثم دار الزمن دورته كي ينزلهم من عليائهم .
وهي بذلك تعبر عن استياء أصحاب المقامات من
هذه الظاهرة التي استشرت آنذاك .

ففي مقامات الهمداني (القرن الرابع
الهجري) مثال لهذه الحالة في المقامة الجامعية عندما
يسأل عيسى بن هشام الشخص الذي يناقشه
حول أنواع الطعام (أبو الفتح الاسكندري) يقول
له : من أي الخرابات أنت فقال :

أنا من ذوي الاسكندرية

من نعمة فيهم زكية
سخر الزمان وأهله

فركبت من سخي مطية

وفي مقامته الإزاذية ينشد أحد الفقهاء
مقطوعة فيقول فيها :

سهل على كفتي لبيق

ذي نسب في مجده عريق

وهي إشارات واضحة ولا تحتاج إلى تعليق .

وجاء في المقامة القردية حينما يسأل عيسى
ابن هشام أبا الفتح الاسكندري عما أوصله للحالته
في أشناله قراداً ينشد أبو الفتح :

الذنب للإيام لالسي

فاعتب على صرف الليالي

بأنحسق أدركت المنى

ورفقت في حلل الجمال

وهنا يتضح أن أبا الفتح لم يرض هو نفسه
عن أسلوبه إلا أنه مضطر إليه اضطراراً بسبب فقره
وهو يعترف أن عمله أحق ولكن لا سبيل للحصول
على ما يريد ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن نايبا
في مقامته الرابعة عن متسول فيقول :

« حدثني بعض الأصديقاء النازلين
بشرقي الزوراء قال أنصت ليته من الليالي
وأنا في نقر من العيال قد ضم جمعنا
الطعام وايقظ مصباحنا الظلام إلى سائل
بالباب يتوخي بكلامه الأعراب وينطق
بلسان الأعراب ويعتمد على غريب اللفظ
ويمزج سؤاله بأنوعظ ... »

والمباريات الأخيرة تدل على أن المتسول
شخص من أهل المعرفة والثقافة .. اضطره الفقر
إلى التسول ..

وما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين
كتب الحريري عن هذه الظاهرة فجاء في المقامة
(البغدادية) عندما تأتي عجوز (أبو زيد بلباس
امراة) إلى المجلس الذي فيه الحارث بن همام
فقال :

« لارينكم أولاً شعاري . ثم لاروينكم
أشعاري . فأبرزت رُؤدُنْ درع دَرِيس .
وبرزت برزة عجوز دَرْدِيس وأنشأت
تقول :

أشكو إلى الله اشتكاء المريض

رب الزمان المتعدي البغيض

يا قوم أني من أناس غَنُوسا

دهراً وجفن الدهر عنهم غضيف

فخارهم ليس له دافع

وصيتهم في ذا الوري مستفيض

(إلى آخر المقطوعة ..)

ومن هذه المقامة نرى أن شاعراً قوياً ينتحل
شخصية امرأة كي يحقق غرضه . والقصة وأن
كانت تدور حول الحيلة إلا أنها تدل على أن أهل
المعرفة وأنعم لم يكونوا بمنزلة يحسدون عليها ..

وفي مقامته (الشعرية) يتحدث عن شيخ
شاعر يرفع الدعوى ضد غلام سرق قصيدته وبعد

ذلك يتضح انهما متفقان كي يحصلوا من الوالي على الهدايا ..

وفي القرن السادس الهجري كتب يحيى بن سميذ في مقامته الخمسين حادثة عن طبيب لا يقبل عيادة مريض ، إلا انه يغير رأيه بسبب المال ، ويقوم بخدعة لاجل الاحتفاظ بالهدايا . تقول المقامة بعد ان يأتي غلام لاصطحاب الطبيب فيقول الطبيب :

« قاله ما ارحل حتى انحل . ولا اعود مريضاً ، دون ان اعطى عطاء عريضاً . ولا اعاني سقيماً ، حتى ارى امراً مستقيماً . فنقده الفلام بقرطاس ولم يبد وجه مكاس فحين قام امتزجت بديمه ودخلت دار السلطان مع خدمه . فلما مثل بحضرته ، والتحق بزمرته شاهد مدناً لم يبق منه الا تقا بانفاس ، متصدة ونفس مترددة فقال : هذا ما كنا فيه ادعى الى من لا يمكن تلافيه . ثم حل جللاً بماء الورد وسقاه فانتعش انتعاشه ظن انه شفاه فافرغت عليه اكياس النصار انواعاً . وصار بينهم ملكاً مطاعاً فمذ ايس انخداعهم نهض . وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم باعاً . ورفع في الفضائل سراعاً . اترجو لمن عانيت انصلاً . او ترى لزاجه صلاحاً فقال : سبحان من خلق الناس طباعاً .. »

وهذه القصة تدل على ان الطبيب يقبل بخدعة اهل المريض مقابل الاحتفاظ بالهدايا .. وهي دلالة على شيوع الحاجة حتى تولد هذا الجنس والتكالب على المال .

وفي القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي قال الالوسي في مقاماته بارتفاع شأن الجهال وهو اشارة ضمنية بانحدار شأن العلماء . يقول الالوسي :

« يا بني

بغداد لم تزل بملأ فيها ان دبدني ان اجعل زمام امري في كل وقت من يدي ديني فلا تستغربوا علو سافل وارتفاع دني جاهل فمن اخلاق الزمان انه ملول والباطل جولة ويزول .

يا بني

ان في سوقية بغداد المحترفين من هو احسن بكثير من بعض من اعيانهم وقد غدوا عن سبيل الرشد منحرفين فاذا

اخطرتهم الى مجالسة احد فاختروه من اولئك السوقية وان خيراً من اعيان السوء الكلاب السلوقية

لا يفرتم الاوجه الفخر

فيارب حبه في رياض

وهذا النص لا يشير الى كدية اهل العلم

وحاجتهم إلا انه يفهم منه من خلال ارتفاع شأن الجهال والذي يعني بدوره انحطاط شأن العلماء .

حيل اهل الكدية

وضعت المقامات الحيل التي كان يمارسها

اهل الكدية للحصول على المال والطعام . فيصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في احدي مقاماته المنطقة ببغداد قصة طريفة لشخص يريد ان ياكل مجاناً فلم تكن امامه سوى هذه الحيلة ..

تقول المقامة البغدادية للهمداني :

حدثنا عيسى بن هشام قال : انتهيت

الازاد (نوع جيد من التمر) وانا ببغداد

وليس معي عقد ، على نقد . فخرجت

انتهم محائله [امكنة بيع هذا التمر] حتى

احلني الكرخ فاذا انا بسوادي يسوق

بالجهد حماره . ويطرف بالعقد ازاره

فقلت : ظفرنا والله بصيد وحيالك الله ابا

زيد . من اين اقبلت . واين نزلت ومتى

وافيت وهلهم السي انيت . فقال

السوادي : لست بابي زيد . ولكني ابو

عبيد . فقلت : نعم لعن الله الشيطان

وابعد النسيان انسانيك طول العهد

واتصال البعد ... فقلت لهم الى البيت

نصب غداء او في السوق نشتر شواء .

والسوق اقرب وطعامه اطيب ... ثم

اتينا شواء (وبعد ان اكلا اطيب الاكل

واحسن الشراب) ... خرجت وجلست

بحيث اراه ولا يراني انظر ما يصنع فلما

ابطأت عليه قام السوادي الى حماره

فاعتلق الشواء بازاره وقال : ابن ثمن ما

اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيقاً .

فلكمه لكمة . وثني عليه بلطمة ثم قال

الشواء : هالك . ومتى دعوناك زن يا اخا

الفيحه عشرين فجمال السوادي يبكي

ويحل عقدة باسنانه ويقول : كم قلت

لذلك القرد انا ابو عبيد وهو يقول

انت ابو زيد فانشدت :

اعمل لِرزقك كلَّ آله

لا تقعدنْ بكلِّ حاله

وانهضْ بكلِّ عظمية

فالمرء يمجىز لا محاله

وهذه القصة وان كانت تمثل قطعة ادبية

ولكنها تتحدث عن وقائع او حوادث قريبة منه .

وبورد الهمداني كذلك في مقامته الصربية

والتي تدور حوادثها في بغداد قصة توضح كيف

يمكن لانسان ان يجمع المال عن طريق حيل

واساليب عديدة .. والقصة هي قصة غني يتعرض

لكارثة فيفقر ثم يقوم بأساليب وحيل عديدة حتى

يرجع غنياً .. ويصف لنا الهمداني كيف يرجع

هذا الشخص الى حانة الفنى وماذا عمل كي يصبح

غنياً ؟

يقول على لسانه :

« فجمعت من النوادر والابخار

والاسمار والفوائد والآثار واشمار

المتطرفين ونواميس المتخرفين ونوادر

النادمين ورزق النجيين ولطف المنطيين

وكياد المخنثين ودخمة الجرايزة

وشيطنة الابالسة ما قصر عنه فتيا

الشمعي وحفظ الضبي وعلم الكلبى

فاستردفت واجتديت وتوسلت وتكديت

ومدحت وهاجيت حتى كبت ثروة من

المال ... »

وهنا يتضح ان الحيلة والمراوغة احد اهم

الاساليب للكسب آنذاك .

ولابد من الإشارة كذلك الى ان جمع المال

من خلال « النوادر والابخار والاسمار والفوائد

والآثار واشعار المستطرفين ... » وهي اشارة

الى ان اهل العلم اضطروا الى اتهام الحيلة

للحصول على المال ..

وفي القرن الخامس الهجري يتحدث ابن نايقا

في مقامته الثالثة عن حيل بعض المتسولين

ومراوقتهم للحصول على ما يبغيون . تتحدث القصة

عن جماعة قدموا بغداد فذهب احدهم ليشتري لهم

الغداء فيستغلهم احد المتسولين مدعياً انه من

موطنهم تقول المقامة : انه

« ... صادف شخصاً بالفناء عارياً

من البزة والحياء ، قد خلع أطماره ،

وبسط أزاره ، وأطلق يمينه ويساره وهو

يقنص ويحبس ويجمع ويقصع وكانهن

لدى دروز قميصه فدّ وقوّءم سسم

مقشور فقال لي هازياً يتشعث الجدار

رسوء الجوار وهو ينشر زاده وبحلّ

مزاده ، ما أشبه الجار بالدار ، فقلت من

لك بالوطن الخاص وجامع ، وجامع ولد

العاص ثم ذكرت القوطة وابواب جيّرون

وحننت حنين ميسون فرفس ذلك

الشخص رأسه وصاعد أنفاسه وانتزع

زفره من حيزومه الى خيشومه ثم قال

واني لك مقروع ... وجعل يفيض عبرته

ويبدي لوعته ويندب غربته ويقول

واشواقا اليكم ابداً ، وواحرنا على شربة

من ماء يردا ... فيا لله فقد حزني مقال

وساءني حاله فقلت له يا هذا اُبشر بقرب

الدار والرفيق السار والصود معنا الى

البلد والاجتماع بالاهل والولد ودعونا

الى الطعام فتأفل عن المقام ، حتى اقمنا

عليه بحرمة البلدية فأسرع في الجبة

فناولناه ذنوباً من الطعام ... ثم دخل

الامام ومن معه لصلاة الظهر ... فعجبنا

من هربه وهم القوم بطلبه فاذا هو

البشكري فشكرنا الله على السلامة

منه .. »

اما الحريري (القرن الخامس الهجري)

فيصف في مقامته البغدادية حيل الشيخ الذي

يتقمص دور المعجوز كي يصل الى مراميه ووضح

على الطريقة الشعرية كيف يستعمل الحيلة لتحقيق

مآربه . تقول القصة ان ابا زيد مثل دور معجوز

تلقى الشعر في احد المساجد ثم يكشف امره

الحارث بن همام فينشد ابو زيد :

يا ليت شمري ادمري

أحاطك علماً بقدري

وهل درى كنهه غوري

في الخدع ام ليس بدري

كم قد قمرت بنيه

بحيلتي وبمكسري

... ..

... ..

ولو سلكت سبيلاً

مالوفة طول عمري

لخاب قيدي وقدي

ودام عشري وخسري

فقل لمن لام هذا

عُدري فدّونك عُدري

الفاظ التسول

حفظت لنا احدى المقامات - وهي المقامة الرابعة لابن ناقيا - الالفاظ التي يستعملها اصحاب الكدبة وفيها من الادعاء بالمرض والجوع والقربة ، والاوصاف التي يطلقونها على الاشخاص الآخرين . جاء في المقامة الرابعة لابن ناقيا (القرن الخامس الهجري) على لسان احد الفقراء الذي اخذ ينادي اهل الدار وقد تمسك واهم بعدم الجواب :

« يا اهل اندار اما تمون انا لله وانا اليه راجعون اتراهم شهود ام رقود عموا مساء اهل المنزل وحياكم الظلام المقبل وشهد لكم ضياء المحفل انا فقير المرميل (الفقير) وانا ذو انداء المغفل امينوا السائل المبلى والزمن الاعمى ولو بشغروق النمرة ثم غصة العبرة . كل ذلك ونحن لا نجيبه ولا نشبه ثم غصة العبرة كل ذلك ونحن (اهل الدار) لا نجيبه ولا نشبه ثم عاد الى ندائه واضرب عن بكائه فقال : يا اهل المنزل نعمتم مساء وطبتم ثناء ايا بني الانعام وبقيت الكرام اجيبوا سئالكم . عجلوا نوالكم . قد اكفهر الدججا ... واضطرم الجزع في قلبي والوطن في الجانب الغربي فامنا سمحتم بالرغد فصحتم بالرد . وانما اسأل نافعاً من الزاد لا يلثم اكالا ولا ينقص مكبالاً ، ولو من نثاره الخوان كفتيل النواة او كابهام القططاة اللهم ابعثها على يد نجيب منهم ولو كفيط الطغري (قلامة الظفر) او كحبة النثر (المصفور) يا اهل العطاء ويا ارباب الشاء اتيتكم طينان الحشا بادي المشا (جوعان) عريان في سرباله المعزق اطوى اللثم ، واجمع اللثم (الطريق) ولا صبية كاليفاث (صفار الطير) ولم بطعموا لماكا مذ ثلاث ... كاعواد البزوقي (نوع من النباتات) وكاسلال الشيبيري (نوع من النباتات) شحْبُ الاولان عَجْفُ الابدان يقحمون الثرى ويتعاونون من الطوى وانا اليه وانا اليه راجعون انما يستجيب الذين يسمعون » .

الحفلات ومجالس اللهو

في مقابل هذا الفقير كانت هناك طبقة غنية مرفهة صورتها المقامات من خلال مجالس اللهو

وهنا يمكن اضافة الملاحظة السابقة وهي كيف يحاول الشاعر والكدي من خلال شعره .

وفي مقامة اخرى للحريري وهي المقامة السمرية عن قصة طويلة تقوم على الحيلة للحصول على الهدايا وهي تتحدث عن شيخ يحضج لدى الوالي للقصيدتين تجري مساجلة بينهما فيمجب بكليهما وينحهما الهدايا . وكانت الحقيقة ان الشيخ هو ابو زيد والفتى فتاة وقد اتفقا على هذه الحيلة .

وهذه القصة هي الاخرى تدل على ان الادباء قد اضطروا لممارسة الحيلة كي يحصلوا على الاعطيات والهدايا .

وكتب يحيى بن سعيد المعروف بابن ماري في مقامته الثانية عشرة (القرن السادس الهجري) قصة رجل يدخل المستشفى مدعياً المرض كي يأكل ويشرب فيها دون مقابل .. تقول المقامة :

« قال الراوي فرايت بين يديه رباحين وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظر الثقباب ومن حط له عن وجه الادب النقباب فحين لمحت اعجبتني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو عمرو البصري واسطة الفريد فتصفحت انماطه فاذا هو شيطان الحماطة فعلمت ان سر جنونه من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام والتريدي برداء السقام وانت صحيح انبدن طليق الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب عليه اغلوطة وما عقالك بانشوطه لولا غريم كدني تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجات بهذه البقعة مع سمة الرقعة وما انا اكل اطيب ما يصنعه الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة لطلب ولا تحفز لتمب وانشد :

نيل من زمانك ادنى صفور ولو بالجنون ان المكاسب شتى

والناس فيها فنون وهنا كذلك لابد من التنبيه الى ان صاحب الحيلة من العلماء !!

والشراب فصور البذخ والترف في الحياة
البغدادية ..

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته الصيمرية مجالس نهو وشراب في بغداد
فيتحدث عن شخص مثرف كان ينظم المجالس
لخلانه فيتحدث عن نفسه فيقول :

« لم نزل في صبح وغبوق نتغذى
بالجدايا الرضع والطباهجات الفارسية
والمدققات الابراهيمية والقلابا المحرقة
والكباب الرشيدى والحملان وشرابنا نبيذ
العسل وسماعنا من المحسنات الحذاق ،
الموصوفات في الآفاق وتقلنا اثلوز المفسر
والسكر الطبرزد ، وريحاننا الورد
وبخورنا الند .. »

وبعد افلاسه وفقره ثم غناه مرة اخرى يرجع
له خلانه ويعود لحياة اللهو :

« وانتقلنا الى مجالس شراب فاحضرت
لهم زهراء خندريسية ومغنيات حسان
ومحسنات فاخذوا في شانهم وشربنا .. »

هذا بالنسبة لما وصفه الهمداني في القرن
الرابع الهجري اما الحريري فقد وصف في القرن
الخامس الهجري مجلسا للهو والشراب في مقامته
(القطيعة) قال فيها :

« حكى الحارث بن همام عن جماعته ..

اجتمعنا في يوم سما دجنه (ارتفع
غيمه) ونما حسنه وحكم بالاصطباح
مزته (سحابه) على ان نلتهم بالخروج
الى بعض المروج لسرر النواظير في
الرياض والنواظير وتصلل الخواطر .
بشيم المواطر (برؤية السحب المطيرة)
فبرزنا ونحن كالشهور عيضة .
وكنندمانى جذيمة (الابوش) مودة ،
الى حديقة اخذت زخرفها وازينت
وتنوعت ازاهرها وتلونت ومعنا الكمبيت
الشمسوس (الخمر) والسقاء الشموس
والشمادي (المغنى) الذي يطرب
السامع ويلتهيه ويقرى كل سمع ما
يشتهيه ، فلكمنا اطمأن بنا الجلوس
ودارت علينا الكتوس وغل علينا ذمير
(الشجاع) عليه طمير (ثوب خلق)
فتجهمناهم تجهم الفيد الشيب ووجدنا
صفو يومنا قد شيب ... الى ان غنى
شادينا المغرب ومفردنا المطرب :

الام سعاد لا تصلين حبلي
ولا تاوين لي ممسا الاقي
صبرت عليك حتى عيل صبري
وكادت تبلغ الروح التراقي
وها انا قد عزمت على انتصاف
اساقى فيه خلي ما يساقى
فان وصلا ائذ به فوصل
وان صرما فصرم كالطلاق

ولم نعر على نص آخر يصف الحفلات في
بغداد باستثناء الأوسي الذي وصف لنا حفلة
اقيمت له بمناسبة اكمائه التعليم على شيخه وهي
حفلة تختلف بالطبع عن حفلات اللهو .. ويمكن
اضافة نص للكاذروني (القرن السابع الهجري)
في الحفلات المقامة بالمناسبات مثل شهر رمضان
والحج ويمكن مراجعتها في فصل المناسبات
الاجتماعية ضمن هذا البحث .

نعود الى الأوسي (القرن الثاني عشر الهجري)
الذي وصف حفلة تخرجه فقال في مقامته الثانية
نقال :

« كان ذلك في المدرسة الخاتونية المقابلة
مما يلي اقبلة للحضرة القادرية وتفضلت
صاحبها السيدة عاتكة عابدة (كذا)
كانها زمن البرامكة ولقد رايت هناك دهماء
القدور تهدر كالغنيق وتفوح طيبا كالمسك
الفتيق ورايت هاتيك المائدة مثل عروس
مائدة لا عيب فيها سوى اشتماها على
اصناف اطعمة تلذها الاعين وتميل اليها
الانفس وتشتهيها ولم يبق في البلد عالم
الا اكل منها وروى احاديث الشفاء عنها
وانها بينهم كبدر السماء الا من هاتها من
رفيق غنائم عمائم احرار العلماء .. »

ولا شك ان الحفلة التي يصفها الأوسي تختلف
في هدفها ونوعها عن الحفلات السابقتين . وابراد
نصها هنا للتمييز بين انواع الحفلات المقامة ببغداد
وانماطها .

انواع الشراب

وردت في المقامات العديد من الانواع الشائعة
للشراب في بغداد آنذاك . ففي المقامة الصيمرية
للهمداني (القرن الرابع الهجري) يصور مجلس
شراب وكان شرابهم « نبيذ العسل » .

ثم عندما يصف مجلسا آخر للشراب يقول :
« فاحضرت لهم زهراء خندريسية [الزهراء :
الشرقة . والخندريسية : الخمر القديمة] .

وبعد ذلك عندما يوجه في طلب أحدهم يقول :

« فاحضرته وقدمت إليه طعاماً فاكل .
وسقيته من الشراب القطري فشرب
حتى ثمل . [القطري نسبة الى قطرب
موضع بالعراق لخمرة وشهره في الجودة
والطيب] .

وفي المقامة المجاعية للهمداني كذلك عندما
يبين عيسى بن هشام رغبة بالطعام وهو جالس
لسائل يسأله عن رغبته فيقول :

« لون لطيف الى خردل حريف [يريد
نبذ تمر اضيف اليه الخردل لتقويمه
وزيادة لذته] .

وفي القرن الخامس الهجري وصف الحريري
في مقامته القطيعية الشراب ومجالسه حيث يحكي
الحارث بن همام عن جماعته في ذهابهم للهر .
فيقول كانت : « معنا الكُمَيْتُ الشموس
[الخمر] . وهناك كانت حالة اخرى معاكسة هي
الامتناع عن الشراب يصف الحريري على لسان
أحد الشيوخ الذين حضروا مجلس شراب فراح
يصف امتناعه عن الشراب قائلاً :

نهائي الشيب عما فيه افراحي
فكيف اجمع بين اراح وانراح
وهل يجوز اصطباحي من معتقة
وقد أثار مشيب الرأس اصباحي
أليت لاخامرتني الخمر ما عليقت
روحي بجسمي والفاظي بإفصاحي
ولا اكتست لي بكاسات السلاف يد
ولا اجللت قِداحي بين اقداح
ولا صرقت الى صيرف مشمعة
همني ولا رحت مرزاحا الى راح
ولا نظلت على مشمولة ابدأ
شملي ولا اختبرت نداما سوى الصاحي

انواع الطعام

صورت المقامات انواعاً من الاطعمة التي
كانت شائعة في بغداد فالهمداني (القرن الرابع
الهجري) يصف من خلال مقامته الجماعية انواعاً
عديدة من هذه الاطعمة فعندما كان عيسى بن
هشام جائعاً وجاء يطلب الطعام قابل شاباً يسأله
عن حاجته فقال :

(١) رغب على خوان نظيف [الخوان ما يوضع
عليه الطعام] .

(٢) ويقل قطيف الى خل ثقيف [اي يقل اضيف
اليه خل شديد الحموضة] .

(٣) ولون لطيف الى خردل حريف [يريد نبذ
تمر اضيف اليه الخردل لتقويته] .

(٤) وشواء صفيف الى ملح خفيف [يقصد
تنظيم قطع اللحم بشكل مصفوف في مشكة
من حديد ثم يستوى على النار] .

(٥) يقدمه اليك الآن من لا يملك بوعيد ولا
يعليك بصبر . ثم يملك بعد ذلك باقداح
ذهبية من راح عنبية . اذاك احب اليك ام
اوساط محشوءة واكواب مملوءة وانتقال
معددة . وفرش منضدة وانوار مجودة .
ومنطرب مجيد . له من الغزال عين وجيد
فان لم ترد هذا ولا ذاك فما قولك في :

(٥) لحم طري [ويروي لحم طيري اي لحم
طيور] .

(٦) وسماك نهري .

(٧) وباذنجان مقلي .

(٨) وراح قطربلى [اي خمر مدينة قطربل
المعروف بجودته] .

(٩) ونفاح جني [الذي جني من قريب] .

ومضجع وطلي على مكان علي . حذاء نهر
جبار وحوض ثرثار وجنة ذات انهار .

قال عيسى بن هشام فقلت : انا عبد
الثلاثة .

ومن خلال مقامة الهمداني الاذائية تبين ان
البائع كان يصف الفواكه ويرتبها .

جاء في هذه المقامة :

« سرت غير بعيد الى رجل قد اخذ
اصناف الفواكه وصنفها . وجمع انواع
الرطب وصنفها فقبضت من كل شيء
احسنه » .

التعامل في السوق

يصف الهمداني (القرن الرابع الهجري) في
مقامته البغدادية الطعام الذي يصنع في السوق
ومن خلاله تبين العلاقة بين البائع والمشتري .
ومنها نفهم ان الزبون يطلب من الاكل احسن
ما يكون وفق مواصفات محددة ..

يقول عيسى بن هشام - عندما يلتقي بابي
عبيد - لصاحب المطعم :

« ... ثم اتينا شواة يتقاطر شواؤه
عرقاً . وتتسابل جوداباته مرقاً . فقلت

أفرز لابي زيد من هذا الشواء . ثم زن له من تلك الحلواء . واختار له من تلك الاطباق وانضد عليها اوراق الرقاق ورش عليه شيئاً من ماء السماق ليأكله ابو زيد هنيئاً .

ثم يقول لصاحب الحلوى :

« وقتلت لصاحب الحلوى : زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوق وامضى في المبروق . وليكن ليلى العمر يومى النثر رفيق القشر كثيف الحشو ثلثي الدهن . كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ ليأكله ابو زيد هنيئاً .

ثم يصف بيع الماء الثلج من السقاء :

« ثم قلت : يا ابا زيد ما احوجنا الى ماء يشمّع بالثلج ليقمع هذه الصّارة ويفشّ هذه اللقم الحارة اجلس يا ابا زيد حتى ناتيک بسقاء ياتيک بشربة ماء . »

ضرب البائع للزبون الذي لم يدفع

صورت المقامات في احد المشاهد الطريفة كيف يتعامل البائع مع المشتري اذا امتنع الاخير عن الدفع ويبدو ان البائع آنذاك لم يكن يطلب الشرطة لتحل المشكلة بل كان كما يصفه الهمداني في مقامته ابغدادية حيث يفطر البائع اخذ الحساب بالقوة . فبعد ان ورط عيسى بن هشام ابا عبيد بالدخول الى المطعم ثم هرب منه تاركاً اياه كي يدفع الثمن . يصف ابن هشام الحالة :

« فلما ابطأت عليه قام السوادي الى حماره فاعتلق الشواء يزاره . وقال ابن ثمن ما اكلت . فقال ابو زيد : اكلته ضيفاً . فلكه لكمة . وثنى عليه بلطمة ثم قال الشواء : هاك ومتى دعوناك . زن يا اخا القحة عشرين . فجعل السوادي يبكي ويحل عقده باسناه ويقول : كم قلت لذلك القريد . انا ابو عبيد وهو يقول : انت ابو زيد . »

وصف حادثة الطاعون

يصف الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي) حادثة الطاعون التي عصفت ببغداد أيام داود باشا والي بغداد فقال :

« جرت حادثة الطاعون فأجرت العيون العيون وعظم الهم وربما . وبلغ السيل

الزبي فقلت في نفسي صبراً فهذا والله تعالى اعلم آخر السهام وهل بعد هذا الأمر الامير مرمى لرام حتى اذا نضبت مياه العيون وخبث نيران النجون جاء الوزير على رضى والي حلب فحاصر بغداد وجلب على واليها الوزير داود باشا ما جلب وكان نزول ذلك القضاء المحتوم في في اواخر سنة ١٢٤٦ رغوم فحيث خلا الكرخ ممن بهرع اليه ويقول في المهمات عليه اتخذني اهله سيّدا وملكوني منهم يدا وقلبا ابدا خلت انديار فسدت غير مستود ومن الشقاء تفردى بالسودد فلما غلا قدر القدر وعلا قدر علي بالغلبة على البلد وانتصر خرج على من نافقوا القدر اهل النفاق وبرز الي من زوايا المكر اهل الشقا والشقاق فجعلت اكفكف عنى السهام بكف اخلطه مع بعض عظام مدينة اسلام . »

عزل علي رضا والي بغداد وتولية محمد نجيب

وصف الالوسي (القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي) عزل الوالي علي رضا وتولية محمد نجيب فقال :

« واول ما احسست بالشر وبدو ما اضره القدر وسر عند عزل نخبة الوزراء وروح جسد الزوراء الوزير الذي لم نسمع بمثله في حسن الاخلاق فيما مضى مولاي المرحوم المبرور علي رضا . . »

ويتضح من هذا ان الالوسي كان على صلة وثيقة مع علي رضا على عكس علاقته مع محمد نجيب يقول الالوسي حول تولية الاخير :

« ثم لما اقبل الوزير والدستور الكبير الحاج محمد نجيب باشا منفصلاً من وزارة دمشق الشام وقعد على دست الوزارة في مدينة السلام جعل طفل ذلك الحال يشيب كل يوم ما لا يشبه الطفل في احوال حيث عكف على ذلك الوالي كل عدو ولي رخيص القدر لكن في العداوة غالي . . »

وصف اصحاب المقامات ببغداد

اختلف اصحاب المقامات في وصف بغداد . وقد وصف كل واحد منهم جانباً من الجوانب فمنهم من نظر اليها باعتبارها دار الخلافة بينما انتفى آخرون الى وصف اهل بغداد وقد تآثر اهل

المقامات بارتفاع أو انهيار شأن بغداد السياسي ،
ففي القرن الخامس الهجري يصفها الحريري في
مقامته الشعرية بأنها :

« حمى الخلافة والحرم العاصم
من المخافة » .

بينما وصفها يحيى بن سعيد المعروف بابن
ماري في القرن السادس الهجري في مقامته
الخمسین بأنها :

« حمى الامام وتقطعة الاسلام » .

وقد بقيت سمعة بغداد كبيرة حتى القرن
السابع الهجري حيث وصفها الكازروني في مقامته
بقوله :

« كنت اسمع من جواب الاقطار
وطرائق البلاد والامصار ان دار السلام
هي كعبة الاسلام وحرم الامام ومعدن
الكرام ودار الخلافة ومحل الامن من
الخلافة .. »

إلا ان هذه النظرة سرعان ما تغيرت عندما
راها الكازروني بنفسه فكانت مفاجئة له :

« وافيتها بلدة خالية وامة جالية
ودمنة حائلة ومحنة جائبة وفصوراً خاوية
وعراضاً باكية وقد رحل عنها سكانها
وبان عنها قطانها وتمزقوا في البلاد ونزلوا
في كل واد . وقصورها المشيدة مهدومة
ونعماؤها مملوكة معدومة موحشة تفقد
قطانها باكية بلسان الحال على
سكانها .. »

اما دار الخلافة فقال عنها :

« رايت حرم الخلافة مهانا بعد ان كان
كعبة وامانا فطاف بي ببعض قصوره
واعتذر عن الباقي لقصوره وقال : يكفيك
ما المحك وأريك .. »

وامام هذه الحالة لم يكن امام الكازروني إلا
رثاء بغداد :

« فوقفت ابكيها واندب ربوعها ومن
ومن كان فيها :

واندب اطلالها تارة

وابكي على فرقة الظامينا
فلو ذهبت مقلّة بالبكاء

لفرط الغرام لكنا عمينا

ويبدو ان الكازروني كان يندبها مقارياً مجدها
الغابر بحاضرها الذي دمره الغزو المغولي ..

وبعد ذلك جاء الجزري (في القرن الثامن الهجري)
فوصف بغداد :

« هذه دار سلام المؤمنين فادخلوها
بسلام آمين » .

ويبدو من هذا ان بغداد كانت قد استعادت
بعض مكانتها بعد انتهاء الغزو المغولي لها .. اما
في القرن الثاني عشر الهجري اي في العصر العثماني
فان الالوسي قد وصف تخلف بغداد لانها لم تكن
سوى مجيد ولاية تابعة لا غير .. ويبدو ان
الالوسي كان متشائماً من بغداد بسبب المحن التي
تعرضت لها والتي كانت تسبب احياناً الاقتتال
بين اهالي بغداد ولما كان الالوسي قد عاصر هذه
الاحداث فقد تنبه الى بساطة وتفاهة الاسباب
التي ينصارعون من اجلها .. يقول الالوسي :

« وقد رايت اهل الزوراء لا يجمعون
على زور حق ولواضح كشمس الضحى
في الظهور بل يكونون طائفتين في كل حادثة
فان انتم المكروه فالواجب ان يكونوا مع
الطائفة المحقة والا فكونوا طائفة ثالثة .

واحازوا عن الطائفتين بمعزل وابعدوا
عنها بالف الف منزل فذلك في هذه الايام
ابعد عن الوقوع في مهاوي الملام » .

وكانت ظاهرة التقرب الى السلطة قد لاحظها
الالوسي فثبتها في مقاماته قائلاً :

« يا بني

ان معظم اهل بغداد ليعظمون المتردد
الى السراي اكثر من تعظيمهم المتردد الى
الكعبة ويعظمون من عصى ربه في اطاعة
الوزير اكثر من اطاعتهم من اطاع في
عصيانهم ربه ويكاد يقول لسان حالهم
وانه لانصح من التقرير ان قبلتنا
السراي والهناء جل شأنه الوزير فتراهم
قد جعلوا معظم شغلهم انهم يطوفون
حوله وان لم يسامرهم طواف اصحاب
السراي حول عجلهم فان استطعتم ان
ترددوا احياناً الى الوزير فلا بأس ولكن
عليكم بالحشمة وقلة الكلام وقصر
الجلوس وعدم معارضة احد من
الجلوس » .

ولكن الالوسي بالرغم من ذمه لبعض الناس
في بغداد فانه كان متعلقاً بها محباً لها وقوله فيها
هو قول المخلص ويتوضح مدى حبه لوطنه بقوله :

« وحيث انكم لا تستطيعون فيما اظن
الهجرة ولا تطيقون ترك الاوطان وان

المقامة الثانية عشرة من المقامات المسيحية

ليحيى بن سعيد [عن مخطوطة المتحف العراقي
برقم ٢٢٠]

تنبيه : وردت في هذه المقامات عبارات وجمل
مرتبكة وغير واضحة ، وقد اثبتناها كما هي دون
تغيير او حذف .

روى يحيى بن سلام قال : حملني شريح
الشبيبة ومبعة اللهو والطيبة الى انتطوف في
البهارستانات واعيان موارد الحانات فخرجت
يوماً في زمر من اقبال بني عامر بجناب فضل
عامر وجون جود ماهر بقرائع ارق من السلسل
واخلاق اعذب من الماء الزلال فنشطنا اميراس
الاسراع ومددنا الى الفرحة باع الاطماع حتى
دخلنا الى احد البهارستانات انعضدية لنصقل
الافكار الصمدية لانها مجمع اصحاب المعاهات
والموقظة من سنة الترهات فحين وطننا ججيرة
وخبرنا حجرة (كذا) راينا موسوساً وهو يقول
اعتبروا يا ذوي العقول بمن عاد يهرب من دائه
بعد الاستنارة برايه ويصتقد في السلسل بعدما
كان يفوق كل باسل فما زلت به توالى الاعلال حتى
اودعته اكف الاغلال .

قال الراوي : فرايت بين يديه رياحين
وفاكهة كل حين وهو بهيئة من العيش معجونة
بخرق وطيش وعليه اثواب مصبغة ومعضدة
وتجاهه كتب منضدة وهو ينظر فيها نظير النقباب
ومن حط له عن وجه الادب النقباب فحين لمحته
اعجبني سمته فتوسمته فاذا هو العلامة الفريد ابو
عمرو البصري واسطته الفريد فتصفتحت انماطه
فاذا هو شيطان الحماطه فعلمت ان سر جنونه
من احد فنونه فقلت ما الذي دعاك الى هذا المقام
والتردي برداء السقام وانت صحيح البدن طليق
الرسن لا مانع لك عن سجن فقال لست من تذهب
عليه اغلوطة وما عقلك بانسبوطة لولا غريم كدني
تقاضيه ولم اجد ما يرضيه ما التجأت بهذه البقعة
مع سعة الرقعة وها انا اكل اطيب ما يصنعه
الطاهي ما يفاخر كسرى ويباهي من غير مشقة
لطلب ولا تحفز لتعب وانشد :

نيل من زمانك ادنى

صفو ولو بالجنون

ان المكاسب شتى

والناس فيها فنون

كانت مرة بالمره فعليكم بقلة الاختسلاط
وكثرة الاحتياط فلعلمكم تحفظون من الامر
الامر وتسلمون من ان ينطحكم ذو قرنين
وليس باسكندر .. »

العاب نسلية

من خلال المقامة الفردية للهمداني (القرن
الرابع الهجري) يبدو انه من الشائع ترقيص
القرود على فارعة الطريق لجمع المال . جاء في
عده المقامة :

« حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا
انا بمدينة السلام قافلاً من البلد الحرام .
اميس ميس الرجلته على شاطئ الدجلة .
اقام تلك الطوائف وانقصى تلك الخزارف
اذ انتهيت الى حلقة رجال مزدحمين
يلوى الطرب اعناقهم ويشق الضحك
اشداقهم فساقني الحرص الى ما ساقهم
حتى وقفت بسمع صوت رجل دون
مراى وجهه لشدة الهجمة . وفرد
الزحمة فاذا هو فراد يرقص قوده ،
ويضحك من عنده . »

ورد هذا النص في مجال التنزه كذلك .
ولكننا نورده هنا لتوضيح لعبة شائعة في بغداد
هي القرد الذي يقوم بترقيص القرد ، ويبدو ان
هذه اللعبة كانت مشوقة ومسلية بدليل المزدحمين
حول القرد ..

الساعاتية

اول ذكر ورد للساعات ببغداد في المقامات
نجده في مقامة الكازروني (القرن السابع الهجري)
والنص وإن كان قصيراً إلا انه مهم بالنسبة لحقبة
الزمنية . قال الكازروني :

« وهذا دار الطبل ولكن ابن
الساكن ؟ كانت أهلة بالمبتمكين
[البنكمات آلات يقدر بها الزمان] عامرة
بالساعاتية لادراك وقت التأذين فاذا
دخل وقت الصلاة ضربت النوبة في جميع
الافاق . »

والكازروني كما يتبين من نصه السابق
تحدث عن الساعاتية في وقت انحلال صناعتهم فهو
يقول « كانت أهلة بالمبتمكين .. » فضلاً عن
هذا النص يؤكد ان صناعة الساعات العربية
والاهتمام بها جاء لضبط وقت الصلاة وتحديد
مواعيدها ..

ذار الانام بحمق
 ان الامام زبون
 بالنحل حينا وحينا
 بالخمرة الزرجون
 وان يفتنك بجدة
 امر فتل بالمجون
 ان النفوس لدينا
 باذا النهى في شجون
 فريما نلت مجدا
 عن لفظه هي دون
 كم ساء امر قلوبا
 وقبل شر عيون
 وكم نسر بنات
 وكم تفهم البنون
 اسنى على طيب عيش
 قد مزقه السنون
 وجونة الصفو تهى
 فيه بغيث هتون
 ايام وعد الوطابا
 على البرايا ديون
 فكل مجمع شمل
 قد بددته المنون
 وكل شيء سوى طارق المنون يهون

قال الراوي : فحين انكشف لأصحابي
 وانجاب ما نطق من لفظه العجائب قالوا ايها البارع
 في الاشعار الوحيد ابن لنا اي الشعراء المجيد .
 فقال : اما ابو نواس الفائق القياس فظهور آياته
 صدع في خمرياته ولقد كان مبرزاً في الانساب
 اذا رآه كل نابة ينساب . ملك سلاسة اللفظ
 وضبط ازمة الحفظ تبه في الاراجيز عقل المجيز
 اتى باغراض المقيول وله عندهم المنزلة وفرط
 القبول . واما ابو تمام فجزل الكلام بعيد المرام
 يلحق بالجاهلية قريضه ويبرز في نخلاتهم اغريضه
 له سبق في حسن الفراسة في انتقاد الحماسة
 واذا ذكرت ابا عبادة . فلما ترد زيارة صناجة
 العرب ومحدث الطرب اختيارات شعره كثيرة
 ومعانيه فابقة غزيرة تميل الى كوحه الكتاب من
 غير ارتياب . واما ابو الطيب ذو السحاب الصيت
 فناهيك باسمه عن اختيار اسمه صاحب الامثال
 متى حرك خفيه ينثال لوز قصائده وبراعة
 قلائده لم يضل من جمعنا حقير ولا فقد منها
 نقيير . فمد فرغ من الشرح بالغ في المدح قلنا له
 عرفنا عليك بمن شق الابحار وطيب نوم الاسحار
 الا ما خبرت بين اللغة والنحو لتفرق بين القيم
 والصحر فقال اما النحو في الكلام فكا للبحر في الطعام

رثته يستصغر الانام ويرى بعين الاعضام كل شيء
 مهراق به لم يرقم انكير صوابه واستبهم به
 يقوم اللسان وتعرف قيمة الانسان فحين راي
 بمضنا قد غضب كانه قد غضب قال لكن خيرة
 ما يهذب الميقول ويصليحه ورفض رطبه واكل
 بلحه يكد الفكر عويصه ويمنع السلوك عييصه
 وما ينفى في غريبه العمر غير المشوش القمر
 وهل هو الا معان تفيد كلاما وارواح تستحيل
 احساما وكم شاعر لم يفتر له حرفا ولم يشربه
 ممزوجا ولا صرفا وهل ضح الا حين فسدت
 القرايح والطباع واقتاد السباع ضياع الضباع
 الا فاقن انت من العرب العرباء الذين هم عند اهل
 هذا الجيل كالغرياء واما اللغة والمصنعة فالاصل
 الثابت والعود ذو النثر الذي يفوق نثر الصود
 رثها يتصرف اعنة البلاغة كيف شاء وبذل في
 رسائله الانشاء يجري في حلبة الرؤف ويمر مر
 النجم في الدم والوصف قلعه يحطم الاسل ويمزج
 انصاب بالعمل وينشط الكسلان ويمنع سيل
 المجلان ولاها لم تعرف حقايق الاسماء ولم يفرق
 بين البيضاء ولا دماء غير ان غريبها ثاباه النفوس
 اذا انبت في الطروس هل يولد الاطراب الشعر
 الغريب ولو شددت به غريب كم متقمر في كتابه
 لم يصل الى اسر آراه ثم دعني من هذا الشقاق
 والحجاج اما ترى نفاق ديوان ابن حجاج اما هو
 اسلس الدواوين شعرا وارفعها قيمة وسعرا

قال الراوي : فما في الحشاش الا من شحد
 له شباه ملام وراش حين ذم الغامس من العربية
 ووحشي الالفاظ اللقوية ومضى يكسر عليه ارعاض
 النبل ويحتقر ظل فصاحته والويل فكانما هي
 قلبه ولاط بلبه ما خالج الضمائر فقال يا اولي
 البصائر ما قلت الا ما يشير به الوقت وقد
 خشيت ان السب منكم بخمه مقت ما جنى
 ما خشن وصعب والفاء ما لان وعذب الا حين
 قلت جهابذة المنثور والمنظوم وبقاد العلوم على
 العموم ثم انشد :

وتلك ليالي عيشه برود صفوها
 صقيل الحواشي والزمان مراهمق
 تراوح فيها الصفو والصرف غافل
 فعاديه بالافراج وهو موافق
 عشية افراس الشباب وروقه
 حيايس في اسر النهى وطلايق
 بهيم بوحشي الكلام اخو النهى
 كما هام ذو وجد اذا لاح بارق
 فكل باخبار البلاغة يقتدى
 وكل لاسباب البراعة عاشق

فلهمني على دهر تولى بفتية
تقصّر عما نضدوه الحدايق
فلما ختم سبط مقاله اخذنا في تخفيف انقائه
ومنحناه بالنقود وفككناه من القيود ومثلنا به على
المتوالي على المرض وشرحنا له امره ايماما ونقضا
فقال لقد جئتم شيئا اذأ الا ما عبر عن نفسه
وأدى فمد سميع الايما قال واياك اسمى وقام
واورد شعرا اعلى منزلة من الشعري :

يا من غدا اوفى انورى فطنة
ان اشكل الامر وان ايهما
ومن غدا نالته هاهنا
بفوق صوت الجون انى همى
من فرط جود لم تدع كفه
في الكيس ديناراً ولا درهماً
نالته ما بي علة تختشي
وقد اذعت القول كي تفهما
ثم خبر عقله وسبر نقله وكتب له صكا الى
احد عماله بنصاب من ماله فاخذه اخذ شحاذ في
العقد نفاذ وتركنا ونهض وقد بلغ النافذة
والمفترض .

قال الثراوي فتبعته الى العامل لانظر اين
لهذه من العامل فمد بصر به وحل بربرية قال :
اوردها سمد وسعد مشتمل
ورد سماح كالمحجب المنهمل
لقد رعت خير نياح مكتمل
وخير حاف في الورى ومنتمل
ثم وضع لديه اللّمة وقد تفرغرت مقلته
بالدموع فحين رأى العامل دمه انهال نقده بما
تضمنته الرقعة وزيادة اذنت خفضه بالرقعة فمهر
ينشد :

لولا الجنون لعانيت في البرية فقرا
وسقتنى الدهر كسراً لا يضمحل وعقراً
واصبحت اسطر الضر من رقاعى تقرى
ولم اعد جفاني تقرى ولم اك اقرى
طوراً تراني بفناء ذلاً وطوراً مقمراً
لكن اطمير سريعاً ولا اطمير المقراً

المقامة الخمسون من المقامات المسيحية

وتعرف بالدارية ليحيى بن سعيد المعروف
بابن ماري [عن مخطوطة المتحف العراقي رقم ٣٢٠]
حدث يحيى بن سلام قال : حين لم تتخلف
حانسة . وما بقيت آنسة . ورفضني من كان

يخشاني ، وما احلني ولا اخشاني رفضت المقام .
وقصدت دار السلام وتوركت بطن الجارية .
وتعلقت بالطائرة السائرة . المناسبة في العين
النسياب الاين . فلم تزل في الحبيب ، بين جري
وخبب . حتى احلنا حمى الامام ، ونقطة الاسلام
وكننت يومئذ انعطى الطب . واواضب الى نقلته
ولا اغب . فحين وطئت عيشرها . وطمحت عينها
واثرها . تفت الى شاغورها لا فرق بين صحاحها
بزمز وتجاهه من الكتب امهاتنا . وقد طرزت
حواشيها سماتها . وهو يقلب كتاباً كتاباً .
ويشرح باباً باباً . ويقول ذهب علم المزاج . واقتنع
بحسن المعاشرة والامتزاج . فلا علاج ينجع ولا خير
يرجع . واقتصروا من العلم على جس العرق بغير
عرفان . ومن القارورة على الاصباغ والالوان
وحوت نجوم اسرار جالينوس وبقرراط . ووهت
عقود اراء افلاطون وسقراط . وصار من كبر
العصبة وكثر العصبة . يوماً اليه بمفرج الفهم .
ومحيي الهم . نالته ان تلك العمائم على عقول
البهايم . ما حوت مثشب الملابس والبرانس غير
افهام الانعام النسانس . لو سالت احدهم
مسئلة . رايت ارضاً ممحلة ورجوها معببة .
واموراً ملتبسة . ثم انشد :

ينمقون احاديثاً لمكتب
وفي الولايات يدون الماذبرا
ولا تقوم براهين لمعتذر
يقول ذا العلم عندي ظل مسطورا
وهل ينال علوماً جل موقعها
الا فتى جدد تلقينا وتكريرا
وانلف النفس تدريجاً اناط به
ركضاً الى العلم حتى اذهب الزبرا
ما اتعبوا خاطراً في كشف مسئلة

ولم يوطوا نرد الخصم تقريراً
بالبحث يبرون ما يبرون من مقام
وفي الخطباء يدمون المقاديرا

امهرهم لا يدري لم بعض الامراض تعدي
وبعضها لا يعدي ومنها يتوارث عن الآباء فلا
يدري . ولم الفالج والاستسقاء مع عموم الفساد .
لا يتناقل عن الاجداد . وما السبب في حرارة
الهواء . يبرد عنه الماء . وعلى اي وجه محار .
يبري صب الماء البارد الكرار . وان مداواة الحار
بالحار يضاد ما نقل عن الاخبار . واي الامراض
يبرز بثلاث حلى . وباينها قيس كان اولى ولم مدح
الرأس الكبير . وذم الصغير . وحمد سعة الصدر .
واستعبد من الضيق . كما يستعبد من كثرة شرب

ولا يفيد معه العقاقير . ومنها ماشوطة يمتد ،
ويقوى اله ويستند . فإذا بلغ الانتهاء . انقطع عقده
وهي ثم لا يميزون بين من كد فكرة واتعب . وبين
من غنى فأطرب .

قال الراوي فأخذت بعض كتبه فُسبني بحِمْه
عنه . وقال احذكم يقدم اقدام الضرغام ولا يفرق
بين الشهد والسهم . ويقتنع بالقراءة تقليدا .
ويجد منه لنفسه توبيخاً وتنفيداً . لا يدري حدوداً
لتعاليه . ولا رسومها في الحد السليم . ولا الثمانية
الفوائد التي هي في صدور القراءة كالقلائد . بل أن
حضر مادة هناك حريمها وحلل تحريمها . واكل
اكل اكل من لا ينظر في مصححته ولا يحفظ قوانين
صحته . وقدم من المظوم ما يبتغي أن يتأخر وآخر
ما يجب أن يقدم ويفخر ثم انشد :

نقت الادلى فاقوا الورى بالفهم في سر الطبيعة
فقدوت اعرف نبض من يخفي التواصل والقطيعة
فبكل شخص لي على ما في بواطنه طبيعة
ففضائي عند الاكابر والالى فاقوا ذريعة
ايام تأتي للورى بتراجم النعمى شريعة
ومربع ماهولة بتواتر الجدوى مريعة
لا احتشى نوب انزمان ولا حوادثه القطعية
واوامري مسموعة تروي ومنزلتي رفيعة
فان يحيى بن سلام : فمأبث ان ورد خادم حصان .
واخذ يخدمه كما تخدع الحصان فقال تالله ما ارحل
حتى انحل . ولا اعود مريضاً . دون ان اعطى عطاء
عريضاً . ولا اعاني سقيماً حتى ارى امراً مستقيماً
فنقده الفلام بقرطاس . ولم يبد وجه مكاس فحين
قام امتزجت بديمة . ودخلت دار السلطان مع
خدمه . فلما مثل بحضرته والتحق بزمته شاهد
مدنفا لم يبق منه الا لقا بانفاس . متصعدة ونفس
مترددة فقال :

هذا ما كنا فيه ادعى الى من الا يمكن تلافيه . ثم
حل جلابة بماء الورد وسقاه . فانتعش انتعاشه
ظن انه شفاه . فافترغت عليه اكياس النضار انواعاً .
وصار بينهم ملكاً مطاعاً . فمد ايس انخداعهم نهض .
وقال في غد ينقضي المرض . فقلت يا من يمد في العلم
باعاً . ورفع في الفضائل شراعاً . اترجو ان عانيت
انصلاًحاً . او ترى لمزاجه صلاحاً . فقال : سبحان
من خلق الناس طباعاً . اما صاحبت من عاج وارعى .
فاستلنى استيلاء الخفوت ساعة الحضور . فاسرع
فقدان ان يبور وينادي بالويل والثبور .

فقال الراوي : فتفرقنا شفر بفر . وقد بلغت
الارواح النفر .

الرخيق . وهل دم الكبد غير دم العروق . أم ليس
بينهما فروق . وكيف دم الكبد غذاؤه وهو الته .
أم يفتدي به اذا اكملت في العروق استحالة وما
اندي تفتدي به الاعصاب واللطف . لبعده جنسها
من جنس الدم واللطف . واي شيء اقدم الدم في
الشريان او الروح . والحركة احدث او الجنوح .
وهل معما جعل من الاخلات يرى لها في الدم
اختلاط . ولم من حماء ملازمه اخر من اليرمضاء
تبدي قارورته في حلة بيضاء . واني محل الحرارة
الفريزية عند حدوث الحرارة الفريية . وهسل
يستقران معاً وذلك باطل اذ لا يستقر الشيء
وشائيه . او ينفر احدهما او يبيد وهذا مستحيل
عنده ينقص اصل البدن ومبانيه .

قال الراوي : فحرت بمعضلاته . وثقت الى
حل مشكلاته . فقلت : ايكون مثلك في هذا الاقليم .
ولا يتصدى لهداية التعليم . فقال نوء الكرام
اخلف . وعزى الزمن حريف . وساد الطغمام .
فما يفرق بين الحكمة والتمام . احدهم يحكم على
الراوند بالبرودة وعلى الافيون بالحرارة . ويتناول
الاشياء على غرارة . يقتنع من الطبيب بسيره .
دون سيره . وبطبيب ذكره . ولو افراط في ذكره .
واسمرك بحسار . ان عدلت جار . وان سكنت
نار . ما استقمت الامسال . ولا اعلت الاعال .
بتعاطي ما اتعاطى . ويسرع الى مضرتي ولا
يتباطىء . ما عدت مريضاً الا كتب القصص .
ليفوز بالحصص فان جرت شدة عند بحران شبة
الي . ونبه اعين الجنابة علي . فكم سترت غيبه
وحسنت عيبه . وهو لا يعا باشفاقي . ويرى
احراقي . دابه تصفيف لحينه ومد سباله .
وتغويف سرباله . وتقذيف نباله . يحلب بسمنة
وخمرة . ويحلب بدا واحبل وعميرة . ويخيل
للمنيق . القساح البنين . ويصبع الخضاب لمن
شاب . ويرتب معاجين الباه للشباب . يعتب
بالحد بالحد . واسراح بالجد . ويعتب بالعدد .
ونعم بالعدد ان ناقضه نفر وصاح . وان جادلته
لم يصبر على الكفاح . يلسع ويصع . وبظلم
واضيء . لو سال لم القى بجدث عقيب اختلاج
الشفة . خرج من عدم الجواب الى السفه . لكن
اداريه واماريه . ولا اباريه . لعدم من ينتقد .
ويوار المفتقد . ادعى الى مريض كانى صاحب
الوحي . ولم يبق في مَبَقَّة في النحي . يرمون
انقضاء المرض قبل اوانه وزواله دون تمام بحرارة .
ولا يعلمون ان للأمراض مراتب . يسهل صعبها
القانون الراتب . ومنها ما يهلك المريض قبل التدبير

الفيلة وليلة عند فريجينا

الحياة العربية في العصور الوسطى دراسات من الفيلة وليلة

تأليف

ادوارد وليام لين^(*)

ترجمة الدكتور

يحيى الجبوري

الأستاذ بجامعة قطر

السحر

ان الاعتقاد الراسخ بالسحر مقبول من غالبية المسلمين ، والذي ينكر حقيقة السحر بينهم يعتبرونه متشككا أو كافرا . ان بعضهم يرى ان السحر قد اُبطل عند بعثة النبي ، ولكن هؤلاء قليلون نسبيا . لقد درس كثير من المثقفين المسلمين في العصر الحاضر السحر بتعمق وامعان ، كما انفق عدد كبير من الناس من ذوي الثقافة الدنيا (وخاصة من معلمي المدارس) كثيرا أو قليلا من وقتهم وذكائهم لمتابعة هذه المعرفة ، كي يستعينوا بها على اكتشاف الكنوز الدفينة ولاغراض السيمياء^(**) ، ومعرفة انباء الغيب ، وللحصول على

(*) من اعمدة الاستشراق الانكليزي . ولد سنة 1801 وتوفي سنة 1876 . وخلال وجوده في القاهرة كان يدعى (منصور الهندي) . وفي مصر اتقن اللغة العربية . واشتهر بمجمعه الانكليزي - العربي (مد القاموس) . وهو الذي ترجم الى الانكليزية الف ليلة وليلة ترجمة كاملة اعتمد في طبعها الثانية على نسخة بولاق العربية ، واغلقها بتعليقات ضالحة هدفها اعادة القارئ الاوربي . وقد جمعت فيما بعد هذه التعليقات ، ونشرت في كتاب مستقل عنوانه The Arabian Society in the Middle Ages (المجتمع العربي في القرون الوسطى) وهو هذا الذي بجده القارئ ناسب عينه الان (رئيس تحرير الورد) .

(**) الكيمياء القديمة .

الذرية ، ولحسب المحبة والنف النساء ، وللناظر في العلاج والشفاء ، وللحماية من اثر العيون الشيطانية الشريرة ، وابتلاء او قتل اي عدو او منافس ، ولادراك مختلف الاغراض او الرغبات الاخرى .

هناك وصفان للسحر : واحد روحاني ، وهو مبجل من قبل الجميع عدا المتشككين بصدقه ، والاخر طبيعي ، وهو منهم ومفوض من اكثر المتدينين الورعين والمثقفين على انه غش وخداع .

اولا - السحر الروحاني : ويعتمد بصورة رئيسة على تأثير اسماء الله الحسنى ، وقد ورد ذكره في القرآن ، ووسيلته الملائكة والجن . وهو على نوعين : علوي وسفلي ، او رحمانى (اي نسبة الى الرحمن) وشيطاني .

يعتبر السحر الرحمانى علما سنيا ، ويدرس من قبل الناس الاخيار فقط ، ويستعمل لاغراض الخير وحسب ، ان القداسة في هذا الفرع من السحر متأتية من معرفة اسم الله الاعلى (الاسم الاعظم) ، الا ان هذه المعرفة لا تعطى لاحد الا للخاصة من احياب الله . وقد استطاع سليمان ان يسخر لسلطانه الجن والطير والريح بقوة الاسم الاعظم المنقوش على فص خاتمه ، وكذلك وزيره

آصف (عصف) الذي ما ان نطق بالاسم الأعظم حتى جاء في لمح البصر بعرش ملكة سبأ الى القدس في حضرة الملك سليمان (١). وتعد هذه معجزة هينة نسبة الى ما في الاسم الأعظم من اسرار تبلغ الى حد احياء الموتى ، وكذلك الامر في بقية أسماء الله اذ لها خاصيات أخرى حين ينطق بها او يكتب ، وكذلك القول في أسماء النبي وأسماء الملائكة وأسماء صالحى الجن ، يقال انها جميعا تستجيب لأغراض السحر الروحاني بواسطة ابتهالات معينة . ويكون السحر بتلاوة هذه الأسماء مع ابتهالات وذكر كلمات غامضة بالنسبة لغير المطلعين على هذا العلم وقراءة آيات من القرآن مع مجموعة ارقام مبهمه واشكال هندسية غريبة وصور تكتب في الغالب مركبة على شكل رقية (حجاب) وتستخدم لأغراض الخير .

ان الرقية عندما تستعمل لأغراض الخير والاحسان ، فانها تحترم من قبل العامة على انها فرع حلال او سحر رحمانى ، ولكنها ليست كذلك عند المتعلمين ، والملاحظة نفسها تطبق بالنسبة لعلم الغيب .

اما السحر الشيطاني ، فهو كاسمه يدل على علم يعتمد على وسيلة الشر وبإمرة اشرار الجن ، الذين تحصل خدماتهم باستخدام وسائل كتلك التي تستخدم بالنسبة لصالحي الجن . وقد حرم النبي هذا النوع من السحر ، وذمه كل اتقياء المسلمين ، لانه يمارس لأغراض سيئة .

ان المسلمين يحترمون بابل على انها مصدر علم السحر ، الذي كان ، وهو - على ما نظن العامة - ما يزال يعلم هناك للبشر من قبل ملكين هبطا من السماء اسمهما هاروت وماروت ، وهما محبوسان ومعلقان من قدميهما في بر عظيمة اغلقت بكومة من الصخور ، وفي رواية حولهما تقبل بصورة عامة على انها صحيحة ، ان هذين الملكين نتيجة لرغبتهما في الرحمة جعلهما الله سريعى التأثير بمواطن البشر ، واهبطا الى الأرض لممارسة السحر ، وكلاهما مذنب وقد اذن لهما ان يختارا العقاب في الدنيا او في الآخرة ، فاختارا الاولى . وقد أرسلوا الى الأرض ليمارسا السحر ويفوبا الآخرين ايضا بتعليمهم السحر ، الا انهما قد امرا الا يعلما هذا الفن لاي مخلوق الا ان يخبراه بحقيقة هذا العمل ويحذراه منه « وما يعلمان من احد حتى يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر » (٢) . ان المحدث

المشهور مجاهدا يروى بأنه زارهما بدلالة شخص يهودي ، فانطلق به اليهودي حتى اتى موصفا فرقع صخرة فاذا هو شبه سرداب فقال اليهودي لمجاهد: انزل معي وانظر اليهما ولا تذكر اسم الله تعالى ، قال مجاهد : فنزل اليهودي ونزلت معه ولم نزل نمشي حتى نظرت اليهما وهما كالجبلين العظيمين منكوسين على رؤوسهما والحديد في أعناقهما الى ركبتيهما . فلما رأهما مجاهد لم يملك نفسه ان ذكر اسم الله تعالى ، قال فاضطربا اضطرابا شديدا حتى كادا يقطعان ما عليهما من الحديد فهرب مجاهد واليهودي حتى خرجا ، فقال اليهودي لمجاهد اما قلت لك لا تفعل كدنا والله نهلك (٣) .

الرقية . واسمها السحر ، غالبا ما عرفت بأنها فرع من السحر الشيطاني ، ولكن قسما قليلا من الناس يقول : لا بأس من ممارستها ، وهي عند بعض الناس تدرس مع الأمور الجيدة ، وتمارس بمعونة الجن الصالحين ، وبناء على ذلك فان هناك علما هو السحر الجيد الذي ينبغي ان يحترم على انه فرع من السحر الالهي او السحر الحلال . يقال ان فاعلية هذا السحر تتم بواسطة التلطف والابتهالات الموجهة الى الجن ويصاحب برش الماء او التراب وغيره على الشيء المقصود حتى يتغير ، ويمكن ان يتم سحر الناس بعدة طرق ، منها اصابتهم بالشلل او حتى بسلب الحياة منهم ، او بتأثير عواطف وانفعالات لا تقاوم لأجل اغراض معينة ، وقد يستطاع مسح بعض الناس الى غفارت ، وقد يحول آخرون الى حيوانات متوحشة ، او طيور ، او ما شابه ذلك .

ويعتقد ان العين الشريرة تسحر بقوة شديدة وبطريقة تورث الغم والكرب . ونسب الى النبي انه ذكر اثر العين (٤) ، وقد يعزى احيانا الى تأثير السحر كثير من الامراض او حتى الموت ، ان التعائم (٥) التي كثيرا ما تكتب فيها التعاويذ ، من

(٣) القزويني ، رواية بشر بابل لي كتابه عجائب المخلوقات .

(٤) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٧٤ .

(٥) ان كلمة (Talisman) هو تحريف للكلمة العربية (طلم) انا لكتب هذه الكلمة الأخيرة وفق الطريقة التي ينطق بها العرب عامة ، وهي الطريقة التي يكتبها شيخى ، ويكتبها بعضهم : طلم (بكسر الطاء) و : طلم (بكسر الطاء واللام المشددة) ، انها كلمة تستعمل للاشارات الخفية الغامضة ، وكذلك للاختام والصور وغيرها التي تنقش او تكتب ، وهذه الرموز هي علم التنجيم او نوع سحري آخر . ان الغاية المتوخاة من الطلاسم مختلفة ، احدها ان يتولى المرء سحر الآخرين ،

(١) سورة النمل ٢٧ / ٤٠ ونفسر الجلالين .

(٢) سورة البقرة ٢ / ١٠٢ .

النوع الذي وصف سابقا ، يلبسها كثير من المسلمين لأجل أن تمنع أو تحفظ لأبسها من السحر ، وللغرض نفسه تمارس عدة احتفالات وطقوس سخيفة مضحكة (*) .

أما علم الغيب الذي يطلق عليه اسم (الكهانة) فنذكره أوثق المراجع على أنه فرع من السحر الشيطاني ، ولو أن بعض المسلمين لا يعتقدون به ، ووفق قول عن النبي أن ما يفعله المتنبئون يكون في بعض الأحيان صحيحا ، لأن الجن تسترق السمع من السماء الدنيا لما يقوله الملائكة ويسمعون الأوامر التي قدرت في السماء ويحملونها إلى المتنبئين ، وفي مثل هذه الحالات يرجم الشياطين بالشهب (١) ، ويقال إن الكهنة تحصل على خدمات الشياطين هذه بفنون السحر ، وبواسطة أسماء يتوسلون بها ، وحرق البخور ، فيعلمون من الشياطين أمورا غيبية ، لأن الشياطين قبل بعثة رسول الله كانوا يصعدون إلى السماء ويتسمعون إلى كلام الملائكة خلسة (٢) . ويظن أن أشرار الجن ما زالوا يصعدون إلى السماء الدنيا ويذنون بأخبار الغيب التي السحرة في الأرض .

إن اكتشاف الكنوز المخبأة المشار إليها سابقا ، هي إحدى الأغراض التي تدرس الكهانة لأجلها في الغالب ، ويتوصل إليها بأسلوب الكهانة التي تعرف بضرب النمل ، ويظن أنها تؤثر بمساعدة أشرار الجن ، ولكن أكثر المتورين من المسلمين يحترمونها على أنها فرع من السحر الطبيعي (٣) .

هناك علم آخر ليس من السهل أن يصنف مع السحر الروحاني ، ولكنه ينبغي أن يوضع في منزلة بين هذا العلم وبين السحر الطبيعي ، أن هذا الفرع المهم من فروع الكهانة هو علم التنجيم ، ويدعى علم النجوم ، ويدرس هذا العلم كثير من المسلمين في الوقت الحاضر ، ويستخدم في الغالب حين يتوون حسن الطالع كوضع أسس البناء أو البدء بالسفر أو ما شابه ، وأكثر ما يستعمل هذا

عند الفرس والأتراك . لقد ذكر النبي أن التنجيم ضرب من السحر (٤) .

وأنوع الأخر من الكهانة هو ضرب الرمل (٥) ، واسلوبه أن ترسم علامات معينة على الرمل (الذي اشتقوا التسمية منه) أو على الورق ، وقبل أنه يعتمد بصورة خاصة على علم النجوم .

إن العلم المعروف بالثرجر أو العيافة ، هو الضرب الثالث من الكهانة ، يعرف علم الغيب أو النقال بصورة رئيسية من حركات واحوال أو هيئات الطيور والنزلات وبقية حيوانات الطرد . وذلك ما كان يطلق عليه كلمة السانع ، وهو الحيوان الواقف أو المار من جهته اليمنى نحو المشاهد ، وهذا يعني عند العرب فالأ حسنا ، أما البارح ، فهو حيوان من هذا النوع الذي يمر على جهته اليسرى بالنسبة للمشاهد ، وكانوا يعتبرونه نذير شؤم (٦) .

العيافة : تحت هذا الاسم تندرج معرفة الطالع من قراءة خطوط الكف والعلوم المنفرمة عنه ، وهو الضرب الرابع من الكهانة . أما التيمن أو التفاؤل فهو بصورة خاصة نوع جيد ، ويكون التفاؤل من الأسماء أو الكلمات التي تسمع مصادفة أو تقرا في كتاب .

إن أخذ القال أو قراءة الطالع من القرآن يعتبر بصورة عامة أمرا حلالا . وقد تكون بعض الأحداث الطبيعية البسيطة مصدر تشاؤم ، ومثالا على ذلك أن أحد الخلفاء أراد الفوز فاستشار المنجمين فأخبروه أن ينتظر سقوط الثريا وتفرقها وكان الوقت شتاء وعليه أن ينتظر إلى الصيف وقت نضج التين والعنب ويكون عندئذ النصر بهذه العلامات ، ولكن الخليفة خالفهم وتقدم وأحرز النصر (٧) .

أما تفسير الأحلام ، والمباراة المستعملة (تعبير المنامات) فيجب أن تصنف أيضا ضمن فروع هذا العلم . ووفقا لقول النبي أن الفرع

وبصورة خاصة يكون حزنا عند الحوادث ، أو نوعا من الشرور ، وثانيها أن يصون الكنز مع من أودعه ، وثالثها بواسطة فكرة يحصل على حضور وخدمة الجن .

(٥) لعل المؤلف يشير إلى احتفالات الزار عند عوام المصريين

(٦) انظر مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٢ .

(٧) رواية عن العرب الجاهليين في مراة الزمان .

(٨) بعض الإجراءات الغريبة لهذا النوع بواسطة مراة الخبر السائلة ، وقد وصفت ذلك في كتابي بيان أساليب وعادات العرب المحدثين (فصل ١٢ ، ولي العدد ١١٧ من مجلة كوارترلي Quarterly review .

(٩) مشكاة المصابيح ٢ / ٢٨٥ .

(١٠) أو ضرب الرمل (بفتح الميم) ويسمى أيضا علم الرمل ، هناك عدة وسائل في علم الرمل كتبها كتاب شرفيون ، ولكني لم أطلع على واحدة منها ، ولم أر رفعة النجوم ، وإنما رابت فقط طريقة التنجيم تجري على الورق ، أن اختراع هذا العلم ينسبه بعضهم إلى إدريس ، وينسبه آخرون إلى دانيال أو إلى حام بن نوح ، ويعزوه لغيرهم إلى هرمس الماجسطي .

(١١) مراة الزمان ١ / ١ .

(١٢) الإسحاق في روايته عن حكم المتصم بن هارون .

اتوحيد من الكهانة الذي يستحق ان يوثق به هو الاحلام الصادقة ، وقال : انها جزء من النبوة ، ولا شيء غيرها من النبوة ، الاحلام الصادقة من عند الله وانفاسدة من الشيطان . عندما يجسد احدكم حلما رديئا ليصق ثلاث مرات عن جانبه الايسر وليستعمل بالله من الشيطان ثلاثا ، وينقلب من الجانب الذي كان عليه الحلم الى الجانب الآخر (١٢) . وهذه القاعدة يتبعها كثير من المسلمين . وعلى العموم فانهم يعتمدون على الاحلام تماما ، فقد تكون في بعض الاحيان وسائل لحسم القضايا المتنازع عليها في التاريخ والعلم . ان رؤية اي شيء اخضر في الحلم او ابيض او الماء ، يعتبر مباركا ، واي شيء اسود او احمر او نار ، يعتبر مشؤوما منحوسا .

هذا الاعتقاد الراسخ بالاحلام ، ستوضحه الحكاية الآتية ، حيث حكاها لي في القاهرة الشيخ محمد الطنطاوي الذي استقصى حقيقتها وتأكد من صحتها بعد فترة قصيرة من الطاعون الفظيع الذي حل سنة ١٨٢٥ م :

ان تاجرا يعيش في الربع الحنفي من القاهرة ، حلم اثناء ذلك الطاعون ان احد عشر شخصا قد حملوا من بيته ليدفنوا في خارجه ضحايا لهذا المرض ، فاستيقظ في حال حزن شديد ورعب ، مفكرا ان اولئك الاحد عشر شخصا هم مجموع عدد سكان البيت بما فيهم هو نفسه ، وسيكون من العبث ان يحاول اضافته واحد او اكثر الى اعداد الساكنين في بيته ليتفادي مشيئة الله ويعطي نفسه فرصة للهرب ، ولذلك دعا جيرانه جميعا ، واعلمهم بالحلم الذي رآه ، وكانوا قد نصحوه بالرضوخ والتسليم للقدر المحتوم ببساطة ، وان يشكر الله الذي انذره في الوقت المناسب مع ما كان من فضل رحمته . وفي اليوم الثاني مات احد اولاده ، وبعد يوم او يومين ماتت زوجته ، واستمر الوباء يبعث في أسرته حتى لم يبق في البيت غيره . وكان من المستحيل عليه الان ان يقبل بأقل شك في صحة الرؤيا وحتمية الانذار ، ولذلك فبعد آخر وفاة من ساكني الدار مباشرة ، اجتمع الى صديق في الدكان المجاور وقال له ولمدة اشخاص آخرين من الدكاكين المجاورة والمقابلة ، انه ينبغي ان ينهزم الى الحلم الذي رآه ، واخبرهم بتحقيق هذا الحلم كاملا ، وعبر عن اعتقاده بانه هو الشخص الحادي عشر الذي يجب ان يموت قريبا جدا . وقال : « ربما سأموت في

هذه الليلة القادمة » لذلك فارجوكم بحق الله ان تأتوا غدا الى بيتي مبكرين ، وفي صباح اليوم التالي والذي يمهده للضرورة ، لتروا اذا كنت قد مت ام لا . وعندما اموت ، فاني اريد ان ادفن دفنا لائقا ، ولاني وحيد ليس معي من يغسلني ويكفني ، فلا ترددوا في تقديم هذه الخدمة ، وستنالون ثواب ذلك في الآخرة . لقد اشتريت كفني ، وستجدونه في زاوية الغرفة التي انام فيها ، واذا وجدتم باب انييت مقفلة وانا لا اجيب اذا طرقتم الباب فاكسروا المزلاج وافتحوا الباب » .

وحالا غربت الشمس رقد في سريره وحيدا ، ونو انه لا يتوقع ان تفتض عيناه ، لان ذهنه كان مستغرقا في توقعات انتقاله الرهيب الى المسالم الآخر ، ومحاسبته على حياته السابقة ، وحين احاط به ظلام الليل تصور على الاغلب انه قبض ، وشيء خافت او آخر في غرفته القائمة ، انه شخص ملك الموت المرعب ، وقد شعر حقيقة بصوت انزلاق الباب وبشخص يتقدم نحو فراشه ، فتجمد من هول الرعب ثم هتف : « من هذا » فاجاب صوت عبوس مهيب : « اسكت ، انا عزرائيل ملك الموت » فصرخ الرجل المفزوع : « ويلاه ، اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله ، لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون » ، ثم غطي نفسه بلحافه يحتمي به ، وسكن دون حراك ، وقلبه يخفق ، يتوقع في كل لحظة ان تنتزع روحه من قبل هذا الملك الذي لا يرحم . ومرت لحظات ودقائق ، وساعات ، وهو على هذه الحال ، دون اي امل في الخلاص من هذه التجربة ، لانه تصور ان الملك ينتظره ان يسلم نفسه ، او انه تركه الى حين ، وكان قد اتسفل اولا بازهاق ارواح مئات البشر الذين حضر اجلهم في تلك الليلة وفي المدينة نفسها ، وارواح آلاف الذين عليه ان يقبض ارواحهم في اماكن اخرى .

وحان طلوع النهار قبل ان تنتهي معاناته . وقد جاء جيرانه وفقا لوعدهم ، دخلوا غرفته ، فوجدوه ما زال في فراشه ، وقد لاحظوا انه قد تغطى وبلا حراك كانه جثة ، وشكوا فيما اذا كان ما زال حيا ، فنادوه ، فاجاب بصوت خافت ضئيل : « انني لم امت بعد ، ولكن ملك الموت جاءني في ظلام الليل ، واتوقع ان يعود في اية لحظة ليأخذ روحي ، ولذلك فلم تنته مشكلتي بعد ، فانظروا لغسلي ودنني » فقال اسدقاؤه : « لكن لماذا ، هل تركت باب الدار مفتوحا » قال : « لقد اقفلته ، وربما فتحه ملك الموت » ، فقالوا :

والعشرون أرسلت فيه الريح المهلكة على قوم هود (١٤) .

ثانيا : السحر الطبيعي الذي يعرف بالسيما ، وهو موضع اهتمام اغلب الأشخاص من متقفي المسلمين ، كما يهتمون كذلك بفن الحيل وخفة اليد ، ويبدو هذا منسجما مع السحر . لأنه يؤثر في ظهوره كما يقولون ، ويشير خيالات ورؤى مبدعة مشيرة اقرب الى التخدير ، أو تعاطي بعض المخدرات لأنها وسيلة رئيسية في أحداث التخييلات ، ولذلك كان البخور شبا مهما عند اجراء هذه العمليات .

ومثل هذه الأشياء تستخدم في نوع آخر يعرف بـ (ضرب المنديل) ، ويجدر بنا ان نذكر ان هذه المهارات تعتبر عند الكثير مؤثرة بواسطة السحر الطبيعي ، ولو ان الذي ذكرناه سابقا كان ذا علاقة بأشراق الجن ، ويكون للبخور دور هام فيه . اما الكيمياء فانها فرع من السحر الطبيعي . وان كثيرا من المسلمين في الوقت الحاضر يدرسونها ، وكذلك يفعل بعض النابيين والعلماء .

ان اشهر السحرة الذين حصلوا على سمعة واسعة في مصر خلال فترة المائة سنة الأخيرة كان الشيخ أحمد صادومة الذي عاش حوالي اكثر من سنة مضت (١٥) . روى لي عدة أشخاص ممن القاهرة ، اناس من النابيين وذوي التعليم الجيد مختلف القمص العجيبة لخوارقه ، يروون ذلك عن شهود عيان من ثقات الناس ، ولكن الرواية الأكثر تصديقا عن هذا الساحر تلك التي وجدتني عند مؤرخ ممتاز لتاريخ مصر الحديث ، يذكر هذا المؤلف ان الشيخ صادومة رجل مسن وقور المظهر ، تحدر اصله من مدينة سمود في الدلتا ، وقد اكتسب شهرة واسعة وعظيمة جدا لعلمه بالسحر الروحاني والطبيعي ، ولتتمكنه من مخاطبة الجن وجها لوجه ، ولإستطاعته ان يظهر الجن للأشخاص الآخرين وحتى للممبان منهم ، والناس الذين اطلعوا عليه عرفوه مؤرخا ، يقول هذا الكاتب : ان معاصريه على اختلاف آرائهم يحترمونه ، ومن هؤلاء النحوي المشهور والعالم الشيخ حسن الكفراوي الذي كان يجله على انه ولي من الدرجة الاولى ، وكلام هذا الرجل له تأثيرات كأنها (البراعة والسحر الطبيعي) ووصف سمعته بأنها تزداد حتى كانت تستميل الذين يملكون بامتحان النحس .

(١١) الاسطافى ، انهى روايته لي حكم الامين .

(١٥) كتبت هذا في سنة ١٨٢٧ م .

« وكيف ، هل هو في ساحة الدار » قال : « انى اعرف ان لا احد في الدار . ولكن ربما كان ملك الموت الذي ينتظر لأخذ روحي جعل نفسه مرئيا لكم واخطأتكم في غنمة الفجر على انه رجل » . قالوا : « انه لص ، اللص الذي أخذ كل شيء استطاع ان يحمله ، وقد أصيب بالطاعون بينما هو يسرق ، وهو ساقط الآن مينا في باحة الدار عند عتبة السلم ، ممسكا بيده السمعدان الفضي » فلما سمع صاحب الدار هذا . تأنى لحظة ، ثم رمى عنه نحافه وهتف : « الحمد لله رب العالمين ، ذلك اللص هو الحادي عشر ، وقد نجوت ، لاشك انه كان ذلك المحتال الذي جاءني في الليل وادعى انه ملك الموت . الحمد لله ، الحمد لله » .

لقد نجا هذا الرجل من الطاعون ، وكان مسرورا حين صار يقص هذه القصة . وان اللص استمع خلسة الى محادثته مع جيرانه . وجاء الى بيته في الظلام ، ودفع الباب الخشبي بكنفه فآزاح الزلاج من مكانه . ليس هناك شيء عجيب في الحتم ، ولا في نهايته ، فان طاعون سنة ١٨٢٥ قد قضى على كثير من البيوت وجعلها موحشة من أهلها ، وغالبا ما كان النحس على الصغار وكان سكان البيوت يتساءلون هل سيبقى الله احدا من الصغار .

وبحسن هنا ان نذكر التمييز بين الايام السعيدة المباركة وغير السعيدة المنحوسة . ان يومى الخميس والجمعة - وخاصة الجمعة - يعتبران مباركين ، الاثنين والاربعاء مشكوك فيهما الاحد والثلاثاء والنسبت - وخاصة الاخير - ايام غير مباركة . يقال ان هناك سبعة ايام سيئة في كل شهر قمري ، وبصورة خاصة الثالث حيث قتل فيه قابيل اخاه هابيل ، والخامس الذي اخرج الله فيه آدم من الجنة ، واصيب فيه قوم يونس . وقذف يوسف في البج . اما الثالث عشر ففيه اباد الله ثروة ايوب ، وامتحنه ، وازال الملك من سليمان ، وفيه قتل اليهود الانبياء . اليوم السادس عشر ، اهلك الله فيه ومحق قوم لوط ، ومسح ثلاثمائة من النصارى الى خنازير ومن اليهود الى قرود ، وفيه شطر اليهود زكريا بالمنشار الى شطرين ، اليوم الحادي والعشرون ولد فيه فرعون ، وفيه أغرق ، وفيه أصيب قومه بالطاعون . اليوم السابع والعشرون قتل فيه نمرود سبعين امرأة ، وفيه رمى ابراهيم الخليل في النار وفيه ذبحت ناقة صالح . اليوم الخامس

من المخلوقات العاقلة : الملائكة الذين خلقوا من النور ، والجن الذين خلقوا من النار ، والناس الذين خلقوا من التراب . الصنف الأول يدعى الملائكة (المفرد ملك) ، والثاني الجن (المفرد جني) والثالث الانس (المفرد انسي) يعد بعض المؤلفين ان الشياطين هم صنف مختلف عن الملائكة والجن . ولكن الرأي الأكثر انتشارا والذي يطمئن اليه في اوثق المراجع ، هو انهم جن متمردون .

يقول القزويني : « يعتقد ان الملائكة من جوهر بسيط وهبوا مع الحياة النطق والعقل ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الجن والشياطين ، وهو فرق في المرتبة . » ويضيف : « اعلم ان الملائكة قد ظهرت من الرغبة الجسدية والميل الشهواني ، ونوازع الغضب ، بطيعون الله فيما يأمرهم ، ولا يفعلون الا ما يؤمرون . طعامهم التسبيح بمجده ، وشرابهم بيان قدسه ، وأحاديثهم حمد الله سبحانه ، وفرحتهم في عبادته ، لقد خلقوا بأشكال مختلفة وبقوى متغايرة ان بعض الملائكة يوصف بأنه يتخذ شكل المخلوقات المرئية . أربعة منهم ملائكة الطبقة العليا ، هم : جبريل ، ملك الوحي ، وميكائيل (ميشيل) ولي الاسرائيليين ، وعزرائيل ملك الموت ، واسرافيل ملك النفير ، حيث ينفخ في الصور مرتين ، او كما يقول البعض ثلاثا في نهاية العالم - نفخة واحدة ستحقق كل المخلوقات (بما فهم اسرافيل نفسه) ، ونفخة أخرى ، بعد أربعين سنة (ويبعث مرة ثانية لهذا الغرض مع جبريل وميكائيل) تبعث الموتى .

وتدعى هذه الطبقة من الملائكة ايضا ملائكة الرسل ، وهم أدنى مرتبة في المقام من الانبياء البشر والرسل ، ولو أنهم أرفع منزلة من بقية الجنس البشري : ان الطبيعة الملائكية تعد أدنى مرتبة من الطبيعة البشرية ، لان كل الملائكة قد أمروا ان يسجدوا لآدم . وكل مؤمن يلزم بملكين حارسين يسجلان أعماله ، الأول الذي عن يمينه يكتب أعماله الصالحة ، والآخر الذي عن شماله يكتب سيئاته ، وفي رأي ، ان عدد هؤلاء الملائكة هو خمسة ، او ستون ، او مائة وستون ، وهناك ملكان ايضا ، يقال لهما منكر (ناكِر في العلمية) ونكير ، اللذان يستجوبان كل الموتى ، ويعملان الآمين في قبورهم .

اما صنف الجن فيقال انهم خلقوا قبل آدم بضعمة آلاف من السنين ، ووفق حديث عن الرسول ان هذا الصنف يتكون من خمس طبقات ، هم : الجان (وهؤلاء اقل قوة من الجميع) ، والجن ، والشياطين ، والمفاريث ، والمردة ،

ان يوسف بك زعيم الماليك ، رأى بعض معانم السحر مكتوبة على جسم إحدى محظياته ، فملأه الغضب والحسد ، وأمرها ان تخبره عن فعل هذا بجسمها ، وهددها بالقتل ان لم تصدقه . فاعترفت له بان امرأة اخذتها الى الشيخ صادومة ، وهو الذي كتب هذا الطلسم حتى يجذب لها حب سيدها ، وعندما سمع هذا ، ارسل على الفور بعض الحاضرين ليقبضوا على الساحر ويقتلوه ثم يرموه في النيل جزاء له على فعلته (١٦) . ولكن الطريقة التي قبض بها عليه ، كما رويت لي من قبل أحد أصدقائي ، تستحق ان تذكر ، فعدة اشخاص يجازفون واحدا بعد الآخر ويحاولون ان يقبضوا عليه ، ولكن كل يد تمتد اليه تُمسكه تصاب بالشلل حالا ، لان الشيخ يتلفظ بدمدمة من السحر ، حتى استطاع رجل كان يقف بجانبه ان يضع كمادة على فم الشيخ ، وعندها تعطل سحره .

من القصص التي رويت لي عن معجزات صادومة ، القصة التالية التي سنجعلها مثالا لسحره : لقد دعاه أحد أصدقائه ليخرجنا يمشيان بعيدا ، فذهبا حوالي نصف ساعة مشيا في صحراء شمالي القاهرة ، وهناك جلسا سوية على أرض سهلية فيها رمل وحصى ، فتتمتم الساحر بالفاظ ، فوجدا نفسيهما فجأة وسط حديقة ، كأنها من حدائق الجنة ، مشتملة على الأزهار واشجار الفاكهة من كل نوع ، واكنست الأرض بخضرة نضرة زاهية كأنها الزمردة ، وسيقت بمختلف الجداول العذبة الجارية ، ومدت لهما وجبة طعام من اللذات المأكولات من لحوم وفاكهة وشراب ، أعدتها أيد غير مرئية ، واكل كلاهما حتى شبعوا ، وتناولوا جرعات وافرة من مختلف انواع الشراب . واخيرا غرق ضيف الساحر في نوم عميق ، وعندما صحا وجد نفسه ثانية في الأرض الرملية ذات الحصى مع صادومة الذي ما زال الى جانبه .

من المحتمل ان القارئ سيعزو هذه الرؤيا الى فعل الافيون او بعض المخدرات المشابهة ، كما افترضت انا ، لاني لا استطيع ان اشك في نزاهة الرواية ، لانه لا يرضى بمثل هذا التفسير ، معتبرا كل الرواية قضية سحر من عمل وتأثير الجن .

الجن والشياطين DEMONOLOGY

المسلمون بعامة يؤمنون بثلاثة انواع مختلفة

(١٦) تاريخ الجبرتي ، رواية موت يوسف بك في سنة ١١٩١ هـ .
رواية موت الشيخ حسن الكراوي في سنة ١٢٠٢ هـ .

والآخرون هم الأعظم قوة ، وأنجان جعلوا جناً ، كما مسح بعض الناس قردة وخنزير (١٧) . وعلى أية حال يجب أن يلاحظ هنا بأن لفظتي الجنس والجان تستعملان بصورة عامة بدون تمييز كاسمين لكل الأصناف (بضمنهم الأصناف الأخرى المذكورة سابقاً) سواء أكانوا صالحين أم أشراراً . والكلمة السابقة هي الأكثر شيوعاً ، وإن كلمة الشيطان كذلك تستعمل غالباً لتدل على كل جن شرير . والعفريت هو جن شرير قوي . والمارد جن شرير من طبقة أعظم قوة . ويدعى الجنس (وغالباً ما يراد الأشرار منهم) في الفارسية : ديف Deevs والجن الأعظم قوة في الشر ناراس Narahs ، حيث يعني « المذكور » ولو أنهم يقولون يكونون ذكورا وإناثاً ، أما الجن الصالح فهو بيريز Perees وتستعمل هذه الكلمة على الأكثر للإناث .

وفي حديث للنبي يقول فيه (بما معناه) : لقد خلق الجان من نار غير ذات دخان (١٨) وتستعمل كلمة الجان في بعض الأحيان اسماً لابليس ، كما في الآية الآتية من القرآن : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم » (١٩) ، (الجان : أبو الجن أي إبليس خلقناه من قبل : أي من قبل خلق آدم ، سموم : نار بلا دخان) . وتعني كلمة الجان أيضاً « الحية » كما في سورة أخرى من القرآن (٢٠) ، واستعملت كلمة الجان في القرآن كذلك مرادفة للجن (٢١) . وفي المعنى الأخير يعتقد غالباً بأنها استعملت في الحديث استشهاده على أول هذه الآية . هناك عدة أحاديث ظاهرة الاختلاف عن النبي حيث توفق بين ما قرر أعلاه ،

(١٧) مرآة الزمان (مخطوط في حيازي) تاريخ كبير عاش مؤلفه في القرن الثالث عشر ، انظر أيضاً القرآن سورة المائدة ٦٠/٥ قوله تعالى : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأعمل عن سواء السبيل » .

(١٨) مرآة الزمان ، وسورة الرحمن ١٤/٥٥ « وخلق الجان من نار من نار » ، الكلمة التي تفيد (ناراً بلا دخان) قد أساء فهمها من قبل البعض على أنها (شملة من نار) ، وقد وصفها الجوهري (في الصحاح) بشكلها الصحيح ، وقال : أن هذه النار كانت هي التي خلق منها إبليس .

(١٩) سورة الحجر ٢٧/١٥ ، وتفسير الجلالين . (٢٠) سورة النمل ١٠/٢٧ « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقبها موسى لا تخف أنت لا يخاف لدي المرسلون » .

(٢١) سورة الرحمن ٢٩/٥٥ ، ٧٤ « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه أنس ولا جان » ، « لم يطمئن أنس قبلهم ولا جان » ، وتفسير الجلالين .

في أحد الأحاديث يقال أن إبليس كان أباً لجميع الجان والشياطين (٢٢) ، والجان هنا مرادفة للجن . وفي حديث آخر : أن الجان كان أباً لجميع الجن (٢٣) ، وقد استعمل الجان هنا اسماً لابليس .

يقول القزويني ، مؤلف من القرن الثالث عشر : « لقد اعتبر أن الجن حيوانات هوائية بأجساد شفافة ، حيث تستطيع أن تتخذ أشكالاً مختلفة ، والناس مختلفوا الرأي في احترام هذه الكائنات ، أن البعض يعتبر الجن والشياطين مخلوقات متمردة ، وهؤلاء هم المعتزلة (فرقة من المسلمين المتأثرين) (*) ويرى آخرون أن الله جل جلاله ، خلق الملائكة من ضوء النار ، والجن من نهبها (إلا أن هذا مخالف للرأي السائد) ، والشياطين من دخانها ، (ويختلف أيضاً عن الرأي السائد) ، وكل هذه المخلوقات في العادة غير مرئية للناس (٢٤) ، ولكنهم قد يظهرون بأي شكل يريدونه ، وحينما يتجسدون بأشكال يصبحون عندئذ مرئيين » . هذه الملاحظة الأخيرة تصور أوصافاً متعددة للجن في (الف ليلة وليلة) حيث شكل المارد أولاً غير معين ، أو يشبه العمود الهائل ، ثم بعد ذلك يظهر بالتدريج بهيئة إنسان حجمه أقل ضخامة .

يقال أن الله سبحانه خلق الجان (أو الجن) قبل آدم بألفين من السنين (أو على ما يقول بعض الكتاب أكثر من ذلك) ، ولذلك فهناك مؤمنون وكافرون ، وفيهم فرق وطوائف كالذي عند البشر (٢٥) . هناك من يقول أن نبيا اسمه يوسف قد أرسل إلى الجن ، وآخرون يقولون بل لديهم فقط وعاطف ومندرون ، وقالوا أيضاً أن سبعين نبيا قبل محمد قد أرسلوا إلى الجن والإنس على السواء (٢٦) . أن الاعتقاد العام بأن الجن قبل آدم كانوا قد حكموا بأربعين (وفي رواية اثنين وسبعين) ملكاً ، وقد أعطى الكتاب العرب لكل ملك اسم سليمان (Solomon) ، وقد اشتقوا تسميتهم

(٢٢) حديث عكرمة عن ابن عباس في مرآة الزمان .

(٢٣) حديث مجاهد في المصدر نفسه .

* أن يعطى ما بين قوسين ، من إضافات لين بول - Lane Poole حفيد المؤلف ، وبعضها الآخر للمؤلف نفسه . وما سبق بكلمة (قلت) في الهامش فهو من إضافات وتعليقات المترجم .

(٢٤) لهذا سموا (جنا) و (جانا) . قلت : يريد أن اشتقاق الاسم جاء من جن الشيء إذا ستره وأخفاه فهو مستور عن الرؤية غير منظور .

(٢٥) حديث عن النبي في مرآة الزمان .

(٢٦) المصدر السابق .

من هذا الأخير الذي كان يدعى جان ابن جان ، وهو كما يقول بعضهم ، الذي بنى أهرامات مصر . وقد جاءت الرواية الآتية عن الجن قبل زمن آدم عند القزويني : « يروى في التواريخ أن سلالة الجن في الزمان القديم ، قبل خلق آدم ، قد سكنت الأرض وملأتها برا وبحرا ، سهلا وجبلا ، وكان فضل الله عليهم كثيرا ، وكانت لهم حكومة ونبوة ودين وشريعة ولكنهم خالفوا واذنبوا وعصوا أنبياءهم ، وعثوا في الأرض مفسدين ، فأرسل الله سبحانه عليهم جيشا من الملائكة فملكوا الأرض وطرّدوا الجن إلى أماكن من الجزر وسجنوا كثيرا منهم ، ومن هؤلاء الذين سجنوا كان (عزازيل) (سمى بعد ذلك إبليس من إبلاسه أي يأسه) ، وقد أعمل الدبح فيهم . وكان عزازيل في ذلك الوقت صغيرا ، وشب وسط الملائكة (ومن المرجح لهذا السبب أن عد واحدا منهم) ، وأصبح متعلما بعلمهم ، وتقلد حكومتهم ، وقد امتدت أيامه حتى أصبح رئيسهم جميعا ، واستمر هذا لزمان طويل ، حتى ظهرت القضية بينه وبين آدم ، كما قال الله سبحانه : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا (٢٧) لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن » (٢٨) .

ويخبرنا مؤلف آخر بأن « إبليس قد أرسل سلطانا على الأرض ، وحاكما على الجن الآلاف السنين ، بعد أن ارتقى إلى السماء وبقي يتعبد حتى خلق الله آدم » (٢٩) وكان اسم إبليس في الأصل عزازيل (كما تقدم) أو كما يقول آخرون (الحارث) ، وكنيته أبو مرة أو أبو الغمر (٣٠) . أنه من المختلف فيه كون إبليس من الملائكة أو من الجن ، وهناك ثلاثة آراء حول هذه المسألة :

١ - أنه كان من الملائكة ، من حديث ابن عباس . ٢ - أنه كان من الشياطين (أو أشرار الجن) كما ذكر في القرآن « إلا إبليس كان من الجن » ، وهذا رأي الحسن البصري ، والمعتدل به عموما . ٣ - أنه لم يكن لا من الملائكة ولا من الجن ، بل خلق وحده من نار . لقد بنى ابن عباس رأيه على بعض الآيات التي ساقها الحسن البصري « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن » (المستشهد بها سابقا) ، حيث فسرها بقوله : أن أنبل وأشرف الملائكة يسمون (الجن) لأنهم مجنونون (محجوبون) عن

(٢٧) السجود هنا ليس عبادة ، بل هو انحناء وخضوع للآخر متميز .

(٢٨) سورة الكهف . هـ .

(٢٩) الطبري ، رواية عنه في مرآة الزمان .

(٣٠) مرآة الزمان .

أعين الملائكة الآخرين بسبب سمو مقامهم ، وكان إبليس واحدا من هؤلاء الجن . ويضيف بأنه كانت له السلطة على جميع من في السماء ومن في الأرض ، وكان يعرف بطاووس الملائكة ، وذلك أنه لم يكن هناك موضع في السماء إلا خاضعا له ، فلما تمرد الجن في الأرض ، أرسل الله فريقا من الملائكة فساقوهم إلى الجزر والجبال ، وأصبح إبليس يتيه عجبا ورفض أن يسجد لآدم ، فمسحه الله إلى شيطان . ولكن هذا التعليل يتعارض مع آيات أخرى ، حيث يمثل إبليس قائلا : « خلقتني من نار وخلقته من طين » (٣١) ، ولذلك يناقش : « إذا كان قد خلق من النار أصلا كيف يكون قد خلق من نور ، لأن الملائكة كلهم قد خلقوا من النور » (٣٢) ، ربما فسر الحديث الآية السابقة بأن إبليس كان قد أخذ أسيرا ، وقد سمت مكانته بين الملائكة . أو ربما كان هناك حذف بعد كلمة (ملائكة) لأنه يجب أن يستنتج بأن الأمر الذي أتى إلى الملائكة كان من البديهي أيضا أن يطاع من قبل الجن .

ووفقا لرواية ، أن إبليس وكل الشياطين هم مميزون عن بقية الجن بوجودهم الأطول ، ويضيف : « أن الشياطين هم أولاد إبليس ، ولا يموتون إلا معه ، بينما (بقية) الجن يموتون قبله » (٣٣) ولذلك فإنهم يعيشون عدة قرون ، ولكن هذا لا يتفق مع اعتقاد العامة : بأن إبليس وعديد من أشرار الجن يبقون طيلة بقاء الجنس البشري ، إلا أنهم يموتون قبل النشور العام ، وكذلك الملائكة فإن آخر من يموت منهم ملك الموت عزرائيل . وبعد فليس كل أشرار الجن يعيشون طويلا ، فإن عددا منهم يقتلون بالشهب التي ترجمهم بها السماء ، ولذلك فإن العرب عندما يرون شهابا منقضا غالبا ما يهتفون : « اللهم أرحم أعداء الدين » ، وكذلك يقتل بعضهم من قبل الجن نفسه ، وحتى البشر يقتل فسا من الجن . أن النار التي خلق منها الجن تجري في شرايينه مكان الدم ولذلك عندما يصاب الجن بجرح مميت ، فإن هذه النار تخرج من شرايينه وغالبا ما تهلكه وتحيله إلى رماد .

والجن ، كما رأينا فيما سبق ، غير معصومين عن الخطأ ، يأكلون ويشربون ، ويكثرون

(٣١) سورة الأعراف ١٢ ، وسورة ص ٧٦ .

(٣٢) مرآة الزمان .

(٣٣) الحسن البصري في مرآة الزمان . أن الزيادة التي أضفناها للنص (بقية) تستنتج من وجهة نظره دون أن يذكرها .

نوعهم في بعض الاحياء بالاتصال بالجنس البشري ، وبالطريقة الاخيرة فان النسل يشترك بطبيعة كل من الوالدين ، وهم يختلفون عن الملائكة في كل هذه الصلات ، ويتميز من بين اشرار الجن خمسة اولاد من ابناء رئيسهم ابليس ، هم : تير ، الذي يجلب المصائب والخسائر والاضرار ، والامور ، الذي يحرض على الدعارة والفجور ، وسوط ، الذي يحث على الكذب ، وداسم ، الذي يسبب الكراهية بين الزوج والزوجة ، وزلمبور ، الذي يشرف على اماكن الريبة والشبهة (٢٤) .

اما الاشكال الاكثر شيوعا ، والمساكن او الاماكن التي يلجأ اليها الجن ، فيجب ان نصفها الآن ، الاحاديث الاتية عن النبي هي التي تفسي بالفرض اكثر من غيرها مما رايت ، للجن اشكال وهيئات مختلفة ، فهم يتخذون شكل الافاعي ، والعقارب ، والاسود ، والذئاب ، والثعالب ، وغير ذلك (٢٥) . والجن ثلاثة انواع : نوع على الارض ، وآخر في البحر ، والثالث في الهواء (٢٦) . ويتألف الجن من اربعين فرقة ، كل فرقة تتألف من ستمائة الف (٢٧) . والجن ثلاثة اصناف ايضا : صنف له اجنحة وبطير ، والآخر الافاعي والكلاب . والثالث ينتقل من مكان الى آخر كالناس (٢٨) . ويؤكد المصدر نفسه ان الحيات المنزلية هي من الجن (٢٩) . لقد امر النبي اصحابه ان يقتلوا الافاعي والعقارب اذا دخلت على المصلين ، ولكن في حالات اخرى يبدو انه طلب أولا ان تحذر الحيات بالابتعاد ، وبعدها اذا مكثت ان تقتل . وعلى اية حال فالعلماء يختلفون في الراي فيما اذا كان (كل) اصناف الحيات والافاعي يجب ان تحذر أولا ، او ان (بعضا) منها يكون كذلك ، لان الرسول قال : عليهم ان ياخذوا ميثاق الجن (من الراجع بعد الامر المذكور سابقا) بان عليهم الا يدخلوا منازل المؤمنين ، لذلك يشترط عليهم اذا دخلوا فانهم يتقضون ميثاقهم ويكون قلبهم مشروعا بدون تحذير سابق . ومع ذلك فيروي ان عائشة زوجة النبي قد قتلت افعى في غرفتها ، وقد رأت في الحلم شيئا يخيفها ، فخشيت ان تكون هذه الاعمى جنية مسلمة لانها لم تدخل غرفتها عندما كانت خالمة ثيابها ، فتصدقت

عائشة باثني عشر ألف درهم (حوالي ٣٠٠ باون) كفارة ، وهي دية دم مسلم (٣٠) .

يقال ان الجن يظهرون للناس على الاغلب على شكل حيات ، وكلاب ، وفطط ، واناس وفي الحالة الاخيرة ، حالة ظهورهم على شكل اناس فانهم احيانا يظهرون بهيئة رجال عاديين وحيانا بحجم ماردي جبار . فاذا كان الجن من الصالحين ، فانهم يبدوون بعامة جميلين وخبثين ، واذا كانوا اشرارا يظهرون بشكل بشع مرعب مخيف . وانهم يكونون مرئيين او غير مرئيين حسب رغبتهم ، وبسرعة خاطفة يمتد ويتسع ، او يتخلخل الى ذرات حيث يتكون شيئا آخر ، او يختفي فجأة في الارض او في الهواء ، او حتى في الجدار النصفيق .

يعترف كثير من المسلمين في هذه الايام (٣١) انه راى الجن وكان على صلة بهم ، والشاهد في الحكاية الطريفة الاتية التي حكها لي شخص فارسي عرفته في القاهرة . اسمه ابو القاسم من اهل جيلان ، ويعمل ملاحظا في مطبعة محمد علي بولاق .

ان احد مواطني هذا الرجل ، الذي أكد لي بانه رجل صادق دون شك ، كان يجلس على سطح بيت كان قد استأجره ، اطل على جماعة وقد اذنت ساعة انتهاء النهار ، وهو على عادته يدخل غليونته الفارسي ويمتع عينيه بالنظر الى مجموعة فتيات هنديات يسبحن في النهر . حينما كان ينظر اليهن تعلق قلبه بواحدة جميلة جدا ، كان يتمنى بشدة ان يمتلكها وتكون زوجة له . وعندما حل الليل جاءت اليه تلك الفتاة وقالت له : انها قد عرفت عاطفته ، وانها ترضى ان تكون زوجة له ، ولكن بشرط ان لا يرضى لامرأة اخرى ان تاخذ مكانها او تشاركها ، وانها ستكون معه في الليل فقط . واخذ كل منهما عهد الزواج على الآخر ، ولم يشهد على ذلك الزواج الا الله ، وكانت سمادته عظيمة . حتى كان عصر احد الايام وراى مره اخرى جماعة من الفتيات يسبحن في النهر ، فانارت احداهن فيه رغبة وهوى اشد قوة وما كان اشد دهشته حينما راى هذه الحسناء الساحرة تقف امامه عندما اقترب الليل ، وقد قاوم الاغراء ما استطاع متنبها الى عهد الزواج الذي قطعه لزوجته ، وقد حاولت بكل وسائل الاغراء والفوضى ان تغريه ، ولكنه اصر

(٣٠) امرأة الزمان .

كتب المؤلف كتابه هذا في القرن التاسع عشر ١٨٨٢ م وهو تاريخ الطبعة الاولى .

(٢٤) القزويني ، دواية عن مجاهد .

(٢٥) مجاهد عن ابن عباس في امرأة الزمان .

(٢٦) الحسن البصري ، المرجع السابق .

(٢٧) عكرمة عن ابن عباس ، المرجع السابق .

(٢٨) مشكاة المصابيح ٢/٣١٤ .

(٢٩) المصدر السابق ٢/٣١١ ، ٣١٢ .

على ألتمنع . ثم قالت له زائرته الجميلة بأنها كانت زوجته نفسها ، وأنها جنية ، ولذلك فمن الآن فصاعدا ستزوره في صورة إيسة التي يرغب فيها أو يشتهيها .

إن الزوبعة التي هي أعصار يرفع الرمل والتراب على شكل عمود في علو هائل ، غالبا ما تكنس الصحارى والحقول ، ويعتقد أن هذه الزوبعة تثار بسبب طيران جني شرير ، ولكي يحمي العرب أنفسهم من هذا الجني الذي (يركب الريح) كثيرا ما يهتفون : (حديد ، حديد) أو (حديد يا مشؤوم) لأن الجني شديدو الخوف من هذا الممدن ، أو أنهم يكبدون : (الله اكبر) (٤١) .

وخرافة مشابهة لهذه سائدة مع شمسور باللهيبة لأعصار البحار الذي يسبب عمودا من الماء متجها نحو السماء كما يرى في منامرات الملك شهريار في مدخل « الف ليلة وليلة » .

إن الموطن الرئيس للجن ، كما يعتقد ، هو في جبال (القاف) ، حيث يفترض أنهم يحيطون بكل أرضنا . ويعتقد كذلك أنهم يتفقدون من خلال الأجسام الصلبة من أرضنا ومن الأجسام التي في السماء ، يخشرونها مواطن أصلية يلجأون إليها ، أو مواضع يفزعون إليها بين حين وآخر كالحمامات ، والأبواب ، والأفران ، والبساتين ، الخربة ، والأسواق ، ومفارق الطرق والبحار ، والأنهار . ولذلك فإن العرب حينما يسكبون الماء على الأرض ، أو داخل الحمام أو عندما يدلون الدلو داخل البئر ، وفي مختلف الحالات الأخرى ، يقولون : (دستور) ، أو (دستور يا مباركين) (٤٢) . يقال إن الأرواح الشريرة (أو أشرار الجن) ، كانت لهم الحرية لدخول أي من السموات السبع حتى ميلاد المسيح ، حينما طرد ثلاثة منهم ، وعند ميلاد محمد منع أربعة آخرون (٤٣) . وعلى إيسة حال فقد استمروا يصعدون إلى حدود السماء الدنيا ليسترقوا السمع إلى حديث الملائكة وما قدر الله من أمور ليطلعوا على أمور الغيب ، وبطلمون أحيانا بعض الناس على ما يصرف بالطلاسم أو طلبات معينة يجعلونها تفي بانجازات سحرية . إن ما قاله النبي عن إبليس في الحديث الآتي ينطبق أيضا على أشرار الجن الذين يرأسهم : مسكن إبليس المفضل بين الناس في الحمام ، وأماكنه المفضلة التي يلجأ إليها هي الأسواق

ومفارق الطرق ، طعامه كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله عليه . شرابه كل ما يسكر ، أذانه المزمار ، فرائه الشعر ، حروف حظه إشارات من ضرب الرمل (٤٤) . قلامه الزور والبهتان ، أحبوتسه النساء (٤٥) .

وفي اعتقاد العرب الأولين أن ذلك النوع المعين من الجن يشرف على أماكن بعينها ، وقد جاء في القرآن : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (٤٦) ، وفي تفسير الجلالين وجدت التعليق الآتي على هذه الآية : « كانوا إذا اتوا واديا للجن نادى منادي الإنس إلى خيار الجن أن احبسوا عنا سفهاءكم ، فلم يفتهم ما وعظوا به فزادوهم رهقا » . ولايفضاح هذا على أن أذكر الحديث الآتي مقتبسا عن القزويني : « أنه مروى عن أحد رواة الحديث أنه ومن معه اضطروا إلى البيت إلى جوار راعي غنم في واد ، فلما انتصف الليل جاء ذئب فاخذ حملا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامسر الوادي أنا جار دارك ، فنادى مناد لانراه : يسا سرحان أرسله ، فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم » . ونفس هذا المعتقد موجود عند العرب المعاصرين ، ومن المرجح أنهم لا يستعملون مثل هذا النداء . وخرافة مشابهة تلك هي عادة مصرية قديمة سهلة التصديق ما تزال سائدة عند أهل القاهرة ، فهم يعتقدون بأن كل ربع من هذه المدينة له حارس مابغ خاص من الجن له شكل الأفعى Agathodaemon (٤٧) .

لقد ذكر من قبل أن بعض انجن مسلمون ، وآخرين متركون ، فالجن أنصالحون يؤدون ما عليهم من فروض دينية ، وبخاصة إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والصيام خلال شهر رمضان ، والحج إلى مكة وصعود جبل عرفات ، إلا أنهم في أداء هذه الواجبات لا يظهرون للبشر ، فهم غير مرئيين (٤٨) .

ذكرنا أن بعض الناس يستطيعون أن يحصلوا على بعض الخدمات من الجن ، وذلك بواسطة الطلاسم (التمانم) وإبتهالات معينة ،

(٤٤) كذا ترجمت كلمة (خط) لكن عند السيوطي : نزهة المتأمل ومرشد المتأمل القسم السابع وجدت في موضعه كلمة (وشم) ، وهناك خلافا طليعة أخرى وحذف من هذا الحديث المستشهد به .

(٤٥) القزويني : عجائب المخلوقات .

(٤٦) سورة الجن ٦/٧٢ .

(٤٧) المصريون المحدثون الفصل العاشر .

(٤٨) المصريون المحدثون ، فصل ٢٤ .

(٤١) المصريون المحدثون ، الفصل العاشر .

(٤٢) المرجع السابق .

(٤٣) قال في تطبيقه على السورة ١٥ من القرآن .

والأمر الذي يساعد به الجن الناس والسحرة منهم خاصة هو أن يطلعوهم على معرفة أحداث المستقبل . كما وضع سابقا .

لم يعط أي إنسان قوة وسلطان على الجن إطلاقا مثلما أعطى سليمان بن داود ، وذلك بفعل طلسم مدهش جدا يقال أنه نزل عليه من السماء ، لقد كان خاتما نقش عليه (الاسم الأعظم) ، وكان يتكون من جزأين ، جزء من نحاس وجزء من حديد ، وكان يختم بالنحاس ما يكتب من أوامر إلى الجن الصالح ، ويختم بالحديد ما يكتب من أوامر إلى أشرار الجن والشياطين (للسبب الذي ذكر سابقا من أن الجن يخافون من الحديد) ، وأوامره في الناحيتين لها سلطان غير محدود ، وكذلك كانت أوامره تسرى على الطير والريح (٢٩) ، ويقال كذلك أن سلطانه كان يشمل نسواري الوحش عامة . وكذلك كان وزيره عصف بن برخيا على علم بأسرار (الاسم الأعظم) فعندما ينطق به تتحقق أعظم المعجزات ، وتشتمل هذه المعجزات حتى على إحياء الموتى ، وبموجب قوة هذا الاسم الأعظم المنقوش على خاتمه ، فقد ألزم سليمان الجن أن يعاونوا في بناء هيكل القدس ، وفي أعمال مختلفة أخرى . وقد جمل كثيرا من أشرار الجن يهتدون إلى الإيمان ، وأودع كثيرا غيرهم ممن نسبوا بكفرهم في السجون ، ويقال أن سليمان كان ذا سلطان على كل الأرض ، لهذا ، ربما كان اسم سليمان قد أطلق على عموم ملوك الجن في عهد ما قبل آدم ، عدا قصة سلطانه الشامل الذي نشأ من خصومته مع أولئك الملوك .

أما الأذى الذي يسببه أشرار الجن على الجنس البشري فهو على أنواع مختلفة ، فكثيرا ما يختطف أشرار الجن النساء الجميلات ويحتفظون بهن بالقوة ويتخذونهن زوجات لهم أو جوارى .

ويؤكد الكتاب المسلمون أن الجن المؤذنين أو المزعجين غالبا ما يتعلقون على سطوح أو على شبايك البيوت ويرمون المارة من الناس بالحجارة ، وعندما يملكون بيتا مهجورا فهم نادرا ما يفشلون في إثارة الروع والفزع لأي شخص يذهب للإقامة فيه . وهم ميالون كذلك إلى سلب المؤونة وغيرها ، ولكي يصون كثير من المتعلمين والورعين ممتلكاتهم من مثل هذه السرقات ، تراهم

يرددون البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) عندما ينفلون أبواب بيوتهم وغرفهم أو حماماتهم ، أو عندما ينفلون سلة الخبز ، أو أي شيء يحتوي على الطعام (٣٠) ، وفي خلال شهر رمضان يعتقد أن أشرار الجن يحبسون في السجون ، ولذلك ففي الليلة الأخيرة من ذلك الشهر وبغض الفكرة ترى النساء أحيانا يرددن البسملة ويذررن الملح على أرض غرف بيوتهن (٣١) .

ولاستكمال هذه الصورة عن اعتقادات العرب بعالم الجن والشياطين ، يجب أن تضاف رواية عن مخلوقات متعددة شاع الاعتقاد بأنها مرؤوسة من قبل الجن ومؤتمرة بأمرهم .

أحد هذه المخلوقات هو (الغول) ، حيث يعتبر في غالب الأمر نوعا من الشياطين أو أنه جنى شرير لأنه يأكل الناس ، وقد وصف أيضا على أنه جنى أو ساحر لأنه يتخذ اشكالا مختلفة ، ويقال أن الغيلان تظهر بصورة الكائنات البشرية وبصورة مختلف الحيوانات وبعدها أشكال أخرى غريبة الخلقة مفزعة ، تسكن المقابر والمواضع المهجورة ، وتتغذى بأجساد الموتى من البشر ، وتقتل وتلتهم أي إنسان يوقعه سوء حظه في طريقها ، لذلك فكلمة (غول) نطقت على كل آكل للحوم البشر . هناك مؤلف مشهور يرى أن الغول حيوان ركب عفرية ، فتراه يسكن في الصحارى وحيدا منخذا هيئة الإنسان أو الحيوان الوحشي ، ويظهر للشخص المسافر وحيدا في الليل وفي المحلات المهجورة ، ويحبسه المسافر مسافرا متله ، فيخدعه ويجعله يضل طريقه (٣٢) .

ويقرر المؤلف رايًا آخر هو : عندما تريد الشياطين أن تسترق السمع (من حدود السماء السفلى) ترجم بالنسب ، فبعضها يحترق ، وبعضها يسقط في البحر ، أو الأنهار ، فيتحولون إلى تماسيح ، ومنهم من يسقط على الأرض فيصبح غولا . وقد أضاف المؤلف نفسه الرواية الآتية : « الغول اسم لكل شيء من الجن يعرض للسفار ويتلون في ضروب الصور والشباب ذكرا كان أو أنثى ، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى » (٣٣) ، ويؤكد أن عددا من صحابة النبي رأوا الغيلان في أسفارهم ، وأن عمر بن الخطاب من بين الصحابة رأى غولا حينما سافر إلى سوريا قبل الإسلام

(٣٠) الصريون الحدوث ، فصل ١٠ .

(٣١) المرجع السابق .

(٣٢) القزويني : عجائب المخلوقات .

(٣٣) الجاحظ : الحيوان ١٥٨/٦ .

(٢٩) سورة النمل ١٧ (وحشر سليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون) وسورة ص ٢٦ (فسفرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) .

وفربها بسيفه . يبدو ان كلمة (انقول) تطلق على انثى العقاريت فقط من الاجناس التي مر وصفها سابقا ، اما المذكور فاسمه (فطرب) . يقال ان هذه المخلوقات وكذلك الفدار او الفسار والمخلوقات الاخرى المشابهة التي ستذكر في الحال : هي من نسل ابليس ومن امراة خلقها الله له من نار السموم (حيث تدل هنا كما ذكرت سابقا على نار بلا دخان) وذلك انهم خرجوا من بيضة (٥٤) . ويضاف ان انثى انقول تظهر للرجال في البراري بأشكال مختلفة ، تتحدث معهم وفي بعض الاحيان تعرض نفسها عليهم .

الصعلة : مخلوق شيطاني آخر ، وصفه اكثر المؤلفين على انه من الجن ، يقال انه اكثر ما يوجد في الغابات ، وعندما تأسر الصعلة انسانا تجعله يرقص ، وتلعب معه كما تلعب القطعة مع الفار . ان رجلا من اصفهان يؤكد ان كثيرا من هذه المخلوقات متوافرة في بلادهم ، وفي بعض الاحيان يتمكن الذئب من اصطياد واحدة منها في الليل ، ويفترسها ، ولذلك فعندما ينشب الذئب فيها مخالبه تصرخ وتستغيث (انقذوني سيهلكني الذئب) او انها تستنجد وتنادي : (من سيطلقني ، الذي سينقذني اعطيه المائة دينار التي معي) ولكن الناس يعرفون ان ذلك هو صراخ الصعلة ، ولا ينقذها احد ، فياكلها الذئب (٥٥) . ان جزيرة في بحر الصين تعرف من قبل الجغرافيين العرب بجزيرة الصعلة ، سميت كذلك لان هذه المخلوقات الشيطانية تسكنها ، ويصفونها على انها مخلوقات قبيحة بشعة ، المعتقد انها شياطين من نسل البشر والجن ، وتاكل الناس (٥٦) .

الفسار او الفرار (٥٧) : مخلوق آخر من طبيعة مشابهة ، وصف على انه كائن يوجد على حدود اليمن ، واحيانا في تهامة ، وفي القسم العلوي من مصر . يقال انه يغوي الانسان ، ثم يعذبه بطريقة لا توصف ، او يروعه فقط ثم يتركه (٥٨) .

الدلحان : مخلوق شيطاني ايضا ، يسكن في جزر البحار ، له شكل الانسان ، يركب النعام ويأكل لحم البشر الذين يقذفهم البحر على

الشاطئ من حطام السفن . يقول البعض : ان الدلحان هاجم مرة سفينة في البحر ورغب ان يأخذ الملاحين ، ولكنهم قاوموه ، وعندئذ اطلق صرخة جعلتهم يسقطون على وجوههم ثم اخذهم (٥٩) .

الشق : مخلوقات شيطانية اخرى ، لها شكل نصف بشري (مثل انسان مقسوم بالطول) ، ويعتقد بان النسناس من تناسل الشق والبشر . والشق المذكور يظهر للمسافرين ، وقد قتل بعض الناس شيطانا من هذا النوع ، قتله علقمة بن صفوان بن امية ، والمروفي ان احد الجن قد قتل صفوان هذا ، هكذا يقول القزويني .

النسناس (المذكور اعلاه) : يوصف بأنه يشبه في نصفه انسانا ، له نصف رأس ، ونصف جسم ، ويد واحدة ، ورجل واحدة ، بل يحجل بخفة سريعة جدا ، ويوجد هذا المخلوق في غابات اليمن . وينهي المؤلف حديثه بقوله : « ولكن الله اعلم بكل ذلك » ، ويقال ان النسناس يوجد في حضرموت اضافة الى اليمن ، وقد جيء بواحد من هذه النسناس حيا الى المتوكل . انه يشبه الانسان في شكله الا انه بنصف وجه ، وكان وجهه في صدره ، وله ذيل مثل ذيل الخروف ويقول : ان اهل حضرموت يأكلونه ، وان لحمه حلو ، وانه يتكاثر في منطقتهم فقط . ان رجلا يؤكد بأنه ذهب هناك ورأى نسناسا محبوسا وهو يصرخ طالبا الرحمة ، ويناشده بحق الله وبحقه (٦٠) . ان جنسا من البشر الذين رؤوسهم في صدورهم ، يوصفون بأنهم يسكنون في جزيرة تعرف بـ « جابة » (يظن انها جاوة) في بحر الهند (٦١) ، وكذلك يصفون نوعا آخر من النسناس يسكن جزيرة (رانسج) في بحر الصين له اجنحة كاجنحة الخفاش (٦٢) .

الهاتف : مخلوق يسمع ولكنه لا يرى ، وغالبا ما يذكره الكتاب العرب ، وهو بصورة عامة المرشد لبعض النابهين الى طريق الخير او الى الاتجاه الصحيح في السفر او يندرهم بالخطر .

(٥٩) القزويني ، في مخطوطي لابن الوردي وجدن الاسم مكتوبا (دحلان) يذكر جزيرة تسمى بهذا الاسم في بحر عمان ، ويصف ساكنيها بأنهم شياطين يأكلون لحم البشر ، شكلهم كالانسان ويركبون ظهورا تشبه النعام ، وهناك فصيلة كذلك تانمر بامر الجن تعرف بالقواصة يهوضون في البحار .

(٦٠) مرآة الزمان .

(٦١) ابن الوردي : خريدة المعجب ، مخطوط .

(٦٢) المصدر السابق .

(٥٤) رواية من وهب بن منبه ، منقولة عن عرب الجاهلية في مرآة الزمان .

(٥٥) حديث لوهب بن منبه ، منقول عن رواية حول العرب الجاهليين في مرآة الزمان .

(٥٦) ابن الوردي القرن الرابع عشر ، مخطوط .

(٥٧) كتب اسمه مختلفا في مخطوطتين في حيازي .

(٥٨) القزويني ، و مرآة الزمان .

وهنا في نهاية هذا الفصل ، يجب على ان ابد القارئ اني ان التصورات الخرافية التي وسفت هي عامة سائدة عند جميع فئات العرب والمسلمين عامة ، سواء اكانوا من المتعلمين ام من انعام .

النساء

الشائع ان العاطفة الجنسية الشهوانية هي السائدة لدى العرب ، ولكنني اعتقد ان من الظلم ان نفترض انهم جميعا يخلون من الشعور البريء انصافي الذي يستحق ان يطلق عليه الحب الصادق حسبما صحت التجربة الكافية . ذلك انهم ليسوا كذلك كما يظهر جليا لكل شخص يخاطبهم في المجتمع العادي ، يجب ان تتاح الفرص لمثل هذا الشخص ليطلع على من له صفة وثيقة بزوجات عدد من العرب اللواتي لهن جاذبية وجمال شخصي كان قد زال منذ وقت بعيد ، واللواتي لا يملكن ثروة وتيس لهن نفوذ ، وليس لهن اقرباء ذوو مال وسلطان ، ليستميلوا ازواجهن فيحجموا عن طلاقهن . وكثيرا ما يحدث ايضا ، ان العرب يخلصون بعلاقاتهم للزوجة التي يمتلكونها ، حتى عندما تكون في سن كبيرة وجمال ضئيل ، وذلك بفضل العشرة الدائمة سواء للزوجة او الاثنين . اكثر هذا الراي اني اسف ان لاحظته على خلاف ما يتعلق بعرب المدن الى حد ما ، وقد سلم بذلك واحد من المع الرحالة المحدثين واكثرهم خبرة ، حيث اقام بين هؤلاء الناس وهو الرحالة المشهور بركهاردت Burckhardt (١٢) وقد عزز هذا برأي عدد من المؤلفين العرب الفضلاء (ولذلك فانه لا يعتبر كانه عنصر لا يصدق) كما انه يدخل ضمن ملاحظتي الخاصة .

ان قصة ليلى والمجنون ، جوليت وروميو العرب ، مشهورة جدا بحيث لا تحتاج الى اعادتها هنا ، الا ان عدة قصص اخرى للحب القوي الراسخ ينبغي ان تدون فيما يأتي :

ان الخليفة يزيد بن عبد الملك كانت له جاريتان ، واحدة تسمى حباية ، والاخرى سلامة ، وكان متعلقا بالاولى كثير الميل والغيرة عليها ، كان قد اشتراها بمائة الف درهم ، واشترى الثانية بعشرة آلاف درهم . وكان يحتجب عن الناس احيانا ثلاثة اشهر منصرفا الى صحبتها مهملًا تماما امور الرعية . وكان اخوه مسلمة يؤنبه على سلوكه هذا ، وكان يزيد يعد ان

(١٢) روح الشرق ١/١٧ ، ٤١٨ .

يثوب اني رشده ويعود الى عمله ، لكن هاتين المحظيتين كانتا تصرفانه عن غرضه ، وفي صباح اليوم التالي حين هم ان يخرج الى عمله سسمع الغناء فاستشير فانصرف الى غنائهما وعناقهما والشرب معهما ، وصار منتشيا فوقص وغنى كالمجنون . حتى حدث الحادث المشؤوم الذي وضع حدا لسروره : لقد اكلت حباية رمانة ، فشرقت بحبة من الرمان فماتت فجأة .

كان حزن يزيد شديدا جدا ، فلم يفارق جثتها بل استمر يقبلها ويعانقها حتى تغيرت وانثنت ، وقد نبهه خدمه بأن افضل احترام لها ان يأمر بدفنها ، فرضى بعد ذلك ان يودعها الارض ، وبعد خمسة ايام اشتاقت نفسه ان يرى حبيبته فامر ان يفتح قبرها ، ومع ان جثتها قد اصبحت بشعة ، فانه كان يراها كاحب ما رات عينه ، الا ان مسلمة امر بحزم ان يفلق القبر ثانية ، ولكن يزيد لم يكن قادرا ان يظل محروما من النظر الى جثة جاريته التي هي في الوقت نفسه سيدته ، لقد سقط في الفراش لا يتكلم وبعد مضي سبع عشرة ليلة لفظ انفاسه الاخيرة ، ودفن بجانب حبيبته حباية . يقول الراوي : « اللهم ارحمهما جميعا » (١٤) .

وفي الكتاب نفسه المقتبس منه الخبر السابق ، رواية مفادها ان هارون الرشيد زار سليمان بن ابي جعفر أحد قواده ، فرأى معه جارية اسمها ضعيفة ، بارعة الجمال ، وقد بدا انه مبتلى بسحرها ، سأل ان يهبها له ، فأجابته لذلك ، ولكن سليمان لحزنه الشديد على فقد جاريته احس بالمرض ، وكان خلال مرضه يسمع وهو ينشد :

استجير بالله من المصيبة التي اصابتنى
بسبب الخليفة
الرحمة تشمل الناس والظلم من نصيب
ضعيفة (١٥)

ان حبها راسخ في قلبي كالخبر على وجه
الصحيحة

وسأل الرشيد عن سبب مرضه فعرف انه فراق جاريته التي بها راحة باله . ونساق القصة دليلا على الحب الصادق العنيف . وربما يظن ان ما

(١٤) كتاب العنوان في مكائد النساء (مخطوط) .

(١٥) لقد تغيرت هذه الكلمة قليلا الى (ضعيفة) بكسر الفاء ، تعمل معنى اخر تعني احد ضعفاته ، حرف العلة الآخر يكون ملغيا بسبب الوقت .

من لا يفي بالفرض ، فالقصة التالية من الكتاب
نفسه اوفى بالفرض .

ذكر ان معاوية بن ابي سفيان كان جالسا
ذات يوم بدمشق ، وكان المجلس مفتوح الجوانب
لدخول النسيم ، فبينما هو في مجلسه اذ نظر اتي
رجل يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته واجلا
حافيا ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فتامله
معاوية وامر باحضاره وقال لئن كان هذا الاعرابي
فقيرا لاغنيته ، وان كان مظلوما لانصفه ، فلما مثل
بين يديه انشده قصيدة يتظلم فيها من جور
مروان بن الحكم عامل معاوية على المدينة (وقد
صار خليفة فيما بعد الخليفة الرابع من الامويين) ،
قال معاوية ما قصتك يا اعرابي ، قال : كانت لي
بنت عم خطبتها الى ابيها فزوجني منها ، وكنت
كلها بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها فبقيت
معه في اصلح حال وانعم بال سرورا زمانا فمير
انعمين ، وكانت لي صرمة من ابل وشويبات فكنت
اعولها بها ، الا ان سنة من الجذب والمرض
جردتني مما املك فبقيت سيء الحال فلما بلغ
ذلك اباها حال بيني وبينها فانكرني ودفعا عني ،
فانيت عاملك مروان بن الحكم مشتكيا ، فاحضر
عني وابنته فلما وقفت بين يديه ونظر اليها والى
حسنها وقعت منه موقع الاعجاب والاستحسان ،
فصار لي يا امير المؤمنين خصما وانتهرني ، وامر
بي الى السجن فبقيت كاتي خروث من السماء في
مكان سحيق ، ثم قال لاييها هل لك ان تزوجها
مني واتقذك الف دينار وازيدك عشرة آلاف درهم
وانا اضمن طلاقها ، فرضى عني ، ثم احضرني
مروان فقال لي : يا اعرابي طلق سعدى ، قلت :
لا افعل ، فامر بضربي وكرر ذلك اياما فضربوني
ضربا لا يقدر احد على وصفه وعرضني على
السيف فخشيت على نفسي القتل فطلقتها طلقا
واحدة ، وكان من العبث ان نحاول المرأة المقاومة ،
وهكذا اصبحت زوجة لمروان .

ان البدوي المظلوم حين روى ما مر عليه من
احداث سقط مغشيا عليه واستلقى على الارض
كانه حبة ميتة ، فلما استعاد البدوي وعيه كتب
معاوية رسالة مع قصيدة شعر الى مروان يوبخه
على ما انتهك من حرمة الرجل وتجاوز في امور
الدين ، ويأمره ان يطلق المرأة ويرسلها مع رسوله ،
وان لم يفعل فيكون جزاؤه الموت . ففعل مروان
وارسل الجارية مع قصيدة على روى قصيدة
معاوية مؤكدا له ان نظرة الى سعدى ستقنعه بان
جمالها لا يمكن ان يقاوم . فلما رآها معاوية
اشتهاها وطمع فيها ، وقال له معاوية : هل لك

عنها من سلو ، وأعرضك عنها ثلاث جوار أبكار نبح
ثل جاريه مهن انف درهم على كل واحدة منهن
عشر حنح من الخبز والديباج والحرير والكتان
واجري عليك وعليهن ما يجري على المسلمين .
واجمل لك وبن حنح من الصلات والنفقات ، فلما
اتم معاوية تلامه غشى على الاعرابي وشهق شهقة
ظن معاوية انه قد مات منها ، فلما افاق الاعرابي
قال : يا امير المؤمنين لو اعطيتني كل ما احتوته
انخلافة ما رضيت به دون سعدى ، فقال له
معاوية : يا اعرابي ، انك مقرر عندنا انك قد
طلقتها ، وقد بانت منك ومن مروان ، ولكن
نخيرها بيننا ، فوافق الاعرابي . وسال معاوية
الجارية : يا سعدى اين احب اليك ، امير المؤمنين
في عزه وشرفه وقصوره ، او مروان في غضبه
واعندانه ، او هذا الاعرابي في جوعه واطماره ،
فشارت سعدى الى ابن عمها وابت ان تخذله
واختارت ان تصبر معه على السراء والضراء .
فمجب معاوية من عقلها ومروءتها فوهبها عشرة
الاف درهم ولحقت بابن عمها .

والامثلة كثيرة للحب الصادق العنيف وغير
المعقول ايضا دونها الكتاب العرب ، فيقال ان رجلا
وقع في حب سيدة من تاتير رؤية يدها على
انحائط ، ولما لم يستطع ان يظفر بها مات . ويقول
كثير من الرجال انهم عانوا آلاما قاسية من عذاري
راوهم في الاحلام ، ويذكر آخرون انهم تأثروا
بالحب عن طريق السماع فقط ، ان مؤلفا يروي
انه كان يعرف معلما نابها قد شغف حبا بامرأة
اسمها ام عمرو لم يرها ولكنه سمع رجلا ينشد
شعرا فيها ، وقد حزن حزنا شديدا حين علم
بموتها فترم بيته يومين وذلك عندما سمع ذلك
الرجل ينشد :

لقد ذهب الحمار بأم عمرو

فما رجعت ولا رجع الحمار (٦٦)

وعلى التقدير ان يكون فكرة عن الصفات او
المحاسن التي يعتد بها العرب عموما في جمال
المرأة ، ينبغي الا يتخيل ان السمة المفرطة احدى
هذه الصفات ، لانه يقال ان هذا هو الاعتبار
الرئيس للجمال في المناطق الواسعة من شمالي
افريقية ، بل على العكس ، فان انفتاة التي يلهم
حسنها التعبير الاكثر انفعالا في الشعر والنثر ،
هو المشهور بالرشاقة ، انها تشبه عصا الخيزران ،
ولطيفة كأنها غصن صفاف شرقي . وجهها
كالقمر المستدير ، ويتجلى التضاد بينه وبين لون

(٦٦) كتاب العنوان في مكائد النساء .

شعرها الفاحم بلون الليل وهو مرسل يمتد وسط ظهرها ، وحمرة الخجل الوردية المنتشرة وسط الخدين ، أما الخال (الشامة) فيعتبر زياده في الحسن ، والعرب بصورة خاصة مغالون في اعجابهم بهذه البقعة الطبيعية من الجمال ، فهي تشبه بالنسبة لمكانها نقطة غنبر على صحن مرمر او على سطح ياقوت . ان الاناكرون Anacreon الفارسي اثر في تحبيب الخال على خد الحبيبة في مدينتي سمرقند وبخارى .

ان جمال العيون العربية في سوادها الشديد (١٧) ، واسعة وطويلة ، على شكل لوزة ، مملوءة بالبريق ، يلينها جفن منخفض بخفة ، وبرموش حريرية طويلة ، تعطي رقة وحنانا وتعبرا بالضعف ، وهي مفعمة بالسحر ، ونادرا ما تكون محسنة بالخط الاسود الذي يرسم الكحل حدوده ، لاجل هذا فان الفتاة الجميلة تضيف الى ما يدعو به العرب بالكحل الطبيعي كحلا اكثر من الضروري مجازاة لاسلوب الجمال . ان حواجب العين رفيعة ومقوسة ، والجبين عريض وصاف كالعاج ، والانف مستقيم ، والفم صغير ، والشفاه حمراء متلاثة ، والاسنان « كالجمان موضوع في مرجان » . شكل الصدر مثل رمانتين ، الخصر اهيف ، الارداف عريضة وواسعة ، القدمان واليدان صغيرتان ، الاصابع ومستدق الاطراف واناملها مخضوبة بلون برتقالي احمر مستخلص من اوراق انحاء . ان الفتاة التي امتزجت فيها هذه المحاسن تعرض صورة زاهية من « شفق الاصابع الوردية » ، وان حبيبها لا يدوق النوم اذا حضر طيفها ، ويكون مرآها بديلا عن اثريا في الليل الطويل .

ان سن الفتنة ما بين الرابعة عشر والسابعة عشر ، ومن ثم فان اشكال الانوثة تظهر في جمالها الأروع ، ولكن كثيرا من الفتيات يحزن محاسن كافية لخلب الباب الرجال في سن اثنا عشرة . ربما يرغب القارئ تحليل اكثر دقة للجمال العربي ، والذي استطيع تقديمه هو الاكثر كمالا لديهم فيقولون : « اربعة اشياء في المرأة يجب ان تكون سوداء هي : شعر الرأس ، والحاجبان ، ورموش العينين ، وسوداء العينين . واربعة بيضاء : لون البشرة ، وبياض العينين ، والاسنان ، واتساقان . واربعة حمراء : اللسان ، والشفتان ،

(١٧) العرب عموما يضمرون التحامل على العيون الزرقاء ، يقال ان هذا التحامل ناشىء عن الاعداد الكبيرة من ذوي العيون الزرقاء من اعدائهم الشماليين (الروم) .

ووسط الخدين ، والشفات ، واربعة مدورة : اناس ، والرقبة . والسعدان ، ورسخا القدمين ، واربعة طويلة . الظهر ، والاصابع ، والذراعان ، والساقان (١٨) . واربعة واسعة : الجبهة ، والعينان ، والصدر ، والردفان . واربعة رفيقة : الحاجبان ، والانف ، والشفتان ، والاصابع ، واربعة ضخمة : الجزء الاسفل من الظهر ، والردفان ، والمعخذان ، والركبتان . واربعة صغيرة : الاذنان ، والتهندان واليبدان ، والقدمان (١٩) .

ان السيدات العربيات مفرمات جدا بالشعر الوافر اطويل ، ومع ذلك يتوسمن مع هذه الحلية الطبيعية باضافة شعر اخر ينزين به ، الا ان انبي لره تل ما هو زائف تستميل به المرأة زوجها ومن ثم تخدعه وتخييب امله « فمن الله التواصل والمستوصلة » تلك التي تصل شعرها بدون اذن زوجها ، اما اذا عملته بموافقته فليس محرما ، الا اذا كان من شعر بشري فهذا محرم بصورة قطعية (٢٠) . ولذلك فان النساء العربيات يفضلن خيوطا من حرير تضاف الى شعورهن (٢١) . يفص الشعر فوق الجبهة وهو قصير نوعا ، وتسدل على جانبي الوجه خصلتان وافتتان ، وتكون هاتان الخصلتان مجمعتين في الغالب على شكل حلقات واحيانا على شكل صفائر ، اما بقية الشعر فيصنف صفائر او جدائل تندلى اسفل الظهر وهي على العموم من احدى عشرة الى خمس وعشرين ضفيرة ، ولكن غالبا ما تكون في عدد غير

(١٨) في تحليل آخر من النوع نفسه ، يقال ان اربعة ينبغي ان تكون قصيرة : اليبدان ، والقدمان ، واللسان ، والاسنان . ولكن هذا كلام مجازي ، والمعنى ان هذه الاعضاء يجب ان تحفظ داخل حدودها الثلاثة (كتاب العنوان) .

(١٩) مؤلف لم يذكر اسمه القيس عنه الاسخاني في روايته عن المتوكل الخليفة العباسي .

(٢٠) كتاب العنوان .

(٢١) ان ارسال خيوط الشعر الحريرة مع رسالة ، تعبر السيدة عن شدة خضوعها واعانها . والمعنى نفسه نقل باسلوب اكثر عنفا بارسال الشعر نفسه ، فعين حاصر الفرنجة القاهرة سنة ٥٦٤هـ ارسل العاصد اخضر الخلفاء الفاطميين رسائل الى نور الدين محمود سلطان الشام يلتصق الاغالة ومع الرسائل شعر زوجته ليريهام الاعانة والاعان خاصته (ابن الشحنة) . (المقرئ) ايضا مع اخلاف طفيف كان هذا الحصار للمدينة القديمة التي تدعى الآن خطا مصر العتيقة كانت قد احترقت بأمر من الوزير شاور ، دام الحريق اربعة وخمسين يوما . الخطط ، رواية عن خراب الفسطاط وحكم العاصد (ستانلي بول) .

متساو ، تعتبر الأحدي عشرة قليلة ، الثلاث عشرة والخمس عشرة أكثر شيوعا ، وتكون ثلاث مرات عدد الشرائط الحريية السوداء (شريط لكل ثلاث صفائر ، وكل ثلاث تتحد في الأعلى) ، الطول من ستة عشر إلى ثمانية عشر انجا ، تضفر مع الشعر لحوالي ربع الطول ، أو أنها تربط بالشريط أو نشد بشريط حريري اسود وتعصب حول الرأس . ينظم هذا سوية مع زينة معينة من الذهب وغيره ليؤلف ما يسمى ب (الصفا) . ان الشكل الشائع هو المستطيل ، ملتف الطرف الأسفل المتجه الى الأعلى ، أو المعكوس ، توصل كل واحدة بحلقة صغيرة من طرفها الأعلى (بحوالي انج ، أو اقل قليلا ، على حدة ، وفي نهاية كل شريط قناة ذهبية صغيرة ، أو خرزة ذهبية صغيرة متعددة الزوايا والأضلاع ، ومن المألوف جدا ان يعلق من الأسفل بحلقة صغيرة ، عملة ذهبية (ليرة) قطرها أكثر قليلا من نصف انج ، هذا هو الوصف العام للصفا ، إلا ان بعض السيدات يستبدلن بالليرة زينة زخرفية أخرى من الذهب ، أما وحدها أو مع ثؤث في وسطها ، أو يعلقن في هذا الموضع شرابة صغيرة من الثؤث ، أو يلحق معه ثؤث متناوب أو زمرد في وسط شرائط ثلاثية ، وثؤث مع كل حلقة صغيرة من الذهب المذكورة أولا . وتعلق أحيانا خرز المرجان كذلك على الطريقة نفسها في نظم اللآلئ . اظن ان الصفا الأجمل هو الأكثر تفردا من كل الزينات التي تلبسها النساء العربيات .

ان تالق الحلبي الذهبية الصغيرة ، وخشخشتها سوية عندما تمشي المرأة له تأثير حيوي خاص . أما التيجان فهناك نوع دائري الشكل مزين بالجواهر (حافته السفلى راسية ، والعليا مزخرفة ولها رؤوس أربعة أو أكثر) على شكل قبة ، مزين اعلاه بالجواهر أو بعض الحلبي الأخرى ، هذا التاج كانت تلبسه النساء العربيات من الطبقات العليا أو ذوات الثراء العريض ، وكان هذا منذ قرنين مضيا ، أما النوع الآخر من التيجان فهو الذي يلبس الآن ويعرف بالقرص ، وهو حلقة دائرية محدبة ، قطر القرص حوالي خمسة انجات مصنوع من الذهب ويرصف مع ماس كثير ، أول ما يصنع يكون على شكل أوراد وأوراق وغيرها ، ثم يخيظ فوق قمة الطربوش ، تلبسه أكثر سيدات القاهرة عند ارتداء الحلة الكاملة (٧٢)

(٧٢) ان نقش التاج في هذا الوصف ، وآخر من نوع أكثر شيوعا يمكن ان يشاهد في كتابي عن (العربيين المحدثين) الملحق ١ .

ان مشية السيدات العربيات جديرة بالملاحظة جدا . انهن يجمعن الجزء الأسفل من الجسم يميل من جهة الى أخرى حسب الخطوة ، وتنحرف أيديان في مستوى الحوض حيث يمكن اطراف ارتداء الخارجي (العباءة) ، خطواتهن بطيئة ، لا ينظرن حولهن ، ينظرن امامهن ويمونهن متجهة نحو الأرض .

ان مكر النساء يمثل الخضوع للجنس الأقوى عند العرب مع تكلف الفضيلة السامية ، التي غالبا ما تتردد في المحادثات العامة ، ذلك ان النساء ناقصات في الحكم والرأي الحسن ، وقد قبل هذا الرأي كحقيقة لا جدال فيها حتى من قبل النساء أنفسهن ، وكما نقلوا عن النبي في خبر يؤكده . ان النساء يمكن قدرة عالية من المكر المؤكد مع الميل الى التشهير ونشر انفضاح . ان خطاياهن العامة واضحة في كونها أكثر خطرا من فسوق الرجال ، يقول النبي : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء . واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » (٧٣) ، ويقول الخليفة عمر عن النساء ورايهم : « شاوروهن وخالفوهن » ولا يكون هذا لأجل المخالفة ولا عندما تكون لهن نصيحة أخرى ولكن لأنهن يقلن بموافقتهن ، ويقول امام عالم : « من المرغوب للرجل قبل ان يشرع في امر مهم ، ان يشاور عشرة من الأشخاص النابهين من خاصة اصدقائه ، واذا لم يكن له أكثر من خمسة اصدقاء ، فعليه ان يستشير كلا منهم مرتين ، واذا لم يكن له أكثر من صديق ، فعليه ان يستشير عشرة مرات في عشر زيارات مختلفات ، واذا لم يكن لديه أحد يشاوره ، فعليه ان يرجع الى زوجته ويشاورها ، وان يفعل تقيض ما تشير به عليه . وبذلك يهتدي الى الصواب ويحقق مقصده » (٧٤) . ان الزوجة البرة الصالحة مستثناة طبعاً من هذه القاعدة على انها امرأة يجلبها المسلمون ، ولكن هذه المرأة الصالحة (كما يقولون على الأقل) نادرا ما توجد . يقال : ان المرأة عندما خلقت فرح بها الشيطان وقال : « انت نصف اعواني ومستودع سري ، وسهمي الذي به ارمي ولا أخطيء » (٧٥) .

ماذا نسمي المروءة التي كانت شائعة جدا لدى عرب الجاهلية ، وقلما تقل عند ذريتهم المسلمين . على أية حال ان النساء مهجورات من

(٧٣) كتاب العنوان ، ومشكاة المصابيح ٦٦٢/٢ .
(٧٤) الامام الجبرائي في كتابه (شرعة الاسلام) .
(٧٥) نزعة التامل ، القسم الثاني .

قبل كثير من القبائل البدوية التي استقرت منذ عهد قصير . اذكر اني استيقظت مذعورا على صراخ امرأة شابة من الجيران وكنت استمتنع بجوار قبر قديم حيث اقيم في طيبة Thebes وقد كان احد الرجال البدو ينهال عليها ضربا شديدا لامر شائن كانت قد اقترفته .

ان الزواج امر محترم عند المسلمين عامة كعمل ايجابي ، والذي يفرض فيه بلا عذر مشروع بلام عليه بشدة ، يقول النبي : « اذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين » (٧١) وفي حديث آخر ما معناه : انه سأل رجلا : هل انت متزوج ، فاجاب بالنفي ، وسأل عن عاقبته فكانت جيدة فقال ما معناه : انت احد انصار الشيطان ، لان اكثر الشر الذي عليك من هجر الزواج ، واكثر ما تلقاه من اثم بعد الموت من هجر الزواج ، وفضلا عن ذلك فالتزويجون يسلمون من قيل السوء ، وليس للشيطان من سلاح اكثر مضاء بالنسبة لعفة الرجال والنساء من هجر الزواج (٧٧) .

ان عدد النساء اللواتي يستطيع المسلم ان يتزوجهن ويجمع بينهن اربع نسوة ، له ان يتزوج المرأة الحرة ، او يتخذ الجواري ، او يتخذ هؤلاء واولئك . ان رأى اكثر الناس ، كما اعتقد ، بالنسبة للتدين الصحيح ان المرء ينبغي الا يتزوج اكثر من اربع نساء سواء كن زوجات او جواري ، او من النوعين سوياً ان عادة الاحتفاظ بعدد غير محدود من الجواري كان شائعاً عند اثرياء المسلمين في القرن الاول الهجري ، واستمر كذلك . ان المؤلف المشهور المقتبس من كتابه في اعلاه ، يقدم المثل من سليمان ليبرهن بان امتلاك عدد كبير من الجواري ليس متناقضاً مع التقوى والصلاح ، غير معتبر بان الله في البداية قد خلق ذكراً واحداً وانثى واحدة فقط .

للمسلم ان يطلق زوجته مرتين ويرجعها في كل مرة خلال مدة معينة حتى لو كان ذلك ضد رغبتها بحيب لا تمتد المدة اكثر من ثلاثة اشهر ، ما لم تكن حبلى ، وفي هذه الحالة عليها ان تنتظر حتى مولد طفلها قبل ان تصبح حرة وتربط بزواج آخر ، وان الزوج في هذه الفترة ملزم باعمالها . واذا طلقها ثلاث مرات ، او طلقها ثلاثاً بمباراة واحدة ، فانه لا يستطيع ان يرجعها مرة

(٧٦) مشكاة المصابيح ٧٩/٢ ، ١٦١/٢ طبعة جديدة المكتب الاسلامي ١٩٦١ .
(٧٧) نزهة التامل القسم الاول .

اخرى الا بعد ان تتزوج من شخص آخر وتطلق ثم تعود الى زوجها الاول بعقد جديد .

ليس من الشائع في الطبقات الوسطى ان يتزوج الرجل من زوجة واحدة في الوقت نفسه ، ولكن هناك قلة من الناس في العصر الوسيط لم يكن لهم زوجات متعدداً ولكن يستغيثون عن ذلك بتغيير الزوجة الواحدة استسهالاً للطلاق (٧٨) . هناك حالات كثيرة للزواج المتعدد الكثير ، فيقال ان المفيرة بن شعبة قد تزوج ثمانين امرأة خلال حياته (٧٩) . وهناك حالات اخرى دونها المؤلفون العرب تدل على تغير الحب ، اما الحالة الشاذة التي صادفتها ، فهي قصة محمد بن الطيب صباغ بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ من الهجرة عن خمس وثمانين سنة من العمر ، ويعزو اليه مؤلف جليل بانه تزوج اكثر من تسعمائة امرأة (٨٠) ، ولنفترض لاجل ذلك انه تزوج زوجته الاولى عندما كان عمره خمسة عشر عاماً ، فسيكون قد تزوج بمعدل ثلاث عشرة امرأة في كل عام . والنساء بطبيعة الحال لا يستطعن الزواج بعدة ازواج متعاقبين ، ليس فقط لان المرأة لا يحق لها ان تتزوج اكثر من زوج في آن واحد ، بل لانها كذلك لا تستطيع ان تطلق زوجها ، وعلى اية حال فهناك عدة حالات لنساء عربيات تزوجن عدداً مذهشاً من الرجال بتوال سريع . وتذكر من بين هؤلاء ام خارجة التي اصبحت مضرب المثل في سرعة الزواج . كانت هذه المرأة من قبيلة بجيلة من اليمن ، وتزوجت اكثر من اربعين رجلاً ، وان ابنها خارجة لا يعرف من هو ابوه ، وقد اعتادت ان تعقد الزواج بأسرع طريقة ممكنة ، وذلك بان يقول لها الرجل : « خطب » (اي اخطبك للزواج) ، فتجيب : « تكح » (اي موافقة) ، وهكذا تصبح زوجة له شرعاً . ان لا خارجة اعداداً كبيرة من اللرية ، لقد نشأت عدة عشائر من ذريتها (٨١) .

ولاجل اختيار الزوجة ، فان الرجل في الغالب يعتمد على امه او بعض النساء الاخريات

(٧٨) ومع ذلك وعلى سبيل الاستثناء من جانب المرأة ، فان شيخي (محمّد عياد الطنطاوي) يكتب : « يعتبر كثير من الأشخاص ان الزواج للمرة الثانية من الاعمال الشائنة جداً ، وهذا الرأي اكثر شيوعاً في المدن والقرى ، وان القرية والدتي هم بهذه الصلوات ، ذلك ان المرأة منهم اذا تولى زوجها وهي شابة ، او طلقها وهي صغيرة ، فهي تقضي طول حياتها ارملة ولا تتزوج مرة ثانية » .

(٧٩) نزهة التامل ، القسم الاول .

(٨٠) امرأة الزمان حوادث السنة المذكورة اعلاه .

(٨١) امثال العرب ومعجم مادة (خطب) .

من قريباته ، او يعتمد على امرأة مختصة بذلك تعرف بـ (الخاطبة) ، وهناك عدة نساء ينجزن هذه الخدمة بالاجرة . ان الشرع يجيز للرجل ان يرى وجه الفتاة التي يريد ان يتزوجها ، قبل ان يعقد عليها ، ولكن في الايام الحالية فان هذه الحرية من النادر ان تدرك ، الا عند الطبقات الدنيا ، ولا يسمح للرجل في هذه الحالة ان يكشف قناع اية امرأة الا ان تكون زوجته او محظيته ، والا تلك النساء المحرمات عليه ان يتزوجهن شرعا ، وعند بعضهم لا يسمح للرجل ان يرى ابنة اخيه او ابنة اخته حاضرة وان كانت محرمة عليه (٨٢) ، ويجب ان يضاف بان العبد المملوك يجوز له ان يرى سيده ، الا ان هذا الحق نادرا ما يسمح به في الايام الحاضرة الا اذا كان المملوك مخصيا .

(٨٢) ان ما يفتش المرأة هو الازار او الازار (لان الكلمة تكتب بشكلين مختلفين) ، قطعة من قماش الجوخ لبسه غالبا النساء العربيات عندما يظهرن في مكان عام ، وهو حوالي مترين او اكثر عرضا (حسب طول من ترتديه) وثلاثة امتار طولا ، يتدلى جانب منه من الخلف ، فوق الجزء الاعلى من الراس والجبين ، ويغطي بحزام يغطي من الداخل ، ويتدلى الباقي الى الخلف ومن كل جهة نحو الارض او قريبا من ذلك ، ولي الاثر يغطي الشخص كلية ، ويصك الطرفان ليتقيا من الامام ، وهكذا يغطي كل الاجزاء الاخرى من اللباس هذا جزءا صغيرا من الرداء اللصصافي غير الربوط (الذي هو صنف آخر للمشي او كساء متحرك) . اما برقع الوجه حابه في الغالب يصنع من شيت (خام قطني) ابيض ، الا ان برقا مشابها من الحرير الاسود للمتزوجات ومن الحرير الابيض لغير المتزوجات ، وتلبسه الان نساء الطبقات العليا والوسطى ، ويعرف بالحبرة .

لقد ظهر نوع من لغطاء الوجه يعرف بالعريسة بالقناع ، قطعة من الحرير الموشن ، حوالي ياردة او اكثر في الطول ، واقل قليلا في العرض ، يوضع جزء منه على الراس ، تحت الازار ، وتتدلى بقية الى اسفل من الامام نحو الصدر او حوله ، ويغطي الوجه جميعه . اني ارى احيانا النساء العربيات وخاصة الوهابيات يلبسن قناعا من هذا النوع يتكون من الموشن المطبوع ، يغطي كل ملامحهن تماما ، وهو قماش واسع فضفاض بما فيه الكفاية بحيث يتيح لها ان ترى طريقها . لكن النوع الاكثر شيوعا من قناع الوجه العربي هو شقة طويلة من الموشن الابيض ، او نوع من الكريشة (قماش رفيع جعد) السوداء ، يغطي كل الوجه عدا العينين ، ويصل قريبا من القدمين . يطلق من الاعلى بشريط رفيع يمر من اعلى الجبهة حيث يخيظ كما يخيظ نهايتا القناع بحزام يربط حول الراس ، هذا القناع يسمى (البرقع) . النوع الاسود كثيرا ما يزين بنقود (ليرات) ذهبية ، ولله غير حقيقية وغير ذلك لتصل بالجزء الاعلى . انه ليس غريبا مثل القناع الابيض ، ما لم تكن السيدة في حالة حزن او حداد .

ان مخالفة الشرع المذكور اعلاه يعتبر ذنبا كبيرا لكلا الجانبين ، قال الرسول : « لمن الله الناظر والمنظور اليه » (٨٣) ، ومع ذلك فكثيرا ما يتغاضى عن ذلك بالنسبة للنساء من الطبقة العليا .

ان الرجل محرم عليه بالقرآن (٨٤) وانسنة ان يتزوج امه ، او سلفها الآخرين ، والاخت او نسلها الآخرين ، او اخته من احد الوالدين غير الشقيقة) ، وعمته او خالته ، او اسلافهما ، وابنة اخيه او ابنة اخته او نسلهما ، وامه في الرضاعة التي ارضعته خمس مرات خلال السنتين الاوليين ، او امرأة تقرب له بالرضاعة من اية درجة حيث سيحرم زواجه منها اذا كانت قرابتها مشابهة له عن طريق الدم ، وام زوجته ، وابنة زوجته بشروط معينة ، وزوجة ابيه ، وزوجة ابنه ، وبمنع كذلك ان يتزوج اختين في آن واحد ، او العممة وابنة اخيها ، او الخالة وابنة اختها . ويحرم عليه ايضا ان يتزوج مملوكته غير الممتقة ، او مملوكة رجل آخر اذا كانت لديه في نفس الوقت زوجة حرة ، والاي يتزوج اية امرأة الا اذا كانت على دينه ، او كانت نصرانية او يهودية . اما المرأة المسلمة فلا يجوز ان تتزوج الا رجلا من دينها . ان العلاقة الغرامية المحرمة مع اية امرأة تمنع الرجل من التزوج من اي من قريباتها التي ستحرم عليه اذا كانت زوجته .

غالبا ما تختار ابنة العم زوجة لابن عمها ، باعتبار رابطة الدم التي قد تجعل صلة الزوجية بالزوج قوية ، او بسبب العاطفة التي تتكون بينهما في السنوات الاولى .

ان كفاءة المنزلة الاجتماعية كثيرا ما تؤخذ بعين الاعتبار ، وان الرجل في كثير من الاحيان لا يستطيع ان يتخذ ابنة رجل من مهنة او تجارة اخرى زوجة له ، ما لم يكن ذلك الرجل ادنى مرتبة منه . ولا يستطيع ان يتزوج ابنة الصغرى اذا كانت الكبرى لم تتزوج بعد .

ان الفتاة تتزوج في العادة في سن الثانية عشرة ، وفي بعض الاحيان في العاشرة ، او حتى في التاسعة . وان العادة الشهرية تأتي عموما بين السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة . وينبغي ان تصبح إما في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة . اما الشبان فتتزوجون بعد هذه السن بقليل .

ان المطلب الاساسي جدا في الزوجة هو

(٨٣) مشكاة المصابيح رقم الحديث ٢١٢٥ .

(٨٤) سورة النساء ٢٢ ، ٢٤ .

الدين ، قال النبي يقول ما معناه : الزوجة الصالحة خير من الدنيا وما فيها . ويقول لقمان : « الزوجة الصالحة كالنَّاج على رأس الملك ، والزوجة الشريرة كالحمل الثقيل على ظهر الرجل المعجوز » . والمطالب الرئيسية الأخرى هي انسجام الطباع ، وجمال الشكل (البرء من أي عيب ، أو خلل في الشكل أو عدد الأعضاء) ، والاعتدال في مقدار المهر المطلوب ، ومن أصل جيد . يقال : « إذا لم تستطع أن تتزوج عذراء (وهي المرغوبة جدا) فتزوج امرأة مطلقة ، وليست أرملة ، لأن المطلقة ستتعاق بك وتحترم كلمتك فلن تطلقها ، بينما ستقول الأرملة في أي شيء يحدث : اللهم أرحم ذلك الشخص (تعني زوجها الأول) فقد تركني لمن لا يناسبني » ووفقا لمبدأ أناني آخر ، أن المرأة غالبا ما تتفادى الطلاق من الرجل إذا كان لها طفل ، لأن قلبها على طفلها ، وتكون عدوة للرجل الذي يتزوجها فيما بعد (٨٥) .

أن العفة أمر ضروري ومؤكد عليه أيضا ولا يمكن أن يهمل ، ولكن هذا بالنسبة للقارىء الانجليزي يحتاج إلى بعض التوضيح ، لقد سأل علي بن أبي طالب زوجته فاطمة : « من هي أفضل النساء » ، فأجابت : « تلك التي لم تر الرجال ولم يروها » (٨٦) فالعفة لذلك من وجهة نظر المسلمين ، سامية جدا ، بأن تخفي المرأة نفسها ، وتحجب عيبتها عن الرجال . قال النبي : « خير صفوف الرجال في المسجد أولها ، وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها ، وشرها أولها » (٨٧) ، ذلك لأنهن أبعد عن الرجال ، إلا أن الأفضل من هؤلاء وأولئك النساء اللواتي يصلين في بيوتهن (٨٨) .

أن المرأة الخصبة الولود مرغوبة كذلك عند اختيارها زوجة ، وتعرف خصوبتها عن طريق اقربائها ، لأن الأقرباء متشابهون في الاستعداد للنسل . وأخيرا فإن قناعة المرأة معدودة من الضروريات يروى عن النبي أنه حين سئل : أي النساء خير ، قال : التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره (٨٩) وللحصول على زوجة قنوعة ومطبعة فإن كثيرا من الرجال يختارون زوجاتهم من الأوساط الأقل

منزلة من منزلتهم ، ويفضل آخرون من هذه النظرة الجارية مكان الزوجة .

أن رضا الفتاة الصغيرة عند الزواج ليس مطلوبا ، فإن الأب ، وإذا كان متوفى فاقرب قريب راشد من الرجال ، أو الوصي عليها بوصية ، أو الموكل من قبل القاضي ، يكون وكيلها ، وبمضي عقد الزواج نيابة عنها . أما إذا كانت بالغة سن الرشد ، فإنها هي التي تعين وكيلها . أن المهر المطلوب لتسجيل الزواج هو عشرة دراهم ، وهو الحد الأدنى المسموح به ، وقد تزوج النبي محمد بعض زوجاته بمهر قدره عشرة دراهم ، ولوازم البيت البسيطة ، من مثل طاحونة يدوية لطحن الحبوب ، وجرة ماء ، ووسادة من جلد محشوة بليف النخيل ، ولكنه قد تزوج بمهر قدره خمسمائة درهم (٩٠) .

ومع ازدياد الثروة والترف ، زاد مبلغ المهر ، إلا أنه بالنسبة لراينا ما زال زهيدا أن مبلغا مساويا لحوالي عشرين باونا أسترلينيا يكون متوسط المهر الشائع عند العرب في المجتمعات المتوسطة للبنت الباكر ، ونصف أو ثلث أو ربع هذا المبلغ للمرأة المطلقة أو الأرملة . أن ثلثي المبلغ يدفع في العادة قبل عقد القران ، والقسم المتبقى يؤجل ليدفع إلى المرأة في حالة الطلاق أو في حالة وفاة الزوج . أن والد الفتاة أو الوصي عليها إذا لم تبلغ الرشد ، يتسلم المبلغ المؤجل من المهر ، ويعتبر ملكا لها ، وهو ينفقه في الغالب مع مبلغ إضافي من كيسه الخاص لأجل البنت في شراء الضروري من الأثاث والملابس وغير ذلك ، حيث أن الزوج لا يستطيع أن يأخذ منها شيئا ضد رغبتها .

أن عقد القران يكون عاما ، وفي الأيام الحالية يعتقد بصورة شفهية فقط ، وفي بعض الأحيان تحرر وثيقة وتختتم من قبل القاضي . أن أحسن الأوقات لعقد القران والزواج هو شهر شوال ، أما الشهر غير المناسب فهو شهر محرم . أن الأشخاص الذين لابد من حضورهم لانجاز العقد هم : المريس (أو وكيله) ، ووكيل المروس (الذي يكتب الكتاب) ، وشاهدان من الرجال ، والحصول على هذين سهلا ، والقاضي أو معلم المدرسة ، أو أشخاص آخرون لتلاوة الخطبة التي تتألف من كلمات قليلة في تحميد الله ، والصلاة على النبي . وآيات من القرآن تتعلق بالزواج . وتتلو الجميع سورة الفاتحة (أو يفتحون سورة من القرآن) ، بعدما يدفع العربي النقود . ثم (٩٠) نزهة المتأمل ، القسم الرابع .

(٨٥) نزهة المتأمل ، القسم الرابع .

(٨٦) المصدر نفسه ، القسم السادس .

(٨٧) مشكاة المصابيح ٢٢٩/١ .

(٨٨) المصدر السابق ٢٢٤/١ يربط المؤلف الحديث : (لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خير لهن) .

(٨٩) مشكاة المصابيح ٢٠٧/٢ .

يجلس العريس ووكيل العروس على الأرض وجها لوجه ، ويمسك كل منهما بيد الآخر اليمنى ، رافعين الإبهامين ويضغط كل منهما على إبهام الآخر . قبل الخطبة يضع القاضي أو الشخص الذي يعقد القران منديلا على يدي العريس ووكيل العروس المتشابكتين ، وبعد الخطبة يلتقن كلا من المتعاقدين الكلام الذي يرددانه . والخطبة بعامة تستعمل صيغة الكلمات الآتية أو ما يشابهها : « لقد زوجتك ابنتي (أو ابني) كوكيل لها (فلانة بنت فلان) ويذكر اسم العروس (الباكر) أو العذراء الراشدة أو غير ذلك) بمهر قدره » . ويجب العريس : « لقد قبلت منك زواجها من نفسي » . هذا كل ما هو ضروري ، إلا أن الخطاب والجواب يكرر عادة مرتين أو ثلاثا ، وأحيانا يعبر بمبارات وصيغ كاملة ، ويختتم العقد بتلاوة سورة الفاتحة يتلوها كل الحاضرين .

أن هذه الخطبة أو عقد القران كثيرا ما تتم قبل الزواج بعدة سنوات ، عندما يكون العريسان طفلين صغيرين ، أو خلال طفولة الفتاة ، ولكن الأكثر شيوعا أنها لا تزيد عن ثمانية أو عشرة أيام من الزواج . أن أهل البيت يجهزون الأثاث والملابس للعروس ويرسلها أهل العروس إلى بيت العريس ، وتنقل عادة على قافلة من الجمال ، قبل أن تصل العروس إلى بيت العريس بيومين أو ثلاثة أيام أو أكثر .

ويحسن الآن أن نذكر الولائم ومواكب الزفاف ، وهي تشاهد في زواج اثنتاه الباكر ، أما الأرملة أو المطلقة التي تزوج ثانية ، ففي طريقة خفية . أني أصف عادات الزواج هذه وفقا لعادات القاهرة خاصة ، حيث يظهر لي أنها أكثر مطابقة بصورة عامة مع الأوصاف والإشارات الواردة في « الف ليلة وليلة » . أن الوقت المستحسن والسائع جدا للزواج (الدخلة) هو ليلة الجمعة أو الاثنين . وقبل هذه الليلة يقيم العريس وليمة لأصدقائه وقد تتكرر هذه مرتين أو ثلاث مرات . ويزين بيته لعدة ليال وكذلك بيوت الجيران القريبين بمجموعات من المصاييح المضيئة أو الفوانيس ، تعلق في واجهة البيوت ، ويعلق قسم منها بحبل عبر الشارع . وتعلق في هذه الحبال أو غيرها أعلام صغيرة ، أو قطع من الحرير المربعة مختلفة الألوان ، وغالبا ما تكون حمراء وخضراء ، يقول بعضهم أن الوليمة يجب أن تقام عند عقد القران ، ويقول آخرون بل عند الزواج ، يقول غيرهم بل تقام عند عقد القران والزواج كذلك (٩١) .

(٩١) نزهة التامل ، القسم الثامن .

أن العادة المتبعة عند أهل القاهرة أن يقيموا الوليمة في الليلة التي تسبق حفلات العرس (الزفاف) ، ووليمة أخرى في ليلة الزواج ، إلا أن بعضهم قد يقيم ولأئمة قبل ذلك . وقال النبي عن ولائم الزواج : « طعام أول يوم حق ، وطعام يوم الثاني سنة ، وطعام الثالث سمعة » ، ومن سمع سمع الله به » ، وقد منع الأكل في الوليمة التي التي يراد بها التفاخر (٩٢) . أن من الواجب قبول دعوة وليمة الزواج ، أو أي دعوة مشروعة أخرى ، ولكن الضيف غير ملزم أن يأكل (٩٣) . أن الأشخاص المدعوين وكل الأصدقاء الحميمين غالبا ما يرسلون هدايا من بعض أنواع المؤونة قبل يوم أو يومين . لقد أوصى النبي بأن ولائم الزواج يجب أن تكون معتدلة بعيدة عن الإسراف ، وأفضل وليمة أولمها هي شاة واحدة (٩٤) . لقد رضى النبي عن مظاهر الفرح في احتفالات الزواج مع الفناء ، ووفقا لأحد الأحاديث أذن بالضرب بالدفوف ، وفي آخر أن الدف محرم (٩٥) . والطريقة المفضلة لتسلياة الضيوف هي بأجراء الذكر .

في اليوم الذي يسبق زفاف العروس إلى بيت العريس تذهب العروس إلى حمام عام بصحبة عدد من جاراتها وصديقاتها . وتكون الزفة عادة على شكل دائري كي تكون أعظم مظهرا ، وعندما تغادر العروس الدار تستدير نحو اليمين ، وفي القاهرة تسير العروس تحت مظلة أو سرادق من حرير يحمله أربعة رجال ، ومع العروس امرأتان من قريباتها واحدة عن يمينها وأخرى عن يسارها ، وتمشي فتيات عذارى أمام العروس ، ويتقدم على هؤلاء نساء متزوجات ، ويسير أمام الزفة وخلفها مجموعة من الموسيقين بالطبول والمزاسير . تلبس العروس نوعا من الساج أو الطاقية من الكرتون ، وتحجب كلية عن أعين الناس ، فتبرقع بشال من كنمير يوضع على تاجها وكل جسمها ، إلا أن بعض الزينات الجميلة للرأس تربط من الخارج فتكون ظاهرة . وتلبس الأخريات أفخر ما لديهن من لباس وزينة . عندما تكون العروس من منزلة عالية أو ثرية ، وأحيانا عندما تنتمي إلى أسرة متوسطة ، فإن النساء

(٩٢) نزهة التامل القسم الثامن ، ومشكاة المصاييح ١٩٢/٢ .
(٩٣) المصدر السابق ، وفي مشكاة المصاييح ١٩٢/٢ (١٣١)
دعى أحدهم إلى طعام فليجبه فإن شاء طعم وإن شاء ترك .

(٩٤) مشكاة المصاييح ١٩١/٢ (ما أولم رسول الله صلى الله عليه وسلم على أحد من نسائه ما أولم على زينب ، أولم بشاة) .

(٩٥) نزهة التامل .

يركبن على حمير بسروج عالية ، بدون موسيقى أو مظلة ، والعروس وحدها تميز بشال كشمير بدلا من الحرير الاعتيادي الاسود الذي تغطي به ، ويركب أحيانا طواشي (خصي) أو أكثر في المقدمة . وفي الحمام ، بعد عملية الفسيل الاعتيادية وغيرها ، تقام وليمة ، وأحيانا حفلة تقيمها النساء المغنيات .

ويكون الرجوع الى البيت بالطريقة نفسها ، ان صديقات العروس يشاركن في حفلة مشابهة مع العروس ، ثم يخضبون يدي العروس وقدميها بالحناء ، ويكحلون عينيها بالكحل ، وتقدم صديقات العروس هدايا صغيرة من النقود ، ثم يخرجن . « من السنة ان تفسل العروس قدميها في وعاء نظيف ، وترش الماء في زوايا الغرفة ، فتكون البركة في ذلك . وكذلك تصقل وجهها . وتلبس احسن حطلا ، وتزين عينيها وحاجبيها . وتخضب بالحناء ، ويجب عليها ان تمتنع خلال الاسبوع الاول عن اكل أي شيء يحتوي الخردل ، وتمتنع عن اكل الخل والتفاح الحامض » (٩٦) .

تُزف العروس الى بيت العريس (في اليوم التالي) بالطريقة نفسها التي اتبعت في يوم الحمام ، وبأبهة أكثر . ان بعض مواكب الزفاف في القاهرة للأشخاص من الطبقات الثرية جدا تتميز بصفات فردية ، فان الموكب عادة يتقدمه بهلوانات وموسيقيون ، وسقاة الماء الذين يحملونه بالقرب وبعض الراقصين والراقصات والمشموذين وما أشبه ، مع اعداد من العربات المكشوفة المزينة او السيارات حيث تحتوي كل واحدة على مجموعة من اصحاب المهن او الصناعات يمثلون مهنتهم . وقد وصف الجبرتي موكبا من هذا النوع حيث : « مشى جميع ارباب الحرف والصنائع مع كل طائفة عربية وفيها هيئة صناعتهم ومن يشتغل فيها مثل القهوجي بآلته وكانونه ، والحلواني والفطاطري والحيالك والقزاز بنوله ، حتى مبيض النحاس والحيطان والمعاجيني وبياعين البز وارباب اللاهي والنساء والمغنين وغيرهم ، كل طائفة في عربة ، وكان مجموعها نيفا وسبعين حرفة ، وذلك خلاف الملاعب والبهالوين والرقاصين والجنك ثم الموكب ، وبعده الاغوات والحريم والملازمون والسعاة والجاويشية ، وبعدها عربة العروس من صناعة الأفرنج بديعة الشكل ، وبعدها ممالك الخزنة والملبسون الزرورخ ، وبعدهم النوبة التركية والتفريات ،

(٩٦) نزعة التامل ١/١ ومشكاة الصابيح ٨٩/٢ .

وكانت زفة غريبة الوضع لم ينفق مثلها بعدها » (٩٧) .

وتكون العروس قد وصلت الدار ومن معها من النساء ، ويجلسن لتناول الطعام ، اما العريس فلم يكن قد شاهد العروس بعد . فهو الآن قد ذهب الى الحمام . وعندما يحل الليل يذهب مع موكب من اصدقائه الى المسجد ، ليؤدي -

المشاء ، ويصحبه الموسيقيون والمغنون ، او يصاحب بالمشدين بقصائد في مدح النبي ، ويرجال يحملون المشاعل لها قوائم مع اطر اسطوانية من حديد مطووعة من الاعلى بخشب مشتمل . وعند عودة العريس يسير بين يديه مجموعة من خدمه يحملون شموعا مضئية وباقات من الورود .

وحين يصل الدار ، يترك اصدقاءه في باحة البيت ، ويصعد الى العروس في الطابق الاعلى عادة حيث يجدها جالسة ، وعلى رأسها وشاح يخفي وجهها كله ، وتخدمها امرأة او اثنتان ، فيعطى العريس لخدمة العروس بعض النقود لتسحب ، ثم يعطى العروس هدية نقدية (كشمير لكشف الوجه) ، ثم يربح الشواح عن وجهيها قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم » وهو في اتغاب يراها لأول مرة . ولأن هذا اللقاء هو الاول ، حيث يدعى (الدخول) او (الدخلة) فينصح بان يعطر نفسه ، وان يشتر بعض السكر والثلوز على رأس العروس ، وعلى كل امرأة معها ! وهذه انعادة تقليد متوارث وما زالت موجودة ، وقبل ان يقترب منها يؤدي ركعتين من الصلاة ، وكذلك تفعل العروس ان أمكن ، ثم يمسك شعرها من ناحية جبينها ويقول : « اللهم بارك لي في زوجتي ، وبارك لزوجتي في ، اللهم انعم علي بذرية منها ، وانعم عليها بذرية مني ، اللهم وحدنا بالسعادة كما انت واحد ، وفرقنا عندما تفرق بالسعادة » (٩٨) .

غالبا ما يحسب نجم العروسين لمعرفة في أي برج هما وهل سيتفقان عندما يكونان زوجا وزوجة ، وكثيرا ما يحسب النجم في هذه الايام بجمع قيمة الحروف العددية التي تتكون من اسمه واسمها مع اسم الام سوية ، واذا تذكرت الصواب ، فيطرح المبلغ كله من العدد اثني عشر ، اذا كان اقل من اثني عشر ، او يقسم على اثني عشر اذا كان العدد كبيرا ، وهكذا يحصل على رقم البرج . ان العلامات الاثني عشرة تبدأ ببرج

(٩٧) تاريخ الجبرتي ١٢١/٢ - ١٢٢ رواية الامير محمد الفنا

البارودي المتولى سنة ١٢٠٥ هـ .

(٩٨) نزعة التامل ، القسم الثامن .

الحمل ، وهو يتوافق على التوالي مع عناصر : النار ، التراب ، الهواء ، الماء ، النار ، التراب ، وهكذا . وإذا كانت علامات كلا الطرفين تدل على العناصر نفسها ، فإنها تبشر بأنهما سينسجمان ، ولكن إذا اشرت الى عناصر مختلفة فإن الاستنتاج سيكون بأن أحدهما سيؤثر في الآخر بالطريقة نفسها التي تؤثر العناصر في بعضها . وإذا كان جوهر الرجل هو النار ، وجوهر المرأة هو الماء ، فهذا يعني بأن الرجل سيخضع لحكم المرأة . وفي حسابات أخرى : تؤخذ القيمة العددية للحروف التي تكون اسم كل من الشخصين ، ثم تطرح الواحدة من الأخرى ، فإذا كان الباقي رقما فرديا غير شفعي فإن الاستنتاج يكون عدم التوافق لدرجة التضاد .

أما ما يخص واجبات الزوجة فاهمها خدمة الزوج أو السيد ، والعناية بالأطفال والواجبات البيتية اللازمة . أن أهم اشغال الزوجة الأخرى هي الغزل أو الحياكة أو شغل الإبرة ، يروى عن النبي انه قال ما معناه : أن جلوس ساعة في عمل الغزل خير للنساء من عبادة سنة ، ويؤجرون على كل قطعة من الملابس ينسجنها اجر الشهادة . ويروى عن عائشة أن النبي قال لها : قولي للنساء ما أقول لك ، ما من امرأة تغزل لتكسو نفسها فإن الملائكة في السموات السبع تصلي ليفغر الله ذنوبها ، وستبعث من قبرها يوم الحساب مرتدة ثوبا من الجنة مع وشاح على رأسها ، وامامها ملك وعن يمينها ملك يحمل لها كأسا من ماء السلسيل من حوض الجنة ، ويأتيها ملك آخر يأخذها على جناحيه ويحملها الى الجنة . وعندما تدخل الجنة تقابلها ثمانون ألف جارية ، كل جارية ، تجلب لها حلة مختلفة ، وسيكون لها مساكن من زمرد لها ثلاثة آلاف باب وعلى كل باب يقف ملك بيده هدية من اله العرش (٩٩) . أن المهنة المذكورة اعلاه تمارسها الاناث في الحريم في الطبقات الوسطى والعليا ، انهن يقضين معظم اوقات فراغهن في شغل الإبرة ، وبخاصة في تطريز المناديل ، وأوشحة الرأس وغيرها ، على أطار يسمى (النسيج) ، يطرزن بالحبر الملون والمذهب ، وحتى النساء في بيوت الموسرة ، يملأن كيسهن الخاص من تطريز المناديل وأمور أخرى بهذه الطريقة ، ويستخدمن (الدلالة) لتأخذ ما يعمئن الى السوق أو الى النساء الأخريات ليبيعه (١٠٠) .

لا شك أن الانفصال الجنسي (عدم الاختلاط

بين الجنسين) روج الاتصال الحر بين الأشخاص من نفس الجنس وبطرق فاسدة ، وقد مكثهم هذا من الاختلاط سوية بصرف النظر عن الثروة أو المركز ، ودون مجازفة بسبب عدم تكافؤ علاقات الزواج ، ولذلك لم يشعر بقسوة هذا الانفصال كل من الطرفين ولم يعتبروه أمرا تعافيا ، وقد وجد مجتمع الرجال خاصة في هذا درجة عالية من الراحة المألوفة والحرية الواسعة ، وهذا يصدق على الجنسين . وقد تسبب هذه العلاقات تعكيرا للسعادة الأسرية ، وتوثق العلاقات الشخصية بشكل ضيق طلبا للاستمتاع بحرية .

وعلى أن نلاحظ أن من آثار هذا النظام أن جعل تقييد العلاقات بين الجنسين قبل الزواج يؤدي فيما بعد الى ضرورة تسهيل أمر الطلاق ، فمن الظلم للرجل الذي يجد نفسه خائب الأمل في توقعاته عن الزوجة ، التي لم يكن قد رآها من قبل ، إلا يستطيع استبعادها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فاحيانا تجعل الضرورة جواز تعدد الزوجات ، للرجل الذي يجد زوجته الأولى غير مناسبة له ولا يستطيع طلاقها دون أن يقهرها على القبول ، وإباحة تعدد الزوجات في هذه الحالة تصبح ضرورة كبديل للطلاق . وثالثا : أن حرية تعدد الزوجات تجعل تسهيلات الطلاق مطلوبة أكثر لسعادة النساء ، حتى عندما يكون للرجل زوجتان أو أكثر ، وواحدة منهن غير راضية بوضعها ، فهو قادر على أن يخلي سبيلها . رابعا : أن جواز الطلاق يكون أحيانا وسيلة لضبط الزوجات ، خوفا من الوقوع تحت نفوذ الزوجة الأولى ، أو نفوذ أقربائها ، فيجبرونه على الطلاق إذا ما تزوج امرأة ثانية ، وكثيرا ما يكون هذا رادعا للرجل . وهكذا فكلاهن الإباحيتين - الزواج بأخرى والطلاق - لهما أهمية كبيرة في تكوين المجتمع الإسلامي ، ولهما بعض المنافع الخلقية ، وباعتبار ما لهما من منافع مادية علينا أن نتذكر أن الجذب والتعاطف أكثر شيوعا في الأجواء الحارة منه في الأجواء المعتدلة .

من الواضح أن النظام المسيحي يعارض تعدد الزوجات ، ولكن بالنسبة للطلاق فإن بعضهم قد عارض فقط طلاق الزوجة ضد رغبتها ، إلا بسبب واحد (١٠١) . غالبا ما يكون المسيحيون أكثر ظلما في حكمهم على الشريعة الإسلامية وعقائدها ، وبخاصة الحكم الذي يتفق

(١٠١) لقد وافق بروتستانت هنتارية على الطلاق في قضايا العار الذي لا شبهة فيه . أدبهات : روح الشرق ٤١٦/٢ .

(٩٩) نزهة التامل ، القسم السابع .
(١٠٠) المصريون المحدثون ، فصل ٦ .

مع الديانة الموسوية ، وأعمال الرجال الصالحين ، من مثل تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحرب دفاعا عن الدين ، والختان ، وحتى القضاب الصغيرة (١٠٢) .

لقد أراد النبي محمد أن يستبعد أحد الأسباب الرئيسية لتعدد الزوجات وهي عدم رؤية الرجل للمرأة ، فأوصى أن ينظر الرجل إلى المرأة التي يريد أن يتخذها زوجة له (١٠٣) . وقد صارت هذه السنة اعتيادية أكثر مما هي الآن ، فقد رخص لاتباعه كثيرا فسمح للرجل أن يجتمع بشكل ما بالمرأة التي يختارها للزواج بحضور رجل أو امرأة من الأقارب (على أن تكون المذكورة محجبة ، من غير مخالفة للنظام الصام للفصل بين الجنسين ، ولكن نادرا ما يسمح أي من الوالدين من العرب الآن برخصة صغيرة كما أمر ، اللهم إلا أولئك الذين من الطبقات الدنيا . وعلينا أن نلوم المسلم بتعدد الزوجات ونكون أكثر اعتدالا إذا أوصينا بتحديد وتقليل العدد . واطن أيضا كما سمح موسى لقومه بسبب قسوة قلوبهم أن يطلقوا زوجاتهم ، وأن الله أعلمهم أن لا يجمعوا بين الزوجات بينما يفعل ذلك البطاريك . وعلينا أن نكون أكثر موافقة كمؤمنين بالكذب المقدسة إذا سلمنا السماح بهذه الممارسة لتكون مؤدية إلى الفضيلة أكثر من منعها ، بين الناس المشابهين من اليهود أقدماء حيث سمح موسى بمثل هذه الحرية . وحقا أن محمدا قد اتخذ لنفسه عددا كبيرا من الزوجات أكثر من المسموح به للآخرين وقد لاحظت في مكان آخر (١٠٤) أن الدافع لهذا كان رغبته في النسل إلى الأولاد الذكور أكثر من رغبته في متعة الزواج .

يقول كاتب درس الشريعة الإسلامية وآثارها بعمق : « في موضوع تعدد الزوجات ، فإن أوروبا أبحث له فرصة كاملة في مناقشة امرأة تركية ، لأن مشاعرها حتما بجانب المعارضين

(١٠٢) سالتني سيدة متدينة مرة فيما إذا كنت موافقا على طرق الترفيق في الأكل « بأساليبهم الوحشية » ، فأجبت : « لا تسميها أساليب وحشية بل سميها أسلوب ربنا ورسله » ، وبعض التسامح هنا مطلوب . كنت مقررا عندما لعبت للشرق أول مرة ألا أوافق على طريقة الأكل بالأصابع عندما استطيع تجنبها ، ومع ذلك ، بعد أن رأيت لأول مرة طريقة الأكل هذه ، استمعتها حالا وواظبت عليها .

(١٠٣) مشكاة المصابيح ١٦٢/٢ ، ١٦٤ . في الحديث : « إذا خطب أحدكم امرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوها إلى تكاثرها فليقبل » .

(١٠٤) مختارات من القرآن ، الطبعة الأولى ص ٥٩ .

لتعدد الزوجات ، ولكنها بعد ذلك أجابت بقوة هائلة ، في مقارنة الآثار العملية للنظامين ، وفي نشر الإشاعات الواسعة عن قسوة وفجور أوروبا . كل الاعتقادات بعاداتنا وقوانيننا تقف صفا معاديا ضد البلاد التي يقبل فيها مبدأ تعدد الزوجات ، ولكن بينما نحن نلوم الإسلام على تعدد الزوجات . فإن الإسلام يجب أن يلومنا على تعدد الزوجات الفعلي الذي لم يقره قانون وينكره الصرف ، إضافة إلى مهانة العقل بسبب الفساد الخلقى » (١٠٥) .

وينبغي أن يلاحظ إضافة إلى ذلك أن السماح بتعدد الزوجات لم يؤذن به كعمارة عامة ، لا ، بل أنه رخصة لقساة القلوب كي يعصمهم من السلوك السيئ ، وفي بعض الحالات كما لوحظ دائما ، يكون ذريعة لذوي القلوب الرقيقة في حالة الحب أيضا .

لقد لاحظت فيما سبق بأن تعدد الزوجات « أكثر ندرة في الطبقات العليا والوسطى من المجتمع (في مصر واعتقد في الأقطار العربية الأخرى) منه في الطبقات الدنيا ، وحتى عند هؤلاء ليس شائعا جدا . أن الرجل الفقير يسمح لنفسه بزوجتين أو أكثر لأن كل زوجة تكون قادرة ، ببعض الحناعات أو الحرف لتزود نفسها بمعاشها الخاص تقريبا . إلا أن أكثر الأشخاص من الطبقات العليا والوسطى يأنفون من هذا ، لأن العمل سيعرض الزوجة للكلفة والمضايقة . قد يتخذ الرجل زوجة ويكتشف أنها عاقرة ، ويكون متعلقا بها جدا فلا يطلقها ، ويرغب أحيانا في الزواج من ثانية طلبا للذرية فقط ، ومن هذا الحافز قد يتزوج ثالثة ورابعة ، إلا أن الرجل الهوائي المتقلب أكثر وضوحا ودافعه معروفة سواء بتعدد الزوجات أو بتكرار الطلاق . وهؤلاء الذين يرضون هذه العاطفة بكثرة الزواج هم قلة بالمقارنة ، وأنا اعتقد أن ليس في كل عشرين رجلا : إلا رجلا واحدا له زوجتان » (١٠٦) . وأمل أن أكون قد أوضححت بأنني اعتبر تعدد الزوجات ضرورة في نظام المجتمع الإسلامي ، كي يمنع اندعارة التي ستكون أسوأ من تلك التي تسود الأقطار الأوروبية وبشكل واسع وفظيع ، حيث أن الناس يرتبطون بالزواج بعد علاقات جنسية متبادلة ، أني اعتبر تعدد الزوجات (شرا) لا بد منه .

(١٠٥) أركهارت ، روح الشرق ١١٥/٢ ، ٤١٦ ، انظر الفصلين (حياة العرب) و (دولة النساء) حيث اظن انهما أحسن ما في الكتاب .

(١٠٦) المصريون الحديثون ، الفصل السادس .

عندما تعيش زوجتان أو أكثر لرجل واحد سوية ، أو عندما تزور كل منهما الأخرى ، فإن الشعور بالغيرة ، هو شعور عام ، وغالبا ما يظهر ، وخاصة من قبل الزوجة - أو الزوجات - التي لا تستطيع أن تزعم الأولوية بأنها تزوجت قبل الأخرى أو الأخريات ، أو بسبب كونها أكثر حظوة عند زوجها من الأخريات (١٠٧) ، تتمتع الزوجة الأولى عادة بمنزلة أعلى ، لذلك فإن الآباء غالبا ما يعترضون على إعطاء ابنتهم زوجة لرجل متزوج من زوجة أخرى ، وفي كثير من الأحيان يحدث بأن المرأة التي تطلب للزواج تعترض على مثل هذه الشراكة . أن الشرع يجيز في بعض الحالات ، دفعا للمضايقات التي تنشأ من تعدد الزوجات ، بإعطاء كل زوجة حق اثاث معين ملائم للنوم والطبخ وغيره ، وإضافة إلى ذلك ، يشترط على الزوج أن يكون عادلا منصفًا بين زوجاته في كل علاقاته . إلا أن هناك بعض الصفات مثل انخسوبة وكثرة الولادة والجمال الفائق ، صفات تمكن المرأة الثانية أو الثالثة أو الرابعة ، من اغتصاب مكان الزوجة الأولى ، ومع ذلك ، وكما لاحظت دائما ، أن المحبوب الدائم ليس الأكثر جمالا .

وعلى أية حال فهناك عدة حالات من المحبة الخالصة موجودة في قلوب الضرات . والقصة التالية لزوجتي والد الجبرتي المؤرخ المصري الحديث ، يرويها بنفسه ، وهي بلا شك صادقة ومثال سمين . يقول المؤرخ متحدثا عن أول هاتين الزوجتين :

« ومن جملة برها لزوجها وطاعتها ، أنها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها الخاص ، وتزينهن بالحلي والملابس الفاخرة ، وتقدمهن إليه ، وتعقد حصول الأجر والثواب لها بذلك (في الجنة) . وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر ويشتري الجواري فلا تتأثر من ذلك ، ولا يحصل عندها ما يحصل في النساء من الغيرة غالبا .

ومن الوقائع الغريبة الأخرى التي حدثت الحادثة التالية : أنه لما حج (والد المؤلف الجبرتي) سنة ١١٥٦ هـ (١٧٤٤-١٧٤٣ م) واجتمع به الشيخ

(١٠٧) الزوجة الأخرى تسمى باللغة العربية (مرة) والكلمة مشتقة من (المرد) أي الألى لان الزوجة الأخرى عادة تقاسي المعاملة القاسية ، الواحدة تجاه الأخرى ، أن كلمة (مرة) في العامية العربية (بتبدل اللين مكان الشدد ، الدال والهمزة مكان الفتحة) تلفظ (مرة) وفي المثل المشاع (عيشة المرة مرة) (الطنطاوي) .

عمر الحلبي بمكة ، أوصى بأن يشتري له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ ، وصفتها كذا وكذا ، فلما عاد من الحج طلب من البسرجية الجواري لينتقي منهن المطلوب ، فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها ، وأدخلها عند زوجته ، حتى يرسلها مع من أوصاه بإرسالها صحبته . فلما حضر وقت السفر أخبرها بذلك لتعمل لهم ما يجب من الزاد ونحو ذلك ، ولكنها قالت له : « أنني أحببت هذه الوصفة جدا شديدا ولا أقدر على فراقها ، وليس لي أولاد ، وقد جعلتها مثل ابنتي » . وكذلك بكت الجارية زليخة وقالت : « لا أفارق سيدي ولا أذهب من عندها أبدا » . فقال : وما العمل ، قالت الزوجة : سادفغ ثمنها من عندي ، واشتر أنت غيرها . ففعل كذلك ، ثم أنها اعتنقتها ، وعقدت له عليها ، وجهزتها وفرشت لها حجرة خاصة بها ، وبني بها في سنة ١١٦٥ هـ ، وكانت الزوجة الأولى لا تقدر على فراق هذه الفتاة ساعة واحدة ، على الرغم من أنها قد أصبحت ضررتها ، وولدت له أولادا .

فلما كانت سنة ١١٨٢ هـ مرضت الجارية ، فمرضت سيدتها أيضا لأجلها ، وانتشر المرض في الاثنين ، وفي صباح أحد الأيام قامت الجارية فنظرت إلى مولاتها وكانت في حالة سيئة على وشك الموت ، فبكت وقالت : « يارب وسيدي ، إذا كنت قد قضيت بموت مولاتي فأجعل يومي قبل يومها » ثم سقطت ، وازداد بها المرض ، وماتت في الليلة الثانية ، فأضجموها بجانب مولاتها ، فلما استيقظت مولاتها في آخر الليل ، وجستها بيدها ، وصارت تقول : (زليخة ، زليخة) ، فلما قالوا لها : أنها نائمة ، ولكنها أجابتهم : أن قلبي يحدثني أنها ماتت ، ورأيت في منامي ما يدل على ذلك . ثم قالوا لها : (حياتك الباقية) (١٠٨) ، فلما تحققت مما قالوا ، قامت وجلست ، وهي تقول : لأجياة لي بعد موتها ، وصارت تبكي وتنتحب حتى طلع النهار وشرعوا في تشهيلها وتجهيزها وغسلوها بين يديها وحملوا جنازتها إلى القبر . فرجعت عندئذ إلى فراشها ، وصارت تحنصر ، فجاءتها سكرات الموت فماتت في آخر النهار ، وفي اليوم التالي خرجوا بجنازتها أيضا إلى القبر بالطريقة نفسها (١٠٩) .

(١٠٨) هذه هي الطريقة المعتادة في أخبار الشخص بوفاته شخص آخر ، وكثيرا ما يقولون في الحالة نفسها (البقاء في حياتك) ثم يبدأ السؤال (من الذي مات) فيذكر الاسم .

(١٠٩) تاريخ الجبرتي ، الجزء الأول ، وفيات سنة ١١٨٨ هـ .

البناء الفني للحكاية في الليالي

بقلم

ياسين النصير

بغداد - الجمهورية العراقية

بدءاً يمكن ايراد هذه الملاحظات العامة حول
الحكاية في الليالي ككل .

١ - لا تشابه حكايات الليالي بعضها مع
البعض الآخر ، فبعض الحكايات يستمر لعدة
ليالٍ ، وبعضها يقتصر على ليلة واحدة (١) في حين
تكون عدة حكايات في ليلة واحدة ، وبعطينا حجم
الحكاية الشعبية والخرافية في الليالي مؤشراً
شكلياً اولياً ، ومن ان الشكل الخارجي للحكاية
ليس هو المهم في البناء ، بل ان مضمون ومحتوى
الحكاية هو الذي يحدد حجمها وشكلها . فاذا كنا
نعتبر بعض الحكايات اشبه بالقصة القصيرة ،
فبعضها الآخر اشبه بالقصة القصيرة الطويلة ،
وتمكس مسألة الطول والقصر وضعاً فكرياً معقداً ،
فالحكاية الطويلة التي تتفرع منها حكايات قصيرة
عديدة ، تعتمد بطلاً مركزياً واحداً ، كحكايات
حسن البصري ، التي يدور حوله ابطال ثانويين
يكونون رئيسيين في بعض الحكايات ، كحكاية
زوجته من الجان ، ثم تعود اليه الحكاية ثانية بعد
ان يكون قد تركه القاص ليوضح لنا حالات
الابطال الثانويين ، مثل هذه الحكاية الام ،
الحكاية الرحم ، تكاد تكون هي الاساس في الليالي ،
اذا ما اعتبرنا ان كل الليالي وحكاياتها اساساً ،
هي حكاية شهریار وشهرزاد وقد تفرعت الى
حكايات صغيرة وكبيرة توزعتها مدن وبحار ،
ملوك وامراء ، خاصة وعامة ، انس وجن .. الخ
ولكن مثل هذا الافتقاد يسقط من الفهم البسيط

لمعنى وشكل الحكاية الذي اعتمدته الليالي ..
فالليالي ، اعتمدت لونين اساسيين من الحكاية .
الحكاية الطويلة الموزعة الى حكايات صغيرة
مرتبطة بها ومغذية لابعادها ، والحكاية القصيرة
التي تتفرع احياناً من الحكايات الطويلة ، ولكنها
تنتهي بانتهاء روايتها ، ولا يعود القاص الى بطلها
او معناها ، ومن الحكايات الطويلة ، حكاية حسن
البصري حكاية النعمان بن المنذر او حكاية ذات
الدواهي ، او حكاية مسرور السيف ، وكما
توضح لنا الليالي ان هؤلاء ليسوا الا ابطالا
ثانويين ، فهناك خلف كل واحد منهم ملك او امير ،
من الجن او من الانس يدير شؤون الدولة او
المملكة ، اما هؤلاء فليسوا الا اشخاصاً مهمين
ولكنهم ثانويين في تاريخ ذلك الملك او الامير .

٢ - وما دمنا نقرا ان الليالي بطبعات منقحة ،
وموزعة حكاياتها على الف ليلة وليلة توزيعاً
ذوقياً ، فان الزمن الداخلي لكل حكاية يبقى
مجهولاً . فقد وجدنا ان بعض الحكايات تتوزع
على عدة ليالٍ ، ووجدنا عدة حكايات في ليلة
واحدة ، او ان تكتفي الليلة بحكاية واحدة . مثل
هذا التباين في الطول ، يلفي وحدة الزمن للحكاية
الواحدة ، الزمن الخارجي - الذي تستغرقه
شهرزاد للقص ، والزمن الداخلي ، الذي
تستغرقه الحكاية فعلاً ، وما دمنا لا نستطيع
تحديد الزمنين من داخل الحكاية ، فان الليلة
الواحدة لا تعطينا كامل الزمن الفعلي للحكاية ،

ولكن يصح اعتبارها - أي الليلة - معياراً نفسياً لوحدة الفن القصصي ، وهو معيار خارجي في كل الأحوال ، قد يساعدنا في فهم الوحدة الموضوعية للحالة التي كانت عليها شهرزاد وشهريار ، ولكنه لا يساعدنا في تكوين خصوصية معينة لمعنى وزمن الحكاية الواحدة .

الملاحظة الجوهرية . أن الحكاية لا تنتهي كلها بانتهاء الليل ، بل بعض الحكايات القصيرة ينتهي قبل الفجر ، مما يسوجب على شهرزاد تنظيئة الوقت المتبقى بحكايات أخرى من ذات الجو نفسه . أو من تلك التي تركت قبل هذه الليلة ، كما أن بعض الحكايات نعيم الفجر ، ليصبح الفجر أو الصباح حاجزاً طبيعياً ونفسياً لفعل القصة ، بمعنى آخر ، أن الحكايات محكومة بزمن طبيعي خارجي هو الصباح ، وبالعكس هذا الوضع حاله لم تتطرق إليها الكتب التي الفت من الليالي ، إلا وهي تأثير الطبيعة على النفس المنسجمة بالظلام والموت ، وكان هذا الفعل هو جزء من حملة مسمى شهرزاد لازاحة القتل والامتهان الذي يمارسه شهريار ضد بني جنسها .

ويمكن الذهاب إلى مدى أبعد في قضية الزمن في الحكاية ، فالحكاية ، تعتمد الوحدة العضوية بين الزمان والمكان . إلا أن المكان فيها دائماً يكون أكثر كثافة ، وأقل محدودية . وهذا يعكس الوعي اندي كان عليه القاص الشعبي يومذاك ، أي محدودية المعرفة بالعالم الطبيعي الذي يحيط به ، وعندما كان يريد توسيعه حسب ما تتطلبه الحكاية ، جعل ذلك من جزر الجان ، وفي العالم السفلي تحت الأرض ، وفي البحار المجهولة والمجاهل غير المعروفة ، وابتكر لكل ذلك أسماء . أما الزمن الخاص بالحكاية ، فكان زمناً متعددًا أي أنه طويل ، بطوي القاص في داخله الليل ، النهار ، الفصول والسنوات وقلما تتأثر عواطف الشخصيات بتغيرات الزمن ، وإن حدث وتغيرت تطلب من القاص مسمى لأن يوصل ما انقطع بالعودة ثانية إلى المفارقة .

٣ - يمكن تقسيم الحكايات إلى ثلاثة أنواع رئيسية ، حكايات عن الإنسان ، وحكايات الحيوان . والحكايات المختلطة . علماً بأن الحيوان هنا ، ما يشتمل عليه عالم الجن والمسخ وكل الأشكال غير الطبيعية ، ولكن الحكايات لا تكون صافية ، فقد تبدأ بالإنسان ، وفي استمرارها تدفع إلى مجرى الحكاية أحياء أخرى ، طبيعية وغير طبيعية ، والحكايات الخاصة بالإنسان

وأفعاله ، هي تلك التي كتبت متأخرة ، وحادث الأحوال ومواضع الناس في العصر العباسي ، ويغلب عليها الطابع الاجتماعي - السياسي والديني ، وإبطانها من عرفنا بهم التاريخ وحكت لنا عنهم الكتب ، أما الحكايات الخاصة بالإنسان مع الحيوان أو الجن ، فهي من ابتداع خيال القاص الذي أراد أن يوسع مدى فاعلية الحكاية ويشمل بها عالمين ، عالم الخفاء وعالم العيان ، وهو ما يجعلنا تقترب من حكاياته من المعنى الحقيقي للحكاية الشعبية ، حيث امتلكت مقومات لم تكن موجودة في الحكايات التي اعتمدت الإنسان لوحده ، أما الحكايات الخاصة بالحيوان أو الجن على مختلف أشكالهم وأوانهم ، فهي النوع الذي يقربنا من الحكاية الخرافية ، وفيه نجد ذلك أنماط الخفى وقد تشكل بوضع مناسك وبدأ يمارس فعله وطقوسه بحرية تامة . وكما يبدو أن هذه الحكايات هي الأقدم في الليالي ، تليها الحكايات المختلطة ، ثم حكايات الإنسان .

٤ - يلاحظ قارئ الحكايات أن أسلوبها بسيط ، وتركيب جملها عادي وسهل ، وتكثر فيه السمات ، كصورة من الصور العامة اليومية المألوفة ، وكان الأسلوب بهذه الخصائص لا يمت من قريب أو بعيد إلى ما تعارفنا عليه من فنون الأدب . وصفاء العبارة وقوة المعنى ودقة التعبير . ويعكس هذا الوضع طابع العصر الذي كتبت فيه ، ولكن ليس كل العصر ، وإنما العصر الذي بدأ فيه الأدب الشعبي بدون ، ويصبح مادة للتداول والقصة ، وانتقال الحكاية من مرحلة الشفاعة إلى مرحلة التدوين يبرز هنا الطابع الذاتي والفردى للقاص . رغم مجهولية القاص ورغم تعدده ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الأدب المدون في الليالي . هو أدب العامة ، وأدب مجالس اللهو والطرب ، وأدب البيوت والموائد البسيطة ، ولكونه مزج السحر بالواقع ، والخيال بالممكن ، وحكى عن الشاذ والمنطقي ، والمعقول واللامعقول ، وكان في تفضيحه لهذا اللون من الاهتمام الشعبي يتقرب إلى فهم العامة ، وإلى مداركهم البسيطة ، ويجعل من القصة نفسه وسيلة لشيوع الأدب الشفاهي أولاً ثم تدوينه كما هو ثانياً ، ومما يؤكد هذه الحاجة ، أن الشعر الذي احتوته الليالي ، هو من أنواع الساذج والتلفيقي ، والذي يجهد القاص نفسه لوضعه ضمن سياق الحدث القصصي تطبيعاً بجو خاص ، وانتقاله بالسرد من حالة السماع إلى حالة التخيل ، وتحويل هم السامع إلى ما يحس به البطل لحظة تأزم الموقف ، والشعر

كما هو معروف ليس الا نظاما عاديا ، لا روح فيه ولا قيمة متميزة ويستطيع القارئ ان يتصرف على الطريقة التي ادخل فيه الى مجرى الحكاية بسهولة ، فيشعر به وكأنه قطعة ملحقة من خارج المجرى النفسي والشعوري العام ، واطافة الى ركة كلماته . وعبارته ، ركة في صوره ، وتدني في معانيه ، ويعكس بالطبع حال الشعر في تلك المرحلة ، حيث اكثر فيه اللحن ، وتدخلت كلمات واجواء غير عربية نتيجة تبدل الولاة ، وتغير الحالات الاجتماعية تمهيدا الى الانهيار التاريخي الكبير الذي حدث بسقوط بغداد .

كما احتوت الليالي على كل اساليب القص ، الراوي ، والمتكلم والمخاطب ، وكانت كل هذه الضمائر ، تسير تحت غطاء ضمير الراوي شهرزادة ، مما يجعل فن القص نفسه مستوعبا للطرق الشائعة في الحكاية الشعبية والخرافية على حد سواء ، يضاف الى ذلك ان هذه الضمائر ، تنوع بتنوع الاشكال التي تتجسد فيها الحكايات ، فهناك الحكاية التي تحكي حياة بطل ما ، ويكون السرد مصاحبا لهذا اللون ، وهناك المواعظ والنكت ، وهي من التي يتدخل الراوي في صياغتها كتعبير عن وضع ما داخل الحكاية ، وهناك الفنتازيا المتخيلة ، كقصص الجن والسحر ، ويكون الراوي هو الغالب في تجسيدها . . وباحتواء الليالي على هذه الاساليب ، تعرض لنا « وحدة » شاملة ، جامعة لاشكال السرد القصصي يومذاك فكانت بتعدد اشكاله تقرب الفهم بين العامة والخاصة وتوحد في الشاعر الاجتماعية العامة ، وتعطينا مؤشرا على طابع الحياة الثقافية في ذلك العصر .

« وتميل لغة الف ليلة وليلة عموما الى النشر المجوع وهي كثيرا ما تلائم بحق اناشيد الحب العاطفية التي كان عصر ازدهارها فيما بين القرن الثاني عشر ، حتى القرن الرابع عشر ، وهو نفس العصر الذي ازدهر فيه التروبادور في الغرب وشعراء الحب والاغنيات الشعبية ازدهارا كبيرا وربما تأثر كذلك الادب الاوربي الذي تغنى بالحب ، بفن الادب عند الاسبان العرب حينذاك » (٢) .

٥ - ويبقى بعد ذلك ما يسمى باسلوب الف ليلة والروائي ، الذي عد فتحا في الادب الاوربية يوم ترجمت بالفرنسية اليها قبل اكثر من مئتين وخمسين سنة خلت (٣) ويمكن ايجاز اسلوب الليالي الفني ، من انه ذلك التابع الحدني المتسلسل دون الوقوف عند حدث صغير معين

بل ربط جميع الاحداث بوحدة مركزية هي الحالة التي كان عليها كل من شهریار وشهرزاد ، الا ان هذا الاجاز يخل بالمعنى الاساسي لفن الروائي في الليالي . ولكن نعيد هنا بعض ما اشرنا اليه اثناء الحديث ، لا بد من البدء من اوليات هذا الاسلوب ، واقصد به بناء الحدث .

بدءا ، نقول ان الحكاية المتنوعة . الشعبية والخرافية والاسطورية ، قد اختلفت داخليا في تركيبها الفني ، بمعنى ان هذه الحكايات لا تشابه فنيا لما تمتلكه كل واحدة منها بخصائص نوعية متميزة ، الا اننا تؤكد هنا ان هذا الاختلاف هو احد سمات فن الروائي ، اي ان تنوع اساليب اتقص جعل لاسلوب الليالي العام ميزة روائية خاصة بها .

وثانيا : ان الابطال - وقد جرى بعض الحديث عنهم - كانوا من اثناويين ، والذين يطلق عليهم لوكاتش - البطل التاريخي العالمي - وهؤلاء يمثلون بوضعيتهم الطبقية والفكرية ، الشخصيات الاكثر اتحاما بالاحداث الشعبية ، فهم نوافذ الخليفة او الامير على العامة ، وهم مجسات العامة توضع الملكة او الخلافة ، ولكونهم كذلك احتلوا مساحة كبيرة من فن الرواية الخاص كذلك كانوا في الموقع الذي اتاح لهذا الفن من ان يتخذ جوانب خفية وعلمية من مسار التاريخ العام للدولة .

والخصيصة الثالثة ، ان الاحداث تتوالد ، بعضها من بعض ، ويحدث توالدها امتدادا ، فتتخلف شخصوا واطعاء جديدة ، بحيث لا نستطيع القول ، ان هذا الحدث ينتهي عند هذه الشخصية او في هذا الموقع ، هذا التوالد الحي ، الفني بشكل او باخر مركزية البطل ، كما انى وقوف مجرى التاريخ عند حدث معين ، بل كان ينساق وراء الانسياب العام للتاريخ ، ويستوعب وهو في طريقه حركته ونموه واتساعه ، فتجد ان الليالي في بدئها كانت محدودة الفعل ، ثم تتوسع لتشمل ممالك وامصار ، قديمة وحديثة ، في اواقع وفي الخيال . ويشبه الفن في داخلها اللعبة الصينية الكبيرة التي يمتليء جوفها بعلب اصغر متشابهة ، فكلما فتحت واحدة ادت الى اخرى ، الا ان الامر في الليالي عكس ذلك يبدأ من اللعبة الصغيرة ، الاصغر في الحلقة ، فما ان تضع اللعبة الصغيرة ، حتى تحتاج لان تضع حولها علبا اكبر ، وهكذا تستمر العملية لتجد نفسك في اخر المطاف وقد استوعبت شمول الحياة والتاريخ الذي عاصرته . بل ومازالت تتسع لتشمل اوضاعا قائمة لحد الآن .

القرآن كان يواجه لدى المشركين بدعوى انه ذا جذر خرافي : الا ان القرآن اثبت العكس من ذلك عندما ربط « كلية » الحياة الجديدة التي دعا اليها بتاريخ الانسان ككل ، فكان يفرز بين حكايات الانبياء والمرسلين ، وبين خرافات العامة ، فانصر للاولى باعتبارها جزءاً من ترسيخ الفكر الديني - الفلسفي ، ورفض الثانية باعتبارها جزءاً من ترسيخ العقليّة الجاهلية . وقد نبذ النبي محمد (ص) حكايات « النفج » او « القشور » (٧) كما نبذتها بقية الأديان السماوية ، وقديماً نبذها افلاطون كذلك .

٧ - والحكاية ككل في الليالي ثلاثة اشكال متميزة ، الحكاية الخرافية ، والحكاية الشعبية ، والحكاية التي تجمع بين الاثنين ، ولهذا التنوع اسبابه الفنية التي نبتت اساساً من محتويات الحكاية نفسها . وقد اشجعتنا الكتب التي تحدثت عن انواع الحكايات بالتعريف والتفسير وبرزت الخصائص العامة والخاصة لكل من الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، ويمكن الرجوع الى ذلك بسهولة (٨) ، الا ان النوع الثالث من الحكايات ، لم تنطرق اليه هذه الكتب الا لماماً ، فالحكاية البين بين ، او التي تجمع بطلاً وحدثاً خرافياً الى جانب بطل وحدث شعبي ، نجعلنا نركز عليها هنا ، باعتبارها الشكل الذي اوجدته الليالي ، وغمرت به عن « كلية » الحس الشعبي العام الذي كان سائداً يومئذ ، والحديث عن « كلية » الحس الشعبي من خلال هذا النوع من الحكايات ، يقودنا الى تأكيد نواح هامة من خصائص التاريخ العام يومئذ ، وهو ما تطرقنا اليه بعض الشيء خلال هذه المقالة .

الا ان هذه الكتب تحدثت عن الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية من خلال الحكاية الاوربية والشرقية القديمة ، وهذا ما يجعل الكثير من الخصائص التي نوردتها منطبقة على حكايات الف ليلة وليلة ، ويبقى عدد آخر من الخصائص لم تشر اليه تلك الدراسات ، او اشارت اليه ضمناً ، ونكتفي هنا بإيراد الفروق بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية التي كونها « ماكس لوتري » وادرجها دير لابن في كتابه الحكاية الخرافية (٩) ، واود هنا الإشارة ، الى ان هذه الخصائص مبثورة ، وموزعة على جميع صفحات الكتب ، ولذلك لجأت هنا الى تلخيصها واعدادها بشكل يوضح الفروق بين الحكاية الخرافية والشعبية بدقة .

وتأكدت أهمية الفن الروائي الليالي ، مما اثرته في الرواية الادبية في فترة نشوئها ، ونهوضها ، فقد امدتها بطاقة تعبيرية شكلية وفكرية ، وليس ما عرضته الليالي من حالات واوضاع ، هو الذي اثار روائيو القرن التاسع عشر (١٠) انما ما امدتهم به من سعة الخيال وتوالد الاحداث ، وامتداد المشاعر ، وعدم الوقوف عند منعطف واحد من منعطفات التاريخ ، وكانت بذلك توازن الحياة الاقطاعية والارستقراطية الادبية بشيء من الحياة العربية القديمة ، وكما اشرنا ان ترجمتها جاءت في نفس الفترة التي انتعش فيها الأدب الشعبي ، والاغاني ، وهذا يعكس في جانب منه الحاجة التاريخية الى من يستوعب هذه الطفرات في حياة الشعوب ، فكانت الليالي النافذة الأكثر سعة للواقع الادبي الجديد .

٦ - وتغزو العديد من الكتب ، ان اصل الليالي هندي وانها كتبت في القرنين التاسع والعاشر ، ويدل ذلك الكتاب على هذا الاصل من ان طبيعة « الحكاية الهندية تمزج حكاية باخرى ثم مزجها معاً في حكاية ثالثة ، وفي اسلوبها الذي يتوقف بالحكاية مرة ثم يصلها مرة اخرى .. » (١١)

الا ان الليالي ليست كلها حكايات هندية ، وهذا يعني ان الحكايات العربية تلبست بطريقة ذاتها التي اعتمدتها الحكاية الهندية .

وتؤكد كتب المستشرقين من ان العرب عرفوا انواعاً عديدة من الحكايات ، الشعبية والخرافية ، وعدها بلاشير من ضروب النشر الادبي . وافرد لها فصلاً كاملاً في كتابه تاريخ الأدب العربي فعرفنا على الاسطورة البطولية ، والفصص الطريفة وقصص الشطار والاذكياء ، والفصص الغرامية والتعبير عن المثل الاخلاقية والحكمة والتجربة ، والاقوال الماثورة والامثال والحكم ، والقصة على لسان الحيوان والحكمة المثلية والحكاية التقوية . وظهور حب الاستطلاع وحكاية البدو شبه التاريخية .. الخ (١٢) ، اضافة الى ما يؤكد ادم ميتز من شيوع فن القصص في بغداد وغيرها من المدن ، يوضح لنا ان للحكاية الشعبية والخرافية جذوراً تمتد الى القرنين الخامس والسادس استوعبتها الليالي ، كحكاية سليمان الحكيم ، واثر السحر والقدرة الخفية التي افردت لها الليالي الكثير .

وما يجعلنا نطمئن الى ان الحكاية في الليالي ذات جذور عربية واخرى فارسية وهندية هو ان الاسلام لم يقف بوجه هذا اللون من النشر ، بل ان

الحكاية الخرافية

- ١ - لا تتسلسل الحوادث فيها ، وإنما تتكرر ، ولذلك فهي تصور الموضوع مرّة واحدة وبطريقة أكثر تركيزاً بل أكثر اقتصاداً .
- ٢ - الحكاية الخرافية ذات بنية مركبة .
- ٣ - الحكاية الخرافية ذات بنية ملحمة مركبة .
- ٤ - تعطيك انطباعاً بأن ما تسمعه فيها ، سبق وأن سمعته أو هو من المعارف العامة .
- ٥ - تركز حدثها حول شخصية رئيسية مركزية
- ٦ - لا تبدى الحكاية الخرافية فجأة بالحركة كما لا تنتهي فجأة بنهاية محددة .
- ٧ - الإنسان في الحكاية الخرافية يتصل بمحض اختياره بقوى العالم الآخر .
- ٨ - الحكاية الخرافية ذات طريقة تجريدية في العرض .
- ٩ - لا تفصل كثيراً في العوالم الأخرى .
- ١٠ - الحكاية الخرافية تتحرك بين ما هو جاد وهزلي .
- ١١ - لا تحدث الحكاية الخرافية عن مخلوقات العالم الآخر بتفصيل . تحكى فقط عن المفاريت والجن والمردة ولكنها لا تصفهم .
- ١٢ - التبعات التي تلحق بطل الحكاية الخرافية تتحدد بما يستقبله من هذه القوى والتي تكون إما مساعدة له ، أو معادية ، ولذلك فالمردة والجن وغيرهما لهم قوة محددة من قبل .
- ١٣ - الحكاية الخرافية تنتمي كلها الى الأدب
- ١٤ - تنتمي الحكاية الخرافية كلها الى العالم الآخر ، الى الحقيقة الأخرية .
- ١٥ - عندما نتحدث الحكاية الخرافية عن الجنة مثلاً ، تفرد التناقض بين فقر الحياة الأرضية والحياة السماوية .

الحكاية الشعبية

- ١ - الحوادث فيها تتسلسل تسلسلاً متصلاً والموضوع فيها يسير في خط مستقيم .
- ٢ - الحكاية الشعبية ذات بنية بسيطة .
- ٣ - الحكاية الشعبية لا تعتمد البنية الملحمة لأنها متسلسلة تسلسلاً متصلاً .
- ٤ - لا تقف كلياً عند هذا الشرط ، وإن اعتمدته جزئياً ، لأن الحكاية الشعبية مفتحة أكثر على الحياة وعرضة لأن تزداد حجماً ونفاً .
- ٥ - لا تركز حدثها حول شخصية رئيسية دائماً ، بل أنها تصور الإنسان الوحيد .
- ٦ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية وضوح البداية والنهاية .
- ٧ - الإنسان في الحكاية الشعبية ، وحيد ومتفرد .
- ٨ - الحكاية الشعبية ذات طريفة حسية من العرض .
- ٩ - تصور الحكاية الشعبية العوالم الأخرى بدقة وتفصيل ، مازجة كل ذلك بالطبيعة .
- ١٠ - الحكاية الشعبية جادة في طبيعتها .
- ١١ - تحدث الحكاية الشعبية عن مخلوقات العالم الآخر بتفصيل ، عن ما ضيهم وعاداتهم اليومية .
- ١٢ - التبعات في الحكاية الشعبية هي الوفاء الذي هو نتاج للمواهب التي يستقبلها البطل من مخلوقات العالم الآخر . أي لا يكون دائماً مضاداً لها .
- ١٣ - أما الحكاية الشعبية فتعتمد مزجاً بالواقع الحقيقي ، وليس لها طابع أدبي صرف ، أنها تود أن تحكى عن غرائب عالم الواقع وغرائب العالم الآخر .
- ١٤ - تنتمي الحكاية الشعبية كلها الى الحقيقة الدنيوية .
- ١٥ - تميل الحكاية الى تصور الفقر هذا أيضاً ولكن المستخلص من الحياة الأرضية فقط

«١١»

الحكاية الخرافية

الحكاية الشعبية

- ١٦ - تعتمد الأحلام التي تصور المخاطر المفزعة والمواقف الصعبة .
- ١٧ - تعيش في جو من السحر الكامل .
- ١٨ - بطل الحكاية الخرافية مغمور في الغلب .
- ١٩ - بطل الحكاية الخرافية كلي ، بمعنى ان الزمان والمكان عنده غير محسوسين .
- ٢٠ - لا تتحدد الحكاية الخرافية بالانتماء الأسري ، القبلي .
- ٢١ - مادة الحكاية الخرافية ورموزها تتلخص في انها صورة للشئ المحرم الذي لا يحق للبطل ان يقترب منه .
- ٢٢ - تصلح الحكاية الخرافية لما تمتلكه من رموز ومستويات غير واقعية ان تكون مادة لعلم النفس والأدب ، كما كانت رموزها منتشرة في العديد من النتاجات الأدبية والفنية خلال القرنين الماضيين .
- ٢٣ - تعتمد الحكاية الخرافية على الاحساس الشعبي المتفائل .
- ٢٤ - يمكن اعتبار الحكاية الخرافية من اسمى صور الادب الرمزي .
- ٢٥ - الحكاية الخرافية، هي نتاج قوى الانسان الشعاعية ، وعلى مدى حقبة عديدة من تاريخ الانسان وتتصل بتاريخها الى اقدم العصور .
- ٢٦ - تهتم الحكاية الخرافية بالمتعة الفطرية في تصوير الامور الخارقة للمادة . تلك التي لا يمكننا على الاطلاق ان نصدقها .
- ١٦ - تعتمد عليها ولكن بحدود .
- ١٧ - تعيش في جو واقعي ، ولكنها تعرف اقليل من السحر واشكال العالم المجهول . الا انه ليس السحر الذي تعتمد عليه الحكاية الخرافية ويرجع ذلك الى اختلاف البطل بين الاثنين .
- ١٨ - بطل الحكاية الشعبية بالاضافة الى المغامرة اللازمة له ، يعيش الحوادث في العالم الواقعي ويصور المعيشة في العالم المجهول .
- ١٩ - بينما بطل الحكاية الشعبية ، يعيش الحاضر والماضي والمستقبل ولذلك تفعل الحكاية في الزمان وفي المكان .
- ٢٠ - تتحدد قيمة البطل في الحكاية الشعبية من انه ينتمي لهذه القبيلة او تلك ، وان للحكاية الناجحة هي التي تمجد القبيلة او الاسرة ، مؤكدة على الروح الشعبي العام .
- ٢١ - لا تتحدد دائما بهذا الفهم وان استخدمته بعض الاحيان .
- ٢٢ - تعطي الحكاية الشعبية طاقة فكرية لخيال الادباء ، ولكنها لا تصلح ان تكون مادة للدراسة النفسية .
- ٢٣ - بينما تعتمد الحكاية الشعبية على الاحساس الذاتي .
- ٢٤ - لا ترتقي الحكاية الشعبية الى مثل هذا المستوى .
- ٢٥ - اما الحكاية الشعبية فهي اقصر زما ، ولكنها نتاج ايضا لقوى الانسان الشعاعية والاجتماعية .
- ٢٦ - تبنى الحكاية الشعبية بعض اجزائها على معتقدات الناس الحقيقية والبعض الاخر على المتعة الفطرية .

الهوامش

- (١) من الليالي القصيرة مثلاً الليالي بين ٨١ و ٨٢ ، طبعة بولاق - اوفست ومن الليالي الطويلة ليلة ١٢٧ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، .. وعموماً نجد ان ليالي الجزء الاول اطول بعض الشيء من ليالي الجزء الثاني ، وسبب ذلك يعود الى النشر والمكد .
- (٢) الحكاية الخرافية . فرديش دير لابن ، ترجمة الدكتور نبيلة ابراهيم ص ١٩٥ .
- (٣) المصدر السابق ص ١٩٠ ، حيث يعتبر عام ١٧٠٤ بداية لنقل حكايات الف ليلة ليلة الى اللغة الفرنسية .
- (٤) المصدر السابق ص ١٩٠ .
- (٥) المصدر السابق ص ١٩١ .
- (٦) تاريخ الادب العربي ، بلاشير ، ص ٤٠٤ - ص ٤٩٢ ، ترجمة د . ابراهيم الكيلاني ، دمشق ١٩٧٤ .
- (٧) الحكاية الخرافية ص ١٢٨ .
- (٨) بالإضافة الى كتاب الحكاية الخرافية ، كتاب اشكال التعبير الشعبي للدكتور نبيلة ابراهيم الذي استفادت من الحكاية الخرافية الشيء الكثير .
- (٩) الحكاية الخرافية ص ١٢٦ وما تلاها : وهناك مصادر اخرى استفدت منها في هذه المادة ، اذكر منها :
 - ١ - الرواية التاريخية ، تاليف جورج لوكاش ، الدكتور صالح جواد كاظم ونشرتها وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ .
 - ٢ - الملامح السياسية في حكايات الف ليلة ليلة ، للاستاذ احمد محمد الشحال منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية عام ١٩٧٨ م .
 - ٣ - الطبعة التي اعتمدتها من الليالي ، هي طبعة بولاق ، اوفست مكتبة المتن .
 - ٤ - البطل في الادب والاساطير ، للدكتور شكري محمد صباد .
 - ٥ - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، آدم متر .

وبالامكان ايراد عدد اخر من الفروق الثانوية فلقد حرصت هنا ان ادرج الفروق الجوهرية والاساسية بين الحكاية الخرافية والحكاية الشعبية ، وغايتي من وراء ذلك ليس البحث في هذه الفروق ، ولا محاولة وضع جدول تفصيلي لهما ، وانما اردت ان اوضح لغايتي الليالي قضية مهمة وهي :

ان الحكاية في الليالي لا تشابه احياناً مع اي من ابعاد الحكايتين بالتمام ، فهي تحمل من خصائص الخرافة شيئاً ، ومن خصائص الحكاية الشعبية اشياء ، ولذلك يمكن ان نطلق عليها حكاية البين بين ، اي حكاية الليالي ذات الاجواء الاجتماعية الخاصة ، والتي تعبر عن مرحلة تاريخية مهمة من تطور المجتمع العربي ، عندما وجدت الحياة الشعبية مادتها الى جانب الموروث المحملي الذي حملته الشعب من عادات وتقاليد واساطير ماضية ، ووضعت كل هذا المزيج الحضاري الجديد تحت سماء الدين الاسلامي فحذف وازاد ، وشذب واناض ، فجاءت حكاية الليالي ذات خصوصية اجتماعية - تاريخية تحمل في بنيتها ما تعارف عليه الدارسون من خصائص للحكايات ، كما حملت كما يقول دير لابن وغيره خصائص انحكاية الهندية والفارسية والبابلية والفرعونية ، ونوسمت باعتبارها نتاج المجتمع العربي الواسع الذي يطل على بحار ثلاثة ، لتشمل الحس الشعبي الاوربي النامي في اغاني الرعاة والاناشيد والفنانيات التي بدأت تظهر في ربوع اوربا يومذاك ، غير عاداته النافذة الواسعة التي خلقها المجتمع العربي في اوربا ، الا وهي اسبانيا .



ومرة اخرى ، اعود لاكرر القول ، ان الرحلة مع الليالي متعة لا تنهيها ، نهاية صفحاتها ، والرحلة مع الليالي ، اكتشاف تستحق ان يعرف المرء الوقت الكثير للايفاء بها .

العجوة في ألف ليلة وليلة

بقلم

عبد الغني الملاح

بغداد - الجمهورية العراقية

فها هي بغداد الاسطورة الى جانب الصين الاسطورة
وها هي جزر الاندونسيا و (واق الواق) الى جانب
جزر بحر الروم (الابيض المتوسط) . وها هي
مدن الفرنجة (اوربا) الى جانب مدن بلاد فارس
وها هي صور كسرى انوشروان وحكمته الى جانب
صور هارون الرشيد وعظمته وها هم حكماء الهند
الى جانب ابي حنيفة والنظام . وها هم الملوك
والوزراء يقفون الى جانب ملوك الجان وملوك القردود
وها هم الزهاد والفلاسفة الى جانب المجوس
والكفرة .

فاذن يضم كتاب ألف ليلة وليلة تجارب
الشعوب المختلفة والازمان المتعاقبة ، مطعمة بامال
النفس الانسانية والامها المثبثة بالاحلام والاخليل
كما توحى لها او تمنهاها الشعوب المظلومة لتجتاز
بهذه الاخيلة المطرزة بالاسماء الحقيقية في بعض
الاحيان والاحداث الواقعة فعلا عبر التاريخ في احيان
اخرى ، تجتاز النظم السائدة والمسيطرة على
الانسان بصورة عامة وتعمل على فضح حماقات
السلطان وابتناعه عن ادراك مصالح الفرد الذي لا
يقدر ان يصل الى مآربه بالدهانة والتفاني او بكنز
يعثر عليه في باطن الارض او بجني مطيع للظلام
والرموز او بمجوز تقوده الى تحقيق امانيه بالمكر
والسحر والاحتيال .

وكانت الاوضاع السائدة والممارسات المعترف
بها في تلك الفترات الزمنية بصورة عامة قد جمعت
المجتمعات متلاطمة بالتناقضات الفكرية والاجتماعية
والسياسية ، مما حدا بالفنان العبقرى ان يتذرع
بالتجربة ويسبغ عليها قليلا او كثيرا من الاخيلة لكي
ينزح الحسرة والالام من صدور الاكثريه فتشعر
بالراحة النفسية الموقنة او تتطور تلك الراحة الى

ليست المهمة التي انبسطت بالمجوز في قصص
الف ليلة وليلة وحكاياتها مهمة مدانة اجتماعيا كما
يتصورها القارئ لأول مرة ، او انها مهمة افحمت
لاسباغ روح الدعابة على الحكاية ، او محاولة
لتجسيد التفخ الاجتماعي الذي حل بعد اتساع
الرقعة العربية والاسلامية اثر الفتوحات الكبيرة
في المهود المختلفة التي ابتدأت بعد الهجرة وانتهت
في اواخر العهد العباسي وما طسرا من تزاوج
الحضارات القديمة الفارسية والهندية والرومانية
والصينية مع الحضارة العربية الفائرة بصرمة هائلة
من التطور البدوي الى الطور الحضاري وما تخلل
ذلك من تناقضات فكرية واجتماعية ونفسية ومد
وجزر بين الانشداد بالتراث الموروث المكتسب ، مما
جعل من الامور الطبيعية ان تملك - العجوز -
وهي من ابطال الليالي الرئيسيين - مسلكا متميزا
وتتقمص الزهد تارة والسحر والاحتيال احيانا
وقيادة المشاق الى معشوقاتهم او العاشقات الى
عشاقهن لوجه الله تعالى او من اجل الكسب
والاثراء .

وقبل ان تصدر حكما ساذجا على مهمات
عجائز كتاب ألف ليلة وليلة ، علينا ان نلقي نظرة
سريعة بشيء من التأمل والمحاكمة العقلية على
المصور الطويلة التي تم خلالها جمع هذه الحكايات
في كتاب واحد ، وبصيغة اصح ، على المصور
المتداخلة ببعضها فمن الحكاية الواحدة بالاضافة
الى تلمس المقدرة الفنية والبراعة التي مارسها
المؤلف او الحكواتي في جمع عدة مجتمعات ، مختلفة
النشأة ، ومتباينة الاعراف ، ومتضاربة المكان ،
ومتباعدة الزمان ، واطيرها باطار واحد شفاف
نرى من وراءه كل هذه التناقضات الزمانية والمكانية

تصديق الحكاية ، وشفيح هذا التصديق الجهل العام في ادراك التجربة او مقارنتها فكريا بالموضوعية العلمية ، (فاذا تتبعنا تاريخ الاداب وجدنا ان الخيال يسبق الواقع في وجوده فيها مهما اختلفت الامم) (١) بل يطفئ عليه في كثير من الحالات ، وهذه الحقيقة التاريخية نابعة من المماناة الانسانية المتلاحمة مع ازدواجية الخير والشر التي يتميز بها سلوك الانسان ومن التزاوج الفكري ما بين واقع الحال وبين الطموح نحو المركز والجاه والثروة والعيش الكريم بالنسبة للمفهوم العام . وكثيرا ما يكون هذا التزاوج نتيجة حتمية للتامل بالافكار الموروثة المقدسة او الافكار الذاتية الواقعة تحت مفاهيم ما يسمح به وما لا يسمح به ، مما يضطر الانسان الرافض ان يدل على قدرته في ادراك ما هو مغلوط او ما هو غير عادل بافكار جديدة مختفية وراء الرمز في الحكاية او الاشارة في الاسطورة وذلك (بوضعه كائنا عضويا تخضع عملياته السلوكية والفكرية لعمليات عضوية تصبح شعورية ، يشكل مجموعها الكلي التصورات الذهنية للذات) (٢) وهذا القول ينطبق على كل المجتمعات غير المتجانسة بيئيا وغير المتجانسة فكريا فيكون للفرد حرية كاملة في الحركة الذهنية المكبوتة طالما لا توجد حواجز تعوق الاخيلة والاحلام بينما الحواجز متوفرة بقوة لاعاقة الطموح الانساني وامكاناته تحت شمار الحرام والحلال وما لم يسمح به التقليد او يسمح . وازاء هذه الحقائق البيئية في مجتمعات العصور الوسيطة وما قبلها نما سلوك انساني معبر بالحكاية وبالرواية انشئت اليه الجامعات البشرية في مرحلة من مراحل تطورها الفكري مزيجا عجيبا من الايمان بالخرافة والايمان بالتححرر الفكري في آن واحد . فها هو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور لا يضع الحجر الاساس لمدينة بغداد الا بعد ان يحدد له منجمه (نوبخت) (٣) ساعة المباشرة . وذلك عن قناعته بتأثير النجوم على اعمال اهل الارض بينما نجد في الفترة الزمنية نفسها الامام جعفر الصادق يؤسس قواعد الفقه الاسلامي والامام ابو حنيفة يضع (نظرية المعاملات في الفقه الاسلامي) ومالك بن انس يفسف الفقه الاسلامي (٤) . وذلك بادق ما تقتضيه الحاجة الاجتماعية للتعامل ضمن النصوص القرآنية

(١) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٤٦ .

(٢) ل. هول وج . لندي : نظريات الشخصية ص ١١٦ .

(٣) الهمداني : بغداد مدينة السلام . تحقيق د. صالح احمد علي ص ٤٠ .

(٤) د. عمر فروخ : مبقرة الصرب في العلم والفلسفة ص ١٧٢ وما بعدها .

والاحاديث النبوية في المعاملات اليومية التي يمارسها الانسان ويرتبط بها .

وكنموذج لهذا السلوك الانساني ما تطرقت اليه حكاية (تودد الجارية) اذ تحدثنا عن شاب كان (فريد دهره واحسن اهل زمانه وعصره ذا وجه مليح ولسان فصيح يتهادى تمايلا واعتدالا ويتراعى تدلا واختيالا بخد احمر وجبين ازهر وعذار اخضر) . ورث اموالا طائلة عن ابيه فبدرها في مصاحبة اصدقاء السوء ولم يبق لديه غير جارية اسمها (تودد) فنصحته ان يبيعها الى الخليفة هارون الرشيد بعشرة الاف دينار بشرط امتحانها قبل عقد البيع ، فظهرت براعة فائقة في علوم النحو والشعر والفقه والتفسير واللغة والموسيقى والفلك والفرائض والحساب واساطير الاولين واعراب القرآن والقراءات السبع والمساحة والرياضة والهندسة والفلسفة والحكمة والمنطق . وناظرت (النظام) شيخ المعتزلة فغلبته وناظرت غيره من العلماء والاطباء والنجمين والمهندسين والفقههاء فانصرت عليهم جميعا وعمرتهم من ثيابهم تحقيرا لجهلهم وربحت جائزة الخليفة وعادت الى حبيبها الشاب .

وعندما يقرأ الانسان المعاصر هذه الحكاية يلمس فيها روح الشمانة الموجودة لدى الطبقات الشعبية البعيدة عن السلطان ، بالعلماء القريين من الخلافة كما يلمس العلوم الحقيقية ، ومناقشتها . ولكن الصواب في المناقشة جاء على لسان جارية عاشقة لشاب فقير معدم فاجتهدت عن طريق معرفتها العلمية للعودة الى المحبوب فانحمت بمنطقها وسعة معرفتها العلماء وظهرتهم امام الخليفة بمظهر الجهلة .

وتتكرر في الليالي ظاهرة الجوارى البارعات في المعرفة وهن ينظرن في الشعر والقناء وغيره . وتسير هذه الظاهرة بخط مواز لظاهرة اخرى لا تقل اهمية عنها ، هي ظاهرة المعجزات ودورها الاجتماعي في فترة طويلة كانت فيها زحمة السبايا والرقيق واسواق النخاسة من العوامل المؤثرة في المجتمعات تحت نظام معترف به رسميا يمتد بعمقه التاريخي الى عهد الحضارات الاولى في وادي الرافدين ووادي النيل والافريق والصين . ولكن تبلور هذا النظام في العهد العباسي بصورة خاصة دفع الحرائر الى الانزواء في دورهن بضبط من الرجل ، غير ان الانفعالات العضوية والنفسية لم تخب جذوتها فاحتاجت الى جني مطيع او مارد قدير او انسية متمرسة كائنة للاسرار كي تصل

بوساطتها الى متطلبات الحياة المادية والحسية فجاءت حكايات الليالي تصور المرأة في تلك المجتمعات على اختلاف طبقاتها بهذا الاتجاه السلوكي ، وحتى سيدة القصر العباسي الاولى زبيدة زوجة هارون الرشيد لم تسلم من هذا السلوك فنصورتها الحكايات تشار على جاريتها (قوت القاوب) غيرة وحسدا وترسلها مع العبيد لتدفئها حية كما جاء في حكاية (غانم ابن اوب) وقد سبغ الخيال روتقا جذابا على ذلك وصبغه اصباغا قويا بواقع هذه الحياة (٥) المليئة بالعقد والتناقضات .

ويتميز مثل هذا الواقع المطرز بالخيال ، او الخيال المبني على لمحات واقعية بحكاية تلك المعجوز التي قادت شابا عاشقا الى دار قاضي بغداد للاتصال بابنته (الحرّة) المحجوبة عن المجتمع وانشطته داخل الجدران ، ولكن (مزين بغداد) انسد تلك الخلوة الغرامية بشرثرته الموهودة . واهمية حكاية مزين بغداد - بنظري - تأتي من كونها الحكاية الوحيدة في حكايات الليالي التي تسجل لنا تاريخا ليكون بمثابة مؤشر ينبهنا الى الفترة الزمنية التي تم فيها تأليف هذه الحكاية بالذات . فقد جاء في وصف المزين عندما اراد ان يخلق رأس الشاب العاشق قبيل ذهابه الى دار القاضي حسبما ارشده المعجوز على لسان العاشق نفسه ما يأتي : (ومد يده واخرج منديلا وفتحها واذا فيه اصطرلاب وهو سبع صفائح فاخذه ومضى الى وسط الدار ورفع رأسه الى شمع الشمس ونظر مليا وقال لي : اعلم انه مضى من يومنا هذا وهو يوم الجمعة ، وهو عاشر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام وطالعه بمقتضى ما اوجبه علم حساب المربخ سبع درج وستة دقائق (كذا) وانفق انه يدل على ان خلق الشعر جيدا جدا (٦) . فهذا النص بالاضافة الى ما فيه من حضارة الاصطرلاب وحساب النجوم يحدد لنا ان هذه القصة كتبت في او بعد العاشر من شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعمائة للهجرة . كما انه ينبغي باصرار ما يظنه بعض الباحثين ان حكايات الليالي كانت قد اخذت صيغتها النهائية في عهد الدولة الفاطمية التي انتهى عهدها قبل هذا التاريخ . وهناك اكثر من حكاية تشير بشكل او باخر الى فترات تاريخية معلومة . كحكاية (الصعيدي وزوجته الفرنجية) التي تشير الى تحرير (عكا) (٧)

(٥) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٨ .

(٦) الف ليلة وليلة ج ١ ص ٩٠ بولاق .

(٧) حور صلاح الدين الايوبي عكا سنة ٥٨٢ للهجرة راجع ابن الاثير في الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

من ايدي الصليبيين في عهد صلاح الدين الايوبي وحكاية الخياط والاحدب واليهودي والمباشير (النصراني) التي ورد فيها اسم الخليفة (المستنصر بالله) (٨) وبهذه المؤشرات وغيرها نقدر ان نقرر ان مجموعة الليالي جاءت نتيجة للفكر الانساني من خلال عدة قرون اندمجت مع بعضها بازمان مختلفة كان لا يبالغ فيها وجه شبه بالنسبة للتطلعات العامة التي بقيت دوافع ظهورها لصيقة بالحرمان العام والقلق المستشري من اجل الثروة والجاه والمرض حيث (يوجه الراشدون سلوكهم في ضوء قواعد واضحة) (٩) وذلك يعني ان ظاهرة المعجوز في الليالي تجسّد لمعاناة الجوّاري والحرّائر على حد سواء بكل جوانبها المضطربة مما جعل سلوكها في الليالي امتدادا للذات المحرومة فراحت تخطط لتحقيق امال تعينها على سحق الحرمان بسلوك كان يعتبره المجتمع السائد مقبولا بالاضافة الى خضوعه للوقائع اليومية في ممارسات الحياة .

وتتميز عجوز الف ليلة وليلة بالمقدرة على انتكيف الخلقي . فهي زاهدة تحمل سبعة لذكر الله وابريقا للوضوء وهي ساحرة تركب الزير وتطير به وهي فارسة شجاعة ومقاتلة بارعة وهي انسية خبيثة كمعجوز الروم ذات الدواهي في (حكاية عمر النعمان) وهي جنينة طيبة كمعجوز (جزيرة واقى الواق) في حكاية (الحسن البصري) وهي عربية كمعجوز (مزين بغداد) وهي (فرنجية) كمعجوز اديرة بلاد الفرنجة في حكاية علاء الدين ومريم الزنارية . وهذا التحول يمثل تداخل الحضارات باوسع مظاهره من جراء سعة الرقعة الجغرافية للامبراطورية الاسلامية . ومن جهة اخرى ان هذا التداخل يشرح لنا بشكل مباشر او شكل مواسط العوامل الفريدة بالنسبة لهيكل كل حكاية من الحكايات على حدة . وهذه الادوار المختلفة لا يمكن فصلها عن حياة الفرد فهي (استمرار الطبيعة العضوية للسلوك من حيث انه لا يمكن فهم جزء منفرد منه بطريقة عزله عن بقية الشخص الممارس له) كما يقول (هنري موراي) وهذا السلوك مستمد من حاجة قاعدة الهرم الاجتماعي وتشابك اولياته الفكرية والبيئية : فليس من حقنا ونحن نعبر مفاهيم القرن العشرين ، ادانة سلوك المعجوز في

(٨) ان كان المقصود بالمستنصر ابن الخليفة الفاطمي بالله فانه قد تولى الخلافة سنة ٦٢٢ للهجرة وان كان المقصود به المستنصر بالله الذي هرب الى مصر بعد سقوط بغداد على يد هولاكو في عهد سلطان مصر الملك بيبرس فقد بوع في مصر سنة ٦٥٨ للهجرة .

(٩) د. هول . وج . لندي : نظريات الشخصية ص ٢٦٢ .

وضعها في حكاية الحسن البصري ، وعندما تكون (محتالة) (كدلية) تضطر الى الاستنجاد بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لابقاع المسؤولين في الحب فتسلب اموالهم . بينما نجدها عندما تكون زاهدة تقوم بعمل لا اخلاقي فتفرق بين الزوجين (نعم ونعمه) طمعا بجائزة السلطان . وهذه الادوار المختلفة والتباينة تجرنا جرا الى التفاصيل . فلنختار اربع عجائز لهذا التحليل الموجز .

اولا - عجوز جزيرة واق الواق :

قبل التطرق الى الحكاية لابد من الاجابة على سؤال كثيرا ما شغل فكر الباحثين وهو : هل جزيرة واق الواق خيالية اخترعها الحكواتي ام هي جزيرة حقيقية ؟ وان كانت كذلك فابن موقعها ؟

يرى بعض الباحثين انها جزيرة (سيلان) وبعضهم قال انها جزر اليابان ومنهم من قال انها جزر الفلبين . ولكن شيئا واحدا كان يجب ان ينتبه له الباحثون وهو ان هذه اللفظة (واق الواق) لا تزال لحد الان اسما جغرافيا يقع في ساحل الجنوب الشرقي لآستراليا ويسمى (واغ واغ) او يلفظ بالكاف الفارسية (واك واك) . وقد ثبتت دائرة المسارف البريطانية في اطلسها بهذا اللفظ (Wagga - Wagga) (١٠) كما توجد في جزيرة (سايبس) الاندونيسية هضبة اسمها (وا - وو) (Wa - Wo) (١١) وهناك جزيرة صغيرة قرب جزيرة (غينيا الجديدة) تابعة الى اندونيسيا ايضا اسمها (واك واك) (Waig - Eo) (١٢) فهذه الاسماء الجغرافية المعروفة والتي ثبتت اسمائها حسبما يلفظها السكان المحليون تقودنا الى الفان بل الى الاعتقاد بان البحار العربي وصل هذه الجزر النائية وسمع اسماءها من اهليها (واغ واغ) (واك واك) ونقلها الى عربيته (واق واق) . فتشبهت بها الحكواتي وسبغ عليها فنه الاسطوري وتحدث عنها باعتبارها من الجزر التي يسكنها الجن وذلك في حكاية (حسن الصانع البصري) .

وتلخص الحكاية بكون حسن البصري غادر البصرة مخدوعا على يد مجوسي طمعا بتعلم صناعة الكيمياء والحصول على المسحوق الذي يحصل المعادن الرخيصة الى ذهب وبعد مغامرة بحرية ممينة اكتشف الخدعة ولكنه عثر قرب (جبل

حكاية تحمل الاسطورة والخيال بنفس كميات الواقع المستمد من طرفة ثقلت البداوة بكل اعرافها الى موقع الحضارات المعقدة ، فلم تهضم اعرافها بالسرعة المطلوبة مما زاد المجتمعات تعقيدا وشذوذا ، فتج من جراء ذلك حكايات ذات بناء خاص يعتمد على الجارية العاشقة والزوجة الخائنة والمعجوز القوادة وماحب الثروة الذي لا يعرف قيمة لثروته والفقر المدوم الذي ينتظر كنوز سليمان بمعجزة والشيخ المجوسي الذي يؤذي المسلمين والتاجر المغامر والعفريت الذي يجوب السماء فيقطع ارجاء الكون بفضة عين ولا يخشى من شيء سوى ذكر الله عندما يكون قريبا من السماء الدنيا .

فكل هذه الصور المعبرة عن تكوين شخصية مجتمعات الف ليلة وليلة تؤكد تآثر المتغيرات العقلية في تكوين الشخصية عبر تلك العصور وتبرير نموها ومراحل ذلك النمو . ولكن الحكاية المقبولة للتعبير عن تلك المتغيرات قفزت من اعماق النفس الانسانية كاتفعال حتمي شانه نقل التراكمات المتفاعلة في اللاشعور الى لسطح . اذ يقول علماء النفس (انه ليس للمفاهيم السائدة جميعا ما يربطها بالشعور الواعي) وانما بعضها وربما اكثرها مربوط بالشعور غير الواعي . فمن الطبيعي اذن ان تكون تلك الحكايات التي ليس لها رباط قوي بالمفاهيم المعلنة متولدة بشكل اخيلة يحدد سيفنها سلوك الفرد دون وعيه . ولا يكون الفرد في هذه الحالة ، فيما اذا كان حكواتيا او مستمعا ميلا الى التصديق فحسب وانما يكون ميلا ايضا الى تبرير ما يحكى او ما يسمع . لانه ينقلب من مدهوش الى توفيقى بين تناقضات الحاجات الكامنة في اعماقه وبين الحاجات الظاهرة وبذلك يضمن انفسه رضا الاعراف السائدة من جهة ورضا الاحلام المرغوب فيها التي ترفض الاعراف السائدة وتضع الاخيلة بدلا عن طريق احلام اليقظة بقدر ما تتسع لذلك اعماق النفس المليئة بالتراكمات العضونة الخاضعة لسلطان الجهاز العصبي الذي كثيرا ما يتخبط في عزل ما هو معقول عن ما هو غير معقول ويعجز عن ذلك بتأثير الطموح للحصول على ما هو مرغوب دون ما هو غير مرغوب حتى لو كان ذلك عن طريق وسيط ساحر او وارد طائر او كنز وافر . او جارية جميلة او شمسطاء مأكرة . ولكي نفهم دور عجوز الليالي فهما موضوعا علينا ان نتحرى عنها بشيء من التفصيل ونعاملها بالتحليل والتعليل . اذ اننا كثيرا ما نلاحظها عندما تكون قائدة لجيوش الجن والمفاريت تعجز عن ايجاد المسحوق الى معشوقته الا بمساعدة غيرها كما كان

(١٠) راجع اطلس دائرة المعارف البريطانية ص ٢٦١ بالنسبة للمهرست الجغرافي وص ٦٦ بالنسبة للموقع على الخريطة . طبعة ١٩٦٥ .

(١١) المصدر نفسه ص ٦٢ .

(١٢) المصدر نفسه ص ٦٢ .

السحاب (على (جنية جميلة) كانت هي وجنيات اخريات ياتين الى بحيرة بهيئة الطير وينزعن عنهن ريشهن ويلعبن داخل الماء ويسبحن . فتزوجها بعد ان احتال عليها بخطف ريشها المنزوع وعاد بها زوجة حليمة الى بغداد . وسمعت بجمالها السيدة زبيدة فارسلت تستدعيها للنظر اليها . وكان زوجها حسن البصري قد اخفى ثوبها الريش لثلاث نلبسه وتهرب وذلك من شدة حبه لها . فاستفلت الجنية اعجاب السيدة زبيدة بها وطلبت ان تتدخل في احضار الثوب الريشي وتشاهدها وهي ترقص به . وحاولت ام حسن البصري ان تفهم السيدة زبيدة ان ابنها مسافر وزوجته تحاول الهرب فلم تقتنع بل ارسلت واحضرت الثوب الريش بالقوة فلبسته الجارية وطارت هاربة بعد ان قالت لحمايتها (اذا جاء ولدك وطالت عليه ايام الفراق واشتبهى القرب والتلاق وهزته رياح المحبة والاشتياق فليجئني الى جزائر (واق الواق) ، ثم طارت .

ويعود (حسن) فيكتشف هروب زوجته فيغامر في رحلة مليئة بالمتاعب ويجتاز (الجزر) الكثيرة بمساعدة شيوخ الجان والمغاريت حتى يصل الى جزيرة (الواق) . وهنا يبدأ دور المعجوز الكبير في ايصال حسن البصري الى زوجته . وقد ورد اسم (جزيرة الكافور) خلال رحلته . وكان قد اخبره المارد المغرير (ابو الريش) ان جزيرة (واق) لا يسكنها غير النساء فاذا طلع اليها عليه ان يخفي تحت احدى الدكاك الموجودة على الساحل حيث كل دكة تجلس عليها فتاة ثم يتشبث بصاحبة الدكة التي سيختارها في توصيله الى محبوبته . ولكن حظه سيكون ضعيفا لان ساكنات تلك الجزيرة يقتلن كل رجل . فعليه ان يكون حذرا ، فاختر دكة واخفى تحتها .

فلما اقبل الليل جاء خلق كثير من النساء مثل الجراد وسيوفهن مشهورة في ايديهن ثم جلسن على الدكاك للاستراحة فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها (حسن) فاخذ طرف ثوبها وصار يقبل يديها وقدميها فقالت له (يا هذا قم واقفا ان تراك احداهن فتقتلك) فقال لها (يا سيدتي انا في جبرتك) وحكى لها قصته ثم رآها عجوزا كبيرة وعلم انها قائدة لجيش النساء في هذه الجزيرة واسمها (شواهي ذات الدواهي) . ثم علم بعد ذلك ان زوجته هي بنت ملك الجبان . وعمت المعجوز جهدها لمساعدته ولكنها اخفقت تجاه عناد (نور الهدى) اخت زوجة حسن البصري الكبرى والتي كانت حاكمة على تلك الجزيرة .

وبعد عقبات وتعرض للهلاك يعثر حسن البصري على ولدين يتخاصمان في قسمة (طافية الاخفاء) و (قضيب مسحور) تطيع الجان مالكة اذا ضرب به الارض كان قد خلفهما لهما والدهما . فيحصل حسن البصري على القضيب والطافية وبهما يحصل على زوجته وينقذ المعجوز من غضب (نور الهدى) بعد ان علمت انها كانت السبب في حماية هذا الرجل الذي دخل جزيرة واق الواق التي لا يسكنها غير النساء ، وانها عرضت عليه جميع النساء ليتعرف على زوجته من بينهن غير مراعية للتقاليد العامة في الجزيرة .

هذا هو ملخص الحكاية . فاذا اردنا تطيل رموزها ابقدر ما يتعلق بموضوعنا في هذا البحث) فلا بد لنا من محاولة الاجابة على مثل هذه الاسئلة لفهم طبيعة الانفعالات التي كونت مجتمعات الف ليلة وليلة في هذه الحكاية .

١ - لماذا لم تستجب السيدة زوجة هارون الرشيد الى توصلات ام حسن البصري في عدم تسليم ثوب الريش الى الجنية زوجة ابنها . وقد علمت مسبقا انها اذا لبسته يساعدها على الهرب ؟

٢ - لماذا كان سكان الجزيرة من النساء فقط ، ولماذا كانت زوجة البصري بنت ملك الجان ؟

٣ - لماذا اخفت الجنية المعجوز سر دخول حسن البصري الى الجزيرة المحرمة على الرجال وهي في مركز المسؤولية قائدة لمسكر النساء ؟

٤ - لماذا اختار الحكواتي جزيرة واق الواق النائية جدا لتكون اهم مسرح لاحداث حكايته ؟

اختار القاص او الحكواتي اشهر سيدة في دار الخلافة العباسي لتكون رمزا حقيقيا للتباعد بين واقع السلطان وبين واقع المجتمع العام وتمكن بهذه الحكاية ان يوضح ان السلطان لا تهمة معاناة الناس ومصالحهم بقدر ما تهمة رغبانه . فمن اجل ان تستمتع السيدة الاولى في القصر العباسي برقص الجارية الجنية وتتمتع بفتونها فرقت بين زوجين سعيدين ضاربة بذلك عرض الحائط ما علمته مسبقا من انها بنزوتها الانانية هذه ستحطم قاب انسان من اجل الحياة . واختار القاص جزيرة واق الواق وجعلها مسكنا للنساء فقط للاعتراض على نظام الحريم المحاط بالاساطير الباهرة . فهذه الجزيرة بمثابة تمريض بالنظام الذي خول المترفين والسلطين بملأون قصورهم بالحريم عن طريق الاسر او سوق

النحاسين ويحيطون قصورهم بقليل أو كثير من القدسية . فكان لابد أن تراود مخيلة العامة ضرورة بطل يقتحم هذه القصور تحدياً لهذا النظام فكان (حسن البصري) هو البطل الذي تحمل المتاعب حتى اقتحم جزيرة واق الواق ولكي يسبغ القاص المتعة اندهنية . اختار اسم جزيرة حقيقية يتحدث عنها البحارة والتجار وجعل سكانها من بنات الجان لما في هذا الاختيار من توفيق بين التزاوج الفكري في تلك العصور بين الاسطورة وبين الواقع . وزيادة في تحدي نظام الحريم جعل القاص بطله القصة بنت ملك الجان نفسه وذلك كاعتراض سلبي يوضح أن المرأة نفسها حتى لو كانت أميرة هي في موقع الاعتراض على فقدان الروح الانسانية في ذلك النظام . ولكن قلة تجربتها كأميرة سببية مندفعه بمواطنها في الرضا والغضب والاستكانة والهروب كان لابد من ظهور امرأة مجربة بلغت من العمر عتياً لتسهل المهمات الانسانية والحياتية . ومن هذه النظرة جاءت أهمية دور العجوز الجنية (ركابة الزير) التي وقفت الى جانب عاشقين (انسي وجنية) وخاصمت السلطان وضحت بمركزها المرموق خارجة على قوانين تلك الجزيرة وانظمتها .

ثانياً - عجوز الروم .

وقد جاء ذكرها في حكاية (عمر النعمان وولديه شركان وضوء المكان) التي تدور أحداثها حول الحروب الصليبية بدلالة وجود مثل هذا النص (فما مر ثلاثة شهور حتى تكاملت جيوش الروم ثم اقبلت الافرنج من سائر اطرافها كالفرنسيين والنيما ودبره وجورنه وبندي وجنوز وسائر عساكر بني الاصفر من القسطنطينية) (١٢) . او ورود هذا النص (فاستقبلهم الافرنج بقلوب اقوى من الصخر واصطدمت الرجال بالرجال ووقعت الابطال بالابطال) . او هذا النص (حتى برز له شركان وقلبه من الفيظ ملان وساق جواده حتى دنا الافرنجي في الميدان فكر عليه الافرنجي كالاسد الغضبان) .

(١٢) من الواضح ان المقصود بذلك وصول الجيوش الصليبية من فرنسا والنمسا ودبره والبنديقية وجنوة . ويبدو ان العرب كانوا يفلتون هذه الاسماء حتى وقت متأخر كما نلاحظها قاص الك ليلة وليلة . الا قد ورد في كتاب (عجائب الانار في التراجم والاختصار) للجبرتي ، من احداث سنة (١٢١٢) للهجرة وهي السنة التي انسحب فيها نابليون بونابارت من حصار احمد الجزار في عكا كلمة (النيساء) بدل النمسا والفرنساوية بدل فرنسا او الفرنسيين . راجع الجبرتي ج ٢ ص ٢٨٦ .

ويخلل الحكاية وقائع فردية بين المسلمين والافرنج خلال الهدنة وهي كثرة الشبه بالهدنة التي اعلنها صلاح الدين الايوبي مع الجيوش الصليبية كما حدثنا عنها (مؤيد الدولة اسامة بن منقذ) وهو من امراء (شيزر) القلعة الاسلامية في سوريا ومن ضباط صلاح الدين الايوبي (١٤) . ومن خلال هذه الحكاية يبرز دور العجوز بصفتها اما لاحد ملوك الصليبيين وقد تشكرت بزي الصائنات المسلمات وتحدثت في فقه الشافعي وغيره وروت الحديث ، كل ذلك حتى تتقرب من القائد الاسلامي وندس له السم انتقاماً لما فعله بالجيوش النصرانية . واما خلال فترات الهدنة تتغير مهمة العجوز واذا بها تظهر بشكل قوادة تصيد المشوقين وتقودهم الى عاشقاتهم كما حدث لعزير وعزيرة (١٥) . ولو حققنا في اسباب تنكر عجوز الصليبيين بزي صالحات المسلمين وزاهداتهم لوجدنا ذلك مستمداً من الايمان العام الذي كان يفسى المجتمعات الاسلامية ويصدق بالخوارق والمعجزات على يد الصالحين والزهاد والدرائش والمتصوفة . فيروى لنا ابن الجوزي هذه الرواية قال (شهدت مجلس الشيخ الامام ابي عبدالله محمد البصري ببغداد وحضرته امرأة فقالت يا سيدي انك كنت ممن شهد في صداقي وقد فقدت كتاب المهر واسالك ان تتفضل علي تقيم الشهادة بمجلس الحكم . فقال ما افعل حتى تاتيني بحلاوة فوقفت المرأة وهي تظن انه يمزح بقوله لا تطيلي . لا امضي معك الا ان تاتيني بالحلاوة . فمضت ثم عادت فاخرجت من جيبها من تحت الازار قرطاساً فيه حلاوة يابسة . فتعجب اصحابه من طلبه الحلاوة مع زهده وتعففه فاخذ القرطاس وفتح ورمى بالحلاوة قطعة قطعة حتى فرغ القرطاس . ونظره فاذا هو كتاب صداق المرأة الذي فقدته فقال (خذي صداقك فهذا هو) (١٦) فاستعظم من حضره ذلك واعتبروه كرامة .

وهناك مئات القصص التي تتناولها أبناء الشعب دخلت كتب التراث عن الخوارق والكرامات التي لا يصدقها العامة فحسب بل يصدقها الخاصة بشكل يسهل مهمة عجوز الروم للتجسس على جيوش المسلمين وقتل قائد جيشهم مستغلة المزاج الشخصي في التشبث بالبقاء في قمة المجتمع ، والطريف في عجوز الروم ان اسمها ايضاً (شواهي ذات الدواهي) كمعجوز الجن في جزيرة واق الواق .

(١٤) انظر كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ تحقيق فليب حتي سنة ١٩٢٠ .

(١٥) عبدالفتي الاصح . رحلة مير الك ليلة وليلة ص ٢٧ .

(١٦) اسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٧٠ .

ثالثا - عجوز الحجاج بن يوسف الثقفي

وجاء دورها في حكاية (نعم ونعمة) الزوجين السמידين ولكن الحجاج سمع بجمال (نعم) فرأى ان يسرقها من زوجها وبقدمها هدية الى الخليفة (عبدالملك بن مروان) باعتبارها جارية اشتراها له . ويحتال لهذا الامر بعجوز قامت بدور العابدات الصالحات المحافظات على الصلوات الخمس ودخلت دار (نعمة) في غيابه وخطفت زوجته وسلمتها الى الحجاج لقاء ثمن فارسلها بدوره الى الخليفة .

ونجد في هذه الحكاية مخيلة الحكواتي قد اختارت قصدا بطلا معروفا بالقسوة لتكون حكايته مقبولة وناجحة . واعطى في ذلك للعجوز دورها المقبول في تصوير الكيد غير الاخلاقي الذي تتردد في سلوكه النسبة الا اذا كانت ذات مصلحة مباشرة كعاشقة او مطلقة او ضرة او جارية مخطوفة . واما اذا كان الغرض هو التقرب من السلطان وخدمته ، فالعجوز هي المرشحة دائما لذلك .

رابعا - دليلة المحتالة

ودورها اكثر تعقيدا من غيرها لانها كانت تحتال لا لمجرد الاحتيال وإنما لكي يصل خبرها الى السلطان فيخصص لها مرتبات وجوائز كما فعل لغيرها من المحتالين فحكايتها تصور بوضوح ان طريق المجد والوجاهة في تلك المجتمعات كان يتمثل بالاحتيال والسرقة وقطع الطرق ، واما المستقيمون في سلوكهم فليس امامهم غير الانكفاء على انفسهم .

ونجد دليلة المحتالة عندما عجزت عن مقاومة (علي الزبيق) استعانت بابنتها الجميلة (زينب النصابة) لتوقعه في حبالها وتسرق ثيابه . وبالإضافة الى كون هذه الحكاية تشدنا شدا الى فترة زمنية كان فيها للمبارين والفتوة القول الفصل في حسم الاحداث كما حدث في الصراع على السلطة بين الامين والمامون وما تبع ذلك بعد مقتل المتوكل في تدخل الفتوة في تقرير مصير الحكام . بالإضافة الى ذلك فان الحكاية ذات بعد اجتماعي واقتصادي كحكاية البدوي الذي رضى ان يصلب بدل (دليلة) لقاء اكثة (زلابية بالصل) او الصباغ الذي ذهب ثروته الفضيلة لقاء وعد موهوم بالثروة الكبيرة .

من هذا نستدل ان اختيار العجوز لهذه الادوار المتناقضة في الليالي كان مستمدا من كون العجوز

بعد ذاتها لم تكن في وضعها العام الذي لم يخولها (ان تحب ونشقى بالحب) (١٧) . وهذه الادوار لم تخرج عن كون مثل هذا الامر (كان جارفا قويا فكثرت القصص حتى افسد بعضها البعض) (١٨) بمجموع ابعادها وهذا لافساد ناتج عن الخوف من المستقبل والاعتراض على الحاضر . ويقول علماء النفس (١٩) ان استجابة الخوف يمكن ان ترتبط بأدلة او بمثيرات لا تسبب الخوف لدى الفرد الساذج (٢٠) وهذه المثيرات التي وجدناها في عجائز الف ليلة وليلة جزء لا يتجزء من شعور العموم السذج بعمق في نفوسهم الامل في العثور على كنز او جارية جميلة او اقتحام قصور حريم الاكابر كما في حكاية (الحشاش مع حريم بعض الاكابر) وهذا الاطمئنان هو الجائزة الحقيقية للاستجابة النفسية في السلوك لمركب الذي تتردد مقوماته بين واقع الحال وبين الامل .

وهذا الانفعال النفسي الذي يحدث في اعماق الانسان عندما يسمع قصص الف ليلة وليلة او يقرأها ناتج . قطعاً من (التفاعلات المباشرة التي يوجبها دليل منفرد او موقف لدليل منفرد) (٢١) . وليس بالضرورة ان يكون هذا الدليل منطقيا طالما مستمد من رغبة الفرد لا معرفته ومن نزوته لا عقلانيته . وهذا الاتجاه العام ، اعتبره من اهم دوافع انتشار حكايات الليالي وما شابهها من حكايات الفلكلور التي دائما ترد الاعتبار للانسان العامي تجاه الدور المسورة والقصور المخزونة بالكنوز والحريم ، واهمية العجوز في ارياد تلك الدور بدون رقيب واقتحام تلك القصور من غير اعتراض حاجب ، ذات دلالة اجتماعية خاصة . وقد انتبه القدماء الى هذه الدلالة فقالوا في معرض الامثال : (اذا العجوز ارتجبت فارجبها) (٢٢) وارادوا بذلك اذا خوفتك العجوز نفسها فخفها لكي لا تذكر منك ما تكره .

(١٧) سهر القلماوي : الف ليلة وليلة ص ٢٠٨ .

(١٨) المصدر السابق . ص ٢٠٨ .

(١٩) بالرغم من ان علم النفس اكتشف قواعد متأخرة جدا بالنسبة لاختلاف الف ليلة وليلة فمن الممكن تطبيقها على كل الاحداث والمجتمعات ، التاريخية او الاسطورية او القصصية . وذلك لانها جميعها مترابطة ومستمدة بعضها من بعض .

(٢٠) نظريات الشخصية ص ٥٦١ .

(٢١) المصدر نفسه ص ٥٦٢ .

(٢٢) الميداني : مجمع الامثال ص ٦٨ اقل ٢٤ ط . الثانية .

الفلسفة والعدد

بقلم الدكتور

عَلِي شَلَق

بيروت - لبنان

العدد في الاسلام

عرف المسلمون الاعداد كما عرفها سواهم من شعوب الدنيا ، وتميزوا بانهم مكتشفو الصفر الذي هو عدد متأهب للبدء ، ومخترعو علم الجبر الذي قفز بالرياضيات شوطاً بعيداً في مضمار البحث واكتشف والتخطيط ، وحسبنا ان نقف على قيمة العدد في فكر الكيميائي ، الصوفي ، « جابر بن حيان » ، صاحب فكرة : « الاسم عين المسمى » وهو الذي أحل العدد محل الروح او الهوية الداخلية ، ملتبساً الى « فيثاغورث » و« هرمس » موثقاً للسوربالية التي رسم مذهبها « اندره بروتون » اليوم ، وعنى بها ابن خلدون عناية كبرى في مقدمته ، الثلث الاخير .

وتجيب حكايات « شهرزاد وشهریار » بالعربية مبهورة بهذا الرقم « الف ليلة وليلة » مسبوقة بمثل نسقه ، منخطبة كل ما عداه ، وذلك على سبيل الإيقاع من جهة ، وعلى سبيل التمام من جهة أخرى ، فالرقم « الف » محطة كمية ، ونفسية ، لدى العربي ، إذ ان المئة كانت اكثر ما يدور « العربي في فلكها في طرق معيشته المختلفة ، فحسبه من الأبل مئة ومن الخيل مئة ، ومن القطع النقدية مئة ، اما ساعة يزيد ، ويتجاوز فالالف مدار احلامه ، وتتمام شؤونه .

لعل المئة في الاصل من الماء الذي به الحياة ، والالف من الالفه ، والتأليف ، والمادة لهذه

هذا الرقم !

العدد رمز ، مصنف على رتبة ، بل هو جوهر . درج المفكرون على اعتبار العدد رمزاً لما ينتسب الى الرقمية منذ الصفر حتى نهاية انتهيات ، تلك التي عبر عنها الرياضيون العرب بالكرات ، والغريبون ، بالتريون والكاتريون والبلليون .

بهذا العدد يتصنف كل موجود ، في رتبة من مراتب الوجود ، غير ان الفيلسوف اليوناني « فيثاغورث » يجد في العدد جوهر المعداد ، وانه بعد مذاهب طاليس ، وديموقريطس ، وهرقليطس ، وسواهم من الماديين الإيليين ، اعلن ان الموجودات تتألف من اعداد ، وقد ذكر سابقوه انها تتألف تارة من الماء ، وتارة من النار ، او من العناصر الاربعة : النار ، الماء ، الهواء ، التراب . وهل يجيب هذا العدد عرضاً ، او جوهرأ ؟

العدد من حيث كونه رقماً او رتبة ، فهو عرض ، أما من حيث تألفه من عناصر ، او وحدات ، تشكل مجموع كيانه فهو جوهر ، ومن هنا تبدأ الفلسفة مرحلة جديدة مهدت لسقراط وافلاطون وارسطو ومن هنا اكتسب العدد قيمته فوق ما للحرف ، والنوطة ، وسواهما من الرموز ، ووسائل الإبانة .

اللفظة تفيد الجمع ، فل مثل ذلك في الألف
الحرف الأول من الأبجدية ، حيث ترمز الى ما
يتبعها من ابائها الحروف الاخرى ، اذ هي في
الدرجة الأولى رمز للصوت الاول ا.ا.ا. وهو
يخرج من فتحة الفم ، منطلق من سقف الحلق ،
ولذا عده علماء التجويد من الحروف الحلقية ،
وهي ذات مزاج حاد ، حار ، عاطفي .



اخيراً ، عصر الف ليلة وليلة ، عصر عتمات ،
واشباح ، وتخاريف ، الى جانب كونه عصر
رحلات . وترف يقابله بؤس ، وشموخ مفاجيء
قد يؤدي الى سقوط فاجع ، وهذا ما يدفع الى
الاستعانة بالصور ، والاحلام ، والماورائيات ،
ويؤدي الى عنابة كبرى بالطلسمات ، والالغاز ،
خاصة الأرقام ، والحروف ، والسيمباليات ،
تلك التي عرفها المجتمع الاسلامي قبل ذلك بكثير .
وذا منا يميل بنا الى ان التسمية رمز ، وليست
رقماً مقصوراً لذاته ، الا اذا أرحنا أنفسنا من
عناء الافتراض ، والتمحل وهذا ليس في يد من
تعود على البحث والايغال ، واخذنا التسمية على
ظاهرها ، لنقر مع المؤلف ان شهرزاد بقيت
تخرف شهر بار الف ليلة وليلة ، اي ما يزيد على
ثلاث سنوات ، وانها نجحت كزوجة ، وحبيبة
فائنة ، وأم ، ومخلصة بنات جنسها من موت
متدرج ، وانها كانت من الذكاء بحيث اعتمدت
على عامل الزمن الذي به اتست شهر بار حقه
على بنات جنسها ، وتعمدت في نفسه شجرة
الحب والثقة ، الى ان مدت غصونها ، ومنحت
براعمها زهراً وثمرات .

الليسل

الليل عابس الملامح ، غريق في عتمة ذاته ،
يسكن الخفاء ليفتح كوة الصباح من بصيرته
العميقة .

ما فيه من سر ، ووحشة ، وستر ، يجعله
موضوع انعم ، والذكرى ، والتأمل ، والتأمر .
الليل فيلسوف الزمن ، به تكتمل وتنوع مناسج
الرويا ، وملاءات الخيال ، مثلما ان النهار مركبة
الشمس ذات الحوافر اللاهبة ، والرين الاشقر .

فأي بحر لجي ، امواجه تهادر صمات ،
وتبوح بأفصح سور ، ينبع منه خمر اسود يكحل
جفون العالم ، ويمنع النشوة للأشياء ، فاذا بكل
ما فيه تجدد ، يطفئ السام ، وينفي الرتابة ،
على غم مسترسل للوجود !!!



الى ذلك ، قرنت الالف بالباء ، واصبح هذا
الاقتران عنواناً على الأبجدية كلها ، وهي تشكل
المرحلة المقطعية من النطق « اب » مشيرة الى
الرمز الاقوى والاعلى للعائلة ، وارتسمت الالف
في معظم لغات العالم منتصبة إشارة الى علامة
الذكورة المبدعة ، والباء مطحة للإشارة الى
الانوثة .

بقي ان ندرك السر في تسمية العربي حكايات
شهرزاد لشهريار تسمية عديدة لها مغزيان :
الاول في كونها ألفاً كناية عن اتمام ، والثانية في
إضافة ليلة ، او العدد الواحد الى « لالف » فهل
ان ذلك جاء لتمكين الايقاع من السمع ، او
للمبالغة في التمام والكمال ، او ان بين الالف
المرسومة كنهاية ، ومحطة ، جسراً ينقل من حال
الى حال ، وعهد الى عهد ؟

ثم لماذا اورد اللفظ مؤنثاً فقال ليلة بدل
ليل او سمر ، او هزيع ، او ما شاكل ذلك ؟
ويهمنا ما في التانيث ذاته من الولادة ،
والتولد ، والخصب ، وهل ان التسمية جاءت
على لسان شهرزاد وهذا من حقها ؟ أم ان
التسمية من صنع المؤلف الذي راعى في التسمية
ناحية الانوثة ؟

الى ذلك فإن من شأن العربي ان يجيب على
طالب العون منه بقوله : « لك ذلك وفوقه » .
« لك ذلك وكرامة » . « لك ذلك وزيادة » « لك
ذلك وواحدة » . او أكثر الى ما هنالك من صيغ
القبول وتمكينه والتزيد فيه .



ثم اننا إذا روينا في هذه التسمية العديدة
نوجدناها تشير الى ثلاث سنوات ، وتزيد ، وان
الليلة لا تنفصل عن النهار من حيث انها به تشكل
اليوم ، فهي نصفه والنهار نصف آخر ، وهذه
المدة كافية لانجاب نسل ، وتبديل احوال ،
وتركيز أمور جديدة ، ولعل الرقم الف ليلة ،
يشير الى عدد يتناول النساء اللواتي صرعهن
شهر بار ، وان الليلة الواحدة الاخيرة تميزت
عنهن شهرزاد عن باقي النساء .

اليه عوامل الغفلة او العصبية ، او الرغبة في
نيس ثوب المكتشف او العائد بالجديد .

فان عرب عربوا من قبل بسنوات عدة كتابا
على غرار ألف ليلة وليلة ، وبلايقاع الموسيقى
العددي لتسمية ذاتها ، الشيء الذي يشير إلى
مزاج خاص باستخدام العدديسة الفيثاغورية ،
ورموزها التي سحرت كثيرين من اقطاب الفكر
العربي ، من طراز ابن خلدون ، وقبله جابر بن
حيان .

« ألف عبد وعبد » و « ألف جارية وجارية »
كتابان من جملة كتب سبقت ألف ليلة وليلة ،
حسب الروايات العربية . وإحصائيات « ليتمان
Tittman » .

التسمية جارية على النغم الموسيقي ،
والايقاع العددي ، في تناغم الحروف والالفاظ ،
إذ أن المؤلفين العرب راعوا الناحية الجمالية في
التسمية ، وهم ولومون بذلك ولوعهم بالأرقام ،
وقد جاء التقياس مطابقا لدى تسمية ألف ليلة
وليلة اقتباسا مما سلف .

ولكي نمنع القارئ بمضحكات اصحاب
الإحاجي ، والتكهنات بخصوص جسد الكتاب
ومؤلفه ، نعرض له طائفة منها . « ليتمان » ذاته
ينسب التسمية الى واضع تركي . و « الشرواني »
في تقدمته للطبعة الفارسية يزعم أن مؤلفه رجل
سوري لافارسي ليلقى في الذهن صدى لتجرد ،
وانبعد عن العصبية ، وذا يزهينا اذ ربما كان
هذا المؤلف حسب رايه سوريا من لبنان .
واللبنانيون مشهورون بكثرة الاسفار ، وبعد
مطارح الخيال ، وهم من سكان شاطئ المتوسط ،
بحر الحضارات القديمة الخصبة ، ولكي يرينا
هذا « الشرواني » سعة آفاقه يتصور أن الطبعة
السورية قد زيد فيها ، ليتنافس الغربي دسكاي
Descay في هذا المضمار .

أما « سكوت Scott » فيعلن ، وحسب
ما يحلو له ، أن مؤلفه أكثر من واحد ، والاغرب
ذلك أن « لنجلر » يقول : إن مؤلف هذه القصص
هندي ، وأناي لأعجب كيف انه لم يصف : أو
صيني ، أو أسترالي أو ... الى آخر الاوقات .

ويعتمد هؤلاء الغربيون الذين فاتهم الفهم
الصحيح ، وادراك سر التناغم في السبك العربي ،
على قولة للمعمودي في مروج الذهب ج ١ ص ٨٩
الذي شكك ، وعدد ، مؤلفي الكتاب ، والمعمودي
من عرفناه مخرفا في معظم ما سجل حول
مشاهداته ، واسفاره في مروج الذهب ، وإن كان

في الليل جرت حوادث « ألف ليلة وليلة »
هذا الكتاب اندي عد من الصف الأول في مكتبة
العالم . محور شخوصه المنمازين قبل الاسلام .
عهد تأليفه بعد الاسلام وفي مجرى عهود الانحطاط
السياسي بعد سقوط بغداد وأن اشرقت كواكب
الأدب الشعبي ، والموسوعات ، والمطولات الادبية ،
والعلمية .

— من هو مؤلفه ؟

— سؤال جوابه الصمت ، وربما كانت الاسئلة
التي من هذا النسيج تحمل اجوبتها فيها ، أو انها
اسئلة غنية بالايحاء ، تترك مجال الشوق منفتحا ،
فكل إجابة تجيء أرخص من السؤال الذي لا
تطفئ رياحها وهجه السحري ، وايقاعه الغائن ،
كانه سر من اسرار الحياة ، وملامح الفيوب .

أحدية المؤلف

كاد الكاتبون عن ألف ليلة وليلة يجمعون
بمربهم ، وأعجميهم ، على أن المشتركين في تأليفه
كثيرون ، وهذا ضرب من العجز عن فهم السر
الأدبي في المؤلف ، وهامشية في الدراسة ، نجد
أننا ملزمون — بعد الروية ، والبحث ، أن « ألف
ليلة وليلة » كتاب عربي ، إسلامي ، لمؤلف واحد
وأن ذلك المؤلف غني الوهبة ، بميد مطارح
الخيال ، كثيف التجارب في الأيام والليالي ، ذو
بع بالتراث العربي القصصي ، وسواه من مقابس
التاريخ الأدبي العام خاصة أدب الفرس والهند ،
واليونان ، وما اختلج في المنطقة العربية من موج
يحتضن بعضه بعضا بحكايات واقاصيص من
متنوع ذهنيات الشعوب .

كتاب « ألف ليلة وليلة » ذو المجلدات الأربعة
بالعربية له مؤلف واحد ، واسلوب متناغم منسق
مرسوم ، حامت حوله الاوهام مثلما حامت حول
« هومير » مؤلف ملحمتي « الإلياذة » و « الأوديسة » .

الشبه بين الاثرين : العربي واليوناني قائم ،
كما أن الشكوك حول التأليف والمؤلف تكاد تكون
منسوجة على نول واحد ، وهذا يضاف على
الاثرين سرابية خيال فياض الالوان .



مما يرسخ الأحدية بصدد تأليف هذا
الكتاب المتع ، أنه جاء امتدادا لخط طويل
عريض في سياق القصص المنطلق من مناخ
الشعب ، وأنه منسوق على شبه بين الملامح
يلتفت الى ما سبق ، ماحيا كل قول سواه دعت

عنقوان ادبي عربي يستطيل ادبيا استطالة العرب
سياسيا ؟

لعل ظهور ادب الموالي منذ بشار بن برد ،
وابن المقفع ، وابان اللاحقي ، كان مما يلقي شبهة
حول نسبة الكتاب الى مؤلف فارسي ، خاصة
انه مطبوع بملاحمهم ، ويدور حول بطلين هما
« شهرزاد وشهريار » وإن الاداب القديمة التي
خلدت على مر العصور وردتنا في صيغ : الملحمة ،
المسرحية ، القصص بانواعها .

وهنا لابد من سؤال ينبع من جو البطلين
الذين تدور حولهما حوادث الكتاب ، وهو : الا
يمكن ان يجيء تأليف هذا الكتاب صدى لكليلة
ودمنة ، كرد عربي متخيل في الامتاع ، والتخريف
خاصة انه يقبس بعض نماذج كليلة ودمنة ؟
ويعارض اثر ابن المقفع باللون العربي الاسلامي
الصادق ؟

على ان ادب ابن المقفع المترجم على الاغلب ،
خلا كليلة ودمنة لا يبلغ مدى ادب الجاحظ العربي
الاصل ولا يزيد على ما عرفنا من ادب المقامات ،
وما على شاكلته من طراز ادب ابي حيان التوحيدي
في المقابسات ، والامتاع والمؤانسة ، فالتحدي
العربي إذن اصيل فعال .

ثم اذا كان كتاب الف ليلة وليلة ذا منطلق
فارسي ، فهل هذا وحده كاف لتثيته في
الفارسية ؟ علما بان مئات ، بل الاف الكتاب
يضمون لمؤلفاتهم تسميات غريبة عن لغتهم ،
ومناخاتهم ، في كل العصور . مثل ذلك ان
« كليلة ودمنة » ذو اصول هندية ، كأصول الف
ليلة وليلة الفارسية ، فهل ان هذا يجعل من
كتاب ابن المقفع كتابا هندية ؟

هذا مالا يقول به منصف .

إن الذي يثبت ولادة الف ليلة وليلة بعد
العصر العباسي الرابع ، سيطرة اسمي بغداد
والبصرة ، على معظم مواقف الكتاب ، وهما
آنذاك كانتا في أوج عزهما الحضاري ، وكثافتهما
البشرية ، ولكي نصل الى ما نهدف اليه بالسياق
المنطقي ، نورد ما قاله ابن النديم في الفهرست
ص ٢٠٤ من طبعة ليبزك سنة ١٨٧١ لدى تحدثه
عن اصل « هزار افسانه » أي الف خرافة :

« ان ملكا من الملوك كان اذا تزوج امرأة
وبات معها ليلة قتلها من الند ، فلما تزوج بجارية
من اولاد الملوك ، لها عقل ودراية ، يقال لها

قد فتح باب الادب الرحلي ، وسن سنة شريفة ،
حلوة ، ممتعة لكتاب الرحلات ، بما وردنا من
ادبهم الانساني ، الكوني ، ذي الانطباعات العذبة ،
الطفلة احيانا .

الى جانب هؤلاء المشككين : الاحجويين :
يؤكد الاب صالحاني انيسوعي ان مؤلف الكتاب
عربي ، انطلاقا من آراء الجهشياري ، وابن
النديم .

بينما يعتمد « مكدونالد » Macdonald
على الجهشياري وابن النديم ، وسواهما ، ليعلم
ان مؤلف الكتاب هذه المرة فارسي ، لوجود
اصوله في النسخة التالية : « هزار افسانه » ،
وبشايه كثيرون في هذا المجال .

لمحة من التاريخ

بعد ، أي شيء يكون كتاب الف ليلة وليلة ؟
— اول من ذكر كتاب الف ليلة وليلة من ادباء
العرب ، ومؤرخيهم الرحالين ، المسعودي ، وهو
من اعيان القرن الرابع الهجري ، بعد عصر
الدويلات ، وقفاه ابن النديم في « الفهرست » .

فمتى ظهر هذا المؤلف العظيم الى الوجود ؟
في القرن الثالث الهجري ، مطلعاه ؟
منتصفه ؟ ام ختامه ؟ او انه لمع في مطال القرن
الرابع ؟ علما بان المسعودي عاش في اطار سنة
٢٢٦ هجرية ، وهو يتحدث عن الكتاب حديثا
يشير الى بعد مصدره وزمنه بهذه العبارة :

« وهو خبر الملك ، والوزير ، وابنته ،
وجاريتها دينارزاد ... »

هنا يبدو الخلاف واضحا بين رواية
المسعودي ، وبين نص الكتاب الذي يطلق على
القناة اسم « دينارزاد » وانها اخت « شهرزاد »
لا جاريتها .

الظاهر ان الكتاب الف بعد عصر هرون
الرشيد ، المحتضن عصر كليلة ودمنة السلفي ،
وان الرشيد سجل انتصار العنصر الخلافي العربي
على العنصر الوزاري الفارسي ، بينما انساق
بعده عهد الامين الذي قتل بتدبير اعجمي ليستعين
اخوه المأمون بالسيوف التي مهدت للسفاح
والمنصور ، واجرى المأمون في خلافته ، وهو صهر
الوزير الحسن بن سهل الفارسي تعويضا عن
قتل الرشيد وزراره البرامكة .

البس منطقيا ان يكون الكتاب صدى

وزكي نجيب محمود ، يفرران في مؤلفهما طبعه
القاهرة سنة ١٩٤٢ صفحة ٤٢٢ ما يلي :

« فكان من القصص الشعبي « ألف ليلة
وليلة » ثم ظلت تنمو مع الزمن . وإن قصة
السندباد البحري لم تكن ملحفة بألف ليلة وليلة ،
ويروى أن الجهنشيري ألف كتابا على نسق ألف
ليلة وليلة ، واختار فيه أسماء من الأمم ، ومات
قبل أن يتمه . »

الكتاب إذن أحدث مدرسة بها نحوها غير
أديب واحد ، مثلما فعل المتأدون بصدد سائفه
كأيلة ودمنة .

على الرغم من القول بإضافة أقاصيص
السندباد إلى الكتاب ، فإن هذا لا يقدح في
وحدته . وأن مؤلفه واحد ، إذ ليس بين أيدي
المقرئين أي ثبت على صحة ما يقولونه أكاديميا ،
ويبقى أن تناغم أجزاء الكتاب ، ووحدته أسلوبه ،
ونسقه المؤلف من ألفه إلى يائه ، وطابعه العام
التميز بنكهة انفرادية ، والامتاع ، والجنس ،
يؤكد وحدة فلدانه ، وأحدية القلم الذي به اشرق
على دهور الناس .

نعم ، أية مدعاة إلى نسبته في مصادر
مختلفة ، من تراث الشعوب القديمة ، وكل ما
فيه يشير إلى عرويته ، وإسلاميته لا إذ لا يتفق
عقلا ولا زمانا أن يكون كاتبه قد جمع فيه مزقا ،
وتنعا من مختلف آداب العالم ، فأدبه أنبجري
والبري من مصدر واحد . بسلوب متوحد ،
مبني على الطرافة والمغامرة ، اعتمد فيه مؤلفه
على منطق فارسي للأغراب ، وأن الفرس كانوا
آنذاك مصدرا سحريا للمؤلفين العرب ، خاصة
في الأدب وعلى الأخص القصص ، لما لهم من سابق
تاريخ مرتبط بأحداث العالم على مدى
إمبراطوريتي اليونان والرومان .

نحن اليوم نفعل في معظم ما نكتب من
القصص مستمدين من الغرب ما فعله العرب
بالنسبة إلى الفرس ، وذلك لم يجعل أدبنا
الراهن غريبا ، أو فارسيا ، على أن الأدب فن ،
وأن فن لغة الحياة والكون لكل البشر . كتب بدع
الزمان انهمداني مقاماته بالعربية ، وهو من أصل
فارسي فهل تراه صنف لدى تعداد الأدباء إلا في
الحق العربي ؟

وكتب جورج شحادة اللبناني العربي قصصه
بالفرنسية ، فهل نعده أدبيا عربيا وقد سكن لغة
الآخرين ؟



« شهرزاد » ابتدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند
انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ،
ويسألها في الليلة التالية عن إتمام حديثها في الليلة
التالية ، إلى أن رزقت منه ولدا ، أظهرته للملك ،
وأوففته على حيلتها وتديرها ، وبراعتها في الإنهاء
والتشويق فاستعقلها ، ومال قلبه اليها
فاستبقاها . « من هنا يبدو أن الكتاب ينطلق من
مناخ فارسي ، وأن مؤلفه يمكن أن يكون بصريا
أو بغداديا .

وقد يتراءى لبعض الباحثين أن مؤلف
الكتاب مسيحي ، أو يهودي ، نظرا إلى أن
قصصين بارعين من المسيحيين واليهود اغنوا
التراث العربي الإسلامي بالقصص المستمدة من
التوراة والإنجيل ، من طراز « وهب بن منبه » و
« كعب الأحبار » .

على أن الروافد اليونانية وسواها من
أصداء الوثنية ، تصب في بحر هذا الكتاب ، فهل
من اندواعي أيضا أن يزعم زاعم أن مؤلفه يوناني ؟

ومن الزاعمين من يرى أن المسلمين يحرمون
الحدث بالخرافات ، وأن بعضهم كان يتوقع
إصابة المتحدث بشر عظيم ، ويغفل هؤلاء الزاعمون
من المستشرقين عن أن العرب عرفوا التخريف
قبل الإسلام وعرفوه في مجرى الإسلام ، وليست
قصيدة ذات القفا للنايفة ، وأخيلة عبقر ،
والاحقاف ، وبيرين ، ثم مادار في فلك التصور
وإن جاء في كتاب اليقين ، القرآن الكريم ، عن
أحوال الجنة والنار ، والجن ، والصور الأدبية
التي تبرز ما عرفنا لهومير ، وفيرجيل ، وفياسا
وقالمكي ، ثم ما شاع بعد ذلك عن أقاصيص
الأمشيق ، وأمور المقامات ، وأخبار الإنشيطين ،
وكل رأي ، وطيف أو شبح ، مما يتسامح به لدى
الغافلين ، ويبين مقدار أوهامهم .

ليس هذا كافيا لتتففيه آراء هؤلاء ؟

روافد الكتاب

إزاء ذلك فما هي أشهر الروافد في ألف
ليلة وليلة ؟

جوابا ، يجد الباحث في دوحته جذورا
هندية ، فارسية ، يونانية ، عراقية ، مصرية ،
شامية ، يهودية ، مسيحية ، ونوافج متنوعة ،
تهب من هنا ، وهناك . على أن مؤلفي كتاب
« قصة الأدب في العالم » الدكتور بن أحمد أمين ،

أدب البحر قليل في تراث أدبنا العربي ، بالنسبة الى تراث اليونان ، كما ان أدب الرمال قليل لدى ادباء الغرب قاطبة ، وذلك طبيعي . ولولا لمع من شعر امرئ القيس ، وطرفة ، وأدب القرآن الكريم ، وافاق الف ليلة وليلة ، ونسق مقامي من أدب « الحلبي » من اعيان القرن الرابع عشر ، لجاء الادب العربي قاحلا من البحريات وغرائبها .

مؤلف كتاب الف ليلة وليلة ، جسد اصداء الحضارة باستقرارها واغترابها ، موغلا بين الامواج ، مبتعدا عن سكون الصحراء ، مائلا الفراغ بأمتع محتوى ، ولعل البصرة هي التي تلث بين جفونه . إنه لمن الثابت حسب مجرى حكايات الكتاب ، ونصوله ان المؤلف واسع الخيال ، قوي الذاكرة ، دقيق الملاحظة ، كثير الاسفار ، من سكان الشواطئ ، زاخم الشباب ، خبير بتقاليد الشعوب ، والمجتمعات ، بسير بنوازع النفس البشرية ، واشواق اللحم والدم ، أيام كانت بغداد ، وبعد ان كانت كالمدينة البوذية تجمع ما تفرق من اشعة الشمس ، كجمع بغداد مختلف الامم ، وذوبان الجميع في اطلال واحد ، منسوق على حد قوله « بروكلمن » في كتابه « تاريخ الشعوب الاسلامية » .

ملاحجه العامة

وقعت عند دراستي الف ليلة وليلة ، طبعة صبيح ، ان المؤلف يعي في ذهنه حكايات لها اصول في تراث كثير من الشعوب القديمة ، كما يظهر اللون المصري ، الشامي ، العراقي واضحا في معظم قصص الكتاب ، الى الاكثار من النحدث عن بحار الاهوال ، والجزر القريبة ، والغاربت والظلام ، والسحر ، والقدر ، والمؤامرات ، والضياغ ، واللقاء .

ذلك جميعه صدى لروح العصر ، والمجتمع الذي افرخ فيه ادب الف ليلة وليلة ، وتعبير عن احلام الانسان ورغباته المكبوتة ، ومحاولة لردم الهوة بين الواقع المحروم ، والمؤمل المرتجى ، والتعويض عن السأم والدل ، تخلصا من طبقة حاكمة مستغلة ، ومن فئة منهارة مهزومة ، الى عالم اللذة ، والاستعلاء ، والاستطالة ولو بالاوهام ... !

ذلك أدب شعب زهد من تفرغ الفصحاء ، الى عفوية ادب الشعب ، ومن لغويات المتزمتين الى ادب الحياة المترع بالنعمة ، ومن تحجر ابن

البادية ، واسر ابن المدينة ، الى رحاب الانسان المنقف الحر ثقافة انسانية متاملة في الكون ، يجد في هذه اللغة التي مدت رواقها على قارات ثلاث ، والامة التي بسطت نفوذها على سائر بفاق الارض المتعدية مجالا للاستيحاء ، وابحث عن خيوط لنوله الكبير .

- وقد ظهر لي ايضا ان تأثر الف ليلة وليلة بكتاب كليله ودمنة واضح ، وذلك في مثل حكاية « الحمار والثور مع صاحب الزرع » ج ١ ص ٥ ، و ج ٢ ص ١٢ و ٢٠ ، و ج ٤ ص ١٢٦ ، كذلك .

- اللون المصري في مثل صفحات ٦ ، ٦٥ ، ٦٨ ، من الجزء الاول .

- اما اللون العراقي فهو يظهر في اكثر من حكاية واحدة : وإن كان جاء اقل مما هو مشهور عن الكتاب . نظرا الى نسبة هذا المؤلف الى عصر الرشيد ، وتداعي اسم الكتاب واسم الرشيد . وبغداد التي هي بلد الف ليلة وليلة في كل ذهن لقد اخصيت ما يدور حول الرشيد في الكتاب ، فاذا هو نذر يسير لا يتلاءم مع تلك الشهرة الشائعة .

- ولدى تقصي الآثار اليونانية ، فقد وجدتها بيئة الملامح في مثل حكاية « حاسب كريم الدين » من الجزء الثالث صفحة ٩٤ ، وذلك عند ذكر القول الذي هو صدى ليكلوب « عوليس » بوجه آخر في اوديسة هومير .

كما ان اصداء حروب طروادة كما وردت في الاياذة ، تبدو في ج ٣ ص ٦٤ .

- الكتاب مملوء بالطابع الاسلامي في إطاره العام ، غير متخل عن اللون المسيحي كما في ج ١ ص ١٣ .

- والمسحة الهندية تلوح في ج ١ ص ٣ . و ج ٣ ص ١٠٤ .

- على ان الصفة الشامية ، والوجه اليهودي ، يلوحان في ج ٢ ص ١٠ . و ١٦ و ٢٧٤ .

- ثم ان الباحث يجد التماعات تشبه ما يجده في رسالة الغفران للمعري ، تلخصها في مثل قصة « بلوقبا » والحية ج ٣ ص ٣٦ .

- كما تظهر معرفة المؤلف بمواقع بلدان العالم القصي مثل القوقاز ، وسيبيريا وسواهما ، مما يشير الى شيوع الدراسات الجغرافية آنذاك ،

وأنساع رقعة العنم الاسلامي ، الذي اصطبغ الكتاب بلونه .

- والمدهش حقاً ، المرهض بما يشبه النبوة ، أن الكتاب يتحدث عن حروب تلتفت الى حروبنا اليوم ، إذ استخدم فيها سلاح لا يختلف عن سلاح عصرنا الذري ، والصاروخي ، حيث يلوح هذا في ج ٣ ص ٧٢ .

- وانجدير بالملاحظة أن في الكتاب لفتات اشتراكية سبقت الماركسية بمئات السنين ، هذا ليس عجيباً في عصور الفقر والحرمان ، وبعد أن عرف الناس اشتراكية « افلاطون » في الجمهورية ، ومن بعده « مزدك » الفارسي .

- الجو العام المسيطر على الكتاب هو جو : الماكل ، المشرب ، الملبس ، المسكن ، المتع الجنسية بمختلف ضروبها ، وملاطف حرياتها ، ثم الغرابة ، والمفاجأة ، والمصادفة .

أسلوب الكتاب :

- يجنح أسلوب الف ليلة وليلة إلى البساطة في التعبير ، والوضوح ، والركة ، والعمامة .

- كما يرسم ثقافة مؤلفه الأدبية ، والتاريخية ، والجغرافية ، منطلقة من موهبة غنية .

- بكثرة من ترديد بعض الحكايات ، والحوادث ، والصور ، والعبارات .

- لا يخلو من السقطات التاريخية مثل ذكره النابغة الذبياني في عهد عبد الملك بن مروان ، ج ٣ ص ١٢٣ ولعل الناسخ خلط بين النابغة الجاهلي ، ونابغة من النوايع الاسلاميين .

- يصل بعض القصص فيه إلى قمة الروعة ، من حيث إحكام الحبكة ، وتآزم العقدة ، ولطف الحل ، كما في الجزء الثاني صفحة ٢٥٨ وذلك عند حكاية « فرس الأبنوس » ومثلها حكاية « عبدالله فاضل » عامل البصرة واخويه ج ٤ ص ٢٦٦ .

ولا تسل عن التفكك ، والسذاجة ، وضعف النسج ، في كثير من القصص ، غير ناسين أن المجموعة تتميز بالخيال الرحب ، المثير للأشواق المهور بالغرابة ، الموشح بالمحال ، منمّازاً بطائر الرخ ، وبساط الريح ، والخاتم السحري (لبّيك) والقنم السليمانى ، موطناً لأروع اكتشاف في عصرنا الحاضر الذي لمسا

يحقق كل صور الف ليلة وليلة في الواقع ، وأوهامه المنداحة الجميلة ، عدا عن جلالة وجع الانسان من كونه ، ومختلف طبقات مجتمعه ، في مجاحفها ، ومتارفها ، صعودها وهبوطها .

آثره في الفن العالمي والعربي

تأثر بكتاب الف ليلة وليلة كثيرون من أدباء الغرب وفنانيه ، وظهرت الاقتباسات منه في القصص ، والمسرحيات ، والأفلام ، والشعر ، والمعارض اللاهية ، مثل ذلك إبحاؤه لازاميل النحاتين ، وریشات الرسامين ، وتهاويل الراقصين ، وحكايات الاطفال ، وأصبحت ليالي الف ليلة وليلة عنواناً على ظلال الشرق ، وأطيافه خيالا ، وعدوبة ، وسحراً ، إلى مظهر للترف ، والازمات ، والفواجع ، والمباهج . جميعها ذات منازع انسانية في الصميم من مضامير الكائن البشري .

قد تخيّلنا أقاصيص الكتاب فلا تتوفر في معظمها الشروط التي ترسمها القصة الحديثة . ومنى كانت هذه الشروط مقياساً نهائياً للقصص الخلاب ؟ ومنى كان الفنان الاصيل ملزماً بترسم الخطوط ، والتقيود التي يفرضها النقد او يفترضونها ؟ وهم إنما قعدوا ورسموا منطلقين من آثار الفنانين المبدعين انذين هم وحدهم يملكون المقاييس .

ثم هل في القصص العالمي ما يمنحنا المتعة ، والنقلة من الواقع الى عالم الغبطة كالف ليلة وليلة ؟

يعتبر « ولز » أن كتاب الف ليلة وليلة أعجب وأطرب قصص البشرية ، كذلك « فونثير » يعلن أنه قرأ الكتاب مرات ، وأنه لم يتعلم كتابة القصة إلا منه ، على أن أقاصيص « اندرسن » وجزيرة « بيكون » السعيدة ، وفردوس « ملتون » حملت أطياف الف ليلة وليلة .

ومن قبسوا منه ، وعنه « تشومر » في نابسه ، و « ديكاميون » في أيامه العشرة و « بوكاتشو » و « فوليفر » وكثير من كتاب الرحلات ، إلى جانب الصحف ، والحجاج ، والتجار ، والمرسلين المبشرين ، والصليبيين ، إذ انهمروا عليه ترجمة ، وإذاعة ، واقتباساً ، ودراسة ، وقد عنيت المطابع بإصدار أغلى ، وأجمل النسخ التي بلغت أثماناً خيالية ، نظراً لصورها ، وتنسيقها ، وإخراجها الرائع .

وقد وقمت على نسخ منه بالفرنسية والانجليزية ، والالمانية فاذا جميعها مظهر لروعة الطبع والاخراج والتصوير .

كثيرة هي الكتب التي سعد بها اطفال اوربا والعالم ، وهل من طفل في الدنيا يجهل حكايات السندباد ، وعلاء الدين ، وعلي بابا ؟

بيد ان الفضل في نقل هذا السفر النفيس الى الغرب يعود الى بعض المشاهير من طراز « جان انطوان غلان الفرنسي » Y. A. Galland الذي قدمه في اثني عشر مجلداً على مجرى لاتقرن الثامن عشر ، كما قبس منه الانجليزي « إدورد وليم لاين E. W. Lane » ثلاثة مجلدات في القرن التاسع عشر ، وريتشارد رد بورتون R. Burten نشره في عشرة أجزاء في القرن التاسع عشر أيضاً .

يضاف الى هؤلاء ما تمادى منه فلدات ، واساليب ، ومنطلقات ادبية وفنية لدى ادباء وفتاني العرب والشرقيين .

إسلامية الكتاب :

كتبت افاصيص الف ليلة وليلة بلغة عربية ، في حضن الاسلام .

الاديب الفاطمي « يوسف بن اسماعيل » الف سيرة عنثرة وانطلق بها من الواقع الى آفاق الاسطورة ، مواكباً صوراً جليلة من الاليادة والاذيسة ، والمهابهاراته والراميانا ، والانيادة .

لعل اديباً من طراز يوسف بن اسماعيل الف كتاب الف ليلة وليلة في المناخ العربي والاسلامي ، فالخيال في سيرة عنثرة ، واخوات لها من نسق « الملك سيف » و « البهلوان » ليس غريباً عن الخيال في قصص الف ليلة وليلة وان كانت الموضوعات على تباين .

عنثرة الاسطوري تزوج امرأة من الجن فولدت له « الفضبان » وهذا كان يضرب بعموده الجبل فيشقه نصفين ، مثلما فجر « چوف » في الانبيادة الجبل فجرت رياح كالخيول مطلقة الأعنة ، وكذلك فإن الزواج بالجنيات في الف ليلة وليلة كثير ، ومثله تعرف الفرسان بعناصر الطبيعة ، وقريب منه حب « نوسكا » جنية البحر البطل عوليس .

كذلك فان المنام والمتارف لدى « السيرة » والف ليلة وليلة متشابهة ، وربما كان اختفاء

اسم المؤلف سببه ان الكتاب يحشد كثيراً من صور الوثنيات ، واللذائذ الحسية ، والدعارة الجنسية . تلك التي تلذ القاري بمقدار ما تتجافى عن الصيانة الاسلامية ، ووقار العلماء ، لذا عمد المؤلف الى الانطلاق من موضوع نسبه الى الفرس . ثم انساح في آفاق خياله .

الادب الشعبي البطولي جاء تعويضاً عن فقدان البطل ، او المثل الاعلى ، وملا لفسراغ الحرمان ، وصدى للأحلام المستفيضة ، وإشباعاً لنهم ادبي يطلب صاحبه الإبداع والخروج بجديد عنى خط التقليد الملتمزم ، الجاف ، في عصر فسدت امور السياسة ، وتفرقت أجزاء الامبراطورية العباسية مزقاً ، وتعرضت لهجمات مرعبات من مختلف الجهات .

الفاظ الف ليلة وليلة ، جملة ، صوره ، اصطلاحاته ، فواتحه ، معارضه ، خواتمه ، من نسق واحد .

الدعوات ، التمنيات ، العصبية الاسلامية ، الملعب بالزمن ، تخطي حدود الامكنة ، ازدهار عالم الكتاب بالمتارف ، وانفجاعه بالآسسي ، كل ذلك منسوق مرتسم على خارطة الجنة والنار واصداء البعث والقيامة ، لدى القرآن الكريم ، كذلك فإنه لهاث المجتمعات والمدن والتقاليد والاخلاق . كل ذلك مهوور بالطابع العربي الاسلامي ، بعيداً عن اجواء مدن الفرس وسواها .

اذا كانت الاسماء في بعض الاحيان اجنبية ، فان المحتوى عربي اسلامي . ذلك لا ينقص من قدر الكتاب او يزيد ، فحقيقة مقداره انه وجد ، وانه كتاب عالمي .

معظم متارفه وتمعنه صدى لمتارف ومنام الجنة .

اكثر مظاهر العذاب فيه من اجواء جهنم ، والجانبان من مرسومات القرآن الكريم .

— السملا . عبقر ، وبار ، الشبصبان ، الفول ، صور من الجاهلية .

— الجحيم . الجنة ، الزقوم ، السندس الاخضر ، الانهار ، العسل ، من ادب الاسلام .

— صور المقامات (الهمذاني ، الحريري ، الزمخشري) تلفت إليه .

— خيال رسالة الغفران له إليه خبط .

— أسداء جمهورية افلاطون وما ترمى الى المسلمين من تراث الامم الاسطوري ، وبعض الصور الفلسفية في خيال الأندلسيين والمشاركة مما نشتم عبيره فيه ، وكل ذلك لعب دوره في تكوين جسد الف ليلة وليلة .

إنه ادب الكادحين البائسين ، يتحدى ادب الارستوقراطية المستلثين لظلال القصور ، واسماع السادة المتسلطين

هو ادب الحياة الصادق ، فوق ادب الصنعة الموارب ، يعرض صوراً لقلب الانسان واحلامه ، ونوازعه ، على مشارف ابناء الدهور .

جسد الكتاب :

استهل المؤلف كتابه بتقليد جرى عليه الاسلاميون ، فبسم الله ، وصلعم ، ودعا للمؤمنين ، ثم اشار الى غرضه من تأليف الكتاب ، وهو المائل في العظة والعبرة ، برده الاخبار ، والحكايات عن احوال الافراد ، والشعوب .

موضوع العبرة ، وبيان عجيب صنع الله في خلقه ، درج عليه مؤلفو الاسلام ، وعلى الاخفش شيخ مفكرهم وادبائهم ، الجاحظ .

« حكي والله اعلم ، انه كان فيما مضى من قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان ، ملك من ملوك ساسان ... »

— « والله اعلم » تقليد إسلامي شائع .

— اما السجع فهو من التزامات المتأخرين ، بدءاً بابن العميد ، فالصاحب بن عباد ، قالهذهاتي ومن جاؤوا بعدهم .

— « قديم الزمان ، وسالف العصر والاولان » عبارة شاعت في مآثور الادب الشعبي .

— « ملك من ملوك ساسان » تحديد نسبة الكتاب الى مرجع فارسي ، ومن هنا توهم المتوهمون ان مجود نسبة الملك الى اصل اجنبي يستلزم ان يكون الكتاب كما نسب للناسب ، ولم يدر في خلد الواهمين انها طريقة للكتابة ، ورغبة شائعة ومن هنا اضطرب شأن الجهشباري من القرن العاشر ، كما حدد بعضهم زمن ظهوره في مطالع القرن السادس عشر ، واخر دولة المماليك .

انكتاب لا يعين زمن ظهوره ، اما حوادثه فتبدا في عهد الساسانيين ، ولا تحديد للزمن

الذي توقفت فيه عن الجري ، وقد يخلط الكتاب اشياء التاريخ خلطاً فلا يستبين صوابه ، فما العمل ؟

العبارة وحدها هي التي تشير الى الزمان والمكان كما اسلفنا .

العبارة : كلمات فصيحة ، الى عامية ، سوقية ، تسلك سبيل السجع ، والتكرار أحياناً وتجري على التقليد الاسلامي في البدء والختام ، وفيها من الدعاء ، والاستغفار ، اشياء عدة ، كما يكثر فيها الالاحاح على الفاظ : العدل ، الظلم ، الخير ، الشر ، الخيانة ، الوفاء ، الحيلة ، اليأس ، المتع ، البائس ، السحر ، الطلاس .

اما الكوكب الذي يدور في إطار تلك الليالي فهو الجنس بكل اشواقه ، ومفاجاته ، ومكائده . ذلك جميعه ملحوظ منذ عصر الدويلات شائع زاهر في عصور سموها عصور الانحطاط ، حتى آخر عهد المماليك .

— لا يبعد ان تكون كتب القصص الشعبي لهنت في آفاق عصر الصليبيين ، وحوله ، حيث شاع فكر المغامرة ، والبطولة ، طلباً للمثال النادر ، وانتظاراً المخلص ، وتعويضاً عن واقع منسحق ، او تسلية للناس بعد ان شاع خيال الظل لابن دانيال .

— ابداع القصص سننة درجت عليها الشعوب ، ساعة تهرب النفوس من الواقع الملموس ، الى داخل النفس ، فينطلق الخيال ، وتلتفت الذاكرة ، شأنهم في ذلك شأن الذين ألزمتهم الطبيعة القاسية بزهريرها ، وتلوجها ان يوفلوا في سراديب الذات ، وينطلقون في آفاق الخيال ، ليلدعوا في القص .

— ثم إن الجمع ، والاقباس ، والاختراع ، ثلاثة وجوه تطل من جسد الف ليلة وليلة ولكنها بما فيها من جانب الاختراع وحده ، مدينة بخلودها ، وروعة بنيانها ، واجمل ما فيها قصة « عبدالله فاضل » .

— تلك الاسماء : شهریار ، شهرزاد ، دنيازاد لموسيقاها ، ولانتمائها الى لغة تداخلت في ادب العرب منذ عهد الامويين ، واستطالت في عهد العباسيين ، أصبحت في عهد الدويلات تجنح نحو الذكرى من جهة ، ونحو التركيز من اخرى ، مثلما دفعت العربية بالآلاف الكلمات في بحيرة تلك اللغة ، فاغنتها ، ونسبتها .

— معظم أبطال تلك الافاصيص فرسان ، تشوق النفوس الى الفرع بمآتهم ، وتترقب انتصاراتهم .

— العبيد والجواري ، والاماء ، يلعبون دوراً هاماً في مجرى حوادث الكتاب وأخصها : الغدر العشق ، والخدمة ، والفتك ، والسحر ، شأنهم قديماً كشأنهم اليوم ، فالاسود يختزن في جسده حرور شمس ، فهو لذلك مقصد المنتهيات .

— العفاريات عنصر هام من عناصر الف ليلة وليلة ، فهم رمز الزمان الذي يتبدل ، ويبدل وهم مفاتيح الخرافة والاسطورة ، إذ ان العاجز عن وعي وجوده ، يلجأ الى كل مفيب وخفي ليحل عقد حياته .

— الحقد ومظهره الغضب والانتقام ، حل شائع في الكتاب .

— الخلاص خاتمة مبهجة لافاصيص الف ليلة وليلة ، تأكيداً على انها من بنات الاختراع مقصوبة على مد الاهواء ، والنوازع .

— الموت وجه رابع ، يترصد تلك النفوس التي تتحرك شخصاً مع مسرح الكتاب ، وهو « هادم اللذات ومفرق الجماعات » وكثيراً ما ينتهي لتولد منه حياة جديدة .

— طائر الرخ ، الجواهر الكريمة ، الاماكن الغريبة ، الجنيات ، التحكم بالزمان من روائع السحرية .



« الف ليلة وليلة » مجموعة افاصيص خيالية ، بعضها يلهث فيه الواقع ، مؤلفها واحد غير معروف ، وزمن ظهورها لا يعتمد عن فلك المالبيك والصليبيين ، لفتها بين العامية والفصحى ، رصمت بشعر مخترع ، ومروي ،

قد لا يلتزم الشعر المخترع اشياء النحو والعروض شاعت في ثنائها مقابسات من افاصيص الشعوب وملاحمها ، بدأت بتقليد درجت عليه : « بلغني ايها الملك انسعيد ... » وانتهت كل حكاية ب : « وادرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح . » تلعب خيانة المراه في الدور الاله . الى جانب شكوك الرجل وقسوته ، وتنتهي بتفاهم شهريار وشهرزاد .

الكتاب عربي إسلامي تميز بالقدرة على الامتاع ، وتخطي الزمان والمكان ، مؤلفه موهوب خصيب ، ومثقف اريب ، ونائر على اوضاع المسلمين ، منهمر على اشياء الشعب والمحرومين لم نجر افاصيص الكتاب على النسق الفني للقصص الحديثة التي شاعت في الغرب منذ القرن الثامن عشر ، واستعلت في التاسع عشر ، ولكنها تبقى رغم ذلك نموذجاً عالمياً للقصص الرابع ، لا تبلى ملاطفه ، وممتعته على توالي الدهور .



المراجع

- ١ - الف ليلة وليلة (مجلدات ، طبع صبيح - القاهرة .
- ٢ - الف ليلة وليلة : سهر القلماوي .
- ٣ - معجم المصطلحات العربية : خليل سركيس .
- ٤ - قصصنا الشعبي : دكتور فؤاد علي .
- ٥ - من احوال الادب : احمد حسن الزيات .
- ٦ - القصة في الادب العربي : محمد يوسف نجم .
- ٧ - فن القصص : محمود تيمور .
- ٨ - دائرة معارف البستاني . ف . الفرام .
- ٩ - دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية . E. D. l'Islam .
- ١٠ - قصة الادب في العالم : للدكتورين احمد امين وزكي محمود .
- ١١ - الف ليلة وليلة : ميخائيل عواد - بغداد .
- ١٢ - الف ليلة وليلة : لغاروق سعد - الاهلية - بيروت .
- ١٣ - الف ليلة وليلة : القاهرة - الدراسات الادبية .
- ١٤ - الف ليلة وليلة : تحقيق العدوي - بولاق .
- ١٥ - الف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية - بيروت .

بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام

بقلم

هَدَى شَوْكَنْهَنَامُ

مجلة المورد - دار الجاحظ - بغداد

أما أقدم المخطوطات المصورة التي تنسب إلى مدرسة بغداد فهي :

كتاب البيطرة .

كتاب الترياق لجالينوس .

كتاب الحشائش أو خواص العقاقير لديسقوريدس .

كتاب الحيوان للجاحظ .

كتاب الحيل الميكانيكية أو « كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل » .

كتاب صور الكواكب الثابتة .

المدرسة البغدادية الحديثة .

يقع البحث في ٢٦ صفحة .

٣ - ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب للاستاذ نوري الراوي ويبحث في الموضوعات التالية :

أصول المدرسة المراقية لتصوير الكتاب .

معاني تصورات المصور البغدادية وخصائصها .
نظرة (عين الطائر) أو النظرة الشمولية عند المصور البغدادية .

اللامح الرئيسة لمدرسة بغداد من خلال رسوم الواسطي لمقامات الحريري .

بعض المخطوطات المراقية المصورة :

كتاب البيطرة ، كتاب خواص العقاقير لديسقوريدس ، كتاب كلية ودمنة .

يقع البحث في ١٨ صفحة وهو مترجم إلى اللغة الانكليزية في خمس صفحات .

أسهمت وزارة الثقافة والإعلام في إصدار مجموعة طيبة من الكتب التراثية عن بغداد بين دراسة وتحقيق ، وقد رأيت أن أعرض للقراء طائفة منها .

مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي

تراث الرسم البغدادية

ملامح مدرسة بغداد لتصوير الكتاب

أقامت وزارة الاعلام مهرجانا للواسطي في نيسان سنة ١٩٧٢ صدرت خلاله سلسلة فنية خاصة ، اخترت منها البحوث التالية :

١ - مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي للدكتور زكي محمد حسن : تضمن بعد المدخل الموضوعات التالية :

تسمية هذه المدرسة .

عصر هذه المدرسة ومراكزها الفنية .

موضوعات التصوير في مدرسة بغداد ،

مخطوطات الكتب العلمية المزوقة ، مخطوطات

الكتب الادبية المزوقة .

خصائص الاسلوب البغدادية في التصوير .

مصادر الاساليب الفنية في مدرسة بغداد .

يقع البحث في ٣٨ صفحة .

٢ - تراث الرسم البغدادية للدكتور محمد مكية : ابتدا بمقدمة عن دراسة فن التصوير الاسلامي في مدرسة الرسم البغدادية وحسوى الموضوعات التالية :

نشأة التصوير الاسلامي في بغداد .

مميزات فن التصوير البغدادية .

ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد

ضمن سلسلة كتب التراث (٢٦) قام الدكتور بشار عواد معروف بالتحقيق والتعليق على المجلد الاول من كتاب « ذيل تاريخ مدينة بغداد » تأليف الحافظ ابو عبدالله محمد بن سعيد المعروف بابن الديبشي المولود في سنة ٥٥٨ هـ والتوفى في سنة ٦٢٧ هـ ، تم الطبع ببغداد سنة ١٩٧٤م / ١٣٩٤ هـ ، في ٣٦٨ صفحة وقد ابتدا الكتاب بكلمات قالها الأورخسون في ابن الديبشي ثم مفاتيح الكتاب والملاحظات ، وتقديم للمحقق جاء في ٦٤ صفحة حوى الموضوعات التالية :

عناية العرب بتاريخ جماهير الامة .

تواريخ المدن .

تواريخ بغداد التراجمية .

سيرة ابن الديبشي .

سيرة موجزة جدا لحياته .

مكانته .

تاريخ بغداد لابن الديبشي .

موارد تاريخ ابن الديبشي .

اهمية تاريخ ابن الديبشي .

نسخ الكتاب .

المختصر المحتاج اليه : هل هو « كتاب » ؟

نهج العمل في التحقيق .

وقد اعتمد المحقق على اربع نسخ مخطوطة :

١ - نسخة المنذري : المجلد الاول موجود في مكتبة شهيد علي باستانبول يحمل الرقم ١٨٧٠ ويقع في ٢٤٦ ورقة من ضمنها طرة النسخة في كل صفحة منه ٢٢ - ٢٣ سطرا وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة . اوله بداية الكتاب (وهي الخطبة) واخره حرف الجيم ، وهذه النسخة مكتوبة بخط دقيق ، وعليها خط الامام زكي الدين ابي محمد عبد العظيم المنذري المصري المتوفى سنة ٦٥٦ هـ بملكية النسخة . ويشمل المجلد اثنين وعشرين جزءا حديثا وقد كتب سنة ٦٣٥ هـ بخط مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وفي اسفل الورقة الاخيرة من الجهة اليمنى على الحاشية كلمة « معارضة » للدلالة على ان النسخة مقابلة على الاصل المستنسخة منه ، وعلى النسخة ايضا قراءات لبعض العلماء مثبتة بخطهم ، منهم : ابن الصابوني المتوفى سنة ٦٨٠ هـ وصاحب كتاب « تكملة اكمال الاكمال » ، وفي النسخة خطأ في التجليد ادى الى تقديم تراجم وتأخير اخرى واختلاط بعضها ببعض .

وقد صورت مكتبة الاوقاف العامة ببغداد نسخة من هذا المجلد ، وحفظ في خزانها بالرقم (٥) .

والمجلد الثاني من نسخة المنذري محفوظ في المكتبة الاهلية بباريس تحت رقم (٥٩٢٢ عربيات) ويقع في ٢٤٦ ورقة وهذا المجلد هو تكملة للمجلد الاول المحفوظ في مكتبة (شهيد علي) ويشسبه بالوصف والخط والعنوان وملكية المنذري له المثبتة على طرة المجلد الذي يبدأ بحرف الحاء المهملة وينتهي بأخر الجزء الثالث والاربعين من الاصل . فرغ من نسحه سنة ٦٢٦ هـ بمقصورة الخطابة من جامع دمشق .

واعتبر المحقق هذه النسخة اصلا لانها ادق النسخ في الخط واقدمها ، ولانها نسخة المنذري الرجل الملىء بفن التراجم ، ولاحتوائها على قراءة بعض العلماء لها .

٢ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٥٩٢١) ، وهي تتكون من (٢٩٩) ورقة ، في كل ورقة (٢٣) سطر وفي كل سطر ١٠ - ١١ كلمة وخطها تعليق (فارسي) . وهي منسوخة من الجزء الاول الذي في مكتبة شهيد علي ، لكن لا يصرف ناسخها ولا تاريخ النسخ ، وفيها خروم وسقوبات .

٣ - نسخة المكتبة الاهلية بباريس (رقم ٢١٣٣) وهي تتكون من ٢١١ ورقة في كل ورقة ٢١ سطرا ، وفي كل سطر ١٠ كلمات ، والعناوين مكتوبة بخط اكبر وخطها واضح منقط لا يسير على نمط معروف من انواع الخطوط العربية لكنه شبيه بالنسخ .

وهذا المجلد هو المجلد الثاني من نسخة لا يعرف لها وجود ، واول هذا المجلد : ذكر من اسمه احمد واسم ابيه اسماعيل ، وينتهي بانتهاء الحاء المهملة . وهذه النسخة غير مؤرخة ، وقد استنتج المحقق بانها متأخرة نسبيا وليس لها فائدة لوجود تراجمها في نسخة المنذري .

٤ - نسخة كيمبرج (رقم ٢٩٢٤) وهي تتكون من ١٨١ ورقة في كل ورقة ٢٥ سطرا خطها مشق اعتيادي لا التزام فيه بقواعد الخط المعروفة ، وقد ذهب اولها وبقي من بدايتها عجز ترجمة ابي الخير عبدالله بن عبدالله الرواحي الجوهري ، وينتهي المجلد بنهاية حرف العين من تاريخ ابن الديبشي ، وهذه النسخة هي المجلد الثالث من نسخة لا علاقة لها بالنسخ السابقة وهي تفيد في تكملة نسخة المنذري المشار اليها سابقا وتبدأ من ترجمة « علي

ان الحسن بن عبد الله بن هبة الله المعروف بابن مسلمة « والى نهاية المجلد » .

ومن مجموع هذه النسخ نحصل على تراجم جميع « المحمدين » وباقي الكتاب الى نهاية حرف العين ، ولعله يكون اكثر قليلا من ثلثي الكتاب .

وتنتهي المقدمة بخمس صور من مختلف النسخ التي اعتمدها المحقق في تحقيقه .

وبدا الكتاب بمقدمة المؤلف ثم ذكر من اسمه محمد واسم ابيه احمد ،

ويحوي تراجم :

١ - محمد بن احمد بن سليمان بن ابراهيم الخطيب ، ابو الغنائم يعرف بابن القاري .

ويستمر الكتاب على هذه الطريقة :

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ابراهيم ،

٧ - محمد بن ابراهيم بن عبيد الله الواعظ ، ابو الفتح .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسماعيل ،

٧٨ - محمد بن اسماعيل بن الحسن بن عبد العزيز الضبي ، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسحاق ،

٨٢ - محمد بن اسحاق بن محمد بن هلال ابن الحسن بن ابراهيم بن هلال بن زهرون ، ابو الحسن بن ابي نصر بن ابي الحسن بن ابي الحسين ابن ابي علي بن ابي اسحاق الصائغ الكاتب .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه اسعد ،

٨٤ - محمد بن اسعد بن محمد بن نصر البغدادي ، ابو المنظر المعروف بابن حكيم الفقيه الحنفي الواعظ .

الاسماء المفردة في حرف الالف من آباء من اسمه محمد .

حرف الباء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بركة ،

٨٩ - محمد بن بركة بن خلف بن الحسن بن كرما الصلحي الاصل ، ابو بكر .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه بختيار .

٩١ - محمد بن بختيار بن عبدالله ، ابو عبدالله الشاعر المعروف بالابنك .

الاسماء المفردة في حرف الباء في آباء من اسمه محمد .

حرف التاء في آباء من اسمه محمد ،

٩٦ - محمد بن تركانشاه ، ابو الوفاء الحاجب .

حرف الثاء في آباء من اسمه محمد ،

٩٨ - محمد بن ثابت بن يوسف بن عيسى ، ابو بكر النحوي .

حرف الجيم في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه جعفر ،

٩٩ - محمد بن جعفر بن عقيل البصري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو العلاء .

حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسن ،

١٠٥ - محمد بن الحسن بن علي الواعظ .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه الحسين ،

١٢٧ - محمد بن الحسين بن احمد بن حمدون بن يحيى المقرئ ، ابو غالب العدل .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمزة ،

١٤٨ - محمد بن حمزة بن محمد بن عبدالعزيز ابن علي ، ابو عبدالله

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حامد ،

١٥٥ - محمد بن حامد بن فارس بن الحسين الذهلي ، ابو الحسين .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حمد .

١٥٩ - محمد بن حمد بن اسماعيل الهمداني .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه حيدرة ،

١٦١ - محمد بن حيدرة بن عمر بن ابراهيم بن محمد بن محمد بن احمد بن علي . . . ابو المعمر ابن ابي الناقد العلوي الحسيني الزيدي .

الاسماء المفردة في حرف الحاء في آباء من اسمه محمد ،

حرف الخاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه خلف ،

١٦٦ - محمد بن خلف ابن الخشاب ، ابو الحسن البزاز .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

١٧٣- محمد بن دلف بن كرم بن فارس العكبري الاصل البغدادي المولد والدار ، ابو الكرم ابن ابي لفرج .

حرف الدال في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ذاكر ،

١٧٤- محمد بن ذاكر بن محمد بن احمد بن عمر الخرقى ، ابو بكر .

حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه ربحان ،

١٧٦- محمد بن ربحان بن عبدالله الثقفي . ابو عبدالله .

الاسماء المفردة في حرف الراء في آباء من اسمه محمد ،

حرف الزاي في آباء من اسمه محمد ،

١٨١- محمد بن زيد بن ابي نصر ، واسمه احمد ، بن علي بن بارس ، ابو محمد ،

حرف السين في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد ،

١٨٢- محمد بن سعد بن سعيد ابن التاريخ ، ابو البركات الفسالي يعرف بالحنبلي .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعيد ،

١٨٩- محمد بن سعيد بن محمد بن عمر ابن الرزاز ابو سعد بن ابي منصور .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه سعد الله ،

١٩٤- محمد بن سعد الله بن محمد بن عمر ابن سالم ، ابو عبدالله .

حرف الصاد في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه صدقة ،

١٩٨- محمد بن صدقة بن محمد ابن البوشنجي ابو المحاسن الكاتب .

الاسماء المفردة في حرف الصاد في آباء من اسمه محمد ،

حرف الطاء في آباء من اسمه محمد ،

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طاهر ،

٢٠٢- محمد بن طاهر الاندلسي ، ابو عبدالله .

ذكر من اسمه محمد واسم ابيه طلحة ،

٢٠٦- محمد بن طلحة بن علي بن احمد بن الحسين بن عمر العامري ، ابو احمد المالكي .

حرف الظاء في آباء من اسمه محمد ،

٢٠٨- محمد بن ظفر بن احمد بن ثابت بن محمد انطرقى ، ابو عبدالله بن ابي الغنائم بن ابي العباس .

وهذه الترجمة هي الاخيرة في الكتاب وبها ينتهي المجلد الاول ، ويليه المجلد الثاني واوله حرف العين في آباء من اسمه محمد ، وهو قيد الطبع الان .

والكتاب مزود بفهارس عامة للمترجمين ، والاحالات ، والاماكن ، والكتب الواردة في المتن . والاحاديث النبوية ، والقوافي ، ونظم الدولة العباسية . وجريدة المصادر والمراجع ، والمحتويات .

الدرس النحوي في بغداد

ضمن سلسلة الكتب الحديثة (٧١) نشر الدكتور مهدي الخرومي كتاب الدرس النحوي في بغداد ، ويتضمن الموضوعات التالية بعد المقدمة والتمهيد :

الكسائي ، علي بن حمزة (توفي سنة ١٨٩هـ) اصحاب الكسائي .

الفراء ، ابو زكريا يحيى بن زياد (توفي سنة ٢٠٧هـ) اصحاب الفراء .

ثعلب ، ابو العباس احمد بن يحيى (توفي سنة ٢٩١هـ)

خصائص المذهب البغدادي .

غلبة المذهب البصري ،

كوتولدفيل ومدرسة الكوفة

بروكلمان ومدرسة الكوفة

شوقي ضيف ومدرسة الكوفة

تلاميذ ثعلب والمبرد .

الطائفة الاولى جماعة ثعلب

الطائفة الثانية جماعة المبرد

الطائفة الثالثة جماعة ثعلب والمبرد معا .

الدرس النحوي في القرن الرابع :

ابن خالويه

ابن فارس
ابو الطيب المتنبي

الدرس النحوي في الآفاق :

- ١ - الدرس النحوي في مصر
- ٢ - الدرس النحوي في الاندلس

شيوخ البغدادية وتاريخه

التسمية بالكوفية

توفي سيف والمذهب البغدادي المعلوم

الانصاري والمدرسة البغدادية المزعومة

خاتمة البحث .

وقد زود الكتاب بفهارس عامة لاعلام الاشخاص والكتب الواردة في سائب البحث ، والآيات والاشعار ، وانصاف الابيات ، اضافة الى مصادر البحث ومراجعته وفهرست الموضوعات . وقد تم طبع الكتاب ببغداد سنة ١٣٩٥/١٩٧٥ ، وجاء في ٢٨٠ صفحة .

بغداد مدينة السلام

في سلسلة التراث (٦١) صدرت سنة ١٩٧٧ الطبعة الاولى من كتاب « بغداد مدينة السلام » لابن الفقيه الهمداني : احمد بن احمد بن محمد بن اسحق بن ابراهيم الاخباري ابو عبدالله . بتحقيق الدكتور صالح احمد العلي حيث ابتداه بمقدمة عن « كتاب ابن الفقيه الهمداني عن بغداد واهميته » درس فيها الموضوعات التالية :

مكانة بغداد ، الكتب المؤلفة عن بغداد ، ابن الفقيه الهمداني وكتابه في البلدان ، محنصريات الكتاب ، مصادر ، ابن الفقيه والخطيب ، ابن الفقيه الهمداني وياقوت ، مدح بغداد وذمها ، يزددجرد وكتابه في فضائل بغداد ، كتب الفضائل ، فضائل مصر ، محتوى كتاب يزددجرد ، الحمامات .

وقد اعتمد المحقق على نسخة فريدة مصورة عن مخطوطة مشهدة اعارها له الاستاذ بول كاله ، ونسخة اخرى مصورة عن الصورة التي اقتناها مسيد الدراسات الاسلامية اعارها له الدكتور حسين محفوظ وهذه النسخة اوسع من المختصر المطبوع لكتاب البلدان الذي نشره دي غويه ضمن السلسلة الجغرافية العربية ، ومن المقتطفات التي اقتبسها ياقوت من معجم البلدان والاشعري في تاريخ قم . فهذه النسخة كثير من مادتها موجود في المختصر ، الا انها تحوي مادة اضافية غنية عن

جباية العراق وسامرا وواسط ومفاخرة لاهل ابصرة وفصلا واسعا عن بغداد ، هو المقصود بالنشر في هذا الكتاب . تم طبع فصل بغداد من كتاب الهمداني في باكو بانزنكوغراف مع مقدمة بالروسية عن بغداد . وهذا المطبوع نادر وخال من التعليقات . وفي هذه المخطوطة الفريدة بعض الثغرات سببها النسخ كالبشر في الكلام عن المقابر ، وكذلك توزيع المادة المتعلقة بموضوع واحد على اكثر من مكان ، وبعض النصوص المتحمة التي لا تنجم في مادتها مع ما قبلها او بعدها ، ويعود هذا الاضطراب في توزيع المادة ايضا الى التجليد .

ثم ان هذا الفصل الخاص ببغداد ليس له الا عنوان عام هو « القول في مدينة السلام » والكلام بعده سرد متتابع غير مقسم الى فصول صغرى او فقرات مميزة .

ويتضمن الكتاب الموضوعات التالية بعد العنوان العام « القول في مدينة السلام بغداد » .

- اسمها .
- تأسيسها .
- غارة النني .
- بحث المنصور عن عاصمة .
- اختيار الموضع .
- جمع العمال .
- استخدام ابي خنيفة .
- السور .
- موقعها .
- قصة الاقلاص .
- التخطيط .
- اهمية التدوير .
- وصف المدينة .
- محاولة هدم ايوان كسرى .
- الاسواق .
- ابنية اخرى .
- تاريخ اكتمال البناء .
- بناء الرصافة .
- تكاليف البناء .
- النجوم .
- شعر في مدح بغداد .
- تاريخ التحول .
- الموكلون بالبناء .
- الابواب .
- القرى في موقع بغداد .
- القطائع .

- العباسية .
- معالم اخرى .
- رحا البطريق .
- الجسور .
- الجانب الشرقي .
- السويق .
- مساحة بغداد .
- مدح بغداد .
- عود الى الانقطاع .
- نزول الخلفاء بها .
- سامرا .
- نص مقحم .
- يزدجرد بن مهبنداد .
- مناخ بغداد .
- علماء بغداد .
- المنتجات الزراعية .
- الازدهار الصناعي .
- شهرة منتجات بغداد .
- منتجات مصر .
- تمور بغداد .
- القطن .
- النمو العمراني .
- مدح بغداد .
- كلام السرخسي .
- اخطار توسع بغداد .
- خصائص مواقع مدن العراق الاخرى .
- مميزات بغداد .
- خصائص الموقع .
- دجلة والفرات .
- عود الى خصائص الاقاليم .
- العراق مركز الدول الكبيرة .
- خصائص الاقليم الرابع .
- من اسباب انهيار الامويين .
- خصائص المنصور .
- لم يمت ببغداد خليفة .
- النجوم .
- مدح بغداد .
- رجع الى كلام يزدجرد .
- الحمامات .
- هجرة الناس الى بغداد .
- سعة الجامعين .
- سعة المسجد الحرام .
- مقدار الاستهلاك من دهن البزر .
- استهلاك البقول .
- استهلاك الاعشاب .
- عدد المنازل .
- استهلاك اللحم .
- توفر المحاصيل .
- توفر الادوية .
- عود الى استهلاك اللحم .
- المحاصيل الاخرى .
- بيوت الشطرنج .
- اقوال في مدح بغداد .
- ما ذكر في ذم بغداد وكراهة نزولها .
- اقوال من ذم بغداد .
- نهر دجلة .

وجمع المحقق في نهاية الكتاب كلا من هوامش المقدمة والنص وبشمل : هوامش القول في مدينة السلام بغداد ، هوامش يزدجرد ، هوامش رجوع الى كلام يزدجرد ، ثم وضع فهرسين للاعلام ، والامكنة والبلدان ، هذا والكتاب يقع في ١٩٢ صفحة وقد طبع في دار الطليعة بباريس .

تاريخ حوادث بغداد والبصرة

عن سلسلة كتب التراث (٧٣) صدر كتاب « تاريخ حوادث بغداد والبصرة من ١١٨٦ الى ١١٩٢ هـ / ١٧٧٢ - ١٧٧٨ م » تأليف عبدالرحمن بن عبدالله السويدي البغدادي المولود سنة ١١٢٢ هـ (١٧٢٠ م) في الفترة الاخيرة من حكم والي بغداد حسن باشا (تولى بغداد من ١١١٦ الى ١١٢٦ هـ / ١٧٠٤ - ١٧٢٣ م) والمتوفى سنة ١٢٠٠ هـ / ١٧٨٥ م : حقق الكتاب وقدم له وعلق عليه الدكتور عماد عبد السلام رؤوف وقد طبع ببغداد سنة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م في ١٦٨ صفحة .

ابتدا الكتاب بتمهيد للمحقق عن دراسة تاريخ العراق واهمية كتاب السويدي ومضمونه ومكانته والنسخة التي حقق الكتاب عليها ، ومنهج التحقيق ، ثم يقدم دراسة عن « مؤلف الكتاب عبد الرحمن السويدي » تتضمن الموضوعات التالية :

سيرته . سيرته ، آثاره :

اولا - في التاريخ والسير .

ثانيا - في الفقه .

ثالثا - في الحكمة والعقائد والنصوف .

رابعاً - في النحو والبلاغة .

خامساً - في الأدب والشعر .

سادساً - في علم الفلك .

وقد اعتمد المحقق على نسخة خطية فريدة ، بخط مؤلفها ، موجودة في خزانة كتب المدرسة القادرية العامة الكائنة في جامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني ببغداد كتب عليها بخط متأخر العبارة « مؤلفه عبدالرحمن السويدي » وهي لا تؤثر في صحة نسبة المخطوطة الى مؤلفها السويدي .

تقع المخطوطة في (٥٦) ورقة ، مقياسها ١٦x٢٠ سم . وفي كل صفحة ١١ سطرا ، مكتوبة بخط نسخ معتاد واضح ، وفيها شطب المؤلف على بعض العبارات مما رأى ان يغيره ، وكتب فوقها او بجوارها على الهامش عبارات اخرى بدلها وحرف بعض الاسماء احيانا ، ولغة الكتاب عربية بينة مسجوعة احيانا مع ابيات قليلة من نظم المؤلف ، ولا يخلو الكتاب من اخطاء املائية ونحوية لكنها قليلة واغلبها يتعلق بطريقة رسم الهزرة او الالف المقصورة .

والكتاب نموذج لفن كتابة « المذكرات الشخصية » التي يؤرخ اصحابها فيها لاحداث عصرهم من خلال تاريخهم لفترة معينة من فترات حياتهم ، لذا جاء الكتاب سردا متتابعا خاليا من العناوين والتقسيم الى فقرات مميزة . وقد وصف فيه السويدي فترة مهمة من تاريخ العراق الحديث في اواخر القرن الثامن عشر للميلاد (الثاني عشر للهجرة) ، وهي فترة حافلة باحداث سريعة متتالية وبتغيرات جسيمة ، حيث وفد الطامعون على بغداد فالحلة فالبصرة ثم الزبير وغيرها من المدن وخلف وراءه نالاسي والالام ، كما حاصرت جيوش كريم خان البصرة ودخلتها بعد دفاع ومقاومة ، وفي بغداد طالب عمر باشا الوالي المملوكي بنجيدات عسكرية لمواجهة الموقف ، بينما انهم باضاعته البصرة وايدت الدولة العثمانية هذه الدعوى لضرب المالكيك والتخلص منهم ، ثم عزل عمر باشا وقتل ، ومن خلفه لم يستطع انقاذ الموقف في البصرة ، وفي الوقت نفسه نجحت الماسمي لدى الباب العالي بالاعتماد على المالكيك ، فعين عبدالله باشا واليا على بغداد ، وكان ضعيف الشخصية ، فاستغل الموقف احسد ذوي النفوذ في السراي وهو عجم محمد وجمع الى صفه المبعوث الرسمي للباب العالي في بغداد ، وعندما شك سكان بغداد بنوايا عجم تجمعوا ضده وقد تزعمهم مؤلف الكتاب ، ثم تزعم الموقف ابناء قبيلة

المبيد العربية ، فلعبوا دورا كبيرا في قيادة البغداديين ودامت الفتنة اكثر من سنتين استعملت خلالها الاسلحة الثقيلة ، حتى اقر النظام احد القادة المالكيك وهو حسن باشا ، لكن ضعفه ادى الى مرار عجم وتحالفه مع احد قطاع الطرق في شرق بغداد واعلن نفسه واليا وهدد بغداد ، وعجز الوالي حسن عن اتخاذ القرارات ادى الى فشل المحاولات المتكررة للقضاء على هذا الخطر وعندما شعرت القيادات المحلية بخطورة الوضع قامت سنة ١١٧٨م / ١١٩٤هـ بحركة تمرد ضده ، انتهت بخروجه من بغداد وتعيين سليمان باشا واليا على بغداد وتوابعها .

والكتاب مزود بثبت لمراجع التحفيق وفهارس للاعلام ، والامكنة والبقاع ، والوظائف والمؤسسات الاجتماعية ، والاسلحة والادوات والملابس والامتعة والمحتويات .

اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي

في سلسلة دراسات (١٦١) نشر كتاب « اسواق بغداد حتى بداية العصر البويهي ١٤٥ - ٢٢٤هـ / ٧٦٢ - ٩٤٥م » للدكتور حمدان عبدالمجيد الكبسي ، تضمن بعد المقدمة اربعة ابواب وفي كل باب ثلاثة فصول :

الباب الاول : نشأة اسواق بغداد وتخطيطها

الفصل الاول : بناء المدينة المدورة .

ويتضمن الموضوعات التالية :

- ١ - اختيار موقع المدينة المدورة وتخطيطها .
- ٢ - تسمية المدينة المدورة .
- ٣ - موقع الاسواق في المدينة المدورة .

الفصل الثاني : انتقال الاسواق الى الكرخ

ويبحث الموضوعات التالية :

- ١ - دوافع نقل الاسواق من داخل المدينة المدورة .
- ٢ - مواقع اسواق الكرخ .

الفصل الثالث : اسواق الرصافة

ويبحث في :

- ١ - الدوافع السياسية والضرورات الاقتصادية .
- ٢ - مواقع اسواق الرصافة .

الباب الثاني : النشاط التجاري في اسواق بغداد
الفصل الاول : العوامل المؤثرة في النشاط
التجاري بأسواق بغداد .

ويبحث في :

- ١ - تطور المجتمع واجراءات المسؤولين .
- ٢ - الزيادة في رواتب الموظفين .
- ٣ - زيادة أرزاق الجند .
- ٤ - منح الخلفاء والوزراء .
- ٥ - الاستقرار السياسي في بغداد .
- ٦ - معوقات النشاط التجاري في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : تخصص الاسواق وتعددتها :
ويبحث في :

- ١ - تخصص اسواق الكرخ .
- ٢ - تخصص اسواق الرصافة .
- ٣ - الاسواق الجامعة .

الفصل الثالث : السلع الواردة على اسواق بغداد
والصادرة عنها :

ويبحث في :

- ١ - الطرق المؤدية الى بغداد .
- ٢ - السلع الواردة على اسواق بغداد .
- ٣ - المعوقات التي قد تعوق وصول السلع الى اسواق بغداد .
- ٤ - المواد الصادرة عن اسواق بغداد .

الباب الثالث : المعاملات المالية والتجارية

الفصل الاول : اسلوب التعامل في اسواق بغداد
ويبحث في :

- ١ - النظام النقدي .
- ٢ - استعمال الصك .
- ٣ - استخدام السفتجة .
- ٤ - دور الصراف في اسواق بغداد .

الفصل الثاني : الاسعار والاحتكار
ويبحث في :

- ١ - الزيادة المفردة في الاسعار .
- ٢ - الاحتكار .
- ٣ - موقف السلطة من زيادة الاسعار .

الفصل الثالث : الرقابة على الاسواق
ويبحث في :

- ١ - تطور وظيفة المحتسب .
 - ٢ - تعيين عرفاء على الاسواق .
- الباب الرابع : دور اهل السوق في الحياة العامة

الفصل الاول : العاملون في الاسواق
ويبحث في :

- ١ - اجناس العاملين في الاسواق .
- ٢ - دخل اهل اسواق بغداد .
- ٣ - مكانة اهل السوق الاجتماعية .

الفصل الثاني : اشتراك اهل السوق في الفتن
والاضطرابات الداخلية

ويبحث في :

- ١ - موقف اهل السوق من النزاع بين الامين والمأمون .
- ٢ - موقف اهل السوق من الاضطرابات الداخلية .

الفصل الثالث : المنازعات بين اهل السوق
ويبحث في :

- ١ - تكتل اهل الحرف .
- ٢ - المنازعات بين الاصناف .

والكتاب خانمة وفهارس للاعلام والاماكن
والمصادر العربية منها مخطوطة ومطبوعة : والاجنبية
والمحتويات : مع خلاصة باللغة الانكليزية وعدة
مخططات لبغداد في اول ادوارها العباسية . وقد
صدر الكتاب عام ١٩٧٩م / ١٣٩٩هـ في ٤٨ صفحة .

بَغْدَادُ فِي بَيْلُوغَرَفِيَا الْعِمَارَةِ وَالْفُنُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بقلم

د. آبي كرزويل

ترجمة

سلمان فيقارزوي

مكتبة المتحف العراقي - بغداد

هذه قائمة ذكرها كرزويل في كتابه « بيلوغرافية عن العمارة والفنون الإسلامية الى سنة ١٩٦٠ » مرتبة هجائيا حسب المؤلف ، تضم الكتب والمقالات المتعلقة ببغداد ، قمت بترجمتها الى العربية لينتفع منها الباحثون والتخصصون ورواد التراث ، كما واشكر الاستاذ عبدالحميد العلوجي رئيس تحرير مجلة المورد على توجيهاته الجادة ، راجيا المولى القدير ان يوفقنا جميعا لخدمة التراث .

*

(A)

من زمن الحرب هو القصر العباسي وطاق
كسرى . مجلة اخبار لندن المصورة ، ١٥
نيسان ١٩٤٤ ، صص : ٤٤٤ - ٤٤٥ ، مع
سبعة صور .

3. Asad Talas. L'Enseignement chez les
Arabes. La Madrasa Nizamiyya et his-
toire. Paris, Geuthner, 1939. pp : XII
(12) and 125, with 4 plates. see pp :
26-33, 53-54 and is aplan of the Mad-
rasa Mirjaniya.

اسعد طلس . مدارس العرب ؛ المدرسة النظامية
وتاريخها . باريس ، غوثنر ، ١٩٣٩ ، ١٢
ص و ١٢٥ مع اربع لوحات ثم ملاحظة
الصفحات ٢٦ - ٢٣ ، ٥٢ - ٥٥ واللوحات

1. Anastase. Restes de monuments Abba-
sides á Baghdad. Al-Machriq, vol. 10,
1907 pp : 300-304 (in Arabic)

الاب انستاس ماري الكرمل . بقايا النصب
العباسية في بغداد ، مجلة المشرق ١٩٠٧ ،
المجلد العاشر ، صص : ٣٠٠ - ٣٠٤
(بالعربية) .

2. Anonymous. Wartime restoration of
two famous building In Iraq - The Ab-
basid palace, Baghdad and the Arch of
ctesiphon. The illustrated London news,
15th. April, 1944, pp : 444-45 with 7
illus.

مجهول المؤلف . احياء بنايتين مشهورتين في العراق

كرزويل ، ل. ا. سي . جامع المنصور الكبير في بغداد . مجلة العراق ، مجلد (1) ص ١٠٥ - ١١١ ، ١٩٣٤ ، مع شكلين تختلف عما ذكره هيرتسفيلد .

(H)

9. Huart, Clement. Histoire de Bagdad dans les temps modernes. pp. 14 and 231 with 2 plates. Paris, Leroux, 1901. "Topographie de la ville de Bagdad" pp: VI - XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ص ١٤ ، ٢٢١ مع لوحين . باريس ، ليروكس ، ١٩٠١ ، طبوغرافية بغداد ص ٦ - ١٤ . عربيه وعلق عليه ناجي معروف . بغداد ، ١٩٦١ .

10. Iraq. Directorate of Antiquities. Remains of the Abbasid palace in Baghdad citadel. Baghdad, Government Press, 1935. illustrated with 7 figures and 47 plates. pp : 29 and 47.

العراق . مديرية الآثار العامة . بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٥ ، مصور مع (٧) أشكال و (١٧) لوحة الصفحات ٢٩ ، ٣٠ .

11. ———. Dalil Mathaf al-Athar - Arabiya fi Khan Marjan bi Baghdad. (Guide to the Arab Museum at Khan Marjan at Bagdad) Bagdad, Government Press, 1938. pp : III and 47 with 47 plates see pp : 1-16 and plates 1-13 for the architecture of Khan Marjan and plates 14-20 for stucco dados, Mihrabs, etc. transported to the museum.

العراق . مديرية الآثار العامة . دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان ببغداد . بغداد ، مطبعة الحكومة ، ١٩٣٨ ، ص ٣ ، ٤٧ مع ٢٨ لوحة انظر الصفحات (١ - ١٦) واللوحات (١ - ١٣) لعمارة خان مرجان واللوحات (١٤ - ٢٠) والمحراب الذي نقل الى المتحف العراقي .

12. Ishaq, Raphael Babu. Mahallat ash-shammasiya bi Baghdad fi Ahd al Khilafa al-Abbasiya (The Shammasiya quarter in Bagdad in the time of the Abbasid Khalifate) Sumer, 1953 vol. 9, No. 1, pp : 132-154.

٢ - ٤ (غير مرقمة) . اللوحة الثالثة هو تخطيط للمدرسة المرجانية .

(B)

4. Borghese, principe scipione. In Asia Siria - Euphrate - Babylonia. Con 235 illustrazioni da fotografie Large. Bergamo, 1904. Bagdad chapt. 10, 11.

يودغيس ، پرنسيپ سيبيون . في آسيا - سوريا - الفرات - بابل مع ٢٣٥ صورة برغاموا ، ١٩٠٤ . يضم الفصل العاشر والحادي عشر عن بغداد .

5. Bowen, Harold. The Nizamiya Madrasa and Bagdad Topography. Jour. Roy. Asiatic. socy., 1928, pp : 609-614, with a map. A discussion of the divergent views of Massignon and Levy.

بون ، هارولد . المدرسة النظامية وطبوغرافية بغداد . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٨ ص ص : ٦٠٩ - ٦١٤ مع خارطة وتعليق على الصور لمانسون وليفي .

6. Bukhsh, S. Khuda. Bagdad. Journal of Indian History, vol. 4 No. 2, pp : 44-70. see pp : 45-47 and 52 ff.

بخش ، إس . خدا . بغداد . مجلة تاريخ الهند ، مجلد (٢) عدد ٢ ، ص ص ٤٤ - ٧٠ . انظر الصفحات ٤٥ - ٤٧ و ٥٢ .

(C)

7. Coke, Richard. Bagdad, the city of peace. London Thornton Butterworth, 1927. see pp : 29-43. pp : 343, 12 plates and a map.

كوك ، ريتشارد . بغداد ، مدينة السلام . لندن ؛ ثورنتون بتروورث ، ١٩٢٧ . ص ٢٤٣ مع (١٢) لوحة وخارطة ، انظر صفحة ٢٩ - ٣٢ . نقله الى العربية وقدم له وعلق عليه مصطفى جواد وفؤاد جميل يقع في جزاين طبع في بغداد ، ١٩٦٧ .

8. Creswell, K. A. C. The great mosque of Al-Mansur at Bagdad. Iraq, vol. 1, 1934. pp. : 105-111 with 2 figs. A proposed reconstruction different from that of Herzfeld.

(L)

17. Le Strange, Guy. Baghdad during the Abbasid Caliphate. Atopographical summary, with anote of the contemporary Arabic and persian authorities. Journ. Roy. Asiatic society, 1899. pp : 847-893, with 2 plates. Review p. schwarz, O.L.Z. vil. 28, cols : 931-2.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، موجز طبوغرافي مع ملاحظات وشروح بالمرية والفارسية . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٨٩٩ : ص ٨٤٧ - ٨٩٢ مع لوحتين . وقد عرف بهذا الكتاب لغة فرنسية في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في ألمانيا ، مجلد ٢٨ : العمود ٩٢١ - ٩٢٢ . « ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . بغداد ، ١٩٣٦ » .

18. ————. Baghdad during the Abbasid Caliphate, from contemporary Arabic and persian sources. with 8 plans., oxford; clarendon press 1900. pp : 31 and 381. Review by G. Kampffmeyer, O.L.Z., vol. 6, pp : 418-419.

لسترانج ، غي . بغداد في عهد الخلافة العباسية ، شروح من المصادر العربية والفارسية . اكسفورد ، مطبعة ملارندون ، ١٩٠٠ ، مع (٨) مخططات ص ٣١ ، ٢٨١ يذكر فيها بغداد كما وعرفه كمبفماير في مجلة الأدب الشرقي التي تصدر في ألمانيا مجلد ٦ ص ١١٨ - ١١٩ . « ترجمه عن الانكليزية وعلق عليه بشير فرنسيس في جزاين . ط ١ ، بغداد ، ١٩٣٦ » .

19. Levy, Reuben. The Nizamiya Madrasa at Baghdad. Journ. Roy. Asiatic socy., 1928, pp : 265-270.

ليفي ، رويبن . المدرسة النظامية ببغداد ، مجلة الجمعية الآسيوية الملكية ، ١٩٢٨ : ص ٢٦٥ - ٢٧٠ .

20. ————. A Baghdad chronicle. Cambridge, univ. press, 1929. pp : XII, and 279, with 4 plates see 1. The building of the city pp : 11-25

ليفي ، رويبن . تاريخ بغداد . كمبرج ، مطبعة الجامعة ، ١٩٢٩ ، ص ١٢ ، ٢٧٩ مع أربع

أسحق ، رفائيل بابو . محلة الشماسية ببغداد في عهد الخلافة العباسية ، سومر ، مجلد ٩ : الجزء الأول : ١٩٥٣ : ص ١٢٢ - ١٥٤ .

(K)

13. Kühnel, Ernst. Drachenportale. Zeitsch. für Kunstwissenschaft, vol. IV, 1950. Berlin, pp : 1-18, with 21 illus. Includes the Talisman Gate of Baghdad.

كينل ، إرنست . باب الطلسم . مجلة علوم الفن . برلين ، مجلد ٤ ، ١٩٥٠ : ص ١ - ١٨ مع (٢١) صورة يتضمن طلسم باب بغداد .

14. Kurkis, Awwad-Al-Madrasa al-Mustansiriya bi Baghdad. (The Mustansiriya Madrasa at Baghdad) Sumer, vol. 1, No. 1, 1945 pp : 76-130, with 12 plates and 3 figs. with a summary in English pp : 12-25.

كوركيس عواد . المدرسة المستنصرية ببغداد . سومر ، مجلد ١ : الجزء الأول ، ١٩٤٥ ، ص ٧٦ - ١٣٠ ، مع (١٢) لوحة وثلاثة اشكال مع موجز بالانكليزية ص ١٢ - ٢٥ .

15. ————. al-Madrasa al-Mirjaniya. (The Mirijaniya Madrasa), Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 125-126.

كوركيس عواد . المدرسة الميرجانية ، سومر ، مجلد (٢) ، الجزء الأول ، ١٩٤٦ : ص ١٢٥ - ١٢٦ .

16. ————. ad-Dar al-Muizziya min Ashhur mabani Baghdad fi'l qarn ar-Ra'bil'l-Hijra. (The Muizziya palace : one of the most famous buildings of Baghdad in the fourth century of the Hijra) Sumer, vol. 10, No. 2, 1954 pp : 197-217.

كوركيس عواد . الدار المعزية من اشهر مباني بغداد في القرن الرابع الهجري . سومر ، مجلد ١٠ : الجزء الثاني ص ١٩٧ - ٢١٧ .

مصطفى جواد . القصر العباسي في القلعة ببغداد
وهو دار المسناة العتيقة من آثار الناصر لدين
الله العباسي . سumer ، مجلد ١ الجزء الثاني ،
١٩٤٥ ص ٦١ - ١٠٤ ، مصور مع ٨
لوحات وثلاثة اشكال .

26. ————. Imárát al-Qarn as-Sadis
ad-Dakhma fi Janib Sharqi min Baghdad
Kharij Dar al-Khilafa (The great build-
ings of the sixth century on the eas-
tern side of Baghdad outside the Dár
al-Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946,
pp : 55-76, with 2 illus. and a map.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة
في الجانب الشرقي من بغداد ، خارج دار
الخلافة ، سumer ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ،
١٩٤٦ ص ٥٥ - ٧٦ مع لوحتين وخارطة .

27. ————. Imárát al Qarn as-Sadis
ad-Dakhma fi Dár al-Khilafa al-Abba-
siya. (The glorious buildings of the
sixth century in the Abbasid Dár al-
Khilafa) Sumer, vol. 2, No. 2, 1946, pp:
197-213, 1 fig.

مصطفى جواد . عمارات القرن السادس الضخمة
في دار الخلافة العباسية . سumer ، مجلد
٢ ، الجزء الثاني ، ١٩٤٦ ، ص ١٩٧ -
٢١٢ ، مع شكل واحد .

28. ————. al'Imárát al-Islamiya al-
tiqiya al qáima fi Baghdad (The old
Islamic buildings still existing in Bagh-
dad) Sumer, vol. 3, No. 1, 1947, pp :
38-59, with 8 plates.

مصطفى جواد . العمارات الاسلامية العتيقة
القائمة في بغداد . سumer ، مجلد ٣ ، الجزء
الاول ، ١٩٤٧ ، ص ٢٨ - ٥٩ ، مصور
مع ٨ لوحات .

29. ————. ar-Rubut al-Baghdadiya
wa atharuhá fi'th-thaqafat al-Islamiya.
(The Ribáts of Baghdad and their in-
fluence on Islamic Learning) Sumer,
vol. 10, No. 2, 1954. pp : 218-249.

مصطفى جواد . الربط البغدادية واثرها في الثقافة
الاسلامية ، مجلة سumer ، مجلد ١٠ ، الجزء
الثاني ، ص ٢١٨ - ٢٤٩ ، ١٩٥٤ .

لوحات لاحظ الملحق الاول في بناء مدينة
بغداد ص ١١ - ٢٥ . يتضمن الحياة
الاجتماعية والسياسية في عهد الخلافة
العباسية في بغداد .

21. Liloyd, Seton. Discovery in the Madra-
sat al Mirjanía (Mirjan Mosque), Su-
mer, vol. 2, No. 1, 1946 pp : 10-12.
Discovery of the fine carved brick deco-
ration of the interior when acoating of
plaster was stripped off.

لويد ، ستن . اكتشافات في المدرسة المرجانية
(جامع مرجان) سumer المجلد الثاني ، الجزء
الاول ، ١٩٤٦ ص ١٠ - ١٢ .

(M)

22. Massignon, Louis. Les saints musul-
mans enterres a Bagdad. Revue de
L'Hi-stoire des Religions XXVIII, 1908,
pp : 329 - 338.

ماسينون ، لويس . دخول رجال الدين المسلمون
الى بغداد . مجلة اخبار تاريخ الديانات ،
مجلد ٢٨ ، ١٩٠٨ ص ٢٢٩ - ٢٢٨ .

23. ————. Les Medresehs de Bag-
dad. Bulletin d' L'Institut francais d'Ar-
cheologie orientale, 1909 VII, pp: 77-86,
with 2 plates.

ماسينون ، لويس . مدارس بغداد . مجلة المعهد
الاثاري الشرقي الفرنسي مجلد ٧ ، ص ٧٧
- ٨٦ مع لوحتين ، ١٩٠٩ .

24. ————. Bagdad et sa topographie
au moyen age : deux sources nouvelles.
Comptes rendus de l'Academie des In-
scriptions et Belles-Lettres, 1911. pp :
18 - 24.

ماسينون ، لويس . طبوغرافية بغداد في العصر
الوسيطة . مجلة اكاديمية كتابات الفنون
الجميلة ، ص ١٨ - ٢٤ ، ١٩١١ .

25. Mustafá Jawwad. al-Qasr al-Abbasi fi'l
Qalah bi Baghdad wa-huwa Dár al-Mu-
sanná al-Atique min Athar an Nasirlidin
Allah al-Abbasi, (The Abbasid palace in
the citadel at Baghdad which is the an-
cient Dar al-Musanná, one of the monu-
ments of the Abbasid an Nasirlidin
Allah), Sumer, vol. 1, No. 2, 1945, pp :
61-104, with 8 plates and 3 figs.

سالون ، جورج . مقدمة طبوغرافية عن تاريخ بغداد لابي بكر احمد بن ثابت الخطيب البغدادي (٢٩٢ - ٦٣ هـ / ١٠٠٢ - ١١٠٧) باريس ، بويلون ، ١٩٠٤ . ص ٤ ، ٢١٧ ، (٩٢) صفحة نص بالعربية وهو من بحوث هوتس ، تاريخ العلوم والفلسفة سلسلة ١٤٨ وقد عرفه م . ج . دي غويه في المجلة الاسبوية مجلد ٣ ، سلسلة ١٠ ، ص ١٥٨ - ١٦٩ . وهو موجود في مكتبة المتحف العراقي - القسم العربي والذي يسمى بالمقدمة لسالون نص بالفرنسية والعربية تحت رقم (١٩٨) .

35. Shukri, Al-Alusi. La "Madrasah Mustansiriya à Bagdad sous les Califes. Al-Machriq ve annee, 1902, pp : 961-966 (in Arabic).

شكري الالوسي . المدرسة المستنصرية من كتاب مساجد بغداد ومدارسها . مجلة المشرق ، ١٩٠٢ ص ١٦١ - ١٦٦ .

(V)

36. Viollet, H. L'Architecture musulmane du XIII C Siecle en Irak. La Madrasa Mustansiriya à Bagdad. Revue Archeologique, 2 me serie, XXI, pp : 1-18, with 20 illus.

فايت ، هـ . المماراة الإسلامية في القرن الثالث عشر في العراق . المدرسة المستنصرية في بغداد . مجلة الاخبار الاثرية ، مجلد ٢١ ، ص ١ - ١٨ مع ٢٠ صورة ١٩١٢ .

The Reference : المصدر

Creswell, K.A.C. A Bibliography of the Architecture, Arts and crafts of Islam to 1st. Jan., 1960. Cairo, The American univ. at Cairo press, 1961. pp : 202-204.

كروويل ، ك . ا . سي . بيلوغرافية عن المماراة والفنون الإسلامية الى ١ يناير ١٩٦٠ ، القاهرة ، مطبعة الجامعة الامريكية في القاهرة ١٩٦١ . وقد وزع في لندن ، مطبعة جامعة اكسفورد ، ١٩٦١ . ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

30. ———. al-Madrasa al-Mustansiriya. (The Mustansiriya Madrasa) Sumer, vol. 14, 1958, pp : 27-75.

مصطفى جواد . المدرسة المستنصرية . سumer ، مجلد ١٤ ، ١٩٥٨ ص ٢٧ - ٧٥ .

(N)

31. Naji Maruf. al-Madrasa al-Mustansiriya. Bagdad, Matbaát Dankur al-Haditha, 1935, pp. 88 and vi, with 18 illus.

ناجي معروف . المدرسة المستنصرية . بغداد ، مطبعة دنكور الحديثة ، ١٩٣٥ : ٨٨ ص مع ١٨ صورة .

32. Nasir An-Naqshabandi - al-Madrasa al-Mirijania (The Mirijanyia Madrasa) Sumer, vol. 2, No. 1, 1946. pp : 33-54, with 12 plates.

ناصر النقشبندي . المدرسة المرجانية . سumer ، مجلد ٢ ، الجزء الاول ص ٢٣ - ٥٤ ، ١٩٤٦ مع ١٢ لوحة .

(P)

33. Pognon, H. Note. Journal Asiatique, serie, XIX, pp : 153-155; pp : 336-342. Notes, on Uigour, syrian and Arabic in scriptions found on the tomb of a saint in an ancient Jacobite convent, which convent he places in the XIIIth. century.

بونون ، هـ . ملاحظة ، المجلة الاسبوية ، مجلد ١٩ ، ص ١٥٣ - ١٥٥ ؛ ٣٣٦ - ٣٤٢ ، ملاحظات عن اويغور ، كتابات بتسريانية والعربية وجدت على ضريح القديس يعقوب في القرن الثاني عشر .

(S)

34. Salmon, Georges. L'Introduction to po-graphique a' L'histoire de Bagdad d' Aboú Bakr Ahmad Ibn Thabit Al-Khatib al-Baghdadi (392-463H.) 1002-1771 J.C.) Paris, Bouillon, 1904. pp : IV, 207 and 93 (Arabic text) Biblotheque de L'Ecole des Hautes Etudes. Sciences hist. et phil. fasc. 148. Review : M. J. de Geoeje, Journ. Asiatique serie III, pp: 158-69.

بغداد في رحلات الأجانب

اعداد

سلمان وفيق الراوي

وهذه قائمة باسماء كتب الرحلات الموجودة في مكتبة المتحف العراقي والتي تبحث عن بغداد ،
فتمت بجمعها وترجمتها لتكون في خدمة الباحثين ، وتحتوي هذه القائمة على (٧٦) عنواناً . مرتبة
هجائياً حسب المؤلف ثم يتبعها العنوان وبيانات النشر وبيانات التوزيع .



(A)

١٩١٧ - يقع في ١٦٨ ص ، يتضمن عن
بغداد والمواقع الأثرية في العراق ، فيه لوحات
تمثل المواقع الأثرية .

1. Alexander, Constance M. Baghdad in
bygone days; from the Journal and cor-
respondance of Claudius Rich, traveller,
artist, linguist, antiquary an British re-
sident at Baghdad, 1808-1821. London,
John Murray, 1928. XVI+336 p., illus.,
figs., map.

الكسندر ، كونستانس إم . بغداد في الايام الماضية
من خلال مراسلات كلوديوس ريج ، الرحالة ،
انفنان ، اللغوي ، الآثاري والمقيم ببغداد
١٨٠٨ - ١٨٢١ . طبع في لندن ، جون
ماري ، ١٩٢٨ ، ٣٣٦ ص مزود بصور
واشكال وخارطة .

(B)

4. Bagdad. Leiden, E. J. Brill, 1962. 465 p.,
illus., 2 fold maps. volume special : pub-
lié A' L'occasion du Mille deux centième
anniversaire de la foundation.

بغداد . طبع ليدن ، ١٩٦٢ ، عدد خاص يضم
تاريخ ومدارس وفنون بغداد مزود بخاراف
معمارية يضم اربعة فصول . صدر بمناسبة
مرور الف عام على تأسيس مدينة بغداد .

2. D'Anville, M. L'Euphrate et le Tigre.
Paris, Impremire Royale, 1779. 147 p.,
illus., fold maps.

دي أنفيل ، إم . دجلة والفرات . باريس ، المطبعة
الملكية ، ١٧٧٩ ، ١٤٧ ص ، مصور مع
خرائط مطوية . يضم فصلاً عن بغداد في
ص ١٢١ .

6. Bell, Gertrude Margaret Lowthian.
Amurath to Amurath. London, William
Heinemann, 1911. 370 p., illus.,

بل ، غرتروود مارغريت لوثيريان . عمورات الى
عمورات . طبع لندن ، ١٩١١ ، ٣٧٠ ص .
مزود بصور . يحتوي على ٩ فصول وان
الفصل السادس خاص ببغداد .

3. Auble, Emile. Bagdad, son schemin der
fer importance, son avenir. Paris, 1917.
168 p. illus., amap.

اوبل ، اميل . بغداد واهميتها . طبع في باريس ،

11. Burckhardt, John Lewis. 'Travels in Assyria; Media and persia; Including a journey from Baghdad by mount Zagras. London, 1830. 2 vols., illus.

بوركهاردت ، جون لويس . رحلات في بلاد اشور وميديا وبلاد الفرس . يتضمن رحلة من بغداد عند جبال زاكروس طبع لندن : ١٨٣٠ . يقع في مجلدين ، مصور .

(C)

12. Candler, Edmund. The Long road to Baghdad (Eye-witness) in Mesopotamia. London, Cassel & Co., 1919. 2 vols., illus., plates fold maps.

كندلر ، ادموند . الطريق الطويل الى بغداد . (شاهد عيان) في بلاد ما وراء النهرين . طبع لندن ، كاسل ، ١٩١٩ ، يقع في مجلدين ، مزود بصور ولوحات وخرائط مطوية .

13. Carnegy, Alexander., My log' persian Gulf & turkish Arabia. Bombay, Education, society press, 1878. 48 p.

كارنيجي ، الكسندر . الخليج العربي وتركيا وبلاد العرب . طبع ومباي ، مطبعة جمعية التربية ، ١٨٧٨ ص ٤٨ . يصف بغداد ، والعراق .

14. Casey, Robert Joseph. Baghdad and points east. New York, J. H. sears & Co., 1931. 300 p.

كاسي ، روبرت جوزيف . بغداد ومفتاح الشرق . طبع نيويورك ، سيرز ١٩٣١ : ٢٠٠ ص . يتضمن (٣٤) فصلاً تحت بغداد الفصول (١٢ ، ٣١ ، ٣٤) .

15. Chapple, Joe Mitchell. To Baghdad and back. London, The century Co. 1928. 298 p.

چابل ، جوي ميتشل . الى بغداد واليه . طبع لندن ، ١٩٢٨ ، ٢٩٨ ص يتضمن (٢٤) فصلاً يصف الحياة في بغداد ، مزود بصور وفيه قائمة بالصور التي تمثل المناطق التي مر بها .

16. Chiha, Habib K. La province de Bagdad, son passe, son preast, son avenir, contenant aussi des notes ur le chemin de fer de Bagdad et une etude indite sur tribus namodes de la Mesopotaméa. Le Caire, Imprimeri El-Maaref, 1903. 358 p.

7. ————. The letters of Gertrude Bell; selected and ed. by Lady Bell. New York, Goni and Liveright, 1927. 2 vols.; plates, 2 maps.

بل ، غرتروود مارغريت لوثيان . رسائل المس بل طبع نيويورك ، ١٩٢٧ ، مجلدين ، مصور فيه لوحات مع خريطين .

8. Binder, Henry. Au Kurdistan; en Mesopotamie et en perse. Paris, Maison quantin, 1887. 453 p., illus. (200), 4 maps in cal.

بايندر ، هنري . كردستان وبلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس . باريس ، مايسون ، ١٨٨٧ ، ٤٥٣ ص مع (٢٠٠) صورة واربعة خرائط . يتضمن (١٥) فصلاً ويذكر بغداد في الفصول: التاسع ، العاشر ، الحادي عشر .

9. Buckingham, J. S. Travels in Mesopotamia; including a Journey from Aleppo to Baghdad a cross the Euphrates to orfah (Theur of chaldees) through the plains of the Turcomans ... London, Henry Colburn, 1827. 2 vols.

بكنهام ، ج . اس . رحلات بلاد ما وراء النهرين يتضمن الرحلة من حلب الى بغداد عبر الفرات الى اور ثم الى سهول التركمان . طبع لندن ١٨٢٧ . يقع في مجلدين .

ترجمة سليم طه التكريتي تحت عنوان رحلاتي الى العراق سنة ١٨١٦ طبع بغداد ، ١٩٦٧ - ١٩٦٩ في جزاين ومزود بصور

10. Budge, E. A. Wallis. By Nile and Tigris; A Narrative of Journey in Egypt and Mesopotamia behalf of the British Museum between the years, 1886 and 1913. 2 vols.

بيج ، اي . ا . واليس . عند النيل ودجلة ، رحلات روائية في مصر وبلاد ما وراء النهرين لمصلحة المتحف البريطاني بين السنوات ١٨٨٦-١٩١٣ يقع في مجلدين . يذكر بغداد ص ١٢٣، ١٨٥، ٣١١ من المجلد الاول ، وص ١٤٣، ٥٠ من المجلد الثاني يقع في كل مجلد (٤٥٦) ص مزود بصور .

ترجمه وعلق عليه فؤاد جميل طبع بغداد ، دار الزمان ، ١٩٦٦ في جزاين تحت عنوان رحلات الى العراق .

دينس دي ريفويه ، بارتلمي لويس . بغداد والفرات
طبع باريس ، ١٨٨٤ ٢١٨ ص ، مصور ،
لوحات .

22. Dickson, Mora. Baghdad and beyond.
London, Dennis Dobson, 1961. 191 p.,
illus.

دكسون ، مورا . بغداد وما وراءها . طبع لندن ،
١٩٦١ ، ١٩١ ص مصور .

23. Donbhoë, Martin Henry. With the per-
sian expedition. London, Edward Ar-
nold, 1919. 276 p., illus.

دنبوي ، مارتن هنري . مع البعثة الفارسية . طبع
لندن . ادورد آرنولد ، ١٩١٩ . ٢٧٦ ص
مزود بصور . يصف بغداد ودجلة والكوت .

(E)

24. Ellis, Tristram James. On a raft and
through the desert; the narrative of an
artist's Journey through northern syria
Kurdistan, by the Tigris to Mosul and
Baghdad and of a return Journey ...
London, Field & Turb, 1881. 122+128 p.

إلس ، ترسترام جيمس . طوف خلال الصحراء،
رحلة روائية لغنان شمال سوريا وكردستان
عند دجلة إلى الموصل وبغداد ، طبع لندن ،
سنة ١٨٨١ ، ١٢٢ - ١٢٨ ص .

25. Evers, Samuel. A Journal kept on a
Journey from Bassora to Baghddad
In the year 1779. Horsham, Arthur Ree,
1784.

اينقرز ، صموئيل . رحلة من البصرة إلى بغداد
سنة ١٧٧٩ طبع هورشام ١٧٨٤ .

(F)

26. Fogg, William Perry. Arabistan or the
land of the Arabian nights, being tra-
vels through Egypt, Arabia and persia-
Baghdad. London, Marston Law, 1875.
350 p.

فوك ، وليم پيري . عربستان أو لبالي العرب ،
رحلة إلى مصر وبلاد العرب وإيران وبغداد
طبع لندن ، ١٨٧٥ ، ٣٥٠ ص .

يقع في ٢٨ فصلاً وقد ذكر بغداد في الفصول
١٨١ . ١٩٠ . ٢٧٠ . ٢٨٠ مزود بصور كثيرة .

شيها حبيب ، ك . نواء بغداد ... طبع القاهرة ،
١٩٠٨ يقع في ٢٥٨ ص .

17- Coke, Richard. Baghdad; the city of
peace. London, T. Butter worth, 1927.
343 p., illus; a map.

كوك ، ريتشارد . بغداد مدينة السلام
طبع لندن ، ١٩٢٧ ، ٣٤٣ ص مزود بصور
وخارطة نقله إلى العربية وقدم له وعنى
عليه مستشرق جواد و نواد جميل في جزأين .
بغداد ، ١٩٦٧ .

18. Cooke, Nat and Alexander R. Cury.
Baghdad how to see it. Cairo, world
wide, N. d. 24 p., illus., 2 fold maps.

كوك ، نات والكسندر ر . كوري . بغداد كما تراها .
طبع القاهرة مجبول سنة الطبع يقع في ٢٢٤
ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية . يتضمن
لمحة تاريخية مفصلة عن بلاد ما وراء النهرين .
بغداد ومواقعها الأثرية مزود بصور ملونة .

19. Cunliffe-Owen, Betty. Thro the gates of
Memary (from the Bosphorus to Bagh-
dad) London, Hutchinson, 1924. 267 p.

كنليف اوين ، بتي . من خلال بوابات الذاكرة
من البسفور إلى بغداد ؛ طبع لندن ، ١٩٢٤
يقع في قسمين القسم الأول عن تركيا والقسم
الثاني عن بلاد ما وراء النهرين ويضم (٤٩)
فصلاً . يصف بغداد من الفصول ١٢ - ٢٠
مزود بصور .

(D)

20. De Gaury, Gerald. Arabian Journey and
other desert travels. London, George G.
Harrap, 1950. 190 p., illus, 31 pl., 3
maps.

دي غوري ، جيرالد . رحلة عربية ورحلات ،
سحراوية أخرى . طبع لندن ، ١٩٥٠ ، ١٩٠
ص مزود بصور مع ٣١ لوحة وثلاثة خرائط
مع النص يتكون من أربعة أقسام والقسم
الثالث يبحث عن العراق وبغداد .

21. Denis de Rivoyre, Barthelemy Louis.
Les rais Arabes et leur pays; Bagdad
et les villes ignorces d'I Euphrate.
Paris, Librairie plon, 1884. 318 p., illus.,
plates.

(H)

31. Hamid, Nawab Yar Gang. A trip to Baghdad. Bombay, The Bombay Gazette press, 1903. 61 p., illus. with an appendix at the end about of the Arab horse pp: 43 - 61.

حامد ، نواب يارغلنگ . رحلة الى بغداد . طبع بمباي ، مطبعة جريدة بمباي ، ١٩٠٨ ، ٦١ من مصور يضم ملحق في اخر الكتاب عن الحصان العربي ص ٤٣ - ٦١ .

- 32- Harris, Walter Burton. From Batum to Baghdad via Tiflis Tabriz and persia, Kurdistan. Edinburgh: W. Blackwood & sons, 1896. 335 p.

هريز ، ولتربرتون . من باتوم الى بغداد . طبع ادنبره ، ١٨٩٦ ص ٣٣٥ . يتضمن رحلة من طنجة - تبريز - ايران - المنطقة الكردية كرمشاه - بغداد وقد وصفها سنة ١٨٩٦ مزود بصور وخرائط .

33. Hedin, Sven Anders. Bagdad, Babylon, Ninive. Leipzig. F. A. Brockhans, 1918. 410 p.

هيدن ، سفين اندروز . بغداد ، بابل ، نينوى . بالالمانية طبع لبيزج يقع في ٢٦ فصلا يصف بغداد في الفصول ٩ : ١٠ ، ١١ : طبع سنة ١٩١٨ وصفاته ١٠ صفحة مزود صور .

34. Herchenbach. Bagdad; La reine du desert. Tours, 1884. 141 p.

هرشن باخ . بغداد . طبع طورس ، ١٨٨٤ ص ١٤١ . مقدمة من قبل سيمون .

35. Herzfeld, Ernst & Friedrich Sarre. Archaeologische reise im Euphrat und Tigris Gebiet mit einem beitrage arabishe Inschriften von Max von Berchem. Berlin, Dietrich Reimen, 1911. 4 vols, illus., plates.

هرتسفيلد ، ارنست وفريدريش سارة . الرحلة الانبارية الى منطقة دجلة والفرات . مع بعض الخطوط العربية من قبل فون ماكس برشم طبع برلين ١٩١١ ، يقع في اربع مجلدات يتضمن المجلد الاول : الرحلة الانبارية الى منطقة دجلة والفرات بالوصف الدقيق

27. Fraser, J. Baillie. Travels in Koordistan, Mesopotamia, including on account of parts of those countries hither to universited by Europeans with sketches of the character and manners of the Koordish and Arab tribes. London, Richard Bentley, 1840. 2 vols. illus..

فريزر ، ج بايلي . رحلات في بلاد كردستان وما وراء النهرين يتضمن بعض المخططات عن القبائل العربية ، طبع لندن ، ١٨٢٠ يقع في مجلدين : يضم المجلد الاول (١٥) رسالة ويضم بغداد في الرسالة الثامنة والتاسعة ، في حين يتضمن المجلد الثاني ١٩ رسالة يذكر بغداد في الرسالة الاولى والسابعة .

نقلها الى العربية جعفر خباط (القسم العراقي) ويعرف برحلة فريزر يصف العراق في الثلث الاول من القرن التاسع عشر .

(G)

28. Grant, Christina Phelps. The syrian desert, Caravans, travel and exploration. London, A. & C. Black, 1937. 410 p., illus., 16 pl., 4 maps.

غرنت ، كريستينا فيليبس . الصحراء السورية ، طبع لندن ، ١٩٣٧ ص ٤١٠ مزود بصور و١٦ لوحة واربعة خرائط . يتضمن جغرافية سوريا ، بلاد ماوراء النهرين ، دمشق ، بغداد .

29. Goold-Adams, Richard. Middle East Journey. London, John Murray, 1947. 1st. ed. 194 p.

غولد آدمز ، ريجارد . رحلة الشرق الاوسط ، طبع لندن ، ١٩٤٧ الطبعة الاولى . ١٩٤ ص يقع في تسع فصول يضم الفصل الثالث ص ٢٨ عن بغداد .

- 30- Groves, A. N. Journal of Mr. Anthony N. Groves missionary during a Journey from London to Baghdad through Russia, Georgia and persia also a Journal of some months residence at Baghdad. London, James Nisbet, 1831. 215 p.

غروفز ، آنتوني . ن . رحلة غروفز خلال لندن بغداد مارا روسيا ، جورجيا وايران وكذلك يتضمن تقرير عن بقاءه بعض الاشهر في بغداد طبع لندن سنة ١٨٣١ .

المعماري بينما يتضمن المجلد الثاني عن
الفنون الإسلامية مزود بخرائط والمجلد الثالث
يضم ١٢٠ لوحة مستقل وأما المجلد الرابع
يتضمن- صور ولوحات ٢٢ صورة و ٢٨ لوحة
مع ٥٩ صفحة يعتبر هذا الكتاب من أشهر
ما كتب عن المواقع الأثرية في منطقة دجلة ،
والفرات وهو المرجع الدقيق في المعلومات عن
المناطق الأثرية وهو بالأمانة .

36. Helfritz, Hans. Unter der sonne des
orients. Berlin, die Buchgemeinde, N. d.

- هليفرتس ، هنس . تحت شمس الشرق . طبع
برلين ، مجهول السنة وهو بالألمانية . يصف
بغداد واسواقها في ص ١٢٠ وطرق دجلة ،
والفرات مزود بصور ولوحات رائعة .

37. Heude, William. A voyage up the [...
... gulf! and a Journey overland from
India to England in 1817. London.
Longmans, 1819. 252 p., illus.

- هويدا ، وليم . رحلة الى اعالي الخليج العربي من الهند الى انكلترا في سنة ١٨١٧
طبع لندن ، ١٨١٩ ص ٢٥٢ ص . مزود بصور

38. Hilmi, M. Kanuni Suleyman in Bagdat seferi; Yzam, Istanbul, Askeri matabaâ, 1932. 38 p., illus., maps.

- حلمي ، م . سليمان القانوني في بغداد ، طبع
استانبول سنة ١٩٣٢ باللغة التركية ، ٣٨ ص
مزدود بصور وخرائط .

39. Haurt, Clement. Histoire de Bagdad, dans les temps modernes. Paris, Ernst Leroux, 1901. 23 p. "Topographie de la ville de Bagdad" pp. VI-XIV.

هوار ، كليمان . تاريخ بغداد . ٢٣١ ص طبع
باريس ، ١٩٠١ . عربية وعلق عليه ناجي
معروف . بغداد ١٩٦١ .

(K)

40. Ibn Jubair, Muhammad Ibn Ahmad. The travels of Ibn Jubayr; being the chronicle of a medieval Spanish Moor concerning his Journey to the Egypt of Saladi ... tr. from the original Arabic by R.J.C. Broadhurst. London, J. Cape, 1952. 430 p., fold maps.

ابن جبیر ، محمد بن احمد ، رحلة ابن جبیر ترجمہ

١٩٠٧ - ١٩٠٨ . القاهرة ، مطبعة المعبد
الشرقي الفرنسي "الناري" ، في مجلدين مصور
ومزود بلوحات .

50. Mignan, Robert. Travels in chaldaea;
Including a Journey from Bussorah to
Baghdad, Hillah and Babylon, per-
formed on foot in 1827 with observations
on the sites and remains of Babel, Sele-
cia and Ctesiphon. London, Henry Col-
burn, 1829. 332 p. illus., fold maps.

ميگنان ، روبرت . رحلات في بلاد الكلدانيين يتضمن
رحلة من البصرة الى بغداد - حلة ، بابل على
القدم في سنة ١٨٢٧ مع بعض الملاحظات على
المواقع الأثرية وبقايا بابل وسلويا وطيغون
(طاق كسرى) طبع لندن ، ١٨٢٩ يقع في ،
٢٢٢ ص ، مزود بصور مع خرائط مطوية .

51. Morton, H. V. Middle East; a record of
travel in the countries of Egypt, pale-
stine Iraq, Turkey and Greece. London,
Methuen, 1941. 326 p.,

مورتن ، هـ . ف . الشرق الأوسط . سجل لرحلات
الاقطار مصر ، فلسطين ، العراق ، تركيا
واليونان . طبع لندن ، ١٩٤١ يقع في ٢٢٦ ص
يقع في أربعة فصول وهو مقسم حسب الاقطار
مصر - فلسطين - العراق - تركيا - اليونان
وتصيب بغداد في الفصل الثاني . مزود بصور
وخرائط .

52. Musil, Alois. The Middle Euphrates; a
topographical, Itinerary. New York,
1927. 426 p.,

موزيل ، الويس . الفرات الأوسط . رحلة
طبوغرافية . طبع نيويورك ، ١٩٢٧ من ،
سلسلة الجمعية الجغرافية الأمريكية
للدراستات الاستطلاعية الشرقية رقم ٣ .
يقع في ٤٢٦ ص . مقسم الى قسمين ويقع
في (١٢) فصلاً تحتل بغداد الفصول (١٢ و ١٣)،
(١٠) مع ملاحق مقسمة الى ٢١ قسماً . مزود
بصور عديدة مع النصوص ومخططات .

(P)

53. Platt, Thomas Comyn. Byrouth to
Baghdad via palmyra by the desert
route. Baghdad, the English press, 1927.
30 p.

بلات ، توماس كومن . من بيروت الى بغداد الى

انور ، ميديا في سنة ١٨٢٤ . طبع لندن ،
١٨٢٧ . مجلدين في واحد ، يضم خرائط
مطوية . نصف بغداد وبابل . .

45. Kinneir, John Macdonald Journey
through Asia Minor, Armenia and Koor-
distan in the years 1813 and 1814, with
remarks on the marches of Alexander.
London. John Murray, 1818. 603 p.

كينير ، جون مكدونالد . رحلة خلال اسيا الصغرى
ارمينيا ، وكردستان في سنة ١٨١٣ و ١٨١٤
طبع لندن ، ١٨١٨ يقع في ٦٠٣ ص . يضم
فصل بغداد في ص ٤٧٦ ، ٦٠٠ .

(L)

46. Langegger, Felix. Durch verlorne La-
nde; von Bagdad nach Damaskus. Ber-
lin, verlag von wilhelm susserott, 1911.
408 p., illus.

لنجر ، فيليكس . خلال الارض المفقودة ، من بغداد
الى دمشق . طبع برلين ، ١٩١١ ، ٤٠٨ ص
بالألمانية .

47. Lloyd, Seton. Ruined cities of Iraq.
London, H. Milford, 1942. 111 p., illus.,
27 pl., maps.

لويد ، ستين . مدن العراق القديمة ، نصف المواقع
الأثرية في العراق وما وراء النهرين ، مصور
مع لوحات . طبع لندن ، ١٩٤٢ في ١١١ ص
مزود بصور و ٢٧ لوحة وخرائط .

48. Levy, Reuben. A Baghdad chronicle.
Cambridge, the university press, 1929.
279 p., pl.

ليفي ، رويبن . تاريخ بغداد : ١٩٢٩ ، ٢٧٩ ص .
مزود بصور وأربع لوحات وعلى ملاحق ويضم
الملحق الأول لمدينة بغداد ، ص ١١ - ٢٥ .
يضم الحياة الاجتماعية والسياسية في بغداد
في عهد الخلافة العباسية مزود بقائمة من
المصادر .

(M)

49. Massignon, M Louis. Mission en Meso-
potamie 1907-1908. Le Caire, Imprimerie
de l' Institut Francais d'Archeologie
orientale, 1910-1912. 2 vols., illus.,
plates.

ماسنيون ، م لويس . بعثة الى ما وراء النهرين ،

طبع لندن ١٨٣٦ ، يقع في مجلدين ، وترجمها
الاستاذ بهاء الدين نوري تحت عنوان رحلة
ربيع في العراق عام ١٨٢٠ الى العربية سنة
١٩٥١ .

59. Rohrbach, Paul. Um Bagdad und Baby-
lon; vom schauplatz deutscher Arbeit
und zukunfft im orient. Berlin, Hermann
8, Daetel, 1909. 110 p., illus., plates.

رورباخ ، ياول . عند بغداد وبابل طبع برلين سنة
١٩٠٩ يقع في ١١٠ ص بالالمانية .

60. Rosen, Friedrich. Oriental memories of
a german diplomatist. London, Methuen,
1930. 295 p., illus. plates, ports.

روزن ، فريدرىج . مذكرات شرقية لدبلوماسي
الماني . طبع لندن ، ١٩٣٠ مصور ولوحات ،
وبقع في ٢٩٥ ص في وصف لبغداد .

61. Ross, Janet. Letters from the East by
Henry James Ross, 1837-1857. London,
J. M. Dent, 1902. 332 p., illus.

روز ، جانيت . رسائل من الشرق من هنري جيمس
روز ١٨٣٧ - ١٨٥٧ . طبع لندن ، ١٩٠٢ ،
٣٢٢ ص . يتضمن وصف بغداد في ص ٣٠ ،
٢٤ ، ٤٠ .

62. Rouwolf, Leendert. Seer A anmerkely
ke reysen no en door syrien ent Joods-
che Land, Arabian, Mesopotamie, Baby-
lonian, Assyrian, Armenien and Cut
Jaar, 1573. Leyden, pieter Vander, 1581.
598 p., illus., plates, fold maps.

راؤولف ، ليندرت . رحلة الى سوريا وبلاد العرب
وبلاذ ما وراء النهرين ، ارمينيا طبع لندن
سنة ١٥٨١ مزود بلوحات وخرائط . يقع
في ٥٩٨ ص ، نقلها الى العربية الاستاذ سليم
طه الكريتي عن النسخة الانكليزية تحت
عنوان « رحلة المشرق الى العراق وسوريا
ولبنان وفلسطين » من منشورات وزارة
الثقافة والفنون ، ١٩٧٨ ، ٢٣١ ص . كما
ونشر فصولا من الترجمة في مجلة المورد
مج ٥ / ٢٤ ص ٧٤ - ٨٢ .

بالمير على الطريق الصحراوي طبع في بغداد
١٩٢٧ ، يقع في ٣٠ ص .

54. Pionssot, Louis. Voyage de Bagdad
Alep, 1808. Paris, J. André, 1899. 165 p.,
illus.

بيونسوت ، لويس . رحلة من بغداد الى حلب سنة
١٨٠٨ . طبع باريس ، ١٨٩٩ يقع في ١٦٥ ص
مزود بصور يصف الجغرافية السياسية في
بلاد ما وراء النهرين .

(R)

55. Raswan, Carl Reinhard. Escape from
Baghdad. London, Hutchinson & Co.,
1938. 277 p., illus.

رسوان ، كارل راين هارد .
الهروب من بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٨ يقع
في ٢٧٧ ص مصور يصف المآثر الذهبية في
بغداد يضم (٧٠) صورة وخرائطين .

56. Reitlinger, Gerald. A tower of skulls;
a Journey through persia and Turkish
Armenia. London, Duckworth, 1930.

رايتلينجر ، جيرالد . رحلة خلال بلاد فارس وتركيا
وارمينيا . طبع لندن ، ١٩٣٠ ، ٣٢٦ ص
مزود بصور وخرائط وبضم بغداد في الفصل
الاول .

57. Reuther, Oscar. Das Wohnhaus in Bag-
dad und andren standten des Irak. Ber-
lin, Verlag von Ernst Wasmuth, 1910.
119. p., illus.

رويتير ، اوسكار . البيت البغدادي وبيوت مدن
العراق . طبع برلين سنة ١٩١٠ يقع في ١١٩
ص مزود بمخططات كثيرة للمدن العراقية .

58. Rich, Claudius James. Narrative of a
residence in Koordistan and on the site
of ancient Nineveh, with a Journal of a
voyag down the Tigris to Baghdad and
an account of a visit to shirauz and per-
sepolis. London, James Duncan, 1836. 2
vols.

ريج ، كلوديوس جيمس . رحلة الى بلاد كردستان
ومواقع نينوى ورحلة الى اسفل منطقة دجلة
الى بغداد وزبارة الي شيرازولبرسبوليس ،

شتارك ، فريا . ماوراء الفرات ، سيرة ذاتية لرحلة المؤلف من ١٩٢٨ - ١٩٣٣ طبع لندن ١٩٥١ ، يقع في ٣٤١ ص ، مزود بصور يتحدث عن الصحافة في بغداد سنة ١٩٣٢ اواخر سنة ١٩٣٣ .

69. ———. Dust in the Lion's paw; Autobiography 1939-1946. London, John Murray, 1961. 297 p., illus.

شتارك ، فريا . وحل في مخلب الاسد . سيرة ذاتية للمؤلف ورحلته من ١٩٢٩ - ١٩٤٦ ، طبع لندن سنة ١٩٦١ ، يقع في قسمين ، ذكر بغداد في القسم الاول ، ص ٧٥ - ١٤٦ ، مزود بصور عن بغداد وجوامعها واسواقها .

70. ———. East is west. London, John Murray, 1945. 218 p., illus.

شتارك ، فريا . الشرق هو الغرب . طبع لندن ١٩٤٥ وهي الطبعة الاولى ، ٢١٨ ص مزود بصور يقع في اربعة فصول ، يضم الفصل الرابع عن العراق وبغداد ص ١٣٩ - ١٩٨ مع ملحق عن العراق .

71. ———. The valleys of the Assassins and other persian travels. London, John Murray, 1947. 319 p., illus.

شتارك ، فريا . اودية الحشاشين ورحلات فارسية اخرى طبع بغداد ١٩٤٧ ، ٣١٩ ص مزود بصور ، طبع لأول مرة ١٩٣٤ واعيد طبعه ، سنة ١٩٤٧ ، يقع في خمسة فصول ويتضمن الفصل الثاني عن بغداد ق ص ٤٨ .

72. Stevens, E. S. By Tigris and Euphrates. London, Hurst, 1923. 349 p., illus. (71 illus).

ستيفنس ، اي.اس . عند دجلة والفرات . طبع ، لندن ، ١٩٢٣ ، ٣٤٩ ص يحتوي على خمسة فصول وملحقين يتحدث عن المناطق المقدسة في بغداد والمدن القديمة آشور وبابل والحالة السياسية في العراق مزود بـ (٧١) صورة .

(W)

73. Warfield, William. The gate of Asia; a Journey from the [..... gulf] to the black sea. New York, (London) G. P. Putnam's Sons, 1916. 374 p., illus.

ورفيلد ، وليم . بوابة اسيا : رحلة من الخليج

63. Sachau, Edward. Am Euphrat und Tigris reisenotizen aus dem winter, 1897-1898. Leipzig, J. C. Hinrichsche Buchhandlung, 1900. 160 p., illus.

زخو ، ادورد . رحلة لدجلة والفرات في شتاء سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ ، طبع لينرج ، ١٩٠٠ في ١٦٠ ص - يتضمن رحلة من عدن - البصرة - بغداد - الموصل - الدبر - حلب - الاسكندر - مزود بصور (٣٢) صورة وخمس خرائط يضم في اخره فهرس بالاسماء الجغرافية .

64. Samuel, Jacob. Journal of missionary tour through the desert of Arabia to Baghdad. Edinburgh, 1844. 323 p.,

صموئيل يعقوب . رحلة خلال صحراء العرب الى بغداد . طبع ادنبرة سنة ١٨٤٤ يقع في ٣٢٣ ص

65. Sasson, Philip. The third route. London, William Heinemann, 1920. 291 p.

ساسون ، فيليب . الطريق الثالث . طبع لندن ، ١٩٢٩ ، ٢٩١ ص يضم (٢٠) فصلاً يصف بغداد في الفصل التاسع .

66. Southgate, Horatio. Narrative of a tour through Armenia, Kurdistan, Persian and Mesopotamia. New York, D. Appleton, 1840. 2 vols.

سون كيت ، هورايو . رحلة روائية الى ارمينيا كردستان - بلاد الفرس - وبلاد ماوراء النهرين ، يقع في مجلدين ، طبع نيويورك ، ١٨٤٠ . يتضمن المجلد الاول الوصف الدقيق لتركيا والمجلد الثاني يصف العراق وايران بغداد - كركوك - الموصل .

67. Stark, Freya. Baghdad sketches. London, John Murray, 1939. 269 p. illus., plates.

شتارك ، فريا . ملامح عن بغداد . طبع لندن ، ١٩٣٩ يقع في ٢٦٩ ص مزود بـ (٣٥) صورة لمختلف الحياة الاجتماعية في بغداد والعراق طبع لأول مرة سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٩ .

68. Stark, Freya. Beyond Euphrates; autobiography 1928-1933. London, John Murray, 1951. 341 p., illus.

ولستد ، ج . ريهوند . رحلات الى مدينة الخلافة
من ساحل الخليج العربي والبحر الابيض
المتوسط ، يتضمن رحلة شرق بلاد العرب ،
ورحلة الى جزيرة سوكاترا ، طبع لندن ،
١٨٤٠ ، في مجلدين (٤٠٥ - ٢٤٧ ص) ،
يتضمن المجلد الاول عن الخليج العربي مع
خارطة بينما يتضمن المجلد الثاني بلاد ماوراء
النهرين وسواحل البحر الابيض المتوسط ،
يضم ملاحق وفيه معجم في آخره باللغة العربية
وما يقابلها في لهجة اهل الجزيرة .

76. Wiese, Ernst. 10,000 miles through Arabia. London, Robert Hale, 1968. 192 illus.

ويز ، ارنست . عشرة الاف ميل في بلاد العرب ،
طبع لندن : ١٩٦٨ ١٩٢ ص ، يذكر مدينة
هارون الرشيد (بغداد) في ص ٤٣ . مزود
بصور .

العربي الى البحر الاسود طبع لندن ،
ونيو يورك ، ١٩١٦ ، ٢٧٤ ص مزود بصور .
يصف اسيا - اعالي نهر دجلة - بابل -
كردستان - موصل . .

74. Webb, F. C. Up the Tigris to Baghdad. London, F. N. Spon, 1870. 66 p., illus. plates.

وب ، ف. س . من اعالي نهر دجلة الى بغداد .
طبع لندن ، ١٨٧٠ ، ٦٦ ص مزود بصور ،
ولوحات ، فيه وصف روائي تاريخي عن
بغداد وعن طاق كسرى سنة ١٨٦٥ .

75. Wellsted, J. Raymond. Travels to the city of the Caliphs along the shores of the [..... gulf] and the Mediterranean including a voyage to the east of Arabia and a tour on the Island of Socatra. London, Henry Colburn, 1840. 2 vols., illus.



إِسْتِذْرَاجَاتٌ عَلَى كِتَابِ «بَعْدَ إِذْ قَدَرْنَا لِسِتْلَهِ»

لابن الفقيه الهمداني
تحقيق الدكتور صالح احمد العلي

بقلم
عبد الشالحي

بغداد - الجمهورية العراقية

الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي اشهر من ان يعرف وقد اعتاد على ان يتحف المكتبة العربية بين حين وآخر ببدايع من آثاره الدالة على فضله وكان آخر ما اتحف به المكتبة العربية كتاب بغداد مدينة السلام لابن الفقيه الهمداني فقد حققه وعلق عليه وشرح غامض الفاظه وقد تم اخراج الكتاب في مطابع باريس فاسبح عليه الذوق ثوبا من الاناقة واللفظ اضافة الى ما في مادة الكتاب من فائدة ونفع .

وقدم الدكتور المحقق ، للكتاب ، بمقدمة جمعت فاورعت ، على ايجازها ، بحث فيها مكانة بغداد ، وما الف عنها من كتب .

والذي أخذه على الاستاذ المحقق ، انه - على ما يظهر لي - قد عهد بتصحيح الملازم عند اعداد الكتاب للطبع ، الى غيره ، فصدر الكتاب وفيه ما فيه من اغلاط كنت اتمنى لو انه خرج سالما منها وقد اثبت في الثبت المرفق ، ما عثرت عليه منها لكي يجري اصلاحها عند تقديم الكتاب من اجل طبعه طبعة ثانية .

ثبت الاستدراكات

الصفحة	السطر	
٥	٨	اتخاذ سبقه من الخلفاء مقررهم (من) سامراء صوابه : (في) سامراء
٦	٢	كتاب بغداد (الطيفور) صوابه : (ل احمد بن ابي طاهر طيفور)

الصفحة	السطر	
٦	٤	يزدجرد بن (مهنداد) اقول : سماء الاستاذ رضا تجدد ، محقق كتاب الفهرست المطبوع بتهران « يزدجرد بن مهنداد » وتجدد اعرف بالاسم الصحيح ، والكلمة فارسية ، مهني : كبير ، رفيع . وداد : هبة . ذكر المحقق ان خطط بغداد اشتملت في الجزء الاول من كتاب الخطيب البغدادي على الصفحات من ٦٦ - ١٢٠ صوابه : من ٥٦ - ١٢٠
٨	٩	مرة يزهد (من) الدنيا صوابه : يزهد (في) الدنيا
١٧	١٦	يزدجرد بن (مهنداد) بالباء سماء المحقق هنا (مهنداد) بالباء ، وسماء قبلا (مهنداد) بالميم ، والصحيح كما اثبتنا من قبل (مهنداد)
٢٨	٣	واسمها الاول عند () الزوراء قال المحقق : لعلها عند (الناس) اقول : ان المؤلف اورد كلمة (الناس) في اخر السطر ، ويقتضي ان تكون الكلمة ، على ما احتمال : (المؤرخين) فتكون الجملة : واسمها الاول عند المؤرخين ، الزوراء . (في جانب الشرقي) صوابه : (في الجانب الشرقي)
٢٩	١١	(فاطمه) وخوفه واستكتمه صوابه : (فاطمه) من الاطماع
٣٠	١٢	فقال : الله اكبر ، والله هو صوابه : الله اكبر ، (انا) والله هو
٣١	٣	قال : (فاني) موضع بغداد - بالياء صوابه : (فاني) بالمقصورة
٧	٧	ولا يحمل الجند والرعية (الامثلة) صوابه : (إلا مثله)
١٤	١٤	وهؤلاء (ثناء) الناحية - بالشاء صوابه : (ثناء) الناحية - بالشاء والنون المشددة
١٦	١٦	تكل واحد منهم قال قولا (يقدر) بالياء صوابه : (يقدر) بالياء
٢١	٢١	فيما قد عملت عليه من البناء (من) احد هذه المواضع صوابه : (في) احد هذه المواضع
٣٢	١	فاللذان في الغربي (فهما) صوابه : (هما) يحذف الفاء (كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذي) بالمقصورة

الصفحة	السطر	
	٧	(سامرا) بالسين
		صوابه : (تامرا) بالتاء
	٩	فاذا قطعت الجسر (و) اخربت القنطرة
		صوابه : (او) اخربت القنطرة
	٢٢	الحجاج بن (ارطاة) بهمزيين
		صوابه (ارطاة)
٢٣	٤	فولاه (عدد اللبن)
		صوابه : فولاه (عد) اللبن
	١٩	(كلواذي) بالياء
		صوابه : (كلواذي) بالمقصورة
	٢١	قصة (المقلاص)
		صوابه : قصة (مقلاص) لانه اسم علم
	٢٢	علي بن (بقطين) بالياء
		صوابه : علي بن (بقطين) بيائين
	٧	قد وجدناه في كتاب عندنا (بتوارثونه)
		صوابه : (نتوارثه)
	٧	قرن عن قرن الذي بيني مدنية
		صوابه : (ان) الذي بيني مدنية
	٩	واريحك هذا العناء
		صوابه : واريحك (من) هذا العناء
	١٣	فقلت في نفسي (لخفه) بالخاء والفاء
		صوابه : (لحقه) بالحاء والقاف
	١٦	كن بناحية (الصراة) بالصاد
		صوابه : بناحية (السراة) بالسين
	٢	الناس يتحرزون من مقلاصهم (ومقلاص) معي في البيت
		صوابه : (ومقلاصي) معي في البيت
	٧	وامر ان (يوقد) هناك
		صوابه : ان (يدق) هناك
	٩	ثم امر الرماد (فخرج)
		صوابه : (فطرح)
	١٣	مما يلي الخندق (الشرافات)
		صوابه : (الشرفات)
	٨	والطاقات الصغار التي تلي (المرحبة)
		صوابه : (الرحبة)
	١٠	الحجاج بن (ارطاة)
		صوابه : (ارطاة)
١٦ و ١٥		ورد ذكر (المقب ، الغزي ، الشال) من دون ايضاح معانيها ومن دون اشارة الى المواضع التي يمكن التحقق من معانيها فيها

الصفحة	السطر	
٢٧	٨	فنتقض شيء من ذلك ، وحمل أجره الى بغداد ، والنفقة على هدمه وحمله صوابه : (وبلغت) النفقة على هدمه وحمله
٤٠	١٥	اعانيت في طول من الارض او عرض كبغداد من دار بها (مسكني) انخفض
		اقول : يقتضي ان ترفع كلمة (او عرض) من الشطر الثاني وتضاف الى الاول وان تحذف الباء من (مسكني) فتكون الجملة (بها مسكن انخفض)
٤١	١٦	وكل البناء قواده صوابه : (الى) قواده
٤٢	٦	خالد بن عبدالله (القشري) بالشين صوابه : (القسري) بالسين
٤٣	٢	رستاق (الفروسيج) صوابه : (الفروسيج) بحذف التاء
٤٤	١٢ و ١١	
٤٤	١٣	(الرحا) المرونة بام جعفر صوابه : (الرحي) بالمقصورة
	١٧	قنطرة (الجديد) صوابه : (القنطرة الجديدة)
٤٨	١٩	ربض عمرو بن (اسفندياذ) بالذال صوابه : (اسفنديار) بالراء
٤٩	٢١	مربعة شبيب بن (واح) قال المحقق : ان ياقوت سماه (شبيب بن راح) اقول : الاسم الصحيح : شبيب بن (واج) بالجيم
٥٠	٥	الملاء بن موسى (الجورجاني) بالراء صوابه : (الجوزجاني) بالزاي
	١٩	(وخرجت) منازلهم صوابه : (وخربت)
٥١	٥	ابن (ضيه) بالياء والهاء صوابه : (ضبة) بالياء المشددة والمقصورة
	٦	عامر بن دلجة وبحيى اخوهما عرقبا جمل عائشة صوابه : عامر بن دلجة (وبجير اخوه) وهما عرقبا جمل عائشة
	١٢	وكان باقلاها نهاية فليل له (الباقل) بالياء صوابه : وكان باقلاها نهاية (في الجودة) فليل له (الباقل) بالمقصورة
٥٢	٦	الساحة التي كانت مضربا (للبن) صوابها : مضربا (للبن) باللام المشددة
٥٢	٨ و ١	مع (رحا) اتخذها هناك صوابها : (رحي) بالمقصورة
٥٦	١	وسويقة ابي عبيدالله منسوبة الى عبيدالله صوابه : منسوبة الى (ابي) عبيدالله

الصفحة	السطر	
	١٠٨	وسوق المعطش بناها سعيد (الحرشي) بالحاء والسيف اقول : هو سعيد (الخرشي) بالحاء ، اي الخراساني ، والنسبة الى خراسان : خرشي ، وخراساني ، وكذلك سماه الخطيب في تاريخه ١٤/١ وصاحب الباب ٣٥٤/١ واخطأ محقق تاريخ الطبري فسماه (سعيد الحرشي) واعتبر اخباره امتدادا لاخبار القائد العربي سعيد بن عمرو الحرشي الذي كان في السنة ٨٢ قائدًا مظفرًا ، وولي للامويين خراسان فلا يعقل ان يكون هو سعيد الذي وردت اخباره في خدمة العباسيين حتى السنة ١٨٩ ، وذكر الدوري في اخبار الدولة العباسية (ص ٢٠١) ان بكير ابن ماهان الداعية العباسي توجه في ايام يزيد بن عبد الملك الاموي الى خراسان مع سعيد الحرشي (بالحاء) وعلق الدوري على الخبر ، بانه لعله سعيد الحرشي ، وليس به
	١٦	ثم صار (ولاء) للرشد صوابه : صار (ولاؤه) للرشد
٥٧	٧	رأى فيها آزاجا (عتيقا) صوابه : آزاجا (عتيقة) لان الازاج جمع ازج ولا يجوز ان تكون الصفة مفردة والموصوف جمع
٥٨	٢	(كلواذي) بالياء صوابه : (كلواذي) بالمقصورة (وكان احد ، طلب من الحاجات)
	١٢	صوابه : (وكانت احدي) ما طلب من الحاجات
٥٩	٢٠١	ان للدنيا وللزينة فيها والاثاث ... الخ اقول : هذان بيتان من الشعر ، اوردهما الخطيب في تاريخه ٩٧/١ ويافوت في معجمه ٣٦٣/٢ وكان المقتضي ايرادهما شعرا : اف للدنيا وللزينة فيها والاثاث اذ حشا الترب على هيا ————— لان في التربة حاث
٥٩	٩	ابن (رابطة) بنت ابي العباس السفاح صوابه : ابن (ربطة) شارع الزراديين (بياءين) صوابه : (الزرادين) بياء واحدة وكان اذا شرب دعا بالصورة (فيشرب) على هذه الشوارع صوابه : دعا بالصورة (فشرب) وكان ببغداد في شارع الثلاثة ابواب ثلثمائة مقل (للتسويق) صوابه : (للتسويق) بحذف التاء ، وما يزال هذا الاسم معروفا في بغداد ، وقد بحثت عنه بايجاز في الجزء الاول من كتاب نشوار الحاضرة للقاضي التنوخي
٦٠	١١	اخذ الطول من الجانب الشرقي من بغداد فوجد (ما بني) حبلا صوابه : (ما بني) حبلا

الصفحة	السطر	
٦١	١٢	(كلواذي) بالياء صوابه (كلواذي) بالمقصورة
	١٢	(عمى) بالعين صوابه : (غمى) بالفين وبالميم المشددة والمقصورة
	١٣	(بزوعى) بالعين صوابه (بزوعى) بالفين
	١٥	الظرف (فيها) يقتبس صوابه : (منها) يقتبس
	١٨	(مربعة) الجنب - بالياء صوابه : (مربعة) الجنب - بالياء
٦٢	٢	ليس لها (مشاة كمشاة) الجبال صوابه : ليس لها (مشاة كمشاة) الجمال
	٥	من وجع (للطحال) صوابه : من وجع (الطحال)
	٦	ولا (رادع) الجحفة صوابه : ولا (رذاع) الجحفة
	٨	و (شهرزور) بزاعين صوابه : (شهرزور) بزاي واحدة
	١٠	ما مثل بغداد في الدنيا ولا الدين على قلبها في كل ما حين اقول : صحة ترتيب الشطرين تحصل بان ترفع كلمة (الدين) من صدر الشطر الثاني وتلحق باخر الشطر الاول
٦٢	١١	ما بين فطربل والكرخ نرجسة (تندي) و (نبت) خيري ونسرين صوابه : (تندي) بالمقصورة (ومنبت) خيري ونسرين
	١٣	سقى لتلك القصور (الشارعات) صوابها : (الشاهقات)
	١٣	(تخفى) بالخاء صوابها : (تخفى) من البقر الانسية العين
	١٦	فيها القصور التي (تهوى) بالمقصورة صوابها : (تهوي) بالياء
	١٧	من كل حراقة (تملو) فقارتها صوابه : (يملو) فقارتها قصر من التاج عال (ذي) اساطين
	٢٥	(خلقت ببغداد) التي لنسيمها صوابه : (خلقت ببغداد) بالخاء واللام المشددة
٦٣	٢	(وليس) فيها الف الف منعم صوابه : (اوليس) فيها
	٨	ايا بغداد يا اسفى عليك متى (يقضى) الرجوع اليك صوابه : متى (يقضى) الرجوع (لنا) اليك
	٩	(قنعنا) سالمين بكل خير صوابه : (فنحيا) سالمين بكل خير اذ ان كلمة (قنعنا) لا تأتلف مع رغبته في السلامة والخير كله
	١١	(الا) ليت شعري عن الذين تركنا صوابه : حذف كلمة (الا) فيستقيم الشعر والمعنى

الصفحة	السطر	
	١٢	لعل المدى تطاول حتى
	١٥	اقول : لكي يستقيم الشعر يقتضي اضافة الواو على (لعل) على اهل بغداد السلام فأنني (اريد) ليري عن ديارهم بعدا صوابه : (ازيد) ليري - بالزاي
٦٣	١٧	ايرحل (الف) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت (مصف) اقول : ان كلمة (وتحيا) التي اقحمت في عجز الشطر الاول هي من حصة الشطر الثاني . فيكون البيت بعد التصحيح ايرحل (الف) ويقيم الف وتحيا لوعة ويموت (مصف) لعل زماننا سيمود يوما
	٢١	صوابه : فيرجع (الف ويسر الف) وقال بعض الادباء : ببغداد يصفوا العيش . . . الخ اقول : هذا شعر ، وكان المقتضي ان يكتب شعرا ببغداد يصفوا العيش للمنعمد وللقارف اللاهي وللمتودد وردت كلمة (دريزل) قال المحقق انه لم يعرف معناها اقول : لعلها (دريزك) فارسية ، اصلها (درزي كردن) اي الخياطة يريد انها افرغت افرغا كالخياطة التي تناسب البدن لم تر (عني) صوابه : لم تر (عيني)
	٧	قنطرة (البودان) بالواو
	١١	صوابه : قنطرة (البردان) بالراء
	١٢	(الحطمية)
		صوابه : (الحطمية) بياء واحدة
	١	(واقطع عبيدة)
٦٥		صوابه : (واقطع ام عبيدة) كما هو واضح في الصف الثاني
٦٦	٨ و ٦ و ٤ و ٣	(سرمراي)
	١٨ و ١٧ و ١٠	اقول : الاسم اما سامراء او سر من رأى اما (سرمراي) بالياء فلم نسمع بها من قبل (سر من رأى) بالياء
	٥	صوابه : (سر من رأى) بالمقصورة
٦٦	١٨ و ١٧	ثم قتل المتوكل بها . . وانتقل (اليها) الناس عنها الى سر من رأى صوابه : ان نحذف كلمة (اليها)
٦٧	٦ و ٤	يزدجرد بن مهينداد (بالياء) صوابه : (مهينداد) بالياء
	٩	وقالوا بها مقدمين لها ببغداد العراق صوابه : مقدمين لها (على) ببغداد العراق
	١٠	ولا (بتوقيان) على مقدار
	٢١	صوابه : ولا (يوفيان) بالغاء صوابه : (والحمام) بالجمع

الصفحة	السطر	
٦٨	١٦	خطر عظيم (وعزر) جليل صوابه : (وغرر) بالفين ورأين
	١٩	ومن يزيدك (بصرة) صوابه : يزيدك (بصيرة)
	٢٢	ولا (اسيرهم) فهما صوابه : ولا (اسيرهم) فهما
		وغلّب عليها دون سواها « انا ربكم الاعلى » صوابه : (وقال :) انا ربكم الاعلى
٦٩	٧	(ار) قاضيا بقاض صوابه : (و) قاضيا بقاض
	١١	(عدوا عداية وابن البهاليل من ابيه) صوابه : (عدو اعدائه وابن البهاليل من آبائه)
	١٢	عبيدالله بن عبدالله بن (الطاهر) صوابه : ابن (طاهر)
	١٣	(المنيق) الناسىء اقول : لم افهم معناها ، ولم استطع رد التصحيف الى اصله
٧٠	٢	(باغيان) السلطان صوابه : (باغبان) بباءين فارسية معناه : البستاني
	٨	(اللقاح) بالقاف صوابه : (اللقاح) بالغاء المشددة
	٨	(السبستان) صوابه : (السيسان)
٧٠	٩	(العضل) صوابه : (العض) وهو صغار العضاه
	١٠	(الاسقبل) صوابه : (اسقليناس)
	١٠	(البسلخية) صوابه : (السليخة)
	١٠	(الزربن) صوابه : (الزرنب)
	١٣	(المشبر) اقول : لم اعثر على اصلها ولم استطع اصلاح التصحيف
	١٣	(التربد) بالدال صوابه : (التريد) بالدال
	١٣	(الخرئق) بالتون صوابه : (الخرفق) بالغاء
	١٤	(التبل) بالتاء صوابه : (الثبل) بالتاء المثناة
	١٤	(الافستين) صوابه : (الافستين) بزيادة نون
	١١	(الجعد) صوابه : (جمده)
	١٤	(الفنجمشك) صوابه : (الفنجكشت)
	١٤	(الفانت) بالتاء صوابه : (الخافت) بالتاء المثناة

الصفحة	السطر	
	١٤	(الوقدة) اقول لعله : (المرقد) اي البنج
	١٧	(الماديان) بالدال اقول : احسب ان صوابه : (الماديان) بالدال والمادي : العسل
	٢١	(الامشرجات) بالميم صوابه : (الافشرجات) بالفاء
	٢٦	فانهم كانوا دون ملوك الروم والهند وسائر الاطراف (واعلم) صوابه : (الوار) من (واعلم) فتكون الجملة : فانهم كانوا . . . (اعلم) بواقع الريف . . . الخ
٧١	١	وهم كانوا الائمة في غرائب (الفاذيان) اقول : اعد المحقق موصفا في الحاشية للحديث عن هذه الكلمة ثم فاته ذلك ، وانا احسب - ولا اقطع - بانه ربما كان اصل الكلمة الماذيات - اي الخمور
	٥	الخمرة (البالية) صوابه : (البالية) نسبة الى بابل
	١١	(الفازيات) اقول : لم افهم معناها
٧٢	٢	الشراب السوري قال المحقق : الراجع ان الشراب السوري هو المنسوب الى سوريا ، بلدة بين الكوفة وبغداد ، لم تذكر المصادر شهرتها بالشراب
		اقول : جاء في معجم البلدان ١٨٥/٢ ما زلت اشربها واسقي صاحبي حتى رايت لسانه مكسورا مما تخسرت التجار ببابل او ما تعتقه اليهود بسورا
	١٦	ثم اقبل (قيام) الحمام فقربها صوابه : (قيام) الحمام
٧٣	٤	السكاكين (الكتابية) صوابه : (الكتابية)
	٨	كملك الديلم والطيلسان (وملك السوس) قال المحقق في الحاشية (ص ١٥٥) : انها قد تكون محرفة عن (السرير) او عن (السيحان)
		اقول : احسب انها محرفة عن (سيس) بسينين بينهما باء ذكرها ابو الفداء في تقويم البلدان (ص ٢٥٧) وقال عنها انها بلدة ملك الارمن وقاعدة ملكة وقاعدة الشفور الشمالية ، كما ذكرها ابن الاثير في اخبار السنة ٢٤٥
	١٢	كما (يستقصون) على فقدانهم صوابه : (يتنقصون) على فقدانهم
	١٣	يصلون بعد المجاهدة . . . الى غير (المنفيين) من الطباخين صوابه : الى غير (المتفتنين) من الطباخين

الصفحة	السطر	
٧٢	١٦	زامرة (زمامية) بميمين
		اقول : وردت في حكاية ابي القاسم بلفظة (زمامية) بنون وبالنظر لكثرة التصحيف في حكاية ابي القاسم فاني لا ارجح احدى اللفظتين على الثانية وارجو ان يوفق احد المطلاعين فبرشدنا الى اللفظ الصحيح .
١٧		(رحيب) صوابه : (عريب)
١٧		(زاعم) صوابه : (ناعم)
١٨		ماشطة طاهرية وخازنة حريمية
		اقول : افرد المحقق موضعا في الحاشية لايضاح هذه الكلمة ، ثم فانه ذلك ، واحسب ان قوله طاهرية النسبة فيه الى آل طاهر بن الحسين ، وقوله حريمية النسبة فيه الى الحريم الطاهري (الدخائر المتهنئات)
١٩		صوابه : (الدخائر المتصيدات)
٧٢	٢٢	(الديبقي)
		صوابه : (الديبقي) الباء قبل الباء
٧٢	٢٣	فلعل القوم ان يفاخرونا بالمعادن ... (وكانوا) قد دلوا
		صوابه : (فكانوا) قد دلوا من انفسهم
٧٤	٥	وقد وجدنا (نصيبا ابعدا) من المعدن كنصيب اقربنا منه
		صوابه : وقد وجدنا (ابعدا نصيبا) من المعدن
٧		باقصى (حجر) بالير والطيلسان
		صوابه : باقصى (حجر) بجيم ثم حاء
٨		(الخليجي) بالياء
		اقول : ذكره المحقق في الشرح (١١) فسماه الخليجي (بالنون) ولم يفسره ، ويظهر من سياق الكلام انه صنف من اصناف القماش الذي يصنع بمصر ، ولعل الاسم الصحيح (الخليجي) نسبة الى الخليج بمصر ، اما الخلنج فهو نوع من الخشب الذي يصنع من الصحف والعاس ، قال الشاعر : ويسقي لبن البخت في عساس الخلنج
٧٤	١٢	وفي اقصى مكانته (من شأنه) صوابه : (وشانه)
١٧		ذلك هو القول (من) المجهزات (في) خراسان
		صوابه : (و) ذلك هو القول (في) المجهزات (من) خراسان
١٨		ثم لا نجد (في) بغداد عند ذلك
		صوابه : ثم لا نجد (بغداد) - بحذف (في)
١٩		لا قوام لها إلا ما هو اثبت بها
		صوابه : لا قوام لها إلا (بما) هو اثبت بها
٧٥	٥	يعلومه وآدابه وانسابه (واحسانه)
		صوابه : وانسابه (واحسابه)

السطر	الصفحة
اشرف من بلاد الري ونواحيها	١٢
صوابه : (و) اشرف من بلاد الري	
وهما شيخان مستوران قد (اسفنا) بالفاء المشددة	٢٠
صوابه : قد (اسفنا) بالتون المشددة	
وانشد لكاتب من اهل (البندنجين) بياء ثم نون	٤ ٧٦
صوابه : (البندنجين) بنون ثم ياء	
هل غاية من بعد مصر (اجيبها)	٥
صوابه : (اجوبها)	
فعرين مصر هناك (فالفرما) بالفين	١٠
صوابه : (فالفرما) بالفاء	
ولتمام البيت يقتضي ان تعاد الى عجز الشطر الاول كلمة (الى) التي اقحمت على صدر الشطر الثاني	
لمصارع لم يبق في اجداثها (منهم) صدى بر ولا صديق	١٦
صوابه : : رفع كلمة (منهم) من عجز الشطر الاول ووضعها في صدر الشطر الثاني	
ان (قال) فاعلم فغير موفق	١٧
صوابه : ان (هم) فاعلم وقد اورد المحقق اللفظ الصحيح في الحاشية ، وكنت ارجح لو ان يضع اللفظ الصحيح في المتن ، وأشار الى الاصل الخطأ في الحاشية	
لدعوت (بالتفريق) بالفاء	٢٠ ٧٦
صوابه : (بالتفريق) بالفين	
ودوام لوعة زفرتي (وشهيق)	٢١
صوابه : (وشهيق)	
ونعيم دهر اغفلت ايامنا بالكسرخ في قصف وفي تفثيق	٢٣
اقول : لم افهم المعنى ، ولم استطع اصلاح المصحف .	
فز بالرجوع الى العراق وخلصها (بمصر) فريقا بعد جمع فريق	٤ ٧٧
اقول : لعل الصواب : (تمضي) فريقا	
مايح الحركات (طريف) الشمال	١٣
صوابه : (ظريف) بالفاء	
احتاج هؤلاء الحفظة الى سبعة آلاف درهم ومائتي الف درهم	٧ ٧٨
صوابه : الى سبعة آلاف (الف) درهم ومائتي الف درهم	
وتنقض من الاحاطة شيء قدر	١١
صوابه : شيء (له) قدر	
وان (القطت) بالتاء - الذي عليه المدار	١٣
صوابه : (القطب) بالباء	
وهم (مستلمون)	٢٢
صوابه : وهم (مستلمون)	
٨ و ١٤ و ١٧ و ٢٠ (سرمرى)	٧٩
صوابه : (سرمرى) بالتشديد	
وواسط (عل) حال	١٣
صوابه : (على) حال	
(بحوض) بريقه - بالحاء	٤ ٨٠
صوابه : (بجرض) بالجيم	

الصفحة	السطر	
	١٢	فقد تركوا الرياسة للسلطان (ورمحوا) بالميم صوابه : (وربحوا) بالباء
١٥ و ١٤		ومولوا من التعتت وطلب الرشى (وما ، لا يحتمله الا الدليل وذو (المدة) القليل صوابه : (بما) لا يحتمله الا الدليل ، وذو (العدد) القليل
١٧		عند خروجهم مع سهل بن سلامة في ارباض الحربية فانه اجتمع لما تطوع صوابه : اجتمع (اليه) لما تطوع
٢٠		(تهاجوا) من جانبي مدينة السلام صوابه : (تهايجوا)
٨٠	٢٢	(فهربهم) واحترست من الاسراف احسب ان صوابه : (فقدرتهم)
٨١	٣	اما (القطع) الذي مدينة السلام منه صوابه : (الصقع) وقد اورد المحقق الاسم الصحيح في الحاشية وكنيت ارجح له ان يورده في المن وبشير الى الاصل في الحاشية
٨٧ و ٨٥		ان الفرات يسيل بجميع الشام وسواحل بحر الروم ومصر صوابه : يسيل بجميع (ما يرد من) الشام ... الخ
١٥ و ١٠		(قسطنطينه) صوابه : (قسطنطينية)
١٠		(الصقالية) بالياء صوابه : (الصقالبة) بالباء
٨٢	٦	(جنابا) صوابه : (جنابة)
٧		(اليمامة) بالهاء صوابه : (اليمامة) بالقصورة
١١		(ان افجر) صوابه : (ان افجر)
١٢		امرت الارض ان (تطيعه) صوابه : ان (تطيعك)
١٥		(قردي) بالياء صوابه : (قردي) بالقصورة
١٧		(سرمرى) صوابه : (سرمرى) بشدتين
٢٥		التهواء (العدي) بالذال صوابه : (العدي) بالذال
٨٣	٧ و ٤	(الثبت) بشاء مثله صوابه : (اثبت) بتاءين بينهما باء
١٤		توسطوا (بصب) الفرات في دجلة صوابه : توسطوا (مصب) الفرات في دجلة
١٩		ومدينة (الصفد) بالفاء صوابه : (الصفد) بالنين
٨٤	٨	(ذو الاكتاف) بالنون صوابه : (ذو الاكتاف) بالتاء
١٠		فدفع الى ايران عدا (القطع) صوابه : (الصقع)
٨٥	٨	(الديبل) بياءين صوابه : (الديبل) بياء ثم باء
٨٦	٤	(المدير) الاكبر صوابه : (المدير) بياء مشددة

الصفحة	السطر	
	١٢	(والجزر) بالجيم صوابه : (والخزر) بالخاء
	١٥	لو دبرت مملكة بعد خراسان صوابه (في بنعد) خراسان
٨٧	٩	ويكاتب (ابا) هبيرة صوابه : (ابن) هبيرة
	١١	ويوشك ان يكون لها (شرام) بالشين صوابه : (ضرام) بالفاء
	١٣	يخاطبه ابن هبيرة (نصر بن سيار)
		اقول : الارجح حذف الجملة الاخيرة (نصر بن سيار)
	١٧	(فبلغ) - بالمين - طنجة صوابه : (فبلغ) طنجة
	١٩	ازهر السمان (او) صوابه : ان تحذف (او)
	٢٠	اصحاب عبدالله بن عبدالله بن جعفر
		صوابه : عبدالله (بن معاوية) بن عبدالله بن جعفر .
	٢٢	ويدخل الكوفة فيقيم بها ايضا (وجول) بلدان الجزيرة صوابه : (ويجول)
	٢٣	وكان مع ابيه وعمومه (بالثراء) بالشين صوابه : (بالثراء) بالشين
		لم يشاور احد طوى كشحه عن كل مشورة صوابه : (و) طوى كشحه
	٥	اذا (انتفضت) بالاضعفين قوى (الجبل) بالجيم صوابه : اذا (انتفضت) بالاضعفين قوى (الجبل) بالحاء
	٧	على (طوف) البساط صوابه : على (طرف) البساط
		وفي (اكناف) الشام - بالتاء صوابه : وفي (اكناف) بالنون
	٢٠	(صائقة) الردم - بالقاف صوابه : (صائقة) بالفاء
	٢٢	وان يوجد المأمون (لعبد) الله بن طاهر صوابه : وان يوجد المأمون (عبدالله) بن طاهر
	٢٣	واخذ بابك من (البدء) بهمزة صوابه : من (البدء) بالمدح ، وهو حصنه
		وتوفي المعتصم (بسرمرين) صوابه : (سرمرى او سامراء)
٨٩	٦	(طالع) الوقت صوابه : (طالع) الوقت
	١٢	وانشد دعبل (بمدح) بغداد (ويدم) (سرمرى)
	١٥ و ١٦	صوابه : (بمدح) بغداد (ويدم) (سرمرى)
	٢٠	ما سرمرى بسرمرى بل بل هي بؤس لمن رآها
		صوابه : قلح كلمة (بل) من عجز الشطر الاول ، واضافتها الى صدر الشطر الثاني ، فيكون البيت :
		ما سرمرى بسرمرى هي بؤس لمن رآها
	٢١	برغم (انت) الذي بناها صوابه : برغم (انف)

الصفحة	السطر	
٩٠	٢	ايام اذ نحن جيرة خلط (نيام) قبل (العشا) سامرها صوابه : (بنام) قبل (العشاء) سامرها
	٣	(و) إذ هي مثل العروس باطنها صوابه : حذف (الواو) من اول الشطر
	٣	دل (بعيد) الهوى (وظهرها) صوابه : دل (بعيد) الهوى (وظهرها)
٩٠	٤	جنة (الدنيا) ودار مغبطة صوابه : جنة (دنيا) ودار مغبطة
	٤	قل من النايبات (وانرها) بالشاء المثلثة صوابه : (وانرها) من الوتر بالشاء
	٥	غالى باغلى (الثلاث) بالشاء المثلثة صوابه : (الثلاث) بالشاء المثلثة
	١١	اهل القرى والسدى واندبة صوابه : واندبة الـ
	١٢	(اثني) دنيا في عز مملكة صوابه : (اثني) دنيا في عز مملكة (شدت) عراها لهم اكابرها
٩٠	١٤	(مهنداد) الكسروي صوابه : (مهنداد)
	١٨	كما (لا) يزيدوا صوابه : كما (لم) يزيدوا
	١٨	على ان (يقولوا) صوابه : (يقولون)
٩١	١٠	ان تأخذ (بأوسط) صوابه : (بأوسطه)
	١٦	كل حمام يحتاج الى اربعة نفر لابد (لها) صوابه : لابد (له)
٩٢	٧	فاجتمع من ذلك (اثني عشر الف فزل) صوابه : اثني عشر (الف) الف فزل
	١٤	(فانه نصف قطر المنقلبين بامر الفروض) اقول : لم افهم هذه الجملة ، ولم استطع ردها الى اصلها
٩٢	٦	(جوخي) بالياء صوابها : (جوخي) بالمقصورة
	٦	(البندنجيين) بثلاثة ياءات صوابه : (البندنجيين) بياءين
٩٢	١١	فلم (يلبثوا) فيها صوابه : فلم (يلبثوا) فيها من لات فلان حقه : تقصه
	١٤	وساقتهم الاقدار مستجيرين (الى محل) لا (يضيق) بهم دياره ولا (يمتلىء) منهم اقطاره
		صوابه : مستجيرين (الى محل) لا (تضيق) بهم دياره ولا (تمتلىء) منهم اقطاره
	١٥	ولا يتحكم في اقوانهم (تجار) صوابه : (تجاره)
١٥ و ١٦		ولا (تعجز) عن (مهبرتهم ممتازة) صوابه : ولا (يعجز) عن (ميرتهم مناره)

الصفحة	السطر	
	٢٢	وامر (ظريف) بالظاء صوابه : (ظريف) بالطاء
	٢٤	كما لا يذهبان عن عقول العامة يشتمل عليها البرهان صوابه : (و) يشتمل عليها البرهان
٩٤	١٦	وسجوده (وقيامه) بالباء صوابه : (وقيامه) بالياء
	١٧	وما زيد فيه (مايتي) ذراع صوابه : (مائتا) ذراع
٩٥	٤	بقدرته على (توسعه) ما لا سبيل الى اتساعه الا به صوابه : على (توسعة) بالقصورة
	٤	ولا حيلة في (خطه) بالخاء صوابه : في (خطه) بالحاء المهملة
	٨	ان الله يبسط (الاقرب) خلقه اليه صوابه : يبسط (لاقرب)
	١٤	الف الف وخمس مائة انسان صوابه : الف الف وخمس مائة (الف) انسان
٩٦	١٠	واذا جاز ذلك القول بفراسخ كثيرة صوابه : واذا جاز ذلك (جاز) القول بفراسخ كثيرة
٩٦	١١	الا ان الله عزوجل لم يعطنا القدرة على علم ذلك (ومعانيه) مثله صوابه : (ومعانية) مثله
	٢٣	ان (في) هذه المنازل ما يوجد فيه (امنا) عراقية وارطالا صوابه : ان (من) هذه المنازل ما يوجد فيه (امنا او امناء) والن : الوزن المعروف
٩٧	٥	فحصل بمصاييح القناديل ... من دهن البزر (الف الف رطل) صوابه : (الفا) الف رطل
	٢٢	ثم (الثناء) - بالثاء المثناة - وارباب النعم صوابه : (التناء) بالثاء المثناة والتون المشددة
٩٨	٢	ما لا يحصى جرارا ولا يعد (رقاقا) بالراء صوابه : ولا يعد (زقاقا) جمع زق
	٢٣	فيكون حقها من الزيت (استظهار) الف الف رطل صوابه : (استظهارا) الف الف رطل
	٢٥	ولمصاييح المساجد ثلاثة (الف) الف رطل صوابه : ثلاثة (آلاف) الف رطل
٩٩	١٥	فان اسقطناه (لخصومه) بالميم صوابه : (لخصوصه) بصادين
	١٩	استهلاك (الاعشاب) بالشين صوابه : (الاعناب) بالنون
١٠٠	١	والنهروانات (والزواي) بلا نقطة صوابه : (والزواي) بالباء
	٢	(جوخي) بالياء صوابه : (جوخي) بالقصورة
	١٢	فكان مبلغ ما اجتمع من هذه الارطال على اقرب الاسعار المعتدلة في الاعناب العامة ، حساب اثني عشر رطلا بدرهم ، ستة عشر الف الف درهم في الشهر الواحد ، اربعمائة وثمانين الف الف درهم . اقول : الفارزة الاخيرة في الجملة ليست في مكانها الصحيح ، وقد ادى وضعها في غير موضعها ان تغير المعنى المقصود ، ويقتضي ان توضع الفارزة بين كلمة (درهم) وكلمة (في الشهر الواحد) ، فتكون الجملة : فكان مبلغ ... ستة عشر الف درهم ، في الشهر الواحد اربعمائة وثمانين الف الف درهم

الصفحة	السطر	
١٠٠	١٣	باسقاط الاطفال (والامراض) صوابه : (وذوي الامراض)
	١٨	وترى ان يقتنوا من ذلك (ما لا يفي به) الا من هو في حكم القياس صوابه : (ما لا يفي به) بالغاء
١٠١	١	(والثناء) وارباب الضياع صوابه : (والثناء) بالتاء المثناة
	٥	ومن (لا تسع) يده (بغير) الميسور صوابه : ومن (لا تتسع) يده (لغير) الميسور
١٠٢	٦	في ذلك اليوم الذي قلنا انه الاعياد صوابه : قلنا انه (من) الاعياد
	١٠	ان الله لا يلفظ (لامجاد) ما شاء من خلقه صوابه : (لانجاد) ما شاء من خلقه
	١٩	من انواع ما في البر (والفرائب) ما في البحر صوابه : (وغرائب) ما في البحر
١٠٢	٢٠	(والمارماس) صوابه : (والمارماهي)
	٢٣	ولا حيلة لنا (من) عدته واستيفائه صوابه : (في) عدته واستيفائه
	٢٤	او ظننت ان (غليلا) مات صوابه : (عليلا) بالعين
١٠٣	٤	(فيعذر) وجود ذلك عليه صوابه : (فتعذر) وجود ذلك
	٩	عظيم النصيب من (لطيف) الله صوابه : من (لطف) الله
١٠٤	٤	اربعة (الف) الف وثمان مائة فرخ ودجاجة صوابه : اربعة (آلاف) الف وثمان مائة (الف) فرخ ودجاجة
	١١	افحسبت انك اعتقدت ستين الف حمام صوابه : افحسبت انك (لو) اعتقدت ... الخ
١٠٦	١٦	وتسعة (الف) الف وخمسمائة ... الخ صوابه : وتسعة (آلاف) الف ... الخ
١٠٧	١	تسع مائة (و) الف واثنان وسبعون الفا صوابه : ان تحذف الواو فتكون : تسع مائة الف ... الخ
	١١	سبعة (الف) الف الف كر صوابه : سبعة (آلاف) الف ...
	١٢	تسعة (الف) ... الخ صوابه : تسعة (آلاف) الف ...
	١٤	بخمس مائة دينار صوابه : بخمس مائة (الف) دينار
	١٩	في الخمس مائة دينار صوابه : في الخمس مائة (الف) ...
	٢٢	تسعة (الف) الف الف صوابه : تسعة (آلاف) الف ...
	٢٣	تسعة (الف) ... الخ صوابه : تسعة (آلاف) الف ...
	٢٥	سبعة (الف) ... الخ صوابه : سبعة (آلاف) الف ...

الصفحة	السطر	
١٠٨	٢	سبعة (الف) ... الخ
	٢٠	كنت مع (جريز) بالزاي
١٠٩	٤	صوابه : سبعة (آلاف)
		صوابه : (جريز) براءين
	٧	ولها أربعة ابواب . . . يظهر (فيه) الفسق
		صوابه : يظهر (فيها) الفسق
	١٧	ما استت بغداد إلا على (الغلا) مرة حرق ومرة غرق ومرة فتنة
		احسب ان الصواب : ما استت بغداد الا على (ثلاثة)
	٢١	ولم (يشاها) اهلها عن منكر
		صوابها : ولم (يشاه) اهلها عن منكر
	٢١	تظهر (رايات السود) من خراسان
		صوابه : (الرايات السود)
١١٠	١	فكيف بكم اذا حشرتم ذات نخل وكرم
		صوابه : (في) ذات نخل وكرم
	٢١	يجتمع اليها كل بر وفاجر فقال بغداد
		صوابه : يجتمع اليها كل بر وفاجر (قالوا : وما هي ؟) فقال : بغداد
	٢١	يقال له عبدالله يكون خلافته رخص (السمر) بالشين
		صوابه : يكون (في) خلافته رخص (السمر) بالسين
١١٠	٧	ودير في موضع العبقة وآخر يقابله (من) موضع الدعالجة
		صوابه : يقابله (في) موضع الدعالجة .
	٢٠	وافتنض (من) ذلك
		صوابه : وافتنض (في) ذلك
١١١	١	اما اسواقها (فكاذة) واما مساجدها فلاغية
		صوابه : اما اسواقها (فكادية) ..
	٥	(وان ارادوا بك) ان يفرقهم (فما يضيق) اما (سمعت) يقول فلما
		(اسفونا) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين .
		صوابه : (وان اراد ربك) ان يفرقهم (فما يصنع) ، اما سمعته
		يقول : فلما (اسفونا) انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين
	١١	كالتمبذ في (الحشر) بالراء
		صوابه : كالتمبذ في (الحش) وهو الكنيف
	١٦	فان في جوارهم (مشته) لنار الحرص (وغصيص) الشهوات (معانيهم)
		ذم القناعة (بصغير) النعم .
		صوابه : فان في جوارهم (مشبة) لنار الحرص (وغصص) الشهوات
		(معاشهم) ذم القناعة (وتصغير) النعم
	٢١ و ٢٠	فقال يقول لرجل يسكن بغداد لا بأس به
		صوابه : فقال لرجل يسكن بغداد لا بأس به ؟
	٢٢	قال ابو (الاحوص) بالضاد
		صوابه : (الاحوص) بالصاد
١١٢	٥	يجيء احدكم يسأل عن (المسكن) كانه من عمل الله
		صوابه : يسأل عن (المسألة) ... الخ
	٦	فاذا قيل له اين المسكن ، قال في (عشر) الظلمة
		صوابه : فاذا قيل له : اين المسكن ؟ قال : (في عش) الظلمة

الصفحة	السطر	
	٨	قل لمن اظهر انتصوف لنا س وامسى (بعد) في الزهاد
		صوابه : وامسى (بعد) في الزهاد
١١٢	٩	ليس بغداد منزل (للعباد) صوابه : منزل (العباد)
	١٢	ما انت يا بغداد الا سلح اذا اعتراك مطر او (نفع) بالغاء صوابه : (او نضع) بالضاد
	١٥	وان (جفت) فتراب (برح) بالخاء اقول : اولا صوابه : وان (خفقت) فتراب (برح) بالهاء المهملة ثانيا - هذا الشطر تنمة للبيت الذي سبقه في السطر ١٢
١٨-١٥		اقول : اورد المحقق في هذه الاسطر ثلاثة ابيات ، هي في الواقع بيتان اثنان اذ ان ما جعله الشطر الاول ثابت الاول يقتضي ان يلحق بالبيت الذي سبقه في السطر ١٢ ، كما ان ما جعله الشطر الثاني في البيت الثالث ، انما هو نشر يقتضي ان يلحق بما بعده من الحديث ، وسأثبت الترتيب الصحيح لهذه الاسطر الحاقا بما قبلها وربطها لما بعدها : سأل المعتصم ابا العيضاء عن بغداد ، وكان سيء الرأي فيها ، فقال : هي يا امير المؤمنين كما قال عمارة بن عقيل : ما انت يا بغداد الا سلح اذا اعتراك مطر او نضع فان خفقت فغبار برح وكما قال آخر :
		هل الله من بغداد يا صاح مخرجي فاصبح لا تبدو لعين فصورها وميدانها المذري علينا ترابها (اذا شحجت ابقالها) وحميرها فهي ام الوحول ، ومطرح النفل ، عذرتها في طرفها ، (وقدرها) في وسطها ، يموت اهلها في الصيف حرقا ، وفي الشتاء فرقا ... الخ
١١٢	٢١	(القريب) بها مكدر ، (والمقرب) بها اهل احسب ان صوابه : (القريب) بها مكدر - (والمقرب) بها اهل
	٢٢	شبابها (يتناهدون) وصبيانها (يواجرون) صوابه : شبابها (يتناهرون) وصبيانها (يواجرون)
١١٣	٣	كنوز قارون ان (يكون) له وعمر (هوج) وصبر ايوب صوابه : (ان تكون له) وعمر (نوح)
	٥	خلوا سبيل العلى لغيره ونافسوا في الفسوق (والخوب) بالخاء صوابه (والحب) بالحاء المهملة
	٧	اقمت ببغداد اشهرها وكننت ببغداد ذا (غيره) احسب ان صوابه :
		اقمت ببغدادكم اشهرها وكننت ببغداد (ذا خبره)
	٨	فما ان قطعت بها شجرة وما ان (فنتت بها حرة) احسب ان صوابه : وما ان (نتت بها كسرة)
	٩	وما ان (توفق لي) حاجة احسب ان صوابه : وما ان (توقفت في) حاجة

الصفحة	السطر	
	١٠	وعاندني الخير مذ جئتها صوابه : معاندة الضرة (الضرة) معاندة الضرة (الضرة)
	١١	(واني عاشق بها درهما) الشطر الاول ، احسب ان صوابه : انا لم (اعين بها درهما) الشطر الثاني ، احسب ان صوابه : (ومن لي يا صاح بالنقرة) والنقرة : الفضة
١١٢	١٢	(فمجي) بسري الى بلد احسب ان صوابه : (عجلت) بسري الى بلدة اقول : انا غير واثق من هذا التصويب
	١٥	وعدت اليها فقريتنسي احسب ان صوابه : وعدت فصاحبتي طالق ثلاثا وجاريتي حره
	١٧	لقد طال في بغداد ليلي ومن بيت صوابه : غير (رافد) وكنت ارجع لو ان المحقق وضع الكلمة الصحيحة في المتن : وثبت الاصل الخطأ في الحاشية
	١٩	(ديارجة) شهب البطون صوابه : (ديارجة) بالزاي
	٢١	زعم الناس ان (الليل) يا بغداد صوابه : زعم الناس ان (ليك) يا بغداد بغداد ليل يطيب فيه النسيم
	٢٣	وقليل الرخا يتبع الشدة صوابه : وقليل (الرخاء يتبع) الشدة شدة عند العباد امر عظيم
		اقول : ان حذف البغداديين للهمزة ، لا ينبغي ان يسري على الشعر ، لان حذفها في الشعر قد يؤدي الى اخلال بالوزن
	٢٥	ترحل في بغداد دار اقامة صوابه : ولا عند (ذي جاء) ببغداد طائل ولا عند (من جاء) ببغداد طائل
١١٤	٥	وسأله ايام الفتنة صوابه : في اضافة كلمة (فتى) فتكون الجملة : وسأله (فتى) ايام الفتنة
	١٢	وقال مكحول بن (جارية) احسب ان صوابه : ابن (حارثة)
	١٨	ولم (اتواني) في بغداد حبا لاهلها صوابه : ولم (ائو) في بغداد حبا لاهلها
	١٩	سارحل عنها قالبا (ليراتها) صوابه : سارحل عنها قالبا (لسراتها)
	٢٠	في (حريم) النوائب صوابه : في (حرآم) النوائب

الصفحة	السطر	
	٢٣	تجده من كان (ذا) جثته صوابه : (اذا) جثته
	٢٣	مستترا عنك (بافلاس) اقول : انا في شك من صحة وضع كلمة الافلاس هنا ولعل الاصل : مستترا عنك (باحباس)
١١٥	٨	محبوب بن ابي (العشط) النهشلي صوابه : ابن ابي (العشط)
	٩	لروضة من رياض او طرف اقول : فيه نقص كلمة وسوابه : لروضة من رياض (الحزن) او طرف
	١٣	انزو واخط تسبيحا (بتلويث) - باللام صوابه : اخط تسبيحا (بتلويث) بالغين
	١٧	فيا ليت شعري هل ازورن بلدة قليل بها (او بائها وسيدها) احب ان صوابه : قليل بها (اوباؤها ووبيدها)
١١٥	١٨	وهل (اسمعت) الدهر اصوات ضم تطالع بالركبان صمرا (حدودها) بالحاء المهملة صوابه : واهل (اسمعن) الدهر صمرا (حدودها) بالحاء
	١٩	وهل اربن الدهر (نار) بارضها صوابه : (نارا) بارضها
	٢٠	مبتدا دجلة من تحت (حصر) في جبل بآمد صوابه : من تحت (حصن) في جبل بآمد .
	٢٢	ثم تخالطها انهار عظيمة منها الخابور (والزرر) صوابه : (والرزم)
١١٦	١	ومن تل (فما قان) صوابه : ومن تل (فافان)
	٣	حتى تميد الى (البطليح) صوابه : (البطايح)
	١٢	ومقامها مقام (الشكور) بالشين صوابه : (السكور) بالسين مفردا سكر
	١٧	فاما ياخذ منها صوابه : فاما (ما) ياخذ منها
	١٧	(فالتافتان) الشتوية والصيفية اقول : لم اعثر على تفسير لهذه الكلمة ، وان كان وضعا في الكتاب يدل على انهما (قناتان) ولعل صوابها (فالتاختان) والشاخة : الساقية المتشعبة من النهر ، وما زال هذا اسمها ببغداد
	١٩	(وتنخلان) شوارع سامراء صوابه : (وتنخلان)
	٢٢ و ٢١	فلقصر ايامه لم يستو ذلك صوابه : لم يستو (له) ذلك
١٢٣	٢٥	(والخنادق) بالحاء المهملة صوابه : (والخنادق) بالحاء
١٢٥	٢٥	اورد الطبري خبر الراهب (والمقلاص) صوابه : (ومقلاص) لانه اسم علم
١٢٤	٢١	مربعة شبيب بن روح (المرحه وذوي) صوابه : (المروروذي)

الصفحة	السطر	
	٢١	(كما ذكرني) ابن مخلد
١٣٥	١٧	من ولد (اهبان له) صيفي
١٤٠	٢٦ و ٢٥	قنطرة (بن) ذريق
	٢٧	قوم من (البناء) المشهورين
١٤٣	٤	سمي المخرم ببغداد (مخرجا) بالجيم صوابه : (مخرما)
	٢٢ و ٢٣	ان الصالحية نسبت الى صالح بن المعروف بالمسكين صوابه : الى صالح بن (المنصور) المعروف بالمسكين
١٤٤	٢٠	وانما يأكله (المتحملون) بالحاء
	٢٤	قال المحقق : لم اجد في المصادر ذكرا لشارع الثلاثة ابواب ولعله تحريف لشارع الثلاثاء
		اقول : لم يرد في انخطط اسم لشارع اسمه (شارع الثلاثاء) وانما هو سوق الثلاثاء اما الموضع الذي سماه المؤلف بشارع الثلاثة ابواب ، فهو على ما وصفه في المنطقة التي تقع فيها سويقة نصر بن مالك وقنطرة البردان ، وحين سوق الثلاثاء الواقع جنوبي المخرم من تلك المنطقة التي تقع غربي الرصافة ، والذي احسبه ان شارع الثلاثة ابواب هو الشارع الذي تقع في اطرافه الابواب الثلاثة : باب البردان ، وباب الطاق وباب الجسر
١٤٥	١٥	ماذا ببغداد من طيب (الافان)
١٤٦	٢١	اليلتنا بذى (حشم) أنيري
١٥٠	٢١	احمد بن ابراهيم (الافليدس)
١٥٣	٤	بطسوج (في) بادوريا
	١٢	(والطيرزد) بالياء
		وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (تبرزل)
	١٢	(الخاستوي) بالمقصورة
		وهو التمر الذي يسميه البغداديون اليوم (الخستوي)
١٥٥	١٩	(ماري) والله مفنية ببغدادية
	٢٠	(ولا زاجرة) زنامية ، كانها (مراة محلية)
		صوابه : (ولا زامرة) زنامية ، كانها (مراة مجلية)
	٢١	خريجة (سارية) بالسين
		صوابها : خريجة (شارية) بالشين
	٢٧	اورد المؤلف في الصفحة ٧٣ بعض الاسماء المشهورة في عالم الفناء والطرب فعلق المحقق بقوله : ان صاحب حكاية ابي القاسم البغدادى اورد اسماء عدد من المفنيات في بغداد « غير انه ليس فيها من الاسماء التي اوردتها المؤلف »
		اقول : السبب في ذلك بين ، فان حكاية ابي القاسم البغدادى من تأليف ابي حيان التوحيدى ، وقد ذكر في كتابه حكاية ابي القاسم البغدادى اسماء المغنيات اللواتي سمعن في منتصف القرن الرابع ، في حين ان مؤلف كتاب بغداد من رجال القرن الثالث ، وهو يتحدث عن سبقه أو عاصره من المشهورين .

الصفحة	السطر	
١٥٦	٢	يكنى ابا (دليجة) بالباء صوابه ابا (دليجة) بالياء المثناة
٥		(وبنان) هو صوابه : (وبنان) بالياء
١٢		(عرييبة وثارية) بالثاء صوابه : (وشارية) بالشين
٢٦		ولعل منهم هو تحريف (ميتم) بياء ، ثم ثاء صوابه : تحريف (متيم) بتاء وياء مشددة
١٢	١٥٩	(السرخي) صوابه : (السرخسي)
٨-١	١٦٠	اورد المحقق في ترجمة علي بن الجهم : ان الواثق خصه بمكانة خاصة ثم فضب عليه فحبسه وصادره ونفاه الى خراسان الصواب : ان المتوكل هو الذي صنع به ذلك
٩		يزدجرد بن (مهنداد) صوابه : (مهنداد) بالياء المثناة
٢	١٦٧	(ووحج مفلوكة مصدة) صوابه : (ودجج (اي دجاج) مفلوكة مصدرة)
٢٣		قال المحقق في بحثه عن (اللكاء) : لعله كان بلون اللك ، وهو احمر اقول : اصاب الاستاذ المحقق ، فان (اللكاء) تعريب الكلمة الفارسية (لكا) وتعني : السختيان ، والجلد غير المدبوغ ، او الورد الاحمر
١٣	١٦٨	قال : (دفعتنا) الضرورة الى المقام صوابه : (دفعتنا) الضرورة
١٦		قل لمن اظهر التنك في النسا س وامسى (بعد) في الزهاد صوابه : (بعد) في الزهاد
٦	١٦٩	سوى معشر (يحلو وحل) قليلهم يضاف الى بذل الندى وهو باخل صوابه : سوى معشر (قلوا ، وجل) قليلهم

تصويبات وأستدراكات على (بغداد في سنة ١٨٥٣) لفيلكس جونسن

بقلم

نجاة شامخ العزى

المؤسسة العامة للأنار - بغداد

عليه بعد انتزاعه من السيطرة العثمانية وذلك ما حدث فعلا سنة ١٩١٧ بعد الحرب العالمية الاولى ، وكان القائد فيلكس جونسن من ضمن هؤلاء المساحين الذين أرسلتهم بريطانيا لهذا الغرض فكانت تقاريره هذه كتابا نشرته حكومة بومباي سنة ١٨٥٧ .

يقع الكتاب في خمسمئة صفحة ويحتل فصل القليم بغداد الصفحات من ٢٠٤ الى ٤٠٢ اي مئة صفحة منه ويشتمل ملاحظات ملحقة بخارطة بغداد تشمل تاريخ وموقع مدينة بغداد خاصة الشرقية منها بأسوارها وسكانها ومناخها ومزود بتسعة صور لتأخر مرسومة باليد لمدينة بغداد وفيها ايضا ما يلي :

- وصف الجانب الشرقي للمدينة مع جداول بالاحلات والابنية الرئيسية التي تنقسمها بقسمي بغداد الشرقي والغربي تحتل الصفحات من ٢١٢ الى ٢٢٩ .
 - جداول بكميات المواد الغذائية مسن الص ٢٤٢ الى الص ٢٤٥ .
 - جداول باجور العمال والصناع والتجار مسن الص ٢٤٢ الى الص ٢٥١ .
 - جداول بالاوزان والمقاييس والمكاييل السائدة في اسواق بغداد الص ٢٥٢ .
 - جداول بانواع واجناس الدواجن في سوق بغداد ، مسن الص ٢٥٢ الى الص ٢٥٥ .
 - ملاحظات عامة حول القليم بغداد ، الص ٢٥٦ .
 - عشائر العراق من الص ٢٦٩ الى الص ٢٨٦ .
 - اصول الخيل ، الص ٢٨٦ .
 - جداول بالطيور والحيوانات الصغيرة من الص ٢٨٩ الى الص ٤٠٢ .
- هذا ما تضمنه فصل القليم بغداد من مواد متسلسلة حسب مواضيعها وصفحاتها كما هو مذكور اعلاه ، وفيما يلي بعض المآخذ التي ولت عليها حول ترجمة السيد الامين لهذا الفصل :

قام السيد عبدالوهاب الامين بترجمة فصل من فصول كتاب المساح والقائد الانكليزي جيمس فيلكس جونسن ، وقد بدأ ترجمته هذه بتقديم فيلكس جونسن بمقدمة قصيرة هامة ، وأوضح ان من جملة فصول كتاب جونسن ، فصل (القليم بغداد) ثم استورد « وقد كان فصل القليم بغداد من اهم فصول هذا السفر النفيس لما فيه من معلومات ومشاهد لم يبق منها اثر الا ان وهو مزود بالصورة التسجيلية لمختلف انواع المباني وذلك مع الخارطة النخبة للمدينة وهي بذاتها تعد انجازا لا مثيل له من جميع الوجوه ولذلك اترنا نقله ونشره تباعا في المورد مع الخارطة القيمة وتساويره المختلفة » .

لقد مكنت منذ مدة ليست باليسيرة على ترجمة هذا الكتاب الهام بالنسبة للعاملين في حقل الانار وكذلك للمهتمين بشؤون التاريخ والخطط والجغرافية ، وقد قطعت فيه شوطا كبيرا هذا بالإضافة الى قيامي بترجمة فصل (القليم بغداد) وتحقيق المعلومات الاثرية والتاريخية الواردة فيه ، لذلك وجدت العديد من المآخذ على ترجمة السيد الامين مع ما بذله من جهد مشكور بترجمة هذا الفصل ، فهو كما نرى مترجم وناقل للمادة الاجنبية الى اللغة العربية والترجمة او النقل من لغة الى اخرى تستدعي الامانة ونقل افكار المؤلف والحفاظ عليها ، هذا وقد اعتمد الكثير من الباحثين في شؤون العراق الاثرية والجغرافية والمساحة والري على هذا الكتاب وقد اشار البعض منهم اليه كما افعل البعض الاخر الاشارة اليه ولكن مجهود السيد الامين بترجمة هذا الفصل بمجهود واضح ومشكور وقد وجدت من الضروري ان ادون بعض الاستمراكات والتصويبات والاصحافات التي سقطت من الترجمة وتوخيت فيها استكمال الفائدة من ترجمة هذا الفصل .

هذا الكتاب هو مجموعة تقارير مقدمة الى حكومة بومباي التابعة لبريطانيا كما ذكر السيد المترجم ، وهذه التقارير بدأت بالتقديم متسلسلة بالزمن اولها كان سنة ١٨٤٦ واخرها سنة ١٨٥٢ وكان تاريخ نشر هذه المجموعة كاملة سنة ١٨٥٧ اي في الوقت الذي كانت بريطانيا تطلع فيه الى العراق لتقدير ما فيه من امكانيات عظيمة في جميع الميادين فارسلت مختلف البعثات لاختلاف الاغراض من رحالة وجوامين ومساحين ومهندسين وآثارين ودبلوماسيين لدراسة احوال العراق تمهيدا للسيطرة

أولاً : الخارطة - وقد وصفها السيد الأمين بـ (الخارطة البيئية) أو (الخارطة النفيسة) ، وهي بذاتها تعد انجازاً لا مثيل له من جميع الوجوه ، وهي فعلاً كذلك فإن الخارطة هي أهم ما في فصل القليم بغداد حيث أن هذا الفصل الذي يحتل مائة صفحة هو كما جاء في عنوانه ليس الا شروح وملاحظات تكون ملحقاً بخارطة بغداد ، وقد نشرت هذه الخارطة قبل السيد الأمين في أبحاث أنارية وخطية أخرى وأن السيد الأمين لم يمتني بنشرها وإنما نشرها بدون ترجمة وحذف أرقام الإحالة من الجداول الملحق بهذه الخارطة وتعتبر هذه الجداول مادة رئيسية في هذا الفصل فهي تعيد أرقاماً لكل محلة وعند وبناية عامة ولم يبين وجه العلاقة بين الجداول والخارطة علماً بأن هذه الجداول كتبت باللغتين العربية والإنكليزية مع ترجمة إلى الإنكليزية بالمعاني الواردة فيها مثل ما يلي :

الرقم	المعنى
— No. I. Mahalat Suk al : Chazil	(محلة سوق الفزل) — Quarter in the town
— Suk :	سوق — Bazar
— Jama :	جامع — Mosque
— Aked :	مقد — Aked is a term signifying a group or knot of houses between two streets.
— Kahweh :	قهوة — Coffe house
— Hamam :	حمام — Bath
— Khan :	خان — Caravanserai
— Jesser :	جسر — Bridge
— Kishleh :	قشلا — Barrack
— Madrasseh :	مدرسة — College
— Musjed :	مسجد — Small hous for prager

ثانياً : تصويبات عامة في الترجمة ذاتها - قبل الإشارة إلى بعض التصويبات في نصوص الترجمة ذاتها هناك ملاحظات عامة كان من الواجب على المترجم الكريم اتباعها وهي :

ويترجم العنوان وهو عنوان مهم لعلاقته الكبيرة بخارطة بغداد كما يلي :

ملاحظات مختصرة تكون ملحقاً بخارطة بغداد ، وضعها فيليكس جونز القائد في البحرية الهندية والباحث في ما بين النهرين .

- ورد في نفس النص : (يمثل مخطط هذه الخارطة مدينة ... الخ) ، والصحيح (تمثل الخارطة التالية مخطط القتي مدينة ... الخ) .

- ورد : (بعد الهدم التام الذي أحماه بسلوقة وطيون حيث أنشأ خمسة من الآباء البشرين الكرسي البابوي ، لجأ المتروبوليون إلى هذا المركز وظل لقب (كبر اساقفة بابل لاسقاً بهذا البحر الخضم من البابويه ... الخ) والصحيح كان من ما يلي :

.. وبعد خراب مدينتي سلوقية (Seleucia) وطيون (Ctesiphon) اللتين فيهما أسس الآباء البشرين الأوائل بيعة النصارى الشرقية الكبرى ، ظل لقب بطريرك بابل مرتبطاً بطريرك البابوية ومعتبراً أكثر الألقاب فيها شرفاً واحتراماً .

- ورد اسم دير بلوت في تاريخ الإسلام . وهو كما كتبه المؤلف كما يلي :

D. Herbelot's history of the Mahomedans.

أ - مقارنة التاريخ الهجري بالميلادي ، وكان المؤلف قد ذكرها كلها حسب ورودها بالإشارة إليها أسفل الصفحة فكان المترجم الكريم يصفها أحياناً وأحياناً يفل عنها .

ب - عدم تدقيق بعض أسماء الأعلام والأماكن والبقاع والصادر العربية وبعض المصطلحات التي أوردها المؤلف مكتوبة بالحروف اللاتينية ، فكان من واجب المترجم تدقيقها مع بعض المختصين ووصفها بحروفها اللاتينية بين قوسين إلى جانب العربية .

ج - عدم مراعاة التسلسل في الترجمة وسناني على ما كان المترجم الكريم بهذا الشأن .

وفيما يلي التصويبات في النصوص المترجمة :

- ذكر المترجم مدينة « أوبس » في المقدمة والصحيح هو (أوبس) (Opis)

- ورد في النص ٢٠٤ عنوان الفصل الذي ترجمه بـ (ملاحظات عن خارطة بغداد) وهو ما يلي :

D- Brief observation forming an appendix to the map of Baghdad, By Felix Jones, Commander Indian Navey, and Surveyor in Mesopotamia.

ص ٢٠٥ - في الحديث من الثلاثة حمام يشير الى هاشم
رقم (٢) وفيه (يراجع كتاب تاريخ بغداد وكتاب خريسة
المجانب حول هذا الموضوع) .

هاشم (٢) - انظر في هذا الموضوع كتاب تاريخي بغداد
Tarikhi Baghdad وكذلك الرسالة المسماة بـ (خريسة
المجانب) Kharidat al Ajaib

- عند الحديث من عصر الامون ترجم ما يلي : (وشجع
العلوم والقضايا الفكرية الموصلة ... الخ) وهي ترجم كما
يلي : (وشجع الحركة العلمية والترجمة والعلوم بقسميها
العلوم العقلية والعلوم النقلية) .

ص ٢٠٦ - (وفي تاريخ ابي الفدا نجد برنامجا من برامج
الخليفة في بلاط الخليفة المنتصر) الصحيح : - ويورد لنا ابو
الفدا Abulfida في تاريخه وصفا دقيقا لمجلس فخم في
بلاط الخليفة المنتصر جرى عند استقبال احدى سسارات
السروم) .

ص ٢٠٧ - (... واليد التي كتب بها هارون الرشيد الى
الامبراطور نيسفورس ودعا فيها الكلب الروماني ... الخ) .
الصحيح :

... ان الخليفة هارون الرشيد لما حذر رسالة الى
امبراطور الروم نيسفورس Nicephorus (اونقلور
كما تسميه المصادر العربية) ، دعا فيها بـ (كلب الروم) .

- (... ثم استولت عليها تلك القبائل المعروفة باسم آل
فونلو أو الابيض والاسود من الماشية حتى سنة ٩١٤ هـ -
١٥٠٥ م عندما فتحها العاهل الفارسي الشاه اسماعيل
الصفي) . والصحيح :

وتماثلت الاسر التركمانية بالحكم عليها وهي المعروفة
بلاي فونلو Ak Koyunlu (الخروف الابيض) القره فونلو
Kara Koyunlu (الخروف الاسود) الى سنة ٩١٤ هـ -
١٥٠٥ م حينما استولت عليها جيوش الشاه اسماعيل الصفي
(كندا) Shah Ismail Suli

- الرحالة الدانماركي نايبهر . وهو نيبور
(Niebhur) .

ص ٢٠٨ - ما بين السند وجبل طارق .. من جبل طارق
الى بلاد ما وراء النهر (Oxus)

ص ٢٠٩ - (ونجد في احدى الكتابات العربية البارزة
على الجدار اللولبي لباب الطلمس) . والصحيح :

(.. اعلى الوجه النحني لبرج باب الطلمس الاسطواني ،
يوجد شريط من الكتابات الآجرية ..) .

- عند الحديث من اسوار بغداد ورد ما يلي : (وللسور
عشرة ابراج نصف مخياء في السور الخارجي ... هاشم نجد
في كتاب نشأة القلوب لعبدالله المصطفي ان سوراً مبنيّاً بالكلس
والطابوق ... الخ) والصحيح :

وللسور عشرة ابراج نصف اسطوانية تندمج بجداره
الخارجي هاشم .. ورد في كتاب نزهة القلوب لجمال الدين
المستوفي من ان سوراً من الكلبي والاجر الحروق جعل
للخندق ... الخ .

Mustari (مدا) Nushat al Qululo of Abdallah
لكنه يترده صحيحاً في هاشم ص ٢١٠
Hamdallah Mustafa

ثالثاً : ص ٢١٢ - الجداول الملحقة بخارطة بغداد - لم يهتم السيد الامين بالارغام الواردة في الجداول التي هي في
الحقيقة ارقام تخص الخارطة المذكورة لتعيين موقع كل محلة وجامع وعقد وفهوه . فكان على المترجم الكريم لكونه
ناقلاً وليس محققاً ان ينقلها كما هي ملحقة بالخارطة خاصة وان الخارطة كما ذكر المترجم ، اهم مالي الفصل وهي ،
(نيسة) و (يتيمة) ، ولاتك في اهميتها ولكن المؤلف كتب الجداول باللغتين العربية والانكليزية وكتب الالفاظ والتسميات
كما تلفظ بالعربية بحروف لاتينية يقابلها معناها بالانكليزية ، وقد كتبها كما كانت تلفظ في حينها ويبدو انه اخلاصاً عن الادارة
العثمانية في حينها ولكن المترجم تعرف ببعض الاسماء الواردة فيها وكتبها كما تلفظ في يومنا هذا وقد شرحت انما ما قام به
المؤلف من كتابة الاسماء والالفاظ بالعربية (انظر نموذج للجداول مرفقة مع هذه المقترة) وفيما يلي ساذكر فقط ما لاقته
المترجم الكريم من ارقام الجداول والاسماء التي سقطت وتصحيح الالفاظ على جداول المؤلف فقط محتفظة بالجداول
المصححة لنشرها كاملة محقة مع فصل القليم بغداد .

الارقام البناية او مجموعة البنايات التي تسمى محلة واحدة اللفظ الصحيح وما لاقته المترجم من اسماء

No - Mahalet Suk al Ghazil
مقعد دجلاوين

الكرية
مقعد سقافي
واصله كيسة قديمة .
مقعد كاورد
مسيق

قزرة قلبي
حاجي نعمان
مجيلين

١ - محلة سوق الغزل
مقعد الجلاوين

٢ - محلة راس القرية
مقعد السقافي
جامع الخاصكي ما بين سنة ١٠٩٤ هـ
مقعد الكاورد
المقعد المسيق

٣ - محلة سيد سلطان علي
تكية مرزة علي
جامع حاج نعمان
مقعد المجيلين

- ٤ - محلة أت الحاجي
- ٥ - /
- ٦ - محلة قنبر علي
- ٧ - جامع مرجانية
جامع الرجانية
خان الرجانية
خان الأورطة
- ٩ - محلة العيدرخانة
عقد الجامع - بناء داود باشا سنة ١٢٤٣ هـ
- ١٠ - جامع أحمد الكهيا
- ١١ - محلة حسين باشا . ٧٢٨ هـ
- ١٢ - محلة الفحل
- عقد النسبانية
قهوة التفتة بند (صاحبها أبو منصور)
- جامع الفحل : بني سنة ١١٩٧ هـ
عقد الجملتي
قهوة الشبانة
- ١٣ - محلة باب الألفا
عقد النشتي
عقد العلوية
عقد النارة المقطوعة
- ١٤ - محلة العاقولية
عقد العاقولية ... ١٠٩٥ هـ
عقد محمود أسطة
عقد الربيعي
- ١٥ - محلة جامع خضر بك
عقد كمش حلة ... ١١٢٢ هـ
- ١٦ - جامع العادلية
- ١٧ - قهوة جديدة
- ١٨ - خان التمر
- ١٩ - خان الدفردار
- ٢٠ - خان المصيفة
- ٢١ - خان الكمره
- ٢٢ - سوق الصياغ
- ٢٣ - سوق هرج
- ٢٤ - سوق المولة خانة
- ٢٥ - محلة صلاحي
- ٢٦ - جامع الوزير
- عقد طاق أبو صلال
التبانة
مال أبو منصور
عقد دكان شلال
عقد سيد عبدالله
يقابله باليلادي ١٧٨٢ م
عقد جيتجي
تبانة
- دشت
علوية
مينارة مكطومة
- يقابله باليلادي ١٦٦٢ م
أسطة
روبيعي
- ١٢١١ هـ - ١٧٩٦ م
- ٧٢٢ هـ - ١٢٢٢ م
- ١٧٢٠ م
- محلة اليهود وفيها كنيسهم الرئيسي
- الرجانية
جامع الرجانية
وهو وقف للجامع وهو كما يدل عليه اسمه (خان الأورطة)
هو الخان المستوف
- حيدرخانة
- جامع داود باشا ، وهو جامع العيدرخانة السلي بنى
سنة ١٢٤٣ هـ - ١٨٢٧ م
قهوة ايمش

- ٢٧ - جسر وقشلا الجسر والقشلة ويقعان جنوب المرسلة
الستعمرية التي بنيت سنة ٦٢٠ هـ - ١٢٢٢ م وعليها
كتابات بديعة .
- ٢٨ - القشلا البناية العسكرية ومعها المستشفى
- ٢٩ - السراي
- ٣٠ - الحرم
- ٣١ - محلة باب المقام وهو جامع بنىه حسن باشا سنة ١١٢٢ هـ - ١٧٢٠ م
جامع الباشا دافو (كذا) بنىه حسين ... ١٧٢٩ م
فهو السلخانة
- ٣٢ - محلة الميدان سقالي
فهو السقالي
- ٣٣ - محلة البنجية بلانجية
عقد ديس بلانجية
تختة بند
باشي
- ٣٤ - محلة ايلان ديلي - ايلان ديلي
فهو ايلي وللي
- ٣٥ - محلة المرادية وهو جامع يسمى جامع المرادية بنىه مراد باشا ... الخ
جامع مراد باشا
عقد المرادية
خان المرادية
مير بحر
- ٣٦ - محلة الطوبجية الطوبجية
عقد ميراخور
فهو دودي
- ٣٧ - محلة القرامول قره اول
عقد الفتر جبر
عقد القرامول
- ٣٨ - محلة كولنظر فهو تختة روانجي
عقد فليج
- ٣٩ - محلة دكان شناوة جولدادر
عقد جولدادر
- ٤٠ - محلة كنج عثمان جامع نعمانية
عقد نعمانية
فهو كنج عثمان
- ٤١ - مدرسة علي باشا
- ٤٢ - جامع الاصفي اصفي
- ٤٣ - محلة المهدي عقد سيد هدية
عقد شراد

- ٤٤ - محلة عباس الهندي
٤٥ - محلة فاضي الحاجات
قهوة خان الميرة
٤٦ - محلة الطاطران
عقد شمي
٤٧ - عقد شيخ سراج الدين
٤٨ - محلة الهيتاوين
٤٩ - محلة الفراشة
عقد منارة المكوم
سوق البغال
سوق التمار
٥٠ - محلة الشيخ
جامع الشيخ ، مسجد وخرج
عقد الأفوات
عقد الف
عقد الشيخ الف
الندلاوي
الخشاق
محلة راس السافية
قهوة التسايل
- بناء الشيخ محمد النعماني سنة ٧٢٠ هـ
سينك
شعية
قهوة باب الشرقي
المجاذبة
الوزدي
كوليه
العريضة
الميونية (كذا)
الميونية
الجنابين
الميونية
قهوة ريس الميونية
دهانة
عقد طاق سلة
مريضة
حرفوش
حبوب
٥١ - محلة النسيخ
جامع الشيخ ، مسجد وخرج
عقد الأفوات
عقد الف
عقد الشيخ الف
الندلاوي
الخشاق
٥٢ - محلة السنك
عقد الشعية
محلة جميلة
عقد المجذبة
٥٣ - محلة بنات الحسن
عقد الوزدي
عقد الكوليه
عقد كاتب العبية
٥٤ - محلة الميونية
عقد ريس الميونية
عقد الجنابين
عقد الميونية
٥٥ - محلة الدهانة
٥٦ - محلة صبايغ الال
٥٧ - محلة المريضة
عقد حرموش
قهوة حبوب

٥٩ - محلة شاه قولي

٦٠ - محلة دلال

٦١ - محلة جامع حمام المالح

عقد باب جامع صغيرة

٦٢ - محلة المفرج

عقد احمد حسني

حسن

٦٢ - محلة ابو شبل

عقدين لمانجية

عقد الكور

الجيوغجية

اليورغانجية

قهوة الخلفين

سوق الجيفجية

سوق اليرغانجية

سوق الطففة (كذا)

قهوة الطففة (كذا)

سوق التنكية

سوق الغريب

التكيةجية

الفريب Suk el Durib

حسن الكتان

اندريه حنة

خان حاجي محمد بقال

خان اندريه

جامع محمد بقال

Suk Tumgheh
Kahwat Tumgheh

محلات القسم الغربي من المدينة

جامع الشيخ صندل ... ١٧٠٨ م
أولفت عليه الدكاكين

١٧٠٦ م
... واسواق الحبوب

٢- جامع القيصرية

القيصرية (كذا) Kimeriyeh

٨- محلة دهشاش

سوق حمادة

دهاش

محلة سوق حمادة . وكذلك

كل الاسواق التي تتسلسل بعد سوق حمادة تسبقها كلمة
(محلة)

٢٤ - الست زبيدة

جامع الست نفيسة

ستة زبيدة

ستة نفيسة ، جامع بني سنة ١١١٢ هـ

١٧٠٦ م

والنصارى محلات مستقلة خاصة بهم ، اما غالبية السكان فهم
المسلمون ويشغلون أغلب المساحات في المدينة ولا مثيل للتسامح بين
الاديان في اي مكان آخر في العالم الاسلامي كما في بغداد
وبمقارنة اوضاعهم مع بقية المدن الاسلامية نلاحظ انهم يتمتعون
بالكثير من الحرية حيث يمكن لليهودي او المسيحي ان يمتطي
ظهور الخيل بينما لا يسمح بذلك لهم او لغير المسلمين في بقية
المدن الاسلامية بل عليهم ركوب البغال فقط او عادة المشي
على الاقدام للدلالة على الاختلاف الديني ، هذا ويمتنع اليهود
مهنة الصرافة ويماملون بكل ثقة من قبل كافة الطبقات
ويشغلون هذه الوظيفة بمهارة واستحقاق .

وينقسم سكان المدينة المكون من ١٥ الف عائلة كما يلي :

رابعا : هذا وقد اسقط المترجم من الترجمة من هذا
الفصل في نفس العدد ترجمة الصفحات من ٢٢٩ الى ٢٤١ في
الكتاب نفسه وهي تلي الجداول مباشرة ثم بعد ذلك يأتي المؤلف
على ذكر مشائر العراق - والترجمة ما يلي : -

يمكن القول ان القسم الثالث من اسوار بغداد بني في
الوقت الحاضر وكذلك ما تحويه هذه الاسوار من ساحات
وحدائق وانكاس .

هذا وتقسيم المدينة خليطا من السكان يبلغ عددهم ستون
الفا بينما تتحمل مساحتها اربعة المصاف هذا العدد ، ولا مثيل
لهذا الخليط السكاني واللغوي في اي مكان آخر . والاراء
هم الطبقة الحاكمة ويشغلون الحيز الشمالي منها لليهود

فالأتراك أو من ينحدرون من أصل تركي ، ٤ الاف نسمة ويليهم
الفرس أو المنحدرون من عوائل فارسية ويبلغ عددهم الفسین
وخمسمائة وكذلك اليهود ، أما العوائل المسيحية فيبلغ عددهم
الف وكذلك الأكراد ، ويبلغ عدد العرب الفین وكذلك البدو
والغرياء ، ويبلغ مجموعهم خمسة عشر الفا وهم كما يلي :

الجنس	العدد مئة الف
الأتراك	٤٠٠٠
الفرس	٢٥٠٠
اليهود	٢٥٠٠
المسيحيون	١٠٠٠
العرب	٢٠٠٠
البدو والغرياء	٢٠٠٠
المجموع	١٥٠٠٠ خمسة عشر الف

أما اللغة السائدة بين السكان عامة فهي العربية العامية ،
هذا ويتكلم مسيحيوا بغداد نفس اللهجة بقليل من التحريف
وأعمال بعض الحروف ، أما لغة الطبقة الحاكمة فهي التركية
ولها الفارسية بين التجار ، وتشيع اللغات الكردية والآشورية
(الكلدانية) والآلمانية (اللورستانية) بين الطبقات الدنيا والعمال
والعمالين . ويمكن سماع العبرية في محلات بغداد القديمة
الخاصة باليهود أما المسيحيين الذين مع الذهب الرومانسي
فيتكلمون العربية العامية السائدة عند عامة بغداد ، هذا
ويمكن سماع ما يقرب من ثلاثة عشرة لغة في غرفة واحدة حينما
يجتمع الإنكليز والفرنسيون والروس والهنود على مائدة المقيم
البريطاني .

وبالنسبة لمناخ بغداد ، فيعتبر مناخا صحيبا بصورة
عامة ، ولكن في فترات الإدارة السيئة حينما أهملت السدود
وعمرت مياه الفيضان المدينة نفشت الأمراض الوبائية كالحُميات
خاصة أيام الحر الشديد التي تستغرق الأشهر من مايس
الى تشرين الأول وهذه لو كانت خاصة الى طرق الوقاية
والحجر والحصول على الأدوية لأمكن القضاء على اغلب الأمراض
الوبائية لكن أهمل هذه الوسائل أدى الى تأخير القضاء عليها
فاجتاحت البلد وسببت كوارث عظيمة .

هذا وتباين درجات الحرارة تباعا شديدا حيث لا تنطاق في

بعض الاوقات واذا صاحبها الرطوبة والوخامة بسبب مياه
الفيضان التي تغمر الاراضي نفشت معها الأمراض الوبائية .
وفيما عدا هذه الفترات تتميز بغداد بجو معتدل نسبيا ، هذا
ويجد العديد في بغداد جاذبيات مختلفة ، فقد فضل ملوك
فارس القدماء السهول الواقعة الى الجنوب منها لتكون مقبى
لهم ، كما يجد الهنود في جوها راحة كبيرة اما بالنسبة لطالبي
الاستجمام والإنكليز فيجندون في جوسها وتربتها الكثير من
الغريبات .

وهذا المناخ لا ينطبق على المناطق التي تبعد منه ميل
جنوبيا حيث تصبح الحرارة قاتلة وتنتشر الحميات وتبلغ
درجات الحرارة شتاء ٥٠ ف وتنخفض في الصباح الى ٢٦ ف ،
وهذا الجو بارد بالنسبة للهنود الحجاج والزوار لهم الذين
يلبسون الملابس الثقيلة الى حد ما . اما في الصيف فتتراوح
ما بين ٩٠ ف الى ١١٧ ف وهذا المعدل الأخير نادر ، والمعدل
الاعتيادي هو ١٠٧ ف وفي الشتاء تتراوح ما بين ٢٩٥ ف
بصاحبها الغبار عادة ، ويدوم ثلاثة ايام تنتهي بزوايع وامطار
وتتبعها رياح شمالية غربية منعشة وسماء صافية مشرقة .

وبالإضافة الى الجداول السالفة الذكر نصيب ادناه
جداول بأسعار المواد الغذائية والحبوب في اسواق بغداد وقد
ولعت بمناخ السيد ريتشارد روجر أمين الباخرة (كوميته)
ذو الخبرة الحية في هذا المصالح . وقد أمضنا اليها جداول
مقارنة بالمكاييل والموازين والمقاسات ذات التسميات
الانكليزية . مع جداول بالعملة الدارجة في اسواق بغداد ، ومن
الجدير بالذكر ان هذه الاسعار وانما التبادل النقدي
والعملات غير ثابتة بل تتغير بتغير وضعيت مدينة بغداد
الاقتصادية ، ومدينة بغداد تعتمد في اقتصادياتها على مجاورها
من القرى وكذلك على الأماكن الأخرى التي تفصلها عنها
المصحراء وهذه غير ثابتة التجهيز حيث تنقطع اوقات عدم
الاستقرار والاضطرابات او بسبب تعرض القوافل العابرة
المصحراء للسلب والنهب . هذا وتتحدد الاسعار داخل المدينة
ايضا بنوعية المادة وهي أسعار جيدة ورخيصة الى حد ما ، ولو
أخذنا بنظر الاعتبار أسعار المواد الغذائية الأساسية في بغداد
لاعتبرناها مدينة رخيصة الميشة الى حد كبير . هذا بالإضافة
الى ان الخزون من الحبوب في الامراءات يكون كميات معقولة
تفي بتجهيز سكان بغداد اوقات الازمات . وهذه الحبوب تحصل
عليها الحكومة من مزارع الحبوب في السهول المنتشرة حول مدينة
الموصل وسهول الزابين بواسطة النقل النهري نزولا بنهر دجلة .

تَعْقِيبٌ عَلَى مَقَالِ «الرُّبُطُ الْبَغْدَادِيَّةُ»

للاستاذ : عادل كامل الالوسي

بقلم الحاج

هاشم محمد الخب

بغداد - الجمهورية العراقية

نشر الأستاذ عادل كامل الالوسي في مجلة المورد العراقية (العدد الاول للمجلد السابع لسنة ١٩٧٨ من صفحة ١١٢ الى صفحة ١٢٢) بحثا فيما بعنوان (الربط البغدادية في التاريخ والخطط) . وبالنظر لما تفرسه الامانة العلمية والتاريخية رايت التعقيب عليه بالاتي :-

اولا : - رباط السيد سلطان على

ذكر الاستاذ عادل في صفحة (١١٧ و ١١٨) ما يلي : - « وذهب مؤرخون معاصرون مثل الدكتور مصطفى جواد وعباس المزايدي الى رأي مخالف كما يكون المرقد يعود في الاصل الى السيد سلطان علي ابن محمد بن فلاح بن المشعشع (٨٦١هـ / ١٤٥٦م) (١) على اني لا افيف شيئا الى ما قيل سوى ما اعرفه من ان لقب (السلطان) لم يطلق على احد من

(١) قال الدكتور مصطفى جواد : - « ونحن لم نجد في رجال العراق من تسمى « بالسيد سلطان علي » الا السيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المقتول سنة ٨٦١هـ قتل في ايام بير بوداق بن جهان شاه بن هره يوسف التركماني القره قوينلي في خوزستان وسلخ جلده وحشي تبنا وجيء به الى بغداد في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٨٦١هـ وارسل براسه الى جهان شاه كما في التاريخ الفياني ص (١٧٤) « انتهى . (دليل خارطة بغداد للدكتور مصطفى جواد واحمد سوسة حاشية ص ٣٠٤) .

وقال الاستاذ عباس المزايدي : - « من ولد السيد محمد المشعشع الموالي على حكم في زمانه وقتل بهم في حصاره لقلعة بهبهان سنة ٨٦١هـ « انتهى (تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٤٩) .

الصوفية الا ابن الفارض (ت. ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) الذي لقب بسلطان العاشقين ولم يشب عندي ان المرقد المذكور هو بيت مالك بن المسيب نفسه « انتهى .

واقول :- ان هذا المرقد هو مرقد السيد علي بن يحيى بن ثابت بن علي الرفاعي (٢) والد سيد احمد الرفاعي (٣) شيخ ورئيس الطريقة الصوفية الرفاعية المشهور . وليس مرقدا للسيد سلطان علي بن محمد بن فلاح المشعشع المتوفى سنة ٨٦١هـ / ١٤٥٦م وان المرقد هو بيت الامير مالك بن المسيب وذلك :-

قال ابن الساعي (٤) في ذكر من توفى في خلافة

(٢) الرفاعي :- نسبة الى جده السابع واسمه (الحسن المكي) ويعرف ب (رفاعه) توفى (اي الحسن المكي) سنة ٢٣١هـ / ٩٤٢م باشبيلية (تاريخ ابن الساعي ص ٧٧) .

(٣) هو سيد احمد بن علي بن يحيى بن ثابت بن علي بن احمد المرتضى بن علي بن رفاعه الحسن الاصغر المكي ابن ابي رفاعه المهدي ويتصل نسبه بسيدنا موسى الكاظم (رض) توفى سيد احمد الرفاعي سنة ٥٧٨هـ .

(٤) هو علي بن انجب الساعاني البغدادي المتوفى سنة ٦٧٤هـ / ١١٨٢م .

الناصر لدين الله العباسي (٥) : - « وممن توفي بإمامه
وحي الله تعالى العارف بالله الدال على أنه السيد
أحمد بن السيد علي أبي الحسن الرفاعي . وكانت
وفاته رضى الله عنه بام عبيدة قرية من أعمال
واسط ولها شهرة في العراق . قدم أبوه سنة تسع
عشرة وخمسمائة من واسط الى بغداد ليكنسف
للخليفة المسترشد (٦) فتن الباطنية والفلاة من أهل
البدعة وليحرضه على دفع تلك المفاصد فصار ضيفا
ببيت الأمير مالك بن المسيب ورفع المسترشد مكانه
ولكن لم يقدر على إزالة فتنة الباطنية ودفع
مفسدهم وتعلل باستفحال أمر السلطان محمود (٧)
بالعراق فانزعج السيد علي الرفاعي لذلك وحج
وبعد أسبوع توفي ببغداد وعمل عليه ابن المسيب
مشهدا برأس القرية محلة بظاهر بغداد من جانبها
الشرقي وفيه فقراء وله زوار ويؤثر عن السيد
علي الرفاعي هذا من الكرامات أشياء كثيرة ويلقبه
العامة بالسيد سلطان علي وله في قلوب الصالحين
حرمة عظيمة (٨) . انتهى .

وقد ذكر الاستاذ عباس العزاوي أن قبر سيد
سلطان علي هذا هو قبر الشيخ علي الجلابري
فقال : - « والظاهر أن شيخ علي هذا هو المنسوب
إليه جامع سيد سلطان علي فإنه ولي بغداد وتوفي
فيها وموضع الجامع من مرافق دار الخلافة العباسية
وهو الأنسب بالسلطين . وأما ما يقال من أنه أبو
الرفاعي فذلك من الموضوعات (٩) . انتهى .

وقد علق الدكتور مصطفى جواد على قول
العزاوي هذا فقال : - « لم نجد فيما بين أيدينا
من التواريخ أن الشيخ عليا توفي ببغداد فإنه قتل
في وقعة بيته وبين أخيه أحمد في بلاد إيران كما جاء
في التاريخ الفياثي وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٢

(٥) دامت خلافته من سنة ٥٧٥ هـ الى ٦٢٢ هـ (١١٨٠ م) -
(١٢٢٥ م) .

(٦) دامت خلافته من سنة ٥١٢ هـ الى ٥٢٩ هـ (١١١٨ م) -
(١١٢٥ م) .

(٧) هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي
دامت سلطنته من سنة ٥١١ هـ الى سنة ٥٢٥ هـ
(١١١٧ م - ١١٢١ م) .

(٨) مختصر تاريخ ابن الساعي ص (١١٢) مطبعة بولاق
سنة ١٢٠٩ هـ .

(٩) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٢ ص ١٧٢ . وهذه
المعلومات نقلها الاستاذ العزاوي عن تعليق للشيخ علي
علاء الدين الألوسي (١٢٧٧ هـ - ١٢٤٠ هـ / ١٨٦١ -
١٩٢١ م) على كتاب « كلشن خلفاء » المرتضى نظامي آل
زاده من ذكر وفاة الشيخ علي شاهزادة بن أوبس
الجلابري سنة ٧٥٢ هـ / ١٢٨٠ م .

ص ١٧٢ . ولا يزال الاختلاف في تاريخ القبر
قائما (١٠) . انتهى .

وقد عاد واستدرك الاستاذ العزاوي وأكد أن
هذا القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد
أحمد الرفاعي وذلك في صفحة (٢٤١) من الجزء
الثاني من كتابه (تاريخ العراق بين احتلالين) حيث
قال : - « كنا قد تكلمنا على هذا الجامع بما وصل
إلينا والآن بعد أن أوشك طبع الكتاب أن يتم عثرت
على مجموعة عند بعض الأصدقاء الأفاضل فرايت
فيها ما ملخصه : السيد أبو الحسن علي بن يحيى
ابن ثابت ابن حازم بن أحمد بن علي بن رفاعه الحسن
المكي نزيل أشبيلية الرفاعي الحسيني السيد
الشريف سلطان العارفين ، ولد في البصرة عام ٤٥٩ هـ
وتوفي أبوه السيد يحيى النقيب وله سنة واحدة
وكفله أخواله الانصار وبنو خالته آل الصيرفي الأمراء
المشهورون في البصرة وشب على التقوى وأخذ العلم
والطريقة عن جده لأمه الشيخ الكامل موسى أبي
سعيد البخاري الانصاري شيخ البطائحين . ولا
زال يتردد الى البطائح لزيارة ابن خاله الشيخ الكبير
السيد منصور البطايعي . وفي سنة ٤٩٧ هـ سكن
البطائح بأمر الشيخ منصور وبذلك السنة
زوجه باخته فاطمة الانصارية فاعقب منها اولادا
مباركين اعظمهم السيد أحمد الكبير الرفاعي .
وكانت اقامة السيد أبي الحسن على صاحب
الترجمة بقرية حسن من البطائح الى أن جاءت سنة
٥١٩ هـ فوكت الفتنة الكثيرة بواسط وكان الامام
والمشار اليه بين طوائف الصوفية
والزهاد ورجال العترة المحمدية فاجمع الناس على
سفره لبغداد فتوجه ونزل ببيت الأمير مالك المسيب
برأس القرية محلة ببغداد ، وقد كتب بشأنه للخليفة
ما يلزم أن يكتب عماد الدين زنكي صاحب واسط
فاعزه الخليفة ورفع مكانه (ثم مرض) وبعد أسبوع
من مرضه توفي وعمل له الأمير مالك مشهدا برأس
القرية وهو الى الآن يزار ويتبرك به وله منزلة في
قلوب الناس » . انتهى .

وبعد هذا قال في نفس الصفحة : - « وهذه
المجموعة تسمى « كتاب روضة الايمان في اخبار
مشاهير الزمان » اولها : الحمد لله الاول والاخر .
الخ . للعلامة المحقق المدقق محمد بن أبي بكر بن
علي بن عبد الملك بن حماد بن دكين . ولا أدري من
هو مؤلفها . أما تاريخها فهو ٥ رجب سنة ١٢٠٥ هـ
ولم يذكر كاتبها تاريخ نقلها . وفيها مباحث

(١٠) دليل خارطة بغداد حاشية ص (٢٠٤) .

تاريخية وأدبية وتعرض كثيرا للرفاعية ورجائها وتصل بهم الى القرن العاشر ولم تتجاوز ذلك . وقد رايت عليها خط المرحوم شاكرا الأوسي في غرة شعبان من هذه السنة . ثم رايت (كتاب روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين) للشيخ احمد ابن محمد الوترى المتوفى في عشر الثمانين وتسعمائة هجرية ينقل النص المذكور بعينه وكان قد اتم تلخيصه من كتابه (مناقب الصالحين وحجة اهل اليقين) سنة ٩٦٢ هـ . وطبع كتاب روضة الناظرين في مصر سنة ١٢٠٦ هـ . ونحن في حاجة ماسة الى ما يؤيد هذا النقل او يكشف غوامض تاريخنا ، ولعل القراء من له علم او نص يصلح في هذا الجامع . انتهى .

وعليه ومما تقدم فقد تايد لنا بان القبر هو قبر السيد سلطان علي والد السيد احمد الرفاعي

ثانيا : - رباط النظامية

ذكر السيد عادل في صفحة (١١٩) ما يلي :-
« يقع هذا الرباط عند (طولة الجندرمه) فيما يلي مسجد النعماني قرب كنج عثمان ، اسس زمن سلطنة عبد المجيد (١١) سنة (١٢٦٥ هـ - ١٨٤٨ م) وقد اרך نشأته الشاعر عبد الباقي (١٢) . وكان منقوشا على رخامة موضوعة فوق باب الرباط المذكور ، وامر خليل باشا (١٣) بهدمه واضافته الى الطريق وجعل قسما منه تابعا لدوائر الحكومة وانشأ عن الارض الباقية كما يقول صاحب العقد اللامع « روضة زاهية » ويضيف صاحب العقد ايضا ان الترك بعد الاحتلال شنقوا في فناء هذه الارض خلقا كثيرا . وهذا الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراري الحكومة . انتهى .

وقد علق السيد عادل على مسجد النعماني في حاشية الصفحة نفسها تحت رقم (٨٥)

(١١) ولد السلطان عبد الحميد العثماني سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨٤١ م وجلس على العرش سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م وتوفي سنة ١٢٧٧ هـ / ١٨٦٠ م .

(١٢) هو عبد الباقي بن سليمان بن احمد العمري الفاروقي الموصلية ولد سنة ١٧٩٠ م وتوفي سنة ١٨٦٢ م .

(١٣) خليل باشا قائد الجيش التركي في جبهة العراق في الحرب العالمية الاولى بعد القائد نور الدين بك . وهو الذي حاصر الجيش الانكليزي مع قائده العام (طاوزند) في الكوت واسره مع جيشه سنة ١٩١٦ . وهو الذي خسر المعركة امام القائد العام للجيش الانكليزي (الجنرال مود) وسلم بغداد للانكليز في ١١ اذار سنة ١٩١٧ .

فقال : - « او الجامع النعماني من مساجد بغداد القديمة فيه منارة مظلة على الطريق جدده الوزير داود باشا (١٤) سنة (١٢٣٩ هـ - ١٨٢٣ م) وكتب على احد جدرانها بعد الفراغ من عمارته ثلاثة ابيات من الشعر تجدها عند الأوسي (مساجد بغداد ص ٧٦) وكانت المحلة التي فيها المسجد تسمى قديما بمحلة (رأس الساقية) لمرور ساقية الماء العائدة الى جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي التي فيها الماء من نهر دجلة والاتى منه بوسطة الكروود وكانت اكبر محلة في بغداد لوجود دار الخلافة فيها . » . انتهى .

اقول : - لقد حصل ارتباك عند الاستاذ عادل في تعيين محل وموقع هذا الرباط اذ اعتبر موقعه في محلة (رأس الساقية) وهذا غير صحيح والصحيح هو موقعه في محلة الميدان الحالية وذلك : -

١ - لما كان موقع هذا الرباط عند (طولة الجندرمه) ومن المعلوم ان طولة الجندرمه كان موقعها في مكان مديرية شرطة محافظة بغداد الحالية وبما ان مديرية الشرطة هذه تقع في محلة الميدان اذن فالرباط موقعه في محلة الميدان .

٢ - لم يكن في يوم ما سراري الحكومة في العهد التركي في محلة رأس الساقية وانما سراري الحكومة هو بناية القشلة الحالية ووزارة التربية (المعارف) سابقا وابج قلعة وهي (وزارة الدفاع الحالية) وكل هذه البنايات تقع في وقرب محلة الميدان

٣ - لقد حصل اشتباه عند الاستاذ عادل في اسم المسجد اذ يوجد مسجدان هما مسجد النعماني ومسجد النعمانية . الاول يقع في محلة رأس الساقية والثاني يقع في محلة الميدان . وقد اعتبر الاستاذ عادل الرباط فيما يلي مسجد النعماني والصحيح هو فيما يلي مسجد النعمانية ، والدليل على ذلك هو ان الرباط وكنج عثمان كانا متصلين بسراري الحكومة وسراري الحكومة يقع في وقرب محلة الميدان كما ذكرنا ذلك (١٥) .

(١٤) داود باشا ولي على بغداد من سنة ١٢٢٢ هـ - ١٨١٦ م الى ١٢٤٧ هـ - ١٨٣١ م . وهو آخر الولاة الماليك الذين توالوا على حكم العراق في العهد التركي .

(١٥) كثير من الناس موجودون الآن حاليا ممن شاهدوا قبر كنج عثمان مع السبيل خانة التي كانت بجنبه الا لم يمتنى وقت طوبس على ازالة القبر والسبيل خانة بعدان

ومسجد النعمانية مجاور للمدرسة الاعدادية المركزية للبنين ومقابل دائرة البريد . بنته صاحبة الخيرات فاطمة خاتون بنت السيد بكتاش بن السيد ولي سنة (١١٨٥هـ - ١٢٧٧م) والحقت به مدرسة علمية لتدريس العلوم الدينية ووقفت على لوازمها عقارات كثيرة وجعلت التولية من بعد لزوجها نعمان اغاغا . ابن الحاج ابراهيم اغاغا ومن بعده لاولاده (١٧) . وآخر من تصدر للتدريس في هذه المدرسة العلامة الشيخ قاسم البياتي وحامد الملا حويش . وقد تخرج من هذه المدرسة علماء اعلام (١٨) .

ما جامع النعماني : - فيقع في محلة (راس الساقية) وليس له اي صلة بهذا الموضوع والنعماني : - نسبة الى حسام الدين النعماني

تم نقل رقبته من قبره في محلة الميدان الى مقبرة الشهداء في باب المعظم وكان ذلك سنة ١٩١٧م .

(١٦) واليه نسب المسجد (النعمانية) .

(١٧) والان التولية محصورة بالسيد عثمان نوري آل رئيس الكتاب الذي هو من احفاد نعمان اغاغا .

(١٨) البغداديون مجالسهم واندبتهم للمرحوم ابراهيم الديوبي (ص ٢٠١) .

وهو ابو الفرج احمد بن عمر بن محمد بن ثابت بن عثمان بن محمد بن عبدالرحمن بن ميمون بن محمود بن حسان بن سمعان بن يوسف بن اسماعيل بن حماد بن ابي حنيفة النعمان بن ثابت الفرغاني النعماني نزيل بغداد . اشتغل كثيرا وسمع الحديث من سراج الدين عمر القزويني (١٩) .

توفي حسام الدين سنة (٧٥٢هـ - ١٢٨١م) (١٠)

(١٩) سراج الدين : هو الحافظ الكبير محدث العراق سراج الدين عمر بن علي بن عمر الحسيني القزويني ثم البغدادي ولد سنة (٦٨٢هـ - ١٢٨٥م) وعنى بالحديث وسمع من الرشيد بن ابي القاسم ومحمد ابن عبدالحسن الدواليبي والنجم احمد بن غزال وجمع جم . واجاز له النقي سليمان وغيره من دمشق وصنف التصانيف وعمل الفهرست واجاد فيه . روى عنه جماعة من اخرهم صاحب القاموس ، توفي سنة (٧٥٠هـ - ١٢٤٩م) .

ولي بغداد اليوم محلة تسمى باسمه (محلة سراج الدين) وقبره قائم الى اليوم في الجامع المسمى باسمه ايضا . وقد عمر الجامع الذي يقع في نفس المحلة (سراج الدين) والي بغداد التركي حسن باشا الجديد سنة (١١٢١هـ - ١٧١٨م) .

ملاحظة : - ولي حسن باشا الجديد على بغداد من سنة (١١١٦هـ - ١٧٠٤م الى سنة ١١٢٦هـ - ١٧٢٣م) .

(٢٠) تاريخ العراق بين احتلالين ج ١ ص ١٦٢ .





WWW.ATTAWHEEL.COM

أسئلة وأجوبة

٤٠٢-٣٩١	أعلام من الأندلس في بغداد ذ. محسن جمال الدين
٤١٣-٤٠٤	مقدمة حكاية أبي القاسم البغدادي ترجمة : طارق حيدر العاني
٤٢٠-٤١١	بغداد وضمت للخط العربي مقاييسه محمود شكر الجبوري
٤٤٠-٤٢١	مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية تحقيق : كوركيس عواد وميخائيل عواد
٤٧٦-٤٤١	بغداد في الكتب البلدانية العربية عدنان محمد الطعمة
بغداد في آثار المستشرقين الفرنسيين :	
	(١) بغداد في العهد العثماني روبرت مانتريان
	(٢) النشر العربي في بغداد شارل بيللا
	(٣) تصوراتك في بغداد جان اوبان
	(٤) العلوم والفلسفة في حضارة بغداد روجية ارنالديز
٥٠٤-٤٧٧ ترجمة : د. اكرم فاضل
٥١٨-٥٠٥	تراث بغدادي في اثر عراقي تحقيق : حميد مجيد هدي
٥٢٤-٥١٩	القدم وثيقة عثمانية عن بغداد ترجمة : عطا نوري بانسي
٥٢٨-٥٢٥	فصول من كتاب « نيل المراد في احوال العراق وبغداد » تحقيق عبدالعظيم مجيد
من الموروث البغدادي :	
	(١) قصة السمات في بغداد
	(٢) مذكرات بغدادي
٥٧٠-٥٢٩ صادق محمود الجميلي
٥٨٨-٥٧١	بغداد من خلال المقامات صبيح صادق
٦١٢-٥٨٩	الف ليلة وليلة عند مترجميها : الحياة العربية في العصور الوسطى ترجمة د. يحيى الجبوري
٦١٩-٦١٢	البناء الفني للحكاية في الليالي ياسين الناصر
٦٢٦-٦٢٠	المعجز في الف ليلة وليلة عبدالقوي السلاج
٦٣٦-٦٢٧	الف ليلة وليلة د. علي شلق
٦٤٤-٦٣٧	بغداد في مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام هدى شوكة بهنام
بغداد في اشهر المراجع :	
	(١) بغداد في بليوغرافيا المسار والفنون الاسلامية
	(٢) بغداد في رحلات الاجانب
٦٥٨-٦٤٥ ترجمة واعداد : سلمان وليق الراوي
٦٨٠-٦٥٩	استدراكات على كتاب « بغداد مدينة السلام » عبود الشالجي
٦٨٨-٦٨١	تصويبات واستدراكات على (بغداد في سنة ١٨٥٢) نجاة اسماعيل
٦٩٢-٦٨٩	تأليب على مقال « الربط البغدادية » هاشم محمد الرجب

WWW.ATTAWHEEL.COM

رقم الابداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٠٠ لسنة ١٩٧٩

WWW.ATTAWHEEL.COM

١٤٠٠ هـ ١٩٧٩ م

دار الحرية للطباعة - بغداد